التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الأول

الفاتحة - آل عمران

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم سعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

- أ. د. مصطفى مسلم محمد
- أ. د. عيادة أيوب الكبيسي
- أ. د. أحمد محمد الشرقاوي
- أ. د. ناصر سليمان العمر
- أ. د. أحمد عباس البدوي
- أ. د. محمد أحمد عيد الكردي
- أ. د. مساعد مسلم آل جعفر
- أ. د. شحادة احميدي العمري
- أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
- د. أبو بكر علي الصديق
- د. أحمد شحروري
- د. أحمد محمد نور إبراهيم
- د. أحمد محمد مفلح القضاة
- د. جمال أبو حسان
- د. طه ياسين ناصر الخطيب
- د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
- د. عبد الرحيم الزقة
- د. عبد الله محمد سلقيني
- د. عدنان عبد الرزاق الحموي
- د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
- د. عطية محمد عطية
- د. عفاف عبد الغفور حميد
- د. محمد السيد محمد يوسف
- د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
- د. محمد عبد الرحمن الشايع
- د. محمد عصام القضاة
- د. محمد عيادة الكبيسي
- د. نايل ممدوح أبو زيد
- د. نشأت محمود الكوجك
- د. هارون نوح علي سليمان
- د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

تقديم :أ.د .مصطفى مسلم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، وآل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإن التفسير الموضوعي نوع من أنواع التفسير الذي بدأت أصوله تترسخ، ومناهجه تتضح منذ نصف قرن من الزمن، وأقر تدريسه في الجامعات، فهو إلى جانب التفسير التحليلي والإجمالي والمقارن أصبح يشغل حيزا في الدراسات القرآنية المعاصرة، إلا أن جانب التطبيق العملي غلب على الدراسات التأصيلية وبخاصة الموضوع القرآني، فهناك مئات بل ألوف الدراسات التي تناولت حقول المعرفة الإنسانية من خلال القرآن الكريم، وسجلت الرسائل العلمية في الدراسات العليا، في القضايا المختلفة، وبذلت جهود هائلة لإثارة الموضوعات العلمية التطبيقية والدراسات الاجتماعية، والنفسية، والتاريخية، والفلسفية، والعقدية،... من خلال القرآن الكريم.

وحظي هذا اللون -الموضوع القرآني- باهتمام الدارسين بل صار يخيل لكثير من طلبة العلم أنه اللون الوحيد للتفسير الموضوعي ولا زال.

أما اللونان الآخران -المصطلح القرآني- والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، فقد تناولها الباحثون، ولكن ليست على مستوى الدراسات التي حظي بها الموضوع القرآني.

وكُتبت دراسات متفرقة هنا وهناك عن المصطلح القرآني، وفسرت سور متفرقة هنا وهناك أيضا. ولا أظن أحدا وضع في خطته أن يقوم بتفسير لجميع سور القرآن الكريم على منهج التفسير الموضوعي، وكان حلما يراودني مذ توليت تدريس هذه المادة في الجامعات منذ خمسة وثلاثين عاما. إلى أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة مجموعة بحوث الكتاب والسنة

التي أنشئت عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م في جامعة الشارقة، حيث تبنت المجموعة القيام بهذا العمل الرائد غير المسبوق.

ولما كانت مناهج الباحثين مختلفة في تفسير السورة تفسيرا موضوعيا. فقد رأت المجموعة أن تدعو إلى ندوة من أهل الاختصاص للتشاور حول الخطوات المنهجية والخطوات التنفيذية لإبراز هذا المشروع.

وبعد دراسة مستفيضة من المجتمعين، حول الخطوات المنهجية، تم الاتفاق على (مبادئ للسير في مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم).

حيث يبدأ المفسر بحثه باتباع المنهج التالي:

أولاً: بين يدي السورة

تذكر في هذه المقدمة الأمور التالية:

أ - اسم السورة أو أسماؤها إن كان لها أكثر من اسم.

ب- فضائل السورة إن وجدت.

ج - مكية السورة أو مدنيتها.

د - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

هـ- محور السورة (المحور هو: الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها في نسق واحد).

و - المناسبات في السورة، وأهمها الأنواع الستة من المناسبات مع مراعاة عدم التكلف في ذلك:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

٥ - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

٦ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

وتذكر المناسبة بين كل مقطع والمحور في نهاية كل مقطع أثناء تفسير السورة، وإن أراد الباحث أن يتعرض للمناسبة بين المقطع والمقطع السابق له، فمكان ذلك بداية كل مقطع.

ملحوظة: يكون التعرض للفقرات السابقة في التمهيد أو المقدمة أو ما سميناه: بين يدي السورة بإيجاز من صفحتين إلى خمس صفحات حسب الحاجة.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

يفسر كل مقطع بعد وضع عنوان له تفسيراً إجمالياً يراعى فيه الأسلوب الأمثل في تفسير القرآن، وهو:

أ. تفسير القرآن بالقرآن والإشارة إلى الآيات التي لها علاقة مباشرة بالمقطع.

ب. تفسير المقطع بالأحاديث النبوية الشريفة التي تلقي ضوءاً على ذلك.

ج. في القضايا العقدية (الأسماء والصفات) يلتزم رأي السلف، وإن كان هناك إجماع على التأويل يورد في ذلك قول أئمة التفسير، على سبيل المثال: الطبري، ابن كثير، أئمة المذاهب الأربعة، وابن تيمية.

د. في القضايا الفقهية: يكتفى بالرأي الراجح الذي يراه الباحث مع ذكر الأدلة التي جعلته يرجح هذا القول دون سواه.

هـ. تجتنب القضايا اللغوية أو البلاغية، وإن كان هناك ضرورة لذكر بعضها لارتباطها الوثيق بالمعنى فيكون ذلك في الهامش، وكذلك القراءات القرآنية المتواترة التي لها تأثير في توجيه معنى الآيات.

و. عند تكرار الموضوعات في بعض مقاطع السور كالقصص وغيرها يفسر المقطع في موضعه بما يتناسب مع محور السورة التي ذكر فيها وجو السورة العام من الإيجاز أو الإطناب.

ز. الربط بين هدايات الآيات وواقع الأمة، والرد على الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم والسنة النبوية، وعظمة التشريعات الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، كل ذلك عند ورود مناسباتها في تفسير الآيات المتعلقة بذلك.

ح. الاقتصار على الحقائق العلمية عند تفسير الآيات الكونية وتجنب النظريات العلمية.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع، وتشمل:

أ. القضايا العقدية.

ب. الأحكام الشرعية.

ج. الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية.

د. الجوانب التربوية.

رابعاً: مبادىء وقواعد عامة:

أ. توضع الآية بين قوسين مزهرين ثم يذكر اسم السورة ورقم الآية المستشهد بها بعد الآية مباشرة وليس في الحاشية، مثال ذلك: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر / ٩.

ب. تخريج الحديث بذكر اسم المصدر ورقم الحديث، فمثلا الجامع الصحيح للبخاري، أو صحيح البخاري الحديث رقم (٢٦٥)، إن وجد الحديث في الصحيحين أو أحدهما يكتفى به، وإلا فينص على خلاصة تخريجه ودرجته.

ج. الالتزام بالأحاديث الصحيحة والحسنة في التفسير وأسباب النزول وغيرها.

د. توثيق الأقوال والمنقولات بالإشارة إلى اسم الكتاب ثم المؤلف ثم الجزء والصفحة على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ١/ ٢٢٠، وتترك بقية المعلومات إلى فهرس المراجع والمصادر، وتكون على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، محمد بن عبد الله القرطبي، ت (.....)، تحقيق:............، (مكان النشر، تاريخ النشر، رقم وتاريخ الطبعة).

هـ. ترقيم الحواشي يكون بأرقام متسلسلة لكل صفحة على حدة.

و. الالتزام الكامل بالفواصل والنقط وإشارات الاستفهام والتعجب وسائر علامات الترقيم.

ز. إذا كان للسورة سبب نزول واحد يذكر في فقرة بين يدي السورة أما إذا وجد أكثر من سبب نزول لآيات متعددة في السورة فيشار إليها في فقرة بين يدي السورة،

وتترك تفاصيلها إلى المقاطع الخاصة.

ح. يتراوح حجم التّفسير الإجمالي للمقطع مع الهدايات، من (٥-٧) خمس إلى سبع صفحات لكّل صفحة من المصحف.

وبعد إقرار المبادئ، تم إرسالها إلى أهل الاختصاص من أساتذة التفسير في الجامعات الإسلامية. وتلقت المجموعة اقتراحات وآراء كثيرة. وتم تعديل المبادئ والخطة على ضوء ما وصل من الاقتراحات.

وللبدأ بالتنفيذ تم تقسيم سور القرآن الكريم على عدد من أساتذة الجامعات ممن عُرفوا بالكفاءة العلمية من خلال مؤلفاتهم في تفسير القرآن الكريم وعلومه بعد أخذ موافقتهم على الكتابة. وجميع الذين استكتبوا من الحاصلين على شهادة الدكتوراة في التفسير وعلوم القرآن، وممن مارس التدريس الجامعي. وهناك قائمة بأسمائهم في نهاية الكتاب.

وبدأت الخطوات التنفيذية حيث شكلت لجنة للإشراف والمتابعة برئاسة منسق المجموعة، ووضع للمشروع سنتان للانتهاء من طباعته.

ولكن عقبات واجهت المشروع مما أدى إلى تأخيره إلى هذا الوقت.

ومن أهم العقبات:

أولا: اعتذار بعض المستكتبين:

فبعد أخذ موافقة كل مستكتب على الكتابة في السورة التي حددت له خطيا، وأخذ موافقته الخطية على ذلك وتزويده بمبادئ المشروع والمدة الزمنية المطلوبة لإنجازه. وبعد مضي المدة المحددة فوجئت لجنة الإشراف باعتذار بعضهم عن الكتابة.

وكانت لجنة الإشراف تذكرهم كل ثلاثة أشهر. بل وصل الأمر إلى أن يطلب أحدهم تمديد المدة له ثلاثة أشهر إضافية ولما انتهت المدة الإضافية كان الاعتذار مجددا.

ثانيا: عدم الالتزام بالخطة المرسومة للسير في المشروع:

قدم بعض الباحثين تفسير السورة أو السور المكلف بها، وفوجئنا بمنهج مختلف لتفسير السورة. علما أننا أرسلنا لكل مستكتب مع خطاب التكليف نسخة من مبادئ السير في

مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم مما اضطرنا أن نعيد البحث إلى صاحبه للتغيير والالتزام. وقد التزم كثير منهم بالملحوظات التي كتبت له، ولكن آخرين لم يلتزموا مما فوت علينا الوقت والجهد، وأجبرنا على سحب التكليف منه وإسناده إلى باحث آخر.

ثالثا: التفاوت في الأساليب:

إن الأسلوب البياني وطريقة التعبير عن الأفكار والقضايا جزء من الشخصية العلمية لكل فرد، وهذا التفاوت في الأساليب لم نستطع تجاوزه. فعلى الرغم من المبادئ الواضحة للمشروع والنقاط المحددة، وعلى الرغم من الالتزام بها. فقد كان هنالك تباين واضح في الأساليب سواء في المعنى الإجمالي لآيات المقطع أو الربط بين مقاطع السورة أو الربط بينهما وبين محور السورة وهذا الأمر لا أظن أن يتجاوز في المستقبل ما دامت الشخصيات العلمية متعددة.

ولكن خروج المشروع بهذه الصورة وبهذا المنهج المحدد سابقة لا مثيل لها. لعلها تفتح الآفاق أمام أهل العلم من المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن، وخاصة الطاقات الشابة أن يستفيدوا من هذا العمل ليقوم أحدهم بتفسير كامل للقرآن الكريم بغية توحيد الأسلوب والمنهج.

ويبقى لمجموعة بحوث الكتاب والسنة في جامعة الشارقة فضل السبق والريادة لهذه الخدمة المباركة في خدمة كتاب الله تعالى.

ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فإننا نتقدم بجزيل الشكر لإدارة جامعة الشارقة ممثلة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي وعميدها الأستاذ الدكتور عدنان العتوم في حرصها على تبني المشروع والإنفاق عليه وتحمل تكاليف طباعته، أرجو الله ان يجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

والله من وراء القصد

والحمد لله أولاً وآخراً

رئيس اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم

الشارقة: ٦ صفر ١٤٣٠ هـ/ ١ / ٢ / ٢٠٠٩ م

الاستعاذة

من رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ، أن أرشدهم إلى مايصلح دنياهم وأخراهم، وعلمهم كيف يحافظون على مصالحهم، وما يقاومون به أعداءهم، ولما كان أكبر أعدائهم هو إبليس، فقد علمهم كيف يحفظون أنفسهم وأموالهم وذراريهم من شره. فقد جاء في أكثر من آية تعليمهم الاستعاذة منه، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ الأعراف، فعند إثارته للغضب، وإغراءاته بالسوء يلتجأ إلى الله سبحانه وتعالى منه.

فقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ المؤمنون، وكذلك في التعامل مع المبغضين المعادين كما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت].

ولتجنب وساوس الشيطان وخواطره الصارفة لتدبر القرآن أُمرنا أن نلتجأ إلى الله عز وجل من وساوس الشيطان، وذلك قبل البدء بالقراءة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل].

وكذلك الالتجاء إلى الله تعالى عند الصلاة لإبعاد الشيطان ووساوسه، فقد جاء في صحيح مسلم عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال يارسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال له رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً. قال ففعلت فأذهبه الله عني.[(١)]

كما تستحب الاستعاذة عند النزول في منزل أثناء السفر، فقد روى أبو داود بسنده من

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٢٠٣.

حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرِّك وشرّ ماخلق فيك ومن شرّ مايدب عليك، ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد[1].

وتستخدم رقية لما يجده المؤمن من ألم في جسده، فقد جاء في حديث عثمان ابن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)[2]

وفي كل الأحوال ينبغي أن يكون المرء ذاكراً الله سبحانه وتعالى بالالتجاء إليه في دفع الضر من شياطين الإنس والجن، وبسؤاله إعانته على الطاعات.

صيغ الاستعاذة:

وردت عدة صيغ للاستعاذة عن رسول الله ﷺ، منها:

١- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي الموافقة للفظ الأمر الرباني في الآية الكريمة ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل].

وقد ورد في الصحيحين عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبي ﷺ فقال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذاعنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقام إلى الرجل رجل سمع النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أمجنوناً تراني)[3].

---

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٢٦٠٤).

(٢) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٢٠٢).

(٣) صحيح البخاري الحديث رقم (٥٧٦٤) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٦١٠).

٢- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)

٣- (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) :

وهذه الصيغة وردت في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثم قال: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه)[١].

والاستعاذة ليست آية من القرآن الكريم إجماعاً.

وقت الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن وقت الاستعاذة قبل القراءة، وقبل البدء بالعمل، وقدروا في الآية ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي إذا أردت القراءة، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ ... ﴿٦﴾ ﴾ أي إذا أردتم القيام، وذلك لدفع وسوسته أثناء القراءة والعمل.

وذهب داود الظاهري ومن تبعه إلى أن وقت الاستعاذة بعد الانتهاء من القراءة والعمل لدفع وساوسه عن التشكيك في الأداء والقبول، أخذاً من ظاهر النص، والفاء تدل على التعقيب.[٢]

حكم الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة مندوبة غير متحتمة، ودليلهم أن الرسول ﷺ لم يعلم الأعرابي- المسيء في صلاته- الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة، وتأخير البيان عن وقته غير جائز.

وذهب عطاء وتبعه أهل الظاهر إلى أن الاستعاذة واجبة، لظاهر الأمر (فاستعذ) والأمر للوجوب مالم يصرف عن ظاهره، ولمواظبة رسول الله ﷺ على الاستعاذة.[٣]

---

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٧٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٣) المحلى لابن حزم الظاهري ٣/ ٢٤٧. دار الآفاق الجديدة، بيروت.

المعنى الإجمالي للاستعاذة:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده باللجوء إليه لحفظهم من مكايد عدوهم الأكبر ووساوس إبليس المطرود من رحمة الله سبحانه وتعالى، فإنه يحاول صرفهم عن تدبر القرآن الكريم، بإلقاء الخواطر والشبهات عند أداء العمل، فمن لجأ إلى ربه حماه من شر أعدائه.

سورة الفاتحة

البسملة

قرآنيتها:

- أجمع العلماء على أن البسملة بعض آية في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل].

- وجزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة.

وينسب هذا القول إلى ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبي هريرة، وعلي رضوان الله عليهم جميعاً وبه قال الشافعي، وأحمد في رواية له[1].

- وذهب قراء المدينة والبصرة والشام إلى أنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا وإنها كتبت للفصل بين السور وتبركاً، وبهذا القول قال أبو حنيفة ومالك، ورواية عند أحمد.

- وينسب للشافعي قول آخر: إنها آية من الفاتحة لا من غيرها.

- وينسب إلى أبي حنيفة قول آخر: إنها آية مستقلة في كل موضع ذكرت فيه في بدايات السور، للفصل بينها.

وللقراء والفقهاء أدلتهم التفصيلية على ما ذهبوا إليه، تراجع في مظانها، لا يتسع المجال هنا لذكرها.

فضائلها:

- روى الإمام أحمد بسنده عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس

(١) فتح القدير للشوكاني ١/ ١٧، دار المعرفة، بيروت.

(٢) مسند أحمد (٢٠١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (ج١٠ص١٨٦) "رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح".

الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب)[٢].

- روى أبو هريرة قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أجذم)[١].

كما ورد عنه أيضا مرفوعا (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر)[٢].

مواضع استحبابها:

تستحب البسملة في كل موضع يعمل فيه عمل مباح أو مشروع، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود].

وثبت عن رسول الله ﷺ الأمر بها في مواضع منها ماروواه الإمام البخاري في صحيحه (... أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله، وأوكِ سقاءك واذكر اسم الله...)[٣]، وورد في الصحيحين (... لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب االشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً)[٤].

---

(١) قال النووي في الأذكار (ج١ص١١١): " روينا هذه الألفاظ كلها في كتاب الأربعين لعبدالقاهر الرهاوي وهو حديث حسن".

(٢) رواه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٩)، وروي بلفظ "أقطع" بدلاً من "أبتر". قال النووي في الأذكار (١/ ٩٤): "وقد روي موصولاً ومرسلاً ورواية الموصول جيّدة الإسناد".

(٣) الحديث رقم (٣٠٣٨).

(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٣٨). وصحيح مسلم الحديث رقم (٢٥٩١).

بين يدي السورة:

أولاً- أسماؤها:

كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد وردت أسماء كثيرة لسورة الفاتحة، منها ماثبت بالنص ومنها ما استنبط من خلال ما قيل عنها، وسنقتصر على ماثبت من أسمائها بالنص الصحيح.

١-٢-الفاتحة أو (فاتحة الكتاب):

أخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته[1].

وقيل في تعليل هذه التسمية لأنها أول ما يفتح به الكتاب، فهي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من القرآن العظيم.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[2].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج-يقولها ثلاثاً-)[3].

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (١٨٢٧) سنن النسائي الصغرى الحديث رقم (٩١٠) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٥٦)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٣٩٤).

(٣) الحديث رقم (٣٩٥).

٣- أم الكتاب:

ورد في سنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحمدلله رب العالمين) أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني[١].

قال الإمام البخاري في أول كتاب التفسير: (وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة[٢]).

قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه (أماً)[٣].

٤- أم القرآن:

في صحيح البخاري: (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)[٤]، وأخرج مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج،ثلاثاً، غير تامة)[٥].

٥- السبع المثاني:

أخرج البخاري وأحمد وابن ماجه والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له: (لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: نعم، الحمدلله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[٦]، قالوا: سميت بذلك لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة.

---

(١) سنن أبي داود (١٤٥٨) وسنن الترمذي (٣٢٣٥) وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب (ج٤ص١٦٢٢).

(٣) جامع البيان، للطبري ج١ ص٣٦، ط دار المعرفة، بيروت.

(٤) صحيح البخاري (٤٥٨٥).

(٥) مسلم (٨٢٩) وسنن النسائي الكبرى (٧٩١٩).

(٦) البخاري (٤٣٦٠) والمسند (١٧٥١٨) وسنن ابن ماجه (٣٨٦٨) وسنن النسائي (٧٩١٩)ومسند أبي داود الطيالسي (١٢٦٧).

٦- سورة الصلاة:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزوجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال العبد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ قال هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل[1].

٧- سورة الرقية:

في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفرنا غيّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأْبِنُه[2] برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع، قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي؟ قال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: (وماكان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم)[3].

ثانياً- فضائل سورة الفاتحة:

أغلب الأحاديث التي ذكرت أسماء الفاتحة تدل على فضائلها فمن هذه الفضائل:

١- سورة الفاتحة أعظم سور القرآن الكريم وقد تقدم حديث أبي سعيد المعلى عندما قال له رسول الله ﷺ: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد... ثم ذكر له أنها

(١) صحيح مسلم الحديث رقم ٨٢٩.

(٢) نأبنه: أي ما كنا نعلم أنه يرقي فنعيبه بذلك، والأُبن: التهمة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٣٣، ط دار المعرفة- بيروت. ت خليل شيحا.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٢٤٢)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٥٦٨٧).

سورة الحمدلله رب العالمين وهي السبع المثاني والقرآن العظيم[١].

٢- لا مثيل لسورة الفاتحة في الكتب المنزلة فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي ابن كعب أن النبي ﷺ قال له: (أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ ثم أخبره أنها الفاتحة [٢].

٣- سورة الفاتحة نور: وتقدم الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه... فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته[٣].

٣- سورة الفاتحة: رقية وعلاج ودواء وشفاء للأسقام المادية والمعنوية، وتقدمت الأحاديث في ذلك، عندما رقى الصحابي اللديغ بالفاتحة[٤]، وكذلك الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن خارجة ابن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثوق بالحديد، فقال أهله: أعندك ما تداوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية، أجمع بزاقي ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: كل فلعمري من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق[٥].

---

(١) تقدم تخريج الحديث في البخاري.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد الحديث رقم (٩٢٣٤) والسنن الكبرى للنسائي (١١١٠٠) والجامع الصحيح للترمذي الحديث رقم (٢٩٥٣) وقال حديث حسن صحيح.

(٣) تقدم تخريجه ص٧.

(٤) تقدم تخريجه ص٩.

(٥) المسند رقم الحديث (٢١٤٥٧) سنن أبي داود رقم الحديث (٣٤٢١) سنن النسائي الحديث رقم (٧٥٣٥).

ثالثاً- عدد آيات الفاتحة:

- أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب سبع آيات[1]، إلا أنهم اختلفوا في الآية السابعة، فمن جعل البسملة أولى آياتها[2]، قال: إن قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ آية واحدة وهي السابعة، ومن لم يجعل البسملة آية من الفاتحة[3] قال ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ.. ﴾ الآية السادسة و﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ الآية السابعة[4].

- قال الخازن: وهي سبع آيات بالاتفاق، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً[5].

رابعاً- وقت نزولها:

- قال جمهور العلماء: نزلت سورة الفاتحة بمكة، ولهم أدلة على ذلك، منها:

١- أخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة.

٢- وأخرج الواحدي في أسباب النزول عن علي قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش.

٣- وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيان بني سلمة... فسأله فقرأ عليه: الحمدلله رب العالمين، وكان ذلك قبل الهجرة.

٤- وقالوا: لم تكن صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ومن المعلوم أن الصلاة شرعت في

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١/ ١٠٨ وفتح القدير للشوكاني ١/ ١٤.

(٢) وهم قراء الكوفة ومكة وبه أخذ الإمام الشافعي ورواية عند أحمد.

(٣) وهم قراء المدينة والبصرة والشام وبه أخذ الجمهور أبو حنيفة ومالك وأحمد.

(٤) من أراد أدلة كل فريق فليراجع أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربي وتفسير آيات الأحكام للسايس. ومفاتيح الغيب للرازي.

(٥) انظر تفسيره المسمى لباب التأويل ١/ ١١.

الأيام الأولى من البعثة، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت قبل الهجرة بثلاث سنوات[1].

- وقال مجاهد: إنها نزلت في المدينة، واعتبر بعض العلماء أن هذا القول كبوة جواد من مجاهد، والرواية التي استندوا عليها هي ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف[2]، وأبو سعيد ابن الأعرابي في معجمه والطبراني في الأوسط[3] من طريق مجاهد عن أبي هريرة: رنَّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب، ونزلت بالمدينة، ولا تقوم بهذه الرواية حجة.

- وقيل نزلت مرتين، مرة في مكة حين فرضت الصلاة، ومرة في المدينة حين حولت القبلة، ولذلك سميت مثاني، قاله البنوي، وأيضاً هذا القول لا دليل عليه، وفي القول بنزول بعض السور أو الآيات مرتين نظر.

والراجح القول الأول- أي أنها سورة مكية، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ وهذه الآية في سورة الحجر، وسورة الحجر مكية بالإجماع، وقد صح في الحديث قول الرسول ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[4].

خامساً- موضوعات سورة الفاتحة:

قال جلة من علماء التفسير: إن سورة الفاتحة اشتملت على أغراض القرآن الأساسية، فمن الموضوعات في سورة الفاتحة:

١ - الألوهية: التوحيد بأنواعه: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾.

---

(١) انظر قول الجمهور في التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٣٥، ط دار سحنون.

(٢) مصنف ابن ابي شيبة (٢٥٨٧٥) عن مجاهد عن أبي هريرة بلفظ: "أنزلت فاتحة الكتاب بالمدينة"

(٣) مجمع الزوائد (١٠٨١٣) عن أبي هريرة وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وهو شبيه بالمرفوع ورجاله رجال الصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٤٣٦٠).

٢- اليوم الآخر: هو يوم الدين الذي يلقى العبد فيه حسابه على ما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وكل ما يكون بعد الموت يتعلق بيوم الدين، فالحياة البرزخية والبعث بعد الموت، والحشر والحساب والميزان والصراط، والاستقرار في الجنة أو النار، كلها من متعلقات يوم الدين، اليوم الآخر، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ .

٣- عبادة الله سبحانه وتعالى، والإخلاص لله تعالى فيها، العبادة بمفهومها الواسع وتدخل الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، في مفهوم العبادة الواسع دخولاً أولياً، فإن حياة المؤمن ومماته على منهج الله وفي طاعته كلها عبادة كما تشير الآية الكريمة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ الأنعام، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴾ ..

٤- الاستعانة بالله وحده في كل الأمور وجميع شؤون الحياة، ما تعلق منها بالمعاش وما تعلق منها بالتوفيق لصالح العمل والإخلاص فيه، والقبول عند الله في كل ما يعمله العبد ومايدع، فالله الموفق لصالح العمل المعين على أدائه المتفضل بقبوله، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ .

٥- الالتزام بالصراط المستقيم بعد الاهتداء إليه فضل عظيم من الله تعالى يوفق عباده المخلصين إليه، وللصراط المستقيم دلالة واسعة يشمل كل ما جاء من الله سبحانه وتعالى وأنزله على أنبيائه ورسله من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، الذي اشتملت رسالته على جميع الرسالات وهداياتها، كما أشارت الآية الكريمة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ المائدة/ ٤٨، وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

٦- صراط المنعم عليهم: من عباد الله المصطفين المخلصين، الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ﴾ النساء، وهذا الصراط بمفهومه المديد عبر تاريخ البشرية يشمل معتقدات المنعم عليهم، وأساليبهم في دعوة الأقوام إلى الخير الذي

التزموا به، والعظات والعبر التي أخذت من الحوادث التي مرت بهم، وما خلفوه وراءهم من سير عطرة، وحضارات ربانية بقيت منارات ومعالم يهتدى بها على مر العصور.

٧- تجنب صراط المغضوب عليهم والضالين: وهما نموذجان من البشر: الأول عرف الحق ثم عاداه وتنكب طريقه، بسبب الحسد أو العناد أو اتباعاً للهوى، وعلى رأس هذا النموذج اليهود، والثاني: فئات الضلال، ولا تحصى هذه الفئات فمنهم من أضل الطريق فلم يهتد إلى الحق، و منهم من ضل في متاهات الأفكار البشرية، ومنهم من انحرف عن منهج الحق وجادة الصواب، وكلما استجدت أفكار وأحداث استجدت فئات الضلال، وعلى رأس هؤلاء الضالين النصارى.

وقد ورد في الحديث النبوي تمثيل هذين النموذجين (المغضوب عليهم اليهود والضالون النصارى) كما في حديث عدي بن حاتم ﷺ[1].

ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المكي لوجدناها تدور حول (التوحيد، اليوم الآخر، النبوات، أمهات العبادات والأخلاق) ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المدني لوجدناها تدور حول (بناء المجتمع الإسلامي بتشريع العبادات والمعاملات، وحمايته من مكائد الأعداء والمنافقين من الخارج والداخل، وصيانته من الانحرافات والأخطاء).

وكل هذه الأغراض في السور المكية والمدنية تعود إلى الأغراض المذكورة في الفاتحة، ولعلنا ندرك بعد هذا البيان الحكمة من وصف رسول الله ﷺ لسورة الفاتحة أنها (أم الكتاب وأم القرآن)، فهي كالأم ومن الأم تتوالد الذرية وتتكاثر، وإلى الأم يرجع في الانتساب فمن موضوعات سورة الفاتحة المجملة تأتي التفصيلات في السور الأخرى، وكل أغراض السور القرآنية ترجع إلى هذه الأساسيات المجملة في سورة الفاتحة.

(١) مسند أحمد (١٩٠١٧) وصحيح ابن حبان (٦١٣٧) ومجمع الزوائد (١٠٣٥٢)(ج٦ص٣٠٦) ومعجم الطبراني الكبير (٢٣٧) ومسند أبي داوود الطيالسي (١٠٤١)(ج١ص٥٨٣).

وهل يمكننا بعد هذا البيان أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الحجر، ومن قول رسول الله ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

إن الفاتحة سبع آيات اشتملت على سبعة أهداف، وهذه الأهداف تثنى في سور القرآن الكريم وتكرر من خلال محاور السور وأغراضها؟؟.

سادساً- محور سورة الفاتحة:

يمكن أن يقال إن لسورة الفاتحة محوراً واحداً هو (بيان طريق العبودية لله وحده) كما يمكن أن يقال إن للفاتحة عدة محاور، هي المحاور التي يدور عليها القرآن الكريم كله بسوره المكية والمدنية.

ولعل إشارة ابن مسعود إلى هذا الجانب الأخير، فقد أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبتها لكتبت في أول كل سورة[1]، وكأنه يرى أن كل سورة تفصل جانباً أو محوراً مما اشتملت عليه سورة الفاتحة، وهذا ما أطلقنا عليه عنوان (موضوعات سورة الفاتحة)، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

وفصل محمد بن جزي الكلبي ذلك وكأنه شرح لكلام ابن مسعود بقوله: (سميت أم القرآن) لأنها جمعت معاني القرآن كله، فكأنها نسخة مختصرة، وكأن القرآن كله بعدها تفصيل لها، وذلك لأنها جمعت:

- الإلاهيات في ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾.
- والدار الآخرة في ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾.
- والعبادات كلها من الاعتقاد والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾.

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ١٥.

- والشريعة كلها في ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾.
- والأنبياء وغيرهم في ﴿ ..ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ.. ﴾.
- وذكر طوائف الكفار في ﴿ .. غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[1].

ولو أضاف أمراً سابعاً أو محوراً سابعاً وهو (طريق العبودية إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا. ﴾ لاكتملت المحاور السبعة، ولألقى ضوءاً على سر تسميتها بالسبع المثاني والقرآن العظيم).

سابعاً: التفسير الإجمالي للفاتحة:

سورة الحمد أفضل سورة في القرآن، اشتملت على آداب وحكم ومواعظ في غاية الشمول والعموم والدقة والروعة والجمال.

ففيها براعة الاستهلال، وحسن الثناء على خالق الكون ومدبر أمره، الذي خلق ورزق، ولطف بعموم رحمته وعميم فضله، وإليه مصير الخلائق للحساب جزاء وفاقاً.

وفي هذه السورة تعليم العباد بالتوجه إلى بارئهم بتقديم الوسائل التي شرعها لهم ربهم، والتقرب إليه بخالص النيات لتثبيتهم على شرائع الإسلام بالتمسك بالعروة الوثقى، وحبل الله المتين، الذي تمسك به عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والذي طرفه من عند الله وطرفه الآخر في جنات النعيم، وأن يجنبهم الزلل في المعتقد والانحراف في السلوك، كما كان حال ملل عرفت الحق فتنكبته عن عمد وسبق إصرار فاستحقوا غضب الله ومقته، وملل تاهت عن الحق فضلت سبيل الهداية، فهم في كل وادٍ يهيمون.

إن هذه المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة من الثناء على الله سبحانه وتعالى واللجوء إليه في الدعاء، رمز هذه العبودية التي يتقرب بها المؤمن إلى الله عزوجل، فيتعلق قلبه بربه رب العالمين، ويحاسب نفسه في تلك المحطات التي يقف فيها بين يديه ليستشعر عظمة مالك يوم الدين فيعيد النظر فيما قدمه بين الصلاتين من قول أو عمل ليدرك في أي كفتي الميزان توضع، وليدرك أن لا

(١) انظر التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي ١/ ١١.

توفيق ولا فلاح إلا من وفقه الرحمن الرحيم وأخذ بناصيته إلى الخير والطاعة وثبته عليها، وأن من سلك سبيل الغي واتبع هواه وانساق وراء أهل الزيغ والضلال فنهايته إلى غضب الله وعذابه.

فليدرك المؤمن هذا الاستشعار والتوجه في أعماقه وهو يقف بين يدي ربه في صلاته ودعائه، وليقل بعد قراءة هذه السورة العظيمة الجامعة (آمين) أي استجب يا ربنا لدعائنا.

ثامناً- الهدايات والحكم والآداب فيها:

١- تسميتها بفاتحة الكتاب: يدل على فضلها وشرفها، لأن الابتداء بالشيء يدل على أهميته، وتقدمه على غيره، وفي سورة الفاتحة براعة الاستهلال وجمال الابتداء.

٢- تسميها بأم الكتاب وأم القرآن، لأنها مشتملة على أغراض القرآن الأساسية، فسور القرآن الكريم كالتفصيل لما ورد في الفاتحة من الإجمال، فصارت كالأصل والأم، تشبيهاً بالأم التي هي منشأ الولد، من حيث ابتداء الظهور والوجود.

٣- تسميتها بالسبع المثاني: لأنها سبع آيات تثنى -تكرر- في الصلوات، أو تكرر معانيها في سور القرآن الكريم.

٤- يسن للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول (آمين) مفصولاً عنها بسكتة، ويقولها المأموم أيضاً، في صحيح البخاري: أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه(١)، وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي بسند صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٧٧٢) ومسلم (٨٦٦) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "آمين".

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨٦) والأدب المفرد للبخاري (٢٩٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٧٣٤): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة وأحمد بألفاظ أخرى وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣١٦): إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رجاله.

٥- استحباب التوسل إلى الله عز وجل قبل الدعاء بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والثناء عليه وتمجيده، فهو أرجى للإجابة.

٦- الله جل جلاله المستحق للعبادة وحده، ومنه وحده تطلب المعونة على أدائها، وسائر شؤون الحياة.

٧- لزوم المداومة على الدعاء بالثبات على الدين القويم والالتزام بشرائع الله سبحانه وتعالى (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)[١]، ومن دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك)[٢].

٨- استحباب الدعاء بصيغة الجمع ليضم دعاءه إلى دعاء الصالحين فهو أدعى للقبول، وكأنه يقول: إنني العبد المذنب المقصر أرفع حاجتي مع حاجات عبادك الصالحين، فشفعهم في، فلا يليق بجناب الكريم أن يقضي بعض الحاجات ويرد بعضها، وقد رفعت مجتمعة.

٩- الاقبال على الله سبحانه وتعالى عنوان السعادة وجملة الخير والفلاح والإعراض عن الله تعالى والبعد عن شرائعه رأس المفاسد والمعاصي والآفات والخذلان في الدنيا والآخرة وذلك لأن أول الفاتحة اشتمل على الحمد لله والثناء عليه، وآخرها في ذم المعرضين عن الإيمان وتنكب شرائعه وطاعته[٣].

١٠- شأن المؤمن أن يكون من الرجاء والخوف، فهما كجناحي الطائر ليعتدل طيرانه، فإن اختل أحدهما لم يستقم أمره، وكذلك المؤمن في سيره إلى الله تعالى فيدعو ربه ليهديه إلى طريق المنعم عليهم ويرجو ذلك ويتطلع إليه، ويستعيذ بالله من أن يكون مع المغضوب عليهم والضالين، فهو يخاف أن ينضم إلى فئاتهم ويحشر معهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠١) وأحمد (٦٥٥٣).

(٢) انظر سنن الترمذي، كتاب الدعوات، الحديث رقم (٣٥٢٤)، ومسند أحمد ٤/ ١٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٦٢.

سورة البقرة

بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

اسم السورة: سورة البقرة، وقد ورد في أكثر من حديث صحيح، منها قوله ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)[1]. ومنها قول ابن مسعود: (هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة)[2].

وذهب جماعة إلى انه لا يقال سورة البقرة ولا غيرها من السور، وإنما يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة، واستدلوا بما روى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله "[3].ولكن الحديث منكر فلا يحتج به.

وكان خالد بن معدان (ت: ١٠٣هـ) يسميها: فسطاط القرآن[4]، قال المناوي: "أي مدينته الجامعة لاشتمالها على أمهات الأحكام ومعظم أصول الدين وفروعه، والإرشاد إلى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد"[5].

(١) رواه البخاري في صحيحه/ ٤٧٥٣ ومسلم في صحيحه/ ٨٠٧ عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه/ ١٦٦٠، ومسلم في صحيحه/ ١٢٩٦.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٧: وفيه عبيس بن ميمون وهو متروك، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عُبيس وقال البيهقي: "عُبيس ابن ميمون منكر الحديث: وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله، وقال العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤١٨: منكر. وقال أحمد بن حنبل: حديث منكر. العلل ومعرفة الرجال٣/ ٤٥٨.

(٤) رواه عنه الدارمي في سننه/ ٣٣٧٦، وروى في حديث مرفوع عن أبي سعيد الخدري عند الديلمى في مسند الفردوس/ ٣٥٥٩، وفيه وضاع كما في: التيسير بشرح الجامع الصغير٢/ ٧٣.

(٥) فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٤/ ١٤٩.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن البقرة)(1).
والسنام الرفعة، ومنه سنام البعير لارتفاعه، قال ملا على القاري: "سنام القرآن سورة البقرة إما بطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد وفيه الرفعة العظيمة"(2).

والظاهر أن هذين وصفان جليلان للسورة؛ لكثرة أحكامها، وعظيم فضلها، وثواب قراءتها، لكنهما ليسا اسمين من أسمائها التوقيفية والله أعلم.

وقد ورد وصفها أيضا بالزهراء؛ وذلك في حديث (اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران) وسيأتي.

ب- فضائل السورة:

١- فضائل السورة منفردة:

من قرأها على عهد النبي كان ينادى بها:

عن العباس قال: "كنت مع الرسول ﷺ يوم حنين ورسول الله ﷺ على بغلته التي أهداها له الجذامي فلما ولى المسلمون قال لي رسول الله ﷺ: يا عباس ناد : يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة وكنت رجلا صيتا فقلت : يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة(3).

وقد استمر هذا الأمر بعد وفاة النبي ﷺ حتى لكأن السورة صارت علما لأهلها؛ فقد ورد عن عروة بن الزبير أنه قال: "كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة يا أصحاب سورة

---

(١) رواه الترمذي في سننه / ٢٨٧٨ وقال: حسن غريب، والحاكم في المستدرك برقم/ ٣٠٢٧وصححه على شرط الشيخين وعبد الرزاق في المصنف/ ٦٠١٩وعن سهل بن سعد رواه ابن حبان في صحيحه/ ٧٨٠وأبويعلى في مسنده/ ٧٥٥٤والطبراني في المعجم الكبير/ ٥٨٦٤ وله طرق عن ابن مسعود، فالحديث حسن بمجموع طرقه.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ٥/ ٦٤.

(٣) رواه بلفظه ابن أبي حاتم ١٠٢٣٢ والحديث عند مسلم برقم ٣٣٢٤ بدون ذكر لفظ البقرة.

البقرة"[1].

من قرأها آنسته في قبره:

عن أبي عمران أنه سمع أبا الدرداء يقول : إن رجلا ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وأنه أقيد منه فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه فأقامت البقرة جمعة. فقيل لها: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ق: ٢٩] قال : فخرجت كأنها السحابة العظيمة[2] قال أبو عبيد: يعني أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.

الشيطان ينفر من البيت التي تقرأ فيه:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)[3].

أنها سنام القرآن:

عن سهل بن سعد الساعدي قال " قال رسول الله ﷺ إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال[4].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم/ ٢٩٠٨وابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٣٥٧٢ وعبد الرزاق في المصنف رقم/ ٩٤٦٥، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٧ بسند حسن، ومثله لا يقال بالرأي.

(٣) أخرجه مسلم / ٧٨٠والترمذي/ ٢٨٧٧ بلفظ: وإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان ".

(٤) أخرجه أبو يعلى١٣/ ٤٦٥وابن حبان ٢/ ١٠٩والبيهقي في الشعب٢/ ٤٥٣. وسنده حسن، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٨٧.

تتنزل الملائكة لقراءتها:

عن أسيد بن حضير قال: "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت،فسكنت، ثم قرأ فجالت فسكت،فسكنت، ثم قرأ فجالت. فانصرف إلى ابنه يحيى وكان قريبا منها فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ : أتدري ما ذاك ؟ قال : لا يا رسول الله قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت تنظر الناس إليها لا تتوارى منهم [(١)].

وعن أسيد بن حضير أنه قال " يا رسول الله بينما أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفي فظننت أن فرسي انطلق فقال رسول الله ﷺ : اقرأ يا أبا عبيد. فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض فما استطعت أن أمضي فقال رسول الله ﷺ: تلك الملائكة نزلت لقراءتك سورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب[(٢)].

قارئها جدير بإمارة قومه:

عن أبي هريرة قال " بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعني ما معه من القرآن فآتى على رجل منهم من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان ؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. قال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم. قال : اذهب فأنت أميرهم[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا/ ٤٧٣٠ ومسلم في صحيحه/ ٧٩٦.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٠٣٥، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٩٩، والطبراني في المعجم الكبير برقم/ ٥٦٦. وسنده صحيح.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم/ ١٥٠٩ وابن حبان في صحيحه برقم/ ٢١٢٦ والحاكم وصححه على شرط الشيخين برقم/ ١٦٢٢ والترمذي في سننه برقم/ ٢٨٧٦ وقال: حديث حسن.

٢- فضائلها مع آل عمران مجتمعتين:

تأتيان تحاجان عن صاحبهما:

عن أبي أمامة الباهلي قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين : سورة البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان وكأنهما غمامتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما، اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)(١).

وعن نواس بن سمعان قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة وآل عمران، قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال : كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما ظلتان سوداوان بينهما شرف أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما) (٢).

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ: (تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة، ثم سكت ساعة ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف..)(٣).

فيهما اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب:

عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث؛ في البقرة وآل عمران وطه ـ يعني: الحي القيوم ـ)(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٤.
أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨ والدارمي في سننه برقم/ ٣٣٩١ والبغوي في شرح السنة برقم/ ١١٩٠، قال

(٣) الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد٧/ ١٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٨٦٧وابن ماجه في سننه برقم/ ٣٨٥٦ورجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري ٤/ ١٤٤.

من قرأهما عُدَّ من الصحابة عظيما:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا[1]. يعني عَظُم.

فضائلها مع السبع الطوال:

وهي سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معا أو يونس على قول آخر. وقد ورد في فضل هذه السبع عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر)[2] والحبر العالم؛ وذلك لكثرة ما فيهما من أحكام وشرائع والله أعلم.

وورد عنه ﷺ أنه قال: (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل)[3].

جـ-مدنية السورة:

سورة البقرة مدنية بالإجماع، بل ورد أنها أول سورة نزلت بالمدينة، وفي هذا عدة آثار عن الصحابة والتابعين؛ فقد ورد من عدة طرق عن عبد الله بن عباس قال: "نزلت بالمدينة سورة البقرة"[4].

---

(١) أحمد ٣/ ١٢٠ وابن حبان٢/ ٨٦ والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٣٠٥ وسنده صحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٠٧٠ وصححه على شرطهما، وأحمد في مسنده ٦/ ٧٢واللفظ له، والبغوي في شرح السنة برقم/ ١٢٠٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٢: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧ والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٧٥وسنده حسن.

(٤) أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن ص٧٥، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ ص ٤١٦، وقال السيوطي:"وإسناده جيد؛ رجاله كلهم ثقات. الإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٧/ ١٤٤ وقال: ولهذا الحديث شاهد صحيح. وأخرجه أبوعبيد في فضائل القرآن برقم/ ٨١٣ عن علي بن أبي طلحة، وبنحوه أبوعمرو الداني في البيان في عد آي القرآن ص١٣٤.

قال ابن حجر: "واتفقوا على أنها مدنية وأنها أول سورة نزلت بها"[1]. ولكن هذا لا يعني أن كل آياتها أول ما نزل بالمدينة، فقد دلت أدلة كثيرة على أن آيات كثيرة بالسورة نزلت متأخرة. قال ابن تيمية: "والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق، و قد قيل: إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا في بعض ما نزل و إلا فتحريم الربا إنما نزل متأخرا، و قوله: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] من آخر ما نزل، و قوله ﴿ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء"[2].

د- عدد الآي واختلاف العلماء في ذلك:

عدد آيات سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون في عدِّ المدني والمكي والشامي، ومائتان وست وثمانون في العدِّ الكوفي، ومائتان وسبع وثمانون في العد البصري.

واختلافهم في أحد عشرة آية: ﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾ [البقرة: ١] عدها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠] عدها الشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ مُصْلِحُونَ ۝١١ ﴾ [البقرة: ١١] لم يعدها الشامي وعدها الباقون ﴿ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ [البقرة: ١١٤] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون، ﴿ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأخير والكوفي والشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] عدها المدني الأخير والمكي والبصري ولم يعدها الباقون ﴿ مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون.[3]

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٨/ ١٦٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية١٧/ ١٩٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني/ ١٤٠، وقد اختلف في عدد الآي أهل المدينة ومكة والشام=

هـ - محور السورة:

معلوم أن سورة البقرة أطول سورة في القرآن، ومع هذا فإن الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة واضحة تمام الوضوح وإن اختلفت عبارات المفسرين في الظاهر.

قال الإمام الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر.[1]

وسوف نذكر أولا بعض أقول المفسرين في محور السورة:

= والبصرة والكوفة. وتفصيل ذلك كالتالي:

أ- عدد أهل المدينة عددان: عدد أول وهو عدد أبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح، وعدد أخير وهو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري.

ب- عدد أهل مكة فهو مروي عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

جـ- عدد أهل الشام رواه هارون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلواني وغيره عن هشام بن عمار. ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الزماري. ورواه عبد الله بن عامر وغيره عن أبي الدرداء.

د- عدد أهل البصرة مداره على عاصم بن العجاج الجحدري.

هـ - عدد أهل الكوفة مضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام. قال حمزة: أخبرنا بهذا العدد ابن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب.

وانظر في ذلك: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٨٣،١٨٢، المحرر الوجيز في عدَّ آي الكتاب العزيز لعبد الرزاق إبراهيم موسى / ٦٧.

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١٢. والبيت لأبي العلاء المعري. انظر: الحماسة المغربية٢/ ١٢٦٧.

ذهب أبو جعفر بن الزبير الغرناطي إلى أن السورة بأسرها :" بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه"[1].

وقال برهان الدين البقاعي:" مقصودها:إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة؛ فمداره الإيمان بالبعث التي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب"[2].

وقال الطاهر بن عاشور: " ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين : قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"[3].

ويكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن محور السورة يدور حول الخلافة في الأرض ومقوماتها وأهلها[4].

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص٨٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لبرهان الدين البقاعي ١، ص٥٥ وقريب منه ما ذكره الشعراوي في تفسيره١/ ٩٥.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٢٠٣.

(٤) قال سيد قطب: "هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج، يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً؛ فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.
وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة الإسلامية في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المؤمنة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج". في ظلال القرآن ١/ ٢٨. =

وهذا يتفق مع مضمون السورة إلى حد كبير؛ ولذلك توطأ عليه بعض القدامى وجمهرة المعاصرين؛ ذلك أن السورة استفتحت بالحديث عن القرآن موقف الناس حياله، ثم تحدثت بعد ذلك عن خلافة آدم، وتحدثت حديثاً مطولاً عن بني إسرائيل وذكرت طرفاً من مثالبهم، مما كان داعيا إلى ألا ينالوا عهد الله، ثم انتقل الحديث إلى المسلمين ليخاطبهم بموجبات الخلافة.

ومما سبق وباستعراض أقوال العلماء وتدبر السورة وموضوعاتها نستطيع أن نقول إن محور السورة يدور حول: "**منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه**".

وهذا المحور يتناسب مع موضوعات السورة ومع ملابسات نزولها؛ فسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة كما سلف، وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض، فناسب أن يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي لهم. أما تناسب المحور مع موضوعاتها فسيأتيك تفصيله.

والناظر في السورة الكريمة يجد أن خطابها وموضوعاتها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خطاب لليهود أو عن اليهود وهذا يمثل الشطر الأول في السورة تقريباً.

أما القسم الثاني في السورة: فإنه يتوجه للمسلمين بالخطاب ويكلفهم بجملة من أحكام العبادات والمعاملات المالية والأسرية والدولية. ثم تتوج السورة بختامها العظيم الذي يبين استجابة المؤمنين لأمر ربهم وتضرعهم له أن يتم عليهم أمرهم في خاصة شؤونهم وعامها. ولوضوح هذا الأمر فقد أشار إليه غالب من كتب في موضوعات هذه السورة المباركة[1].

= ويقول د/ صلاح الخالدي: هي سورة الخلافة والخلفاء. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص٧٣. ويقول د/ مصطفى مسلم: موضوعها: القوامة على دين الله سلب وإسناد. بحث :المناسبات وأثرها ص١٨، ويتشابه هذا مع ما ذكره البقاعي في خاتمة السورة حيث قال:" بداية هذه السورة هداية وخاتمتها خلافة، فاستوفت تبيين أمر النبوة إلى حد ظهور الخلافة فكانت سناماً للقرآن". نظم الدرر للبقاعي ٤/ ١٨٧.

(١) ذكر السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن ما يناهز نصف السورة وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة، والشطر الثاني قد وجه لأمة الإجابة. تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ١/ ١٠٧. وهو=

والذي استخلصته من كلام أهل العلم ومن التدبر مليا في السورة أن عنوانها السابق ينتظمه محوران مع مقدمة وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل مقصدين مترابطين:

يتحدث المقصد الأول عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

= موافق لكلام الشيخ محمود شلتوت حيث قال: " السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما: توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه... أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة على غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها. تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص٥١،٥٢. وقريب من هذا ما ذكره سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن ١/ ٢٨ وقد سبقت الإشارة إليه، وذكره محمد قطب في: دراسات قرآنية ص٢٧٧، ود/ مصطفى مسلم في كتابه: مباحث في التفسير الموضوعي ٤٨،٤٩. ود/ زاهر عواض الألمعي في كتابه: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١١٤. وراجع: التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي ١/ ٣٢.

أما الدكتور محمد عبد الله دراز فقد قسمها إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة؛ فالمقدمة في التعريف بشأن القرآن (١-٢٠) والمقصد الأول في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام وعود على بدء (٢٥-٣٩) وهذان معا قد أدمجهما رشيد رضا معاً في مقدمة تحت عنوان (دعوة الإسلام العامة) المنار ١/ ١٠٥.

والمقصد الثاني: دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في دين الحق(٤٠-١٦٢).

والمقصد الثالث: عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً (١٧٨-٢٨٣) وقبله مدخل إلى المقصد (١٦٣-١٧٧).

المقصد الرابع: ذكر الوازع الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع(٢٨٤).

أما الخاتمة ففي التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم وآجلهم(٢٨٥-٢٨٦).

وكان المحور الأول بعنوان : بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة.

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع:

والمقدمة بعنوان: (تذكير وعتاب)[٤٠-٤٨] ذكَّرت بني إسرائيل بنسبهم الكريم، وبنعمة الله عليهم، ثم بينت لهم العهد الذي أخذه الله عليهم، وعاتبتهم على أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وذكرتهم ثانيةً بالنعم، ثم حذرتهم من يوم القيامة، وكل هذا تذكير لهم وعتاب.

والمقطع الأول عنوانه: (أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام) [٤٩-٧٩] وفيه تفاصيل نعم الله عليهم وقت أن كانوا في مصر وبعد أن خرجوا منها، وجاءت النعم مفصلة على قسمين: حسية بالإنجاء، ومعنوية بقبول التوبة. ثم عاد إلى ذكر النعم الحسية من الطعام والشراب وعقب بذكر مخالفاتهم من الاعتداء في السبت وقصة البقرة وما حدث فيها من مخالفات. ثم اختتم المقطع بذكر عاقبة أعمالهم وهي قسوة قلوبهم.

وجاء المقطع الثاني ليتحدث عن: (مواقف اليهود المعاصرين للنبيﷺ) [٧٥-١٢٣].

وجاءت في أوله تيئيس المسلمين من إيمانهم بسبب ما كان منهم قديماً وما يكون منهم بعد ذلك؛ فذكرت الآيات كثيراً من أخلاقهم، وردت عليهم افتراءاتهم، وبينت حقدهم وحسدهم، ثم ختم المقطع بدعوتهم إلى الإيمان بأسلوب هادئ يجذب مشاعرهم.

وتحدث المقطع الثالث عن: (دعوة إبراهيم وتبرؤها من ادعاءات السابقين) [١٢٤-١٤١].

وتحدث عن إمامة إبراهيم، وأبطل حجتهم في الانتساب إليه، لأنه ليس مجرد نسب مادي بل هو نسب روحي، وما كان إبراهيم إلا مسلماً، وما أوصى ذريته إلا بالإسلام، وكذلك كان يعقوب، فهم بريئون ممن كان على غير الإسلام، فإذا أردتم أن تتبعوهم فادخلوا في الإسلام، وتحدث المقطع عن بناء الكعبة وما صحب ذلك من دعوات خاشعة تمهيداً لما سيأتي بعد.

أما المقطع الرابع فعنوانه (انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين)[١٤٢-١٦٢].

وتحدث عن تحويل القبلة، وبينت الآيات أن تحويل القبلة إيذان بتحويل الخلافة لأهلها المستحقين لها، وقد ردّت الآيات على شبهات اليهود وأبطلتها كلها، وقوّتْ قلوب المؤمنين ومهّدت لهم طريق المواجهة، ثم انتقل آخر المقطع لخطاب المؤمنين وإعدادهم لحمل الأمانة الكبرى بالجهاد والصبر، وبينت لهم أن الصدَّ ليس عن المسجد الحرام وإنما عما حوله أيضاً كشعائر الحج.

المحور الثاني: مقومات استحقاق أمة الإسلام للقوامة والخلافة.

انتقل الحديث في المحور الثاني لمخاطبة المؤمنين وتكليفهم لحمل الأمانة العظمي في الكون، وقد تدرج هذا المقطع في خطاب المسلمين تدرجاً حكيماً نعرفه من مطالعة مقاطع هذا المحور:

فابتدأ المقطع بتمهيد يعد مدخلاً اعتقادياً يربط المسلمين بالتوحيد، ثم تحدث عن تخليص منهج التلقي لله رب العالمين؛ وذلك ببيان أنه وحده المتفرد بالتحليل والتحريم مع ذكر أمثلة على ضلال السابقين في هذا الجانب، وبهذا تهيأت النفوس لتلقي الأوامر فجاءت آية البر التي كشفت ضلال السابقين، وأنارت طريق الهداية للمسلمين.

ثم جاءت تفاصيل هذا المحور في ستة مقاطع وهاك بيانها بإيجاز:

١- المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر[١٧٨-٢٠٣].

٢- المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية[٢٠٤-٢٢٠].

٣- المقطع الثالث: تفاصيل أحكام الأسرة [٢٢١-٢٤٢].

٤- المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة والعبرة منها [٢٤٣-٢٦٠].

٥- المقطع الخامس: الإنفاق؛ آدابه والمستحقون له.[٢٦١-٢٧٤].

٦- المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة[٢٧٥-٢٨٣].

وفي ثنايا البحث تفصيل الروابط بين هذه المقاطع، لتشكل معا مجمل التكاليف التي بها صلاح الأمة وإصلاح الدنيا. ثم جاءت خاتمة السورة؛ وفيها رد لآخرها على أولها، والشهادة للأمة بالإيمان واللجوء إلى الله.

و: المناسبات في السورة:

١ - مناسبة اسم السورة لمحورها:

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، ولم ترد أي إشارة إلى هذه القصة في أي سورة غيرها.

وقصة البقرة تكشف عدة قضايا أساسية لها تعلق قوي بمحور السورة؛ فإن من وجوه العبرة في القصة ما يلي:

أ- الحرص على نقاء العقيدة وعدم تقديس أي معبود من دون الله.

ج- بيان تلكؤ بني إسرائيل في تنفيذ الأمر الإلهي.

د- معاندة الأنبياء والاستهزاء بهم وعدم التسليم لهم.

هـ-بيان أن من طبيعتهم سفك الدماء والتنصل من الجريمة.

و-إحياء الله للموتى(١).

ولكلٍ من هذه الأمور تعلق قوي بمحور السورة؛ فأمر التوحيد والإيمان قد افتتحت به السورة واختتمت به، وجاء الأمر به وذكر ما يسوغ الإيمان بالواحد الأحد في تضاعيف السورة.

والإيمان بالبعث بعد الموت من العلامات البارزة في محور السورة؛ وقد جاء في السورة عدة شواهد عملية على البعث بعد الموت، وهي إحياء بني إسرائيل بعد صعقهم، وإحياء الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها

---

(١) وقد أشار إلى معظمها الشيخ أحمد مصطفى المراغي في: تفسير المراغي ١/ ٨١.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وبعدها قصة إبراهيم مع إحياء الطير، وهنا قصة إحياء القتيل.

قال ابن تيمية: " فهذه خمس قصص في إحياء الآدميين وقصة في إحياء البهائم وقصة في إبقاء الطعام والشراب وقصة في إحياء الطير"[1]. وهذا مرتبط بالإيمان بالغيب الذي جاء أول وصف للمتقين في السورة، ومرتبط أيضاً بالحديث عن بني إسرائيل الذين صبوا اهتمامهم على الماديات دون الأمور الغيبية.

وأخلاق بني إسرائيل وطباعهم مثلتها قصة البقرة أتم تمثيل:

١- فهم يميلون إلى سفك الدماء حتى مع الأنبياء، وفي قصة البقرة إشارة إلى قتل نفس، ولا شك أن القتل لا تصلح معه الخلافة؛ وقد استبعد الملائكة وجود خليفة في الأرض يسفك الدماء.

٢- وهم مجادلون لا يمتثلون للأمر بسهولة، وقد جادلوا موسى في أمر البقرة أكثر من مرة، واستهزؤوا به وكان لازم كلامهم نسبته إلى الجهل.

٣- وهم وثنيون لم يتغلغل التوحيد في نفوسهم، ولذلك عبدوا العجل عندما ذهب موسى لربه، فجاء الأمر بالذبح ليهون عندهم ما كانوا يعتقدون من تعظيمه.

٤- والتعقيب القرآني على القصة يثبت قساوة قلوبهم بحيث لم يعد فيها خير، ثم يصل ذلك بنفي طمع المسلمين في إيمانهم.

وبهذا يتضح لنا أن هذه القصة تمثل محاور السورة بوضوح تام؛ فقد تحدثت عن طرفي الإيمان؛ مصدر التكليف (إن الله يأمركم) وغاية التكليف وهو الإيمان بالآخرة. ثم تحدثت عن أسباب سلب الخلافة عن بني إسرائيل؛ وقد سبق بيانها.

ومما سبق يظهر وجه تسمية السورة بهذا الاسم، ويكشف كذلك صحة ما قاله الأقدمون: " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به"[2].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٦٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٥٦.

٢-المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

من الأمور التي تجذب اهتمام السامع براعة الاستهلال في فاتحة الكلام، وهذا أمر ملحوظ في سور القرآن الكريم، ولا يقتصر الأمر على براعة الاستفتاح، بل إن للخواتم موقعها من الحسن أيضاً، يقول الزركشي:" وهي مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يُذكر بعد"(١).

وللتناسب بين افتتاحية سورة البقرة وخاتمتها أوجه كثيرة؛ من أهمها ما يلي:

١- قال الرازي: "بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [٢٨٥] وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [٣].

ثم قال ههنا ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

ثم قال ههنا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [٤] ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [٥] فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها"(٢).

٢- قال الإمام البقاعي في ختام سورة البقرة: "وأما مناسبتها لأول السورة رداً للمقطع على

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١١.

المطلع فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصال، وجعل رأسهم الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام تعظيماً للمدح وترغيباً في ذلك الوصف فأخبر بإيمانهم بما أنزل إليه بخصوصه وبجميع الكتب وجميع الرسل وبقولهم الدال على كمال الرغبة وغاية الضراعة والخضوع فقال استئنافاً لجواب من كأنه قال: ما فعل من أنزلت عليه هذه الأوامر والنواهي وغيرها؟ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[1].

٣- قال أبو جعفر بن الزبير: " ولما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، تناول أحوال الزائغين والمتنكبين تحذيراً من حالهم، ونهياً عن مرتكبهم، وحصر قبيل المتروك بجملته، وانحصار التاركين، وأعقب بذكر مستلزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود أعقب ذلك بأن الإيمان يجب أن ينطوي على ذلك، وأن يسلم الأمر لمالكه، فقال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [٢٨٥] فأعلم أن هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه، وأنهم قالوا: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [٨٥] لا كقول بني إسرائيل: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [النساء: ٤٦] وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [٢٨٦]"[2].

٤- ومن أوجه المناسبة بين البدء والختام أن أول السورة فيه مدح للمؤمنين بصفتين هما: إقامة الصلاة والإنفاق، وفي خاتمة السورة ذِكْر الأمرين مع بيان حسن العاقبة في كلتا الآيتين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [٢٧٧].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٤/ ١٦٨.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص٨٨.

٥- جاء الحديث في أول السورة عن الإيمان، وكذلك في آخرها؛ فقد جاء في أول السورة وصف المتقين بالإيمان بالغيب، وفي آخر آيات السورة إثبات الإيمان للرسول والمؤمنين.

وجاء في أول السورة الإيمان بكل ما نزل على الرسل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[٤]، وجاء في آخرها الإيمان بجميع الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [٢٨٦]، وفي وسطها جاء قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ... وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[١٣٦]: قال ابن تيمية: "ففتحها - أي سورة البقرة- بالإيمان الجامع، وختمها بالإيمان الجامع،ووسطها بالإيمان الجامع"(١).

٦- جاء في أول السورة بيان هداية القرآن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ والإيمان بالقرآن في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وكذلك في آخرها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ وفي وسط السورة حديث طويل عن القرآن لبيان أنه دستور الخلافة الإنسانية في الأرض وأن قيمة الأمة في التمسك به، وأن ضلال بني إسرائيل كان بسبب تفريطهم في الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦].

٧- قال الشيخ الشعراوي: "في أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين، وفي ختامها يقول الحق دعاءً على لسان المؤمنين: ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢٨٦] هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائما لينازل بها الكفر، أيان وجد ذلك الكفر، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليه، لأن الله مولى الذين آمنوا، أما الكافرون فلا مولى لهم"(٢).

وهذا يبين طبيعة الصراع بين الحق والباطل؛ وقد أشارت السورة في أكثر من موطن إلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ١٠٨.

(٢) تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ٢/ ١٢٤٩.

أن سنة المدافعة من سنن الله الكونية التي تصلح الحياة وتمنع الفساد وسفك الدماء، ولن تقوم هذه السنة إلا على يد الجماعة المؤمنة.

٨- وفي ذكر المتقين بأوصافهم أول السورة ثم دعاؤهم آخرها بالنصر على الكافرين إشارة واضحة إلى أن التقوى سبب من أسباب النصر؛ فمن حصَّل التقوى كان من أهل النصر، ولذلك فإن معية الله للمتقين جاءت في وسط آيات الأمر بالقتال قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [١٩٤].

٩-جاء وصف المتقين في أول السورة بأنهم بالآخرة يوقنون، وجاء في آخر السورة التذكير باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [٢٨١] ثم جاء في آخر آيتين في السورة حديث عن الحساب يوم القيامة، وطلب المغفرة والرحمة.

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية البقرة وخاتمة الفاتحة واضحة تمام الوضوح، وقد أشار إليها جمع كبير من العلماء، ونذكر منهم الخوبي حيث قال: "أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة؛ لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول.

ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة، فذكر الذين على هدى من ربهم وهم المنعم عليهم، والذين اشتروا الضلالة بالهدى وهم الضالون، والذين باؤوا بغضب من الله وهم المغضوب عليهم"[١].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن لجلال الدين السيوطي ص٦٧.

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

أ- جاء في الحديث النبوي الشريف لفت النظر والاهتمام بشأن الفاتحة وخواتيم البقرة، وذلك في الحديث الوارد عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته[1].

وهذا يشير إلى وجود مناسبة قوية بين الموضعين؛ ففي كليهما حمدٌ وثناء على الله تعالى بما هو أهل له، وفيهما دعاء بطلب الهداية والمغفرة، ولذلك فإن سورة الفاتحة تختم بقول: آمين. وفي آخر الفاتحة تبرؤ من طريق المغضوب عليهم والضالين، وفي ختام البقرة إشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [٢٨٥].

ب- في سورة الفاتحة دعاء من المؤمنين أن يسلكهم الله في طريق من أنعم عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٦، ٧] وقد أجاب الله دعائهم في سورة البقرة، وأسبغ عليهم من فضله فأتم النعمة وقال: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة/ ١٥٠].

ج- تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية والالتجاء إليها في دين الإسلام والابتعاد عن سبيل أهل الكتابين، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها؛ فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم.

فأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى في آل عمران كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها. والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان تعامله مع النصارى في آخر

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٦.

الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب؛ ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخوطب به جميع الناس، أما السور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا بـ: (يا أهل الكتاب) (يا بني إسرائيل) (يا أيها الذين آمنوا).

د- ذكر بعض العلماء أن سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل ما أجملته الفاتحة:

١- فقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تفصيله ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات ومن الدعاء في قوله: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة: ١٨٦] الآية وفي قوله ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وبالشكر في قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- وقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تفصيله قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١،٢٢] وقوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩]. ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر وهو أشرف الأنواع من العالمين وذلك شرح لإجمال رب العالمين.

٣- وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [البقرة: ١٢٦] فقال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ ﴾ [البقرة: ١٢٦] وذلك لكونه رحماناً، وما وقع في قصة بني إسرائيل ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ [٥٢] إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة: ١٦٣] وذكر آية الدين إرشاداً للطالبين من العباد ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا

طاقة لهم به، وختم بقوله: ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤- وقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] تفصيله ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع ومنها قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [٢٨٤] والدين في الفاتحة الحساب في البقرة.

٥- وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥] مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفرعية، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل؛ فذكر فيها الطهارة والحيض والصلاة والاستقبال وطهارة المكان والجماعة وصلاة الخوف وصلاة الجمع والعيد والزكاة بأنواعها كالنبات والمعادن والاعتكاف والصوم وأنواع الصدقات والبر والحج والعمرة والبيع والإجارة والميراث والوصية والوديعة والنكاح والصداق والطلاق والخلع والرجعة والإيلاء والعدة والرضاع والنفقات والقصاص والديات وقتال البغاة والردة والأشربة والجهاد والأطعمة والذبائح والأيمان والنذور والقضاء والشهادات والعتق.

٦- وقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] شامل لعلم الأخلاق؛ وقد ذكر منها في هذه السورة التوبة والصبر والشكر و الرضا والتفويض والذكر والمراقبة والخوف وإلانة القول. وقد استنبط بعض أهل السلوك من هاتين الآيتين جميع منازل السائرين ومدارج السالكين إلى رب العالمين.

٧- وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] الى آخره تفصيله ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ومن حاد عنهم؛ ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم فهي من صراط الذين أنعم عليهم وقد أضل الله عنها السابقين؛ ولذلك قال في قصتها: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [١٤٢] تنبيهاً على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه.

ثم ذكر ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [١٤٥] وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم ثم قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأيضا قوله أول السورة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] إلى آخره في وصف الكتاب إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو ما تضمنه الكتاب وإنما يكون هداية لمن اتصف بها ذكر من صفات المتقين، ثم ذكر أحوال الكفرة ثم أحوال المنافقين وهم من اليهود وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم.

وكذلك قوله هنا: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ [١٣٦]الآية فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم وقال في آخرها: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ [١٣٦] تعريفاً بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء ولذلك عقبها بقوله: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ ﴾ [١٣٧] أي إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم كما اهتديتم.

٨- أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان فعقب بسورة البقرة وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب، ثم عقبت البقرة بسورة آل عمران وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى؛ فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران كما ورد في سبب نزولها، وختمت بقوله ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٩٩] وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين؛ كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود وآخرها في ذكر النصارى.

- أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ولهذا سميت في أثر "فسطاط القرآن" الذي هو المدينة الجامعة فناسب تقديمها على جميع سوره.

- أنها أطول سورة في القرآن وقد افتتح بالسبع الطوال فناسب البداءة بأطولها(١).

(١) تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور ص٧٨ وما بعدها. بتصرف.

مقدمة السورة: (١-٣٩) هداية القرآن، وخلافة الإنسان

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ البقرة: [١ - ٣٩].

التفسير الإجمالي للمقطع:

تبدأ سورة البقرة بهذه الحروف المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ وللعلماء فيها أقوال شتى، والراجح أنها أدوات تنبيه على غير ما ألف العرب، جاءت بهذه الكيفية للتحدي والإعجاز، والمبالغة في قرع أسماعهم، ولفت انتباههم إلى القرآن الذي يهربون عند سماعه، وليعلموا أنه من جنس كلامهم

لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

وقد كان المشركون يهربون عند سماع القرآن، فإذا سمعوا هذه الفواتح وقفوا مشدوهين ينتظرون ما يكون بعدها، فإذا هو القرآن الذي يفرون منه يأتيهم وبهذا تقوم الحجة عليهم في سماع الحق الذين يصمون آذانهم عنه.(١)

قال الرازي: "الحروف تنبيهات قُدِّمَتْ على القرآن، ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق".(٢)

وهناك مناسبة بين ورود هذه الحروف وبين الحديث بعدها عن القرآن، وقد لحظها ابن كثير فقال: "كل سورة تَبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب"(٣).

وجاء بعد هذه الحروف الإشارة إلى القرآن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي أن ذلك هو الكتاب الكامل، الذي يستحق أن يسمى كتاباً، وليس في الكون كله ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه، ثم جاء بعد ذلك ما يؤكد هذا الحكم ويستدل له وهو قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والريب شك مع تهمة، ونفي الريب دليل على أن القرآن ليس محلاً لأن يرتاب فيه عاقل متدبر، فإذا استقر ذلك في النفس اهتدت بهداه الذي لا ينتفع به إلا من اتقى نفسه وصانها من عذاب الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

(١) وهذا القول عليه جمهور أهل اللغة والتفسير والحديث، ويميل إليه أهل العلم المعاصرون. انظر في ذلك: فواتح سور القرآن للدكتور حسين نصار ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ١٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٤٢٨. وقريب من ذلك ما ذكره الرازي في التفسير الكبير ٢٤/ ٢٥، واستثنى من ذلك سور مريم والعنكبوت والروم وبين حكمة ذلك. وأضاف الشيخ شلتوت سورة الروم. تفسير القرآن الكريم ص٦٢. وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص٨، والبرهان للزركشي ١٧٠، وتفسير المنار لرشيد رضا ٨/ ٢٩٦.

وبعد هذا الوصف البليغ للقرآن الكريم وهدايته، تتشوف النفس إلى معرفة أثر هذا القرآن على الناس، واستجابتهم لهداه، فجاء التفصيل القرآني ليبين انقسام الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين.

وجاء الوصف القرآني متصلاً بالحديث عن هدايته للمتقين وذكر خمسة أوصاف لهم:

أولها: أنهم يصدقون تصديقاً جازماً بكل ما غاب عن حواسهم، ويشمل ذلك الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر.

وثاني أوصافهم: أنهم يؤدون الصلاة في أوقاتها مستوفية لأركانها وآدابها وخشوعها، مع استحضار جلال الله فيها.

وثالث أوصافهم: أن كل ما انتفعوا به من رزق يخرجون بعضاً منه، والتعبير بالمضارع يفيد الدوام، والإنفاق من أقوى علامات الإيمان بالغيب، قالﷺ:(والصدقة برهان)[١] أي برهان على صدق إيمان صاحبها، وتصديقه بموعود ربه.

ثم ذكرت الآيات وصفاً رابعاً للمتقين وهو أنهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل إلى النبي ﷺ ويؤمنون كذلك بالكتب السماوية السابقة، والظاهر أن هذه الآيات في وصف مؤمني أهل الكتاب، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم[٢].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٨ والمحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٨٦، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ٣١، والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٧٠ ورجحه إسماعيل حقي في تفسيره: روح البيان ١/ ٤٠.
ويشهد لهذا القول أن الصالحين من أهل الكتاب جاء وصفهم بهذه الصفات في آيات أخرى كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقد وصفهم القرآن في عدة آيات بالمسارعة إلى الإيمان بالإسلام.

وذكرت الآيات خامس صفاتهم وهي أنهم يوقنون يقيناً جازماً مطابقاً للواقع بالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، مما يدفعهم إلى عمل الخيرات وترك المنكرات.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات متمكنون على الهدى الكامل الذي وهبهم الله إياه بالقرآن، وأولئك هم ولا أحد غيرهم أهل الفلاح والفوز الحقيقي.

ولأن الآيات وصفت القرآن بأنه هدى للمتقين، وبين موقف المتقين من هداية القرآن، جاء الكلام على هؤلاء الذين لم ينتفعوا بهدايته إجابة على سؤال مقدر: إذا كان القرآن هو الحق الواضح الذي لا مرية فيه فلم لا يؤمن الناس جميعاً؟

فذكرت الآيات أن هناك من الناس من عَمِي وصمّ فلم ينتفع بأي وعظ أو هدى وهم الكفار، والكفر في اللغة الستر[1]، والذين كفروا من لم يؤمنوا بما يجب الإيمان به بعد دعوتهم إليه، وهؤلاء سواء عليهم الأمران الإنذار وعدمه؛ لأنهم في كلتا الحالتين لا يؤمنون.

والآيات مرتبطة بما قبلها؛ فالأوصاف الأولى لمؤمني أهل الكتاب، وهذه الأوصاف لكفارهم، قال الطبري: "أنّ قول الله جل ثناؤه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: ٦] عَقِيبَ خبر الله جل ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصِفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله. فأَوْلى الأمور بحكمة الله، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفّارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم؛لأن مؤمنيهم ومشركيهم - وإن اختلفت أحوالهم باختلاف أديانهم- فإن الجنس يجمع جميعَهم بأنهم بنو إسرائيل".[2]

ثم بينت الآيات المانع الذي يحول بينهم وبين الاهتداء وهو أن الله تعالى ختم على قلوبهم؛ قال القرطبي: " والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختَّم، شدد للمبالغة، ومعناه:

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص٤٣٤.

(٢) جامع البيان للطبري١/ ٢٥٣.

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء.. والختم يكون محسوساً كما في ختم الكتاب والباب.. وقد يكون معنى كالختم على القلوب "[١] وقد ختم الله على قلوبهم التي هي مصدر العلم والفهم، وعلى أسماعهم التي توصل للقلوب، وجعل أبصارهم لا تهتدي للاعتبار والتدبر فصارت كأن عليها غشاوة تحول بينها وبين الرؤية، وليس في هذا أي ظلم لهم، فهذا فعل الله فيهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وإعراضهم عن الحق والهدى بعد معرفته[٢]، قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، ثم بين سبحانه ما يستحقونه من عذاب بسبب كفرهم فقال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي أنهم بسبب سوء عملهم أصابهم العذاب الموجع المؤلم لأبدانهم.

وبعد أن تحدث القرآن عن مؤمني أهل الكتاب وكافريهم وموقفهم من هداية القرآن وعاقبة أمرهم جاء الحديث الطويل عن منافقيهم ومن كان على شاكلتهم من منافقي العرب[٣]؛ ولأن هذه السورة أوائل ما نزل بالمدينة، جاء التحذير القرآني من النفاق والمنافقين؛ ذلك لأن النفاق ما كان موجداً بمكة، وإنما وُجد بالمدينة بعد أن صار للإسلام دولة وكان للمسلمين على المشركين في بدرٍ صولة، فلما رأى بعضهم انتصار المسلمين أظهروا الدخول في الدين مع إخفاء الكفر.

وقد حذر القرآن من المنافقين، وكشف سرهم، وأظهر دخائلهم، وورد ذكرهم في سبع عشرة سورة مدنية من جملة ثلاثين سورة، أولها نزولاً البقرة وآخرها التوبة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٨٤ باختصار.

(٢) قال الماتريدي: "والأصل في ذلك أنه ختم الله على قلوبهم لما تركوا التأمل والتفكر في قلوبهم فلم يقع، وختم على سمعهم لما لم يسمعوا قول الحق والعدل خلق الثقل عليه، وخلق على أبصارهم الغطاء لما لم ينظروا في أنفسهم ولا في خلق الله"." تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي ١/ ١٦.

(٣) روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إنها نزلت في منافقي أهل الكتاب. زاد المسير لابن الجوزي ١/ ٢٩.

وتبدأ الآيات ببيان أن من أصناف الناس أناساً يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويدعون أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكنهم كاذبون في دعواهم، فما هم من أهل الإيمان في الحقيقة وإن تظاهروا بذلك.

وإن الذي دفعهم إلى ادعاء الإيمان المخادعة؛ فصورة فعلهم صورة الخداع والإيهام لله، لكنه سبحانه يعلم أمرهم، ويخدعون المؤمنين ويظهرون لهم أنهم إخوانهم في الدين بينما يتربصون بهم الدوائر، والحق أنهم لم يخادعوا ربهم لعلمه بسريرتهم وعلانيتهم، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم، إنما يخدعون أنفسهم؛ لأن ضرر الخداع والإخفاء راجع إليهم لكنهم لا يشعرون بذلك لانطماس بصيرتهم.

ثم بينت الآية علة خداعهم وهي أنهم في قلوبهم فساد متمكن من قلوبهم هو مرض الشك والشبهات والجحود فزادهم الله نفاقاً جزاءً على كفرهم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ولهم العذاب الموجع في الآخرة بسبب كذبهم(١).

وقد بينت الآية أن سبب نفاقهم مداومتهم على الكذب؛ فالكذب أصل النفاق وأساسه، وقد ورد: "إياكم والكذب فإن الكذب مجانب للإيمان"(٢).

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف(يكذبون) أي في قولهم آمنا وما هم بمؤمنين، وقرأ الباقون (يكذبون) بالتشديد أي: يكذبون بآيات الله والرسل. قال مكي بن أبي طالب: " والقراءتان متداخلتان ترجع إلى معنى واحد؛ لأن من كذب رسالة الرسل وحجة النبوة فهو كاذب على الله، ومن كذب على الله وجحد تنزيله فهو مكذب بما أنزل الله". الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١/ ٢٢٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٥ والبيهقي في سننه١٠/ ١٩٦ موقوفاً على أبي بكر، وحسّن الحافظ العراقي سنده مرفوعاً. المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٨٠٥.

ولم يقف هؤلاء عند حد الكذب والمخادعة، بل أضافوا إلى ذلك السفاهة وتبرير الإفساد؛ فإذا نصحهم ناصح ألا يفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي وإلقاء الشبه بالغوا في نفي الفساد عن أنفسهم وقصروا أنفسهم على الإصلاح وأكدوا ذلك بالجملة الإسمية التي تدل على الثبات والرسوخ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨] لكن القرآن رد عليهم، وأثبت كذبهم وأكدَّ أنهم هم المفسدون، وقصره عليهم، لكنهم لا يشعرون بذلك مع أن أثره ظاهر وذلك لاستحكام الفساد في مداركهم مما أدى لاختلال آلة الإدراك عنهم فجعلهم يرون المنكر معروفاً.

وبعد أن أمرهم المسلمون بالتخلي عن الفساد نصحوهم بالتحلي بالإيمان؛ وذلك بأن يؤمنوا إيماناً كإيمان الناس الصادقين، فكانوا يردون مستنكرين: أنؤمن كما آمن ضعفاء الرأي؟ وكان قولهم هذا فيما بينهم لكن القرآن سجّله عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء في الحقيقة وحصر السفاهة فيهم، ولكن لا يعلمون حقيقة جهلهم.

وقد زادوا على سفاهتهم الخداع والتمويه؛ فكانوا إذا استقبلوا المؤمنين وكانوا قريباً منهم تظاهروا أمامهم بالإيمان الصادق، وإذا انفردوا مع شياطينهم من اليهود[1] قالوا إنا معكم، وما نحن إلا بمستهزئين بالمؤمنين ساخرين منهم في ادعاء الإيمان، فلكل منهم وجهان؛ وجه يلقى به المؤمنين، ووجه آخر ينقلب به إلى إخوانه الضالين، وله لسانان؛ لسان صدق زائف يعامله المسلمون بظاهره، ولسان كذب وخداع يظهر به خفايا نفسه ويكشف عما أضمره فؤاده من الكفر بالله والحقد على أولياء الله.

ولكن الله يغار على عباده المؤمنين، فيجازى المنافقين بنفس عملهم؛ ويظهر لهم من عصمة أموالهم ودمائهم في الدنيا خلاف الذي أعد لهم في الآخرة من العذاب. ويمد لهم ويمليهم في كفرهم ومجاوزتهم الحد ويمكنهم من المعاصي حال كونهم يعمون عن الهدى ويتحيرون بين

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/ ٣٩٧عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

الكفر والإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وما كان أيسر الهدى على كل هؤلاء الضالين من الكفار والمنافقين، لكنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، وكان ذلك عن رغبة في الضلال عن الطريق المستقيم، وزهداً في الهداية إلى الصراط القويم فهم كالمشتري الذي يرغب في المبيع، لكنهم لم يحصلوا من اشتراء الضلالة إلا الخسارة، فما ربحت تجارتهم بل خسروا، وما كانوا مهتدين بل ضلوا. وكما بينت الآيات في ختام خصال المتقين وصفهم بالفلاح بينت هنا عاقبة الطائفتين الأخريين وهي الخسارة وبوار التجارة.

وبعد أن ذكرت الآيات الطوائف الثلاث قربت المعقول للمحسوس بمثلين ضُربا للطائفتين الأخيرتين.

فالمثل الأول للكفار[١]، وهو يشَّبه حالهم بحال رجل استوقد النار للقافلة التي كانت

(١) ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن المثل الأول في منافقي اليهود والمثل الثاني في المنافقين. انظر: تفسير المنار لرشيد رضا١/ ١٦٨ وما بعدها، وهو قريب مما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم حيث قال: "إذا رجعت بنفسك إلى أي أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده، فهؤلاء القوم الذين: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾[١٧، ١٨] أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾؟[٧] وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب، هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلب. النبأ العظيم هامش ص ٢١٠. وقد رجح هذا الرأي جماعة من المعاصرين، قال د/ سيد طنطاوي: وهو رأي مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة. التفسير الوسيط ١/ ٧٠. ونقله مستحسناً: الدكتور محمد سبحاني في كتابه: البرهان في نظام القرآن ص ٩٩. أقول: وليس الاختلاف في تأويل المثل الأول بمؤثر؛ ولا يغير شيئاً في التأويل؛ فالمنافق كافر، بل ربما يكون أشد خطراً وضرراً منه.

في تيه الظلمة، فلما أضاءت النار ما حوله من الأماكن وتمكنوا من الانتفاع بضوئها، لم ينتفعوا بدعوته لهذا النور، وظلوا في دياجير الظلام لا يبصرون من نور الحق شيئاً؛ فالنور نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[الزمر: ٢٢]. وذهاب النور يكون في الدنيا بالعمى والجهل والتخبط في أودية الضلال.

وإنما قال الله: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ للدلالة على أنه سبحانه كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدت لهم النار فأضاءت، فلما أعرضوا عن النور غرقوا في ظلمات بعضها فوق بعض، وأمثال هؤلاء لا يرجى لهم اهتداء ابتداءً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مفاتيح الخير، قال تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فهم لا يسمعون الوعظ ولا يطلبون بياناً ولا يبصرون فيعتبروا أو ينزجروا. فقد فقدوا كل وسائل التعقل؛ ولذلك فإنهم لا يرجعون عن الجهالة ولا يهتدون من الضلالة، فكيف لتائه ضل الطريق عامداً وهو لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق كيف له أن يرجع؟

وهذا المثل يتطابق مع حال اليهود وأشباههم الذين عرفوا الحق وعرفوا داعيه، لكنهم استحبوا العمى على الهدى، وقد كان عندهم نور من بقايا وحي السماء لكنهم رفضوا ما أتاهم من نور القرآن فذهب الله بما عندهم من نور وتركهم في ظلمات يتخبطون.

ثم جاء المثل الثاني ليبين حال المنافقين مع هدايات القرآن؛ فمثلهم كمثل مطر من السحاب فيه ظلمات داجية، وصوت رعد قاصف، وضوء برق خاطف، حتى إنهم ليجعلون أصابهم في آذانهم من شدة الصواعق المحرقة خوفاً على أنفسهم من الموت[١]، ولن ينفعهم ذلك؛ فالله محيط بهم علماً وقدرة.

ويكاد البرق لشدة لمعانه أن يأخذ قوة البصر المودعة في أعينهم فإذا صادفوا من البرق

(١) قال الفراء: قيل: إن الرعد إنما ذُكِر مَثَلاً لخوفهم من القتال إذا دُعُوا إليه. ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يظنُّون أنهم أبداً مغلوبون. معاني القرآن للفراء ١/ ١٧.

وميضاً انتهزوا فرصة ذلك الوميض ومشوا فيه خطوات قليلة، وإذا خفت بريقه، واختفى لمعانه وقفوا في مكانهم خائفين لشدة حرصهم على النجاة، ولو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بسمعهم ولو شاء لزاد في ضوء البرق فأعماهم وأذهب أبصارهم، فإنه تعالى على كل شيء قدير، ومن جملة ذلك أن يذهب بأسماعهم وأبصارهم متى يشاء.

والمثل يشبِّه حظهم من الحياة والنور بحظ صاحب المطر الصيب الذي هو في حقيقته حياة للأرض الميتة، وشبه الهدى به لأنه يحيي القلوب الميتة كما تحيى الأرض بالمطر، وتنبت به ثمرات العبادة ومحاسن الأخلاق. لكن المنافق لا نصيب له من الصيب إلا الظلمات والرعد والبرق، أما النفع الحقيقي بالمطر فإنهم عنه بمعزل.

وحالهم مع الدين قائم على مبدأ النفعية؛ فإن كان ثمة خير عاجل لزموا الدين ومشوا فيه واطمأنوا به، وإن وجدوا فتنة تصيبهم في أنفسهم وأموالهم قاموا وتركوا الهدى، قال تعالى في وصف حالهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء/ ١٤١]، فهذا دأبهم وتلك طبيعتهم، قال ابن مسعود: "كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصابتهم شدة سخطوه وثبتوا في نفاقهم"[1].

كان هذا هو المقصد الأول في المقدمة، وهو يتحدث عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

فمنهج القيام بالخلافة في الأرض له دستور، هذا الدستور هو القرآن الكريم، وقد جاء ذكره أولاً لبيان أنه هو الصراط المستقيم، ثم انتقل الحديث إلى موقف من قاموا بحقه، ومن

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٠٣. قال النحاس: وهذا قول حسن. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٣٨.

علموا الحق وتركوه، ثم من عرفوا الحق ظاهراً وتركوه باطناً.

وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

وقد بدأت آياته بنداء قوي موجه إلى جميع الناس بثلاثة مطالب:

أولها: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يؤمنوا بالقرآن الذي نزله على نبيه محمد ﷺ.

وثالثها: أن يرهبوا شديد عقابه ويرغبوا في واسع ثوابه.

وهذه أركان العقيدة الإسلامية، ابتدأت بالإيمان بالله وهو مبدؤها وختمت بطرفها وهو الإيمان باليوم الآخر، ثم جاء في الوسط الحديث عن الواسطة وهو الإيمان بالكتاب وبالرسول.

وتبدأ الآيات بأمر الناس جميعاً أن يعبدوا ربهم الذي رباهم على موائد كرمه سبحانه، ثم بينت الآية موجبات استحقاقه سبحانه العبادة وتدرجت في ذلك من خلق الأنفس إلى الآفاق، وجمعت بين دليلي الاختراع والعناية؛ فهو سبحانه الذي أخرج العباد جميعاً من العدم إلى الوجود وكما أوجد المخاطبين فإنه أوجد المتقدمين أيضاً، وبدأ بالمخاطبين لأن علم الإنسان بحال نفسه أوضح من علمه بحال غيره، وعبادة الله المأمور بها تجعل الإنسان على رجاء أن يكون من المتقين. وهذا من أدلة الاختراع التي نعلم بها أن هناك موجداً للحياة ومنعماً بها هو الله تعالى(١).

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أدلة العناية بالإنسان الموجودة في العالم السفلي والعالم العلوي؛ فبينت أن مما يحمل الناس جميعاً على عبادة الله وحده أنه جعل لهم مهاداً كالبساط

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/ ٣٢٣.

المفروش، فصارت مذللة سهلة للمعيشة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات/ ٤٨] فالأرض في سهولة العيش عليها ويسر التقلب فيها كمهاد الصبي[1].

وبعد أن ذكر خلق الأرض التي هي أقرب للإنسان ذكر خلق السماء التي هي كالسقف والبناء للأرض[2]، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] فالسماء محكمة البناء، ينزل من سحابها الماء المبارك الذي يخرج به من أنواع الثمرات بعض ما يكون رزقاً للعباد وحياةً للبلاد، قال تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٥: ٣٢]

ومن كانت هذه أفعاله، وكان هذا صنعه وتدبيره فهو جدير بأن يفرد وحده بالعبادة،

---

(١) وقد أثبت العلم أن الأرض لم تكن في بداية تكونها فراشاً أو مهاداً و قراراً يمكن أن تنشأ عليها حياة، ثم صارت بعد ذلك كذلك وتحقق كونها فراشاً ومهاداً بتكون السطح الصخري الخارجي لها من سهول وهضاب وجبال، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا السطح بهيئة منبسطة مسطحة ممهدة، وجعل لها سهولاً واسعة الامتداد تصلح للحياة التي قدرها فيها ممهدة للسير والحرث والزرع والنماء والحياة. انظر: مجلة الإعجاز التي تصدرها هيئة الإعجاز العلمي برابطة العالم الإسلامي. العدد رقم (٤) وبهذا يكون الجعل بمعنى التصيير والله أعلم.

(٢) وصف السماء بالبناء يتوافق مع ما أثبته العلم من أن السماء المحيطة بالكرة الأرضية مكونة من طبقات متعاقبة ومترابطة معاً بالأرض؛ حيث تقوم الأرض بجذب هذا الغلاف السماوي إليها ومنعه من التبدد والزوال بخلاف ما كان عليه الحال عند بداية تكون الأرض وقبل استقرار سطحها،كما بين العلم الحديث أن طبقات هذا الغلاف الجوي المحيط بالأرض تحمي الحياة والأحياء فوقها من أخطار كونية كالنيازك والأشعة الكونية وكهارب الرياح الشمسية التي تتعرض لها الأرض على مدار اليوم والليلة كما أثبت العلم أيضاً أن هذا البناء المحكم حول الأرض يوفر أسباب الحياة عليها وفق سنن محكمة فهو مخزن هائل للغازات الضرورية للحياة كالأكسجين والنتروجين، وهو منظم لدرجات الحرارة الملائمة للحياة فوق الأرض وناقل للسحب وموزع للرياح والماء. انظر: المرجع السابق.

ولا يليق بعاقل أن يجعل له أمثالاً وشركاء يعبدها ويطيعها من دونه، ويعتقد أنها تنفعه وتضره وهو يعلم أنها لا تصلح أن تكون أنداداً لله، قال مجاهد: "وأنتم تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل"[(١)]. وفي الصحيح: (**وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا شيئاً**)[(٢)].قال ابن كثير: " وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع"[(٣)].

وبعد أن قررت الآية الوحدانية بأبلغ لفظ وأحكمه انتقلت إلى إثبات صدق نبوة محمد ﷺ، فخاطبت كل كافر قائلةً إن ارتبتم في أمر القرآن الذي نزل مفرقاً على عبدنا محمد فأتوا بأقل ما يطلق عليه لفظ سورة من مثله واستعينوا على ذلك بكل من يمكنه معونتكم متجاوزين لله إن كنتم صادقين في قدرتكم على المعارضة، كما قالوا في آية أخرى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ [الأنفال: ٣١].

وفي الآية تحدٍ للعرب وللناس أجمعين أن يأتوا بسورة تقارب أو تداني أقصر سورة منه وهي سورة الكوثر.

وإعجاز القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه، وبلاغته التي لا يمكن لأساطين البلاغة أن يجاروها، وقد نزل القرآن على العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فانقطعوا عن معارضته ولم يستطيعوا، وقد نزلت عدة آيات متدرجة في تحدي العرب، قال أبو بكر الجصاص: " وقد

---

(١) أخرجه الطبري عنه بسند صحيح رقم/ ٤٩٠ وهذا يشير إلى أن هذه الآيات خطاب لأهل الكتاب، وهم داخلون في العموم لكن كما قال الطبري: وإن كان الخطابُ لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حَوالَيْ دَار هجرة رسول الله ﷺ، وأهل النفاق منهم، وممن بينَ ظَهرانيهم ممّن كان مشركًا فانتقل إلى النفاق بمقدَم رسول الله ﷺ. جامع البيان للطبري ١/ ٣٧٣.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه برقم/ ١٥٣٤ وصححه على شرطهما، وابن خزيمة في صحيحه برقم/ ٩٣٠، وابن حبان برقم١٢٢٢موارد، وأحمد في مسنده٤/ ١٣٠ عن الحارث الأشعري مرفوعاً في حديث طويل، وسنده صحيح.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٩٧.

تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] فلما ظهر عجزهم قال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣] فلما عجزوا ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤] فتحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه"[١].

فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً وأبلغ وأشد تأثيراً هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسان[٢].

وفي القرآن أوجه كثيرة تثبت صدق النبي ﷺ لكن لم يقصد بها التحدي للعرب؛ وذلك مثل الأخبار بالأمور الغيبية، وأوجه التشريع الحكيمة، ودلائل الإعجاز العلمي التي تثبت أن القرآن هو الحق.

وبعد أن أثار القرآن حماستهم، وعرّض بعدم صدقهم حتى تتوفر دواعيهم على المعارضة أكد لهم أنهم لن يستطيعوا، وفي هذه الكلمة: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ إعجاز مستقل؛ حيث أثبتت أنهم لم يعارضوا، ولن يستطيعوا ذلك لا هم ولا من سيأتي بعدهم، فهذا تحدٍ بالأخبار عن الغيب المستقبل. وحيث ظهر العجز: فليس أمامهم إلا التصديق بالقرآن، وإن لم يؤمنوا فليس إلا العناد وبهذا يستحقون النار التي توقد بالناس والأصنام التي كانت تُعبدَ من دون الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٩٨] وهذه النار الشديدة أعدها الله وهيأها للكافرين، فهي نار مختصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٢١.

وبهذه الجملة الأخيرة انتقل الحديث من الإيمان بالقرآن إلى الإيمان باليوم الآخر، وجاء بعد تخويف المشركين من النار الأمر ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم عند ربهم جنات بها أشجار كثيفة تجري من تحتها الأنهار، وإن سكان الجنة كلما قُدمَّت لهم ثمرة من ثمراتها وجدوها شبيهة بسابقتها قالوا: هذا مثل الذي رزقناه فيها من قبل، فأشجار الجنة متماثلة في حسن المنظر وحلاوة الطعم بحيث لا تفاضل بين واحدة وأخرى، وجيئوا بهذه الثمار يشبه بعضها بعضاً في الحسن ويختلف في اللذة والطعم، قال ابن عباس: "ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء"[1].

وإن لهؤلاء المؤمنين في الجنة أزواجاً من الحور العين اختصصن بهم، مطهرات من كل دنس وقذر حسي أو معنوي، قال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن/ ٥٦]، ولما ذكر الله نعيم المؤمنين في الجنة من المسكن والمطعم والنكاح ولا ينغص على النفس بعد الكمال إلا الزوال أعقب القرآن ذلك بالتأكيد على الخلود والنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

وبعد أن ذكرت الآيات أمثلة العذاب والنعيم في الآخرة عادت إلى بيان أن هذه طريقة القرآن في هدايته؛ يضرب الأمثال ويبين الحقائق لا يبالي أن يتناول عظائم الأمور أو سفسافها، وقد نعى اليهود على المسلمين ذلك الأمر؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: "لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين؛ يعني قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال فأنزل الله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ ﴾"[2].

ووردت عدة روايات أن القائلين هم المشركون والمنافقون، قال ابن عاشور: "وكون القائلين هم اليهود هو الموافق لكون السورة نزلت بالمدنية، وكان أشد المعاندين فيها هم اليهود، ولأنه الأوفق بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ وهذه صفة

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/ ٣٩٢ برقم/ ٥٣٥ عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٦ برقم ٢٦٠.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٦ وسنده ضعيف، انظر العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٤٦.

اليهود[١]". ويحتمل أن يكون الكل قد تظاهر على ذلك، وهذا ما رجحه جمع من المفسرين.[٢]

ومعنى الآية أن الله لا يستنكف[٣] أن يضرب أيَّ مثل كان بأي شيء كان حتى ولو كان من المخلوقات الصغيرة كأي بعوضة فما دونها في الصغر[٤]، وليس هذا بمستغرب؛ فالمثل لتقريب المعقول بشيء محسوس تأنس به النفوس، ولله تعالى أن يمثل الأصنام وحقارة شأنها بأهون شيء وأحقره كالذباب وغيره.

والناس في موقفهم من هذه الأمثال فريقان:

فريق مؤمن يعلم أن هذا المثل هو الحق الكامل الوارد عند الله. أما الفريق الثاني وهم الكفار فإنهم يستفهمون منكرين: ما الذي أراده الله بهذا المثل؟

فردَ الله عليهم وبين أن هذا المثل يكون سبباً في زيادة هؤلاء ضلالاً على ضلالهم؟ لأنهم كذَّبوا بما علموه، وفي المقابل يزداد المؤمنون إيماناً؛ لأنهم صدَّقوا بما علموه حقاً؛ قال تعالى:

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٥٨.

(٢) انظر: التفسير للكبير للرازي٢/ ١٢٢ والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ٢٦٤ وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٠٧.

(٤) قال الرازي: والمحققون مالوا إلى هذا القول. التفسير الكبير٢/ ١٢٥، وذهب بعضهم إلى أن معنى ما فوقها أي أكبر منها.انظر: معاني القرآن للفراء، ج١، ص٢٠.

فائدة: ومع أن ذكر البعوضة للتمثيل إلا أن خلقها فيه من عجائب صنع الله ؛ فعلى الرغم من ضآلة حجمها إلا أنها المسبب الرئيس لمرض الملاريا والفلاريا المعروف بداء الفيل والحمى المخية وحمى الوادي المتصدع وغير ذلك، ومن إشارات اللفظ أن اللفظ جاء بصيغة التأنيث والحقيقة العلمية تثبت أن الأنثى وحدها هي التي تتغذى على الدم فقط وتنقل الأمراض دون الذكر. وهناك ما دونها مثل الفيروسات وغيرها مما لا يرى بالعين بالمجردة ومع هذا فإن فيه من القوة ما يهلك الإنسان، فسبحان من هذا كلامه. وللتفصيل انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص٦٨٤ وما بعدها.

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر ٣١، ٣٢].

ثم بينت الآية الكريمة أن علة إضلال هؤلاء هو خروجهم عن طاعة الله وأوامره فزادهم الله ضلالاً على ضلالهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ [مريم:٧٥] وذكرت ثلاثة أوصاف لهؤلاء الفاسقين:

أولها: أنهم ينقضون ويحلون العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم بعد أن أكدوه ووثقوه وذلك العهد هو ما فطره الله في النفوس من توحيد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وتحتمل ما أخذه الله على أهل العلم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثانيها: أنهم يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، ومن ذلك قطيعة الرحم، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد:٢٢] ومنه قطع بعض الرسل عن بعض، بأن يؤمن ببعضهم دون البعض الآخر، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ثالثها: الإفساد في الأرض؛ وذلك بالشرك، والدعوة إلى الكفر، وإلقاء الشبهات في وجه الدين الحق.

وأصحاب هذه الصفات هم الذين نقصوا أنفسهم حقها من الخير قال الطبري: "والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له".(١)

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٤١٧.

ويلاحظ أن هذه الصفات التي اتصف بها الفاسقون جاءت على عكس ما اتصف به المتقون في أول السورة:

* فالفاسقون ينقضون عهد الله لهم، أما الأولون فإنهم يوفون بعهد الله ويؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله.

* والفاسقون يقطعون ما أمر الله بوصله، والمتقون يصلون ما أمر الله بوصله فيقيمون الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه.

* والفاسقون يفسدون في الأرض ولا يقومون بواجب الخلافة، أما المتقون فإنهم يحرصون على عمارتها وينفقون من كل ما رزقهم الله في سبيل ذلك.

ولذلك استحق المتقون أن يكونوا هم المفلحين، قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥]، أما الفاسقون فكان جزاؤهم موافقاً لعملهم فكانوا من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢٧].

وبعد أن بينت الآيات أقسام الناس إزاء هداية القرآن، وبينت أوصاف الضالين وسوء مصيرهم. جاء الخطاب القرآني بالتعجيب والإنكار من كفرهم رغم أنعم الله الواسعة **فهذا** عود على بدء إلى المقصد الأول في هذه المقدمة؛ حيث بيَّن أولاً هداية القرآن وأقسام الناس إزائها، وأعاد الكلام هنا من وجه آخر وبأسلوب جديد؛ فقد أمرت الآيات هناك بعبادة الله وذكرت النعم مجملة، ثم نهت هنا عن الكفر بالله وذكرت النعم بشيء من التفصيل. وذكرت الأولى مبدأ الخلق، أما هذه فتحدثت عن منتهى ورجوع كل عبد لمولاه.

وابتدأت الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي، والتفتت بالخطاب إلى الكافرين مواجهةً وذلك لزيادة التعجب من غرابة أحوالهم، وقلة علمهم، فقد كانوا معدومين فخلقهم الله وأخرجهم من العدم إلى الوجود، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان: ١].

وبعد أن ذكرَّهم بالنشأة الأولى جاء ذكر أطوار انتقال الإنسان من حياته الدنيا إلى الموت وقبض الأرواح عند انقضاء الأجل فهذه ثلاثة أمور مشهودة، ثم ذكر الأمر الرابع الموعود به وهو الإحياء والبعث بعد الموت والرجوع إلى الله تعالى الذي يجمع الناس ويقضي بينهم بحكمة سبحانه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦].

وبعد أن ذكر الله الأدلة من الأنفس أعقب ذلك بذكر الأدلة من الآفاق وذلك ببيان أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما في الأرض من معادن ونباتات وحيوان وغير ذلك، ثم علا وارتفع وقصد إلى السماء من غير تشبيه ولا تكييف فسَّوى السموات السبع[1] على هذه الصورة الحكيمة التي تدل على إحاطته سبحانه بكل شيء علماً. وفي خلق الأرض تمهيد للحديث عن الخلافة في الأرض.

وهذه الآية التي معنا تشير إلى أن خلق الأرض مقدم على خلق السموات، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت :٩-١٢] .

وإذا كانت الآية في المقصد الأول قد تحدثت عن نبوة سيدنا محمد ﷺ بعد الحديث عن وحدانية الله، فإن هذا المقصد بعد أن نهى عن الشرك تحدث عن النبوة الأولى، ومهد لها بحديث شائق عن تلك النشأة، وما جرى في شأنها مع الملائكة ثم انتقل إلى الحديث عن حسد إبليس وما نشأ عنه المعصية ومن ثم الابتلاء في الأرض.

---

(١) الظاهر أن السماوات السبع هي تحديد للنوع مما خلق الله سبحانه فوقنا من هواء وشهب ونيازك وأقمار ومذنبات وكواكب وشموس يعلو بعضها بعضاً، ويتألف منه عوالم الكون أو طباق السماوات. انظر: الله والكون للدكتور/ محمد جمال الدين الفندي ص٢٤٣.

فالحديث الأول كان خاصاً بالقائد الأعظم محمد ﷺ الذي ختم الله به الرسل، أما هنا فالحديث عن أبي البشر، والخليفة الذي قام بعمارة الأرض وإقامة حدود الله. فبينهما الاتصال بين المبدأ والمختتم، وبين الوراثة والخلافة، وبين الملة الأولى والآخرة.

وتبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: واذكر يا محمد وقت أن قال الله لمخلوقاته النورانية العابدة المسبحة بحمده إني متخذ في الأرض خليفة يعمرها، ويقيم العدل فيها، وهو آدم وذريته الذين يخلفونه من بعده، وقد أخبرهم الله بذلك لأجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن الحكمة وليس على سبيل مشورتهم، فتعجب الملائكة وتساءلوا: أتجعل في الأرض خليفة، وفيهم من يخرج من الاعتدال والصلاح إلى الفساد، والقتل وإراقة الدماء ظلماً وبغياً، والحال أننا ننزهك عما لا يليق بجلالك تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك، ونطهرك عما لا يجوز فهلا وقع الاكتفاء بنا؟

وسؤالهم هذا إنما هو سؤال استعلام واستكشاف لا سؤال حسد واعتراض، وكأنهم علموا بذلك من جهة الوحي، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم.[1]

وقد أجابهم الله تعالى عن سؤالهم: إني أعلم من المصلحة الراجحة في استخلافه مما تجهلونه؛ فبهم تعمر الأرض، وتظهر الحكمة الإلهية في إرسال الرسل.

ثم أظهر الله لهم جانباً من حكمة خلق آدم، وأظهر كذلك عجزهم من استحقاق الخلافة؛ فعلم آدم أبا البشر أسماء كل ما خلق الله تعالى من الأشياء والأجناس، وعلمه كذلك المسميات ويفهم هذا من ضمير العقلاء في ﴿عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: عرضها؛ لأن من المسميات ما هو عاقل كالبشر والملائكة، ومن أدلة العموم حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)[2].وعندما عرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢١٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أنس مرفوعا، ورقمه/ ٤٢٠٦.

الله المسميات على الملائكة، قال لهم -على سبيل الإفحام-: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في إدعائكم أنكم أحق بالخلافة، فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله. ومن جملة هذا النفي العام الاعتراف بعدم معرفة الأسماء التي سئلوا عنها. ثم ختموا كلامهم بقولهم: إنك يا رب العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك.

وتوجه الخطاب الإلهي بعد ذلك إلى آدم عليه السلام بالإذن ليخبر الملائكة بالأسماء التي عجزوا عن معرفتها، ليعلموا فضله، ويوقنوا بأحقيته في الخلافة، فلما أنبأهم آدم بها خاطبهم الله معاتباً: ألم أقل لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وما حضر من باب أولى، وما تبدونه بألسنتكم من قول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وما تكتمونه مما تنطوي عليه ضمائركم؟

ثم ذكرت الآيات فضيلة أخرى من فضائل آدم وهي أمر الله تعالى للملائكة بالسجود له، والسجود الخضوع والتذلل، وليس سجود الملائكة لآدم سجود عبادة، وهذا مما أجمع عليه المسلمون،[1] وذهب الأكثرون إلى أنه كان سجود تحية وتعظيم كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السابقة تفعل ذلك كما حدث مع أخوة يوسف لأخيهم[2]،ولكن إبليس لم يسجد لآدم؛ فامتنع مستكبراً، وكان من جملة الكافرين العاصين.

وإبليس من الجن على ما هو الراجح؛ لأنه عصى ربه، أما الملائكة فإنهم مفطورون على الطاعة، ولأنه قد صرح في آية أخرى بأنه خلق من نار، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢/ ١٩٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب سابق. وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٣٢ والتفسير الوجيز للواحدي ١/ ١٠٠ ومدارك التأويل للنسفي ١/ ٣٧ وتفسير القرآن الحكيم ١/ ٦٥ والتحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ٤٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٩٦ عن عائشة.

(خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٣]، والقرآن يصرح بذلك؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر: ٢٧] واستثناؤه من الملائكة من قبيل الاستثناء المنقطع، وإدخاله في خطابهم لأنه كما قال ابن كثير: "وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلهذا دخل في الخطاب لهم"[١] والله أعلم.

ولم تذكر الآيات هنا سبب استكباره، ولكن ورد في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣٣]، وهذا قياس خاطئ منه،ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان:"أول مَنْ قاسَ إبليس"[٢]، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ.

وبعد أن كرَّم الله آدم فأمر الملائكة بالسجود له أمره أن يسكن الجنة وزوجه، واسمها حواء كما ورد في الصحيح[٣]، وكان خلقها بعد آدم، قيل: منه اتباعا لظاهر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] وقيل: منها أي: من جنسها. وقد جاء الخطاب في الآية لآدم وحواء بإباحة الأكل من ثمار الجنة أكلاً هنيئاً واسعاً في أي مكان من الجنة أرادا، ثم نهاهما الله عن الأكل من ثمار الجنة، والنهي عن القرب مبالغة في النهي عن الأكل، وجعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلماً، والجنة هي جنة الخلد، وهي دار ثواب المؤمنين في الآخرة، كما هو المشهور عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة وجماعة[٤]. وأما نوع الشجرة فلم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وليس في معرفته كبير

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٣٢٧، وصحح إسنادهما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم٣/ ٣٩٣.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٣١٤٧ ومسلم برقم/ ٢٦٧٣.

(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٤/ ٦٩، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٨ وما بعدها حيث استفاض في عرض المسألة، ومن أقوى أدلة الجمهور ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة مرفوعاً وفيه: "فيقولون يا آدم، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. ورقمه/ ١٩٤.

فائدة، قال الطبري " ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين"[(١)].

ثم بينت الآيات بعد ذلك ما وقع فيه آدم وحواء حيث أزلها الشيطان أي: أذهبها[(٢)] عن الشجرة، فأوقعها في الزلة بسببها، فأخرجها من النعيم الذي كانا فيه، وقد جاء تفصيل إغواء الشيطان لهما في آيات أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] وقوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد أشارت مواضع أخرى من القصة أن إبليس قد طُرد من الجنة بعد أن أبى السجود لآدم قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص: ٧٥: ٧٨] ولهذا بحث العلماء في كيفية وسوسته لآدم وهو مطرود من الجنة، وذكروا في ذلك عدة احتمالات. فقالوا: إنما منع من الدخول على وجه التكريم كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة وقيل: قام عند الباب فناداهما، وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما.. والعلم عند الله[(٣)].

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن آدم ظن أن النهي كان على شجرة بعينها وليس على الجنس كله، والظاهر أنه أكل من الشجرة ناسياً النهي عن الأكل منها، وغافلاً عن استحضار

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٣.

(٢) قرأ الجمهور (فأزلها) وقرأ حمزة فأزالها الشيطان عنها بالألف أي نحاهما عن الحال التي كانا عليها من قول القائل أزال فلان فلاناً عن موضعه إذا نحاه عنه وزال هو. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٩٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩١.

النهي، ولم يتعمد المخالفة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥] قال ابن عباس في تفسيرها: إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عهد إليه فنسي[1].

ثم أمر الله آدم وحواء بالنزول من الجنة إلى الأرض، وكتب بينهما وبين إبليس العداوة المستمرة إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦] ثم ختمت الآية ببيان أن الأرض منزلُ الكل وموضع استقرار وتمتعٍ بالعيش إلى أن يحين الأجل.

وما إن وقعت المعصية، وحدث التعري، وعاتبهما ربها بقوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢] ما إن حدث هذا إلا وبادر آدم بطلب المغفرة من ربه، فألهمه الله كلمات قالها هو وزوجته وأيقنا بها وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

والتوبة الندم، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العود، وقد تاب الله على آدم فقبل توبته؛ فهو سبحانه الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويكثر الرحمات، سبحانه.

ثم أعاد الأمر بالإهباط ليعلق عليه ما ترتب على هذا الهبوط من انقسام أحوال المخاطبين إلى ضالين ومهتدين، فإن جاء الهدى من الله على لسان رسله فمن تبعه فلا يناله في الآخرة فزع على ما هو آت ولا حزن على ما فات، أما الذين لم يرفعوا بذلك رأساً ولم يقبلوا هدى الله بأن كفروا وكذبوا بآيات الله المتلوة المسطورة وآياته في الكون المنظورة فأولئك هم الملازمون للنار ملازمة لا تنقطع.

وقد ابتدأ المقطع ببيان أن القرآن هدى للمتقين، وختم ببيان أن الهدى يأتي من عند الله، وجاء وصف المستمسكين بكتابه بأنهم على هدى من ربهم، فدل ذلك على أن الخلافة في الأرض غايتها الهدى، وبدونها تكون إفساداً.

(١) رواه عنه الطبري في جامع البيان ١٦/ ٢٢١ بسند حسن.

قال سيد قطب: لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً"[١].

والملاحظ أن هذا هو الموضع الوحيد في قصة آدم الذي يأتي فيه تفاصيل الاستخلاف؛ وسبب ذلك - والله أعلم- أن هذا هو الموضع الوحيد في قصة آدم الذي جاء في سورة مدنية؛ فناسب أن يأتي ذكر الخلافة مع تكليف المسلمين بأمانة الخلافة، وهذا مما يؤكد صحة استنباط محور السورة، والله أعلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقدية:

- أن من طبع الله على قلبه، وحقت عليه كلمة الله بسبب فعله، لا يدخل في الإيمان أبداً، ولن تجدي معه أي موعظة، ولن يفيء إلى هدى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس ٩٦ - ٩٧] وما ذلك إلا بسبب أنه أغلق منافذ الهداية من نفسه، فصار لا يستفيد قلبه بموعظة ولا تنتفع عينه وأذنه بذكرى.

- الإيمان ليس مجرد إقرار باللسان وحسب؛ فالمنافقون أقروا بالإيمان بألسنتهم، ومع هذا فما هم بمؤمنين، والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح. قال النووي: "مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يَزيد وينقص". إلى أن قال: "فالمعنى الذي يستحِق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأُمور الثلاثة : التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بِالجوارح"[٢].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٥٩.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٧.

- نفى الله الإيمان عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾،ولكن هل يقال إنهم مسلمون؟

قال أبو الحسن الأشعري: المنافق مسلم غير مؤمن؛ لأنه مستسلم في الظاهر غير مصدِّق في الباطن[١]، ولكن هذا الإسلام لا ينفعه يوم القيامة ولا يثاب عليه، لأنه استسلام ظاهري للخوف من إجراء أحكام الكفار عليه في الدنيا، لكنه لا ينفعه في معاده، قال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾[التوبة/ ٧٤].

- جاء في الآيات الإخبار عن فعل الله بالمنافقين من الاستهزاء بهم،وهذا إخبار مقيد عن صفة من صفات الأفعال، وباب الأفعال أوسع من باب الأسماء؛ فلا يجوز أن يشتق منها اسم من أسماء الله؛ قال ابن حزم:" ولا يحل لأحد أن يشتق لله تعالى اسما لم يسم به نفسه. برهان ذلك أنه تعالى قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ وقال:﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾وقال تعالى: ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾. ولا يحل لأحد أن يسميه البناء ولا الكياد ولا الماكر ولا المتجبر ولا المستكبر لا على أنه المجازي بذلك ولا على وجه أصلاً ومن ادعى غير هذا فقد ألحد في أسمائه تعالى وتناقض وقال على الله تعالى الكذب وما لا برهان له به"[٢].

- النار موجودة الآن؛ قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وكذلك الجنة قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾وقد عرضتا على النبي ﷺ؛ فقد ورد عنهﷺ أنه قال: (عُرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر)[٣]. قال القرطبي:" لا إحالة في إبقاء هذه الأمور على ظواهرها، لاسيما على مذهب أهل السنة في أن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا، فيرجع إلى أن الله قد خلق لنبيه إدراكاً خاصاً به أدرك الجنة والنار على حقيقتهما"[٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٥٢٠.
(٢) المحلى لابن حزم ١/ ٣٠.
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥١٥ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم/ ٢٣٥٩ عن أنس.
(٤) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٥٤١.

- نهي الله تعالى أن نجعل له أنداداً؛ وهذا يقتضي أن يكون المرء حذراً من أي مدخل يؤدي إلى الشرك، فإن بعض أبواب الشرك خفية، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عباس في تفسير الآية حيث قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ فإن هذا كله به شرك"[١].

- الهداية والإضلال بيد الله؛ قال تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾.

- الهداية والإضلال تبع للحكمة؛ فلا يضل الله إلا من كان أهلاً لذلك بسبب خروجه عن طاعة ربه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

- في حديث القرآن عن قصة استخلاف آدم، وفي تفصيل خلقه الوارد في سورة الأعراف والحجر وص ردٌّ على أصحاب نظرية النشوء والارتقاء؛ وكان الباحث الإنجليزي : دارون قد نشر عام ١٨٥٩م كتابه: (أصل الأنواع) الذي يدور حول أن أصل الحياة كانت خلية في مستنقع، وأن الطبيعة وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء فأدى ذلك إلى تحسن نوعي نتج عنه أنواع راقية مثل القرد وأرقى مثل الإنسان، فصار البقاء للأنسب. وهذه النظرية في مجملها تناقض ما ورد في القرآن بل والتوراة من قصة آدم وحواء؛ والآيات في قصة الخلق لا تحتاج إلى بيان[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على أن علم الغيب لله وحده، أو لمن ارتضى من رسول، فليس للكهان ولا لغيرهم معرفة الغيب.

- دل قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على أن الجن مكلفون بالأوامر والنواهي كبني آدم، وهذا متفق

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ٢٢٩.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الدراوينية.

عليه بين الأمة[١]، ومتفق كذلك على تعذيب عاصيهم، أما إثابة المطيع منهم ففيها خلاف.
والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف/ ٢٩].

ب-الأحكام الشرعية:

- إجراء الأحكام الدنيوية مبني على ما يظهر من أمر الإنسان وليس على الباطن المجهول؛ لأن الباطن لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، قال الطبري: "جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ،وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله. وقد كذب الله ظاهرهم في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١][٢].
- الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما نص الدليل على تحريمه[٣]. وهذه قاعدة جليلة استنبطها الفقهاء والأصوليون من استقراء أدلة كثيرة في الشرع كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾. حيث ذكرها الله في معرض الامتنان على بني الإنسان. ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية/ ١٣] وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف/ ٣٢].
- في قوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ دليل على وجوب اتخاذ خليفة للمسلمين؛

---

(١) ونقل الإجماع ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ١١٧، وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١/ ٣٠٩.

(٢) نقله عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠٤.

(٣) وهي قاعدة متفق عليها. ونسب الشافعية إلى الأحناف أنهم يقولون الأصل في الأشياء التحريم. الأشباه والنظائر للسيوطي ص٦٠، لكن الثابت عن الأحناف أنهم يقولون بهذه القاعدة. انظر: غمز عيون البصائر للحموي ١/ ٢٢٣.

قال القرطبي: " هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفُذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة "(١).

قال الشيخ الشنقيطي معلقاً: "من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الله في أرضه. ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به... وأكثر العلماء على أن وجوب الإمامة الكبرى بطريق الشرع كما دلت عليه الآية المتقدمة وأشباهها وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولأن الله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن"(٢).

- في جواز إطلاق لفظ (خليفة الله) اختلف العلماء؛ فذهب جماعة إلى جواز الإطلاق، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل/ ٦٢] وبقول علي رضي الله عنه: "أولئك خلفاء الله في أرضه"(٣).

وذهب آخرون إلى المنع؛ قالوا: لأن الخليفة عمن غيب ويخلفه غيره، والله لا يغيب، والله هو الخليفة على عباده المؤمنين، يخلفهم في أهليهم بخير. قال البغوي: "ولا يسمى أحد خليفة الله بعد آدم وداود عليهما السلام"(٤).

والظاهر التفصيل؛ فإن قصد أنه خليفة الله القائم بتنفيذ شرعه فهذا لا بأس به، لأن الله قد استخلف الناس في الدنيا، ولا يراد بها معنى أن الخليفة يخلف الله أو يعينه عياذاً بالله(٥).

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- اليقين من أعظم منازل المؤمنين، وقد اختص الله بالهدى والفلاح من كان بالآخرة موقناً،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٩٥.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٢٣.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير ٥٠/ ٢٥٥.

(٤) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٧٥.

(٥) وانظر للتفصيل: فيض القدير للمناوي ١/ ٣٦٣، ومغني المحتاج للشربيني٤/ ١٣٢، وحاشية ابن عابدين ٥/ ٣٦٧.

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية/ ٣٢].

- خطورة الكذب، وقبح أثره في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يكتب صاحبه عند الله كذاباً، كما ورد: (عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[١]، وفي الآخرة له العذاب الأليم ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة ١٠].

-وجوب الوفاء بعهد الله، والتحذير من نقضه، وقد وصف الله الفاسقين بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾، وقد بينت آيات أخرى أن نقض العهد مع الله من أسباب قساوة القلوب في الدنيا والطرد من رحمة الله في الآخرة، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة/ ١٣].

- تعظيم شان سفك الدماء، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فسفك الدماء داخل في الإفساد في الأرض لكنه جاء معطوفاً عليه للاهتمام بشأنه، وبيان خطورة سفك الدماء؛ فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وقد قال النبي ﷺ: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)[٢]، وقال عبدالله ابن عمر: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله"[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٧٤٣، ومسلم في صحيحه برقم / ٢٦٠٧، واللفظ له، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٤٦٩ عن عبد الله بن عمر مرفوعا.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٦٤٧٠عن عبد الله بن عمر موقوفاً عليه.

- خطورة الكبر؛ فمعصية إبليس كان سببها الكبر،قال تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، فالكبر خلق باطني يجعل صاحبه يرى نفسه فوق المتكبر عليه، وبذلك يغلق على نفسه كل أبواب الخير، ويفتح أمامها جميع أبواب الشر، قال أبو حامد الغزالى: "فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه"[١].

- التأدب ونسبة العلم لله، فعلى الإنسان إذا لم يكن يعلم أن يكل العلم إلى خالقه؛ فالملائكة عندما جهلوا أسماء الأشياء قالوا: ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾ وهذا أدب وخلق عظيم حافظ عليه سلفنا الصالح؛ فكان مالك بن أنس إذا جلس مجلسه لا ينطق بشيء حتى يقول: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾[٢].

- الإقدام على المحرمات واقترافها ظلم، وقد حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة المنهي عنها، وجعل الاقتراب منها دخول في جملة من ظلموا أنفسهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع، أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾ [غافر/ ٨٤، ٨٥]، وعندما تظهر علامات القيامة لا يغني الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا ﴾ [الأنعام/ ١٨٥]، والتربية الإسلامية قائمة على تأصيل مبدأ الإيمان بالغيب، لذلك جاء أول

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى ٣/ ٣٤٥.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح الحنبلي ٢/ ١٠٣.

وصف للمتقين في القرآن الكريم.

- التقوى جماع كل خير، ومن حصَّلها فقد استمسك من الدين بالعروة الوثقى، وأهلها هم المنتفعون بهداية القرآن حقا، ومن أفضل ما جاء في تعريفها ما ورد عن طلق بن حبيب: "التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله مخافة عقاب الله على نور من الله"(١). وقد تكرر أمر التقوى في السورة كثيرا، وما ذاك إلا لأنها رأس الأمر وصلاح القلب، وأعظم ما يعين على امتثال التكاليف.

- ليس على الداعي إلا البلاغ، أما هداية التوفيق فهي من الله وحده، وكم من أناس يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وكم من أنبياء دعوا أقوامهم ولم يؤمن أحد قال رسول الله ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِي مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِي مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِي مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبي لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)(٢).

وفي ذلك تسلية من الله للنبي ﷺ ولكل من سلك دربه في الدعوة إلى الله، ألا يحزن أو يأسى على غير المهتدين، قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف/ ٦].

- القلب هو ملك الجوارح، فإن صلح صلح سائر البدن، وإن فسد حلَّ الفساد على كل البدن، وقلوب المنافقين أساس بلائهم.

- خطورة النفاق وأهله على المجتمع المسلم؛ فهم العدو الحقيقي، وقد حذر القرآن منهم في كثير من السور المدنية؛ وذلك لتعرف الأمة خطرهم، وتتقي شرهم.

- من خدع فعاقبة خداعه راجعة إليه، وبخاصة إذا حاول خداع من لا يخدعه أحد.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٥١٦٠وهناد في الزهد برقم/ ٥٢٣. قال ابن القيم: وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى. الرسالة التبوكية ص١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٣٧٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٢٠ عن عبد الله بن عباس.

- المخادعة والاستهزاء والإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح، وعدم الشعور. كلها من صفات المنافقين، فليحذر المسلم الصادق منها.

- في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ تعليم للناس وتربية لهم على أدب التعفف عن السؤال، وبيان لأهمية العمل للتكسب، قال ابن عطية: "وهذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرق من جعل لله نداً، عصمنا الله تعالى بفضله وقصر آمالنا عليه بمنه وطوله، لا رب غيره"[1].

- إذا ترك الإنسان داءه ولم يتعده بالرعاية زاد بلاؤه وضوعفت أدواؤه، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا ﴾.

-الدعوة إلى الله مع جميع الناس حتى المنافق؛ فهؤلاء المنافقون وجدوا من ينصحهم بعدم الفساد، ومن يأمرهم بالإيمان، رغم صدور الكفر منهم.

- من الأساليب التربوية القرآنية، ضرب المثل؛ فالمثل القرآني يبرز المعقول في صورة المحسوس، ويجعل المسلم يعاين تفاصيل المثل بتدبره وتعقله فيهتدي بهداه، يقول الحكيم الترمذي: "اعلم بأن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء؛ فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لمّا خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم"[2].

- من سنن الله في خلقه أنه يبتلي عباده بآياته وأحكامه؛ ليتميز الخبيث من الطيب، ويُعرف المحق من المبطل والصادق من الكاذب؛ فقد جعل الله المثل بالبعوضة فتنة ليضل بها قوم ويهتدي بها آخرون، وكذلك نزول السورة يكون للمؤمنين زيادة إيمان واستبشار، أما المنافق

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٠٦.
(٢) الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ص١٤.

فإنها تزيده رجساً وضلالاً، ومثل هذا في عدة أصحاب النار وما يلقي الشيطان وحادثة الإسراء والمعراج؛ حيث كانت فتنة لبعض الناس، والمؤمن الحق هو من يفقه حكمة الابتلاء فيسلِّم لله في حُكمه.

- الاستدلال بالأمور العقلية والمشاهدات الحسية في القضايا الإيمانية أمر مفيد في الدعوة ومحاجة المنكرين، قال الجصاص: "قد تضمنت هذه الآيات مع ما ذكرنا من التنبيه على دلائل التوحيد وإثبات النبوة الأمر باستعمال حجج العقول والاستدلال بدلائلها، وذلك مبطل لمذهب من نفى الاستدلال بدلائل الله تعالى واقتصر على الخبر بزعمه في معرفة الله والعلم بصدق رسول الله؛ لأن الله تعالى لم يقتصر فيما دعا الناس إليه من معرفة توحيده وصدق رسوله على الخبر دون إقامة الدلالة على صحته من جهة عقولنا"(١).
- البشارة بالثواب الأخروي وسيلة من وسائل الترغيب والتحفيز. فهذا أبلغ في نشاط المدعو ومثابرته على العمل.
- إثبات عداوة الشيطان لآدم وبنيه، وتحذير الناس منها، وبيان منشئها وأصلها، وأنها عداوة لا يرجى لها انتهاء إلى يوم الوقت المعلوم، وما ذكرت قصة إبليس إلا لتحذير الناس من إبليس وجنده وحزبه.
- بينت الآيات فضيلة العلم وأهله، وأنه سبب تفضيل آدم على الملائكة، قال رسول الله ﷺ: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)(٢)، وقد قالوا في سبب ذلك: "لأنه سبحانه وتعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام لما أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، فسألته على جهة الاستعظام لخلقه أن خلقاً يكون منهم الفساد وسفك الدماء: كيف يكون خليفة؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقال لآدم عليه السلام: أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٥، ٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود برقم/ ٣٦٤١ والترمذي في سننه برقم/ ٢٦٨٢ وابن ماجه برقم/ ٢٢٣ وسنده حسن.

تصاغرت الملائكة فرأت فضل آدم، فألزمها الخضوع والسجود لفضل العلم، فسجدت فتأدبت، فكلما ظهر علم في بشر خضعت له"[١].

- لإهباط آدم وزوجه إلى الأرض حكم جليلة وغايات عظيمة؛ فبه حدث التكليف، وليتخذ الله من ذريته أولياء يحبهم ويحبونه، ولتظهر آثار أسماء الله الحسنى فيهم؛ فهو الغفور الرحيم التواب، وليؤمنوا بالغيب بعد أن كانوا من أهل المشاهدة، وليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الطيب في دار كرامته، وليظهر علمه الذي أخبر به ملائكته حيث يقوم بنو آدم بواجب الخلافة لله كما أمر. ولن تظهر في الأرض أدلة ربوبيته وإلهيته إلا بوجود الخلق فيها فكان إهباطهم إليها.

- المسؤولية في الإسلام مشتركة بين الرجل والمرأة؛ فقد أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة معاً، وتابا معاً، فلم تكن حواء سبب ضلال آدم، وإنما كان الأمر بينهما مشتركاً، والتوبة كذلك.

- وكل إنسان في الإسلام مسؤول عن فعله؛ فعندما خالف آدم الأمر وأكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات التوبة فلهج بها لسانه هو وزوجه فتاب الله عليهم، أما الزعم بأن المسيح عليه السلام صلب من أجل خطيئة آدم ليرفع عن الدنيا الشقاء فهذا كلام يتناقض مع العقل والنص والتاريخ؛ ذلك أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الصلب لن يجعل الله يعفو عن البشر جميعاً، إن القاعدة المستقرة في الفطر السليمة أن كل إنسان محاسب عن عمله.

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة:

سبق أن ذكرنا أن المقدمة تنقسم إلى مقصدين رئيسين، وقد آثرنا إدماجهما لقوة الصلة بينهما؛ ولأن في المقصد الثاني عودة إلى قضايا القصد الأول. وفي كليهما صلة بمحور السورة.

فقد استفتحت السورة بالحديث عن القرآن الكريم وموقف الناس تجاهه، وقسمت

---

(١) انظر: فيض القدير للمناوي ٢/ ٣٩٢ والجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣٠.

الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين وكافرين ومنافقين، وقد رجحنا في ثنايا التفسير أن الحديث في كلٍ كان عن أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم، وهذا يعد توطئة للحديث المطول عن منافقيهم وكفارهم في المقطع الأول من السورة.

وقد نزلت السورة في بداية الهجرة وقيام الدولة المسلمة واحتكاكها باليهود لأول مرة، وكذلك مع بروز ظاهرة النفاق بعد بدر مما يستلزم تحذير الجماعة الناشئة من هؤلاء.

والحديث عن القرآن وهدايته له تعلق قوي بخط السورة؛ فلن يكون هناك خلافة إلا بهداية، ولن تكون هداية إلا بالمنهج، وهذا هو المنهج؛ ولذلك تكرر الحديث عنه في المقدمة من حيث بيان هدايته ومواقف الناس منها، ومن حيث نفي الريب عنه أولاً وإثبات ذلك بالدليل الذي يتحداهم به ثانية، وجاء ذلك مرتبطاً بالحديث المبثوث عن القرآن في آيات السورة. فهو الكتاب المصدق لما معهم كما في آية[٨٩] ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم آية[١٠١]، وإن منهم لفريقاً يتلونه حق تلاوته ويؤمنوا به آية[١٢١]،وهذا الكتاب هو الحق الذي نزل بالحق، آية [١٧٦]، وهو دستور الخلافة الذي يهدى المختلفين للحق آية[٢١٣]، وتلاوة القرآن على الرسول بالحق آية[٢٥٢]. وهذا الكتاب موصول الصلة بمواعظ الأنبياء الأولين، ودعوة أبي الأنبياء لأمة الوراثة في الدين آية [١٢٩]، ولذلك دعا أهل الكتاب للإيمان به آية [٤١] وبين أن هذا هو طريق الاهتداء لهم في آية[١٣٧] ثم ختمت السورة بالإيمان به في آية[٢٨٥].

ولن تتحقق هداية القرآن إلا للمتقين كما جاء في أول الآيات، وقد بينت الآية أوصافهم ثم ذكرت في المقصد الثاني أوصاف الفاسقين الذين ابتعدوا عنها وجانبوها، والتقوى هي وصية الله لبني إسرائيل آية[٤١]، وخوّف الله من ارتاب في القرآن وحذره باتقاء النار، وبين أن عبادته سبحانه توصل للتقوى في آية [٢١] وهي أيضاً متكررة في السورة تكرراً واضحاً مع الأوامر الربانية للمسلمين، وهذا يدل على أن هداية القرآن وتطبيق أحكامه لن تكون إلا للمتقين.

وحديث القرآن عن خلافة آدم هو التطبيق العملي والنموذج الأول للخلافة في الأرض، وقد ناسب هنا أن يأتي الحديث عن الخلافة لا عن تفصيل بدء الخلق الذي تكفلت به آيات

أخرى؛ لأن هذا هو المناسب لمحور السورة، وذكرت الآيات أن الخلافة لا يستقيم معها الإفساد في الأرض، واربط هذا بما جاء في أول السورة من وصف المنافقين بأنهم المفسدون وبالتالي فلا يصلحون لإقامة منهج الله في الأرض.

وجاء الحديث في ثنايا القصة عن العلم، وهو رمز الخلافة وعنوانها؛ فبالعلم كان تفضيل آدم على الملائكة، وقد جاء وصف الله بالعلم في السورة في أكثر من آية كما في آيات [٩٥]و[١١٥] و [١٢٧] و[١٥٨] و[١٨١] و[٢١٥] و[٢٢٤] وغيرها كثير؛ وذلك ليعلم المؤمن أنه لن يصل إلى العلم إلا بتعليم الله إياه، كما قالت الملائكة، وليوقن أنه لن يحيط بشيء من علمه تعالى إلا بما شاء هو كما في آية الكرسي. وقد نعت الآيات على اليهود علمهم الذي لم ينتفعوا به فكتموا الحق وهم يعلمون، وبينت في هذا المقطع أن منافقيهم لا يعلمون، ولذلك عندما أمرت المؤمنين قرنت الأمر بالعلم مع الأمر بالتقوى كما في آيات [١٩٤] و [١٩٦] وغيرها.

وأصول العقيدة المذكورة في هذه المقدمة من الإيمان بالله وعبادته وعدم اتخاذ الأنداد معه، والإيمان برسوله وبالكتاب الذي نزل عليه وباليوم الآخر والغيب عموماً مرتبط كل هذا بمقاصد السورة من حيث بيان النموذج السلبي الذي كفر بالله وعاند في الغيبيات ولم يؤمن بالكتاب الحق ولا بالرسول الذي جاء بالحق، وفي مقابل ذلك الأوامر الاعتقادية التي كلف بها أهل الإيمان في هذه السورة.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع.

المقدمة (تذكير وعتاب) من الآية (٤٠) إلى الآية (٤٨)

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن استخلاف آدم وذريته، ونعم الله عليهم في الدنيا بإتيان الهداية منه سبحانه، ثم ابتدأت الآيات تذكر تفاصيل استخلاف بني إسرائيل؛ حيث إنهم من ورثة الوحي، وقد أورثهم الله الأرض ليعمروها ويقوموا بواجب الخلافة فيها، ولذلك فإن هذا المقطع يذكّرهم بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، وبنعمة الله عليهم، وتفضيله لهم، وتدعوهم للوفاء بعهده وتذكر لهم تفاصيله، مع ترغيب في الوفاء وتخويف من المخالفة.

وقال الألوسي في مناسبة خطاب بني إسرائيل لما قبله: "وجعله سبحانه بعد قصة آدم، لأن هؤلاء بعد ما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح، وأمروا ونهوا وحرضوا على اتباع النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم ظهر منهم ضد ذلك، فخرجوا عن جنة الإيمان الرفيعة،وهبطوا إلى أرض الطبيعة، وتعرضت لهم الكلمات إلا أنهم لم يتلقوها بالقبول ففات

منهم ما فات، وأقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد من الأوامر والنواهي"[١].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يبدأ هذا المقطع بتذكير بني إسرائيل بنعم الله الكثيرة التي أنعمها عليهم وبيان موقفهم منها، وذلك في عرض تاريخي لما كان منهم مع أنبياء الله ورسله وما كان منهم من اجتراء على الله تعالى.

وإسرائيل هو نبي الله يعقوب[٢] وهو مركب من: (إسرا) وهو العبد أو الصفوة أو الإنسان أو المهاجر، و(ايل) اسم من أسمائه تعالى[٣]، وقد ذكَّرهم الله تعالى باسم أبيهم الذي هو عنوان فخرهم ومجدهم، وعادة ما يأتي النداء بـ(بني إسرائيل) في مقام الترغيب والتذكير بالنعم والأصل النبوي.

والآيات تستجيش فيهم روح الإيمان والانتساب إلى النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم وتُذكِّرهم بنِعَم الله إجمالاً وبما يترتب على ذلك من الوفاء بالعهد الذي في كتبهم من عبادة الله وحده والإيمان برسوله، وفي مقابل هذا فإن الله يوفي لهم بما وعدهم من النصر والعلو ليكن خوفهم منه وحده لا من بعضهم البعض.

وقد ورد هذا الوعد في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

---

(١) روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن ابن مسعود وحسنه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٧٣، وعليه إجماع المفسرين والمؤرخين.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢]

ثم انتقل بهم إلى الحديث على عهد خاص وهو الإيمان بالقرآن الذي نزل - كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وحذَّرهم من أن يكونوا أول الكافرين مسارعة إلى الكفر فيصيروا قدوةً لغيرهم. ثم خص العلماء بألا يستبدلوا بآيات الله عرضاً يسيراً من أعراض الدنيا؛ فإنه وإن كثر فهو بجوار نعيم الآخرة قليل، وأمرهم بأن يتقوه وحده، وألا يفعلوا واحداً من أمرين بهما إضلال الناس:

أولها: إظهار الباطل في صورة الحق، والخلط بينهما وذلك بتأويل النصوص وإلقاء الشبه.

ثانيهما: كتمان الحق وجحده وإخفاؤه مع العلم به، فقد كانوا يكتمون صفة النبي ﷺ.

ثم دعاهم إلى الصلاح بإقامة الصلاة حق الإقامة والإصلاح بأداء الزكاة كما يصلي المسلمون ويزكون ويركعون ويسجدون.

وخاطب القرآن علماءهم موبخاً لهم في أمرهم للناس بالخير واتباع النبي ﷺ ونسيان أنفسهم؛ فقد كان الواحد منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على هذا الدين وما يأمرك به محمد فإنه حق، فكانوا يأمرون بذلك ولا يفعلونه[1]، وهذا يدل على خلل في العقل.

وإذا كانوا يرون أن هذه التكاليف شاقة على أنفسهم بسبب إدمان الشهوات فإن الآيات تبين لهم طريقة تقوية عزيمتهم وذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ فبالصبر يحجزون أنفسهم عن الحرام، وبالصلاة ينتهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] والصلاة شكر، والإيمان صبر وشكر، وإن إقامة الصلاة ذات

---

(١) انظر: العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٥٢.

الخشوع والخضوع لشديدة شاقة إلا على الخاشعين، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عليها من قوله ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾[1].

ثم ذكرت الآيات أوصاف هؤلاء الخاضعين الخاشعين وهم الذين يوقنون ويعتقدون لقاء ربهم به يوم العرض عليه، وأنهم عائدون لينالوا ثواب عملهم.

وتعود الآيات مرة أخرى تذكرهم بنعم الله على سبيل التفصيل بعد الإجمال فتكرر لهم نفس النداء، ويذكرهم بالنعم الجزيلة عليهم، وفي النداء الأول طالبهم بالعبادة والوفاء بالعهد، أما النداء الثاني فطالبهم بشكر النعمة التي أنعم بها عليهم؛ حيث فضَّلهم على عالمي ذلك الزمان[2]، فجعل فيهم النبوة والملك وآتاهم ما لم يؤت أحد ممن كانوا في وقتهم.

ثم أمرهم باتقاء يوم القيامة الذي لا تقضي أي نفس عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل من الكفار شفاعة لأي أحد، ولا يؤخذ من أي نفس كافرة فداء، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾[الأنعام: ٧٠] ولا تجد من ينصرها، وبهذا تُسَدَّ أمامها كل الأبواب قال أبو السعود: " وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل"[3].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- أهل الكتاب من اليهود والنصارى مطالبون بالإيمان بسيدنا محمد ﷺ وبكل ما جاء به، ولو آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يؤمنوا بالنبي محمد فلا فائدة في إيمانهم؛ وقد آتاهم الله البينات على صدقه في كتبهم، وقد أكد الرسول ﷺ هذا الحكم بالقسم فقال: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٣.

(٢) رواه عبد الرزاق في التفسير بسند صحيح عن قتادة ١/ ٤٥، ورواه عنه: الطبري ٢/ ٢٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩٩.

بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[١].

- ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ يدلُّ على عدم قبول أي شفاعة يوم القيامة، ولكن وردت آيات أخرى تفيد أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة بدون إذن المولى تبارك وتعالى. قال تعالى في حق الكفار: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر/ ٤٨]، وفي الشفاعة بدون إذن قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [٢٥٥]، وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه/ ١٠٩].

أما الشفاعة للمؤمنين بعد إذن المولى ورضاه فهي ثابتة لنبينا محمد ﷺ ولإخوانه من الرسل، ومنها ما اختص به وحده، والشفاعة ثابتة أيضاً لبعض المؤمنين والشهداء وغيرهم، والنصوص في ذلك كثيرة.

ب- الأحكام الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ على حرمة طلب العلم الديني من أجل الدنيا؛ فهذا من قبيل الاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)[٢].
- وقد فرَّع المفسرون على هذه المسألة الكلام على حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فمذهب مالك والشافعي وأحمد في رواية: جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، ودليلهم قول النبي ﷺ: (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله)[٣].

ومذهب أبي حنيفة ورواية عن أحمد عدم جواز الاستئجار على الطاعات كالإمامة والأذان

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٣.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٨، وأحمد في مسنده برقم / ٨٤٣٨، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ٦٣٧٣، وأبو داود في سننه برقم/ ٣٦٦٤، وابن ماجه في سننه برقم / ٢٦٠، قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد. المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار ١/ ٣٨.
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٧٣٧.

وتعليم القرآن ووافقهم عطاء وإسحق والزهري، إلا أن متأخري الأحناف أجازوا أخذ الأجر؛ قال في الهداية " وبعض مشايخنا استحسنوا الاستئجار على تعليم القرآن اليوم؛ لأنه ظهر التواني في الأمور الدينية ففي الامتناع تضييع حفظ القرآن، وعليه الفتوى"[١].

- في قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ دليل على فرضية الزكاة؛ لأن الأمر في أصل إطلاقه يفيد الوجوب. وقد جاء الأمر بإيتائها مجملاً لكن فصلت السنة مقاديرها وأصنافها.

- استنبط جماعة من الفقهاء من قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أن الإيتاء الذي هو تمليك الفقير شرط لصحة الزكاة، وبالتمليك تنقطع صلة المزكي بالمال، قال الكاساني: "وعلى هذا يخرج صرف الزكاة إلى وجوه البر من بناء المساجد، والرباطات والسقايات، وإصلاح القناطر، وتكفين الموتى ودفنهم أنه لا يجوز؛ لأنه لم يوجد التمليك أصلا، وكذلك إذا اشترى بالزكاة طعاما فأطعم الفقراء غداء وعشاء ولم يدفع عين الطعام إليهم لا يجوز لعدم التمليك"[٢].

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ على وجوب صلاة الجماعة؛ قال ابن تيمية: "وأما الجماعة فقد قيل: إنها سنة، وقيل: إنها واجبة على الكفاية، وقيل: إنها واجبة على الأعيان. وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنّة فإن الله أَمر بها في حال الخوف ففِي حال الأَمن أَولى وآكد. وأيضاً فقد قال تعالى ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ وهذا أمر بها[٣].

على أن جماعة من الفقهاء منهم الحنفية في قول والشافعية في قول وأكثر المالكية إلى أن الجماعة سنة مؤكدة، والرواية الأخرى عند الحنفية والشافعية أنها واجبة وجوب عين، وهذا مذهب الحنابلة[٤].

---

(١) الهداية للمرغيناني ٣/ ٢٤٠.

(٢) بدائع الصنائع في تريب الشرائع للكاساني ٢/ ٣٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ٢٣٩.

(٤) انظر: حاشية ابن عابدين١/ ٤٥٧، حاشية الجمل على شرح المنهج ١/ ٤٩٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير١/ ٣١٩، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٢٥٩.

- الركوع من فرائض الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾الحج/ ٧٧].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- كتمان العلم كبيرة من الكبائر[١]، قال رسول الله ﷺ: (من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)[٢]، والظاهر أن ذلك ليس على وجه العموم وإنما يرتبط بالمصلحة في الكتمان أو الإظهار، لكن الأصل إظهار العلم إلا لمصلحة.

- خلق الصبر مما يعين على الشدائد، وقد جاء في القرآن مقروناً بالصلاة في كثير من المواضع، والصبر مع الصلاة من أعظم ما يعين على مصالح الدنيا والدين؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود/ ١١٤، ١١٥].

-الخشوع روح الصلاة، وهو في الأصل من أعمال القلب ومعناه السكون، ويظهر أثر خشوع القلب على الجوارح فتسكن، وصلاة بلا خشوع لا تؤثر، وقد علق الله الفلاح على الخشوع في الصلاة فقال: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١، ٢].

د- الجوانب التربوية :

- الوعيد الشديد على من يأمر الناس بالطاعة والخير وينسى نفسه، وفي الحديث: (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)[٣].

---

(١) ذكره الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر. الكبيرة الرابعة والأربعون١/ ١٧٤.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٤٦ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٩٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم / ١٦٨١. قال الهيثمي: ورجاله موثوقون. مجمع الزوائد ١/ ١٨٥ وحسنه المناوي في التيسير ٢/ ٣٧١.

ومخالفة القول للفعل عظيمة من العظائم. ولهذا جاء التعقيب القرآني على هؤلاء ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ وذلك دليل على أن الذي يخالف قوله فعله لا عقل له.

- مسؤولية العالم أشد من الجاهل؛ فإنه إن فرط يلحقه الذم أكثر من الجاهل، قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾.

- الصلاة من أعظم ما يعين على مكابدة الأمور؛ إذ هي الصلة بالله التي تهون على العبد كل مصاعب الحياة وقد ورد: (وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى)[1].والآيات الواردة تدل على تعظيم قدر الصلاة؛ فقد كانت مفروضة على جميع الأمم، وكانت أول ما أوصى به الله نبيه موسى عند تكليفه بالوحي فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه/ ١٤].

- تذكير الناس بنعم الله يقوي داعي الشكر في النفس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ ﴾ [إبراهيم/ ٥] وأيام الله نعماؤه[2]، وامتثل موسى عليه السلام للأمر وذكر قومه بنعم الله عليهم من الإنجاء من آل فرعون ثم قال: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ [إبراهيم/ ٧] فدل هذا على أن المقصود بالتذكير هو القيام بواجب الشكر لله واهب النعم.

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ على أن من علامات أهل العصيان أن تكون الطاعة كبيرة وثقيلة عليهم، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ ﴾ [الشورى/ ١٣] فمن ثقل عليه ما يحبه الله فهو في معرض الذم.

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ١٣١٩، وأحمد في مسنده برقم/ ٢٣٣٤٧عن حذيفة وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري ٣/ ١٧٢.

(٢) وقد ورد هذا في نص حديث رسول الله الذي ذكر فيه قصه موسى والخضر وهو بلفظه عند مسلم في صحيحه برقم / ٢٣٨٠.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

سبق بيان أن محور السورة يدور حول أمرين؛ أولهما: مبررات عزل بني إسرائيل عن القوامة والاستخلاف في الأرض، وهذا المقطع مرتبط بالمحور الأول ارتباطاً وثيقاً؛ فهو يتحدث عن نقض اليهود العهد مع الله، وعن أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وهي وغيرها أمور تبين أنهم لم يعودوا جديرين بحمل الأمانة.

وهو مرتبط أيضاً بالمقطع الثاني في السورة ارتباط الضد بالضد؛ فمن صفات أهل البر والتقوى أنهم يوفون بعهدهم إذا عاهدوا، والتقوى لا تجعل كلام المرء مخالفاً لفعله.

والصبر والصلاة أيضاً من صفات أهل البر، والرجوع إلى الله يوم القيامة جاء التأكيد عليه في أول السورة وفي آخرها، وفي آخر نزلت في السورة كلها، ليكون ذلك يقيناً في قلب كل مؤمن.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة

المقطع الأول: أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام (٤٩-٧٤)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ

ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع بطوله يتحدث عن نعم الله على بني إسرائيل بشكل مفصَّل، بعد أن ذكرَّهم بها إجمالاً في المقطع السابق في قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾[٤٠] و[٤٧]، وخوَّفهم من عاقبة كفرانها في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [٤٨].

وجاء في هذا المقطع ذكر النعم تفصيلاً من أول الآية[٤٩] حتى الآية [٥٨] ثم تكلم عن موقفهم من نعم الله وتبديلها في قوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[٥٩]. وجاء بعد ذلك تفصيل كفرانهم للنعم،ومخالفاتهم مع نبي الله موسى، وتباطؤهم في تنفيذ الأمر الإلهي، واتهامهم للنبي بالجهل مما كان سبباً في قساوة قلوبهم وقد أخذ هذا القدر من قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِۦ ﴾ [٦٠] إلى نهاية الربع في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٧٤]. فهذا المقطع تفصيل للإجمال الوارد في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بدأت الآيات بالحديث تفصيلاً عن جملة نعم الله على بني إسرائيل الأولين، وقد امتن الله بها على المتأخرين، وكما يقول السعدي: "نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم"(١)، وبيان هذه النعم على النحو التالي:

١ ـ أن الله تعالى نجَّى آباءهم من فرعون مصر وجنده؛ حيث كانوا يذيقونهم ويديمون عليهم العذاب الشديد، وذلك بتذبيح الأبناء لقطع النسل واستبقاء النساء ليصرن خدماً لأهل مصر، وفي كلا الأمرين: العذاب والإنجاء بلاء عظيم، قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

٢ـ وثاني هذه النعم فلق البحر الأحمر لهم ليعبروا من مصر في أمن وسلامة وليغرق فرعون وجنده حين عبورهم وهم يشاهدون غرقه، قال تعالى: ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٣]، وكان ذلك يوم عاشوراء(٢).

٣ ـ ومع رؤيتهم لهذه النعمة العظمى إلا أنهم عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه السامري وقت أن كان موسى ذاهبا للقاء ربه في طور سيناء ليتلقى عنه التوراة، فظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ولكن مَنَّ الله عليهم ومحا جُرمهم لكي يشكروه.

٤ ـ ومن النعم الدينية أيضاً إنزال التوراة مكتوبة في ألواح ليفرقوا بها بين الحق والباطل فيهتدوا قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي ص٥٣.

(٢) والحديث في ذلك رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٧٢٧ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٣٠.عن ابن عباس.

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨][1].

٥ ـ ومنها أيضاً العفو عنهم، وهذه نعمة أخرى غير السابقة؛ إذ أنهم بعبادتهم العجل قد ظلموا أنفسهم فمن الله عليهم بنعمة أخروية وهي قبول توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضاً حتى يكون لهم الخيرية عند الله يوم القيامة؛ حيث يتقبل توبتكم ويعفو عن بقيتكم بعفوه وكرمه سبحانه.

٦ ـ ومن نعم الله عليكم ما حصل لكم عندما ربطتم إيمانكم بالله برؤيته جهرة فأصابتكم من ذلك صاعقة أهلكتكم وطفق الأحياء ينظرون للموتى، لكن الله بعثكم[2] وأحياكم لتقوموا بواجب الشكر له.

٧ ـ واذكروا وقت أن صار الغمام ظلَّة عليكم وقت التيه أربعين سنة ليقيكم الحر، وكذلك أنزل المولى المن وهو طعام حلو مثل العسل، والسلوى وهو طائر طيب الطعم يشبه السماني، وقال لهم الله كلوا الطيب واشكروا. فأكلوا وما شكروا، فما ظلموا بذلك إلا أنفسهم بانقطاع الفضل عنهم.

٨ ـ واذكروا إذا أمركم الله بدخول بيت المقدس وقال: اطعموا ما شئتم وادخلوا بابها ساجدين لله داعين له أن يحط عنكم خطاياكم فإنه يزيد المحسنين من فضله، لكنكم بدلتم وخالفتم فنزل عليكم العذاب من السماء بسبب فسقكم،عن أسامة قال: قال رسول الله ﷺ (الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل)[3].

---

(١) فالفرقان معطوف على التوراة من باب عطف الصفات. انظر: معاني القرآن للزجاج ١/ ١٣٤.

(٢) الإحياء عند جمهور المفسرين على حقيقته، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظنّ أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليُعِدَّ الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها. انظر: تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفي المراغي ١/ ٧١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٧٣ ومسلم في صحيحه -واللفظ له- ورقمه/ ٢٢١٨.

٩ـ ثم ذكرتهم الآية بنعمة أخرى وقت أن كانوا عطاشى في التيه، و" ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها"[1] وأمرهم الله أن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من هذا الماء ولا يتمادوا في الفساد.

١٠ـ ومع هذا الرغد من العيش فإنهم تبطروا وملّوا وطلبوا الأدنى من الطعام قائلين لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا البقول مثل القثاء والثوم والعدس والبصل، فعجب موسى عليه السلام من طلبهم واستنكر أن يطلبوا الأنواع الدنيئة ويتركوا الطعام الطيب ثم أمرهم بالنزول إلى أي مصر زراعي ليجدوا فيه طلبهم.

وقد عاقبهم الله على كفرهم النعم واستهزائهم بآيات الله وذلك بأن حاق بهم الذل من خارجهم والهوان من داخل نفوسهم ورجعوا بغضب من الله بسبب أربعة أمور مرتبة على شناعتها؛ الأشد فالشديد:

وأولها: كفرهم بآيات الله المكتوبة، وكفرهم بآلائه ونعمه التي أنعم بها عليهم.

وثاني هذه الأمور: قتلهم الأنبياء بلا خطأ أو تأويل أو شبهة، بل كانوا عامدين عالمين بشناعة هذا الجرم وقبحه، وثالثها العصيان وفعل المحظورات وتعدي المأمورات وظلم النفس، ثم ختم جرائمهم باعتدائهم المستمر على الناس.

وليس هذا العذاب خاصاً ببني إسرائيل فحسب، بل إن سنة الله الكونية اقتضت أن: المؤمنين بالنبي محمد ﷺ واليهود والنصارى والذين تركوا دينهم وأسلموا لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون على ما في الدنيا طالما آمنوا وعملوا الصالحات. قال تعالى ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [النساء/ ١٢٣]. فلو تابوا وعملوا الصالحات لتاب الله عليهم، والآية تفتح لهم ولغيرهم أبواب الأمل في رحمة الله تعالى.

(١) رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس٢/ ١٢٠ بسند صحيح.

ولكي لا يصابوا باليأس والقنوط بسبب ما توعدهم الله من العذاب على جرائمهم فإن الله ذكرهم ببعض ما استحقوا بسببه العقوبة لولا رحمته؛ فقد أخذ الله منهم الميثاق فأبوا فرفع الطور أمامهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١] ثم أمرهم الله تعالى أن يأخذوا التوراة بقوة واجتهاد في العمل، وأن يتدبروا ما فيها كي يصلوا إلى التقوى لكنهم أعرضوا عن القبول، ولولا فضل الله ورحمته لهلكوا في الدنيا.

وقد علموا ما كان من شأن آبائهم حيث فرض الله عليهم الراحة في يوم السبت إحياء للدين في نفوسهم وتخفيفاً لشدة نهمهم في الدنيا، لكنهم ارتكسوا في حمأة المعاصي وتحايلوا على النهي فصاروا كالقردة والخنازير في الصغار والذلة والمنزلة[1] فكان ذلك عبرة زاجرة لمعاصريهم ولمن جاء بعدهم، وهداية للمتقين الذين ينتفعون بالعظات.

وما كان أمر الاعتداء في السبت هيناً؛ إذ هو اعتداء على محارم الله، وتفريط في كتاب الله الذي أمروا بأن يتفرغوا له يوم السبت ويقوموا بحقه، لكنهم فرطوا، فجاء ذكر القصة هنا مخوفاً من مغبة التفريط في كتاب الله، والناظر إلى آيات قصة السبت في سورة الأعراف يجد الارتباط بينها وبين آيات الكتاب حيث جاء بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

(١) قال مجاهد: لم يمسخوا قردة، ولم تمسخ صورهم، وإنما مسخت قلوبهم، فلا تقبل وعظاً، ولا تعي زجراً، وهو مثل ضرب الله لهم، كما مثلوا بالحمار يحمل أسفاراً، في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[الجمعة:٥] رواه الطبري عنه. والجمهور على أن مسخوا قردة وخنازير حقيقة ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.انظر: جامع البيان الطبري ٢/ ١٧٣والجامع لأحكام القرآن للقرطبي٢/ ١٧١ وروح المعاني للألوسي ١/ ٢٨٣.

تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٩ـ ١٧١].

ثم تذكر الآيات أمر البقرة التي تقص طرفاً من مواقفهم مع نبي الله موسى مما يبين قسوتهم واستهزائهم وتنطعهم في الدين ومخالفة الأمر، وتبدأ بتذكيرهم بأمر موسى لأسلافهم أن يذبحوا بقرة، فاستهزؤوا به ورموه بالسفه فقال: أعوذ بالله أن الجأ إلى السخرية في أمر وارد عن الله تعالى!

فلما رأوا الأمر كذلك ألحفوا في السؤال فسألوا عن وصفها، فأجابهم بأنها ليست كبيرة مسنة ولا صغيرة بكراً بل هي وسط بين هذا وذاك وأمرهم بالامتثال بلا تلكؤ، لكنهم سألوا مرة أخرى عن لونها فأجابهم بأنها شديد الصفرة تسرُّ من نظر إليها. ومع هذا التحديد الدقيق فإنهم لم يكتفوا بل طلبوا أوصافاً أخرى معتذرين باشتباه البقر واختلاطه عليهم، وبينوا أنهم سيهتدون إن شاء الله فأجابهم بأنها بقرة ليست مذللة بالعمل في حرث الأرض وسقيها، وهي سالمة من العيوب لا لون فيها إلا الصفرة، فعندئذ قالوا: الآن جئتنا بالحقيقة الظاهرة فذبحوها بعُسْر وقلة مبادرة وتثبيط لأمر الله. قال ابن عباس " لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزائهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم"(١).

لماذا الأمر بذبح البقرة تحديداً؟

أشار جمع من المفسرين إلى علة الأمر بذبح البقرة وحكمة ذلك، ومن هؤلاء الإمام الماوردي حيث قال: وإنما أمر - والله أعلم - بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته"(٢).

---

(١) رواه الطبري ٢/ ٩٨ وابن أبي حاتم ١/ ٢١٥، قال ابن كثير: إسناده صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد. تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون للماوردي ١/ ١٣٧.

وقريب من هذا ما ذكره أبو حيان بقوله :" وإنما اختص البقر من سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله، فاختبروا بذلك، إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه"[1]. وهذا ما استظهره ابن القيم حيث قال:" الظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل"[2].

وبذلك نفهم أن المعنَى المقصود من ذبح البقرة أن تُذبَح قداستُها من نفوسهم، وأن يعلموا أنها حيوان لا ينفع ولا يضر، وأنها لا تستحق أن تُعبَد وإنما تستحق أن تُذبَح وتؤكل، ونفهم أيضاً أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ بسبب صعوبة ذلك على نفوسهم لا بسبب غلاء ثمنها كما قال بعض المفسرين، والله أعلم.

وإذا كانوا قد تلكأوا في امتثال الأمر بذبح البقرة وتشددوا في أوصافها حتى ما كادوا ينفذوا ذلك الذبح، فإنهم في الجانب الآخر تجرؤوا على قتل نفس بريئة وكاد حق القتيل أن يضيع لولا أن الوحي نزل ببيان الوسيلة التي يعرفون بها القاتل.

وبيان ذلك أنهم قتلوا شخصاً- وقد أسند القتل للجميع لأنهم أمة واحدة كالشخص الواحد- فلما قتلوه تدافعوا في شأنه ليدرء كل منهم التهمة عن نفسه، فأخرج الله ما كان مخبوءاً من أمرهم فأمرهم أن يضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة فأحياه الله، قال عكرمة: " لما ضُرب بها عاش، وقال: قتلني فلان. ثم عاد إلى حاله"[3]. ومِثل هذا دليلٌ على إحياء الموتى يوم القيامة، وهو آية من آيات الله الظاهرة الدالة على قدرته وعلى صدق نبيه ﷺ لكي يتأتى منهم الفقه والتزام الأوامر.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٤١٤.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ٢/ ٣١٧.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان ٢/ ٢٣٠ برقم١٣١١، وصحح إسناده الشيخ شاكر.

وفي هذه الآية الكريمة دلالة على قدرته تعالى على البعث، رآها هؤلاء القوم المنكرون بأعينهم؛ فإنهم -بطبيعتهم- لا يعترفون إلا بالمادة ولا تخضع عقولهم إلا لما تراه عيونهم، فأراهم الله آية واضحة تدل على إحياء الموتى.

ومع كل هذه الآيات الباهرات من انفجار الماء ونتق الجبل وإحياء الموتى فإنهم ما ازدادوا إلا قسوة وعناداً، وقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ يشير إلى بداية القسوة، لكن لم يحدد لها نهاية، فكأنها مستمرة لا حد لنهايتها، فصارت قلوبهم كالحجارة في صلابتها بل هي أشد من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يتفجر منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه ماء يسير، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال تصدعاً وتخشعاً، أما هؤلاء فلا يأتي منهم خير ولن يذهب ما عملوه بلا حساب، فالله مطلع عليهم ويجازيهم عليه.

وكانت هذه الآية بمثابة الخاتمة والنتيجة الحتمية لكل ما اقترفته أيديهم، فإذا ما قست قلوبهم فلا فائدة من توجيه الحديث إليهم، وإنما بقي أن يتوجه الخطاب للمؤمنين كي يأخذوا حذرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- يبتلي الله عباده بالسراء والضراء؛ فالسراء تُظهر الشاكر وتبين منزلته عند ربه، أما الضراء فإنه يتميز بها من صبر ممن جزع، قال تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٣٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ على أن الشرك أظلم الظلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان/ ١٣].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ مع قوله: ﴿ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [النساء/ ١٥٣] على أن رؤية الله في الدنيا جهرة غير واقعة، قال

رسول الله ﷺ: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)[(١)]، وقد اتفق جمهور أهل السنة على جواز رؤية الله مناماً؛ قال ابن تيمية :" فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه؛ لكن يرى في المنام، ويحصل للقلوب - من المكاشفات والمشاهدات - ما يناسب حالها"[(٢)].

- قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت؛ فقد أهلك بني إسرائيل بالصعقة، ثم أحياهم بعد موتهم.

- الله تعالى هو الرزاق الذي يرزق عباده من الطيبات، فهو وحده صاحب المنة والفضل، قال تعالى: ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ ﴾.

- اللجوء إلى الله عند الشدائد، والافتقار إليه، وطلب السقيا منه أمر محمود، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾.

- اختلف الناس كثيراً في شان الصابئين، والذي حققه ابن تيمية أنهم ليسوا نوعاً واحداً فقال: "الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون؛ فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الأربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ و التبديل، و كذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ و التبديل، و الصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء... قبل نزول التوراة والإنجيل.. ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين"[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٣٠عن بعض أصحاب رسول الله.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٦.

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص٢٨٨، وانظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٥.

- دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ على نفي الأوصاف السلبية لله تعالى، وهي التي تنفي معنى النقص عنه سبحانه، ومن ذلك أيضا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت/ ٤٦] ونفي هذه الصفات السلبية يثبت لله ضدها الذي يحمل صفة مدح وكمال.

ب- الأحكام الشرعية:

-المباشر ينسب إليه الفعل، فمن أمره ظالم بقتل أحد، فقتله المأمور فهو المحاسب، ودليل ذلك أن الله نسب التعذيب والقتل إلى من يقومون به وهم:(**آل فرعون**) مع أنهم المباشرون لأمر فرعون.

- في قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ إباحة للطيب بالمنطوق، وتحريم للخبيث بالمفهوم.

- في قوله: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ إشارة إلى سجود الشكر عند تجدد نعمة.

- في قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ دليل على حرمة تبديل النصوص؛ قال ابن العربي في تفسير الآية: "إن الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها، أو يقع التعبد بمعناها؛ فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، وإن وقع التعبد بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه، ولكن لا تبديل إلا باجتهاد"(١).

- استسقى موسى لقومه، وسنة الاستقاء في شرعنا صلاة ركعتين، قبلهما خطبة، وقد ورد عن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة وقلب ردائه وصلى ركعتين(٢).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٦٦، ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٩٤.

- في قوله: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ دليل على جواز التوسل بدعاء الأحياء. وهذا من جملة شرع ما قبلنا الذي أقره شرعنا، فقد ورد عن أنس قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت المواشي وتقطعت السبل. فدعا، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة.."[1].

- في قوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ دليل على إباحة أكل الطعام المستلذ الطيب، وليس في هذا أي حرج؛ فقد كان النبي ﷺ يحب الطعام الطيب ويأكله، فعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل[2].

- جواز أن يقال هذا طعام أدنى وهذا طعام خير.

- تحريم التحايل على شرع الله بالحيل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾، وقد حذر النبي أمته من سلوك منهج بني إسرائيل فقال: (لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)[3].

- يؤخذ من قوله تعالى ﴿ تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ أن الأولى في البقر الذبح لا النحر، قال الشافعي: "وكل ما كان مأكولاً من طائر أو دابة فأن يذبح أحب إلي، وذلك سنته ودلالة الكتاب فيه، والبقر داخلة في ذلك لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ وحكايته فقال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ إلا الإبل فقط فإنها تنحر لأن رسول الله ﷺ نحر بدنه"[4].

- أعظم ما يتقرب به إلى الله الوسط الذي ليس بالكبير ولا بالصغير، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٧٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥١١٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٧٤.

(٣) رواه ابن بطه في كتاب: إبطال الحيل ص٤٧ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد. تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٣.

(٤) الأم للشافعي ٢/ ٢٣٩. ونحر النبي للبدنة ورد في حديث صلح الحديبية الطويل عند البخاري برقم/ ٢٥٨١.

- يجوز استخدام البقر للحرث والسقي. قال ابن قدامة: "ويجوز كراء الدابة للعمل لأنها منفعة مباحة خلقت الدابة لها فجاز الكراء لها كالركوب، وإن اكترى بقراً للحرث جاز لأن البقر خلقت للحرث"[1].

- استدل جمع من الفقهاء بآيات الأمر بذبح البقرة على جواز السلم في الحيوان[2]؛ لأن الحيوان مضبوط الصفة. وكل ما أمكن ضبط صفته جاز السلم فيه.

- جواز الأمر بالشيء المبهم إذا كان يمكن امتثاله، ومثال ذلك الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة دون تحديد، قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الأخلاق التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم والداعية على وجه الخصوص: التلطف مع الناس، والتحبب إليهم؛ فذلك أدعى أن يقبلوا توجيهه، ويحرصوا على الاستفادة من نصائحه، ونأخذ هذا من خطاب موسى لقومه بلفظ (يا قوم)، فهو ينسب نفسه إليهم.

- إذا ورد الناس الماء أو اجتمعوا لأي شأن عام فالأولى والأفضل لهم جميعاً أن يكون بينهم شيء من النظام وحسن الترتيب حتى يسقى الجميع ويقضوا أمرهم بلا اختلاف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾.

- ترك الاستفصال وكثرة السؤال في الأمور التي تأتي مطلقة حتى لا يؤدي ذلك إلى الإثقال والتشديد.

- الاستهزاء بالناس من الجهالة؛ ولذلك لما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ رد عليهم قائلاً: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

- يجب على المرء فعل ما يؤمر به، قال تعالى: ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

---

(١) المغني لابن قدامة ٥/ ٣٠٣.

(٢) انظر: الحاوي الكبير للماوردي ٥/ ٤٠٠. والسلم ما قدم من الثمن على المبيع.

د- الجوانب التربوية:

- في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ دليل على أن المربي إذا ذكر الداء فلا يكتفي بتشخيصه، بل يحرص على ذكر الدواء؛ فمن أذنب فإنه ينصح بالتوبة، ومن ظلم ينصح بردِّ المظلمة وهكذا.

- من سنن الله الكونية المعاجلة بالعقوبة في الدنيا؛ وقد تكون العقوبة بالإهلاك كما حدث مع الأمم البائدة، وقد تكون عقوبة جزئية ليتعظ المعذبون ويشكروا نعمة ربهم إذا خفف عنه العذاب وليتضرعوا إليه عند البأساء، قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾.

- في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إشارة إلى أن ضرر المعصية راجع إلى صاحبها، فإن الله لن تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

- الأصل أن نعم الله تقابل بالشكر، وشكرها ألا تستعمل في معصية الله، قال تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصيته[1].

-لا بد مع الإيمان من العمل؛ قال تعالى: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

- من سنن الله الكونية المساواة وعدم المحاباة؛ فالله لا يجامل أحداً من خلقه وكل الأمم عنده سواء؛ فمن آمن بالله ورسله وعمل الصالح الذي أمره به ربه كان له جزاء الضعف بما عمل سواء كان مؤمناً أو يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً..

- عدم الخوف من المستقبل وعدم الحزن على الفائت نتيجة طبيعية للإيمان والعمل الصالح، ويشير هذا إلى أن الحزن لا يتقرب به إلى الله، بل هو من الشيطان؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (١/ ٤٣٨).

ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة : ١٠].

- من الجوانب المهمة أن يحرص الإنسان على أخذ شرع الله بقوة، قال تعالى: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ولا يكتفي بمجرد القراءة، بل لا بد من صدق الإرادة بالعزم، وصدق العمل بالجد وبذل الجهد بلا تراخ أو فتور أو تردد.

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ حكمة بالغة؛ فإن تدافع بني إسرائيل في شأن القتيل لم ينفعهم في كتمانه، بل أخرج الله ما كانوا يكتمون، وكل عاص له من ذلك نصيب، فلا يظنن ظان أن كتمانه لأمر ما سيحجبه عن العيون، كلا فإن الله مخرج ما يكتمون. وفي الحديث الصحيح: (لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان)(١).

- العقوبة من الله لها جانبان: جانب تأثير على إصلاح المفسدين، وجانب هداية وعظة للمؤمنين، قال تعالى:﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾. وقد فقهت السيدة عائشة هذا الأمر فقالت:"إذا استحلوا الزنا، وشربوا الخمور بعد هذا، وضربوا المعازف؛ غار الله في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا، وإلا؛ هَدَمَها عليهم.

فقال أنس: عقوبة لهم ؟ قالت: رحمة وبركة وموعظة للمؤمنين، ونكالاً وسخطة وعذاباً للكافرين"(٢).

- آيات الله الكونية إذا تدبرها الناس فإنها تكون سببا في تعقلهم قال تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم/ ٧٨٧٧وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٥٦٧٨، وأحمد في مسنده ٣/ ٢٨، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ١٣٧٨، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٨٥٧٥ وصححه على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي.

- إذا لم يستفد الناس من آيات الله المشاهدة فإن قلوبهم تقسو، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ وقست في اللغة غلظت ويبست وعست. وتأويل القسوة في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه[1].

والقاسية قلوبهم هم أقرب الناس للفتن يتسارعون إليها، قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج/ ٥٣] ولو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنوا، ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام/ ٤٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصال المقطع بمحور السورة واضح؛ فالحديث عن نعم الله المتوالية على بني إسرائيل ثم بيان موقف الكنود والجحود الذي اعتادوا عليه لهو من أعظم أسباب سلبهم الخلافة والقوامة على العالمين، مما يؤذن بإفساح المجال لقيادة أخرى تصلح ما أفسده هؤلاء.

وفي بداية المقطع تذكير لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، وما قابلوا به هذه النعم، ثم انتقل إلى ذكر المخالفات التي قاموا بها مع بيان لبعض العقوبات التي حلت بهم.

وقد سبق أن ذكرنا في مقدمة السورة أن قصة البقرة لها تعلق قوي بمحور السورة العام؛ فهي تكشف كثيراً من طبائع اليهود وأخلاقهم الرديئة وتبين أن سلب القوامة منهم بسبب إفسادهم وسفكهم الدماء وعبادة غير الله[2].

وقد أشارت الآيات إلى أن الإيمان والعمل الصالح يجعل أصحابه في مأمن من الخوف والحزن، وقد سبق هذا الوعد في نهاية قصة آدم لمن اتبع هدى ربه، وسيأتي لاحقاً جزاء لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ولمن تصدق بلا منٍّ وفي كل وقت، وهذا من حسن الجزاء لمن اتبع

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ١٨٠.

(٢) انظر ص ١٢، ١٣.

المنهج، وقد جاء مجملاً في قصة آدم، ثم جاءت تفاصيل اتباع الهداية في ثنايا السورة لتبين للناس حسن موعود الله لهم إن اتبعوا منهجه.

وقد عدد هذا المقطع من مبررات عزلهم عن القوامة ما يلي: ١- اتخاذ العجل إلهاً من دون الله، ٢-قولهم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ٣-تبديل قول غير الذي قيل لهم عند دخول القرية، ٤-قولهم لموسى لن نصبر على طعام واحد، ٥-ضربت عليهم الذلة لكفرهم بآيات الله، ٦-قتلهم الأنبياء بغير حق، ٧-توليهم بعد أخذ الميثاق منهم ورفع الطور فوقهم، ٨-الاعتداء في السبت، ٩-سوء الأدب مع موسى، ١٠-مماراتهم في تعيين البقرة هربا من التكليف الشرعي، ١١-قسوة القلب بعد رؤية الآيات الدالة على عظمة الخالق[١].

(١) المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم.د مصطفى مسلم ص٦٠ نقلاً عن: المناسبات وأثرها.

المقطع الثاني: مواقف اليهود المعاصرين للنبي ﷺ (٧٥-١٢٣)

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟
بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ
بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ
نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا
لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟
ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ
كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ
قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ
شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ
قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ
أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِي
ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ
لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ
تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ
وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى

اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- هذا المقطع يصل اللاحقين بالسابقين، قال الرازي:" اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى ههنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد ﷺ "(١).

وفيه تفصيل لبعض الإجمال الوارد في المقطع السابق؛ فقد جاء ذكر العهد هناك مجملاً في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ [٦٣]، وجاء هنا تفصيل ذلك العهد والميثاق في الآيات(٨٣-٨٦).

قال سيد قطب:" ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي. فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق"(٢). وقد جاء التفصيل لفضح علمائهم وتذكير الأميين منهم حتى يفيئوا إلى ربهم.

ثم جاءت الآيات [٨٨-١٠٣] لتتحدث عن موقفهم من ميثاق الله ورسله، وموقفهم من القرآن الذي نزل مصدقاً لما معهم؛ فجاء تفصيل موقفهم من النبي موسى ومن جاء بعده، وموقفهم من نبي الله سليمان، وموقفهم من نبي الله محمد الذي جاءت بشاراته في كتبهم.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن المؤمنين ليحذرهم من التشبه بهم، ويبين لهم حقدهم وحسدهم تجاه المسلمين، ثم ذكرت أموراً يشترك فيها أهل الكتاب مع المشركين كمنع المساجد ونسبة الولد لله وطلب الآيات المستحيلة، وقد سبق ذلك ولحقه بيان ما تشابهت قلوب أهل

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٢١.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٨٧.

الكتاب من زعمهم دخول الجنة وغير ذلك.

ثم يختتم المقطع بتوجيه الخطاب لهم لكنه في هذه المرة خطاب هادئ يستثير فيهم النسب الكريم، والنعم العظيمة، وهذا متصل بما قبله حيث وجه لهم الخطاب مباشرة، ثم أعاده لهم هنا حتى تقوم عليهم الحجة بتنوع أساليب التذكير.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ والمؤمنين قاطعاً طمعهم في إيمان هؤلاء القوم ومستبعداً حصوله منهم فيخاطبهم: أترجون برغبة وتتعلقون بقوة أن يستجيب لكم هؤلاء والحال أن علماءهم يسمعون كلام الله الذي نزل على نبيه موسى لكنهم يحرفوه ويؤولوه تأويلاً فاسداً رغم فهمهم وضبطهم المعنى، لكنهم عامدون، ويعلمون أنهم على كذب ويعلمون ما أعد الله للكاذبين.

وإن هؤلاء ليلقون المؤمنين بوجه الإيمان فإذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به قال مستنكراً: أتخبرون المؤمنين بما أعلمكم الله من صحة دينهم لكي يقيموا الحجة عليكم عند ربكم في الآخرة؟ أفلا تتأملون فتعقلون ولا تتكلموا!. أولم يفهم هؤلاء أنهم إن كتموا وصف النبي ﷺ أو أعلموه فإن الله عالم به؟

وبعد أن تحدثت الآيات عن علمائهم تحدثت عن طائفة أخرى وهم الجهال الأميون الذين لا يعلمون من كتابهم إلا تلاوة يتلونها باللسان بلا فقه، أو لا يعلمون إلا أماني باطلة وأكاذيب تلقفوها من أهل الإضلال، وما هم إلا على الظن فكيف يتأتي من هؤلاء إيمان؟

فاليهود المعاصرون للبعثة ينقسمون إلى قسمين: إما عالم سوء يحرف الكلم عن مواضعه، أو جاهل مغرور يتلو كتابه بلا فهم ويعيش على وهم النجاة !

ثم تتوعد الآيات أولئك الذين كتبوا الكتاب المحرف ثم نسبوا هذا التحريف لله لكي يعظموا شأنه في قلوب عوامهم، وإنما فعلوا هذا لكي يأخذوا عرضاً قليلاً من أعراض الدنيا

الزائلة. ثم فصلت الآيات سبب الويل الذي أصابهم بأنه من أمرين: كتابتهم الباطل ومن استمرار تكسبهم به.

والظاهر أن من جملة هذا التحريف ما خدعوا به جهالهم من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً قلائل تُعدُّ، وهذا من جملة أماني الأميين الكاذبة حيث ادعوا أنهم لن يدخلوا النار في الآخرة إلا أياماً معدودة والتعبير بمعدودة يفيد القلة، لأن القليل يُعدُّ بخلاف الكثير، قالوا: سندخل النار أربعين يوماً بعدد أيام عبادة العجل[1]، أو سبعة أيام على أن الدنيا سبعة آلاف سنة فيكون لكل ألف يوماً.[2] وقد ورد في صحاح الأحاديث أنهم صرحوا بهذا الزعم فعندما سألهم رسول الله ﷺ : من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال النبي ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً[3].

وبعد أن ذكرت الآية زعمهم ردته عليهم وأنكرت قولهم ولقنت النبي ﷺ حجته تجاههم بأن يقول لهم توبيخاً وتبكيتا: هل أخذتم من الله وعداً مؤكداً ألا تمسكم النار؟ وعندئذ لن يخلف الله هذا العهد أم أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون دعوى بلا برهان وقول على الله بلا علم؟ فهذه قضية غيب لا تُعرف إلا بالوحي فإذا لم يكن معكم وحي فليس إلا الكذب حينئذ.

إن الأمر ليس كما تظنون؛ فهناك سنن كونية تحكم الجميع ومنها سنة العقاب والثواب الأخروي، ومؤداها أن من فعل كبيرة توجب للعذاب واستولت عليه وصارت كالحائط الذي يحيط به من كل الجهات وهو محبوس ومحصور فيه فإنه بهذا الفعل يكون من الملازمين للنار ملازمة دائمة. وبهذا قلب القضية عليهم؛ لأنهم نقضوا العهد وغيروا وبدَّلوا فاستحقوا الخلود في النار.

---

(١) رواه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٥١ عن قتادة بسند صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ١/ ١٥٥ برقم/ ٨١٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٢٩٣٣.

أما الصنف الآخر هم المؤمنون المصدقون بما جاء من عند الله وعملوا بالطاعات فهؤلاء هم أهل الجنة الذين لا يتحولون عنها ولا يزولون.

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الحسية على بني إسرائيل جاء الحديث عن لون آخر من النعم ألا وهو الحديث عن نعمة التكليف وكيف أنهم ما استجابوا وما انتصحوا، فبينت الآيات أن الله قد أخذ العهد المؤكد على بني إسرائيل وقال لهم وذكرهم بثمانية أشياء[1]:

أولها: أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً بكل أوجهه الممكنة الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] ثم انتقل بهم إلى دائرة أوسع وهي ما جاء في الوصية الثالثة: بالإحسان إلى القرابة من جهة الأبوين وهذا الإحسان " كالتابع لحق الوالدين، لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين"[2].

والوصية الرابعة: الإحسان إلى كل من مات أبوه وهو دون سن البلوغ، وذلك لأن النفس في الغالب لا تميل إلى الإحسان لمثل هذا لعدم ترجِّي نفعٍ من ورائه.

الوصية الخامسة: الإحسان إلى الذين أسكنهم الفقر فلم يجدوا شيئاً.

الوصية السادسة: إذا لم يتيسر الإحسان الفعلي لعجز أو ضعف فلا أقل من الإحسان القولي، بأن يكون القول طيباً ليناً.

أما الوصية السابعة والثامنة: فهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما دعامة صلاح الإنسان؛

---

(١) والوصية بعبادة الله وحدة في التوراة.سفر التثنية إصحاح ٥ رقم٧، والإحسان للوالدين في رقم ١٦ والنهي عن القتل رقم ١٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٥٢.

إذ بهما إصلاح ما بين العبد وربه وما بينه وبين الناس.

ولكن، هل امتثل بنو إسرائيل لهذه الوصايا الحكيمة؟ لقد أعرض غالب المتقدمين عنها وشاركهم الحكم من أتى بعدهم إلى عهد الإسلام وهم على حال من الإعراض بالقلب بعد الرفض الحسي.

وبعد أن تكلمت الآيات عن المأمورات تكلمت عن المنهيات ومنها أن الله قد أخذ عليهم العهد الموثق ألا يقتلوا إخوانكم وعبر بالنفس عن الأخوة بياناً لأن من قتل أخاه فقد قتل نفسه لشدة الاتصال ووحدة الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ ﴾ [الحجرات/ ١١] وقوله: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾ [النور/ ١٢] وجاءت نفس الصيغة في النهي عن إخراج إخوانهم من الديار، وفي ذلك يقول ابن عطية " ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم بعضاً ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها"[(١)] ومن ذلك قوله عليه السلام" ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم"[(٢)].

وقد أقر القوم بهذا الميثاق وشهدوا عليه واستمرت شهادتهم، لكنهم ما استمروا على الالتزام فخاطبهم الله: ثم أنتم يا هؤلاء المعاصرون تفعلون هذه الأفعال المنهية فتقتلون إخوانكم وتجلوهم من ديارهم على وجه من العلو والمعاونة مع المعتدين بالإثم والاعتداء بغير حق. فإن أسرتموهم في القتال فاديتموهم.

قال المفسرون: "كانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها، وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً يفدونه به فعيرتهم العرب وقالوا: إنا نستحي أن نذل حلفاءنا[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣١٧٩ ومسلم في صحيحه برقم/ ٣٣٢٧.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ١٨٨.

وإنه لتناقض عجيب أن يعملوا بأمر واحد من الأوامر وهو فداء الأسرى ويكفروا باثنين منها وهما تحريم القتل والإخراج من الديار فمثل هذا عبودية بالهوى، وإيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وإن عقاب أصحابها أن يتعرضوا في الدنيا للذل والهوان ويذوقوا في الآخرة أشد العذاب لأن الله محيط بعملهم ويراقبهم ولا يغفل عنهم.

ثم أكد الله ذلك الوعيد وبيّن سبب استحقاقهم له بأنهم اختاروا الدنيا مع خساستها على الآخرة مع نفاستها فاشتروا القريب وزهدوا في الآجل، ومثل هؤلاء لا يهوّن عليهم العذاب في وقته ولا في قوته ولا يمنع أحد عنهم عقاب الله بشفاعة أو نصرة.

وليست مصيبة هؤلاء القوم في قلة الإنذار؛ كلا فقد أرسل الله لهم موسى عليه السلام بالتوراة، ثم أتبعه برسل كثيرين على شريعة موسى، ومن هؤلاء عيسى بن مريم الذي جاءهم بآيات ومعجزات واضحات منها قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٤٩] وقد أيده الله عز وجل وقواه بالروح المقدس المطهر - وهو جبريل على الراجح - الذي يقدس النفوس ويزكيها ويقويه على عدوه، فماذا فعل القوم مع كل هؤلاء؟

لقد أنكرت الآيات عليهم اتباعهم الهوى مع أنبيائهم وسلوكهم طريق الكبر والعلو فلم يخل حالهم معهم من أمرين: إما أن يكذبوا بما جاؤوا به أو يقتلوهم كما فعلوا مع يحيى عليه السلام.

وقد أجملت هذه الآية كل مساوئهم وانحرافهم منذ بداية عهد موسى معهم إلى أن جاءهم عيسى بن مريم مروراً بتاريخ الأنبياء الطويل؛ وفي الصحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خَلَفه نبي)[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٦٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٨٤٢.

وقد حاولوا أن يعتذروا عن عدم إيمانهم بأنهم ذوي قلوب عليها غلاف يمنع من وصول الحق وهذا عذر باطل، لأن قلوبهم لم تكن كذلك لفطرةٍ فُطرت عليها إنما أصابهم الطرد والإبعاد عن رحمة الله بسبب كفرهم فلم يؤمن منهم إلا قليل، ولم يؤمنوا إلا بقليل من التكاليف، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [النساء/ ١٥٥].

وكان موقفهم من الكتب السماوية السابقة تمهيداً لموقفهم من القرآن؛ فهم ما آمنوا بكتبهم إلا قليلاً، فلما جاءهم القرآن الذي يتفق مع كتبهم في العقائد وأصول الأخلاق والتشريع ويصدق ما جاء فيها من البشارة بنبي الله محمد ﷺ وكانوا ينتظرون مبعث نبي بكتاب عندهم أماراته ويستنصرون به على العرب الكافرين وعندما جاءهم النبي بها يعرفون ويوقنون كفروا فاستحقوا اللعن بسبب كفرهم.

وفي سبب نزولها يقول ابن عباس: "إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله في ذلك من قولهم: (ولما جاءهم...)"[(١)].

وهذا الموقف يكشف تناقضهم واتباعهم الهوى؛ فإذا كانوا قد استفتحوا به فكيف ينكرون نبوته؟ لقد كانوا يستفتحون به ولم يروه فالأولى أن يؤمنوا به بعد أن صار المعلوم واقعاً حياً أمامهم.

---

(١) رواه ابن إسحق في السيرة ١/ ٥٤٦ وعنه الطبري في جامع البيان ٢/ ٢٣٣ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٢٦.

ثم تذكر الآيات سبب كفرهم وتذمهم وتوبخهم على ما اختاروا لأنفسهم من الكفر على الإيمان، فقد باعوا أنفسهم، ويا له من بيع لا قيمة له، وقد يكون اشتروا بمعنى الشراء، يقول الرازي:" ولما كان الغرض بالبيع والشراء هو إبدال ملك بملك صلح أن يوصف كل واحد منهما بأنه بائع ومشتر لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما"[(١)].

وكان سبب غبنهم هذا بغيهم وعدوانهم وحسدهم أن ينزل فضل الله على الأميين، فاستحقوا أن يعودوا بغضب مضاعف بسبب كفرهم أولاً بنبيهم وكفرهم ثانياً بنبي الإنسانية محمد ﷺ وإن لهم عند الله عقوبة ذات إهانة وإذلال.

ثم ذكرت الآيات شبهة أخرى لهم في عدم الإيمان وأبطلتها، ألا وهي أنهم إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن قالوا إرضاءً لأنفسهم: إنما نؤمن بالتوراة المنزلة علينا، ونكفر بما سواها وما عداها وهو القرآن الحق الذي يصدق ما معهم من الحق فكلاهما من عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلم تقتلون الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي معكم؟ وهذا معناه أنكم كافرون بالقرآن وبالتوراة معاً؛ لأن الذي يكفر بالحق دل على أن إيمانه الأول لم يكن حقاً.

وتمضي الآيات لتفضح هذه الدعوى وتفندها؛ فتاريخهم يقول بخلاف ذلك، إن التوراة التي تزعمون أنكم آمنتم بها قد جاءكم موسى بها وبغيرها من الآيات فلم تزدكم إلا كفراً؛ فقد اتخذتم من بعد مجيء الآيات البينات العجل إلهاً وأنتم في ذلك معتدون، قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨] بل إنهم جعلوا أن الأصل عبادة العجل وأنه كان الإله لكن موسى نسي، قال البخاري: يقولون: أخطأ الربّ[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٣/ ١٦٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة طه.

ويأتي نفس المعنى بصيغة أخرى ليذكرهم بالعهد الذي أخذ عليهم وبموقفهم منه، وبجبل الطور الذي رفع عليهم إرهاباً وتهديداً فرأوه كأنه ظلة فأمر أن يهتموا ويجدوا وينشطوا في تلقي أوامر الله وأن يسمعوا سماع قبول لكنهم قالوا بأفواههم سمعنا وعصوا بأفعالهم، وامتزج في قلوبهم وسرى حب العجل الذهبي الذي صنعوه ليعبدوه وهنا يلقن الله النبي الحجة عليهم : إن كنتم صادقين في إيمانكم بما أُنزل عليكم فأين هذا الإيمان عندما عبدتم العجل؟ هل أمركم إيمانكم بالشرك؟ بئس الإيمان إيمان يأمر أصحابه بالوثنية وقتل الأنبياء!

ولأن أثر الإيمان الحقيقي لم يظهر في الدنيا، فإنه أيضاً لن تظهر ثمرته في الآخرة والدليل على ذلك أن النبي ﷺ يتحداكم إن كان لإيمانكم ثمرة أخروية وترون أنه سيهبكم الثواب والنعيم الخالص من دون الناس فاطلبوا حصول ومجيء الموت لكم إن كنتم صادقين في دعواكم حتى تنعموا بما تظنون؟ لأن الحائل بينكم وبين النعيم بزعمكم هو الموت فاطلبوه.

وهذا تحد قرآني لهم ومعجزة نبوية؛ فلم يتمنوا؛ وقد ورد عن عبد الله بن عباس قوله: "لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار"[1] ولن يتمنوا؛ وذلك لأنهم يعرفون جيداً أنهم عصاة فسقة ارتكبت أيديهم القتل والتحريف وغيره والله تعالى عالم بما صنعوا.

وإن حالهم في حب الدنيا لعجيب؛ فهم أشد الناس طمعاً في الحياة بأي كيفية كانت هذه الحياة، وجاءت حياة منكرة لإفادة التحقير، يقول سيد قطب " أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط حياة بهذا التنكير والتحقير... حياة والسلام، إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء"[2].

(١) رواه أحمد في مسنده١/ ٢٤٨وأبو يعلى في مسنده برقم / ٢٦٠٤،والنسائي في السنن الكبرى التفسير برقم / ١١٠٦١ وهو صحيح. انظر: مجمع الزوائد٨/ ٢٨٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٩٢.

ومن العجيب أن اليهود أحرص على الحياة من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار، فدلَّ ذلك على أنهم يعرفون حقيقة مصيرهم في الآخرة جيداً، ولذلك: فإنه غاية أمانيهم أن يزاد في عمرهم إلى ألف سنة، ولن يفيده تعميره شيئاً في النجاة من العذاب بل سيكون زيادة في تعذيبه وقد سئل النبي أي الناس شر؟ فقال: (من طال عمره وساء عمله)[1].

ثم تختتم الآية بتهديدهم بأن الله عالم بكل ما يفعلون.

وبعد أن بينت الآيات السابقة عداواتهم لصفوة البشر من الأنبياء ذكرت عداوتهم لصفوة الملائكة وهو جبريل، وفي ذكر هذه العداوة بعد بيان استحقاقهم للعذاب ذكر سبب من أسباب عذابهم.

وفي سبب نزولها ورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعناك، فأنزل الله الآيتين[2].

وهذا إجماع من المفسرين على أن الآية نزلت جواباً لليهود، ونقل هذا الإجماع الطبري في تفسيره[3].

والآية تبين أن من اتخذ جبريل عدواً فإنه يعادي الوحي، لأنه لا سبب لعدواته فالظاهر أنهم يعادونه من أجل القرآن الذي نزل على قلبك وهو لا يستوجب عداوتهم لأنه مصدق لما جاء في الكتب السابقة، وهداية من الضلال، وبشارة للمؤمنين، فكيف يعادى؟!

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٢٥٦،والترمذي في سننه برقم/ ٢٣٣٠ وأحمد في مسنده ٥/ ٤٧،عن أبي بكرة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد١٠/ ٢٠٣: وإسناده جيد.

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٧٨ والنسائي في الكبرى ٥/ ٣٣٧ قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٣٦: رجاله ثقات.

(٣) جامع البيان للطبري ٢/ ٣٩٤.

إن الحكم القاطع أن من عادى الله بالكفر بما أنزل، وعادى الملائكة بكراهيتهم، وعادى الرسل بتكذيب وقتلهم، وعادى جبريل وميكائيل الذي يدعون محبته، من عادى كل هؤلاء فإن الله يعادي من عاداهم لأنهم كافرون.

وبعد أن خوفتهم الآيات من معاداة القرآن ومن نزل به، عادت وعنَّفتهم على نبذ العهد، ذلك الخلق السيئ الذي دفعهم لرفض التوراة أولاً والقرآن ثانياً، فخاطب الله نبيه مبيِّناً أن هذه الآيات التي نزلت عليك لا تحتاج إلى دليل صدق؛ فهي بينة واضحة لا يكفر بها إلا المعاند الخارج عن طاعة الله. فلا تقنطن مما ترى من جحودهم فذلك دأبهم: نبذ العهد ونبذ الإيمان فهم كفروا بالآيات، وكلما عاهدوا الله أو رسله عهداً نقضه فريق منهم، ولا يظنن أحد أن هؤلاء الناقضين قلة، بل نقضه أكثرهم ولم يؤمنوا به، وكذلك نقضوا ونبذوا ما عرفوا لمَّا جاءهم النبي محمد ﷺ مرسلاً من عند ربه، بيده ما يصدق كتبهم، نبذ علماؤهم القرآن نبذاً حتى كأنهم لن يلقونه وتركوه كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله.

وعندما تركوا كتاب الله استبدلوا به الباطل، وعندما لم يشغلوا أنفسهم بالحق شغلتهم بالسحر فاتبعوا السحر، واتبعوا ما كانت تكْذِب به الشياطين في عهد سليمان وأيام ملكه ونبوته.

وقد كان سليمان بن داود نبياً ملكاً، وهبه الله ملكاً لم ينبغ لأحد من بعده، وسخر له الريح والجن، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص:٣٦-٣٩] وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢، ١٣] وقد كذب اليهود على نبي الله سليمان في نسبتهم السحر له، وقد نسبوا إليه السحر تزييناً لما يفعلون هم، لكن الله برأه من السحر،

ووصفهم مع شياطينهم بالكفر لأنهم يعلمونهم السحر.

والسحر في اللغة هو كل شيء خفي سببه، أما في اصطلاح الشرع فهو النفث في العقد، والتأثير من خلاله في أفعال الناس، وغالبه من أمور التخييل والخداع قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه: ٦٦] ومنه حديث سحر النبي ﷺ (**حتى كان يخيل أنه صنع شيئاً ولم يصنعه**)[1] وجزء قليل منه يكون باتصال السحرة ببعض الشياطين.

اتبع اليهود الشياطين في تعلم السحر وزعموا أن سليمان ساحر. وما كان سليمان ساحراً بل إن التوراة نهت عن السحر[2]، وكانت بابل - وهي من بلاد العراق - موطناً لهؤلاء السحرة، فلما كثروا واختلط على الناس الأمر فلم يفرقوا بين المعجزة والسحر نزل من السماء ملكين هما هاروت وماروت ليعلمان الناس السحر كي يعرفوه فقط، وكانا يحذران من العمل به ويبينان أنهما ابتلاء من الله للناس فلا يكفروا بالعمل بالسحر، ورغم هذا التحذير فإنهم افتتنوا وتعلموا ما يفرقون به بين الزوجين وهذا من أفعال الشيطان ومع هذا فإنهم جميعاً لا يملكون إلحاق الأذى والضرر بأحد إلا بإذن الله الكوني بإلحاق ضرر بهم لا فائدة منه.

وإنهم لعلى يقين أن من يختار السحر فلا نصيب له في الآخرة من خير. وبئس التجارة تجارة تفقد صاحبها نصيبه عند الله يوم القيامة ولو آمن اليهود إيمانا حقيقياً بكتابهم وبما فيه من إثبات نبوة محمد ﷺ لأثابهم الله مثوبة كبرى جزاء من ربك عطاء بما آمنوا لكنهم لم

---

(١) رواه البخاري ٢٩٣٩ ومسلم / ٤٠٥٩ بنحوه عن عائشة.

(٢) في سفر التثنية إصحاح ١٨ " إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يزج ابنه أو ابنته إلى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفاتل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جان أو تابعه ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب " أ.هـ.

يعلموا علماً ينفعهم وينجيهم.

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة حجج اليهود في عدم الإيمان بالنبي ﷺوأبطلتها عليهم وبين فسادهم وضلالهم جاءت هذه الآيات خطاباً للمؤمنين وتوجيهاً لهم في أمور مشتركة بينهم وبين اليهود، ولتنهاهم عن التشبه بهم، فعرضت الآيات لما يلي : ـ

١ـ النهي عن التشبه بهم في اللفظ الذي يوهم السوء.

٢ـ بيان حكمة النسخ وفائدته، وإبطال مزاعم اليهود فيه.

٣ـ نهي المؤمنين عن التشبه بهم في السؤال وتبدل الكفر بالإيمان.

٤ـ بيان المانع لأهل الكتاب من الإيمان ومحبتهم لارتداد المؤمنين.

٥ـ إبطال ادعائهم بأن الجنة لهم من دون الناس وبيان السنة الجامعة في ذلك.

٦ـ إبطال ادعاء اليهود والنصارى أن كلاً منهم على ضلال.

٧ـ بيان خطورة ما قام ويقوم به أعداء الإسلام من تخريب المساجد.

٨ بطلان ادعائهم الولد لله تعالى.

٩ـ النهي عن اتباع أهوائهم.

١٠ـ ثم تعود الآيات لتذكرهم بنعم الله تعالى وتبين لهم أن يوم القيامة لن ينفع فيه إلا العمل الصالح.

والآن إلى تفاصيل هذه الآيات:

١ـ خاطبت الآيات الكريمة المؤمنين ونهتهم عن مشابهة اليهود وذلك في قولهم للنبي ﷺ راعنا، وهي عند اليهود لها معنى قبيح من الرعونة أو الشر، فنهاهم القرآن عن النطق بهذه اللفظة وأمرهم بقول لفظة مساوية لها في الحروف لكن معناها مختلف وهي قول: انظرنا أي: أمهلنا، ثم أمرهم بسماع القبول والإجابة، وبين أن الكفار

من اليهود و مشركي العرب وغيرهم لهم عذاب مؤلم. قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾[النساء: ٤٦] .

وإذا خالفتموهم فلا تبالوا بعدائهم، فإنهم لا يحبون أن يتنزل عليكم أي خير من ربكم حسداً من عند أنفسهم، وما دروا أن الله يخص بالنبوة والرحمة والفضل من يريد من عباده، فهو ذو الفضل العظيم.

٢- ولما تكلم اليهود في أمر النسخ وأنكروا أن يقع النسخ بين الشرائع، بيَّن الله حكمة النسخ فقال: ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإن لنا أن نأتي بخير منها في إثبات النبوة لأن لنا القدرة على كل شيء فنرفعه[1].

والنسخ الإزالة، والمقصود به: رفع حكم شرعي بطريق شرعي لحكمة التدرج، وزيادة الأجر، ثم تخاطب الآية النبي والمراد المؤمنين وتثبت لهم أن الله قادر على كل شيء ومن جملة ذلك النسخ وغيره.

والظاهر أن المقصود بالآية الرد على ما أنكره اليهود من نسخ شريعتهم بشريعة الإسلام، وفي ذلك يقول الطبري: " وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمدا ﷺ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرَهم بما شاء ونهيَهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما

---

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ١/ ٤١٧.

شاء من أحكامه وأمره ونهيه"[١].

وإذا كان الله تعالى ينسخ الأحكام ويأتي بالشرع فذلك لأنه المالك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] له التصرف في السموات والأرض، وما للعباد من دونه من ولي ولا ناصر ولن يضركم غيره شيئاً.

٣- وللتحذير من وراثة أفعال اليهود توعَّد الله من يسأل إعناتاً وكبراً فقال: أتريدون أن تسألوا نبيكم كما سأل اليهود نبيهم فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] إن من فعل هذا فقد رضي بالكفر بدلاً عن الإيمان وضل السبيل الوسط. ولعل هذا التحذير للمسلمين مقدمة لمسألة القبلة؛ حيث سيكثر فيها الخوض واللجاج، مما يدفع بعض ضعفاء الإيمان إلى الشك وكثرة الأسئلة.

٤- ولم يكتف اليهود بكفرهم بل ودُّوا لو صرفوكم عن دينكم لتعودوا كفاراً، ليس حباً في دينهم، وإنما حسداً ناشئاً عن فساد نفوسهم بعد ما ظهرت علامات الحق بآيات القرآن[٢]، فاتركوا عقابهم واطووا عنهم صفحاً حتى يأتي قدر الله بالنصر أو أمره بالجهاد وإنه على كل شيء قدير.

دعوهم وشأنهم وانصرفوا لتحقيق أدوات النصر من إصلاح الفرد بالصلاة وإصلاح المجتمع بالزكاة، وليس في هذا إصلاح الدنيا فقط بل إصلاح الآخرة؛ فإن كل ما تقدمونه من خير تلقونه يوم القيامة إن الله بصير بما تعملون.

٥- لقد اغتر الفريقان بما هم عليه وظهر حقدهما معاً تجاه الإسلام فقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا نصراني. وهذا من جملة

(١) جامع البيان للطبري ٢/ ٤٨٨.

(٢) عن ابن عباس قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير) رواه ابن أبي حاتم في التفسير ١/ ٢٠٤ برقم/ ١٠٨١.

أمانيهم الباطلة، ويلقِّن الله نبيه الرد عليهم: هاتوا دليلكم على صحة هذه الدعوى إن كنتم صادقين.

ثم تأتي: (بلى) التي تضرب عما قبلها لتبطل أمانيهم وتذكر قاعدة عامة تشمل جميع الأمم والأجناس وهي: أن من انقاد لله بوجهه وأحسن في عباداته وعمله فله الأجر من الله ولا خوف عليه فيما يستقبل ولا حزن فيما فاته.

٦ـ وقد ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه،[1] مع أن اليهود يتلون التوراة وهي أصل الإنجيل، والنصارى يتلون الإنجيل الذي جاء ليتمم ما جاءت به التوراة، إن تعصبهم هذا وثيق الصلة بتعصب المشركين حيث زعموا أن المسلمين ليسوا على شيء، والكل أهل هوى وسيردون إلى ربهم فيحكم بينهم بالقسط فيما كانوا فيه يختلفون، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ: ٢٦]

٧ـ وكيف يدعي هؤلاء أنهم على شيء وهم يصدون عن بيوت الله ويمنعون ذكره في بيته سبحانه؛ فاليهود يصدون المسلمين عن التوجه للكعبة[2]، والنصارى خربوا بيت المقدس، والمشركون صدوا المسلمين عن دخول المسجد الحرام بإيعاز من يهود، لقد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣١٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٤/ ١٠، حيث ذكر أقوال المفسرين في المسألة ثم قال:" وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم : وهو أن يقال : أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام.

سعى الكل في التخريب المعنوي للمساجد بمنع العبادة فيها والتخريب الحسي بالهدم وما كان لهم أن يدخلوها إلا وهم على أسوأ حال من الذلة والمهانة بخلاف ما يلقونه يوم القيامة من العذاب الأليم.

وإذا لم يتمكن المسلم من الصلاة وقتئذ فلله الأرض كلها، فليصلِّ حيث كان إذ الجهات كلها لله، والله واسع الرحمة على عباده لا يضيق عليهم عليم بما ينفعهم، وعن ابن عمر قال: " كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾[1]. ففيه تسليه للرسول وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم.[2]

٨ـ وما زالت الآيات تعدد مخازي أهل الكتاب؛ فقد ادعى بعض اليهود أن عزيراً ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله، أما المشركون فقد زعموا أن الملائكة بنات الله. وقد تقدس الله تعالى وتنزه عن كل هذا.

ثم ذكرت الآيات ثلاثة أدلة على استحالة أن يكون له ولد؛ أولها: أن الكون كله عابد له ولا يمكن للعابد أن يتصل بنسب للمعبود، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣] وأكد ذلك بأن الكل له عابد طائع؛ فهم مخلوقون ليس فيهم من يصلح أن يكون ولدا أو شريكا.

الثاني: أنه سبحانه انفرد بإنشاء السموات والأرض بلا مثال سابق، مع ما فيهما من الخلق العظيم، فكيف له أن يحتاج بعد ذلك إلى ولد؟ قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠١].

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٩٠.

الثالث: أنه إذا أراد أمراً قضاه بالكاف والنون فهو المالك، الغني، القدير، الذي لا يحتاج لأحد فكيف يحتاج إلى ولد؟

٩- ومن جملة الشبه التي يحتج بها اليهود وغيرهم طلبهم أن يكلمهم الله مباشرة أو عن طريق ملك كما يكلم النبي أو يأتيهم دليل على صحة نبوة محمد ﷺ، قال ابن عباس: قال رافع بن حريملة لرسول الله: إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله: يكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾)[1].

ولئن كانت الآية نازلة في اليهود بدلالة السياق وسبب النزول فإن اللفظ يندرج فيه النصارى ومشركوا العرب، وقد ذكر القرآن كثيراً من هذه الأسئلة التي لا تفيد إلا التعنت مثل ما ذكر القرآن على لسان المشركين في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١٢٤] وقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء:٩٠] وليسوا ببدع في هذا القول فقد قاله مشركو الأمم السابقة مع أنبيائهم فكأنهم تواصوا جميعاً بهذا الإفك، وما ذاك إلا من تشابه أحوالهم في الطغيان، ولم يكن الله ليترك رسوله بل بين الأدلة وأوضحها لمن أراد الاستنارة بنور الحق، فلا عليك أيها الرسول منهم؛ لا تحزن ولا تغتم بسبب إعراضهم، ولا يضيقن صدرك من مسارعتهم إلى الكفر؛ لقد أرسلك الله بالحق الثابت الذي لا يتأثر بشبهاتهم لكي تبشر به المتقين وتنذر به المعاندين ولن يسألك الله عن تكذيب المكذبين وعناد أصحاب الجحيم.

١٠- وقد مر بيان بعض ما تشابهت فيه قلوب اليهود والنصارى، ومن جملة هذه المشابهة أنهم لن يرضوا عن النبي حتى يتبع ما هم عليه من الضلال، فرد الله ضلالهم ولقَّن النبيَّ ﷺ حجته؛ وهي أن الهدى الحق هو الذي نزل به أنبياؤه وليس ما أضافه القوم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢/ ٥٥١ برقم/ ١٨٦٢، وابن أبي حاتم ١/ ٢١٥ برقم/ ١١٤٠ وسنده حسن.

بأهوائهم، ولئن أردت استرضاءهم واتبعت ضلالهم بعد ما جاءك من اليقين بالوحي المبين فإن الله لن ينصرك، فلن يكون اتباع الهوى موصلاً للهدى. وقد ورد اتباع الهوى بصيغة الشرط ومعلوم أن الشرط لا يقتضي وقوع ذلك من النبي ﷺ.

١١ـ وبعد أن بينت الآيات كثيراً من ضلالهم استدركت وأوضحت أن منهم من يرجى خيره وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته فيفهمون ويتدبرونه وهؤلاء يدركون الحق[1]، أما من كفر به من المعاندين أو المقلدين فهو التاركون للسعادة والسيادة.

وبعد هذا المقطع الذي أقام القرآن فيه الحجة عليهم يذكرهم المولى بنعمه الدينية والدنيوية عليهم، وإنه فضلهم على عالمي زمانهم وحذرهم من يوم القيامة الذي لا يصلح فيه الاعتذار بصلاح الآباء، فلن تجزي نفس عن نفس شيئاً ولن يؤخذ فدية من الكافرين ولن تنفعهم شفاعة الشافعين بل لن يكون هناك أي رجاء في النصرة من دون الله.

ويلاحظ أن هاتين الآيتين قد جاءتا واسطة عقد بين ما قبلها وما بعدها؛ فقد سبق قبلها تعداد كثير من أخطاء بني إسرائيل، وبيان أخطائهم في حق الله تعالى وحق رسله، وموقفهم من النبي الخاتم وأتباعه، كل ذلك عرضه القرآن في أسلوب من الشدة، حتى وصل إلى حدٍّ جردهم من كل حجة ومعذرة.

ثم عاد السياق في هاتين الآيتين لأسلوب اللين، تمهيداً لما سيأتي بعده من قطع الصلة المزعومة بينهم وبين أبي الأنبياء إبراهيم؛ فقد ناسب ذلك أن يمهد بهذا التمهيد الذي يحذرهم من نسيان النعم ويذكرهم بالتفضيل الإلهي لهم، بأسلوب حانٍ رقيق، حتى لا يقنطوا ولا ييأسوا من روح الله، ولكي تستعد نفوسهم لتلقي ما يأتي بعد ذلك، وهذا من أساليب القرآن الحكيمة في سوق النفوس إلى الحق.

---

(١) وقد جاء لفظ (الذين آتيناهم الكتاب) في ثمانية مواضع من كتاب الله كلها في معرض المدح على الراجح، ومواضعها في البقرة (١٢١) و(١٤٦) والأنعام(٢٠) و(٨٠)و(١١٤)والرعد(٣٦)والقصص(٥٢) والعنكبوت(٤٧).

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

- في قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ إثبات صفة الكلام لله رب العالمين، ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك ما ذكره الإمام الطحاوي حيث قال: "إنه تعالى لم يزَل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يُسْمَع، وأَن نوع الكلام قديم وإِن لم يكن الصوت المُعَيَّن قديماً، وهذا المأثور عَن أَئمة الحديث والسنة"[1].

- دل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ على إثبات التحريف الواقع في الكتب السابقة، وهو إما بالتأويل أو بالزيادة والنقص. وقد ذكر العلماء في المسألة أقوالاً؛ فقال بعضهم: حرفت كلها. وهذا الرأي مبالغ فيه. وقيل: وقع التحريف في معظمها، وقيل: وقع في اليسير منها، وقيل: وقع التبديل في المعاني لا في الألفاظ[2]. وأمثلها الثالث والله أعلم.

- صفة النبي محمد ﷺ معلومة في التوراة والإنجيل، وقد أثبت القرآن ذلك في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾. وقال: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].

والناظر في العهدين: القديم والجديد يجد أدلة ذلك واضحة، وسنذكر طرفاً من ذلك؛ ففي التوراة: (قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه). سفر التثنية باب (١٨) أرقام ١٧-١٩. والنبي الذي جاء من بني عمومة موسى هو محمد ﷺ، وقول: (أجعل كلامي في فمه) إشارة إلى أن النبي ﷺ لا يقرأ من كتاب، والذي كلم الناس بكل ما أوصى به ربه هو نبينا محمد ﷺ.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٨٠.

(٢) انظر في هذه الأقوال: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ٣٥١ وما بعدها، فتح الباري لابن حجر١٣/ ٥٢٤.

ومن البشارات الواردة في العهد الجديد قول عيسى عليه السلام: (لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزيّ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.

إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به،ويخبركم بأمور آتية،ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) [إنجيل يوحنا:١٦/ ٧-١٤].

وفي هذا الكلام السابق إشارات عديدة لنبينا محمد ﷺ؛ فهو الذي مجدَّ المسيح، وهو الذي بلغ كل ما أمر به، وهو الذي أخبر بالغيوب المستقبلية.

وقد أوردنا من كل كتاب مثالاً، وإلا فالإشارات بالنبي ناطقة، والبشارات بمقدم الأميّ صادقة، بل إن المعرفة به من أحبارهم واضحة للعيان لا تحتاج إلى بيان[1].

- إثبات معرفة الله لما يسر المرء وما يعلن قال تعالى ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

- دل قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ على ذم التقليد واتباع العقائد الموروثة حتى لو كانت خطأ. قال الشيخ محمد عبده:" أما الأماني فسرت بالقراءات والتلاوات، أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بها أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً"[2].

---

(١) وللتفصيل انظر: شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/ ١٩٨، الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي ص٢١٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص٥، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/ ١٤٥، وغيرها، وإظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي فقد ذكر ثماني عشرة بشارة. المجلد، ص١١١٦، وما بعدها.

(٢) رسالة التوحيد لمحمد عبده ص٨٤.

- ترتب الجزاء على العمل إن خيراً وإن شراً، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ﴾ على أن العهد والوعد من الله لا يخلف، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد/ ٣١]. واختلفوا في جواز إخلاف الوعيد بالعذاب؛ فأجازه قوم. قال التفتازاني: "والمذهب جواز الخلف في الوعيد بألا يقع العذاب"(١)، ومنعه المعتزلة ولم يجوزوه.

- من أحاطت به خطيئته فإنه كافر يخلد في النار، أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فحكمه حكم عصاة المسلمين؛ فأمره مفوض إلى ربه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء/ ٤٨]. قال البيهقي: "أخبر أن التخليد في النار إنما هو لمن أحاطت به خطيئته، والمؤمن صاحب الكبيرة أو الكبائر لم تحط به خطيئته؛ لأن رأس الخطايا هو الكفر وهو غير موجود منه فصح أنه لا يخلد في النار"(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ على أن المؤمنين مخلدون في الجنة، وأن هذا الخلود أبدي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة/ ٧، ٨].

- ودلت نفس الآية على أن الإيمان يشترط له العمل الصالح.

-ودلت أيضاً على أن العمل لابد أن يكون صالحاً، أي صواباً، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ

---

(١) شرح المقاصد ٢/ ٢٢٧. وانظر في تقرير مذهب المعتزلة: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص١٣٥، ١٣٦. ولازم قول المعتزلة نفي الشفاعة وعفو الرحمن عن العصاة يوم القيامة.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٧٤.

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف/ ١١٠].

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على أن جميع الأمم مطلوب منها العبادة الحقة الخالصة لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥].

-عذاب يوم القيامة بعضه أشد من بعض، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾. وقد ورد في القرآن ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر/ ٤٦] وفي السنة التخفيف عن أبي طالب، وهذا دليل على أن جهنم دركات.

- أثبتت الآيات نبوة موسى بالنص ونبوة من جاء بعده على وجه الإجمال، قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾.

- لكل رسول آية بينة تدعو إلى صدقه؛ قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الحديد/ ٢٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ على إبطال ألوهية عيسى عليه السلام، لأن الله أيده بروح القدس، ولو كان إلهاً لما احتاج إلى تأييد من أحد.

- يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أن سيدنا محمداً ﷺ مبعوث إلى أهل الكتاب، وهذا يشير إلى عموم رسالته، ويكذب ادعاء اليهود أنه نبي العرب فقط.

- الأنبياء معصومون من الكفر، وقد نزه القرآن أنبياء الله عن كل نقيصة، وأعلاها الكفر فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ وهذا بخلاف ما ادعته عليه اليهود؛ حيث ذكرت التوراة عنه أنه: "كانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى،....وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه،....فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين و أوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى

فلم يحفظ ما أوصى به الرب"[1].

- اتفق الفقهاء على أن تعلم تعليم السحر وتعلمه حرام، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، قال ابن قدامة : "لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم"[2]، وقال جمع من الفقهاء بكفر من تعلم السحر.

-حكم الساحر أنه كافر طالما استعان بالشياطين وتوسل بها على مقصوده، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ .

- كل ما يصيب المؤمن من ضرر أو أذى فإنه بإذن الله الكوني القدري، ولن يستطيع ساحر أو غيره أن يؤذى أي أحد إلا بإذن الله تعالى.

ب- الأحكام الشرعية :

- تحريم أن يكتب الإنسان من عند نفسه ثم ينسب ذلك إلى الله، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

- تحريم التبديل في الشرع، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ قال القرطبي: "في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكل من بدل وغير أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم[3].

- قال الشافعي: "ولو أوصى أن يعطى الرهبان والشمامسة ثلثه جازت الوصية لأنه قد تجوز الصدقة على هؤلاء، ولو أوصى أن يكتب بثلثه الإنجيل والتوراة لِدَرْس لم تجز الوصية لأن الله عز وجل قد ذكر تبديلهم منها فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

(١) العهد القديم. سفر الملوك الأول. الإصحاح/ ١١ أرقام/ ٣، ٤، ٦، ٩، ١٠.

(٢) المغني لابن قدامة ٩/ ٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٢٣.

﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[١].

- تحريم سفك الدماء، وبيان أنه مما أجمعت الشرائع عليه.

- تحريم إخراج الإنسان من بلاده إلا بمسوغ شرعي.

- قال ابن قدامة: "ويجب فداء أسرى المسلمين إذا أمكن، وبهذا قال عمر بن عبد العزيز ومالك وإسحق"[٢].

- تحريم الإيمان ببعض الكتاب وترك بعضه.

- تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عند المالكية خلافاً للأحناف والشافعية؛ فعندهم: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة.

- تحريم مخاطبة رسول الله بالألفاظ الموهمة التي تحتمل الحق والباطل،قال تعالى: ﴿ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾.

- ذهب المالكية وغيرهم إلى الأخذ بقاعدة سد الذرائع؛ وهي المسألة التي ظاهرها الإباحة ويتوصل بها إلى فعل المحظور. ومن جملة أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ فقد نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم فإنهم كانوا يخاطبون بها النبيﷺ ويقصدون بها السب[٣].

- دل قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم

---

(١) الأم للشافعي ٤/ ٢١٣.

(٢) المغني ٩/ ٢٢٨ وذكر القرطبي الوجوب عند تفسيره لقوله تعالى (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) ٢/ ٢٤٢.

(٣) انظر: الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٠٠، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٣/ ١٣٧.

﴿ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ على أن كراهة نزول الخير للمؤمنين حرام.

- النسخ ممكن عقلا لا يترتب على وقوعه مستحيل، واقع في الشرع، وقد حدث بين الشرائع، ومن أمثلة ذلك في التوراة أن زواج الأخ بأخته كان جائزاً في زمن آدم عليه السلام، وهذا واضح في قصة قابيل وهابيل. بل في كتبهم أن هذا الزواج كان في عهد إبراهيم عليه السلام حيث قال: (وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة) "سفر التكوين.الإصحاح العشرون. رقم ١٢". ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك وصار هذا النوع من الزواج محرماً في الشريعة الموسوية؛ ففي سفر التثنية الإصحاح السابع والعشرين رقم ٢٢: (ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه).

ومن أمثلته في الشريعة نفسها ما ورد في إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر رقم ٢٤: (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) وهذا بأسلوب القصر: النفي والاستثناء، وجاء في إنجيل مرقس الإصحاح السادس عشر رقم ١٥: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها). فهذان نصان لا بد أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر.

وقد نسخت شريعة الإسلام ما قبلها كما سبق، وحدث النسخ في بعض الأحكام على خلاف بين العلماء المضيقين والموسعين في عدد حدوثه، لكن جمهور الأمة متفقون على وقوع النسخ.

- تحريم سؤال التعنت؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ١٠٨.

- في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ١٠٩ بيان لحكم منسأ، أي مؤخر إلى غاية وأمد وهو حكم قال المشركين، فالآيات التي تأمر بالعفو والصفح لها غاية وهي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ١٠٩.

- من لم يتبين الحق ويعلمه فهو معذور بجهله، أما إذا علم المرء الحق وتبينه فلا عذر له، قال تعالى في معرض ذم اليهود ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ١٠٩.

- حرمة منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه. وحرمة السعي في خرابها.

- استدل الحنفية بالآية على كراهة إغلاق باب المسجد لأنه يشبه المنع من الصلاة، وقيل: لا بأس به إذا خيف على متاع المسجد.[١]

- عدم جواز منع النساء من الذهاب للمساجد، قال رسول الله: (**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**)[٢]. وقال بعضهم إن النهي للتنزيه لا للتحريم[٣].

- استدل بعض الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾ على أن الكافر لا يجوز له دخول المسجد بحال. وأجازه أبو حنيفة مطلقاً والشافعي بإذن المسلمين. فيما عدا مكة.

قال الصنعاني في الآية: "ولا يتم بها دليل على تحريم المساجد على المشركين؛ لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له الحَكَمة والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة.. أما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة"[٤].

- لا ينبغي أن تستغل المساجد في غير ذكر الله، كالبيع والشراء، وقد كرهه جمهور أهل العلم[٥]. قال رسول الله ﷺ (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا ربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه الضالة فقولوا: لا رد الله عليك)[٦].

- إذا صلى إلى جهة مجتهداً معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة فإن صلاته تصح. وهو مذهب جماعة

---

(١) البحر الرائق لزين الدين الحنفي ٢/ ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٨٥٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٤٤٢عن عبد الله بن عمر.

(٣) المجموع للنووي ٤/ ١٧١.

(٤) سبل السلام للصنعاني١/ ١٥٤.

(٥) انظر: تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ٣٥١ والمجموع للنووي ٢/ ٢٠٠ ونيل الأوطار للشوكاني ٢/ ١٦٧.

(٦) أخرجه ابن خريمة في صحيحه برقم/ ١٣٠٥، والحاكم في المستدرك برقم/ ٢٣٣٩ وصححه على شرط مسلم، والترمذي برقم/ ١٣٢١ وحسنه.

من التابعين وأبي حنيفة وأحمد ومالك، إلا أن مالك قال يعيد استحساناً؛ ودليلهم ما ورد عن عامر بن ربيعة قال: "كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا، ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[(١)].

- يجوز للمصلي أن يصلي النافلة على دابته حيث توجهت به؛ لحديث عبد الله بن عمر: "قال كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله)[(٢)].

- استدل الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة؛ فلم يقل مللهم وبذلك يكون قد جعلهم ملة واحدة؛ وعلى هذا فإن اليهودي يرث النصراني والعكس، وكذا المجوسي. لأن الأصل إسلام وكفر ولا ثالث بينهما[(٣)].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الرد على القول الخاطئ يكون بكشف شبهته وبيان فساده، ويكون ذلك بالحجج المنطقية كطريقة السبر والتقسيم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾. ويكون أيضاً بالحجج التي تفحم الخصم، فلما ادعى اليهود أنهم يؤمنون بما أُنزل عليهم فقط رد الله قولهم وأبطل دعواهم بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم/ ٣٤٥، ٢٩٥٧ وقال: ليس إسناده بذاك، لكن يشهد له حديث جابر في نفس معناه عند الحاكم برقم/ ٧٤٣ فيصير هذا الحديث حسنا. وانظر فتح الباري لابن حجر ٤/ ١٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٣) انظر: المبسوط للسرخسي ٣٠/ ٣١، والحاوي الكبير للماوردي ٨/ ٨٠. وخالفهم في ذلك مالك فلم يجز توارثهما. وانظر الاستذكار لابن عبد البر ٥/ ٣٧٠.

- من أخلاق اليهود الرديئة التي سجلتها عليهم الآيات: الكذب والاجتراء على الغيب كما في قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾، والقول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فعلى المسلم أن يحذر هذه الأخلاق وإلا كان مشابهاً لليهود في بعض أوصافهم.

- وجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما، والتحذير من عقوقهما، وقد فصلت الآيات أبواب الإحسان إلى الوالدين، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء/ ٢٣، ٢٤].

- الإحسان إلى ذي القربى أجره مضاعف؛ إذ فيه أجران: أجر صلة الرحم وأجر الإحسان، والإحسان إليهما إحسان للأبوين من جهة. والإحسان إليهم مطلوب حتى لو كانوا يضمرون العداوة، قال رسول الله ﷺ: (أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح)(١).

- الإحسان إلى اليتامى وكفالتهم أمر مرغوب فيه، وقدمهم الله على المساكين لأنهم لا يستطيعوا رد المعروف فالنفس لا تميل إليهم، وقد اقترن اليتيم والمسكين في الإعطاء في أكثر من آية؛ منها قوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [البلد/ ١٤-١٦] والإحسان إليهما سبب لرقة القلب؛ فعن أبي هريرة أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال: (امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين)(٢).

- من أخلاق الإسلام: الإحسان إلى المساكين بالقول والفعل، وتفقد أحوالهم ورعايتهم،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٤٧٥ وصححه على شرط مسلم، وابن خريمة في صحيحه برقم / ٢٣٨٦ عن أم كلثوم بنت عقبة. قال الحافظ المنذري: ورجاله رجال الصحيح. الترغيب والترهيب ٢/ ١٨. ومعنى الكاشح: الذي يضمر العداوة. غريب الحديث للخطابي ١/ ٧١٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٣٨٧ عن أبي هريرة.قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.مجمع الزوائد ٨/ ١٦٠.

وحبهم، والسعي في قضاء حاجاتهم؛ قال رسول الله ﷺ:(الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار)(١).

- القول الحسن خلق حسن مع الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم. قال ابن عباس: "لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك"(٢). وفي أدب هذه الآية يقول القرطبي: "فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه/ ٤٤] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه"(٣).

- من الأخلاق القرآنية العظيمة خلق الإنصاف، وعدم التعميم في إطلاق الأحكام، وبيان ذلك أن القرآن عندما ذم اليهود بنقض العهد لم يعمم الحكم عليهم، وإنما وصم به فريقاً منهم فقال: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾ [آل عمران: ١١٣] وهذا غاية الإنصاف والعدالة.

- خلق الحسد من الأخلاق الذميمة، ومعناه تمني زوال النعمة من الغير، وقد اتصف به اليهود، فحسدوا المسلمين على فضل الله، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤] وقد دفعهم حسدهم إلى محبة إضلال المسلمين.

-حسد اليهود المسلمين فأمرهم الله أن يعفوا ويصفحوا، وهذا خلق إسلامي طيب مع الحاسد وغيره، وقد حسد يوسفَ أخوتُه فعفا عنهم، وحسد قابيل أخاه هابيل فلم يؤذه، فالأولى للمحسود أن يعفو ويصفح، ويستعين بالله على هؤلاء حتى يكفهم عن أذاه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٠٣٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٨٢ بنحوه عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير برقم/ ١٠٦٠٩ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٨/ ١٨٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٣٣.

- من الآداب الإسلامية مطالبة الخصم بالحجة والبرهان، وعدم الحكم قبل معرفة حجة الخصم، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١] و[النمل: ٦٤]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

- صاحب اليقين الصادق هو الذي ينتفع بالقرآن حقاً، قال تعالى ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، واليقين هو حياة القلب وقوته، وقد أثنى الله على أهله في أول السورة، وإذا كانت آيات الله المسطورة لا ينتفع بها إلا الموقنون فكذلك آياته المنظورة في الكون؛ قال تعالى ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٤] أما ضعيف اليقين فإن الآيات القرآنية والكونية لن تزيده إلا ضلالاً على ضلاله.

- تلاوة القرآن حق التلاوة أمر ديني. وأصل الكلمة في اللغة تعني الاتباع: قال ابن منظور: وتلا إذا اتبع فهو تال أي تابع[1]. فالمقصود من التلاوة الجانب اللفظي، والأشرف منه والأعظم جانب الاتباع والعمل، وبهذا فسر السلف الآية؛ قال الطبري: "والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله"[2]. وعلى هذا فللسان حظ من التلاوة بالنطق، وكذا العقل بالفهم والقلب بالاتعاظ والتدبر والجوارح بالعمل، والله الموفق.

د- الجوانب التربوية:

- ثبت من كلام الله أن بني إسرائيل حرفوا كتابهم الذي نزل عليهم، وهذا يستلزم من المسلمين أن يكونوا حذرين فيما يأخذونه منهم، وقد أضير العقل المسلم بسبب كثرة الإسرائيليات التي تسللت إلى بعض كتب الأقدمين، وغالبها مما لا فائدة منه، وقد كان الصحابة الكرام حريصين على نقاء منهجهم التربوي فلم يَرِدوا هذه الكتب، ويشهد لذلك ما ورد عن

---

(١) لسان العرب مادة (تلا).

(٢) جامع البيان للطبري ٢/ ٥٦٩. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. النكت والعيون.

عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا ﴿ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم! ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم"[١].

- القراءة بلا فهم لا فائدة منها، وقد ذم الله أقواما من أهل الكتاب ووصفهم بأنهم أميون فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾، أي تلاوة. وهذا أحد أوجه تفسير لفظة الأماني. ومثل هذه القراءة لا تفيد صاحبها شيئاً؛ لأنه لم يفقه ما قرأ، وإذا كان الله قد ذم الأولين ففي هذا تحذير للآخرين، عن سعيد بنُ جبير، قال: "من قرأ القرآنَ ثم لم يُفسِّره، كان كالأعمى"[٢].

- من الأساليب التربوية تأكيد الشيء بما هو معلوم، قال تعالى: ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾.

- كل ثمن يأخذه الإنسان في الدنيا نتيجة التحريف والتبديل فهو قليل لا قيمة له بجوار الآخرة ونعيمها.

- انحراف العالم أشد من انحراف غيره، لأنه فعل ذلك عن عمد؛ فهو قد عرف وأنكر، قال الجصاص: " وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أَن العَالِم بالحقِّ المعَاند فيه أَبعد من الرّشد وأَقرب إلى اليأس من الصلاح من الجاهل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ يفيد زوال الطَّمع في رشدهم لمكابرتهم الحق بعد العلم به"[٣].

- الاقتران بين الترغيب والترهيب، وذكر المؤمنين بعد الكافرين منهج تربوي قرآني. فهو يُعرِّف

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٥٣٩. ومعنى لم يشب أي لم يخلط؛ لأنه لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل بخلاف التوراة. عمدة القاري للعيني ٢٥/ ٧٥.

(٢) أخرجه عنه الطبري في جامع البيان ١/ ٨١ برقم/ ٨٧ وصحح الشيخ شاكر إسناده.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٤٦. ونقله عنه الرازي في التفسير الكبير ٣/ ١٢٥.

القارئ حال الفريقين ومآلهم، ومن فوائده أنه يجعل المؤمن يتقلب بين الخوف والرجاء، وهذه قاعدة تربوية قرآنية؛ قال الشاطبي: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله. ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً، فهو راجع إلى الترجية والتخويف"(١).

- التخويف من اختيار الدنيا على الآخرة، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ فمن باع دينه بعرض من دنياه فقد عرضَّ نفسه للفتن، وأتى باباً من أبواب كبائر الذنوب.

- ما يصيب الإنسان من المرض المعنوي في قلبه إنما هو أثر من آثار ذنبه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المطففين: ١٤])(٢).

- العناد يورث الكفر؛ فإذا أنكر العالم ما يعلم وجحده أداه ذلك إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ وليس هذا بأول مخارق بني إسرائيل؛ فقد فعلوا ذلك مع نبيهم موسى، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾[الصف: ٥] وفي حق عيسى قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

- التعصب بالباطل من سمات اليهود، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾. وكذلك أيضاً عدم الاستجابة للبينات، فعندما تأتيهم البينات على

---

(١) الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٥٨. وقد ذكر بعدها أمثلة تطبيقية للقرآن المدني من سورة البقرة وللمكي من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم / ٣٩٠٨ وصححه على شرطهما، والترمذي في سننه برقم/ ٣٣٣٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم/ ٤٢٤٤.

الحق يتخذوا العجل إلها!

- إذا أعرض الإنسان عن الحق دخل في قلبه الباطل، قال تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ فسبب محبتهم لعبادة العجل أن نفوسهم فارغة عن الحق، وقديما قيل: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك عن الحق[١].

-أعلى درجات السمع: القبول والاستجابة لما يُسمَع، وأسوأ مراتب السمع: السمع والعصيان. وقد وردا معا في قوله تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾.

- ذم القرآن حرص اليهود على الحياة الذليلة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ والحياة إن لم تكن لهدف وقيمة فلا خير فيها ولا فائدة من عمر يمرُّ سبهللا[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ على أن التعمير "طول العمر" لا يفيد صاحبه شيئا إذا لم يصحبه تقوى وإيمان، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي الناس شر؟ فقال: من طال عمره وساء عمله[٣].

- من أساليب القرآن في مواجهة المعاندين، أسلوب التحدي، وقد تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بسورة من مثله وبيَّن عجزهم عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ ،وتحدى اليهود في أكثر من موطن؛ منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ وبيَّن عجزهم في قوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾.

- يبين الله تعالى للمؤمنين في كثير من الآيات أن الكافرين ليسوا فقط أعداء للمؤمنين، وإنما هم

---

(١) وتنسب هذه المقولة إلى الحلاج: كما في تاريخ بغداد ٨/ ١١٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٣/ ٤٧.

(٢) أي فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة. تاج العروس للزبيدي ٢٩/ ١٧٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٢٥٦ والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ٦٣١٨ و الترمذي في سننه برقم/ ٢٣٣٠ وقال: حسن صحيح، والدارمي في سننه برقم/ ٢٧٤٢ واحمد في مسنده ٥/ ٤٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣: إسناده جيد.

أعداء لله تبارك وتعالى؛ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾[الممتحنة/ ١] وهذا تربية للمؤمنين وتعليم لهم أن يكونوا على ثقة من معية الله ومن نصرته لهم.

- ينبغي على المعلم أن يوجه المتعلم التوجيه الصحيح؛ فالملكان اللذان نزلا الأرض ليعلما الناس السحر كانا يعرفان الناس حكم تعلمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ فَلَا تَكۡفُرۡ ﴾ وبهذا أوضحا للناس أنهما فتنة للعباد، وأوضحا للمتعلم أنه قد يكفر إذا تعلم السحر وعمل به.

- من أساليب القرآن الحكيمة في توجيه المؤمنين نداؤهم بالوصف المحبب إليهم، وهو وصف الإيمان.

- من الأمور التي ربى القرآن عليها أتباعه عدم مشابهة الكافرين عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً في أهوائهم، والآيات في ذلك كثيرة. قال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذا نهي للأمة عن اتباع أهواء أهل الكتاب، ومن المواقف العملية في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾.

- مما يحرص عليه المربي الناجح أن يوفر البديل الحلال إذا ذكر شيئاً محرماً، فالقرآن عندما نهى المؤمنين عن ذكر لفظ راعنا، أعطاهم البديل المشروع وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ فهذا بديل عن اللفظ المحرم، يعين على التخلص من الحرام، ويغني الأتباع عن إتيانه ومقارفته.

- تعريف الأعداء، وكشف باطلهم، وبيان ما يكنونه للمؤمنين من شر، منهج قرآني ربّي الحق المسلمين عليه؛ حتى يحذروا من مكر الماكرين، ولا يغتروا بمعسول القول وليِّن الحديث.

- النسخ أسلوب تربوي حكيم، يصلح الأفراد، ويخفف عنهم،وفي حكمة النسخ بالأخف يقول الإمام الشافعي: "إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم، لا

معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وفرض فيه فرائض أثبتها وأخرى نسخها، رحمة لخلقه: بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمة، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جنته، والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ. فله الحمد على نعمه"[1]

وهذا الكلام واضح في مسألة النسخ بالأخف، أما في النسخ بالأثقل فإنه أسلوب تربوي حكيم يأخذ الناس بالتدرج في الأحكام حتى يألفوا الأمر ويهون عليهم فعله بلا مشقة، وتلك سياسة حكيمة تسوس الناس إلى الخير برفق حتى يسلس قيادهم، ولو نزل الحكم ثقيلاً من أوله فلربما قالوا: لا ندع فعله أبداً.

- التدرج في معاملة الكفار منهج قرآني لتربية الجماعة المؤمنة؛ فقد ابتدأت الآيات بالعفو والصفح ثم تدرج الحكم إلى الأمر بقتال من قاتل المسلمين، ثم انتقل إلى المرحلة الثالثة وهي قتال المشركين كافة.

- تشابه القلوب يؤدي إلى تشابه الأقوال وكذا الأفعال، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقد تشابهت أقوال وأفعال المكذبين؛ قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت:٤٣] وقال في حق أهل الكتابين: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة:٣٠].

- مهمة المربي المقتدي بالنبي ﷺ أن يكون مبشراً للطائعين ومنذراً للعاصين، قال تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

- من ضلَّ فإنما يضل على نفسه، ولن يضر الداعي أو المربي شيئاً، لأنه لن يُسئل عن النتائج، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٠٦.

- التفاضل وارد بين الأمم وحتى بين الأنبياء، قال تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٦٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تحدث هذا المقطع عن مواقف بني إسرائيل مع النبي ﷺ وأصحابه ومع القرآن الكريم وقد عددت الآيات كثيرا من مواقف اليهود ونجملها فيما يلي:

١-سماع كتاب الله المنزل ثم تحريفه وهم يعلمون، ٢-لوم بعضهم البعض على نشر العلم الموجود في كتبهم، ٣-كتابة الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله لنيل بعض أعراض الدنيا، ٤-زعمهم أن النار لن تمسهم سوى أيام، ٥- تركهم أوامر التوراة من التوحيد والإحسان إلى الوالدين والقول الحسن وغير ذلك، ٦-مخالفتهم الميثاق بعدم سفك الدماء حيث سفكوا دماء بعضهم وأخرجوا بعضهم من ديارهم، ٧-تناقضهم؛ فبعد أن قتلوا وأخرجوا فادوا أسراهم، ٨-كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون، ٩-عندما دعوا لكتاب الله قالوا إن قلوبهم غلف، ١٠-كفرهم بالقرآن المصدق لما معهم ١١- كانوا يستفتحون على الكفار بالنبي المبعوث، ١٢-استبعاد الإيمان بالكتب المنزلة من غير أنبيائهم، ١٣-قولهم سمعنا وعصينا عندما أمروا بالعمل بما في التوراة، ١٤- ادعوا أن الآخرة خالصة لهم ثم رفضوا تمني الموت وهذا تناقض عجيب، ١٥-حرصهم الشديد على طول الحياة في الدنيا بأي وضع كان، ١٦-ادعاؤهم عداوة أمين الوحي جبريل، ١٧- نقض فريق منهم عهودهم مع الناس، ١٨-نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم واتباعهم السحر، ١٩-تعلمهم السحر للإفساد بين الرجل وزوجه، ٢٠-إمالتهم الكلام للنبي محمد ﷺ بقصد الإساءة والسب بقول (راعنا)، ٢١- حسدهم المؤمنين وتمنيهم ألا ينزل عليهم خير من ربهم، ٢٢-محبتهم أن يرتد المسلمون كفاراً حسداً من بعد معرفتهم بالحق الذي مع المسلمين، ٢٣-ادعاؤهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، ٢٤-منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها، ٢٥- قولهم: اتخذ الله ولداً، ٢٦-عدم رضاهم عن المسلمين حتى

يتبعوا ملتهم[١].

ولم يكتف القرآن بدمغهم بهذه المواقف المسجلة عليهم؛ بل ردَّ عليهم باطلهم من زعمهم أنهم لن يدخلوا النار سوى أيام معدودة؛ فطالبهم بالبرهان، وبين سنة الله في الكون من تعذيب العاصي وإثابة المطيع، ثم أثبت لهم أنهم قد أحاطت بهم خطاياهم فلا مطمع في نجاتهم. وكذلك ردَّ عليهم في زعمهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط، وردَّ عليهم زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وزعمهم أن لله ولداً، وأثبت تناقضهم في أكثر من موطن.

وما سبق متصل بمحوري السورة بأكثر من وجه؛ فهو يعلِّم المسلمين كيفية مجادلة هؤلاء القوم وإفحامهم، ويعدّهم للمواجهة معهم، ويحذرهم من اتباعهم ولو في مجرد اللفظ الذي يوهم السوء. وذلك حتى يتسنموا ذروة العلا بلا شائبة مشابهة لمن خلا.

(١) انظر: المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم مخطوط ص ٦٠، ٦١. بحث: المناسبات وأثرها: ص٤٠ بتصرف.

المقطع الثالث: دعوة إبراهيم وتبرئتها من انتساب اليهود والنصارى إليها [١٢٤-١٤١]

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤ -١٤١]

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد أن بيت الآيات السابقة نعم الله على اليهود، وذكرت بغيهم وعنادهم، توجهت الآيات بالاحتجاج عليهم وعلى المشركين، وكلا الفريقين يزعم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام. فبينت الآيات الكريمة إمامة إبراهيم، وأوليته في الإسلام وبناء بيت التوحيد في الأرض وذكرت من يستحق وراثته بحق، ومن أولى الناس.

ويظهر التناسب واضحاً بين هذه الآيات والتي قبلها؛ فقد ادعى اليهود والنصارى أنهم أصحاب الجنة فقالوا ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [١١١] فردّ الله هنا على هذا الادعاء وبيَّن أنه لن ينال أحد منزلة عنده إلا بعد الابتلاء، وبيَّن أيضاً أن مجرد الانتساب إلى إبراهيم لا يفيد صاحبه شيئاً؛ فعندما دعا إبراهيم بالإمامة لذريته قال له ربه ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [١٢٤].

وإذا كان المقطع السابق قد كشف أن اليهود ومن إليهم قد حاولوا أن يمنعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام، فإن هذا المقطع أوضح بجلاء أن هذا البيت المبارك أمن للناس وموئل للتوحيد لا مكان للشرك فيه بحال، وأطهر بقعة في الدنيا لا يصح تدنيسه بالأصنام ولا بأي مظهر من مظاهر الشرك.

وقد ادعى هؤلاء لله الولد، وهذا دليل على انقطاع نسبهم الروحي بإبراهيم؛ لأنه دعا ربه أنه يهبه ذرية مسلمة.

ولم يظهر شرك هؤلاء في أمر الإلهيات فقط، بل أنكروا أمر النبي الخاتم وكفروا به، ولو صدقوا في نسبتهم لإبراهيم عليه السلام لعلموا أنه قد دعا ربه قائلا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [١٢٩].

ولم يكن الأمر قاصراً على إبراهيم وحده، فإذا كانوا زعموا في المقطع السابق الإيمان بما أنزل عليهم فقالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ [٩١] فإن أنبيائهم كانوا على نفس النهج، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [١٣٣] وليس أنبياء بني إسرائيل بدعاً من الأمر، فكل المرسلين كانوا على نهج التوحيد، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [١٣٦].

ومن أوجه المناسبات إعادة التذكير ببعض القضايا الواردة في المقطع السابق بأسلوب آخر وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يذكِّر الله تعالى نبيه محمداً بتاريخ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فيقول: اذكر إذ عامل الله نبيه وخليله إبراهيم معاملة المختبر بأن ابتلاه بكلمات شرعية هي مجموع التكاليف والأوامر والنواهي[1] فأداهن وأتمهن كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم/ ٣٧] فاستحق بذلك عِظَم المنزلة ورفعة القدر بأن يكون إماماً يأتم ويقتدي به الناس جميعاً.

فدعا ربه قائلاً: واجعل بعضاً من ذريتي يا رب أئمة للناس، ونظيره دعاؤه لربه: ﴿ رَبِّ

(١) ذكر المفسرون هنا أقوالاً عدة؛ فمن قائل: إنها خصال الفطرة، وقيل: ثلاثون خصلة من خصال الإسلام، في سورة براءة، والأحزاب، والمؤمنون، وقيل: ما جاء بعد الآية من الإمامة وتطهير البيت، قال الطبري معلقاً على هذه الأقوال:" ولا يجوز الجزم مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع" ومن بلاغة القرآن أنه ذكرها مجملة لأن الغرض ليس تفصيل شريعته ولا بسط قصته عليه السلام وإنما الغرض بيان فضله. انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/ ٧٠٣.

ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠] فأجابه الله إلى دعائه، لكنه مقيد بالصالحين فلن ينال وعد الله المؤكد بحراسة الدين وسياسة الدنيا من ظلم نفسه بالشرك.

ثم ذكرت الآية أعظم أثر لإمامة إبراهيم للناس وهو بناء البيت الحرام الذي خلق الله في قلوب الناس محبته والشوق إليه استجابة لدعوة أبي الأنبياء في قوله ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [إبراهيم:٣٧] فما من موحد إلا ويثوب أي يرجع إليه بقلبه في صلاته. ومنهم من يرجع إليه للحج والعمرة، والكل يُثاب بالمثوبة إليه؛ إذ هو الأمن الذي يأمن أهله والناس من حولهم يتخطفون قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ويأمن الناس فيه على أموالهم ودمائهم حتى إن أشجاره لتأمن من أن يصيبها القطع.

ومن اتصال اللاحقين بالسابقين أن الله أمر المؤمنين أن يتخذوا الموضع الذي قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى لهم، وقد يكون المعنى على العموم فيراد مكان قيامه للعبادة فيشمل مكة وأماكن الحج كلها، وقد امتثل النبي محمد الأمر فلما فرغ من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ الآية وصلى ركعتين[1]. والعموم أولى[2]، وقد فسر النبي العام ببعض ما ورد فيه، وقد كان إبراهيم عليه السلام هو الأمين على هذا المكان؛ وقد أوصاه الله وصية مؤكدة بأن يقوم هو وولده إسماعيل بتطهير بيت التوحيد من كل نجس ورجس حسي أو معنوي ليكون مهيأ لمن يطوف به أو يقيم به للعبادة والصلاة المعبر عنها بأعظم أركانها وهو الركوع والسجود.

وقد تتابعت منن الله على أهل المكان ببركة دعاء إبراهيم حيث سأل ربه أن يكون هذا المكان القفر بلداً مسكوناً ويكون آمناً أهله من الجبارين والمستأصلين وأن يهبهم الله من كل

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٥٠ عن جابر.

(٢) قال سيد قطب: مقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره؛ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً. وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون. في ظلال القرآن ١/ ١١٣.

الثمرات فاستجاب الله دعائه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧].

وقد قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة فقيده في طلبه بالمؤمنين فقط تأدباً مع الله، لكن الله عمم عطاءه للجميع مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٠] لكن الكافر يمتع في الدنيا فقط، وهو متاع لو يعلمون قليل، فإذا جاءت الآخرة ذهب بغير اختياره إلى العذاب المؤلم وبئس المرد والمرجع، قال تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل: ١١٧] .

وبعد أن بينت الآيات النعم الحسية على العرب من أبناء إسماعيل ذكَّرتهم بالنعم المعنوية من بناء البيت، وجاء التذكير بصيغة المضارع (يرفع) ليستحضر القارئ والسامع صورة البناء ويتمثلها أمامه وقت أن رفع إبراهيم الأساس وولده إسماعيل معه يعاونه، وهذا استحضار جميل لهذا المشهد الرائع نراه متمثلاً أمامنا، مما يصل حاضر الأمة بماضيها.

وكانت قواعد البيت من قديم الزمان، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦] وعن ابن عباس قال: " القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك"[1]، وكان إبراهيم وإسماعيل وقت بنائهما يتضرعان إلى ربهما أن يقع عملهما منه موقع الرضا والقبول وذلك لأنه السميع لكلامهما العليم بأحوالهما.

ثم أكَّدا ارتباط البيت بملة الإسلام فدعوا الله ربهما قائلَين: ربنا ثبتنا على الإسلام وأدم علينا نعمة الانقياد واجعلنا خاضعين منقادين لأحكامك، واجعل هذا الخير باقياً في أعقابنا، فهم أولى الناس بدعوتنا، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦] وعلمنا يا رب مناسك الحج وشرائع الدين كلها تعليماً واضحاً كالرؤية[2]، وإنا مع كل هذا يا ربنا لا غنى

---

(١) تفسير عبد الرزاق١ / ٥٩ وصححه الحافظ في فتح الباري ٨/ ١٧٠.

(٢) قال الشيخ محمد أبو زهرة:" وإني أميل إلى تعميم مدلول المناسك ليشمل كل العبادات الشرعية". زهرة التفاسير ١/ ٤٠٧.

لنا عن رحمتك، فندعوك ضارعين أن تتوب علينا من تقصيرنا مما هو مقتضى طبع البشر، يقول أبو حامد الغزالي: "وقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى في الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه"[1]. هذا هو اللائق بمقام الأنبياء إذ ليست توبتهم كتوبة العصاة والمذنبين.

وفي دعائهما بهذا المكان تعليم للناس جميعاً أن هذا مكان التوبة والدعاء بالمغفرة، ثم عللا رجاءهما في قبول التوبة بأن الله تعالى هو عظيم التوبة واسع الرحمة بعبادة.

وظاهر هذا الدعاء أنه يخص العرب، إذ الحديث عن نعمة الله عليهم، ثم إن ذرية إبراهيم وإسماعيل معاً هم العرب وحسب، ثم أكملوا دعاءهم لذريتهم بأن يتفضل الله عليهم ويبعث في العرب إلى الدنيا كلها رسولاً منهم يكون أعرف بحالهم وليبين لهم فيشرفوا به ويقوم بثلاث مهام:

أولها: تلاوة آيات الله الكونية والشرعية عليهم.

وثانيها: يعلمهم الكتاب تلاوة ومعنى، ويفقههم في أسرار الأحكام. وإذا كان نبي الله عيسى قد امتن الله عليه وورد في حقه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[آل عمران/ ٤٨] فإن الأمة كلها قد بيَّن خليل الرحمن أنها مقصودة بتعلم الكتاب والحكمة لعموم أفرادها، وهذا شرف وتكريم ما بعده تكريم.

وثالثها: وهي ثمرة الأوليين وشرط قبولهما، ألا وهي تطهيرهم من أدران الشرك ورديء الخلق، بتزكية نفوسهم وطهارتها، وهذا إشارة إلى المقصود الأصلي لبعثة نبينا محمد الوارد في قولهﷺ: (بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[2].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ٨٧.

(٢) رواه عن أبي هريرة: الحاكم في المستدرك برقم/ ٤٢٢١ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٢، وأحمد٢/ ٣٨١ بلفظ: إنما بعثت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٨: ورجاله رجال الصحيح.

وأعظِم به من شرف أن ترث أمتنا خليل الرحمن وأن نكون أولى الناس به، وأن تتحقق فينا دعوته كما قال النبي ﷺ :(أنا دعوة أبي إبراهيم)[1].

وبعد هذا العرض القرآني لسيرة أبي الأنبياء خليل الرحمن في بناء البيت ودعائه وتضرعه، يأتي ذكر النتيجة القرآنية لما سبق، والمعنى: من مِن العقلاء يزهد ويربأ بنفسه عن ملة أبيه إبراهيم؟

إنه لا يفعل ذلك إلا من استخف نفسه وامتهنها فأهلكها؛ لأن الله تعالى رفع درجته في الدار الأولى والآخرة؛ أما في الدنيا فقد جعله صفوة الأنبياء وإمامهم؛ عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال ﷺ: (ذاك إبراهيم)[2]، وفي الآخرة فإنه من جملة أهل الصلاح والطاعة، قال تعالى في حقه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢٢].

وكان هذا الاصطفاء من الله لإبراهيم الخليل وقت أن قال له ربه استسلم فأجاب على الفور: أسلمت وجهي للذي خلقني ورزقني، ولم يكتف بهذا الفضل لنفسه وإنما أشرك معه بنيه، فوصى بهذه الكلمة وبهذا الدين بنيه، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٨] فسَّر ابن زيد قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ فقرأ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ وقال: جعل هذه باقية في عقبه، قال:الإسلام،وقرأ: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج/ ٧٨] فقرأ: ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾.[3]

وكما وصىَّ إبراهيم عليه السلام وصىَّ يعقوب ليفهم بنو إسرائيل ذلك، فقال لبنيه: إن الله

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٥٦٦ وصححه على شرطهما، وابن حبان في صحيحه برقم / ٦٤٠٤،وأحمد في مسنده برقم/ ١٧١٩٠ . قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٢٣: إسناده جيد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٦٩.

(٣) جامع البيان للطبري ٢١/ ٥٩٠.

أعطاكم صفوة الأديان وشرعه وارتضاه لكم فداوموا عليه في كل وقت فإذا جاءكم الموت في أي لحظة وعلى أي حال كنتم من المسلمين لله رب العالمين.

وبعد أن ذكرت الآيات وصية يعقوب لبني إسرائيل يتوجه الخطاب إلى اليهود منكراً عليهم زعمهم أن يعقوب كان على اليهودية فيخاطبهم: أكنتم حاضرين إذ حضرت مقدمات الموت ومبادؤه يعقوب وعلمتم كيف سأل أبناءه سؤال تقرير وتثبيت: ما تعبدون بعد موتي؟ فأجابوا جميعاً: إنا على نهجك سائرون ولطريقتك وطريق آبائك مقتدون، فلن نعبد إلا من توجهتم له بالعبادة، هذا هو سبيل أبيك إسحق وجدك إبراهيم وعمك إسماعيل، ومعلوم أن العم يقال له أب، قال عليه السلام: (عم الرجل صنو أبيه)[1] لقد توجه هؤلاء جميعاً إلى الله بالعبادة ونحن أيضاً نخصه وحده بالعبادة إلهاً واحداً لا شريك ونحن له مستسلمون.

لماذا يدعي اليهود إذن النسبة إلى هؤلاء القوم الصالحين وهم ليسوا منهم في شيء؟ هل يحسبون أن مجرد النسب ينفعهم ؟ كلا، فقد ذهب يعقوب وبنوه وأبناؤهم بخير عملهم فلم ينتفع من بعدهم بهم، وكذلك أنتم لن ينفعكم إلا ما عملتم وقدمتم، ولن تُسئلوا عن عملهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٦-٤١] .

وبعد أن ردت الآية على زعمهم أن يعقوب على ملتهم ردت عليهم كذلك ما أرادوه من دعوة الناس إلى دين اليهودية والنصرانية وأبطلت قول اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وكذلك قول النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. فأبطلت كلامهم أولا بحرف (بل) الذي يفيد معنى إبطال الكلام[2]، وأعطت للنبي الحجة عليهم: وهي الانتساب إلى ملة إبراهيم الذي يتشرف

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩٨٣ عن أبي هريرة.

(٢) قال أبو القاسم الزجاجي: بل تأتي لتدارك كلام غلط فيه تقول رأيت زيداً بل عمراً، وتكون لترك شيء من الكلام وأخذ في غيره وهي في القرآن بهذا المعنى كثير. حروف المعاني ص١٥.

الكل بالانتساب إليه؛ فقد كان خليل الرحمن مائلاً عن كل دين باطل، فلا يغتر المشركون بهذا فإنه ما كان من المشركين. وهو الأولى بالاتباع مما دعوا إليه.

وورد أن عبد الله بن صوريا- وهو يهودي- قال للنبي: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك فنزلت الآية(١).

ثم وصلت الآيات للمؤمنين منهج وحدة الدين الإسلامي في كل عصر، وفصلت لهم ملة السابقين، ووجهتم إلى تحقيق وحدة العقيدة والدعوة فأمرتهم أن يقولوا : آمنا بالله وحده وآمنا بكتابه المنزل إلينا، وكذلك آمنا بكل ما نزل على السابقين وما تعبدنا الله من صحف إبراهيم وما نزل إلى يعقوب وإلى بنيه الاثني عشر ناصحاً لهم وموجهاً، وكذلك ما أوتي موسى من التوراة وما أوتي عيسى من الإنجيل، وعلى وجه العموم: كل ما جاء به الأنبياء السابقون، وليس في إيماننا هذا أي انتقاص من أحد، بل كلهم في الإيمان على قدم سواء، لا نفرق بين أحد منهم، فهم قادة مسلمون لله ونحن على هديهم مسلمون.

ولأن هذه الآية قد جمعت أصول الإيمان، وبينت وحدة اتصال دعوة الإسلام بكل ما جاء من عند الله، لهذا فإن النبي كان كثيراً ما يقرأ بها في الركعة الأولى من سنة الفجر(٢).

هذه هي عقيدتنا وهذا منهجنا، فإن آمن السابقون إيماناً مثل إيماننا فقد حققوا الخير والهدى لأنفسهم، وإن أبو إلا الإعراض والمخالفة والمنازعة فلن يكونوا إلا منغمسين في العداوة والإيذاء وشق الصف وعندئذ فإن الله سيكفي عباده المؤمنين ضررهم وأذاهم، إذ هو السميع لكلامهم العليم بأحوالنا وأحوالهم.

لئن ظن السابقون أن تعميد الطفل وغمسه في الماء المقدس يصبغه ويجعله على دينهم فإننا

---

(١) قال ابن كثير ١/ ٢٤٤ وسنده حسن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس برقم/ ٧٢٧، رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة برقم/ ١٢٥٩.

مؤمنون، وقد صبغنا الله صبغة لا تزول أبداً[١]، ولا أحسن من هذه الصبغة، قال ابن عطية: "وسمى الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره"[٢]. فقد صبغنا بهذا الدين وتوجهنا بالعبادة لله وحده لا للأحبار ولا للرهبان.

أيا من تزعمون أنكم أبناء الله وأحباؤه وتجادلوننا في دين الله وفي اصطفاء الله لنا كيف تحاجوننا في الله ونحن وأنتم منتسبون إليه؟ وليس أحد الجنسين بأولى من الجنس الآخر، ولا يقرب عنده سبحانه إلا العمل الصالح؛ فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وإن أعمالنا ليزكيها الإخلاص وطلب الثواب منه وحده سبحانه، ولا نزعم أن الأولين كانوا على اليهودية والنصرانية، فما كان إبراهيم ولا بنوه إلا مسلمين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران/ ٦٧] وما كانت التوراة والإنجيل إلا من بعده هو وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنوه، وإن كان عندكم من علم بغير ذلك فأجيبونا: أأنتم أعلم بهذا أم الله الذي خلقنا وخلقهم؟ إنه لا أحد أظلم منكم لكتمانكم شهادة الحق على الأنبياء جميعاً وشهادة الحق لنبي الهدى محمد ﷺ.

ولمَّا وصل السياق إلى هذا الحد آن أن يظهر التمايز؛ فقد بان أن هؤلاء القوم لا خير يرتجى منهم فلتبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ، تطوى فيها سيرة هؤلاء ليحل محلهم من يسير على الجادة، قال محمد قطب: " ثم يختتم السياق بصيغة المفاصلة التي تفصل بين الأمتين، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ليبدأ عهد الأمة الثانية، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾"[٣][١٤١].

---

(١) وصبغة هنا مؤكد منصوب بتوكيده لنفسه، قال سيبويه في الكتاب: باب: ما يكون المصدر فيه توكيداً لنفسه نصباً ١/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢١٦.

(٣) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص٢٩٩.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

-في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دليل على عصمة الأنبياء؛ لأن العهد هو الإمامة. قال سعد الدين التفتازاني: "لو صدر عنهم - أي الأنبياء- الذنب لزم أمور كلها منتفية... ومنها: عدم نيلهم عهد النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن المراد به النبوة أو الإمامة التي دونها"(١).

- التوسل والدعاء إلى الله يكون بأسمائه الحسنى، وقد سأل إبراهيم ربه التوبة ولذلك توسل في دعائه باسم التواب، فقال ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

- الهداية الحقة ليست مع اليهودية ولا مع النصرانية، وإنما تكون باتباع ملة إبراهيم الذي ورثها محمد ﷺ وصار هو وأمته أولى الناس بها.

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾على نبوة إخوة يوسف جميعاً، قال ابن كثير: وليس الاستدلال بها بقوي(٢). وقال في تفسيره: " **واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحي إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم**

---

(١) شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/ ١٩٤.وقال عضد الدين الإيجي: فإن حمل ما في الآية على عهد النبوة فذاك، وإن حمل على عهد الإمامة فبطريق الأولى؛ لأن من لا يستحق الأدنى لا يستحق الأعلى.المواقف ٣/ ٤٢٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير١/ ١٩٨.

إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم(١).

- في قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ دليل على إثبات الكسب للعبد، وأن العمل ينسب للإنسان الذي هو فاعله بقدرة أودعها الله فيه، قال شارح الطحاوية: "فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد. أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق لله تعالى والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر(٢).

- وجوب الإيمان بآيات الأنبياء عموما، وقد ثبت لدينا أن لكل نبي آية؛ وذلك بقول رسول الله: (ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)(٣).

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾على وجوب اتباع دين الإسلام من أصحاب الديانات السابقة، وأنه لا تحصل الهداية إلا بذلك.

- دل قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ على أن العبد يلزمه أن يصف الله بما وصف به نفسه؛ قال الشنقيطي: " الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة/ ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[النجم: ٣-٤] فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٧٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٥٠٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٦٩٦، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٥٢.

ورسوله بما يليق بالله جل وعلا[١].

ب- الأحكام الشرعية:

- لا يجوز تولي الظالم الإمامة في الدين أو الدنيا، قال الزمخشري: "قالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته. ولا تجب طاعته، ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة...... وعن ابن عيينة : لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة ؟[٢].

وقال ابن خويز منداد: وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً، ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته في الأحكام، غير أنه لا يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد[٣].

- وقد استنبط الفقهاء من الآية أن إمام الصلاة (الإمامة الصغرى) لا يجوز أن يكون ظالماً؛ قال الجصاص: "وهذا يدل أيضاً على أن أئمة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فساق ولا ظالمين؛ لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نصب منصب الائتمام به في أمور الدين ؛ لأن عهد الله هو أوامره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقبوله منهم والاقتداء بهم فيه[٤].

-في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ دليل على أن الأمن غير مختص بالبيت الحرام فقط، وإنما يشمل مكة كلها، وذلك كقوله تعالى:﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة/ ٩٥] والمقصود الحرم كله، ويؤكد ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [١٢٦].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ٢/ ١٨.
(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢١١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣٧٠.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٨٦.

- استدل الأحناف وجماعة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ على عدم قتال البغاة في الحرم، وكذلك الحربي وكل مباح الدم، لكن يمنع عنهم الطعام والشراب حتى يخرجوا. وذهب الشافعية وجماعة إلى جواز قتالهم، وإنما الممنوع أن ينصب عليها الحراب كغيرها من البلاد[١].

- استنبط الفقهاء من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ حكمة عدم تملك لقطة مكة؛ قال الخطيب الشربيني: "ويلزم اللاقط الإقامة للتعريف أو دفعها إلى الحاكم؛ والسر في ذلك أن حرم مكة مثابة للناس يعودون إليه مرة بعد الأخرى، فربما يعود مالكها من أجلها أو يبعث في طلبها، فكأنه جعل ماله به محفوظاً عليه"[٢].

- استنبط بعض الفقهاء من قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ استحباب المجاورة بمكة، وكرهه أبو حنيفة رحمه الله لمخافة قصور الناس عن القيام بحق المكان[٣].

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ حمل الحنفية والمالكية هاتين الركعتين على الوجوب اتباعاً لظاهر النص القرآني، وذهب غيرهم إلى الندب؛ فإن الفريضة تجزئ عنهما كما في تحية المسجد[٤].

- استدل الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ على جواز صلاة الفرض والنفل داخل الكعبة، قالوا: والآية دليل على جواز الصلاة فيه؛ إذ لا معنى لتطهير المكان لأجل الصلاة وهي لا تجوز في ذلك المكان[٥]. وقال

(١) راجع: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٧/ ١١٤، ومختصر خلافيات البيهقي ٤/ ٣٥٦.
(٢) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني ٢/ ٣٧٥.
(٣) حاشية ابن عابدين ٢/ ٥٢٤.
(٤) راجع: شرح فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٤٥٦، المغني لابن قدامة ٣/ ١٩١، ومغني المحتاج ١/ ٤٩٢، والتاج والإكليل ٣/ ١١٠.
(٥) انظر: تبيين الحقائق بشرح كنز الدقائق. ١/ ٢٥٠.

مالك: لا يصلي فيه الفرض.

- في قوله: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ سئل عبد الله بن عباس عن الطواف أفضل أو الصلاة؟ فقال: أما أهل مكة فالصلاة، وأما أهل الأمصار فالطواف[(١)]. قال الجصاص: "وهو على قول من تأول قوله الطائفين على الغرباء يدل على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة ؛ وذلك لأن قوله ذلك قد أفاد لا محالة الطواف للغرباء؛ إذ كانوا إنما يقصدونه للطواف"[(٢)].

- الأمر بتطهير البيت الحرام وكل المساجد.

- مشروعية الطواف بالبيت العتيق، وهو أنواع: طواف القدوم، طواف الزّيارة، طواف الوداع، طواف العمرة، طواف النّذر، طواف تحيّة المسجد الحرام، طواف التّطوّع.

- مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ على أن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها[(٣)]. وقد استدل بهذه الآية جمع من الأصوليين القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ[(٤)].

- اعتبار قول المحتضر مادام ذاكراً وواعياً لما يقول.

- استدل جماعة من أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم بقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٥٠٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٩٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٠٦.

(٤) انظر: المستصفي للغزالي ١/ ١٦٧، والإحكام للآمدى ٤/ ١٥٢، والإبهاج في شرح المنهاج للسبكي ٢/ ٢٧٨. والقول بهذا المذهب هو اتجاه الأحناف، أما الجمهور فقد ردوا على استدلال الأحناف بهذه الآية وبغيرها. انظر المراجع السابقة.

ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾على أن الجد بمنزلة الأب في الميراث وغيره، قال السرخسي: "والدليل عليه أن الجد عند عدم الأب يستحق اسم الأبوة قال الله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[الأعراف/ ٣١] ومن كنت ابنه فهو أبوك، وقال جل جلاله: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾وكان إبراهيم جداً. وقال عز وجل: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ [يوسف/ ٣٨] وكانا جدَّين له، وكذلك أيضاً في الحكم؛ فالجد له من الولاية عند عدم الأب ما للأب حتى أن ولايته تعم المال والنفس جميعاً بخلاف الإخوة والخلافة في الإرث نوع ولاية"[1].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الآداب العظيمة التي نستفيدها من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: الإنابة إلى الله والتضرع إليه، وعدم الإعجاب بالعمل. قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾.
- إذا دعا شخص وأمَّن الآخر فإن الدعاء يكون منهما ولهما معاً، فإبراهيم دعا وإسماعيل أمَّن، كما في قصة موسى وفرعون ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس:٨٩].
- كل إنسان مطالب بأن يسأل ربه التوبة؛ فقد قال إبراهيم: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾، وقال قال الله في حق خير خلقه محمد ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة/ ١١٧].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٢٩/ ١٨٢،وهو قول أبي بكر الصديق وعائشة وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري وعمران بن الحصين وأبو الدرداء وعبد الله بن الزبير ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين أن الجد عند عدم الأب يقوم مقام الأب في الإرث والحجب حتى يحجب الإخوة والأخوات من أي جانب كانوا وهو قول شريح وعطاء وعبد الله بن عتبة وبه أخذ أبو حنيفة. انظر السابق ٢٩/ ١٧٩، ١٨٠.

- قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾. فالإخلاص روح العبادة وثمرتها، ومعناه: تخليص النية من كل شائبة، وإفراد الله وحده بالوجهة والعمل. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥] قال الفضيل: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما"[١].

د- الجوانب التربوية:

- الإمامة لا تكون إلا بعد الابتلاء؛ فقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات، فلما أتمهن جعله إماماً للناس، وقد فقه الشافعي هذا الأمر فلما سئل: أيهما أفضل: الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال: "التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكِّن. ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنَّه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنَّه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف/ ٥٦] وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكِّن، قال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾[الأنبياء/ ٨٤] الآية"[٢].

- متاع الدنيا قليل، ولن ينفع الكافر تمتعه في الدنيا إذا انقلب إلى الآخرة فذاق العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ الشعراء/ ٢٠٥-٢٠٧] وقالﷺ: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٢/ ٩١.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ١/ ٢٦.

يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط)[1].

- كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وألا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه، ويستفاد هذا من الحصر في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي لك لا لغيرك[2].

- الحرص على قبول العمل ينبغي أن يكون أكثر من الحرص على العمل ذاته، فلا فائدة في العمل إذا لم يتقبله ربنا تعالى. وقدر ورد عن السلف حرصهم على قبول العمل أكثر من العمل؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: "وددت أني نسبت إلى روثة وأن الله تعالى تقبل مني حسنة واحدة من عملي"[3]. وقال فضالة بن عبيد: "لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة/ ٢٧]"[4].

- على الداعي أن يحرص للدعاء لذريته، وليكن قدوته في ذلك نبي الله إبراهيم؛ فقد دعا لذريته من بعده فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ وقد تكرر هذا الأمر منه فدعا أيضاً لذريته بالحرص على إقامة الصلاة فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم/ ٤٠].

- وكما يحرص المرء على الدعاء لذريته فإنه يقتدي كذلك بأبينا إبراهيم ويوصي ذريته بالدين كما وصى إبراهيم بنيه وكما وصى يعقوب بنيه؛ فإن المرء مطالب بأن يكون اهتمامه بأمر الدين لبنيه أكثر من أي أمر آخر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم/ ٦].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٨٠٧ عن أنس.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٤/ ٥٦.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٠٣ برقم٨٤٦.

(٤) رواه عنه ابن المبارك في الزهد ٢/ ١٩.

- البيت الحرام هو مهوى الأفئدة ومثابة الناس، تتعلق كل القلوب بمحبته وتعظيمه؛ فتعظيمه تعظيم للدين، بل إن ذهاب تعظيمه من النفوس أمارة وعلامة على ضياع الدين. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها فإذا ضيعوا ذلك هلكوا)[١].

- من مهام الرسالة: تزكية الناس وتطهير النفوس من أدرانها، وتحليتها بالأخلاق والأقوال والأفعال الطيبة، وقد دعا إبراهيم ربه بذلك لمن يأتي في ذريته من الأنبياء فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وقد استجاب الله هذا الدعاء، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة/ ٢]

- السفاهة هي في البعد عن الطريق المستقيم.

- مما يجب أن يحرص عليه المسلم: دعاء ربه أن يرزقه الثبات على الدين إلى أن يلقاه، وكان إبراهيم وبنوه حريصين على الدعاء بهذا؛ وكان نبينا محمد يدعو بهذا وهو النبي المعصوم؛ فعن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول:(اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك)[٢].

- اعتبار القدوة العملية؛ فهي أمر ضروري للتربية، ولذلك فإن أبناء يعقوب قد اعتبروا به وانتفعوا بما رأوه منه فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ فالابن يتأثر بأبيه، وينتفع بما يراه منه قبل أن يسمعه.

- قوله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ يبين أثر التربية الإسلامية في النفوس، وأنها تصبغ النفوس والأرواح

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه برقم/ ٣١١٠، وأحمد في مسنده ٤/ ٣٤٧ عن عياش بن أبي ربيعة. قال ابن حجر: وسنده حسن. فتح الباري٣/ ٤٤٩.

(٢) رواه الضياء في الأحاديث المختارة برقم/ ٢٢٩٠والطبراني في المعجم الأوسط برقم/ ٦٦١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٦: ورجاله ثقات.

والأجسام بالصبغة الربانية التي لا تزول. قال ابن الأنباري: العرب تقول: فلان يصبغ فلاناً في الشيء إذا أدخله فيه وألزمه إياه، كما يجعل الثوب لازماً للصبغ[١]. ودلالة لفظ الصبغة أيضاً تفيد معنى الوضوح والظهور كما يظهر اللون المصبوغ؛ فكذلك صبغة الدين تظهر آثارها على أهلها، قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح/ ٢٩].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ على أنه لا قيمة للنسب عند الله يوم القيامة، وما ينفع المرء إلا عمله الصالح، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

- ودلت الآية أيضاً على أن المسؤولية في الإسلام فردية، وأن الجزاء فردي؛ فكل إنسان مسؤول عن فعله، وسيحاسب وحده عليه،قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [٢٨٦].

- إذا ردَّ القول على صاحبه فعلى الراد أن يأتي بالصواب، ولا يكتفي برد القول الباطل؛ فإن من تمام إبطاله أن يأتي بالبديل الصالح. ومثال ذلك من الآيات أن الله لما أبطل قول اليهود والنصارى: ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ ذكر القول الصواب بعده وهو قوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ - المنهي عنه اتباع أهواء أهل الكتاب، أما الحق الذي عندهم فلا حرج من اتباعه، وقد أجاز الرسول ﷺ للأمة أن تنقل عن بني إسرائيل الأخبار الصادقة التي يروونها فقال: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[٢].

- من أشد المحرمات كتمان الشهادة، ومن أظلم الظلم كتمان الشهادة التي هي من عند الله، فمن كتم ما أنزل الله من الهدى والبينات استحق اللعنة من الله ومن الناس.

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٧٤ عن عبد الله بن عمرو.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصلت آيات هذا المقطع فيما بينها اتصالاً وثيقاً حتى قال أبو حيان: "وجاءت هذه الجمل من ابتداء ذكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه، على اختلاف معانيه وتعدّد مبانيه، كأنها جملة واحدة، في حسن مساقها ونظم اتساقها، مرتقية في الفصاحة إلى ذروة الإحسان، مفصحة أن بلاغتها خارجة عن طبع الإنسان"[1].

وهذا المقطع مرتبط تمام الارتباط بمحوري السورة معاً؛ فبعد أن انتهى الحديث في المقطع السابق عن بني إسرائيل وبين فساد مسلكهم واعوجاج طريقتهم جاء هذا المقطع ليدعوهم إلى طريق إبراهيم.

وقد أوضح هذا المقطع بجلاء أن الصلة قد انقطعت بين بني إسرائيل وبين نسبهم الروحي؛ فأبوهم إبراهيم الذي يشرفون بالنسبة إليه ما كان إلا مسلماً، وما أوصى بنيه إلا بالإسلام. بل إن أباهم الأقرب يعقوب قد أوصى بنيه بنفس الوصية، وما أوصى باليهودية ولا بالنصرانية.

وإبراهيم حينما أعطاه الله الإمامة طلبها لذريته، وقد بينت الآيات أن الإمامة مرتبطة بالبيت الحرام، وأن الوراثة الدينية ستنتقل إلى أمة الإسلام؛ فهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أصحاب البيت والقائمون بأمره، وهم الذين تحققت فيهم دعوة خليل الرحمن بإرسال النبي الخاتم فيهم..

فالبيت الحرام أعظم مظاهر إمامة إبراهيم، وهذا البيت وضع للناس على منهج الإسلام؛ ولذلك فإن الآيات تذكر وقت أن بنى إبراهيم وولده إسماعيل البيت وتبين دعاءهما بالثبات على الإسلام لهما ولذريتهما من بعدهما، وذلك دلالة واضحة على ارتباطنا بملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وارتباط الإمامة بالقبلة، وارتباط المسلمين بالقبلة.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٩٠.

ويبين هذا المقطع بوضوح أمر الوحدة الدينية بين الأنبياء والرسل؛ فهم جميعاً يدعون إلى إله واحد والكل يسلم وجهه إليه، وبهذا يعلم الجميع أن الإسلام إن هو إلا حلقة أخيرة في سلسلة طويلة امتدت زماناً منذ بدء الخليقة، وكان محورها إبراهيم عليه السلام الذي اتفقت كل الأمم على تعظيمه حتى أهل الشرك، وهذا مرتبط بدعوة أهل الكتاب إلى دين الحق بلا تفريق بين الأنبياء، ويعلم المؤمنين أيضاً إسلام وجههم لله رب العالمين في كل وقت وحين.

المقطع الرابع: انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين (١٤٢-١٦٢)

قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

كان الحديث في المقطع السابق عن إبراهيم وبنائه البيت الحرام، ودعائه أن يبعث الله من ذريته من يبعث للناس ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وبيَّن المقطع السابق أن إبراهيم وبنيه كانوا على ملة الإسلام وقد أوصوا ذريتهم بالثبات عليه، ثم ذكرت الآيات أن بني إسرائيل نكصوا ولم يحملوا الأمانة التي كُلِّفوا بها، ولم يتوجهوا إلى قبلة أبيهم، وإنما عادوها وعادوا أهلها.

جاء هذا المقطع بعده ليبين رجوع أمر القبلة إلى مكة، مما يؤْذِن بإمامة ملة إبراهيم في بلد الله الحرام، ولتكون هذه الأمة هي أمة الشهود التي جاءت استجابة لهذه الدعوة القديمة،

وإذا كان المقطع السابق قد ذكر على لسان إبراهيم غاية بعثة النبي محمد فقد جاء هذا المقطع ليؤكد استجابة الدعاء.

وقد ذكرت الآيات أن من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه وقد أكدت أول آية هذا المقطع أن اليهود والمشركين الذين رغبوا عن ملته هم السفهاء.

وفي ارتباط هذا المقطع بما قبله يقول ابن القيم: " ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ولم يَنْقَد له. ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة

بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم: إن له ولداً. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجهه وهو الواسع العليم فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فماله من الله من ولي ولا نصير. ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكَر خليله باني بيته الحرام وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس يأتم به أهل الأرض، ثم ذكَر بيته الحرام وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى.

وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثالثة وأمر به رسوله حيثما كان ومن حيث خرج وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم"[1].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ لابن القيم ٣/ ٥٩.

التفسير الإجمالي للمقطع:

أخبر الله بما سيقوله ضعفاء الرأي الذين رغبوا عن ملة إبراهيم وهم اليهود ومن نحا نحوهم من مشركي العرب[(١)] والمنافقين، حيث أرادوا بث الأراجيف في المجتمع المسلم بسبب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقالوا: ما الذي حولهم وصرفهم عن القبلة الأولى؟ فرد الله عليهم بأن المشرق والمغرب كله لله، وأي قبلة يأمر عباده بها فعليهم أن يمتثلوا أمره؛ فكما صليتم للقبلة الأولى بأمره صليتم كذلك للقبلة الثانية بأمره، وهو سبحانه الذي يرشد من شاء إلى السبيل الحق، وفي هذا تزكية للقبلة التي انتقلوا إليها. روى البخاري عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقال السفهاء من الناس وهم اليهود ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾ فقال الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ ﴾[(٢)].

ثم خاطب الله المؤمنين مبيناً فضلهم: كما أنعمنا عليكم بالهداية للدين وللقبلة الوسط حسياً ومعنوياً[(٣)] مننا عليكم بجعلكم الأمة العدول خيار الأمم كلها مما يؤهلكم للشهادة على

---

(١) روى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٠ عن البراء أنهم اليهود، وروى الطبري في جامع البيان ٣/ ١٣١عن مجاهد، وعن السدي أنهم المنافقون، وعن الحسن إنهم المشركون ورجحه الزجاج في معاني القرآن ١/ ٢١٨. وقد وصف الله المنافقين في هذه السورة بالسفاهة فقال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [آية: ١٣] ولما ادعى المشركون واليهود نسبتهم لإبراهيم عليه السلام بين القرآن أنهم رغبوا عنها فصاروا سفهاء قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آية: ١٣٠] وعلى هذا فمن الإعجاز القرآني أن اللفظ يشمل هؤلاء جميعاً، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٩٠.

(٣) وقد أثبتت بعض البحوث العلمية مؤخراً أن مكة المكرمة تقع في قلب اليابسة تماماً، وأنها وسط الدنيا من الناحية الجغرافية والجيولوجية، وقد أثبت هذا بالدلائل العلمية الدكتور حسين كامل في بحثه القيم: (الإسقاط المكي للعالم). بمجلة البحوث الفقهية، الجامعة الإسلامية بالمدينة، العدد السادس=

الناس جميعا بحسن البلاغ وصدق الأداء.

ومن معاني الشهادة ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أنا من نذير، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم..الآية[١].

ومن معانيها أيضاً: الشهادة في الدنيا على الناس، قال رسول الله ﷺ: (من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)[٢].

ومن معاني الشهادة البلاغ ونقل الوحي والدين إلى الناس كما تعلموه من رسول الله[٣].

وكذلك يشهد الرسول على الأمة أنهم صدقوه وآمنوا به، وقد ورد أن أعمال الأمة تعرض عليه، ومن ذلك قوله ﷺ :(أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليّ)[٤]، فعلى هذا يكون شهيداً عليهم في حال حياته وبعد مماته[٥].

إن هذه الشهادة اجتباء واصطفاء من الله لهذه الأمة، وأمانة غالية تتطلب منهم أعباء

= ص ٢٤٠ وما بعدها.

ومن العجيب أن بعض المفسرين المتقدمين قد ذكر هذا الأمر؛ ففي تفسير هذه الآية يقول القرطبي: " وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطا" الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٤٣٣.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢١٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٠١ ومسلم في صحيحه برقم/ ٩٤٩ واللفظ له.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٩٥.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٠٢٩ وصححه على شرط البخاري، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٩١٠، وابن خزيمة في صحيحه برقم / ١٧٣٣، وأبو داود في سننه برقم/ ١٠٤٧. وصحح سنده النووي في الأذكار ص ١١٥.

(٥) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ١/ ٣٨٢.

وجهاد، ولذلك جاءت مقترنة بتكاليف يلزمهم أن يتحملوها حتى يكونوا أهلاً لها، قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج/ ٧٨].

وجاءت الآية لتؤكد للمسلمين أنهم على الحق في أمر القبلة وغيره من الأمور، وما شرع الله القبلة الأولى إلى بيت المقدس إلا ليعامل الناس معاملة المختبر فيظهر من يتبع الرسول حيث توجه ممن ينقلب على عقبه وإن كان أمر القبلة الأول لشاقاً إلا على من هداهم الله(١)، وهذه حكمة تشريع القبلة الأولى. أما الذين ماتوا وهم يصلون تجاه بيت المقدس فما كان الله ليضيع ثواب ما عملوا فهو سبحانه رؤوف في رفع الضر رحيم في الإحسان والإنعام(٢).

وبعد هذا التمهيد الذي يوطن النفوس جاء الأمر بتحويل القبلة باعتباره أثراً من آثار رحمة الله بالمؤمنين، ولما كان النبي ﷺ كثيراً مما يردد نظره جهة السماء انتظاراً للوحي وترقباً لما يتوقعه فإن الله أعلمه وأجابه إلى مراده الذي لم يصرح به ووجَّههُ للقبلة التي يرتضيها وأمره أن يولي وجهه تلقاء المسجد الحرام وليس الحكم خاصاً به ﷺ ولا خاصاً بمكان دون مكان وإنما هو عام للمؤمنين جميعاً حيث كانوا يولوا وجوههم تلقاء(٣) المسجد الحرام أما هؤلاء

(١) ذلك أن نفوس الصحابة كانت تتشوف للصلاة إلى بيت الله الحرام، قبلة الدنيا وموئل عزهم وفخرهم، فكان أمر القبلة الأول ثقيلاً عليهم، لكن الله جلت حكمته أراد أن يصرفهم عنه فترة لتتخلص مشاعرهم إليه وحده فلا يكون المقصد من الصلاة للبيت الحرام اعتزازاً ببيت العرب المقدس، بل لابد أن يكون لله. انظر: في ظلال القرآن١/ ١٢٦. ورجوع لفظ:(كبيرة) إلى قبلة بيت المقدس جوزه ابن عطية في المحرر الوجيز١/ ٢٢٠ وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٥، والزمخشري في الكشاف ١/ ٢٢٣، وهو الأقرب والله أعلم.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٩٩.

(٣) ورد في معنى شطر: تلقاء عن قتادة عند الطبري في جامع البيان ٣/ ١٧٦.

اليهود المعاندون فإنهم يعلمون يقيناً أن تحويل القبلة حق من عند الله، لكنها معرفة ذهنية مجردة لا تغير في سلوكهم شيئاً، وإن الله لمطّلع عليهم وسيجازيهم على إنكارهم(١).

وحتى لا يتوهم متوهم باستجابتهم بعد معرفتهم بيَّن الله لنبيه أن امتناعهم ليس امتناع مشتبه يطلب اليقين، بل هو امتناع جاحد مستكبر؛ فلو أتى لليهود والنصارى بآيات متتابعة وحجج قاطعة لما تبعوا قبلته عناداً واستكباراً، وما كان للنبي ﷺ أيضاً أن يتبع قبلتهم لضلالهم، ولو اتفقوا على رفض قبلتك فهم مختلفون ولن يترك أحدهم قبلته ليتبع قبلة الآخر فقد اختلفت قلوبهم، ولئن اتبع النبي ﷺ أهواءهم بعد هذا البيان ووضوح البرهان فإنه والحال هذه من الظالمين لنفسه، وحاشاه ﷺ أن يفعل ولكنه تحذير للأمة جاء بأسلوب الشرط الذي لا يقتضي تحقق الوقوع.

وإن طعن اليهود في القبلة ما هو إلا واحد من طعنهم على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فهؤلاء يعرفون النبي بأوصافه كما يعرفون أبناءهم، لكن الفريق الذي لم يؤمن يكتم الحق الذي يعرفه مع علمه بالحق وبعقوبة الكتمان، وهذا الذي يكتمونه هو الحق، فلا تكن أمتك من الشاكين المترددين في أنه من ربك وفي كونهم كاتمين.

ثم جاءت الآيات بحجة أخرى على أهل الكتاب في شأن القبلة وهي أن لكل أمة من الأمم وجهة تتوجه إليها في صلاتها، فإذا كان الأمر كذلك فلم الاعتراض على قبلة المسلمين؟ إن الأولى بالانشغال أن يتسابق الكل بالحرص على فعل الخير، فاستبقوا الخير أيها المسلمون فكما جمعكم الله للقبلة أينما كنتم، فكذلك يجمعكم ليوم الجمع أينما تكونوا، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوجعفر ويعقوب في وراية روح: (عما تعملون) بتوجيه الخطاب للمؤمنين، فيكون وعداً لهم بالحسنى، ويستلزم ذلك أن يكون وعيداً للآخرين. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص١١٧.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة/ ٤٨] فالكل راجع إلى ربه أينما كان وعندها سيحاسب الجميع على عملهم فهو القادر الذي لا يعجزه شيء.

ثم أعاد الأمر باستقبال القبلة من أي مكان خرج المرء وفي أي موطن حلّ ليعلم الجميع أن هذا الحكم لا يختص بمكان دون مكان وهذه التولية حق من الله لا تنسخ، أما المعاندون والمجادلون فإن الله سيحاسبهم وما ربك بغافل عن أعمالهم.

وجاء الأمر الثالث بتولية الوجه نحو المسجد الحرام وفيه الجمع بين خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين لبيان حِكَم التحويل وهي ثلاث:

أولاها: لئلا يكون للمجادلين في أمر القبلة حجة على المسلمين، فاليهود يعلمون من كتبهم أن قبلة المسلمين الكعبة، والمشركون من ورائهم يرون أن النبي الذي يحيي ملة أبيه إبراهيم لا يستقبل غير بيت ربه الذي بناه وكان يصلي هو وإسماعيل إليه[1]، لكن الظالمين أنفسهم يحتجون بالحجة الباطلة[2] جهلا أو عناداً فلا تخشوهم لتهافت كلامهم واخشوا ربكم واتبعوا ما أمركم به.

والعلة الثانية للتحويل: إتمام نعمة الله على المسلمين بتفرد قبلتهم في بيت ربهم المحرم. مثابة الناس، ومهوى الأفئدة، وموئل عز العرب وشرفهم.

وإذا كانت الآيات السابقة قد ذكرَّت بني إسرائيل بنعم الله عليهم فيما مضى وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[٤٠] و[٤٧] و[١٢٢] فإن هذه الآية الكريمة قد بينت أن الله قد أتمَّ بالقبلة النعمة على المسلمين، وأعطاهم ما لم يؤت بني

---

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٢٤.

(٢) وكونها حجة لا يقتضي أنها صواب، فالحجة مطلق الاحتجاج بما هو حق أو باطل، وفي نفس السورة نقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ [٢٥٨]ومعلوم أن حجته باطلة.

إسرائيل، ولذلك فإنهم كانوا يحسدون المسلمين على نعمة القبلة، قال رسول الله ﷺ:(إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[1].

والعلة الثالثة للتحويل: أن تحصل للمؤمنين الهداية إلى ما ضلت الأمم عنه وأن تكون هذه الأراجيف عونا للمؤمنين على معرفة الحق ونبذ التقليد.

ثم اتصلت الآية بالتي قبلها اتصالاً وثيقاً؛ فإذا كان الله قد حول القبلة للمسلمين إتماماً لنعمته عليهم ولهدايتهم مثل إتمام نعمته بإرسال رسول كريم ﷺ منهم يتلوا عليهم آيات القرآن الكريم التي فيها هدايتهم وصلاحهم ويطهرهم من أرجاس الشرك الأليم ودنس الخلق الذميم ويعلمهم القرآن والحكمة المانعة من الوقوع في الخطأ ويعلمهم ما لا طريق إلى معرفته إلا بالوحي كأخبار الماضين من سير الأنبياء والمعاندين وغيرها من الأمور؛ فعن أبي ذر قال: (تركنا رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذَكِّرنا منه علماً)[2] وذلك استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة:١٢٩]

وما جزاء هذه النعم إلا أن تذكروا ربكم بالقلب واللسان والجوارح فيكون ثوابكم أن يذكركم ربكم وهو الغني عنكم، وفي الصحيح يقول الله تعالى:(**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**)[3]، وأمرهم كذلك بأن يشكروا له نعمه ولا يكفروا بها.

وهذه الآية تجديد لعهد الإيمان الذي اندرس عند بني إسرائيل؛ فقد عاهدهم الله ولم

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٣٤عن عائشة وهو صحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٦٤٧ والبزار في مسنده برقم/ ٣٨٩٧. وسنده حسن.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٧٩٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ٦٧٥.

يوفُّوا، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [٤٠] فانتقل العهد الرباني لتقوم به هذه الأمة، وذلك بأن تذكر ربها وألا تكفر بنعمه عليها، وهذا مرتبط بنعمة القبلة؛ فهي النعمة الكبرى، وهي العهد الذي تكون ترجمته بالقيام لله في الصلاة، كما جاء في أول أوصاف المؤمنين في السورة، وكما ورد في الآية التي تليها من الاستعانة بالصبر والصلاة.

ثم بين الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن أعظم ما يعينهم على الثبات في مواجهة الافتراءات والشبهات إنما هو الصبر الذي يشحذ الهمم ويقوي العزائم ويجعل أهله المتخلقين به في معية الله وحفظه ونصره وكذلك الصلاة ذات الخشوع والخضوع أعظم معين على تقوية النفس ومجابهة الكربات، ومن أوجه الصبر المطلوبة تقبل الشهادة في سبيل الله ومعرفة أن المؤمن الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله ليس بميت على الحقيقة، فلا تقولوا: هم أموات. لأنهم أحياء في العالم العلوي ولكنكم لا تشعرون بحياتهم، قال ابن مسعود " أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل"[1].

وبعد أمر الله عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على حصول المكروه أعقب ذلك بذكر الابتلاء وبيان أنه ضرورة للتمحيص وللقيام بوراثة أول المسلمين إبراهيم عليه السلام؛ فإذا كان إبراهيم عليه السلام قد ابتلى ثم صار التمكين والإمامة في الدين فالأمة التي تحمل ملته ستتعرض للتمحيص وللابتلاء بجملة من المكاره لابد لها فيها من الاستعصام بالصبر قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾[محمد/ ٣١].

ومن هذه الابتلاءات الاختبار بقليل من الغم لتوقع مكروه، وتعذر تحصيل الطعام ونقص من الأموال بتلفها، ومن الأنفس بموتها، ومن الثمرات بقلتها، وذكر ذلك لتتوطن النفوس وتتهيأ لما قد يصيبها، ولتتميز النفوس، ثم أردف ذلك بذكر عاقبة الصبر مخاطباً نبيه ﷺ وكل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٨٨٧.

من يتأتي منه البشارة أن يبشر الصابرين الذين إذا أصابهم ألم في نفوسهم بسبب الشدائد قالوا: إنا لله، يتصرف فينا كيف يشاء، فالعبد وما ملكت يداه لسيده، وإنا لراجعون إليه فيجازينا على أفعالنا، فهؤلاء لهم من الله الثناء الحسن والمغفرة والرحمة الواسعة والعطاء الجزيل. وهم المهتدون للصراط المستقيم حقاً المسلمون أمورهم لله صدقاً.

وقد امتثل النبي الأمر فبشر الصابرين بالخلف من الله فقال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها[1].

ثم أكد البشارة وذكر بعض مناسك الحج إيماء إلى أن صد هؤلاء القوم ليس عن القبلة والحرم فقط وإنما صدٌّ عما حوله من الشعائر فقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾، ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعرفون أصلها في تاريخ إبراهيم ولكنهم يكتمون ما أنزل الله من البينات وهم يعلمون[2].

والصفا والمروة جبلان بمكة دخلا في توسعة الحرم مؤخراً وهما من مناسك الحج وعلامات الدين، وعلى هذا فمن قصد الحج أو الاعتمار فلا حرج عليه أن يطوف ويسعى بينهما فهما من الطاعات ولا يلتفت لما كان يحدث فيهما من أمور الشرك قالت عائشة رضي الله عنها: (أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل فكان من أهلَّ يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

فالسعي بينهما من مناسك الحج، ومن تطوع وزاد على الواجب بأن أتى بالحج والعمرة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩١٨ عن أم سلمة.
(٢) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٣٠.
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٥٦١.

مرة بعد مرة. أو غير ذلك من أنواع القربات فإن الله يجزيه الجزاء الأوفى فهو شاكر يجزي على الإحسان، عليم بكل ما يفعله الإنسان.

وبين التنويه بشأن الصابرين وما جاء بعده من الأمر بالسعي بين الصفا والمروة صلة؛ فالصفا كان مسكن إبراهيم وإسماعيل، والمروة هو المكان الذي حدث فيه ابتلاء إبراهيم بذبح ولده، وكان هذا الابتلاء أروع مثال للصبر على أمر الله، وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب عند التعرض لقصة الذبح في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات/ ١٠٢][1].

ثم عاد السياق للكلام على إنكار أهل الكتاب لشعائر الدين وكتمانهم أمر النبي ﷺ وقد بين هنا جزاء من كتموا الحق؛ فأخبر أن من كتموا ما أنزل الله من الدلائل الواضحة والهدايات من بعد ما أظهرناه وأوضحناه للناس في الكتب المنزلة ومن هذه البينات دلائل صدق نبوة محمد ﷺ، إن هؤلاء الذين حرموا أنفسهم وغيرهم من النور يلعنهم الله بطردهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين ويستحقون لعنة من يتأتى منه اللعن من الملائكة وغيرهم. واستثنت الآيات من هذا الوعيد من تاب عن الكتمان وأصلح عمله وبين ما كان يكتمه أو بين إصلاحه وإظهاره ليكون قدوة صالحة فهؤلاء يقبل الله توبتهم ويفيض عليهم من رحمته ومغفرته، إنه هو التواب كثير قبول التوبة ونشر الرحمة.

وبعد أن بينت الآية السابقة استحقاق الكاتمين وأن من تاب تاب الله عليه بينت هذه الآية أن مستحق اللعنة هو من مات على هذا الكتمان فبين أن الذين كفروا النعمة بكتمانها وظلوا على هذا حتى ماتوا هؤلاء عليهم اللعنة المستمرة من الله، وكذلك يدعو عليهم الملائكة والناس أجمعون مؤمنهم وكافرها كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ

---

(١) انظر: البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد عناية الله ص٢١٥.

بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت/ ٢٥] وهم ماكثون في النار مكثا مؤبداً لا يمهلون ليتوبوا ولا يخفف عنهم فيموتوا.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية:

- هداية التوفيق من الله، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وليست هذه الهداية لأحد ولو كان نبياً مرسلاً، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [٢٧٢]وهذه المشيئة مقرونة بالحكمة الإلهية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان/ ٢٩، ٣٠].
- جواز تسميه الأعمال إيماناً، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون أن الإيمان قول وعمل؛ فقد سمى الله الصلاة إيمانا وهي من الأعمال. وقد ذكر شراح حديث تحويل القبلة أن من فوائده: الرد على المرجئة في إنكارهم تسمية الأعمال إيماناً[١].
- في قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ دليل على إثبات صفة العلو لله رب العالمين، قال ابن تيمية: "الإشارة إلى فوق إلى الله في الدعاء وغير الدعاء باليد والأصبع أو العين أو الرأس أو غير ذلك من الإشارات الحسية قد تواترت به السنن عن النبيﷺ واتفق عليه المسلمون وغير المسلمين. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾"[٢].
- في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ دليل على أن نعت النبي محمد موجود في الكتب السابقة، وقد سبق بيان بعض الأمثلة من كتبهم.

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١/ ٩٨.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٣٩).

- في قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ جواز الاستعانة بغير الله فيما يكون سبباً للعون، أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها فلا تكون إلا لله، قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [(١)].

- استنبط علماء العقيدة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ دليلاً على عذاب القبر؛ قالوا: إذا جاز أن يحيا الشهداء في قبورهم قبل الآخرة ليتنعموا جاز أن يحيا الكفار في قبورهم ليعذبوا، قال ابن حزم بعد أن ذكر الآية: "فصح أن النفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فيعذب، ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ويكون مسروراً قبل يوم القيامة"[(٢)].

- أمور الآخرة لا يشعر أحد بها، قال تعالى: ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ .

- وعيد الكافر بالنار لا يكون إلا لمن مات على الكفر، وعلى هذا يحمل المطلق الوارد في آيات أخرى على التقييد هنا بحالة الموافاة على الكفر. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ .

ب- الأحكام الشرعية:

- في تحويل القبلة دليل ظاهر على مشروعية النسخ، وعلى وقوعه في الإسلام، فقد كانت القبلة تجاه بيت المقدس فنسخت إلى الكعبة وهذا باتفاق، قال ابن عبد البر:" وقد أجمع العلماء على أن أول ما نسخ من القرآن شأن القبلة وأجمعوا على أن ذلك كان بالمدينة وأن رسول الله ﷺ إنما صُرف عن الصلاة إلى بيت المقدس وأُمر بالصلاة إلى الكعبة بالمدينة"[(٣)].

- قال الجصاص في آية تحويل القبلة:" هذه الآية يحتج بها من يجوز نسخ السنة بالقرآن ؛ لأن النبي عليه السلام كان يصلي إلى بيت المقدس، وليس في القرآن ذكر ذلك، ثم نسخ بهذه الآية"[(٤)].

---

(١) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ١/ ٤١٠.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٥/ ٥٨.
(٣) الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٤٥٢.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٠٦، وانظر أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٢٠.

- استدل الأصوليون بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ على حجية الإجماع باعتباره مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، والإجماع: اتفاق المجتهدين من هذه الأمة في عصر من العصور على أمر من الأمور[1]. وفي دلالة الآية على حجية الإجماع يقول الرازي: الله تعالى أخبر عن كون هذه الأمة وسطاً، والوسط من كل شيء خياره. فيكون الله عز وجل أخبر عن خيرية هذه الأمة؛ فلو أقدموا على شيء من المحظورات لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت أنهم لا يقدمون على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجة"[2].

- وجوب استقبال القبلة من أي مكان في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال ابن عبد البر: " وأجمع العلماء أن القبلة التي أمر الله نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم هي الكعبة البيت الحرام بمكة، وأنه فرض على كل من شاهدها وعاينها استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها أو عالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى كذلك. وأجمعوا على أنه من صلى إلى غير القبلة من غير اجتهاد حمله على ذلك أن صلاته غير مجزئة عنه وعليه إعادتها إلى القبلة كما لو صلى بغير طهارة.... وأجمعوا أن على كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، وعلى أن على من خفيت عليه ناحيتها الاستدلال عليها بكل ما يمكنه من النجوم والجبال والرياح وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها"[3].

- الواجب استقبال جهة المسجد الحرام لا عينه لمن كان بعيداً عنه، وهذا مذهب جمهور الفقهاء. قال القرطبي: "وهو الصحيح لثلاثة أوجه:

الأول: أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف.

---

(١) انظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي لعلاء الدين البخاري٣/ ٣٣٧.

(٢) المحصول للرازي ٤/ ٨٩، ٩٠.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ١٧/ ٥٤.

الثاني: أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾.

الثالث: أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت"[(١)].

- دل قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ على تعليل الأحكام الشرعية. وأن أفعال الله كلها معللة، وأن البحث في علل الأحكام لا بأس به على الراجح. قال الشاطبي في الموافقات: " وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى؛ كقوله بعد آية الوضوء ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة٦]، وقال في الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [١٨٣] وفي الصلاة ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت/ ٤٥] وقال في القبلة: ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [١٥٠]"[(٢)].

- النهي عن القول لمن يقتل في سبيل الله: إنه ميت؛ لأنه ليس بميت في الحقيقة، بل هو حي حياة برزخية لا يعلمها إلا الله.

- استشهد الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾ وبقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ [آل عمران/ ١٦٩] على أن الشهيد لا يغسل وهذا قول الجمهور. ولا يصلى عليه عند الأكثرين خلافاً للحنفية، لأنه بمنزلة الحي.[(٣)]

- جواز التوكيد بالقسم كما في قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ فالتقدير: والله لنبلونكم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٤٤.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٢/ ٧.

(٣) انظر: كشاف القناع للبهوتي ٢/ ٩٩، والحاوي الكبير للماوردي ٣/ ٣٤. وأحكام القرآن لابن العربي١/ ٦٨.

- السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج. وهو واجب عند الأحناف وقول عند الحنابلة والمالكية يجبر تركه في الحج بدم، وعند جمهور الفقهاء هو ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به[1].

- دلت الآية على لزوم البدء بالصفا، وأكد الأمر ما رواه جابر في صفة حجة النبي قال:".. ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده). ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة"[2].

- استدل الشافعي بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ على فرضية الترتيب في أعضاء الوضوء فقال: "فمن بدأ بيده قبل وجهه أو رأسه قبل يديه أو رجليه قبل رأسه كان عليه عندي أن يعيد حتى يغسل كلاً في موضعه بعد الذي قبله وقبل الذي بعده لا يجزيه عندي غير ذلك، وإن صلى أعاد الصلاة بعد أن يعيد الوضوء. ومسح الرأس وغيره في هذا سواء. فإذا نسي مسح رأسه حتى غسل رجليه عاد فمسح رأسه ثم غسل رجليه بعده. وإنما قلت يعيد كما قلت وقال غيري في قول الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فبدأ رسول الله ﷺ بالصفا وقال:(نبدأ بما بدأ الله به) ولم أعلم خلافاً أنه لو بدأ بالمروة ألغى طوافا حتى يكون بدؤه بالصفا، وكما قلنا في الجمار إن بدأ بالآخرة قبل الأولى أعاد حتى تكون بعدها، وإن بدأ بالطواف بالصفا والمروة قبل الطواف بالبيت أعاد، فكان الوضوء في هذا المعنى أوكد من بعضه عندي والله أعلم"[3].

---

(١) انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٢٢٧، وشرح العمدة لابن تيمية ٣/ ٦٠١، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني ١/ ٥١٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٥١، والجامع لحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٧٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٢١٨.

(٣) الأم للشافعي ١/ ٣٠. والترتيب فرض عند الشافعية وظاهر مذهب الحنابلة. انظر: الكافي ١/ ٣١.

- حرمة كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه الله للناس في الكتاب، ولذلك فإن أبا هريرة رضي الله عنه استشهد بهذه الآية على وجوب التبليغ فقال:"لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات..إلى قوله الرحيم"[1].

قال ابن العربي: "وللآية تحقيق هو أن العالم إذا قصد الكتمان عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره... ومن سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية".[2]

- في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [١٦١] دليل على جواز لعن الكافر جزاء له على كفره، وإظهاراً لقبح فعله، وتنفيراً عنه وتحذيرا منه، وهذا على الكفار غير المعين، قال الأعرج: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان[3]. وكذلك المسلم العاصي غير المعين؛ فقد لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وغيره من أهل المعاصي.

أما الكافر المعين إذا كان حياً ففي جواز لعنه خلاف؛ فذهب جمهور الفقهاء من الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة في الصحيح إلى أنه لا يجوز لعنه؛ لأنّنا لا نعلم حاله عند الوفاة، وقد شرط الله تعالى في إطلاق اللّعنة الوفاة على الكفر وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.وهذا هو الراجح والله أعلم؛ لوضوح القيد في الآية بالوفاة على الكفر.

وذهب القاضي أبوبكر بن العربي إلى جواز اللعن فقال: " والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله كجواز قتاله وقتله"[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ١١٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٤٩٢.
أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ برقم/ ٢٥٣، والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ٤٤٠١،وعبد الرزاق في المصنف برقم/ ٧٧٣٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٤.

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم / ١٦٩ عن أبي هريرة.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الوسطية ليست فقط خلقاً أو أدباً إسلامياً، ولكنها منهج كامل يميز النظام الإسلامي، ويشمل الوسطية المكانية في العالم، والوسطية الزمانية وقت اكتمال العقل البشري، ويشمل كذلك وسطية التفكير، ووسطية الاعتقاد، بلا إفراط ولا تفريط، ووسطية التكاليف بلا مشقة ولا تهاون، وبالجملة فالوسطية شعار المنهج الإسلامي في كل أموره.

-الامتراء والشك من الأمور التي تناقض اليقين؛ والمسلم مطالب بأن يوقن بكل ما جاء عن الله ولا يكن في صدره أي شك أو مرية، وقد نهى الله نبيه عن الامتراء والمقصود بالنهي الأمة.

- المسارعة إلى الخيرات، والحرص على المبادرة بها شعار المسلم، وهو أمر إلهي قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾وتوكيد نبوي، قال رسول الله ﷺ:(بادروا بالأعمال..)[١]، وذلك قبل تغير أحوال المرء، أو تغير أحوال الزمان.

- بعد أن أخبر الحق جل وعلا عن اختلاف المناهج والوجهات بين أن مرجع الناس جميعاً إليه؛ فعند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد. فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة[٢].

- إذا حاجَّ المبطلون المسلمين فعلى المسلم ألا يخاف من حججهم، ولا يخشى إلا الله؛ فقد حذرنا الله الخشية من الظالمين قال تعالى ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٤/ ٩٦٨.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٢/ ٦٣٢ بسند صحيح.

- الأمر بالذكر؛ قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وهو مستحب استحباباً شديداً؛ فقد أمر به في كثير من الآيات، ونهى عن ضدّه من الغفلة والنّسيان، وعلّق الفلاح بدوامه وكثرته، وأثنى على أهله وجعلهم أهل الانتفاع بآياته، وبين أنّهم أولو الألباب، وأخبر عن خسران من انشغل عن الذّكر بغيره، وجعل ذكره تعالى لأهله جزاء ذكرهم له كما في الآية التي في هذا المقطع، وأخبر أنّه أكبر من كلّ شيء، وجعله قرين الأعمال الصّالحة، وجعله مفتتحها ومختتمها. وقد يكون الذكر واجباً كما في تكبيرة الإحرام.

- الشكر ضد الكفر، وشكر نعمة الله واجب على كل مؤمن؛ فقد أمر الله به، وقرنه بذكره في هذه الآية، ووصف به أنبيائه، وجعله الله سبباً للمزيد من فضله، واشتق لأهل الشكر اسمين من أسمائه فهو الشاكر الشكور، ورضي عن أهله فقال: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر/ ٧].

- الاستعانة بالصبر على كل شدة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾، فالصبر على المصائب واجب، ويجب أن يكون عند الصدمة الأولى. وقد ورد أن عبد الله بن عباس نعي إليه أخوه وهو في سفر فنزل فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١).

وقد وعد الله الصابرين بالثناء الحسن منه وبالرحمة وكافأهم بالاهتداء، وعن عمر بن الخطاب قال:" نعم العدلان ونعم العلاوة ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ نعم العدلان ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ نعم العلاوة"(٣)، وقال رسول الله ﷺ: (من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً يرضاه)(٢).

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ٣/ ١٧٢ ووصله الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٠٦٨ وصححه على شرط الشيخين والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٦٥، قال ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٤٧٠: هذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٣٠٢٧. قال الهيثمي: وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٦/ ٣١٧.

- فضيلة القتل في سبيل الله؛ فقد أوضحت الآية الكريمة أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

- من تاب من ذنب معين فلابد أن يأتي بما يقابل هذا الذنب ويضاده، فمن كتم العلم وتاب فلابد أن يبين للناس وإلا كانت توبته ناقصة، قال تعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- السفاهة خلق يوجد مع البعد عن منهج الله، ومن أعراضه: الخوض فيما لا طائل من ورائه، والتكلم في أمور المشيئة الإلهية بجهل وضلال.

- لقد اقتضت حكمة المولى تبارك وتعالى أن تكون تولية الوجوه لبيت المقدس أولاً، وذلك لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها على معالم الوحي، ولا بأس هنا أن ننقل - في هذا الجانب- كلام سيد قطب بطوله، وذلك لنفاسته؛ فقد قال: ".. كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت

تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته"[1].

- للتكرار أهميته التربوية. وقد تكرر قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أكثر من مرة وفي كل مرة فائدة كما سبق. يقول محمد قطب : "وكل من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى التذكير الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب، ومن ثم يستطيع أن يقدر الهدف التربوي من عملية التكرار في القرآن"[2].

- المعرفة والعلم بل حتى القول، كل هذا لا يكفي لاتباع الحق؛ فأهل الكتاب كما قال الله ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [١٤٤]، فلابد مع المعرفة الذهنية من برهان عملي وسلوكي، والنماذج القرآنية أمامنا تؤكد ذلك؛ فإبليس كان عالماً، واليهود كان يعلمون، والمشركون كانوا يقرون لله بالخلق والتدبير، بل كان فرعون وقومه موقنين بالرسالة، قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل/ ١٤] لكن العبرة دائماً بثمرة المعرفة، وهي العمل.

- لن يتبع أهل الكتاب قبلتنا، ولن يدخلوا بأجمعهم في الدين الإسلامي، وهذا تنبيه على حتمية الصراع، وأخذ الحذر من المشابهة لهم والاتباع، وحتى لو حاول هؤلاء المشركون أن يفتنوا المسلمين أو يضللونهم فإن الله يوصي جند الحق قائلاً: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ [١٥٠] حتى تتم نعمة الله على المؤمنين.

- لن تكون التزكية بالمناهج المستوردة أو التربية الخالية من نور الوحي، فالتزكية قد حدد القرآن منهجها: لن تكون إلا بتلاوة الكتاب وتدبره، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ١/ ١٢٦.

(٢) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص٢٥٣.

رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [١٥١].

- أهمية تعلم الكتاب والحكمة.

- جزاء الذاكر أن يذكره ربه، وهذا جزاء من جنس العمل.

- إن منزلة الشهادة لهي منزلة عالية رفيعة، ولذلك فهي محض اختيار وتفضل إلهي، قال تعالى: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾[آل عمران/ ١٤٠] وقال النبي ﷺ في بعض أنواع الشهداء: (رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو وقاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة)[1] وهذا دليل على عظيم هذه المنزلة، ولن تنال هذه الدرجة إلا بتربية طويلة وجادة للنفس، مع دعاء صادق أن يبلغ المرء هذه المنزلة.

- من مقاصد بعثة النبي: تبشير المؤمنين، ومن جملة من ورد الأمر بتبشيرهم: الصابرون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

- بين الله في الكتاب كل ما يحتاجه الناس مما يصلح أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-إن المتدبر في حادثة تحويل القبلة ليعلم أنه ليس حدثاً عادياً، وإنما هو بمثابة الإعلان العملي على استجابة دعوة إبراهيم التي دعاها وهو يرفع القواعد من البيت؛ فقد دعا ربه لذريته، فجاءت إجابة الدعاء في هذا المقطع وحملت في ثناياها مهمة الأمة وهي الشهادة على الأمم جميعاً.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٦٦٣، وأحمد في مسنده ٤/ ١٨٥ عن عتبة السلمي، وقال الحافظ المنذري: إسناده جيد. الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٨.

وإذا كان المقطع السابق قد كشف محاولات السابقين كي يتبعهم المسلمون وأبطل عليهم تلك المحاولات بإثبات أن الملة الحنيفية التي أرساها إبراهيم هي الحق الذي يلزمنا اتباعه. فإن هذا المقطع قد أبطل محاولات اليهود في التشكيك في أمر القبلة، والتأثير على ضعفاء المسلمين.

وقد بين هذا المقطع أن أمر القبلة هو الحق الذي يعلمه اليهود ويكتمونه، وذلك في أكثر من آية؛ قال تعالى﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [١٤٤] وقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [١٤٦] وقال ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [١٤٧] وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٩].

وهذه الآيات واضحة الدلالة أن أمر القبلة هو الحق الذي كتمه اليهود وحاولوا إخفائه والتمويه على المسلمين بشأنه. لكن الآيات القرآنية ردت على شبهتهم وبينت حكمة التوجه الأول إلى بيت المقدس، وحكمة التوجه الدائم إلى الكعبة؛ فهي القبلة الوسط التي يرضاها النبي ويشهد الله أنها الحق.

وبوضوح أمر القبلة وانتقالها إلى بيت الله الحرام تنتقل القيادة الدينية عملياً إلى مكانها الرئيس، وتبدأ مرحلة جديدة يطوى فيها الحديث عن المعاندين، ليبدأ الحديث عن مقومات استحقاق هذه الأمة للخلافة الدينية والدنيوية حتى تنصلح بهم الدنيا، ويقوم بهم الدين.

ومما سبق يتضح اتصال موضوع القبلة بمحوري السورة معاً؛ فهو إنهاء لمرحلة مؤقتة وابتداء مرحلة جديدة بما تحمله من تشريعات وأحكام.

المحور الثاني: مقومات استحقاق أمة الإسلام للخلافة والقوامة

المدخل إلى عرض الشرائع التفصيلية للدين الإسلامي [١٦٣- ١٧٧]

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة:[١٦٣-١٧٧].

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن تحويل القبلة، وانتهى الحديث إلى أن المؤمنين تبوءوا القبلة الوسط والشريعة الوسط التي تؤهلهم لقيادة الدنيا والشهادة على الناس جميعاً.

وجاء هذا المقطع بمثابة التمهيد الذي يمهد للمسلمين تلقي الأوامر والتكاليف، وهو مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة قد بينت أن يعقوب قد دعا بنيه للتوحيد، لكن ذرياتهم لم يمتثلوا بل حاربوا الدين الجديد بكل ما أوتوا من قوة، فجاء هنا الأمر بالتوحيد وبيانه لتتخذه أمة الإسلام منهجاً لها.

وجاءت قضية التحليل والتحريم بشيء من التفصيل لتبين أن بني إسرائيل قد خالفوا المنهج الإلهي في التشريع فحري بالأمة الجديدة أن توحد مصدر تلقيها الشرعي وألا تحلل أو تحرم بالهوى أو التشهي. وقد جاء المثال على ذلك بالأطعمة والمكاسب وهي مما افترى فيها السابقون على الله الكذب فحللوا وحرموا افتراء عليه وقولاً بلا علم.

قال الدكتور دراز: "ومما زاد موضعه حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم،ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين الذين يكتمون ما أنزل الله؟ أولا ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره، كما يتميز بالشهادة والصلاة: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله)[1].

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٣٩،٢٤٠، والحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٨٤.

وقد ابتدأ المقطع بآيات إثبات التوحيد ثم ثنى بأدلة الوحدانية، ولهذا صلة بما قبله؛ قال القرطبي: "لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء"(١).

وقد جاء في نهاية المقطع السابق ذكر الكفار وعاقبة أمرهم، فابتدأ المقطع هنا بالأمر بما يضاد الكفر وهو الأمر بتوحيد الله وذكر الأدلة على وحدانيته. ثم عاد الحديث إلى ذم الكفار الذين يقلدون بلا بينة أو برهان وبيان حالهم مع متبوعيهم يوم القيامة.

وأمر التحليل والتحريم مرتبط بآيات التوحيد؛ ذلك أن التحليل والتحريم بالهوى اعتداء على حق الله في التشريع، وإشراك به فيما لم يعطه لأحد من البشر، قال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى/ ٢١].

ثم عاد المقطع للحديث عن اليهود وكتمانهم، وهذا مرتبط بما قبله؛ فقد تحدث المقطع السابق في أكثر من موطن عن كتمانهم للحق، ثم جاء هذا المقطع ليفصل جزاء من كتم ما أنزل الله من الكتاب. واستبدله بعرض من أعراض الدنيا.

وآية البر الجامعة مرتبطة أيضاً بما قبلها؛ فهي ترد عليهم شبهاتهم حول القبلة الوسط، وتبين أن البر الحقيقي ليس في التمسك بقشور الأمور وترك لبابها، قال تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ ثم نزعت الآية عنهم فضيلة البر وأرست أصولها وبينت من هم أحق بها وأهلها.

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأت الآيات بتقرير وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي الإله المستحق للعبودية هو الواحد الأحد الفرد الصمد لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، وهو واسع الرحمة ومسديها لعباده فلا تُطلب من غيره.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٨٩.

ولما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١)،فجاءت هذه الآيات دليلا على الوحدانية؛ فخلق السموات والأرض آية على الوحدانية والقدرة؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾[ق: ٦-٨] واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما آية من آيات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧٢- ٧٣]، والسفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس في أسفارهم وتجارتهم آية، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢: ٣٣]

وإنزال الله المطر من السحاب آية؛قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٨]

وهذا المطر يحيي الأرض الميتة بالنبات وينتشر بسببه في أرجاء الأرض الأحياء التي تدب على وجهها. ومن دلائل قدرته ووحدانيته تدبير الرياح وتوجيهها على وفق الحكمة والنظام الكوني، فمنها الحارة والباردة ومنها العقيم ومنها الملقحة للنبات.

والآية السابعة والأخيرة تسخير السحاب ونقله من موضع إلى موضع فينزل بذلك المطر، ولولا تصريف السحاب لنزل المطر في البحار، لأن ماء المطر ينتج من تكاثف بخار الماء الموجود في المسطحات المائية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان ٣/ ٢٦٨ برقم/ ٢٣٩٩، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ١٤٦١عن أبي الضحى.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] وفي هذا دلائل واضحة على وجود الله وقدرته ووحدانيته لمن عقل وتدبر.

ومع كل هذه الدلائل الباهرة فإن من الناس أناساً يتجاوزن الله ويتخذون أنداداً مماثلين له، وهم كما يقول أبو السعود: "رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لاسيما في الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتي من وصفهم بالتبري من المتبعين وقيل: هي الأصنام"(١)، وهؤلاء يطيعون رؤسائهم ويحبونهم كحب الله فيشركون مع الله.

ومِنْ أظهَرِ صور المحبة الطاعة في التحليل والتحريم؛ عن عدي بن حاتم قال:" أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه(٢).

أما المؤمنون فإنهم أشد حباً لله من كل ما سواه؛ فهو حب خالص لا شرك فيه، لكن هؤلاء المشركين غافلون؛ إذ لو رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك عذابَ الآخرة وعاينوه بأبصارهم لعلموا أن القوة جميعها لله وأنهم لن تغني عنهم الأرباب وستقطع بهم الأسباب ولن ينجيهم شيء من العذاب.(٣)

وقتئذ سيبالغ المتبوعون في البراءة من أتباعهم بعد أن رأوا العذاب وتقطعت الروابط

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١/ ١٨٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم/ ٣٠٩٥وقال: حسن غريب، والبيهقي في سننه ١٠/ ١١٦.

(٣) هذا المعنى على قراءة الجمهور(ولو يرى) وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب (ولو ترى الذين ظلموا) على الخطاب لنبينا محمد والمعنى: لو ترى هؤلاء الظالمين حال رؤيتهم للعذاب لعلمت ما حلَّ بهم من نكال.ويحتمل: ولو ترى لعلموا أن القوة لله تعالى. انظر النشر لابن الجزري ١/ ٢٢٤، والبحر المحيط لأبي حيان١/ ٦٥٤.

والمنافع التي كانت تربط بينهم في الدنيا، فلا خير يرتجى ولا شر يندفع فيمضي التابعون بحسرة ما بعدها حسرة، ويتمنوا أن لو كان لهم رجعة إلى الدنيا ليتنصلوا من رياستهم أو ليتبعوا الحق ثم يعودوا للآخرة فيتبرؤوا منهم[1]، كذلك يريهم الله ويظهر لهم أعمالهم الدنيوية الفاسدة وقد صارت سبباً لحسرتهم وشدة ندامتهم، ولن يخرجوا من النار ليعودوا للدنيا تائبين ولا للجنة منعمين.

ومن أوجه اتخاذ الأنداد من دون الله ما درج عليه اليهود ومشركو العرب من التحليل والتحريم للأطعمة بزعمهم افتراء على الله، فبين الله للناس جميعاً أنه أباح لهم ما في الأرض بشرط أن يكون طيباً غير خبيث فلا يتبعوا إغواء الشيطان ووسوسته في التحريم، ففي الحديث القدسي: (**واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**)[2]، فالتحليل والتحريم بالهوى اتباع للشيطان مع أن عداوته بينة واضحة.

ثم ذكرت الآية تفاصيل إغواء الشيطان للناس وذلك بأن يزيِّن بكل ما يسوء فعله وبكل ما عظم قبحه وفحش أمره ويأمرهم كذلك بالقول على الله بالتحليل والتحريم من غير علم، وذلك من أكبر الكبائر. قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [الأعراف: ٣٣] وإن هؤلاء المكذبين من اليهود والمشركين إذا جوبهوا بما هم عليه من الباطل وأمروا باتباع الحق أضربوا عن قول الناصحين واعرضوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وهذا أمر مستنكر؛ أيتبعون آباءهم وما كانوا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصراط المستقيم.

ثم ضربت الآيات مثلاً يقبِّح من شأن كفرهم ويبين حالهم مع الهداية وأنهم-كأسلافهم-

---

(١) اقتصر على الوجه الأول البيضاوي في تفسيره ١/ ٤٤٤ وذكر الوجه الثاني أبو حيان في البحر المحيط ١/ ٦٤٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي برقم/ ٢٨٦٥.

يعيشون في عماية، فمثلهم مع الداعي كمثل الراعي[1] الشفيق على من يرعاه، يذودهم عن موارد الهلكة، ويرشدهم إلى الخير والنفع، فهو ينعق وينادي بالدعوة، والكفار كالمنعوق به من البهائم التي لا حظ لها إلا السماع بلا تعقل أو فهم أو قبول[2].

فكما أن البهائم لا نصيب لها من صوت الداعي إلا السماع، فكذلك الكفار لا نصيب لهم من دعوة النبي إلى الإيمان إلا السماع؛ إذ هم غافلون وعن سماع القبول معرضون.

والذي أوصلهم إلى ذلك أنهم صم عن سماع أي خير، بكم فلا ينطقون بمعروف، لا يعقلون ما يتلى عليهم، قد ألغوا عقولهم وأصموا آذانهم وأصروا على ما هم عليه تقليداً وعناداً.

ثم جاءت الآيات للرد على هؤلاء الذين يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ونهت المؤمنين أن يسلكوا طريقهم، فأمرتهم أن يأكلوا مما طاب لهم من رزق الله، قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾[3]". كما أمرتهم أن يشكروا ربهم على ما أولاهم من فضله إن كانوا مقرين لله وحده بالخلق والأمر فلا يجعلوا له أنداداً في التحليل والتحريم.

ولما كان اليهود والمشركون قد حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم فإن الله قد بيَّن للمسلمين فساد مسلكهم وفصل لهم ما حرم؛ فلم يحرِّم ربنا إلا الميتة من غير ذبح شرعي، والدم السائل،

---

(١) قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به؛ وإنما المعنى: ومثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع إلا دعاءً، ولكن جاء سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى". الكتاب ١/ ١٠٨.

(٢) وهذا اختيار الفراء في معاني القرآن ١/ ١٠٠، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٤٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٢٣٨، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٩، وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه / 1015

ولحم الخنزير، وما رُفِعَ الصوتُ عند ذبحه لغير الله، وهذا على الغالب ويعم كل ذبح لغير الله ولو كان بغير رفع صوت، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

إعجاز علمي[1]:

وفي إتيان هذه المحرمات مخالفة للفطرة السليمة، وأضرار صحية؛ فإن الحيوان إذا مات فإنه يموت بسبب ميكروبات وُجدت فيه فتغلبت عليه، وبموته تنشط بكتريا التعفن حتى يصبح كل جزء من الحيوان يحتوي على مئات الألوف من البكتريا التعفنية التي تصيب بالسل والتسمم الغذائي والجمرة الخبيثة والتهاب الكبد الوبائي والأمراض الطفيلية وغير ذلك.

والدم يحوي سموماً و فضلات كثيرة و مركبات ضارة؛ و ذلك لأن إحدى وظائفه الهامة هي نقل الفضلات و السموم مثل حمض البوليك و الكرياتنين، كما يحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد لتعديلها؛ فهو أصلح وسط لنمو شتى أنواع الجراثيم و لتكاثرها.

والخنزير حيوان قذر يعيش على النفايات، ويبلغ عدد الأمراض التي تصيبه (٤٥٠) مرضا ويختص الخنزير بمفرده بنقل (٢٧) مرضاً وبائياً للإنسان ومن أكثر ما يصيب آكليه: الدودة الشريطية والصداع وآلام المفاصل والعمود الفقري.

فمن ألجأته الضرورة وهي شدة الجوع كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] من فعل ذلك غير قاصد الطعام لذاته

---

(١) انظر: الوجيز في الطب الإسلامي د/ هشام إبراهيم الخطيب ص٢٢٥، الإسلام والطب د/ محمد وصفي ص١٩٩، الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير للدكتور / فهمي مصطفى محمود. ص٧ من بحوث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي.

ولا متعد قدر الضرورة فلا ذنب عليه، فالله واسع المغفرة لمن ارتكب الحرام للضرورة عظيم الرحمة به إذ جعل له في شرعه مخرجاً.

ولا تزال الآيات متواصلة في الحديث عن رهبان اليهود؛ فبعد أن تحدثت عن تشريعهم من عند أنفسهم وتحريمهم الحلال ونقضت أحكامهم وبينت ما يحل وما يحرم عادت الآيات ثانية لتتحدث عن حكم كتمان ما أنزل الله من الكتاب على وجه العموم سواء كان ذلك بكتمان نقطة أو بإخفاء معناه بضرب من التأويل والتحريف ليستبدلوا بذلك عرضاً من أعراض الدنيا القليلة فإنهم بذلك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوصلهم إلى نار الله يوم القيامة[1]، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام محبة ولا يزكيهم ويطهرهم مما ولغوا فيه بالمغفرة ولا يزكيهم بالثناء عليهم لأنهم كتموا التزكية عن الناس، ولهم عذاب مؤلم لأبدانهم.

وهناك صلة أخرى بين هذه الآية والتي قبلها؛ فقد تحدثت الآيات السابقة عن الأطعمة المحرمة وتحدثت هذه الآية أيضاً عن الطعام المحرم الذي يأكله علماء السوء في بطونهم من الرشوة على كتمان الحق؛ فهو من جنس ترك المباحات وأكل المحرمات أيضاً.

وما كان ذلك إلا بسبب أفعالهم فهم الذين اشتروا العدول عن الطريق المستقيم بالهداية إليه في الدنيا وترتب عليه أن اشتروا في الآخرة العذاب بدلاً عن مغفرة الله فيا لطول صبرهم على النار! وهذا تعجيب للمؤمنين من حالهم وتخويف وإلا فأنى لهم أن يصبروا على العذاب المقيم؟

وما استحقوا هذا إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لأن الله أنزل الكتاب بالحق الثابت الذي جاء للهداية ونبذ الفرقة في اختلاف بعيد عن الحق.

ولما أكثر أهل الكتاب من الخوض في شأن القبلة وطال لجاجهم فيها بيَّن الحق جل وعلا أن أمر القبلة ليس هو البر المقصود؛ فليس الخير الذي يتقرب به المرء إلى ربه في التوجه إلى جهة

(١) وهذا القول اختاره أكثر المفسرين؛ انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٩. والوجيز للواحدي ١/ ١٤٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ١٧١، والتسهيل في علوم التنزيل لابن جزي ١/ ٦٩، وغيرهم.

المشرق أو المغرب، ولكن البر الحقيقي الذي هو وصف جامع لخصال الخير كلها إنما يتكون من عدة أمور وجوانب تشمل الاعتقادات والعبادات والأخلاق والمعاملات، فالاعتقادات تشمل الإيمان بالله وحده واليوم الآخر وهما جماع كل خير، وأساس كل بر وهما الغايات الأصلية، ثم جاءت الغايات الوسيطة وهي التصديق بالملائكة وبجنس الكتب المنزلة من السماء، وبكافة النبيين بغير تفريق بين أحد منهم.

وبعد أصول الإيمان جاء ذكر إتفاق المال على حب المؤتي للمال كما قال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢] وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[١].

والظاهر أن المقصود به التطوع لأن الزكاة سيأتي ذكرها في الآية، ثم ذكرت الآية المستحقين وأولهم قرابة الشخص، قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء:٢٦] وقال ﷺ: (الصدقة على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة)[٢]، وكذلك إيتاء اليتيم الذي فقد والده وهو صغير، والمسكين الذي أسكنه الفقر فلا يسأل الناس والمسافر الذي انقطع به الطريق فصار ملازماً له فسُميَّ بـ (ابن السبيل) والمحتاجين الذين يسألون الناس، وإعطاء المال أيضاً للمساعدة في تخليص الرقاب من الرق والأسر، ثم قال(وأقام الصلاة) أي أداها كاملة تامة كما أمر الله وآتى الزكاة المفروضة.

ثم انتقل إلى الأخلاق التي هي ثمرة العبادة فذكر أصولها وهي الوفاء بالعهد إذا عاهد الإنسان، قال تعالى ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] والعهد هنا يشمل الدين كله؛ إذ هو مما يعاهد عليه المرء ربه، قال رسول الله: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٢ عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥ عن أبي هريرة.

دين لمن لا عهد له)[1]، والتحلي بحلية الصبر في وقت الشدة والفقر ووقت المرض و الضر ووقت البأس أي قتال العدو، قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨] أولئك الموصوفون بهذه الصفات الذين صدقوا في إسلامهم وإيمانهم وأولئك هم المتقون لربهم حقاً.

وقد جمعت هذه الآية الخير كله، فذكرت أصول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، وهي واسطة العقد بين محوري السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- تحريم شرك المحبة، وذلك بأن يشرك مع الله غيره في محبته، وهذا أقبح أنواع الشرك وأشدها، يقول ابن القيم: "وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم. وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته"[2].
- طالما أن المحبة تتفاضل وهي من الإيمان، فالإيمان كذلك يتفاضل.
- التحليل والتحريم حق خالص لله تعالى، وكما لا يشاركه أحد في الخلق فكذلك لا يشاركه أحد في الأمر، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف/ ٥٤] بل إن النبي ﷺ لا يحلل أو يحرم إلا بالوحي الصريح على الراجح، قال النبي: (أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي)[3].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ١٩٤، والضياء في المختارة برقم/ ١٦٩٩،وسنده حسن. التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٣٩١.

(٢) الروح لابن القيم ص ٢٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥.

- من أمور البر: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وهي أصول العقيدة الإسلامية، وإذا كانت الأحاديث النبوية قد زادت الإيمان بالقدر كما في حديث جبريل(١)، فإنه لا يعد زيادة على ما في الآية؛ لأن القدر في حقيقته داخل في جملة الإيمان بالله، لأنه صفة من صفاته؛ قال عمر رضي الله عنه: "القدر قدرة الله"(٢).

ب- الأحكام الشرعية:

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ دليل على إباحة ركوب البحر في التجارة والجهاد وغيرهما للرجال و النساء، لا كراهة في ذلك ولا حرمة.

وما ورد من نهي عن بعض الصحابة فمحمول على الاحتياط والخوف على الأرواح المؤمنة، وما ورد عن مالك في نهي النساء عن ركوب البحر تأوله بعض أصحابه أن السفن بالحجاز صغار وإن النساء لا يقدرن على الاستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البر ممكناً فلذلك كره ذلك مالك. قال: وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس(٣).

- يجب أن يكون كسب الإنسان حلالاً طيباً اتباعاً لظاهر النص القرآني.

- تحريم القول على الله بغير علم قال تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وجعله الله قرين الشرك والفواحش وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف/ ٣٣]. وعلى هذا فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من تلقاء نفسه ما لم يأذن به الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٨ عن عمر.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية برقم/ ١٥٦٢.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٣٣.

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس/ ٥٩].

- تحريم أكل الميتة التي خرجت روحها من غير ذبح، وقد جاء تفصيل بعض أنواع الميتة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [المائدة/ ٣].
وقد خصصت السنة العموم الوارد في الآية فأباحت أكل نوعين من الميتة وهما الواردان في حديث النبي: (أحلت لنا ميتتان: السمك والجراد)(١).

- الانتفاع بالميتة على وجه العموم لا يجوز،عن جابر قال"..قيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويَسْتَصبِحُ بها الناس؟ فقال: "لا هو حرام)(٢).
وقد خص الدليل منها الجلد المدبوغ، لأن في دباغة طهارته كما ورد.

- تحريم الدم، قال ابن العربي: "اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به"(٣).
وقد اتفق أهل العلم على أن المحرم هو الدم المسفوح أي السائل، لقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ [الأنعام/ ١٤٥]
أما الدم الذي في العروق واللحم فمعفو عنه ولا شيء فيه.

- تحريم لحم الخنزير بكل حال سواء ذبح أو لم يذبح، ويحرم كذلك شحمه وجلده. وأجاز بعض أهل العلم الخرازة بشعره(٤).

- تحريم أكل ما ذكر عليه اسم غير اسم الله، ومن هذا القبيل ذبائح المشركين والمجوس ومن لا دين لهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم/ ٣٢١٨واحمد ٢/ ٩٧، والبيهقي برقم/ ١١٢٩ مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر وقال في الموقوف: هذا إسناد صحيح وهو في معنى المسند. وانظر: فتح الباري ٩/ ٦٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢١٢١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٥٨١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٧٩.

(٤) وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما.وقيده الأحناف بالضرورة انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٧٢ كفاية الطالب الرباني ١/ ٧٣٤.

- تحريم ما قُصد غير الله به، مثل أن يذبح للأصنام أو لبعض المشاهد الشركية.

- إذا علمنا أن الذابح من أهل الكتاب لم يذكر اسم الله على ذبيحته، فذكر اسم المسيح ﷺ مثلاً فالراجح عند جمهور الفقهاء عدم إباحة الأكل منها لأنها مما أهل به لغير الله. وتكره فقط عند المالكية(١).

- أجمع العلماء على أن المضطر سواء كان مسافراً أم مقيماً يباح له أن يأكل الميتة ويأكل بقدر ما يسد رمقه ويبعد عنه الخطر، ولا يتعدى ذلك إلى ما فوق الشبع، وهل يباح له الشبع أم لا؟ قولان لأهل العلم، أظهرهما الأول. والله أعلم(٢).

- استدل جمع من الفقهاء بمفهوم الآية على أن المسافر سفر معصية لا يباح له الرخصة. وهذا قول الحنابلة والشافعية في أصح القولين، وذكروا في ذلك قاعدة وهي أن الرخص لا تناط بالمعاصي.

أما أبو حنيفة فإنه يرى أن حكم الرخصة ثابت لكل مضطر سواء كان في طاعة أو معصية، ورجح القرطبي هذا القول لأن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء/ ٢٩](٣).

- الأكل من الميتة وغيرها من المحرمات للضرورة الظاهر أنه واجب لاستبقاء النفس وليس برخصة، وعلى هذا فلو تركه ومات كان عاصياً. قال الكيا الطبري: " وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصياً"(٤).

---

(١) الأم للشافعي ٢/ ٢٣١ والمبسوط للسرخسي ١١/ ٢٤٦، منح الجليل ٢/ ٤١٣ .أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٥١٧.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ٩/ ٣٣٠. وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٣٤٩.

(٣) انظر في المسألة: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٥٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي٣/ ٤٦.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٤٢ .وانظر: المجموع للنووي ٩/ ٣٦، وهو ظاهر الرواية عند الأحناف كما في المبسوط ٢٤/ ٤٨ ومذهب المالكية كما في الفواكه الدواني ٢/ ٢٨٦.

- استفاد الفقهاء والأصوليون من هذه الآية قاعدة ذهبية وهي: الضرورات تبيح المحظورات. وهي من القواعد الفقهية الكبرى، قال ابن تيمية: "ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة/ ٣] فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بباغ ولا عاد"[١].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- محبة المؤمنين لله أكمل المحاب وأخلصها. وهي روح الدنيا ولذة المؤمنين الذين يجدون بها حلاوة الإيمان. ومحبته تعالى تكون بأمرين هما دافع كل محبة: أولهما: مطالعة أسمائه وصفاته ومعرفة نعوته الجليلة مما يورث القلب محبة وإنابة. وثانيها: معرفة آلائه ونعمه الحسية والمعنوية وتقديرها حق قدرها فهذا مما يورث في القلب محبته جل في علاه.

والمحبة عند المحققين على نوعين: فرض وفضل؛ أما الفرض فهي المحبة المستلزمة لأداء الأوامر واجتناب النواهي. والفضل الترقي في النوافل والتوقي عن صغير الرذائل.

- ذم التقليد، والسير على نهج الآباء بلا بينة، وهو أشد قبحاً في أمور الاعتقاد؛ إذ قد يؤدي بالمرء إلى الكفر.

- أهمية شكر النعمة، قال تعالى ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ .

- إيتاء المال على حبه أبلغ في الإيثار، وأدعى لنيل البر، قال تعالى:في وصف الأبرار ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان/ ٨].

- استدل بالآية من قال إن في المال حقاً سوى الزكاة؛ ذلك لأن الآية ذكرت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم ذكرت إيتاء المال على حبه فهذا دليل على هذا الإيتاء ليس بزكاة، ومما يشهد لهذا ما

---

(١) القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية ص١٤٣.

روي عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ أنه قال:"في المال حق سوى الزكاة، وتلا هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ إلى آخر الآية[١].

- الإحسان إلى ابن السبيل باب من أبواب الخير، وابن السبيل مصرف من مصارف الزكاة، لكن الآية عامة في كل صدقة، وقد جاء في الحديث الاقتران بين إعطاء اليتامى والمساكين وابن السبيل الذي يخرج في طلب العلم وغيره من الأمور المباحة فقال رسول الله ﷺ عن المال: (فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل)[٢].

- الإحسان إلى السائلين، وإعطائهم من أموال التطوع، ولو كان شيئاً يسيراً؛ وعن أم بجيد رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، السائل يأتيني وليس عندي ما أعطيه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: (لا تردي سائلك ولو بظلف)[٣].

- فضل إعتاق الرقاب، وبيان عظيم أجره.

- فضل الوفاء بالعهد والثناء على أهل الوفاء، وفيه تعريض بمن كان الغدر وعدم الوفاء ديدنهم.

- فضل الصبر في الفقر والمرض والحرب، وعظيم أجره وثوابه، ويكفي أن معية الله بالنصر والحفظ والتأييد والمعونة تكون مع الصابرين.

د- الجوانب التربوية:

- العاقل حقاً من يحسن التعامل مع الكون بالنظر في آيات الله متفكراً متدبراً، فإن التدبر في مخلوقات الله يدل على حكمة أفعاله وجلال صفاته الحسنى، ويدل أيضاً على تصديق رسله

---

(١) أخرجه الترمذي برقم/ ٦٥٩ وقال: حسن غريب والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٨٤ وضعفه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٩٦ عن أبي سعيد.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم/ ٢٤٧٢، وبنحوه عند الترمذي وابن حبان وغيرهم.وهو صحيح.

ووحيه، قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت/ ٥٣]، ويفتح الآفاق لمكتشفات العلم، وبالجملة فالتدبر والنظر بعين الفكر باب كل خير، ومفتاح أبواب البر.

- التبعية تعني انقياد الإنسان لغيره انقياداً تاماً، وقد تكون محمودة إذا قصد بها اتباع أمر الله ورسله، وقد تكون مذمومة إذا قصد بها اتباع الباطل أو تقليد الآباء الضالين، وقد جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [١٧٠]. وقد بينت الآيات الكريمة أن التبعية لأهل الباطل من السادات والكبراء في الأوامر والنواهي الظالمة جزاؤها في الآخرة أن تتقطع كل العلاقات ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً حتى يقرن بينهم جميعاً في نار جهنم. جزاء وفاقاً لما صنعوا. والمؤمن الحق لا يكون إمعة لكل ناعق، بل يتبع الحق وأهله أين كانوا.

- ورد النهي عن اتباع خطوات الشيطان في أربع آيات من القرآن الكريم[1]، وهذا أيضاً من التبعية المذمومة، وخطوات الشيطان آثاره وأعماله وتزيينه للعباد، والمؤمن المخاطب بهذه الآيات ينهاه إيمانه أن يتبع خطوات الشيطان لأنها توصله إلى شقاء الدارين، ولأن الشيطان أيضاً بتنكر لأتباعه يوم القيامة.

- لا رهبانية في الإسلام، ولا تحريم لما أحل الله، ومن فعل ذلك فهو راغب عن هدي النبي ﷺ غير مستجيب لهدي القرآن في الأكل من كل الحلال الطيب، متبع للشيطان في خطواته المضلة.

- التزكية معناها التطهر من كل دنس وسوء، وقوامها أمران: جهد بشري باتباع هدي النبي المبعوث لتزكية الناس، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس/ ٩] وتوفيق من الله، ومن فعل ما يغضبه سبحانه فإنه لا يزكيه.

---

(١) في البقرة آية ١٦٨، وآية ٢٠٨. والأنعام ١٤٢ والنور ٢١.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

جاء المقطع كمدخل للتشريعات الجامعة التي ستلقى على المسلمين فلازَمَ أن يبدأ بتقرير الأصل الاعتقادي وهو إفراد الله بالوحدانية في ذاته وصفاته، وذلك ليعلم المسلم ويوقن بوحدة مصدر التلقي، ثم دلفت الآيات من ذلك إلى تقرير الوحدة التشريعية؛ وذلك بأن يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو الذي يشرع لعباده وقرر ذلك ببيان ما حرم عليهم من الأطعمة، وقد تصير المحرمات هذه حلالاً عند الاضطرار، وهذا من رحمة الله بعباده، أما الشياطين فإنهم يأمرون بكل فاحشة، وكذلك الآباء المتبوعون لا يعقلون ولا يهتدون. وبهذا يتصل هذا الجزء بكل ما سيأتي بعده من تشريعات وحدود يبينها الله وحده، واتصل كذلك بسابقه لِما علمنا من افتراء اليهود والمشركين على الله في التحريم والتحليل.

ثم ذكرت آية البر أوصاف الخير الجامعة وبينت أن هذه الخصال هي مما يحافظ عليها المسلمون، وقد سبق في المقطع الأول أن بني إسرائيل قد تركوا البر وأمروا به الناس، قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [٤٤] فقد تخلوا هم عن البر وأثبته الله للمسلمين.

وذكرت آيات السورة في محورها الأول أن بني إسرائيل لم يوفوا بعهودهم مع الله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [٢٧] وقال: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [١٠٠] وجاء تذكيرهم بالوفاء بالعهد في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [٤٠] وجاء هنا إثبات هذه الصفة للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [١٧٧] وبذلك تتسق هذه الآيات مع المحور العام للسورة؛ حيث نكث اليهود عهدهم فسُلِبَتْ منهم القوامة ووفَّى المؤمنون بعهدهم فاستحقوا أن يكونوا هم المتقين الصادقين.

المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر [١٧٨-٢٠٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٨) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٨١) فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٨٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٨٤) شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٨٨) ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ

﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

ابتدأ هذا المقطع بذكر الدية في القتلى، وبين ما يجب على ولي القتيل وما يجب على القاتل من الاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، ثم جاء ذكر الوصية قبل الموت للوالدين والأقربين بالمعروف حتى ينال كلٌ نصيبه من الخير وهذا كله متصل بما قبله اتصالاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة تحدثت في شأن إطابة المطعم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [١٦٨] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [١٧٢] ونهت عن بعض الأطعمة المحرمة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [١٧٣] ثم نددت بأكل الرهبان أموال الناس حراماً في بطونهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [١٧٤]

واتصل الحديث هنا عن أكل الأموال وعدم أدائها في الديات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [١٧٨] وكذلك أداء الوصايا وعدم تضييع الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل.

ثم جاء حديثٌ مفصَّل عن الصيام وبعض أحكامه وآثاره، وهذا متصل بما قبله من الحديث عن أكل الحرام؛ لأن في الامتناع عن الطعام والشراب الحلال تدريباً على الامتناع عن الحرام من باب أولى، وتشجيعاً على إطعام المساكين كما أمرت آيات الصوم، وتعويداً على الجود والكرم في تلك الأيام المباركة.

وبعد آيات الصيام مباشرة جاء النهي عن أكل السحت والرشوة، واتصاله بما قبله لا يحتاج إلى بيان.

ثم جاء الحديث عن الأهلة وارتباطها بشعيرتي الصيام الحج، فكان الحديث عن الأهلة رابطا يصل بين العبادتين وبين الجهاد كذلك لارتباطه بالشهور القمرية، وهذا هو محور الحديث في الآيات المتبقية في هذا المقطع.

وقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الجهاد والأمر به وبيان غايته، ثم جاءت الإشارة إلى جهاد المال بعد جهاد النفس، وانتقل الحديث بعد ذلك إلى الحج وتفصيل أحكامه.

والحج لون من ألوان الجهاد، وفي كليهما تفصيل لجانب من جوانب البر المذكورة في آية البر السابقة؛ إذ أن في كليهما الصبر، ويختص الحج بالصبر في البأساء لأن فيه إنفاقاً، ويختص الجهاد بالصبر حين البأس، أما الصوم فإنه صبر على الجوع والعطش فيعد صبراً على الضراء، فبذلك يكون هذا المقطع بأكمله إجمالاً وتفصيلاً لبعض أمور البر المذكورة في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بين تعالى أنه فرض القصاص الذي يفيد معنى المساواة والمماثلة[1]، وقد ذهب جمع من المفسرين أن المقصود بذلك أن يُقْتَلَ القاتل المتعمد كما قتل، فيُقتَل الحرُّ بالحر، وقاتل العبد يقتل بالقتيل العبد، وكذلك الأنثى إذا قتلت قاتلها تقتل، وهذا إبطال لعادات العرب في الجاهلية، روى ابن حاتم عن ابن عباس قوله: وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن كانوا يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة[2].

وذهب الشعبي إلى سبب نزول آخر فقال:" كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هؤلاء ومن هؤلاء، فقال أحد الحيين: لا نرضى حتى نقتل الرجل بالمرأة، وبالرجل الرجلين، وارتفعوا إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (القتل بواء) أي سواء، فاصطلحوا على الديات،

(١) قال ابن تيمية: "والقصاص مصدر قاصه يقاصه مقاصة وقصاصاً ومنه مقاصة الدينين أحدهما بالآخر" مجموع الفتاوى ١٤/ ٧٤.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عنه بسند حسن ١/ ٢٩٤ برقم/ ١٥٧٨.

ففضل لأحد الحيين على الآخر، فهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ إلى قوله ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال سفيان: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: فمن فضل له على أخيه شيء فليؤده بالمعروف(١).

وقد رجح ابن تيمية هذا الوجه؛ وذلك لعدة أسباب:

أولها: إذا فسرناها بالقتل فالقصاص لا إلزام فيه، وإنما غايته أنه مباح، والآية جاءت بلفظ ﴿كُتِبَ﴾ الذي يفيد الإلزام والوجوب.

وثانيها: لم يُكتب على الأمة استيفاء القتل من القاتل، لأنه حق لولي الأمر، وهذه الآية خطاب للأمة.

وثالثها: أنه تعالى قال في القتلى﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ و معلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد و بالحر، و الأنثى تقتل بالأنثى و بالذكر، والحر يقتل بالحر و بالأنثى أيضاً عند عامة العلماء. وإذا كان كذلك فالآية تدل على مقاصة الحر بالحر و معادلته به و مقابلته به وكذلك العبد بالعبد و الأنثى بالأنثى، و هذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر، أما في القتلى فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين.

ورابعها: أن لفظ ﴿عُفِيَ﴾ هنا قد استعمل متعدياً، فإنه قال: ﴿عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ و لم يقل عفا شيئاً، فالعفو عن القتل يقال فيه عفوت عن القاتل، فدلالة اللفظ توحي باستعماله في الدية لا في العفو عن القاتل(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٢٧٩٧٣. وذكره الجصاص في أحكام القرآن ١/ ١٨٥. ثم قال: فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان أن معنى العفو ههنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ، قال الله تعالى: ﴿حتى عفوا﴾ يعني كثروا، وقال عليه السلام: (أعفوا اللحى) فتقدير الآية على ذلك: فمن فضل له على أخيه شيء من الديات التي وقع الاصطلاح عليها فليتبعه مستحق بالمعروف، وليؤد إليه بإحسان. وذكره الكيا الطبري في كتابه: أحكام القرآن١/ ٥٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٧٣-٧٧. بتصرف كثير.

والظاهر رجحان ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله؛ لقوة أدلته ووجاهتها. وعلى هذا يكون تأويل الآية: يا من تحليتم بحلية الإيمان، وجب عليكم المكافأة والمماثلة في ديات القتلى؛ الحر له دية الحر، والعبد له دية العبد، وكذلك الأنثى إذا قُتلَت لها دية الأنثى، وبهذا تكون المساواة والتكافؤ، قال رسول الله ﷺ:(المسلمون تتكافأ دماؤهم)[1] وهذا دليل على أن الإسلام دين المساواة ولا طبقية فيه.

وبعد أن ذكرت الآية فريضة العدل اتبعتها بفضيلة العفو؛ فمن عفا له أخوه في الدين عن شيء من الدية فيتبع الولي القاتل بالمعروف في أمر الدين فلا يُكلَّفُ القاتلُ شططاً قال تعالى في دية القتل الخطأ: ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء:٩٢] وعلى القاتل أن يؤدي الدية بإحسان بلا مطل أو نقصان وهذا الحكم من المولى تبارك وتعالى تخفيف ورحمة بعد أن كانت التوراة تلزم بالقصاص[2].

فمن تعدى بعد ذلك بأن قتل بعد أخذ الدية أو طلب مالاً زائداً أو آذاهم بسبب ما بينهم من دم فله من الله العذاب المؤلم يوم القيامة.

ثم ذكرت الآيات علة مشروعية القصاص وهي أنه حياة للأنفس ولا يفقه ذلك إلا أولوا العقول الخالصة منهم، بهذا يتقون ربهم ويتحرزون عن سفك الدماء وكل اعتداء.

وإذا كان أمر المساواة والمماثلة في الدية مما يصلح حال المجتمع كله ومن فهم حكمته

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٦٨٥والبيهقي في سننه الكبرى ٨ / ٢٨ وأحمد في مسنده٢/ ٢١٥ كلهم عن عبد الله بن عمرو، والحديث صحيح وله طرق. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١١٨.

(٢) كما في الفصل التاسع عشر في سفر الخروج، والعشرين من التثنية وروى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٢٤ عن ابن عباس قال" كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد".

وصل إلى التقوى فإن هناك أيضاً ما يوصل إلى التقوى ويصلح حال المجتمع الصغير والأسرة، وهو تشريع الوصية الذي فرضه الله أيضاً كما فرض القصاص؛ فإذا حضر المسلم أسباب الموت وظهرت أماراته وكان ذا مال كثير فليوص بشيء من ماله للوالدين ولأهل قرابته بالوجه المعروف الذي لا يضر الورثة وهو الثلث كما بينته السنة في حديث سعد بن أبي وقاص حيث قال: يا رسول الله: أوصي بمالي كله؟ قال: لا قال: فالشطر؟ قال: لا قال: الثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير،[1] وهذه الوصية حق على المتقين لله.

ومن حِكَم الوصية تحصيل الذكر الحسن في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العلا في الآخرة، لذلك شرعها الشارع استدراكاً للعمل الصالح قبل الموت وإجراء للثواب على المرء بعد موته، ومكافأةً لمن أسدى للمرء خيراً، وصلةً للرحم للأهل والأقارب غير الوارثين، وسداً لحاجة المحتاجين، وتخفيفاً للكرب عن الفقراء والمساكين.قالﷺ:(إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم)[2].

فمن غيّر في الوصية أو بدل بعد ما سمعه من الموصي وتحقيق منه فإنما إثمه على من بدل لا على من كتب وأوصى والله يسمع أقوال عباده ويعلم أحوالهم وأفعالهم فلا يخفى عليه جنف الموصين وتبديل المتعدين.

فمن خاف من الموصي ميلاً فأصلح بين الورثة والموصي كما شرع الله ففي هذه الحالة لا إثم عليه لأنه أراد المصلحة، ولهذا فإن الله غفور له رحيم به.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية نسخت بآية المواريث وبقوله ﷺ: (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)[3]، وذهب الطبري إلى أن الآية غير منسوخة فقال:

---

(١) صحيح البخاري كتاب: الوصايا باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٧٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٥٤، وقال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ٤/ ٢١٢.

(٣) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٨٧٠،والترمذي في سننه برقم/ ٢١٢٠وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٧١٣عن أبي أمامة. قال ابن حجر :وهو حسن الإسناد. تلخيص الحبير٣/ ٩٢.

"هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاءُ عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجة يجب التسليم لها، إذ كان غير مستحيل اجتماعُ حكم هذه الآية وحكمُ آية المواريث في حال واحدةٍ على صحة، بغير مدافعةِ حكم إحداهما حُكمَ الأخرى"(١). وحملها على الوصية للوالدين والأقربين الذين لا يرثون بسبب اختلاف دين أو غير ذلك، وعلى هذا تكون آية المواريث والحديث مخصِّصَين للعموم الوارد هنا ولا نسخ.

آيات الصيام:

وإذا كان تشريع القصاص والمماثلة يصلح المجتمع كله، وتشريع الوصية يصلح المجتمع الأسري الصغير، فإن تشريع الصيام الذي جاء أيضاً بلفظ ﴿كُتِبَ﴾ يصلح الفرد ويجعله من المتقين ولهذا خاطب ربنا المؤمنين بالخطاب المحبب إلى نفوسهم مبيناً أنه شرع وفرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لكي يتحصل لهم التقوى. وتلتزم نفوسهم مراقبة المولى.

والحديث في الصوم موصول بما قبله وما بعده من النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وقد سبق بيان وضوح هذا الخط في الآيات السابقة، وجاء اللحاق لينهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وبين هذين جاء الحديث عن الصوم الذي هو تقوية لإرادة الخير في النفوس المؤمنة، وبذلٌ وإعطاءٌ وصدقةُ فطر وجودٌ وكرمٌ حتى تتخلص النفوس من نوازع الحرص والشح والإمساك وطلب الحرام من باب أولى.

من حِكَم الصوم:

فرض الله على عباده الصوم، وهو أدرى بما يصلح أحوالهم، فهو الحكيم في أمره، وإذا أحببنا أن نتلمس بعض حكم الصيام فإننا نوجزها فيما يلي:

١- الصّوم من أبواب شكر النعمة؛ فهو حبس النّفس عن نعم الأكل والشّرب والجماع. والامتناع عنها زماناً معتبراً يعرَّف قدرها، فرتابة النعمة تنسي ذكر المنعم، أما إذا فقدها المرء

---

(١) جامع البيان للطبري ٣/ ٣٨٥.

فترة عرف قيمتها فأدى شكرها، قال تعالى في آية الصّيام: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

٢- الصّوم وسيلة إلى التّقوى؛لأنّه إذا انقادت نفس للامتناع عن الحلال طمعاً في ثواب الله تعالى، وخوفاً من عقابه، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام، فكان الصّوم سبباً لاتّقاء محارم الله. قال تعالى في آخر آية الصّوم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

٣- أنّ في الصّوم قهر الطّباع وكسر الشّهوة؛ فالنّفس إذا شبعت تمنّت الشّهوات، وإذا جاعت امتنعت عمّا تهوى، ولذا قال النّبيّ يا معشر الشّباب: (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج،ومن لم يستطع فعليه بالصّوم؛فإنّه له وجاء)[1] فكان الصّوم ذريعةً إلى الامتناع عن المعاصي.

٤- أنّ الصّوم دافع للرحمة والعطف على المساكين؛ فالصائم إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات، ذكر من هذا حالهم في غالب الأوقات، فتسارع إليه الرّقّة عليهم، والرّحمة بهم بالإحسان، فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء. وقد روي أن يوسف عليه السلام كان يكثر من الصوم وهو على خزائن أرض مصر، فلما سئل عن ذلك قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[2].

٥- في الصّوم موافقة الفقراء، بتحمّل ما يتحمّلون أحياناً، وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى[3].

٦- في الصّوم قهر للشّيطان؛ فإنّ وسيلته إلى الإضلال والإغواء:الشّهوات، وإنّما تقوى الشّهوات بالأكل والشّرب. وفيه تقوية للإرادة وصفاء للذهن .

٧- والصوم يعلم المسلم انضباط المواعيد ويشعره بوحدة المسلمين جميعاً في الصوم والفطر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٧٧٩ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٠٠ عن عبدالله بن مسعود.

(٢) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ١/ ٣٣٤.

(٣) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٢/ ٣٠١.

٨- والصوم يربي خلق الصبر؛ فإنه يرى ما يشتهي ولا يتمكن منه.

أضف إلى هذا فوائده الصحية التي كتب فيها الأطباء بحوثاً طبية طيبة[١].

وقد كان الصوم مشروعاً في كل الديانات السابقة، وهذا من التخفيف على المسلمين حين يعلمون أنهم ليسوا بدعاً من الناس في الصوم؛ فقد كان الصوم معروفاً في الديانات السابقة لكن على هيئات مختلفة، فالتشبيه هنا تشبيه فرضية فقط والله أعلم.

وقد ذكرت الآية الحكمة المرادة من تشريع الصوم وهي حصول التقوى؛ وذلك إنما يكون بسلوك منهج المراقبة الذي يفرضه الصوم؛ إذ هو عبادة لا يطلع عليها أحد، ولذلك فإنها تقوى ملكة مراقبة الله وتقواه.

ثم جاء التخفيف الآخر وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ وهذا يدل على قلتها، لأن الشيء إذا قل فإنه يُعدُّ، ومن التخفيف أيضاً: أن من كان مريضاً بمرض يشق معه الصوم بتأخير شفائه أو كان مسافراً سفراً يقصر الصلاة فعليه إن أفطر صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر غير شهر رمضان، وجاءت الأيام مطلقة فلا يلزم التتابع.

ومن التخفيف أيضاً: أن على من أطاق الصيام بمشقة إن أفطروا أن يفدوا عن كل يوم طعام مسكين، قال ابن عباس في الآية:" ليست بمنسوخة؛ هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً"[٢]، ويرجح هذا الوجه أن الإطاقة في اللغة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء[٣]. ويشهد له أيضاً قراءة ابن عباس: يطوَّقونه، وقد وردت في الحديث المذكور قبل قليل. ويدخل في جملة هؤلاء الحامل والمرضع؛ فإن لهما أن يفطرا ويقضيا.

---

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ص٩٤٨ ومجلة الإعجاز التابعة لرابطة العالم الإسلامي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٥.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣١٢.

فمن تطوع بأن زاد في الإطعام فهذا خير له وأفضل، والصوم خير قربةٍ لمن علم ثواب الصيام وعظيم أجره.

ثم فصلت الآيات وقت الصيام وبينت أن شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن هداية للناس جميعاً إلى الدين القويم ودلائل واضحة تهدي للصراط المستقيم وتفرق بين سبيل المؤمنين والكافرين. قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر:١] فمن حضر الشهر فإنه يلزمه صومه متى كان مكلفا، قال ﷺ: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته).[1]

ثم أعادت الآيات ذكر الرخصة للمريض والمسافر احتراساً؛ لأن القارئ للآيات عندما يعرف عظيم فضل الصيام وخيريته وبركات رمضان قد يظن أن الصوم هو الأفضل للمسافر والمريض بكل حال.

ثم ختم هذه التخفيفات بأنه تعالى يريد بعباده اليسر، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] وقال ﷺ:(إن خير دينكم أيسره)[2]، ثم بين علة الأمر بمراعاة العدد وهي لإكمال عدة الصوم، أما علة الأمر بالتكبير فهي لما علمّنا سبحانه من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر، وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير.[3]

والتكبير مشروع بعد اكتمال عدة الصيام وانقضاء العبادة.

وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ قال الراغب: "هذه الآية من تمام الآية الأولى؛ لأنه لما حث على تكبيره، وشكره على ما قيضه لهم من تمام الصوم، بيّن أن الذي يذكرونه ويشكرونه قريب منهم، ويجيب لهم إذا دعوه، ثم تمم ما بقى من أحكام الصوم"[4]، والمعنى: وإذا سألك

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٨١ عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٧٩، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ١/ ٦١.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٥٢ بتصرف.

(٤) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣/ ٩١.

عبادي عني فإني قريب منهم بإجابة دعائهم، وحقق ذلك بقوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فليطلبوا إجابتي لهم إذا دعوني أو فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أني أجيبهم إذا دعوني لقضاء حوائجهم.[١] فإذا استجابوا كانوا على رجاء حصول الرشد وهو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا.

ومجيء آيات الدعاء وسط آيات الصوم يلفت النظر لأهمية دعاء الصائمين وأنه أهل لأن يستجاب له، قال ﷺ: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد)[٢]، وفي الآية إيناس للمؤمنين وتلطف في الخطاب لهم؛ فقد نسبهم الله تعالى إليه بالعبودية الخاصة، ولم يأت لفظ فقل لهم إني قريب، وإنما جاء الرد مباشرة بلا واسطة، وجاء الرد على السؤال بصيغة الإجابة مباشرة للدلالة على السرعة. كلُّ هذا مما يستجيش في المؤمن مشاعر الحب والإنابة ويدفعه للإقبال على ربه والاستجابة لأمره.

ثم تعود الآيات لبيان تخفيف الله على الصائمين وذلك بإباحة الجماع لهم في ليلة الفطر، فالرجل ستر ولباس لزوجه يمنع أن يظهر منها سوء وكذلك المرأة لزوجها، كما يمنع اللباس صاحبه أن تبدو منه سوءاه، وحكمة هذا التشريع أن الله يعلم أنكم كنتم تخونون أنفسكم وتنقصون حقها من الخير فقبل توبتكم وخفف عنكم، فهذا الزمان قد صار يباح فيه المباشرة بالجماع واطلبوا ما كتب الله وقضى لكم من التحصين والولد.

قال البراء: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾[٣].

ثم أباح لهم بعد ذلك الأكل والشرب حتى يظهر ويتضح بياض النهار من سواد الليل في

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٥٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٥٣٥ وابن ماجه في سننه برقم/ ١٧٥٣ عن عبد الله بن عمرو، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٢/ ٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٨.

الفجر، وعن سهل بن سعد قال: أنزلت ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار.[1]

ثم أمر بإتمام صوم كل يوم حتى تغرب الشمس قال رسول الله ﷺ: (إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم)[2]، واستثنى سبحانه من المباشرة ليلة الفطر حالة المعتكف في المسجد إذا رجع بيته لقضاء حاجةٍ له فلا يباح له حينئذ أن يقرب أهله.

وفي الآية إشارة إلى فضيلة الاعتكاف؛ وهو المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله؛ فهو مما يفرغ الإنسان من شواغل الدنيا فيصفو قلبه بالانقطاع إلى العبادة وملازمة بيت الله، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وتحري ليلة القدر، ومداومة قراءة القرآن والذكر.

وما سبق من الأحكام المتعلقة بالصيام هي أوامر الله التي تحجز بين الحلال والحرام فمن اقترب منها وقع فيها، ومثل ذلك البيان الذي سبق ذكره يبين الله تعالى آياته وفرائضه للناس لكي يكونوا على رجاء تقواه وخشيته.

وجدير بمن امتنع عن الطعام والمباشرة في نهار رمضان تعبداً لله جدير وحريٌّ به ألا يأكل أموال الناس بالباطل وألا ينفقها بالباطل بأن يتوصل بها إلى الحكم على سبيل الرشوة ليأكل طائفة من أموال الناس متلبساً بالإثم مع العلم بسوء عاقبة هذا الفعل.

وفي مناسبة النهي عن الرشوة لما قبله قال أبو حيان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام فحبس نفسه عما تعوّده من الأكل والشرب والمباشرة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٩١، وورد في روايات عند البخاري / ١٨١٧ ومسلم/ ١٠٩٠ أن من هؤلاء عدي بن حاتم، وقد حدث هو عن نفسه بذلك.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٠٠ عن عمر بن الخطاب.

بالنهار، ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبُّدِ الله تعالى صائماً له ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه إلاّ من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة، فلذلك نهى عن أكل الحرام المفضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، وتخلل أيضاً بين آيات الصيام آية إجابة سؤال الداعي وسؤال العباد الله تعالى، وقد جاء في الحديث: (إن من كان مطعمه حراماً وملبسه حراماً ومشربه حراماً ثم سأل الله أنَّى يستجاب له)[١] فناسب أيضاً النهي عن أكل المال الحرام"[٢].

ولما كان توقيت الصيام والحج وشيء من أحكام الجهاد مرتبطاً بأهلة الشهور جاء الحديث عن الأهلة إجابةً لسؤال من بعض الصحابة؛ عن أبي العالية قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم.[٣]، ولكن ليس في الآية ما يفيد عن أى شيء سألوا في الأهلة.

والمشهور أنهم سألوا عن أحوال الهلال وتغيره ولهذا جاء بصيغة الجمع ﴿ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ فكانت الإجابة أن الأهلة أوقات ترتبط بها مصالح الناس وعباداتهم، وقد يكون سؤالهم مرتبطاً بما سيأتي بعد من الحديث عن النسيء الذي كان يفعله المشركون، قال القرطبي: "وقيل: إنه النسيء وتأخير الحج به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج إليه، والشهر الحرام حلالاً بتأخير الحج عنه"[٤]. وبذلك يكون سؤال الصحابة عن الأهلة التي تُعرف بها الشهور، وعن النسيء الذي يقوم به المشركون.

---

(١) هو جزء من حديث عند مسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٥ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٦٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٢ عن أبي العالية، وعند الطبري عن قتادة وفي بعض الروايات الضعيفة أن السائل معاذ بن جبل وثعلبه بن غنيمة. انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٩٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٨٩، وذكره الماوردي في: النكت والعيون ١/ ٢٥٠ عن ابن بحر. وهذا الوجه ينسجم مع ما سيأتي بعد من أحكام الحج والجهاد والقتال في الأشهر الحرم.

ثم صحح الله لهم مفهوم البر، وأنه ليس في إتيان البيوت وكل الأمور من ظهورها كعادة الجاهلين، ولكن البر الحقيقي في تقوى الله واجتناب نواهيه والتزام أوامره، فأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لتكونوا على رجاء الفلاح.

عن البراء: قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾[١]، هذا هو سبب النزول الوارد، ومعلوم أن عموم اللفظ لا يخصصه سبب النزول، ولذلك فإن الرازي ذكر لفتة طريفة في صلة شطر الآية الثاني بما قبله حيث قال: "جعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية؛ فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه."[٢]

ولأن الأهلة مرتبطة بالجهاد كما سبق، حيث تحريم القتال في الأشهر الحرم، فقد جاء بعد الآية الحديث عن قتال المشركين، فقد روي أن النبي صُد عن البيت في الحديبية ثم صالحه المشركون فرضي على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفي لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[٣].

وذكر الربيع بن أنس أن هذه الآية أول آية في الإذن للمسلمين في قتال المشركين، وسياق الآيات يشهد لصحة قوله[٤]، فأذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم وذلك لتكون كلمة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه/ ٤٥١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه/ ٣٠٢٦

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥/ ١٠٨.

(٣) أخرجه الواحدي من طريق الكلبي عن ابن عباس ص١٣

(٤) انظر: العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٤٦٦.

الله العليا، وألا يعتدوا بالبدء أو بقتال من لم يقاتل كالنساء والصبيان[1] والعجزة أو يتلفوا المزروعات وغير ذلك فإن الاعتداء محرم لا يحب الله أهله.

فإذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٧] وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه كما أخرجوكم؛ فلتكن همتكم متوجهة إلى قتالهم وإخراجهم كما أن همتهم متوجهة إلى قتالكم وإخراجكم، ثم بين سبحانه العلة بقوله: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي أن فتنتهم للمسلمين بالإيذاء والصد عن سبيل الله أشد من القتل ثم استثنى من الأمر بقتالهم في المحاربين في كل مكان المسجد الحرام سوءاً؛ فمن دخل منهم الحرم فهم آمن، إلا إذا قاتل المسلمين، ولأن الله تعالى يعلم تحرج المسلمين من ذلك فأكده بقوله ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ ومثل هذا الجزاء ما سيصيبهم في الآخرة بسبب كفرهم.

فإن انتهوا عن قتالكم وتوقفوا أو تابوا عن الكفر وأسلموا فإن الله غفور لما أسلفوا رحيم بمن أحسن. قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١]

وإذا كانت الآيات السابقة قد بينت مبتدأ القتال فإن الآية اللاحقة قد بينت غايته وهي الأمر بقتالهم لكي لا تكون منهم فتنة تصيب المؤمنين وتمنعهم من إظهار الدين، ولكي يكون الدين كله خالصاً لله بلا أثر من إكراه أو غيره، أو حتى يكون دين الله الإسلام هو العالي على جميع الأديان. فإن انتهى المشركون عما كانوا عليه فلا عدوان عليهم طالما لم يظلموا، فالعدوان إنما يكون على الظالمين.

ولئلا يتحرج المسلمون من قتالهم في الأشهر الحرم إذا قاتلهم المشركون قال تعالى ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ فالأمور بالمقاصة، ومن انتهك الشهر الحرام وما يجب

(١) وقد نهى النبي عن قتل النساء والصبيان كما في البخاري كتاب: الجهاد باب: قتل النساء في الحرب بيقم (٣٠١٥) وهو عند مسلم في كتاب الجهاد باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب برقم (١٧٤٤).

احترامه فعليه تدور الدوائر ويقتص منه بمثل ما فعل، ثم أَيَّدَ الحكم بأن من اعتدى على المسلمين فليعتدوا عليه بقدر ما اعتدى بلا زيادة ولا نقصان، ثم أمر بعد ذلك بتقوى الله فلا يعتدوا على أحد ولا يظلموا أحداً بالزيادة في الإيذاء، وليْعلم المؤمنون أن الله مع أهل التقوى بالمعونة والنصرة وحسن العاقبة.

ولما كان الجهاد الذي هو بذل الأنفس لا يقوم إلا ببذل الأموال أمر الله المسلمين أن ينفقوا في سبيل إعلاء كلمة الله وألا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة وذلك: "بالإمساك عن النفقة في الجهاد أو تركه"[١]، فإذا ترك المسلمون الجهاد والنفقة والاستعداد تسلط عليهم غيرهم. ثم أمر الله المؤمنين أن يحسنوا في كل أقوالهم وأفعالهم فإن الله يحب أهل الإحسان.

وكانت آيات القتال هذه وصلاً بين آيات الصيام والحج، ذلك أن الحج تأتي أشهره بعد الصيام، ثم إن أسباب النزول تشير إلى وجوه مناسبات أخرى؛ فقد سبق بيان أن المسلمين خافوا أن يصدهم المشركون عن المسجد الحرام فسألوا عن النسيء، ثم بعد ذلك حرضهم القرآن على القتال وأمرهم بعد ذلك بإتمام الحج والعمرة لله ولا يتخوفوا من مواقف المشركين، فإن حصل لهم حصر من العدو فعليهم الهدي.

أمر تبارك وتعالى بأداء الحج والعمرة بمناسكها المشروعة لوجه الله تعالى، ثم بين حكم الحاج أو المعتمر إن حبسه عدو عن إتمامها وأراد التحليل فعليه ما تيسر من الهدي الذي يُهدى إلى فقراء الحرم من بدنة أو بقرة أو شاة لينحر، وعليه ألا يحلق رأسه تحللاً من الإحرام إلا إذا بلغ الهَدْيُ موضعه الذي ينحر فيه وهو موضع الإحصار، ومن حكمة التحليل: التخفيف ودفع الحرج؛ فلو لم يشرع له التحلل لظل محرماً إلى أن يزول المانع وفي هذا ما فيه من المشقة، فخفف الله على من احصر بالهدي.

ومن كان منكم أيها المحرمون مريضاً مرضاً يحتاج معه إلى الحلق، أو كان به أذى من رأسه

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص٤٠.

كجراحة أو قمل فعليه إن حلق فديه من صيام أو صدقة أو نسك، وعن كعب بن عجرة قال: "حُملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا..! أما تجد شاة ؟ قلت: لا. قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت فيَّ خاصة وهي لكم عامة".[1]

ثم انتقل إلى حكم الأمن بعد حكم الإحصار فقال: إذا كنتم آمنين من أول الأمر أو صرتم بعد الإحصار آمنين، فمن تمتع بإحرامه بالعمرة في أشهر الحج ليستفيد الحل حين وصوله للبيت ويستمر متمتعاً بالإحلال إلى وقت الإحرام بالحج فعليه ما تيسر من الهدي لأنه تمتع بالنسكين معاً ﴿ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ من الحل، فإذا لم يجد الهدي فعليه بعد الإحرام أن يصوم ثلاثة أيام قبل الفراغ من أعمال الحج وإذا رجع إلى بلده بعد الفراغ من الحج فعليه أن يصوم سبعة أيام، ثم أجمل التفصيل فقال: تلك عشرة كاملة؛ لئلا يتوهم متوهم أن الكلام على التخيير بين الأمرين بل مجموع الصوم بدل عن الهدي، وهذا الحكم من الهدي أو بدله عن فقده لمن كان أهله غائبين عنه، أما من كان من أهل مكة وأهله حاضرين فإن الله يجبره بفضل منه، واتقوا الله ولا تجنوا على الإحرام واعلموا أن الله شديد العقاب لمن جنى على إحرامه.

ثم بين سبحانه وقت الحج وأنه أشهر معلومات وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعبَّرت الآيات عن الأشهر بأنها معلومات لأن العرب كانت تعرف أشهر الحج منذ عهد إبراهيم فجاء الإسلام مُقرَّاً لما علموا، أو أنها معلومة مؤقتة بوقت معين لا يتقدم ولا يتأخر. فمن أوجب عن نفسه الحج بالشروع فيه فلا يقرب الجماع ومقدماته ولا يخرج عن حدود الشرع بفعل محظور ولا يجال أو يماري مع رفقائه؛ لأن في هذا كله خروجاً عن مقصد الحج من التطهر والتذكر، قال رسول الله ﷺ: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[2].

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٤٥ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٢٠١.
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٧٢٣ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٣٥٠.

فإن تخلى الناس عن هذه الأمور، فعليهم بالتحلي بالطاعات وكل ما يفعلونه من قربات فإن الله يعلمها فليتزودوا من كل خير مادي[١] ومعنوي، وخير زاد يحصله المرء التقوى فليحرص عليها أولاً العقول الخالصة الذين يعقلون عن الله ما أمر.

ولأن التزود بالأعمال الصالحة والحرص عليها هو ديدن الحاج فجاءت الآيات مستدركة لما يتوهمه أحد من البعد عن التزود المادي، فبيَّن تعالى أنه لا إثم ولا ذنب على من طلب فضل الله في التجارة، قال تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل:٢٠] وهو ربح التجارة، وقد كان بعض الناس يتحرج من ذلك كما ورد عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . في مواسم الحج.[٢]والمراد إباحة التكسب في أيام الحج، والحرص على التزود من كل فضل ديني ودنيوي، فيشمل التجارة ويشمل كذلك ما يفعله الإنسان وهو يرجو به فضل الله ورحمته من كل أفعال الخير[٣]، ومن جملة ذلك وأعظمه الوقوف بعرفات.

فإذا اندفعتم أيها الحجاج مفيضين من جبل عرفات بعد الوقوف به يوم التاسع فلتتجهوا إلى المشعر الحرام بمزدلفة ذاكرين الله بالتكبير والتهليل والتلبية، واذكروا الله ذكراً كثيراً مماثلاً لهدايته إياكم أو لأجل هدايته لكم، وإنكم كنتم من قبل هداية الله لمن الضالين عن الصراط المستقيم.

ثم أمرهم الله أن يفيضوا بعد ذلك من مزدلفة إلى منى كما فعل أبوهم إبراهيم حتى يظلوا على إرثه في هذه العبادة العظيمة، قال ابن عباس: ".. ثم ليدفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جمعاً الذي يُتَبَرَّرُ فيه ثم ليذكروا الله ذكراً كثيراً، أو أكثروا التكبير والتهليل قبل أن

---

(١) كما في حال أهل اليمن؛ فعن عبد الله بن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس. فنزلت. رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٤٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٤٧.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٠٤.

تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ حتى ترموا الجمرة[١].

ثم أوضحت الآيات أن الذكر لا يكون مقتصراً على وقت دون وقت، بل يحرص الإنسان على أن يتبع الطاعة بالطاعة، فإذا أديتم أيها الحجيج نسككم في عرفات ومزدلفة فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم في الجاهلية بل اذكروه أكثر، فهو المنعم المتفضل؛ عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في المواسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على نبيه محمد ﷺ ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ يعني: ذكر آبائهم في الجاهلية أو أشد ذكراً.[٢]

والعبارة على المبالغة في الأمر بالذكر؛ ذلك لأن الناس يتفاخرون بآبائهم ويحرصون على ذلك، فجاء التشبيه ليؤكد لهم أن ذكر الله أولى من كل ذكر.

ثم بينت الآيات أن الذين يذكرون ربهم ويدعونه فريقان: فريق يسأل ربه من أمر الدنيا ويجعلها أكبر همه ومبلغ علمه، وليس له في الآخرة من حظ أو نصيب، وعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام خصب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم الآية[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٥٢١. والقول بأن المقصود بالآية الإفاضة من مزدلفة ذهب إليه الضحاك ورواه عنه الطبري في تفسيره ٤/ ١٨٩ وصحح سنده الشيخ أحمد شاكر، واختار هذا الوجه عبد الرحمن بن سعدي في تيسير الكريم الرحمن ص٩٢، ورجحه رشيد رضا في تفسير المنار فقال: والمتبادر أن المراد بالإفاضة هنا الدفع من مزدلفة؛ لأنه ذكر الدفع من عرفات في خطاب المؤمنين كافة، وهو لا يكون إلا بعد الوقوف، فعلم أنهم سواء في الوقوف بعرفة وفي الإفاضة منها إلى المزدلفة، وبعد أن أمرهم بما يتوقع أن يغفلوا عنه فيها عند المشعر الحرام ذكر الإفاضة منها، وقوله (ثم) يفيد أن الإفاضة من مزدلفة يجب أن تكون مرتبة على الإفاضة من عرفات ومتأخرة عنها. تفسير المنار ٢/ ٢٣٤.

(٢) رواه ابن حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم١٨٧٠ والضياء في المختارة برقم/ ١٠٨ وسنده حسن.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم ١٨٦٩ وسنده حسن.

أما الفريق الآخر فإنه يسأل ربه من خيري الدنيا والآخرة، وجاء لفظ: ﴿ حَسَنَةً ﴾ نكرة ليفيد عموم كل ما يحسن حياة المرء في دنياه وأخراه، ويسألونه أيضاً أن يجعل بينهم وبين عذاب النار وقاية، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم حظ من جنس ما سألوا في الدنيا والله يوفي كل عامل عمله في الآخرة بلا إبطاء.

ثم عاد الحديث عن مناسك الحج على الترتيب، فتحدثت الآيات عن أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وهي أيام منى، وأمرت بذكر الله فيهن وأباحت التعجل ومغادرة منى بعد رمي الجمرات في يومين بعد يوم النحر، ومن تأخر إلى اليوم الثالث فلا شيء عليه ما دام متقياً لله في كل أحواله، ثم أمرت بالتقوى وأن يكون الناس على علم يقيني بأنهم راجعون لله تعالى يوم القيامة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- إثبات التحسين والتقبيح العقليين، أي أن للعقل مدخلاً وشأناً في معرفة حسن الأشياء وقبحها، وهو مذهب المعتزلة والأحناف وجماعة من الفقهاء وانتصر له ابن تيمية وابن القيم، وخالفهم في ذلك الأشاعرة فقالوا بالتحسين والتقبيح عن طريق الشرع فقط. ومن جملة الأدلة التي ذكرها الأولون قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ ففي القصاص مصلحة للعالم وإبقاء لحياة الناس وهذا أمر يدرك حسنه أولو الألباب[1].

- استدل بعض علماء الكلام بقوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ على أن الله ليس في السماء؛ قالوا: ولو كان تعالى في السماء أو فوق العرش لما صح القول بأنه تعالى قريب من عباده[2]. لكن هذه

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٩٨. ولتفصيل مذهب الأشاعرة انظر: المواقف للإيجي ٣/ ٢٧٥.

(٢) أساس التقديس في علم الكلام للرازي ص٣١.

الآية وغيرها من الآيات التي تدل على قربه تعالى ومعيته لعباده لا تنافي علوه على عباده؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء، وقربه قرب علم، وهو عليٌّ في دنوِّه قريب في علوِّه.

ب- الأحكام الشرعية:

- وجوب المماثلة في الديات؛ فمن قتل حراً دفع ديته وكذلك من قتل عبداً أو امرأة أدى ديتهما.
- قتل الحر بالحر*، ويقتل بالعبد على ما هو الراجح عند الأحناف وجماعة، ولا يستفاد هذا من الآية،ولكن من أدلة أخرى؛ كما وردعن سمرة أن النبي ﷺ قال: (من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه)[1]. ولأن الحكمة من شرع القصاص الحياة؛ والحر والعبد فيها سواء، ولأن الحياة لا تدخل تحت القهر المتعرض له الرق[2]. والله أعلم.
- الأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر، والذكر كذلك.
- إذا قتل المسلم ذمياً يقتل به، وهذا قول الأحناف وجماعة، وحملوا النفي الوارد في ذلك كقول رسول الله ﷺ: (لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده)[3] حملوه على قتل المحارب، قال

---

* وقد رجحنا في التفسير الإجمالي أن القصاص معناه المماثلة والمساواة، لكن ذكرنا هنا-بإيجاز- بعض الأحكام الفقهية التي يذكرها المفسرون عند تفسير هذه الآية، وذلك من باب تكميل الفائدة، ولأن بعض هذه الأحكام مما تدل عليه الآية بالمفهوم. وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٨٠.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٨٠٩٨، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥١٥، والترمذي برقم/ ١٤١٤ وقال: حسن غريب. والحديث إسناده للحسن صحيح، وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه وقد اعتد به وصحح الحديث: علي بن المديني، والبخاري وأخذ بهذا الحديث انظر: الاستذكار لابن عبد البر٨/ ١٧٧و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٧٢.

(٢) انظر: المبسوط للسرخسي ٢٦/ ١٣٠.

(٣) أخرجه الحاكم برقم/ ٢٦٢٣ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥٣٠، وأحمد ١/ ١١٩ عن علي. وسنده صحيح. الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٢٦٢.

الطحاوي: "إنما مراده فيه والله أعلم لا يقتل مؤمن ولا ذو عهد في عهده بكافر فقدم وأخر فالكافر الذي منع أن يقتل به المؤمن هو الكافر غير المعاهد"(١).

-اختلف العلماء في أخذ الدية من قاتل العمد، فقيل: إن شاء الولي أخذ الدية وإن لم يرض القاتل. وقيل: ليس للولي إلا القصاص، فإن أراد الدية لزم رضا القاتل. ويشهد لصحة الأول قوله ﷺ (من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يؤدى وإما أن يقاد)(٢).

- إذا عفا أحد الأولياء عن القصاص يسقط القصاص في حق الجميع. ولم يتبق لهم سوى الدية.

-دل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ على أن دية العمد على القاتل(٣). ولا مدخل للعائلة فيها بخلاف الديات الأخرى.

- حكم الوصية للأقربين الاستحباب وذلك عند جمهور الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم، قال ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء على أن الوصية غير واجبة على أحد إلا أن يكون عليه دين أو تكون عنده وديعة أو أمانة فيوصي بذلك. وفي إجماعهم على هذا بيان لمعنى الكتاب والسنة في الوصية، وقد شذت طائفة فأوجبت الوصية لا يعدون خلافاً على الجمهور"(٤).

- دل لفظ ﴿ خَيْرًا ﴾ في الآية على أن الموصي إن كان ذا مال يسير فالأفضل له ألا يوصي، وعن عائشة قال لها رجل: إني أريد أن أوصي؛ قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: فإن الله يقول ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وإنه شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل(٥).

---

(١) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٤٨٦ عن أبي هريرة. ووجه الدلالة منه ظاهر.

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٥٦.

(٤) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٢٩٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٠٩٤٦. وقال الأحناف: إن كان ماله قليلاً وله ورثة فقراء فالأفضل أن لا يوصي. بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ٣٣٠، وتكره عند المالكية في المال القليل. الذخيرة للقرافي ٧/ ٩. وقال الشافعية: إن كان ورثته فقراء نقص عن الثلث. روضة الطالبين للنووي ٦/ ١٢٢.

- أخذ بعض العلماء بمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فلم يجز الوصية لغيرهما؛ ولو أوصى لغير قرابته ردت على قرابته غير الوارثين. وهو قول الحسن وطاووس. وقال جمهور الفقهاء: إن أوصى لأجنبي وترك أقاربه المحتاجين فقد أثم لكن تنفذ وصيته لمن أوصى له سواء كان مؤمناً أو كافراً[١].

- اعتبار العرف في الأحكام الشرعية. وهذا ثابت في مسائل كثيرة في الشرع، ومنها الوصية للوالدين والأقربين، وغيرها من الأحكام الواردة في السورة. قال السيوطي: "اعلم أن اعتبار العادة والعرف رجع إليه في الفقه، في مسائل لا تعد كثرة"[٢]. وذكر لذلك أمثلة عديدة منها: تقدير ألفاظ الواقف والموصي.

- تحريم تغيير الوصية، وذلك بأن يغيرها الشاهد فعليه هو الإثم لا على الميت، وإن غيرها الوصي فهو المسؤول، ولا يلحق الميت شيء. ونظير ذلك أن يوصي الميت بسداد دينه فيصير في ذمة الوصي، قال ابن العربي: "وهذا إنما يصح إذا كان الميت لم يفرط في أدائه، وأما إذا قدر عليه وتركه، ثم وصى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولي فيه"[٣].

-إن خالف الموصي ما أمره الشرع كأن يقصد حرمان الورثة أو بعضهم فإنه يبوء بإثم ذلك، قال ابن عباس: "الإضرار في الوصية من الكبائر"[٤]. ونص عليه العلماء[٥].

- لا حرج على من غير الوصية إن كان بها إثم أو ظلم. قال ابن عبد البر: "فإن أوصى بما لا يجوز

---

(١) انظر: الذخيرة للقرافي ٧/ ٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٨٠.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ص٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٠٥.

(٤) أخرجه الطبري عنه موقوفاً برقم/ ٨٧٧٨ وصحح إسناده الشيخ شاكر في التعليق، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٢٧١ وقال: هذا هو الصحيح أنه موقوف.

(٥) الكبائر للذهبي. الكبيرة السابعة والستون ص٢٣٤، والزواجر للهيثمي الكبيرة العشرون بعد المائتين ١/ ٥٠٠.

مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو بشيء من المعاصي فهذا يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه"[١].

- لابد في الصلح من موافقة الطرفين.

- دلت الآيات على فرضية الصوم على كل مكلف، ومن جحد فرضيته فهو كافر.

- المرض من الأعذار المبيحة للفطر في نهار رمضان، وهو كل ما أخرج الإنسان عن حد الصحة، قال ابن قدامة: "أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض في الجملة. والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾"[٢].

وضابط المرض تكلم فيه الفقهاء باستفاضة ونستخلص من كلامهم أن المريض الذي يزيد مرضه بالصوم له أن يفطر، قال النووي: "ولا يشترط أن ينتهي إلى حالة لا يمكنه فيها الصّوم، بل قال أصحابنا: شرط إباحة الفطر أن يلحقه بالصّوم مشقّة يشقّ احتمالها... وأمّا المرض اليسير الذي لا يلحق به مشقّة ظاهره فلم يجز له الفطر، بلا خلاف عندنا، خلافاً لأهل الظّاهر"[٣].

- للمسافر أن يؤخر صومه، ويشترط له عند الجمهور مسافة قصر الصلاة، قال ابن رشد: "وأما المعنى المعقول من إجازة الفطر في السفر فهو المشقة، ولمّا كانت لا توجد في كل سفر، وجب أن يجوز الفطر في السفر الذي فيه المشقة، ولمّا كان الصحابة كأنهم مجمعون على الحد في ذلك، وجب أن يقاس ذلك على الحد في تقصير الصلاة"[٤].

ويلزم أن يكون في مدة القصر، وأن يكون في سفر طاعة عند الجمهور خلافاً للأحناف، ولا يفطر في بلده، وأن يبدأ السفر قبل الفجر؛ فإن سافر خلال النهار بعد أن أصبح صائماً لزم أن يتم صومه عند الجمهور خلافاً للحنابلة الذين استدلوا بحديث جابر: أن رسول الله ﷺ

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٣٠٨.

(٢) المغني لابن قدامة ٣/ ٤١.

(٣) المجموع للنووي ٦/ ٢٥٧.

(٤) بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢١٧.

خرج إلى مكّة عام الفتح فصام حتّى بلغ كراع الغميم، فصام النّاس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر النّاس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك إنّ بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة[1].

- والصوم أفضل عند جمهور الفقهاء إذا لم يجهده السفر ويضعفه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ولأن إكمال العدة عزيمة، والعزيمة خير من الرخصة، والصحيح عند الحنابلة أفضلية الفطر في السفر. وقد احتج كل من الفريقين بأحاديث نبوية؛ قال النووي:" والجواب عن الأحاديث التي احتج بها القائلون بفضل الفطر إنها محمولة على من يتضرر بالصوم، وفى بعضها التصريح بذلك... ولابد من هذا التأويل ليجمع بين الأحاديث والله أعلم"[2].

- دل إطلاق قوله تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ على أن من أخر قضاء ما فاته من رمضان حتى دخل رمضان لا شيء عليه، وهو مذهب أبي حنيفة والحسن وإبراهيم النخغي وغيرهم، وأيده البخاري فقال: "ويذكر عن أبي هريرة مرسلاً وابن عباس أنه يطعم. ولم يذكر الله الإطعام إنما قال: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾"[3].

- للشيخ الكبير الذي يشق عليه الصوم أن يفطر ويفدي عن كل يوم بإطعام مسكين.

- وللحامل والمرضع كذلك أن يفطرا ويقضيا، وفي الفدية خلاف؛ فقال الحنفية: وقال الشافعية والحنابلة: إن خافتا على أنفسهما أفطرتا ولا فدية، وإن خافتا على ولدهما أفطرتا وعليهما الفدية[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١١١٤..

(٢) المجموع للنووي ٦/ ٢٦٧. وانظر فيما سبق: شرح فتح القدير، الكمال بن الهمام ٢/ ٣٥٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢١٧، وكشاف القناع للبهوتي ٢/ ٣١٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب الصوم باب ٣٩- ٢/ ٦٨٨. وقال ابن حجر: "ولم يثبت فيه - أى الإطعام- حديث مرفوع". فتح الباري ٤/ ١٩٠.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٩٧، والأم للشافعي ٢/ ١٠٣، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٤٤.

- يجب صوم رمضان برؤية الهلال ليلة الثلاثين، فإن لم ير الهلال فيجب إكمال عدة شعبان ثلاثين يوما، قال ابن رشد: "وروي عن بعض السلف أنه إذا أغمي الهلال، رجع إلى الحساب بمسير القمر والشمس، وهو مذهب مطرف بن الشخّير، وهو من كبار التابعين. وحكى ابن سريج عن الشافعي أنه قال: من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر، ثم تبين له من جهة الاستدلال أن الهلال مرئي، وقد غمَّ، فإن له أن يعقد الصوم، ويجزيه"[١].

- من رأى هلال رمضان وحده، وردّت شهادته، لزمه الصوم وجوباً، عند جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والشافعية و الصحيح من مذهب الحنابلة)؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾[٢].

- تأول بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ على أن من حضر أول الشهر في بلده فعليه أن يكمل صيامه سواء سافر أو أقام في بقية الشهر.

والجمهور على أن من دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم جاز له أن يسافر ويفطر[٣].

- استدل المالكية بقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ على أن الصائم لا يجب عليه تجديد النية كل ليلة، قالوا: تناول الأمر صوماً واحداً هو صوم الشهر، فصار من أوله لآخره عبادة مستقلة، فتكفي نية واحدة عن الشهر كله في أوله، والجمهور على تجديد النية لكل يوم من أيام الصوم؛ لأن كل يوم عبادة مستقلة[٤].

- شروط وجوب الأداء الذي هو تفريغ ذمة المكلف عن الواجب في وقته المعين له هي الصحة

(١) بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: الهداية للمرغيناني ١/ ١٢٠، وروضة الطالبين للنووي ٢/ ٣٧٨،والمدونة الكبرى لمالك ١/ ١٠٣ الإنصاف للمرداوي ٣/ ٢٧٧.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/ ٩١، والمجموع للنووي ٦/ ٢٦٣،وانظر للمذهب الأول: المحلى لابن حزم ٦/ ٢٤٧

(٤) الثمر الداني للآبي الأزهري ص ٢٩٥، بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٥٨.

والإقامة لقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾. قال ابن جزي: "وأمّا الصحة والإقامة، فشرطان في وجوب الصيام، لا في صحته، ولا في وجوب القضاء، فإن وجوب الصوم يسقط عن المريض والمسافر، ويجب عليهما القضاء إن أفطرا إجماعاً، ويصحّ صومهما إن صاما"(١).

- مشروعية التكبير عند اكتمال عدة الشهر، ويكون من ليلة الفطر حتى صلاة العيد،

قال ابن تيمية: " التكبير..مشروع في عيد الفطر: عند مالك والشافعي وأحمد. وذكر ذلك الطحاوي مذهبا لأبي حنيفة وأصحابه... والتكبير فيه هو المأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم، والتكبير فيه أوكد من جهة أن الله أمر به بقوله ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . والتكبير فيه: أوله من رؤية الهلال، وآخره انقضاء العيد وهو فراغ الإمام من الخطبة على الصحيح"(٢).

-الفطر بالأكل والشرب في نهار رمضان إجماعاً، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فقد مد الأكل والشرب إلى وقت تبين الفجر ثم أمر بالصيام عنهما.

- ومما تستلزمه الآية إباحة صوم الجنب، فإنه يجوز له أن يباشر إلى طلوع الفجر، وهذا يستلزم أن يصبح جنباً. ويطلق علماء الأصول على هذا: دلالة الاقتضاء(٣).

- واستدل جمهور الفقهاء بالآية على أن من أكل أو شرب ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ظنه أنه يجب عليه الإعادة، وهو قول أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد. قالوا: حددت الآية وقت الأكل إلى الفجر وهذا أكل في النهار(٤).

(١) القوانين الفقهية لابن جزي ص٧٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ٢٢١.
(٣) المحصول للرازي ١/ ٣٢٠.
(٤) مجمع الأنهر لشيخي زاده ١/ ٣٥٨، المجموع للنووي ٦/ ٣١٧.

- استدل الأحناف والمالكية بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ على أن من أفطر في التطوع أنه يجب عليه أن يقضي يوماً مكانه؛ لأن الآية تقتضي عموم الفرض والنافلة[١].

- استدل المالكية بالآية على أن من أفطر ناسياً فعليه قضاء يوم مكانه، قالوا: أمر الله في الآية بصيام اليوم على التمام بلا تفريط، ومن أكل ناسياً لم يأت بالصوم على التمام[٢].

لكن قوله ﷺ :(من أفطر في رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة)[٣] حجة قوية لمذهب الجمهور.

- استدل العلماء بالآية على النهي عن الوصال في الصوم؛ لأنها جعلت غاية الصوم إلى الليل. وصح عن عائشة أنها قالت: "أتموا الصيامَ إلى الليل، يعني: أنها كرهت الوصال"[٤].

- من القواعد الفقهية المستقرة: اليقين لا يزول بالشك ومن جملة شواهد هذه القاعدة قوله تعالى ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فالأصل بقاء الليل، فلا ينتقل عنه إلا بيقين، وهو التبين الوارد في الآية الكريمة[٥].

- دلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو سنة إلا إذا نذر فيلزمه الوفاء، قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الاعتكاف لا يجب على الناس فرضاً إلا أن يوجبه المرء على نفسه فيجب عليه"[٦].

---

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ١/ ٣٣٩، والاستذكار لابن عبد البر ٣/ ٣٥٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٥٦٩ وصححه على شرط مسلم، وابن حبان برقم/ ٣٥٢١، وابن خزيمة برقم/ ١٩٩٠ عن أبي هريرة. قال ابن حجر: فأقل درجات الحديث أن يكون حسنا فيصلح للاحتجاج به. فتح الباري ٤/ ١٥٧.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره برقم/ ٣٠٢٧.

(٥) انظر: الفروق للقرافي ٢/ ٣١١.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص ٤٧ برقم/ ١٣٠

- لا اعتكاف إلا في مسجد، وهذا متفق عليه بين جمهور أهل العلم لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ .

- ودل عموم الآية على صحة مذهب الجمهور في جواز الاعتكاف في أي مسجد، خلافاً لمن قصره على المساجد الثلاثة.

- مباشرة النساء تبطل الاعتكاف؛ فالآية قد نهت عن المباشرة نهياً صريحاً، قال ابن المنذر: "أجمعوا على أن المعتكف ممنوع من المباشرة. وأجمعوا على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك في فرجها أنه مفسد لاعتكافه"[(١)].

- استدل بالآية الأحناف والمالكية على أن من نذر الاعتكاف فلابد له من صوم، قالوا: ذَكَر الله الاعتكاف مع الصيام في الآية، وهذا يقتضي أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم، ولأن الآية اشترطت أحد ركني الصوم وهو الإمساك عن المباشرة فكذلك الركن الآخر وهو الإمساك عن الطعام والشراب[(٢)]. وروى مالك أن القاسم بن محمد ونافعاً مولى عبد الله بن عمر قالا: لا اعتكاف إلا بصيام؛ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ فإنما ذكر الله الاعتكاف مع الصيام. قال مالك: وعلى ذلك الأمر عندنا: أنه لا اعتكاف إلا بصيام[(٣)].

- حرمة أكل أموال الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم بغير حق.

- قال الجصاص: " وأكل المال بالباطل على وجهين: أحدهما: أخذه على وجه الظلم والسرقة

---

(١) السابق ص ٤٨ برقم ١٣٣،١٣٤.

(٢) تحفة الفقهاء للسمرقندي ١/ ٣٧٢ والمدونة لمالك ١/ ٢٢٥، أما اعتكاف النفل فيجوز عند الأحناف من غير صوم. المبسوط ٣/ ١٧٧.

(٣) الموطأ لمالك برقم/ ٦٨٨. وللمخالفين ردود على هذه الأدلة لا نطيل بذكرها فلتراجع في المجموع للنووي ٦/ ٤٧٨.

والخيانة والغصب وما جرى مجراه. والآخر: أخذه من جهة محظورة نحو القمار وأجرة الغناء والقيان والملاهي والنائحة وثمن الخمر والخنزير والحر وما لا يجوز أن يتملكه وإن كان بطيبة نفس من مالكه"[١].

-حكم الحاكم وقضاء القاضي لا يُغيِّران الحرام إلى الحلال؛ لأنهما يقضيان بالظاهر فقط، قال ابن رشد: "أجمعوا على أن حكم الحاكم الظاهر الذي يعتريه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وذلك في الأموال خاصة"[٢].

- المواقيت المعتبرة شرعا هي الأهلة. وذلك في أبواب مواقيت الزكاة ودخول الصوم والكفارات والحج وأجل الطلاق وأجل الديون والعدة والإجارة والسلم ووضع الخراج على الأرض والجزية وتقدير السن وغير ذلك من أبواب الشرع...

- استدل جمهور الفقهاء بإطلاق الآية على صحة الإحرام بالحج في أي وقت من أوقات السنة وينعقد الحج مع الكراهة؛ لأن الله جعل الأهلة كلها ظرفاً للحج. وذهب الشافعية إلى عدم انعقاد الحج قبل هلال شوال، وينعقد عمرة[٣].

- أمرت الآية بقتال من قاتل المسلمين. ومفهوم المخالفة يقتضي عدم قتال من قاتلنا، فمن كان بيننا وبينه عهد فإنه يجب علينا الوفاء بعهده قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة/ ٧].

- تحريم الاعتداء من المسلم على الغير حتى في حال الحرب. ومن أجل ذلك ذكر الفقهاء ما يلي:

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣١٢.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٣٤٥.

(٣) البحر الرائق لابن نجيم ٢/ ٣٩٦، والحاوي الكبير للماوردي ٤/ ٢٨، ومنح الجليل للشيخ عليش ٢/ ٢٢٣، ونيل الأوطار للشوكاني ٥/ ٢٩.

١- حرمة القتال قبل بلوغ الدعوة، فلا بد من دعوتهم للإسلام أولاً. قال الكاساني: "فإن كانت الدعوة لم تبلغهم فعليهم الافتتاح بالدعوة إلى الإسلام باللسان ؛ لقول الله - تبارك وتعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/ ١٢٥] ولا يجوز لهم القتال قبل الدعوة"[١].

٢- عدم جواز التمثيل بقتلاهم، قال رسول الله ﷺ: (أعفُّ الناس قتلة أهلُ الإيمان)[٢].

٣- لا يجوز قتل الصبيان والمجانين.

٤- لا يجوز قتل المرأة والشيخ الكبير والأعمى والراهب طالما لم يقاتلوا.

٥- لا يجوز الإحراق بالنار طالما أمكن التغلب عليهم بدونها.

٦- لا يجوز قتل الأجراء والفلاحين الذين لا ينصبون للحرب، وهم المدنيون بالمصطلح المعاصر.

ويشهد لذلك كله: حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم"[٣]. ونهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٤].

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠٠.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه برقم/ ٢٦٦٦، وابن ماجه/ ٢٦٨١ وأحمد ١/ ٣٩٣ عن عبدالله بن مسعود. قال المناوي: ورجاله ثقات. فيض القدير ٢/ ٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٣١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٥٢ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٤عن عبد الله بن عمر.

وأوصى أبو بكر أحد قواد جيشه إلى الشام فقال: "وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه، ولا تغلل ولا تجبن"(١). وقال عمر: "لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، واتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"(٢).

- لا يجوز القتال في المسجد الحرام إلا إذا كان دفاعاً عن النفس، اتباعاً لظاهر الآية، وهو قول الأحناف. وقال الشافعية: الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة/ ٥](٣). والراجح قول الأحناف لقوة دليلهم، وللأحاديث الواردة في تحريم القتال بمكة(٤).

- اتفق العلماء على مشروعية الدفاع عن النفس والعرض والمال، لقوله تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وتعرف هذه المسألة بدفع الصائل. وليس على المدافع ضمان فيما أتلف إذا لم يكن هناك طريق أخف(٥).

- استدل الشافعية والمالكية والحنابلة في قول بالآية على وجوب المماثلة في القصاص؛ فالقاتل يُقتَل بما قَتَل به، وذهب الحنفية والحنابلة في الأصح إلى أنه لا يكون القصاص في النفس إلا بالسيف(٦).

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه٩/ ٨٩ ومالك في الموطأ برقم/ ٩٦٥، وعبد الرزاق في المصنف برقم/ ٩٣٧٥.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه برقم/ ٢٦٢٥. والبيهقي ٩/ ٩١ بلفظ مقارب.

(٣) انظر لرأي الأحناف بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١١٤. ولرأي الشافعية: الحاوي الكبير للماوردي ١٤/ ١١٠.

(٤) ورجحه القرطبي فقال: "وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٤٢. وانظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٥٣.

(٥) إعانة الطالبين للدميطي ٤/ ١٧٠.

(٦) شرح الزركشي ٣/ ١٩، المغني لابن قدامة ٨/ ٢٤٠، شرح الشيخ عليش ٨/ ١٥.

- استدل العلماء بالآية على وجوب ضمان المثل على من غصب حق إنسان، فإن تعذر المثل وجب ضمان القيمة[١]. ومثل الغصب الإتلاف؛ لأنه في كونه اعتداء وضرراً فوق الغصب.

- استدل جمع من أهل العلم بهذه الآية على مسألة الظفر بالحق، وخلاصتها أن من كان له حق على غيره، ولم يتمكن من استيفائه، فإن له أن يأخذ حقه بغير إذنه، على تفاصيل وشروط تراجع في كتب الفقه المطولة[٢].

-استدل الحنابلة بالآية على القصاص في اللطمة والضربة، والجمهور على عدم القصاص لتعذر المساواة[٣].

- استدل بعض الفقهاء بالآية على أن من شتم غيره بدون قذف فإن للمشتوم أن يرد عليه، والأفضل أن يرفع أمره للحاكم ليعزر[٤].

-يجب دفع الصائل المعتدي حفاظاً على النفس، وقال الشافعية يباح، وقول الجمهور أرجح لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [٥].

- يجب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما؛ فمن أحرم بنسك وجب عليه ألا يفسخه، لأن ظاهر الآية يقتضي الإتمام بعد الشروع، ولهذا قال:(**فإن أحصرتم**) ولا إحصار قبل الشروع[٦].

-استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ على وجوب العمرة؛ قالوا: الأمر في الآية للوجوب والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه[٧]، ورد استدلالهم

---

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٨/ ١٢٥، المغني لابن قدامة ٥/ ١٩٣.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٩٥، الأم للشافعي ٥/ ١٠٤، المغني لابن قدامة١٠/ ٢٧٦، منح الجليل لمحمد عليش ٧/ ٤٣.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ١٦٣.

(٤) كشاف القناع للبهوتي ٦/ ١٢٧. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٥٥.

(٥) الروض المربع للبهوتي ٣/ ٣٣٢. كفاية الأخيار تقي الدين الدمشقي ص ٤٨٩.

(٦) مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٣/ ٢٠٢، المغني لابن قدامة ٣/ ٨٩.

(٧) الأم، الشافعي ٢/ ١٣٢، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٧٧. وانظر للرد على استدلالهم: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٢٢٦. بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣٦.

بأن الأمر هنا للإتمام بعد الشروع. ولأن الأحاديث المشهورة الثابتة في تعديد فرائض الإسلام لم تذكر العمرة.

- استدل جمهور العلماء (الحنفية والشافعية والحنابلة) بالآية على أن من فسد حجه بالوطء وجب عليه أن يتمه ويقضيه في العام المقبل؛ لأنه لم يأت به على النحو المطلوب. وقال المالكية: يفسخ الحج إلى عمرة[1].

-استدل الأحناف بالآية على أفضلية القران (أي الجمع بين الحج والعمرة بإحرام واحد) لما ورد في معنى الإتمام: أن تحرم بهما من دويرة أهلك[2]. ورد استدلالهم بأن الآية لم تفد أكثر من جمعهما في الذكر فلا يفيد هذا جمعهما في الفعل[3]. والحق أن الأنساك الثلاثة (القران والتمتع والإفراد) جائزة، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه ﷺ حج قارناً.

-استدل جمهور العلماء بالآية على أن الحج واجب على الفور؛ فمن ملك الاستطاعة وجب عليه التعجيل؛ فالأمر في الآية يقتضي الفور، وذهب الشافعي إلى أن الحج واجب على التراخي؛ لأنه فرض بعد الهجرة ولم يحج النبي ﷺ بأزواجه وأصحابه إلا سنة عشر[4].

ومذهب الجمهور أرجح؛ لأن تأخير النبي ﷺ كان بسبب مظاهر الشرك حول البيت، فلما تم أمر التوحيد نودي ألا يحج بعد العام مشرك، ولأنه ﷺ كان يعلم بقاء حياته إلى أن يعلم الناس مناسكهم تكميلاً للتبليغ[5].

-من أحصر عن الحج بعدو أو نحوه لزمه الهدي، قال ابن عمر: "خرجنا مع رسول الله ﷺ

(١) الإقناع للخطيب الشربيني ١/ ٢٦٢، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٨.
(٢) أخرجه الحاكم برقم/ ٣٠٩٠ وصححه على شرطهما، والبيهقي ٤/ ٣٤١، وابن أبي شيبة برقم/ ١٢٦٨٩ عن علي. وقال ابن حجر: إسناده قوي. تلخيص الحبير ٢/ ٢٢٨.
(٣) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٢/ ٣٨٤ وانظر المجموع للنووي ٧/ ١٣٨.
(٤) المجموع للحنفي ٧/ ٧٢.
(٥) المبسوط للسرخسي ٤/ ١٦٤. وحاشية ابن عابدين ٢/ ٤٥٥.

فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه"[١].

-الإحصار عند الجمهور يكون بالعدو، وعند الأحناف يتحقق بكل حصر وحبس سواء بمرض أو بهلاك نفقة ونحو ذلك، لأنه وإن كانت الآيات نازلة في إحصار العدو، إلا أنه يقاس عليها كل حصر. ومما يؤيد قولهم ما ورد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من كسر أو عرج فقد حلَّ، وعليه الحج من قابل)[٢].

-وقد استشهد الحنفية بالحديث على أن من حصر فعليه القضاء، وذهب مالك والشافعي إلى عدم وجوب القضاء، واستدلوا بالآية فقالوا: لم تزد الآية عن الهدي ولم تذكر القضاء[٣].

- ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ هو ما يهدى إلى بيت الله الحرام، وهو إما شاة أو ماعز، أما البدنة فتكفي سبعة.

- وفي الآية دليل على مذهب الجمهور الذي أوجب ذبح الهدي على المحصر، أما المالكية فقد ذهبوا إلى أنه سنة، وهم محجوجون بنص الآية[٤].

-استدل الأحناف بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ على أن الهدي محله الحرم، ولأنه قربة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٧١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٧٢٥ وصححه على شرط البخاري، وأبوداود برقم/ ١٨٦٢، والترمذي برقم/ ٩٤٠ وابن ماجه برقم/ ٣٠٧٨، وسنده صحيح. وقد قال عز الدين بن عبد السلام: "والذي ذكره مالك والشافعي لا نظير له في الشريعة السمحة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾، وقال فيها: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾، فإن من انكسرت رجله وتعذر عليه أن يعود إلى الحج والعمرة يبقى في بقية عمره حاسر الرأس متجرداً من اللباس محرماً عليه النكاح والإنكاح، وأكل الصيود والتطيب والأدهان، وقلم الأظفار وحلق الشعر ولبس الخفاف والسراويلات، وهذا بعيد من رحمة الشرع ورفقه ولطفه بعباده. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام ٢/ ١١.

(٣) المجموع للنووي ٨/ ٢٣١.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢/ ٩٣.

فلابد لها من مكان. وذهب الشافعية وغيرهم إلى أن المحصر يذبح الهدي حيث أحصر؛ لأن النبي ﷺ ذبح الهدي في الحديبية وهي في الحل لا في الحرم[(١)].

-استدل الجمهور (أبو حنيفة والشافعي وأحمد في الراجح) بإطلاق الآية على أن الذبح لا يتقيد بوقت؛ لأن الآية جاءت مطلقة عن الزمان، فلا تخصص إلا بدليل قطعي ولا دليل[(٢)].

-استدل الأحناف بإطلاق قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ ﴾ على أن المحصر لا يلزمه الحلق أو التقصير، واستدل الشافعية بمفهوم الغاية في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ على لزوم الحلق أو التقصير، والمعنى فإذا بلغ الهدي محله فاحلقوا.

ويؤيده فعل النبيﷺ وأصحابه[(٣)].

- لا يحلق المحصر رأسه حتى ينحر الهدي لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ ﴾.

- من كان مريضاً أو به أذى في رأسه فحلق فعليه الفدية بالتخيير بين ثلاثة أشياء: الصوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو النسك بشاة.

- من لم يكن مريضاً وحلق رأسه فعليه دم فقط ولا تخيير عند أبي حنيفة وأحمد، لأن الآية خيَّرت بشرط العذر، فإن عدم الشرط بطل التخيير. وخالفهم مالك[(٤)].

- أوجب الجمهور ذبح فدية الأذى بمكة، وقال مالك: لا يلزم أن يكون بمكة؛ لأن الآية جاءت مطلقة لم تتقيد بمكان[(٥)].

- التمتع هو الإحرام بعمرة ثم التحلل منها إلى وقت الإحرام بالحج ويكونا في سفر واحد،

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٣/ ٥٩، الحاوي الكبير للماوردي ٤/ ٣٥١.
(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٤٢.
(٣) المبسوط للسرخسي ٤/ ٧١، المجموع للنووي ٨/ ٢٢٩، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٥.
(٤) المغني لابن قدامة ٣/ ٢٥٨، الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٥.
(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٩.

والقران الإحرام بالحج والعمرة معاً، ويأخذ حكم التمتع في وجوب الهدي.

- من لم يجد الهدي فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام منى لقوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ فإذا رجع بلده صام سبعة أيام.

- دل قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ على أن من كان من حاضري المسجد الحرام يعني: من أهل مكة فليس عليه دم إذا تمتع أو قرن.

- قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ والجمهور على أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وقال المالكية: أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعلى مذهبهم يجوز أداء طواف الإفاضة والتحلل آخر ذي الحجة[١].

-دل قوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ على حرمة الجماع في الحج؛ فمن فعل فسد حجه. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن من جامع عامدا في حجه قبل وقوفه بعرفة أن عليه حج قابل والهدي"[٢].

- تحريم الفسوق في الحج، ومعناه مطلق الخروج عن الطاعة سواء بانتهاك محظورات الإحرام أو بأي معصية، والمعاصي محرمة بكل حال لكنها في الحج أشد تحريماً.

- جواز التجارة مع أداء عبادة الحج.

-استدل الجمهور بإطلاق قوله تعالى ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ ﴾ على أن الوقوف بعرفات يجزئ في أي وقت من ليل أو نهار ما دام بعد الزوال، واشترط مالك أخذ جزء من الليل، والحجة للجمهور إطلاق الآية وقولهﷺ: (من أدرك معنا هذه الصلاة - أي صلاة الفجر بمزدلفة- وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه)[٣].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٤/ ٦٠، المجموع للنووي٧/ ١٠٥، بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣٨، الكافي لابن قدامة ١/ ٣٩٠.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٤٩ رقم/ ١٤٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ١٧٠١ وقال:هذا حديث صحيح على شرط كافة أئمة الحديث، وأبوداود برقم/ ١٩٥٠ وأحمد في مسنده٤/ ٢٦١ عن عروة بن مضرس. وسنده صحيح. تلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٢٥٦.

-استدل بعض الفقهاء بإطلاق الأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ﴾ على فرضية الوقوف بمزدلفة، ورد جمهور الفقهاء هذا الاستدلال فقالوا: لم يرد في الآية أمر صريح بالوقوف ولا بالمبيت وإنما فيها الأمر بالذكر، وليس فرضاً، فمن لم يذكر الله فحجه صحيح، فكذلك من لم يقف من باب أولى، ولأن المبيت ليس من ضرورة ذكر الله بها[1].

- الأمر للحاج بذكر الله في الأيام المعدوادت وهي أيام التشريق بمنى، ويتشبه غير الحجاج بالحجاج فيكبرون وبخاصة في أوقات الصلوات.

-يجوز التعجل من منى في اليوم الثاني لمن أراد بشرط أن ينفر قبل غروب الشمس؛ قال ابن المنذر: " وأجمعوا على أن من أراد الخروج من الحج عن منى شاخصاً إلى بلده خارجاً عن الحرم غير مقيم بمكة في النفر الأول أن ينفر بعد زوال الشمس في اليوم الثاني إذا رمى في اليوم الذي يلي يوم النفر قبل أن يمسي"[2].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- يجب عمن عفا عن القاتل أن يتبعه بالمعروف، قال ابن عطية معلقاً على الآية:" وهذا الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي".[3]

- وعلى القاتل كذلك إذا عفي عنه أن يؤدي الدية بإحسان، وألا يماطل في أداء ما عليه.

- التيسير والتخفيف منهج إسلامي أصيل؛ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ وأمثلة ذلك في الصوم كثيرة، ومن أمثلته في الحج قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فعلق الأمر بما تيسر، ومن التيسير في الحج أن الكفارات جاءت متدرجة من الأخف على الأثقل؛ فبدأ بالصيام وهو أيسر على غالب الناس من الفدية، وثنى

---

(١) المبسوط للسرخسي ٤/ ٦٣، مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٣/ ٨، المغني لابن قدامة ٣/ ٢١٥.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٥٦ رقم/ ٢٠٥.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢٤٦.

بالصدقة وهي أيسر من النسك. ومن التيسير أيضاً: أن من لم يجد الهدي يجزئه صيام عشرة أيام ولا يلزم تتابعها. وكذلك أباح للحاج التعجل من منى لمن شاء.

- إثم التغيير على من قام به دون غيره.

- فضيلة الصلح، وبيان أنه من أفضل الأعمال، لأن نفعه متعدٍ إلى الناس؛ فهو أفضل من العبادة القاصرة غير المتعدية؛ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؛ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين)[1].

- الحرص على الدعاء، وتحري مواطن الإجابة الزمانية كساعة يوم الجمعة، وبين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات، وجوف الليل، وليلة القدر، ويوم عرفة، والمكانية كالدعاء عند الكعبة وكذلك أحوال الإجابة من السفر والمطر والمرض وعند اللقاء وغيره، ومن مواطن الإجابة شهر رمضان؛ فقد جاءت آيات الصوم مقترنة بالدعاء لهذه الحكمة، والدعاء عبادة يؤجر فاعلها، ومن شروط الإجابة: الإخلاص، وإطابة المطعم، وعدم الاستعجال، والعزم في الدعاء،وحضور القلب، وعدم الاعتداء، ومن آداب الدعاء: أن يبدأ الداعي بنفسه، وأن يكرر الدعاء ثلاثاً، وأن يستفتحه بالثناء على الله، والصلاة على رسوله، وأن يرفع يديه مستقبلاً القبلة، وألا يتكلف السجع. ولكل هذه أدلة لا نطيل بذكرها.

- مما يعظم أجر المرء: أن يبتغي بجماعه ما كتب الله له من الولد؛ فإن حسنت نيته في هذا رزقه الله خيري الدنيا والآخرة.

- إتيان البيوت من أبوابها الحسية والمعنوية؛ وهذه قاعدة عامة تطبق في سبب نزول الآية وفي غيره؛ فالسؤال عن الأهلة لمن لم يكن من أهل المعرفة بها إتيان للبيوت من ظهورها، أما المعرفة والعلم والبحث فهو إتيان للبيوت من أبوابها، فهي منهج دقيق يضبط جوانب العلم

(١) أخرجه ابن حبان برقم/ ٥٠٩٢ والترمذي برقم/ ٢٥٠٩وقال: صحيح،وأبوداود برقم/ ٤٩١٩ وأحمد٦/ ٤٤٤. وهو صحيح.

والمعرفة، ويبين كيفية الاستعداد لهما حتى يتبوأ المسلمون الرفعة في الدنيا، وعندما حدث التطبيق العملي لهذه القاعدة العظيمة وأتى المسلمون بيوت العلم من أبوابها حازوا منزلة عظيمة وتعلمت منهم الأمم بأسرها.

-عدم الاعتداء من الأخلاق الإسلامية الواجب تطبيقها مع العدو فكيف بغيره.

-من أخلاق الإسلام العدالة والمساواة والمماثلة في رد الحقوق وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى/ ٤٠]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [١٩٤]، وقال: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ [النحل/ ١٢٦]، وأمر بالمماثلة والمقاصة في شأن القتلى. فلا يحق لأحد أن يتجاوز العدل فيأخذ أكثر من حقه أو يتعدى المماثلة المأمور بها.

- جاء الأمر في الآيات بالإحسان مطلقاً، ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْ ﴾ . والإحسان يشمل إحسان العمل وإتقانه، ويشمل منزلة الإحسان التي هي من أرفع المنازل، ويشمل كذلك إحسان القول والفعل، والإحسان إلى الناس جميعاً وإلى الوالدين والأهل خصوصاً.

- النهي عن الجدال فيما لا يفيد. ويتأكد البعد عن الجدال في وقت الحج لأنه مناف لمقصود الحج من السكينة والهدوء ومداومة الذكر، ولأن فيه تشويشاً للقلب في وقتٍ هو أحوج من يكون إلى اجتماع قلبه لذكر ربه.

د- الجوانب التربوية:

- سمى الله في كتابه المال خيراً في أكثر من آية، وأمر بحفظه فلا يؤتى السفهاء، وجعل المال قياماً بأمور الناس، وامتن على النبي ﷺ بأنه أغناه، وقال رسول الله ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[1]. وهذا دليل على أن المال ليس مذموماً لذاته، وإنما المال أداة يستخدمها الطائعون

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٣٢١٠ وأحمد في مسنده ٤/ ١٩٧ وصحح الحافظ العراقي سنده في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٨٩٢.

في الخير فيقربهم إلى ربهم، وبالعكس.

- الصيام ينمي ملكة المراقبة لله رب العالمين؛ ذلك أن الصوم عبادة سريّة لا يطلع عليها إلا الله، وقد يأكل المرء ويشرب بدون أن يراه أحد، فإذا حافظ على صيامه بعيداً عن أعين الناس أورثه ذلك تقوى لله تعالى.

- التطوع ترق في المقامات، قال تعالى: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ ، والنوافل باب كبير يلج منه المرء إلى محبة ربه، وفي الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[1] فمن رام الوصول إلى محبة ربه حرص على الزيادة في التطوع ليحقق الخير لنفسه.

- قال تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ فكلٌ من الرجل والمرأة لباس وستر لصاحبه، وهذا من سمو تعبيرات القرآن عن الحياة الزوجية؛ فهي السكن والمودة والرحمة والميثاق الغليظ؛ فالأسرة التي تتكون لبناتها بين الرجل والمرأة هي أساس المجتمع الفاضل والخطوة الأولى لتكوين جيل مسلم، من هنا كان اهتمام الإسلام بالعلاقة الزوجية، والحرص على ربطها بالرباط الديني الأخلاقي المحكم الوثيق.

- حماية أموال الناس، والحفاظ عليها أمر لا يقبل التفريط بحال، وقد نسب الله أموال الناس إلى آكلها فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ قال الطبري:" فجعل تعالى ذكره بذلك آكل مال أخيه بالباطل، كالآكل مال نفسه بالباطل"[2]. وهذا دليل على وحدة الأمة وتكافلها، وفيه أيضاً تربية للمرء على البعد عن الحرام؛ فإنه إذا استحل مال غيره كان ذلك مدعاة لأن يجترئ الناس على ماله، فحفاظه على مال غيره حفاظ على مال نفسه.

- على المربي إذا طلب أو أمر بشيء أن يذكر ما يعين على الفعل ويحرض عليه، وليكن قدوتنا في ذلك كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ . وهذا ذكرٌ لأسباب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم/ ٦١٣٧.

(٢) جامع البيان للطبري ٣/ ٥٤٨.

القتال وتحريض عليه بأسلوب حكيم، وفي اقتران ذلك بسبيل الله إرشاد عن التخلي عن حظوظ النفس ليكون القتال من أجل إحقاق الحق.

- القصد من الجهاد الإسلامي دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، أو الدخول في ذمة المسلمين وجريان أحكام الإسلام عليهم، لينتهي تعرضهم لبلاد المسلمين، ويتوقف منعهم للدعوة الإسلامية.

- جاء في آيات هذا المقطع قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٩٤]. وهذا نص في أن معية الله بالحفظ والتأييد والنصرة والإعانة إنما تكون مع أهل التقوى، والناظر في آيات القرآن يلاحظ أن معية الله للمتقين جاءت في ثلاث آيات كلها في الجهاد، وهذه أولاها، أما الأخريان فهما قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة/ ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة/ ١٢٣] وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل/ ١٢٨] وهي أيضا نازلة في الجهاد كما هو معلوم من الآيات التي قبلها ومن أسباب النزول الواردة فيها. وفي هذا درس تربوي واضح؛ فلا نصر إلا بالتقوى، ولا صلاح للجهاد ولا إصلاح بالجهاد للناس إلا إذا اقترن بالتقوى، والتزم أهله امتثال الأوامر واجتناب النواهي، أما إذا كان القتال لدنيا أو على غير منهج الوحي، أو لتكون أمة هي أربى من أمة فإنه لن يجدي على أهله شيئا يوم القيامة، بل يكون عليهم حسرات.

-جاء التأكيد في الأمر بالحج والعمرة أن يكونا لله ولم يأت ذلك في الصلاة والصوم وبقية العبادات، وفي هذا لفتة تربوية طريفة؛ ذكرها القرافي فقال: "لأنهما مما يكثر الرياء فيهما جداً، ويدل على ذلك الاستقراء؛ حتى إن كثيراً من الحجاج لا يكاد يسمع حديثاً في شيء من ذلك إلا ذكر ما اتفق له أو لغيره في حجه، فلما كانا مظنة الرياء قيل فيهما: لله. اعتناء

بالإخلاص"[(١)].

- اهتمت التربية الإسلامية بإصلاح الأمرين معاً: الظاهر والباطن، فصلاح الباطن بالتقوى والخشية مطلوب وهو المقصود الأعظم، لكن لا يُنسى كذلك إصلاح الظاهر بالأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وهذا جمع بين الزادين، زاد الدنيا بالطعام وزاد الآخرة بالتقوى، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف/ ٢٦] فجمع بين زينة الظاهر بالملابس وزينة الباطن بالتقوى، والناظر في الآيات يلحظ بوضوح أن زينة الباطن خير وأحسن، لكن لا يُهمَل جانب الدنيا، فالتربية الإسلامية قائمة على مبدأ التوازن بين متطلبات الروح والجسد، مع تغليب الأنفع والأبقى. بل إن المسلم يلحظ ذلك في دعائه فيطلب من خيري الدنيا والآخرة أما الذي يهتم بمطالب الدنيا وما له في الآخرة من خلاق فإنه من الخاسرين.

- أصحاب العقول الخالصة الذين وصفهم الله بأنهم أولوا الألباب هم أهل التذكر الحق،قال تعالى ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٦٩]، وهم المأمورون بالتقوى لأنهم الذين يعرفون قدرها وخطرها، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وهم كذلك الذين يفقهون حكم الله في تشريعاته، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ . وهذا يبين قيمة العقل الصحيح في الإسلام، وأنه يوصل الإنسان بالتدبر إلى تقوى الله.

(١) الذخيرة للقرافي ٣/ ١٧٣.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- جاء في المقطع وسائل إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع الصغير والمجتمع الإسلامي الكبير، وإليك تفصيل ذلك.

أما إصلاح الفرد وتهذيب روحه فإن تشريع الصيام يتكفل بتنقيته من الآثام، وبابتعاده عن الحرام وهذا واضح من سياق الآيات ولحاقها.

والأسرة الصغيرة إنما تصلح بالحب والإيثار والإعطاء من الغني للفقير سواء في حياته كما في آية البر، أو بالإيصاء له كما في آية الوصية، وكذلك المجتمع إنما ينصلح بالعدل والمساواة في أمور القصاص والدية. أما إذا فشت المظالم فإنها تكون سبباً في هلاك المجتمع وفساده.

ولن ينصلح حال المجتمع الإسلامي كله إلا بالجهاد ومقارعة الظالمين، وإذا لم يكن للمسلمين قوة يحمون بها مقدساتهم فإنهم قد يحال بينهم وبينها؛ فقد صُدَّ المسلمون عن البيت الحرام، لكن القرآن رباهم في هذا الدرس على عدم الاستسلام بل عليهم أن يجاهدوا عدوهم إن حال بينهم وبين مقدساتهم.

وقد جاء أمر التقوى في هذا المقطع مرتبطاً بعدة شعائر:

ففي الصوم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ .

وفي الحج ختمت آية إتمام الحج والعمرة بقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [١٩٦]، وفي مناسك الحج الأمر بالتقوى، قال تعالى ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [١٩٧] ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ ﴾ [٢٠٣].

وكذلك جاءت التقوى في الأمر بالوصية والأمر بالقصاص والأمر بالجهاد. وهذا دليل

على أن التقوى هي الرباط الجامع الذي يصل كل هذه الأمور بالله رب العالمين.

وفي هذه الأمور المذكورة حفاظ على كليات الشريعة الإسلامية؛ فالصوم والحج حفظ للدين، والنهي عن الرشوة حفظ للمال، والجهاد حفظ للنفس، وابتغاء ما كتب الله من الولد حفظ النسل، وهذه أصول وكليات الشريعة الإسلامية، وقد جاء في هذا المقطع تفصيل الحفاظ على الدين لأنه الأهم، وسيأتي في المقاطع اللاحقة تفصيل الحفاظ على النسل والعقل والمال. وبهذا تأتلف مقاطع السورة لتشكل معاً معالم الشريعة الإسلامية.

المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية (٢٠٤-٢٢٠)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ (٢٠٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٢٠٨) فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٢١٠) سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۢ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٢١٢) كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ (٢١٣) أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ (٢١٤) يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٢١٦) يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

اختتمت الآيات السابقة بالحديث عن انقسام الناس حيال الموقف من الدنيا والآخرة إلى فريقين، فريق غايته الدنيا وأسقط أمر الآخرة من حسابه، وآخر يطلب للدنيا لكن لا ينسى الآخرة. واستمرت آيات هذا المقطع في وصف الناس إزاء موقفهم ممن حولهم إلى قسمين أيضاً:

الأول: قسم لا يهمه سوى أمر نفسه، وهو في سبيل ذلك يفسد في الأرض ويخرب عامرها، أما الفريق الثاني فإنه على العكس من ذلك، يبذل نفسه وماله ابتغاء رضوان ربه.

فالنموذج الأول يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بالله وطلبهم منه، أما النموذج الثاني فإنه يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بمن حولهم، وما الذي يحكم هذه الصلة.

وجاء بعد ذلك ذكر نموذج الضُّلال الذين زينت لهم الحياة الدنيا فانطلقوا يسخرون من المؤمنين، وجاء بعده مباشرة ذكر أهل الإيمان وأنهم أهل العلو الحقيقي. وفي وسط هذه النماذج المتضادة جاء التذكير بأخذ الدين بقوة وعدم اتباع خطوات الشيطان، مع تذكير المؤمنين بحال من بدلوا حتى يتعظوا ولا يقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم تَبِع ذلك آيات تمهد للمؤمنين سبيل الجهاد وتهيؤهم له، وهذا مرتبط بما قبله من الحديث عن القتال، بل إن الباعث عن القتال في الموضعين قد تقارب وذلك في قوله تعالى في المقطع السابق: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ

عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [١٩١]. وفي هذا المقطع قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [٢١٧].

التفسير الإجمالي للمقطع:

لما كانت القلوب هي محل التقوى، وكان العمل شاهداً لما في القلب من التقوى دون الكلام ذكر الله أن الناس في هذا الأمر قسمان: قسم مخادع يظهر خلاف ما يبطن، وقد جاء وصفه بخمس صفات: أولها: أن قوله يروقك في الدنيا حيث الأخذ بالظواهر. وثانيها: أنه لا يكتف بمعسول القول وليِّن الحديث وإنما يحلف بالله ويقول إنه تعالى شهيد على ما في قلبه من الخير، وثالث أوصافه: أنه رغم قوله وحلفه فإنه في واقع الأمر أشد عداوة ومخاصمة للمؤمنين، قال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[١].

ورابع أوصافه: أنه إذا تولى أي أعرض عن المكان وابتعد عنه، أو صار والياً له كلمة وحكم فإنه يبذل وسعه في الفساد في الأرض فساداً معنوياً بنشر الضلال وفساداً حسياً بإتلاف الزرع والمال والولد، وهذا دليلٌ على فساد باطنه بخلاف ما زعم، والله لا يحب الفساد.

وخامس أوصافه: أنه مصرٌّ على ذنبه ويستنكف من قبول النصيحة وتحيط به حمية الجاهلية، وتأخذه العزة لا بالحق بل بالإثم، فهذا تكفيه جهنم مصيراً وبئس الفراش فراشها.

أما القسم الثاني فإنه صادق القلب، ويظهر أثر هذا في تجرده، فهو يبيع نفسه وكل ما يملك طلباً لمرضاة الله تعالى، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[١]، ويجاهد بماله ويجود بنفسه والله رؤوف بعباده، يعيينهم ويقويهم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٣٢٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٦٦٨عن عائشة.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤/ ٢٥٠.

قيل: نزلت الآية في صهيب، لما أقبل مهاجراً نحو النبيﷺ فاتبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم فقالوا: دلّنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك، ففعل. فلما قدم على النبي ﷺ قال: أبا يحيى، ربح البيع، ربح البيع. وتلا له الآية[1]. والنموذج الذي تبينه الآيات يشمل سبب النزول لكنه عام في إبراز ملامح طائفة مخلصة متجردة لله تعالى.

والآيات السابقة تدل على أن الإفساد في الأرض لا يقوم به أهل الإيمان، وإنما هو دأب المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ودأب شياطينهم من اليهود، أما المؤمنون فإنهم مطالبون بالإيمان الكليِّ الذي لا يأخذ شيئاً ويدع آخر. وهذا ما بينته الآية حيث ذكرت ما يجمع القلوب نحو مرضاة علام الغيوب وذلك بأمر المؤمنين أن يستسلموا لله تعالى، ويخضعوا له وينقادوا بالكلية لأحكامه، وألا يتبعوا الشيطان فيتفرق بهم عن سبيل الله، ذلك أن الشيطان للإنسان عدو مبين وإن لم يكن مرئياً إلا أن عداوته ظاهرة لا ينكرها عاقل.

فإن اتبعتم طريقه وسلكتم نهجه فأصابكم الزلل بعد ما هداكم الله بالأدلة البينة على طريق الحق فاعلموا أن الله غالب لا يُغلب وقادر لا يُقهر فاحذروا غضبه وانتقامه.

ثم تغير الأسلوب إلى هؤلاء المفسدين وخاطبهم بأسلوب الغائب التفاتاً تخويفاً لهم وبياناً أنهم لا ينتظروا إلا أن يأتيهم الله إتياناً يليق بذاته وتأتيهم الملائكة في قطع السحاب بعد أن تشقق السموات، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥] عندئذ حق العذاب وقضي الأمر وإلى الله تصير الأمور.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم/ ٥٧٠٠ عن عكرمة، وصححه على شرط مسلم، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٨ برقم/ ١٩٣٩ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٥١ وابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير٢٤/ ٢٢٨، وله طرق عدة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر٣/ ٤٥١.

وتذكر الآيات بعض إفساد هؤلاء وتحذر المسلمين من سلوك منهجهم، قال الرازي: "وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم"[١].

والمعنى: اسأل يا محمد بني إسرائيل سؤال إنكار لا سؤال استفسار كم من المعجزات والبراهين المتكاثرة قد أتتهم ولكن كانوا عنها معرضين، ولها مبدلين، ثم بين الله سنته الكونية في ذلك وهي أن من بدل نعمة من بعد ما جاءته واتضحت له بأن كفر بها فإن الله يعاقبه أشد العقوبة فهو شديد العقاب، ونظير ذلك قوله تعالى في حق المشركين ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]

ثم أتبع الله ذلك بالسبب الذي لأجله كفر هؤلاء بأنعم الله فبين سبحانه أن حب الدنيا والاغترار بزخرفها قد زُيِّن لهم وملك عليهم قلوبهم حتى وصلوا إلى درجة دوام واستمرار السخرية بمن لم يكن على طريقتهم من المؤمنين، فبين القرآن أن أهل التقوى هم الأعلون حتى وإن علا الكفار في الدنيا قليلاً، فإن المتقين فوقهم يوم القيامة، وهذا هو التفاضل الحقيقي إذ لا تفاضل في الدنيا فإن الله يرزق الجميع في الدنيا بغير أن يحتسبوا، وقد يكون التذييل خاصاً بنعيم الآخرة حين يكون المتقون فوق الذين كفروا يوم القيامة[٢]، قال: الألوسي" ويجوز أن يُراد في الدارين فيكون تذليلاً لكلا الحكمين"[٣].

وهذان نموذجان يوجدان في كل زمان ومكان: نموذج الكافر المغرور بدنياه، والمؤمن المستعلي بتقواه.

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٦/ ٣،٤.
(٢) ورجح الوجه الثاني ابن جرير الطبري في جامع البيان ٤/ ٢٧٤.
(٣) روح المعاني للألوسي ٢/ ١٠٠.

وما زال الحديث موصولاً في تقريع هؤلاء الطواغيت وتقوية قلوب المؤمنين لجهادهم؛ فتحدثت الآيات عن سبب اختلاف السابقين من أهل الكتاب على أنبيائهم، وأوضحت أن بغيهم هو علة كفرهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [البقرة/ ٩٠] وقد ذكرت هذه الآية الجامعة أحوال الأمم مع الاهتداء في إيجاز مقنع وأسلوب أخاذ.

ذلك أن بني آدم كانوا على ملة واحدة ودين مستقيم[1] فاختلفوا بين ضال ومهتد، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس/ ١٩] فأرسل الله النبيين مبشرين للمهتدي بالثواب ومنذرين للضال بالعذاب، وأنزل معهم الكتب السماوية للحكم بين الناس بالحكم العدل والقول الفصل فيما اختلفوا وتفرقوا فيه.

ثم بين الله الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم؛ فما اختلف في شأن الكتاب الهادي إلا الذين علموه، وما كان اختلافهم بسبب التباس الحق عليهم، ولكن كان بسبب البغي والحسد بينهم، فأورثهم هذا الشقاق، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦] وإذا كان هذا شأن الضالين المختلفين في الحق فإن الله هدى الذين آمنوا لما اختلف فيه أهل الضلال، والله تعالى يوفق من يشاء بدلالته وإرشاده إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

والآية مرتبطة بقضية الاستخلاف في الأرض؛ فآدم نزل ومعه المنهج كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[٣٨] لكن حدث الاختلاف بعد ذلك، والعجب أنه حدث مع

(١) وروى ذلك المعنى الطبري عن أبي وابن عباس ومجاهد وقتادة انظر: جامع البيان للطبري٤/ ٢٧٨ واختاره الزمخشري في الكشاف ١/ ٢٨٣ وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٩ والبغوي في معالم التنزيل ١/ ١٨٦ وأبو حيان في البحر المحيط ٢/ ١٤٣ والنسفي في تفسيره ١/ ١٠١ وبالجملة فالإمام الرازي يقول" وهذا قول أكثر المحققين " مفاتيح الغيب ٦/ ١٠.

وجود الكتاب الذي يعصم من الاختلاف، وما كان الاختلاف إلا بسبب البغي وتحكيم الأهواء ومن هنا تفرق الناس شيعاً تبعاً لأهوائهم، وجاء الأنبياء يوجهونهم، والآية تشير بوضوح إلى سبب ضلال أهل الكتاب مع وجود الحق من عند الله في أيديهم.

وفي تذييل الآية بقوله ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بيان أن أهل الإيمان اختصوا بالهداية دون غيرهم ممن اختلفوا وتركوا الحق بغياً، ولذلك لم يأت بعدها ذكر للقوم الضالين، وإنما جاءت التكاليف الإلهية للمؤمنين لتكتمل لهم الهداية.

وقد جاءت آية القبلة مقاربة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٤٢] وذلك لأنها اشتملت على ما تميزت به هذه الأمة من شأن القبلة الوسط التي أظهرت شرف هذه الأمة ومكانتها وقدرها عند ربها.

وبعد هذا البيان لما حدث من السابقين الضالين، جاءت الآية بالمثال الناصع للمؤمنين، وهو مثل المهتدين الذين ثبتوا على الحق، فكما ذكرت الآيات أهل البغي فإنها بينت للمسلمين بعدها منهج أهل الحق كي يقتدوا بهم في مسيرهم لينالوا مصيرهم؛ فالهداية إلى الطريق الحق تحتاج إلى رجال أشداء يصبرون على البأساء والضراء.

وقد ضربت الآية لهم مثلاً بالأمم السابقة قبلهم، و(أم) هنا متصلة تشير إلى محذوف دل عليه الكلام، والمعنى: قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فآذاهم الناس فصبروا وثبتوا، أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؛ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصبكم ما أصابهم[1]؟

لقد مستهم الشدة التي تصيب الإنسان في بدنه وماله وانزعجوا واضطربوا، حتى بلغوا الغاية التي قال فيها الرسل وأتباعهم متى نصر الله؟ تمنياً للنصر واستعجالاً له، فيأتيهم الرد

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٢٩٩.

الإلهي يتردد صداه في الملأ الأعلى: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فرفع الله ما بهم من ضر، وأجزل لهم الأجر، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[يوسف: ١١٠].

قيل: نزلت الآية التي معنا في غزوة الأحزاب، حيث أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر[(١)].

وبعد ذكر هذه النماذج المؤمنة المجاهدة جاء تذكير المؤمنين ببذل المال والنفس، فعاد الحديث إلى الوعظ والتذكير بالإنفاق والجهاد، وقد روي عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ : أين يضعون أموالهم؟ فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[(٢)].

وهذا أول سؤال من ستة أسئلة وردت متجاورة في سورة البقرة، والسؤال عن مقدار نفقة التطوع ووجهتها فبينت لهم الآيات أن ما أنفقوا من خير أو مال فأولى الناس به الأبوان والولد ثم الأقرب فالأقرب، واليتامى الذين مات آباؤهم، والمساكين الذين أسكنهم الفقر فلم يقدروا على الكسب، والمسافرين الذين انقطعوا عن الرجوع إلى بلادهم، ثم عم الأمر ليشمل من لم يرد لهم ذكر فأخبر سبحانه أن كل ما يفعله المرء من خير مطلقاً فإن الله عالم به وسيجازيه عليه الخير.

وبعد أن حضهم على بذل المال حضهم كذلك على بذل الأرواح والأنفس في سبيل الله، وذلك بأن فرض على المؤمنين القتال، مع كونه مكروهاً للنفس لما فيه من المخاطرة بإزهاق الأنفس وإتلاف الأعضاء والممتلكات وغير ذلك، ولكن مع هذا فإن له حكمة تُهوِّن مشقته وتُحقِّق به خيراً غير ظاهر بالنظرة القاصرة، فعسى أن يتحقق الخير الكثير بما يكرهه المرء، وعسى

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٨٣ والطبري في جامع البيان ٤/ ٢٨٩عن قتادة.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ٤/ ٢٩٤ وابن المنذر كما في الدر المنثور ١/ ٥٨٥.

أن يحب المرء شيئاً مثل القعود عن الجهاد وهو شر له في الواقع لما فيه من الذل وتداعي الأعداء على المسلمين، والله يعلم الأشياء على ما هي عليه أما نحن فتشتبه علينا الأمور فنرى الضار نافعاً والنافع ضاراً، ومقصود الآية تعليم المؤمنين تلقي أمر الله على ثقة أنه الخير والأنفع لهم.

والحديث مازال موصولاً عن الجهاد وبداية تشريعه على الأمة، ورد شبهات الأعداء حوله، حيث أثاروا شبهة قتال المسلمين لهم في الأشهر الحرم، مع أنهم لم يراعوا هذه الأشهر يوماً ما! فجاء القرآن ليصوب الفهم، ويوجه المؤمنين إلى كيفية الرد عليهم ومواجهتهم. لأن هذا الموقف الذي حدث في سرية عبد الله بن جحش قد أحدث لغطاً في الصفوف.

وملخص ذلك أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً من المهاجرين وأعطاه كتاباً مختوماً على ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه. فسار عبد الله يومين، وخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى فقال المشركون للمسلمين، قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ فقال بعضهم: "إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[1].

والسؤال هنا من المشركين سؤال تعيير ونكير أو هو من المؤمنين سؤال تعليم وتذكير وهو عن حكم القتال في الأشهر الحرم، فلَقَّن الله نبيه الرد بأن القتال في الأشهر الحرم الأربعة (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب) محرم وكبير، ولكن جرائم المشركين: من صرف المسلمين عن دينهم وعن حرم الله، وشرك بالله في بيته، وإخراج أهله منه أكبر وزراً وأعظم إثماً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والفتنة بالكفر وتعذيب المؤمنين وإلقاء الشبهات أكبر جرماً من

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٤/ ٣١٠ وابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٤ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٦٢ برقم ١٦٧٠ وصحح إسناده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٦٠٠ وقال ابن حجر في العجاب ١/ ٥٣٩ : وهذا سنده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٨: رجاله ثقات.

القتل، فلما هاجر المسلمون ما انفك المشركون عن قصد قتالهم ولهذا حرض الله المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال وبين لهم أن المشركين لا شاغل لهم إلا قتال المؤمنين ليفتنوهم ويردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

وبين حكم الردة التي يبتغيها الكفار وأن من ارتد ومات على ردته فقد فسد عمله في الدنيا والآخرة فلم ينتفع به في الدارين وصار من الملازمين للخلود في النار وبئس القرار. وبعد أن توعد الكافرين والمرتدين وعد المؤمنين،" ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد"(١) فوعد الذين آمنوا بالله وفارقوا أموالهم وأوطانهم نصرة لدين الله وجاهدوا في سبيل الله إعلاء كلمته أولئك يرجون ويأملون تعلق رحمة الله بهم فيثيبهم على عملهم، وهو واسع المغفرة عظيم الرحمة للتائبين المؤمنين.

ثم يمضي السياق القرآني متعرضاً لسؤال آخر من أسئلة الصحابة لرسول الله ﷺ وهو السؤال عن الخمر والميسر، والسائل عمر وغيره من الصحابة؛ ففي السنن عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال والعقل، فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ التي في البقرة، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى ألا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.(٢)

ومن الحديث السابق يتضح لنا أن تحريم الخمر مر بثلاث مراحل، وكانت آية البقرة

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٣٤

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/ ٣٢٥ والترمذي ٥/ ٢٥٣ والنحاس في الناسخ والمنسوخ١/ ١٤٩، والضياء في المختارة ١/ ٣٦٨ والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٠٥ وصححه على شرطهما، والنسائي في سننه ٨/ ٢٨٦ وأحمد ١/ ٥٣ وصححه ابن المديني كما في الفتح ٨/ ٢٧٩.

هي المرحلة الأولى في التحريم، ويرى الزمخشري أن أول آية نزلت في تحريم الخمر بمكة قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل/ ٦٧][1] وفي هذا بيان لحكمة التشريع الإسلامي في اقتلاع هذه العادة الذميمة منهم، قال القفال رحمه الله: " والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل من التحريم هذا التدريج وهذا الرفق"[2].

وأصل الخمر في اللغة السترُ التغطية، وسميت الخمر خمراً لأنها تخامر العقل أي تخالطه، وقيل: لأنها تستره وتغطية"[3] وجمهور الفقهاء على أن الخمر تشمل كل شراب من العنب أو الشعير أو التمر وغيره وذلك لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ : (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام)[4].

والميسر: القمار، وهو مشتق إما من اليسر لأنه أخد المال بدون جهد، وإما من اليسار أي الغنى لأنه سلب للغنى[5]، ويشمل كل ما يؤدي إلى كسب مال عن طريق المخاطرة، فيدخل فيه كل ما يدفعه الفرد ليدخل في سحب أو يانصيب أو نحو ذلك ليفوز بمبلغ أكبر أو يخسر ما دفعه.

وقد أجاب الله على سؤالهم وبين أن في الخمر والميسر منافع مادية للناس في التجارة والربح أما الإثم فهو أكبر[6]؛ وذلك لأن مفاسدهما عظيمة، فهما كما قال ربنا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٨٨.

(٢) نقله الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ٣٥.

(٣) زاد المسير ابن الجوزي ١/ ٢٣٩

(٤) رواه مسلم في صحيحه عن جابر مرفوعاً ورقمه ٢٠٠٢

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٢١٨.

(٦) وفي قراءة حمزة والكسائي (إثم كثير) وهذه القراءة تفيد بيان الكم أما القراءة الأولى فإنها تفيد الكيف، قال مكي: وذلك لأن الخمر تحدث مع شربها آثام كثيرة، من لغط وتخليط وسب وأيمان،وعداوة وخيانة، وتفريط في الفرائض وفي ذكر الله وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة. الكشف عن معاني القراءات وعللها وحججها. لمكي بن أبي طالب. ١/ ٢٦١.

﴿ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ [المائدة: ٩١] وقال ﷺ: (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته)[١].

وللخمر مضارها الصحية على الجهاز الهضمي والعصبي والقلب والكلى والكبد، كما تؤدي إلى التشوهات الخلقية[٢]، ومضارها المالية معروفة، ولها أضرارها الاجتماعية على الأسر والأبناء وعلى المجتمع بأسره، وأضرار الميسر كثيرة ومنها تعويد النفس على الكسل وخراب المال، وإهمال العمل الجاد.

وإذا كان في الخمر والميسر الإنفاق المحرم فإن السؤال الذي جاء بعده كان عن الإنفاق المشروع والمستحب فكان السؤال عن النفقة وماذا ينفقون؛ فعن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبيﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا الله بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل الله الآية[٣] فكانت الإجابة القرآنية بأن ينفقوا العفو أي ما يفضل عن الحاجة فهذا هو ما يتيسر فعله ولا يتضرر المنفق منه، قال ﷺ: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[٤]، ومثل هذا البيان الحكيم الذي بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم آياته وأحكامه لكي تتفكروا فيما ينفعكم في دنياكم بالعمل الصالح وفي آخرتكم برضوان الله تعالى.

ثم جاء السؤال عن اليتامى ومناسبته لما قبله كما يقول أبو حيان: "أنه ذكر السؤال عن الخمر والميسر وكان تركهما مدعاة إلى تنمية المال، وذكر السؤال أنهم ينفقون ما سهل عليهم، ناسب ذلك النظر في حال اليتيم، وحفظ ماله وتنميته، وإصلاح اليتيم بالنظر في تربيته؛ فالجامع بين الآيتين إن في ترك الخمر والميسر إصلاح أحوالهم أنفسهم، وفي النظر في حال اليتامى إصلاحاً لغيرهم ممن هو عاجز أن يصلح أحوالهم نفسه، فيكون قد جمعوا بين النفع لأنفسهم

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٠٣ وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٥

(٢) الإسلام والطب د/ محمد وصفي/ ١٩٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم برقم/ ٢٠٠٦. وانظر العجاب لابن حجر ١/ ٥٤٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً ورقمه/ ٥٠٤١.

ولغيرهم"[١].

وكان سبب سؤال الصحابة هو ما ورد في السنن عن ابن عباس قال: "لما نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ ﴾"[٢].

وقد أجابهم القرآن عن سؤالهم وأخبر النبي ﷺ أن يقول لهم: إن المطلوب هو إصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وإصلاحهم كذلك بالعناية والتربية، فهذا خير من تركهم، وإن خالطتموهم في المطعم أو المسكن أو التجارة أو المشاركة أو المصاهرة فهم إخوانكم في الدين، قال الزمخشري: "وقد حملت المخالطة على المصاهرة"[٣]، ورجح هذا المعنى أبو حيان فقال: "ورجح هذا القول بأن هذا خلطة لليتيم نفسه، والشركة خلطة لماله، ولأن الشركة داخلة في قوله: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ ولم يدخل فيه الخلط من جهة النكاح، فحمله على هذا الخلط أقرب[٤].

ثم رغبهم في الإصلاح وخوفهم من الإفساد بأن الله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لضيق عليكم وأصابكم بالمشقة إن حرم عليكم مخالطة اليتامى، فهو غالب لا يعجزه أمر وهو حكيم في كل أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧٠

(٢) رواه الحاكم في المستدرك رقم ٣١٨٤ والضياء في المختارة رقم ٢٧٣ وأبو داود في سننه رقم ٢٨٧١ والبيهقي في سننه ٦١٢٤٥١/ ٢٨٤ وسنده صحيح.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧١.

وفي هاتين الآيتين إصلاح أحوال الفرد والمجتمع في طعامهم وشرابهم ونفقتهم، وعلاقتهم مع غيرهم وبالأخص مع الضعفاء واليتامى، وقد ابتدأت الآية بذكر الإصلاح واختتمته كذلك بذكر المصلح، وهذا تأكيد على أمر الإصلاح، وبيان أن المنهج الإسلامي الذي يعمر الدنيا قائم على الإصلاح بخلاف السابقين الذين ادعوا الإصلاح وهم في حقيقة الأمر مفسدون.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أولا: القضايا العقدية:

- من لم تبلغه دعوة الإسلام فلا يعد كافراً، قال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ فاشترط مجيء الآيات البينات الواضحات ليكون الحساب والعقاب. وقد دلت آيات عدة على هذا الحكم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء/ ١٥] قال ابن حزم: "فنص تعالى على أن النذارة لا تلزم إلا من بلغته لا من لم تبلغه، وأنه تعالى لا يعذب أحداً حتى يأتيه رسول من عند الله عز وجل، فصح بذلك أن من لم يبلغه الإسلام أصلاً فإنه لا عذاب عليه"[(١)].

- الراجح الذي عليه المحققون في قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أن الناس كانوا في مبدأ أمرهم على التوحيد، وهذا يرد ما ذهب إليه اليهودي فرويد؛ حيث ذهب إلى أن العبادة البشرية الأولى كانت عبادة الأب ثم انتقلت إلى عبادة حيوان يقال له (الطوطم) ثم تطور الأمر بالناس إلى التوحيد. وبذلك تكون (الطوطمية) هي أول صورة للدين في التاريخ البشري بزعمهم[(٢)]. وهذه النظرية تردها الآية القرآنية السابقة، وما ورد في الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[(٣)]. وما ورد

---

(١) الفصل لابن حزم ٤/ ٥٠.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (الفرويدية).

(٣) سبق تخريجه ص ١٤٠.

عن ابن عباس: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[(١)].

ثانيا: الأحكام الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ﴾ على جواز الانغماس في العدو لتحقيق النكاية فيهم وإن غلب على المرء ظن عدم السلامة، وقد استشهد بها الصحابي الجليل أبو هريرة على قريب من هذا؛ وذلك فيما ورد " جاءت كتيبة من قبل المشرق من كتائب الكفار فلقيهم رجل من الأنصار فحمل عليهم فخرق الصف حتى خرج ثم كبر راجعاً فصنع مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً فإذا سعد بن هشام يذكر ذلك لأبي هريرة فتلا هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)].

وقال محمد بن الحسن: "إنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده وإن ظن أنه يقتل إذا كان يصنع شيئاً بقتل أو بجرح أو بهزم؛ فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد ومدحهم على ذلك، فأما إذا علم أنه لا ينكي فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم؛ لأنه لا يحصل بحملته شيء من إعزاز الدين"[(٣)].

وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل ؛ لأن مقصده واحد منهم، وذلك بيِّن في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ .

قال ابن العربي معلقاً: "والصحيح عندي جوازه ؛ لأن فيه أربعة أوجه: الأول: طلب الشهادة. الثاني: وجود النكاية. الثالث : تجرية المسلمين عليهم. الرابع : ضعف نفوسهم ليروا أن هذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣٦٥٤ وصححه على شرط البخاري. ومثله لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع. والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٩٤٣٩. وابن عبد البر في الاستذكار٥/ ١٣٣.

(٣) ذكره ابن عابدين في حاشية رد المحتار ٤/ ١٢٧.

صنع واحد، فما ظنك بالجميع ؟[1].

- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ وفيه دليل على وجوب النفقة من الولد على الأبوين. وهذا محل اتفاق بين أهل العلم: أن على الولد الموسر أو القادر على الكسب نفقة أبويه المحتاجين. والجمهور على وجوب النفقة للأجداد والجدات أيضاً، ولم يخالف في ذلك إلا المالكية حيث قصروها على الأبوين فقط[2].

- أما الأقارب فقد جعل الله حقهم بعد حق الوالدين، وأمر بالإحسان إليهم، ومن جملة الإحسان الإنفاق عليهم. والحنفية والحنابلة يوسعون في النفقة؛ فعند الحنفية تجب لكل ذي رحم محرم، وأما الحنابلة فيوجبونها لكل قريب وراث بالفرض أو التعصيب. أما الشافعية والمالكية فلا يوجبون النفقة إلا للأصول والفروع، والآية تشهد للأولين والله أعلم.

- قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ وكتب يعنى: فرض وأوجب، فالآية تدل بمنطوقها على وجوب القتال. وهو واجب على الكفاية لكن يتعين في ثلاث حالات:

١- إذا التقى الزحفان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [الأنفال/ ٤٥].

٢- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم الخروج، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة/ ٣٨: ٣٩].

٣- إذا نزل العدو ببلد تعين على أهله الخروج لعموم قوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٦٦.

(٢) بدائع الصنائع للكاساني ٤/ ٣٥، المهذب للشيرازي ٢/ ١٦٥، الكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٧٣. وشرح الخرشي على مختصر خليل ٤/ ٢٠٤.

وَثِقَالًا ﴾ [التوبة/ ٤١][(١)].

- اتفق الفقهاء على أن قتال الدفع جائز في الأشهر الحرم، لكن اختلفوا في قتال الطلب هل هو محرم أم أن التحريم قد نسخ؟

فذهب جمهور الفقهاء إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ[(٢)]، وذهب عطاء إلى عدم النسخ، فيبقى حكم التحريم قائماً. قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك ما قاله عطاء ابن ميسرة: من أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرُم منسوخ بقول الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:٣٦].

وإنما قلنا ذلك ناسخٌ لقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزَا هوازن بحُنين وثقيفًا بالطائف، وأرسل أبا عامر إلى أوْطاس لحرب من بها من المشركين، في الأشهر الحرُم، وذلك في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. فكان معلومًا بذلك أنه لو كان القتالُ فيهن حرامًا وفيه معصية، كان أبعد الناس من فعله ﷺ "[(٣)].

- اختلف الفقهاء في حكم المرتد هل يحبط عمله بالردة أم بالوفاة على الكفر. فذهب الأحناف والمالكية إلى أن الردة كافية لإحباط العمل، وعليه فلو ارتد مسلم حبط عمله كاملاً ولو عاد إلى الإسلام استأنف العمل، وقالوا في الآية التي معنا: "فيها ذكر عملين: أحدهما الردة، والآخر الموت عليها: أي الاستمرار عليها إلى الموت، وذكر جزاءين، لكل عمل جزاء على

---

(١) انظر: الروض المربع للبهوتي ٢/ ٣.

(٢) المبسوط للسرخسي ١٠/ ٢٦، روضة الطالبين للنووي ١٠/ ٢٠٤، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٣٤٢.

(٣) جامع البيان للطبري ٤/ ٣١٤.

اللف والنشر المرتب؛ فإحباط الأعمال جزاء الردة، والخلود في النار جزاء الموت عليها، بدليل أنه في الآية الأولى علق حبط العمل على مجرد الكفر بما آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٨٨)"[١].

أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن شرط إحباط العمل أن يموت صاحبه على الردة والعياذ بالله، واستدلوا بهذه الآية الكريمة، قال النووي: "فعلق الحبوط بشرطين الردة والموت عليها والمعلق بشرطين لا يثبت بأحدهما والآية التي احتجوا بها مطلقة وهذه مقيدة فيحمل المطلق على المقيد"[٢].

والراجح - والله أعلم- قول الشافعية؛ لأن الآيات التي أطلقت الإحباط مقيدة بهذه الآية التي اشترطت الموت على الردة، وقد اتحدت الآيات في السبب وهو الردة، والحكم وهو إحباط العمل فوجب حمل المطلق على المقيد، لما هو مقرر في أصول الفقه من أنه إذا اتحد النصان في الحكم والسبب وجب حمل المطلق على المقيد[٣].

- أما المرأة فحكمها حكم الرجل إذا ارتدت عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة وجماعة؛ حيث قالوا لا تقتل المرأة[٤].

- تحريم الخمر حرمة قطعية وكذلك الميسر وكل ما يقاس عليهما من المخدرات والنرد وغير ذلك.

- جواز مخالطة اليتيم بقصد الإصلاح، فللولي أن يخلط طعامه بطعام اليتيم، وإن كان الإفراد أفضل لليتيم أفرد له.

---

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٢/ ٧٦.

(٢) المجموع للنووي ٣/ ٦.

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣/ ٤ والمحصول للرازي ٣/ ١٤٢.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٣٤.

ثالثا: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من أخلاق المفسدين الاستنكاف عن قبول النصيحة، والعزة بالباطل، وعدم الخضوع للحق. عن عبد الله بن مسعود قال: "إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول: عليك نفسك أنت تأمرني!".[١]

- الرجاء في رحمة الله من مدارج السالكين إلى رب العالمين، لكن الرجاء الحق هو الذي يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في خلقه وأمره من عمل الصالحات والسعي في تحصيلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ . فإن هؤلاء يعملون الطاعات ويرجون الخير بها، أما المفرط والمقصر فلا يرجو وإنما هو مغرور يحسن الظن بلا عمل. قال مسلم بن يسار: "من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه"[٢].

- أمر الله بإنفاق العفو وهو الزائد عن الحاجة له ولعياله؛ لأن إنفاقه على نفسه وعياله فرض عين، أما الصدقة فهي مستحبة أو فرض كفاية، ولأن النفس تطيب بإخراج ما زاد عن الحاجة، وقد قال رسول الله ﷺ: (خير الصدقة عن ظهر غني)[٣].

رابعا: الجوانب التربوية:

- مجال القول غير مجال العمل؛ فقد يزعم كثير من الناس أنهم ذوي نية صادقة وعمل مستقيم، لكن فعالهم تكذب أقوالهم، والمسلم الحصيف لا يخدعه بهرج القول ولا الإشهاد أو القسم، ولا يقيِّم الأشخاص بأقوالهم فقط، وإنما لا بد أن يشهد للقول عمل، وإلا فما قيمة القول الصالح إذا صحبه عمل فاسد ومفسد؟

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم/ ٨٢٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص٢٥٠، وابن المبارك في الزهد ١/ ١٠٢ وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٦١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٤ عن حكيم بن حزام.

- الدين الإسلامي دين يحرص على عمارة الأرض ونفع الناس، ويحذر من أي إفساد في الأرض بإهلاك المزروعات وغير ذلك، بل إنه يحث أتباعه على الإصلاح في الأرض، وذلك بشقيه المادي والمعنوي؛ فالنفاق إفساد معنوي، وتخريب الحرث والنسل إفساد مادي، والله لا يحب كليهما.

- اللدد في الخصومة كبيرة من الكبائر[1]، وقد ذم الله أهل الخصومة بالباطل، ويلحق الذم أيضاً من خاصم بحق لكن فجر في خصومته، وهي من علامات المنافقين، وقد بين النبيﷺ أن صاحب الخصومة الشديدة مبغوض من الله لأنها تفضي به غالباً إلى فعل المذموم فقال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[2]. قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة[3].

- على المسلم أن يأخذ الإسلام بكل أحكامه الاعتقادية والقولية والعملية، وألا يأخذ بعضه ويترك بعضه، فإن الله أمرنا أن ندخل في الإسلام بكليته وألا نترك منه شيئاً، وأن نلتزم أحكامه كلها.

- من بدل نعمة الله بعد أن جاءته استحق أليم العقاب.

- من سنن الله الكونية التي ربى الإسلام أهله عليها: سنة الابتلاء، والابتلاء سنة الله في جميع خلقة، وبخاصة للأنبياء ومن سلك دربهم ومشى على طريقهم؛ فقد بين الحق تعالى أن السابقين تعرضوا للابتلاء الشديد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل وما ضعفوا وما استكانوا، وبعد ذلك جاءهم الفتح المبين من رب العالمين، وقد فقه هذه السنة هرقل لكن ضن بملكه

---

(١) ذكره الذهبي في الكبائر. الكبيرة الستون ص٢٢١، وذكره الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر. الكبيرة الثلاثون بعد الأربعمائة ٢/ ٨٨٠. وقد استشهد كلاهما بالآية الكريمة (وهو ألد الخصام).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٣٢٥ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٦٦٨ عن عائشة

(٣) الأذكار للنووي ص ٢٩٦.

الخبيث؛ فقد قال لأبي سفيان:" سألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أنه قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة"(١). فالابتلاء في طريق الدعوة والتعرض للأذى من أعلام النبوة، ولأتباعهم من ذلك نصيب.

- لا بأس بأن يضيق صدر المؤمنين وأن يستبطئوا النصر، فقد قص الله من سير الأنبياء ذلك، وقد كان سؤال الأنبياء وأقوامهم عن موعد النصر لا عن تحققه وعدمه ولذلك جاءت الإجابة بقرب تحقق النصر. فقد يتأذى المؤمن من كلام الكفار، وقد قال الله في حق نبيه ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٧]،

- في قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ فوائد تربوية منها: أن الأمر الإلهي وإن كان ظاهره ومبدؤه المشقة فإن عاقبته إلى الخير وبالعكس، فالعاقل ينظر إلى غايات الأمور وعواقبها، أما الجاهل فلا يتعدى نظره موضع قدميه. وإذا كان الإنسان لا يعلم الخير فالأولى به والحال هذه ألا يختار على اختيار ربه، وأن يسلِّم له في أمره. وأيضاً: نتعلم من الآية أن كل ما أمر الله فهو راجح المصلحة، والشر فيه مغمور في جانب الخير، وأن كل ما نهى عنه فهو راجح المفسدة والخير الذي فيه مغمور في جانب الشر.

- من الأمور التي حرص الإسلام على تربية أهله عليها: اعتبار المصالح والمفاسد، وتغليب المصلحة الكثيرة على المفسدة القليلة فيأمر بالشيء، وتغليب المفسدة الغالبة على المصلحة القليلة فينهى عنه. وفي هذه القاعدة الجليلة يقول العز بن عبد السلام: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٧٨٠ واللفظ له ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٧٣ عن عبد الله ابن عباس.

سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن / ١٦]، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما"[1].

- اهتم الإسلام بالعقل، وحافظ عليه، وجعل المحافظة على العقل من الكليات الخمسة التي هي ضروريات للوجود الإنساني ولاستقامة حياته، قال القرافي: "وحفظ العقول من الكليات الخمس المجمع عليها عند أهل الملل"[2]، ومن أوجه حفظ الإسلام للعقل تحريم الخمر وكل مسكر يؤدي إلى تغيب العقل الذي هو نعمة الله على بني الإنسان.

- الدين الإسلامي جاء بالتخفيف ورفع الحرج والمشقة عن الناس في أمور معايشهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ وقد كان شيء من العنت موجوداً في الأمم السابقة بسبب ذنوبهم، لكن لرحمة الله بالمسلمين خفف عنهم، وكان من مهام بعثة النبي الخاتم أن يضع عن السابقين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فعلى المسلم ألا يوقع نفسه ولا إخوانه في شيء من الحرج حتى لا يكون مخالفاً لمقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-جاء هذا المقطع بمواعظ عدة في ثنايا أحكام وتوجيهات سبقته ولحقته؛ فهو موصول الصلة بما قبله؛ فقد سبقه ذكر المؤمنين ومن ليس لهم في الآخرة خلاق، ثم جاء المقطع ليصل الحديث عن الصنف الثالث وهم أهل النفاق، ثم جاءت الأسئلة لتصله بما بعده؛ ففيها سؤال عن الإنفاق وعن مخالطة الأيتام ومصاهرتهم فجاء الحديث عن الأمور الزوجية في أوانه بعد أن سبق له التمهيد بأمر مصاهرة الأيتام كما مر في التفسير.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/ ٨٣.

(٢) الفروق للقرافي ١/ ٣٧٦.

والمقطع يتجه في بدايته للحديث عن نموذجين متكررين من النماذج البشرية: نموذج المرائي الذي يفسد ويتظاهر بالإصلاح، ثم يعرض النموذج المقابل للمؤمن الذي يبيع نفسه لمرضاة ربه، ويأمر المؤمنين بالاستسلام بالكلية لأوامر الله تعالى؛ وذلك تمهيد لما سيأتي بعدُ من تكاليف شاقة مثل الجهاد، ويختتم الحديث عن الطوائف المخالفة بتهديدهم وتخويفهم من عاقبة صنيعهم الذي ذكرته الآيات السابقة تفصيلاً، وبهذا قضى الأمر في حق هؤلاء ولم يعد لهم ذكر في السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إشارة إلى أمر التقوى وهو من الأمور المحورية في السورة، والإشارة إلى العلو والفوقية بيان أن العلو الحقيقي إنما يكون بالتقوى، وفيه إشارة إلى اقتران التقوى بالجهاد الذي هو من وسائل العلو كما ذكرنا في المقطع السابق.

وقد ناسب انتهاء الحديث عن السابقين أن تعرض الآيات سنة جامعة في نشأة الدين واختلاف أهل الكتاب بغياً وعدواناً، وجاء الحديث خالصاً للمؤمنين من دون الناس؛ حيث بينت الآيات أن الله يهب رزقه لأهل طاعته.

وهذه الآية تعتبر مقدمة للحديث الطويل عن الجهاد الذي يمثل حيزاً كبيراً في هذه السورة الطيبة المباركة؛ ذلك أنها تحدثت عن أسباب الاختلاف الديني الذي يؤدي إلى الاقتتال وجاء بعدها مباشرة الحديث عن الثبات ثم الأمر بجهاد المال والنفس.

وقريب من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [٢٥٣]،حيث بينت الآية أن الاختلاف حدث بين أتباع الرسل وأدى ذلك للاقتتال، ثم جاء بعدها الأمر للمؤمنين بجهاد المال ثم جهاد النفس.

إذاً فالحديث عن الاختلاف وما يجره من قتال هو من باب تقوية قلوب المؤمنين، وتوطينهم على احتمال مكاره الجهاد، ولهذا جاء بعدها بيان سنة الله مع السابقين من المؤمنين

الذين تعرضوا للابتلاء في أنفسهم وأموالهم، وبعدها أيضاً جاء التصريح بأن في الجهاد مكاره يلزم أن تحتمل لأنها تؤدي إلى خير عظيم في الدنيا والآخرة.

وما بعد الآية مرتبط بحادثة تعد من بواكير الممارسة الفعلية للجهاد في صفوف الجماعة المسلمة الناشئة، وفيها أيضاً بيان لجملة من أسباب القتال مثل الإخراج من الديار والفتنة بالقتل، وهذه بعض دوافع القتال الدفاعي، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج/ ٣٩، ٤٠].

وبعد هذه المواعظ التربوية المتصلة بها بعدها كانت باقي آيات المقطع تمهد لما سيأتي بعد من تفصيل أحكام النساء، وواضح من سياق الأسئلة أنها نزلت تعالج بعض أحداث كانت موجودة في المجتمع المسلم مما يستلزم طهارتهم منها حتى يكونوا من المتقين لكي يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم الكبرى للإنسانية كلها.

المقطع الثالث: تفصيل أحكام الأسرة. (٢٢١-٢٤٢)

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ
وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا
وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ
عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟
عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ
فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ
خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ
إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ »

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع يتحدث عن شأن الأسرة، ورعاية الإسلام لها في كل أحوالها، وهو يفصِّل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي جاءت مجملة في آية البر، وهي خصلة الوفاء بالعهود والعقود، وأحقها بالعناية والرعاية عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة[١].

وإذا كانت المقاطع السابقة تشير إلى خصلة الصبر، فإن هذا المقطع يفصل خصلة الوفاء بالعهد تفصيلاً محكماً دقيقاً.

وختام المقطع السابق يشير إلى أمر المخالطة ومن ضمن معانيها المصاهرة، فيكون المعنى: إن خالطتم اليتامى بالمصاهرة فهم إخوانكم في الدين، وهم خير من المشرك والمشركة فلا تنكحوا المشركات ولا تُنكِحوا المشركين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تفصل آيات هذا المقطع في شأن الأسرة من حيث اتصالها وانفصالها، وابتدأت الآيات بذكر حكم نكاح المشركات، فنهت عن نكاحهن ما دمن على شركهن، ثم جاءت الآية بصيغة القسم المحذوف والله إن امرأة جارية مؤمنة بالله واليوم الآخر خير من مشركة حرة ولو أعجبكم جمالها أو حسبها أو غير ذلك، ولا تزوجوا المؤمنات للمشركين إلا أن يصيروا أكفاء لهن بالإيمان، ولمملوك رقيق مؤمن خير من مشرك حر ولو أعجبكم بماله أو نسبه.

ثم بين الله تعالى علة النهي عن الزواج بالمشركين والمشركات بأنهم يدعون من يصاهرهم ويعاشرهم إلى الاعتقادات الضالة والأفعال الشركية التي تؤدي بمعتنقها إلى النار، ثم تغري الآية المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم فتبين لهم أن الله يدعوهم إلى أسباب المغفرة ودخول الجنة ولا يكون ذلك إلا بأمره وإرادته، ويبين سبحانه للناس أوامره ونواهيه لكي يعتبروا ويتذكروا

---

(١) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٧.

أوامره فيعلموا بها ويتذكروا نواهيه فيتركوها.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرأة الكتابية غير داخلة في تحريم المشركات، وذلك اتباعاً لنص الآية القرآنية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة:٥] أما المؤمنة فلا يجوز لها الزواج من اليهودي أو النصراني باتفاق؛ ومستند ذلك الإجماع المستند إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الممتحنة: ١٠] والسنة العملية المتواترة عن الصحابة الكرام، وللعلة الواردة؛ ذلك أنهم يدعون المرأة المؤمنة إلى أسباب النار، ولا يؤمنون بالنبي محمد ﷺ. أما المسلم الذي يتزوج الكتابية فإنه يؤمن برسولها، ويحترم عقيدتها، ويعدل معها، ويتألفها لدخول الدين.

ثم جاء السؤال الثالث من الأسئلة المعطوفة بالواو، وهو يتصل بما قبله وما بعده في أن ذلك من الأحكام المتعلقة بالنساء، وأما الأسئلة التي وردت قبلها مفصولة فلم تكن في موضوع واحد فيعطف بعضها على بعض فجاءت على الأصل في سرد التعدد.(١) وكان السؤال عن إتيان الحائض؛ وذلك أن المسلمين في المدينة قد خالطوا اليهود وكانوا يتشددون في مسائل الحيض والدم(٢)، وفي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت أي لا يسكنون معهم فسأل أصحاب النبيِّ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ:(اصنعوا كل شيء إلا النكاح...)(٣).

---

(١) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٣٥٨.

(٢) في الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين " إذا كانت امرأة لها سيل دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجساً إلى الماء وكل ما تضطجع عليه يكون نجساً وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى الماء".

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٣٠٢.

ويحتمل أن يكون سبب النزول ما ورد عن مجاهد أنهم كانوا يجتنبون النساء في الحيض ويأتوهن في أدبارهن مدة زمن الحيض فنزلت[١]. وهذا السبب يشير إلى وقوع تجاوز من بعض الناس وهو ما يفيده تذييل الآية بمحبة الله للتوابين والمتطهرين، ولا تعارض بينه وبين سبب النزول الأول لمن تدبر.

والحيض دم يسيل من المرأة البالغة في أوقات مخصوصة، وقد أجملت الآية كل أضرار الجماع وقت الحيض بكلمة هي غاية في الإيجاز والإعجاز، فبينت أنه ﴿ أَذًى ﴾ يصيب كلاً من الرجل والمرأة، وهذا ما أثبته الطب الحديث؛ حيث ثبت أن جماع المرأة الحائض يصيب المرأة بالتهاب حادة في المهبل والرحم ويصيب الرجل بالصديد والتهاب مجرى البول والسيلان وقد يؤدي إلى العقم[٢]. فأمرت الآية الرجال أن يعتزلوا النساء وقت المحيض وألا يجامعوهن حتى ينقطع الدم، فإذا اغتسلن فللرجل أن يأتي امرأته في المكان الذي أمر الله بتجنبه في الحيض والله يحب التوابين لما بدر منهم المتطهرين عن الوقوع في المحظورات.

وجمهور الفقهاء على حل الاستمتاع بالمرأة فيما سوى العورة ما بين السرة والركبة.

وكانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول فأنزلت ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[٣] ففي الآية السابقة إباحة إتيان النساء بعد المحيض وفي هذه الآية حكمة إتيانهن وهي طلب الولد، ومعنى الآية أن نساءكم هن مزدرع لكم ومنبت الولد هيأهن الله لذلك كما هيأ الأرض للنبات، فأتوهن كيف شئتم من الأمام أو من الخلف أو غير ذلك ما دمتم تؤدون ذلك في موطن الحرث، وقد يحتمل توسيع المعنى بأن المرأة حرث لكل ما يقدمه الرجل معها فإنه يجده سواء كان خيراً أو شراً والله أعلم.

---

(١) جامع البيان للطبري٤/ ٣٧٣ برقم / ٤٢٣٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٧٤.

(٢) انظر: الإعجاز الطبي في القرآن والسنة لحسن ياسين ص ٧٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٤٣٥ عن جابر.

ثم ختمت الآية بأمر المؤمنين أن يقدموا لمستقبلهم من الصالحات مع أزواجهم خاصة وفي عموم حياتهم ما ينفعهم عند الله، وأمرتهم بتقوى الله وعدم فعل المحظور وليعلموا يقيناً أنهم ملاقوه للمجازاة أو ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشارة طيبة لمن تلقى أوامر الله بالطاعة والقبول.

وبعد أن تكلمت الآيات عن حكم المباشرة في الحيض، وحل الاستمتاع، ذكرت حكم الحلف بالامتناع عن إتيان النساء وهو الإيلاء، ومهدت لذلك بالحديث عن الأيمان، ولم تقتصر القول على الإيلاء بل شملت الأيمان غير الصحيحة كلها، ومنها كلُّ ما يتعارض مع البر والتقوى، فنهت المؤمنين عن أن يجعلوا الحلف بالله مانعاً ومعترضاً لهم من عمل البر وأمور الخير، وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ فعن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير)[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: ولا تجعلوا اسم الله تعالى هدفاً لأيمانكم فتتبذلوه بكثرة الحلف لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فقد ذم الله من يكثر الحلف، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم: ١٠] ولا تنافي بين القولين، فالله ينهانا عن أن نجعل الحلف به مانعاً من عمل الخير، وينهانا كذلك عن إكثار الحلف باسمه في كل أمر. والله سميع لأقوال العباد وإيمانهم عليم بأحوالهم ونياتهم.

ثم بينت الآيات أن اليمين التي جاءت بدون قصد أو فكر فلا مؤاخذة عليها ولا محاسبة عند عدم الوفاء بها، ولكن المؤاخذة بما قصدت به القلوب إيقاع اليمين، والمؤاخذة تكون بالكفارة في المنعقدة وبالإثم في اليمين المغموس والله غفور لعباده حليم عليهم.

وقد ورد تفصيل كفارة اليمين المنعقدة في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٢٤٨ ومسلم في صحيحه ١٦٥٢.

حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٨٩] أما اليمين الغموس فلا كفارة لها.

ومن صور اليمين اللغو التي لا كفارة منها ما ورد عن عائشة أن الآية نزلت في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله.[١] وورد عنها في اللغو:ـ هو الشيء يحلف عليه أحدكم لم يرد به إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه[٢].

ثم بينت الآيات بعد ذلك حكم الإيلاء وهو يمين خاص، ناسب أن يأتي ذكره بعد اليمين العامة، والإيلاء الحلف، ومعناه في الشرع: الامتناع باليمين من وطء الزوجة[٣]، فهي يمين تحول بين الإصلاح والبر المأمور به في قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ [النساء: ١٩] وفيه هضم لحق المرأة وإضرار بها. وقد كان الجاهليون يضارون نساءهم فلا يقربوهن ولا يحبون غيرهم أن يقربهن. قال ابن عباس: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك فوقَّت لهم أربعة أشهر[٤]. وذلك لأن هذه الفترة مما لاتشق على المرأة، ولأنها فترة كافية لتَرَوِّي الرجل وتمهله في التفكير؛ فإن رجعوا إلى نسائهم وكفروا عن يمينهم وتابوا إلى ربهم فإن الله غفور لمن تاب وأصلح رحيم بعباده في كل ما أمرهم به وكلفّ.

وإن صمموا القصد وعزموا على عدم العود، فليراقبوا ربهم فإن أرادوا إلحاق الضرر بالنساء فإن الله سميع لكل ما كان منهم عليم بما يقع منهم من إيذاء ومضارة.

وبهذا الختام حول عزم الطلاق عند نهاية مدة الإيلاء كان مناسباً أن ينتقل الحديث بعد ذلك إلى الطلاق، وهذا التناسب منطقي لاتصال ما بين الأمرين،" كأن خاتمة حكم الإيلاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٣٣٧

(٢) رواه البيهقي في سننه الكبرى ١٠/ ٤٩.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٣/ ١٨٣.

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى ٧/ ٣٨١ والطبراني في المعجم الكبير / ١١٣٥٦وسعيد بن منصور في سننه ١٨٨٤.

كانت بمثابة عروة مفتوحة تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي العروة المنتظرة، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة..وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً"[١].

أمر الله تعالى المطلقات أن يتربصن وينتظرن ثلاثة قروء، وهذا خبر في صيغة الأمر، فلا تتزوج المرأة المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء، وفي القرء اختلاف بين الفقهاء بسبب وضعه اللغوي، فهو بمعنى الحيض أو الطهر؛ إذ هو من المشرك اللفظي الذي يصلح للمعنيين معاً، والظاهر أن القرء الحيض؛ لحديث: "تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها"[٢].

وفي الإتيان بلفظ التربص بالأنفس تلميح لا تصريح فيه، وإيجاز لا إطناب فيه، وفيه أيضاً مراعاة لمشاعر المرأة وإحساسها.

ثم حرمت الآية على المطلقة أن تكتم ما في رحمها من الحمل أثناء فترة العدة، ولا يحل لها كذلك كتمان موعد الحيض لتطيل فترة العدة. ذلك إن كن يؤمن بالله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فلا ينصاع لأحكام الله إلا مؤمن جيد الإيمان، وليس من وسيلة لمعرفة ما في رحمها إلا بتذكيرها بالإيمان.

وإذا بدا للزوج أنه أخطأ في حق أهله، وأراد أن يعيد ما بينهما من عرى الزوجية فله أن يراجعها ما لم تكن بائنة، طالما أن دافعه إلى ذلك الإصلاح لا المضارة والإفساد.

ثم تذكر الآية لفظاً موجزاً كل الإيجاز، معجزاً أيما إعجاز وهو قوله تعالى﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فلكل من الزوجين حقوق وعليه واجبات، والمرد في ذلك

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم/ ٢٩٧، والترمذي في سننه برقم/ ١٢٦، وابن ماجه في سننه برقم/ ٦٢٥، عن عدي بن ثابت عن أبيه عن جده. وله شواهد عدة يرتقي بها للصحة. انظر: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ١/ ٢٠٢.

إلى العرف الصالح الذي يحفظ لكل حقه، بيد أن للزوج درجة ومنزلة هي مرتبة القوامة التي له؛ وذلك حتى يستطيع أن يقود زمام الأسرة وينظم أمورها.

واستحقاق القوامة بأمرين: كسبي ووهبي، وقد أوضح الأمرين قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ ﴾ [النساء:٣٤] فتفضيل الله للرجال أمر وهبي، ونفقة الرجل على أهله أمر كسبي.

وليس في هذه الدرجة تسلط من الرجل بالحق والباطل، وإنما هي الرحمة والمودة، والقيادة الحكيمة الرحيمة التي تضع كل شيء في موضعه، ولله در ابن عباس حين قال في تفسير هذه الدرجة: "هي إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق". قال ابن عطية معلقاً: وهو قول حسن بارع[1].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: غالب منتقم ممن خالف أمره في كل ما سبق؛ وذلك بأن أتي المرأة الحائض، أو جعل الله عرضة لأيمانه، أو آلى من امرأته ليضارها،أو كتمت المرأة ما في رحمها، وهو سبحانه الحكيم الذي شرع هذه الأمور، لتنصلح بها أحوال العباد جميعهم.

ولما ذكرت الآية السابقة أن للزوج حق مراجعة زوجته قيدت الآية هذا الحق وخصصته بمرتين؛ فالطلاق الذي تصح معه المراجعة طلقتان فقط وليس أمام الزوج بعد ذلك إلا أن يمسك زوجه بمعروف أو يفارقها ويسرحها بإحسان، والتسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة عند جمهور الفقهاء، ويؤيد ذلك ما ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ: سمعت الله يقول ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ فأين الثالثة ؟ فقال ﷺ: (أو تسريح بإحسان)[2]. وهذا إبطال لما كان عليه العرب

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٠٦، وهذا قريب مما رجحه الطبري في تفسير الدرجة؛ حيث ذهب إلى أنها: تفضّلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن. جامع البيان للطبري ٤/ ٥٣٦.

(٢) رواه البيهقي في سننه ١٤٧٦٨ والدار قطني في سننه ٤/ ٤ وسعيد بن منصور في سننه ١/ ٣٨٤ قال ابن حجر: وسنده حسن لكنه مرسل فتح الباري ٩/ ٣٦٦.

قبل الإسلام؛ فقد ورد عن عائشة قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وإن طلقها مائة أو أكثر إذا ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، حتى قال الرجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك إلي، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلما قاربت عدتك أن تنقضي ارتجعتك ثم أطلقك وأفعل ذلك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك عائشة إلى رسول الله فسكت ولم يقل شيئاً حتى نزل القرآن: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ (١).

وقد جعل الله الطلاق مرتين، وجعل العدة بعد كلتا الطلقتين ليتروى الزوج في قراره، ولتعرف المرأة وحشة الفراق فلربما تراجع كل منهما إلى الحياة الزوجية مرة أخرى، قال الإمام الرازي رحمه الله: "الحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقته أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة فلا جرم، أثبت الله حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدرج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده"(٢).

فإن أبى الرجل إلا الطلاق فلا يحل له عندئذ أن يأخذ شيئاً مما أعطاه لها سواء كان مهراً أم غيره بل يكون التسريح بإحسان، وكما قال تعالى: ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ثم استثنى الآية صورة واحدة يجوز فيها للرجل الأخذ وذلك إذا كانا في حال يخافان معها أن يتجاوزا حدود الله وأحكامه فيما يجب عليهما؛ فإن خاف المتوسطون للإصلاح أو الحكام ألا يقيم الزوجان حكم الله بأن تجحد المرأة العشرة أو خاف الرجل تجاوز الحد في عقوبتها ونحو ذلك فلا إثم على المرأة إن افتدت نفسها من زوجها، ولا إثم عليه في أخذ ما

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣١٠٦ والترمذي في سننه ١١٩٢ والبيهقي ١٤٧٢٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٨٥.

أعطته المرأة مقابل الانفصال، وهذه الآية دليل على مشروعية الخلع.

وقد حدث الخلع في عهد النبيﷺ؛ فعن عبد الله بن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ :أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ : أقبل الحديقة وطلقها تطليقة"[١].

والخلع من التشريعات الحكيمة التي تيسر للمرأة أمر الفراق إن كانت لا تطيق معاشرة زوجها، أو استحكم النفور منه، فقد أعطاها الشرع هذا الحق حتى لا تحيا معه وهي كارهة أشد الكراهة، فلربما أداها ذلك إلى الفتنة، على أن الأحاديث الصحيحة ترهِّب المرأة من أن تسعى في الخلع بلا سبب قوي، قال ﷺ:(المختلعات هن المنافقات)[٢]وقال: (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[٣].

ثم حذر الله من خالف أحكامه وتعدى حدوده الفاصلة بين الحلال والحرام، ومن تجاوز هذه الحدود فهو الظالم، وجاءت الجملة مؤكدة بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل (هم) وبالجملة، لتمييزهم أكمل تمييز، ولإيقاع وصف الظلم عليهم.

وبعد أن بينت الآيات السابقة حكم الطلاق الرجعي وحكم الخلع ذكرت حكم الطلاق المكمل للثلاث التي تصير به المرأة بائناً، وقد جاء حكم الخلع معترضاً بين حكمين من أحكام الطلاق وذلك لحكمة وهي: "أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٩٧١.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم/ ١١٨٦ وقال: حسن غريب، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى برقم/ ١٤٦٣٩ وهو حديث حسن انظر: فتح الباري ٩/ ٤٠٣.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢٢٢٦ وابن ماجه في سننه ٢٠٥٥ وأحمد ٥/ ٢٧٧ وصححه ابن خزيمة وابن حبان قال ابن حجر:" الأخبار الواردة في ترهيب المرأة من طلب طلاق زوجها محمولة على ما إذا لم يكن سبب يقضي ذلك" انظر: فيض القدير للمناوي ٣/ ١٣٨.

فلا يبقى شيء من ذلك؛ فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم"[١].

والحكم إن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الأوليين أنها تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ويدخل بها دخولاً حقيقياً ويكون مقصده من الزواج الاستمرار، ويؤكد هذا ما ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني، فأَبَتَّ طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، إنما معه مثل هدبة الثوب فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك.[٢] والمقصود بذوق العسيلة الجماع.

فإن طلقها الزوج الثاني وانقضت عدتها، فلا إثم على الزوج الأول أن يرجع إليها بعقد جديد ما دام قد غلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله. قال الزمخشري: " ولم يقل: إن علما أنهما يقيمان؛ لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى؛ لأنك لا تقول علمت أن يقوم زيد، ولكن: علمت أنه قام، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنما يظن ظناً"[٣].

ثم ختم الله الآية ببيان أن هذه الأحكام المذكورة يوضحها الله تعالى ويبينها لقوم يعلمون الحق ويعملون بمقتضى علمهم بلا تحايل أو تغيير، ومن حِكَم هذا التشريع ردع الأزواج وزجرهم عن التساهل في التطليق؛ فإن الحر الشريف إذا علم أن امرأته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا جامعها رجل آخر تريث في إيقاع الطلاق، وعالج أموره بروية وتؤدة.

وقد اتفق جمهور أهل العلم على تحريم نكاح التحليل، وهو أن يتزوج الرجل المرأة المطلقة

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٤٩٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٣٣.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠٤.

ثلاثاً بقصد تحليها لزوجها، لا بقصد الاستمرار، وهو كبيرة من الكبائر لعن رسول الله ﷺ فاعله، عن علي أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله المحلل والمحلل له)[1].

ثم تعرضت الآيات لحكم جديد من أحكام الطلاق الرجعي؛ فقد تكلمت الآية السابقة على كيفية الطلاق المشروع وعدده وجواز الخلع، أما هذه الآية فقد تكلمت عن الواجب في معاملة المطلقات ونهت عن الضرر وأرشدت إلى المصلحة وبينت الحكمة فقال تعالى: وإذا طلقتم أيها المؤمنون النساء طلاقاً رجعياً وقاربت عدتهن على الانتهاء فتمهلوا في أمركم؛ فأنتم بين أمرين: إما أن تبقوا نساءكم معكم بالمعروف الذي يقره الشرع الحكيم والخلق القويم والعقل السليم، وإما أن تفارقوهن بالمعروف أيضاً.

ثم أكدت الآية على عدم المضارة ونهت عن مراجعة النساء لإرادة إلحاق الضرر بهن بتطويل العدة وبالاعتداء حتى تفتدي نفسها بالمال، وبينت أن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للظلم، ثم حذر الله المخالفين لشرعه أن يتخذوا أحكامه التي شرعها في الطلاق وغيره مثار سخرية وذلك بالإكثار من الطلاق أو اتخاذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة، ثم ذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم ومنها نعمة الزواج، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] وذكرهم بما نزل عليهم من الأحكام في القرآن والسنة النبوية لكي يتعظوا به، ثم أمرهم بتقواه صيانة لأنفسهم عن غضب الله، وليعلموا أن الله عليم بكل ما يسرون ويعلنون.

ثم بين سبحانه ما يلزم اتباعه عند وقوع الطلاق حتى لا يحدث ظلم وجور، وذلك إذا طلقت النساء وانقضت عدتهن فلا يجوز للزوج أن يمنع المرأة من الزواج بعد الطلقة الثالثة، ولا يجوز للأولياء كذلك أن يمنعوا المرأة من العودة إلى الزوج بعد الطلقتين الأولى والثانية،

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٠٧٦ وابن ماجة برقم/ ١٩٣٥ والبيهقي برقم/ ١٣٩٦١ وهو صحيح وله طرق. الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢/ ٧٣، تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٧٠.

طالما حصل التراضي بين الأزواج والزوجات على ما يقره الشرع والعرف الصحيح، وكان الخاطب كفؤا.

وقد ورد عن معقل بن يسار أنها نزلت فيه؛ قال: زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها! لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه.[1]

ثم ذكّر الله المؤمنين بعد النهي عن عضل الزوجات بثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك القول الحكيم والتوجيه الكريم يستجيب له ويوعظ به من كان مؤمناً بالله وبثوابه وعقابه.

وثانيها: أن ذلك الذي شرعه الله، أعظم بركة ونفعاً وأكثر تطهيراً من دنس المعاصي؛ فإن المرأة إذا هُضمت حقها قد يدفعها ذلك إلى ارتكاب المحظورات.

وثالثها: أن الله يعلم ما فيه النفع والمصلحة للعباد. أما البشر فإنهم لا يعلمون أحداث المستقبل، أولا يعلمون علماً خالياً من الأهواء.

حكمة الطلاق:

لقد حث الإسلام الرّجال والنّساء إلى حسن اختيار الشّريك والشّريكة في الزّواج عند الخطبة، إلاّ أنّ ذلك قد لا يضمن استمرار السّعادة والاستقرار بين الزّوجين، فربّما قصّر أحد الزّوجين في الأخذ بما تقدّم، وربّما جدّ في حياة الزّوجين ما يثير بينهما الشّقاق مكان الوفاق، كما إذا مرض أحدهما أو لحقه عجز. وربّما حدثت عناصر خارجة عن الزّوجين، كالأهل وغير ذلك، وربّما كان السبب انصراف القلب وتغيّره. ومع هذا فقد أرشد الإسلام إلى نصح الزّوجين وندبهما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٨٣٧.

إلى الصّبر والاحتمال، وبخاصّة إذا كان التّقصير من الزّوجة، قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ١٩].

إلاّ أنّ مثل هذا الصّبر قد لا يتيسّر للزّوجين أو لا يستطيعانه، فربّما كانت أسباب الشّقاق فوق الطاقة، أو كانا في ظروف لا تساعدهما على الصّبر، وفي هذه الحال: إمّا أن يتم الإبقاء على الزّوجيّة مع استمرار الشّقاق الّذي قد يتضاعف وينتج عنه فتنة، أو جريمة، أو تقصير في حقوق الله تعالى، أو على الأقل تفويت حكمة النّكاح، وهي المودّة والألفة والذرية الصّالحة، وإمّا أن يحدث الطّلاق، وهو ما اتّجه إليه التّشريع في الإسلام، فقد يكون الطّلاق طريقاً لإنهاء الشّقاق والخلاف بين الزّوجين، ليستأنفا بعده حياتهما منفردين أو متزوجين حيث يجد كلّ منهما من يألفه ويحتمله، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء/ ١٣٠].

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك حكم الرضاع، ومناسبته لما قبله ظاهره؛ قال أبو حيان: "لما ذكر جملة في: النكاح، والطلاق، والعدة، والرجعة، والعضل أخذ يذكر حكم ما كان من نتيجة النكاح، وهو ما شرع من حكم: الإرضاع ومدته وحكم الكسوة، والنفقة"[1]. وإن قلنا إن الآية في حكم الرضاع بالنسبة للمطلقات فيكون هذا من تتمة أحكام الطلاق.

والآية جاءت بصيغة الخبر الذي يفيد معنى الأمر، أي ليرضعن، والوالدات قيل: عام لكل أم، وقيل: خاص بالمطلقات[2]، وعلى كلا القولين فالحكم يشمل كل أم، لأنه إن شمل المطلقة فسيشمل المتزوجة من باب أولى، والحولان: العامان، والتقيد بالعامين لرفع توهم أن يكون المراد حولاً وبعض آخر[3]، وليس ذلك للوجوب بدليل: ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾،

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٢٢.

(٢) وهو اختيار الطبري في جامع البيان٥/ ٣٠والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير والسيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار ٢/ ٤٠٩. قال الألوسي في روح المعاني ٢/ ١٤٦: ولا يخفى أن الحمل على العموم أولى.

(٣) انظر: الطبري سابق.

وغايته التحديد عند وقوع الاختلاف، فلو اتفق الأبوان على الفطام قبل تمام الحولين فلا بأس بشرط ألا يتضرر الولد من الفطام، وفي الآية دليل أن الرضاعة بعد الحولين غير معتبرة في التحريم الجاري مجرى النسب.

وفي الآية بيان اهتمام الإسلام بالصغير، وحرصه على أن ينبت نباتاً حسناً بالرضاعة الطبيعية من الأم وهذا مما لا تخفى فوائده الطبية والنفسية.

من فوائد الرضاعة الطبيعية*:

الرضاعة الطبيعية من لبن الأم تقي الطفل من الميكروبات وتحتوي على مجموعة كبيرة من مضادات الأمراض، وعلى مادة الأنترفيرون التي تقاوم الفيروسات، وتساعد أيضاً على نمو الأسنان وامتصاص الحديد وتقليل الإصابة بالإسهال والإمساك، وتحمي من الكساح ونقص الزنك، وتفيد الرضاعة الأم أيضاً؛ فهي تقيها من حمى النفاس ومن بعض الجلطات وسرطان الثدي، هذا بالإضافة إلى الفوائد النفسية للطفل والأم، والفوائد الاقتصادية للمجتمع.

ثم بينت الآية أن على الوالد أن يقدم للوالدة ما يكفيها من الطعام والكسوة بما تعارف عليه العقلاء وعلى قدر طاقته من حيث الإعسار واليسار، وعلة ذلك أن الله لا يكلف عباده إلا بما يطيقونه بدون عسر أو حرج.

وعلة هذه الأحكام السابقة ألا يقع ضرر من أحد الجانبين على الآخر، فلا تضار الأم بسبب ولدها وذلك بأن يمنعها من الإرضاع أو يقصر في النفقة أو يمنعها رؤية الولد، ولا يضار الوالد كذلك بسبب ولده، وذلك بأن تكلفه الأم ما لا يطيق، أو تمتنع عن إرضاع الولد تعجيزاً لأبيه، وأضافت الآية الولد إلى كل منهما للاستعطاف وليعلما أن الولد رزق لهما من الله فليحرصا على رعايته وحمايته، وقدم الأم لأن عاطفتها لولدها أقوى، ولأنها الجانب الأضعف فيكون إلحاق الأذى بها أقرب.

---

* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص٧٨٨ وما بعدها.

وكما تجب النفقة على الأب فإنها تجب كذلك على وارث الأب أو وارث الصبي الذي سيرثه بعد موته[(١)]، وهذا في حالة فقد الأب أو عجزه عن الإنفاق. وهي دليل على وجوب نفقة الأقارب.

وتحديد المدة بالحولين إنما هو بيان أقصى مدة عند التنازع، أما إن أراد الأبوان قطع الرضاع وفطام الولد قبل مدة الحولين أو بعدها فلا بأس بشرط التراضي والتشاور. وإن أراد الآباء أن يسترضعوا المراضع لأولادهم بالأجرة، ورضيت الأمهات، فلا بأس بشرط تسليم هؤلاء المراضع أجرهن بالمعروف الذي يناسب أجرة أمثالهن في البلد.

ثم ختمت الآية بما يحث على التزام أحكامها وامتثال أوامرها، وذلك إنما يكون بتقوى الله في كل الأمور ولْيعلم كل امرئ أن الله بصير بعمله وسيجزيه عليه إن خيراً وإن شراً.

"ولما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدة الوفاة؛ لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق"[(٢)] فالذين يتوفاهم الله بقبض أرواحهم كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ويتركون أزواجاً، فعلى أولئك الزوجات أن ينتظرن انقضاء عدتهن؛ فيمنعن أنفسهن عن الزينة وعن التعرض للخُطَّاب وللزواج، وكذلك عن الخروج من المنزل إلا لضرورة.

ومن حِكَم العدة معرفة براءة الرحم من الحمل، وتعظيم قدر الزواج، وأيضاً لتخفي مرارة الفراق بين الزوجين الذين ربط الله بينهما برباط المودة والرحمة، ومن مكارم الأخلاق وحسن العشرة ألا تتزين المرأة وتعرض نفسها على الرجال وهي حديثة عهد بوفاة زوجها، قال رسول الله ﷺ: (لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)[(٣)]. وهذا الحكم عام لكل امرأة توفى عنها زوجها سواء كانت مدخولاً بها

---

(١) قال في تفسير المنار ٢/ ٤١٤: وكلٌ يحتمله اللفظ، ولعل الحكمة في هذا التعبير أن يتناول كل ما يصح تناوله إياه.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٤٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٢٢٢ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٨٧ عن أم حبيبة رضي الله عنها.

أو غير مدخول بها، وسواء كانت صغيرة أو كبيرة ولم يستثن من هذا إلا الحامل؛ فعدتها وضع الحمل؛ قال تعالى ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] وقد صح عن أم سلمة " أنها قالت: " قُتلَ زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت به موته بأربعين ليلة فَخُطبت فانكحها رسول الله ﷺ "[1].

ومن حِكم الإحداد بالأشهر في الوفاة: أنه بخلاف الطلاق يشمل الصغيرة والكبيرة مدخولاً بها أو غير مدخول بها، فلزم أن تكون العدة بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحداً في الجميع. ولأن العدة في الوفاة متعلقة بالمرأة فقط وربما كان تحديدها بالحيض مساغاً للكذب، أما في المطلقة فالعدة حق للمطلق ويستطيع أن ينكر عليها، أما في حالة الوفاة فصاحب الحق قد مات وصار الحق خالصاً لله، ومن حِكم جعل عدة الوفاة أكثر من الطلاق أن الطلاق كان عن شقاق فمرارة الفراق أخف، وتحديد المدة بأربعة أشهر لأنها أقصى مدة قررها الشرع للحرمان من الرجال كما في حالة الإيلاء، فجاءت مدة الإحداد على الزوج مقاربة لهذه المدة والله أعلم.

ثم بينت الآية الكريمة ما يترتب على انتهاء مدة العدة وبلوغ الأجل، وخاطبت الأولياء بأنه إذا انقضت العدة فلا حرج على الأولياء أو على المسلمين في ترك الأرامل يفعلن ما كان محظوراً عليهن، ولكن بالطريقة التي يقرها الشرع وترتضيها الفِطَر السليمة والعقول القويمة، والله تعالى محيط بدقائق أعمال الجميع لا يخفى عليه شيء منها.

ثم بينت الآيات حكم الخطبة للمعتدة بأسلوب راق يحفظ المصالح ويراعي المشاعر، فيجوز للرجل أن يُعَرِّض للمرأة بالخطبة في أثناء العدة، ولا إثم عليه كذلك إن رغب في زواج المعتدة طالما أضمر في نفسه وأخفى هذا الأمر، قال ابن عطية: " وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيهٌ عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك"[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٦٢٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٨٥ عن أم سلمة رضي الله عنها

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣١٥.

ومن لطيف التعريض ما روي أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة وهي متأيمة من أبي سلمة فقال: لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي"[(١)].

ولأن الله تعالى عليم حكيم يعلم من خلق فلقد ذكّر الخاطبين بعلمه أنهم سيذكرونهن في أنفسهن، وهذا مما دخل للإنسان فيه ولا مؤاخذة عليه، وهذا هو القدر المباح، فلا يجوز أن يواعد المرأة مواعدة في السر، فإن هذا مدعاة إلى الفتنة، إلا أن تكون المواعدة بقول معروف، قال البيضاوي " أن تعرضوا ولا تصرحوا"[(٢)].

ثم بينت الآية غاية التحريم، فنهت أن يعقد الرجل العزم على إبرام وإتمام عقد النكاح المؤكد حتى ينتهي وقت ما فرض الله وكتب من العدة.

وكعادة القرآن الكريم في قرن الأحكام بالترغيب والترهيب جاء التحذير الإلهي بأن الله يعلم ما تضمره النفوس فليحذر المخالفون من قصد الشر أو فعل المنكر، ثم فتح باب الأمل لمن أراد الرجوع. وأعلمهم أنه غفور لمن تاب، حليم لا يعاجل بالعقوبة من أساء.

و" لما بين تعالى حكم المطلقات المدخول بهن والمتوفى عنهن أزواجهن بيَّن حكم المطلقة غير المدخول بها وغير المسمى لها مدخولاً بها أو غير ذلك"[(٣)] فخاطب الله تعالى الأزواج ورفع عنهم التبعة، ولم يلزمهم بدفع المهر إذا طلقوا المرأة قبل الدخول ما داموا لم يفرضوا لهن مهراً، لكن يجب عليكم في هذه الحالة أن تعطوهن مالاً يتمتعن وينتفعن به بما تعارف عليه الناس كل على حسب طاقته فمن وسَّع الله عليه فليوسع، ومن ضيق عليه فلا حرج إن أنفق ما في وسعه. وهذه المتعة حق واجب على الذين يحسنون إلى أنفسهم بطاعة الله وإلى النساء.

قال الجصاص: " وجوب المتعة من وجوه؛ أحدها: قوله تعالى ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ لأنه أمر،

---

(١) رواه الدار قطني في سننه ٣/ ٢٢٤ والبيهقي ٧/ ١٧٨.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ٥٣١.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٤٠.

والأمر يقتضي الوجوب حتى تقوم الدلالة على الندب، والثاني: قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تأكيد لإيجابه؛ إذ جعلها من شرط الإحسان، وعلى كل أحد أن يكون من المحسنين....إلخ"[(١)].

ومن حِكَم هذه المتعة أن في الطلاق قبل الدخول إيهاماً للناس أنه ما طلقتها إلا لشيء عرفه في أخلاقها، فإذا متعها متاعاً حسناً كان ذلك بمثابة الاعتراف بأن الطلاق كان لعذر من ناحيته لا لعلة فيها؛ لأن الله يأمرنا بأن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة.[(٢)]

ثم ذكرت الآية الحالة الثانية للمطلقة قبل الدخول، وهي إذا كان قد سمَّى لها الصداق فخاطب الله الأزواج إن طلقوا قبل الدخول وبعد أن قدروا مهراً معلوماً، فلها نصف المهر إلا أن تعفو المرأة عن حقها، أو يعفوا الزوج الذي بيده عقدة النكاح فيعطيها أكثر من النصف أو المهر كاملاً.

وقد ذهب الحنفية والشافعية وجماعة من السلف إلى أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح، وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: (وليُّ عقدة النكاح الزوج)[(٣)]،وقال الإمام الشافعي رحمه الله: " وبيَّن عندي في الآية أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج، وذلك أنه إنما يعفوه من له ما يعفوه؛ فلما ذكر الله عز وجل عفوها مما ملكت من نصف المهر أشبه أن يكون ذكر عفوه لما له من جنس نصف المهر، والله تعالى أعلم"[(٤)]. وقيل: هو الولي، وقد جاء اللفظ القرآني مجملاً لكي يحرص كل من الفريقين على العفو، والله أعلم.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٣٨.

(٢) تفسير المنار ٢/ ٤٣٠ بتصرف.

(٣) رواه البيهقي في سننه ٧/ ٢٥١ والطبراني في الأوسط ٦٣٥٩ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٠: وفيه ابن لهيعه وفيه ضعف، ورواه ابن أبي حاتم برقم/ ٣٥٩،وحسن السيوطي إسناده في الدر المنثور١/ ٧٣٩.

(٤) الأم للإمام الشافعي رحمه الله ٥/ ٧٤.

وجاء الأمر بالعفو مطلقاً ليشمل الجميع، فالعفو أقرب لتقوى الله، ثم أمرهم بألا ينسوا الفضل، فطالبهم بالفضل لا بالعدل، ثم ختمت الآية ببيان أن الله بصير بما يفعل العبد ليرغِّب العباد في الفضل ويرهبهم من الظلم والجهل.

وختام الآية السابقة يغري الناس بقانون البر والفضل ولكي يحولوا أبصارهم إلى شؤون كلية كبرى أولى أن يتوفر لها أولو العزم، ألا وهي الصلاة والإنفاق والجهاد في سبيل الله، والخطاب هنا بالصلاة يتوجه إلى المجاهدين لكي يحسم لهم مسألة الصلاة قبل أن يأمرهم بالقتال صراحة، ويبين لهم أن الجهاد ليس رخصة لإسقاط الصلاة ولا لتأجيلها، وإنما يأمرهم أن يحافظوا على الصلوات جميعاً، ثم أفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيماً لأمرها وإعلاء لشأنها، وذهب جمع من العلماء إلى أنها صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي النهار والليل، ولكونها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الراحة في الظهيرة، وقد ورد عن علي بن أبي طالب قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً)[١].

وقد يقال إن المقصود الاهتمام بالصلوات عموماً دون تحديد واحدة بعينها، والله أعلم.

ثم أمر الله المؤمنين أن يقوموا لله طائعين خاشعين، فهذا دليل حضور القلب وصحة الإيمان.

ولأهمية الصلاة فإنها لا تسقط بحال، ولهذا أمر الله عباده أن يحافظوا عليها وقت الأمن والخوف والصحة والمرض والسفر والإقامة، والتخفيف في وقت الخوف يكون بأدائها بكيفية مخصوصة أياً كانوا مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف وحل الأمن، فلتؤدى الصلاة كاملة كما علمنا ربنا على لسان نبينا ﷺ، وقد مَنَّ علينا بهذا العلم الذي ما كنا نعلمه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: " أمر الله سبحانه بالمحافظة على الصلوات في كل حال من صحة ومرض وحضر وسفر وقدرة وعجز وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال"[٢].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٦٢٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٢.

وبين الحديث عن أمور الطلاق والصلاة مناسبة وثيقة:

١- فالصلاة هي أعظم معين على تحمل الأمور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [١٥٣] وقد توجه الأمر قديماً إلى بني إسرائيل لكن قلوبهم لم تلن لله وأمره، قال تعالى مخاطباً إياهم: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [٤٥]. فتوجه الأمر بالصلاة إلى الأمة الخاتمة، وهذا دليل على أن الاستجابة لأوامر الله لن تكون إلا بعد تذليل النفس بالصلاة، ف(من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه)[١]، وهي التي تعين على قبول التكاليف، وتروض الأخلاق،قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المعارج/ ١٩-٢٢].

٢- وجو الآيات الكريمة كله يأمر بالتقوى ويحض عليها في ثنايا الحديث عن حقوق النساء، وقد تكرر هذا في أكثر من آية؛ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢٣١] وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢٣٣]، وجاء قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [٢٣٧]، ولا شك أن المحافظة على الصلاة من أعظم ما يغرس التقوى في قلب المؤمن، قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الأنعام/ ٧٢]واربط بين هذا وبين وصف المتقين في أول السورة بإقامة الصلاة.

٣- ما ذكره سيد قطب رحمه الله حيث قال: " يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة، ومن جنسها، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن. وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات/ ٥٦]. واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله"[٢].

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١/ ٥٣٦ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٥٧.

٤- أن الحديث السابق كان حول أداء حقوق النساء سواء كانت مطلقة أو توفي زوجها، وانتقل السياق إلى الحديث عن أداء حق الله بالصلاة.

ثم عادت الآيات إلى الحديث عن بعض حقوق المرأة التي توفى عنها زوجها، والمعنى: أن على الزوج قبل أن تحضره الوفاة أن يوصي لزوجته بها تنتفع به لمدة حول كامل من وفاته، ولا يجوز لأحد أن يخرجها من مسكن الزوجية بغير رضاها، فإن خرجت الزوجة من منزل الزوجية برغبتها فلا إثم عليكم حينئذ فيما فعلن في أنفسهن من الأمور التي لا ينكرها الشرع طالما انتهت عدتها وهي الأربعة أشهر وعشرة أيام. والله عزيز في انتقامه لمن تعدى حدوده، حكيم فيما شرع للعباد من أحكام وآداب.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة؛ فقد كانت عدة الوفاة سنة كاملة ولها الوصية بالنفقة، ثم نُسخت الوصية بآية المواريث ونُسخ الحول بأربعة أشهر وعشراً.

وذهب جمع من العلماء إلى أن الآية ليست منسوخة؛ فروى البخاري عن مجاهد قال: كانت هذه العدة؛ تعتد عند أهل زوجها واجب فأنزل الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي[1]. قال ابن عاشور: هذا الذي قاله مجاهد أصرح ما في الباب وهو المقبول[2].

وعلى هذا فالراجح ألا نسخ؛ فهذه الآية ليست منسوخة وإنما تتكلم عن حق المرأة في الإقامة ببيت زوجها سنة كاملة إن رغبت، أما الآية الأولى فهي تتكلم عن الواجب على النساء

(١) رواه البخاري في صحيحه ورقمه/ ٤٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢/ ٤٧٢.

من الاعتداد أربعة أشهر وعشراً، قال ابن كثير: " وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم: الإمام أبو العباس ابن تيمية"[1].

ثم بين تعالى حق المطلقات في المتعة وجاء لفظ المطلقات عاماً ليشمل كل مطلقة وذلك لجبر ألم الفراق، ولتخفيف ما بين الزوجين من شقاق، ودرءاً لعدم الوفاق بعد إتمام الطلاق، وهذا حق على المتقين الذين يخافون ربهم. وظاهر الآية يفيد إيجاب المتعة لكل مطلقة.

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ أي: مثل هذا البيان الواضح الذي بين الله به الأحكام السابقة بين لكم جميع آياته وأحكامه لكي تعقلوا ما فيها وتنفذوه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: القضايا العقدية:

- جمهور العلماء على أن لفظ المشرك يندرج فيه الكفار من أهل الكتاب، وإنما أفردوا بالذكر في بعض الآيات تنبيهاً على اختلافهم عن المشركين في جملة من الأحكام؛ منها إباحة الزواج من نسائهم، لكنهم في النهاية يشملهم جميعاً وصف الإشراك بالله.
- قوله ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ فيه أساس اعتقادي يربط أمور الأحكام بالإيمان المستكن في الضمير، فكيف يعرف الناس إن كانت المطلقة ذات حمل أم لا؟ وكيف يعرف زوجها بعد الطلاق إن كانت حائضاً أو حاملاً؟ لا يستخرج الحق عندئذ إلا إيمانها بالله واليوم الآخر.
- قوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ يوجب بطلان قول أهل الإجبار في اعتقادهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٩٨ ورجحه أيضاً الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ١٣٥ فقال: "فكان المصير إلى قول مجاهد أقوى من التزام النسخ من غير دليل".، ورجحه سيد قطب في ظلال القرآن ١/ ٢٥٩ وذهب إلى نفي النسخ : محمد عبده كما في تفسير المنار ٢/ ٤٤٧.

أن الله يكلف عباده ما لا يطيقون، وإكذاب لهم في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى الله عما يقولون وينسبون إليه من السفه والعبث علواً كبيراً[١].

ثانياً: الأحكام الشرعية:

- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ يفيد حرمة الزواج بالمشركة، وكذلك الملحدة التي لا تؤمن بدين. وكذلك لا يجوز الزواج بالمجوسية التي تعبد النار[٢]، ولا المرتدة التي عادت للكفر بعد الإيمان، وكذلك التي تنتمي لطائفة أو فرقة ظاهرها الإسلام لكن حكم العلماء بكفرها وردتها وذلك مثل القاديانية والبهائية وغيرهما.

ومعلوم أن تحريم نكاح المشركة ليس مؤبداً كتحريم الأم والأخت، ولكنه مؤقت بغاية وهي الإيمان ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ فإذا آمنت الكافرة حل نكاحها.

- دلت الآيات على جواز نكاح الكتابية سواء كانت يهودية أو نصرانية، وهذا مذهب جمهور أهل العلم. وذهب عبد الله بن عمر إلى عدم الجواز؛ فكان إذا سئل عن نكاح النصرانية أو اليهودية قال: حرم الله المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئاً أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله[٣].

والحق مع رأي الجمهور، لكن يشترط أن تكون المرأة محصنة أي عفيفة لا تتعاطى الزنا، ويشترط كذلك ألا تكون من قوم يحاربون المسلمين، فنكاح نساء المحاربين لا يجوز، وهذا قول ابن عباس وغيره[٤]، ومما يحتج به لقوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة/ ٢٢] قال الجصاص: "فينبغي أن يكون نكاح

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠٦.

(٢) انظر: كشاف القناع للبهوتي ٢/ ٤٤٣، والمبسوط للسرخسي ١٣/ ١٣٢، وجاء في حاشية العدوي ٢/ ٨٠: ويرجم الزوج في نكاح المجوسية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٩٨١.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ٩/ ٥٨٨ وأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٥٨.

الحربيات محظورا؛ لأن قوله تعالى: ﴿ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إنما يقع على أهل الحرب؛ لأنهم في حد غير حدنا؛ وهذا عندنا إنما يدل على الكراهة، وأصحابنا يكرهون مناكحات أهل الحرب من أهل الكتاب[١].

- لا يجوز للمشرك أن ينكح المؤمنة بأي حال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[الممتحنة/ ١٠]

- دل قوله تعالى ﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ على أنه لا نكاح إلا بولي، قال محمد بن على بن الحسين: النكاح بوليّ في كتاب الله، ثم قرأ:﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ﴾ برفع التاء[٢]، واشتراط الولي في النكاح هو قول الجمهور، وورد عن عمر وعليٍ وابن عباس وابن مسعود وغيرهم، وهو مذهب الشافعيِّ ومالك وأحمد[٣] ؛ وحجتهم قول رسول الله ﷺ: (لا نكاح إلا بولي)[٤] وغيره من الأحاديث.

- جواز استمتاع الرجل بامرأته وهي حائض طالما ابتعد عن موطن الأذى، قال رسول الله: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[٥] وعن عائشة قالت: "كان - أي النبي ﷺ- يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض"[٦].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٢٦.

(٢) رواه عنه الطبري في جامع البيان ٤/ ٣٧٠، وفي سنده راو لم يسم.

(٣) أقوال الصحابة مروية عند البيهقي في سننه ٧/ ١١٢،١١١، وانظر في المسألة من كتب الفقه:الأم للإمام الشافعي ٥/ ١٢،المغنى لابن قدامة ٧/ ٦، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد٢/ ٩.

(٤) رواه الترمذي في سننه رقم/ ١١٠١، وأبو داود في سننه رقم/ ٢٠٨٣،وابن ماجة في سننه رقم/ ١٨٨١، وابن حبان في صحيحه٤٠٧٨،والحاكم في المستدرك رقم/ ٢٧١٣ وله طرق يصير بمجموعها صحيحاً. انظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٥٥.

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٣٠٢ وسبق.

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥.

- إباحة إتيان المرأة بعد التطهر عند جمهور الفقهاء، وبعد انقطاع الدم وقبل التطهر عند الأحناف.

- إن وطأ الرجل امرأته الحائض وهو عالم بالتحريم متعمد فقد أتى كبيرة لمخالفته نص القرآن، ويجب عليه التوبة والاستغفار عند جمهور العلماء. وذهب أحمد بن حنبل وجماعة إلى وجوب الكفارة عليه؛ وذلك لما ورد عن عبد الله بن عباس مرفوعاً في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار(١).

- إباحة الأحوال والهيئات كلها في الجماع إذا كان الإتيان في موضع الحرث.

- تحريم إتيان المرأة في دبرها، وقد شددت الأحاديث النبوية في النهي عن ذلك، ودلالة قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ تفيد أن الإتيان لا يكون إلا من موطن الحرث. ومما صح عن رسول الله ﷺ في ذلك قوله: (ملعون من أتى امرأته في دبرها)(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ على أن الحلف على مدة دون الأربعة أشهر لا يعد إيلاء، وإنما يكون الإيلاء إذا حلف ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فصاعداً عند الأحناف، وأكثر من أربعة أشهر عند غيرهم(٣).

- الإيلاء يثبت بكل يمين، وقد جاءت الآية عامة بدون تحديد صيغة يمين، فيقع الإيلاء بكل الصيغ، وهذا قول الجمهور خلافاً للشافعية. قال ابن عباس: كل يمين منعت جماعاً فهي إيلاء(٤).

(١) رواه أبوداود في سننه برقم/ ٢٦٤ والنسائي في الكبرى برقم/ ٩٠٩٨، وابن الجارود في المنتقى ١/ ٣٨. وانظر كلام العلماء على هذا الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٢٠٥. وعمدة القاري للعيني ٣/ ٢٦٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٤ والنسائي في السنن الكبرى برقم/ ٩٠١٥ وأبوداود في سننه برقم/ ٢١٦٢ وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٨٠، ومصباح الزجاجة للبوصيري ٢/ ١١٠.

(٣) انظر: بدائع الصنائع ٣/ ١٧٧، الإقناع للخطيب الشربيني ٢/ ٤٥٢، والشرح الكبير ٢/ ٣٤٢ والروض المربع ٣/ ١٩٠.

(٤) أخرجه عنه البيهقي في سنن الكبرى برقم/ ١٥٠١٦ والصغرى برقم/ ٢٧٤١. وانظر لرأي الجمهور: بداية المجتهد ٢/ ٧٦، ولرأي الشافعية: الأم ٥/ ٢٦٥.

- وبدلالة عموم الآية قال جمهور الفقهاء: الإيلاء يقع سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب. وقال ابن عباس: لا إيلاء إلا بغضب[١].

قال القرطبي: " ويدل عليه - أي رأي الجمهور -عموم القرآن، وتخصيص حالة الغضب يحتاج إلى دليل، ولا يؤخذ من وجه يلزم. والله أعلم"[٢].

- لفظ: ﴿ مِن نِّسَآبِهِمۡ ﴾ عام؛ فتدخل فيه الحرة والأمة إذا تزوجت، ويدخل فيه أيضا الذمية، ويشمل الصغيرة والكبيرة والمدخول بها وغير المدخول بها على السواء[٣].

- قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الفيء الجماع إذا لم يكن له عذر"[٤].

-إذا جامع المولي زوجته فعليه الكفارة عند جمهور العلماء، قال ابن عبد البر: "وجمهور العلماء على أن المولي إذا فاء بالوطء وحنث نفسه فعليه الكفارة إلا رواية عن الحسن وإبراهيم أنه لا كفارة عليه...وهذا مذهب ضعيف ترده السنة الثابتة"[٥]. وقال ابن تيمية: "المولى بالحلف بالله إذا فاء لزمته كفارة الحنث عند جمهور العلماء. وفيه قول شاذ أنه لا شيء عليه بحال. وقول الجمهور أصح؛ فان الله بين في كتابه كفارة اليمين في سورة المائدة"[٦].

- استدل محمد بن الحسن بآية الإيلاء على امتناع جواز تقديم الكفارة قبل الحنث في اليمين؛ فقال: " لما حكم للمولي بأحد حكمين من فيء أو عزيمة الطلاق، فلو جاز تقديم الكفارة على الحنث لسقط الإيلاء بغير فيء ولا عزيمة طلاق؛ لأنه إن حنث لا يلزمه بالحنث شيء، ومتى

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره ٤/ ٤٥٩ وبنحوه عن علي ٤/ ٤٦٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٧.
(٣) انظر: المغني لابن قدامة ٧/ ٤٢٧. وقال الأحناف: إيلاء الأمة شهران على النصف من الحرة، انظر: البحر الرائق لابن نحيم الحنفي ٤/ ٧٢.
(٤) الإجماع لابن المنذر ص ٨٣.
(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ٤٤.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/ ٥٣.

لم يلزم الحالف بالحنث شيء لم يكن مولياً، وفي جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بغير ما ذكر الله، وذلك خلاف الكتاب"[(١)].

- قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ فإذا انتهت مدة الأربعة أشهر بدون فيئة طلقت منه عند الأحناف، لأنهم قدروا الآية: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا في هذه المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه. وإن لم يفيئوا كان ذلك عزماً منهم على الطلاق، فيقع بانتهاء المدة.

- أما الجمهور فقالوا: يوقف المولي بعد انتهاء المدة؛ فإما أن يطلق وإما أن يفيء، فإن لم يطلق رفعت المرأة أمرها للقاضي كي يطلقها.

وتقدير الآية عندهم: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤوا بعد انتهاء المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع لطلاقهم.

والاحتمالان متساويان في تقدير الآية؛ ولذلك اختلف الصحابة في تأويلها[(٢)].

قال القرطبي: " وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى، قياساً على المعتدة بالشهور والأقراء، إذ كل ذلك أجل ضربه الله تعالى، فبانقضائه انقطعت العصمة وأبينت من غير خلاف، ولم يكن لزوجها سبيل عليها إلا بإذنها، فكذلك الإيلاء، حتى لو نسي الفيء وانقضت المدة لوقع الطلاق، والله أعلم[(٣)].

- عدة غير الحامل ثلاث حيضات، هذا هو الراجح في القرء والله أعلم؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق/ ٤].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٥٥.

(٢) انظر في المذاهب الأربعة: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/ ١٩٢، والأم للشافعي٥/ ٢٦٥، وبداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٧٥المغني لابن قدامة ٧/ ٤٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٥.

فنقلهن عند عدم الحيض إلى الاعتداد بالأشهر؛ فدل ذلك على أن الأصل الحيض، ولأن ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ وجوب التربص ثلاثة كاملة، ومن جعل القروء الأطهار لم يوجب ثلاثة؛ لأنه يكتفي بطهرين وبعض الثالث، فيخالف ظاهر النص، ومن جعله الحيض أوجب ثلاثة كاملة، فيوافق ظاهر النص[1].

- دل عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ على أن العدة تجب على الذمية إذا طلقها المسلم. وعدتها كعدة المسلمة[2].
- قوله تعالى ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ دليل على أن للرجل مراجعة زوجته المدخول بها فيما دون الثلاث طلقات، سواء رضيت أو لم ترض، فإذا انقضت عدة المرأة صارت أجنبية عنه لا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين. وهذا بالاتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن له الرجعة في المدخول بها ما لم تنقض العدة، فإذا انقضت العدة فهو خاطب من الخطاب"[3].
- قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ المعنى: إن قصد بالرجعة إصلاح حاله معها، وإزالة الوحشة بينهما، لا على وجه الإضرار والقطع بها عن الخلاص من ربقة النكاح، فذلك له حلال، وإلا لم تحل له[4]. فمادام قد قصد الإصلاح فهذا مندوب، أما إذا قصد تطويل مدة العدة فيكون قد ظلم نفسه بارتكاب المحرم.
- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على إيجاب مهر المثل إذا لم يسم الزوج لها مهراً؛ لأنه قد ملك عليها بضعها بالعقد واستحق عليها تسليم نفسها إليه، فعليه لها مثل ملكه عليها، ومثل البضع هو قيمته وهي مهر المثل[5].

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٨/ ٨٢

(٢) قال ابن قدامة : قول علماء الأمصار منهم مالك والثوري والشافعي وأبو عبيد وأصحاب الرأي ومن تبعهم. المغني ٨/ ٧٨.

(٣) الإجماع لابن المنذر ص٨٠ برقم/ ٣٩٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٥٦.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٩، ٧٠.

-إذا أراد الرجل أن يراجع زوجته في فترة العدة فله ذلك، سواء كانت الرجعة بالفعل أو بالقول، ويستحب له أن يُشهِد على الرجعة؛ لقوله تعالى ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق/ ٢] وقال بعض الفقهاء باشتراط الإشهاد، والصحيح من مذهب جمهور أهل العلم الندب والله أعلم[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ على أن الطلاق مباح، قال الشافعي رحمه الله: " قال الله عز وجل: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق/ ١] الآية وقال: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [٢٣٦] وقال ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية[الأحزاب/ ٤٩] وقال ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ [النساء/ ٢٠] وقال ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [٢٢٩] مع ما ذكرته من الطلاق في غير ما ذكرت ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ من إباحة الطلاق، فالطلاق مباح لكل زوج"[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ على حظر إيقاع الطلقتين أو الثلاث في وقت واحد ؛ لأنها تضمنت الأمر بإيقاع الاثنتين في مرتين، فمن أوقع الاثنتين في مرة فهو مخالف لحكمها[٣].

وقال ابن تيمية:" فبين أن الطلاق الذي ذكره هو الطلاق الرجعي الذي يكون فيه أحق بردها هو مرتان مرة بعد مرة"[٤].

- جاء في صحيح البخاري كتاب الطلاق: باب " من أجاز الطلاق الثلاث بقوله تعالى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[٥].و قد أشار بهذا إلى الخلاف الواقع في احتساب

---

(١) تبيين الحقائق للزيلعي ٢/ ٢٥٢، وأسنى المطالب للبيروتي ٣/ ٣٤١، والشرح الكبير لابن قدامة ٢/ ٤٢٤، والروض المربع للبهوتي ٣/ ١٨٤.

(٢) الأم للشافعي ٥/ ١٧٩.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٧٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/ ١١.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٠١٣، باب رقم ٤.

الطلقات الثلاث في المجلس الواحد. والظاهر احتساب الطلقات الثلاث في المجلس الواحد طلقة واحدة؛ ويؤيد هذا ما ورد عن ابن عباس قال: " طلق ركانة بن عبد يزيد أخو بني مطلب امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً. قال: فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقتها ؟ قال : طلقتها ثلاثاً قال : فقال : في مجلس واحد ؟ قال: نعم قال: فإنما تلك واحدة، فأرجعها إن شئت. قال : فرجعها[1].

- استدل جماعة من الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ على أن لفظ التسريح من ألفاظ الطلاق الصريحة فلا يحتاج إلى نية، بخلاف ألفاظ الطلاق غير الصريحة (الكنائية) التي تحتاج إلى نية[2].

- استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ على أن الزوج إذا أعسر بنفقة المعسر فللزوجة فسخ النكاح؛ فقد تعذر الإمساك بالمعروف فيتعين التسريح بإحسان[3].

- استدل الفقهاء بقوله تعالى ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ على حرمة نكاح المتعة،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٥، والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ١٤٧٦٤، قال ابن تيمية: وهذا إسناد جيد. مجموع الفتاوى ٣٣/ ٨٥، ومال ابن حجر إلى تصحيحه وترجيح مقتضاه فقال في فتح الباري ٩/ ٣٦٢: وهذا الحديث نص في المسألة لا يقبل التأويل الذي في غيره من الروايات الآتي ذكرها.

(٢) وهذا مذهب الشافعي، انظر الوسيط ٥/ ٣٧٣، وخالف في ذلك الأحناف والمالكية فقالوا: إن لفظ السراح يستعمل في غير الطلاق كثيراً. انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٣/ ١٠٦، المغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٤. ووافقهم البخاري؛ فقد ترجم في صحيحه باب: إذا قال: فارقتك أو سرحتك أو البرية أو الخلية، أو ما عني به الطلاق فهو على نيته. صحيح البخاري كتاب الطلاق ٥/ ٢٠١٥.

(٣) الأم للشافعي ٥/ ١٠٧، والكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٦٧، أما الأحناف فقالوا: لا تطلق، ويلزمها الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فهذا تنصيص على أن المعسر منظر. المبسوط للسرخسي ٥/ ١٩٠، والظاهر رجحان ما ذهب إليه الأحناف؛ لأن الفقر لا يكون سببا للفرقة، وقد ندب الله إلى تزويج الفقير.

قالوا:" فجعل إلى الأزواج فرقة من عقدوا عليه النكاح مع أحكام ما بين الأزواج، فكان بيِّنا أن نكاح المتعة منسوخ بالقرآن والسنة لأنه إلى مدة ثم نجده ينفسخ بلا إحداث طلاق فيه ولا فيه أحكام الأزواج"[١].

- في قوله تعالى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ دليل على مشروعية الخلع، قال ابن عبد البر: "وأجمع الجمهور منهم أن الخلع والفدية والصلح أن كل ذلك جائز بين الزوجين في قطع العصمة بينهما وأن كل ما أعطته على ذلك حلال له إذا كان ذلك من غير إضرار منه بها ولا إساءة إليها"[٢].

- قرأ حمزة: (إلا أن يُخافا) بضم الياء على البناء لما لم يسم فاعله[٣]. قال النحاس: "قيل: المعنى.. إلا أن يخاف السلطان ويكون الخلع الى السلطان، وقد قال بهذا الحسن.... قال أبو جعفر: وأكثر العلماء على أن ذلك إلى الزوجين[٤].

- دل ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ على أن للمرأة أن تفدي نفسها بأكثر من المهر ما داما قد تراضيا على ذلك، قال الشافعي: "وأباح لهما إذا انتقلت عن حد اللاتي حرم أموالهن على أزواجهن لخوف أن لا يقيما حدود الله أن يأخذ منها ما افتدت به لم يحدد في ذلك أن لا يأخذ إلا ما أعطاها ولا غيره، وذلك أنه يصير حينئذ كالبيع. والبيع إنما يحل ما تراضى به المتبايعان لا حد في ذلك، بل في كتاب الله عز وجل دلالة على إباحة ما كثر منه وقل؛

---

(١) الحاوي الكبير للماوردي ٩/ ٣٢٨.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٦/ ٧٦.

(٣) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٩٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٢٠٣. وقال الجصاص: ولا خلاف بين فقهاء الأمصار في جوازه دون السلطان؛ وكتاب الله يوجب جوازه، وهو قوله تعالى﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ فأباح الأخذ منها بتراضيهما من غير سلطان. أحكام القرآن ٢/ ٩٤.

لقوله ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾[(١)].

- استدل عبد الله بن عباس بسياق الآيات على أن الخلع فسخ وليس بطلاق؛ فقد سأله إبراهيم سألت إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن رجل طلق امرأته تطليقتين، ثم اختلعت منه. أينكحها؟ فقال: نعم، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع بين ذلك، فلا بأس به[(٢)].

لكن جمهور العلماء على أن الخلع طلاق لا فسخ؛ فلو نوى به الطلاق وقع، واعتدت المرأة كالمطلقة ثلاث حيضات. وهذا القول عليه - كما قال الترمذي- : أكثر أهل العلم من أصحاب النبي وغيرهم[(٣)].

- أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته الطلقة الثالثة أنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

- واتفق جمهور العلماء على أن مجرد العقد لا يكفي في تحليل الزوجة للأول؛ بل لا بد من الوطء، قال الرازي: "مذهب جمهور المجتهدين أن المطلقة بالثلاث لا تحل لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : تعتد منه، وتعقد للثاني، ويطؤها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه. وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب : تحل بمجرد العقد، واختلف العلماء في أن شرط الوطء بالسنة، أو بالكتاب، قال أبو مسلم الأصفهاني : الأمران معلومان بالكتاب وهذا هو المختار"[(٤)].

- استدل جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية وغيرهم بعموم قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا

---

(١) الأم للشافعي ٥/ ١١٣، قال في المغني: و هذا قول أكثر أهل العلم. روي ذلك عن عثمان وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقبيصة بن ذؤيب والنخعي ومالك والشافعي وأصحاب الرأي.ويروى عن ابن عباس وابن عمر أنهما قالا : لو اختلعت امرأة من زوجها بميراثها، وعقاص رأسها كان ذلك جائزاً. المغني لابن قدامة ٧/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٤٨٧ برقم/ ١١٧٧١ وسعيد بن منصور في سننه ١/ ٣٨٤ برقم/ ١٤٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ٤٩١.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩٠. وجاء في البحر الرائق ٤/ ٦٢ أن سعيد بن المسيب رجع عن مذهبه هذا.

غَيْرَهُۥ﴾ على أن المسلم إذا طلق زوجته الذمية ثلاثاً ونكحها ذمي ودخل بها، ثم طلقها؛ فيجوز أن ترجع إلى زوجها الأول لعموم لفظ الآية. قال الشافعي: "ولو نكحها الذمي نكاحاً صحيحاً فأصابها كان يحلها من جماعه للمسلم ما يحلها من جماع زوج مسلم لو نال ذلك منها لأنه زوج"[(١)].

- واستدلوا أيضاً بعموم الآية على أن النكاح الفاسد لا يبيح للمطلقة ثلاثاً أن ترجع إلى زوجها الأول، قال العلماء: لا تحل المرأة لزوجها الأول إلا بعقد صحيح. قال الشافعي: "ولا يحلها إلا زوج صحيح النكاح؛ وأصل معرفة هذا أن ينظر إلى كل زوج إذا انعقد نكاحه لا ينفسخ بفساد عقد. وإن انفسخ بعد لمعنى فأصابها فهو يحلها وإن كان أصل نكاحه غير ثابت عند العقد فلا تحلها إصابته لأنه غير زوج"[(٢)].
- قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ يدل على جواز الاجتهاد في أحكام الحوادث؛ لأنه علق الإباحة بالظن[(٣)].
- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ دل على وقوع الرجعة، وإن قصد بها مضارتها، فلولا ذلك ما كان ظالماً لنفسه ؛ إذ لم يثبت حكمها وصارت رجعته لغواً لا حكم لها[(٤)].
- لا يجوز اتخاذ آيات الله وأحكامه هزواً؛ فمن طلق هازلاً وقع طلاقه باتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن جد الطلاق وهزله سواء"[(٥)]. ومستندهم في ذلك قولهﷺ: (ثلاث جدهن جد و هزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة)[(٦)].

---

(١) الأم للشافعي ٥/ ٢٤٩. وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ١٧٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٩٧.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٩٩. وانظر: الحاوي الكبير للماوردي ١٠/ ٣٠٣.

(٥) الإجماع لابن المنذر ص ٨٠ رقم/ ٤٠٦.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٠٠ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٢١٩٤، والترمذي في سننه برقم/ ١١٨٤ .قال ابن حجر: حسن. تلخيص الحبير ٣/ ٢٠٩.

- نهي الأولياء عن منع الزوجات من الزوج إلى أزواجهن طالما تراضيا بعد الطلاق.

- دل قوله تعالى: ﴿ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على أنه لا بد في النكاح من رضا الطرفين؛ فيلزم أن ترضى الزوجة بزوجها وإلا لم يصح الزواج، قال رسول الله ﷺ: (لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر)[١]. قال العيني: " هذا لفظ عام يتناول البكر والثيب والمطلقة والمتوفى عنها زوجها ويجب العمل بعموم العام وأنه يوجب الحكم فيما يتناوله قطعاً"[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ على أن الرضاعة المعتبرة في تحريم المصاهرة هي ما كان في الحولين. قال مالك: الرضاعة قليلها وكثيرها إذا كان في الحولين تحرم. فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يحرم شيئاً وإنما هو بمنزلة الطعام"[٣].

ومما يدل على هذا قوله ﷺ :(إنما الرضاعة من المجاعة)[٤]، والمعنى كما قال العيني: "أي الجوع يعني الرضاعة التي تثبت بها الحرمة ما تكون في الصغر حين يكون الرضيع طفلاً يسد اللبن جوعته لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت لحمه بذلك فيصير كجزء من المرضعة فيكون كسائر أولادها"[٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ على وجوب نفقة الولد على أبيه، قال ابن تيمية: " وهذه الآية توجب رزق المرتضع على أبيه لقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٦] فأوجب نفقته حملاً ورضيعاً بواسطة الإنفاق على الحامل والمرضع؛ فإنه لا يمكن رزقه بدون رزق حامله ومرضعه. فسئلت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٦٧عن أبي هريرة.

(٢) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ٢٠/ ١١٦.

(٣) الموطأ للإمام مالك ٢/ ٦٠٤ كتاب: الرضاع باب: رضاع الصغير.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٥٠٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٥٥ عن عائشة.

(٥) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ٢٠/ ٩٧.

فأين نفقة الولد على أبيه بعد فطامه؟ فقلت: دل عليه النص تنبيهاً. فإنه إذا كان في حال اختفائه وارتضاعه أوجب نفقة من تحمله وترضعه إذ لا يمكن الإنفاق عليه إلا بذلك، فالإنفاق عليه بعد فصاله إذا كان يباشر الارتزاق بنفسه أولى وأحرى وهذا من حسن الاستدلال"[١].

- وفي الآية أيضاً دليل على أن حضانة الطفل لأمه، وهو قول جمهور أهل العلم[٢]، ويشهد له ما ورد أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا؛ كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني. فقال لها رسول الله ﷺ: أنت أحق به ما لم تنكحي[٣].

- استدل الحنابلة بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ على أن النفقة تجب على كل وارث لمورثه، وقال الأحناف تجب النفقة على كل ذي رحم محرم، وقال الباقون: لا نفقة إلا على المولودين والوالدين[٤].

- استدل بقوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ على وجوب الإنفاق على الجد والجدة وإن علوا، وهو مذهب الجمهور خلافاً لمالك[٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ على جواز استئجار الظئر (المرضعة) لإرضاع الولد. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن استئجار الظئر جائز"[٦].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ١٠٦.

(٢) انظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/ ٣٧٥،المهذب للشيرازي ٢/ ١٦٩، الكافي لابن عبد البر٢٩٦،المغني لابن قدامة ٨/ ١٩٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٣٠ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٢٧٦، وأحمد في مسنده ٢/ ١٨٢عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي: ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٤/ ٣٢٣.

(٤) انظر: شرح فتح القدير لكمال بن الهمام ٤/ ٤١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٢٩.

(٥) انظر: الأم للشافعي ٥/ ١٠٠، المغني لابن قدامة ٨/ ١٦٩.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص١٠١ برقم/ ٥٤٩.

- عدة الحامل المتوفي عنها زوجها وضع الحمل، وهذا قول جمهور العلماء؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٤] ولحديث سبيعة الأسلمية(١).

- دل قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ على أن المعتدة من وفاة لا تبيت في غير منزل الزوجية، وقد قال النبي للفريعة بنت مالك وكان زوجها قد قتل : (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله). قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً(٢).

قال ابن قدامة: "وممن أوجب على المتوفى عنها زوجها الاعتداد في منزلها: عمر، وعثمان رضي الله عنهما، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن مسعود، وأم سلمة، وبه يقول مالك،والثوري،والأوزاعي، وأبو حنيفة، والشافعي، وإسحاق"(٣).

- الإحداد واجب على من توفي عنها زوجها، ولم يرد له ذكر صريح في كتاب الله، لكن منع التعريض بالزواج يشير إليه، وقد ورد الأمر به في السنة النبوية، واتفق عليه جمهور أهل العلم. قال ابن قدامة: "ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في وجوبه على المتوفى عنها زوجها، إلا عن الحسن، فإنه قال: لا يجب الإحداد. وهو قول شذ به عن أهل العلم وخالف به السنة، فلا يعرج عليه"(٤).

- قال القرطبي: "أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها، ثم توفي قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة، وترثه"(٥).

---

(١) انظر: صفحة رقم: (٢٩) من هذا البحث.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٣٣، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٢٩٢، والنسائي في الكبرى برقم/ ١١٠٤٤، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٣٠٠، والترمذي في سنه برقم/ ١٢٠٤. وسنده صحيح. نصب الراية للزيلعي ٣/ ٢٦٣.

(٣) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٧.

(٤) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٣٧.

- دل مفهوم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على أن للأولياء منع النساء من التبرج والنظر للأزواج في وقت العدة.

- قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال ابن التين: "تضمنت الآية أربعة أحكام: اثنان مباحان: التعريض والإكنان، واثنان ممنوعان: النكاح في العدة، والمواعدة فيها"[(١)]. فدلت الآية على إباحة التعريض بخطبة المعتدة من وفاة، والتعريض معنى يؤخذ من عرض الكلام، أي بطريق غير مباشر. ومن أمثلة ذلك ما علقه البخاري في صحيحه قال: "عن ابن عباس ﴿ فِيمَا عَرَّضْتُم ﴾ يقول: إني أريد التزويج، ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة. وقال القاسم: يقول: إنك علي كريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيراً، أو نحو هذا. وقال عطاء: يعرض ولا يبوح يقول: إن لي حاجة وأبشري، وأنت بحمد الله نافقة. وتقول هي: قد أسمع ما تقول. ولا تعد شيئاً ولا يواعد وليها بغير علمها"[(٢)].

ودلت الآية بمفهومها على حرمة التصريح بالخطبة؛ لأن التعريض خلاف التصريح من القول كما في كتب أهل اللغة[(٣)].

- استدل جماعة من الفقهاء بآية إباحة التعريض للمعتدة على عدم إقامة حد القذف بالتعريض، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة في رواية والظاهرية وقال به سفيان وابن شبرمة وغيرهم، وخالف في ذلك المالكية[(٤)].

- اتفق العلماء على أن النكاح في العدة لا يجوز بحال. فلو عقد على المعتدة فسخ الحاكم العقد،وقال

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٩/ ١٧٩.

(٢) صحيح البخاري باب: ولا جناح عليكم فيما عرضتم به.

(٣) انظر: المصباح المنير للفيومي ٢/ ٤٠٣.

(٤) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٥/ ٣١٧، والحاوي الكبير للماوردي ١١/ ١٣٠، والمغني لابن قدامة ٩/ ٨١، والمحلى لابن حزم ١١/ ٢٧٩.

مالك لا تحل له أبداً. معاملةً له بنقيض مقصوده. لكن الجمهور على خلافه[١].

- قال ابن رشد: " وأجمعوا على أن نكاح التفويض جائز، وهو أن يعقد النكاح دون صداق لقوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ "[٢].

- **أقسام المطلقات أربعة:**

أحدها: المطلقة المفروض لها المدخول بها، وقد ذكر الله فيما تقدم حكم هذا القسم وهو أنه لا يؤخذ منهن على الفراق شيء على سبيل الظلم وأن عدتهن ثلاثة قروء.

والقسم الثاني: ما لا يكون مفروضاً لها ولا مدخولاً بها وقد ذكره الله تعالى في قوله ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ ، وذكر أنه ليس لها مهر، وأن لها المتعة بالمعروف.

والقسم الثالث: التي يكون مفروضاً لها، ولكن لا يكون مدخولاً بها وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [٢٣٧] ولا عدة عليها البتة؛ قال تعالى: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ [الأحزاب:٤٩].

القسم الرابع: التي تكون مدخولاً بها، ولكن لا يكون مفروضاً لها، وحكم هذا القسم مذكور في قوله: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء:٢٤][٣].

- المهر حق خالص للمرأة لا يشاركها فيه أخ أو أب أو غيرهما.

- الظاهر وجوب المتعة لمن طلقت قبل الدخول ولم يكن فرض لها مهر. لقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ والأمر يقتضي الوجوب.

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ٢/ ٣٦.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ١٩.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١١٥ بتصرف واختصار.

- لا حد للمتعة، وإنما ترتبط بحال الزوج إعساراً ويساراً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.
- إذا تزوج الرجل امرأة ولم يمسها لكنه خلا بها ولم يطلقها فعند جمهور العلماء من الحنفية والحنابلة وغيرهم أن لها المهر كاملاً؛ لما روى زرارة بن أوفى: "قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أنه من أغلق باباً، وأرخى ستراً، فقد وجب عليه المهر"[١]. وهذه قضايا اشتهرت ولم يخالفهم أحد في عصرهم فكان كالإجماع[٢]. وذهب الشافعي إلى وجوب نصف المهر اتباعاً لظاهر الآية[٣].
- دل قوله: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ على تحريم الكلام عمداً في الصلاة؛ فمن فعل ذلك ذاكراً عالماً بطلت صلاته؛ ويشهد لذلك ما ورد عن زيد بن أرقم قال: "كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام[٤]. قال النووي في شرحه للحديث: "وأجمع العلماء على أن الكلام فيها عامداً عالماً بتحريمه بغير مصلحتها وبغير إنقاذها وشبهه مبطل للصلاة. وأما الكلام لمصلحتها فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم والجمهور: يبطل الصلاة، وجوزه الأوزاعي وبعض أصحاب مالك وطائفة قليلة"[٥].
- دل قوله تعالى: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ ﴾ على فرضية القيام في صلاة الفريضة ما دام المرء صحيحاً قادراً، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين : (صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً)[٦].

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٢٨٩ برقم/ ١٠٨٧٥ والبيهقي في الكبرى برقم/ ١٤٢٦١ وقال: هذا مرسل؛ زرارة لم يدركهم، وقد رويناه عن عمر وعلي رضى الله عنهما موصولاً. السنن ٧/ ٢٥٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٢١.

(٣) الأم للشافعي ٧/ ٢٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١١٢٤ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم/ ٥٣٩.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٠٦٦.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ على أنه لا يجوز لمسلم تأخير الصلاة عن وقتها. ومن باب أولى لا تسقط الصلاة عن مسلم إلا إن عجز عجزاً تاماً عن أدائها بأي عضو من أعضاء جسده.

- قوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ دليل على مشروعية صلاة الخوف؛ قال ابن عمر في وصف صلاة الخوف: "..فإن كان خوف هو أشد من ذلك صلوا رجالاً، قياماً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع: لا أرى عبد الله بن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ"[1]. وتفاصيل صلاة الخوف وهيئاتها مبسوط في كتب الفقه وشروح الحديث.

- للمرأة أن تعتد في بيت زوجها وتقيم سنة، وهذا حقها، وإلا فالواجب عليها أربعة أشهر وعشرة أيام عدة.

ثالثاً: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ على أن الإعجاب بالكافر من حيث علمه الدنيوي أو تفوقه في عمله ومهنته لا بأس به.

- قوله: ﴿ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾،و﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾،و﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[2].

- من الأخلاق الإسلامية التي أبرزتها الآيات: الإصلاح بين الناس، قال تعالى ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والإصلاح بين الناس داخل في البر، لكن أفرد بالذكر لبيان أهميته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له برقم/ ٤٢٦١ .ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٣٩

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٩٤.

- نهى الإسلام عن الإضرار؛ فنهى الزوجة أن تكتم ما في رحمها لأن في ذلك مضارة للزوج. فإن ادعت أنها حائض ولم تحض فوتت حقه في الرجعة، وان ادعت العكس ألزمته النفقة وهي لا تستحقها، وكذلك لو كتمت الحمل، فنبه القرآن على تحريم الكتمان لأنه يؤدي إلى الإضرار.

- للمرأة على الرجل حقوق، كما أن للرجل على المرأة حقوقاً. فالعدالة واحترام كل طرف للآخر أساس العشرة واستمرار الحياة، والدرجة التي للرجال حض لهم على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق كما سبق عن ابن عباس.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾ على أن العشرة الزوجية قائمة على ما تعارف عليه الناس، وأقره الشرع من النفقة والكسوة والمعاملة الحسنة، وليس المعروف في الإمساك فقط وإنما المعروف أيضاً في التراضي بين الزوجين، والعشرة بالمعروف، والتسريح بالمعروف، ولهن وعليهن بالمعروف، والرزق والكسوة بالمعروف. وتأخذ المرأة نفقتها هي وولدها بالمعروف. وبالجملة فأمور الحياة الزوجية قائمة على المعروف الذي يعرفه كافة العقلاء ويقره الشرع.

- ندب الإسلام إلى العفو، أي إسقاط الحق، وذلك عند الطلاق بين الرجل والمرأة قبل الدخول، وجعل الله العفو أقرب للتقوى، وجاء العفو للطرفين، فالمرأة لها أن تعفو وتترك كامل المهر، والرجل له أن يعفو عن نصفه ويترك المهر كاملاً، وجاء لفظ ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ مجملاً، يعني غير واضح الدلالة، ويتردد بين معنيين[(١)]، وذلك لكي يحرص كل من الطرفين على العفو، حتى مع انتهاء رابطة الزوجية، وجعل هذا من الفضل وأمر به في صيغة تتوجه للاثنين معاً فقال: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ولذلك قال مجاهد في تفسيرها: "إتمام الزوج الصداق، أو ترك المرأة الشطر"[(٢)]. فحملها على الاثنين معاً، وهذا يبين أن الإحسان والفضل منهج إسلامي حتى مع الفراق.

---

(١) وهذه الآية يذكرها الأصوليون دليلاً على المجمل المركب. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٣/ ٤٧، والإحكام للآمدي ٣/ ١٣.

(٢) رواه عنه الطبري برقم/ ٥٣٦٥ وسنده صحيح.

رابعاً: الجوانب التربوية:

- يبين الله آياته للناس لكي يتذكروا، وآيات الله إما كونية مشاهدة، وإما شرعية مقروءة، وفي كليهما تذكرة للناس لمن آمن منهم وأعمل فكره واهتدى قلبه.

- محبة الله للتوابين مما يدفع العبد إلى المبادرة إلى التوبة؛ لأنه الجاني الظالم المعتدي، فيكفي بالتوبة أن يقبله ربه، لكن الكريم يحبه إذا رجع عن ذنبه!

-دل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ على أن أحكام الله يجب على المسلم امتثالها، وأن عليه ألا يتعدى المأمور وألا يقرب المحظور، فإن تعدى حدود الله كان من الظالمين.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ على أن العلم أمر ضروري لمعرفة حدود الله؛ فالعالم يعرف حدود يفهمها ويسعى في تطبيقها، أما الجاهل فإنه لا يضبط ولا يحفظ فيكون ذلك أدعى إلى الترك.

- من الأمور الخطيرة: اتخاذ آيات الله هزواً. والنهي عن ذلك عام لا يختص بأمور الطلاق وحسب، قال أبو جعفر النحاس: "لأنه يقال لمن سخر من آيات الله: اتخذوها هزواً ويقال ذلك لمن كفر بها، ويقال ذلك لمن أطرحها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها"[(١)].

- ما أنزله الله في كتابه إنما هو لوعظ العباد وتذكيرهم بما يجب عليهم، وآيات الأحكام موعظة للمؤمنين؛ يتعظون بما فيها فيستجيبون لأمر الله، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾.

- في اقتران التقوى بأمور الطلاق حكمة بالغة؛ ذلك أن النفوس تكون لينة سخية، فإذا حدث الطلاق أحضرت الأنفس الشح، وضنَّ كل امرئ بما عنده، وأنكر الرجل حق زوجه، وكفرت المرأة بعشرة زوجها، ولن يصلح اعوجاج النفوس إلا الاستقامة على منهج الله، وتقواه حق تقاه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٢١١.

- لا ينتفع بأحكام الله ولا بوعده ووعيده إلا من أصلح قلبه، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.

- أحكام الله كلها أزكى وأطهر.

- يعلمنا القرآن أن نتشاور في كل أمورنا؛ فالتشاور بين الزوجين شرط لحصول الفطام، والتشاور كذلك يكون في كبار الأمور وصغارها. ولأهمية الشورى سميت سورة في القرآن بهذا الاسم، وقرنها الله بالصلاة والإنفاق فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى/ ٣٨] وهذا أوضح دليل على أهميتها سواء في الأسرة التي هي المجتمع الصغير، أو في المجتمع الكبير في أموره العامة. وسيرة الرسول ﷺ خير مثال لتطبيق مبدأ الشورى في كل الأمور.

- المحافظة على الصلوات مما يعين المرء على تلقي أحكام الله بالقبول والتسليم.

- الإسلام دين لا يثقل على أهله، فإذا حدث لأحدهم عذر لا يستطيع معه أداء الصلاة كما يجب فله أن يصليها بأي كيفية تتيسر له.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تمضي السورة في محورها الثاني مرتبة المعالم التي يتكون بها الإصلاح وينتفي بها الإفساد. وقد تحدثت المقاطع السابقة في هذا المحور عن الدائرة الأولى للإصلاح وهي دائرة الفرد، واستفاضت في بيان ما يصلح المرء ويجعله من أهل التقوى، وذلك بالصيام والامتثال، وها قد جاء مجال التقوى ليظهر أثرها في العلاقات الإنسانية، وأي علاقة أسمى من علاقة الزوجية؟

وبعد دائرة الإصلاح الفردي جاءت دائرة إصلاح الأسرة التي تمثل المجتمع الصغير، والأسرة في الإسلام تمثل ركيزة أساسية للصلاح والإصلاح، وقد اهتم القرآن بشان الأسرة اهتماماً بالغاً، وأعلى من قدرها، وها هي سورة التشريعات والأحكام التي نزلت في بداية تكوين الدولة في المدينة تهتم بتفاصيل إقامة الأسرة وتضع الضوابط الصارمة لإصلاح البيوت.

وقد ذكر في المقطع السابق حفظ العقل بالبعد عن الخمر، وفي المقطع الذي قبله حفظ الدين بالعبادات، وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ النسل.

وابتدأت الآيات ببيان أمور الزوجية، وأولها اختيار الزوجة؛ فلابد أن تكون مؤمنة، ثم انتقل إلى الخطوة التي تليها وهي ما يحدث بعد الزواج من أمور المعاشرة، وما يحل منها وما يحرم وقرنت ذلك بتقوى الله والتذكير بلقياه.

ثم تحدثت الآيات عن الأيمان وأخذت من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن يمين الإيلاء ثم تفصيل أحوال الطلاق والعدة والرجعة والرضاع ثم اختتمت بأحكام المتوفي عنها زوجها فهي نهاية الأمر.

وكل هذه الأحكام موصولة بتقوى الله من أولها لآخرها، وتهدف إلى الإصلاح وتشترطه لعودة الحياة بين الزوجين، وهذا مرتبط بخط السورة العام الذي يهدف لإصلاح الدنيا بالمسلمين.

والمتدبر في آيات هذا المقطع يلحظ أمراً عجيباً؛ فكل فواصله تقريباً أما أن تكون وصفاً للعلي الحكيم باسمين من أسمائه؛ فهو العزيز الحكيم، السميع العليم، الغفور الرحيم، الغفور الحليم، الخبير، البصير،.. أو تكون وصفاً وتذكيرا للمؤمنين بمعاني التقوى والإيمان الإحسان والتذكر والتفكر والتطهر والعلم والإحسان والقنوت. وهذا يعني ارتباط الأحكام بالإيمان وارتباط التشريع بالعقيدة ارتباطاً محكماً لا ينفصم بحال[1].

---

(١) ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن محوري سورة البقرة هما العقيدة والشريعة، والقسم الأول من آية ٢١-١٦٧ والقسم الثاني ١٦٨-٢٨٣، ثم قال: فكانت الدعوة إلى الجانب الأول للناس كافة في مستهل آيات القسم الأول العقدي. وكانت الدعوة إلى الجانب الآخر للناس كافة في مستهل آيات القسم الثاني التشريعي.

ثم توالت التشريعات ؛ ليحقق الأمن من طيب المطعم وأحكام الصيام والجهاد والحج والإنفاق والقتال في الأشهر الحرم| والخمر والميسر| وأحكام الأسرة| وأحكام المعاملات المالية من صدقة وربا وقرض ورهن| فختم آيات هذا القسم بأطول آية : (آية المداينة)| فآية الرهن ؛ مؤكداً الدعوة إلى الأمانة والقيام بحق الشهادة. منهج البحث البياني عن المعنى القرآني للدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٧ وما بعدها.

المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة الحسية والمعنوية والعبرة منها

الآيات (٢٤٣-٢٦٠)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- بعد أن استفاضت الآيات في الحديث عن إصلاح المجتمع الصغير انتقلت الآيات إلى الحديث عن إصلاح المجتمع الأكبر، وإصلاح الدنيا، بالترغيب في الجهاد بالنفس والمال، وجاء المقطع بأسلوب قصصي في مجمله وجاء هذا القصص بعد آيات الأحكام تلوينا في الخطاب وتنويعاً في الأسلوب القرآني؛ وفي هذا من تجديد نشاط القارئ والسامع ما فيه.

قال الرازي: «اعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد فقال:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾»[(١)].

التفسير الإجمالي للمقطع:

ذكر الله قصة موجزة تكون مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد والإنفاق لتبين للناس أن الله تعالى هو المحيي المميت فلا يجبن إنسان أو يخاف.

وتبدأ القصة بهذا الاستفهام الذي يفيد معنى التعجب والتقرير، والرؤية بمعنى العلم، والمعنى: ألم ينته إلى علم السامع أو الرسول ﷺ حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف مؤلفة وما خرجوا إلا خوفاً من الموت الذي سيلاقيهم، ولهذا كان عاقبة أمرهم أن قال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم.

ولم يرد دليل صحيح يبين لنا حال هؤلاء القوم، ولا سبب خروجهم لكن الظاهر أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف، وأنهم فروا خوفاً من قتال الأعداء لهم، وللمفسرين أقوال عديدة في وصف هؤلاء القوم وعددهم قال ابن عطية ـ بعد أن ذكر بعضاً من هذه الأقوال: ـ " وهذا القصص كله لين الأسانيد؛ وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً أخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازي ج٦، ص١٦١.

أحياهم ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولاغترار مغتر"(١).

وجمهور المفسرين على أن الموت هنا على حقيقته، وذكر أبو حيان قولاً آخر فقال: « وقيل: معنى إماتتهم تذليلهم تذليلاً يجري مجرى الموت،فلم تغن عن كثرتهم وتظاهرهم من الله شيئاً، ثم أعانهم وخلصهم ليعرفوا قدرة الله في أنه يذل من يشاء ويعز من يشاء»(٢)واعتمد هذا القول في تفسير المنار فقال: « فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلالهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم»(٣).

وعلى هذا القول يحتمل أن تكون هذه القصة إجمال للقصة التي أتت بعدها، كما جاء في قصة أهل الكهف؛ حيث أجملت قصة أهل الكهف في الآيات (٩-١١) من سورة الكهف، ثم جاء تفصيل القصة في الآيات (١٢-٢١).

والقول بأن القصتين في حادثة واحدة قد سبق به عبد الله بن عباس؛ حيث روى عنه الطبري قوله ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾، فراراً من عدوهم، حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه. فأمرهم فرجعوا، وأمرهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وهم الذين قالوا لنبيهم ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٤).

ثم ختمت الآية ببيان أن الله تعالى صاحب فضل كبير على الناس جميعاً ولكن أكثرهم لا

---

(١) لتفسير الكبير للرازي ٦/ ١٣٧. والظاهر عدم اطراد هذه القاعدة؛ فقد جاءت آيات الأحكام في سورة النساء ولم تأت بعدها قصص.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٢٨.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٦٠ .

(٤) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٤٥٨ .

يشكرون هذه النعم.

ثم وجه الله الخطاب للمؤمنين أن يقاتلوا في دين الله لا في طاعة الشيطان ولا يكونوا كالذين فروا من الموت فلم ينجهم فرارهم منه، وليعلموا أن الله سميع لأقوال الجبناء الذين يخافون من القتال عليم بما جنته صدورهم من النفاق وقلة الشكر.

ولارتباط الجهاد بالإنفاق جاء الأمر بالإنفاق بعد الأمر بالجهاد، قال السعدي: «ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً»[١]. وجاءت الآية بأسلوب الاستفهام الذي يفيد الحض على الفعل؛ فمن هذا المؤمن القوي في دينه الذي يبذل ماله للجهاد في سبيل الله ولغيره من أبواب البر، فيضاعفه الله له أضعافاً مضاعفة؟

قال القرطبي: «واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، ولكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء»[٢]. والقرض الحسن هو المال الحلال الذي تصحبه النية الصادقة، والله سبحانه وتعالى بيده الإعطاء والمنع يضيق على ما يشاء ويوسع على من يشاء حسبما تقتضي الحكمة والمصلحة فلينفق المرء حتى لا ينقطع عنه عطاء ربه، والكل راجع إليه سبحانه.

ثم جاءت قصة طالوت وجالوت بعد الأمر بالقتال، لتبين نموذجاً عملياً لمن أخرجوا من ديارهم وكتب عليهم القتال وذلك لينفع به المسلمون الأوائل، ومن أتى بعدهم.

وتبدأ الآيات بنفس صيغة الاستفهام المنفي لتبين لكل من يتأتى له الخطاب حال هؤلاء الملأ من الأشراف والزعماء الذين يملؤون الأعين مهابة وجلالاً، وقد كانوا من بني إسرائيل

---

(١) جامع البيان للطبري برقم/ ٥٦١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي/ ١٠٦

وهذا تذكير لهم بأصل طيب لم يقدروه قدره، وقد كان هؤلاء القوم بعد موسى عليه السلام بزمن طويل، بعد أن استقروا في فلسطين ومر عليهم عهد القضاة، ثم جاء ما يعرف في التاريخ بعصر الملوك، وقد ابتدأ من حوالي (١٠٢٠) قبل الميلاد[1].

ونبيهم: شمويل على الراجح، ولم يذكر القرآن اسمه لعدم وجود فائدة في ذكره، فيكفي أنه نبي ليطيعوه ولا يخالفوه. وقد توجه هؤلاء القوم إلى النبي قائلين: عيِّن لنا ملكاً نقاتل من ورائه، قتالاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته!

وكأن هذا النبي الكريم يتوقع ما يكون منهم بعد ذلك، فقال مستفهماً: هل قاربتم إن كتب عليكم القتال ووجب أن لا تقاتلوا عدوكم كما هو المظنون منكم ؟ والاستفهام تقريري، يقرر أن المتوقع حاصل، وذلك معلوم من سيرتهم مع أسلافه من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

فرد القوم عليه مؤكدين عزمهم على القتال وحرصهم على البذل فقالوا: وأي شيء يحول بيننا وبين القتال؟[2] وكرروا نفس الجملة السابقة: ﴿ نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾لزيادة التقرير، ولبيان أنهم خرجوا في سبيل الله.

ثم بينوا علة حرصهم على القتال واستماتتهم في تطلبه وهو أنهم قد أخرجوا من ديارهم التي نشؤوا ودرجوا فيها. وتركوا فلذات أكبادهم نهبة للمحتلين الذين استلبوا ديارهم واستباحوا بيضتهم.

ويحدثنا التاريخ أن العمالقة في هذا الوقت قد استولوا على بيت المقدس وطردوهم منها، وأسروا كثيراً منهم، وعلى هذا يكون قولهم ﴿ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا ﴾ من باب العام الذين أريد به الخصوص.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٢٢٣ .

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٠١، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ١٩١، وموضع الآية في غالب كتب التفسير.

وبعد أن طلبوا القتال نكصوا وتولوا إلا قليلاً منهم، بعد أن رأوا الجيوش الجرارة ولم يثبت إلا القليل ويحتمل أن يكونوا قد تولوا من بداية الأمر بمجرد أن نزل التكليف، والله تعالى عليم بمن ظلم نفسه وأمته بترك الجهاد، وبنقض العهد بعد الإبرام مع الله.

أرسل الله تعالى إليهم ملكاً إما بطلب ودعاء من النبي أو بمحض تفضل وابتلاء إلهي، وأبلغهم النبي بهذا قائلاً: إن الله أرسل لكم طالوت ليقودكم إلى القتال في سبيله. وفي هذا حمل لهم على الامتثال ببيان أن الله تعالى هو الذي كلف طالوت بذلك.

ولكن سرعان ما انكشفت سرائرهم فبادروا معترضين متعجبين : كيف يتولى المُلك ونحن أولى به وأجدر، وبخاصة أنه لا مال له؟!

قال المفسرون: كانت النبوة في سبط لاوي، والملك في سبط يهودا، وكان طالوت من سبط بنيامين، فليس من بيت الملك ولا النبوة.

ولكن النبي رد عليهم دعواهم بعدة أمور:ـ

أولها: أن الله جعله من الصفوة عليكم وهو سبحانه أعلم بما يصلحكم.

والأمر الثاني: أنه تعالى أعطاه وفوراً في العلم، قال الزمخشري: «والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب»[(١)] وذلك لكي يستطيع تدبير أمور الحرب وإحكامها، ووهبه أيضاً قوة بدنية تيسِّر له مكابدة الأعداء والثبات عند الشدة، وقدم العلم على قوة البدن لأن أثره أعظم.

وثالثاً: ليس لاعتراضكم أي وجه، فهذا محض فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده؛ فهو له الحجة البالغة والحكمة النافذة.

ورابعاً: أنه تعالى ذو السعة يبسط على من يشاء من عباده، وهو عليم بالذي يصلح شؤونهم.

---

(١) انظر: الدر المنثور ١/ ٧٥١.

ولأنهم قوم اعتادوا اللجاجة والاعتماد على الحس وعدم التسليم الفوري كما سبق في أكثر من موضع بالسورة فقد طلبوا آية تدلهم على ملك طالوت[1]. فقال لهم نبيهم إن هذه الآية هي أن تأتيكم كرامة لهذا القائد من ثلاثة وجوه:

أولها: أن يأتيكم الصندوق والظاهر أنه كان معروفاً لديهم، وكان عندهم وأخذه منهم العمالقة وقد ذكرت تفاصيل عودته إليهم بدون قتال في بعض أسفار التوراة[2].

وثانياً: أن هذا التابوت فيه أمران: سكينة أي رحمة[3] تسكن بها نفوسكم من الاضطراب والقلق. وفيه أيضاً: بعض ما ترك لكم موسى وهارون أو أتباعهما وعصبتهما ومن ذلك ألواح التوراة، وبعض آثار الأنبياء. قال ابن عطية: «والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى»[4].

ثالثها: أن يأتي هذا التابوت بكيفية غير مألوفة لديكم؛ فإنه سيأتي تحمله الملائكة وهذا تعظيم له. وفي كل هذا علامة لكم على اصطفاء طالوت إن كنتم مؤمنين بما تقوم به الحجة عليكم وإن كنتم على ثقة من وعد الله لكم.

ثم تنقلنا الآيات إلى مشهد خروج القوم مع قائدهم طالوت، وعلى عادة القرآن في الإيجاز وإضمار مما يمكن تقديره ابتدأت الآية بالحديث عن خروجه بالجنود ثقة بأن السامع يعلم أن التابوت أتاهم وأذعنوا لملكهم بالقيادة واستعدوا للخروج.

انقطع طالوت من بلد بجنوده، قال المفسرون: كان عددهم سبعين ألف مقاتل وقيل:

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٢٠.

(٢) وهذا يحمل في طياته عدم تصديق النبي فيما أبلغهم عن ربه، وهذا أشبه بأخلاق بني إسرائيل مع أنبيائهم. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٧٠.

(٣) في سفر صموئيل الأول إصحاح ٤ أرقام ٦ وما بعدها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٩، برقم/ ٢٤٨١عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

كانوا ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك.[1] وبينما هم في مسيرهم إذ به يبلغهم بهذا الاختبار الشديد الذي سيتعرضون له وهم على حال شديد من العطش، وإخباره هذا إما أن يكون بإلهام من الله له أو بوحي من الله إلى نبيهم ثم إبلاغه به.

وكان هذا الاختبار أنهم سيتعرضون لنهر، هو نهر الأردن، وعليهم ألا يشربوا منه؛ فمن شرب منه فلن يتبعه في الحرب ولن يكون من أهل طاعته أما من لم يطعمه أي: لم يذقه فسيكون من أتباعه[2]، وقد استثنى من الجملة الأولى من أخذ بيده غرفة واحدة تروي عطشه.

وهذا اختبار شديد على النفوس، لكنه مفيد ليظهر للقائد قوة جنده ومدى صبرهم على شهوات نفوسهم ، فمن قدر عليها كان على العدو أقدر. كان لابد من هذا البلاء قبل أن يخوضوا هذه الحرب الشديدة مع قوم هم أكثر منهم عدة وعدداً، وأيضاً ليظهر مدى طاعتهم لقائدهم قبل دخول ساحة الوغى.

ماذا كان حال القوم مع هذا الاختبار ؟ لقد تهاووا سريعاً، وفي التعبير بالفاء بيان لسرعة السقوط وإجابة داعي الهوى، ولم ينج من هذا البلاء إلا قليل.

خرج هذا القليل مع قائدهم وفور أن تجاوزوا النهر ورأوا قوة عدوهم انخذل ضعفاء الإيمان وقالوا: لا قوة لنا اليوم على محاربة جالوت وجنوده الذين منه[3].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٣٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير١/ ٦٦٨، ومعالم التنزيل للبغوي ١/ ٢٣٠.

(٣) وفي سر التعبير بـ(يطعمه) قال الرازي: إن الإنسان إذا عطش جداً ، ثم شرب الماء وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة قال: إن هذا الماء كأنه عسل فيصفه بالطعوم اللذيذة، فمعناه أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة فإنه يجب عليه أن لا يشربه وأيضاً: أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم ، فإنه يصدق عليه أنه طعمه ، ولا يصدق عليه أنه شربه، فلو قال: ومن لم يشربه فإنه مني كان المنع مقصوراً على الشرب، ولما قال: (وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ) كان المنع حاصلاً في الشرب وفي المضمضة، ومعلوم أن هذا التكليف أشق. انظر: التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٥٣.

لكن قوماً باعوا أروحهم، وهانت الدنيا عليهم فلم يبالوا بها بل كانوا على يقين بلقاء الله وحُسْن ما عنده، وعلى هذا يكون الظن اليقين، ويحتمل أن يكون على معناه ويصير المعنى: الذين يظنون أنهم سينالوا الشهادة في المعركة ويلقوا ربهم وذلك لقوة عزمهم على القتال، وصِدْق يقينهم في لقاء العدو.

قال هؤلاء المؤمنون الصادقون كلمة صارت قاعدة كلية في بابها ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكم تفيد معنى التكثير، والمعنى أن أمر الكثرة والقلة لا دخل له بالنصر، فكأين من قوم كانوا قليلي عدد لكنهم نصروا الله في أنفسهم فنصرهم، ولا تكون معية الخاصة بالنصر والتأييد والحفظ إلا لهؤلاء الصابرين عند البأس، وهي من تمام قولهم على الأرجح.

وقف هؤلاء المؤمنون في ساحة الوغى وقبل أن ينازلوا عدوهم توجهوا إلى ربهم بدعاء طيب قائلين: يا ربنا وسيدنا اصبب علينا صبراً من عندك يقوي قلوبنا، فإذا تحقق ذلك فاجعل أقدامنا راسخة قوية وقلوبنا ثابتة عند المنازلة حتى لا تزلَّ، وإذا تحقق ذلك فانصرنا على هؤلاء القوم الذين استحقوا الهزيمة لأنهم كفروا بك.

لقد حقق هؤلاء القوم شرط النصر وعندئذ فما أيسر النصر.

هُزِم القوم الجبارون، وظهر داود بن إيشا فقتل جالوت زعيم الجبارين، ومَنّ الله بعدها على داود فآتاه الملك بعد طالوت وأعظم منه النبوة بعد شمويل وعلمه مما يشاء سبحانه؛ فعلَّمه صنعة الحديد، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء/ ٨٠] وعلَّمه الزبور فكان يقرأه بصوت جميل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ/ ١٠] وعلَّمه منطق الطير كما قال سليمان: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل/ ١٦]. وهذا العلم يشمل داود وسليمان معاً كما ذكر ذلك الطبري وغيره.[1]

(١) إنما ذهبت إلى هذا القول لأنه الأقرب إلى سياق الآيات لفظاً ومعنى؛ أما لفظاً فلأن الآية نصت على أن

ثم تذكر الآيات سنة كونية في المواجهة بين الحق والباطل وهي سنة المدافعة؛ فإن الله يدفع المؤمنين على الكافرين حتى لا تفسد الأرض ويخرب عامرها من المساجد وأماكن العبادة. وإنما ذلك كله من فضله ورحمته على عباده جميعاً.

ثم تختتم القصة بهذا التعقيب القرآني الذي يبين أن هذا القصص وغيرها مما يقصه الله على نبيه لهو القصص الحق والصدق الذي لا يشك فيه عاقل، وذلك ليعتبر به المؤمنون، وهو أيضاً دليل على نبوته عليه السلام وأنه واحد من جملة حملة مشاعل الهداية للبشر جميعاً. والله الموفق.

وبعد أن ذكر الله قصة داود وجالوت وبين الله أن نبيه محمداً من جملة هؤلاء المرسلين ذكرت الآيات أن الله أرسل الرسل لهداية الناس لكنهم اختلفوا وتفرقوا شيعاً، وكفروا ببعض النبيين مع أن الله قد أرسلهم جميعاً، وقد أخذوا جميعهم من معين واحد. فما كان لأقوامهم أن يختلفوا ويقتتلوا ويؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعض.

وبينت الآيات أن جماعة الرسل قد فضل الله بعضهم على بعض مع استوائهم في أصل التبليغ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]

الذين جاوزا معه كانوا هم المؤمنين،ولا حاجة بنا إلى ما قاله البعض من أن الكل جاوز النهر من شرب ومن لم يشرب، وأيضاً لتتحد الضمائر في (آمنوا) و (قالوا) ولا حاجة أيضاً إلى أن نقول إن هذا قول من شربوا، قالوه وهم وراء النهر. لأنهم استبعدوا بنص كلام طالوت ولا حاجه إلى أن يعتذروا. وأما من حيث المعنى فإن ما ذكرته هو الأقرب؛ فلا يلزم أن يكون كل المؤمنين صادقين في القتال، قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، فإن النفس قد تتماسك ولكن إذا حضرت الصف وتراءى الجمعان فقد تجبن النفس وتضن بحياتها، وقد تولى بعض الصحابة وهم من هم، وما ذكرته هو ما ذهب إليه قتادة في تفسير الآية حيث قال: ويكون المؤمنون بعضهم أفضل جداً وعزماً من بعض، وهم مؤمنون كلهم. رواه الطبري في جامع البيان ٥/ ٣٥١ عنه بسند حسن، وممن جنح إلى هذا القول ابن عطية حيث قال: «وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر من لم يشرب إلا غرفة، ومن لم يشرب جملة، ثم اختلفت بصائر هؤلاء فبعض كع وقليل صمم» المحرر الوجيز ١/ ٣٣٦، ونقل كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٢٧٦ وانظر: الجامع لأحكام القرآن٤/ ٢٤٤.

وقد بين بعض أوجه التفاضل فيما بينهم، فمنهم من كلمه الله؛ قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٤] ومنهم من رفعه الله درجات وهو نبينا محمد[1] ﷺ فقد رفع الله قدره، وأعلى في العالمين ذكره، ومن الدرجات ما هو في كتابه ومنها ما هو في شرعه، وما هو في أمته وغير ذلك من الخصائص الشريفة والدرجات المنيفة.

وممن فضَّل اللهُ: عيسى؛ فقد آتاه من الدلائل ما يتبين به الحق الذي معه، وقواه بجبريل روح القدس، قال أبو السعود « وإفراده عليه السلام بما ذكره لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط»[2].

ولو شاء الله تعالى أن يجعل الهداية فطرية في نفوس العباد لكانوا في الهداية سواء قال تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ولكنه خلقهم متبايني الأفكار والعقول فكان هذا سبب اختلافهم، فمنهم من آمن إيمانا صحيحاً، ومنهم من اتخذ إلهه هواه، فاختلفوا واقتتلوا من بعد موسى وعيسى، ولو شاء الله ألا يؤدي بهم الاختلاف إلى الاقتتال لفعل، ولكنه تعالى أراد ذلك لحكمة، وهو سبحانه الفعال لما يريد.

ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى الإنفاق بأسلوب آخر فيه تهديد ووعيد، فحذر المؤمنين من أن يكون المال غاية أمرهم كما فعل السابقون الذين قيموا من بعثه الله إليهم تقييما ماديا. فجاءت الآيات تأمر المؤمنين أن ينفقوا بعض ما رزقهم الله تعالى قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يمكن تدارك الفائت فيه؛ فلن ينفع فيه بيع ولا صداقة ولا شفاعة إلا بإذن منه تعالى وسيكون الكافرون بالنعم هم أهل الظلم المستحقون له، فاحذروا أن تسلكوا طريقهم، قال تعالى ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ

(١) انظر: جامع البيان للطبري١٩/ ٤٣٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٦/ ١٥٩.

(٢) وهذا باتفاق الجميع. قال الرازي أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل. التفسير الكبير ٦/ ١٦٥.

فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣١].

وبعد أن أمر الله بالإنفاق، وحذر من يوم القيامة التي لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة قرر هذا المعنى بوضوح تام حتى يكون الإعطاء في سبيل الله خالصاً عن عقيدة سليمة رجاء مرضاة الله تعالى، وكما بينت الآية السابقة أن يوم القيامة لن تغني فيه الشفاعة جاءت هذه الآية المباركة لتنفي الشفاعة الموهومة عند الكافرين ومن كان على شاكلتهم.

وجاء هذا التقرير في آية هي أعظم آية من كتاب الله كما ورد عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب على صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر[1].

فالله سبحانه هو المعبود بحق، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وهو دائم الحياة لا يفنى ولا يبيد، حي لا يموت فمن أراد الحياة الحقة استمدها منه سبحانه، وهو القائم على الدوام بتدبير خلقه، وقائم على كل نفس بما كسبت، تنزه عن كل ما يعوق كمال العلم والتدبير فلا يصيبه النعاس والفتور الذي يتقدم النوم ولا ينام؛ عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات. فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2]، له سبحانه جميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهو وحده المتصرف في شؤونهم، لا يجرؤ أحد منهم أن يشفع لمذنب إلا إن أذن له مولاه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه/ ١٠٩].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨١٠ ومعنى ليهنك العلم: ليكن العلم هنيئا لك، وهذا دعاء بتيسير العلم ورسوخه فيه. انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ٥/ ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٩.

يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وما يدرك الخلق وما يجهلون، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر/ ٧] ولا يحيطون بشيء من معلوماته إلا أن يُطلَع الله عباده على ما شاء منها بفضله وجوده وكرمه، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن/ ٢٦،٢٧] وسع علمه السموات والأرض، وقد فسر الكرسي بالعلم جماعة من السلف ورجحه الطبرى وغيره، قال ابن عطية: "والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش ، والعرش أعظم منه ، ... ، وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض »[1]، وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته»[2]. ولا يثقله سبحانه حفظ هذه العوالم الضخمة بما فيها ومن فيها، وهو المتعالي بذاته عن صفات النقص، العلي علوا يليق بكماله وجلاله، العظيم المتنزه بعظمته وعزته عن الاحتياج.

وبعد هذا البيان الناصع لعقيدة المؤمنين في رب العالمين، يمضي السياق مبيناً أن هذا الدين من شأنه أن تقبله العقول السليمة بلا إكراه؛ فالإيمان الواضح والعقيدة الصحيحة تتقبلهما الفطرة المستقيمة بلا قسر أو عدم اقتناع، يقول سيد قطب: «وعندما يصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيماني في أدق جوانبها ، وبيان صفة الله وعلاقة الخلق به هذا البيان المنير . . ينتقل إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور؛ ويقومون بهذه الدعوة؛ وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة»[3].

وتبين الآيات أن الدين الإسلامي لا يكره أحداً على الدخول فيه؛ لأن الإيمان الذي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش١/ ١١٤ والبيهقي في الأسماء والصفات / ٢٩٠ قال الألبانى في سلسلة الأحاديث الصحيحة١/ ١٧٤: واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية١/ ٣٤٢.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٩٠.

يلامس القلوب وتقتنع به العقول لا يكون وليد إكراه، بل هو إذعان قلبي وانقياد بالجوارح لله رب العالمين، قال تعالى ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس/ ٩٩]، فليس في الإسلام إكراه وإنما هو محض اختيار من العبد، وعلة عدم الإكراه أن الله تعالى قد بين الصواب من الضلال، وأوضح الأدلة وأقام البراهين، وأسفر النور لكل ذي عينين، فمن كفر بعد ذلك فعليه كفره، ومن كفر بالأوثان وبكل ما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله وآمن بالله إيماناً صادقاً فقد استقام أمره على الطريقة القويمة المثلى التي لا انقطاع لها، واستمسك من دينه بعروة حبل محكم لا يصيبه انحلال والله سميع لأقوال عباده عليم بما يخفون وما يعلنون، قال ابن عطية: "ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسُنَ في الصفات ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النطق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل المعتقد"[١].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قَالَ: «كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فتحلف: لئن عاش لها ولد لتهودنه، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله ، أبناؤنا ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[٢].

وهذا أبلغ رد على من يتهم الإسلام بأنه انتشر بحدِّ السيف؛ فالدين الإسلامي لم يكره أي أحد على اعتناقه، ولم يقاتل إلا لرد الاعتداء، وتمكين الناس من معرفة الإسلام بدون تسلط حكامهم، فالقتال لإزاحة من يحولون بين الناس وبين الهداية، فإذا أزيح هؤلاء فلا يكره الناس على الدخول في الدين، وبهذا نرجح أن الآية ليست منسوخة بآيات القتال على ما ذهب إليه جمع من المفسرين[٣]، فليس هناك تعارض؛ إذ القتال للتمكين للدعوة، أما إدخال الناس الإسلام

---

(١) المحرر الوجيز لأبن عطية ١/ ٣٤٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه/ ١٤٠والنسائي في السنن الكبرى/ ١١٠٤٩وأبوداود في سننه/ ٢٦٨٢ وسنده صحيح.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٢/ ٩٩. قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٨١: وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

بالإكراه فلم يحدث مطلقاً في تاريخ الدعوة الإسلامية بخلاف الرسالات السابقة، قال سيد قطب: وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام - قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة؛ وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح!».[١]

وإن من كفر بالطاغوت وآمن بالله قد تولى الله فصار الله وليّه قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد/ ١١] وهو سبحانه يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويزيدهم هدى على هداهم، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت والشياطين، وقد ختم الله على قلوبهم فخرجوا من نور الفطرة إلى ظلام الكفر وازدادوا - بسبب ضلالهم- شكاً وكفراً وحيرة ، وجاء التعبير بالمضارع ليفيد الدوام والتجدد، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الملازمون للنار كما يلازم الرفيق رفيقه، وأكد خلودهم وبقاءهم بأنهم فيها خالدون.

ثم تذكر الآيات مثالاً لهؤلاء الذين انحرفت فطرتهم وخرجوا من ظلمات الهداية إلى نور الغواية وهو النمروذ، وقد أتت الآيات بصيغة الاستفهام الذي يفيد التعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم في ربه وكان سبب مجادلته وغروره أن الله قد آتاه الملك فأورثه ذلك استكباراً وعلواً بالباطل، قال المفسرون: اسمه النمروذ بن كنعان، وقد أتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة بزعمه[٢].

(١) في ظلال القرآن١/ ٢٩١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره/ ٢٦٣٤عن على ابن أبي طالب.

وقد قصد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يعلمه أن الله يحيي ويميت بمعنى أنه ينشئ الحياة في جميع العوالم ويزيلها بالموت، فظن النمروذ أن معنى الإحياء والإماتة التسبب في أبقاء بعض الناس أحياء والتسبب في قتل البعض الآخر، وهذه غفلة عن المقصد.

ولما علم إبراهيم أن هذا الملك المغرور لم يفقه حجته أو تجاهل مقصده زاد حجته إيضاحاً بقوله: إن الذي يهب الحياة وينزعها بقدرته هو الذي يخرج الشمس من المشرق، فهو مكون الكائنات سبحانه، فإن كنت تزعم أيها المغرور القدرة على الخلق فغير هذا النظام الكوني وائت بالشمس من المشرق فإن الله يأت بها من المغرب، فبهت الكافر وانقطعت حجته وأزيلت شبهته[1]. وهكذا سنة الله مع من ظلم نفسه بالشرك أن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ [النحل:١٠٤].

وبعد أن قص الله علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ عطف عليها هذه القصة التي تثبت قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت.

والذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها أي ساقطة على جدرانها خالية من سكانها. الذي مر هو عزير. كما هو المشهور في كتب التفسير، والقرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها.[2]

عندما مر عزير على القرية هاله ما آل إليه أمرها فقال: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟

---

(١) الصحيح أن هذه الحجة مرتبطة بالحجة التي قبلها، ولم يعدل إبراهيم من محاجته في الإحياء والإماتة إلى دليل أوضح وهو إتيان الله الشمس من المشرق؛ وإنما الدليل واحد في الموضعين وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها فلا بد من قادر آخر يتولى إحداثها وهو الله سبحانه وتعالى ، ثم إن قولنا: نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها له أمثلة منها : الإحياء ، والإماتة ، ومنها السحاب، والرعد ، والبرق ، ومنها حركة الشمس. انظر: التفسير الكبير للرازي٧/ ٢٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير١/ ٦٨٦ وتفسير المنار لرشيد رضا٣/ ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير سابق.

فأماته الله مائة عام، ليس به حراك، وعمرت البلاد بعد سبعين سنة من موته، ورجع إليها بنو إسرائيل، ثم بعثه الله فقال له: كم لبثت؟ فظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم؛ لأنه مات أول النهار وبعث في آخره.

فجاءه الرد عن طريق المَلَك: بل لبثت مائة عام كاملة وانظر إلى قدرة مولاك على البعث، فهذا طعامك وشرابك الذي كان معك لم يأسن ولم تغير طعمه السنون، وعادة الناس في مثله أن يفسد بعد قليل.

أما حمارك الذي كان معك فقد مات وبلى لطول المدة، لكننا سنرد هذه العظام النخرة إلى أماكنها ثم نكسوها لحماً وعصباً وجلداً وننفخ فيها الروح لكي توقن بقدرة الله على البعث ولا تتعجب من ذلك.

وعند ذلك، وبعد أن بانت له الحقيقة بالأدلة الظاهرة قال: أعلم الآن علم اليقين أن الله على كل شيء قدير.

ثم ذكرت الآيات القصة الثالثة وفيها أيضاً إثبات قدرة الله على البعث بعد الموت؛ وفيها تذكير للسامع أن يستحضر قول إبراهيم عليه السلام لربه أن يريه كيف يحيي الله النفوس الميتة، فخاطبه ربه: أولم تؤمن بقدرتي على الإحياء؟ فردَّ إبراهيم مؤكداً إيمانه، والسؤال والجواب تعليم للسامعين أن إيمان إبراهيم متحقق متيقن، ولكنه طلب أن يطمئن أي يزداد سكوناً وطمأنينة بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، فأراد بطمانينة القلب الوصول إلى عين اليقين بالمشاهدة، ودليل ذلك السؤال بكيف التي تفيد السؤال عن حال شيء موجود ومتحقق عند السائل والمسؤول، ولنفي أي خاطر سوء قال رسول الله ﷺ : (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1].

والمعنى: أنْ لو كان شك لكنَّا نحن أَحقُّ به، ونحن لا نشك، فإِبراهيم عليه السلام أحرى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣١٩٢ ، ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٧٠.

ألاَّ يشكَّ ، فالحديث مبني على نفي الشكِّ عن إبراهيم.[(١)]

ثم قص القرآن ما حدث؛ حيث أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويجمعهن ويضمهن إليه، ثم يجعل على كل ناحية من الجهات الأربع جزءاً، ثم يدعهن بإذن الله فإنهن يأتين سراعاً كأنهن لم يمتن، والله غالب على أمره، حكيم في فعله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- فضل الله يشمل جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، وقد جاء بصيغة تفيد عموم جميع الناس صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال ابن حزم: " فهذا عموم بالخطاب بإنعام الله تعالى على كل من خلق الله تعالى وعموم لمن يشكر من الناس والكفار من جملة ما خلق الله تعالى ... فصح أن نعم الله في الدنيا على الكفار كهي على المؤمنين وربما أكثر في بعضهم في بعض الأوقات"[(٢)].

وفي هذا تعليم لنا ألا نطلب الفضل إلا من ذي الفضل سبحانه؛ قال يحي بن معاذ: «من طلب الفضل من غير ذي الفضل ندم؛ وإن ذا الفضل هو الله عز وجل»[(٣)].

- **الإرادة في كتاب الله على نوعين:**

إرادة كونية قدرية تعني المشيئة الشاملة لجميع الموجوادت؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

والنوع الثاني: إرادة شرعية دينية مأمور بها ولا يلزم تحققها؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١/ ٢٠٧.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ١٠٥.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ١١١.

أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء/ ٢٧]وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة/ ١٨٥][1].

- اختلف في نبوة طالوت، وليس في القرآن نص صريح على نبوته، ولا يعده الإسرائيليون من أنبيائهم، واستدل القائلون بنبوته بأن الله أظهر المعجزة على يديه كالتابوت وما فيه. لكن يحتمل أن يكون معجزة للنبي الموجود لا لطالوت ويكون آية لإثبات ملك طالوت. أما كلامه وتبليغه عن الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ فيحتمل أيضا أن يكون أخبر به عن طريق النبي.

- جواز المفاضلة بين الأنبياء، وما ورد من المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، فالنبوة نفسها لا تتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصائص، والمعجزات[2].

- استدل المعتزلة بقوله تعالى ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ على أن الحرام لا يكون رزقا؛ لأن الحرام لا يجوز إنفاقهن وأمر بالأنفاق مما رزقنا، فلا يكون الحرام رزقا. لكن رد عليهم بأن ظاهر الآية عام دخله التخصيص بإنفاق الرزق الحلال فقط. وعلى هذا فالله تعالى هو وحده المنفرد بتولي الأرزاق[3].

- جواز المجادلة في أمور العقائد ؛ وسيرة الأنبياء شاهدة بهذا؛ قال تعالى على لسان قوم نوح ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ [هود/ ٣٢]، وقصة إبراهيم مع النمروذ شاهد لهذا، بل إن الله أمر به نبيه محمداً فقال: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل/ ١٢٥] وقد يكون مستحباً أو واجباً في بعض الأحوال.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١١٦.

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ١/ ١٥٧.

(٣) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني ٢/ ١٦٢.

أما المنهي عنه فالجدال بالباطل، والجدال بغير علم، والجدال في الحق بعدما تبين، والتعصب والمكابرة.

ب- الأحكام الشرعية:

- استدل بقوله تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾ بأنه يجب على المستقرض رد القرض؛ لأن الله تعالى بين أن من أنفق في سبيل الله لا يضيع عند الله، بل يرُدُّ الثواب قطعاً، وأبهم الجزاء[(١)].

- الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال. قال رسول الله: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[(٢)].

- قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ يدل على أن الإمامة ليست وراثة لإنكار الله تعالى عليهم ما أنكروه من التمليك عليهم من ليس من أهل النبوة ولا الملك وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب[(٣)].

قال الرازي: «هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثة؛ وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة، فأعلمهم الله تعالى أن هذا ساقط، والمستحق لذلك من خصه الله تعالى بذلك وهو نظير قوله: ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦]»[(٤)].

- استنبط أبو حنيفة من قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ أن من حلف لا يشرب من دجلة فشرب منها بإناء لا يحنث حتى يكرع أي: يشرب بفمه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٢٢٤.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٤٢٧ وصححه على شرط مسلم، وأبوداود في سننه برقم/ ٢٥٠٤، وأحمد ٣/ ٢٥١ وسنده صحيح. انظر التيسير للمناوي ١/ ٤٨٥.
(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٧.
(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٤٧.

من نفس النهر إذا لم تكن له نية، فإذا نوى بإناء حنث به إجماعاً، وخالفه صاحباه ومالك والشافعي[١].

- دل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ على أن الذمي إذا أكره على الدخول في الإسلام فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً، وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الدخول في الإسلام. لأنه أكره على ما لا يجوز إكراهه عليه وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم[٢].

وهذا دليل على أهمية الحرية، حتى في أمور الاعتقاد والإيمان لا نلزم أحداً على اعتناق الإسلام إلا برغبته وإرادته الحرة بلا أي درجة من درجات الإكراه، وهذا يبين سمو الإسلام وعظمة تشريعاته في تقديرها للإرادة الإنسانية.

- إذا أخبر الإنسان عما في ظنه فإنه لا يكون كاذباً حتى لو خالف كلامه الواقع، قال الجصاص: « قول هذا القائل لم يكن كذباً، وقد أماته الله مائة عام؛ لأنه أخبر عما عنده فكأنه قال: عندي أني لبثت يوماً أو بعض يوم. ونظيره أيضاً ما حكاه الله تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ ﴾[الكهف/ ١٩] وقد كانوا لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين ولم يكونوا كاذبين فيما أخبروا عما عندهم، كأنهم قالوا عندنا في ظنوننا إنما لبثنا يوماً أو بعض يوم. ونظيره قول النبي ﷺ حين صلى ركعتين وسلم في إحدى صلاة العشي فقال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: لم تقصر ولم أنس[٣]. وكان ﷺ صادقاً

---

(١) شرح فتح القدير ٥/ ١٣٦. قال ابن العربي: وهذا فاسد ..لأن شرب الماء ينطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرف باليد أو كرع بالفم انطلاقاً واحداً. أحكام القرآن١/ ٣٠٩ . ورد القرطبي كلام ابن العربي فقال: قول أبي حنيفة أصح، فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة. الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٢.

(٢) الحاوي الكبير للماوردي ١٠/ ٢٢٩، منح الجليل للشيخ عليش ٧/ ٨٠، المغني لابن قدامة ٩/ ٢٩، ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٢٨ ومسلم في صحيحه برقم / ٥٧٣ واللفظ له عن أبي هريرة.

لأنه أخبر عما عنده في ظنه وكان عنده أنه قد أتمها. فهذا كلام سائغ جائز غير ملوم عليه قائله إذا أخبر عن اعتقاده وظنه لا عن حقيقة مخبره"[١].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- لا بد للقتال أن يكون مبرئاً من أغراض الدنيا وحظوظ النفس، ولا يكون ذلك إلا بإخلاص النية لله فيه، فمن قاتل على عصبية أو تحت راية جاهلية فمات مات ميتة جاهلية، وعن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله)[٢].

- السكينة من السكون، وهي سكون يقذفه الله في قلب عباده المؤمنين عند الهلع وشدة الخوف والاضطراب، وقد جاءت السكينة في ستة مواضع في القرآن هذا أولها[٣]، وكلها تبين فضل الله الذي ينزل برداً وطمأنينة على قلوب المؤمنين عند اشتداد المخاوف؛ كما في أمر الهجرة واختفاء الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، ويوم الحديبية وما كان فيه من شدة على الصحابة، ويوم حنين إذ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فتنزل السكينة حينئذ لتصلح القلوب، وتربط عليها برباط الإيمان، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل ربه أن ينزل السكينة عليه، والمؤمن المقتدي برسوله ﷺ يسأل ربه السكينة عند الشدائد حتى يهبها إياه.

- لعل في طلب طالوت من جنوده عدم شرب الماء تدريباً لهم على الصبر والاحتمال؛ فهم داخلون على معركة كبيرة، ولابد لهم من صبر على اللقاء؛ فمن صبر على شهوة نفسه من المطعم والمشرب صبر على ما سواها، ومن جزع فهو لما سواها أشد جزعاً، وقريب من هذا ما قال يوشع عندما أراد أن يسترد بيت المقدس؛ فقد ورد في الحديث: (غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولّما يبن بها، ولا أحد بنى

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٧٠٢٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩٠٤.

(٣) وفي التوبة الآيات ٢٦، ٤٠، والفتح الآيات: ٤، ١٨، ٤٠.

بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها)[١]. والغرض من هذا أن يخرج معه من استعد للقتال ولم تشغله دنيا.

- الدعاء عند القتال من أعظم أبواب النصر، ولنا في حال رسول الله ﷺ في غزوة بدر أعظم مثال، وقد قص القرآن حال بعض أتباع الرسل فكان قولهم مطابقاً لأولئك النفر من صالحي بني إسرائيل. فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٧].

- من آداب الإسلام العالية: السماحة مع المخالفين، وعدم إكراههم على دخول الدين، اتباعاً للنصوص الواردة في ذلك، ولم يعرف التاريخ الإسلامي أي اضطهاد نال هؤلاء بسبب دينهم، يقول توماس آرنولد : «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي »[٢].

د- الجوانب التربوية :

- القصة القرآنية جانب مهم من جوانب العظة والاعتبار، ولحكمة بالغة كان القصص القرآني حوالي ربع القرآن تقريباً؛ وما ذاك إلا لأثر القصة الفعال في توخي الرذائل والحث على الفضائل، وفي قصص هذا المقطع عبر بالغات ووصايا نافعات، تحض على جهاد اللسان بالحجة واللسان وجهاد المعتدين باليد والسنان، وتثبيت اليقين وتبشير المؤمنين.

- لا يغني حذر من قدر، ولن ينفع الفرار أهله، قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب/ ١٦].

- طلب القوم القتال، فلما كتبه الله عليهم تولوا؛ وفي هذا درس؛ وهو أن الإنسان لا يطلب القتال والنزال؛ فلربما جبن، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٧ عن أبي هريرة.
(٢) الدعوة إلى الإسلام توماس آرنولد. ص ٩٩.

فاصبروا)[1]. وليس هذا الأمر مختصاً بالقتال فقط؛ بل هو عام في كل ما يلزم الإنسان نفسه به ولا يطيقهن ومن هنا كره بعض العلماء النذر.

- على القائد أو المربي أن يبين للناس عاقبة قولهم، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

- سنة الابتلاء سنة كونية لتمحيص المحق من المبطل، والطيب من الخبيث؛ فقد كان عدد القوم كبيراً، ولكنهم لم يصلحوا لقتال ولا لنزال، فلما حدثت لهم التصفية، أجرى الله النصر للفئة المؤمنة بوعده حقاً.

- لا دخل للقلة والكثرة في النصر، فقد كان عدة هؤلاء القوم ثلاثمائة أو يزيدون، عن البراء قال: «كنا نتحدث أن أصحاب بدر كانوا ثلاث مئة وبضعة عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر وما جاز معه إلا مؤمن».[2] ولكن متى كانت الكثرة سبباً للنصر؟

لقد أرست الآيات قاعدة جليلة تنعقد حولها الخناصر، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

- من سنن الله الكونية: سنة المدافعة، وهذه سنة عظيمة تحكم ناموس الكون؛ ولولا هذه المدافعة لهلك أهل الحق، ولهدمت المساجد ودور العبادة، فأهل الصلاح يدفع الله بهم أهل الفساد؛ فإن الشر لا ينحسم إلا بمدافعة، ولن تنزل الملائكة إلا للمعونة، ولن يهلك المفسدون بصاعقة تبيدهم عن آخرهم إلا في آخر الزمان عند هدم الكعبة، أما في الدنيا فلا بد من مدافعة للباطل بالحق، ودمغ للفساد بالإصلاح حتى يكون زهوقاً.

- استخلص الأستاذ الإمام محمد عبده من قصة طالوت وجالوت سنناً اجتماعية في العمران والاستقلال نوجز معظمها فيما يلي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٦٣ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤١ عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٧٩٦ وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

١- وحدة الأمم أعظم السبل لتحقيق الاستقلال كما حدث مع بني إسرائيل.

٢-إذا جاء وقت الحرب انكشف عجز الأدعياء المدعين، ولم ينفع إلا صدق الصادقين

٣- من الأمور المهمة اختيار قائد ورئيس.

٤- الأمم في طور الجهل ترى أن الأحق بالملك أهل الثروة الواسعة والأنساب.

٥- طاعة الجند للقائد من أساسيات النصر.

٦-الإيمان بالله والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر.

٧-البقاء في الدنيا للأمثل ولولا ذلك لفسدت الأرض.

٨- مشيئته تعالى إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم بتغييرهم ما بأنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين[1].

- الاختلاف شر، ولا يأتي لفظ الاختلاف مطلقاً في القرآن إلا ويراد به الذم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود/ ١١٨] وقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس/ ١٩] وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة/ ١٧٦][2].

وقد يأتي الاختلاف في القرآن ويراد به مدح المحقين وذم المبطلين كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ فهذا لا يذم كل أهله وإنما يذم من كان على الباطل دون أهل الحق.

فالخلاف الديني بين أهل الحق والباطل فيه الحق والباطل، أما الاختلاف مطلقاً فهو لا يأتي إلا في معرض الذم.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٢/ ٤٩٢ بتصرف واختصار كثير.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ٢٥٨.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

إن هذا المقطع بكل قصصه ليقرر قضية مهمة، وهي قضية الحياة وقيمتها، وقضية الموت والبعث، وهذا له صلة وثيقة بأمر الجهاد؛ ذلك أن النفس إذا علمت وأيقنت أن الحياة والموت بيد الله دفعها ذلك إلى البذل والتضحية والفداء؛ لأنها تعلم أن نفسها بيد الله، يقبضها متى شاء، ويحييها متى شاء.

ولهذا فإن قصص هذا المقطع كانت تدندن حول هذا الأمر، فالقوم الأولون فروا من الموت فلقيهم، وعندما جبنوا عن القتال ما زادهم ذلك شيئاً في أعمارهم، أما المقاتلون فإنهم كانوا على ثقة ويقين من لقاء الله فقاتلوا بيقين حتى فتح الله على أيديهم.

وبعد ذلك جاء الحديث عن واهب الحياة المحيي المميت، لكي يربط قلوب العباد بخالقهم الذي يقوم بأمورهم، مما يوجب عليهم أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا برب الملك والملكوت.

ثم جاءت ثلاث قصص تثبت كلها أمر البعث والإحياء بمعناه المادي والمعنوي؛ فقصة النمروذ مع إبراهيم دليل على قدرة الله على الإحياء والإماتة الحسية، وعلى قدرته كذلك على الإحياء والإماتة المعنوية، كما في سيرة الرجلين؛ فقد أبقى الله لخليله إبراهيم الثناء الحسن في الدنيا حتى إن كل الأديان لتدعي نسبتها إليه، وأمات ذكر الملك الغاشم الذي ألبس نفسه رداء ليس له بأهل.

ونحيا درس البعث والنشور مع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وجاء بعدها تجربة الإحياء العملية التي كانت مع إبراهيم عليه السلام.

وفي تناسب هذه القصص يقول البقاعي: «لما كان الإيمان بالبعث بل الإيقان من المقاصد العظمى في هذه السورة وانتهى إلى هذا السياق الذي هو لتثبيت دعائم القدرة على الإحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق فبين أولاً بالرد على الكافر ما يوجب الإيمان وبإشهاد المتعجب ما ختم الإيقان علا عن ذلك البيان في قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه إلى ما يثبت

الطمأنينة،.... فكان كأنه قيل : يا منكري البعث ومظهري العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التي أكثرها كاذب! اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم ﷺ التي لقاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرق وإعادة الروح بإخبار من لا يتهم بشهادة القرآن الذي أعجزكم عن الإتيان بمثل شيء منه فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين"(١).

وهذا كله لتقرير حقيقة البعث والإحياء، وللرد على اليهود الذين لا يقيمون للآخرة وزناً وحساباً، ولكي يوقن المؤمنون أن الله وحده هو الذي يهب الحياة للأفراد والأمم، وأن الحياة الحقيقة للأمم لن تكون إلا بالقتال في سبيله سبحانه، ولهذا جاء في ثنايا هذا المقطع الأمر بالجهاد بشقيه: جهاد المال وجهاد النفس.

وتتناغم هذه القصص مع محور السورة العام؛ الذي يتحدث في شقه الثاني عن أمة الإسلام ودورها المنوط بها لإحياء الدنيا على منهج الله.

وقد قلنا إن الأحياء والإماتة لا يقصد بها الجانب المادي فقط، وإنما يقصد بها أيضاً الجانب المعنوي الذي يمثله لنا قصة طالوت وجالوت؛ حيث أحيا الله الأمة ببركة الجهاد في سبيله، وهذا متناغم مع أمر الأمة الإسلامية بالقتال في سبيل الله؛ لتحيا بأوامر الله وتحيي بها العالم بلا إكراه في دخول الدين، بعد أن تعرض سابقوهم للموت المعنوي.

وقد أشار بعض الباحثين إلى خيط دقيق يربط أجزاء هذا المقطع مع بعضه البعض فقال: « ولو دققنا في سياق الآيات لوجدنا خيطاً رفيعاً يربط بينها جميعاً. فالسياق هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الإحياء والإماتة اللتين زعم نمروذ أنه يقدر عليهما وأراد أن يلبس على الناس في ذلك.

فالصورة الأولى: الإحياء والإماتة في الإنسان: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾.

والصورة الثانية: الإحياء والإماتة في الحيوان ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ١/ ٥٠٨.

لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾.

والصورة الثالثة: الإحياء والإماتة في الطير ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾.

والصورة الرابعة: الإحياء والإماتة في النبات ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾.

والصورة الخامسة: الإحياء والإماتة في الأعمال (الأعراض) ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾.

إذن الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية فهو الحي القيوم، المحيي المميت، وقد عرض لنا هذه الصور الخمس للحياة والموت لهذه المخلوقات المادية والمعنوية، وهي المناسبة التي ربطت بين الآيات جميعها»[1].

أضف إلى هذا أن أول قصة في هذا المقطع وهي قصة طالوت وجالوت فيها نفس خط الإحياء والإماتة بشقيه، وبينت أن الصبر من أهم أسباب النصر، وقد جاء هذا المعنى في عدة مواطن من السورة، ووصف الله به المؤمنين في آية البر.

ومن ارتباط هذا المقطع بخط السورة العام، وهو خط الخلافة والتمكين، أن قصة طالوت وجالوت تحدثت عن الجهاد وبيان أنه الوسيلة المثلى لرفع الفساد من الأرض ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾، وهذا الفساد هو الذي تخوفت منه الملائكة حينما قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾. فلن يزاح الفساد إلا بالجهاد.

ويؤكد هذا المقطع أن الظالمين لا يستحقون الخلافة بالإمامة في الدين ولا في الدنيا، فقد

---

(١) بحث: «المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم» للدكتورين عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم ص١١، ١٢ . منشور في : مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية. مجلد ٢. عدد ٢ ربيع الثاني ١٤٢٦، يونيو ٢٠٠٥م.

استبعدتهم الآيات في قصة إبراهيم: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، ثم جاء المثال العملي على ذلك في قصة طالوت وجالوت ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾، ومثل هؤلاء لا يستحقوا أن يقوموا بأمر الله في دنيا الناس، ونرى كذلك أن الله قد سجل الظلم على بني إسرائيل في أكثر من موطن بالسورة.

وللعلم دوره في الخلافة البشرية في الأرض؛ فهو الأمر الذي فضل الله به آدم على الملائكة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، وهو سبب اختيار طالوت للملك﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ ، وقد تكرر لفظ العلم في هذه السورة الكريمة أكثر من ستين مرة بألفاظ ودلالات متقاربة وصيغ متشابهة. ولذلك كان أول ما قاله العزير بعد أن رأى آية الله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وكان العلم مما أعطاه الله داود ليتولى الخلافة في الأرض، قال تعالى ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ . والعلم بالله وصفاته مما يعين على أداء تكاليف الخلافة: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) ﴾ .

المقطع الخامس: الإنفاق. آدابه والمستحقون له (٢٦١-٢٧٤)

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم

بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق حديثاً موجزاً عن الإنفاق وحديثاً مطولاً عن الجهاد، وجاء ذكرهما معاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [٢٤٤، ٢٤٥]. وجاء الأمر بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [٢٥٤]

فبعد أن جاء الحديث عن الجهاد وبيان قيمة الموت والحياة بشكل تفصيلي عاد الحديث هنا مرة أخرى عن الإنفاق بشكل مفصل، فبدأ بالحض عليه ثم بين آفاته من المن والأذى وغير ذلك.

وقد سبقت الإشارة إلى ذكر المناسبة بين المقطع السابق وبين بداية هذا المقطع؛ حيث اتصل الحديث عن قضية الإحياء والإماتة في أكثر من موطن، وجاء الحديث هنا عن إحياء الصدقات ومضاعفتها بأسلوب ينبض بالحياة ويصور المضاعفة بأسلوب رقيق يستجيش في النفس مشاعر الخير، ويظلل الحدث بجو الحياة الذي سبق ذكر أمثلته المادية ليأتي هنا ذكر الحياة المعنوية والمضاعفة الحسية حتى يعلم المنفق أنه لا يعطي بل يأخذ ولا ينقص بل يزداد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

شبه الله تعالى في هذه الآية الكريمة المنفق ونفقته بمثل من زرع حبة في أرض خصبة فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهذا على سبيل التكثير وإلا: فالله يضاعف على السبعمائة إلى ما يشاء بغير حد وذلك على قدر إيمان المنفق وإخلاصه ووقوع صدقته موقعها وحسن النفع

بها، فالله تعالى هو الواسع الذي لا ينحصر عطاؤه العليم بمن يستحق المضاعفة.

وجاءت الآية بأسلوب يستجيش العاطفة، ويستثير في النفس مشاعر فياضة من الحب والرضا، ويدفعها دفعاً إلى البذل، فنحن ما نعطي إلا لنأخذ أضعافاً مضاعفة بلا حصر ولا عد، وهذا إحياء ومضاعفة للأعمال مرتبط بجو الحياة الذي ظلّل أجواء السورة المباركة.

ثم بينت الآية بعدها أن الإنفاق في سبيل الله يشترط ألا يعقبه ذكر الصدقة على سبيل المن والإيذاء. فمن تحاشى هذين كان له من الله الأجر الجزيل والأمن إذا خاف الناس والسرور إذا حزن الناس، وهذا أعظم جزاء للمنفقين.

ولتأكيد النهي عن المن والأذى بيَّن الحق أن القول المعروف وستر حال الفقير خير من الصدقة التي يعقبها الأذى فالله غني عن صدقة المتصدقين وحليم لا يعاجل المخطئ بالعقوبة.

ثم حذر من إبطال الصدقة بالمن والأذى وضرب لذلك مثلاً محسوساً كحال من ينفق مرائياً للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فيصير عمله مردوداً عليه فشبهه بالحجر الأملس الذي عليه تراب فنزل عليه المطر الغزير فتركة أملس فكذلك هؤلاء لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا والله لا يهدي الكافرين للسداد.

أما المؤمنون الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وبقلب ثابت عند إخراجه غير جزع ولا هلع[1] فإن صفتهم وصفة نفقاتهم كصفة بستان في مكان مرتفع من الآفات يربو عطاؤه مضاعفاً إن نزل الوابل الكثير فإن لم يكن كثيراً فالطل القليل ينبته وكذلك المؤمن في كل أحواله من يسر أو عسر لا ينقطع خيره. والله يعلم المخلص من المرائي، وفي ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل؛ فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع عمل هذا ولا ذاك.

(١) انظر: الأمثال في القرآن لابن القيم ص ٥٠

ثم تقبّح الآيات حال من أتلف صدقته وعمله وتنفر منه بالمثال المحسوس وهو مثل صاحب جنة نخيل وأعناب فيها من كل الثمرات والمنافع، وأصابه الكبر الذي يقعده عن الكسب وله صبيان ضعفاء لا كسب لهم إلا البستان. فأحيط بثمره وأصابته ريح شديدة فيها نار فأهلكته فكذلك المرائي يفتقد عمله وهو أحوج ما يكون إليه عند عدم الناصر، ومثل هذا البيان يوضح ربنا الآيات لنتفكر فنتعظ وننزجر.

وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن النفقة وحال المنفق فإن الآية التي معنا تحدثت عما يجب مراعاته في المال الذي ينفق من حيث صفته ونوعه فأوصت المؤمنين أن يكون إنفاقهم من كسبهم وما عملته أيديهم وكذلك مما منَّ الله به عليهم من خيرات الأرض من زروع ومعادن، ثم نهتهم أن يقصدوا الخبيث من المال للنفقة وهم لا يرضون بمثله لأنفسهم إلا أن يتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينه فلم يبصر، والله لا يأمرنا بالصدقة إلا لنفعها لنا فهو غني عنها محمود بأوصافه وأفعاله.

وقد ورد في أسباب النزول أن الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر فنزلت الآية.(١)

وإذا علم المرء التضعيف الوارد للصدقة فإن النفس تهفو لها لكن الشيطان يخوف الناس بالفقر إن أنفقوا ويأمرهم بالبخل ويزينه لهم فيمسكوا، وهذان جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان: التخويف من فعل الخير والترغيب والتزيين لفعل الشر. والفحشاء صفة لموصوف محذوف ليفيد عموم كل خصلة فاحشة وعلى رأسها البخل. والله يعد المتصدق بالمغفرة التي تقيه الشر وبالفضل الذي يهبه الخير. فهو الواسع العطاء العليم بمن يستحق من فضله فيعطيه ومن يستحق من عدله فيمنعه.

ومن جمله العطاء المعنوي الحكمة التي يهبها من شاء من عباده فلا يلتفتوا لوعيد الشيطان،

(١) رواه مطولاً الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٢٧وصححه على شرط مسلم، والترمذي في سننه برقم/ ٢٩٨٧عن البراء، وقال الترمذي: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه برقم/ ١٨٢٢، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٩٠: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وأعظم بها من نعمة، والظاهر من سياق النص أن الحكمة هبة الله لأولئك الذين يتصدقون من أموالهم، يفيض الله عليهم الحكمة جزاء لهم على صنيعهم، فمن حازها فقد حاز الخير الكثير؛ لأنها تحكم العقل وتمنعه عن الخطأ، وتجعله يصيب الحق بالعلم والعمل، وما ينتفع بالتذكر إلا ذو العقول الخالصة.

وإن كل هذه النفقات سواء كانت خيراً أو شراً وكل نذر معلوم مجازي به عند الله، فمن وضع الشيء في غير موضعه فليس له من الله نصير.

ومن أبدى الصدقات فهو خير، ومن أخفاها وأعطاها الفقراء فهو خير، قال رسول الله ﷺ:(صدقة السر تطفئ غضب الرب)[١] ويكفر الله عنه من سيئاته فهو سبحانه خبير بأعمال عباده ونياتهم.

ولكل من الصدقتين موقعها؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي: « أما صدقة الفرض فلا خلاف أن إظهارها أفضل كصلاة الفرض وسائر فرائض الشريعة؛ لأن الإنسان يحرز بها إسلامه ويعصم ماله .... وأما صدقة النفل.. فالتحقيق فيه أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها والمعطى إياها والناس الشاهدين لها. أما المعطي فله فائدة إظهار السنة وثواب القدوة وآفتها المن والأذى، وأما المعطى إياها فإن السر أسلم له من احتقار الناس.. وأما حال الناس فالسر عندهم أفضل من العلانية»[٢].

وقد خصصت الآية الإخفاء بالإيتاء للفقراء وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل إعطاء الصدقة للفقير سراً، أما المصالح العامة فالجهر فيها أفضل للاقتداء، والله أعلم.

ولما تحرج بعض الصحابة من الصدقة على غير المؤمن نزل: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ ،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ٨٠١٤عن أبي أمامة وله طرق عدة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١١٥ : وإسناده حسن.

(٢) أحكام القرآن للقاضي أبو بكر بن العربي ١/ ١٣٥.

قال ابن عباس: «كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فنزلت الآية»[(١)].

والمعنى: ليس على النبي ولا على غيره من باب أولى أن يكلف بإجبار الناس على الهداية فالله هو الذي يوفق للهداية، وكل نفقة ينفقها المرء فإن نفعها دنيا وأخرى راجع إليه، ولا ينفق عبد نفقة إلا إذا كانت خالصة وهذا نهي جاء في صيغة الخبر، وكل ما أنفقه المرء فإنه يجزاه يوم القيامة الجزاء الأوفى فلا ينقص منه شيئاً.

ثم بينت الآية أولى الناس بالصدقة وقد وصفتهم الآية بست صفات:

أولها: أنهم فقراء. **وثانيها**: أنهم حبسوا أنفسهم عن الدنيا في سبيل مرضاة الله، قيل: هم فقراء الصفة[(٢)]، والمعنى عام يشملهم ويشمل غيرهم ممن كان على وصفهم، **وثالثها**: أنهم لا يستطيعون السفر في الأرض لتجارة ونحوها. **ورابع صفاتهم**: أن غير العارف يظنهم أغنياء لمبالغتهم في التعفف عن السؤال، **وخامسها**: يعرفهم ذو اللب بعلاماتهم من أثر الحاجة والفاقة. **وسادسها**: أنهم لا يسألون الناس ولا يلحون أو يستعطفون. فمن أنفق عليهم فالله عليم بنفقته، لا يخفى عليه حسن النية وتحري النفع.

وبقي الحديث عن زمان النفقة فبين القرآن بأن أهل الخير ينفقون في كل وقت ليلاً كان أو نهار وعلى أي حال سراً كان أو علانية وهؤلاء أجرهم عند ربهم المتولي أمرهم فلا يخافون من المتوقع ولا يحزنون على الماضي.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٢٨ وصححه على شرطهما، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير برقم/ ١١٠٥٢، والبيهقي ٤/ ١٩١. قال الهيثمي: ٦/ ٣٢٤ ورجاله ثقات. والرضخ العطية القليلة راجع: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير٢/ ٢٢٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني١/ ٢٩٢.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- من اختار الكفر فإن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

-هداية التوفيق من الله وحده، قال تعالى﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية:

- العمل قد يحبط ويبطل ثوابه، ويكون ذلك بالرياء في أوله، وبالمن في آخره.

- استدل الإمام مالك بقوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ على كراهة إعطاء الرجل زكاته لأقاربه مباشرة، بل الأفضل عنده أن يكون ذلك عن طريق وسيط ، وجاء في المدونة: " قلت : أرأيت زكاة مالي من لا ينبغي لي أن أعطيها إياه في قول مالك ؟ قال: قال مالك: لا تعطها أحداً من أقاربك ممن تلزمك نفقته.

قال: فقلت له: فمن لا تلزمني نفقته من ذوي قرابتي وهو محتاج إليها؟ فقال : ما يعجبني أن يلي ذلك هو بالدفع إليهم، وما يعجبني لأحد أن يلي قسم صدقته لأن المحمدة تدخل فيه والثناء، وعمل السر أفضل. والذي أرى: أن ينظر إلى رجل ممن يثق به فيدفع ذلك إليه فيقسمه له، فإن رأى ذلك الرجل الذي من قرابته الذي لا يلزمه نفقته هو أهل لها أعطاه كما يعطي غيره من غير أن يأمره بشيء من ذلك، ولكن يكون الرجل الذي دفع إليه ليفرق هو الناظر في ذلك على وجه الاجتهاد"[١].

وهذا نظر دقيق من الإمام مالك يرحمه الله؛ فقد فهم من الآية أن المعطي يجب أن يكون حذراً من أن يبطل ثواب صدقته. ولهذا فإن أعطى أقاربه فلا يكون الإعطاء منه مباشرة حتى لا يعود إليه جزاء دنيوي منهم.

(١) المدونة الكبرى لمالك ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨.

- دل قوله تعالى: ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ على وجوب زكاة عروض التجارة، وتشمل كل ما يباع ويشترى للتجارة والكسب من عقار أو منقول، والزكاة واجبة في كل أنواع التجارة طالما بلغت نصاباً. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن في العروض التي تدار للتجارة الزكاة إذا حال عليها الحول"(١).

- قوله تعالى ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ دليل لما ذهب إليه الأحناف في زكاة الزروع والثمار؛ حيث ذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى وجوب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض في كل مزروع ومغروس من الفواكه والبقول والحبوب والخضر. وهذا هو الصواب والله أعلم، لعموم الآية وعموم قوله ﷺ :(فيما سقت السماء والعيون العشر)(٢) قال ابن العربي معلقاً على قوله تعالى ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام/ ١٤١]: "وأبو حنيفة جعل الآية مرآته فأبصر الحق"(٣).

- وفي الآية دليل على زكاة المعدن والركاز، فهو من جملة ما أخرجت الأرض. وقد اتفقوا على وجوب الزكاة في المعدن على خلاف بينهم في المعادن الواجب فيها الزكاة ومقدار الزكاة الواجبة فيها(٤).

- في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ دليل على جواز إعطاء الكافر من صدقة التطوع، وقد ورد عن النبي: (تصدقوا على أهل الأديان)(٥)، وهذا من سماحة الإسلام الدينية؛ فليس معنى كونهم ذميين أو مشركين ألا يعطوا من أموال الصدقات. أما الزكاة

---

(١) الإجماع لابن المنذر ص٤٥ برقم/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٤١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه برقم٩٨٠ عن جابر.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٨٣.

(٤) وللتفصيل راجع: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٦٥، روضة الطالبين للنووي ٢/ ٢٨٢، الشرح الكبير لابن قدامة ١/ ٤٨٦، الكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ١/ ٣١٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٠٣٩٨ بسند رجاله ثقات لكنه مرسل عن سعيد بن جبير، وأسنده سعيد إلى عبد الله بن عباس عند ابن أبي حاتم برقم/ ٢٨٥٣ وسنده حسن.

المفروضة فلا يعطون منها ؛ قال ابن المنذر: «وأجمعوا على أن الذمي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً»[١]. وذلك لوصية النبي ﷺ لمعاذ: (.. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)[٢]. قال الأحناف: القياس أن يأخذ الذمي من مال الزكاة لدفع حاجته، ولكن تركنا القياس لحديث معاذ.

وفي صدقة الفطر خلاف؛ فأجاز أبو حنيفة وعمرو بن ميمون وعمرو بن شراحيل إعطائهم منها، وكلام القرطبي في المسألة يشعر بجواز إعطائهم منها. ومنعها الشافعي وغيره.[٣]

- يعتبر بالسيما والزي؛ لأنه حجة،قال الله تعالى: ﴿ تَعۡـرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ [الرحمن: ١٤] كما لو اختلط الكفار يعني موتانا بموتاهم الفصل بالزي والعلامة[٤].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- المن خلق ذميم يبطل ثواب الصدقة ويمحو فضلها، بالإضافة إلى العقوبة الأخروية التي تنال صاحبه؛ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة المنان الذي لا يعطي شيئا إلا منّه والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره)[٥].

- ويقابله قول المعروف والمغفرة وذلك بالكلمة الطيبة وهي صدقة في حد ذاتها؛ قال رسول الله ﷺ (والكلمة الطيبة صدقة)[٦].

---

(١) الإجماع لابن المنذر ص٤٦ برقم/ ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٣١ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٣٦٩.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/ ١١١المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٥.

(٤) شرح فتح القدير لابن الهمام ٦/ ١١٤، ١١٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٦.

(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٠٩ عن أبي هريرة.

- من أخلاق الإسلام الحسنة: إخراج الطيب، وعدم إخراج الخبيث صدقة على المساكين،؛ فإذا كان الإنسان لا يأكل طعاماً أو لا يلبس ملبساً لرداءته فأجدر به ألا يطعم الفقير منه أو يكسوه، عن عائشة قال : أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه. قلت: يا رسول الله، أفلا نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم مما لا تأكلون)[١]. وهذا تقدير عالٍ لنفسية الفقير ولمشاعره، فهي صدقة معنوية قبل أن تكون صدقة حسية.

- لما مدح الله الذين لا يسألون الناس إلحافاً دل ذلك على ذم من يسأل الناس إلحافاً، وقد ورد في السنة ذم الإلحاف والنهي عنه؛ فعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته)[٢].

- وقد تكاثرت النصوص النبوية التي تحث على خلق التعفف وترغب فيه، وتذم المسألة، وتتوعد من اعتادها ليكثر ماله بالنار، وقد بينت السنة ضابط السؤال ومن يجوز له أن يسأل؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم.قالوا: يا رسول الله ،وما يغنيه؟ قال ما يغديه أو يعشيه)[٣].

قال الخطابي: «قد اختلف الناس في تأويله؛ فقال بعضهم: من وجد غداء يومه وعشاءه لم تحل له المسألة على ظاهر الحديث، وقال بعضهم إنما هو فيمن وجد غدائه وعشائه على دائم الأوقات فإذا كان ما يكفيه لقوته المدة الطويلة فقد حرمت عليه المسألة»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٠٥ والبيهقي في سننه الكبرى ٩/ ٣٢٥. وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبويعلى ورجالهما رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٤/ ٣٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٨.

(٣) خرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٣٣٩٤، وأبوداود بنحوه برقم/ ١٦٢٩، وأحمد ٤/ ١٨٠ من حديث سهل بن الحنظلية، قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٣/ ٩٦.

(٤) نقله العظيم آبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود ٥/ ٢٥.

- قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ يعد دليلاً على الفراسة الصادقة، وقد مدح الله الفراسة الصادقة وأثنى على أهلها في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر/ ٥٧]. وقال النبي: (إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم)[1]. ومنها فراسة إيمانية ومنها فراسة تأتي بالتعلم أو بالرياضة[2].
- أهمية الإخلاص في النفقة وفي غيرها من الأمور.

د- الجوانب التربوية:

- على المرء أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به؛ فإذا كان لا يقبل الخبيث إلا على مضض وكره فعليه في المقابل ألا يعطي الناس الخبيث، وهذا ضابط مهم على المرء أن يقيس أفعاله تجاه الناس عليه، فما يقبله لنفسه فليقبله للناس وإلا فلا، ومن التزم بهذا فإنه يكون قد حقق كمال الإيمان بمحبته لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه وبهذا الأمر ينجو يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: (فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)[3].
- لفظ الضرب في الأرض يوحي بدلالة الشدة، والأخذ بقوة، وهذا له دلالة تربوية؛ فالمسلم يتحرك في الأرض وفق منهج الله بلا تكاسل أو توانٍ أو تخاذل، بل يضرب فيها بقوه.

يقول الشعراوي رحمه الله: (عليك أن تضربها حرثاً وتضربها بذراً، لا تأخذ الأمر بهوادة؛ إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان، يسعى فيها ويضرب فيها، ويأكل من رزق الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم/ ٢٩٣٥ عن أنس. قال الهيثمي :إسناده حسن. مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨.

(٢) وللتفصيل؛ راجع منزلة الفراسة في مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٤٨٢.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٨٤٤.

الناتج منها»[١].

- الشيطان له مدخل في تثبيط الإنسان عن النفقة، فهو يحض الناس على البخل ويعدهم بالفقر إن هم أنفقوا، وليس الأمر قاصراً على الإنفاق فقط، بل يشمل الحض على كل شر وسوء؛ قال رسول الله: (إن للشيطان لمة بابن آدم و للملك لمة، فأما لمة الشيطان؛ فإيعاد بالشر و تكذيب بالحق، و أما لمة الملك؛ فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك؛ فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان. ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)[٢]. وإيعاد الشيطان قد يكون بإلقاء الخاطر في القلب، وبالوسوسة والإلقاء في السمع، وعلى المسلم أن يستعيذ بالله دوماً من شره، وأن يأخذ بأسباب الوقاية.

- قال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم؛ لأن ما أعطي أفضل مما أعطوا أصحاب الدنيا؛ لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً وقال: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء/ ٧٧]، وسمى العلم خيراً كثيراً[٣]. وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

-الحكمة هبة من الله يهبها من يشاء من عباده، ونور يقذفه الله في القلب والعقل فيفهم به المرء ويدرك ويتعقل، وهي على قسمين: علمية وعملية؛ فالعلمية الإطلاع على بواطن الأمور، أما العملية فهي وضع كل شيء في موضعه، ومن أوتي الحكمة فقد منَّ الله عليه بخير كثير، والكثير من الله له قدره، ولقلة أهلها قال الفضيل بن عياض: «العلماء قليل

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ١١٩٢.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه بر قم/ ٩٩٧، والنسائي في الكبرى برقم/ ١١٠٥١، والترمذي في سننه برقم/ ٢٩٨٨. وقال: حسن غريب. وصحح إسناده مرفوعاً وموقوفاً الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على نفس الحديث عند الطبري في جامع البيان برقم ٦١٢٧.
(٣) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي ١/ ٢٠٤.

والحكماء كثير»(١).

- إثبات تفاضل الأعمال عند الله، فإبداء الصدقة خير ولكن إخفائها أفضل، وهكذا؛ فمن كان ذا بصيرة في دين الله أدرك فقه مراتب الأعمال، وعلم أحب الأعمال على ربه فحرص على أدائها، وحرص على فعل خير الخيرين، وهذا من الحكمة التي يؤتيها الله من شاء من عباده.

- كل من فعل معروفاً أو أنفق مالاً فإنه في الحقيقة يعطي لنفسه وينفعها؛ لأن ثواب الخير راجع إليه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ فأما خير الدنيا فالبركة في الرزق، والوقاية من مصارع السوء، وطهارة المال وغير ذلك،. وأما في الآخرة فالثواب العظيم والخير العميم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

-هذه هي الدائرة الأخيرة من دوائر الإصلاح، وهي دائرة الإصلاح الأكبر، وارتباط النفقة بالجهاد لا يحتاج إلى بيان.

وسورة البقرة اهتمت بشرح مقاصد الإسلام وكلياته، وقد سبق بيان حفظ الدين بالعبادات وحفظ العقل وحفظ النسل وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ المال، وحفظ المال بوجهتين: الأولى تثميره وزيادته، وهذا يكون بالصدقة، والثانية: الحفاظ على أصله وهذا يكون بالبعد عن الربا الذي يمحق المال، وبالحرص على الكتابة والإشهاد. وقد تكفل هذا المقطع بالجانب الأول وتكفل المقطع اللاحق بالجانب الثاني.

وهذا المقطع مرتبط بالسورة كلها من أولها إلى آخرها؛ فقد ابتدأت السورة بوصف المتقين بأنهم ينفقون مما رزقهم الله، وجاء هذا المقطع ليفصِّل آداب الإنفاق ومستحقيه.

وجاءت واسطة العقد في السورة وهي آية البر لتتحدث عن الإنفاق ومن يستحقونه، ثم

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٤٣٤.

جاء الختام التفصيلي في هذا المقطع.

وتحدث هذا المقطع عن أهل الإحسان ثم تحدث المقطع الذي يليه عن أهل الخسران واختتم بالحديث عن أهل العدل؛ فالأولون هم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار وفي السر والعلن ابتغاء مرضات الله وطمعاً في النجاة، وهم السابقون بالخيرات بإذن الله، أما الطائفة الثانية فهم الذين ظلموا أنفسهم بأكل الربا، وختمت السورة بذكر أصحاب العدل الذين استوفوا حقهم ولم يأكلوا حق غيرهم، وبذلك يكون هذا المقطع مع ما بعده قد استوفى مراتب الناس الثلاثة في المال تصرفاً وتدبيراً.

المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة.

الآيات (٢٧٥-٢٨٣)

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع الذي قبله:

بعد أن تحدثت الآيات في المقطع السابق عن أعلى الناس وأعمالهم في الصدقات الذين يعطون بلا عوض جاء التناسب بالتضاد للحديث عن الذين يستغلون حاجة الفقير فيتعاملون معه بالربا.

ويحسن بنا أن ننقل كلام سيد قطب حول المناسبة بين المقطعين، حيث قال: «الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي . . الوجه الكالح الطالح هو الربا!

الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل . . والربا شح ، وقذارة ودنس، وأثرة وفردية . .

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً . .

ومن ثم فهو - الربا - الوجه الآخر المقابل للصدقة . . الوجه الكالح الطالح!

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود! عرضه عرضاً منفراً ، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة . ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا - في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى - ولله الحكمة البالغة»[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣١٨

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأ الحديث عن المرابين الذين يأخذون المال بلا عوض ويأكلون الزيادة في مقابل القرض فبيَّن الحق أمرهم ونفَّر من حالهم وأوضح أنهم لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلى نشورهم إلا كما يقوم المتخبط المصروع من مس الشيطان له، وسبب ذلك أنهم جعلوا الربا المحرم الذي هو الزيادة في المال عند حلول أجل الدين مثل البيع الذي أحله الله لأنه لا استغلال فيه، أما الربا فقد حرمه الله لما فيه من الاستغلال لحاجة الفقير، فمن بلغه تحريم الله للربا فانتهى فوراً فله ما أخذ قبل الإسلام وأمره مفوض إلى ربه. أما من عاد لأكل الربا بعد تحريمه فقد استحق المكث الطويل في جهنم.

والربا في اللغة: مطلق الزيادة[1]، وفي اصطلاح الشرع شيئان: ربا الفضل وربا النسيئة؛ أما ربا النسيئة فهو أن يزيد في المال بسبب الأجل، وقد كان معروفاً عند العرب فكان الواحد يقرض إلى أجل، ويأخذ كل شهر مبلغاً ويبقى رأس المال كما هو، فإذا حل أجل الدين طالبه بالسداد قائلاً: إما أن تقضي أو تربي، فكان المدين يزيد في الأجل وفي المال[2].

وهذا هو ربا الجاهلية الذي يجري في غالب المصارف الآن، وقد توعد أهله بأشد العذاب، ولعن الله كل من شارك فيه، عن جابر قال: (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء)[3].

أما ربا الفضل فهو بيع مال مع زيادة أحد العوضين عن الآخر، كمن باع جرام ذهب بجرامين، وهو حرام أيضاً؛ عن عبادة بن الصامت قال: « إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح

---

(١) المصباح المنير للفيومي ١/ ٢١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٧/ ٧٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٩٨.

إلا سواء بسواء عيناً بعين فمن زاد أو ازداد فقد أربى"[١].

وجمهور الفقهاء على تحريمه، وقد ورد عن ابن عمر وابن عباس جوازه لكنهما رجعا عن ذلك[٢]. وجمهور الفقهاء أيضاً على أن الحرمة غير مختصة بهذه الأصناف؛ وذلك لوجود علة التحريم فيقاس عليها.

مراحل تحريم الربا:

لقد مر تشريع الربا بعدة مراحل:

١- الموضع الأول في سورة الروم وهي مكية، قال تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم/ ٣٩] قال في التفسير الوسيط: "ويبدو لنا أن المراد هنا: الربا الذي حرمه الله تعالى بعد ذلك تحريماً قاطعاً، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج، حتى إذا جاء التحريم النهائي له، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم"[٣].

٢-الموضع الثاني: التحذير من فعال اليهود واجترائهم على المحرمات ومن أقبحها الربا، قال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [النساء١٦١][٤]، وهذا تحريم بالتلويح لا بالتصريح.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٨٧.

(٢) وقد روى الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٢٨٢ أن أبا سعيد الخدري ذكره بالتحريم فقال: جزاك الله يا أبا سعيد الجنة فإنك ذكرتني أمراً كنت نسيته. استغفر الله وأتوب إليه. فكان ينهى عنه بعد ذلك أشد النهي.

(٣) التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ١١/ ٩٠.

(٤) جاء تحريم الربا في التوراة؛ ففي سفر الخروج ٢٢/ ٢٥: إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا. وفي إنجيل لوقا٦/ ٣٤، ٣٥: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم و أحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً». وبهذا نعلم أن الربا محرم في كل الشرائع.

٣- الموضع الثالث في سورة آل عمران؛ حيث ورد النهي عن أكل الربا الفاحش، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران/ ١٣٠] وذلك نهي جزئي جاء تمهيداً للتحريم الكلي.

٤- ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقطع كل سبيل يؤدي إلى إباحة شيء من الربا، ويشمل ذلك كل ما زاد على رأس مال المقترض(١).

حكمة تحريم الربا:

لقد حرم الله الربا تحريماً قاطعاً، والواجب أن يلتزم المؤمن بأوامر ربه ونواهيه؛ فالأصل في الأحكام الشرعية التعبد بها، ومع هذا فإن العلماء قد اجتهدوا في بيان حكمة تحريم الربا،و إظهار آثاره الاجتماعية والاقتصادية، ومن ذلك ما يلي:

١- الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير مقابل، لأن من يبيع الواحد باثنين نقداً أو نسيئة فيحصل له زيادة مال من غير مقابل، ومال الإنسان متعلق حاجته وله حرمة عظيمة ، قال ﷺ: (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)(٢) فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.

٢- أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب المال إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل المال الزائد نقداً كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات.

٣- أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ فلو حل الربا لكانت حاجة

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٨٤. وقد استفاض في شرح هذه المراحل ومقارنتها بمراحل تحريم الخمر: العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في مؤتمر القانون الإسلامي سنة ١٩٥١م، ونقل نبذة منه الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره ١/ ٢٨٥،٢٨٤.

(٢) رواه الدارقطني في سننه ٣/ ٢٦، والبزار في مسنده برقم/ ١٦٩٩، وأبونعيم في الحلية ٧/ ٣٣٤وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر٣/ ٤٦.

المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

٤- أن الغالب أن المقرض يكون غنياً، والمستقرض يكون فقيراً. فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالاً زائداً، وذلك غير جائز برحمة الرحيم[1].

٥- ومن آثار الربا الاجتماعية: شيوع البغضاء والأحقاد بين الناس، ونزع التراحم، وذهاب المعروف والمروءة بين الناس.

٦- ومن آثاره الاقتصادية: ارتفاع الأسعار؛ ذلك أن المنتج والتاجر يقترض بالربا فيرفع السعر لتعويض ما يدفع، وأيضاً: شيوع البطالة؛ فأصحاب الأموال يفضلون الربا عن الاستثمار، وأيضاً: التضخم، وتعطيل الطاقات البشرية، وتعطيل المال عن الدوران والعمل، وشيوع الكساد والبطالة، وإضعاف القدرة الشرائية عند الطبقة الفقيرة، ووضع مال المسلمين في أيدي الكفار، والتسبب في الأزمات الاقتصادية التي تصيب الدول، وقد حدث هذا مع دول آسيا التي كان يطلق عليها النمور الآسيوية.

ومنها أيضاً: الإسراف وإنفاق المال فيما لا يفيد، قال المراغي: «والسر في هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه الكماليات التي كان يمكن الاستغناء عنها، ويغريهم بالمزيد من الاستدانة، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم»[2].

وإن من آثار الربا أن الله يمحقه ويذهب بركته قال عليه السلام:(ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة)[3]. أما الصدقات فإن الله يزيدها في الدنيا والآخرة، ومع عقوبة المحق

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٦، ٧٧.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد المراغي ١/ ٢٨٤.

(٣) رواه ابن ماجه برقم/ ٢٢٧٩ وأخرجه أحمد ١/ ٢٩٥ عن عبد الله بن مسعود وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٤: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

الدنيوية فإن الله يبغض فاعلها الذي كفر بأنعم الله وفعل الآثام.

قال السرخسي: ذكر الله تعالى لآكل الربا خمساً من العقوبات:

إحداهما: التخبط قال الله تعالى ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾.

الثانية: المحق، قال الله تعالى﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ والمراد الهلاك والاستئصال، وقيل ذهاب البركة والاستمتاع حتى لا ينتفع به ، ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب؛قال الله تعالى ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

الرابعة: الكفر؛ قال الله تعالى﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال سبحانه بعد ذكر الربا: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكل الربا.

الخامسة:الخلود في النار،قال تعالى:﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

وكعادة القرآن في المقارنة بيّن الله تعالى أن الذين صدقوا ما أخبرهم به وقبلوه وعملوا الصالحات التي تصلح نفوسهم وأقاموا الصلاة التي تصلهم بربهم وأدوا الزكاة التي بها تطهر نفوسهم لهم عند الله الأجر الذي لا ينقطع ولا يخافون من الآتي ولا يحزنون من الفائت.

وبعد المقارنة بين الجزاءين يأتي الأمر الواضح للمؤمنين بتقوى الله التي تضاد أكل الربا و الأمر بترك كل ما بقي من الربا عند الناس إن كان إيمانهم تاماً. وإلا يفعلوا فليعلموا ويوقنوا بغضب وحرب من الله رسوله في الدنيا والآخرة، ولم يأت هذا الوعيد إلا في آكلي الربا وقطاع الطريق لمحاربة الناس. وذلك لأن كليهما يفسد في الأرض ويؤذي الناس بأخذ ما معهم قهراً وقسراً. ولذلك توعد الله أهل الربا بالعقوبة الشديدة؛ قال عليه السلام: (ما ظهر في قوم الربا

---

(١) المبسوط للسرخسي ١٢/ ١١٠ باختصار.

والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[١] فإن عدتم عما فعلتم فلكم ما استحققتم من أموالكم لا تظلمون الغرماء بالزيادة ولا تظلمون أنفسكم بنقص شيء من أموالكم.

وإن كان المقترض معسراً فأخروه وأمهلوه إلى وقت يسار ليتمكن من الأداء، وإن أبرأتموه من الدين فهو خير له ولكم من إمهاله وأعظم عند الله إن كنتم تعلمون ثواب ذلك قال عليه السلام:(من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)[٢].

وفي وسط هذه الأحكام والعظات يأتي الأمر باتقاء وحذر يوم عظيم يرجع العباد إلى ربهم فيجازيهم على ما عملوا في الدنيا جزاء وافياً ولا ينقص من أجر أحد شيئاً، وقد ثبت أن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن الكريم،

ثم تأتي بعد ذلك الآية الجامعة في كتابة الدين وحفظ الأموال وذلك بعد أن رغبت الآيات في إنفاق المال لله ثم في ترك المال الحرام لله ثم رغبت في تأخير المطالبة بالمال للمعْسر تحدثت هذه الآية المباركة عن حفظ المال حتى لا يظن ظان أن الإسلام يجعل أهله يفرطون في حفظ أموالهم.

ابتدأت الآية بالنداء المحبب إلى النفوس المؤمنة؛ يا من تحليتم بحلية الإيمان إذا داين بعضكم بعضاً إلى وقت محدد فاكتبوا هذه المعاملة وليكتبها فيكم كاتب أمين عادل ولا يمتنع الكاتب أن يكتب إحسانا للناس كما أحسن الله إليه وعلمه؛ فيكتب وليملِ الذي عليه الدين حتى يكون إملاؤه حجة عليه، وعليه أن يتقي ربه فيما يملي وألا ينقص مما عليه شيئاً. فإن كان المدين لا يحسن التصرف في ماله أو ضعيفاً لصغر أو هرم أو عاجزاً عن الإملاء لجهل أو خرس فعلى ولي أمره أن يتولى الإملاء بالحق والعدل.

وظاهر هذه التأكيدات الكثيرة يفيد وجوب كتابة الدين، وهو قول الضحاك وابن جريج

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٤٠٢ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٤/ ١١٨ بسند جيد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٨/ ٢٣١.

والحسن والشعبي وغيرهم، ورجحه الطبري وغيره[1]، ومما يشهد له قوله ﷺ :(ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه ورجل آتى سفيهاً ماله وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء:٥][2].

وبعد البيان الوافي عن الكتابة انتقل الحديث إلى الإشهاد، فأمر الله أن يطلب شاهدين مسلمين من الذكور فإن لم يتيسر رجلان فرجل وامرأتان، من المرضيين في الخلق والدين، والعلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل هي قلة ضبط المرأة وكثرة نسيانها لأمور البيع والشراء لأنها لا تعلق لها بذلك[3] فتقوم إحداهما بتذكير الأخرى، ثم نهى الله الشهود عن الإباء عن الشهادة متى دعوا إليها، ونهى عن التضجر من كتابه الدين إلى وقته المحدد له سواء كان الدين صغيراً أو كبيراً فهذا أعدل في علم الله وأعون على إقامة الشهادة وأقرب إلى زوال الشك والريبة، وتلك فوائد ثلاث لكتابة الديون.

ثم استثنى الله من ذلك التجارة التي يجري فيها التداول والتقابض في المجلس ويكون المبيع والثمن حاضرين فعندئذ لا بأس ولا حرج من عدم الكتابة رحمةً بالمتعاملين وتخفيفاً

---

(١) جامع البيان للطبري ٦/ ٥٤ وقال الشوكاني: وظاهر الأمر الوجوب. فتح القدير١/ ٣٠٠ وراجع: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٤/ ١٢٦ ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٣٥؛ حيث ذهبا إلى وجوب الإشهاد، وهو مذهب الظاهرية أيضاً، راجع: المحلى لابن حزم الظاهري ٨/ ٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٣١٨١ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص، ومن طريقه البيهقي في سننه ١٠/ ١٤٦ عن أبي موسى الأشعري.

(٣) قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله: « المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها؛ فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني: أن من طبع البشر ذكراناً وإناثاً أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية؛ فإنه قليل لا يعول عليه. والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها» تفسير المنار ٣/ ١٢٥،١٢٤.

عليهم؛ فالإسلام لا يقف حجر عثرة أمام التيسير على الناس وإنهاء مصالحهم بسرعة.

والأولى الإشهاد عند البيع، ولا يضار الكاتب والشهيد غيرهما بالتغيير والتخريف ولا يتعرضا هم للضرر بحملهما على كتابة أو قول غير الحق بالترغيب والترهيب، وإن فعلتم ما نهيتم عنه من التحريف والتغيير وغيرهما فتكونوا قد خرجتم عن طاعة الله.

ثم ختم الله الآية بالأمر بتقواه وخشيته وتذكير الناس بنعمه فهو الذي يعلم الناس ويصلح لهم دينهم ودنياهم والله بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ ولذلك فإن تشريعه كله حكمة وعدل لأنه العليم سبحانه.

ثم بين سبحانه ما يجب على المؤمن فعله إن لم يتمكن من كتابة الدين سواء بأن كان مسافراً ولم يجد كاتباً للكتابة أو لم يتيسر له أمر الكتابة لأي سبب ففي هذه الحالة يقوم الرهن المقبوض مقام الكتابة، والرهن ضمان لحق الدائن عند تعذر أخذ حقه من الغريم، فإن أمن الدائن المدين ووثق في ذمته ولم يوثِّق دينه فعلى المدين أن يكون أهلاً لهذه الثقة وليؤد أمانته كاملة وليتق ربه في مراعاة حقوق الناس، وعلى المؤمنين الصادقين ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة، فمن أخفاها وامتنع عن أدائها فقد أثم قلبه الذي هو أساس كل خير وشر، والله عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسيحاسبكم عليها.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

-دل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ على أن الخلود في النار غير الخلود المؤبد؛ فآكل الربا قد يكون مؤمناً، والمؤمن لا يخلد في نار جهنم أبداً، أما الكافر فإن خلوده في النار مؤبد لا غاية ولا نهاية والله أعلم.

ب- الأحكام الشرعية:

- إباحة كل البيوع ما لم يكن هناك دليل على التحريم، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ والألف واللام هنا للجنس فتفيد معنى العموم؛ فالأصل في البيوع الحلّ؛ قال الشافعي: "فاحتمل

إحلال الله البيع معنيين: أحدهما: أن يكون أحل كل بيع تبايعه المتبايعان، جائزي الأمر فيما تبايعاه عن تراض منهما. وهذا أظهر معانيه .

والثاني: أن يكون الله أحل البيع إذا كان مما لم ينه عنه رسول الله ﷺ المبين عن الله عز وجل معنى ما أراد"(١).

- دلت الآيات الكريمة على تحريم الربا تحريماً قطعياً، ويستفاد ذلك من وجهين:

أولهما: أن الله شبه آكلي الربا بتشبيه يحمل أقبح الصفات وذلك للتحذير من الربا.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٥٧٢] فقد توعدت الآية بالخلود في النار من عاد إلى أكل الربا بعد أن حذر الله منه.

- يجوز إطلاق وصف المحاربة لله ورسوله على من يفعل معصية عظيمة ويجاهر بها، ولا يلزم أن تكون كفراً؛ فقد وصف الله آكلي الربا بذلك، وهم لا يكفروا إلا باستحلاله.

- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ مع قوله ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ على ثبوت المطالبة لصاحب الدين على المدين، وجواز أخذ ماله بغير رضاه، ويدل على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان ظالماً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ فجعل له المطالبة برأس ماله. فإذا كان له حق المطالبة، فعلى مَن عليه الدين لا محالة وجوب قضائه(٢).

- من كثرت ديونه وطلب غرماؤه مالهم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته. والمشهور عن مالك أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل، ولا ينزع منه رداؤه إن كان ذلك مزرياً به.والأصل في هذا قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾.

---

(١) أحكام القرآن للشافعي ١/ ١٣٥.

(٢) أحكام القرآن للكيا القرطبي ١/ ٢٣٧.

عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ : (تصدقوا عليه) فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه.فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: (خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك)[١].وهذا نص، فلم يأمر رسول الله ﷺ بحبس الرجل[٢].

- جواز البيع والشراء إلى ميسرة.

- جواز الدين إلى أجل سواء في المال أو المبيع، والدين في المبيع يقال له السلم، ودل قوله تعالى﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ على أن السلم إلى الأجل المجهول غير جائز، ويؤكده ما ورد عن ابن عباس قال: " قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: (من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم، إلى أجل معلوم)[٣].

- قوله تعالى: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فيه إثبات إقرار الذي عليه الحق وإجازة ما أقر به وإلزامه إياه؛ لأنه لولا جواز إقراره إذا أقر لم يكن إملاء الذي عليه الحق بأولى من إملاء غيره من الناس. فقد تضمن ذلك جواز إقرار كل مقر بحق عليه[٤].

- قوله عز وجل: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ يدل على أن كل من أقر بشيء لغيره فالقول قوله فيه لأن البخس هو النقص ؛ فلما وعظه الله تعالى في ترك البخس دل ذلك على أنه إذا بخس كان قوله مقبولاً[٥].

- قوله تعالى ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٥٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٤١٧بتصرف.
(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٢١٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٦٠٤.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢١٠.
(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢١١.

بِٱلْعَدْلِ ﴾ تنازعه الفقهاء؛ فذهب بعضهم إلى أنه دليل على جواز الحجر على السفيه الذي لا يعرف أن يحافظ على ماله؛ حيث أجاز لوليه الإملاء عنه، وهذا مذهب الجمهور، وذهب الإمام أبوحنيفة إلى عدم جواز الحجر على السفيه؛ لأن الآية أجازت مداينة السفيه وحكمت بصحة إقراره في مداينته ؛ وإنما خالفت بينه وبين غيره في إملاء الكتاب لقصور فهمه عن استيفاء ما له وعليه مما يقتضيه شرط الوثيقة[١].

- في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ دليل على اشتراط الإسلام في الشهود، لأن الخطاب في الآية كان متوجهاً للمؤمنين، فاقتضى ذلك أن يكون الإيمان شرطاً في الشهادة بين المسلمين.

- دلت الآية على جواز شهادة النساء في الأمور المالية، وزاد الأحناف شهادتهن في الطلاق والنكاح والرجعة. قال الجصاص: "ظاهر هذه الآية يقتضي جواز شهادتهن مع الرجل في سائر عقود المداينات؛ وهي كل عقد واقع على دين سواء كان بدله مالاً أو بضعاً أو منفع أو دم عمد لأنه عقد فيه دين ....فاقتضى ذلك جواز شهادة النساء مع الرجل على عقد نكاح فيه مهر مؤجل إذا كان ذلك عقد مداينة وكذلك الصلح من دم العمد والخلع على مال والإجارات"[٢].

- دل قوله تعالى: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ على اشتراط العدالة في الشهود، والعدالة: محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة[٣]، قال في المغني: «الشاهد

---

(١) لتفصيل رأي الجمهور انظر: المغني لابن قدامة ٤/ ٢٩٥، والحاوي الكبير للماوردي ٦/ ٣٥٥، والكافي لابن عبد البر ١/ ٤٢٣. وانظر لرأي الإمام: البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٨/ ٩١والمبسوط للسرخسي٢٤/ ٢٥٧. وقد نظر الجمهور إلى أهمية المال والمحافظة عليه، أما أبوحنيفة رحمه الله فقد رجح الحرية الإنسانية والكرامة البشرية.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢٣٢.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٤/ ١٢٨.

يعتبر فيه أربعة شروط؛ الإسلام والبلوغ، والعقل، والعدالة، وليس فيها ما يخفى ويحتاج إلى البحث إلا العدالة فيحتاج إلى البحث عنها؛ لقول الله تعالى: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾، ولا نعلم أنه مرضي حتى نعرفه، أو نخبر عنه»[1].

وفي كتب الفقه وغيرها ذِكْر الأمور التي تنخرم بها العدالة.

- قوله: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ دليل على تفويض القبول في الشهادة إلى الحاكم؛ لأن الرضا معنى يكون في النفس بما يظهر إليها من الأمارات عليه، ويقوم من الدلائل المبينة له، ولا يكون غير هذا؛ فإنا لو جعلناه لغيره لما وصل إليه إلا بالاجتهاد، واجتهاده أولى من اجتهاد غيره[2].

- في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾[٢٨٢] دليل على منع الإباء من أداء الشهادة، فإذا طلب القاضي الشاهد لزمه الأداء.

- قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وهذا دليل على مشروعية الإشهاد على المبيع، وذهب الظاهرية وجماعة إلى الوجوب لظاهر الآية، وذهب الجمهور إلى الندب. قال ابن العربي: «وهو الصحيح ؛ فقد باع النبي ﷺ وكتب ونسخة كتابه: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبداً أو أمة لا داء ولا خبثة ولا غائلة، بيع المسلم المسلم)[3].

- في آية الدين قواعد فقهية عظيمة؛ منها ما توصل إليه القانون الوضعي مؤخراً وعدها من مفاخر تشريعاته وهي موجودة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن ذلك نظرية الالتزام

---

(١) المغني لابن قدامة ١٠/ ١٠٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٣٦.

(٣) أحكام القرآن ١/ ٣٤٢،والحديث المذكور أخرجه البخاري تعليقاً في البيوع باب رقم ٩ والمراد بالخبثة أي: الحرام، والغائلة: السرقة والإباق. قال النووي في الندب: وبهذا قال جمهور الأمة من السلف والخلف.المجموع للنووي ٩/ ١٤٦، وانظر لمذهب القائلين بالوجوب: المحلى لابن حزم ٨/ ٣٤٤.

بالكتابة، وإثبات الدين التجاري، وتحريم الامتناع عن تحمل الشهادات.

ومن هذه القواعد ما لم تصل إليه التشريعات الحديثة رغم كثرة ووفرة المؤسسات التشريعية و الاجتماعية، وذلك مثل حق الملتزم في إملاء العقد، أي أن يكتب الطرف الضعيف العقد كما قررت الآية؛ فإن في هذا حماية له من الاستغلال، ولم تصل المدنية المعاصرة بعد إلى هذه الدرجة، فمازالت عقود الإذعان هي السائدة في العلاقة بين البائع والمشتري وبين العامل وصاحب العمل وغير ذلك، وهذا مما يدل على سمو هذه التشريعات وعظمتها[١].

- مشروعية الرهن. وهو الذي يجعل وثيقة بالدين ليستوفى من ثمنه إذا تعذر استيفاء الدين من المدين. وهو مشروع بنص الآية وبالسنة العملية وبالإجماع.

- ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الرهن غير واجب؛ قال ابن قدامة: «والرهن غير واجب، لا نعلم فيه مخالفا، لأنه وثيقة بالدين، فلم يجب كالضمان والكتابة، وقول الله تعالى : ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ ﴾ إرشاد لنا، لا إيجاب علينا، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾»[٢].

- الرهن جائز في الحضر كما هو جائز في السفر باتفاق، والقيد الذي في الآية خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.

- الرهن عند جمهور الفقهاء لابد أن يكون مقبوضاً، قال تعالى: ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ ﴾ خلافاً لمالك الذي جعله من شروط التمام لا من شروط الصحة[٣].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الحرص على الصدقة؛ لأن الله تعالى يربيها ويزيدها للمسلم، وفي الصحيح: «من تصدق

---

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي للأستاذ عبد القادر عودة ١/ ٥٥ وما بعدها

(٢) المغني لابن قدامة ٤/ ٢١٥.

(٣) المبسوط للسرخسي ٢١/ ٦٨، بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٢٠٦.

بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[١].

- فضيلة إنظار المعسر، والتجاوز عنه بالحط من دينه أو بتأخير المطالبة، وهذا العمل له من الله الأجر الجزيل، قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)[٢].

- من الأخلاق الإسلامية التي يجب مراعاتها: العدل. سواء كان في الكتابة أو الإملاء، قال تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [٢٨٢]، وقال:﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [٢٨٢] فبالعدل تُحفَظ الحقوق وتؤدَّى، وبالعدل يمتنع الغش والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ دليل على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم، وهذا أمر انبنى عليه الشرع، وعمل به في كل زمن، وفهمته كل أمة، ومن أمثال العرب:" في بيته يؤتى الحكم"[٣].

- من الآداب الإسلامية العظيمة: عدم المضارة. فيجب إزالة الضرر، وقد نهت الآية عن الضرر وبينت أن فعله فسوق يعني خروج عن طاعة الله، وقد قال النبي: (لا ضرر ولا ضرار)[٤]، أي لا يضر المرء بقصد أو بدون قصد. وهذا من القواعد الفقهية المهمة، وقد فرعوا عليها

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٤٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٤ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٦٣ عن أبي قتادة مرفوعاً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٣٦ وعنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٥٣. والمثل مما زعمته العرب على ألسن البهائم. انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٣٤٥ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٦٩ والدارقطني في سننه ٣/ ٧٧ عن أبي سعيد. قال الحافظ العلائي: «للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتج به». انظر: فيض القدير للمناوي ٦/ ٤٣٢.

عدة قواعد منها: الضرر يزال، الضرر لا يزال بمثله، الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف، الضرر يدفع بقدر الإمكان.

- الحرص على عدم تضييع المال، فإن الله جعله قياماً بأمر الناس.

- الحرص على أداء الأمانة لمن ائتمن أخاه.

د- الجوانب التربوية:

- المعاقبة بنقيض المقصود؛ فالمرابي الذي أراد أن يجمع الأموال الكثيرة يعاقب بضد ما قصد، فيمحق الله ماله.

- إثبات أن الإسلام نظام شامل كامل يتناول كل مظاهر الحياة؛ فأطول آية من آيات القرآن الكريم لم تأت لتقرير الصلاة أو الزكاة وغيرها من العبادات المحضة، وإنما جاءت لتقويم الأمور المالية من البيع والشراء والقرض وغيرها من أمور المعاملات، وهذا برهان واضح على أن الإسلام دين يشمل كل نواحي الحياة ويصبغها بالصبغة الإلهية.

- لعل في التأكيد على كتابة الديون والتشديد في ذلك إشارة إلى ضرورة تعلم أفراد الأمة الكتابة إلا من تعسر عليه ذلك لعجز أو نحوه، والله أعلم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

لهذه الآيات الكريمة صلة قوية ومباشرة بمحور السورة؛ فالحفاظ على المال لا يتم إلا بتحريم الربا تحريماً واضحاً لا لبس فيه، وهو يشير من جانب آخر إلى اليهود الذين استحلوا الربا كما قال تعالى: ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ [النساء/ ١٦١].

كما أن آية الدين التي هي أطول آية في القرآن قد سدت كل أبواب التحايل على الربا، وأغلقت منافذه، فلم يعد هناك مجال للتلاعب بالرهن أو غيره للزيادة على رأس المال.

وفي الآيتين مناسبة جليلة لمحور السورة، لفت النظر إليها بعض الباحثين فقال: " إن النظر في هاتين الآيتين من هذه الناحية يكشف لنا أنهما كما تتمتعان بحسن المناسبة وحسن

النظام في إطارهما الخاص، تنسجمان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وبيانه أن أفظع جريمة اقترفها بنو إسرائيل - كما نعلم من هذه السورة- هي أنهم نقضوا العهد وكتموا الشهادة. والآيات الصريحة في ذلك كما يلي:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [٢٦،٢٧]

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[٤٠]

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[١٠٠]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [٨٣]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [٨٤، ٨٥]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [٦٣،٦٤]

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٠]

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٤٦]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[١٥٩]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٧٤]

تلك آيات تسجل على بنو إسرائيل نقض العهد والميثاق وتسجل عليهم كتمان الحق وكتمان الشهادة بالنص على هذه الكلمات، وإلا فالآيات التي تفيد هذا المعنى وتشير إلى هذه الجريمة، أكثر منها مرات ومرات.

ثم لما بعثت هذه الأمة لتقوم بدورها في هذا العالم ناداها ربها بتلك الكلمات:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١٤٣]

وهكذا نرى هذه السورة يسودها جو العهد والميثاق وجو أداء الشهادة والقيام بالحق فأمة وصمت بأنها نقضت العهد والميثاق وكتمت الشهادة وكتمت الحق.

وأمة بعثت لتقوم بمهمة الشهادة على الناس، كما أن الرسول بعث ليقوم بمهمة الشهادة على هذه الأمة.

فلنرجع إلى هاتين الآيتين مرة أخرى لنراهما كيف تنسجمان تمام الانسجام مع هذا الجو العام لهذه السورة.

وإن كنا نريد أن ندرك هذا الانسجام التام فلا يكلفنا هذا أكثر من أن نضع في اعتبارنا هذه التوجيهات التي تشتمل عليها هاتان الآيتان.

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾
﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾
﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾
﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾
﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ فقد تكررت لفظة ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ بمختلف مشتقاتها في آيتين اثنتين ثماني مرات.

وتلك ميزة تتميز بها هاتان الآيتان من بين سائر آيات القرآن، فإننا لا نجد في القرآن آيتين تكررت فيهما لفظة الشهادة كما تكررت في هاتين الآيتين.

وهذا الوضع يكفي لأن يلون جو الآيتين بلون ﴿ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل جمع السياق في هاتين الآيتين جميع مقومات الشهادة أو عيون مقومات الشهادة، فلنتدبر هذه التوجيهات:

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾
﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾
﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾
﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾
﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾

﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ فقد جمع الله في هذه التوجيهات - كما نرى- سنَ الشهادة: وهو أن يكون الشاهد قد بلغ مبلغ الرجال، ونصاب الشهادة: وهو رجلان أو رجل وامرأتان. ومقومات الشهادة: وهو العدل والقسط والأمانة والتقوى"[1].

---

(١) البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد أسد ٣٨٦-٣٨٨.

وقد نقلت الكلام بطوله لأهميته، ولأنه يكشف عن نظرة عميقة متدبرة لهاتين الآيتين وصلتهما بمحور السورة العام؛ فقد بين أن في هاتين الآيتين سبب سلب الخلافة والقوامة من بني إسرائيل، وفي نفس الوقت فإنه يحذر على أمة الإسلام الخاتمة أن تقع فيما وقع فيها السابقون.

وإننا نلاحظ أن هذه السورة قد حذرت المسلمين من مثالب بني إسرائيل؛ فإذا كانوا لم يتقوا الله بعد أن ذُكِّروا بالتقوى أكثر من مرة فإن المؤمنين جاءهم الأمر بالتقوى في أكثر من موطن، ولما جبنوا عن القتال حذر الله المسلمين من هذا الصنيع في أكثر من موطن. ولما فهموا البر فهما خاطئاً فصَّل القرآن للمسلمين مفهوم البر الصحيح وهكذا.

خاتمة السورة [٢٨٤-٢٨٦]

دعاء وإجابة

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

المناسبة بين الخاتمة والمقطع السابق:

- جاء في ختام سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) وهذا تذكير بأن أخذ الديون وردها أو أكلها سحتاً لن يخرج عن ملكوت الله تعالى وتقديراته، وفيه كذلك ترهيب من كتمان الشهادة لأنه سبحانه يحاسب على ما أبدت النفوس وكتمت.

وختام السورة يعرض لما يجول في النفوس، وهذه الخواطر لها علاقة وثيقة بالديون: من حيث نية الأداء أو نية الإتلاف فالنية وما يدور في النفس هو ما عليه مدار الحساب.

وفي الآيات السابقة تفاصيل لأحكام كثيرة في الدين والرهن مما يناسب التعقيب عليها بالسمع والطاعة، كما في ختام السورة ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.

والدين عبء وهمٌّ يناسب أن يأتي بعده الدعاء برفع الأثقال التي قد يدخل في جملتها.

ولما ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ جاء في أول هذه الآيات الدليل على ذلك وهو ملك ما في السموات والأرض.

وفي وجه المناسبة بين الآية الأولى وما قبلها من التشريعات المالية يقول الألوسي: "وقوله

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من الأمور الداخلة في حقيقتها والخارجة عنها كيف كانت؛ أي كلها ملك له تعالى ومختصة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحد أن يقول المال مالي أتصرف به كيف شئت"[(١)].

وهذه التشريعات المالية أثر من آثار رحمة الله بالأمة والتخفيف عليها وعدم تكليفها ما لا طاقة لها به.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تمثل هذه الآيات الثلاث ختام سورة البقرة، وقد جمعتهم معاً عدة أحاديث منها ما ورد عن أُبيٍّ قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله، إن لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه؟ قال: به لمم، قال: فأتني به. فوضعه بين يديه، فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨]وآية من الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف:٥٤]وآخر سورة المؤمنون ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون:١١٦] وآية من سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [الجن:٣] وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قط[(٢)]. وورد عن ابن مسعود أنه قال: «من قرأ الثلاث الأواخر من سورة البقرة فقد أكثر وأطاب»[(٣)].

ومما يؤكد ارتباط الآيات الثلاث أن حديث التخفيف قد وردت فيه الآيات الثلاث متصلة المعاني، فدل ذلك على ارتباطها ووحدة موضوعها. وهذا لا ينفي اختصاص الآيتين

---

(١) روح المعاني للألوسي ٣/ ٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٢٨، والحاكم برقم/ ٨٢٦٩ وقال: والحديث محفوظ صحيح ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الخطيب في تلخيص المتشابه. الدر المنثور ٢/ ١٣٩. وفيه عدة روايات عن فضل قراءة الآيات الثلاث من خواتيم سورة البقرة.

الأخيرتين بفضلٍ؛ فإن فيهما دعاء وذكراً وثناء يحتاج المسلم أن يقرأه ويتدبره ويلهج لسانه به.

والآيات تبين أن المولى تبارك وتعالى له جميع ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهذا يتطلب توحيد ربوبيته وألوهيته، ويتضمن أن السؤال والرغبة يكون له فهو المالك لما في السموات والأرض، وبعد أن أخبر الله عن تمام ملكه أخبر عن تمام علمه فبين سبحانه أن كل ما أخفاه الإنسان أو أبداه فإن الله مطلع عليه لا يعزب عن علمه من شيء فيغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من شاء بعدله وهو سبحانه على كل شيء قدير.

ولذلك لما نزلت الآية أشفق الصحابة ووجلوا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا: يا رسول الله، كُلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، آمن الرسول ...الآية) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الآية[(١)].

والنسخ في الآية لا يراد به رفع الحكم الشرعي، وإنما جرى على مصطلح الأولين الذين يطلقون النسخ على كل تغيير في الحكم، قال ابن تيمية: «والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه؛ فمن فهم أن الله يكلف نفسا ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه؛ فقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾رد للأول، وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ رد للثاني"[(٢)].

وعلى هذا فلا نسخ في الآية، وقد رجح الطبري هذا ثم قال في تأويلها: «وإن تبدوا ما في

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٢٥ عن أبي هريرة.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٠٦ وقال القرطبي: «ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ». الجامع لحكام القرآن ٤/ ٤٨٨.

أنفسكم أيها الناس فتظهروه، أو تخفوه فتنطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرِّف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه ومغفرته له فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه ونبوة أنبيائه»(١).

ثم تناغمت خاتمة السورة مع مقدمتها، واتصل آخرها بأولها اتصالاً محكماً وثيقاً، وارتبطت الخاتمة مع المقدمة ارتباطاً محبوكاً يصل بينهما ويحيط بالسورة إحاطة السوار بالمعصم؛ فقد جاء الوعد في أول السورة بالهدى والفلاح لمن أطاع أوامر الله فيها، وها هي نتيجة ذلك الوعد تتحقق، فتذكر الآية جزاء من استمع واتبع، فبينت الآية نجاح الدعوة وأن رسالة النبي ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها؛ فقد صدَّق الرسولﷺ وأتباعه من المؤمنين بما أنزل إليه ربه في هذه السورة من عقائد وعبادات وأحكام.

ثم شهد الله بالإيمان الكامل الذي اعتقده الرسول ﷺ فيما أنزل إليه من عند ربه، ثم جمعه هو والمؤمنون في فضيلة الإيمان بالكتاب وبأصول الإيمان الخمسة من التصديق بوحدانية الله وعظمته وبوجود الملائكة الكرام، والكتب المنزلة لهداية البشر، وبالرسل الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. وهم يقرون بعدم التفريق في الإيمان بين رسول الله، وبذلك باينوا أهل الكفر ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض.

وبهذا ترث الأمة الإسلامية هذا الرصيد الإنساني الطويل، وتعلن بوضوح أنها الأمينة على دين الله وشرعه، والحاملة لمنهجه في الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم أقر المؤمنون بركني الإيمان فقالوا: سمعنا قولك يا ربنا سماع فهم وقبول وإجابة ولم نقل كما قال المغضوب عليهم، بل امتثلنا أمرك وأظهرنا انقيادنا لحكمك وشرعك، وإنا مع هذا قد تغلبنا دواعي نفوسنا ولن يصلح أمرنا إلا مغفرتك فاغفر لنا غفرانك، إذ لابد لنا من الرجوع إليك؛ فإليك وحدك المرجع والمرد والمصير.

---

(١) جامع البيان للطبري ٦/ ١٢٣ وقد روي عن ابن عباس ما يؤيد هذا ٦/ ١١٣.

ثم وفت الآية بالوعد لكل نفس بذلت وسعها في إتباع هذه التكاليف بعد أن بينت أن التكليف لا يكون إلا بما في الوسع المستطاع وما تقدر عليه، دون ما فيه عسر وحرج ومشقة، قال سفيان بن عيينة: "إلاّ يسرها لا عسرها، ولم يكلّفها طاقتها ولو كلّفها طاقتها لبلغ المجهود منه". قال الثعلبي : وهذا قول حسن لأنّ الوسع ما دون الطاقة(١).

ثم أخبر أن ثواب الأعمال إنما يرجع نفعه إلى العباد وحدهم؛ فإن كل نفس لها وحدها ما كسبت من حسنات بسبب الطاعة وعليها عقاب ما كسبت بسبب المعاصي.

وبعد هذا فتحت الآية باب الأمل على مصراعيه لهؤلاء الذين اهتدوا، فإنه جملة هذه الأوامر والنواهي في السورة قد يحدث فيها تقصير أو خطأ بمقتضى الطبيعة البشرية، فعلمتهم أن يرفعوا أكف الضراعة لربهم قائلين: أي رب لا تعاقبنا إن نسينا أوامرك أو فعلنا خلاف الصواب جهلاً منا، ربنا لا تكلفنا بما يشق علينا كما كلفت الذين هادوا بسبب ظلمهم، قال الرازي « والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير، والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله تعالى فلا جرم التمسوا السهولة في التكاليف»(٢).

وبعد أن سألوا ربهم التخفيف في حكمه وأمره سألوه التخفيف في قضائه وقدره؛ فدعوا ربهم ألا يحملهم ما هو فوق وسعهم وقدرتهم من المصائب والعقوبات وغير ذلك، ثم سألوا ربهم أربعة أمور بها صلاح دنياهم وأخراهم:

أولها: أن يعفوا عنهم بمحو سيئاتهم وإسقاط حقه عليهم، وثانيها: أن يغفرها ويسترها، والمغفرة وقاية، فهم يسألونه أن يقيهم أثر ذنوبهم، فالعفو إسقاط الذنب، والمغفرة تفضل وإحسان. ثم سألوه ثالثاً: أن يرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء، فهي زيادة إحسان وعطف. ثم ختموا دعاءهم بهذه الكلمة المعبرة: أنت ولينا ولا مولى لنا سواك، وناصرنا ومعيننا وكافينا

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢/ ٣٠٦.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٧/ ١٢٧ .

وهادينا، فانصرنا ربنا على القوم الكافرين حتى نتمكن من إظهار دينك وإعلاء كلمتك. والنصر له جانبان: «بإقامة الحجة والغلبة في قتالهم»[١]. وبهذا تختم السورة بهذا الختام الطيب، «إنه الختام الذي يلخص السورة، ويلخص العقيدة، ويلخص تصور المؤمنين، وحالهم مع ربهم في كل حين»[٢].

وفي الصحيح من حديث ابن عباس عن النبي ﷺأنه قال: (أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته)[٣]، وعن ابن مسعود قال: (لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً المقحمات)[٤].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- احتج أهل السنة بقوله تعالى ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ على جواز غفران ذنوب أصحاب الكبائر؛ لأن المؤمن المطيع مقطوع أنه يثاب ولا يعاقب، والكافر مقطوع بأنه يعاقب ولا يثاب، والآية لم تذكر صيغة القطع فدل ذلك على أنها لصنف آخر وهم المؤمنون المذنبون.

- ذهب جمهور الأشاعرة إلى جواز التكليف بما لا يطاق؛ قال الإيجي: "تكليف ما لا يطاق جائز

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص٦٤.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٤٧.

(٣) سبق تخريجه ص ١٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ١٧٣. والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها. النهاية لابن الأثير٤/ ١٩.

عندنا، ومنعه المعتزلة لقبحه عقلا"[١]. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وفي دعاء المؤمنين ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ وقال الله: قد فعلت. وهذا يشهد لعدم جوازه، والصحيح التفصيل: فإن ما لا يطاق يفسَّر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلف الله به أحداً، وما لا يطاق يفسر بالاشتغال بضده، وهذا وقع فيه التكليف.

ب- الأحكام الشرعية:

- اتفق العلماء على أن حديث النفس معفو عنه، أما العزم المصمم فإنه يدخل تحت المجازاة، وقد رتب درجات الدواعي أبو البقاء الكفوي فقال: «السانح ثم الخاطر ثم الفكر ثم الإرادة ثم الهم ثم العزم فالهَمّ اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه. والعزم هو القصد على إمضائه، فالهم فوق الإرادة دون العزم وأول العزيمة، والهم همّان: همٌّ ثابت؛ وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضا؛ مثل هَمِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به. وهمٌّ عارض؛ وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم؛ مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو لم يعمل؛ لأن تصور المعاصي والأخلاق الذميمة لا يعاقب به عليها ما لم توجد في الأعيان، وأما ما حصل في النفس حصولاً أصلياً ووجد فيها وجوداً عينياً فإنه يوجب اتصاف النفس كالكيفيات النفسانية الردية فقد يؤاخذ بها لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾»[٢]. وهو تلخيص جيد لأقوال العلماء في المسألة والله أعلم.
- قال الكيا الهراسي: «قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ يستدل به على أن من قتل غيره بمثقل أو بخنق أو تغريق فعليه ضمانه قصاصاً أو دية، خلافاً لمن جعل ديته على العاقلة، وذلك يخالف الظاهر، ويدل على أن سقوط القصاص عن الأب لا يقتضي سقوطه

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي ٣/ ٢٩٢. وانظر للتفصيل: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/ ٥٣، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٩٣.
(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ص٩٦٠،٩٦١.

عن شريكه.ويدل على وجوب الحد على العاقلة إذا مكّنتْ مجنوناً من نفسها"[١].

- دل قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وقول الله: قد فعلت. على أن النسيان مسقط للإثم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ:(إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٢]. قال الشاطبي: «وهو معنى متفق عليه في الجملة لا مخالف فيه»[٣].

أما في الدنيا فإن وقع النسيان في ترك مأمور لم يسقط ويجب تداركه، ولا يحصل الثواب المترتب عليه لعدم الائتمار كنسيان فرض من فروض الصلاة ونحو ذلك. وإن وقع النسيان في فعل منهي عنه ليس من باب الإتلاف فلا شيء فيه؛ وذلك كأكل الصائم. أما إن وقع في فعل منهي عنه فيه إتلاف لم يسقط الضمان، فإن وقع في فعل منهي عنه يوجب عقوبة كان النسيان شبهة في إسقاطها.

- ودلت الآية أيضاً على أن الخطأ معفو عنه؛ قال الشاطبي: « فكل فعل صدر عن غافل،أو ناس،أو مخطئ، فهو مما عفي عنه، وسواء علينا أفرضنا تلك الأفعال مأموراً بها أو منهياً عنها أم لا؛ لأنها إن لم تكن منهياً عنها ولا مأموراً بها ولا مخيراً فيها فقد رجعت إلى قسم ما لا حكم له في الشرع وهو معنى العفو»[٤].

واتفق العلماء على أن الخطأ يرفع الإثم عن المجتهد، وأنه شبهة تدرأ الحدود، لكن حقوق العباد لا يرفع فيها الخطأ الإثمَ، قال الزركشي: « وكل ما أخطأت بينك وبين ربك فغير مؤاخذ به ، وأما الخطأ المتعلق بالعباد فيضمنه»[٥].

---

(١) أحكام القرآن للكيا الهراسي ١/ ٢٧٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم/ ٢٨٠١ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٢١٩، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٠٤٥، قال ابن حجر: ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعلة غير قادحة.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢/ ٣٤٧.

(٤) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ١/ ١٦٥.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١/ ٢٨٣

- لا يجوز تصرف أحد على غيره إلا بإذنه.

- قال ابن حزم: «وكل فرض كلفه الله تعالى الإنسان فإن قدر عليه لزمه وإن عجز عن جميعه سقط عنه وإن قوي على بعضه وعجز عن بعضه سقط عنه ما عجز عنه ولزمه ما قدر عليه منه سواء أقله أو أكثره.برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ "[1].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من أخلاق الإسلام: اليسر، ورفع الحرج والضيق، وعدم المشقة والإعنات على الناس أو النفس.

- المؤمن يحرص أن يسأل ربه المغفرة في كل وقت وحين، وليكن قدوته في ذلك رسول الله فقد قال: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[2].

-كل إنسان مسؤول عن فعله، والتكليف فردي ﴿كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ والجزاء فردي ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- لقوله تعالى ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ دلالة تربوية؛ فالمؤمن إذا علم أن الله لا تخفى عليه خافية في نفسه، ويعلم خلجات فؤاده، دفعه ذلك إلى مراقبة الله وألا يخفي شيئاً لا يرضاه.

- من اللفتات الطيبة التي ذكرها الزمخشري قوله: "فإن قلت: لم خص الخير بالكسب ،والشر بالاكتساب؟ قلت: في الاكتساب اعتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[3].

---

(١) المحلى لابن حزم ١/ ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٩٤٨ عن أبي هريرة.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٥٩.

ومعنى كلام الزمخشري رحمه الله أن الخير فطري في النفس، أما الشر فإنه يحتاج إلى تكلف لذلك جاء بصيغة (افتعل) التي تفيد معنى التكلف، وهذا استنباط جيد؛ فالنفس مجبولة على الخير والطاعة، فطرةً من الله أودعت في النفوس، ولا يحتاج الإنسان إلى التكلف في فعل الخير، لأنه منسجم مع نفسه ومع فطرته، ومع ما جبلت عليه النفوس من شكر النعمة ومحبة خالقها، أما الشر فإنه مخالف لأصل فطرة الإنسان، فيحتاج إلى التكلف، والمربي المسلم يلحظ هذا في تعامله مع الناس؛ فيستجيش نوازع الخير فيهم، ويحيي ما اندرس من معالم الإيمان في نفوسهم حتى يتلقوا أوامر الله بالرضا والقبول.

- من آثار العصيان وعدم الاستجابة لأوامر الله أن يشدد الله على العاصين فيحرم عليهم ما كان قد أحله لهم؛ قال تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٠]، أما الطاعة فمن ثمراتها ألا يحمل الله المرء الآصار والأثقال والأغلال.

المناسبة بين الخاتمة ومحور السورة:

لخصت هذه الخاتمة أهم مقاصد السورة وبينت أن تشريعات الإسلام مبناها على التخفيف واليسر ودفع الحرج، وقد سبقت أمثلته الكثيرة في أبواب الصلاة والصيام والحج وغير ذلك. وقد رفع الله الإصر عن المسلمين بسبب طاعتهم وتسليمهم لأمره، بخلاف من قالوا سمعنا وعصينا وقد جازاهم الله ببغيهم فأمرهم بقتل أنفسهم عند التوبة إلى غير ذلك من الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وقد سبق بيان أحوالهم في المقطع الأول.

وللجهاد بالنفس والمال حديث طويل في السورة، وقد جاء الختام ليشير إلى طلب النصر من الله فهو نعم المولى ونعم النصير.

وفي مناسبة هذه الآيات لختام السورة يقول أبو حيان: «وناسب ذكر هذه الآية خاتمة لهذه السورة لأنه تعالى ضمنها أكثر علم الأصول والفروع من: دلائل التوحيد ، والنبوّة ،والمعاد ، والصلاة ، والزكاة ، والقصاص ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والحيض ، والطلاق ، والعدّة ،

والخلع ، والإيلاء ، والرضاعة ، والربا ، والبيع ، وكيفية المداينة.

فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض، فهو يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته.

ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس، وما تنطوي عليه من النيات ، وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة ، نبه على صفة العلم التي بها تقع المحاسبة في الدار الآخرة بقوله ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فصفة الملك تدل على القدرة الباهرة ، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير ، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين ، وغاية الوعيد للعاصين"[١].

وختام السورة بالدعاء تعليم للأمة أن تظل موصولة الصلة بالله كما كان قدوتهم إبراهيم يدعو ربه وهو يبدأ عمله وهو ينتهي منه، فحق لهم كذلك إذا ختمت سورة الأحكام العظيمة أن يتضرعوا إلى الله بالمغفرة والقبول.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٣٧٥.

سورة آل عمران

أولاً: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

سورة آل عمران لها أكثر من اسم؛

فاسمها المشهور هو: (آل عمران)، وقد وردت تسميتها بهذا الاسم في عدة أحاديث صحيحة[1].

وسبب تسميتها بسورة آل عمران لأن فيها ذكر قصة آل عمران من بدايتها، حيث جاء فيها قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[آل عمران:٣٣][2]، وجاء فيها بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[آل عمران:٣٥]، ولم يرد مثل هذا في غير هذه السورة، فلفظ ﴿ عِمْرَٰنَ ﴾ الذي في سورة التحريم يتحدث عن مريم عليها السلام ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم:١٢]. الجدير بالذكر أن هذه السورة هي الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم عليهم السلام. يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم (آل عمران) فيه إشارة عظيمة في الردّ على النصارى الذين ألّهوا عيسى عليه السلام، فهو يشير إلى أصل عيسى عليه السلام البشري، فهو من (آل عمران)، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله، والله أعلم.

---

(١) فقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٥)، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ: (قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ)، البخاري، كتاب الوضوء، باب: قراءة القرآن بعد الحدث وغيره برقم (١٨٣)، وانظر البخاري: (٩٩٢)، (١١٩٨)، (١٧٥٠)، ومسلم (٢٥٦)، (٧٢٧)، (٧٦٣)، وغيرها كثير.

(٢) جملة (آل عمران) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في هذا الموضع.

وتسمى: (الزهراء)، فهي وسورة البقرة تسميان بالسورتين (الزهراوين)[١]، وقَالُوا: سُمِّيَتَا الزَّهْرَاوَيْنِ لِنُورِهِمَا وَهِدَايَتِهِمَا وَعَظِيمِ أَجْرِهِمَا[٢]، ويقال لكل مستنير: زاهر[٣]، أو لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما أي: معانيهما، أو لما يترتب على قراءتهما من النور التامّ يوم القيامة، أو لاشتراكهما في اسم الله الأعظم[٤].

وتسمى: (الكنز)، كما سمّاها عبد الله بن مسعود ﷺ، حيث قال: (نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ بِهَا فِي آخِرِ اللَّيْلِ)[٥].

وقيل: تسمى في التوراة: (طَيْبَة)[٦]، ولعله وصف لها[٧].

وتسمى كذلك: سورة الأمان، والمعينة، والمجادلة، وسورة الاستغفار[٨].

ب- فضائلها:

سورة آل عمران سورة عظيمة من سور القرآن - وكل سوره عظيمة -، وهي إحدى

---

(١) ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)، صحيح مسلم (٨٠٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٩-٩٠).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، (١/ ١٨).

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٨).

(٥) رواه الدارمي، في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٨).

(٦) نسبه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٤٠) وفي الإتقان (١/ ١٥١) لسعيد بن منصور في سننه عن أبي عطاف، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٣٩٦) والقرطبي في الجامع (٤/ ١) للنقاش.

(٧) جاء في سنن الدارمي، كتاب: فضل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٩): (... قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: هَلَكَ وَاللَّهِ الرَّجُلُ، قَالَ: فَافْتَتَحَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، قَالَا: فَقَرَأَ سُورَةً طَيِّبَةً لَعَلَّهُ سَيَنْجُو، ...). فلعل تسميتها بطيبة جاءت من هنا.

(٨) ذكر هذه الأسماء أبو حيان في البحر المحيط (٢/ ٣٨٩)، والآلوسي في تفسيره روح المعاني (٣/ ٧٣).

السورتين الزهراوين، اللتين تأتيان يوم القيامة تحاجّان عن صاحبها، وتظلاّنه يوم القيامة[1]، وقد وصفها النبي ﷺ بثلاثة أوصاف، فقال: (اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)[2]، (تقولان: ربنا لا سبيل عليه)[3].

وقد روي عن ابن مسعود ﷺ أن اسم الله الأعظم في هاتين السورتين الزهراوين، جاء في الأثر: (قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَقَالَ: قَرَأْتَ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)[4]. وعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ وفاتحة آل عمران ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾)[5].

كما روي أن النبي ﷺ عوّذ بعض أصحابه بآيات من سورة آل عمران، فعن أبي ليلى قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ جاءه أعرابي فقال: إن لي أخاً وجعاً، قال: (ما وجع أخيك؟) قال: به لمم، قال: (اذهب فأتني به)، قال: فذهب فجاء به فأجلسه بين يديه، فسمعته عوذه بفاتحة الكتاب... وآية من آل عمران أحسبه قال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ...، فقام الأعرابي قد برأ ليس به بأس[6].

---

(١) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٤)، وانظر رقم (٨٠٥).

(٣) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩٤).

(٤) المرجع السابق، برقم (٣٣٩٣).

(٥) المرجع السابق، كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات، برقم (٣٤٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) سنن ابن ماجة، كتاب الطب، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه، برقم (٣٥٤٩)، ومسند الإمام أحمد، في مسند الأنصار، برقم (٢٠٦٧٠).

كما أن سورة آل عمران من السور السبع الطوال[1]، وهي السور التي قام بها النبي ﷺ في صلاة الليل، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات[2].

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة آل عمران مدنية باتفاق[3]، ومواضيع السورة ومحاورها تدل على ذلك، ولم أقف على خلاف في مدنيتها. على أن السورة تتناول إثبات وحدانية الله تعالى، وهذا الموضوع من خصائص السور المكية، لكن الجانب الذي تتناوله هنا هو من منطلق الحوار مع النصارى من أهل الكتاب خاصة، كما سيأتي بعد قليل.

د. عدد آياتها:

عدد آياتها: مائتا آية باتفاق[4]، لكن اختلف في تقسيم سبع آيات، عدّها بعضهم، وعدّ الآخرون غيرها بدلاً منها[5].

هـ: محور السورة:

بسبب حجم السورة الكبير فقد تناولت عدداً كبيراً من الموضوعات، كما سيأتي، إلا أن

---

(١) روي في مسند الإمام أحمد برقم (٢٣٩٢٢) أن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ)، يعني السبع الطوال، والحديث فيه مقال، لكن معناه صحيح، ففي السبع الطوال علم وفقه كثير، والله أعلم.

(٢) مسند الإمام أحمد، في باقي مسند الأنصار، باب حديث حذيفة بن اليمان، برقم (٢٢٧٨٩).

(٣) تفسير ابن زمنين (١/ ٢٧٤)، والبيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٣٣-١٣٤)، والمحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٩٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (١/ ٥)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٥١).

(٤) البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٤٣).

(٥) انظر تفصيل ذلك في: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص١٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة، للدمياطي (ص٢١٨).

محور السورة العام هو إثبات وحدانية الله تعالى[1]، وإقامة الأدلة عليه نقلاً وعقلاً.

والحقيقة أن أكثر سور القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع من جانب أو آخر، ولا غرو، فإن أسّ الخلاف مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار هو ابتداء في هذه الحقيقة، كما سيأتي. وأما سبب اهتمام هذه السورة به فهو لأن مقصود السورة الأعظم تقرير كون عيسى عليه السلام عبد الله[2].

وقد تناولت السورة أيضاً جوانب تتعلق بذلك من مناقشة أهل الكتاب - خصوصاً النصارى -، وتحذير الكافرين من الاغترار بالدنيا من أموال وأولاد، وتحذير المسلمين من موالاتهم، وبيان حقيقة الدنيا وتقلّبها، والتقليل من شأن مصائبها من موت وجراحات ونقص أموال، وبيان حقيقة الموت والترغيب في أن يكون في سبيل الله تعالى.

وقد ركزت السورة على مسألة التوحيد وما يتعلق بذلك من صفات لله تعالى، بل إن سورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فصل فيها بين الأحرف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم، فقد فصل بينهما بالتأكيد على وحدانية الله تعالى وأنه حي قيوم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾. بينما في باقي سور المصحف الشريف التي افتتحت بالحروف المقطعة يأتي الحديث عن القرآن الكريم مباشرة بعد الأحرف

(١) ترددت كثيراً في الجزم بهذا، إلى أن وقفت على قول البقاعي بذلك في نظم الدرر (٤/ ١٩٥-١٩٦) حيث قال ما نصّه: (المقاصد التي سيقت لها هذه السورة: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة إليه وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة. هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه ...)، وسمّاها في موضع آخر (٥/ ١٤٤): {سورة التوحيد}، وانظر كذلك: (٥/ ١٥٤). وتحدث في أثناء التفسير عن مقاصد أخرى.

(٢) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/ ٥٤٩).

المقطعة[1].

(١) قال ابن كثير: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء). تفسير ابن كثير، دار الفتح (١/ ٢٢٧).
وهذا صحيح، فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾.
وقال في سورة الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾.
وقال في سورة يونس: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾.
وقال في سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.
وقال في سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة الرعد: ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾.
وقال في سورة إبراهيم: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.
وقال في سورة الحجر: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾.
وقال في سورة طه: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾.
وقال في سورة الشعراء: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة النمل: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾.
وقال في سورة القصص: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.
وقال في سورة لقمان: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.
وقال في سورة السجدة: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.
وقال في سورة يس: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾.
وقال في سورة ص: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾.
وقال في سورة غافر: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.
وقال في سورة فصلت: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾
وقال في سورة الشورى: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.
وقال في سورة الزخرف: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾.
وقال في الدخان: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾.
وقال في الجاثية: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. =

والدلائل على هذا المحور في السورة كثيرة جداً؛ فقد ذكرت شهادة توحيد الله تعالى في هذه السورة صراحة خمس مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ [آية: ٢]، وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آية: ٦]، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آية: ١٨]، وقوله: ﴿ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [آية: ٦٢]، وهذا الحشد لشهادة التوحيد هو الأكثر تكراراً في القرآن الكريم[1]، كما أن شهادة التوحيد لم تتكرر مرتين في آية

= وقال في سورة الأحقاف: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾.

وقال في سورة ق: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾.

وأما سورة مريم - التي تدور حول تنزيه الله تعالى عن الولد - فلا يوجد فيها حديث عن القرآن الكريم بعد الأحرف المقطعة - صراحة -، وإنما تأتي الإشارات إلى القرآن الكريم ضمن السياق، كما في قوله تعالى ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ ﴾، ثم في قوله تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وتكراره، وقوله سبحانه ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾. ويقال مثل هذا في سورة العنكبوت، والله أعلم.

(١) وردت شهادة التوحيد صراحة في باقي سور القرآن الكريم بتكرار أقل من ذلك، ففي سورة البقرة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٦٣]، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آية: ٢٥٥]، وربما يدخل قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [آية: ١٣٣]. وفي سورة النساء ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ ﴾ [آية: ٨٧]، وفي سورة الأنعام ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٠٢]، ﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[آية: ١٠٦]، وفي سورة الأعراف ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آية: ١٥٨]، وفي سورة التوبة ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [آية: ٣١]، ﴿ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ١٢٩]، وفي سورة يونس على لسان فرعون - ولعلها لا تدخل فيما نحن بصدده -: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [آية: ٩٠]، وفي سورة هود ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آية: ١٤]، وفي سورة الرعد ﴿ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٣٠]، وفي سورة النحل ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [آية: ٢]، وفي سورة طه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [آية: ٨]، ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ [آية: ١٤]، ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٩٨]، وفي سورة الأنبياء ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [آية: ٢٢]،=

واحدة في القرآن الكريم سوى في سورة آل عمران في آية الشهادة المذكورة سابقاً.

كما ذكر في سورة آل عمران الأمر بعبادة الله وأكّد بعدم الإشراك به وعدم اتخاذ البشر آلهة: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آية: ٦٤]، وامتازت السورة عن غيرها بهذا، حيث إن الآيات الأخرى التي دعت إلى عبادة الله تعالى وحده في القرآن الكريم ليس فيها تأكيده بعدم الإشراك به سبحانه وتعالى(١).

وتكرر في السورة إطلاق المشيئة والإرادة لله تعالى وإسناد الأمور له وحده سبحانه،

= ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[آية: ٢٥]، وفيها على لسان ذي النون ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آية: ٨٧]، وفي سورة المؤمنون ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [آية: ١١٦]، وفي سورة النمل ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة القصص ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٧٠]، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [٨٨]، وفي سورة فاطر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [آية: ٣]، وفي سورة الصافات ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [آية: ٣٥]، وفي سورة ص ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الزمر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [آية: ٦]، وفي سورة غافر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آية: ٣]، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [آية: ٦٢]، ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الدخان ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آية: ٨]، وفي سورة محمد ﷺ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آية: ١٩]، وفي سورة الحشر ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [آية: ٢٢]، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ [آية: ٢٣]، وفي سورة التغابن ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آية: ١٣]، وفي سورة المزمل ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [آية: ٩].

(١) ورد الأمر بعبادة الله وحده في باقي سور القرآن الكريم كما يأتي؛ قال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آية: ٨٣]، وفي سورة هود ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [آية: ٢]، ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة فصلت: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آية: ١٤]، وفي سورة الأحقاف ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [آية: ٢١]، والله أعلم.

وذلك بشكل لافت، كما سيأتي ذكره لاحقاً[1].

كما تكرر في السورة أيضاً لفظ الإسلام والمسلمين والفعل ﴿ أَسْلَمَ ﴾ ، أكثر من أي سورة أخرى في القرآن الكريم؛ ففيها: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آية: ١٩]، ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ [آية: ٢٠]، وفيها على لسان الحواريين: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[آية: ٥٢]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين بقوله في حوارهم مع أهل الكتاب: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آية: ٦٤]، وقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آية: ٦٧]، وفيها أيضاً: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آية: ٨٠]، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آية: ٨٣]، وعلى سبيل الأمر للنبي ﷺ بقوله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آية: ٨٤]، وفي قوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آية: ٨٥]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آية: ١٠٢]. كما أن الفعل المشتق من الإسلام لم يتكرر ثلاث مرات في آية واحدة في القرآن الكريم سوى في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ [آية: ٢٠]، والله أعلم.

وذكر في السورة أيضاً: إثبات العلم المطلق لله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آية: ٦٦]، وتصرفه في الكون بمشيئته ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الآيتان: ٧٣-٧٤]، وتنزيه الأنبياء عن الدعوة إلى الشرك كما يزعم النصارى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ

---

(١) ينظر: آخر فقرة المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ [الآيتان: ٧٩-٨٠].

كما تناولت السورة: تأكيد وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آية: ٨١]، ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آية: ٨٤]، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ [آية: ٨٣]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آية: ٨٥].

وفي السورة أيضاً: ذكر حقيقة الموت، وهذا له علاقة بالمحور الرئيس في السورة الكريمة، لأن أول صفة ذكرت لله تعالى في هذه السورة هي ﴿ الْحَيُّ ﴾ ، ولهذه الصفة علاقة مباشرة بالحوار مع النصارى، فعيسى عليه السلام بشر يموت كما يموت البشر[1]، وكما مات من سبقه ولحقه من الرسل، وقد جاء في هذه السورة النص على وفاة عيسى عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آية: ٥٥]، والله أعلم.

ومن الآيات التي جاءت لبيان حقيقة الموت قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

---

(١) اختلف العلماء في وفاة عيسى عليه السلام، وقد ورد نصان صريحان في القرآن الكريم يبتان الوفاة لعيسى عليه السلام؛ ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، واختلف العلماء في معنى الوفاة في الآيتين، والذي أميل إليه أنها الوفاة الحقيقية، وأما حياته في السماء فهي حياة الله أعلم بكيفيتها، هذا ما أراه صواباً، وإن كنت لا أزال أدرس هذه المسألة وأبحث فيها، والله أعلم. وأما نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان فهو ثابت بأحاديث صحيحة لا ينكرها إلا جاحد معاند.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الآيات: ١٤٣-١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آية: ١٦٨]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آية: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آية: ١٨٥].

كما تناولت السورة المال ودوره الهام؛ من حيث الإنفاق[1] والحثّ عليه ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، والدعوة إلى الإنفاق من أجود ما يجد ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ ، والإنفاق في جميع الأحوال ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ . كما تناولت بيان أن المال لا يغني من الله شيئاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾، وتكرار ذلك في آيتين، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾، وبيان تعلّق الناس بالأموال المنقولة وغير المنقولة من متاع الحياة الدنيا، وحثّهم على التعلق بما هو خير من ذلك. وذم البخل والشحّ، وأمر المسلمين بالصبر على الأذى الذي سيلاقونه في أموالهم وأنفسهم من أهل الكتاب.

وهكذا، نرى أن آيات السورة الكريمة تتناول محور السورة الرئيس مباشرة، كما تتناول الموضوعات المرتبطة بالمحور الرئيس، والله أعلم.

وقد انقدح في ذهني مقصد مهم امتازت به هذه السورة الكريمة؛ وهو **المقارنة بين ظواهر الأمور والمتعلقين بها، وحقائق الأمور وعواقبها**، وهذا المقصد له صلة وثيقة بمحور السورة الكريمة، لأن الشبهة في عيسى عليه السلام جاءت بسبب التعلق بظواهر الأمور ونسيان الحقائق الكبرى بكل سذاجة. وأحسب أن هذا المقصد هو من الأغراض الأساسية في سورة آل عمران، وكأن في قوله تعالى في أول السورة: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٧).

مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إشارة إلى هذا المقصد.

يبدو هذا المقصد واضحاً جلياً في عدة مواضع من السورة الكريمة، منها ما يأتي:

بيان وجود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وتعلق أهل الزيغ بالمتشابه، في مقابل إيمان الراسخين في العلم.

تعلق أهل الكفر بكثرة الأموال والأولاد، في مقابل حقيقة أنها لا تغني عنهم من الله شيئاً يوم القيامة.

تعلق فرعون بالقوة والسلطان، في مقابل حقيقة القوة المطلقة لله تعالى.

تعلق الناس بالشهوات من النساء والبنين وقناطير الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والزروع، في مقابل ما هو خير من ذلك؛ الجنات ونعيمها، ورضوان الله تعالى الدائم.

تعلق الناس بأسباب الملك والعزة الظاهرة، في مقابل حقيقة أن الله تعالى يؤتيهما من يشاء وينزعهما انتزاعاً ممن يشاء.

تعلق امرأة عمران بالذكورة وطلبها ولداً ذكراً، مع أن الأنثى التي ستنجبها هي واحدة من أفضل وأكمل النساء على الإطلاق.

ظاهر كبر زكريا عليه السلام وعجزه وظاهر العقم في زوجته، في مقابل حقيقة أن الله يفعل ما يشاء.

تعلق النصارى بظاهر مخالفة العادة في خلق عيسى عليه السلام، في مقابل حقيقة أنه بشر، ولد لأنثى ولو بلا ذكر، وأنه يأكل ويشرب وينام، وحقيقة أن الله تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ .

المقارنة بين علاقة النصارى الخاطئة بعيسى عليه السلام المبنية على الظواهر، وبين علاقة

المسلمين بالرسول محمد ﷺ، وتنبيه المسلمين حتى لا يقعوا في أخطاء من سبقهم؛ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

تعلق المسلمين بظاهر النصر في أول الأمر في معركة أحد، في مقابل حقيقة أن النصر من عند الله تعالى ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

تعلق اليهود بظاهر الدنيا في قولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، في مقابل حقيقة ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

وليس مجرد التعلق بالظواهر مذموماً، بل المذموم هو التعلق بظواهر الأمور المؤدي إلى الإعراض عن حقائقها. ولما كان الناس متعلقين بالظواهر بفطرتهم، أرشدهم القرآن الكريم إلى التوجّه إلى الظواهر والتدبر فيها للوصول إلى الإيمان بالحقائق؛ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ ، فأولوا الألباب الذين تفكروا في خلق السماوات والأرض وصلوا سريعاً إلى الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى. والله أعلم.

و: المناسبات في السورة:

- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لم أقف على من فصّل المناسبة بين اسم سورة آل عمران ومحورها، وقد اقتصر بعضهم على أن وجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران، وهم زوجه وأختها زوجة زكريا عليه السلام وزكريا عليه السلام كافل مريم عليها السلام بعد وفاة أبيها عمران[1].

وقد وقع لي في المناسبة بين اسم السورة ومحورها سبب لطيف ظاهر ودقيق في نفس الوقت،

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥).

وذلك أن معظم الحوار في سورة آل عمران يدور مع النصارى، وأكبر خلاف مع النصارى هو في بشرية عيسى عليه السلام، كما أن معظم الحوار في سورة البقرة يدور مع اليهود، وحادثة ذبح البقرة وتلكؤ اليهود فيه، هي أوضح حادثة تشير إلى طبيعتهم المكذّبة المعاندة، وهي طبيعة متكررة في السورة.

وأما تسمية السورة باسم آل عمران فهو لدحض شبهة الألوهية عن عيسى عليه السلام، لأنه لا خلاف في أن مريم عليها السلام هي بنت عمران، وامرأة عمران هي أمها، وبالتالي فإن عيسى عليه السلام هو من آل عمران، إذن فاسم السورة يشير إلى النسب البشري الذي لا خلاف فيه لعيسى عليه السلام، وإن مجرد اسم السورة يكفي في حسم هذا الخلاف. ولهذا جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آية: ١٩٩]. والله أعلم.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

هناك مناسبات كثيرة بين مطلع السورة ومقطعها، ولعل أبرزها ما يأتي:

بدئت السورة بدعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾. واختتمت بمثل ذلك: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

وجاء في أول السورة تهوين شأن الكفار وبيان مصيرهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾. ثم اختتمت بمثل ذلك: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1].

وبُدأت السورة بذكر إنزال القرآن والتوراة والإنجيل من قبل، وختمت بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[2].

كما بُدئت السورة بالحديث عن الوحي المسطور (الكتب المنزّلة) من الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾، وختمت بالحديث عن التفكّر في الوحي المنظور، والآيات الواضحات في خلق الأرض والسماوات: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة الوعيد بالعذاب الشديد للذين يكفرون بآيات الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾، ثم ذكر في آخر السورة الوعد بالجنان والرضوان للذين يتفكرون ويؤمنون بآيات الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة تعلّق الناس بشهوات الدنيا والتي منها المال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾، ثم ذكر في آخرها الوعيد الشديد للذين يبخلون بأموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

---

(١) كلاهما من: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، للغماري (ص٢٨).

(٢) قطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦٧٥).

ويناسب ذمّ البخلاء في آخرها أيضاً ما ذكره في أول السورة من مدح للمنفقين: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

وذكر في أول السورة التهديد والوعيد للكافرين، وأن أموالهم وأولادهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، ثم ذكر في آخرها أن مصيرهم إلى جهنم. وقد سبق ذكر مناسبة مشابهة.

كما ذكر في أول السورة قولهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، ثم ذكر في آخرها أن تقلّبهم في الدنيا هو المعدود، فهو متاع قليل، وأن مأواهم جهنم وبئس المهاد.

وذكر في أولها عدم موالاة المؤمنين للكافرين: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾، وهو مناسب لما ذكر في آخرها من الوعد بالجنة للذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله.

وذكر في أولها الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ثم مدح في آخرها المستجيبين لنداء الرسول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

ونكتفي بهذا القدر من المناسبات بين المطلع والمقطع خشية الإطالة، والله أعلم.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح تام، لأن محور السورة العام هو: إثبات وحدانية الله تعالى، وما يتعلق بذلك من تقرير بشرية عيسى عليه السلام، ووحدة الدين والرسالات، وأهمية طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

فبدأت السورة بمقدمات مهمة قبل الحوار مع النصارى في حقيقة عيسى عليه السلام، تناولت تلك المقدمات إنزال الكتب من عند الله تعالى لغرض هداية وامتحان الناس، وبيان

حقيقة الدنيا، ثم الإعلام بانتقال الرسالة إلى أمة الإسلام.

ثم تناولت السورة بيان اصطفاء الله تعالى لرسله عليهم السلام، وبيان حقيقة عيسى عليه السلام. ثم تأكيد حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علّات، واشتمل ذلك على بيان أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، وبيان فرق أهل الكتاب وحقيقتهم، والتصريح بوحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في ادّعائهم الصلة به.

وبعد هذا التصريح والتأكيد، جاء بيان خيرية هذه الأمة واصطفاؤها وفضلها على سائر الأمم، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها ومن المنافقين خصوصاً. وكان هذا التحذير مدخلاً للحديث عن المواجهة مع الأعداء، فتحدّثت الآيات عن معركة أحد، وشمل ذلك هدايات ومواعظ في الطاعة وأهميتها، وتعزية المسلمين في مصابهم، والدروس المستفادة من الهزيمة.

وختمت السورة بالحديث عن الاستفادة من الآيات الكونية في الوصول إلى الله تعالى، وبيان حقيقة أن الأمور بخواتيمها وعواقبها.

وهكذا نرى مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح وجلاء، بل إن الآيات في المقاطع نفسها تكاد تصرّح بهذه المناسبات بين المقطع ومحور السورة في مواضع عدّة، وهذه أمثلة على الآيات التي تؤدي هذا المعنى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [٧]، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٣]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [٣٧]، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [٤٧]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٦٢]، ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [٧٣]، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [٧٤]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن

تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [١١٦]، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [١٢٦]، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٢٩]، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [١٤٥]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [١٥٤]، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [١٦٠]، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [١٧٦]، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٧٩]، ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٨٠]، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٨٩]، ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [١٩٥]، ﴿ نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [١٩٨].

ويمكن الاستزادة بالرجوع إلى ما ذكرناه سابقاً في محور السورة، والله أعلم.

- المناسبة بين مقاطع السورة مع بعضها:

يأتي في بداية كل مقطع أثناء التفسير إن شاء الله تعالى.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

مناسبة أول سورة آل عمران لآخر سورة البقرة ظاهرة من عدة وجوه؛ أولها: أن فاتحة سورة آل عمران هي في الإيمان بالله تعالى وبالكتب السماوية المنزلة من عنده، وآخر سورة البقرة هي في إيمان الرسول ﷺ بما أنزل عليه من ربه وإيمان المؤمنين معه، كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

قال أبو حيان: لما ذكر في آخر سورة البقرة: ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آية: ٢٨٦]، ناسب أن يذكر نصرة الله تعالى على الكافرين حيث ناظرهم رسول الله ﷺ، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقصّ تعالى أحوالهم وردّ عليهم في اعتقادهم وذكر تنزيهه تعالى عما يقولون وبداءة خلق مريم وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم. ولما كان متفتح آية آخر البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [آية: ٢٨٥] فكأن في ذلك الإيمان بالله وبالكتب، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى وذكر ما أنزل على رسوله

وذكر المُنْزَل على غيره صلى الله عليهم[1].

- **المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:**

سورة البقرة وسورة آل عمران مدنيتان، وترتيبهما في النزول كترتيبهما في المصحف، لكن نزلت بينهما سورة الأنفال[2].

والسورتان متلازمتان من حيث المضمون، كأنهما سورة واحدة، وقد جمع رسول الله ﷺ بينهما في الفضل والذكر -كما سبق بيانه-. يضاف إلى ذلك أن سورة آل عمران شارحة لكثير مما أجمل في سورة البقرة[3]، كما سيأتي تفصيله بعد قليل.

ويدخل في المناسبة بين مضمون السورتين -أيضاً- ما سبق ذكره من المناسبة بين ما ورد في آخر سورة البقرة وما جاء في أول سورة آل عمران، فلا نعيده هنا.

ويمكن إجمال المناسبات بين مضمون السورتين فيما يأتي:

افتتحت كلتا السورتين بالأحرف المقطعة (ألم)[4].

سورة البقرة تضمنت قواعد الدين فكأنها بمثابة إقامة الدليل على الحكم، وجاءت سورة آل عمران مكمّلة لمقصودها فكأنها بمثابة الجواب عن شبهات الخصوم[5].

ذكرت كلتا السورتين خلقاً معجزاً جاء على غير المعتاد، فذكرت سورة البقرة خلق آدم عليه السلام، وذكرت سورة آل عمران خلق عيسى عليه السلام، وسبب تقديم ذكر آدم عليه

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٣٨٩).
(٢) ينظر: تنزيل القرآن، لابن شهاب الزهري، (ص٢٩-٣٠).
(٣) ينظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (ص٨٣).
(٤) ينظر: المرجع السابق (ص١٠٦).
(٥) قطوف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/ ١٥٣).

السلام ظاهر؛ فهو أقدم في الوجود، وأغرب في الخلق من عيسى عليه السلام[1].

شرحت سورة آل عمران كثيراً مما أجمل في سورة البقرة (ينظر: الجدول الأول في آخر هذه الفقرة).

تكرّر الحديث في سورة آل عمران عن مواضيع جاءت في سورة البقرة، وذلك للتأكيد واستكمال الحديث. (ينظر: الجدول الثاني في آخر هذه الفقرة).

ويوضّح الجدول الآتي المواضع التي وردت مجملة في سورة البقرة، ومفصّلة في سورة آل عمران[2]:

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
وصف الكتاب بأنه ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾	﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وذاك بسط وإطناب لنفي الريب عنه.
ذكر إنزال الكتاب مجملاً	قسّمه إلى آيات محكمات وأخر متشابهات
قال تعالى: ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ مفصلاً	﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾
صرح بذكر التوراة خاصة لأن السورة خطاب لليهود، والتوراة هي الأصل	صرح بذكر الإنجيل أيضاً لأن السورة خطاب للنصارى، والإنجيل فرع للتوراة
ذكر القتال وقع مجملاً: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [١٩٠،٢٤٤]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [٢١٦].	فصّلت قصة أحد بكاملها

---

(١) وينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي (ص١٩٦)، وينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٧).

(٢) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٣-٨٦)، وقارن بقطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي كذلك (١/ ١٥٣).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذّر من الربا ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً.	زاد قوله: ﴿ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ [١٣٠].
أوجب الحجّ إجمالاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ ﴾ [١٩٦].	فصّله بقوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ [٩٧]، وزاد بيان شرط الوجوب بقوله ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾، ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .
قال تعالى بإيجاز: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [٢٤٧].	فصّل ذلك فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٦].
قال في أهل الكتاب ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ [٨٣] فأجمل القليل من أهل الكتاب.	فصّله بقوله: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [١١٣]
أوجز ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله ﴿ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [١٥٤].	زاد: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآيتين [١٦٩-١٧٠].
عرّض ولم يصرّح بتفضيل الأمة على اليهود، فقال: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [١٩٣]. وفضّل الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [١٤٣].	صرّح بتفضيل هذه الأمة فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [١١٠]. فقوله ﴿ كُنتُمْ ﴾ أصرح في قِدَم ذلك من ﴿ جَعَلْنَـٰكُمْ ﴾. ثم زاد وجه الخيرية بقوله ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذّر من أكل الحرام فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [١٨٨].	بسط الوعيد بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [٧٧].

وقد ذكر السيوطي أن بين السورتين اتحاداً وتلاحماً متأكداً، وقد تكرر في سورة آل عمران بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم، وتكررت هنا آية {قولوا آمنا بالله وما أنزل} [البقرة: ١٣٦]، بكمالها[١].

ويوضّح الجدول الآتي المواضع التي تشابهت في السورتين، بغرض استكمال الحديث أو ذكر ما هو لازم له[٢]:

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
ذكر خلق الناس	ذكر تصويرهم في الأرحام
ذكر مبدأ خلق آدم	ذكر مبدأ خلق أولاده
ذكر قصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم	ذكر قصة نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى عليه السلام، وضرب له المثل بآدم
قال في صفة النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٢٤]، ولم يقل في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً.	قال ذلك في آخر آل عمران في قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣]. فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة

(١) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٦).

(٢) انظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص٨٦-٨٨).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون	ختمت ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٠٠]
افتتحت بقوله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ } [٤]	ختمت بقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١٩٩]
رغّب في الإنفاق فقال: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥].	حذّر المستهزئين بقوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [١٨١].
ذكر دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [١٢٩].	ذكر استجابة الدعوة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [١٦٤].

ونشرع بعد هذه المقدمات في التفسير الموضوعي لمقاطع هذه السورة الكريمة، وقد رأيت تقسيمها إلى ثمانية مقاطع، وبعض المقاطع يشتمل على عدد من المواضيع، كما سيأتي، والله الموفق.

المقطع الأول: مقدمات للحوار مع النصارى

يندرج تحت هذا المقطع عدة نقاط، رأيت جمعها معاً واعتبارها مقدمات للحوار مع النصارى الذي سيستغرق نصف السورة الكريمة تقريباً، وهو سبب تسمية السورة الكريمة بآل عمران. وأكثر الآيات في هذا المقطع فيها تعريض بأهل الكتاب عموماً، وبالنصارى خصوصاً، وإن كان بعضها يعرض باليهود.

والمقدمات الرئيسة في هذا المقطع ثلاث؛ هي ما يأتي:

المقدمة الأولى: إنزال الكتب هداية وامتحاناً للناس:

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١-٩].

التفسير الإجمالي:

تبدأ السورة الكريمة بالأحرف المقطعة، وقد سبق الحديث عنها في أول هذا التفسير. ثم تنتقل إلى التعريض بأهل الكتاب، خصوصاً النصارى منهم، عبر تقرير حقيقة وحدانية الله تعالى واتصافه بصفات الكمال، وختمت هذه الآية بقوله تعالى﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، وفي اختيار هاتين الصفتين إشارة إلى الرد على النصارى في ادعائهم أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله،

لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحي وليس بقيوم(١).

ثم تقرر الآيات حقيقة إنزال الله تعالى للكتب السماوية، وبدأت الآية بإنزال القرآن الكريم، لأنه آخر الكتب وخاتمها نزولاً، وهو أهمها وأعظمها وأدومها. وفي قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إشارة إلى صدق النبي ﷺ في نزول القرآن عليه، بخلاف زعم أهل الكتاب، وتفصيل ذلك مبثوث في آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يبعد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.

ثم تذكر الآية والتي بعدها إنزال التوراة والإنجيل من قبلها وكان فيهما هداية للناس، فما العجب إذاً من إنزال القرآن؟، وفي الآيتين تلميح إلى كفر اليهود والنصارى بالنبي ﷺ وبالقرآن الكريم، ودليل هذا التلميح هو خاتمة الآية الثانية كما سيأتي. فلماذا يطالب اليهود والنصارى غيرهم بتصديق إنزال الكتب عليهم ويرفضون أن يصدقوا إنزال القرآن على النبي ﷺ؟، هذا هو الكفر بعينه، ولذا ختمت الآية الثانية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾، كما قال تعالى عن تفريقهم بين الرسل ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وعدم وصف القرآن الكريم في هذه السورة بالهدى مع وصفه بأنه حقّ، لأن المناظرة

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي (١/ ٩٩)، والتفسير الكبير للرازي (٧/ ١٣٥).

مع النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن. ووصف التوراة والإنجيل بالهدى في هذا المقام لأنهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل، ويدّعون أنهم يعوِّلون في دينهم عليها[١]. ولهذا أشار إليهما في أكثر من موضع في هذا السورة.

وأما ذكر القيد في قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ فلكي لا يُتوهّم أن هُدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن الكريم[٢].

وقد عبّر عن القرآن الكريم في هذه السورة بلفظ: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، ولم ترد لفظة القرآن الكريم في السورة إطلاقاً، ربما لأن آيات السورة الكريمة قد حسمت الصراع وفرّقت بشكل قاطع بين الحق والباطل في الجدال القائم بين الأديان السماوية الكبرى، الواردة في آخر سورة الفاتحة وفي سورة البقرة وفي افتتاح سورة آل عمران، فيكون لفظ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ ألصق الألفاظ وأصدق الأوصاف[٣]، والله أعلم. وفي هذا السياق من دقة التعبير وكثرة المعاني والإشارات مع قلة الألفاظ الشيء العجاب.

الآية التالية تؤكد علم الله تعالى بكل شيء في الكون، ومناسبتها للسياق وللآية السابقة أن فيها إشارة إلى محاولة أهل الكتاب إخفاء ما عندهم في التوراة والإنجيل من ذكر صريح للنبي محمد ﷺ، ووصية لأهل الكتابين باتباعه، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وكما قال على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فقد حاول أهل الكتاب إخفاء هذا الذكر وهذه

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأستار، للسيوطي (١/ ٥٥٢)، نقله عن الأصبهاني.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٠).

(٣) وقد اختار الطبري في تفسيره أن الفرقان هو: (الفصْل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، لابن جرير الطبري، بتحقيق أحمد ومحمود محمد شاكر، (٦/ ١٦٢). ط١. (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، مؤسسة الرسالة.

الوصية، ولا يزالون يحاولون[(١)]، وقد قاموا بذلك عبر إخفاء بعض القراطيس من الكتب، وطمس بعضها الآخر، وتحريف بعضها، بالإضافة إلى ما نسوه منهما، قال تعالى ﴿ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال عن اليهود: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]، و قال عنهم أيضاً: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النصارى وبعض اليهود: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وفي هذا دليل على كفرهم بآيات الله تعالى، وكفرهم بالآيات التي أنزلت إليهم، متناسين أن تحريفهم لا يخفى على الله تعالى.

كما أن الآية مناسبة لما بعدها أيضاً، فبما أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإنه يعلم ما يكون في الأرحام، فإن مما اختص الله تعالى به علم ما يكون في الأرحام

---

(١) على الرغم من هذه المحاولات المتواصلة فقد بقي ذكر النبي ﷺ والإشارة إليه في أكثر من موضع من التوراة ومن الإنجيل، مصداقاً للفعل المضارع في قوله تعالى ﴿ يَجِدُونَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فمثلاً: جاء في التوراة (جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران)، (سفر التثنية:٢/ ٣٣)، وهي تشير إلى نبوة موسى عليه السلام بدلالة كلمة (سيناء). كما تشير كلمة (سعير)، وهي المنطقة الجبلية من جنوب البحر الميت إلى العقبة، إلى نبوة عيسى عليه السلام. وتشير جملة (جبل فاران) إلى نبوة محمد ﷺ، فسلسلة جبال فاران هي في الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر. وهذا التعبير يشبه إلى حدٍّ ما قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾، والله أعلم.
وهناك إشارات كثيرة يفهم منها مثل هذا، فقد جاء في سفر التكوين (١٧/ ٢٠): (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة). فهذه الجملة تشير إلى استجابة الله تعالى لإبراهيم في طلبه الذي طلبه من أجل إسماعيل، دون تحديد هذا الطلب، إلا أن العبارة التالية بالمباركة والإثمار والتكثير، وجعله أمة كبيرة، قد يشير إلى جعل النبوة في نسله، ومن المتفق عليه أنه لم يظهر من نسل إسماعيل عليه السلام غير نبينا محمد ﷺ. وينظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، (مخطوط) (ص١٢٤ أ – ١٣٩ أ)، فقد ذكر إحدى وخمسين بشارة بالنبي ﷺ في كتب أهل الكتاب.

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ [لقمان: ٣٤][(١)].

أما سبب إيراد آية تصوير الأرحام هنا فهو: الإشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام[(٢)]، ففي الآية إشارة إلى الطبيعة البشرية لعيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا ختمت الآية بإثبات وحدانية الله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وحكمته فيما يقضي سبحانه وتعالى.

كما أن في الآية تعريضاً -بل تصريحاً- بالردّ على النصارى في اعتقادهم بألوهية عيسى عليه السلام لأن الله خلقه وصوّره بكيفية تختلف عن غيره من البشر، فبيّن لهم أنه عبد مخلوق، وكل ذلك من صنع الله وتصويره، سواء الكيفية المعتادة أو غير المعتادة[(٣)].

وهذه الآية والتي قبلها جاءتا استطراداً أثناء الحديث عن إنزال القرآن الكريم، ثم تابعت الآيات استكمال الحديث عن القرآن الكريم[(٤)]. فبيّنت أن الله سبحانه وتعالى اختار بحكمته أن يجعل آيات القرآن الكريم على قسمين؛ آيات محكمات هن أم الكتاب وأصله وأساس تعاليمه،

---

(١) وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: (مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر). أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، برقم (١٠٣٩)، وفي تفسير سورة لقمان من وجه آخر برقم (٤٦٢٧)، وبرقم (٤٧٧٨)، وفي تفسير سورة الرعد برقم (٤٦٩٧)، وفي كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، برقم (٧٣٧٩).

(٢) قارن بالمحرر الوجيز لابن عاشور (١/ ٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٥/ ١٣-١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير دار الفتح (٢/ ٧)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي (٣/ ١٢-١٣).

(٤) ولعل بين الآية ولاحقتها مناسبة من وجه آخر، وهو أن الاشتباه الذي حصل بسبب خلق عيسى عليه السلام المخالف للعادة، والذي ضل بسببه أصحاب الهوى، يوجد اشتباه مثله في القرآن الكريم، وهي الآيات المتشابهات، والتي قد يضل بسببها أصحاب الزيغ كذلك، والله أعلم.

وآيات متشابهات لا يعلمهن إلا الله تعالى وحده[١]، وربما أطلع الله سبحانه بعض عباده على شيء من أسرارها.

وللعلماء أقوال كثيرة في المراد بالآيات المحكمة والآيات المتشابهة، وتفصيل هذا يطول، وأفضل ما قيل فيها ما نقل عن محمد بن إسحاق بن يسار أنه قال في قوله تعالى ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ قال: (فَهُنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَمْغُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ لَيْسَ لَهُنَّ تَصْرِيفٌ وَلا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ)، وقال في قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: (لَمْ يَفْصِلْ فِيهِنَّ الْقَوْلَ كَفَصْلِهِ فِي الْمُحْكَمَاتِ، تَتَشَابَهُ فِي عُقُولِ الرِّجَالِ وَيَتَخَالَجُهَا التَّأْوِيلُ، فَابْتَلَى اللهُ فِيهَا الْعِبَادَ كَابْتِلائِهِمْ فِي الْحَلالِ وَالْحَرَامِ)[٢].

وحذّرت الآية من اتباع المتشابهات، كما يفعل الذين في قلوبهم زيغ[٣]، بعضهم طلباً للفتنة عمداً، وبعضهم طلباً لمعرفة تأويل ما لا طاقة لعقولهم به، ولا يحيط بتأويل القرآن الكريم كله ولا يعلم تأويل المتشابه منه إلا الله تعالى. فالراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا[٤].

---

(١) هناك رأيان في قراءة الآية وتفسيرها، الأول يقف على لفظ الجلالة، فيكون المعنى أن معرفة المتشابه مما اختص الله بعلمه، ولا سبيل إلى معرفة المراد منه، والرأي الثاني، لا يقف على لفظ الجلالة، والمعنى عنده أن المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم. وسياق الآية يحتمل المعنيين. فيما يرى الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى أن المعنيين يؤولان إلى أمر واحد، فهما متساويان. ينظر: تفسيره (٢/ ١٢٨٠-١٢٨١). والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في أثرين برقم (٣١٧١)، وبرقم (٣١٧٧)، والطبري (٦/ ١٧٧).

(٣) وكما يحتج بعض النصارى بأن القرآن الكريم قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، ويتركون الاحتجاج بقوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغيرها من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله. ينظر: تفسير ابن كثير، دار الفتح (٢/ ٩).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٦٤).

وقد حذّر النبي ﷺ من اتباع هؤلاء، فقد صحّ عنه ﷺ أنه: تلا هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ ﴾ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ)(١).

وليس مجرد طلب التأويل هو المذموم، وإنما المراد هنا: التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة، فالذين في قلوبهم زيغ ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ قاصدين ما تشابه من القرآن طلباً للفتنة(٢)، فعلم من السياق أن هذا هو المذموم، لأنهم يطلبون تأويلاً ليسوا أهلاً له، فيؤولونه بما يوافق أهواءهم، وهذا ديدن الملاحدة وأهل الأهواء(٣). وهذه الآية تشمل كل أهل الزيغ والضلال، من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة وقت النزول إلى نصارى نجران(٤).

وحثّت الآية على التأسي بالراسخين في العلم الذين يؤمنون بجميع القرآن الكريم، لأنه كله من عند الله تعالى. وختمت الآية بمدح هؤلاء الراسخين في العلم ومن تبعهم في إيمانهم وتسليمهم، فوصفتهم بأنهم ﴿ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ والعقول. ففي السياق أمر ضمني باتباع الآيات المحكمة من القرآن الكريم والإيمان بالمتشابهات.

وسبب وجود المتشابه في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر، وتعويد علماء الأمة على

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: {منه آيات محكمات}، برقم (٤٥٤٧)، واللفظ له، وأخرجه مسلم، في كتاب العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم (٢٦٦٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ٢٣).

(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣/ ٢٢).

(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٢٢).

البحث والتنقيب واستنباط الأحكام، فتناسب العبارات فهم الأولين والآخرين[1]. بالإضافة إلى أن وجود المتشابه يعد امتحاناً يميز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.

وختمت هذه المقدمة بدعاء وتضرع من الراسخين في العلم وأولي الألباب، طالبين التثبيت على الهداية؛ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ . وهذا الدعاء يأتي بعد الدعاء في سورة الفاتحة طلباً للهداية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦]، كما يأتي بعد الدعاء في سورة البقرة طلباً للعفو وعدم المؤاخذة ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي ختام هذه المقدمة بالتأكيد على يوم الحشر وجمع الناس للحساب والثواب والعقاب حثٌّ على اتباع الحق والمحكم من الآيات التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، وتحذيرٌ من الزيغ عن الحق واتباع الهوى، استعداداً ليوم الحساب.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ١٨).

المقدمة الثانية: تحذير الكافرين، وبيان حقيقة الدنيا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠-١٨].

التفسير الإجمالي:

بعد أن ختمت المقدمة الأولى بالتأكيد على البعث والحشر، حذّرت الآيات الكافرين من الاغترار بأموالهم وأولادهم، وبينت أنها لن تغني عنهم من الله شيئاً، يوم القيامة، حيث سيكونون وقوداً للنار، وضربت مثلاً لهم بآل فرعون والأقوام السابقة، حيث ملكوا المال والمنصب، واستعبدوا الناس، وكذبوا بآيات الله تعالى، حتى إن فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧]، فعاقبهم الله تعالى، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ثم انتقلت الآيات من التحذير إلى التهديد؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾، وقد سبق التهديد بالنار في الآية السابقة، وأما التهديد بالهزيمة فقد بيّنته الآية التالية، حيث خاطبت عقول الكافرين وضربت لهم مثلاً بما حصل للمشركين

في غزوة بدر، على كثرتهم وعدتهم، حيث تدخلت القدرة الإلهية لنصرة المسلمين، فكان أحد الفريقين يرى الآخر مثليه ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ ، وهكذا أيّد المسلمين بنصره[١]، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ، كيف شاء، سبحانه وتعالى. فالآيات تقرّر مصير الكافرين وتذكر سنة الله التي لا تتخلف في أخذهم بذنوبهم، وتهديدهم على جرائمهم، وتذكّرهم بما رأوه بأعينهم في غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين[٢].

وبعد أن بيت الآيات عدم منفعة المال والعيال مع الكفر، بينت حقيقة الدنيا، وأنها زينت للناس لدرجة الحب[٣]، وذكرت الآية من الشهوات المزينة: النساء والبنين، والذهب والفضة ويشمل ذلك سائر الأموال المبنية عليهما، والخيل المسومة للحُسْن[٤]، والأنعام، والحرث وأنواع الزرع[٥]، وهذا كله مما يستمتع به في الحياة الدنيا، وهي قصيرة مهما طالت، وفي مقابل ذلك، فإن الله تعالى عنده حسن العاقبة والمرجع في الدنيا والآخرة.

والتزيين هو من الله تعالى عن طريق الخلْق والإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على

---

(١) الخطاب في قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون للكافرين، وهو أقرب للسياق، كما يحتمل أن يكون للمسلمين، ومثلها قوله تعالى ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾. والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، رأوا ذلك رأي العين، فوقع الرعب في قلوبهم فكان سبباً في هزيمتهم. وأما قوله تعالى ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤]، فالظاهر أنها كانت قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يستعدوا للقتال. وهكذا كانت رؤية القلة ورؤية الكثرة سببين لنصر المسلمين بعجيب تدبير الله تعالى. ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٣٦).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٣٧١).

(٣) لابن عاشور في تفسيره (٣/ ٣٨) لهذه الآية لفتة لطيفة، قال: تعليق التزيين بالحب جرى على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المزَّين هو الشهوات وليس حبها، فإذا زينت لهم أحبوها، وفي الآية إيجاز يغني عن أن يقال: (زينت للناس للشهوات فأحبوها).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١٢٥).

(٥) نرى الآن أن البشرية قد عادت إلى الأنعام والزروع والمنتوجات الطبيعية، بعد ثورة التصنيع والتعليب، وبدأت اللحوم والنباتات العضوية تعود إلى محلات البيع بقوة.

الميل إلى هذه الأشياء. وقال بعضهم هو: من الشيطان بالوسوسة والإغراء، وهو بعيد[(١)]، لأن تزيين الشهوات في ذاته قد يوافق وجه الإباحة والطاعة، فقد قال النبي ﷺ: (وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟، قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً)[(٢)]. فالراجح أن التزيين هو من الله تعالى، على سبيل الاختبار، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف: ٧][(٣)].

وفي الآيات عظة للمسلمين حتى لا يغترّوا بالحياة الدنيا وزينتها التي حببت للناس فتلهيهم عن الآخرة، كما حصل للكافرين[(٤)]. ولهذا جاءت الآية التالية بخطاب النبي ﷺ أن يسأل على سبيل التشويق إن كانوا يريدون أن يدلهم على ما هو خير من كل ما ذكر من زينة الحياة الدنيا، وهو النعيم المقيم في جنات الخلد، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ فهو يعطي كلاً ما يستحقه من العطاء[(٥)]. (وقد ألغى ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة؛ لأن لذة البنين ولذة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذة الخيل والأنعام، إذ لا دواب في الجنة، فبقي ما يقابل النساء والحرث، وهو الجنات والأزواج، لأن بهما تمام النعيم والتأنس، وزيد عليهما رضوان الله الذي حُرِمه من جعل حظه لذّات الدنيا وأعرض عن الآخرة)[(٦)]. ووصف الأزواج بأنها ﴿ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي منزهة عن جميع المنغصات التي تعتري البشر سواء

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٤٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٣٨-٣٩)، وزاد: «أو من الإنسان بالطبع والرغبة».

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (١/ ٢٥٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٣٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الفتح (٢/ ٢٩).

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٤٢).

أكانت حسية أم معنوية[١].

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ عطف بيان على قوله ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾، وصفتهم الآية بالتقوى والتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة، قولاً وعملاً[٢]. ثم وصفت الآيات المتقين بخمس صفات أخرى؛ ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على أداء الطاعات واجتناب المحرمات، {والصادقين} في قولهم ﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾[٣] وفي جميع شؤونهم، ﴿ وَٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ الطائعين الخاضعين لله تعالى وأوامره، ﴿ وَٱلۡمُنفِقِينَ ﴾ مما رزقهم الله تعالى في مختلف الطاعات، ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾، إذ الاستغفار بالأسحار من أعمال الأبرار، كما قال تعالى ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾ [الذاريات: ١٨]، والسحر هو: آخر الليل قُبَيْل الصبح[٤]، وقد وردت في فضائل آخر الليل أحاديث كثيرة، أشهرها حديث النزول؛ قال رسول الله ﷺ: (إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتى ينفجر الصبح)[٥].

بعد هذه الآية كانت آية شهادة التوحيد؛ وفيها شهادة من الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ عطف على لفظ الجلالة، أي: هم شهداء بالوحدانية، ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ هم العارفون بالله الذين يقيمون البراهين على وحدانيته[٦]، ﴿ قَآئِمَۢا ﴾ حال الضمير ﴿ هُوَ ﴾

---

(١) جزم ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/ ٤٢) أن الطهارة هنا حسّيّة لا معنوية، ولا أرى سبباً لهذا التحديد، والله أعلم.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٤٢).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٠).

(٤) لسان العرب، لابن منظور، مادة سحر.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم (٧٤٩٤)، ومسلم واللفظ له في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل برقم (٧٥٨).

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢).

أي شهد بوحدانيته وقيامه بالعدل[١]، أو حال من اسم الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ للتأكيد[٢]، كما يحتمل أن يكون لفظ ﴿ قَآئِمًا ﴾ منصوب على المدح[٣]، والقسط هو العدل، معرّب.

ثم كرر شهادة التوحيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لوجهين؛ أحدهما: أنه ذكر أولا الشهادة بالوحدانية ثم ذكرها ثانيا بعد ثبوتها بالشهادة المتقدمة، والآخر: أن ذلك تعليم لعباده ليكثروا من قولها[٤].

(والشهادة بالشيء: الإخبار به عن علم إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهي الحجة والبرهان)[٥].

والآية مرتبطة بمحور السورة الأساسي ارتباطاً وثيقاً، بل هي خير دليل على محور هذه السورة الكريمة، كما ترتبط الآية بما قبلها من حديث عن المؤمنين وصفاتهم والشهادة أول أركان الإيمان، وترتبط الآية بما بعدها من حصر الدين الذي يرتضيه الله تعالى في الإسلام، وهو دين التوحيد.

---

(١) في هذه الآية إشارة إلى أنه لا محاباة في الدين والحساب والجزاء، تعريضاً بأهل الكتاب الذين قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، كما سيأتي بعد قليل، وتحذير لأمثالهم من أهل الأهواء. ففي الآية تنبيه إلى أن المجازاة ستكون على الأعمال بلا محاباة، كما سيأتي في الآيات: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ٤٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢)، وقيل: منصوب على الحال، وقيل غير ذلك، ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٥٧)، والبحر المحيط (٢/ ٤٢٠-٤٢٣).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/ ١٠٢). وهناك أوجه أخرى، ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٥) تفسير المراغي (٣/ ١١٣).

المقدمة الثالثة: الإعلام بانتقال الرسالة والريادة إلى أمة الإسلام:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران ١٩-٣٢].

التفسير الإجمالي:

تعود الآيات تأكيد وحدانية الله تعالى وتفرده، تعريضاً مرة أخرى بأهل الكتاب وشركهم، خصوصاً النصارى منهم، لتضيف أن أصل الديانات واحد، وهو الإسلام دين التوحيد، وهو

الدين الذي يرتضيه الله تعالى، ولا يجادل من يحترم عقله في كمال الإسلام وعظمته وفضله على سائر الأديان، ولهذا جاءت تكملة الآية للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم للإسلام ورسوله، ومن سوء فهمهم وعدم اتباعهم لتعاليم دينهم(١). وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وتباغضاً بينهم(٢)، فيخالفون خصومهم في جميع أقوالهم وأفعالهم وإن كانت حقاً(٣). وختمت الآية بالوعيد ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾، ففي الآية تحذير لأهل الكتاب من أن يختلفوا في القرآن اختلافهم في كتبهم، وتحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبل(٤).

وبعد هذه الحقائق المذكورة في هذه المقدمات من إرسال الرسل وإنزال الكتب، والأمر بعبادة الله وحده وعدم اتباع الشهوات والمتشابهات وعدم إنكار آيات الله تعالى، وهي حقائق ثابتة لا ينبغي المخالفة فيها ولا المكابرة برفضها، ومن فعل ذلك فليس له حظ من الإيمان ولا يستحق مزيداً من النقاش، ولذا يأتي التعليم الإلهي للنبي ﷺ بترك من جادل بعد أن عرف الحق وإعلان الإسلام، فقال تعالى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ وحده أنا ومن تبعني وكان على ديني. كما أمره الله تعالى بأن يدعو أهل الكتاب وغيرهم إلى دين الإسلام، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾ فهو يتولى جزاءهم ويعلم أنك دعوتهم إلى الإسلام. فتوجيه الآية إلى دفع المجادلة، وترك محاجّتهم مع القيام بدعوتهم(٥). وفي

---

(١) نظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٥٣).

(٢) كأن في هذه الآية مع آية الشهادة التي سبقتها إشارة إلى الفريقين المختلفين في التعامل مع محكم الكتاب ومتشابهه، فأولوا العلم يؤمنون به فأكرمهم بذكر شهادتهم على وحدانيته، والضالون من أهل الكتاب يتبعون المتشابه فذكرهم في هذه الآية: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾، والله أعلم.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٧)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٥٧).

الآية دليل صريح على عموم بعثة النبي ﷺ للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨][1].

ثم تشير الآيات إلى كفر اليهود وقتلهم الأنبياء والدعاة، وتهددهم بالعذاب الأليم يوم القيامة جزاء جرائمهم، فهم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا، والثواب والنعيم في الآخرة، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يمنعون عنهم العذاب الأليم. ففي الآية ثلاثة أصناف من الوعيد، هي: اجتماع أصناف الآلام والمكاره وهو العذاب الأليم، وزوال أسباب المنافع في الدنيا والآخرة، ودوام هذا العذاب إذ لا ناصر يدفعه[2].

وجاء فعل ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ بصيغة المضارع لبيان أنهم على طريقة أسلافهم وراضون بأفعالهم، ومعتقدون صحتها[3]، ولو تمكنوا لفعلوا مثل فعل أسلافهم، ولأنهم أرادوا قتل النبي ﷺ وقتل أتباعه، فأطلق ذلك عليهم مجازاً، أي: من شأنهم وإرادتهم ذلك[4].

وقوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام للتقرير والتعجب من إعراض بعض من ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ عن كتاب الله وعن الحكم بما فيه، وكان الأولى بهم أن يكونوا أحرص الناس على اتباعه والعمل به، وبالتالي فلا عجب إذا أعرضوا عن القرآن أو كفروا برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، فهذا ديدنهم وتلك عادتهم.

وفي قوله تعالى ﴿ نَصِيبًا ﴾ تعريض بأنهم لا يعلمون من كتبهم إلا الشيء اليسير[5]. وفي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ مصداق لقوله تعالى فيما سبق ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، حيث لم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

(٢) تفسير المراغي (٣/ ١٢١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٩)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٢).

(٤) البحر المحيط النسخة المحققة (٢/ ٤٢٩-٤٣٠)، والأخرى (٢/ ٤١٣)، وفي كلتيهما: (فقتل أتباعه)، ولعلها مبنية للمجهول. لكن ما أثبته أقرب للسياق، والله أعلم.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٤-٦٥).

يعمم التولي والإعراض.

ثم بينت الآيات سبب كفرهم وجرائمهم وهو قولهم كذباً وافتراء: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾، وقد تقدم قولهم هذا في سورة البقرة [آية: ٨٠]. وقد خدعوا أنفسهم بزعمهم الكاذب هذا، ﴿ وَغَرَّهُمۡ ﴾ وثبتهم هذا الافتراء ﴿ فِي دِينِهِم ﴾ الباطل، وهم الذين افتروه واختلقوه.

ثم حذرهم الله تعالى من يوم الحساب فقال سبحانه ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥ ﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، والله جامعهم ومحاسبهم ومجازيهم[1]، وفي الاستفهام بقوله تعالى ﴿ فَكَيۡفَ ﴾ تهويل لما سيلاقونه يوم القيامة[2].

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ سألهم: (من أهل النار)، قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: (اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدا)[3].

وبعد هذه المقدمات في الحوار مع أهل الكتاب تشير الآيات إلى انتقال الراية من الأمم السابقة إلى أمة الإسلام؛ فتقرر الآيات حقيقة تفرد الله تعالى بالملك وتصرفه فيه، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يختار من يشاء من عباده لحمل رسالته، كما قال تعالى ردّاً على اعتراضهم إرسال النبي ﷺ: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله

---

(١) ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٥٩)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، برقم (٣١٦٩).

حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي ﷺ[١]. وفيها تعريض بأن أهل الكتاب أعرضوا عن الإسلام حسداً على زوال النبوة والملك منهم[٢].

وقوله تعالى ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ متصل بالآية السابقة، فهذه كلها دلائل الملك والإرادة، ولا أحد يجادل الله تعالى في ملكه وتصرفه في الليل والنهار والحياة والمات[٣]، فيجب أن لا يجادلوا في انتقال النبوة والملك من بني إسرائيل إلى أمة الإسلام[٤].

وفي استخدام ألفاظ الليل والموت، والنهار والحياة إشارة إلى ما في الديانات الباطلة المحرفة من ظلمات الجهالة والشرك، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال تلك الضلالات[٥].

وبعد هذه الآيات كلها، تأتي النتيجة المنطقية في قوله تعالى ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، فبعد بيان بغي أهل الكتاب وإعراضهم عن الحق، نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين، كما قال تعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، كما قال تعالى ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٧).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٧).
(٣) يرى المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل في كتابه الإسلام والطب الحديث أن المراد بإخراج الحي من الميت هو ما يحصل يومياً من أن الحي ينمو جسمه بأكل أشياء ميتة، وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات من الجسم كاللبن مثلاً. ينظر: تفسير المراغي حيث نقل ذلك (٣/ ١٢٩-١٣٠).
(٤) ينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٢٨-١٢٩).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٩).

وكيف يمكن للمؤمن بالله تعالى أن يوالي أعداء الله، والله تعالى هو مالك الملك المتصرف فيه بما يشاء؟، كما سيأتي في وسط السورة الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]. وقوله تعالى ﴿ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، إما أن يكون تقييداً للنهي كما هو ظاهر الآية، فيكون المنهي عنه اتخاذ الكافرين أولياءَ دون المؤمنين، أي: ولاية الكافرَ التي تنافي ولاية المؤمنين، وذلك عندما يكون في تولي الكافرين إضرار بالمؤمنين، وإما أن يكون النهي عن الموالاة مطلقاً بدون قيد، كما ورد في آيات كثيرة، وهناك أحوال وأحكام كثيرة في الموالاة، ليس هذا مجال تفصيلها، فالنهي ليس على عمومه[١]. واستثنى من هذا النهي حالة تجنب المكروه، بسبب الخوف ونحوه، والتقية تكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة، فقد صح عن ابن عباس ﷺما أنه قال: التقاة: التكلم باللسان[٢].

وذكر المفعول المطلق في الآية ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ ، ليشير إلى وجوب أن تكون الحالة حالة ضرورة لا يمكن معها عدم الموالاة ظاهراً، كما كان عليه المستضعفون من المؤمنين الذين لم يتمكنوا من الهجرة في سبيل الله، كما قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦][٣]، فظاهر الآية يقتضي جواز موالاتهم عند الخوف منهم[٤].

وختمت الآية بالتحذير من فعل المنهي عنه في الآية من موالاة الكافرين ومعادة المؤمنين، فقال تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ ، وأكد ذلك بالتذكير بأن المرجع والمصير إليه وحده لا

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧١-٧٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤١).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه في المستدرك، (٢/ ٣١٩) برقم (٣١٤٩)، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٥).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤٣).

شريك له، فيجازي كل إنسان بعمله، ففي الآية تهديد ووعيد شديد وتحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقية واستمرارها أو طول زمانها(١).

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ إخبار وتنبيه على سبيل التحذير والتخويف، فهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه، آية: ٧].

والآية مرتبطة بما قبلها وبالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً(٢)؛ لأن الآية السابقة تتحدث عن تحريم موالاة الكافرين إلا أن يكون ذلك على سبيل التقية خشية الضرر، وهذا أمر يقدّر بقدره وهو يتعلق بالسرائر، فجاءت هذه الآية للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بما في الصدور، وكمال قدرته على المؤاخذة على ذلك.

كما أن الآية مرتبطة بالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً كذلك، فالسياق في الحوار مع النصارى الذين يخفون كثيراً مما جاء في الكتب المقدسة، والآية هنا تنبه على إحاطة علم الله تعالى بما يخفون وما يبدون، وبكل ما في السموات وما في الأرض.

وقدم الإخفاء على الإبداء هنا فقال تعالى ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ ، لأن المقام مقام محاورة مع أهل الكتاب من يهود ونصارى - حيث بدأت الآية بقوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ -، وهم قد أخفوا كثيراً مما أنزل الله عليهم من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة، آية: ١٥]، ولذا استخدم لفظة العلم فقال ﴿ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤٣).

(٢) قال الدكتور فاضل السامرائي في أسرار البيان في التعبير القرآني حول السياقين: (المحاسبة في سورة البقرة هي على ما يُبدي الإنسان وليس ما يُخفي ففي سياق المحاسبة قدّم الإبداء، أما في سورة آل عمران فالآية في سياق العلم لذا قدّم الإخفاء لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى).

أما في سورة البقرة فقدم الإبداء على الإخفاء فقال تعالى ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة، آية: ٢٨٤]، لأن السياق هناك يتحدث عن أنواع من المعاملات بين البشر من أنواع الإنفاق والقروض وتحريم الربا وكتابة الدين والرهن وختمت الآيات بتحريم كتمان الشهادة، والمعاملات بين البشر تقوم عادة على الإبداء وليس على الإخفاء[1].

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾، وهذه الآية مرتبطة بالتحذير المذكور سابقاً في السياق من الحشر والحساب والجزاء، والتحذير من عذاب الله وغضبه، وكون المصير إلى الله، فبيّن ما يكون حينئذ، من الحسرة والندامة وتمني المستحيل. والتحذير في هذه الآية يمكن أن يكون تكراراً للتحذير السابق، زيادة في التأكيد والتهديد والوعيد[2]، ويمكن أن يكون الأول تحذيراً من موالاة الكافرين، والثاني تحذيراً من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضراً[3]. والتخويف الثاني موجه للمؤمنين بدلالة قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذّرهم نفسه[4].

---

(١) وهناك لفتة أخرى في آية البقرة وهي استخدام لفظة الحساب ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ بدل لفظة العلم ﴿ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾، لأن السياق كما ذكرنا سياق معاملات. والله أعلم.
وثمة لفتة أخرى فيها، حيث قال تعالى ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، على سبيل الملك والحكم والتصرف المطلق، لأن السياق في المعاملات وهذا التعبير يناسبه كما لا يخفى.
أما في آية آل عمران فقال تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، لأن السياق في الحوار معهم والتنديد عليهم بإخفاء الحق الذي أنزل إليهم، فاستخدم التعبير الدال على كمال العلم بكامل الكون، والله أعلم.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٣٣٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٣٢١)، برقم (٦٨٤٤).

ونظم الكلام في الآية يحتمل عدة أوجه؛ فيمكن أن يكون: تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً يوم تجد ما عملت من خير محضراً. ويمكن أن يكون: يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً. ويمكن أن يكون أصل النظم: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضراً، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمداً بعيداً[١].

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ دليل على عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به رسول الله ﷺ، أو زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها رسوله ﷺ[٢]، وهو ما حذّر منه عليه الصلاة والسلام بقوله (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)[٣]. قال الحسن: جعل محبة رسوله محبته، وطاعته طاعته[٤].

وفي الآية تعريض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يظهرون حب الله ويزعمون حب الله لهم، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة، آية: ١٨]، ثم لا يتبعون الرسول محمداً ﷺ ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف، آية: ١٥٧]، بل لا يتبعون رسولهم ولا ما أنزل عليه. فيجب على كل من يزعم حب الله تعالى وحب رسله عليهم السلام أن يتبع رسوله الخاتم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم ختمت الآيات بالأمر بطاعة الله تعالى ورسوله محمد ﷺ، وحذرت من الإعراض عن

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٧).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٨١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، وأخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٦٩٧) ومسلم في الموضع المذكور أعلاه بلفظ آخر: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٦١).

ذلك لأنه كفر، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وإن زعموا أنهم يحبون الله ويتقربون إليه.

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ دون الفصل بينهما بتكرار الفعل إشارة إلى عدم القبول ممن زعم أنه يطيع الله تعالى دون طاعة الرسول، بل إن ذلك من الكفر، لذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- الدلائل على وحدانية الله تعالى كثيرة، فهو الحيّ القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو مالك الملك، والمتصرف في هذا الكون، كالليل والنهار والحياة والموت، وما سوى ذلك مما لا قدرة للمخلوقات عليه.
- صفتا الحياة والقيومية لله تعالى كافيتان للردّ على شبهة إلوهية عيسى عليه السلام، ففيهما ردّ على ادّعاء النصارى أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله، لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحيّ وليس بقيوم[1].
- أنزل الله تعالى الكتب لهداية البشر، والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وهم مصدّق لها، ومهيمن عليها.
- كون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يُبْعِد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.
- إحاطة علم الله تعالى بكل ما في الأرض والسماء، يعلم بما يخفيه أهل الكتاب من صفة الرسول ﷺ، وما يقوله أهل الزيغ والضلال، وأعداء الإسلام مما سيأتي في آيات السورة الكريمة.

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبي (١/ ٩٩)، والتفسير الكبير للرازي (٧/ ١٣٥).

- في آية تصوير الأرحام إشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام، ففيها إشارة إلى طبيعته وطبيعة أمه البشرية عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا جاء بعدها إثبات وحدانية الله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.
- في آية تصوير الأرحام كذلك ردّ على القائلين بنظرية التطوّر (النشوء والارتقاء)، الذين يجعلون المخلوقات فاعلة مستبدّة(١).
- يجب على المؤمن العمل بمحكم الكتاب الكريم، والإيمان بالمتشابه منه، ودعاء الله تعالى بالهداية والاستقامة، وعدم تتبع الشبهات كما يفعل أهل الزيغ والضلالات.
- ليس مجرد طلب تأويل الآيات المتشابهة هو المذموم، وإنما المذموم هو التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة.
- سبب وجود المتشابه في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر(٢). بالإضافة إلى أن وجود المتشابه يعد امتحاناً يميّز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.
- كثرة الأموال والأولاد لا تغني من حساب الله يوم القيامة شيئاً، وإنما النجاة هناك متعلقة بعد توفيق الله تعالى ورحمته بالعمل الصالح المنبثق عن الإيمان بجميع ما في كتاب الله تعالى، وطاعة الله ورسوله ﷺ.
- إن ما يحبه الناس من الشهوات إنما هو متاع الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى.
- الإسلام هو دين الله تعالى، وهو الدين الذي جاء به الرسل جميعهم، على اختلاف شرائعهم وتشريعاتهم.
- كفر أهل الكتاب، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم العلماء والدعاة، وسائر جرائمهم

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/ ١٨).

الأخرى هي التي تسببت في نقل الرسالة منهم إلى أمة الإسلام.

- زعم أهل الكتاب أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هو الذي شجّعهم ويشجّعهم على ارتكاب جرائمهم.
- الملك لله تعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.
- لا يجوز للمؤمنين موالاة الكافرين على حساب إخوانهم المؤمنين إلا في حال الخوف الشديد تجنباً للمكروه، وتكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة.
- عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به الرسول ﷺ.
- وعدم القبول ممن زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها الرسول ﷺ.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة جداً، بل إن هذا المقطع لخّص النقاش العام في السورة، حيث بدأ بإقرار وحدانية الله تعالى وأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، وأثبت إنزال الكتب على رسله، وبين أن الأموال والأولاد لن ينفعوا الكفارَ شيئاً، وبين حقيقة الدنيا، واستخدم الترهيب والترغيب في ذلك، وقطع باب الجدال الذي لا يفضي إلى نتيجة، ثم دعت الآيات إلى مقاطعة أهل الكفر وعدم موالاتهم، وختمت بتوضيح حقيقة الحب والاتباع، وحذرت الكافرين من أن الله تعالى لا يحبهم. والآيات في كل ذلك تعرض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

المقطع الثاني: اصطفاء الله تعالى لرسله عليهم السلام

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الآيات: ٣٣-٤٤].

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لما تقدّم قبل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ووليه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، وختمها بأنه ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، ذكر المصطفين الذين يحب اتباعهم فبدأ أولاً بأولهم وجوداً وأصلهم وثنى بنوح عليه السلام إذ هو آدم الأصغر ليس أحد على وجه الأرض إلاّ من نسله ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ المأمور باتباعه وطاعته وموسى عليه السلام ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج في آله مريم وعيسى عليهما السلام، ونص على آل إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلى آل عمران لخصوصية النصارى بهم، فذكر تعالى جعلَ

هؤلاءِ صفوة أي مختارين[١]. وبعبارة أخرى: لما بين سبحانه أن محبته منوطة باتباع الرسول، فمن اتبعه كان صادقاً في دعوى حبه لله تعالى، اتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم، وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته، وهي الإيمان به مع طاعته[٢].

كما أن هذا المقطع نزل ردّاً على نصارى نجران لما غلوا في عيسى، وجعلوه ابن الله تعالى، واتخذوه إلهاً، ففيه إعلام لهم أن عيسى عليه السلام من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار المستحيلة على الإله، واستطرد من ذلك إلى ولادة أمه، ثم إلى ولادته هو[٣]، ففيه تفصيل لبعض ما أجمل في سابقه.

التفسير الإجمالي:

يرجع الحديث في هذه الآيات إلى تاريخ اصطفاء واختيار الأنبياء والمرسلين، من آدم عليه السلام إلى سيد الأولين والآخرين، مصداقاً لما أخبر به الله تعالى في الآيات السابقة من وحدانيته وتفرده بالملك والتصرف فيه.

فيخبر تعالى أنه اصطفى واختار آدم عليه السلام وهو أبو البشر كلهم، ونوحاً عليه السلام وهو الأب الثاني للبشر، وآل إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأنبياء، ولذا جعل الاصطفاء للآل ولم يقصره على إبراهيم عليه السلام، إذ جعل في ذريته النبوة والكتاب، ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧][٤].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٤٥٢)، وينظر: تفسير المراغي (٣/ ١٣٨). وينظر في أوجه اصطفاء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٥٢-٤٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٣-٤٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٢-٣٤٨).

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، للشيخ محمد عبده، (٣/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٤٥٢).

(٤) وقد وردت نفس العبارة عنه وعن نوح عليهما السلام، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: ٢٦]، ووجه ذلك أن نوحاً عليه السلام هو أبو البشر الثاني، وبالتالي أبو الأنبياء أيضاً، والله أعلم.

واصطفاء هؤلاء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان[١]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ .

والمقصود بآل إبراهيم وآل عمران: المؤمنون، لأن آل الرجل هم أتباعه وقومه ومن هم على دينه[٢]، كما سيأتي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقوله تعالى ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، إشارة إلى أنهم من جنس البشر، يسري عليهم ما يسري على البشر، وفي هذا تعريض بضلال النصارى في دعواهم. ثم أكّد هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ ، فهم كلهم من بني آدم[٣]، كما أن بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق[٤]، ومشتركون في توحيد الله تعالى والإخلاص له[٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، اصطفاهم على تمام العلم، ويسمع أقوال الناس فيهم ويعلم أحوالهم معهم[٦].

تتجه الآيات بعد ذلك للحديث عن آل عمران[٧]، وقيل إن عمران هو أبو موسى عليه السلام، أو هو عمران أبو مريم عليها السلام، والثاني ألصق بالسياق[٨]، أما عمران الثاني

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).
(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٥).
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٧).
(٥) أخرج الطبري معناه بسنده الحسن عن قتادة (٦/ ٣٢٨).
(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٧) متجاوزة الحديث عن آدم ونوح وآل إبراهيم عليهم السلام، حيث تقدم الحديث عن آدم عليه السلام في سورة البقرة، كما تقدم الحديث عن اصطفاء إبراهيم وآله عليهم السلام، وطوى ذكر نوح عليه السلام لأن المقصود من ذكره عليه السلام كونه في عمود النسب، وليس في أمر ولادته ما هو خارج عن العادة. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٩).
(٨) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٥٣). وينظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/ ٢١٣)، حيث جزم

المذكورة امرأته فهو أبو مريم عليها السلام قولاً واحداً.

كانت امرأة عمران عاقراً لم يقدّر لها الولد، واشتاقت بفطرتها للأمومة، فدعت الله تعالى فرزقها الله بالحمل. وتبدأ الآيات سرد الأحداث من نذر امرأة عمران بعد تحققها الحمل، حيث قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ خالصاً لخدمة بيت المقدس، ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ﴾ هذا النذر، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لقولي ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتي وقصدي.

فلما وضعت امرأة عمران حملها تحسرت لأن المولودة أنثى، وهي قد نذرت حملها لخدمة بيت المقدس، والأنثى لا تصلح لذلك بسبب ما يجري عليها من أمور الطبيعة، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ، إشارة إلى كمال علم الله تعالى من جهة، وبيان مكانة مريم عليها السلام من جهة أخرى، حيث إنها ممن كَمُل من النساء، وهي مكانة لا يصلها أكثر الرجال، كما قال النبي ﷺ: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، إما أن يكون من كلام امرأة عمران خوفاً من أن لا تكون الأنثى التي وضعتها كافية للوفاء بالنذر. كما يمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى؛ أي: وليس الذكر الذي أرادته للنذر كالأنثى التي وضعتها، إبرازاً لمكانة مريم عليها السلام[2]. ثم تابعت مناجاتها قائلة: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ، وفي الآية إشعار بأن الله تعالى أوحى إليها أن هذه المولودة سيكون لها ولذريتها شأن عظيم[3]. وقد استجاب الله تعالى دعاءها وتضرعها، وأعاذها وابنها من الشيطان الرجيم،

أنه أبو موسى عليه السلام في الموضع الأول، مخالفاً لما قاله قبل ذلك من الجزم بأنه والد مريم أم عيسى عليهما السلام (٣/ ٢١١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾، برقم (٣٤٣٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣١).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٥).

كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسُّه حين يولد فيستهلُّ صارخاً من مسّ الشيطان إياه، إلا مريم وابنها)[١].

تقبل الله تعالى نذر امرأة عمران ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، وحفظ مريم ورعاها، ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، والحسن في الموضعين عام، فيشمل كل ما يطلق عليه هذا الاسم، من شكل مليح ومنظر بهيج، وتيسير أسباب القبول، والصحبة الصالحة الدالة على الخير والعلم والدين[٢]، وكان من تمام ذلك أن جعل نبيه زكريا عليه السلام كافلاً لها، لتقتبس من علمه وصلاحه، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل زوج أختها[٣]، كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (فلما خلصتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة)[٤]. وقد كانوا اختلفوا في كفالتها، كلهم يريد ذلك، حتى اقترعوا وألقوا أقلامهم، كما قال تعالى ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فكانت الكفالة من نصيب زكريا عليه السلام، فكانت بركة لكليهما؛ حسن إنبات لمريم عليها السلام، وسبباً في دعاء زكريا وإيتائه ولداً يكون نبياً هو يحيى عليهما السلام.

تنتقل الآيات لتخبر عن أحد أوجه الإكرام والاصطفاء لمريم عليها السلام، حيث أنه ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ ، تتغذى به، قيل: كان يجد عندها فاكهة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، في تفسير هذه الآية، برقم (٤٥٤٨)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، برقم (٢٣٦٦).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٤٦-٤٧). والقول الثاني بعيد جداً، لأنه من غير المعروف أنه كان لمريم عليها السلام أخت، ليتزوجها زكريا عليه السلام. بالإضافة إلى أنه لو كان لها أخت فستكون أصغر منها، لأنها أول مولودة لأمها التي كانت عاقراً حسب الظاهر. وبالتالي لا يمكن أن تكون زوجة لزكريا عليه السلام الذي استبطأ الولد وقد بلغ من الكبر عتياً.
وأما ما جاء في الحديث الشريف فيمكن حمله على زوج الخالة أيضاً حيث (الخالة بمنزلة الأم)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧)، والله أعلم.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: المعراج، برقم (٣٨٨٧).

الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[١]، وهذا من الكرامات التي يكرم بها الله تعالى من شاء من عباده[٢].

عندما يرى زكريا عليه السلام هذا الأمر يسأل مريم عليها السلام عنه ﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، فتجيبه قائلة: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، الرزاق الكريم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾، والجملة الأخيرة تحتمل أن تكون من كلام مريم عليها السلام، كما تحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً تأكيداً للحقيقة التي سبقت في السورة ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

لما شاهد زكريا عليه السلام هذا الرزق معاينة رجا الولد من الله تعالى، وكانت الأسباب المعتادة من البشر غير متوفرة له ولزوجه؛ إذ كان شيخاً كبيراً وهن عظمه وشاب رأسه، وامرأته عاقراً، لكن رؤية رزق الله تعالى أطمعه في مناجاته طالباً الذرية الطيبة، فقال: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ .

استجاب الله تعالى لدعاء عبده زكريا عليه السلام، ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ ناقلة البشارة من الله تعالى له بولد من صلبه اسمه يحيى.

ثم ذكرت في البشارة ما يكون عليه يحيى عليه السلام من صفات وخصائص، وهي:

أنه يكون ﴿ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ والمقصود عيسى عليه السلام[٣]، كما قال تعالى:

---

(١) ينظر في ذلك: تفسير الطبري (٦/ ٣٥٣-٣٥٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٥).

(٢) تقديم شبه الجملة ﴿ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ﴾ في الآية لأن الكلام في الآية والآيات التي سبقتها عن مريم عليها السلام وليس عن زكريا عليه السلام ولا المحراب لذا قدّم ﴿ عَلَيۡهَا ﴾ لأن الكلام كله عن مريم عليها السلام، يقول سيبويه في التقديم والتأخير: يقدمون الذي هو أهمّ لهم، وهم أعنى به. تراجع محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧١-٣٧٣).

﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وأطلق عليه ذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿ كُن ﴾ ، كما قال تعالى عن خلق عيسى عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وأنه يكون {سيداً}، أي: سيداً في الخُلق والدين والعلم والفقه، وعدم تمكن الغضب منه[١].

وأنه يكون {حصوراً}، أي: لا يأتي النساء، ولا يولد له[٢]. ومدح يحيى عليه السلام بأنه حصور ليس مجرد أنه لا يأتي النساء[٣]، إذ هو ليس مقصوداً لذاته؛ بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والمعاصي.

وأنه يكون ﴿ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، أي: أن الله سيصطفيه ليكون نبياً من أنبيائه الصالحين. والبشارة بنبوة يحيى عليه السلام زيادة على مجرد البشارة الأولى بحصول الولد.

ولما سمع زكريا عليه السلام بهذه البشارة، تعجب من كيفية حصول ذلك، لا من مجرد حصوله؛ أي تعجب هل سيكون بالطريقة المعتادة وهو شيخ طاعن في السن وامرأته عاقر، أم سيكون بمعجزة لا تعرف أسبابها كما في الرزق الذي يأتي لمريم عليها السلام. فأجابته الملائكة بالقول: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فرح زكريا عليه السلام بهذه البشارة، وطلب علامة ليعرف بها حصول الحمل والولد، فكانت الآية عدم استطاعته النطق بدون مرض ولا علة، كما قال تعالى: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ [مريم: ١٠]، وواضح أن هذه الآية هي آية خاصة له لا يتحقق

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧٤-٣٧٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٣٧٦-٣٨٠)، وابن أبي حاتم في عدة آثار (٣٤٦٤-٣٤٦٨).

(٣) يرى بعض العلماء أنه يفهم من دعاء زكريا عليه السلام بقوله ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً ﴾ أن يحيى عليه السلام ربما يكون تزوج ووجد له نسل وذرية وعقب. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢).

منها إلا هو.

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾، وهو ما قام به زكريا عليه السلام خير قيام، بل زاد على ذلك أن أمر قومه بفعل ما أُمر هو به ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ [مريم: ١١].

وهنا تتوقف السورة عن ذكر المزيد من قصة يحيى عليه السلام، وتنتقل إلى ما هو أهم في هذا السياق، وهو متابعة قصة مريم عليها السلام، لتكون مدخلاً إلى قصة ولدها عيسى عليه السلام، وهي أساس في الحوار مع النصارى.

وتتابع الآيات من مخاطبة الملائكة لمريم عليها السلام، وبيان اصطفاء الله تعالى لها وتفضيلها على نساء العالمين، فتقول لها الملائكة ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ لكثرة عبادتك وزهدك وشرفك، ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأكدار والوسواس ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾ مرة أخرى لجلالتك وفضلك ﴿ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]. وقد قال ﷺ: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[2]. ثم أمرتها الملائكة بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع لله تعالى؛ ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[3]، وهو ما قامت به مريم عليها السلام التي أنبتها الله نباتاً حسناً. وهذا الخطاب من الملائكة تمهيد ضروري لما سيكون بعد ذلك من بشارة بعيسى عليه السلام، وهو أمر مهول جداً على المرأة الحرّة الشريفة، فكيف

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾، برقم (٣٤٣٢)، وفي كتاب المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، برقم (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣٠).

(٣) وفي الآية تدرج من الكثرة إلى القلة، فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ثم السجود وهو أخصّ وأقلّ ثم الركوع وهو أقلّ وأخصّ. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م..

بامرأة هي من أكمل النساء كمريم عليها السلام.

ثم وصلت الآيات إلى نتيجة حتمية بأن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الأخبار هو ﴿ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الماضي، ﴿ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ ؛ أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم[1]؛ لأن النبي ﷺ ما كان هناك، ولا عاش هذه الحوادث، ولا سمعها من أحد، ولا عرفها أحد من قومه، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ ﴾ وهم يستهمون ويقترعون ﴿ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ ﴾ ويتولى تربيتها والعناية بها، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ في ذلك.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مرتبة النبوة والرسالة اصطفاء محض من الله تعالى لمن يشاء من عباده.
- اصطفاء الأنبياء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان[2]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ .
- الأنبياء بعضهم من بعض، جاءوا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له.
- لا خلاف في وجود فارق خَلْقي بين الرجل والمرأة، وأنهما لا يستويان في ذلك، ولكن هذا لا يعني إطلاق تفضيل جنس الرجل على جنس المرأة، فمريم عليها السلام كانت خيراً لأمها من الذكر الذي أرادته.
- استحباب تعويذ الأولاد والذرية، والدعاء لهم بالحفظ والرعاية والخير والبركة، لما له من أثر عظيم في مستقبلهم.
- أهمية الصحبة الصالحة في تربية الناشئة، لتربيهم على الخير والعلم والدين، وليقتبسوا من علمهم وصلاحهم.

---

(١) ينظر: الباب الثالث من كتاب إعجاز القرآن الكريم لغير العرب، د. محمد عيادة الكبيسي.
(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/ ٣٢٦).

- مشروعية القرعة لحلّ بعض الاختلافات.
- مشروعية الدعاء حتى في الأمور التي يستبعد وقوعها في الطبيعة.
- إخبار النبي ﷺ بالأمور الغيبية الماضية هي وحي أوحاه الله تعالى إليه، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع يتناسب مع محور السورة الذي هو توحيد الله تعالى، حيث تناول هذا المقطع اصطفاء الله تعالى لأنبيائه، ووحدة دينهم ودعوتهم، وفيه بيان أن قدسية هؤلاء وتكريمهم إنما هو باصطفاء الله واختياره لهم، وما يجري لهم من كرامات ومعجزات إنما هو من عند الله تعالى، ولا دخل لأشخاصهم فيه.

المقطع الثالث: بيان حقيقة عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) ﴾ [الآيات: ٤٥-٦٣].

مناسبة المقطع لسابقه:

يتواصل الحديث من المقطع السابق، فبعد أن بيّن الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده وآلهم وذريتهم على العالمين، وذكر أنّ منهم آل عمران، وذكر اصطفاء وإكرام مريم عليها السلام، شرع في ذكر حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام، وما ظهر على يديه من معجزات خارقة، ثم وفاته من هذه الدنيا.

التفسير الإجمالي:

تنتقل القصة إلى حادثة البشارة بعيسى عليه السلام. وفيها إخبار من الملائكة لمريم عليها السلام بالبشارة العظيمة من الله تعالى أنه سيكون منها ولد له شأن عظيم في الدنيا والآخرة، ومكانة عند الله تعالى.

والمراد بالملائكة هنا جبريل عليه السلام جاءها على هيئة البشر، كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم: ١٧]. وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: بكلمة من الله تعالى، كما مرّ في الآيات، وأطلق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿ كُن ﴾، وأما اسمه فهو المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، وتسميته بالمسيح: قيل لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أَخْمَص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى[1]. وهذه التسمية جمعت بين الاصطفاء وبيان الطبيعة البشرية، فهو المسيح، وهو ابن مريم عليهما السلام. وبالإضافة إلى ذلك فإنه ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أي: وهو صغير رضيع، كما قال ﷺ: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ...)[2]. ويكلمهم ﴿ وَكَهْلًا ﴾، أي: يدعو إلى عبادة الله تعالى والعمل الصالح صغيراً

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾، برقم (٣٤٣٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، برقم (٢٥٥٠).

في مهده، وكبيراً بعد بعثته. والكهل: منتهى الحُلُم[١]. وهو ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ في قوله وعلمه وعمله، كما قال تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

ولما سمعت مريم عليها السلام بهذه البشارة العجيبة، قالت تناجي ربها عز وجل وهي متعجبة: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾، أي: كيف يكون لي ولد ولم أتزوج أحداً، فأجابها جبريل عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، وقد خلق آدم عليه السلام من تراب من غير أب ولا أم، كما سيأتي: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعبّر هنا (بالخلق) ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ، بدلاً من التعبير (بالفعل) الذي مرّ في قصة زكريا عليه السلام ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ، لأن ولادة العذراء من غير أن يمسّها بشر أبدع وأغرب في الخلق من ولادة عجوز عاقر من شيخ طاعن بالطريقة المعتادة وإن كان ذلك نادراً، فكان لفظ (الخلق) الدالّ على الاختراع أنسب بهذا المقام من لفظ (الفعل)[٢].

ثم تواصل الآيات البشارة بذكر المزيد عن عيسى عليه السلام، وذلك أن الله سيعلمه ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: الكتابة والخط، ﴿ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي: السنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب، ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾، وهي: التي أنزلت على موسى عليه السلام، ﴿ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ ، وهو إنجيل عيسى عليه السلام الذي سيوحى إليه[٣]. ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: سيبعث رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: معجزات دالة على صدقي في رسالتي، وهي: ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، فقد كان

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١١٠).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٣٧)، وتفسير ابن عطية (١/ ٤٣٧)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٨٤)، وقطف الأزهار للسيوطي (١/ ٥٩٣)، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/ ٢٣١).

(٣) تفسير الطبري، (٦/ ٤٢٢).

عليه السلام يصوّر تمثالاً من الطين على شكل طير، ثم ينفخ في هذا التمثال فيصير طيراً حيّاً بإذن الله تعالى، الذي جعلها معجزة لعيسى عليه السلام. ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ وهو: الذي يولد أعمى[1]، وأبري ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ المصاب بالمرض الجلدي المعروف، ﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وهي أشهر معجزات عيسى عليه السلام الذي بعث في قوم اشتهروا بالطب فكانت المعجزات من جنس ما اشتهروا به، لتكون أبلغ في الدلالة وأقوى في التحدي. وكل هذه المعجزات هي ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الخالق الواحد سبحانه وتعالى، ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ من طعام. وفي هذه المعجزات ما هو كفاية لمن آمن ولمن أراد الإيمان.

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾، فإن عيسى عليه السلام لم يأتِ بدين جديد بالكلية، كما أنه لم يلغِ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً لبعض ما فيها[2]، مخففاً لبعض ما فيها من أحكام، كما قال: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ مما حرّم على بني إسرائيل بظلمهم، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ تأكيد لقوله السابق، وتأكيد على مصدر هذه المعجزات أنها من عند الله تعالى، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أرسلت به، وهو: توحيد الله تعالى وعبادته، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فكلنا في العبودية له سواء، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وطريق قويم، اتفق عليه المرسلون عليهم السلام.

---

(١) وقيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس، وقيل هو الأعشى، وقيل هو الأعمش. والقول المختار أعلاه أشبه بالصواب، لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩). وهذا القول يناسب ما أوتي من معجزات فيها خوارق طبية من النفخ في صور الطين، وإحياء الموتى، والله أعلم.

(٢) هذا أصح القولين في المسألة، ومن العلماء من قال: لم ينسخ من التوراة شيئاً، بل أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [الزخرف: ٦٣]. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠).

لم تكن استجابة بني إسرائيل لعيسى عليه السلام جيدة، بل لقد ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾، وهنا قال لهم حاسماً لتلاعباتهم: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، فأجاب ﴿ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الصادقون الذين آمنوا به قائلين: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. والحواريون جمع حواري، وهو الناصر[1]. وناجى الحواريون ربهم صادقين: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ من أولي العلم الذين شهدوا بوحدانيتك.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن بقية بني إسرائيل الذين تآمروا على عيسى عليه السلام ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ ووشوا به إلى ملكهم الكافر ليقتله، ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ بهم ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ وذلك كما قال تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ حيث ألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على أحد المتآمرين، أو شبه لهم أنهم قتلوه أو صلبوه، ودفع الله كيدهم عن نبيه عيسى عليه السلام، وخلصه منهم[2].

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن الله رفع المسيح عليه السلام إلى السماء بجسده وروحه، سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حياً فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾.

---

(١) كما قال النبي ﷺ: (إن لكل نبي حواريًّ وإن حواريَّ الزبيرُ)، أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٥). وقيل سمي الحواريون: لبياض ثيابهم، ويطلق الحواري على: الخالص والخليل والمخلص والناصح والخصيص والمجاهد والمفضل ومن يصحب الكبير ومن يصلح لخلافة كبيرة. ينظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر (ص١٠٩).

(٢) العجب أن النصارى يسمون عيسى عليه السلام (المخلِّص) بالكسر. وجدير أن يسمى عيسى عليه السلام (المخلَّص) بالفتح، إذ أنه ما خلّص أحداً، ولكن الله خلّصه، والله أعلم.

فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حيّ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية)، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحه جسده ولم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فهذا دليل على أنه لم يعنِ بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، ولو كانت قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ﴾ فقوله هنا: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه، إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات.ا.هـ كلام ابن تيمية رحمه الله[1].

وقوله تعالى ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: بأن أنقذتك منهم ومن كيدهم ومكرهم، وخلصتك من القتل والصلب، ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: اتباعك الصادقون، وذلك أن بني إسرائيل اختلفوا في عيسى عليه السلام كما سيأتي، وهذا التفضيل خاصّ بهم في وقتهم، وبمن اتبع النبي محمداً ﷺ بعد بعثته، إذ أن صدق اتباع عيسى عليه السلام يقتضي اتباع النبي محمد ﷺ الذي بشّر به عيسى عليه السلام، ولأن من آمن بمحمد ﷺ فقد آمن بجميع الأنبياء ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من صدق

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد الرابع ص٣٢٢، ٣٢٣. ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

عيسى عليه السلام خلافاً لمن كفر به، وخلافاً لمن ادعوا ألوهيته وغير ذلك، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وهذا وعيد بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة لمن كفر به واتهمه من اليهود، وللذين غلوا فيه وادعوا ألوهيته من النصارى. ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ الله تعالى ﴿ أُجُورَهُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون على الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان، والجملة تذييل وتقرير وتفسير للحكم المذكور(١).

وفي الآية التفات، حيث جاء التعبير بضمير الغائب ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ وكان الظاهر أن يقول (فأوفيهم) كما قال قبلها ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ ، ولعل المراد من هذا التعبير التخفيف من وقع التهديد السابق بالعذاب، فجاء بصيغة مغايرة تطميناً وتسكيناً لقلوب السامعين، والله أعلم.

وأما على القراءة بنون العظمة {فنوفيهم} فإن الغاية من الالتفات فيها هو إظهار عظمة الله تعالى وبالتالي تعظيم أوليائه، وبيان تمام الاعتناء بهم(٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: هذا الذي مرّ من أمر عيسى عليه السلام وأمر ولادته ومعجزاته هو من قول الله تعالى الذي أوحاه وأنزله عليك يا نبي الله عليك الصلاة والسلام، وهو الحق لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم: ٣٤].

ثم تعود الآيات للمناقشة بشأن خلق عيسى عليه السلام المعجز، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب، ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إذ خلقه الله تعالى من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والذي خلق آدم قادر على

(١) تفسير أبو السعود (٢/ ٤٥)، وينظر: تفسير النسفي (١/ ١٥٧)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٤٥).
(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٢٢-٤٢٣).

خلق عيسى عليه السلام بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى عليه السلام فجواز ذلك في آدم عليه السلام بطريق الأولى[(١)]، وهذا هو القول ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ في أمر عيسى عليه السلام ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ، وفي الآية والسياق تعريض بالنصارى الشاكين في أمر وحقيقة عيسى عليه السلام، ولا يزالون مختلفين إلى زماننا هذا.

بعد هذا البيان والتوضيح تأتي آية المباهلة الشهيرة، حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يباهل من جادل وحاجّ في أمر عيسى عليه السلام بعد ما تبين الحق، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ من الطرفين، فأيهما استحق هذا الوصف استحق اللعنة من الله تعالى. وقصة المباهلة ووفد نجران مبثوثة في كتب السيرة والتاريخ[(٢)]، وعندما جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا[(٣)]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً)[(٤)].

ثم كانت خاتمة الآيات والمقطع بقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي قصصناه عليك وبيناه لك من أمر عيسى السلام ﴿ لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ ، وعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو ليس بإله، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، وحده لا شريك له، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وقد اقتضت حكمته خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ليكون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٥-٦٦).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٢٥-١٢٦)، وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٥٨٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٦٩)، و (٥/ ٥٢-٥٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٢-٣٩٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٦٩٥-٦٩٨)، وغيرها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٢٦).

آية للناس وليظهر الله تعالى قدرته لخلقه كما قال ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]؛ فخلق آدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى[١]. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن هذا الحق بعد أن عرفوه فأولئك هم المفسدون، والله ﴿ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وسيجازيهم على أفعالهم وأقوالهم.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مكانة عيسى عليه السلام في الدنيا والآخرة تستدعي بشارة أمه بمولده.
- قدرة الله تعالى على خلق ما شاء كيفما شاء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه وتعالى.
- المعجزات والخوارق التي تظهر على أيدي الأنبياء، والكرامات التي تظهر على أيدي بعض الأولياء إنما هي بأمر الله وإذنه، وفعله وقدرته، يظهرها لحكم عظيمة.
- لم يأتِ عيسى عليه السلام بدين جديد، كما أنه لم يلغِ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً ومخففاً لبعض ما فيها من أحكام.
- لم يستجب بنو إسرائيل لعيسى عليه السلام، بل كانوا يتلاعبون ويراوغون، حتى ﴿ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾.
- دعوى صلب عيسى عليه السلام قد تكون أكبر خدعة وكذبة في تاريخ البشرية، فقد خلّص الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام من مكر بني إسرائيل، فلم يتمكنوا من قتله أو صلبه.
- عجز عيسى عليه السلام عن الدفاع نفسه أو الهروب ممن أرادوا قتله أو صلبه دليل على بشريته.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٦٦).

- إن ادّعاء البنوة أو الألوهية في عيسى عليه السلام بسبب خلقه المخالف للعادة غير مُسَلّم، لأن خلق عيسى ليس بأغرب من خلق آدم عليهما السلام.
- ما مرّ من بيان للأصل البشري لعيسى عليه السلام وأمه، وأنهما ممن اصطفى الله تعالى، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كل ذلك يكفي لتفنيد شبه النصارى فيما ادّعوه. وهنا تنتهي المحاجّة معهم، ومن لم يستجب منهم بعد ذلك فلا طريق أمامه سوى المباهلة لمن يرى استمرارها.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع مناسب لمحور السورة، ففيه بيان حقيقة عيسى عليه السلام والأصل البشري له، وبيان أن خلقه غير المعتاد ليس دليلاً على أنه إله أو ابن إله، فخلق آدم عليه السلام أغرب وأعجب.

المقطع الرابع: حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علات

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده، وذكر أنهم ذرية بعضها من بعض، شرع هنا في بيان وحدة الدين الذي جاءوا به وهو الإسلام، وأنه دين جميع الأنبياء، وتأكيد إسلام إبراهيم عليه السلام، والصلة الوثيقة بينه وبين أمة الإسلام، وبين دينه ودين الإسلام.

وبعد بيان حقائق تاريخية حول إبراهيم عليه السلام، وتكذيب أهل الكتاب في دعواهم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام وملته الحنيفية، تنتقل الآيات إلى الحديث عن أهل الكتاب مبينة حقائق عنهم تتعلق بضلالهم وإضلالهم ومحاولاتهم ردّ أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام -وهم المسلمون- عن دينهم عبر وسائل مختلفة ملتوية، حسداً من عند أنفسهم لأن الله اختص هذه الأمة بالرسالة الخاتمة. فتتحدث الآيات عن مكائدهم، وتزويرهم للحقائق وتزويرهم لكلام الله وعهده، وقولهم على مريم وعيسى عليهما السلام الكذب. ثم أكدت الآيات وحدة الرسالات، والدين الحق، الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في دعواهم أنه منهم، وتذكر دليلاً مشاهداً ماثلاً للعيان على صدق المسلمين وكذب أهل الكتاب المدّعين، وهو البيت الحرام بمكة المكرمة.

وهذا المقطع هو ختام القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم الذي يتناول نقاش أهل الكتاب ومحاجّتهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضيع:

يمتد هذا المقطع عبر الآيات (٦٤-٩٩) من السورة، وقد رأيت تقسيمه إلى أربع مواضيع كما يأتي:

الموضوع الأول: إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

التفسير الإجمالي:

تتوجه الآيات بالخطاب إلى أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإتفاق على الحق والعدل؛ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهي دعوة إلى الحق والعدل الذي يعرفونه في كتبهم، والذي جاء به أنبياؤهم، وهو توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، وعدم تأليه البشر أو صرف أنواع العبادة لهم، وعدم ادعاء الولد لله تعالى، كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ عن هذه الدعوة الصادقة المنصفة ﴿ فَقُولُوا۟ ﴾ أيها المسلمون لهم: ﴿ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، لله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد استخدم النبي ﷺ هذه الآية في رسالته لهرقل عظيم الروم؛ فكان في كتابه ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن

عليك إثم الأريسيين، و ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(١).

ثم تواصل الآيات دعوة أهل الكتاب، وهذه المرة على سبيل الإنكار، حيث تنكر عليهم محاجتهم في إبراهيم عليه السلام؛ وقولهم هو يهودي أو نصراني، رغم بعد المدة بينهم وبينه، ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾ بزمن طويل لا يعمل قدره إلا الله، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ . وهذه الآية مناسبة للسياق ولما سبق؛ فإن السياق في مخاطبة أهل الكتاب، وهذا جزء منها، وقد سبق الحديث عن خطأ اليهود الفظيع وخطأ النصارى الشنيع في عيسى عليه السلام، وهم قريبو العهد به، فناسب أن يعقب بالتنبيه على خطأهم في إبراهيم عليه السلام مع تباعد الأزمان والدهور، من باب الأولى والأحرى.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ في صفة محمد ﷺ، حيث تجدونه مكتوباً في كتبكم، ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ ﴾ مما ليس في كتبكم من أمر إبراهيم عليه السلام،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب وباب بدء الوحي، برقم (٧).
وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٤) إشكالاً؛ وذلك أن محمد بن إسحاق وغيره ذكروا أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بَذَلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، والنبي ﷺ كتب هذه الآية قبل الفتح، فكيف يكون ذلك؟، وحاول أن يجمع بين القولين من وجوه: أحدها: احتمال نزول الآية مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. والثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. والثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مُصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك. والرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكَتْب هذه الآية في كتابه إلى هرقل لم تكن أنزلت بعد، ثم نزل القرآن موافقة له.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[(١)].

وفي الآية إنكار عليهم في محاجتهم في أمر لا علم لهم به.

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨ ﴾، وسيأتي في السورة لاحقاً إشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، والرسول محمد ﷺ دعا إلى ملة إبراهيم عليه السلام ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ودعا إلى الصلاة إلى الكعبة التي بناها في أول بيت وضع للناس، وعند مقام إبراهيم عليه السلام، والحج إلى المناطق نفسها، والمسلمون مدعون إلى اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي استخدم تسمية المسلمين ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. إذن فمن أولى الناس بإبراهيم عليه السلام؟.

---

(١) بحر العلوم، المسمى: تفسير السمرقندي، (١/ ٢٧٦)، وقطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦٠٢).

الموضوع الثاني: مخاطبة فرق أهل الكتاب وبيان حقائقهم:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الآيات: ٦٩- ٨٠].

التفسير الإجمالي:

قبل أن نشرع في التفسير الإجمالي لهذه الآيات نشير إلى عظمة القرآن الكريم في إنصافه لأعدائه وذكر الحقيقة دون مبالغة أو إجحاف، حتى في معرض الردّ عليهم وتكذيبهم، فنرى القرآن الكريم يقول في هذا الجزء من المقطع: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وليس (ودّ أهل الكتاب)، ونراه يقول: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، ويقول: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾،

ويقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾ ، وسيأتي في الآيات الأخرى مثل ذلك. فسبحان الله الحكم العدل.

يخبر الله تعالى أن طائفة من أهل الكتاب تتمنى أن تصد المسلمين عن دينهم، وتضلهم عن الحق الذي أنزل إليهم، ويخبر القرآن الكريم أنهم في الحقيقة إنما يضلون أنفسهم، لأنهم اقترفوا ذنباً بالإعراض عما أنزل إليهم وسيتحملون وزر من يضل متأثراً بشبهاتهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، فهم ﴿ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، رغم أنهم من أهل الكتاب، فكان الأجدر بهم أن يكونوا داعين إلى الحق دالين عليهم، ولهذا خاطبهم بعدها بقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الذي أنزل عليكم من الله لهدايتكم ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أنها آيات منزلة من عند الله تعالى، وبشهادة التوراة والإنجيل وأنتم تزعمون أنكم تؤمنون بهما، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وبعد أن ذكر هذا الكفر، ذكر نوعاً آخر من الكفر والمكر، وهو خلط الحق بالباطل، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾، وذلك أنهم كانوا يظهرون بألسنتهم التصديق بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو غير الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية[١]، ويا أهل الكتاب لم ﴿ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، حيث كتموا ما في كتُبهم من نعت رسول الله محمد ﷺ ومبعثه ونبوّته[٢].

ثم فصّل خلطهم الحق بالباطل ومكرهم بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: أظهروا تصديقكم للنبي محمد ﷺ وما جاء به من ربه، هذا في بداية النهار، ثم ﴿ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الحق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٠٣-٥٠٤).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٠٥).

ويرتدون عن دين الإسلام، فتصديقهم إنما هو نفاق ومكر وخداع، وإلا فإنهم كانوا يتواصون فيما بينهم قائلين: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾، وما أنتم عليه من يهودية أو نصرانية. وهنا يقطع حديثهم أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقد هدى الله المسلمين إلى الحق المبين والصراط المستقيم. ثم يتابع نقل حديثهم لبعضهم أن ما يفعلونه هو خشية ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ قالوا ذلك حسداً منهم أن تكون النبوة في غيرهم، وحذّر بعضهم بعضاً من أن يركنوا إلى المسلمين أو أن يظهروا لهم أسرارهم فيتعلموها منهم فيحاجّوهم بها ويغلبوهم بالحجة والبرهان. ويأمر الله تعالى رسوله بأن يجيبهم على هذا الوهم فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ في فضله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحقه، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ ﴾ وبفضله ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من خلقه، فكما اختصّ اليهود عندما اتبعوا موسى عليه السلام، ثم اختصّ النصارى عندما اتبعوا عيسى عليه السلام، فكذلك اختصّ المسلمين باتباع رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وهذه الطائفة من أهل الكتاب التي تكتم الحق عمداً لم تؤد الأمانة ولم تحفظ عهد الله لهم باتباع الرسول محمد ﷺ الذي جاء مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل. وقبل الدخول في التفصيل ينصف القرآن الكريم أهل الكتاب قائلاً: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ ، فهم ليسوا سواء في خيانة الأمانة، فبعضهم يؤديها ويوفيها ولو بلغت قنطاراً، وبعضهم يجحدها ويخونها ولو كانت ديناراً، إلا إذا كانت عليه مستمسكات لا تمكنه من الخيانة!.

وسبب فعلهم هذا هو زعمهم بأن ﴿ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ من غير اليهود ﴿ سَبِيلٌ ﴾ ولا حرج ولا إثم، ونسبوا ذلك إلى التوراة كذباً وافتراءاً على الله، وقد يراد بالأميين العرب[1]، لأنهم كانوا أمة أمية. وهم في فعلهم هذا عامدون، فهم ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ

(١) وهو الذي قال به ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٠).

يَعۡلَمُونَ ﴾ .

﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ ﴾ ، أي: لكن من أوفى منكم يا أهل الكتاب بالعهد الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ محارم الله تعالى وحقوق الآخرين واتبع شريعة خاتم المرسلين ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ الذي عاهدهم به من اتباع محمد ﷺ إذا بعث، ﴿ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ التي يحلفونها ويعطونها، يشترون بهذا ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من متاع الدنيا الزائل، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ ﴾ ولا نصيب ولا حظ ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بكلام لطيف رحيم، ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ بعين الرحمة والرأفة، ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ ﴾ من الذنوب والآثام، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في نار الجحيم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في التحذير من الحلف الكاذب؛ فعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثاً مراراً، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟، قال: (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)(٢).

ثم يخبر الله تعالى عن تحريفهم للكتب السماوية التي أنزلت عليهم، ﴿ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فيحرفونه ويزيدون فيه وينقصون منه حسب الحاجة، ويعمدون إلى تقليد أساليب الكتاب الصحيح ﴿ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الصحيح، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ بكل جرأة ووقاحة وصلافة: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ كذباً وافتراءاً، ﴿ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩]، ثم أخبر بأنهم يفعلون ذلك عن

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية برقم (١٠٦).

عمد وقصد، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ . وقد أثبتت هذه الآية صفتين شنيعتين لأهل الكتاب وهما تحريف الكتب والسماوية، والكذب والافتراء على الله تعالى بوضع كتب من عند أنفسهم ونسبتها إلى الله تعالى[١]. وهاتان الصفتان يصدر عنهما عادة أسوأ أنواع الأفعال وأخس المؤامرات، وأخطر أنواع التضليل والتدليس والخداع الذي يمارسونه في حق البشرية[٢].

وبعد أن ذكر تحريف اليهود للتوراة وليّ ألسنتهم بها، انتقل إلى تحريف مشابه له[٣]، وهو ما تسبب به كذبهم وافتراؤهم هذا في أنهم عبدوا عيسى وعزير عليهما السلام، ولهذا قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿ مَا كَانَ ﴾ ولا ينبغي ﴿ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فيصبح ذا علم وحكمة وقرب من الله تعالى ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقصد بهذا القيد ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تشنيع أمر الناس بعبودية البشر بأن ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى، لأن حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين[٤]، ولهذا لم يقل: (عباداً لي مع الله) رغم زعمهم هذا. ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ ، أي: ولكن كونوا علماء عاملين تخلصون العبادة لله تعالى[٥]، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ للناس ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ الكتاب

---

(١) ولا ننس أن نشير هنا إلى الافتراء الجديد الذي اقترفوه في زماننا هذا، حيث افتروا كتاباً زعموا أنه وحي جديد على لسان نبي جديد، وسمّوه: الفرقان الحق. ظهر الإصدار الأول منه في بداية عام ٢٠٠٢. ثم ظهرت النسخة المعدلة في آخر عام ٢٠٠٤، وفيها زيادة سور. وقد طبع هذا الكتاب ووزع في بعض الدول الإسلامية، وهو باللغة العربية، ومليء بالأخطاء والترهات. ولعلي أفرد له ردّاً مفصلاً.

(٢) التفسير المنير، أ. د. وهبة الزحيلي (٣/ ٢٧٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٣٨).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٤٠).

(٥) قال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٤٤): الربانيون: هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»، لأن «الأحبار» هم العلماء، و«الرباني» الجامع إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم.

وتحفظون ألفاظه. كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

{وَلَا} يمكن لهذا النبي الصادق أن ﴿ يَأْمُرَكُمْ ﴾ بأَنْ ﴿ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ من دون الله تعالى، لأن هذا من الكفر، فهل ﴿ يَأْمُرُكُم ﴾ النبي الصادق ﴿ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، هذا لا يكون.

الموضوع الثالث: وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الآيات: ٨١-٩٢].

التفسير الإجمالي:

بعد أن بيّن الله تعالى كذب أهل الكتاب وافتراءهم وتحريفهم للكتب السماوية، وخيانتهم للعهد والميثاق، أخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين أن يصدّق بعضهم بعضاً، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ أي: أنه مهما آتى الله تعالى أحدهم من كتاب وحكمة ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما آتاه الله تعالى من العلم والنبوة من اتباع من بُعث بعده ونصرته[1]. ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وعهدي وميثاقي، ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ العهد والميثاق ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

والمقصود من ذكر ميثاق الأنبياء إعلام أممهم بذلك ليكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال[2].

ومسألة اتباع السابق القديم للاحق الجديد ظاهرة لا تحتاج إلى نقاش، وبخلافها لا تستقيم الأمور، وهذا مشاهد في حياة الناس، فمن المعلوم أن القانون اللاحق يعمل به بدلاً من القانون السابق، ويكون للقانون الجديد السلطة والهيمنة على القانون القديم. وقد قال الله تعالى بخصوص القرآن الكريم مع الكتب السماوية: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]. والنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمقدم عليهم أجمعين، وإمامهم في ليلة الإسراء، وشفيع الناس في يوم الدين، فيكون هو ﷺ المخصوص بهذه الآية[3]، وهو الرسول المصدق لما معهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/ ١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩).

﴿ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ١٠١]، والقرآن الكريم مصدق لما قبله، كما قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: ٣].

هذا هو دين الله الحق الذي أنزله على أنبيائه جميعاً، وأولئك الذين خانوا عهد الله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ وهو دين جميع المرسلين، والله وحده إله هذا الكون ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أي: استسلم له من فيهما طواعية باختيارهم وهم المؤمنون، وكراهية بانقيادهم لقوانين الكون ونواميسه وهم الكافرون[١]. كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥]. وجميعهم ﴿ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ فيحاسبون على أعمالهم يجازون. وقيل المعنى: أطاعوه فيما أحبّوا أو كرهوا[٢].

ثم أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلن لهم إسلامه طوعاً واختياراً، مبيناً حقيقة وحدة الدين من الله تعالى والرسالات؛ ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو القرآن الكريم، ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ من الصحف والوحي، ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ من التوراة والأنجيل ﴿ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ من الوحي ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ في الإيمان فنحن نؤمن بهم جميعاً ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ مصدقون[٣]. وهذه الآية قطع للجدال العقيم معهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

---

(١) ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/ ١٤٦) عدة توجيهات للآية، فقال: ومعنى ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾: أن من العقلاء من أسلم عن اختيار لظهور الحق له، ومنهم من أسلم بالجبلة والفطرة كالملائكة، أو الإسلام كرهاً هو الإسلام بعد الامتناع، أي: أكرهته الأدلة والآيات، أو هو إسلام الكافرين عند الموت ورؤية سوء العاقبة، أو هو الإكراه على الإسلام قبل نزول آية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٢٤).

(٣) وقد مرّ مثل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، والخطاب فيها للمسلمين، ولهذا قال فيها ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ لأن القرآن الكريم لم ينزل عليهم وإنما أنزل على الرسول ﷺ ووصل عن طريقه إليهم.

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، لأنهم لا يبحثون عن الحق وإنما يطلبون ديناً خاصّاً بهم مفصّلاً على هواهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾، استكمالاً لما قاله تعالى في صدر السورة: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

ولما كان الضلال بعد الهدى دليل على اتباع الهوى وعدم الرغبة في الحق والهدى قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ ﴾. وهذه الآية و ما بعدها في المرتدين من أمة الإسلام، ويدخل فيها أهل الضلال من أهل الكتاب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه. وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية[1]، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، لأنهم لا يبحثون عن الحق ولا يريدون الهداية، ولهذا توعدهم الله تعالى باللعنة والعذاب، فقال عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، فحقت عليهم لعنة الله تعالى ولعنة خلقهم، كما قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وترك باب التوبة والعودة مفتوحاً، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾، يتوب على من تاب، واشترط هنا مع التوبة الإصلاح، لأن كفرهم بعد إيمانهم قد يوقع بعض الناس في الفساد والغواية، بخلاف الكافر ابتداءً، لذا طالبهم

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٣).

بالإصلاح مع التوبة[1]، والله أعلم.

وبعد الترغيب في التوبة، هدد وحذر من الكفر وعدم الرجوع، وحذر من الإمعان في الكفر والازدياد من الإثم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾، عن طريق الحق، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: ١٨].

وبما أن الكافرين غرتهم أموالهم وأولادهم وغرتهم الحياة الدنيا، فربما ظنّ بعضهم أن هذا سيشفع له يوم القيامة، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾، تأكيداً لما قاله في صدر السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الآية: ١٠]، وكما سيأتي فيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الآية: ١١٦]، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦]. وقد قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به. فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم؛ أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي)[2].

والسياق يحتمل معنى آخر وجيهاً؛ وهو أنه لن يقبل من أحدهم جميع ما أنفقه من أموال

(١) قارن بتفسير السمرقندي (١/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٥٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، برقم (٢٨٠٥).

في ما يظن أنه من وجوه الخير والقربات بدون إيمان[(١)]، كما قال النبي ﷺ عندما سألته عائشة رضي الله عنها فقالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟، قال: (لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[(٢)].

ثم قال تعالى مبيناً أنواع الإنفاق التي تنفع المؤمنين بدين الله تعالى الذي هو الإسلام الذين وصفهم قبل بقوله: ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، فقال هنا: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ وكمال الخير ﴿ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ من أنواع الأموال والممتلكات وأنواع الخير، ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فيجازي المنفق مما يحب بالبر والإحسان.

الموضوع الرابع: تأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب:

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٩٣) فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [الآيات: ٩٣-٩٩].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩٤)، وينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٨٠-٤٨١)، وقد رجّح ابن كثير هذا المعنى. والمعنى الأول هو الأقرب للسياق، وسبب زيادة الواو في هذا السياق وعدم وجودها في آية المائدة هو أن السورة تتحدث عن اغترار الكافرين بالدنيا وتعلقهم بها كما مرّ وكما سيأتي، ولهذا كأن الله تعالى يشير إلى بخلهم وحرصهم على هذه الدنيا حتى لكأنهم يترددون في تقديمها للفداء، والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على كفره لا ينفعه عمل، برقم (٢١٤).

مناسبة هذا الموضوع لسابقه:

بعد أن رغّب الله تعالى في الإنفاق مما يحب الإنسان، ذكر كيف أن إسرائيل عليه السلام ترك أحبّ الطعام إليه لله سبحانه وتعالى، ففي الموضعين ترك ما يحبه الإنسان(١).

وأيضاً لما تقدم السياق في الردّ على النصارى في اعتقادهم في عيسى عليه السلام، شرع في الردّ على اليهود في إنكارهم النسخ، وذلك بذكر تحريم يعقوب عليه السلام لأحب الطعام والشراب إليه، ولم يكن قبل حراماً، ثم نزل تحريمه في التوراة بعد ذلك، وهذا من النسخ، ففيه ردّ عليهم في عدم اتباعهم لعيسى عليه السلام بدعوى إنكار النسخ، وكذلك في عدم اتباعهم لمحمد ﷺ(٢).

فالآيات المتقدمة في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، في توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب، وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم، فإن ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يقول إن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حراماً، والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً(٣).

فالغرض من الآيات بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام في الفروع والأصول، أما في الفروع فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً، وأما في الأصول فلأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين(٤). ولما كان

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٩٨)، ونظم الدرر للبقاعي (٥/ ١).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩٨-٩٩).

(٣) التفسير الكبير، للرازي (٨/ ١١٩)، وينظر: قطف الأزهار للسيوطي (١/ ٦١٣)، نسبها للأصبهاني، ولعله محمود بن عبد الرحمن الشافعي (ت٧٤٩هـ)، في كتابه أنوار الحقائق الربانية في تفسير اللطائف القرآنية. ينظر: هدية العارفين (٦/ ٤٠٩). فإن كان هو فهو متأخر عن الرازي بكثير.

(٤) التفسير الكبير، للرازي (٨/ ١٢٤).

من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج، عقّب هنا بذكره، لبيان كذب اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على دينه، وهم لا يحجون[1].

التفسير الإجمالي:

يخبر الله تعالى أن جميع الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، إلا ما حرّم يعقوب عليه السلام على نفسه، واتبعه بنوه في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما تقدم من أمور من بداية السورة الكريمة، والمقصود تعدد الرسل والكتب والرسالات، وهو ما أنكروه. ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: فمن كذب على الله تعالى وافترى وزاد ونقص كما يفعل أهل الكتاب ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي: قل يا محمد لهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به عن أهل الكتاب وفيما شرعه من أحكام وشرائع، ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، فملته عليه السلام هي الطريق المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٥].

ثم تواصل الآيات الردّ على أهل الكتاب، وتنتقل إلى طريقة أخرى في الردّ حيث يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس ليقوم بأمور العبادة والنسك هو البيت الحرام المبارك الذي ببكة، وهي مكة المكرمة؛ أي: الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام، أو المراد ببكة: البيت

(١) قطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦١٤)، وانظر ما بعدها ففيه فوائد.

والمسجد فقط[١]. وأهل الكتاب الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام لماذا لا يصلّون إلى هذا البيت ولا يحجّون إليه.

وبني بعده المسجد الأقصى، وقد وردّ النص في الحديث الشريف على المدة بين بنائهما، فعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟، قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟، قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم كان بينهما؟، قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه)[٢].

ثم اتجهت الآيات إلى وصف المسجد الحرام فوصف بأنه مبارك كثير البركات والخيرات، ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [القصص: ٥٧]. ووصف بأنه ﴿ وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فهو مصدر هداية للناس، يصلّون ويتوجهون ويحجون إليه ويتعلقون به. ووصف بأنه ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾، وهو دليل قاطع على أن هذه الأمة أولى بإبراهيم عليه السلام من غيرها، فهي التي حفظت آثاره واتبعت آثاره. ووصف بأنه أمان لمن دخله، كما وصف بذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ووصف بأنه مكان الحج، فجاء بآية الحج ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾ ، فأوجب الله تعالى الحج على من استطاعه من عباده المؤمنين، فوجد الزاد والراحلة. والاستطاعة أقسام؛ فتارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره[٣].

والحج ركن ثابت من أركان الإسلام؛ فعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت،

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾، برقم (٣٣٦٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧).

حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[1]. ومن أنكر فريضة الحج فقد كفر، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

ثم ختم المقطع بتعنيف أهل الكتاب وهز كيانهم بسبب كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، وصدهم عن سبيل الله تعالى رغم علمهم ومعرفتهم بالحق، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ وسوف يحاسبكم على كل صغيرة وكبيرة، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ وهو ما سبق من حيلهم ومكرهم حتى يرتد المسلمون عن دينهم، ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ عن الطريق المستقيم وعن الملة الحنيفية، ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ تعرفون الحق وتعرفون صدق النبي محمد ﷺ، ثم قمتم بتحريف الكتب والكذب على الله ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذه الآية تختتم القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم المخصص لمناقشة أهل الكتاب والرد على شبهاتهم وبيان دسائسهم ومكرهم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- توحيد الله تعالى هو أصل الدين، وهو الذي جاء به جميع الأنبياء، ومن مستلزمات هذا التوحيد إفراد الله تعالى بالعبودية والربوبية، وعدم ادّعاء الربوبية لأحد من خلق الله تعالى.

- الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي امتاز بالالتزام بالتوحيد ومقتضياته في هذا الزمان،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧).

(٢) وجاءت الجملة {وَمَنْ كَفَرَ} باستخدام صيغة الماضي، بدلاً من (وإن تكفروا) بصيغة المضارع، لأن فعل الماضي بعد أداة الشرط مع المستقبل يفترض الحدث مرة واحدة، أما فعل المضارع فيدلّ على تكرار الحدث، فالفعل الماضي يناسب السياق هنا. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

ومدّ يده إلى أهل الكتاب بدعوة صادقة إلى الحق والعدل وتوحيد الكلمة عبر كلمة التوحيد التي جاء بها أنبياؤهم أيضاً.

- بيان كذب أهل الكتاب في زعمهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأن التوراة والإنجيل واليهودية والنصرانية ما وجدت إلا بعده.
- المسلمون أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، وألصق الناس بدينه وشريعته، والقائمون بتطبيق ما جاء به، والتوجه إلى قبلته، والعبادة في أماكن العبادة التي بناها، وتتبع آثاره الدينية في الحجّ والعمرة وغيرها، كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه أولى به منهم.
- يعرف كثير من أهل الكتاب أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الحقّ ولكنهم يكتمونه لأسباب مختلفة.
- يسعى بعض أهل الكتاب إلى إضلال المسلمين، رغم علمهم بالحق، حسداً ليس إلا، كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].
- من الطرق الخبيثة التي ينتهجها أعداء الإسلام ادّعاء الدخول في الإسلام، ثم إظهار ونشر وإعلان الرجوع عنه، من أجل تشكيك ضعاف المسلمين، حتى يتفرد أعداء الله بقيادة البشرية بحجة أنهم وحدهم أهل الكتاب السماوي.
- أنصف القرآن الكريم أهل الكتاب أيما إنصاف، وقد أنصفهم حتى في معرض الردّ على ضلالاتهم ودسائسهم ومكائدهم، فنسب ذلك كله إلى بعض أهل الكتاب، ولم يعمّم الحكم عليهم.
- الحلف الكاذب من كبائر الذنوب.

- الإسلام هو دين الله تعالى، ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾، فعلى العاقل أن يسلم وجهه لله تعالى طوعاً وعبادة للحصول على مرضاته.

- الكفر بعد الإيمان جريمة كبرى تستوجب العقوبة في الدنيا والآخرة، وتكرار هذه الجريمة يدلّ على تجذّر الكفر وتغلغل النفاق عند صاحبه.

- باب التوبة مفتوح لكل المذنبين، حتى مرتكبي الكبائر مهما عظمت.

- إنفاق المسلم في سبيل الله تعالى من أحبّ أمواله إليه يوصله إلى البرّ، (وإن البر يهدي إلى الجنة)[1].

- فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، وهو من أركان الإسلام التي أوجبها الله على عباده المؤمنين، ومن جحدها فقد كفر، ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

- رفض الحق بعد معرفته أقبح وأشنع عند الله تعالى وعند الناس.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هناك عدد من المناسبات بين هذا المقطع بمواضيعه وبين محور السورة الرئيس وهو التوحيد؛ حيث تناول هذا المقطع بيان الدين الحق الذي جاء به جميع الأنبياء، وهو الإسلام القائم على التوحيد، كما تناول إسلام إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذب أهل الكتاب في زعمهم أنهم على ملّته بسبب الشرك الذي عندهم، وتخلّل ذلك تحذير الكافرين من أهل الكتاب، ودعوات متكررة لهم إلى الدين الحق وعبادة الله تعالى، والرجوع عن كذبهم وافترائهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وما ينهى عن الكذب، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧).

المقطع الخامس: بيان خيرية هذه الأمة، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ناقش القرآن الكريم شبهات أهل الكتاب، وفضح كذبهم وافتراءهم على الله تعالى، وبيّن تعمدهم لبس الحق بالباطل وكتمان الحق عمداً، وخيانة الأمانة، انتقل إلى تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائهم، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، صريحة وباطنة؛ فمن ذلك أنه حذّر المسلمين من طاعة أهل الكتاب لئلا يردوهم عن دينهم، كما دعا القرآن الكريم المسلمين إلى الاعتصام وعدم التفرق، وحذّرهم من الاختلاف بعد نزول القرآن الكريم كما تفرقت واختلفت الأمم السابقة بعد ما جاءهم البينات وقامت عليهم الحجج والبراهين، ثم ذكر تفرّق الناس يوم القيامة إلى أهل العذاب وأهل الرحمة، وفيه إشارة إلى الابتعاد عن أفعال أهل العذاب الذين ذكرهم قبلها وتوعدهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم أمر الأمة بتحمّل مسؤولياتها بعد اختيارها لتكون خاتمة الأمم وخير أمة أخرجت للناس، وكرر تحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، ومن الخوف من أعدائهم من أهل الكتاب خاصة، ومن العدو عامة، ثم حذّرها من المنافقين خصوصاً، وأمرهم بالصبر والتقوى للتخلص من أخطار الأعداء والمنافقين وكيدهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضيع:

يندرج تحت هذا المقطع عدة مواضيع متداخلة، رأيت تقسيمها إلى ما يأتي:

الموضوع الأول: التحذير من الوقوع في أخطاء السابقين:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الآيات: ١٠٠-١٠٩].

التفسير الإجمالي:

تبدأ الآيات بتحذير المسلمين من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، فبدأ أولاً بالنهي عن طاعة فريق من أهل الكتاب، ويبدو أن هذا الفريق هو الطائفة المذكورة من قبل، وهم الذين قالوا: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آية: ٧٢]، لأن هذا الفريق سيردهم عن إيمانهم فيصبحوا كافرين، والعياذ بالله. ولما كان الكفر غير متصور مع وجود الرسول ﷺ يهدي الناس إلى الحق ومع وجود القرآن الكريم الذي أنزل هداية للناس وفرقاناً بين الحق والباطل كما سمّاه الله تعالى في أول السورة، قال تعالى بصيغة الاستفهام الدال على الاستبعاد لهذا الأمر: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾يعني: "أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم، ويبلغها لكم"(١). ثم بيّن طريق الخلاص من المكائد والدسائس وطريق الهداية الذي لا اعوجاج فيه فقال: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾، وهي دعوة إلى الاعتصام، سيأتي التصريح بها بعد قليل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١).

ثم توجّه من التحذير بالإشارة والذكر إلى التوجيه بالنهي والأمر فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟... ﴾ الآيات الأربع. فأمر أولاً بتقوى الله تعالى حق تقاته بالخوف منه ومراقبته وطاعته واجتناب معاصيه[١]، كما ينبغي لجلاله سبحانه وتعالى، قال ابن مسعود: في تفسيرها: "أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى"، وفي رواية زيادة: "ويُشكر فلا يُكفر"[٢]. ومثل هذا لا يتأتى من البشر، ولهذا اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟؛ فمن رأى أنها غير منسوخة فسّر قوله تعالى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بأن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم[٣]، أو فسرتها خاتمة الآية وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون[٤]. ومن رأى أنها منسوخة قال: نسخها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦][٥]، ويمكن الجمع بين الرأيين بسهولة، فالمطلوب تقوى الله تعالى حق تقاته، فإن لم تستطيعوا ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقد وقع النهي في ظاهر قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ على الموت، وإنما نُهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام، ومعنى الآية: داوموا على الإسلام وحافظوا عليه في حال الصحة والسلامة حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، لأن من عاش على شيء مات عليه،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم (٣١٥٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والزيادة عند الطبري (٧/ ٦٥)، وابن وهب في كتاب التفسير من الجامع (١/ ١٢٢) و (٢/ ٨٥).

(٣) أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما (٧/ ٦٧)، وينظر: (٧/ ٦٨).

(٤) ينظر: المرجع السابق (٧/ ٦٨).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٦٨-٦٩).

ومن مات على شيء بعث عليه[١].

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: عهده وميثاقه، أو: القرآن الكريم ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، أمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة[٢]،[٣].

ثم ذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم عندما ألّف بين قلوبهم ووحّد صفوفهم فأصبحوا إخواناً على قلب رجل واحد، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]، وأنقذهم من الكفر والنار، إلى جنات الأبرار. وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم عداوات وحروب، فأنقذهم الله تعالى بالإسلام من النار، وألف بين قلوبهم. وكأن الآية تحذّر وتشير إلى أن الاختلاف كفر يؤدي إلى النار، والعياذ بالله،

---

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، ط الثانية، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٦/ ١٠٩)، و تفسير ابن كثير (٢/ ١١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٤-١١٥).

(٣) قال الله تعالى: ﴿ تَفَرَّقُواْ ﴾، بينما في سورة الشورى: ولا ﴿ تَتَفَرَّقُواْ ﴾ ؛ لأن الآية في سورة الشورى فيها الوصية خالدة من زمن سيدنا نوح، إلى خاتم الأنبياء، فجاء الفعل (تتفرقوا) أما في سورة آل عمران فهي خاصة بالمسلمين لذا جاء الفعل (تفرّقوا)، والأمة المحمدية هي جزء من الأمم المذكورة في الآية الأولى. وكذلك فالحدث ممتد في الأولى (تتفرقوا) والحدث محدد في الثانية (تفرقوا). فالأولى وصية خالدة على زمن الأزمان (ولا تتفرقوا فيه) لأن هذا هو المأتى الذي يدخل إليه أعداء الإسلام فيتفرقون به لذا جاءت الوصية خالدة مستمرة، وصّى تعالى الأمم مرة ووصّى الأمة الإسلامية مرتين. والآية الأولى أشد تحذيراً للأمة الإسلامية ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾. شرعه لنا في الوصية العامة لنوح وخصّ بالذي أوحينا إليك ثم خصّ الأمة الإسلامية في الآية الثانية. والحذف له سببان هنا الأول لأن الأمة المحمدية أصغر، ونهانا عن التفرّق مهما كان قليلاً وأراد ربنا تعالى أن نلتزم بهذا الأمر (لا تفرقوا) وقال ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

وسيأتي التصريح بذلك في سياق الآيات، وختمت الآية بقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه صلاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة.

ثم أمر تعالى بأن تتصدى طائفة من المسلمين للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان هذا الأمر واجباً على كل فرد من الأمة بحسب استطاعته(١)؛ كما أمر النبي ﷺ بقوله: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)(٢)، وأكد بأسلوب القصر أنهم هم المفلحون دون غيرهم، والمراد أن من لم يفعل ذلك من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده أن بلسانه أو بقلبه فليس من المفلحين، وكيف يفلح من لم ينكر بقلبه؟، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)(٣).

ثم نهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة عن مشابهة الأمم السابقة التي اختلفت وتفرقت وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: مع قيام الحجة عليهم بمجيء البينات والأدلة الواضحات، وجاء الفعل مذكّراً مع لفظة البينات لأن المراد بالبينات هنا: الأمر والنهي(٤). وأعرض عن الحق بعد البيان فقد عرّض نفسه للتحذير الذي

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٤٩).

(٣) صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان، برقم (٥٠).

(٤) وحيثما وردت كلمة البيّنات بمعنى الأمر والنهي فإن الفعل يُذكّر، كما مرّ في هذه السورة ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آية: ٨٦]، وفي هذه الآية أعلاه، وفي قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، [غافر، الآية: ٦٦]، والله أعلم. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير=

ختمت به الآية ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾، في يوم الدين، ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ ﴾ وهي وجوه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة، آية: ٢٢]، وقال: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ﴾ [عبس، آية: ٣٨]. ﴿ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ وهي وجوه الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القيامة، آية: ٢٤]، وقال: ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [عبس، آية: ٤٠]. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يقال هذا للكافرين والمنافقين، وفي سياق الآية تعريض بكفر أهل الكتاب بعد إيمانهم، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَفِي ﴾ الجنة ﴿ رَحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ومكان نزول رحماته ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

ثم قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ وبيّناته وحججه وبراهينه الواضحة، ﴿ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ المبين لأمور الدنيا والدين، ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومجيء البينات، وإنما يريد هداية الخلق إلى ما فيه خيرهم في الدارين، كما قال في صدر السورة ﴿ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾. ومما يدلّ على عدم احتياج الله لظلم أحد من خلقه: أن جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ملك له وعبيد له، وأنهم إليه راجعون، فهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة[1]، وهو ما ختم به المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾.

= القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٤/ ٣٥).

الموضوع الثاني: خيرية هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الآيات: ١١٠-١١٥]

التفسير الإجمالي:

يذكّر الله تعالى الأمة بواجبها بعد أن اختارها سبحانه وتعالى لتحمّل الرسالة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، مقيّداً هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾. وخيرية هذه الأمة تقتضي أن يصل خيرها إلى غيرها، فيكون المعنى: كنتم خير الناس للناس(١).

ولعل في تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله إشارة إلى ارتباط الأمرين بالإيمان وانتشاره، وإشارة إلى تقصير أهل الكتاب في ذلك كما أخبر النبي ﷺ في قوله: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"(٢).

---

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: أحاديث الغار، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة، برقم (١٦٨٨).

والأحاديث في فضل هذه الأمة وتكريمها واصطفائها كثيرة جداً، وذكر هنا صفات هذه الخيرية، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذه الخيرية وهذا الثناء والمدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم الله تعالى[(١)]، لذا أعقب هذه الآية بذكر حال أهل الكتاب تحذيراً للمسلمين من أفعالهم، ودعوة لهم إلى الرجوع إلى الحق ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ ﴾، وكما تكرر في السورة فإن القرآن الكريم لم يعمم الحكم عليهم بالفسق والكفر فقال: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إليكم، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ الضالون المكذبون.

وانتقال السيادة والريادة من أمة إلى أخرى سيؤدي إلى عداوة هذه الأمة، فقال تعالى مطمئناً للمسلمين ومهيئاً لهم للمواجهة إذا وقعت ومبشّراً لهم بالنصر عليهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لن يضروكم ولكن يسمعونكم ما تكرهون بكفرهم وتكذيبهم بنبيكم ﷺ وقولهم في عيسى ابن مريم عليهما السلام[(٢)]، ﴿ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ عليكم، وهو متصل بما قبله من شروط الخيرية، فإذا وفّت الأمة بوعدها لربها وقامت بما اشترطه عليها من الإيمان به والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم التفرق والاختلاف فإنهم سينتصرون على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة محمد ﷺ، آية: ٧-٨]. ثم ذكر تعالى سبب ذلك وأنه بسبب كفرهم وفسقهم وقتلهم واعتدائهم، وهو ما أدى إلى غضب الله عليهم ولعنه لهم، ونقل الرسالة منهم، وابتلائهم بالذلة والمسكنة، فقال تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ ووجدوا فهم يعيشون في ذلة وهوان، ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[(٣)] وعهد منه، وقيل هي الجزية والعهد بينهم وبين المسلمين، ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وعهود

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٠٨).

(٣) أفاض الإمام ابن جرير الطبري في مناقشة دخول الباء في لفظة ﴿ بِحَبْلٍ ﴾، وهو كلام مهم، يرجع =

ومواثيق بينهم وبين غيرهم، ﴿ وَبَآءُو ﴾وألزموا فالتزموا ﴿ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهم يستحقونه بسبب أفعالهم التي ستذكر، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ قدراً وشرعاً[1]، وكل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذل واللعن والمسكنة بسبب ﴿ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أي: إنما حملهم على ذلك كثرة معاصيهم واعتدائهم على حرمات الله تعالى فأدّى ذلك بهم إلى الكفر بآيات الله ورسله.

وأهل الكتاب ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾ ، فإن ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ بحق الله تعالى مستقيمة على شرعه[2]، فهم ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يقومون الليل في صلاة وتلاوة، والمراد بآناء الليل: مابين المغرب والعشاء[3]. ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ ، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آية: ١٩٩]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ يجزي كل عامل بعمله، ويجزل العطاء بكرمه.

الموضوع الثالث: تحذير الأمة من المنافقين خصوصاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا

= إليه في تفسيره (٧/ ١١٣-١١٦).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ٣٥).

تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الآيات: ١١٦-١٢٠]

التفسير الإجمالي:

بعد أن حذّر الله تعالى المسلمين من أخطاء أهل الكتاب، وحذّرها من أعدائها من غيرها، انتقل إلى التحذير من أعدائها من الداخل، وهم المنافقون، ومهّد للدخول في هذا الموضوع ببيان أن الأموال والأولاد لن تنفع الكافرين ولن تنقذهم من عذاب الله تعالى، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾، وإنما خصّ أولادهم وأموالهم، لأن أولاد الرجل أقربُ أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمرُه فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم، أبعد من أن تغني عنه من الله شيئاً[1]. ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ لا يفارقونها، بل ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لبطلان أعمالهم وعدم نفعها، فقال: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: ما يبذلونه من أموال ويفعلونه من أعمال حقيقة، أو ما يقولونه من أقوال بلا أفعال، فكل تلك لا ثمرة لها ولا ثواب لهم عليها، لأن كفرهم وذنوبهم قد أفسدتها فهي ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي: كمثل ريح فيها برْد شديد أو فيها بَرَد أو جليد، والصر: شدة البرد، وذلك بعُصُوف من الشمال في إعصار الطَّلّ والأنداء، في صبيحة مُعْتمة بعقب ليلة مصحية[2]، فأصحاب الزرع غافلون ساهون سامدون، غير متوقعين لما سيكون، فجاءت هذه

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٣٣).

(٢) هذا الشرح الدقيق لمعنى الصر من الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٦). قال محققه: هـذا البيان عن معنى =

الريح على هذا الوصف و ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ أي أصابت زرعهم الذي حان أوان حصاده فأهلكته. وشدة البرد تقتل كثيراً من النباتات بما يشبه الحرق، ويعبر بالحرق عنه. ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، بل هو بكفر أصحابه وذنوبهم.

وأمثال هؤلاء الناس الذين يضيعون حرثهم بعد تعبهم ويندبون حظهم بعد تضييع فرصهم لا يمكن أن يحرصوا على مصلحة غيرهم ولا أن يحبوا الخير لغيرهم، لذا انتقل إلى التحذير من مخاطر فئة أخرى منهم وهم المنافقون، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً ﴾ [١] وأولياء وأصدقاء وأهل سرّ ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غيركم وليسوا على دينكم، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه من الغش والخيانة وطلب الأذى لهم، فقال: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي: لا يتركون جهداً في طلب ما يورثكم الخبال والفساد[٢]. ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فهم يتمنون لكم العنت والشر في دينكم ويتمنون ما يسوءكم ولا يسركم[٣]، كما سيأتي بعد قليل ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: قد بدت عداوتهم لكم وبغضهم إياكم من أقوالهم وأفعالهم وفلتات ألسنتهم، كما يظهر لكم، وكما يتناقلونه بينهم[٤]، ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء والعداوة والكراهية ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من ما يظهرونه، ومن لم يقبل بمثل هذا البيان من الخالق الديان فليس لعقله رجحان، ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الظاهرات والبينات الواضحات ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما أنزلته لكم

= «الصر» قلما تصيب مثله في كتب اللغة.

(١) قال الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٨) في بيان ذلك: وإنما جعل «البطانة» مثلا لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه - في اطّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه - محلَّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٤٠)، وما قبله، وينظر تعليق المحقق في حاشية رقم (١).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٤٠)، وانظر (٧/ ١٤٣-١٤٤).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٤٥-١٤٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٧).

من قرآن وما بينته من برهان. وهذا هو الخطاب الوحيد بهذه الصيغة الموجه للمؤمنين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولم يقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أو نحوه، وفي هذا من الدلالة على خطورة هذا الأمر ما فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولهذا أتبع ذلك بذكر أحوال غير العاقلين من المؤمنين الذين لا يدركون خطورة ما يفعلون، فقال:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ أيها المؤمنون ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ وتصدقون الود لهم حقيقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ ولا يخلصون لكم النصح ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ كتابكم وكتب من قبلكم، وفي هذه الجملة إشارة إلى أهل الكتاب. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ﴾ نفاقاً وكذباً وخداعاً: ﴿ءَامَنَّا﴾ وما هم بمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨-٩]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، عضوا - على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم - أناملَهم، وهي أطراف أصابعهم، تغيُّظًا مما بهم، ولو وجدوا من يحميهم لأظهروا العداوة والمحاربة[1]. ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم، وأخبرتك بحقدهم وكراهيتم للحق وأهله، ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ الذي بكم على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف جماعتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بالذي في صدور هؤلاء الأعداء، وما ينطوون عليه من الغل والحقد، ويبطنون من العداوة والبغضاء، وبما في صدور جميع خلقه من خير وشر، وسيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان أو كفر، ومن حب أو بغض[2].

ثم زاد بيان هذه العداوة المتأصلة في جذور هؤلاء الحاقدين فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ أيّ ﴿حَسَنَةٌ﴾ مهما صغر شأنها وضعف أثرها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾، فيسوؤهم ما يحصل للمؤمنين من نصر

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١-١٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٤-١٥٥).

أو خير أو مال أو رزق أو أي حسنة، ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ ﴾ أيّ ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ مها كانت ﴿ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾، وهذه درجة في العداوة تبعد الإنسان عن صنف الإنسان والحيوان، إلى صنف الشيطان. ثم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق النجاة من كيد الأعداء ومكر الدخلاء وهو طريق الصبر والتقوى، فقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ وينجيكم الله تعالى من شرورهم، فدعاهم إلى الصبر على طاعة الله واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء الأعداء، وغير ذلك من سائر ما نهاكم، ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ ربكم، ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ، أي: لا يضركم كيد هؤلاء الذين وصف صفتهم[١]. ﴿ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ، أي: إن الله محيط بجميع ما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدّ عن سبيله، والعداوة لأهل دينه، وغير ذلك من معاصي الله، وسيوفيهم جزاءهم ويعاقبهم على ذلك كله[٢].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- يسعى بعض أهل الكتاب إلى الإيقاع بالمسلمين عبر الدسائس والمكائد، وقد بيّنت الآيات أن طاعة المسلم لأمثال هؤلاء لتحقيق جرائمهم يعتبر ردّة عن الإسلام.
- دعوة المسلمين إلى الثبات على الإيمان حتى الموت.
- دعوة المسلمين إلى الوحدة والائتلاف، وتحذيرهم من الفرقة والاختلاف.
- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسؤولية كل مسلم، ودعت الآيات كذلك إلى تفرّغ أناس لهذا العمل مما يساهم في حفظ الأمن والانسجام في المجتمع.
- التحذير من مشابهة أهل الكتاب في التفرق والاختلاف بعد ظهور الحقائق والبيّنات.
- الله تعالى غني عن عباده وعن عقابهم، ولا يريد الظلم لهم، بل يريد خيرهم وسعادتهم لأنه

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٨).

رحيم بهم.

- خيرية أمة الإسلام مشروطة بتحقيق شروط هذه الخيرية، وهي الإيمان بالله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- رعاية الله تعالى لهذه الأمة لا تعني عدم إصابتها بالأذى، لأن ذلك خلاف سنن الله تعالى في الكون، بل تصاب بالأذى، لكن النصر لها في آخر المدى.
- غضب الله تعالى على أهل الكتاب بسبب كفرهم وعصيانهم وجرائمهم واعتداءاتهم.
- وامتدح الله تعالى المؤمنين الصادقين العابدين من أهل الكتاب، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسعون في سبيل الخير.
- الأموال والأولاد لا تنفع شيئاً من دون الله تعالى.
- ما يصرفه بعض الناس من مساعدات على سبيل الدعاية والسمعة لا ينفعهم عند الله تعالى؛ لأنهم لم يبتغوا به وجهه الكريم.
- التحذير من المنافقين، وتحريم إطلاعهم وإطلاع غير المسلمين على أسرار الأمة الإسلامية.
- أهل النفاق يفرحون بمصائب المسلمين، ويتمنون لهم العنت في جميع أمورهم.
- تمتلئ قلوب أهل النفاق بالحقد والبغضاء على أهل الإسلام، وبعض ملامح هذا الحقد تظهر من زلات ألسنتهم وفلتات أقوالهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغضاء والعداوة والكراهية ﴿أَكْبَرُ﴾ .
- قد يغفل بعض المؤمنين عن مثل هذه التنبيهات من الله تعالى، وقد لا يتصورون وجود مثل هذه العداوة المتأصلة عند بعض أعدائهم، وهذا بسبب جهلهم من جهة، وطيبة قلوبهم من جهة أخرى.
- تبلغ العداوة ببعض الكفار إلى كراهية أيّ خير للمسلمين مهما قلّ، والفرح بأيّ شرّ يصيبهم مهما ذلّ، والصبر هو خير علاج لمثل هذه الدرجة من الكراهية.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتناسب هذا المقطع مع محور السورة العام وهو التوحيد؛ لأن الأمة المؤمنة بالله تعالى هي خير الأمم، وهذه الخيرية مشروطة بالإيمان والدعوة إليه والاستقامة عليه، والتوحيد هو أساس الإيمان بالله تعالى. كما تناولت الآيات مواضيع متعلقة بهذه المناسبة، مثل التحذير من الأعداء ومن طاعتهم وموالاتهم، والتحذير من أعداء الداخل من المنافقين، والتنبيه إلى أن الحساب والجزاء يكونان يوم القيامة، عندما يرجع الناس لرب العالمين.

المقطع السادس: عندما يواجه الأعداء (معركة أحد)

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن حذّر الله تعالى من كيد الأعداء، وأكّد استمرارهم على العداء، وبيّن إظهارهم وإضمارهم للبغضاء، وأمر بالصبر والتقوى، - ويشير ذلك كله إلى حتمية الصراع والمواجهة-، انتقل إلى الحديث عن معركة أحد، والاختبار الذي حصل فيها، والتمييز الذي حصل بين المسلمين والمنافقين، والدروس والعبر المستفادة منها.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاث مواضيع، وهي كما يأتي:

الموضوع الأول: مقدمات معركة أحد (وأن الأمر كله لله):

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾ [الآيات: ١٢١-١٢٩].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بذكر الاستعداد لمواجهة العدو القادم إلى المدينة، فذكرت أن النبي ﷺ غدا صباحاً من أهله ومن منزله، لينزل المجاهدين في منازلهم، ويرتب أوضاعهم، فيضع أناساً في الميمنة وأناساً في الميسرة، وآخرين على الجبل كل في موقعه المناسب، وفي قوله تعالى ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ إشارة واضحة إلى أن إنزال النبي ﷺ لهؤلاء في أماكنهم كان مصحوباً بتعليمات واضحة

بعدم الانتقال منها، ولذا قال ﴿ مَقَٰعِدَ ﴾؛ كأنهم قاعدون فيها أو عليها، لا يتزحزحون عنها[(١)]، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ومناقشاتكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في صدوركم وضمائركم. وفيها إشارة إلى ما حصل أثناء ذلك من نقاش وكلام كثير خفي وجلي[(٢)].

وواضح أن لهذا التعبير بالمقاعد وختم الآية بالاسمين الجليلين ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ علاقة بما حصل لاحقاً من انتقال الرماة عن مواقعهم، والنقاشات التي حصلت بينهم، والأغراض التي من أجلها تركوا مواقعهم، وحصول الهزيمة بسبب ذلك، فتكون إشارة في بداية القصة لأهم درس مستفاد منها، وسيأتي التصريح به والتأكيد عليه لاحقاً.

ولعل في التقييد بقوله تعالى ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، إشارة إلى أن المواجهة وقرار الحرب والمعركة كان مفاجئاً. كما قد يفهم في قصة المراجعة قبل الحرب، حيث ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)[(٣)]، والله أعلم.

ثم انتقل الحديث إلى الحرب والمؤثرات النفسية التي حصلت قبل الحرب[(٤)]، فأشار إلى ما كان من تردد وهمّ بالانسحاب وشعور بالجبن من قبل طائفتين من المؤمنين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾[(٥)]. قال

---

(١) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٥/ ٤٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ٤٢-٤٣).

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ٩).

(٤) وأغفل ذكر جزء مهم منها؛ وهو رجوع ثلث الجيش وهم المنافقون بزعامة رأسهم عبد الله بن أُبَيّ، حيث أخّر ذكرهم إلى آخر القصة، تحقيراً لشأنهم، وقلة تأثيرهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقد مرّ هنا قبل آيات التحذير من اتّخاذهم بطانة تكشف لها الأسرار.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير، برقم (٤٥٥٨)، ومسلم في كتاب فضائل=

ابن حجر: والآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم[١]، حيث تكفّل الله بهما وتوّلاهما. قال الطبري: وكان همُّهما الذي همَّا به من الفشل الانصرافَ عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول بمن معه، جبنًا منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول الله ﷺ لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد الله بن أبي ابن سلول والمنافقين معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليُّهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار[٢]. قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ أي: المدافع عنهما ما همَّتا به من فشلهما[٣]. قال ابن حجر: لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم[٤]. وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إذا أحسوا بالخوف أو الفشل، فإذا توكلوا على الله تعالى فإنه سيذهب عنهم ما أحسوا به.

ثم ذكّرهم بما كان في معركة بدر فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ على أعدائكم ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ يومئذ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ربكم بطاعته واجتناب محارمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ربكم على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضلّ عنه مخالفوكم[٥].

ثم ذكر ما وعدهم رسول الله ﷺ في بدر من المدد بثلاثة آلاف من الملائكة، وبخمسة آلاف

= الصحابة، باب: فضائل الأنصار رضي الله عنهم، برقم (٢٥٠٥).

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٦٨).

(٣) المرجع السابق.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٥٧).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ١٦٩).

من الملائكة عند المعركة إذا صبروا واتقوا، ولا توجد دلالة على حصول هذا المدد بأحد هذين العددين، لكن جاء في موضع آخر أن الله تعالى أمدّهم بألف: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، ولا يوجد نصّ على وجود مثل هذا الوعد في أحد، أو حصول مدد بأي عدد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أمدوا؛ وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، ويُنالَ منهم ما نيل منهم[1]. ولذا فإن سياق الوعد متعلق بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً[2]. ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ولو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، وبدون الحاجة إلى قتالكم[3]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٠-١٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥). وقدّم القلب على الجار والمجرور هنا فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ وأخّره في [الأنفال: ١٠] فقال ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ علماً بأن الكلام في الموطنين على معركة بدر غير أن الموقف مختلف؛ ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها، فقال ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾، فذكر أن البشرى (لهم) وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة، من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة. وأما المقام في الأنفال فهو مقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر، وقد فصّل في ذلك أكثر مما ذكر هنا، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢]. فلما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي. وقارن بأسرار التكرار للكرماني (ص٩٢-٩٣)، وكشف المعاني لابن جماعة (ص١٣٢-١٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥-١٤٦).

﴿ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد، آية: ٤]، وهو سبحانه العزيز الغالب، الحكيم فيما شرع لخلقه، وإنما شرع لكم القتال والجهاد لأسباب هي:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ ويهلكهم، ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ويذلهم ويحزنهم[1]، ﴿ فَيَنقَلِبُواْ ﴾ ويرجعوا ﴿ خَآئِبِينَ ﴾ خاسرين فاشلين. ثم اعترض بجملة دلّت على أنّ الحُكْم في الدنيا والآخرة لله وحده لا شريك له، فقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي: بل الأمر كلّه إلى الله تعالى[2]، ونزلت هذه الآية لسببين؛ الأول: أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: (اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا)، بعد ما يقول: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد)، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[3]. والثاني: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله)، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[4]. وعلى كلٍ فهي تدلّ على ما سبق ذكره في تفسيرها.

﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم القسم الثالث، بأن يهديهم إلى الإيمان، ويغفر لهم ما كان، ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ مستحقون للعذاب. وهذا هو القسم الرابع والأخير المذكور هنا.

وختم هذا الموضوع بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يتصرف في ملكه كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ برحمته ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ بعدله، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾،

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة ك ب ت.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير الآية في كتاب التفسير برقم (٤٥٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم (١٧٩١).

سبقت رحمته غضبه كما كتب سبحانه فوق عرشه[١]. وهذه الآية تأكيد لما تكرر من بداية هذا الموضوع، حيث جاء فيه: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ﴿ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم ﴾، ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، فناسب ختمه بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

الموضوع الثاني: أهمية الطاعة، ومواعظ وهدايات في الطاعات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الآيات: ١٣٠-١٣٨]

مناسبة الموضوع لسابقه:

لما مرّ في المقطع السابق أن الأمر كله لله تعالى وحده، وليس لأحد من خلقه شيء في ذلك، ولما كان العصيان هو السبب الأساس في حصول الهزيمة في معركة أحد، ذكر هنا مواعظ وهدايات للمتقين المصدقين، ليستحقوا نصر الله تعالى.

التفسير الإجمالي:

بدأت هذه المواعظ والهدايات بالتحذير من أكل الربا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، برقم (٧٤٢٢).

ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ لأن أكل الربا يؤدي إلى استحقاق النار، كما قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٥]. والنار ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولم تعد للمؤمنين، لكن كل من عصى وطغى ولم يترك الربا فقد استحق النار والعنا، والعياذ بالله، كما قال تعالى في آكلي الربا: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٦].

وذكر الربا هنا له مناسبة عظيمة دقيقة، لم أقف على من أشار إليها؛ وهي أنه لما كان الكلام في معركة أحد، وسبق ذكر أن النصر من عند الله تعالى، وأن ما سوى ذلك فهو بشرى وتطمين فقط، وأن ملك السموات والأرض لله تعالى، ناسب التحذير من الربا الذي يؤذن بحرب من الله ورسوله؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وبالتالي فهو حكم بالهزيمة والخسارة في الدنيا والآخرة، فناسب التحذير منه هنا.

وأما ذكر التقوى هنا فلما سبق من الأمر بالتقوى للخلاص من مكائد الأعداء، ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ ، ولنزول المدد من الله تعالى ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم ﴾.

وبعد هذا النهي والتحذير من النار، انتقلت الآيات إلى الأمر والحث على الخيرات، فأرشدت إلى طاعة رب السموات ورسول الخيرات لاستحقاق الرحمات؛ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾ في الدنيا والآخرة.

والأمر بطاعة الله وطاعة الرسول مناسب لأحداث معركة أحد، وما وقع فيها من مخالفة لأمر الرسول ﷺ وتسببها في الهزيمة، ومناسب أيضاً لما حصل من عدم استجابة لأمر الرسول أثناء الهزيمة كما سيأتي ﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ ﴾ ، ومناسب لما حصل من استجابة لأمر الرسول ﷺ بعد المعركة مما تسبب في انسحاب

الكفار وردّهم خائبين كما سيأتي ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾.

ثم حثّت على المسارعة إلى نيل المغفرة، والفوز بالجنة التي أعدت للمتقين، والنجاة من النار التي أعدت للكافرين، ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1]، ثم شرعت الآيات في ذكر صفات أهل هذه الجنة ترغيباً في العمل بعملهم لنيل مكافأتهم؛ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ﴾ جميع أحوالهم من ﴿ ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه[2]، ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ إذا جهل عليهم أحد[3]، أي: إذا غضبوا سيطروا على غضبهم وكظموا[4] غيظهم ولم يظهروه، والأحاديث في التحذير من الغضب والحث على كظم الغيظ كثيرة، أشهرها قول النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[5]. ثم ذكرت الآيات مرتبة أعلى في صفات هؤلاء؛ ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهم بعد كظمهم الغيظ يعفون عمن أساء إليهم فلا يبقى في أنفسهم شيء من الغل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى، ٣٧]، وجاء في الصحيح (وما زاد الله عبداً

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩-١٥٠): قيل: إن وصف سعة العرض تنبيه على اتساع طولها، أي: فكيف بطولها؟، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] أي: فما ظنك بالظهائر؟، وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقَبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله. وقد دلّ على ذلك ما ثبت في صحيح البخاري (برقم: ٧٤٢٣): (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٢).

(٣) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٥٤).

(٤) أصل الكظم: الإمساك على غيظ وغم، والاستخدام اللغوي لمشتقات (كظم) لطيف جداً، وهو من رباط القِرْبة الممتلئة، تربط بعد أن تملأ حتى لا يتسرب منها شيء، ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٤)، ولسان العرب، مادة (ك ظ م).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: التحذير من الغضب، برقم (٦١١٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، برقم (٢٦٠٩).

بعفو إلا عزاً)[١]، ثم ذكرت الآيات أن هذا هو مقام الإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، ويحتمل أن تكون الآيات ذكرت مقاماً أعلى وأرفع من سابقه، أي: ويحسنون إلى من أساء إليهم، والله أعلم.

ولم تغفل الآيات الطبيعة البشرية فبعد ذكر النهي والتحذير، ثم الأمر والحث، انتقلت الآيات إلى الحديث عن حال هؤلاء الأخيار عند وقوعهم في المعصية وارتكابهم للخطأ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ أي: أنهم إذا أذنبوا لم يصروا على الذنب بل سارعوا إلى الاستغفار وبادروا إلى التوب، وهم يعلمون خطورة الذنب وسوء عاقبته، وأهمية التوبة وحسن عاقبتها[٣]، ويعلمون أن الله يغفر الذنوب، فغفر الله لهم ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (إن عبدا أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت فاغفر لي، فقال ربه: {أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي} ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره، فقال: {أَعَلِمَ عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي}، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، قال: قال: رب أصبت آخر فاغفره لي، فقال: {أعلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي} ثلاثا {فليعمل ما شاء})[٤]. ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٥] أنهم قد أذنبوا، وأن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، برقم (٢٥٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٤)، وابن كثير (٢/ ١٥٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، برقم (٧٥٠٧)، وفيه ألفاظ متقاربة. ومسلم في كتاب التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، برقم (٢٧٥٨).

(٥) وأحسب أن جملة {وهم يعلمون} يمكن أن تتعلق أيضاً بأحد الفعلين: {يصروا} أو {فعلوا}، ويكون المعنى على هذا أوسع، والله أعلم.

الذي أتوا معصية لله تعالى[1].

وهذه الهدايات كلها تناسب ما حصل في معركة أحد؛ فإن ذكر الأمر بالمسارعة إلى الآخرة، والأمر بالإنفاق في السراء والضراء، والأمر بالاستغفار من الذنوب، إن ذكر هذا كله يناسب ما حصل في معركة أحد، حيث كانت المعصية وحب الدنيا السبب في الهزيمة كما سيأتي ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ دليل على أن المعصية تنتج عن الغفلة،

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ دليل على عظم الإصرار على الذنب،

وفي قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾ دليل على أن المؤاخذة هي على الذنب العمد[2]، وأنه لا مؤاخذة على الذنب بالخطأ، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ دليل على أن عدم المؤاخذة لمن وقع في الذنب عن جهل من غير تقصير. والله أعلم.

ثم ذكر تعالى قبوله لاستغفارهم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ، وذكر أنه زادهم بعد المغفرة بالجنة؛ فلهم: ﴿ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ، وذلك هو جزاؤهم على التقوى وحسن العمل ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ .

ثم ختم الموضوع بالتأكيد على الاعتبار من أحوال الأمم الماضية، وضرب المثل بعاقبة العصاة والمكذبين؛ ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ في الأمم التي ﴿ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وأحوال معهودة من

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٢٦).

(٢) الأصل في الفعل أنه عام لما كان بقصد أو بغير قصد. ينظر: المفردات (ص٣٨٢). لكن السياق هنا يشير إلى الفعل العمد، والله أعلم.

تكذيب أعدائهم ومحاربتهم إياهم ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكيف عاقبة المتقين. وإن ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ﴾ لحقائق الأمور ﴿لِّلنَّاسِ﴾ كي يتعظ ويعتبر أولوا الألباب، والقرآن كذلك ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يهدي به الله المتقين إلى أحسن الأحوال والأخلاق.

وهاتان الآيتان يمكن أن ترتبطا بهذا الموضوع والمواعظ والهدايات، ويمكن أن ترتبطا بالموضوع الذي بعده والمتعلق بمعركة أحد، فهما كالتمهيد للعودة إلى الحديث عن معركة أحد، وهما توضحان المناسبة بين الموضوعين.

الموضوع الثالث: تعزية المسلمين والنهي عن الهوان والخوف من الموت:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

[الآيات: ١٣٩-١٤٨]

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتعزية المسلمين على ما أصابهم يوم أحد، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ ولا تضعفوا بسبب ما نالكم من الأذى، ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾[1] الحزن الذي يؤدي إلى اليأس والإحباط[2]. وفي الآية تحذير للمسلمين من أسباب الهزيمة. ثم بشّرهم بالنصر والظفر، فقال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ المنتصرون على أعدائكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين بما يخبركم ويعدكم به نبيكم محمد ﷺ[3].

وجملة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يمكن أن تتعلق بالنهي في أول الآية ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾، أو متعلق بالبشارة في آخرها ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾[4].

وتواصل الآيات تسليتها وتعزيتها للمسلمين؛ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ ﴾ ويصبكم﴿ قَرْحٌ ﴾ ألم وجراح وقتل ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء، ١٠٤]. وهي سنة الله تعالى في خلقه، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾، ولولا هذه المداولة لما عادت الدنيا دار اختبار، إذ لو انتصر أهل الحق دائماً كيفما كان لما بقي للباطل سلطان، ولآمن

---

(١) وأسلوب القرآن الكريم في البشارة والتطمين في أمور الدنيا والدين يشتمل على الأمن من الخوف ومن الحزن؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران، ١٧٠]، ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس، ٦٢]، ﴿ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص، ٧]، ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر، ٦١]، ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصّلت، ٣٠]، ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف، ٦٨].

(٢) وهو منهي عنه شرعاً، بخلاف الحزن الذي يدفع إلى اللجوء إلى الله تعالى والاجتهاد في العمل؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف، ٨٦].

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

(٤) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٩٥).

الإنس والجانّ. ولكن الله تعالى جعل الدنيا دار امتحان؛ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

والظاهر أن الجملة متعلقة بأول الآية، كأنه جواب لسؤال: فلماذا مسّنا القرح؟، فقال: ومسّكم القرح ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[1]. ﴿ وَيَتَّخِذَ ﴾ ويصطفي ويختار ﴿ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يكرمهم بالشهادة وحسن ثوابها. ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، حتى لا يتوهم أن انتصار الكافرين في بعض المعارك دليل على حب الله تعالى لهم، بل هو كما قال تعالى في أول الآية: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ جميعهم مسلمهم وكافرهم. وفيه إشارة إلى أن ظلم الكافرين هو سبب قيام المسلمين بالجهاد، والله أعلم.

وتواصل الآيات الحديث عن حِكَم الأمر بالقتال؛ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والتمحيص هو الابتلاء والاختبار[2]، أي: يختبرهم ليمتازوا من غيرهم من الكفار والمنافقين وأهل الأهواء والأغراض[3]. أو المراد بالتمحيص التخليص؛ أي: ليخلصهم من ذنوبهم بما يقع عليهم من قتل وجرح وذهاب مال[4]. ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يستأصلهم إذا أدال عليهم، يعني: أنه يديل على المؤمنين لتخليصهم من ذنوبهم، ويديل على الكافرين لإهلاكهم بذنوبهم[5][6].

---

(١) اختار الإمام الطبري (٧/ ٢٤٢) أن يكون المعنى: (وليعلم الله الذين آمنوا منكم، أيها القوم، من الذين نافقوا منكم، نداول بين الناس. فاستغنى بقوله: {وليعلم الله الذين آمنوا منكم}، عن ذكر قوله: (من الذين نافقوا)، لدلالة الكلام عليه).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤٦٧).

(٣) وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٥١٥)، وتفسير السمرقندي (١/ ٢٧٨).

(٤) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٤)، و زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٤٦٧).

(٥) ينظر: تفسير الواحدي (١/ ٢٣٤).

(٦) في قوله تعالى ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ =

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ ﴾ يا من انهزم يوم أحد ﴿ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم، كلا، حتى ﴿ يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، علم شهادة، حتى يقع عليه الجزاء[١].

﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ شهادة في سبيل الله، أي: كنت تمنون لقاء أسباب الموت[٢]، والمقصود الثبات في القتال ولو أدى إلى القتل[٣]، ﴿ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ ﴾ وتلاقوه مشاهدة، ﴿ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾، يعني: قد رأيتموه بمرأى منكم ومنظر، أي: بقرب منكم[٤]، أو هو تكرار لتأكيد الرؤية، أي: فقد رأيتموه رؤية حقيقية. وقال بعضهم المراد: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ، فلم انهزمتم[٥]، وسيأتي في السياق: ﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ

=وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران، الآيتان: ١٤٠-١٤١]، لفتات بلاغية، فاللام في (ليعلم) هي لام التعليل ثم قال تعالى (يتخذ) عطف بدون لام ثم قال (ليمحّص) عطف وذكر اللام ثم قال (يمحق) عطف بدون ذكر اللام، لماذا ؟ قلنا أن الذكر للتوكيد وما حذف أقل توكيداً وإذا استعرضنا الأفعال في الآية فهل كلها بدرجة واحدة من التوكيد والحذف؟. (وليعلم) الله تعالى يريد ذلك من كل شخص علماً يتحقق منه الجزاء لكل شخص. إذن هو أمر عام لجميع الذين آمنوا ومن غير الذين آمنوا فهو أمر ثابت مطلق لكل فرد من الأفراد. (يتخذ) لا يتخذ كل المؤمنين شهداء فهذا الفعل ليس بدرجة اتساع الفعل الأول وهو ليس متعلقاً بكل فرد. (ليمحص) متعلق بكل فرد وهذا يتعلق به الجزاء. (يمحق) لم يمحق كل الكافرين محقاً تاماً فالكفر والإيمان موجودان. إذن عندما يذكر اللام على وجه العموم والمقصود يكون كل فرد من الأفراد والحذف عكس ذلك. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٠).
(٢) الطبري (٧/ ٢٤٨).
(٣) قال القرطبي (٤/ ٢٢١): (وتمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل).
(٤) تفسير الطبري (٧/ ٢٤٨).
(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢١).

﴿أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾. وقد جاء في الحديث الصحيح التوجيه بعدم تمني لقاء العدو؛ قال رسول الله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[(١)].

وتواصل الآيات عتاب المنهزمين من المسلمين، والذين تخاذلوا عندما سمعوا إشاعة قتل النبي ﷺ وموته: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وقد مات من قبله من الرسل، وسيلحق به عليهم السلام، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ كما مات أو قتل من قبله ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ عن دعوته ونصرة دينه، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل الخسران له والضرر عليه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته إياه لدينه، بثبوته على ما جاء به محمد ﷺ إن هو مات أو قتل، واستقامته على منهاجه، وتمسكه بدينه وملته بعده[(٢)]. أو الشاكرين: الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا[(٣)].

وهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد ﷺ، فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء[(٤)].

وقد استدل أبو بكر ﷺ بهذه الآية على موت النبي ﷺ حقيقة عندما اختلف الناس في ذلك، فقام فيهم خطيباً فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب:... تأخير القتال حتى تزول الشمس، برقم (٢٩٦٦)، ومسلم في نفس الكتاب، باب: كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر، برقم (١٧٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٥٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٦).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

﴿ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[(١)]، وفي هذا دليل على ثبات أبي بكر ﷺ وشجاعته[(٢)].

ثم أخبر تعالى أن الأجل بيده سبحانه وتعالى تثبيتاً لعباده؛ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾، ولن تموت نفس حتى تستكمل أجلها. والآية تشير إلى عدم التأثر بإشاعة الموت؛ لأنه إن وقع فإنما وقع في أجله الذي كتبه الله تعالى وبإذنه عز وجل، فيجب عدم التخاذل عند وقوعه. وفي الآية تحريض وتشجيع للجبناء على القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه[(٣)]، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل[(٤)].

ولما كان التخاذل والنكوص عند وقوع الهزيمة أو الإصابة بالقرح أو مقتل النبي ﷺ مظنة أن القتال لم يكن في سبيل الله تعالى بل كان في سبيل الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ما كتبنا له فيها كما قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفيه تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٥٤). قال راوي الحديث بعده: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات).

(٢) قال القرطبي (٤/ ٢٢٢): (هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته؛ فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر وخرس عثمان واستخفى علي واضطرب الأمر، فكشفه الصديق ﷺ بهذه الآية).

(٣) ابن كثير (٢/ ١٦٦).

(٤) البيضاوي (٢/ ٩٩).

(٥) البيضاوي (٢/ ٩٩).

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ولا نحرمه خير الدنيا كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد[١]، أي: نؤتيهم الثواب الأبدي جزاء لهم على ترك الانهزام، وقيل: ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ من الرزق في الدنيا، لئلا يتوهم أن الشاكر يحرم ما قسم له مما يناله الكافر[٢].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي: وكم من نبي قاتل معه ربانيون علماء أتقياء عابدون لربهم، أو قاتل معه جماعات، والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة[٣]، وقرئت ﴿ قُتِلَ ﴾[٤]، وقراءة ﴿ قَٰتَلَ ﴾ أعم وأمدح[٥]. ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ ولا ضعفوا ولا

---

(١) البيضاوي (٢/ ١٠٠)، وينظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى ﴿ وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ في الآية السابقة.

(٢) القرطبي (٤/ ٢٢٧).

(٣) البيضاوي (٢/ ١٠٠)، وينظر: القرطبي (٤/ ٢٣٠).

(٤) وهذه القراءة تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون {قتل} واقعاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله {قتل}، ويكون في الكلام إضمار أي: {ومعه ربيون كثير}. والثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله {فما وهنوا} راجعاً إلى من بقي منهم. وهو الذي اختاره القرطبي فقال: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يقتل وقتل معه جماعة من أصحابه. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٢٩).

(٥) اختار أبو عبيد قراءة {قاتل}، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم وأمدح. نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٠). بينما اختار الطبري قراءة {قتل}، قال: لأن الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها الذين انهزموا يوم أُحُد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: (إن محمدًا قد قتل). فعذلهم الله عز وجل على فرارهم وتركهم القتال، فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟. الطبري (٧/ ٢٦٤).

فتروا ﴿ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ من قرح وقتل لبعضهم أو لنبيهم[١]، ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ عن العدو، أو في الدين[٢]، أو عن الجهاد، ﴿ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ ﴾ ولا خضعوا ولا ذلوا، بل صبروا وصابروا ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الجهاد في سبيله.

ومعنى الآية: تشجيع المؤمنين والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء، أي: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتلوا، فما ارتد أممهم[٣].

ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قتل بعضهم أو قتل نبيهم بأنهم صبروا ولم يفروا، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة[٤]؛ ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾ ، ثم سألوا الثبات في القتال ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾[٥] وسألوا النصر على الأعداء ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [٦]، أي: وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم والاستغفار عنها، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون الدعاء والتوجه عن خضوع وطهارة فيكون أقرب إلى الإجابة[٧].

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، أي: فأجاب الله دعاءهم، وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وهكذا يفعل

(١) ينظر: البيضاوي (٢/ ١٠١).
(٢) البيضاوي (٢/ ١٠١).
(٣) القرطبي (٤/ ٢٢٩).
(٤) القرطبي (٤/ ٢٣١).
(٥) قال القرطبي (٤/ ٢٣١): خصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها.
(٦) يرى القرطبي الالتزام بالدعاء المأثور، فقد قال بعد هذه الآية: (فعلى الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا، فإن الله تعالى قد اختار لنبيه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون). الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٢٣١).
(٧) البيضاوي (٢/ ١٠١).

الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق وقوله الصدق. وفي الآية توجيه لأصحاب النبي ﷺ، أي: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ[١].

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع بجميع مواضيعه:

- ضرورة الاستعداد للقاء العدو، فالإسلام وإن كان دين سلام، إلا أنه أيضاً دين قوة وحكمة، وأعداء الإسلام لا يريدون له السلام، لذا وجب الاستعداد لهم، خشية أن يباغتوا المسلمين في أراضيهم ويصيبوهم في أهليهم.
- الهزيمة النفسية خطيرة جداً، وتؤدي في الغالب إلى الهزيمة في باقي الجوانب، لذا يجب التوكل على الله تعالى، واستلهام القدوة في مواضع القوة، لردّ وساوس الضعف والخوف.
- النصر من عند الله تعالى وحده، وما غير ذلك فإنما هي أسباب وضعها الله تعالى. ورغم ذلك فإن للنصر شروطاً ومتطلبات يجب الأخذ بها لينزل نصر الله تعالى، ومن أهمها الاستعداد لردّ العدوان، وعدم الخوف والهوان، وعدم التفرق والخذلان، والتوكل على الملك الديّان.
- شرع القتال في الإسلام لحكم عظيمة جليلة ذكرت في عدد من المواضع في هذه السورة الكريمة.
- طاعة الله تعالى هي السبيل إلى نزول رحمته وتوفيقه، وفي ذكر الطاعة أثناء آيات القتال إشارة واضحة إلى ارتباط نزول النصر بلزوم الطاعة، لأن المعصية وحب الدنيا هما سبب الهزيمة.
- المعصية تنتج عن الغفلة.
- الإصرار على الذنب كبيرة من الكبائر.
- المؤاخذة تكون على الذنوب التي يرتكبها العبد متعمداً وهو عالم بحرمتها.

---

(١) القرطبي (٤/ ٢٣١).

- الإسلام دين واقعي، يفترض وقوع الذنب من الإنسان، ويرسم له الطريق للخلاص من الذنوب ومن آثارها.
- العاقل من اتعظ بغيره، واستفاد من تجارب من سبقه.
- طبيعة الاختبار والامتحان في الدنيا تقتضي استمرار الصراع بين الخير والشر، وتداول الأيام بينهما، وحصول الأذى لكلا الفريقين، وإنما العبرة بالثبات والاستقامة وخواتيم الأمور.
- حصول الصراع والأذى له حكم عديدة حتى يمتاز الخير عن الشر، والمؤمن عن المنافق، والصادق عن الكاذب، وحتى يحصل الصادقون على درجات الشهداء والمقرّبين، ويتطهر المجتمع من الأدعياء والكاذبين، وينتصر أهل الحق ويكسروا الكافرين أعداء الدين.
- حفّت الجنة بالمكاره، ولا يمكن الوصول إليها دون مشاق وصعوبات وتضحيات.
- الرسل عليهم السلام بشر، وهم في بشريتهم كسائر البشر، يسري عليهم ما يسري على غيرهم من الأذى والمرض والموت. فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء[1].
- لكل نفس أجل في هذه الدنيا، فالإقدام والشجاعة لا تقدم الموت، كما أن الجبن والتخاذل والهرب لا يؤخره.
- المؤمن الصادق لا يتعلق بالأفراد، حتى لو كانوا رسلاً من عند الله تعالى؛ لأن علاقته مع الله وحده لا شريك له.
- الرجوع إلى الله تعالى في الأزمات واللجوء إليه في المُلمّات هو السبيل إلى نزول الرحمات، وحصول الخيرات، والنجاة في الحياة وبعد الممات.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة الكريمة، لأن المعركة والمواجهة هي أشدّ امتحان للإيمان، وفيها تظهر حقيقة كل إنسان، وهل هو متعلق بالدنيا أم بالآخرة. كما أن ساحة القتال تستلزم صدق الطاعة والتوكل على الله تعالى، والاستغفار والاستبشار، والصبر على ما يحصل من أذى، والرضا بالقضاء والتقوى. كما أن من مقتضيات توحيد الله تعالى التعلق به وحده، وعدم التعلق بالأعداد ولا بالأفراد ولا بأحد من الخلق، ولو كان رسولاً من عند الله تعالى.

المقطع السادس: دروس مستفادة من الهزيمة

بعد الهزيمة في معركة أحد، يأتي هذا المقطع ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، رأيت تقسيمها على شكل دروس مستفادة من نتيجة هذه المعركة، وهي أربعة دروس، كما يأتي:

الدرس الأول: التحذير من طاعة الأعداء، ومن التنازع والتخذيل:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الآيات: ١٤٩-١٥٨].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتحذير المسلمين من طاعة الكافرين، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ ﴾ إلى الكفر[١] ﴿ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ للدنيا والآخرة. والمراد طاعتهم في ما يخالف أوامر الله تعالى[٢].

ثم أمرت الآيات بطاعة الله تعالى وموالاته، ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ وهو خير لكم من أعدائكم، ينصر عباده على أعدائه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾[٣]، أي: فاستغنوا عن موالاة الكفار فأنا ناصركم فلا تستنصروهم[٤].

ثم بشّرهم الله تعالى بالحفظ وبالنصر بقوله: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ والخوف حتى لا يرجعوا إليكم[٥]، والنصر بالرعب مما اختصّ الله به نبيه ﷺ؛ (نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر)[٦]. وإلقاء الرعب فيهم كان ﴿ بِمَآ أَشْرَكُواْ ﴾ أي: بسبب إشراكهم ﴿ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ولا حجة ولا برهاناً، وإشراكهم كان عبادتهم للأصنام، وتأليههم للأنام، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ﴾ ومرجعهم ومثواهم ﴿ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ ومأوى ومقام ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأنفسهم بإشراكهم بربهم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يا أصحاب محمد ﷺ ﴿ وَعْدَهُۥٓ ﴾ الذي وعدكم إياه في

---

(١) البيضاوي (٢/ ١٠١).

(٢) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١١٨).

(٣) وفي ختام الآية بهذه العبارة إشارة إلى حقيقة طلب النصرة عند الحاجة.

(٤) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٦).

(٥) تفسير الواحدي (١/ ٢٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم، باب: وقول الله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾، برقم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد والصلاة، برقم (٥٢١).

أُحُد على لسان رسوله محمد ﷺ ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ وحين تقتلونهم[١] ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وكان وعدهم رسول الله ﷺ النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره[٢]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ وجبنتم وضعفتم ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ واختلفتم في أمر الله ﴿وَعَصَيْتُم﴾ وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم، وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرَهم ﷺ بلزوم مركزهم. ﴿بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ الله ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر والظفر بالمشركين، وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم[٣].

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الرماة الذين تركوا أماكنهم، ولحقوا بالمسلمين من أجل الغنيمة عندما رأوا هزيمة المشركين. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا من الرماة في أماكنهم[٤]، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ الله أيها المسلمين ﴿عَنْهُمْ﴾ أي: عن المشركين وعن قتالهم بعد أن كنتم المنتصرين ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم، كما سبق قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أيها المخالفون لأمر رسوله ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يستأصلهم بمعاصيهم، وقد يعاقبهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدبًا وموعظة[٥].

وتواصل الآيات الامتنان على المؤمنين بالعفو رغم عظم الذنب، وفداحة العواقب، فيقول تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، فهذه الآية مرتبطة بسابقتها، والمعنى: ولقد عفا عنكم، أيها المؤمنون، إذ لم يستأصلكم بسبب ذنوبكم وهربكم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٧-٢٨٨)، و تفسير الواحدي (١/ ٢٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٨١).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٩).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٧)، وينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩) والحاشية ٣.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾[(١)]. ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: الإصعاد: هو السير والذهاب في الأرض، بخلاف الصعود الذي هي السير في مرتفع[(٢)]، والمراد هربهم في الوادي، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: لا تعطفون ولا تنتظرون، يقال: لويت عليه: عطفت، وانتظرت[(٣)]، و (مرّ لا يلوي على أحد)، أي: لا يقف ولا ينتظر[(٤)]. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ ويناديكم ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: من خلفكم، قائلاً: (إليّ عباد الله)، (إليّ عباد الله، ارجعوا)، وهم لا ينتظرون ولا يلتفتون. وفي قوله تعالى ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ تنبيه إلى ثبات رسول الله ﷺ، حيث كان في آخر الجيش، وأقرب شيء إلى العدو[(٥)].

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ وجازاكم ﴿غَمًّۢا﴾ وهو ما تحدَّث به القوم أنّ نبيهم ﷺ قد قتل {بِغَمٍّ} وهو ما نالهم من القتل والجراح[(٦)]، تسلية لهم في مصابهم، حتى ينسيهم الغمّ الجديد المصابَ الأول، ثم بعد أن يتبين كذب الغم الجديد وعدم صدق الشائعة حول مقتل النبي ﷺ يفرحون بذلك، وينسون ما كانوا فيه من غمّ الهزيمة وفقدان الغنيمة[(٧)]، ولذا قال بعدها: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نصر وغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من قتل وقرح وجراحات، فالمثوبة بالغم لم تكن عقوبة[(٨)]. وقيل غير ذلك في المراد بالغم الأول والثاني،

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ص ع د)، وقد يقال (أصعد) لمن ارتقى في أرض تعلو. ينظر: المعجم الوسيط، نفس المادة. وعلى هذا يحتمل أن يكون هروبهم كان باتجاه الجبل، كما في قراءة: {تَصْعَدون}.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة (اللام والياء والواو).

(٤) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٥٦١)، وأساس البلاغة للزمخشري، وتاج العروس للزبيدي، مادة (ل و ي).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/ ٩٠): في قوله: ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ دلالة عظيمة على شجاعة رسول الله ﷺ، فإن الوقوف على أعقاب الشجعان وهم فرار والثبات فيه إنما هو للأبطال الأنجاد، وكان رسول الله ﷺ أشجع الناس.

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٠٣).

(٧) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٠٦).

(٨) اختار الإمام الطبري (٧/ ٣٠٣) أن يكون المعنى: فجازاكم بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم،=

والمراد بها فاتهم وما أصابهم[1]. ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ وبأسباب فشلكم وتنازعكم، وبعصيانكم، وإرادة بعضكم للدنيا، وقد عفا عن المؤمنين بمنّه وكرمه وفضله. فجملة ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ متعلقة بالسياق كله، وليس بهذه الآية فقط، ولها تعلّق ظاهر بالآية الأولى في هذا المقطع، وهي التي تحذّر من طاعة الكافرين التي ستسبب النكوص والخسران، فالله خبير بمن يعمل ذلك، وما يعمل من ذلك. والله أعلم.

وفي هذه الآية تصوير لمدى البلبلة التي حصلت لجيش المسلمين بسبب الهجوم المفاجئ من خلفهم، فإنهم حين انهزموا عن عدوِّهم أخذوا في الوادي هاربين من عدوهم، لا يعطفون على أحد منهم، ولا ينتظر بعضهم بعضاً، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض[2]، ورسول الله ﷺ يناديهم من خلفهم (إليّ عباد الله)، (إليّ عباد الله، ارجعوا)، وهم لا يرجعون ولا ينتظرون ولا يلتفتون.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا ﴾ أي: أماناً وطمأنينة جاءت على شكل نعاس يؤدي إلى الراحة والاسترخاء، ويدل على الهدوء وراحة البال، وهذا الأمان ﴿ يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ ﴾ هم الصادقون الصابرون، بخلاف المنافقين والشاكّين وهم الطائفة الثانية[3]؛ ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ وشغلتهم عن دينهم ورسولهم، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ﴾ وبرسوله ووعدهما ظنوناً كاذبة باطلة ﴿ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ تشبه ﴿ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ والمشركين بالله تعالى[4]، كما

= ومعصيتكم ربكم غماً على غم. وأرى أنه بعيد عن السياق، فقد ذكر الله تعالى قبلها أنه امتنّ عليهم بالعفو والمغفرة، فيبعد أن يذكر بعدها أنه عاقبهم. والله أعلم. وقارن بما قاله الطبري بعد ذلك في (٧/ ٣١٤) وفي (٧/ ٣١٥)، فكأنه يفهم منه تراجعه عن هذا القول شيئاً ما، أو عدم جزمه به، والله أعلم.

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٧/ ٣٠٣-٣١٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٠-٩١)، وابن كثير (٢/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٠٢).

(٣) ينظر ما ذكره الطبري من سبب افتراق الطائفتين وحصول هذا النعاس وكيفيته (٧/ ٣١٦-٣١٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٠-٣٢١).

قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]، فهؤلاء اعتقدوا أن انتصار المشركين هو نهاية الإسلام والمسلمين، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة(١)، فهم يقاتلون في صفوف المسلمين وقلوبهم مع قلوب مَن يقاتلون مِن المشركين.

ثم أخبرت الآيات أنهم تراجعوا عن فكرة القتال أصلاً، وتنصلوا منها، فكانوا ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ بالقتال من رأي أو قرار، لم يكن لنا فيه ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ ، وقولهم هذا دليل على عدم إيمانهم، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ تعالى وحده، ولو كنتم مؤمنين لعلمتم ذلك. ولكنهم منافقون، ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ يا رسول الله، ومما يخفون أنهم كانوا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لبعضهم: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا ﴾ خرجنا للقتال، ولا {قُتِلْنَا هَا هُنَا} في أحد(٢). ﴿ قُل ﴾ لهم يا رسول الله مبيّناً ما يجب أن يعتقده المؤمنون: ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ وجاء أجلكم ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ التي كتب الله أنهم يموتون فيها(٣).

وتختتم الآية باستكمال ما سبق من حِكَم الأمر بالقتال في قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ وما بعدها(٤)؛ ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ ﴾ ويختبر ﴿ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ من إيمان أو

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) ولفظ المضاجع مناسب لمعنى المصارع التي يصرعون فيها لاشتمالها على معنى الاستلقاء على الأرض. ينظر في معنى المضجع: لسان العرب لابن منظور، مادة (ض ج ع)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٨٧).

(٤) اختار الإمام الطبري (٧/ ٣٢٤) أن ختام الآية مرتبط بالحديث عن المنافقين في الجملة السابقة فقط، فالمعنى عنده: (وليبتلي الله ما في صدوركم، أيها المنافقون، كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم). ويشكل على هذا المعنى وجود حرف الواو في قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ﴾ . والله أعلم. وينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ٩٧) في الآراء حول ارتباط هذه الجملة، ولم يذكر ما كتب أعلاه.

نفاق[١]. ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ من وساوس وفتن، وخالف بينهما لأن متعلق الابتلاء ما انطوت عليه الصدور وهي القلوب[٢]، ومتعلق التمحيص وهو التصفية والتطهير ما انطوت عليه القلوب من النيات والعقائد[٣]. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾، وبما انطوت عليه، وبما يختلج فيها من السرائر، وما فيها من العقائد في الضمائر، فهو يمحص منها ما أراد تمحيصه[٤].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ ﴾ عن القتال والمواجهة ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ في أحد والتفاف العدو عليكم ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ ودعاهم إلى الخطيئة والزلل، ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ من ذنوب ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ وتجاوز عن ذنوبهم وغفر لهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يغفر للمذنبين من المؤمنين، ولا يعجّل العقوبة على العاصين[٥].

وتواصل الآيات بيان حقيقة الأجل والموت؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ونافقوا من أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ في الكفر ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ في سفر أو تجارة ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ في معركة وقتال، فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في المعركة: ﴿ لَّوْ كَانُوا ﴾ باقين ﴿ عِندَنَا ﴾ ولم يخرجوا من بلادهم ﴿ مَا مَاتُوا ﴾ في سفرهم ﴿ وَمَا قُتِلُوا ﴾ في المعركة، ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ﴾ قولهم ﴿ ذَٰلِكَ حَسْرَةً ﴾ وحزناً وغماً ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. والحق أن الأمر كله بيد الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وحده لا شريك له[٦]، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شرّ ﴿ بَصِيرٌ ﴾، يحصي ذلك، ويجازي عليه[٧]. وهذا ترغيب من الله عز وجل لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم،

---

(١) اختار الطبري (٧/ ٣٢٥) أن يكون الخطاب للمنافقين فقط.

(٢) كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا الاستدلال من أبي حيان.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٧).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٣١).

(٧) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله، ونهيٌ لهم أن يجزعوا الموت من مات أو قتل في حرب المشركين[١].

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمةَ، وأخبرهم أن القتل والموت[٢] في سبيل الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو[٣].

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾، إليه مرجعكم ومحشركم، فيجازيكم بأعمالكم، فالآية حثٌّ على ما يقرّب من الله تعالى، ويوجب مغفرته ورحمته، وتحذير من الركون إلى الدنيا وملذاتها[٤]، فليس في مقدور الإنسان دفع الموت أو القتل إذا جاء الأجل، وليس في مقدوره دفع يوم المحشر، لكن في مقدوره دفع هول المحشر بطاعة الله تعالى وعمل ما يستجلب رحمته ومغفرته[٥]، فمعنى الآية: فاستعدوا لما بعد الموت أو القتل.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

(٢) لمّا ذكر الجهاد في هذه الآية قدّم القتل على الموت إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنّة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله (لمغفرة من الله ورحمة) فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله. وقدم الموت في الآية التي تليها لأنه الحالة الطبيعية، ولم يذكر فيه قوله تعالى (في سبيل الله)، ولذا ختمها بقوله (لإلى الله تحشرون)، إذ الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه، فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٧).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٣٩).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الدرس الثاني: أهمية الشورى ووجوب طاعة رسول الرحمة:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الآيات: ١٥٩-١٦٤].

التفسير الإجمالي:

لما فرغ من وعظ الصحابة رضي الله تعالى عنهم أتبعه تحبيب النبي ﷺ فيما فعل بهم من الرفق واللين، بدلاً من العنف والسطوة، مع وجود أسبابها؛ من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثم مخالفتهم لأمره في حفظ المركز والصبر والتقوى، ثم خذلانهم له وتقديم أنفسهم على نفسه الشريفة، ثم عدم العطف عليه وهو يدعوهم إليه ويأمر بإقبالهم عليه، ثم اتهام من اتهمه بالغلّ كما سيأتي. إلى غير ذلك من الأمور التي توجب لرؤساء الجيوش وقادة الجنود اتهام أتباعهم والإيقاع ببعضهم ليكون ذلك زاجراً لهم[1].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ ولم تعنّفهم على مخالفتهم لأمرك، أي: ما لنت لهم هذا اللين الخارق للعادة ورفقت بهم هذا الرفق بعد ما فعلوا بك إلا بسبب رحمة عظيمة من الله الحائز لجميع الكمال، فقابلتهم بالجميل ولم تعنفهم بانهزامهم عنك بعد إذ خالفوا رأيك، وهم

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٦).

كانوا سبباً لاستخراجك للقتال[١]. ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيئ الأخلاق ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسي القلب من غير رحمة ولا رأفة ﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وتفرقوا عنك، ثم أمر الله نبيه ﷺ بحسن معاملتهم، فقال: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ وتجاوز عن خطئهم ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ على ما اقترفوه، ثم أمره بمشاورة أصحابه بقوله: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ واستمع لآرائهم ﴿ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ من الحرب وغيره، تطيباً وتأليفاً لقلوبهم، وتعليماً لأمته من بعده، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم ليسددهم الله ويوفقهم[٢]. ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ أمرك على أمرٍ بعد المشاورة[٣] ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه، وامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك، أو خالفها[٤]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه، والراضين بقضائه، والمستسلمين لحكمه فيهم، وإن خالف هواهم[٥]. ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، ولذا قال بعدها: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ من الناس، سواء أكان رسول الله ﷺ حيّاً بينكم أو لا[٦]، ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ ابتلاء لكم أو بسبب معاصيكم فلا ناصر لكم ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ سبحانه وتعالى، فلا ينفعكم وجود نبي أو غيره[٧]، ولهذا فتوكلوا عليه وثقوا بوعده ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾، فيكون ذلك أمارة صحة إيمانهم[٨].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٦-١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) ذكر هذا القيد - قيد المشاورة - ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٤)، وجلال الدين السيوطي في تفسيره (ص٨٨)، وغيرهما.

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٦).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٦).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

(٧) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

(٨) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩).

ثم أتبع هذه الآية بالحديث عن أحد أعظم موجبات الخذلان وهو الغلول؛ لأنه كان سبب هزيمتهم في هذه الغزوة، فهو من أعظم الذنوب الموجبة للخذلان[١]، وبدأت الآية بتنزيه النبي ﷺ عن الغلول، وسبب ورود هذا التنزيه: أن فعلهم هذا قد يتطرق منه احتمال لسوء الظن بالنبي ﷺ[٢] بالغلول أو سوء القسمة، وحاشاه؛ لأن إقبالهم على نهب الغنائم قبل وقته إما أن يكون لقصد أن يغلوا بإخفاء ما انتهبوه أو بعضه، وإما أن يكون للخوف من أن يغلّ رئيسهم وحاشاه!، وإما أن يكون للخوف من مطلق الخيانة بأن لا يقسمه ﷺ بينهم على السواء، وحاشاه من كل من ذلك![٣]، كيف، وهو الذي أخبرهم بتحريم الغلول وبأنه سبب للخذلان، وما نهى ﷺ قطّ عن شيء إلا كان أول تارك له، وما كان ينبغي لهم أن يفتحوا طريقاً إلى هذا الاحتمال[٤].

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ ولا صحّ في أي وقت وعلى أي حال ﴿لِنَبِيٍّ ﴾ من الأنبياء فضلاً عن سيدهم وإمامهم ﴿أَن يَغُلَّ ﴾ ويخون في الغنيمة أو يظنّ به ذلك ﴿وَمَن يَغْلُلْ ﴾ أي شيء مهما قلّ ولو كان مِخيطاً وهي الإبرة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، حاملاً له على عنقه، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة)[٥]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾[٦] من غلّ أو شرّ أو غيره ﴿وَهُمْ لَا

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٩-١١٠).

(٢) وقد يفتح الطريق أمام المنافقين لنشر الافتراءات والتهم، كما روي أن الذي اتهم النبي ﷺ بالغلول هم المنافقون. نسبه ابن كثير (٢/ ١٩٥) لابن مردويه.

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٠).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٠).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال، برقم (١٨٣٣).

(٦) ظاهر السياق يقتضي أن يقال: (ثم يوفى ما كسب)، وإنما عدل عنه وعمّم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله مهما قلّ فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي (٢/ ١١٠). وينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ١١١)، وتفسير المراغي (٤/ ١٢١).

﴿ يُظْلَمُونَ ﴾ وإنما يجازون على ما كانوا يعملون، وهناك يفترقون ولا يستوون، وكيف يستوون؟، ولهذا أردف الله تعالى هذه الآية بالتفصيل الآتي ليبين أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين[١]، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾ وطلب ﴿ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ في أقواله وأفعاله فقام بالجهاد[٢] ولم يغلّ[٣]، فنال الجنة والنعيم[٤]، ﴿ كَمَنۢ بَآءَ ﴾ ورجع بتصرفاته وأعماله ﴿ بِسَخَطٍ ﴾ وغضب ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بسبب ذنوبه وآثامه وتقاعسه عن الجهاد أو أخذه الغلول، ﴿ وَمَأْوَىٰهُ ﴾ ومرجعه ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ خالداً فيها ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الذي يصير إليه من باء بسخط من الله وباء بجهنم[٥]. فهم لا يستوون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨]، بل ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ ومقامات متفاوتة في الاستعداد والعمل والجزاء، ليس التفاوت في ميزان الناس[٦]، إنما التفاوت ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في الجزاء يوم القيامة؛ من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من طاعات ومعاصي، يحصيها عليهم، ويجازي كلاً بما سعى، فكيف يتصور أنهم يتساوون.

وبعد هذه الإرشادات والتنبيهات، نبّه سبحانه وتعالى على عظم المنّة على المسلمين بنبي الرحمة للعالمين، ليهتدوا بهديه وينهلوا من علمه ويقدروه حق قدره، فقال سبحانه وتعالى مؤكداً تنزيه نبيه ﷺ عما قد يفهم منه النسبة إلى الغلول[٧]: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾منّة

---

(١) تفسير المراغي (٤/ ١٢١).

(٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي (٤/ ١١١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني (٤/ ١١١): لم يذكر مع الرضوان الجنة لأن رضوان الله تعالى أكبر وهو مستلزم لكل نعيم، وكون السخط مستلزماً لكل عقاب فيقتضي أن تذكر معه جهنم في حيز المنع لسبق الجمال الجلال.

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٦).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٤).

(٧) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥)، وتفسير المراغي (٤/ ١٢٢).

عظيمة ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عربياً يفهمون كلامه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد عُرف أمره وصدقه وأمانته، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إنساناً بشراً مثلهم يأنسون به بجامع البشرية، وليس ملكاً، ولا أحداً من غير بني آدم(١)، ولو كان كذلك لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنس(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. والمنة الثانية أن هذا الرسول الكريم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ وقرآنه، والمنّة الثالثة في قوله ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (٣) أي: يطهّرهم من الكفر والذنوب والآثام، والمنّة الرابعة في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة(٤)، تفسيراً وإبانة وتحريراً(٥)، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ (٦) أن يرسل إليهم ويعلمهم ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه عليه السلام علّمهم من الحكمة في هذه المعركة ما أوجب نصرتهم في أول النهار، فلما خالفوه حصل الخذلان والانهزام(٧). ثم انتقل الحديث إلى أسباب حصول الهزيمة، والفوائد المستفادة منها.

---

(١) ينظر: تفسير الواحدي (١/ ٢٤١)، وتفسير البغوي (١/ ٣٨٦)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٩٤).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١١٥): (قدم التزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٧٠).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥). وقارن بتفسير المراغي (٤/ ١٢٤)، فقد قال: (تعليم الكتاب إشارة إلى معرفة ظواهر الشريعة، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها وعللها وبيان منافعها). ولعل السياق، وواقع الحال من فعل النبي ﷺ لا يدلّ على هذا، والله أعلم.

(٦) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١١٥): (لما كانوا قد مرت لهم أزمان وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام نبه على ذلك بإدخال الجار فقال {من قبل}).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥).

الدرس الثالث: أسباب الهزيمة، وفوائدها، والفرق بين الخبيث والطيب:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ ﴾

[الآيات: ١٦٥-١٧٩].

التفسير الإجمالي:

بعد أن امتنّ الله تعالى على المؤمنين ببعثة نبيه ﷺ، ذكّرهم هنا بالنصر الذي منّ به عليهم في بدر، حتى لا ينسوه بسبب الهزيمة في أحد، وفي هذا ردّ على شبهة المنافقين القائلين: لو كان رسولاً ما انهزم أصحابه عنه[1]، كما ذكّرهم بأن فعلهم هو سبب هزيمتهم، كما مرّ في الدرس السابق، ثم ذكر فوائد من الهزيمة وأهمها التمييز بين الحق والباطل؛ ولهذا أبرز موقف الشهداء المؤمنين الصادقين، وموقف المنافقين الكاذبين، وختم بالتصريح بإرادة التمييز بين الخبيث من الطيب.

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مُّصِيبَةٞ ﴾ وهي الهزيمة يوم أحد وما نالكم من قرح وقتل وجراحات، حيث قتل من المسلمين سبعون، ﴿ قَدۡ أَصَبۡتُم ﴾ من عدوكم ﴿ مِّثۡلَيۡهَا ﴾ أي: ضعفيها، وذلك في معركة بدر، حيث قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين، ﴿ قُلۡتُمۡ ﴾ على سبيل التعجب: ﴿ أَنَّىٰ ﴾ وبسبب ماذا أصابنا ﴿ هَٰذَاۖ ﴾ ؟، ونحن مسلمون وهم مشركون، وبيننا رسول الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء[2]، ﴿ قُلۡ ﴾ لهم يا محمد: هذا الذي أصابكم ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ وبسبب عصيانكم ومخالفتكم لما أمرتكم به؛ حيث اخترتم الخروج لقتالهم، ثم فشلتم وتنازعتم وعصيتم أمري[3]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ قادر على أن ينصركم وينتصر لكم على كل حال، فهو سبحانه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ ، ولكنه أراد أن يعلمكم ويهديكم ويرشدكم، ففي هذه الهزيمة حِكَم ظاهرة وخفية، مرّ بعضها، ويأتي بعضها.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٦).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٧١)، وينظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٦).

(٣) اقتضت حكمة الله تعالى أن يربط الأسباب بمسبباتها، فكل جيش يخطئ الرأي ويعصي قائده يصاب بالهزيمة والخسران. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٧)، وتفسير المراغي، والعبارة له (٤/ ١٢٧)، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٦). وقيل: المراد: بأخذكم الفداء يوم بدر، كما جاء في بعض= = الروايات، وهو بعيد عن السياق، وإن كان يحتمله، والله أعلم.

وهذه الهزيمة وإن كانت بسبب معصيتكم إلا أنها لا تخرج عن مراد الله تعالى وإذنه[١]، {وَ} لهذا، آمنوا وأيقنوا أن كل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين في أحد ﴿ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ الذي لا يكون شيء في الكون إلا بإذنه. ثم شرع في ذكر الحكم والفوائد من الهزيمة والشدائد والمصائب؛ وأهمها التمييز بين الطيب والخبيث، فقال: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الصادقين منكم، ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ﴾ وكذبوا، {وَ} عندما ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ ﴾ على سبيل الأمر: ﴿ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أعداءَ الله إن كنتم صادقين في إيمانكم، ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾ ضررهم عن بلدكم وأهليكم وأموالكم، أو: كثّروا سواد المسلمين بأن تكونوا معهم، ﴿ قَالُواْ ﴾ تهرباً وتعللاً بالباطل: ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا ﴾ يكون بينكم وبين أعدائكم ﴿ لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ ﴾ إلى ساحة القتال، ولكننا لا نظن أنه يكون قتال. ولما كان محكّ الإيمان هو الطاعة في جميع الأزمان، وكان التراجع عن المبادئ وقت المصاعب أشدّ ضرراً وخطراً، تأكد أنهم غير صادقين في إيمانهم وغير مخلصين في طاعتهم، ولهذا قال: ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ ﴾ الظاهر عليهم ﴿ يَوۡمَئِذٍ ﴾ وفي ذلك اليوم العظيم[٢] ﴿ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ الذي يزعمونه[٣]، وإنما هم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم ﴾[٤] تعللاً وكذباً وزوراً، ﴿ مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ ، وما لا يعتقدون صحته[٥]، إذ أضمروا في قلوبهم

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٨).

(٢) لفظ {يومئذ} ليس للاحتراس، بل هو لرفع شأن ذلك اليوم الذي حصل فيه التمييز والتفريق بين أهل الإيمان وأهل النفاق. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٨).

(٣) قال الله تعالى {أقرب} للكفر، ولم يقل: إنهم كفار مع علمه بحالهم تأدبياً لهم، ومنعاً للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن، وذلك أن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين، فإنه لا يعدّ بحدّ ذاته كفراً صريحاً في حكم الظاهر، لاحتمال العذر والتأويل. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٤) وعبّر بالأفواه بدلاً من اللسان لكونهم منافقين، فقولهم إلى أصوات الحيوان أقرب منه إلى كلام الإنسان= = ذي العقل واللسان. نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

النفاق وعداوة النبي ﷺ وأصحابه، ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ من العداوة والبغضاء، وأنهم لو علموا قتالاً ما قاتلوا معهم ولا دافعوا عنهم(١)، فالله سبحانه يكشف من أسرارهم وسرائرهم في كل حين حسب تقتضيه المصلحة(٢). ومن المتفق عليه أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي وأتباعه الذين رجعوا قبل القتال(٣).

وهؤلاء المنافقون القاعدون عن الجهاد وقت الصعاب والشداد، أضافوا إلى نفاقهم قلة المروءة(٤)، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ ﴾ من عشائرهم وقومهم الذين أصيبوا وقتلوا في معركة أحد مع المسلمين ﴿ وَقَعَدُواْ ﴾ هم عن القتال، قالوا عن إخوانهم: ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا ﴾ في عدم الخروج ﴿ مَا قُتِلُواْ ﴾ في المعركة، ﴿ قُلۡ ﴾ يا رسول الله لهؤلاء المنافقين: ﴿ فَٱدۡرَءُواْ ﴾ وادفعوا ﴿ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ والهلاك ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أنهم لو لم يخرجوا ما ماتوا ولا قتلوا، بل الحقّ أن الجميع سيموت، وأنتم ستموتون، لا تستطيعون دفع الموت عنكم(٥).

ولما بيّن الله تعالى أنه لا مفر من الموت والقدر، ردّ على قول أهل النفاق عن مقتل إخوانهم، وبشّر أهل الإيمان بحياة من فقدوا من الإخوان(٦)، فقال: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ ﴾ في هذه المعركة أو غيرها، وكان قتالهم ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لا تحسبنّهم ﴿ أَمۡوَٰتَۢا ﴾ هامدين، ﴿ بَلۡ ﴾ هم ﴿ أَحۡيَآءٌ ﴾ مكرمون ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ ، وهم في حياتهم هذه ﴿ يُرۡزَقُونَ ﴾ بكيفية يعلمها الله تعالى، وتليق بحياتهم عنده سبحانه، ﴿ فَرِحِينَ ﴾ لا يمسّهم

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٧٨-٣٨١).
(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٩).
(٣) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٧٨٣)، برقم (٢٥٣).
(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠).
(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٨٢).
(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠-١٢١).

السوء والأذى، راضين مسرورين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وهو ذو الفضل العظيم، ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم ﴾ أي: بالشهادة للذين لم ينالوها في هذه الغزوة ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [١] في الدنيا، بأنهم على نفس طريقهم وأنهم إذا استشهدوا نالوا الكرامة عند الله تعالى[٢]، وبشراهم هذه هي: ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: من العقاب، ولا على إخوانهم الذين استشهدوا، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أصلاً، على ما تركوا خلفهم في الدنيا[٣]، بل هم فرحين مستبشرين، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الشهداء: (أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: {هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا} قَالُوا: أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[٤]. فالشهداء والذين بقوا من بعدهم كلهم ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في حياة الشهداء ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ منه في أنهم فرحين مستبشرين يرزقون، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشهداء منهم والذين لم ينالوا الشهادة، وهم البقية من المؤمنين الطائعين كما سيأتي[٥].

وبعد أن ذمّ المنافقين برجوعهم من غير أن يصيبهم قرح، ومدح أحوال الشهداء ترغيباً في الشهادة، وأحوال من كان على مثل حالهم ترغيباً في النسج على منوالهم، أخذ يذكر ما أثمر لهم

---

(١) وإنما قال {من خلفهم} للدلالة على أنهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٥).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: أن أرواح الشهداء في الجنة..، برقم (١٨٨٧).

(٥) وينظر: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية، برقم (٤٥٠٥).

إيمانهم من المبادرة إلى الإجابة إلى ما يهديهم إليه ﷺ إشارة إلى أنه لم يحمل على التخلف عن أمره من غير عذر إلا صريح النفاق[1]، فقال عن المؤمنين إنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ في دعوة الجهاد بعد معركة أحد، لا لغرض المغنم أو غيره[2]، بل إن ذلك كان ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ والأذى في المعركة، وهم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ إلى حَمْراء الأسد في طلب العدّو بعد أحد، ليرى الناسُ أنّ به وأصحابِه قوةً على عدوهم[3]، منهم الزبير وأبو بكر في سبعين من أصحاب النبي ﷺ، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: (من يذهب في إثرهم)، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[4]. ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ فيما بقي من أعمارهم ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ ربهم وأدّوا فرائضة وأطاعوه فلهم ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وثواب جزيل، لاستجابتهم وجهادهم وصبرهم وتقواهم[5].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ وهم ركب عبد قيس، أو نعيم، أو أعرابي غير محدّد، قالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أبا سفيان وأصحابه مشركوا قريش ﴿ قَدْ جَمَعُوا۟ ﴾ الجموع ﴿ لَكُمْ ﴾ يريدون الكرّة عليكم واستئصالكم ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ وخافوهم، ﴿ فَزَادَهُمْ ﴾ هذا التهديد والتخويف والوعيد ﴿ إِيمَٰنًا ﴾ بالله تعالى وبنصره ووعده، ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ مؤمنين بالله واثقين بوعده متوكلين عليه: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ ويكفينا ﴿ ٱللَّهُ ﴾ جمعهم ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ هو

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٩٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: {الذين استجابوا لله والرسول}، برقم (٤٠٧٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، برقم (٢٤١٨).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٤٠٤).

سبحانه وتعالى، أي: الموكول[١] الذي تفوّض إليه جميع الأمور[٢]. ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ ﴾ ورجعوا من خروجهم هذا ﴿ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وسلامة حيث خافهم العدو، ﴿ وَفَضۡلٍ ﴾ وهو الزيادة في الأجر أو الربح في التجارة[٣]، ﴿ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ ﴾ من قتل أو جراحات وما يكون في الحرب من أذى[٤]، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ عندما استجابوا لله وللرسول، فأثابهم الله بأن صرف عنهم عدوهم، ورضي عنهم، وأنعم عليهم ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدارين على من استجاب له وأطاعه[٥]. وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلفين منهم، وإظهار لفساد رأيهم، إذ حرموا أنفسهم هذا الفضل العظيم الذي فاز به المستجيبون[٦].

ثم أتبع ذلك بتثبيت المؤمنين، وبيان ضعف العدو، وأن الأمر بيد الله تعالى، فعليهم أن يستجيبوا له ويتبعوا أوامره، ولا يلتفتوا إلى المثبطين الذين يخوّفونهم من أعدائهم، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي يخوفكم من عدوكم هو ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، وهو ضعيف الكيد، لا يستطيع أن يخوّف أولياء الله، وإنما ﴿ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ ﴾ لأن تخويفه ينقلب على أتباعه الذين يغترّون بوساوسه، فهم الذين يخافون بسبب ثبات المسلمين[٧]، أو المعنى: يخوفكم من أوليائه وأنصاره

(١) قال الطبري (٧/ ٤٠٥): (الوكيل) في كلام العرب هو المسنَد إليه القيام بأمر من أسنِد إليه القيام بأمره. فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات، قد كانوا فوَّضوا أمرهم إلى الله، ووثِقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضِهم أمرهم إليه بالوكالة فقال: ونعم الوكيل الله تعالى لهم.

(٢) ينظر في هذه الآية: تفسير الطبري (٧/ ٤٠٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٤٦٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤١٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٤٦٦).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٤١٤).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٦) تفسير المراغي (٤/ ١٣٦).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢).

المشركين، ويوهمكم أنهم أولو قوة وذوو بأس وشدة وعددهم كثير، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم، وتجبنوا عن مدافعتهم[١]، ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ لأن أمرهم بيدي، ﴿ وَخَافُونِ ﴾ حق الخوف، فلا تعصوا أمري، ولا تتخلفوا عن رسولي، وتوكلوا عليّ، كما قال: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وكما قال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ [النازعات: ٤٠]، فهو سبحانه المستحق أن يخاف منه ويخشى، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أولياء الله تعالى، مباعدين لأولياء الشيطان[٢].

وبعد أن مدح سبحانه وتعالى المسارعين في طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وختم ذلك بالنهي عن الخوف من أولياء الشيطان، أعقبه بذم المسارعين في الكفر والنهي عن الحزن من أجلهم[٣]، إذ كان النبي ﷺ من شدة حرصه على الناس يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق[٤]، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ فهم يسرعون إسراع من يسابق خصماً[٥]، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ﴾ دين وعباد وأولياء ﴿ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ مهما قلّ، لأن الأمر كله بيد الله تعالى، والحكمة في إمهالهم على جرائمهم هي أنه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا ﴾ مهما كان يسيراً ﴿ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ حيث يحاسبون وبالعدل يجزون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بسبب مسارعتهم في الكفر، لأن المسارعة دلت على أن الكفر قد ملأ أبدانهم ونفوسهم وأرواحهم[٦]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فأطاعوا أهل الشرك، ووافقوا على تخويف المسلمين مقابل أموال ضئيلة، ظناً منهم أنهم سيتخلصون بهذا من المسلمين، ولن تقوم لهم قائمة بعدها، والحق أنهم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢)، وتفسير المراغي (٤/ ١٣٦)، وتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٣).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٣).

(٦) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٤).

﴿ لَن يَضُـرُّواْ ٱللَّهَ ﴾ ودينه وعباده ﴿ شَيْـًٔا ﴾ مهما قلّ إلا بإرادته وحكمته سبحانه وتعالى، وهم لن ينجوا من عذاب الله، بل سيحاسبون ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بدلاً عن لذة الدنيا التي اشتروا لأجلها الكفر بالإيمان(١). ولما سبق الحديث عن الإمهال، والإمهال قد يظن معه أهل الكفر أنهم على خير، أو أنهم قد نجوا من العذاب في الدنيا والآخرة، ذكر خطأ رأيهم بقوله: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ﴾ أو يظننّ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ وحاربوا أهل الإسلام، وآذوهم، وأمهلناهم فلمّا يصبهم العذاب ﴿ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ ﴾ ونمهل هو ﴿ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡ ﴾ ، كلا، ﴿ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡـمٗا ﴾ على آثامهم، حتى لا يكون لهم حظّ في الآخرة كما سبق، فهو شرّ لهم ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ جزاء ما أهانوا عباد الله وآذوهم بالقول والفعل والتآمر(٢)، وفي هذه الآية مكر بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ثم ختم هذا الدرس ببيان حكمة الله تعالى البالغة في جريان هذه الأمور، وإرادته سبحانه وتعالى لهذا التمحيص والتمييز، فقال: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ﴾ ويترك﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الصادقين المخلصين، ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ من الاختلاط بالمنافقين(٣)، وضعاف المؤمنين، والمترددين والمتشككين ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾، بالتكاليف الشاقّة والمواقف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الصادقون المخلصون(٤)، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الذي اختصّ به، فيكشف لكم خبايا قلوبهم وأسرارهم التي هي خلاف ظواهرهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي ﴾ ويختار ﴿ مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فيطلعه على ما يشاء من الغيب، فيفضح على لسانه من شاء من المنافقين، كما

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٤).

(٢) ذهب الإمام البقاعي في نظم الدرر (٥/ ١٣٤-١٣٥) إلى أن هذه الآية تتحدث عن رجوع المنافقين عن أحد، ولما كان الرجوع المسفر عن السلامة مظنة لعزهم في هذه الدار الفانية عوّضوا عن ذلك بالإهانة الدائمة بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ .

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٥).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٦).

ذكر هنا قربهم من الكفر، ونفاقهم بألسنتهم، وغيرها[1]، ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ واستسلموا لحكمته وقضائه ﴿ وَرُسُلِهِۦ ﴾ الذين اصطفاهم، وأطيعوهم وصدقوهم فيما يخبرونكم به، ﴿ وَإِن تُؤۡمِنُواْ ﴾ حقّ الإيمان بالله ورسله ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ ربّكم، ﴿ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ على ذلك، من نصر في الدنيا وفوز في الأخرى.

الدرس الرابع: تحذير المنافقين والبخلاء، وفيها أن المال من أهم أسباب النصر، والتحذير من المال الذي كان سبباً في الهزيمة:

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩ ﴾[الآيات: ١٨٠-١٨٩].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٦)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٤).

مناسبة المقطع لسابقه:

هذا المقطع بكل دروسه شديد الصلة بسابقه، فقد جاء بعد الهزيمة في معركة أحد، ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، بدأت بالتحذير من طاعة الأعداء وموالاتهم لأنها سبب الخسارة في الدنيا والآخرة، ودعت إلى موالاة الله تعالى، كما حذّرت من التنازع والاختلاف، وفضحت المنافقين والمخذّلين، وأكّدت أن النصر من عند الله تعالى، فإذا نصرهم الله تعالى فلا غالب لهم، وإذا خذلهم فلا ناصر لهم، ثم تحدثت الآيات عن أسباب حصول الهزيمة وأولها العصيان، والحكم البليغة والفوائد المستفادة منها، مع التفريق بين الطيب المطيع والخبيث العاصي. وختم المقطع بالتحذير من البخل، وحبّ الأموال والدنيا، وهما من أسباب النفاق والخيانة[1]، كما دعت الآيات المسلمين إلى الصبر على الأذى الذي سيلاقونه من اليهود والنصارى بالقول والفعل.

التفسير الإجمالي:

لعب المال دوراً هاماً في معركة أحد، حيث بذله المشركون لحرب الإسلام، وطلبه بعض الرماة عندما انتصر المسلمون أول الأمر، ثم خسره المسلمون بسبب طمع بعض الرماة، ثم قام ركب عبد قيس أو نعيم أو بعض الأعراب بتخويف المسلمين مقابل وعد بالأموال، ثم كانت العاقبة للمؤمنين عندما انقلبوا آمنين مطمئنين وتاجروا وربحوا، كما أن الإنفاق من مواضيع السورة المهمة كما سبق بيانه في محور السورة، ولهذا فقد تناول هذا الدرس موضوع البخل، والرياء والادّعاء في الإنفاق، والأمر بالصبر على الأذى الحاصل في الأموال من نقص وخسارة وغيرها.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ﴾ لا يملكون ملكاً استقلالياً حقيقة بل هو مما ﴿ ءَاتَىٰهُمُ

---

(١) اختار الشيخ محمد عبده مناسبة أخرى بين هذا الدرس وما سبقه، تنظر في تفسير المنار (٤/ ٢٥٦-٢٥٧).

ﵟٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦﵞ وكرمه على عباده. وما دام الله أعطاهم إياه، فعليهم أن ينفقوه فيما يرضاه، وعليهم ألا يظنوا أن بخلهم ﵟهُوَ خَيۡرٗا لَّهُمﵞ باعتبار الظاهر حيث لم تنقص أموالهم، ﵟبَلۡﵞ في الحقيقة ﵟهُوَ شَرّٞ لَّهُمۡﵞ، لأنهم بالإضافة إلى فقدان البركة وضياع المال واستحقاق دعاء الملائكة بتلف المال كما ثبت في الصحيح: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[١]، ﵟسَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِﵞ، والذي سيتولى تطويقهم في أعناقهم ثعبان أقرع، وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى، كما ثبت في الصحيح: (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثّل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا رسول الله ﷺ[٢]، أو راوي الحديث[٣]: ﵟوَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَﵞ الآية)[٤]، ويستمر ذلك العقاب حتى يلقى الحساب[٥].

وهؤلاء البخلاء لن يأخذوا معهم شيئاً مما بخلوا به، وكان الأولى بهم ما دام كذلك أن ينفقوا من أموالهم لا أن يبخلوا بها، وهي وكل ما في الوجود ملك لله تعالى، وهو مستغن عنهم وعن أموالهم[٦]، ﵟوَلِلَّهِ مِيرَٰثُﵞ كل ما في ﵟٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِﵞ، وهو الذي أمر بالإنفاق، ﵟوَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞﵞ، يعلم بحقيقة بخل البخلاء وخبايا قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى {فأما من أعطى واتقى..}، برقم (١٤٤٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب: المنفق والممسك، برقم (١٠١٠).

(٢) ينظر: فتح الباري (٣/ ٢٧٠)، حيث ذكر أن في حديث ابن مسعود عند الشافعي والحميدي: (ثم قرأ رسول الله ﷺ).

(٣) ينظر: أحمد في مسند ابن مسعود ﷺ، برقم (٣٥٦٧)، والترمذي في التفسير برقم (٣٠١٢)، والنسائي في الزكاة، برقم (٢٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، برقم (١٤٠٣).

(٥) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١٠٠).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٨).

ثم انتقل الحديث من حضيض البخل إلى درك القبح والجهل[1]، إذ اجترؤوا على مقام الجلال، فقالوا قولة الكفر، ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ﴾ بكل دناءة نفس وسوء سريرة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ لأنه يطلب الصدقة والتبرع والإنفاق، ﴿ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾، ولذا يريد أن يأخذ من أموالنا، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥]، وكان قولهم هذا بعد نزول قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟، فأنزل الله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية[2]. فتوعّدهم الله تعالى بقوله: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ﴾، بالإضافة إلى جرائمهم الأخرى، ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ وقتلهم جريمة كبرى، فكيف إذا كان قتلهم ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أصلاً، ﴿ وَنَقُولُ ﴾ تبكيتاً لهم وتعنيفاً: ﴿ ذُوقُوا۟ ﴾ الهوان في الدنيا وفي الأخرى ﴿ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[3]، و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الهوان والعذاب هو ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ واقترفت جوارحكم من الكذب والافتراء وقتل الأنبياء، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ الحكم العدل ﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

وعبّر بلفظ "الذوق" الذي هو لإدراك الطعوم وقد يستعمل لإدراك المحسوسات والحالات، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إلى المال لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال[4].

والحريق: النار الملتهبة، وهو بمعنى المُحْرِق، كما يقال: عذاب أليم وضرب وجيع[5].

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٩).

(٢) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٨٠٤). ويقال: نزلت في المنافقين. ينظر: التفسير من كتاب الجامع لابن وهب (٢/ ٩١).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤١).

(٤) تفسير البيضاوي (٢/ ١٢٤).

(٥) ينظر: تفسير الثعالبي (٣/ ٢٢٣).

ولعل في استخدام لفظ "الحريق" إشارة إلى عقاب البخيل الذي يكون بالكيّ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وبعد الاستطراد في ذكر جرائمهم وتذكيرهم بطبائعهم تذكر الآيات قولاً آخر افتروه حتى لا يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ، فهم ﴿ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ كذباً من عند أنفسهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ في التوراة[1]، ﴿ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ ﴾ جديد ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾، حتى تكون معجزة مشاهدة نؤمن بها، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله لبيان كذبهم وافترائهم: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وبالأدلة الواضحات على صدقهم ونبوتهم، وبمختلف المعجزات، ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ وطلبتم من الآيات، ولكنكم قتلتموهم بغير حق، ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ قتلهم أسلافكم ورضيتم أنتم بذلك فشاركتموهم فيه[2]، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن الذي يمنعكم من الإيمان هو انتظار الإتيان بقربان تأكله النار[3]، أو في أن الله عهد إليكم بذلك.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ في رسالتك ونبوتك بعد كلّ ما سبق من بيان لصدقك فاصبر على تكذيبهم، ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ عبر العصور والثغور، مع أنهم كلهم ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ والأدلة على صدقهم، {وَ} جاءوا بهدايات وتعاليم من عند الله تعالى؛ ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ والصحف المتضمنة للمواعظ والحكم والزواجر والرقائق[4]، ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ الجامع لكل صنوف الخير ﴿ الْمُنِيرِ ﴾ والهادي إلى طريق الحق. فعلى العاقل أن يتبع هذه الهدايات ويلتزم

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ١٢٥)، وينظر: تفسير القرطبي، ط. مؤسسة الرسالة (٥/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٣).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٣).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٤).

بتعاليم الآيات، لأن الدنيا فانية غير باقية، والحساب سيكون يوم القيامة، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ في أجلها، فلماذا الهروب والخوف والبخل. والموت هو: المعنى الذي يبطل معه تصرف الروح في البدن، وتكون هي باقية بعد موته، لأن الذائق لا بدّ أن يكون حال ذوقه حيّاً حساساً، ومن يجوز عليه ذوق الموت يجوز عليه ذوق النار، وهو عبد محتاج، فالعاقل من سعى في النجاة منها والإنجاء، كما فعل الخلّص الذين منهم عيسى ومحمد عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام[1]، ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ وتحاسبون على أعمالكم، وتجازون على أفعالكم الجزاء الأوفى ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ ﴾ وأبْعِدَ إبعاداً سريعاً[2] ﴿ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ وَأُدْخِلَ ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿ ٱلْجَنَّةَ ﴾ والرضوان ﴿ فَقَدْ فَازَ ﴾ فوزاً عظيماً، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ بكل ما فيها ﴿ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي: المتاع الذي يدلّس الشيطان أمره على الناس حتى يغتروا به فيغبنوا بترك الباقي وأخذ الأشياء الزائلة بانقضاء لذاتها والندم على شهواتها بالخوف من تبعاتها[3].

﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ على سبيل الاختبار ﴿ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ بالأمر بالإنفاق والبذل والجهاد بها، وبحلول الخسارة بسبب أو غيره، ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالقتل في الجهاد وغيره، كما سيكون هناك ابتلاء معنوي أيضاً، فقال: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ سوى أهل الكتاب، ستسمعون من هؤلاء جميعاً ﴿ أَذًى كَثِيرًا ﴾ من الطعن في الدين وغيره[4]، ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ ﴾ على الأذى ﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ الله في المعاملة بما يأمر الله به وبما يرضي الله تعالى ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: الأمور التي تستحق أن يعزم الإنسان على فعلها. وما أحسن مناسبة هذه الآية وذكرها بعد قصة أحد

---

(١) العبارة كلها من نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٥).

(٢) زُحْزِحَ أي: نُحِّيَ وبُعِّدَ، يقال: زَحَّ الشيءَ يَزُحُّه زَحّاً جذبه في عَجَلَة، وزَحْزَحه فتَزَحْزَحَ: دَفَعه ونَحَّاه عن موضعه فتَنَحَّى وباعَدَه منه. ينظر: لسان العرب، مادة: (ز ح ح).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٧).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٠).

التي وقع فيها القتل بسبب الإقبال على المال[١].

وفعل هؤلاء ليس بمستغرب، فقد سبق أن خانوا الله وكفروا برسله من قبل؛ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ﴾ العلماء ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ من ربهم ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾ ولهذا أنزل عليكم، ﴿ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ، فبعد أن أمروا بالبيان أمروا بعدم الكتمان، والكتمان جرم أكبر من عدم البيان، ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ نبذوا الكتاب ونبذوا الميثاق، نبذ من لا يريد منهما شيئاً، ولا يلقي بالاً، وكتموا ما جاء من البشارة بنبوة محمد ﷺ، ﴿ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا ﴾ وزاد في بيان سفههم أن الثمن كان ﴿ قَلِيلًا ﴾ [٢]، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ لأنهم إلى النار صائرون[٣]. ويفهم من السياق تحذير المسلمين من موالاة الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، ويكفرون برسله ويقتلونهم، ويؤذون المسلمين[٤].

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ من غير استحقاق، لا تحسبنهم أيها الناظر لمكرهم، ورواجهم بسببه في الدنيا، لا تحسبنهم واصلين إلى خير[٥]، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ ﴾ وبعد ﴿ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، بل هو واقع بهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سينالهم يوم الدين. وقد ورد في سبب نزول الآيات ما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنّ أجمعون، فقال ابن عباس:

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٤٩).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٢).

(٣) وقد يدخل في وعيد هذه الآية علماء الدين الذين اشتروا الدنيا بالتملق لأهلها. والعياذ بالله مما عمّ به البلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٣٤): وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدالّ على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً.

(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٢).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٣).

وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كذلك حتى قوله ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾[١]. كما ورد أنها نزلت في رجال من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[٢]. والآية عامة تشمل هذا وغيره[٣].

ثم ختم المقطع ببيان تفرد الله تعالى بالملك والأمر في السماوات والأرض، وبمقدرته المطلقة على كل شيء؛ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ ، أي: هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه، سبحانه وتعالى[٤].

وقد ناسب أن يكون هذا التعبير بعد قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، لأن التعبير بالميراث لا يفهم منه أن الملك حاصل الآن، لذا ناسب أن يكون التعبير في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

---

(١) البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير {لا يحسبن الذين يفرحون} الآية برقم (٤٥٦٨)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٧). وينظر: تفسير القرآن من كتاب الجامع لابن وهب (٢/ ٣٧-٣٨).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥-٢٣٦)، والعجاب لابن حجر (٢/ ٨١٣-٨١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٧).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- موالاة غير المسلمين عاقبتها الخسران، ولو طال الزمان، أما المسلم الصادق فموالاته لله، والله مولاه، والله خير الناصرين.
- من لم يؤمن بالله تعالى فإنه يعيش في صراع مع نفسه، مما يؤدي به إلى العيش في خوف وهلع من الآخرين.
- الفشل والخور، والتنازع والاختلاف، والمعصية وحب الدنيا، كلها من أسباب الهزيمة والخسران.
- النعاس وقت الشدائد دليل على الطمأنينة والاستقرار النفسي، مما يؤدي إلى اختطاف دقائق من الراحة الضرورية.
- شدّة الهول قد تذهل الإنسان عن أقرب الأقربين إليه.
- التحسّر والندم على فعل الصواب عند حصول الألم بسبب ذلك الفعل من علامات النفاق، فالحذر لا يدفع القدر، والدنيا دار امتحان واختبار.
- يحرص الشيطان على أن يغوي أهل الإيمان بتحبيب الدنيا لهم، وتخويفهم من المصاعب والمصائب إذا هم فعلوا الصواب.
- من صفات الكافرين ربطهم الأحداث من حياة وموت وغيرهما بكلمة (لو).
- الحسرة والندامة والشعور باليأس والإحباط عقاب من الله تعالى، يصيب به غير الملتزمين بأوامره، والعياذ بالله.
- الموت حق لازب على كل إنسان، وعلى المسلم العاقل أن يحرص أن يكون موته في سبيل الله تعالى؛ ليحصل على المغفرة والرحمة من الله تعالى.
- الرحمة والرأفة من أهم صفات القيادة؛ لأن سياسة الناس بالشدة والغلظة والفظاظة تؤدي

إلى النفور وعدم الاستجابة.

- الشورى في أمور الدولة والأمور الخاصة والعامة مبدأ إسلامي أصيل، وقد أمر الله تعالى أولياء الأمور بالعمل به وحثّهم على تطبيقه.

- على المؤمن أن يطلب النصرة من الله تعالى ويتوكل عليه بعد الأخذ بكل الأسباب المطلوبة، وبعد المشاورة والعزم.

- عظم رحمة الرسول ﷺ بأتباعه، ويظهر ذلك من موقفه ﷺ معهم بعد الهزيمة في هذه المعركة بسبب عصيانهم ومخالفتهم.

- عظيم المنة على هذه الأمة بنبي الرحمة.

- من أكبر فوائد الهزيمة التمييز بين الحق والباطل، والطيب والخبيث.

- المخالفة والعصيان من أسباب الخسران.

- كل إنسان مسؤول عن أفعاله وتصرفاته وما ينجم عن ذلك من توفيق أو خذلان ونصر أو انهزام، ولكن ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى وتقديره.

- استدلوا بقوله تعالى ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان[1].

- تحريم الغلول مهما كان قليلاً، والغالّ مذنب بحق نفسه وبحق المجتمع. وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى تعزير الغالّ، أما الإمام أحمد فقد ذهب إلى أن متاع الغالّ يجمع ويحرق[2].

- في قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ نعمة ورحمة، وإلا لدخل كثير

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٢٤٥-٢٤٧)، والنسخة المحققة (١٣/ ١٦٨-١٧١)، والجامع للقرطبي (٤/ ٢٥٩-٢٦٠).

من المسلمين في مسمى الكفر، والعياذ بالله تعالى، لكن رحمة الله تعالى اقتضت عدم إطلاق مسمى الكفر على كل من ارتكب شيئاً من مسبباته لاحتمال التأويل، وغيره، والله أعلم.

- من عقيدة المؤمن أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولا يعلم تفاصيل ذلك إلا الله تعالى، وهي حياة تليق بهم، وتختلف عن حياة غيرهم من الأموات.
- من ثمرات الإيمان سرعة الاستجابة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ.
- يحاول الشيطان وأتباعه تخويف المسلمين من الكافرين بمختلف الوسائل، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بألا يخافوا منهم، فالمؤمن الصادق لا يخاف إلا الله تعالى. وإن قلة من المؤمنين الصادقين يمكنها بتوفيق الله ونصره أن تحبط مخططات أهل الظلم والفساد والعدوان، كما هو مشاهد في جميع الأزمان.
- كل من أعان أعداء الله على عباد الله وأطاع أهل الكفر ووافق على تخويف المسلمين وإرهابهم فقد اشترى الكفر بالإيمان، وخسر الآخرة بسبب الدنيا.
- تحذير الكافرين من الاغترار بإمهال الله تعالى لهم، لأن عقابهم سيتضاعف بسبب استمرارهم على جرائمهم.
- على المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى عند اشتداد الأمور، ويدعو بالدعاء المأثور: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، والله ذو فضل عظيم.
- الإيمان والتقوى متلازمان، وتقوى الله تعالى مفتاح النصر وتفريج الكرب وتيسير الأمور.
- البخل بمال الله تعالى وعدم الإنفاق فيما شرع الله وبال على الإنسان في دينه ودنياه، وسيلقى عقوبته عند الله.
- الله سبحانه وتعالى غني عن عباده وعن أموالهم، والأمر بالإنفاق هو من أجل البشر أنفسهم في دنيا الابتلاء.
- الموت حق على جميع الخلق، لا فرق بين ملك أو بشر، والرسل عليهم السلام في ذلك كسائر

بني آدم.

- الأصل في الحساب والجزاء أنه في يوم القيامة، فهناك تجزى كل نفس ما كسبت.
- الابتلاء في الأموال والأنفس من سنن هذا الكون، ومن طبيعة أهل الضلال أنهم يتهجمون على أهل الحق ويؤذونهم ويفرحون بأذاهم، وعلى المسلم أن يصبر ويتقي الله تعالى في معاملتهم امتثالاً لأوامر الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المواضيع المتناولة في هذا المقطع بدروسه الأربعة شديدة المناسبة لمحور السورة، فقد تناول هذا المقطع مواضيع من أركان وشعب الإيمان بالله تعالى ولوازم توحيده عز وجل، منها: وجوب طاعة الله وحده وموالاته، وعدم موالاة أعدائه، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجزاء، والإيمان بأن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده لا شريك له، وهو الذي يعلم ما في القلوب وما في الصدور، وهو الذي يحيي ويميت، والإيمان بأن النصر من عند الله تعالى، والإيمان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الناس، واعتقاد أن النفع والضرّ بيد الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وأن الأمور كلها عائدة إلى الله تعالى، وأن ملك وميراث السموات والأرض إليه عز وجل، وأن الموت حق على جميع الخلق. وهكذا نجد أن هذا المقطع قد حشد بالإيمانيات حشداً. والله أعلم بأسرار كلامه.

المقطع السابع: أولو الألباب يستفيدون من الآيات الكونية

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الآيات: ١٩٠-١٩٥].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، ذكر هنا ما في خلق السموات والأرض من دلالات واضحة لذوي العقول[١]، وأرشد إلى التفكر في هذا الخلْق العظيم، تفكّراً يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى واللجوء إليه[٢].

بعد أن تحدثت الآيات عن افتراء بعض أهل الكتاب على الله تعالى وعلى عباده، وتكذيبهم لرسوله ﷺ، وزعمهم أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بآية هي قربان تأكله النار، ذكرتْ هنا ما في خلق السموات والأرض من آيات ودلالات واضحات لذوي العقول -وليس آية واحدة بسيطة-، ترشدهم إلى الإيمان بالله تعالى.

وأيضاً، لما ذمّ الله تعالى البخلاء والمرائين، ذكر هنا العاملين الصادقين، وضمن لهم الأجر

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٥).

(٢) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٤).

على أعمالهم. وكذلك، لما ذمّ الله تعالى علماء أهل الكتاب الذين نبذوه وراء ظهورهم، مدح هنا ذوي العقول من أهل الإيمان الذين آمنوا وتابوا، وعملوا وأنابوا.

قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية[1].

التفسير الإجمالي:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ذلك الخلْق العظيم، والذي هو أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]، وفي ما ينتج عنهما ويتعلق بهما من آيات وظواهر ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وتعاقبهما وزيادتها ونقصانهما، ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ ودلالات واضحات ﴿ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وأصحاب العقول، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ يؤمنون بالله تعالى و﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ على كل أحوالهم؛ ﴿ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيزيدهم التفكير يقيناً، فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا ﴾ الكون ﴿ بَٰطِلًا ﴾ وعبثاً، ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾، ما خلقت هذا إلا بالحق. ثم بدؤوا بالابتهال والدعاء فقالوا: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ التي أعددتها للمنكرين الكافرين الغافلين، ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ ﴾ بسبب كفرهم وطغيانهم وافترائه ﴿ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾، فعذاب الآخرة أخزى من عذاب الدنيا، ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل:٢٧]، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين ﴿ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ينصرونهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٦].

ثم ذكروا مبادرتهم إلى الإيمان بخلاف أهل الزيغ والضلال الذين مرّ ذكرهم، أما هؤلاء

(١) التفسير الكبير للرازي (٩/ ١٠٩).

فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا ﴾ رسولاً ﴿ مُنَادِيًا ﴾ أو: سمعنا القرآن ﴿ يُنَادِي ﴾ ويدعو الناس ﴿ لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذي خلقكم وخلق كل شيء، ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ مسرعين مستجيبين، ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ [1]. ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ، بإيماننا بك وتصديقنا لرسولك. ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ من النعيم والرضوان، وباعد بيننا وبين النار، ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، و﴿ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٦٣]، ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [2]، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يونس:٥٥].

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ الذي خلقهم وهداهم ﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ عمله خالصاً لوجهي، ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ ، أي: أصل ذكوركم وإناثكم واحد،

(١) الفرق بين الذنب والسيئة: قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، وقيل: الذنوب: ترك الطاعات، والسيئات: فعل المعاصي. وقيل: غفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرّر للتأكيد والمبالغة، وقيل: في التكفير معنى، وهو: التغطية، ليأمنوا الفضيحة. ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٨).

(٢) قال في البحر المحيط (٣/ ١٤٩-١٥٠): وانظر إلى حسن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكرين، فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة ربنا، وهي إشارة إلى أنه ربهم، أصلحهم وهيأهم للعبادة، فأخبروا أولاً بنتيجة الفكر وهو قولهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ثم سألوه أن يقيهم النار بعد تنزيهه عن النقائص، وأخبروا عن حال من يدخل النار، وهم الظالمون الذين لا يذكرون الله ولا يتفكرون في مصنوعاته، ثم ذكروا أيضاً ما أنتج لهم الفكر من إجابة الداعي إلى الإيمان، إذ ذاك مترتب على أنه تعالى ما خلق هذا الخلق العجيب باطلاً، ثم سألوا غفران ذنوبهم ووفاتهم على الإيمان الذي أخبروا به في قولهم: ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾، ثم سألوا الله الجنة وأن لا يفضحهم يوم القيامة، وذلك هو غاية ما سألوه. وتكرر لفظ ﴿ رَبَّنَآ ﴾ خمس مرات، كلّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّب رحمة الله تعالى بندائه بهذا الاسم الشريف الدالّ على التربية والملك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم ونوح وغيرهما. وفي تكرار ﴿ رَبَّنَآ ﴾ ﴿ رَبَّنَآ ﴾ دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب من الله تعالى. وفي الحديث: «أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام» [الترمذي:٣٥٢٤]، وقال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم.

فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله، وكما أنتم مشتركون في الأصل، فكذلك أنتم مشتركون في الأجر وقبول العمل[(١)].

ثم ذكر بعض الأعمال التي لا يضيعها؛ كالهجرة وتحمل الأذى والجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ من بلادهم لعدم تمكّنهم من إقامة دينهم، ﴿ وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ إجباراً بظلم أعدائهم، كما نراه حاصل اليوم في بعض بلاد المسلمين التي تسلط عليها أهل الكتاب، وفي السياق إلزام الذنب للكفار، لأن المهاجرين إنما أخرجهم سوء عشرة الكفار وقبيح أفعالهم معهم[(٢)]. ﴿ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِى ﴾ بأي نوع من الأذى؛ القولي والفعلي والمعنوي.

وبعد أن ذكر هذه الأنواع من الأعمال، وهي كلها أعمال تشير إلى الصبر والتحمّل وعدم المواجهة، انتقل بعدها إلى ذكر الجهاد في سبيل الله تعالى، المقتضي دفع البلاء ومواجهة الأعداء والثبات في اللقاء، وأتبعه بذكر الاستشهاد المستلزم للتسليم بالقضاء والصبر على الابتلاء، فقال: ﴿ وَقَـٰتَلُوا وَقُتِلُوا ﴾ ، وهذا أعلى المقامات؛ أن يقاتل ويقتل في سبيل الله[(٣)].

فهذه الأعمال تشير إلى مراتب التضحية في سبيل الله تعالى، بدءاً من تنقيص الأحوال في الحياة لأجل دين الله بالمهاجرة، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله[(٤)].

ثم ذكر ما وعدهم وتكفّل بحفظه لهم وعدم إضاعته، فقال: ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ وصغائر ذنوبهم. ولعله استغنى بذكر تكفير صغائر السيئات عن ذكر غفران كبائر الذنوب من باب الأولى، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٨٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٢).

ثم واصل البشارة لهم فقال: ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْـرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ فيكون هذا ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ لهم، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾، الذي تهون لأجله الصعاب، ومفارقة الوطن والأحباب، وتحمّل الأذى والعذاب، والجهاد والاستشهاد والمصاب.

وذكر هذه الأعمال مناسب للمقطع السابق الذي جاء فيه الإخبار عن الأذى والأمر بالصبر عليه، ومناسب لسياق السورة التي جاء فيها الأمر بمحاربة الأعداء وردّ عدوانهم، والصبر في القتال، وتحمّل ما يكون فيه. وبالعموم فقد جيء بها لتبيين شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين[1].

وفي هذه الآية: عود على بدء، حيث فيها تفصيل لدعاء أولي الألباب الوارد في أول السورة، أو هو استمرار له. والله أعلم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- آيات الله في الظواهر الكونية كثيرة ماثلة للعيان، متكررة مدى الأزمان، لكن غفلة الإنسان واعتياده عليها ينسيه أن يعتبر بها، ولا يستفيد من تلك الآيات الواضحات ولا يتذكر إلا أصحاب النهى والعقول.
- لا ينفك العاقل عن ذكر الله تعالى على كل حال من أحواله، فقد مدح الله تعالى أولي الألباب بذكرهم الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.
- التفكّر في الخلق وما فيه من آيات ودلالات مطلب شرعي.
- على المسلم أن يستغل كل فرصة متاحة للتقرب إلى الله تعالى بالعلم والعمل، كما يفعل أولوا الألباب الذين يدفعهم التفكر في خلق الله إلى مناجاته ودعائه.
- في تكرار لفظة ﴿ رَبَّنَا ﴾ في الدعاء دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١).

من الله تعالى[١].

- لا فرق بين الذكر والأنثى في أصل التكليف والحساب والجزاء والثواب.
- عظم أجر المؤمن الذي يتحمّل الأذى الماديّ والمعنويّ في سبيل الله تعالى.
- عظم أجر الجهاد في سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا.
- التضحية في سبيل الله تعالى مراتب ودرجات، تبدأ من الابتلاء الحاصل من ترك الأوطان هجرة في سبيل الله تعالى، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله[٢].
- ثواب الله تعالى يستحق أن تُواجه لأجله الصعاب، ويُفارق الوطن والأحباب، ويتحمّل الأذى والعذاب، والاستشهاد والمصاب.
- يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات اقتداء بالنبي ﷺ، كما ثبت ذلك في الصحيح[٣]، ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكر والعمل[٤].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ارتباطاً وثيقاً، حيث أنه يرشد إلى التفكر في الخلق للوصول إلى الخالق سبحانه وتعالى، والقيام بحق العبادة والدعاء، والخوف والرجاء، والإيمان بيوم الجزاء، وما فيه من سعادة وشقاء، والتأكيد على بذل الجهد وتحمل الصعب في سبيل الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١-١٥٢).
(٣) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير، عن ابن عباس برقم (٤٥٦٩).
(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).

المقطع الثامن: الأمور بخواتيمها وعواقبها

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الآيات: ١٩٦-٢٠٠].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى حسن عاقبة أهل الإيمان به يوم القيامة، انتقل إلى الإجابة عن سؤال مفترض أو متوقع من السامع يتعلق بالحال في الدنيا، فنبّه إلى عدم الاغترار بحال الكفار في الدنيا، لأن متاع الدنيا قليل، وسيعاقبون بعده في دار البوار.

ولما ذكر في المقطع قبل السابق أن بعض علماء أهل الكتاب خانوا العهد الذي عندهم، وكتموا الحق، ونبذوا الكتاب، واشتروا به ثمناً قليلاً، ذكر هنا أن مِن أهل الكتاب من يؤمن بالله وبما أنزل من الكتب، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. ولما ذكر هناك أن أهل الكتاب سيؤذون المسلمين بالقول والفعل، ذكر هنا الخاشعين منهم، الذين يخافون الله تعالى فلا يؤذون أحداً.

ولما ذكر قبل المقطع السابق الابتلاء الذي سيكون في أموال المسلمين وأنفسهم، والأذى الذي سيصلهم من أهل الكتاب، ذكر هنا أن تقلب الكفار في البلاد هو لفترة قصيرة، وأن عقابهم الحقيقي سيكون يوم القيامة، وكما أمرهم هناك بالصبر أمرهم هنا بالصبر، وزاد بالأمر بالمصابرة والمرابطة.

وفي هذا المقطع إشارة إلى ختم الرسل والرسالات بخير الرسل والرسالات، واصطفاء هذه الأمة لتكون خير أمة، فالحمد لله على هذه المنة، وتمام النعمة.

التفسير الإجمالي:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، ولا يغرَّنَّ أمتك ﴿ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ وتمتعهم في الدنيا، فإنما هو ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ﴾، والعمر في الدنيا قليل مهما طال، والدنيا كلها مهما طالت فهي قليل مقارنة بالآخرة الباقية، هذا بخصوص الزمان، وهي بخصوص الكمّ والكيف كذلك، ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ﴾ ومصيرهم، وآخر تقلّب لهم هو ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ والمصير، وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلّبوا فيها، وكأن البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان، لا قرار لهم ولا خلود، ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرّون فيه هو جهنم، والعياذ بالله[1].

واستخدم لفظة ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾ في هذه الآية بمعنى: (لا تظن) أن حال الكفار حسنة فتهتمّ لذلك، وذلك أن المغترّ فارح بالشيء الذي يغتر به. فالكفار مغترّون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به. لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أنَّ هذا الإملاء للكفار إنما هو خير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم، ونوعاً من الاغترار، ولذلك حسنت ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ ﴾[2].

واقتصر على ذكر تقلب الكفار في البلاد والسيطرة عليها، ولم يذكر انتقال السيطرة إلى المسلمين، لأن الحديث في السورة عن الهزيمة في أحد، فناسب التعزية بهذا. والله أعلم.

ثم ذكر المقابل لحال الكافرين وهو مأوى المتقين، ومتاعهم يوم الدين، ووقتهم وكمّه وكيفه، فقال: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾، فبدلاً من التقلّب للكافرين، ذكر الخلود للمتقين، وبدلاً عن جنهم، ذكر الجنّات، وبدلاً من كونه متاع في الدنيا، ذكر كونه من عند الله للمتقين، وبدلاً من كونه مأوى، ذكر كونه نزلاً ومستقراً مهيئاً لهم، وبدلاً من قوله ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾،

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤).

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٥٨).

ذكر قوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾[١].

ولما كان أكثر الحديث عن أهل الكتاب، وذكر أصنافهم السيئة والجيدة، ختم هنا بذكر صنف مؤمن منهم، فقال مؤكّداً: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ وحده لا يشرك به شيئاً ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ من كتاب على رسوله محمد ﷺ، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من كتب من عند الله تعالى على أنبيائه، ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ مطيعين، لا يتكبرون ولا يؤذون، يؤمنون بكتب الله تعالى و ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ كما يفعل أهل الضلال من علماء أهل الكتاب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين آمنوا منهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والجزاء الجميل ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، وسيجازي كل عامل بما عمل. وجزاء المؤمنين من أهل الكتاب أنهم يؤتون أجرهم مرتين[٢]، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكما قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي} الحديث[٣].

ثم ختمت المقطع والسورة بوصية جمعت خير الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ، حيث أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، من أجل الفلاح في الدنيا

(١) قارن بها في البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤): حيث قال: (فقابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت لكن هنا أحسن موقع).

(٢) وسبب ذلك أنهم آمنوا بالكتابين التوراة والقرآن، أو لأنهم آمنوا بالنبي ﷺ إيماناً غيبياً قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه، أو لأنهم صبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك. التفسير الموضوعي لسورة القصص، د. محمد عيادة الكبيسي (ص ٤٦).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب العلم، برقم (٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان برقم (١٥٤).

والأخرى، فقد جمعت هذه الوصية الظهور على العدو في الدنيا، والفوز بنعيم الآخرة[١]. وقيل الصبر والمصابرة بمعنى واحد، والراجح أن الصبر غير المصابرة؛ فقد مرّ في السورة ما يقتضي المصابرة ويحثّ عليها، بخلاف ما فعله أهل النفاق من تثبيط وتخذيل، وندم على ما فات من أموال وأنفس في سبيل الله، وهذا كله يقتضي المصابرة، والله أعلم. فيكون المعنى: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على طاعة الله في تكاليفه، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداء الله في الجهاد، وقيل: هي مصابرة وعد الله بالنصر، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج[٢].

وأما المراد بالمرابطة فهي: المداومة في مكان العبادة والثبات[٣]، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلك الرباط)[٤]. أو: المراد بالمرابطة: مرابطة الغزو في سبيل الله تعالى، وحفظ ثغور الإسلام من الأعداء[٥]، وقد وردت في فضل ذلك أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتن)[٧].

وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، أي: واتقوا الله فيما بيني

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٦).
(٢) ينظر: البحر المحيط (٣/ ١٥٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤). وقارن بتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٥٤-١٥٥).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره، برقم (٢٥١).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٦).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله، برقم (٢٨٩٢).
(٧) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، برقم (١٩١٣).

وبينكم، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غداً إذا لقيتموني[1]، والله أعلم.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصابرين المصابرين المرابطين المتقين المفلحين. آمين.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- متاع الدنيا مهما كثر فهو بالنسبة للآخرة قليل، ولقلة قيمته وحقارته لم يحرم الله الكافرين منه، بل لعلهم يتمتعون فيه أكثر من تمتع المؤمنين. فيا خسارة من اغترّ بالدنيا ونسي الآخرة.
- العبرة بعاقبة الأمور وخاتمتها، نسأل الله تعالى حسنها في أمور الدنيا والآخرة.
- في هذا المقطع تشجيع لأهل الكتاب على اتباع الحق الذي جاء به الرسول محمد ﷺ، لأن الإيمان بذلك لا يتنافى مع الأصول الصحيحة لدينهم، مع الاعتراف بفضل النبي عيسى عليه السلام وما جاء به من عند الله تعالى.
- عظم فضيلة الصبر والمصابرة في سبيل الله تعالى.
- عظم فضل الرباط في سبيل الله تعالى.
- الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى هي أركان الفلاح عند الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ومقاصدها، حيث اشتمل على أمور غيبية في الدنيا والأخرى، والإيمان بمثل هذا مبني على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له.

فقد اشتمل المقطع على نصح وإرشاد، وحِكَم وأوامر، ووعد ووعيد، وبيان حقيقة الدنيا والأخرى، وعاقبة المتقين، ومصير الكافرين في يوم الدين، كما تحدثت الآيات عن المؤمنين من أهل الكتاب بالله وحده وبكتبه ورسله، وأمرت المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى

---

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٧٠)، وتفسير الطبري (٧/ ٥١٠)، كلاهما عن محمد بن كعب القرظي.

من أجل الفلاح في الدنيا والأخرى.

وهكذا يختتم المقطع والسورة بخاتمة قصيرة وخلاصة حكيمة، هي بيان عاقبة أهل الإيمان ومثواهم، وعقوبة أهل الطغيان ومأواهم، وإرشاد المؤمنين إلى سبيل فلاحهم في دنياهم وأخراهم. والله أعلم.

تم ما يسّره الله تعالى من تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنّة،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي
لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الثاني

النساء - الأنعام

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١+)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ. د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ. د. أحمد البدوي	عضواً
أ. د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم سعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

ا.د. مصطفى مسلم محمد
ا.د. عيادة أيوب الكبيسي
ا.د. أحمد محمد الشرقاوي
ا.د. ناصر سليمان العمر
ا.د. أحمد عباس البدوي
ا.د. محمد أحمد عيد الكردي
ا.د. مساعد مسلم آل جعفر
ا.د. شحادة احميدي العمري
ا.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

أولاً: بين يدي السورة:

أ- **اسم السورة**: النساء. سميت « سورة النساء الكبرى » لكثرة ما فيها من أحكام تتعلق بالنساء [1]. وسميت سورة الطلاق في مقابلها بـ« سورة النساء القصرى » [2].

ب- **فضائل السورة**: أخرج الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ [الآية: ٤٠]، و﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾ [الآية: ٣١]، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [الآية: ٤٨، ١١٦]، ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [الآية: ٦٤]. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك [3]. وزاد في رواية الطبراني قال عنها الهيثمي: « ورجاله رجال الصحيح » [4] آية: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ ﴾ [الآية: ١١٠] [5].

ج- **السورة مدنية**، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ [6]، ولا خلاف أن النبي ﷺ إنما بنى بها بالمدينة [7].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٨٩).

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي (٣/ ٢٢٠).

(٣) فتح القدير، الشوكاني (١/ ٤١٦).

(٤) (٧/ ١١، ١٢).

(٥) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٩٣-٩٤، ١٠١-١٠٢)، جامع الأصول (٨/ ٤٧٩) حديث رقم (٦٢٥٢)، والحاكم في التفسير : باب تفسير سورة النساء (٢/ ٣٠٥)، وقال: هذا إسناد صحيح، ووافقه الذهبي.

(٦) اللفظ : «... وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده » البخاري في كتاب فضائل القرآن : باب تأليف القرآن، رقم (٤٩٩٣).

(٧) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٨٦، ٨٧).

د- عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العدد وسببه:

عدد آياتها عند الشاميين مائة وسبع وسبعون آية، وعند الكوفيين ست وسبعون، وعند الباقين خمس وسبعون.

والمختلف فيه منها آيتان. إحداهما: ﴿أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الآية: ٤٤]، وثانيتهما: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية: ١٧٣]. فالكوفيون يثبتون الأولى آية فقط، والشاميون يثبتون الثانية أيضاً، والباقون يقولون: هما بعض آية [1].

هـ- محور السورة: (التوحيد الصحيح ومقوماته).

و- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هَدَت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدت إليه سورة البقرة، لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة تحذيراً مما أراده شاس بن قيس [رجل من يهود بني قينقاع] وأنظاره من الفرقة.

ولما كان مقصودها الاجتماع (على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد)، وكان السبب الأعظم في التواصل عادة الأرحام العاطف على مدارها النساء ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد [2].

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يقول سيد قطب: « وهكذا تختم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة وتكافلها الاجتماعي، وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها.. تختم بتكملة أحكام الكلالة - وهي على

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٢/ ٢).

(٢) مصاعد النظر، البقاعي (٢/ ٨٨، ٨٩).

قول أبي بكر رضي الله عنه، وهو قول الجماعة: ما ليس فيها ولد ولا والد »[1].

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه المناسبة أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به، وذلك من آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من أنواع البديع يسمَّى في الشعر تشابه الأطراف[2]، وقوم يسمونه بالتسبيغ[3].

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

وجه مناسبتها لآل عمران أمور؛ منها أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به.

ومنها أن في آل عمران ذكر قصة أحد مستوفاة، وفي هذه السورة ذكر ذيلها، وهو قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾. فإنه نزل فيها يتعلق بتلك الغزوة مروياً عن البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنها أن في آل عمران ذكر الغزوة التي بعد أحد كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآيات [١٧٢-١٧٥]. وأشير إليها ههنا بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾. وبهذين الوجهين يعرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها كما في مصحف ابن مسعود؛ لأن المذكور هنا ذيل لما ذكر هناك وتابع، فكان الأنسب فيه التأخير. ومن أمعن نظره وجد كثيراً مما ذكر في هذه السورة مفصلاً لما ذكر قبلها، فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك[4].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٩).

(٢) ولا يضر في ذلك كون الخطاب الأول بـ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾، والخطاب الثاني بـ﴿ يا أيها الناس ﴾ كما لا يخفى.

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢، ٣).

(٤) المرجع السابق.

ثانياً: تفسير السورة:

المقطع الأول: أصل البشرية واحد وخالقها واحد، فلا عدوان على المال والنسل (١-١٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن

لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾

التفسير الإجمالي للمقطع:

إن الله تعالى جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن، إحداهما هذه السورة، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج، وهي أيضاً الخامسة من النصف الثاني من القرآن. ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق، وكمال علمه، وكمال حكمته وجلاله ؛ وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]، فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة

الدالة على المعاد [(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [(٢)].

يخاطب الله الناس جميعاً لأن محمداً ﷺ بعث للناس كافة، فيأمرهم بأن يتقوه بالتزام أوامره واجتناب معاصية، ويتحرروا عن العبودية لسواه، فهو ربهم، ومالكهم، وسيدهم، وخالقهم الذي خلقهم ﴿ مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ هو آدم ﷺ خلقه من تراب، وخلق منه زوجه حواء، خلقها من ضلعه. قال رسول الله ﷺ: « استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج » [(٣)]، ثم نشر وفرق من

(١) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ١٢٩).

(٢) نظراً لأهمية التقوى التي هي أصل التوحيد الصحيح وتكررها كثيراً، ونظراً لأن كثيراً من المسلمين يسمعونها ويرددونها ولا يهتمون بحقيقتها، أو لا يفهمون معناها، فإننا نذكرها هنا بمعناها ليتضح مطلع السورة الذي بدأ بالأمر بالتقوى.
أصلها : وقاه فاتقى، ففاؤه واو لا تاء. والوقاية لغة : الصيانة مطلقاً، وشرعاً صيانة المرء نفسه عمّا يضر في الآخرة [روح المعاني، الألوسي (١/ ٩٢)]، لذلك قالوا : أصل الاتقاء والتقوى : الحجز بين شيئين، ومنه يقال : اتقى بترسه، أي جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما قصد به من المكروه، وفي الخبر : « كنا إذا احمر الباس اتقينا برسول الله ﷺ »، أي اشتدت الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو. فكأن المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عن نهيه حاجزاً بينه وبين العذاب، فيتحرز بطاعة الله عن عقوبة الله [تفسير السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (١/ ٤٢)]. ومراتب الوقاية من العذاب في الآخرة متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولاها : التوقي من الشرك، والثانية : التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة : ما أشير إليه بما رواه الترمذي عنه ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » [صحيح الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجة (٤٢١٥)]، ويدخل في ذلك فعل المأمورات، ولذلك قيل : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك [روح المعاني، الألوسي (١/ ٩١)].

(٣) وعند ابن كثير بعد كسرته : « وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج ». [البخاري (٣٣٣١، ٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨)].

آدم وحواء بطريق التوالد رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات.

وقد أجمع الناس على أن الله خلق أباهم آدم ﷺ، واتفقت الديانات جميعاً على ذلك، وكل إنسان يعلم أن الله خالقه ولم يخلق نفسه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين فيه تأييد أمره تعالى بالتزام شرعه وحكمه لسيادته على الخلق جميعاً، وكذا وصف الرب بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ لأن الاستعمال جار على أن الوصف الذي علق به الحكم علة موجبة له، أو باعثة عليه داعية إليه، ولا يخفى أن ما هنا كذلك ؛ فالخالق والمالك هو السيد المطاع لا غيره. ولأن ما ذكر يدل على القدرة العظيمة أو النعمة الجسيمة ؛ ولا شك أن الأول وهو القدرة العظيمة يوجب التقوى مطلقاً، حذراً من العقاب العظيم، وأن الثاني – وهو النعمة الجسيمة – يدعو إليها وفاءً بالشكر الواجب [١].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾ ؛ كرر الاتقاء تأكيداً وتنبيهاً لنفوس المأمورين، وكان يسأل بعضهم بعضاً بالله، واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها [٢].

وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه تعالى، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل مَنْ وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فهو لك » [٣].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢).

(٣) صحيح البخاري (٥٩٨٧)، وصحيح مسلم (٢٤٥٥). وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨).

وجعل الله قطيعة الرحم من أعظم أسباب الفساد بعد التولي عن الإيمان إلى الكفر فقال سبحانه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد:٢٢].

وقد اتفقت الأمة على أن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة، والرحم اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره [١].

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾، أي حفيظاً، فهو من رقبه بمعنى حفظه، وقد يفسر بالمطّلع، ومنه المرقب للمكان العالي الذي يشرف عليه الرقيب ليطلع على ما دونه، ومن هنا فسره ابن زيد بالعالم. وعلى كل فهو فعيل بمعنى فاعل، والجملة في موضع التعليل للأمر ووجوب الامتثال [٢].

ولنعد النظر إلى آية الافتتاح، فإن الخطاب « للناس » بصفتهم هذه لردهم جميعاً إلى ربهم ﴿ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾، والذي ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾، ورقابة الله واطلاعه على خلقه جميعاً. إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة لهي حقائق كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً. ولو ألقى ﴿ النَّاسُ ﴾ أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وبنقلهم من الجاهلية - أو الجاهليات المختلفة - [٣] إلى الإيمان والرشد والهدى، إلى الحضارة الحقيقية اللائقة بـ﴿ النَّاسُ ﴾ وبالـ﴿ نَّفْسٍ ﴾ واللائقة بالخلق الذي ربه وخالقه هو الله.

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتّى:

١ - إنها ابتداءً تذكر ﴿ النَّاسُ ﴾ بمصدرهم الذي صدروا عنه، وتردهم إلى خالقهم الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦، ٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨). وانظر معنى الرقيب في المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٠١.

(٣) ليس المراد بالجهل هنا جهل القراءة والكتابة، إنما المراد: جهل الحق الواضح والإعراض عنه، والخوض في الباطل والفساد.

أنشأهم في هذه الأرض، كما قال صالح لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. هذه الحقيقة التي ينساها ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ فينسون كل شيء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

إن ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ جاءوا إلى هذا العالم بإرادة خالقهم الذي رسم لهم الطريق، واختار لهم خط الحياة، ومنحهم خصائص وجودهم واستعداداتهم ومواهبهم، ومنحهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة البديهية التي يغفلون عنها لثابوا إلى الرشد من أول الطريق.

إن الله الذي خلقهم في هذا الكون، وخط لهم طريق الحياة فيه، ومنحهم القدرة على التعامل معه، لهو وحده - سبحانه - الذي يملك لهم كل شيء، وهو وحده الذي يعرف عنهم كل شيء، وهو وحده الذي يدبر أمرهم خير تدبير، وإنه سبحانه وحده صاحب الحق في أن يرسم لهم سلوكهم الصحيح، ويضع لهم قيمهم وموازينهم، ويشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم.

٢- كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة تنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت في حسّهم كل الفروق الطارئة التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء (النفس الواحدة)، ومزقت وشائج الرحم الواحدة.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الاستعباد الطبقي بين الأمم وفي الأمة الواحدة، والاستعباد العنصري، واستعلاء الأمة الواحدة على غيرها من الأمم، وتسيل الدماء أنهاراً بين الاستعباد والتحرير، وينسى الناس النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع !

٣- والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا

زَوْجَهَا ﴾ كانت كفيلة - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التي ترددت فيها، وهي تتصور في المرأة شتّى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء. وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة.

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً ؛ جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

٤- كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة. فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة، فخلق ابتداءً نفساً واحدة، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، فكانت أسرة من زوجين، ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً، وزوجهم فكانوا أسراً شتى من أول الطريق، لا رحم بينها من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا إرادة الخالق الواحد. وهي الوشيجة الأولى. ولكنه سبحانه شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية - وهي أصل الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى - هما من نفس واحدة، وطبيعة واحدة، وفطرة واحدة - والناس كلهم يرجعون ابتداءً وخلقاً إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة.

ولهذا رعى الإسلام الأسرة، وشرع من الأحكام، وأوصى من التوصيات ما يوثّق عراها، ويثبت بنيانها، ويحميها من جميع المؤثرات التي توهن بناءها. وفي أول هذه المؤثرات: مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة، وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها

البعض، وتكاملها لإقامة هذه الأسرة من ذكر وأنثى.

٥- وأخيراً فإن نظرة إلى التنوع في خصائص الأفراد واستعداداتهم - بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة - على هذا المدى الواسع الذي لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل على توالي العصور، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد في جميع الأجيال ؛ التنوع في الأشكال والسمات والملامح، والتنوع في الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر، والتنوع في الاستعدادات والاهتمامات والوظائف. إن نظرة إلى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع لتشي بالقدرة المبدعة على غير مثال، المدبرة عن علم وحكمة، وتطلق القلب والعين يجولان في ذلك المتحف الحيّ العجيب، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التي لا تنفد، والتي دائماً تتجدد، والتي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله.

والتأمل في ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زاداً من الأنس والمتاع فوق زاد الإيمان والتقوى.

وتختم آية الافتتاح برقابة الله على الناس، وما أهولها رقابة والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذي يعلم من خلق، وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه خافية، لا في ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب.

من هذا الافتتاح القوي المؤثر، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة، ومن هذا الأصل الأساسي الكبير يأخذ في إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته ؛ من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع [1]، وصيانة الأسرة من الفاحشة التي تهدم بنيانها، وتلوث النسل فيها، يشرع سبحانه في تفصيل موارد اتقاء الله لإقامة أسس نظام المجتمع على أتم وجه، ويبدأ باليتامى إظهاراً

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢١٩-٢٢٣).

لكمال العناية بشأنهم، ولملابستهم بالأرحام:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[1].

إن أموال اليتامى وحقوقهم وحقوق النساء كانت تؤكل في الجاهلية الأولى. وكذا نرى في الجاهلية الحديثة أمثاله في المدن والقرى. وعلى الرغم من كل الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للإشراف على أموال الصغار، ما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق وشتى الحيل، ومن كثير من الأوصياء. فهذه الظاهرة لا تنفع فيها الرقابة الظاهرية، ولابد من وجود الرقابة الداخلية قبل الظاهرية. إنها التقوى. الخوف من عقاب الله الذي يعلم ما ظهر وما خفي، هو الذي يجعل التشريع الظاهري له قيمته وله أثره.

إن الله سبحانه خالق الإنسان، والعليم به. يأمر الأولياء والأوصياء أن يعطوا اليتامى أموالهم.

وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين:

الوجه الأول: أن يكون المراد باليتامى البالغين الذين بلغوا سنّ الرشد، وسمّوا يتامى (مجازاً) باعتبار ما كان، أي الذين كانوا يتامى، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٦]، أي الذين كانوا سحرة، ولا سحر مع السجود لرب العالمين.

والوجه الثاني: أن المراد باليتامى الصغار الذين هم دون سنّ البلوغ، والمراد بالإيتاء الإنفاق عليهم بالطعام والكسوة، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد،

---

(١) اليتامى جمع يتيم، مثل : ندامَى ونديم. واليتيم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وأصله الانفراد، يقال : صبيّ يتيم، أي منفرد من أبيه. ودرّة يتيمة : أي منفردة ليس لها نظير. والإيتاء : الإعطاء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤).

كالصغير والسفيه الكبير [١].

ويمكن أن يكون المراد بالإيتاء ترك الأموال وحفظها لليتامى، وعدم التعرض لها بسوء فهو مجاز مستعمل في لازم معناه، لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك.

والنكتة في هذا التعبير الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الغرض من ترك التعرض إيصال الأموال إلى من ذكر، لا مجرد ترك التعرض لها، وعلى هذا يصح أن يراد باليتامى الصغار، على ما هو المتبادر [٢].

﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾. تبدل الشيء بالشيء واستبداله به: أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له، أو في شرف الحصول. يستعملان أبداً بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقوله: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]. ويظهر من كلام المفسرين أنه قد يراد بالخبيث الحرام، وبالطيب المال الحلال ؛ والمعنى: لا تستبدلوا أموال اليتامى بأموالكم، أو لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالنهي عن استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقاً، أو أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر. وأياً ما كان فالتعبير عن ذلك بالخبيث والطيب للتنفير عمّا أخذوه، والترغيب فيما أعطوه [٣].

وقد يراد بالخبيث والطيب: الرديء والجيد، ومورد النهي حينئذ ما كان الأوصياء عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم، وإعطاء الرديء من مال أنفسهم. روى ابن جرير الطبري عن السدي أنه قال: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم [٤]. وتخصيص

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨، ٩).
(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩، ١٠)، وجامع البيان، الطبري (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩).
(٤) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٢٩)، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢/ ٥).

هذه المعاملة بالنهي لخروجها مخرج العادة، لا لإباحة ما عداها، فلا مفهوم للمخالفة لانخرام شرطه عند القائل به.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ والمراد بالأكل في النهي الأخير مطلق الانتفاع والتصرف، وعبر بذلك عنه لأنه أغلب أحواله، والمعنى: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، أي تنفقوهما معاً، ولا تسووا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام [١]. والحوب: الإثم. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه [٢].

ثم شرع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾.

وهذا متعلق بأنفس اليتامى أصالة، وبأموالهم تبعاً، عقب النهي عمّا يتعلق بأموالهم خاصةً، وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهي عنه بالنسبة للأموال [٣].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ شرط، وجوابه: ﴿ فَٱنكِحُواْ ﴾ ؛ أي إن خفتم ألا تعدلوا في مهورهن وفي النفقة عليهن، فانكحوا ما طاب لكم غيرهن، ويفسر تعلق الشرط بالجواب على هذا النحو بيان عائشة رضي الله عنها، فقد روى الأئمة عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ﴾، فقالت: يا ابن أختي ؛ هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤٩).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠، ١١).

النساء سواهن (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عَذْق نخل فكانت شريكته فيه وفي ماله، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ الآية (٢).

وأقسط: عدل (٣). فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء اليتيمات إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، فلينكحوا من شاءوا غيرهن من النساء ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾، أي إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً كما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر: ١]، أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم أربعة. ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه في الآية نفسها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾، بخلاف قصر الرجال على أربع، فدليله هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء ؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، وقد دلت السنة المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح، فهذا عند العلماء من خصائصه ﷺ دون غيره من الأمة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن شهاب الزهري عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: « اختر منهن أربعاً ». وعند الترمذي عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره

---

(١) البخاري (٧٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨)، واللفظ لمسلم.

(٢) البخاري (٤٥٧٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢). يقال : قَسَط الرجل إذا جار، وأقسط إذا عدل. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥]، وقال سبحانه : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩]. انظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٣.

النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً [١].

والخوف في قوله: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ﴾ من الأضداد فإنه يكون المخوف منه معلوم الوقوع، وقد يكون مظنوناً [٢]، والصحيح أن معنى خفتم: ظننتم. قال ابن عطية: « ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجهٍ، وإنما هو من أفعال التوقع إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين، وأما أن يصل إلى حد اليقين فلا » [٣]. فمن غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة بعدم إعطائها حقوقها في المهر والنفقة، وما يظهر للعلن من الأمور النفسية التي تحتاجها الزوجة، فليعدل عن اليتيمة إلى غيرها، ولينكح ما طاب له من النساء، أي ما حل من النساء ؛ لأن المحرمات منهن كثير [٤]، فكأنه قال: فانكحوا الطيب من النساء من جهة التحليل. وهذا الأمر بالنكاح هو ندب لقوم وإباحة لآخرين؛ بحسب قرائن المرء والنكاح في الجملة [٥].

﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾. قال الضحاك وغيره: فإن خفتم ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة والقسْم بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنتين﴿ فَوَٰحِدَةً ﴾. فمنع من الزيادة التي تؤدي إلى ترك العدل في القَسْم وحسن العشرة، وذلك دليل على وجوب ذلك [٦]. ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ﴾ من الإماء، وذلك لأنه لا حق لملك اليمين في الوطء ولا

(١) مسند الإمام أحمد (٤٥٩٥، ٤٦١٧)، والترمذي (١١٢٨). وقد ذكر ابن كثير رحمه الله للحديث شواهد كثيرة، وقال : والإسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٥).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧).

(٦) وقراءة النصب بإضمار فعل، أي ﴿فانكحوا واحدةً﴾. وقرئت بالرفع، والمعنى: فواحدةٌ فيها كفاية أو كافية.

القَسْم [١]. ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾، أي أقرب إلى ألاّ تميلوا عن الحق وتجوروا [٢].

ونحن نرى في هذا العصر بعض النساء والرجال يزعمون أنهم يدافعون عن المرأة وحقوقها، ويدعونها للتحرر من العفة والفضيلة لتكون سلعة رخيصة بيد الرجل، لا أماً وزوجة لها كرامتها وحقوقها المادية والمعنوية. ومن جملة دعاويهم لحقوق المرأة دعوتهم إلى منع وتحريم تعدد الزوجات ؛ وربما تمكنوا في بعض المجتمعات الإسلامية أن يصدروا تشريعات تحرم التعدد، وتضع عقوبة السجن والغرامة المادية على من يتزوج زوجة ثانية، وربما تكون العقوبة على الزوجة الثانية ووليها أيضاً. أما أن تكون هذه الزوجة الثانية خليلة أو عشيقة يتردد عليها هذا الرجل أو غيره من الرجال لتكون مفسدة للرجال، وناقلة للأمراض الجنسية الفتاكة، فلا مانع من ذلك، ولا عقوبة على الزنا، حتى لو كان من متزوج أو متزوجة، طالما كان الأمر بالتراضي وبغير إكراه.

وهذا الوضع أسوأ حالاً من الجاهلية الأولى، حيث كان من المعيب عندهم أن تزني الحرة. وهذا ما يريده الذين يتبعون الشهوات، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٧]، يريد أتباع الشهوات وعباد الهوى أن يميل الرجال والنساء عن المبادئ والتشريعات التي أنزلها الله لتحافظ على النسل، الذي هو عماد الأمة ؛ وبكثرة الشباب - من الرجال والنساء - وصحتهم البدنية والنفسية تكون الأمة مهيبة لا يستطيع أعداؤها العدوان عليها، كما تكون قوية في اقتصادها، لأن الشباب المنتجين أكثر بكثير من الشيوخ المستهلكين، وهذه التشريعات الإلهية تحفظ الأمة جميعاً مع نسلها من الأمراض الجنسية الفتاكة، التي تنتشر انتشاراً عظيماً وسريعاً بسبب الزنا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠).

(٢) أدنى : أقرب، وهو من الدنو. وموضع ﴿ أن ﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والتقدير : ذلك أدنى إلى أن لا تعولوا. وتعولوا : تميلوا. قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. يقال : عال الرجل يعول ؛ إذا مال وجار. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨).

الذي هو علاقة بين رجل وامرأة بدون ضوابط ولا حدود ولا حقوق ؛ إنما هو المال والغريزة الحيوانية، تكون المرأة فيه سلعة تافهة رخيصة ينالها الرجل في أي وقت يريد. ولن نتكلم عن الأمراض والعقد النفسية، والتفكك الاجتماعي، والخصومات والأحقاد بين الرجال والنساء، وبين الرجال والرجال، وبين النساء والنساء؛ فهذا يريد تلك، وتلك تريد غيره، وهذا مشاهد في الواقع معروف.

إن المجتمعات الجاهلية - غير الإسلامية - أصبحت الآن بعد التقدم العلمي في الفحوصات الطبية التجريبية، وبعد التقدم في التحاليل ودراسة الجراثيم وأنواعها، أصبحت تعرف أن الزنا هو السبب الرئيسي في انتشار الأمراض الجنسية الفتاكة، ولكن - بسبب الشهوات التي أعمتهم وأصمتهم - يأبى هؤلاء الناس أن يفكروا باستئصال الأسباب الأصلية ومعالجتها بالطهر والعفة، والزواج ولو بأكثر من واحدة إذا احتاج الأمر ذلك [1]، إنما يريدون من أهل الطهر والعفة والنظافة ﴿ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾.

إن الإسلام جاء وتحت الرجال في الجاهلية الأولى عشرة نسوة أو أكثر أو أقل، دون حدّ ولا قيد، فجاء الإسلام ليضع حداً لا يتجاوزه المسلم - وهو أربع - ويضع قيداً - هو إمكان العدل - وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم. جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة !

ولابد لنا من استصحاب بعض الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي حين ننظر إلى قضية تعدد الزوجات:

أ- الإسلام نظام يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

ب- الإسلام نظام يتوافق مع واقع الإنسان وضروراته ؛ فهو نظام واقعي إيجابي.

---

(١) لا ينبغي أن ننسى أن الإسلام لم يفرض التعدد، وإنما أباح وحدد وقيّد.

جـ- الإسلام نظام يتوافق مع ملابسات حياة الإنسان المتغيرة في شتّى البقاع، وشتى الأزمان، وشتى الأحوال. فهو يراعي خلق الإنسان، ونظافة المجتمع ؛ فلا يسمح بإنشاء واقع مادي من شأنه انحلال الخلق وتلويث المجتمع تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع الذي أقامه شياطين الإنس والجن. بل يتوخَّى الإسلام دائماً أن ينشيء واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

بعد استصحاب هذه الخصائص نرى أن هناك حالات واقعية - في مجتمعات كثيرة تاريخية وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري كثيراً من المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائماً في حدودها.

فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع ويتكرر وقوعه بنسب مختلفة. هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار أو الكلام الفارغ الذي يدعي فيه بعضهم أنه ينصف المرأة ويعطيها حقوقها وهو في الواقع يسلب حق المرأة في أن تكون زوجة محترمة لها حقوقها المشروعة كغيرها من النساء.

وإذا أردنا اتخاذ إجراء ووضع نظام لهذا الواقع نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج، ثم تبقى واحدة أو أكثر -حسب درجة الاختلال الواقعة- بدون زواج، تقضي حياتها -أو حياتهن- لا تعرف الرجال.

٢ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً نظيفاً، يكون لزوجته الشرعية هذه حقوقها المادية والمعنوية، ثم يخادن هذا الزوج أو يسافح واحدة أو أكثر من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال، فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام !!

٣ - أن يتزوج الرجال الصالحون -أو بعضهم حسب درجة الاختلال- أكثر من واحدة، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة في وضح النور، لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام!

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وضد الطاقة بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب، فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون المتظرفون الجهال عن فطرة الإنسان. فحواء خلقت من آدم - كما مرّ معنا - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾؛ والمرأة لا تسكن ولا تطمئن ولا تأنس إلا بالرجل. وألف عمل وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية؛ سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والأنس بالعشير. والرجل يجد العمل ويجد الكسب، ولكن هذا لا يكفيه، فيروح يسعى للحصول على العشيرة. والمرأة كالرجل في هذا، فهما من نفس واحدة.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف الخالي من الأمراض الجسمية والنفسية والاجتماعية، وضدّ كرامة المرأة الإنسانية أيضاً. فالمرأة لم تخلق ليعبث بها الرجال، وتكون مصب قاذوراتهم وناقلةً للأمراض بينهم، ومعدومة الحقوق الفطرية الإنسانية التي خلقت لها. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع هم أنفسهم الذين يتعالمون على الله ويتطاولون على شريعته، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين، ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء. يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرقي به في الدرج الصاعد إلى القمة

السامقة. ولكن في يسر ولين وواقعية!

إن أحداً يدرك روح الإسلام واتجاهه لا يقول: إن التعدد مطلوب لذاته، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية، وبلا دافع إلا التلذذ الحيواني، وإلا التنقل بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات. إنما هو ضرورة تواجه ضرورة، وحلّ يواجه مشكلة. وهو ليس متروكاً للهوى بلا قيد ولا حد في النظام الإسلامي الذي يواجه كل واقعيات الحياة [١].

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: « وقد شرع الله تعدد النساء للقادر العادل لمصالح جمة؛ منها أن في ذلك وسيلة إلى تكثير عدد الأمة بازدياد المواليد فيها. ومنها أن ذلك يعين كفالة النساء اللاتي هن أكثر من الرجال في كل أمة؛ لأن الأنوثة في المواليد أكثر من الذكورة ولأن الرجال يعرض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشدائد ما لا يعرض للنساء، ولأن النساء أطول أعماراً من الرجال، بما فطرهن الله عليه. ومنها أن الشريعة حرمت الزنا وضيقت في تحريمه لما يجر إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونظام العائلات، فناسب أن يوسع على الناس في تعدد النساء لمن كان من الرجال ميالاً للتعدد مجبولاً عليه. ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق إلا لضرورة » [٢].

أما الإماء ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ فالتسري بالأمة طريق من طرق إعطائها كرامتها ثم تحريرها. وقد وضع الإسلام طرقاً كثيرة لتحرير العبيد، كالعتق في الكفارات وغيرها. والتسري بالأمة إحدى هذه الطرق، لإنها إن حملت من سيدها وولدت له تكون أم ولد، تعتق بعد وفاة سيدها؛ فالإسلام وجه رغبة الإنسان الغريزية لتحرير الإماء.

وبعد الحديث عن نكاح النساء مثنى وثلاث ورباع بشرط العدل يستطرد السياق في تقرير حقوق الزوجات من النساء قبل أن يستكمل الكلام عن رعاية اليتامى التي بدأ بها:

---

(١) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٢٧-٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٢٦).

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾[1].

ظاهر الآية أن الخطاب فيها للأزواج ؛ لأن الضمائر واحدة، وهي بجملتها للأزواج لأنه قال: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾. وذلك يوجب تناسق الضمائر، وأن يكون الأول فيها هو الآخر.

ولا يمنع ظاهر الآية أن يدخل في الخطاب من يصلح له من الأولياء، فقد كان الولي يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً، فنهوا عن ذلك وأمروا أن يدفعوا مهورهن إليهن[2].

وهذه الآية تثبت للمرأة حقاً صريحاً وحقاً شخصياً في صداقها، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلام المفسرين أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك ؛ كما يمنح المنيحة ويعطي العطية طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك[3].

﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾. فإن طابت الزوجات لأزواجهن بعد تسمية المهر أو بعد قبضه عن شيء من الصداق متجافياً عنه نفوسهن، طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل، من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم. وإنما أوثر في النظم الكريم دون « فإن وهبن لكم شيئاً عن طيب نفس » إيذاناً بأن العمدة في الأمر طيب النفس، وتجافياً عن الموهوب بالمرة، حيث جعل ذلك مبتدأ وركناً في الكلام، لا فضلة كما في التركيب المفروض[4]. وعلى هذه الصفة كلوه هنيئاً مريئاً، والمراد بالأكل الاستباحة، فليس المقصود صورة الأكل، إلا

---

(١) ﴿ وآتوا النساء ﴾ : أعطوا النساء، ﴿ صَدُقاتهن ﴾ : بفتح الصاد وسكون الدال جمع صَدُقة ؛ وهي كالصداق بمعنى المهر. ﴿ نحلة ﴾ : فريضة من الله أو هبة وعطية من الله، وقيل : من الأزواج. وانتصاب ﴿ نحلة ﴾ على الحالية من الصدقات. انظر روح المعاني (٢/ ١٧-١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٣، ٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥١).

(٤) روح المعاني (٢/ ١٩).

أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتع بالمال عُبِّر عن التصرفات بالأكل كما في قوله تعالى بعد قليل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] [١].

وبهذا الإجراء استبعد الإسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية في شأن المرأة وصداقها، وحقها في نفسها ومالها وكرامتها ومنزلتها. وفي الوقت ذاته لم يجفف ما بين المرأة وزوجها من صلات، ولم يقمها على مجرد الصرامة في القانون؛ بل ترك للسماحة والتراضي والمودة أن تأخذ مجراها في هذه الحياة المشتركة، وأن تبلل بنداوتها جو هذه الحياة [٢].

ويرجع السياق بعد هذا الاستطراد إلى الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى، وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شروط إيتائها وكيفيته:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ [٣] أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [٤].

المراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفي بحفظ المال، ويدخل فيه الرجال والنساء والصبيان والأيتام، وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة. وهذا أصح الأقوال، وقد اختاره

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٦)، و﴿ هنيئاً مريئاً ﴾ صفتان من هنؤ الطعام يهنؤ هناءة، ومرؤ يمرؤ مراءة؛ إذا لم يثقل على المعدة، وانحدر عنها طيباً، وفي الصحاح نقلاً عن الأخفش يقال: هنؤ وهنئ، ومرؤ ومرئ، كما يقال فقُه وفقِه - بكسر القاف وضمها - وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المريء. وقال الزمخشري: إنهما صفتان للمصدر. أي: أكلاً هنيئاً مريئاً. روح المعاني (٢/ ١٩)، والكشاف، الزمخشري (١/ ٢٤٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٣٧).

(٣) السفهاء: الجهال والخرقاء، وذلك باعتبار خفة أحلامهم، واضطراب آرائهم. وأصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقة، يقال: ثوب سفيه إذا كان رديء النسيج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً. وتسفهت الريح الشجر: مالت به. والسفه ضد الحلم. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٠٥)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).

الطبري لعموم اللفظ في الآية، والتخصيص بغير دليل لا يجوز. قال أبو جعفر الطبري بعد أن عرض أقوالاً في أن السفهاء هم الصبيان والنساء: « والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه عمّ بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾. فلم يخصص سفيهاً دون سفيه، فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيهاً ماله ؛ صبياً صغيراً كان أو رجلاً كبيراً، ذكراً كان أو أنثى. والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر [١] بتضييعه ماله، وفساده وإفساده، وسوء تدبيره ذلك. وإنما قلنا ما قلنا من أن المعني بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ ﴾ هو من وصفناه دون غيره ؛ لأن الله عز وجل ثناؤه قال في الآية التي تتلوها: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾. فأمر أولياء اليتامى بدفع أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح وأونس منهم الرشد ؛ وقد يدخل في اليتامى الذكور والإناث، فلم يخصص بالأمر بدفع ما لهم من الأموال الذكور دون الإناث، ولا الإناث دون الذكور » [٢].

ولعل من قال إن السفهاء النساء أراد النساء المبذرات، فإنهن يدخلن في معنى السفه مثل الرجال. وأما قول من قال: عنى بالسفهاء النساء خاصة، فإنه جعل اللغة على غير وجهها ؛ وذلك أن العرب لا تكاد تجمع فعلاً على فُعَلاء إلا في جمع الذكور، أو الذكور مع الإناث، وأما إذا أرادوا جمع الإناث خاصة جمعوه على فعائل وفعيلات، فيقولون سفائه وسفيهات [٣].

والحجر على أنواع بالنسبة لأسبابه:

فتارة يكون للصغر، فإن الصغير قاصر النظر مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، لأن المجنون لا يعقل، وتارة يكون الحجر للسفه، كالذي يبذر ماله، أو يسيء التصرف في ماله لنقص عقله ودينه.

---

(١) الحجر : هو المنع من التصرف المالي.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٤/ ١٦٥-١٦٦).

(٣) انظر المرجع السابق (٤/ ١٦٦)، وانظر قول النحاس في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٩).

وتارة يكون الحجر للإفلاس، كالذي تحيط به الديون ويضيق ماله عن وفائها، فإذا سال الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه [١].

والآية دليل في وجوب الحجر على السفهاء إذا ثبت تبذيرهم وإسرافهم وعدم حفظهم للمال، سواء كانوا كباراً أو صغاراً، ذكوراً أو إناثاً ؛ لأن الصبي إنما منع من ماله لفقد العقل الهادي إلى حفظ المال وكيفية الانتفاع به، فإذا كان هذا المعنى قائماً بالشاب والشيخ كانا في حكم الصبي، فوجب أن يمنع دفع المال إليه ما لم يؤنس منه الرشد، لظاهر الآية الكريمة.

ونعود إلى أول الآية: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ ، والخطاب لكل أحد كائناً من كان، والمراد نهيه عن إيتاء ماله من لا رشد له من السفهاء، وإنما أضيفت إلى ضمير الأولياء المخاطبين تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصهم بها، فكأن أموالهم عين أموالهم، لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي، مبالغة في حملهم على المحافظة عليها. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فإن المراد لا يقتل بعضكم بعضاً.

ووصف الأموال بأنها تقوم بمعاشهم وصلاح دينهم، وأضافها إلى المخاطبين أيضاً فقال: ﴿ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ ، والقيام والقوام: ما يقيمك، يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي يصلحه [٢].

وقيل: إنما أضيف المال إلى ضمير المخاطبين لأن المراد بالمال جنسه مما يتعيش به الناس ونسبته إلى كل أحد كنسبته إلى الآخر لعموم النسبة [٣].

نقول: السفيه هو الذي لا يحسن التصرف بالمال فيبدده ويضيعه بغير فائدة تعود عليه أو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣١).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠).

على الجماعة المسلمة. والحجر على السفيه منعه من التصرف في ماله، ويقوم وليه بتثمير ماله نيابة عنه، وينفق على السفيه من ماله إلى أن يثبت رشده وحسن تصرفه بالمال فيرفع عنه الحجر.

ولم يكن أحد قبل نزول التشريع الرباني ينظر إلى المال أكثر من أنه محبوب إلى النفس يستميت الإنسان في طلبه وجمعه ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، وربما عمّت الفوضى في التملك والتصرفات المالية في المجتمعات البشرية قبل الإسلام، فيكون التطاول من الجماعة على حق الملكية للأفراد، فتنزع الملكية، وتسلب الأموال كلها أو بعضها من الأفراد. وربما يسرف الأفراد في حق التملك ؛ فيتجاوز الفرد مصالح الجماعة بحجة الحرية المطلقة التي لا تقيدها قيود تحمي الجماعة من شطط الأفراد. كان هذا قبل الإسلام، ولا زال موجوداً إلى اليوم في المجتمعات التي لا تدين بنظام الإسلام ؛ فنرى في بعض المجتمعات المعاصرة طغيان حقوق الأفراد على مصالح الجماعة، كما نرى في بعض المجتمعات طغيان الجماعة على حقوق التملك للأفراد ؛ فيؤدي نزع ملكية الأفراد إلى تدمير الاقتصاد بسبب الفوضى وعدم الاستقرار المالي وضعف الإنتاج ؛ لأن الإنسان يعمل لغيره لا لنفسه، ويسيطر فرد أو أفراد على هذه الجماعة التي تُنزع فيها ملكيات الأفراد كلاً أو جزءاً، فتصبح الجماعة وأملاكها وإرادة أفرادها تحت سيطرة هذا الفرد أو الأفراد الحاكمين، ويكون البلاء أعظم، والاستعباد أكثر ذلاً وإهداراً للكرامة الإنسانية.

وقد نزل القرآن كتاب التحرير والحرية، وكان من تشريعاته تحرير الاقتصاد على الوجه الأكمل، وبيان فوائد المال الاجتماعية والفردية، وعلاقة مال الأفراد باقتصاد الجماعة وعزتها. قال الألوسي: « في الآية إشارة إلى مدح الأموال، وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الدراهم والدنانير خواتيم الله في الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، حيث قصدت بها قضيت حاجتك »[١].

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١).

والتشريع القرآني قيد الملكية بقيود تمنعها من إفساد المصلحة المالية للجماعة، ومن هذه القيود تحريم الإسراف والتبذير، والحجر على من لا يحسن التصرف الماليّ الذي تشرعه هذه الآية الكريمة للحفاظ على مصلحة الجماعة وقوة اقتصادها، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾. فأسند الأموال إلى الجماعة، وذكر بأن قيام مصالح الجماعة تكون بهذه الأموال، فإذا أتلفها الفرد فإنه يتلف مال الجماعة، وحق الفرد يكون في تثميرها والانتفاع بها لا إتلافها، وأمر القرآن بالإنفاق عليه من ماله، وحسن معاملته ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

فالمال وإن كان مال اليتامى أو السفهاء، إلا أنه لابدّ وأن يكون استعماله بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة ؛ والجماعة متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه. والناس إنما يملكون المال لاستثماره، ويظلون ينتفعون وينفعون الجماعة معهم ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره؛ راشدين في تصريفه وتدبيره، فإذا بددوا المال ولم يحسنوا التصرف فيه بقيت الملكية لهم ولم تنزع منهم، ومنعوا من إدارة أموالهم والتصرف فيها حتى يُختبروا ويثبت رشدهم، فتدفع إليهم أموالهم ويكون لهم حرية التصرف فيها كاملاً ؛ وذلك حفظاً للاقتصاد – كما ذكرت – وحماية لمصلحة الجماعة في الأموال. فلا تنزع الملكية من الفرد للجماعة، ولا يترك المجال للفرد المبدد للأموال أن يفسد مصلحة الجماعة.

ولنوضح مصلحة الجماعة في مال الفرد نذكر المثال التالي: لو أن أحداً يملك مصنعاً يعمل فيه ثلاثون عاملاً، فلو زعم هذا المالك أن له الحرية في ملكه، ويريد أن يتلف هذا المعمل كلاً أو جزءاً، أو يعطّله ويغلقه لا لمصلحة، فإنه إن فعل ذلك يعطل رزق العمال بلا سبب يبيح له ذلك، ويعطل دخل المعمل الذي ينتفع الجماعة كلها بإنتاجه.

ويتبين السفه والرشد – بعد البلوغ – بالابتلاء والاختبار:

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ

إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرطه [١]. فيأمر الله سبحانه أولياء الأيتام أن يختبروهم قبيل بلوغهم سن التكليف، ليعلموا رشدهم وحسن تصرفهم المالي، فإن ثبت رشدهم يدفع لهم الولي أموالهم عند البلوغ ؛ فقد ذكر الله سبحانه شرطين لابدّ من تحققهما حتى يستلم اليتيم ماله:

الشرط الأول: بلوغ سن النكاح، وهو سن التكليف بالأحكام الشرعية.

والشرط الثاني: ثبوت رشد اليتيم، ويكون ذلك باختباره وملاحظة تصرفاته المالية والدينية: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [٢].

والرشد: الصلاح في الدين وحفظ المال. وهذا قول ابن عباس والحسن البصري [٣].

ومعنى: ﴿ ءَانَسْتُم ﴾ أبصرتم ورأيتم، ومنه قوله تعالى: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩]، وقيل معناه تبصّر، وقيل: هو هنا بمعنى وجد وعلم. واليتيم إما أن يكون غلاماً أو جارية ؛ فإن كان غلاماً ردّ إليه في نفقة الدار شهراً، أو أعطاه شيئاً نذراً يتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه ويلاحظه لئلا يتلفه، فإن أتلفه فلا ضمان على الوصي. فإذا رآه متوخياً صلاح ماله سلم إليه ماله وأشهد عليه، لقوله تعالى: ﴿ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾. وإن كانت جارية ردّ إليها ما يُرَدّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه، فإن رآها رشيدة سلم أيضاً إليها مالها وأشهد عليها. وإن لم ير الوصي في اليتيم واليتيمة حسن التصرف المالي بقيا بعد البلوغ تحت الحجر حتى يؤنس رشدهما [٤].

---

(١) روح المعاني (٢/ ٢٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٥).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٤، ٣٦، ٣٧).

فإذا سلم المال لليتيم بعد البلوغ ووجود الرشد ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الحجر. ودليله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فورد النص مطلقاً ولم يفرق بين أن يكون الحجر مستمراً عليه من الصغر أو يطرأ عليه السفه بعد الإطلاق (١).

والبلوغ يكون بأحد خمسة أشياء ؛ ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء، وهي: الاحتلام، واستكمال خمس عشرة سنة، والإنبات. وشيئان يختصان بالنساء، وهما: الحيض والحمل (٢).

ويبدو من خلال النص القرآني الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد. كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد تحقق الشرطين المذكورين، وتسليمها لهم كاملة سالمة، والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها، وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها (٣). ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾، أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم ؛ بأن تفرطوا في إنفاقها، وتقولوا: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى وينتزعوها من أيدينا. ويكبَرُوا بفتح الموحدة، من باب علم، يستعمل في السن. وأما بالضم فهو القدرة والشرف، وإذا تعدى الثاني بعلى كان للمشقة نحو كبر عليه كذا (٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٩-٤٠).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٥).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٣٨).

(٤) والإسراف في الأصل: مجاوزة الحد المباح إلى ما لم يبح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير، غير أنه إذا كان في الإفراط منه يقال: أسرف يسرف إسرافاً، وإذا كان في التقصير يقال: سرف يسرف سرفاً. والمبادرة: المسارعة، وأصلها من البدار، وهو الامتلاء، ومنه البدر لامتلائه نوراً، والبدرة لامتلائها بالمال، والبيدر لامتلائه بالطعام. انظر روح المعاني (٢/ ٢٥).

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

بين الله تعالى ما يحل للأولياء والأوصياء من مال الأيتام، فأمر الغني بالإمساك وأباح للفقير أن يأكل بالمعروف. وقد روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم. قال: فقال: « كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مُبَاذِرٍ، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك، أو قال: تفدي مالك بماله » شك حسين [(١)].

وفي صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾. قالت: نزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويُصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه [(٢)].

قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين ؛ أجرة مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يردّ إذا أيسر؟ على قولين: أحدهما: لا ؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً ؛ وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. والقول الثاني: نعم، يرد إذا أيسر لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيح للحاجة فيردّ بدله، كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وروى ابن أبي الدنيا وسعيد بن منصور بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته»[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾. وهذا الإشهاد على طريق الاحتياط لليتيم والولي ؛ فأما اليتيم فإنه إذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدّعي عدم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٣)، وهو عند أحمد (٦٩٨٣). وانظر تفسير القرطبي (٥/ ٤١). وعف الرجل عن الشيء واستعف إذا أمسك، والاستعفاف عن الشيء تركه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٣]، والعفة : الامتناع عما لا يحل ولا يجب فعله. وانظر الحديث عند ابن ماجة (٢٧١٨)، وأبو داود (٢٨٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٣٠١٩)، ورواه البخاري (٢٢١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

القبض، وأما الولي فإنه تظهر أمانته، ويسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم للدفع [١]. وهذا الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز، كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] [٢]. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾، أي كفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم؛ هل هي كاملة موفورة، أم منقوصة مبخوسة، مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرنّ على اثنين، ولا تَوَلَّينَّ مال يتيم » [٣].

بعد بيان حقوق المستضعفين من اليتامى في أموالهم، والتأكيد على حفظها وتسليمها لهم عند نضجهم واكتمالهم كاملة غير منقوصة، تشرع الآيات في بيان حقوق المستضعفين الصغار والنساء بالميراث كحقوق الكبار:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة يقال لها: أم كُجَّة وثلاث بنات له منها؛ فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سُوَيْد وعَرْفَجَة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٠٨).

(٣) ابن كثير (١/ ٤٥٤)، والحديث رواه مسلم (١٨٢٦).

فذكرت أم كُحَّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كَلاًّ، ولا يَنْكَأُ عدواً. فقال ﷺ: « انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن »، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾... الآية، رداً عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم ؛ فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحِكْمة فضلوا بأهوائهم، وأخطأوا في آرائهم وتصرفاتهم [(١)]. ونصت الآية على أن الكبار والصغار، ذكوراً وإناثاً، يستوون في أصل الميراث، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي إلى الميت ؛ من قرابة، أو زوجية أو ولاء ؛ فإنه لحمة كلحمة النسب [(٢)].

وإيراد حكم النساء على الاستقلال، دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين، بأن يقال: « للرجال والنساء نصيب.. الخ » للاعتناء بأمرهن، والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين، والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية في عدم توريثهن [(٣)].

وقد جاء في الآية ثلاث فوائد:

إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

الثالثة: إجمال النصيب المفروض لتثبيت أصل الحق في الميراث، وبينت ذلك آية المواريث بعد ؛ فكان في الآية توطئة للحكم وإبطالاً لما كان من الفساد في التوارث [(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٦)، وعند ابن كثير « أم كجة » بالجيم (١/ ٤٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٦).

وإذا كانت الجاهلية تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية في الحرب والإنتاج، فإن الإسلام بمنهجه الرباني ينظر إلى (الإنسان) - أولاً - حسب قيمته الإنسانية، وهي القيمة الأساسية التي لا تفارقه في حال من الأحوال ! ثم ينظر إليه - بعد ذلك - حسب تكاليفه الواقعية في محيط الأسرة وفي محيط الجماعة [١].

وقوله سبحانه: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾، أي مقطوعاً واجباً لابد لهم من أن يحوزوه [٢]، وفائدة هذا القيد دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال، وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جلّ ودقّ [٣].

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)﴾.

وإذا حضر قسمة التركة أولوا القربى ممن لا يرث، لكونه عاصباً محجوباً، أو لكونه من ذوي الأرحام، أو حضر القسمة اليتامى والمساكين من غير القرابة، ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ من مال التركة تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وقيل: إن هذا أمر وجوب، واختلف في نسخه. والذي يظهر أنه أمر ندب واستحباب؛ لأنه لو كان واجباً لحدده وبين مقداره. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، أي عدوهم عدة حسنة، وادعوا لهم، واستقلوا ما أعطيتموهم، واعتذروا منهم، ولا تمنّوا عليهم [٤]. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم، ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية وصل لهم من الميراث. قال النحاس: فهذا أحسن ما قيل في الآية، أن يكون على الندب والترغيب في فعل الخير والشكر لله عز وجل [٥].

---

(١) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٤١).

(٢) الكشاف (١/ ٢٤٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ١٤٧)، وانظر روح المعاني (٢/ ٢٨).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤٩).

وقبل أن يأخذ السياق في تحديد أنصبة الورثة يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى والضعفاء. يعود هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين:

أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطري على الذرية الضعاف، وتقوى الله الحسيب الرقيب. والثانية تمس مكان الرهبة من النار، والخوف من السعير في مشهد حسي مفزع:

﴿ وَلْيَخْشَ[1] ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب. قلوب الآباء تجاه ذريتهم الصغار، بتصور ذريتهم الضعاف مكسوري الجناح ؛ لا راحم لهم ولا عاصم ؛ كي يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء. فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غداً موكولة إلى من بعدهم من الأحياء كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء. ومع هذا التحريك النفسي الغريزي بعطف الأبوة وحنانها يأتي الأمر بتقوى الله في حقوق الأيتام والضعفاء، وأمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً[2] في حقوقهم وعند رعايتهم[3].

وإذا كان سياق الآيات في اليتامى، غير أن الخطاب عام، فيراد به جميع الناس ؛ فالمعنى أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا لهم القول

---

(١) الخشية : خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨]. المفردات في غريب القرآن ص ١٤٩.

(٢) السديد : العدل والصواب من القول. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٥٢)، وجامع البيان، الطبري (٣/ ١٨٤).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٤١-٢٤٢).

كما يريد كل أحد أن يفعل بولده بعده [(١)].

واللمسة الثانية صورة مفزعة رهيبة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ۝١٠ ﴾ [(٢)]. روى الطبري بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال: « نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً » [(٣)]. وإنما علق الأكل بكونه ظلماً ؛ لأنه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة وغيرها مثلاً، فلا يكون ظلماً ولا الآكل ظالماً [(٤)]. فقد دل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر التي تدخل النار ؛ وقال النبي ﷺ: « اجتنبوا السبع الموبقات »، قيل: يا رسول الله، وما هن ؟ قال: « الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » [(٥)].

وبعد الإجمال الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ ﴾يشرع الله عز وجل في بيان هذا الإجمال فيقول سبحانه:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤).

(٢) أصل الصلي لإيقاد النار، وصليت الشاة شويتها وهي مصلية. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٥. والسعرُ: التهاب النار، وقد سعرتها وسعّرتها وأسعرتها، والمِسْعَر: الخشب الذي يُسعر به. المفردات ص ٢٣٣.

(٣) جامع البيان، الطبري (٣/ ١٨٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٣١).

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة: البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، واللفظ له.

وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

هاتان الآيتان والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث التي تبينها وتفسرها.

وقد ورد في تعلم الفرائض عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة (١)، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة » (٢).

وروى في سبب النزول عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: « يقضي الله في ذلك » قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك » (٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة

---

(١) أي غير منسوخة.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤).

(٣) الحديث رواه الترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجة (٢٧٢٠)، وأبو داود (٢٨٩١)، وإسناده قوي. جامع الأصول، ابن الأثير (٢/ ٨٣).

ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ »[١]. وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرواية هي سبب نزول الآية الأخيرة من سورة النساء[٢]. وقال ابن حجر في فتح الباري: « هكذا وقع في رواية ابن جريج، وقيل: إنه وهم في ذلك، وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء، وهي: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾، لأن جابراً يومئذ لم يكن له ولد ولا والد، والكلالة من لا ولد له ولا والد. وقد أخرجه مسلم عن عمرو الناقد، والنسائي عن محمد بن منصور، كلاهما عن ابن عيينة عن ابن المنكدر، فقال في هذا الحديث: حتى نزلت عليه آية الميراث: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾. ولمسلم أيضاً من طريق شعبة عن ابن المنكدر. قال في آخر هذا الحديث: « فنزلت آية الميراث، فقلت لمحمد بن المنكدر: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾ ؟ قال: هكذا أنزلت »[٣].

ومن الاهتمام بهذه الأحكام تصدير تشريعها بقوله ﴿ يُوصِيكُمُ ﴾؛ لأن الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الآمر لشدّة صلاحه، ولذلك سمّى ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه وبماله وبذاته بعد الموت، وصية[٤].

والفرائض التي فرضها الله في كتابه ستة: النصف، والربُع، والثُمن، والثُلُثان، والثُلُث، والسدس.

والوارثون من الرجال عشرة: الابن، وابن الابن وإن سفل، والأب، وأب الأب وهو الجد وإن علا، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العم، والزوج، ومولى النعمة، وهو المعتق.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٧).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٠/ ١٣٩).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٥٠).

والوارثات من النساء سبع: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم، والجدة وإن علت والأخت، والزوجة، ومولاة النعمة، وهي المعتقة [١].

ونوجز أحكام الآيتين فنقول:

أولاً: الأولاد (ذكوراً) أو (ذكوراً وإناثاً)، إذا انفردوا حازوا جميع التركة، ونصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى. وإذا كان معهم أصحاب فروض - كالأبوين أو أحد الزوجين - أخذوا الباقي من التركة بعد استيفاء أصحاب الفروض نصيبهم يقتسمونه للذكر ضعف نصيب الأنثى ؛ لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.

وفرض البنت النصف إن لم يكن معها أخ أو إخوة يعصبونها. وفرض البنتين فصاعداً إن لم يكن لهنّ أخ أو إخوة هو الثلثان، والباقي للعصبة، وهو أولى، أي أقرب الذكور إلى الميت لقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ﴾ وسكت عن الاثنتين، فدلّ على أن قوله: ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ يراد به: اثنتان فصاعداً، وقياساً على ميراث الأخوات الذي جاء في آخر سورة النساء: ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١٧٦]، وأولاد الابن لهم حكم أولاد الصلب عند فقدهم، وتم بيان ميراث الفروع.

ثانياً: ميراث الأصول: الأبوان لهما في الإرث أحوال:

الحالة الأولى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، حيث لم يترك الميت أولاداً ولا إخوة ولا زوجة أو زوجاً، فيفرض للأم الثلث والحالة هذه، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾.

الحالة الثانية: أن يجتمع الأبوان مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦٠-٦١).

فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾.

الحالة الثالثة: أن يكون مع الأبوين زوج أو زوجة، فيأخذ أحد الزوجين فرضه ؛ إن كانت زوجة فلها الربع، وإن كان زوجاً فله النصف، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي، بعد أخذ أحد الزوجين نصيبه ؛ لأن الباقي بعد فرض أحد الزوجين كأنه جميع الميراث بالنسبة للأبوين فيكون للأم ثلثه، وللأب ضعف الأم تعصيباً. وهذا قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن علي، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

والحالة الرابعة من أحوال الأبوين: هو اجتماعهما مع الإخوة ؛ أي اثنان فصاعداً، سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ؛ لأنهم محجوبون به، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾. وكان أهل العلم يرون أن الحكمة في حجبهم أمهم عن الثلث أن أباهم يلي نكاحهم، ونفقته عليهم دون أمهم [١].

ولا يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ من علا من الآباء دخول من سفل من الأبناء في قوله: ﴿ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ ؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ لفظ مثنىً لا يحتمل العموم، بخلاف قوله: ﴿ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾. والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾، والأم العليا جَدَّة، ولا يفرض لها الثلث بإجماع، فخروج الجدة عن هذا اللفظ مقطوع به، وتناوله للجَدّ مختلف فيه ؛ فهناك من قال: هو أب، وحجب به الإخوة، واستدل بقوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١]

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جَزيّ الكلبي (١/ ١٣١-١٣٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٥٨) وانظر التفصيل في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦١) وما بعدها.

وقوله عز وجل: « يا بني إسماعيل ارموا فإن أباكم كان رامياً ».

وذهب آخرون إلى توريث الجد مع الإخوة؛ ولا ينقص من الثلث مع الإخوة للأب والأم، أو للأب، إلا مع ذوي الفروض، فإنه لا ينقص معهم من السدس شيئاً في قول زيد. وهو قول مالك والأوزاعيّ وأبي يوسف ومحمد والشافعي. وكان علي يشرك بين الإخوة والجد إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع ذوي الفرائض وغيرهم [(١)].

ثالثاً: ميراث الزوجين:

يأخذ الرجل نصف ما تركت زوجته إذا ماتت ولم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع مما تركت. وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، في حجب الزوج عن النصف إلى الربع؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾.

وتأخذ المرأة ربع ما ترك زوجها، إذا مات ولم يكن له ولد، فإن كان له ولد فلها الثمن مما ترك. وسواء في الثمن أو الربع الزوجة أو الزوجات، والثلاث والأربع يشتركن فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ [(٢)].

رابعاً: ميراث الإخوة الأشقاء أو الأب سيأتي في الآية الأخيرة من السورة.

خامساً: ميراث الإخوة لأم:

يقول سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠).

إذا مات المسلم وليس له والد ولا ولد فورثته كلالة [(١)]، والمراد بالإخوة هنا في قوله: ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾. الإخوة لأم ؛ لأن الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب من العصبات، وليسوا من أصحاب الفروض.

فنصيب الواحد منهم ذكراً أو أنثى السدس، ونصيب الاثنين فصاعداً الثلث ؛ ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، لقوله تعالى: ﴿ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، ويقال لها أيضاً الحمارية، وهي زوج، وأم أو جدة، واثنان من ولد الأم، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين. وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم - الإخوة لأم - فقال أولاد الأبوين - أي الإخوة الأشقاء -: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم، وإلى هذا ذهب الجمهور [(٢)].

وكرر في الآيتين قوله سبحانه: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾، وإنما قصد بذلك تقديم الوصية والدين على الميراث. وتقدمت الوصية في لفظ الآية، والدين مقدم عليها بإجماع. وروى أحمد والترمذي وابن ماجة وأصحاب التفاسير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرؤون ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾، إن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ؛ يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه [(٣)].

---

(١) الكلالة في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بما يدخل فيه، ويقال: تكلل السحاب إذا صار محيطاً بالجوانب. التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٢)؛ لأن الرجل إذا لم يترك والداً ولا ولداً فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه؛ أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مكلل بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب. المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٠)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢١٢٣) في الوصايا : باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية وإسناده ضعيف بدون: وإن أعيان بني الأم... الخ. جامع الأصول (١١/ ٦٣٥). ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلا من=

وقدمها في الآيتين اهتماماً بها وندباً إليها، إذ هي أقل لزوماً من الدين، ويقال أيضاً: قدمها لكثرة وجودها ووقوعها ؛ فصار كاللازم لكل ميت مع نص الشرع عليها، وأخر الدين لشذوذه ؛ فإنه قد يكون وقد لا يكون، فذكر الذي لابد منه، وعطف بالذي قد يقع أحياناً. ويقوّى هذا العطف بأو، ولو كان الدين راتباً لكان العطف بالواو. ثم إن الوصية قدمت لأنها حظ مساكين وضعفاء، وأخر الدين لأنه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وله فيه مقال [1].

وختمت الآية الأولى بلمسات منوعة المقاصد:

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

واللمسة الأولى لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض ؛ فهناك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء ؛ لأن الضعف الفطري تجاه الأبناء أكبر، وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء، وفيهم من يحتار بين الضعف الفطري والشعور الأدبي الأخلاقي. وكذلك قد تفرض البيئة بأعرافها اتجاهات معينة، فسكبت الآية في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله، ولما يفرضه الله، بإشعارها أن العلم كله لله، وأنهم لا يدرون أيّ الأقرباء أقرب نفعاً، ولا أيّ الأقسام أقرب لهم مصلحة [2].

والسياق يشعر بأن النفع يكون بالإنفاق إذا احتيج إليه، ويحتمل أن يريد النفع بالميراث من ماله، وهو أليق بسياق الكلام، وقيل: بالشفاعة في الآخرة [3]، وبالدعاء والصدقة، كما جاء في الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة؛ صدقة جارية، أو علم

= حديث الحارث، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قال ابن كثير معلقاً على ذلك : لكن كان حافظاً للفرائض، معتنياً بها وبالحساب والله أعلم. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٥٩).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٧).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٤٨).

(٣) كتاب التسهيل، الكلبي (١/ ١٣٢).

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » [(١)]، فهذا نفع في الدنيا للآخرة وجاء في النفع الأخروي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ [الطور:٢٢]، وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية. وروي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر عينه » ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ [(٢)]. قال الزمخشري: « فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم » [(٣)].

ونستطيع أن نقول: إن النفع دنيوي وأخروي، وهو مجهول لنا معلوم لله العليم الخبير.

واللمسة الثانية لتقرير أصل القضية. فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة، إنما هي مسألة الدين والشريعة:

﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فهذا الذي ذكره الله من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه.

واللمسة الثالثة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ ولم يزل عليماً حكيماً ؛ فهو خالق الآباء والأبناء، وهو خالق كل شيء، ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ ﴾ [الملك: ١٤] وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه، وهو الذي يشرع لخلقه، وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، لأن الله أعلم بأنفسهم من أنفسهم، وأعلم بمصالحهم منهم. الله يحكم لأنه عليم - وهم لا يعلمون - والله يفرض لأنه حكيم - وهم

(١) رواه مسلم (١٦٣١) بلفظ « إذا مات الإنسان »، ورواه الترمذي كذلك (١٣٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٤-٧٥، ١٧/ ٦٦)، ولم أقع على الحديث، وبنحوه عند أحمد (١١٣٤).

(٣) الكشاف، الزمخشري (٤/ ٣٤).

يتبعون الهوى - [(١)].

وختمت الآية الثانية بعد قوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ بقوله سبحانه: ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾، أي حال كونه غير مضار للورثة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الإضرار في الوصية من الكبائر [(٢)].

ووجوه المضارّة كثيرة، وكلها ممنوعة، منها أن يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلث ماله، أو يوصي بالثلث فراراً من وارث محتاج [(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » [(٤)].

﴿ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد، أي يوصيكم الله وصية منه، أي يأمركم بما فيه نفعكم وصلاحكم، كما مر معنا في قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾، فهو ختم للأحكام بما بدئت به، وهذا من رد العجز على الصدر [(٥)].

ويأتي بعد ذلك التذييل بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾، أي والله عليم بالمضار لورثته وغيرهم، أو عليم بما دبره بخلقه من الفرائض، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، عندما

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٩)، وانظر الظلال (٤/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) روي عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أثبت. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٧٦٨٤)، وابن ماجه (٢٧٠٤)، والترمذي بنحوه (٢٨٦٧)، وسنده حسن. وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٤).

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٦٦-٢٦٧).

يخالف أمره بشكل عام، أو يخالف ما بيّنه من الفرائض بشكل خاص [١].

و نرى أن الله سبحانه أورد أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات، والتي تلائم الفطرة الإنسانية السليمة ؛ وذلك لأن الوارث إما أن يكون متصلاً بالميت بغير واسطة أو بواسطة. فإن اتصل به بغير واسطة، فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب، أو الزوجية. فحصل ههنا ثلاثة أقسام:

أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة النسب، وذلك هو قرابة الأولاد والوالدين، فالله سبحانه قدم حكم هذا القسم.

وثانيها: الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة الزوجية، وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول ؛ لأن الأول ذاتي، وهذا الثاني عرضي، والذاتي أشرف وأقوى من العرضي.

وثالثها: الاتصال الحاصل بسبب الغير، وهو المسمَّى بالكلالة، وهذا القسم متأخر عن القسمين الآخرين لوجوه:

أحدها: أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية، وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية.

وثانيها: أن القسمين الأولين ينسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة، والكلالة تنسب إلى الميت بواسطة. والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة.

وثالثها: أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والزوج والزوجة أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة. وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة، وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم. فلهذه الأسباب وأشباهها أخر الله تعالى ذكر ميراث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين [٢].

ثم يأتي توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في هذه العقيدة، قاعدة التلقي من الله وحده

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٥).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٩/ ١٧٨).

وإلا فهو الفسوق والعصيان، والخروج من منهج هذا الدين، وهذا ما تقرر الآيتان التاليتان في السورة، تعقيباً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض، حيث يسميها الله تعالى بالحدود [(١)]:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

تلك الفرائض، وتلك التشريعات التي شرعها الله وفق علمه وحكمته هي أحكام الله التي بينها لكم لتعرفوها وتعملوا بها، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في قسمة المواريث، فيقر بها، ويعمل بها كما أمره الله، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما أمر من الأحكام، أو فيما فرض من الفرائض، ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ التي شرعها الله ورسوله ﷺ، ومن جملتها ما ذكره الله في حقوق اليتامى والمستضعفين وقسمة الميراث ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ عظيمة هائلة ؛ فالتنكير يفيد التهويل والتعظيم، ﴿ وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، أي مذل [(٢)]. والعصيان إن أريد به الكفر فالخلود في النار على بابه، وإن أريد به تجاوز أمر الله في الكبائر دون إنكار الأحكام التي أنزلها الله أو من غير اعتقاد عدم صلاحيتها، فالخلود مستعار لمدة ما، كما تقول: خلَّدَ الله ملكه [(٣)].

والفرائض التي بينها الله تنظم العلاقات الأسريّة، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بتفتيت الثروات المتجمعة على رأس كل جيل، وإعادة توزيعها من جديد ؛ فلا يدع مجالاً

---

(١) الظلال (٤/ ٢٥١)، وحدود الله شرائعه، أو طاعته، أو تفصيلاته، أو شروطه وأحكامه. وأطلق عليها الحدود لشبهها بها من حيث أن المكلف لا يجوز أن يتجاوزها إلى غيرها. روح المعاني (٢/ ٤٥). وأصل الحد : الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره. ومن هذا قولهم للبواب حداد، لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة، وهو امتناعها عن الزينة. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٢).

لتضخم الثروة وتكدسها في أيد قليلة ثابتة، ويتم توزيعها على الأقرب فالأقرب للميت مما يجعل الإنسان يثمّر ماله لآخر نَفَس في حياته، ولو علم أن ماله سيذهب إلى من لا يهمّه أمره لبدّد أمواله واستهلكها قبل موته. فنظام الإرث علاج اقتصادي، ومودّة أسرية، ورابطة اجتماعية [١].

وهكذا ترتبط الأحكام الشرعية دائماً بالعبودية لله وطاعته، ليتحقق الإخلاص في التزام أمر الله وطاعته ظاهراً وباطناً.

وعود على بدء ؛ فقد بدأت السورة ببيان أصل البشرية آدم وزوجه حواء، ثم انتقلت الآيات إلى حماية أموال اليتامى والمستضعفات من النساء بشكل عام واليتيمات بشكل خاص، وأوجب للمرأة حقها في المهر ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً ﴾ وأثبت حقها في الميراث، وفصّل بعد ذلك قسمة الميراث ؛ فحمى المجتمع من العدوان على أموال المستضعفين من الأيتام والنساء، عرّج بعد ذلك إلى حماية النسل من العدوان على الأنساب بالزنى:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨ ﴾.

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾ عطف هذا الحكم على ما تقدم، ومعنى يأتين الفاحشة: يفعلنها. يقال: أتيت أمراً قبيحاً، أي فعلته. وأما الفاحشة فهي الفعلة القبيحة، وأجمعوا على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٥٤).

أن الفاحشة ههنا الزنا [1]، ولإثبات الزنا قال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾، فلا تهمة بدون دليل، أي اطلبوا أن يشهد عليهن بإتيان الفاحشة أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم، ولا تقبل شهادة النساء في الحدود. دلّ على ذلك تأنيث العدد ﴿ أَرْبَعَةً ﴾ فالمعدود مذكر، وقوله ﴿ مِّنكُمْ ﴾ دليل على أن الشاهد ينبغي أن يكون من المؤمنين العدول [2]. وعدم قبول شهادة المرأة لئلا تحرج في مثل هذه الفواحش، ولا ينقص هذا من قدرها، فالرجال لا تقبل شهادتهم في الأمور الخاصة بالنساء، كالولادة، والبكارة، حيث لا تقبل إلا شهادة النساء.

﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ ﴾ احبسوهن في البيوت، ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾، أي حتى تتوفاهن ملائكة الموت، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١].

واشتراط الأربعة، والإيمان، والعدالة، والذكورة في الشهود تغليظاً وستراً على العباد [3] إذ مقصود الشرع بالعقوبة الردع عن هذا الفعل القبيح والتربية النفسية التي تبعد المؤمن عن الفواحش، وليس المقصود شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا كثرة إنزال العقاب الشديد بمن يقترف الذنب، إلا المستهترين الذين لا يبالون بمشاعر الجماعة، ولا يستترون في معاصيهم.

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ اللذان مثنى الذي، والضمير في قوله: ﴿ يَأْتِيَـٰنِهَا ﴾

---

(١) وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بقوله ﴿ يأتين ﴾ لطيفة، وهي أن المكلف كأنه ذهب إليها من عند نفسه واختارها بمجرد طبعه. والفاحشة هي مصدر عند أهل اللغة، كالعاقبة. يقال: فحش الرجل يفحش فحشاً وفاحشة، وأفحش إذا جاء بالقبيح من القول أو الفعل. وإنما أطلق على الزنا اسم الفاحشة لزيادتها في القبح على كثير من الفواحش. التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٦).

(٣) روح المعاني (٢/ ٤٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٣-٨٤).

يرجع إلى ﴿ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ السابقة الذكر، فالمراد بيان حكم من يقترف الزنا من الرجال، وبيّن بلفظ التثنية ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ صنفي الرجال ممّن أحصن وممن لم يحصن. والآية الأولى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ في النساء عامة لهن ؛ محصنات وغير محصنات، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾، وقوله في الثانية: ﴿ مِنكُمْ ﴾ [1]، فاستفيد التعميم في الحالتين ؛ إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يغني أن يقال: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ﴾، (والذين يأتون)، إلا أنه سلك هذا الأسلوب ليحصل العموم بطريقين، مع التنصيص على شمول النوعين [2]. ويضاف إلى ذلك ما ذكرته قبل قليل من عود الضمير في قوله: ﴿ يَأْتِيَٰنِهَا ﴾ إلى الفاحشة التي أجمع العلماء على أن المراد بها الزنا، فلا وجه لمن قال: إن المراد باللذان اللواط أو غير ذلك.

وإيذاء الزاني هو النيل باللسان واليد، وضرب النعال، وما أشبهه [3]. أما سبب اختلاف العقوبة بين الرجل والمرآة، حيث خص الله سبحانه الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل ؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت ؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه وترتيب مهامه، واكتساب قوت عياله [4].

وقد نسخ الله هذا الحكم وبقيت تلاوته للتعبد واستشعار حِكَم الله في النسخ. والناسخ من القرآن الآية الثانية من سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾، وآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها، فقال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ:

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٢٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٦).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٧٢).
(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٢).
(٤) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٩).

إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم. قرأناها وَوَعيناها وعقلناها. فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أَحْصَنَ من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف [(١)].

وليس قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ غاية لانتهاء الحكم ينفي وجود النسخ إنما هو إشعار بأن هذا الحكم سينسخه حكم آخر. وحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » [(٢)]، مبين للقرآن ومشير إلى النسخ، فلا يعترض عليه بجواز نسخ الكتاب بالسنة وعدم جوازه.

وتتناول آخر الآية وما بعدها موضوع التوبة: ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾. يأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وظهر في سلوكهما الصلاح أن يكف عنهما الأذى. وجاء الأمر بهذا الكف، الذي هو ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ ﴾، وفي اللفظ غض من الزناة وإن تابوا؛ لأن تركهم هو إعراض، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجر، ولكن الإعراض متاركة معرض، وفي ذلك شيء من الاحتقار لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة، رحيم بعباده حيث يريد مصالحهم فيما حرّم عليهم.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٠٦-٢٠٧)، الحديث رقم (١٦٩١)، كتاب الحدود: باب رجم الثيب في الزنى. وقد أراد بالآية آية الرجم: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ». وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه. شرح النووي على مسلم (٦/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحدود: باب حد الزنى (٦/ ٢٠٤ مسلم بشرح النووي) برقم (١٦٩٠)، وأخرجه أبو داود في الحدود: باب الرجم، والترمذي رقم (١٤٣٤).

ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١]، فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله تعالى[١]. وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وشرطها: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفريطه في حق الله عز وجل وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضر ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشروطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة. وقد ورد النص هنا: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده. وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سكت قليلاً ثم قال: يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم»[٢]. فهذا كله إنما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٩٠)، (١٢/ ٢٣٨).

(٢) البخاري (٥٩٦٧، ٦٢٦٧)، وفيه تكرار تربوي، ومسلم (٣٠).

معناه: ما حقهم على فضل الله تعالى ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً [(١)]؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجَب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلِّف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه سبحانه [(٢)].

وقد ذكرت الآية هنا لقبول التوبة قيدين: ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾، و﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم، قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنْ أحـــــد علينا		فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال الله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، والمراد هنا ظلم النفس [(٣)]. وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم [(٤)]. وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوى بعضها بهذا المعنى ؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة. وروي عن مجاهد قال: كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية [(٥)].

وقوله تعالى: ﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبئ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٣-٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٩٠).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٧٨).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٤).

(٥) روي هذا المعنى من طرق عن قتادة عن أبي العالية وعن مجاهد وعن ابن عباس وعن عطاء بن أبي رباح وعن ابن زيد وغيرهم. روى ذلك الطبري (٣/ ٢٠٢-٢٠٣)، وأخرجه عن مجاهد البيهقي في الشعب، وأخرج اجتماع أصحاب رسول الله ﷺ عن قتادة عبد الرزاق. انظر روح المعاني (٢/ ٤٩).

عنه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[(١)]، وإنما صحت التوبة منه في هذا الوقت لأن الرجاء باقٍ، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[(٢)]. وعن ابن عباس رضي الله عنه: « ثم يتوبون من قريب »، والقريب فيما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت[(٣)].

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ فيعلم بإخلاص من يتوب، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فلا يعاقب التائب[(٤)]، ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم وراء أسوار اليأس من رحمته، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم.

أما توبة المضطر الذي لجت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، فهذه لا يقبلها الله ؛ لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه[(٥)]:

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

تنبيه على نفي قبول نوع من التوبة للذين يعملون المعاصي، حتى شاهد أحد هؤلاء العصاة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال، وعاين ملك الموت، وانقطع حبل الرجاء، ﴿ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾؛ أي في هذا الوقت الحاضر؛ وذكر لمزيد تعيين الوقت،

---

(١) روح المعاني (٢/ ٤٩).

(٢) الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد (٦٣٧٢)، ورواه الطبري عن عبادة بن الصامت مرفوعاً (٤/ ٢٠٥). انظر القرطبي (٥/ ٩٢).

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس بسند حسن، وهو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة (٤/ ٢٠٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٥٠).

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٤).

وإيثار ﴿ قَالَ ﴾ على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار، والتحاشي عن تسميته توبة، ولو أكّده ورغب فيه ؛ ولعل سبب ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة، بل هي أول منزل من منازلها، والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل، والمعنى: وليست التوبة لقوم يعملون السيئات إلى حضور موتهم، وقولهم: كيت وكيت. ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ عطف على الموصول قبله، أي ليست التوبة لهؤلاء وهؤلاء [١]. وختمت الآية بقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا ﴾، أي هيأنا وحضّرنا ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، أي مؤلماً موجعاً [٢]. والإشارة في قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا ﴾ إن كانت إلى الذين يموتون وهم كفار فقط فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو من جهة هؤلاء عذاب ولا خلود. وظاهر الآية في قوله: ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يدل على أن النار مخلوقة [٣].

وأخيراً نرى أن هذا المقطع قد وجه الإنسان إلى تقوى الله وتوحيده في مجموعة من الأمور:

١- معرفة الله ؛ فهو الرب الخالق المالك المتصرف.

٢- صلة الأرحام، فالبشرية تعود إلى أصل واحد تفرعت عنه القرابات.

٣- حفظ أموال اليتامى، وعدم الاعتداء عليها.

٤- إعطاء المرأة - وهي من المستضعفين - حقها من الإرث، فلها حق فيه كالرجل.

٥- توزيع تركة الميت على حسب الفرائض التي أوصى بها الله.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٥٠).

(٢) ألَمَ إذا أوْجع، والإيلام: الإيجاع. والألم : الوجع. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٩٨)، (٥/ ٩٣).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٦).

٦ - وأد الفاحشة - التي تدمر الأسرة، وتضيّع الأنساب - بعقوبة فاعليها، والحض على التوبة، وبيان شروطها.

٧- كل ذلك مرتبط بتربية النفوس على طاعة الله وحده، والحذر من آثار المعصية عند الرجوع إليه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: الرب هو المربي، والخالق والمالك له العبودية والطاعة، ولا معبود سواه.

ب- الأحكام الشرعية: بيان حقوق الأيتام، وحكم الحجر على السفيه لحفظ أموال المجتمع مع المحافظة على الملكية الفردية. وأحكام الفرائض، وأحكام وأد الفاحشة، لإنقاذ الأسرة المسلمة من التفكك.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم أساسه العفّة والكرامة.

د - الجوانب التربوية: تربية النفوس على التوبة والرجوع إلى الله قبل ذهاب العمر وفوات الأوان.

المقطع الثاني: تكريم المرأة وحقها كزوجة (١٩-٢٨):

يتصل هذا المقطع بسابقه - المقطع الأول - بقاسم مشترك يجمع بينهما، وهو أن كليهما مرتبط بالآية الأولى التي صدرت بها السورة ؛ خلق الرجال والنساء من أصل واحد وصلة الرحم ؛ فذكر المقطع الأول ظلم الأيتام والزواج باليتيمات، والإرث، والعلاقة الجنسية المنحرفة عن فطرة الزواج، وغير ذلك. وهذا المقطع يقرر كرامة المرأة، واستقلالها الذاتي، فهي أحق بنفسها ومالها، ثم ينتقل إلى بيان المحرمات من النساء في الزواج وتنظيم الأسرة، مما يسمَّى اليوم بالأحوال الشخصية.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١٩) وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا (٢٠) وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا (٢١) ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (٢٢) حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما (٢٣) ۞ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما (٢٤) ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥) يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨) ﴾.

يمكن أن نقسم هذا المقطع إلى أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كرامة المرأة واستقلالها بنفسها ومالها، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾إلى قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

والفقرة الثانية: المحرمات من النساء.

والفقرة الثالثة: نكاح الإماء.

والفقرة الرابعة والأخيرة: تعقيب ومواعظ.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾. قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية [١]. وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ [٢].

الإرث حقيقة مصير الكسب إلى شخص عقب شخص آخر، وأكثر ما يستعمل في مصير الأموال. وتعدية فعل ﴿أَن تَرِثُواْ ﴾إلى ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾، وتنزيل النساء منزلة الأموال الموروثة لإفادة تبشيع الحالة التي كانوا عليها في الجاهلية [٣]. وكانت هذه السيرة لازمة في الأنصار وكانت في قريش مباحة مع التراضي. ومعنى الآية: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالأموال

(١) البخاري (٤٥٧٩، ٦٩٤٨).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد بن فضيل عن يحيى بن سعيد عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه سهل ؛ وهو طريق جيد. جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٠٧).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٨٢-٢٨٣).

يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال [١]. وقد رجح الطبري رحمه الله هذا المعنى بعد أن أورد روايات كثيرة بطرق مختلفة عن التابعين أن هذا العمل كان في الجاهلية، فأنزلت الآية لتحريمه [٢].

وهكذا نلاحظ أن الجاهلية العربية -كغيرها من سائر الجاهليات حول العرب- كانت تعامل المرأة معاملة سيئة، لا تعرف لها حقوقها الإنسانية، فتنزل بها عن منزلة الرجل نزولاً شنيعاً، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان. وذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية، وتطلقها فتنة للنفوس، وإغراء للغرائز، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف. وكذلك الجاهلية الحديثة أعادت المرأة في كثير من الجوانب إلى ما كانت عليه في الجاهلية الأولى. وإذا تحدث الغرب اليوم - ومن يسير في ركابهم - عن حرية المرأة، فإنما يريدون حريتها في مقارفة الفاحشة ومقدماتها؛ من إثارة للغرائز، وإبعاد الرجال عن تكوين الأسرة أو الإخلاص لها. وقد جاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعي في كيان الأسرة، وإلى دورها الجدّي في نظام الجماعة البشرية. المكان الذي يتفق مع المبدأ العام الذي قرره في مفتتح هذه السورة: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [٣]. فالغرائز في الرجال والنساء يرفعها الإسلام إلى المشاعر الإنسانية في حياة زوجية ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وترتبط بروابط الاحترام والمودة والتجمل والرحمة؛ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وجعل سبحانه لهذه الغريزة هدفاً هو النسل القوي الصالح للبقاء، ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

فمن فكرة الإسلام عن الإنسان، ومن نظرته إلى الحياة الإنسانية بشقّيها (الذكر والأنثى) كان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر العظيم.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٦).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٠٩).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/ ٢٦٥).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾. العضل: المنع والحبس والتضييق [(١)]. أي لا تحبسوهن، وتضيقوا عليهن، وتسيئوا عشرتهن ليفتدين منكم بأموالهن ويختلعن ببعض مهرهن، أو بحق من حقوقهن المالية الواجبة عليكم أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لهنّ والإضرار بهن [(٢)]. والخطاب هنا للأزواج، بدليل قوله: ﴿ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾، وقد روي بطريق حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يقول: لا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن؛ يعني الرجل تكون له المرأة، وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر، فيضرّ بها لتفتدي [(٣)]. وأياً ما كان فإن تحريم إضرار الرجل بزوجته يقتضي من باب أولى تحريم الأولياء منع المرأة من الزواج وعضلها كما مرّ في البقرة: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وإذا أتت الزوجة بفاحشة جاز لزوجها أن يعضلها ويضيّق عليها حتى تفتدي. وفي الفاحشة هنا قولان:

أحدهما أنها النشوز على الزوج. وروي عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة في جماعة [(٤)].

والثاني الزنا. قاله الحسن وعطاء وعكرمة في جماعة.

والصحيح أنها إذا أتت بأي فاحشة كانت، من زنى الفرج، أو بذاءة اللسان جاز للزوج

---

(١) أصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشِب ولدها فلم يسهل خروجه، وعضلت الدجاجة إذا نشِب بيضها. فالعضل الحبس والمنع، والتضييق راجع إلى معنى الحبس. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ١٥٩)، (٥/ ٩٥)، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٥).

(٣) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٠). انظر ترجيح الطبري ودليله، والرواية عن ابن عباس وردت بطريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي طريق جيدة.

(٤) أخرج ابن جرير عن ابن عباس بإسناد حسن، وهو طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾. وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية. الطبري (٤/ ٢١١-٢١٢).

أن يضيق عليها حتى تفتدي. واختار ابن جرير الطبري رحمه الله التعميم واستحسنه ابن كثير وقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] (١).

وبعد نهيه سبحانه عن التضييق على الزوجات والإضرار بهن، أمر بحسن صحبتهن والإحسان لهن في المعاشرة والنفقة فقال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (٢)، أي طيّبوا أقوالكم لهنّ، وحسنوا أفعالكم وهيآتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » (٣)، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر ؛ يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: « هذه بتلك »، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك، وقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] (٤).

وإذا كانت الحياة الزوجية سكناً وأمناً وسلاماً، وجعل الله بين الزوجين مودة ورحمة، فلا يعني أن لا يكون بين الزوجين شيء من الخلاف أو الكره لبعض التصرفات والأخلاق والعادات التي لا تصل إلى الفاحشة المبينة التي مرّ ذكرها قبل قليل، فلا تفصم عرى الزوجية

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٦)، وجامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٢).

(٢) لكل أحدٍ عشرة، زوجاً كان أو ولياً، ولكن المتلبس بهذا الأمر الأزواج. والعشرة : المخالطة والممازحة. يقال عاشر معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٨).

(٣) رواه الترمذي عن هشام بن عروة عن أبيه برقم (٣٨٣٠)، وابن ماجة عن ابن عباس رفعه برقم (١٩٦٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤٦).

لأول خاطر، ولا ينبغي أن تنفك لأول نزوة من العواطف المتقلبة، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك، ولهذا يقول الله سبحانه بعد أن أمر بحسن العشرة: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾. ندبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، ونبهت على معنيين:

أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محموداً، ومحمود عاد مكروهاً.

والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يحب [(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « المرأة كالضِّلَع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوَج » [(٢)].

وقال النبي ﷺ: « لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » [(٣)]. ولعل ما يوجد في المرأة من العوج بسبب غلبة عاطفتها، التي هي ضرورية في الحياة الزوجية، وفي تربية الأولاد والعطف عليهم، أو بسبب إفرازات الغدد الصماء التي لها علاقة في الدورة الشهرية والمبايض، والله أعلم.

ومن فصاحة القرآن العموم الذي في لفظة « شيء » في قوله سبحانه: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ ، لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء ممّا يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر ، إذ عاقبته إلى خير إذا أريد به وجه الله [(٤)].

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨)، وعند أحمد في مسنده : « لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة، إنما هي كالضلع...» الحديث، برقم (٩٥٠٣، ١٠٠٧١، ١٠٤٧٥).

(٣) صحيح مسلم (١٤٦٩). ويَفْرك - بفتح الياء والراء وإسكان الفاء بينهما - يبغض. فَرِكه يفرَكه إذا أبغضه، والفَرْك : البغض. صحيح البخاري بشرح النووي (٥/ ٣١٥).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٨).

وهذه حكمة عظيمة ؛ إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير. فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي، وبعضه قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس. والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة، ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن [(١)].

ولا جرم أن الكراهية تعقبها إرادة استبدال المكروه بضدّه، فلذلك عطف الشرط على الذي قبله استطراداً واستيفاءً للأحكام، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة، وأن للزوج أخذ المال منها، وهنا يبين سبحانه ذكر الفراق الذي سببه الزوج، فإذا كره الرجل زوجته ولم يستطع الصبر عليها بعد التجمل والمحاولة، وأراد فراقها بالطلاق، واستبدال زوجة أخرى مكانها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قد أصدقها مالاً كثيراً [(٢)]. وإنما خصّ النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال وإن كان المنع عاماً لئلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية أولى بالمهر منها لقيامها مقامها [(٣)].

وينبغي أن نعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار، كما أن قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا يدل على حصول الآلهة ؛ والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٦).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤٣).

شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع [(١)].

أما ما رواه الحافظ أبو يعلى بسنده عن مسروق قال: « ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن ؟ قال: وأي ذلك ؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾. قال: فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: « فمن طابت نفسه فليفعل » [(٢)].

فإن كان البعض يرى أن هذه الرواية تدل على جواز المغالاة في المهور، فالذي يظهر أنها تدل على أنه لا يجوز مصادرة شيء من حق المرأة في المهر كثيراً كان أو قليلاً، وتراجع عمر عن تحجير المباح لئلا يتدخل أولياء الأمور في حقوق النساء بحجة تحجير المباح. ولعل من الأغنياء من يحب أن يمنح زوجته مهراً كبيراً لا يساوي هذا المهر شيئاً بالنسبة إلى نفقاته بشكل عام وبالنسبة إلى ثروته وأرباحه. فإذا أعطى عن طيب نفس فقد ملكته الزوجة، ولا يجوز لأحد أن يأخذه منها؛ لا زوجها ولا غيره ممن يدعي تحجير المباح لمصلحة عامة. وتحريم المغالاة

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٧). وقال : إسناده جيد قوي. وقد روى الشطر الأول منه مع ذكر عمر لما يسببه كثرة المهر من العداوة في نفس الزوج. الإمام أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة عن أبي العجفاء السلمي، برقم (٢٧٢). ورواه أصحاب السنن من طرق عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء.

في المهور دليله تحريم المفسدة الكبيرة التي تعارض أهداف الإسلام في تكوين الأسرة، عندما يتباهى الناس في كثرة مهور النساء، ويعسر على كثير من الشباب الزواج لغلاء المهور، ويسهل عليهم الزنا ليسره وسهولته، وخصوصاً عند وجود المثيرات الجنسية الداعية إليه، حينئذ تحصل المفسدة الكبرى بالنسبة للشباب والشابات، وهذا ما يريده أعداء الإسلام. ولذلك نقول لمن يغالي في مهور النساء ويظنها سلعة إنك قد أفسدت سعادة من توليت أمر نكاحها، فربما لا يوجد من يدفع فيها هذا الثمن، إلا من أهل الفساد والدخل المحرم، والرسول ﷺ يقول: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[(١)]، وقال رسول الله ﷺ: « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »[(٢)]، وقال ﷺ: « يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها »[(٣)].

وخلاصة هذا الموضوع أن كثرة المهر وقلته مباح يتفق عليه بين الطرفين، وللزوج الذي وسع الله عليه أن يزيد مهر زوجته ما طابت به نفسه، على أن لا يكون ذلك مفاخرة يقلد الناس فيها بعضهم، فيؤدي ذلك إلى صعوبة النكاح، ويترتب عليه كارثة اجتماعية للشباب والشابات. والأفضل على كل حال – ولو كان الزوج غنياً – تيسير المهور وعدم المغالاة فيها.

وجعل الله سبحانه أخذ شيء من مهر الزوجة بهتاناً وإثماً مبيناً واضحاً فقال: ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾. والبهتان: كذب يحير الإنسان لعظمته، ثم جعل كل باطل يتحير منه بهتاناً. وكان دأبهم قبل الإسلام إذا أرادوا تطليق الزوجة رموها بالفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها من زوجها بذلك المهر. والظاهر من حال المسلم أنه لا يخالف أمر الله، لكنه إذا أخذ من زوجته شيئاً فقد طعن في ذاتها ؛ لأن أخذ المال عند الطلاق مظِنَّة بأنها أتت ما لا يرضي الزوج، فقد يصد ذلك الراغبين في التزوج عن خطبتها ؛ ولذلك جعل الله ذلك الأخذ بهتاناً، ثم إن أخذ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤، ١٠٨٥)، وابن ماجه (١٩٦٧).

(٢) مسند أحمد (٢٤٠٠٨).

(٣) مسند أحمد عن عائشة (٢٤٠٨٦).

المال بغير حق ظلم فهو إثم مبين [١].

وينكر الله في ختام الآية على من يأخذ مهر زوجته بغير حق إذا أراد طلاقها، ويذكّر سبحانه بالعلاقة بين الزوجين وروابطها القوية:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

تعليل لمنع الأخذ بعد الإفضاء [٢]:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ ﴾ استفهام تعجبي بعد الإنكار، أي ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج وعهد متين.

وجاء لفظ الإفضاء ﴿ أَفْضَىٰ ﴾ مطلقاً، يشعّ كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيحاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان؛ وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة ود إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء.

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحي العجيب: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير ويستحيي الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٠٢).

من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف [(١)] !

ولا يخرج ما ذكرناه من الظلال الواسعة لمعنى الافضاء عن ما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد: إن الإفضاء يعني الجماع، فالجماع لطلب النسل شيء أساسي في الحياة الزوجية لكن الجماع في الحياة الزوجية الإنسانية ليس غريزة حيوانية تنتهي بزمن يسير إنما يتبع ذلك ويسبقه مشاعر وعواطف وآمال وسعادة وحب، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر من لون آخر: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾، أي عهداً شديداً، وهو عقد الزواج الذي أحل الله به النكاح، ويدخل فيه أنه: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والذي جاء في الآية الأخرى أيضاً: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها: « فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله... » [(٢)].

وخلاصة الموضوع في شأن الزوجات أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة ؛ فإن كان من قبل الزوج حرم عليه أن يأخذ شيئاً من مهر زوجته، وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فهنا يحل أخذ بدل الخلع لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [(٣)].

الفقرة الثانية من هذا المقطع: المحرمات من النساء:

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، إلى قوله تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) صحيح مسلم (١٢١٨)، وأبو داود في سننه (١٩٠٥).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٦).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

عقب الحديث عن الأسرة وكرامة المرأة فيها، يأتي تنظيم جانب من جوانبها ببيان المحرمات (من يحرم زواجها) من النساء في الشريعة الإسلامية، ومن لا يحرم، فبدأ بتحريم نكاح زوجة الأب، لأن بعضهم كان يفعل ذلك، فقد نزلت هذه الآية في قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله تبارك وتعالى عليهم المقام عليهن وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشركهم إذا هم اتقوا الله وأطاعوه في ذلك. روى ابن أبي حاتم بسنده عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار [والصحابة عدول] قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعدك ولداً، وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال: « خيراً »، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحي قومه، وإنما كنت أعده ولداً، فما ترى ؟ فقال لها: « ارجعي إلى بيتك ». قال: فنزلت: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية [(١)].

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾. قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلف على أم عبيد الله ضمرة، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلفُ على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيار [(٢)].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٨).
(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٧-٢١٨).

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾[١].

فحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها. وهذا أمر مجمع عليه. ولم يكتف الله سبحانه بالنهي عنه بل وصفه بأبشع الأوصاف فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]، فزاد ههنا: ﴿وَمَقۡتًا﴾، أي بغضاً ؛ فهو أمر كبير في نفسه، ويؤدّي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من يتزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو عليه الصلاة والسلام كالأب ؛ بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه[٢].

فسمّى الله تعالى هذا النكاح مقتاً، إذ هو ذا مقت يلحق فاعله، وكانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوج الوالد: « المقتي »، وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾، أي بئس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله[٣]. ويظهر من الآية بشكل واضح أنه يحرم تحريماً باتاً – مع التفظيع والتبشيع – أن ينكح الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء.

ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات:

الأول أن امرأة الأب في مكانة الأم.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٨).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣١).

والثاني أن لا يخلف الابن أباه، فيصبح في خياله نداً له. وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقته، وقد أشرنا إلى هذا من قبل.

والثالث: أن لا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب. الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية وهو معنىً كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء، وهما من نفس واحدة، ومهانة أحدهما مهانة الآخر بلا مراء [١].

ثم تذكر الآيات بقية من يحرم نكاحهنّ من النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾.

والحرمة نوعان: حرمة مؤبدة، وحرمة غير مؤبدة.

النوع الأول: الحرمة المؤبدة ؛ فالحرمة المؤبدة ثلاثة أقسام: المحرمات بسبب النسب، والمحرمات بسبب الرضاع، والمحرمات بسبب المصاهرة.

القسم الأول: المحرمات بسبب النسب سبع:

١- يحرم على الرجل أصوله مهما علوا؛ فيحرم عليه التزوج من أمه وجداته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون، لقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾، والأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم الدنيا، وأمهاتها وجداتها، وأم الأب وجداته وإن علون.

٢- ويحرم على الرجل نكاح فروعه مهما نزلوا، فيحرم عليه التزوج ببناته، وبنات أولاده ذكورهم وإناثهم مهما نزلوا، قال تعالى: ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾. والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات ؛ فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها، وبنات الأبناء وإن نزلن [٢].

٣- ويحرم على الرجل فروع أبويه مهما نزلوا ؛ فيحرم على الرجل الزواج من أخته، والأخت

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٠٨).

كل من جمعه وإياها صلب أو بطن، فيدخل في ذلك الأخت الشقيقة، والأخت لأب والأخت لأم، قال تعالى: ﴿ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾.

٤- وقولنا فروع أبويه يدخل فيه أولاد الإخوة مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ ﴾.

٥- ويدخل في فروع الأبوين أولاد الأخوات مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾.

٦- الفروع المباشرة فقط لأجداد الرجل، ولا يحرم عليه فروعهم غير المباشرة للأجداد، فيحل الزواج بهم؛ ولذلك يباح التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات، وأولاد الأخوال والخالات.

ويحرم على الرجل الزواج من عمته أخت أبيه، وكذلك عمة أبيه، وعمة أمه، وكذلك عمة العمة، لقوله تعالى: ﴿ وَعَمَّٰتُكُمْ ﴾.

٧- ويحرم على الرجل الزواج من خالته، والخالة أخت الأم، قال تعالى: ﴿ وَخَٰلَٰتُكُمْ ﴾ وكذلك يحرم عليه خالة أبيه، وخالة أمه. وأما خالة العمة ؛ فينظر، فإن كانت العمة أخت أب لأم، أو لأب وأم، فلا تحل خالتها ؛ لأنها أخت الجدة. وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط، فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحل للرجال، ويجمع بينها وبين النساء [١]. فالأخت لأب فقط هي عمة من جهة الأب، وخالتها لا صلة قرابة بها لا من جهة الأم ولا من جهة الأب، وليست أخت جد ولا أخت جدة.

قال السمعاني: « الخالة أخت كل امرأة تنسب إليها بالولادة، قربت أم بعدت » [٢]. وكذلك عمة الخالة، ينظر فإن كانت الخالة أخت أم لأب فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها [٣].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣١).

(٢) تفسير السمعاني (١/ ٤١١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢).

والقسم الثاني: المحرمات بسبب الرضاع: نصت الآية على صنفين من المحرمات بسبب الرضاع في قوله سبحانه: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ وألحقت السنة ببيانها إنزال الرضاعة منزلة النسب، ألا ترى أن الله سمّى المرضعة أماً للرضيع والتي رضعت معه أختاً [١]. قال النبي ﷺ: « إن الرضاعةَ تُحَرِّم ما يَحْرُمُ من الولادة » [٢]. فالأب من الرضاعة أب، وأخوه عم. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن أفلحَ أخا أبي القُعَيْس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب، فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعتُ، فأمرني أن آذن له [٣]. وكان أبو القعيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة رضي الله عنها [٤].

وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا في مسألتين:

إحداهما: أنه لا يجوز أن يتزوج أخت ابنه من النسب، ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع ؛ لأن المانع في النسب وطؤه لأمها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

والثانية: أنه لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز في الرضاع (فيما لو أرضعتهما أخرى) ؛ لأن المانع في النسب وطء الأب إياها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع [٥].

والقسم الثالث: التحريم بالمصاهرة أربع:

١- أصول الزوجة مهما علون، فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته، وجدات زوجته من جهة أبيها، أو من جهة أمها مهما علون. وتتحقق الحرمة بمجرد العقد على المرأة، دخل بها أو لم يدخل، لقوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ ﴾.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٦٠).

(٢) رواه البخاري عن عائشة، برقم (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤).

(٣) رواه البخاري (٥١٠٣، ٢٦٤٤)، ومسلم (١٤٤٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١١١).

(٥) الكشاف، الزمخشري (١/ ٥٢٦).

٢- فروع الزوجة مهما نزلن، فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته، وبنات أولادها؛ ذكوراً كانوا أم إناثاً، ويشترط في هذا التحريم الدخول بالزوجة حتى تحرم البنت، لقوله تعالى: ﴿ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾. والربيبة: بنت الزوجة من زوج آخر، سميت بذلك لأنه يربيها في حجره، فهي مربوبته، وربيبة « فعيلة » بمعنى « مفعولة ». والقيد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾ لا مفهوم له ؛ لأن الأغلب أن بنت المرأة تعيش مع أمها في بيت زوج أمها، فالقيد خرج مخرج الغالب وتقرير الواقع، وهي محرمة وإن كانت في غير الحجر [(١)].

٣- زوجات الأب والأجداد من الجهتين مهما علوا، فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه وزوجة أحد أجداده من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علوا، لما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية.

٤- زوجات الأبناء وأبناء الأولاد مهما نزلوا، فيحرم على الرجل التزوج بزوجة ابنه من صلبه، وامرأة ابن ابنه، أو ابن ابنته وإن نزلوا، لقوله تعالى: ﴿ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ ﴾. والتخصيص بالأولاد الذين من الأصلاب ليخرج عنه كل من كانت العرب تتبناه ممن ليس للصلب. ولما تزوج النبي ﷺ امرأة زيد بن حارثة قال المشركون: تزوج امرأة ابنه، وقد أمره الله بهذا الزواج ليبطل عادات الجاهلية عملياً، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتحرم زوجة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: «إن الرضاعة تُحرِّم ما يَحْرُم من الولادة» [(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل. رواه البخاري (٢٦٤٦)، ومسلم. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢- ٣٣)،=

النوع الثاني من تحريم نكاح النساء: الحرمة غير المؤبدة ؛ وهذه الحرمة لسبب، فإذا زال السبب جاز الزواج من هذه المرأة.

١- تحريم أخت الزوجة ما دامت زوجته على قيد الحياة وفي عصمته. فإذا توفيت زوجته أو طلقها وانقضت عدتها جاز له أن يتزوج أختها؛ لأنه قد زال سبب الحرمة، وهو الجمع بينها وبين أختها، لقوله سبحانه: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، وعن فيروز الديلمي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أسلمت وتحتي أختان، فقال رسول الله ﷺ: « اختر أيتهما شئت »[(١)]. وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » إلى آخر الآية، أن النكاح في هؤلاء وملك اليمين سواء. وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهو الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها[(٢)].

٢- وألحقت السنة التي وردت بطرق كثيرة اعتبرها البعض متواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وبين المرأة وابنة أخيها، والمرأة وابنة أختها، لقوله ﷺ: « لا يُجْمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها »[(٣)]. وعند الترمذي: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على ابنة أخيها، أو المرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها

= وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٠-٤٧٢).

(١) الترمذي (١١٢٩). وقال الترمذي : حديث حسن، ورواه ابن ماجة أيضاً بإسناد آخر (١٩٥٠) بلفظ : « إذا رجعت فطلق إحداهما »، وأبو داود بمثل رواية الترمذي (٢٢٤٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٣).

(٣) البخاري (٥١٠٩، ٥١١١) بلفظ: « لا يجمع »، وبلفظ: نهى رسول الله ﷺ، ومسلم (١٤٠٨)، وغيرهما.

ولا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى »[١]. وروي عن الشعبي أنه قال: كل امرأتين إذا جعلت موضع إحداهما ذكراً لم يجز له أن يتزوج الأخرى، فالجمع بينهما باطل، فقيل له: عمّن هذا ؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال سفيان الثوري: تفسيره عندنا أن يكون من النسب، ولا يكون بمنزلة امرأة وابنة زوجها يجمع بينهما إن شاء.

وقد ورد في بعض الأخبار التنبيه على العلّة في منع الجمع بين ما ذُكر، وذلك ما يفضي إليه الجمع من قطع الأرحام القريبة، مما يقع بين الضرائر من الشنآن والشرور بسبب الغيرة فروى ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال: إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم [٢].

٣- النساء المتزوجات: لأنهن في عصمة رجال آخرين، فلا يجوز الزواج من امرأة متزوجة، ولا معتدة عدة طلاق أو وفاة، لأنها في حكم المتزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، فعطف المحصنات على المحرمات، والمحصنة هنا المتزوجة، وأصله من الحِصن، وتحصَّن إذا اتخذ الحصنَ مسكناً، ثم يتجوز به في كل تحرز، ومنه درع حصينة لكونها حصناً للبدن. وامرأة حصان وحاصن، ويقال: حَصَان للعفيفة ولذات حرمة. ويقال: امرأة محصَن ومحصِن، فالمحصِن يقال إذا تُصُوِّرَ حِصنها من نفسها، والمحصَن يقال إذا تصور حِصنها من غيرها. فقوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ بعد قوله ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ المزوَّجات، بفتح الصاد لا غير، لأن اللواتي حرم التزوج بهن المزوجات، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر ؛ لأن العفيفات غير محرمات [٣].

وعلى هذا فمعاني « الإحصان » في الشريعة الإسلامية أربعة:

١- **العفة**: قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾

---

(١) سنن الترمذي (١١٢٦)، وأبو داود (٢٠٦٥)، ومسند أحمد (٩٢١٦).

(٢) انظر القرطبي (٥/ ١٢٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ١٢١.

[المائدة: ٥]، بمعنى العفيفات من المؤمنات والعفيفات من الكتابيات. وقال: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]، أي أعفته. وقال: ﴿ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

٢- **الحرية**: قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥]، أي عقوبة الأمة المملوكة نصف عقوبة الحرة. وكذلك قوله: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾، أي الحرائر.

٣- **التزوج**: قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، أي المتزوجات (١).

٤- **الإسلام**: من ذلك قوله: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾ قيل في تفسيره: إذا أسلمن (٢).

والوجوه الأربعة مشتركة في المعنى الأصلي اللغوي، وهو المنع. فالحرية سبب لتحصين الإنسان من نفاذ حكم الغير فيه، والعفة أيضاً مانعة للإنسان عن الشروع فيما لا ينبغي، وكذلك الإسلام مانع من كثير مما تدعو إليه النفس والشهوة، والزوج أيضاً مانع للزوجة من كثير من الأمور، والزوجة مانعة للزوج من الوقوع في الزنا (٣).

واستثنى الله سبحانه المسبيَّات في القتال مع المشركين، فإنها وإن كان لها زوج من الكفار قبل السبي، فإذا ملكها المسلم بعد السبي استبرأ رحمها بحيضة ثم غشيها إن شاء. وسبب نزول الآية ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبنا سبياً من سبي أوطاس ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾. قال: فاستحللنا فروجهن (٤).

---

(١) انظر المحرر الوجيز (٢/ ٣٤).

(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٩).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٩-١٩٠).

(٤) مسند أحمد (١١٢٩٤، ١١٣٨٨)، وبنحوه عند مسلم (١٤٥٦)، وبمثل رواية مسلم عند النسائي وأبي داود.

ويدل على الاستبراء بحيضة قول النبي ﷺ في سبي أوطاس: « لا يقع على حامل حتى تضع، وغير حامل حتى تحيض حيضة »[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾، أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، وقوله: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ﴾، أي ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال. على أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات ما شئتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾، أي متعففين عن الزنا غير زانين[(٢)]. وفي قوله تعالى: ﴿ بِأَمۡوَٰلِكُم ﴾ دليل على وجوب المهر دون بيان قلة أو كثرة. ويؤكد الله سبحانه حق المرأة بالمهر بعد الدخول فيقول: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ ﴾، وهذا نصّ على أن المهر يُسمّى أجراً؛ لأن ما يقابل المنفعة يسمّى أجراً، فالزوج لا يملك زوجته بالمهر، إنما المعقود عليه في النكاح منفعة البضع وحل التمتع ببدن المرأة[(٣)]. وأشار الله سبحانه إلى جواز ما يتراضى به الزوجان من حط أو تأخير بعد استقرار الفريضة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ ﴾، وناسب ختم الآية بذكر الوصفين العلم والحكمة بعد شرع المحرمات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[(٤)].

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ ﴾ نكاح المتعة. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يحلها للضرورة فقد رجع عن ذلك. روى

---

(١) رواه أحمد (١٠٨٤٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه أبو داود في النكاح (٢١٥٧)، والدارمي (٢٢٩٥).

(٢) ابن كثير (١/ ٤٧٣-٤٧٤). والسفاح : الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي صبه وسيلانه. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٢٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٦، ٣٧)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٥).

الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يَقْدُم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم، فتحفظ له متاعه وتصلح له شيئه، حتى إذا نزلت الآية: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦] قال ابن عباس: « فكل فرج سوى هذين فهو حرام » [١]. وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع، إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح في الرجوع في المخالفات إلى علي وآل بيته، فقد صح أنها نسخت. ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: « هي الزنا بعينه » [٢].

ثم إن الأحاديث الشريفة جاءت مصرحة بتحريم المتعة، منها ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية [٣]. وجاء النص على التحريم الأبدي عند مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: « يا أيها الناس ؛ إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » [٤].

وقال ابن الجوزي في تفسيره: « وقد تكلف قوم من المفسرين فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه؛ لأن النبي ﷺ أجاز المتعة ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله (يعني بالسنة). وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، وإنما المراد بها الاستمتاع في النكاح، لأنه تعالى قال فيها: ﴿ أَن

(١) سنن الترمذي (١١٢٢).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (١١/ ٤٤٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري أيضاً : وقد روي عن ابن عباس روايات عديدة في الرجوع عن فتواه - أي في حل المتعة للضرورة - يقوي بعضها بعضاً.

(٣) البخاري (٤٢١٦)، وفي رواية أن علياً قال لابن عباس : نهى رسول الله ﷺ... الحديث ». ورواه مسلم (١٤٠٧)، وأخرج الرواية الترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والدارمي.

(٤) مسلم (١٤٠٦)، وابن ماجة (١٩٦٢)، وسنن الدارمي (٢١٩٥).

﴿تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، فدلّ ذلك على النكاح الصحيح »[١].

ثم إن القاعدة الأولى في المجتمع الإسلامي تقوم على قاعدة الأسرة، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط في الأنساب.

والأسرة القائمة على الزواج العلني الذي تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه، ويتم به الإحصان -وهو الحفظ والصيانة- هي أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجته الحقيقية والناشئة من كونه إنساناً، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية - وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثناياها - ويحقق أهداف المجتمع الإنساني، كما يضمن لهذا المجتمع سلم الضمير، وسلم البيت، وسلم المجتمع في نهاية المطاف.

والملاحظ بصفة ظاهرة أن الطفل الإنساني يحتاج إلى رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر. كما أن التربية التي يحتاج إليها ليصبح قادراً على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقِّية - التي يتميز بها الإنسان - تمتد إلى فترة طويلة أخرى.

وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والتكاثر، فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف، إنما هي تمتد إلى هدف أبعد، هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى - بين الرجل والمرأة - ليتم إعداد الطفل الإنساني لحماية نفسه وحفظ حياته، وجلب طعامه وضرورياته، كما يتم - وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية - تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني، والمشاركة في حمل تبعته من اطراد الترقي الإنساني عن طريق الأجيال المتتابعة.

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان ؛ إنما هي مجرد وسيلة ركبتها الفطرة الربانية فيها ليتم الالتقاء بينهما، ويطول بعد الالتقاء الجنسي للقيام

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٣، ٥٤).

بواجب المشاركة في اطراد نمو النوع. ولم يعد الهوى الشخصي هو الحكم في بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى، إنما الحكم هو واجب النسل الضعيف الذي يجيء ثمرة للالتقاء بينهما وواجب المجتمع الإنساني الذي يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح معه قادراً على النهوض بالتبعة الإنسانية، وتحقيق غاية الوجود الإنساني.

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة، هو النظام الوحيد الصحيح. كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذي تستمر معه هذه العلاقة والذي يجعل «الواجب» لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى هو الحكم في قيامها، ثم في استمرارها ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثنائها، ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى [(١)].

ومن حِكَم تحريم النساء أن الله جل ثناؤه جعل بين الناس ضروباً من الصلة يتراحمون بها ويتعاونون على جلب المنافع ودفع المضار، وأقوى هذه الصلات صلة القرابة، واقتضت طبيعة الوجود والتكاثر تكوين الأسرة، والأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها بسبب صلة النسب وبعض القرابة المتفرعة عن النسب، فلو أبيح الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن وكان فيهن مطمع، والنفوس بطبعها مجبولة على الغيرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وأخته، وذلك يدعو إلى النفرة الشديدة، والإيذاء من الأقارب أشد إيلاماً، أما إذا حصلت المحرمية انقطعت الأطماع، وانحبست الشهوة، فلا يحصل ذلك الضرر [(٢)].

ثم إن هناك حكمة وراثية حيوية، وهي أن تزوج الأقارب بعضهم ببعض يكون سبباً لضعف النسل، حيث يخلق الولد ضاوياً (أي نحيفاً) لتجمع العلل الوراثية فيه، حيث تتركز استعدادات الضعف الوراثية وتتأصل في الذرية، على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة (أي من خارج الأقارب) تضاف استعداداتها الممتازة، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها. وأشار الإمام الغزالي إلى ذلك وعلله بأن الشهوة إنما تنبعث بقوة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠-١١).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٨٠-١٨١).

الإحساس بالنظر أو اللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود فإنه يضعف الحس ولا تنبعث به الشهوة [١].

الفقرة الثالثة من المقطع: نكاح الإماء:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

بمناسبة الحديث عن ما يحل وما يحرم من النساء يبين الله سبحانه حكم تزوج الحر من الأمة ؛ فهو جائز بشروط:

الشرط الأول: عدم القدرة على نكاح الحرة ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾. والطَوْل هنا: السعة والقدرة. والمحصنات: الحرائر العفيفات، يدل عليه التقسيم بينهن وبين الإماء في قوله: ﴿ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [٢].

ويلاحظ هنا تكريم الإسلام للمرأة ولو كانت في الرق، فأطلق عليها اسم فتاة، والإسلام لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني -كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك- إنما يذكر بالأصل الواحد، ويجعل الآصرة الإنسانية والآصرة الإيمانية هما محور الارتباط، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٣٩)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٧).

﴿ مِّنۢ بَعۡضٍ ﴾[(١)].

الشرط الثاني: الإيمان ؛ فلا يجوز نكاح الأمة الكتابية في قول الجمهور، لقوله تعالى: ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾، فشرط سبحانه الإيمان في الأمة لئلا تجتمع علتان الكفر والرق. وأما قوله سبحانه: ﴿ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فإنما ذلك لبيان فضل الإيمان. وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾، فاعملوا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض، ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ في النسب، فكلكم لآدم. ويجوز أن يكون معناه: دينكم واحد، وذكر الإيمان هنا لأن العرب كانت تطعن في الأنساب وتفخر بالأحساب، وتسمي ابن الأمة الهجين، فأعلم الله عز وجل أن أمر العبيد وغيرهم مستوٍ في باب الإيمان.

وإنما كره التزويج بالأمة، وحرم إذا وجد إلى الحرة سبيلاً ؛ لأن أولاد الأمة من الحر يصيرون رقيقاً، ولأن الأمة ممتهنة في عشرة الرجال، وذلك يشق على الزوج[(٢)].

الشرط الثالث: أن يكون الزواج بإذن السيد، فهو الولي، ولا يصح نكاحها إلا بإذنه لقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ﴾.

ويلاحظ أيضاً التكريم الإنساني للإماء، فقد أطلق على الأسياد اسم الأهل، وليس هذا في جاهلية قديمة أو حديثة[(٣)].

الشرط الرابع: المهر، لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾، أي وادفعوا مهورهن بالمعروف عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٦-٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١).

الشرط الخامس: العفة الظاهرة، لقوله تعالى: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾. والمسافحات: الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة، و﴿ مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ أي لهن أخلاء، والخدن الخليل الواحد المقرّ به، فقد نهى الله عن التزوج بالأمة ما دامت كذلك [١]. وكان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنى ويستحلون ما خفي [٢]. فنهى عن المسافحات المعلنات بالزنى، وعن المتخذات أخدان، ذات الخليل الواحد، فربما كانت المرأة تتخذ صديقاً تزني معه ولا تزني مع غيره [٣].

والشرط السادس والأخير: خوف الوقوع في الزنا. أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع بالزنا وشق عليه الصبر عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾، والعنت: الزنا في أصح الأقوال [٤].

وعلى هذا فشرط التزوج بالأمة في حق من يريد الزواج اثنان:

الأول عدم طَوْل الحرة، والثاني خوف الوقوع في الزنا. وبقية الشروط ؛ من العفة، وإذن الولي، والمهر، والإيمان، فهي شروط لصحة النكاح وجوازه ؛ منها في الأمة، ومنها حق للأمة كالمهر.

ثم ندب الله إلى الصبر عن مثل هذا النكاح لاسترقاق الأولاد، فقال تعالى: ﴿ وأن تصبروا خير لكم، والله غفور رحيم ﴾ لمن فعل وتزوج بهذه الشروط [٥].

وبمناسبة الحديث عن العفة يبين الله حد الأمة إذا زنت فيقول: ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾، أي تزوجن، ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾، والفاحشة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٥).
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٧).
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٨).
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٣٩).

هنا الزنا، بقرينة إلزام الحد، و﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ هنا الحرائر، إذْ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف فليس مراداً في الآية بإجماع، والمراد عند الجمهور نصف المائة، فحدها خمسون جلدة[١].

ويلاحظ أن الإسلام لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سبباً في مضاعفة العقوبة كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية أو مع الوضعاء والأشراف ؛ تخفف عن الأشراف، وتقسوا على الضعفاء.

وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد[٢].

وجاء الإسلام ليضع الحق في نصابه، وليأخذ الجاني بالعقوبة مراعياً جميع اعتبارات «الواقع»، وليجعل حد الأمة - بعد الإحصان - نصف حد الحرة قبل الإحصان، فلا يترخص فيعفيها من العقوبة، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف، ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة، وواقعها يختلف عن واقع الحرة[٣].

الفقرة الرابعة والأخيرة من المقطع: تعقيب وتحذير من اتباع الشهوات:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام والتنظيمات التي شرعها الله للأسرة في المنهج

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٩).

(٢) انظر حديث البخاري (٣٤٧٥)، وفيه : « والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »، ومسلم (١٦٨٨)، وغيرهما.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٣-٢٤).

الرباني الحكيم، فيخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها -وما ورد من الأحكام في الآيات الأخيرة من باب أولى- ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، يعني طرائقهم الحميدة، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها (١)، وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم حسب علم الله بمصالح السابقين واللاحقين من الأمم (٢).

فهذا المنهج هو منهج الله سنَّه للمؤمنين جميعاً. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطّرد في غاياته وأهدافه. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

بذلك يجمع الله بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان، ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان، ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول في الطريق الرباني المستمرّ الطويل. وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله ومنهجه وطريقه (٣).

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ من الإثم والمحارم، وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات وتوفيقه له. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بحسب ما تقدم من سنن الشرائع وموقف المصالح، و﴿ حَكِيمٌ ﴾؛ مصيب بالأمور مواقعها بحسب الحكمة والإتقان.

وكرر سبحانه إرادته التوبة على عباده فقال: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن الذين يتبعون الشهوات، تحذيراً منهم، فقُدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات (٤).

وكل عاقل يعلم أن الميل عن الحق إلى الشهوات الجنسية مفسد للمجتمع، ومفسد للنسل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٥).
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٠).

كما يسبب العقد النفسية والأمراض الجنسية الخطيرة.

وأتباع الشهوات الذين يريدون أن يميل المؤمنون عن الحق هم أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة وغيرهم ممن أشربت قلوبهم حب الباطل من أهل النفاق والفساد [١].

واللمسة الأخيرة في هذا التعقيب تبين رحمة الله بضعف الإنسان فيما شرع له الله من منهج وأحكام، وقد خفف الله عنه وهو يعلم ضعفه، فراعى اليسر فيما يشرع له، ونفى الحرج والمشقة والضرر، مع تحقيق الخير والسعادة في هذا التشريع المثالي الواقعي:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

والظاهر من هذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى بإباحة نكاح الإماء عند العنت والمشقة وخوف الوقوع في الزنا. قال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

وتخرج الآية في عمومها مخرج التفصيل ؛ لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى على عباده وجعله الدين يسراً يحقق الله فيه للفرد المسلم وللمجتمع الإسلامي كل خير، ويُبعد عنه كل شر وضرر. ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً، حسبما هو في نفسه ضعيف، يستميله هواه في الأغلب [٢]. ومع الإيمان والتحرر من العبودية لغير الله؛ من الأهواء والشهوات، ثم مع العقل القويم الراجح للمؤمن الذي يبصر الحق بهداية الله ونوره يقوى الإنسان على الأهواء والشهوات، ويسير في طريق الخير الذي رسمه له مولاه سبحانه، وهنا يظهر دور العبادة المخلصة في كسر حدة الشهوة، وإعانة الإنسان على الصبر عن المحرمات، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤١).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٦٥)، وفي رواية : « فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج... »، ومسلم (١٤٠٠).

وأخيراً فالصلة واضحة بين محور السورة (التوحيد الصحيح ومقوماته) وهذا المقطع حيث يظهر فيه مقومات التوحيد في طاعة الله وحده فيما شرع من أحكام، ومنها هذه الأحكام التي ربطها سبحانه بإرادته وحكمه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقدية: ربط الأحكام الشرعية بإرادة الله وحكمه وحكمته بالفقرة الأخيرة من المقطع: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: ما يحل ويحرم في قضايا نسائية ؛ من حرمة إرث المرأة وجعلها كالمتاع والمحرمات من النساء...

وما أحل بعد المحارم.

وحل زواج الأمة في حالة تعذر طول الحرة.

جـ- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: توسيع دائرة الأسرة بالمحرمات، وإبعاد القرابة القريبة عن الغرائز البهيمية تكريماً للقرابة، وتحقيقاً للفطرة الإنسانية، وتيسيراً على الأقارب في الاختلاط الذي يحتاجون إليه ضمن خلق إنساني كريم.

د- وتربوياً: فإن الإسلام يربي أتباعه على صيانة كرامة المرأة واستقلالها الذاتي، واحترامها وتكريمها أماً وبنتاً وأختاً وعمة وخالة وزوجة أب... وفي كل حالاتها الاجتماعية [١].

(١) راجع الفظائع الصحية والعقلية والاجتماعية الناتجة عن اتباع الشهوات في الظلال، سيد قطب (٥/ ٢٨-٣٥).

المقطع الثالث: حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة (٢٩-٤٣):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ

حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

يتصل هذا المقطع بسابقة في التصرفات السلوكية والمالية ؛ وذلك أن الله تعالى لما شرح كيفية التصرف في النفوس بسبب النكاح، ذكر بعده كيفية التصرف في الأموال. وبما أنه ذكر ابتغاء النكاح بالأموال، وأمر بإيفاء المهور، وأحكام المواريث التي تقدمت تتعلق بالأموال، فبين بعد ذلك كيف يحصل التصرف بالأموال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[1].

المعنى الإجمالي:

والخطاب بهذه الآية للمؤمنين جميعاً، ينهى الله تبارك وتعالى عباده عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل[2]. وقد سبق في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [١٨٨]، أي لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل فيه جميع أنواع المكاسب التي حرمتها الشريعة، كأنواع الربا، والقمار، والخداع، والغصوب، وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرمته الشريعة، وإن طابت به نفس مالكه، كمهر البغيّ، وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير، وغير ذلك[3].

ثم بين الله عز وجل طريق الحلّ في التعامل، وهو طريق التبادل القائم على الرضا من

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٢٠٥).

(٢) والباطل في اللغة : الذاهب الزائل، يقال : بَطَل يَبْطُل بُطولاً وبطلاناً، وأبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ يعني الشرك. والبطلة : السَّحَرَة. تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٣٨).

البائع والمشتري، ضمن ما أباحه الله وشرعه؛﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾. ثم نهانا جل جلاله أن نقتل أنفسنا ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾، وذلك بأن يقتل بعضنا بعضاً، أو يقتل الواحد منا نفسه، أو لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. وفي قتل المؤمن غيره قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١، والإسراء: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [النساء: ٩٢، ٩٣]، وقال رسول الله ﷺ: « من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسَّى سُمّاً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » (١).

وأكل أموال الناس بالباطل قتل للمصالح الاجتماعية والاقتصادية في الجماعة الإسلامية وهو أشبه بقتل نفوسها؛ فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة: بالربا، والغش والقمار والاحتكار، والتدليس، والاختلاس، والاحتيال، والرشوة والسرقة، وبيع ما ليس يباع: كالعرض، والذمة، والضمير، والدين، والخلق ! -مهما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء- ما تروج هذه الوسائل في جماعة، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها، وتتردى هاوية في الدمار!

والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة الفردية والاجتماعية، المردية للنفوس.

ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل، معتدين ظالمين (٢).

---

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٩-٤٨٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٣٨).

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه ؛ بأن كان عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه [١]، فالعدوان: الإفراط في التجاوز عن الحد، والظلم: ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ورجح الطبري رحمه الله أن الإشارة في قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا ﴾ إلى المذكور، بأن يقال: معناه ومن يفعل ما حرم الله عليه من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾، لأن ذلك كله لم يرد بعده وعيد، وورد وعيد قبله [٢]. ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾، أي ندخله إياها ونحرقه بها، والجملة جواب الشرط ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾. وكان ذلك الإحراق بالنار يوم القيامة. ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هيناً، لا يمنعه منه مانع، ولا يدفع عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع [٣].

ويأتي اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين، وهما: قتل النفس وأكل المال بالباطل. على عادة القرآن في التفنن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه [٤].

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾، وهذه الآية قاعدة رسمها الله سبحانه لنا، وهي أننا إذا اجتنبنا الكبائر غفر الله لنا الصغائر، وأدخلنا باجتناب الكبائر جنته.

وسمع صهيب أبا هريرة وأبا سعيد الخدري -رضى الله عنهم جميعاً- يقولان: خطبنا رسول الله يوماً فقال: « والذي نفسي بيده » - ثلاث مرات - ثم أكبّ فأكبّ كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى، فكانت أحب إلينا من حمر النعم، ثم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/ ٢٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٧٨).

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٢٦).

قال: « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة، فقيل له: ادخل بسلام »[١].

وقد ذكرت أحاديث كثيرة الكبائر، أو بالأحرى ذكرت بعضها، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات »، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ ؟ قال: « الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[٢]. وذكر هذه السبع لا يعني الحصر، فالنص على هذه السبع لا ينفي ما عداهنّ، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولاسيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما ورد من الأحاديث غير هذه السبع[٣]، فقد روي في أحاديث أخرى غير هذه السبع، فقد سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور »[٤]. وقال النبي ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » - ثلاثاً - قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين » وجلس وكان متكئاً، فقال: «ألا وقول الزور ». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »، قلت: إن ذلك لعظيم ! قلت: ثم أيٌّ ؟ قال: « وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك »، قلت: ثم أيٌّ ؟ قال: « أن تزاني حليلة جارك »[٦].

---

(١) النسائي (٢٤٣٨)، وقال ابن كثير : ورواه الحاكم أيضاً، وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال به، ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨١).

(٤) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٥) البخاري (٢٦٥٤).

(٦) البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من الكبائر شتم الرجل والديه »، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: « نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمّه فيسب أمه » (١).

وقال ابن عباس وغيره: الكبائر كل ما ورد عليه وعيد بنار، أو عذاب، أو لعنة، أو ما أشبه ذلك. وقال رجل لابن عباس: أخبرني عن الكبائر السبع، فقال: هي إلى السبعين أقرب (٢). وفي رواية عن ابن عباس أنه أجاب فقال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار (٣). وهذا يعني أن الإصرار على الصغيرة كبيرة؛ لأن ذلك استهانة بأمر الله ونهيه.

وهذه الآية من آيات الرجاء، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «خمس آيات من سورة النساء هي أحب إليَّ من الدنيا جميعاً، قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤٨]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [١١٠]، وقوله أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [١٥٢] (٤). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

---

(١) مسلم (٩٠)، وعند البخاري : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ؛ يسب...» الحديث (٥٩٧٣)، والترمذي بنحو حديث مسلم (١٩٠٢).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٣-٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٦).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٤).

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢٦]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[٢٨]، ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [٣١]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤٨]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [١١٠]، ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [١٤٧] »[1].

وفي سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة تجيء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ ﴾.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله ؛ يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾[2].

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصبيان، فلما وُرِّثوا وجُعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء لو جُعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فنزلت: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾. والتمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل. فنهى الله المؤمنين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦١-١٦٢).

(٢) سنن الترمذي (٣٠٢٢)، ومسند أحمد (٢٦١٩٦)، ورواه ابن جرير في تفسيره أيضاً عن مجاهد عن أم سلمة. جامع البيان (٥/ ٣٠)، وقال ابن كثير : ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والحاكم في مستدركه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٨).

عن التمني ؛ لأن فيه تعلق البال ونسيان الأجل [(١)].

وفي هذه الآية نهي عن كل تمنٍ لخلاف حكم شرعي، ويدخل فيه النهي أن يتمنى الرجل حال الآخرين من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه. وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحد حال رجل ينصبه في فكره، وإن لم يتمن زوال حاله. وهذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن.

وإذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرن أمنيته بشيء مما قدمناه فذلك جائز، وذلك موجود في حديث الرسول ﷺ: « وددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل » [(٢)].

ومعنى الآية: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به لاختيار ترونه أنتم ؛ فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الأجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له. حيث جعل لكل أحد مكاسب تختص به وتلائم فطرته التي فطره الله عليها، وتحقق مصلحة الجماعة ؛ فجعل الجهاد والإنفاق، وسعي المعيشة، وحمل التكاليف، كالأحكام والإمارة والحسبة، وغير ذلك للرجال وجعل الحمل ومشقته، وحسن التبعل، وحفظ غيب الزوج، وتدبير البيوت للنساء.

وفي تعليق النصيب بالاكتساب حضّ على العمل، وتنبيه على كسب الخير [(٣)].

ولا تمنع الآية من تمني مثل ما عند الغير ؛ لأنه ليس تمنٍ لما عنده مما فضله الله به، وهذا حسد الغبطة، وليس حسداً في حقيقته. قال النبي ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٢).

(٢) والحديث بتمامه : « أنتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل » أخرجه البخاري (٣٦، ٢٧٨٧، ٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦)، وغيرهما.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٤-٤٥).

»[(١)]. فالحديث حض على تمني مثل نعمة الغير، والآية تنهى عن تمني عين نعمة الغير. ثم أرشد الله عباده إلى ما يصلحهم فقال: ﴿ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾، فإنه سبحانه يحب أن يُسأل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾، فهو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقضيه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه[(٢)].

وعلى هذا فلا وجود، ولا ظل للمعركة في المجتمع الإسلامي بين الجنسين، إنما يقوم الأمر على التنويع والتوزيع، والتكامل، والعدل بعد ذلك كامل في منهج الله. فلا معنى للتنافس على أعراض الدنيا، ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل ؛ ومحاولة النيل من أحدهما، وثلبه، وتتبع نقائصه! ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف، ولا آثار له في التنوع في الاختصاصات والمراكز. فكل ذلك عبث وسوء فهم للمنهج الإسلامي، ولحقيقة وظيفة الجنسين[(٣)]. ولذلك نرى المعارك محتدمة في جاهلية الغرب، والمرأة هي الخاسرة، وإن صوروا لها أنها تتحرر، وليس هذا التحرر إلا انفلات من الوظائف الطبيعية التي خلقت المرأة لتحقيقها، وأضحت مستعبدة للرجل، لا ضمان لها في المجتمع، فلا تعيش إن لم تعمل، ويصل الرجل إلى ما يريد منها مالاً وجنساً، ثم يتركها تتحمل مشقة الحمل والولادة، ثم الإنفاق على الأولاد في كثير من الأحيان.

وعدم تكليف المرأة بالقتال في شرع الله إلا حين الضرورة القصوى ؛ لأن الحرب حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ، والأمر ليس كذالك حين تحصد النساء والرجال، أو النساء فقط ؛ لأن المرأة لو عاشرها جمع من الرجال لا تلد إلا مولوداً واحداً أو توأماً، بينما لو تزوج الرجل أربع نسوة عند الحاجة لأنجبت كل منهن

---

(١) البخاري (٥٠٢٥، ٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٤٤).

مولوداً أو توأماً. وكذلك قاعدة: ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ في الميراث ؛ فالمرأة المسلمة مضمونة اجتماعياً ومالياً، فالزوج يجب عليه الإنفاق على زوجته وإن كانت غنية، والرجل يجب عليه الإنفاق على المرأة أماً أو أختاً أو بنتاً إذا كانت محتاجة للنفقة. فهل من منهجٍ في الجاهليات القديمة والحديثة كرَّم المرأة، وصانها، وأبعدها عن ذل الحاجة الذي قد تبذل فيه نفسها للرجل أو كرامتها - إن صانت نفسها فلم تستسلم لشهوات الرجل - لتكون موظفة في المراحيض العامة أو غير ذلك.

والآن يأتي ذكر التصرف في عقود الولاء التي سبقت أحكام الميراث في سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة المسلمة:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [٣٣].

المولى: لفظ مشترك يطلق على وجوه ؛ فيسمى المعتِق مولى، والمعتَق مولى. ويقال: المولى الأسفل والأعلى أيضاً. ويسمى الناصر المولى، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد: ١١]، ويسمى ابن العم مولى، والجار مولى [(١)]. والموالي في الآية هنا الورثة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: الورثة، ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاريّ دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ نَسَخَت، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ إلا النَّصرَ والرِّفادَةَ والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له [(٢)].

والمعنى: ولكل أحد من الرجال والنساء ﴿ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾، أي ورثة أو عصبة يرثون.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٢٢٩٢، ٤٥٨٠).

﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر »[(١)]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ روى الطبري من طريق علي بن أبي طلحة [وهي طريق جيدة] عن ابن عباس قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾، فكان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾[الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت[(٢)].

فالأحلاف التي تحالفوا عليها في الجاهلية توفى لأصحابها في الإسلام بالوصية من الثلث بعد الإسلام، ولا حلف في الإسلام إلا على النصرة وما أشبهها ؛ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ولا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة »[(٣)].

والآيتان التاليتان تضع قاعدة وضع الرجال والنساء في المجتمع المسلم، وتنظيم مؤسسة الأسرة، وضبط الأمور فيها، وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبطها، والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات، واجتناب عناصر التهديم فيها والتدمير، وقد ذُكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لاسيما أحكام النساء:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ[(٤)] عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ

---

(١) البخاري (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٨٩-٤٩٠)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٦).

(٤) القوّام: الذي يقوم على شأن شيء ويُصلحه. يقال: قوَّام وقيّام وقيّوم وقيّم. وكلها مشتقة من القيام المجازي الذي هو مجاز مرسل، أو استعارة تمثيلية. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٣٨). وقال ابن عطية: قوام فعّال بناء مبالغة، وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد (٢/ ٤٧).

أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

روى الطبري بسند جيد عن الحسن البصري أن رجلاً لطم امرأته فأتت النبي ﷺ، فأراد أن يقصّها منه، فأنزل الله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، فدعاه النبي ﷺ فتلاها عليه، وقال: « أردت أمراً وأراد الله غيره»، وروى الطبري أيضاً بسند حسن [1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾، يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله. وفضله عليها بنفقته وسعيه [2].

فشأن الرجال القيام على أمور النساء قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي والرعاية ونحو ذلك، واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة ﴿ قَوَّٰمُونَ ﴾ للإيذان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أُسند إليهم. وفي الكلام إشارة إلى سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث في قوله: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، كما أن فيما تقدم رمزاً إلى تفاوت مراتب الاستحقاق الذي أشار إليه قوله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾. وعلل سبحانه الحكم بأمرين: وهبي، وكسبي، فقال جل شأنه: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فالباء للسببية، ﴿ ومَا ﴾ مصدرية ؛ أي قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى إياهم عليهن. والتعليل الكسبي قوله: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.

ونستطيع أن نقول: إن التعريف في ﴿ ٱلرِّجَالُ ﴾ ﴿ ٱلنِّسَآءِ ﴾ للاستغراق. وهو استغراق عرفي مبني على النظر إلى الحقيقة، كالتعريف في قول الناس: « الرجل أقوى من المرأة »، فقوله

(١) هو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة.

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٣٧).

سبحانه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أصل تشريعي كليٌّ تتفرع عنه الأحكام التي في الآيات الأخرى، ولم يقل الله: الأزواج قوامون على أزواجهم، ليكون هذا الحكم في الأسرة فرعاً من الحكم العام، وداخلاً فيه دخولاً أولياً ؛ ولذا خص الرجال بالرسالة والنبوة، وبالإمامة الكبرى والصغرى، وإقامة الشعائر كالأذان والإقامة، والخطبة والجمعة، والقتال، وبالنكاح عند الشافعية، وبالشهادة في أمهات القضايا، وزيادة السهم في الميراث والتعصيب، إلى غير ذلك (١).

وخصّت المرأة بالاستجابة للرجل وبالسعادة، إذا هي أدخلت السرور على قلبه، ونالت استحسانه ورضاه، كيف لا وقد خلقت منه كما مرّ معنا في أول السورة: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وخصّت المرأة بالأمومة، وزوّدت بالاستعدادات النفسية والعضوية لأداء هذه الوظيفة الهامّة، التي يتم بها تَكَوُّن الجيل الجديد وتنشئته التنشئة الصحيحة من الناحية العضوية والنفسية والاجتماعية. وهذه مهمة جداً في المجتمع الإنساني، لا يستغني عنها لإقامة مجتمع صحيح، بعيد عن الخلل والعقد النفسية المدمرة.

المجتمع الإنساني يختلف اختلافاً كبيراً عن التجمعات الحيوانية؛ فالتجمعات الحيوانية تحركها الغرائز، وإن كان تكاثرها من ذكر وأنثى كالإنسان وسائر الكائنات الحية، من النباتات وغيره، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩]، وطفولة الحيوان قصيرة، ويسعى إلى ثدي أمه بنفسه، ويستغني عنها بعد أيام أو أسابيع أو شهور، بينما تطول طفولة الإنسان كثيراً، وتحتاج طفولته إلى تعاون أبويه، فليس من العدل، ولا من مصلحة التربية الاجتماعية والنفسية للطفل أن ينال الرجل من المرأة، ثم يتركها تتحمل كلّ الأعباء المادية والمعنوية بمفردها، فليس للمرأة ضمانٌ اجتماعيٌ في جاهلية القرن العشرين(٢)،

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٣)، وانظر تفضيل الرجل على المرأة في زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٧٤).

(٢) نقول جاهلية القرن العشرين ؛ لأن المرأة في المجتمع الجاهلي العربي القديم كانت أفضل حالاً من المرأة عند غير المسلمين اليوم.

فشرع الله سبحانه وجوب الإنفاق على المرأة أماً أو أختاً أو بنتاً، إن كانت محتاجة للإنفاق عليها وأوجب على الزوج الإنفاق على زوجته، وإن كانت غنية؛ لئلا تحتاج إلى أن تريق ماء وجهها في العمل الاضطراري من أجل أن تعيش؛ وإذا كانت المرأة مضمونة اجتماعياً، والرجل مكلف بالإنفاق كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾[البقرة: ٢٣٣]، فلو فرض الله على المرأة الكسب لحُرمت السكن النفسي والاستقرار وضاعت مهمة التربية في الأسرة. فقد جعل الله من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل، وهي وظائف ضخمة أولاً، وخطيرة ثانياً. وليست هينة ولا يسيرة بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني «الرجل» توفير الحاجات الضرورية، وتوفير الحماية كذلك للأنثى؛ كي تطمئن نفسياً، وتتفرغ لوظيفتها الخطيرة، ولا يجب عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكدّ وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آنٍ واحد، وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

ومن ثم زودت المرأة -فيما زودت به من الخصائص- بالرقة، والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفل - بغير وعي ولا سابق تفكير - لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها لم تُترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تلبيتها فوراً، وفيما يشبه أن يكون قسراً. ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك، لتكون الاستجابة سريعة من جهة، ومريحة من جهة أخرى، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

وهذه الخصائص ليست سطحية، بل غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة. بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة في تكوين كل خلية ؛ لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بل كل خصائصه الأساسية!

وكذلك زود الرجل - فيما زود به من الخصائص - بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال

والاستجابة، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ؛ لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوجة والأطفال، إلى تدبير المعاش، إلى سائر تكاليفه في الحياة ؛ لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام، وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجه عام. وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامة، وأفضل في مجالها. كما أن تكليفه بالإنفاق -وهو فرع من توزيع الاختصاصات- يجعله بدوره أولى بالقوامة؛ لأن تدبير المعاش للأسرة ومن فيها داخل في هذه القوامة، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها.

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني، وهو يقرر قوامة الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾.

قوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات؛ ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية، وتكليف كل واحد من الزوجين في هذا التوزيع بالجانب الميسر له، والذي هو مُعَان عليه بالفطرة التي فطِرَ عليها[1]. وأشار القرآن إلى التناسب في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء بحيث تحقق العدل والمساواة، لا التماثل فقال سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: منزلة، وهي تكليفه بالإنفاق والجهاد ورعاية المرأة وحمايتها، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها، وروي عن ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق ؛ أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه[2]. قال ابن عطية: وهذا قول حسن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٣-٥٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ١٢٥).

بارع [(١)]. وقال رسول الله ﷺ: « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » [(٢)].

وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه في القوامة يجيء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيماني في محيط الأسرة:

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾.

الصلاح هو صلاح الدين، والقنوت: الطاعة. فالصالحات مطيعات لأزواجهن ؛ لأن من طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها، وفطرتها الأنوثية أن تكون مطيعة لزوجها عن إرادة ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومماطلة. ومن ثم قال: ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾، ولم يقل: مطيعات ؛ لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رخية ندية، وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين الزوجين، في المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوّه وأنفاسه وإيقاعاته.

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها كذلك أن تكون حافظة كل ما استرعته مما يتعلق بالحياة الزوجية في نفسها وأولادها وبيتها، في غيبته - وبالأولى في حضوره - فلا تبيح من بيتها أو نفسها في نظرة أو نبرة - بله العرض والحرمات - ما لا يباح إلا له هو، بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾ [الروم: ٢١]، ومر معنا في أول السورة: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾.

قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير ؟ قال: « التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٣٠٦).

(٢) الترمذي (١١٥٩)، وعند أبي داود (٢١٤٠) : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق ».

تخالفه في نفسها ومالها بما يكره »[١].

وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو، إنما يقرره الله سبحانه: ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾[٢] فهي حافظة للغيب بطاعة وبر ودين، وحفظ الله في أوامره حين امتثلتها[٣]. فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته - في غيبته أو في حضوره - ما يغضب هوَ له، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله.

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات أمام ضغط المجتمع المنحرف. وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب: ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾، مع القنوت الطائع الراضي الودود[٤].

والغريب في الأمر أن المرأة إذا كانت عاملة في مؤسسة أقل شأناً وأرخص سعراً من مؤسسة الأسرة فإنها تسمع وتطيع كأي عامل في تلك المؤسسات، فأولى أن تنقاد في الأسرة للزوج لإنشاء أثمن عناصر الكون، ألا وهو العنصر الإنساني.

وحتى تعلم النساء أن الله كرم المرأة ولم يكلفها من العمل إلا ما يناسب فطرتها دون مشقة، فلتقرأ قول النبي ﷺ: « إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت »[٥].

---

(١) رواه أحمد (٩٣٠٤، ٩٣٦٧)، وعند ابن ماجة: عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة ؛ إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ». ابن ماجه (١٨٥٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٧)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٦).

(٥) تفرد به أحمد (١٦٦٤).

فأما غير الصالحات فهن الناشزات [١]، المستعليات على طاعة أزواجهن، فلا ينبغي أن يُترك الأمر حتى تنقسم الأسرة إلى معسكرين، يتجاذب الرجل والمرأة السلطة التنظيمية فيها فيضيع الأولاد ويتمردون على أبويهم كما تمردت أمهم ؛ لذلك ينبغي أن يسلك الزوج مع المرأة الناشز التعليمات الربانية بالتدرج والحكمة:

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

الإجراء الأول: الموعظة ؛ هذا أول واجبات قيم الأسرة لمعالجة النشوز. يحاورها زوجها ويخوفها عقاب الله في عصيانه، ويذكرها بأن التمرد وعدم الطاعة يفسد الأسرة، ويفككها ويتسبب في العقد النفسية للأولاد ثمرة الأسرة، ويتمردون على أمهم قبل أبيهم. ويذكرها بقول النبي ﷺ في بيان ما للزوج من الحق والفضل ؛ فقد قال: « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » [٢]، وخصوصاً إذا كانت المعصية عدم إجابة الزوج إلى فراشه، قال رسول الله ﷺ: « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » [٣].

الإجراء الثاني: الهجر في المضجع، وذلك بأن يوليها ظهره في المضجع، ولا يكلمها، ولا يجامعها، أو يهجر فراشها، دون أن يردّ نكاحها، ودون أن يترك البيت الذي هي فيـه، لقول النبي ﷺ جواباً لسؤال أحد الصحابة قال فيه: يا رسول الله ؛ ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال ﷺ: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا

(١) والنشوز: العصيان، مأخوذ من النَّشز، وهو ما ارتفع من الأرض. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٧٠).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل، وقد أخرجه الترمذي (١١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٠).

(٣) البخاري (٣٢٣٧، ٥١٩٣)، ومسلم (١٧٣٦).

في البيت »[١].

إن الهجر حركة استعلاء نفسية من الرجل على ما تُدلّ به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ترفع به ذاتها عن ذاته، أو عن مكان الشريك في مؤسسة زوجية عليها قوامة ولها نظام.

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها. فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها، وكانت - في الغالب - أميل إلى التراجع والملاينة أمام هذا الصمود من رجلها، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه، في أحرج مواضعها ! على أن هناك أدباً معيناً في هذا الهجر، وهو أن لا يكون في غير مكان خلوة الزوجين ؛ فلا يكون هجراً أمام الأطفال يورث في نفوسهم شراً وفساداً، ولا هجراً أمام الغرباء يُذل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزاً. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة، ولا إفساد الأطفال.

ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح، فهل تترك المؤسسة تتحطم ؟ إن هناك إجراء - ولو أنه أعنف - ولكنه أهون وأصغر من تحطيم الحياة الزوجية كلها بالنشوز[٢]. فقد أذن الله بضرب الزوجة الناشز إن لم تنفع معها الموعظة ثم الهجر، فيضربها ضرباً غير مبرح. واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات، وهدف الإسلام في إسعاد الزوجين وتأمين التربية الصحيحة للأطفال كل هذا يمنع أن يكون هذا الضرب للانتقام والتشفي، أو إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها. إنما يكون الضرب ضرب تأديب، مصحوب بعاطفة المربي. وقد أكد النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع على أن يكون الضرب غير مبرح فقال: « واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح

(١) سنن أبي داود (٢١٤٢)، قال أبو داود : ولا تقبح أن تقول : قبحك الله. وهو بنحوه عند ابن ماجه (١٨٥٠). انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٨).

ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف »[١].

وقد يظن بعض المتأثرين والمتأثرات بإيحاءات شياطين الإنس والجن أن كل امرأة ستضرب، فليعلم كل مسلم أن ذلك حالة خاصة، نادرة في المجتمع الإسلامي، والذي يلجأ إلى ضرب زوجته دون ضرورة تربوية فهو من الشرار لا من الخيار، فقد قال النبي ﷺ: « لا تضربوا إماء الله »، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: « ذئرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم »[٢]، فحالة المرأة التي تحتاج إلى ضرب هي حالة نفسية نادرة، لكنها موجودة، فهناك صنف من النساء - وإن كان قليلاً - فيه من لا تحس بقوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قيماً لها وترضى به زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً، وليست قوة الرجل هذه طبيعة كل امرأة.

وهذه الإجراءات يقررها الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وقد وضع الله ملابسات حدد صفتها، وحدد النية المصاحبة لها، شأن كل سلوك في الإسلام يبتغي به امتثال منهج الله لتحقيق الغاية التربوية من ورائها، بحيث لا يحسب على منهج الله تلك التصرفات الخاطئة للناس في عهود الجهل بدين الله، حين يتحول الرجل جلاداً - باسم الدين - وتتحول المرأة رقيقاً - باسم الدين - أو حين يتحول الرجل امرأة، وتتحول المرأة رجلاً، أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة - باسم التطور في فهم الدين - فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح في نفوس المؤمنين[٣]. قال رسول الله ﷺ: « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم »[٤].

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه بنحوه (١٩٨٥). وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٥٩).

(٤) البخاري (٦٤٢، ٥٢٠٤)، أحمد (١٥٧٨٨).

وهذا العلاج مراتب لتحقيق هدف كما رأينا، فإذا وقعت الطاعة عند إحداها لم يتعد إلى ما يليها، ولذا ختمت الآية بالتهديد ضمن الحدود الهادفة فقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ ؛ لا تطلبوا سبيلاً إلى الأذى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل. وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب، بعد تقدير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن إن احتاج الأمر ذلك. وحسن اتصاف الله سبحانه بالعلو والكبر ليعلم أن قدره فوق كل قدر، ويده في القدرة فوق كل يد، فلا يَسْتَعْلِ أحد على امرأته، فالله بالمرصاد، قادر على الانتقام، غير راض بظلم أحد [١].

وفي ختام هذا العلاج نذكر بتوجيه النبي ﷺ الأزواج إلى عدم كراهية زوجاتهم، وأن يتذكروا محاسن الزوجة التي يحبونها في زوجاتهم، حتى يتم الانسجام والمودة التي جعلها الله بين الزوجين، لتحقيق السعادة والعشرة الطيبة، قال النبي ﷺ: « لا يفرك [٢] مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » [٣]، وقال ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » [٤].

وإذا استعملت هذه الإجراءات، ولم تُجْدِ، بل زادت الشقة بعداً، والنشوز استعلاناً، فإن القرآن الحكيم يدفع إلى إجراء آخر لإنقاذ الأسرة من الانهيار:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [٥].

إن الإسلام لا يدعو إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية، ولا إلى المسارعة بفصم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٨).

(٢) لا يبغض. النووي (٥/ ٣١٥).

(٣) مسلم (١٤٦٩)، وأحمد (٨١٦٣).

(٤) سنن الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وسنن الدارمي (٢٢٦٠).

(٥) الشقاق: المنازعة. وقيل: الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادي. وأصله من الشِّق وهو الجانب؛ فكأن كل واحد من الفريقين في شِقّ غير شِقّ صاحبه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١٤٣).

عقدة النكاح، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار، الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة، فالأسرة عزيزة على الإسلام بقدر خطورتها في بناء المجتمع، وفي إمداده باللبنات الجديدة اللازمة لنموه ورقيه وامتداده [١]. فإذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وامتدت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الزوج ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوّف الشارع إلى التوفيق حيث قال الله سبحانه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [٢].

وجمهور العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفريق؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾، وهذا نص من الله سبحانه بأنهما قاضيان، لا وكيلان ولا شاهدان. وللوكيل اسم في الشريعة ومعنىً، وللحكم اسم في الشريعة ومعنى، ومن شأن الحكم أن يحكم.

فإن اختلف الحكمان لم ينفذ قولهما، ولم يلزم من ذلك شيء إلا ما اجتمعا عليه. وإن حكما بالفرقة فرقا بطلقة بائنة [٣].

وخصّ الأهل في التحكيم لأنهم أعلم بباطن الحال، وتسكن إليهم النفس، فيطلعون على ما في ضمير كل من حب وبغض، وإرادة صحبة أو فراق، وهذا وجه الاستحباب، وإن نصبا من الأجانب فجائز، وذلك لأن الأهل قد يكونوا على غير علم ودراية، فيزيدوا الشقاق، وينحاز كل حكم إلى صاحبه دون حكمة وعدالة. فعند ذلك يكون اختيار الحكمين من غير أهل الزوجين إذا كانا من أهل العلم والخبرة والحكمة، فتتحقق بهما مصلحة الزوجين والأسرة. ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾، إن يريد الزوجان أو الحكمان الإصلاح والخير يوفق

---

(١) الظلال، سيد قطب (٥/ ٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٧٦-١٧٧).

الله بينهما، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم إرادة العباد ومصالحهم وسائر أحوالهم. وكيف لا يعلم وهو الذي خلق [١].

ويأتي الكلام عن القاعدة الأساسية التي تربط الأسرة الصغيرة مع الأسرة الكبيرة في المجتمع المسلم، من الزوجين، والوالدين، والأقربين، والجار القريب وغيره. كل ذلك يقوم على أصل واحد هو العبودية لله وحده والتحرر عن الخضوع لسواه:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

تبدأ هذه الآية بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن إشراك شيء به، أي التحرر من العبودية لغيره، وتبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي، وبين الأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة. فيدل هذا الربط على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين فليس هو مجرد عقيدة جامدة تستكن في الضمير كفكرة ثقافية، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية؛ إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله، والتلقي منه وحده - في هذا النشاط كله - دون سواه. توحيده إلهاً معبوداً، وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً. لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك في دين الله الصحيح على الإطلاق [٢].

وجاء النهي ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ بعد الأمر بالتوحيد إشارة إلى الأمر بالإخلاص فكأنه قيل: واعبدوا الله مخلصين له. فهو سبحانه أمر أولاً بما يشمل التوحيد وغيره من أعمال

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٦).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٦٥).

القلب والجوارح، ثم أردفه بما يفهم منه التوحيد الذي لا يقبل الله تعالى عملاً بدونه، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام[١]. فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى، وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا أَخِرَة الرحل فقال: « يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »، ثم سار ساعة ثم قال: « يا معاذ بن جبل »، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: « هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ »، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: « قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[٣]، ولذلك قال بعض العلماء: إن من تطهّر تبرداً أو صام حمية لمعدته، ونوى مع ذلك التقرب لم يُجْزِه ؛ لأنه مزج في نيته التقرب نية دنيوية، وليس لله إلا العمل الخالص، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وكذلك إذا أحسّ الإمام بداخل وهو في الركوع لم ينتظر الداخل ؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره عن كونه خالصاً لله تعالى[٤].

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، أي أحسنوا بهما إحساناً، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٧).

(٢) البخاري (٥٩٦٧، ٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠)، ويلاحظ التكرار، وهو أسلوب تربوي للفت الانتباه والاهتمام.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٨٥)، وعند ابن ماجه (٤٢٠٢): « أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك».

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٠).

والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[لقمان: ١٤] وكقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، و« أحسن » يتعدّى بالياء وإلى واللام، وقيل: إنما يتعدى بالباء إذا تضمن معنى العطف والإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما، ولا يخشن في الكلام معهما، ويسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر القدرة. ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، أي بصاحب القرابة المتفرعة عن الأبوين؛ من أخ وعم وخال، وأولاد كل، ونحو ذلك [1]، قال النبي ﷺ: « الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة » [2].

ثم انتقل من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الاجتماعية الكبيرة، فأمر بالإحسان فقال: ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾، وهو فاقد الأب قبل البلوغ، ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾: الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم، فأمر بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم [3]. ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾، والمجاورة مراتب بعضها ألصق من بعض، أدناها الزوج، ثم إنه من نظر قرابة النسب قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب النسب، والجار الجنب هو الجار الأجنبي الذي ليس بينك وبينه قرابة. ومن نظر إلى الدين قال: الجار ذو القربى هو الجار المسلم، والجار الجنب هو الجار اليهودي أو النصراني، فهي عنده قرابة الإسلام وأجنبية الكفر. ومن نظر إلى المسافة قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب المسكن منك، والجار الجنب هو البعيد المسكن منك. وكأن هذا المعنى مأخوذ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: « إلى أقربهما منك باباً » [4]. والكل داخل في معنى المجاورة.

وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان الجار أو كافراً، رحماً كان أو

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٧).

(٢) سنن الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وسنن ابن ماجه (١٨٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٤).

(٤) البخاري (٢٢٥٩، ٢٥٣٥، ٦٠٢٠)، وأحمد (٢٤٨٩٥). وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٠).

من غير الأرحام، بعيداً عنا في المسكن أو قريباً ؛ لأن الكل داخل في المجاورة. والإحسان يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حُسن العشرة وكف الأذى، والمحاماة دونه، قال النبي ﷺ: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[١]، وقال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »[٢]، وهذا عام في كل جار[٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ ﴾، فقد روي عن السلف أنه يدخل في معناه الزوجة، والضيف، والرفيق في السفر. ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو الضيف، أو من يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر. وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء. ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس؛ ولهذا كثرت وصية النبي ﷺ بالأرقاء، من ذلك قوله ﷺ: « للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق »[٤]، وقال النبي ﷺ: « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »[٥]، وكان من آخر وصية رسول الله ﷺ في مرض موته: « الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم »، حتى جعل نبي الله ﷺ يُلجْلِجُها في صدره وما يفيض بها لسانه[٦]. وعن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلّة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر؛ أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يَغْلبهم، فإن

---

(١) البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) مسلم (٤٦). والبوائق: جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك. صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٨٤).

(٤) رواه مسلم (١٦٦٢)، وأحمد (٨٣٠٥).

(٥) أحمد (١٦٧٢٧).

(٦) مسند أحمد (٢٥٩٤٤)، وابن ماجه (١٦٢٥).

كلفتموهم فأعينوهم »[١]. فهل في العالم كله غير المسلمين الأتقياء من يعامل العامل الحر - لا العبد - هذه المعاملة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ في نفسه، معجباً بها، متكبراً. ﴿ فَخُورًا ﴾ يفخر على الناس، ويتكبر عليهم بما أعطاه الله من نعمة، وهو قليل الشكر لله على ذلك[٢]. قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »، قال: فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة، قال: « إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر مَنْ بَطَرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس »[٣].

ويُتْبِع تقبيحَ الاختيال والفخر بالبخل والتبخيل، وكتمان نعمة الله وفضله، والرياء في الإنفاق؛ والكشف عن سبب هذا كله، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، واتباع الشيطان وصحبته:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية في المنهج الإسلامي، وهي ربط كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة. فإفراد الله سبحانه بالعبادة، والتلقي منه، يتبعه الإحسان إلى البشر، ابتغاء وجه الله ورضاه، والتعلق بثوابه في الآخرة ؛ في أدب ورفق، ومعرفة أن العبد لا ينفق إلا من رزق الله ؛ فهو لا يخلق رزقه، ولا ينال إلا من عطاء الله. والكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر، والبخل والأمر بالبخل، وكتمان فضل الله ونعمته، بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء، قال رسول الله ﷺ: « إن الله

(١) البخاري (٣٠، ٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).
(٢) التفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٥).
(٣) مسلم (٩١)، وسنن الترمذي (١٩٩٩).

عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[١]، والإنفاق تظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وهكذا تتحد الأخلاق ؛ أخلاق الإيمان، وأخلاق الكفر. فالباعث على العمل الطيب والخلق الطيب، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والتطلع إلى رضاء الله، وجزائه في الآخرة. فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس وثنائهم !

فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغي وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه. وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء، اتّجه همّ الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس، وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلاً عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! وكانت هذه هي بواعثهم للعمل. وكان هناك التأرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال، وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء، والبخل والتبخيل، ومراعاة الناس لا التجرد والإخلاص ![٢].

والبخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠][٣].

والبخلاء لا يكتفون بالبخل، بل يأمرون غيرهم بالبخل، وأي داء أدوأ من البخل قال النبي ﷺ: « إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم ؛ أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[٤]، فالبخلاء ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ جحوداً بنعمة الله لئلا تظهر في مأكله وملبسه وإعطائه وبذله. والكتمان في الآية كتمان المال، وهذا ما يقتضيه السياق

---

(١) سنن الترمذي (٢٨١٩)، ومسند أحمد (٨٠٤٥).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٦٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ١٩٣).
(٤) سنن أبي داود (١٦٩٨)، ومسند أحمد (٦٧٥٣).

وإن كان عموم فضل الله ﴿ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ يدخل فيه كتمان العلم دخولاً أولياً، ولذلك حمل بعض السلف الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ، وكتمانهم ذلك[1]. ويدخل في من يبخل ويأمر غيره بالبخل المنافقون الذين ورد الحديث عنهم في الآية التالية لهذه الآية، وقال الله فيهم: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[المنافقون: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[2]، أي عذاباً ذا إهانة. وروي في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحرى بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴾[3]. والعبرة بعموم النص.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ الموصول عطف على نظيره ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾. قال الجمهور: نزلت في المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾، والرئاء من النفاق، ولقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ الذي يثاب فيه المطيع ويعاقب العاصي[4]، فقرينهم الشيطان (شيطان الإنس والجن) ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾. والمقصود بيان سوء حال من كان الشيطان له قريناً بإثبات سوء قرينه، إذ المرء يعرف بقرينه.

وحين ينتهي من عرض سوءات نفوسهم، وسوءات سلوكهم، ومن عرض أسبابها من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٦).

(٢) أصل ﴿ أعتدنا ﴾ أعددنا، أبدلت التاء الأولى تاءً لثقل الدالين عند فك الإدغام باتصال ضمير الرفع. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٥٣).

(٣) أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وابن جرير الطبري بسند صحيح عن ابن عباس. انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٨)، وجامع البيان، الطبري (٥/ ٥٥).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٨-٨٩).

الكفر بالله واليوم الآخر، وصحبة الشيطان واتّباعه، ومن الجزاء المعد المهيأ لأصحاب هذه السوءات، وهو العذاب المهين ؛ عندئذ يسأل في استنكار:

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

الإنسان العاقل إذا دعي إلى أمر لا ضرر فيه، ينبغي أن يجيب احتياطاً، ولو كانت المنفعة فيه محتملة، فكيف إذا كانت ظاهرة واضحة ؟! وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعملته العرب في كلامها، ومن ذلك قول من قال:

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق [(١)]

وأيّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله - وهم يعلمون، لو أطلقوا عقولهم من الأهواء والشهوات، أنه الخالق المالك المتصرف- وسلكوا الطريق الحميد، وعدلوا عن الرياء والنفاق إلى الإخلاص لله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله، وينفق مما رزقه الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾؛ فهو عليم بنيتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، فيوفقه ويلهمه رشده، ويقيّضه لعمل صالح يرضى به عنه، وهو سبحانه عليم أيضاً بمن يستحق الخذلان والطرد، ومن طرد عن باب الله، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة [(٢)]. ثم إن الذي ينفقونه هو من رزق الله، إنه ليس من شيء خلقوه لأنفسهم. إنهم ينفقون من رزق الله، ومع ذلك فإن الله يضاعف لهم الحسنة ولا يظلمهم مثقال ذرة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

قد يظن البعض أن الدينار والدرهم هما الرزق ! لا، إنهما وسيلة لتبادل الأرزاق، مع أن الذهب والفضة من خلق الله أيضاً، والرزق الذي ينتفع به الإنسان ؛ غذاءً، أو كساءً، أو استخداماً، إنما هو ما خلقه الله في هذه الأرض من نبات وحيوان ومادة. فإن الذي ينفق ينفق

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٨٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٩٧).

في حقيقة الأمر من رزق الله ؛ ومع ذلك فإن الله يضاعف حسناته ويعطيه أجراً عظيماً في الآخرة فيا له من كرم ! ويا له من فيض إلهي ! ويا لها من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران ؛ فعدل الله متحقق، وكرمه ظاهر في الدنيا قبل الآخرة، ورحمته واسعة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ كقوله سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال النبي ﷺ: « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيُخْرَجون منها قد اسودّوا، فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة، فينبتون كما تَنْبت الحِبَّة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية »[(١)].

وبعد الأوامر والنواهي، والتحضيض والترغيب يأتي مشهد من مشاهد يوم القيامة، عندما يشهد كل نبي على أمته:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: « اقرأ عليَّ »، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: « نعم »، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قال: « حسبك الآن ». فالتفت فإذا عيناه تذرفان[(٢)]، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر: ٦٩].

إنه يمهد لمشهد القيامة، يوم يحل بالذين كفروا المهانة والخزي والندامة، مع الاعتراف

(١) البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٥٠، ٤٥٨٢)، وصحيح مسلم (٨٠٠).

حيث لا جدوى من الإنكار:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

يوم يشهد الأنبياء على أممهم، ونجيء بك يا محمد شهيداً على أمتك، يتمنى الذين كفروا بالله وعصوا رسوله لو سوّاهم الله والأرض، فصاروا تراباً مثلها، كما يفعل بالبهائم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٤٠].

وبمناسبة الأمر بعباده الله والنهي عن إشراك شيء به في قوله: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ يختم المقطع بالبعد عن السكر في وقت الصلاة، ليعقل المصلي صلاته، ويعلم ما يقوله في صلاته كما تتعرض الآية للطهارة قبل الصلاة، والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة، بل هي أصل الدين وعموده:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

روي في سبب نزولها عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً، فدعانا، فأكلنا، وسقانا خمراً قبل أن تُحرَّمَ، فأخذت منا، وحضرت الصلاة، فقدّموني، فقرأت: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾، ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فخلطت، فنزلت: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[1].

(١) سنن الترمذي (٣٠٢٦)، وأبو داود (٣٦٧١)، والطبري في تفسيره (٥/ ٦١) وإسناده صحيح، فإن الراوي عند أبي داود والطبري عن عطاء بن السائب هو سفيان، وقد سمع من عطاء قبل الاختلاط. انظر هامش جامع الأصول (٢/ ٩٢)، وقال عنه الترمذي : حسن صحيح.

في الآية إرشاد لإخلاص الصلاة، التي هي رأس العبادة من شوائب الكدر، ليجمعوا بين إخلاص عبادة الحق، ومكارم الأخلاق التي بينهم وبين الخلق المبينة فيما تقدم. وهو نهي عن القيام إلى الصلاة والشروع فيها قبل أن يكون المصلي صاحياً من السكر، ويعلم ما يقول. فكأنه يقول: لا تصلّوا في حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه، إذ بذلك يظهر أنكم ستعلمون ما ستقرؤونه في صلاتكم، أو بتعبير موجز: حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقرؤونه (١).

وبهذا يتحكم الشارب بوقت الشرب وكميته، ولا يتحكم الشرب فيه ؛ فقد كان المسلمون بعد نزول هذه الآية يشربون ويقللون بعد الصبح، وبعد العتمة (العشاء)، ولا تدخل عليهم صلاة إلا وهم صاحون (٢). حتى نزل تحريمحها في سورة المائدة (٣). لقد كانت الخمر متحكمة في الناس قبل الإسلام، فهي إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة، وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع ؛ كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً من المجتمع الروماني في أوج جاهلية والمجتمع الفارسي أيضاً، إلى المجتمع الأوروبي والأمريكي والأفريقي المتخلف. وثبت ضرر الخمر على الفرد والمجتمع، وحاولت الحكومة الأمريكية مرةً القضاء على هذه الظاهرة، فسنت قانوناً في سنة (١٩١٩م) سمي: قانون الجفاف، من باب التهكم عليه ؛ لأنه يمنع الري بالخمر ! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة (١٩٣٣). وكانت قد استخدمت العقوبات، وجميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات. وفشلت كل هذه الإجراءات وألغي القانون فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني، بين منهج

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٤-٩٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠٣).

الله ومناهج الجاهلية، قديماً وحديثاً على السواء [١]. إن المنهج التربوي الذي جاء به الإسلام هو منهج رباني، نزل من عند خالق الإنسان، فهو سبحانه أدرى بما يصلح الإنسان. إنه منهج يعتمد أولاً، وقبل كل شيء على تحرير النفس البشرية من كل سلطان، وربطها بخالقها العليم بدائها ودوائها، ومن ثم يوجهها خالقها بالتدريج لتقتلع من ذاتها، وبأمر خالقها الذي تؤمن به، كل أمر وفعل يُضرّ بها. فالسلطان سلطان القرآن، والأسلوب أسلوب تربوي رباني.

لقد جاءت الإشارة في التقابل بين السكر والرزق الحسن في القرآن المكي كمجرد لمسة توحي بأن السكر غير حسن في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ ﴾ [النحل: ٦٧]، وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد.

وفي المدينة المنورة حيث قامت للإسلام دولة، وكان له سلطان، لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان، إنما كان سلطان القرآن المنزل من عند الخبير بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية. بدأ القرآن عمله في رفق وسهولة، يلفت النظر في الضمير البشري إلى أن مدار الحل والحرمة، أو الكراهة على رجحان الإثم أو رجحان الخير والمصلحة، فنزل أول ما نزل آية تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر [٢]: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ﴾[البقرة: ٢١٩] وبعد فترة من الزمن نزلت آية النساء هذه ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، ثم لما تمكنوا من ضبط أنفسهم للمحافظة على الصلاة التي هي عماد الدين نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧١-٧٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧٤-٧٥).

﴿ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] (١).

وكما منعت الآية الذين آمنوا أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب حتى يغتسلوا باستثناء حالة العبور، والمعنى لا تصلوا في حال الجنابة حتى تغتسلوا. والجنب: من أصابته الجنابة، يستوي فيه - على اللغة الفصيحة - المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، لجريانه مجرى المصدر، وإن لم يكنه، واشتقاقه من المجانبة، وهي المباعدة؛ فالجنب المباعد للعبادة من الصلاة حتى يغتسل (٢). و﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ هو من العبور؛ أي الخطور والجواز، ومنه عبر السفينة النهر؛ وعابر السبيل هنا الذي يمر في المسجد. ولا نحتاج لأن نقول: إن المراد بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المسجد؛ لأن النهي عن القرب من الصلاة، فيدخل في القرب موضع الصلاة، وليس النهي عن الصلاة فقط، إذْ النهي عن قرب الصلاة أبلغ من النهي عن الصلاة، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباعدة للصلاة، ولمحلها أيضاً (٣). فدخول المسجد (موضع الصلاة) حرام على الجنب إلا في حال العبور، والآية رخصة في مرور الجنب في المسجد إذا كان قصده المرور لا المكث. وروى بعضهم أن سبب الآية أن قوماً من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد، فإذا أصابت أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور في المسجد، فنزلت الآية في ذلك (٤) ويشهد لصحة ذلك ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: « سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر » (٥)، علماً منه ﷺ أن أبا بكر رضي الله عنه سيلي الأمر من بعده

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٠٠)، وانظر حديث عمر وقوله: « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً... الحديث » أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٧).

(٥) وهذا ما قاله في آخر حياته. البخاري (٤٦٧)، وأحمد (٢٤٢٨).

ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه. وعن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: « ناوليني الخُمْرة من المسجد »، قالت: فقلت: إني حائض، فقال: إن حيضتك ليست في يدك »(١)، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها(٢).

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ذكر حالة الرخصة في ترك الاغتسال، وترك الوضوء الذي لم يذكر في هذه السورة وذُكر في سورة المائدة.

والمرض المبيح للتيمم هو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو، أو شينه، أو تطويل البرء. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ؛ فتيممت ثم صليتُ بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: « يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب »، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً(٣).

والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير(٤) ؛ أي سواء كان مما تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر. وهذا مذهب جمهور الفقهاء.

والأسباب التي لا يجد بها المسافر الماء هي: إما عدمه جملة، وإما خوف فوات الرفيق بسبب

---

(١) مسلم (٢٩٨)، والترمذي (١٣٤)، والنسائي (٢٧١، ٣٨٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠١).
(٣) سنن أبي داود (٣٣٤)، ومسند أحمد (١٧٣٥٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

طلبه، وإما خوف على الرجل بسبب طلبه، وإما خوف سباع، أو إذاية عليه أو عطش (١).

فعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط حصول الضرر ؛ وأما السفر، فعدم الماء شرط في إباحة التيمم، وليس السفر بشرط، وإنما ذكر السفر لأن الماء يعدم فيه غالباً (٢).

ويباح التيمم عند المرض أو فقد الماء من الحدث الأصغر والأكبر لقوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾، والغائط هو المكان المطمئن من الأرض، وكانوا يقضون حاجتهم في المكان المنخفض، فكنَّى عن الحدث بمكانه.

وأما قوله: ﴿ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾، فقرئ لمستم، ولامستم. وفي المراد (بالملامسة) قولان:

أحدهما: أنها الملامسة باليد، أو بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه، فالواجب الوضوء.

والثاني: أنها الجماع. وهو الأرجح - والله أعلم - لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الملامسة الجماع، ولكن الله كريم يكني بما شاء، وصح ذلك عن ابن عباس من غير وجه (٣)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ (٤).

وقوله سبحانه: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾. والتيمم في اللغة هو القصد،

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٥٨).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٩١).

(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ٦٥-٦٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٢).

(٤) النسائي (١٧٠)، والترمذي (٨٦)، وأبو داود (١٧٨)، وابن ماجه (٥٠٢)، وأحمد (٢٥٢٣٨). وانظر روايات الطبري عن عائشة وترجيحه في تفسيره (٥/ ٦٧).

والصعيد هو كل ما يصعد على وجه الأرض، فيدخل فيه الرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول الإمام مالك رحمه الله، وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما. ودليلهم ما رواه حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: « فضلنا على الناس بثلاث ؛ جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء »(١) ؛ ولعل كلمة التراب في الحديث لا يقصد منها إلا ما كان من جنس التراب، فالصخور بأنواعها تتفتت وتكون تراباً ؛ ولهذا كانت الأمة الإسلامية مخصوصة بمشروعية التيمم من الأرض دون سائر الأمم، قال رسول الله ﷺ: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس كافة »(٢)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل مع القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تصليَ مع القوم ؟ فقال: يا رسول الله ؛ أصابتني جنابة ولا ماء. فقال: « عليك بالصعيد، فإنه يكفيك »(٣).

وأرشد الله سبحانه إلى كيفية التيمم فقال: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾ ؛ فالتيمم ضربتان: ضربة يمسح المتيمم فيها وجهه، وضربة يمسح فيها يديه إلى المرفقين ؛ وذلك لأن الله سبحانه قال في التيمم هنا: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾، وقال في الوضوء: ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ [المائدة: ٦]، وقال سبحانه في حد السّرقة: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٧]، وكانت السنة في القطع الكفين ؛ قالوا: وحمل ما أطلق هنا على ما قُيّد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية(٤).

---

(١) مسلم (٥٢٢)، وعند أحمد (٧٦٥) : « وجعل التراب لي طهوراً... الحديث ».

(٢) البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٣) سنن النسائي (٣٢١)، وقد أخرجه البخاري في حديث طويل (٣٤٤، ٣٥٧١)، ومسلم أيضاً (٦٨٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٣-٥٠٤).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ تذييل فيه تعليل لما يُفْهِمُه الكلام من الترخيص والتيسير، وتقرير لهما؛ فإنه سبحانه الذي من صفاته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين، لابدّ أنْ يكون ميسراً لا معسراً[1].

وعبادة الله وحده، أو التوحيد الصحيح لا يتحقق إلا في طاعة الله وحده طاعة تامة، مع الإخلاص في الطاعة له سبحانه، وهذا ما يبينه المقطع، كالامتناع عن أكل أموال الناس بالباطل، واجتناب الكبائر، وترك الحسد، والسلوك الأسري الصحيح، والإحسان والتوجه إلى الله في كل شيء وطاعته في كل أمر ونهي، يستوي في ذلك أمور الطهارة وغيرها. كل ذلك يحقق العبادة الصحيحة التي ينال المؤمن بها الجزاء الوافر والأجر الجزيل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: في فتنة العصر - وكل عصر - تظهر قضيتان رئيسيتان هما: الأموال، والمرأة. والآيات تقيم المؤمنين حيث ينبغي أن يكونوا في هاتين القضيتين، وغيرهما، وتربط ذلك كله بالله وطاعته وجزائه في الآخرة.

ب- الأحكام الشرعية: ذكرت الآيات أحكاماً تتعلق بتنظيم الأسرة وربطها بروابط قوية ومعالجة المشكلات التي يمكن أن تقوّض الأسرة وتهدمها.

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: ذكرت الآيات آداب سلوك الزوج مع زوجته، وآداب الزوجة في سلوكها مع زوجها. وانتقلت من ذلك إلى أدب الإحسان بالمال والسلوك في الأسرة الاجتماعية الكبيرة.

د- الجوانب التربوية: تربية النفوس وترويضها على بذل الخير والمال، وتطهير القلب والعقل والأعضاء، وربط ذلك كله بالله العفوّ الغفور.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٩٩-١٠٠).

المقطع الرابع: دور اليهود التخريبي في المجتمع الإسلامي، وأمر الله يقوم على العدل (٤٤-٥٨):

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

بعد الحديث عن حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة، وربط ذلك كله بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر من العبودية لسواه؛ تأتي مجموعة من الآيات في هذا المقطع

ذات شقّين: الشق الأول توضّح الآيات فيه الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتكشف دورهم ليأخذ المسلمون حذرهم. ثم تأتي مجموعة من الآيات تتحدث عن الكافرين والمؤمنين، ثم تأمر بأداء الأمانة، والحكم بالعدل. وكل ذلك متصل بمحور السورة: الأمر بالعبادة لتحقيق التوحيد الصحيح والتقوى.

وهكذا يضيف السياق إلى ماهية العبادة الصحيحة قضيتين رئيسيتين هما: أداء الأمانة إلى أهلها، والحكم بالعدل.

المعنى الإجمالي:

من هذه الآيات في السورة تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية المحيطة بها - واليهود من أهل الكتاب خاصة - تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل.

وفي الحقيقة إن كل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية، ومحو الملامح الجاهلية في المجتمع المسلم ؛ كل ذلك لم يكن بعيداً عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة، وفي الجزيرة عامة. ما سبق من السورة كان معركة البناء للمجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد ؛ كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ويتفوق عليها.

وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولاً إلى بناء هذا المجتمع من داخله؛ لبناء عقيدته وتصوراته، وأخلاقه ومشاعره، وتشريعاته وأوضاعه، إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء. كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة، سواء بسواء. وهي بذاتها معركة الأمة الإسلامية اليوم وغداً في أساسها وحقيقتها [1].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٨٤، ٨٥، ٨٧).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

استئناف لتعجيب المؤمنين من سوء حال أهل الكتاب، والتحذير عن موالاتهم إثر ذكر التكاليف والأحكام الشرعية. والخطاب لكل من يأتي منه الرؤية من المؤمنين، وفيه إيذان بكمال شهرة حالهم (١).

والرؤية هنا رؤية القلب، وهي علم بالشيء ؛ لذلك قال قوم: معناه ألم تعلم.

وروى الطبري بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود - إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢).

يخبرنا الله تعالى عن اليهود أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ؛ فيتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليستبدلوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ولا يكتفون بذلك بل يريدون أن تضلوا السبيل، فتكفرون بما أنزل عليكم، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ وهو يحذركم منهم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ لمن لجأ إليه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ لمن استنصره. والالتجاء إلى الله والاستنصار به يكون باتباع تعاليمه وتوجيهاته سبحانه، ومنها عدم تولي الأعداء ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾، فقوله سبحانه: ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم. ثم بين الجنس الخطير

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/ ٧٤).

من أهل الكتاب وهم الأكثر عداوة فقال: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾، وذكر تصرفاتهم الخطيرة في أساليبهم الملتوية في معركتهم مع أهل الإيمان: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾، فيغيرون نصّه، أو يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصداً منهم وافتراءً على الله، ويقولون سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم من الإثم والعقوبة. ويقولون للنبي ﷺ: اسمع ما نقول لا سمعت؛ وهذا استهزاء منهم واستهتار بسيد المرسلين وقائد المؤمنين، فغير مُسْمَع - الذي لا يتصرف إلا من أَسْمَع - يتخرج فيه معنيان:

أحدهما: غير مأمور وغير صاغر؛ كأنه قال: غير أن تسمع مأموراً بذلك.

والآخر: على جهة الدعاء؛ أي لا سمعتَ، كما تقول: امض غير مصيب، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي ﷺ بـ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أرت ظاهراً أنها تريد تعظيمه، وأرادت في الباطن الدعاء عليه [(١)]، كما يقولون أيضاً: ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ فيوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم ﴿ رَٰعِنَا ﴾، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ. وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ بسبهم النبي ﷺ [(٢)]. و﴿ لَيًّۢا ﴾ أصله لوياً قلبت الواو ياءً وأدغمت [(٣)]. ﴿ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾، أي توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا الكثير، إلا أنه لا يليق ذكره هنا [(٤)].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٧).
(٣) وهو مفعول مطلق، أي قولاً لياً.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٢-٦٣).

وبعد أن يحكي القرآن عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب، والأدب الجدير بهم ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن، والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم، وأنها هكذا كانت، وهكذا تكون [١]:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، ﴿ وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ معناه: أعدل وأصوب، ولكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر ﴿ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أبعدهم عن الهدى، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يستحقون به اسم الإيمان؛ حيث يزعمون أنهم موحدون، ويكفرون بمحمد ﷺ، وبجميع أوامر شريعته ونواهيها [٢].

وصدق الله. فكتلة اليهود ظلت قروناً طويلة، حرباً على الإسلام والمسلمين، منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة المنورة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - من غزوة الأحزاب قديماً، إلى كيد الصليبية والاستعمار بشتى أشكاله حديثاً - إلا كان من ورائه اليهود، أو كان لليهود فيه نصيب !

وعقّب الله سبحانه بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود ؛ منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: « يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٣).

أن الذي جئتكم به لحق »، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا، وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ (١)، والعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

إن القرآن لا يترك فرصة من فرص الموعظة والهدى إلا سلكها، فبعد أن ذكر من عجائب ضلال اليهود، وأقام الحجة عليهم، وهم أهل كتاب، وعندهم العلم والدليل ؛ أمرهم بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ. إنهم يعلمون أن هذا الكتاب المنزل فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ ودينه، فينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به. غير أن اليهود لهم أحقاد وعناد، وطباعهم منحرفة، وقلوبهم قاسية ؛ لذلك يجيئهم التهديد العنيف من الله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ (٢). إنه تهديد ووعيد على أبلغ وجه، بإزالة الخلقة وطمس أثر الحواس في الوجوه، وتتغير معالمها، وتصير منابت للشعر. وأيًّا ما كان الطمس، فهو تهديد مرعب، معادل لما وقع لأصحاب السبت، وهم أهل أيلة، الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وخنازير، وقد بسط الله قصتهم في سورة الأعراف: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [١٦٣-١٦٦]، لذا عطف هنا على طمس الوجوه بـ ﴿ أَوْ ﴾ فقال: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ؛ فإذا أمر بأمر، فإنه لا يُخالف ولا يمانع (٣).

---

(١) رواه ابن جرير الطبري من طريق ابن إسحاق، وهو طريق حسن. الطبري (٥/ ٧٩).

(٢) الطمس: إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾ [المرسلات : ٨]، وقال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [يونس: ٨٨]، أي أزل صورتها، ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [يس: ٦٦]، أي أزلنا ضوْأها وصورتها كما يُطمَسُ الأثر. انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٧-٥٠٨)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٤-٢٤٥).

ثم يأتي تهديد آخر في الآخرة. إنه تهديد بعدم المغفرة لجريمة الشرك، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية لما دون ذلك من الذنوب:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

سياق الآية يتضمن الحكم على اليهود بالشرك ؛ لأنهم مع زعمهم طاعة الله فيما أنزل عليهم من التوراة، مع أنهم حرفوها، وعبدوا الأهواء والشهوات، واشتروا الدنيا بالدين، كما وضحت آيات كثيرة ذلك ؛ مع زعمهم هذا، فإنهم لم يطيعوا الله فيما أنزل على رسوله، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، حيث كانوا يقرون للأحبار والرهبان بحق التشريع، أي حق التحليل والتحريم، وهو الحق الخاص بالله الخالق، والذي هو من خصائص الألوهية، فهم مشركون مع الله طاعة وعبادة غيره، والآية تدعوهم إلى التوحيد الخالص بالطاعة والعبودية لله وحده والتحرر من العبودية لسواه [(١)].

وهذه الآية وإن وردت في سياق تهديد اليهود، إلا أنها عامة في كل العباد ؛ فإنه تعالى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده [(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله ؛ فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه ؛ من صوم يتركه، أو صلاة تركها ؛ فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة » [(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٨).

(٣) مسند أحمد (٢٥٥٠٠).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار »، وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة [(١)]. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى ؛ قال النبي ﷺ: من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار »، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو من دون الله نداً دخل الجنة [(٢)].

ويشنع الله الشرك: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [(٣)]. والآية كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وعن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله ؛ أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك... الحديث » [(٤)]، وهذا الاستئناف في آخر الآية مشعر بتعليل عدم غفران الشرك [(٥)].

ويمضي السياق بذكر المعركة التي يخوضها القرآن بالمسلمين مع أهل الكتاب عامة، ومع اليهود في المدينة خاصة، الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، ويثنون على أنفسهم وهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتطاولون على الله ورسوله، ويعملون على إضلال الناس وإبعادهم عن الحق، فيبين الله كذبهم وكفرهم بإيمانهم بالجبت والطاغوت ؛ فهل هم مقربون من الله بما عملوا من السوء !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ

---

(١) البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢).

(٢) البخاري (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وعند مسلم (٩٣) عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ؛ ما الموجبتان فقال: « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار »، وروى مسلم عن أنس بمثله.

(٣) الافتراء: الكذب الذي لا شبهة للكاذب فيه ؛ لأنه مشتق من الفري، وهو قطع الجلد، والإثم العظيم: الفاحشة الشديدة. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٨٤).

(٤) البخاري (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١)، ومسلم (٨٦)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١١).

(٥) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٠٧).

يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

لا شك أن ظاهر لفظ الآية الأولى العموم، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، يدل على أنّ الإنسان لا يزكي نفسه بلسانه، بل الزاكي من حسنت أفعاله وزكّاه الله عز وجل، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد بالآية اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكّوا به أنفسهم على أقوال:

قال البعض: ذلك قولهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال آخرون: هو قولهم: لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهاراً غُفِر لنا ليلاً، وما فعلناه ليلاً غفر لنا نهاراً، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب [(١)]، ولعلهم كانوا يزكون أنفسهم بكل ذلك، ويكفي ما يزعمون أنهم شعب الله المختار. وفي الواقع هم بلاء على شعوب الأرض كلها في العصر الحاضر.

وقد ذم النبي ﷺ الإكثار من المدح لئلا يؤدي بالممدوح إلى الكبر، فعن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد بن عمرو يَحثِي عليه التراب، وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثيَ في وجوه المداحين التراب [(٢)]، وعن أبي بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ، فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: « ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يزكي على الله أحداً » [(٣)].

ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ ؛ فالمرجع في التزكية إلى الله عز وجل ؛ لأنه العالم بحقائق الأمور وغوامضها، فهو سبحانه لا يظلم أحداً حقه، ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٤٦).
(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٢)، والترمذي (٢٣٩٣)، وغيرهما.
(٣) البخاري (٦٠٦١، ٦٠٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، وهو ما يكون في شق النواة.

والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم ﴿ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ في تزكيتهم أنفسهم، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزئ عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وكفى بصنيع هؤلاء اليهود كذباً وافتراءً ظاهراً.

وينبغي هنا أن نلتفت إلى أنفسنا نحن المسلمين، فإذا فسدت أعمالنا وأقوالنا، وتركنا الاحتكام إلى شرع الله في كل أمورنا، ثم تفاخرنا بأننا مسلمون، والإسلام بريء من الظلم والفساد في الأرض. إذا فعلنا ذلك نكون قد اتبعنا سنن اليهود والعياذ بالله تعالى.

ويمضي السياق في التعجيب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم، بينما هم يؤمنون بالباطل ويشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويوحدونه ويؤمنون بكتابه المنزل، ورسوله المرسل بالبينات التي يعلمونها أكثر من غيرهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

الجبت كلمة تقع على الصنم والساحر والكاهن ونحو ذلك، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: « إن العيافة والطرق والطِيرَة من الجبت » (١)، والطاغوت مشتق من الطغيان، قال الإمام مالك: هو كل ما يُعبد من دون الله عز وجل.

(١) قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يُخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: إنه الشيطان. مسند أحمد (٢٠٠٨١، ١٥٤٨٥).

فهؤلاء اليهود يعتنقون عبادة الأهواء والمصالح، ويكفرون بالله ليصلوا إلى غايتهم في تأليب المشركين على أهل الإيمان، فدينهم: الغاية تبرر الوسيلة؛ لذلك نرى اليهود يعظمون غير الله، ويقولون لأهل الشرك وعبّاد الأصنام: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ من أجل أن يحرضوا أهل الشرك على أهل التوحيد، ويصلوا إلى غايتهم في تدمير المسلمين ودينهم [١]؛ وفعلاً إنهم بعملهم هذا وإغراءاتهم المادية للمشركين دفعوهم لحرب المسلمين، حيث وعد اليهود أهل الشرك أن يمدوهم بالمال لحرب محمد ﷺ، وطاف وفدهم في الجزيرة العربية، وكان لهم ما أرادوا فحزبوا الأحزاب. ولأول مرة في تاريخ العرب يتحدون تحت قيادة أبي سفيان، وبتوجيه وتمويل يهودي لحرب الإسلام والمسلمين، وكانت غزوة الأحزاب، وكانت أشق وأكبر وآخر غزوة على المؤمنين، غير أن أهل الشرك واليهود خذلوا وخسروا أموالهم التي أنفقوها ليصدوا عن سبيل الله؛ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وسبب النزول يوضح ذلك؛ فعن ابن عباس قال: كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن أبي الحقيق، وأبو عامر، ووحوح بن عامر، وهودة بن قيس، فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير؛ فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوا أدينكم خير أم دين محمد، فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ [٢].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، وهو طريق حسن، وكذا روى ابن=

ولهذا لَعَن الله اليهود، وأخبر بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، ويستجيشونهم على حرب محمد ﷺ [(١)]. وها هم الآن في هذا الزمان، وفي كل عصر يستنصرون بالناس من أهل الكفر ويستجيشونهم لحرب الإسلام والمسلمين بأساليب كثيرة ومتعددة.

وتشرع الآيات بعد ذلك في تفصيل بعض آخر من قبائحهم، فتستنكر موقفهم من النبي ﷺ، وحسدهم إياه على ما آتاهم الله من فضله:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس نقيراً، وهي النقطة التي في النواة، وذلك لشدة بخلهم وإمساكهم [(٢)]. وهو كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها، بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، وهو محمد ﷺ، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. فلمَ يحسدونه ولا يحسدون آل إبراهيم عز وجل في جميع ما آتيناهم مما أوتي موسى وداود وعيسى، ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ كملك سليمان وداود عليهما السلام، وآتيناهم مع ذلك الحكمة ؛ وهي الفهم في الدين، وما يكون من الهدى مما لم تنص عليه الكتب المنزلة.

فمنهم من آمن بالقرآن المنزل على محمد ﷺ. والجمهور على أن الضمير ﴿ به ﴾ عائد على القرآن الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾، فأعلم الله سبحانه أنّ منهم من آمن كما أمر الله؛ فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس

= جرير من طرق بنحوه عن كعب بن الأشرف وغيره. جامع البيان، الطبري (٥/ ٨٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٣).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

ولم يقع، وصدَّ قوم ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾.

وعقب ذكر الإيمان من بعض بني إسرائيل، والصد عن الإيمان تأتي القاعدة الشاملة للجزاء. جزاء المكذبين وجزاء المؤمنين، في كل دين، وفي كل حين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

تهديد ووعيد لجميع الكافرين، فهي أعم مما قبلها، فلها حكم التذييل. والإصلاء: مصدر أصلاه، ويقال: صلاهُ صلياً، ومعناه شيّ اللحم على النار [١]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، أي كلما احترقت جلودهم وتلاشت، من نضج اللحم نضجاً، إذا أدرك [٢].

إنه مشهد لا يكاد ينتهي. مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال ولا ينصرف عنه! إنه الهول، وللهول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد ﴿كُلَّمَا ﴾، ويرسمه كذلك عنيفاً مفزعاً بشطر جملة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾، ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة: ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾، فجعل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد ! [٣]

وعلل ذلك بقوله: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾، فالجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس، والتعليل مشعر أيضاً بدوام العذاب وعدم انقطاعه، ولأن التعبير عن إدراك العذاب بالذوق، من حيث إنه لا يدخله نقصان بدوام الملامسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه فالقوة الذائقة أشد الحواس تأثيراً. وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٥٣).
(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠٠).

حَكِيمًا ﴾؛ وهذا واقع موقع التعليل لما قبله ؛ فالعزّة يتأتى بها تمام القدرة على عقوبة من يجترئ على الله سبحانه، والحكمة يتأتى بها تلك الكيفية في إصلائهم النار.

وفي مقابل بيان سوء حال الكفرة يأتي بيان حال المؤمنين لزيادة الغيظ للكافرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾. وفي اختيار السين ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ ﴾ تأكيد للوعد، وفي اختيار سوف في آية الكفر ﴿ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ﴾ من تأكيد الوعيد ما لا يخفى.

ونجد في المشهد ثباتاً وخلوداً مطمئناً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، واقتصر من نعيم الآخرة على لذة الجنات والأزواج المطهرة من الحيض والنفاس، وسائر المعايب والأدناس، والأخلاق الدنيئة، والطباع الرديئة ؛ لأن الجنات والزوجات الصالحات أحب اللذات المتعارفة للسامعين، وعطف على ذلك روح الظلال النديّة ؛ يرف على مشهد النعيم ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ دائماً لا تنسخه الشمس، ندياً لا حرّ فيه ولا قر [1].

ويختم المقطع بأمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ؛ فهذا هو أمر الله وشرعه الذي يعارضه الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، فهم لا يريدون العدل، ولا يحبون من يردهم عن غيّهم وطغيانهم:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

إن ما استطرد من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه، وليّهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من السبّ، وافترائهم على الله الكذب، وحسدهم بإنكار فضل الله إذ آتاه الرسول والمؤمنين ؛ كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، وهي أمانات معنوية،

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١١١-١١٢).

فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسية إلى أهلها [١]، بالإضافة إلى وظيفة الأمة المسلمة في الأرض، من إقرار مبادئ العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم.

وإذا كان أكثر المفسرين ذكروا أن سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ قبض من عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة، فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح. وطرق الرواية كلها إلى التابعين [٢]، والعبرة بعموم النص ؛ وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع، وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » [٣]، وأكد النبي ﷺ الأمر بأداء الأمانة فقال: « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك » [٤].

والحكم بالعدل الذي يأمر الله به المسلمين إنما هو عدل مطلق شامل، وهو بين الناس جميعاً، لا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا هو عدل بين أهل الكتاب، إنما هو المنهج الرباني الذي يقرر الحكم بالعدل بين الناس جميعاً ؛ المؤمن والكافر، والصديق والعدو، والأسود والأبيض ؛ لأنهم جميعاً « ناس »، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر، فكانت بمنزلة

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٩٠).

(٢) وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن مردويه، فهو من طريق الكلبي، وهي طريق ضعيفة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

(٤) رواه الترمذي (١٢٦٤)، وأبو داود (٣٥٣٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٥).

التعليل[1]. والتعبير يقدم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾، ويجعله اسم ﴿ إنّ ﴾، لتربية المهابة في النفوس وليوحي بشدة الصلة بين الله وهذا الذي يعظهم به. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ بجميع المسموعات ومنها أقوالكم، ﴿ بَصِيرًا ﴾ بكل شيء، ومن ذلك أفعالكم، ففي الجملة وعد ووعيد[2].

ويبرز في هذا المقطع ارتباطه بمحور السورة بأن التوحيد الصحيح إنما يكون بنبذ الشرك والتحرر من العبودية لغير الله تعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: سبيل النجاة العبودية والطاعة لله وحده والتحرر عن العبودية لسواه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: وجوب أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل.

ج- الأخلاق الإسلامية تقتضي أداء الأمانة لأهلها، والعدل المطلق في الحكم بين العدو والصديق ؛ فالقرآن ينشئ خير أمة أخرجت للناس.

د - الجوانب التربوية: تظهر التربية الإسلامية في هذا المقطع بالعلم بالواقع على حقيقته، وذلك بتعريف الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها، ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة الباردة حالياً، والساخنة فيها بعد، بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة. ولهذا وردت آيات كثيرة في هذا المقطع توضح الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتربي نفوس المسلمين، بتعريفهم طبيعة المعركة، وطبيعة الأعداء في الداخل والخارج من اليهود، ويأتي الحديث عن الأعداء في الداخل من المنافقين بعدُ.

---

(١) و﴿ نعما ﴾ أصله : نِعْمَ ما، بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة، وأدغم الميمان، وحركت العين الساكنة بالكسر لالتقاء الساكنين. والوعظ : التذكير والنصح، وقد يكون فيه زجر وتخويف. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ٩٦).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١١٥).

المقطع الخامس: أساس الدين وحقيقة الإيمان طاعة الله ورسوله (٥٩-٧٠):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

إذا كان المقطع السابق قد عرّف الجماعة المسلمة طبيعة الأعداء في داخل المجتمع المسلم من اليهود، فهذا المقطع يبين طبيعة نوع آخر من الأعداء في الداخل وهم المنافقون؛ مبتدئاً ببيان أنّ حقيقة الإيمان تكون في طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً.

المعنى الإجمالي:

إذا اشترى أحد سيارة أو جهازاً ميكانيكياً أو كهربائياً، فإنه لا يتصرف في الجهاز إلا تبعاً للتعليمات التي يضعها صانع الجهاز (الكتلوك)، وإلاّ فإنه يفسد الجهاز، ولا يتمكن من الاستفادة منه، فكذلك من يعقل (يستعمل عقله) يدرك أنه لابد من اتباع التعليمات التي ينزلها خالق الإنسان والكون والحياة، فهو العالم بمن خلق، وبمصلحة من خلق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، وهل تُستنبط تلك التعاليم مما تحكم به عقول الناس أو أهواؤهم ؟!

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان. هذا حق، ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات، في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات. ليس هناك ما يسمَّى « العقل البشري » كمدلول مطلق ! إنما هناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان ما، وفي زمان ما. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى ؛ تميل بها من هنا، وتميل بها من هناك.

ولابدّ من ميزان ثابت ترجع إليه هذه العقول الكثيرة، فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها، ومدى الشطط والغلوّ، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان الثابت، الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات.

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين، فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها فتختل جميع القيم، ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر، لسائر القيم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة [1]:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٠٩-١١٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

طاعة الله سبحانه وحده لا شريك له، والتحرر عن العبودية لسواه، أساس الدين فالله خالق الإنسان، والحياة، والكون الذي يعيش فيه الإنسان، وهو سبحانه العليم بما يصلح الإنسان والكون، والعليم بما يُسعد الإنسان، وطاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله ؛ لأنّه المبلغ أمر الله وشرعه. فلا إيمان بالقرآن، ولا إيمان بالرسول ﷺ، ولا إيمان بالله، إلا بالطاعة لله والرسول. وطاعة الرسول بعد وفاته اتباع سنته.

وعطف سبحانه طاعة أولي الأمر على طاعة الله والرسول، ولم يقل: ﴿ وأطيعوا أولي الأمر﴾ ؛ لأن طاعة أولي الأمر طاعة تنظيم لا طاعة عبوديّة، بخلاف طاعة الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يخطئ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وظاهر قوله: ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ عام في كل أولي أمر من الأمراء والعلماء. ومن المعلوم أن من يقيم أحكام الله على من يتولى أمرهم لابد أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون على جانب كبير من التقوى والإيمان، فلا يكون من المنافقين أو الكافرين ؛ لأن الله قيد ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ بقوله: ﴿ مِنكُمۡۖ ﴾ ؛ فلا ولاية لغيركم عليكم [١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية [٢]. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني، قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٨)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤)، وأخرجه أصحاب السنن إلا ابن ماجه.

فقال: « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف »[١].

فطاعة الأمير واجبة بنص القرآن، وبأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في غير معصية الله عز وجل: لأنها طاعة تنظيم - كما ذكرت قبل قليل - لا طاعة عبادة، وقال النبي ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة »[٢]. وإذا وصل الأمر بالأمير إلى الكفر الواضح انقطعت بيعته، فلا طاعة له، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان »[٣].

وهذه الطاعة التنظيمية للأمير لابدّ منها من أجل جمع كلمة المسلمين، وإقامة شرع الله فيهم، كما أن اجتماعهم على أميرهم يحقق وحدتهم وقوتهم، لهذا أكد النبي ﷺ على الطاعة، كما أكدّ البيعة ووحدة الجماعة؛ قال رسول الله ﷺ: « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية »[٤]، وقال النبي ﷺ: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »[٥].

وإن اختلف المسلمون فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين أميرهم فعليهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، ومن لم يرض بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله اختلّ إيمانه، لقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾. ويكون الرد إلى الكتاب والسنة بأخذ الحكم منهما أو من أحدهما إن ورد الحكم صريحاً فيهما، أو يكون الرد باستنباط الحكم منهما بالقياس العام أو الخاص عليهما، كما قال

(١) البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).
(٢) رواه البخاري (٧١٤٤، ٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).
(٣) البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).
(٤) البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).
(٥) رواه مسلم (١٨٥٤).

تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] وهذا يؤكد أن أولي الأمر هم العلماء، أو ينبغي أن يكونوا من العلماء. وردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم في العاجل، وأحسن عاقبة في الآجل، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [1]. فليست المسألة أن اتباع حكم الله وأمره يؤدي إلى رضاء الله وثواب الآخرة - وهو أمر عظيم مطلوب لذاته - ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا، وحسن مآل الفرد في الجماعة في هذه الحياة القريبة.

وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية في شرط الإيمان وحدّ الإسلام، وفي النظام الأساسيّ للأمة المسلمة، وفي منهج تشريعها وأصوله، يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحدّ الإسلام حين يتركون طاعة الله ورسوله، ويريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله، ويرضون بحكم طاغوت من الطواغيت التي أمروا أن يكفروا بها [2]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما ورد في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٦١-٢٦٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٢، ١١٣).

تخاصما فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. والآية عامة، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت في قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [(١)]، وكيف يتحاكمون إلى الطاغوت ﴿ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾، فهؤلاء الذين يتحاكمون إلى الطاغوت بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]، ثم قال سبحانه مبيناً إضلال الشيطان لهم ؛ لأنهم أطاعوه فاستعبدهم: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾، أي بعيداً عن الحق. ثم قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾، أي تعالوا إلى حكم الله وحكم رسوله ﴿ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾، أي يُعرضون عنك إعراضاً [(٢)]. ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾، أي كيف يصنعون ويحتالون إن أصابتهم عقوبة من الله بسبب ردهم حكم الله ورسوله، أو بسبب معاصيهم المتقدمة، ثم جاءوك يا محمد، ويا من تحكم بالحق الذي أنزله الله بعد محمد ﷺ، جاءوك يعتذرون إليك في احتكامهم إلى غير الله ورسوله، ويقولون ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحساناً بالتقريب في الحكم وتوفيقاً بين الخصوم، وقد تكون المصيبة التي تصيبهم ظلم يقع عليهم ؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت، في قضية من قضاياهم.

وقد تكون المصيبة التي تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة حيث يصبحون معرضين للنبذ والازدراء في الوسط المسلم. وأياً ما كان سبب المصيبة، فإنهم يبررون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٩)، والطاغوت الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلال. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٨٢)، وقد أورد الطبري بأسانيد كثيرة يقوي بعضها بعضاً روايات سبب النزول، مفادها ما ذكر ابن كثير من الخصومة بين يهودي ومنافق. انظر جامع البيان، الطبري (٥/ ٩٦-٩٨).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٣٩).

تصرفاتهم بتبريرات كاذبة، ليخفوا ما في قلوبهم من كرههم لما أنزل الله وحبهم للطاغوت [١] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد: ٩]. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والزيغ عن الحق، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾، ولا تعاقبهم، ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾، انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم، فيه من الترغيب والترهيب ما يصلح نفوسهم إذا شاء الله لهم الهداية [٢].

فالقرآن يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله، بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت، ومن الصدود عن الرسول وسنته حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول. فالتوبة بابها مفتوح، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد، واستغفارهم الله من الذنب، واستغفار الرسول لهم فيه القبول. ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية، وهي أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا بإذنه، لا يخالف أمرهم [٣]:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

هذه حقيقة لها وزنها. إن الرسول ليس واعظاً أو ناصحاً يلقي كلمته ويمضي ؛ إنما هو مرسل من قبل الله الخالق ليبلغ الناس أوامر خالقهم وتعاليمه، التي تحررهم من العبودية للمخلوق، وترسم لهم المنهج الذي يصلح أمورهم، ويحقق لهم السعادة في الدنيا قبل الآخرة.

إن الدين الذي أرسل الله به الرسل هو منهج حياة واقعية بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وشعائرها. وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ [٤].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٦).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٢٠-١٢٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٧).

(٤) المرجع السابق.

وأمام الذين ﴿ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بميلهم عن منهج الله الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ﷺ، ورغبهم فيها. وهي أن يأتوا رسول الله ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويستغفر لهم الرسول. والله تواب في كل وقت على من يتوب، رحيم في كل وقت بعباده، فالذين يتناولهم هذا النص ابتداء، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ، وبقي باب التوبة مفتوحاً لا يغلق، ووعد الله قائماً لا يُنقض، لمن ثاب إلى رشده، وأقبل على هدي رسول الله ومنهجه الذي أنزله الله.

ثم يأتي الإيقاع الحاسم الجازم، فيقرر الله سبحانه شرط الإيمان وحدّ الإسلام، يقرره سبحانه بنفسه، ويقسم عليه بذاته:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾.

هذه حقيقة كليّة من حقائق الإسلام، جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد، وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام، بأن تحكيم الرسول هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه، وهو صلوات الله وسلامه عليه، مبلغ شرع الله سبحانه - بقرآنه المتلو وبسنته القولية والعملية- وكل ذلك وحي من الله، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣-٤].

وقد روي عن عبد الله بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراج الحَرَّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماءَ يمرّ، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابنَ عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْرِ، فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى

يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ [١].

يقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به هو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [٢]، أي يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة [٣].

ثم بين سبحانه أن شرعه ودينه لا يكلف الناس ما يخرج عن حدود الطاقة:

﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ ﴾.

ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها، ما فعلوا ذلك؛ ما قتلوا أنفسهم، ولا خرجوا من ديارهم طاعة لله ورسوله، إلا قليل منهم [٤]. وقد أطاع المهاجرون أمر ربهم وأمر رسوله، فتركوا ديارهم وأموالهم، وخرجوا إلى الله ورسوله، وهم

---

(١) البخاري (٢٣٦٠-٢٣٦٣، ٢٧٠٨، ٤٥٨٥)، ومسلم (٢٣٥٧)، وأصحاب السنن. والشِراج : جمع شَرْج - بسكون الراء - وقيل : شَرج - بفتحها -، والمراد بها هنا مسيل الماء. والجَدْر - بفتح الجيم وسكون الدال - هو المسناة، وهو ما وضع بين شربات النخل كالجدار، وقيل : الحواجز التي تحبس الماء. قال القرطبي : والمعنى أن يرجع الماء إلى أصول النخل. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٤٦٠، ٤٦٢).

(٢) شجر : اختلط والتفّ من أمورهم، وهو من الشجر شبيه بالتفاف الأغصان. والحرج : الضيق والتكلف والمشقة. انظر : المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٠).

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري (٥/ ١٠١).

قليل بالنسبة لأهل الكفر والنفاق، وقد كتب الله على قوم موسى أن يقتلوا أنفسهم، ولم يكن هذا شرعاً ومنهجاً، إنما كان عقوبة لشركهم وعبادتهم العجل، فهو وضع خاص لقوم قست قلوبهم كما قال تعالى فيهم: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[البقرة: ٧٤]، إن هذا المنهج الرباني لينهض به كل ذي فطرة سوية، إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر، وهذا الدين لم يجئ لهذه القلة القليلة، إنه جاء للناس جميعاً، والناس معادن وألوان وطبقات من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف. وهذا الدين يسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه، وأن يكفّوا عن المعاصي التي نهى عنها ؛ حتى تتحقق لهم السعادة جميعاً في هذه الحياة الدنيا، فالله أدرى بمصالح مخلوقاته، وبما يسعدهم، فهو سبحانه يريد خيرهم، ولا يريد أن يشق عليهم.

ما هي إلا عزيمة الفرد العادي، وإخلاص النية لله، والبدء بالعمل، وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين[١]: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾، لو أن المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتحاكمون إلى الطاغوت فعلوا ما يذكّرون به من طاعة الله، والوقوف مع أمره، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به، لكان خيراً لهم من مخالفة أمره سبحانه، وأشد تصديقاً[٢] فمجرد البدء بالعمل يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في سلوك الطاعة والبعد عن العصيان، ويتبعه الأجر العظيم من الله في الجنة، ومعه الهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾[٣].

وفي نهاية المقطع يعود السياق ليرغب النفوس، ويستجيش القلوب للمتعة بصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة، ويقرر أن ذلك يكون بطاعة الله والرسول ﷺ:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٢٠-١٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢).

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

لما ذكر الله سبحانه الأمر الذي لو فعلوه لأنعم عليهم، ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله. وهذه الآية تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١).

فمن عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه عنه الله ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى سبحانه عليهم فقال: ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: « إنه لم يُقبض نبي قطّ حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحيّا أو يُخيّرُ »، فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصرُهُ نحو سقف البيت، ثم قال: « في الرفيق الأعلى »، فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح » (٢). ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، فهو سبحانه أهلهم لذلك لا بأعمالهم، وهو سبحانه عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق (٣).

وروي عن التابعين آثار في سبب نزول هذه الآية، فعن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: « يا فلان، مالي أراك محزوناً؟ »، قال: يا نبي الله، شيء فكّرت فيه، فقال: « ما هو ؟ »، قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٦).

(٢) البخاري (٤٤٣٧)، وفي أخرى (٤٤٣٨): «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، وعند مسلم (٢٤٤٤): إذاً لا يختارنا.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢، ٥٢٤).

وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾، قال: فبعث إليه النبي ﷺ فبشره، وعن الربيع بن أنس: قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ قال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة، ممن اتبعه وصدقه، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً، فأنزل الله في ذلك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: « إن الأعلين ينحدرون إلى من هم أسفل منهم، فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه »[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة يتراءون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدّرّي الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: « بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[(٢)]، وطاعة الله والرسول صلوات الله عليه وسلامه في منهج الله كله، قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »[(٣)].

والمقطع بمجمله هو محور السورة، إذ يبيّن أن أساس الدين وحقيقة الإيمان والعبودية الطاعة لله ورسوله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- **قضايا العقيدة:** حقيقة الإيمان تكون بطاعة الله ورسوله. وطاعة أولي الأمر من المسلمين طاعة تنظيم، إنما هي في غير معصية الله ورسوله، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم.

ب- **الأحكام الشرعية** تستنبط من الكتاب والسنة، وإذا جدّ أمر أو حصل خلاف فعلى المسلمين

---

(١) روي الأثر الأول مرسلاً عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي وقتادة، وأحسنها سنداً الرواية عن الربيع بن أنس. تفسير ابن جرير (٥/ ١٠٤).

(٢) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الدارمي (٢٥٣٩).

أن يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

ج- **الأخلاق الإسلامية والآداب:** تستقر أخلاق المسلم على الصدق في القول والعمل، فلا يحتكمون لغير ما أنزل الله على رسوله، لأنهم تحرروا ظاهراً وباطناً من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

د - **الجوانب التربوية:** تربية النفوس وترويضها على التحرر من النفاق، وأن تكون الطاعة خالصة لله ورسوله.

المقطع السادس: قتال أعداء الحق ضروري لتحرير المستضعفين وحماية الحق، وهدف الجهاد تحرير الإنسان (٧١-٩٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا
يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ
ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ
إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً
يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾
وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا
﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ
أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ
فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن
يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ
لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ

إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

وجه اتصال المقطع بما قبله:

إنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بإحياء دينه وإعلاء دعوته في الخارج[١]، لتحرير الناس من تسلط الطواغيت، كما أمر من قبل بطاعته وتحرير النفس من العبودية لغيره.

المعنى الإجمالي:

القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة. وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية القديمة والحديثة، كما يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ضد الضعف البشري؛ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف. وكان -وما زال- القرآن يسوسها بمنهجه الرباني لتصل إلى مرتبة القوة، ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم لتصدّ أعداءها في الداخل والخارج [٢]، فالمقطع يبين محل القتال في التقوى، بعد أن بيّن أن التقوى في طاعة الله والرسول. كما يوضح للمسلمين معالم القتال وهدفه ؛ فهو في سبيل الله، لا في سبيل الطاغوت، وهدفه النبيل تحرير المستضعفين، لا التسلط على العباد.

تشير الآية الأولى إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين، وليس في كلام السلف ذكر سبب نزولها، ولا شك أنها لم تكن أول غزوة ؛ لأن غزوة بدر وقعت قبل هذه السورة، وكذلك غزوة أحد التي نزلت فيها سورة آل عمران ؛ وليست نازلة في غزوة الأحزاب ؛ لأن قوله: ﴿ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ ﴾ يقتضي أنهم غازون لا مغزوّون، ولعلها نزلت لمجرد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٠).

العدوّ، والتحذير من العدوّ الكاشح، ومن العدوّ الكائد، ولعلها إعداد لغزوة الفتح، فإن هذه السورة نزلت في سنة ستّ، وكان فتح مكة سنة ثمان، ويدلّ لذلك قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

وابتداء الأمر بأخذ الحذر من العدوّ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله. وأخذ الحذر أكبر قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء[١]. ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾، اخرجوا مُجدّين مصممين[٢]، سرية بعد سرية، أو نفيراً عاماً ينفر به الجميع إذا لزم الأمر[٣].

ثم بين سبحانه أن ممن يخالطون المؤمنين ويتظاهرون بالإيمان، أناساً يتخلفون عن القتال في سبيل الله، فيتباطؤون عنه، ويبطئون غيرهم، ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ من قتل أو استشهاد وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أو على أن الموت كله مصيبة كما شاءه الله تعالى: ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة لحسن مآلها؛ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ سرّه عدم حضور القتال مع المؤمنين وعدّه نعمة من نعم الله عليه. إنهم ينظرون إلى القتال من خلال المصلحة المادية، فإذا رأوا المسلمين أصيبوا فرحوا، وإن رأوهم غلبوا وغنموا تمنوا أن يكونوا معهم ليصيبوا من الغنائم، ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي لم تكن بينكم وبينه معرفة ووداً؛ فلا مودة في الدين والولاء. وهذا الاعتراض من كلام الله تعالى، لئلا يتوهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/ ١١٧).
(٢) يقال: نَفَر الرجل ينفِر - بكسر الفاء - نفيراً، ونفرت الدابة تنفُر - بضم الفاء - نفوراً، والمعنى انهضوا لقتال العدو، وثبات: معناه جماعات متفرقات، كناية عن السرايا، وجميعاً: الجيش الكثيف. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٤).
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٧).

من مطلع كلامه: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ ﴾ أن تمنيه المعية للنصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من المودة، بل هو للحرص على حطام الدنيا، كما ينطق به آخره، فإن الفوز العظيم الذي عناه هو ذلك، وليس إثبات المودة بطريق التحقيق، بل بطريق التهكم [١]. ويظهر التعبير القرآني أن المنافق يعتبر نفسه صنفاً آخر منفصلاً عن المؤمنين في المودة والولاء والأهداف.

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان، يرتسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان في كل زمان ومكان في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن !

ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبداً ؛ وهي أن الصفّ قد يوجد فيه أمثال هؤلاء، فلا ييئس من نفسه، ولكن يأخذ حذره ويمضي، ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد أن يكمل النقص، ويعالج الضعف، وينسق الخطى والمشاعر والحركات.

ثم يمضي السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين ! وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى الآخرة التي هي خير وأبقى، وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة ويعدهم على ذلك فضل الله في الحالتين، وإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة [٢]:

﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ ﴾.

﴿ يَشۡرُونَ ﴾ [٣] يصلح أن يكون الأمر للمنافقين وللمؤمنين؛ لأن شرى من الأضداد؛ فهو أمر للمنافقين أن يقاتلوا في طاعة الله، بدل أن يختاروا الدنيا على الآخرة. ويمكن أن يقال أيضاً إنه خطاب للمؤمنين ؛ فليقاتل المؤمنون الكفارَ، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة [٤].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٢٧)، وتفسير السمرقندي (١/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) شرى يشري شراءً من الأضداد ؛ إذا باعه، وإذا اشتراه أيضاً. والعرب تقول لكل من تمسّك بشيء وترك غيره اشتراه. لسان العرب (١٤/ ٤٢٧).

(٤) تفسير السمرقندي (١/ ٣٤٣).

وتؤكد الآية على أن يكون القتال في سبيل الله. إن المؤمن لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على الناس ؛ ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات.

والمؤمن أيضاً لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة ولا لمجد جنس؛ إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض [١]، وبتعبير أوضح: يقاتل لتحرير الناس من الخضوع والعبودية للطواغيت. جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [٢]. وإذا قاتل الرجل بقصد آخر غير إعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة، ثم قتل لا يكون شهيداً، ولو سمّاه بعض الناس شهيداً، فهو افتراء على الله، والنصوص تدل على أنه ليس بشهيد، وليس له أجر الشهداء، بخلاف من قصد إعلاء كلمة الله، فله الأجر العظيم (عظيم ؛ هكذا بدون تحديد)، أيٍّ من الحالين: إن قتل شهيداً، أو إن عاد غانماً: ﴿ وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: « تضمّن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي - فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أَرْجِعَهُ إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يُكلَم في سبيل الله إلا جاءَ يومَ القيامة كهيئته حين كلم ؛ لونه لون دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سَعَة فأحملهم، ولا يجدون سَعَة، ويشقّ عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوَدِدْت أني أغزو في سبيل الله فأُقْتَلُ، ثم أغزو فأُقْتَل، ثم أغزو فأقتل » [٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٢٨١٠، ٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) مسلم (١٨٧٦)، وعند البخاري (٣١٢٣): « تكفل الله لمن جاهد في سبيله... إلى : من أجر أو غنيمة».

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين ؛ وينتقل من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطئين إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها، ليبين لهم هدف القتال، وأنه تحرير المستضعفين من تسلط الطواغيت المتسلطين:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

يحرض الله المؤمنين على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المستضعفين بمكة المكرمة؛ من الرجال والنساء والأطفال، المتبرمين من المقام بها لتسلط أهلها وظلمهم، بمنعهم المؤمنين من أخذهم حريتهم في عبادتهم لربهم. هؤلاء المستضعفين الذين يتوجهون إلى ربهم بالدعاء: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ يتولى أمر استنقاذنا وتحريرنا، ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ ينصرنا على هؤلاء المتسلطين [١]. وليس لهؤلاء المستضعفين حيلة إلا الدعاء[٢]. قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء: ٩٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء » [٣].

فالآية تبين بشكل واضح أن القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهدفه تحرير الناس من ظلم الظالمين وتسلط المتسلطين ؛ لأن الآية تتناول المؤمنين والأسرى وحواضر الشرك إلى يوم القيامة [٤].

وإذ تقرر بهذا الأمر القتال وضرورته للتحرير، بيّن اللهُ بعد ذلك الفارق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٥).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).
(٣) البخاري (١٣٥٧، ٤٥٨٧).
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

فالمؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه لتحرير الإنسانية من الطاغوت، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ومقاصده ؛ شيطان الإنس والجن، ثم هيّج الله المؤمنين على قتال أعدائه أولياء الشيطان [(١)]، مبيناً سبحانه أن مكر الشيطان وكيده، وكيد حزبه وأنصاره، كل ذلك ضعيف إذا وُجِد الجهاد في سبيل الله. وهذا تقوية من الله لقلوب المؤمنين، وتجرئة لهم على مقارعة الكيد الضعيف ؛ فإن الحزم والعزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهده ودخلت كان ﴿ كان ضعيفاً ﴾ لتدل على لزوم صفة الضعف [(٢)].

أما إذا لم يقم المسلمون بواجب الجهاد فياخسارتهم في الدنيا والآخرة ؛ في الدنيا تسلط الأعداء، وفي الآخرة عقاب الله لمن ترك طاعته وامتثال أمره. وربما أدّى ذلك إلى النفاق، كما ورد في الحديث: « من مات ولم يَغْزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق » [(٣)].

ثم يلفت الله عز وجل نظر رسوله ﷺ، ونظر المؤمنين إلى تصوّر خاطئ عند بعض الناسالذين يظنون أن الإسلام صلاة وزكاة فقط دون قتال، تصور الذين هم مستعدون لطاعة الله في قضايا العبادة، لا في قضية بذل الدم في سبيل الله، وذلك خلال عرض حال بعض المؤمنين، بعد أن كُتِب عليهم القتال:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٣) مسلم (١٩١٠)، وعند النسائي (٣٠٩٧) وأبي داود (٢٥٠٢) وأحمد (٨٦٤٨) : « من لم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة نفاق ».

إن شريعة الله سبحانه نزلت بالتدريج لحكم تربوية، وقضايا واقعية تحقق الأهداف التي ينزل الله من أجلها الأحكام الشرعية. وإن فريضة القتال في سبيل الله لم يأمر بها الله في مكة؛ فقد أمرهم الله بمكة بالصلاة والزكاة - دون تحديد أنصبة الزكاة - وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين. وكانوا يتحرقون، ويودّون لو أمروا بالقتال ليردوا العدوان عنهم، وينالوا عزتهم وحريتهم في دينهم وسلوكهم. ولم يكن الحال إذْ ذاك مناسباً لرفع السلاح في وجوه الطغاة والمتسلطين لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم ؛ فإذا رفعوا السلاح استأصلهم عدوهم. ومنها كونهم كانوا في بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء. ومنها أن كل أسرة في مكة كان منها مؤمنون ومنها مشركون، فإذا أمر المؤمنون بالقتال سالت الدماء في كل أسرة، فلهذا وغيره من الحكم التي يعلمها الله لم يأمرهم سبحانه بالقتال إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار. ومع هذا لمّا أمروا بها كانوا يودّونه ربّما جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً، ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾، وحالهم كمن يخشى الناس كخشية الله أو أشد خشية.

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: « إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا »، فلما حوّلنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفّوا، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ [1].

ولعل أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيهاً على أن الجهاد مع النفس مقدم، وما لم يتمكن المسلم في الانقياد لأمر الله تعالى بالإخلاص لله تعالى في الصلاة، والجود بالمال، لا يتأتّى منه الجود بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود [2].

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، ورواه الحاكم وابن مردويه وابن أبي حاتم. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٦).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣١).

وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أهل المدينة ؛ وذلك أنهم سكنوا على الكره إلى فرائض الإسلام، مع الدعة وعدم القتال، فلما نزل القتال شق وصعب عليهم صعوبة شديدة، إذ كانوا مكذبين بالثواب ؛ ويحسن هذا القول أن ذكر المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات [(١)].

والذي يظهر من الآيات أن المراد عموم المجتمع المسلم بما فيه من المنافقين وضعفاء الإيمان، والجاهلين بأهداف الدين المنزل لسعادة البشرية، وذلك لتربية هذا المجتمع وتوجيهه إلى ما فيه سعادة الدارين؛ من الحرية الحقيقية في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، ولذا جاء في ختام الآية: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. متاع الدنيا ومنافعها والاستمتاع بلذاتها قليلة ؛ لأنها زائلة لا بقاء لها، ومن اتقى الله بطاعته مخلصاً له في الطاعة، فقد ضمن لنفسه بفضل الله الآخرة بنعيمها الأبدي الدائم ؛ قال النبي ﷺ: « ما لي وللدنيا ؛ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها » [(٢)].

ثم زادهم في التربية بياناً وبصيرة ليرغبوا في الجهاد في سبيل الله، عندما بين لهم أنهم صائرون إلى الموت لا محالة، وإن الموت لا ينجو منه أحد:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

الخطاب عام، وإن كان المراد وعظ المنافقين، وتربية ضَعَفَة المؤمنين، الذين قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾، فنموت بآجالنا، والمنافقين الذين قالوا لما أصيب أهل أحد: ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فردّ الله عليهم: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٢) مسند أحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والقيلولة : النوم في الظهيرة، وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن في ذلك نوم. القرطبي (٥/ ٢٨٢).

وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ ﴾ (١)، فالحصون العالية الرفيعة لا تنجي من الموت إذا جاء الأجل، الذي هو مرتبط بأمر الله وقدره، سواء جاهد المرء أم لم يجاهد، فلا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم (٢)

ثم سفّه الله سبحانه تصوراً آخر عند من يدَّعون الإسلام، ويتظاهرون أنهم من أهله: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ ﴾، وإن تصب المنافقين حسنة؛ من غنيمة أو رزق، أو هزيمة عدو، أو سلامة وأمن، أو غير ذلك يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة ؛ من جَدْب ومحل، أو هزيمة أو جوع، أو غير ذلك يقولوا هذه من عندك يا محمد، بسببك ؛ لسوء تدبيرك، أو بشؤمك علينا. فصحح الله هذا المفهوم الصادر عن قلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم، مبيناً أن الحسنة والسيئة من عند الله، وأن الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في جميع خلقه ؛ البر منهم والفاجر، والمؤمن والكافر؛ وليست هناك قدرة غير قدرة الله تنشيء الأشياء والأحداث، وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع ؛ هذه القدرة تنشئ وتحقق وفق الحكمة الإلهية للحكيم الخبير، ولهذا وبخهم سبحانه بالاستفهام عن علة جهلهم وقلة فهمهم، وتحصيلهم لما يخبرون به من الحقائق فقال: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾ (٣).

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف وذعر (٤).

---

(١) قاله ابن عباس من طريق أبي صالح، وهي طريق حسنة، وواحد البروج برج، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم. انظر تفسير القرطبي (٥/ ٢٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٤٧).

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود به أمته، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً. وفي إجراء الجواب أولاً على لسان النبي ﷺ ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾، وسوق البيان ثانياً من جهته تعالى بطريق تلوين الخطاب والالتفات، إيذان بمزيد الاعتناء به والاهتمام برد اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد ؛ والإشعار بأنَّ مضمونه مبني على حكمة دقيقة، حَرِيَّة بأن يتولى بيانها علام الغيوب عز وجل. والعدول عن خطاب الجميع كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية بعضهم لعقوبة الآخرين. فما أصابك أيها الإنسان من نعمة من النعم، فهي من الله تعالى بالذات، تفضلاً وإحساناً من غير استيجاب لها من قِبَلِكَ، كيف لا وكل ما يفعله العبد من الطاعات التي يرجى كونها ذريعة إلى إصابة نعمةٍ ما، فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة الوجود، أو نعمة إعطاء القدرة على أدائها مثلاً، فضلاً عن أن تستوجب نعمة أخرى، ولذلك قال النبي ﷺ: « لن يُدْخِلَ أحداً عملُه الجنةَ »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: « ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا... الحديث »[1]. وما أصابك أيها الإنسان من بلية ما من البلايا فهي بسبب اقتراف نفسك المعاصي والهفوات المقتضية لها، وإن كانت من حيث الخلق والإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، قال رسول الله ﷺ: « لا يصيب عبداً نكبةٌ فما فوقها، أو ما دونها إلا بذنب، وما يعفو الله تعالى عنه أكثر »، وقرأ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠][2].

ولا تعارض بين الآيتين لظهور اختلاف جهتي النفي والإثبات، فكل شيء فعله سبحانه، إن أصاب بالسيئة من قحط أو هزيمة، فذلك عدله، وإن أصاب بالحسنة فذلك فضله ؛ لكنه

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) الترمذي (٣٢٥٢).

إن أصاب الإنسان بسيّئة فما ذلك إلا بذنب، وإن أصاب المجموع فقد يكون بذنب بعضهم، والله الذي قدّر لحكمة حسب السنن التي وضعها الله سبحانه في هذا الكون [(١)]، ومنها أن مخالفة تعاليمه التي أنزلها تسبب الفساد في الأرض، وتعود بالضرر على الناس. عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه »، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال: « نعم، إذا كثر الخبث » [(٢)]، ورسول الله ﷺ لا يملك شيئاً من إنزال الضر بهم حتى يتشاءموا منه، إنما هو مرسل من عند الله، ليبلغهم شرائع الله، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وإذا استقر منهج الله سبحانه قادهم وساسهم به رسول الله ﷺ بشهادة الله ووحيه وأمره [(٣)]، والمعنى أن الرسول ﷺ إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهيه، وفيه توعد للكفرة وتهديد [(٤)].

والذين ينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله، وما يصيبهم من الضر إلى النبي ﷺ، إنما كان ذلك منهم بسبب سوء تصورهم لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة، وعلاقته بمشيئة الله، وطبيعة أوامر الرسول ﷺ لهم ؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه، وهذا بالنسبة للضالين الذين يقرون بأن الطاعة لله، لكنهم يجهلون أن طاعة الله لا تكون إلا بطاعة ما يبلغه رسوله ﷺ من كتاب وسنة، وهذا ما بينته خاتمة الآية: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

وهناك صنف آخر يتظاهرون بطاعة الله لكنهم لا يريدون أن يطيعوه في حقيقة أمرهم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ [محمد: ٢٨]، هؤلاء قلوبهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (١/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٨).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٢).

معلقة بحب الكفر وأهل الكفر ؛ لأنهم بذلك يحققون مصالحهم وأهواءهم، ولا يهمهم أن تفسد مصالح الجماعة كلها بتسلط أهل الكفر والظلم عليها، إنهم لا يفهمون الحرية الحقيقية التي جاء بها الدين بأن لا عبودية إلا لله، إنما يفهمون حريتهم هم في الوصول إلى مصالحهم وتحقيق أهوائهم وشهواتهم. لذا فإن هذا الصنف عندما يتشاءمون من قيادة النبي أو قيادة من بعده من القيادات الإسلامية، إنما يريدون بقولهم لقيادتهم إذا أصابتهم سيئة: « هذه من عندك» إنهم يريدون عامدين بقولهم هذا تجريح قيادة الرسول ﷺ تخلصاً من التكاليف التي يأمر بها وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضر القريب الظاهر الذي يقع عليهم [1].

ويظهر أمر هؤلاء الصنف واضحاً جلياً في عصرنا الحالي، فهناك أناس يسمونهم أو يسمون أنفسهم بالمسلمين المعتدلين - إن رضوا لأنفسهم اسم الإسلام - والمقصود من إسلامهم المعتدل، أو من اعتدالهم في هذا الذي يسمونه إسلام هو ترك الاحتكام إلى الله في كل ما أنزل، أو في بعضه، أو في الجهاد - على الأغلب - لئلا يقاوم المسلمون من يعتدي عليهم من الكفرة المتسلطين. وهؤلاء الصنف يكرهون ما أنزل الله، ويحبون الخضوع لأهل الكفر والظلم؛ لأنهم بطاعتهم لغير الله يغدق عليهم أسيادهم ما يصلون به إلى أهوائهم وشهواتهم. فإذا كانت الديموقراطية التي يدّعونها، في وقت من الأوقات، وفي جزء من أرض الله ؛ ديموقراطية حقيقية صحيحة، بسبب عدم تمكنهم من التلاعب، أو لأن الناس لم يعودوا يطيقون فسادهم وظلمهم وتسلطهم على العباد، وتمكين الأعداء من البلاد ؛ إذا كان الأمر كذلك وظهر على السطح في القيادة أناس مؤمنون مجاهدون شرفاء، ووقف عالم الكفر بملله المختلفة ضد الإسلام والمسلمين يحاربهم اقتصادياً مع حربهم المستمرة بكل سلاح متطور، قام هؤلاء المنافقون يقولون: هذه المصائب التي تصيبنا هي من عند هؤلاء القادة الشرفاء الذين وقفوا في وجه الظلم والتسلط، فتوقفت مصالح المنافقين من أذنابهم، فلا غرو أن يساهموا في الضغط على الناس مادياً ومعنوياً ليعيدوهم إلى نبذ قيادتهم الحكيمة والعودة إلى ما يسمونه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٤٨-١٤٩).

الاعتدال، بترك جهاد العدو ؛ ليعيث في الأرض فساداً، وتعود الأمة إلى ما يسمونه السلام وهو في الحقيقة الاستسلام إلى الذل والخضوع للطواغيت أهل الفساد.

وهؤلاء الصنف، ومن كان قريباً منهم من ضعاف الإيمان إن زعموا أنهم مسلمون فعليهم أن يطيعوا الرسول الذي أرسله الله، وإلاّ فليسوا بمسلمين، ومن لم يطع القيادة الإسلامية فليس بمطيع لله:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

هذا كالتكملة لقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ ﴾، باعتبار ما تضمنّه من ردّ اعتقادهم أن الرسول ﷺ مصدرُ السيئات التي تصيبهم؛ فالآمر والناهي في الحقيقة هو الله تعالى، والرسول مبلغ أمر الله الذي أنزله عليه وحياً يُتلى في الكتاب، أو سنة تبيّن وتفصّل الكتاب ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤] [1]، وقال رسول الله ﷺ: « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني » [2]. فالواجب على الناس طاعة الرسول فيما بلغهم عن ربهم، ومن تولى وأعرض عن طاعة الله، فالرسول ﷺ ليس مكلفاً أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي حتى لا يقعوا في الكفر. وهذا على معنى ﴿ حَفِيظًا ﴾ من المحافظة، وإذا كان لفظ ﴿ حَفِيظًا ﴾من حفظ المساوئ فالمعنى: ليس الرسول مكلفاً بحفظ مساوئهم وذنوبهم ليحاسبهم عليها ؛ والله هو الذي يهديهم، إذا شاء، ويحفظ عليهم كفرهم ومخازيهم ليحاسبهم عليها. فالأمور إذاً بيد الله، ومحمد ﷺ مهمته الدعوة والبلاغ [3].

وإذا قال بعض المفسرين: إن هذا منسوخ بآيات القتال، فنقول: لا نسخ ؛ لأنه لا تعارض بين القتال وتبليغ الدعوة، حيث إن القتال لتحرير الناس من الطواغيت التي تُرهبهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٥).

(٢) البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٣).

وتستعبدهم، لا لإكراه الناس على الإسلام، إذ القتال في الإسلام شرع لإزالة العقبات التي يضعها الطغاة المستكبرون لمنع الناس من التعرف على الحق والدخول في كنفه.

وبعد أن بين الله سبحانه أن الطاعة لرسول الله ﷺ طاعة لله، وبالتالي فالطاعة للرسول سبب الحسنات والخيرات والنصر، والمعصية سبب الفشل والمصائب، بيّن حالة من حالات المنافقين، وسفّهها، ووجّه رسوله إلى ما يفعله معهم مقابلة لها:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

نزلت في المنافقين باتفاق المفسرين، والمنافقون يتظاهرون بالطاعة لرسول الله، ولا يتحققون بها، لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة، ولو قالوا لرسول الله ﷺ: أمرك طاعة، فإنهم عازمون على عدم الطاعة، ولذلك قال: فإذا خرجوا من عندك ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾[1]. ويحتمل أن يكون المعنى: غير الذي تقوله أنت يا محمد، فيما أمرتهم به من أمر الله، ويحتمل غير الذي تقوله تلك الطائفة، التي قالت: « أمرك طاعة »، وهي تبيّت غير ما تقول. ويأتي التهديد بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ ؛ يكتبها عليهم في صحفهم للحساب، وربما كتبها في كتابه المنزل ليفضحهم، ويبين كذبهم في ادعائهم الطاعة. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ يا محمد، ولا تخبر بأسمائهم، ولا تعاقبهم الآن، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ وثق به، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾، وسيجزيهم الله على هذا العصيان[2]. والإعراض عن المنافقين، والتوكل على الله، هما سلاحا النبي ﷺ لمواجهة عدم انضباط بعض المتظاهرين أنهم من صف المسلمين وفيه. وسبب مجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالقتال، وفي سياق نفي أن تكون المصائب بسبب اتباع

---

(١) بيت الرجل الأمر، إذا دبره ليلاً، قال تعالى: ﴿ إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ [النساء: ١٠٨]. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨٩-٢٩٠)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٣).

القيادة الإسلامية ؛ لأن الطاعة والانضباط أساس في القتال لتحقيق النصر. وهؤلاء المنافقون لا يريدون النصر على الكفرة ؛ فقلوبهم مع الكفرة، وتحقيق أهوائهم ومصالحهم لا يتم إلا بالولاء لهم وتنفيذ مخططاتهم في الكفر والفساد.

ثم أنكر الله حالهم مبيناً أن سبب هذا الحال هو عدم تدبر القرآن وفهمه والإيمان به. إن الدليل على أن هذا القرآن من عند الله قائم بالقرآن نفسه، فهو معجزة النبي ﷺ الباقية إلى قيام الساعة، وقد تحدى القرآن نفسه العرب وغيرهم من الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، إن زعموا أن القرآن افتراه بشر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم أن يأتوا بسورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] ؛ ولا نريد أن نذكر هنا إعجاز القرآن اللغوي والبياني، ولا إعجازه العلمي ؛ حيث تعرّض القرآن في معرض بيان الحق والدعوة إليه، إلى بعض الظواهر العلمية التي كشفها الواقع التجريبي والاطلاع العلمي بعد سنين، أو بعد قرون، فلو لم يكن هذا القرآن من عند خالق هذا الكون لاختلف الواقع العلمي التجريبي عن ما أخبر به القرآن، ولا نريد أن نتوسع في بيان الإعجاز التشريعي للقرآن؛ فالعالم المتحضر كلما تقدم في الحضارة وارتقى في أخلاقه الإنسانية، قارب أو ارتقى إلى بعض التشريعات التي شرعها القرآن؛ أيّاً كان هذا التشريع في الحقوق الدستورية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو المدنية، أو الدولية، أو غيرها. أم نريد أن نذكّر بالإعجاز التاريخي في أخبار القرآن عن ما غاب في بطون التاريخ، أو إخباره عن المستقبل، أو إخباره عن ما يدور

في نفوس الناس من المؤمنين والمنافقين ؛ ممّا لا يعلمه إلا الله. وقد أخبر القرآن عما يدور في النفوس في عصر التنزيل وبعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وحلل نفوس البشر وكشف نواياهم، ووجههم إلى ما فيه صلاحهم واستقامة أمورهم.

وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان الجازم بأن الله الخالق وحده الذي له الطاعة والعبودية، والعبودية لغيره ذلٌّ ينبغي التحرر منها، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله فيما أنزل، وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان بأن هذا القرآن معجز، فيه الدلالة على أنه كلام الله وليس كلام بشر ؟! يصل الإنسان إلى ذلك قطعاً بفهم القرآن وتدبر معانيه، وهؤلاء المنافقون لو أنهم تدبروا القرآن وفهموا معانيه لاعتقدوا أنه من عند الله، فأطاعوا الله فيما أنزل، وأطاعوا رسوله فيما بلّغ.

إن واقع كفرهم ونفاقهم، وبعدهم عن طاعة الله، وطاعة القيادة المسلمة ؛ يدل على أنهم لا يفهمون القرآن، ولم يكلفوا أنفسهم تحرير عقولهم وفتح قلوبهم، فاستمروا في كفرهم، بل ازدادوا كفراً ؛ لأن كفر المنافق أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من المشركين المعلنين لكفرهم. فاستحقّوا التوبيخ من الله، والانكار عليهم لعدم الفهم والتدبر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾. إن القرآن – مع إنكاره عليهم – يلفت نظرهم إلى إعجازه الذي يدركه كل من يفهم القرآن، ولو فهماً إجمالياً، فيرى فيه التناسق، والصدق، والكمال، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه الاختلاف، والكذب والتناقض، والنقص والقصور [(١)]. وأنكر الله على المنافقين في موضع آخر عدم التدبر، وبيّن السبب، وهو إغلاق قلوبهم لئلا تفهم الحق: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، وبين الله سبحانه للجميع أن الغرض الأساسي لإنزال القرآن هو تدبر آياته، والاتعاظ بها: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]. ومن الآية وسياقها نعلم أنه لا طاعة، ولا انضباط، ولا إيمان، إلا بتدبر هذا القرآن.

---

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٤٧)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٤٤).

ويمضي السياق في الآية التالية لبيان جناية أخرى من جنايات المنافقين، وبيان جناية ضعفاء الإيمان، الذين ينشرون الشائعات دون فهم وتثبت:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

الآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه ؛ وكان المنافقون يشرهون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه ؛ فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين، أو فُتح عليهم حقروها وصغروا شأنها، وأذاعوا بذلك التحقير والتصغير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف المسلمين، أو مصيبة نزلت بهم عظّموها، وأذاعوا ذلك التعظيم، فأفشوه بين الناس، وربما ساعدهم في نشره بعض جهلة المسلمين وضعفاء الإيمان، ممّن قلّت خبرتهم وفهمهم لحقيقة الدين وأهدافه [1].

ونحن نعرف في عصرنا الحالي أهمية الحرب النفسية، وأهمية حرب الإشاعات، وتأثيرها على نفسية الأمة بشكل عام، وعلى نفسية المقاتل على وجه الخصوص ؛ ولهذا ينكر الله عز وجل على من يبادر بنشر خبر قبل أن يتحقق، أو قبل أن يعرف محتوى الخبر ودلالاته. قال رسول الله ﷺ: « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » [2]، وقال ﷺ: « إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » [3]، ويطالب الله المؤمنين أن يردّوا أمثال هذه القضايا إلى رسول الله ﷺ وإلى قياداتهم المؤهلة لمعرفة الأمور وحقائقها، فيستنبطوا حكمها [4]، ويعرفوا أثرها ودلالتها، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقيادة المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة.

والأمر بهذا في الحقيقة هو أمر بالثقة، وأمر بالتروي، وأمر بالتقيد بالسياسة الرسمية

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٧)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٤).

(٢) رواه مسلم (٥)، وعند أبي داود (٤٩٩٢) : « إثماً » بدل « كذباً ».

(٣) البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٤) يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه. يقال : استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قعورها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٣٠).

للدولة المسلمة.

ثم يربط الله سبحانه القلوب به: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. وهذا الخطاب لجميع المؤمنين، باتفاق من المتأولين، فلولا هداية الله لكم، وإرشاده إياكم باتباع منهجه في سلوككم، لضللتم، واتبعتم شياطين الإنس والجن. وفي ذلك بشارة من الله لحفظ أهل الإيمان المتبعين لأمر الله، والموالين لقيادتهم الإسلامية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن السير وراء الشائعات ونشرها، وعدم إرجاعها إلى المختصين بها اتباع للشيطان [١].

وهكذا كان القرآن يربي الأمة الإسلامية؛ فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة، ويعلم نظام الانضباط في جهاد الأعداء في الداخل والخارج، في آية واحدة، بل في بعض آية؛ فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندي وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف، فيحمله ويجري متنقلاً مذيعاً له، من غير تثبت، ومن غير تمحيص، ومن غير رجعة إلى القيادة، ووسط هذه الآية يعلم ذلك التعليم، ويشير إلى أهمية وسائل الإعلام في نشر الأخبار، وآخرها يربط القلوب بالله، ويحذرها من اتباع الشيطان في الأخبار الكاذبة المضللة [٢].

إن هذا المقطع ابتدأ بتوجيه المسلمين إلى أن ينفروا إلى القتال سرايا أو جيوشاً لتحرير الناس، وإذا كان الأمر كما ذكر من عدم طاعة المنافقين، وتقصير الآخرين في مراعاة أحكام الإسلام، عندئذ يصل الأمر إلى قمة التكليف الشخصي، حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يقاتل - ولو كان وحيداً - فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعة شخصه، وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين:

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٥٨).

والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ؛ فإن أردت الأجر العظيم ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أو متصلة بقوله عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ ؛ فإن لم يقاتلوا في سبيل الله فقاتل أنت وحدك، لا تكلف إلا نفسك [١].

وهذا الأمر في ظاهر لفظه للنبي ﷺ وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة ؛ والمعنى والله أعلم أنه خطاب للنبي ﷺ في اللفظ، وهو مثال ما يُقال لكل واحد في خاصة نفسه ؛ أي أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك القول له: قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر الجهاد، ولو لوحده، ومن ذلك قول النبي ﷺ: « والله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي » [٢]، وقول أبي بكر وقت الردة: ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي [٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ حقيقة أساسية في التصور الإسلامي، والمسؤولية الفردية، وعموم التبعة، وهي أن لا ينتظر أحد أن يقوم معه الآخرون حتى يقوم بما وجب، بل عليه أن يبادر كل بنفسه. وروي عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء بن عازب: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾، إنما ذلك في النفقة [٤].

وفي الآية دلالة على أن ما يفعله المنافقون وضعاف الإيمان من التثبيط والتقاعد لا يضر

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٣٩).
(٢) رواه البخاري في حديث طويل (٢٧٣٤)، وأحمد (١٨٤٤٩).
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٩٣).
(٤) مسند أحمد (١٨٠٠٩)، وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي إسحاق عن البراء. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٠).

النبي ﷺ، ولا يضر المؤمنين المتبعين للنبي ﷺ في عهده ومن بعده [(١)].

والأمر بالتحريض وحث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم خاص بالنبي ﷺ، حيث أمر المسلمين بقتال المشركين، وبين أجر المقاتل في سبيل الله بأحاديث كثيرة منه ﷺ، بأقواله وأفعاله. من ذلك قول النبي ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » [(٢)]. وبعد رسول الله ﷺ يكون التحريض بالآيات والأحاديث التي تدعو إلى الجهاد وتحث عليه. و﴿ عَسَى ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ واجبة التحقيق، بينما هي من البشر متوقعة مرجوّة. وقد تحقق وعد الله للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوى الله قلوبهم بأن عرّفهم شدة بأس الله، بأنه أقدر على الكفرة وأشد تنكيلاً لهم [(٣)]. ودلت الآية على أنه لا ينكفّ بأس الذين كفروا إلا بقتال، لا كما يتوهم بعض المتخاذلين. وكذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية، وهي تدفع إلى التكاليف التي تشق عليها إلى شدة الارتباط بالله ؛ وشدة الطمأنينة إليه، وشدة الاستعانة به، وشدة الثقة بقدرته وقوته فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته. والله سبحانه هو الذي خلق هذه النفوس، وهو الذي يعلم كيف تربّى، وكيف تستجاش، وكيف تستجيب.

وبمناسبة تحريض الرسول ﷺ المؤمنين على القتال، وذكر المبطئين المثبطين قبله يقرر قاعدة عامة في الشفاعة، ويدخل فيها من باب أولى التوجيه والنصح والتعاون على الجهاد، وهو في أولويات الخير الذي أمر به الله لتحرير البشرية من الطغاة [(٤)]:

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).

(٢) مسلم في حديث طويل (١٩٠١)، وأحمد (١١٩٩٠).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٦). والتنكيل : العقوبة بالأخذ بأنواع العذاب، وترديده عليهم في الدنيا والآخرة. وأصله : التعذيب بالنكل، وهو القيد فعمم. والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع. روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٠).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٥٩-١٦٠).

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

يقول الإمام الطبري: « من يَصرْ يا محمد شفعاً لوتر أصحابك، فيشفعهم في جهاد عدوهم، وقتالهم في سبيل الله، وهو الشفاعة الحسنة، يكن له نصيب منها، يقول: يكن له من شفاعته تلك نصيب، وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته، ومن يشفع شفاعة سيئة، يقول: ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين، فيقاتلهم معهم، وذلك هو الشفاعة السيئة، يكن له كفل منها يعني بالكفل النصيب والحظ من الوزر والإثم »[1]. وذهب الطبري إلى هذا التأويل بسبب ما تقدم في السياق من أمر القتال. والقاعدة عامة، تشمل التوجيه والنصح والتعاون، والمبدأ عام في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء، وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابسة الخاصة، على طريقة المنهج القرآني في إعطاء القاعدة الكلية من خلال القاعدة الجزئية، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام، ثم ربط الأمر كله بالله، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ ؛ مقتدراً ويمنح القدرة على كل شيء.

ويدخل في أولويات هذا العموم سياق النص الذي أشار إليه الطبري رحمه الله، فالذي يشجع ويحرّض ويعاون على القتال في سبيل الله، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها والذي يبطئ ويثبط تكون له التبعة فيها وفي آثارها [2]. ومن هذا العموم جاء النصيب من الدعاء لمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فقد قال النبي ﷺ: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله » [3].

ثم رغب الله بعد ذلك في فرد شائع من الشفاعة الحسنة، إثر ما رغب فيها على الإطلاق،

(١) وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب، وهو الكساء أو الشيء يهيأ عليه شبيه بالسرج. ولا يستنكر الطبري التعميم في هذا المعنى كما ذهب إليه بعض المفسرين. انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١١٧/٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٠).

(٣) مسلم (٢٧٣٢).

وحذّر عمّا يقابلها من الشفاعة السيئة، فإن تحية الإسلام شفاعة من المسلم لأخيه المسلم عند الله عز وجل [(١)]، والتحية في المجتمع توجد العلاقة المتينة بين المسلمين المبنية على المحبة وإرادة الخير، قال رسول الله ﷺ: « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؛ أفشوا السلام بينكم » [(٢)]، وهنا يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

جعل الإسلام تحيته: « السلام عليكم »، أو « السلام عليكم ورحمة الله »، أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته »، فإذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردّوا عليه بمثل ما سلم ؛ فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة ؛ لأن الله أمر بالرد في أقل الواجب، وخَيَّر في الزيادة [(٣)]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: « عشر »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرد عليه، ثم جلس فقال: « عشرون »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: « ثلاثون » [(٤)].

والمراد بقوله «عشر»، و«عشرون»: عشر حسنات وعشرون وثلاثون حسنة لمن سلم وكذلك لمن ردّ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾، أي حفيظاً [(٥)] فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم [(٦)].

والسلام من شعائر الإسلام، وهو من أهم الروابط الاجتماعية بين المسلمين التي تجعلهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤١).

(٢) مسلم (٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣١-٥٣٢).

(٤) رواه أحمد (١٩٤٤٦)، والترمذي (٢٦٨٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٥).

(٦) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٤٥).

صفاً واحداً أمام أعدائهم، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله: أي الإسلام خير ؟ قال: « تطعمُ الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[١].

ومن الروابط بين السلام « تحية الإسلام »، وبين القتال أن الإسلام دين السلام. السلام المبني على تحرير الإنسان من كل ظلم وتسلط، لا السلام الذي تريده الدول القوية من الدول المستعبَدَة، فهذا استسلام للظلم والقهر.

ولما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ تلاه مقوياً له الإعلام بصفة الربوبية، وحال الوحدانية، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للثواب والعقاب[٢]:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

التذكير بكلمة التحرير « لا إله إلا الله » ؛ أي لا عبودية ولا طاعة ولا خضوع إلا له والتذكير بالحشر، والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة، ضمن الحديث عن القتال، واضح في بيان أن قتال المسلمين أعداء الله وأعداء الإنسانية؛ إنما هو قتال لله وفي سبيل الله، الذي أمَرَ جُنده أن يقاتلوا الطواغيت وأعوانهم لتحرير البشرية من ذل العبودية والخضوع لغير الله تعالى.

فلا ينبغي للمؤمن المجاهد في سبيل الله أن ينسى أن جهاده لتحرير الناس من عبودية غير الله الخالق المالك، ولا ينبغي أن ينسى المسؤولية بين يديه سبحانه ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، هذا ما أخبر به الله سبحانه، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ ؛ فلا أحد أصدق منه سبحانه في حديثه، وخبره، ووعده ووعيده، لا إله إلا هو، ولا رب سواه[٣].

وبعد الحديث عن الشفاعة الحسنة والمساعدة في الخير، وعن السلام الذي يستقر في

(١) البخاري (١٢، ٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٨٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٢).

المجتمع عند وجود الإيمان والحب في الله، وبعد الحديث عن التوحيد والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة يعود السياق إلى الموضوع الرئيسي. فالقتال يقتضي صفاً واحداً، وموقفاً موحداً ومن ثم تأتي الآيات في السياق تنكر على المؤمنين انقسامهم في أمر المنافقين إلى قسمين: قسم يريد قتلهم، وقسم يرى مسالمتهم بعد أن أظهر الله ضلالهم:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾، وقال النبي ﷺ: « إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خَبَث الحديد »[(١)].

وقوله تعالى في الآية التالية: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يؤيد الروايات التي وردت في أن هذه الآية في أناس نافقوا، وهم في مكة أو خارج المدينة. غير أن رواية سبب النزول عن زيد رضي الله عنه صحيحة وقوية، والهجرة أنواع:

منها: الهجرة إلى المدينة لنصرة النبي ﷺ، وكانت هذه واجبة أول الإسلام إلى أن فتحت مكة، فقال النبي ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا »[(٢)].

والنوع الثاني: هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات.

والثالث: هجرة من أسلم في دار الحرب، فإنها واجبة ؛ إلا إذا كان بقاؤه فيه عون ومصلحة ظاهرة للمسلمين.

والرابع: هجرة المسلم ما حرم الله عليه، كما قال النبي ﷺ: « المسلم من سلم المسلمون من

---

(١) البخاري (١٨٨٤)، وفي رواية (٤٥٨٩) قال: « إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة »، ومسلم (٢٧٧٦).

(٢) البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥)، ومسلم (١٨٦٤).

لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[١]. وهاتان الهجرتان ثابتتان الآن. وأقول: إن هجرة المنافقين إلى القيادة الإسلامية للجهاد معها موجودة بعد رسول الله ﷺ[٢].

لذلك نرجح ما ورد في سبب النزول، ونخرّج الهجرة الواردة بهجرة المنافقين إلى الجهاد في سبيل الله مع قيادتهم عندما يعلن القائد النفير، ويكون الجهاد فرض عين.

ونقول أيضاً لبيان ذلك، والتأكيد على تناسق الآيات وارتباط معانيها: إن الآيات في هذا المقطع من أوله ﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ﴾ إلى آخره تتحدث عن قتال الكافرين، وبيان التعامل مع المعسكرات المعادية للإسلام والمسلمين، مما يُسمَّى اليوم بالحقوق والعلاقات الدولية، والتي بيّنت هذه الآيات بعضها، وجاء تتمة بيانها في آيات أخرى؛ وفي بداية الحديث عن المعسكرات المعادية جاءت هذه الآية لتنبه إلى معسكر للكفر هو معسكر النفاق، يعيش بين المسلمين، أو قريباً من المدينة المنورة، وتستنكر على المسلمين اختلافهم في إيمانهم وكفرهم، وتؤكد الحكم بكفرهم، غير أن النبي ﷺ لم يقتلهم جرياً على القاعدة الإسلامية العامة في معاملتهم على ظواهرهم، ولا يمنع عدم قتلهم من أن يعلم المسلمون والمنافقون أنفسهم أنهم كافرون، كارهون لما أنزل الله، وأكّد الله كفرهم وبُعدهم عن الإيمان بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾، فالله أضلهم بسبب اتباعهم الباطل، ومخالفتهم الرسول ﷺ، ولا يستطيع إنسان أن يهدي من أضله الله: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ إلى الهدى[٣].

ثم يخبرنا الله سبحانه بما في ضمائر تلك الطائفة، طائفة النفاق، لئلا نحسن الظن بهم، ولا نجادل عنهم، ولنعتقد عداوتهم، ونمتنع عن ولايتهم[٤]:

---

(١) البخاري (١٠، ٦٤٨٤)، ورواه النسائي (٤٩٩٦)، وغيره.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٨).

(٣) انظر الأقوال والروايات عند ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٤) زاد المسير ابن الجوزي (٢/ ١٥٥).

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

تتحدث هذه الآيات عن جانب من جوانب معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات الأخرى المختلفة من معسكرات الكفر، وهو ما يسمى اليوم بالقانون الدولي.

إن القانون الدولي أخذته أوربا من الفقه الإسلامي عندما ترجم عدد من الحقوقيين في ألمانيا « كتاب السِّيَر » في الجامع الصغير لأحد تلامذة أبي حنيفة النعمان (محمد بن الحسن الشيباني) إلى عدة لغات، وتشكلت جمعية الشيباني للحقوق الدولية. وكانت هذه هي النواة لتشكيل عصبة الأمم المتحدة التي فشلت، وخَلفتها هيئة الأمم المتحدة ؛ وسبب فشل عصبة الأمم أنها أصبحت مجموعة من الدول المستعمرة (المستعبدة) للدول الضعيفة، تسرق خيراتها، وتعبث بأفكارها ومعتقداتها، وتولّي عليها عملاء لها، ينفذون مخططاتها في التسلط والظلم بعد خروج الدول العظمى المستعمرة. وهيئة الأمم المتحدة، ممثلةً بمجلس الأمن تسيطر عليه الدول العظمى الخمس، وتتنازع أحياناً، وتتفق أحياناً على اقتسام مناطق النفوذ، وهو تسلط واستعباد لشعوب ودول ضعيفة. هذا الاستعباد والتسلط يتميز عن الاستعباد في عهد عصبة الأمم بأنه قلّما يعتمد على التدخل العسكري من دولة على دولة، إنما هو تدخل من مجموعة عسكرية من دول متعددة، تشكل ضغوطاً إرهابية على الدول الضعيفة التي غالباً ما يكون نظام الحكم فيها نظام تسلط وقهر للشعوب ؛ يدور في فلك إحدى الدول العظمى. فالقضية تسلط واستعباد جديد بأسلوب جديد، حتى إذا وجد شيء من التذمر والقوة عند بعض الدول والشعوب نتيجة التسلط والكيل بمكيالين الذي يمارسه مجلس الأمن، ومن يسيطر عليه من الدول العظمى وإذا كان من المتوقع تحرر بعض الشعوب من السيطرة أنزلت الجيوش وبالألوف المؤلفة في العدد،

وبأحدث الأسلحة الحديثة المسموح بها والمحرمة، فعاثت بين الشعوب فساداً وقتلاً، بزعم تحريرهم وتحقيق الديموقراطية لهم، وهم يصرحون - ولا يستحون - أنهم يريدون تحقيق مصالحهم، ويصرحون بالحرب الاستباقية، والحرب الاقتصادية، وتجويع الشعوب، مما أوجد أنواعاً من التسلط والفساد تحت غطاء الحقوق الدولية والقانون الدولي.

ومن أوضح ما يظهر واقع الهيئة الدولية الفاسدة: دخول اليهود إلى فلسطين من كل بقاع الأرض، لا رابط بينهم إلا اليهودية، فقتلوا الفلسطينيين، وشرّدوا الكثير منهم في بقاع الأرض واغتصبوا مساكنهم وأراضيهم، كل هذا تحت سمع الهيئة الدولية وبصرها، ثم عادوا إلى احتلال بقية أراضي فلسطين، وسماهم مجلس الأمن محتلين حسب قوانينه وأنظمته، ثم هو يعتبر اليوم اليهود الذين يدكّون بيوت الفلسطينيين في الضفة والقطاع بالطائرات، وما من يوم إلا ويقتلون ويأسرون، ثم ينادي مجلس الأمن أن اليهود يريدون السلام، والمقاومون الفلسطينيون جماعات إرهابية ؛ هكذا حكم الطاغوت الأكبر الذي يسيطر على قرارات وأحكام المؤسسة الدولية وهكذا يموت الآلاف من الأبرياء العزل جوعاً، أو تحت نيران وقنابل الدول المتجمعة تحت غطاء الأمن والسلام في كل يوم، وبمنتهى القسوة والظلم.

هذا هو حال العلاقات الدولية في العصر الحاضر ؛ لا هدف لها إلا الظلم، والطغيان والتسلط، وفرض الفساد الأخلاقي والعقدي بأساليب خبيثة، ليتمّ للطغاة السيطرة النفسية، ويستقر ظلمهم وفسادهم واقعاً في نفوس المستْعَبِدين من بني آدم.

أما العلاقات الدولية في الإسلام فقد أنزلها الله في القرآن منذ أن استقر حكم الله وشرعه في المدينة المنورة.

هدف العلاقات الدولية والقتال -إن دعت الحاجة إليه- هو تحرير الإنسان؛ فرداً أو شعوباً من تسلط الطغاة، ليدين الإنسان بعد ذلك بما شاء، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بشرط أن لا يصدر منه عدوان مادي أو معنوي على آخر. فحقق النظام الدولي في الإسلام السلم الحقيقي ؛ لا سلم الظلم والقهر والتسلط، وسياسة الأمر

الواقع ؛ حيث تُسْلب بيوت الضعفاء وأموالهم، ثم يقال لهم: دعونا، لا تقاومونا، ولا تعتدوا علينا، نحن نريد السلام، نحن نريد لكم الديموقراطية، والأمن[1]. الأمن الكاذب الخادع أمن الظالم لا أمن المظلوم.

وقد جاءت أسس وقواعد العلاقات الدولية موزعة في سور القرآن، وقد بَحَثَ فيها وكتب بعض المتخصصين، وهي آية في الإعجاز، تدل على أن هذه القواعد والأحكام العادلة لا يمكن أن يأتي بها إنسان أميّ، في بلد لا يعرف القانون والنظام ؛ لا يمكن أن تكون هذه الأحكام إلا من عند الله خالق الإنسان والعليم بنفسه وأحواله وتجمعاته والعليم بكيفية تحريره من الظلم والتسلط، وتحقيق الأمن والسعادة له.

وهذه المجموعة من الآيات التي بين أيدينا تتعلق بالتعامل مع الطوائف والمعسكرات التالية:

أ- التعامل مع المنافقين في المدينة وخارجها.

ب- التعامل مع الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق.

ج- التعامل مع المحايدين الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين، أو حرب قومهم كذلك وهم على دينهم.

د- التعامل مع المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة، ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة (دار الكفر آنذاك).

هـ- حالات القتل الخطأ بين المسلمين، والقتل العمد، على اختلاف المواطن والأقوام. وسنجد أحكاماً صريحة واضحة في جميع الحالات ؛ التي تكون جانباً من مبادئ التعامل في المحيط الدولي، شأنها شأن بقية الأحكام التي تتناول شتى العلاقات الأخرى[2].

---

(١) الأمن إذا لم تقاوموا التسلط ومكّنتمونا من كل ما نريد.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٣-١٦٤).

فبيّن الله سبحانه أن المنافقين كفار، ولا ينبغي الاختلاف في الحكم عليهم بالكفر، ثم بيّن أن الله أوقعهم في الضلال والكفر بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ واتباعهم الباطل وعلى هذا فلن تجدوا سبيلاً في هداية من أضله الله بسبب إغلاق قلبه وإصراره على الباطل. ثم عرّفنا الله بدخائل نفوسهم، فهم يرغبون ويعملون على تكفير المسلمين: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ في الكفر، أنتم وهم ؛ وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولدينكم الحق[1]. ولأن الذي يكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين، ولابد له من عمل وسعي، ولابدّ له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر، ليكونوا كلهم سواء [2].

إذا كانوا كذلك فهم إذن معسكر من معسكرات الأعداء، سواء كانوا خارج حدود الدولة الإسلامية أو داخلها. بل ربما كانوا أشد الأعداء خطراً إذا كانت الأمة المسلمة في حالة ضعف.

وأول ما يجب على المسلمين البراءة منهم، لعدم النصرة بينهم وبين المسلمين: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾. يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام مع إخلاصهم في الإيمان، والنصرة للمسلمين والجهاد معهم، أو هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات، بعد هجر نفاقهم وضعف يقينهم. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وأعرضوا عن الإيمان والالتحاق بركب المؤمنين فأسروهم واقتلوهم [3]. لأن كلمة التوحيد التي تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين، لا تكون الإنفاقاً، ولا موضع هذا للتسامح أو الإغضاء، ولا يجوز للمسلمين أن يدافعوا عن المنافقين [4].

فالتعامل مع هذا المعسكر المعادي، يبيّنه الله لنا، ويعرّفنا حكمه كالتالي:

خذوا المنافقين الكافرين، الذي أظهروا كفرهم بالتحاقهم بركب الكافرين، واقتلوهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٦٧).

حيث وجدتموهم، ويُستثنى من دخل في عداد من بينكم وبينه ميثاق، والتزم مهادنتكم، كما يستثنى أيضاً من جاءكم، وقد كره قتالكم وقتال قومه. وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه عنكم، حين جعل هؤلاء يتركون قتالكم، فتقل جبهات القتال ضدكم، ولو شاء الله لسلط هؤلاء عليكم فلقاتلوكم كما يقاتلكم غيرهم. فإن اعتزلوا قتالكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فلا سبيل لكم عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨] [١].

وإذا نُقل عن كثير من المفسرين أن هذه الأحكام منسوخة بالآيات في سورة « براءة ». فالصحيح عدم النسخ ؛ لأن السابقين يعبّرون بالنسخ على تقييد المطلق أو تخصيص العام فيظنه بعض المتأخرين إزالة الحكم بالكلية. وقد وضع الأصوليون الضوابط والتعاريف للنسخ، والتخصيص والتقييد للتفرقة بينها، وعدم اللبس بين إزالة الحكم بالكلية، وإزالة عمومه ولذلك جاء في سورة براءة الاستثناء بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤] [٢]، وعلى هذا فالحكم يدور مع قوة المسلمين وضعفهم، ومع مصلحتهم في الدعوة إلى التحرير الذي هو هدف القتال في الإسلام ؛ إن كانت مصلحتهم وإمكاناتهم تقضي بقتال معسكرات كثيرة من معسكرات الكفر قاتلوا، وإلا هادنوا مَن يهادنهم لتخفيف عبء القتال عنهم ريثما يتمكنوا من تحقيق أغراضهم في التحرير، ومن لطف الله تعالى بنا أعطانا فرصة كي لا يقاتلنا الناس جميعاً، أو نُضطر لقتال الناس جميعاً.

وهناك طائفة أخرى لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح ؛ لأنها طائفة شريرة كالطائفة الأولى من المنافقين، وليست مرتبطة بميثاق، ولا متصلة بقوم لهم ميثاق. فالإسلام إزاءها إذن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩١).

(٢) وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/ ٧١) وما بعدها.

طليق، يأخذها بها أخذ به طائفة المنافقين الأولى[(١)]:

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم في الآية السابقة، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤] [(٢)]، وعن بعض المحققين: إن هذه الآية مقابلة للآية السابقة بالإيجاب والسلب ؛ لأن إحداهما عدمية، والأخرى وجودية. فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ﴾ مقابل لقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ ﴾ في الآية السابقة، وقوله جل وعلا: ﴿ وَيُلْقُوٓا ﴾ المعطوف على المنفي، أي وإن لم يلقوا إليكم السلم، مقابل لقوله جل شأنه: ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ ﴾ في حيّز النفي، أي وإن لم يكفوا أيديهم، مقابل لقوله عزّ من قائل: ﴿ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾. فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين، وهي في الآية الأولى: الاعتزال، وعدم القتال، وإلقاء السلم، فبهذه الأجزاء الثلاثة تمّ الشرط، وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾، وفي الآية الثانية: عدم الاعتزال، وعدم إلقاء السلم، وعدم الكفّ عن القتال، فبهذه الأجزاء الثلاثة تمَّ الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ بيان مزيد خبث هؤلاء الآخرين[(٣)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٣).

(٣) روح المعاني، الآلوسي (٢/ ١٥١).

وبعد أن بين الله سبحانه علاقات المسلمين مع المعسكرات الكافرة المحاربة والمسالمة، بين لنا حرمة دم المسلم عموماً، وبين حكم قتل المؤمن خطأ في شتى الديار المسالمة أو المحاربة، أما قتل المؤمن المؤمن عمداً فلا يقع بين المؤمنين، ولا كفارة له لعظم جرمه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية أن عياش بن أبي ربيعة أسلم بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ثم خاف أن يظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة، فقالت أمه لابنيها؛ أبي جهل والحارث بن هشام، وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه ؛ والله لا يظلني سقف، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتياني به. فخرجا في طلبه ومعهما الحارث بن زيد، حتى أتوا عياشاً وهو متحصن في أطم، فقالوا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقف، ولم تذق طعاماً ولا شراباً، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوثقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر، فطرح موثقاً في الشمس حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن زيد: يا عياش، لئن كان ما كنت عليه هدى لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته، فغضب وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أفلت عياش بعد ذلك، وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم أسلم الحارث بعده وهاجر، ولم يعلم عياش، فلقيه يوماً فقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه الآية [1].

(١) عزاها ابن الجوزي إلى ابن عباس من طريق أبي صالح، وهذه الطريق جيدة. زاد المسير، ابن الجوزي=

والله سبحانه يقول: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[1]، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد المسلمين أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. لكن قد يقع قتل المؤمن خطأً. وإذا وقع من المؤمن قتل أخيه المؤمن خطأً فعليه واجبان:

أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأً. والكفارة هي عتق رقبة مؤمنة، فلا تجزئ الكافرة. ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين. والعتق تحرير نفس مؤمنة بدل النفس المقتولة خطأً تعويضاً للمجتمع الإسلامي، عند وجود الرقبة المؤمنة.

والواجب الثاني في قتل الخطأ دية مُسَلَّمة إلى أهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم.

والديّة كما روي عن عبد الله بن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة»[2]، وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله. قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة. عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية جنينها

= (٢/ ١٦٢)، وأضاف ابن الجوزي أن هذا قول سعيد بن جبير والسدي والجمهور. ورواها الطبري بسنده من طريق ابن جريج عن مجاهد، وعن سعيد بن جبير. جامع البيان (٥/ ١٢٨).

(١) رواه مسلم (١٦٧٦)، وعند البخاري (٦٨٧٨): «... والمارق من الدين التارك للجماعة».

(٢) رواه الترمذي (١٣٨٦)، والنسائي (٤٨٠٢)، وأبو داود (٤٥٤٥)، وابن ماجة (٢٦٣١)، وأحمد (٤٢٩١).

غُرَّة ؛ عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها »[١].

وإذا أبرأ الأولياء - ورثة المقتول - القاتل ممّا أوجب الله لهم من الدية عليه، تسقط الدية لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾[٢].

هذا حكم قتل المؤمن خطأ، وهو من المسلمين داخل الدولة الإسلامية ؛ أما حين يكون المقتول مؤمناً وهو من قوم كافرين فهناك حالتان:

الحالة الأولى: أن يقع القتل على مؤمن، وأهلُه محاربون للإسلام في دار الحرب. فيجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة فقط، لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت، وفقدها المسلمون. وتسقط الدية ؛ لأن أولياء القتيل من الكفار المحاربين، فلا يصحّ أن تُدفع الدية إليهم يتقوّون بها علينا.

الحالة الثانية: أن يقع القتل على مؤمن من قوم معاهدين، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، ويجب في هذه الحالة التحرير لرقبة مؤمنة، وأداء الدية إلى أهل القتيل[٣].

ذلك القتل الخطأ. فأما القتل العمد، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ؛ والتي لا تكفر عنها دية، ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله[٤]؛ ففي الآية تهديد شديد ووعيد أكيد لمن أقدم على هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ

(١) البخاري (٦٩١٠)، ومسلم (١٦٨١).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٤-٥٣٥).
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٣).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٥).

إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً من ذلك قول النبي ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »(١)، وقال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء »(٢)، وقال رسول الله ﷺ: « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً »(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً »(٤)، وقال النبي ﷺ: « يخرج عنق من النار يقول وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس؛ فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم »(٥)، وقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا »(٦)، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً؛ لأن آيات الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، مكية نزلت بعدها في المدينة آية النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾، نزلت بعدها في المدينة، في آخر ما نزل، ولم ينسخها شيء(٧). وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة، وذهب من السلف إلى أنه

(١) رواه البخاري (١٢١).

(٢) البخاري (٦٥٣٣، ٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) بزيادة: « يوم القيامة ».

(٣) البخاري (٦٨٦٢)، وأحمد (٥٦٤٨).

(٤) أبو داود (٤٢٧٠).

(٥) مسند أحمد (١٠٩٦١).

(٦) النسائي (٣٩٨٦، ٣٩٨٨، ٣٩٨٩)، والترمذي (١٣٩٥)، بلفظ: « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ».

(٧) البخاري (٤٥٩٠، ٤٧٦٢، ٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

لا توبة له: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن [(١)].

والظاهر أن هذه الآية فيمن يستحل قتل المؤمن فهو خالد في النار، أو تُؤوّل بالنسبة لغير المستحل، كما أوله جماعة من السلف: بأن هذا جزاؤه إن جازاه الله. ومذهب أهل السنة أن هذه الآية مخصوصة، ودليل التخصيص آيات وأخبار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وأخبر تعالى بأنه يغفر ما دون الشرك فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويحمل مطلق آية « النساء » على مقيَّد آية « الفرقان »، فيكون معناه: فجزاؤه كذا إلا من تاب ؛ لا سيّما وقد اتحد الموجِب وهو القتل، والموجَب وهو التوعد بالعقاب [(٢)]. ثم إنّ آيات الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [٦٨-٧٠] خبر والخبر لا يجوز نسخه. والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، واستسلم لحكم الله بالقصاص، أو دفع الدية إن أسقط أولياء المقتول حقهم في الدية، وعمل عملاً صالحاً بدّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته [(٣)].

وعلى هذا فالذي لا يسقط بالتوبة مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الآدميين، وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمقذوف، وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ؛ ولكن لابد من ردّها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلابدّ من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٧).

المجازاة ؛ إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، كما جاء في حديث المفلس: « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار »[(١)]، أو ربما يعوّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك كما ذكرت قبل قليل[(٢)].

ويؤكد ذلك الأحاديث الصحيحة الكثيرة ؛ منها حديث: « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذبه »[(٣)]، وقال رسول الله ﷺ: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتها كان أدنَى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى

---

(١) مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٧٩٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٨، ٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩).

الأرض الذي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة »[١].

واحتراساً من وقوع القتل، ولو كان خطأ، وتطهيراً لقلوب المجاهدين، حتى لا يكون فيها شيء إلا الله، وفي سبيل الله، يأمر الله المؤمنين إذا خرجوا غزاة، ألاّ يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان (إذْ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان)[٢]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾.

روي في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقي ناس من المسلمين رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾[٣].

وقال المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زُهرة: يا رسول الله، إن لقيت كافراً فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذَ مني بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ: « لا تقتله »، قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يديّ ثم قال ذلك بعدما قطعها أقتله ؟ قال: « لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال »[٤]. وقال النبي ﷺ للمقداد: « إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلتَهُ، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل »[٥]. ولذا قال سبحانه في أول الآية:

(١) مسلم (٢٧٦٦)، وبنحوه مختصراً عند البخاري (٣٤٧٠).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٦).
(٣) البخاري (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥).
(٤) رواه البخاري (٦٨٦٥، ٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).
(٥) رواه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنه بعد حديث المقداد، رقم (٦٨٦٥)، باب أول كتاب=

﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ ؛ لا تعجلوا حتى يتبين لكم الكافر من المسلم، وكرر الأمر بالتبيّن في آخر الآية لتأكيد ما قبله ؛ لكي لا يقتلوا مؤمناً، وصارت الآية عامة لجميع السرايا إذا دخلوا دار الحرب أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً، فهدف القتال كما قلت - من قبل - تحرير الناس، لا قتلهم، ولا الرغبة في أموالهم، لذلك رغّب الله المؤمنين بما عنده من الرزق الحلال في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة فقال: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾، وختم الآية بالتهديد والوعيد فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

وتظهر العلاقة والارتباط بوضوح بين القتال لحماية المستضعفين وتحريرهم، وبين محور السورة: « التوحيد الصحيح » الذي هو تحرير للإنسان من التسلط والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: القتال جزء من التقوى، وهو مرتبط بالإيمان بالله، الذي أمر عباده المؤمنين بالقتال لتحرير المجتمعات البشرية من العبودية للطواغيت.

ب- الأحكام الشرعية: صبر المسلمين على الأذى، إلى أن يتمكنوا في الأرض، فيقيموا مجتمعاً إسلامياً، عند ذلك يقومون بواجب القتال في سبيل الله. وبيان أن حكم النفاق هو الكفر، وبيان بعض أحكام القتل في العلاقات الدولية بالنسبة لقتل المسلم خطأً أو عمداً.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على التقوى والعبادة ؛ العبادة التي ترتكز عليها، وتنبثق منها كل قضايا المجتمع الإسلامي، ويترتب عليها أيضاً بذل الدم من أجل التحرير الجماعي (الدولي).

د- الجوانب التربوية: في الآيات توجيه تربوي نفسي وعقلاني في الدفع إلى القتال، ببيان

= الديات، وقد وصله البزار والدارقطني في « الأفراد »، والطبراني في « الكبير ». انظر فتح الباري، ابن حجر (١٥/ ٥٠٥)، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير (٢/ ٩٩).

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٥٤-٣٥٥).

أن الإنسان صائر إلى الموت لا محالة، وموته وحياته بيد الله، لا بيد غيره، فليكن موته في سبيل الله، لا في سبيل غيره. كما تبين الآيات أهداف القتال، وتكشف دخيلة المنافقين وأفكارهم وأهدافهم، ومن ثَمَّ توجههم إلى التوبة، وتصحح مفاهيمهم، وتقرر بأسلوب علمي أن سبب المصائب المعاصي، لا الطاعات.

المقطع السابع: علاقة الهجرة بالتحرر والقتال (٩٥-١٠٤):

﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

صلة المقطع بسابقه:

هذا استمرار للمقطع السابق، فبعد أن ذكر الله عاقبة القتل العمد، وأمرنا أن نتبين إذا قاتلنا وأن لا نقتل من يقول «لا إله إلا الله»، بين الله عز وجل أنه لا يستوي عنده من يقاتل مع من لا يقاتل، ثم بين وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، ليكون ولاء المؤمن للمؤمنين، ولا يكون تحت سلطة أعداء المؤمنين، وليقيم مع إخوته المؤمنين أرضاً صلبة للجهاد في سبيل الله، فيكون من المتحررين واقعياً ونفسياً من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، ويعمل مع إخوانه المجاهدين في تحرير الناس من العبودية للمتسلطين والمتألهين من الطغاة المفسدين في الأرض.

المعنى الإجمالي:

إن الموضوع الأساسي لهذا المقطع هو الهجرة إلى دار الإسلام - كما ذكرنا في عنوان المقطع - والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال، وترك الراحة النسبية والمصلحة الخاصة في البقاء بمكة، إلى جوار الأهل والمال. ولعلّ هذا هو المقصود في مطلع هذا المقطع: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾[2].

لقد وضع الله قاعدة عامة: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾، وأولوا الضرر الذين استثناهم الله سبحانه من أصابه مرض أو عرج أو عمى، أو أي علة لا يستطيع معها الجهاد في سبيل الله[3]، ثم فصّل الله سبحانه هذه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٣١)، ومسلم (١٨٩٨).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٥٩).

القاعدة فقال: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ والحسنى: الجنة [(١)]، وهذه الدرجة يمثلها النبي ﷺ في مقامهم في الجنة فيقول: « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»[(٢)] والتفضيل بالدرجات والأجر العظيم للمجاهدين على القاعدين بغير عذر: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وبين في الآية التالية الأجر العظيم بأنه الدرجات والمغفرة والرحمة فقال: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

فالمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بعذر درجة. والأصل أن يكون أجر القاعد بعذر كأجر المجاهد، لأن العذر حبسه عن الجهاد ؛ كما قال النبي ﷺ: « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه »، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟! قال: « وهم بالمدينة، حبسهم العذر » [(٣)]. وذلك لأنهم مع المؤمنين بنياتهم، فيعطى من حبسه العذر أجر المباشر للجهاد من غير تضعيف، ويزيد الله المجاهد بنفسه وماله « درجة التضعيف» فيفضله الغازي بالتضعيف للمباشرة [(٤)].

والمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بغير عذر درجات من الله ومغفرة ورحمة، إحساناً من الله وتكريماً [(٥)].

هذا كله عندما يكون الجهاد فرض كفاية، أما عندما تتعين فرضية الجهاد، فالقعود بغير عذر قد يكون سببه النفاق، وهو كفر، وقد يكون معصية وذنباً كبيراً، وذلك تحكمه نصوص

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، ومسلم (١٨٨٤).
(٣) رواه البخاري (٤٤٢٣)، وأبو داود (٢٥٠٨)، وابن ماجة (٢٧٦٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٤٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨).
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٩٨)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٥٦)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٧٤).

أخرى من الكتاب والسنة.

وهذه الآيات وغيرها كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة وتعالجها. وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية من الضعف والحرص والشح والتقصير لا يدعو لليأس من النفس والجماعة، طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف، والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها، ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على واقعها، بل لابد من استنهاضها لتسير في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وتظهر الآية القرآنية قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام ؛ لما يعلمه الله - سبحانه - من طبيعة تحرير البشرية، بالنسبة لطبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين [(١)] ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » [(٢)]، وقال النبي ﷺ: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » [(٣)].

ثم بيّن الله حال القاعدين عن الهجرة إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد، أو بيان لحال القاعدين عن نصرة رسول الله ﷺ والجهاد معه، من المنافقين، عقب بيان حال المؤمنين [(٤)]. فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٣).

(٢) مسلم (١٩١٠)، والنسائي (٣٠٩٧)، وأبو داود (٢٥٠٢).

(٣) الترمذي (٢٦١٦)، وأحمد (٢١٥١١).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٦١).

أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

قال محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود: قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيُرْمَى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

إن هؤلاء القاعدين في دار الكفر لا يهاجرون إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليجاهدوا معه، ويكثروا سواد المسلمين في أرض الإسلام ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق، وهم قادرون - لو أرادوا واعتزموا التضحية - أن يهاجروا، هؤلاء الصنف يصورهم القرآن بصورة مزرية منكرة تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته[2].

إن هؤلاء القاعدين عن الهجرة تقول لهم ملائكة الموت عندما تقبض أرواحهم، وقد اكتسبوا غضب الله وسخطه فظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة إلى رسول الله ﷺ ؛ تقول لهم: في أي شيء كنتم ؟ أو أين كنتم عن الهجرة ؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيفتنونا عن الإيمان واتباع رسول الله، فقد كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيمان، فترد عليهم الملائكة عليهم السلام: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ ﴾، ألم تكن أرض الله واسعة ؛ يعني هذه المدينة مطمئنة رحبة فتهاجروا إليها ؟! فيقول الله سبحانه: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾، أي

(١) البخاري (٤٥٩٦، ٧٠٨٥).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٥).

بئس المصير الذي يصيرون إليه.

ثم استثنى الله أهل العذر فقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾، يعني إلا المقهورين من الرجال والنساء والولدان، فليس مأواهم جهنم، وهم الذين ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾؛ لا يجدون سعة في الخروج عن أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام، ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة، فأولئك عسى الله أن يتجاوز عنهم، وعسى من الله تعالى متحقق الوقوع، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾، فلا يعاقبهم للعذر الذي هم فيه، وهم مؤمنون، ولم يتركوا الهجرة اختياراً، ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام ولكن للعجز الذي هم فيه [(١)].

وكان النبي ﷺ يقنت في الصلاة ويدعو للمستضعفين فيقول إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة قبل أن يسجد: « اللهم أنْجِ عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنجِ سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف » [(٢)]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء » [(٣)].

ويمضي السياق القرآني في معالجة النفوس البشرية التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها، فبعد أن عالجتها الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معاً، فهو يعالجها بعد ذلك ببث عوامل الطمأنينة في حالة الهجرة في سبيل الله، وبضمانة الأجر للمهاجرين في سبيل الله منذ أن يخرج من بيته، سواء وصل إلى وجهته، أو مات في طريقه [(٤)]:

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

---

(١) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٤٧-١٤٨)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٥٧).

(٢) البخاري (١٠٠٦، ٣٩٣٢)، ومسلم (٦٧٥).

(٣) البخاري (١٣٥٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٨٨).

تنوعت أقوال المفسرين في معنى « المراغم »[(١)]. وأقوالهم كلها تفسير بالمعنى، ولا تضاد بينها، فأما المعنى الخاص باللفظة ؛ فإن المراغم: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه، بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. والسعة: هي السعة في الأرض، وكثرة المعاقل، وبذلك تكون السعة في الرزق، واتساع الصدر لهمومه وفكره، وغير ذلك من وجوه الفرح والسرور ؛ وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾[(٢)].

وقد روي من طرق عن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن عكرمة -وإن اختلفت الروايات في اسم من نزلت الآية فيه - لمّا نزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال رجل من المسلمين يومئذ وهو مريض: والله مالي من عذر، إني لدليل بالطريق، وإني لموسر، فاحملوني فحملوه، فأدركه الموت بالطريق، فنزلت فيه: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[(٣)].

و﴿ وَقَعَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم[(٤)].

---

(١) وأصله من الرَّغام، وهو التراب الرقيق، ورغم أنف فلان رغْماً : وقع في الرغام وأرغمه غيرُه، ويُعَبَّر بذلك عن السّخط، وعلى هذا قيل : أرغم الله أنفه، وأرغمه : أسخطه، وراغمه : ساخَطَهُ، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر، ثم تستعار المراغمة للمنازعة. قال تعالى : ﴿ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾، أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يَلْزَمه أن يغضب منه. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ١٩٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠١).

(٣) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٥١-١٥٢)، وهذه الرواية يرويها الطبري بالتحديث عن الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرني معمر عن قتادة، والروايات الأخرى عن سعيد بن جبير وعكرمة بنحو هذه الرواية، وبأسانيد متعددة، مع الاختلاف في اسم من نزلت فيه، ولا يضر ذلك في الرواية، وقد روى ابن أبي حاتم هذه الروايات عن عكرمة عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير، انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٣).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٢).

ويبين الله عز وجل الرخصة التي يبيحها سبحانه للمهاجرين أو الضاربين في الأرض للجهاد أو التجارة، وهي رخصة القصر من الصلاة، كما يذكر حكم صلاة الخوف في أرض المعركة:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

إن الضارب في الأرض بحاجة ماسة للصلة الدائمة بربه تعينه على ما هو فيه، وتكون أساساً لعدته وسلاحه فيما هو مقدم عليه، وما هو مرصود له في الطريق. والصلاة أقرب الصِلات إلى الله، وهي العدة التي يُدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات. فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب، وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار، فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وما أحوج المهاجر من أرضه أن يلتجئ إلى حمى الله. غير أن الصلاة الكاملة وما فيها من قيام وركوع وسجود، قد تلفت أنظار عدوه فيعرفوه، أو قد تمكن لهم منه، وتعوقه عن القتال في حال الاشتباك [1]. لذا فالقصر هنا أعم أن يكون قصر عدد الركعات كما يصلي المسافر الرباعية ركعتين، إنما يدخل تحته قصر الكيفية أيضاً، حيث يكبر ويصلي بالإيماء في حال الاشتباك مع العدو (المسايفة قديماً)، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وذهب ابن عباس إلى أن كل طائفة تصلي مع الإمام ركعة عند مواجهة العدو، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فرضت الصلاة في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة [2].

والمشروع قصر الصلاة الرباعية في كل سفر، ولو لم يكن خوف، وسواء أكانت مشروعيته بهذه الآية أو بالسنة، فإن القصر في السفر ثابت، فعن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٠-١٩١).

(٢) رواه مسلم (٦٨٧)، وانظر التسهيل، الكلبي (١/ ١٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٦).

الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قال يحيى بن أبي إسحاق - الراوي عن أنس - قلت: أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال: أقمنا بها عشراً [١]، وعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾، فقد أمن الناس ؟! فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبت فيما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » [٢].

ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر والفطر، لا في القرآن ولا في السنة، وإنما كان كذلك لأنها كانت لفظة عربية مستقرٌ علمها عند العرب الذين خاطبهم الله في القرآن، فنحن نعلم قطعاً أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافراً لغة ولا شرعاً، وإن مشى مسافراً ثلاثة أيام، فإنه مسافر قطعاً لقول النبي ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم » [٣]، كما نحكم على أن من مشى يوماً وليلة كان مسافراً، لقوله ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها » [٤]، وروي: « مسيرة يومين »، وعند البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: « لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم » [٥]. ولعل الآثار خرجت على أجوبة السائلين، فحدث كل واحد بمعنى ما سمع، كأنه قيل له ﷺ في وقت ما: هل تسافر المرأة مسيرة يوم بغير محرم ؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر: هل تسافر المرأة يومين بغير محرم ؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر:

---

(١) البخاري (١٠٨١)، ومسلم (٦٩٣)، ورواه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي به.

(٢) رواه مسلم (٦٨٦)، والترمذي (٣٠٣٤)، وبقية الجماعة، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) مسلم (١٣٣٨).

(٤) مسلم (١٣٣٨).

(٥) البخاري (١٠٨٦).

هل تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام بغير محرم ؟ فقال: لا. وكذلك معنى الليلة والبريد، وقال أبو حنيفة: ثلاثة أيام بلياليها بسير الإبل ومشي الأقدام [١]، ومعلوم أن المسافر لا يسير طيلة اليوم، إنما يسير من بعد صلاة الفجر إلى ارتفاع الشمس قرب الزوال، فإذا اعتبرنا زمن السير في اليوم خمس ساعات في ثلاثة أيام، وراكب الإبل، والماشي على قدميه سرعته خمسة كيلومترات في الساعة، فتكون مسافة القصر خمسة وسبعين كيلومتراً.

وقدر الجمهور مسافة السفر بستة عشر فرسخاً ذهاباً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، وهذا يساوي ثمانين كيلومتراً ونصف ومائة وأربعون متراً [٢]، وموضع ذلك كتب الفقه.

والجمهور على أنه لا قصر في سفر المعصية، ورُوي عن أبي حنيفة والأوزاعي إباحة القصر [٣] ؛ لأن القصر عام للمصلين، وهذا العاصي من جملة المصلين، ولا نرى أن قصر الصلاة يعينه على معصية الله، إنما نفسه الأمارة بالسوء، وعدم خشوعه في صلاته هو الذي يدفعه إلى المعصية والله أعلم.

وتختم الآية بالتنبيه والتأكيد على عداوة الكافرين للمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، فعلى المسلم أن يأخذ حذره منهم.

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب في الأرض، الخائف من فتنة الذين كفروا يجيء حكم صلاة الخوف في أرض المعركة ؛ وتحتشد جنبات هذا الحكم الفقهي بلمسات نفسية وتربوية شتّى [٤]:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٥٣-٣٥٥).
(٢) الفقه على المذاهب الأربعة (١/ ٤٧٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٥٦).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩١).

سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها والصلاة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب؛ وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر. ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالاً أو ركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة، كما مرّ في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٩] [١]، فالعبادة لا تسقط أبداً عن العبد، فمن ضايقه الخوف على نفسه، في حال المسايفة، أو من سبع يطلبه، أو من عدوٍ يتبعه، أو سَيْلٍ يحمله، فإنه يصلي إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجه [٢]. وقصر الصلاة إلى ركعة واحدة كما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لا تقوم به حجة؛ لأن قصر الصلاة لا يثبت بخبر الآحاد، ولابد أن يكون النص قطعي الثبوت.

أما إذا استطاعوا أن يقيموا الصلاة جماعة فقد بينت هذه الآية أسسها: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقد حَدَّث أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نزل بين ضَجْنَانَ وعُسْفَانَ، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاةً هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، هي العصر فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة. وأن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم فتكون لهم ركعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٢٣).

ركعة، ولرسول الله ﷺ ركعتان [١]. ولم يذكر الله تعالى في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، كما في الحديث الذي ذكرته آنفاً، ولكن روي في الأحاديث أنهم أضافوا إليها أخرى [٢]، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « غزوت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجد، فوازينا العدوَّ، فصافقنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي لنا، فقامت طائفةٌ معه تصلي، وأقبلت طائفة على العدوّ، وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصلّ، فجاءوا فركع رسول الله بهم ركعةً وسجد سجدتين، ثم سَلّم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعةً وسجد سجدتين » [٣].

ذكرنا النوع الأول من صلاة الخوف عند الالتحام مع العدو، فيصلي كل واحد منفرداً بالإيماء، والنوع الثاني عندما يكون العدو في غير جهة القبلة، فيقسم الإمام أصحابه شطرين، ويؤم بأحدهما ركعة والأخرى في مقابلة العدو للحراسة، ثم يصلي الإمام بالآخرين ركعة، وتقوم الجماعة الأولى بالحراسة.

والنوع الثالث لصلاة الخوف (أو صلاة الحرب): عندما يكون العدو في جهة القبلة، ولا خطر على المسلمين من التجمّع، وهم في مكان يشرفون فيه على العدو، ويبصرون تحركاته فيصف القائد والإمام العسكر خلفه صفين، بدل أن يقسمهم شطرين، ثم يكبرون جميعاً تكبيرة الإحرام بعد تكبير الإمام، ثم يركع الإمام فيركعون معه جميعاً، إن كانوا يرون العدو في الركوع -وإلاّ فيركع مع الإمام الصف الأول- ثم يرفع من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، ثم يقوم الإمام مع الصف الذي يليه، ويسجد الآخرون في مكانهم، ثم يتقدم الصف المؤخر، ويتأخر الصف المقدم، ثم يركع بهم جميعاً، ثم يرفع الإمام من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد فيسجد الصف الذي يليه، وعندما يرفع ويرفع الصف

(١) سنن الترمذي (٣٠٣٥)، ورواه النسائي (١٥٤٤)، وأحمد (١٠٣٨٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٦٥).

(٣) البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩)، والترمذي (٥٦٤)، وغيرهم.

الذي يليه من السجود يسجد الآخرون، ثم يقعدون القعود الأخير جميعاً، وهم يرقبون العدو ثم يسلم الإمام بهم جميعاً [١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ، والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفُّ الذي يليه، وقام الصفّ المؤخر في نحر العدوّ، فلما قضى النبي ﷺ السجود، وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجودِ والصفُّ الذي يليه، الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً [٢].

ثم يبين الله للمؤمنين وجه الحكمة في الأمر بأخذ السلاح وأخذ الحذر ؛ ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾، أي مستأصلة لا يُحتاج معها إلى ثانية [٣]، وهي رغبة نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة. والسنون تتوالى، والقرون تمر فتؤكد هذه الحقيقة التي وضعها الله في قلوب المؤمنين، وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة كما يضع لها الخطة الحركية أحياناً على النحو الذي رأينا في صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر، وهذه التعبئة النفسية، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة، فهم يأخذون منه بقدر الطاقة وحسب الظروف والأحوال: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ ﴾،

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٨٤٠)، والنسائي (١٥٤٧)، وأحمد (١٠٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٢).

فحمل السلاح في هذه الحالة يشق، ولا يفيد، ويكفي أخذ الحذر، وتوقع نصر الله وعونه: ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

ولعلّ هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين ؛ فيكون المؤمنون هم ستار قدرته، وأداة مشيئته. وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر، والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذاباً مهيناً في الدنيا والآخرة [١].

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾، قال: عبد الرحمن بن عوف، وكان جريحاً [٢].

إن المتأمل في أسرار هذا القرآن، وفي أسرار المنهج الرباني للتربية، المتمثل فيه، يطلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية. ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة.

إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم الفقهي في صفة صلاة الخوف، ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة.

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة، وبجماعة - إن أمكن ذلك لرصّ الصف وجمع القلوب - وهذا طبيعي، بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح مهم من أسلحة المعركة، بل إنها السلاح ! فلابدّ من تنظيم الاستفادة من هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجوّ المعركة.

ولقد كان أولئك الرجال - الذين تربّوا بالقرآن وفق المنهج الرباني - يلقون عدوهم بهذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٣-١٩٤)، وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧١).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٩).

السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح. لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد، يعرفونه حق المعرفة، ويشعرون أنه معهم في المعركة، متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً. متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ عن منهجهم الرباني. وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله، وتذكيراً بهذا كله. ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة، بل كانت هي السلاح !

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصَى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم، ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم يواجهون قوماً كتب عليهم الهوان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة، هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !! [(١)]

ثم يوجه الله المؤمنين إلى ذكر الله والاتصال به في كل حال، وفي كل وضع إلى جانب الصلاة:

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة ذكره عقيب صلاة الخوف، على حدّ ما أمروا عند قضاء المناسك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهو ذكر في اللسان والقلب، وليكن هذا الذكر في سائر أحوالكم، قائمين أو قاعدين، أو على جنوبكم ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، أي فأتموها وأقيموها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٢-١٩٣).

كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها ؛ ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾، أي فريضة مؤقتة (١). روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عقب تفسيرها: لم يعذر الله أحداً في ترك ذكره إلا المغلوب على عقله (٢).

ويختم هذا المقطع بالتشجيع على المضي في الجهاد ؛ مع الألم والضنَى والكلال، ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية، تمسّ أعماق هذه القلوب، وتلقي الضوء القوي على المصائر والغايات والاتجاهات (٣):

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب عدوكم، عدو الحق والحرية، جدّوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فكما يصيبكم الألم واللأواء بسبب الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله الأجر والنصر والتأييد، كما وعدكم إيّاه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ووعده حق، وخبره صدق، وأعداءكم لا يرجون شيئاً من ذلك، فهم ضائعون مضيّعون، لا يرجون عند الله شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشدّ رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها لتحرير الناس من الظلم والاستعباد (٤)، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾، فيعلم مصالحكم، وما يحقق لكم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويعلم أعمالكم أيضاً، ما تظهرون منها وما تسرون. وهو سبحانه حكيم فيما

---

(١) والمعنى عند أهل اللغة : مفروض لوقت بعينه، يقال : وَقَتَه فهو موقوت، ووقته فهو مؤقت. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٣-٣٧٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٩-٥٥٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧١).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٠).

يأمر وينهى، فجدّوا في الامتثال لذلك، فإن فيه عواقب حميدة، وفوزاً بالمطلوب [1].

وفي ختام المقطع نقول: إن محور السورة هو التوحيد، الذي حقيقته التحرر والتحرير والهجرة هي الخروج من مجتمع الكفر للتحرر من ضغوطه وتبعاته، والالتحاق بالمجتمع المسلم، الذي يجاهد لتحرير البشرية من الطغيان والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: تحرر المسلمين بالهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام، والمشاركة مع إخوانهم المقيمين في دار الإسلام لتحرير المستضعفين، هو جزء مهم من التقوى، والعبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره.

ب- الأحكام الشرعية: أهمية الصلاة وأحكامها في الحرب والسفر.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على البذل والتضحية ؛ وفي ترك الوطن لله، وفي القتال في سبيل الله للتحرير أعظم أنواع التضحية والبذل.

د- الجوانب التربوية: إن الأمر بالهجرة، وتهديد المتقاعسين عنها، وتسميتهم بـ﴿ ظالمي أنفسهم﴾ أسلوب تربوي لتحرير أنفسهم من الظلم والتسلط الواقع عليهم في دار الكفر. ثم إن بيان أحكام صلاة الخوف في هذا السياق، وختام المقطع بذكر الله في كل الأحوال والحض على القتال، ولفت النظر إلى الألم لكلا الفريقين ؛ فريق الكفر وفريق الإيمان وتميّز المؤمنين بسلاح الإيمان الذي يرجون فيه من الله ما ليس لأعدائهم ؛ كل ذلك حملة تربوية، فيها التوجيه والتعليم، والإعداد ليخوضوا معاركهم، وهم أقوياء في نفوسهم متصلين بالله على الدوام، يستمدون منه العون والقوة، مع وضوح هدفهم الذي يقاتلون من أجله.

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧٢).

المقطع الثامن: حكم الله عدل مطلق، وجزاؤه حق وعدل (١٠٥-١٣٥):

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ

لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

قبل الحديث عن هذه الصلة نذكر بأن السورة مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ والمقاطع الثاني والثالث والرابع والخامس مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والمقطع السادس مبدوء بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ومختوم بنفس الخطاب، والمقطع السابع ليس

فيه هذا الخطاب؛ لأنّه تابع ومتمم لما قبله، وقد ورد فيه الأمر بأخذ الحذر مرتين [الآية: ١٠٢] وبدأ المقطع السادس قبله بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾.

والمقطع الثامن هذا لا نجد في أوله الخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ولكننا نجد آخر آية منه مبدوءة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وفي هذه الآية إشعار بالمعنى الرئيسي، الذي ينتظم معاني المقطع، الذي يعرض لنا معاني من مظاهر العدل، ثم يختم المقطع بآية ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾.

وصلة هذا المقطع بسابقه تظهر الآن بوضوح ؛ فهذا المقطع يتناول العدل، وسابقه يتناول الجهاد والهجرة ؛ والهجرة تخلّص من الظلم، والجهاد هدفه تحرير الناس من التسلط والظلم وإقامة الحق والعدل.

المعنى الإجمالي:

في الآيات الأولى من المقطع تشريف للنبي ﷺ، وتكريم وتعظيم وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيب على ما رفع إليه من أمر بني أبيرق [(١)]، وفي الآيات ما يوجه ويقرر في المجتمع إقامة العدل، وترويض النفوس على الاستقامة على الحق، وتحقيقه في الجماعة بشكل ليس له نظير، مما يدل على إعجاز القرآن.

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: كان أهل بيت منّا يقال لهم: بنو أُبَيْرِق، بِشْر وبَشير ومُبَشِّر، وكان بشير رجلاً منافقاً، يقول الشعر [(٢)] يَهْجُو به أصحاب النبي ﷺ، ثم يَنْحَلُه بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر، قالوا:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٨).

(٢) ذكر بعض المفسرين أن بشير يكنى أبا طعمة ؛ فلعل ما ورد عند بعض المفسرين أن الذي سرق هو طعمة بن أبيرق هذا سببه والله أعلم.

والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيثُ، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهلَ بيتِ حاجةٍ وفاقةٍ في الجاهلية والإسلام، وكان الناسُ إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يَسارٌ، فقدمت ضافِطةٌ من الدَّرْمَك [١]. ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه وأما العيالُ؛ فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافِطَة من الشام، فابتاع عمي رِفاعَة بن زيد حِمْلاً من الدَّرْمك، فجعله في مَشْرَبةٍ له [٢]، وفي المشربة سلاح؛ درع وسيف، فعُدِيَ عليه من تحت البيت، فنُقِبَت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلمّا أصبح أتاني عمي رِفاعةُ، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مَشْرَبَتُنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحَسَّسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بنو أُبَيْرِق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا -ونحن نسأل في الدار- والله ما نرى صاحبكم إلا لَبِيد بن سَهْلٍ، رجل منّا له صلاح وإسلام، فلما سمع لَبيد اخْتَرَط سيفَهُ وقال: أنا أسرق ؟ والله ليخالطنّكم هذا السيف، أو لَتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة، قالوا إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشكَّ أنهم أصحابها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي، لو أتيتَ رسول الله ﷺ فذكرتَ ذلك له ؟ قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منّا، أهل جفاءٍ، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مَشْرَبَةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردُّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: سآمُرُ في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أُسَيْرُ بن عروة [٣]، فكلّموه في ذلك، واجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمَّهُ عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بَيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمتُه، فقال: عمدتَ إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاحٌ، ترميهم بالسرقة من غير ثَبَتٍ ولا بينة؟! قال: فرجعت

(١) الضافطة : ناس يجلبون الدقيق والزيت ونحوهما، والدَّرْمَك : الدقيق الحوّاري. انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (٢/ ١٠٩)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ١٧٢).

(٢) المَشْرَبَة - بضم الراء وفتحها : الغرفة. جامع الأصول (٢/ ١٠٩).

(٣) عند القرطبي (٥/ ٣٧٥) : أسير بن عروة ابن عَمّ لهم.

ولَودِدْتُ أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعةُ، فقال: يا ابن أخي، ما صنعتَ ؟ فأخبرته بما قال لي رسولُ الله ﷺ، فقال: الله المستعانُ، فلم نَلْبَث أن نزل القرآنُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾، بني أبيرق، ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾، ممّا قلت لقتادة ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾، أي لو استغفروا الله لغفر لهم، ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾، قولهم للبيد: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

فلما نزل القرآن أُتي رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة، قال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح – وكان شيخاً قد عشا أو عسى – في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً[(١)]، فلما أتيته بالسلاح قال لي: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لَحِقَ بشير بالمشركين، فنزل على سُلافة بنت سعد بن سُمَيَّةَ[(٢)]، فأنزل الله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا

(١) يعني: أنّ إيمانه متزلزلاً فيه نفاق والدَّخَل: العيب والغش. جامع الأصول (٢/ ١٠٩).

(٢) الصواب سلافة بنت سعد بن شهيد كما في الدر المنثور وديوان حسان بن ثابت. انظر الدر المنثور، السيوطي (٢/ ٦٧١).

بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾، فلمّا نزل على سُلافةَ رماها حَسَّان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رَحْلَه فوضعته على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديتَ إليَّ شعرَ حسان، ما كنت تأتيني بخير [(١)].

ونلاحظ أن المقطع بدأ بتبيان الحكمة من إنزال الكتاب ؛ فهو حق من الله تعالى، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه وشرعه، وفي ذلك أبلغ رد على من يهمل الحكم بما أنزل الله[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ معناه على قوانين الشرع؛ إما بوحي ونص، أو بنظر جارٍ على سنن الوحي، وهذا أصل في القياس والاجتهاد، والنبي ﷺ معصوم في اجتهاده عن الخطأ ؛ لأن الله تعالى يريه الحق ويسدّده، والأمة تعبدها الله بالاجتهاد، فلا عصمة [(٣)]. قال النبي ﷺ: « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » [(٤)]، وحكم الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، إنما هو حكم مستند إلى ما يظهر من الدليل، لهذا قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار » [(٥)].

وقد وضح حديث قتادة بن النعمان عن بني الأبيرق الآيات، غير أننا نلفت النظر إلى أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٣٦)، وأخرجه الطبري (٥/ ١٧٠-١٧١)، وأخرج الطبري بسنده عن قتادة أن السارق طعمة بن أبيرق... وقذف الدرع على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين، وأخرج عن ابن زيد :... وطرحه على يهودي، فقال اليهودي : والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت علي. جامع البيان في تأويل القرآن الطبري (٥/ ١٧١-١٧٢)، وأخرج الحاكم في المستدرك رواية الترمذي (٤/ ٤٢٨)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٦).

(٤) رواه البخاري (٧٣٢٥)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما.

(٥) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾، هذا أول مظهر من مظاهر العدل، فلا يجوز التعصب لأهل الريب والمعاصي [1]، ثم يصدر الأمر بالاستغفار؛ لدقة قضية أهل الحق ولدقة الموقف من أهل الباطل، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته، وفي ذلك دعوة للتوبة من الخوض في الباطل، والرجوع إلى الحق والعدل.

ويظهر بوضوح قضيتان: الحكم بالحق، وترك الدفاع عن أهل الباطل، وينفر الله من الدفاع عن أهل الباطل بذكر صفاتهم المنفرة: ﴿ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾، فكيف يدافع المؤمن عمّن يبغضه الله، ومن صفاتهم المنفرة استخفاؤهم من الناس، وإخفاء قبائحهم عنهم، لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بالمعاصي؛ لأنهم منافقون، يبيتون الباطل والظلم، والله معهم ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾، وإذا افترض أحد أن هؤلاء الخائنين قد يستفيدون من مجادلة المؤمنين عنهم، فمن يستطيع الجدال عنهم يوم القيامة، أو من يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم؟! فلا دفاع من مسلم عن خائن.

وفي عصرنا هذا -عصر القانون والمحاماة- تظهر أهمية هذا التوجيه، حيث تقرر الآيات بوضوح أن صيغة الحق هي ما أنزله الله، وأن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم لا يجوز.

ويستمر السياق مقرراً ثلاث حقائق رئيسية:

الأولى: أن المذنب المسيء إذا استغفر الله يغفر له: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

والثانية: إن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وأن إثم الآثم لا يتعداه، ويرجع جزاء جريرته على نفسه: ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٠).

والثالثة: إن الذي يرتكب الخطيئة أو الإثم، ثم يرمي به الأبرياء، فقد اجتمع عليه ذنبان ؛ ذنب البهتان، وإثمه الأصلي: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾، قال الطبري: وإنما فرق بين الخَطيئة والإثم ؛ لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد [١]، فرمي البريء بهت له، قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما الغيبة ؟ »، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكره »، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟! قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » [٢].

ثم يبين الله سبحانه أن وصول الإنسان إلى الحقّ واستمراره عليه لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى، خاصّة مع وجود المضللين، الذين لا يُضلون إلا أنفسهم ولا يضرون غيرها: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾، فالكلام متصل؛ أي ما يضرونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ السنة أو القضاء بالوحي، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من الشرائع والأحكام [٣].

وفي هذا منة كبرى وفضل من الله على نبيه ﷺ في إنزال الكتاب والحكمة، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهي المنة الكبرى على البشرية كلها، ممثلة ابتداء في شخص أكرمها على الله، مع عصمته ﷺ ؛ فهذا الكتاب المنزل منة وفضل على البشرية، لا يعلمها ويعرف قدرها إلا المسلم الذي عرف الإسلام وعرف القواعد والتعاليم التي وضعها هذا الكتاب المبارك مع السنة التي هي من وحي الله، تلك القواعد والتعاليم ضبطت الحقوق وأرست قواعد العدل، وأرشدت

(١) جامع البيان، الطبري (٥/ ١٧٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩)، والترمذي (١٩٣٤)، وغيرهما. وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٠-٣٨١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٢).

البشرية إلى كل خير [١]، بما علم الله نبيه ﷺ وبما تفضل عليه من عظيم فضله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

والصلة واضحة بين بداية المجموعة المطالبة بالحكم بالقرآن، والنهي عن الجدال عن الخائنين، وبين نهايتها المتحدثة عن نعمة الله على رسوله ﷺ بإنزال القرآن عليه، وتعليمه ما لم يكن يعلم.

وفي سياق هذا المقطع الذي يبين صوراً من العدل والحق، وفي إطار محور السورة عبادة الله وطاعته، يحدد الله عز وجل إطار الخير في أحاديث الناس بعضهم مع بعض ؛ هذه الأحاديث التي يكون منها حق وخير فيه صلاح المجتمع وسعادة أفراده، ومنها افتراء وبهتان وظلم: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ النجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه ؛ أي خلصته وأفردته، والنجوى: السرّ بين الاثنين، والمعروف لفظ يعم أعمال البر كلها [٢]. روى سفيان الثوري بسنده عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: « كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ذكر الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر »، فقال سفيان الثوري: أوَ ما سمعت الله في كتابه يقول: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فهذا هو بعينه، أوَ ما سمعت الله يقول: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨]، فهو هذا بعينه، أوَ ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العصر]، فهو هذا بعينه [٣]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٤)، وقد روى هذا الحديث الترمذي (١٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤) بدون ذكر أقوال الثوري، وقد أثبتها لأنها توضح الآية.

وقال النبي ﷺ: « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً »[(١)]، وقال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة »، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة »[(٢)]، ويشترط لقبول ذلك والأجر عليه في الآخرة أن يخلص المؤمن فيه ويحتسب الأجر عند الله، ككل عبادة لا أجر عليها بدون الإخلاص، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

والنص عام، ويندرج فيه أصحاب النازلة بني الأبيرق، وتناجيهم في دفع التهمة عنهم وهذا من الفصاحة والإيجاز المتضمن الماضي والغابر في عبارة واحدة[(٣)].

وقد ذكر في سبب نزول هذه المجموعة من الآيات أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين، بعد أن كان في صفوف المؤمنين ثم اتبع غير سبيل المؤمنين، فأنزل الله بيان ذلك بنص عام ينطبق على كل حالة:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

يقرر الله سبحانه حقيقة مرتبطة بقضية الحق والعدل ؛ هذه القضية هي أن ما شرعه الله حق، وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية حق أيضاً، ويستحق مخالف هذا الحق العذاب الأليم.

إن من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، أو سلك غير الطريق الذي اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ باتفاق أهل الحل والعقد منهم، فيما عُلم اتفاقهم عليه تحقيقاً فمن سلك طريق الشقاق لهذا أو لهذا يجازيه الله على ذلك باستدراجه في الدنيا ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ويجعل

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وقال الترمذي : حسن صحيح.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٢).

النار مصيره في الآخرة ؛ لأن الله تضمن لأمة محمد ﷺ العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ (١).

ولما كان رأس الانحراف عن الحق سببه الشرك واتباع الشيطان جاءت الآيات اللاحقة تبين ذلك، وتقرر ما ذكر سابقاً في السورة: أن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك، وأن ما دونه يمكن أن يغفره، وقد ذكرت الآية (٤٨) من هذه السورة في معرض الحديث عن شرك أهل الكتاب (٢)، غير أن الآية هناك ختمت بالتنفير من الشرك، والتشنيع على أهله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾، وختمت هنا ببيان ضلال المشرك عن الهدى ؛ لأنه سلك غير طريق الحق وبعُد عن الصواب فخسر سعادة الدنيا والآخرة (٣).

ثم يبين الله حال هؤلاء المشركين، وأنهم ما يعبدون إلا إناثاً كالأحجار، ومظاهر هذا الكون والطبيعة:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾.

كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة؛ كاللات والعزى، وقيل المراد الملائكة وصوروهن جواري، وقالوا: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).
(٢) ارجع إلى تفسير الآية (٤٨) من سورة النساء.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] [(١)]. وهؤلاء العابدين للأصنام وغيرها من المعبودات، ويشركونها مع الله في التقديس والتعظيم والحب، ما يعبدون في حقيقة الأمر إلا الشيطان المتمرد على الله، الشديد العتو والإضلال، وإنما قال: إنهم يعبدونه؛ لأنهم يطيعونه في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس: ٦٠]، فالشيطان هو الذي يأمرهم بالكفر والشرك، ويزيّنه لهم وهو الملعون المطرود، المُبْعَدُ من رحمة الله وعن جواره، وهو الذي أخذ على عاتقه أن يُضِلَّ قسماً معيناً، مقدراً معلوماً من الناس ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾، وهم أهل الضلال لأن عباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم سبيل. أما أتباع الشيطان وعَبّاده ؛ فإنه يضلهم عن الحق، ويزيّن لهم ترك التوبة، ويعدهم الأماني الكاذبة، ويأمرهم بالتسويف والتأخير، ويزين لهم تحريم ما أحل، مثل قطع آذان الأنعام، كالبحيرة، والسائبة، وتأتي في المائدة، وتغيير خلق الله بارتكاب ما حرّم، كالوشم والنمّص وخصي الإنسان، وغير ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل »؛ ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل ؛ يعني قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] [(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » [(٣)]. ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾، أي من يطع الشيطان، ويَدَعْ أمر الله، فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها؛ لأن الشيطان ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، إنه يخبرهم بالباطل، ويعدهم الوعود

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٣١)، ومسلم (٢١٢٥)، وفيه أن امرأة من بني أسد جاءت إلى ابن مسعود. وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٥-٥٥٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٠٣٠).

الكاذبة، ويمنّيهم بالأماني الكاذبة ليغرر بهم، ويصور لهم أنهم يكونون من السعداء إذا حققوا شهواتهم بارتكاب الفواحش، ويخوفهم بالفقر، حتى لا يصلوا رَحِماً ولا ينفقوا في خير، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى مبيناً واقع الشيطان ووعوده الكاذبة: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، العذاب الأليم جزاء المستحسنين لإغواء الشيطان ووعوده الكاذبة، وهذا العذاب هو جهنم، فهي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة، ليس لهم عنها مندوحة، ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾[1].

فالشرك إذن يسبب الانحراف عن الحق، والشرك في حقيقته عبادة وطاعة للشيطان، ومجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالحق والعدل واضح؛ إذْ لا حق ولا عدل مع الشرك واتباع الشيطان.

وإذ ذكر حال الأشقياء في الآخرة أتبع ذلك بذكر حال المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أولئك الذين صدقت قلوبهم، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نُهوا عنه من المنكرات، جزاؤهم الخلود الأبدي في جنات تجري من تحتها الأنهار ؛ هذا وعد من الله لهم، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ؛ ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله ﴿ حَقًّا ﴾، ثم بعد التأكيد نفي الصدق عن غيره من شياطين الإنس والجن: ﴿ وَمَنْ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٦٥).

﴿أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، فلا أحد أصدق من الله قولاً وخبراً سبحانه لا إله إلا هو [(١)].

ثم يعقب السياق بقاعدة في العمل والجزاء. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني. إنه يرجع إلى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم - فليس أحد يمتّ إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر - وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون:

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾﴾.

لقد كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وكانوا يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾، وكان اليهود ولا يزالون يقولون: إنهم شعب الله المختار!

ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس، مع ترك عمل الخير والدعوة إلى الحق، ويزعمون أن الله متجاوز عنهم بها أنهم مسلمون. فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، ويبين أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل؛ وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق سُمع قولُه بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، فليست النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام، ولهذا وضع القاعدة: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، كقوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٦).

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فالله مجازي من يعمل السوء ولا يستطيع أحد أن يحول بين الله وبين مجازاته، فينصره أو يدفع عنه [١].

ولما ذكر الله الجزاء على السيئات، وأنه سيأخذ مستحَقّها من العبد ؛ إما في الدنيا وهو الأجود، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: « سدّدوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها » [٢]، وإما أن يأخذ جزاءها في الآخرة، شرع سبحانه في بيان إحسانه وكرمه في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكورهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو النقرة في ظهر النواة [٣].

وشرط سبحانه الإيمان ؛ لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وقرى الأضياف، وأهل الكتاب بسبقهم، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، فبين سبحانه أن الإيمان هو الأساس الذي تنبثق منه الأعمال الصالحة التي أمر بها الله، وأن الأعمال الحسنة لا تقبل من غير إيمان [٤].

ثم خيّر سبحانه بين الأديان مبيناً دين الحق والعدل وشرطاه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ فلا أحسن ديناً ممن اجتمع له إخلاص العمل لربه؛ فعمل إيماناً واحتساباً، متبعاً في العمل ما شرعه الله سبحانه، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق. وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٧)، وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١٢-٢١٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥٧٤) واللفظ له، والبخاري (٥٦٤٢)، والترمذي (٣٠٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٩٩).

الشرط الأول: أن يكون العمل خالصاً، والخالص أن يكون لله.

الشرط الثاني: أن يكون العمل صواباً، والصواب: أن يكون متبعاً للشريعة.

فيصح ظاهر العبد بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص ؛ ومتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ومتى فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومن جمعهما كان من المؤمنين الذين لا أحسن ديناً منهم، فهم مخلصون محسنون، وهم متّبعون لملة إبراهيم، المائل عن كل شرك إلى التوحيد الخالص، ومن ثم اتخذه الله خليلاً، فهو أبو الأنبياء الذين بلّغوا الحق إلى الخلق، وقرروا عقيدة التوحيد في الأرض.

ثم بين الله عز وجل أن جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وخلقه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ فهو المتصرِّف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يُسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقدرته وعدله وحكمته، ولطفه ورحمته. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾؛ فعلمه نافذ في جميع خلقه، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذره في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو المحيط بكل شيء [1]. وفي ظل هذا التصور وهذا الاعتقاد يصلح الضمير، ويصلح السلوك، وتصلح الحياة ويتقرر الحق والعدل في اتباع كتاب الله [2] ؛ فلا يكون دفاع عن المبطلين، ولا مناجاة بالشر؛ إنما بالخير والإصلاح، ولا طاعة للشيطان ؛ إنما الطاعة لله والاستسلام له باتباع رسوله.

فالمقطع يوضح جوانب من الحق والعدل، وكل ذلك في إطار السياق الكلي لمحور السورة الذي يُعمّق قضية العبادة لله وحده، والتزام التقوى.

ثم يكمل المقطع شرح جوانب من الحق والعدل في موضوع يتامى النساء والمستضعفين

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٩-٥٦٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢١٥).

واليتامى عامة، فيفتي بما هو حق وعدل:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾.

نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في المواريث وغير ذلك، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾؛ أي يبين لكم حكم ما سألتم عنه.

والذي ذكر الله أنه يُتْلَى عليهم في يتامى النساء، هو ما تقدم في صدر السورة في أمر النساء وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [(١)]؛ فقد سأل عروة بن الزبير عائشة رضي الله عنها عن قول الله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾، قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حَجْر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقسِط في صداقها، فيعطيها مثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهُوا أن ينكحوهن إلاّ أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصَّداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ رغْبَةَ أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حَجْره حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهُوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال [(٢)].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٨).

(٢) رواه مسلم (٣٠١٨) واللفظ له، والبخاري (٢٤٩٤).

ويظهر من ذلك أن معنى قوله تعالى: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ النهي عمّا كانت العرب تفعله، من ضم اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقّه من المهر، ومن عضل الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا ممّا يقصد به المولى منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي ﴿كُتِبَ لَهُنَّ﴾ هو توفية ما تستحقه من مهر وإلحاقها بأقرانها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامى النساء، والذي تُلي في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبيّة ولا الصبي الصغير - كما مرَّ في صدر السورة - وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض الله لكل أحد حقه. وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾، عطف على ما تقدم، والذي تُلِيَ في هذا المعنى هو قوله تعالى في صدر السورة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ إلى غير ذلك مما ذُكر في مال اليتيم، والقسط: العدل، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاء الجميل[1].

ثم بين الله عز وجل قضايا من الحق والعدل في الشؤون الزوجية، فذكر ثلاث حالات من العلاقة بين الزوجين، وبين حكمها:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٨).

النشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حسن العشرة ؛ وذلك بأن يتجافى عنها، بأن يمنعها نفسه ونفقته، والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسب أو ضرب. والإعراض أخف من النشوز ؛ وذلك بأن يقلل محادثتها ومؤانستها، لبعض الأسباب ؛ من طعن في سنّ أو دمامة، أو شيء في خَلْق أو خُلُق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك.

وقوله سبحانه: « والصلح خير » لفظ عام مطلق بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين خير من الفرقة [1].

وقد ذكرت الآيات حالات من العلاقة بين الزوجين:

الحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يُعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها، أو بعضه من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها؛ إذ الصلح خير من الفراق، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾، ثم قال: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾؛ أي خير من الفراق. ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾، أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة خشيت أن يفارقها رسول الله ﷺ، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقد روي عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يَقْسِمُ لعائشة بيومها ويوم سودة » [2]، وعن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، قالت عائشة: ففي ذلك

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٩-١٢٠)، والكشاف، الزمخشري (١/ ٣٠٢).
(٢) رواه البخاري (٥٢١٢)، والإمام أحمد (٢٣٩٥٦).

أنزل الله: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾[(١)].

فالصلح خير من الطلاق ؛ لأن الطلاق بغيض إلى الله تعالى، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهنّ أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء [(٣)]، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتاف مؤثر، ونداء مُسْتَجاب، بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب [(٤)].

والحالة الثانية في الحياة الزوجية: حالة الوفاق، حين يكون للرجل أكثر من زوجه.

إن الله الذي فطر النفس البشرية، فطرها ذات ميول لا تملكها، ومن ثَمَّ أعطاها لهذه الميول خطاماً لينظم حركتها فقط، لا ليعدمها ويقتلها.

من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات، ويؤثرها على الأخريات ؛ فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات، وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله. إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه ؛ فيدعه موزعاً بين أمر لا يملكه وأمر لا يطيقهُ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء -ولو حرصوا- لأن الأمر خارج عن إرادتهم، ولكن هناك ما هو داخل في إرادتهم. هناك العدل في المعاملة. العدل في القسمة. العدل في النفقة. العدل في الحقوق الزوجية كلها، حتى الابتسامة في الوجه، والكلمة الطيبة باللسان، وقد مرّ معنا في أوائل السورة: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٢) : « وكذلك رواه أبو داود عن أحمد بن يونس (٢١٣٥)، والحاكم في مستدركه، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه ابن مردويه بنحوه مختصراً».

(٢) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٣).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٣).

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]، وهذا ما هم مطالبون به، هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل، لينظمه لا ليقتله ! ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾. قال ابن عباس وغيره: المعلقة ؛ لا ذات زوج، ولا مطلقة [(١)].

وكان النبي ﷺ، وهو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال ؛ كان يقسم بين نسائه فيما يملك، ويعدل في هذه القسمة، ولا ينكر أنه يؤثر بعضهن بقلبه على بعض، وأن هذا خارج عمّا يملك، فكان يقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »، يعني: الحب والجماع [(٢)].

وفي حالة الإصلاح والتقوى، فإن الله سيغفر ما كان من تفريط عند عدم وجود العدل المطلق ؛ لأن القلب لا يملكه الإنسان: ﴿ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

والحالة الثالثة: حالة الفراق: حين تجفّ القلوب، فلا تطيق هذه الصلة، ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة؛ فالتفريق إذن خير؛ لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال ؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة، أو بالواجب والتجمّل. فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة، فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة، أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾، إنّ منهج الله واقعية مثالية، أو مثالية واقعية [(٣)].

فقد وعد الله كلاً من الزوجين أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هي خير له منها، ويعوضها من هو خير لها منه. وكان الله ولا زال واسعاً ؛ عنده خزائن

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، والدارمي (٢٢٠٧) وغيرهم. وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٤-٢٢٥)، وانظر بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٧٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٥).

كل شيء، وهو سبحانه حكيم في جميع أفعاله وأقداره وشرعه [(١)].

ولأن هذه الأحكام الخاصّة بتنظيم الحياة الزوجية، قطاع من المنهج الرباني لتنظيم الحياة كلها، ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكوني، الذي أراده الله للكون كله، فهو يتوافق مع فطرة الله للكون، وفطرة الله للإنسان، الذي يعيش في هذا الكون ؛ لأن هذه هي الحقيقة العميقة في هذا المنهج الشامل الكبير، يجيء في سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة، ما يربطها بالنظام الكوني كله ؛ وسلطان الله في الكون كله، وملكية الله للكون كله. ووحدة الوصية التي وصّى الله بها الناس في كتبه كلها، وثواب الدنيا وثواب الآخرة. وهي القواعد التي يقوم عليها المنهج كله. قواعد الحق والعدل والتقوى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾.

هذه الآيات كالتعليل لوجوب العمل بمنهج الحق والعدل الذي أنزله الله سبحانه [(٢)]؛ فأخبر أنه عز وجل مالك السماوات والأرض، وأنه الحاكم فيهما، وأنه وصانا بما وصّى به مَن قبلنا من تقواه، وعبادته وحده لا شريك له، وأنه في حالة كفرنا - والعياذ بالله - فإنه لا يضرّه ذلك، بل يضرنا نحن لابتعادنا عن منهج سعادتنا في الدنيا، وعن السعادة الأبديّة في الآخرة، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦] ؛ وكيف يضره سبحانه كفرنا - والعياذ بالله - وهو مالك السماوات

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٨٥).

والأرض، وهو الغني عن عباده، وهو المحمود في جميع ما يقدّره ويشرعه. وإذن فما دام الله مالك السماوات والأرض، الغني عن خلقه، المحمود في فعله وشرعه، فمن حقه على خلقه أن يطيعوه فلا يعصوه، وأن يشكروه فلا يكفروه، وأن يذكروه فلا ينسوه.

ثم ذكر سبحانه مرةً ثانية أنه مالك السماوات والأرض، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شيء؛ فكل شيء موكول إليه. وهذا مقدمة لتذكيره سبحانه بأنه هو القادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، إذ هو القادر على كل شيء ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠، وسورة فاطر: ١٦-١٧].

وإذا كان الله هو المالك لكل شيء، الخالق لكل شيء، المحيط بكل شيء، والمتصرف بكل شيء، والقادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، فلنصرف همتنا إلى طلب الدنيا والآخرة لا إلى الدنيا فقط؛ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، فإذا سأله السائل من هذه وهذه أعطاه وأغناه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] [1] ؛ فالمؤمن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، أو يطلب الأشرف وهو ثواب الآخرة، فإن من جاهد مثلاً خالصاً لوجه الله تعالى، لم تخطئه المنافع الدنيوية، وله في الآخرة ما الدنيا في جنبه كلا شيء، وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من كان همّه الآخرة جمع الله تعالى شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » [2] ؛ فمرجع الأمور كلها إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) مسند أحمد (٢١٠٨٠)، وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٣).

إلا هو، الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممّن يستحق هذه، وممن يستحق هذه، فهو السميع البصير ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[(١)].

والآن ينتهي المقطع بنداء المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾.

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل؛ فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عن العدل صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين، متعاضدين، متناصرين فيه[(٢)]، ونبه سبحانه بلفظ ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾، وهو بناء مبالغة، ليدل على أن مراعاة العدالة مرةً أو مرتين لا تكفي، بل يجب أن تكون على الدوام، ومن عدل مرةً أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلاً[(٣)]. وبما أن الشهادة هي التي يُعتمد عليها في تقرير العدل، والوصول إلى الحقوق، أمر الله المؤمنين أن يؤدّوا الشهادة ابتغاء وجه الله، فتكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، وأمر سبحانه أن تؤدى شهادة الحق، ولو عاد ضررها على صاحبها، فإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، ولو عادت مضرته عليك، فإنّ الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه[(٤)].

وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقائق، وقوله الحق في كل أمر، وقيامه بالقسط عليها كذلك. ثم ذكر الوالدين لوجوب برّهما وعظم قدرهما، ثم ثنّى بالأقربين، إذ هم مظنة المودة والتعصب ؛ فإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق، وإن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٣)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

عاد ضرره عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد، وإن كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فأدّ فيه شهادة الحق، لا تراع غنياً لغناه، ولا تشفق على فقير لفقره، فالله يتولَّى الجميع، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما [١]. وما يتوهّمه بعض الناس أن الانحياز للفقير هو لمصلحة الفقير، إنما هو مضرة للفقير ؛ فإذا أردت مصلحة الفقير فتصدق عليه، واحكم عليه بأداء الحق الذي عليه، وفي إقرار الحق والعدل مساعدة الفقير.

ففي بعض البلدان التي زعمت أنها تنصر الضعيف والفقير، درجت بعض محاكمها على أن تعفيه من ديونه، ويقول القاضي للدائن: أنت غني لا يحق أن تأخذ منه شيئاً. فماذا كانت النتيجة ؟ إذا احتاج الفقير إلى مال يسد حاجته لفترة من الزمن فما عاد يجد أحداً يعطيه قرضاً حسناً ؛ وعلى هذا فالعدل والشهادة بالحق تحقق مصلحة الفقير قبل الغني ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾.

ثم نهى سبحانه أن يحملنا الهوى والعصبية وبغض الناس عن ترك العدل في أي أمر وشأن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وعن سليمان بن يسار أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرُص بينه وبين يهودِ خيبر، قال: فجمعوا له من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفّف عنا وتجاوز في القَسْم، فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأمّا ما عرضتم من الرشوة فإنها سُحْت، وإنا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض [٢].

وحذر الله سبحانه – أخيراً – من تحريف الشهادة وتغييرها فقال: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. واللي: هو التحريف وتعمد الكذب ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، ممّا يسبب ضياع الحقوق، قال تعالى: ﴿ وَمَن

(١) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٢-١٢٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).
(٢) موطأ مالك (١٤١٣).

يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلَها »[١].

وقد بدأ المقطع بذكر الحق وانتهى بذكر العدل وإقامة الشهادة، وبين الحكم بالحق الذي هو القرآن، وتقرير العدل تلازم ؛ إذ الحق والعدل لا يكون إلا باتباع كتاب الله، فالحق والعدل في اتباع كتاب الله، وعدم الدفاع عن المبطلين، وترك الشرك وطاعة الشيطان، والاستسلام لله وحده، واتباع رسوله؛ وكل ذلك مرتبط بمحور السورة، إذ يحقق التوحيد الصحيح وتقوى الله سبحانه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: أنزل الله الكتاب بالحق ليحتكم الناس إليه ويأخذوا بهدي رسوله ﷺ، ويتحرروا عن طاعة غيره سبحانه ؛ من الأهواء، أو شياطين الإنس والجن، فذلك الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحقيقة الشرك طاعة للشيطان، فلنحذر وعود الشيطان الكاذبة.

ب- الأحكام الشرعية: يجب الحكم بما أنزل الله، ولا يجوز للمؤمن أن يدافع عن الخائنين، ولا يجوز التناجي إلا بالخير، وكل الذنوب عسى أن يغفرها الله سبحانه إلا الشرك. ويجب مراعاة الحق والعدل في شؤون النساء واليتامى والمستضعفين، كما يجب إحقاق الحق والعدل بين الزوجين، وهما الخلية الأولى في المجتمع، ويجب على المسلم أن يقوم بالعدل دائماً، وأن يشهد بالحق ولا يكتم الشهادة.

ج- الأخلاق الإسلامية: بناء خلق المسلمين على الإحسان والإصلاح المنبثقين من التقوى.

د - عرض جوانب من الخيانة والظلم، وجوانب من العدل والحق، مع الترغيب والترهيب أسلوب تربوي ينفر من الظلم، ويقرر الحق والعدل في المجتمع المسلم.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩)، والترمذي (٢٢٩٥، ٢٢٩٧)، وغيرهما.

المقطع التاسع: تولي الكافرين نفاق، والإيمان الصحيح والتقوى تحرر من النفاق والكفر (١٣٦-١٤٩):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾.

صلة المقطع بسابقه:

بدأ المقطع السابق بذكر إنزال الكتاب من الله إلى رسوله بالحق ليحكم بين الناس بالحق والعدل، ولا يستقر الحق ولا يستقيم العدل إلاّ بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر عن اتّباع

الشيطان وطاعته.

وهذا المقطع يبيّن حقيقة الإيمان بالله ورسوله، والكتاب الذي نَزَّل على رسوله ؛ ولا يكون ذلك إلا بالتحرر من النفاق والكفر. وبما أن تولي الكافرين نفاق وكفر، فلا يصح إيمان مع طاعة أهل الكفر والسير في ركابهم.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في شرائع الإيمان وشُعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٥] [(١)]، فقوله سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ معناه: اثبتوا على الإيمان بذلك، وداوموا عليه، وازدادوا في الإيمان طمأنينة ويقيناً [(٢)]. ثم بين سبحانه أن من يكفر بركن من أركان الإيمان فقد خرج عن طريق الهُدى، وبعد عن القصد كل البعد.

ثم أخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ۝١٣٧ ﴾.

رجح الإمام الطبري قول قتادة وأبي العالية أن الآية في اليهود والنصارى ؛ آمنت اليهود بحكم التوراة، ثم كذبوا بخلافهم إياه، ثم أقرّ من أقر منهم بعيسى والإنجيل، ثم كذّب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ والفرقان، فازدادوا بتكذيبه به كفراً على كفره. وسبب ترجيحه ذلك أن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين يعني قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٦).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٩٥).

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[1]. والذي نراه أن الآية السابقة لهذه الآية خطاب للمؤمنين، والسياق عام في الإيمان والكفر والنفاق، ويدخل في عمومه أهل الكفر بنوعيهم ؛ من كان كافراً ابتداءً ومن كفر بعد إيمان، إذا استمر على الكفر حتى الموت، ويدخل في العموم كفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه، ويدخل تحت هذا العموم أيضاً المنافقون إذا استمروا على الكفر حتى الموت ولم يؤمنوا، وهم الذين يترددون بين الإيمان والكفر. وعلى هذا فالمترجّح قول مجاهد وابن زيد أن الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر ؛ يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً، بأن تمَّ على نفاقه حتى مات. وصفة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر، وبين المؤمنين والكفار هي صفة أهل النفاق حتى يوافي على الكفر ؛ ولذلك كانت العبارة: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾، وهي أشد من قوله الذي مرّ في نفس السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وأشد من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ [محمد: ٣٤]، وهي عبارة تقتضي لسامعها أن يتنبّه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء. وكل من كفر كفراً واحداً ووافَى عليه، فقد قال تعالى إنه لا يغفر له، ولم يقل: لم يكن الله ليغفر له، فتأمل الفرق بين العبارتين، فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأنّ قوله: ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ ﴾ حكم تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء[2].

ويؤكد القول بأن الآية في المنافقين، ويدخل في عمومها أنواع الكفر أَمْرُ الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بأن يبشروا المنافقين بالعذاب الأليم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم؛ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ٣].

ثم نص سبحانه في صفة المنافقين، فذكر أشدها ضرراً على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار

(١) انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥/ ٢١١).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٤-١٢٥).

واطراحهم المؤمنين، ونبّه على فساد ذلك لأن لا يقع في بعض أنواعه، غفلةً أو جهالة أو مسامحة، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1]، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويسرّون إليهم بالمودّة، وربّما إذا خلا بعضهم بالكفار من اليهود أو غيرهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة.

ثم أخبر سبحانه أن سبب موالاتهم للكافرين هو: طلبهم العزة، والنصر والجاه في الدنيا[2]، وقد أخطأ المنافقون الهدف، لجهلهم وعدم فقههم، ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وجعل الله العزة للمؤمنين أيضاً، لأنهم يعتزّون به، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فالعزة كلها له وحده لا شريك له ؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]. والمقصود من هذا تهييج القلوب على طلب العزة من الله سبحانه، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النُّصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد [3]. إن العزة في العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره ؛ وإنها لعبودية لله كلها استعلاء وعزّة وانطلاق، وإمّا عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال [4].

وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن، فخاطب الله جميع من أظهر الإيمان من مُحِّقٍ ومنافق ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله [5]:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥).

(٢) العزّة : الغَلَبة، والشدة، والقوة، ومنه : الأرض العَزَاز، أي الصلبة، ومنه عزَّني ؛ إذا غلبني بشدته. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٧٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٦).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٣٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٧).

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

ما نَزَّلَه الله في القرآن على رسوله في مكة هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٨]. كان المشركون يخوضون في مجالسهم في ذكر القرآن ويستهزئون به، فأنزل الله هذه الآية، وأمر المؤمنين بالإعراض عن المشركين، والبعد عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، ولمّا فعل أحبار اليهود ما فعله المشركون من الاستهزاء والكفر بآيات الله، وكان المنافقون يقعدون معهم، ويوافقونهم على هذا الكلام، فنهى الله المؤمنين أن يفعلوا فعل المنافقين، بل إن المنافقين إذا خاضوا في النيل من القرآن، أو من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأننا إذا جالسناهم من غير أن ننكر عليهم الذي هم فيه، فقد أقررناهم على ذلك، وشاركناهم فيه، ومن شارك الكافرين في كفرهم فقد استحقّ أن يشركه الله معهم في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال.

وهذا يدلّ على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله، وإن لم يباشر، كان في الإثم بمنزلة المباشر، بدليل أنه تعالى ذكر لفظة « المثل » ههنا. هذا إذا كان الجالس راضياً بذلك الجلوس، أمّا إذا كان مكرهاً، أو خائفاً من ظلم لا يطيقه، فالأمر ليس كذلك؛ والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار، والمسلمين كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة [(١)].

ثم يبين الله سمات المنافقين، فيرسم لهم صورة زريّة منفرة، تبدأ بتقرير ما يكنّه المنافقون للجماعة المسلمة من الشرّ، وما يتربصون بها من الدوائر [(٢)]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٣/ ٣٣٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٤٠).

نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

إن المنافقين يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى: أنهم ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفرة عليهم، وذهاب ملّتهم. ولكنهم لنفاقهم، إن رأوا نصراً وتأييداً من الله للمسلمين، يتوددون إليهم، ويدّعون أن لهم فيه نصيب، بحكم ما يُظهرونه من الإيمان [١]. وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين، كما يقع في بعض الأحيان، ابتلاء للرسل وللمؤمنين، ثم تكون العاقبة لهم، يقول المنافقون للكافرين: ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لقد ساعدناكم في الباطن، وما ألونا المؤمنين خبالاً وتخذيلاً، حتى انتصرتم عليهم [٢]. إنهم يصانعون المؤمنين إن كانت لهم غلبة، ويصانعون الكافرين إن كانت لهم غلبة؛ ليحظوا عند الجميع، ويأمنوا الجميع؛ وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلّة يقينهم. ثم هددهم سبحانه بحكمه الحق يوم القيامة، وهو الذي يعلم ما في الصدور؛ وعليهم أن لا يغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليهم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما لله في ذلك من الحكمة؛ فيوم القيامة لا تنفع الظواهر، ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [٤]، ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بهذا النص يوم القيامة، حيث لا يكون للكافرين على المسلمين سبيل وحجة وضعّف هذا ابن العربي. وذهب البعض إلى أنّ ذلك في الدنيا [٥].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٦).

(٢) يقال: استحوذ على كذا: أي غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقيل: أصل الاستحواذ الحَوْط؛ حاذه يحوذه حوذاً إذا حاطه. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥/ ٥٦٧).

(٤) السبيل: الحجة والغلبة. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩).

إنه وعد من الله قاطع، وحكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين؛ وتمثّلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة، ونظاماً للحكم، وتجرداً لله في كل خاطرة وحركة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة؛ فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها! وما من شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم، إلا وهناك ثغرة؛ إمّا في الشعور، وإمّا في العمل. وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين، حين يعودون مؤمنين مسلمين.

ففي «أحد» مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ، وفي الطمع في الغنيمة، وهي عرض دنيويّ؛ وقد أعطى الله المؤمنين درساً عملياً في ذلك: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي «حنين» كانت الثغرة في الاغترار بالكثرة، والإعجاب بها، ونسيان السند الأصيل، وهو الله سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وأعطانا الله سبحانه درساً عملياً أيضاً من غزوة حنين: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]؛ ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلّف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذه الثغرات نعرف هذه الثغرة أو الثغرات، أوْ لا نعرفها. أمّا وعد الله فهو حق في كل حين.

كذلك حين يقرر النص القرآني: أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً؛ فإنما يشير

إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر، والفكرة المؤمنة هي التي تسود، وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً، وفي حياتها واقعاً وعملاً [١].

ونستطيع أن نقول إن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ؛ في الدنيا، ويوم القيامة[٢]. فيوم القيامة الأمر ظاهر، إذ الحكم لله الحق. وفي الدنيا؛ فقد ينال الكافرون من المؤمنين أحياناً نظراً لتقصير المؤمنين كما ذكرتُ، ابتلاء من الله لهم ليصلحوا أمرهم ويثوبوا إلى ربهم، ولكن لن يجعل الله للكافرين سبيلاً يمحو به دولة المؤمنين ويُذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم، كما جاء في حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأُعطيت الكنزين ؛ الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسَنَة عامةٍ، وأن لا يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنَة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سِوَى أنفسِهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» [٣]. فلن يسلط الله الكافرين على المؤمنين استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض المسلمين، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]. وعلى هذا فيكون ردّاً على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه، من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) ورجح ذلك الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ١٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وغيرهما. وقوله ﷺ: «زوى»، أي جمع، والمراد بالكنزين: الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر ؛ العراق والشام. «يستبيح بيضتهم»: جماعتهم وأصلهم. والسَّنة العامّة: القحط، بل يكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٤١-٢٤٢).

منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥٢] [١].

ثم يمضي السياق فيرسم صوراً زرية أخرى للمنافقين، مصحوبة بالتهوين من شأنهم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

قد تقدم في أول سورة البقرة: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [٩]، وقال ههنا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾، ولا شك أن الله لا يُخادَع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم بالله، وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمْرَهم كما راج على الناس، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأنّ أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقوله: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾، أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق، والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة هم مجزيّون على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]، وقال رسول الله ﷺ: « من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به » [٢].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

ثم بين الله عز وجل صفة أخرى من صفات المنافقين. وكيف أنهم إذا عملوا أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. قاموا إليها وهم كُسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية فيها ؛ لأنهم لا يعقلون معناها. وهذه صفة ظواهرهم في أدائها، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر الله صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، فلا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلّفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَون فيها غالباً، كصلاة العشاء وقت صلاة العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما قال رسول الله ﷺ: « إنّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأُحَرِّقَ عليهم بيوتهم بالنار »[1].

ومن كان هذا حاله فلن يخشع في صلاته: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فلا يتذكرون الله، إنما يتذكرون الناس، وهم لا يتوجهون إلى الله، إنما يتوجهون إلى الناس ؛ فلا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعمّا يُراد بهم من الخير معرضون. قال رسول الله ﷺ: « تلك صلاة المنافق ؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً »[2].

ثم زادنا الله بصيرة في شأن المنافقين، فقال: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، فوصفهم بالحيرة والتردد بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين. فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا هم مع الكافرين ظاهراً وباطناً. بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك ؛ فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك. وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لهذا التردد فقال: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة،

---

(١) رواه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٥٧) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٦٢٢) وغيره.

وإلى هذه مرة »[١].

وهذا حال من أضلّه الله، وصرفه عن طريق الحق، فلا هادي له إلى الطريق الواضح، ولا منقذ له مما هو فيه، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وبعد أن اتضحت حال المنافقين، وأن أساس نفاقهم هو موالاتهم الكافرين، نهى الله عباده عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ وبيّن جزاء المنافقين الرهيب، مع التوجيه إلى التوبة وإخلاص الإيمان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؛ وهو نهي عن مصاحبتهم، ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم[٢]. ثم يحذر الله الذين يفعلون ذلك بأنهم قد جعلوا الحجة قائمة عليهم من الله في استحقاقهم عقاب الله. وكل «سلطان» في القرآن حجة، كما قال ابن عباس وتلاميذه، وغيرهم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤)، وزاد النسائي (٥٠٣٧)، وأحمد (٥٠٥٩) : « لا تدري أيها تتبع ».

(٢) الولاء والتوالي : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبةُ، ومن حيث الدينُ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية والنصرة. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٣.

[آل عمران: ٢٨] [١].

ثم بين الله عقاب المنافقين، فأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار، ولا ناصر لهم يخرجهم من أليم العذاب. والنار دَرَكات، كما أن الجنة درجات. وأعلى طبقات النار هي جهنم. فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار؛ لأنهم أسوأ غوائل من الكفار، وأشد تمكناً من أذى المسلمين. وروي عن أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار، في توابيت من النار تقفل عليهم.

ثم استثنى الله عز وجل التائبين من المنافقين، وذكر شروط التائب؛ وهي أن يصلح قوله وفعله، ويعتصم بالله؛ فيجعله منعته وملجأه، ويخلص دينه لله تعالى؛ فيبدّل الرياء بالإخلاص [٢]. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من كان هذا حاله فهو في زمرة المؤمنين يوم القيامة، ينال ما نال المؤمنين من الأجر العظيم، وهو الجنة؛ ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

ثم أخبر تعالى عن غِناه عن خلقه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، وأنه سبحانه مُنزّه عن أن يعذب من أصلح العمل وآمن بالله ورسوله؛ فهو سبحانه يشكر من شكر له، ومن آمن قلبه علمه الله، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [٣]، وفي قوله تعالى ﴿ عَلِيمًا ﴾: تحذير وندب إلى الإخلاص [٤].

في هذا السياق الذي علمنا فيه الله عز وجل أنه منزّه عن مقابلة الشكر والإيمان بالعذاب، وأنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، يؤدبنا سبحانه أدباً فيه تطهير النفس والمجتمع، وإشاعة الثقة في جوّ الجماعة المسلمة، باستبعاد قالة السوء فيها، مع الانتصاف من الظلم، والحضّ على العفو والسماحة:

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٠).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٩).

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾.

لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء (١)، إلاّ من ظُلِم، فلا يُكره له الجهر به.

وجهر المظلوم بالسوء أن يدعو على من ظلمه، وقيل: أن يذكر ما فعل به من الظلم وقيل: أن يردّ عليه بمثل مظلمته، إن كان شتمه (٢).

إن الجهر بالسوء يبدأ في أوّل الأمر اتهامات فردية - سباً وقذفاً - وينتهي انحلالاً اجتماعياً وفوضى أخلاقية ؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات، وتنعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض ؛ وقد شاعت الاتهامات، ولاكتها الألسنة بلا تحرج.

لذلك كله حرَّم الله إشاعة قالة السوء في المجتمع المسلم. وقصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم، في حدود ما يقع عليه منه من الظلم. ويُعتبر هذا رداً لسوء بذاته، قد وقع بالفعل على إنسان بذاته ؛ وتشهيراً بالظلم والظالم في المجتمع، لينتصف المجتمع للمظلوم، وليضرب على يد الظالم؛ وليخش الظالم عاقبة فعله فيتردد في تكراره. عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له، ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير(٣). قال النبي ﷺ: «ليّ الواجد يُحِلّ عِرْضه وعقوبته» (٤). وعن عائشة رضي الله عنها أنها

---

(١) الجهر : كشف الشيء وظهوره لحاسة البصر أو حاسة السمع، أما البصر فنحو رأيته جهاراً، قال تعالى: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : ٥٥]. وأما السمع، فمنه قوله تعالى : ﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ﴾ [الرعد : ١٠]، وقوله : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى ﴾ [طه : ٧]. المفردات في غريب القرآن ص ١٠١، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر التسهيل، ابن جزي الكلبي (١/ ١٦٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٣٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٠).

(٤) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الاستقراض، باب لصاحب الحق مقال. ورواه النسائي (٤٦٨٩)، وأبو داود (٣٦٢٨)، وابن ماجة (٢٤٢٧)، وإسناده حسن. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٠١-٥٠٢). وفي صحيح مسلم : « مطل الغني ظلم »، واللّي : المطل، والواجد : القادر الغني، من الوجد=

سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو على السارق، فقال النبي ﷺ: «لا تُسَبِّخي عنه»[1].

وآخر الآية: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدَّى الحد في الانتصار. ونَخْلُص من ذلك أن لا ندعو على أحد إلا إذا ظلمنا، وأن لا نتكلم على أحد إلا إذا ظلمنا.

ثم ندب الله إلى العفو في مثل هذا، ورغب فيه بقوله: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾، والعفو من صفة الله تعالى، مع القدرة على الانتقام؛ لذا فالعفو عن الناس أجَلُّ ضروب فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو، وحيث يتَّجِه حقه[2].

والمقطع يتحدث عن الإيمان الصحيح بالله وكتابه ورسوله؛ ولا يكون ذلك إلا بتولي الله ورسوله، والذين آمنوا، وعدم تولي الكافرين؛ أي بتقوى الله والعبودية له، والتحرر من العبودية لغيره، وهذا هو محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- **قضايا العقيدة:** أهم مقومات التوحيد الصحيح العبودية لله وحده، والتحرر من النفاق والكفر؛ وذلك بترك الولاء للكافرين، والبراءة من كفرهم ومخططاتهم؛ وعدم إلقاء المودة إليهم؛ بإخبارهم بأسرار المسلمين، واطلاعهم على عوراتهم المادية والمعنوية؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

= بالضم بمعنى القدرة، انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٠٢)، وجامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٦/ ٢).

(١) رواه أبو داود (١٤٩٧، ٤٩٠٩)، قال أبو داود: لا تُسَبِّخي، أي لا تخففي عنه.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٠٧)، (٦/ ٤).

ب- الأحكام الشرعية:

١- يحرم الجلوس مع من يستهزئ بالحق إلا على سبيل الإنكار.

٢- توبة المنافق مقبولة بشروط: هي أن يصلح قوله وفعله، وأن يعتصم بالله، وأن يخلص دينه لله.

٣- لا يجوز للمؤمن أن يقول سوءاً، إلا إذا ظلم، فيدعو على ظالمه، أو يصف الظالم في حدود ما يقع عليه من الظلم. والعفو أفضل.

ج- الأخلاق الإسلامية:

١- الاعتزاز بالله، والتوكل عليه، والثقة به خلق أصيل من أخلاق المسلمين.

٢- من أخلاق المسلم عدم خوضه في أعراض المسلمين، وعدم إيذائهم بلسانه.

٣- من أخلاق المسلم العفو.

د- الجوانب التربوية:

١- تربية المؤمن على الاستقامة، وعدم الذبذبة ؛ ليكون ظاهره كباطنه.

٢- بيان قبول توبة المنافق بشروطها، بعد بيان الجزاء الكبير الأليم في الدرك الأسفل من النار، أسلوب تربوي ليحذر المؤمن من النفاق، وليدفع المنافق إلى الإيمان الصحيح، ويكون في صف المؤمنين.

٣- استبعاد قالة السوء من أفراد المجتمع المسلم، مع الانتصاف من الظلم، تطهير للنفس وتطهير للمجتمع، وإشاعة الثقة في جوّ الجماعة المسلمة.

المقطع العاشر: بيان انحرافات أهل الكتاب الاعتقادية والسلوكية، لتوضيح معالم الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح (١٥٠-١٦٢):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

بما أن الله ذكر في المقطع السابق أن المنافقين يتولون الكافرين من أهل الكتاب، واليهود منهم خاصّة، ذكر في هذا المقطع انحرافات اليهود الاعتقادية والسلوكية، ليحذَرهم المؤمنون ويثبتوا على الاعتقاد الحق والسلوك الصحيح.

التفسير الإجمالي:

سبق الحديث في السورة عن الشرك والمشركين، ثم ذكر الله المنافقين، وهنا يذكر الله الكفار من أهل الكتاب ؛ اليهود والنصارى ؛ إذْ كفر اليهود بعيسى عليه السلام، وهم والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، ومن كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بالكل ؛ لأن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى الأرض، فمن ردّ نبوة واحد منهم فقد ردّ نبوة الكلّ. وخاصة الإيمان بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ؛ لأنه ما من نبي إلاّ وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومعنى: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، أي بين الإيمان بالله ورسله فنصّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر ؛ وإنما كان كفراً، لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، وخلقوا لأجلها ؛ فكان كجحد الخالق سبحانه، وجحد الخالق كفر، لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية.

وكذلك التفريق بين رسل الله في الإيمان بهم كفر، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾، كاليهود الذين كفروا بعيسى، والنصارى الذين كفروا بمحمد ﷺ، كما ذكرنا قبل قليل [1].

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ليحررهم من العبودية لغيره من المخلوقات ؛ ويقتضي توحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس ؛ وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية. فدين الله للبشر ومنهجه للناس، هو هو لا يتغيّر في أساسه: « تحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه »، كما أنه لا يتغير في مصدره [2].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾، أي يتخذوا بين الإيمان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٢).

والجحد طريقاً، أي ديناً مبتدعاً بين الإسلام واليهودية، أو بين الإسلام والنصرانية [1]، مثل المنادين اليوم بوحدة الإيمان ؛ فيقولون إن اليهود مؤمنون بالله، والنصارى مؤمنون، وفرعون مؤمن. والله سبحانه يؤكد كفرهم بتوكيد يزيل التوهم في إيمانهم، فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ ؛ إن كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه لو نظروا حقّ النظر في نبوته. ويأتي بعد التوكيد الوعيد بالعذاب المذلّ للكافرين عموماً، ويدخل به هؤلاء دخولاً أولياً: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله، وبكلّ الرسل، فقد أعدّ الله لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، يعني بذلك أمة محمد ﷺ ؛ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولذلك ختمت الآية هنا بالمغفرة لذنوبهم، إن كان لبعضهم ذنوب: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [2].

وبعد تركيز تلك القاعدة الأساسية في العقيدة الإسلامية عن حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر، فيما يتعلق بالرسل والرسالات، يأخذ في استعراض بعض مواقف اليهود في هذا المجال، وفي مجال الجهر بالسوء الذي خُتم به المقطع السابق ؛ منددا بموقفهم من النبي ﷺ ورسالته، وتعنّتهم في طلب الآيات، مع أن معجزاته ﷺ واضحة، وأولها صفاته في كتبهم، وأمرهم بالإيمان به ﷺ. ويقرن بين موقفهم هذا، وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى عليه السلام ثم مع رسول الله من بعده عيسى عليه السلام وأمه مريم ؛ فإذا هم جِبلّة واحدة في أجيالهم المتتابعة. والسياق يوحّد بين الجيل الذي واجه الرسول محمداً ﷺ، والجيل الذي واجه عيسى، والجيل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٢).

الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكّد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجبلة [(١)]:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. وإنما سألوه هذا على سبيل التعنّت والعناد والكفر، كما سأل كفار قريش من قبلهم نظير ذلك: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]. فبين الله لرسوله ﷺ أن سؤالهم هذا من باب التعنت، لا من باب طلب الدليل، وأن هذه طبيعتهم المتوارثة. فهاهم مع كل ما رأوا من الآيات مع موسى عليه السلام طالبوه أن يريهم الله جهرة، فعوقبوا بالصاعقة، بسبب طغيانهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسّر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]. وعبدوا العجل من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة، والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام، من فلق البحر، وإهلاك فرعون وجنوده، وغير ذلك. وقصّة اتخاذهم العجل وعفو الله عنهم مبسوطة في سورة الأعراف، وفي سورة طه [(٢)].

وبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخِذَ منهم، وهو العمل بما في التوراة، رفع الله فوقهم الجبل ونهاهم عن العمل يوم السبت، وأمرهم أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وأخذ منهم الميثاق الغليظ على الطاعة فعصوا وخالفوا أمر الله. وقد تقدم رفع الجبل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٢-٥٧٣).

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤]. وتفصيل أمر الله لهم بدخول بيت المقدس سجداً جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. وجاء تفصيل عدوانهم في السبت في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦] [١].

هذه طبيعة اليهود. إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم تملّصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه، وتبجّحوا فقالوا: إنّ قلوبنا غُلْف ؛ لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المؤمنين [٢]، ليعرفوا كيف يواجهون اليهود، وليأخذوا حذرهم ؛ فلا يقعوا بمثل ما وقعوا فيه:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾.

إخبار من الله تعالى عن أشياء واقعوها هي الضدّ مما أمروا به ؛ وذلك أن الميثاق الغليظ الذي رفع الطور من أجله نقضوه، ووقعوا فيما أخبر الله عنه في الآيتين السابقتين مما هو استخفاف بأمر الله، وكفر به. وكفروا بآيات الله، أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، حتى انتهوا إلى أعظم حرمة، وهي قتل الأنبياء، وغير

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٧).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٧).

ذلك من الجرائم الكبيرة، التي كل واحدة منها كفر [١]. ففي الكلام مقدر، والجار والمجرور متعلق بمقدر ؛ إذْ حَذْف جواب هذا الكلام بليغٌ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحتمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم [٢] ؛ وقد ذكر الله سبحانه قتلهم الأنبياء في عدد من الآيات، وأشار إلى أن الدافع إلى ذلك هو كفرهم وعبوديتهم لأهوائهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقولهم: قلوبنا غُلْف ؛ أي في غطاء (مغلفة: جمع أغلف) فلا نفقه ما تقول، وهو كقول المشركين: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت: ٥]؛ وغرضهم بهذا درء حجة الرسل [٣]، أوتيئيس الرسول ﷺ من إيمانهم واستجابتهم، أو الاستهزاء بتوجيه الدعوة إليهم، والتبجح بالتكذيب وعدم الإصغاء. وربما كان غرضهم كلّ ما ذُكر. وينقطع السياق عند قولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ليكذبهم ويردّ عليهم: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؛ فهي ليست مغلقة بطبعها ؛ إنما كفرهم جرّ عليهم أن يطبع على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة، مختوم عليها، فلا يدخلها الحق، ولا تستشعر نداوة الإيمان، ولا تتذوق حلاوته فلا يقع منهم إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وغيرهم.

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من الذلة والمسكنة، وتحريم الطيبات في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم في الآخرة [٤]: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾. قال ابن عباس: إنهم رموها

(١) الباء في قوله : ﴿ فبما نقضهم ﴾ للسببية، و« ما » مزيدة لتوكيد السببية، والإشارة إلى أنّ ما ذكر سبب قوي. انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٧).

بالزنا، وكذلك قال غير واحد من التابعين. وهو ظاهر من الآية؛ أنهم رموها وابنها بالعظائم؛ فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك. زاد بعضهم: وهي حائض[(١)]. مع أنهم عاينوا المعجزات التي تدل على طهرها، وعلى نبوة عيسى ﵇، من كلامه الناس في المهد وغير ذلك.

ثم هم يتبجّحون بأنهم قتلوا المسيح ﵇، فيثبت عليهم الجرم، وإن كانوا قد قتلوا غيره[(٢)]: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

لقد كان عيسى ﵇ يسيح في الأرض، ويدعو إلى الله، وكانت بنو إسرائيل تطلبه، وأغروا به ملكهم ليقتله، وزعموا أنهم قتلوه، ولزمهم ذنب هذا الجرم العظيم، من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى، فكأنهم قتلوه[(٣)]؛ وقد أوضح الله الأمر وجلاّه، وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والدلائل الواضحات فقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، أي رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾، يعني بذلك من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّم إليهم بذلك من أهل الجهل من النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾، أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكّين متوهمين. والحقيقة أن الله رفعه إليه، والله سبحانه عزيز منيع الجناب، لا يصل أحد إلى من أراد الله نصره وحفظه، وهو سبحانه حكيم في جميع ما يقدّره ويقضيه ؛ فهو سبحانه حكيم فيما فعله بعيسى ﵇، وسينزله إلى الأرض بعد رفعه إلى السماء، فيكون من أمة محمد ﷺ، ويدعو الناس إلى شريعته ﷺ ودينه، ويؤمن به أهل الكتاب قبل أن يموت كما يموت سائر الناس: ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٧٣).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٣).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٥٧٤-٥٧٦).

وقد ذكر الله قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام في سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، الآيات إلى قوله: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢-٥٥]. وقال ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مُقْسِطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[1]، وقال رسول الله ﷺ: « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »[2].

ثم يعود السياق إلى تعداد مناكر اليهود، وما نالهم عليها من الجزاء في الدنيا والآخرة:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

جعل الله تعالى هذه العقوبة الدنيوية إزاء ظلم بني إسرائيل في تعنّتهم، وسائر أخلاقهم الدميمة. والطيبات ذكرتها الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾؛ يحتمل أن يريد صدهم في ذاتهم، ويحتمل أن يريد صدهم غيرهم[3]. وقد

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥)، وفي رواية لمسلم: «... فأمّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمّكم منكم؟ قلت: تخبرني، قال: فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ. وارجع إلى تفسير القرطبي (٤/ ١٠١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٥).

رجح الطبري رحمه الله (صدهم غيرهم) فقد صدوا عباد الله عن دينه وسبله التي شرحها لعباده صداً كثيراً، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله، وتحريف معانيه عن وجوهه ؛ وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ، وكتمانهم ما قد علموا من أمر محمد ﷺ[1]. ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ لا عن جهل فقد نُهوا عنه فأصرّوا عليه، وأكلهم أموال الناس بالرشا وغيره، من أنواع أكل أموال الناس بالباطل. بسبب هذه المنكرات، وما ذكره الله قبل هذه، حُرمت عليهم طيبات أحلت لهم، وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً.

وهكذا تنكشف طبيعة اليهود وتاريخهم المشين، وعدم استجابتهم للرسول ﷺ، وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم، وتعرف الأمة المسلمة ما ينبغي أن تعرفه في كل حين عن طبيعة اليهود وجِبلّتِهم، ووسائلهم وطرائقهم، ومدى وقوفهم للحق في ذاته ؛ سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم ؛ فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحَمَلَتِهِ، في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم، مع أصدقائهم ومع أعدائهم.

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ليقصر على الجماعة الأولى في المدينة ؛ فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم، ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها «القرآن» شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهرياً ! متّبعة قول فلان وفلان. وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود، وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن.

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود، حتى ينصف القليل المؤمن منهم، ويقرر حسن جزائهم، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق، ويشهد لهم بالإيمان والعلم: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ

---

(١) جامع البيان، الطبري (٦/ ١٧).

فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله ؛ كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة، ونحن نشهد هذا في كل زمان (١).

ومع ذكر إيمانهم بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله، فهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وكلها صفات المؤمنين المتقين التي جاءت في أول سورة البقرة.

ونلاحظ قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ جاءت منصوبة، على غير سائر ما عُطفت عليه، وذلك نصب على المدح، لإبراز أهمية الصلاة. وختمت الآية ببيان أجر هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظراؤه: ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢).

ونلاحظ ارتباط هذا المقطع الذي يتناول انحرافات أهل الكتاب عن الاعتقاد الصحيح بمحور السورة، حيث يظهر من سلوك أهل الكتاب المنحرف حقيقة العبودية لله وطاعته.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة:

١ – أساس أركان الإيمان الإيمان بالله رباً معبوداً لا إله سواه، والإيمان برسوله محمد ﷺ،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٢٠-٢١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٣).

وبالقرآن الذي نزل عليه، وينبني على ذلك الإيمان بما أخبر به القرآن ؛ كالإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر.

٢- يجب الإيمان بكل نبي بعثه الله إلى الناس ؛ فمن ردّ نبوة واحد من الأنبياء فقد ردَّ نبوة الكل، وخاصة نبوة خاتم الأنبياء ﷺ.

٣- التفريق بالإيمان بين الله ورسله كفر ؛ لأن الرسلَ يبلغون أمر الله وشرعه. وعدم الإيمان بهم تكذيب لشرع الله الذي جاءوا به، وتركٌ لطاعة الله والعبودية له.

ب- **الأحكام الشرعية**: يجوز التعامل المادي مع أهل الكتاب غير المحاربين ؛ لأن المعاملة بالبر والعدل غير الولاء. قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

ج- **الجوانب التربوية:**

١- الكشف عن طبيعة اليهود وتاريخهم، وفضح سلوكهم، وكشف نفوسهم أسلوب من أساليب القرآن لتربية المسلمين، وتعريفهم على عدوهم ليحذروه، ويحذروا عقائده وسلوكه.

٢- من أساليب القرآن مدح العلم وأهله، وبيان أن العلم الراسخ الذي يؤدي إلى الإيمان الصحيح، هو العلم النافع، الذي يكون البحث فيه عن بواطن الأمور، وأهدافها وحكمها. أمّا العلوم الدنيوية البحتة، والانغماس بالمادية، فإنها تؤدي إلى الغفلة عن الحق والبعد عنه، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧].

المقطع الحادي عشر: الوحي لتحرير الناس لم ينقطع من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ (١٦٣-١٧٠):

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

المقطع السابق يتحدث عن انحرافات أهل الكتاب في اعتقادهم بالله وبرسله، ويزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض. ويتحدث هذا المقطع عن استمرار الوحي من الله إلى الرسل المتتابعين في البشرية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ آخر الرسل وخاتمهم. والعاقل الذي يريد الحق قد أُرسل إليه الرسول محمد ﷺ بالحق، فإن آمن به وبالرسل قبله فقد اهتدى إلى طريق الحق، وإن آمن ببعض الرسل وكفر بمحمد ﷺ، فقد كفر بالحق المنزل من عند الله. فالمقطع يبين وحدة الرسالة، ووحدة المصدر.

التفسير الإجمالي:

مما نلاحظه أن المقطع الثامن بدأ بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ .. ﴾ الآية، وانتهى بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾. وهذا المقطع يبدأ بقوله: ﴿ ۞ إِنَّآ

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾، وينتهي بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ... ﴾ الآية؛ علماً بأن بداية سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾.

روى الطبري بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال سُكَيْن وعديّ بن ثابت[1]: يا محمد، ما نعلمُ أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾.

يخبر الله عز وجل في هذا المقطع أنّ إنزال الوحي على محمد ﷺ ليس بدعاً، بل أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله، فلم ينقطع الوحي من بداية حياة البشر على الأرض، إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية للأهواء والطواغيت. وعدد الله سبحانه أسماء بعض من أوحَى إليه من الرسل ؛ فإنزال الكتاب إلى محمد ﷺ ليس بدعاً، فقد أنزل سبحانه كتباً من قبل، منها الزبور الذي أنزله على داود عليه السلام.

والرسل كثيرون، منهم من قصَّ الله على رسوله قصصهم، ومنهم من لم يقصص. والأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن خمسة وعشرون نبياً، وهم: آدم، وإدريس ونوح، وهود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل، عند كثير من المفسرين، وآخرهم سيدهم وسيدنا محمد ﷺ. وهناك خلق آخرون من الأنبياء لم يذكروا في القرآن، وعددهم أكثر من ألف. قال رسول الله ﷺ: « إني خاتم ألف نبي أو أكثر، وما بُعِثَ نبي يتبع إلا وقد حذّر أمته الدجال، وإني قد بُيِّن لي في أمره ما لم يُبَيَّنْ لأحد، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة، ولا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصّص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة

(١) عند القرطبي (٦/ ١٥) : قوم من اليهود، منهم سُكيْن وعدي بن زيد، وكذا عند ابن كثير (١/ ٥٨٥)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ١٣٦) : عدي بن زيد.

الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء تدخن »[(١)].

وأخبر الله سبحانه أن من الوحي ما كان كلاماً من الله، كما كان ذلك لموسى ﷺ، وهذا تشريف له بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم.

ثم بين الله الحكمة من إرسال الرسل، وهي التبشير والإنذار ؛ فيبشرون من أطاع الله واتّبع رضوانه، وتحرر عن العبودية لغيره بالخيرات، وينذرون من خالف أمره، وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وقد أنزل الله كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيّن سبحانه ما يحبه ويرضاه، مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر ؛ فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾، فهو سبحانه عزيز في العقاب على من أنكر الحق، حكيم في بعث الرسل لتحرير الناس من الذل والعبودية لغير الله تعالى. وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه: ١٣٤]. وقال رسول الله ﷺ: « لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ﷺ، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »[(٢)].

وفي قوله سبحانه: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾، إشعار برحمة الله للعباد، فلا حجة لأحد على الله ؛ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:

---

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣٤٣). قال ابن كثير : رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « إني لخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال، وإني قد بين لي ما لم يبين لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور ». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠، ١٤٩٩)، وفي رواية : « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه ». انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٨).

١٤٩]، فقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ولكنه سبحانه، رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يذكرونهم ويبصّرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق. ودور العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبيين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبّه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم للعقل - أيضاً - منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، القائم على الأدلة والحجج، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة [1].

ثم يأتي الاستدراك عن مفهوم ما قبله ؛ كأنهم لما سألوه ﷺ إنزال كتاب من السماء، وتعنتوا وردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ ﴾، قيل: إنهم لا يشهدون، أو واقع حالهم أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وحاصل ذلك: إن لم تلزمهم الحجة، ويشهدون لك، فالله يشهد [2]:

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك فأنزل الله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٢٣-٢٤).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١٧).

بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾[1].

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، مع إثبات نبوته، والردّ على من أنكرها ؛ أي وإن كفر بك مَنْ كفر يا محمد ممّن كذبك وخالفك، من أهل الكتاب وغيرهم، فالله يشهد أنك رسوله الذي أنزل عليك الكتاب، وهو القرآن، الذي أنزله الله بعلمه ؛ ممّا أراد الله أن يطلع العباد عليه، بمشيئته سبحانه، وحكمته فيما يحقق مصالحهم، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ؛ والدليل أنه أنزله بعلمه ما فيه من أمور لا يمكن أن تكون إلا عن علم الله ؛ من ذكر للبينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وغير ذلك من أوجه الإعجاز في القرآن التي تشهد على صدق نبوة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ويضاف إلى ذلك ما في القرآن من ذكر لصفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله بها [2].

إن في هذا القرآن من العلوم الكونية، والتشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والحقوق العامة والخاصة وغيرها، ما لا يمكن أن يكون إلا من عند رب العالمين، وكفى بذلك معجزة لمحمد ﷺ. فشهادة الله بما أنزله إليه، إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات ؛ إذْ الحكيم لا يؤيّد الكاذب بالمعجزة.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أيضاً بما شهد له الله سبحانه. وقد جعل بعضهم شهادة الملائكة على صدقه ﷺ في دعواه بإتيانهم لإعانته ﷺ في القتال ظاهرين، كما كان في غزوة بدر وغيرها[3].

وعندئذ يجيء التهديد الرعيب للمنكرين في موضعه، بعد شهادة الله - سبحانه - وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم [4]:

---

(١) رواه ابن جرير عن ابن عباس من طريق محمد بن إسحاق، وهو إسناد حسن. جامع البيان الطبري (٦/ ٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾.

إن الذين كفروا بالله وآياته ورسله، بعد أن تأكدت رسالة الرسول، بشهادة الله، وتأييده بالمعجزات، ولم يكتفوا بعدم اتباع الحق، بل سعوا في صد الناس عن اتباعه، إن هؤلاء قد خرجوا عن الحق، وضلوا عنه، وبعدوا بعداً عظيماً شاسعاً [(١)].

كل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد عن طريق الهدى والحق قد ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ ضلوا عن هدى الله، وضلوا طريقهم في الحياة ؛ فضلوا فكراً وتصوراً واعتقاداً، وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً. ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة، ضلالاً لا يُرتجى معه هدى؛ ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾.

ويعيد السياق وصفهم بالكفر، ليضم إليه الظلم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ ﴾.

والكفر في ذاته ظلم. إنه ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس. والقرآن يعبر عن الكفر والشرك بأنه الظلم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، بعد أن قرر في الآية السابقة على هذه أنهم الكافرون: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الكفر والشرك وحده، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصدّ عن سبيل الله أيضاً، فأمعنوا في الكفر، أو أمعنوا في الظلم، ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ وذلك لعدم استعدادهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤).

للهداية إلى الحق، والأعمال الصالحة التي هي طريق الجنة [١]، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ [الصف: ٥].

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات، مع كونها عامة لكل من كفر وصد عن سبيل الله تنطبق أول ما تنطبق على حال اليهود، وتصور موقفهم عن هذا الدين وأهله؛ بل من الدين الحق كله، سواء منهم الذين عاصروا فجر الدعوة في المدينة، ومن سبقوهم منذ أيام موسى عليه السلام، ومن جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا؛ إلا القلّة النادرة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله [٢].

وبعد وضوح الحجة، وظهور هذه الحقائق يأتي النداء إلى الناس جميعاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ ﴾.

يا أيها الناس قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي، المؤيّد بالدليل من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم، واتبعوه يكن خيراً لكم. وأما إن كفرتم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم ؛ ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٣]، وأنتم خلق ممن خلق في السماوات والأرض ؛ فأنتم في ملكه وتحت تصرفه فلا يضره كفركم، بل تضرون أنفسكم باختيار ما تمليه عليكم شهواتكم، وشياطين الإنس والجن، على ما أنزله العليم الحكيم. والله سبحانه عليم بما يكون من إيمان وكفر، وهو حكيم في تكليفكم بما أنزل على رسوله، مع علمه بما يكون منكم [٤].

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢٠).
(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤)، وانظر قول الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ٢٢٠)، والآية في اليهود على الصحيح، وقيل إنها في المشركين، وما قبلها في اليهود.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٥٩).

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ في سورة مدنية، إنها دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب، وكشف جِبلّة اليهود ومناكرهم في تاريخهم كله، وبيان تعنتهم الأصيل، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم من الطغيان والاستعباد. كما سبقها بيان طبيعة الرسالة وغايتها. وهذه الغاية وتلك الطبيعة تقتضيان أن يرسل الله الرسل، وتقتضيان أن يرسل الله محمد ﷺ حتماً ؛ فهو رسول إلى الناس كافّة، بعد ما مضى عهد القوميات ؛ كما قال النبي ﷺ: « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى الناس عامة » (١)، فلم يكن بدّ من تبليغ عام في ختام الرسالات، يُبلّغ إلى الناس كافة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة. فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى، أو بعد موسى عليهما السلام، لا يتفق مع عدل الله في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ (٢).

ونلاحظ بوضوح الارتباط بين هذا المقطع ومحور السورة (التوحيد الصحيح) بالعبودية لله وحده، والتحرر عن العبودية لغير الله. حيث يبين المقطع وحدة الوحي، واستمراره من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من السورة:

أ - **قضايا العقيدة**: الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله لتحرير البشرية من العبودية لغير الله ومحمد ﷺ آخر الرسل، أرسله الله للناس كافة، وليس بدعاً من الرسل: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩].

ب- **الجوانب التربوية**: السياق التربوي منصب على تأكيد صحة الوحي، وصدق القرآن ؛ وقد ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم بنحوه (٥٢١)، والنسائي (٤٣٢)، وغيرهم.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٥).

المقطع الثاني عشر: الغلو عند أهل الكتاب أخرجهم من الإيمان الصحيح، وأوقعهم في العبودية لغير الله (١٧١-١٧٣):

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

وضح المقطع السابق وحدة الوحي، ووحدة مصدره، واستمراره لتحرير البشرية وسعادتها، ثم دعا الناس عموماً إلى الإيمان بالحق والرسول، ويأتي هذا المقطع خاصاً بأهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان، والعمل الصالح، وترك ما يتنافى مع توحيد الله والعبودية له.

التفسير الإجمالي:

ينهى الله أهل الكتاب عن الغلو والإطراء [1]، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحدّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعموا أنهم على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتَّبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً

(١) الغلوّ: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعر. زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، وقد أفرط اليهود في الغلو في حطّ المسيح ﷺ عن منزلته، بعدما رأوا معجزاته، حتى قالوا: إنه ابن زنا، تفسير القرطبي (٦/ ٢١)، والغلو باب واسع، يدخل فيه أشياء كثيرة من قضايا العقائد إلى العبادات إلى غير ذلك.

أو صحيحاً أو كذباً، وهذه هي العبودية لغير الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤][1].

ولابدّ لنا أن نلفت النظر هنا في موضوع الغلو والإطراء للبشر، حتى يصلوا إلى درجة العصمة، فيحلّوا ويحرموا للناس ما لم يأذن به الله ؛ فيُذلّونهم، ويستعبدونهم، وهم يحسبون أنهم يتقربون إلى الله بهذه الطاعة للمعصومين، وهذا متحقق في البابا والأحبار والرهبان، كما وضحت ذلك آية سورة التوبة، التي ذكرت قبل قليل. ويدخل في ذلك ما تفعله بعض الفِرَق الإسلامية عندما تغلوا في مرجعيّاتها الدينية وتوصلها إلى حدّ العصمة لتكون معبودة من دون الله. ويدخل في ذلك بعض الشيوخ الضالين المضلّين، أو المغضوب عليهم، حين يدعون الناس بأسلوب مباشر أو غير مباشر، إلى تقديسهم، وإطرائهم، وطاعتهم طاعة عمياء، كالميت بين يدي الغاسل. وقلت: « بعض الشيوخ الضالين أو المغضوب عليهم » لأنهم إن كانوا يعلمون من دين الحق أن العبادة لله، والإخلاص له، ثم يتجاوزون حدودهم بدعوة الناس إلى تقديسهم وطاعتهم طاعة عمياء، ليصلوا إلى التسلط على الناس، والوصول إلى أهوائهم ومصالحهم فهؤلاء من المغضوب عليهم ؛ لأنهم يعلمون الحق ولا يتبعونه. أما إذا كان الشيوخ جهلة لا يعلمون حقيقة الدين، وحقيقة العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره، ويظنون أنهم بخضوع الناس لهم يجرونهم إلى الصلاة والصيام وطاعة الله... إن كانوا كذلك فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم. والضال هو الذي لا يعرف الحق ولا يتبعه.

فهذا درس تربوي مهم في عدم الانسياق في تيار العبودية لغير الله سبحانه، عن طريق

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

الغلوّ أو الإطراء. ولذا قال النبي ﷺ: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله » (١).

وهكذا نهى الله أهل الكتاب عن الغلوّ في دينهم، ثم نهاهم أن يفتروا على الله، وأن يجعلوا له صاحبة أو ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزّه وتقدس، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

وإذ كان من أعظم ما وقع من غلو ما ادعاه النصارى أن المسيح هو الله أو ابن الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فقد قرر الله حقيقة المسيح ﵇: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. إن المسيح ﵇ عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له كن فكان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٦٨]. فهو ﵇ رسول من رسل الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فكان عيسى بأمره عز وجل، ولهذا قيل لعيسى كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل، وليس غريباً في قدرة الله أن يخلق عيسى بكلمة ﴿ كُن ﴾ من غير أب، فقد خلق آدم ﵇ بلا أب ولا أم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩١] (٢)، وقال النبي ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (٣).

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥)، وأحمد (١٥٥، ١٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥).

و« مِنْ » في قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لابتداء الغاية، وليست تبعيضية. وقد توهّم بعض النصارى أن لهم مستمسكاً من القرآن بالنص أن عيسى منه في هذه الآية ؛ أي جزء منه، فردّ عليهم بعض أهل العلم، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، فيلزم إذن أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علواً كبيراً، فانقطعت حجة النصارى. وكذلك خلق آدم ﷺ، فلا يقول أحد أنه جزء من الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] [(١)].

وبعد أن قرر حقيقة عيسى ﷺ نهاهم أن يجعلوه وأمه -أو ما يسمونه الروح القدس- مع الله شريكين، فنهاهم عن التثليث بعد أمرهم بالإيمان بالله و(رسله): ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. وهذه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله، ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد ﷺ بوصفه خاتم النبيين، والانتهاء من تلك الدعاوى والأساطير تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف [(٢)]. وهذا النهي عن التثليث هو نهي لكل فرق النصارى عن ضلالهم في هذا الشأن ؛ لأن فرق النصارى - بعد ما فني أهل التوحيد الخالص منهم - كلها تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاّهوت والناسوت - في زعمهم - هل اتّحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه، على آراء كثيرة، وكلها كفر، ولا يقرها العقل والمنطق السليم. ولهذا أمرهم سبحانه أن ينتهوا عمّا هم فيه ؛ لأن في هذا الانتهاء الخير لهم. ثم قرر الله سبحانه الوحدانية الصحيحة: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ونزه ذاته أن يكون له ولد: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، وذلك لأن كل ما في السماوات والأرض - بما فيهم عيسى وغيره - ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد، وهو الحافظ والمدبر

(١) انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٠).

للجميع، كما قال سبحانه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١][1].

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ إشارة إلى دليل آخر ؛ لأن الوكيل بمعنى الحافظ، فإذا استقلّ سبحانه وتعالى في الحفظ لم يحتج إلى الولد، فإن الولد يعين أباه في حياته ويقوم مقامه بعد وفاته، والله سبحانه منزّه عن كلّ هذا، فلا يُتصور له ولد عقلاً، ويكون افتراؤه حمقاً وجهلاً. ثم يأتي الاستئناف المقرر لما سبق من التنزيه[2]:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾.

لن يستكبر ولن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون يستكبرون عن العبودية لله، بل هي فخرهم وشرفهم. وهذا ينفي عن الملائكة صفة الألوهية، كما افتراها بعض أهل الجهل، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]. ثم بين الله عز وجل أنّ من يستكبر عن عبادة الله والتحرر عن العبودية لسواه، فإن الله سيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجور ولا يحيف؛ وحكمه وجزاؤه ضمن قاعدة هي: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيعطيهم من الأجر والثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه، وسعة رحمته وامتنانه[3]. ويحتمل أن تكون هذه الزيادة المخبر عنها أن الحسنة بعشر أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ويحتمل أن يكون

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩١).

التضعيف سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١] [١].

وأما الممتنعون عن طاعة الله وعبادته، المستكبرون عنها، فإن الله يعذبهم عذاباً أليماً؛ لا يحيط به الوصف، ولا يجدون من يلي أمورهم ولا من ينصرهم من بأس الله تعالى وينجيهم من عذابه [٢].

وفي ختام هذا المقطع نرى أنه يطالب أهل الكتاب بتوحيد الله ومعرفته، وترك العبودية لسواه؛ ويكون ذلك بالعمل الصالح بعد الإيمان الصحيح. فدلّ ذلك على أن العبادة مجموعة أمور: معرفة الله بذاته وصفاته، والإيمان به، والعمل الصالح الذي أمر به وشرعه سبحانه وهذا مضمون محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة:

١- الدعوة إلى التوحيد: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

٢- الدعوة إلى العبادة والعمل الصالح: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾، والعمل يصدق الإيمان.

ب- الجوانب التربوية: عرض حال النصارى، ونهيهم عن الغلو الذي أوقعهم في التثليث والشرك، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح مع الترهيب لمن استكبر واستنكف عن الإيمان والطاعة. كل ذلك أساليب تربوية تبين حقيقة التوحيد وتدعو أهل الكتاب إلى الحق، وتُقرّ في قلوب المؤمنين الثبات عليه.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢/ ١٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥).

المقطع الثالث عشر: القرآن دليل قاطع وحجة واضحة (١٧٤-١٧٦):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

يتناول المقطع السابق دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد الصحيح، وترك الشرك والغلو، كما تناولت المقاطع السابقة انحرافات اليهود وتعنّتهم قبل بيان غلو النصارى، وأهل الكتاب عموماً، وتناولت الآيات سابقاً بيان العبودية لله، وأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بالتحرر من النفاق؛ وتحرير النفس والقلب من كل عبودية لغير الله تبارك وتعالى ؛ يأتي المقطع الأخير في السورة ليدعو الناس كافة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، كما بدأت السورة بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾. يدعو الله الناس جميعاً إلى الرسالة الأخيرة، التي تحمل برهاناً من الله، وهي نور كاشف للظلمات والشبهات، فمن أطاع الله ورسوله، واستقام على أمره سبحانه سُعِد في الدنيا والآخرة.

التفسير الإجمالي:

يقول الله تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم [١]، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة، وهو القرآن الذي هو الضياء الواضح على الحق كله في كل شؤون الحياة، فهو حق، وفيه برهانه ودليله [٢].

فالقرآن هو معجزة الرسول ﷺ الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإذا

---

(١) البرهان : الحجة النيّرة الواضحة، التي تعطي اليقين التام. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٩٢).

كان كثير من الناس ظنوا أن إعجاز القرآن في الجوانب اللغوية فقط، لكثرة الكتابة فيه، فإن أوجه إعجاز القرآن كثيرة، إضافة إلى اللغة والبيان، نذكر منها بإيجاز:

أ - فالقرآن معجز في أساليبه التربوية ؛ من تدرج في الأحكام، وتحرير للنفس البشرية، وترغيب وترهيب، وتشبيه وتمثيل، وغير ذلك من الأساليب التي نقل بها الأفراد والمجتمعات، بل البشرية جميعاً، لا من آمن به فقط، رويداً رويداً ؛ نقلهم من جاهلية جهلاء إلى حضارة إنسانية ومادية فريدة لا مثيل لها. وقلنا « البشرية جميعاً » ؛ لأنه لا يستطيع أحد أن ينكر أثر القرآن والإسلام في الشرق بعد غزو التتار، وأثره في الغرب بعد الحروب الصليبية.

ب- والقرآن معجز في أخباره عن الماضي والمستقبل.

ج- وهو معجز أيضاً، حيث لم يأت فيه شيء لا يقرّه العقل السليم.

د - وهو معجز حين أخبر عن بعض الظواهر الكونية والعلمية، ممّا لم تصل إليه البشرية إلا في القرن العشرين ؛ من ذلك تلقيح الرياح: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الحجر: ٢٢]، حيث تلقح الرياح السحاب والنبات، ومن ذلك إخباره عن النبات والجيولوجيا، واختلاف الكائنات الحية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، ومن ذلك إخباره عن خلق الإنسان في ظلمات ثلاث؛ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وتكوين الجنين نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً، ثم كائناً إنسانياً متكاملاً: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. فهل كان محمد ﷺ، وهو أمي متخصصاً في علوم الأجنة، ممّا لم تصل إليه العلوم الحديثة إلا في العصر الحديث. لا شك أن هذا من عند خالق الإنسان.

هـ- والقرآن معجز بعلومه الشاملة لكل جوانب السلوك الإنساني في هذه الحياة، وبيّنت السنة وفصلت ذلك كله:

١- فقد وضع أسس العلاقات الاجتماعية السليمة.

٢- ووضع أسس الاقتصاد والعلاقات المالية؛ فحرم الربا، والغش، والغرر، والرشوة والاحتكار، وكل تصرف ماليّ يؤدي إلى تكدّس الثروة بأيدي جماعة قليلة في المجتمع، ولذلك فتت الثروات بالإرث الذي يتوافق مع فطرة الإنسان وحقق النمو الاقتصادي المتوازن: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]. وحلّ القرآن مشكلة الفقر بسنوات قليلة، وعجز العالم عن حلها.

٣- ووضع القرآن القواعد والأسس للحقوق المدنية، وبنى قواعد الالتزام على العدل والسماحة.

٤- ووضع القواعد والأسس للحقوق الدولية. ولقد قامت عصبة الأمم المتحدة قبل هيئة الأمم المتحدة على المبادئ الفقهية التي ترجمها أعضاء جمعية الشيباني للحقوق الدولية، من كتاب السير (الجهاد) في الجامع الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني أحد تلاميذ أبي حنيفة النعمان رحمه الله. ولكن - مع الأسف - انحرفت المؤسسات الدولية عن العدالة الإسلامية في السلم والحرب، إلى سياسة المصالح، والتسلط من الدول العظمى، كما وضحنا ذلك سابقاً.

فمن أين لإنسان أمي أن يأتي بهذه العلوم، التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وترسم للإنسانية طريق السعادة، وقد عجزت البشرية كلها - بمجالسها النيابية والشعبية، وبعلومها المادية والإنسانية، وبتعاون أممها وشعوبها، وتبادل خبراتها - أن تصل إلى تحقيق العدل والخير في بعض ما وصلت إليه العلوم والمعارف التي جاء بها القرآن ؛ بعد أن تخبطت البشرية طويلاً:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

ولا نريد أن نطيل في موضوع الإعجاز، ولكن لابدّ لنا من هذه الإشارات، حتى نعلم أن القرآن نفسه حجة وبرهان للناس جميعاً على أنه حق، أنزله الله سبحانه لإسعاد البشرية ونقلها من ظلمات المصالح الخاصة والشهوات، وتضليل شياطين الإنس والجن إلى طريق النور والسعادة الأبدية، في الدنيا والآخرة ؛ فهو الحق، وهو برهان ودليل على الحق.

وهذا القرآن الذي هو البرهان والحجة هو النور المبين الذي تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ففيه العقائد والشرائع، والأحكام والمواعظ، التي تفرق بين الحق والباطل في داخل النفس، وفي السلوك، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦][1].

وإذا جاء البرهان والبيان، فلابدّ من الإيمان لمن يدرك البرهان، ويعي بقلبه النور المبين. ومن استنكف تعنتاً واستكبر عن الحق بعد بيانه، فقد ذكره السياق قبل قليل في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، وهنا يذكر في الختام من استنار بالنور وآمن بالحق: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، الذين

---

(١) اتفق علماء التفسير على أن النور المبين هو القرآن، وقال بعضهم عن البرهان والحجة : إنها محمد ﷺ وقال بعضهم : إشارة إلى محمد ﷺ، والمعنى ؛ قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٤١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٧)، وروح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥).

آمنوا بالله حسبما يوجبه البرهان الذي جاءهم. آمنوا بالله رباً خالقاً مالكاً متصرفاً في ملكه لا معبود سواه، واعتصموا به سبحانه، فاستمسكوا بدينه وعصموا أنفسهم بالله من زيغ الشيطان[١] ؛ والاعتصام بالله ثمرة الإيمان الصحيح، فمتى عرفت النفس حقيقة الله بصفاته، وعرفت حقيقة عبودية الكل له، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وتثق به وتتوكل عليه ؛ لأنه وحده صاحب السلطان والقدرة. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الحياة الدنيا - قبل الحياة الأخرى - وفضل في هذه العاجلة - قبل الفضل في الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود. كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه في كرامة وحرية واستقامة، حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته: « عبدٌ لله وسيد مع كل من عداه »، وليس هذا في نظام غير نظام الإيمان كما جاء به الإسلام، وهذا كله رحمة وفضل من الله في الدنيا قبل الآخرة، وما في الآخرة خير وأبقى [٢].

إن الله وعد المؤمنين المعتصمين بالله بأمور ثلاثة: الرحمة، والفضل، والهداية. فالرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم، ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والهداية إلى الصراط المستقيم هي الهداية إلى الدين القويم، الذي يكون باتباعه سعادة الدنيا، وهو الطريق إلى الجنة [٣].

وتقديم ذكر الوعد بالإدخال في الرحمة، والثواب الجزيل على الوعد بهذه الهداية إلى الصراط المستقيم، للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلي [٤] ؛ ففي الكلام تقديم وتأخير كأنه يقول: يهديهم في الدنيا صراطاً مستقيماً، يعني ديناً لا عوج فيه، ويثيبهم على ذلك، ويدخلهم

---

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٨).

(٣) التفسير الكبير، محمد الرازي (٣/ ٣٥٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٦).

في الآخرة في رحمة منه وفضل [(١)].

وبمناسبة كون هذا القرآن نوراً وضياءً، فقد ختمت السورة بجواب استفتاء في قضية من قضايا الإرث، ليعلم أن التوحيد الصحيح يكون في طاعة الله في كل شأن، والاستسلام لحكمة في كل قضية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾

وقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي عليّ، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صبّ عليّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي ؟ فلم يردّ عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ [(٢)].

وقد ورد شطر من أحكام الكلالة في أول السورة، وهو الشطر المتعلق بإرث الكلالة من جهة الرحم، حين لا توجد عَصَبة، ونصه هناك: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [(٣)].

فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثة الكلالة، وهو من يموت وليس له والد ولا ولد، والمراد بالأخوة هنا الإخوة للأب والأم، أو للأب، فإن كان للميت أخت فلها نصف التركة، وإن كان له أختان فلهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما. وإن ماتت المرأة كلالة ولها أخ فإنه يرثها بالتعصيب، وإذا كان الورثة للكلالة إخوة ذكوراً ونساءً فيكون الجميع عصبة، ويُعطى الذكر مثل حظ الأنثيين. ثم يبيّن الله حكمته في هذا البيان فيقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ

---

(١) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٨٦).

(٢) رواه مسلم (١٦١٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٢٨).

أَن تَضِلُّواْ ﴾، أي يوضح لكم فرائضه، ويحدّ لكم حدوده، ويوضح شرائعه، لئلا تضلوا عن الحق. ثم يختم الله سبحانه الآية والسورة بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾، فهو سبحانه عالم بعواقب الأمور ومصالح العباد (١).

وهكذا تختم السورة التي بدأت بالأمر بتقوى الله، والتقوى: عبادة الله وحده وترك الشرك. والله الذي يجب على الناس أن يعبدوه وحده هو الذي خلقهم من آدم وحواء، أول أسرة خلقها الله، ثم تحدثت السورة عن علاقات الأسرة، وذكرت كثيراً من تنظيماتها الاجتماعية والحقوقية، وختمت السورة بتكملة أحكام الكلالة.

الهدايات المستنبطة:

أ - قضايا العقيدة: الإيمان بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبني على القناعة والبرهان.

ب- الأحكام الفقهية: إتمام أحكام الكلالة من الإخوة والأخوات لأب وأم، أو لأب فقط.

ج- الجوانب التربوية: إذا تراكم الصدأ على فطرة الإنسان، فلا بدّ من تكرار الأساليب التربوية، وتنوّعها لجلاء الفطرة، وإنقاذ العقل من الانسياق وراء المألوف إذا كان غير صحيح، وتحريره من سلطان الشهوات ؛ لذلك كرر القرآن الدعوة إلى استعمال العقل كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: ٢]، وغيرها من الآيات كثير كثير. وأحياناً يأتي القرآن بأسلوب التحدي ليثبت الإعجاز ويقيم الحجة، وأحياناً يشير إلى الحجة والبرهان مع أسلوب الترغيب والترهيب كما في هذا المقطع الذي ختمت به السورة.

---

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٨٧)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٩).

سورة المائدة

بين يدي السورة:

(أ)أسماؤها:

١ - تسمى سورة المائدة لورود قصة المائدة فيها. ولما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو(آخر سورة أنزلت المائدة)[١] ولما رواه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد (... أنزلت عليه المائدة...)[٢].

٢ - تسمى سورة العقود لورود هذا اللفظ في أولها ولما فيها من عقود.

٣ - تسمى المنقذة. لقوله ﷺ (سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات المنقذة لأنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب)[٣].

(ب) فضائل السورة:

١ - عن عبد الله بن عمرو قال: (نزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته. فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها)[٤].

٢ - عن أسماء بنت يزيد قالت:إني لآخذة بزمام العضباء ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكادت ـ من ثقلها ـ تدق بعضد الناقة)[٥].

(ج) مدنية: بالإجماع لأنها نزلت بعد الهجرة.

---

(١) الترمذي ج٥/ ٢٦.
(٢) مسند الإمام أحمد ج٤٥/ ٥٥٧.
(٣) التفسير المنير ج٦/ ٦٠.
(٤) مسند الإمام أحمد ١١/ ٢١٨.
(٥) مسند الإمام أحمد ج٤٥/ ٥٥٧.

(د) عدد آيات السورة:

١ - مائة وعشرون آية عند القراء الكوفيين كالطبري والنسفي والبغوي وغيرهم.

٢ - مائة وثنتان وعشرون آية عند الحجازيين والشاميين.

٣ - مائة وثلاث وعشرون آية عند البصريين. والخلاف بينهم في فاصلتين فقط[١].

(هـ) مرحلة نزولها:

١ - في روايات كثيرة أنها نزلت بعد سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية في شهر شوال سنة (٦ هـ)[٢].

٢ - في رواية أنها نزلت جملة واحدة ما عدا آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ في مسير رسول الله ﷺ في حجة الوداع[٣].

٣ - يورد الشهيد سيد قطب تحليلا منطقيا لهذين الرأيين نوجزه فيما يلي:

* محادثة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة والتي وردت في السورة كانت معلومة للمسلمين لاستشهاد سعد بن معاذ بقول بني إسرائيل حين جمع النبي ﷺ المسلمين في ساحة بدر بعد ذهاب العير ومجيء النفير قال: «لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون». وغزوة بدر وقعت في رمضان سنة (٢هـ).

* الحملة على اليهود في السورة تبين أن لهم نفوذا قويا اقتضى هذه الحملة عليهم لكشف موقفهم وإبطال كيدهم وخمول ذكرهم بعد هذا الكشف بعد غزوة الخندق التي انتهى فيها الدور اليهودي نهائيا في المدينة.

---

(١) تفسير المنار ج٦/ ١١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٨٣٢.

* يرجح أن بعض مقاطع السورة ـ في أولها ـ نزلت بعد الفتح، وبعض المقاطع نزلت بعد ذلك[1].

وأقول:

١ - أرجح نزول بعض آياتها نزل في العام التاسع قبل سير النبي ﷺ لحجة الوداع وذلك لقدوم وفد نصارى نجران في هذا العام، في الجزء الأخير منه فأبوا أن يسلموا ودعوا للمباهلة فأبوا وأقروا الجزية.

٢ - حادثة العرنيين الذين قدموا المدينة في السنة الخامسة قبل صلح الحديبية واستوخموا المدينة فأرسلوا إلى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها، والذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ (المائدة: ٣٣).

ويقول ابن عاشور:

ولذلك اختلفوا في أن هذه السورة نزلت متتابعة أو متفرقة؟ ولا ينبغي التردد في أنها نزلت متفرقة[2].

(و) المحور الذي تجري فيه السورة:

١ - التشريع لإقامة المجتمع المسلم المستمد أمره من الله.

٢ - توحيد الله ومحاربة الشرك في عقيدة التثليث عند النصارى.

٣ - إبطال تحريم وتحليل وأمر ونهي الجاهلية وردَّ ذلك كله لله.

(ز) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قصة المائدة وردت في آخر السورة حيث طلبها حواريو عيسى ـ عليه السلام ـ فطلبها عيسى من

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٨٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٢.

الله آية وعيدا. واشترط الله لها شروطا، والسورة من محورها محاربة عقيدة التثليث التي يعتقدها النصارى فارتبط الاسم بالمحور.

(ح) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالأمر بالوفاء بالعقود وهي ما أحل الله وما حرم، وأمر ونهى، وختمت الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وختمت السورة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فناسب البدء الختام، فالكون ملكه يفعل ويحكم ما يريد.

(ط) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة النساء بآية الكلالة، وورث الله تعالى أخوانه وأخواته الأشقاء وقال في ختامها ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ فكان البيان بهذا التشريع الذي قسّم به هذا الميراث، وافتتح سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فختم سورة النساء بالتشريع وافتتح سورة المائدة بالتشريع تتميما لما بدأه في تلك فناسب ختام تلك افتتاح هذه.

(ي) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

يقول صاحب التفسير المنير: (هناك أوجه تشابه بينها وبين سورة النساء، لاشتمال كل منهما على عدة عقود وعهود وأحكام ومناقشة أهل الكتاب والمشركين والمنافقين، ففي سورة النساء الكلام على عقود الزواج والأمان والحلف والمعاهدة والوصايا والودائع والوكالات والإيجارات، وابتدأت سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود، ومهدت سورة النساء لتحريم الخمر وحرمتها سورة المائدة بنحو قاطع، وتضمنت السورتان مناقشة أهل الكتاب و المشركين[1].

---

(١) التفسير المنير: ٦/ ٦٨.

ما اشتملت عليه سورة المائدة:

(ورد في سورة المائدة أحكام تشريعية وقصص للعظة والعبرة.

فالأحكام: أحكام العقود مع اليهود والنصارى، ونكاح الكتابيات والوصية عند الموت، والمطعومات من ذبائح وصيد، وصيد الإحرام وجزاء من وقع فيه، والطهارة من غسل ووضوء وتيمم وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكفارة اليمين وحد السرقة وحد الحرابة وإبطال وتشريع الجاهلية للأنعام والحكم لمن ترك العمل بما شرع الله، ومناقشة اليهود والمشركين والمنافقين. وفيها قصة موسى مع بني إسرائيل في دخول بيت المقدس وردهم القبيح ومفارقة موسى لهم، وقصة ابني آدم وقتل قابيل لهابيل، وقصة المائدة)[1].

(١) التفسير المنير: ٦/ ٦٨.

المقطع الأول: العهود والمواثيق مع أمة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:١-٨].

افتتح الله تعالى هذه السورة بجملة عهود، أخذها على أمة محمد ﷺ وألزمهم العمل بها، وتشمل: تحليل الأنعام كلّها، وتحريم التّعدّي على شعائر الله ومحارمه، وحرّم من الأنعام الميتة وغيرها، وأحلّ الطيّبات عموماً، وما أمسكت الجوارح بعد التسمية عند إرسالها، وأحلّ الطّعام تبادلاً بين الملل الثلاث، وأحل للمسلم الزواج بالعفيفة، المسلمة والكتابية، شرط الإحصان، ودوام العشرة، وبيّن اكتمال الدّين، ويأس الكفار من هزيمة المسلمين، وبيّن الطّهارة بأنواعها،وأمر بالعدل.

والآن نأخذ بالتفاصيل:

١- يأمر الله تعالى عباده أهل الإيمان أن يوفوا بالعهود التي أخذها عليهم، وهي كثيرة منها جميع ما ورد في سورة النساء من تحليل وتحريم وأمر ونهي (لأكل مال اليتيم وتحريم لبعض النساء، والميراث الذي ورد في أول السور وآخرها، والكلالة والذي قال الله تعالى عنه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦].

ومنها ما بدأ وروده من هذه السورة من تحليل الأنعام فكلها عهود ومواثيق يأمر الله بالوفاء بها.

٢- التحريم والتحليل والأمر والنهي الذي سيرد تباعاً بعد هذه الآية كلها عهود ومواثيق مطلوب الوفاء بها.

٣- ما أخذه الله على الخلق من ميثاق في الأزل: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قلنا بلى كلها مواثيق يوجب الوفاء بها.

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾. أحلت أكلاً وبيعاً وشراءً. والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز ويدخل معها الظباء والغزلان والأراوي أحلها الله تعالى لهذه الأمة منذ القدم، ولكن (عمرو بن لحي بن قمئة) الذي غير ملة إبراهيم عليه السلام جلب الأصنام من

الشام وعلم الناس عبادتها، وحرم وحلل وأمر ونهى من تلقاء نفسه، فحرَّم بعض الأنعام التي ورد ذكرها في سورة الأنعام المكية والتي جاء فيها: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩]، وقالوا فما حرمته الجاهلية أصبح سائداً حتى جاء القرآن ليهدمه ويبني على أنقاضه ما أحل الله تعالى فقال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ فهي حلال بكل أصنافها إلا ما استثنى الله تعالى منها بقوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وهي أصناف من الأنعام حرمها الله لعلة فيها سيأتي تفصيلها.

﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ حرم علينا الصيد ونحن محرمون بعمرة أو حج - فإن الحاج والمعتمر يحرم عليه الصَّيد، فلا تستحلوا ما حرم الله عليكم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذا حكم الله تعالى: يحل لعباده ما يشاء ويحرم عليكم ما يشاء والله يحكم ما يريد.

فالآية تبين أن الأنعام حلال أكلها إلا ما استثنى منها، والصيد حرام علينا ونحن محرمون بحج أو عمرة، وهو مصدر التشريع للخلق.

﴿ لَا تُحِلُّواْ ﴾ لا تستحلوا ما يأتي، فهي محرمات (شعائر الله) شعائره هي متعبداته التي يأمرنا بها.

فالصلاة شعيرة والحج شعيرة والعمرة شعيرة والوقوف بعرفة شعيرة ورمي الجمرات شعيرة والأشهر الحرم (ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، ورجب) شعائر. فأمرنا ألا نستحلها وننتهك حرمتها. وقد كانوا يعتدون على الأشهر الحرم فيستحلون واحداً من الأربعة ويحرمون آخر غيره غير ما حرم الله ليكتمل عدد الأشهر الحرم أربعة كما أمر الله بها، وفي العام الذي يليه يحلون شهراً آخر محرماً ويحلون غيره مما لم يحرم وهكذا، يعتدون على الأشهر الحرم.

﴿ وَلَا ٱلْهَدْىَ ﴾والهدي البهيمة التي يهديها المحرم بحج أو عمرة لتذبح في منى أو في المروة بعد حج أو عمرة فمحرم الاعتداء عليها بسرقة أو نهب.

﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ وهي البهائم التي توضع في أعناقها قلائد من صوف أو وبر أو قطعة من لحاء الشجر ليعرف أنها مهداة لتذبح في الحرم فلا يتعرض لها.

﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾.

ولا تستحلوا التعدي على قاصدي بيت الله تعالى للحج أو العمرة طالبين رضوان الله بهذه العبادة وطالبين فضله بالكسب الذي يمارسونه وهم حجاج ومعتمرون بيعاً وشراءً وعملاً.

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ أما إذا أتممتم الحج أو العمرة وتحللتم منهما فاصطادوا إن شئتم بعد أن كان ذلك محرماً عليكم. في غير أرض الحرم.

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾.

سبب النزول:

روى ابن كثير بسنده عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة. فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدوا أصحابنا. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ الآية[1].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ والآية تخاطب المسلمين الذين صدهم المشركون عن العمرة بالحديبية وقد لاقوا مشركين من أهل الشرق ذاهبين إلى العمرة فكّروا في صدّهم عن العمرة كما صد مشركو مكة المسلمين، فنهاهم الله تعالى وقال: (لا يحملنكم بغضكم للمشركين الذين صدوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم عن العمرة أن تصدوا هؤلاء المشركين الذاهبين إلى العمرة تعاملاً

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٢

بالمثل فالله ينهى عن ذلك، ويأمرهم أن يتعاونوا على فعل الخير لا على فعل الشر، والله يذكرهم بعد ذلك بقدرته على عقاب من خالف أمره بأنه شديد العقاب).

الآن بعد أن أحل لنا بهيمة الأنعام في أول السورة، واستثنى ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ جاء الآن بما استثنى محرماً مفصلاً فقال:

ما حرمت عليكم من الأنعام: ﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ وهي التي فارقتها الحياة، وكانوا يعدونها مما قتل الله فيستحلون أكلها، ويقولون أنأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله؟ ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ وهو المسفوح الذي يسيل خارجاً من البهيمة بعد ذبحها، وكانوا قديماً يستحلونه أكلاً وشرباً، وحديثاً كذلك.

﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ وابن عاشور يقول: وهذا إيماء إلى أن ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه، هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره إذا انتزع منه في حياته بالجز وطهارة عرقه وطهارة جلده بالدبغ، إذا اعتبرنا الدبغ مطهراً جلد الميتة اعتباراً بأن الدبغ كالذكاة[١] مستشهداً بالحديث (أيما إهاب دبغ فقد طهر)[٢].

وعندي أنه محرم كله لقوله صلى الله عليه (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا ثمنها)[٣]. ذلك أن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه.

فقد يكون التحريم شاملاً – والخنزير مستقذر لحماً وجلداً وما استخرج منه ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وهو الحيوان الذي يرفع الذابح صوته به عند ذبحه، ولا يذكر اسم الله جلّ جلاله عليه كأن يقول باسم فلان اذبح.

﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ هي التي حبس نفسها شيء فماتت.

﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾هي التي ضربت بعصا أو بشيء ثقيل لم يخرقها فتموت قال عدي ابن حاتم

(١) التحرير والتنوير، جـ٤/ ص ١٢٥.
(٢) الترمذي، جـ٤، حديث رقم (١٧٢٨).
(٣) البخاري حديث رقم (٣٤٦٠).

سألت رسول الله ﷺ عن صيد المعراض فقال: (إذا اصبت بحده فكل، وإذا اصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكله)[1] فالموقوذة محرمة لأن الدم لم ينزل منها بعد ضربها.

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من علو فماتت فهي محرمة.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ والتي ماتت بسبب نطح أختها لها فماتت بهذا النطح.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والسبع، الحيوان المفترس، فإن اصطاد بهيمة وأكل منها وترك بقيتها وفيها حياة وروح وذكيناها حلت. وإلاّ فهي ميتة. والتذكية: هي الذبح لا يصلح فيها السن والظفر والعظم. والنبي ﷺ يقول: (وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[2] وإذا كان في بطن البهيمة المذكاة جنين فإن ذكاة أمه له ذكاة. أشعر أم لم يشعر.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ والنصب الحجارة التي كانت موضوعة عند الكعبة يذبحون عندها تقرباً للآلهة فما ذبح عندها أصبح محرماً لا يؤكل.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ والأزلام قداح ثلاثة مشهورة موضوعة في كيس عند السادن قرب الكعبة مكتوب على أحدها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) والثالث (غُفل) لا كتابة عليه. فمن أراد السفر أو الزواج أو فعل شيء لا يعرف عاقبته استقسم بالأزلام أي طلب من السادن أن يستقسم له بأن يخرج أحد الأقداح من الكيس فإن خرج ما كتب عليه (افعل) سافر إذا قصد السفر أو تزوج إن أراد الزواج أو باع أو اشترى فإن الآلهة أمرته أن يفعل. أما إن خرج القدح (لا تفعل) ترك السفر إن كان مسافراً أو ترك الزواج إن استقسم للزواج وإن خرج القدح (غُفلاً) لا كتابة عليه أعاد الاستقسام من جديد حتى يخرج (افعل) أو (لا تفعل).

وكذلك كانوا يستقسمون لمن شَكُّوا في نسبه ولهم قداح ثلاثة مكتوب فيها (منكم) (مصلق) (من غيركم) فإن خرج (منكم) كان ذا نسب وإن خرج من (غيركم) سقط النسب.

---

(١) البخاري ج٥ ص ٢٠٩٠.

(٢) مسلم: ٣/ ١٥٤٨، حديث: ٥٧.

﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾كل ما بدأته الآية من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير إلى الاستقسام بالأزلام كله فسق وخروج من الدين ومعصية لله، فحرمه... ومن فعله كان فاسقاً عاصياً لله خارجاً عن الطاعة والدين.

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ اليوم: الجمعة في عرفة في التاسع من شهر ذي الحجة العام العاشر من الهجرة وبناء آخر أركان الإسلام وهو الحج واكتمال الدين، يئس الكفار الآن أن يخرجوكم من دينكم ويردوكم كفاراً، وقد حاربوكم في عدة معارك انهزموا فيها فما عادوا قادرين على إخراجكم من الدين بالحرب ولا بالتعذيب، ولا بالتخويف فقد يئسوا من كل تلك الوسائل... ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فقد انكسرت شوكتهم، ﴿ وَٱخْشَوْنِ ﴾ خافوني، واتقوني، فإني القادر على الإهلاك والتعذيب والتنكيل والنبي ﷺ في حجة الوداع قال: (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)[1]، ونزل عليه قوله تعالى:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾. اليوم جاء الإعلان من الله تعالى: أن الدين اكتمل عبادات وتشريعات ومعاملات. ولم يعد فيه نقص. وقال النبي ﷺ بعدئذٍ: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان)[2].

وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[3].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

المضطر: الذي ألجأته الضرورة التي هي المجاعة إما أن يأكل من الميتة التي لم يجد غيرها فيحيا. أو يتركها فيموت، هنا أباح الله لهذا المضطر أن يأكل من تلك المحرمات قدر الضرورة

---

(١) الترمذي ٢/ ١٣٨.

(٢) البخاري: ١/ ١٩، حديث: (٨).

(٣) البخاري: حديث: (٢٥٥٠).

وقدر ما يمسك الرمق لا أن يشبع منها، والله يغفر له تعاطيه ما حرم عليه، ما دام لم يفعل ذلك افتراقاً لإثم أو تعدياً لحدود الله.

بعد أن ذكر لهم ما حرم عليهم من المطعومات في الآيات السابقة: الميتة والدم ولحم الخنزير. سألوا النبي ﷺ ماذا أحل لهم فجاء الجواب من الله تعالى: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾.

والطيبات الأطعمة الطيبة الحلال، كما قال الله لرسله الكرام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] فهو الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه، وأحل لكم كذلك ما أمسكت لكم الجوارح - من كلاب وصقور وغيرها - التي دربتموها على الصيد - بفضل الله عليكم وتعلمكم ذلك فعليكم عند إرسال الكلب أو الصقر أن تقولوا ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ ثم تطلقونه، فإن أمسك وقتل فقد حل لكم ما أمسك عليكم، شريطة ألا يأكل مما أمسك فإن أكل فلا يحل لكم وإن كانت فيه روح وذكى لأنه إنما صاد لنفسه لا لصاحبه لأنه غير مدرب ومعلم. وكذلك إذا شاركه كلب غيره. ولهذا قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم وقد سأله عن الكلب (وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك لنفسه)[1].

ثم يذكرهم بتقوى الله ويذكرهم بالدقة في تصرفاتهم حتى لا يأكلوا مما أمسك الجارح لنفسه وأكل، مستحلين لما أكل الجارح وان كان فيما أكل وترك بقية من حياة فلا يحل.

ويذكرهم بأن عقاب الله سريع لمن يعصى.

اليوم مكررة مرة بعد مرة لما لها من وقع طيب، وتعظيم لهذا اليوم الذي يكتمل فيه الدين ويكتمل فيه التبيين. أحل لكم الطيبات بكافة أنواعها من مأكولات فلا يبقى أثر لما كانت تحرمه الجاهلية، وطعام الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى حل لكم وطعامكم حل لهم، والآية تشي بسماحة الإسلام في المخالطة بين الملل الكتابية وإن اختلفت فلا عزلة لأهل الكتاب وإن اختلفت الديانة والعقيدة. مع ذلك يبيح الالتقاء والمؤاكلة، ثم يمضي ليبيح الزواج من

(١) البخاري: حديث: (١٧٥).

المؤمنات العفيفات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج.

ثم يمشي خطوة أوسع من المخالطة فيبيح للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة ويسمي عفتها (المحصنة) فإن فيهم إباحية كما معلوم اليوم، فإن الفتاة التي لم تصاحب في حياتها ولم تزاول الجنس قبل الزواج تعتبر منبوذة في عرفهم أما التي لها صاحب يؤانسها ويمارس معها الجنس في بيت أسرتها وعلى مرأى ومسمع منهم فإنا راقية منصهرة في مجتمعها ومقبولة فيه. وهي ليست المعنية في الآية فأراد للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة التي لم تشارك في هذا الفساد.

وبهذا يعلن الإسلام سماحته وفضله وأنه دين المخالطة والمشاركة فقد يكون المسلم وقد جمع في بيته بين الكتابية اليهودية والكتابية النصرانية ويرزقه الله منهما نسلاً يكون جده يهودياً أو نصرانياً، وعماته وخالاته، وأخواله وأعمامه كتابيون.

ويشترط في هذا الزواج من الكتابية والمسلمة أن يكون زواجاً مبنياً على نية الاستدامة مدفوع المهر لا نية في سفاح ولا مخادنة. والسفاح زنا المرأة مع كل راغب فيه والمخادنة صحبة رجل لامرأة لا تأتي غيره.

كل هذا الذي قال الله تعالى في تحريم المأكولات وتحليلها، وما أباح من صيد وما حرم وما أباح من طعام وزواج من أهل الكتاب قبول هذا كله من الإيمان، فمن أحل ما أحل الله وحرم ما حرم الله وقبل به فهو الإيمان الكامل المحض، ومن لم يقبله وكفر به فقد فارق الإيمان فلا إيمان. وقد حبط عمله... والجزاء في الآخرة هو الخسران المبين... الذي يقود صاحبه إلى النار.

سبب النزول:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حجري راقداً، وأقبل أبو بكر، فلكز فيَّ لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء، فلم يوجد فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴾. وكان ذلك في غزوة المُرَيْسِيع. فقال أسيد بن حُضَيْر: (لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلاَّ بركة لهم)[١].

وروى الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، أخرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه. فقال لي أبو بكر: (بُنَيَّة في كل سفر تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله الرخصة في التيمم فقال أبو بكر: إنك لمباركة)[٢].

الآن بعد المطعومات والمنكوحات يأتي دور العبادات وأولها الصلاة لأنها دليل الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل وهو الصلاة. والتي قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)[٣].

ينتقل القرآن الكريم إلى عهود الطهارة بأنواعها الثلاثة: الوضوء والجنابة والتيمم. بعد عهود الحلال والحرام في المطعومات وأنواعها ووسائل صيدها والمنكوحات.

والقرآن يقول إذا قمتم - وهي النية في أداء الصلاة - فرضاً أو نفلاً يسبق القيام لها الطهارة بالوضوء لأجزاء محددة؛ هي: فرائض الوضوء، غسل اليدين وغسل الوجه، ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين، وأن يتم ذلك بلا انقطاع أو تراخ بين غسل الأجزاء المحددة وان يصحب ذلك دَلْكٌ للأجزاء مع صب الماء، وإلا فصب الماء على الجزء لا يعني غسله ما لم يصحبه دلك. والنبي ﷺ رفع صوته قائلاً (ويل الأعقاب من النار)[٤] حينما رأى القوم يتوضئون وأعقابهم تلوح - لم تغسل. لهذا تكون فرائض الوضوء سبع - أضافت السنة إليها بقية ما لم يذكر في الفرائض، وهي المضمضة والاستنشاق والاستنثار وغسل اليدين إلى الكوعين.

---

(١) البخاري: ٤٣٣٢.

(٢) موطّأ مالك: ١/ ١٣٣.

(٣) سنن ابن ماجه: ١/ ٢٦٣.

(٤) البخاري: ١/ ١٠٥، حديث رقم (٥٨).

هذا هو الوضوء، وقد شرع أولاً لكل صلاة، ثم نسخ عام الفتح فصلى النبي ﷺ بوضوء واحد خمس صلوات[1].

والجنابة أسبابها، خروج المني، بلذة معتادة وبغير لذة، أو مغيب خشفة البالغ في فرج أو مطيقه، (وإذا رأت المرأة الماء)[2] أي: احتلمت، وإذا التقى الختانان فقد وجب الغسل. والغسل تعميم الجسد بالماء الطهور.

والتيمم، قصد التراب ليتطهر به بديلاً عن الماء، في حالة المرض المانع من استعمال الماء أو السفر أو جاء الشخص من الغائط أو جامع النساء فلم يجد الماء ليتطهر به فالبديل هو التيمم. لأجزاء مخصوصة من الجسم هي التي ذكرها القرآن؛ الوجه واليدين إلى الكوعين، وأضافت السنة إلى المرفقين. مع سبق النية في ذلك والتتابع.

هذه هي الطهارة – ما فرضها الله تعالى على عباده ليشق عليهم ويضيق، ولكنها رحمة ونظافة وطهارة تحمي الإنسان من القذر ووساوس الشيطان وتبيح التعبد ومس المصحف ودخول المساجد والصلاة على الأموات والنفل وغيرها، تماماً للنعمة وهي نعمة الإسلام المذكورة وفضل الله الذي ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ثم لعلكم تشكرون الله تعالى هذا الاهتمام نظافة وقربى ورفعة بهذا الدين وهذا التشريع.

يذكِّر الله تعالى بالنعمة؛ نعمة الإسلام ونعمة التحليل والتحريم، التي هي منهج الله الذي رسمه للعباد ورضيه لهم ليكونوا على بصيرة في دينهم.

﴿ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ وهي مواثيق متعددة أولها ما كان عليه العباد في عالم الذر ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ

(١) انظر التحرير والتنوير: ٦/ ١٢٨.

(٢) الترمذي: حديث: ١٠٤.

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

والميثاق الذي أخذه الرسول ﷺ على الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر:

١ - السمع والطاعة في المنشط والمكره.

٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ - ولا تأخذكم في الله لومة لائم فكلها مواثيق، يذكر الله بها[١].

إذ قلتم سمعنا وأطعنا... والسمع والطاعة عهد وميثاق، ثم يذكر بالتقوى ويأمر بها لأن في الخوف منه نجاة، وفي التهاون مهلكة والنبي ﷺ يقول: (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة)[٢]. فمن خاف الله ابتعد عن محارمه والله يذكر العباد أنه مطّلع على ما في صدورهم من شيء وإن لم يذكروه فهو عالم به مطَّلع عليه.

جاء في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، وسورة النساء سورة للعدل في كل أوجهه بدءاً بإيتاء اليتامى أموالهم، والعدل في اليتيمة في حجر الوصي لا يعطيها مهر مثلها إن أراد الزواج بها فأمر بتركها والعدل في أموال اليتامى لا تؤكل أموالهم إسرافاً وبداراً، وتقسيم ميراث الميت لأبنائه ووالديه، وميراث الزوجة لزوجها إن كانت ذات ولد أو لم تكن، وميراث الزوج لزوجته إن كان له ولد أو لم يكن له ولد، وميراث الكلالة، ثم الحديث عن أصحاب الفواحش وعقوباتهم، إلى تحريم بعض النساء بلغ عددهن خمس عشرة امرأة، وإباحة ما سواهن إلى آخر السورة فكلها تحقق العدل والتوجه، والآن جاء الحديث (قوّامين لله) وهي مبالغة القيام لله، أن نقوم وفاء بعهوده ومواثيقه وأن نقوم لله ملتزمين بما أمر منتهين عمّا نهى خوفاً وخشية منه.

---

(١) انظر ابن هشام جـ١/ ٤٤٠/ ٤٤١.

(٢) المستدرك، جـ٤/ ٤٣٤.

﴿ بِٱلۡقِسۡطِۖ شُهَدَآءَ ﴾ شهادة مجردة لله عدلاً لا حيف فيها ولا جور ولا ظلم. حتى لو كان الذي يُشهد له أو عليه قريباً من أقرب أقربائنا أو خصماً من الخصوم، لا يحملنا هذا التخاصم – الذي يولد العداوة – على ألا نعدل، فالله يأمر بالعدل، مع وجود البغضاء لأن الشهادة هنا لله مجردة من كل شبهة وريبة خالصة لله تعالى، فالله يأمرنا أن نعدل في الشهادة ولا نقول إلا ما علمنا إقامة للحق والعدل، فالعدل يقربكم للتقوى أكثر من الجور والحيف، ثم يذكّر بالتقوى ويأمر بها ويقول أنه ﴿ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، كما قال قبلاً ﴿ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ كلاهما دليل وتذكير باطلاع الله على ما نكن وما نعلن.

المقطع الثاني: المواثيق والجزاء:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠ ﴾[المائدة:٩-١٠].

هذه هي العهود بدءاً من فاتحة السورة وانتهاءً بالقوامة بالشهادة والآن جاء الحديث عمن أوفى بهذه العهود فما جزاؤه؟ ومن خالف فما جزاؤه.

وعد من الله تعالى للمؤمنين من عباده الذين التزموا عهوده وبذلوا جهدهم في صالح الأعمال بالمغفرة لذنوبهم وتكفيرها لهم فيأتون يوم القيامة وقد محا الله ما كسبوا من المعاصي ووعدهم الأجر العظيم على ما قدموا من خير، ووعد الكفار الذين لم يؤمنوا مع وجود دلائل الإيمان المنثورة في كتابه الكريم أو المنثورة في كتاب الكون العظيم بأنهم هم أصحاب الجحيم.

ويذكر الله تعالى المؤمنين بنعمة من نعمه ذات وقع خاص وأثر، قريب الحدوث عند نزول سورة المائدة، حدث له دلالة، واطلاع الله تعالى عليه وهو صرف البلاء عنهم.

المقطع الثالث: البلاء وصرفه عن المسلمين:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[المائدة: ١١].

بعد الحديث عن نعمة الإسلام وإكمالها، وغيرها من النعم، كالصيد الذي أباحه للناس، ونعمة الطهارة يمضي القرآن ليبيّن نعمةً أخرى وهي نجاة النّبيّ ﷺ من محاولة اغتياله، فحياته ﷺ نعمة من نعم الله حفظها بفضله، وهو القائل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٦٤].

نقمة كادت أن تقع فصرفها الله تعالى بحكمته وقدرته، والمسلمون لا يعرفونها حتى عرفهم الله بها، هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، بالضرب والتنكيل والقتل، فصرف الله عنكم هذا وكف أيدي الظالمين بعد أن هموا بإحداث ما انطووا عليه وهموا به. فَصَرْفُهُ عنكم نعمة من نعمه ذكرهم بها، وهم غافلون عنها. ثم يأمرهم بالتقوى التي تجلب الخير وتصرف عنهم السوء، ويأمرهم بالتوكل عليه، فالمتوكل حسبه الله كافياً، حسبه الله صارفاً عنه السوء، حسبه الله منجياً من كل هول وشدة.

الحديث عن هذه النعمة كثير. فقد تعني نجاة جميع المسلمين أو أفراداً منهم، أو الرسول ﷺ نفسه فإن تعرضه للأذى تعرض للأمة كلها ونجاته نجاة للأمة كلها وهنا يروي:

١ - إنه كان نائماً وهم قادمون من غزوة وسيفه معلّق على الشجرة، فجاء إعرابي تسلل إليه وأخذ سيف رسول الله ﷺ وسل السيف وأيقظ النبي ﷺ وقال: من ينجيك مني؟ قال ﷺ: (الله) فسقط السيف من يده وسقط الإعرابي على الأرض ونادى النبي ﷺ الصحابة وأراهم ما حدث[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٩/ ٤٥٠ حديث: (١٤٤٠١).

٢ - نجا النبي ﷺ من سحر لبيد بن الأعصم والذي قصد إهلاك رسول الله ﷺ[١].

٣ - نجا النبي ﷺ من محاولة قتل بني النضير له[٢].

٤ - من قبل نجا من تآمر قريش على قتله[٣].

كلها نعم مَنَّ الله بها على المؤمنين ونجاهم. فلا بد من ذكر، ولا بد من شكر لله على ذلك.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

الآن بعد هذه الجولة من العهود والمواثيق التي ألزم الله تعالى بها عباده المؤمنين نلخص هذه العهود ونبينها فنقول:

١ - أن كل أمر من الله، وكل نهي، وكل تحليل وكل تحريم لأمة المؤمنين هو عهد وميثاق بين العباد وربهم سبحانه وتعالى، عهد ملزم إن فعلوه أثابهم وإن تركوه عاقبهم.

٢ - بينت العهود التي مرت: إن كل الأنعام أكلها حلال، حلله الله تعالى، وأن المحرمات هي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به عند ذبحه. وكل أنواع الميتات محرمة ما عدا التي تذكى، وأن المضطر يأكل قدر ما يمسك الرمق.

٣ - الصيد للمحرم بحج وعمرة حرام، فإذا قضى حجه وعمرته حل له الصيد خارج منطقة الحرم. وإن أرسل كلبه وصقره للصيد عليه أن يسم الله عليه فإذا قبضه وجاء به حل له وإن مات.

٤ - العدل أساس هذا الدين لا ينبغي أن ينحرف الناس عنه بسبب الخصومة والبغضاء والأذى الذي أصابهم من الفئة التي آذتهم حين كانوا قِلّة وشردتهم من المسجد الحرام الذي هم أهله، فعليهم أن يعدلوا وقد مَكَّن الله لهم في الأرض فلا يعتدوا على الذين آذوهم من قبل ولكن فليسموا وليعلوا فوق الجراحات ويتعاونوا على البر لا على الشر.

---

(١) ينظر: البخاري: ٥/ ٢١٧٤.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣/ ٢٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٣.

٥ - الاستقسام بالأزلام من الفسق، وكانوا يتعاملون به كشفاً للغيب فالإسلام يعتبر التعامل به من المعاصي وكذلك المحرمات من المطعومات في حالة المخمصة حلال للضرورة.

٦ - الكفار يئسوا من إرجاع المسلمين كفاراً بعد إيمانهم، بشرهم الله تعالى بذلك... ولكن كما قال الرسول ﷺ: (أن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنه رضي منكم ما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)[1].

٧ - اكتمل الدين اليوم عبادات ومعاملات وتشريعات فلا نقص، ومن أحدث في الدين شيئاً فهو رد. قال ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2].

٨ - كانوا يسألون رسول الله ﷺ عند ذكر المحرمات، فسألوه عمّا أحلّ الله لهم، فأحل الطيبات من المأكولات وأحل طعام أهل الكتاب للمسلمين وطعام المسلمين لأهل الكتاب، وأحل نكاح المحصنات العفيفات من المسلمين، ومن أهل الكتاب للمسلمين. ولكن لا ينكح المسلمون أهل الكتاب وان يكون زواج إحصان ويراد به دوام العشرة.

٩ - ثم أمر بالطهارة في أوجهها الثلاثة: الغسل والوضوء والتيمم وبين أجزاءها المفسرون.

١٠ - ثم أمر بالقوامة في الشهادة ابتغاء وجه الله. والعدل في كل الأمور.

١١ - ثم بين جزاء من التزم وأوفى بتلك العقود والمواثيق وجزاء من خالف.

هذه هي عهود الله ومواثيقه مع أمة محمد ﷺ والقرآن ينقلنا إلى الأمم السابقة ويرينا مواثيقه معها وموقفها من المواثيق والجزاء الذي نالته على ذلك.

بعد الحديث عن العهود مع أمة محمد ﷺ وجزاء من التزم ومن خالف يمضي القرآن ليُرِيَنا مواثيق الله مع أمّتي اليهود والنصارى، وجزاء نقضهم المواثيق.

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٢٤.

(٢) البخاري: حديث: (٢٤٩٩).

المقطع الرابع: ميثاقه مع اليهود والنصارى:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة: ١٢-١٦].

جاء هذا القول من الله تتميماً لما ذكره تعالى في سورة آخر سورة النساء وأنزل عقوبات على بني إسرائيل بسبب جرائم ارتكبوها عددها الحق عز وجل فبلغت إحدى عشرة جريمة، قال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

قد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل، كان ذلك في عهد موسى عليه السلام، والذين أخذ

الله عليهم الميثاق هم رؤساء بني إسرائيل ونقباؤهم المنبثقون من أبناء إسرائيل الاثني عشر فالنقباء هم من كل سبط من هؤلاء الأسباط حتى يشمل الميثاق بني إسرائيل أجمعين، وجاءت بنود الميثاق كما يلي:

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وتعزيرهم وهو تقويتهم بالتأييد والنصرة، وإقراضهم الله قرضاً حسناً كناية عن البذل في سبيل الله والإنفاق على المساكين كل ذلك إقراض لله فمن التزم هذه البنود الخمسة فالجزاء؛ الكفارة لكل ذنوبهم ومحوها لهم، وإن يدخلهم الجنة الموصوفة أنها تجري من تحتها الأنهار. أما من كفر ولم يؤمن فقد ضل عن الصراط السوي المستقيم فما اهتدى، والعاقبة هي النار.

والله تعالى يخبرنا أن بني إسرائيل لم يؤمنوا ولم يلتزموا بتلك المواثيق بعد إبرامها وعرضها عليهم وموافقتهم عليها وقبولها. فكان العقاب.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ ﴿ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ و ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[المائدة: الآية ١٣].

فبنو إسرائيل، نقضوا الميثاق الذي التزموا به لهذا استحقوا لعنة الله عليهم وطردهم من رحمته ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ لا تدخلها رحمة ولا لين ولا عطف، شبهها بالحجارة وقال أن في الحجارة نداوة ولين، وقلوب بني إسرائيل ليست كذلك وعلامة هذه القسوة الجرأة على تغيير كلام الله بالتحريف والتبديل، فما أحلوا ما أحل الله لهم، ولا حرموا ما حرم عليهم، بل أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله وقد غيروا وصف النبي ﷺ الموجود في التوراة والإنجيل لما جاء النبي ﷺ مهاجراً ووجدوا وصفه ينطبق على ما في كتبهم حرفوا ذلك حتى لا يؤمن بقية بني إسرائيل.

ولا يزال بنو إسرائيل تظهر منهم الخيانة بين الحين والحين نقضاً للمواثيق وتحريفاً للكلم عن مواضعه وتحيتهم للنبي ﷺ بغير ما حيّاه الله بها يقولون (السام عليك)

يعنون الموت (وراعنا) لياً بألسنتهم حتى تأتي الكلمة (راعنا) المعنى بها انظرنا إلى (راعن) التي هي أحمق... في إساءة للنبي ﷺ.

ونسوا – إهمالاً – كثيراً مما أمروا به من عبادات ومعاملات، تركوه وراء ظهورهم – ويكفي أن الله شبههم بالحمار يحمل أسفاراً كناية عن إعراضهم عمّا في كتابهم من أوامر ونواهي وتحليل وتحريم أهملوه وتركوه ومع ذلك يقدسون الكتاب (التوراة) لأنه أنزل عليهم.

فالتوجيه للنبي ﷺ إزاء هذا ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾. وكما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة: ١٠٩]. فالعفو المطلوب ليس رحمة بهم ولا على الإطلاق وإنما كما قال حتى يأتي الله بأمره. فقد جاء أمره بإجلاء بني قينقاع وبني النضير من المدينة وقتل وسبي وتقسيم أموالهم بني قريظة... فهو إمهال حتى تأتي الضربة القاصمة لهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

أنه تعالى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً يمثلون القبائل التي انبثقت من أبناء إسرائيل الاثني عشر، وأخذ عليهم الميثاق الذي وردت بنوده، فما التزموا، فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمته. والقصة ساقها الله تعالى عظةً وعبرةً حتى لا يقع أحد في نقض الميثاق مع الله تعالى، أو مع آخرين. فإن للمواثيق قدسيتها واحترامها، وقد قصّ الله تعالى قصة الذي عاهد الله لئن آتاه مالاً ليعطين كلّ ذي حقٍّ حقّه، فلما آتاه نقض عهده، وضرب على قلبه النفاق فمات عليه.

والعهود مع النصارى أخذت في عهد عيسى الطَّيْلا، فقد أخبرهم بمجيء نبي من بعده اسمه أحمد حتى يكونوا على علم فإن جاء عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه:

أخذ الله تعالى الميثاق على النصارى أن يؤدوا نفس ما كلفهم الله به في عهد موسى، ولكنه تجديد لذلك لطول الزمن وهجران ما أمروا به فإن عيسى ﷺ متمم ومكمل لرسالة موسى ﷺ لأنهما من أمة واحدة فهو كما قال ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الصف: ٦].

فنسوا ما جاءهم به رسولهم وأهملوه، وجاء الجزاء على ذلك التمزيق لهم... فهم مختلفون في أمر عيسى ﷺ. فبعضهم يقول: هو الله، وبعضهم يقول: هو ابن الله جل وعلا، وبعضهم يقول: ثالث ثلاثة، وبعضهم يقول: أنه عبد الله ورسوله. وتبعاً لهذا الاختلاف عقيدة اختلفوا فيه عبادة... وأصبح كل فريق يبغض الآخر ويخالفه، تماماً كما قال: تعالى: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾.

فمزقهم وأشاع بينهم العداوة والبغضاء ولن تنفك ولن تنتهي هذه العداوة إلى يوم القيامة، جزاء نقضهم الميثاق.

والآن بعد التفصيل في أمر بني إسرائيل يهوداً ونصارى، خاطبهم مجتمعين وشملهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

نداء لأهل الكتاب من يهود ونصارى وإعلان، أن الله تعالى بعث هذا الرسول الكريم وزوده الله بعلم ما أخفى اليهود والنصارى من علوم ومعارف بينهما الله تعالى وأخفوهما هم... فهو يَعْلمها وسيكشفها لهم، فمما أخفوه:

١ - حكم رجم الزاني المحصن.

٢ - وصف هذا النبي الكريم في كتبهم، حتى لا يتبعه عامة بني إسرائيل.

٣ - نفى أن يكونوا هم أبناء الله وأحباؤه.

٤ - ما قالوه في عيسى ﷺ وأمه وما تآمروا به لقتله.

فكان مجيء الرسول ضرورة لإبطال باطل بني إسرائيل وإظهار الحق... فالله تعالى يقول: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾[البينة: ١-٢].

فهو نور جاء يمحو أباطيلهم وادعاءاتهم.

فنداء الله لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى، قد جاءكم رسولنا بين ويكشف كثيراً مما كنتم تخفون من أحكام الله الواردة في التوراة، حتى تعرف، ويُتّبع ويعفو عن كثير من جرائمكم وادعاءاتكم.

سماه الله نوراً، لأنه يكشف ظلمة ما أشركتم وظلمة كذبكم، وظلمة ما أخفيتم وظلمة ما ادعيتم أنكم أبناء الله ومعه كتاب واضح العبارة والدلالة والأحكام، هذا الكتاب المبين ان اتبعتموه يهديكم به الله إلى صراطه المستقيم، السبيل الآمن من العذاب، ومن غضب الله، المفضي إلى جنته ورضوانه، ويخرجكم هذا الكتاب مع هذا النبي من الظلمات، ظلمة الشرك وظلمة الكفر المتمثلة في عبادتكم لعيسى عليه السلام وعزير والعجل، وإهمالكم لكتب الله وتحريفها، يخرجكم إلى ساحة الإسلام وهدى الله.

بعد أن أعطانا الله سبحانه وتعالى معلومات عن اليهود والنصارى ومواثيقهم وعدم التزامهم بها وعقاب الله لهم ثم دعاهم إلى إتباع هذا النبي والكتاب الذي معه.

المقطع الخامس: فساد عقيدة أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾[المائدة: ١٧-١٩].

ولأن هذه السورة نزلت كما ورد آخر أيام النبي ﷺ، وهو في طريقه إلى حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة وهو عام الوفود والذي قدم فيه وفد نصارى نجران لا ليؤمن ولكن ليقول للنبي ﷺ: إن عيسى إله، أو ثالث ثلاثة. أو هو ابن الله... والله جل وعلا أنزل على نبيه ﷺ آيات تبين حقيقة عيسى منذ بدء الخليقة إلى أن رفعه الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

قال تعالى هنا - لتلك المناسبة ولذلك الوفد: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ والحديث عن عيسى عليه السلام في هذه السورة يبدأ في ثلاث حلقات، هذه هي:

الحلقة الأولى: والتي يكفر الله تعالى من قال أن عيسى هو الله.

والحلقة الثانية: في هذه السورة هي الآية (٧٢) التي يقول الله فيها: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ويقول عيسى نفسه عليه السلام داعياً بني إسرائيل إلى عبادة الله ربه وربكم ويبين أن من أشرك بالله غيره فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

والحلقة الثالثة: في آخر السورة. مقرراً عيسى بنعمه عليه وعلى والدته أمام الخلق أجمعين ثم يسأله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله؟.

كل ذلك لفظاعة الشرك، ولأنه الذنب الذي لا يغفره الله، ولأنه الظلم المبين أن تجعل المخلوق نداً للخالق.

والله تعالى يقول لنبيه ليسألهم ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾إنهم خلقه وأنه قادر على إهلاكهم ومن في الأرض، فإن أراد ذلك فمن يمنعه؟

والواقع أن أمه ماتت، ومن حوله يومئذٍ ماتوا جميعاً، فأين إلوهيتهم إن كانوا آلهة؟ وأي إله هذا الذي لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة وهو يولد كما يولد البشر وتموت أمه، وسينزل هو في آخر الزمان، ليقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، ثم أي إله هذا الذي يغيب فلا يرى وليس له أثر؟ أي إله هذا والله يقول عنه وعن أمه: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥] وهي من صفات البشر، فهو يطلب الرزق كغيره ومن أكل الطعام أخرجه: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ - السموات بما فيها ملك لله والأرض بما فيها ملك لله وعيسى وأمه في هذا الملك، والله تعالى في ملكه هذا يتصرف كيف يشاء ويهدي من يشاء ويقتل من يشاء ويحيي من يشاء ويميت من يشاء فهو على فعل كل شيء قدير. ولهذه القدرة خلق الله عيسى من غير أبٍ، وآدم من غير أبٍ ولاَ أم.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

سبب النزول:

روى البيهقي في دلائل النبوة أن ابن أُبي، ونعمان بن قصي، وشاس بن عدي جلسوا إلى النبي ﷺ فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته. فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآيات.

بعد دعوى المسيح هو الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – جاءت مقالة أهل الكتاب أشنع وأفظع، ﴿ نَحْنُ أَبْنَتَؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّتَؤُهُۥ ﴾ وهو يقول جلّ وعلا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى دحضاً لهذه المقالة، وإن كنتم – كما تزعمون أبناءه: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨].

فقد عذبهم عذاباً مستمراً، فقد سلط عليهم فرعون أذاقهم مر العذاب يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وطردهم من رحمته، وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت قطعهم في الأرض أمماً، ولم يعطهم وطناً يستقرون فيه، ووعدهم بعذاب سرمدي لا ينقطع عنهم أبداً يأتيهم بين حين وآخر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] إن كنتم أبناءه فهل يعذب الأب ابنه؟؟ فأنتم في عذاب، وكنتم في عذاب، وسيستمر معكم العذاب إلى يوم البعث، ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أنتم جزء صغير في هذا الخلق الكبير بشر لا تملكون حولاً ولا قوة، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يتصرف فيكم وفيمن معكم كيف يشاء. لا حجر عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ – من أخطر الجرائم نسبة الولد لله تعالى.

٢ – كذّب الله تعالى اليهود والنصارى في ادعائهم أنهم أبناؤه ونفاهم عنه. وبين عذابهم نتيجة هذا الادّعاء.

٣ – بهذا الادعاء ازدادوا من الله بغضاً وبعداً وزاد أهل التوحيد عند الله حبّاً وقرباً.

بين آخر رسول وهو عيسى ﵇، وبين محمد ﷺ خاتم الرسل أكثر من ستمائة عام، فترة طويلة انقطعت فيها رسالات السماء إلى الأرض، وضاعت فيها كثير من معالم الدين وظهرت فيها دعاوى بني إسرائيل المذكورة ... فجاء النبي محمد ﷺ بعد طول انقطاع، جاء حتى لا تقوم

لليهود والنصارى حجة عند الله يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير.

ها هو البشير والنذير قد جاء، فلا حجة أن الرسول لم يأت فقد جاء، وهي فرصة ينبغي أن ينتهزها بنو إسرائيل فيؤمنوا لينجوا من عذاب الله. فقد جاءكم الرسول. وانقطعت الحجة فإن آمنتم فقد نجوتم وإلا، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر على تعذيبكم بكل وسيلة وطريقة.

المقطع السادس: سوء أدب اليهود:

والقرآن ينقلنا إلى اليهود مرة أخرى ليبين بعض فسادهم وسوء أدبهم مع الله والرسل وأهل الخير.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[المائدة: ٢٠-٢٦].

ذَكَّر موسى عليه السلام قومه بكثير نعم الله عليهم، إذ انتقى منهم فئة جعلها أنبياء تحمل رسالة الدعوة إلى الله، وهذه منة ونعمة لا تتوفر لكل الخلق فكثر في بني إسرائيل الأنبياء لفسادهم وجعلكم ملوكاً. روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً (كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة سمي ملكاً)(١).

---

(١) الدر المنثور: ٣/ ٤٦.

ففيهم أنبياء ملوك كداود وسليمان عليهما السلام، وفيهم ملوك، ومن عليهم بمنن ونعم لم ينعم بمثلها على آخرين، فقد أنقذهم من فرعون وقد استعبدهم وأذلهم، وفلق لهم البحر فأنجاهم - وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، في سيناء من غير ثمن، وفجّر لهم الماء من حجر... كلها منن اعترف بها نبيهم موسى عليه السلام وذكرهم بها.

فالآن يحثهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، بيت المقدس، وما حوله بعد أن خرجوا من مصر ولا بد من صبر وقوة لمدافعة من يمنعهم من دخول الأرض المقدسة. والأرض المقدسة يومئذٍ يسكنها العماليق، طوال أشداء أقوياء، فقالوا لموسى: أن سكان الأرض المقدسة أقوياء ولا نستطيع أن نقاومهم فإن خرجوا منها طوعاً دخلناها، وقام رجلان ممن خصهم الله بالإيمان وقوة العزيمة والرغبة في تنفيذ أوامر الله حاثين بني إسرائيل على الدخول فإن ذهبوا متوكلين على الله وجاهدوا فإنهم سيدخلونها منتصرين.

ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لقول الرجلين، فقالوا لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ قد وصلوا بقبح القول منتهاه، فكأنما الله عزّ وجلّ هو رب موسى فقط وليس ربهم ولا إلههم هم، ويقعدون هم ويقاتل موسى وربه - ويأتون بني إسرائيل بهذا النصر ليدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بغير جهاد ولا بذل ولا شيء.

بعد هذا القول القبيح من بني إسرائيل يتوجه موسى عليه السلام إلى ربه ضارعاً، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المائدة: ٢٥]. فهم فسقه يريد الخلاص منهم. ويجيب الله تعالى دعاءه ويقرر - عقوبة لهم - التيه في هذه الصحراء - أربعين سنة حتى ينشأ منهم جيل جديد لم يعرف الذلة، ولم يعرف الخوف ليسمع ويطيع ويدخل الأرض المقدسة. أما هذا الجيل فلا خير فيه، لذا يظل محبوساً في هذه الصحراء أربعين سنة حتى يفنى ويموت وينضج الجيل الجديد ويدخل الأرض المقدسة.

هؤلاء هم اليهود ...

سوء أدب وألفاظ جارحة، وغلظ في القول ومعصية لكل أمر، كل هذا ليس مع بعضهم

البعض، وإنما مع رب العزّة جل وعلا ورسلهم الكرام، هذه صورة سيئة رسمها القرآن لليهود. وكان لها العقاب، وهو تمهيد بصورة أخرى أكثر عنفاً وأشد ضراوة. ولقد ظلّ سوء أدبهم إلى اليوم، حيث رسم يهود ونصارى الدنمارك رسماً (كاريكاتيرياً) لرسول الله ﷺ في صحفهم في وضع مسيءٍ، علّقوا عليه أنه إرهابي، وتناقلت دول النصارى وبعض صحف ضعاف النفوس من المسلمين تلك الصور بإعادة رسمها إمعاناً في الإساءة، والله يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

بعد هذه الجولة الطويلة مع بني إسرائيل تخرج منها بالدروس التالية:

١ - بنو إسرائيل (اليهود) لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق ومن وثق فيهم وعاهدهم فقد ظلم نفسه فإنها فئة ناقضة للعهود ولا تحترم رباً ولا رسلاً ولا ملائكة ولا بشراً. وهم مطرودون من رحمة الله، وهم قساة القلوب لا رحمة في قلوبهم.

٢ - فيهم الخيانة والغدر.

٣ - النصارى: لا يلتزمون طاعة الله التي أخذها عليهم وهم الآن فئات مختلفة في دينها وعقيدتها، تبغض كل فئة أختها ولا يلتقون في دين ولا نهج. فبعض يعتقد أن عيسى ابن الله وبعضهم يعتقده هو الله، وبعضهم يعتقده ثالث ثلاثة. وبعضهم يعتقده عبد الله ورسوله.

٤ - جاء الرسول ﷺ ليخرج بني إسرائيل من ظلمات الشرك والكفر ان اتبعوه، مع هذا الكتاب الكريم.

٥ - دعاوى بني إسرائيل الباطلة بأنهم أبناء الله وأحباؤه أبطلها الله، بل هم مغضوب عليهم ومطرودون من رحمة الله.

٦ - لمخالفتهم لموسى ﷺ، في كل ما أمرهم به، ولتطاولهم على الله تعالى طلب موسى من ربّه أن يفرّق بينه وبينهم، فقد كرههم.

٧ - مات موسى ﷺ، ولم يدخل بنو إسرائيل بيت المقدس، وإنما دخلوه بعد سنوات التيه وهي أربعون سنة بعد نشأة جيل جديد وفناء الجيل القديم المعاند.

المقطع السابع: جرائم وعقوبات:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢].

في الآيات السابقة قال الله تعالى لرسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾[المائدة: ١١] فالله تعالى يقص عليه ما هو أشد وأنكى.

ويقول للنبي ﷺ أتل على أمتك ما حدث من ابن آدم، وهي واقعة حقيقية ينقلها الله لعباده ليريهم سوء خلق بعض الناس، والواقعة نشأت في بيت نبوي كريم لكل الخلق، ونحن في بداية البشرية وهي تخطو أولى خطواتها على الأرض.

آدم ﷺ ربى أبناءه على التقرب إلى الله بصالح الأعمال وخالص النية، والولدان

هابيـل وقابيـل قربـا قرابـين فتقبـل الله قربـان هابيل لخلـوص النية وحسـن الاعتقـاد، ولأنه قـدم أطيـب ما عنده، فأرسـل ناراً أحرقـت قربانه دليل قبولـه، أما قربان قابيـل فظل كما هو لم تمسسـه نـار دليـل على عـدم قبوله، فدب الحسـد في قلبه على أخيـه هابيل، وهو لم يجـن ذنباً ولم يقـترف جريمـة، فأعلـن الحقـد عـلى أخيـه وأنـذره بالقتـل، وهابيل بـين لأخيه طريقـة قبول القربـان، التقوى فـإن اتقيت الله حين تقديمـه، وقدمت طيباً بخلوص النية وصلاح الكسـب قبل منك، أمّا إن صممتَ على قتلي فلسُـت مصمماً على قتلك، وسـتبوء بإثمي إن قتلتني وتبوء بإثمـك الـذي عليك قبل ذلك. فتكونَ مـن أصحاب النار، والنار جزاء الظالمين، فحسّـنتْ له نفسه قتل أخيه رغم هذا الذي قاله له؛ فقتله فأصبح من الخاسرين، خسر الدنيا والآخرة، ثم لم يـدر مـا يفعل بأخيه الذي قتله؟ فهو أول قتيـل وأول ميت في الدنيا. قال علي بن أبي طلحة عن ابـن عبّـاس: (جاء غراب إلى غراب ميت فحث عليه من الـتراب حتى واراه، فقال: ﴿ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾، فدفنـه)[1] ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ وهكذا إندفع للقتل حتى ارتكب الجريمة فبقي للحسرة والندم والغم. بهذا أصبح ابن آدم هذا أول من سـن سـنة القتل، ولهذا قال الرسول ﷺ: (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)[2].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- أهـل الإيـمان أبعد الناس عن سـفك الدماء بغـير حقّ، وكلما قوي الإيـمان بعد المؤمن عن الإجـرام؛ لهـذا يقـول الله عـز وجـل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـَٔا ﴾ [النساء: ٩٢].

٢- القاتل في الآخرة إذا سفك الدّم الحرام، واجه قول الله عز وجل ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

(١) تفسير القرآن العظيم:٦/ ٤٤.

(٢) الترمذي، حديث رقم (٢٦٧٣).

عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣] ويقول النبي ﷺ: (ما يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يصب دماً حراماً)(١).

٣- يجيء المقتول يوم القيامة متعلقاً بالقاتل يقول: يا ربّ سله فيمَ قتلني(٢).

٤- يصيب الغمّ القاتل بعد جريمته، لا يكاد ينفك عنه، وقد منَّ الله على نبيه موسى عليه السلام بالنجاة من الغمّ فقال عز وجل: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ [طه: ٤٠].

من أجل ذلك الظلم والقتل بغير جريرة وسبب، ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

بعد هذا القتل الذي وقع على هابيل بغير ذنب، كتبنا وشرعنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفساً لم تقتل نفساً تستحق عليها القصاص، ولم ترتكب جرماً تستحق عليه القتل، فكأنما قتل الناس أجمعين، ومن تركها حية ولم يقتلها فكأنما أحيا الناس أجمعين، وبلغت هذه الأحكام بني إسرائيل عن طريق رسلهم، ولكنهم مع ذلك، ظلت فئة كثيرة منهم تمارس القتل بلا هوادة ولا رحمة، ولم توقفها أوامر الله ولا ما قال الرسل، وأسرفوا في القتل كثيراً، وما زالوا والقصة تبين أن بعض النفوس تبغض أهل الخير والصلاح، ولا ترضى عن الاستقامة والهدى، ولهذا هم حرب على كل صالح ومستقيم، ولهذا شرع الله لعباده العقوبة لهؤلاء المجرمين.

---

(١) البخاري: ٦٤٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤٧/ ١٣٦.

المقطع الثامن: عقوبة الحرابة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

سبب النزول:

روى البخاري عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام واستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: (ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها؟). فقالوا: بلى - فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا. فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)[1].

جاء رجل من مراد إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة إمارة عثمان ﷺ، بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذين أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله. وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ. فقام أبو موسى وقال: إن هذا فلان بن فلان وأنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وأنه تاب من قبل أن نقدر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه. فأقام الرجل ما شاء الله ثم أنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله[2] ولم يك صادقاً في توبته.

---

(١) البخاري، حديث رقم (٦٥٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠.

روى ابن كثير: أن علياً الأسدي حارب الله ورسوله وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال. فطلبه الأئمة والعامة فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر: ٥٣] فوقف عليه فقال يا عبد الله أعد قراءتها فقرأها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السَّحر، فاغتسل ثم قدم مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه، فلما أسفروا، عرفه الناس فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائباً من قبل أن تقدروا عليَّ. فقال أبو هريرة صدق فأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا على قد جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله. قال وخرج عليٌّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر فلقوا الروم فقربوا سفينة إلى سفينته من سفنهم فاقتحم على الروم من سفينتهم. فهربوا منه إلى شقها الآخر فمالت بهم فغرقوا جميعاً[١].

تلك خاتمة طيبة لتائب من عباد الله صدق في توبته وجهاده.

والآية سميت آية الحرابة، وهي تعني الحديث عن قطاع الطرق، وقطاع الطرق إنما يتصيدون ضحاياهم في الأماكن البعيدة المعزولة عن الناس، وعن الغوث لمن استغاث. فلذا روى ابن عباس: أن قطاع الطرق، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإن قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا. وإن أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض[٢].

فكان هذا حكم الحرابة ... وهو ما عليه جمهور المسلمين الآن وهو جزاء موافق يناسب الجرم المرتكب، وهذه واحدة من الحدود التي أوجب الله العمل بها. وهي آية محكمة واجبة الأداء.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٤٩.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - ما وقع من عكل ما يزال يقع في مجتمعاتنا، فبعض الناس تحسن إليهم وتؤويهم وتقدم لهم كلّ عونٍ، وآخر الجزاء ارتكاب جريمةٍ ففي حقّ المحسن.

٢ - وجوب الحذر من كثيرٍ من الناس، فلا بدّ من ترك السذاجة التي يعقبها الأذى.

٣ - وفي المثل: (اتق شرّ من أحسنت إليه)(١).

المقطع التاسع: في التقوى نجاة من النار:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٥-٣٧].

بعد الحديث عن الحرابة جاءت الآية تأمر بتقوى الله، وترك ما نهى عنه وحرم، وفي التقوى الفلاح ويرزق الله العبد التقي من حيث لا يحتسب ويجعل له من كل ضيق مخرجا، ويجعل له من أمره يسرا وهو معه بالتأييد والنصرة والمؤازرة، ويأمرنا أن نتخذ الوسيلة لمرضاته فالدعاء وسيلة، والسؤال بأسمائه الحسنى وسيلة، والتقرب إليه بأحب الأعمال الصالحة الخالصة إليه وسيلة، والتقوى وسيلة، فابتغوا إليه الوسيلة لتصلوا إلى غاياتكم، وجاهدوا في سبيله بالمال والنفس والكلمة الصالحة وتبيين الحق والوقوف في وجه الباطل. قال ﷺ (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى ذي سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله)(٢) وقولنا بعد الآذان (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته)(٣) وهي

(١) اللؤلؤ المرصوع: ١/ ٣٢.
(٢) المستدرك: ٣٦٩.
(٣) البخاري حديث رقم (٥٨٩).

أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو رسول الله ﷺ، ومن قال ذلك حَلَّت له الشفاعة من رسول الله ﷺ. فهذه الكلمة وسيلة لمرضاة الله ودخول الجنة.

والله يرينا أن الكفار والذين لم يدخلوا في هذا الدين ولم يعبدوا الله ويوحدوه لو جاءوا يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ليفدوا به أنفسهم من العذاب لن يقبل منهم، فلا بد من عذاب ولن ينجيهم من النار شيء، فهم في عذاب مقيم، سرمدي.

المقطع العاشر: حدّ السرقة:

بعد حد الحرابة الآن يأخذ في حد السرقة.

فيقول تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٨-٤٠].

روى ابن كثير: (أن أول من قطع يد السارق في الجاهلية قريش، فقد قطعوا يد دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة.

وحد السرقة واحد من أعمال الجاهلية التي أقرها الشرع واستمر العمل بها، هي والدية والقسامة والقراض)[1].

واشترط بعض الفقهاء النصاب الذي تقطع فيه واتفقوا على ألا يكون القطع في أقل من ثلاثة دراهم وبعضهم سماها ربع دينار وكان الدينار يومئذٍ يساوي اثني عشر درهماً وهي ربع الدينار فلا خلاف في ذلك، وممن قال ذلك الإمام مالك فعنده (النصاب ثلاثة دراهم) إن سرقها أو بلغ ثمن ما سرقه ثلاثة دراهم، مستشهداً بفعل رسول الله ﷺ فيما رواه أصحاب

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٢.

الصحيحين (قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم)[١].

وقد حاول بعض الناس أن يؤجل أو يخفف حكم القطع فاغضب ذلك النبي ﷺ وقال لأسامة (أتشفع في حد من حدود الله عزّ وجلّ) وخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٢].

واختلفوا في رد المسروق بعد القطع وقيل لا يرد.

عن عبد الله بن عمر أن امرأة سرقت حلياً فجاء الذين سرقتهم رسول الله فقالوا: هذه المرأة سرقتنا. فقال رسول الله ﷺ (اقطعوا يدها اليمنى) فقالت - بعد القطع - هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: (أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)[٣] فأنزل الله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ﴾.

والآية ترد على المعارضين لحكم الله، والذين يثيرون الشبهات حول أحكام الله، والذين يرون في قطع السارق والسارقة عملاً لا إنسانياً كما كتبت بعض الصحف والأقلام، وكما يقول المعارضون لحكم الله تعالى:

ورد الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هذه حقيقة ثابتة، وما

(١) البخاري: (٦٤١١).
(٢) البخاري: (٤٠٥٣).
(٣) المصدر نفسه.

داموا اعترفوا بأن السموات بما فيها والأرضين بما فيها ملك لله خالصاً فمن ذا الذي يعترض على صاحب الملك أن يتصرف في ملكه؟ فيعذب المجرم، ويغفر للتائب المقصر في حق الله عليه، لا في حق العباد، فلا بد من رد المظالم. والناس يعترضون على عقاب المجرم المعتدي على حقوق الشرفاء والكادحين العاملين الذين يسعون لعيشهم الشريف فيأخذ هذا جهدهم وعرقهم ولا يقدرون بذل المعتدي عليهم والذين يسعون من أجل أسرهم وعيشهم، يكرمون المجرم ولا ينظرون للمظلوم، تلك غاية الإجحاف. والله على التعذيب والعفو قدير، فهو العالم بمن يستحق عفوه ومن يستحق عقوبته.

هذه هي جريمة السرقة وعقوبتها، وسبقتها عقوبة الحرابة، ومن قبلهما عقوبة من قتل نفساً بغير ذنب في قضية ابني آدم فالقاتل كأنما قتل الناس جميعاً، ولابن آدم القاتل نصيب في كل جريمة قتل لأنه أول من سن القتل - والآن نأخذ في جريمة الزنا.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

إن من الأدب مع الله أن نتقبّل أحكامه، وأوامره بنفسٍ طيبةٍ ورضاً بما أمر؛ لقوله عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

المقطع الحادي عشر: تلاعب أهل الكتاب بأحكام الله:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤١-٤٥].

والآية تبدأ الحديث بالمنافقين الذين قال الله لرسوله عنهم لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواهم ولم تؤمن قلوبهم، فهؤلاء آمنوا باللسان قولاً ولم يؤمنوا بقلوبهم فعلاً، فاختلفت الجوارح واختلفت النتائج، والمشركون من العرب هم الذين يعنيهم القرآن بهذا القول، ثم يضيف إليهم الصنف الثاني في النفاق والكفر، من الذين هادوا، وهؤلاء سماعون للكذب استماع تصديق وإيمان وقبول، ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ ﴾ فهم مرسلون من جهة، تأبى أن تظهر: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ يتأولونه تأويلاً خاطئاً عامدين قاصدين تبديل أحكام الله وشرعه. يقولون لمن أرسلوهم إلى رسول الله ﷺ وقد

زنـا رجل وامـرأة منهم إن قال: لكم حكم الزنـا الجلد فاقبلوه، وإن قال حكـم الزنا الرجم فلا تقبلـوه. فلـما قدم الذين بعثوهم لرسـول الله ﷺ وسـألوه عن حكم من زنا من الرجال والنسـاء وهم محصنون، فسـألهم رسـول الله ﷺ عن الحكم عندهم في التوراة فقالوا: نجلدهم مائة جلدة ثـم نحممها بالسـواد، ونركبهما حمارين مقلوبـين يطوفون بهما في الأسـواق، وكان قد اصطلحوا على ذلك مبطلين حكم التوراة وهو الرجم، فلما قالوا ذلك كذبهم عبد الله بن سلام وقال حكم التـوراة فيهما الرجم، فجاءوا بالتوراة، فنشروهـا ووضع أحدهم إصبعه على آية الرجم ليخفيها وقرأ ما قبلها وما بعدها. فأمره عبد الله بن سلام برفع يده فقرؤوا آية الرَّجم فأمر بهما فرجما[1].

فـالله يقول لرسـوله ﷺ لا تحزن لمسـارعة المنافقـين في الكفر، ولا تحزن عـلى بعض اليهود الذين يحبون سماع الكذب بما ينقله المنافقون لهم كذباً وبهتاناً عن المسلمين، والبعض من اليهود سـماعون لقوم آخرين من مرتكبي الجرائم الذين يبحثون لها عند حلول بإرسال هؤلاء لرسول الله ﷺ ولم يظهروا بأنفسهم يقولون لهم اسألوه عن الحكم عندهم في الإسلام لمن زنا.

فهـؤلاء أراد الله فتنتهـم بوقوعهم في هذا النفاق والتحريف لأحكام الشرع فلن يملك لهم أحد من الله شيئاً، ولن يَرُدْ ما قد أراده الله بهم، لم يُرِدْ الله لهم طهارة القلب ولا صفاء النفوس ولا الرغبة في هذا الخير. فلهم في الحياة هذه الخزي والذل والمهانة، ومن الأخرى العذاب العظيم.

من أخلاقهم أنهم سماعون للكذب المنقول إليهم، أكالون للحرام بكل أنواعه رشاوى وربا وغيرهمـا من المحرمات. فالله يقول لرسـوله ﷺ. إن جاءك هـؤلاء يطلبون الحكم فيما ارتكبوا من حرام، فأنت بالخيار أن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فاعرض عنهم وفي كلا الحالين لن يضروك شـيئاً. فإن حكمت فاحكم بينهم بالقسـط والعدل ان الله يحب المقسـطين فحكم رسـول الله ﷺ بحكم التوراة وهو الرجم الذي أرادوا أن يتفادوه، فرجم اللذين زنيا.

والسؤال ... لم يحكموك وعندهم التوراة التي يؤمنون بها وفيها الحكم؟ - إنما هو الهروب

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٥.

والتخلي عن أحكام الله والتنصل مما أمر الله به. والله يقول أنهم بهذا التصرف ليسوا مؤمنين.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

والله يقول إنه أنزل التوراة. فيها هداية تبين للناس وحدانية الله، والطريق المستقيم المؤدي إلى جنة الله ورضوانه، المتمثِّل في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإن يقولوا للناس حسناً، وإن يحسنوا إلى الوالدين ويبروهم وان يحسنوا إلى الجار، وغيرها من الفضائل مما يسمو بالأخلاق والنفوس، وفيها نور يبين الحلال من الحرام والخير من الشرك والحق من الباطل، والطيب من الخبيث، وأمر الله أن ينفذ أحكام التوراة في بني إسرائيل النبيون موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى الذين استسلموا وخضعوا لله مؤتمرين بما أمر منتهين عمّا نهى عنه مُحلِّين ما أحل محرمين ما حرم، ويحكم بها وينفذ أحكامها كذلك الربانيون وهم الموحدون الله الذين لا يشركون به، والأحبار، وهم العلماء فهؤلاء الثلاثة. هم المنفذون لأحكام التوراة المطالبون بالحكم بها في بني إسرائيل لأنهم مؤمنون بها، ولأن الله تعالى وَكَلَ إليهم حفظها ورعايتها من التحريف والتبديل وكانوا شهداء، أنها من عند الله، وعلى ما فيها من خير لبني إسرائيل وسعادة، فلا تخشوا يا منفذي حكم الله في التوراة من الناس إذا حكمتم بها، فإنكم ستجدون من يعارضكم في تنفيذ أحكامها، فلا تخشوا الناس واخشوني، ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:٤١]، أي لا تحرفوا كلام الله وتبدلوه وتبيعوه للناس محرفاً على أنه كتاب الله الحق ولا تقبلوا الرشوة مقابل ترك الحكم به ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة:٧٩] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾. روى الحاكم في مستدركه (أنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه أي ليس الذي يخرج من الملة والله أعلم)[١]. ولكنه الكفر الذي وصفه

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٩.

الله والذي يخرج من الملة لأن التهاون بشرع الله وأوامره لا يقابل بالتهاون.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ساوت التوراة في أحكام القصاص والدماء، فمن قتل نفساً قُتل بها ومن فقأ عيناً فقئت عينه ومن جدع أنفاً جدعت أنفه ومن صلم أذناً صلمت أذنه ومن كسر سناً كسرت سنه، ومن جرح شخصاً جرح بمثل ما جرح وبنفس الكيفية والموقع، حتى يرتدع بنو إسرائيل، وهي غاية العدل والإنصاف، لكن بني إسرائيل حرفوا هذا الحكم، وجعلوا بين القبائل تفاضلاً، فبنو النضير يعتبرون أنفسهم سادة اليهود، ويعتبرون بني قريظة أضعف اليهود فلا يتساوون معهم في الدية والقتلى فإذا قتل قرظي نضرياً قتل به وإذا قتل نضري قرظياً لم يقتل به وإنما يدفعون دية لأهل القتيل، وهذا حكم مخالف لما شرع الله تعالى وبين أن النفس بالنفس... قصاصاً، كما حرفوا حكم الرجم السابق إلى ما تعارفوا عليه من الجلد والإركاب فلم يحكموا بها ولم يتعاملوا بها شرع الله فوصفهم بالظالمين[1]. فإمّا هو ظلم الشرك، أو هو ظلم التعـدّي على حدود الله، وكلاهما مهلك، وصاحبه إلى النار.

وشرع من سبق شرع لنا إلا إذا نسخ فلهذا طبق رسول الله ﷺ هذا الحكم على المسلمين، روى البخاري بسنده أن (الربيع) عمة أنس بن مالك كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا فقال رسول الله ﷺ: (القصاص) فقال أخوها، أنس بن النضر يا رسول تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا أنس كتاب الله القصاص) قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص. فقال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه)[2].

---

(١) سنن البيهقي الكبير: ٨/ ٢٠.

(٢) البخاري: (٢٥٥٦).

فهذا تطبيق لأحكام هذه الآية التي نزلت في التوراة وعمل بها رسول الله ﷺ لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ.

عن عمران بن حصين: أن غلاماً لأُناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: إنا أُناس فقراء. فلم يجعل عليه شيئاً[(١)]. وعن قتادة أنه ذو إسناد قوي ورجاله ثقات، وعلل: لعل أن الغلام الجاني لم يبلغ فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء واستعفاهم عنه.

بهذا يكون قتل النفس بالنفس معمولاً به في الإسلام[(٢)] وكسر السن بالسن، والأُذن بالأُذن الذي ورد في الحديث يكون كله شرعاً للمسلمين إلى يومنا هذا مع بقية ما ورد في الآية.

وفي عهد ابن الخطَّاب ﷺ، لطم جبلة بن الأيهم في الحج أعرابياً وطئ ثوبه، فاشتكاه إلى عمر فاستدعى، عمر جبلة وطلب منه القصاص فقال جبلة: أنا ملك وهذا سوقة. وقال عمر بن الخطَّاب: إن الإسلام ساوى بينكما، وطلب من عمر أن يمهله إلى الغد فهرب وتنصر ومات على كفره. والشاهد أن الجروح قصاص.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: (تقتل النفس بالنفس وتفقأ العين بالعين، وتقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس[(٣)].

وبهذه الآية النفس بالنفس روى العلماء أن الرجل يقتل بالمرأة إذا قتلها. ويقول رسول الله ﷺ:

---

(١) النسائي: (٦٩٥٣).

(٢) البخاري: (٦٤٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٠.

(المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد من على من سواهم)[١].

وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليه إلى أوليائها نصف الدية لأن ديتها على النصف من دية الرجل. وإلى هذا ذهب أحمد بن حنبل. وللإمام أحمد بن حنبل قول صريح أن الرجل لا يقتل بالمرأة بل تجب ديتها.

كذلك نهى رسول الله ﷺ: (أن يُقتل مسلم بكافر)[٢] لقوله ﷺ: (لا يُقتل مسلم بكافر)[٣].

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، من فقئت عينه فعفا عن الجاني فهو كفارة للمجنى عليه، وكذلك من كسرت سنه أو أصابه أحد بجروح فعفا.

روى ابن جرير: عن أبي سفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل قال شأنك وصاحبك قال وأبو الدرداء عند معاوية. فقال أبو الدرداء، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وخط عنه به خطيئة)[٤].

فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فخلى سبيل القرشي. فقال معاوية مروا له بمال.

وفي القصاص في الجراحة لا يجوز أن يقتص في الجراحة حتى يندمل جرح المجني عليه، والدليل روى البيهقي أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني: فقال ﷺ: (حتى تبرأ) ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده. فقال يا رسول الله، عرجت فقال ﷺ: (قد نهيتك فعصيتني فأبعدك الله وبطل عرجك)[٥] ثم نهى

---

(١) سنن أبي داود: ٢٧٥١.
(٢) البخاري: (١١١).
(٣) المصدر السابق.
(٤) الترمذي: (١٣٩٣).
(٥) البيهقي الكبير: ٨/ ٦٧.

رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ. وذلك مخافة أن يتطور الجرح إلى شيء آخر فيفسد الجسد كله فيضيع حق المجنى عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - شرع من قبلنا شرع لنا، فلهذا استمر العمل بهذه الآية التي كانت عند أهل الكتاب في أحكام المسلمين إلى اليوم.

٢ - في الجاهلية أحكام ارتضاها الإسلام كالدية والقسامة، وارتضى ما كانت تقوم به قريش من سقايةٍ وحجابةٍ. وأمر بحفظ العهود التي أبرمت في الجاهلية، وأمر بإمضائها، وقال ﷺ: (كل حلفٍ كان في الجاهلية أو عقدٍ أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلاّ شدّةً)[1].

المقطع الثاني عشر: رسالة عيسى وإنجيله:

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[المائدة: ٤٦-٤٧].

والآن بعد الحديث عن التوراة يأتي الحديث عن الإنجيل. فيقول تعالى: أنه أتبع - على أثر أنبياء بني إسرائيل السابقين - عيسى بن مريم، وجاء عيسى مصدقاً بالتوراة التي نزلت على بني إسرائيل في عهد موسى، فهو مؤمن بها وباعتباره من أنبيائهم مأمور أن يحكم بها، وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل، والإنجيل نفسه مصدق بالتوراة التي سبقته متفق معها ليس مخالفاً وفي الإنجيل هدى ونور، يهدي بما فيه من تعاليم إلى الطريق المستقيم بدعوة الناس إلى الصلاة والعبادات وطاعة الوالدين والإحسان إلى الجار وغيرها من مكارم الأخلاق، ونور يبين الحلال من الحرام والخير من الشر ومعلوم أن الإنجيل جاء بالتخفيف على بني إسرائيل

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٨٩.

من كثرة المحرمات التي عوقبوا بها نتيجة معصيتهم لله تعالى فقال عيسى ﷺ ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ في الإنجيل هدى، وفيه موعظة وعبرة عن ارتكاب المعاصي حتى لا يحرم عليهم أشياء أخرى فهو يزجرهم عن ذلك.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وبنو إسرائيل لم يحكموا بما أنزل فهم فاسقون. والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، وهو كفر محض، وصاحبه إلى النار.

إن بني إسرائيل الآن وصلوا في المعاصي حداً بعيداً، ولم يعد يردعهم عمّا هم فيه كتاب ولا رسول ولا قول، فهم قتلة سفاحون نشروا في العالم كل أنواع الفساد وقبائح الأخلاق، وفرقوا بين الشعوب في داخل البلد الواحد وأشاعوا الفتن، ودمروا النفوس والبيوت والقيم في ديار المسلمين وغيرها. فهم بهذا كافرون ظالمون فاسقون وكل من ترك منهج الله هذا قول الله تعالى وحكمه فيه.

القرآن المهيمن:

تحدث المولى عز وجل عن التوراة والإنجيل وما فيهما من أحكام، وبين أنه سبحانه وتعالى وكل بتنفيذ أحكامها إلى النبيين والربانيين والأحبار، وجعلهم حفظتها وأصاب التوراة والإنجيل التحريف لقصور البشر عن الحفظ.

وجاء الحديث عن كتاب الله الأخير إلى البشر، القرآن، والذي تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩] فهو أولاً محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير بحفظ الله له.

المقطع الثالث عشر: القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

وأول القول في القرآن: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو منزل من عند الله تعالى، ليس من صنع محمد ﷺ، وليس مما يعلمه بشر، نزل بالحق والصدق نزل والحق موضوعه الذي جاء يحققه، جاء من عند الله بالحق، مع هذا الرسول الحق، جاء (مصدقاً) لما سبقه من كتب معترف بها، فالمصدر الذي جاءت منه واحد، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٢-٤].

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أميناً عليها معترفاً بها، مادته التي فيه تشمل كل ما في تلك الكتب وتزيد.

(فاحكم بينهم) بالأحكام التي تضمنها هذا الكتاب، فاقطع يد السارق، واجلد الزاني غير المحصن، وهكذا، وليعملوا بما فرض عليهم من عبادات، وما نهاهم عنه أشياء، ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق، وقد عارض العرب أحكام الميراث التي نزلت، وعجبوا أن يقسم الله تعالى للجارية وللغلام وللمرأة وهم لا يحوزون الغنيمة ولا يدفعون عن القبيلة، وقالوا اسكتوا عن هذا حتى نكلم محمداً ﷺ فيغيره، ولقد وجدت أحكام الله معارضة شديدة في البداية وما زالت طوائف من المسلمين يعطلون أحكام الله ويقفون ضدها. فامض مع أحكام الله تنفيذاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨] فالناس أعداء لما جهلوا

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ كل أمة لها تشريع يناسب ظرفها وزمانها، فلليهود شرعة ومنهاج في الحياة يخالف ما عليه النصارى، فقد جاء الإنجيل بالتخفيف من كثرة المحرمات التي حرمت على بني إسرائيل بسبب المعاصي وقال عيسى عليه السلام ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] ففي شريعته تخفيف عمّا كانوا عليه في عهد موسى عليه السلام وجاءت شريعة محمد ﷺ مكتملة تخالف في بعض تشريعاتها ما كان عليه النصارى وما كان عليه اليهود ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لو شاء الله لوحّد كل التشريعات في كل الأمم ولكن الله تعالى أدرى بمصالح العباد فجعلها تختلف تشريعاً وتتفق توحيداً لله تعالى ﴿ وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ فهو ابتلاء لكم أتقبلون تشريع الله لكم وتنفذون أحكامه أم تأبون؟؟

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ تسابقوا في تنفيذ شرعه وأحكامه وطاعته فهو مجال التنافس للفوز بمرضاة الله تعالى ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ إليه المصير يوم القيامة ليجازي الناس على ما قدموا من خير وتنافسوا فيه فهناك الجزاء على هذا التسابق... والجزاء على التخلف عنه ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ بين لكم من هو على الحق ومن هو على الباطل، من هو المهتدي ومن هو الضال. من وحد الله ومن أشرك به.

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ تأكيد العمل بهذا الكتاب والتحذير من أهواء المعارضين وشبههم التي يريدون بها التحلل من بعض هذا الشرع، إن اليسير من التحلل من هذا الشرع يهلك الأمة ويوجب سخط الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ فإن انصرفوا عن الحكم بهذا الكتاب، ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ

ذُنُوبِهِمْ ﴾ فلا بد من عقاب لبعض الذنوب وليس كلها، وعقاب الله إذا وقع رادع، فكيف إذا حبس رزقه؟ إذ أصابهم بالقحط؟ وكيف إذا زرع بينهم الفتنة؟ وكيف إذا أصابهم بالأوجاع والأسقام؟ إن الأمم السابقة لم تحتمل عقاب الله فكيف بهذه الأمة؟ إنَّ الله يوجه أنظار العباد إلى الأمم السابقة عظة وعبرة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يوسف: ١٠٩] ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ القلة من العباد هي الشاكرة الحامدة لربها والكثرة هي الفاسقة ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أيريدون الرجوع إلى الوراء للجاهلية لتحكم بينهم؟ أيحبون حكم من لا يملك حق التشريع والتقنين ويتركون حكم الله الذي يرفعهم به؟ وتتنزل به عليهم رحماته وبركاته؟ - فما من حكم تنزل به الرحمة وتعم به البركة، ويأمن فيه العباد إلاَّ حكم الله، لقوم يوقنون أنه الحق وأن العدل فيه.

تَمَّ الحديث عن القرآن المهيمن على ما سبق من كتب.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - اليهود والنصارى يقدّسون ـ ظاهريّاً ـ التوراة والإنجيل، ولا يعملون بما فيهما من أحكام، لهذا شبه الله تعالى اليهود بالحمير فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة:٥].

٢ - السعادة تكمن في العمل بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦]. ولكنهم فسقوا وظلموا وكفروا ومصيرهم إلى النار.

والآن بعد أن فضح اليهود والنصارى وبيان فسقهم يوجه القرآن الأمة المؤمنة أمة محمد ﷺ إلى المفاصلة بين المسلمين، وأهل الكتاب.

المقطع الرابع عشر: المفاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

أسباب النزول

روى ابن كثير عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أُبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله ابن أُبي (يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) قال: قد قبلت فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾[(١)].

روى أبو داود عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لما أصاب[(٢)] رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً) فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٥.
(٢) سنن أبي داود: ٨/ ٢٣٤ (٢٦٠٧).

لم تلق مثلنا). فأنزل الله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢][1] فقال عبادة بن الصامت: إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم، كثيراً سلاحهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله ابن أبي بن سلول: لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لا بد لي منهم فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) فقال: إذن أقبل فأنزل الله فيه الآية.

(وروى أنه عندما نقض بنو قينقاع العهد مع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد، حاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أُبي ابن سلول فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (أرسلني) وغضب رسول الله ﷺ حتى رؤى بوجهه ظللاً ثم قال: (ويحك أرسلني) قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني أمرؤ أخشى الدوائر - فقال رسول الله ﷺ: (هم لك) ثم أمرهم بالجلاء فخرجوا)[2]. بهاتين الروايتين، يبدو الآن موقفان، موقف مستجيب لله تعالى منفذ لأمره بترك موالاة اليهود والنصارى، والآخر عاصٍ لله لم يستجب لأمره متشبث بموالاة اليهود والنصارى، والله حينما حذر من موالاتهم وصف من والاهم بأنه منهم، منهم ديناً وخلقاً وسلوكاً ومنهجاً، فهذا عبادة بن الصامت مستجيب لله، وعبد الله بن أُبي بن سلول عاصٍ لله متشبث باليهود والنصارى. فهو بهذا ارتد عن دينه الذي لم يدخل فيه أصلاً.

بهذا ينهى الله تعالى عباده المؤمنين من موالاة اليهود والنصارى ونهاهم أن يستنصروا بهم، فإنهم أعداء وقد سبق القول من الله تعالى في سورة آل عمران لهذه الأمة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ

(١) ابن هشام: ١/ ٥٥١.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٣٤.

وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

والآن ينهاهم أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء ويقول من يتخذهم أولياء بعد هذا فإنه منهم، والله تعالى ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا يهدي من خالف أمره عمداً وخالف نهجه عمداً وخالفه شرعه عمداً. فهو ظالم، والله لا يهديه.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

المنافقون ابن أُبي ورهطه يتعشمون أن تكون لليهود دولة، فهم يتمسكون بهذا الأمل، فإن صارت لهم دولة كانت للمنافقين حظوة عند اليهود لهذا استمسكوا بموالاتهم، ولم يتخل عنهم ابن أُبي في حين تخلى عنهم عبادة بن الصامت، وهم في عتادهم القوي وعددهم الكثير ووالى الله ورسوله. والله يقول: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ فعسى الله أن يأتي بفتح مكة وهزيمة قريش وحلفائها، وصعود نجم المسلمين والإسلام أو أمر من عنده بضرب الجزية على اليهود والنصارى، أو بطردهم من المدينة ... فيصبح المنافقون بموالاتهم لهؤلاء ومخالفتهم لأمر الله نادمين، وهذا ما حدث فقد انتهى كل وجود لليهود في المدينة، فبعد خمس سنوات من هجرة النبي ﷺ للمدينة لم يبق فيها يهودي، وتحسر المنافقون فعلاً بما أصاب اليهود في المدينة حين أجلى الله بني قينقاع وبني النضير وقتل مقاتلي بني قريظة وسبي النساء والأطفال وقَسّم الأموال وذهبت أماني المنافقين أدراج الرياح، وتَصَرُّفُ ابن أُبي أخذ عند الله تعالى منحى آخر وحكماً جديداً، وهو حكم الرِّدة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

﴿ يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

تتحدث الآيات عمن ارتد عن دين الله، والردة إما بقول يخرج صاحبه صريحاً من الملة أو بفعل أو ترك شيء من الدين عمداً أو إنكاره.

فتصرف عبد الله بن أُبي بن سلول خروج من الدين صريح وردة، وكذلك من رجع من الحق للباطل فقد ارتد فالله تعالى يأت بخير ممن ارتد، وأول صفات من يأت به الله، يكون ممن أحبهم الله، وكذلك هم أحبوه، ويكون لين الجانب متواضعاً خاضعاً خلقاً وسلوكاً مع إخوانه من المؤمنين، أما جانبه مع الكفر فهو شديد عليهم لا يريهم جانب اللين ولا الرحمة، مجاهداً في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر رسالته، ولا يخشى في الله لومة لائم، فلا يخضع لقرابة ولا لعظيم ولا لملك ولا لقبيلة، أمر الله تعالى أعظم عنده وأهم. والذي يصفه بهذه الصفات مَّن الله عليه من فضله وأسبغ عليه من نعمه، وهو فضل الله يؤتيه من يستحقه من عباده. وهو العليم بمن يستحق.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

بعد أن نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، أمر بموالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وموالاة المؤمنين، الذين وصفهم بأفعالهم التي تثبت أيمانهم حقيقة وهي ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾. والإيمان كما بين الرسول ﷺ (ما وقر في القلب وصدقه العمل)[1] فأفعالهم تدل على إيمانهم، والصلاة علامة الإيمان.

ومن يتول الله ورسوله والمؤمنين فهؤلاء هم حزب الله وحزب الله غالب، وحزب الله منتصر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - النهي عن موالاة اليهود درءاً لخطرهم لأنهم أهل الدسائس والمؤمرات والفتن، ولايستطيعون العيش الأوسط أمة ممزقة، وكذلك كانوا في صدر الإسلام حتى حسمهم ﷺ جلاءً وقتلاً.

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٠٤) رقم (٥٢٣٢)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٩٨): موضوع، وروي من كلام الحسن البصري.

٢ - الجماعة في الإسلام أصل يدعو الله عباده اليها لما فيها من القوة والتمكين والرفعة. وهم الحزب الإلهي الغالب.

٣ - لا ينصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من توحيد الله والنهج النبوي الكريم.

٤ - من حالف اليهود فقد إرتد كما فعل عبد الله بن أبي ولقول الله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾.

والآية لم تتحدث عن عقوبة دنيوية لمن إرتد عن الدين وإنما بين ﷺ حكم الردة فقال: (من بدل دينه فأقتلوه)[1] وقوله ﷺ (لا يحل دم إمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة)[2] ويحتج أهل الشبهات بأن القرآن لم يبين حكماً عقابياً في الدنيا للمرتد وعلى الناس الرجوع الى السنة المبينة للقرآن فنحن نأخذ الأحكام من السنة لا من القرآن.

٥ - عقاب الردة القتل فقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين وأعادهم للصف الإسلامي ونفذ عقوبة الردة في إمرأة إرتدت والصحابة متوفرون حوله ولم ينكروا[3].

٦ - ونفذ معاذ بن جبل عقوبة الإعدام في يهودي،إرتد باليمن تنفيذاً لوصية ﷺ له (أيما رجل إرتد عن الإسلام فأدعه فإن عاد وإلا فأضرب عنقه وأيما إمرأة إرتدت عن الإسلام فأدعها فإن عادت وإلا فأضرب عنقها)[4].

٧ - وفي عصرنا الحديث نفذ جعفر محمد نميري في السودان حكم الردة في محمود محمد طه بعد أن إستتابه فلم يتب.

---

(١) البخاري حديث رقم ٢٨٥٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٨٤.

(٣) سبل السلام للصنعاني ج٣/ ٥٠٠.

(٤) سبل السلام للصنعاني ج٣/ ٥٠٠.

المقطع الخامس عشر: الدين بين المستهزئين والكارهين له:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧-٦٣].

بعد الحديث عن الردّة يأتي الآن الحديث عن الاستهزاء بالدّين وشعائره. فالكفار الآن، وأهل الكتاب من يهود ونصارى كلهم مجتمعون على حرب المسلمين، لضعف حكامهم وارتمائهم في أحضان اليهود والنصارى والخوف منهم. فالحجاب المأمورة به المرأة المسلمة موضع سخرية من أمة اليهود والنصارى وشرعت بتحريمه في بلادهم وأمر اليهود والنصارى حكام المسلمين الآن بتغيير منهاج الدراسة الدينية وإبعاد كل آية تحارب اليهود، وتدعو إلى الجهاد، وتكفر أهل الكتاب من مناهج الدراسة كلها أوامر أطيعت من قبل حكام المسلمين وحتى الدراسة التي تقوم على الدين وتحفيظ القرآن محاربة تماماً، وكذلك أوقفوا ما كانت تجمعه الجمعيات الخيرية المسلمة من أموال المسلمين المغتربين وردها على الفقراء والمحتاجين في بلاد المسلمين منعت وجففت منابعها وسُجن القائمون بها حرباً لدين الله.

فالإسلام الآن محارب في بلاد الغرب ومحارب داخل بلاد المسلمين عن طريق بعض ذوي النفوذ. فالولاء مع أهل الكفر قائم بينهم وبين بعض المسلمين حتى أصبحنا الآن نشهد مع بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي نشهد أحط أيام المسلمين، فالسيادة الآن لهم أمراً ونهياً وتشريعاً وتقنيناً... وسكوت الحكام عن مخازي أهل الكتاب دفع أهل الكفر إلى الاستهزاء

بشخص رسول الله ﷺ فالدنمارك جرائدها رسمت رسول الله ﷺ في صورة خنزير وصورته على أساس أنه إرهابي واستهزأت برسول الله وقامت المظاهرات في كل مكان مطالبة بمقاطعة الدول التي تسيء إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ولم تستجيب الدول وظلت الإساءات تترى حتى تطاول بابا الفاتيكان نفسه على شخص رسول الله ﷺ بالسب والشتم.

هؤلاء هم أهل الكتاب وجدوا الساحة خالية من رادع فتجاوزوا الاستهزاء بالصلاة إلى الاستهزاء بالرسول الكريم والأمة كلها، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ وقد غاب العقل عنهم حقيقة وحسبوا أن نشوة الانتصار الآن، والقدرة التسليحية التي يمتلكونها حسبوها دائمة، وأن المسلمين لن ينهضوا،لكنها الأيام دول، وسينتهي تجبر الطغاة ويأتي النصر للمسلمين بإذن الله ليصبحوا على ما فعلوا نادمين.

روى ابن كثير[1] بسنده عن عبد الله بن محيريز أخبره - وكان يتيماً في حجر أبي محذورة قال قلت لأبي محذورة - يا عم: إني خارج إلى الشام وأخشى أن أسأل عن تأذينك فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحاكيه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ: (أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟) فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني وقال: (قم فأذن) فقمت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى عليَّ رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه قال: (قل الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله) ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمرَّها على وجهه ثم

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٧.

بين ثدييه ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة. ثم قال له رسول الله ﷺ (بارك الله فيك وبارك عليك)[1] فقلت يا رسول الله: مرني بالتأذين بمكة. قال: (قد أمرتك به) وذهب كل شيء من كراهية لرسول الله ﷺ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذّنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ وأخبرني ذلك من أدركت من أهل محمد من أدرك أبا محذورة واسمه (سمرة بن معير بن لوزان) أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة وكان مؤذنه بمكة.

يمضي القرآن في الحديث عن اليهود والنصارى فبعد أن نهى عن موالاتهم، واستهزاء الكفرة والمشركين بالدّين وشعائره يبيّن في الآيات الآتية أسباب كراهيتهم للمسلمين، وعقاب الله لهم.

الخطاب موجه لرسول الله ﷺ يقول لأهل الكتاب ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

هل غير هذا الإيمان من جانبنا بالله وبالقرآن الذي أنزل الله لهذه الأمة وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا عليكم، هل غير هذا من سبب لهذه الكراهية البادية منكم لنا. نحن آمنا بالقرآن وصدقنا أنه الحق وأنه نزل من عند الله وأننا نعمل بما فيه نحل حلاله ونحرم حرامه ونهتدي بهديه وأنتم كذبتم ولم تؤمنوا ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قل لهم يا محمد هل أخبركم بشر عقاب جازى الله به عباده العصاة، شر عقابه ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ وأنتم ملعونون فقد قال الله فيكم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨] ولعنكم بقوله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴾ [سورة المائدة، الآية ١٣].

وقال عنكم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

---

(١) المستدرك: ٢/ ١٩٩.

﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأنتم مغضوب عليكم بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٦١].

شر عقاب أصابه (اللعنة وهي الطرد من رحمته) وغضبه عليكم ومن غضب عليه الله فقد (هَوَى) وسقط فلا رفعة ولا حياة. ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وأنتم مسخكم الله قردة حين اعتديتم في السبت الذي أمرتم بالطاعة فيه فصدتم السمك فيه، وجعلكم خنازير وعبدة للشيطان بالعجل والأصنام والمال، وغير ذلك فأنتم بهذا الذي حل عليكم من الله أنتم في شر منزلة وشر مكان وشر مقام، فأنتم أبغض الخلق إلى الله تعالى وهل بعد ذلك عقاب.

وقال تعالى عنكم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ ﴾[البينة: ٦].

ومن صفات هؤلاء اليهود إلى جانب ذلك النفاق والمخادعة فقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾.

هذه صفاتهم إذا لقوا المؤمنين قابلوهم بالبشر والترحاب الظاهري والقلوب نحو المسلمين تقطر دماً عليهم وحقداً. وكذلك فعل بنو النضير مع رسول الله ﷺ وأصحابه عندما جاءهم ليأخذ دية القتيلين فرحبوا به وأجلسوه وتآمروا على قتله وطلبوا من يلقي عليه حجراً فجاءه الخبر من السماء فقام ثم أجلاهم. وقدموا له الطعام في خيبر وهو مسموم.

﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾لم يكن في قلوبهم إيمان ولكنها عامرة بالكفر فدخلوا عليكم بالكفر وخرجوا به لم يتغيروا ولم يتبدلوا ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ فهم مرصودون من الله وتحت إحاطته.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝٦٣ ﴾

أكثرهم يسارع في فعل ما يوجب الإثم، كقولهم للرسول ﷺ ﴿ رَٰعِنَا ﴾(السام عليك). ويسارعون في شتم المسلمين والتشبب بنسائهم ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ هم معتدون ولا يعتدي عليهم. ويسارعون في أكل كل مال حرام ولا يبالون في ذلك فقد حَرَّفوا التوراة وباعوها وأكلوا ثمنها وحرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس غشاً وخداعاً هذه هي أخلاقهم، وهذه هي حقيقتهم.

أين الربانيون والأحبار علماء اليهود والموحّدون منهم؟ لم لا ينهون هؤلاء عن هذه المفاسد وعن قولهم الكلام الذي يأثمون فيه؟ وأكل المال بالباطل والمحرم لولا ينهونهم عن ذلك!! ولكنهم لم يفعلوا فلهذا حلت عليهم اللعنة لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس الصنيع صنيعهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- هناك أهل سعادة أراد الله بهم خيراً فردهم عن طريق الشر الذي ساروا فيه إلى طريق النعمة التي أرادها لهم. فمثال أبي محذورة كمثال عمر بن الخطّاب ذهب ليقتل النبي ﷺ، فأُخبر أن أخته أسلمت فذهب إليها وضربها ثم أسلم. وحمزة ﷺ أخذته الحميّة لابنِ أخيه رسول اللهِ ﷺ لمّا آذاه أبو جهلٍ فنتقم لابن أخيه، وأعلن أنه على دينه.

٢- الكراهية قائمة بين من يعصي الله ويطيع الله، وبين اليهود والمشركين من جهة وأهل الإيمان وهي عداوة لا تنتهي حتى تقوم الساعة، ولا بد من تذكر ما جرى بين ابني آدم وقول الله:
﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨٢].

٣- وقوله عز وجل ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٤- الحديث يقول: (الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها أئتلف وما تناكر منها أختلف)[١].

(١) البخاري ١١/ ٤٩٥.

المقطع السادس عشر: سبّ اليهود للمولى عزَّ وجلَّ:

يتواصل الحديث عن أهل الكتاب وفسادهم. وكراهيتهم للمسلمين، والآن يأتي تطاولهم على الحق بالشّتم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤-٦٦].

يخبر الله تعالى: أن اليهود لعنهم الله وصفوه بالبخل تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً – وقالوا يد الله مغلولة، كناية عن عدم العطاء. فرد الله تعالى عليهم بدعوة أصابتهم جميعاً. قال تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (فلا تخرج من بين أيديهم رحمة ولا عطاء، فهم أبخل الناس وأجبنهم في إخراج المال والبذل ﴿ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ بهذا القول القبيح طردهم الله تعالى من رحمته. ثم يبين سبحانه عطاءه فقال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ بل عطاؤه ممتد، ويداه بالإنفاق مبسوطتان ليلاً ونهاراً، ينفق كيف يشاء.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال: إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء[1] الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه قال وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الغيض أو الفيض يرفع ويخفض وقال يقول الله تعالى: أَنفق أُنفق عليك)[2].

(١) السح: الصب الكثير. الفيض: النقص.

(٢) البخاري: (٦٩٧٦).

عطاءه لم ينقطع وما في يده لم ينقص منذ خلق السموات والأرض وهو تعالى يأمر بالإنفاق وينهى عن البخل، ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾[الحديد: ٧]. ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾[سبأ: ٣٩]. وينهى عن التقتير والتبذير ويقول: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أن إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ نعمة، من أجل النعم يرفع الله به شأن هذه الأمة وشأن حاملي هذا الكتاب منزلة ومقاماً في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنبياء: ١٠]، وقال ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[(١)]، وقال: (إنّ للهِ أهلين من النّاسِ)، قِيل: مَن هُم يا رسول اللهِ؟ قال: (أهل القرآن هم أهل اللهِ وخاصّتُه)[(٢)] فهي خيرية وشرف لحامل القرآن بشهادة الرسول الكريم وقوله هذا القرآن الذي يعرف اليهود قيمته ومنزلته، زاد كثيراً منهم حقداً وحسداً لهذا الرسول ولهذه الأمة، جاوزوا به الحد طغياناً وجاوزوا به الحد كفراً. ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾.

وكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة، لهذا ألقى بينهم العداوة والبغضاء، فلا تأتلف قلوبهم ولا تجتمع أرواحهم فهم في فرقة وشتات ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤] ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[المائدة: ٦٤].

يبين الله تعالى: أنهم دعاة فتنة وأصحاب كيد ومكر، ومشعلوا الحروب فما دخلوا

---

(١) البخاري: (٤٧٣٩).

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٢٨.

في مجتمع إلا فرقوا أهله ومزقوه، فهم لا يأمنون إلاَّ وسط افتراق الناس وتمزقهم، فعاشوا في المدينة بين الأوس والخزرج وقد مزقوا القبيلتين وباعوا السلاح في هذا الجو وأثروا، فالحروب سوق تجارتهم، وراحة أنفسهم، ومكان أمنهم، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله وأبطل كيدهم، ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ هم أسباب الفساد في الأرض هم الذين نشروا تعري النساء وبيع الخمر وموائد القمار، والربا ... واللواط وغيرها من الموبقات.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فهو سبحانه وتعالى يبغضهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- بعد تعديهم على المولى جل وعلا، فلن يتورعوا عن التعدي على مَن دونه من الخلق، فلا كبير ولا عظيم عند اليهود.

٢- العالم الإسلامي والعربي يُمزّق الآن بفعل اليهود والنصارى، وتعدّيهم على المسلمين والعرب حكّاماً وشعوباً.

٣- أوصى الله عز وجل هذه الأمّة أن تعتصم بكتابه وتجتمع عليه، قال عز وجل: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[آل عمران: ١٠٣]. بعد محاولة اليهود تمزيق شمل المسلمين في المدينة نزلت هذه الآية.

٤- جهل أهل الكتاب بالدين جعلهم أبغض الناس إلى الله.

٥ - تكذيبهم الرسل صفة دائمة فيهم، وهي سبب تعاستهم، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

رحمة الله ونعمته مربوطة بتقوى الله وإقامة شرعه فمن فعل ذلك فالغنى والنعمة والرحمة تنزل عليه.

المقطع السابع عشر: لو أنهم آمنوا:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

أهل الكتاب - باعتبار علمهم بهذا الرسول الموصوف في كتبهم، وحدثتهم به رسلهم، ورأوه عياناً - هؤلاء مع هذا العلم الوفير عن الرسول والدين والمؤمنين لو آمنوا وخافوا الله واتقوه لكان الخير الذي ينتظرهم جزاء الإيمان والتقوى عظيماً؛ لكفَّر الله عنهم سيئاتهم - وما أعظمها - ولأدخلهم جنات النعيم، ولكنهم أبوا فحرموا هذا الخير. ولو أنهم - قبل مجيء رسول الله ﷺ - وعندهم التوراة والإنجيل فأقاموهما وما تبعهما من أحكام متنزلة من عند الله لو أقاموا ونفذوا ما فيهما من أوامر ونواهي وأحلوا ما أحلتا وحرموا ما حرمتا لأغدق الله عليهم النعمة فبسط رحمته غيثاً يعم الأرض فتنبت فتخرج الأرض من باطنها من البقول والخير وهو ما تحت أرجلهم، وتثمر حدائقهم الفواكه والثمار، فأكلوا من فوقهم، ولكنهم أجرموا ولم يفعلوا ولو فعلوا لذاقوا من النعم ما لم يكن لهم في حسبان، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

عن زياد بن لبيد، أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: (وذلك عند ذهاب العلم) قال: قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: (ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشي؟)[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٨٤٠٣).

فالتوراة والإنجيل العمل بهما معطل، فلم ينتفعوا بهما، مع هذا في أهل الكتاب أمة ﴿ مُّقۡتَصِدَةٞۖ ﴾ معتدلة وسطية في دينها لا تفريط ولا إفراط بين بين ولكن الأكثر منهم فاسقون.

المقطع الثامن عشر: عصمة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧-٦٩].

بعد الحديث عن الاستهزاء بالدّين وشتم الله عز وجل يأتي الحديث لرسول الله ﷺ أن يُبلّغ الرسالة مهما وجد في طريقه من إساءات وتجريح. فالنبي والمسلمون عندما هاجروا إلى المدينة ونجوا من كيد كفار قريش بعثت قريشاً تهديداً للمسلمين. أن لن تنجوا منا حتى لو وصلتم المدينة وكذلك هددوا الأوس والخزرج لأنهم آووا المسلمين. فلهذا كانوا لا يبيتون إلا في السلاح. لهذا روى أن عائشة رضي الله عنها قالت أن رسول الله ﷺ بات ليلة وهي إلى جنبه قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: (ليت رجلاً صالحاً يحرسني الليلة) قال فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال: (من هذا؟) فقال: (أنا سعد بن مالك) فقال: (ما جاء بك؟) قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت فسمعت غطيط رسول الله ﷺ[1].

هذا الدين الذي جاء الكتاب منزلاً به، كل أوامر الله ونواهيه طلب من رسوله أن يبلغها للناس، كل الناس، فإن لم يفعل النبي ﷺ ما أمر به من بلاغ خوفاً من أحد، أو جماعة أو تهاوناً – وحاشاه – فما بلّغ الرسالة ولا أدى ما أمر به، والله يضمن لرسوله ﷺ (العصمة) فلا تمتد إليه

(١) صحيح مسلم: (٢٤١٠).

يد بقتل ولا تمتد إليه يد بضر فهو آمن بحراسة الله له، سالم برعاية الله له، فليمض وقد تحققت العصمة له ﷺ.

حين كان في غزوة ونام تحت شجرة علق عليها سيفه فجاء أعرابي وأخذ السيف وسله ثم أيقظ الرسول ﷺ والسيف مسلط وقال له: (من يعصمك مني؟) قال ﷺ (الله) فوقع السيف من يده وسقط الأعرابي على الأرض مبهوتاً، ونادى رسول الله ﷺ أصحابه وأراهم الأعرابي ساقطاً على الأرض والسيف بجانبه عاجزاً أن يقتل رسول الله ﷺ. تحقيقاً لعصمة الله له.

ووضعت اليهودية له السم في ذراع البهيمة الأيمن في خيبر، ونجا منه لأن الذراع أخبره أنه مسموم ونجا من محاولة سحر لبيد بن الأعصم له.

إن الله لا يهدي الكافرين الذين لم تقنعهم آيات الله في الكون، والقرآن ليؤمنوا فهم ضالون عنه الطريق ولن يهتدوا إليه.

والرسول ﷺ لو كان كاتماً شيئاً لكتم قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ولكتم: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[الأحزاب: ٣٧]. ولكتم: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[عبس: ١-٢].

ولكنه ﷺ بلغ في غير توانٍ ولا حرج، حتى أشهد أمته في حجة الوداع، على أنه بلغ وشهدوا له. قال: (أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: (اللهم هل بلغت) ثلاثة مرات[1].

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (أيها الناس أي يوم هذا؟) قالوا: يوم حرام قال: (أي بلد هذا؟) قالوا: بلد حرام. قال: (وأي شهر هذا؟)

---

(١) مسلم ١/ ٣٩٧.

قالوا: شهر حرام، قال: (فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) ثم أعادها مراراً ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال: (اللهم هل بلغت؟) مراراً. قال يقول ابن عبّاس والله لوصية إلى ربه عزّ وجلّ - ثم قال: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)(١).

وظل كذلك رسول الله ﷺ يؤدي رسالة ربه محروساً من أمته حتى نزل عليه قوله في هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ عند ذلك أخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، وقال لحراسه (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عزّ وجلّ)(٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فعلى الرسول البلاغ، أما الهداية فمن الله، والله لا يهدي القوم الذين اختاروا طريق الكفر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ من أكبر الشواهد والدلائل على قدرة الله تعالى، وصدق الآية في حماية النبي ﷺ، وأن يمشي بين الناس بلا حرسٍ ولا رقيبٍ إلاّ الله، ولهذا باءت كلّ محاولات قتله بالفشل، وحماه الله تعالى وهو نائم، وحماه وهو يجاهد، وحماه وهو يدخل دور الأعداء.

٢ - والآية تذكر بحماية الله لإبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا تحرقه، وحمايته لإسماعيل عليه السلام وأبوه يمرّر السكين على حلقه فلا تذبح، وكذلك يُنجي الله المؤمنين.

٣ - ﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أي لستم على دين أو على هدى مالم تنفذوا مافي التوراة والإنجيل والتوراة والإنجيل يأمرانهم بإتباع هذا النبي وهذا الدين ومن لم يتبع فلن يقبل منه دين والله يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٢٠٣٧).

(٢) الترمذي، جـ١٠، حديث رقم (٣٠٤٦).

بعد أن أُمر الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة، وبلّغ الرسول ﷺ يأمره ربّه أن يقول لأهل الكتاب

بين الله تعالى في آخر سورة النساء كفر من فرق بين الله ورسله واتبع بعضاً وترك بعضاً. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾[النساء: ١٥٠-١٥١].

والآن يخاطب أهل الكتاب الذين كفروا برسول الله وكتابه وأبوا أن يؤمنوا به ويتبعوه، يقول: لستم على دين، ولا على منهج ولا تقولوا أنكم أتباع موسى وعيسى حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم، فإقامة التوراة والإنجيل إتباع ما فيهما من وصف هذا النبي ﷺ وإتباع منهجه وما أنزل عليه من قرآن للهداية، ويؤكد الله أنّه أنزل القرآن على محمد ﷺ، الذي أكرم الله به العرب لغة وأمة، هذا القرآن يزيد أهل الكتاب طغياناً وتكبراً وحقداً على هذه الأمة المصطفاة المختارة، فلن يؤمنوا ولن يستجيبوا، فلا تأس ولا تحزن على من كفر، فهم كافرون.

ويؤكد الله تعالى جزاء من آمن بالله ووحده واتبع الرسول الذي أرسل إليهم، وآمن باليوم الآخر بعثاً بعد الموت، للجزاء، وعمل في هذه الحياة الصالحات من صلاة وصيام وحج وبر للوالدين وغيرها من الصالحات من كل الملل من أمة محمد ﷺ ومن ملة اليهود في عهد نبيّها موسى عليه السلام والنصارى في عهد نبيّها عيسى عليه السلام والصائبين في عهد نبيّها، واتبع محمداً ﷺ بعد مجيئه ومنهجه فلا دين بعد ظهور محمد ﷺ إلا الإسلام ومن اتخذ ديناً غير الإسلام لن يقبل منه، هؤلاء الذين آمنوا لا خوف عليهم عند الموت مما هم مقدمون عليه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على من فارقوا من الأهل والأموال والأولاد في الدنيا فالله تعالى وليهم بعدهم وكافلهم.

المقطع التاسع عشر: طبيعة بني إسرائيل

ويحدثنا عن طبيعة بني إسرائيل فيقول: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[المائدة: ٧٠-٧٧].

يحدثنا الله تعالى عن طبيعة بني إسرائيل التي لا تلتزم المواثيق ولا العهود المبرمة معهم والتي أخذها الله تعالى على الاثني عشر نقيباً منهم وغيرهم من الرسل، لم يلتزموا بها ولم يوفوا بما عاهدوا الله عليه، فكلما جاء هم رسول لهديهم إلى طريق الحق والنهج القويم مخالفاً ما هم عليه من الالتواء والتحلل وما تهواه أنفسهم، إما قتلوه وإما كذبوه وأغراهم إمهال الله لهم بعدم تعجيل العقاب لهم فعموا، عن طريق الحق فلم يسلكوه وصموا آذانهم عن سماع الحق ولم يصغوا إليه.

وحسب بنو إسرائيل أن إمهال الله لهم أن ليس وراءه عقاب فزادوا التمادي في التعامي والتصامم، ولكن الله يمهل ولا يهمل وهم تحت رقابة الله تعالى، ورصده – وهو بصير بما يعملون.

هذا هو الموقف الثاني الذي يعرض فيه كفر من ألّهوا عيسى ﷺ، فقد مر قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[المائدة: ١٧].

بين الله تعالى كفر من قال عيسى إلهاً، وبين قدرته في إهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعاً، فبين أن عيسى ﷺ لا حول له ولا قوة أمام قدرة الله إن أراد إهلاكه وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً، فهم في قبضته وقدرته، والآن يعرض نفس المقالة في كفر من قال أن الله هو المسيح بن مريم، ولكن هنا يقف عيسى ﷺ مخاطباً مؤلّهيه قائلاً: اعبدوا الله ربي وربكم، فهو يعترف بربوبية الله له كما هو ربهم سواء بسواء، فهو مثلهم عبد مملوك لله تعالى، وقال أن تأليهه شرك يدخل صاحبه النار، ولن يجد له يوم القيامة ناصراً ينجيه من عذاب الله وعقابه.

ثم يبين كفر الله الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجعلوا عيسى وأمه إلهين والثالث هو الله. وسموا الأقانيم الثلاثة هي الإله، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. وما من إله إلا إله واحد، فالإله لا يتعدد إنما هو واحد لا شريك له، ويتوعد الله تعالى القائلين بذلك، بالعذاب الأليم أن لم ينتهوا عن هذا الزعم.

بهذا تكون السورة قد نفت مقولات بني إسرائيل الثلاثة التي قيلت: فنفت عقيدة التثليث بهذه الآية. ونفت أُلهوية عيسى وقال لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم. ونفى أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقال: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق).

سبحانه الله الحليم، بعد هذا الشرك والكفر العظيم من النصارى وجعل عيسى إلها وثالث ثلاثة وابن الله ويعبدونه من دون الله، يفتح لهم - مع هذا القول - باب التوبة والصفح والمغفرة ليلجوه ويدخلوا منه تائبين مستغفرين، ويبين أنه غفور رحيم، فما أحلم الله وما أرحمه بالعباد.

أفلا يتوبون، وباب التوبة مفتوح قبل أن يولج؟ أفلا يسارعون مستغفرين قبل أن تمضي

الدنيا وتأتي الآخرة، والله تعالى غفور رحيم. فإذا ذهبوا بهذا المعتقد إلى الآخرة فقد خسروا.

قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه رسول مرسل من عند الله ليدعو بني إسرائيل ليعبدوا الله ويوحدوه، سبقه في هذا الطريق موسى، وداود وسليمان وغيرهم، فهو جاء بعدهم، متمماً لما بدؤوا ومجدداً للعهد والدعوة والرسالة، وأمه صديقة... ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم: ١٢] أمه صدقت الملك الذي تمثل لها بشراً وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[مريم: ١٩]، وصدقت حين قيل لها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[مريم: ٢٤-٢٦]، وفعلت وخاطب ابنها الناس وهو في المهد، صدَّقت كل ذلك، ولم تكن إلهاً ولا نبياً ولا رسولاً، لأنها من خصوصيات الرجال.

كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء: ٣٤] فالرجال فضلوا بالنبوة والرسالة والإمامة والتأذين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[يوسف: ١٠٩] ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[المائدة: ٧٤].

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ومن احتاج للطعام فهو بشر كسائر الخلق يأكل ليعيش فإن نفد الطعام فقد الحياة، فما هذه صفة الإله، فالله تعالى ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤]، وليس له أم وليس لله أب ومن أكل الطعام أخرجه فكلها صفات تنفي الإلوهية عن عيسى وتثبت بشريته.

انظر كيف نبين للنصارى الآيات الدالة على بشرية عيسى وأمه، وأنهما ليسا إلهين، ثم انظر كيف ينصرفون عن القول ولا يعيرونه انتباهاً.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾[المائدة: ٧٦].

يعبد النصارى عيسى وأمه راجين منهما النفع والضر، والنبي ﷺ مأمور أن يسأل النصارى: أتعبدون غير الله راجين منه النفع والضرر وهو لا يملك أن يدفع عنكم الضر إذا وقع ولا يملك أن يجلب النفع والخير إذا أردتم إلاَّ الله تعالى هو القادر على ذلك يسمع إذا دعوتموه جهراً ويعلم إذا أخفيتم في صدوركم وعيسى وأمه لا يملكان من ذلك شيئاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

أمر النبي ﷺ أن يقول لأهل الكتاب، لا تغلو في دينكم وتبالغوا حتى تتجاوز الحق إلى الباطل بتعظيمكم أمر عيسى حتى أخرجتموه من بشر إلى إله، ورفعتموه فوق ما وضعه الله تعالى فكفرتم بهذا الفعل، وكذلك ما فعله اليهود بعزير فقالوا هو ابن الله... كل ذلك غلو وتجاوز، ولا تتبعوا في ذلك أسلافكم الذين سبقوكم في هذا الطريق ضالين، فضللتم بضلالهم كما ضل أسلافكم بضلال من سبقوهم فخرجتم من الطريق السوي المستقيم. ولهذا كان رسول الله ﷺ يخشى على أمته أن تبالغ بتعظيمه فتخرجه من بشريته إلى الإلوهية فقال في آخر أيام قبل وفاته: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما عبد فقولوا عبد الله ورسوله)[1].

وقال: (لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألاَّ لا تتخذوا قبري وثناً ...)[2].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - فلا بد من حساب ولا بد من عقاب لكل جريمة، فالله يمهل ولكنه لا يهمل، ليتوب العباد وإلا فالعقاب قائم.

٢ - دلائل بشرية عيسى كثيرة، وكونه عبداً لله لم ينكره عيسى ؏، ولكن عقول أهل الكتاب لا تقبل المنطق، وإنما يعيشون على ما ورثوه من آبائهم.

---

(١) البخاري: (٣٢٦١).

(٢) البخاري: (١٢٦٥).

٣ - الغلو مضر، لقد أراده بعض المسلمين ليزدادوا في العبادة فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: (فإنّ المُنبتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)[1].

٤ - ومن غلو أهل الكتاب الحرية المفرطة، في السلوك والأخلاق والعلاقات، فأفسدوا المجتمعات التي يعيشون فيها، والحرية عندهم لا حدود لها، حتّى أنهم يدخلون في حدود الآخرين فيسيئون إليهم ويعتدون على مقدسات غيرهم.

المقطع العشرون: لعنة الأنبياء على الكفرة من بني إسرائيل:

لم تجـد الأقوال لتمنع بني إسرائيل عـن التعدي على حدود الله والشرك، فجاء الجزاء لعنة الأنبياء عليهم

فقـال تعـالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١].

الكفرة من بين إسرائيل من قديم عرفوا بالعصيان والتعدي على الآخرين، فمعصيتهم لله كثيرة، عدَّدها الله تعالى في هذا الكتاب، وكذلك تعديهم على الله بالشتم والسب، وعلى الأنبياء والملائكة، وعلى مريم وابنها، وعلى كل صالح وخيِّر، وعصيانهم أوامر الله تعالى وأوامر رسلهم بدءاً من موسى وهارون حتى كادوا أن يقتلوا هارون عندما نهاهم عن عبادة العجل في غياب أخيه النبي موسى عليه السلام. فقال هارون لموسى ﴿ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٥٠] لهذا ظل العناد

(١) سنن البيهقي حديث رقم ٤٥٢٠.

والعصيان والتعدي خلتهم الذي جبلوا عليها، فتخلى عنهم موسى عليه السلام وقال لربه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ ﴾ [المائدة: ٢٥]، وكادوا أن يقتلوا عيسى عليه السلام فرفعه الله، ولهذا لعنهم داود عليه السلام ولعنهم عيسى من بعده.

وبنو إسرائيل يرون من يستحل محارم الله، وينتهك الحرمات، ويعيث في الأرض الفساد فلا ينهون عن ذلك، بل يجالسون من يفعل ذلك ولا يستحيون، فلهذا لعنهم الله.

قال رسول الله ﷺ قال: (أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)[1].

وعندهم مع أهل الكفر والفسق، التقاء في التفلت والانحلال والعصيان، ولهذا يتولى بنو إسرائيل كل فاسق وكافر ومجرم، يعينونه ويناصرونه. بهذا الفعل سخط الله عليهم وغضب، فعاشوا في عذاب النفس في الدنيا وأعدّ لهم في الآخرة العذاب الأليم السرمدي.

فلذلك أمرنا رسول الله ﷺ ألا نكون كبني إسرائيل فقال:-

(والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)[2].

وقال: (من رأى منكم منكراً ليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[3].

ولو كان بنو إسرائيل مؤمنين بالله موحدين له، وبالنبي ورسالته والقرآن المنزل على هذا

(١) سنن أبي داود، جـ١٢/ ٤٧٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥١/ ٢٤.

(٣) مسلم، جـ١/ ٦٩.

النبي، والذي هو مصدق لما معهم، ما اتخذوا الكافرين والفسقة أولياء من دون المؤمنين. ولكن كثيراً من بني إسرائيل فاسقين خارجين عن طاعة الله وعصاة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - هكذا عجز أنبياء بني إسرائيل عن التعايشِ معهم وعن هدايتهم، فموسى عليه السلام سأل الله أن يفرق بينه وبين بني إسرائيل، ولعنهم داود وعيسى عليهما السلام.

٢ - مسخهم الله تعالى قِردةً وخنازير.

٣ - قطّعهم الله تعالى في الأرض، وحرمهم نعمة الوطن والانتساب إليه، فلذا انتزعوا فلسطين من أهلها في محاولةٍ لإيجاد وطنٍ لهم، والله وعد أن ترجع فلسطين إلى أهلها.

٤ - توعّد الله تعالى بني إسرائيل بأن يسلّط عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة، وآخر من عذّبهم (هتلر).

المقطع الحادي والعشرون: من يوادّ ويعادي أهل الإيمان:

بعد أن بين الله تعالى من لعن اليهود من الأنبياء يبين الله تعالى في الآيات الآتية من يوادّ ويعادي المؤمنين وجزاء كلٍّ قال: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[المائدة: ٨٢-٨٦].

سبب النزول:

روى القرطبي بسنده عن عروة بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه، وروى الطبراني عن ابن عبّاس نحوه[1].

يكشف الله تعالى لهذه الأمة حقيقة ما في قلوب اليهود والمشركين من عداوة وبغضاء لأهل الإيمان من هذه الأمة، اليهود يبغضون هذا الدين وهذا النبي الكريم وهذه الأمة بغضاً شديداً. يقول صاحب كتاب الرحيق المختوم:

(عندما قدم النبي ﷺ مهاجراً إلى قباء ذهب إلى لقائه ورؤيته حيي بن أخطب زعيم بني النضير وأخوه أبو ياسر، فلما رأياه وعادا في المساء إلى المدينة تقول السيدة صفية أم المؤمنين قاصة هذه القصة: لما قدما في المساء قال عمي أبو ياسر لأبي حيي ... أهو هو؟؟ يعني أهو النبي الموصوف في كتبنا؟ قال حيي لأخيه: نعم هو هو ... قال أبو ياسر لحيي بن أخطب: فما موقفك منه؟ قال حيي: عداوته ما حييت!! وصدق الخبيث فقد ظل من تلك اللحظة عدواً للإسلام وللمسلمين ولرسول الله ﷺ، وهو الذي كان يدير العداوة ويؤلب الخصوم ويشعل نار الفتنة، كان يصل قريشاً محرضاً على القتال. وهو الذي جاء بعشرة آلاف مقاتل من كل القبائل العربية وقريش، ومجموعة اليهود الذين أجلاهم النبي ﷺ بعد غزوتي بدر وأحد ... وأجبر قبيلة قريظة بنقض عهدها مع النبي ﷺ والدخول مع الجيوش لاجتثاث الإسلام حتى أقنعهم في نقض عهدهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ولما انتهت غزوة الأحزاب بنصر الله للمسلمين وحوصرت بنو قريظة قبض حيي معهم. وحوكم بالقتل، وفي طريقه لقطع رأسه مر برسول الله ﷺ وقال: والله ما لمت نفسي في عداوتك أبداً. ولكن مَنْ يغلب الله يغلب، لا بأس قضاء كتبه الله على بني إسرائيل، ثم قتل[2]!!

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٧٢.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٩١.

هذه هي العداوة في اليهود. أما عداوة المشركين فيكفي قول أبي لهب لابن أخيه رسول الله ﷺ على الصفا والدعوة في بداية الجهر بها (تباً لك ألهذا جمعتنا؟).

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ والآية تبين أن في النصارى أتباع عيسى والذين هم على منهجه بأنه عبد الله ورسوله رقة ومودة لأهل الإسلام، وخير مثال لذلك ما قاله النبي ﷺ للمسلمين عندما اشتد عليهم أذى مشركي قريش (إن بالحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد. فلو هاجرتم إلى الحبشة)[1] شهادة من رسول الله ﷺ للنجاشي الذي كان نصرانياً حين هاجر المسلمون إلى أرضه وحماهم من مشركي قريش ووجدوا عنده وفي أرضه الأمن والأمانة وعاشوا في أرضه سنوات وأسلم هو أخيراً.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يشهد الله لهم بأن القسيسين لا يتكبرون، وإنما من شيمتهم التواضع وكذلك رهبانهم وهم العباد.

وهذا الذي قاله الله تعالى عن هذه الفئات هو القائم الآن. فاليهود لا تجف الأرض الآن من الدماء التي يريقونها من المسلمين، وكذلك بقية المشركين من الطوائف التي تدعي الإسلام نفاقاً وتؤذي المسلمين. والنصارى الآن طوائف فبعضها يدعي أن عيسى عبد الله ورسوله وهم الأقرب للمسلمين مودة ومعاشرة، وبعضهم من قال المسيح ابن الله ومن قال ثالث ثلاثة ومن هو الله، أولئك الآن أشد عداوة للإسلام والمسلمين.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

هذا موقفهم إذا سمعوا القرآن، أحدث فيهم تأثيراً فذرفت منه أعينهم دموعاً بكاءً من حلاوة ما سمعوا وصدق ما قال الله ونطقوا داعين الله وقائلين ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

ويقولون: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

(١) انظر مختصر السيرة، ص٦٢، والرحيق المختوم، ص٨١.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ما لنا لا نؤمن والشواهد والأدلة حاضرة، والبراهين شاخصة في السموات والأرض دالة على الله ووحدانيته وشاهدة قدرته، وما لنا لا نؤمن بهذا القرآن الحق والناطق بالحق، ونطمع ونتعشم أن يدخلنا ربنا مع الصالحين - جازاهم الله تعالى على هذا القول الطيب، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وهذا الجزاء هو جزاء المحسنين، المحسنين العمل والمحسنين القول والمحسنين الإيمان ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وأما الذين كفروا ولم يؤمنوا، وكذبوا بآيات القرآن والآيات الكونية أولئك أصحاب الجحيم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - ليس اليهود كلهم شر ولا النصارى كلهم شر. ففي بعضهم خير، رغم اختلاف العقيدة والتوجه، والله تعالى يقول: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ولوجود هذه الفئة جاز مصاهرتهم ومعاشرتهم.

٢ - الله تعالى يقول: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

المقطع الثاني والعشرون: النهي عن الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

أسباب النزول:

روى ابن جرير بسنده(١) عن ابن عبّاس: أن هذه الآية نزلت في رهط من الصحابة منهم عثمان ابن مظعون قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم فقال ﷺ: (لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء. فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني)(٢).

هذه الآيات تتحدث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ حين جاءوا إلى السيدة عائشة وسألوا عن عبادة رسول الله ﷺ، فتقالّوا ما يعملون فقرروا أن يزيدوا في العبادة.

والرفعة في الدين ليس بكثرة العبادة وإنما بالإخلاص فيها فالمولى عز وجل يقول﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فلنحسن العمل ولتجوده ففيه الخير. ودخل الجنة قوم بعمل قليل، وقلب خالٍ من الأحقاد.

فرجعوا عمّا أرادوا، وتركوا الغلو في الدين والتشدد فيه.

وقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾. لا تحرموا الطيبات مما يؤكل أو يشرب أو يلبس أو ينكح طالما كانت من الطيبات ومما أحل الله تعالى، ولا تعتدوا على ما أحل الله فتحرموه فتؤثموا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يبغضهم، ولا يحبهم. ومن حرم على نفسه

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥١٨ .

(٢) البخاري: (٤٧٧٦).

شيئاً من ذلك فليرجع عنه ولا كفارة عليه عند كثير من العلماء ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

اتقوا الله وخافوه، فالتقوى أعظم زاد وأرفع منزلة عند الله تعالى اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، بها ترفعوا وليس بزيادة العبادة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله المسلمين عن الغلو في الدين، وهذه الآية خير شاهد على ذلك وأمرنا أن نكلف من العمل ما نستطيع.

٢ - نهى رسول الله ﷺ عن الغلو فقال: (إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فإنّ المُنبتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)[١].

٣ - قال ﷺ: (القصد القصد تبلغوا)[٢].

٤ - وقال ﷺ: (إنّ من بعدي من أمّتي قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدّين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شرّ الخلق والخليقة)[٣].

(١) سنن البيهقي الكبرى ٤٥٢٠

(٢) نظم الدّرر: ٢/ ٤٥٤.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٨.

المقطع الثالث والعشرون: اليمين وكفارتها:

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المائدة: ٨٩].

اللغو: الكلام الذي لا عزيمة عليه ولا نية فيه. فهذا لا يؤاخذ ولا يحاسب الله قائله، فوالله لتأكلن والله لتركبن والله لتفعلن كذا هذا لا حساب عليه عند الله تعالى ولكن اليمين المنعقدة التي فيها تأكيد الفعل والجد بما قال، هذا ما يحاسب الله عليه خاصة وأنه مرتبط بآخرين، أصبح الوفاء بها واجباً وأن نكث فمحاسب ولهذا رتب العقوبات (إطعام عشرة مساكين من أوسط من تطعمون أهليكم من طعام ما عليه عامة أهل البلد، وعامة ما يأكل الناس وجبة واحدة لكلٍ، أو يجمعهم على إناء واحد وهم عشرة) أَوْ ﴿كِسْوَتُهُمْ ﴾ ما يستر العورة، يكفي القميص، ويكفي السروال وتكفي العمامة عند العلماء، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ والرقبة المملوكة الآن موجودة في بعض البلاد كموريتانيا، ولكنه ملك محرم دولياً وغير معترف به. فحقوق الإنسان والمنظمات العالمية ترفض ذلك ولا تقره، والإسلام نفسه لا يقره ولقد وجده وحلل المجتمع منه لأنه من أمور الجاهلية.

وأخيراً إن لم يجد مايطعم به المساكين أو يكسوهم به أو يشتري به الرقبة ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾.

وفي الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة نفع للمسلمين فهو الخير فإن لم يجد﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾متتابعات في أغلب أقوال العلماء، ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾ الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة والصيام كفارة أيمانكم، لا كفارة لها إلا بذلك ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ فلا تحلفوا، وإن حلفتم فاحفظوها بالكفارة. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هكذا بين الله تعالى تفاصيل هذه الكفارات رحمة بهذه الأمة لعلها تشكر ربها على هذا الفيض من النعم

والعناية والتخفيف، يرفع عن كاهلها ثقل الذنوب والمعاصي لتعود إليه خالية من كل ذنب. هذا حكم الأيمان وكفاراتها

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١) من نعم الله على العباد أن جعل الكفارات لبعض المعاصي تعود على فقراء المسلمين بالخير إطعاماً وكساءً وفيها مخرج للمسلمين للتحلل من أيمانهم، فكفارة اليمين إطعام للمساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، كله يعود على المسلمين بالخير.

٢) الكفارات مرتبة تبدأ بالإطعام ثم الكسوة ثم تحرير الرقبة ثم الصيام.

المقطع الرابع والعشرون: خمس محرمات:

والآن مع القرآن تشريع جديد وحكم جديد للخمر والميسر والأنصاب والأزلام والصيد، وتتميماً لما سبق من تحريم حكم السرقة والحرابة والزنا.

بعد اليمين التي يكفر عنها صاحبها يدخل فيما هو أشـدّ تحريماً وأكثر ضرراً، ويحرّم الخمر والاعتداء على قتل الصيد وهم حُرُمٌ ويبين ما أحلّ لهم

فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾[المائدة: ٩٠-٩٦].

ذكر الله تعالى في هذه الآيات أربع مفاسد من مفاسد الجاهلية أراد الله لهذه الأمة أن تتخلص منها في الإسلام الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وبدأ بالخمر، وفي هذه الآية تحريمها الأبدي بعد أن تركها الإسلام مباحة منذ بدء الرسالة إلى ما بعد الهجرة بسنوات، وسبق تحريمها النهائي تضيق في كميتها وزمان شربها. وبدأ الحديث عن الخمر بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة: ٢١٩] دعت الآية الناس للتوازن بين الإثم الكبير والمنفعة ولم يحرمها، ثم صلوا وهم سكارى وقرؤوا القرآن في الصلاة قراءة خاطئة، فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء: ٤٣]. فضيقت أوقات الشرب وكمية المشروب، إذ أن بين الظهر والعصر لا يستطيع أن يشرب وإلا أتاها وهو سكران، وكذلك لا يستطيع أن يشرب بين العصر والمغرب لضيق الوقت، ولا يستطيع أن يشرب بين المغرب والعشاء، ولا بعد العشاء لأنه إن شرب ونام بها شرب قام كما نام سكراناً، فلذا كان عليه أن يقلل إن أراد أن يشرب وينام، والوقت الذي فيه فسحة بين الصلاتين هو بعد الفجر إلى الظهر وهو وقت المعاش والكسب، ولذا إذا شرب يقلل حتى يستطيع الكسب ويعيش أولاده. ثم جاء التحريم أخيراً وقد سبقته تلك الضوابط فأمكن أن يتخلوا عن الخمر. وعندما جاء وفد عبد القيس في العام العاشر مبايعاً. طلبوا أن يسمح لهم رسول الله ﷺ بقليل من الخمر يشربونه فأبى، وحرَّم عليهم حتى الأواني التي يصنعون فيها الخمر فقال: (وأنهاكم عن الدَّباء، والحنتم والنقير والمزفَّت) والمراد لا ينبذ في هذه الأواني الأربعة[1].

والميسر القمار. كسبه يورث الحقد بين الغالب والمغلوب وكثيراً ما أدى إلى القتل فلذا نهوا

---

(١) البخاري: (٥٣).

عن الخمر والميسر.

وأضاف إليها العلماء (النرد) وهو الطاولة لما ورد فيه من أحاديث موقوفة فحرمه العلماء وإن كان في الأحاديث ضعف، قياساً على الميسر.

والأنصاب هي الحجارة الموضوعة حول الكعبة والتي كانوا يذبحون عندها تعظيماً للآلهة ولا يذكرون الله على ما يذبحون. والذبح عندها عبادة وقربى للآلهة، ويلطخون الأصنام بدم الذبائح ويشرُّون اللحم عليها. فنهوا عن ذلك.

والأزلام ثلاثة قداح مكتوب فيها (افعل) (ولا تفعل) وآخر لا كتابة عليه فمن أراد السفر أو الزواج أو البيع أو الشراء استخدم الأزلام، فادخل يده في الكيس الموضوعة فيه هذه القداح فيخرج واحداً فإن كان الذي خرج (افعل) إذا أراد سفراً سافر وإذا أراد بيعاً باع وإذا أراد شراءً اشترى لأن الآلهة أمرته بذلك أما إذا خرج قداح (لا تفعل) ترك ذلك كله. وإذا خرج القداح الذي لا كتابة عليه أعاد من جديد حتى يخرج قدح (افعل) أو (لا تفعل). وبالأزلام يعرفون نسب من شكوا في نسبه، وهي كشف للغيب بغير دليل فنهوا عنه.

فالخمر مضيعة للصحة والمال والوقت والدين والأخلاق، ومبعدة عن طاعة الله وفي الآخرة صاحبها في تعاسة وشقاء من ذلك: أن صاحبها والمدمن عليها لا يدخل الجنة لقوله ﷺ (لا يدخل الجنة منّان ولا عاق ولا مدمن خمر)[1].

وصاحبها ملعون: لقوله ﷺ (لعنت الخمر على عشرة وجوه لعنت الخمر بعينها، وشاربها وساقيها، وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها)[2]. وإذا أسكر الكثير فالقليل حرام (وكل مسكر حرام)[3].

(١) سنن النسائي: (٥٦٧٢).

(٢) ابن ماجة: (٣٣٨١).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٢٦٢٠).

ذكر المولى عزّ وجلّ هذه الأربعة من مفاسد الجاهلية آمراً بتركها وسماها ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما الرجس (سخط من عمل الشيطان) وقال زيد بن أسلم الرجس (شر من عمل الشيطان)[1] وأمرنا تعالى باجتنابه وقال ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفي ترك الرجس وهو الشر أو السخط في تركه طاعة لله تعالى واجتناب لما أمر به الشيطان، والشيطان إنما يريد أن يوقع الفتنة بين المسلمين بشرب الخمر ولعب الميسر فإن الأصدقاء يظلون على خير حال، حتى يجتمعوا على شرب الخمر فتنفصم عرى المودة والمحبة بينهم وينتهي الأمر بهم إلى عداوة وخصومة وقتل، وكذلك إذا لَعبوا الميسر فإن قلب المغلوب يمتلئ حقداً على الغالب وربما قتله.

والقرآن يبين بعد هذا التحريم العلة في ذلك:

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. فالعداوة والبغضاء في الخمر والميسر أول ما يحدث بين الإخوان والأصدقاء والجالسين للشراب ولموائد القمار، فإذا شربوا خفت عقولهم وأساءوا القول وتعادوا وقد يقتل بعضهم بعضاً، أما إذا لعبوا الميسر فلا بد من نهاية أليمة لهذا الغلب.

فالعداوة والبغضاء أول ما يجنيه شارب الخمر ولاعب الميسر والإغراء بشرب الخمر ولعب الميسر من الشيطان للصد عن سبيل الله وذكر الله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة: ٩١-٩٣].

والآية تتحدث عن الذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا وهم سكارى، وهي في

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٧.

بطونهم وماتوا وقد أكلوا ثمنها، وكذلك أكلوا مال الميسر ما حكمهم؟ سألوا ذلك النبي ﷺ فجاء الجواب من الله تعالى يبين أنه لا جناح عليهم ولا إثم ولا حرج طالما كانوا مؤمنين أتقياء، وعملوا الصالحات من صلاة وصيام وغيرها ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين، فلا جناح ولا إثم في ذلك لأنه كان قبل التحريم، وتمضي الآيات بعد هذا في ابتلاء الله لعباده ليعلم - علم الواقع من يخافه بالغيب.

في بداية السورة جاء الحديث عن الصيد فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ ﴾ [المائدة: ١].

فأمرهم ألا يستحلوا الصيد وهم محرمون. ثم قال: وإذا حللتم فاصطادوا - في غير الحرم. وأمرهم بذكر الله عند إرسال ما يصطادون به من كلاب أو صقور أو غيرها، فإن أمسكن عليهم أكلوا وإن أمسك الحيوان لنفسه وأكل فلا يأكلون منه.

والآن:

يبين الله للمؤمنين أنه سيبتليهم بشيء من الصيد بعضه من الصغار الذي يستطيع الإنسان أن يقبضه بيده وبعضه من الكبار الذي يحتاج للرماح لصيده وأمرهم ألا يعتدوا على النوعين لا باليد ولا بالرماح. وألاَّ يصيدوا، وأراد المولى بهذا الابتلاء أن يعلم علم الواقع من يطع الله ورسوله فلا يتعرض للصيد ممن يعتدي، فمن اعتدى بعد النهي وصاد فله عذاب.

ثم نهاهم عن قتل الصيد وهم حرم فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[**سورة المائدة، الآية ٩٥**].

واختلف العلماء في مَنْ قتل ناسياً، ومن قتل متعمداً، وأورد ابن كثير أن جمهور العلماء قالوا إن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ولكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم(١).

فمن قتل متعمداً فحسابه - كما عليه جمهور العلماء - الجزاء من مثل ما قتل المحرم إذا كان

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور ٣/ ٩٣.

لـه مثيـل من الحيوان الأنسي. وحكم الصحابة في النعامة ببدنـــه، وفي بقرة الوحشي ببقرة، وفي الغـزال بعنـز ﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ يحكم بهذا الحكم اثنان عدلان من المسـلمين واخرج ابن أبي حاتم بسنده أن أعرابياً جاء لأبي بكر الصديق ﷺ، فقال: قتلت صيداً وأنا محرم فما ترى عليَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر ﷺ لأبي بن كعب وهو جالس عنده، ما ترى فيها؟ فقال الأعرابي: أتيتـك وأنت خليفة رسـول الله ﷺ أسـألك فإذا أنت تسـأل غيرك!! فقال أبو بكـر: وما تنكر؟ يقـول الله تعـالى: ﴿ فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ فشـاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به[1].

وروى الطـبري عـن ابن جرير البجـلي قال: أصبت ظبيـاً وأنا محرم، فذكـرت ذلك لعمر فقـال: إئـتِ رجلين من إخوانك فليحكما عليـك فأتيت عبد الرحمن وسـعداً فحكما عليّ بتيس أعفر.[2]

وروى الطـبري بسـنده عن وكيـع أن (أوطأ أربد ظبياً فقتله وهو محـرم فأتى عمر ليحكم عليـه فقـال عمر: أحكم معي فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشـجر ثـم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) وهذا فيه جواز أن القاتل أحد الحكمين[3].

مع هذا أحل رسـول الله ﷺ جواز قتل خمس سـاهن من الفواسـق. فيما روته عنه عائشـة رضي الله عنهـا: (خمس فواسـق يقتلـن في الحل والحرم: الغـراب، والحدأة، والعقـرب والفأرة والكلب العقور)[4].

وشبهوا الذئب بالكلب العقور فإنه يقتل:

واختلفوا في قتل الغراب وقسموه إلى ثلاثة أنواع (الأبقع) وهو الذي يخالط سواده بياض.

---

(١) ابن ابي حاتم ٥/ ٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤٧.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٥.
(٤) تفسير الالوسي ٥/ ١٣٣.

و(الأدرع) الأسود الكامل السواد (**والأعصم**) وهو الأبيض لما رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، (أن رسول الله ﷺ قال: (خمس يقتلهن في الحل والحرم الحية والفأرة والحدأة والغراب ألابقع والكلب العقور)[1].

وفي رواية (ويرمي الغراب ولا يقتله)[2].

(هدايا بالغ الكعبة) أن يدفع هدياً يصل الحرم فيذبح هناك ويفرق لحمه على المساكين - ﴿ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا لم يجد المحرم مثل الذي قتله من النعم جاء التخيير في الجزاء بين الأطعام والصيام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد أي من قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل إيلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها، أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حمار وحشي فعليه بدنة من الإبل فإن لم يجد، أطعم ثلاثين مسكيناً فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً[3]. ويحرم عليه أكل ما قتل.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ من أعمال الجاهلية.

﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

ومن عاد فقتل في الإسلام فينتقم الله منه مع الكفارة، وقال ابن عبّاس من قتل وحكم عليه، وعاد فقتل لا يحكم عليه، بل يترك لينتقم الله منه.

هذه أحكام الصيد، جعلها الله ابتلاء وقع للصحابة في صلح الحديبية كان الصيد يحوم وسطهم ونجحوا في الامتحان به فلم يتعرضوا له. والآن بعد التحريم بين ما أحله لعباده.

---

(١) البخاري: (٣١٣٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٣/ ١١٢٨١.

(٣) سنن البيهقي ٩٦٨١.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة: ٩٦].

أحل الله تعالى بهذه الآية نوعين من صيد البحر، ما صدتموه، وما قذفه البحر فهما كلاهما حل لكم. أحل الله تعالى صيد ما في البحر طعاماً طرياً تأكلونه وأحله لكم يابساً، وقيل طعامه: (ما قذفه). قال ﷺ: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[1] فما قذفه فهو حل. ويابساً ما كان ميتاً متاعاً لكم مقيمين ومسافرين ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تذكير بأمر الآخرة والحشر والجزاء ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ حرم عليكم أن تصطادوا وأنتم حرم... أما إن اصطاده غيركم من غير إشارة منكم أو طلبه أو أعنتم عليه فهو حلال لقوله ﷺ (صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم)[2].

روى أبو قتادة أنه صاد حماراً وحشياً وكان حلالاً غير محرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال (هل كان منكم من أشار إليها وأعان على قتلها؟) قالوا: لا قال: (فكلوا) وأكل منها رسول الله ﷺ[3].

هكذا تبين أمر الصيد: فهو حلال لكم وأنتم حرم ما لم تصيدوه بأنفسهم، أو تشيروا لمن يصيده لكم، أو يعن على صيده، ومن صاد حكم عليه بمثل ما صاد من الحيوان الأنسي ولا يأكل مما صاد. هذه أرزاق أحلها الله تعالى للمحرم ما لم يصدها - وما دام في ظل الإحرام والكعبة والأشهر الحرم - فالله تعالى يرينا رحمته بسكان الحرم.

---

(١) مسند الإمام أحمد: ١٤/ ٣٤٩.

(٢) أبو داود: (١٨٥١).

(٣) ابن أبي شيبة: ١/ ١٢٢.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - لعن رسول الله ﷺ بالخمر عشراً: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتراة له)[١].

٢ - الأزلام نوع من الكهانة وهو كشف للغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والجاهلية استخدمت أنواعاً لكشف الغيب: كالتّنجيم والعرافة والفنجان وقراءة الكف، ففقد نهى عنها رسول الله ﷺ فقال: (من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمّدٍ ﷺ)[٢].

جعل رسول الله ﷺ الإستخارة في الأمور مكان الكهانة التي أبطلها الإسلام.

٣ - ذهبت الأنصاب وحلّ محلّها ما نواه الذّابح، فإن كان ما قدّمه للذّبح للهِ حلّ أكله، وإن كان غير ذلك فقد حرُم.

٤ - المحرم محكوم بضوابط الإحرام ألا يصطاد وهو محرم ومن فعل ذلك حكم عليه ومن صاد فلا يحاكم إنما يترك لوعيد الله.

المقطع الخامس والعشرون: من نعم الله على العباد:

جاء هذا المقطع مواصلة لما تمّ في المقطع السابق من تحريم الصيد للمحرم وعقابه إن صاد، ثمّ أحلّ لنا صيد البحر، وتلك أرزاق، والآن فتح أبواب رزقٍ أخرى للعباد

فقال تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[المائدة ٩٧-١٠٠].

---

(١) الترمذي: (١٢١٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٩١٧١).

بيّن الله تعالى: أنه جعل الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد جعلها تعالى مصادر رزق للعباد، فالحاج والمعتمر القاصد بيت الله تعالى وحرمه في إقامته بمكة صرف يصرفه على إقامته وأكله وشربه وبيعه وشرائه وفي كل هذا رزق لأهل مكة وللعاملين في الكعبة من سدنتها وخادميها ومديريها. وكذلك في الشهر الحرام الذي يقدم فيه الناس للحج والعمرة فيه أرزاق ونعم لأهل مكة وللمقيمين بها ببيع الهدي والقلائد وللذين يذبحون ويطبخون وفي كل عمل يقوم به أهل مكة رزق ومعايش لهم - رحمة منه بهم فهو يعلم حاجتهم فيكفيهم.

ذلك لتعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة من أمر هذا الكون ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾.

الله تعالى يقول أنه شديد العقاب لمن خالف أمره، مَنْ سرق وظلم وأفسد في الحرم واعتدى في الشهر الحرام والهدي القلائد فعقاب الله شديد لمن قصد الإفساد. ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الحج: ٢٥].

وأن الله غفور رحيم لمن فعل شيئاً لم يقصده فعفو الله حاضر ومعرفته كذلك.

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ فالرسول مأمور أن يبلغكم رسالة الله تعالى فإن فعل فقد أدى ما عليه وعليكم ما حملتم وإثم ما فعلتم ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

يعلم ما أبديتم من قول وفعل ويعلم ما أخفيتم.

وينتقل القرآن - بعد أن بين أنه جعل الكعبة وغيرها قياماً للناس، ليبين الفرق بين الخبيث والطيب من الأرزاق، والأفعال والأقوال.

أمر الله تعالى رسوله أن يبلغ العباد، أن الخبيث كالمحرم من الأموال والأطعمة والمشروبات والملبوسات محرمة لخبثها فهي لا تستوي مع الطيب الحلال المباح. ولو كان الخبيث كثيراً والطيب قليلاً، فالقليل الحلال خير من الكثير الحرام وفي الحديث (ما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى).

وكما قال ﷺ (قليل تؤدي شكره خير من كثيرٌ لا تطبقه) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اتقوا وخافوه يا أصحاب العقول الذين يفقهون قول الله ويتدبرونه ويعملون به ويوازنون بين الخبيث والطيب فيميلون إلى ما فيه نفع الآخرة والدنيا ويتركون ما فيه خبث يفسد الدنيا والآخرة على السواء، اتقوه لعلكم بالتقوى تصلوا إلى الفلاح ودخول الجنة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - من الخبائث التي يمارسها المسلمون اليوم: السجائر والقات والتبغ، وهي إن لم تُحرّم صراحةً فإنّها مستقذرة؛ لما ثبت أن لها علاقةً بأمراض السرطان، وأنها تُؤذي من لم يستعملها برائحتها ومنظرها وضياع الوقت فيها.

٢ - القليل الحلال خير من الكثير الحرام. والنفوس تميل إلى الكثير من الأموال والمقتنيات، ولكن كما قال رسول الله ﷺ (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى عن النفس)[1].

٣ - والكثرة ليست هي الغالبة وليست هي الأفضل وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

المقطع السادس والعشرون: تحريم السؤال عن ما يضرّ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٥].

وتنتقل الآية تتميماً للحديث عن الخبيث والطيب إلى السؤال الملِحّ على الرسول ﷺ،

(١) البخاري: (٦٤٤٦).

والـذي هو من الخبائث، والمكروه عنـد الله تعالى، كما كُرهت مناجاته ﷺ إلاّ بصدقةٍ، ثمّ رفعت الصدقة.

والإكثار من السـؤال لرسـول الله ﷺ هو الذي جعل القرآن يضع حداً لذلك وواضح أنه أغضـب النبي ﷺ. فلذلك نهى الله تعالى عباده أن يسـألوا عن أشـياء ان أجيبـوا عنها وعرفوها سـاءهم ذلك وأضر بهم، وقد كان بعضهم يسـأل النبي ﷺ استهزاء فيقول أين ناقتي؟ من أبي؟ وأكثـروا عليـه فأغضـب النبي ﷺ فصعد يوماً المنبر وقال (لا تسـألوني اليوم عـن شيء إلاَّ بينته لكم) فأشـفق أصحاب رسـول الله ﷺ وخافوا أن يكون لأمر ما قد وقع. فقام رجل فقال: (من أبـي؟) فقـال النبي ﷺ (أبوك حذافة) وكان الرجل يدعى لغير أبيه. فأثبت نسـبه، فقام عمر بن الخطّاب فقال: رضينا بالله رباً وبالإسـلام ديناً وبمحمد رسـولاً، أعوذ بالله من شر الفتن، قال رسـول الله ﷺ (مـا رأيـت في الخير والشر كاليوم قـط صوِّرت لي الجنة والنـار حتى رأيتهما دون الحائط)[1].

إن الإلحاح على النبي ﷺ بالأسئلة مضر، فقد يُحرِّم شيئاً كان حلالاً، أو يوجب أمراً ما كان واجبـاً كـما روى أنـه ﷺ لَـمَّا نـزلت الآيـة ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]. **قالوا**: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت: فقالوا: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقـال (لا ولو قلـت نعم لوجبت، ولو وجبت لما اسـتطعتم)[2] فنزلت هذه الآية ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

في شـأن التحليـل التحريم، يمـضي القرآن في نفي مـا حرمت الجاهلية مـن أنعام أعطتها مسميات من عندها ما أنزل الله بها من سلطان.

وجـاء في بداية قوله محللاً الأنعام إلا ما اسـتثنى فقـال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا

(١) البخاري: (٦٠٠١).
(٢) مسلم: (١٣٣٧).

يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾[المائدة: ١]، ثم ذكر ما استثنى فقال: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ٣].

هذا ما حرمه والآن ينفي الله تعالى ما حرمته الجاهلية وأول المحرمين والمفترين على الله الكذب عمرو بن لحي بن قمئه كان أول من ولي ولاية البيت في عهد خزاعة بعد جرهم فذهب إلى الشام فرأى أهلها يعبدون الأصنام فقالوا نعبدها فتعطينا ونستمطرها فتمطرنا، فأعجبه ذلك فجاء بصنم ووضعه في الكعبة وعلم الناس عبادتها، فهو أول من سيب السائبة وبحر البحيرة وحمى الحامي[1]. وقال رسول الله ﷺ لأكثم بن الجون: (يا أكثم رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل به منك ولا منك به). فقال أكثم: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا، إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي)[2].

عن ابن عبّاس البحيرة: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى جدعوا آذانها وقالوا هذه بحيرة لا يركب عليها ولا تذبح ولا يحلب لبنها.

والسائبة: الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يُجز وبرها ولم يركب ظهرها ولم يحلب لبنها. وكان الرجل إذا عوفي من مرض أو قضيت حاجته سيب من ماله فإنه يجعله للطواغيت.

والوصيلة: من الغنم إذا أنتجت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين ليس بينهما ذكر سميت الوصيلة وتركت للآلهة. وما ولدت بعد ذلك - ذكراً أو أنثى - جعلوه للذكور دون الإناث وإن جاء ميتاً اشتركوا في أكله رجالاً ونساءً.

(١) ينظر: مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب: ١٧.

(٢) البخاري: (٣٣٣٣).

والحامي: إذا لقح فحله عشر إناث. وقيل الحام من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمي ظهره فتركوه للآلهة[١].

بين الله تعالى أنه لم يحرمها، أنما هي من أعمال الجاهلية وكان والسبب في تحريمها عمرو بن لحي فتحريمها افتراء على الله وكذب.

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما دل فعلهم على عقل ونضج، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليبين لهم ما أحل الله لهم وما حرمه عليهم في كتابه، أبوا وقالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، فاكتفوا بما اعتادوا عليه، ورفضوا الاستجابة لما دعاهم له رسول الله ﷺ، وهو الهدى وظلوا مع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام التي حرمها الآباء جهلاً بغير علم وضلالاً بغير هدى.

يمضي القرآن في شأن التحليل والتحريم تشريعاً، فالآن يأمر الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر

إن أبا بكر الصديق ﷺ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وأنكم تضعونها في غير موضعها وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عزّ وجلّ أن يعمهم بعقابه)[٢].

وروى أن ابن مسعود ﷺ سئل عنها فقال: إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذٍ عليكم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٣.

(٢) ابن ماجة: (٤٠٠٥).

أنفسكم لا يضركم من ضل)[١].

والواقع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان حتى من قبل بدءاً من عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا يتبعه أذى، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] فإن الأذى يصيب الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر - ومع هذا الأذى يتوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتبع الناس ما قاله الرسول ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان)[٢].

وأخيراً: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد أديت ما أمرت به، ولا يضرك بعد ذلك ضلال من ضل - وإذا وقع العذاب نجوت منه كما نجا العلماء في عهد موسى عندما نهوا أصحاب السبت فقيل لهم: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٦٤-١٦٥] لقد نجا العلماء من عذاب الله لأنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكما قالوا ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ يعتذرون لله عزّ وجلّ يوم يسألهم، يقولون ربنا أمرنا ولم يطيعونا. فهم مسئولون عن الأمر وليسوا مسئولين عن الاستجابة).

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله تعالى عن الأشياء التي سكت عنها من غير نسيان كما بين الحديث: (وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تسألوا عنها)[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٤.
(٢) مسلم: (٤٩).
(٣) سنن الدارقطني: (٤٤٤٥).

٢- (ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[1].

هذه الأشياء التي نهى الله أن يسأل عنها، قد سألها قوم في الأمم السابقة لأنبيائهم فلما كتبت عليهم كفروا بها ولم يعلموا. ومعلوم أن اليهود سألوا عن حكم زنا المحصن في الإسلام، وهو مكتوب عندهم - فلما عرفوه كفروا به وإن كان النبي ﷺ قد عاقبهم بما في التوراة من رجم، لمحاولتهم التفلت من العقاب.

كسؤالهم النبي ﷺ (من يأتيه بالوحي من الملائكة فقال: (جبريل) فقالوا: لو كان الذي يأتيك بالوحي غيره لاتَّبعناك فرد الله عليهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨] فعادوا بسؤالهم بعداوة الله لهم.

٣-التحليل والتحريم شأن إلهي ليس للبشر ومن فعل ذلك كان عقابه النار كما فعل بعمرو ابن لحي.

٤-البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي أنعام رزقهم الله إياها فأعطوها هذه المسميات، وجعلوها للآلهة جهلاً منهم، كما قتلوا أولادهم جهلاً، وكما أعطوا الثمار للآلهة جهلاً.

٥-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي ميزة أهل الإيمان وبها ارتفعوا وبها أصبحت لهم منزلة ومكانة عند الله تعالى فهو القائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٦-والحديث (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة)، يُبيّن أنّ النجاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) مسند الإمام أحمد: (٧٠٦٣).

المقطع السابع العشرون: الإشهاد والقسامة:

هذا تشريع جديد بالوصية لمن حضره الموت في غربة، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٨].

أسباب النزول

هذه الآية قال تميم الداري: (برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتها وقدم عليه مولى لبني سهم يقال له - بديل بن أبي مريم، بتجارة معه جام من فضة، يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليها وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله[1]. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، واقتسمناه أنا وعدي، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره، قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة فتأثَّمتُ من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا عليه فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم على أهله دينه فحلف فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص فحلف ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من

(١) البخاري: (٢٦٢٨).

عدي بن بداء[١].

يبين الله تعالى: أن من حضرته الوفاة وهو على سفر أن يوصي اثنين من إخوانه المسلمين، فإن لم يجد مسلمين فمن غير المسلمين، فإن فعلا ذلك ووجد أهل الميت شيئاً مفقوداً ووجدوه مباعاً فيحلف اثنان من أهل الميت على أنهم فقدوا هذا ووجدوه عند آخرين ويسأل الآخرون من أين جاءوا بهذا فإن استبان أنهما اشترياه من اللذين جاءا بالوصية، يدفع لهما ما وجدا ويدفع حاملاً الوصية من الميت قيمة المفقود لمن باعاه إليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الوصية عند الموت من كمال الإنسان، فأُمرنا أن نوصي عند الموت، قال رسول الله ﷺ: (لاينبغي لإمرئ مسلم له ما يوصي فيه يأتي عليه ليلتان ليست عنده وصية)[٢]فطبق إبن عمر هذا الحديث في حياته.

٢ - وعلى المُوَصّى أن يحفظ حقَّ المُوَصّي فيُؤدّي ما ائتمنه عليه.

٣ - الوصية من الأمانات التي أوصى الله تعالى بأدائها والتي يسأل عنها العبد يوم القيامة، يقول ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾.

٤ - جاز للموصي أن يعدل في الوصية إذاكان الموصي ظالماً يقول ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٠٦.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢٤٤٤

المقطع الثامن والعشرون: عيسى بين يدي الله في القيامة:

والآن يأخذ القرآن في الجولة الأخيرة بشأن عيسى عليه السلام وتأليه النصارى له، وعبادتهم له هو وأمّه.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[المائدة: ١٠٩-١١١].

هذه نقلة الى القيامة مع عيسى في يوم الهول، والناس شهود، والرسل موقوفون ويسألهم رب العزة ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [فقالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ إن الرسل قدموا دعوة الله إلى الناس، فالله كما بين يسألهم أجمعين الرسل والناس الذين أرسلوا إليهم ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦] فكلهم مسئول عمّا قال: ماذا قال الرسل؟ وماذا قال المرسل إليهم؟ وتجيء إجابة الرسل لا علم لنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فنحن إنما نعلم ظاهرهم ولا نعلم باطنهم، إنك أنت يا الله العالم بظاهرهم وباطنهم من اتبع ومن ضل.

ثم يوجه الله الخطاب الي عيسى عليه السلام أمام الجميع ليقرره بنعمه ليبين أنه لا حول له ولا قوة وأنه أحد عباده المرسلين فيسأله عمّا أنعم عليه. وتبدأ النعم بأنه ولد آية من آيات الله من أم بلا أب، نفخ في فرجها روح القدس بأمر الله، وأيده جبريل أن يتكلم يوم ولد لساعته، فتكلم في المهد، وسيتكلم - عند الكهولة في آخر الزمان بعد أن رفعه الله إليه حين أرادوا قتله. ومن نعمه عليه ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ علمه الخط وعلمه الحكمة فكان ينطق

بها، وعلمه التوراة التي نزلت على موسى فهو على نهج موسى مؤمناً بالتوراة ومنفذاً لأحكامها وعلمه الإنجيل الذي أنزل فيه التخفيف من المحرمات الكثيرة التي حرمت على بني إسرائيل بسبب معاصيهم لله فقال ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[آل عمران: ٥٠].

وكان يصنع من الطين طيراً، ثم ينفخ فيه فيصير طيراً حقيقياً آية من الله له، كل ذلك بإذن الله تعالى ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ والأكمه الذي خرج من بطن أمه أعمى فهو يبرئه بإذن الله مساً بيده من غير أدوية، ويبرئ الأبرص وهو الداء العضال المعروف يبرئه بإذن الله مساً بيده. ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ فكان يقف على القبر وينادي صاحبه فيخرج بإذن الله حياً. ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. بنو إسرائيل خالفوه وأبوا أن يتبعوه وهم كعادتهم مع الأنبياء أما قتلوا النبي أو كذبوه، فكف أيديهم أن تصل إليه، مع عرضه لهم آيات الله البينات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه، والأبرص والتنبؤ ما ادخروه في بيوتهم من أشياء.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾. مما أنعم الله تعالى به عليه أن جعل له حواريين وتلاميذ يؤمنون بالله تعالى موحدين له ومؤمنين برسالة عيسى وأنه عبد الله ورسوله واتبعوه ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ فآمنوا وشهدوا برسالته وأشهدوه على إيمانهم بالله رباً ربه رسولاً) إلى هنا وعيسى مقر بهذه النعم. ثم يمضي القرآن مع عيسى عليه السلام. وطلب الحواريين معجزة تثبت نبوته. وتكون لهم عيدا.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - لا ينجو من سؤال الله أحد، فلذا جاء قول عمر بن الخطّاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) [1] استعداداً لهذا اليوم. ثم يمضي السؤال إلى عيسى عليه السلام والى كل واحد من البشر لقوله تعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٤.

٢ - هذه معجزات أنعم الله بها على عيسى لتكون دليل صدق على نبوته وأنه لاحول له ولا قوة والسؤال حتى يعلم الخلق أن عيسى وأُمه عبدان من عباد الله.

٣ - العلم والحكمة من أجل النعم، وهي زاد زود الله تعالى به عباده المرسلين، فما من رسول إلا آتاه الله العلم والحكمة ليبلغ الناس ماعلمه الله آياه بحكمة وروية.

المقطع التاسع والعشرون: المائدة:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

هذه تذكرة تبين طلب الحواريين من معجزة مادية هي أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء بررروا أسبابها فقالوا: نريد أن نأكل منها فهم جياع (وثانياً)وتطمئن قلوبنا بصدق ما جئتنا به وصدق إتباعنا لك ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فيما قلت وفيما وعدت به من أمر الآخرة، وازددنا يقيناً، ونكون شهداء عليها، فلا مراء بعد ذلك ولا شك، ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

اقتنع عيسى عليه السلام بطلب الحواريين وعلم صدقهم فطلب من الله المائدة، لتكون عيداً يفرحون فيه بإنزالها ويبتهجون، وعيداً لمن بعدنا يحتفلون فيه بيوم هذا الإنزال، وآية من الله دالة على صدق رسالتك التي بعثتني بها للناس وصدق ما وعدتنا به من أمر الآخرة.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

ﭐلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ استجاب الله طلب عيسى عليه السلام واشترط للطالبين للمائدة أن من يكفر بعد إنزال المائدة فإنه سيعذبه عذاباً لم ينزل بأحد من العالمين.

واختلفت الأقوال في أمر المائدة هل نزلت أم لم تنزل؟ ولم يأت خبر من رسول الله ﷺ في أمرها ويرى بعض المفسرين أنها لم تنزل، ويعتمد المفسرون بأن النصارى في كتبهم لا يجدون شيئاً عن المائدة فلم تذكر في كتبهم.

ويقرنها بعض المفسرين بما طلبه مشركو قريش من رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليجعل الصفا ذهباً فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ أنهم إن لم يؤمنوا بعد أن يجعل لهم الصفا ذهباً فيأخذهم العذاب، وأن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة فاختار رسول الله ﷺ باب التوبة والرحمة بدلاً أن يجعل الصفا ذهباً)[1]. ثم يمضي إلى السؤال الجوهري لعيسى عليه السلام.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - التعنت من البشر بطلب المعجزات من الرّسل قديم، واجهه المُرسلون أجمعون، وأشدّه في عهد نبيّنا محمّد ﷺ والله يعلم أنّ طالبي المعجزات طلبوها لا ليؤمنوا، ولكن تعنّتاً، لهذا قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[الأنعام: ١١١].

٢ - ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنعام: ٣٧].

٣ - ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[الأنعام: ١٠٩].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١١٣.

المقطع الثلاثون: التبرؤ من التأليه:

القرآن يمضي في أمر عيسى عليه السلام ليكشف مصدر أكبر جريمة في الوجود مارسها النصارى

فيقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾[المائدة: ١١٦-١١٨].

أمام العالمين أجمعين والنصارى حضور أجمعون وفي حضرة المرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين يسأل الله تعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام وهو العليم بكل شيء ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ إنها الجريمة التي لا يغفرها الله جريمة الشرك، من صنعها ومن أمر بها؟ ويجيب عيسى عليه السلام ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ يجيب عيسى عليه السلام، سبحانك تنزهت على الشريك والمثيل والنديد، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق فإنا لم آمرهم بعبادتي ولا عبادة أمي بل قلت لهم ما أمرتني به فقلت: اعبدوا الله ربي وربكم. وإن كنت قلت غير هذا فقد علمته لأنك تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب. وكنت شاهداً عليهم قبل أن ترفعني إليك، فلما رفعتني كنت أنت الشهيد عليهم.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ - فالمشيئة لك ولا يحول بينهم وبين ما أردت وما أمرت شيء، فأنت ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ القوي الذي لا يغلب و ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها ويحكم بالعدل فإن أردتهم بعذاب وقع العذاب الذي يناسب جرمهم بحكمتك وعلمك. وان تغفر لهم، فإنك تعفو وتغفر عن قدرة وقوة.

المقطع الحادي والثلاثون: كلمة الحق والختام:

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾[المائدة: ١١٩-١٢٠].

يقول الله وقد رد عيسى عليه السلام على ما سأله الله عنه، وكانت إجابته شافية، وكان صادقاً فيما قال ... وقال الله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ هذا يوم الانتفاع بالصدق، فالذين صدّقوا المرسلين واتبعوهم وجاءوا الله بصالح العمل، ينفعهم هذا التصديق، فمن صدق واتبع فالجنة مثواه ﴿ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا ﴾ فالجنة ذات الأنهار المتعددة جزاء الصادقين يعيشون فيها مخلدين أبداً أبداً، رضي الله تعالى على سلوكهم وطاعتهم، وهم رضوا عنه فيما أعطاهم مقابل هذا الإيمان والتصديق.

والآن يختم الله تعالى هذه السورة بمثل ما بدئت به بدئت بالحديث عن الوفاء بالعهود والعقود، وختمت بالذين أوفوا بعقود الله معهم فكان جزاؤهم يوم القيامة هذه المقالة الطيبة من الله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، والتزموا بما أمرهم به ونهاهم عنه، هذا يوم الجزاء والجزاء ﴿ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ بما فعلوه وما التزموا له وما صدقوا فيه ورضوا عنه ورضوا عن جزائه لهم.

﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الكون كله ملكه وفي ملكه يتصرف كيف يشاء، وهو على كل شيء قدير، على العطاء قادر على البذل قادر ولا يقف أمام إرادته شيء سبحانه!

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الصدق موعده القيامة ينتفع به مَنْ تعامل به في الدنيا، فصدق في كل ما قال، وصدق في كل ما فعل، وجزاء الصدق الجنة، قال رسول الله ﷺ (عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البِرَ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً)[1].

٢ - يذكر الله تعالى عباده بأن الكون ملكه، وهم داخل هذا الملك، وأنه القادر على فعل كل شيء.

٣ - ختام هذه السورة بتذكير العباد الذي ورد في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يتناسب مع قوله في الختام: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾ فتناسب البدء مع الختام ملكاً وتصرّفاً.

---

(١) مسلم: (١٠٥).

سورة الأنعام

تمهيد

بين يدي السورة:

سورةُ الأنعامِ سورةٌ مكيةٌ: نزلت على قلب النبي ﷺ بمكة، لنقض عقائد الشرك وإبطالها، وتقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها.

وكان نزولُها في مرحلة الجهر بالدعوة التي واجهها أساطينُ الكفر وصناديدُ الضلال بالصدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء، والمطالبِ التي تنمُّ عن تعنُّتهم وإصرارِهم على الكفر مهما عاينوا من آيات.

نزلت هذه السورةُ جملةً واحدةً على غير المعهود في السور الطوال لتكون دفعةً واحدةً بحججها الساطعة، وبراهينها القاطعة، وآياتها المتتابعة، التي تُرْهِفُ الآذان، وتخاطب الوجدان، وتحاور العقول، وتصِل إلى القلوب.

أ - اسم السورة الكريمة :

أما عن اسمها: فسميت بسورة «الأنعام»: وذلك لما ورد فيها من ذكر الأنعام والشيء قد يسمى بجزئه، فسميت هذه السورة الكريمة سورة الأنعام لورود كثير من أحكام الأنعام فيها، ولبيان السورة لجهالات المشركين فيها، كتحليلهم وتحريمهم حسب أهوائهم وتقاليدهم البالية وتقربهم بها إلى أصنامهم، فنزلت هذه السورة لتبين بطلان ما اتخذوه من أمرها ديناً، لم يأذن به الله.

قال الإمام السيوطي: « وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان لفظ الأنعام ورد في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ

عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١٤٤) :هذا التفصيلُ: لم يرد في غيرها»[(١)].

ب - فضائل السورة:

* هذه السورة الكريمة من السور السبع الطوال، ومما ورد في فضائل هذه السبع:

١ - ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[٢].

* فالكتب السماويةُ جميعها خرجت من مشكاةٍ واحدة ودعت إلى غاية واحدةٍ، ولقد جاء القرآن الكريم مهيمنا على ما سبقه من كتبٍ ومستوعبا لها ومصدقا بها.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي - النوع السابع عشر في معرفة أسمائه وأسماء سوره ١ / ٥٥

(٢) مسند الإمام أحمد ٤ / ١٠٧ حديث ١٧٠٢٣، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عنه ١٥ / ٤٥٠ حديث ١٧٦٤٧، ورواه الإمام البيهقي في دلائل النبوة ٦ / ٩٥ حديث ٢٢٢٠ وفي شعب الإيمان ٢/ ٤٦٥ حديث ٢٤١٥، والطيالسي في مسنده ١ / ١٣٦ حديث ١٠١٢، والطحاوي في مشكل الآثار مشكل الآثار للطحاوي - ٣ / ٣٩٦ حديث ١١٨٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد عن واثلة ٧ / ١٣٢ حديث ١١١٠٩ وقال «رواه أحمد وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات»، وأورد الهيثمي روايةً للطبراني عن أبي أمامة ﷺ فقال: «وعن أبي أمامة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «أعطاني ربي السبع الطول مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل». رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وقد ضعفه جماعة ويعتبَرُ بحديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/ ٣٢٩ حديث ١١٦٢٦ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة حديث (١٤٨٠) وقال حديث حسن.

٢ - وروى الحاكمُ وغيرُهُ عن جابر ﷺ، قال: لما نزلتْ سورةُ الأنعامِ سبَّحَ رسولُ الله ﷺ ثم قال: (شيَّعَ هذه السورةَ من الملائكةِ ما سدَّ الأفقَ) [١].

٣ - وأخرج أبو عبيدة وابنُ الضُّرَيْس والطبرانيُّ وابنُ المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: « نزلتْ سورةُ الأنعامِ بمكةَ ليلا جملةً، حولَها سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجأرون بالتسبيح » [٢] .

٤ - وروى الدارمي فى مسنده عَنْ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ قَالَ: « الأَنْعَامُ مِنْ نَوَاجِبِ الْقُرْآنِ.. » [٣] **وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال: « نزلت سورةُ الأنعامِ كلُّها جملةً »** [٤][٥].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٤ حديث ٣٢٢٦، وقال « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » « فإن إسماعيل هذا هو السدي، ولم يخرجه البخاري »، وقد تعقب الذهبي الحاكم بقوله: «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعا». لكنه على شرط مسلم في المعاصرة؛ فإن وفاة السدي كانت سنة ١٢٧هـ وولادة جعفر بن عون سنة ١٠٩ هـ؛ فاللقاء بينهما محتمل أما قول الذهبي: « أظنه موضوعا »: فلا وجه له؛ لأن رجال إسناد الحديث رجال مسلم، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٢ / ٤٧٠ حديث ٢٤٣١ وفيه موسى بن عبيدة ضعفه ابن حجر وضعفه الذهبيُّ، وقال السيوطي في الإتقان مُعقِّبا على الأحاديث الواردة في نزولها جملة: « فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً». الإتقان في علوم القرآن – النوع الثالث عشر: ما نزل مفرقا وما نزل جمعا ١/ ٣٧

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ حديث ٨-٣٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠. ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن وابن مردويه كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣ / ٢٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠.

(٣) سنن الدارمي ٢ / ٥٤٥ حديث ٣٤٦٤، وقال محققه: حسين سليم أسد: « إسناده جيد إلى عمر ﷺ وهو موقوف عليه "، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام ص ١٢٩ حديث ٣٧١، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ والنواجب العتاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره في أول سورة الأنعام ٢/ ٢٠٣ وإسناده حسن وأورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣/ ٢٤٤ وقال أخرجه عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ.

(٥) وعن حكمة نزولها جملةً وليلا: يقول الإمام البقاعي في نظم الدرر: « وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة، وأن تعلّمه واجب على الفور لنزولها جملةً، بخلاف الأحكام =

ت - مكية السورة:

وهذه السورة مكية، وهي أولُ سورةٍ مكية في السبعِ الطوال، حسب ترتيب المصحف وقد انتظمت في عِقْدِ السور المكية التي نزلت لترسيخ العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الكفر من ضلالات وجهالات، وتقرير أصولِ الشريعةِ.

ث - عدد آيات السورة:

وعدد آياتها: (١٦٥) مائة وخمس وستون آية [١].

ج - محور السورة:

أما عن المحور الأساسي الذي تدور حوله السورة الكريمة: فهو إقامة الحجَّة على الكفار بنقض عقائدهم الباطلة وتقرير العقيدة الصحيحة بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة والحجج المتنوعة.

فهي أصلٌ في محاجة جميعِ الكفارِ، وكشف ما هم عليه من ضلالٍ وتفنيد شبهاتهم، وبيان العقيدة الصحيحة وإثباتِها بالأدلةِ والبراهين، والسورة الكريمة زادٌ للدعاةِ ومنهجٌ للمحاوِرين.

يقول صاحب الأساس في التفسير: « إن السورةَ حوارٌ شاملٌ مع الكافرين في كل الاتجاهات الرئيسية للكفر سواء كانت نظريةً، أو كانت عمليةً، ولذلك فإن على الداعية إلى الله

= فإنها تُفرَّق بحسب المصالح، ولنزولها ليلاً دليلٌ على غاية البركة لأنه محل الأنس بنزوله تعالى إلى سماء الدنيا، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سنةِ الغَفَلات، أولُوا الألبابِ أهلُ الخَلَوَات، والأرواحِ الغالبةِ على الأبدانِ، وهم قليل «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢/ ٥٧٩.

(١) لمزيد بيان: يراجع في ذلك: جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي ١/ ٢٠٢ ط مكتبة التراث مكة، وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي ص ٢٨٢ ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي النوع التاسع عشر في عدد سوره وآياته ١/ ٦٨.

أن يتملَّى حُججها ويعرف كيف يقرع بها» [1].

وقد وردت فيها كلمة «الحجة» مع بعض أخواتها في الاشتقاق في مواضع عديدة:

منها قوله تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقوله جلَّ وعلا ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله عز وجل ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام ١٤٩].

فقد نزلت هذه السورة لتقوِّض وتدحضَ عقائد أهل الشركِ وتقررَ وترسِّخ العقيدة الصحيحة التي من أجلِهَا أرسل اللهُ الرسلَ وأنزل الكتب قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء: ٢٥].

وقال صاحب الظلال: « هذه السورة مكية، من القرآن المكي القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملةً، يُحَدِّثُهُ فيها عن قضيةٍ واحدة قضيةٍ واحدة لا تتغير ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر؛ ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقُها للمرة الأولى، لقد كان يعالجُ القضية الأولى والقضية الكبرى والقضية الأساسية في هذا الدين الجديد: قضية العقيدة» [2].

وهذه السورة الكريمة: « هي أجمعُ سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدُّها مقارعةً لهم واحتجاجا على سفاهتهم» [3].

---

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ٣/ ١٦٦١

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله ٢ / ١٠٠٤

(٣) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام تأليف دكتور إبراهيم الكيلاني ص ٢٠

ولقد كشفت هذه السورة الكريمة كثيرا مما كان عليه أهل الجاهلية من زيغ وضلال، وانحرافات ومخالفاتٍ وأباطيلَ وشبهاتٍ: « عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾(١٤٠) »[1].

من هنا: فقد اشتملت هذه السورة على أساليبَ متنوعةٍ في تقويض دعائم الشرك وترسيخ قواعد الإيمان ودحض شبه أهل الزيغ والضلال وإبطال ما كان عليه أهلَ الجاهلية من معتقدات فاسدة وتقاليد راكدة.

من هذه الأساليب التي اشتملت عليها السورة: أسلوب التقرير وأسلوب التلقين وأسلوب الاستفهام التقريري، وأسلوب القصص وضرب الأمثال، وأسلوب الوعد والوعيد.

وخلاصةُ القول في محور السورة الكريمة: أنها نزلت بالحجج القاطعةِ والآيات الساطعةِ التي تقوضُ دعائم الشرك وتدحضُ شُبَهَهُ، وتقررُ عقيدةَ التوحيدِ وأصولَ التشريع، وتُثَبتُ فؤاد النبي ﷺ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المؤمنين، وتُفصِحُ عن أسباب صدودِ المشركينَ وإعراضهم عن الحقِّ مع ظهورِ حُجَجِهِ، وجلاءِ براهينِه.

ح - **المناسبات في السورة:** تميز القرآن الكريم بنظمه الفريد، وسبكه النضيد، وتصريفه العجيب، وروعة الأساليب، مع امتزاج المعاني وتناسقها، واتساق الآيات وتعانقها، وتناسب السور وانتظامها.

كالدُّرِّ يزدادُ حُسْناً وهْوَ منتظمٌ وليس ينقصُ قدراً غيرَ منتظمِ

وفي السطور التالية أتناولُ جملةً من أوجه المناسباتِ على النحو التالي:

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب بَاب قصَّة زمزم وجَهْلِ الْعَرَبِ - حديث ٣٣٣٤.

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

تدور السورة الكريمة حول دحض شبهات وأباطيل المشركين في العقيدة والأحكام وبيان جهلهم وسفههم، والذي تجلى واضحا في مواقفهم المتناقضة في شأن الأنعام من تحليلٍ وتحريمٍ حسب أهوائهم وأوهامهم.

من هنا يظهر الارتباط بين اسم السورة ومحورها، حيث أوردت السورةُ الكريمةُ صورا ومشاهدَ لما عليه المشركون من جهلٍ وضلالٍ، وشركٍ في العقيدةِ والأحكام والسلوك، وقد تمَّثل ذلك في موقفِهم من الأنعام، فمع كونهم يُقِرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم يحرِّمون ما أحلَّ اللهُ افتراءً عليه.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة ببيان تفرُّدِه تعالى بالحمد وانتهت السورة ببيان تفرده تعالى بالوحدانية فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

* استهلت السورة الكريمة بالحديث عن نعمة الإيجاد الأول « المبدأ » قال تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾، واختُتِمت السورة بتقرير نعمةِ الإيجاد الثاني « المعاد » قال تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

* في مطلع السورة إشارةٌ إلى نعمة الخلق، وفي خاتمتها إشارةٌ إلى نعمة الاستخلاف في الأرض، وبيانٌ للحكمة من هذا الاستخلاف وهو الابتلاء.

* وفي مطلع السورة حديثٌ عن إحاطة علمه تعالى بأحوال عباده وأعمالهم ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي خاتمتها بيانٌ لمصير الخلق إلى ربهم لينبئَهم بما عملوا ويجازيهم بما كسبوا.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

- لما قال سبحانه في ختام سورة المائدة ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ناسب ذلك بيانَ وتقريرَ تفردِهِ تعالى بهذا الملكِ لأنه تعالى خالقُ السمواتِ والأرض وما فيهن فقال سبحانه ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: الآية ١].

- قال السيوطي رحمه الله «.. لما ذكر في آخر المائدة﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة ١٢٠] على سبيل الإجمال..!! افتتح جل شأنه هذه السورة: بشرح ذلك وتفصيله؛ إذ بدأ - سبحانه - بذكر خلق السماوات والأرض، وضم إليه تعالى: أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ في آخر المائدة.

- ثم ذكر تعالى أنه خلق الإنسان، وقضى له أجلاً، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه تعالى منشئ القرون، قرناً بعد قرن.

- كذلك لما ختمت سورة المائدة بفصل القضاء بين العباد وجزاء الصادقين قال تعالى ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة ١١٨]: ناسب ذلك حمده تعالى على نعمة القضاء بين خلقه وعلى نعمة إثابة الصادقين فاستفتح سورة الأنعام بالحمد... كما قال سبحانه ﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر ٧٥].»[1]

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للإمام جلال الدين السيوطي ص ٤٧ : ٤٩ بتصرف.

- وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله: « كان ختامُ السورةِ السابقةِ: إثباتَ سلطانِ اللهِ تعالى الكاملِ وقدرتِهِ الشاملةِ وأنه لا يعجزه شيء في الأرضِ ولا في السماءِ، وفي مستهل سورةِ الأنعامِ يبين سبحانه السببَ في كمال سلطانه والمَظْهَرَ الأعظمَ لكمالِ قدرتِهِ سبحانه وتعالى»[1].

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

سوف تتجلى لنا تلك المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها العام عند تناولنا لهذه المقاطع وتدبرنا فيها حيث تدور جميعُها حول المحور العام لهذه السورة الكريمة وهو تقرير العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الشرك من زيغٍ وانحرافٍ وجهلٍ وضلالٍ، وذلك من خلال الحجج الساطعة والأدلة المتتابعة التي اشتملت عليها السورة، وبيان أسباب إعراض المشركين وصدودهم عن الحق.

٥ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

- ومن أوجه الصلات بين سورتي المائدة والأنعام: التشابه في المضمون؛ حيث الردُّ على كثيرٍ من الانحرافات العَقَدِيَّة التي ضلَّ بها الكافرون ودحضُ شبهاتهم، وتفنيدُ مزاعمهم: ففي سورة المائدة يأتي الحديثُ موجها إلى أهل الكتاب مع بيان بعض ضلالات المشركين وفي سورة الأنعام تبين السورةُ ما عليه أهلُ الشركِ من أباطيلَ وأوهامٍ، مع بعض الإشارات إلى ضلالات أهل الكتاب.

- من هنا نلمس التنوعَ في العرض والتناسب والتكامل بين سور القرآن، فمع تفرُّد كلِّ سورة بأسلوبها ومحورها وهدفها إلى أننا نجد التناسب والتناسق بين جميع السور.

« فالمائدةُ فيها حِجاجٌ لأهل الكتاب وردٌّ على اقتراحهم الآيات، وتقريرٌ لرسالة محمدٍ ﷺ ونبوته، وللقرآن ودعوته، والأنعام فيها حجاجٌ للمشركين وردٌّ عليهم في اقتراحهم الآيات وتقريرٌ لعقيدة التوحيد ولدعوةِ محمدٍ ورسالتِهِ... فالغرضُ واحدٌ من السورتين، أو كالواحد

---

(١) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله ٥ / ٢٤٣١.

والمغزى والهدفُ واحدٌ أيضا» [١].

- كذلك تعالجُ السورتان قضية التحليل والتحريم فتصحح تلك المفاهيم التي سادت بين المشركين فدفعتهم إلى تحكيم أهوائهم وتقديم مصالحهم على شرع الله فتراهم يحرِّمون ما أحل الله ويستحلُّون ما حرم الله [٢].

- كذلك أشارت سورة المائدة إلى استئثاره تعالى بعلم الغيب وجاءت سورة الأنعام مفصلَّة ومقررةً لذلك فضلا عن إحاطته تعالى بعالم الشهادة: بكل دقائقه وتفصيلاته [٣].

مقدمة السورة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

الاستفتاح بالحمد

قال تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾.

استُهلَّت السورةُ الكريمة ببيان تفرُّد الله تعالى بالحمد، فهو تعالى وحده المستحقُّ للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال، وهو المحمود ولا يزال لما أسداه من نعم وأبداه من كرم، وهو تعالى المحمود في الأولى والآخرة، وفي جميع الأحوال، وله الحمد على أن علمنا

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد عبد المنعم خفاجي ٧/ ٢٠٣ بتصرف.

(٢) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) والآيتان (٨٧، ٨٨) وسورة الأنعام (١٣٩، ١٤٠).

(٣) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآية (١٠٩) وسورة الأنعام (٥٠، ٥٩: ٦٧).

كيف نحمده.

والفرق بين الحمد والشكر أن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة لذلك أُمِرْنَا أن نشكر من أحسن إلينا، أما الحمد فإنه على النعمة وعلى ذات المنعِم.

ومن أعظم النعم وأجلِّها نعمةُ خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثَّ فيهما من عوالم ومخلوقات، وما أودع فيهما من دلائل وآيات، تشهد له بكمال القدرة وتنطق بجمال الصنعة.

قال الإمام الشوكاني: « ثم وَصَفَ نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض؛ إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد»[١].

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ جعل بمعنى: صيَّر، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق إيجاد من عدم، أما الجعل فيتضمن معنى « التصيير والتحويل»، ذلك أن الظلمات والنور متولدة عن حركاتِ الأجرام وناتجةٌ عن التغيرات الطارئة في الكون والتي بسببها يكون الظلام والنور ويتعاقب الجديدان الليل والنهار.

وجمع الظلمات لتعددها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، كما يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي، وعلى هذا فالنور واحد وهو نورُ الحق لا يتعدد: كما قيل: الطرقُ شتى وطريقُ الحقِّ واحدةٌ والسالكون طريق الحقِّ آحادُ، فَجَمَعَ الظلماتِ وأَفْرَدَ النور لأن الهدى واحد، والضلال متعدد، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١٥٣)، فوحَّد الصراط المستقيم وجمع السبل وسيأتي مزيد بيان لذلك في موضعه.

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ٢ / ٩٨

فالظلماتُ والنورُ هنا تشملُ الماديَّ منها والمعنويَّ بدليلِ السياقِ العام للسورةِ الكريمةِ التي دار الحديثُ فيها عن الظلماتِ الحسيةِ والظلماتِ المعنويةِ.

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وتقديم الظلمات على النور: لأن الظلمات كانت أولا ثم خَلَقَ اللهُ النورَ ولقد أثبت ذلك العلمُ الحديثُ.

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقرر استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفردَه بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره؛ إذ يسوون الأصنام به.

لذا جاء التعبير ب «ثم» لاستبعاد الشرك بعد وضوح الأدلة والبراهين المقررة للتوحيد.

كما تقول: يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم أنت تشتمُني، أي بعد هذا كلِّه تقابلُ الإحسانَ بالإساءةِ والإكرامَ بالإهانةِ!.

« فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون، وآثارها الضائعة في النفس!» [١].

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢ / ١٠٣٠.

ويا عجبا كيف يجحده الجاحدون وكيف يُعْرِضُ عن آياته المعرضون؟

* فيا عجبا كيف يُعصَى الإلهُ أم كيفَ يجحدُهُ الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّهُ واحدُ

* تِلكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
لِلأَرضُ حَولَكَ وَالسَماءُ اِهتَزَّتا لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ
مِن كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع لِأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ
مَن شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ تَمحو أَثيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ

خلق الإنسان، وإمكانية البعث

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ينتقل الحديث من خلق السموات والأرض إلى خلق الإنسان وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ تشريفا وتكريما وعنايةً؛ إذ الإنسان جزءٌ من هذا الكون، لكنه من أشرف المخلوقات وأكرمها على الله تعالى.

والطين: هو المادة التي خُلِقَ منها آدمُ عليه السلام ومنه خلق الله زوجه حواء رضي الله عنها أما سائر البشر: فإن الطين عنصرٌ أساسي في تكوينهم؛ ذلك أن الغذاء يستخلص من الأرض، ومن الغذاء ينمو الإنسان.

﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾

أصل الأجل في استعمال اللغة: الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان الوقت المضروب لانتهاء عمره، والمعنى هنا: أن الله تعالى قدر للإنسان أجلين: الأجل الأول هو انقضاء عمره في الدنيا، فكل يوم يمر عليه انتقاصٌ من أجله واقترابٌ من موعده

والمرءُ يفرحُ بالأيامِ يقطعُهَا　　وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

والأجل الثاني: ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ : هو ما بعد الموت حيث ينتقلُ إلى الحياة الآخرة، فإذا مات الإنسانُ انقضى أجلُهُ الأولُ وابتدأ أجلُه الآخرُ.

وقيل الأجلُ الثاني: هو انتهاء الدنيا بما عليها وبعث الناس من قبورهم.

ولا تعارض بين المعنيين إذ النص القرآني يستوعبهما.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات البينات والدلائل الباهرة الناطقة بكمال قدرته تعالى وعجائب صنعه تمترون في أمر البعث وغيره من أصولِ الإيمان!

إحاطة علمه تعالى.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

لما استهل الحديثَ بنعمة الخلق والإيجاد: خلق السموات والأرض وخلق الناس: نَاسَبَ ذلك بيانُ إحاطةِ علمِهِ تعالى بهذا المخلوقِ واطلاعِهِ على أحوالِهِ، ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

ولما كان الحكمةُ من البعثِ مجازاةَ المحسنِ بإحسانِهِ والمسيءِ بإساءتِه: أشار هنا إلى علمه بأحوالِ البشرِ محسنهم ومسيئهم، كما في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدْ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[١].

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ ﷺ عن نبينا ﷺ عن رب العزة جلَّ وعلا - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم حديث ٥٥ - (٢٥٧٧)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٩٣ وابن حبان في صحيحه حديث ٦٢١ والطيالسي في مسنده حديث ٤٥٩.

الصلة بين مقدمة السورة ومحورها

إذا كان محور السورة كما ذكرنا آنفا يدور حول تقرير العقيدة الصحيحة بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والدلائل المتتابعة والأدلة المتنوعة: فلقد استهلت السورة الكريمة بالحديث عن الركيزة الأساسية للعقيدة الإسلامية، وهي الإيمان بالله تعالى، حيث يُعرِّفنا ربُّنا بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه ويُذكِّرُنا بنعمه وعنايته ولطفه بعباده، وسنرى كيف أجملت المقدمة ما فصلته السورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* استُهلَّت السورة الكريمة ببيان تفرُّد الله تعالى بالحمد، وهو الثناء على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال والجلال.
* من أعظم النعم وأجلِّها نعمةُ خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثَّ فيهما من عوالم ومخلوقات وما أودع فيهما من دلائل وآيات تشهد له بالوحدانية، وتنطق بكمال قدرته وبديع صنعه، ومع التقدم العلمي الهائل فسوف يظلُّ خلق السماوات والأرض سرّاً يعجزُ عن إدراكه العلماءُ مهما تقدموا ومهما تعمقوا في البحوث والدراساتِ.
* جمع الظلمات لتعددها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، وقد يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي وقدَّم الظلمات على النورِ لتقدمها في الوجودِ.
* مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقررُ استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفرده بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره ويسوُّون أصنامهم به!
* وفي خلق الإنسان من طينٍ دليل على قدرة الله عز وجل وإبداعه في صنعه، وفيه أيضا دليلٌ على إمكانية البعث فالذي خلقهم من طينٍ قادرٌ على أن يعيدهم كما بدأهم.
* وفي مطلع السورة الكريمة ردٌّ على كافة المشركين الذين يسوون بين الله وهو الخالق سبحانه

وبين الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وفيها إبطالٌ لما عليه بعضُ طوائفِ المجوس من عبادةِ إلهينِ من دون الله أطلقوا عليهما: إله النور وإله الظلمة، فبيَّن تعالى أنه هو الذي أوجد الظلمات وأوجد النور فكيف تعبد من دون الله! و ردٌّ على منكري البعث مع وضوح الحجج والبراهين القاطعة، وردٌّ على منكري القدر حيث بيَّن عز وجل قضاءه في عباده، وتقديره لآجالهم، وبيانٌ لإحاطة علمه عز وجل بكل الأمور والتفصيلات والكليَّات والجزئيَّات، والجليَّات والخفيَّات، وتقريرٌ لكمالِ قدرتِه عز وجل والتي تجلَّت في خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وفي خلق الإنسان وتقدير الآجال، مع ذلك فإن الكافرين يمترون! ويعرضون ويكذبون ويستهزئون ويتعنَّتون كما ستكشف لنا الآيات التالية.

- ١ -

موقف المشركين

(إعراض المشركين)

قال تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المناسبةُ: ما زال الحديثُ موصولا عن موقفِ المشركين من تلك الحقائقِ الدامغةِ و الحججِ البالغةِ بين امتراءِ وامتعاضٍ، وصدودٍ وإعراضٍ، وغفلةٍ وتكذيبٍ، وسخريةٍ واستهزاءٍ، فوق

ما اقترحوه من مطالبَ تنمُّ عن تعنتهم وعنادِهم، وفي هذه الآيات تفصيلٌ لما أُجْمِلَ في مقدمةِ السورةِ حول موقفِ المشركين: وهو العدولُ عن عبادةِ الله تعالى، وتسويتُه سبحانه بأصنامِهم التي يعبدونها من دونه، وامتراؤُهم مع وضوحِ الحججِ وتجلي الآيات.

التفسير الإجمالي

صدودٌ وإعراضٌ

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قال الإمام الألوسي رحمه الله: « كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيانِ كفرهم بالله تعالى وإعراضِهم عن بعضِ آياتِ التوحيدِ وامترائهم في البعث» [١].

فالإعراض ديدنُهم أمام كلِّ الآياتِ الجليَّاتِ آيات القرآن المسطور وآيات الكون المنظور آيات الأنفس والآفاق، آياتِ الأجواء والأعماق، فهم في غفلة عنها وإعراض، ونظير هذا قوله تعالى في سورة القمر ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

فهم معرضون عن جميع الآيات الكونية والإنسانية مع وضوحها وجلائها، وتجددها وتتابعها، كما يستفاد من التعبير بالفعل المضارع ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ - ومع قربها منهم ومجيئها إليهم دون تكلف البحث عنها كما يفيده التعبير ب﴿ وَمَا تَأْتِيهِم ﴾ أنها تقبل عليهم وتتجلى أمامهم، ومع ذلك فهم معرضون عنها بالكلية، وموقفهم في الإعراض ثابت – كما يفيد التعبير عن ذلك باسم الفاعل ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ الدال على ثبات موقفهم وإصرارهم وعتوهم ونفورهم من أي آيةٍ.

---

(١) روح المعاني للألوسي ٧/ ١١٨.

وإضافة الآيات إلى «ربهم»: بيانا لمصدرها، وتفخيما لشأنها، وتعظيما لها، ومع ذلك فقد أعرضوا عنها!

وهذا الإعراض كما أسلفنا: ليس مرجعُه إلى خفاءِ الأدلةِ وغموضِ البراهينِ بل إنها واضحةٌ وضوحَ الشمسِ في رابعةِ النهار، وإنما مرجعُ الإعراض إلى قلوبهم القاسية ونفوسهم المعتلَّة، وقد قيل:

* قد تنكر العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سَقَمِ

* وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

فنفوسُهم غيرُ مهيئةٍ لتقبلِ الحقِّ، وآذانُهم صُمَّت عن سماعِه، وقلوبُهم غُلفٌ عن تدبر الآيات والانتفاع بها، وصدق الله تعالى إذ يقول﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[يوسف: ١٠٥]

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١].

يقولُ صاحبُ الظلال: « إنهم يتخذون موقفَ الإعراضِ عناداً وإصرارا، فليس الذي ينقصُهم هو الآياتُ الداعيةُ إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يُدْعَون إلى الإيمان بها والاستسلام لها.. ليس هذا هو الذي ينقصُهم، إنما تنقصُهم الرغبةُ في الاستجابة، ويمسك بهم العنادُ والإصرارُ، ويقعد بهم الإعراضُ عن النظرِ والتدبر:﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾، وحين يكون الأمرُ كذلك: حين يكونُ الإعراضُ متعمَّدا ومقصوداً - مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق -: فإن التهديد بالبطش قد يُحْدِثُ الهزَّةَ التي تفتح نوافذَ الفطرة حين تسقط عنها حواجز الكبر والعناد» [1].

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٦، ١٠٣٧ بتصرف يسير.

تكذيبٌ واستهزاءٌ

﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ ﴾

ليس إعراضهم عن هذه الآيات: توقفا في شأنها، أو انشغالا عن النظر فيها، أو تسويفا للبحث في شأنها: وإنما هو التكذيب والاستهزاء، ولو أنهم تجردوا من الأهواء وأبصروا الآيات بعين النظر والتأمل وأعملوا عقولهم: لما كذبوا بكل ما جاء به النبي ﷺ وطرق قلوبهم وقرع أسماعهم وهو الحق من عند ربهم! ولكنهم عمُوا وصمُّوا!

قال الإمام الرازي رحمه الله: « اعلم أنه تعالى رتَّب أحوالَ هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، **فالمرتبة الأولى**: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات، **والمرتبة الثانية**: كونهم مكذبين بها وهذه المرتبةُ أزيدُ مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض، **والمرتبة الثالثة**: كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب» (١).

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وعيدٌ شديدٌ لما ينتظرُهم من الويلِ والثبورِ وعظائِم الأمورِ؛ جزاءَ تكذيبِهم الواقع واستهزائهم المستمر، ولسوف يعلمون حين تنكشف لهم الحقائق، وترفع الحجب، ويعاينون العذاب أنهم كانوا على ضلال مبين.

قال صاحب الكشاف: « ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا ﴾ الشيء الذي ﴿ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزءوا، وسيظهرُ لهم أنه لم يكن بموضعِ استهزاءٍ، وذلك عند إرسالِ العذابِ عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهورِ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٤ / ٤٨٣.

الإسلامِ وعلوِّ كلمتِهِ» (١).

وقال صاحب الظلال: « ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده.. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول!» (٢).

وإذا لم يتهيئوا لقبول الحق فليتهيئوا لهذا العذاب المقيم الذي ينتظرهم، ولقد جاء تفصيلُ هذه الأنباء في ثنايا السورة الكريمة.

غفلةٌ عن السنن الربانية

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾

إلى جانب الامتراء والإعراض والتكذيب والاستهزاء فلقد ضمُّوا إلى سجلِّهم الحافل الغفلةَ عن سنن الله تعالى في الأمم الماضية ومن ذلك سنةُ الاستدراج، وسنةُ إهلاك المكذبين.

فلما توعد اللهُ المشركين في الآية السابقة بسوء العاقبة: أمرهم أن يصرفوا أنظارهم ويسترجعوا تاريخ الذين مضوا من المكذبين المعرضين لعلهم يعتبرون بهم، « وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب» (٣).

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾: دعوة لهم إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية، وتوبيخٌ لهم: إذ كيف يمرون على مصارعِ أولئك الأقوامِ دون أن يعتبروا ويتعظوا بتلك الأممِ

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

الغابرةِ والحضاراتِ البائدةِ كيف أصبحت أثراً بعد عينٍ، وأطلالا خربةً بعد أن كانت مدائنَ عامرةً وقصوراً زاخرةً.

﴿ مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ : أي جعلنا لهم مدائن عامرة وقرى ظاهرة وآلاتٍ ومرافقَ ومزارع ومصانع وغير ذلك من مظاهر الحضارة والرقي.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ « أمطرت فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها، وأعطتهم الأرض رَيْع نَباتها، وجابوا صخورَ جبالها، ودرَّت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها، فغمَطُوا نعمة ربهم، وعصوا رسولَ خالقهم، وخالفوا أمرَ بارئهم، وبغَوْا حتى حقَّ عليهم قَوْلي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب» (١).

والخطاب في ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾: لقريش خاصة وللعرب عامة: ولا شك أن الأمم ذات الحضارات البائدة كالفراعنة والرومان والإغريق والفينقيين والبابليين قد مكَّن الله لهم ما لم يمكن لقريش ولا لغيرهم من سائر العرب.

ولكن: هل يمكن حمل الخطاب هنا على عمومه فيشمل العرب وقت نزول القرآن ويشمل كل من بلغه الخطاب في جميع العصور؟ بما فيها عصرنا هذا؟!

أقول: التمكين مسألة نسبية؛ فنحن في عصرنا هذا - والذي كثرت مسمياتُه وكلها تدور حول التقدم العلمي الهائل: فسمي: عصر العلم وعصر الذرة وعصر الفضاء وعصر الحاسوب - حيث تمكن العلمُ من ارتياد الفضاء والغوص في أعماق البحار والمحيطات، إلى جانب الثورة العلمية الكبرى في عالم الاتصالات، وعالم البنايات ناطحات السحاب وعلم الهندسة الوراثية وغيرها من العلوم، مع ذلك فلا يزال العلم عاجزا عن معرفة أسرار وهندسة

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٧/ ١٧٦.

البناء والتشييد عند الأمم البائدة من ذلك الأهرامات، وغيرها، كذلك أسرار التحنيط عند الفراعنة، بل وجدنا العودة إلى الطب الشعبي القديم القائم على التداوي بالأعشاب والأغذية وغيرها، بعد المخاطر والأضرار التي سببتها الأدوية الكيماوية، كذلك شهدت هذه العصور الغابرة من فنون العمارة والزخرفة والصناعات اليدوية الدقيقة: ما يثير الدهشةَ والإعجابَ وما يعجز عنه المهرة من الصناع والحرفيين.

ألا يُفْهَمُ من هذا كلِّه أن الأممَ السابقةَ قد مُكِّن لها في أمورٍ لم يمكن لنا فيها؟

ومن حكمة الله عز وجل وأقداره أن وعت لنا ذاكرة التاريخ وبواطنُ الأرض وظواهرها وجدرانُ الكهوفِ وودائعُها: كثيرا من أخبار وآثار الأمم البائدة والحضارات الغابرة لتكون عبرةً على مر العصور وكرِّ الدهور، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

تعنتٌ وعنادٌ

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

طلبهم كتابا من السماء!

ما زال السياق في تتبع مواقف المشركين الذين جمعوا بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين الجحودِ والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآياتٍ اقترحوها، لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا؛ فكان في ذلك هلاكهم، وماذا يُنتظرُ ممن عَمُوا وصَمُّوا عن الشواهدِ اليقينيةِ والبراهينِ الإيمانيةِ ولجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُورٍ وأوغلوا في الضَّلالِ والغرورِ؟

والمعنى ولو نزلنا عليهم كما طلبوا كتاباً من السماء، فلمسُوه بأيديهم، لقالوا إن هذا إلا

سحرٌ مبين، فهم لن يؤمنوا مهما تنزلت عليهم الآياتُ وتواترت الحُجَجُ وتتابعت الدلائلُ.

طلبهم ملكا رسولا!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؟ أي قال الكافرون: هلا كان مع محمد مَلَكٌ نراه ونصافحه ونسمع حديثه، ونحاوره! ومع أن هذا المطلب صدر عن بعضهم إلا أن الآخرين لم يعترضوا عليه فكان إقرارٌ منهم بذلك، والراضي عن القول كقائله.

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾: إن نزول المَلَكِ سيعجِّل بعذابهم لأنهم لن يؤمنوا به وحينئذٍ لن يُمْهَلُوا ولن يُؤَخَّروا؛ فإن سنةَ اللهِ قد جَرَتْ في الكفارِ أنهم متى اقترحوا آيةً، ثم لم يؤمنوا: استؤصلوا بالعذاب.

قال تعالى في سورة الحجر ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال قتادة: «لو أنزلنا ملكا ثم لم يؤمنوا لعُجِّل لهم العذابُ ولم يؤخروا طرفَةَ عينٍ»[(١)].

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا ﴾: أي ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا، أو أنزلنا مع الرسول ملكا كما طلبوا: ﴿ لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾: أي لأرسلناه في صورة رجل لأنهم لن يطيقوا رؤيته بصورته الحقيقية، لأنهم لم يتهيئوا لذلك، لأن الحواسَّ البشرية تقصرُ عن إدراك بعض الموجودات بل ولا تطيقُ أشياء كثيرة؛ فالأذن مثلا لا تسمع الأصوات التي تقلُّ ذبذبتها عن ١٣ ذبذبة في الثانية، ولا تطيق سماع الأصوات التي تزيد عن ٣٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية، وكذلك العين لا ترى كثيرا من الأشياء المحيطة بها مع أنها محسوسة فما بالنا بعالم الغيب!

(١) معالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٢٩.

﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾: أي لأوقعناهم في اللبس والإشكال والخلط، كما يفعلون ذلك مع أتباعهم من الضعفاء وكما يسعون إلى التلبيس عليك، وهنا يختلط الأمر عليهم أملكٌ هو أم بشرٌ؟

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملَك، فإن استدلَّ لهم بأنه مَلَكٌ كذبوه، قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلم الله عزّ وجلّ أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون» (١).

عاقبة المستهزئين المكذبين، وتسليةٌ وتثبيت لخاتم النبيين.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ بعد أن قطعت عليهم الآياتُ السابقةُ كلَّ السبلِ المفضيةِ إلى التكذيب والإعراض، وفنَّدت مزاعمهم وبددت مطالبهم وأفصحت عن عنادهم، وكشفت عن تعنُّتهم في طلبَ الآيات، ينتقلُ الحديثُ إلى النبي ﷺ تسليةً لقلبه وتسريةً لروحِه وتثبيتا لفؤادِه وترويحاً عن نفسِه ببيانِ أن ما يحدثُ من تكذيبٍ وإعراض وسخريةٍ وعنادٍ إنما حَدَثَ لإخوانِه النبيين من قبله على أيدي الكفرة ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

حلَّ بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه تكذيباً واستبعاداً له واستخفافاً واستهانةً به. (٢)

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني - ٢ / ١٠١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٢٣١.

(٢) فائدة في الفرق بين السخرية والاستهزاء: هما مترادفتان، إذا افترقتا اجتمعتا وإذا اجتمعتا افترقتا أي دلت كلُّ واحدةٍ على معنى، وقد يكون ورودهما في آيةٍ واحدة من قبيل التفنن والتنوع في الكلام، والاستهزاء أعمُّ من السخرية فالاستهزاء قد يكون بذات الشخص أو بفعله أو بكلامه أو بوعيده، أما السخرية فإنها تكون من فعلٍ أو قولٍ أوحالٍ، ويقال سَخِرَ بنفسه أو سَخِرَ من حاله ولا نقول استهزأ بنفسه، واستهزأ=

دعوةٌ إلى السيرِ والنظر

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

هذه دعوةٌ إلى السيرِ والنظر للاستبصارِ بالقرون الذاهبة، والاعتبارِ بالأمم الغابرة والتأمل في الحضارات الآفلة، ويحملُ لنا التعبير ب (ثم) ضرورة النظرة المتأنية والتَأمل العميق في مصير الأمم البائدة: « أنعِمُوا النظرَ وبالغوا في التفكر وأطيلوا التدبر إذا رأيتم آثار المعذَّبين لأجل تكذيب الرسل، فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كَمُلَ لكم الاعتبارُ وَقَوِيَ الاستبصارُ، وذلك إشارةٌ إلى أن الأمرَ في غايةِ الانكشافِ، فكلما طال الفكرُ فيه ازداد ظهوراً » [١].

قال أبو السعود: « وكلمة (ثم) إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتسنَّى إلا بعد انتهاءِ السيرِ إلى أماكِنهم، وإما لإبانةِ ما بينهما من التفاوتِ في مراتبِ الوجوبِ وهو الأظهرُ، فإن وجوبَ السيرِ ليس إلا لكونِهِ وسيلةً إلى النظرِ » [٢].

وقال ابن عاشور: « و { ثم } للتراخي الرُّتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإنَّ النظر في عاقبة المكذِّبين هو المقصدُ من السيرِ، فهو ممَّا يُرتقى إليه بعد الأمر بالسير، ولأنَّ هذا النظر محتاج إلى تأمُّل وترسُّم فهو أهمُّ من السير » [٣].

وقال ابن المنيِّر رحمه الله: «... حيث دخلت الفاء فلإظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلةٌ إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم» [٤].

= تتعدى بالباء لتفيد الإلصاق إلصاق الاستهزاء بالشخصِ وإن لم يستحقه، أما سخر فإنها تتعدى بمن. والله أعلم.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ٢ / ٥٩٣

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ٢ / ٣٥٩

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢ / ٣٥٩.

(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام أحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف ٢/ ٨.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تبدأ الآياتُ الكريمةُ في محاورةِ المشركين وعرض الحجج واستجلاءِ البراهين، مع تفنيد الأباطيل والشبهاتِ، والإجابةِ المُفْحِمةِ على اعتراضات المشركين ومطالبهم التي علقوا إيمانَهم بحصولها، كنزول الملائكة عليهم ومعهم الكُتُبِ التي يبصِرُونَها بأعينِهم ويلمَسُونها بأيديهم وفي هذا ما لا يخفَى من الامتراءِ والتعنتِ.

الهدايات المستنبطة

* كشفت لنا الآياتُ مواقفَ المشركين من الحقِّ لَمَّا جاءهم، فهم بين صدودٍ وإعراضٍ وسخريةٍ وعنادٍ ونفورٍ واستكبارٍ ومكابرةٍ ولجاجٍ وصدٍّ عن الحق ومكرٍ بأتباعه وغفلةٍ عن سنن الله وآياته.

* تضمنت الآيات دعوة إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية والجارية وفي مصير الأمم الغابرة، والاستبصارِ بالقرون الذاهبة، والتأمل في الحضارات الآفلة.

* التمكين مسألةٌ نسبية فلقد مكن الله تعالى لبعض الأمم الغابرة ما لم يمكن لنا كما مكن الله لنا ما لم يمكن لمن سبقنا.

* السياحةُ مستحبَّةٌ إذا كان الهدف منها النظر والاعتبار في آيات الله تعالى المبثوثة في أرجاء الكونِ والتأمل في مصيرِ الأمم والشعوب البائدة وآثارهم الشاهدة، أما سياحةُ العري والابتذال والخمر والميسر والتمرغ في أوحال الرذيلة فهي محرمةٌ شرعاً.

* جمع المشركون بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين التعنت والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآياتٍ عجيبة لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا فكان في ذلك تعجيلٌ بهلاكهم.

* اتهام المشركين الرسول ﷺ بالسحر وهو لونٌ من ألوان التخييلِ والخداع: اتهامٌ قديم تواطأ عليه المشركون في كل العصور وكأنهم يتوارثونه أو يتواصون به قال تعالى في سورة

الذاريات﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾: وهو نفس الاتهام الذي « يوجهه الماديون في كل عصر؛ لتغطية تمسكهم بالماديِّ وحده، وإنكارهم ما عداه من القيم العليا في حياة الإنسان، فبالأمس رموا دين الله بأنه سحرٌ وأساطير، ويُرمى اليوم بأنه أفيون الشعوب، والسحر والأفيون كلاهما لا يعرض الواقع، ولكن يموه به في التصور فحسب، مع أن الماديين أنفسهم لا يسايرون الواقع؛ لأنهم انتهازيون وأنانيون ونفعيون ومخادعون؛ ومسايرة الواقع تقضي بالصراحة وسلوك الطريق المكشوف»[(١)].

* تضمنت الآيات الكريمة تسليةً لقلب نبينا ﷺ وتسريةً لروحه وتثبيتا لفؤاده وترويحا عن نفسِه، ببيان أن ما يحدثُ من تكذيب وإعراض وسخرية وعناد إنما حدث من قبله لإخوانه النبيين عليهم السلام.

* تضمنت الآيات الكريمة الإيمان بالقدر فهو ركنٌ من أركان الإيمان لا يتمُّ إلا به.

* الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم وحلول النقم، فليحذر الكفرةُ والعُصاةُ من سوءِ العاقبةِ.

* لو جاءهم الملَكُ في صورتِهِ الحقيقيةِ لما أطاقوها ولو تشكلَ في صورةٍ بشريةٍ لأنكروا كونَه ملَكا.

* التكذيبُ والاستهزاءُ بالرسل دأبُ الجهلةِ والمعاندين في كلِّ العصور، وقد جرت سنةُ الله تعالى بإهلاك المكذبين المستهزئين بعد إقامةِ الحججِ عليهم وإمهالهم.

---

(١) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم – تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي رحمه الله ص١٨ بتصرف.

-٢-

مع الله

حججٌ بالغةٌ

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المناسبة

تستأنفُ هذه الآيات الكريمة جولةً جديدةً بعد استفتاح السورة بالحمد وبيانِ جملةٍ من دلائل القدرة وآياتِ الوحدانية، ثم الحديث عن موقف المشركين الذين أعرضوا وكذبوا واستهزؤوا، وتعنتوا وعاندوا، ثم أعقب ذلك تسلية نبينا ﷺ وتثبيته، والدعوة العامة إلى السير والنظر للتبصُّرِ والاعتبار.

بعد هذا البيان: يأتي الحديث عن تفرد الله تعالى بالملك واتصافه بالرحمة، وما يستتبع ذلك من جمع الخلائق يوم القيامة، وبيان أن الخسران لمن حرم نفسه من نعمة الإيمان، يعقب ذلك بيان دلائل قدرة الله وشواهد عظمته جلَّ في علاه وبراهين تفردِه فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

* ولما كانت السموات والأرض من الآيات الجليلة الظاهرة ناسب ذلك الحديث عن الآيات اللطيفة الخفية فقال تعالى﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾.

* ومن وجوه المناسبة أيضا أنه تعالى لما تحدث عن الجمع يوم القيامة وما يستتبعه من حساب: بين هنا إحاطةَ علمه تعالى بأحوال البشر ما خفي منها وما ظهر، فهو السميع لكل قول، العليم بكل فعل، المحصي لأفعال العباد، وبهذا تنتظم هذه الآياتُ مع الهدفِ العامِّ للسورة الكريمة، وهو تقرير العقيدة وبيان أركانها.

التفسير الإجمالي

سعة رحمته.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ ﴾: في تعاقب الأمم وتوالي الأجيال وتبدُّل الأحوال وتداولِ القوى وانهيار الحضارات أعظمُ العبر؛ فلا يبقى أحدٌ على حاله ولا يحتفظُ ملِكٌ بملكه، ويظلُّ المُلكُ الحقيقيُ لله تعالى وحده، فالملكُ ملكُهُ والتدبيرُ تدبيرُه وإليه المرجعُ والمآبُ.

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾: قضى بذلك وكتبه على نفسه، ووعد وعدا مؤكداً لا يُخلِفُهُ، وقال﴿ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ﴾ لإفادة الاختصاص ونفي أي وساطةٍ بينه وبين خلقه.

﴿ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ تقريرٌ للإيمان بالبعث فهو من الأمور اليقينية، وتذكير بيوم الحشر.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾: وهذا من أعظم الخسران، خسرانٌ لا يعقبه ربحٌ أبداً.

ونظير ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴾ [الشورى ٤٥]

عموم ملكه وشمول علمه:

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾: فكل ما في هذا الكون ملكٌ له تعالى، وتحت قهره وتدبيره وتصريفه.

قال صاحب اللطائف: « الحادثاتُ للهِ مِلْكاً، وباللهِ ظهوراً، ومِنْ الله بدءاً، وإلى اللهِ رجوعاً»[1].

والتعقيب بصفتي السمع والعلم﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أفاد الإحاطة التامة بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركينَ بأن الله مطلِّعٌ عليهم، وتسليةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.

الوليُّ

قال تعالى﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

بعد تلك الأدلة والبراهين التي تُقوِّض معتقداتِ أهل الشرك وتقررُ عقيدة الحقِّ: استنكر هنا إصرار المشركين على الشرك مع صاحبِ الملك وهو الخالق الرازق، وأَمَرَ أهل الإيمان بالإعلان عن الإيمان والبراءةَ من الشركِ والعصيان، ثم بين عز وجل أن من يُصرفُ عنه العذاب يوم القيامة فهو المرحومُ حقّاً والفائزُ صدقا.

ولما جاء الحديث في الآيات السابقة عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بين هنا من هم الفائزون؟ وهم الذين نالوا رحمة الله، ولما قال فيما سبق﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ بين هنا من يستحقُّها، ولما أشار فيما سبق إلى جمع الخلائق يوم القيامة، قسَّمهم إلى فريقين: فريقٌ نال الخسران، وفريقٌ فاز بالرضوان.

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٠٧.

وأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يُعلِن البراء من اتخاذ وليٍّ من دون الله، أي ناصرا ومعينا، فهو تعالى فاطر السموات والأرض أبدعهما وأنشأهما، ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾وفي هذا ردٌّ على من ادعى ألوهيةِ إنسانٍ أو حيوانٍ.

فالولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافعُ.

وهنا يُفسَحُ المجالُ لإعلان الحقِّ، وإظهار المسلم لهويته في وجه هذا العالم المادي، ورفع لواء التوحيد وتنكيس راياتِ الشرك: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾: ومع هذا الولاء لله تعالى والبراء من الشرك وأهله فإنه يُعلن خوفه ورهبتَه من اللهِ تعالى وحَذَرَه من عذابه ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾، «، ففي الآية تحذيرٌ شديدٌ من مقاربة المعاصي ومقارفتها»[1].

أمر الله رسوله الكريم أن يصدع بهذا الحق ويعلن استنكاره على المشركين الذين لجئوا تارة إلى أسلوب الملاينة والمداهنة وتارة أخرى يستخدمون منطق القوة وسلاح الإيذاء ولغةَ العنف والتنكيل.

وفي وجه هذا الأسلوب المزدوج أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بهذا الاستنكار في الوقت الذي يعلن فيه خطورة الأمر﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾: وأيُّ فوز أعظم من النجاة من النيران والفوز بالجنان!

القادر

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ ﴾.

بعد بيان إحاطةَ ملكِهِ وعموم تصرِّفه سبحانه في الآخرة، بين أن الأمر كذلك في الدنيا،

---

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٢٧.

فالتصرُّف فيها لله وحده، وفي هذه الآية تقريرٌ لتفرده تعالى بالولايةِ لأنه لا يدفع الضر ولا يجلب الخير سواه.

والمعنى إن تنزل بك شدةٌ من فقرٍ أو مرض أو خوفٍ أو أذى فلا كاشف لها ولا يصرفها إلا الله، وإن يصبك بعافيةٍ أو رخاءٍ أو نعمةٍ فهو على كل شيء قدير.

أما تلك الآلهة المزعومة فهي لا تملك نفعا ولا ضرا؛ فكيف يتخذونها أولياء من دون الله! وإنما قابل الضر بالخير لأن الضر من الله ليس شرا في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وأدباً وعلماً وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدَّم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدَّم على النعيم.

القاهر

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سَبَقَ، وبيانُ أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما جرى بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادته تعالى مبنيةٌ على حكمة وخبرة بما يُصلحُ هذا الكون ويحقق التوازنَ في هذه الحياة.

فهو تعالى القاهر فوق عباده: فسبحان من خضعت له الرقاب، وذلت لقدرته الصعاب وعنت له الوجوه، وسجدت له الجباه، ودانت له الخلائق تواضعا لعظمته وخشوعا وهيبة لجلاله وكبريائه وعلوه وقهره وإذعانا لحكمته.

قال الألوسي: « والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضاً وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه، ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا يعدلون عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبتوا معنى فاسداً أو ينفوا معنى صحيحاً فهم

يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه»(١).

الشهيد

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) ﴾.

ما زال السياق في بيانِ عظمته تعالى، وتفرُّده بصفات الكمال، ونقض الشرك وتبديد ظلماته وأوهامه، ودحض شبهاته.

ومن قبل طلب المشركون نزولَ الملائكةِ والكتبِ في قراطيسَ عليهم وما زالت قائمتُهم حافلةً بالمطالبِ العجيبة والتي من بينِها أنهم طلبوا من يشهدُ لرسول الله ﷺ: بصدق رسالتِهِ:

روى الإمام الواحدي في أسباب النزول: « قال الكلبي: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقُك بما تقولُ من أمرِ الرسالةِ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ، فأرنا من يشهد لك أنك رسولٌ كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية»(٢).

وبين سبحانه أن القرآن أعظم شهادة وأبلغ إنذارٍ وأجلى بيان وأقوى حجة وأظهر محجةً لكل من بلغته الدعوة من عُرْبٍ ومن عَجَمٍ في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

ثم أنكر عليهم شهادتهم الباطلة ودعواهم الكاذبة دعوى الشرك التي لن ينحاز لها عاقل ولن يقرَّ بها صادقٌ ثم أعقبَ ذلك بالإعلان عن شهادةِ الوحدانيةِ، شهادةِ الحقِّ، وأتبعها بالبراء مما هم عليه من شركٍ، قال تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) روح المعاني للألوسي- ٧/ ١٤٩.

(٢) أسباب النزول للإمام الواحدي ص١٢٢ ومعالم التنزيل للبغوي ٧/ ١٣٣.

موقف أهل الكتاب

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ بعد الحديث عن إعراضِ المشركين مع ظهور الحجج وتجلِّي البينات، أشارت الآيات إلى موقف أهل الكتاب الذين يعلمون أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وهو المبشَّر به في التوراة والإنجيل وقد جاءت كثيرٌ من أوصافه وشمائله فيهما، لكن كثيرا منهم كَتَمَ شهادتَه، وآثَرَ الشركَ؛ بغياً وحسداً وإيثاراً للهوى، بدلا من المسارعةِ إلى الدخولِ في الإسلامِ والانضواءِ تحت لواءِ النبي الخاتمِ الذي بشرت به كتُبهم.

قال ابن عادل: «اعلم أنَّ الكُفَّار لَمَّا سألوا اليهود والنَّصارى عن صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ، فأنكروا دلالة التَّوْرَاةِ والإنجيل على نُبُوَّتِهِ بَيَّنَ اللهُ - تعالى - في الآية الأولى أنَّ شهادةَ الله على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ كافيةٌ في ثبوتها، ثُمَّ بَيّن في هذه الآية أنهم كذبوا في قولهم: لا نعرف محمداً، لأنهم يعرفونه بالنُّبُوّةِ والرسالة، كما يعرفون أبناءهم» [١].

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي قيل عنها مدنية، والصحيح أنها مكية، وإنما كان أهل الكتاب طرفا في تلك المعركة بين أهل الكفر وأهل الإيمان؛ حيث كان المشركون يرجعون إليهم للتحقق من نبوة نبينا محمدٍ ﷺ حيث كانوا يرسلون إليهم، أو يقابلونهم في أسفارهم، ولعلَّ بعضَهم كان يعيشُ في مكة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾: «جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله مالا حجة لهم عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسمّوا القرآن والمعجزات سحراً!» [٢].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٦ / ٣٧٧، ويراجع: لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٢١٤.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ٢/ ٧.

فجمعوا بين الكذب والتكذيب، بين الافتراء على الله وتكذيب أنبيائه، فكذبوا على الله وكذَّبوا بآيات الله، فوقعوا في تناقضٍ عجيبٍ!

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان، وكيف يُفلحُ من كان الكذبُ له ديدناً، والظُّلم له معدنا!

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث بيانُ دلائلِ القدرةِ وشواهدِ الوحدانيةِ، وشهادةُ المولى جلَّ وعلا لرسوله الكريم بصدق نبوته، ونزولِ القرآن الكريم بالإنذارِ والتبليغ، واشتمالِ الكتبِ السابقةِ على أوصافِهِ ﷺ ، وبيانِ صدودِ المشركينَ وجحودِ فريقٍ من أهلِ الكتاب.

الهدايات المستنبطة

* تحملُ لنا الآياتُ الكريمةُ نسماتٍ حانيةً تفوحُ منها عبيرُ الرحمة وتفتحُ بابَ الأمل والرجاء أمام المحرومين من نعمةِ الإيمان بأن يستدركوا ما فاتَهم، ويلحَقُوا بقافلةِ الهُدى ويستقلوا سفينةَ النجاة.
* في الآياتِ الكريمةِ بيانٌ وتقريرٌ: لعمومِ ملكه وإحاطةِ سمعه وشمولِ علمه.
* أفاد التعقيبُ بصفتي السمع والعلم الإحاطةَ التامةَ بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركينَ بأن الله مطلِّعٌ عليهم، وتسليةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.
* إن الولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافعُ، وإن منطق الحقِّ وميزانَ العقل يقضي بأن الذي يستحقُّ العبودية هو الخالق الرازق.
* من أراد السلامة في الدنيا والآخرة فعليه بالتوجه إلى خالقه، وإنزال حوائجه بربه، ولزوم بابه والمداومة على عبادته والإقامة على خدمته، وانتظار فرجه، واستمطارِ رحمته.
* على المسلم أن يُعلن الحقَّ ويصدعَ به، وأن يُظهرَ شعائر دينه، ويعلن عن هويته في وجه هذا

العالم المادي، ويرفع لواءَ التوحيد ويُنكِّس راياتِ الشرك بالحجةِ والبيانِ، وفي هذه الآيات الكريمة توجيهٌ لإخواننا المستضعفين والأقليات المسلمة في بلاد الغرب وغيرها من الدول ذات الأغلبية الكافرة أن على المسلم أن يعلن عن هويته ويُصرِّح بدعوتِه ويقيم شعائر دينه، ويحذر من الاندماج الذي يؤدي إلى الذوبان والانصهار والتبعية للغرب والتخلي عن جوهر الإسلام ومظاهرِه، مستعينا على ذلك بالعقيدةِ الراسخةِ.

* استشعارُ المؤمن خشيةَ الله تعالى، واستحضارُه عظمتَهُ سبحانه وتذكره عذاب الآخرة كلما غفلت نفسُه عن الله تعالى، أو شردت عن باب فضله ورحمته، أو همت بمعصيته.

* درس عظيم للرسول الكريم ﷺ ولصحابته الذين اختاروا طريق الهدى وواجهوا في سبيل ذلك الكثير من العقبات، وبذلوا كثيرا من التضحيات، فجاءت هذه الآية ببيان حقيقةٍ كونية وسنة إلهية على دعاة الحق أن يتمثَّلوها ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

* ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما يجرى بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادتُه تعالى مبنيةٌ على حكمةٍ وخبرةٍ بما يُصلحُ هذا الكونَ ويحقق التوازنَ في هذه الحياة.

* قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: « صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذرٌ لكل من بلغه هذا القرآنُ العظيمُ كائناً من كان، ويفهمُ من الآية أن الإنذارَ به عامٌّ لكل من بلغه، وأن كلَّ من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك، وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم» [١].

* معرفة أهل الكتاب بالنبي الخاتم من خلال كتبهم التي يؤمنون بها، فمع ما حدث لهذه الكتب من تحريف بالزيادة والنقصان والتبديل إلا أنها لا تزالُ تحملُ أثاراتٍ من الحق تشهد بصدق النبي ﷺ.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١ / ١٨٨ باختصار.

* أما كان من الأحرى لأهل الكتاب أن يكونوا من أول المؤمنين بالنبي ﷺ المناصرين له؟ بلى ولكنهم عرفوا الحق فجحدوه إلا من شرح الله صدورَهم منهم لقبول دينه.

فائدة حول حديث السورة عن رحمة الله.

ومع أن هذه السورة سيقت لإقامة الحجج على أهل الشرك وتفنيد شبهاتهم ومواجهة عنادهم وإعراضهم وتبديد أوهامهم وإبطال معتقداتهم الفاسدة وتقاليدهم البالية إلا أنها حملتْ لنا نسائمَ معطرةً بعبقِ الرحمة الإلهية ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فقدّم تعالى رحمته على إعلامه عبادَه بهذا اللقاء الموعود وذلك اليوم المشهودِ، ومن رحمته تعالى أن أمهل العصاة والمسرفين علَّهم يرجعون ويثوبون.

ثم تهبُّ نسائمُ الرحمات التي اختصَّ الله بها أحبابه الذين آمنوا بآياته وصدَّقوا برسله: قال تعالى﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ومن رحمته تعالى أن أمهل المعرضين وهو الغني عنهم:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، ثم يهزُّ تعالى بهذه الرحمة الواسعة قلوب المكذبين هزّاً علَّهم يخجلون من تكذيبهم ويستحيون من ربهم الذي لو شاء لعجَّل لهم العذابَ البئيسَ حيث لا رادَّ له ولا رجعةَ فيه ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ويبين سبحانه أن الرحمة من المقاصد الأساسية لإنزال الكتب: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

ثم كان مسكُ الختام بالرحمة التي تجلَّت مظاهرها وظهرت آثارُها وهبَّت نسائمُها ولاحت معالمُها في نهايةِ المطاف:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وحول رحمة الله تعالى نقتطفُ من كنوز السنة ما يلي:

* عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءاً وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ) (١).

* وعنه ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي) (٢).

وعنه ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٣).

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ) قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا) (٤).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب بَاب جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ حديث ٥٦٥٤، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٧ - (٢٧٥٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] حديث ٦٩٦٩، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٦- (٢٧٥١).

(٣) صحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٩- (٢٧٥٢).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله - حديث ٥٦٥٣، وصحيح مسلم كتاب التوبة. باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٥٤).

-٣-

في موقف الحشر

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المناسبة

بينت هذه الآيات مصير أولئك الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعا، فيسألهم سؤال التهكم والسخرية في موقف العرض حيث لا مفرَّ من الحقيقة التي طالما أعرضوا عنها في الدنيا وكذَّبوا بها، فيُعربون عن أسفهم ويُبدون ندمهم وحسرتهم على ما فاتهم ويُقرُّون بضلالِهم وانحرافهم بعدما كان منهم في الدنيا من مكابرةٍ وبَطَرٍ وامتراءٍ.

فيُقرعون بهذا الاستفهام الإنكاري ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟ أين تلك الآلهة المزعومة؟ وهكذا تنقلهم الآياتُ إلى هذا المشهد المهيب الذي ينتظرُهم بين يدي الحقِّ فهل يتعظون؟ ويتراجعون عن إعراضهم وصدودهم، ويقبلون على الحقِّ قبل فوات الأوان؟

التفسير الإجمالي

توبيخٌ وتهكُّم!

قال تعالى﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تنتقلُ بنا هذه الآياتِ الجليلةُ إلى صورةٍ حيَّةٍ من صورِ القيامةِ ومشهدٍ من مشاهدِ الحشر حين يُعرض أولئك المُعرِضون المتعنتونَ المكابرون على ربِّهم، ويمثلون أمام المحكمةِ الإلهيةِ العادلة، لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ويسألهم ربهم سؤال تهكُّمٍ وتوبيخٍ ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟

براءةٌ وحسرة

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

- **الفتنة**: بمعنى الاختبار والسؤال، والفتنة أيضا بمعنى الإعجاب يقال فلان افتتن بكذا إذا أعجبه ووقع في حبه، وعلى هذا فالمعنى: ثم لم تكن نهاية حبِّهم للأصنام لما سئلوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التبرؤ منها وإنكارها، أو المعنى ثم لم يكن جواب اختبارهم عن آلهتهم يوم القيامة إلا التبرؤ منها، «... وفي هذا توبيخ لهم كما تقول لرجل كان يدّعي مودّة آخر ثم انحرف عنه وعاداه يا فلان لم تكن مودَّتُك لفلان إلا أن عاديته وباينته...»[1]، أو ثم لم يكن جوابهم إلا الكذب على الله طمعا في النجاة بأي وسيلة[2].

قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فإذا قال لهم الله: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيختم الله على أفواههم

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤ / ١٦٥، ويراجع معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي ٢/ ٧ ويراجع: معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥ وروح المعاني للألوسي ٥/ ٢٧٦.

فتشهد عليهم جوارحهم(١).

ويؤيد هذا المعنى ما في الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمّ أَضْحَكُ؟) قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاّ شَاهِداً مِنّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَىَ فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمّ يُخَلّىَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنّ وَسُحْقاً، فَعَنْكُنّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)(٢).

- أو المعنى ثم لم تكن فتنتهم إلا الاعتراف بأنهم كانوا يعلمون الحقيقة وما منعهم من الإقرار بها إلا الجحود والكبر واتباع الهوى.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

تأمل يا محمد: كيف كذبوا على أنفسهم في الدنيا حيث عبدوا تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولم تغن عنهم من الله شيئا!

ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لتجردوا للحق وأخلصوا في طلب الهداية حتى يهتدوا لكنهم خدعوا أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤].

صدودٌ وإعراض

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

---

(١) يراجع معالم التنزيل للبغوي٣ / ١٣٥ ويراجع الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٥٤٣ وزاد المسير ٣/ ١٦.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - حديث ١٧ - (٢٩٦٩).

وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

موقفان للمشركين: هذا الموقف موقف في الدنيا حيث الكبر والعناد والغرور والإعراض والصد عن سبيل الله كما ورد في هاتين الآيتين، والموقف الذي أخبرت عنه الآيات السابقة واللاحقة موقف الذل والهوان والخزي والعار والحسرة والندامة والتجرد والتعري والمصارحة والإقرار.

وبيانٌ لأسباب الصدود والإعراض وموانع القبول بالحق والإذعان له: ومنها ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجبُ عن الحق، وما في آذانهم من وقر يحول دون سماعه وتدبره.

وإصرارهم على الكفر وشبهات المعاندين منهم التي تنطلي على عامتهم ومن بينها قولهم ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي: يأتون إليك ليسمعوا قراءاتك، فلا ينتفعون بها؛ لأن الله جعل ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ والأكنة جمع كِنان وهو ما يُستر به الشيءُ ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: صمما عن السماع النافع، فهُم كما قال تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات: لا يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومقتبسٌ منهم.

نهيٌ ونأيٌ

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ينهون الناس عن الاستماع إلى الحق واتباعه، وينأون بأنفسهم عن الاستماع إلى الحق خوف أن يتأثروا به فيقبلوا عليه، وقد غاب عنهم أن هذا الصدود والإعراض سيعجِّل بهلاكهم لكنهم لا يشعرون بذلك.

وقال أبو السعود رحمه الله: « ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعدِّه من قبيل الأساطير، بل ينهَوْن الناسَ عن استماعه لئلا يقِفوا على حقِّيته فيؤمنوا به ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، فإن اجتنابَ الناهي عن المنهيِّ عنه من متمِّمات النهْي، ولعل ذلك هو السرُّ في تأخير النأْي عن النهْي»[١].

وقال الثعالبي: « ونَفْيُ الشعور مذمَّةٌ بالغة؛ إذ البهائم تشعر وتحسُّ»[٢].

من مشاهد القيامة.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾خزيٌ وندامةٌ!

تحمل هذه الآيات وعيدا لأولئك المشركين المعاندين وتذكيرا لهم بموقف من مواقفهم العصيبة بين يدي رب العالمين، وفي الآيات تسليةٌ لخاتم النبيين والمرسلين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾:والتعبير بالفعل المضارع﴿ تَرَىٰٓ ﴾: لاستحضار تلك الصورة في ذهن المخاطب، ولو شرطية وجوابها محذوفٌ لدلالةِ السياقِ عليه، أو لتذهب النفسُ في تصوُّرِهِ كلَّ مذهب، وهذا من روائعِ الأساليب القرآنية.

لو تراهم يا محمد وهم خاضعون خانعون خاشعون من الذل، وعلى حافة جهنم واقفون قبل أن يُقذفَ بهم إلى قعرها السحيقِ، وقد تذكروا ما كان منهم في الدنيا من كفر وعناد وصدود وإعراض فندموا أشد الندم وتمنوا العود لإصلاح ما قد فات وطيي تلك الصفحات، وأنى لهم

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢ / ٣٦٨.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١ / ٥١٢.

ذلك؟ وقد حقَّ القولُ ووقعوا في المهالك!.

ولو ردوا كما يتمنون لعادوا إلى سالفِ عهدِهم وانتكسوا على أعقابهم وانغمسوا في شهواتهم وملذاتهم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

حين يرون النار رأي العين ويوقفون عليها يُعلنون الندم على جرائمهم والتبرؤ من شركهم ويتمنون العودَ للدنيا الفانية ﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾[١].

تجلت لهم الحقيقة التي كانوا يعرفونها، الحقيقة التي واجهوها بجحودٍ وإنكارٍ، الحقيقة التي اجتهدوا في طمسها وإخفائها، وسعى الجبابرةُ الطغاةُ منهم إلى حجبِها عن العامة والمستضعفين، الحقيقة التي كانوا يهربون من مواجهتها.

لكنها الآن متألقةٌ ومشرقةٌ، الآن يرونها رأي العين شاخصةً أمامهم ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾، بدا لهم الحقُّ الذي طالما تفانوا في طمس معالمه وتشويه صورته، بدت لهم نفوسُهم عاريةً بقبحها الذي كانوا يخفونه بتجمُّلهم وتزيينهم الأباطيل وزخرفتهم الأقاويل، بدت لهم النار رأي العين وكانوا في الدنيا ينكرونها ويُخفون أمرها ويمنعون الحديثَ عنها.

مع ذلك ومن العجيب من حالهم الذي يعلمه الله تعالى أنهم لو أجيبوا إلى ما يأملون لعادوا إلى سيرتهم الأولى، فما إنكارُهم وتكذيبهم إلا إتباعا للهوى وإعراضا عن الحق وتعاليا على أتباعه وجحودا وإنكارا، وأنفة واستكباراً ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ شأنُهم في ذلك شأنُ إبليس لعنه الله: عاين من آيات الله ثم عاند.

«وحاصل هذه الأقوال: أنهم عندما يقفون على جهنم ويرونها رأي العين تنكشف لهم

---

(١) قراءة حفص وحمزة بالنصب بـ (أن)المضمرة بعد جواب التمني ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾، ﴿ وَنَكُونَ ﴾وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني والباقون برفعهما. يراجع النشر في القراءات العشر ٢/ ١٩٣.

الحقائق وتظهر الخفايا والسرائر، ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعا على حقيقتهم التي كانوا يتسترون عليها في الدنيا»(١).

النظرة القاصرة لحقيقة الدنيا.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بين الله تعالى في هذه الآيات سببا من أسباب صدودهم عن الحق وهو نظرتهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل، في مقابل إنكارهم للبعث وما وراءه من ثوابٍ أو عقابٍ، وتحمل لهم الآيات وعيدا شديدا وتذكرهم بموقفهم بين يدي الملك الجبار، خاشعين من الذل وهو يسألُهم سؤالَ تبكيت وتوبيخ ﴿ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ فيجيبون وأنى لهم الهرب من الجواب الذين يعرفونه منذ أن كانوا في الدنيا لكنهم امتنعوا هناك عن الإجابة حين كانت تنفعهم، لكنهم اليوم يجيبون حين لا يجدي الجواب بل يصير حجةً عليهم ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾: وبعد أن شهدوا على أنفسهم وأقروا بما كانوا يجحدونه في الدنيا، فليذوقوا جزاء تكذيبهم بعد شهادتهم وإقرارهم بجريمتهم، وهنا يأتي الأمر الإلهي الذي لا رجعة فيه ولا معقِّب له يجيء بالحكم العادل والقضاء الحق والأمر النافذ ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾.

فيا حسرةً عليهم من هذا الموقفِ العصيبِ، ويا لهولِ هذا المشهد الرهيب وهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أصابع الندم ويذرفون دموعَ الألم حيث لا شكوى تُسْمَعُ منهم ولا رحمة تنزل عليهم.

الخسران الأعظم

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام تأليف الشيخ عبد الحميد طهماز ص٣٣ بتصرف.

وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

خسروا كلَّ ما ربحه المؤمنون في الدنيا من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانشراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعةَ التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكُربةِ بخسارة الأهل وفراقِ الأحبة.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم وخسروا دنياهم وأخراهم بسبب تكذيبهم بلقاء الله، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أبدوا الندم عندما باغتتهم الساعةُ، وأعلنوا الحسرة على تفريطهم في الدنيا وهي رأس مالهم، وتفريطهم في شأن الساعة حيث لم يؤمنوا بها ولم يستعدوا لها، وهم مع اشتداد الخطوب وإحاطة الكروب مع شدة الزحام وتلاصق الأقدام: يكابدون حمل الأوزار على ظهورهم وقد أثقلت خطاهم وأنهكت قواهم وأرهقت أجسادهم فبئس الحامل والمحمول.

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

حقيقة الدنيا

ثم أبطل الله تعلقهم بالدنيا فبين أن متاعها قليل وإلى الفناء تصير لا تدوم لأحد ولا يدوم لها أحد فقال سبحانه ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. فلحظات الصفا وأوقات الهنا فيها قليلة ضئيلة سرعان ما تزول، أما الآخرة: فنعيم مقيم، ومقام كريم، وعيش رغيد، وعطاء مديد، وملك لا يبيد، في جنات الخلود.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة: حيث تعرِضُ لركنٍ أساسيٍّ من أركان العقيدة وهو الإيمان باليوم الآخر ومواقف المشركين في هذا اليوم العظيم، وإقرارهم واعتذارهم وأسفهم وحسرتهم على ما كان منهم في الدنيا من تكذيب وإعراض،

وصدودٍ واغترارٍ وتعلُّقٍ بأهداب الدنيا الفانيةِ وحبالها البالية، وتمنيهم عند معاينةِ أهوالِ الحشرِ وعرَصاتِ القيامةِ العودةَ إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم ويغيِّروا مسارَهم ويُصَحِّحوا عقيدَتهم ويُصلِحوا آخرتهم، بعد أن أدركوا حقيقة الدنيا الفانية ونعيمها الماحِل ومتاعها الزائل.

الهدايات المستنبطة

* مصير الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعا حيث المذلة والهوان والحسرة والندم والتراجع عن مواقفهم التي أصروا عليها في الدنيا.

* من أسباب صدودهم عن الحق: ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجب عن الحق، وما في آذانهم من وقر يحول دون سماعه وتدبره، فضلا عن نظرتهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل.

* إن الخُسارة الحقيقية، هي الخُسارةُ التي لا تعدلها خُسارة، ولا يمكن جبرُها أو تعويضُها أو النهوضُ منها أو التفلُّت من مغبَّتها ونتائِجها وتبِعاتِها، هي خُسارة الكافرين لدنياهم وأخراهم؛ ففي الدنيا خسروا كلَّ ما ربحه المؤمنون من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانشراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعةَ التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكُربةِ بخسارة الأهل والأحبة.

* تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده؛ وتعريهم من الشرك الذي مارسوه في حياتهم الدنيا، ولكن بعد فوات الأوان وانطواء صحائف الأعمال واستحالة العودة إلى الدنيا.

* « ألا فليتأمل العاقل مصير هؤلاء، وما يؤول إليه حالهم من الاضطراب والقلق وتمني الخلاص من العذاب الشديد»[١].

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة الزحيلي ٤/ ١٨٢ .

- ٤ -

تسلية وتثبيت

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن أحوال المشركين في الدنيا ومواقفهم المخزية في الآخرة وإقرارهم بما كانوا يجحدونه في الدنيا وفي هذا إنذارٌ لهم مع ما تحمله الآياتُ من تثبيتٍ لفؤادِ النبي ﷺ وتسليةٍ له: يعودُ السياقُ إلى بيانِ جملةٍ من أسبابِ صدودِهم وإعراضِهم عن الحقِّ، لإقامةِ الحجَّةِ عليهم ولتسليةِ النبي ﷺ الذي واجه كثيرا من المحن والعقبات على طريق الدعوة، وفوجئ بما لم يكن يتوقعه من تكذيب قومه وهم الذين كانوا يصفونه بالصادق الأمين ويودِعون عنده أماناتهم ثقةً به واطمئنانا له.

التفسير الإجمالي

بينت هذه الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بما يفعله أولئك المشركون، وأن علةَ ما هم عليه من صدودٍ: هو ما تنطوي عليه نفوسهم من مكابرةٍ وجحود، قال تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ولقد ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن السدي قال: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما

كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [1].

أيكذبونه حين يجيئهم بالخير من عند ربهم؟ لقد كاد قلبه ﷺ ينفطرُ حزنا عليهم وحسرةً على بعدهم عن الحق، فتجيء الآياتُ بتسليته ﷺ وتعزيته وبيان أنهم لا يكذبونه بل يعلمون صدقه وأمانته، ولكنه الجحود بآيات الله والاستكبار عن الحق، وهذه سنة الله عز وجل في الدعوات أن تواجه بالتكذيب والصدود، فيثبت الله قلوب أنبيائه وأوليائه ويلهمهم الصبر واليقين، حتى ينالوا النصر والتمكين.

قال تعالى﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وماذا تملك لهم يا محمد وهم مكابرون معاندون، وليس لديهم أدنى استعداد لقبول الحق، مهما عاينوا من الآيات.

قال الإمام القاسمي في محاسن التأويل: « في هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه إلى حيث لو قدر أن يأتيهم بآيةٍ من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم وشفقةً عليهم» [2].

وفي المقابل أفادت الآية بيان إصرار المشركين على الإعراض والتكذيب مهما عاينوا من آيات.

وقال الإمام الطبري: « يقول تعالى ذكره: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار، يا محمد، فيحزنك تكذيبهم إياك، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدِّين، وصوابٍ من محجة الإسلام، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة، لجمعتهم على ذلك، ولم

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٢٣.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٥١٠ .

يكن بعيداً عليَّ، لأنّي القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم وأصوِّر أجسامهم»[١].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لو شاء تعالى هدايتهم لهداهم، فلا تكونن بحرصك على ما لم يشأ الله لهم﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾بمقام الله تعالى وسننه في خلقه؛ فلا تأسف ولا تحزن على أمر أراده الله وأمضاه، فهو تعالى أعلم بخلقه.

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

كشفت لنا هذه الآيات عن جملةٍ من أسبابِ إعراضِهم وتعنتهم وهو ما هم عليه من مكابرةٍ وجحودٍ، ثم دعا الله نبيه ﷺ للتأسي بمن سبقه من الرسلِ عليهم السلام فلقد كُذِّبوا وأوذوا فصبروا وثابروا على دعوتهم، حتى أتاهم النصر المبين، وتلك سنةٌ من سننه تعالى التي لا تتحول ولا تتبدل، سنةُ إهلاكِ المكذبينَ، ونصرِ عبادِه المؤمنين.

الهدايات المستنبطة

* جرت سنة الله عز وجل في الدعوات أن تواجه بالتكذيب والصدود، ويثبت الله قلوب أنبيائه وأوليائه ويلهمهم الصبر واليقين حتى ينالوا النصر والتمكين.
* الدعوة إلى التحلي بالصبر والثبات في مواجهة أعداء الدعوة، فهو السلاح المضَّاء في مواجهة المكائد والتحديات.
* الدعوة إلى التأسي بالأنبياء عليهم السلام في صبرهم وثباتهم ففي ذلك ما يهوِّن المصاب ويثبت الفؤاد ويُجِمُّ القلب ويسرِّي عن النفس، وهو سلوة الحزين، ودواءُ المبتلى: وقديما قالت الخنساء في رثاء أخيها:

يـذكـرني طـلـوعُ الـشـمـسِ صخراً		وأذكـــــرُهُ عـنـد غـــروبِ شمسي

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٧/ ٢١٥، ٢١٦.

فلولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخوانِهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أُعَزِّي النفسَ عنه بالتأسي

* طريق الدعوات ليس مفروشا بالورود والرياحين بل محفوف بالعقبات والأشواك والمخاوف والمكاره، وبالصبر والثبات واليقين يتحقق النصر ويتم التمكين.

* سنن الله تعالى في هذا الكون ثابتةٌ لا تتبدل ولا تتحول؛ فعلى الدعاةِ أن يتبصَّروا بها.

- ٥ -

لماذا الإعراض؟

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المناسبة

ما زال الحديث موصولا حول تسليةِ النبي ﷺ وتثبيتِ فؤادِه، وإقامةِ الحجج على المعرضين، وبيان أسبابِ صدودِهم عن الحقِّ وإعراضِهم عنه، وهو أنهم لا يسمعون سماعَ حرصٍ على الهُدى، وأنهم في عدادِ الأموات، صُمَّت آذانُهم وعميَتْ بصائرُهم وماتت قلوبُهم فأنى لهم الاستجابة: وقد قيل:

وقد أسمعتَ إذ ناديتَ حيّاً ولكن لا حياةَ لمن تنادي

أما عن مطالبهم المتعنتةِ فما هي إلا مكابرةٌ وعنادٌ، وجهلٌ بسننِ خالقِ العبادِ، فإنهم والله ما عرفوه حقَّ معرفته وما قدروه حق قدره، وكيف يُطالبون بآياتٍ وقد عمُوا وصموا عما حولهم

من آياتٍ مبثوثةٍ وأدلةٍ ملموسةٍ وشواهدَ جليَّةٍ تنطقُ بعظمةِ الخالق وكمالِ قدرتِه وبالغِ حكمتِه، وسعة ملكِه، وعظيم سلطانِه وإحاطةِ علمِه!

التفسير الإجمالي

موتى القلوب!

لماذا يُعْرِضُونَ والآياتُ تتلى والحجَجُ تَترى؟ لماذا يُعْرِضُونَ وهم يعلمون صدق النبي ﷺ فيما جاء به؟ لماذا يُعْرِضُونَ والبراهين تهزُّهم هزّاً؟ لماذا لا يستجيبون لصوت الحقِّ النقيِّ الشجيِّ؟

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾:

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع القلب والاستجابة، ويتلقون البراهين بالقبول، وإن من تحرص على هدايتهم واستجابتهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب لك من يسمع.

أما الموتى: موتى القلوب فإن موعدهم حين يبعثهم الله ثم يحاسبهم حسابا عسيرا ويعذبهم عذابا شديدا جزاءَ إعراضِهم ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

ونظير هذا قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[النمل: ٨٠، ٨١]

قال الإمام الرازي: « وأما قوله﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾: ففيه قولان: **الأول**: أنه مثلٌ لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة، والمراد: أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثم إليه يرجعون للجزاء، فكذلك هاهنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه.

والقول الثاني: أن المعنى: وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، فحينئذ

يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم»[١].

إصرارٌ عجيبٍ ومنطِقٍ غريبٍ!

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إصرارٌ عجيب على مطالبَ تدلُّ على تعنتهم وعنادهم وجهلهم؟ فالآياتُ تتجلى من حولهم: آيات الأنفس والآفاق، وآيات القرآن وهو المعجزةُ الكبرى.

ومع ذلك يصرون على المزيدِ من الآياتِ! وهل قدرةُ الله تعالى تحتاج إلى إثباتٍ؟ كلا! واللهِ، ولكنه الصدودُ والإعراضُ، ولو أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوه ما آمنوا بل تمادوا في مطالبهم التي لن تتوقف.

وفي اللباب: « لمَّا ظهرت المعجزةُ القاهرةُ، والدلالة الكافية لم يَبْقَ لهم عُذْرٌ ولا عِلَّةٌ، فبعد ذلك لو أجَابَهُمُ الله - تعالى - إلى اقتراحهم فَلَعَلَّهُمْ يقترحون اقْتِرَاحاً ثانياً وثالثاً ورابعاً إلى ما لا نهاية له، وذلك يفضي إلى ألاَّ يَسْتَقِرَّ الدليل ولا تَتِم الحجة، فوجب سَدُّ هذا الباب في أوَّلِ الأمر والاكتفاء بما سَبَقَ من المعجزة القاهرة»[٢].

وإنما هذه المطالب: بسبب تعنتهم وعنادهم وغفلتهم وجهلهم بقدرة الله تعالى التي تنطق بها مخلوقاته، وتشهدُ له بالعظمة المتجليةِ في كلِّ ما أبدعه من كائناتٍ وما بثَّه في هذا الكون من عوالم ومخلوقات ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾: أممٌ وعوالمُ لا يحصيها عدّاً إلا خالقُها وباريها.

والكتاب هنا هو اللوح المحفوظ بدليل سياقِ الآيةِ الكريمةِ ومضمونها: ويدلُّ على ذلك ما ورد في نفس السورة:﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ

(١) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٥٢١.

(٢) اللباب لابن عادل ٦ / ٤١٩، ويراجع: فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٣.

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)[1].

فإذا كان الله تعالى يحشر تلك العجماء ليفصل بينها ويقتصَّ لمن ظُلِم منها، فإن حشرَ أولئك الذين ملئوا الدنيا ظُلما وجورا من باب أولى؛ فالله تعالى لا يغفل عن أولئك الطغاة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

حُجَّةٌ بالغةٌ

من مظاهر القدرة الإلهية

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ إن هذه العوالم التي تعيش من حولنا لتشهد بقدرة الله تعالى وبديع صنعه؛ فالله تعالى قادرٌ على أن ينزل الآيات التي طلبوها لكنهم لن ينتفعوا بها.

تخبطٌ في الظلمات

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

---

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم حديث ٦٠ - (٢٥٨٢) ورواه الترمذي في السنن أبواب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص- حديث ٢٥٣٥.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك المكذبين بآيات الله المعرضين عن الحجج الساطعات مثلهم في تخبطهم وضلالهم وعجزهم وضياعهم كمثل أصمٍّ أبكم لا يسمع ولا يتكلم وهو مع ذلك يتخبط في الظلمات فلا يرى بصيصَ نورٍ ولا يبصرُ طريقَ هدى.

ظلمات عديدة يتخبطون فيها: ظلمة التكذيب والإعراض، وظلمة الشرك، وظلمة الجهل، وظلمة التعصب الأعمى، والتقليد المذموم، وظلمة الشهوات والأهواء، ولو شاء الله تعالى لبصَّرَهم وهداهم صراطَه المستقيم، ولكنه تعالى عليمٌ بخباياهم مطَّلعٌ على أحوالهم، ولو علم فيهم خيرا لهداهم وأسمعهم سماعَ إجابةٍ وقبولٍ.

ضعف وافتقار!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

وهم مع هذا العناد والإنكار والإعراض والاستكبار ضعفاء مفتقرون إلى ربهم، فإذا حل بهم بلاء أو نزلت بهم نازلة علموا أنه لا يكشفها إلا الله وحده فتوجهوا إليه مخلصين تاركين أصنامهم التي نافحوا عنها وهم يعلمون أنها لن تغني عنهم من الله شيئا، فإذا كشف الضرَّ عنهم عادوا إلى شركهم وإعراضهم، فهذا حالهم عند الشدة والبلاء ضعفٌ وانكسارٌ واستكانةٌ وافتقارٌ، فإذا انكشفَ البلاءُ عادُوا إلى الجحودِ والاستكبارِ.

فالآية تخاطبُ ضمائرهم ومشاعرهم وتذكرهم بحالهم وعودتهم إلى الفطرة حيث الإخلاص والتجرد في الدعاء عند الشدائد والمحن؛ طمعا في النجاة﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ ألستم تتوجهون إلى الله وحده في لحظة من الصدق تفرضها عليكم وطأةُ المحنةِ؟ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ أليست هذه هي حالُكم عند الشدائد؟ أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء وتنسونه في حال اليسر والرخاء؟ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ بل تخصُّونه وحده بالدعاء وتتوجهون إليه وحده بفطرتكم وقلوبكم فيستجيب لكم ويكشف عنكم ما نزل بكم.

الصلة بين هذا المقطع ومحور السورة

تنتظمُ آيات هذا المقطع مع محور السورةِ الكريمة؛ حيث تقريرُ العقيدة الصحيحة بما تضمنته الآياتُ من بيانِ كمال قدرته تعالى وعظمةِ سلطانه وإحاطةِ علمه وشمول ملكه، وبما أبانته من أسبابِ صدودِ المشركين، مع تتابعِ الحجج وتسلسل البراهين، فأنى لهم الاستجابة وهم موتى لا يسمعون؟ وكيف يطلبون المزيد من الآيات، وهم عما حولهم من آياتٍ ظاهرةٍ ودلائلَ باهرة عَمُونَ غافلون؟ كما تكشفُ لنا الآياتُ عن حالهم عند الشدائد والمحن وهم ضارعون خاشعون مخلصون لله في الدعاء، فإذا انكشف البلاء وارتفعت المحنة عادوا إلى سالف عهدهم وارتدوا على أعقابهم!

الهدايات المستنبطة

* إنما يستجيب لدعوتك أحياء القلوب، الذين صفت سرائرهم، وتعلقت نفوسهم بالحق، أما موتى القلوب فأنى لهم الإستجابة؟
* الإستجابة للحق تتطلب سماع إصغاءٍ وفهمٍ وتدبُّرٍ، وحرصٍ على الانتفاع، وهذا مسلك الحريصين على الحق الناشدين له، أما المعرضون فإنهم لا يسمعون سماع تدبرٍ ولا ينظرون نظر إمعانٍ ورويَّةٍ فقد ماتت قلوبهم وصُمَّت آذانهم.
* في قوله تعالى﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾: « دليلٌ على أن الكتاب الأول، قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد» (١).
* الإيمان حياة القلوب ونور البصائر، وأولئك الكفرة المعاندون حرموا أنفسهم من هذه الحياة ورضوا بالعيش في الظلمات، ورضوا بأن يحسبوا في عداد الأموات وقد قيل:

النـاسُ صنفانِ مـوتَـى في حياتِهُمُ   وآخــرونَ ببطنِ الأرضِ أحـيـاءُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٥، ٢٥٦.

* ما زال المشركون مصرين على طلب الآيات، وقد علقوا إيمانهم بها، والله تعالى قادر على إنزال الآيات التي اقترحوها، ولو شاء لأنزلها، ولكنهم يغفلون عن سننه تعالى ولا يعرفونه سبحانه حق معرفته.

* بيَّن تعالى أن في الكون آياتٍ باهرة وعوالمَ ظاهرةً تشهد لله تعالى بكمال قدرته وعظيم حكمته فكيف يغفل عنها الغافلون! أم كيف يعرضُ عنها المعرضونَ! وهي آياتٌ محسوسةٌ وملموسةٌ، آياتٌ حسيةٌ ماديةٌ تشهد لله تعالى بوحدانيته.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أقول: الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى وفقا لعلمه وحكمته، وهذه الآية مجملةٌ لها بيانٌ في آياتٍ أخرى عديدة منها قوله تعالى ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧] وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

* ما من سالكِ طريقَ الحقِّ بصدقٍ وتجرُّدٍ وعزيمةٍ واجتهادٍ إلا وُفِّقَ إليه.

* في الآيات الكريمة أدلة متنوعة وحجج ساطعة، منها أدلة العناية وأدلة الفطرة وغيرها من الأدلة التي تشهد بأن لهذا الكون إلها واحدا قادرا عليما حكيما هو الله تعالى الذي تتجلى قدرتُه في كلِّ ذرَّةٍ من ذراتِ هذا الكون.

* يخاطب الله تعالى فطرتهم حين يصدُقُ توجهُهُم إلى ربهم ويخلصون له الدعاء عند الشدائد والمحن، وهذا من البراهين الدالة على أن التوحيدَ قضيةٌ بديهيةٌ، يسلم لها القلب إذا صفا وتجَرد، أما تلك الأصنام التي ينافحون عنها ويستبشرون بذكرها ويقدمون لها القرابين فإنها في غمرةِ النسيان عندما تدلهم الخطوب وتنزل المحن ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

- ٦ -

سننٌ ربانيّة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المناسبة

جولةٌ أخرى مع أولئك المعرضين المعاندين، وجملةٌ من الحجج والبراهينِ، وتذكيرٌ بسننِه تعالى في الأوّلين، وبأسِه الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين، وفي ذلك أبلغ العبرِ وأعظم النذر لأولئك المكابرين الجاحدين، ومن بين هذه السنن التي تُذكِّرُ بها الآياتُ: سنة الابتلاء وسنة الاستدراج، كما تُذكِّرُ بنعمه تعالى التي إن شاء سلبها عمن لا يؤدي حقَّها ويرعى أمانتها.

التفسير الإجمالي

يدورُ الحديثُ في هذه الآيات عن إرسال الله تعالى إلى الأمم السابقة وابتلائهم وموقفهم من تلك الرسالات، وأسباب صدودهم وإعراضهم عن تلك الدَّعوات، وعاقبة ذلك، وهذا من أبلغ النذر، وأعظمِ العبر، ولكنَّ المشركين قد صُمَّت آذانهم وعميت أبصارهم وقست قلوبهم فلا ترعوي ولا تعتبر بمصارعِ السابقين، وعاقبةِ المُكذّبين، وهنا يلتفتُ الخطابُ إليهم مُذّكِّرا بتلك النعم التي لم ينتفعوا بها نعمة السمع والبصر والقلب، ومحذِّرا من سلب تلك النعم التي لم يؤدُّوا شُكرها ولم يوفوا بحقِّها، ثم توعدهم الله تعالى بمصير من سبقهم من المكذبين، وماذا يكون حالُهم حين يباغتهم العذاب أو يأتيهم جهرةً قد لاحت في الأفق مقدماتُه وظهرتْ

بوادرُه وبدتْ علاماتُه.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

بيانٌ لسنة الابتلاء: حيثُ الابتلاءُ الجماعيُّ للأمم والشعوب كالابتلاء بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ وذلك تمحيصاً لها وتَصحيحاً لمسارها، وإصلاحاً لفسادها وإزالةً لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريدا للقلوب وترقيقا للمشاعر وتوجُّها إلى الله تعالى، فترى الأكفَّ ضارعةً والأعينَ دامعةً والقلوبَ خاشعةً، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائدُ إلا قسوةً وعنادا، وصدودا وإعراضا، فتصبُّ أنهارُ المحنِ في بحارِ الذنوبِ، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبةِ والخسرانِ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

تلك هي سنة الاستدراج: حيثُ يُستأنفُ الاختبار من جديدٍ، لكنه هذه المرة يكون أشدَّ صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنةُ الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابَها ففرحوا بها أوتوا فَرَحَ العُجبِ والاغترارِ والخُيلاءِ والاستكبارِ، فَرِحوا بالنعم وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحِهم بالمعاصي والموبقات؛ تعبيرا عن الفرحة بها أوتوا من ظلٍّ زائلٍ وعاريةٍ مستردَّة، حتى يبلغَ بهم هذا الفرحُ المذمومُ المشئومُ نهايةَ الطريق: طريقِ الهاوية﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾: حزانى آيسون من كلِّ خير، نادمونَ على كلِّ ما وَقَعَ منهم﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾: قطع الله دابرهم فأهلك أولهم وآخرهم ونجَّا عباده الصالحين من شرورهم ومفاسدهم وعافاهم من ظلمهم وشؤمهم فالحمد لله على أن أراح منهم العباد والبلاد.

تعقيبٌ

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾: ما زال السياق في محاورة المشركين وقرعهم بالحجج والبراهين، وفي هذه الجولة يتوعدهم الله تعالى بسلب نعم من أجلِّ النعم عليهم: نعمة السمع ونعمة البصر؛ ونعمة القلب، كما سلب الله تعالى نعمَه عن المكذبين من الأمم الخالية، « وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا»[(١)].

﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ فإذا سلبهم الله هذه النعم التي أنعم عليهم بها فمن يضمنُ لهم ردَّ تلك النعم المسلوبة؟ وأين آلهتهم المزعومة؟

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾: حججٌ باهراتٌ وآياتٌ بيناتٌ، متنوعةٌ ومتتابعة، تدلُّ على قدرة الله تعالى وتفرده بالوحدانية، وهم يصدفون عنها مع وضوحها وجلائها! وأصل الصدف: الميل والإعراض[(٢)].

قال أبو السعود رحمه الله: «... انظر كيف نكرِّرها ونقرِّرها مصروفةً من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، تارةً بترتيب المقدِّمات العقلية وتارةً بطريق الترغيب والترهيب، وتارةً بالتنبيه والتذكير ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾... ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد صدوفهم أي إعراضِهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديعِ الموجبِ للإقبال عليها»[(٣)].

---

(١) لباب التأويل للخازن ٢/ ١٣٤.

(٢) يراجع المصباح المنير للفيومي ص ١٧٥ ومختار الصحاح للرازي ١٥٠ ص مادة ص د ف.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٣٨٣، ٣٨٤ باختصار.

ثم يتوعدهم جل وعلا بعذاب يأتيهم بغتةً دون سابق إنذار أو جهرةً قد ظهرت أماراته ولاحت في الأفق علاماته ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ «ما يهلَكُ هلاكَ تعذيبٍ وسُخْطٍ إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم»[1].

الصلة بين المقطع ومحور السورة

من أصول العقيدة الإسلامية الإيمانُ بالسننِ الربانيةِ الثابتةِ في هذا الكونِ والتي تدلُّ على قدرة الله تعالى وحكمتِه وإحاطة علمِه وتمام عدلِه وسعةِ رحمتِه ولطفِهِ بأوليائِهِ، وقد تضمنت آياتُ هذا المقطع جملةً من هذه السننِ الربانية مع التذكير بأعظم النعم الإلهية: نعمة السمع والبصر والفؤاد، في سياق تقرير أصول الدين وتسليةِ المصطفى الأمين، وإقامةِ الحجج على الكافرين، وتنبيهِ الغافلينِ.

الهدايات المستنبطة

* من السنن الربانية الواردة في هذه الآيات: سنةُ الابتلاء، وسنةُ الاستدراج وسنةُ إهلاك المكذبين.
* في قوله:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي على هلاكهم: « تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التي منْها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم»[2].
* في الآيات الكريمة تهديد لهم بأن يصيبهم مثلُ ما أصاب من قبلهم من الأممِ الهالكةِ أو أن يسلبَهم اللهُ تعالى تلك الحواس المعطلةَ: حاسةَ السمعِ والبصرِ، ويختمُ على تلك القلوبِ

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٢/ ١٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٦.

القاسيةِ التي لا تعتبرُ بالآياتِ ولا تسلِّم بالحججِ ولا ترعوي بالنذر.

* إعراض المشركين عن الآيات مع مجيئها على وجوه متعددة وبأساليب متنوعة تارة بالإجمال وتارة بالتفصيل وتارة بالعرض وتارة بالتحليل ومرة بالترغيب وأخرى بالترهيب، مع تتابع الحجج وتجلي البراهين ثم هم يميلون عن الحق مع هذا التصريف البديع.

- ٧ -

مهمة الرسل عليهم السلام

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

المناسبة

وجوه الارتباط بين هذه الآيات وما قبلها واضحةٌ جليَّةٌ: منها الحديث المشترك عن

الرسل والرسالات، فآيات المقطع السابق تحدثت عن موقف أمم سابقة من دعوات المرسلين، وما ترتب على تكذيبهم وإعراضهم من ابتلاء أعقبه استدراجٌ ثم استئصالٌ وفي هذه الآيات حديث عن الحكمة من إرسال الرسل وتصحيحٌ لتصورات المشركين الخاطئة حول الرسلِ والرسالات وبيان مهمةِ الرسولِ ﷺ والإجابةِ عن مقترحاتهم التي يصرُّون عليها.

التفسير الإجمالي

في هذه الآياتِ الكريمةِ: بيانٌ لمهمةٍ أساسيةٍ أرسلَ اللهُ تعالى من أجلها رسلَه عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار:﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارَينِ، والإنذار للمكذبين بالخسران المبين والعذاب المهين

وفي تلك الآيات ردٌّ على اقتراحات المشركين التي تدلُّ على جهلهم بحقيقة الرسالةِ ووظيفةِ الرسلِ من ذلك قولهم آنفا كما أخبر القرآن ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾، وقولهم كما ورد في سورة الإسراء ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

- ثم تصحح الآيات نظرةَ المشركين المادية، وتصورَهم الخاطئ لمهمة الرسول ﷺ قال تعالى﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم يبين حدودَ مهمته التي أُرْسِلَ من أجلها: وهي إتباع الوحي﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي فما أنا إلا متبعٌ للوحي لا أحيدُ عنه، ثم يوجه لهم هذا الاستفهام﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلا يمكنُ بأي حالٍ أن يستوي الأعمى والبصير، الضال والمهتدي، من عرف طريق الحقِّ فلزمه، ومن أعرض عن الحق وتنكَّب عن الصراط! ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أفلا تتفكرون في هذه الأمور الواضحة، التي لا لبس فيها ولا غموض؟ وفي هذا تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلت، وإنكارٌ عليهم تعطيلَهم لعقولِهم، كيف تغفلُ عن هذه الحججِ الواضحةِ، وتتخبطُ في ظلماتِ الجهلِ ومتاهاتِ الكفرِ.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْلِمَهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون، وأنه ليس بملَكٍ حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر، إنما هو نبيٌّ مرسَلٌ، مُتَّبِعٌ لما يوحى إليه من ربه عز وجل، فإذا أخبر عن غيبٍ فبوحيٍ من الله إليه.

ذلك: أن القوم كانوا يَقْتَرِحُون عليه إظْهَارَ معجزاتٍ قاهرةٍ، كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال تعالى في آخر الآيات: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني: أَنَا لا أَدَّعِي إلاَّ الرسالةَ والنُّبُوَّة، وهذه الأمور التي طلبتموها لا يمكن تحصيلها إلاَّ بقدرة الله.

منطلقٌ حواريٌّ

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾: أنذر بهذا القرآن من ينتفعُ بهذا الإنذار من المؤمنين المخلصين الذين يخافون من يوم الحشرِ، فيعملون لهذا اللقاء الذي لا يغيب عن بالهم ولا يفارق خواطرَهم، وأنذر به كل من يؤمن بهذا اليوم ويقر به من طوائف المشركين

وأهل الكتاب، وذلك بأن يكون الإيمان بيوم الحشر: قاعدةً مشتركة وركيزة ثابتة ومنطلقا حُوَارِيّاً؛ للبحث عن الزاد الحقيقي لهذا اليوم والطريق الصحيح للنجاة من أهواله وعقباته فالطريق: طريق القرآن والزاد: مخافة الرحمن.

قال الإمام الشوكاني: « وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك» [(١)].

وقال الخازن: « قال ابن عباس: يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال. وقيل: معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كلُّ معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خصَّ الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر» [(٢)].

﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه سبحانه إن أراده بهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم به الله يوم القيامة من عذابه.

لفتةٌ إلى المؤمنينَ

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٩.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢ / ١٣٥ باختصار.

ﵟٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥ﵞ.

في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذةِ الضلال ودعاةِ الحقِّ ومصابيح الهدى، لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرفَ كلَّ جهده في محاورة خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغلَ عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانِه وجُهده إليهم فإنهم غرسٌ مثمر وثمرةٌ مباركةٌ.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْدٍ ﷺ قال فِيَّ نَزَلَتْ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ: أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ تُدْنِي هَؤُلَاءِ؟ [(١)].

وفي روايةٍ أخرى لمسلم بسنده عَنْ سَعْدٍ ﷺ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ [(٢)]

والظاهر أنه ﷺ همَّ بأن يعقد مجالس خاصةً بالأغنياءِ؛ إجابةً لمطلبهم، وحرصا على هدايتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة بيانا لمنزلةِ أولئك المؤمنين وإن كانوا فقراء مستضعفين فإن منزلتهم عند الله عظيمةٌ، والإسلام: منهجٌ واضح ودين واحد، ينضوي تحت رايته جميعُ الناس فقيرُهم وغنيهم، ضعيفُهم وقويهم فكلهم في دين الله وشرعه سواء، قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات: ١٣].

---

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ حديث ٤٥- (٢٤١٣).

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ﷺ باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ حديث ٤٦- (٢٤١٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [(١)].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ﷺ قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناسُ ألا إنَّ ربَّكُمْ واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسودَ ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى [(٢)].

وقد بينت الآيةُ الكريمةُ حالَ أولئك المؤمنين ومداومتَهم على الذكر والعبادة، وتعلقَ قلوبِهم في جميع أحوالهم وسائر أوقاتهم بالله تعالى ذكرا وقُرباً وتضرُّعاً وحبّاً، وسعيا إلى رضاه وابتغاء وجهه الأعلى﴿ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾.

﴿ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، والغنى والفقر أمرٌ قدَّره الله تعالى وقسَّمه بين خلقه لتستقيم الحياة، والداعيةُ لا يقبل المساومات والإغراءات على حساب دعوته فيستجيب لأهواء المشركين ويسلِّم لهم بما لديهم من تكبُّرٍ وازدراء لمن دونهم، إذ كيف يرضى بهذا الظُّلم البيِّن والتعصُّب المقيتِ؟ وإنما جاء الإسلام لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله حديث (٣٤ - (٢٥٦٤).

(٢) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ٥ / ٤١١ وإسناده صحيح إلى أبي نضرة إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابيا، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ٥٧٨ برقم ٥٦٢٢ – وقال: « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، ولقد ورد الحديث متصلا عند الطبراني والبزار حيث رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ كما في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٢ / ٤٣٥ حديث ٢٤٤ – ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ٥ / ٣٧٦ حديث ٤٧٤٦ – وقال الهيثمي في المجمع: " رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ورجال البزار رجال الصحيح ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ". مجمع الزوائد ٨ / ٨٤.

علمه تعالى بمن يستحقُّ الهداية

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾: ثم بين تعالى أنه جعل إيمان هؤلاء المستضعفين فتنةً لجهابذة الكفر الذين قالوا كبراً وعناداً كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف: ١١]، لكنه تعالى أعلم بمن يستحقُّ الهداية، وهم لا يفهمون حقيقةَ هذا الدين الجديد الذي جاء بعقيدة التوحيد ومبدأ الوحدة والمساواة بين الناس فلا فرق بين عربيٍّ ولا عجميٍّ ولا بين فقير وغني إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وسنة الله في تاريخ الدعوات الصادقة أن أغلب من يحمل لواءها ويسير في موكبها هم الفقراء والضعفاء، ولذلك لما سأل هرقلُ أبا سفيان عن أحوال النبي ﷺ ودعوته وأتباعه... قال هرقلُ: فأخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟ قال أبو سفيان: قلتُ: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه، فلم يتبعه منهم أحدٌ... ثم قال هرقل لأبي سفيان:... وسألتُك عن أتباعه، فزعمتَ أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء؛ وكذلك أتباعُ الأنبياء في كل زمان.[1]

فكان المشركون يسخرون من المؤمنين ويزدرونهم، وكانوا يقولون: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرا - ويدعنا، كما قالوا﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ [مريم: ٧٣].

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢ / ٢٨ والبداية والنهاية لابن كثير ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ ٢/ ٢٨.

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم: ٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ يعلم أقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيما.

سلام عليكم

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾. (سورة الأنعام).

ثم تمضي الآيات الكريمة بهذه اللفتة الحانية إلى تلك القلوب المؤمنة، وقد أقبلت على مجلس النبي ﷺ متشوقةً ومتلهفةً إلى سماع الحق، وطامعةً في الرحمةِ والمغفرةِ والقبولِ والرضوانِ، فلتبلِّغْهم يا محمد سلام ربهم عليهم وشوقه للقائهم، ولتبشرْهم بالرحمةِ التي كتبها الله على نفسه؛ تفضلا منه وإحسانا وإكراما لعباده المؤمنين، والمغفرةِ على ما سلف منهم من إساءة أو تقصير فتابوا منه وأصلحوا.

تعقيب ومفاصلة

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

إشارة إلى ما ورد في هذه السورة من تفصيل وبيان وتفريق بين ظلمات الكفر ونور الإيمان وبين سبيل الحق وسبيل المجرمين، لنكون على حذر من تلك المناهج الضالة والأديان الباطلة، ونظلَّ على بصيرةٍ بمفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا[(١)]

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالياء (وليستبين) على التذكير وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث أو الخطاب، واختلفوا في (سبيلُ) فقرأ المدنيان بنصب اللام وقرأ الباقون بالرفع: والمعنى لتتضح سبيل المؤمنين أو لتستوضح يا محمد ويا أيها المخاطب سبيل المجرمين، فتكون منها على حذرٍ يراجع النشر في=

منهجٌ واضحٌ

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾

أمره المولى جل وعلا أن يعلن براءته من الشرك وأهله، ومن كلِّ ما يتعلق به من أهواءٍ وضلالاتٍ، ومطالب متعنتة، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذب به المشركون فإن هذا لا يضيره ولا يقلل من شأنه ولا ينقص من قدره، أما هم فحججهم داحضةٌ وشُبَهُهُمْ مُفنَّدة ومقترحاتُهم مردودةٌ.

﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء واستبعادا، نحو قولهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقولهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سبأ: ٢٩].

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾: أي يقضي القضاء الحقَّ، أو يقصُّ القصصَ الحقَّ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ أي بين الحق والباطل، بما يقضي به بين عباده ويفصِّلُه لهم في كتابه.[1]

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي لو أن ما تتعجلونه: مقدوراً إليّ وفي وُسْعِي ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالي له وطلبي ذلك، أو

= القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

(١) قرأ المدنيان وابن كثير وعاصم (يقصُّ) بالصاد وقرأ الباقون (يقْضِي) من القضاء: يراجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي، وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضى الأمر بيني وبينكم﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ فهو تعالى أعلم بمن يستحق العذاب وأعلم متى يُنزلُهُ بهم.

المناسبة بين المحور والمقطع

تدورُ آياتُ هذا المقطع مع المحورِ العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث تقويضُ دعائم الشرك، وتفنيدُ شبهات المشركين وأباطيلهم وردُّ مقترحاتهم ومطالبهم، وتصحيح تصوراتهم ومفاهيمهم حول الرسولِ والرسالةِ، مع تقرير العقيدة الصحيحة وبيان المنهج الحقِّ.

الهدايات المستنبطة من الآيات

* بينت الآياتُ الكريمةُ المهمةَ الأساسية التي أرسل الله تعالى من أجلها رسلَه عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار، البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارَينِ، والإنذار للمكذبين بالخسران المبين والعذاب المهين.
* وفي تلك الآيات ردٌّ على اقتراحات المشركين التي تدلُّ على جهلهم بحقيقة الرسالةِ ووظيفةِ الرسلِ.
* وفيها تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلت، وإنكارٌ عليهم تعطيلَهم لعقولهم، كيف تغفلُ عن هذه الحجج الواضحة، وتتخبطُ في ظلمات الجهل ومتاهات الكفر.
* الردُّ على تصورات المشركين الخاطئة حول الرسل والرسالة ببيان وظيفة الرسل عليهم السلام، وأنهم متبعون للوحي، مؤيدون من قِبَلِ الله تعالى.
* اتباع الأنبياء عليهم السلام للوحي لا ينفي عنهم رتبة الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه، فلقد ثبت اجتهاده ﷺ في مسائل كثيرة، وكذلك اجتهد الأنبياء من قبله - عليهم الصلاة والسلام - [1].

---

(١) انظر كتاب «الوسيط في تاريخ التشريع والفقه الإسلامي» الباب الأول الفصل الثالث المبحث الأول ص ١٠٣.

* من أصول الحوار الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها، وجعلها منطلقا لما بعدها، فمن طوائف المشركين فضلا عن أهل الكتاب من يؤمن بيوم الحشر ويحذرُ من أهواله وشدائده، فلنجعل هذه المُسَلَّمَةَ ركيزةً ومنطلقا للحوار معهم.

* في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذةِ الضلال لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرفَ كلَّ جهده في محاورة خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغلَ عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانه إليهم فإنهم غرسٌ مثمر وثمرٌ مباركٌ، وفي هذا درسٌ للدعاة أن لا تشغلَهم هموم الدعوةِ في الخارجِ عن هموم الداخلِ، فترى من يهتمَّ بمتابعة أحوال العالمِ الإسلامي عن متابعةِ نفسِه وإصلاحِها والنهوضِ بها، أو يغفل عن أهل بيته، أو عن محيطِه الدعوي، أو يُعْنى بجانبٍ من جوانب الدعوة والإصلاح على حساب جوانب أخرى.

* ابتلى الله تعالى المستضعفين من المؤمنين بأكابر المجرمين، فالمؤمنون المخلصون ثبتوا في هذا الابتلاء ولم يغتروا بما عليه المشركون من رَغَدٍ في العيش مع ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ أما المشركون فإنهم احتقروا المستضعفين من المؤمنين واستنكفوا من مشاركتهم في الإيمان لما يستدعيه من مؤاخاتهم ومخالطتهم التي يأنفون منها، كما غلب على ظنِّهم أنه لو كان في الإيمان خيرٌ لما سبق إليه أولئك الضعفاء.

* الإسلام: منهجٌ واضح ودين واحد ينضوي تحت رايته جميعُ الناس فقيرهم وغنيهم ضعيفهم وقويهم، فكلهم في دين الله وشرعه سواء.

* حين يبين القرآن الكريم معالم طريق المشركين وأساليبهم وشبهاتهم وتلبيسهم فإنه يجعلنا على حذر من هذه المناهج الضالة، ويضع بين أيدينا مفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا.

* أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن براءَه من الشرك وأهله، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذَّب به المشركون فإن هذا لا يَضِيره

ولا يقلل من شأنه ولا يَنْقُصُ من قدره، فقد سلكوا طريق الرَّدى، وتعلَّقوا بحججٍ داحضةٍ وشُبَهٍ مُفنَّدة.

* عزةُ المؤمنِ بإيمانِه وثقتُهُ بدينه؛ وحرصُه على إعلان هويته والإعلان عن دعوتِهِ وإظهار شعائره، سيَّما إذا كان في بلاد يغلب عليها الكفار، حيث أمر النبي ﷺ وهو في مكة أن يعلن براءته من الشرك وأتباعه، وولاءه للحق وأهله، ورفضه لجميع المساومات والإغراءات التي يقدمها أهل الباطل لاستقطاب أهل الحق أو لدفعهم إلى طريقِ المداهنة أو التنازلات التي لا نهايةَ لها.

- ٨ -

مفاتحُ الغيبِ

قال تعالى ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

المناسبة

لما خُتمت الآية السابقة ببيانِ إحاطةِ علمه جلَّ وعلا بالظالمين، ناسب ذلك الحديث عن

شمول علمه الدقيقِ لعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة فقال سبحانه ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي

استئثاره تعالى بعلم مفاتح الغيب.

بعد أن خُتِمَتِ الآيات السابقة ببيان علمه تعالى بالظالمين وإحاطته بأحوالهم ومعرفته بعاقبتهم وساعة الهلاك التي ترتقبهم، والعذاب الذي يتربص بهم: بينت هذه الآيات استئثاره تعالى بمعرفة مفاتح الغيب التي لا يعلمها سواه.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: « ويندرج تحت هذه الآية علمُ ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أوّلياً، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتُلِيَ الإسلامُ وأهلُهُ بقومِ سوءٍ من هذه الأجناسِ الضالةِ، والأنواعِ المخذولةِ ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خُطَّةِ السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ « مَنْ أَتَى عَرَّافا أو كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كفرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» »[1].

ولقد جاء في سورة لقمان تفصيلٌ لهذه الآية الكريمة قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ وورد في السنة النبوية تقريرُ ذلك: فعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ: خَمْسٌ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٢، والحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٤٢٩ والبيهقي في السنن ٨/ ١٣٥ والحاكم في المستدرك ١/ ٨ وقال صحيح على شرطها ووافقه الذهبي. سنن أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ورواه الترمذي في السنن عنه ونصه »مَنْ أَتَى حَائِضاً أَوْ امْرَأَةٍ فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِناً: فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . سنن الترمذي – أبواب الطهارة– بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ إِتْيَانِ الحَائِضِ حديث ١٣٥ .

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[لقمان: ٣٤][(١)].

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ لما ذكر علم الغيب، أتبعه بعالم الشهادة،﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ خصَّهُما تعالى بالذكر لأنهما من أعظم المخلوقات، ومستقرُّ معظم الكائنات على وجه الأرض،﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾: « فإحاطةُ علمه تعالى لحركة الورقة الساقطة أُنموذجٌ لأحوال سائرها؛ لأن الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة، لا شكَّ أن علمَه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات، ويمتدُّ علمُه تعالى من حركةِ الورقةِ الميتةِ الساقطةِ إلى حركة البزوغ والنَّماء لكل حبةٍ في بطن الأرض»[(٢)].

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾: يعلمها سبحانه، وهي مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ الذي سجَّلَ اللهُ فيه ما كان وما يكون وما سيكون.

وقال الإمام الخازن رحمه الله: « قدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة، ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهةً على حكمةٍ عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير»[(٣)].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: « هذه الآية العظيمة: من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ حديث ٤٣٥١

(٢) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٦٢

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢/ ١٤١ بتصرف

المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طَوَى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها»[1].

بين الميتة الصغرى والموتة الكبرى

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات من علم الله الشامل بمفاتح الغيب، وبما يجري في أرجاءِ الكون، إلى مجالٍ من مجالاتِ هذا العلم، في عالم البشر، وجانبٍ من جوانبِ الهيمنة الإلهية، فتُلقي الضوءَ على آيةٍ ظاهرةٍ متكررةٍ، آيةٍ باهرةٍ كم يغفلُ الناسُ عن التأملِ فيها والاعتبارِ بها! آيةٌ صغرى تُبينُ عن آيةٍ كبرى غيبية: آية النوم: الميتة الصغرى.

والنوم لا يزال سرًّا عجز العلماءُ عن إدراكِ كُنْهِهِ وسبر أغواره، فمع كثرة البحوث والدراسات حول ظاهرة النوم فلا يزال العلماء والباحثون يطوفون حول مظاهره ويسجِّلون بعض الملاحظات عن التغييرات التي تحدث أثناء النوم أو بعده، ويكشفون لنا عن عجائبه ولطائفه، أما عن سرِّه المكنون فأنى لهم الوصولُ إليه، والنوم كما نعلم قرينُ الموت، واليقظةُ دليلٌ من أدلة البعث، والرؤى والأحلامُ التي يراها الإنسان في المنام قطرةٌ من بحار الغيب، ولما كان النوم أشبه بالموت جاء التعبير عنه بالوفاة:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ ولما كان النهار للحركة والسعي بين عز وجلَّ إحاطةَ علمه بكل ما يُحصِّلُهُ الإنسانُ في نهارِهِ وما يكتسبه من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٩ ويراجع: في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٠.

أعمالٍ، فدلَّ هذا على أن العبدَ خاضعٌ لله تعالى في ليله ونهاره في نومه وصحوه.

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يوقظكم في النهار للكسب والمعاش فدلَّ على أن اليقظة آية كما أن النوم آية وكلاهما من نعم الله تعالى التي تستوجب الشكر عليها، وتذكٍّر بالبعث، مصداقا لقول نبينا ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ (بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا) وقولِه عند صحوهِ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [(١)]

﴿ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ففي انقضاء الأيام استيفاءٌ للآجال المحددة في علم الله تعالى:

كما قيل:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مَضى نَفَسٌ منها انتقصتَ به جزءاً

والمرءُ يفرحُ بالأيام يقطَعُها وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بعد انقضاء آجالكم فمرجعكم إلى ربكم للعرض والحساب وما يترتب عليه من ثوابٍ أو عقابٍ.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر هنا عن عظمة سلطانه وجبروته فالخلائق جميعا تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أراده، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، القهار: قهر النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار وقهر البشر بالنوم الذي لا يمكن مدافعته والتغلب عليه حين يغشى الإنسان، حتى قيل: النوم سلطان فإذا حلَّ فلا يمكن صرفه، وإذا تمنَّع فلا يمكن جلبُه.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ المتصرِّفُ في أمورهم المدبِّر لشئونهم، المهيمن عليهم، يجبرهم

---

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا نام حديث ٥٩٥٣.

على مراده فلا يقع في سلطانه إلا ما أراده.

قال السعدي: « ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه»[1].

وقال القشيري: « فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم»[2].

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ وذلك من جملة القهر أن يحفظ عباده بالملائكة الموكلين وهم الحفظة الذين قال الله عنهم ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ إذا حضرته الوفاة عند انقضاء أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾: ملك الموت وأعوانه﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ يعني: لا يؤخرون طرفة عين.

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ثم كان مصيرهم ومرجعهم إلى ربهم، فله تعالى وحده الحكم وهو أسرع الحاسبين.

ظلمات البر والبحر

ونداء الفطرة

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يأمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يخاطب المشركين هذا الخطاب الذي يلامسُ فطرتَهم التي تتجرد لله تعالى فتناجيه وحده في ساعات المحن والشدائد التي تواجههم في ظلمات البر

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٢٥٩.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري - ٢ / ٢٤٨.

والبحر: فظلمات البرِّ هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح وما قد يترتب على ذلك من الخوف الشديد، وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد.

تلك الساعات العصيبة التي تردُّهم إلى فطرتهم فتغيبُ عن بالهم تلك الآلهةُ التي لا تضرُّ ولا تنفعُ، ويُعلنون العزم الأكيد على التوحيد الخالص بعد نجاتهم، لكنهم سرعان ما ينقضون عهدهم مع الله بإصرارهم على التردِّي في مهاوي الشرك.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أبعد أن نجاكم تشركون به سبحانه؟ وبعد أن أحسَن إليكم بتخليصكم من الشدائد: ترجعون إلى سالف عهدكم من التخبُّطِ في ظلمات الشركِ؟

وعيدٌ وتهديدٌ

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وكما أن نجاتكم بيد الله تعالى وحده، فهو تعالى القادر على إهلاككم بإنزال العذاب وبشتى السبل التي تتصورها عقولكم والتي لا تخطر لكم ببال، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ وتحذيرٌ وتهديدٌ لأولئك المشركين المعاندين، أن يُلحقَ العذاب بهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو من بينهم، لكنهم مع كثرة هذه النذر وتكرر الوعيد وتنوع العبر والتفنن في الخطاب لا يفقهون ذلك.

قال الإمام الماوردي: « فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العذاب الذي من فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، قاله ابن جبير، ومجاهد، وأبو مالك.

والثاني: أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد

السوء، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذي من فوقهم الطوفان، والذي من تحت أرجلهم الريح، حكاه علي بن عيسى.

ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجلهم»[١].

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى:﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ قال ابن عباس: يبُثُّ فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فِرَقاً، قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم. والمعنى: حتى تكونوا شِيعَاً، أي: فرقا مختلفين. ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب. وقال الزجاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق. يقال: لَبَسْتُ عليهم الأمر، ألبَسه: إذا لم أبيِّنه. ومعنى شِيَعاً، أي يجعلكم فرقاً، فإذا كنتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضاً»[٢].

وهذا الخطاب وإن كان موجها في الأصل إلى الكفار إلا أن هذه الفتن ينبغي الحذرُ منها والتعوذُ بالله من شرورها كما فعل ذلك نبينا ﷺ:

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ: « أعوذ بوجهك». ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون -أو قال: هذا أيسر »[٣].

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) النكت والعيون للماوردي ١ / ٤١٤.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣ / ٥٩

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ حديث ٤٣٥٢، ورواه النسائي في السنن الكبرى حديث ٧٧٣١.

وكذبوا بالقرآن وبما جاء فيه من وعدٍ وعيد وحكم وأحكام وهو الحق المبين، ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾: فلا أتحملُ تَبِعَةَ تكذيبكم ولا أحاسبُ عنكم.

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾: لكل نبأ أي لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لا بد منه، وسوف تعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك، ومثال هذا: قوله تعالى﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص: ٨٨].

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظمُ هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة، وهو **تقرير العقيدة، وتعميق الإيمان**؛ وذلك: ببيان إحاطةِ علمه وكمالِ قدرتِهِ وقهره، وعظيمِ سلطانِهِ، ونقضِ دعائمِ الشركِ وتصوراته الضالة حول عالمِ الغيبِ والشهادةِ، والاستدلالِ على إمكانيةِ البعثِ، وإقامةِ الحججِ وتصريفِ الآياتِ.

الهدايات المستنبطة

* بينت هذه الآيات استئثاره تعالى بمفاتح الغيب التي لا يعلمها سواه.
* وفي هذه الآيات ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم.
* بينت الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، فسبحان من أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.
* جعل الله لهذا الكون سنناً ثابتة، وأطلع الإنسان منها بقدر ما يلزم له لعمارة الأرض والقيام بمهمة الاستخلاف، كما منحه الله القدرة على تسخير قوى الكون وفق هذه السنن لتعمير الأرض، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها، وفق تقدير الله تعالى وتدبيره.
* في الآيات الكريمة ردٌّ على الماديين الذين ينفون كلَّ ما وراء المادة ويقولون ب « الحتمية التاريخية» ولقد أثبتت الأيام كذب ادعائهم وبطلان مزاعمهم وانهيار بنيانهم الذي أُسِّس

على شفا جُرُفٍ هارٍ.

* لا يزال النوم سرًّا يعجز العلماءُ عن إدراكِ كُنْهِهِ وسبر أغواره وهو قرينُ الموت و دليلٌ من أدلة البعث، وما الرؤى والأحلامُ التي يراها الإنسان في المنام إلا قطرةٌ من بحار الغيب.

* لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر عن عظمة سلطانه وقهره، فالخلائق جميعا تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أراده، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

* إقامة الحجة على المشركين بدليل الفطرةِ التي أودعها الله في كل إنسان؛ حيث التجرد الخالص لله وحده في ساعات المحن والشدائد التي تعتري الإنسان فيتوجه إلى الله تعالى بصدقٍ ويقين، وينسى الكافر آلهته المزعومة التي يدرك عجزها ويدعو الله تضرعا وخُفية موقنا بالإجابة، لكنه سرعان ما ينقض عهده مع الله بإصراره على الشرك.

* « تكذيب قريش وهم قوم النبي ﷺ بدعوته يبرئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلق بها أعداء الإسلام، فقد نزَّه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعرقية فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها» [(١)].

* الحذر من التفرق وأسبابه المفضيةِ إليه؛ فهو من أخطرِ عواملِ ضعف الأمة وتراجعها.

---

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٦٨.

- ٩ -

تجنب مجالسة الخائضين وصحبتهم

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

المناسبة

لما تكرر الأمر بإقامة الحجج وتجلية البراهين المقررة لأصول الدين وتبديد شبهات المشركين وتفنيد أباطيلهم، ولا يتم هذا إلا بمحاورتهم ومجالستهم أمر تعالى بالإعراض عن مجالس الحوار إذا خرجت عن هدفِها وانحرفت عن مقصودِها وهو تجليةُ الحقائق ونقضُ الأباطيل، ومجانبةِ مجالسِ الظالمينَ وتحاشي إضاعة الوقت مع العابثين الهازئين، فهؤلاء لا يعنيهم الوصولُ إلى الحقِّ، وإنما اتخذوا من الدين مجرد وسيلةٍ للتلهِّي والتسليةِ؛ فلا فائدة من محاورتهم؟

التفسير الإجمالي

نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوض وتخبطٍ وسخرية واستهزاءٍ واستخفافٍ بالحق وأهله، فإذا اضُطرَّ إلى حضورِ هذه المجالس أو حضرها ناسيا ووقع فيها الخوض فليسارع إلى مفارقتها إن لم يستطع صرفهم عن غيِّهم، كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علمٍ مع ضرورة تذكيرهم.

ونحو هذا قوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

والحوارُ إذا خرج عن الضوابط والمقاصد التي أُقيم على أساسها، فينبغي أن ينصرف الداعيةُ عنه، كأن يرى من الآخرين استخفافا أو استهانةً.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)[١].

﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وما على المتقين إثمٌ ولا حرجٌ فيما فعله المشركون من خوضٍ في آيات الله واستهزاءٍ بدين الله، ولكن واجبَهم النصحُ والتذكيرُ، إذا حضروا تلك المجالسَ بنية الإنكار عليهم ودعوتهم،

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في حسن الخلق سنن أبي داود حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ كتاب البر والصلة باب ما جاءَ في المِرَاء سنن الترمذي حديث ١٩١٦ وقال: " وَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " ورواه النسائي في السنن عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ كتاب الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد سنن النسائي حديث ٣١٢٤ ورواه ابن ماجة في السنن عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل سنن ابن ماجه ١ / ٥٨ حديث ٥١، ورواه الحاكم في المستدرك عن فضالة بن عبيد وقال « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » وأقره الذهبي المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢ / ٦٩، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ١ / ٤٤ حديث ٤٢، وأورده الألباني في الصحيحة ١ / ٤٩١ حديث ٢٧٣، وقال حديث حسن، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ٤٩١: وقوله " في رَبَضِ الجنة " بفتح الباء: ما حَوْلها خارجا عنها تَشْبيها بالأبْنِيَة التي تكون حول المُدُن وتحت القِلاَع يراجع النهاية في غريب الأثر ٢ / ٤٦٠.

من هنا فلا بأس من حضور مجالسهم واجتماعاتهم بنية الإنكار عليهم وتنبيه أتباعهم على ضلالهم.

قال البيضاوي:﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾: « ولكن عليهم أن يذكِّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها»(١).

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ لعلهم يجتنبون الخوض؛ رهبةً أو حياءً أو كراهةً لمساءتهم، فعلى هذا يعود الضمير في ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إلى المشركين، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون، أي يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوا منها.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

دعهم ودعْ مجالستَهم ولا تعلِّق قلبك بهم ولا تحزنْ عليهم؛ فإنهم أهلُ باطلٍ وتعنتٍ، وتلاعبٍ وهَزْلٍ، واستهزاءٍ حتى بدينهم الذي يتعصبون له فإنهُ عُرضةٌ لعبثهم ومثارا لاستهزائهم، فما بالك باستهزائهم بدين الحقِّ! وقد اغتروا بما نالوه في الدنيا من حظوظٍ زائلةٍ حملتهم إلى بطرِ الحقِّ وغمطِ الناس وازدرائهم، فالوصول إلى الحق لا يعنيهم.

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ذكر بالقرآن تلك النفوس قبل أن تُسْلَمَ إلى الهلاكِ وتُرهَنَ بسوءِ عملِهَا، وأصلُ الإبسال والبَسْل: المنع، ومنه أسدٌ باسلٌ، لأن فريستَهُ لا تفْلِتُ منهُ.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها العذاب ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ وإن تقدم أي فديةٍ مهما كانت قيمتُها فإنها لا تُقْبَلُ، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٤٩٧ .

مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ أولئك المكذبون المعاندون الخائضون في آيات الله المستهزؤن بدين الله، والتعبير بأولئك وهي إشارة للبعيد « بلام البعد» لبيان بعدهم عن الله وتوغلهم توغلا بعيدا في طريق الضلال، وبعدِ منزلتهم في قعر جهنم.

﴿ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ سُلِّمُوا إلى العذابِ بسببِ أعمالِهِمُ القبيحةِ وعقائدهم الباطلة، وأهوائهم المتَّبعة، وبسبب عنادهم وصدودهم وإعراضهم وخوضهم في آيات الله تشكيكاً وإبعادا عن الحق، وتزيينا وزخرفةً للأباطيل.

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كسبهم وكفرهم فهم بين الماء المغلي الذي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاءَ وبين العذاب الأليمِ الذي استحقوه بإصرارهم على الكفر وبقائهم عليه.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

لما كان مدارُ السورة حول تقرير العقيدة بإقامة الحجج وتجلية البراهين وما يستدعيه ذلك من محاورات ومناظراتٍ، تستلزمُ من الداعيةِ أن يغشَى مجالسَ الكفارِ ومنتدياتهم فيحاورهم وربما أدى ذلك إلى خوض بعضهم في آيات الله: بينت هذه الآياتُ الكريمةُ منهجَ التعاملِ مع أولئك الخائضين، وهو الإعراضُ عنهم حتى ينصرفوا عن خوضهم ويكفُّوا عن تطاولهم، كما أمرت بتجنبِ مجالسِ الظلمةِ لأن حضورَها لا يأتي بخيرٍ، وأن لا يضيع الداعيةُ وقته وجهده مع من لا يعنيهم الوصولُ إلى الحق.

الهدايات المستنبطة

* نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوضٍ وتخبطٍ وسخرية واستهزاءٍ واستخفافٍ بالحق وأهله.

* كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علمٍ مع ضرورة تذكيرهم.

* قال الإمام الشوكاني: « أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك، وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمَّح بمجالسة المبتدعة، الذين يحرّفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردُّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلُّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسيرٌ عليه غيرُ عسيرٍ. وقد يجعلون حضورَه معهم مع تنزُّهه عما يتلبسون به شبهةً يُشَبِّهُونَ بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدةٌ زائدةٌ على مجرد سماع المنكر، وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حقَّ معرفتِهَا، عَلِمَ أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعافُ أضعافُ ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرَّمات، ولا سيما لمن كان غيرَ راسخ القدمِ في علم الكتابِ والسنةِ، فإنه ربما يَنْفِقُ عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكانٍ، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر»[1].

وقال صاحب المنار: « وقد حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذ لا يُخْشَى على المؤمن من فتنة الكافر ما يُخْشَى عليه من فتنة المبتدع لأنه يحذَرُ من الأول على ضعف شبهتِهِ ما لا يحذَرُ من الثاني وهو يجيئُه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها كما يقعد مختارا مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصورُ قعودُ المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منه، كشدة الضعف ولا سيما إذا كان في دار الحرب ولم تكن

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٩ وينفق: يلقى في نفسه قبولا من نفقت السلعة إذا راجت.

مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات، ويدخلُ في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارضٍ آخرَ»(١).

* فعلى كلِّ مسلمٍ غيورٍ أن يُعرض عن تلك المجالسِ التي يُستهانُ فيها بآياتِ الله إذا لم يتسنى له صرفُهم عنْ خوضهم واستهزائهم.

من هنا: فإن الأصل عدم حضور مجالس الكفار مثل منتديات أو مؤتمرات الحوار التي يرددون فيها أباطيلهم ويدعون إلى ضلالاتهم إلا إذا كان الحضور بنية عرض الإسلام ودحض الشبهات التي يثيرها أعداؤه والرد على أباطيلهم وضلالاتهم فلا بأس من ذلك.

* أما إن كان حضورها بنية التقريب بين الأديان والمذاهب، أو بنية الإقرار والاعتراف بهذه الأديان المحرفة والوضعية وتلك المذاهب الباطلة الهدامة، أو بنية تبادل المجاملات والابتسامات ومداهنة أعداء الله، مع ما يرتكبونه من جرائمَ وما يحيكونه من مكائد ومؤامرات ومن تحريضٍ على قتل الأبرياء من إخواننا المستضعفين في كثيرٍ من بقاع الأرض التي تراقُ فيها دماؤنا وتنتهك فيها أعراض أَخواتنا على أيدي اليهود والصليبيين فهذا لا يجوز شرعاً.

قال صاحب الأساس: «إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي حددها الشرع، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور، لأنه في ظاهره إقرارٌ للباطل، وشهادة ضد الحق، وفيه تلبيس على الناس ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة»(٢).

* قد يطرأُ النسيانُ على الأنبياء في غير ما يتعلق بأمور الوحي ومهام الرسالة كالسهو في

(١) تفسير المنار ٧/ ٥٠٦.

(٢) الأساس في التفسير ٣ / ١٦٧٥، ١٦٧٦.

الصلاة أو النسيان في الأمور الحياتية، شأنهم في ذلك شأن سائر البشر، وإن كان المتتبع لمواقف النسيان في ضوء ما ورد في الكتاب والسنة يجدها نادرة.

* قوله تعالى ﴿أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾: سُلِّمُوا إلى العذابِ بسببِ أعمالِهِمُ القبيحةِ وعقائدهم الباطلة، وأهوائهم المتَّبعة، وبسبب عنادهم وصدودهم وإعراضهم وخوضهم في آيات الله تشكيكاً وإبعادا عن الحق، وتزيينا وزخرفةً للأباطيل، وهذا ينطبق على ما يقع في كثيرٍ من وسائل الإعلام سِيَّمَا في هذا العصر، عصر الفضائيات والانفتاح الإعلامي، حيث القنواتُ التي قامت على شفا جرف هارٍ؛ بغرض تشويه الحقِّ وزخرفةِ الأباطيلِ وترويجِ الشبهاتِ وتجميلِ الوجه القبيح للحضارةِ الغربيةِ بأصباغٍ زائفةٍ ومساحيقَ برَّاقةٍ وأقنعةٍ خدَّاعة، فيستضيفون في تلك القنواتِ الهدَّامةِ أصحابَ الأقلام المأجورة والألسنة الحدادِ التي تتقنُ الصراخَ والعويلَ وزخرفةَ الأباطيلِ والقدرة على التمثيلِ لإقناعِ العوامِّ بما هم عليه من كذبٍ وتضليلٍ.

* وقد صار ذلك التمويهُ والتضليلُ مهنةً يتكسبون منها، فهم عملاءُ مأجورونَ للباطلِ وأهلِهِ.

* قوله تعالى:﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾: بسبب كسبهم وكفرهم نالوا هذا الشراب الذي يستقبلهم، ألم يكونوا يجتمعون في مجالس الكفارِ الوثيرة؟ ألم يكن ما لذَّ وطاب من الطعام والشرابِ يقدَّم لهم في منتدياتهم التي كانوا يُسارعون إليها ويتنافسون على حُضورِها؟ ويلهثون وراءها؟

* إمهاله تعالى الكفارَ والعاصين لحكمٍ بالغة، فإنه تعالى أحاط بكلِّ شيء علما وأحصى كلَّ شيء عددا، وإنما يؤخرهم لأجل محدود ويوم موعود.

* تحدثت السورة الكريمة حديثا مستفيضا عن وظائف الملائكة عليهم السلام فمنهم الحفظة ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ومنهم الموكلون بإنزال العذاب وإلحاقه بمن حقَّ عليهم القولُ وغير ذلك.

- ١٠ -

معالم على طريق الهدى

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

المناسبة

كيف يدعو المشركون لما هم عليه من ضلال، بعد لوامع الحجج وبوارقِ الأدلة وتدفُّقِ البراهينِ وتجلِّي الآياتِ التي تنطق وتشهد وتقرر تفردَه تعالى بالوحدانية؟ وأن منهجه الذي بيَّنه لعباده هو منهج الهداية ومسلك النجاة.

التفسير الإجمالي

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات المتتابعات: نترك هذا الطريق الواضح الأبلج ونسلك طرق الغواية والضلالة مع غموض معالمها، والتواء مسالكها! أبعد أن منَّ الله علينا بنعمة الهداية والرشاد نرتد على أعقابنا ونهوى طريق أهل الشرك والزيغ! أبعد أن تذوقنا حلاوةَ الإيمان وتنسمنا عبيرَه الفوَّاح، نحيدُ عن هذا الطريقِ الوضَّاح!

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

تلك الأصنام التي تواترت الحججُ؛ وانطلقت البراهينُ تدحضُ عبادتَها وتُبددُ أوهامَها أتُدعى بعد ذلك من دونِ اللهِ، وقد تبينَ لكلِّ ذي عقلٍ أنها لا تضرُّ ولا تنفع!

فيكون حالُ من انتكس وارتدَّ على عقبه كحال من استهوته شياطينُ الإنس والجنِّ، استحوذت عليه، سلبت عقله، استعارتْ نورَ بصرِهِ، استولتْ على مسامِعِهِ فلا يَرَى ولا يسمعُ،

ولا يعقِلُ إلا ما تُمْليه عليه! وقد هيمنتْ على كل أحاسيسِه ومشاعِرِه وتسللتْ إلى قلبِه وتمكنتْ من عقلِه ﴿ كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ فصار في حيرةٍ من أمرِه، يتخبطُ في ظلمات التيه وفي خضم الفتن، ويأتيه نورُ الحقِّ من بعيدٍ وينادي عليه أصحابٌ له يدعونه إلى طريق الهداية ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ أَقْدِمْ وهلمَّ إلينا: تجد الهُدى والنور! أقبل علينا واجعل الباطلَ من وراءِ ظهرِك تنجُ وتسلمْ من شياطين الإنس والجن.

قال الإمام الطبري: « قل يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت...»[(١)].

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ذكِّرهم وكرِّرْ على مسامِعِهِمْ أن طريق الهدى طريقٌ واحد هو الذي حدَّده ربُّنا وبيَّنه لنا، وأمرنا أن نسلمَ له تعالى بقلوبِنا وأرواحنا وجوارحنا، أن نسلم له ظاهرا وباطنا وهو طريق النور والاستقامة وطريق العزة والكرامة، ذاك هو طريق النجاة لمن سلكه

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ وأمرنا ربُّنا بإقامة الصلاة فهي الصلة بين العبدِ وربِّه، كما أمرنا أن نثبت على طريق التقوى ونتزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادِنا، وأن نتمثَّل دائما يومَ حشرنا وموقفنا بين يدي ربِّنا، فنتأهب دائما لهذا اللقاء الموعودِ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أمرنا لنسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة بقوله﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، قال تعالى في سورة إبراهيم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٧/ ٢٧٣.

عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس ٨١].

﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾: قوله الحقُّ وله الملكُ؛ فلا يتكلمُ أحدٌ إلا بإذنِه، ولا مُلْكَ في هذا اليوم لأحدٍ سواه، كما قال سبحانه ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ النفخةُ الأولى والنفخةُ الثانية ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ عالم الغيب والشهادة فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيءٌ، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتدبيره، الخبير في ملكه وتصريفه يعلم بواطن الأمور فضلا عن ظاهرها.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع السياق العام للسورة، حيث أنكرت على المشركين ما هم عليه من زيغ وضلال مع ظهورِ الحجج وتجلي البراهين، ثم تنتقل إلى بيان المنهج الحق والطريق السوي طريقِ الهدايةِ والنجاة، وهو الإسلام التامُّ لله تعالى ظاهرا وباطنا، كما تضفي الآيات المزيد حول التعريف بأسماء الله تعالى وصفاته بما ينتظم مع الهدف العام للسورة وهو تقرير العقيدة.

الهدايات المستنبطة

* طريق الهدى طريقٌ واحد هو الذي حدَّده ربُّنا وبيَّنه لنا، وأمرنا أن نسلم له تعالى بقلوبنا وأرواحنا وجوارحنا ظاهرا وباطنا.
* الصحبةُ الصالحةُ مسلكٌ من مسالكِ النجاة، وعصمةٌ من مكائد الشيطان.
* على من يسعى للوصول إلى الحقِّ أن يُحرِّر نفسه من أسر شياطينِ الإنسِ والجن، ويستعيذَ

بالله تعالى من شرورهم ووساوسهم، ويعتصمَ باللهِ تعالى ويتوجَّه إليه متضرعا خاشعا؛ فالهدايةُ منه تعالى وهو سبحانه المعين عليها والموفِّقُ إليها، فمن طلبها بصدقٍ وإخلاصٍ وتجرُّدٍ وعزيمةٍ نالها.

* على من أراد النجاةِ في دنياهُ وأخراهُ أن يسلك طريقها ويقتفي أَثَرَ من سبق إليها، أما أن يرتجيها من لا يسلكها ويتوقعها من انحرف عنها فهذا من الغفلة والعجز، وقد قال أبو العتاهية: تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا   إنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

* أمرنا ربُّنا بإقامة الصلاة فهي الصلة بين العبدِ وربِّه، وهي عمادِ الدين وركنِهِ الحصين، كما أمرنا أن نثبت على طريق التقوى ونتزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادِنا، وأن نتمثَّل دائما يوم حشرنا بين يدي ربِّنا فنتأهب دائما لهذا اللقاء الموعودِ بالإيمان الراسخِ والعمل الصالحِ. وبهذا المنهج يُحصِّنُ المسلمُ نفسه من كل ضلالٍ وحيرةٍ، ويسلم من وساوس الشياطين.

* وأمرنا أن نسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة.

* الإيمان بالصور، فقد ورد الحديث عنه في الكتاب والسنة فهو من المعلوم من الدين بالضرورة.

* هو تعالى: عالم الغيب والشهادة فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيءٌ، يعلم ما حضر وما غاب وما خفي وما ظهر وما جلَّ وما لطف وما كان وما يكون وما سيكون، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتدبيره، الخبير في ملكه وتصريفه.

-١١-

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المناسبة

وتتجلى من وجوهٍ عديدة منها:

* لما بينت الآيات السابقة طريقَ الهدى والنجاة: وهو الإسلام لله ظاهرا وباطنا: ناسب ذلك بيان أن هذا الطريق هو طريق جميع الأنبياء عليهم السلام، وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام ومنهجه في الحوار، وثمرة دعوته وعاقبة صبره وثباته.
* لما ورد في الآيات السابقة أن السموات والأرض مخلوقةٌ مملوكةٌ لله تعالى ومسخرة بأمره، وفي هذا برهان قاطع على بطلان عبادة الأفلاك والأجرام السماوية: ناسب ذلك الاستطراد إلى الحديث عن إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة على بطلان عبادة تلك الأجرام.
* المتأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرةٍ متنوعةٍ؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقريري، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، وتنتظم هذه القصة مع غيرها من أساليب الإقناع وألوان الحجج التي اشتملت عليها السورة الكريمة؛ لتقريرِ دعائمِ هذا الدينِ، وتقويض أدرانِ الشركِ ومظاهرِه.
* ولما كان لإبراهيم عليه السلام مكانةٌ عند مشركي العرب، سيقت قصته للاحتجاج به، عليهم ولبيان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظِّمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدَّعون متابعتَه وهم بعيدون عن هديه، راغبون عن ملته.
* وفي سردها في هذا السياق تسليةٌ وتسريةٌ للنبي ﷺ ، ودعوةٌ للتأسي بأبي الأنبياء عليه السلام في صبره وثباته، وسَعةِ صدرِه وصفاءِ سريرتِه وحلمِه وأناتِه.

التفسير الإجمالي

إنكارٌ وتقرير

قال تعالى ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

تبدأُ القصةُ الكريمةُ بهذا المطلعِ الذي يلفتُ الأنظار ويسترعِي الأسماعَ، داعيا إلى معايشةِ هذه القصةِ واستنشاقِ عبقِ الماضي لتنسُّم عبير العِبَرِ واستحضار تلك المشاهد والصورِ والتدبر في تلك الحواراتِ والأحداثِ التي انطوت عليها القصة.

وقوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أي اذكر ذلك الوقت واستحضر هذا المشهد حين قال إبراهيم ﷺ لأبيه ناصحا له ومُنكرا عليه عبادة الأصنام من دون الله.

وظاهر النصِّ الكريم أن اسم أبيه ﴿ ءَازَرَ ﴾ والذي نصَّت عليه السنة النبوية أن اسمه آزر، وكونه في التوراة (تارح) لا يعدُّ دليلا على ذلك فكم في التوراة من تحريف وتبديلٍ وافتراءٍ! أو ربما كان (تارح): لقبا له.

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»[(١)].

وفي الآية الكريمة إنكارٌ وتقريرٌ، أَنْكَرَ عليه ما هو عليه من اتخاذ الأصنام آلهة، وتقريرٌ لما عليه أبوه وقومُهُ من ضلالٍ بين.

ومن الواضحِ أن إبراهيم ﷺ قد بذل جُهداً مضنيا في محاجَّةِ أبيه، ولقد سجَّل القرآن الكريم صورةً من صور الحوار الذي كان يدور بين إبراهيم ﷺ وبين أبيه من ذلك ما جاء

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء:١٢٥] حديث ٣٣٥٠، وَالذِّيخ بِكَسْرِ الذَّال الْمُعْجَمَة بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّة سَاكِنَة ثُمَّ خَاء مُعْجَمَة ذَكَر الضِّبَاع، وَقِيلَ لَا يُقَال لَهُ ذِيخ إِلَّا إِذَا كَانَ كَثِير الشَّعْر. يراجع النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٣٥.

في سورة مريم ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤١ –٥٠].

في ملكوت السموات والأرض

يقول الحق جلَّ وعلا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي وكما هديناه إلى الحقِّ وبصَّرناه بطريقنا: ثبتناه على هذا الطريق وزدناه يقينا، وأطلعناه على ملكوت السموات والأرض ليتمعَّن ويتدبر ويستنبط العبرَ ويستخلص الفوائد ليزداد يقينا وإيمانا .

قال النسفي: « أي نُري بصيرتَهُ لطائفَ خلقِ السماواتِ والأرضِ»[(١)] .

وقال القاسمي: « أي نُطلعه على حقائقهما، ونبصره في دلالتهما على شئونه عز وجل، من حيث إنهما بما فيهما مملوكان له تعالى، والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالجبروت، ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر، وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما»[(٢)] .

ويقول صاحب الظلال: « بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة.. نُري إبراهيم حقيقة هذا الملك.. ملك

---

(١) مدارك التنزيل النسفي ٢/ ٦٩.

(٢) محاسن التأويل للإمام القاسمي ٦ / ٥٨٧ .

السماوات والأرض.. ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب»(١).

محاورة لطيفة

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

أراد ﷺ أن يقيم الحجةَ على قومه وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن حجةٍ إلى حجةٍ حتى يأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى.

إنها محاورةٌ عملية ومناظرة واقعيةٌ ومساجلةٌ ميدانيةٌ لتكون أدعى إلى القبول وأبلغ في الاحتجاج.

قال الخازن رحمه الله: « الذي عليه جمهور المحققين: أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرَّفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة... أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها، فأراهم إبراهيم أنه معظِّمٌ ما عظموه، فلما أَفَلَ الكوكبُ والقمرُ والشمسُ أراهم النقصَ الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية...،... قال إبراهيم ﷺ ذلك على وجه الاحتجاج على قومه، يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب»(٢).

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١١٣٩

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٥٢ بتصرف، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن=

و قال الزمخشري: «... وكان أبوه [آزر] وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئاً منها لا يصحُّ أن يكون إلها، لقيام دليلِ الحدوثِ فيها، وأن وراءَها مُحدِثاً أَحْدَثَهَا، وصانِعاً صَنَعَهَا، ومدبراً دبرَ طُلُوعَهَا وأفولَها وانتقالَها ومسيرَها وسائرَ أحوالها «[1].

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

لما أقبل الليل وخيَّم الظلام وأزهر هذا الكوكب في السماء، قال إبراهيم على سبيل مجاراة قومه واستدراجهم ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾غاب ﴿ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ ذلك أن الأفول والانتقال من حال إلى حال لا يمكن أن يكون من صفات الإله الحق، والنفس بفطرتها لا تركن إلى من يعتريه النقص والتغيُّر.

قال الزمخشري: قوله ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ لا أحبُّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بسترٍ، فإنّ ذلك من صفات الأجرام»[2].

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ تدرَّج بهم في مصاعدِ النَّظر ومراقي الوصول إلى العقيدةِ الصحيحة، حيث وجَّه أنظارهم إلى القمر حين رآه بازغا في أفق السماء فقال على سبيل المجاراة ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ أي غاب واستتر ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾: فوجَّه أنظارهم إلى حاجةِ الإنسان إلى الهداية الربانية، حتى ينجو من طريق الضلال، وأن الهداية لا تكون إلا من الله تعالى.

= كثير٢/ ٢٧٦.

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٠ باختصار.

(٢) نفس المرجع ٢ / ٣١ بتصرف.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

انتقل بهم إلى المرحلة الأخيرة في رحلة البحث عن الحقيقة، وقد كان من بينهم من يُعظِّمُ الشمسَ ويعبدُها من دون الله مع أنها كغيرها من النجوم يعتريها التغييرُ وتدورُ في هذا الفَلَكِ العظيم، وتغربُ هنا لتشرق هناكَ فلا يدومُ لها حالٌ.

وليس بعد هذه الحجج الساطعة إلا إعلان البراءة من الشرك وأهله﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم تقريرُ العقيدة الصحيحة وترسيخُها في النفوس﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

جعلتُ الله تعالى هو قصدي ووجهتي، وتوجهتُ إليه تعالى بالعبودية فهو تعالى الذي فطر السموات والأرض: أبدعهما وأنشأهما، وقد دلَّ تعالى على نفسه بما أودعه في النفس الإنسانية من فطرةٍ نقية تشهد له بالوحدانية، وبما بثَّه في هذا الكون من دلائلَ نيِّرةٍ وحججٍ ظاهرة.

قال ابن كثير رحمه الله: « أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخِّرُهَا ومقدرُها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[1].

مُحاجَّةُ المشركين

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٧٦

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾: وحاجَّه قومه طمعا في صرفه عن الحق وأنى لهم ذلك! وقد فُنِّدت شبهاتهم وبُدِّدتْ أوهامهم! وأقيمت عليهم الحججُ الباهرةُ والأدلةُ الظَّاهرةُ! وهم رغم ذلك يصرُّون على الكفر ويتمادون في الضلال!

﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ ﴾ أتجادلونني في الله وقد أخذ بيدي إلى الحق وأنفذ بصري ونوَّر بصيرتي وشرح صدري وآنس وحشتي وأضاء دربي وفَطَرَني على الإيمانِ! فأيُّ حجةٍ تُغويني عن طريق الرشاد وقد سلكته؟ وأيُّ قوةٍ تُثنيني عن الحق وقد آنستُه، وأيُّ ظلامٍ يحجبُ عني النورَ وقد أبصرتُه؟

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا ﴾ هددوه ﷺ وتوعدوه أن يبطشوا به ويفتكوا بعد أن أعيتهم الحجج، فبين لهم ثباتَه على الحقِّ، وصمودَه أمام وعيدِهم ويقينه بقدر الله تعالى، ومعرفته بحكمته سبحانه في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه لِحَكَمٍ بالغةٍ، ثمَّ حثهم على التذكُّر والتفكُّر فقال لهم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وكيف يخافُ منهم أو يخشى آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع؟ وهم مع ذلك لا يخافون من الإله الحق وقد أشركوا به آلهةً ما أنزل الله بها من سلطان فلا إله غيره تعالى ولا معبود سواه! فمن أجدرُ بالخوف ومن أحقُّ بالأمن!

﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

« وأي خوفٍ يقع على قلبي ظِله ولم أُلم بِشرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جُحْدٍ؟ وأنتم ما شممتم رائحةَ التوحيد في طولِ عُمُرِكم، ولا ذقتم طعمَ الإيمانِ في سالفِ دهرِكُم! ثم بسوء ظنّكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسِرتم وما باليتم، فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوءِ مَكْرِه وعاقبةِ أَمْرِه؟»[1].

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٦٥.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ : إن الحياةَ الآمنةَ المطمئنةَ الطيبةَ الكريمةَ الراضيةَ المرضيةَ لا ينعمُ بها إلا المؤمنون المهتدون، الذين آمنوا إيمانا خالصا من شوائبِ الشركِ، فهم الأحق بالأمن في الدنيا والآخرة.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أصحاب رسول الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَأَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: (لَيسَ ذَلِكَ، إِنَّما هو الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمانُ لابْنِهِ:﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣])[1].

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ إشارةً إلى ما سبق من أدلة باهرة وحججٍ ظاهرة أيَّد الله تعالى بها نبيه إبراهيم عليه السلام ليُفحِمَ بها المشركين من قومه فتلك الحجج إنما كانت بتوفيق الله تعالى ومَعونته وتأييده سبحانه، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾بالعلم والفهم والحكمة والحجة والفضيلة والنبوة التي يختصُّ الله بها من يشاء من عباده، كما رفعنا إبراهيم عليه السلام على أهل عصره، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ التفاتٌ إلى الحبيب المصطفى ﷺ تسليةً له وتثبيتاً وإظهاراً لمزيد لُطفٍ وعنايةٍ به ﷺ، ببيان أنه تعالى مطَّلعٌ عليه لا يخفى عليه حالُه مع قومه.

قال ابن عاشور: « وقدَّم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ على ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لأنَّ هذا التَّفضيل مَظهرٌ للحكمة ثمَّ عقَّب بـ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكام جارٍ على وِفق العلم»[2].

(١) صحيح البخاري ك التفسير - باب: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] - حديث٤٧٧٦، و كتاب الأنبياء باب - باب قول الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] حديث ٣١٨١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه صحيح مسلم حديث ١٧٨ - (١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٧ / ٣٣٦.

مواهب ربانية

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

بعد هذا الاصطفاء لنبي الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم، فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعَّبت من تلك الشجرة المباركة: شجرة الأنبياء من بعده عليه السلام.

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ قال الرازي: « وأما قوله:﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ فالمرادُ أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب، وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحق، ويعقوب، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما، وأخرجه من أصلاب آباءٍ طاهرين مثل نوح. وإدريس. فالمقصود بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء»[1].

وبيان سيره عليه السلام على نهج من سبقه من المرسلين، وإنما خصَّ نوحاً عليه السلام لأنه أولُ المرسلين، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ الضمير لإبراهيمَ، « لأن مَساقَ النظمِ الكريم لبيانِ شؤونه العظيمةِ من إيتاءِ الحجةِ ورفعِ الدرجاتِ وهبةِ الأولادِ الأنبياءِ وإبقاءِ هذه الكرامةِ في نسله إلى يوم القيامة، كلُّ ذلك لإلزام مَنْ ينتمي إلى ملتِه عليه السلام من المشركين واليهود، وقيل: لنوح، لأنه أقربُ، ولأن يونُسَ ولوطاً ليسا من ذرِّية إبراهيمَ، فلو كان الضميرُ له لاختصَّ بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها، وأما المذكورون في الآية الثالثةِ فعطفٌ على (نوحاً)، وروي عن ابن عباس أن هؤلاءِ الأنبياءَ كلَّهم مُضافون إلى ذرِّية إبراهيمَ وإن كان منهم من لم يلْحَقه بولادةٍ من قِبَلِ أمٍّ ولا

(١) التفسير الكبير الرازي ٥ / ٥١، ٥٢.

أبِ، لأن لوطاً ابنُ أخي إبراهيم، والعربُ تجعل العمَّ أباً، كما أخبر الله تعالى عن أبناءِ يعقوبَ أنهم قالوا: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أن إسماعيلَ عمُّ يعقوب عليهم السلام [(١)].

والذي يرجحه السياق أن الضمير في ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ لإبراهيم عليه السلام.

وسرُّ تقديم إسحاق أن إبراهيم عليه السلام رزق به وهو في شيخوخته وكانت امرأته عاقرا فكان معجزةً لإبراهيم وتكريما له ولزوجه وَقَرَنَ ذكره بذكر يعقوب لأنه ولدُه ولأن الملائكة بشرت بهما قال تعالى ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] .

« وإنما عدَّ اللهُ سبحانه هدايةَ هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدَّها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء» [(٢)].

وإنما قدَّم داود وسليمان على أيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام لأن الله تعالى جمع لهما بين النبوة والملك وفي ذلك شرف لهما ولإبراهيم عليه السلام، والمقام مقام تشريفٍ وامتنان.

وفي اقتران أيوب بيوسف عليهما السلام لقربهما في الزمان ولتشابه حالهما حيث ثباتهما وصبرهما الجميل وصمودهما أمام أمواج الابتلاء وأعاصير المحن ورياحِ الفتن، وعاقبة صبرهما وتقواهما.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

« وأخر ذكر إسماعيل عليه السلام لأنه ذكر إسحاق عليه السلام وذكر أولاده من بعده على نسق واحد» [(٣)].

﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فضلهم الله بالنبوة والعلم والحكمة.

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤١٠ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٣٦.

(٣) فتح البيان لصديق حسن خان ٣ / ١٩٥ .

﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي: وهدَيْنا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ، فـ «مِنْ» للتبعيض، والمراد: مَنْ آمن منهم، نبيّاً كان أو غير نبيٍّ، ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ ﴾، أي: تخيَّرناهم، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء: ضمُّ الذي تجتبيه إلى خاصتك، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أيْ: أرشدْناهم إلى الإيمان، والفوز برضا الله عزَّ وجلَّ.

تعقيبٌ على القصة

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ذلك المشار إليه من تلك الهدايات الربانية وأنوار النبوة: ﴿ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فالهدايةُ دلالةٌ وبيانٌ، وتوفيقٌ ومعونةٌ من الله تعالى، يختصُّ تعالى بها من يشاء من عباده، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي على فرض وقوعهم في الشرك وهذا مستبعدٌ لحبط عملُهم، لكن الله تعالى عَصَمَ أنبياءَهُ من الشرك.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ أولئك: إشارة إلى الأنبياء المذكورين وعددهم ثمانية عشر نبيا، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ الذين منَّ الله عز وجل عليهم بالهداية وأنعم عليهم بالكتب المنزَّلة، ﴿ وَٱلْحُكْمَ ﴾ وهو الحكمةُ والفهمُ، ﴿ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾: وهي من أجلِّ المواهبِ الربانية يختصُّ الله بها من يشاءُ من عباده.

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾

الضمير في بها للحكم والنبوّة والكتاب، أو للنبوّة فقط، ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (إن) شرطية والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ وجواب الشرط ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ أي وفقنا إلى الإيمان بها قوماً، وهم الصحابة وهو الأظهر لمقابلة إيمانهم بكفار قريشٍ الذين أصروا على كفرهم وإعراضهم، أو الأنبياء المذكورون سابقاً وأتباعهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أولئك: إشارةٌ إلى الأنبياء عليهم السلام، فهم نجومُ الهدى وأعلامُ الرشاد ومناراتُ الحقِّ، وهم الذين أُمِرَ نبيُّنا ﷺ أن يقتدي بهم ويسير على نهجهم، وقد عرَّفه الله تعالى بهم وحدَّثه عن إيمانهم وإخلاصهم، وهداهم وتقواهم وصبرهم وثباتهم وتحلِّيهم بمكارم الأخلاق.

قال الإمام البيضاوي: « والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولا يمكن التأسي بهم جميعاً. فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبدٌ بشرع من قبله»[(١)].

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

أي: ﴿ قُل ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾أي: في مقابل دعوتي لكم وإبلاغي إياكم، وفي هذا دفعٌ لما قد يتوهمونه من أنه جاء لطَلَبِ دنيا أو تحصيلِ مالٍ فيكون من أسباب امتناعهم.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٥٠٣.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ما يصلح دينهم ودنياهم، من عقيدةٍ صحيحة وشريعةٍ سمحة وأخلاقٍ كريمةٍ ومواعظ رقيقة وقصصٍ هادفةٍ وأمثالٍ نافعةٍ وحِكَمٍ جامعةٍ.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

المتأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرةٍ متنوعةٍ؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقريري، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، التي سيقتْ لإقامةِ الحجةِ وإبراز المحجَّةِ وتقرير أركان هذا الدين وتقويض دعائمِ الشركِ.

ولما كان لإبراهيم عليه السلام مكانةٌ عند مشركي العرب، سيقت قصته للاحتجاج به، عليهم ولبيان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدَّعون متابعتَه وهم بعيدون عن هديه، راغبون عن ملتهِ.

كذلك سيقت القصة احتجاجا على أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أبعدهم عن هديه وملته.

فكانت قصة إبراهيم نموذجا للقصة كأسلوب من أساليب الإقناع والاستدلال، فضلا عما انطوت عليه من دروسٍ وعبر وفوائد وأحكام.

وفي سردها في هذا المقام تسليةٌ وتسريةٌ للنبي ﷺ ، ودعوةٌ للتأسي بأبي الأنبياء عليه السلام في صبره ويقينه، ومنهجه في دعوة قومهِ.

وقد وردت قصةُ إبراهيم عليه السلام في سورٍ عديدة وفي سياقاتٍ متعددةٍ وفي كلِّ مرةٍ يُكشفُ عن جانبٍ من جوانب هذه القصة؛ بقدر ما يتوافق مع السياق الذي وردت فيه، أما الآياتُ الواردةُ هنا في شأن إبراهيم عليه السلام فإنها تُركِّزُ على دعوته ومحاورته لقومه وأسلوبه البديع ومنطقه العذب وطريقته السهلة الواضحة في إقامة الحجة على قومه وإقناعهم.

ذلك أن مدارَ السورةِ الكريمةِ هو إقامةُ الحججِ على الكفارِ على اختلافِ مللهم ونحلهم، وتفنيد ما هم عليه جميعا من أباطيل وأوهام، وتفنيد شبهاتهم وافتراءاتهم، وإزالة شكوكِهم ومواجهة صدودهم وإعراضهم.

الهدايات المستنبطة

* أهمية الحوار في إقامة الحجة والإقناع مع جواز مجاراة الخصم للوصول إلى الحقيقة.
* حرصُ إبراهيم عليه السلام على دعوةِ أبيه، يرشدُنا إلى دور الداعية مع أهله وعشيرته، وتدرُّجه في الدعوةِ.
* أراد عليه السلام أن يقيم الحجةَ على قومه، وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن حجةٍ إلى حجةٍ حتى يأخذَ بأيديهم إلى طريقِ الهدى، إنها محاورةٌ عملية ومناظرة واقعيةٌ ومساجلةٌ ميدانيةٌ لتكون أدعى إلى القبول وأبلغَ في الاحتجاج.
* على المؤمن أن يستحضر دائما نعمة الله عليه بالهداية، ويؤدي حقَّها بدعوة من حُرِمُوا منها.
* على المحاورِ أن يخاطب عقل من يحاوره كما يخاطب مشاعره ووجدانه، فيجمع بين الحكمة وهي خطاب العقل، والموعظة الحسنة وهي أقربُ وسيلةً للروح والوجدان، كما فعل إبراهيم عليه السلام.
* كما اصطفى الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعَّبت من بعده تلك الشجرة المباركة شجرة الأنبياء عليهم السلام.
* من كمال نبوته ﷺ وتمام دعوتِهِ: اقتداؤُه وتأسيه بجميعِ الأنبياءِ فلم يجتمع ذلك لغيره من الأنبياء كما في الحديث: عَنْ جَابرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَثَلي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَاراً فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا

وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ)[(١)] وصدق الله تعالى﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة ٣].

* على المحاورِ أن يستعين بالله تعالى فالتوفيق والسداد منه تعالى، والتأييدُ بالحجج والبراهين فضلٌ منه سبحانه قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

* التحذيرُ من الشرك، وبيانُ أنه من محبطاتِ الأعمال.

* قوله تعالى ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ قال الرازي رحمه الله: « دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيَّه ويُقَوِّي دينَه، ويجعلُه مستعلياً على كل من عاداه، قاهراً لكل من نازعَهُ، وقد وقع هذا الذي أخبر الله تعالى عنه في هذا الموضعِ، فكان هذا جارياً مجرى الإخبارِ عن الغيب، فيكون معجزاً. والله أعلم»[(٢)].

* **أقول**: ووعد الله تعالى بنصر دينه والتمكين لأوليائه وانتشار دعوة الإسلام بين سائر الأمم والشعوب وعدٌ قائمٌ، وها نحن نرى كل يوم مدى إقبال غير المسلمين على هذا الدين وتمسكهم به وسعادتهم بدخوله وحملهم لواء الدعوة وهمومها، في الوقت الذي تزداد فيه الحملات ضد الإسلام وتضطرم نيران الشبهات والافتراءات من قبل الأعداء والأدعياء، وتنفق المليارات على الحملات التنصيرية بهدف صدِّ الناس عن الحقِّ: نجد شموعا مضيئة في خضم هذه الفتن تتمثل في أولئك الذين شرح الله صدورهم لقبول دينه، ليقدِّموا برهانا ساطعا وشهادة صادقة على عظمة هذا الدين، كما يكشف هذا الإقبال الكثيف عن زيف الحضارة الغربية وإفلاسها، وأن الأديان المحرفة لا يمكن أن تنهض بالإنسان أو تحقق له النجاة، وأن الإسلام قدم منهجا عمليا واقعيا لصلاح البشرية وسعادتها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب - باب: خاتم النبيين ﷺ صحيح البخاري حديث ٣٣٤١ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين صحيح مسلم حديث ٤٢٣٧.

(٢) التفسير الكبير الرازي ٥ / ٥٥.

وكأني بهذه الآية الكريمة وهي تشير إلى سنة التغيير والاستبدال، لتنتظم مع غيرها من السنة التي تضمنتها السورة الكريمة.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ أقول: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ وكافةَ المؤمنين به أن يقتدوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فهم نجومُ الهدى ومصابيح الدجى وجوامعُ العلوم والحكم وينابيع الفضائل، ومعادن الخيرات وشآبيبُ الرحمات، فعلى كلِّ مسلم أن يُعنى بدراسة سيرتهم العطرة في ضوء الكتاب والسنة ويقتطف منها العبر ويلتمس الفوائدَ، ويستنبط الدروس والحِكم سيَّما في هذا العصر، وما يشهده من غربةٍ في أحوال المسلمين، وفرقةٍ بين دعاةِ الحقِّ، مع تسلطِ الأعداء وكيد الأدعياء، واختلاط المفاهيم، وتخبُّطٍ في بعض المناهج ما بين يائسٍ ومداهنٍ ومتعجِّل ومتعصِّب، من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعا، فالدراسةُ المتجردةُ الواعيةُ لهذه الحياةِ الحافلةِ المباركة: حصنٌ مكينٌ، ومنارٌ للسالكين، ومبعثٌ إلى الوحدة والاعتصامِ بحبلِ الله المتين، واتباعِ صراطه المستقيم، ومنطلقٌ إلى النصرِ والتمكين».

- ١٢ -

الاحتجاجُ على مُنْكِري الوحْيِ

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

المناسبة

أبعد الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام وقد تواترت بها الأنباء وسارت بذكرها الركبان، ثم الحديث عن جملة من الأنبياء من ذريته عليهم السلام قد بلغت سيرتهم أطباق الأرض وأركانها يوجدُ من بين العقلاء من ينكر الوحي؟ فهل ينكرُه إلا مكابرٌ جاحدٌ، أو جاهلٌ معاندٌ، لم يقدُرِ اللهَ حقَّ قدرِهِ ولم يعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ؟

التفسير الإجمالي

أبعد الحديث عن الأنبياء عليهم السلام تلك النجوم الزاهرة والبدور النيِّرة ينكرُ الجاحدون تلك الأضواء الباهرة؟ إنه الجحود والإنكار، والصدود والاستكبار، الذي يُعْمِي القلوبَ والأبصارَ.

إنه الجهل المطبقُ بالحقِّ والضلالُ المبينُ الذي يحملهم على إنكار الرسل والرسالات وقد

تعطرت الدُّنى [1] بسيرتِهم، وأضاءت صفحاتُ التاريخ بمآثرهم ومناقبهم، فتواتر ذكرُهم على مرِّ العصورِ والأجيالِ حتى أصبح من الحقائق المسلمة التي يُسلِّمُ بها كلُّ منصفٍ.

أما أولئك الجاحدون فإنهم ما قدروه حقَّ قدره، وما عرفوه حقَّ المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ حين نطقوا بكلمة الكفرِ والإلحاد، حين قالوا مقولتهم الظالمة التي تعبِّر عن تصوراتهم المظلمة.

ما عظَّموا ربهم حقَّ التعظيم ولا عرفوه حقَّ معرفته حين أنكروا ما تواترت به الأخبار وما جاء به الوحي فقالوا مكابرينَ مقولة الجاحدين ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا قدحٌ في حكمته تعالى وعدلِه، وزعمٌ أنه ترك عباده هملاً بلا شرعةٍ ومنهاجٍ، ونفيٌ لأجلِّ النعم التي أنعم الله بها على عباده وهي إرسال الرسل.

وهنا يتبادر هذا التساؤل: من القائل؟ أهم كفار قريش؛ حيث نزلت السورة في محاجتهم؟ فكيف احتجَّ عليهم بنبوة موسى وإنزال التوراة عليه؟ أم أصحاب هذه المقولة الظالمة هم أهل الكتاب؟

ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش واستدلَّ على ذلك بأن سياق الآيات إنما نزلت فيهم، وردَّ رأي من زعم أن الآية نزلت في يهود، فبين أن اليهود لم يجرِ لهم ذكرٌ متصلٌ بهذه الآيات ولم يُعْرَفْ عنهم إنكارٌ للرسل والرسالات، كما لم يرد ما يدلُّ على أن الآية نزلت في يهود [2].

وقال ابن كثير: « يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فنحاص رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف.

---

(١) الدُّنى: جمع الدنيا، نحو الكبرى والكبر، والصغرى والصغر.

(٢) يراجع جامع البيان للطبري ٧/ ٣٠٩

﴿ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب كانوا ينكرون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظُلَمِ الشبهات»[(١)].

وقوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أي: يجعلها حَمَلَتُها قراطيس أي: أجزاءً من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

أقول: الآية في أولها حديث عن المشركين﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ثم جاء الالتفات إلى اليهود في قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حيث كان اليهود على علم ببعثة النبي ﷺ وكانوا على اتصال بالمشركين يُمِدُّونهم بالأسئلة والشُّبه، أو أن قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٠.

وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ كان في بعض مشركي مكة الذين كانوا على علمٍ بالتوراة وما فيها من بشاراتٍ بالنبي الخاتم ومع ذلك لم يؤمنوا.

وقال أبو حيان: « إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى وإن كانوا العرب فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول»[1].

حتى صار من المتعارف عليه عند العرب قبل ظهور الإسلام إقرارُهم بنزول الكتاب على موسى عليه السلام.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾، ومن ذلك رجوعهم إلى أهل الكتاب في مسائل عديدة ففي رجوعهم ما يفيد تصديقهم بما عندهم.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾: أي: قل: الله أنزله، ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، فقد خلطوا بين الجدِّ والهزْلِ فصاروا لا يميزون بينهما، فَدَعْهُمْ: حتى يأتيَهم من الله اليقين، فسوف يعلمون من تكون له العاقبة؟

التفاتٌ إلى مقاصد القرآن

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

بعد بيان وتقرير إنزال التوراة على موسى عليه السلام نورا وهدايةً للناس، جاء الحديث عن المعجزة الكبرى والرسالة الخاتِمة المتمِّمة القرآن الكريم الذي جاء مهيمنا على ما سبقه من كتبٍ،

(١) البحر المحيط ٥ / ٢٠٢.

والإشارة إليه بالقريب: لقربه منهم وقربه إلى أفهامهم وعقولهم وملامسته لواقعهم وأحوالهم ومواكبته لكل العصور، أنزله الله مباركا لمن تلاه حقَّ تلاوته وعَمِلَ به ودعا إِلَيْهِ، مباركا بما حوى من منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين وفوائد لا نهاية لها، وجاء مصدقاً لما بين يديه: أي للكتب السابقةِ مصدقا بنزولها على الأنبياء عليهم السلام ومصدقا بمقاصده وما تضمنته من أحكام وأخبارٍ، قبل أن تحرَّف وتبدَّل، أو مصدق بما بين يديه من أحداث الحاضر وأمور المستقبل، ومن أهمها ما يتعلق بالساعة من مقدمات وعلامات وما يقع فيها من أهوالٍ عظامٍ وأحداثٍ جسام.

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ومنذراً لأهل مكة ولمن حولها، وفي هذا إشارةٌ إلى ما ذهب إليه بعض أهلِ العلم من أن مكة مركز العالم حيث تتوسط الكرة الأرضية، فكأن البلادَ من حولها أبناءٌ قد تحلَّقوا حول أمِّهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ فمن كان مؤمنا باليوم الآخر فحريٌّ به أن يؤمن بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ، وحريٌّ به أيضا أن يحافظ على الصلوات فهي طريقُ الفلاحِ في الدارين ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

مصير أهل الكذب والافتراء

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

إذا كان من يكذب بآيات الله تعالى وينكر الوحي لم يَقْدُرِ الله حقَّ قدره إذا كان هذا حال المكذبين بالله: فهل هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوةَ وتظاهرَ بأنه يوحى

إليه ولم يوح إليه بشيء، شأنُ مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهيةِ أو شيئا من خصائصها، كالذين يُحِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ ولو ترى يا محمد أولئك الطغاةَ في ساعة الاحتضار وهم في خضم الشدائدِ وغمرةِ السَّكَرَاتِ، وحولهم الملائكةُ الذين كانوا يتعجَّلون نزولَهم، فهاهم قد حلَّ الموتُ بهم وجاءهم العذابُ الذي لا رجعةَ فيه ولا مفرَّ منه، وغشيتهم سكراتُ الموت، وحضرتهم ملائكةُ العذابِ، يستعجلون خروج أرواحهم الخبيثة، لو تراهم وهم على هذه الحال: لرأيت أهوالا عظاما وأمورا جساماً!

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ يبسطونها بالضربِ المُؤلمِ والعذابِ المُهينِ فيضربون وجوههم وأدبارهم، فبئس التوديع للدنيا! وبئس الخروج منها خزايا محرومين! ولبئسَ استقبالُ الآخرة، ودخولها بذنوبٍ تقصِمُ الظهورَ، وحسرات تُقطِّعُ الأكباد! ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ حيث كان ضرب الأدبار وما فيه من مهانةٍ بمثابة توديعهم للدنيا، وضرب الوجوه وما فيه من تحقيرٍ لهم بمثابةِ استقبالهم في الدارِ الآخرة، ويبسطونها لقبض الأرواح قائلين لهم على سبيل التعجيز والاستهانة ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾: من هذه الغمرات التي وقعتم فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم إن استطعتم؛ تبكيتٌ لهم وتعجيزٌ، وسخريةٌ واستهزاءٌ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، يا من افتريتم على الله الكذب وكذبتم بآياته واستهنتم بها: « هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارةٌ عن العنفِ في السياقِ والإلحاحِ والتشديدِ في الإزهاقِ، من غير تنفيسٍ وإمهالٍ وأنهم يفعلون بهم

فعلَ الغريم المسلطِ يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له أَخْرِجْ إليّ مَا لي عليكَ الساعةَ ولا أبرح مكاني حتى أنزعه من أحداقك!»[1].

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يوبخونهم ويقرعُونَ مسامعَهُم بتلك الجرائمِ التي استحقوا بها هذا العذابَ المُهين، كما تُتْلى على الجاني صحيفةُ جنايتِه عند القَصَاصِ منه، فهذا العذابُ إنما كان بافترائهم وتكذيبهم ومكابرتهم وعنادِهم.

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

جُرِّدوا من كل شيء، فخرجوا من الدنيا كما دخلوها، وجاءوا حُفاةً عراةً غُرْلا كما ولدتهم أمهاتُهم، ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ تركوا الأهل والخلان والأموالَ والسلطانَ وراء ظهورهم، ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾لم تنفعهم آلهتُهم التي عبدوها زاعمين أنها تقربُهم إلى الله زُلفى، ولم تدفع عنهم بل كانت وبالا عليهم، ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقطع ما بينكم من صلاتٍ وروابط، وتقطع بينكم: تبدَّد شملُكم وتفرَّقَ جمعُكم، وتشتت أمرُكم، وخابَ سعيُكم، وانقطعَ رجاؤكم.

﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أي ذهب وبطل وغاب ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي من تلك الضلالات والأباطيلِ كلِّها.

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٢]، وقوله ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٦ بتصرف .

دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة

المناسبة بين آيات هذا المقطع وبين المحور العام للسورة واضحةٌ جلية فلقد ردَّت على منكري الوحي من أهل الكفر والإلحاد والجحود والعناد، فمن ينكر الوحي الإلهي كمن ينكرُ الشمسِ وهي ساطعةٌ في كبد السماء، ولكن كما قال البوصيري:

قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رمدٍ		ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمٍ

كذلك بينت الآيات أن من أشنع ألوان الظلم: الافتراء على الله ثم ذكرت صورا منه وأعقبته ببيان عاقبته في الدنيا من سوء الخاتمة، وفي الآخرة من الخزي والهوان والعذاب الشديد.

الهدايات المستنبطة

* من جحد رسالة رسله تعالى فما قدره حق قدره ولا عرفه حقَّ معرفته ولا عظمه حقَّ تعظيمه ولا نزهه حقَّ تنزيهِ، لكنه الهوى المتبعُ والتقليدُ الأعمى والجهلُ المطبقُ الذي يحمل صاحبَه على إنكار الرسل والرسالات، كيف وقد تواترَ ذكرُهم على مرِّ القرون والأجيالِ، وأضاءت أنوارُهم أرجاء الكونِ، حتى أصبحَ من الحقائقِ المسلماتِ ومن كبرى اليقينياتِ.
* وحول قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يقول القرطبي رحمه الله: « قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات،

ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص! وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المُفتون؛ ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم! وهذا القول زندقةٌ وكفرٌ، يُقْتَلُ قائلُه ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هدُّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام»[1].

* **تعقيبٌ لسيد قطب:** « وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم، لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله. وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول...»[2].

* حريٌّ بأهل الكتاب أن يؤمنوا بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ، وفصَّلَ في أمور الآخرة أدقَّ تفصيل وأصدق بيانٍ، وحريٌّ بمن آمن باليوم الآخرِ أن يؤمن بآخر النبيين مبعثا نبينا محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وحريٌّ به أيضا أن يحافظ على الصلوات، فهي طريق الفلاح في الدارين وهي عماد الدين وأفضل القربات وأجلُّ الطاعات، ومحور العباداتِ.

* ليس هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوةَ وتظاهرَ بأنه يوحى إليه ولم يوح

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧/ ٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ١١٤٦.

إليه بشيء شأن مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهيةَ أو شيئا من خصائصها كالذين يُحِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن فهذا من أشنع ألوان الظلم.

* شدة سكرات الموت على الطغاة المستكبرين وما يلاقونه من أهوالٍ عظامٍ وتوبيخٍ وإيلامٍ حين يودِّعون دنياهم ويستقبلون أخراهم، وقد انقطعت الصلات وتكشفت الغيبيات.

- ١٣ -

من دلائل القدرة

قال تعالى﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

المناسبة

هذه جولةٌ أخرى من جولاتِ هذه السورة سيقت لبيان دلائلِ قدرتِهِ وآياتِ عظمتِه وبدائع صنعه وعجائبِ خلقِهِ سبحانَه، وتقريرِ وحدانيته فهو الخالقُ المُدبِّرُ لهذا الكونِ، وما يعبدونه من آلهةٍ مزعومةٍ من شجرٍ أو حجرٍ أو بشرٍ أو شمسٍ أو قمرٍ أو حيوانٍ أو طير فإنما هي مخلوقةٌ وخاضعةٌ لله تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ والفلق هو الشقُّ والحبُّ: مثل حبة الحنطة والشعير

وسائر الأنواع، والنوى هو ما يكون في داخل الثمرة، مثل نوى التمر وغيره.

قال الإمام الرازي: « واعلم أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قَدْرٌ من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً، أما من أعلاها فتخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، وأما من أسفلها: فتخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة، وهاهنا عجائب... منها: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكينُ الحاد القوي فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلَّكها الإنسانُ بأصبعه بأدنى قوةٍ: لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة، فحصولُ هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز العليم...» [1].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ فكما أن شق الحب والنوى آيةٌ عجيبةٌ وحجةٌ باهرة، وخروج النبات الغض الطري الأخضر من الحب اليابس واليابس من النبات الحي النامي، فكذلك إخراجُهُ الحيَّ من الميت، والميتَ من الحي، والأمثلةُ على ذلك في هذا الكونِ الرحيب لا تحصى ولا تُعدُّ.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ذلكم الخالق الرازق المدبِّر المحي المميتُ هو الله، فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره! كيف تنصرفون عنه سبحانه وتعرضون عن هداه، مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته وعجائب مخلوقاته؟

لطيفة: قال ابن عاشور: « وقد جيء بجملة: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ فعليَّة للدَّلالة على أنَّ هذا الفعل يتجدَّد ويتكرَّر في كلّ آن، فهو مُرادٌ معلومٌ وليس على سبيل المصادفة والاتّفاق، وجيء في قوله: ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ اسماً للدّلالة على الدّوام والثّبات، فحصل بمجموع

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٥ / ٧٢ بتصرف .

ذلك أنّ كلا الفعلين متجدّد وثابت»[١].

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ كما أنه فالقُ الحبِّ والنوى فهو تعالى فالقُ الإصباح شقَّ بالنورِ ستائرَ الظلام قال أبو السعود: «فالقُ عمودِ الفجر عن بياضِ النهار وإسفارِه، أو فالق ظلمةِ الإصباحِ وهي الغَبَشُ الذي يلي الصبحَ»[٢].

﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا ﴾ للسكونِ والراحةِ والنوم ﴿ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًا ﴾ أي يسيران بحساب دقيق يعرف به عدد السنين ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ كلُّ ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، فهو تعالى العزيز لا يمتنعُ عليه شيء، وبعزته انقادت له هذه الأجرام، تسيرُ بأمره وتخضعُ لعظمته، العليمُ فلا تغيبُ عنه غائبةٌ ولا يخفى عليه شيء.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ أي: خلقها للاهتداء بها ﴿ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ التي بيناها بياناً مفصلاً لتكون أبلغ في الاعتبار ﴿ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته.

قال الشيخ السعدي: «جعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم، منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرَه أهلُ المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ تذكيرٌ بنعمةٍ أخرى من نِعَمه تعالى دالةٍ على عظيم قدرته ولطيفِ صُنعه، هذه النفسُ هي نفسُ أبينا آدم عليه السلام كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٣٨٩.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤١٨.

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾: مستقرٌّ على ظاهرِ الأرض كما قال تعالى ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ومستودعٌ في بطنها كما قال سبحانه ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ أو مستقرٌّ في بطون الأمهات ومستودعٌ في بطون الأرضِ.

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قد بينَّا دلائل التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ يعني لقوم يفهمون عن الله آياته الدالة على توحيده.

وقال هنا « يفقهون « لأن إنشاءهم من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وألسنتهم ومشاربهم أمرٌ يحتاج إلى إعمال عقلٍ وتدقيق نظرٍ»[١].

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ يخرج من ذلك الخَضِر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخيل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف.

وفي هذه العبارة القرآنية إشارة علمية إلى ذلك المصنع الرباني لاستخراج وتراكيب واستخلاص وإنتاج النبات من ذلك الخَضِر «مادة اليخضور» وهو ما دلَّت عليه الأبحاث والدراسات التي امتدت لقرون عديدة لتصل في النهاية إلى هذه الحقيقة القرآنية[٢]

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٥٠٨.

(٢) قدر الله سبحانه وتعالى أن تعتمد النباتات وكذا الإنسان والحيوانات في غذائها على ما ينتجه النبات =

قال السعدي: « وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار» (١).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ ﴾ يعني من ثمرها، يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها، قنوان: جمع قنو مثل: صنوان وصنو، ودانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد.

قال الخازن: « وفيه اختصارٌ وحذفٌ: تقديرُه ومن النخل ما قنوانها دانيةٌ قريبةٌ ومنها ما هي بعيدةٌ عاليةٌ فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولاً من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة» (٢).

﴿ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ وأخرجنا جنات من أعنابٍ وأشجار الزيتون والرمان.

﴿ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ﴾ قال السعدي: يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، وكل ذلك التنوع لينتفع به العباد، ويتفكَّهون، ويقتاتون، ويتاجرون، ويعتبرون.

= في مصانعه الخضراء، وهذه المصانع الخضراء يخرجها النبات بأمر ربه عند بداية نموه وتسمى في كتب العلوم النباتية «البلاستيدات الخضراء» والتي تحتوي على الكلوروفيل الذي عبّر عنه القرآن بالخضر حيث يقوم بالاستفادة من الطاقة الضوئية ويحولها إلى طاقة كيمائية ينتج عنها تكوين الحبوب والثمار المختلفة وسائر أجزاء النبات التي نراها في الحدائق والبساتين. لمزيد بيان يمكن الرجوع إلى موقع جامعة الإيمان – البيئة العلمية في القرآن الكريم، وموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٧

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٦٥

وقال ابن عاشور: « والتّشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال، أي بعض شجره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، أو بعض ثمره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، فالتّشابه ممّا تقارب لونُهُ أو طعمُهُ أو شكلُهُ ممّا يتطلّبُهُ النّاسُ من أحواله على اختلاف أميالهم، وعدم التّشابه ما اختلف بعضُه عن البعض الآخر فيما يتطلّبه النّاس من الصّفات على اختلاف شهواتهم، فمن أعواد الشّجر غليظ ودقيق، ومن ألوان ورقه قاتم وداكن، ومن ألوان ثمره مختلف ومن طعمه كذلك،... والمقصود من التّقييد بهذه الحال التّنبيه على أنّها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة»[1].

ثم قال تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ يعني: نضجه وإدراكه.

والمعنى: انظروا نظر استدلال واعتبار: كيف أخرج الله تعالى هذه التمرةَ الرطبةَ اللطيفةَ الليِّنةَ من هذه الشجرةِ الكثيفةِ اليابسة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فلا يعتبرُ بهذه الآيات ولا ينتفعُ بها إلا المؤمنون، وهذه دعوةٌ للنظر والتأمل في روائع المخلوقات.

المناسبة بين آيات المقطع وبين محور السورة

وهي واضحةٌ جليَّة؛ إذ تدورُ الآياتُ حولَ دلائلِ القدرةِ الإلهيةِ وبدائعِ الصنائعِ الربانيةِ التي تتجلى في عجائبِ مخلوقاتِه، ولطائفِ ما أودع في هذا الكون من حكم باهرةٍ، في تدبرها ما يعمِّقُ الإيمانَ ويَزيده، وهي تقريرٌ لأصول الدين وإجابةٌ مسكتةٌ لِشُبَهِ الجاحدينَ والمشككين.

الهدايات المستنبطة

* احتج الله عليهم بتلك الشواهد المحسوسة؛ لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه قادرٌ على بعثهم.
* من الأدلة العقلية على إحاطة علمه: تسخيرُ هذه المخلوقات العظيمة على تقديرٍ دقيقٍ ونظام بديع، تحارُ العقولَ في حسنه وكماله ودقته وإبداعه، وموافقته للمصالح والحِكَم.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٤٠٢ بتصرف.

* جعل الله النجومَ هدايةً للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

* مشروعيةُ تعلم علمِ الفلك ومعرفة سير النجوم والكواكب وكل ما يتعلق بهذا الفضاء الرحيب لما في ذَلك من فوائد وعبر، وللاهتداء بها في ظلمات البرِّ والبحر، من ذلك ما ثبت بالملاحظة العلمية الدقيقة وبالمناظير المقربة أن النجم القطبي هو أحد نجوم السماء التي تبعد عنا آلاف الملايين من الأميال، وأنه يبعد عن الكرة الأرضية بنحو ٣٠٠ سنة ضوئية لوحظ أن هذا النجم يقع جهة الشمال دائما بالنسبة لسكان نصف الكرة الشمالي، وبواسطة هذا النجم يمكننا أن نعرف الاتجاهات، وقد استطاع الفلكيون بوسائلهم وأجهزتهم العلمية وحساباتهم أن يرصدوا كثيرا النجوم ويحددوا مواقعها بالنسبة للأرض، لتكون مرشدا للمسافرين في البر والبحر وفى رحلات الفضاء إلى الكواكب.

* لكن تعلمها على مذهب الكهان والمنجمين حرامٌ شرعا، ففي الإبانة لابن بطة: « وأمر النجوم على وجهين: أحدهما واجب علمُه والعمل به، فأما ما يجب علمه والعمل به: فهو أن يتعلم من النجوم ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر ويعرف به القبلة والصلاة والطرقات فبهذا العلم من النجوم نطق الكتاب ومضت السنة، وأما ما لا يجوز النظر فيه والتصديق به ويجب علينا الإمساك عنه من علم النجوم: فهو أن لا يحكم للنجوم بفعل ولا يقضي لها بحدوث أمرٍ كما يدَّعي الجاهلون من علم الغيوب بعلم النجوم ولا قوة إلا بالله»[1].

* وفي النونية للقحطاني:

لا تـتَّـبـعْ عـلـمَ الـنـجـومِ فإنه   مـتـعـلـقٌ بـزخـارفِ الـكـهـانِ

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ١/ ٢٤٤، ويراجع: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ بن أحمد حكمي رحمه الله ٢ / ٥٦٠.

علـمُ النجـومِ وعلـمُ شـرعِ محمـدٍ ... في قلـبِ عبـدٍ ليـس يجتمعـانِ [١]

* في هذا التنوع العجيب والنظام الدقيق ما يدل على قدرة الله تعالى وتقديره، وفيه ردٌّ على الملاحدة الذين قالوا إن الكون خلق صدفة فهل يُعقلُ أن توجِد الصدفة مثلَ هذا النظام العجيب وهذا النسقِ المحكم!

* استحباب النظر في آيات الله تعالى الكونية، والتأمل في بديع صنعه، والتفكر في عجائبِ المخلوقات، والاستمتاعِ بجمالِ الكونِ وروعته، ليستشعر المؤمنُ عظمةَ الخالقِ جلَّ وعلا وقد قيل:

تـأمـلْ سُـطُـورَ الـكـائـنـاتِ فإنها ... مـن المـلأ الأعـلى إلـيـك رسـائـلُ

وقـد خـطَّ فيها لـو تأملتَ خطَّها ... ألا كـلُّ شيءٍ مـا خـلا الله باطلُ

* وقد رأينا في هذه السورة وهي تقيم الحجج وتعرضُ الأدلة كيف تدعو مرارا إلى النظر والتبصُّر والتفكر والاعتبار والتعقُّل والتبين والتذكر حتى صارت هذه الدعوات سمةً غالبةً ومعلما مُميَّزا لهذه السورة الكريمة.

(١) نونية القحطاني – لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي.

- ١٤ -

رَدٌّ على مزاعمِ المشركين
وتقريرٌ للعقيدةِ الصحيحةِ

قال تعالى﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المناسبة

بعد هذه الآيات البينات والحجج النيرات التي تشهد للحقِّ بكمال قدرته، وتُقَرِّرُ تفردَه تعالى بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواه، عاد السياقُ إلى تفنيد شُبَهِ المشركين وبيان بطلانِ ما هم عليه من معتقداتٍ فاسدةٍ وتصوراتٍ خاطئةٍ.

من ذلك أنهم جعلوا من الجنِّ شركاء لله يدعونهم ويعوذون بهم، فضلا عن إطاعتهم لشياطين الجن، واستجابتهم لوساوسهم، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ينعى القرآن الكريم ما عليه طوائفُ من المشركين من تعظيم الجنِّ والخنوع لهم، أو عبادتهم من دون الله.

ولقد حذر الله تعالى من إطاعتهم وموالاتهم وعبادتهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦١،٦٠].

ومن طوائفِ الكفرةِ عَبَدَةُ الشياطينَ الذين يتقربون إليهم بالنجاساتِ ويتوددون لهم بالموبقاتِ، فجعلوا الشياطينَ شركاءَ للهِ في تدبير الكون، وتجاهلوا كون الشياطين مخلوقةً من جملةِ المخلوقاتِ.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

جاء في اللسان:» خَرَق الكذبَ وتَخَرَّقه وخَرَّقَه كلُّه اخْتلَقه قال الله عز وجل ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ افْتَعلوا ذلك كذباً وكُفراً، وخرَقوا واخْترقُوا وخلَقوا واخْتَلَقُوا واحد»[1].

والمعنى: ادَّعوا واختلقوا لله سبحانه الولد، فقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى المسيح ابنُ الله، وقال بعض مشركي العرب الملائكةُ بناتُ الله، ادعوا ذلك بلا علم ولا دليلٍ وإنما هو محضُ افتراءٍ على الله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فهو تعالى منزهٌ مُقدَّسٌ عن كلِّ ما لا يليق بهِ، متعالٍ على تلك الافتراءات والمعتقدات الباطلة.

ومن ذلك أنهم كانوا يتعوذون بهم في أسفارهم إذا نزلوا واديا، والتعوذ لا يكون إلا بالله تعالى، قال تعالى في سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن ٦].

كما اختلقوا من تلقاء أنفسهم، بنين وبنات لله بغير علم منهم، سبحانه وتعالى عما يصفون.

---

(١) لسان العرب ١٠ / ٧٣ بتصرف .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ مبدعها فلا شيء قبله، وكلُّ شيء في هذا الكون فإن الله مبدعُهُ ومن كان كذلك فأنّى يكونُ له ولدٌ؟ وكيف يتأتّى الولدُ بلا صاحبةٍ؟ وكيف الولدُ والصاحبةُ وهو تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ؟

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

بعد نقضِ عقائدِ الشرك، وبيان زيفِها وبطلانِها، قررَ سبحانه العقيدةَ الصحيحة، عقيدةَ التوحيدِ، فهو تعالى الواحدُ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه.

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ « متولي أمورَ جميعِ مخلوقاتِه التي أنتم من جملتها، فكِلوا أمورَكم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربِكم الدنيويةِ والأخروية»[1].

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة؛ لأنه تعالى لا تحيطُ به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة، وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى بل تنفي إدراك الأبصار أي إحاطتها به تعالى وقد ورد ما يفيد صراحةً رؤيةَ المؤمنين لربهم في الآخرة: من ذلك قوله جلَّ وعلا ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله سبحانه ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين: ١٥] فإذا كان الكفار محجوبين عن ربهم؛ فإن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه سبحانه.

﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، فعلمه تعالى يشملُ كلَّ ما لطف ودقَّ

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤٢٤.

فضلا عما جلَّ وعظُم، اللطيف بعباده في كل شئونهم وجميع أحوالهم ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الذي أحاط علمُه بكل شيء.

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ والبصائر: هي الآياتُ البيناتُ والحججُ الساطعات التي اشتمل القرآن عليها، وجاء بها الرسولُ ﷺ فمن أبصرها وانتفع بها واستضاء بنورها فلنفسه ومن عمي عنها وأعرضَ عن هديِها فقد حَرَمَ نفسه الخيرَ وساقها إلى الهلاكِ.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي لست عليكم بحافظٍ ولا رقيبٍ فمهمةُ الرسولِ ﷺ هي الدعوةُ والإرشادُ، وكلُّ إنسانٍ موكلٌ بنفسه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وكذلك نصرف الآيات بما فيها من تنوعٍ في العرضِ والأسلوبِ وتفننٌ في الخطاب وتقريرٍ للمعاني وترسيخٍ لها في النفوس وما يتطلَّب ذلك من وعدٍ ووعيدٍ وقصصٍ وأمثالٍ، وتقريرٍ وتلقينٍ، ومحاجَّةٍ وحوارٍ، ودعوة إلى النظرِ والاعتبار، وليقولوا ما يقولون فإنَ قولهم لن يضيرَكَ ولن يقدح فيما جئتَ به.

﴿ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ هذا قول المكابرين المعاندين ممن أدرك بلاغةَ هذه الآيات ووجد نفسه عاجزا عن معارضتها![1]

أي: فصلناه بهذا النظم البديع والأسلوب المحكم لتقول طائفةٌ إنما تعلمه من آخرين وتدارسهُ معهم، ولتؤمن به طائفةٌ أخرى حين تدركُ بعلمها وفهمها أنه من عند الله، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو { دارستَ } أي تدارسته مع غيرك أي تعلمته من البشر أهل الكتاب أو غيرهم وقرأ ابن عامر ويعقوب { درَسَتْ } أي بليت وقرأ الباقون { دَرَسْتَ } النشر ٢/ ١٩٧ .

كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ ١٢٥]

فتصريف هذه الآيات على هذا النحو العجيب لا يدعُ للمكابرين المعاندين حجةً يتعللون بها إلا ما تردده أفواهُهُم من مقولةٍ خاطئة كاذبةٍ: هي أن القرآن مقتبسٌ من العهد القديم والجديد تعلمه محمد وتدارسه على أيدي الأحبار والرهبان! مع أنه النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعرف في سيرته العطرة وحياتِه المباركة التي سجلها التاريخ لحظةً بلحظةٍ، أنه جالس اليهود والنصارى واختلف إليهم وأخذ عنهم، كما أن الناظر في القرآن الكريم مقارنةً بالعهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل بعد تحريفهما يدرك من أول وهلة ما بينهما من اختلافٍ وتباعدٍ بُعدَ المشرقين.[1]

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

ما زال السياق في تقويض دعائم الشرك ونقض مظاهره وكشفِ صوره المتباينة والتي من بينها تعظيم الجن والاستعانة بهم وعبادتهم من دون الله كما وقع من بعض طوائف الكفر علما بأن الجنَّ خلق من خلق الله تعالى خاضعين له تعالى، وادعاء بعض طوائف المشركين نسبةَ بناتٍ وبنينَ لرب العالمين تعالى الله عما يقولون، ثم بين الله تعالى كذب هذه الدعوى وزيفها وتنزهه سبحانه عن الولد والصاحبة فهو خالق كل شيء ومبدعه لا شبيه له ولا مثيل ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول ولا تخفى عليه خافيةٌ مهما لطفت ولا تغيب عن علمه غائبة ولو كانت تحت أطباق الثرى فهو اللطيف الخبير.

(١) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني ففيه عقد المؤلف في نهاية كل فصل مقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم من حقائقَ ناصعةٍ، وما ورد في التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل وضلال وأباطيل.

الهدايات المستنبطة

* تضمنت الآياتُ الكريمةُ ردّاً على عبدة الشياطين والذين يختلقون الكذب على الله بادعاء البنين والبنات له سبحانه وتعالى عما يشركون، والذين يعظمون الجنَّ ويتعوذون بهم.

* هو تعالى مبدع هذا الكون فلا شيء قبله، وكلُّ شيء في هذا الكون فإن الله مبدعُهُ ومن كان كذلك فأنَّى يكونُ له ولدٌ؟ وكيف يتأتَّى الولدُ بلا صاحبةٍ؟ وكيف الولدُ والصاحبةُ وهو تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ؟ ولا شبيه له ولا مثيل له ولا ندَّ له فأنى له الشريك!

* بعد نقضِ عقائدِ الشرك، وبيان زيفِها وبطلانها، قرر سبحانه العقيدةَ الصحيحة عقيدة التوحيد فهو تعالى الواحدُ لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فهو المستحقُّ للعبادةِ الخالصةِ، وهو تعالى المتولي لأمورِ جميعِ مخلوقاتِه.

* لا تدركه الأبصار إدراك إحاطةٍ؛ لأنه تعالى لا تحيطُ به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى، بل تنفي إدراك الأبصار، أي إحاطتها به تعالى، وقد ورد ما يفيد صراحةً لرؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

* قال ابن كثير: « وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى، وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة: قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا

أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا» [١] .

وفي السنة النبوية أحاديث صحيحة صريحةٌ في هذا الباب منها:

* ما رواه الشيخان عن جَرير بْن عَبْد الله قال: كُنّا جُلُوساً عنْدَ رَسُول الله ﷺ إذْ نَظَرَ إلَى الْقَمَر لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: « أَمَا إنّكُمْ ستَرَوْنَ رَبّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لاَ تُضامّونَ في رُؤْيَته... » [٢]

* وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ أُنَاساً فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَة قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « نَعَمْ هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَة الشَّمْس بالظَّهيرَة ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا قَالَ: « وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَة الْقَمَر لَيْلَةَ الْبَدْر ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ» قَالُوا: لَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَة إلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَة أَحَدِهِمَا... » [٣] .

* في تصريف الآيات على هذا النحو العجيب قطع الطريق أمام المكابرين المعاندين، فلا تقوم لهم حجةٌ أمام هذه الحجج القرآنية المتتابعة المتنوعة.

* قراءة ابن عامر ويعقوب { درَسَتْ } بمعنى بَلِيَتْ: فيُفهم منها اتهامهم للقرآن الكريم بأنه لا يناسب عصرهم ولا يواكب مجتمعهم، وهذه تهمةٌ قديمةٌ حديثةٌ، قالها المشركون من قبل واليوم يقولها أعداء الدين من المنصِّرين والمتعصِّبين من المستشرقين والعلمانيين والحداثيين

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير٣ / ٣١٠ الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود حديث ٢٢٢ - (٤٨٦) ورواه الإمام مالك في الموطأ ٢ / ١٤٩ حديث ٤٤٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب مواقيت الصلاة - باب: فضل صلاة العصر- حديث ٥٢٩، ورواه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث ٢١١- (٦٣٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء:٤٠] حديث ٤٣٠٥ وصحيح مسلم كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية حديث ٢٩٩- (١٨٢).

الذين يتهمون القرآن الكريم بالرجعية والجمود مع كونه هو الرسالة المتجددة والمعجزة الخالدة والمعين الذي لا ينضب والفيض الذي لا ينقطع والخطاب الذي يواكب جميع العصور والبيئات، ولا تنتهي عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يملُّه البلغاء.

* وأما الباحثون عن الحقيقة المتجردون لها المشمرون عن ساعدِ الجدِّ أملا في الوصولِ إليها فإنهم يفرحون بما أنزل الله وينتفعون بهذا المنهج القرآني القويم وذلك المسلك البلاغي الحكيم وذلك البيانِ الواضحِ، والتصريف البديع.

-١٥-

منهج التعامل مع المشركين

قال تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المناسبة

بعد مناقشةِ شبهات المبطلين وحجج المنكرين وإبطالِها: وجَّه الله تعالى رسوله الكريمَ ﷺ أن يسير على منهجِ الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانه على المُضيِّ فيه؛ ويمضي في طريق الحقِّ ولا يلتفت إلى أولئك الضالينِ، ولا يعبأ بهم، بل يُعرضُ عنهم، فإنَ الله تعالى لو علم فيهم خيرا لهداهم ونجاهم من طريق الشركِ، وإنه ﷺ ليس برقيبٍ لهم ولا مسيطراً عليهم ولا مُتوليًا لأمورهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أمر الله تعالى نبيه بعد أن بين له طريق الحق وأقام الحجج والبراهين الدالة عليه المقررة له: أمره تعالى باتباع الوحي الرباني فهو مصدر العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد الخالص كما أمره

تعالى أن يعرض عن المشركين ولا يلقي لهم بالا.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر المؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بان يكونوا مختارين في أعمالهم»[1].

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم وما كنت متوليا لأمورهم متصرفا في شئونهم، ولن تُحَاسَبَ عنهم، ونظير ذلك قوله تعالى في نهاية سورة الغاشية بعد أن أقام الحجة على الكافرين﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولما كان عرضُ شبهات المشركين وأباطيلهم والحديث عن جهلهم وإعراضهم وتعنتهم قد يُثير بعضَ النفوس المؤمنة فتصلُ بها الغيرةُ إلى سبِّ آلهةِ المشركين حذَّر اللهُ تعالى من ذلك لما يترتب عليه من ردةِ فعلٍ سيئةٍ.

فقال تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فلا يجوز سبُّ آلهة المشركين لما يُفضي إليه من سبٍّ لرب العزة جل وعلا، وذلك من قِبَلِ المتعصبين لما هم عليه من أهواءٍ وضلالاتٍ، حتى يُخيَّلُ إليهم أنهم على الحق﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾: قال ابن كثير رحمه الله: « وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره»[2].

(١) تفسير المراغي ٧/ ٢١١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٧.

قال ابن عطية: « وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء المشركين من التمسك بأصنامهم والذبِّ عنها وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير والشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء»[(١)].

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر»[(٢)].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيفصلُ الله تعالى بين جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

وجه الترابط بين هذا المقطع ومحور السورة الكريمة واضحٌ بيِّنٌ: فبعد دحض شبهات المبطلين وإزهاق حجج المنكرين: وجَّه الله تعالى رسوله الكريمَ ﷺ أن يسير على منهج الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانه على المُضيِّ فيه؛ ويمضي في طريق الحقِّ ولا يلتفت إلى أولَئك الضالينِ، بل يُعرضُ عنهم ويحاذر من سفَههم وجهالتهم وتعصُّبهم الأعمى لما عليه من ضلالٍ فإن مرجعَهم ومردَّهم إلى الله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* تقرر الآيات الكريمة أصلا من أصول هذا الدين وهو حرية الاختيار فلا إكراه في الدين، فالإسلام يُعرَضُ ولا يُفرضُ، ولم يثبتْ على مرِّ تاريخِ الدعوةِ أن أُكره أحدٌ على الدخولِ فيه، كما وجدنا في تاريخ الأديان المحرفة والوضعية كيف فرضت، ولا تزالُ تُفْرَضُ بالإكراهِ

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣١٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣/ ١٠٣.

أو بالإغراءاتِ الماديةِ، أما دينُنا الحنيفُ فإنه يُعلنُ عن نفسِهِ بما تضمنهُ من عقيدةٍ صحيحةٍ وشريعةٍ سمحةٍ وأخلاق كريمةٍ.

* لا يعني الإعراض عن المشركين التخلي عن واجبِ الدعوةِ، فالدعوة فريضةٌ شرعية، ومن حقِّ غير المسلمين علينا أن نبلغهم هذه الدعوة بلغتهم، فالدعوةُ مسئوليةٌ وتكليفٌ فضلا عن كونِها رِفعةً وتشريفا.

* مهمة الداعية أن يبلغ دعوة ربِّه دون النظر إلى النتائج، ولا يتعجَّل الثمرة بل يتحلى بالصبر والمثابرة.

* توجيهٌ وتحذيرٌ من سبِّ آلهةِ المشركين فإنه ذريعةٌ إلى سبِّهم اللهَ تعالى بجهلهم وحنقهم.

قال الإمام الشوكاني: « وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حُرَم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هٰذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصدين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين، وجراءةً على الله سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحَكَمُ العَدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة، قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شرٌّ من الزنادقة، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام، وتحاماهم أهله، وقد يتفق كيدهم، ويتمّ باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سدّ الذرائع،

وقطع التطرّق إلى الشبه»[١].

وقال الشيخ السعدي: « وفي هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر »[٢].

-١٦-

تعنتٌ وإصرارٌ

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المناسبة

هذه جولةٌ أخرى مع أولئك المشركين المعاندين، فيها بيانُ أسباب صدودهم وإعراضهم والإجابة عن مطالبِهِمُ المتعنتة واقتراحاتهم التي يُعلِّقون إيمانَهم بنزولِها، وقد أقسموا بالله تعالى على ذلك متناسين ما حولهم من آياتٍ بيناتٍ وبراهين ساطعاتٍ هم عنها معرضُون.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾أي غاية أيمانهم التي بلغها علمُهم، وانتهت إليها قدرتُهم، فإنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق، وأن تلك الآلهةَ وسيلةٌ تقربُهم إلى الله زلفى، وفي هذا ما يدلُّ على تناقضِ معتقداتِهم واضطرابِ أفكارهم فكيف يُعظِّمُون اللهَ تعالى وهم به مشركون وعن آياته معرضون، كيفَ يُقسمون به وقد كذَّبوا

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٨.

به وافتروا عليه؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالآياتُ عند من بيده خزائن السموات والأرض وعنده مفاتح الغيب، ولكن هل يؤمنون بها إذا نزلت أم تنزلُ بهلاكهم؟ وإذا كانت الآياتُ التي طلبوها هي أمورٌ خارقةٌ لنواميس الكون ونظامه فهل أمعنوا النظر في تلك النواميس، وهل تفكروا في هذا النظام العجيب الذي يدل على عظمته تعالى وكمال قدرته!

بيد أن سلوكهم لطريق الضلال وإصرارهم عليه لن يزيدهم إلا ضلالا وبعدا عن الله تعالى وتوغُّلا في هذا الطريق الذي سلكوه.

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمرُّدهم على الحق وإعراضهم عنه حيارى تائهين، لا يهتدون سبيلا .

قال الشوكاني رحمه الله: «... ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أوَّل مرة عند ظهور المعجزة...»[(١)] .

وقال الماوردي: « وهذا من الله عقوبةٌ لهم، وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار.

والثاني: في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها.

والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٥٢.

وفي قوله: { أَوَّلَ مَرَّةٍ } تأويلان:

أحدهما: أول مرة جاءتهم الآيات.

والثاني: أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم»[١].

وقال صاحب التحرير والتنوير:» ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ أي بأن نعطِّل أبصارَهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرُون ما تحتوي عليه الآية من الدّلائل ولا تفقه قلوبُهم وجهَ الدّلالة فيتعطَّل تصديقهم بها، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم»[٢].

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

بين الله تعالى أن نزول الآيات التي اقترحوها لن تُجدي معهم ولن تنفعهم بسبب ما هم عليه من عُتُوٍّ وإعراض، ومكابرةٍ وعنادٍ، حتى لو نزَّل اللهُ عليهم الملائكةَ كما طلبوا وأحيا لهم الأموات وكلموهم، ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ « ويُقرأُ قُبُلاً فقِبَلاً عِياناً و قُبُلاً قَبيلاً قَبيلاً وقيل: قُبُلاً مستقبَلاً وقرئ أيضاً: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ فهذا يقوِّي قِراءة من قرأ قُبُلاً، ويجوز أَن يكون قُبُل جمع قَبِيل ومعناه الكَفِيل ويكون المعنى: لو حشر عليهم كل شيء فكفَل لهم بصحة ما يقول ما كانوا ليؤمنوا، ويجوز أَن يكون قُبُلاً في معنى ما يُقابلهم أَي لو حشرنا عليهم كل شيء فقابَلَهم ويجوز قُبْلاً على تخفيف قُبُلاً.[٣]

والمعنى: لو جمع الله لهم جميع المخلوقات عيانا بيانا لتواجههم وتكلمهم وتشهد أمامهم بنبوتك وتُقرُّ بذلك وتضمن لهم صحةَ ما جئتَ به: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله إيمانهم، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ لا يُدركون سنن الله في هذا الكون، ولا يستشعرون عاقبةَ كفرهم وإعراضهم.

---

(١) النكت والعيون ١ / ٤٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٤٤١.

(٣) لسان العرب ١١/ ٥٣٤ والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٩٨.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة، وهو الكشفُ عن أسبابِ صدودِهم وإعراضِهم وبيانُ تعنتِهم وإصرارِهم، وأنه تعالى لو شاء هدايَتهم لهداهم، ولكن سَبَقَ في علمِهِ تعالى اختيارَهم ورضاهم بما هم عليه من كفرٍ وضلال.

الهدايات المستنبطة

* إصرارُ المشركين على ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ مهما عاينوا من آيات.
* قدرة الله تعالى على إنزال الآيات التي اقترحوها ولكنه تعالى سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.
* **إثبات القدر**: فكل ما في الكون من إيمان وكفر من هدى وضلال بتقدير الله عز وجل وتدبيره وبناء على علمه تعالى وحكمته.
* إثبات ما عليه المشركون من تناقض واختلاف من ذلك أنهم يُقسمون بالله تعالى والقسم يفيد التعظيم فكيف لا يستجيبون للحق ويذعنون به، وإثباتُ ما ألفوه من الكذب والحنث في اليمين ونقض العهود وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ.
* كان ختامُ هذا المقطع بقوله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ والجهل داءٌ عُضالٌ لا دواء له إلا بقبولِ العلم النافع فهو الدواء الناجع، لكن المشركين لا يُقرون بما هم عليه من جهل حتى يتقبَّلون دواءَه، وتلك آفةٌ أخرى تزيدهم علَّةً على علةٍ.
* وقد قيل:

إِذا كنتَ لا تـدري ولم تكُ بالذي ... يسائلُ من يدري فكيف إذن تَدْري

جَـهِـلْـتَ ولم تعلمُ بـأنـكَ جاهلٌ ... فمن لي بـأن تـدري بأنكَ لا تدري

إِذا كنت من كُلِّ الأمـورِ على عَمىً ... فكنْ هكذا أرضاً يطاكَ الذي يَدْري

ومــن أعجب الأشـياءِ أنـكَ لا تـدري ... وأنـكَ لا تــدري بأنــكَ لا تـــدري[1]

---

(١) الأبياتِ لأبي القاسم الآمدي.

- ١٧ -

إضلالٌ وغِوايةٌ

الإعلامُ المضلِّل وموقف الإسلام منه

قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

المناسبة

كما اقتضت سنته تعالى أن لا يؤمن المشركون إلا بمشيئته تعالى، وأن إعراضهم لحكمةٍ يعلمها: فكذلك ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصدِّهم عن سبيلِ الله، كما ابتُلِيَ الأنبياءُ من قبله بذلك؛ فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه، وهذه الآياتُ فيها تسليةٌ وتثبيتٌ لرسولِ الله ﷺ ، وتحذيرٌ من مكائدِ الأعداءِ وأساليبهم الماكرةِ في محاربةِ هذا الدين، فكما ناصب المشركون هذه الدعوةَ العداءَ وحاربوها وصدُّوا الناس عنها واضطهدوا المؤمنين بها فكذلك فعل أعداءُ الأنبياءِ من قبلهم، إنها سنةُ الصراع بين الحق والباطل، وتلك هي سنةُ الله في الدعوات.

التفسير الإجمالي

في الآيات الكريمة بيانٌ لسنةٍ من السنن الربانيةِ، سُنَّةٌ ماضيةٌ وجاريةٌ وباقيةٌ، سنةُ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ، هذا الصراعُ الذي يضربُ بجذُورِه في أعماقِ التاريخِ، ويمتدُّ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَلَيْهَا.

ولقد بلغ هذا الصراعُ ذروتَهُ في عصرِنَا هذا في ظلِّ الأساليبِ والوسائلِ التي استغلَّها أعداءُ الإسلام في محاربةِ الحقِّ وصدِّ الناسِ عنه والتغلغلِ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ، سِيَّما عن

طريق الإعلام المضلِّل؛ حيث جعل شياطينُ الإنس والجنِّ من ذلك الزَّخم [(١)] الإعلاميِّ: سبيلَ غِوايةٍ وإغفالٍ، ووسيلةَ إضلالٍ وانحلالٍ، ومِعْوَلاً من معاولِ الهدم، وعاملاً من عواملِ التخلفِ والرجعيةِ، وملهاةً للشعوب وتخديراً لها، حتى تظلَّ دائماً غائبةً عن وعيِها، مغيَّبةً عنْ واقعها، منعزلةً عن ماضيها، ذاهلةً عن مستقبلها.

وكما استطاع إبليسُ اللعينُ بأساليبه الدِّعائيةِ الملتويةِ، ووسائلِه ووساوسِه الإعلامية المضلِّلة، ووسائلِه الإعلانيَّةِ الخدَّاعةِ، دفعَ أبوينَا إلى الأكلِ من الشجرة [(٢)]، فلقد نجح خلفاؤُه وجنودُه من اليهودِ وغيرهم في استغلال أبواقِ الإعلام وأبوابه، وفتحِ نوافذِه، وامتطاءِ وسائلِه، وركوبِ متنِه؛ لتحقيقِ مآربِهِمْ وإحكام سيطرتِهِمْ بأساليبَ فائقةٍ، بلغتْ في تمويهِ الأضاليلِ الغايةَ، وفي تشويهِ الحقائقِ، وزخرفةِ الأباطيلِ النهايةَ .

ولسانُ حالهم يعبِّر عن فخرِهم بهذا المسلكِ الوَعِرِ الذي انحدروا إليه، وتلك الهوَّة السحيقةِ التي انحطُّوا إليها: حتى يقول قائلهم:

وكنتُ امرأً من جندِ إبليسَ حتى ارتقَى بي الحــالُ فصار إبليسُ مِــنْ جندي

ولعلَّ هذا هو سرُّ التعبير بشياطين الإنس وتقديمهم على شياطين الجنِّ في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ إنه التآمرُ بين الفريقينِ والتواطؤُ بينهما حيث تفاقمَت أخطارُهم لا سيَّما في هذا العصر، حيث يبدو ذلك واضحاً في ظلِّ هذا الظهورِ الإعلامي الفجِّ لشياطين الإنس ومن وراء [الكواليسِ]: إخوانُهم من شياطين الإنس والجنِّ؛ بوساوسهم وتزيينهم وإلهاماتهم وإيحاءاتهم وإمدادهم لتلك الحشودِ، من الكُتَّابِ والمخرجينَ

(١) الزَّخم: « لحمٌ زَخِم: دَسِمٌ خَبيث الرائحة. وخصّ بعضُهم به لُحوم السِّباع، وقد زَخِمَ زَخَماً، وفيه زَخَمَةٌ، وزَخَمَه يَزْخَمُه زَخْماً: دَفعه دفعاً شديداً. لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٢٦٢ وتهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٤٥٤.

(٢) انظر كتاب «المرأة في القصص القرآني»: عن وسوسة الشيطان لهما، يراجع الفصل الأول من هذا الكتاب ١ / ٤٣: ١٣٥.

ومهندسي الإضاءة و الزِّينات [الديكور]، والمنتجينَ والممثلين والنقاد والمحكمين والمذيعين الذين يَلبِسون الحقَّ بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، ويجرُّون الناسَ إلى المعاصي جهارا نهارا.

كما ورد عن مالكِ بنِ دينارٍ رحمه الله أنه قال: « شياطينُ الإنسِ أَشَدُّ عَلَيَّ من شياطينِ الجنِّ؛وذلك أني إنْ تعوَّذْتُ باللهِ مِنْ شياطينِ الجنِّ ذهبتْ عني، وشياطينُ الإنسِ تجيئُني فتَجُرُّني إلى المعاصي عَيَاناً»[1].

﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

والوحيُ هو مطلقُ الإعلام، سواءً كانَ في العلنِ أم في خفيةٍ، بقولٍ أم بإِشَارَةٍ أو إيماءةٍ

عَن ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قال: « إِنَّ للْجنِّ شَيَاطِينَ يُضلُّونَهُمْ مِثْلَ شَيَاطِينِ الإِنْس يُضلُّونَهُمْ، قَالَ: فَيَلْقَى شَيْطَانُ الإِنْس شَيْطَانَ الْجِنِّ، فيَقُولُ هَذَا لِهَذَا: أَضْلِلْهُ بِكَذَا، وَأَضْلِلْهُ بِكَذَا، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ تعالى ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾»[2].

فتأمل! كيف يقومُ إعلام أعداء الإسلام وأذنابِهم من الأدعياء على البريق الخادع، مع زخرفةِ الأباطيل، والسعي إلى طمسِ الحقائقِ، وإنفاقِ الأموال الطائلةِ على ذلكِ الطلاءِ الزائف والبريقِ الخاطفِ لأهل الباطلِ ودعمِ دعواتِهم الهدَّامة التي تنطلي على أصحاب العقولِ القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضةِ.

وكم من كلامٍ لا يوافقُ حكمةً		لقيَ الرواجَ بسوقِ من لا يعلمُ!

قال ابن الجوزي « وأما ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾، فهو ما زُيِّن منه، وحُسِّن، ومُوِّه»[3].

﴿ غُرُورًا ﴾ « أي لأجل أن يَغُرُّوهُمْ بذلِكَ، أي يخدعُوهم، فَيَصِيرُوا لِقَبُولِهِم كلامَهم

---

(١) معالم التنزيل للإمام البغوي ٣/ ١٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٢٧ .

(٣) زاد المسير لابن الجوزي في علم التفسير ٢ / ٣٩٦.

كالغافلين الذين شأنُهم عدمُ التحفُّظِ، والغُرورُ هو الذي يُعْتَقَدُ فيهِ النفعُ وليسَ بِنَافعٍ»[(١)].

« يزين بعضُهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغترَّ به السفهاءُ، وينقاد له الأغبياءُ، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المَموَّهة، فيعتقدون الحق باطلا والباطلَ حقّاً»[(٢)].

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ فلا يظنّ ظانٌّ أنَّ في الكون إرادةً نافذةً غير إرادة الله، وليعلمْ أن هذه السننَ الإلهيةَ: تتمخَّضُ عن حكمٍ وغاياتٍ، فلا يقعُ في ملكِ الله إلا ما أراده وقدَّره.

« ومن حكمة الله تعالى في جعلِهِ للأنبياءِ أعداءً، وللباطلِ أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصُلَ لعبادِه الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادقُ من الكاذبِ، والعاقلُ من الجاهلِ، والبصيرُ مِنَ الأعْمَى، ومن حكمتِه أن في ذلك بياناً للحقِّ، وتوضيحاً له، فإن الحقَّ يستنيرُ ويتضحُ إذا قام الباطلُ يصارعُه ويقاومُه، فإنه -حينئذٍ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافَسُ فيها المتنافسون»[(٣)].

وحول هذا المعنى يقول أبو تمام:

وإذا أراد الله نَشــرَ فَضيلةٍ	طُـويـت: أتـاح لهـا لـسـانَ حَسُـودِ
لـولا اشـتـعـالُ الـنـار فيها جـاوَرَت	ما كـان يُـعْـرف طِيبُ عَـرْف العُودِ

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ وفي هذا تهوينٌ وتحقيرٌ من شأن أولئك الشياطين الذين هيمنوا على وسائلِ الإعلام، وردٌّ على من يُهوِّلُ من شأنهم وَيَيْأَسُ من مواجهتِهم ويخشى من التصدِّي لهم، بل وربَّما ينجرفُ في تيارِهم؛ رغبةً ورهبةً وخوفا وطمعا، فيصير أداةً طيِّعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيقِ مآربهم.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٣/ ١١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٢٦٩.
(٣) نفس المرجع.

﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾: فَدَعْهُمْ وَأَعْرِضْ عنهم وعن أكاذيبِهم وافتراءاتِهم.

وتنطوي هذه العبارةُ القرآنيةِ ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ على تهديدٍ لهم ووعيدٍ.

وفي هذا دعوةٌ إلى مقاطعةِ كلِّ ما يُصوغونه ويَحيكونه من ضلالات وافتراءات، ومن ذلك وسائلُ إعلامهم المضلِّلةِ، فينبغي الدعوةُ إلى هجرِها بل والتصدِّي لها؛ حتى لا تقومَ لها قائمةٌ ولا تُروَّجَ لها بضاعةٌ.

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

الإصغاءُ: استماعٌ مع ميلٍ، قال الإمام الراغب: « وأصغيت إلى فلانٍ ملتُ بسمعِي نحوَه»[1] وهذا ينطبق على هذا الإعلام الفاسدِ الذي يجذبُ الانتباه ويَخلبُ الأنظارَ ويسلبُ المشاعرَ ويأخذُ بالعقولِ ويستحوذُ على النفوسِ.

ولكَ أن تتخيَّلَ هيئةَ ذلك الجالسِ أمام الرائي [التليفاز] وقد مالَ إليه بقلبِه وحسِّه وأقبلَ عليه بسمعِهِ وبصرِه شأنُ العاشقِ الولهانِ، ولسانُ حاله يقول:

وفي حُبِّهَا بعتُ السعادةَ بالشَّقَا ضَلالاً وعقلي عَنْ هُداي لَهُ عقلُ
وفَرَّغتُ قَلْبِي مِنْ وجوديَ مُخْلِصاً لعلِّي في شُغْلِي إلَيهَا بِها أَخْلُو
وأصبُو إلى العُذَّالِ حُباً لِذِكْرِهَا كأنَّهُمْ ما بيننا في الهَوى رُسْلُ
فإن حدَّثوا عَنْهَا فَكُلِّي مسامعٌ وكُلِّي إنْ حَدَّثْتُهُم ألسنٌ تَتْلُو.

أليسَ: أولئك الرابضون كلَّ يوم بالساعاتِ الطوالِ أمام هذا الفسوقِ والضلال هم من المغترِّين بالدنيا المتعلقين بأهدابها الواهيةِ وحبالها البالية، حين خلت قلوبهم من الإيمان باليوم الآخر؟ أليس ذلك شأنُ من أصبح وأمسى في غفلةٍ عن هذا اليوم فانشغل بدنياه الباطلة فلم يبالِ بإضاعةِ الأوقات، وتعطيل الساعات، وإهدار الأعمارِ، وقضاءِ السَّهراتِ: أمام الأفلام والمسلسلات؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ/ ٢٨٣.

قال الشيخ السعدي: «﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولا فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزُيِّنَ في قلوبهم، وصار عقيدةً راسخةً، وصفةً لازمةً، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظا غير وافية، وإن كانتْ باطِلا ردُّوها على من قالها، كائنا من كان، ولو ألبستْ من العباراتِ المستحسنةِ، ما هو أرقُّ من الحرير»[١].

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ ألا ينطبق هذا على الإعجاب الزائف بتلك النجوم الحالكةِ، نجوم العفن الفني ومن وراءهم من حشودٌ وجنودٌ، لنيل إعجابَ الجماهيرِ الغافلةِ، بأعمالهم المبطَلَةِ، والانبهار بما يقدمونه من مسلسلاتٍ هابطةٍ وأفلامٍ ساقطةٍ ومسرحياتٍ هزليةٍ وبرامج عبثيةٍ، تخطفُ الأبصار، وتؤجج المشاعر، وتثير الغرائزَ، وتهيِّج الشهواتِ، فيتحوَّلُ هذا الإعجاب والرضا إلى تبعيَّةٍ وضلالٍ وفسادٍ وانحلالٍ، وسيرٍ على نهج تلك الشياطينِ واتباعٍ لِسَنَنِهِمْ ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ فقد سلكوا طريقَهم واقتفَوا آثارهم مقلِّدين لهم حتى في مِشيتهم وملابسهم ومجالِسهم وأحاديثِهم، مشاركين لهم حتى في أمانيهم وطموحاتهم، ورؤاهم وأحلامهم، وأفراحهم وأتراحِهم.

قال صاحب روح البيان: «﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم بعدما مالت إليه أفئدتهم، ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ أي يكتسبوا بموجب ارتضائهم له﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرها وهى ما قضى عليهم في اللوح المحفوظ»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ١ / ٢٦٩.

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ٤ / ٢١.

وقال صاحب اللطائف: «وُكِّلَتْ أسماعُ الكفارِ باللغوِ وقلوبُهُمْ بالسُّوءِ، فَرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباءَ»[(١)].

ويقول الشيخ عبد الحميد طهماز: «ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شراَكِ الضالينَ المضلينَ، فعليهم أن يتجنبوا استماعَ كلامِهم المُزَوَّقِ المُزَخْرَفِ الذي يُخفون في طيَّاتِهِ السُّمَّ الناقعَ، فما أكثرَ ما يخلطون السُّمَّ بالدَّسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابةِ الفعليةِ لما فيها من إثم وفجورٍ.

وكأني بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجه شياطينُ الإنس من أعداء الإنسانية بوحيٍ من شياطين الجن كثيرا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئيةِ والمقروءةِ إلى الشعوب الإسلاميةِ، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملئوها بالبرامج المزخرفة المموهةِ التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم»[(٢)].

المنهج الصحيح والميزانُ القويم

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

بعد بيان ما عليه أهل الضلال من زخرفةٍ للأباطيل وقلبٍ للموازين وصدٍّ عن سواء السبيل، جاءت هذه الآية بالمنهج القويم والصراط المستقيم والميزانِ الدقيقِ في التلقي والقبول وهو تحكيم شرع الله عز وجل في كلِّ أمرٍ من الأمور، ومن ذلك في كلِّ ما يردُ إلينا من رؤى وأفكار ومقالات وتحليلاتٍ وسائرِ ما تبثُّهُ وسائلُ الإعلام، نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله فهو الحَكَمُ والميزانُ وهو الفُرقانُ والتبيانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ، لا أن نحتكم إلى أعدائِنا ونركنَ إليهم

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٩٢.

(٢) بصائر الحق في سورة الأنعام، للشيخ عبد الحميد محمود طهماز ص ١٠٦، ١٠٧.

ونلتمسَ الهُدى منهم، كما هو واقعٌ الآن من احتكام إلى بلاد الغرب وتبعيَّةٍ لها واتباع لسَنَنِ من قبلنا من اليهودِ والنصارى مع ما هم عليه من ضلالٍ، ومع أنهم يعلمون أننا على الحق المبين، فهل نسيرُ في ركابِ أولئك الجاحدين المكابرين؟ ونؤثِرُ الظنَّ والتخمين، ونتركُ الحقَّ اليقينَ: كتابَ الله وسنةَ خيرِ المرسَلين؟.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾أأميلُ إلى زخارفِ الشياطينِ وأُخدَعُ بالبريقِ الزائفِ فأبتغيَ حكماً غيرَ الله يحكمُ بيننا ويفصل المحِقَّ منا من المبْطِل؟

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أنزل الكتاب إليكم لهدايتكم﴿ مُفَصَّلًا ﴾ فيه تفصيلٌ وبيانٌ لكلِّ ما يحتاجه الإنسان، فكيف تحتكمون إلى غيره؟

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فاليهودُ والنصارى يعلمون أنه الحق لكنهم يعدلون عنه؛ جحودا وعنادا، ومع ذلك يُحتكَمُ إليهم ويُقتفى أثرُهم مع ما هم عليه من كفرٍ بواحٍ وكذبٍ صُراحٍ!

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ والامتراء لم يقع منه ﷺ ولكنه خطابٌ يُرادُ به غيرُه: فلا تكونن أيها المستمع لهذا القرآنِ في شكٍّ أنه منزل من عند الله، كيف وهو المعجزة الخالدة، والحجة المتجددة.

« فعلى المسلمين لحمايةِ أنفسهم وأبنائهم من تأثير وسائل الإعلام الموجَّهةِ إليهم أن يُحكِّموا كتاب الله تعالى، الذي فصلَ الله فيه كلَّ ما يحتاجُه الإنسان»[(١)].

وفي الآية ردٌّ على من ينكر وجود التصادم والصراع الحضاري بين الإسلام والغرب فالصراع بين أهل الباطلِ والطغيانِ وأهل الحقِّ سنةٌ من سنن هذا الكون. قال تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[البقرة: ١٢٠]، وقال جلَّ وعلا ﴿ وَلَا يَزَالُونَ

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طهماز ص ١٠٨.

يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

لا يزال حديث السورة موصولا حول أسباب الصدود والإعراض مع تجلي الآيات وتدفُّق الحججِ وتهافتِ الشُّبه وسقوطِ الأباطيل؛ لكنه الصدود والإعراض والتمويه وقلب الحقائق وزخرفة الأباطيل وتلبيس الشياطين، وأساليب الخداعِ والتغرير والافتراءِ والتضليلِ وحجب الحقائقِ وإشاعةِ الضلالِ، التي يمارسُها شياطينُ الإنسِ بالتواطؤِ مع شياطينِ الجن لصرف الناسِ عن الحقِّ وتغييبِ عقولهم، وغير ذلك من الوسائل والأساليب التي تصدُّ الناس عن سبيل الله.

الهدايات المستنبطة

* كما ابتلى اللهُ نبيَّه ﷺ بكيدِ الأعداءِ وصدِّهم عن سبيلِ الله فقد ابتُلِيَ الأنبياءُ من قبله بذلك فالابتلاءُ سنةُ الله تعالى في أنبيائه وأوليائه.
* وفي الآيات الكريمة بيان لأسباب الصدودِ عن الحقِّ والإعراضِ عنه.
* وفيها بيانٌ لسنةٍ من السنن الربانيةِ، هي سُنَّةٌ ماضيةٌ جاريةٌ وباقيةٌ، سنةُ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ، هذا الصراعُ الذي يضربُ بجذُورِه في أعماقِ التاريخِ، ويمتدُّ إلى أنَ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَلَيْهَا.
* وجدنا: كيف يقومُ إعلام أعداء الإسلام وأذنابُهم من الأدعياء على البريق الخادع، مع زخرفةِ الأباطيل، والسعي إلى طمسِ الحقائقِ، وإنفاقِ الأموال الطائلةِ على ذلك الطلاءِ الزائف والبريقِ الخاطفِ لأهل الباطلِ، ودعمِ دعواتهم الهدَّامة التي تنطلي على أصحاب العقولِ القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضة.
* ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميزَ الصادقُ من الكاذبِ، والعاقلُ من الجاهلِ

والبصيرُ مِنَ الأعْمَى.

* الردُّ على من يُهوِّلُ من شأنِ شياطين الإعلام وَيَيْأَسُ من مواجهتِهم ويخشى من التصدِّي لهم، بل وربُّما ينجرفُ في تيارِهم؛ رغبةً ورهبةً، وخوفاً وطمعاً، فيصير أداةً طيِّعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيقِ مآربهم.

* الردُّ على من ينكرُ وجودَ التصادُمِ والصراعِ الحضاري بين الإسلام والغرب.

* بيانُ المنهج الصحيح في التلقي والقبول وهو تحكيم شرع الله عز وجل في كلِّ أمرٍ من الأمور، ومن ذلك في كلِّ ما يردُ إلينا من رؤى وأفكارٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ وسائر ما تبثُّهُ وسائلُ الإعلام، نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله فهو الحَكَمُ والميزانُ وهو الفُرقانُ والتبيانُ الذي يُرشِدنا إلى الحقِّ.

* وفي هذه الآيات الكريمة ردٌّ على من ينكرون وجود الغزو الفكري على العالم الإسلامي من قبل الغربيين، حتى وصف أحد الانهزاميين من أدعياء العقلانية والحداثة هذا الغزوَ بأنه غذاءٌ فكري، ولا يخفى ما لهذا الغزو من مخاطر على المسلمين، سيَّما في عصر الفضائيات والانترنت والتبعية والانهزامية للغرب باسم الحداثة والعلمانية والتحرر والنهوض والتغريب.

* الإيمانُ بأركانِه وشعبِهِ: حصنٌ متينٌ من الفتنِ المتتابعةِ والمكائدِ المستمرةِ والخطوبِ المدلهمَّة، والمحرومون من نعمة الإيمان كشموع في مهبِّ الريح أو أشجارِ أَرز جاءتها ريحٌ عاصف. عن أَبِي هرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيَاحُ تُفَيِّئُهُ وَلاَ يَزَالُ المؤْمِنُ يُصِيبهُ بَلاَءٌ، وَمَثَلُ المنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأَرْزِ لاَ تَهْتَزُّ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ»[1].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار - باب مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز حديث ٥٨- (٢٨٠٩)، ورواه الترمذي في السنن كتاب الأمثال باب ما جاءَ في مَثَلِ الْمُؤْمِنِ الْقَارِيءِ لِلْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقَارِيء حديث ٣٠٢٦، وقوله: (تُسْتَحْصَدَ) أي لا تلبثُ حتى تنقلع مرة واحدة كالزرع الذي انتهى يبسه، فليس من طبيعتها الصمود أمام الريح.

- ١٨ -

قواعدُ وأصولٌ

في العقيدة والدعوةِ والسلوك

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

المناسبة

بهذه الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا المنهج الرباني، وقد اكتملت معالمه وتجلَّت مقاصده، وسلَّم كل ذي إنصافٍ أنه منهج الحق وميزان العدل.

التفسير الإجمالي

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾: فالمنهج القرآني منهج تامٌّ: صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأحكام، وسننُ الله تعالى وأحكامُه لا تتبدلُ ولا تتغيرُ.

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وعدٌ ووعيدٌ: وعدٌ للمؤمنين الصادقين المتبعين لمنهج الله المصدِّقين بكلماته، ووعيدٌ للكفرةِ المبطلين المعطِّلين لشريعةِ الله المُكذِّبين بآياتِه المستخِفِّينَ بكلماتِه، المعرضينَ عن حججه ودعواتِه.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ كيف وبين أيدينا هذا النهج القويم والتشريع الحكيم والذكرِ الحكيم والصراطِ المستقيم؟

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ فكيف نتبعُ من يسيرُ وراءَ الظنون والأوهام، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ والخرص: تقديرهم أنفسهم على الحقِّ، دون دليلٍ أو برهان، وإنما مجرد الظن والوهم والتخمين.

وإذا كان الأمر كذلك: فامضِ على طريقِ الحقِّ ولا تلتفتْ إلى أولئك المضلينَ ولا تعبأ بهم.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

والله تعالى حينما يحذرُك من اتباع أهل الضلال، فهو تعالى الأعلمُ بهم يعلمُ من يضلُّ عن سبيله فيحذِّرُ من مسلكهم ويكشفُ عن سوءِ نيتهم وخبثِ طويَّتِهم، ويفضحُ تعالى مخططاتِهم وأساليبِهم في الصدِّ عن سبيل الهُدى، وهو تعالى أعلم بالمهتدين فيبصرُ بطريقهم.

وهو تعالى أعلم بمن رضي بطريق الضلال وعمى وصمَّ عن الحق، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين الذين أخلصوا للحق وأبصروا نورَه ولبوا نداءه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بما تقدم من الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا معالمُ المنهج الرباني، وقد اكتملت أصولُه، وتجلَّت مقاصدُه، وسلَّم كل ذي لُبٍّ وبصيرةٍ بأنه منهجُ الحق وميزانُ العدل الذي يجب اتباعه والإعراض عما سواه من مناهج ضالةٍ حائرة، قاصرةٍ جائرةٍ، مهما كَثُرَ أتباعُها وارتفعت راياتُها.

الهدايات المستنبطة

* المنهج القرآني منهجٌ تامٌّ، وسنن الله تعالى وأحكامه لا تتبدل ولا تتغير.
* القرآن الكريم كتابٌ محفوظٌ من التغيير والتبديل لأن الله تعالى تعهَّد بحفظه، ولأنه الخطاب الإلهي المتجدد والدستور الرباني الخالد، فلا يُقدَّمُ عليه منهجٌ؛ فهو المنهجُ القويمُ في كل شؤونِ الدنيا والدينِ، ولا سبيلَ لعزِّنا إلا به، ولن تجتمعَ لنا كلمةٌ ولن تتوحدَ لنا رايةٌ، ولن تقوم لنا نهضة إلا بتقديمه وتحكيمه والاستضاءةِ بنورِهِ والانضواء تحت لوائِه والعيشِ في رحابِهِ والحياةِ في ظلالِه، فهو زادُنا ونورُنا وهو حياتُنا وروحُنا وهو مجدُنا وأملُنا.
* أقامت السورةُ الكريمةُ الحججَ الساطعة والشهادةَ الكبرى على صدقِ الرسولِ والرسالةِ،

وأي شهادةٍ أكبر من شهادة الحقِّ جلَّ وعلا والتي تجلت لنا في رحابِ آيات هذه السورة الكريمة، وفي هذا ردٌّ مفصَّلٌ على المشركين الذين طلبوا من يشهد بصحة نبوته ﷺ واقترحوا حَكَماً بينه وبينهم.

* تجنب الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء مهما كثر عددُهم وشاع ضلالُهم، وقويت شوكتُهم؛ فإن مصيرهم إلى الزوال.

* عقد ابن مفلح رحمه الله في كتابه الآداب الشرعية فصلاً بعنوان: فَصْلٌ (يَنْبَغِي الْإِنْكَارُ عَلَى الْفِعْلِ غَيْرِ الْمَشْرُوعِ وَإِنْ كَثُرَ فَاعِلُوهُ). قال فيه رحمهُ اللهُ: « ويَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ كَثِيراً مِنْ الْأُمُورِ يَفْعَلُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ خِلَافَ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَيَشْتَهِرُ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، وَيَقْتَدِي كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمْ، وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ عَلَى الْعَارِفِ مُخَالَفَتُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلاً وَفِعْلاً، وَلَا يُثَبِّطُهُ عَنْ ذَلِكَ وَحْدَتُهُ وَقِلَّةُ الرَّفِيقِ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ: وَلَا يَغْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ الْفَاعِلِينَ لِهَذَا الَّذِي نُهِيْنَا عَنْهُ مِمَّنْ لَا يُرَاعِي هَذِهِ الْآدَابَ، وَامْتَثِلْ مَا قَالَهُ السيد الجليل الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: لَا تَسْتَوْحِشْ طُرُقَ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهَا، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ، وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْفُنُونِ: مَنْ صَدَرَ اعْتِقَادُهُ عَنْ بُرْهَانٍ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ تَلَوُّنٌ يُرَاعِي بِهِ أَحْوَالَ الرِّجَالِ....»(١) .

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي ١/ ٢٨٠، ٢٨١

- ١٩ -

قواعدُ وأصولٌ

في التحليلِ والتحريمِ

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المناسبة

الصلةُ بين هذه الآيات وما قبلها واضحةٌ، فما سبقها تمهيدٌ لها وهي تقريرٌ لما سبقها، فبعد ترسيخِ العقيدةِ في القلوب وتثبيتها في النفوس، بعد جلاء أركانها وبيانِ أصولها، يكتمل هذا البناءُ بتقريرِ أصولِ الشريعةِ وآدابها، وبعد التحذير من مكائد وشبهات أهل الباطلِ والنهي عن اتباعهم والانخداع بغُثائِهم يستطرد السياق إلى ذكر مثالٍ لضلالهم وإغوائهم وتشكيكهم.

التفسير الإجمالي

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرهم الله تعالى أن يأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه أي عند ذبحه، ﴿ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بآياته فسوف تمتثلون لما أمركم به، وهذا الأمر مترتبٌ على ما سبقه من ترسيخِ الإيمانِ والتحذير من اتباع أهل الكفر والعصيان.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ وأيُّ شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وقد بيَّن سبحانه لكم جميع ما حرَّم عليكم؟ لكن ما دعت إليه الضرورةُ بسبب المجاعة، مما هو محرمٌ عليكم كالميتة، فإنه مباحٌ لكم، وإنَّ كثيراً من الضالين

ليضِلُّون عن سبيل الله أشياعَهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال بأهوائهم؛ جهلا منهم، واعتداءً على حدودِ الله، والله تعالى أعلمُ بهم وبما يُضمرونَه.

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ ﴾ أي دعوا علانيته وسرَّه، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ ﴾ أي يكتسبونه في الدنيا من آثام، ﴿ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾ سينالون جزاء ما اقترفوا

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

تقريرٌ وتأكيدٌ للنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه وإن فَعَلَهُ عامةُ المشركين فإنَّ فعلَهم لا اعتبارَ له، والأكلُ من الميتة ومما ذُبِحَ لغيرِ الله تعالى فسقٌ: أي خروجٌ عن طاعةِ الله ومجاهرةٌ بالعصيانِ.

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ شياطين الإنسِ والجن بالوساوس يوحون، وبالشُّبهِ والأباطيل يبوحونَ، وعلى الكيدِ والتآمر يجتمعونَ، ويتواصون لجدالكم جدالا يُثنيكم عن الحقِّ بما يُثيرونه من حججٍ واهيةٍ وعللٍ متردِّية.

من ذلك قولهم على سبيل التلبيس والتشكيك كما روى عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: « يُوحِي الشَّيَاطِينُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيُجَادِلُوكُمْ، أَنْ يَقُولُوا: تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلْتُمْ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الَّذِي مَاتَ لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ» [(١)].

(١) رواه أبو داود في السنن كتاب الذبائح - باب في أكل ذبائح أهل الكتاب. حديث ٢٨١٩، ورواه الطبري في تفسيره بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس جامع البيان للإمام الطبري - ١٢ / ٨٠ ورواه ابن أبي حاتم عنه وإسناده صحيح تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٧٩ برقم ٧٨٤٣وراه الحاكم في المستدرك ٤/ ١١٣، ٢٣١ وقال في كلا الموضعين صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ مثلهم، إذ أحللتم ما حرَّم الله، وحرَّمتم ما أحلَّ الله، ومثالُ ذلك قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بعد تقريرِ العقيدةِ الصحيحة وترسيخِ أركانها ينتقلُ السياق إلى تقرير أحكامٍ لها صلتها بالتطبيق العملي لقواعدِ التوحيد، من ذلك الأكل مما ذكر اسم الله تعالى عليه فإنه من مقتضيات الإيمان وتفصيلاتِ شرائعه، واجتناب الإثم ما ظهر منه وما بطن وتجنب ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، فامتثالُ أوامرِ الله واجتنابُ ما نهى عنه جزءٌ من التوحيد العملي الذي دعت إليه السورةُ الكريمة.

الهدايات المستنبطة

* أفاد قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ أن العمل بالأحكام الشرعية من مقتضيات الإيمان، أي إن كنتم مؤمنين فسوف تمتثلون لأوامر الله وتجتنبون ما نهى الله عنه.
* التمسك بشرع الله تعالى عصمة ونجاة من الفتن ومزالقِ الضلال.
* جاءت الشريعةُ الإسلامية وافيةً مستوفيةً لمطالب الحياة وملبيةً لكل حاجيات الإنسان مع مراعاتها لحالات الضرورة.
* من يرغب في محبة الله تعالى ويسعى إلى رضاه فإنه يجتنب ما نهى الله عنه، وكيف يدَّعي محبته أو يطمع في حبه وهو بعيدٌ عن منهجه! مقيمٌ على معصيته! متبعٌ لغير هديه! ناكبٌ عن طريقه!

وفي هذا المعنى قال الشافعي رحمه الله:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ يُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ ... وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

* حذَّر الله تعالى من الشبهات الداحضةِ التي يثيرها أعداء الإسلام ويرددها أدعياؤه المُغْرِضونَ من شياطين الإنس والجن ويتلقفها بعضُهم من بعضٍ ليقدحُوا في الشريعة الغرَّاء.

- ٢٠ -

من مظاهرِ الصدودِ وأسبابِه

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المناسبة

لا يزال السياقُ يعرضُ لِشُبَهِ المشركين، ويكشف المزيدَ من أسباب صدودهم عن الحق ومطالبِهم المتعنتة التي علَّقوا إيمانهم بها، ويفضحُ جهلَهُمْ بحقيقةِ النبوةِ ومقامِ الرسالةِ، ويكررُ الوعيدَ لهم بما ينتظرُهم، ويقررُ أن الهدايةَ لا تتحقق إلا بمشيئةِ الله تعالى وما سبق في علمه تعالى من استعدادِ العبدِ لها وحرصِه عليها.

التفسير الإجمالي

الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب وصحوةُ الضمائر، أما الكفر فإنه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبٍ ميتٍ، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبطُ في ظلمات الكفر ويتردَّى في دركاتِهِ فلا يسعى إلى الخروج منها، بل استسلم لهذه المعيشةِ الضنك؟ لكنَّه دورُ شياطينِ الإنسِ والجن في تزيينِ الكفر وزخرفةِ الضلال.

فهل يستوي من أحيا اللهُ قلبَه بالعلم والإيمان بمن مات قلبه بداء الجهل وآفةِ الكفر وظُلمةِ العصيان!

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فأجسامُهُمْ قبلَ القبورِ قبورُ

وإنِ امرأً لم يَحْيَ بالعلم ميِّتٌ ... فليس له حتى النشورِ نشورُ!

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ وكما وقع لأولئك الذين ينحدرون إلى الهاويةِ ويتخبطون في ظلمات التيهِ ودروبِ الحيرةِ من تزيينٍ وزخرفةٍ وأضواءٍ براقةٍ مبهرةٍ تذهبُ بالأبصارِ وتسلبُ الأفكار وتغشى القلوبَ: فمن أسبابِ الصدودِ ودواعي الإعراض ذلك الدورُ المؤثِّر الذي يؤديه أكابرُ المجرمين من مكرٍ وخديعةٍ وصدٍّ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[فاطر: ٤٣].

أو كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا، وتلك هي سنةُ الصراع بين الحق والباطلِ، وسنةُ الاستدراجِ.

ومن أسبابِ صدودِ أولئك المجرمينَ ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالة، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ ومفاهيمَ ينبغي أن تُصَحَّحَ ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ فهل فهِمُوا حقيقةَ النبوة وأساسَ الاصطفاء؟ فالنبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ يختصُّ اللهُ بها من يشاء من عباده ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فالرسلُ هم أصفى

الناس معدناً، وأحسنُهم خُلقاً، وأخلصُهم وأتقاهُم وأزكاهم وأنقاهم، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

أما أولئك الكفرة المعاندين من أكابر المجرمين ومن وراءهم، فأنى لهم حملُ تلك الأمانة العظيمة! وقد بانت لهم الحجج وزالت الشُّبهِ وانكشف سوءُ أدبهم مع الله تعالى مع جهلهم وجمودِهم، ولجاجِهم وعنادهم.

ثم توعدهم الله تعالى بما سيصيبهم من جنس عملهم فقال سبحانه ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ فهذا هو جزاؤهم الذي يستحقونه ومصيرهم الذي ينتظرونه الصغارُ والهوانُ والعذابُ الشديد؛ عقابا لما دأبوا عليه من المكرِ والإجرام.

وفي معاني القرآن للفراء « لما اختاروا الكفر تعززا وأنفةً من اتباع محمدٍ ﷺ فجعل الله ذلك صغارا عنده» [(١)].

بعد ذلك بين سبحانه أن من شاء هدايته للإسلام شرح صدره إليه وأعانه عليهُ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيّقا لا يتسع لقبولِ الحقِّ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾، ثم ضرب له مثلا بالذي يصّعد في السماء فيضيق صدره كلما ارتفع في طبقاتِ الجوِّ فقال سبحانه ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ « أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه» [(٢)].

وبهذا البيان الوافي والجوابِ الشافي تنتهي هذه الجولةِ بتقرير المنهج الرباني والدعوةِ إلى الصراطِ السويِّ الذي لا خلل فيه ولا اعوجاج ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٣.

(٢) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر جابر للجزائري ٢ / ١١٦.

لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ فلقد جاءت هذه الآيات على هذا الوجه العجيب وبهذا التفصيلِ البديعِ لينتفع بها المؤمنون الذاكرون، وفي هذا تعريضٌ بأولئك المعرضين عن هذه الآيات المحرومين من الانتفاعِ بها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

ترتبطُ آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من وجوهٍ عديدة: منها اتساقُها مع المحور العام في تقريرِ العقيدة، وبيانِ الأسباب المُفضِيَة إلى الهدايةِ، في مقابل أسباب الصدود والإعراض، والتي من بينها تزيينُ الشياطينِ ومكرُ المجرمينَ، ومنها بيانُ حالة المهتدي من انشراح الصدر وضياء القلب، وحالة الكافرِ من الحَيرة والشقاء والسآمة وضيق الصدرِ ومنها الدعوة إلى الصراط المستقيم بعد أن تجلت معالمُه ومناراتُه.

الهدايات المستنبطة

* الإيمانُ حياةُ القلوبِ ونورُ البصائر وضياءُ الدروب وصحوة الضمائر، أما الكفر فإنه ظلماتٌ مُتراكمة في قلبٍ ميتٍ، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبطُ في ظلمات الكفر، ويتردَّى في دركاتِه، فلا يسعى إلى الخروج منها؟

* من أسباب الصدودِ ودواعي الإعراض ذلك الدورُ المؤثِّر الذي يؤديه أكابرُ المجرمين من مكرٍ وخديعةٍ وصدٍّ عن سبيل الرشادٍ وطغيانٍ واستبداد.

* ومن أسبابِ صدودِ أولئك المجرمينَ ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحَ ماديَّةٍ ومفاهيمَ ينبغي أن تُصَحَّحَ.

* النبوةُ منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ يختصُّ اللهُ بها من يشاء من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنُهُم خُلُقاً، وأخلصُهم وأتقاهُم وأزكاهم وأنقاهم.

* من شاء اللهُ هدايتَه للإسلامِ شرح صدره إليه وأعانه عليهُ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيِّقا لا يتسع لقبولِ الحقِّ.

* لكل من الهداية والإضلال سننٌ تتبع في ذلك، فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم الله ذلك منه فسهَّل له طُرُقَها وهيأ له أسبابَها، ومن طلب الغواية وأخلد إليها تهيأت له أسبابُها وفتِّحت عليه أبوابُها، فضاق صدرُه عن قبول الإيمان واستقبالِ أنواره، حتى لكأنه يتكلفُ الصعود إلى السماء وما هو بقادر، وفي هذه الآية معجزة من أبلغ المعجزات القرآنية، وذلك أن الضغط الجوي يخف كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأن الإنسان كلما صعد إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة يوم نزول القرآن، ولم تعرف إلا بعد ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا، معجزةٌ عظيمةٌ تشهدُ أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض.

- ٢١ -

وعدٌ ووعيدٌ

قال تعالى ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

المناسبة

بعد أن فصلت الآياتُ السابقةُ طريقَ الهداية وأقامت الحججَ عليه وكشفتْ طريقَ الضلال والأسبابَ المفضيةَ إليه، بينت عاقبة كلٍّ من الطريقين، فاشتملت على وعدٍ ووعيدٍ: وعدٌ للمؤمنين الصادقين الذاكرين الذين سلكوا طريق الهدى وثبتوا عليه، ووعيدٌ للكفرة المجرمينَ الذين اختاروا طريق الضلال وتوغّلوا فيه.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ أي لأولئك المؤمنين دار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروهٍ وسوءٍ والعافية من جميع الآفات والبلايا والهموم والرزايا، وعدٌ من الله لهم والله تعالى لا يخلفُ وعدَه، وعدٌ بالقرب من رحابِه، ومرافقةِ أنبيائِه وأوليائِه في دار الكرامةِ والسلامةِ، والله تعالى وليُّهم يتولاهم في الآخرةِ كما تولاهم في الدنيا بحفظه ولطفه، وتأييده وعطائه، وكرمِه وإحسانه ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالهم الصالحة التي كانت مطيّتَهم إلى الجنان، ووسيلتهم إلى ولايةِ الرحمنِ.

من مواقف الحشرِ وشدائدِه

اعترافات متأخرة!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

واذكر واستحضر هذا اليوم يومَ يحشر الله تعالى أولئك المكذبين المعرضين من الجنِّ والإنسِ، ثم ينادي في هذا الموقف العصيب على الجنِّ:﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ

﴿ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ ينادي على ذلك تحالف الشيطان الذي يضمُّ شياطينَ الجنِّ فيخاطبون خطاب الزجرِ والتوبيخ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم فأضللتم منهم كثيرا، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم، كما يقال: استكثر الأمير من الجنود، وهذا بطريق الإنكارِ والتقريع.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾: أي تبادلوا المنافع والمصالح: «أي انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، واستمتع الجن بالإنس حيث عظَّموهم وبالغوا في أمرهم واتبعوا أوامرهم، واستعانوا بهم.

قال الإمام الشوكاني: «أما استمتاع الجن بالإنس: فهو ما تقدم من تلذُّذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها، فذلك هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن: أنه كان إذا مرَّ الرجلُ بوادٍ في سفرِه وخافَ على نفسه قال: أعوذُ بربِّ هذا الوادي من جميع ما أَحذر، يعني ربَّه من الجن، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦] وقيل: استمتاع الجن بالإنس: أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب، وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان»[١].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾: امتدَّ هذا الاستمتاع واستمر هذا التواطؤ حتى بلغنا أجلنا بالموتِ، وبه انقضاء الأعمال أو بيوم القيامة يوم العرض والحساب والجزاءِ.

يعتذرون حين لا ينفع العذر ويعترفون حيث لا يُجدي الاعتراف! «يعتذرون فلا يُسْمَع، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم، لكنْ سبقت القسمة، فحقت لهم الشقوة»[٢].

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦١.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٣٠٧.

﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ خطابٌ للفريقينِ وبيانٌ لمصيرهم الذي ينتظرُهم ومثواهُم الذي يستحقونه وهو النار يخلَّدُون فيها.

والمثوى: اسم مكان من ثَوى بالمكان إذا أقام به إقامةَ سكنى أو إطالة مكث، والمراد به هنا: الخلود لقوله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾: قال الإمام الطبري: « يعني إلا ما شاء الله من قَدْر مُدَّة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودهم في النار» [1].

أو إلا ما شاء الله لهم الخروج، والله تعالى لم يشأ خروجهم من النار لأنه حكم على الكافرِ بالخلودِ فيها.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ حكيم في تصريفه وتدبيره وفي إمهالِه و حُكْمِهِ، وفي ثوابه وعقابِه، عليمٌ فلا يخفى عليه دقائقُ أمورِهم فضلا عن جليلِهَا.

سننٌ ربانيةٌ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ ﴾ هذا التحالفُ الشيطاني والتواطؤ بين أهل الكفر هو سنةٌ من سنن الله في هذا الكون أن يتآمر الكفرة ويتعاون الظلمة لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامحهم، وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

كما يُفهمُ من هذه الآية الكريمة معنىً آخر ترمي إليه وسنةٌ أخرى تُشيرُ إليها وهي سنةُ التعاقب: حيث يتعاقب الظلمة فيلي بعضهم بعضا دون اعتبارٍ بمن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله! كذلك يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضا في دخولها.

أو «سنة التداول»: تداول الأمم والشعوب، تداول القوى والسلطان، فيتناوبُ الظلمةُ الهيمنةَ على المستضعفينَ، كما سمعنا ورأينا من أفول شمس ممالك وبزوغ فجر ممالكَ أخرى،

---

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ٤٣.

وقد قيل[(١)]:

لـكـل شيءٍ إذا مـا تـمَّ نـقـصـانُ	فـلا يـغـرُّ بطيب العيش إنـسـانُ
هـي الأمـورُ كـما شـاهـدتها دولٌ	مـن سره زمـنٌ سـاءتـه أزمـانُ
وهـذه الـدارُ لا تُـبـقـي عـلى أحـدٍ	ولا يـدومُ عـلى حـالٍ لهـا شـانُ

وثمةُ سنةٍ أخرى تستفادُ من هذه الآية وهي سنةُ التسلط: تسلطُ الظلمةِ بعضهم على بعض، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمة بالظلَّمةِ، سنة التدافع، قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥١].

قال الشيخُ السعديُّ رحمه اللهُ: وكما ولَّيْنَا الجنَّ المردةَ وسلَّطناهم على إضلالِ أوليائِهم من الإنسِ وعقدنا بينهم عقدَ الموالاةِ والموافقةِ، بسبب كسبِهم وسعيِهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله، يؤزُّه إلى الشر ويحثُّه عليه، ويزهده في الخير وينفرُه عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرها... ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنْعهم الحقوق الواجبة، ولَّى عليهم ظَلَمَةً، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعافَ ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجهٍ غير مأجورين فيه ولا محتسبين، كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف»[(٢)].

وقال صاحبُ أضواء البيان: « قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نُذُرُهُمْ الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلِّغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في

---

(١) الأبيات لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى في رثاء الأندلس أعاد الله أمجادَها يراجع نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن المقري التلمساني ٤/ ٤٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٣ باختصار.

قوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؟ وقال بعض العلماء: ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه، كقوله:﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح: ١٦]، وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله:﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر: ٢٩](١).

توبيخٌ وإقرارٌ

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ثم يأتيهم النداءُ من قِبَلِ الحقِّ جلَّ وعلا نداءُ التوبيخ والتقريع ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسلٌ من بينكم بالآياتِ والنُّذر! فيجيبون إجابةً لا مفرَّ منها، إجابةَ الحسرةِ والمهانةِ، ويشهدون على أنفسهم ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾

فانصرفوا عن الحقِّ واستحبوا الكفرَ ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ أقرُّوا بجرمهم واعترفوا بذنبهم كما في قوله تعالى ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك ٨: ١١].

قال الإمام القاسمي رحمه الله: « إن قيل: ما السببُ في أنهم أقروا في هذه الآيةِ بالكفرِ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٢ / ٢١٠ .

وجحدوهُ في قولهم ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ٢٣]؟ قلنا: يوم القيامة يومٌ طويلٌ، والأحوالُ فيه مختلفةٌ، فتارةً يُقِرُّونَ وأخرى يجحدون، وذلك يدلُّ على شدةِ خوفِهم واضطرابِ أحوالهم فإن من عظُمَ خوفُه كثر الاضطرابُ في كلامه»[(١)].

وقال الإمام الخازن: « فإن قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم، قلت: شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ذمٌّ لهم وتخطئةٌ لرأيهم، ووصفٌ لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها، فكانت عاقبةُ أمرهم أن اضطُّروا إلى الشهادةِ على أنفسهم بالكفر»[(٢)].

عدلهُ سبحانه.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

أنه تعالى لا يهلك القرى بظلمهم، إلا بعد أن يرفعَ الغفلةَ عنهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي لكلٍّ من الجنِّ والإنس على وجهِ العموم: درجاتٌ متفاوتةٌ مما عملوا، فيُجازَونَ بأعمالِهم، كما في قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وفيه دليلٌ على أن المطيعَ من الجنِّ في الجنةِ، والعاصي في النار، وأن للظلمةِ من الجنِّ والإنس درجاتٍ متفاوتةً بقدر ظلمِهم وحسبِ جُرمِهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ من أعمال الخير والشر.

غناه تعالى عن خلقه ورحمته بهم

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٧٢٥.

(٢) لباب التأويل للخازن٢ / ٤٦٠.

كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ هو تعالى الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغني عن عباده، والكلُّ مفتقرٌ إليه، قال تعالى في سورة فاطر ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال جلَّ وعلا في سورة محمد ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ وهو سبحانه الغني: فلا ينفعُه إيمانُ المؤمنين ولا طاعةُ الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين أو معصيةُ العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضِّلٌ عليهم برحمتِهِ وحلمِه فلو شاء لعجل لهم العقابَ وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلكَ أسلافهم الذين خرجوا من أصلابهم، وهذه إشارةٌ إلى سنةِ الاستبدال والتغييرِ لكنه تعالى يمهلُهم لعلهم يرجعونَ ويؤخرُهم فعساهم يتوبون.

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

أي من البعثِ والحساب والجزاء، فهو وعدٌ حقٌّ وميعادُ صدقٍ ولقاءٌ لا سبيل إلى التفلُّتِ منه.

﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك المصرِّين على الإعراضِ والجحودِ فليبقوا على حالِهم وليتمادوا في طغيانهم، ولتبقَ أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقِه فلكلٍّ عاقبتُه، والظالمُ لن يجني من جرَّاءِ ظُلمه إلا الخسرانَ والبوارَ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسقُ آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيثُ تقريرُ العقيدة من خلال الحديث عن اليوم الآخر، حيثُ تضفي لنا الآياتُ المزيدَ من أنباء هذا اليوم، ثم تَزيدُنا معرفةً بأسماء الله وصفاته العُلى، وسننه العادلة في هذه الحياة وأقداره النافذة وإعذاره وإنذاره لعباده.

الهدايات المستنبطة

* بشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بدار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروهٍ وسوءٍ والعافية من جميعِ الآفات والبلايا والهموم والرزايا.
* في يوم الحشر يعترف المجرمُ بجريمته ويقرُّ العاصي بمعصيته، ومن ذلك تلك الاعترافات المتأخرة بالاستمتاع والمصالح المتبادلة بين شياطين الإنس والجن، انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها واستمتع الجن بالإنس حيث عظَّموهم وبالغوا في أمرهم واتبعوا أوامرهم، واستعانوا بهم.
* **ولغة تبادل المصالح**: لغةٌ شائعةٌ وعرفٌ سائدٌ بين طوائف المجرمينَ في كلِّ العصور على اختلاف سطوتِهم ونفوذِهم، حيث يتحالفون على الشرِّ ويتسترون على الجرائم في مقابل مصالح ومنافع متبادلة، وها نحن نرى في واقعنا المعاصر كيف استمتعت الدول الكافرة الظالمة بعملائها من الحكامِ المأجورين المُسلَّطين على الشعوبِ المقهورةِ وتسترت على جرائمِهم حتى إذا قضت نهمتَها وحققت منهم مآربها وأشبعت أطماعَها، ووصلت على أكتافهم إلى أهدافِها البعيدة وأطماعِها الكبرى، تبرأتْ منهم، وطوت صحائفهم وربما نشرت بعض سجلاتهم أمام محاكم صورية مواليةٍ لها، لتتخلص منهم باسم ما يزعمونه من «ديموقراطية» مزيفة، هي في الحقيقة صورةٌ مقنَّعة من صور ظلم الأمم والشعوب وتبادل الأدوار بين الظلمةِ وتداولٍ شكليٍّ للسلطة بين المحتكرين لها باسم صناديق الانتخابات التي يساومُ عليها الشواذُّ والجماعات العنصرية، فضلا عن بني صهيون، والله غالب على أمره...
* في قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ إشارةٌ إلى جملة من السنن الإلهية منها:

سنةُ الولاء: حيث يتآمر الكفرة ويتعاونُ الظلمة لتحقيقِ مآربهم والوصولِ إلى مطامعهم،

وهذا من باب الاستدراجِ لهم.

سنةُ التعاقب والتداول: حيث يتعاقب الظلمة، يلي بعضهم بعضا دون اعتبارٍ ممن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله. كذلكً يتعاقبون في دخولِ النار، يلي بعضُهم بعضا في دخولها.

* **سنةُ التسلط:** تسلطُ الظلمةِ بعضهم على بعضٍ، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمةً بالظلمةِ.
* **سنة الاستبدال:** وهي المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾
* وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك الكفرةِ المصرِّين على الإعراضِ والجحودِ فليبقوا على حالِهم وليتمادوا في طغيانهم، ولتبقَ أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقِه، فلكلٍّ عاقبتُه، والظالمُ لن يجني من جرَّاءِ ظُلمه إلا الخسرانَ والبوارَ.
* في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ دليلٌ على ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من العذر بالجهلِ وذلك من رحمةِ الله وعدله.
* ردٌّ على إنكارهم واستبعادِهم الذي يصل ُبهم إلى حد استعجالِ هذا الموعد فبين تعالى أنه آتٍ ،وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ.
* الله تعالى هو الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغنيُّ عن عباده، والكلُّ مفتقرٌ إليه، وهو سبحانه الغنيُّ: فلا ينفعُه إيمانُ المؤمنين أو طاعةُ الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين أو معصيةُ العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضِّلٌ عليهم برحمتِهِ وحلمِه فلو شاء لعجل لهم العقابَ وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم.

-٢٢-

من جهالات المشركين

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن فساد معتقدات المشركين وإقامةِ الحجج على بطلانها: تمضي بنا الآياتُ في جولة أخرى لتكشف المزيد من جهالاتِ أولئك المشركين الذين حرموا ما أحلَّ الله لهم واستحلُّوا ما حرم عليهم، من ذلك: أنهم جعلوا من الزروع والأنعام التي خلقها الله سبحانه نصيباً له تعالى يعطونه للفقراء والمساكين ويطعمون به الضيفان وغيرهم، وجعلوا لأصنامهم نصيباً آخر يقدمونه للسدنة والكهنة.

التفسير الإجمالي

لا تزالُ آياتُ هذه السورة الكريمة تكشف لنا المزيدَ عن تقاليد المشركين البالية التي اقتفوا بها سَنَنَ آبائهم وأجدادِهم، ومنها تلك القسمة الباطلة الجائرة التي تتحدث عنها الآيات

الكريمة، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي: بتقولهم ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى مع علمهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ يُصرف للكهنة والسدنة، ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ ﴾

فما كان لشركائهم فإنه يصل إليها بتمامه دون انتقاص منه فيذهب إلى القرابين لتلك الأصنام وينتفع به سدنتُها وكهنتها، وما كان لله بزعمهم فإن النصيبَ الأكبرَ والحظَّ الأوفرَ ينصرفُ إلى الأصنام وكهنتها وسدنتها لا إلى الفقراء والمساكين.

قال الشوكاني رحمه الله: « هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاجِ دوابِّهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوَّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيٌّ عن ذلك، وقيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول إلى الله، والوصول إلى شركائهم»[1].

وكانوا يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غنيٌّ عن هذا وإن سقط شيءٌ من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان.

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيما فعلوا من إيثار آلهتِهم على الله تعالى وعملهم بما لم يُشرَعْ لهم مما يدلُّ على جهلهم وحمقهم وكذبهم وافترائهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٦٥ بتصرف.

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ كذلك من جهالاتهم وحماقاتهم وجرائمهم ومن تزيين الشيطان لهم: أن زيّنوا لهم قتل أولادهم سفها بغير علمٍ وذلك بوأدهم للبنات بحجج ساقطةٍ وعللٍ مُتهافتةٍ، وكان الرجل في الجاهليةِ يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرنَّ أحدهم.

قال ابنُ العربي: « وَحَقِيقَةُ التَّزْيِينِ إظْهَارُ الْجَمِيلِ، وَإِخْفَاءُ الْقَبِيحِ، وَقَدْ يَتَغَلَّبُ بِخُذْلَانِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، كَمَا يَتَحَقَّقُ بِتَوْفِيقِهِ لَهُ، وَمِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ بِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ تَصْوِيرُهُ عِنْدَهُمْ جَوَازُ أَكْلِ الذُّكُورِ مِنْ الْقَرَابِينِ، وَمَنْعُ الْإِنَاثِ مِنْ أَكْلِهَا، كَالْأَوْلَادِ وَالْأَلْبَانِ، وَكَانَ تَفْضِيلُهُمْ لِلذُّكُورِ لِأَحَدِ وَجْهَيْنِ، أَوْ بِمَجْمُوعِهِمَا: إمَّا لِفَضْلِ الذَّكَرِ فِي نَفْسِهِ عَلَى الْأُنْثَى، وَإِمَّا لِأَنَّ الذُّكُورَ كَانُوا سَدَنَةَ بُيُوتِ الْأَصْنَامِ؛ فَكَانُوا يَأْكُلُونَ مِمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنْهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ تَعَدٍّ فِي الْأَفْعَالِ، وَابْتِدَاءٌ فِي الْأَقْوَالِ، وَعَمَلٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنْ الشَّرْعِ»[١].

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم. ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا. قال ابن عباس: « ليُدخلوا عليهم الشكَّ في دينِهم؛ وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطينِ»، [٢] الذين أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، أو قربانا أو وفاء لنذرٍ وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعته، فهم شركاءٌ في هذه الجرائم النكراء، وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أرباباً، وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلامٌ لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول، الشركاءُ هم السدنةُ وخدامُ الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة»[٣].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣ / ١٣١ ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٩٣.

(٣) لباب التأويل للخازن ٢ / ١٨٨.

فعن عَدِيِّ بن حَاتِم ﷺ قال: « أَتَيْتُ النَّبِيّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَب، فقال: يَا عَدِيّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: (اتَّخَذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله)، قال: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلّوهُ، وَإِذَا حَرّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرّمُوهُ»[1].

« فدينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق. وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: وليوقعوهم في دين ملتبس»[2].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ « ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمتُه التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجا منه لهم، وإمهالا لهم، ولهذا قال: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضرُّوا الله شيئاً»[3].

ثم ذكر تعالى ضربا آخر من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافترائهم:

قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

حيث حرموا ما أحلَّ الله واستحلُّوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزروع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة،

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن وقال: « هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاّ مِن حديثِ عبدِ السّلاَمِ بن حَرْبٍ. وَغُطَيْفُ بنُ أَعْيَنَ لَيْس بمَعْرُوفٍ في الحديثِ ». سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن رَسُولَ الله ﷺ – باب وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَة حديث ٥٠٩٣ والطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٧ حديث ١٣٦٧٣ ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤ / ١٣٩٠ حديث ١٠٢٩١.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٥.

﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح بل كانوا يذكرون عليها أسماء أصنامهم، « وقيل معناه لا يحُجُّون عليها ولا يركبونها لفعل الخير؛ لأنه لمَّا جرت العادةُ بذكر الله على فعل كل خير ذمَّ هؤلاء على ترك فعل الخير»[(١)].

وعَنِ السُّدِّيِّ: قال: «كَانُوا لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا وَلَّدُوهَا، وَلا إِنْ نَحَرُوهَا»[(٢)].

﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾فيه وعيدٌ وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب.

ومن جملةِ ظلمهم وسفههم وجورهم وهضمهم لحقوق الإناث ما أخبر الله عنه في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾

فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قَوْلُهُ تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ يَعْنِي: اللَّبَنَ، كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَاثِهِمْ وَيُشَرِّبُونَهُ ذُكْرَانَهُمْ، كَانَت الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَراً ذَبَحُوهُ، فَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ»[(٣)].

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي وإن كانت ميتةً فهم فيه شركاء، الذكورُ والإناثُ ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ « وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ يَعْنِي بِهَا الْأَجِنَّةَ وَقَالَ غَيْرُهُمْ: أَرَادَ بِهَا الْأَلْبَانَ وَالْأَجِنَّةَ جَمِيعاً، وَالْخَالِصُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَمِنْهُ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا أَنَّثَ خَالِصَةً عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ، كَالْعَلَّامَةِ وَالرَّاوِيَةِ، وَقِيلَ: عَلَى تَأْنِيثِ الْمَصْدَرِ، نَحْوُ الْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَمِنْهُ: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم

---

(١) لباب التأويل للخازن ٢ / ١٨٩ ويراجع تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٩١.

(٣) نفس المرجع ٥ / ٤٠٠.

بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص: ٤٦]، وَقِيلَ: لِتَأْنِيثِ مَا فِي بُطُونِهَا مِنْ الْأَنْعَام.

وقَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ يَعْنِي أَجِنَّةَ الْأَنْعَام إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً اسْتَوَى ذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ فِيهَا فَأَكَلُوهَا جَمِيعاً قَالَ أَبُو بَكْر: وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٌ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ: إِذَا أَرَدْت أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَب فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَة مِنْ سُورَة الْأَنْعَام إِلَى قَوْلِهِ ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[1].

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى في سورة النحل﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تعليلٌ للوعيد بالجزاء، فإن الحكيمَ العليمَ بما صَدَرَ عنهم لا يكاد يترك جزاءَهم الذي هو من مقتضَيات الحكمة[2].

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قتلوا رياحين الفؤاد وفلذات الأكباد سفها فكَانَ أَحَدُهُمْ يَقْتُلُ ابنه تقربا للأحجار، ويقتل ابْنَتَهُ مَخَافَةَ الْفَاقَة والعار، وَحَرَّمُوا مِنْ الأنعام وفق أهوائهم وما تمليه عليهم شياطين الإنس من الكهنة؛ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ، فأي خسارةٍ أعظم من ذلك!

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١١ بتصرف، وأثر ابن عباس سبق تخريجه ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٥/ ٣١٩٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤٣٩.

الصلة بين المحور وآيات المقطع

لا تزال آيات هذه السورة الكريمة تكشفُ لنا المزيدَ من المشاهدِ والمواقفِ الدالةِ على ما كان عليه المشركون من سَفَهٍ وجهلٍ وظلمٍ وظلام، واتباعٍ للأهواء، وتقليدٍ أعمى، وحميَّةٍ غاشمةٍ، وجرائمَ نكراء، وكذبٍ وافتراءٍ، في ظَلِّ تلك الجاهليةِ الجهلاء.

الهدايات المستنبطة

* تمضي بنا الآياتُ في جولةٍ أخرى لتكشف لنا المزيد من ظلمِ وجهالاتِ أولئك المشركين الذين حرَّموا ما أحلَّ الله لهم واستحلُّوا ما حرم عليهم.

* من كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه، أن جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيباً، ولآلهتهم نصيباً من ذلك، يصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه في ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غنيّ عن ذلك.

* كذا من جهالاتهم وحماقاتهم وجرائمهم ومن تزيين الشيطان لهم: أن زيَّنوا لهم قتل أولادهم سفها بغير علم، وذلك بوأدهم للبنات بحججٍ ساقطةٍ وعللٍ مُتهافتةٍ، وكان الرجل في الجاهليةِ يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لَينحرنّ أحدهم.

* بمناسبةِ قوله تعالى ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ قال سيد قطب رحمه الله: «ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح.. فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها، وصيرورة الناس ماشيةً ضالةً يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس، ما لم تعتصم منه بدين واضح؛ وما لم ترجع في أمرها كلِّه إلى ميزانٍ ثابتٍ، وهذه

التصورات المبهمة الغامضة؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق، لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة.. هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا.. هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضا، وتكلفهم أحيانا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأزياء التنكر وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف... إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ.. من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء. وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها!»[1].

* من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافترائهم: أنهم حرموا ما أحلَّ الله واستحلُّوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزروع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة.

* « وصف الله المشركين بأوصافٍ سبعة: هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم»[2].

* وضعُ المرأة المزري وحقوقها الضائعة، في تلك الجاهلية الجهلاء والتقاليد البالية التي لم تسلم المرأةُ من عنتها، فعانت من ظلم أقربِ الناسِ إليها وعاشت مهيضةَ الجناح كسيرةَ الفؤاد حتى أشرق شمسُ الإسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٩ بتصرف.

(٢) يراجع: التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦١.

- ٢٣ -

حججٌ باهرةٌ، ونعمٌ ظاهرة

قال تعالى ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

المناسبة:

تنتظم هذه الآياتُ الكريمةُ مع سابقتِها في تقريرِ أصولِ العقيدةِ والأحكامِ الشرعيةِ

وتفنيد مزاعم المشركين والردِّ على جهالاتِهم، والتي من بينها تحريمُهم ما أحل الله وتحليلُهم ما حرم الله حسب أهوائِهم، وكما تكشف لنا هذه الآيات عن ضلالات وجهالاتٍ للمشركين فإنها تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتنانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.

قال الإمام القرطبي: « ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحللوا وحرموا: دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم»[(١)].

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة بيانٌ لجملةٍ من نعمه تعالى على عباده، وواجبنا نحو هذه النعم، و موقف المشركين من هذه النعم، هذا الموقف العجيب الذي يكشف عن جهلهم وضلالهم.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾ غير مرفوعات عليها، وقيل: المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل المعروشات: ما استنبته الناس وعرَّشوه، وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال[(٢)].

﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ ﴾ في طعمه وجودتِه وفوائِده.

﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ ﴾ وهذا التنوع: في اللون والطعمِ والشكلِ، من تمام نعمِ الله وبديع صنعه.

﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٦٥.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦٨ بتصرف.

دعوةٌ إلى أكل الحلال الطيِّب، وفيه ردٌّ على ما فعله الجاهليون من تحريم ما أحل الله، وبيانٌ لحق الفقراء في هذه الزروع والثمار فقد شرعت الزكاةُ - ابتداءً - في مكةَ، ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ تحذيرٌ من الإسراف فإنه تعالى لا يحبُّ المسرفين.

قال ابن العربي رحمه الله: « الْإِسْرَافُ: هُوَ الزِّيَادَةُ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ بِزِيَادَةِ الْحَرَامِ عَلَى مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَكُمْ وَلَا تُسْرِفُوا فِي أَخْذِ زِيَادَةٍ عَلَى حَقِّكُمْ، وَهُوَ التِّسْعَةُ الْأَعْشَارُ، حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، وَأَدُّوا مَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكُمْ » [١].

وقال الشوكاني رحمه الله: «... وقيل: هو خطابٌ للوُلاةِ، يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم، وقيل المعنى: لا تأخذوا الشيء بغير حقه، وتضعونه في غير مستحقه» [٢].

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾: الحمولة ما يحمل عليها، وهذا مختصٌّ بالإبل والفرش ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر، فراشاً يفترشه الناس.

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان، ومن ضمنها الإسراف ومجاوزة الحد في الإنفاق وتحريم ما أحل الله أو استحلال ما حرم الله، كما كان يفعل أهل الجاهلية.

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

جاءت هاتان الآيتان لإقامة الحجةِ عليهما وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٢٨٩.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦٩.

حملتهم على تحريمِ ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجة إلا أسقطتها.

والمعنى: قل لهم يا محمد على سبيل توبيخهم وإلزامهم الحجة: أحرَّم الله الذَّكَرَينِ وحدَهما من الضأن والمعز أم الأنثيينِ وحدهما، أم الأجنَّة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين ذكوراً كانت تلك الأجنة أم إناثا؟

وقوله: ﴿ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: أخبروني بأمرٍ معلوم من جهتِه - تعالى - نزل به الوحي، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئاً مما حرمتموه إنْ كنتم صادقين في دعوى التحريم.

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض.

﴿ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ ﴾ قل آلذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما، فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام، وإن كان حرم الأنثيين منهما فكل إناثها حرام﴿ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى﴿ نَبِّـُٔونِي ﴾ أي أخبروني وبينوا لي﴿ بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ يعني في أن الله حرم ذلك عليكم.

وهكذا تكشف لنا السورةُ الكريمةُ زيفَ ما عليه المشركون من ضلالاتٍ وجهالاتٍ، لا برهان لهم عليها.

قال الإمام الألوسي: « والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء: إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغةِ في الردِّ عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين

ذلك كله إلى الله سبحانه»[١].

فدلَّ هذا على تضاربهم وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل ويركن إلى التقاليد البالية، ويسلِّم بالأقاويل الواهية.

فمن أشد ظلماً وبُعدا عن الحق ممن يكذب على الله، فيدعي تحريم ما لم يحرمه الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله ثم يدعي كذبا وافتراء أن الله أمره بهذا كما فعل عمرو بن لحي لعنه الله فهو أولُ من بَحَرَ البحَائر وسيَّب السوائب وغيَّر دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص، فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا يرشدهم ولا يوفقهم.

الطريق الصحيح لمعرفة الحلال والحرام

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي، وقد أوحى الله لنبيه ﷺ ، فبيَّن له أن الذي يحرُمُ أكلُه: هو الميتةُ أو الدم المسفوح، وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فإن ذلك الدم حرام نجس، وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان.

ولقد حرم الإسلام هذه الأشياء لما في أكلها من الأضرار البالغة على صحة الإنسان ولا يزال العلم يكشف لنا عن تلك الأضرار المترتبة على أكلها، ومن المحرمات أيضا كلُّ ما ذُبِح

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨/ ٣٩٦.

لغير الله فلا يجوزُ الأكل من هذه المحرمات إلا لضرورةٍ بالغةٍ، والضرورة تُقدَّر بقدرها فيأكل بقدر ما يسدُّ الرمق ويحفظُ حقَّ النفسِ.

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية.

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير.

قال الإمام الجصاص: « قَوْله تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ الْآيَةُ رُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ أَشْيَاءَ وَيُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ مِمَّا تَسْتَحِلُّونَ ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ الْآيَةُ وَسِيَاقَةُ الْمُخَاطَبَةِ تَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ طَاوُسٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّمَ ذِكْرَ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ الْأَنْعَامِ وَذَمَّهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ وَعَنَّفَهُمْ وَأَبَانَ بِهِ عَنْ جَهْلِهِمْ لِأَنَّهُمْ حَرَّمُوا بِغَيْرِ حُجَّةٍ، ثُمَّ عَطَفَ قَوْله تَعَالَى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ يَعْنِي تُحَرِّمُونَهُ إلَّا مَا ذُكِرَ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْآيَةِ لَمْ يَجُزْ الِاسْتِدْلَال بِهَا عَلَى إبَاحَةِ مَا خَرَجَ عَنْ الْآيَةِ» [1].

محرمات على اليهود

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

لما بين عز وجل أن التحريم لا يكون إلا بوحي إلهيٍّ ناسب ذلك بيان المحرمات على من قبلنا فبين تعالى المحرمات على اليهود، حيث شدد الله عليهم عقابا لهم وتضييقا عليهم، أما أمة الإسلام فقد خفف الله عنهم ورفع عنهم الحرج تيسيرا عليهم ورحمةً بهم.

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢١.

وإذا كان الله تعالى قد حرم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير لما في ذلك من أضرارٍ جسيمةٍ، فقد حرم الله سبحانه على اليهود أشياءً أخرى كانت حلالا عليهم لكنه تعالى حرمها عليهم بسبب ظلمهم وتعنتهم وغلوِّهم وتشددهم وصدودهم وجحودهم.

قال تعالى في سورة النساء﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ حرم الله عليهم: كل ذي ظفر: وهو كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ من الشحوم فإنها مباحةٌ، أما لحومها فإنها باقية على الحل ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ : الحوايا هي الأمعاء وكل ما احتواه البطن ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾ أي كل شحم خالط عظما مثل شحم الجنب والألية.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ ﴾ شدد الله عليهم بسبب بغيهم وانتهاكهم لمحارم الله.

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

فمن رحمته تعالى أن أمهلكم وأقام عليكم الحجج والبراهين ودعاكم إلى الدين الحنيف دين الرحمة والتخفيف، فلا تغتروا بإمهاله لكم.

أو ﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ بعباده المؤمنين ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين، فرحمتُه يختصُّ بها عبادَهُ المؤمنين وبأسُه لا يُردُّ عن القومِ المجرمين، والتكذيبُ بكلام الحق جريمةٌ كبرى تستوجب العقوبةَ الشديدة.

أو﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾: فلا تحرموا أنفسكم منها بتكذيبكم، واحذروا من بأسه الذي لا رادَّ له إذا حل بالمجرمين، وتكذيب الوحي الإلهي من أشنع الجرائم في ذاته، وفيما يترتب عليه.

احتجاجهم الخاطئ بالقدر.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

هنالك وبعد إقامة الحجج والبراهين على المشركين لم يبق لهم من مبررٍ إلا زعمهم أن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصرفهم عنه وهداهم إلى الحق، وهذه حجةٌ واهيةٌ كثيرا ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون، أن هذا قدرُ الله بهم ولو شاء هدايتهم لهداهم، ونردُّ على هؤلاءِ بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجا ودعوةً وصاروا له حماةً ورُعاةً.

فقد جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجةً على إقامتهم على الكفر والشرك. وقالوا: إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحالَ بيننا وبين ذلك﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ﴾يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها ،فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني ممن سبقهم إلى الكفر ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ ﴾يعني عذابنا.

ونظيرُ هذا إخبارُ الله عنهم في سورة النحل بقولهم هذا القول يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل: ٣٥]

ومرادُهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعهم منه أن ذلك دليل على رضاهُ بشركِهم، ولذلك كذبهم هنا بقوله ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ ﴾ الآية، وفي سورة الزخرف ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الزخرف: ٢٠].

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

بعد أن أقام الحجج والبراهين وبدَّد ظلام وأوهام الجاهليين وفند مزاعمهم وشبهاتهم حتى لم يثبتْ لهم دليلٌ ولم تقم لهم حجةٌ قال سبحانه ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾: له وحده الحجة البالغة ولو شاء هدايتهم أجمعين لهداهم، ولكنه تعالى سبق في علمه حرصُهم على المُضيِّ في طريقِ الضلالِ، واستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم الهوى على الحقِّ المبين.

فالحجة، لا بد أن تكون قائمةً على العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والوهم، الذي لا يغني من الحق شيئا، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ فلو كان لهم علم- وهم خصوم ألداء -لأخرجوه ،فلما لم يخرجوه عُلِمَ أنه لا علم عندهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ومَنْ بَنَى حُجَجَهُ على الخرصِ والظنِ: فهو مبطلٌ خاسرٌ، فكيف إذا بناها على البغي والعنادِ، والشرِّ والفسادِ؟

فقولهم كما أخبر القرآن عنهم﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ حقٌّ أريد به باطلٌ فنحن نؤمن بالقدر ونوقن بمشيئته تعالى ولكن لا نعلِّقُ عليها أخطاءنا وتقصيرنا بحجةِ أن ذلك أمرٌ مقدرٌ علينا، وقد فعلنا ذلك مختارين، ولو أن كلَّ من ارتكب جريمةً شنيعةً التمسنا العذرَ له بحجة أنه فعلها قضاءً وقدراً لوجد المجرمون لهم مخرجا من كلِّ جرمٍ ولعمَّت الفوضى وشاع الهرجُ في المجتمعاتِ.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

إذا لم يبق لكم دليلٌ ولم تسلم لكم حجة فماذا بقي لكم؟ هل عنكم من يشهد لكم؟﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ ﴾ وأنى لهم ذلك! فهذه الدعوة بإحضار الشهود إنما هي على وجه التعجيز لهم، وإلا فلن يميل إلى هذه الشهادة إلا أهلُ الزورِ فلا تغترَّ بشهادتهم، ولا تنخدع بأيمانهم ولا تتبع أهواءهم فإنهم مكذبون وبربهم يعدلون إذ يسوون بينه وبين الأصنام التي عبدوها، فلم ينتفعوا بتلك الحجج ولم يعتبروا بها بل تمادوا في كفرهم وعدلوا عن طريق الحقِّ وتوغلوا في طرقِ الضلال.

قال القاسمي رحمه الله: « والمراد ب ﴿ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ قدوتهم الذين ينصرون قولهم، وإنما أُمِروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم، وأنه لا متمسك لهم، كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل»[(١)].

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

تنتظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة وهو تقرير العقيدة الصحيحة؛ وذلك بما ورد فيها من حججٍ باهرةٍ، ودلائلَ نيِّرةٍ تدلُّ على كمال قدرته تعالى وبديع صنعِه ولطائفِ آياتِه وامتنانه على خلْقه بنعمه الظاهرةِ والباطنةِ، يعقبُ ذلك بيانُ جملةٍ من الأحكام الشرعية، ثم تكشف الآيات عن زيف دعاوى المشركين التي لا دليلَ عليها، ولا مستند لها إلا الكذب واتباع الهوى، ثم يعودُ السياق إلى بيان المحرمات الشرعية، ويستطرد لبيان ما حرم الله تعالى على اليهود، يعقب ذلك تسلية النبي ﷺ وتلقينه الجواب الشافي والموقف الراشد من تكذيب المشركين الذين حرموا أنفسهم من رحمة الله تعالى واستحقوا بأسَه الذي لا يردُّ عن الكافرين، وتنتهي آيات هذا المقطع بتفنيد شبهِ المشركين وأوهامِهم وإبطالِ عِلَلهم.

الهدايات المستنبطة

* في هذه الآيات الكريمة ردٌّ على جهالات المشركين الذين حرَّموا ما أحلَّ الله وأحلوا ما حرَّمه تعالى حسب أهوائهم.
* كما تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتننانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.
* وجوب الزكاة في الزروع والثمار، عند حصادها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.
* دعوةٌ للتمتع بالطيباتِ ونهيٌ عن اتباع خطوات الشيطان، ومِنْ ضِمْنَهَا الإسرافُ ومجاوزةُ

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٧٨٠.

الحد في الإنفاقِ وتحريمُ ما أحل الله أو تحليلُ ما حرم الله، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية.

* قال الإمام القرطبي: « قوله تعالى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ عطف عليه﴿ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ نصب على الحال، وفي هذه أدلة ثلاثة: **أحدها**: ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغيِّر، **الثاني**: على المنة منه - سبحانه - علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء، لأنه لا يجب عليه شيء.

الثالث: على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته: الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأناسها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!»[١].

* إقامة الحجةِ عليهما وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ، حملتهم على تحريمِ ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجة إلا أسقطتها.

* دلَّت الآيات على تضارب المشركين وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل، ويسلِّم بالأقاويل الواهية.

* « قال المحققون: إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد، فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٦٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦٧.

* وفي الآيات دليل على إثبات المناظرة في العلم وإثبات القول بالنظر والقياس.[(١)]
* لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي.
* يتعلل المشركون حين تعييهم الحجج بأن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصرفهم عنه وهداهم إلى الحق وهذه حجةٌ واهيةٌ كثيرا ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون أن هذا قدرُ الله بهم ولو شاء هدايتهم لهداهم، ونردُّ على هؤلاءِ بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجا ودعوةً.

- ٢٤ -

الوصايا العشر

قال تعالى ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

المناسبة

بعد إبطال حجج المخالفين وبيان ما هم عليه من زيغٍ وضلالٍ، ونقضِ معتقداتهم

---

(١) قال السيوطي رحمه الله في الإتقان تحت عنوان: فصل من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل: «السبر، والتقسيم: ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾...»، يراجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ١٣٧.

الفاسدة وتقاليدهم الراكدة جاءت هذه الآياتُ بالمنهج القويم المتمثِّل في تلك الوصايا الخالدة الجامعة لأسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارمِ الأخلاق.

قال البقاعي: « ولما أبطل دينهم كلَّه أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبيَّن فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق»[١].

وثمَّة مناسبة أخرى: وهي بعد ما ذكر تعالى ما فعله المشركون من تحريم ما أحل الله، وما فعله تعالى باليهود من تحريمِ بعض الطيباتِ عليهم لتعنُّتِهم وتشددهم وظلمهم وقسوة قلوبهم: ناسب ذلك الحديث عن المحرمات الثابتة في جميع الرسالات الربانية فقال سبحانه ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ إلى آخر الآيات.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هذه الآيَاتُ المُحْكَمَاتُ التي ذكرها الله تعالى في سُورة «الأنعام» أجمعت عليها شرائعُ الخَلْق، ولم تُنْسَخ قط في مِلَّةٍ، وقد قيل: إنَّها العَشْر كلمات المُنَزَّلة على مُوسَى عليه السلام[٢].

التفسير الإجمالي

اشتملت هذه الآيات الكريمة على تلك الوصايا الخالدة الجامعة، فكان مستهلُّها تلك الدعوة العامة إلى العنايةِ بهذه الوصايا، قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾، ثم بدأ بأولِّها وأساسها وهو النهي عن الشركِ بجميع صورِه ومظاهِرِه، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربَّ غيره ولا معبود سواهُ، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، وهي المحور العام لهذه السورة الكريمة.

ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ولم يقل سبحانه على غرار

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢ / ٧٤٠ .

(٢) اللباب لابن عادل - ٧ / ٢٢٩.

ما سبق ولا تسيئوا للوالدين كما قال أن لا تشركوا بالله شيئا، فليس الأمر مجرد كفِّ الأذى عن الوالدين وتجنب الإساءة إليهما، بل يجب الإحسان إليهما وبرُّهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد؛ بحُجَّةِ الفقر كما كان يفعلُ أهلُ الجاهليةِ الأولى فقد تكفل الله برزق الأبوين والأولاد جميعا﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ وفي سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

فآية الأنعام تُفِيد النَّهْي عن قَتْل الأولاد، وإن كان الآباء مُتَلَبِّسِين بالفَقْر، وآية الإسراء نهي عن قتل الأولاد خوفا عليهم من حصولِ الفَقْر لهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الذنب أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: « أَنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ قُلْتُ: ثُمّ أَيٌّ؟ قَالَ: « ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكِ»[(١)].

وشاع في الجاهلية وأد البنات مخافة العار الذي قد يحصُلُ عند نشوبِ حربٍ، فربما وقعن في السبي، وقتل البنينَ تقرُّبا للأحجار ووفاء بالنذورِ.

ثم نهى سبحانه عن اقتراب الفواحش فضلا عن اقترافها فقال سبحانه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾.

وهذا نهيٌ عن مقاربةِ جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن: سرها وعلانيتها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعودٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنْ اللَّهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه حديث ٦٠٠١، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده حديث ١٤١- (٨٦).

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا=

ثم نهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بحقها ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إلا بما يوجبه الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، أو بالرجم لمن زنا وهو محصن أو قتلها بسبب الردّة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِم يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللّهُ وأَنِّي رَسولُ الله إلاَّ بإحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدينِهِ المُفَارِقِ للجَماعَةِ»(١).

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تُعمِلون عقولكم فتحجزكم عن الوقوع في هذه المحرمات، حين تعقلون مقاصد الأحكام الشرعية وحِكَمَها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصها على صلاح النفس والمجتمع، وتدركون عِظَمَها عند مُشَرِّعِها.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحُه وتثميرُه وتحصيلُ الربح له، قال مجاهد: هو التجارة فيه، وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف، كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة البقرة ﴿ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ ﴾ [البقرة ٢٢٠] فلا بأس من المخالطة على وجه الإصلاح والنُّصح.

﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾أي احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

= وَمَا بَطَنَ ﴾ حديث ٤٣٥٨ ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب التوبة - باب غيرة اللهِ تعالى، وتحريم الفواحش حديث ٩٠١- (١).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات باب قوله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة ٤٥] حديث ٦٨٧٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم الحديث رقم ١٦٧٦ - (٢٥).

فأما الأشد فهو بلوغ سنِّ الحلم مع إيناس الرشد، كما في قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾: فينبغي تحري العدالة مع الآخرين بقدرِ ما يسعُ الإنسان﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾ فالعدلُ واجبٌ في كلِّ قولٍ وحكمٍ.

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم؛ فلا تكون القرابات مانعا من إقامة العدل.

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ﴾ دعوةٌ إلى الوفاء بجميع العهود وفي مقدمتها عهدُ الله تعالى فهو أولى بالوفاء، وما أوصى به من حقوقٍ شرعيةٍ.

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وتنتهون، فالوصيةُ دائماً محلَّ عنايةٍ واهتمامٍ من المُوصَى، ودائما ما يتذكرُها.

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

وأن هذا الذي وصيتكم به وبينته لكم هو الصراط المستقيم والدين القويم الذي لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ يعني الطرق المختلفة والملل والنحل والأهواء والبدع المضلة: كاليهودية والنصرانية وسائر الأديان المحرفة والوضعية والدعوات الهدامة والمذاهب الضالة

﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾: فتميل بكم تلك الملل والأهواء والنِّحل عن دينه تعالى وطريقه الذي ارتضاه لعباده.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطّاً، ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[(١)].

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً ولا تَعْوَجُّوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(٢)].

فائدة: ذكر سبحانه: أولاً ﴿ تَعۡقِلُونَ ﴾ ثم ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ لأنهم إذا تعقلوا تفكروا ثم تذكروا، فاتقوا محارمَ الله.

وقال ابن عطية: « وفي قوله﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢٨٩٢ وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه »، ورواه الإمام أحمد في المسند ١ / ٤٣٥ والبزار كما في مسنده ـ البحر الزخار ٥ / ٧٨ حديث ١٤٨٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩١ كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، وقال: « رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف « ورواه النسائي في السنن الكبرى السنن الكبرى للنسائي ٦ / ٣٤٣ حديث ١١١٧٤، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١ / ١٣٦ حديث ١٣١، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ٨١٣٠ وإسناده حسن ورواه الدارمي في السنن ١ / ٢٣٠ حديث ٢٠٨ وابن حبان في صحيحه ١/ ١٨٠ حديث ٦.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن النواس بن سمعان ﷺ المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ١٤٤ حديث ٢٢٧وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه »ورواه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٨٢ والبيهقي في شعب الإيمان ٥ / ٤٤٤ حديث ٧٢١٦.

من العقلاء من لم يتذكر قال لعلكم تذكرون، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى قال لعلكم تتقون»[١].

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

صلة آيات هذا المقطع مع محور السورة واضحةٌ بيِّنةٌ؛ إذ بعْدَ إثباتِ تهافتِ حججِ المخالفين، وإبطالِ تصوراتِهم، وتفنيدِ شبهاتِهم، وتبديدِ أوهامِهم: جاءت هذه الآياتُ بالمنهجِ القويم المتمثِّلِ في تلك الوصايا الخالدةِ، الجامعةِ لأُسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارمِ الأخلاقِ، وهذا من باب التحليةِ بعد التخليةِ.

الهدايات المستنبطة

* اشتملت هذه الآية الكريمة على جملةٍ من الوصايا الراشدة والتي في مقدمتها مراعاة حقوق الله تعالى فدعت إلى اجتناب الشركِ بجميع صورِهِ ومظاهِرِهِ، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربَّ غيره ولا معبود سواهُ، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، كما أوصت بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقوق الأولاد، والنهي عن اقتراب الفواحش ما ظهر منها وما بطن إلى آخر تلك الوصايا الخالدة التي جمعت بين ترسيخ العقيدة الصحيحة وتقرير الأحكام الشرعية والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
* تضمنت الآياتُ الكريمةُ دعوةً إلى تعقلِ مقاصد الأحكام الشرعية، وتبصُّرِ حِكَمِها البالغة ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصِها على صلاحِ النفسِ والمجتمعِ.
* أمر الله المؤمنين بالصراط المستقيم، ونهاهم عن النكوبِ عنه باتباع السبل التي تُفضي إلى الفرقةِ والبعد عن الحق.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٤٠٠ بتصرف.

- ٢٥ -

من مشكاة واحدة

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

المناسبة

جاءت هذه الآياتُ الكريمةُ مقررةً للوصيةِ مؤكدةً لها، كما جاءت تمهيدا وتوطئةً للحديث عن القرآن الكريم والوصيةِ به، وفيها بيانُ قيام الحجةِ على المشركين فلم يعدْ لهم عذرٌ ولم تبقَ لهم حجةٌ، كيف وهذا الكتابُ بين أيديهم؟

التفسير الإجمالي

أخبر الله تعالى عن إنزاله التوراة على موسى عليه السلام وأبانَ عن مقاصدها وسماتِها فبين سبحانه أنها نزلت هدايةً ورحمةً وبيانا وحكمةً وفضلا من الله ونعمةً ونورا وعصمة ورحمة ثم استطرد السياق إلى الحديث عن نزولِ القرآن الكريم بالبركات والرحمات وأنه لا عذر لمن أعرض عنه فهو المعجزةُ الكبرى والرسالةُ الخالدةُ والحجةُ البالغةُ.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ «ثم للتراخي في الإخبار كما في قولك: بلغني ما صنعتَ اليوم ثم ما صنعتَ أمس أعجبُ، أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظمُ من ذلك أنا آتينا موسى التوراةَ، فإن إيتاءَها مشتملةً على الوصية المذكورةِ وغيرِها أعظمُ

من التوصية بها فقط »[١].

أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم المحسن والمسيء، وقيل: معناه تماماً على كل من أحسن من الأنبياء والصالحين أي أتممنا فضلَه عليهم بالكتاب، وقيل: الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن، وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانِهِ في الطاعةِ والعبادةِ وتبليغِ الرسالةِ وأداء الأمر.

آتاه الله التوراة هدايةً ورحمةً وتماما وتفصيلا ووفاءً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وإذا كانت التوراة تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء، فالقرآنُ الكريم هو الرسالة المتممةُ الخالدة والمعجزة الباقيةُ المتجددة والينبوعُ الفياضُ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ أخبر تعالى عن أنه أنزله ووصفه بالبركة وأمر باتباعِهِ، وتقواهُ تعالى لمن يطمعُ في رحمته.

ثم بين المراد من إنزاله وهو إقامة الحجة البالغة فقال سبحانه﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾: نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصةً؛ لئلا يتعللوا بأن الكتبَ نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستِها بسببِ الأميةِ التي كانت سائدةً، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ ﴾ أي أهدى من تلك الأمم كما قال سبحانه عنهم في سورة فاطر ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ

(١) نفس المرجع ٢/ ٤٦٢.

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ ﴾: فهذا كتابُ الله تعالى جاء بالهدى والرحمة، ونزل بلغتهم على رسولِ الله ﷺ الذي اصطفاه ربه من بينهم « عبر عنه بالبينة أولاً: إيذاناً بكمالِ تمكنِهم من دراستِهِ، وبالهدى والرحمة ثانياً: تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة»[1].

قال صاحب التحرير والتنوير: « والبيّنة ما به البيان وظهور الحقّ. فالقرآن بيّنة على أنَّه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب، وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها، فهي مقيمة لصلاح الأمّة مع التّيسير...»[2].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ ﴾ إذ ما عذرهم في الإعراض والتكذيب؟.

فهل هناك أظلم ممن كذب بآيات الله بعد إذ جاءته وصدف عنها: أعرض عنها وصدَّ الناس عنها، ولما عظم جرمه بيَّن عقوبته فقال ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة، حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيمان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديث في هذا المقطع عن التوراة نزولها ومقاصدها، تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم والدعوة إلى الإيمان به فهو آخر الكتب، أنزله الله على خاتمِ الأنبياءِ والرسلِ نبينا محمد ﷺ ولا

(١) روح المعاني للألوسي ٨/ ٤٢٢.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ١٨٢.

حجة للمشركين ولا عذر لهم في الإعراض عنه وقد تجلت آياته وتدفَّقتْ حُجَجُه.

الهدايات المستنبطة

* نزلت التوراة على موسى عليه السلام تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء، أما القرآن الكريم: فهو الرسالة المتممةُ الخالدة والمعجزة الباقيةُ والحجج المتجددة.

* كثيرا ما يتبعُ الحديثُ عن أحد الكتابين الحديثَ عن الآخر من ذلك قوله تعالى في هذه السورة﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الرعد﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* وقوله جلَّ وعلا في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

* وفي سورة فصلت ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ وجواب ذلك أدركه ورقة بن نوفل رضي الله عنه عند استماعه لأول رسالةٍ قرآنيةٍ ومن أولِ وهلةٍ، فقال عبارتَهُ المشهورةُ:

« هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ »[(١)] وقول النجاشي حين استمع إلى القرآن: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ... »[(٢)].

* نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصةً؛ لئلا يتعللوا بأن الكتبَ نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستها بسبب الأمية التي كانت سائدةً، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.[(٣)].

وفيه: بيان لما كان عليه العرب قبل نزول القرآن، من الغفلة عما يعلمه أهل الكتاب.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب بدء الوحي –باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ٥ الحديث رقم:٣ –ورواه مسلم في صحيحه – عنها رضي الله عنها كتاب الإيمان – باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ١٣٩ – الحديث رقم :٢٥٢ (١٦٠) وقوله: جَذَعاً يعني شابا قويا حتى أبالغ في نصرتك.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أم سلمة رضي الله عنها مسند أحمد بن حنبل ١ / ٢٠١ حديث ١٦٤٩ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير باب الهجرة إلى الحبشة ٦/ ٢٥ حديث ٩٨٤٢ وقال " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع " ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٤/ ١٣ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١١٥ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٨٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٠

خاتمة السورة

وماذا بعد الحُجَج؟

قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

المناسبة

ماذا بعد ما اشتملت عليه السورةُ الكريمةُ من حُجَجٍ؟ هل بَقِيَ للمعرضين عذرٌ؟ وماذا ينتظرون بعد قيامِ الحججِ عليهم ودحضِ كلِّ شبهةٍ لديهم؟ وإزالةِ كلِّ ما يعتريهم من لبسٍ وإيهامٍ، وتبديدِ ما هم عليهم من جهالاتٍ وأوهامٍ؟

التفسير الإجمالي

ماذا بقي لهم إن لم يرجعوا بعد هذا البيانِ إلا العيانُ، ولكن حين لا ينفعُ الإيمانُ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾، فالآيةُ وعيدٌ شديد وإنذارٌ للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمام

الحجج وتعاقب الأدلة وجلاء البراهين، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجلية أو لقبض أرواحهم.

قال الشنقيطي رحمه الله: « ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً وهو قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه جل وعلا يأتي في ظلل من الغمام وهو قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يُمَرُّ كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠]»[(١)].

وقال السعدي: «﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ لفصلِ القضاءِ بين العبادِ، ومجازاة المحسنين والمسيئين، ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ الدالة على قرب الساعة»[(٢)].

﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ قال الإمام البغوي رحمه الله: « أي: لا ينفعُهم الإيمانُ عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان، ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾: يريد: لا يقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق»[(٣)].

وسبب عدم نفع الإيمان عند ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند مجيء الموت كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٢ / ٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨١.

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٣ / ٢٠٧.

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾: فستعلمون لمن تكون العاقبة.

عاقبة الاختلاف والفرقة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

بعد الحجج النيرات والآيات الباهرات يأتي الوعيدُ الشديد لأولئك المكابرين المعاندين، من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «... وذلك أن كل ضالٍّ فلدينه مفارق، وقد فرَّق الأحزابُ دينَ الله الذي ارتضاه لعباده، فتهوَّد بعض وتنصَّر آخرون، وتمجَّس بعض، وذلك هو « التفريق» بعينه ومصير أهله شيعاً متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحقِّ مفارقون، وله مفرِّقون»[1].

وهل المراد بأولئك الذين فرقوا دينهم اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل أم المراد بهم أهل الأهواء والبدع من أدعياء الإسلام؟

يجيب عن ذلك الإمام الطبري فيقول: « والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرَّقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم، ولا هم منه، لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن يقول ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾سورة الأنعام: ١٦١]».

وقوله تعالى ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

---

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ١٢٤.

إعلامٌ بالبراءةِ منهم ودعوةٌ إلى الإعراض عنهم، وتفويضُ أمرهم إلى الله تعالى فإن شاء تاب عليهم وهداهم، وردَّهم إلى الحقِّ، وإن شاء عجَّل لهم العقوبةَ في الدنيا فضلا عما ينتظرُهُم في الآخرة، أو أمهلهم في الدنيا لينالوا عقابهم في الآخرة.

وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السمحة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء، وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر ببعض وأنكر بعضاً فقد فارق دينه في الحقيقة[(١)] .

العدل والفضل

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾حيث لا ينقصُ من ثوابِ الطائعِ، ولا يُزاد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

المنهجُ القويمُ

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا)، وقرأ الباقون (فرَّقوا) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٠٠ وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٢٧٨، وفارقوا من المفارقة وهي الترك وذلك لمن آمن ببعض وترك البعض فقد ترك الدين القيم، أو فاعل بمعنى فعل من التفرق والتجزئة أي آمنوا ببعضه كما قال تعالى في نفس السورة ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ فإن المشركين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم وقد هجروا منه وزادوا فيه الكثير والكثير.

الحنيفية السمحاء

بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشاف ما عليه أهل الكفر من زيغٍ وانحرافٍ وذمٍّ سبلهم، ذكَّرَ بالمنهج القويم والصراطِ السويِّ ليكون مسك الختام لهذه السورة الكريمة، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أَن يُؤديَ هذه الرسالة التي تتضمن معالم هذا المنهج الرباني وتعلن بوضوحٍ عن خصائصِ هذا الدين: حيث امتنَّ الله عليه بالهداية إلى صراطه المستقيم وهداه إلى الدينِ القيِّم والملة الحنيفية السمحاء ملة أبي الأنبياء إبراهيم ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

وفي هذا الآية الكريمة تعريضٌ بالمشركين واليهود والنصارى الذين زاغوا عن هذه الملة الغراء.

الإخلاص في كلِّ قولٍ وفعلٍ

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ ولجميع المؤمنين أن يُعلنوا عن إخلاصِهم لله تعالى في سائر أمورِهم وأحوالهم وفي جميع أقوالهم وأعمالهم.

« وخصص من ذلك أشرف العبادات فقال:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ ﴾ أي: ذبحي وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله»[1].

التبرؤ من الشركِ وتقرير الوحدانية

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٢ بتصرف .

قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ومليكه، هو الخالق الرازق المدبر لشؤون خلقه المصرف لملكه!

قل أغير الله أبغي ربا: وما منا إلا وهو رهينٌ بما كسبت يداه!

قل أغير الله أبغي ربا: ولا يتحمل أحدٌ وِزْرَ أحد!

قل أغير الله أبغي ربا: وإليه سبحانه المرجعُ والمصيرُ، فماذا عن الموقف بين يديه!

قل أغير الله أبغي ربا: فكيف بي حين يفصلُ اللهُ بين العبادِ ويقضي بينهم بحكمِهِ!

وبعد قيام الحجج وتجلي البراهين يُعلن المسلمُ الإخلاصَ شعارا له في سائرِ أحواله وأساسا له في عباداته ومعاملاته وحركاته وسكناته وكلِّ لحظةٍ في حياته، ويُعلن براءته من الشركِ وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾: أي فإنما عليها ما اكتسبت كما قال سبحانه في ختام سورة البقرة ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقال سبحانه في سورة الجاثية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: أي لا يتحمَّلُ أحدٌ وزرَ غيره إلا إذا كان ضالا مضلا فإنه يتحملُ ذنبَ ضلالِه وإضلالِه، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾: فالمرجعُ إلى الله تعالى ليفصل بين جميع الخلائق قال تعالى﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾: يخلف بعضكم بعضا، بعد أن استخلفكم في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما عليها ومنحكم كنوزها وخيراتها، ليختبركم فينظر كيف تعملون.

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾: فإن تفاضل الناس فيما بينهم لحكم بالغة منها أن يبتلي كلَّ إنسانٍ فيما آتاه وأقامه، ولتستقيم الحياة كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف ٣٢] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: وبهذا الترغيب الذي يبعثُ في قلوب المؤمنين الرجاء والسكينة و الترهيب الذي يزلزلُ كيان المعاندين المعرضينَ ويهزَّ وجدانهم،ويقدِّم لهم الإنذار الأخير في هذه السورة بعد ما حوته من حججٍ: نصلُ إلى ختامِ هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

تنتظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيمان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديثُ في هذا المقطع عن التوراةِ نزولِها ومقاصدِها تمهيداً للحديث عن القرآن الكريم آخر الكتب المُنزلة، أنزله الله على خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ لتقطعَ الآياتُ كلَّ السبل أمام المشركين الذين لا عذر لهم ولا حجَّةَ لديهم في الإعراض كما جاءت هذه الآيات مقررةً لما سبقها ومُعقِّبةً على ما مضى في ثنايا هذه السورة الكريمة، من حُجَجٍ ومواعظَ لم ينتفع بها المعرضون ولم يعتبِروا بها؟ فمتى يعتبرون؟

الهدايات المستنبطة

* في آيات الختام وعيدٌ وإنذارٌ للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمامِ الحججِ وتعاقبِ الأدلةِ وجلاءِ البراهينِ، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجلية أو لقبض أرواحهم.

* الإخبار عن الله تعالى بالإتيان أو المجيء يُمَرُّ كما جاء ونؤمن به، مع تفويض الكيفِ إلى الله

تعالى، وتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين.

* لا ينفعُ الكفار إيمانهم عند ظهور الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان؛ ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به، فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند مجيء الموت.

* عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾[(١)].

* الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة.

* عن العِرباضِ بنِ ساريةَ قال: وَعَظَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ موعظةً وَجِلت منها القلوب، وذرفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسولَ اللَّهِ! كأنها موعظةُ مُودِّعٍ فأوصِنا، قال: «أُوصِيكُمْ بتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْها بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمُورِ فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[(٢)].

* والمعنى: عليكم بطريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين التي ساروا عليها؛ حيث التمسك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير - سورة الأنعام، باب قوله تعالى: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ حديث ٤٣٥٩، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان، حديث ٢٤٨ - (١٥٧).

(٢) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة باب ما جاء في لزوم السنة ٣/ ٢٠٦ حديث ٤٦٠٧، ورواه الترمذي في السنن عنه وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ كتاب العلم - باب ما جاء في الأَخْذِ بالسّنّةِ وَاجْتِنابِ البِدْعِ ٤/ ٤٦٩ حديث ٢٦٧٦، ورواه ابن ماجة في السنن افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/ ٤٤ حديث ٤٢، ورواه ابن حبان في صحيحه ١/ ١٧٩، برقم ٥، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/ ٢٣٨ برقم ٢٧٣٤.

بالكتاب والسنة، والاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

* لا ينقصُ من ثواب الطائع، ولا يزاد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

* عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[(١)].

* بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشافِ ما عليه أهلُ الكفرِ من زيغٍ وانحرافٍ وذمِّ سبلهم، ذكَّرَ بالمنهجِ القويمِ والصراطِ السويِّ، ليكون مسكَ الختام لهذهِ السورة الكريمة.

* أمرٌ للنبي ﷺ أن يُعلنَ عن إخلاصِه لله تعالى في سائر أموره وأحواله وفي جميع أقواله وأعماله، «وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل.

* بالإخلاص تتحولُ العادات إلى عبادات، بل كلُّ قولٍ وكلُّ فعلٍ وكلُّ حركةٍ وكلُّ سكونٍ وكلُّ لحظةٍ في حياةِ المؤمن هي لله تعالى، فحياته كلُّها عبادةٌ.

* بعد قيام الحُجَج وتجلي البراهين: يُعلن المسلمُ براءتَه من الشركِ وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه.

* كما يُعلن الإخلاصَ شعارا له في سائرِ أحواله وأساسا له في عباداته ومعاملاته وحركاته

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: من همَّ بحسنة أو بسيئة حديث ٦١٢٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب ١٣١ - (٢٠٧).

وسكناته وكلِّ لحظةٍ في حياته، وفي جميع شئونه؛ فالإسلام دينٌ ودولةٌ، عبادةٌ وقيادةٌ، حضارةٌ وريادةٌ، وشريعةُ الله تعالى هي الحاكمة في جميع ميادين الحياة، لا كما أطلق العلمانيون في الغرب بعد تحررهم من سلطان الكنيسة وهيمنتها: « دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» بل كل ما في الكون ملك لله تعالى وكل شيء في هذه الحياة: من الله، وإلى الله، ولله وحده لا شريك له، ومثل هذه المقولة وإن حجَّمت من دور الكنيسة وحدَّت من تسلطها: فهي كاذبةٌ خاطئةٌ، لأنهم قسَّموا نفوذ الدنيا بين قيصر وبين الله، فجعلوا الكنيسة لله، وجعلوا البيت والمدرسة والمجتمع والسوق والدولة لقيصر، وهي قسمةٌ جائرةٌ، فضلاً عن كونها خاطئةٌ!! وهنا جاء دينُنا القيِّمُ ليصحِّح المفاهيمَ وينقِّي المجتمعات من أدران الشرك ومظاهره، ويرفع لواء التوحيد الخالص من كلِّ شائبة، ويعلن أنَّ الأمرَ كلَّه لله، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال سبحانه﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* مهمة الإنسان عبادة الله عز وجل والقيام بحق الخلافة في الأرض بتعميرها وإصلاحها وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها وفق منهجِ الله تعالى.

* ومن مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله تعالى فهو تعالى خالق هذا الكون.

* حكمة الله تعالى في التفاوت بين خلقه ورفع بعضهم على بعضٍ درجات وذلك لتبادل المنافع واكتمال منظومة الحياة وتحقق التعاون بين الناس وتبادل الخدمات فيما بينهم كما قال سبحانه في سورة الزخرف ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف: ٣٢]

وقد قيل: الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ　بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ.

* وإذا كان الله تعالى قد بين في أول السورة ملكه للسماوات والأرض فقد أعلن في ختامها

أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هيأه من ملكات وطاقات تعينه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تتمَّ إلا بمنطلق إيماني ومنهجٍ رباني وحول ذلك كانت السورة الكريمة. والحمد لله ربِّ العالمين.

أهم الموضوعات التي عالجتها السورة ومقاصدها.

* استهلت السورةُ ببيان أن المستحق للحمد هو الله تعالى وحده، فهو تعالى المتصف بصفات الكمال والجلال وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم، خلق هذا الكون بما فيه من مخلوقات لا يحصيها عدداً إلا هو وجعل الظلمات والنور الحسية منها والمعنوي لحكم بالغة.

* فاشتملت هذه السورةُ على قواعدِ التوحيدِ والتي جاء في مستهلِّها إفرادُه تعالى بالحمد فلا يتوجَّه الحمدُ إلا له تعالى، قال أبو إسحاق الإسفرائيني: « في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد»[1].

* ومما اشتملت عليه السورةُ الكريمةُ إبطالُ ما كان عليه المشركون من تصورات فاسدة في قضية التحريم والتحليل التي أخضعوها لأهوائهم وتقاليدهم الراكدة، بدون حجةٍ أو برهانٍ، بل مجرَّد الافتراء والتَّقَوُّلِ على الله تعالى بغير علمٍ، وفي السورة الكريمة تفنيدٌ لشبهاتهم وردٌّ على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم العجيبة.

* ومن الموضوعات الرئيسةِ في هذه السورة: بيان أسبابِ صدودِ المشركين وإعراضِهم عن الحق وغفلتِهم عن السننِ.

* ومن الأصولِ التي قررتها السورةُ الكريمةُ: أن الهدايةَ من الله تعالى يوفقُ إليها ويعينُ عليها كلَّ من طلبها بصدقٍ وسلك سبيلها بإخلاصٍ وتجرُّدٍ.

* ومن جملة ما تضمنته السورةُ: بيانُ الحكمة من إرسال الرسل وأن مهمتهم التبليغ عن الله

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ٧/ ١١٤.

تعالى ودعوة الناس إلى الدين الخالص، وأن الله تعالى يؤيدهم بالحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقهم.

* كما تحدثت السورةُ عن نزولِ التوراةِ هدى ونورا، وتفصيلا وبيانا ونزول القرآن الكريم مباركا ومصدقا لما بين يديه وتفصيل كلِّ شيءٍ، فهو الرسالةُ الخاتمةُ المتممةُ والحُجةُ القائمةُ والمعجزةُ الدائمة، وهو الدستورُ الخالدُ، والمنهاجُ الراشدُ، والسبيلُ الواضحُ المتفرِّد، والخطابُ المتجدِّدُ.

* ومن الموضوعاتِ التي وردت في السورة الكريمة الإيمان بالملائكة عليهم السلام والحديث عن بعضِ مهامِّهم وأحوالهم.

* كما اشتملت السورةُ على كثيرٍ من الآيات الإنسانية والكونية التي تشهد لله تعالى بكمال قدرته وجمال صنعه وروعةِ مخلوقاتِهِ وعظمةِ سلطانه.

* وتضمنت السورة الكريمة جملةً من السنن الكونية مثل سنة التمكين وسنة الاستدراج وسنة إهلاك المكذبين وسنة تولي الظالمين « تسلط بعضهم على بعض، وتحالفهم، وتعاقبهم، وسنة الصراع بين الحق والباطل» وغيرها من السنن الربانية التي تُعدُّ أساساً ونبراساً على طريق الدعوة والإصلاح.

* كما اختتمت السورة بالوصايا الخالدة الراشدة، الجامعة لأصول الدين ومعالم الشريعة ومكارم الأخلاق.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الثالث

الأعراف - الرعد

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ. د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ. د. أحمد البدوي	عضواً
أ. د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم اسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

بين يدي سورة الأعراف

تسميتها

تسمى هذه السورة سورة الأعراف، لورود قصة الرجال الذين يكونون على الأعراف يوم القيامة، والأعراف جمع عرف وهو: المكان المرتفع المشرف، أو السور المضروب بين الجنة والنار.

كما تسمى طولى الطوليين، قال السمعاني: «وقد روي أن النبي قرأ في المغرب بطولى الطوليين يعني سورة الأعراف، وإنما سُميت بذلك لأن أطول السور التي نزلت بمكة سورة الأنعام وسورة الأعراف، والأعراف أطولهما».

وروى البخاري بسنده عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: "ما لَكَ تقرأ في المغرب بقصار وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين؟"[1]

وقد بينت رواية النسائي أن المقصود بطولى الطوليين: سورة الأعراف، فروى بسنده عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن زيد بن ثابت أنه قال لمروان: «أبا عبد الملك أتقرأ في المغرب بقل هو الله أحد وإنا أعطيناك الكوثر؟ قال: نعم. قال: فمحلوفة لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين؛ ألمص». [2] وذكر الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز أن هذه السورة تسمى (سورة الميقات) لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله: «ولما جاء موسى لميقاتنا». وأنها تسمى (سورة الميثاق) لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: «ألستُ بربكم قالوا بلى».

---

(١) صحيح البخاري١/ ٢٦٥، رقم الحديث: ٧٣٠.

(٢) سنن النسائي الكبرى ١/ ٣٣٩، رقم الحديث: ١٠٦١.

عدد آياتها

عدد آيات سورة الأعراف مئتان وست آيات في العدد الكوفي والحجازي، ومئتان وخمس آيات عند بقية علماء العدد، وقد وقع اختلاف علماء العدد في خمسة مواضع هي:

﴿ الٓمٓصٓ ﴾[١] عدها الكوفيون.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[٢٩] عدها الكوفيون.

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٢٩] عدها البصريون والشاميون.

﴿ ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [٣٨] عدها الحجازيون.

﴿ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [١٣٧] عدها الحجازيون.[١]

المرحلة التي نزلت فيها

نزلت سورة الأعراف بعد نزول سورة (ص)[٢]

أسباب نزولها

سيأتي ذكر أسباب النزول في مواضعها من الآيات.

المناسبة بينها وبين سورة الأنعام

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها؛ وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها؛ وتواجه الجاهلية

---

(١) انظر: التلخيص في القراءات الثمان، أبو معشر الطبري(عبد الكريم بن عبد الصمد ت٤٧٨هـ) ص٢٦٥، ط١ سنة ١٤١٢هـ =١٩٩٢م، تحقيق: محمد حسن عقيل موسى. [الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – جدة].

(٢) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ت٥٣٨هـ) ٢/ ٨٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

العربيـة في حينهـا - وكل جاهليـة أخرى كذلـك - مواجهة صاحب الحق الـذي يصدع بالحق وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة، أما سورة الأعراف - وهـي تعالج موضوع العقيدة كذلك - فإنها تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر هو مجال التاريخ البشري، ورحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقـت منهـا.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان»«مـن لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسـلام، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجـه بهـا البشرية جيلاً بعـد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسـم سياقُ السـورة في تتابعه: كيف اسـتقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهـدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكبُ أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة..»[(١)].

المناسبة بين مطلع سورة الأعراف وخاتمة سورة الأنعام:

جـاء في ختام سـورة الأنعام الحديـث عن الصراط المسـتقيم الذي يمثـل الدين الخالص والمنهج الصافي الذي لا يُقبل عند الله سواه؛ إنه ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وجاء في أول سـورة الأعراف الأمر باتباع الدين الحق، والتحذير من الشرك واتخاذ الأولياء من دون الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ .. ﴾.

وفي أواخـر سـورة الأنعـام جاء الحديـث عن المعاد والمصـير إلى الله تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾، وفي أول سـورة الأعـراف بيـان لـما يتم في ذلك اليوم من سـؤال للعبـاد، وإنبائهم بما كان منهـم، ووزن لأعمالهـم: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ .. ﴾.

وفي أواخر سـورة الأنعام بيان أن الله سبحانه استخلف الناس في هذه الأرض، وجعلهم

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٤، ط١١ دار الشروق، سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

أمـا تتلاحق ويخلف بعضها بعضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وفي أوائل سـورة الأعراف حديث عن الأرض وخلق آدم وتصويره وإسـكانه - هو وزوجه - الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض للعيش فيها.

المناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها

افتتحت السورة الكريمة ببيان إنزال هذا القرآن إلى الرسول ﷺ، ودعوته إلى الإنذار به وتبليغه وتذكير المؤمنين بـه ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ واختتمت السورة بالدعوة إلى الاستماع لهذا القرآن والإنصات لتلاوته، والأمر بذكر الله، والتحذير من الغفلة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة

المحور الذي تدور حوله سورة الأعراف هو عقيدة التوحيد عبر رحلة البشرية منذ وجودها الأول ومسيرها الطويل، إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة، فقد خلق الله تعالى آدم وزوجه وأسكنهما الجنة، وحذرهما من عدوهما الشيطان، ومن كيده ووسوسته، ثم بين كيف وسوس لهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة، فأُهبطا إلى الأرض، وبدأت رحلة البشرية على الأرض التي خلقت وهيئت لحياة البشر ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ ﴾.

تاب الله سبحانه على آدم وزوجه، وأهبطهما إلى الأرض، وخاطب بني آدم محذراً إياهم من الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، وبيّن لبني آدم أنه سيرسل لهم رسلاً يقصون عليهم آيات الله وينذرونهم، ودعاهم إلى الاستجابة لنداء الإيمان إذا أرادوا أن يعودوا إلى الجنة التي أُخرج أبواهم منها.

ثم ينتقل السياق إلى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، مبتدئاً بقصة

نوح مع قومه، ونصحه لهم، وردهم عليه، ثم بيان عاقبة كفرهم وتكذيبهم، ثم قصة هود وصالح ولوط وشعيب، ثم يعقب السياق على هذه القصص قبل أن ينتقل إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وقومه، ودعوته لهم وتكذيبهم ورفضهم للآيات ونقضهم للعهد والميثاق، ثم عاقبة كفرهم واستكبارهم، بالغرق والهلاك، أما جزاؤهم في الآخرة فأشد وأعظم، وفي المقابل نجاة موسى ومن معه واستخلافهم في الأرض، للابتلاء ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويقف السياق طويلاً مع قصة موسى وهو يُعلِّم قومه ويربيهم ويغرس في نفوسهم عقيدة الإيمان، ويحذرهم من الشرك: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحين يأتي موسى لميقات ربه يخرج بنو إسرائيل عن الطاعة والإيمان، ويعبدون العجل ويعود إليهم موسى مغضباً.. ويعقب السياق على القصة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ويستمر السياق في عرض قصة موسى مع قومه، وما جرى لهم في التيه، وإكرام الله لهم بتظليل الغمام وانبجاس العيون من الحجر وإنزال المن والسلوى، ويبين موقف بني إسرائيل وجحودهم وتبديلهم القول، ويستعرض عند هذا الموقف قصة الذين اعتدوا في السبت وعاقبتهم.

ويأتي إلى ذكر الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل، فيتخذ منه مناسبة للتذكير بميثاق الإيمان وعهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم، وقصة الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها

فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. وهي نموذج واضح لنقض الميثاق والانسلاخ من العهد، واتباع العدو الخبيث الذي ما فتئ يكيد ويخادع ليضل الناس ويغويهم.

ثم تقترب الرحلة من نهايتها فيعرض السياق تساؤل الكفار المنكرين عن الساعة ووقت قيامها، وتفويض أمر ذلك إلى الله سبحانه، وأن النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، ثم يعرض السياق صورةً من جحود الكفار وتبديلهم النعمة كفراً، في مشهد يجدر أن يملأوه شكراً وعرفاناً هو مشهد الحمل والولادة: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وتأتي التعقيبات الختامية لإبطال اتخاذ الشركاء، وبيان أنهم لا يخلقون شيئاً ولا يستطيعون نصراً لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروا أولياءهم، ثم الدعوة إلى التمسك بولاية الله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم بيان ضعف كيد الشيطان، وأنه قاصر على الوسوسة التي يطردها ذكرُ الله، ويزيل آثارها التذكر والانتباه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١].

وفي ختام السورة دعوة للاستماع إلى هذا الكتاب والإنصات إليه، وذكر الله تعالى وحضور القلب معه، وبيان أن المسلم حين يكون في ذكر الله والإنابة إليه يكون في انسجام مع هذا الكون كله، ومع العباد الأطهار من الملائكة الكرام الذين ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

مقاصد سورة الأعراف

أهم المقاصد التي أبرزتها هذه السورة:

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله. وإنذار المشركين سوء عاقبة الشرك في الدنيا

والآخـرة. ووصـف ما حل بالمشركين والذين كذبوا الرسـل من سـوء العـذاب في الدنيا، وما سـيحل بهم في الآخرة. وتذكير الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنسـاني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله. وما نشـأ من عداوة جنس الشـيطان لنوع الإنسـان. وتحذير الناس من التلبس ببقايا مكر الشـيطان من تسـويله لهم حرمان أنفسهم من الطيبات، ومن الوقوع فيما يرديهم في عذاب الآخرة. ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين. والتذكير بالبعث وتقريب دليله. والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسـان. والتذكير ببديع ما أوجده الله لصلاحها وإحيائها. والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإيمان.

وقد أفاضت السـورة في أحوال الرسـل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهـم، وأنـذرت بعـدم الاغترار بإمهـال الله الناس قبـل أن ينزل بهم العـذاب، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطالت القول في قصة موسـى عليه السلام مع فرعون، وفي سـلوك بني إسرائيل مع موسـى عليه السلام. وتخلـل قصته بشـارة الله ببعثة محمـد ﷺ وصفة أمته وفضل دينه. ثـم خلصت إلى موعظة المشركين الذين بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك، وضربت لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصفت حال أهل الضلالة وتكذيبهم بما جاء به الرسـول، ووصفت آلهتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى؛ صفات الكمال.

ثم بينت أمر الله لرسـوله عليه الصلاة والسـلام والمسـلمين بسـعة الصـدر والمداومة على الدعوة وتحذيرهـم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته. [١]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مجلد ٥، جزء ٨، ص ٩، دار سحنون - تونس.

موضوع سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة مكية موضوعها العقيدة كشأن السور المكية، لكن هذه السورة تتحدث عن العقيدة في تاريخها البعيد الضارب في عمق التاريخ إلى مبدأ الوجود البشري وتسير مع هذا التاريخ عبر رسالات الرسل والأنبياء، ودعوتهم أقوامهم، ورد أقوامهم عليهم، مروراً بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وانتهاء بموسى عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه، فالسورة (وهي تعالج موضوع العقيدة تعرض موضوعها في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان «من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد؟ وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة؟

إنها رحلة طويلة طويلة، ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة، في الطريق المرسوم. ملامحه واضحة، ومعالمه قائمة، ومبدؤه معلوم، ونهايته مرسومة.. والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة. ثم تقطعه راجعة إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى)[1].

وحين نستعرض السورة نجد آياتها من مبدئها إلى منتهاها تدور حول هذا الموضوع، وتعالجه، وتشكل كلُّ آية أو مقطع من مقاطع السورة لبنة في بنائه المحكم المتين.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، ط١١، دار الشروق سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

مهمة القرآن ووجوب اتباعه

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١-٩)**

التفسير الإجمالي للآيات

ألمص، حروف مقطعة افتتحت بها هذه السورة، وهي من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ومن الحكم التي تشير إليها: إعلان التحدي للمشركين بأن هذا القرآن المعجز مؤلف من هذه الحروف التي تنطقونها وتؤلفون منها كلامكم، ورغم ذلك فأنتم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله. [1]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينا له عظمة القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكما مفصلا ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ أي ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه ولا تخش لائما ومعارضا ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين وليكون «ذكرى للمؤمنين» يتذكرون به الصراط المستقيم وأعماله الظاهرة والباطنة

(١) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي ١/ ١٥٨٢.

ومـا يحول بين العبد وبين سـلوكه. ثـم خاطب الله العباد ولفتهـم إلى الكتاب فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي الكتـاب الـذي أنزلـه لأجلكم وهـو ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ الـذي يريد أن يُتم تربيتـه لكم فأنـزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملـت تربيتكم وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ تتولونهم وتتبعون أهواءهـم وتتركون لأجلهـا الحـق ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلو تذكرتم وعرفتـم المصلحة لما آثرتم العاجـل عـلى الآجل، والعدو عـلى الولي. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذيـن كذبوا ما جاءتهم به رسلهم كيلا يشابهوهم فقال: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا ﴾ أي عذابنا الشديد ﴿ بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾ أي في حـين غفلتهـم، لم يخطـر الهـلاك عـلى قلوبهم، فحين جاءهـم العذاب لم يدفعـوه عن أنفسـهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهـا، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي ﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا رسلهم ﴿ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ عن تبليغهم رسالاتِ ربهم، وعما أجابتهم به أممهم ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم ﴾أي على الخلق كلهم ما عملوا ﴿ بِعِلۡمٖۖ ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩ ﴾ أي والـوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم. ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الناجون من المكروه المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة، ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ وطاشت بها فيها من سيئات ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ إذ فاتهـم النعيـم المقيم وحصل لهم العـذاب الأليم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ فلم يتبعوها ولم يؤمنوا بها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

دعت هذه الآيات إلى اتباع الكتاب المنزل، وتوحيد الله سبحانه وتعالى، وبينت أن كثيراً من الأمم السابقة جاءهم العذاب وهم غافلون غارّون، بعد أن أنذرهم أنبياؤهم وحذروهم، فلم يسمعوا الإنذار، ولم يستجيبوا لأنبيائهم، ثم بينت الآيات أن عذاب الدنيا الذي أصاب أولئك ليس نهاية المطاف، بل هو مرحلة في الطريق يعقبها الحساب والسؤال عما فعلوا، وسيكون السؤال موجهاً إلى الأمم التي دُعيت، وإلى الأنبياء والرسل الذين حملوا لواء الدعوة، ثم بعد ذلك يفصل الله بينهم، وتوزن الأعمال، ليفوز من ثقلت موازينه، ويخسر من خفَّت موازينه.

ويتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هذا القرآن أنزله الله تعالى إلى رسوله ﷺ لينذر به الناس، وقد جاء هذا الكتاب بمهمة عظيمة هي تغيير أوضاع الجاهلية، وإعادة بناء النفوس والمجتمعات البشرية على الطريقة السوية والنهج الصحيح.

٢ - للقرآن مهمتان لا بد منهما، فالأولى: إنذار الناس وتخويفهم من عذاب الله تعالى وعقابه وهذا موجه إلى جميع الناس وبالأخص إلى الكفار والمعاندين. والثانية: التذكير، وهي موجهة للمؤمنين، والدعوة لا بد أن تسير في اتجاهين متوازيين، فلا بد من دعوة غير المسلمين وإنذارهم وتخويفهم، ولا بد من رعاية من أسلموا وتربيتهم على معاني الإيمان وطاعة الله ورسوله.

٣ - هذا القرآن كما أنزل إلى الرسول لينذر به، فقد أنزل إلى المؤمنين ليعملوا به ويتبعوه، والمؤمن الذي يتبع الوحي والقرآن، ويعمل بما أنزل الله إليه، لا يجوز له أن يتبع شيئاً آخر، فمن

اتبع غير هدى الله فقد كفر، ومن لم يكتف بهدى الله واتبع مع ذلك شيئاً آخر فقد أشرك، وحقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ من دونه أولياء.

٤ - أهلك الله تعالى كثيراً من الأمم السابقة، بأن أنزل عليها عذابه، وأذاقها بأسه، حيث جاءهم العذاب ليلاً فلم يصبح منهم أحد، أو وقت القيلولة حيث هم غارُّون غافلون، فلم يُبق منهم أحداً، وكان موقف هؤلاء المكذبين حين رأوا العذاب يعصف بهم ويأخذهم أن سارعوا إلى الاعتراف بكفرهم وظلمهم، في الوقت الذي لا ينفع فيه ندم ولا اعتراف فقد مضى وقت التوبة، وأُغلق بابُها بمجيء العذاب.

٥ - إن العذاب الذي أصاب الأمم المكذبة في الدنيا ليس كلَّ شيء، بل هناك ما هو أشد وأعظم، إنه العذاب الذي سيواجهونه يوم القيامة، حين يجمع الله الأولين والآخرين يجمع الأنبياء وأممهم ويسأل كلاً عما عمل، فيسأل الأمم ويقررهم بذنوبهم على رؤوس الأشهاد، ويسأل الرسل عن تبليغ الدين. وعندئذ ينبئهم الله جميعاً، فما من عمل صغير ولا كبير إلا هو محصىً ومدون في كتاب، فالله سبحانه شاهد على كل عمل، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء.

٦ - في يوم القيامة توزن أعمال العباد في ميزان الحق والقسطاس المستقيم الذي يزن أدق الأشياء، حتى يأخذ كلٌّ حقه، ويعرف ما له وما عليه، والناس يومئذ صنفان، فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة، فهو المفلح الفائز، ومن خفت موازينه بالكفر والضلال والفجور والسيئات، فقد خسر نفسه وأهلكها، بسبب ظلمه لنفسه وتكذيبه بآيات الله.

خلق آدم عليه الصلاة والسلام وعداوة الشيطان

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ۖ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٠-٢٥)

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني الإنسان منبهاً على نعمه العظيمة التي أنعمها عليهم، ومنها أنه مكن لهم في الأرض فجعلهم قادرين على تسخيرها والاستفادة مما فيها، وجعل لهم فيها من الرزق والخيرات ما يمكنهم من العيش فيها، كما أنه سبحانه خلقهم وصورهم، حيث خلق آدم عليه الصلاة والسلام وصوره ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له اعترافاً بفضله وعلو درجته. فامتثل الملائكة جميعاً أمر ربهم وسجدوا لآدم، إلا إبليس فإنه رفض السجود، وعلل رفضه بأنه خير من آدم، فهو مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار- في رأيه-

أفضل من الطين. وحين عصى إبليس أمر ربه، وتكبر على آدم غضب الله عليه ولعنه وأبعده من رحمته صاغراً ذليلاً، وعندئذ طلب إبليس من الله تعالى أن يؤخره ويبقيه حياً إلى يوم البعث فوعد الله سبحانه أن يؤخره إلى يوم الوقت المعلوم أي اليوم الذي تنتهي فيه الدنيا ويهلك من عليها، فيهلك إبليس مع من يهلك، ثم يبعث مع من يبعث.

ثم توعد إبليسُ أن يُضل بني آدم، وأن يقعد لهم على الصراط محاولاً منعهم من الاستقامة، وإبعادهم عن الهدى والإيمان، وأن يصرفهم – بشتى الوسائل – عن الحق والخير. فتوعده الله سبحانه أن يعذبه في نار جهنم، وأن يملأها منه ومن الذين اتبعوه وأطاعوه.

ثم نادى الله سبحانه عبده آدم يأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأن يتمتعا بما فيها من الطيبات والنعم، لكن الله سبحانه حرم على آدم وزوجِه شجرة من شجر الجنة، أو صنفاً من أصناف الشجر، وحذرهما من الاقتراب من تلك الشجرة أو الأكل منها، مؤكداً لهما أن الأكل منها معصية وظلم، وهنا وجد الشيطان سبيلاً لإغواء آدم وزوجه والكيد لهما، فأخذ يوسوس لهما ويلقي في أنفسهما الخواطر والأفكار حول هذه الشجرة، وما السر في منعهما منها، وما الذي يجري لو أكلا منها؟ وعاش آدم وزوجه في الجنة مدة من الزمان، والشيطان يوسوس لهما ويغريهما بالأكل من الشجرة، مؤكداً لهما أن من أكل منها سيكون ملَكاً من الملائكة، أو سيبقى خالداً أبداً، وأخذ يُقسم لهما بالله تعالى أغلظ الأيمان أنه ناصح لهما، ولا يريد لهما إلا الخير، ووقع آدم وزوجه في خُدعة الشيطان، فتناولا شيئاً من ثمر تلك الجنة، وبمجرد أن ذاقا طعمها انكشفت لهما سوءاتهما، وظهرا عاريين في صورة مُخجلة فعرفا أنهما وقعا في الزلة، وقارفا المعصية. عندئذ سارعا إلى أخذ بعض الورق من أشجار الجنة ليسترا به سوءاتهما. وفي ذلك الوقت ناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟

اعترف آدم وزوجه بالخطأ الذي وقعا فيه، فسارعا إلى إعلان التوبة وإظهار الندم، وطلب المغفرة، فغفر الله لهما ورحم ضعفهما، لكنه أخرجهما من الجنة، وأمرهما بالهبوط إلى الأرض ليعيشا فيها ويعمراها، وأمر الشيطان أن يهبط إلى الأرض ليكون فيها أيضاً. وأخبر أن الناس

مـن ذرية آدم، والجن من ذرية إبليس سـتكون العلاقة بينهم علاقـة عداوة وصراع، فمن أطاع الشيطان وكان من حزبه، صار عدواً لمن ثبت على الحق واتبع الهدى.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة إنزال الكتاب على الرسول ﷺ، وتوجيه الأمر إليه بأن ينذر الناس بهـذا الكتـاب، ودعت المؤمنين إلى اتباع هـذا الكتاب والالتزام بما جاء بـه من الحق، وبينت أن مـن النـاس من يؤمن ويسـتجيب فتثقل موازينه يوم الحسـاب، ومنهم من يكفـر ويعاند ويتبع الشيطان فتخف موازينه ويكون من الخاسرين.

وذكـرت الآيـات هنـا أن الله سـبحانه مكـن للنـاس في الأرض وجعل لهم فيهـا معايش وبينـت كيف أُهبط الإنسـان إلى الأرض، ليعمرهـا ويعيش فيها، بعد ما جـرى لأبويه في الجنة من اسـتجابة لوسوسـة الشـيطان. وبينت أن الناس سيعيشـون في هذه الأرض ويموتون فيها ويخرجون منها، ليعودوا إلى ربهم فيحاسبهم على ما عملوا، ويزن لهم أعمالهم، فمنهم من يفوز وينجو، ومنهم من يخسر ويهلك.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هذه الآيات حلقة هامة في موضوع السـورة، إذ تبين أن الله سـبحانه هيأ الأرض قبل أن يخلق الإنسان، ثم خلق الإنسان وصوَّره، وأسجد له الملائكة، ودحر عدوَّه الذي رفض السجود، وأسكن آدم وزوجه الجنة، ثم أهبطهما منها بعد أن حصل منهما ما حصل من النسيان والزلـة، أهبطهـما إلى الأرض لعمرانها واسـتئناف الحيـاة فيها، ولتكون الحيـاة في هذه الأرض مرحلة لا بد منها في طريق العودة إلى الآخرة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هيأ الله سبحانه الأرض للناس بحيث يتمكنون من العيش فيها، والبناء عليها وحرثها واستصلاحها وزرعها، وسائر وجوه الانتفاع بها، وجعلها مسخرة مذللة لهم، وجعل

فيها ما يعيش به الناس مما يخرج من الأشجار والنبات، وما فيها من الماء والهواء، والمعادن والثروات، وأنواع الصنائع والتجارات.

٢ - خلق الله سبحانه آدمَ ثم صوره، والخلق يعني الإنشاء والإيجاد، والتصوير يعني تشكيل آدم على الصورة التي هو عليها، ثم كانت ذريته على صورته وهيئته، وبعد أن تم خلق آدم وتصويره ونفخ الروح فيه أمر الله سبحانه الملائكة أن يسجدوا له، فسجدوا جميعاً، إلا إبليس فإنه لم يسجد، ولم يستجب لأمر الله سبحانه، وإبليس -وإن كان في زمرة الملائكة- لكنه ليس من الملائكة، فهو مخلوق من النار، والملائكة مخلوقون من النور.

٣ - تكبر إبليس على آدم، ورأى نفسه خيراً منه، ونسي أن السجود لآدم إنما هو امتثال لأمر الله تعالى، ثم فسر هذه الأفضلية بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ والنار- في نظره- أفضل من الطين. وقد تضمن هذا الرد أموراً منها: أن إبليس رفض أمر الله تعالى، وفضل نفسه على آدم، واحتقر آدم وتكبر عليه.

٤ - عاقب الله - سبحانه - إبليس على عصيانه، بأن أخرجه وطرده من رحمته، وكتب عليه الذلة والصغار، جزاء تكبره ورفضه السجود.

٥ - طلب الشيطان من الله سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعثون، أي يوم يبعث الخلق من قبورهم، وهو يريد بذلك أن ينجو من الموت، لأنه لو أُخر إلى يوم البعث لبقي حياً بعد النفخة الأولى واستمر حياً حتى تأتي النفخة الثانية التي يبعث على أثرها الخلق، وقد وعده الله تعالى أن يؤخره، ولكن ليس إلى يوم يبعثون -كما طلب- بل إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم النفخة الأولى حيث يموت مع من يموت من الخلق، ثم يبعث مع من يُبعث.

٦ - أعلن الشيطان عداوته لبني آدم، وتوعَّد أن يصدهم عن الصراط المستقيم، ويمنعهم من سلوكه، وأن يأتيهم من أمامهم ومن خلفهم، وعن اليمين وعن الشمال، بالإغواء والوسوسة، وأن يستخدم جميع الوسائل والأساليب من أجل صرفهم عن سبيل الهدى، وإبعادهم عن طريق الحق والإيمان.

٧ - أمر الله سبحانه آدم أن يتخذ الجنة مسكناً، ومعه زوجه(حواء)، وأذن لهما أن يأكلا من ثمر الجنة حيث شاءا، لكنه حذرهما من شجرة سمّاها لهما، ونهاهما عن الاقتراب منها. ولكن الشيطان وسوس لآدم وزوجه، وزين لهما الأكل من الشجرة، واستمر في وسوسته وتزيينه حتى أوقعهما في الخطيئة، وعندئذ انكشفت منهما العورات، وظهرت السوءات، فشرعا يقطعان الورق ويلصقانه بعوراتهما ليستراها، وبهذا يكون الشيطان أول من دعا إلى التعري وكشف العورات.

٨ - أدرك آدم وزوجه ما وقعا فيه من الزلة والخطيئة، فسارعا إلى الاعتذار والاستغفار، معترفين بما كان منهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهذا فرق أساسي بين الشيطان والإنسان، فالشيطان حين عصى أمر الله تعالى، ورفض السجود، لم يتب ولم يعترف بخطئه، بل عاند واستكبر، أما آدم وزوجه فحين وقعا في الزلة سارعا إلى التوبة والندم.

٩ - غفر الله لآدم وزوجه، وتاب عليهما، لكنه أمرهما بالهبوط إلى الأرض والاستقرار فيها، كما أمر إبليس بالهبوط أيضاً: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ وبذلك تحقق ما قدره الله سبحانه أن تكون الأرض موضع استقرار للناس، يعيشون فيها ويعمرونها، ولهم فيها متاع يتمتعون به في الدنيا من الطعام والشراب والمأوى.. إلى أن يأتيهم أجلهم. ففي الأرض يعيشون، وفيها يموتون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب يوم القيامة، وفي هذا إشارة صريحة إلى أن البقاء في هذه الأرض ما هو إلا مرحلة قصيرة، وأن على المسلم أن لا يركن إلى الدنيا، فإنها فانية زائلة.

١٠ - إن الشيطان الذي أعلن عداوته لآدم وذريته منذ بدء الخلق مستمر في الوسوسة من أجل صرف الناس عن سبيل الهدى، وإيقاعهم في الكفر والضلال، فهو عدوّ مبين لا يُخفي عداوته ولا يكتمها، وعلى المسلم أن يحذر منه، ويلجأ إلى الله سبحانه.

تحذير الناس من فتنة الشيطان

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الأعراف (٢٦-٣٠)

التفسير الإجمالي للآيات

تتوجه الآيات بالخطاب إلى بني آدم حيث يذكرهم الله سبحانه بنعمة اللباس الذي به يسترون عوراتهم، ويحفظون أجسامهم، كما أنه زينة يتزينون به، ويحذرهم الله سبحانه من فتنة الشيطان وإغوائه، مذكراً بأن الشيطان قد أغوى أبويهم وأخرجهما من الجنة بعد أن نزع عنهما لباسهما، وأن الشياطين فتنة للذين لا يؤمنون، وقد استجاب الذين لا يؤمنون للشياطين وفُتنوا بهم حتى صاروا إذا فعلوا فاحشة من الفواحش يقولون: وجدنا عليها آباءنا فنحن نقتدي بهم، ويقولون: إن الله أمرنا بها فنحن نفعل ما أمرنا الله به، وكل ذلك من تلبيس الشيطان وفتنته، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، فكيف يقول هؤلاء على الله ما لا يعلمون، وينسبون إليه ما لا يجوز؟

الله سبحانه أمر بالعدل، ودعا إليه، وأمر بالإيمان به والتوجه إليه، في الصلاة والدعاءوالإخلاص له في كل عمل. فلا بد من يوم تعودون إليه جميعاً، وستكونون فريقين؛ مهتدين وضالين، أما المهتدون فأمرهم ظاهر، وأما الضالون فهم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من آدم وحواء، وأن الشيطان وسوس لهما، وأوقعهما في الزلة، فانكشفت منهما العورات، وأخذا يلصقان عليهما من ورق الجنة، مما يدل على أن ستر العورات قضية فطرية مركوزة في النفوس، وأن ظهور العورات أمرٌ يُستحيا منه، فجاءت هذه الآيات تبين نعمة الله تعالى في إنزال اللباس الذي يستر به الناس عوراتهم، ويتزينون به، مبينة أن هذا اللباس يستر ظاهراً أما اللباس الباطن فهو لباس التقوى، الذي يستشعر به المرء مخافة الله تعالى. ثم حذرت الآيات بني آدم من طاعة الشيطان الذي نزع عن أبويهم لباسهما، وتسبب في إخراجهما من الجنة، وبينت أن الشياطين يتولون الذين لا يؤمنون، ويدعونهم إلى الفواحش والمنكرات، فإذا وقعوا فيها زعموا أنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله أمرهم بها، ولا شك أن هذا الزعم باطل فاسد، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها لعباده.. وهكذا تتصل هذه الآيات بآيات المقطع السابق اتصالاً محكماً وثيقاً.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات بموضوع السورة من حيث إنها تدعو بني آدم إلى عبادة الله وتوحيده والبعد عن طاعة الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، مؤكدة على عداوة الشيطان للناس وحرصه على فتنتهم وإغوائهم، وحرمانهم من العودة إلى الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - إن نعمة الله على عباده باللباس والستر من النعم العظيمة، لما فيها من فوائد ومنافع كثيرة مثل: ستر عورة الإنسان، ووقايته من الحرّ والبرد، وتجمُّله بين الناس بهذه الزينة الظاهرة، وإذا كان الشيطان وأعوانه من المفسدين يدعون إلى كشف العورات ليزينوا للناس المنكرات، ويهوِّنوا عليهم ارتكاب الفواحش، فإن في اللباس والستر ما يحصّن المسلم من مكائد الشيطان وخُدعه.

٢ - نعمة الستر واللباس تستر ظاهر الإنسان، أما باطنه فيحتاج إلى لباس آخر هو لباس التقوى وذلك بأن يكون المسلم في كل أحواله مراقباً لله تعالى، حريصاً على طاعته ومرضاته، بعيداً عن عصيانه ومخالفته.

٣ - يحذر الله سبحانه بني آدم من الاستجابة لفتنة الشيطان وإغوائه، ويذكّرهم بأن الشيطان عدوّهم وعدوّ أبويهم آدم وحواء، فهو الذي أغراهما بالأكل من الشجرة، فتسبب بكشف عوراتهما، وإخراجهما من الجنة.

٤ - للشيطان وسائل وطرق كثيرة في الكيد للناس وإيقاعهم في حبائل مكره، وهو وأعوانه من الشياطين يرون الناس، والناس لا يرونهم، وهذا يجعل كيد الشياطين أشدَّ وأقوى، ويدعو المسلم إلى الحذر من الشياطين، والاعتصام بحبل الله، لينجو منهم.

٥ - لقد أضل الشيطان كثيراً من الناس، وزين لهم الشرك بالله، وعبادة الأصنام، وارتكاب الفواحش والمنكرات، مثل: وأد البنات، وقتل النفس بغير حق، وطواف المشركين بالبيت عراة.. ولم يكتف المشركون بذلك، بل كانوا إذا فعلوا ذنباً قبيحاً اعتذروا عنه بعذرين الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم. والثاني: زعموا أن الله تعالى أمرهم بذلك. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لأن وجود آبائهم على القُبح لا يسوِّغ لهم فعلَه، ولأن الله سبحانه لا يأمر عباده بالفحشاء.

٦ - إن الله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، ومع ذلك فقد تقوّل المشركون على الله بغير علم، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله. والقول بغير علم في أي أمر من الأمور لا يُقبل ولا يسوغ، فكيف إن كان في التقوُّل على الله تعالى؟

٧ - الله سبحانه يأمر بالعدل، ويدعو إلى القسط، وإعطاء الحقوق لأصحابها كما أنه يدعو الناس إلى أن يتوجهوا إليه في صلاتهم وعبادتهم، ويخلصوا في عبادته ودعائه وتوحيده.

٨ - إن يوم القيامة حقيقة مؤكدة لا مرية فيها، وكما بدأ الله الخلق فإنه سيعيدهم، وسيبعثهم

ليجازي كلاً منهم بما عمل، وسيكون الناس في ذلك اليوم فريقين؛ سعداء وأشقياء. فالفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وأطاعوهم في معصية الله ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون.

إباحة الزينة والطيبات وتحريم الفواحش والمنكرات

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأعراف ٣١-٣٤)

التفسير الإجمالي للآيات

أمر الله سبحانه بني آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأذن لهم أن يستمتعوا بما رزقهم من الطيبات من غير إسراف، فالله سبحانه لا يحب المسرفين، كما بين سبحانه أن الزينة والمتاع الحسن والطيبات من الرزق كلها من الأمور المباحة، فقد جعلها الله للناس جميعاً ليتمتعوا ويرتفقوا بها، هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فستكون الطيبات خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكافرون.

ويبين سبحانه المحرمات التي حرَّمها على عباده، وحذَّرهم منها، وهي الفواحش سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، واقتراف الإثم والبغي على الناس وظلمهم، والشرك بالله، والقول على الله بغير علم.

وتذكر الآيات بأن كل أمة لا بد لها من أجل تصير إليه، ونهاية تنتهي إليها، وعندما يأتي

أجل أمة، فلن تتأخر ساعة، ولن تتقدم ساعة، فالأجل المحتوم منضبط بوقت محدد لا يزيد ولا ينقص، وعلى كل إنسان أن يستعد لذلك الأجل.

أسباب النزول

عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.[١]

التطواف: ثوب تلبسه المرأة تطوف به، وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبداً، ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللَّقَا، حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة، فقال تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، وقال النبي ﷺ: «لا يطوف بالبيت عريان».[٢]

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها وهو قول الله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾[٣] يعني شارك المسلمون الكفارَ في الطيبات في الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء.[٤]

---

(١) صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤/ ٢٣٢٠، رقم ٣٠٢٨.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٨/ ١٦٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري ١٢/ ٣٩٨.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨، رقم ٨٤٢٧.

مناسبة الآيات لما قبلها

حذّرت الآيات السابقة من طاعة الشياطين واتخاذهم أولياء من دون الله، ودعت إلى الإيمان وإخلاص الدين لله وحده، وبينت هذه الآيات أن المشركين كانوا يحرمون ما أحل الله من الطيبات والزينة، ويحلون ما حرم الله من الفواحش والبغي والشرك، وهم بهذا يطيعون الشياطين ويتبعونهم، ثم بينت الآيات أن هذه الطيبات مباحة في الدنيا لجميع الناس، لكنها ستكون في الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، ولم يؤمنوا بالله سبحانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، فهؤلاء المشركون يشكلون حلقة من سلسلة البشر التائهين الذين غرّر بهم الشيطان، فبدلاً من الإيمان والهدى تحولوا إلى أَتباع للشياطين ينقادون لهم في تحريم الحلال واستحلال الحرام، والشرك بالله، والبغي على الناس، والقول على الله بغير علم.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - أمر الله سبحانه بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف، وفي قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة، بل سترُها عن الناس واجب في كل حال من الأحوال.

٢ - أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، وأحل لهم الطيبات، ونهاهم عن الإسراف، فلا زُهد في ترك الطعام والشراب. وعلى المرء أن يأخذ منه ما يكفيه ويعينه على القيام بما عليه من عمل، فلا يقلل منه على وجه يَضعُف به بَدَنُه عن القيام بواجباته من طاعة أو عمل وطلب للرزق، ولا يسرف في إنفاقه، كأن يأكل لغير حاجة، وفي وقت شبع.

٣ - لا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخلٌ في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي. وكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فإنه لا مانع من تناول الطيب منها. فهذه الطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة لكنها ستكون خالصة يوم القيامة للمؤمنين، مختصة بهم لا يشاركهم فيها الكفار.

٤ - إن الله سبحانه لم يحرم الزينة على عباده، ولم يحرم عليهم الطيبات من الرزق، ولكنه حرّم الفواحش بجميع أنواعها، سواء أكانت ظاهرة مُعلنة، أو باطنة خفية، كما حرّم المعاصي والآثام، وحرم البغي والظلم، كما حرم الشرك، ولكن المشركين يفعلون ما حرّم الله ويتركون ما طلب الله منهم فعله والقيام به.

٥ - لكل أمة من الأمم أجل مسمى، تنتهي إليه، ومدة محدودة معلومة، والله سبحانه هو الذي قدر هذه الآجال، بحسب علمه الواسع المحيط، ولا بد أن تسير كل أمة إلى أجلها المحتوم وإذا جاء أجل أمة من الأمم كان ما قدره الله عليهم واقعاً في ذلك الأجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة.

٦ - ويؤخذ من هذا أن كل ميت يموت بأجله، وإن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك ولا تعارض، فهو قد مات بأجله، وإن كان بسبب حادثة عرضت له من قتلٍ أو نحوه فيكون السبب قد وافق القدر الذي جرى في علم الله سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغيَرُ من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، فلذلك مدح نفسه»[١].

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩٩، رقم ٤٣٦١، باب: إنما حرم ربي الفواحش.

إرسال الرسل وعاقبة المكذبين

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ **سورة الأعراف (٣٥-٤١)**

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني آدم مبيناً لهم أنه سيرسل إليهم رسلاً منهم يدعونهم إلى الإيمان ويبينون لهم طريق الهدى، ويحذرونهم من الكفر والضلال، فمن اتبعهم وآمن وأصلح فسيكون من أهل الجنة، ومن كذب الرسل واستكبر عن الإيمان فسيكون من أصحاب النار.

وأشد الناس ظلما من يفتري على الله الكذب، أو يكذب بآياته، وهؤلاء سيكون موقفهم عصيباً يوم يأتي الملائكة ليقبضوا أرواحهم، فيسألونهم استنكاراً وتقريعاً: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ هل أغنوا عنكم شيئاً؟ فيقولون: غابوا عنا، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. عندئذ يقال لهم: ادخلوا النار مع الأمم الكافرة من الجن والإنس، ويكون المشهد الرهيب المخيف، مشهد الأمم الكافرة تُلقى في النار تباعاً، كلما دخلت أمة لعنت أختها فإذا استقروا فيها جميعاً دعا الأتباع المستضعفون ربّهم أن يضاعف العذاب لسادتهم المتبوعين لأنهم سنُّوا لهم طريق الغي والضلال، ورد المتبوعون على الأتباع: ليس لكم علينا من فضل

بل نحن وإياكم في الكفر سواء، فذوقوا من العذاب ما ذقنا. ثم تبين الآيات أن هؤلاء المكذبين المستكبرين يذوقون العذاب، فعند موتهم وقبض أرواحهم لا تفتح لهم أبواب السماء، ويوم القيامة تُحرم عليهم الجنة، فلا يمكن بحال أن يدخلوها حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا يعني استحالة دخولهم الجنة، وهم يستحقون هذا الحرمان لإجرامهم وظلمهم، وسيمكثون في النار، منها فراشهم وغطاؤهم، وفيها بؤسهم وشقاؤهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الله سبحانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله والافتراء عليه، وهذه الآيات تبين جزاء الذين أشركوا بالله وافتروا الكذب وأجرموا، فاستحقوا أن يُلقَوا في النار خالدين فيها. كما تبين الآيات أن أهل النار يتلاعنون فيها، وكلٌّ يُنحي باللائمة على غيره، لكن ذلك لن يعفيهم من العذاب، ولن يُخففه عنهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء الكفار من سائر الأمم يُلقون في النار، بما أشركوا وظلموا وافتروا على الله سبحانه، وكلما دخلت أمة منهم النار لعنت أُختها فهذه الأمم حلقات متتالية في سلسلة الضلال عبر تاريخ البشرية.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - من رحمة الله سبحانه أنه لم يترك البشر بلا هداية، بل أرسل إليهم رسلاً منهم يعلمونهم ويرشدونهم، ويبينون لهم، فمن اتقى المعاصي وابتعد عنها، وأصلح نفسه باتباع الرسل وإجابتهم كان من الناجين الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن كذب بالآيات، ورفض الإيمان بها، واستكبر عنها كان من أصحاب النار، جزاءً على كفره وتكذيبه.

٢ - لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآيات الله وجحدها، وكل من افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته سيناله نصيبه مما كتب الله له من خير وشر، أو سيناله من العذاب بقدر كفره وافترائه.

٣ - حين تأتي ساعة الموت فإن الملائكة الموكلين بقبض أرواح هؤلاء المكذبين يسألونهم موبخين زاجرين: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فيقولون: ضلوا عنا. أي ذهبوا عنا وغابوا، فلا ندري أين هم؟ وعندئذ يُقرّون على أنفسهم بالكفر، ويعرفون مقدار ما كانوا فيه من ضلال وخُسران.

٤ - يوم البعث الذي يكذب به المشركون حقيقة واقعة مؤكدة، حيث سيُحشر الإنس والجن، ويأمر الله سبحانه أُممَ الكفر أن تدخل النار، جزاءً على كفرها وضلالها، وكلما دخلت أمة من الأمم الماضية لعنت الأمةَ التي سبقتها إلى النار، فإذا تداركوا وتتابعوا واجتمعوا في النار قالت أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً، أو قال المستضعفون لرؤسائهم وكبرائهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار، وخُصَّهم بمزيد من العذاب لقاء إضلالهم إيانا. فيردُّ عليهم بأن لكل طائفة منكم ضعفاً من العذاب، فللطائفة الأولى ضعف وللطائفة الأخرى ضعف، إذ لا يُعفى من تبعات الضلال والكفر أحد منكم.

٥ - حين يسمع الأولون أو الكبراء ما قاله الآخرون أو المستضعفون، يردون عليهم قائلين: فما كان لكم علينا من فضل، بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه. وهكذا ينال المكذبون جزاءهم، ويذوقون العذاب الشديد، بسبب كفرهم وظلمهم.

٦ - توعَّد الله سبحانه المكذبين المستكبرين أن لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ولا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا، ولا لأعمالهم، لأنها لا تُقبل بل تُرد عليهم ويضرب بها في وجوههم، كما توعَّدهم بالحرمان من دخول الجنة، وسيكون مصيرهم النار، تغشاهم من كل جانب، ويأتيهم هولها وعذابها من فوقهم ومن تحتهم.

بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأعراف ٤٢-٤٥)

التفسير الإجمالي للآيات

يَعِدُ الله سبحانه المؤمنين الذين عملوا الصالحات، أن يكونوا أصحاب الجنة وأهلَها، ينالون فيها الخلود، بعد أن تطهر صدورهم من الغل والشحناء، ويُمتعون بالأنهار تجري من تحتهم، فيحمدون الله على هذا النعيم الذي هداهم إليه، ويأتيهم النداء: أنكم أورثتم الجنة بأعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا.

ويبدأ الحوار بين الفريقين؛ أصحاب الجنة وأصحاب النار، بعد أن يستقرَّ كل فريق في موقعه، فينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار قائلين لهم: لقد صدقنا الله وعده، وأعطانا النعيم والخلود في الجنة كما وعدَنا فهل تحقق لكم ما توعدكم الله به من العذاب؟ فيقولون: نعم، وعندئذ ينادي منادٍ: أن لعنة الله على الظالمين، الذين كانوا في الدنيا يصدون عن سبيل الله، وينحرفون ويحرفون الناس عن طريق الحق، ويكفرون بالآخرة، فهاهم في النار يذوقون العذاب، ويغشاهم الهوان.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة مصير أهل النار وعذابهم وتلاعنهم فيها، وما يحمله كل منهم للآخرين من غل وحقد وغيظ، وبينت الآيات هنا جزاء أهل الجنة، وأنهم يتنعمون فيها، وقد

سلمت قلوبهم من الغل، وصفت عن البغضاء، وتوجهوا إلى ربهم بالحمد على أنه هداهم ووفقهم لدخول الجنة. ثم استكملت الآيات الصورة بعرض مشهد الحوار بين أصحاب الجنة الذين قرَّت عيونهم بنعمة الله، وأصحاب النار الذين اعترفوا بذنوبهم بعد أن ضيعوا فرصتهم فاستحقوا اللعنة والعذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، وها قد عاد المؤمنون المتقون إلى الجنة يُمتعون فيها، ورجع المشركون إلى النار، يرونها عياناً، ويقاسون حَرّها وعذابها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - وعد الله - سبحانه - المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن يدخلوا الجنة خالدين فيها، وسيكونون فيها بأحسن حال، وأطيب عيش، حين ينزع الله سبحانه من صدورهم الغلَّ فتصفو قلوبهم، ويتوادون ويتحابّون، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن على المسلم أن يكون سليم الصدر، بعيداً عن الغلّ والحقد، ليكون أقرب إلى الله تعالى، وأعظم أجراً عنده.

٢ - حين يدخل أهل الجنة منازلهم فيها، يحمدون ربهم قائلين: الحمد لله الذي هدانا لهذا الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من الصدور، والهداية لهذا كانت بالهداية للإيمان والعمل الصالح في الدنيا. ثم يتحدثون بفضل الله عليهم، وبما وجدوا من تصديق ما جاءتهم به الرسل، وعندئذ ينادَون: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. وفي هذا تنويه بأهمية العمل الصالح، وحثٌّ عليه.

٣ - أخرج البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة

ورحمة»(١) ولا تعارُض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن العمل الصالح لا بُد منه لدخول الجنة، ولأن رحمة الله لا تكون إلا للمتقين الذين يعملون الصالحات.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «ينادي منادٍ إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز و جل: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]».(٢)

أصحاب الأعراف

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأعراف ٤٦-٥٣)

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٣، رقم ٦١٠٢.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٧.

التفسير الإجمالي للآيات

تعرض الآيات مشهداً من مشاهد يوم الحشر، حيث يُجمع الأولون والآخرون، ويحاسبون على أعمالهم، فيُعرفُ الذين سيكونون من أهل الجنة بعلاماتهم، ويُعرف الذين سيدخلون النار بعلاماتهم، وهناك فريق ثالث، شرَّفهم الله سبحانه بأن جعلهم على الأعراف، والأعرافُ منازل شريفة عالية، وأصحابها هم أرفع الناس درجةً، وأعلاهم رتبة، وأرجح الأقوال فيهم أنهم الرسل والأنبياء،[1] فهم يشرفون من منازلهم العالية على أهل الموقف، ويعرفون من سيصيرون إلى الجنة بعلاماتهم، ويعرفون من سيذهبون إلى النار بعلاماتهم، فينادوا أصحاب الجنة مسلمين عليهم، ثم تُصرف أبصارهم نحو أصحاب النار، فيدعون ربهم أن لا يجعلهم منهم، ويخاطبون رجالاً من أهل النار على جهة التوبيخ والتقريع قائلين لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، فقد كنتم في الدنيا تسخرون من المؤمنين، وتُقسمون أنهم لن ينالوا خيراً، ولن تشملهم رحمة الله، وها هم الآن سيقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أما أنتم فستُدخلون النار بعد قليل.

وينتهي الحساب ويدخل أهل الجنة الجنةَ متنعمين بما فيها من رزق وخير، ويدخل أهل النار النارَ فيقاسون حرَّها وهولَها، ويشتد عليهم الكرب، فينادون أهل الجنة مستغيثين: أعطونا شيئاً من الماء أو من الرزق الذي رزقكم الله إياه، فيرد عليهم أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين بسبب كفرهم وجحودهم ونسيانهم لقاء يومهم هذا. ولأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، واغترّوا بالدنيا ومتاعها، فركنوا إليها، واطمأنوا بها.

وتعود الآيات مجدداً إلى بيان أن الله سبحانه أنزل كتاباً فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن أهل النار كذبوا به ونسوه، فلما رأوا تحقُّقَ ما وعد به يوم القيامة اعترفوا بأنه

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠١، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي ٦/ ١٧٧.

حق، وأخذوا يبحثون عن الشفعاء ليشفعوا لهم، ويتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، وهيهات، فقد خسروا أنفسهم، وأضاعوا فرصتهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الطيبات من الرزق حلال ومباحة في هذه الدنيا للمسلمين والكفار، لكنها ستكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشاركهم فيها أحد من الكفار وبينت الآيات هنا أن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو الرزق، فيرد عليهم أهل الجنة أن الله حرم ذلك على الكفار.

وذكرت الآيات السابقة جزاء كل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وجاءت هذه الآيات تعرض حال كل من الفريقين في ساحة الحشر، وأن لهم علامات يُعرفون بها، وموقف أصحاب الأعراف وهم يخاطبون كل فريق بما يناسب مقامه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض الآيات هنا مشهداً حياً لا يوجد مثله في سائر القرآن الكريم، هو مشهد الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية، وحوار أصحاب الأعراف مع أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية أخرى، لتقرر في نهاية المطاف أن الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لدخول الجنة، وأن الكفر والعصيان هو السبيل إلى النار، وهذا المشهد يتفق مع موضوع السورة وسياقها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - يُحشر الناس يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم، ويمتاز أصحاب النار بعلامات، وأصحاب الجنة بعلامات، ويُفصل بين الفريقين بحجاب، وهو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[الحديد:١٣] ويكون على الأعراف رجال، الأعراف: جمع عرف وهي شرفات السور المضروب بينهم، والأعراف في اللغة: الأماكن المرتفعة، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧].

٢ - اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم فقيل: هم الشهداء، وقيل: هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، وقيل: هم أولاد الزنا، وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. والراجح من هذه الأقوال- والله أعلم- **أنهم الأنبياء**، لأن الأعراف منزلة عالية رفيعة، وليس لأحد أن يكون أرفع درجة من الأنبياء يوم القيامة، وهذا في الحشر قبل أن يصرف الناس إلى الجنة أو إلى النار. (١)

٣ - لكل من أهل النار وأهل الجنة علامات يُعرفون بها، وذلك قبل الانصراف إلى الجنة أو النار، فمن علامات أهل الجنة بياض الوجوه، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، ومن علامات أهل النار سواد الوجوه وما يعلوها من غبرة وعبوس. (٢) والذي يبدو من سياق الآيات أن المقصود علامات أُخَر لا يعرفها عامة الناس، بل يعرفها أصحاب الأعراف دون غيرهم.

٤ - الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ عائد على أصحاب الأعراف وأصحاب الجنة، إذ يقولون لهم ذلك وقد عرفوهم بسيماهم قبل أن يؤذن لهم بدخول الجنة، أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، ولم يدخلها المخاطبون، والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل: هم أهل الجنة أي أن أهل الأعراف قالوا لهم: سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل هم أصحاب الأعراف، والصحيح الأول. (٣)

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٢/ ٤٨٤، وتفسير اللباب لابن عادل ٧/ ٣٥٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٢/ ٤٨٩.

(٢) انظر: زاد المسير ٢/ ٤٨٤، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني ٣/ ٤٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠٤-١٠٥، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٥/ ٣٥٢، ولم أجد من المفسرين من جعل الضمير عائداً على الفريقين، مع أنه لا مانع منه.

٥ - لم يأت مصدر على تِفعال بكسر أوله غير مصدرين أحدهما **تِلقاء** والآخر **تِبيان**، وما عداهما بالفتح.

٦ - إن على الذين يعتزون بمالهم وجاههم وكثرة أتباعهم أن يعلموا أن هذا كله لن يغني عنهم من الله شيئاً، ولن يدفع عنهم العذاب.

٧ - كان الكفار في الدنيا إذا رأوا ضعفاء المسلمين يُقسمون أنهم لن يكسبوا خيراً، ولن تنالهم رحمة الله، وكانوا يستهزءون بهم، وفي يوم القيامة يتغير الحال، ويُقال لهؤلاء الكفار على وجه التبكيت والتحسير لهم: أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ ها هم ينتظرون أن يُقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

٨ - إذا انصرف أهل الجنة إلى الجنة، وأدخلوها وتبوءوا منازلها، وصُرف أهل النار إلى النار، وذاقوا من عذابها، أخذوا ينادون أهل الجنة مستغيثين ضارعين: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾. فيردون عليهم قائلين: إن الله حرم الماء والرزق على الكافرين، فلا نواسيكم بشيء مما حرمه الله عليكم. لأنكم ما كنتم تقيمون للدين وزناً، ولا تعرفون له قدراً، بل اتخذتموه لهواً ولعباً، وركنتم إلى الحياة الدنيا واغتررتم بشهواتها ومتعها الفانية الزائلة.

٩ - لقد أنزل الله الكتاب بالحق، وفصَّله عالماً به حال كونه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للمؤمنين، واشتمل هذا الكتاب على البيان الشافي، ولكن الكفار كذَّبوا به وأنكروه، فهل ينتظرون - بعدم إيمانهم به - إلا ما يؤول إليه أمره من تبيُّن صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد؟ ويوم يأتي تأويله هو يوم القيامة، حيث يُفضي كلٌّ إلى ما قدم من عمل، ولا ينفع المكذبين أن يعترفوا، ولا يكون لهم شافع، ولا يجابون إلى ما طلبوا.

من مظاهر قدرة الله تعالى

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (٥٤-٥٨)

التفسير الإجمالي للآيات

يوجه القرآن أنظار العباد وعقولهم إلى بعض مظاهر قدرة الله سبحانه في هذا الكون، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وهو الذي يجعل الليل يغطي بظلمته النهار، وسخر الشمس والقمر والنجوم، فالشمس للدفء والضياء، والقمر للإنارة، وكلاهما لمعرفة عدد السنين والحساب، ومعرفة المواقيت، والنجوم زينة للسماء وحراسة لها، وبها يهتدي الناس في ظلمات البر والبحر.

إن الذي سخر لنا هذه المخلوقات العظيمة هو الله الذي له الخلق والأمر، فعلينا أن نتوجه إليه بإخلاص الدعاء والضراعة الدالة على شدة الخوف من عذابه، وغلبة الرجاء والطمع في رحمته.

عن الحسن قال: «لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، وذلك أن الله ذكر

عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾.[١]

وهو سبحانه يدعونا إلى الإخلاص والإصلاح، كما يدعونا إلى البعد عن الفساد والتخريب، فمن التزم بأمر الله تعالى كان من المحسنين، واستحق أن تصيبَهُ رحمة الله.

ورحمة الله عامة تشمل كثيراً من المعاني، ويدخل فيها العفو والمغفرة والتوفيق والإنعام كما يدخل فيها إغاثة الناس بالمطر، وإرسال الرياح لتحمل السحاب المثقل بالمطر، وتسوقه إلى البلاد المجدبة الميتة، وإنزاله فيها غيثاً تحيا به الأرض، ويستبشر به الناس، لما فيه من الخصب والبركة والخير، ومع هذا المشهد الرائع المثير، مشهد إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج نباتها وأحيائها، يُذكّرنا القرآن بإخراج الموتى من قبورهم يوم البعث، وأن ذلك هين على الله سبحانه، كإحياء الأرض بعد موتها.

وكما أن هناك أرضاً تحيا بالماء، وتنبت من كل زوج بهيج، ويخرج نباتها طيباً مباركاً، لأن تربتها طيبة، فهناك أيضاً أرض خبيثة مالحة، لا تنبت إلا الشوك والنبات المُرَّ الذي لا خير فيه، وفي هذا إشارة إلى أن القلوب التي تَقبل ذكر الله تعالى وهديَه ورحمته تَنبُت فيها الحكمة، وتُشرق بأنوار العلم والهدى، أما القلوب الخبيثة النكدة فلا يزيدها ذكرُ الله وهديه إلا بعداً عن الحق، وإغراقاً في الضلال.

مناسبة الآيات لما قبلها

عرضت الآيات السابقة بعض المشاهد مما يكون في يوم القيامة، من حوار بين أهل الجنة وأهل النار، ومخاطبة أصحاب الأعراف لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبينت الأسباب التي قادت الكفار إلى هذا المصير الفاجع الأليم، وأنهم لو كانوا يعقلون ويفقهون لما خسروا أنفسهم، وجاءت الآيات هنا تعرض عدداً من مشاهد قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض وتغشية الليل النهار.. وإرسال الرياح التي تحمل الغيث للبلاد والعباد.. عسى أن

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٩.

تكون هذه الشواهد سبيلاً للاعتبار والتفكر، ودليلاً يقود إلى الإيمان.

وبينت الآيات السابقة أن الناس صنفان؛ صالحون محسنون، قبلوا الهدى واتبعوه فهم أهل الجنة، وفاسدون مجرمون، رفضوا الهدى وأعرضوا عنه، فهم أهل النار، وبينت الآيات هنا أن البلاد صنفان؛ بلاد طيبة تقبل الماء فتنبت النبات الطيب النافع، وبلاد خبيثة يخرج نباتها نكداً عسراً رديء الثمر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذا المقطع من السورة يعرض بعض المشاهد التي تدل على عظمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهو الذي يغشي الليل النهار، ويسخر الشمس والقمر والنجوم، وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، ويسوق السحاب الثقال إلى البلد الميت فينزل به الماء ويخرج به من كل الثمرات، وفي ذلك إشارة إلى إخراج الموتى من قبورهم، وبعثهم بعد الموت للعرض والحساب. إن عرض هذه المشاهد والدلائل يشكل دعوة صريحة لكل غافل أن يتفكر ويتدبر، لعله يهتدي ويتذكر فيعود إلى ربه، ويتوب من ذنبه.

والشيطان الذي أعلن عداوته من بداية الأمر يحرص أن يُبقي الإنسان في غفلة عن ربه، وأن يغره ويمنيه ويسول له، وكثيراً ما يستجيب الناس لأماني الشيطان، وينسون اليوم الآخر وتأخذهم الدنيا بشهواتها ومُتعها، فتأتي هذه الآيات مذكرة للإنسان بقدرة الله وعظمته وبأهمية العودة إليه والإقبال عليه قبل أن يطول الأمد ويضيع الوقت.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - إن الله سبحانه قادر على خلق السموات والأرض في لحظة واحدة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكم كثيرة منها أنه أراد أن يُعلم عباده الرفق والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً، فهو سبحانه قادر على أن يخلق المولود في لحظة واحدة، لكنه قضى أن يمر هذا المولود بأطوار النشأة والحمل، ويتدرج حتى يخرج إلى الحياة بشراً سوياً

وذلك أدلّ على القدرة.

٢ - الاستواء على العرش استواء يليق بجلال الله وعظمته، مع تنزُّهه عن مشابهة المخلوقات، لأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. والاستواء في لغة العرب يأتي بمعنى العلو والاستقرار. قال الجوهري:[١] استوى على ظهر دابته أي استقر، واستوى إلى السماء أي صعد، كما يأتي بمعنى الاستيلاء والظهور، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل: انتهى شبابه، واستوى: انتسق واعتدل. وحُكِي عن أبي عبيدة أن معنى استوى هنا: علا. ومثله قول الشاعر:

فأورَدَهم ماء ثقيفاً بقفرة ... وقد حلق النجم اليماني فاستوى

أي علا وارتفع. والعرش: يطلق على معان منها سرير الملك، وسقف البيت، ويطلق على الملك والسلطان والعز، ومنه قول زهير:

تداركتما عبسا وقد ثُلَّ عرشُها ... وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقول الآخر:

رأوا عرشي تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٤٤، وأقاويل الثقات للكرمي ١/ ١٢٦-١٢٧.

بينهما وما عليهما وهو المراد هنا. (١)

٣ - من عجائب قدرة الله سبحانه أنه يغشي الليل النهار، أي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه، ويستمر الليل والنهار في تتابع وحركة دائبة، وأنه سبحانه سخَّر الشمس والقمر والنجوم، لينتفع الناس ويرتفقوا بذلك.

٤ - لله سبحانه الخلق والأمر، فهو الذي يخلق ما يشاء، ويأمر بما يريد، ويتصرف بمخلوقاته كما يشاء.

٥ - أمر الله سبحانه عباده بالدعاء، وأن يكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، والتضرع من الضراعة: وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار بالدعاء حتى يكون الدعاء خالصاً لله سبحانه، ليس فيه رياء.

٦ - من آداب الدعاء أن لا يعتدي الداعي في دعائه، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. فالمسلم يدعو ربه خاضعاً له متضرعاً متذللاً، ويستخفي بدعائه ليكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء، ولا يعتدي في دعائه ولا يدعو بالإثم أو قطع الرحم، ويجمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة، ويُلح في الدعاء والرجاء، ولا يستعجل الإجابة، وعلى الداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجِلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه. ويلتزم جميع شروط الدعاء وآدابه، فالدعاء عبادة عظيمة، يحبها الله ويثيب عليها، ويستجيب لمن يدعونه.

٧ - نهى الله سبحانه عن الفساد في الأرض بجميع أشكاله وألوانه، ومن الفساد قتل الناس

---

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي ١/ ٣١٣، ومفاتيح الغيب، للرازي ١١/ ٤١٢، وشرح العقيدة الطحاوية للراجحي ١/ ١٩٩.

وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم، ومنه أيضاً الكفر بالله والوقوع في معاصيه، فمن ابتعد عن الفساد، وأقبل على عبادة الله وطاعته فهو من المحسنين الذين تنالهم رحمة الله.

٨ - مظاهر قدرة الله تعالى كثيرة يلاحظها الإنسان أينما توجه، فهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته، تسوق السحاب المثقل بالمطر، وتحمله إلى البلاد الميتة المجدبة، ثم ينزل الغيث بإذن الله سبحانه بالبلد الميت، وما هي إلا أيام قليلة حتى نرى الأرض وقد أنبتت الزرع والكلأ والثمرات.

٩ - إن إخراج الموتى من قبورهم بقدرة الله تعالى ليس بالأمر المستغرب، فكما يُحيي الله الأرض بعد موتها، ويملأ فجاجها خصباً وحياة، فإنه قادر على إخراج الموتى من قبورهم، وإعادة الأرواح والحياة إلى أجسادهم.

١٠ - التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره خروجاً حسناً تاماً وافياً، أما التربة الخبيثة فإن نباتها لا يخرج إلا نكداً عسراً لا خير فيه. وهذا مثل للقلوب، فالقلب القابل للوعظ كالبلد الطيب، والمعرض عنه كالبلد الخبيث، أو هو مثل لقلب المؤمن والمنافق، أو هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، وكل ذلك تحتمله الآية.

قوم نوح عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة الأعراف (٥٩-٦٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة إن أصروا على ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام، فرد عليه الملأ من الكبراء والأشراف والزعماء متهمين إياه بالضلال المبين الظاهر، لكنه رد هذه التهمة عن نفسه مبيناً أنه رسول من الله إليهم، وعليه أن يبلغهم رسالات ربه، وينصح لهم ويدلهم على الخير، فهم قومه، وهو منهم، والرائد لا يَكذبُ أهلَهُ. كما بين لهم أن الله تعالى علَّمه من علم الوحي والغيب ما لا يعلمون. لكن القوم رفضوا دعوته، منكرين أن ينزل الله الذكر على رجل منهم، وبشر مثلهم، فرد عليهم نوح أن هذا ليس بعجيب من أمر الله سبحانه، فالله سبحانه أنزل هذه الرسالة على بشر مثلهم، وأمره أن ينذرهم ويبلغهم، فلعلهم يتقون فتصيبهم رحمة الله، ويكون لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار.

لكن هؤلاء القوم كذبوا نبيَّهم، ورفضوا دعوته، وأصرُّوا على شركهم وضلالهم، واستمرَّ نوح يدعوهم ويُذَكِّرُهم مدة متطاولة، كما تَبيَّنَ في سور أخر، وفي نهاية المطاف أمر الله نوحاً أن يصنع الفُلْك أي السفينة العظيمة، وأن يدعو المؤمنين إلى ركوبها، فلما ركبوها نجاه الله وإياهم، وأنزل عذابه على أولئك القوم، حيث فُتحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجَّرت الأرض عيوناً تفور بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض، وصار طوفاناً أغرق الكفار وأهلكهم، وهكذا

كانت العاقبة بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين.

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا قَصص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة.

وقد بينت الآيات السابقة أن الماء قد يكون سبباً في إحياء الأرض بعد موتها، وفي هذه الآيات بيان أن الماء من جنود الله التي يمكن أن تهلك الكفار والمجرمين، كما حصل لقوم نوح بعد أن كذبوا نبيهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشكل هذه الآيات حلقة أساسية من موضوع السورة، حيث تقص علينا - بإيجاز - قصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد دعاهم إلى الإسلام، وحذرهم من العصيان، لكنهم أصروا على الكفر وطاعة الشيطان وعبادة الأصنام، واتهموا نبيهم بالضلال، وتمادوا في ذلك على مدى عشرة قرون تقريباً، فحق عليهم العذاب، ونزل بهم الهلاك، وباءوا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة. أما المؤمنون فقد نجاهم الله سبحانه في الفُلْك، وجعل لهم العاقبة.

لقد كان قوم نوح عليه الصلاة والسلام نموذجاً راسخاً للعناد والتكذيب، ومثلاً واضحاً لاستحواذ الشيطان على غالبية البشر، وكانت هذه القصة على - قصرها وإيجازها- حلقة كبيرة في سلسلة البشرية عبر تاريخها الطويل الحافل بتكذيب الأمم للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - كان نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، جاء يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه وترك عبادة الأصنام التي انتشرت بينهم، فقال يا قوم اعبدوا الله ما

لكم من إله غيره، فهو الإله الواحد المستحق للعبادة، ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، [1] يدعو إلى الله على بصيرة، ولا يترك وسيلة ولا طريقة من طرق الدعوة إلا اتبعها مع قومه، فحذرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، ودعاهم سراً وعلانية، لكن الملأ من قومه وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، ردوا عليه باتهامه بالضلال والعدول عن طريق الحق والذهاب عن الصواب.

٢ - صبر نوح عليه الصلاة والسلام على إيذاء قومه له، صبراً جميلاً، وبين لهم أنه رسول من رب العالمين، جاء يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ويبلغهم رسالات الله التي أرسله بها إليهم من الهدى والعلم، وينصح لهم. وهكذا شأن الدعاة أن يلتزموا بالأخلاق العظيمة كالصبر والحلم والنشاط في تبليغ الدعوة، والحكمة في مخاطبة الناس والتعامل معهم.

٣ - كان نوح يقص على قومه ما جاءه من الوحي من عند الله سبحانه، ويعلمهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويقيم عليهم الحجة بما آتاه الله من فصاحة وبيان، ورغم كل ذلك رفض القوم دعوته، واتهموه بالجنون والكذب، وآذوه واستهزأوا به، وهو صابر لا يكف عن الدعوة، ولا يمل من نصحهم وإرشادهم.

٤ - استمر قوم نوح على كفرهم وضلالهم، ولم يؤمن مع نوح إلا قلة من قومه، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيَّهُ وأولياءه المؤمنين في الفُلْك، وهي السفينة التي صنعها ليحمل فيها من آمن به واتبعه، وأغرق الذين كذبوا ورفضوا الإيمان والهدى، فقد كانوا قوما عمين، عميت قلوبهم، وانطمست بصائرهم عن رؤية الحق، وسماع الخير، فاستحقوا الهلاك والغرق بالطوفان.

---

(١) ورد هذا الرقم في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) [العنكبوت: ١٤].

عاد وموقفهم من دعوة نبيهم هود عليه الصلاة والسلام

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ **سورة الأعراف (٦٥-٧٢)**

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويحذرهم من عذابه وعقابه، وكانت قبيلة عاد تسكن منطقة الأحقاف، وهي منطقة واسعة في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمان، وكان الواجب عليهم أن يطيعوه ويتبعوا ما جاءهم به فهو أخوهم ومنهم، ويعرفون صدقه وأمانته وحسن خُلُقه، لكن الملأ من هؤلاء القوم ردوا عليه رداً منكراً، واتهموه بالسفاهة وقلة العقل، كما نسبوه إلى الكذب، فرد عليهم ذلك مبيناً مهمته التي أرسله الله بها، وأنه ناصح لقومه، أمين فيما يبلغهم به، وأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، ومن هذه النعم أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وأنه أعطاهم بسطة في الأجسام، وقوة وضخامة زيادة على غيرهم من الناس، ومكن لهم في الأرض حتى كانت لهم دولة قوية.[1]

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

لكن القوم أنكروا على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الأصنام الكثيرة التي وجدوا آباءَهم على عبادتها.

واستمر هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى الله، ويحاورهم ويقيم عليهم الحجة يرغبهم بما عند الله من حسن الجزاء للمؤمنين، ويحذرهم من عذاب الله وبأسه إن أصروا على كفرهم وضلالهم، لكن القوم لم يلتفتوا إلى ذلك التحذير، بل تحدوه بأن يأتيهم بهذا العذاب الذي يعدهم به، ولما وصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة من الإعراض والصد عن سبيل الله تعالى، وطال عليهم الأمد في الكفر والجحود، نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين الذين اتبعوه، وأنزل عقابه بالكافرين المكذبين، فأهلكهم ولم يُبق منهم أحداً.

وبهذا جرت على عاد سُنة الله في المكذبين، وحلت بهم النقمة حيث أرسل الله عليهم ريحاً باردة شديدة الهبوب عصفت بهم فأهلكتهم فكانوا كأنهم أعجاز نخل خاوية.[1]

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين الله سبحانه ما جرى لنوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، حيث كفروا به وكذبوه فأهلكهم الله بالغرق، وجعلهم عبرة لمن بعدهم، ذكر هنا عاداً قوم هود عليه الصلاة والسلام مبيناً أنهم لم يعتبروا بقوم نوح، ولم يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم، بل أصروا على الكفر والتكذيب فاستحقوا أن ينزل بهم بأس الله وعقابه، بعد أن نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات تقص علينا خبر عاد، أولئك القوم الذين أوتوا بسطة في الأجسام وقوة وسطوة، ومكن الله لهم في الأرض، وأغدق عليهم النعم الكثيرة، لكنهم أصروا على كفرهم وضلالهم، وسلكوا سبيل الشيطان، وكذبوا نبي الله هوداً عليه الصلاة والسلام، فأهلكهم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

الله سبحانه عن آخرهم، ونَجَّى نبيه والمؤمنين به، وهكذا تشكل هذه الآيات حلقة في سلسلة المواجهة بين الحق والباطل عبر التاريخ السحيق المديد، وتعرض صورة من صور انحراف البشرية عن منهج الحق وسبيل الإيمان.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - هود عليه الصلاة والسلام نبي كريم أرسله الله تعالى ليدعو قومه إلى الإسلام بعد أن كفروا وعبدوا الأصنام، وظلموا الناس. وسُمي أخاهم لأنه منهم، فكل من كان من القوم فهو أخوهم.

٢ - كان أول ما دعاهم إليه توحيد الله تعالى، وعبادته وحده، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام من قبله، وذلك لأن دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، جاءوا جميعاً يدعون إلى توحيد الله سبحانه.

٣ - تصدى له أشراف قومه من الزعماء والكبراء، فنسبوه إلى السفاهة، وهي الخفة والطيش وقلة العقل، واتهموه بالكذب، وواجهوه بما يكره من الإيذاء والاستهزاء، وهذا شأن الأمم مع أنبيائهم ورسلهم.

٤ - رد عليهم هود بنفي السفاهة عن نفسه، وبين لهم أنه رسول الله رب العالمين، ولا يُقبل بحال أن يُرسل الله سفيهاً، ثم بين لهم أنه جاءهم يبلغهم رسالة الله، فالله سبحانه كلف كل رسول أن يبلغ الرسالة، وأن يدعو قومه إلى الهدى والإيمان، ويحذرهم من الضلال والكفر، وهو أمين على هذه الدعوة، ولا يمكن بحال أن يخون قومه أو يريد بهم شراً.

٥ - رد هؤلاء على نبيهم هود عليه الصلاة والسلام، بمثل ما رد قوم نوح على رسولهم، فعجبوا كيف ينزل الله الذكر والوحي على بشر منهم، وظنوا أن الرسول لا بد أن يكون ملكاً من الملائكة، فردّ عليهم هود عليه السلام منكراً عليهم هذا العجب، قائلاً لهم: أأنكرتم وعجبتم أن جاءكم هذا الذكر والوحي على رجل منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته؟

٦ - ذكّر هود قومه بنعمة الله عليه حيث جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذكّرهم بقوم نوح

الذين عمروا الأرض قبلهم، وعاشوا مدة طويلة، وكيف أهلكهم الله بالغرق، فلم يبق إلا آثارهم، وخرائب ديارهم، بسبب تكذيبهم وكفرهم، وها أنتم تخلفونهم، وتتمتعون بمثل ما كانوا يتمتعون به، وقد أكرمكم الله تعالى بنعمة أخرى هي بسطة الأجسام، وقوتها وضخامتها، مما جعلكم تغلبون الناس وتملكونهم فاذكروا آلاء الله ونعمه العظيمة، ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق، وغير ذلك مما أنعم الله به عليكم.

٧ - أنكر القوم على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة إله واحد، وتمسكوا بعبادة أصنامهم، تقليداً لآبائهم، وحفاظاً على موروثاتهم، فقالوا له: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ وكلامهم هذا يتضمن الرد على نبيهم ورفض دعوته، فهم لا يقبلون بديلاً عن دين آبائهم.

٨ - لم يقف القوم عند هذا الحد بل قالوا لنبيهم على وجه التحدي والرفض: فأتنا بها تعدنا إن كنت من الصادقين، وكان هود عليه الصلاة والسلام قد حذرهم من نزول العذاب بهم إن هم استمروا على كفرهم وتكذيبهم، فاستعجلوا بطلب العذاب تحدياً لنبيهم، وإصراراً على باطلهم.

٩ - حذرهم نبيهم مبيناً أنه لا بد أن يقع عليهم العذاب إذا استمروا في ضلالهم، وأنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة في الأصنام التي كانوا يعبدونها، مع أنهم يدركون أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنهم شيئاً. وكيف يجعلونها آلهة وهم يصنعونها بأيديهم؟

١٠ - لما رأى هود إصرارهم على كفرهم وشركهم توعدهم بأشد وعيد فقال: فانتظروا إني معكم من المنتظرين، أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم في موعده بلا تأخير.

١١ - وحين جاء الأجل المحتوم نَجَّى الله سبحانه نبيه هوداً ومن معه من المؤمنين، وأنزل العذاب بهؤلاء الكافرين، وقطع دابر القوم المكذبين، أي استأصلهم جميعاً عن آخرهم فلم يُبقِ منهم أحداً، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾[النجم: ٥٠-٥١]، وإنما استحق هؤلاء الهلاك والعذاب لأنهم كفروا بربهم وعصوا رسوله، واتبعوا سبيل الشيطان.

ثمود وموقفهم من دعوة نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة الأعراف (٧٣-٧٩)

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً، وكانت قبيلة ثمود تسكن في جزيرة العرب على مقربة من الطريق المتجه من المدينة المنورة إلى تبوك، فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وترك عبادة الأصنام، وأظهر لهم معجزة بينة أيده الله بها، وهي ناقة استخرجها من الصخر، بإذن الله تعالى، وأمرهم أن يتركوها ترعى في الأرض، ولا يتعرضوا لها بأذى، وذكرهم بما أنعم الله عليهم من نعم عظيمة، فقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكن لهم في الأرض فكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، ويبنون قصورهم في السهول الواسعة، وكانت أرزاقهم دارّةً، والخيرات بأرضهم وافرة، وقد استجاب لصالح عليه الصلاة والسلام نفر من الضعفاء والبسطاء، أما الملأ فاستكبروا ورفضوا الإيمان، وتوجهوا إلى الضعفاء يسألونهم بتهكم واستهزاء: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ ﴾ فأجاب هؤلاء بأنهم آمنوا به واتبعوه وصدقوه، عندئذ رد عليهم الملأ قائلين: ﴿ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ

كَفِرُونَ ﴾ كأنهم يقولون: إن أول شيء يدعونا إلى الكفر بما جاء به صالح هو أنكم اتبعتموه وآمنتم به، ونحن نريد أن نخالفكم، ولا نرضى أن نتبعكم.

استمر صالح يدعو قومه إلى الإيمان بالله، وأقام بينهم مدة من الزمان لا يتردد في عرض هذه الدعوة عليهم، ولا يمل من إنذارهم وتحذيرهم من عقاب الله، وترغيبهم بما أعده الله للمؤمنين، لكن القوم عموا وصمُّوا عن دعوته، ورفضوا الاستجابة له والدخول في دينه، وأخذ هؤلاء المجرمون يكيدون ويدبِّرون، فعقروا الناقة وقتلوها، وجاهروا بالكفر والتكذيب، وطالبوا صالحاً في تحدٍ واستكبار- أن يأتيهم بالعذاب الذي يخوفهم به، وأخذوا يدبِّرون لقتل صالحٍ وأهله.

وحين بلغوا هذا المبلغ من الكفر والإصرار على الظلم والطغيان حقت عليهم كلمة العذاب، فنجَّى الله تعالى نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين، وأنزل بأسه بالكافرين المكذبين، حيث أخذتهم صيحةٌ صاعقة شديدة، جعلت الأرض ترتجف بهم، حتى لم يبق منهم حيٌّ. ونظر صالح عليه الصلاة والسلام إلى ما حلّ بقومه من الدمار والهلاك، فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن قصة هود عليه الصلاة والسلام، مبينة أن قومه قد كفروا به وكذبوه، وأن الله سبحانه أخذهم بالعذاب ونجَّى نبيه هوداً والذين آمنوا معه، وتحدثت الآيات هنا عن قصة مشابهة هي قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كفروا به وكذبوه وآذوه، فأهلكهم الله سبحانه بعد أن نجَّى نبيه صالحاً والذين آمنوا معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض هذه الآيات حلقة أخرى من سلسلة الأجيال البشرية التي واجهت الدعوة وكفرت بالرسل ورفضت الإيمان، فالسورة تبين أن أمماً كثيرة كفرت وكذّبت، وفي النهاية

واجهت مصيراً مشابهاً، حيث كان العذاب ينزل بكل أمة من هذه الأمم المكذبة فيمحقها ويهلكها، وهذه الآيات التي تعرض قصة ثمود (قوم صالح عليه الصلاة والسلام) وتبين كفرهم وتكذيبهم وموقفهم من نبيهم، تبين أنهم أُهلكوا فلم ينج منهم أحد، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - صالح عليه الصلاة والسلام رسول كريم أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وكانت مساكن ثمود في منطقة الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وقد دعا صالح قومه إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وحذرهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

٢ - كذّب القوم ورفضوا اتباع صالح عليه الصلاة والسلام، وطالبوه أن يأتيهم ببينة على أنه رسول من عند الله تعالى، فأخرج لهم ناقة، وبين لهم أن هذه الناقة آية ظاهرة على أن الله تعالى أرسله إليهم.

٣ - كان من عجيب أمر هذه الناقة أنها تشرب ماء العين يوماً، ويشربون يوماً، وترعى في الأرض، فليس لهم أن يمنعوها أو يعترضوها، وفي يوم شربها يحتلبون منها ما يكفيهم من اللبن،[1] وحذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء، أو يؤذوها قائلاً لهم: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء أي دعوها تأكل في أرض الله فهي ناقة الله، والأرض أرضه، فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه، ولا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها فإنكم إذا فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله وبأسه.

٤ - مضى صالح يدعو قومه إلى الله ويذكّرهم بفضله ونعمه عليهم، ويحذّرهم مما حصل للأمم من قبلهم، فالتذكير بالنعم يتضمن التوجيه إلى شكر المنعم، والتذكير بالمثلات والعقوبات

(١) كما ورد في الحديث الشريف، وسيأتي ذكره قريباً.

يتضمن التخويف والتحذير من المخالفة.

٥ - تشير الآيات إلى أن ثمود كانوا ممكنين في الأرض، مستخلفين فيها، ولهم من الملك والجاه والسلطان ما ليس لغيرهم، وكانوا يتخذون من سهول الأرض قصوراً يبنونها مستخدمين تراب الأرض ورملها وحجارتها في البناء، وينحتون في الجبال الصخرية بيوتاً يسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً وبيوتاً واسعة للسكنى، وقد بلغوا من الحضارة وفنون العمران شأواً بعيداً.

٦ - ولأن القوة والسعة وكثرة المال والجاه تدعو أهلها إلى الإفساد والبغي، فقد حذّر صالح قومه من الإفساد في الأرض، مبيناً لهم سوء عاقبة المفسدين.

٧ - كان موقف الملأ- وهم الرؤساء المستكبرون من قوم صالح - أن جادلوا ورفضوا دعوته، وتوجهوا إلى من آمن مِنَ المستضعفين يستهزءون بهم، وينكرون عليهم الإيمان واتباع صالح عليه الصلاة والسلام.

٨ - ثم أخذوا يخططون ويمكرون بصالح ومن معه، في تحدٍّ واستكبار، غير مكترثين لما يترتب على ذلك من العواقب السيئة.

٩ - عقر القوم الناقة، والعقر: قطع عضو يؤثر في تلف النفس، يقال: عقرتُ الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف، وأصل العقر كسر عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع فقال: ﴿ فَعَقَرُواْ ﴾ مع أن العاقر واحد منهم لأنهم راضون بذلك موافقون عليه، وهذا يؤكد أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعصية مشاركة فيها.

١٠ - وكان عقرهم للناقة دليلاً واضحاً على عتوهم وطغيانهم واستكبارهم، ورغم ذلك لم يتوقفوا عن مطالبة صالح بأن يأتيهم بالعذاب، وهذا أشد ما يكون من التحدي والطغيان.

١١ - وتبين الآيات الواردة في سورة النمل أن القوم تآمروا لقتل صالح وأهله ليلاً، وأن يكتموا خبر ذلك عن وليه. وحين وصل الأمر بهم إلى هذا الحدِّ استحقوا أن ينزل بهم عقاب الله، وأن يأخذهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به.

١٢ - نجَّى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه، وأرسل على ثمود صيحة شديدة أدت إلى ارتجاف الأرض وزلزلتها بهم، فلم ينج منهم أحد، بل هلكوا جميعاً، وأصبحوا في دارهم جاثمين أجساداً ملقاة على الأرض ليس فيها روح ولا حياة.

١٣ - ورأى صالح عليه الصلاة والسلام ما حلَّ بقومه من الهلاك والعذاب فقال في حزن وأسى: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. فهو لم يترك سبيلاً لدعوتهم، ولم يأل جهداً في نصحهم وإرشادهم، لكنهم رفضوا الاستجابة، وأصروا على التكذيب والكفر، فاستحقوا ذلك المصير البائس الأليم.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفجِّ وتصدر من هذا الفجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أهمدَ الله عز وجل مَن تحتَ أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل. قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رِغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». [(١)]

وفي رواية عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية، فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل

(١) المسند، للإمام أحمد بن حنبل ٢٨/ ١٩٣، رقم ١٣٦٤٤، والمستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.

الـذي كانوا يأخذون مـن مائها يوم غبّها، وتصدر من هذا الفج، فعتـوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهـم الله العـذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشـارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله. فقيل: يا رسـول الله من هو؟ فقال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[1]

وأخرج البخاري ومسـلم من حديث ابن عمر قال: قال رسـول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلـوا عـلى هؤلاء المعذبـين إلا أن تكونوا باكين، فـإن لم تكونوا باكين فـلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم مثل ما أصابهم».[2]

قوم لوط عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ سورة الأعراف (٨٠-٨٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد جاء لوط يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده، وترك ما كانوا فيه من قبيح الأفعال، وسيء العادات، فقد اعتادوا أن يأتي الرجال الفاحشة مع الرجال، وهي جريمة لم يُسبقوا إليها، لكن قوم لوط أصروا على ما هم فيه

(١) المعجم الأوسط للطبراني ١٩/ ٤٠٠، رقم ١١١٢٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٦٧، رقم ٤٢٣، باب الصلاة في مواضع الخسف، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٥، رقم ٢٩٨٠ باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

مـن كفـر وضلال وفواحش وموبقات، ورغم أن لوطاً أقام فيهم مدة طويلة يحذرهم من عاقبة ما هم فيه من الكفر والفجور، لكن القوم ازدادوا طغياناً وظلماً، وتنادوا فيما بينهم لإخراج لوط ومن آمن معه من القرية، لأنهم أناس يتطهرون ويتنزهون عن ممارسـة تلك الفاحشـة الأثيمة، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيه لوطاً عليه الصلاة والسلام وآله المؤمنين، وأهلك أهل تلك القرية بأن طمس أعينهم[كما جاء في سـورة القمر: ٣٧]، وخسـف بأهل تلك القرية حتى جعل عاليها سافلها[كما جاء في سورة هود: ٨٢-٨٣]، وأنزل عليهم حجارة مسومة من السماء انصبـت عليهم كالمطر الغزير فأهلكتهم جميعاً، وأهلكت معهم امرأة لوط لأنها كفرت كما كفر قومها، ورفضت اتباع لوطٍ والإيمان بما جاء به.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه ثمود، مبينة أنهم كذبوا نبيهـم فأهلكهـم الله بالرجفة، بعد أن نجَّى نبيه والمؤمنين معه، وذكرت هذه الآيات قصة مماثلة هي قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كذبوا نبيهم ورفضوا دعوته، فأهلكهم الله بثلاثة أصناف من العذاب هي طمس أعينهم، وجعل عالي القرية سافلها، وإمطارها بالحجارة المسـومة، واقتـصرت الآيات في هذه السـورة على ذكـر مطر العذاب، وجاء التفصيل في سـور أُخَر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هـذه الآيـات حلقة أخرى في سلسـلة الأقوام التـي كذبت رسـلها، وكفرت بهم وعتـت عـن أمر ربها، فعجل الله لهم العقـاب، وأخذهم بالعذاب، بعـد أن نجَّى نبيه ومن آمن معه، وتؤكد هذه الحادثة من جديد منهج الأمم في الكفر والتكذيب، وسنة الله التي لا تتخلف في نجاة المؤمنين ونصرتهم، وهلاك الظالمين وأخذهم بالعذاب.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - لوط عليه الصلاة والسلام نبي كريم، بعثه الله إلى أمة تسكن منطقة سدوم من أرض فلسطين، إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، وقد دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والبعد عن الشرك به، كما دعاهم إلى الترفع عما كانوا فيه من الخبائث والرذائل، فقد كان الرجال يفعلون الفاحشة مع الرجال، وهي جريمةٌ لم يُسبقوا إليها.

٢ - هذه الفاحشة لم يكن لهم بها حاجة، ولكنهم يفعلونها على سبيل تلبية شهواتهم، وطاعة رغباتهم، وكأنه لا غرض لهم من إتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة، ويتركون الزواج بالنساء وإتيانهن، مع أنهن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة، وفي هذا ما فيه من الفساد والاعتداء على الفطرة ومسخها، والتهديد بدمار المجتمعات وانهيارها.

٣ - كان حقاً على هؤلاء القوم أن يطيعوا لوطاً ويؤمنوا به ويستجيبوا لنصحه ووعظه، فهم يعرفون حرصه عليهم ونصحه لهم، ورغبته في صلاح أمورهم، لكنهم أطاعوا شياطينهم واتبعوا أهواءهم، ولم يكن ردهم على لوط إلا بالدعوة إلى إخراجه هو والذين آمنوا معه، وطردهم خارج تلك القرية، بتهمة أنهم أناس يتطهرون.

٤ - حين يكون التطهر تهمة، والتنـزُّه عن الوقوع في هذه الفاحشة جريمة فلنا أن نتصور أي فساد كان يعيشه هؤلاء القوم الذين مُسخت نفوسهم وفسدت عقولهم، وانقلبت عندهم الموازين حتى صاروا يرون الباطل حقاً، والشرَّ خيراً.

٥ - وحين وصل الحال بهؤلاء القوم إلى درجة يتعذر معها الإصلاح، وتتعطل سبل التغيير إلى الأفضل يكون الحل الوحيد أن ينزل العذاب بهم، ليطهر الأرض من إجرامهم وفسادهم.

٦ - نجّى الله سبحانه نبيه لوطاً وأهله المؤمنين به، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به وأنزل العذاب على قوم لوط، وكان على ثلاث مراحل، أولاها: طمس أعينهم فلا يرون

شيئاً، والثانية جعلُ عاليها سافلها، حيث انقلبت بهم بلادهم ودورهم، ولذلك سُميت بالمؤتفكات، والثالثة: إنزال المطر المصحوب بالحجارة المسومة، فما تصيب أحداً منهم إلا قتلته.

٧- وهكذا يرينا الله عاقبة المجرمين الذين كذبوا رسولهم، وجحدوا بآيات ربهم. وفي هذا الخطاب: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ دعوة للناس كي يعتبروا بمصارع الأمم وأسباب هلاكها.

من الأحاديث الشريفة

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». [1] قال الألباني: حسن صحيح. وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من غيَّرَ تخومَ الأرض، لعن الله من تولَّى غير مواليه، لعن الله من كمَّهَ أعمى عن الطريق، لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من وقع على بهيمة، لعن الله من عقَّ والديه، لعن الله من عمِل عمَل قوم لوط». قالها ثلاثاً. [2]

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٦٤، رقم ٤٤٦٢، وسنن الترمذي ٣/ ١٢٤، رقم ١٤٥٦.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٩٨، رقم ٢٧٦٥.

مدين وموقفهم من دعوة شعيب عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الأعراف ٨٥-٩٣)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل شعيباً عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى قومه، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأصنام، وترك ما كانوا عليه من معاملات مالية فاسدة كالتطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وأكل أموالهم ظلماً، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله[1].

---

(١) قال النيسابوري في تفسيره ٣/ ٤٧٠: "كانوا يجلسون على الطرق والمراصد.. يخوّفون من آمن بشعيب ويقولون إنه كذاب؛ لا يفتنكم عن دينكم، أو كانوا يقطعون الطرق،.. وقيل: إن الصراط مجاز عن الدين =

كان هـؤلاء القوم يسكنون في شمال الجزيرة العربية على مقربة من موقع مدينة تبوك، وقام شعيب يدعو قومه إلى الإسلام، ويذكِّرُهم بنعم الله الكثيرة التي يتقلبون فيها، فقد كانوا قلةً فكثَّرهم الله، ورزقهم الأموال والبنين، وأغدق عليهم الخيرات، كما حذَّرهم من عقاب الله وبأسه الذي لا بد أن ينزل بالعصاة المفسدين، كما نزل بالأمم المكذبة من قبلهم، واستمر شعيب يدعو قومه إلى الحق والهدى، ويحذرهم من البغي والفساد، فاستجابت له قلة من الناس، وأصرَّ أكثر قومه على الكفر والعصيان، وأخذوا يتوعدون شعيباً وأتباعه المؤمنين بأن يخرجوهم من قريتهم، إن لم يتركوا هذا الدين، ويرجعوا إلى الكفر. [1] لكنَّ شعيباً عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه ثبتوا على الإيمان، في وجه هؤلاء الظالمين، وبيَّنَ لهم شعيب أن أعظم الافتراء يتمثل في الردة عن الدين الحق، والعودة إلى ملة الكفر، فكيف يعود المسلم إلى الكفر بعد إذ نجاه الله منه؟

وازداد الكفرة عناداً وإصراراً على باطلهم، وأخذوا يحاربون شعيباً ومن معه، بدعوة الناس إلى رفض هذا الدين، والتمسك بما هم عليه من عوج وضلال، قائلين لهم: لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون، فلما تطاول عليهم الزمان في رفضهم لدعوة نبيهم، وإصرارهم على كفرهم، لم يبق لهم عند الله حجة ولا عذر، عندئذ نجَّى الله تعالى نبيه شعيباً والذين آمنوا معه، وأنزل عذابه بأولئك الظالمين المكذبين، حيث أظلتهم سحابةٌ سوداء بعد حر شديد أصابهم فلما اجتمعوا في ظل تلك السحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهم أحداً. [2] لقد خسروا أنفسهم، ودُمّرت بلادهم، وهلكوا لأنهم كذبوا رسولهم وعصوا ربهم. ونظر شعيب إلى ما حلَّ بقومه من النكال والدمار فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربكم ونصحت لكم، فكيف آسى على قوم كافرين؟

= أي لا تقعدوا على طريق الدين ومنهاج الحق لأجل أن تمنعوا الناس عن قبوله".

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦٢.

(٢) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعـد أن ذكـرت الآيات السـابقة قصة قوم لـوط الذين كذبوا رسـولهم، ورفضوا دعوته، وأصروا عـلى مـا هم فيه من كفر وفسـاد، وما حـدث لهم من نزول العذاب المهلك المسـتأصل جاءت هذه الآيات تقص علينا قصة شـعيب عليه الصلاة والسـلام مع قومه الذين كان حالهم كحال من سبقهم، إذ لم يعتبروا ولم يتعظوا بل كذبوا وكفروا، واستمروا على ضلالهم وظلمهم وتعاملاتهم الاقتصادية الفاسدة حتى نزل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هذه الآيات حلقة جديدة في سلسلة الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، وكفروا بربهم واتبعوا سبيل الشيطان، فكانت عاقبتهم الهلاك والنكال، بعد أن نجَّى الله نبيه والمؤمنين وهكذا تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - شعيب عليه الصلاة والسلام نبي كريم، أرسله الله إلى قومه مدين، ومدين اسم قبيلة، وقيل اسم بلد، وقد أُرسل شعيب إلى مدين وأصحاب الأيكة، كما في سور أخرى، [١] فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وترك عبادة الأصنام، وأثبت لهم صدق رسالته بمعجزة بيِّنة أظهرها لهم، ولم يبين القرآن هذه المعجزة.

٢ - كما دعاهم شعيب إلى إصلاح كسبهم ومعاشهم، وتجنب الكسب الحرام وكانوا يطففون ويتلاعبون بالمكاييل والموازين، ويأكلون أموال الناس بالباطل، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان وإعطاء الناس حقوقهم، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، والبخس: النقص ويكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وفي هذا إشارة إلى أهمية الإصلاح المالي والاقتصادي

(١) سورة الحجر: ٧٨، والشعراء: ١٧٦، وص: ١٣، وق: ١٤.

وأثره في صلاح أحوال الناس ومعايشهم.

٣ - كان قوم شعيب يبخسون الناس في الأشياء التي يتداولونها بيعاً وشراءً، فنهاهم شعيب عن ذلك، وحذرهم من الإفساد في الأرض، وفي ذلك إشارة إلى أن الكسب الحرام من تطفيف وغش واحتيال.. هو من الإفساد في الأرض، لما فيه من الإخلال بمعايش الناس وحرمانهم حقوقهم.

٤ - كان قوم شعيب يقعدون في الطرقات المفضية إلى شُعيب عليه الصلاة والسلام، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، وكانوا يمنعون الناس من اتباع شعيب والدخول في دينه، فنهاهم عن ذلك كما نهاهم عن قطع الطريق، وسلب المال من العابرين، فقد كانوا يسلبون أموال الناس وأمتعتهم، ويأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس. [١]

٥ - ذكَّرَ شعيب قومه بأنعم الله عليهم فقال لهم: واذكروا إذ كنتم قليلاً في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيراً. وفي هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظيمة لما فيها من المهابة والعزة والقوة.

٦ - وحذّر قومه من الفساد، لئلا تصيبهم العقوبات التي حلّت بالمفسدين من قبلهم، وفي هذا دليل على أن الفساد يجلب الدمار للبلاد ويؤدي إلى هلاك العباد.

٧ - وخوّف قومه مما هم فيه من التكذيب، وهددهم بأنهم إذا ثبتوا على ما هم فيه فلينتظروا حتى يحكم الله بينه وبينهم، فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

٨ - كان ردّ الزعماء المستكبرين أن يتوعدوا شعيباً والمؤمنين، فهم لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك إلى توعده ومن آمن معه بالإخراج من

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦١.

قريتهم، والطرد من بلادهم إن لم يرجعوا عن الإيمان إلى ملة الكفر، وكأنهم يقولون: إن قريتنا هذه لا يشاركنا في سكناها من خالف ديننا وترك ملتنا.

٩ - وهكذا يلجأ الكفرة والظالمون إلى التهديد والوعيد حين يعجزون ويُفحَمون، وهذا هو منهجهم دائماً في مواجهة الحق.

١٠ - يبين شعيب عليه الصلاة والسلام أن الرجوع عن الإيمان يعني افتراء الكذب على الله تعالى، وأن الدخول في الإيمان والنجاة من الكفر نعمة عظيمة. ولكن أنّى لهؤلاء الكفرة أن يدركوا تلك النعمة وهم لم يتذوقوها.

١١ - المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤونه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يثبته وينصره.

١٢ - أخذ المشركون من قوم شعيب يحاربون دعوته ويصدون عن دينه، مستخدمين إمكاناتهم الإعلامية، فأخذوا يحذّرون الناس من اتباعه قائلين لهم: والله لئن دخلتم في دين شعيب وتركتم دينكم ستكونون خاسرين هالكين، وإذا اتبعتم شعيباً، وإذا طبقتم تعاليمه في إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي تعاملون الناس به ستخسرون أموالكم. وفي هذا إشارة ظاهرة إلى شدة تمسك هؤلاء الكفار بباطلهم، وحرصهم عليه، وتواصيهم برفض الإيمان، وعداوة نبي الله والمؤمنين.

١٣ - وحين وصل الحال بهؤلاء إلى هذه الدرجة من الكفر والضلال والعداوة لدين الله استحقوا أن ينزل بهم عذاب الله المزلزل، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فجاءهم عذاب يوم الظلة، حيث أظلتهم سحابةٌ سوداء بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا في ظل تلك السحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهم أحداً، [١] وفي لحظة واحدة صاروا جميعاً هامدين أمواتاً بلا حراك، قد التصقت أجسادهم بالأرض.

---

(١) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.

١٤ - وحين شاهد شعيب عليه الصلاة والسلام نزول العذاب بقومه قال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي التي أرسلني بها إليكم، ونصحت لكم ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم وحرصت على هدايتكم فلم تستجيبوا، وعرَّفتكم طريق الخير والهدى فلم تطيعوني فكيف أحزن على قوم كافرين بالله، مصرين على الباطل والضلال؟

مما روي في تفسير هذه الآيات

عن ابن عباس: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ قال كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم. [١]

وأخرج الحاكم عن وهب بن منبه، قال: إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس في المكاييل والموازين، وإفساد لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق، وبسط لهم في العيش، استدراجا منه لهم، مع كفرهم به، فقال لهم شعيب: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط» فكان من قول شعيب لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه »[٢]

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة. [٣]

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٥٧، رقم ١٤٨٤٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٩/ ٣٣٢، رقم ٤٠٣٦، ورقم ٤٠٧٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١١٣، رقم ١٦٧٠٥.

سنة الله في المكذبين

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ سورة الأعراف (٩٤-١٠٢)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات الكريمة سنة ربانية ثابتة لا تتغير، فالنبي يدعو قومه إلى الإيمان ونبذ الشرك وترك المعاصي والظلم، والناس أمام هذه الدعوة فريقان، فمنهم قلة تستجيب وتؤمن وتنصر النبي، والكثرة تبقى على كفرها وضلالها، ولكن الله سبحانه حليم كريم، لا يعاجل الناس بالعقوبة، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يرجعون ويتوبون، وفي أثناء هذه المهلة يأخذهم بالبأساء والضراء، فيصيبهم بالقحط تارة وبالجوع تارة أُخرى، وبالكوارث حيناً وبالأمراض حيناً آخر، لعلَّهُم يَضَّرَّعون ويردون الأمر إلى الله سبحانه، ولكنهم - في العادة - لا يتضرعون ولا ينسبون إلى الله شيئاً من ذلك، فيبدل الله مكان السيئة الحسنة، بمعنى أنه يمدهم بالنعم من الخصب وإدرار الرزق وكثرة المال، حتى يكثر عددهم، وتزيد ثرواتهم وأموالهم، ويأخذوا حظهم الوافر من الحياة.. فيظنون أنهم حصَّلوا ذلك بعملهم وجهدهم، فهم في كلا الحالين لا يلتفتون إلى قدرة الله تعالى، ويستمر بهم الحال حتى يرسخ في أذهانهم أن ما يصيبهم من

خير وشر، ومن سراء وضراء ما هو إلا أمور طبيعية كانت تصيب آباءهم من قبل، وعندئذ يصل هؤلاء القوم إلى إنكار قدرة الله تعالى وعظمته، ويغفلون عن تدبيره وحكمته، فيأخذهم بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون. (١)

ثم تبين الآيات سنة أخرى من السنن الربانية، تتمثل في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٦)

وتبين هذه السنَّة أن البركة في الرزق إنما ينزلها الله تعالى للناس حين يؤمنون ويتقون، فمن أراد رغد العيش والحياة الطيبة الكريمة فليؤمن وليطع الله ورسوله، ولكن الناس غافلون عن هذه السنة أيضاً، يرون الأرزاق الوفيرة عند أهل الكفر والضلال فيغترون بذلك، دون أن يفرقوا بين فتح البركات وفتح أبواب كل شيء، فالله سبحانه يفتح على أهل الإيمان بركات السماء والأرض، أما أهل الكفر فقد يفتح عليهم أبواب كل شيء، فيكثر عندهم المال والرزق ويكثر عندهم أيضاً المرض والجوع والقلق والهمُّ، فليست كثرة المال دليلاً على البركة، فقد تكون البركة في الشيء القليل، لكنه يفي بالغرض ويعيش أهله به سعداء، وقد يكون أهل الباطل يملكون المال الكثير والرزق الوفير، لكنهم يعيشون بؤساً وشقاءً.

ثم تبين الآيات أن أهل القرى، والمجتمعات البشرية كفروا وكذبوا، فحُرموا البركة في الرزق، ثم جاءهم العذاب فأُهلكوا وأبيدوا. فهل يأمن أهل القرى الباقية أن يأتيهم بأس الله وعذابه حال نومهم وغفلتهم؟ وهل يأمنون أن يأتيهم باس الله في ضحوة النهار وهم في أسواقهم وتجارتهم ومزارعهم..؟ وكيف يأمنون مكر الله، ويغفلون عن الاعتبار بما جرى للأمم السابقة؟

وكيف يأمنون مكر الله وقد سكنوا في القرى التي سكنتها قبلهم أمم ذاقت بأس الله

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٥٩ وما بعدها.

وعذابه؟ والله قادرٌ في كل وقت أن يعذبهم كما عذب الذين من قبلهم.

إن أهل القرى أجدر وأحق أن يعتبروا ويتعظوا ويعودوا إلى الإيمان واتباع رسلهم، ولكن المشكلة أن هؤلاء اغتروا وغفلوا عما أصاب الأمم السابقة، وطُبع على قلوبهم فلا يتفكرون ولا يتعظون، لقد نسوا عهد الله وميثاقه، وانحرفوا عن فطرة الإيمان، واتبعوا عَدُوَّهم الشيطان، ونسوا التحذير الذي وجهه الله إليهم مرات ومرات. فلا عهد لهم ولا إيمان.

ولقد قص الله تعالى على رسوله ﷺ طرفاً من أخبار تلك القُرى، تسلية له عما يلقاه من أذى المشركين، وإعلاماً له بحقيقة ما جرى، وتثبيتاً له على منهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الصبر والثبات على الحق.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وكيف واجه هؤلاء الأقوام أنبياءهم بالكفر والتكذيب والتحدي والإنكار وجابهوهم بالإيذاء والطرد والإبعاد، وكانت العاقبة أن نجَّى الله أنبياءه وأولياءه، وكتب لهم النصر وحُسن العاقبة، وأهلك المكذبين المعاندين، ثم جاءت هذه الآيات لتقرير سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وابتلاء أهل القرى بالسراء والضراء، وبيان أن البركة تكون مع الإيمان والحديث عن غفلة عامة الناس في مجتمعاتهم وبلادهم عن سنن الله تعالى، وأمنهم من مكره، مع أنهم يرون المثلات شاخصة في آثار الهالكين المعذبين من الأمم التي كذبت وكفرت، لقد كان هؤلاء أجدر الناس أن يؤمنوا ويعودوا إلى ربهم، لكنهم غفلوا ونسوا عهد الله إليهم، واتبعوا الشيطان فاستحقوا أن يحل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات ترسم المعالم التي تحدد مصير الأمم، وتبين سنة الله التي لا تتخلف، فهو لا يأخذ الأمم بالعذاب إلا بعد أن يكذبوا رسلهم، ويثبتوا على كفرهم وضلالهم، ولو أنهم استجابوا لنداء

الإيمان، ودعوة الرسل لعاشوا حياة كريمة حافلةً بالبركات والخيرات، وجدير بالأمم اللاحقة أن تتعظ بمصائر الأمم الهالكة، حتى تتنكب سبيلها، فتنجو من مصيرها المحتوم.

ومنذ مطلع السورة والموضوع يدور حول دعوة الناس إلى الإيمان، وتحذيرهم من الكفر وتخويفهم من اتباع الشيطان الذي أضل أُمماً عديدة وجبلّاً كثيراً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه لا يعذب أمة من الأمم إلا بعد أن يرسل إليها رسولاً، يدعو إلى الإيمان ويبين الحق، فإن أطاعوه واتبعوه عاشوا حياة طيبة، وإذا كذبوا حاق بهم العذاب، وقد كانت عامة الأمم على التكذيب والكفر بما جاءهم من الحق، ومع ذلك لم يعجل الله بإنزال العذاب عليهم، بل أعطاهم المهلة، وابتلاهم بالبأساء والضراء، لعلهم يتضرعون إلى الله، ويرجعون إليه بالتوبة والإنابة.

٢ - بعد أن تتوالى الابتلاءات بالسراء والضراء يصير المشركون إلى الاعتقاد بأن هذا الذي مسَّهم من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب بعده هو أمر وقع لآبائهم مثله فمسهم من البأساء والضراء ما مس هؤلاء، ومن النعمة والخير ما ناله هؤلاء، فهذه العادة جارية في السلف والخلف، وهكذا شأن الزمان في تقلبه من شدة إلى رخاء، فكأنهم نسبوا الشدة والرخاء إلى فعل الزمان، وليس لله سبحانه وفي هذا من شدة عنادهم، وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفى.

٣ - يمد الله سبحانه المكذبين بالنعم إملاءً واستدراجاً، فيكثر عددهم، وتزداد أموالهم، وتربح تجارتهم، وتُخصب أرضهم، فإذا وصلوا إلى ذلك ظنوا أنهم على حق، بدليل أن النعم تتوالى عليهم، ولم يلتفتوا إلى أن هذا استدراج بالنعم، وأنهم عما قريب سيهلكون.

٤ - يأتي العذاب بغتة، والناس عنه غافلون، فهم في حياتهم وأعمالهم، لا يفكرون إلا في أسواقهم وأعمالهم ومعاشهم، وعندما يحل بهم العذاب ويأخذهم الهول يتذكرون أنهم

كانوا ظالمين، ولكن بعد أن مضى وقت الندم، ولم يعد لديهم مجال للتوبة والاعتذار.

٥ - البركة في الرزق، والرغد في العيش، والحياة الطيبة الكريمة لا ترتبط بكثرة المال والمتاع ولكنها ترتبط بالإيمان والتقوى وتحقيق معاني الهداية في النفوس، وتطبيقها على أرض الواقع. وفي المقابل فإن الأخذ بالعذاب ثمرةٌ للكفر والتكذيب.

٦ - الأمن من مكر الله جريمة عظيمة، لما فيها من الدلالة على نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، وفي هذا دعوة للناس أن لا يأمنوا مكر الله، وأن يكونوا دائماً على حذر واستعداد للقاء الله سبحانه.

٧ - على الذين يسكنون القرى، ويرثون الديار ممن سبقوهم أن يعتبروا بمن سكنها قبلهم كيف كانوا يعيشون في هذه القرى؟ وأين صاروا بعد أن غيبهم الثرى؟ وماذا فعلوا حتى استحقوا أن يأخذهم الله بعذابه؟ وكما أصابهم الله بالعذاب فإنه قادر على أن يعذب من بعدهم، إذا ساروا على طريقتهم في الكفر والضلال.

٨ - هذه القصص التي يقصها الله تعالى على رسوله ﷺ، مبيناً فيها طرفاً من أنباء الأمم السابقة، قوم نوح وعاد وثمود.. فيها تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، ودعوة إلى الموعظة والاعتبار.

٩ - وهؤلاء الذين قص الله على رسوله من أنبائهم ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بل ظلوا مستمرين على الكفر، متشبثين بالضلال، ولم ينفعهم مجيء الرسل، بل حالهم عند مجيء الرسل كحالهم قبله، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل أنهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

١٠ - لم يكن لأكثر أهل هذه القرى عهدٌ يحافظون عليه، ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينفعهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب.

موقف فرعون وقومه من دعوة موسى عليه الصلاة والسلام

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١٠٣-١٢٦)**

التفسير الإجمالي للآيات

أرسل الله سبحانه رسوله موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه، يدعوهم إلى أمرين هما: الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون يستضعفهم ويستذِلُّهم ويذيقهم سوء العذاب.

جاء موسى إلى فرعون وبدأ يعرض عليه دعوته، مبيناً أنه رسول من الله رب العالمين، وأنه حريص أن لا يقول إلا الحق، وأن يبلغ ما أوحى الله إليه، وأكد دعوته بأن الله سبحانه قد أعطاه

آيـة بينة تدل على صدقه، وأنه مرسـل من عنـد الله تعالى، وطلب من فرعون أن يؤمن بالله تعالى وأن يأذن لبني إسرائيل بالخروج معه.

لكن فرعون سـارع إلى مطالبة موسـى عليه الصلاة والسـلام بإظهار الآية التي جاء بها، وقـال له بتحـدٍ واسـتكبار: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. كان مع موسى عليه الصلاة والسلام آيتان هما: العصا واليد، فبادر موسى إلى إلقاء العصا التي يحملها في يده، وإذا بها تنقلب ثُعباناً مبيناً ضخماً مخيفاً، وأدخل يده في جيب عنقه ثم نزعها فإذا هي بيضاء مضيئة كالشمس، وحين رأى قوم فرعون هاتين الآيتين بادروا إلى اتهام موسى بأنه ساحر، جاء يريد إخراج فرعون وقومه من بلادهم، بما عنده من سحر. وردّد فرعون هذا القول الذي يُحب أن يسـمعه من قومه، وقال لهم: ماذا تطلبون أن نصنع بشـأن هذا السـاحر؟ فأشـاروا عليه أن يؤخر موسى وأخاه هارون، ويرسل الجند إلى المدن والبلدان ليحضروا السحرة العالمين بفنون السحر، ليواجهوا موسى ويتغلبوا عليه، ويبطلوا ما جاء به.

وجـاء السـحرة طامعـين في عطاء فرعـون وجوائزه، وقالوا له: هل سـيكون لنـا أجرٌ إذا غلبنا موسـى وظهرنا عليه؟ فوعدهم أن يعطيهم عطاءً كثيراً، وأن يجعلهم من جلسائه المقربين عنـده، وفرِحَ السـحرة بهذا الوعد، واسـتعدوا ليـوم اللقاء، فلما قابلوا موسـى وأخاه في ميدان واسـع، بحضور فرعون ووزرائه ورجال حاشيته وجنده، قالوا لموسى بثقة واعتزاز: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، فاختـار موسـى أن يُلقوا حبالهـم وعصيهم أوّلاً، فألقوها وسـحروا أعـين الناس، وأخافوا الحاضرين الذين صاروا يرون الميـدان مليئاً بالحيات العظيمة المخيفة، وفي تلك اللحظات التي بدا فيها السحرة مستبشرين بالفوز، وبدا فيها فرعون مفتخراً بما يراه من قدرة سَحرَتِه، أوحى الله سـبحانه إلى موسـى يأمره بإلقاء عصـاه، فألقاها فانقلبت حالاً إلى حية عظيمة أخذت تلتقم حبال السحرة وعصيَّهُم، حتى لم تترك منها شيئاً.

ظهـر الحـق وانتصر، وانهزم الباطل واندحر، وعرف السـحرةُ أن ما جاء به موسـى ليس سـحراً، بل هو معجزة ربانية، وآية عظيمة دالة على أنه رسـول من رب العالمين، فسـارعوا إلى

السجود على الأرض، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون.

واغتاظ فرعون لما رأى من هزيمة سحرته، وبطلان سحرهم، وغاظه أكثر أن يرى هؤلاء السحرة وقد سجدوا على الأرض، معترفين لموسى وهارون بالرسالة، معلنين إيمانهم بالله فسارع فرعون إلى اتهامهم بالتآمر والكيد، وأنهم دبَّروا هذا الأمر، وتآمروا مع موسى، ليُخرجوا آل فرعون من بلادهم، واستناداً إلى هذه التهمة الجائرة أخذ فرعون يتوعد السحرة بالعذاب الشديد، فقال لهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾. فردَّ عليه السحرة بثبات المؤمنين، مؤكدين أنهم غير خائفين من تهديده ووعيده، فالموت غاية كل حي، وإلى الله ينقلب العباد. ثم بينوا له أنه لم يكن غاضباً عليهم قبل أن يؤمنوا، ولكن لما رآهم قد آمنوا بالحق الذي رأوه نقم منهم، وهو الآن يريد أن ينفذ غيظه فيهم بعد أن ذاق ذل الهزيمة.

وأمام تهديد فرعون ووعيده توجّه السحرة إلى الله تعالى بقلوب مؤمنة خاشعة، يدعونه أن يرزقهم الصبر على ما ينتظرهم من البلاء، وأن يتوفاهم على الإسلام.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قصص كثير من الأمم المكذبة، جاء الحديث هنا عن فرعون وملئه، وهؤلاء القوم من أشد الناس فساداً، وأعظمهم كفراً وضلالاً، ففرعون قد ادعى الألوهية، ودعا الناس إلى عبادته من دون الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تحدثت هذه الآيات عن تكذيب فرعون وقومه بما جاءهم به رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، هذا التكذيب النابع من قلوب أضلها الهوى، وأزلها الشيطان. وتشكل هذه القصة حلقة من حلقات سلسلة الأمم التي واجهت رسلها بالتكذيب والكفر، وأصرَّت على التخبط في ظلمات الجاهلية، وبهذه القصة تبلغ السورة ذروة الحديث عن المكذبين السابقين لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بني إسرائيل وما كان منهم.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان إرسال موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه يشكل مرحلة حاسمة في مسيرة الأمم عبر التاريخ البشري، ومواجهتها لرسلها، لأن فرعون مَلِكٌ عظيم، يحكم بلاداً واسعة، وعنده من الجند والسلاح والتمكين في الأرض ما ليس لغيره، وقد ادعى الألوهية، ودعا قومه إلى عبادته من دون الله تعالى.

٢ - فرعون لقب لكل مَن ملكَ أرض مصر في تلك الحقبة، وملأُ فرعون أشراف قومه، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لأن من عداهم أتباعٌ لهم.

٣ - حين عرض موسى دعوته على فرعون أخبره بأنه مرسل من الله إليه، ليكون ذلك أدعى إلى قبول ما جاء به، ثم أعلمه بأن معه الدليل على صدق رسالته.

٤ - تضمنت رسالة موسى أمرين هما: دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان وتوحيد الله تعالى وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة. وقد كانوا مستعبدين مستذلِّين عند فرعون وقومه.

٥ - كان الواجب على فرعون حين رأى الآيات التي أظهرها موسى عليه الصلاة والسلام أن يؤمن بالله ويذعن للحق، لكنه ازداد طغياناً وكفراً، وأعانه الملأ من قومه على ذلك حين بادروه بالقول إن هذا الذي جاء به موسى سحر، وإن غايته أن يخرجنا من أرضنا وبلادنا.

٦ - كانت بطانة فرعون بطانة فاسدة، فقد زينوا له الباطل، وحرضوه على موسى وهارون وحذروه من الاستجابة، وأخذوا يتهمون أنبياء الله بالسحر، ويشيرون على فرعون أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة موسى وهارون.

٧ - كان السحر منتشراً في مصر في طول البلاد وعرضها، وهذا دليل جهل وتخلف وضعف ولو كان فرعون راغباً في إصلاح رعيته لوجههم إلى العلم النافع، ولصرفهم عن الاشتغال

بالسحر والشعوذة.

٨ - وعد فرعون السحرة أن يعطيهم الأعطيات والجوائز، كما وعدهم أن يكونوا من المقربين عنده، وكل هذه الوعود من أجل أن يغلبوا موسى وهارون، لكنه لما رأى السحرة قد غُلبوا أخذ يتوعدهم بأشد أصناف العذاب.

٩ - منهج الطغاة أن يسارعوا إلى اتهام الأنبياء والدعاة والمؤمنين، ليتمكنوا من إقناع الناس بأن هؤلاء طامعون في السلطة والسيطرة، وقد تمثل هذا في اتهام فرعون وملئه لموسى وهارون بتهمة السحر وبتهمة السعي إلى إخراج فرعون وقومه من بلادهم، واتهام فرعون للسحرة - بعد أن آمنوا - بأنهم مكروا وخططوا لإخراجه وقومه من مصر.

١٠ - للسحر تأثير شديد على الناس، خصوصاً إذا أتقن السحرة صنعتهم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾.

١١ - كان فرعون ينتظر أن تسفر المواجهة عن نصرٍ حاسم يهنئه الناس به، ويزدادون له طاعة وخضوعاً، فلما فاجأته الهزيمة ألقى بالمسؤولية على السحرة، فلما رآهم يسجدون ويعلنون إيمانهم أنكر عليهم أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم. ولم يدر أن الإيمان حين يخالط القلوب لا ينتظر ولا يستأذن. وهل كان فرعون سيأذن للسحرة لو أنهم استأذنوه؟

١٢ - جاء السحرة طامعين بما عند فرعون من العطاء والجزاء، فلما خالط الإيمان قلوبهم كان همهم أن يُختم لهم بخير، وأن يموتوا على الإيمان، وحين هددهم فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، لم يبالوا بهذا التهديد، وهكذا يعيد الإيمانُ صناعة النفوس المؤمنة، وإخراجها بالصورة التي تتناسب مع الإيمان.

البطانة الفاسدة

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (سورة الأعراف ١٢٧-١٢٩)

التفسير الإجمالي للآيات

كان حول فرعون جماعة من المفسدين المستكبرين، يحرصون على إغراء فرعون ببني إسرائيل، وتحريضه على قتلهم وإلحاق الأذى بهم، فقالوا له على سبيل الإنكار: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل؟ والمراد بالأرض هنا أرض مصر. وذكر المفسرون أقوالاً في معنى (ويذرك وآلهتك) لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما في قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وقوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فكيف يقول له قومه: ويذرك وآلهتك؟ فقيل: معنى وآلهتك: طاعتك، وقيل: معناه وعبادتك، وقيل: كان له أصنام يعبدُها قومُه تقرباً إليه فنسبت إليه، وقيل: كان يعبد الشمس.[١] فقال فرعون مجيباً لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر: سنقتل أبناءهم، ونستحي نساءهم، أي نتركهن في الحياة، ولم يقل: سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه، ووعد قومه أن تكون لهم الغلبة على موسى وقومه فقال: وإنا فوقهم قاهرون، فنحن ظاهرون عليهم بالقهر والغلبة، وهم تحت قهرنا وبين أيدينا ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه.

وأدرك قوم موسى أن الأيام القادمة تحمل لهم كثيراً من البلاء والإيذاء على يد فرعون

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ٧٨.

وملئه، وأن فرعون سينفذ تهديده، فقال لهم موسى مثبتاً ومواسياً: استعينوا بالله واصبروا، ولا تجزعوا أمام هذا التهديد، فالله سبحانه بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده. وهذا وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم، ثم بشرهم بأن العاقبة المحمودة للمتقين. [١]

عندئذ قال بنو إسرائيل لموسى: أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً، وذلك بما صنع فرعون بنا من قتلِ أبنائنا واستحياء نسائنا، وبتسخيرنا في الأعمال الشاقة، وأوذينا من بعد ما جئتنا رسولاً بقتل أبنائنا، وبما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا، فوعدهم موسى داعياً أن يهلك الله عدوهم فرعون وقومه، ويستخلفهم في الأرض. وقد حقق الله رجاءه فأهلك فرعون وقومه بالغرق، وأنجى بني إسرائيل، وأورثهم الأرض، ومكن لهم فيها.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون وقومه إلى الإيمان، وموقف فرعون وقومه واستكبارهم وتكذيبهم، وتحدثت الآيات هنا عما كان يهمُّ به فرعون وقومه من التشديد على بني إسرائيل والتنكيل بهم، كما بينت خوف بني إسرائيل وشكواهم مما لحق بهم ومما ينتظرهم في الأيام القادمة، وكيف طمأنهم موسى ووعدهم بنصر الله تعالى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشير هذه الآيات إلى عتو قوم فرعون واستكبارهم، حيث لم يكتفوا بالكفر والتكذيب، بل بدأوا يُحَرِّضون فرعون على بني إسرائيل، ويدعونه إلى قتلهم والخلاص منهم، وهكذا تتجلى عداوة الكفار للمؤمنين، فتذكّرنا بما جاء في أول السورة من عداوة الشيطان للإنسان.

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ٢/ ٣٠٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - حين يكون حول الحاكم بطانة فاسدة فإن صلاحه يصبح متعذراً، لأنه لو فكّر في الصلاح لمنعته بطانته، وزينت له الباطل، وجرّأته على الضلال.

٢ - توعّد فرعون أن يُقتِّل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ومع أنه كان يفعل ذلك سابقاً، لكنه يريد تجديد هذا الأمر والتشديد فيه، انتقاماً منهم بسبب مخالفتهم له في العقيدة، وقد اعتزَّ بما لديه من صولة وبطش وسلطان.

٣ - مواجهة الشدائد والابتلاءات تكون بالاستعانة بالله، والصبر على المصائب، ولذلك أمر موسى قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا.

٤ - النصر للإسلام، ووعد الله حق، والعاقبة للمتقين، وعلى المسلم أن يتفاءل ويستبشر ويعمل راجياً أن يحقق الله وعده ويعز جنده.

٥ - حين يمكن الله تعالى للمسلمين في الأرض، ويحقق لهم وعده، فإنه ينقلهم من الابتلاء بالشدائد والمحن إلى الابتلاء بنعمة النصر والتمكين، وعليهم أن يدركوا أن الابتلاء بالنعم أشد وأصعب من الابتلاء بالمحن والشدائد.

سوء عاقبة الكفار، وحسن عاقبة المؤمنين

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١٣٠-١٣٧)**

التفسير الإجمالي للآيات

أقام موسى عليه الصلاة والسلام في قومه بمصر، يربيهم ويعلمهم مما علمه الله، واشتدت وطأة فرعون وقومه على بني إسرائيل، فأخذوا ينكلون بهم ويقتلون أبناءهم، ويسومونهم سوء العذاب، ومن سنة الله سبحانه أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فأصيب آل فرعون بالسنين المجدبة القاحلة حيث كان القحط يعم البلاد وتكثر الآفات، فتجف الزروع وتقل الثمرات وتحصل المجاعات.

وأحياناً تمر بهم أعوام يكثر فيها الخصب، وتزداد الثمرات والمحاصيل، وبدلاً من أن يتعظ هـؤلاء القوم ويتفكروا في قدرة الله وتصريفه الأمور كانـوا إذا جاءتهم النعمة والخصب وكثرة المطر وصلاح الثمرات قالوا: لنا هذه أي أُعطيناها باستحقاق، وهي مختصة بنا، وإن أصابتهم آفة أفسدت زرعهم، وأهلكت ثمارهم، تطيروا بموسى وبمن معه من المؤمنين، وقالوا: هذا

البلاء ما أصابنا إلا بشؤم موسى ومن معه، [١] ولم يدركوا أن ما أصابهم من خير أو شر، وما نالهم من خصب أو قحط هو من عند الله سبحانه، وأن كفرهم وتكذيب موسى هو السبب فيما يصيبهم من بلاء. لقد كانوا لفرط جهلهم ينسبون الخير والشر والنفع والضر إلى غير الله سبحانه.

وبدلاً من أن يراجعوا أنفسهم، ويندموا على ما هم فيه من الكفر والضلال ازدادوا تحدياً لموسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا له: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ، أو بينة لتصرفنا بها عما نحن عليه، فما نحن لك بمصدقين، فقد أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجئ به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر.

وعند ذلك نزلت بهم العقوبة المبينة بقوله عز وجل: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١٣٣)

أرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر الشديد، أو فيضان النيل، أو الموت، وقيل: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل. [٢] والجراد: حشرة معروفة تأكل الزروع والأشجار وتُخربها، والقُمَّل: حشرات صغيرة مؤذية وناقلة للأمراض، والضفادع: جمع ضفدع وهو دابة صغيرة تكون في الماء والمستنقعات، والدم: هو السائل المعروف في الجسم، روي أنه سال النيل عليهم دماً، وقيل: أصيبوا بالرُّعاف فكان الدم ينزف من أنوفهم بكثرة. [٣] وقيل: أرسل الله عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطاً. [٤]

كانت هذه الآيات تأتيهم تباعاً، فتنغص عليهم عيشهم، وتؤذيهم وتزعجهم، ولكنهم لم يتوبوا ولم يتضرعوا إلى ربهم، بل استكبروا وترفعوا عن الإيمان بالله، وكانوا قوما مجرمين لا

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، للبيضاوي ٢/ ٣٠٨، وتفسير النسفي ١/ ٣٨٧.

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤، ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٥.

يهتدون إلى حق، ولا يرجعون عن باطل.

وحين أصابهم العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، قالوا لموسى ادع لنا ربك وأسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك، وحلفوا له الأيمان المؤكدة: لئن كشفت عنا العذاب فسوف نؤمن لك، ونطلق بني إسرائيل ليخرجوا معك حيث تريد.

ولما رأى موسى ما أصابهم، وأعطوه العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه دعا ربه سبحانه فرفع عنهم ذلك العذاب إلى أجل، والأجل: ما جرى في علم الله أن هلاكهم يكون بالغرق. ولكنهم حين رأوا انكشاف العذاب عنهم، وتخلصهم من آلامه ومصاعبه، ظنوا أنه لن يصيبهم مرة أخرى، فعادوا ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، ويتنصلون من العهود التي قطعوها لموسى عليه الصلاة والسلام.

وكانت العاقبة بعد ذلك أن انتقم الله منهم، فأغرقهم حين لحقوا بموسى وبني إسرائيل ليمنعوهم من الخروج، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق، وسار فيه بنو إسرائيل، وتبعهم فرعون وقومه، فلما خرج بنو إسرائيل من الضفة الأخرى كان فرعون وقومه وراءهم في البحر، فانطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً.

ونجّى الله بني إسرائيل، وأورثهم الأرض بعد أن كانوا مستضعفين مستذلين، وتمت كلمة ربك الحسنى، أي مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي وعد الله الوارد في قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥-٦] وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على أملاكهم، وكان هذا الإتمام بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه.

أما قوم فرعون فقد هلكوا، ولم يبق في بلادهم إلا العجزة والنساء والأطفال، وبذلك خربت بلادهم، وزالت دولتهم، كما يبين قوله سبحانه: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ أي أهلكنا وخربنا ما كانوا يصنعونه من العمارات والقصور،

وما كانوا يعرشونه من الجنات التي يرفعون أشجارها على العمد والقضبان. (١)

ولا بد من الإشـارة إلى أن اسـتخلاف بني إسرائيل، والتمكين لهم في الأرض لم يأت بعد هلاك فرعون وقومه مباشرة، وإنما جاء بعد عشرات السـنين، وأنهم لم يرثوا أرض مصر من آل فرعـون، بل كان التمكين لهم في أرض الشـام، وإنما ذكرت الآيات هنا اسـتخلافهم والتمكين لهم في الأرض للمقابلة بما جرى لفرعون وقومه من إغراق وتدمير. (٢)

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السـابقة عن الملأ من قوم فرعـون، وتحريضهم على بني إسرائيل، وتهديد فرعون لبني إسرائيل بمزيد من النكال والقهر والتعذيب، وموقف موسى عليه الصلاة والسلام إزاء ذلـك، حيـث أمر قومه أن يسـتعينوا بالله ويصبروا، وطمأنهـم إلى أن وعد الله بالنصر آتٍ، وفي هذه الآيات بيانُ تَحَقُّقِ وعد الله لبني إسرائيل، وإتمام النعمة عليهم، بعد أن أهلك عدوهم، وأورثهم مشارق الأرض المباركة ومغاربها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السـورة اتصالاً وثيقاً، فمن جهة تعرض نموذجاً من الكفر والاسـتكبار اتصف به فرعون وقومـه، وكيف كان إصرارهم على الكفـر ونقض العهود رغم مـا رأوا من الآيات والمعجـزات، وكيف كانت عاقبتهم الوخيمة وأخذهـم الوبيل. ومن جهة أخرى تعرض نموذجاً للمستضعفين الذين آمنوا بالله واستعانوا به وصبروا، حتى جاءهم نصر الله، وتمت عليهم كلمته الحسـنى بالنصر والتمكين. وفي هذا وذاك إشـارة إلى سـوء عاقبة أهل الكفر، وحسن عاقبة أهل الإيمان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٣٧، والتفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ١٦٧٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من سنن الله تعالى أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء، وأن يوالي عليهم بين النقم والنعم فإصابتهم بالنقم من أجل أن يتذكروا ويضرعوا إلى الله سبحانه، وإصابتهم بالنعم لعلهم يشكرون الله على ما أعطاهم منها.

٢ - كان قوم فرعون إذا جاءتهم الحسنة، فأخصبت بلادهم وكثرت فيها الخيرات، يقولون: لنا هذه، أي أننا نستحقها بما بذلنا من جهد، وأتقنّا من صُنع، وإذا أصابتهم آفة من قحط أو مرض أو فساد في المحاصيل يقولون: هذا كان بشؤم موسى ومن معه. وهذا يعني أنهم لم يلتفتوا إلى الإيمان بالله، ولم يروا أن له أثراً في النفع والضر، ولا شيئاً في تدبير هذا الكون وهذا بسبب استكبارهم وشدة كفرهم.

٣ - كان تحدي قوم فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام يدل على رفض شديد لكل معاني الإيمان، فقد رفضوا جميع الآيات التي يأتيهم بها، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا به ولو جاءهم بأعظم المعجزات.

٤ - أنزلت أصناف من العذاب الشديد على قوم فرعون، حتى رغبوا إلى موسى أن يدعو الله ليكشف الضر عنهم، وأعطوه العهود أن يؤمنوا، ولكنهم سرعان ما نقضوا عهودهم بعد أن رُفع عنهم العذاب، وهذا يؤكد أن الكفار لا يحفظون عهداً، ولا يرعون ميثاقاً.

٥ - وعد الله تعالى لا يتخلف ولا يتأخر، ولكل أجل كتاب، وقد تحقق وعد الله تعالى بإهلاك فرعون وقومه، كما تحقق بنصرة موسى والمؤمنين معه، وجعل العاقبة الحسنى لهم.

٦ - النصر والتمكين لا يكون إلا بالإيمان والتوكل على الله تعالى والصبر والعمل الصالح الدائب، أما القاعدون المتواكلون فلا يمكن أن يعرفوا النصر، ولا أن ينالوا خيراً.

بنو إسرائيل وعبادة الأصنام

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١ ﴾ (الأعراف ١٣٨-١٤١)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن عبر موسى عليه الصلاة والسلام البحر بمن معه من بني إسرائيل، ونجوا من فرعون وقومه، ورأوا كيف أهلكهم الله تعالى، سار بنو إسرائيل فمروا بقوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويُقربون لها القرابين، فقالوا لنبيهم عند مشاهدتهم تلك التماثيل: يا موسى اجعل لنا إلهاً، أي صنماً نعبده كما لهؤلاء القوم أصنام. فأجابهم موسى عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾. وإنما وصفهم بالجهل لأنهم طلبوا عبادة غير الله تعالى، رغم أنهم شاهدوا من آيات الله ما لم يشاهده غيرهم، فكانوا أولى الناس بإخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن الشرك به.

ثم قال لهم موسى: إن هؤلاء القوم العاكفين على الأصنام، واقعون في التبار والخسار والهلاك، وهذا الدين الذي يدينون به هالك فاسد، وكل أعمالهم التي يقومون بها من عبادة للأصنام ضائعة، لا وزن لها ولا قيمة.

ثم سألهم موسى منكراً عليهم ما طلبوا فقال: ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ ﴾؟ أي كيف أطلب لكم غيرَ الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما شاهدتم؟ والحال أنه سبحانه فضلكم على العالمين من أهل زمانكم، بما أنعم عليكم من إهلاك عدوكم، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه

النعم بطلب عبادة غيره؟

واذكروا وقت أن نجيناكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالكين لرقابكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويستخدمونكم في الأعمال، ويذيقونكم أشد العذاب، حيث كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك العذاب الذي كنتم فيه بلاء من ربكم عظيم.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نزول العذاب بفرعون وقومه وإغراقهم في البحر بسبب ما كانوا فيه من الكفر والاستكبار، وبينت كيف أتم الله النعمة على بني إسرائيل، ونجاهم من عدوهم، ورفع عنهم ما كانوا فيه من الإذلال والاستعباد.

وتحدثت الآيات هنا عما جرى لبني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ورأوا ما رأوا من عجيب قدرة الله في فلق البحر لهم، وإهلاك عدوهم، ولكنهم حين مروا على قوم يعبدون الأصنام رغبوا في الشرك ومالوا إليه، وسألوا نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء المشركين آلهة، وعرضت الآيات ردّ موسى على قومه، وتأديبه لهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وهم - رغم إيمانهم واتباعهم لموسى عليه الصلاة والسلام - قد مالوا إلى الشرك ورغبوا فيه، ولولا وجود نبيّهم بينهم يوجههم ويربيهم لانحرفوا عن الإيمان شأنهم شأن كثير من الأمم التي سبق ذِكرُها.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كانت نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه آيةً عظيمةً من آيات الله سبحانه، فقد فلق لهم البحر حتى جاوزوا إلى ضفته الأخرى، وأهلك أعداءهم حين حاولوا العبور وراءهم.

٢ - للأصنام والمعبودات وقعٌ وأثرٌ كبير في حياة غالبية بني إسرائيل، ولعل اختلاطهم - لمدة

طويلة - بالمصريين الذين كانوا يعبدون الأصنام، قد رسخ في نفوسهم حُبَّ عبادتِها.

٣ - أدّب موسى عليه الصلاة والسلام قومه مبيناً لهم فساد معتقد أولئك الذين يعبدون الأصنام، ومنكراً عليهم أن يبتغوا إلهاً غير الله سبحانه، ومذكراً ببعض النعم التي أنعمها الله عليهم، وفي هذا ما فيه من تربيتهم على الإيمان والتقوى، وردّهم إلى جادّة الهداية.

٤ - على المسلم أن يقابل نعم الله تعالى بالشكر والعرفان، وأن تكون النعم حافزة له على الطاعة والتقوى، رادعة له عن الوقوع في الذنوب والمعاصي.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنَين، فمررنا بِسدرة، فقلت: يا رسول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم». [1]

(١) مسند أحمد ٤٤/ ٣٧١، رقم ٢٠٨٩٥، حديث أبي واقد ﷺ، وسنن النسائي الكبرى ٦/ ٣٤٦ رقم ١١١٨٥، باب: سورة الأعراف، وسنن الترمذي ٨/ ٩٣ رقم ٢١٠٦، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم.

مجيء موسى للميقات

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١٤٢-١٤٧)**

التفسير الإجمالي للآيات

أكرم الله سبحانه نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بأن واعده، وجعل لموعده مدة ثلاثين ليلة، ثم تممها بعشر فصارت أربعين ليلة، قيل: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة، وكان التكليم في يوم النحر، [1] فلما أراد موسى المسير لمناجاة ربه سبحانه طلب من أخيه هارون عليه الصلاة والسلام أن يكون خليفته في بني إسرائيل، وأوصاه أن يصلح أمْر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم، والبعد عن كل ما يضر بهم ويفسد أحوالهم.

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٧٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٣/ ٤٦٨، وقد نقل ابن كثير هذا القول عن جمهور المفسرين، وأنه مروي عن ابن عباس، ومجاهد ومسروق وابن جريج.

ومضى موسى للميقات، حتى وصل في الوقت الموعود، وهناك كلمه الله سبحانه فأسمعه كلامه من وراء حجاب، فطلب موسى من ربه سبحانه النظر إليه، اشتياقاً إلى رؤيته لَمَّا أسمعه كلامه، وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها. فقال له الله سبحانه: لن تراني، وهذا يفيد أنه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بأحاديث كثيرة، سيأتي ذكر شيء منها.

ثم أمره الله سبحانه أن ينظر إلى الجبل، ليرى ماذا سيحصل له، فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسيتحقق لموسى ما طلب من رؤية الله، فلما تجلى[1] الله سبحانه للجبل جعله دكاً، أي: مدكوكاً مدقوقا فصار تراباً، وسُوّي بالأرض، فلما رأى موسى ذلك سقط مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة، التي حدثت عن انهيار الجبل، فلما أفاق من غشيته قال: سبحانك، أي أنزهك تنزيهاً عن أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به، تُبْتُ إليك عن مثل هذا السؤال.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون. [2]

وبعد أن أفاق موسى من الصعقة كلمه الله سبحانه مبيناً له أنه اصطفاه واختاره على الناس بما أوحى إليه من الرسالة، وبأنه كلمه من وراء حجاب، وامتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل، واختصاصه بما اختصه الله به.

وقد أنزل الله عليه الألواح وفيها التوراة المتضمنة لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم

---

(١) تجلى: معناه ظهر، من قولك: جلوتُ العروس أي أبرزتها، وجلوتُ السيف: أخلصته من الصدأ، وتجلى الشيء: انكشف. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٨٨-٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد للقرطبي ١/ ٢١٩٣.

ودنياهم، والألواح جمع لوح، وسُمِّيَ لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وهي مكتوبة بأمر الله سبحانه، ومشتملة على المواعظ لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، والتفصيل للأحكام التي تحتاج إلى التفصيل والبيان، وأمره أن يأخذها بقوة وجد ونشاط، فيعمل بها، ويأمر قومه أن يعملوا بها، ويأخذوا بأحسن ما فيها، أو بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر:٥٥]، ووعد الله سبحانه أن يريهم منازل الفاسقين في النار يوم القيامة، وما يؤول إليه أمرهم من العذاب، وفي هذا توجيه لالتزام الحق، وتحذير من المخالفة والانحراف.

ثم بين الله سبحانه ما سيلاقي المتكبرون المعاندون من العذاب فقال: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: سأمنعهم فهم آياتي، وأصرفهم عن الإيمان بها والانتفاع بها جزاء لهم على تكبرهم، كما في قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥] أو: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها. والآيات هي المعجزات، أو الكتب المنزلة، أو خلق السموات والأرض.. وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها، والمعنى: سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، والذين إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد[1] تركوه وتجنبوه، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغي سلكوه واختاروه لأنفسهم، وإنما استحقوا ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو كان ذلك التكبر عندهم بسبب عدم إيمانهم بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي والضلال.

هؤلاء المكذبون بطلت أعمالهم بعد أن كانوا يرجون نفعها، والجزاء من جنس العمل، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون من الكفر بالله، والتكذيب بآيات الله، وتنكب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي؟

(١) أصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الغي والخيبة. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٩١.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه، وعبورهم إلى الضفة الأخرى، وكيف سارعوا إلى مطالبة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام بأن يجعل لهم إلهاً يعبدونه، وكيف رد موسى عليهم.

وذكرت الآيات هنا نعماً كثيرة أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد واعد موسى عليه الصلاة والسلام وكلمه وأنزل عليه التوراة فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من الشرائع والأحكام وبينت الآيات أن الله تعالى اصطفى نبيه موسى بالرسالات والتكليم، وفي هذا إعلاء لشأن بني إسرائيل، وإتمام للنعمة عليهم، ولذلك أُمر موسى أن يأمر قومه بالأخذ بأحسن ما جاءهم به من الهدى والعلم، والتمسك بالحق، حتى لا يصيبهم ما يصيب الفاسقين المعرضين عن الدين والهدى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وأن الله سبحانه أعطى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ما أعطاه من التوراة المشتملة على الشرائع والأحكام لهداية قومه وإرشادهم إلى الحق، وإبعادهم عن كل ما يوقعهم في العذاب، ووعدهم أن يريهم دار الفاسقين، وما سيصيبهم من العذاب والنكال، وفي هذا بيان واضح وتحذير من الانحراف عن سبيل الحق وطريق الهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - تشير الآيات إلى أهمية الاستخلاف، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يترك قومه بلا راع يرعى شؤونهم، بل استخلف أخاه هارون، وأوصاه أن يرعى شؤونهم، ويربيهم على ما يصلحهم وينفعهم. وبمثل هذا كان النبي ﷺ يعمل، فإذا خرج من المدينة لسفر أو غزو استخلف عليها أحد أصحابه.

٢ - رؤية الله تعالى في الدنيا ممكنة، ولكن الله سبحانه قضى أن لا تكون لأحد إلا في الآخرة، فتكون للمؤمنين، والدليل على إمكانها في الدنيا أن الله سبحانه أجاب موسى بقوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾، واستقرار الجبل مكانه من الأمور الممكنة، وتعليق الرؤية على ممكن دليل على أن تحققها ممكن.

٣ - كان انهيار الجبل وتسويته بالأرض من الأمور الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته، ولم يتحمل موسى عليه الصلاة والسلام رؤية الجبل وهو يندك، فخر صعقاً، فكيف يتحمل رؤية الله تعالى؟

٤ - توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليست من اقتراف الذنوب، فالأنبياء معصومون ولكن هذه التوبة زيادة في القرب من الله تعالى، واعتراف بعظيم حقه على خلقه، كما أنها دليل على ترقي الأنبياء في الدرجات، فكلما وصلوا إلى درجة من درجات الكمال نظروا إلى الدرجة التي كانوا فيها من قبل، فاستغفروا.

٥ - الله سبحانه يصطفي من يشاء من عباده، ويفضل من يشاء من رسله وأنبيائه فيرفعهم درجات، وقد اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من الرسالة، وبتكليمه إياه من وراء حجاب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٦ - قوله تعالى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ فيه إشارة إلى أن على المسلم أن يستمع ليأخذ أحسن القول ويتبعه، وأن يتبع أحسن الفهم، ويسعى إلى أحسن العمل. فالمسلم يسعى إلى الأحسن دائماً.

٧ - الله سبحانه يتوعد الفاسقين والمتكبرين المعرضين عن الحق، بأن يصرفهم عن آياته، ويحرمهم من هداياتها، وفي هذا إشارة إلى عظم نعمة الله على المسلم أن هداه الله إلى اتباع الحق، وأنعم عليه بسلوك سبيل الإيمان. والله سبحانه لم يظلم هؤلاء الفاسقين حين صرفهم عن الهدى، بل هم ظلموا أنفسهم بالصدّ والإعراض، فاستحقوا أن يُعاقبوا بالمنع والحرمان.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جرير قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - يعني البدر - فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[1] قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم.

وفي رواية عنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][2]

عن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور». [3]

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٢٠٣، رقم ٥٢٩.
(٢) صحيح مسلم - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٣.
(٣) صحيح البخاري ١٢/ ٨٣، رقم ٣٣٩٨.

بنو إسرائيل وعبادة العجل

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٤٨-١٥٩)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن ذهب موسى عليه الصلاة والسلام للميقات اتخذ قومه من حليهم والمجوهرات التي كانت معهم عجلاً، صنعه له رجل منهم يقال له السامريُّ، وجعله على هيئة العجل، له صوت كصوت البقر، وزين لهم أن هذا هو إلههم، فاستجاب عامة بني إسرائيل لهذا التزيين، وأقبلوا على العجل يعبدونه، رغم أنهم يعرفون أنه مصنوع من الذهب والحلي، وأنه لا يتكلم ولا يملك لنفسه شيئاً، ولا يستحق أن يكون إلهاً يُعبَد، لكنهم ظلموا أنفسهم، وأقبلوا على عبادة العجل، متنكرين لنعم الله عليهم، ومعرضين عن هديه وشرعه.

ولكن هؤلاء القوم ندموا وتحيروا بعد رجوع موسى عليه الصلاة والسلام من الميقات،[1] وعرفوا أنهم كانوا في ضلال باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتُلوا بمعصية الله سبحانه، فأعلنوا ندمهم وتوبتهم قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله، والتضرع والابتهال في السؤال.

ورجع موسى إلى قومه مغضباً شديد الغضب، وذلك أن الله سبحانه أخبره قبل رجوعه بأن قومه قد فُتنوا بعبادة العجل، فأخذ موسى يلومهم ويوبخهم قائلاً: بئسما خلفتموني من بعدي، أي بئس العمل الذي عملتموه من بعد غيبتي عنكم، فقد استنكر عليهم ما فعلوه وذمَّهم لكونهم عبدوا العجل بعد ما شاهدوا من الآيات ما يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، أعجلتم عن انتظار أمر ربكم وميعاده الذي وعدنيه، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؟ وكان يحمل الألواح بيديه فطرحها من شدة الغضب والأسف، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وأخذ برأس أخيه هارون عليه الصلاة والسلام، يجره إليه، لظنه أن هارون لم ينكر على السامري وبني إسرائيل عبادتهم العجل، فقال هارون معتذراً مستعطفاً: يا ابن أم

---

(١) يقال للنادم المتحير: قد سُقط في يده، والندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن، لأن النادم يعضُّ يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى. انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٩٤، وروح المعاني للآلوسي ٦/ ٣٦٧.

إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، ولم أُطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين؛ استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي، فلا تُشمت بي الأعداءَ، ولا تجعلهم يفرحون بما يصيبني على يدك،[1] والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، ولا تجعلني - بغضبك علي - في عداد القوم الظالمين الذين عبدوا العجل.

عندئذ توجه موسى إلى ربه طالباً المغفرة له ولأخيه هارون، وأن يدخلهما الله في رحمته، وهو أرحم الراحمين.

ويأتي التعقيب القرآني على القصة مبيناً أن الذين عبدوا العجل، سيصيبهم غضب من الله وذلة في الحياة الدنيا، وهذا ما حدث لهم حيث أُمروا بقتل أنفسهم، كما بينت سورة البقرة، والذلة هي التي ضربها الله عليهم وسلط عليهم من الأعداء من يسومهم سوء العذاب.

لكن الذين وقعوا في هذه المعصية ثم تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه، وعادوا إلى الإيمان فالله سبحانه غفور رحيم، يقبل توبتهم ويعفو عنهم.

ولما سكت عن موسى الغضب، وهدأت نفسه أخذ الألواح التي كان ألقاها،[2] وهذه الألواح في نسختها هدى ورحمة للمؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه: نُسخة، وللمنقول نُسخة أيضاً، والمعنى:

---

(١) الشماتة: سرور الإنسان بما يصيب عدوه من المصائب، ومنه قوله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء" ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

انظر: روح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٧٢، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٦٨.

(٢) أصل السكوت: السكون والإمساك، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك.. فترك الإغراء وسكت، ولهذا جاء التعبير القرآني: (ولما سكت عن موسى الغضب).

فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة، أو: وفيما كُتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، والهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة.

ثم أورد القرآن حادثة أخرى، بينت ما كان من موسى عليه الصلاة والسلام والسبعين الذين اختارهم، وهم أفضل قومه، ليسير بهم إلى الميقات الذي وَقَّته الله له بعد أن وقع من قومه ما وقع، فقد أمره الله تعالى أن يأتي إلى الطور في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل، فلما أقبلوا مع موسى عليه الصلاة والسلام قالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [البقرة:٥٥]، وكان في طلبهم هذا ما فيه من قلة الأدب، حيث أعلنوا امتناعهم عن الإيمان لموسى إلا إذا رأوا الله تعالى جهرةً، فأرسل الله عليهم الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة، فزُلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى ما أصابهم قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي والمعنى: لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت، اعترافاً منه عليه السلام بالذنب، وتلهفاً على ما فرط من قومه. والاستفهام في قوله ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ للجحد والإنكار، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، فكأنه قال: رب لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت، ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال: أنت ولينا المتولي لأمورنا، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، وأنت خير الغافرين للذنوب.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بإفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق، واكتب لنا في الآخرة الجنة، إنا تبنا إليك، ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل، ومعنى الهَوْد: التوبة.

ثم أخبر الله سبحانه أنه القادر على كل شيء، فهو يصيب بعذابه من يشاء، ورحمته وسعت كل شيء، وسيكتب هذه الرحمة الواسعة للذين يتقون ربهم، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم ويؤمنون بآيات الله سبحانه.

ثم بين سبحانه صفات هؤلاء الذين يشملهم برحمته، بأنهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي[1] محمداً عليه الصلاة والسلام، الذي يجدونه - يعني اليهود والنصارى - يجدون نعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل، فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وَصَفَ هذا النبيَّ الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف، أي: بكل ما تعرفه الشريعة ولا تنكره من مكارم الأخلاق وينهاهم عن المنكر، أي: ما تنكره الشريعة ولا تعرفه، وهو ما كان من مساوئ الأخلاق، ويحل لهم الطيبات من الرزق، ويحرم عليهم الخبائث كالحشرات والخنازير، ويضع عنهم إصرهم والإصر: الثقل، والمعنى: يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة التي كانوا قد كُلفوا بها. فمن آمن بهذا النبي محمد ﷺ، واتبع ما جاء به من الشرائع، وعظمه ووقره ونصره على من يعاديه، وآمن بالقرآن الذي أنزل عليه، فهو من الفائزين بالخير والفلاح.

لقد تضمنت هذه الآيات بشارة بسيدنا محمد ﷺ، كما أشارت إلى الإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل بمئات السنين.

وبعد أن ذكرت الآيات بعض أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره الله سبحانه أن يقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، وهذا القول يقتضي عموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنهم كانوا يُبعثون إلى قومهم خاصة، لكن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس جميعاً، فالله الذي له ملك السماوات والأرض، لا ينازعه في ذلك أحد، المتفرد بالألوهية، وبالإحياء والإماتة هو الذي أرسله إليكم، يدعوكم إلى الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا دعوة إلى الإيمان بالله وحده، والإيمان بنبيه محمد عندما يُبعث، وإشارة إلى بعض صفاته.

والمراد بالكلمات ما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء من قبله، أو القرآن.

---

(١) الأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب وهم العرب، أو نسبة إلى الأم، والمعنى: أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل: نسبة إلى أم القرى وهي مكة المكرمة.

ولما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، أخبر سبحانه أن من قوم موسى أمةً مخالفةً لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، فهم يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق، وبالحق يعدلون بين الناس في الحكم، وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الحق من أهل الكتاب، ومنهم من أدركوا النبي محمداً ﷺ وآمنوا به واتبعوه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الميقات، وتكليم الله لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وما آتاه من الكرامة، وتحدثت الآيات هنا عما فعله بنو إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل وموقف موسى لما رجع إليهم، وبينت ندمهم وتوبتهم، كما أشارت إلى أن من التزموا بعهد الإيمان، والذين عملوا السيئات ثم تابوا فإن الله سيرحمهم ويتوب عليهم، ولكن عليهم أن يتبعوا النبي الأمي الذي بشرت به التوراة والإنجيل، إذا هم أدركوا زمانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات اتصالاً محكماً وثيقاً بموضوع السورة، حيث تبين أن بني إسرائيل في هذه المرحلة انحرفوا عن الدين القويم، فعبدوا العجل، لكنهم تابوا وعادوا إلى الإيمان، وهذا يذكّر بأن الإنسان عرضة للزلل والخطأ، بسبب وسوسة الشيطان وهوى النفوس، ولكن فرقٌ بين من يستمر على خطئه وعصيانه، وبين من يتوب ويرجع إلى الله نادماً منيباً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان تأثر بني إسرائيل بأهل مصر كبيراً، فعبادة البقر معروفة ومألوفة عند قدماء المصريين، حيث عبدوا العجل (أبيس)، وهؤلاء اليهود قلدوهم في عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري.

٢ - عكف بنو إسرائيل على عبادة العجل، ورفضوا الاستجابة لهارون عليه الصلاة والسلام ولكن لما رجع إليهم موسى عليه الصلاة والسلام ندموا على ما وقعوا فيه من الضلال،

وأعلنوا توبتهم وندمهم.

٣ - كان موقف موسى عليه الصلاة والسلام دالاً على غضبه مما فعل قومه، فهو يغضب لله لا لنفسه، ومن أمارات غضبه أنه ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وأخذ يوبخ قومه ويلومهم على ما فعلوا. ويؤخذ من هذا أن المسلم يجب أن يكون غضبه لله تعالى، لا لنفسه.

٤ - تدل الآيات على سعة رحمة الله تعالى، وأنه يقبل توبة التائبين، ويعفو عن المذنبين إذا ندموا وأنابوا، وفي هذا فتح لباب التوبة أمام كل عاصٍ ومذنب.

٥ - كان موقف السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام - وهم خيار بني إسرائيل - موقفاً يدل على ضعف الإيمان في نفوسهم، حيث طلبوا رؤية الله تعالى، وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم.

٦ - بُشر موسى عليه الصلاة والسلام ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأعلمه الله أنه سينزل الإنجيل أيضاً، وسيكون النبي الخاتم مكتوباً في التوراة والإنجيل بأهم صفاته، وفي مقدمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، والتيسير على الناس في التشريعات والعبادات.

٧ - كما أشارت الآيات إلى أن النبي الخاتم سينزل عليه نور من ربه، وقد وُصف القرآن في مواضع أُخَر بأنه نور.

٨ - أُمر النبي محمد ﷺ أن يُعلن للناس أنه رسول الله إليهم جميعاً، ليتبين الفرق بينه وبين سائر الأنبياء السابقين، فقد كانوا يُبعثون إلى أقوامهم خاصة، وبُعث النبي ﷺ إلى الناس كافّة.

٩ - لم يكن بنو إسرائيل جميعاً سواءً في الضلال والانحراف، بل كانت منهم طائفة التزمت بالحق، فهم يهدون به وبه يعدلون، وهؤلاء يستحقون أن يُثني الله عليهم، ويخلد ذكرهم في كتابه.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل خلق مائة رحمة؛ فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، فبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». (١)

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلَتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعثت إلى الناس كافةً، وأُعطيتُ الشفاعةَ». (٢)

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صدقتَ». (٣)

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا». (٤)

---

(١) مسند أحمد ٤٨/ ٢٢٩، رقم ٢٢٦٠٥، وصحيح ابن حبان ٢٥/ ٣٣٦، رقم ٦٢٥٣، عن أبي هريرة، ومسند أبي يعلى ١١/ ٢٥٨، رقم ٦٣٧٢، عن أبي هريرة أيضاً.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ١٦٨، رقم ٤٢٧.

(٣) صحيح البخاري ١٥/ ٢٣٤، رقم ٤٦٤٠، باب: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

(٤) صحيح البخاري - دار ابن كثير ٢/ ٧٤٧، رقم ٢٠١٨.

من مخالفات بني إسرائيل وانحرافاتهم

سورة الأعراف (١٦٠-١٧١)

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه قطَّعَ بني إسرائيل، أي صيرهم قطعاً متفرقة، وميَّزَ بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً، [١] كل سبط معروف على انفراده، ولكل سبط نقيب كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة:١٢]، فصاروا اثنتي عشرة أمةً من اثني عشر ولداً، وقد أصابهم العطش في التيه، فجاءوا إلى موسى يستسقونه، فسأل الله تعالى أن يسقيهم فأوحى الله إليه: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ فضرب الحجرَ، فانبجست، أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها، قد علم كل سبط منهم العين المخصصة ليشرب منها، فكانت هذه من النعم العظيمة التي أكرمهم الله بها، كما أنعم عليهم بنعمة تظليلهم بالغمام، يسير بسيرهم، ويقيم بإقامتهم، يقيهم من حر الشمس في تلك الأرض الخلاء المكشوفة، وأنزل عليهم طعاماً من أطيب الطعام وأجوده، هو المن والسلوى، فالمن نبات أو ثمر طيب الطعم، والسلوى طائر لحمه طيب، [٢] وأذن لهم الله أن يأكلوا من هذه الطيبات المستلذات التي رزقهم، لكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، بل ظلموا أنفسهم بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم.

ثم تنتقل الآيات لتذكر حادثة أخرى وقعت لبني إسرائيل، بعد أن انقضت مدة التيه حيثُ قيل لهم اسكنوا هذه القرية، أي بيت المقدس أو أريحاء، وكلوا من المأكولات الموجودة فيها حيث شئتم، وفي أي مكان شئتم منها، ولكن قولوا - وأنتم تدخلونها -: يا ربنا حُطَّ عنا خطايانا، وادخلوا باب القرية المشار إليها حال كونكم سجداً، أُمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة

---

(١) والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، وأراد بالأسباط القبائل ولهذا أنث العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشا كلها عشر أبطن ... وأنت بريء من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة، وسماهم أمماً لأن كل سبط كان جماعةً كثيرة العدد. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٦، وروح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٩٩.

(٢) وفي معنى المن والسلوى أقوال عديدة للمفسرين، انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ١/ ٦٨، وروح المعاني للآلوسي ١/ ٣٢٥.

وبين الدخول ساجدين، فإنكم إن فعلتم ذلك سيغفر الله لكم خطيئاتكم وذنوبكم، وسيزيد المحسنين منكم على المغفرة لخطاياهم، بما يُنعم به عليهم من النعم.

لكن هؤلاء القوم بدلوا القول، وغيروا الكلام، ورفضوا الاستجابة للأمر، فاستحقوا أن يُرسِل الله عليهم عذاباً من السماء يهلكهم ويقضي عليهم. وقد أصاب العذابُ المخالفين وأهلكهم.

ولم تكن تلك المخالفة فريدة في تاريخهم، بل كانت حياتهم حافلة بمثل تلك المخالفات والانحرافات، ومن ذلك ما حصل من أصحاب القرية التي على ساحل البحر، [١] فاسألهم عن هذه الحادثة التي عصوا فيها أمر الله سبحانه، وقصة ذلك أن أهل تلك القرية كانوا يصيدون الحيتان في البحر، لكنهم تجاوزوا حدود الله، بالصيد يوم السبت[٢] الذي نُهوا عن الصيد فيه، فقد كانت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعاً ظاهرة على الماء، قريبة من الشاطئ، بحيث يسهل صيدها، وفي بقية الأيام تبتعد هذه الحيتان، وتذهب في عرض البحر، وكان هذا ابتلاءً من الله لهم.

ولما رأى اليهود ذلك أخذوا يفكرون في طريقة تمكنهم من أخذ الحيتان وصيدها، فحفروا حياضاً، ووضعوا حواجز، فكانت الحيتان تدخل في تلك الحياض يوم السبت، فيغلقونها بالحواجز، وتبقى الحيتان حبيسة، فيأخذونها يوم الأحد. [٣]

وأمام هذا العدوان على حرمة السبت، والاحتيال على شرع الله تعالى، قامت جماعة من صالحي أهل القرية بوعظ هؤلاء العصاة، وتخويفهم من عذاب الله تعالى، وأخذوا يرددون عليهم الوعظ والتذكير، لكن جماعة أخرى من أهل القرية قالوا لمن كانوا يجتهدون في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة وإقلاعهم عن المعصية: لم تعظون قوماً الله

---

(١) اختُلف في هذه القرية، فقيل: أيلة، وقيل: طبرية، وقيل: مدين، وقيل غير ذلك. انظر: زاد المسير ٣/ ٤٦، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٣١.

(٢) السبت: هو اليوم المعروف، وأصله السكون، يقال: سبت إذا سكن، وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٧.

(٣) انظر: تفسير الخازن ٣/ ١١٥.

مهلكهم، ومُنزلٌ بهم العقوبة، أو معذبهم عذاباً شديداً بسبب اعتدائهم في السبت، وتجاوزهم الحدود؟ فردَّ عليهم الواعظون: إننا نفعل ذلك معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتعظون ويكفون عما هم فيه من العصيان والاعتداء.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق؛ فرقة عصت وصادت الحيتان يوم السبت، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية: لم تعظون قوماً؟ يعني: الفرقة العاصية. الله مهلكهم أو معذبهم، قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة، أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الفرقة الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون.[1]

لكن العصاة من أهل القرية أعرضوا، وتركوا ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر، وتمادوا فيما هم فيه من العصيان والعدوان، وعندئذ قضى الله سبحانه بإنزال العذاب عليهم، فنجَّى الفرقة التي نهت عن المنكر، وحذَّرت من عاقبته، وأخذ الذين ظلموا، وهم العصاة المعتدون في السبت، والساكتون عنهم الذين لم ينهوهم عن المنكر بعذاب شديد، بسبب فسقهم وظلمهم، وكان هذا العذاب أن مسخهم الله تعالى، فصاروا قردةً، وقضى عليهم بالذلة والصغار والطرد من رحمته.

وقد تأذن الله[2] سبحانه أن يبعث على بني إسرائيل، في كل مدةٍ إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب، فهو سبحانه سريع العقاب، قادر أن يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء، وهو سبحانه غفور رحيم، يغفر لمن تاب، ويرحم من أناب إليه.

ثم أخبر الله سبحانه أنه قضى بتفريق بني إسرائيل في جوانب الأرض، وتشتيت أمرهم فصاروا أمماً منهم الصالحون الذين اتبعوا الحق ولم يحرفوا ولم يغيروا، ومن هؤلاء من آمن بمحمد

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٨.

(٢) تأذَّنَ تفعَّلَ، من الإيذان وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذنَ بالمد: أعلم، وأذَّنَ بالتشديد: نادى. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١١٢.

ﷺ ودخل في الإسـلام، ومنهم أناس دون ذلك، والمراد بهؤلاء من لم يسـتقيموا، بل استمروا في المخالفة والعصيان، وابتلاهم الله بالخير والشر، والسراء والضراء، رجاء أن يرجعوا عما هم فيه مـن الكفـر والمعاصي. فخلف من بعدهم خلْف، هم أولادهـم وذرياتهم، [1] ورثوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها، بل يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا[2] لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، يتعجلون مصالحها بالرشـا والسـحت في مقابل تحريفهم لكلمات الله، وتهوينهم للعمـل بأحكام التـوراة، وكتمانهم لما يكتمونـه منها، ويأخذون عرض الشيء الدنيء السـاقط، ويقولون سـيُغفر لنا، فهم يعللون أنفسـهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة، وعدم رجوعهم إلى الحـق، وإذا أتاهـم عرض مثل العرض الـذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالـين بالعقوبة، ولا خائفـين مـن التبعة، مع أنه قد أُخذ عليهم ميثاق الكتـاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، لكنهم تركـوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أنهم قد درسـوا ما في الكتاب وعلموه فكان التَّركُ منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً، وقيل: معنى درسوا ما فيه: مَحْوُهُ بترك العمل به. والدار الآخرة خير من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها.

وفي الوقت الذي كان عامة بني إسرائيل لا يتمسكون بالتوراة، ولا يعملون بما فيها، مع كونهم قـد درسـوها وعرفوها، فقد وُجدت طائفة منهم يتمسـكون بالتوراة ويعملون بـما فيها، ويرجعون إليها في أمر دينهم، ويقيمون الصلاة، وهؤلاء هم المصلحون الذين لا يضيع أجرهم عند الله.

---

(١) قيل: الخَلْفُ بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء، والخَلَفُ بفتح اللام: البَدَلُ، ولداً كان أو غيرَه، وقيل: الْخَلَفُ بالفتح: الصالح، وبالسكون: الفاسد. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجربِ

انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٠.

(٢) (يأخذون عرض هذا الأدنى) الأدنى مأخوذ من الدنو وهو القُرب، أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا، وقيل: إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط. انظر: فتح القدير، للشوكاني ١١٣/٣.

ثـم تتحـدث الآيات عـن صورة جديدة مـن مخالفات بنـي إسرائيل، فقد رفـع الله الجبل فوقهم حتى صار كأنه لارتفاعه سـحابة تُظلهم، والظلة اسم لكل ما أظل، وظنوا أنه واقع بهم ساقط عليهم، فكان رفع الجبل فوقهـم لتخويفهم من العصيان والانحراف، وقيل لهم: خذوا الكتاب بقوة وجدٍّ وعزيمة، واذكروا ما فيه من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تنسوه رجاء أن تتقوا ما نُهيتم عنه، وتعملوا بما أُمرتم به.

عن ابن عباس قال: إنّي لأعلم خَلْقِ الله لأيِّ شيء سـجدت اليهود على حَرْفِ وُجوههم: لما رفـع الجبل فوقهم سَـجَدُوا، وجعلوا ينظـرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهـم. قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنَّة. [1]

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السـابقة عن ذهاب موسـى عليه الصلاة والسـلام إلى الميقات، وما فعله قومـه مـن عبادة العجل، ورجوعه إليهـم، وما جرى بينه وبينهم، وتوبتهـم وندمهم، كما بينت أن الله سـبحانه يقبـل توبـة التائبين، وذكرت من صفاتهـم أنهم يتبعون الرسـول النبي الأمي.. وجـاءت الآيـات هنا تذكر بعـض الجوانب مـن تاريخ بنـي إسرائيل وانحرافاتهـم ومخالفاتهم فذكـرت جحودهـم نعم الله، وتبديلهـم القول الذي قيل لهم، وما أصابهم من العذاب بسـبب ذلك، ثم ذكرت اعتداءهم في السـبت، والعقوبة التي نالتهم، وبينت ما جرى لهم من تقطيع في الأرض، وأن الله قضى أن يبعث عليهم من يذيقهم سوء العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصـل هذه الآيات بموضوع السـورة اتصالاً وثيقاً، فهي تتحدث عن حلقة واسـعة من تاريـخ بني إسرائيل، الذين سـجلوا انحرافات خطيرة عن طريق الإيـمان، فعبدوا العجل مرةً، وبدلـوا القـول الذي قيـل لهم مرةً أخرى، واعتدوا في السـبت، واحتالوا عـلى تعاليم الشريعة،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٢١٨، رقم ١٥٣٣٣.

وكل ذلك بسبب اتباع هوى النفوس ووساوس الشيطان.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة، فقابلوها بالجحود والكفران، فاستحقوا الحرمان منها، والعقوبة على ما بدر منهم.

٢ -كان كثير من هذه النعم من المعجزات الخارقة، كانفجار العيون من الحجر، وإنزال المنّ والسلوى، وتظليل الغمام لهم، وكان هذا أدعى لأن يؤمنوا ويلتزموا، ولكنهم ازدادوا جحوداً وظلماً.

٣ - الاعتداء على حدود الله، وانتهاك حرمات الدين سبب في حلول العقاب ونزول العذاب، والتحايل على الشرع - كما فعل الذين اعتدوا في السبت - ظلم وتجاوز لحدود الله.

٤ - للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية عظيمة في حفظ المجتمعات من غضب الله تعالى والوقاية من الدمار والهلاك، فأهل القرية التي كانت حاضرة البحر لو أطاعوا الذين كانوا ينهونهم عن المنكر لما أصابهم العذاب.

٥ - يستفاد من قصة أصحاب السبت، وغيرها مما جرى لبني إسرائيل، تعريفهم بأن ذلك مما أُخبر به رسول الله ﷺ، وأن ذلك لا يكون إلا بالوحي له من الله سبحانه، فيكون دليلا على صدقه.

٦ - كتب الله على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، وتأذن بأن يبعث عليهم في كل مدة من يذيقهم العذاب، وذلك بسبب مخالفاتهم وظلمهم وانحرافهم، وفي هذا تحذير للمسلمين من الانحراف والعصيان.

٧ - كثيراً ما يعتمد الناس على الوعد بالمغفرة، ويقعون في الحرام وهم يمنُّون أنفسهم بأن الله سيغفر لهم، وهم بهذا يتجرؤون على أكل الحرام وأخذ السحت، وفي هذا هدم للمجتمعات، وتعريضها للعذاب الشديد. كما أن فيه نقضاً للعهد والميثاق، وتضييعاً للشرع.

٨ - ورغم كل المخالفات التي ارتكبها بنو إسرائيل، فإن طائفة منهم كانوا حريصين على التمسك بكتاب الله، والأخذ بأحكامه، وهؤلاء هم المصلحون الذين يؤتيهم الله أجرهم ويجزيهم أحسن الجزاء.

من الأحاديث والآثار الواردة في تفسير الآيات

عن سعيد بن زيد: عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاءُ العين». [١]

عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». [٢]

ومعنى لم يخنز اللحم: لم ينتن، وقيل: سبب ذلك أنهم نُهوا عن ادخار السلوى فادخروه، فأنتن. [٣]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه قد غشيهم فسقطوا سجداً على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا: ما سجدة أحب إلى الله تعالى من سجدة كشف بها العذاب عنكم، فهم يسجدون لذلك على شق فذلك قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾. [٤]

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾. فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة». [٥]

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠٠، رقم ٤٣٦٣، باب: المن والسلوى.

(٢) صحيح البخاري ١١/ ٤٨٨، رقم ٣٣٣٠، باب خلق آدم عليه الصلاة والسلام.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٣٦٧، دار المعرفة - بيروت.

(٤) المستدرك على الصحيحين - دار الكتب العلمية ٢/ ٣٥٢، رقم ٣٢٥٢. وقال الحاكم: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠١، رقم ٤٣٦٥، باب: وقولوا حطة.

عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) فقال: أقوام يُقبلون على الدنيا فيأكلونها، ويتبعون رخص القرآن، ويقولون سيُغفر لنا، ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه». (١)

أخذ الميثاق على بني آدم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٧٢-١٧٨)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أخرج ذرية بني آدم من أصلاب آبائهم نسلاً بعد نسل وأشهدهم على أنفسهم بأن دلَّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وقيل: المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، والراجح أن المراد ببني آدم هنا آدم نفسه، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم

---

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور، لجلال الدين السيوطي ٤/ ٣٥٦، وفتح القدير ٣/ ١١٤.

الذر، فقد ثبت ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على جماعة من الصحابة، كما سيأتي.

وحين أخرج الله هذه الذرية أشهدهم على أنفسهم، أي أشهد كل واحد منهم قائلاً لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأنك ربنا. وكان هذا الإشهاد لئلا تقولوا أيها الناس يوم القيامة: إنا كنا غافلين عن أن الله ربُّنا وحده لا شريك له. ولئلا تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم فتقولوا: أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك، وكنا ذرية من بعدهم لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب، أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا؟ لقد بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلُّوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة.

ومثل ذلك التفصيل يفصل الله الآيات، ولعلهم يرجعون إلى الحق، ويتركون ما هم عليه من الباطل.

وبعد بيان خبر هذا العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، جاءت قصة هذا الرجل الذي أوتي العلم، وأُخذ عليه العهد والميثاق كما أُخذ على الذين أوتوا العلم أن يبلغه ويقوم بحقه، ولكنه نقض العهد، وخان الأمانة.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وإيراد هذه القصة منه سبحانه، وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، فهذا الرجل انسلخ من الآيات التي أوتيها، فلم يبق له بها اتصال، فأتبعه الشيطان عند انسلاخه عن الآيات، أي لحقه فأدركه وصار قريناً له، فكان من الغاوين المتمكنين في الغواية

وهم الكفار، ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من الآيات، ولكن شاء الله غير ذلك، لأن هذا الرجل ظلم نفسه بانسلاخه من الآيات، وتركه العمل بها، حيث أخلد إلى الأرض، ومال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة، واتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله فصار بذلك منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً للكلب الذي هو من أخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث إذا حمل عليه الإنسان زاجراً له، أو تركه،[1] والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء أَوَعَظه الواعظ وذكَّره المذكر، أم لا؟ هذه هي حال هؤلاء القوم التي بلغت الغاية في السوء، فساء مثلاً مثلهم، فقد كذبوا بآيات الله، وظلموا أنفسهم بهذا التكذيب.

ثم تبين الآيات أن الهدى والضلال بمشيئة الله سبحانه، من يهد الله فهو المهتدي لما أمر به وشرعه لعباده، ومن يضلل الله فأولئك هم الخاسرون الواقعون في أعظم الخسران. مَن هَداه فلا مضل له ومن أضله فلا هادي له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، ونقضهم العهود والمواثيق، وانحرافهم عن الدين مرة بعد مرة، وتحدثت الآيات هنا عن أخذ الميثاق على بني آدم جميعاً، وإشهادهم على أنفسهم أن الله ربهم وخالقهم، حتى لا يعبدوا غيره، ولا يشركوا به شيئاً، كما ذكرت قصة ذلك العالم الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ومال إلى الدنيا ومتعها فاستحق أن يكون من الغاوين، وأن يشبّه بالكلب، ذمّاً له وتقبيحاً لفعله.

---

(١) قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل وإن تركته ضل، فهو كالكلب؛ إن تركته لهث، وإن طردته لهث، واللهث تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال. انظر: حياة الحيوان الكبرى، للدميري ٢/ ١٦٤.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً محكماً وثيقاً، فعلى مدار التاريخ البشري كان الشيطان يسعى لإضلال الناس وصرفهم عن الهدى، وإبعادهم عن العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم، بأن يؤمنوا ويستقيموا، وقد جاءت الآيات هنا مبيِّنةً العهدَ الذي أخذه الله على بني آدم، لئلا يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، وكانت قصة العالم الذي ترك الآيات والعلم، واتبع هواه، نموذجاً حياً للانحراف عن الهدى بعد معرفته، والزيغ عن الحق بعد وضوحه وظهوره، وقد بينت الآيات أن مثله كمثل الكلب، تنفيراً للناس من اتباعه والتشبه به.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أخذ الله العهد على بني آدم أن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما بينت الآيات هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وهذا العهد هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٢ - كان أخذ الميثاق على بني آدم لإقامة الحجة عليهم، وقطع العذر عنهم، فليس لأحد أن يقول: إنا كنا عن هذا غافلين، ولا أن يقول: إنما أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك فاتبعناهم. ورغم هذا فإن الله سبحانه لم يترك البشر بغير مرشد يرشدهم، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتب والشرائع لهداية الناس ودلالتهم على الخير.

٣ - إن ضلال عامة الناس أمر صعب شديد لما فيه من نقضٍ لعهد الله وميثاقه، وانحراف عن الفطرة التي فطر الناس عليها، لكن ضلال العلماء الذين أوتوا العلم، وعرفوا الهدى والحق أصعب، ومسؤوليتهم أعظم، وعذابهم على ذلك أشد.

٤ - في قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إشارة إلى أن هذا العالم الذي انحرف ومال إلى الدنيا صار إماماً للشيطان في الضلال والفساد، فكأنه لم يتبع الشيطان، بل الشيطان تبعه

وسار وراءه.

٥ - من أوتي العلم وعمل به، وأدى حقه، رفعه الله درجات، وجعله من أئمة الهدى، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا ﴾، فالعلم سبيل إلى رفع الدرجات، وعلو المقامات.

٦ - من طلب العلم لينال به الدنيا، ويحصل به متعها وشهواتها، كان مثله كمثل الكلب، فهو يلهث في جميع أحواله، سواء أزجرته أم كففت عنه، فعلى أهل العلم أن يتقوا الله فيما آتاهم من العلم.

٧ - القصة القرآنية لها أهداف ومقاصد، منها: دعوة الناس إلى التفكر والاعتبار بما جرى للسابقين: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». [1]

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه ثم كلمهم قبلاً، فقال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا

(١) موطأ مالك، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ٥/ ١٣٢٢، رقم ٣٣٣٧، وسنن أبي داود ١٢/ ٣١٢، رقم ٤٠٨١.

من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون». [١]

عن ابن عباس، قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: خلق الله آدم فأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيبته، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. [٢]

أهل النار أضل من الأنعام

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ **الأعراف (١٧٩ - ١٨٦)**

---

(١) قال الهيثمي: أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢، رقم ٢٤٥٥) قال الهيثمى في مجمع الزوائد (٧/ ٢٥): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه النسائى في السنن الكبرى (٦/ ٣٤٧، رقم ١١١٩١) وقال: كلثوم هذا ليس بالقوى، وحديثه ليس بالمحفوظ. والحاكم في المستدرك ١/ ٨٠، رقم ٧٥ وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٢٧.

وَنَعمان، بالفتح: واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، وقِبلاً: عياناً.

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة ٣/ ٣٧٣، رقم ١٣٣٥.

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه خلق لجهنم، أي للتعذيب بها كثيراً من الجن والإنس، جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل أهلها يعملون، وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم، ثم وصف هؤلاء بأنهم لهم قلوب لا يفقهون بها كما يفقه غيرهم، فهذه القلوب لما كانت لا تفقه ما فيه نفع أصحابها، وُصفت بأنها لا تفقه مطلقاً، وهكذا معنى ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ فإن الذي انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة، وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك. فالمتصفون بهذه الأوصاف هم كالأنعام في عدم انتفاعهم بهذه المشاعر بل هم أضل؛ لأن الأنعام تدرك ما ينفعها ويضرها، فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر، فهم الغافلون لما هم عليه من عدم التمييز والإدراك والفهم.

ثم بَيَّنَ الله سبحانه أن له الأسماء الحسنى،[١] وأمرنا أن ندعوَهُ بها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ فهذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، فأسماؤه أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وقد أمرنا الله سبحانه أن ندعوه بها، فإنه إذا دُعِيَ بأسمائه الحسنى كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»[٢] كما أمر الله سبحانه أن نترك الذين يلحدون في أسمائه،[٣] ونُعرض عنهم، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون إما بتغييرها كما فعله المشركون

---

(١) الحسنى تأنيث الأحسن، أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥.

(٣) الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال: لحد الرجل في الدين وألحد إذا حاد عنه، ومالَ. انظر: مختار الصحاح ١/ ٢٨١.

فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. وفي الآية وعيد لهؤلاء الذين يلحدون بنزول العقوبة، وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم.

ثم بين الله سبحانه أن من جملة خلقه أمةً يهدون الناس بما عرفوه من الحق، وبالحق يعدلون بينهم، فهؤلاء هم أهل الحق الذين يُرجى لهم الفلاح والفوز.

أما المكذبون بآيات الله فإن الله ليس بغافل عنهم، بل سيستدرجهم(١) بأن يدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم، وإنسائهم شكرها فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك، وظنهم أنه لم يحصل لهم هذا النعيم والرزق الكثير إلا بما لهم عند الله من المنزلة والمكانة.

وهكذا يملي لهم الله؛ فيطيل لهم المدة ويمهلهم ويؤخر عنهم العقوبة، وهم يتمادون في ضلالهم وطغيانهم حتى ينزل بهم العذاب وهم غافلون.

وبعد هذا تتحدث الآيات عن المشركين منكرة عليهم أنهم لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به، ولو تفكروا لعلموا أن ليس به شيء مما يدَّعونه من الجنون، وهذا ردٌّ لقولهم الذي حكاه القرآن عنهم حيث قالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [الحجر:٦]، كما تنكر عليهم إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرة الله، وتفرده بالإلهية

﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَىِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾. والمعنى: أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا

---

(١) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة، وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض. انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٨.

بالتفكـر، ولا نظـروا في مخلوقـات الله حتـى يهتـدوا بذلـك إلى الإيـمان به، بل هم سـادرون في ضلالتهم، خائضون في غوايتهم لا يُعملون فكراً، ولا يمعنون نظراً، فهم لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء، ولو نظروا العلموا أن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين، سـواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته.

وكما غفل هؤلاء عن التفكر والنظر في آيات الله الدالة على عظيم قدرته، غفلوا عن أجلهم الذي عسى أن يكون قد اقترب. فإذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه؟

إن غفلتهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليست إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له، وليس له من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، بأن يؤمنوا به ويوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأنه لا عُذر لمن أشرك بالله ولا حُجة، وجاءت الآيات هنا مبينة أن كثيراً من الجن والإنس نقضوا هذا العهد، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وهؤلاء هم الذين ذرأهم الله لجهنم، فقد أعطاهم من الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السـورة اتصالاً وثيقـاً، فرغم العهد المأخوذ على بني آدم أن يعبدوا الله وحده، ورغم التحذير لهم من عبادة الشيطان واتباعه، فإن كثيراً من البشر استجابوا لنـداء الشـيطان ووسوسـته، فانحرفـوا عن الـصراط، وعبدوا غـير الله، وألحدوا في أسـماء الله سبحانه.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - خلق الله كثيراً من الجن والإنس للنار، وهو سبحانه لم يظلمهم بذلك، لأنه لم يجبرهم على اختيار طريق الضلال، ولكنه علم أنهم سيختارون طريق الضلال والكفر، حتى يدخلوا نار جهنم.

٢ - الكافر أشد ضلالاً من الأنعام، فالأنعام تسعى فيما يجلب لها النفع ويدفع عنها الضر، أما هؤلاء فلا يفكرون إلا في الدنيا، ولا يعملون إلا لها، وغفلوا عن الآخرة التي فيها الحياة الباقية فخسروا أنفسهم.

٣ - الله سبحانه له الأسماء الحسنى، وعلى المسلم أن يدعو الله تعالى بهذه الأسماء، إن كان يريد أن يستجيب الله له.

٤ - المشركون يلحدون في أسماء الله الحسنى، إما بتغييرها كما فعلوا بأسماء أصنامهم فإنهم اشتقوها من أسماء الله تعالى، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها وينكروا بعضها.

٥ - الله سبحانه يملي للكافرين ويستدرجهم، فيمدهم بالنعم، ويدرُّ لهم الأرزاق والأموال، فيغترُّون بذلك، حتى ينزل بهم العذاب.

٦ - إن رسول الله ﷺ نذير مبين، وهو مبرأٌ مما اتهموه به من الجنون، ولو أن هؤلاء المشركين تفكروا لعرفوا ذلك، ولكنهم لا يتفكرون.

٧ - إن هؤلاء مهما طالت بهم الأيام، وامتد بهم العمر، فإن أجلهم قريب، وإن لم يؤمنوا بهذا الحديث، فبأي حديث بعده يؤمنون؟

٨ - الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكل من طلب الهداية وسعى لها بصدق هداه الله، وكل من عمي وتغافل عن الهدى ورفض الحق أضله الله.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». [١]

وفي رواية عنه قال: «لله تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». [٢]

وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر: «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور». [٣]

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا.

(٢) صحيح البخاري، ٢٠/ ٢٨، رقم ٥٩٣١، باب: لله مائة اسم غير واحد.

(٣) سنن الترمذي، ١١/ ٤١٢، رقم ٣٤٢٩، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد.

السؤال عن الساعة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٨٧-١٨٨)

التفسير الإجمالي للآيات

كان المشركون يسألون الرسول ﷺ عن الساعة،[١] متى تأتي؟ وهو سؤال يقصدون منه الاستعجال والتحدي، فأمر الله سبحانه رسولَه ﷺ بأن يجيبهم بقوله: إنما علمها عند ربي، فلا يعلم وقوعها، ولا يجليها[٢] ولا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. ولما خفي علم الساعة على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب، وقيل: المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب، وقد قضى الله سبحانه أن لا تأتي الساعة إلا فجأة على غفلة.

إن هؤلاء المشركين يسألونك يا محمد عن الساعة، كأنك حفي[٣] عالم بها مستقصٍ للسؤال

---

(١) الساعة القيامة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، وأيان ظرف زمان مبني على الفتح وهو بمعنى متى، و(مُرساها) بضم الميم أي وقت إرسائها وإثباتها، يقال: رسا الجبل إذا ثبت، والمعنى متى يرسيها الله: أي يثبتها ويوقعها. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

(٢) التجلية: إظهار الشيء وإيضاحه.

(٣) الحفي: العالم بالشيء، والحفي: المستقصي في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فإن تسألي عني فيا رب سائل ... حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال: أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفيّ على التكثير مثل مخصب وخصيب، والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقصٍ للسؤال عنها، ومستكثر منه. انظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٣٦، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

عنها، فقل لهم: إنما علمها عند ربي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون باستئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، إذ لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

كما أُمر الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يسألونه عن الساعة: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فمن كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه.

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وجلبته إلى نفسي، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيَّ وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؟ وما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً، وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيب الله سبحانه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، رغم أنه أعطاهم الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل، حيث ألحدوا في أسماء الله الحسنى، وغفلوا عن الآخرة، واستُدرِجوا بالنعم، فازداد كفرهم وتكذيبهم واتهامهم للرسول ﷺ بالجنون، وجاءت هذه الآيات لتبين أن كفر هؤلاء تمادى بهم فأنكروا الساعة، وأخذوا يسألون الرسول ﷺ عن ميقات مجيئها، ساخرين مستهزئين، وكان الرد عليهم بأن علم الساعة عند الله سبحانه، وأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون لم يتوقفوا في ضلالهم وشركهم عند الإلحاد في أسماء الله الحسنى واتهام الرسول ﷺ بالجنون، بل أنكروا الساعة أيضاً وأخذوا يسألون عن موعدها في تهكم وسخرية، وهذا إمعان في الضلال والشرك، يبين استعداد

كثير من الناس لاتباع الشيطان والاستجابة لنزغه، والانحراف عن الحق والهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان سؤال المشركين عن الساعة بقصد التهكم والسخرية والتحدي، فهم لا يؤمنون بالساعة، ولا يصدقون بمجيئها، ولكن لشدة عنادهم كانوا يقولون: إن كنت صادقاً في أن الساعة حق، فلتأتنا بها.

٢ - الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري متى تقوم الساعة، بل يفوض علم ذلك إلى الله سبحانه.

٣ - علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهو الذي يُظهرها ويأتي بها في وقتها ولا يتم ذلك إلا بغتة، والناس في غفلة وانشغال عنها.

٤ - لو كان أي إنسان عالماً بالغيب لاستكثر من الخير، وتوقى من أن يصيبه شرٌّ أو مكروه، ولكن حكمة الله تعالى أن لا يُطلع الناس على الغيب، وإن رسول الله ﷺ - على الرغم من منزلته الرفيعة عند الله تعالى - لا يعلم الغيب.

الناس مخلوقون من نفس واحدة

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٨٩ - ١٩٥)

التفسير الإجمالي للآيات

تتحدث هذه الآيات عن حقيقة خلق الناس، فقد خلقهم الله سبحانه من نفس واحدة فهم جميعاً بنو آدم عليه الصلاة والسلام، حيث خلق الله آدمَ، وجعل منه زوجه حواء،(١) كما جاء في مطلع هذه السورة، ليسكن إليها، أي لأجل أن يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكَن، وإليه آنَس. وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار.

ثم بيَّن الله سبحانه حالةً أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي تغشى الرجل المرأة، وهذا عام في كل رجل وامرأة،(٢) والتغشي كناية عن الوقاع أي فلما

---

(١) هو الذي خلقكم من نفس آدم، وجعل من هذه النفس زوجها وهي حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه، وقيل: (وجعل منها) أي: من جنسها كما في قوله تعالى: (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) [الشورى: ١١]، والأول أولى.

(٢) وردت بعض الروايات الضعيفة جداً والموضوعة تنسب الشرك إلى آدم وحواء، وتفسر الآية الكريمة على أن الضمائر الواردة في الآية وهي: (تغشاها، حملت، فمرت، أثقلت، دعوا، آتاهما، جعلا، آتاهما) يعود بعضها على آدم وبعضها على حواء، وبعضها عليهما معاً، وهذا غير صحيح، فقد بدأت الآية

جامعها حملت حملاً خفيفاً، علقت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه يكون في بداية الأمر خفيفاً ثم يتدرج في النمو والثقل، فمرت به، أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلاً، فلما أثقلت وصارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها دعوا الله ربهما أي دعا الرجل والمرأة ربهما ومالك أمرهما قائلين: لئن آتيتنا ولداً صالحاً لنكونن من الشاكرين لك على هذه النعمة. فلما آتاهما ما طلباه من الولد الصالح، وأجاب دعاءهما جعلا له شركاء فيما آتاهما، فأشركا بالله، وعبدا غيره، كما وقع من كثير من الناس الذين أشركوا بالله. فيا عجبا لهؤلاء الناس كيف يجعلون لله شركاء لا يخلقون شيئاً، ولا يقدرون على نفع لهم، ولا دفع عنهم، وهم يُخلقون، أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون. وهم أيضاً لا يستطيعون أن ينصروا من اتخذوهم شركاء، إن طلبوا منهم النصر، ولا أنفسهم ينصرون إن اعتدى عليهم معتدٍ. ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

ثم توجه الخطاب إلى المشركين، على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد، بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك، فدعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء، لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون.

إن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهةً هم عبادٌ لله كما أنتم عباد له، مع أنكم أكمل منهم، لأنكم

بالحديث عن خلق الناس من نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام، وأن زوجه حواء خلقت منه، ثم انتقل الحديث إلى الأزواج؛ الذكر والأنثى من الناس، وأن كثيراً منهم قد أشركوا بالله تعالى، ولذلك جاء الضمير بالجمع في قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) وهذا يعني: الأزواج الذين أشركوا. ثم إن هذه الروايات تقدح في عصمة الأنبياء، لأن آدم نبي معصوم، ولا يجوز بحال أن يُنسب إليه الشرك بالله تعالى.

ولمعرفة بعض هذه الروايات ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٣٠٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥٢٧، وقد رد ابن كثير هذه الروايات، مبيناً أنها من الإسرائيليات، ووجه الآية بأن المقصود بذلك جماعة من المشركين، وليس المقصود آدم وحواء.

أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكةً لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ، فادعوا هؤلاء الشركاء فإن كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين فيما تدَّعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر.

وتمضي الآيات في الاستفهام للتقريع والسخرية من هؤلاء الشركاء، وممن اتخذوهم وعبدوهم، أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها[1] كما تبطشون، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم بهذا العجز؟

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وما فيها من النقص والعجز، أمر الله رسولَه ﷺ أن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم كيدون أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد، فلا تمهلوني، ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر، وفي هذا من التحدي لهم، والتعجيز لأصنامهم ما فيه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن إنكار المشركين للساعة، واستهزائهم بمجيئها، وبينت الآيات هنا جوانب جديدة من كفرهم بالله تعالى، فبدلاً من أن يشكروا الله على نعمة النسل والولد جعلوا ذلك سبيلاً إلى الشرك بالله، وتوجهوا إلى الأصنام يعبدونها من دونه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون أمعنوا في الشرك بالله، وكُفر نعمه، وبالغوا في اتباع الشيطان وسلوك سبيله، ناسين أن الشيطان عدوهم الذي

---

(١) البطش: الأخذ بقوة وصَولة.

أخرج أبويهم من الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من مظاهر قدرة الله تعالى أنه خلق جميع البشر من نفس واحدة، وأنه جعل تكاثرهم عن طريق التناسل والزواج.

٢ - ومن حكمته سبحانه أنه جعل الزواج سكناً وهدوء نفس، واستقرار عيش، وأن حياة الإنسان تبدأ بذلك الحمل الصغير الخفيف في بطن أمه، ثم يثقل هذا الحمل ويكبر، فإذا بلغ أجله خرج إلى الحياة طفلاً.

٣ - في الوقت الذي يثقل فيه الحمل، ويقترب أوان الولادة يكون الأبوان في حال من الترقب والرجاء أن يكون المولود صالحاً سوياً، لا عيب فيه ولا خلل، ويكون في يقينهما أن ذلك بيد الله سبحانه، لكن كثيراً من الأزواج حينما يرون المولود سوياً ليس به عيب، ينسون نعمة الخالق، ويغفلون عن شكره، ويشركون به مخلوقات لا تخلق شيئاً، ولا تملك نفعاً ولا ضراً.

٤ - إن هؤلاء الشركاء الذين يُعبدون من دون الله، عباد لله، وليسوا آلهةً، وهم لا يستجيبون لمن يدعوهم، ولا يملكون لأنفسهم شيئاً فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم.

أولياء الرحمن

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ۩ ٢٠٦ ﴾ **سورة الأعراف (١٩٦-٢٠٦)**

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه ولي المسلم، فكيف يخاف المسلم هذه الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً؟ وله وليٌّ يلجأ إليه، (١) ويستنصره وهو الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فيحفظهم وينصرهم ويكف عنهم شرَّ أعدائهم. وفي المقابل فإن الذين تعبدونهم من دون الله أيها المشركون عاجزون عن نصرة أوليائهم، بل عن نصرة أنفسهم، وما داموا كذلك فكيف تدعونهم وتعبدونهم من دون الله سبحانه؟

وهؤلاء الأولياء الذين تدعونهم من دون الله لا يسمعون إذا دُعوا إلى الهدى، ولا يبصرون، وكذلك المشركون إن تدعوهم أيها المسلمون إلى الهدى لا يسمعوا، فقد عطلوا سمعهم وسائر حواسهم.

---

(١) ولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته، ويدفع عنه الضرر.

ولما عَدَّدَ الله سبحانه ما عدَّدَهُ من أحوال المشركين، وبيَّن سفه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس، يقال: أخذت حقي عفواً أي سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»، [(١)] والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وأمره أيضاً أن يأمر بالمعروف، [(٢)] وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، كما أمره أن يعرض عن الجاهلين، والمعنى: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ولا تُمارهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة. وهذه الأوامر والتوجيهات لرسول الله ﷺ، ولكل مسلم من بعده.

وحين يصل المسلم إلى مثل هذه الدرجة من الخصال الحميدة الطيبة، قد يوسوس له الشيطان، ويثير في نفسه أنه خيرٌ وأفضل من هؤلاء الناس الذين يتعامل معهم، فيأمرهم وينهاهم ويعفو عنهم، ولذلك جاء الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، والالتجاء إليه من نزغ الشيطان. [(٣)] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ أي إن شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به، والالتجاء إليه عندما يمسهم طائف من الشيطان [(٤)] وإن كان يسيراً، فإذا تذكروا أبصروا، وعرفوا الحق فالتزموه، وعرفوا الباطل فاجتنبوه.

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ معنى هذه الآية أن إخوان الشياطين

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٣٨، رقم ٦٩، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

(٢) العرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَهُ　　　لا يذهب العرف بين الله والناسِ

انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣٩.

(٣) النزغ: الوسوسة، قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال: نزغ بيننا أي أفسد. انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٣١٧.

(٤) سميت الوسوسة طيفاً وطائفاً لأنها لَمَّةٌ من الشيطان تشبه لَمَّةَ الخيال. انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ٧/ ٣٤٣، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

وهـم الفجـار من ضُـلَّال الإنس يمدونهم في الغـي، ويكونون مدداً لهم، وسـميت الفُجارُ من الإنـس إخـوانَ الشـياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتـدون بهم، ثم لا يقـصرون، ولا ينتهون عن إمداد الكفار في الغي، وتزيين الشر لهم ليقعوا فيه.

وقد بلغ بهم هذا الإمداد أن كان الكفار يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي، وتأخر نزول الآيات: لولا اجتبيتها؟[1] أي: هلّا أتيت بآية من عندك؟ فأمره الله بأن يجيبهم بقوله: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، ولست ممن يأتي بالآيات من قِبَلِ نفسه كما تزعمون، فما أوحاه الله إليَّ وأنزله عليَّ أبلغته إليكم، وهذا القرآن المنزل عليَّ هو بصائر من ربكم[2] يتبصر بها من قَبِلَها، كما أنه هدى يهتدي به المؤمنون، ورحمة لهم يُرحمون بها.

وإذا ثبت أن هذا القرآن وحيٌ من عند الله سبحانه، فحقه أنه إذا قُرئ أن تستمعوا له وتنصتوا. لتنتفعوا به وتتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح. وقد قيل: إن هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قـراءة الإمـام، ولا يخفى أن اللفظ أوسـع من هـذا، والعام لا يُقْصَرُ على سـببه، فيكون الاسـتماع والإنصـات عنـد قـراءة القرآن في كل حالـة، وعلى أي صفة، واجباً على السـامع. فبالاسـتماع إلى القرآن والإنصات إلى تلاوته بتدبر وخشوع تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه.

ثم أمر الله سـبحانه رسـولَه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أقربُ إلى الإخلاص، وأدعى للقبـول. والذكـر يحصـل بتلاوة القرآن واسـتماعه، كـما يحصل بالتهليـل والتسـبيح والتحميد والتكبير والاستغفار والدعاء، ونحو ذلك من الأذكار التي جاءت بها الشريعة؛ فالمطلوب من

(١) اجتبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه، أي: جمعه، أي هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك؟ أو: هلّا اختلقتها؟ يقال: اجتبى الكلام: انتحله واختلقه واخترعه، إذا جاء به من عند نفسه. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٦/ ٢٤، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

(٢) البصائر: الحجج والبراهين، جمع بصيرة، وقال الزجاج البصائر: الطرق. فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤١.

المسلم أن يكون من الذاكرين، المكثرين للذكر، وأن لا يكون من الغافلين.

وللذكر شروط وآدابٌ منها: أن يكون هذا الذكر مع التضرع والتذلل لله سبحانه، وأن يصاحبه الخوف من عذاب الله وغضبه، وأن يكون الذاكر متوسطاً بين الجهر والسر، فلا يذكر ربه بالصياح ورفع الصوت، ولا يخفض صوته إلى الحد الذي لا يُسمع نفسه، بل يتوسط بين هذا وذاك. وإذا كان الذكر مطلوباً في سائر الأوقات، فإن أفضله ما يكون بالغدوِّ: وهو أول النهار، والآصال: وهي أواخر النهار، وكل هذا مع الوعي والانتباه وحضور القلب.

وحتى يطمئن المسلم وتسكن نفسه، يبين له الله سبحانه أنه إذا أكثر من العبادة والإقبال على طاعة الله وذكره، فإن الملائكة الكرام الأطهار الذين لا يعصون الله، وليس لهم ذنوب، لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يملّون من تسبيحه وذكره، وهم يسجدون له، ولا يسجدون لأحد سواه. والمقصود أن المسلم أولى بذلك، لأنه غير معصوم عن الذنوب.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن المشركين، واتخاذهم الأولياء والشركاء من دون الله، وأن هؤلاء الشركاء لا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا يقدرون على شيء، وتحدثت الآيات هنا عن المسلم الذي يتولاه الله، ويحفظه وينصره ويعينه، كما دعت إلى التزام المسلم بجملة الآداب والأخلاق والفضائل ليكون ولياً لله، وردَّت بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول مصدر هذا القرآن، حيث اتهموا النبي ﷺ بالإتيان بهذا القرآن من عند نفسه، وبينت بعض آداب الذكر واستماع القرآن.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فالناس فريقان؛ فريق اتخذوا أولياء وشركاء من دون الله، وهؤلاء هم الكفرة الذين خسروا أنفسهم، وفريق أطاعوا الله تعالى، واتبع هديه، وهؤلاء هم المؤمنون الفائزون. وهذا متفق مع ما جاء في أول السورة من وعيد

الشيطان بإضلال أكثر الناس وإغوائهم، ومتفق أيضاً مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه ولي المؤمنين، وولي الصالحين، والمسلم يستشعر هذه الولاية، ويعمل لاستدامتها وزيادتها، فيلتزم أمر الله تعالى، ولا يخشى المشركين وشركاءهم.

٢ - الشركاء الذين يُعبدون من دون الله مخلوقات هزيلة لا تملك أن تنصر نفسها، فكيف تنصر الذين يعبدونها؟

٣ - المشركون عطلوا سمعهم وأبصارهم، وتمادوا في ضلالهم وشركهم، واستحوذ عليهم الشيطان بنزغه ووساوسه.

٤ - المسلم مدعوٌّ إلى التزام أحسن الأخلاق، وأطيب الخلال والشمائل، فهو يعفو ويصفح، ويأمر بالمعروف، ويدعو إلى الخير، ويُعرض عن الجاهلين، فلا يجادلهم ولا يضيع وقته في المراء معهم.

٥ - مهما بلغ المسلم من الترقي في الفضائل، فلا بد أن يعرض له شيء من نزغ الشيطان ووسوسته، لكنه يسارع إلى التذكر وحضور القلب مع الله، والاستعاذة به لطرد وساوس الشيطان، والنجاة من كيده.

٦ - الشياطين لا يكفون عن إمداد إخوانهم وأوليائهم من الكفرة والمشركين، فهم يمدونهم في الغي، ويزينون لهم الشر، ويوسوسون لهم ليكيدوا للمسلمين، ويصدوهم عن دينهم.

٧ - وقد بلغ هذا الإمداد في الغي أن يتهم المشركون رسول الله ﷺ بأنه يأتي بالآيات من عند نفسه. وكان رد القرآن عليهم واضحاً، فالقرآن وحيٌ من الله تعالى، وهو بصائر وهدى ورحمة، وإنما ينتفع به المؤمنون.

٨ - على المسلمين أن يعظِّموا هذا القرآن، ويستمعوا له بخشوع وتدبر وحضور قلب، ليُرحموا ويهتدوا. وعلى المسلم أن يكون ذاكراً لله تعالى في كل أوقاته، لا سيما أول النهار وآخره، وأن يكون هذا الذكر مصحوباً بآدابه وشروطه، ليكون مقبولاً عند الله سبحانه.

٩ - ليس المسلم وحيداً في توجهه إلى الله تعالى، وإقباله على عبادته، بل إن الملائكة الكرام لا يستكبرون عن عبادة الله، ويسبحونه وله يسجدون، وفي هذا ما يطمئن القلوب، ويريح النفوس، ويبعث على الاستزادة من الذكر، والإقبال على الطاعة والعبادة.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عُمر، وكان القراءُ أصحاب مجالسة عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الْحُرُّ لعيينةَ، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِي يا ابن الخطاب! فوالله ما تُعطينا الجزلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أميرَ المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله. [1]

عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف). قال: «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس» وعنه قال: «أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس». [2]

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا». [3]

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٦، باب: سورة الأعراف.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٧، باب: سورة الأعراف.

(٣) سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ٢/ ١٤٢، رقم ٩٢٢.

وبعد أن يحكي القرآن عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب، والأدب الجدير بهم ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن، والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم، وأنها هكذا كانت، وهكذا تكون [١]:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، ﴿ وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ معناه: أعدل وأصوب، ولكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر ﴿ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أبعدهم عن الهدى، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يستحقون به اسم الإيمان؛ حيث يزعمون أنهم موحدون، ويكفرون بمحمد ﷺ، وبجميع أوامر شريعته ونواهيها [٢].

وصدق الله. فكتلة اليهود ظلت قروناً طويلة، حرباً على الإسلام والمسلمين، منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة المنورة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - من غزوة الأحزاب قديماً، إلى كيد الصليبية والاستعمار بشتى أشكاله حديثاً - إلا كان من ورائه اليهود، أو كان لليهود فيه نصيب !

وعقّب الله سبحانه بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود ؛ منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: « يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٣).

سورة الأنفال

أولاً: بين يدي السورة

أ. أسماء السورة:

للسورة الكريمة ثلاثة أسماء ذكرها العلماء هي:

سورة الأنفال، وسورة بدر، وسورة الجهاد[1]

ب. أسباب نزول السورة أو بعض آيها:

إن من أهم أسباب نزول سورة الأنفال أحداث غزوة بدر الكبرى، ولذا كان من أسمائها سورة بدر وسورة الجهاد، بل إن اسم السورة الأكثر شهرة – الأنفال – إنما كان بسبب ما ورد من تساؤل الصحابة حول أنفال بدر، وقد أورد العلماء أسبابا خاصة لبعض آيات السورة الكريمة أعرض لها من خلال تفسير آيات السورة في مقاطعها.

ومما أورده العلماء في كتب أسباب النزول؛ أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية، وغيرها من الآيات يأتي الحديث عنها في مواطنها.

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة الأنفال مدنية كلها، كذا قال أكثر أهل العلم، وقال مقاتل: «هي مدنية غير آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية، وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه» [2].

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٣/ ١٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦.

وآياتها محكمة وقيل إن بعض آيها منسوخة وسنورد ذلك في مظانه حسب توالي المقاطع بحول الله تعالى.

د. عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

اختلف علماء العد في عدد آي السورة الكريمة على ثلاثة أقوال؛ فمنهم من جعلها خمسا وسبعين آية ومنهم من جعلها ستا وسبعين وفريق جعلها سبعا وسبعين آية، قال الكرمي في الناسخ والمنسوخ: « آياتها خمس أو ست أو سبع وسبعون آية وفيها من المنسوخ ست آيات»[1]، وقال ابن كثير: « وهي مدنية آياتها سبعون وست آيات « [2].

وقال الإمام أبو عمرو الداني – رحمه الله –؛ في كتابه البيان في عد آي القرآن: « مدنية،.... وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وست في المدنيين والمكي والبصري، وسبع في الشامي»[3].

هـ. محور السورة:

تدور آيات السورة الكريمة في معظمها حول محور واحد عام ألا وهو الحديث عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وما يتبع ذلك من أمور وأحكام وقواعد، كما أن مقصد السورة كما يحدده البقاعي يكمن في « تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله، واعتقاد أن

---

(١) الناسخ والمنسوخ للكرمي ١/ ١١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٣.

(٣) وقال الداني: «اختلافها ثلاث آيات: ثم يغلبون (*) عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون، ليقضي الله أمرا كان مفعولا (*)؛لم يعدها الكوفي وعدها الباقون، بنصره وبالمؤمنين (*) لم يعدها البصري وعدها الباقون، وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ثمانية مواضع: أولئك هم المؤمنون()، رجز الشيطان()، فوق الأعناق()، عن المسجد الحرام()، إلا المتقون()، يوم الفرقان()، يوم التقى الجمعان()، أمرا كان مفعولا ()، الثاني بعده، وإلى الله ترجع الأمور(). البيان في عد آي القرآن ١/ ١٥٨.

الأمور ليست إلا بيده، وأن الإنسان ليس له فعل، ليثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين، المنتج لكل خير» [1].

و. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

للسورة أكثر من اسم؛ ولكل من هذه الأسماء علاقة بمحور السورة العام، فالاسم الأول؛ وهو المشهور العام: «الأنفال» ؛ وعلاقته بمحور السورة أن أول آية منها جاءت للحديث عن الأنفال، وأنه جزء من الموضوعات التي تعالجها السورة، فالأنفال مما ينفله المجاهد في سبيل الله، ومحور السورة الحديث عن الجهاد، والاسم الثاني: «سورة بدر»؛ ومعركة بدر أول غزوة للنبي ﷺ، أعلن فيها جنده الحرب على قوى الشر في الجزيرة العربية، ومعظم آي السورة جاءت للحديث عن هذه الغزوة العظيمة، وهي الغزوة التي فتحت باب الجهاد في المجتمع المسلم وأما الاسم الثالث فهو: «الجهاد» ؛ والمناسبة بينه وبين محور السورة واضح جلي، قال البقاعي: «واسمها الجهاد كذلك لأن الكفار دائما أضعاف المسلمين، وما جاهد قومٌ من أهل الإسلام قط إلا أكثرَ منهم، وتجب مصابرة الضعف، فلو كان النظر إلى غير قوته سبحانه ما أطيق ذلك، ولهذه المقاصد سنت قراءتها في الجهاد لتنشيط المؤمنين للجلاد» [2].

ز. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

أما مناسبة افتتاحية السورة لخاتمتها ففي عدة جوانب من أبرزها:

أول السورة يتحدث عن الأنفال وقسمتها، وخاتمتها تتحدث عما غنمه المسلمون وما كان من شأن الأسرى والفداء، كما جاء الحديث في آخر السورة عن الإعداد للقاء العدو، بعد أن تحدث أولها عن أول لقاء للمسلمين مع أعدائهم دون أن يكونوا قد أعدوا له العدة، كما أن أول السورة يتحدث عن تحريم الفرار من أرض المعركة، وآخرها جاء ليحدد منهجية اللقاء بين المسلمين

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣/ ١٨١.

(٢) السابق ٣/ ١٨١.

والكفار، وكيف خفف الله عنهم ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أول السورة جاء الحديث فيه عن حقيقة الإيمان وما ينبغي على المؤمن اتباعه ليتحقق في مقام الإيمان الحق، وآخرها جاء ليؤكد ذات الحقيقة ؛ كما نلحظ ذلك في الآيات الخمس الأخيرة من السورة.

ح. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

أما مناسبة افتتاحية السورة لخاتمة ما قبلها وهي سورة الأعراف فقد ورد في ختام السورة قوله تعالى:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾. وغيرها من الآيات، وموضوعها كلها الحديث عن الإيمان، والرسالة، كما أن نهايات السورة تتحدث عن نهايات قصة موسى مع قومه، وبدايات سورة الأنفال تتحدث عن طرف من قصة النبي محمد ﷺ مع قومه، وفي ذلك يقول الإمام البقاعي: «وأما مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف آخر قصة موسى المختتمة بقصة بلعام وأن ما بعد ذلك إنما هو تتمات لما تقدم لا بد منها وتتمات للتتمات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته سبحانه بالإذعان وتمام الخضوع، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالية اقتضى ذلك سؤالا عن حال الذين عند المخاطب ﷺ فأجيب بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة، فهم المستحقون للأنفال وليس لهم إليها التفات وإنما همهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون عن الأنفال التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها كما نبه عليه في آخر الأعراف، لأن ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداء»[1].

---

(١) السابق ٣/ ١٨٣.

ط. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة الأعراف في مضمونها الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم، ومضمون سورة الأنفال في الحديث عن شيء من سيرة النبي العظيم مع قومه، قال البقاعي: « ومناسبتها للأعراف أنه لما ذكر تعالى كما تقدم قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم في تلك، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم ﷺ مع قومه وأنه لما أطنب في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين؛ الأنفال في أول أمره وأثنائه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين» [1] أقول: ولعل من المناسب هنا أن نستذكر قول المقداد ﷺ قبيل غزوة الأنفال: «والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» والقصة معلومة في واقعة بدر.

---

(١) السابق ٣/ ١٨٢.

المقطع الأول: الأنفال وصفات المؤمنين الصادقين

من الآية: ١ ـ ٤

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

سبب نزول آيات هذا المقطع:

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ : من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1]، وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ ، فقال: اذهب فاطرحه في القبض، فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي النبي ﷺ : اذهب فخذ سيفك، قال: فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية». [2]

التفسير الإجمالي للمقطع:

الخطاب في بداية هذه السورة للنبي ﷺ أي يسألونك يا محمد عن الأنفال التي هي غنائم

(١) لباب النقول في معرفة أسباب النزول ١/ ١٠٦.

(٢) السابق ١/ ١٠٧، والخبر في المسند وعند أبي داود والترمذي والنسائي.

المعركة التي غنموها يوم بدر، قل لهم: إنما هي لله ولرسوله يضعها حيث يشاء، فالتفتوا إلى ما هو أهم من الغنائم، وهو علاقاتكم بالله بتقواه وببعضكم بالإصلاح فيما بينكم وعدم التشاجر على عرض الدنيا، والتزموا بطاعة الله ورسوله في أموركم كلها، وهذا هو عنوان إيمانكم، ثم حددت الآية الكريمة صفات المؤمنين، بوجل القلوب وزيادة الإيمان والتوكل على الله تعالى وهي من أعمال القلوب، وبإقام الصلاة على وجهها الذي شرع الله تعالى وإيتاء الزكاة وهما من أهم أعمال الجوارح، وأول أركان الإسلام، فمن فعل ذلك كان مؤمنا حقا، له المغفرة لذنوبه، والرزق المبارك في الدنيا والرزق الذي لا ينقطع في الآخرة.

واختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال؛[1] والراجح منها أنها الغنيمة التي يغنمها المسلمون في الحرب؛ وهو قول الجمهور، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم[2].

وقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا لأن حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف هذا اللفظ إليهم، وهم أقوام من الصحابة، قال الزهري: النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل وسميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فُضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم، وصلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي زيادة على ما سأل، قال القاضي: وكل هذه الوجوه تحتملها الآية وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض، وعليه فيكون قوله ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾المراد الأمر الزائد على ما كان مستحقاً للمجاهدين.[3]

أما قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، فالمراد منه أن حكمها مختص بالله والرسول،

---

(١) جامع البيان للطبري ٩/ ١٧٤.

(٢) أضواء البيان٢/ ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥/ ٩٢-٩٣.

يأمره الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، ثم قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾، معناه فاتقوا عقاب الله، ولا تقدموا على معصية الله، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال، وارضوا بما حكم به رسول الله ﷺ ، وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال، وهو أمر من الله للذين غنموا الغنيمة يوم بدر وشهدوا الوقعة مع رسول الله ﷺ إذا اختلفوا في الغنيمة أن يردوا ما أصابوا منها بعضهم على بعض[١]، وأما معنى ذات بينكم فيقول الفخر الرازي: «ولما كانت الأقوال واقعة في البين قيل لها ذات البين كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدور قيل لها ذات الصدور، قوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرسول بقوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ثم أكد ذلك بأن أمرهم بطاعة الرسول بقوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم بالغ في هذا التأكيد فقال ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ والمراد أن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة فاحذروا الخروج عنها»[٢].

وأما هل هذه الآية الأولى محكمة أم منسوخة؟ فقد نقل الطبري بسنده عن مجاهد وعكرمة قالا: نسخت الأنفالَ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾. وقال آخرون: هي محكمة وليست منسوخة[٣].

وقال في نواسخ القرآن: « اختلف العلماء في هذه الآية فقال بعضهم هي ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه، لما كانت الغنائم حراما في شرائع الأنبياء المتقدمين فنسخ الله ذلك بهذه الآية وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾، وقال آخرون المراد بالأنفال شيئان: الأول: ما يجعله النبي ﷺ لطائفة من شجعان العسكر ومقدميه يستخرج به نصحهم ويحرضهم على القتال، والثاني:

---

(١) انظر جامع البيان للطبري بشيء من التصرف / ٩/ ١٧٨- ١٨٠.

(٢) التفسير الكبير ١٥/ ٩٤.

(٣) الطبري ٩/ ١٧٦.

ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روى عن ابن عمر ﷺ قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فغنمنا إبلا فأصاب كل واحد اثني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا فعلى هذا هي محكمة لأن هذا الحكم باق إلى وقتنا هذا والعجب ممن يدعي أنها منسوخة فإن عامة ما تضمنت أن الأنفال لله والرسول ﷺ والمعنى أنهما يحكمان فيها وقد وقع الحكم فيها بما تضمنته آية الخمس وإن أريد أن الأمر بنفل الجيش ما أراد فهذا حكم باق فلا يتوجه النسخ بحال ولا يجوز أن يقال عن آية إنها منسوخة إلا أن يرفع حكمها وحكم هذه ما رفع فكيف يدعي النسخ ؟ [(١)]

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، يقول تعالى ذكره المؤمن الحق هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي ازداد خوفه وانقاد لأمره وخضع لذكره خوفا منه وفرَقا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدَّق بها وأيقن أنها من عند الله، فازداد بذلك تصديقا؛ وذلك هو الزيادة في الإيمان، ثم قال ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: وبالله يوقنون في أن قضاءه فيهم ماض فلا يرجون غيره ولا يرهبون سواه، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: برئوا من الكفر وهم المؤمنون ؛ وليس الذين يقولون بألسنتهم قد آمنا وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقا لا يقيمون صلاة ولا يؤدون زكاة، وقوله ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ أي لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه درجات وهي مراتب رفيعة، وهذه الدرجات إما أنها أعمال رفيعة وفضائل قدموها في أيام حياتهم أو أنها مراتب في الجنة؛ وقوله ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾؛ أي عفو عن ذنوبهم وتغطية عليها ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة وما أعد الله فيها لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش. [(٢)]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

يستنبط من المقطع ما يأتي:

* جميع أعمال المسلم ينبغي أن يكون منشؤها تقوى الله تعالى، فعلا وتركًا، ولا ينبغي أن يجتهد

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٥.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بشيء من التصرف / ٩/ ١٨١.

فيما ورد فيه نص من كتاب أو سنة، بل يكون عمله في طاعة الله ورسوله.

* الإيمان يزيد بالطاعة وينقص ويضمر بالمعصية، يقوى بأعمال الخير ويضعف بأعمال الشر وأمر المؤمن كله بيد الله تعالى، يصدر عن توجيهه وينتهي بنهيه.

* لا ينبغي لعرض الدنيا أن يفسد القلوب، وطاعة الله ورسوله وإصلاح ذات البين هو أساس تعامل المسلم مع أخيه المسلم.

* لا يكتمل إيمان المرء إلا بتأديته كل ما أمره الله تعالى من أفعال القلوب والجوارح على منهج الله ورسوله ﷺ .

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع يتحدث عن الأنفال وما دار من نزاع من بعض المسلمين حولها والأنفال من الأمور المتعلقة بالجهاد في سبيل الله تعالى، وهو المحور الذي تتحدث عنه جل آيات السورة الكريمة.

كما أن الآيات تتحدث عن تقوية الصف المسلم بالطاعة لله ولرسوله، وعدم الشحناء المفضية إلى غضب الله تعالى وضعف أواصر الأخوة فيما بين المسلمين، ومحور السورة فيه بيان هذه الأمور والحث عليها كما مر.

المقطع الثاني: الحديث عن غزوة بدر الكبرى وما حصل للمسلمين فيها

من الآية: ٥ - ١٤

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

هذا المقطع يتحدث عن غزوة بدر الكبرى وما سبقها من الخروج للقاء القافلة، والمناسبة بينه وبين المقطع السابق استمرار الحديث عن مجريات المعركة؛ فالمقطع السابق يتحدث عن الأنفال وكيفية قسمتها وما دار حولها من نزاع، وما ورد من توجيه رباني حول ذلك، فجاء هذا المقطع ليفصِّل ما أجمله المقطع الأول من إشارات حول غزوة بدر.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت؛ ما ترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا، فخرجنا فسرنا يوما أو يومين، فقال: ماترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله ما لنا من طاقة بقتال القوم،

إنما أخرجنا للعير، فقال المقداد لا تقولوا كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، فأنزل الله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[١].

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر ﷺ فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾، فأمدهم الله بالملائكة [٢].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قوله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾، أي كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، وقيل في معناها غير ذلك[٣]، قال ابن عباس وابن إسحاق: « ذلك خبر من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو وكان جدالهم نبي الله ﷺ أن قالوا لم يُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا للعير»[٤]، وبعض القوم قد كانوا للشوكة كارهين وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد كراهية منهم له، وأما قوله: ﴿ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾، فمعناه: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله، أو أن معناه: يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به، وأما قوله: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾، فإن معناه كأنهم من كراهتهم للقاء العدو إذا دعوا إلى لقائهم للقتال يساقون إلى الموت وهم ينظرون إلى حتفهم ولا يستطيعون رد ذلك عنهم،

(١) لباب النقول ١/ ١٠٦.
(٢) انظر لباب النقول ١/ ١٠٨.
(٣) لمزيد بيان انظر جامع البيان للطبري ٩/ ١٨٤.
(٤) السابق ٩/ ١٧٤.

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾؛ معناه أن الله تعالى ضمن إحداهما للمسلمين، أي واذكروا أيها القوم وقت وعد الله إحدى الطائفتين أنها صائرة لكم، يعني إحدى الفرقتين؛ فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمنع عيرهم، ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾، أي: وتحبون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال، دون جماعة قريش الذين جاؤوا لمنع عيرهم الذين في لقائهم القتال والحرب، وأصل الشوكة من الشوك، وهو ماله طرف مدبب يؤذي، ويريد الله أن يحق دين الإسلام ويعلي كلمته[1]؛ وذلك بأمره إياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار وأنتم تريدون الغنيمة والمال، وهي عرض زائل لا قيمة له، وقوله ويقطع دابر الكافرين أي: يريد أن يَجُبَّ أصل الجاحدين لتوحيد الله، والدابر هو المتأخر من كل شيء، وقطعه الإتيان على الجميع منهم، أي «ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين فيحق الحق كيما يُعبد اللهُ وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو إحقاق الحق، وأما إبطال الباطل فهو أن ينتهي القوم عن عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار.[2]

ثم يقول تعالى ذكره: واذكروا وقت استغاثتكم ربكم: حين كنتم تستجيرون به من عدوكم وتدعونه للنصر عليهم، فاستجاب لكم؛ أي فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا، ويتلو بعضهم بعضا، وجعل الله ذلك لتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون إلا أن ينصركم الله عليهم؛ لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم لأن ذلك بيده، ينصر من يشاء من خلقه، إن الله عزيز حكيم؛ لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب، حكيم في تدبيره ونصره من نصر وخذلانه من خذل، ومعنى مردفين: أي أن الملائكة يأتي بعضهم على إثر بعض، متتابعين،

---

(١) جامع البيان للطبري ٩/ ١٨٩.

(٢) للآثار الواردة في خروج النبي للقاء قريش وما دار بين النبي والصحابة من حوارات انظر تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ١٢، دلائل النبوة ٣/ ٣٤.

واختلفت القراء في قراءة ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ فنافع وأبو جعفر ويعقوب بفتح الدال اسم مفعول؛ أي مردَفين بغيرهم، والباقون بالكسر اسم فاعل أي مردِفين مثلهم[1]، ومعناه على كلا القراءتين متقارب، ثم يقول تعالى ذكره: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾، أي يلقي عليكم النعاس أمنة أي أمانا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ قراءات، فابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وألف بعدها؛ (يغشاكم)، وكلمة (النعاسُ) بالرفع على الفاعلية من غشى يغشى، ووافقهما ابن محيصن واليزيدي، وقرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وسكون الغين وبياء بعدها: (يُغْشِيكم) من أغشى، (النعاسَ)، بالنصب مفعول به وفاعله ضمير عائد على الله تعالى، وافقهما الحسن، والباقون بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشددة وبياء بعدها؛ (يغَشّيكم)، ونصب (النعاس)، من غشّى بالتشديد، وعن ابن محيصن تسكين ميم أمنة[2]، وأما قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾، فهو مطر أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصَلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مجنبين وليس معهم ماء، فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان وسوس لهم بما أحزنهم به، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر؛ فذلك ربطه على قلوبهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رمال رخوة متحركة لا تثبت عليها الأقدام، فلبَّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها توطئة من الله عز وجل لنبيه ﷺ وأوليائه، وكل ذلك من أسباب التمكن من عدوهم والظفر بهم، قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى ﴾ أي واذكروا وقت أوحى الله تعالى إلى الملائكة أني معينكم على تثبيت المؤمنين فثبتوهم، وقوله ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله ﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ﴾، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النصرة، وقوله: ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾؛ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح؛ لأنها مفاصل؛

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ج١/ ص٢٩٦.

(٢) السابق ج١/ ص٢٩٦.

فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييرا للرؤوس، وقيل أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني ضرب الهام، والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى فاضربوا ما تشلوا به حركة المقاتلين؛ وهو تقطيع الأنامل، أو تردوهم قتلى، بضربكم فوق الأعناق، قال الزمخشري: « ويجوز أن يكون قوله ﴿ سَأُلْقِي ﴾ إلى قوله ﴿ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ عقيب قوله ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قال قولوا لهم ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾، أو كأنهم قالوا كيف نثبتهم فقيل قولوا لهم: ﴿ سَأُلْقِي ﴾، فالضاربون على هذا هم المؤمنون ».[1] وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ أي إن هذا الذي حصل للكفرة جزاء لهم لأنهم فارقوا أمر الله ورسوله، ولم يؤمنوا، وأطاعوا أمر الشيطان، ومعنى قوله ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله وفارق طاعتهما فإن الله شديد العقاب له، وشدة عقابه له في الدنيا إحلاله به ما كان يحل بأعدائه من النقم، وفي الآخرة الخلود في نار جهنم، قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾، أي هذا الذي حل بكم من العذاب والتقتيل فذوقوه واستشعروا به في الدنيا بعد أن كنتم منكرين له وما ينتظركم في الآخرة من عذاب النار أشد وأنكى [2].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

يستنبط من آيات المقطع:

* خيرة الله للعبد خير من خيرته لنفسه، فلقاء العدو في بدر أظهر الله به الدين وأعلى به كلمة المسلمين بخلاف أمر القافلة وما فيها من أموال.
* حين تستغيث الأمة بصدق تأتي الاستجابة من الله سريعة، ويحق الله الحق حين يكون أهله مقبلين عليه سبحانه وتعالى.
* النصر بيد الله سبحانه وتعالى، حتى مع وجود التأييد بالملائكة، فلا يعلق المرء قلبه إلا بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٩٤- ١٩٥.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بتصرف / ٩/ ١٨٩- ٢٠٠.

* نِعَم الله على الإنسان عظيمة، وآلاؤه كبيرة، منها ما نعرف ومنها ما لا نعرف، وعلى المرء أن يكون شاكرا منيبا ذاكرا.

* ما يفعله الله تعالى بالمشركين إنما هو بسبب مشاقتهم لله ولرسوله، والأمر مطرد لكل من يكون حاله كحالهم.

* ما يصيب الكفرة من أذى على أيدي الفئة المؤمنة هو جزء من عذاب الله، ولهم في الآخرة عذاب النار.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

الحديث في المقطع استمرار للحديث عن قصة غزوة الأنفال، كما أن محور السورة هو الحديث عن الجهاد وإقبال الأمة على الله تعالى، وتخلصها من أدران الركون إلى الراحة والدعة، وفي الآيات الكريمة الحديث عن الجهاد وأسباب النصر، والتعلق بالله سبحانه والبعد عن الشيطان ورجزه.

المقطع الثالث: حرمة الفرار من المعركة، ومنة الله على المؤمنين بالنصر والتأييد

من الآية: ١٥ ـ ١٨

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله، أن الحديث بعد أن كان عن وصف الغزوة وما حصل فيها، جاء الحديث هنا عن توجيهات قرآنية للمسلمين بعد انتهاء الغزوة، وذكر الفرار من أرض المعركة وتوعد أصحابه بالوعيد الشديد، وهو أمر فيه توجيه لما بعد هذه الغزوة من

غزوات قادمة، كما تحدثت الآيات في هذا المقطع عن أمور وقع فيها الإعجاز الرباني في المعركة وهي هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين، وأن هذه النتيجة المباركة من عند الله سبحانه، والنصر بيده جل في علاه، هو الذي يعز دينه وينصر جنده ويذل الكافرين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

خطاب الله تعالى للمؤمنين بأعز صفة لديهم وهي الإيمان به سبحانه، وتوجيه للفئة المؤمنة إذا لقوا الذين كفروا في القتال زحفا أي متزاحفا بعضهم إلى بعض؛ والتزاحف التداني والتقارب، فلا تولوهم أيها المؤمنون ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم عليهم، ومن يولهم منكم ظهره منهزما، إلا مستطردا لقتال عدوه بطلب عورة له يمكنه إصابتها فيكر عليه، أو صائرا إلى حيز المؤمنين الذين يرجعون به معهم إليهم، والنبي ﷺ فئتهم، والآية محكمة غير منسوخة، وهي نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، والله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأما قوله: ﴿ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: فقد رجع بغضب من الله ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير، ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ممن شهد بدرا مع رسول الله ﷺ : فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم بقوتكم البشرية، ولكن الله قتلهم، وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين إذ كان جل ثناؤه هو مسبب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم، وقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، فأضاف الرمي إلى نبي الله ثم نفاه عنه وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي إذ كان جل ثناؤه هو الموصل ما رمى به النبي إلى المشركين، بقوته وقدرته، قوله: ﴿ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾، أي أنه تعالى فعل ما فعل « ليخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم من مزاولته عاقبة حسنة بل أحسن من الراحة، لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة والدعة تفضي إلى تعب طويل» [1]، والإشارة

(١) نظم الدرر ٣/ ١٩٧.

بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، أي هذا الفعل من قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وإمكانهم من قتلهم وأسرهم فِعلُنا الذي فعلنا، وقوله:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي واعلموا أن الله مع ذلك مضعف كيد الكافرين، يعني مكرهم حتى يذلوا وينقادوا للحق ويهلكوا، ووردت عدة قراءات في قوله: ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ ﴾، فابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بسكون الواو وتخفيف الهاء والتنوين؛ على أنه اسم فاعل من أوهن كأكرم معدى بالهمزة والتنوين على الأصل في اسم الفاعل وكيد بالنصب على المفعولية به، وافقهم الأعمش، وقرأ حفص بالتخفيف من غير تنوين وكيد بالخفض على الإضافة وافقه الحسن، والباقون بفتح الواو وتشديد الهاء وبالتنوين ونصب كيد مفعول به أيضا، [1]

ثم يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ ببدر: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، يعني: أيها المشركون إن تطلبوا حكم الله على أقطع الحزبين للرحم وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم الله ونصره المظلومَ على الظالم، والمحقَ على المبطل وأما قوله: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، فمعناه، وإن تنتهوا يا معشر قريش وجماعة الكفار عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم، وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم ولن يغني عنكم جندكم وجماعتكم من المشركين كما لم يغنوا عنكم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئا، وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم ينصرهم عليهم أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين[2]، وورد في قوله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، قراءتان؛ فنافع وابن عامر وحفص بفتح همزة أنَّ؛ على تقدير لام العلة والباقون بالكسر على الاستئناف[3] .

وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾الآية؛ روى الحاكم

---

(١) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر١/ ٢٩٧.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بتصرف يسير/ ٩/ ٢٠٩.

(٣) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر١/ ٢٩٧.

عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير قال: كان المستفتح أبا جهل فإنه قال حين التقى القوم: «اللهم أينا كان أقطع لرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة»، وكان ذلك استفتاحا فأنزل لله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، إلى قوله: (وأن الله مع المؤمنين).[1]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* حرمة تولي الأدبار والفرار من وجه الأعداء في المعركة.
* يجوز للمسلم لغايات القتال أن ينسحب من أرض المعركة على سبيل الكر لا الفر.
* عون الله تعالى للمسلمين وتأييده لهم سبب نصرتهم في أرض المعركة.
* من تدبير الله تعالى للمؤمنين ونصرته لهم أصبح المشركون يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وقد جاءهم ما طلبوا من الهزيمة والخذلان.
* إن ينته المشركون عن قتال المسلمين يكف المسلمون أيديهم عنهم، وهو خير لهم في دنياهم وأخراهم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

هذا المقطع فيه توجيه للمسلمين أن يكونوا مع الله تعالى، وأن لا يحيدوا عن منهجه، فهو المؤيد لهم والناصر لهم على الحقيقة، والسورة تتمحور حول التأكيد على معية الله لأوليائه، ونقمته من أعدائه.

(١) انظر لباب النقول / ١٠٩.

المقطع الرابع: توجيه المؤمنين لطاعة الله ورسوله والنهي عن خيانة الأمانة وبيان قيمة التقوى

من الآية: ٢٠ ـ ٢٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع توجيه رباني لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم، بعد انتهاء المعركة، وما الدروس التي يفيد منها المجتمع وهو يغادر أرض المعركة، فكما كان التوجيه قبل الحديث عن المعركة بالطاعة وتقوى الله تعالى جاء هنا بعدها، وزاد على ذلك الحث على ما يحافظ على كيان المجتمع من أمور في غاية الأهميةكالاستجابة لله ورسوله، واتقاء الفتن، وتذكر نعم الله سبحانه، وعدم الخيانة، والحرص على الأمانة، ومراقبة الله تعالى.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تُدبروا عن رسول الله ﷺ مخالفين أمر الله ونهيه وأنتم تسمعون أمره ونهيه، ولا

تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله ﷺ كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم كأنهم لا يسمعون، فهم لا يَعتبرون بما يسمعون، ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه فجعلهم الله لمّا لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها، ثم قال سبحانه: إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله الذين يعرضون عن الحق لئلا يستمعوه فيعتبروا به ويتعظوا، بل ينكصون عنه إن نطقوا به، فهم بذلك لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، وعُني بهذه الآية مشركو قريش، لأنها في سياق الخبر عنهم، فمعنى الآية إذن: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله حججه منه ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان، ومعنى قوله: ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، أي إذا دعاكم للإيمان، ففيه الحياة الكريمة في الدنيا والخلود في الآخرة، وثمة أقوال أخرى كلها داخلة به ضمنا [1]، وفي قوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ أقوال عدة لأهل التفسير أرجاها ما صار إليه ابن جرير بقوله: «وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال إن ذلك خبر من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وإنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، غير أنه ينبغي أن يقال إن الله عمَّ بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾، الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له» [2]، وقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، أي إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم، ثم خاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: واتقوا أيها المؤمنون فتنة؛ أي اختبارا من الله يختبركم وبلاء يبتليكم، لا

(١) جامع البيان للطبري / ٩ / ٢٠٨.

(٢) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٠٩.

تصيبن هذه الفتنة الذين ظلموا منكم خاصة دون غيرهم ممن لم يظلموا، وثمة أقوال في الآية لأهل العلم يرجع إليها[١] وقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾، تحذير من الله ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها.

ثم جاء التذكير من الله عز وجل لأصحاب رسول الله ﷺ ، فبعد أن أمرهم بما سبق من طاعته وطاعة رسوله والاستجابة له إذا دعاهم لما يحييهم، وأن لا يخالفوا أمره وإن أمرهم بما فيه المشقة عليهم، خاطبهم ببيان نعمته عليهم، فقال: واذكروا إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليل؛ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم وتخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم وينالوا منكم فآواكم، أي فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم وأيدكم بنصره أي: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر ورزقكم من الطيبات أي: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبا، لعلكم تشكرون؛ لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم، والناس الذين عنوا بقوله أن يتخطفكم الناس هم عند أكثر أهل العلم كفار قريش، وقال آخرون: بل عني به غير قريش والأول أولى بالصواب؛ لأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم لأنهم كانوا أدنى الكفار منهم إليهم وأشدهم عليهم يومئذ مع كثرة عددهم وقلة عدد المسلمين، وقوله فآواكم فمعناه آواكم إلى المدينة، وكذلك قوله وأيدكم بنصره بالأنصار.[٢]

ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه ﷺ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تخونوا الله؛ وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمانَ في الظاهر والنصيحةَ؛ وهو يستسرُّ الكفر والغش لهم في الباطن، يدلون

---

(١) قال بعض أهل العلم: قوله لا تصيبن، ليس بجواب ولكنه نهي بعد أمر، ولو كان جوابا ما دخلت النون، وقال بعضهم: أَمَرَهم ثم نهاهم، ومثله قوله: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان)، وكأن معنى الكلام عنده: اتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم. جامع البيان/ الطبري ٩/ ٢١٨.

(٢) امظر جامع البيان للطبري بتصرف يسير في العبارة / ٩ / ٢١٩- ٢٢٠.

المشركين على عورتهم ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم، وقد اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية وفي السبب الذي نزلت فيه[١]؛ وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانة أمانته، والعبرة بعموم لفظها، ومعنى الأمانة التي ذكرها الله في قوله ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾، هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، وقال بعض أهل العلم: معنى الأمانات ها هنا الدين فتأويل الكلام إذن يا أيها الذين آمنوا لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولا تخونوا أماناتكم وتنقصوا أديانكم، وواجب أعمالكم، ولازمها لكم، وأنتم تعلمون أنها لازمة عليكم وواجبة بالحجج التي قد ثبتت من الله عليكم، ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها الله وأولادكم التي وهبها الله لكم اختبار وبلاء؛ أعطاكموها ليختبركم بها، ويبتليكم لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها، وأن الله عنده أجر عظيم؛ أي واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إياه، ثم يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن تتقوا الله بطاعته وأداء فرائضه واجتناب معاصيه وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة أماناتكم يجعل لكم فرقانا، أي يجعل لكم فصلا وفرقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين؛ بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم الظفر بهم، ويكفر عنكم سيئاتكم، أي يمحوها عنكم ويغفر لكم أي ويغطيها فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها، والله الفضل العظيم والجزاء الكبير الذي وعده عباده، وإن فعله جزاء منه لعبده على طاعته إياه لأنه الموفق عبده لطاعته.[٢]

---

(١) فقال بعضهم: نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سر المسلمين، وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة للذي كان من أمره وأمر بني قريظة، وقال آخرون بل نزلت في شأن عثمان ﷺ، انظر لباب النقول ١/ ١٠٩.

(٢) وقيل في معنى قوله يجعل لكم فرقانا أي مخرجا، وقيل: نجاة، وقيل: فصلا، وكل ذلك تحتمله الكلمة في أصل اللغة. انظر جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٢٥.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التأكيد على طاعة الله ورسوله فهي رأس الأمر كله، وسبب سعادة المرء في الدارين.
* عدم جواز تشبه المؤمنين بالكافرين سواء في معتقداتهم أو عاداتهم.
* الكفار بما يأتون من أمور تغضب الله تعالى حالهم أسوأ من حال الأنعام.
* الاستجابة لأمر الله تعالى فيها الحياة للمرء في كل مناحي حياته.
* لا بد للمرء من مراقبة قلبه وتعاهده بالمراقبة الدائمة لله تعالى.
* على المرء أن يذكر دائما نعم الله تعالى من التمكين والتأييد وصرف الفتن عنه، والنصر على أعداء الله.
* عدم خيانة الأمانة بجميع معانيها الخاصة والعامة.
* الأولاد والأموال من أخص الأمانات التي استرعانا الله إياها فلا بد من رعايتها. وهي فتنة علينا الحذر منها، وتعاهدها.
* من يتق الله تعالى يهيء له أسباب النصر، ويجعل له عزا وتمكينا، ويعطيه ما يصير له به قوة التصرف بالاتصال والانفصال مع غيره من الناس متى شاء.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

طاعة الله تعالى وامتثال أمره من أهم أسباب النصر والتمكين، والمقطع جاء يؤصل هذا المعنى في نفوس المؤمنين ليحوزوا النصر ويتمكنوا به كل تمكين، وهذا يخدم محور السورة ويؤكد عليه، كما أن تمكين العلاقة بين المؤمنين وتوثيق أواصر المحبة بينهم تجعل منهم أمة قوية لها شخصيتها وكيانها بين الأمم، والمقطع يؤكد أسباب النصر، كما يؤكد أسباب قوة المجتمع وعلو شأنه.

المقطع الخامس: نماذج من عداوة المشركين للمؤمنين

من الآية: ٣٠ ـ ٤٠

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع جاء الحديث عن نماذج من عداوات المشركين للمسلمين، التي لولاها لما شرع الله القتال، ولا كان الجهاد، وبدأت بالحديث عن حال المشركين مع رسول الله ﷺ في مكة، حين كان مكرهم فيها ليخرجوه منها، وكذا مكرهم بكل الوسائل المادية والمعنوية التي تكون حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الله تعالى، مما كان السر في مشروعية القتال، فكانت غزوة بدر أولى تلك الغزوات، قال ابن عطية رحمه الله: « يشبه أن يكون قوله وإذ معطوفا على قوله إذ أنتم قليل وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جمعها ويحتمل أن

يكون ابتداء كلام وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة وهذا هو الصواب»[(١)].

والآية الأولى من هذا المقطع فيها بيان المنة الربانية على النبي محمد ﷺ في إبطال مكر الكفار به ليلة الهجرة.

أسباب نزول آيات المقطع:

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ ﴾ الآية ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتل النبيُ ﷺ يوم بدر صبرا عقبةَ بنَ أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ الآية.[(٢)]

وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ ﴾ الآية، روى البخاري عن أنس ﷺ قال: قال أبو جهل بن هشام اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية[(٣)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: «كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية[(٤)].

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴾ الآية، أخرج الواحدي عن ابن عمر ﷺ قال كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون فنزلت هذه الآية.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢/ ٥١٨.

(٢) حادثة قتل النبي لعقبة أخرجها في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، حديث رقم٢٢٤٠. ٥/ ٢٦٩.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٦٤٨، ١٥/ ٢٥٠.

(٤) والأثر أخرجه البيهقي في سننه، باب ما كان المشركون يقولون في التلبية، حديث رقم ٩٣٠٤.

وسبب نزول قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية قال ابن إسحق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمير بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأرًا ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس ﷺ أنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي للمقطع:

أي واذكر يا محمد وقت أن مكروا بك في مكة ليوثقوك فلا تخرج منها، أو ينفوك خارجها، أو يقتلوك، فيفرّق دمك بين القبائل، لكن الله أبطل مكرهم وكيدهم ونجاك منهم،[2] وقال الفخر الرازي: « والمكر هو المخاتلة والتداهي، تقول: فلان يمكر بفلان إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هوة، وهو يظهر جميلا وتسترا بما يريد، ويقال: أصل المكر الفتل، قاله ابن فورك، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تدبيرهم ما يسوءه، وسعيهم في فساد حاله، وإطفاء نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال الثلاث لم يزل قديما من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا وما استسروا به هو المكر». [3]

---

(١) انظر لباب النقول ١/ ١١٢.

(٢) قال في اللسان: « المكر احتيال في خفية، والمكر من الله تعالى جزاء، سمي باسم «مكر» المجازي،... ويجري مجرى هذا القول قوله تعالى: (يخادعون الله وهو خادعهم). انظر: لسان العرب ج٥/ ص١٨٣.

(٣) قال الفخر: « المكر في حقه من المتشابهات، وذكروا في تأويله وجوهاً؛ منها: أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمي بذلك، ومنها: أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم، انظر التفسير الكبير ج٨/ ص٥٩.

وقال الزمخشري: «﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾، ويخفون المكايد له، ﴿ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾؛ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل، ولا يصيب إلا بما هو مستوجب». [١] وقوله: ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي: ليقيدوك، وقيل معناه الحبس، وقال آخرون: بل معناه ليسحروك؛ وفي معنى مكرهم وما اجتمعوا له وما أرادو فعله بالنبي ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، رضي الله عنهما. [٢] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني أنهم يقولون: قد سمعنا ما تلوت يا محمد، ونستطيع الإتيان بمثله، فما هذا القرآن الذي تتلوه إلا أساطير الأولين، والأساطير جمع أسطر، وهو جمع الجمع لأن واحد الأسطر سطر، ثم يجمع السطر أسطر وسطور ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر، أي: إن هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد ما هو إلا ما سطر الأولون وكتبوه من أخبار الأمم؛ كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بني آدم وأنه لم يوحِهِ الله إليه، [٣]، ثم حكى الله تعالى مقولتهم؛ وطلبهم العذاب إن كان ما جاء به محمد ﷺ صدقا، وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾، أي إن كان ما يدّعيه محمد حقا من عند الله فأنزل علينا عذاباً من عندك، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ معناه: أي وأنت مقيم بين أظهرهم وما كان معذبهم وهم يطلبون المغفرة منه سبحانه، قال ابن عباس رضي الله عنه : « كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار قال فذهب النبي وبقي الاستغفار» [٤] وقال آخرون: معنى ذلك وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون؛ أي لو

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٥.

(٢) وفيه أن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا أجل فادخل، فدخل معهم.... الأثر. انظر لباب النقول / ١٠٩.

(٣) جامع البيان للطبري ٩/ ٢٣٠.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٤٥.

استغفروا، قالوا: ولم يكونوا يستغفرون فقال جل ثناؤه إذ لم يكونوا يستغفرون: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، والتفسير الأول أولى بالقبول والصواب، وقيل إن قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ منسوخة! وليس بصحيح. كما قال في نواسخ القرآن. [١] ثم قال الله تعالى: وما لهؤلاء المشركين ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ولم يكونوا أولياء الله فما أولياء الله إلا المتقون، يعني الذين يتقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون بل يحسبون أنهم أولياء الله، وما كان صلاتهم عند البيت يعني بيت الله العتيق إلا مكاء وتصدية؛أي تصفير وتصفيق، [٢]، ثم توعدهم الله تعالى على تصرفاتهم تلك بقوله: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾، أي تلمسوا العذاب واستشعروا به بسبب كفركم بالله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، إخبار منه سبحانه عنهم أنهم يبذلون أموالهم ليبعدوا الناس عن دعوة الله تعالى فسيفعلون ذلك، لكن النتيجة بخلاف ما يتوقعون، لأن إنفاقهم هذا سيكون عليهم حسرة وندامة، وذلك أن أموالهم تذهب ولا يظفرون بها يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا إلى جهنم، وبئس المصير، « فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك؛ أما الحي فحرم ماله وذهب باطلا في غير درك ولا نفع ورجع مغلوبا مقهورا محزونا مسلوبا، وأما الهالك فقتل وسلب وعجل به إلى نار الله يخلد فيها

---

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٦.

(٢) يقال منه مكا يمكو مكوا ومكاء، وقد قيل إن المكو أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح، وأما التصدية فإنها التصفيق؛ يقال منه صدى يصدي تصدية ؛ صفق، انظرمختار الصحاح١/ ٢٦٣، وقال أبو جعفر: « وقيل في التصدية إنها الصد عن بيت الله الحرام وذلك قول لا وجه له لأن التصدية مصدر من قول القائل صديت تصدية وأما الصد فلا يقال منه صديت إنما يقال منه صددت فإن شددت منها الدال على معنى تكرير الفعل قيل صددت تصدية إلا أن يكون صاحب هذا القول وجه التصدية إلى أنه من صددت ثم قلبت إحدى داليه ياء كما يقال تظنيت من ظننت « جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٣.

نعوذ بالله من غضبه وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر أبا سفيان يعني النفر الذين مشوا إلى أبي سفيان وإلى من كان له مال من قريش في تلك التجارة فسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ففعلوا»[١]، كل ذلك قد فعل الله بهم وسيحشرهم إلى جهنم ليفرق بينهم؛ وبين المؤمنين بالله وبرسوله بين الخبيث والطيب، كما سماهم جل ثناؤه، والتمييز بينهم: بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جناته وأعلا منازلهم، وأنزل أهل الكفر ناره، فجعلهم فيها بعضهم فوق بعض ركاما، [٢]، ثم يقول سبحانه مخاطبا نبيه محمدًا ﷺ ، قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك إن ينتهوا عما هم عليه من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين فينيبوا إلى الإيمان، يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم، وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر، ومن غيرهم من القرون الخالية ؛ فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذي أحللت بهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتموهم إليه أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله وأصروا على كفرهم وقتالكم فقاتلوهم وأيقنوا أن الله معينكم عليهم وناصركم، فنعم المعين لكم ولأوليائه ونعم النصير لكم عليهم [٣] .

---

(١) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٤.

(٢) والركام: أن يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثروا، لسان العرب١٢/ ٢٥١ .

(٣) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٥ وقال الفخر الرازي: « اختلف الفقهاء في توبة الزنديق هل تقبل أم لا؟ والصحيح أنها مقبولة لوجوه الأول هذه الآية فإن قوله (قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) يتناول جميع أنواع الكفر، فإن قيل الزنديق لا يعلم من حاله أنه هل انتهى من زندقته أم لا قلنا أحكام الشرع مبنية على الظواهر كما قال عليه السلام (نحن نحكم بالظاهر) فلما رجع وجب قبول قوله فيه الثاني لا شك أنه مكلف بالرجوع ولا طريق له إليه إلا بهذه التوبة فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا يطاق « التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥/ ١٣٠ .

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مكر الأعداء بهذا الدين لا ينتهي، والله يبطل مكرهم ويحبط مكائدهم، وينصر دينه.
* شأن الكفار الاستهزاء والسخرية بهذا الدين ورسالته كما سخروا بنبيه من قبل.
* من عدم توفيق الله الكافرين للخير أن دعوا على أنفسهم بدل أن يدعوا لها، فحاق بهم ما أرادوا ونجى الله نبيه والمؤمنين.
* من عظيم شأن النبي ﷺ أن الله تعالى رفع العذاب عن الأمة بوجوده بينهم.
* من عظيم شأن الاستغفار أن الله لا ينزل العذاب بقوم يستغفرون.
* الكفرة لا يألون جهدا في الصد عن سبيل الله سواء كان ذلك بأفعالهم البدنية أم المالية، فهم يجندون ما لديهم من قدرات لذلك. لكن كيدهم عائد عليهم بالحسرة في الدنيا والجحيم في الآخرة.
* غاية قتال الأعداء رجوعهم إلى الله تعالى، فإن انتهوا غُفِر لهم، وكف المسلمون عن قتالهم وغاية القتال أن لا تقع الفتنة بين المسلمين بميل الناس عن دينهم، بل ليكون الدين كله لله رب العالمين.
* لم يكن الإسلام في وقت من الأوقات دينا عدوانيا؛ كما يظن بعض الملاحدة، بل إن الجهاد إنما فرض على الأمة لغاية محددة فإن تحققت عاش الناس في سلام وأمن دائمين.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذه الآيات تتحدث عن عداوة المشركين للنبي ﷺ وأصحابه، وما وجد القتال ولا شرع الجهاد إلا لكف أذى المشركين، فالمناسبة بين المقطع والمحور هي أن الآيات تعالج هدفا رئيسا من أهداف السورة وهي استقامة الناس على منهج الله، حتى لا تقع الفتنة في المجتمع ويكون الأمر لله وحده، فالمقطع يخدم الهدف ويجلي المحور بوضوح، ويحدد معالم قتال الأعداء وما كانوا عليه من العداوة المورثة للفتنة بين صفوف المسلمين.

المقطع السادس: كيفية توزيع غنائم بدر مع التذكير بما دار في أرض المعركة

الآية: ٤١- ٤٤

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

الحديث في المقطع عن غنائم غزوة بدر، وما جرى في أرض المعركة من أحداث كان لها كبير الأثر في النصر الذي جناه المسلمون، والمقطع السابق كان ختامه في الحديث عن ولاية الله تعالى للمؤمنين، ومن ولايته لهم سبحانه تهيأته النصر لهم، وتمليكهم أسبابه، وهذا ما حصل في أرض المعركة، كما أن المقطع السابق جاء فيه الحديث عن عداوات المشركين للمسلمين، وفي هذا المقطع جاء فيه بيان نصرة الله تعالى للمؤمنين وخذلانه جل في علاه للكافرين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره واعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتم من مال في المعركة، فأن لله خمس ما غنمتم؛[1]، وأما قوله من شيء فإنه مراد به كل ما وقع عليه اسم شيء مما خوله الله المؤمنين

---

(١) واختلف أهل العلم في معنى الغنيمة والفيء ؛ فقال بعضهم: فيهما معنيان كل واحد منهما غير صاحبه إذا ظهر المسلمون على المشركين وعلى أرضهم وأخذوهم عنوة فما أخذوا من مال ظهروا عليه فهو =

من أموال من غلبوا على ماله من المشركين مما وقع فيه القسْم حتى الخيط والمخيط، عن ابن عباس ﷺ قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خَمَّسَ الغنيمةَ فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾، قال وقوله فأن لله خمسه مفتاح كلام، لله ما في السماوات وما في الأرض فجعل سهم الله وسهم الرسول واحدا، وكانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس أربعة بين من قاتل عليها، وخُمس واحد يقسم على أربعة؛ لله وللرسول ولذي القربى فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ولم يأخذ النبي من الخمس شيئا فلما قبض الله رسوله رد أبو بكر ﷺ نصيب القرابة في المسلمين، فجعل يحمل به في سبيل الله لأن رسول الله قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» (١)، قال أبو جعفر: « والصواب من القول في ذلك عندنا أن سهم رسول الله مردود في الخمس والخمس مقسوم على أربعة أسهم على ما روي عن ابن عباس؛ للقرابة سهم ولليتامى سهم وللمساكين سهم ولابن السبيل سهم والأربعة أخماس للمجاهدين، وأما اليتامى فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آباؤهم، والمساكين هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، وابن السبيل المجتاز سفرا قد انقطع به. (٢)

وبعد ذكر الله تعالى قسمة الغنائم بين المسلمين، وهي ما غنمه المسلمون يوم بدر جاء تذكير الله تعالى لنبيه بما حصل ذلك اليوم وهم بالعدوة القصوى، فيقول: أيقنوا أيها المؤمنون واعلموا أن قسم الغنيمة على ما بيَّنه لكم ربكم إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده يوم بدر إذ فرق بين الحق والباطل من نصركم؛ إذ أنتم حينئذ بالعدوة الدنيا أي بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة وهم أي عدوكم من المشركين بالعدوة القصوى أي بشفير الوادي الأقصى إلى مكة، والركب أسفل منكم أي

= غنيمة، وأما الأرض فهي في سوادنا هذا فيء، وقال آخرون: الغنيمة ما أخذ عنوة والفيء ما كان عن صلح، وقال آخرون الغنيمة والفيء بمعنى واحد، نظر جامع البيان للطبري ١٠/ ١-٣ وقال القرطبي: « الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي « تفسير القرطبي ٨/ ١١.

(١) أخرجه البخاري في: ٦٤ كتاب المغازي: ١٤ باب حديث بني النضير انظر كتاب اللؤلؤ والمرجان ١/ ٥٥٠.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ ٣-٨.

والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾، يعني تعالى ذكره ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين عن ميعاد منكم ومنهم لاختلفتم في الميعاد؛ لكثرة عدد عدوكم وقلة عددكم ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم؛ ليقضي الله أمرا كان مفعولا وذلك القضاء من الله كان نصره أولياءه من المؤمنين وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر، ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعَلِمَها؛ جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك، وإن الله أيها المؤمنون لسميع لقولكم وقول غيركم حين يُرِيَ الله نبيه في منامه ويريكم عدوكم في أعينكم قليلا وهم كثير؛ ويراكم عدوكم في أعينهم قليلا، عليم بما تضمره نفوسكم وتنطوي عليه قلوبكم حينئذ، وفي كل حال يقول جل ثناؤه لهم ولعباده واتقوا ربكم أيها الناس في منطقكم أن تنطقوا بغير حق وفي قلوبكم أن تعتقدوا فيها غير الرشد فإن الله لا يخفى عليه خافية من ظاهر أو باطن وإن الله يا محمد سميع لما يقول أصحابك عليم بما يضمرونه إذ يريك الله عدوك وعدوهم في منامك قليلا ؛ يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرا لفشل أصحابك فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا إنه عليم بما تخفيه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب، وعن ابن عباس قوله ولكن الله سلم يقول سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقوله ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي: قللتكم أيها المؤمنون في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضي من قتال بعضكم بعضا، وإظهاركم أيها المؤمنون على أعدائكم من المشركين والظفر بهم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وذلك أمر كان الله فاعله وبالغا فيه أمره وإلى الله ترجع الأمور أي: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة فيجازي كلا بما يستحق.[1]

---

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ١٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الغنائم لله يجعلها حيث شاء سبحانه، بالكيفية التي يريد، فليس لأحد شأن في ذلك.
* التسليم المطلق لله تعالى في حكمه سبيل الإيمان الصادق.
* يوم بدر كان يوم فرقان وعز ومنعة للمسلمين؛ ما زال الناس بعز منذ ذلك النصر.
* من أسباب النصر تدبير الله تعالى للمؤمنين، بشتى أنواع التدبير بها في ذلك الرؤية البصرية والمنامية. وهو تأكيد لمبدأ أن النصر من عند الله وحده.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

محور السورة ومقصدها الجهاد وقواعده، والعبودية لله ومعانيها، والآيات في هذا المقطع تتحدث عن غنائم المعركة، وعما حصل للمسلمين من النصر والتمكين في بدر؛ والذي كان بسببه النصر والظفر، وإرجاع الأمر في ذلك كله لله رب العالمين.

المقطع السابع: من شروط النصر وأسباب الهزيمة

من الآية ٤٥ ـ ٤٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد الحديث عن مواجهة المؤمنين للمشركين في بدر، والحديث عن تلك المقابلة، جاءت

الآيات تبين شروط النصر وأهمها الثبات في المعركة، وأسباب الهزيمة وأهمها الخذلان والفرار أمام العدو، وأن الشيطان للإنسان بالمرصاد فليحذره المجاهدون، وتحدثت الآيات بعد ذلك عما يدور بين أعداء المسلمين من مكر وسخرية، وختمت بضرورة أن يتوكل المسلم على الله تعالى؛ فهو العلاج لكل ما يحاك ضده.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول جل ثناؤه لهم: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله في أرض المعركة فاثبتوا لقتالهم، وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره لعلكم أي كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم وأطيعوا أيها المؤمنون ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوا عن أمر الله ورسوله في شيء، ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم، فتضعفوا وتجبنوا، وتذهب ريحكم، أي وتذهب قوتكم وبأسكم ويدخلكم الوهن والخلل، واصبروا مع نبي الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه، إن الله معكم إن صبرتم، قوله ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ توجيه من الله تعالى أن تكون أعمالهم خالصة لله وحده، لا رياء الناس كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر، [1] قوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام بقتالهم إياهم وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله، والله عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه منه شيء، وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل الله هذه الآية[2]، وقوله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: « لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام -، فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا » الروض الأنف ٣/ ٦١ .

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٢.

أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾، أي واذكر حين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال للمشركين: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ﴾ أي وقال لهم لا غالب لكم اليوم من بني آدم فاطمئنوا وأبشروا وإني جار لكم من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فتغيركم، أجيركم وأمنعكم منهم، ولا تخافوهم واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته فقال الرجل: تزعم أنك لنا جار؟! قال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾، وذلك حين رأى الملائكة، [(١)]. فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين ونظر بعضهم إلى بعض نكص على عقبيه أي رجع القهقرى على قفاه هاربا يقال منه نكص ينكُص وينكِص نكوصا، وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون يعني أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددا للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم إني أخاف عقاب الله وكذب عدو الله – والله شديد العقاب، ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ يعني شك في الإسلام، غر هؤلاء دينهم؛ يقول غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم دينهم وذلك الإسلام [(٢)]، وقال أبو حيان: « إنّ هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار، لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: غرّ هؤلاء دينهم أي اغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، وكنّى بالقلوب عن العقائد، والمرض أعمّ من النفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر» [(٣)] ومن يتوكل على الله فإن الله حافظه وناصره لأنه عزيز لا يغلبه شيء ولا يقهره أحد ومن يتوكل عليه يكفه وهذا أمر من الله جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم أن يفوضوا أمرهم إليه ويسلموا

---

(١) انظر جامع البيان للطبري بتصرف ١٠ / ٢٠.

(٢) السابق١٠/ ٢١.

(٣) البحر المحيط ٤/ ٥٠١.

لقضائه، لأنه عزيز غير مغلوب، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وجوب الثبات في أرض المعركة وديمومة ذكر الله تعالى من أهم أسباب الثبات.
* عمل المؤمن ينبغي أن يكون خالصا لله تعالى لا رياء فيه ولا سمعة، وعمل الكفرة والمنافقين يفسده الغرور والرياء والبطر.
* كيد الشيطان ضعيف لا يقوى على مقابلة أمر الله تعالى.
* المنافقون من أسباب هدم بنيان المسلم بأراجيفهم وخداعهم، وما ينجيه منهم هو توكله على الله تعالى.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

في الآيات حث على الثبات في أرض المعركة، وذكر الله تعالى في ذلك الموقف، كما أن فيها التحذير من كيد الشيطان ومكره وتزيينه، وفيها بيان خداع المنافقين وأراجيفهم، وكل ذلك من الأمور التي ينبغي للمجاهد مراعاتها ليتم النصر والظفر، وعلاقة ذلك بالجهاد والالتجاء إلى الله تعالى ـ محور السورة ـ واضح بين.

---

(١) ومن اللطائف في قوله تعالى: (إذ يقول المنافقون) الآية، ما روى الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزل الله على نبيه بمكة سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر بن الخطاب ﷺ يا رسول الله أي جمع؟ وذلك قبل بدر، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتا بالسيف يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر فأنزل الله فيهم: (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) الآية، وأنزل (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية وملأت أعينهم وأفواههم حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه وفاه فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، وأنزل في ابليس (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) الآية وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غر هؤلاء دينهم فأنزل الله (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم)انظر لباب النقول ١/ ١١٣.

المقطع الثامن: نماذج من تعذيب الله للكفرة

من الآية ٥٠ ـ ٥٤

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾الأنفال: ٥٠ - ٥٤

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع بيان لحال الكفار حال الاحتضار، وعن مناسبتها لما قبلها قال البقاعي: «ولما ذكر ما سَرّهم من حال أعدائهم المجاهرين والمساترين في الدنيا مرصعاً ذلك بجواهر الحكم وبدائع الكلم التي بملازمتها تكون السعادة وبالإخلال بها تحل الشقاوة، أتبعه ما يسرُّهم من حال أعدائهم عند الموت وبعده» [١].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ولو تعاين يا محمد حين تقبض الملائكة أرواح الكفار فتنزعها من أجسادهم؛ تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم بما قدمت أيديكم أي بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار واجترحتم من معاصي الله أيام حياتكم فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذاب النار، والله ليس بظلام للعبيد؛ لا يعاقب أحدا من خلقه إلا بجرم اجترمه ولا يعذبه إلا بمعصية أتاها، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه، ثم يقول تعالى ذكره فِعلُ هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣/ ٢٢٨.

كعادة قوم فرعون وصنيعهم وفعلهم، والدأب هو الشأن والعادة، وقوله فأخذهم الله بذنوبهم أي فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله ومعصيتهم ربهم كما عاقب الذين من قبلهم، إن الله قوي لا يغلبه غالب، شديد عقابه لمن كفر، ثم بين الله تعالى أن أخذه لهؤلاء الذين كفروا من مشركي قريش ببدر بسبب ذنوبهم؛ وأنهم غيروا ما أنعم الله عليهم بإخراجهم رسوله من بينهم وتكذيبهم له وحربهم إياه فغير الله نعمته بإهلاكهم إياهم كفعله ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى وعصى، والله سميع عليم؛ يسمع كلام كل ناطق منهم، عليم بها تضمره صدورهم، وكل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله من تكذيبهم رسل الله والجحود بآياته فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر ؛ بالقتل بالسيف وأذللنا بعضهم بالأسر والسبي [١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* عذاب الله تعالى للكفار في الدنيا وعند النزع وفي الآخرة لقاء كفرهم وعنادهم.
* العذاب الذي يلقاه أعداء الله تعالى بسبب كفرهم ليس ظلما فالله لا يظلم أحدا.
* ضرب المثل بمن سبق ممن تشبه حالهم حال هؤلاء فيه تقريع لهم وتوبيخ لعلهم يرجعون.
* أن نعمة الله على عباده لا تتحول عنهم إلا بالكفران لها، والبعد عن منهج الله تعالى.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

لما كان الحديث في السورة يدور حول الجهاد وعلاقة المسلم بربه، جاءت هذه الآيات تبين مصير أولئك الكافرين المعرضين عن أمر الله تعالى، وتبين سنن الله تعالى في الكون، وأن من حاد عن منهج الله تعالى استحق العذاب والتشريد والوبال.

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ من٢٢-٢٥.

المقطع التاسع: مقدمات في قواعد السلم والحرب والمعاهدات الدولية(١)

من الآية ٥٥ ـ ٦٣

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

لما أخبر سبحانه في المقطع السابق بهلاك الكافرين، وأخبر بالوصف الجامع لهم بالهلاك بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾، أي لأنفسهم وغيرهم؛ علل اتصافهم بالظلم أو استأنف بياناً له بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾؛ أي ظلموا لأنهم كفروا بآيات ربهم الذي تفرد بالإحسان إليهم، وشر الدواب ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكم الحكم العدل الذي له الأمر كله وفي علمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي منهم ومن غيرهم، أي حكم عليهم بلزوم الكفر لما ركب فيهم من فساد الأمزجة لعدم الملاءمة للخير، فكانوا بذلك قد نزلوا عن رتبة الإنسان إلى رتبة مطلق الحيوان، ثم إلى دركة الحشرات والديدان بل العجلان، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود،(٢) كما أن المقطع فيه الحديث عن الإعداد وهو ما لا ينبغي على المسلمين تركه حتى بعد الانتهاء من المعركة.

---

(١) عنون لهذه الآيات بهذا العنوان سيد قطب في كتاب الظلال، فرأيته يتناسب مع المضمون.

(٢) انظر نظم الدرر٣/ ٢٣١.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره إن شر ما دب على الأرض عند الله الذين كفروا بربهم فجحدوا وحدانيته وعبدوا غيره فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرون بوحيه وتنزيله، إن شر الدواب عند الله الذين أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك محاربا لك ثم ينقضون عهودهم ومواثيقهم؛ كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم، فإما تلقين يا محمد في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة فتأسرهم، فشرّد بهم من خلفهم أي: فافعل بهم فعلا يكون مشرّدا من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عهد وعقد، والتشريد التطريد والتبديد والتفريق، قال في اللسان: « شرد البعير والدابة يشرد شردا وشرادا وشرودا نفر فهو شارد والجمع شرد وشرود في المذكر والمؤنث والجمع شرد، وشرد الرجل شرودا ذهب مطرودا، وأشرده وشرده طرده وشرد به سمع بعيوبه، ورجل شريد طريد وقوله عز وجل ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي فرق وبدد جمعهم »[1] وإنما أمر بذلك نبي الله ﷺ أن يفعل ليكون إخافة لمن وراءهم، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد وعن ابن عباس: قوله فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم يعني نكل بهم من بعدهم لعلهم يذكرون كي يتعظوا بما فعلت بهؤلاء الذين وصفت صفتهم فيحذروا قوله: وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده ويغدر بك؛ وذلك هو الخيانة والغدر فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها وتبرأ من الغدر إن الله لا يحب الخائنين أي الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد، ومعنى قوله على سواء أي حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم، قوله:

(١) لسان العرب ج٣/ ص٢٣٦-٢٣٧.

ولا يحسبن الذين، اختلفت القراء في قراءة ذلك ؛ « فقرأ ابن عامر وحمزة بالغيب، والباقون بالخطاب، والذين مفعول أول على قراء الخطاب، وسبقوا ثان، والمخاطب النبي، والفاعل على قراءة الغيب ضمير يعود على الرسول، أو يفسره السياق، أي قتيل المؤمنين، وإن جعل الذين فاعلا فالمفعول الأول محذوف أي أنفسهم والثاني سبقوا، وفتح سين ﴿ يَحْسَبَنَّ ﴾ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو حعفر، والباقون بالكسر واختلف في ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ فابن عامر بفتح الهمزة على إسقاط لام العلة والباقون بكسرها على الاستئناف وقرأ ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ بكسر السين شعبة وهمز النبي نافع ورقق الأزرق راء عشرون كما نص عليه الداني والشاطبي وغيرهم، وفخمه عنه مكي في جماعة» [1]، ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا سبقونا ففاتونا بأنفسهم، ثم ابتدئ الخبر عن قدرة الله عليهم فقيل، إن هؤلاء الكفرة لا يعجزون ربهم، إذا طلبهم وأراد تعذيبهم وإهلاكهم بأنفسهم فيفوتوه بها، ثم يقول سبحانه: وأعدوا لهؤلاء الذين كفروا بربهم الذين بينكم وبينهم عهد إذا خفتم خيانتهم وغدرهم أيها المؤمنون بالله ورسوله ما أطقتم أن تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم؛ من السلاح والخيل، تخيفون بإعدادكم ذلك عدو الله وعدوكم من المشركين، وعن ابن عباس قال: تخزون به عدو الله وعدوكم، يقال منه أرهبت العدو ورهبته فأنا أرهبه إرهابا وترهيبا، وهو الرهْب والرَهَب، والقوة لفظ عام يراد به كل أنواع القوة المعنوية والمادية، يدل على ذلك التنكير ودخول من عليها، قال ابن جرير: «ولا وجه لأن يقال عني بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة ؛ فإن قال قائل فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله ألا إن القوة الرمي قيل له إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخير ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم فإن الرمي أحد معاني القوة لأنه إنما قيل في الخبر ألا إن القوة الرمي ولم يقل دون غيرها ومن القوة أيضا السيف والرمح والحربة وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم هذا مع وَهْي سند الخبر بذلك عن رسول الله

---

(١) إتحاف فضلاء البشر ١/ ٢٩٩.

ﷺ(١)، قوله تعالى ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي لا تعرفونهم، قيل إنهم بنو قريظة، وقال آخرون: من فارس، وقال غيرهم: هم كل عدو للمسلمين غير الذي أمر النبي ﷺ أن يشرد بهم من خلفهم وهم المنافقون، والأقرب للصواب: أن المراد؛ عدو الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم لكفرهم بالله ورسوله، وترهبون بذلك جنسا آخر من غير بني آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم الله يعلمهم دونكم، لأن بني آدم لا يرونهم وقيل إن صهيل الخيل يرهب الجن وإن الجن لا تقرب دارا فيها فرس، قوله تعالى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في الإعداد يخلفه الله عليكم في الدنيا ويدخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة وأنتم لا تظلمون، قوله ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾، الجنوح لغة الميل(٢)، أي وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب إما بالدخول في الإسلام وإما بإعطاء الجزية ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح فمِل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوك، وقوله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي فوض إلى الله يا محمد أمرك واستكفه واثقا به أنه يكفيك، إن الله الذي تتوكل عليه سميع لما تقول أنت ومن تسالمه، العليم بما يضمره كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه، ومن المضمر، يقول تعالى ذكره وإن يرد يا محمد هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم خداعك والمكر بك فإن حسبك الله يقول فإن الله كافيكهم وكافيك خداعهم إياك لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى هو الذي أيدك بنصره، الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه وبالمؤمنين وهم الأنصار، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرق والتشتت على دينه الحق فصيرهم به جميعا،

---

(١) جامع البيان للطبري١٠/ ٣٤، والحديث صحيح أخرجه مسلم برقم ١٩١٧ في كتاب الإمارة باب فضل الرمي ٣/ ١٥٢٢.

(٢) مختار الصحاح ١/ ٤٨.

بعد أن كانوا أشتاتا وإخوانا بعد أن كانوا أعداء، لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعا من مال وعرض ما جمعت أنت بين قلوبهم، ولكن الله جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت والله الذي ألف بين قلوب الأنصارعزيز لا يقهره شيء ولا يرد قضاءه راد ولكنه ينفذ في خلقه حكمه يقول فعليه فتوكل وبه فثق حكيم في تدبير خلقه.[1]

وسبب نزول قوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، ما أخرجه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن التابوت وسبب نزول قوله تعالى ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية ما رواه أبو الشيخ عن ابن شهاب قال دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً﴾الآية[2].

هل في الآيات منسوخ؟

اختلف المفسرون فيمن عني بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ على قولين:

الأول: أنهم المشركون وأنها نسخت بآية السيف، وبعضهم يقول: بقوله ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهذا مروي عن ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة في آخرين.

والثاني: أنهم أهل الكتاب، وقال مجاهد: بنو قريظة، فعلى هذا القول إن قلنا إنها نزلت في ترك حرب أهل الكتاب إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة فهي محكمة وإن قيل نزلت في موادعتهم على غير جزية توجه النسخ لها بآية الجزية وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية[3].

---

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٣٦.

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٣.

(٣) نواسخ القرآن١/ ١٦٧ .

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الكفار أحط منزلة من البهائم، بإعراضهم عن الله وتنكبهم شريعة الله.
* إذا خاف المسلم من عدوه خيانة فعليه أن ينبذ إليه العهد، فالله لا يحب الخائنين.
* الكفرة مهما أوتوا من قوة فلن يعجزوا الله فهو صاحب القُدَرِ كلها.
* الأمر بالإعداد للجهاد بكل ما أوتي المسلم من وسائل مادية ومعنوية.
* إذا مال العدو للمسالمة مع ظهور المسلمين عليهم وقوتهم في وجه الكافرين فلا حرج أن يجنح المسلمون لها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

الآيات فيها الحديث عن قواعد وضوابط ينبغي على المسلم الالتزام بها في المعركة، وفيها الحث على الإعداد والاستعداد، وكل ذلك من القواعد الأساسية للجهاد ولقاء العدو، وفي ذلك ما فيه من الربط بين المقطع والمحور.

المقطع العاشر: وحدة الصف والتخفيف في القتال

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الأنفال: ٦٤ - ٦٦

مناسبة المقطع لما قبله:

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله تتجلى في جانبين:

الأول: أن في المقطع السابق تصريحا واضحا بكفاية الله لنبيه وتأييده إياه، وفي هذا المقطع

بيان لكفاية الله لنبيه والمؤمنين.

الثاني: في المقطع السابق بيان قهر الله للأعداء وأنهم لا يعجزون، وفي هذا المقطع بيان قوة المؤمنين وعزيمتهم بقهر الأعداء لو كانوا ضعف عدد المسلمين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين الله أي يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾، أي حث متبعيك ومصدقيك على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين؛ إن يكن منكم عشرون رجلا صابرون عند لقاء العدو يحتسبون أنفسهم ويثبتون لعدوهم يغلبوا مئتين من عدوهم ويقهروهم، وإن يكن منكم مئة عند ذلك يغلبوا منهم ألفا بأنهم قوم لا يفقهون، أي: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب ولا لطلب أجر ولا احتساب لأنهم لم يفقهوا أن الله موجب لمن قاتل احتسابا في المعاد ما وعد المجاهدين في سبيله، ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾؛ يعني أن في الواحد منهم عند لقاء العشرة من عدوهم ضعفا، فإن يكن منكم مئة صابرة عند لقائهم للثبات لهم يغلبوا مئتين منهم وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله يعني بتخلية الله إياهم لغلبتهم ومعونته إياهم والله مع الصابرين لعدوهم وعدو الله احتسابا في صبره وطلبا لجزيل الثواب من ربه بالعون منه له والنصر عليه، روى الطبري عن ابن عباس أنه قال: « لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين ومئة ألفا فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، قال: وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم» [1]، قال أبو جعفر النحاس: «وهذا تخفيف لا نسخ لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ ولم يرفع حكم الأول لأنه لم يقل فيه

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٤١.

لا يقاتل الرجل عشرة، بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له، ونظير هذا إفطار الصائم في السفر لا يقال إنه نسخ الصوم وإنما هو تخفيف ورخصة والصيام له أفضل» (١)

واختلفت القراء في قراءة قوله وعلم أن فيكم ضعفا « فعاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد وافقهم الأعمش بخلفه والباقون بضمها وكلاهما مصدر وقيل الفتح في العقل والرأي والضم في البدن وقرأ أبو جعفر بفتح العين والمد والهمزة مفتوحة بلا تنوين جمعا على فعلاء كظريف وظرفاء والباقون بإسكان العين والتنوين بلا مط ولا همز» (٢)

سبب نزول قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الآية ما أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ﷺ نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ وسبب نزول قوله تعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ ﴾ الآية أخرج إسحق بن راهوية في مسنده عن ابن عباس ﷺ قال لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة ثقل ذلك عليهم وشق فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين فأنزل الله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾ إلى آخر الآية (٣)

الهدايات المستنبطة من المقطع:

من هذا المقطع المبارك نستنبط ما يأتي:

* ثقة المؤمن بمعية الله ونصرته في جميع أحواله وخاصة في موقف الجهاد والقتال.

* المؤمنون منصورون إن هم لازموا أسباب النصر واعتصموا بالله تعالى وتوكلوا عليه

مناسبة المقطع لمحور السورة

الحديث في المقطع جاء عن تأييد الله تعالى لنبيه ونصرته له وهو ما يؤكده محور السورة في الحديث عن الجهاد وأسباب النصر.

---

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٩.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ١/ ٢٩٩.

(٣) انظر لباب النقول ١/ ١١٤.

المقطع الحادي عشر: العتاب في أسرى بدر

من الآية ٦٧ ـ ٧١

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

قال البقاعي: « ولما تقدم الأمر بالإثخان.. ثم بإعداد القوة، ثم التحريض على القتال ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين، كان ذلك مقتضيا للإمعان في الإثخان فحسن عتاب الأحباب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب، لكون ذلك أقعد في الامتنان عليهم بالعفو والغفران، بسبب أن أكثرهم مال إلى فداء الأسارى» [(١)].

أي ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن، قال الراغب: «والأسر الشد بالقيد من قولهم أسرت القتب وسمي الأسير بذلك ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدودا ذلك وقيل في جمعه أسارى وأسارى وأسرى» [(٢)] وفي الآية أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم، وقوله: حتى يثخن في الأرض أي حتى يبالغ في قتل المشركين فيها ويقهرهم غلبة وقسرا، يقال منه أثخن فلان في هذا الأمر إذا بالغ فيه وحكي أثخنته معرفة بمعنى قتلته معرفة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٣/ ٢٤٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١/ ١٧.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٤٢.

تريدون عرض الدنيا، أي: تريدون أيها المؤمنون بأسركم المشركين ما عرض من الدنيا من مال ومتاع، وذلك حين أخذتم الفداء من المشركين، والله يريد الآخرة أي: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض، والله عزيز لا يقهر ولا يغلب، حكيم في تدبيره أمر خلقه، وأخرج الطبري بسنده عن عبد الله بن عباس قال: لما أسروا الأسارى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ أين أبو بكر وعمر وعلي؟ قال: ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم؛ فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، قال عمر: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر. ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾»[1] قال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ روى عن ابن عباس ومجاهد في آخرين أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ وليس للنسخ وجه لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى ويبين هذا قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، قال أبو جعفر النحاس: « ليس ها هنا ناسخ ولا منسوخ لأنه قال عز وجل ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فلما أثخن في الأرض كان له أسرى» [2]، ثم يقول سبحانه لأهل بدر الذين أخذوا الفداء: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، أي: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأن الله محل لكم الغنيمة

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٤.
(٢) نواسخ القرآن ١/ ١٦٩.

لأصابكم من الله عذاب عظيم، قال أبو جعفر: « إن قوله لولا كتاب من الله سبق خبر عام غير محصور على معنى دون معنى فهو سبحانه لا يؤاخذ هذه الأمة إذا عملوا عملا بجهالة، وأحل الغنيمة لهم دون من سبقهم، وغفر لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم»[١]. ثم قال تعالى لأهل بدر: فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين حلالا بإحلاله لكم طيبا واتقوا الله أي وخافوا الله في كل أموركم وراقبوه، إن الله غفور رحيم، قال ابن جرير: «وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم وتأويل الكلام فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا إن الله غفور رحيم واتقوا الله ويعني بقوله إن الله غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها»[٢].

ثم يخاطب الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بقوله: يا أيها النبي قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ إن يعلم الله في قلوبكم إسلاما يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله والله غفور لذنوب عباده إذا تابوا رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة، وفي سبب نزول الآية الكريمة يروي ابن عباس قال: قال العباس: فيَّ نزلت ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبدا كلهم تاجر مالي في يديه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وأن لي الدنيا لقد قال يؤتكم خيرا مما أخذ منكم فقد أعطاني خيرا مما أخذ مني مئة ضعف وقال ويغفر لكم وأرجو أن يكون قد غفر لي، يقول تعالى ذكره لنبيه وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم خيانتك أي الغدر بك والمكر والخداع بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر وأمكن منهم ببدر المؤمنين، والله عليم بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم

---

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٤.

(٢) السابق.

حكيم في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه[1].

وسبب نزول قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ الآية ما روى أحمد وغيره عن أنس ﷺ قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال إن الله قد أمكنكم منهم فقام عمر ابن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية

وروى أحمد والترمذي والحاكم وابن مسعود قال لما كان يوم بدر وجيء بالأسارى قال رسول الله ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسارى الحديث وفيه فنزل القرآن بقول عمر ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ إلى آخر الآيات .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم تحل الغنائم لأحد من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها» فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم ﴾ الآية روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال العباس: «فيّ والله نزلت حين أخبرت رسول الله ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي وجدت معي فأعطاني بها عشرين عبدا كلهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله»[2].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

نستنبط من هذا المقطع:

* منة الله تعالى على نبيه وعلى المؤمنين بالصفح وعدم المؤاخذة في شأن الأسرى.
* إباحة أكل ما حصل المسلمون عليه من الأسرى والغنائم، وأنه حلال طيب.
* الثقة بما عند الله تعالى تجعل العبد في غنى دائم ويقين لا ينقطع، وهو عين التوكل.

(١) السابق.

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٤.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع جاء فيه الحديث عن الأسرى، وهم نتيجة حتمية لقتال الأعداء، وبينت الآيات الكريمة ما حصل في شأن الأسرى، والعلاقة بينها وبين محور السورة واضح جلي.

المقطع الثاني عشر: قواعد في علاقة المجتمع الإسلامي بغيره

من الآية ٧٢ ـ ٧٥

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد الحديث عن الأسرى وما وعدهم من الخير، بين الحق سبحانه ما ينتفع المرء به في الدارين وهو الإيمان والنصرة والهجرة والجهاد، وهو خير مما يلهث وراءه الناس سواء الأسرى أو من هم في أيديهم، فشرعت الآيات ببيان أصناف الناس وكيف ينبغي التعامل فيما بينهم، على وفق الأسس التي بينها لنا ديننا الحنيف، وقسّمَ القرآن الكريم الناس أربعة أصناف؛ فصنف جمع الإيمان والهجرة والجهاد، وصنف آوى المهاجرين، وصنف آمن ولم يهاجر، وصنف آمن وهاجر من بعد [١] .

---

(١) انظر نظم الدرر ٣/ ٢٤٧ بشيء من التصرف.

المعنى الإجمالي للآيات:

يقول تعالى ذكره إن الذين صدّقوا الله ورسوله وهاجروا يعني هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم يعني تركوهم وخرجوا عنهم وهجرهم قومهم وعشيرتهم وجاهدوا أي بالغوا في إتعاب نفوسهم وإنصابها في حرب أعداء الله، والذين جعلوا للرسول وأصحابه المهاجرين مأوى يأوون إليه وهم الأنصار، أولئك؛ أي المهاجرين والأنصار؛ بعضهم أنصار بعض وأعوان على من سواهم من المشركين، دون أقربائهم الكفار، قال ابن عباس: «جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، أي ما لكم من ميراثهم من شيء وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله في الميراث فنسخت التي قلبها وصار الميراث لذوي الأرحام»[1].

ثم قال سبحانه: والذين صدّقوا بالله ورسوله ولم يهاجروا قومهم الكفار ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام ما لكم أيها المؤمنون المهاجرون من نصرتهم وميراثهم من شيء حتى يهاجروا قومهم ودورهم، وإن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا في الدين يعني بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين فعليكم أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار النصر إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أي عهد أن لا يحاربه، والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم بصير يراه ويبصره فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء، ويبين الله تعالى حال الكافرين مع بعضهم من الولاية التي ينبغي للمسلمين أن يكونوا على شاكلتها فيقول: والذين كفروا بالله ورسوله بعضهم أعوان بعض وأنصاره، إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين تكن فتنة في الأرض وفساد لحياتكم ومآلكم؛ قال أبو السعود: «إلا تفعلوه أي ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي تحصل فتنة عظيمة فيها وهي ضعف الإيمان وظهور

---

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٥١.

الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدارين»[١] ولا ينبغي لكافر أن يورَث مسلما للخبر الذي رواه الحاكم في مستدركه عن أسامة بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافرا ولا كافر مسلما»، ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[٢] ثم يقول الله تعالى: والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم أولئك هم أهل الإيمان حقا، لا من آمن ولم يهاجر ولم يغز مع المسلمين عدوهم؛ لهم ستر من الله لذنوبهم بعفوه لهم عنها ولهم في الجنة طعام وشراب هنيء كريم لا يتغير، ثم يقول تعالى: والذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا دار الكفر إلى دار الإسلام وجاهدوا معكم أيها المؤمنون فأولئك منكم في الولاية يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة مثل الذي يجب لكم عليهم، والمتناسبون بالأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيبا وحظا من الحليف والولي في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء، إن الله بكل شيء عليم يعلم ما يصلح عباده في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب دون الحلف بالعقد، ومن أسباب نزول هذه الآية أن الرجل كان يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾[٣].

وقال الحسن: « كان الأعرابي لا يرث المهاجر ولا يرثه المهاجر فنسخها ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾»[٤].

وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورث أرحامنا المشركين فنزلت ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٨.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك حديث٢٩٤٤ ج٢/ ص٢٦٢.
(٣) جامع البيان ١٠/ ٥.
(٤) السابق ١٠/ ٥٣.

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾. وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآية أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل ترثني وأرثك فنزلت ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وأخرج ابن سعد من طريق هاشم بن عروة عن أبيه قال آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام ﷺ وبين كعب بن مالك ﷺ قال الزبير: « لقد رأيت كعبا أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فصارت المواريث بعد للأرحام والقرابات وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة»[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* أهمية الهجرة والجهاد في الشرع وأنهما من الأمور التي يتفاضل بها المؤمنون.
* أهمية الرحم، وأن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في المواريث.
* الموالاة بين المؤمنين أساس مهم يبنون عليه حياتهم، وبدون ذلك تكون فتنة وفساد بين الناس.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع فيه تحديد للعلاقات بين المجتمع المسلم بعضه مع بعض، وبين المجتمع المسلم مع غيره من المجتمعات، وهذا الأمر له علاقة وثيقة بمحور السورة القائم على جهاد أعداء الله تعالى، وبيان أسسه وضوابطه، والعلاقة بين المؤمنين بعضهم مع بعض وبينهم وبين خالقهم جل في علاه، والولاية من أهم القضايا التي عالجتها آيات هذا المقطع وهي قضية نلحظها في ثنايا آيات السورة الكريمة من أولها حتى آخر آية فيها.

(١) انظر لباب النقول ١/ ١١٥.

سورة التوبة

بين يدي سورة التوبة

سورة التوبة مدنية بالاتفاق، انتظمت في مائة وتسع وعشرين آية، ترتيبها التاسع في المصحف العثماني وتقع في الجزء الحادي عشر منه، نزلت بعد سورة الفتح، دونت بعد الأنفال وقبل يونس. وتعد أكثر سور القرآن الكريم تسمية حسب ما تناهى إلينا من كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم وأساطين علماء التفسير وعلوم القرآن، وعلى وجه العموم فإن هذه الأسماء تدل على ما اشتملته السورة، من الصفات والمعاني والمبادئ والقواعد والأحكام في مقاطعها المختلفة.

وفيما يلي إيراد لأسمائها التي تقصيناها بدقة من أمهات كتب التفسير مع بيان تعليل هذه التسميات[1]:

- **المقشقشة**: أي أنها تقشقش من النفاق بمعنى تبرئ منه ومن أهله.

- **المخزية**: لأنها تخزي الكافرين والمنافقين، فالله مخزيهم حيث وجدوا لثباتهم على الشرك واستكبارهم عن الحق الذي جاءهم.

- **الفاضحة**: لفضحها سلوك المنافقين وما انطوت عليه صدورهم من الخسة والنذالة، وكان ابن عباس يسميها بذلك لأنه ما زال ينزل فيها ومنهم حتى ظن الجميع أنها لم تبقِ أحداً منهم إلا وذكرته.[2]

- **الكاشفة**: لكشفها عيوب الكفار والمنافقين ولايتهم بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين.

- **المشرِّدة**: بمعنى تشرُّد المنافقين وتفلج شكيمتهم لتفتيت عصبتهم وعزلهم عن موالاة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ١٤٦.

بعضهم بعضاً.

- **المبعثرة**: لكونها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي تبحث عنها وتثيرها ليقف الجميع على معاول هدمهم.

- **الحافرة**: بسبب حفرها عن قلوب المنافقين وإثارة أسرارهم لكشف ظاهر سلوكهم وباطنه، بعد أن أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه ولجوا ولم يثنوا عنه.

- **المثيرة**: لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها للمسلمين، ليحسنوا مقارعتهم استعداداً لاستئصالهم لكونهم متناهين في النفاق والبعد عن الإيمان. (١)

- **المنكِّلة**: لإعلانها الحرب بشدة على المنافقين والمشركين والدعوة للتنكيل بهم وقتلهم حيث ثقفوا، لظلم الواحد منهم لنفسه ولغيره، لما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد له ولنبيه.

- **المدمدمة**: أي تدمدم المنافقين بمعنى تهلكهم وتطوي صفحة مكرهم، لاستمرائهم سلوك النفاق الذي أحدثوه وابتدعوه بعد الهجرة. (٢)

- **المشددة**: بسبب شدة قسوتها في التعامل مع المنافقين والمشركين على أمل تطهير الجزيرة العربية منهم، لما أظهروه من الاستهزاء وفساد الاعتقاد.

- **البَحوث**: بفتح الباء لأنها ما انفكت تسعى للبحث عن جيوب النفاق وأهله، لكشف أسرارهم استعداداً لضربهم والتخلص منهم.

- **العذاب**: بسبب براءة السورة من المنافقين والمشركين، ودعوتها لقتالهم دون رحمة، بغية تعذيبهم لأجل مخرجات سلوكهم وكفرهم لتقصيرهم بحق الله، وعدم احترامهم للعهود والمواثيق التي اتخذوها ستاراً للغدر والخيانة. وعن **حذيفة** أنه سماها سورة العذاب لأنها نزلت

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ٩٥.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩. التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ٩٧.

بعذاب الكفار أي أخذهم بالقتل حيث يثقفون. [١]

- **المنقِّرة**: لأنها نقرت عما في قلوب المشركين وكشفه للمسلمين، والتسمية ههنا مأخوذة من نقر الطير للخشب أو للحصى، وفيها من حكمة مفاجأتهم بالخفي من أقوالهم وأفعالهم، بما لم يتوقعوه أو يألفوه. [٢]

- **البشَّارة**: أصل الكلمة الإخبار بما فيه مسرّة، وقد استعيرت ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

- **العاصفة**: لعصفها وزلزلتها بأركان أهل النفاق والشرك، ففي السورة دعوة لاقتلاعهم من المجتمع ومنزلتهم منه على مكرهم وخبث طويتهم كالريشة في مهب الريح.

- **الفارقة**: لأنها تفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والمنافقين، مع بيان صفات كل منهما.

- **السيف**: سميت السورة بذلك لأن السيف أداة الحرب الرئيسة في زمن صدر الإسلام. والجهاد لا يقوم إلا به، وفي هذه التسمية دعوة لإعمال السيف على رقاب أهل النفاق والشرك ممن لا أمان لهم، ولا سبيل لهم من ذلك إلا بالتوبة الصادقة وبالإقلاع عن الذنوب والمعاصي[٣].

- **المحرضة**: وسميت بذلك لكونها أكثر سور القرآن حثاً على جهاد المنافقين والمشركين. وتحريضاً على قتالهم لإعلاء كلمة الله وتحذيراً من القعود والتخاذل في نصرة الله.

- **القرينتين**: وهو اسم مقترن بسورتين، لمن ظن أن الأنفال وبراءة سورة واحدة، بسبب

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٢.

تشابه قصة الأولى بالثانية، فكلتاهما نزلت في القتال. [1]

- **الغزوتين:** لذكرها غزوتي حنين وتبوك، في حين تناولت الأنفال قصة غزوة بدر، والأحزاب غزوة الخندق، وآل عمران قصة غزوة أحد، إذ انتظم بها ستون آية عن يوم أحد وتداعياته. [2] وهذا مجمل للسور التي ذكرت فيها غزوات رسول الله ﷺ في القرآن الكريم. ومن اللافت للانتباه أن تعدد الأسماء للاسم الواحد، دليل على جلال قدره وعظيم خطابه شأن سورة التوبة هنا.

وصفوة القول فيما تقدم تعتبر التوبة وبراءة من أشهر الأسماء التي تُرجم للسورة في كلام السلف من أئمة الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي. وجاء تسميتها بالتوبة لقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧]. وفي تسميتها براءة لافتتاح السورة بقوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١].

ويعضد قولنا هذا ما وقع للاسمين من ذكر في حديث **زيد بن ثابت** في صحيح البخاري في باب جمع القرآن. (قال زيد: فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري،﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾، حتى خاتمة سورة براءة).

وسميت سورة التوبة بهذه التسمية لأن فيها التوبة على المؤمنين عامة لمختلف طبقاتهم. والتوبة على الثلاثة الذين تخلفوا عن معركة تبوك خاصة. وتعتبر أكثر سور القرآن إيراداً لكلمة التوبة واشتقاقاتها، إذ تكررت في السورة سبع عشرة مرة، [3]* ورغم كون السورة تتحدث عن المنافقين والمشركين إلا أنها تدعوهم للتوبة في غير موضع من مقاطعها مع بيان أن لا سبيل لهم

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ١١.

(٣) * وردت كلمة التوبة في سورة البقرة ثلاث عشرة مرة، وفي النساء اثنتا عشرة مرة، وفي هود ست مرات، والمائدة خمس مرات، وآل عمران ثلاث مرات، والأنفال مرة واحدة.

بالنجاة إلا بالتوبة، ولهذا جمعت السورة بين الشدة والتهديد والوعيد لحملهم على التوبة إن أرادوها لأنفسهم، ولا يتأتى لهم ذلك إلا من خلال التصديق بالإيمان وتحصيل مقتضياته وإن تحقق ذلك فإن الإسلام يُجُبّ ما قبله.

ويلاحظ في السورة تكرار قوله تعالى:﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ وهو محور السورة، وحكمته التبشير بالتوبة والفلاح بالنجاة من مصارع السوء.

والعلاقة بين محور سورة التوبة وسورة الأنفال التي قبلها علاقة تلازمية، وهما أكثر سور القرآن الكريم تشابهاً وتجانساً، حتى اعتقد بعض الصحابة عند جمع المصحف الإمام زمن عثمان بن عفان ﷺ أنهما سورة واحدة. لأجل هذا فإن السورتين تكونان سورة واحدة عند الشيعة الإمامية الجعفرية، [(١)]* مع أن الأنفال نزلت في غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، والتوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة للهجرة فترة غزوة تبوك، قبل وفاته ﷺ بعام وثلاثة أشهر، وبعد مرور اثنين وعشرين عاماً على بدء الوحي.

وبقراءة تحليلية في علم أسباب النزول نرى أن سورة التوبة آخر ما نزل من سور القرآن الكريم. ولعل خير شاهد على ذلك وجه ارتباطها بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة/ ٣. فهذه الآية وثيقة الصلة بسورة التوبة أو براءة، نزلت يوم عرفة عام حجة الوداع بعد نزول التوبة بسنة تقريباً، فقد عاش بعدها النبي ﷺ واحداً وثمانين يوماً، قُبض بعدها إلى ربه عز وجل، وقد دون كتبة الوحي خلال المدة المتبقية من عمره ﷺ، تدوين آيات الدين والربا والكلالة. ولم يعهد عنهم أن دونوا سورة

---

(١) * ينسحب هذا أيضاً على سورتي الضحى والشرح فهما سورة واحدة، وكذلك سورتا الفيل وقريش. ولا يفوتنا الإشارة هنا أن الأنفال وبراءة حين تكونان سورة واحدة، فإنها تحتل الترتيب السابع في السبع الطوال وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف. وفي حالة الفصل بين السورتين كما هو مدون في المصحف العثماني، فإن بعض العلماء يعتبرها السابعة، وآخرون يعتبرون سورة يونس السابعة من الطوال، والعلماء متنازعون في ذلك على اجتهادات.

بكاملها، وبهذا تكون سورة التوبة آخر ما نزل من السور الطويلة في القرآن.[1]

ويراد بكمال الدين في الآية السابقة نصرته ﷺ على البيت الحرام وجلاء المشركين عنه ولو كره الكافرون، وقد تجلى هذا بوضوح في سورة براءة، وبات الحج خالصاً للمسلمين لا يشاركهم أحدٌ منهم في مناسكه كما كان سابقاً وكان ذلك من تمام نعمة النعم. وقد تحقق للنبي ذلك بعد أن مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة تسع سنين لم يحج. ثم أذن في الناس بالحج في السنة العاشرة. فكانت حجة الوداع المشهورة، حيث تعلموا منه ﷺ مناسكهم وكيفية أدائهم شعائر الحج، فطويت وللأبد التقاليد الجاهلية المتوارثة من تصدية وصفير وعري أثناء الطواف. فزاد البيت بذلك تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً، وكان من حكمة حجة الوداع أن شرع الحج في السنة العاشرة للهجرة.

وبهذا يكون نزول السورة من حيث الترتيب الرابعة عشرة بعد المائة ولعل الحكمة من ذلك ليكون ختام الوحي بفتح باب التوبة. وهي السورة الوحيدة التي لم تبدأ بالبسملة، وعلى خلفية هذا فإن للسورة ارتباطاً بالعديد من السور المتقدمة والمتأخرة عنها، نورد منها على سبيل الذكر لا الحصر آيات القتال الواردة في سورة البقرة/ ١٩ و٢١٦ والحج/ ٣٠. فمن خلال ربط هذه الآيات بعضها ببعض يمكننا معرفة مراحل فرض الجهاد ومعرفة بواعثه، ويلاحظ أيضاً عمق اتصال سورة التوبة بالسور التي بعدها كسورتي المؤمنون وترتيبها في المصحف الثالث والعشرون، والمنافقون وترتيبها الثالث والستون. ولعل الربط بين هذه السور يفيدنا في معرفة صفات المؤمنين وطبقاتهم، وصفات المنافقين ومواقفهم المخزية والحكمة من محاربتهم واستئصالهم.

ولا يفوتنا التنويه هنا أن بعض الآيات المتماثلة ذات الموضوع الواحد، قد ورد في أكثر من

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أن سورة براءة آخر سورة نزلت في القرآن الكريم. وعن جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة الفتح. للمزيد انظر: مختصر صحيح البخاري، د. سعد بن ناصر الشثري: كتاب المغازي رقم ١٧٣٢.

موضع وسورة، ليس من باب التكرار بل على سبيل التأكيد تارة، ولذكر مقاصدها المرجوة وللوفاء بالغرض والحكمة الذي سيقت من أجله تارة أخرى، وقد يرد في آية من الأحكام والقواعد ما لم يرد في الأخرى، وما يرد منها حسب موقعه يكون مناسباً بالقدر والطريقة التي تناسب الإطار العام للسورة وسياقها. وهذا من أهم الأدبيات التي يجب مراعاتها عند التفسير الموضوعي للقرآن.

ومما تجدر الإشارة إليه اشتمال سورة التوبة على طائفة من ضوابط وخصائص القرآن المدني الموضوعية. كذكر المنافقين ومجادلة أهل الكتاب وبيان فضيلة الجهاد والعلاقات الإنسانية في السلم والحرب، ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله. كما أبرزت شواهد ولقطات عن بعض الأنبياء والرسل من باب العبرة والعظة للأعراب من أهل البوادي والحواضر حتى يستقيم إيمانهم.

وختمت السورة بالإشارة الصريحة إلى مكانة خاتم الأنبياء والمرسلين في العرب خاصة والعالم عامة، والحكمة من بعثه برسالة الإسلام. ثم ذكرت بعض من جميل صفاته كالرأفة والشفقة والرحمة بالمؤمنين. وهو أكمل الخلق في صفاته لحرصه على هداية الناس كافة. ولعل الحكمة من ختم السورة بهذا المقطع إظهار التوبة والرحمة من خلال التصديق بنبوته ﷺ.

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن السورة قد قسمت إلى ستة مقاطع لتيسير تفسيرها موضوعياً. إذ يحتوي كل مقطع منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة، وما ترشد إليه من هدايات مع بيان وجه الارتباط بينها وبغيرها ممن تقدم أو تأخر.

وفيما يلي وصف موجز لمقاطع السورة:

المقطع الأول: ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢٤. وموضوعه نبذُ عهود الكفار إليهم. وذمهم لأنهم لا يرقبون في أحدٍ من المؤمنين إلّاً ولا ذمة.

المقطع الثاني: ويمتد من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٧. وموضوعه غزوة حنين.

المقطع الثالث: ويمتد من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥. وموضوعه نجاسة المشركين والنهي عن دخولهم البيت الحرام، والأمر بقتال أهل الكتاب، الذين لا يدينون دين الحق لفساد عقيدتهم، حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية.

المقطع الرابع: ويمتد من الآية ٣٨ إلى الآية ٣٧. وموضوعه تحديد الأشهر الحرم وما فيها من أحكام فقهية.

المقطع الخامس: ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ١٢٧ في تسع وثمانين آية. ويشغل معظم مساحة السورة، حيث يتناول الجو العام لقصة غزوة تبوك، آخر غزوات النبي ﷺ.

المقطع السادس: ويمتد من الآية ١٢٨ إلى الآية ١٢٩. وموضوعه حكمة بعثته ﷺ في العرب وعظيم مكانته فيهم.

المقطع الأول ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢٤

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

القراءات[1]*: الآية ٤

---

(١) * القراءات: هي اختلاف بين العلماء القراء في كيفية النطق ببعض كلمات القرآن من: تخفيف وتثقيل ومد وإمالة وإدغام ونصب وتسكين ورفع وجر. أو اختلاف في وجوه الإعراب ونحو ذلك. ومنشؤها اختلاف في لهجات العرب وأولاها حجة حرف قريش. وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ. وذكر الذهبي في طبقات القراء: كان عثمان وعلي وأبي وزيد وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري على رأس الصحابة الذين اشتهروا في القراءات. وأخذ عنهم خلق كثير من الأمصار. وحكمة القراءات بيان إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه.

ومما تجدر ملاحظته أن علماء القرن الهجري الثالث قد صنفوا أسماء سبعة من الأئمة القراء الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: ابن عامر ت١١٨هـ، وابن كثير ت١٢٠هـ، وعاصم ت١٢٨هـ، وأبو عمرو ت١٥٤هـ، وحمزة ت١٥٦هـ، ونافع ت١٦٩هـ، والكسائي ت١٨٩هـ، وهناك ثلاثة آخرون صحت قراءاتهم وتواترت وهم أبو جعفر المدني ويعقوب الحضرمي وخلف بن هشام، وهؤلاء هم أصحاب القراءات العشر.

وقال السيوطي: أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم ثم تبعه آخرون على رأسهم أبو جعفر بن

- قرأ عكرمة وعطاء بن يسار[1]: ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَنقُضُوكُمۡ ﴾ بالضاد معجمة.

- وقرئ في الآية ٢٤: (عشيرتكم) و(عشيراتكم) وقرأ الحسن: (وعشائركم).[2]

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول من سورة التوبة

إن قراءة تأملية دقيقة في مضمون آيات المقطع الأول من سورة التوبة، تبرز لنا محور المقطع المتضمن للأهداف والمقاصد التالية:

١. المناداة بالبراءة من المشركين والدعوة إلى تطهيرهم من أرض جزيرة العرب، التي خصها الله وشرفها برسالة الإسلام ومنحهم هدنة مع بيان الأسباب التي أوجبته.

٢. إعلام الناس كافة يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وإتمام مدة العهد لمن حافظ عليه. مع تأمين المستجير منهم حتى يسمع كلام الله على أمل التوبة.

٣. عدم أخذ المشركين بالقتال غدراً وخيانة، دون النبذ إليهم، ليختاروا طواعية بين الإسلام أو الاستعداد للقتال.

٤. تحديد أمد الهدنة بالأشهر الحرم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم التي حرم الله فيها القتال. وبيان أسس معاملتهم بعد انقضاء الأجل المضروب.

٥. وجوب قتال المشركين بشدة وضرب الحصار عليهم بسد الطرق أمامهم في كل سبيل بعد انقضاء موعدهم.

٦. التأكيد على أن إيمان المسلم لا يكتمل إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من كل شيء.

جرير الطبري إمام المفسرين المتوفى ٣١٠هـ.

للمزيد حول هذا الموضوع انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٧٠-٨٥. والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٧١.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٥.

٧. إبراز عداوة المشركين للمسلمين لأنهم قوم يغلب عليهم الضلالة ولا يذعنون للحق ولا يؤمنون به. انطوت صدورهم على مخادعة المسلمين.

٨. التحضير لحجة الوداع وخطبتها المشهورة في العام العاشر للهجرة.

ويرى المتأمل في المقطع الأول من سورة التوبة أنها مرت بالمشاهد التالية:

افتتحت السورة بقوله تعالى:﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١]. وغاب عنها البسملة في سابقة ليس لها نظير في سور القرآن الكريم. وللعلماء في غياب البسملة اجتهادات متعددة. أقواها حجة أن الصحابة لم يكتبوها في المصحف الإمام مقتدين بأمير المؤمنين **عثمان بن عفان** ﷺ في الجمع الأخير، لأن رسول الله ﷺ لم يأمر كتبة الوحي بذلك.

وهذا ما اقتضته الحكمة الإلهية، فالبسملة أمان ورحمة، والسورة نزلت لرفع الأمن بالسيف. والسخط على المنافقين والمشركين، لأنهم قوم لا أمان لهم ولا عهود ولا يؤمن غدرهم وليس أمامهم إلا المقارعة بالسيف. (١)

وبقراءة تحليلية نرى أن غياب البسملة يتوافق مع عادة العرب قبل الإسلام إذا كان بينهم وبين قوم عهد أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً من غير مقدمات في السلام والتحية، (٢) وفي صدر الإسلام اعتادوا ذلك دون بسملة، ومن باب القياس، فإن الخاطب المغضب لأمرٍ ما في وقع الشدة لأمر الفصل فيه يبدأ خطبته بقوله (أما بعد) دون استفتاح. بهدف التوبيخ والتقريع والتنديد.

ومن الحكمة في غياب البسملة أن المسلمين لا يستطيعون العيش مع المشركين على أسس المعاهدات القديمة ما داموا على شركهم، والتي وقعوها معهم في وقت كانوا فيه قليلين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٢ و ٦٣.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٦١.

مستضعفين بالمقاييس البشرية. وليس لهم سلطان دنيوي يقهر المشركين، فلما تداولت الأيام وأعز الله الإسلام بفتح مكة ودخل الرسول ﷺ الكعبة وحولها ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يحطمها وهو يردد ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء: ٨١]. استوجب الفصل بين عهدين عهد كان بالأمس أهله ضعافاً فأنعم الله عليهم بالنصر فكان الأمر بالبراءة من المشركين وتحريم إعطاء الولاء لهم من غير بسملة، فليس أمامهم إلا السيف أو الإسلام، بعد إعذارهم وإنذارهم بانقطاع عصمتهم. ولم يعد من المسوغ للمسلمين أن يعايشوهم ثانيةً بعد أن منَّ الله عز وجل عليهم بالقوة والاقتدار، وأذاق أعداءه مرارة الهزيمة بما فيها من ذل وقتل وسبي وأسر.

كما قررت الآية الثانية قاعدة أخلاقية تنص على من كان بينه وبين رسول الله عهد مفتوح، فإن أجله إلى أربعة أشهر لمراجعة النفس رجاء الأمل بالتوبة. فإذا مضت وما زالوا على كفرهم فإن الله بريء من المشركين ورسوله وجب مقاتلهم في كل مكان. ومن كان له عهد مع رسول الله مخصوص بأجل مسمى فعهدهم إلى مدتهم المضروبة لهم، إذا استقاموا على عهدهم بعدم معاونتهم أو ممالأتهم لأحدٍ من المشركين ضد المسلمين، فإن الله يحب المتقين الذين يحافظون على عهودهم. [1]

ثم تمضي الآيات وتقرر الآية الخامسة: يترتب على المشركين حالة انقضاء الأجل والأمان الممنوح لهم، بدءاً من العاشر من ذي الحجة سنة تسع للهجرة، إلى العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر للهجرة، [2]وما زالوا على عنادهم وكفرهم وضلالهم، مقاتلتهم لأن السيف أولى بهم أينما وجدوا. فلا أمان لهم أن يتركوا فيما هم فيه وألفوه من الحرية. فاستعدوا لمقارعتهم ومنازلتهم بمختلف فنون الحرب وخططها العسكرية، لاستباحة نفوسهم وأموالهم.

لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني: ٢/ ١٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ١٠٦.

﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]. فإن تابوا وأسلموا وعملوا بمقتضيات هذا الدين من صلاة وزكاة وحسن إسلامهم، فقد عصموا في أموالهم ودمائهم، فهم عندئذٍ منكم، فالإسلام يجب ما قبله. وإن جاءك أيها الرسول أحدٌ من المشركين بعد انقضاء الأشهر فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه حتى يقف على حقيقة الأمر. وقاتله بعد ذلك إن لم يُسلم من غير غدر ولا خيانة.

ثم تتلاحق الآيات لتقرر أن المشركين قوم أعرضوا عن آيات الله، لا يحترمون مواثيقهم وعهودهم وهذا هو شأنهم لا يدعون لمؤمن قرابةً ولا عهداً.

وتحذرنا منهم لأنهم قوم لا يؤمن جانبهم ولو كانت لهم القوة على المسلمين لظاهروا عليهم، فالمشركون أعرضوا عن آيات الله واستبدلوها بعرض الدنيا وشهواتها، وصرفوا الناس عن الدخول في دين الله في سالف أمرهم عندما كان ميزان القوة لصالحهم. وبهذا يتأكد على المسلمين قتال أهل الرياسة فيهم حتى ينتهوا عن كفرهم وتأثيرهم على غيرهم. فهم الذين كانوا وراء إخراج الرسول ﷺ من مكة وحاولوا قتله ولكن الله عصمه منهم. حين تشاوروا في أمره بدار الندوة في مكة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه. ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ مراراً، ثم تنبهنا الآية الثامنة البداءة بمقاتلة النبي ﷺ وأصحابه من قبل أهل الرياسة من كفار قريش، لأنه جاءهم بالقرآن الذي تحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم إلى القتال فهم البادؤن بالقتال والبادئ أظلم. (١)

ثم توجهت الآية للحث على الجهاد بالسؤال:

فما يمنعكم أيها المسلمون من أن تقاتلوهم بمثله. فالمؤمن الحق لا يخشى إلا ربه ولا يبالي بمن سواه. (٢) فهؤلاء الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر بنصبهم أصناماً حول الكعبة يطوفون

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣٩.

حولها، يسجدون لها ويستنصرون بها ويستمطرون بها حسب زعمهم، حقيق بكم أيها المسلمون إعمال السيف في رقابهم، وسيؤيدكم الله بنصره ويذيقهم العذاب والذلة والخزي. لأنهم كانوا يخشون أصنامهم ويرجونها أكثر من خشيتهم لله، إلا من تاب منهم وسوف يشفي الله صدور طائفة من المؤمنين الذين لاقوا منهم أذىً شديداً ومكروهاً كبيراً.

ثم توجهت الآية السادسة عشرة بالخطاب للمسلمين أنه سبحانه وتعالى لن يترككم دون اختبار لكم ليميز المؤمن الصادق الذي يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، من المشرك الذي يتكئ في حركاته على وليجته الخاصة (بطانته) من دون الله وهو العليم بما في القلوب التي في الصدور.

ثم تمضي الآيات ويقرر الله عز وجل في الآية السابعة عشرة ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾[التوبة: ١٧]. ومما تضمنته هذه الآية حرمة مشاركة المشركين في عمارة مساجد الله بالعبادة أو الخدمة أو الولاية أو التنظيف أو الصيانة أو البناء ونحوه، والعبرة هنا بعموم اللفظ، وإن كانت قد نزلت الآية بشأن المسجد الحرام. إذ كان المشركون قبل فتح مكة في الثامنة للهجرة، يتقربون من آلهتهم التي ضربت حول الكعبة، ويتوجهون لها بالدعاء والرجاء معتقدين أنها واسطة بينهم وبين الله فترجع غائبهم، وتنصرهم على أعدائهم، وتشفي مرضاهم، وقد أفادت الآية الكريمة أن المشركين ليسوا أهلاً لأن يعمروا مساجد الله، فهذه العمارة وقف على المؤمنين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويؤدون الصلاة والزكاة على وجهها. أما الكفار فليسوا على شيء مما تقدم وهم خالدون في نار جهنم.

ثم أخذت الآيات اللاحقة تذم وتوبخ اعتزاز المشركين بدورهم في عنايتهم بالمسجد الحرام كالسقاية وخدمة الحجيج فيه قبل الإسلام، [(١)]* فخدمة المسجد الحرام حصر على

(١) *- نزلت في العباس بن عبد المطلب الذي تفاخر وهو في الأسر بخدمته وعنايته للمسجد الحرام، حين طفق علي بن أبي طالب يوبخه لقتاله رسول الله ﷺ، والسقاية هنا ما كانت قريش تسقيه للحجاج من=

وجه التخصيص بالمؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله وحده، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فهم الفائزون برضوان الله في الدنيا والآخرة. ويختتم المقطع الأول بالنهي عن موالاة الذين استحبوا الكفر على الإيمان، وتتوعد كل من يستنصر بالآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة أو الأزواج، ويكون لهم تبعاً من دون الله. وتحث على محبة رسول الله ﷺ، وتحري مرضاته وطاعته ليكون أحب للمؤمن من نفسه وماله.

الحكم والدروس والعبر والهدايات التي يرشد إليها

المقطع الأول من سورة التوبة

١ - تقرر آيات المقطع الأول الأحكام التالية:

أ-عدم جواز إبقاء الشرك وأهله في جزيرة العرب يوماً واحداً مع القدرة على استئصالهم. ومن هنا جاء نبذهم بالبراءة من خلال علي بن أبي طالب وليس أبا بكر الصديق أمير الحج. لأن من عادة العرب إذا أراد نقض العهد استلزم أن يكون ذلك من خلال صاحبه أو شخص من أهل بيته.(١)

ب- جواز عقد الهدنة والعهد والاتفاقيات مع غير المسلمين للحاجة والضرورة، من باب تحقيق المصالح، مع تعليقها بالشرط على التزام ما فيها من أحكام، والوفاء بها من فرائض الإسلام ما دام معقوداً لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[الإسراء/ ٣٤]. وفي الحديث (من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يُحِلَّنَّ عُقدة ولا يَشُدَّها حتى يمضي أمده أو يَنْبِذَ إليهم).(٢)

ت- أن انتساخ العهد يكون بإعلان الحرب أو الغدر والخيانة أو عند إلحاق أي ضرر

=الزبيب المنبوذ بالماء وكان يقوم في هذه الخدمة العباس ﷺ في الجاهلية وبقيت معه في الإسلام.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩) في الجهاد، والترمذي (١٥٨٠) في السير باب ما جاء في الغدر.

بالمسلمين ،مباشراً أو غير مباشر .حيث كانت سننه ﷺ في أهل العهد إذا أصلح قوماً فنقض بعضهم عهده وأقرهم الباقون دون اعتراض منهم ولم يأخذوا عليه ،غزا الجميع وجعلهم كلهم ناقضين كما فعل في أهل مكة[١] .

ث- أن الإمهال بمدة الهدنة أربعة أشهر ليس لعجز ،ولكن لمصلحة من يتوب منهم ولأجل ذلك أجاز بعض الفقهاء إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه ،لتمكينه من سماع القرآن ومشاهدة أهل الإسلام وهيئات عبادتهم[٢] .

ه -أن المسلمين جميعاً من باب الولاء إخوة متحابون يحسن بعضهم إلى بعض ،ويساعد بعضهم بعضاً ، ويتعاونون فيما بينهم على فعل الخير ودفع الشر ،وفي هذا إبراز لأهمية التآخي لتحقيق التكامل والتعاضد .ولا يكتمل إيمان المسلم حتى تكون محبته لله ورسوله أشد من محبته لنفسه أو أهله وعشيرته وتجارته .وأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه .كما تقطع الآيات الولاية بين المسلمين والكفار بالبراءة منهم لتناصرهم فيما بينهم على الغدر والخيانة ،وتعاونهم في عداوتهم للمسلمين .فلا يجوز للمسلم أن يتخذ من أعداء الله أولياء له يلقي لهم بالمودة ،أو يمد لهم يد الإخاء والتعاون على حساب أخيه المسلم .فالمؤمنون متناصرون على الحق متعاونون في عداوتهم لأعداء الله.

٢ - أرشدت الآيات الأولى من المقطع الأول إلى الأحكام التالية:

أ- تحديد الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

ب- تحريم القتل والقتال في هذه الأشهر ،وسميت حرماً لأن ذا الحجة والمحرَّم منها ،ولأن المشركين أومنوا فيها وحرّم قتلهم وقتالهم[٣] .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٢٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ٤٢٠.

(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣١.

ت- يستحب الإكثار من الصيام فيها.

ث- بيان ما اختص به الحرم المكي من الأحكام كاستحباب شد الرحال إليه ،فالصلاة فيه تعدل مائة إلف صلاة فيما سواه ،وحرمة تمكين غير المسلمين منه ومن الإقامة فيه.

١- التأكيد على مكانة وقدسية البيت الحرام الذي جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمناً فهو أول بيت وضع للناس للعبادة ،وتحققت فيه دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فأذن الله عز وجل لنوره أن يشرق على أرض جزيرة العرب من جديد. فاقتضت حكمته تعالى أن تكون مكة مهداً لرسالة الإسلام، فقد جعل فيها الكعبة المشرفة واختار محمداً ﷺ العربي رسولاً إلى الناس كافة. ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولم تكن رسالة محددة يختص بها جيل من الناس شأن الرسالات السابقة، بل جاءت عامة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. والعرب هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه في توحيد الله وعبادته، وفي تعظيمهم للبيت الحرام وتقديسه وخدمته، ومن الحكمة الإشارة هنا أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب عن سائر الناس في الرسالة، وفضل قريشاً عن سائر القبائل وفضل اللغة العربية على اللغات الأخرى.

٢- لما كان البيت الحرام أرفع الأماكن ذكراً وأعظمها عند الله قدراً وأشهرها منزلة، فإن الربط بينه وبين المسجد الأقصى واجب، والعدوان على أحدهما عدوان على الآخر. والدفاع عنهما دفاع عن الإسلام والمسلمين، والتفريط في أحدهما خيانة لله ورسوله. فالمسجد الأقصى أول قبلة للمسلمين وثالث مسجد تشد إليه الرحال والصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة فيما سواه، وقد تأكد هذا الربط في قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

٣- المراد بالحج الأكبر يوم عرفة[١] وليس يوم النحر للأسباب التالية:

(١) يروى هذا الرأي عن عمر وعثمان وابن عباس وطاووس ومجاهد وابن سيرين وهو قول أبي حنيفة.

أ-الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم، ومن لم يقف بعرفات فقد فاته الحج وفي الحديث (الحج عرفة). [١]

ب - من تمام الحج أن يصلي الحاج الظهر والعصر مع الإمام بعرفة. [٢]

جـ- أن يوم عرفة يوم شغل بعبادة من وقوف بالموقف ومن سماع الخطبة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه نهى عن صوم يوم عرفة بالنسبة للحجيج مساعدة لهم على العبادة والدعاء والذكر. وبالمقابل استحب صيام هذا اليوم لغير الحاج.

د - يمكن تسمية يوم عرفة بالمؤتمر الإسلامي العالمي السنوي، إذ يجتمع فيه المسلمون من مختلف الأجناس والألوان، على عظم ما قدره الله لهم من عدد من شتى قارات العالم، على تباين نصيبهم في الدنيا من الجاه والسلطان، كأخوة متساويين لا يفضل أحدهم عن الآخر إلا بالتقوى، ومن الحكمة ألا يمر مثل هذا المؤتمر السنوي دون تدارس أحوال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا من فضل يوم عرفة.

انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٧/ ٦١.

(١) أخرجه أبو داود: ١٦٦٤، وسنن الترمذي: ٨١٤.

(٢) فقه السنة، السيد سابق، ١/ ٧١٩.

المقطع الثاني ويمتد من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٧

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

لم تزل آيات سورة التوبة تمضي في اتساق هادف حتى انعطف الكلام في المقطع الثاني إلى غزوة حنين وتداعياتها.

وهنا يذكر الله تعالى المؤمنين بنصره على المشركين، بعد أن أخذت المسلمين في الجولة الأولى من الغزوة عزة عددهم. وزال عنهم أن الله هو الناصر وليس كثرتهم. وفي ذلك حكمة بالغة وإن قل جمعهم أو كثر.

وفيما يلي وصف لمشاهد غزوة حنين وجوها العام:

بعد أن انتشر الإسلام في مكة وقوي المسلمون. ودخل الناس في دين الله أفواجاً، بما منّ الله عليهم من تطهير البيت الحرام من الشرك في السنة الثامنة للهجرة.

انزعجت القبائل العربية في الطائف وحواضرها من انتصار المسلمين على قريش. أقوى القبائل العربية وأشدها شكيمة، فأهلها رجال حرب وقتال ومال ومع هذا فقد هُزموا.

مما حمل هوازن وثقيف توقع أن تكون الضربة القادمة من نصيبهم، [وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ ، وقالوا لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا]. [(١)]

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٣٥.

ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة للمسلمين قبل أن يباغتوهم في ديارهم. فاستعانت بالقبائل المجاورة لها وشكلت ائتلافاً تحالفياً اجتمع إليهم من خلاله جموعٌ كثيرة فيهم بنو سعد وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم.

وعهد القوم برياسة الجند إلى (**مالك بن عوف**) سيد بني هوازن، وكان في العقد الثالث من عمره. وأمر المقاتلة من قومه أن يصطحبوا معهم عوائلهم وأموالهم وحيواناتهم، على أن تكون في مؤخرة الجيش، حتى يستميت القوم في الدفاع عنهم ولا يفكروا بالفرار.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بخبر جمعهم، قرر الخروج إليهم على رأس عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليه **أبو سفيان** في ألفين من مسلمي طلقاء مكة. وهو عدد لا سابق له، إذ لم يكن يجتمع للمسلمين من قبل في كل غزوات رسول الله ﷺ . ونظر المسلمون إلى عدد جيشهم فاغتروا بكثرته، وقال بعضهم: [لن نُغلبَ اليوم من قِلة]. [١]

ولمّا بلغ ائتلاف هوازن وثقيف خبر زحف المسلمين إليهم، أدركوا خطورة الموقف عسكرياً. وساروا في عجلة من أمرهم إلى وادي حنين في مكان يقال له (أَوْطَاس). [٢]* فمكثوا في جوانبه معسكرين فيه بين شعابه ومضايقه ورؤوس وديانه. ينتظرون قدوم جيش المسلمين، وأقاموا مئات الكمائن لهم. ولمّا بلغ الجيش وادي حنين قبيل الفجر أخذ الجند ينحدرون في بطون الوادي وشعابه في ظلام الوادي ومضايقه.

وكانت المفاجأة أن شدَّ عليهم العدو الكامن في جوانب الوادي شدة رجل واحد فانهالت السهام عليهم، كما أخذت الكتل الصخرية تتدحرج في كل مكان. فولى معظم المسلمين فراراً من هول المفاجأة ولم يبق إلا رسول الله ﷺ صامداً ومعه نفر من المهاجرين والأنصار. فأخذ النبي ﷺ ينادي: [أيها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله: أنا محمد بن عبد الله. قالها ثلاثاً]. [٣]

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٣٦.

(٢) * - أوطاس: وادٍ بين مكة والطائف في ديار هوازن شهد وقعة حنين.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٦.

ثم أمر عمه العباس بأن ينادي في القوم: [يا معشر الأنصار! يا معشر المهاجرين! يا أصحاب السمرة!]. (١)(ويراد بهم أهل بيعة الرضوان).

فاجتمع إلى رسول الله ﷺ مائة رجل، فاستقبل بهم القوم وقاتلهم، ثم شرع في تنظيم من يلتحم به من الجند. ولم يزل هذا موقفهم حتى أنزل الله السكينة عليهم، وأيده بجنودٍ من عنده، وما هي إلا ساعات قليلة حتى انهزم المشركون وولوا الأدبار، مخلفين وراءهم عوائلهم وأموالهم وحيواناتهم غنيمة للمسلمين. وهكذا تحولت الهزيمة إلى نصر مؤزر.

ولجأ المنهزمون من المشركين ومعهم **(مالك بن عوف)** إلى الطائف. وتحصنوا فيها فتعقبهم رسول الله ﷺ وعسكر على مقربة من حصونهم ورماهم بالمنجنيق. وحدث في أثناء الحصار أن تسلل نفرٌ من عبيد الطائف فأسلموا، وأخبروا رسول الله أن أهل ثقيف قادرون على مواجهة الحصار مدة طويلة. فأمر برفع الحصار عنهم وقال رسول الله ﷺ اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم.

ولمّا رحل رسول الله ﷺ من الطائف سار حتى نزل (الجِعرانة)(٢)* فيمن معه من الناس. وأتته وفود هوازن وقد أسلموا، فرد إليهم ذراريهم ونساءَهم ثم طلب إليهم أن يخبروا **(مالك بن عوف)** إن أتى مسلماً رد عليه أهله وماله ومائة من الإبل. فلما سمع مالك بذلك جاء متخفياً عن قومه، وأعلن إسلامه فوفى له النبي بوعده واستعمله على من أسلم من قومه. (٣)

ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا من أسلم من هوازن. شرع بتوزيع الغنائم فأعطى قسماً للمؤلفة قلوبهم وقسماً آخر للمهاجرين.

أما الأنصار فلم يعطهم شيئاً لحكمة أرادها رسول الله ﷺ لهم، ولخير احتبسه لهم في الآخرة. وقال فيهم: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٧.
(٢) * الجِعرانة منزل بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب وعلى بعد عشرة أميال منها.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٠٢، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٨.

وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.[1]

الدروس والعبر والأحكام والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثاني

تنطوي غزوة حنين على دروس بالغة الأهمية للمسلمين في كل عصر، وها نحن نقف على جانب منها من باب التكامل لأخذ الدروس والعبر والعظات والأحكام المستنبطة:

١- عرضت هذه الغزوة لصورتين هزيمة في الجولة الأولى لتدبير إلهي محض، ونصر في الجولة الثانية. فقد أذاق الله سبحانه وتعالى المسلمين مرارة الهزيمة في جولتها الأولى لحكم منها:

أ- أن الجهاد أصدق الامتحانات لكشف معادن النفوس، والنصر الإلهي لا يستحقه من يفرط في الأسباب الموجبة له وما النصر إلا من عند الله بحسب درجات الإيمان. فالنصر منزلته صعبة ليس لأحد بلوغه إلا بقوة العقيدة والصبر على ويلات الحرب وشدائدها.

ب- التحذير من مزالق الفخر والترفع والتعاظم والتكبر لكثرة العدد والعدة وتوهم النصر على خلفية ذلك، فالكثرة ليست فيصلاً في النصر ولا القلة سبباً في الهزيمة.

ت- اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أنه لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم النصر والظفر على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الجهاد والأخذ بأسبابه.

لهذا كان يمتحنهم على الدوام بالغلبة والهزيمة لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالتضرع والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة والاعتصام بحبله، لأن النصر منوط بتقوى الله وطاعته.

وليعلم بالبلاء والمحنة منازل المقاتلين منهم على حقيقتها، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان والصبر، ليميزهم عن غيرهم ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة، ومن لا يصلح. لهذا جعل سبحانه وتعالى المعركة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه، فالعاقبة وإن

---

(١) للمزيد حول موقف الأنصار من توزيع الغنائم، انظر: الكامل للتاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٤٤.

طالت طريقها فهي حصرٌ للمؤمنين الصابرين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله. (١)

ث- التأكيد على أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، ومنازل أهله هي الأرفع في الجنة فهم الأعلون فيها.

هـ- تقرير أن الصبر والثبات وقت الشدائد من مفاتيح النصر، والتحلي بهما يرفع روح المقاتل المعنوية ويجعل الواحد منهم جمعاً. إضافة إلى حسن الاستعداد والتأهب مع الأخذ بمقتضى قانون الأسباب والمسببات المادية والمعنوية. (٢)

غ- كان لثبات النبي ﷺ وحسن سيرته في الغزوة قيادة ومشورة وتخطيطاً، ورباطة جأشه وصلابته وتفاؤله وعمق إيمانه بنصر الله له درس للقادة في كل زمان، فالقائد الناجح يتصف بتلك الصفات، وإن أحاط العدو به إحاطة السوار بالمعصم فلا يظهر عليه شيء من سلوك العصبية والارتباك، أسوة برسول الله ﷺ أملاً بالفرج حتى يتحقق له نصر الله.

ك- أن الحرب لا تستقر على وتيرة واحدة في معاركها، بل تراوح بين إحدى المنزلتين كراً وفراً تقدماً وتقهقراً نصراً وهزيمةً، فلا يأس عند مفاجأة العدو بالضربة الأولى كما حدث في غزوة حنين، ولا اغترار بالنصر إن تحقق، ولله المنة والحمد والشكر على كل الأحوال.

٢- تحقق في هذه الغزوة معجزة الملائكة بتأييدهم للمؤمنين وتثبيتهم على القتال بإذن الله تعالى، كما وقع ذلك في غزوتي بدر والخندق سابقاً، وتحقق فيها معجزة رمي النبي ﷺ بالحصباء وجوه القوم، حتى نالت منهم جميعاً رغم بعد المسافة ببركة قبضته ﷺ حتى ملأت أعين القوم وأفواههم. (٣)

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٢٢٠.
(٢) خواطر قرآنية ونظرات في أهداف سور القرآن، عمرو خالد: ١٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨.

٣- إذا كان الله تعالى قد استهل عز الدعوة للإسلام في عهد النبوة، بنصر المسلمين في غزوة بدر على قلة عددهم وعدتهم، فإنه ختمها بنصره ﷺ في غزوة حنين، وبهذا النصر تكامل إسلام المدن الرئيسية الثلاث في الجزيرة العربية: المدينة المنورة ثم مكة ثم الطائف.

وهنا دخل الناس في دين الله أفواجاً، وصرف عنهم الكفار الذين لم يكن لهم بهم طاقة، بعد أن أفرغت قواهم واستنفدت سهامهم وأذل جمعهم، وقويت شوكة المسلمين وعصبتهم.

ولهذا يقرن بين الغزوتين فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين.[1]

٤- كان من توجيهات النبي ﷺ في غزوة حنين شأنه في غزواته كافة التأكيد على الأحكام التالية:

أ- النهي عن الهروب من المعركة لأنه من الكبائر، فالمسلم يضحي من أجل عقيدته ويجاهد في سبيل الله تعالى، ولا يعرف الجبن لأنه يدرك أن الآجال محدودة، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالثبات أمام أعدائهم، وفي ذلك إظهار لعقيدتهم ودفاع عن دينهم، وحرم الفرار من المعركة وعده من الكبائر، إلا إذا كان فيه خدعة حربية لتغيير الموقع أو الانضمام لجماعة أخرى من المسلمين لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

ب- إزالة المانع من النصر بتجنب الذنوب والمعاصي، لئلا يتخلفوا عن أهم الأسباب الموجبة للنصر. ويا عجباً لهؤلاء الذين يقولون أين نصر الله في غياب نصرتهم له!

ت- تقرير مفاجأة العدو ومباغتتهم بالإغارة عليهم وذلك من باب التحرز والحيطة والحذر فالحرب خدعة لأجل إفقاد العدو عنصر المبادرة. وخاصة إذا سمع القائد بقصد عدوه واستعداده له، وفي جيشه قوة ومنعة فليسر إليهم لمهاجمتهم ابتداءً ولا يقعد ينتظرهم لمهاجمته،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

وقد سار النبي ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم في حنين. (١)

ث- استحباب عقد الألوية والرايات في وحدات الجيش لرفع الروح المعنوية مما يجعل الواحد جمعاً في قوة الشوكة والعصبية.

هـ- أحق الناس بقيادة الجيش أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، وأكثرهم صبراً وصلابةً وفطنة وذكاء، وأغزرهم بسطة في فنون الحرب وطرائقها، منعاً للتقصير واستخراجاً للصواب في العمليات العسكرية.

غ- بث العيون بين صفوف الأعداء لاستطلاع خبرهم لمعرفة أحوالهم في شؤون الحرب وخططها. فقد بعث النبي ﷺ في هذه الغزوة **عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي** ليتجسس أخبار العدو ويأتي المسلمين بالخبر عن عدتهم وعددهم. (٢)

٥- إقرار مشروعية العارية، فقد استعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية دروعاً يوم غزوة حنين. (٣)

والعارية من التعاون المحمود الذي حث عليه الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. وهي سنة مستحبة يجدر بالمسلم أن يقوم بها حتى لا يكون من الذين يمنعون الماعون.

والعارية عقد بين طرفين يقوم المعير بموجبه بتمليك المستعير منفعة شيء دون أجرة لمدة معينة، على أن يرده المستعير بعد الاستعمال على سيرتها الأولى أي مضمونة.

وفي مشروعية العارية السابقة درس آخر وهي جواز استعارة سلاح المشركين وعدتهم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

(٢) فقه السيرة النبوية، د. محمد رمضان البوطي: ص٢٩٠.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨٦، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩. والكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٣٦. والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٩.

لقتال العدو للضرورة والمصلحة. فقد كان **صفوان بن أمية** وقتئذ مشركاً، بشرط أن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين، وأن لا يتسبب عن ذلك دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم. [١] وهذا خلاف ما هو مشاهد في وقتنا الحاضر.

٦- جواز خروج المرأة للجهاد مع الرجال لأجل مداواة الجرحى وتقديم الخدمات اللازمة لهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، حال توافر شروط الحماية لهن، وإذا كانت المصلحة تقتضي ذلك من غير خطر عليهن. وهذا مشروط بالستر والصيانة والحاجة. [٢]

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ قد خرج في غزوة الطائف وأهله معه أم سلمة وزينب. [٣] وجهاد المرأة في الإسلام واضح ومعلوم في تاريخ الدعوة.

وتعتبر أم عَطِيّةَ الأنصارية على رأس النساء المؤمنات المجاهدات، اللواتي شاركن الرجال في الجهاد، والذبِّ عن الدين وعن ديار المسلمين. فقد غزت مع الرسول ﷺ سبع غزوات. [٤]

وفي ذلك إظهار لدور المرأة المسلمة في الجهاد في سبيل الله تعالى. وبيان لأهمية مشاركتها في التمريض والعناية بالمرضى ضمن قيم الإسلام وأحكامه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٩، وفقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢٩٠.

(٢) المرجع السابق: ص٢٩١.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٠٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب النساء الغازيات. وهي نسيبة بنت الحارث المالكية الأنصارية من بني النجار، ص١٧.

المقطع الثالث ويمتد من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

القراءات: الآية ٣٠

- قرأ عاصم والكسائي (عُزَيْرٌ) بالتنوين. والباقون: (عُزَيْر) بترك التنوين. وقرأ عاصم: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ بالهمزة. والباقون: (يضهون) بغير همزة.[1]

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٥٠-٢٥١.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

مما تجدر الإشارة إليه أن افتتاحية خطاب هذا المقطع وقف على المؤمنين الذين خصهم الله عز وجل بخدمة مساجده.

وفي الآية عودة على مقدمة المقطع الأول بالبراءة من المشركين. حين أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر بعد غزوة تبوك أميراً على الحج، في السنة التاسعة ثم أتبعه علياً بن أبي طالب لأجل أن ينادي في عرفة:

[أيها الناس: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربعة أشهر، فإذا مضت فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك]. (١)

فكان بذلك إيذاناً بطهارة المسجد الحرام، من أدران الماضي وأباطيل الشرك الذي تسلل إلى عرب الجاهلية. فألفوه واعتادوا عليه، بسبب ابتعادهم عن عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

ويلاحظ في هذا المقطع أيضاً انتقال الكلام من نبذ العهد مع المشركين كما تقدم في المقطع الأول، إلى بيان المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد أن أوجسوا خيفة من تطرق الإسلام إليهم، فأخذوا يستعدون لحرب المسلمين على وهْم منهم أن مدافعتهم للمسلمين قد توقف زحف انتشار الإسلام داخل وخارج الجزيرة العربية.

وقد قررت الآيات قتال أهل الكتاب بعد أن انتفى عنهم الإيمان الصحيح والتدين بدين الحق وهو الإسلام. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء، وهم الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، فحللوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر، وجعلوا لبعض هؤلاء الأحبار والرهبان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٨.

مرتبة الربوبية في اعتقادهم.

فقد زعم اليهود أن عزير ابن الله، وأطبقت النصارى بكل مللها أن المسيح ابن الله، وبهذا الكفر تأكدت عليهم الحجة وعظم منهم الشرك والكفر فاستحقت عليهم الجزية على انقياد وانصياع وخضوع لحكم الإسلام، وبسبب تغلظ كفرهم ترادفت عليهم أسباب الذل وموجباته. وأن هؤلاء وهؤلاء لو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام، لأن كتبهم أوصتهم بذلك. وكانوا بما أنكروه من رسالة محمد ﷺ أهلاً لردعهم عن باطلهم وقتالهم على فساد عقيدتهم، ليكون في ذلك ترغيباً لهم في الانسلاخ عن دينهم الباطل، وإتباعهم الإسلام الدين الذي أنزله الله على أنبيائه كافة حيث أكد هذا على لسان الأنبياء في القرآن الكريم. فقد جاء على لسان نوح عليه السلام قوله ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وفي قول يعقوب لأبنائه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وعن يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وجاء في معرض قول موسى عليه السلام عن التوراة: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وجاء عن حواريي عيسى عليهم السلام: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

يتضح مما تقدم أن الإسلام في معناه العام الاستسلام لله في أمره ونهيه، وفي معناه الخاص الرسالة التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو دين البشرية. ويأبى الله إلا أن يتم نوره إلى قيام الساعة لعموم بعثة الرسول ﷺ وشريعته: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وتبعاً لمنطق العقل: فإن عدا ذلك من معتقد قول ساذج ليس فيه بيان ولا برهان، وهو منكر من القول وزورٌ، ومن أشنع درجات الكفر المستحق للتوبيخ والتقريع. وتعالى الله عما يزعم أهل الكتاب علواً كبيراً في نسبة الأبوة إليه. كتجسيد اليهود لله تعالى وإيمان النصارى بثالوث الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث من سورة التوبة

١ - تقرر آيات المقطع الأمر بقتال الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم فدينهم باطل للأسباب التالية:

أ–دين لم يشرعه الله بسبب تحريفهم له بالتبديل وبالزيادة والنقصان. فهم لا يؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق الذي جاءت به رسلهم من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته.

ب– دين منسوخ برسالة الإسلام والتمسك به غير جائز شرعاً.

ت– إنكارهم للنبي ﷺ وبرسالته علماً أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهذا دليل على انحراف عقيدتهم.

ث– زعمهم ببنوة عزير والمسيح كما تقدم.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن هذا الانحراف قد طرأ عليهم بالتراخي، بعد أن كانوا على دين الفطرة زمن الرسالة التي أنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام. ثم تمردوا على ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى والشيطان، فرفع الله عز وجل التوراة والإنجيل ومحاها من قلوبهم.

فساحوا في الأرض زمناً طويلاً ثم أخذ أحبارهم ورهبانهم يدرسون التوراة والإنجيل من عند أنفسهم، فتعددت كتبهم واجتمع فيها الشرك بالله وطرأ عليها التحريف

والتصحيف[(١)]*. وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى ولو شاء لجعل الناس جميعا على الإسلام. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

لكنه عز وجل ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته تعالى على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤]. وحكمة ذلك أن من ثوابت الدعوة للإسلام إتاحة حرية الاختيار لأهل الكتاب ومخاطبتهم ودعوتهم إلى دين الله بالحوار الذي تظلله أنوار الحكمة بالحجة والبرهان مصداقاً لقوله تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام/ ١٤٨].

ولقد بلغ من تسامح الإسلام مع أهل الكتاب، حداً حمل بعض المفكرين من غير المسلمين على تقديم شهادتهم بهذا الخصوص، نذكر منهم على سبيل المثال **غوستاف لوبون ولنغريد هونكه**.

٩. اقتضت سنة الله عز وجل فرض الجزية على أهل الكتاب بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. لأجل إخراجهم من عبادة العباد التي كانوا عليها إلى عبادة الله، ومن جور معتقدهم إلى عدالة الرسالة طمعاً في دخولهم الإسلام.

والجزية هي المال المفروض فرضاً محتوماً طوعاً أو كرهاً على رؤوس أهل الكتاب من اليهود والنصارى لقاء ذمتهم، وما يتأتى لهم عن عقد الذمة من بسط الأمن لحمايتهم والمدافعة عنهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم، واستتباب الراحة لهم بالمنعة من الجندية ليعيشوا

(١) *- للمزيد حول ما طرأ على كتب أهل الكتاب من تحريف انظر: سلسلة مقالات المقارنة بين الأديان لأبي زهرة. حيث عقد مقارنات بين الديانة البوذية والديانة النصرانية، وتأثر الأخيرة بالبوذية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة/ ٣٠].

في سلم وأمان وموادعة مع خضوعهم لأحكام الإسلام وتشريعه.

والجزية تدفع باليد سنوياً من غير توكيل للآحاد منهم عن سعة وقدرة في الدفع، وجعلت على مراتب حسب طبقات أهل الكتاب اقتصادياً ومقدارها اجتهادي تتراوح على ثلاث فئات ٢٨ و ٢٤ و ١٢ درهماً. (١)

وأسقطت عن الفئات العمرية دون العشرين ومن هو فوق الخمسين وعن النساء والرهبان وذوي العاهات منهم. (٢)

ويرى صاحب **تفسير المنار** في تعدد الآراء التي قيلت عن فرض الجزية [أن من المفسرين من قال في الآية أقوالاً في القسوة والشدة والاستعلاء والقهر والذلة في تحصيلها ما يأباه عدل الإسلام ورحمته]، (٣) ويراها **القرطبي** [الجزية يقتضي وجوبها على من يقاتل من الأحرار البالغين من أهل الكتاب]. (٤) إذا أذن لهم الإقامة في دار الإسلام ومن أسلم منهم سقطت عنه لنصرته وجهاده في المدافعة عن الإسلام والمسلمين. والجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة فهي نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم. وتقوم الجزية لأهل الكتاب مقام الزكاة للمسلمين حتى يتكافأ الجميع في الواجبات.

ومما تجدر ملاحظته أن الجزية تؤخذ من قويهم لضعيفهم كما هو الحال في الزكاة من باب الدفع عنهم، كما تعطى لضعيفهم من بيت مال المسلمين من باب التكافل الاجتماعي الذي

---

(١) لمزيدٍ من الاطلاع انظر: الفصل الذي عقده صاحب تفسير المنار في الجزية: ١١/ ٢٩٠-٣٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٢.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٢٩٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٢.

وللمزيد حول موضوع آية الجزية وتعدد الآراء في موجباتها وهيئات الدافع لها: انظر المصدر نفسه ٧/ ١١٠ و ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٥.

كان للحضارة الإسلامية شرف سبق الغرب فيه. (١)

١٠. تقرر الآيات منع الأحبار والرهبان لأهل ملتهم الدخول في دين الإسلام وإتباع محمد ﷺ مع كونهم عالمين برسالته، مع البشارة باسمه في كتبهم ويأبى الله مقابل كفرهم هذا إلا أن يتم نوره ويظهر رسالة الإسلام على الديانات السابقة.

وإن محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم فيه اتهام بسلامة عقولهم مع السخرية منهم وقدحهم وتسفيههم. فالكفار لا يملكون القدرة على إطفاء شعلة كبيرة، فكيف تكون لهم القدرة على إطفاء نور الله تعالى؟. كما تؤكد الآيتين ٣٤ و٣٥ أن كثيراً من الأحبار والرهبان، يسلبون أموال الناس بالباطل ويحسبونها لأنفسهم لتحقيق منافعهم الخاصة. ستكوى بها يوم القيامة جباههم وجنوبهم وظهورهم لأن الجزاء من جنس العمل.

ولقد خص الله سبحانه وتعالى هذه الأعضاء ذكراً من بين سائر أعضاء الجسم لأن الغني المقتر يقبض جبهته إذا سأله سائل، وإذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه وقبض وجهه. ويطوي عنه جنبه ثم يوليه ظهره كبراً بماله فرتب الله العقوبة على حال المعصية. (٢)

٤- بيان أن الكانزين للذهب والفضة يجعلون المال بعضه إلى بعض، يوظفونه في معصية الله ولا يقيمون فيه شرع الله، فسيكون ماهم الذي جمعوه في الدنيا حسرة عليهم يوم القيامة حين يقذفون في نار جهنم، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً ﴿ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]. وقد تكرر هذا التوبيخ لمالهم غير المشروع في الآيتين ٥٥ و٨٥. وبمناسبة قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]. نرى أن الآية الكريمة انطوت على تقرير الأحكام التالية من منظور الفكر الاقتصادي في الإسلام:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٢٩.

أ- تحريم كنز المال لضرره بالمصلحة العامة وإعاقته لتنمية المجتمع من ناحية اقتصادية. وهذا من القيود التي وضعت على الملكية الفردية لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة على السواء.

ب- وجوب تداول المال حتى لا يقتصر على الأغنياء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ت- المال مال الله تعالى والجماعة مستخلفة فيه لقوله تعالى:﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. وقوله تعالى:﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. فالملكية في الإسلام مقيدة بأحكام الله التي شرعها لصالح البشر باعتدال لدعم صرح المحبة والتراحم.

ث- تحديد ملكية المال وإنفاقه بالطرق المشروعة، فلا يعتبر المال في الإسلام ملكاً إلا إذا كان مصدره وإنفاقه مشروعاً.

ج- وجوب تنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه لحل مشاكل الحياة الاقتصادية لإقامة مجتمع الكفاية والعدل وتحقيق الرفاهية للجميع، مع عدم جواز أخذ مال الغير بالباطل وهي من الثوابت التي لا يجوز المساس بها بأية حال وتحت أي مبرر.

ح - المال ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للإنسان عنه، وهو من المقاصد الخمسة التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحافظ عليها كمصالح عليا للإنسان. ومع كونه ضرورة إلا أنه وسيلة وليس غاية في حد ذاته، فالمال ليس هدفاً للحياة، لأن للحياة قيماً أعلى من الثروة. وعليه فإن المال ليس أساساً لتقييم الناس والتفاضل بينهم، فلا يقيم الإنسان بما يملك وإنما يقيم بتقواه واستقامته. ولا يجوز أن يستخدم المال وسيلة لقهر الآخرين وإذلالهم، أو أداة للضغط على مجريات الأمور أو لاستعباد الناس ونحو ذلك.

خ - تنظيم الإسلام للملكية بجميع أنواعها الفردية والمشتركة والجماعية والعامة، حرصاً منه على عدم طغيان المال على نفسية صاحبه وجعله مستبداً لقوله تعالى:﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾

[العلق: ٦]. وتجنب خطورة الفقر وآثاره المدمرة على المستوى الفردي والجماعي.[١]

و- أن يكون إحراز الملكية الفردية بطريق من الطرق المشروعة وخلاف ذلك عدت ملكية باطلة .وأن لا يكون في أصل تملكها ضرر يقع على فرد أو جماعة مع وجوب المحافظة على المصلحة العامة وحسن التصرف بالملكية لقوله تعالى﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النساء: ٤].

المقطع الرابع ويمتد من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٧

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

القراءات: الآية ٣٧

- قرأ **نافع برواية ورش**: (إنما النسيُّ)، والباقون: (النسيء) بالهمزة. وقرأ **حمزة والكسائي**[٢](يُضَلُّ) بضم الياء وفتح الضاد.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لأيات المقطع الرابع

تقرر الآيتان السابقتان أن الشهور في حكم الله تعالى يوم خلق السموات والأرض اثنا

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، د. محمد خلف الله: ص١١٦. والملكية في الشريعة الإسلامية، د. عبد السلام العبادي: ص١٥٠. والسياسة المالية في الإسلام، د. عبد الكريم الخطيب: ص٢٨.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٥.

عشر شهراً، وأنه سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها بفضل حكمته في خلقه للقمر الذي جعله لحساب الزمان. ورتب في قضائه وقدره شهور السنة فأجرى ليلها ونهارها وقدر أوقاتها وقسمها على اثني عشر شهراً خص منها أربعة حُرُماً هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. [(١)] وقد خصها بالذكر ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها وإن كان الظلم منهياً عنه في كل زمان، ولهذا جعل الله تعالى بعض الأشهر أعظم حرمة من بعض على نحو ما تقدم. كما جعل بعض أيام السنة أجل من بعض كيومي عرفة والنحر، وجعل الجمعة من أيام الأسبوع أجلها، وبعض الليالي أكمل من بعض كليلة القدر من شهر رمضان. وحكم ذلك باق إلى قيام الساعة من غير تغيير وتبديل. وفي هذا بيان الحكمة من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة في حرمتها، وأثر ذلك في مضاعفة الثواب على الطاعة ومضاعفة الإثم على المعصية فيها.

وكانت العرب في الجاهلية تعتقد حرمة هذه الأشهر وتعظمها بَيدَ أنه كان يشق عليهم الكف عن الإغارة على بعضهم بعضاً لثلاثة أشهر متوالية، فأخذوا يؤخرون الشهور فيحرمون غير الحرام ويحللون غير الحلال، فجعلوا الحلال حراماً وجعلوا الحرام حلالاً وكان ذلك من جهلة بدعهم الباطلة. فحصل منهم الغلط والضلال والفساد في تحديد الأشهر الحرم من باب الخداع والحيلة في دين الله على غير مراد الله لها. وكانوا بذلك مستخفين لشرع الله فجعلوا أنفسهم شركاء الله في الألوهية والتشريع في التحليل والتحريم، [(٢)] فخالفوا أمر الله وأبطلوا حرمة الأشهر الحرم، فاستوت الشهور عندهم حتى جاء موعد حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. ولقد أوحى الله لرسوله أن العام الذي يحج فيه يصادف يوم الحج فيه تسعة من ذي الحجة، على الحساب الذي يتسلسل من يوم خلق الله السموات والأرض.

فانتهى ما كان عليه عرب الجاهلية من النسيء أي تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، أو تُحلّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٣٢.

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، للرازي: ص١٧٨.

الشهر الحرام تارة وتحرمه تارة أخرى. فانتفى خلط الأشهر في غير موقعها من السنة العاشرة للهجرة إلى قيام الساعة. وبهذا تم ضبط الأشهر الحرم وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء الذي أفسد أوقاتها وأفضى إلى اختلاطها، حتى جاء الإسلام وأرجع للأشهر الحرم موضعها الصحيح، ودفع عنها الفوضى التي كانت عليه والتي تناولتها أيدي الكفر بالتغيير والتبديل والزيادة والنقصان وجعلها الله مواقيت للعبادة في حكمه وتقديره.

وأوجب على الناس تعظيم حرمتها وعدم ارتكاب الظلم فيها، وهي مما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس بإقامة الحج وتوفير الأمن والأمان لقوافل الحجيج جيئةً وذهاباً.

الحكم والدروس والعبر والهدايات التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

١. إن عدد الشهور قمرية أو شمسية عند الناس في كل ملة اثنا عشر شهراً، وإن اختلفت في بداياتها ونهايتها من أمة لأخرى في حضارات الأمم والشعوب كافة قديمها وحديثها. وحكمة هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه بعقولهم من ذوات أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله تعالى في كتبه على ألسنة رسله كافة ليعلموا الناس عدد السنين والحساب. (١)

والفارق بين السنة الشمسية والسنة القمرية أن الأولى ثابتة في عدد أيامها، أما الثانية فتنقص احد عشر يوماً في كل سنة تبعاً لأوضاع القمر في كل شهر، وعليه فإن الأشهر الحرم فيه تدور في جميع الفصول كل ثلاث وثلاثين سنة. كدوران شهر رمضان خلال هذه المدة عبر شهور السنة كلها. (٢)*

٢. ورثت العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحريم القتال في الأشهر الحرم. وقد جاء تحديد الأشهر الحرم في خطبة النبي ﷺ التي ألقاها في حجة الوداع ،كما جاء في صحيح البخاري ومسلم من رواية أبي بكرة .. : [السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم :ثلاث

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، للرازي: ص١٧٨.

(٢) * التقويم الميلادي يعتمد على دوران الأرض حول الشمس في ٣٦٥ يوماً.

متواليات :ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب[١]] . ثلاثة سرد متتابعة وواحد فرد وهو رجب.

ويرى **الجصاص** صاحب كتاب أحكام القرآن [وسميت هذه الأشهر حرماً لمعنيين: أحدهما تحريم القتال فيها وثانيهما تعظيم انتهاك المحارم فيها وحسن تعظيم الطاعات خلالها]. [٢]

ويرى **الشيخ الشعراوي** [أن الله عز وجل جعل البيت الحرام حراماً وجعل الأشهر الحرم لا قتال فيها، عسى الإنسان أن يبتعد عن شرور الحرب وينعم بالسلام، تسهيلاً للتوبة وترغيباً فيها، ولكن سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعلها خضوعا للعدو، فإن قاتلك وجبت مقاتلته]. [٣]

٣. إن تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حكماً معمولاً به من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان من حرمات الله ومما جعله مصلحة لأهل مكة، قواماً لمصلحتهم ومعاشهم لتأمين الحج وطريقه، حماية للحجيج على أنفسهم حين يتقاطرون إلى البيت الحرام من كل حدب وصوب مهما تناءت بهم الديار وتباعدت الأمصار. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يتخفف فيها المقاتلون من أعباء الحرب وأثقالها وأهوالها.

ويتفرّغوا لعبادات تصفو معها نفوسهم من صوم وصلاة وزكاة وحج وعمرة وذكر ودعاء إلى الله تعالى، وغاية ذلك معالجة أمراض القلوب والنفوس. سعياً لدفع الظلم عن مظلومهم وإغاثة ملهوفهم، وفك الارتباط بينهم وبين ما اعتادوا عليه من الثأر والإغارة على بعضهم بعضاً، لتصفو نفوسهم وترقى إلى سماحة الرسالة.

٤. للعلماء أكثر من رأي حول تحريم القتال أو جوازه في الأشهر الحرم. وسنعرض فيما يلي أهم هذه الآراء بدءاً بأدلة القائلين بتحريم القتال في الأشهر الحرم وتثنية بأدلة القائلين بنسخ

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٦٦٢ ٨/ ٣٢٤ وصحيح مسلم رقم ١٦٧٩ ٣/ ١٣٠٥.

(٢) أحكام القرآن، للجصاص: ٤/ ٣٠٨.

(٣) الفتاوى، الشيخ محمد متولي الشعراوي: ٨/ ٤٦.

تحريم القتال في هذه الأشهر، مع إبراز أدلتهم من القرآن والسنة، ثم التوفيق بين القولين وبيان ما نعتقد أنه الصواب في الموضوع.

أولا: تتلخص أدلة القائلين بتحريم القتال في الأشهر الحرم فيما يلي من الآيات والأحاديث:

أ-قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة/ ٢١٧].

ب- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦].

ت- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾[المائدة: ٢].

ث- قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾[البقرة: ١٩٤].

يرى أنصار هذا الرأي تقرير حرمة القتال في الشهر الحرام والشهر هنا: (اسم مفرد يدل على الجنس في جميع الأشهر الحرم). [١]

وجاء في تفسير **الألوسي**: [أن من اعتقد استحلال القتال فيه فهو باطل]. [٢]

ونراه يقول أيضاً: [أن ما وقع من الصحابة من قتال في الشهر الحرام كسرية استطلاع **عبد الله بن جحش** إلى (النخلة) بين مكة والطائف، من أجل الحصول على أخبار قريش كان من باب الخطأ في الاجتهاد، حيث عنفهم النبي ﷺ على هجومهم على قافلة القوم وقتل عددٍ منهم وأسر عدد آخر]. [٣]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٩.

(٢) روح المعاني، للألوسي: ٢/ ١٠٨.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٠٨.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ جاء في تفسير **القرطبي** بمعنى مستنكر، لأن تحريم القتال في الشهر الحرام كان ثابتاً يومئذ إذا كان الابتداء من المسلمين. [1]

وجاء في تفسير **القرطبي** أيضاً بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لا تستحلوها للقتال ولا للغارة. [2]

ومما يتفق مع تحريم القتال في الأشهر الحرم عند أصحاب هذا الرأي، ما جاء في مسند **الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله** أنه قال:(لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى أو يغزو). [3]

ومعنى قوله إلا أن يغزى كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا في رد العدوان للدفاع عن النفس.

وفي قوله أو يغزو كان رسول الله ﷺ إذا انطلق في الغزوة قبل الشهر الحرام يقاتل وإذا حضر الشهر الحرام توقف عن القتال حتى ينسلخ الشهر.

ثانياً: تتلخص أدلة القائلين بنسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم في الآيات القرآنية والأحاديث التالية:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦].

ب- وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

ت- وقوله تعالى:﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [التوبة: ٢٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٤٥

(٢) المصدر السابق: ٦/ ٣٩.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣/ ٣٣٤.

أما وجه استدلالهم من السيرة النبوية، فيرى أنصار هذا الرأي أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرم، منسوخ لتضافر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف، وأرسل **أبا عامر** إلى «أوطاس» لحرب المشركين بها في الأشهر الحرم في شوال وذي القعدة.

فلو كان القتال فيهن حراماً وفيه معصية كان رسول الله ﷺ أبعد الناس من فعله. (١)

ويقول **ابن القيم الجوزية**:(لا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنما الخلاف أن يقاتل ابتدءاً، فالجمهور جوزوه وقالوا بنسخ تحريم القتال وهو مذهب الأئمة الأربعة). (٢)

وعلى خلفية هذا فقد ذهب الجمهور من فقهاء المسلمين إلى القول بأن القتال في الأشهر الحرم كان محرماً في الإسلام إلا في حالة رد العدوان، بمعنى أنه لا يجوز للمسلمين أن يبدءوا أهل الحرب بإعلان الجهاد عليهم في هذه الأشهر، إذا لم يصدر من الكفار اعتداءٌ على المسلمين، أما حين يعتدي أهل الحرب على المسلمين في هذه الأشهر فإن رد الاعتداء فيها يكون مشروعاً وهذا ما كان عليه الحكم في الإسلام أول الأمر. ثم نسخ هذا الحكم وحل محله مشروعية الجهاد والبدء بقتال الكفار في كل وقت بما يشمل الأشهر الحرم، للمصلحة في سبيل نشر الإسلام على امتداد شهور السنة. مع إباحة قتل الكفار في كل وقت وزمان ومكان. (٣) وبمناسبة قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ فهي تعني وجوب قتال الكفار والمشركين طيلة شهور السنة.

وختاماً هذه أدلة المؤيدين للتحريم واستدلالهم، والقائلين بنسخ التحريم بموقفيهما

---

(١) جامع البيان، للطبري: ٢/ ٢٠٦، وانظر أحكام القرآن، لابن العربي: ١/ ١٤٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٤٣، وروح المعاني، للألوسي: ١٠/ ٩٢.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم: ٣/ ٣٤٠.

(٣) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل: ٢/ ١٥١٤.

المتعارضين، وبالتأمل في وجهة نظر الفريقين يتضح لنا حجة القائلين بنسخ التحريم.

فقد زال التحريم بزوال المقدمات التي استوجبته إذ ليس من المعقول أن نفكر على نسق واحد على مر العصور، وعليه يجوز للإمام مقاتلة أهل الكفر والشرك مع قدرته على مقارعتهم بمختلف صنوف أسلحة عصره، متى شاء على امتداد شهور السنة بما فيها الأشهر الحرم للضرورة والمصلحة.

وكل وقت يصلح مقاتلتهم فيه جائز شرعاً، ما لم تترتب على ذلك أضرار بالغة. حتى لا يتوهم العدو في كل زمان ومكان عدم جواز الحرب في الإسلام خلال هذه الشهور. فيأخذهم على حين غرة بسبب ما هم عليه من التراخي وعدم الاستعداد، وقد تضافر كل العسكريين قديماً وحديثاً على القول أن الحرب خدعة، وهذا من باب الصدق في التوكل على الله ثباتاً وإصراراً في منازلة العدو طاعة لله ورسوله.

المقطع الخامس من سورة التوبة ويمتد من الآية ٣٨ إلى الآية ١٢٧

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ

أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ
أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ
مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا
يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ
وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ
﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ
﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا
وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ
﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ
قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن
نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ
ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ

كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا

تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ
﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا
نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ
﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ
وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ
أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ
رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ
فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا
وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا
يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ
مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا
قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ
وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ
أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ
حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ
فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ
أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ
فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ
ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ
﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ
عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

القراءات[1]*:

- قرأ يعقوب (وكلمة الله) بالنصب، والباقون بالرفع. الآية/ ٤٠.

---

(١) * انظر الجامع لأحكام القرآن، للطبري: تفسير سورة التوبة. والكشاف، للزمخشري، تفسير سورة التوبة. والتبيان في إعراب القرآن، للعكبري: في إعرابه للسورة. والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي. باب سورة التوبة.

- قرأ **حمزة والكسائي** (وما منعهم أن يقبل منهم) بالياء. الآية/ ٥٤.

- قرأ **يعقوب** (يُلمزك) بضم الياء. وقرأ ابن كثير (يلازمك). الآية/ ٥٨.

- قرأ **نافع** (أذْن) بإسكان الذال، والباقون (أُذُن) بضم الذال، وقرأ **حمزة**: (ورحمة) بالجر عطفاً على (خير). والباقون: (رحمة) بالضم. الآية/ ٦١.

- قرأ **يعقوب**: (المعْذِرون) بسكون العين والذال المكسورة بدون تشديد. الآية/ ٩٠.

- قرأ **ابن كثير وأبو عمرو**: (السُّوء) بضم السين. والباقون: (السَّوء) بفتح السين. وقرأ **ورش وإسماعيل عن نافع**: (إنها قُرُبة) بضم القاف والراء. والباقون: (قُرْبة) بإسكان الراء. الآية/ ٩٨ و ٩٩.

- قرأ **حمزة والكسائي وحفص**: (إن صلاتك) وقرأ الباقون: (إن صلواتك) بالجمع. الآية/ ١٠٣.

- قرأ **نافع وحمزة والكسائي** وحفص (مُرْجَون) كما في المصحف، وقرأ الباقون (مرجأون) وهذا في اللغة جائز. يقال أرجأت الأمر وأرجيته. الآية/ ١٠٦.

- قرأ **نافع وابن عامر**: (الذين اتخذوا مسجداً ضراراً...) بدون واو والباقون: (والذين) وقرأ **نافع وابن عامر**: (أُسّس بنيانه) بضم الألف ورفع بنيانه في الموضعين. وقرأ الباقون (أَسَّس بنيانه) وقرأ **ابن عامر وحمزة وأبو بكر**: (جُرْف) بإسكان الراء. وقرأ الباقون (جُرُف) بضم الجيم والراء. وقرأ **يعقوب**: (إلى أن تقطع قلوبهم) وقرأ **ابن عامر وحمزة وحفص**: (تَقطّع) بفتح التاء والطاء المشدودة. وقرأ الباقون: (تُقطّع) بضم التاء وتشديد الطاء المفتوحة. الآية/ ١٠٧ و١٠٩ و١١٠.

- قرأ **عاصم**: (فيَقتُلون ويُقتَلون) وهي قراءة المصحف. وقرأ **حمزة والكسائي**: (فيُقتَلون ويَقتُلون) بتقديم الفعل المبني للمفعول. الآية/ ١١١.

- قرأ **حمزة وحفص**: (يزيغ) بالياء والباقون (تزيغ) بالتاء. الآية/ ١١٧.

- قرأ حمزة ويعقوب: (أو لا ترون) بالتاء. الآية/ ١١٦.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الخامس

مما تجدر الإشارة إليه هنا في بداية هذا المقطع أن الكلام فيه حتى آخر السورة إلا آيتين منها يدور حول غزوة تبوك، وما لابسها من هتك ستر المنافقين وما اشتملته على بعض الأحكام الفقهية.

ومناسبة آيات المقطع لما قبلها وطيدة تجلت فيما سبق بوجوب قتال المشركين وأهل الكتاب، في حين تدعو آيات هذا المقطع إلى النفير العام والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا مع تحذير المتقاعسين والمتثاقلين والمنافقين من غضب الله وسخطه، وفي هذا توافق وتكامل مع سورة الأنفال التي سبقتها.

أشرنا آنفاً أن سورة التوبة نزلت في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، حيث بلغ النبي ﷺ أنباء عن حشود كبيرة للروم، على حدود بلاد الشام الجنوبية مع حلفائهم من القبائل العربية المتنصرة كجذام ولخم وغسان، تريد غزو المسلمين في الجزيرة بعد أن دانت البلاد كلها لديانة الإسلام مما أفزع هرقل زعيم الروم.

لذلك ندب رسول الله ﷺ الناس واستنفرهم لقتال الروم بالخروج إليهم وقتالهم على أرضهم بدلاً من انتظارهم لقتالهم على أرض الجزيرة العربية.

واستنفر المسلمين وأمرهم بأهبة الاستعداد لهم وكان من عادته ﷺ لا يعلن عن وجهته في كل غزوة يغزوها، من باب الخدعة والمكيدة في الحرب لأخذ العدو على حين غرة، لما تقتضيه مصلحة الحرب من الكتمان.[1]

ولقد بيّن لهم أنه في غزوته هذه يريد الروم ليتأهبوا للأمر فالعدو كثير العدد والعدة، والمسافة طويلة وشاقة والطريق صحراء قاحلة، والحر شديد والناس في عسرة والبلاد في قحطٍ

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري:٢/ ١٨١. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٢٦.

وجدب لذلك سميت هذه الغزوة بغزوة العسرة.

وقد حث الرسول ﷺ المسلمين على تجهيز الجيش والخروج فيه على العموم والكلية لكل من كان قادراً على النفير والجهاد. فلبى المسلمون المخلصون داعي الجهاد وتسابقوا إلى البذل في سبيل الله وضربوا أروع الأمثلة في التضحية والإنفاق.

فجاء أبو بكر الصديق ﷺ بماله كله ووضعه بين يدي النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ بنصف ماله، أما **عثمان بن عفان** ﷺ فقد تولى تجهيز بعض وحدات الجيش بمفرده ثم جاء بألف دينار وسلمها إلى النبي ﷺ ودعا له بخير وقال: (ما يضر عثمان ما عمل بعدها). [١] ولهذا يعد أكبر منفق على الجيش في تاريخ الغزوات والفتوح الإسلامية قياساً بزمانه.

ثم جاء **البكّاؤون** وهم سبعة وقالوا يا رسول الله: ألم نجد عندك ما تحملنا عليه؟ فقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون. [٢] وبالمقابل تخلف عن الخروج مع المقاتلين المنافقون وتعللوا بشتى المعاذير.

ومضى الجيش حتى وصل تبوك ولم يلق حرباً وقد عقد رسول الله ﷺ صلحاً مع أهل الحواضر القريبة من تبوك. وفرض عليهم الجزية وعاد الرسول ﷺ وجيشه سالمين إلى المدينة بعد أن نصروا بالرعب مسيرة شهر.

ويلاحظ في آيات المقطع الخامس تحديدا، مخاطبة الله تعالى للمؤمنين بالجهاد، محذراً إياهم التباطؤ في النفير وموبخاً من تخلف منهم عن الغزوة، وعدم اللحاق برسول الله ﷺ دعة وخلوداً وراحة لنعيم الدنيا الزائل، وقد نبه سبحانه وتعالى إلى مخاطر القعود عن الجهاد في سبيله وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: ٥/ ٦٣، والترمذي (٣٧٠٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٢٨. وتاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.

وأشارت الآيات ما وقع من مشاهد في غار **ثور** بين النبي ﷺ وصاحبه الصديق، (١)* حين كانا بين يدي رحمة ربهما معية ورعاية وحفظاً، عند اقتراب المشركين من الغار. وقول النبي ﷺ لأبي بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) تسرية وطمأنة وسكينة. وحكمته أن من كان مع الله فإن الله ناصره.

ثم تمضي آيات المقطع الخامس لتتحدث عن المخلفين، وهم طائفة من المنافقين استنفرهم رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقعدوا متثاقلين، وركنوا إلى الدنيا وشهواتها، وكرهوا مشاق السفر ومتاعبه فتباطؤوا وتقاعسوا عن النفير العام، فحصل لبعضهم تثاقل ولبعضهم الآخر تخلف كسلاً وعجزاً، وآثروا الراحة في الدنيا على النفير الحاصل للمجاهدين في الآخرة.

وكان المخلفون أكثرهم منافقين وقليل منهم مؤمنون لهم علة وعذر في التخلف بخلاف غيرهم ممن لا عذر لهم. ثلاثة من المؤمنين خانهم موقفهم فتخلفوا عن الخروج إلى تبوك كسلاً وتقصيراً دون نفاق وهم [**كعب بن مالك** و**هلال** بن أمية ومرارة بن **الربيع**] فلما وجدوا أنفسهم بين أهليهم ينعمون بالراحة ورسول الله ﷺ في المشقة والحر الشديد. استيقظ الإيمان في نفوسهم وعلموا أنهم ارتكبوا بتخلفهم عن الجهاد إثماً عظيماً وندموا أشد الندم، فلما رجع النبي ﷺ قاطعهم ولم يكلمهم وحبس عنهم زوجاتهم، وامتنع الناس عن الكلام معهم. وضاقت عليهم الدنيا واستمروا في هذا العذاب النفسي أياماً طويلة حتى أنزل الله تعالى توبته عليهم لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

أما المخلفون من غير عذرٍ فكانوا أكثر من فئة لكل دوافعه في تبرير ذريعة تخلفه.

---

(١) * - للمزيد حول فضل الصديق ومناقبه انظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ص٢٩-٩٢. وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ الليل/ ١٧-١٨. قال ابن الجوزي: أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر. تاريخ الخلفاء: ص٣٧.

رصدت سورة التوبة صفاتهم وطبقاتهم وكشفت معاداتهم لله ورسوله والكفر بآياته ولهذا نقل عن **ابن عباس** ﷺ قوله: (عرفت سورة التوبة بالفاضحة لأنها ما زالت تنزل في المنافقين وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحداً إلا ذكرته بقولها ومنهم ومنهم ومنهم). [١]

قراءة تحليلية في وصف سلوك دوافع تخلف المنافقين عن الجهاد في سبيل الله

يحسن بنا إتماماً للفائدة الشروع بتحليل سيكولوجي (نفسي) لشخصيات المنافقين في مختلف طبقاتهم، وما طرحوه من مسوغات تبريرية كاذبة لتخلفهم، إذ من عجيب أمرهم ليس فيهم من تنسحب عليه أعذار القعود كالضعفاء والمرضى والفقراء لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

وفيما يلي عرض لجماعات المنافقين وما زعموه من أقوال في بيان تخلفهم ومكرهم، ظناً منهم أنهم يخادعون الله ورسوله:

١) قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر إعراضاً عن الجهاد: فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [٢] [التوبة: ٨١].

٢) انتحل بعض المنافقين الأعذار الكاذبة وجاءوا الرسول ﷺ يحلفون بالله تعالى كاذبين. إنهم تخلفوا لأسباب وجيهة وهم متمسكون بحبهم للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦].

٣) أخذ بعض المنافقين يروج الشائعات الباطلة من باب الحرب النفسية، ليزرع الخوف والتردد في نفوس المؤمنين، لتفريقهم وإضعافهم وثنيهم عن الخروج إلى الجهاد إرجافاً وترهيباً لهم. إذ قال بعضهم لبعض: (أتحسبون قتال بني الأصفر «الروم» كقتال العرب بعضهم بعضاً،

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٧.

والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال أتظنون أنكم قادرون على فتح قصور الروم وحصونها؟ هيهات هيهات، فاطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا فأنكروا وقالوا إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) [التوبة: ٦٥].

٤) ثم مضت سورة التوبة المعروفة بسورة **العذاب** و**الفاضحة** و**المخزية** و**الكاشفة** تفضح المنافقين، حتى كان منهم طائفة انتقدت رسول الله ﷺ في توزيع الصدقات وليس انتقادهم وعيبهم لقصد صحيح ولا لرأي راجح، وإنما بقصد أن يعطوا منها، فقد كانت بواعث رضاهم وسخطهم منفعتهم الخاصة فإن أعطي الواحد منهم رضي وإن حُرم سخط. يبحثون عن المكافأة الدنيوية القريبة والمباشرة كأنهم يريدون الغنيمة باردة من غير قتال. فأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) [التوبة: ٦٠].

٥) ومنهم من جاء يعتذر عن الخروج بحجة أنه لا يصبر عن نساء الروم وفتنتهم، فلو ضمن له رسول الله ﷺ العفة خرج وهو **الجد بن قيس** فأنزل الله فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩].

٦) ومنهم قوم زعموا منكراً من القول أن رسول الله ﷺ «**أُذن**» بمعنى يقبل كل ما يقال له لأنه لا يميز بين صادق القول وكاذبه، ومن قال له شيئاً صدقه ومن حدثه صدقه. وغايتهم في ذلك التدليس على النبي ﷺ في سبب إمساك خروجهم عن الغزو، فإن عاد من غزوته برروا له أعذارهم فوافقهم عليها، أرادوا بذلك التقليل من شأن النبي ﷺ والقدح فيه وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكاً وأثقبهم رأياً وبصيرة، وقد غاب عنهم أنه بعلم الله عالم للصادق والكاذب منهم فأنزل الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٢، وفي ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٢٣٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٠. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٧.

لَّكُمۡ ﴾ [التوبة: ٦١]. ولقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ ﴾ بمعنى أذن خير لا كما تزعمون، (فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه الخير والمصلحة للخلق، وليس بأذن في غير ذلك كسماع الباطل والغيبة والنميمة، فهو لا يلقي سمعه لشيء من ذلك). [(١)]

٧) ومنهم من كان يتربص بالنبي وصحبه من المؤمنين الدوائر والعداوة والبغضاء، فكلما حصل لهم اليُسر والانشراح وأصابتهم حسنة كالنصر على عدوهم ساءهم ذلك وأحزنهم وغمهم، وكلما اشتدت عليهم أمور الدنيا فرحوا من باب المكر والمكيدة. فأنزل الله فيهم: ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠].

٨) ومنهم من كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في غزوة تبوك لأنهم جبناء مخذولون، يسارعون بالبغضاء والنميمة والفتنة ليفسدوا عزيمة الجند، بما يضمرونه من شر للإسلام والمسلمين، لم تكن لديهم نية الخروج بعد أن استمرؤوا الركون في الظل مع طيب الثمار، ولو كانت لديهم نية الخروج لتأهبوا له وأخذوا بأسباب النصر الروحية والمادية، بَيْدَ أنهم لم يفعلوا فحبسهم الله عن حكمة وأنزل فيهم ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧]. وهذا الضرب من المنافقين حصل منهم التخلف على التراخي.

٩) ومنهم من دخل الإسلام ظاهراً ليكيد له سراً، فكلما أعز الله دينه غاظهم وساءهم فأنزل الله فيهم: ﴿ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨]. [وكانوا من أكابر المنافقين الذين يكيدون للإسلام

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٥١٧.

وأهله]. [١]

فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده منهم ولا يبالي بتخلفهم عن الغزوة. وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى تثبيطهم ومنعهم من الخروج رحمة بالمؤمنين درءاً من مفاسد مخالطتهم للجيش، لما عرف عنهم من سوء الطوية للإسلام والمسلمين منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. وهم الذين توعدوا النبي ﷺ بالشر لو ظفروا به حين قالوا «ليخرجن الأعز منها الأذل». ويمثل هذه الفئة رأس النفاق **عبد الله بن أبي سلول**.

١٠) ومنهم من حاول المكر بالرسول ﷺ في أحد ليالي غزوة تبوك عند عودته منها، حينما همَوا الفتك به ﷺ محاولين قتله، فوقع إخبار الله لنبيه فانتهرهم رسول الله ﷺ وصرخ بهم فولوا مدبرين إلى غير رجعة. فأنزل سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: ٧٤]. وكانوا اثني عشر رجلاً. [٢]

١١) ومنهم من لمز في صدقات التطوع التي قدمها المؤمنون في غزوة تبوك فيما قل وكثر منها، وكان ذلك عندما حث النبي ﷺ على الصدقة فتبارى المؤمنون في دفعها للنبي ﷺ كل حسب طاقته لتيسير أمور الغزوة، فقالوا للمكثر منهم أن قصده الرياء والسمعة وقالوا للمقل الفقير منهم إن الله غني عن صدقته، [٣] فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

١٢) ومنهم منافقوا الأعراب الذين قالوا للنبي ﷺ إن لنا عيالاً وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وجاء نفرٌ آخر منهم ينتحل الأعذار ليؤذن له في التخلف وقالوا: يا نبي الله، إنا إن غزونا معك أغاروا على نسائنا وأولادنا وأنعامنا في غيابنا عنهم، فقال لهم رسول الله: قد أنبأني

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٠٧.
(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٠.

الله من أخباركم وسيغني الله عنكم، وهؤلاء هم منافقو الأعراب الذين ارتضوا لأنفسهم أن يقعدوا مع النساء والصبية فأنزل الله بشأنهم: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٠]. وكانوا في معظمهم من بني غِفَار.[1]

وهذه الطائفة من الأعراب توهموا أن لهم عذراً ولا عذر لهم ولا مسوغ لتخلفهم ومصيرهم عذاب أليم في الآخرة.

وهناك فئة ثالثة من الأعراب لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عز وجل وابتغاء مثوبته.[2] ومما تجدر ملاحظته للمتأمل في قصة غزوة تبوك أن الله سبحانه وتعالى قد صنف الأعراب إلى منافقين ومؤمنين.

ولقد ذكر الله المنافقين من الأعراب على وجه الخصوص كاشفاً ما هم عليه من شديد النفاق. فقد مرنوه ولجوا فيه وأقاموا عليه ولم يتوبوا منه، فأنزل الله بشأنهم ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

فاستحقوا لما مردوا عليه من النفاق غضب الله ونفى عنهم الإيمان حين زعموه لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات/ ١٤.

كما نفى الله عنهم العلم بحدود الله وشرعه فأنزل فيهم: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٩٧].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٤، والكشاف، للزمخشري:٢/ ٢٨٨.

وبالمقابل نزه سبحانه وتعالى طائفة منهم وأثنى عليهم وأثبت لهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهي الفئة المؤمنة منهم التي غفر لها بسبب إيمانها فأنزل فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩].

تفيد الآية السابقة أنهم الفائزون من جملة الأعراب بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم جاهدوا وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا في عداد المتخلفين الذين استحقوا غضب الله تعالى.

١٣) ومنهم **أُولُواْ الطَّولِ**: وهم ضرب من أكثر أهل النفاق في السعة والجاه والسلطان، التمسوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في التخلف عن الجهاد دون عذر أو مسوغ. لعجبهم بأنفسهم بأنهم الأعز. فأنزل الله فيهم: ﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧]. وفي هذه الآية ذم لهم لتخلفهم عن الجهاد مع القدرة عليه في المال والنفس. وغاب عنهم أهمية فقه الجهاد ومنزلته لصاحبه في الدنيا والآخرة. وفاتهم أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين.

١٤) ومنهم طائفة عمدت إلى بناء مسجد يضارون به مسجد قباء بتحريض من **أبي عامر الراهب** المكنى بالفاسق. فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو على أهبة الاستعداد للانطلاق في غزوة تبوك، فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ونحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه على جناح سفر وعند عودته سيصلي فيه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته وقبل بلوغه المدينة نزلت عليه الآيات التالية التي تفضح المنافقين وتكشف سوء قصدهم.(١)

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٥٣. وتاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٦.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

١٥) ومن المنافقين من انتظمت قصته في السورة للعظة والاعتبار. فقد أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه الله من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فلما آتاه الله المال واستروح نعيم الترف تناسى ما وعد به آنفا، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى فقد سكن النفاق قلبه فسكرته خمرة الغنى وسار في الناس في كبر وخيلاء، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه القصة اختلاف المفسرين فيمن نزلت، فقال فريق منهم أنها نزلت في **ثعلبة بن حاطب** وأنكر آخرون هذا الرأي، وقالوا نزلت في منافق من المنافقين وأن **ثعلبة** هنا مفترى عليه.[١]

١٦) ومنهم طائفة ظهر فيهم من القرائن ما يبين أنهم قصدوا عدم الخروج للجهاد عن سابق إصرار وعناد وهم أصحاب هوى، وأنهم مهما أنفقوا من نفقة طائعين أو مكرهين فلن تقبل منهم، لأنهم فاسقون والله طيب لا يحب إلا طيباً. ونفقتهم هذه لا يرجون منها طاعة الله ورسوله والدليل على ذلك تثاقلهم في الجهاد وتكاسلهم في الصلاة، فهؤلاء بطلت مساعيهم في النفقة والصلاة، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة وما أموالهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها، وهي حسرة عليهم في الآخرة لأنهم عصوا الله لأجلها لما ألهتهم عن ذكر الله، ولهذا أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٠٩.
والمحلى: لابن حزم: ١١/ ٢٠٨. والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ٢/ ٢١٩.

فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢-٥٤]. ولتأكيد ذلك خاطب الله عز وجل رسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥]. وكرر ذلك في الآية ٨٥ من باب العظة والاعتبار في أموالهم وأولادهم.

١٧) وهناك رهط من المنافقين خرجوا في الغزوة معاً وكانوا متلازمين في سيرهم قالوا حين ضلّت ناقة رسول الله: أليس يزعم محمد أنه نبي ويخبر عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته!

فأطلعه الله سبحانه وتعالى على ما في قلوبهم وما يتحدثون به. فأرسل إليهم من يكاشفهم في قولهم وقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب. فأجابهم رسول الله ﷺ: وإني والله ما أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي من شِعْب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلق نفر من الصحابة فجاءوا بها. وكانت الرياسة في هذا الرهط من المنافقين إلى زيد القينقاعي.[1]

وفي هذا درس على صدق النبوة بإعلام النبي ﷺ ما استتر في قلوبهم وجرى على ألسنتهم بصوت خفيض، مع عدم جواز الخوض باللعب والهزل بحق رسول الله ﷺ، وحرمة الشك في نبوته. وحكمته أيضاً: ما جاء رسول قط وناصبه قومه العداء، إلا كان دليلاً على صدق نبوته.

١٨) وهناك رهط آخر من المنافقين انطلق مع الرسول في غزوته على استحياء وتثاقل، ثم سارعت بهم نيتهم على التخلف، فجعل الرجل منهم يتخلَّف عنه ﷺ كلما توغل الجيش في السير نحو تبوك.

وكانت الصحابة تأتي على ذكرهم للرسول ﷺ فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٤.

دعوه، فإن يكُ خير فسيُلْحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه. (١) وهؤلاء وإن ضحكوا قليلاً لكنهم سيبكون كثيراً. لما كان منهم البداءة في التولي والإدبار لكرههم مشاق السفر ومتاعبه في سبيل الله.

وفي هذا درس على عدم جواز استصحاب المنخذل في الغزوات والحروب. (٢)

١٩) وهناك رهط منهم امتنع عن الخروج، وابتغى الفتنة في آل بيت النبي، وقالوا في حق النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب الشيء الكثير من مرذول القول، حين علموا أن النبي ﷺ خلفه على أهله وأمره بالإقامة فيهم، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه. فلما بلغ الخبر علي بن أبي طالب، امتشق سلاحه ثم خرج حتى أدرك النبي ﷺ وهو نازل بالجرف- وهو موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة – فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني فتخففت مني. فأجاب رسول الله: كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره قاصداً تبوك. (٣) وكان هدف المنافقين ألا يخلف النبي ﷺ أحد من الرجال في أهل بيته إذا غاب عنهم علي بن أبي طالب، لأسباب سوداوية في أنفسهم.

أشرنا آنفاً في النقاط (١-١٩) مجمل طبقات المنافقين وفساد دوافعهم في التخلف عن الجهاد. لأنهم لا يرون فيه قربةً وطاعةً لله تعالى. ومما يجدر ذكره هنا أن النبي ﷺ قد أسر إلى حذيفة بن اليمان بأسماء أهل الرياسة من المنافقين، وكانوا ثمانين ونيِّفاً. وطلب إليه ألا يبوح بأسمائهم خشية الفتنة.

ثم تمضي الآيات محذرة المنافقين أن الله سيصيبهم من العذاب ما أصاب به من كان قبلهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢١٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٣. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٩.

من الأمم المكذبة، وخص منهم بالذكر قوم **نوح** الذين أهلكوا بالغرق وقوم **عاد** الذين أهلكوا بالريح العقيم، وقوم **ثمود** الذين أهلكوا بالصيحة بعد عقرهم للناقة، وقوم **إبراهيم** حيث أنجاه الله من النار وأيد بنصره، وأصحاب مدين قوم **شعيب** الذين أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة والمؤتفكات قوم **لوط** الذين رجف بهم الأرض، [١] وجعل عاليها سافلها بسبب إتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠]. ثم تتوالى الآيات ليخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠].

وبمناسبة ذكر العدد سبعين في الآية السابقة، يحسن بنا إتماماً للفائدة وقفة تأمل حول حكمة هذا العدد وعلاقته بغيره من الأعداد والأرقام التي وردت كثيراً في القرآن الكريم كسبعة وسبعمائة في قراءة توفيقية تكاملية على النحو التالي:

إن العرب تذكر السبعين والسبعمائة للدلالة على المبالغة في الشيء من غير تحديد أو تسلسل لها.

وقد ذكر **القرطبي**: أن ذكر السبعين عبارة عن الكثرة. ومثاله قول أحدهم عند الخصومة: لا أكلمه سبعين سنة، وكأن قوله هذا قد نزل عند المتكلم والسامع بمنزلة لا أكلمه أبداً. [٢] ودليله أيضاً شواهد ما ورد في أكثر من حديث قول النبي ﷺ سبعين خريفاً.

---

(١) للمزيد انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي. وقصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار. وقصص القرآن، د. فضل حسن عباس.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢١٩-٢٢٠.

ومما يعضده اليوم كقول أحدنا للآخر: هاتفتك اليوم سبعين مرة أو سبعمائة مرة أو سبعمائة ألف مرة، وهكذا للدلالة على المبالغة في الشيء. فالعرب في أساليب كلامها تذكرها للمبالغة والتكثير دون تحديد. (١)

وفي هذا يقول **الزمخشري** [والسبعون في هذه الآية جار مجرى المثل في كلام العرب للتكثير وليس على التحديد والغاية]. (٢)

وبمثل هذا قال **النسفي** والإمام **الرازي** في تفسيريهما. ومن القائلين بهذا القول من المتأخرين من العلماء **محمد رشيد رضا** في تفسير المنار، (٣) و**الطاهر بن عاشور** في التحرير والتنوير والشيخ **محمد متولي الشعراوي** في تفسيره. **وسعيد حوى** في الأساس في التفسير. (٤)

ومعنى الآية هنا: أنك يا محمد مهما أكثرت من طلب المغفرة فلن يغفر الله لهم، استغفرت أم لم تستغفر. حتى ولو استغفرت لهم سبعين مرة استعظاماً للعدد واستكثاراً، وزدت عليها بأعظم الأعداد وأكثرها كالألف ونحوه فلن يغفر الله لهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٤٨].

وإتماماً للفائدة نذكر هنا لطيفة وحكمة عددية أخرى، وردت في الرقمين سبعة وثمانية في الآية ١١٢ من سورة التوبة تنسحب على كل رقم مماثل في سور القرآن. ففي الآية عدّد الله سبحانه وتعالى ثمانية أوصاف للمؤمنين المتقين، لم تذكر فيها الواو إلا عند الصفة الثامنة، لسرٍ في كلام العرب. وهو ما اعترف على تسميتها **بواو الثمانية**، وهي تدخل على ما كان ثامناً حسبَ رأي بعض العلماء. واعتبرها ابن عَطيَّة الأندلسي [أنها لغة فصيحة لبعض العرب من شأنهم أن يقولوا إذا عدّوا واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة وهكذا، ومتى جاء

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٩.
(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٠- ٢٨١.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٥٥٦.
(٤) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٤/ ٢٣٣٧.

في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو]. (١)

في حين نظر إليها **القرطبي** أنها لغة قريش. (٢) واعتبرها آخرون أنها أول الجمع الكثير لاشتماله على جملة أقسام ومكونات العدد. مما اعتبر أنه أول عدد كامل صحيح لا تتوافر فيما قبله. (٣) مما دفع بالعرب أن تستعمله بداية المبالغة في الشيء، وعليه نعتوا الأسد بالسبع. (٤) دلالة على مضاعفة قوته سبع مرات قياساً مع غيره من الحيوانات المفترسة.

وقال **السيوطي**: أن سبعة عند عرف بعض العرب قديماً تعني الكمال في العدد، إذ تطلق على الكثرة في الآحاد كما السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين. (٥)

وذكر صاحب تفسير المنار:[أن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخرمعطوف عليه]. (٦)

وجاء في تفسير التحرير والتنوير:[أن الواو يكثر وجودها عند ذكر معدود ثامن وسموها **واو الثَّمانية**. وكان في عرف بعض العرب إذا عدّوا قالوا ستة سبعة وثمانية إيذاناً بأن السبعة عدد تام، وأن ما بعدها مستأنف]. (٧)

ويعد الإمام **الرازي** على رأس العلماء الأوائل الذين قالوا بواو الثمانية، إذ توقف طويلاً على شواهدها في القرآن الكريم. واستدل عليها بآيات عديدة منها: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢]. **وقوله تعالى**: ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٤٢-٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي:٧/ ٢٧٢.
(٣) المصدر السابق: ٧/ ٢٧١. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٥٥.
(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٥١.
(٥) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٤٥.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٥٥.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٤٢.

وقوله تعالى: ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥].

ولأهمية الرقم سبعة[١]* وكماله في الآحاد، اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون السموات والأرضين وكذلك أيام الأسبوع سبعة.

وعلى خلفية ما تقدم من عدم قبول التوبة على المنافقين الذين ماتوا ولو استغفر لهم رسول الله سبعين مرة. فإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يبرأ منهم وأن لا يصلي على أحد منهم، إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه[٢]. لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٤].

ثم تمضي السورة فتتحدث عن **الأعراب** فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق. وبعد ذم المتخلفين الذين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد مع القدرة عليه وصفهم الله عز وجل **بالخوالف** لأنهم رضوا بالعار لقعودهم مع النساء.

وبعد ذلك تعقد السورة مقارنة بين صفات المنافقين وصفات المؤمنين وخص منهم الذين عقدوا عقد بيع مع الله لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]. وقامت السورة بتوصيف المؤمنين على طبقات، فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وهناك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم، وهناك الذين أخطؤوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وهناك فئة أخلصت لله في الإيمان وتخلفت من غير عذر، ثم ندمت

---

(١) * ثمة فارق بين الرقم والعدد في لغة الرياضيات المعاصرة لم تكُ مألوفة عند السابقين فيراد بالرقم من صفر وحتى تسعة، أما العدد فيطلق على رقمين فأكثر بدءاً من عشرة فصاعداً. ولعل القارئ في بعض أمهات كتب التفسير يقف على شيء من الخلط بين الرقم والعدد مما اقتضى التنويه.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٩١

وضاقت الدنيا في وجهها، (١) ولجأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته فتاب الله عليهم. (٢)* وقد ذكرت سورة التوبة جانباً من صفات المؤمنين فقال تعالى عنهم: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]. ولعل اسم التوبة هي أشهر ما عرفت به السورة من أسماء، لما تضمنته من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين، فتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٧].

فالتوبة أول منازل العبودية وآخرها، فبداية الإيمان تكون بالتوبة، والتي من شروطها الندم على الذنب والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة إليه وتأخير التوبة معصية لله تعالى.

---

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله محمود شحاته: ١/ ١١٦. ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي: ص١٥٤.

(٢) * إن التحليل النفسي لقصة المؤمنين الثلاثة من الأنصار الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، كان بمنزلة أزمة نفسية كادت تعصف بهم بعد أن حضرتهم هموم التثاقل والقعود عن الغزوة، نتيجة الإحساس بالإثم وما صاحبها من العصرة الإيمانية، لوجود النفس اللوامة حسب التعبير القرآني، فالقصة بالكلية صورة من الصور التي حفل فيها القرآن الكريم للخوالج النفسية والعواطف البشرية. وهي ما أسماه علم النفس الحديث بعذاب الضمير ومعاناة الشعور بالذنب ولا تكون إلا لمن كان صادقاً في إيمانه وتوبته. فقد زود الله عز وجل النفس البشرية ما اصطلح على تسميته بالضمير أو الرقيب، فينبه الإنسان إلى ما وقع منه من أخطاء فتلومه وتدعوه إلى تصويب أمره.

الدروس والعبر التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس والهدايات المستنبطة منها[(١)]*

١- يحسن بنا ابتداءً أن نشير إلى أن الجهاد مصطلح إسلامي تقابله كلمة الحرب عند الأمم الأخرى، بواعثه شريفة نبيلة وأهدافه سامية، أما الحرب عند الأمم الأخرى فغالباً ما تكون للبغي والعدوان وحب السيطرة.

٢- استهل المقطع بالتحريض على الجهاد في سبيل الله عز وجل بالمال النفس، والذي يتأمل آيات القرآن الكريم ويقابلها مع بعضها البعض يتضح له أن الجهاد في الإسلام قد مر في أربع مراحل هي:

أ - تحريم الجهاد في مكة المكرمة حيث ورد النهي عن القتال في أكثر من سبعين آية، ما انفك رسول الله ﷺ خلال هذه الفترة يدعو إلى الإسلام بالحجة والبرهان، واحتمل في سبيل ذلك الأذى والتعذيب والاضطهاد وكان سلاح القلة من المسلمين في هذه المرحلة الصبر والثبات. [(٢)]

واقتصر توجيه الله لرسوله الكريم أن يلقى مناوأة الكفار له بالعفو والصفح الجميل، [(٣)] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩].

ب - الإذن بالجهاد دون فرضه على المسلمين في المدينة لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ

---

(١) * لما كان هذا المقطع يشغل معظم مساحة السورة، فإن الدروس والعبر التي يرشد إليه، ستكون طويلة حسب مضمون آياته. سنورد بعضاً منها بشكل مجمل والبعض الآخر بشكل مفصل حسب ما تقتضيه الدراسة.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه: ٣/ ٧٠.

(٣) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٦١٩.

رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩].

ت- وجوب مقاتلة من قاتل المسلمين دون التعرض لمن كف عن قتالهم لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ث - فرض الجهاد على المسلمين لإعلاء كلمة الله ونشر دعوته في الأرض ودفع الظلم عن المسلمين ونصرة المستضعفين لقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويعلق ابن قيم الجوزية على هذا الترتيب قائلاً: (ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين أو فرض كفاية). [(١)]

وقد جاء تعليل الإذن بالقتال بعد أن ظلموا بالاعتداء عليهم، وإخراجهم من ديارهم بغير حق بسبب ظلم الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأن غاية الإذن بالقتال التمكين في الأرض بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. [(٢)]

٣ - يهدف المقطع إلى التحذير من عواقب ترك الجهاد لما فيه من عواقب تقع على الأمة منها:

أ- استيلاء الأعداء على أراضي المسلمين، ونهب خيراتهم وسفك دمائهم وانتهاك حرماتهم. وما يترتب على ذلك من حياة الذل والقهر والهوان والتبعية وفقدان الشخصية والهوية.

ب- فوات ثواب الله تعالى العظيم الذي أعده للمجاهدين والشهداء.

(١) المصدر السابق: ٣/ ٧١.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٦٢١.

ت – العذاب الأليم للمتثاقلين والمتقاعسين عن الجهاد يوم القيامة.

٤ – يبين المقطع بوجه خاص وسورة التوبة بوجه عام أسس علاقات المسلمين بغيرهم. فهو لا يجيز قتل النفس بمجرد أنها تدين بغير الإسلام، ولا يبيح للمسلمين قتال مخالفيهم في الدين لمخالفتهم في عقيدتهم، بل يأمر أتباعه معاملة مخالفيهم بالحسنى لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام جعل السلام تحيته بقول المسلمين(السلام عليكم) كما أنه أوجب ذكرها في نهاية كل صلاة، فالمصلي يختم صلاته قائلاً: (السلام عليكم ورحمة الله). ثم إن السلام اسم من أسماء الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

وعلى خلفية هذا فالإسلام لا يطلب من غير المسلمين إلا أن يكفوا شرهم عن دعوته وأهله وألا يثيروا عليهم الحروب والفتن.

ويرفض أن يتخذ الإكراه طريقة للدعوة إليه ونشر تعاليمه واعتناق مبادئه لقوله تعالى:

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وعليه فإن الجهاد لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام، كما لم ينتشر الإسلام بحد السيف حسب زعم بعض الموتورين من المستشرقين غير المنصفين.

٥ – تشير آيات المقطع أن الإسلام لا ينشد القتال لذاته من أجل التوسع والعدوان والمغانم ونحوه، ولا يلجأ إليه إلا اضطراراً ويسعى للسلم قبل سعيه للحرب، إلا أنه إذا امتدت إليه يد الغدر والعدوان والطعن في دينه والاستيلاء على أرضه، فهنا يأذن الإسلام لأهله أن يردوا العدوان إقراراً للسلم وإقامة للعدل لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا

﴿تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٦- تتمثل نظرة الإسلام إلى القتال في سورة التوبة بوجه عام وآيات المقطع بوجه خاص بالمبادئ التالية:

أ- إن الأصل في العلاقة الإنسانية هو السلم والتعاون.

ب - الحرب حالة استثنائية يلجأ إليها في حالتي الدفاع والهجوم للضرورة حسب المصلحة التي يقررها الإمام أو الخليفة.

ت - إن الحرب إذا وقعت كان لها حكم الضروريات تقدر بقدرها دون بغي أو تنكيل أو تخريب أو إفساد في الأرض.

ث - معاملة أسرى الحرب بالبر والإحسان رأفة فيهم إلى أن يطلق سراحهم بالمنِّ أو الفداء. لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

ج- لا يشترط الإسلام لوقف الحرب إسلام المحاربين، بل يكفي امتناعهم عن العدوان وكف شرهم وأذاهم عن المسلمين. [1]

وعليه يكون حكم الجهاد فرض عين في الحالات التالية:

أ- حالة الاعتداء على المسلمين، فإذا نزل عدو ببلد من بلاد المسلمين تعين على أهل ذلك البلد قتالهم ودفعهم، فإذا لم يستطيعوا انتقل فرض العين على من يجاورهم حتى تتم هزيمة العدو لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

ب- إذا أعلن الإمام النفير العام أو استنفر مجموعة معينة وجبت طاعته لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ

(١) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٦٥٦.

أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

ج- إذا نشبت الحرب تعين على الجميع مواجهة الأعداء والمشاركة في القتال بالمال والنفس واللسان والقلم، لحشد الإمكانات المتوافرة إعزازاً لدين الله تعالى وإرغاماً لأعدائه[(١)] لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]. **وقوله تعالى:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

والآيات توجب الثبات وتحرم الفرار لأنه من السبع الموبقات كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم **والتولي** يوم **الزحف** وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات). [(٢)]

٦ - تشير آيات المقطع أن الجهاد ذروة سنام الإسلام ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدارين. [(٣)]

والجهاد عند **ابن القيم** أربع مراتب هي: جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع. [(٤)] وجهاد الكفار أخص باليد

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٦٢٣.
(٢) صحيح البخاري: رقم ٢٥٦٠.
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.
(٤) المصدر السابق: ٣/ ٩و ٣/ ٧٢.

في حين جهاد المنافقين أخص باللسان مع الصبر على مشاق ذلك. [١]

وجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد[٢] لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

ويرى **ابن القيم** أن أكمل الخلق عند الله من كَمَّلَ مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. [٣]

والمجاهد في سبيل الله الذي ما انفك يقاتل بالسيف واللسان والبيان والدعوة، وكانت ساعاته موقوفة لله، يعد من أرفع الناس ذكراً ومن أعظمهم عند الله قدرا. [٤]

ومعنى الجهاد اصطلاحاً عند **ابن القيم**: هو استفراغ الوسع في محاربة العدو ومجاهدته وأهواء النفس وشرورها. [٥]

وتتفاوت المدافعة من شخص لآخر بحسب إيمانه فان قوي الإيمان قويت المدافعة. وهذه من صفات المؤمنين المتقين المحسنين الصابرين، [٦] الذين يدافعون عن الإسلام والمسلمين لإعلاء كلمة الله ولولا دفاعهم لتخطفهم عدوهم واجتاح ديارهم وسلب خيراتهم.

ولقد اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يمتحن النفوس ويبتليها بضروب الجهاد. وأن ثمره عائد إليهم في الدنيا والآخرة، حيث يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين، وهي

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١١.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ١٢.
(٤) المصدر السابق: ٣/ ٥.
(٥) المصدر السابق: ٣/ ٦.
(٦) المصدر السابق: ٣/ ٧.

أعظم نعم أنعم الله بها على عباده. [(١)]

فالمجاهد إما يعود إلى أهله بعد تحقيق النصر عالي الهمة مرفوع الرأس شاكراً الله تعالى فضله، وإما يفوز بالشهادة والكرامة فإن قبض شهيداً فان روحه تفيض إلى بارئها لتعيش حياة أبدية في العالم الأخر، فرحة بما تنال من الأجر والتكريم تنقلب في نعم الله تعالى وفضله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾التوبة / ٥٢.

والتمسك بالجهاد مصدر كل قوة وأساس وحدة الأمة وبقائها، والأخذ به من باب أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتقوه بقيامهم بالواجبات التي كلفهم إياها، والثبات عليها أساس التقيد بأحكامه سبحانه وتعالى وتشريعاته.

فالجهاد يحافظ على نقاء الأمة ويحميها من أسباب الضعف ويجعلها مهيبة الجانب أمام عدوها. ويتحقق فيه صدق التوكل على الله في الرخاء والشدة.

ويعلق **ابن القيم** الجوزية على ما تقدم قائلاً: (فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله فإن الله عز جل هو المشتري والثمن جنات النعيم). [(٢)]

٧ - آيات المقطع تفيد أن هيبة الأمة وقوتها ترتبطان ببقاء الروح الجهادية فيها، فإذا ضعفت وتخاذلت الأمة في مدافعة أعدائها فإنها تتعرض للغزوات الخارجية، ويطمع فيها

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٧.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.

المعتدون ويذيقونها المذلة والهوان في جوانب الحياة كافة.

وإن واقع الأمة في حاضرها ما يؤكد ذلك، ومما يؤسف له أن الأمة قد أسقطت كلمة الجهاد من قاموسها السياسي، فأذلها الله لموافقتها الغرب في مساواة كلمة الجهاد بالإرهاب.

٨- يوجه الله تعالى عباده في هذا المقطع إلى الإنفاق في سبيله بالطيب من المال، لتجهيز الجيوش بوسائل القتال المختلفة التي تناسب كل عصر، لتحقيق النصر على الأعداء وإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه، ويدخل في الجهاد بالمال الإنفاق على أسباب القوة المادية والمعنوية، من إقامة المصانع وحسن التسلح وتقوية الاقتصاد، وبناء المصانع والمطارات والموانئ والسدود، وإنشاء مقومات البنية التحتية وما على البنية التحتية من منشآت لازمة لمنعة الدولة وجيشها أمام عدوها، وهذا كله من باب إعداد العدة واتخاذ الوسائل اللازمة للحرب.

وقد بيّن الله تعالى من خلال الآيات الكريمة في سورة التوبة وغيرها، إلى فضل النفقة في سبيله وعظيم الثواب الذي أعده للمنفقين من عباده.

فقد ضرب الله مثلاً في سورة البقرة لما ينفقه الإنسان في سبيله بالحبة التي زرعت، فأنبتت سبع سنابل تحتوي كل سنبلة على مائة حبة، حتى بلغت الحبة الواحدة سبعمائة ضعف.

وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر إلى ما لا نهاية حسب عرف العرب قديماً لمن أخلص في صدقته، والله تعالى يضاعف ثواب المنفق بحسب إخلاصه، وقد نبّه الله تعالى عباده المنفقين إلى أهمية المحافظة على ثواب صدقاتهم بالبعد عن المنّ وعدم التفاخر والتطاول فيها. والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، التي سوف يحاسبهم عليها يوم القيامة، ولا يصرف ثواب الإنفاق في المال إلا لمن اخلص نيته في إنفاقه، وجعلها خالصة لوجه الله تعالى، والله رقيب على عباده يعلم ما يسرون وما يعلنون.

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

٩-حفلت السنة النبوية الشريفة بذكر باقة من الأحاديث التي تفيد الأمر بالجهاد والترغيب فيه والتحريض عليه، مع بيان فضله للمجاهد في الدنيا والآخر، ففيه نجاة من النار ومغفرة من الذنب ودخول للجنة ورفعة شأن الأمة وصون كرامتها، وقد عظم الرسول ﷺ أمره وذم التاركين له والمعرضين عنه ووصفهم بالمنافقين، ولما كان فضل الرباط والجهاد في سبيل الله كبير، سنورد هنا طائفة من هذه الأحاديث التي تدل على مصداقية ذلك بما ينسجم مع التحريض على القتال في آيات هذا المقطع:[(١)]*

ففي الحديث الشريف: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة[(٢)] .)

وفي الحديث الشريف: (غَدوةٌ في سبيل الله أو رَوحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها[(٣)]).

---

(١) * للمزيد حول هذا الموضوع انظر: مختصر صحيح البخاري، د. سعد الشثري: كتاب الجهاد والسير. ومختصر صحيح مسلم، للحافظ المنذري: كتاب الجهاد.

(٢) أخرجه البخاري٦/ ٦٠٥ في الجهاد: باب أفضل الناس مجاهد بنفسه وماله، ومسلم (١٨٧٨) في الإمارة: باب فضل الشهادة في سبيل الله، والموطأ ٢/ ٤٤٣ في الجهاد: باب الترغيب في الجهاد والنسائي٦/ ١٧ في الجهاد باب ما تكفل الله عز وجل عن مجاهد في سبيله. كلهم من حديث أبي هريرة، وأخرجه ابن ماجة (٢٧٥٤) في الجهاد: باب فضل الجهاد في سبيل الله من حديث سعيد بن جابر.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ١١ في الجهاد: باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وباب فضل رباط يوم في سبيل الله.

وفي الحديث الشريف: (جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم)[١].

وفي الحديث الشريف: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة). [٢]

وفي الحديث الشريف: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار). [٣]

وفي الحديث الشريف: (رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُنيا وما عليها). [٤]

وفي الحديث الشريف: (رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل). [٥]

وفي الحديث الشريف: (مقام أحدكم في سبيل الله خيرٌ من عبادة أحدكُم في أهله ستينَ سنةً، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة، جاهدوا في سبيل الله، من قَاتل فُواقَ ناقةٍ وجبت له الجنة). [٦]

وفي الحديث الشريف: (حرمت النارُ على عينٍ دمعتْ أو بكتْ من خشية الله، وحرمت

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٤، ٣، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٣٠ من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله ١٣/ ٣٤٩، وفي التوحيد: باب وكان عرشه على الماء. وأحمد ٢/ ٣٣٥ من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري٢/ ٣٢٥ في الجمعة: باب المشي إلى الجمعة، وفي الجهاد ٦/ ٢٣: باب من اغبرت قدماه في سبيل الله، والترمذي (١٦٣٢) في فضائل الجهاد، واحمد في المسند ٣/ ٤٧٩ من حديث أبي عبس عبد الرحمن ابن جبر.

(٤) أخرجه البخاري ٦/ ٦٤ في الجهاد باب فضل الرباط، يوم في سبيل الله.

(٥) أخرجه النسائي٦/ ٣٩، ٤٠ في الجهاد، باب فضل الرباط، واحمد: ١/ ٢٦و٦٥و٦٦و٧٥، والترمذي (١٦٦٧) في الجهاد باب ما جاء في فضل المرابط من حديث عثمان بن عفان.

(٦) رواه أحمد في المسند ٢/ ٤٤٦و ٥٢٤، والترمذي (١٦٥٠).

النار على عينٍ سهرت في سبيل الله). [١]

وفي الحديث الشريف: (من بلغَ بسهمٍ في سبيل الله، فله درجةٌ في الجنة). [٢]

وفي الحديث الشريف: (ذروة سنام الإسلام الجهاد). [٣]

وفي الحديث الشريف: (من ماتَ ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق). [٤]

وفي الحديث الشريف: (إنَّ أبوابَ الجنة تحتَ ظلال السيوفِ). [٥]

وفي الحديث الشريف: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). [٦]

١٠- أبرزت الآيات السابقة عدم استحباب المشاركة في الجهاد للمسلم المريض أو الأعمى أو المجنون أو الصبي الصغير، لأن ضعفهم يحول بينهم وبين تحمل أثقال الحرب وأهوالها، وربما كان وجودهم أكثر ضرراً من قلة نفعه[٧] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١].

(١) رواه أحمد ٤/ ١٣٤، والدارمي ٢/ ٢٣، والنسائي٦/ ١٥ في الجهاد: باب ثواب عين سهرت في سبيل الله من حديث أبي ريحانة.

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٩٦٥) في العتق: باب أي الرقاب أفضل، والنسائي ٦/ ٢٧، وأحمد ٤/ ٣٨٤ من حديث أبي نجيح السلمي، وإسناده صحيح وصححه ابن حبان (١٦٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٩) وأحمد ٥/ ٢٣١.

(٤) أخرجه مسلم(١٩١٠) في الإمارة: باب ذم من مات ولم يغز، وأبو داوود (٢٥٠٢) في الجهاد: باب كراهية ترك الغزو، والنسائي ٦/ ٨ في الجهاد: باب التشديد في ترك الجهاد من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٠٢) في الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد والترمذي (١٦٥٩) وأحمد ٣٩٦٤و ٤١١ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد: باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ومسلم (١٩٠٤)

(٧) في الإمارة.

- فقه السنة، السيد سابق، ٢/ ٦٢٤.

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

١١- نستخلص من هديه ﷺ في مجمل غزواته بوجه عام وغزوتيه في سورة التوبة بوجه خاص حكم جليلة بالغة الأهمية من حيث الفكر العسكري نذكر منها:

- استحباب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله فإن لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس. وفي الحديث: (اللهم بارك لأمتي في بكورها). (١)

- مشاورة أصحابه لأخذ رأيهم في أمر الغزوة وأمر العدو وتخير المنازل. وفي المستدرك عن أبي هريرة: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

- عدم الاستبداد بالأمر لقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- الرفق بهم ولين الجانب لهم وعدم القسوة عليهم.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يتورطوا في المعاصي.

- تفقد الجيش من حين لأخر ليكون في جاهزية قتالية دائمة.

- بث العيون لمعرفة أخبار العدو وتحركاته أولاً بأول. (٢)

- الحصول على معلومات مسبقة حول تضاريس الأرض وما بها من عيون وآبار ومراعي قبل إرسال الجيش.

- إذا أراد غزوة ورى بغيرها ومغزى ذلك «الحرب خدعة». (٣)

- يلبس للحرب عدته ثم يعمد إلى تعريف العرفاء، وعقد الألوية والرايات، (٤) ويلبس

---

(١) أخرجه الترمذي برقم «٢٢١٢»، ١٣/ ١٦١٣، وأبو داوود رقم ٢٦٠٦، ٢٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٩٣، وصحيح مسلم "١٩٠١".

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ١١٠ و ٦/ ٨٠، ومسلم «٢٧٧٩»و «١٧٣٩»، وأبو داوود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥).

(٤) البخاري٨/ ٤ و ٦/ ٨٩، والترمذي (١٦٨١)، وابن ماجه(٢٨١٨)، وسنن أبي داوود (٢٥٩٨) و (٢٥٩٥).

الدرع والخوذة ويتقلد السيف ويترَّس بالترس.

- يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يعرفون به إذا تكلموا. [١]وكان يستحب للرجل منهم أن يقاتل تحت راية قومه ويحبُ له الخيلاء في الحرب، ليس من باب القتال بالعصبية والبغي والفخر بل لرفع الروح المعنوية.

- مبايعة أصحابه على ألا يفروا حتى يفوزوا بالشهادة أو النصر لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢].

- كان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله وإذا لقي عدوه وقف ودعا واستنصر الله وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله.

وهذا مما يجب على القائد فعله مع جنوده بحسب المصلحة، وكان الرسول ﷺ يفعل ذلك كله في غزواته كلها. بدءاً من غزوة بدر حتى غزوة تبوك آخر غزواته. مع استثناء أنه في غزوة تبوك أعلم عن وجهته على غير عادته، ليكونوا على بصيرة من أثقال الغزوة بسبب بعد الشُقة وقلة الزاد والدواب وشدة الحر، [٢] ليظهر الصادق من الكاذب والمنافق. الذين ختم لهم بسوء العاقبة إما لتخاذلهم وتثاقلهم عن النفير العام، أو لكونهم من المرجفين من مروجي الشائعات لإثارة الفتن في صفوف الجيش. [٣]

١٢- تشير آيات المقطع الخامس أن فتنة المال من أعظم أسباب النفاق مما يستوجب علينا إبراز أهمية النظام الاقتصادي على صعيد الدولة والفرد. إذ لا يجوز أن يستخدم المال في الإسلام وسيلة للتدخل السلبي أو أداة للضغط على مجريات الأمور، كما وقع في غزوة تبوك. والنظام الاقتصادي في الإسلام هو مجموعة الأحكام التي شرعها الله لحل مشاكل الحياة الاقتصادية

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٦)و(٢٦٣٨)، والترمذي(١٦٨٢).

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨١.

(٣) للمزيد انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٩٥-٩٧. وفقه السنة السيد سابق: ٢/ ٦٣٨-٦٣٩.

وتنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه وقيوده وواجباته، كالزكاة والصدقة والحقوق الأخرى، إذا لم تف الزكاة فإن حقوقاً سواها تكون واجبة في المال تُرك بابها مفتوحاً للطوارئ وسداً للحاجات في أوقات الحروب ونحو ذلك.

وتأسيساً على ما تقدم وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. نرى الخطاب هنا موجه للرسول ﷺ بمعنى خذ من أموال هؤلاء التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح، وترفع درجاتهم عند الله، وادع لهم بالخير والهداية فإن دعاءك تسكن به نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم والله سميع للدعاء عليم بالمخلصين في توبتهم.

ولعل من أبرز الحكم في الآية السابقة الترغيب في أداء الزكاة والصدقات والترهيب من منعها والتعجيل بأدائها. وهي من الفرائض ومن ضروريات الدين. وتجب على المسلم المالك للنصاب من أي نوع من أنواع المال الذي في حوزته بعد مرور حولٍ عليه.

ويجب إخراجها عند وجوبها ويحرم تأخيرها. ويستحب الدعاء للمزكِّي عند أخذ الزكاة منه لظاهر الآية السابقة.

والزكاة عبادة يشترط لصحتها النية، وذلك أن يقصد المزكِّي عند أدائها وجه الله ويطلب بها ثوابه.

(والزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء سميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات)، [1]ويتحقق فيها النماء في المال والطهارة والبركة لظاهر الآية المشار إليها آنفاً.

(وهي أحد أركان الإسلام الخمسة قرنت بالصلاة في اثنين وثمانين أية، وقد جعل الله إيتاء

(١) فقه السنة، السيد سابق: ١/ ٣٢٧.

الزكاة غاية من غايات التمكين في الأرض). [1] والجماعة التي يباركها الله ويشملها برحمته هي التي تقوي صلاتها بإيتاء الزكاة لتحقيق العيش الكريم لجميع عناصر المجتمع. ومانع الزكاة آثم يستحق غضب الله تعالى وعذابه يوم القيامة. ولأداء فريضة الزكاة حِكمٌ كثيرة منها:

أ - أن المجتمع الإسلامي يفترض أن يكون متكافلاً متعاوناً، يعين فيه المسلمون بعضهم بعضاً للقضاء على جيوب الفقر وآثاره المدمرة. فتوفر للفقراء والمساكين الحياة الكريمة وتغنيهم عن سؤال الناس.

ب - تنشر المودة والرحمة بين أفراد المجتمع، فيعطف الغني على الفقير، ويحب الفقير الغني، ويدعو له بالخير والبركة، فيكون المجتمع متراحماً متعاوناً على فعل الخير.

ج - تطهر نفس الغني من البخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد، وتكسبه القناعة والرضا.

د - تحمي المجتمع من الفتن والجرائم التي تقع نتيجة الفقر والحاجة، فيعيش الجميع في أمان واطمئنان.

هـ- تنمي مال المزكِّي، فيبارك الله تعالى له في ماله، فينمو ويزداد، فتزول عنه وساوس الشيطان من نقص المال بالزكاة والصدقة.

و - تحرر الغني من طغيان المال على نفسيته وجعله مستبدا لقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦-٧].

ز - تحقق الزكاة التكافل الاقتصادي والاجتماعي بين أفراد المجتمع.

ح - في الزكاة والصدقات إعادة توزيع الثروة باستمرار حتى لا يقتصر المال على الأغنياء، لقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر:٧].

وهذه الآية تعتبر دعامة لقاعدة التوازن المالي في المجتمع المسلم، تحول دون وجود الطبقية

(١) - المرجع السابق: ١/ ٣٢٨

بمعناها الخطير. ولقد حرص الإسلام على اعتبار كل ما هو ضروري للناس ملكية عامة حتى يعود نفعه على الجميع.

كما لم يدع الإسلام حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيد، بل جنح إلى الاعتدال. فرتب حقوقاً في المال الخاص لدعم صرح المحبة والتراحم بين الناس.

ط- يمكن توظيف الزكاة أيضاً في وجوه القروض الحسنة، والتعميم في تطبيقه على هذه الصورة من باب تفعيل البر ومساندة المعسرين من الناس. والقرض الحسن هو قرض لأجل تتعامل معه المصارف الإسلامية، ولا يتحقق فيه أي فائدة ربوية.

١٣- قررت الآية ٦٠ من سورة التوبة مصارف الزكاة، ثمانية أصناف حصرها الله في قسمها، وبيَّن حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، [١] فجزأها على النحو التالي:

أ- **الفقراء**: وهم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم.

ب-**المساكين**: وهم أوسع عيشاً من الفقراء بقليل.

ج- **العاملين عليها**: وهم الجباة الذين توكل إليهم مهمة جمع المال من الأغنياء، ويدخل معهم كتبة دواوين حفظ المال.

د- **المؤلفة قلوبهم**: وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه لضعف إسلامهم. أو كف شرهم عن المسلمين، أو جلب نفعهم في الدفاع عنهم، كما يتوقع بإعطائهم إسلام غيرهم من بطون قبائلهم وغيرها، وفي هذا إقرار لجواز التأليف عند الحاجة للمصلحة. [٢]

هـ- **الرقاب**: وهم المكاتبون من الأرقاء فيعانون بمال الصدقة لفكِّ رقابهم من الرق، وفي

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٠.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٤٩٤.

هذا جواز لشراء العبيد وعتقهم.

و- **الغارمون**: وهم الذين تحملوا الديون، وتعذر عليهم أداؤها وصرفت في وجه شرعي، ولم تكن ناشئة عن إثم أو ظلم أو سفه.

ز- **وفي سبيل الله**: وهم على فئات عديدة، فمنهم طالب العلم لمرضاة الله، ومنهم المتطوعون في الجهاد، ويجوز أن يدخل في هذه الفئة صرف النفقات على تأمين الاستعداد للحرب من قبل الدولة، وينسحب أيضاً على الأعمال الخيرية، وإعداد الدعاة الذين يدعون إلى الإسلام ويبشرون به، وتأمين المدارس الشرعية وغير ذلك من طريق الخير ووجوه البر. [١]

ح- **ابن السبيل**: وتنسحب على المسافر المنقطع عن بلده فيعطى منها ما يستعين به على تحقيق مقصده. [٢]

وقد شرع الله ذلك فريضة منه لمصلحة عباده، والله سبحانه وتعالى عليم بمصالح خلقه حكيم فيما يشرع.

١٤- من تأمل أحوال المنافقين في هذا المقطع من سورة التوبة، وربطها بغيرها من السور. يرى أن الحق تبارك وتعالى توعدهم بأن يصيبهم من عذاب الدنيا والآخرة ما أصاب به من كان قبلهم من الأمم والشعوب، التي كفرت بأنعم الله عليها، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

ومعلوم أن ظاهرة النفاق قد تفشت في المدينة، بظهور الإسلام قوة عظيمة تهدد ما حولها

(١) المصدر السابق: ١١/ ٥٠٦.

(٢) فقه السنة، السيد سابق: ١/ ٣٩٥، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٣٣.

من جيوب الكفر والشرك، بعد أن قويت شوكة المسلمين بإقامة دولتهم. ولم يسلك هذا السبيل أحدٌ في مكة لعدم حاجتهم إليه، لكون المسلمين قلة مستضعفة لا سلطان لهم.

والمنافق مراوغ محتال متقلب متذبذب، يظهر خلاف ما يبطن فيه مرض في القلب مع حلاوة في اللسان، ويخالف قوله فعله، يحسن القول دون العمل.

لقد فضح الله المنافقين في العديد من السور المدنية، وتعد سور التوبة المعروفة باسم **الفاضحة**، من أكثر السور فضحاً لهم لسوء طويتهم.

وأنزل سبحانه وتعالى **سورة** باسمهم لتحذير المسلمين من مكرهم، بعد أن استحكم النفاق على قلوبهم وجوارحهم ضد الإسلام والمسلمين. ولقد فصل القرآن في بيان صفاتهم نذكر منها:

- الصد عن سبيل الله لفسقهم وخروجهم عن طاعته.
- التطلع إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة.
- الكذب ديدنهم والخيانة طبعهم وخلف الوعد مسلكهم.
- أكثر الناس غفلة عن ذكر الله.
- لا يبصرون الحق ولا يستقيمون عليه ولا يقولون به.
- تركهم للأمر بالمعروف وأخذهم بالمنكر.
- اضطرابهم وعدم ثباتهم على حال.
- تقليدهم لآبائهم الأولين على غير بصيرة.
- السعي لإشعال الفتنة وقولهم بالمنكر من الكلام.
- انشغالهم بالنعمة على المنعم.
- التخلف الدائم عن الإجماع والجماعة.

- سعيهم الدائم لتثبيط المؤمنين عن الجهاد.
- التخلف عن الجهاد وانتحالهم المعاذير لتبرير ذلك.
- إيثار العاجلة على الآجلة والعرض الزائل على النعيم الدائم.
- فرحهم لمصائب المسلمين وحزنهم لكل خير يصيبونه.
- غمزهم ولمزهم المؤمنين وسخريتهم بهم.
- استهزاءهم بالقرآن وبالرسول ﷺ وإلصاق التهم به.
- التكاسل والتباطؤ عند النفقة.
- لا يتوبون من نفاقهم مما يختم لهم بسوء العاقبة.
- أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان.
- ميلهم لترويج الإشاعات.
- اشتمالهم على الخلق المذموم وخوارم المروءة.

وبقراءة تحليلية نرى أن الحكم والدروس التي ترشد إليها آيات النفاق والمنافقين في هذا المقطع من سورة التوبة:

أ - وجوب جهاد المنافقين على قاعدة الولاء والبراء، فتجب موالاة أولياء الرحمن، ومعاداة أولياء الشيطان، والتشريد بهم وجهادهم بشتى الوسائل.

ب - حب المنافق نفاق وبغضه إيمان وجهاد، والمنافق الذي علم نفاقه ينبغي أن يعامل معاملة الكافر الملحد والمشرك. زجراً لأمثاله من المنافقين. لأنه جمع في نفاقه الكفر في مراتبه المختلفة، كفر التكذيب والاستكبار والإعراض والشك.

ت - عدم جواز مناداة المنافق بألفاظ التوقير والتبجيل والاحترام، ومن فعل ذلك يؤثم، وحقيق بالمسلم تحقير المنافق وتأخيره في المجالس لا تقديمه، وهجره لا مواصلة التعامل معه،

وتجاهله بدلاً من إيلاء الاهتمام به. ومخالفته لا طاعته، لأنه عدو الله ورسوله وهذا اللائق بمعاملته لكفره وسخره من الدين ومكره، ومما يؤسف له لم ينل أهل العلم حظا من التوقير كالذي عليه أهل النفاق في أيامنا هذه.

ث - بيان خطر النفاق والتحذير منه، لأن المنافقين أشد خطراً على الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بسبب تلونهم حسب مصلحتهم الخاصة مما يلحق الضرر بالمصلحة العامة.

جـ- تحريم الصلاة على المنافقين، ومنع دفنهم في مقابر المسلمين. وقد تأكد ذلك في نهي رسول الله ﷺ في الآية ٨٤ من السورة عن الاستغفار لهم، وفي ذلك حكم تحريم الصلاة عليهم أكانت صلاة جنازة أو دعاء لطلب المغفرة والرحمة لهم.

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦].

١٥- كشفت آيات هذا المقطع أن القرآن الكريم أول الكتب السماوية الذي وردت فيه صيغتا عرب وأعراب.

فقد وردت فيه لفظة عربي إحدى عشرة مرة وأعراب عشر مرات. (١)

وقد ذكر **الأصمعي** أن العربية منسوبة إلى **يعرب بن قحطان**، ومشتقة من اسمه، وهو أول من نطق بالعربية الفصحى من العرب العاربة من سكان بلاد اليمن، ومنه تشعبت القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر. (٢)

ووردت كلمة **الأعراب** معرفة بأل التعريف في جميع المرات التي ذكرت فيها. وتعد سورة التوبة أكثر السور ذكراً لها. فقد وردت في الآيات التالية: ٩٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٢٠.

في حين وردت في سورة الفتح في الآيتين ١١، ١٦ ومرة واحدة في سورة الأحزاب في

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٥٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٣.

الآية ٢٠، والآية رقم ١٤ من سورة الحجرات. والأعراب اسم جنس والنسبة إليه أعرابي، ويراد بهذا اللفظ سكان البيداء أي الصحراء. وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب.[١]

أما «**العرب**» فهم أهل الحواضر ممن يعيشون في المدن، وهم اسم جنس والنسبة إليهم «**عربي**». والمتأمل لظاهر الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة الأعراب يمكنه تصنيفهم إلى ثلاث فئات وقت نزول القرآن الكريم:

فئة لم تزل تعيش في جوف الصحراء حيث الواحات الصالحة لرعي الإبل.

وأخرى نزحت على مر السنين من مواطنها المتقدمة في الصحراء لتعيش على حياة رعي الماعز والأغنام حول المدينة.

وثالثة استقرت في المدينة وبفعل تقادمهم في موطنهم الجديد تخلقوا بأخلاق أهلها فخرجوا من حالة البداوة إلى شيء من التحضر. وذهبت خشونة بداوتهم وانتحلوا معايش أهل المدينة. فخالفوا الفئتين الأولى والثانية حيث ما زالوا في حالة البداوة وما تقتضيها من التنقل والترحال التماساً للماء والكلأ، فلم يصيبوا شيئاً من التطور بسبب تلازمهم بالبادية تلك البيئة الصحراوية الطاردة، فعاشوا في حياة الشظف وخشونة الحياة فانعكس ذلك على مخرجات سلوكهم ونظرتهم للحياة وتمردهم على كل جديد، ولو كان حسناً طيباً فيه الخير لهم.

ولذلك كان المهاجرون يستعيذون بالله من **التعَرُّب**[٢]* وهو سكنى البادية، واعتادت العرب القول لمن عاد للبادية: ارتددت على عقبيك **وتعَرَّبت**، بمعنى أنه صار من الأعراب،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٣.

(٢) * من طريف ما يروى هنا ما ذكره القرطبي في الجامع ٧/ ٢٣٣: أن الأعرابي إذا قيل له يا عَرَبِيّ فرح والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسميت العرب عرباً نسبة إلى منطقة يقال لها **عَرَبة** قرب مكة. والعُرْب والعَرَب واحد، والعُرَيْب تصغير العرب. وفي رواية أخرى قيل أن العرب مأخوذة من الاسم يعرب. وفي رواية ثالثة قيل أنها مشتقة من الفعل **يُعْرِب** بمعنى يفصح في الحديث ومنها جاءت كلمة الإِعراب في النحو.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن **ابن خلدون** قد ذم هذه الفئة من الأعراب، واتخذهم حجة للقدح والتنديد بهم والحط من شأنهم، لسذاجة بداوتهم وقسوة قلوبهم ولما فيهم من طبائع العدوان والظلم والغارة على بعضهم بعضاً ولهذا نراه يزدريهم في مقدمته.[1]

والرأي الراجح ليس في **التَعَرُّبِ** مذمة إلا إذا صاحبه الخلق المذموم، ونرى على خلفية هذا التوصيف، أن العرب قديماً كانوا ينقسمون إلى بدو وحضر، وهم جميعاً ينحدرون من قبائل عربية متعددة تعود في نشأة جذورها، إما إلى بقايا العرب البائدة من أقوام **عادٍ وثمود**، أو لعرب الجنوب **القحطانيين**، أو لعرب الشمال **العدنانيين** من أهل نجد والحجاز. والأعراب من هؤلاء جميعاً هم الأصل.

وهم على معادن فمنهم المؤمنون الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وآخرون منهم منافقون أسلموا باللسان دون القلب.

وبقراءة تحليلية لشخصية الأعرابي المنافق نراه متقلباً عصبي المزاج سريع التهيج حقوداً محباً للفتنة والانتقام ولقول الزور، يجنح إلى فتنة المال، ليس للدين في نفسه أثر يذكر وليس له عناية بالأحكام الشرعية أو الزجر عن المفاسد. يقوم فخره على السيف ورزقه في ظل رمحه من غير وازع من دين أو ضمير.

ويعتبر الإسلام خير ما ساقه الله إليهم لو عقلوا وفقهوا حكمة ذلك، بَيْد أنهم لم يفعلوا وليس أدل على ذلك من ارتدادهم عن الإسلام، بعد أن قبض الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ومن الدروس التي ترشد إليها قصة الأعراب في سورة التوبة خاصة وسور الفتح والأحزاب والحجرات عامة:

أ – تصنيف الله عز وجل للأعراب إلى مؤمنين صادقين حيث بيّن الله سبحانه وتعالى ما

---

(١) للمزيد حول هذا الموضوع انظر: المقدمة: الباب الثاني من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثامن والعشرين، والفصل التاسع من الباب الرابع، والفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس.

عليه كثير من الأعراب من كفر ونفاق، ونزه طائفة منهم.

ب - اعتبار سكان البادية من الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من كفار العرب ومنافقيهم المقيمين بالحواضر، نظراً لجفاء طبعهم وقسوة قلوبهم. وبعدهم عن منابع العلم والحكمة وجهلهم في حدود الله وشريعته وأحكامه.

ت - لمّا زعم الأعراب الإيمان نفاه الله عنهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧].

ث - بيّن الله سبحانه وتعالى أن من منافقي الأعراب من يعتبر الإنفاق في سبيل الله غرامة وخسراناً مع تربصه الدوائر بالمسلمين. لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

جـ- حدَّد سبحانه وتعالى نفاق الأعراب على وجه الخصوص من مجمل العرب، وبيّن شنيع أعمالهم وخبث طباعهم لأنهم أقاموا على النفاق دون توبة، وخص منهم من كان حول المدينة لتأثرهم بكيد اليهود وشرورهم. ومن كان منهم في المدينة لوقوعهم تحت تأثير رأس النفاق **عبد الله بن أبي سلول** الوجيه في قومه وما له من دالة الرياسة فيهم. لقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة: ١٠١].

ح- إذا كان شأن الأعراب أول الأمر معاول هدم ضد الإسلام والمسلمين. إلا أنه خرج من أصلابهم في الأجيال اللاحقة لآبائهم، من قامت دعوة الإسلام على يديه من نشر دعوة وفتوحات. بعد أن تعمق الإسلام في نفوسهم، وحصل لهم التغلب والملك. فإذا قويت نزعتهم الدينية تضاعفت قوة عصبتيهم بالاستماتة في إعلاء كلمة الله. وذهب عنهم مذموم الأخلاق وأخذوا بمحمودها. ومن جبلتهم أنهم إذا نسوا الدين وضعف إيمانهم رجعوا إلى أصلهم في قساوة القلب والقتل وأخذ ما في أيدي الناس بالقوة، وتداعت عليهم أهواء الباطل والميل إلى

الدنيا، وحصل فيهم التنافس وفشا الخلاف، وبعدوا عن التعاون والتعاضد وحبسوا أنفسهم عن الخير. وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم أمام عدوهم، واستقووا بالغريب ضد بعضهم بعضاً. وأصبحوا مغلوبين على أمرهم طعمة لكل آكل من الأمم القوية، وحصل لهم الانقياد لهم بذلٍ ومذلة. وهذا دليل على زوال عصبتهم بضعف إيمانهم. ولم تعد ترى للآحاد فيهم عندئذٍ إلا الكذب والخصومة والاحتراب والخيانة والغدر، مع تظاهرهم بالصلاة والصيام والزكاة والحج. فما أقبحه من إيمانٍ مع التلبس بالنفاق الذي كان عليه آباؤهم الأولين.

١٦- تحث آيات المقطع الخامس على التوبة لله ورسوله والتي من ثمراتها:

- تنفيس الكرب والنجاة من الشدائد.
- النجاة من الفتن والحفظ من كيد الشيطان.
- تحصيل الإخلاص في مراقبة النفس ومجاهدتها.
- الإكثار من الطاعات في السراء والضراء.
- ترك الإعجاب بالنفس وطول الأمل بالحياة.
- استمرار الاستعانة بالله من دعاء وتوسل.
- نيل البركة في كل شيء في الصحة والمال والولد ونحوه.
- الظفر بالنصر والتمكين.
- مغفرة الذنب ومضاعفة الأجر.
- الفوز بشفاعة النبي ﷺ في الآخرة ودخول جنات النعيم.
- الجزم بالدعاء واليقين بالإجابة.

وفضل التوبة كبير وعظيم، إذ أنها سبب لنيل محبة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وسبب للفلاح في الدنيا والآخرة لقوله

تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]. وفي التوبة كراهية الخوض في الظلم لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]. وإذا استوفت التوبة شروطها اللازمة تكون مقبولة بإذن الله ومنها:

- أن تكون خالصة لله تعالى.

- أن تكون موافقة لهدي النبي ﷺ .

- الإقلاع عن الذنب والندم على فعل الذنوب والعزم ألا يعود إليها ثانية.

- إرجاع الحقوق لأصحابها.

- تحقيق التوبة قبل غرغرة الموت لقوله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[١]).

وقبل طلوع الشمس من مغربها لقوله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه). [٢]

ومن أبرز علامات صحة التوبة:

أ- أن يكن العبد بعد التوبة خيراً منه قبلها، فيتحرر من أساليب الشيطان في التزيين والتلبيس والتسويف والتيئيس وتهوين المعصية، ويكثر من الأعمال الصالحة ومصاحبة الأخيار والإقبال بصدر رحب على العبادات المخصوصة، من صوم وصلاة وزكاة وحج، وحب العبادات المطلقة كالالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- استمرار محاسبة النفس على سابق تفريطها وذنوبها ليورثه ذلاً وانكساراً بين يديه سبحانه وتعالى، واستشعار نعم الله عليه وجزيل عطاياه ومقارنتها بتقصيره وتفريطه في حق الله تبارك وتعالى. [٣]

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم ٣٥٣٧ وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم: رقم ٢٧٠٣.

(٣) للمزيد حول التوبة انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي: كتاب التوبة ٤/ ٦-٦٨.

١٧- أخبرت (**الآية ١٠٠**) من سورة التوبة في المقطع الخامس رضى الله عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كل وفق طبقته بحسب أسبقيته إلى الإسلام. حيث وردت فيهم الخيرية والتفضيل عمن سواهم، لما أعد الله لهم من جنات النعيم على إسلامهم وحسن إيمانهم وتضحياتهم بالمال والنفس وصبرهم على أذى الكفار والمشركين لهم. وعلى مثوبة شجاعتهم على كونهم الجند الأوفياء في طلائع الدعوة لإعلاء كلمة الله، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون. وللعلماء في تصنيفهم مذاهب شتى من الأقوال والاجتهادات.

وبقراءة تحليلية نرى أن الرأي المرجوح فيهم أنهم أوائل الذين أسلموا من المهاجرين أولاً ثم الأنصار ثانياً ثم تابعيهم بإحسان على النحو التالي:

أ- طبقة الأوائل الذين اسلموا حسب الجنس والسن والهيئة الاجتماعية **كخديجة** أم المؤمنين باعتبارها أول من أسلم من النساء وأبو بكر الصديق من الرجال و**علي بن أبي طالب** من الصبية و**زيد بن حارث** من الموالي و**بلال بن رباح** أول من أسلم من العبيد.

ب- طبقة الذين أسلموا في دار **الأرقم بن أبي الأرقم** حين كانت الدعوة سرية لسنوات ثلاث إذ بلغ عددهم أربعين رجلا وامرأة.

ج- طبقة الذين صلى من المسلمين إلى القبلتين الأولى بيت المقدس لمدة خمسة عشر شهراً. ثم إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة بعد تحويل القبلة إليها.

د- طبقة المسلمين الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى من أهل المدينة في السنة الثانية عشرة للبعثة وكانوا اثني عشر رجلاً. ثم أهل بيعة العقبة الثانية في السنة التي تليها وكانوا سبعين ونيفاً بينهم امرأتان.

هـ- طبقة من شهد بيعة الرضوان سنة ستٍ للهجرة وما أعقبها من صلح الحديبية الذي مهد لفتح مكة سنة ثمانٍ للهجرة.

و- طبقات أهل بدر ثم أهل أحد ثم أهل فتح مكة وأهل حنين وأهل غزوة تبوك، ممن لم

يعايشوا الطبقات السابقة.

ز- طبقة من أسلم من وفود القبائل في عام الوفود سنة تسع للهجرة وحسن إسلامهم.

وتأسيساً على ما تقدم نرى أن الصحابة طبقات ودرجات متفاوتة في منازلها. فهناك السابقون الذين طالت صحبتهم للنبي ﷺ وصاحبوه في حله وترحاله وغزواته كلها أو بعض منها. امتدت صحبتهم له لسنوات دعوته حتى قبض رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهناك من اكتفى من صحبته بنقل الحديث عنه قل أو كثر، ومنهم من قاتله ثم أسلم فقاتل معه في بعض غزواته. ومنهم ما دون ذلك بحيث اكتفى من صحبته ﷺ أن كان له شرف مشاهدته وموته على الإسلام، فاستحق بالعقل أن يكون الصحابة درجات في طبقاتهم إذ لا يعقل أن يكون صحابة رسول الله ﷺ في مرتبة واحدة.

ح- طبقات أوائل التابعين الذين تتلمذوا على الصحابة، وكان منهم عدد هائل من صفوة العلماء في الحديث والتفسير والفقه، ممكن كان لهم شرف بداية تدوين العديد من العلوم الشرعية.

ومن الدروس والحكم التي ترشد إليها الآية ١٠٠ من المقطع الخامس من سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

١٨ - وجوب تعاضد المسلمين وتناصرهم على اختلاف مذاهبهم في حب السابقين الأولين على حسن سيرتهم بما لهم من فضل على الإسلام والمسلمين.

١٩ - عدم جواز التحدث بحق بعضهم بالمرذول من قوادح القول من سبٍ وشتمٍ مظنة سوء الفهم لبعض أعمالهم.

٢٠ - إعمال العقل في التحرر من عقد الماضي وتأويلاته الخاطئة.

٢١ - دعوة المسلمين كافة ليحتكموا إلى لغة العقل والحوار لإعادة الوئام بينهم من نصرة

وتعاضد، لتظهر الأمة على عصبة رجل واحد ولغة واحدة، للحفاظ على هويتها ووجودها المهددين.

٢٢ – المناداة بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي بلغة التحقيق المنصف لأخذ العظة والاعتبار من سالف النوازل التي عصفت بالأمة وأذهبت عصبتها وشوكتها. لنبذ ما قد يظهر من الفتنة لدوافع سياسية مشبوهة من البعض تخدم مصالح أعداء الأمة.

٢٣ – التأكيد على أحقية الخلافة الراشدة على النحو الذي سارت عليه بعد وفاة الرسول ﷺ، ابتداءً من **أبي بكر الصديق فعمر بن الخطاب فعثمان بن عفان فعلي بن أبي طالب**. وليس هناك مصداقية لمن يزعم في تعدي أحدهم على الآخر في حق ولايته، ويا لقبح من لم يزل على عناده من إثارة فتنة أو ذم أو شتم في هذا الأمر.

٢٤ – إن السابقين الأولين هم على رأس المؤمنين إلى قيام الساعة الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، وهذا من باب إكرام الله لهم ولمنازلهم. فاستدل بقرينة إيمانهم وحسن عبادتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أنهم الفائزون ببيعتهم على السمع والطاعة لله ورسوله وبالجهاد في سبيل الله، فليستبشروا على ميثاقهم وعهدهم هذا، وبالقياس والمقابلة لعموم اللفظ فليستبشر معهم كل المؤمنين على إطلاق الزمان والمكان، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكان من صفاتهم أنهم يكثرون التوبة إلى الله مع ملازمتهم لها في جميع الظروف والأحوال. العابدون المتصفون بعبوديتهم لله عز جل القائمون بالمحافظة عليها. الحامدون على الدوام لربهم في السراء والضراء واليسر والعسر المعترفون بنعم الله عليهم بظاهرها وباطنها، المكثرون من الصلاة في مواقيتها الصابرون عليها بخشوعهم. الحافظون لحدود الله في تحليل وتحريم علماً عملاً، الحافظون لحدود الله بتعلمهم حدود ما أنزل الله ورسوله للعمل بالتكاليف الشرعية الواجبة، السائحون في سبيل الله التماساً للجهاد أو العلم النافع أو الكسب الحلال أو أي ضرب من سفر فيه قربة لله. وهذه الصفات بالكلية لا تتحقق إلا للمؤمن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

نستخلص مما سبق وجوب التأسي بأخلاق السابقين الأولين ومن تبعهم من المؤمنين بعموم صفاتهم المحمودة المشار إليها سابقاً، ليتحقق للمسلم حكم استخلاف الله تعالى له في الأرض ليمكن له ويجعله الوارث لها.

قراءة تحليلية شاملة في الدروس والعبر التي ترشد إليها قصة غزوة تبوك وما اشتملته من الأحكام الفقهية

أولاً: الدروس والعبر والنتائج:

١- هيأ الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في هذه الغزوة أعلى منازل الآخرة وأفضلها. بحيث لم تك أعمالهم تبلغها إلا بصبرهم على شدة ما يحيط بهم من بلاءٍ ومحنة. فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من خلال علمهم أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وهذا مقدر لهم في علم الله.

وفي ذلك درس لهم في تعلم الطمأنينة والسكينة المخصوصة بمعية الله عز وجل لهم، ليثبتوا على الحق مهما كانت الشدائد في مواجهة عدوهم. لعلمهم أن من حكمته سبحانه وتعالى أن لا يمكن أعداءه من عباده المؤمنين.

٢- عرف المؤمنون من خلال الغزوة أن لهم عدواً منهم وفيهم، يعيشون بين ظهرانيهم فكان ذلك بمنزلة التوطئة للتحرز منهم وعزلهم استعداداً لتصفيتهم. فعلى قدر إيمانهم تكون شدة محنتهم.

٣- تحذر الغزوة المؤمن عاقبة الفتنة والمعصية والفشل والتنازع وحب الدنيا، والتثاقل عن نصرة الله. وأن نصره سبحانه وتعالى منوط بطاعته والتضحية في سبيله. ففي الشدائد والمحن يزيد إظهار العبد من عبوديته لله عز وجل، فيزول عنه ما به من كبر وطغيان، وتزداد معرفته بنعم الله عليه فتستقيم أموره وتحسن عاقبته.

٤- تؤكد الغزوة على أن كل نعيم في الدنيا سوى الجنة حقير. كفتنة المال والأولاد والجاه والسلطان، لكونها آنية مؤقتة تنتهي بنهاية صاحبها من الدنيا. وكل عذاب ومشقة وعسر

وابتلاء في الدنيا في سبيل الله هين ويسير.

ففيه منجاة لصاحبه من النار وعاقبتة للمتقين نعيم الآخرة الأبدي، وفي ذلك إنذار وتحذير من سوء العاقبة لمن يعصي الله تعالى ويكفر به.

٥- إن سرعة استجابة رسول الله ﷺ للتحدي، الذي فرض عليه حين علم أن الروم في نيتهم حشد قواتهم، على أرض البلقاء من بلاد الشام لكسر شوكة المسلمين وإضعاف قوتهم. يدلل على حصافة رسول الله وبعد نظره في التعامل مع القوارع والنوازل من العاديات.

إذ أسرع بالإعداد للغزوة والسير إلى العدو، قبل أن يسمح له اكتمال قوته وفرض المعركة عليه، ففاجأهم بما لم يكن يتوقعونه في اختيار زمان المعركة ومكانها، على مراده هو، فأفقدهم عنصر المفاجأة توازنهم وأرهبهم، فانسحبوا دون قتال.

وتحرك النبي ﷺ هذا يدخل في باب الضربة الوقائية الاستباقية، كصورة من صور الهجوم الذي يدرس في الأكاديميات العسكرية في العالم في أيامنا هذه.

٦- تجسد في هذه الغزوة التحدي ورد الفعل الأقوى على مواجهة التحدي بالاستجابة له بقوة واقتدار. فأبعد عن الدولة الإسلامية الفتية صعاباً ومخاطر كانت تهدد كيانها ووجودها، فكفل لها البقاء والاستمرار بفضل الله تعالى أولاً ثم بفضل قوة المجتمع الداخلية من المؤمنين الذين التفوا حول دعوة النفير العام استجابة لله ورسوله.

مما مكنه ﷺ أن يوظف نجاح الغزوة في بسط الإسلام على الجزيرة العربية، ويزيد من قوته الداخلية باضطراد فأسس مرتكزات الحضارة العربية الإسلامية التي قامت في العهود اللاحقة. وكان الإسلام مضمون هذه الحضارة ومحتواها.

مما حمل الباحث الأمريكي(**مايكل هارث**) في كتابه (الخالدون المائة في التاريخ) أن يجعل الرسول ﷺ الترتيب الأول في كتابه هذا، مع تحفظنا عما ورد في هذا الكتاب من هناتٍ منها مساواة الأنبياء بغيرهم من مشاهير العالم منذ آدم عز وجل وحتى ١٩٧٣ سنة إصدار الكتاب.

فالأنبياء معصومون عن الخطأ وقد تأتت لهم النبوة بالاختيار الرباني لهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يجوز إدراجهم في كتاب واحد مع مشاهير العلماء والقادة.

كإسحاق نيوتن واينشتاين والإسكندر ونابليون وغيرهم، إذا علمنا أنهم بشرٌ غير معصومين عن شهوات الدنيا، خلاف الأنبياء الذين كرمهم الله بالنبوة لهداية البشرية من دياجير الظلام إلى عقيدة التوحيد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن (**التحدي والاستجابة**) التي طبقها الرسول ﷺ في غزوة تبوك، وافقت نظرية معاصرة للمؤرخ الإنكليزي (**آرنولد توينبي**) فسر فيها نشوء الحضارات البشرية أو عدمها.

وتقوم نظريته أن المجتمع الذي يستجيب للتحديات التي تفرض عليه وينتصر عليها يكون مؤهلاً للحضارة، أما إذا لم يستجب للتحدي أو كان التحدي على درجة من الشدة تفوق قوة المجتمع بحيث تجعله يستنزف كامل طاقته في محاولة الرد عليه دون جدوى، فإنه غير قادر ولا مؤهل لتشييد صرح حضارة باسمه، ويكون تابعاً لغيره يدور في فلكه عاجزاً عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية.

٧- أن ما وقع للمسلمين في غزوة تبوك من شدة وحاجة، فيها دعوة للإيمان بالقدر، الذي يجعل المؤمن يستشعر عظمة خالقه سبحانه، فيرضى بما يصيبه من خير أو شر.

فإن أصابته نعمة شكر الله تعالى، وإن كان غير ذلك صبر، مما يجعله مطمئناً بعيداً عن الجزع، موقناً بأن الأمر كله بيد الله تعالى قدره بعلمه وحكمته. فيكون إيمانه قوة باعثة له على العمل، لا مجال معها للتواكل والكسل والغفلة عن الأخذ بالأسباب. فينبعث في نفسه قوة العزم والثبات والشجاعة لعلمه أن الله معه، ومن كان في معية الله لا يضعفه ولا يحزنه مكر المنافقين، لإيمانه أنهم لن يوقعوا ضراً به إلا في حدود ما قدره الله تعالى له. فالنفع والضر بيده سبحانه وتعالى، فما على المؤمن إلا أن يأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى فينسحب عليه الحديث الشريف: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل

الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف). (١)

٨- ظهر في غزوة تبوك إكرام الله عز وجل نبيه ﷺ في أمرين هما:

أ- أنْ نصره بالرعب دون قتال، وكان هذا النصر مقدمة لفتوحات عظيمة خارج الجزيرة العربية، له نتائج طيبة وآثار عظيمة في تاريخ الإسلام، فأثر هذا النصر في نفوس أعدائهم فأضعفهم وأذلهم وزاد من هيبة المؤمنين في نظر أعدائهم من الروم والفرس.

ب- مغفرة الله عز وجل لرسوله ﷺ ، إذ لا سعادة أعظم من أن يغفر الله تعالى له ذنبه، وهذا ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وإن قيل هنا: ما معنى مغفرة ذنبه عز وجل لرسوله ﷺ مع أنه معصوم عن الذنوب؟

قيل في الإجابة: أن الرسول ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، يسير في جميع أموره على الطاعة والبرِّ. وهو بشرٌ قد يترك الأولى من الأعمال من باب الخطأ في الاجتهاد الدنيوي، فيعد ذلك في حقه ذنباً.

وهذا مكرور في القرآن ومن شواهده عبس وتولى، وعتاب الله عز وجل لرسوله ﷺ في أسرى غزوة بدر، ثم معاتبته في الإذن للمخلفين من الأعراب في غزوة تبوك، لأن النبي ﷺ أخذ بظاهر أقوالهم تاركاً سرائرهم إلى الله عز وجل. وهذه الأمور تسمى ذنوباً في حق الأنبياء غفرها الله تعالى لنبيه ﷺ .

٩- أكدت غزوة تبوك أن الصبر على الشدائد أصدق الامتحانات لكشف معادن الرجال وما استتر منها.

---

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم ٥٦.

وأبانت الغزوة أن النصر دون قتال بعد مسيرة شهر كان مفاجأة ربانية لهم على صدق صبرهم وجلدهم وحسن تضحياتهم بالمال والنفس. ولقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكتفي من جهادهم باستفراغ جهدهم في تحمل ما صاحبها من عسرة وشدة ومشاق طالت مراحلها المختلفة. [١]

وأول ما يسترعي الانتباه من أمر هذه الغزوة، ملاحظة الفرق بين طبيعتها وطبيعة الغزوات السابقة، التي كانت كلها دفاعية، اقتضت المسلمين أن يدافعوا عن وجودهم. أما هذه الغزوة فكانت هجومية أراد من خلالها رسول الله ﷺ ، مفاجأة الروم والقبائل العربية المتنصرة المتحالفة معهم بالإغارة عليهم، لتشتيت جموعهم فتضعف لديهم أسباب المقاومة تمهيداً لنشر الإسلام في ربوع بلاد الشام خارج حدود شبه الجزيرة العربية.

١٠- إن قراءة متعمقة بين يدي غزوات النبي ﷺ عامة وغزوة تبوك خاصة، وما تتطلبه من تحليل ومقارنة لنتائجها توصلنا إلى الحقيقة التالية:

إذا كانت غزوة **بدر** قد كشفت للمسلمين أن القلة لا تضر شيئاً أمام عدو أكثر عدداً منهم وعدة حال كونهم صابرين متقين. فإن غزوة **أحد** قد خرج منها المسلمون بحكمة وجوب التحرز من مزالق الفشل والهزيمة بالانصياع لأوامر النبي ﷺ وعدم مخالفته، ليكونوا على الدوام أشد حذراً ويقظة من أسباب الهزيمة والخذلان.

وإذا كان الدرس الذي تأتى لهم في غزوة **الأحزاب** استحباب الشورى والمشاورة استخراجاً للصواب والرأي القادح في التخطيط العسكري فكانت فكرة الخندق فإن عجبهم بأنفسهم واستخفافهم في عدوهم في غزوة **حنين** كان سبباً في نكستهم أول الأمر، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لولا كرم الله ولطفه عليهم لثبات النبي ﷺ وصحبه.

وأما الدرس الذي خرج منه المسلمون في غزوة **تبوك** قد جمع ما تقدم بالكلية من دروس

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٣٠١.

وعبر ودلالات، وجاوزها أنها الغزوة الوحيدة التي غلب عليها طابع النفاق، وما صاحبه من تثاقل وتكاسل وتخلف وشك في قدرة المسلمين على الروم لبعد الشُّقة وعسر سنتها وقسوتها عليهم. وقد شاءت حكمته تعالى أن تكون الغزوة في وقتها وسنتها وزمانها وظروفها وبُعدها الجغرافي، مقدرة بترتيب إلهي للحكمة والعظة والاعتبار من رب العالمين، لِيُعلِّمَ الأمة على مقارعة الشدائد بالصبر حتى لا يتوهم اليأس إذا عاين المؤمن شيئاً من المشقة، دفعاً له من الركون إلى اليأس مع الشدائد وفقدان الأمل مع شدة الحاجة، كمن يبتليه الله ببلاء ليكون سبباً في تطهيره وتزكيته ورفع درجاته.

والأمر بالجهاد في مثل هذه الظروف من الشدة هو امتحان رباني لاختيار المؤمن الحق من الكاذب ولهذا كثر النفاق. وفي هذا درس للأمة على تحدي المعوقات بالاستجابة لها ومواجهتها صيانة للإسلام والمسلمين.

١١- وفي غزوة **تبوك** دعوة إلى توطين النفس على مجاهدة مشاق القتال وأهواله بالصبر الذي يطوي الشدائد والمحن والمسافات، كما تؤكد الغزوة على أن النصر وإن كان من عند الله عز وجل، إلا أنه يوطئ له بمقدماتٍ وتوطئاتٍ تؤذن به وتدل عليه، وعلى رأسها أن ضمان نصر الله لأوليائه المؤمنين لا ينافي تعاطي الأسباب المادية الموجبة للنصر، وفي هذا دعوة للحرص على فهم قوانين النصر الربانية حتى نؤيد بنصره تعالى على اختلاف الأزمنة والعصور. وعلى خلفية هذا نقول:

ومما يؤسف له أن بعض الناس يظنون أن النصر على الأعداء يعزى لقوة العدد والعدة فقط، وآخرون يرون أن النصر لا يتحقق للمسلمين إلا بالدعاء دون الأخذ بالأسباب وهذا وهم مخالف للعقيدة والعقل.

فتراهم في النوازل يدعون الله لنصرهم ثم يتساءلون عن سبب عدم الاستجابة لدعائهم.

والصواب أن نصره تعالى لا يتحقق إلا بشرطين هما الاستقامة على منهج الله والتمسك

بشريعته، والأخذ بالأسباب المادية الموجبة للنصر بكل صورها وأشكالها وفنونها حسب ظروف كل عصر ومخرجات أسلحته وضروب اقتصاده، من تميز في الصناعة والزراعة والتجارة ونحوه. وهذا بالكلية من ضرورات الإعداد الذي أمرنا بها الله عز وجل لنصرته في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوى به على قتال العدو وجهاده بحسب الأزمنة والأمكنة.

١٢- تعد هذه الغزوة درساً في العقيدة وقانون الأسباب والمسببات، ومن واجب المسلمين أن يفيدوا من دروسها التربوية بالحرص على تهيئة الشباب على حب الجهاد، مع فهم قوانين النصر الروحية والأخذ بالأسباب المادية، حتى يؤيد الله الأمة بنصره. ففي الآية الكريمة السابقة حث صريح وأمر بالاستعداد لملاقاة العدو، فالحرب على مدار التاريخ جلل، تتوقف عليها مصائر الأمم. فهي جديرة بالتحضير والتجهيز والإعداد في مختلف نواحي العدد والقوة والعتاد، ودخول الحرب دون تجهيز وإعداد وتعبئة موارد وتبني سياسات واستراتيجيات حربية خاصة يسبب الفشل والهزيمة، وضياع الأمة وزوال مقدراتها وهيمنة العدو عليها.

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن قصة غزوة تبوك وتداعياتها قد غطى معظم مساحة السورة لأهميتها في تاريخ الدعوة الإسلامية إذ كان من نتائجها:

أ- غربلة المجتمع الإسلامي بتطهيره من النفاق وأهله بالقضاء على جيوبهم.

ب - ظهور المسلمين كقوة مرهوبة الجانب لأول مرة في تاريخهم، بسبب كسر شوكتهم للروم، وهي أكبر دولة في زمانها مما كان تمهيداً لأفول نجمهم. فنزعت عنهم القوة وخلعت على المسلمين قوة الشكيمة والرهبة.

ج - تحقيق نصر الله للمسلمين دون حرب وقتال كان بمنزلة تكريم إلهي لهم ومكافأة

على صدق صبرهم، لقول الرسول ﷺ : [**نُصِرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر**]. (١)

د- تأمين التخوم الشمالية للجزيرة العربية في حدودها مع بلاد الشام، من خلال عقد اتفاقيات مع زعماء القبائل العربية الخاضعة لنفوذ الروم، فصالحهم النبي ﷺ مقابل دفع الجزية فاستمالهم إليه.

هـ- كانت الغزوة توطئة لبداية الفتوحات الإسلامية خارج حدود شبه الجزيرة العربية، وكانت إيذاناً للقضاء على إمبراطوريتي الفرس والروم. مما أعاد تشكيل خريطة العالم من جديد لصالح المسلمين، إذ امتدت فتوحاتهم للصين شرقاً والأندلس غرباً.

ثانياً: بعض الأحكام الفقهية التي ترشد إليها غزوة تبوك:

أ- بيان أهمية الجهاد بالمال لقول الرسول ﷺ (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم). (٢)

ب- الجهاد في الإسلام يجمع بين الدفاع والهجوم ويتوقف ذلك حسب رؤية الإمام الحاكم ومصلحة الأمة، وما تقتضيه ظروف الزمان والمكان وقوة الدولة وقياسها مع قوة العدو وتحالفاته.

ج- التحذير من المنافقين والتنكيل بهم وبمن وراءهم ممن شايعهم، وتطهير الجيش من عناصرهم، وتحصين الجبهة الداخلية من شرورهم الهادف لإرباك الدولة وتفكيك قوتها بغية إيقاع الهزيمة بها خدمة للعدو، ويقابل فئة المنافقين اليوم ما اصطلح على تسميته بالطابور الخامس.

د- استنكار التطلع إلى الغنائم والتنازع عليها عند المشاركة في القتال كما فعل بعض المنافقين في الغزوة، وكما وقع للمسلمين في غزوة احد.

هـ- التأكيد على وحدة وتماسك الجيش المقاتل بحيث تجعل المجاهد لحظة لقاء العدو

(١) أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله في كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٨١٤ و٨١٥.

(٢) الترمذي ٣٧٠١ و٣٧٠٢، من حديث عبد الرحمن بن خباب وعبد الرحمن بن سمرة.

أقرب إلى ربه من ساعته التي تأتيه فيها سكرات الموت.

و- أن الإمام الحاكم بوصفه الوكيل عن الأمة إذا سمع بقصد عدوه له وفي جيشه قوة ومنعة، ليس من الحكمة أن يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم كما فعل رسول ﷺ في غزوة تبوك، عندما بلغه أن الروم قد جمعت له جموعاً ونزلت بالبلقاء من بلاد الشام. وهذا داخل في استحباب مباغتة العدو بالإغارة عليه للمصلحة الراجحة.[1]

ز- جواز القتال في الشهر الحرام للمصلحة الراجحة إذ كان خروجه ﷺ في غزوة تبوك في شهر رجب.[2]

ح- يلزم الشروع بالجهاد بعد أخذ أسبابه من تأهب واستعداد، وليس لأحدٍ حق الرجوع أو التخلف متى استنفر الإمام الجيش وأعلن النفير العام إلا بإذنه.[3]

ط- استحباب مشورة الإمام الحاكم رعيته وجيشه قبل الحرب، استخراجاً لوجه الصواب وسداد الرأي، استطابة لنفوسهم وأمناً لعقبهم وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ي- جواز طلب الإمام الحاكم الجزية من العدو ومصالحته إذا رأى المصلحة في ذلك.

ودليله أن النبي ﷺ لما بلغ تبوك وعسكر فيها أتاه صاحب (أَيْلَه) فصالحه وأعطاه الجزية وكذلك فعل مع أهل(جَرْبا) و(أَذْرُح).[4] وأن أهل العهد والذمة هؤلاء إذا أحدث أحد منهم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٥٥٨.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ٢١١ و ٥٥٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٥ . وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣١.

حدثاً فيه ضرر على الإسلام انتقض عهده في ماله ونفسه، [١]وتحقق انتساخ العهد بإعلان الحرابة.

ك- جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية بدون إنذار لموقفهم السلبي منها. وقد تحقق هذا في غزوتي مؤتة وتبوك، حيث أرسل الرسول ﷺ إلى ملوك الأمم المحيطة بالجزيرة العربية برقاع يدعوهم فيها إلى الإسلام ومنهم هرقل زعيم الروم، فأبى وامتنع. ومن هؤلاء أيضاً حاكم بصرى الشام الذي أرسل له رسول الله ﷺ **(الحارث بن عمير الأزدي)**[٢]* وفي طريق عودته تعرض له أحد العرب المتنصرين بالبلقاء من بلاد الشام فأوثقه وضرب عنقه، فاشتد غضبه ﷺ ومهد لذلك بغزوة مؤتة أولاً التي كانت تمهيدية استطلاعية لرصد مواطن القوة والضعف عند الروم. ثم أعقبها غزوة تبوك وكانت هجومية لتأديب الروم وفلج شكيمتهم إيذاناً لزوال دولتهم.

ل- كراهية أن يدخل المسلم ديار الأمم الغابرة التي أهلكهم الله بكفرهم إلا للعظة والاعتبار.

ودليله أنه ﷺ لما مر بديار **ثمود** في طريق تبوك سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: (لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم). [٣]

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين). [٤]

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٦٩. وللمزيد انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٥و٥٢٦.

(٢) * للصحابي الجليل مقام مشهور جنوب الأردن في محافظة **الطفيلة** في لواء **بصيرة**. والمكان غير بعيد عن مؤتة وتبوك، وإن كان للأولى أقرب.

(٣) أخرجه أحمد ٥٢٢٤و ٥٣٤٣ و٥٤٠٤ و ٥٤٤١ و٥٦٤٥ و ٥٧٠٥ و ٥٩٣٥ من حديث ابن عمر

(٤) أخرجه البخاري ٨/ ٢٨٨، ومسلم ٢٩٨٠.

وليس هذا فحسب بل أمرهم ﷺ (بإلقاء العجين وطرحه) كما نهاهم عن شرب الماء من آبار القوم). [(١)]

وحكمة هذا الدرس بيان خطورة ما قام به قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم لوط الوارد ذكرهم في الآية ٧٠ من سور التوبة. ليكون في ذلك عبرة للمنافقين وهم يرون أثار مصارع هذه الأقوام السابقة لعلهم يرتدون عن نفاقهم ليؤمنوا عن تبصرٍ وتعقل. وقد مضت سنته سبحانه وتعالى في هذه الأمم بإمهالهم ثم أخذهم بذنبهم فتأملوا كيف كانت عاقبة من كان قبلكم.

ولعل الحكمة تقتصر على خبر العبرة والاتعاظ من نهاية هذه الأقوام بالهلاك والاستئصال. وفي ذلك دعوة للنظر والتأمل في عاقبة مكر هذه الأقوام، وإن في آيات الإهلاك دلالة على قدرته سبحانه وتعالى.

واللافت للانتباه هنا أنه لم يرد ذكر هذه الأقوام للسرد التاريخي بل لأجل تحقيق أهداف تربوية دعوية، ومن لم يتفكر ويتعظ بمشاهد ما آلت إليه مصارعهم، فهو أعمى البصر والبصيرة والعلة فيه ومنه. وفيها ذم للمنافقين الذين تعمى بصائرهم عن التأمل فيمرون على آيات الله غافلين.

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يورد من أخبار الأقوام السابقة بالقدر الذي يخدم محور السور ومقاصدها وأهدافها.

م- التأكيد على تحريق وتدمير المسجد الذي كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين لنفث سمومهم، وبالكلية فإن هذا التدمير ينسحب على كل مكان هذا شأنه،

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٢٦٩ باب قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾، وأخرجه مسلم ٢٩٨١ في باب الزهد.

ولو بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، (١) كالحانات والخمارات والملاهي الليلية وبيوت الفسق ونحوه، وهذا من مسؤولية قاضي الحسبة المسؤول عن تطبيق أحكام الشريعة ومحاربة الفواحش والأعمال المنكرة، وقضاء الحسبة مفهومه الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. (٢)

ن- التأكيد على صدق النية في التوبة ودليله تخلف النفر الثلاثة من المسلمين عن الخروج إلى غزوة تبوك. وهم (**كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع**). وقد ارتكبوا بتخلفهم عن الجهاد إثماً عظيماً ندموا عليه أشد الندم.

فلما رجع النبي ﷺ قاطعهم وامتنع الناس عن الكلام معهم واستمروا في هذا العذاب النفسي أياماً طويلة، حتى أنزل الله تعالى عليهم توبته نجاة لهم من النار على شدة ندمهم وصدق توبتهم، وعلى رأس ما اشتملت عليه قصة الثلاثة الذين خلفوا من الحكم توفيق الله لهم فيما جاؤوا به من الصدق. (٣)

وفي نهي النبي ﷺ عن التحدث إلى هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين. أما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر. (٤)

وفي هذا دليل على بيان فضيلة الصدق وما يقود إليه من طاعة لله تعالى تدخل صاحبها الجنة وقبح الكذب الذي يدخل صاحبه النار. فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه: ٣/ ٥٧١.
(٢) للمزيد حول ولاية الحسبة انظر:ابن تيمية، الحسبة في الإسلام والمقدمة: لابن خلدون، الباب الثاني الفصل الحادي والثلاثون.
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٧٦.
(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٦.

فالسعادة دائرة مع الصدق والشقاوة دائرة مع الكذب ولا ينفع العبد إلا صدقه. وتأمل تكريره سبحانه وتعالى على الثلاثة الذين خلفوا توبته عليهم مرتين في الآية ١٨ من سورة التوبة. فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم وهو الذي وفقهم لفعلها. (١)

المقطع السادس ويمتد من الآية ١٢٨-١٢٩

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

القراءات: الآية ١٢٨

- قرأ **عبد الله بن قسيط المكي** (من أنْفَسِكم) بفتح الفاء من النفاسة. (٢) بمعنى من أشرفكم وأفضلكم. (٣)

المعنى الإجمالي للمقطع السادس

اختتمت سورة التوبة بهاتين الآيتين اللتين جاءتا بعد الأمر بالشد والغلظة، في التعامل مع الكفار وأهل الكتاب ومنافقي الأعراب في المدينة وما جاورها.

وأكدتا أن من مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أن أرسل في العرب رسولاً منهم، من أشرف قبائلهم نسباً وأعزهم جاهاً من جنسهم وبلغتهم، (٤)حريص على هدايتهم لخير الدنيا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٩٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١.

(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١.

(٤) الجامع لأحجام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، ومختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٨٠.

والآخرة.

والأجدر بالعرب النازل بهم هذا الخطاب أن يوقروا نبيهم ويلتفوا حوله لا معاداته ومخاصمته، وليس أدل على آثار رحمته فيهم ورفقه بهم معاتبة الله عز وجل له في سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]. بعد أن عزّ عليه عنت قومه له سخريةً وتكذيباً وعناداً ومكابرةً، وما قد يلقون من العذاب لكفرهم.

فقد أثارت هذه الآية أن ما يعانيه رسول الله ﷺ من ألم وحسرة، إنما تأتى له بفعل حرصه على إصلاح أمرهم وتصويب ما اعوج من شأنهم لعلهم يؤمنون على بصيرة.

وما حصل له ذلك إلا لأنه شديد الرأفة وشديد الرحمة على قومه لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم تحول الخطاب في الآية الأخيرة من السورة إلى النبي ﷺ للتسرية عن نفسه، أن يا محمد إن خذلك قومك وتولوا وأعرضوا عنك بعد هذه النعم التي منّ الله عليهم بها[١] فلا تحزن ولا تبتئس فإن رب العرش العظيم القادر على كل شيء، ناصرك عليهم، حتى تكون كلمة الإسلام هي العليا عليهم جميعاً وكافيك شر مكرهم وكيدهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هاتين الآيتين من أواخر الآيات عهداً بالنزول حسب رواية أبي بن كعب،[٢] بمعنى من أواخر عهد السماء بالأرض، حيث اكتملت الرسالة وقبض النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وبموته انقطع وحي السماء عن الأرض.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٧٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٩٠.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٨٧، تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٧٥.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع السادس من سورة التوبة

١. لم تكن رسالة الإسلام يختص بها جيلٌ من الناس دون آخر، أو قوم دون قوم شأن الرسالات التي تقدمها، بل كانت رسالة عامة للناس جميعاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحكمته أن الإسلام لم يقتصر على العرب الذين نزل فيهم، وإنما كان عاماً للبشرية، فقد أمر الله عز وجل رسوله أن يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بغض النظر عن جنسهم، ولم تشأ إرادته سبحانه وتعالى أن يقول قل يا أيها العرب إني رسول الله إليكم، وهذا ما يؤكد عالمية الرسالة الإسلامية وعدم اقتصارها على قوم، وإن نزلت في العرب فهذا مصدر فخر وعزة لهم، حيث شاءت حكمته سبحانه تعالى أن يشرق نوره على الأرض من جديد من مكة المكرمة حاضرة المسلمين إلى قيام الساعة.

وأن يكون العرب هم طلائع حملة مشعل الفتوحات الإسلامية، مما طبعهم بطابع العالمية من منظور إسلامي، ومن واجبهم إعادة حمل هذه الرسالة وتبليغها إلى العالم من جديد. وهذا ما يقتضيه الشارع منهم.

٢. ختم الله عز وجل الرسالات السماوية برسالة الإسلام، فبعث محمداً ﷺ رسولاً هادياً للبشرية بالرأفة والرحمة والمحبة والإخاء والمساواة والعدل، ليعلم الناس الكتاب والحكمة. وغير بذلك وجه التاريخ لأنه كان سبباً في هدايتهم وإسباغ نعم الله عليهم، ومن أدبيات الإيمان برسالته ﷺ وجوب قبول كل ما يرد عنه ﷺ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ ﴾ [االمائدة: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

وهذا بالكلية من أدلة حجية السنة في القرآن الكريم، مما يوجب على المسلم الاحتجاج بها والتأسي بصاحبها حيث أمر الله بطاعته وطاعة رسوله.

وحول مكانة النبي ﷺ يعلق **الزمخشري**: (ومن حكمته سبحانه وتعالى أن جعل اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى، وجعل الإيمان به سبحانه وتعالى قرينته الإيمان برسوله ﷺ لاشتماله على الشهادة والأذان والإقامة وغيرها، كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه، حيث انطوى تحت الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول ﷺ). [١]

كما ويعلق **صاحب المنار** حول اقتران اسم النبي ﷺ باسم ربه ما افتتحت السورة به من قوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وعطف عليها قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ فقرن اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها. [٢]

ويلاحظ في مناسبة ختم السورة في قوله تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بصفتين من صفاته وسماه باسمين من أسمائه الحسنى. [٣]

وهذا الترابط يدل على وحدة تكامل آيات سورة التوبة في هدفها ومقاصدها، وآياتها تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم لتخدم محورها.

٣. إن في قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ دليل على أنه ليس في العرب **المستعربة**، وهم **العدنانيون** الذين انحدر نسبهم من زواج إسماعيل بن إبراهيم من قبيلة **جُرهم** من العرب **العاربة**، إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريها ربيعيها ويمانيها، بمعنى أن نسب النبي ﷺ متشعب في جميع قبائل العرب وبطونها وأفخاذها وعشائرها بوجه عام، وإن كان نسبه إلى قريش من بني هاشم على الخصوص.

---

(١) الكشاف، للزمخشري:٢/ ٢٤٣.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ١٠٤.

(٣) المصدر السابق: ١٢/ ٨٩.

ومن أنفسكم صفة للجنس العربي في منبت الرسول ﷺ وأصوله ونسبه وطهارة قرشيته. من صميم العرب وخالصها مما يقتضي مدحاً لنسبه ﷺ لأنه نفيس في قومه،[1] وفي إظهاره للرحمة والرأفة فيهم حث لهم على التراحم وشفقة بعضهم على بعض من أجل تعليمهم على دفع المكروه وإزالة الضرر عن بعضهم.

٤. إن في الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة إشعار بإيداع الرسالة في العرب، وإعذار لهم بتنبيههم إلى المبادرة باغتنام فرص الإيمان بها، قبل فوات الأوان والنبي بين أظهرهم. ويرى ابن عاشور في تفسيره أن في الآيتين إيماء إلى اقتراب أجل النبي ﷺ، فحملت دعوة التعجيل في إيمان القوم بنبيهم، الذي اصطفاه الله من بينهم ورباه وعلمه ليتمكن من حمل الرسالة وتبليغها لهم خاصة وللعالم عامة.[2]

٥. في قوله تعالى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فسرت عند بعض المتأولين، أن قرشية النبي ﷺ وطهارة شرفه في قومه، قد حملت المسلمين في صدر الإسلام على الالتزام باحترام بند قرشية الخلافة، كأحد المرتكزات الأساسية في النظام السياسي في الإسلام.

وعلى خلفية هذا حصلت الخلافة لأبي بكر ثم إلى عمر بن الخطاب ثم إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي بن أبي طالب وكلهم من قريش مع اختلاف بطونهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قرشية الخلافة شرط مختلف فيه عند المسلمين. فالجمهور يرون جواز أن يكون الحاكم قرشياً ودليلهم ما روى عن النبي ﷺ [الأئمة من قريش إذا استرحموا رحموا، وإذا عاهدوا وفوا وإذا حكموا عدلوا].[3] ومما يعضده إجماع الصحابة على أن يكون الحكم لقريش في سقيفة بني ساعدة عند مناقشة الأمر بين المهاجرين والأنصار. ويرى الجمهور

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٨٩، وإعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٧٤.

(٣) رواه أحمد: رقم الحديث١٨٩٤١.

أيضاً جواز الخلافة في غير قريش للضرورة. في حين ترى **الشيعة الإمامية** الخلافة في قريش وحصرها في آل البيت. وترى **المعتزلة** جواز الخلافة في غير قريش.[1] **والرأي الراجح** أن الخلافة حق متاح لأي مسلم بصرف النظر عن قبيلته وجنسه متى استوفى الشروط الواجب توافرها في الخليفة. شريطة ألا يفرض نفسه على الأمة وإنما يختار من بين مجموعة من الأشخاص، تمر في ثلاث مراحل هي الترشيح والاختيار والبيعة برضى الرعية واختيارها.

ولا بأس من تحديد مدة ولايته لأجل، وحكمته عدم قبول ولاية الحاكم المطلقة حتى الموت، تجنباً للتسلط والجبروت ومصادرة الحريات واختزال الوطن والأمة في شخصه. لأجل أن تكون سيرته في رعيته سيرة عدل ومناصحة وحب متبادل، لا سيرة رعب وإرهاب. وشواهد هذا مكرور على امتداد عهود الخلافة بدءاً من الأمويين إلى أيامنا هذه، مما اقتضى المناداة بالتصويب على قاعدة من الشورى.

الخاتمة

تناولت سورة التوبة ستة مقاطع، وعرضت لنا جانباً من سلوك المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، مع بيان آليات التعامل معهم سلماً وحرباً وحرمة الأشهر الحرم. ثم عطفت إلى غزوتي حنين وتبوك وما بهما من دروس وعبر، وعقدت مقارنة بين صفات المنافقين وصفات المؤمنين.

وقررت تأكيد وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمناً لما بذلوا.

لقد اشتملت هذه المقاطع على شريف المقاصد ومسالك الحكمة والاعتبار والتدبر، وانتظم فيها فصول في الأخلاق والتربية والآداب والدعوة مؤطرة بالكلية بمرجعيات الثبات على المبدأ والصبر على الشدائد في الضراء والسراء.

---

(١) الإسلام، سعيد حوى: ٢/ ١٥١.

إن جملة القول في آيات مقاطع السورة، تقتضي الإشارة إلى ترابط كل آية فيها مع الآية الأخرى في المقطع نفسه، ثم مع المقطع الذي يليه حتى خاتمة السورة. رغم اختصاص كل مقطع بقضية معينة، وما يذكر في كل مقطع يتلاءم مع سياق المقاطع الأخرى.

وهذا دليل على وحدة الهدف التي سيقت من أجله، فالآيات تخدم سياق بعضها بعضاً كما يتبدى بوضوح علاقة السورة بما قبلها من السور تحديداً الأنفال، فكلتا السورتين مدنية والأنفال تمهيداً لسورة التوبة ومكملة لها، لما ورد فيها من أحكام القتال والاستعداد لملاقاة العدو في شتى المواقف والظروف، وأحكام غنائم الحرب وذكر قصة غزوة بدر مع وجوب ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

كما أن علاقة سورة التوبة بسورة يونس التي تليها واضحة، رغم أن الأخيرة مكية إذ ابتدأت بالإشارة إلى مكانة القرآن الكريم، وما يقوله المشركون في شأن النبي ﷺ من استهزاء، وفيها من التهديد الشديد بعذاب الله للمشركين لفساد عقيدتهم وفساد طويتهم التي جبلوا عليها ظاهراً وباطناً.

وحكمة ذلك أن سورة التوبة بهذا الترتيب أراد لها سبحانه وتعالى، المزاوجة بين خصائص القرآن المدني وضوابطه الموضوعية التي وردت فيها وفي سورة الأنفال التي تقدمتها، وبين ضوابط وخصائص القرآن المكي في السورة التي تليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن سورة التوبة وإن كانت منفصلة عن سورة يونس التي تليها إلا أنها متشابهة معها في هدفها وغايتها. فجاءت شاملة للحث على الإيمان والتمسك بالعقيدة والدعوة إلى الله وقتال المشركين والمنافقين، وأخبرت سورة التوبة أن الناس أربعة أصناف مؤمنون وكافرون ومنافقون وأهل ذمة، وأنبأت أن الله سبحانه وتعالى أعد لكل فئة منهم ما يناسبها من نعيم أو عذاب.

وعنيت بالتنبيه إلى الاعتبار بما أصاب السابقين من الأقوام الذين عصوا رسلهم، وكان ذلك في منزلة الترغيب والترهيب وهذا مناسب لجو السورة وهدفها.

ولم تترك السورة طبقة من فئات المجتمع إلا ذكرته بالتوبة إن أرادوها لأنفسهم، فشملت توبة الله رسوله ﷺ وصحابته والكفار والمنافقين، فهذه السورة ينظر على أنها من أكثر سور القرآن بشارة في فتح باب الأمل برحمة الله وتوبته على الرغم من ظاهر شدتها. فجاءت التوبة عامة: توبة من الكفر ومن النفاق، وتوبة من التخاذل والتثاقل عن الجهاد، وتوبة من الشح والبخل، وتوبة من مخالفة أمر الله في الذنوب والمعاصي، وتوبة من حب الدنيا وشهواتها وتوبة من الاغترار بالمال والولد، وتوبة من خيانة الأمانة. فمن جاءه تائباً طائعاً فإن الله تعالى سيؤتيه أجراً عظيماً ويتجاوز عن ذنوبه. وحكمة ذلك عدم التيئيس من رحمة الله تعالى بفتح باب التوبة للعائدين إليه سبحانه مهما عظمت ذنوبهم.

واشتملت السورة على طائفة كبيرة من الأحكام الفقهية ذكرت في سياق مقاطعها. وحفلت على العديد من الآيات التي استهلت بالاستفهام للإنكار والتوبيخ المقترنين بالتعجب من سفه وطيش وعناد الكفار وأهل الكتاب والمنافقين. وعبرت بعض الآيات عن الماضي بصيغ الاستقبال لتخدم محور السورة، وتعلل لها وتدلل وكرر بعضها ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت.

وجو السورة ومناسبتها يتحدث عن أسباب النصر الربانية، مشيرة لفقه الجهاد بأدبيات عزَّ نظيرها في تاريخ البشرية سلماً وحرباً. وعند مقارنتها بالقانون الدولي في الحرب يتأكد لنا كيف أحاط الإسلام القتال بسياج من الرحمة والتسامح لم تبلغها مدنية القرن الحادي والعشرين. وجعل ذلك من البر الذي هو علامة الإيمان، ومما يجب لفت النظر إليه أن الإسلام يطلق على الحرب الجهاد والقتال، ويعضده قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة/ ٢٤٤. وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾الحج/ ٧٨.

كما حذرت السورة من التخاذل عن الاستجابة لنداء النفير العام والجهاد في سبيل الله تعالى، وعد ذلك من كبائر الذنوب ومن السبع الموبقات. وتميزت السورة بتنوع أساليبها ترغيباً في الجهاد وتشويقاً إليه.

ودللت أن من بواعث النصر على أعداء الله الثبات عند لقاء العدو. ومصاحبة ذكر الله في الحرب وطاعة ولي الأمر وعدم التنازع والصبر على الشدائد، فالصبر من أعظم أسباب النصر.

واختتمت السورة بإبراز علو مكانة النبي ﷺ وعناية الله تعالى له بإنزال سكينته عليه وتأييده بنصره.

وقد انتظم في السورة طائفة من الدروس التربوية والدعوية والجهادية وردت في سياق مقاطعها.

سورة يونس عليه السلام

بين يدي السورة

أ - اسمها:

سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة سورة يونس، لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس، فهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، وعفا الله عنهم لما آمنوا وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ آية: ٩٩، وتلك الخصوصية كرامة ليونس عليه السلام، وليس فيها ذكر ليونس في غير هذا الموضع، وقد ذكر يونس عليه السلام في سورة الصافات بأوسع مما في هذه السورة، ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

يقول ابن عاشور: «والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ (ألر) ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم عوضاً أن يقال: ألر الأولى وألر الثانية، وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها[1].

ب- مكيتها أو مدنيتها

هي مكية في قول الجمهور، وعن ابن عباس رضي الله عنهما روايتان، أخرج ابن مردويه من طريق العوفي عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه أنها مكية، وأخرج من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عنه أنها مدنية، ذكره السيوطي في الإتقان، وهو مخالف للروايات الكثيرة، والمعول عليه عند الجمهور الرواية الأولى، وفي القرطبي عن ابن عباس أن ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ إلى آخرهن، وجزم بذلك القمي والنيسابوري، وقال

---

(١) التحرير والتنوير م٦، ١١/ ٧٧.

السيوطي في الإتقان، وابن عطية عن مقاتل: إلا آيتين مدنيتين هما:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الآيتان:٩٤-٩٥، وفيه عن الكلبي إلاّ آية واحدة نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ آية:٤٠، نزلت في شأن اليهود، وقيل إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني.

ورأي أكثر المفسرين أنها مكية كلها، يقول ابن عاشور: «وأحسب أن هذه الأقوال ناشئة عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلا بالمدينة، فإن كان كذلك فظن هؤلاء مخطئ[1]»، وقال رشيد رضا: «إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية، وهو ما لم تثبت به رواية..»[2] وهذا ما يؤيده سيد قطب فيقول: «وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة... حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة، وهذا ما ينفي الروايات التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦) مدنية، فهذه الآيات متشابكة مع السياق، وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلاً!»[3]

ج- عدد آياتها وترتيبها

عدد آياتها مائة وتسع آيات في عدّ مصاحف أكثر الأمصار، ومائة وعشر في عدّ مصحف أهل الشام، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور، والعاشرة في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة بني إسرائيل (الإسراء) وقبل سورة هود، ويظن أنها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة[4]، وهي أولى المئين إن جعلنا براءة مع الأنفال من الطوال، وإلا فبراءة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٧٨.

(٢) انظر تفسير المنار، ١١/ ١٤١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، م٣، ١١/ ١٧٥٢.

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١١/ ٧٨.

أولاهن.[1]

د- ما ورد في فضلها

أخرج ابن مردويه عن أنس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل»[2].

هـ - محور السورة

تعنى السورة بإثبات أصول العقيدة، من الإيمان بالله وبقية الأركان وأهمها الإيمان بالكتب وفي مقدمتها القرآن الكريم، فالسورة كلها تتحدث عن قضايا العقيدة، وكأنها لحمة واحدة يصعب تقسيمها بشكل متميز[3]، فهي تواجه ابتداءً موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى الرسول ﷺ ، ومن القرآن بالتبعية، كما تواجه طلبهم خارقة مادية غير القرآن واستعجالهم بالعذاب الذي يستحقونه، فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن، وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تحداهم به، وأن الآيات في يد الله ومشيئته..

ويرى سيد قطب أن القضية الأساسية في هذه السورة هي معالجة العقيدة في قضية الإلوهية والعبودية وبيان حقيقتها ومقتضياتها في حياة الناس، وسائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة جاءت بصدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى.. وتلك هي قضية القرآن كله والمكي بصفة خاصة،.. فحياة الناس لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وواقعهم..

١ - المناسبات في السورة

١- المناسبة بين مطلع السورة وخاتمة السورة السابقة (براءة).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ٣/ ٤١١.

(٢) الرائيات: السورة المبدوءة بـ﴿ الٓر ﴾ والطواسين: السورة المبدوءة بـ﴿ طسٓمٓ ﴾، أو ﴿ طسٓ ﴾.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ١١/ ١٧٥٣.

مطلع سورة يونس يشترك مع خاتمة سورة التوبة في الحديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين، وتوجيه الأنظار إلى الرسالة التي فضله الله بها على العالمين، ففي خاتمة التوبة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]، وفي مطلع سورة يونس ؈:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ آية:٢، فقد ختمت براءة بذكر الرسول وابتدأت يونس به.

ويرى البقاعي علاقة المناسبة بين مطلع سورة يونس وما قبلها في سور الأعراف والأنفال وبراءة حيث يقول: «لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومصارع الماضين... في سورتي الأنفال وبراءة وختم ذلك بأن سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له.. وأن الرسول ﷺ بذلك قد حوى من الأوصاف والحلى والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه و.. والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً لأن ربه كافيه... أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم به سورة التوبة، وزاده وصف الحكمة، وأشار بأداة البعد إلى أن رتبته فيها بعيدة المنال..»(١).

وفي رأي السيوطي الذي يجعل ترتيبها بعد سورة الأعراف فيقول: «إن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف، وأنه سبحانه قال فيها: ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾، فقدم الإنذار وعممه، وأخر البشارة وخصصها، وقال في مطلع الأعراف:﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: ٢] فخص الذكرى وأخرها وقدم الإنذار وحذف مفعوله ليعم»(٢)، ثم ذكر جملة أمور متشابهة بين يونس والأعراف(٣)

ويرى سيد قطب علاقتها بسورة الإسراء في ترتيب النزول، حيث جاءت بعد أن حمي

(١) نظم الدرر: البقاعي ٣/ ٤١١-٤١٢.

(٢) تناسب الدرر ص٩٣.

(٣) وجوه النشابه بينهما في اشتمالها على قصص الأنبياء، وأنهما مكيتان، وعدوا يونس من السبع الطوال لقصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة. راجع: تناسب الدرر ص ٨٩.

الجدل حول صدق الوحي في حادثة الإسراء وحول هذا القرآن وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم، وجاء في مطلع سورة يونس تأكيد صدق الوحي في نزوله على الرسول ﷺ وإنكار عجبهم من نزوله على الرسول

٢- المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة يرتبط بمحورها في أن النبي يونس كان قد أنذر قومه كبقية الأنبياء، وطلب منهم الإيمان بأصول العقائد، ففي السورة إثبات أن القرآن من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دال على أنه واحد في ملكه لا شريك له في أمره، ودليله قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخائل كشف عنهم، فدل قطعا على أن الآتي به هو الله الذي آمنوا به... ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم إنما هو منه عند الله لكفرهم لما اتسق من ذلك طردا بأحوال سائر الأمم.. [١]

٣- المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها

هناك ترابط بين في سياق السورة يوحد مطلعها وختامها، ففي المطلع﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ آية:٢، وفي الختام:﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ آية:١٠٩، فكلاهما فيه الحديث عن قضية الوحي، فالمطلع هو الختام، كما أنه هو الموضوع المتصل بينهما..، وما تتضمنه الآيتان من التسلية للرسول ﷺ ووعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

هناك بعض التناسب في مضمون كل من سورتي براءة ويونس، منها: أن في براءة بياناً لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[التوبة: ٨٦]

---

(١) المصدر السابق ص٤١١.

وقريب من هذا القول في آخر سورة براءة:﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[التوبة: ١٢٤]، أما ما ورد في سورة يونس فبيان لما يقوله الكفار في القرآن:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ آية:٣٨، ومثل ذلك قولهم الذي حكاه القرآن: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ آية:١٥، وأيضاً في الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة والتذكر إذا أصابهم البلاء في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٦]، وفي يونس ذم لمن يصيبه البلاء فيرعوي ثم يعود وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾آية:١٢، وقوله أيضاً:﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾آية: ٢٢ -٢٣، وفي التوبة براءة الرسول من المشركين مع الأمر بقتالهم، وفي يونس براءته من عملهم دون أمر بقتال، بل بالإعراض وتخلية السبيل وهذا نوع من المناسبة وذلك في قوله:﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾آية:٤١.[1]

٥- **المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع البعض الآخر** سيأتي الحديث عنها في بداية كل مقطع.

٦- **المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها** سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع.

(١) انظر: روح المعاني، ٧/ ٨٤-٨٥.

المقطع الأول

إنكار موقف المشركين من الوحي

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢ ﴾ [يونس: ١-٢].

التفسير الإجمالي

بدأت السورة بـ ﴿ الٓر ﴾ وهذه الحروف وأمثالها مما استفتحت به بعض سور القرآن الكريم، ذكر لها العلماء أقوالاً كثيرة تدل في مجملها على ثراء القرآن كما وصفه الرسول ﷺ بأنه لا تنقضي عجائبه مما دعا بعض المفسرين للقول أنها من أسرار القرآن التي استأثر الله بعلمها، فهي من المتشابه الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، وقيل في الحكمة من مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها لأجل العناية بفهمه حتى لا يفوته شيء مما يسمع، وعلى هذا فهي من قبيل حروف التنبيه التي تدخل على اسم الإشارة نحو (ألا) و(ها).

وأرجح هذه الأقوال أنها ذكرت لبيان إعجاز القرآن الكريم، « فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آي الكتاب الحكيم الذي ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول ﷺ، وهذه الحروف في متناول أيديهم ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها مثل آيات الكتاب - كما يتحداهم في هذه السورة - ولا يقودهم إلى هذا التدبر، وإدراك أن الوحي هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول.. [(١)]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٧٥٩، وانظر الأقوال الأخرى في تفسير الحروف المقطعة في كتاب الاتقان للسيوطي

ويعود اسم الإشارة في قوله ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ .. ﴾ « للإشارة إلى الآيات الموجودة في سورة يونس، وهي تستعمل للإشارة إلى البعيد، والتبعيد هنا للتعظيم فتكون تلك بمعنى هذه آيات[١]، وقد يكون المراد منه جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان الناس من المؤمنين وغيرهم، فكأنها منظورة مشاهدة، فصحت الإشارة إليها... واسم الإشارة يفسر المقصود منه خبره وهو ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢].

ووصف الكتاب - وهو القرآن - بالحكيم لأن الحكمة ظاهرة في كل آيات القرآن والإعجاز حاصل بكل سورة فيه لأنه اشتمل على الحقائق السامية والهدي إلى الحق.. فهو حكيم لأنه يخاطب البشر بما يناسبهم ويذكر حقائق نجد مصداقيتها في كل جيل، وينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في الأنفس والآفاق، وفي النظر إلى قصص الأولين رسلاً وأنبياء وغيرهم.

والحكيم بمعنى الحاكم (فعيل بمعنى فاعل) فهو حاكم بالحلال والحرام،، وحاكم بين الناس بالحق، وبمعنى المحكوم فيه أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه فهو فعيل بمعنى المفعول.[٣]، وإما بمعنى المحكم كما قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود: ١، وكذلك بمعنى ذي الحكمة لاشتماله على الحكم والحقائق العالية، إذ الحكمة هي إصابة الحق بالقول والعمل، وإما أن يكون وصف لمنزل الكتاب « لأن الحكيم الذي يضع الشيء موضعه الدقيق بحكمه ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد..»[٤]

ثم ينكر الله على أهل قريش تعجبهم من الوحي المنزل على محمد ﷺ ورده، فقد أثار

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٢١.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، م٦، ١١/ ٨٠، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ وقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ قال الزمخشري في الكشاف: تصور فراقاً بينهما سيقع قريباً فأشار إليه بهذا»

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٠.

(٤) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٤٧، وانظر: التحرير والتنوير ٦/ ٨٢.

الوحي تعجب المشركين من العرب، فاستهل تعالى السورة برد هذا التعجب بهمزة الاستفهام في (أكان) لإنكار تعجبهم وتوبيخ لهم عليه مع التعجب منه..

وهذه هي سنة الأمم في مواجهة الرسل، ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عمن سبقهم قولهم:﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾؟ و﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ !، وكأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم، ولذلك قال كل من صالح وهود عليهما السلام﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾!

قال ابن عباس: «لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو في من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ ».

وهذا التوبيخ لأنه ليس في الإيحاء إلى رجل منهم (من جنسهم) ما يقتضي العجب، فلو أرسل الله ملكاً لأرسله إليهم بهيئة رجل، ليسهل عليهم التعامل والتعاطي معه، والتلقي منه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]، وقال أيضاً: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٥].

والعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية الشيء على خلاف العادة، ولم يكن إرسال سيدنا محمد ﷺ أمراً جديداً على خلاف العادة. [١] فقد أرسل الله تعالى كثيراً من الرسل قبله، وهو ﷺ خاتمهم،﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩]، فالقرآن ينكر هذا العجب، بعجب من عجبهم « لأنه يدل على أن بصيرتهم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يستقبل الرسول بالعجب...»[٢] .

---

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، عبد الحميد طهماز، ص ٢٢.

(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٥٢

فالآية جاءت لتصحيح المفاهيم والتصورات المغلوطة التي أدت إلى إنكار الوحي وهو عدم إدراكهم لقيمة الإنسان، وعدم إدراك الناس قيمة أنفسهم فيستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به عن طريق الوحي، غير مدركين لتكريم هذا المخلوق ومنها أهليته لحمل الرسالة، وهو سؤال لا يحق لأحد فالله أعلم حيث يجعل رسالته.. [1].

وتبين الأية أن الله أوحى لرسوله لإنذار الناس بعاقبة المخالفة وتبشير المؤمنين بعاقبة الطاعة والمتضمن بيان التكاليف الواجبة الإتباع، والنواهي الواجبة الاجتناب، والإنذار للناس جميعاً لأن كل الناس في حاجة للتبليغ والإنذار، ولكن التبشير للذين آمنوا يعدهم بالثبات والطمأنينة والاستقرار المستوحاة من قوله تعالى « لَهُمْ قَدَمَ[2] صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ»، فهي منزلة صدق، وقيل أن معناها: قدم خير، ثابتة راسخة لا تتزعزع، وهي سابقة في الفضل أهلتهم لأن يكونوا موضع البشارة لأن الصدق من أهم خصال المؤمن، ولا يمكن أن تنفصل عن الإيمان[3]، وحينما سئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا. [4]

وقد أتى القرآن بكلمة الصدق في مواضع كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠]، و: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٥٩-١٧٦٠.

(٢) القدم ما يطأ الأرض من الرجل، وهو آلة السعي إلى الحركة، وقد جاء استعمالها في القرآن كناية عن معاني فقد يعبر عنها - كمجاز مرسل - للمآثر والمكارم التي يقدمها أهل الخير كما في الآية التي نحن بصددها في السورة، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال: ١١، لبث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ الرحمن: ٤١، كناية عن شدة العذاب.

(٣) انظر تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٧٠

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب ما جاء فء الصدق والكذب، (١٧٩٥) ٢/ ٩٩٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨١٢) ٤/ ٢٠٧.

صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٥].

فكلمة الصدق دائرة « قدم صدق» و«مقعد صدق» و«مدخل» و«مخرج صدق» لأن أمور الحياة وفضائلها وخيراتها قائمة على كلمة الصدق.

ولما أنذر رسول الله ﷺ وبشر كما جاء في القرآن ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ إمعاناً في التكذيب، فقولهم للوحي سحر لأن ما ينطق به معجز، وكان الأولى أن يتدبروا ما يقول فيعرفوا أنه وحي معجز، وقد يكون قولهم هذا دفعاً للحق وعدم قبولهم من قبيل المكابرة والجحود، شأنهم شأن الأقوام في مواجهة المعجزات بنسبتها إلى السحر. وقولهم هذا ينبئ عن بلوغ التعجب من دعوى الوحي والرسالة من نفوسهم مزيد الإحالة والتكذيب، حتى قالوا عنه «لسحر مبين» أي كلام سحر ظاهر واضح، أو «لساحر مبين» تكذيباً بكونه من عند الله.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول

١ - القرآن كتاب سماوي محكم لأنه من الخالق الذي يعلم ما يصلح الناس في أمور دينهم ودنياهم.

٢ - تقرير عقيدة الوحي، وهي جزء من الإيمان بالغيب.

٣ - إثبات نبوة محمد ﷺ، وإرساله نذيراً للناس كافة، وبيان حكمة الله تعالى في الإيحاء إلى رجل من البشر يؤدي رسالة الله سبحانه وتعالى، ورجل منهم - من القوم - يعرفهم ويعرفونه - يأخذون منه بلا تكلف ولا جفوة، وهو أمر منطقي ليس محل تعجب واستغراب، بل موافق للحكمة والعقل.

٤ - تقرير تكريم الله للإنسان من خلال الوحي لمن اصطفاهم وتكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته.

٥ - إن مدار الاصطفاء هو إحراز الفضائل « وليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير

الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعز من كون النبي المصطفى هو الأهل الأكفأ الأجدر بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس»(١) والرسول محمد ﷺ نال القدح المعلى في كل ذلك.

٦ - بيان مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير، الإنذار للعصاة والتبشير للمؤمنين، وقيل الإنذار عام لكل الناس ليتجنبوا ما يقودهم إلى النار، ولكن البشارة خاصة لمن آمن فقط، لأن الإنذار لون من التخلية من العيوب، قبل التحلية بالكمال. (٢)

٧ - سنة الأقوام في تكذيب الرسل، ففي قوله « أكان للناس عجب..» فالناس مطلق والتعبير بـ «كان» لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم لأن أصل اللام تفيد الملك.

٨ - أهمية الصدق في الأمور كلها، فهو جماع الخير وعليه تدور الأعمال النافعة، ففي عبارة «قدم صدق» دليل على ما يضادها، في السبق بالكذب الذي هو جماع الشر.

٩ - ثبوت إعجاز القرآن الكريم، فوصفه بالسحر من قبل الكفار لعدم تمكنهم من معارضته مع الإعجاب به لكماله، ولكن المكابرة والمهارة جعلتهم يصفون المعجزة سحرا.

علاقة المقطع بمحور السورة

المقطع في نفي العجب عن إرسال الرسول ﷺ والوحي إليه، أي في تقرير أن الرسول حق والقرآن حق وهو ضمن محور السورة في إثبات العقائد.

علاقة المقطع بما سبقه

لما كان هذا المقطع الأول، فما سبقه هو آخر سورة التوبة، وقد أشرنا في المقدمة - بين يدي السورة - إلى علاقة مطلع السورة بخاتمة ما قبلها وهو أن كلاهما يتحدث عن الرسول ﷺ .

(١) التفسير المنير، ١١/ ١٠١.

(٢) انظر تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٦٣.

المقطع الثاني

تفرد الله بالخلق، وإثبات البعث والجزاء، ودلالات القدرة الإلهية

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ يونس: ٣-٦

مناسبة المقطع لما قبله

بعد تقرير الآيتين السابقتين للوحي، والإنكار على الكفار تعجبهم من الوحي والرسالة ورد هذا التعجب بأنه من الممكن الإيحاء إلى رجل منهم لينذرهم بالعقاب ويبشرهم بالثواب على الصالحات، لفت نظرهم في هذه الآيات إلى ما هو أكبر من ذلك وهو خلق السموات والأرض والتي تستحق منهم العجب والتأمل والتفكر بخالقها، إشارة إلى أن لهذا العالم إلهاً خالقاً قادراً نافذ الحكم، فإذا كان الله خالق كل هذا الكون مسخراً للإنسان فله أن يختار رسولاً منكم ليهديكم ويبلغكم المنهج الذي اختاره لكم، فمن كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون إرساله الرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب! لأن مرجعكم إليه حيث تبعثون فتجازون على أعمالكم، فالقادر على خلقكم قادر على إعادتكم، مستدلاً على قدرة الله بما سخره للإنسان من آياته التي خلقها وجعلها سبباً لقوام الحياة كأحوال الشمس والقمر وكونها أداة لمعرفة السنين والحساب، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، فمن تفرّد بلإيجاد وجب إفراده بالعبودية.

التفسير الإجمالي

في إشارة إلى تقرير الألوهية بعد الوحي، يذّكر الله بربوبيته في قوله «ربكم» بما يدل على عظمة ملكه، ابتداءً من خلق السموات والأرض، فيخبر أنه هو الرب المستحق للعبودية من قبل هؤلاء المشركين، مشيراً إلى الظواهر المحسوسة التي لو تدبروها لأدركوا بأنه هو الذي يليق أن يدين له البشر بالعبودية وعدم الشرك به.

ويخبر تعالى عن مدة الخلق في ستة أيام[1]، واختلفت أقوال المفسرين في تحديد هذه الأيام، فالجمهور على أنها كأيام الدنيا، وقيل: من أيام الآخرة: كألف سنة مما تعدون لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

وقيل وهو الأصح عند جماعة أنه تعالى خالق الكون سماءه وأرضه في زمن لا يعلم مقداره إلا هو، وبذلك يقول المراغي: «في ستة أزمنة قد تم في كل زمن منها طور من أطوارها، وقدرها بمقادير أرادها ثم استوى على عرشه»[2]، وكذلك سيد قطب: «ولا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة، فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها، إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق..»[3].

والله سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون ولكنه أراد أن يعلم عباده التروي والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً، وقد أكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

---

(١) اليوم في اللغة هو الجزء من الزمن، وهو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار.

(٢) تفسير المراغي، ١٠/ ٦٢-٦٣

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٦٢.

ثم استوى على عرشه استواءً يليق بعظمته وجلاله ولا يعلمه إلا هو، والعرش هو كرسيه، أو مركز تدبير[(١)] الخلائق، وهو أعظم المخلوقات وسقفها، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى، والله في استوائه على العرش يدبر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته [(٢)]، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز، لأنه سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون متحيزاً في مكان.. [(٣)] وفي استواء الله على عرشه يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته ومن كمال تقديره وتدبيره اصطفاؤه من عباده من يشاء ويخصه بالرسالة لما فيه خير البشرية ليهديهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والله يملك اليوم الآخر كذلك، وما دام الأمر كذلك فلا يستطيع أن يشفع أحد لآخر عنده إلا من بعد إذنه فكيف إذاً تعبد هذه الأصنام رجاء شفاعتها لعابديها، وجاء تأكيد ذلك بآيات أخرى منها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ [طه: ١٠٩]، و﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، قال الزجاج: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب[(٤)]. وفي الإشارة بـ (ذلكم) إلى فاعل الأشياء من الخلق والتدبير والتصرف في أمر الشفاعة، فالموصوف بهذه الصفات هو ربكم الحق فاعبدوه بما شرع لكم من أنواع العبادات، وكيف تعبدون غيره (أفلا تذكرون) للتوبيخ والتقريع لأن من لديه أدنى تذكر لا

---

(١) أصل التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول، والأمر: الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق، انظر: فتح القدير للشوكاني، ٢/ ٤٨١.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ١٠٣.

(٣) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٩٧.

(٤) انظر فتح القدير، ٢/ ٤٨١.

يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا بأن مرجعهم إلى الله على سبيل التخويف والمرجع إليه يكون بالموت أو بالبعث، أو كل واحد منهما، وأكد بقوله (حقا) تأكيد التأكيد[1]. والمرجع إليه دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم لا يتخلف منكم أحد وعدا حقا لا خلف فيه.

ثم يخبر تعالى أنه كما بدأ الخلق وأنشأه أول مرة يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله، في إشارة إلى أن من خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم، بل هو أهون عليه، مبيناً ما يترتب على الإعادة﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾أي: بالعدل الذي لا جور فيه[2]، فالله يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل، فيعطي كل ذي حق حقه، وينال كل عامل حقه في الثواب الذي جعله لعمله، وقد جاء أمثال هذا المضمون في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو مما أمر الله به ففي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٣٥][3]، وهذا لا يمنع الزيادة والمضاعفة في الثواب كقوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

فالآية تعلل الرجوع إلى الله بأنه الجزاء للمؤمنين الصالحين الذين أعد الله لهم الجنة التي قال عنها الرسول ﷺ في حديث قدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[4].

(١) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٧١٢.
(٢) انظر فتح القدير، ٢/ ٤٨٢.
(٣) ومثلها آية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾، المائدة/ ٨.
(٤) رواه البخاري، في بدأ الخلق، باب صفة الجنة (٣٠٧٢)، وكتاب التفسير، باب تفسير سورة السجدة=

وبعد أن بين تعالى أجر المؤمنين بالقسط، يبين جزاء الذين كفروا بأن﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾أي: ماء حار قد انتهى حره، والحميمة مثله، وكل مسخن عند العرب فهو حميم[١].

وجزاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والخطايا فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها تمشياً مع مقتضى العدل الإلهي، حيث لا يمكن أن يتساوى المؤمن مع الكافر والصالح مع الطالح، قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم يذكر تعالى من آياته التي أنعم بها على عباده، من خلق السموات والأرض والكون كله مسخراً للإنسان، فذكر ما جعله الله سببا لقوام الحياة، فالشمس التي هي كالأم لمجموعة الكواكب التي تدور حولها فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة وحول نفسها تمثل اليوم فالشمس ضياء والقمر نور، والفرق بينهما يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء، والنور إنارة حليمة لا يحتاج إلى ظل من حرارته، بعكس الشمس، فالنور ضوء ليس فيه حرارة، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضئ مثل الشمس، والقمر ضوءه غير ذاتي ويكتسب الضوء من أشعة الشمس حين تنعكس عليه كالمرآة حين تسلط عليها بعضا من الضوء فهي تعكسه[٢]، وقد وردت آيات مماثلة منها:﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦].

وقد خصّ الله أحوال الشمس والقمر حيث جعل الشمس في النهار ضياء للكون، ومصدراً للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للنبات والحيوان، وجعل القمر نوراً في الليل يبدد

=(٤٥٠١، ٤٠٥٢)، وكتاب التوحيد (٧٠٩٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(١) تفسير الطبري، ٨/ ٢٦٦.

(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٧٣٧.

الظلمات وقدر مسيره في ملكه منازل أو ذا منازل، ينزل كل ليلة في واحد منها، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، معروفة لدى العرب كما قال:﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، وخص القمر بذكر منازله لعودة الضمير «قدرناه» إليه وحده لسرعة سيره ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، فعلله « لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» أي يعرف به حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي والفصول الأربعة وضبط أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات وعقود.

وإذا كان تقدير المنازل عائداً لكل من الشمس والقمر فيعرف بهما الحساب فقد ذكرهما تعالى فقال:﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]، وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد، فالشمسي ثابت والقمري أسهل على البدوي والحضري، فأنيطت به الأحكام الشرعية[١]، وما خلقهما الله إلا بالحق الثابت الذي لا يتغير، وذو الحكمة البليغة، ولم يخلق عبثاً ويبين الله لكم الآيات الكونية الدالة على عظمة قدرته وخلقه ولتكون طرق دلالة على الخالق، ويميزون بين الحق والباطل.

والأمر الآخر هو اختلاف الليل والنهار أي: تعاقبهما بمجيء أحدهما عقب الآخر دون تأخير، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس بنظام دقيق، وما فيها من برودة وحرارة، وكون الليل لباساً والنهار معاشاً، وما خلق الله في السموات والأرض من معادن وزروع وحيوان وجماد، كل ذلك دلائل على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته، وهي دلائل لقوم يتقون الله لا يخالفون في سننه وتشريعه وأحكامه، لعلمهم أن من لم يتق الله عوقب في الدنيا والآخرة.

(١) التفسير المنير، ١١/ ١١١

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

١- إثبات الإلوهية، وأن للعالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي، وهو خالق كل شئ، إشارة إلى توحيد الربوبيهة والإلوهية.

٢- خلق الله السسموات والأرض في ستة أيام لتعليم الخلق التثبت في الأمور مع أنه قادر على الخلق بلمح البصر بقوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

٣- تقرير وجود العرش فوق السموات والله أعلم به وبكيفية استوائه عليه، والإيمان بذلك على الوجه الذي يليق به وتنزيهه عما لا يجوز عليه.

٤ – أن الله وحده هو الذي يدبر أمر الخلائق بمقتضى حكمته، ولا يشركه أحد من خلقه في ذلك.

٥ – إثبات الشفاعة عند الله يوم القيامة لمن أذن له الرحمن، وفيها دحض لعقيدة الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: «شَفِيع» فرد عليهم بأن لا أحد يشفع إلا بإذنه، كما أن في عقيدتهم للشفعاء حجة عليهم، فإذا كانوا يؤمنون أن لله أولياء يشفعون فلماذا ينكرون الوحي لمن اصطفاه الله!.

٦ – الجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب، وهو الغاية من الرجوع إلى الله، فحكمة الله وعدله تقتضي تمييز المحسن من المسئ، وجزاء المؤمنين بالجنة والنعيم مقصود، أما جزاء الكافرين فهو تحقيق للعدالة الإلهية بالتمييز بين المحسن والمسيء. كما أن فيها ما يدل على أن العبادة يعود نفعها لصاحبها، ولا تعود عليه سبحانه، كما أن في البعث والحساب اطمئنان للملتزمين المطيعين، لينالوا حسن الثواب وينال العاصي ما يستحق من العقاب.

٧ – أن الله الذي خلق كل شيء ودبره وهو من يملك أمر الشفاعة فهو المستحق وحده العبادة، وفي قوله « أفلا تذكرون» دليل على وجوب التفكر بالدلائل الباهرة، وفي مقدمتها التفكر في ما خلق الله.

٨ - إثبات البعث بعد الموت، والحشر والنشر، فالقادر على الخلق الأول قادر على الإعادة، بل هو أهون عليه، وهي من مهمات التبليغ لجميع الأنبياء. وفي قوله « إليه مرجعكم» إعلام لكافة الخلق أن كل الأمور معلومة له، ويعلم من أطاع التكليف ومن عصى، «وفي تقديم المجرور في قوله: «إليه مرجعكم» إفادة القصر، أي: لا إلى غيره قطعا لمطامع القائلين في آلهتهم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»»(١)

٩ - في الآيات دلائل على وجود الله وقدرته وحكمته وعظمته وكمال علمه وهي خلق السموات والأرض وأحوال الشمس والقمروالمنافع المترتبة على اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض من أحوال آيات دالة على وجوده وتوحيده، ولم تخلق إلا لمصلحة الإنسان.

١٠ - في الآيات لفتة علمية، وهو أن الشمس ضياء والقمر نور، لأنه مضيء بغيره، والشمس بذاتها، والجمع (ضياء) تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس.

١١ - بيان الحكمة من خلق الشمس والقمر وتقدير منازلهما للتوقيت ومعرفة عدد السنين والحساب، كما أن في كل ما أودع الله من خواص في الأفلاك فوائد وآثار وإلا لكانت عبثاً وحاشا الله أن يخلق عبثا من غير فائدة، وفي الآيات ما يدل ضمنا على مشروعية تعلم الحساب وعلم الفلك، ولما هو نافع للمسلمين.

١٢ - المستفيد من الآيات هم المتقون الذين يخافون الله ويحذرون عذابه، قال الزمخشري: «خص المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر»(٢)، وذلك لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم، أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئا والعياذ بالله. (٣)

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٩.

(٣) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٤٩

علاقة المقطع بمحور السورة

جاء المقطع في إثبات الرسالة بأنها من الخالق الذي يريد هدايتهم عن طريق إرسال الرسل، مع لفت انتباههم إلى ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السموات والأرض، فخالقها قادر على بعثهم من جديد، ليحاسبهم على ما فعلوا، وبذلك يكون هذا المقطع ضمن المحور في إثبات العقائد.

علاقة المقطع بمقاطع السورة

المقطع يتناسب مع بقية المقاطع في الكلام عن أصول العقائد، وهو الإيمان بالكتاب والرسول والبعث مع سوق الأدلة على ذلك.

المقطع الثالث

جزاء المؤمنين والكفار

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [٧-١٠].

مناسبة المقطع لما قبله

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة وجوده وأحقيته للعبادة، وعلى إثبات البعث والجزاء في اليوم الآخر، بين في هذه الآيات نوعية الجزاء لكل صنف، فذكر أولاً حالة من كفر به وأعرض عن البينات والدلائل الواضحات، وغفلته عن لقاء الله وركونه إلى الدنيا فاستحق العقاب بالنار، وبالمقابل بين حال المؤمنين الذين عملوا لهذا اليوم الصالح من العمل لأنهم مؤمنين بلقاء ربهم ومنتظرين له، وقد أعدوا له العدة فجزاهم جنات النعيم.

التفسير الإجمالي للمقطع

ذكر الله في هذه الآيات صنفين من الناس ،وشرع في بيان أحوال من لا يؤمن بالمعاد ،ومن يؤمن به ،وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ،ويملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته فيتسبب عن إهمال النظر والتفكر الصادق عدم الإيمان بالمعاد[١] .

فالذين لا يرجون[٢] لقاء الله ولا يتوقعونه لعدم إيمانهم بالبعث وما يتلوه من حساب على

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٨٥.

(٢) الرجاء: الأمل المتوقع قريباً ضد اليأس.. رجاه يرجوه رجواً ورجاء: توقعه مع إرادته إياه وسروره به،=

الأعمال، وإنكارهم له، وهؤلاء رضوا وركنوا للحياة الدنيا وأغفلوا الآخرةوعملوا لحياتهم الدنيا وبلوغ منافعها، وركنت نفوسهم إلى شهواتها، حيث كانت أكبر همهم، ووصل بهم الأمر إلى تكذيبها حين أنذرهم النبي ﷺ فلم يرجو ثواباً، ولم يخشوا عقاباً، وكانوا غافلين عن كل الآيات الكونية في الآفاق، والتي لفت القرآن نظرهم إليها كحجج وبراهين، يقول سيد قطب عنهم:" الذين يرون كل هذا ثم لا يتوقعون لقاء الله، ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة، وأن الدنيا ليست النهاية... ولا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام يتم فيه تحقيق العدل والقسط.. ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله، ونتيجة لهذا القصور يقفون... "[1] فهؤلاء جزاؤهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾أي: مثواهم ومقامهم، من الظلم والشر والفساد فلا شيء أكبر ظلماً من الشرك بالله وجحوده، وكفرهم باليوم الآخر.

أما الصنف الآخر المغاير للأول وهو فريق المؤمنين، فهم السعداء، فأخبرت الآية أن الذين آمنوا وصدقوا رسوله وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ولم يغفلوا عن آيات الله الكونية والشرعية فهؤلاء يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى الجنة التي تجري تحتها الأنهار، من تحت غرفهم في جنات النعيم والخلد، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة والانسجام في تلك المناظر الخلابة التي تأخذ بمجامع القلوب وتسر النفوس.[2]

وقد دلت الآيات على أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات،[3] ولكن قوله ﴿ بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾دل على استقلال الإيمان بالسببية

= أو مع خوفه منه، وتستعمل بمعنى الخوف كما قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح/ ١٣، ومعناه في الآية: لا يخافون لقاءنا أو لا يتأملون لقاءنا فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح. انظر تفسير الشعراوي: ١/ ٥٧٤٩.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١١/ ١٧٦٧.

(٢) تفسير المنير، ١١/ ١١٥.

(٣) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ٧١.

والعمل الصالح كالتابع له والتتمة، وحال هؤلاء في الجنة أن أقصى ما يشغلهم﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ هو تسبيح الله أولاً وحمده أخيراً، يبدؤون دعاءهم وثناءهم على الله تعالى بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي تقديساً لك يا الله، والتحية فيما بينهم «سلام» ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. وهذه التحية من الله عز وجل في الجنة لأهل الجنة ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[الأحزاب: ٤٤]، وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[الزمر: ٧٣]، كما أن آخر كل حال من أحوالهم دعاء يناجون به ربهم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهو أول ثناء حين دخولهم الجنة ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤]، كما أن آخر كلام الملائكة﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥]، وروي عن الرسول ﷺ قوله: «إن أهل الجنة إذا قالوا: سبحانك اللهم أتاهم ما يشتهون»(١)، والكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره، فإذا حصل أكلوا وحمدوا الله (٢) .

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- وعيد الله للجاحدين بأن النار مأوى لهم، بما اكتسبوا من الكفر والتكذيب والمعاصي، وهؤلاء وصفهم الله بأربع صفات: أولها- أنهم لا يرجون لقاء الله فلا يخافون عقابه ولا يرجون ثوابه، وثانيها- رضوا بالحياة الدنيا عوضاً عن الآخرة فعملوا لها، وثالثها- اطمأنوا بها ففرحوا وسكنوا إليها، ورابعها- غفلوا عن آيات الله فلا يعتبرون ولا يتفكرون بالأدلة والبراهين الإلهية.

٢- التحذير من نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والاطمئنان لها، والجري وراء زخارفها، ونسيان الآخرة.

---

(١) تفسير الطبري، ١١/ ٨٩، والقرطبي، ٨، ١١٨، وابن كثير ٢/ ٤٠٩، وفيض القدير ١/ ٤٢١.

(٢) معالم التنزيل، ٢/ ٣٥٢.

٣- التحذير من الغفلة بعدم التفكر بالآيات الكونية والقرآنية، لأن هذا التفكر هو سبيل الهداية والنجاة منم الغواية.

٤- إن الجنة مآل المؤمنين العاملين للصالحات، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي من تحت بساتينهم وأسرتهم، وقال البغوي: أي بين أيديهم كقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها [(١)]، وحالهم هو التسبيح والتحميد فرحين، وتحية الله لهم، والملائكة، ولبعضهم: سلام، مما يدل على قيمة وأهمية السلام الذي يفتقده الكثير من الناس اليوم.

٥- التسبيح والتحميد والتهليل قد يسمى دعاء، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم»[(٢)]، قال القرطبي: «كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب، وهذا الدعاء الصادر من أهل الجنة ليس بعبادة إذ لا تكليف في الجنة، إنما يلهمون به، فينطقون به تلذذاً بلا كلفة»[(٣)]، ولذلك يقول أبو بكر الجزائري: نعيم الجنة روحاني وجسماني، وهو حاصل ثلاث كلمات هي: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ [(٤)] ﴾.

٦- من السنة التسمية عند بدأ كل عمل، كالأكل والشرب، ويحمد الله عند فراغه اقتداء بأهل الجنة، كما يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: «وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة

---

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب لدعاء عند الكرب، ربقم (٦٣٤٥)، ومسلم في كتاب اتلذكر والدعاء، باب دعاء الكرب، رقم (٢٧٣٠)، والترمذي في كتاب الدعوات رقم (٣٤٣٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٨/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٤٥٢.

فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[1].

٧- الإيمان والعمل الصالح طريق إلى الجنة، والهادي إليها، فالله يسدد بالإيمان إلى طريق الاستقامة في الدنيا، وقيل المقصود في الآخرة يهديهم بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: ١٢].

٨- على الإنسان أن يستعد ليوم لقاء الله تعالى، ويحسب له الحساب، بأن يستزيد من الأعمال الصالحة، ليتبوأ مكانه في الجنة، وليس لمجرد كونه مسلماً أو من باب الأماني كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

علاقة المقطع مع محور السورة

جاء المقطع في بيان عاقبة منكري البعث، وثواب من آمن به، وما هم فيه من النعيم في الجنة، وهو ضمن المحور في إثبات العقائد، عن طريق الترغيب والترهيب.

علاقة المقطع مع مقاطع السورة

كذلك المقطع متناسق مع بقية المقاطع في الكلام عن أصول العقائد وهو الإيمان باليوم الأخر مع بيان مآل الجاحدين له بأن مأواهم النار بسبب إنكارهم لها، ومآل المؤمنين به بأن لهم الجنة وما ينالون فيها من نعيم وسلام، مع شكرهم لله بقولهم سبحانك اللهم..

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤)، والترمذي في كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الحمد على الطعام إذا فرغ منه برقم (١٨١٦)، وفي الشمائل له (١٩٣).

المقطع الرابع

حلم الله مع المستعجلين للعذاب وسنته في إهلاك الظالمين

قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾١١-١٤.

مناسبة المقطع لما قبله

لما ذكر الله تعالى الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد الذي ضرب له الأدلة والبراهين على حتمية وقوعه، وغفلتهم عنه، يذكر هنا أن من مظاهر تلك الغفلة أن الرسول ﷺ متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبين لهم الله تعالى أن لا مصلحة لهم في ذلك، إذ لو أوصله إليهم كما طلبوا لماتوا وهلكوا، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن، فضلاً عن أنهم غير جادين في الطلب، إذ لو نزل بهم ضر تضرعوا إلى الله ليكشفه عنهم، وقد كشف عن أمر من طبائعهم هو أنهم عندما يزيل الله عنهم الضر عادوا لما كانوا عليه من الكفر والمعاصي وكأنهم لم يدعوا الله من قبل بكشف الضر عنهم، واقعين تحت سلطان أهوائهم مزينا لهم الشيطان أعمالهم، ولذلك أنذرهم الله بأن يعتبروا بالأمم الظالمة التي سبقتهم وأنه بالإمكان أن يوقع ذلك بهم تهديداً وردعا للكف عن مطالبتهم بتعجيل العذاب، وممتناً عليهم بأن جعلهم خلائف تلك الأقوام المستأصلة ليرى كيف يتصرفون في خلافتهم.

التفسير الإجمالي للمقطع

نزلت هذه الآيات في مكة والمشركون في هيجان واضطراب كبيرين، حتى إنهم يطالبون

بنزول العذاب عليهم، وقد ذكر الله عنهم ذلك في غير آية كقوله﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾ [المعارج:١]، وقوله ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣] و﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ ﴾ [الرعد: ٦]، ومن شدة غفلتهم وعنادهم فبدل أن يطلبوا من الله الهداية وهم يرون المعجزات، نراهم يطلبون من الله أن ينزل بهم العذاب إن كان ما يقوله محمد حقا، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وتكشف الآية شيئا من طبائع الإنسان وهو العجلة كما قال:﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وهو دائما يتعجل الخير لأنه يحبه، ويتعجل الشر حين الغضب والحماقة والضجر، فلو يعجل الله أو يسرع للناس إجابة دعائهم في حالة الشر كاستعجالهم تحقيق الخير لأميتوا وأهلكوا. (١)

وسمى الله العذاب شراً في هذه الآية لأنه أذى في حق المعاقب، ومكروه عند الله كما أنه سماه سيئة﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾.

والله تعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب لهم لأنه أرحم بهم من أنفسهم وإمهالاً لهم واستدراجاً فإنه لو أجابهم لأهلكوا كما هلك الذين كذبو الرسل، وربما آمن به بعضهم حيث بعث النبي محمد ﷺ بالهداية الدائمة...

وعذاب الكفار يؤجله الله إلى يوم القيامة ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي نترك غير المتوقعين لقائنا فيما هم يه من طغيان وكفر وتكذيب يترددون متحيرين ولا نعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ ونمهلهم في طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

ومن رحمة الله بعباده لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر

---

(١) انظر: التفسير المنير ١١/ ١٢٠.

في حالة الضجر والغضب لعلمه عدم القصد منهم إلى إرادة ذلك، ولكن لا ينبغي الإكثار منه لما جاء في الحديث من قول رسول الله ﷺ "لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»[١] وهو يدل على عجلة الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء:١١] يقول الطبري: فالآية نزلت ذامة لخلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر فلو عجل لهم لهلكوا[٢]. ثم يبين الله حقيقة وهو أن الإنسان الذي يعيش في ظلمة الكفر ولم يذق طعم الإيمان ولم يرتبط دائماً بالمنهج الإلهي، إذا مسه الضر من فقر أو مرض أو غيره دعى ربه على الفور بإلحاح في كشف ضره وإزالته، ثم ينسون بعد ذلك وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر... فهو قد يخدع الآخرين في لحظة اليسر لكنه لا ينسى الله لحظة العسر، وساعة يأتيه الضر وحين تعز الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة (يا رب) وقد جاءت آيات كثيرة تمثل موقف الإنسان في الضر منها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزمر: ٨] وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾آية ٥٤. ويذكر هذا الموقف في البحر خاصة في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة إذا ما أصابه ضر ولا يجد من يلجأ إليه إلا ربه.

والآية تعطينا صوراً متعددة «دعانا لجنبه أو قائماً أو قاعدا» أي وهو مضطجع متمشيةً من أطوار الإنسان بعد ولادته مضطجعاً ثم قاعداً ثم قائماً لأن الإنسان سيمر بمراحل النقص بعد الكبر فتحدث العملية العكسية وربما تمثل مظاهر ضر، فبعد الشباب تأتي مراحل الضعف فقد يستطيع الوقوف ثم يقعد ثم بتقدم الشيخوخة يظل راقداً فجاء سبحانه في الآية بوضع الإنسان

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٦٧٠٢)، فيض القدير ١، ٣٢، وجامع العلوم والحكم ١/ ١٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٣٦-٥٣٧.

لجنبه وقائماً وقاعداً ولم يأتِ بالمشي لأن الماشي عنده قدرة فلا ضر في ذاته[1].

ومن مضاره عجلة الإنسان حين كشف الضر عنه أعرض ونأى بجانبه (ذهب) كأنه ما كان به من شيء ومضى في طريقه من الغفلة عن ربه والكفر به كأنه لم يدعوا إلى شيء ولم يكشف الله عنه ضره كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فصلت: ٤١.

وفي قوله: كذلك زين... أي مثل هذا العمل القبيح المنكر أو التزين وهو الذي حدث من اللجوء إلى الله وقت الشدة وتركه في الرخاء زين للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك والإعراض عن القرآن واتباع الشهوات.

وبعد ذلك يبين الله نهاية الإسراف الذي حصل في القرون الأولى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ﴾ فقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد وهو الإشراك إلى الهلاك وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا منها فلقوا جزاء المجرمين والخطاب لأهل مكة يخبرهم تعالى أنه أهلك قبلهم أمم بسبب طغيانهم وتكذيبهم للرسل وما جاءوا به من البينات والحجج الدامغة فكان الهلاك بعذاب الاستئصال كقوم نوح وعاد، وإما بإضعافهم واستيلاء الأمم القوية عليهم، فبين الله ذلك وأكده بقوله وما كانوا (ليؤمنوا) تأكيد لنفي إيمانهم لعلمه أنهم مصرون على الكفر ولا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ومثل ذلك الجزاء نجزي كل مجرم وهذا وعيد شديد لأهل مكة على إجرامهم بحق الرسول محمد ﷺ ثم يذكرهم الله أنه مستخلفهم في مكان هؤلاء الغابرين مع ابتلائهم بهذا الاستخلاف فقال «ثم جعلناكم خلائف» أي خلفاء في الأرض بعد تلك القرون التي أهلكنا لننظر أتعملون خيراً أم شراً وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له.

وفيه بيان وإشارة بأن أمة الإسلام ستكون لها الخلافة في الأرض إذا اتبعت هدى القرآن

(١) انظر تفسير الشعراوي ص١٠/ ٥٧٧٧.

كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥]. وقد تمت لهم هذه فملكوا ملك كسرى وقيصر وفرعون وكثير من الأمم.

وفي ذلك تذكير لهم باستخلافهم في الأرض بعد تلك الأقوام المهلكين ليتعظوا ويرتدعوا ويعلموا أن الله لهم بالمرصاد وأن هذه الحياة ما هي إلا ابتلاء وامتحان كما قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع

١ - اقتضت حكمة الله ورحمته إمهال الكافرين وعدم تعجيل عذابهم لعلهم يتنبهون من غفلتهم ويصحون من سكرتهم، فتنفتح بصائرهم على الأدلة المبثوثة حولهم، وتلزمهم بهذا الإمهال الحجة وتقوم عليهم البينة.

٢ - إن مشيئة الله تعالى لا تكون تابعة لمشيئة الجهال والمعاندين للأنبياء، فهي أعز وأجل من أن تكون تابعة لهم بل يتركهم متحيرين في ظلمات كفرهم كما قال تعالى: ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

٣ - تكشف الآيات عن طبيعة النفس البشرية بالإستعجال بالخير، وطلب العذاب حين الضجر وهو شيء يدل على شدة الجهل حيث لا يتحملون الضر عندما يصيبهم فيلجؤوا إلى الله.

٤ - قد يكون في عدم الإجابة خير من باب ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٢١٦] لأن معرفة الإنسان ليست نهائية في تقرير الخير والشر وعليه أن يترك ذلك بمشيئة الإله الأعلى أن يستجيب أو لا يستجيب لما ندعوه ظانين أنه الخير، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤١) والحاكم في المستدرك (٨٥٤٣)، والترمذي في سننه (٢١٩١، ٢٤٦٣).

الخير والشر. وفي المنع -أحياناً- عين العطاء وعلى هذا يقول الحق ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء آية ١١].

٥ - الكافر إذا مسه الضر يقع في الهوان أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ومسه الضر فهو يدعو الله دائماً ولا ينساه ولذلك يتلطف به سبحانه على عكس الكافر الذي يدعو الله.

٦ - المراد في الإنسان ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ هو الكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم.

٧ - إمهال الله للعصاة بأن يتركهم في باطلهم وشرهم فلا يعجل لهم العذاب لعلهم يرجعون.

٨ - الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويتضرع إليه فإذا نجاه عاد إلى الكفر كأنه لم يعد يعرفه.

٩ - في قوله ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقرير لقاعدة عظيمة جليلة في موضوع القضاء والقدر وهي أن للإنسان كسباً واختياراً، وإنه سبحانه يحاسبه ويسأله عنما صدر عنه من عمل بإختياره وكسبه لا بمقتضى علمه به.

١٠ - إن هلاك الأمم قديماً وحديثاً إنما يكون بسبب الظلم من كفر وشرك وطغيان للأفراد أو الحكام.

١١ - الاستخلاف منوط بالعمل الصالح، فالله يستخلف قوماً بعد آخرين لينظر كيف يعملون خيراً أم شراً.

علاقة المقطع مع محور السورة

المقطع يذكر من صفات الله حلمه وإمهاله المكذبين الذين يستعجلون العذاب، بأنه قادر على ذلك ولكن ليس بطلبهم، بل حسب ما تقتضيه مشيئته، مذكرا لهم بما حل بالقرى المكذبة للأنبياء قبله كيف استأصلهم تعالى، ونصر أنبياءه، وعلاقته بمحور السورة واضح في إثبات العقائد.

علاقة المقطع مع بقية المقاطع

المقطع مكمل لما في بقية المقاطع في إثبات العقائد والرسالة، وبيان طبائع المكذبين في استعجال العذاب، ودعوة الله في حال الشدة دون الرخاء، ثم ببيان سنة الله في المكذبين للرسالات وللأنبياء للتعريض بمنكري الوحي المحمدي والمتعجبين من الوحي للرسول ﷺ. والبشرى لأمته بأنهم سيكونون خلائف في الأرض

المقطع الخامس

مطالبة المشركين تبديل القرآن أو بعض آياته

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [١٥-١٨].

مناسبة المقطع لما قبله

بعد أن ذكر الله حال المشركين من تعجبهم من إنزال الوحي على بشر، وتخصيص محمد بالنبوة، ثم مطالبتهم بتعجيل العذاب إن كان ما يقول حقاً، وأنكر عليهم ذلك بإثبات الألوهية والتوحيد وإرسال الرسل والوحي إليهم، والبعث والاستدلال على ذلك بخلقه الأكبر للسموات والأرض بما فيها، وعلمه بطبيعة الإنسان وغرائزه، بعد هذا كله ذكر هنا نوعا آخر من شبهاتهم في الطعن بنبوة محمد ﷺ وهو التشكيك بالقرآن، ومطالبتهم له بأحد أمرين: أن

يأتيهم بقرآن غير هذا أو يبدله، مفندا ذلك بأنه وحي مبلغ من صدوق وهو محمد ﷺ الذي عرف عنه الصدق بينهم زمناً طويلاً، مقرراً عدم فلاحهم بعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر من دون الله، ويعتقدون فيهم الشفاعة.

سبب النزول: روي عن ابن عباس ﷺ أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ وبالقرآن: « الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة» فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر كما قال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ١٥]، فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آيات: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ [١] ﴾.

عن مجاهد: إن المطالبين بهذا هم خمسة أنفار: عبد الله ابن أمية، والوليد ابن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، قالوا للنبي ﷺ إئت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها.

وذكر البغوي عن مقاتل مثله وزاد: وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك «أو بدله» فاجعل مكان آية عذاب رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلال حراماً.. [٢]

وذكر القرطبي أن في قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيداً والوعيد وعداً، والحلال حراماً والحرام حلالاً، قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور قاله الزجاج. [٣]

---

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ٣٠٥.
(٢) معالم التنزيل، تفسير البغوي، ٢/ ٣٥٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٧٤.

التفسير الإجمالي

هذه الآيات مستمرة في مواجهة مشركي قريش وتكذيبهم للقرآن ودحض شبههم حوله، فحين تتلى عليهم آيات الله الواضحات في إبطال الشرك، طلبوا من رسول الله ﷺ لما سمعوا ما أغاظهم من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن، مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما بتبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول:﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ أي ما ينبغي لي ولا يحل لي أن أبدله من تلقاء نفسي[1]، فنفى عن نفسه أحد القسمين وهو التبديل لأنه من الممكن لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه، وقيل إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على أصعبهما، وهذا من باب مجاراة السفهاء إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء، فكان الجواب الطبيعي من الرسول ﷺ ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ راداً شبهتهم بأنه ليس من حقه ذلك. فبينت الآيات الكريمات أن الذكر الحكيم إنما هو كتاب الله وليس كتاب رسوله حتى يكون للرسول فيه دخل من قريب أو بعيد، فهو يتلقى الوحي عن الله في الوقت الذي يريد الله أن يوحي إليه، ولا يملك له الرسول تبديلا ولا تغييراً، ومهمته هو التبليغ للناس كما أنزل، وإن تلاوته على الناس إنما هي بأمر من الله وتيسيره، فلولا اصطفاؤه وتيسيره لها لما استطاع أن يتخطى المستوى الذي كان عليه قبلها، فقد قضى الرسول بين ظهراني قومه أربعين سنة، ولم يذكر شيئاً من هذا النوع المعجز حتى أكرمه الله بالوحي، وأنزل عليه القرآن وكلفه بالتبليغ والبيان. فإذا ما تلا على هؤلاء المشركين آيات الله الواضحات في بيانها دالات على الحق، ساطعات في الحجة والبرهان، قالوا للرسول: أئت بقرآن غير هذا أو بدله، أي كتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما لا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال، ولا ما نكره من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها، أو بدله بأن تجعل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ولم يكن مقصدهم من هذا

---

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٨٩.

إلا اختبار حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره.. (١)

ولهذا كان جواب الرسول ﷺ أنه عبد مأمور بالتبليغ، محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ والدليل على أني لست أتقوله من عندي أنكم عاجزون عن معارضته، وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت فيكم إلى حين بعثني الله عز وجل، ثم ينبههم أنه لا أحد أظلم ولا أشد جرما ممن افترى على الله كذباً، وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك.. كذلك من كذب بالحق الذي جاء به الرسل وقامت عليه الحجج. (٢)

وبعد أن بين الله تعالى أن المشركين طلبوا ذلك لأن القرآن فيه شتم آلهتهم، ندد بعبادتهم لتلك الأصنام وجعلها شفعاء ظانين أن شفاعتها تنفعهم عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، فهم يزعمون وجود قدرة على ذلك كما قال تعالى عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

روي أن النضر بن الحارث قال: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فرد الله عليهم ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهم: لا دليل على ما تدعون، أتخبرون الله بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض، وما لا يعلمه من هؤلاء الشفعاء؟ ونظيره قوله: ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ٣٣]، ثم نزّه الله نفسه عن شركهم فقال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو منزه عن إشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

الهدايات المستنبطة

١ - رفض الرسول ﷺ مطالب المشركين وأعلن أن القرآن كلام الله، ومهمة الرسول ﷺ مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد وتحريم وتحليل

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ٧٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨.

وأمر ونهي.

٢ - من الدعوة إلى الله تلاوة الآيات القرآنية على الناس تذكيراً وتعليما.

٣ - إن طلب المشركين لا يتجاوز المكابرة والتعنت والجحود، ودافعهم إليه في السخرية والاستهزاء أو التجربة والامتحان.

٤ - حياة الرسول ﷺ قبل البعثة أربعين سنة وهو أمي مشهود له بالصدق والأمانة فيهم، دليل على مصدرية القرآن المعجز من الله تعالى، مع التحدي الذي ورد عليهم.

٥ - لا أحد أظلم ممن يكذب على الله ويبدل كلامه، أو يضيف إليه شيئاً أو يدعي أنه أوحي إليه ولم يوح إليه، وآخر يكذب بآيات الله البينات الواضحات منكم.

٦ - لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين، ومصير الإجرام الخيبة لا محالة.

٧ - إبطال دعوى المشركين بأن آلهتهم تشفع لهم يوم القيامة، إذ لا وجود للشفعاء، ولو كان لهم وجود لكانوا شركاء لله تعالى والله لا شريك له، وهذا يبطل الشرك في الألوهية بعبادة غير الله مطلقاً وفي الربوبية بادعاء الوساطة والشفاعة عند الله[1].

مناسبة المقطع مع محور السورة:

المقطع يتحدث عن شبهات المشركين حول القرآن ونفيها لإنزاله على رجل عرف بالصدق بينهم، ورد الرسول - كما علمه الله - يتماشى مع محور السورة القائم على التحدي بالقرآن وما فيه من عقائد بأنه منزل من عند الله، فهو تأكيد ألوهية القرآن وصدق الرسول المبلغ به.

أما مناسبة المقطع لمقاطع السورة:

فواضح في إطار إثبات العقائد التي جاء بها الوحي.

---

(١) انظر أيسر التفاسير ٢/ ٤٥٨، والتفسير المنير ١١/ ١٣٤.

المقطع السادس

اختلاف الناس وتقلبهم وحرصهم على الحياة الفانية

قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [١٩-٢٤].

المناسبة بين المقطع وما قبله

بعد أن أقام الله تعالى الدلائل على بطلان الأصنام ذكر هنا ما كان الناس عليه من الوحدة في الدين وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه، وبين أن الشرك حادث في الناس لاتباعهم الهوى بعد أن كانوا على دين واحد هو التوحيد، وأتبع ذلك بذكر شبهة أخرى للمشركين -المتبعين للهوى- في نبوة محمد ﷺ إضافة إلى ما سبق، وهي طلبهم لمعجزات حسية مادية لتكون له معجزة، فرد عليهم بأن تلك الآيات والمعجزات من الغيب المستأثر بها عند الله تعالى، ثم ذكر جواباً آخر وهو أنهم لا يقتنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم لأن من عادتهم المكر والجحود والعناد، وهذه من صفات الجحود فيهم، فإذا أصابتهم الشدة تضرعوا، وإذا ما جاءتهم النعمة

بطروا وكفروا، ثم بين أن سبب بغي الناس حرصهم على الدنيا والتمتع بنعيمها ضاربا مثلاً لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ويعرض عن الآخرة كأرض سقيت ماءً فأثمرت، ثم جاء وقت حصادها فلم تلبث أن أصابتها فجأة جائحة فاستأصلتها.

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات يذكر تعالى حقيقة تاريخية بأن الناس كانوا على دين واحد وهو الإسلام دين التوحيد ودين الفطرة، ثم اختلفوا بكفر بعضهم، وثبات بعضهم الآخر على الحق. ولولا كلمة سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضيَ بينهم: بإهْلاك أهل الباطل ونجاة أهل الحق، يقول ابن كثير: « أنه لولا ما تقدم أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه سبحانه جعل لكل المخلوقات أجلا معدوداً ومحدودا لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، وأنزل العقوبة على المكذبين»[1]، فكلمته سبقت لحكمة أرادها بأن يؤخرهم إلى يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥].

قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

ويخبر تعالى عن المشركين وما هم عليه من المكابرة فيقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلا أُنـزل على محمد آية حسية من ربه لنعلم أنه على حق فيما يقول، فهم يريدون آية خارقة حسية مشاهدة كالتي نزلت على هود وصالح وموسى.. فجاءت العبارة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لتؤذن أن هذه المقالة من دأبهم[2] فقل لهم أيها الرسول: لا يعلم الغيب أحد إلا الله، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، فانتظروا قضاء الله بيننا وبينكم بتعجيل عقوبته للمبطل ونصرة صاحب الحق، وأنا منتظر كذلك.

وكانوا قد اقترحوا آيات لتشهد على صحة نبوته، وقد جاء ذكرها مفصلة في سورة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨.

(٢) روح المعاني، ٧/ ٩٢.

الإسراء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقد يريدون بالآية عذابا كما سبق في هذه السورة، فلذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾أي إن إنزال المعجزات من الغيب المختص بإرادته سبحانه فهو وحده يعلم متى يأتيكم العذاب، وعليه «فَانْتَظِرُوا..» قضاء الله تعالى بيني وبينكم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولم تطل مدة الانتظار ونزل بهم العذاب ببدر فهلك رؤساؤهم وأكابرهم المستهزئون. [(١)]

ويرد الله على الكفار الذين يطلبون الآيات الكونية بما يدل على سوء طبع الإنسان الذي ينقلب على الفطرة، ومن أمثلة ذلك أنه إذا أذاق الله الناس رحمة ورزقهم فضلا بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب والمطر بعد القحط والصحة بعد المرض إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر في مقام الحمد والشكر، والمكر يكون بالاستهزاء والتكذيب لها والتنكر والجحود، فهم يقابلون النعمة بالكفران، وقد روي أن الله سلط على كفار قريش القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعوا لهم بالخصب ورفع البلاء، ووعدوه الإيمان، فدعا الله لهم، فرحمهم الله فأنزل عليهم الأمطار النافعة وأخرج لهم الزروع والثمار، ثم بطروا ونسبوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء[(٢)].

---

(١) أيسر التفاسير، ٣/ ٤٥٩.

(٢) القصة كما رواها البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود، أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الدخان: ١٠-١١، فجاء أبو سفيان إلى=

وهكذا إذا رحم الله الناس بعد عسر وشدة أصابتهم إذا هم يكذّبون ويستهزئون بآيات الله، قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكرًا واستدراجًا وعقوبة لكم. إن حَفَظَتَنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا ثم نحاسبكم على ذلك.

قال الشوكاني: وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة، كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز. [1]، فالله أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه[2]، وقد يكون الإمهال إلى يوم القيامة فالملائكة الموكلون بحفظ أعمالكم يكتبون ما تمكرون، وأنتم لا تشعرون فضلا من رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم ضرب الله مثلا للمعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود بمثال عملي يبين فضل الله تعالى على الإنسان بنقله من الضر الشديد إلى الرحمة والسعة، ويبين موقف الإنسان بعد ذلك ومكره، فالله يهيئ له أسباب السير في البر والبحر ويمكنه منه، فلولا النواميس والوسائل التي جعلها الله سبحانه في البر والبحر ما تمكن الإنسان من السير فيها، فلقد جعلكم قادرين على السير في البر والبحر بما سخر لكم وخلق من أجلكم حتى إذا ما كنتم راكبين في الفلك وجرت بكم في البحر بسبب ريح طيبة مواتية للاتجاه في جهة السير وفرحتم بما تحقق لكم من راحة وقطع مسافة ثم جاءت تلك السفن ريح عاصفة شديدة قوية فاضطرب البحر وتلاطمت بالأمواج العالية من مختلف الجهات وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، فلم يجدوا ملجأ إلا الله هنالك أخلصوا الدعاء والتضرع لله وحده ولم تتجهوا إلى آلهتكم من الأوثان، لرجوعكم إلى الفطرة

=رسول الله فقال: يا محمد إنك حيث جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك ربما هلكوا، فادعوا الله لهم، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب، ومطروا فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات الله، ويعادون رسوله ﷺ ويكذبونه.

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٣٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٩.

وهي التوحيد، يقولون في دعائهم لئن أنجينا من هذه الأهوال، والله لنكونن من الشاكرين لك دائماً، فلما أنجاهم مما نزل بهم من الشدائد إذ هم يفسدون في الأرض، وجاء التعقيب على هذا المثال﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي وباله وعاقبته يرجع عليكم كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة فصلت:٤٦]، وقوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وجاء في الحديث الشريف: «ما ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم»[١] ويقول لهم تعالى: تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ونحاسبكم عليه. ثم ذكرت الآيات مثلاً آخر من باب التذكير للباغين المفرطين في حب الدنيا أنها سريعة التقلب والانقضاء، فهي في سرعتها كالماء الذي اختلط بنبات الأرض فنمى حتى إذا استكملت الأرض زينتها بأنواع النبات وألوانه الزاهية وتزينت كما تتزين العروس وأهلها مزهوون بها مطمئنون إليها أتاها قضاء الله بهلاكها ليلاً أو نهاراً في زمن غفلتهم ونومهم أو في حال انتباههم ويقظتهم فجعلها الله حصيداً أي محصودة مقطوعة كأن نباتها لم يكن ولم يقم منذ زمن قريب، وهكذا الدنيا بعد زوالها كأنها لم تكن تزول في ومضة ولحظة بعد أن بذل أهلها فيها ما بذلوا وأملوا منها ما أملوا، فما أشد غيبتهم وحسرتهم، ويختم الله هذين المثلين بأن ذلك لقوم يتفكرون لأن التفكر بداية الانتباه والتحول عن حال الغفلة الذي يغلب على الراضين بالحياة الدنيا والمطمئنين بها[٢].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- إن الشرك أمر طارئ على الناس، فقد كانوا متفقين على دين الحق والتوحيد من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام، وقيل أن المراد من "الناس" العرب خاصة وكانوا على التوحيد منذ زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى أن ظهر عمرو بن لحي وجلب الأصنام إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، برقم (٢٩٠٢)، ٤/ ٢٧٦، وابن ماجة في كتاب الزهد في الدنيا برقم (٤٢١١)، ٢/ ١٤٠٨، والترمذي حديث (٢٥١١) ٤/ ٦٦٤.

(٢) انظر الإنسان بين التقدير والتكليف ص٥٠-٥١.

أرض العرب ونشر عبادتهم[١].

٢- الشرك هو الذي يحدث الخلاف في الأمة والتفرق فيها، أما التوحيد فلا يترتب عليه خلاف ولا فرقة. وفي الآيات وعيد على الاختلاف في أصول الاعتقاد وفي الكتاب الذي أنزل على إعادة الناس إلى الوحدة الأولى وإزالة الشقاق بينهم. كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به.

٣- في الآيات إشارة إلى القضاء والقدر وأن الله لا يعجل العذاب للأمم والأفراد بكفرهم وإنما يؤخرهم إلى آجالهم ليجزيهم بدار الجزاء يوم القيامة.

٤- إن اختلاف الناس دليل على أنه سبحانه جعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، واقتضت مشيئته وحكمته أن تكون الحياة الدنيا للابتلاء والتكليف، ولا يتم هذا إلا إذا تمتع المكلف بالإرادة والكسب والاختيار.

٥- إن القرآن كافٍ على صدق النبي ﷺ، وطلب معجزات أخرى لا يكون إلا مكابرة وعناداً وهو مما اشتهر به مشركو مكة، ولو أنهم أنصفوا لوجدوا في القرآن ما يكفيهم ويغنيهم عن عما اقترحوه.

٦- الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله، ومن علمه الله شيئاً منه، فهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم، والنبي يبلغ ما أنزل إليه من ربه.

٧- من الآداب إسناد الخير والرحمة إلى الله وعدم إسناد الضراء إليه مع أن الكل بإرادته وقدرته وهذا من الآداب التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام كما جاء في القرآن عن إبراهيم: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]. فالخير فضل من الله سبحانه بينما الشر لا يكون إلا بما يصدر عن الإنسان من أسباب تؤدي إليه. مع أنه من خلق الله تعالى وتقديره كما قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

---

(١) روح المعاني ٧/ ٨٩.

يقابل الله الماكرين بمكر أشد منه وهو إمهالهم واستدراجهم إلى يوم القيامة، لأن مكرهم مرصود من قبل الملائكة الحفظة، وكتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبييت الله لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم، وبغي الإنسان كمكره عائد إليه كما قال ﷺ: "ثلاث على أصحابها رواجع: البغي والمكر والنكث"[١]. وفيه تقرير على مبدأ البعث والجزاء على يوم القيامة.

٨- إخلاص العبد الدعاء في الشدة دليل على أن التوحيد أصل وهو (الفطرة) والشرك طارئ، والكفار شأنهم نكث العهد بعد النجاة وهو من منكرات المعاصي، قال ابن عباس لو بغى جبل على جبل لاندك الباب، وعاقبة البغي يتحمل وزرها الباغي نفسه عاجلاً أم آجلاً.

٩- سرعة زوال وانقضاء الحياة الدنيا فلا ينبغي الاغترار بها والركون إليها ونسيان الآخرة لأن نعيمها ليس بدائم، وإن الذنوب سبب في الشقاء وزوال النعم.

١٠- فضيلة التفكر وأهله فالله يبين الآيات ويضرب الأمثال لمن يستخدم تفكيره وعقله فيها، فإن عاقبة هذه الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي تتعلق به الآمال للانتفاع به فحين عظم الرجاء بالمنفعة وقع اليأس منها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

يؤكد المقطع أن الإيمان أصل وفطرة والشرك عارض، كما أن ما فيه من الأمثال ما يؤكد العقائد التي هي محور السورة.

مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

هذا المقطع يتفق مع المقاطع السابقة التي تدور حول الإيمان والعقائد مدعومة بضرب الأمثلة للعبرة والموعظة.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الرابع والأربعون)، برقم (٦٦٧٤) ٥/ ٢٦٨.

المقطع السابع

الترغيب في الجنة وقواعد الجزاء الإلهي

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الآيات: ٢٥-٣٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد حديث الآيات السابقة عن دار الفناء وما فيها من تقلبات، فلا يدوم لها حال ولا سرور، وتصوير حال الغافلين من المهتمين بالدنيا، وضرب المثل المنفر عن رغبتهم في الآخرة، تتحدث هذه الآيات عن دار الخلد والدعوة إليها بالعمل الصالح، ووصفها بدار السلام لدوامها وما يناله أهل الجنة من زيادة الفضل، لتشويق المؤمنين إليها لتتعلق قلوبهم بها، وتتطلع نفوسهم وتسموا أرواحهم إليها، فيسيروا على طريقها ويلتزموا المنهج الرباني، على الضد لمن كسب السيئات وما يناله من الذل والخزي وعذاب النار، ثم أعقبه بذكر يوم الجزاء الذي يتم فيه حشرهم جميعاً فيتبرأ المعبود من العابد، والمتبوع من التابع دليلاً على نفي الشفاعة، مما يدل على نهاية الخزي والنكال في حق الكفار.

التفسير الإجمالي

تكشف هذه الآيات عما يكون في دار الخلد، دار السلام وما أعد فيها، حيث يوجه الله تعالى دعوة عامة مفتوحة إلى سائر الناس، والبلوغ إليها بالعمل الصالح. عن جابر بن عبد

الله ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»[1].

«وسماها الله دار السلام لسلامتها من الآفات والشوائب والنقائص والأكدار»[2]، لأنه سبحانه هو السلام، وأضافها إلى اسم من أسمائه الحسنى تعظيما لها، أو لكثرة ما فيها من التحية بالسلام، فالله سبحانه يسلم على أهلها، والملائكة تسلم عليهم أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴾أو لسلامتها من الآفات والنقائص والنكبات، فلا تعب فيها ولا نصب ولا هم ولا حزن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٤-٣٥]، أو لسلامة أهلها من النقص في خلقهم وخُلُقهم، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧]، وقال رسول الله ﷺ : "إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء، وزاد في رواية "ولا اختلاف

(١) رواه االترمذي في سننه، في كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في مثل الله لعباده برقم (٢٨٦٠)، ٥/ ١٤٥، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٣٢٩٩) ٢/ ٣٦٩، و٤/ ٤٣٥، والطبراني في الطبقات الكبرى ١/ ١٧٢.

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٥٣.

بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً"[١]

وقال ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين، بني ثلاث وثلاثين»[٢] ومن دعائه ﷺ: «اللهم أنت السلام ومنك السلام...».

وبعد أن دعا إلى دار السلام قال: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوفق من يشاء إلى طريق الجنة وهو دين الإسلام فيلتزم أحكامه ويسير على نهجه، فالدعوة عامة والهداية خاصة، فلا يدخل الجنة إلا المهديون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ فالإنسان محتاج إلى هداية الله وتوفيقه ومعونته.. ولهذا علمنا أن نسأله الهداية كلما وقفنا في الصلاة نناجيه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٣]. وبعدها يبين تعالى قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين ويكشف عن رحمة الله وفضله وعن قسطه وعدله في جزاء هؤلاء وهؤلاء فالذين أحسنوا.. أحسنوا الاعتقاد والعمل وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام فهؤلاء لهم الحسنى جزاء ما أحسنوا وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة[٤]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله تعالى (وزيادة) قيل هي إكرامهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم وقيل الزيادة في حسناتهم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، برقم (٣١٤٩)، ٣/ ١٢٠٩، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال، برقم (٢٨٣٤) ٤/ ٢١٧٩، والترمذي (٢٥٣٥) والدارمي (٢٨٢٣)، ومباخرهم الألوة، أي: مباخرهم نباتات عطرية فائحة الشذى.

(٢) رواه الترمذي وحسنه في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سنن أهل الجنة برقم (٢٥٤٥) ٤/ ٦٨٢، والإمام أحمد في مسنده (٧٩٢٠) ٢/ ٢٩٥ و٣٤٣، ٥/ ٢٣٢ و٢٣٩ و٢٤٣، والطبراني في الصغير والكبير.

(٣) انظر الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس ص٥٤.

(٤) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٧٩.

وقيل هي مغفرة الله ورضوانه ولا مانع من إرادة العموم كما رجح الطبري[١]. وقال ابن كثير هي تضعيف ثواب الأعمال... وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف[٢].

وقد أثبتت النصوص هذا المعنى كقوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ويحرم الكفار منها:﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، ومن الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك»[٣] وتابعت الآية في وصف أهل الجنة بقوله: ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، فلا يغشى وجوههم غبرة وسواد وكآبة ولا هوان ومذلة مما يصيب أهل النار ولا تشيب نعيمهم شائبة من شوائب المكاره وهم ناجون من كربات يوم الحشر ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق إضافة إلى النضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم، أولئك أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق أصحاب

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/ ١٠٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة.. برقم (٤٣٠٥) ٤/ ١٦٧١-١٦٧٢، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»برقم (٧٠٠٠) ٦/ ٢٧٠٤، وكتاب الرقاق، باب الصراط على جسر جهنم، برقم (٦٢٠٤) ٥/ ٢٤٠٣، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٢) ١/ ١٦٣-١٦٤، و(١٨٣) ١/ ١٦٧، وله في كتاب الزهد والرقائق برقم (٢٩٦٨) ٤/ ٢٢٧٩. وفي حديث آخر قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» رواه مسلم برقم (١٨١) ١/ ١٦٣، والنسائي في السنن الكبرى، في كتاب التفسير، باب سورة يونس، (١١٢٣٤) ٦/ ٣٦١، ورقم (٧٧٦٦) ٤/ ٤٢٠، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة يونس (٣١٠٥)، وكتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب (٢٥٥٢) ٤/ ٦٨٧.

الجنة وملاكها ورفاقها هم فيها خالدون.

وجمعاً بين الترغيب والترهيب كما هو أسلوب القرآن الكريم انتقلت الآيات إلى وصف أصحاب النار الذين كسبوا السيئات فكفروا بالله وخالفوا أمره فلهم جزاء السيئة مثلها من العقاب، والقصد من هذا التقييد التنبيه إلى مضاعفة الحسنات فضل منه سبحانه، وأما السيئات فالجزاء عليها بمثلها عدل منه سبحانه. وهؤلاء تخشاهم ذلة وشدة ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم، ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ أي كإنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته... أولئك المبعدون في هذا الظلام والقتام أصحاب النار، ملاكها ورفاقها هم فيها خالدون.

وتأكيداً لقوله سبحانه ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ يعرض القرآن مشهدا من مشاهد القيامة مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله، ولن يملكوا لهم خلاصاً ولا نجاة، هؤلاء هم محشورون جميعاً.. يصدر إليهم الأمر: مكانكم أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونه في الدنيا لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم إياهم والحجة التي يدلي بها كل فريق منكم وهو وعيد لهم على رؤوس الأشهاد، ثم فرّق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهم في الموقف، وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء، ليبرئوا أنفسهم من الجريمة.. وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا، ويشهدون الله وحده على ما يقولون! فما أعظم حسرتهم ! وما أشد خيبتهم! كانوا يرجون أن يشفع لهم شركاؤهم عند الله كما مرّ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فتبرؤا منهم وانقلبت المودة إلى عداوة، كما قال تعالى:﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]، عندئذ في هذا الموقف المكشوف تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة،

هنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع، وما عداه باطل،﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ ﴾ وهنالك لا يجد المشركون شيئا من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود. [١] وهكذا ضاع وبطل ما كانوا يفترون بأنهم شركاء وشفعاء.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- دعوة الله جميع الخلق إلى الجنة والسعادة الأبدية والخلود في الجنان عن طريق الإيمان والعمل الصالح، والرسالة واضحة فهو لا يدعو إلى جمع الدنيا بل إلى الطاعة المؤدية إلى دار السلام، وفيه أن الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو ما يدعو إليه الشيطان فيوقع متبعيه في جهنم دار النكال والوبال، ولكن الله يدعو إلى دار السلام، وهو فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى دار الكرامة والإنعام عليهم.

٢- الجنة دار السلام، لسلامتها من كل الآفات، وهو من أسماء الله الحسنى، والسلام تحية المسلمين وطلبه دعاؤهم لأنه من أعظم المنن، ولا يقدر قيمته حق التقدير إلا من فقده.

٣- الجزاء من جنس العمل، فجزاء الإحسان الإحسان وزيادة، ومثوبة الذين أحسنوا الحسنى الجنة، والزيادة فضل من الله، وهي تضعيف الحسنات والنظر إلى وجه الكريم والشعور بالسعادة ظاهرا وباطناً، أما المسيئون الذين أشركوا بالله وكفروا بنعمته وقابلوا الإحسان بالإساءة فلهم عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة أخذا بالعدل.

٤- في قوله «وزيادة» دليل لأهل السنة على جواز الرؤية والنظر إلى وجه الله لأهل الجنة، وله أدلة تدعمه، فأثبت لهم نظرة الوجوه، والنظر إليه.

٥- الهداية خاصة لمن يشاء الله من عباده، وتوفيقه لهم بعمل أهل الجنة دليل على استغناء الله عن عباده.

٦- تقرير مبدأ البعث والجزاء، بعرض واضح له، وإثبات موقف الحشر لكل الخلائق، وما

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٨٠.

يحدث في ذلك الموقف من انقطاع الصلة بين الشركاء والمشركين، والأتباع والمتبوعين فتظهر فيه خيبتهم وإفلاسهم من عبادة غير الله.

٧- التوبيخ للكفار على رؤوس الأشهاد حين يقال لهم: مكانكم، ثم يفرق بينهم، حتى تظهر خيبة أملهم في شفاعة الشركاء، فلا شفاعة إلا لله ولمن ارتضى.

٨- في قوله: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ مع أن الكافرين لا مولى لهم، هو أن المولى هنا هو مولاهم في الرزق وإدرار النعم، وليس بمولاهم في النصر والمعونة.[١]

٩- تكشف الأمر في يوم القيامة فتعلم كل نفس ما أحضرت وما قدمت وأخرت، وتبلو ما أسلفت وتعرف، وأنى لها أن تنتفع بما تعرف! وانجلاء الموقف في اليوم الآخر بأن الأمر كله لله وبطلان الشركاء.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يتحدث المقطع عن الترغيب بالجنة، وقانون الله في الثواب والعقاب في اليوم الآخر والإيمان باليوم الآخر هو الهدف من إرسال الرسل والوحي الذي أنزل عليهم، وخصوصاً الوحي لرسول الله ﷺ، فالتصديق بذلك هو تصديق بالوحي والقرآن الذي هو محور السورة.

أما مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

فدعوته تعالى إلى دار السلام لجميع الخلق وتوفيقه وهدايته لمن يريد الآخرة يتماشى مع بقية المقاطع التي تؤكد المعنى ضمن دائرة العقائد وتثبيتها، فهي جولة من جولات السورة في إثبات العقائد ومنها الإيمان بالوحي والقرآن وما فيه من التذكير بمصائر المكذبين ومشاهد القيامة.

(١) انظر التفسير المنير 11/ 161.

المقطع الثامن

إثبات التوحيد والبعث بدليل الفطرة

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٣١-٣٦].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن أبطل الحق معتقد المشركين وجنايتهم على أنفسهم باتخاذهم الشركاء، وبين لهم أن شركاءهم مقهورون لا قدرة لهم، وأنه وحده المولى الحق، اتبعه بذكر الدلائل والحجج على المشركين في فساد معتقدهم وإثبات التوحيد والبعث بدليل اعترافهم بربوبيته بالفطرة، فوبخهم بأن وجه السؤال إليهم مما هم معترفون بأنه مختص به، ويدل قطعا على تفرده بالأمر كله، بسؤالهم عن الرزق بالمطر من السماء، والنبات في الأرض، وخلق لهم ما يسمعون به الآيات، وما يبصرون بها نعم الله، ثم ينتقل من إثبات التوحيد إلى إثبات البعث بدليل القدرة الإلهية على ابتداء الخلق، ومن قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الإعادة، ثم عرض الأمر على العقلاء في بيان من هو أحق بالاتباع، أهو الله الخالق الهادي أم من يحتاج إلى هداية غيره؟

وجاءت ضروب هذه الحجج بطريق السؤال للتوبيخ وإلزام الخصم، وهو أسلوب أوقع وأبلغ في الدلالة على الغرض[١].

(١) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ١٠٢.

التفسير الإجمالي:

الآيات فيها طلب إلى الرسول ﷺ أن يقرع أسماع المشركين بأسئلة هدفها جواب المقابل الفطري ولإقراره تكون حجة عليه، والسؤال يتضمن ثلاث حجج وهي قوله: قل أيها النبي لمشركي مكة وأمثالهم: من ذا الذي ينزل المطر من السماء فيكون سببا في إنبات الأرض بالزرع والزهر والشجر، حيث يشق الأرض شقا بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [عبس: ٢٧-٣٠]، كقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ [الملك: ٢١]، فمصدر رزقكم بسبب بركات السماء والأرض. [١]

ثم تتابعت الأسئلة التقريرية الملزمة، بتراكيبها القصيرة السريعة متلاحقة كأنها مطارق تنزل على رؤس الغافلين، تذكرهم بحقيقة فقرهم واحتياجهم إلى الله وحده خالقهم ومدبر أمور حياتهم ومعاشهم، ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾، وأم للإضراب والانتقال السريع لتقرير حقيقة ثانية، والسمع والبصر أعظم الوسائل التي تصل الإنسان بالعالم الخارج عنه، وتمكنه من الوصول إلى رزقه الذي أنزله الله من السماء، أو أخرجه من الأرض[٢]، وهي كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] والإنسان بدون هاتين الحاستين لا يدري شيئا، وتكون بقية المخلوقات أفضل منه لاستغنائها عمّن يقوم بضرورات معاشها.

والسؤال الثالث والرابع: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أي ومن الذي بقدرته العظيمة أمر الحياة والموت؟ فيحيي ويميت مثل إخراج النخلة من النواة والطائر أو الحيوان من البيضة أو النطفة وعكس ذلك.. وفسر بعضهم الحياة والموت بالشيء المعنوي وهو إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والقول الأول لا ينفي ما يقوله الآن علماء الأحياء بأن في البذور والبيض والمني والنطفة حياة لكنها حياة خاصة لا حركة فيها ولا نمو..

---

(١) مختصر ابن كثير، ٢/ ١٩٢، والتفسير المنير، ١١/ ١٦٣.

(٢) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ٦٤.

ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم.

ثم من الذي يدبر الأمر ويدبر أمور العالم وبيده ملكوت كل شيء، وهو تعميم بعد تخصيص على بعض ظواهر الخلق والتدبير في المكونات، فمن يدبر هو المتصرف الحاكم..

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يجيبوا: إن الفاعل هو الله « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ» بلا تردد

ولا شك من غير مكابرة وعناد لوضوحها، وعدم وجود جواب في الواقع غيره.. وإذا اعترفوا بالحقيقة فقل لهم أيها الرسول: أفلا تتقون وتخافون عقاب الله بإشراككم إياه وعبادتكم لغيره مما لا يملك كل ما أنتم مقرّون به.

فذلكم الله ربكم المتصف بكل الصفات السالفة، هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم فهو المستحق للعبادة، وليس بعد الحق إلا الضلال والباطل ولا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله وقع في الضلال، فكيف تتحولون عن الحق والهدى إلى الضلال، وكما حقت الربوبية لله والألوهية لله ثبتت كلمة الله وحكمه ووعيده على الذين فسقوا وأصروا على الخروج من دائرة الحق والصلاح، وحق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، وقد يراد بالكلمة الوعيد بالعذاب، ويكون قوله ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تعليلا للحقية بمعنى لأنهم لا يؤمنون. [1] أو هي أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدي مهما تكن الآية بينة والحجة ظاهرة وقوية.

ثم تأتي الحجة الثانية: بدء الخلق وإعادته بسؤال ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، وتستمر الآيات في أسلوب الاستفهام والسؤال لإثبات

(١) انظر الكشاف ٢/ ٣٤٥.

البعث، لأنه أوقع في النفس، وأبلغ في التأثير، فطلب تعالى من رسوله ﷺ أن يسأل المشركين: من الذي خلق السموات والأرض وما فيهما؟ ولما كانوا لا يجيبون على هذا السؤال كما لم يجيبوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم البعث والمعاد لقن الله رسوله الجواب: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ إذ القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته، ثم أمر رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم في عدم الإذعان لذلك بالتعجب منهم في قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، وعن الحق - وهو التوحيد- إلى الضلال وهو الإشراك وعبادة الأصنام؟.

ثم سألهم عن شأن من شؤون الربوبية: هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضال والحيران بوجه من الوجوه؟ وهذه الهداية هي تماما كالقدرة على الخلق والتكوين، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين، أمره أن يجيبهم معرضا عن انتظار جوابهم، آتيا بجزئي الاستفهام أيضا فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة «يَهْدِي» ولما كان قادراً غاية الإسراع، عبّر باللام فقال: « لِلْحَقِّ» أراد ويهدي إلى الحق من يشاء، لا أحد ممن زعموهم شركاء، فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض.. [(١)]، أفمن يهدي إلى الحق وهو أحق أن يتبع فيما يشرعه، أم من لا يهدي غيره ولا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى إذ لا هادي غيره، فأي شيء أصابكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا هادي لكم سواه.

وبعد هذه الحجج على توحيد الربوبية والألوهية بيّن حال المشركين الاعتقادية بأن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير الله، ولا في إنكارهم للحق وتكذيب الرسول ﷺ إلا ضربا من ضروب الظن، وتقليد الآباء اعتقاداً منهم أنهم على الحق، ولكن قليلاً منهم من كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق والهدى، وسائر ما يعبد من الأصنام والمعبودات لا تضر ولا تنفع ولكنهم يجحدون بآيات الله عناداً واستكباراً وخوفاً على مصالحهم الدنيوية

(١) نظم الدرر ٣/ ٤٤١.

أن تضيع فيكونون تابعين بعد أن كانوا متبوعين.. وبعد أن بيّن الله حكمه في الظن بأنه لا يقوم مقام اليقين في شيء، ولا ينتفع به، ولا يجعل صاحبه في غنى عن اليقين فيما يطلب، علاوة على أن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى عقائدهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم على كل ذلك كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- إن الفطرة الإنسانية السليمة تقر بالربوبية، ولذلك يحتج الله تعالى على المشركين باعترافهم بربوبيته، والإقرار بالربوبية يقتضي الإقرار بالإلوهية، فالآية دالة على إثبات التوحيد عن طريق إيقاظ منطق الفطرة.

٢- يأتي تدبير الله على وفق تقديره الذي سبق به علمه سبحانه وتعالى، وتعلقت به إرادته، فالله هو الرزاق المتصرف في الملك والخلق والإيجاد، وحده الحي المميت المدبّر أمر الكون والعالم.

٣- ابتداء الحجج بقضية السؤال عمن يرزق لأنه أهم شيء يهتم به الإنسان في حياته ومعيشته، كما خص السمع والبصر لأنهما أهم الحواس، وأداة تحصيل العلوم، والتعبير بقوله «يملك» تعني هو المتصرف فيها، يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، ويصححها أو يمرضها، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره.

٤- الجاهليات القديمة (قبل الإسلام) مع شركهم خير من كثير من الناس حديثاً، من الملاحدة والطبيعيين والدهريين، فالسابقون مقرّون بالربوبية، ولكن هؤلاء ينكرون وجود الله، مع أنهم عرفوا أسراراً في الخلق كثيرة.

٥- المقصود من قوله «يخرج الحي من الميت...» إثبات القدرة الكاملة لله تعالى، وأنه خالق الموت والحياة، أياً كان المثال، لأن إطلاق النص القرآني وعمومه يمكن تطبيقه على ما يقرّه

(١) انظر: تفسير المراغي (بتصرف) ١٠ / ١٠٥.

العلم[١].

٦- لا يكون بعد الحق إلا الضلال، فإذا كان الله هو الحق المبين، فما سواه ضلال، لأن النقيضين لا يجتمعان، والحق واحد لا يتعدد، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل وضل التقدير.

٧- إن إجابة الكفار أن الله هو الخالق دليل على الفطرة، والإنحراف عنها، وفي حالة الانصراف عن الحق قدر الله في نواميسه أن الذين ينحرفون عن الفطرة لا يؤمنون، وفي قوله «حقت» وجبت لا لأنه يمنعهم من الإيمان، بل هم الذين يجحدون المقدمات التي في أيديهم ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم.

٨- في الآيات دليل على البعث، بطريق السؤال الذي جاء تقريره لله والرسول لأنها ليست من مسلماتهم، فكان الجواب لله لأنهم لا يعتقدون بالبعث.

٩- تقرر الآية لمن الأولوية بالاتباع، فالذي يهدي إلى الحق أولى ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا أن يهديه غيره، كما تقرر الحقيقة القائمة على النظر والاستدلال وترك ما لا يقوم على ذلك.

١٠- النهي عن البت في الأمور دون دليل سوى الظن، لأن الظن لا يغني عن الحق القائم على دليل شيئاً.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

المقطع يقرر إثبات التوحيد والبعث بدلائل الفطرة والنظر بطريق الاستفهام الذي يستنطق الفطرة السليمة، وينبه العقل بنفس الوقت بعدم الخروج عن دائرة المعقول، وهو يتماشى مع

(١) يقول المرحوم سيد قطب عن هذا: « وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت والحياة،، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة، وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها. انظر: الظلال ١١/ ١٧٨٢.

محور السورة كلها القائم على إثبات العقائد، ويؤكد على عقيدة البعث وتصديق نبوة محمد ﷺ، وأنه مبلغ أمين عن الله تعالى.

أما مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

فالمقطع استمرار وتأكيد لما ورد في بقية المقاطع من إثبات العقائد بطريق آخر وهو الاستفهام الذي يكون أوقع في التأثير، مع تنوع الأسلوب.

المقطع التاسع

نفي التهمة عن القرآن والتحدي به وانقسام المشركين حوله

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٣٧-٤٤].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

تحدثت الآيات السابقة عن اعتقاد الكفار وإشراكهم في عبودية الله، وهي ليست مستندة على علم بل على الظن والهوى الذي لا يغني من الحق شيئاً، ثم أتبعه هنا بالأدلة القطعية في أمر القرآن، من أنه لا يصح أصلاً أن يؤتى به من دون أمر الله تعالى لما فيه من المعجزات، رداً على قولهم أنه مفترى، فاثبت تعالى أنه هو الآية الكبرى والحقيق بالاتباع لأنه هدى، فقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ معطوف على قوله ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ ﴾التي ذكرت سابقاً رداً على مطلب المشركين من رسوله ﷺ إنزال آية معجزة غير القرآن، ثم طلبهم لقرآن غيره أو أن يبدله، وأبطل تعالى كل ما يعتقدون لاستناده على الظن والهوى، فعاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أن القرآن وحي وأن محمداً ﷺ مبرؤ من الافتراء، فجاء التوضيح مشفوعا بالتحدي بأسلوب صارخ يستنهض الحماس لمعارضته، وبعد بيان موقفهم من قبل أن يأتيهم تأويله وظهور حقيقته ذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع بأنهم يكونون على فريقين: فريق يؤمن به، وفريق يستمر على كفره وعناده داعيا لهم للنظر في عاقبة من قبلهم من المكذبين.

التفسير الإجمالي:

عادت هذه الآيات لتقرر عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد ﷺ، فالقرآن الكريم من أعظم مؤيدات الدعوة الإسلامية، وأنه لم يكن من شأن القرآن الكريم أن يفترى من دون الله ويختلق من غيره، إذ لا يصح عقلاً أن يفتريه أحد وينسبه إليه، ولا قدرة لأحد على ذلك لما في القرآن من علوم وحكم وتشريع عادل، وآداب اجتماعية، وأنباء غيوب متنوعة خارجة عن طوق البشر، فمثل ذلك لن يفترى... وعلى هذا فهو كلام الله أنزله يصدق الكتب المتقدمة عليه في النزول، كالتوراة والإنجيل، فيشهد أن الله تعالى أنزلها، ويشهد على ما تقدمه من الوحي للرسل صلوات الله عليهم، ويفصل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ، وما كتبه الله على أمة الإسلام. [1] ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه لأنه الحق والهدى، كما قال تعالى:﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:٨٢]، فهو من الله مربي الخلائق أجساماً وعقولاً وأخلاقاً وأرواحاً.. [2]

وبعد بيانه تعالى أن القرآن أجلّ من أن يفترى فنّد مزاعم هؤلاء المعاندين المتهمين للرسول ﷺ بالافتراء متعجبا من حالهم وسوء مقالهم، ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ ﴾أم يقول هؤلاء المكذبون

(١) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ١٠٧.
(٢) أيسر التفاسير ٢/ ٤٧٣

افترى محمد القرآن من قبل نفسه؟ وهو استفهام إنكار وتوبيخ، إنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة، وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة، أي: بل أيقولون افتراه واختلقه، فالاستفهام للتقريع والتوبيخ[١].

فأمر نبيه أن يتحدى جميع المكذبين له، يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال:﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام، وادعو بمظاهريكم ومعاونيكم من استطعتم دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله،.. إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مفترى[٢].

وهذه الآيات من أقوى الدلائل والحجج على ألوهية القرآن ومصدريته وعلى صدق الرسول ﷺ وقد تكرر التحدي في عدة مواضع من القرآن الكريم مما يدل على الثقة الكبيرة بأنه كلام الله تعالى. [٣] وقد بان عجزهم مع امتلاكهم لآليات التحدي، وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم، إليهم المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به.. [٤] ولا يزال هذا التحدي قائما وسيبقى إلى قيام الساعة.

---

(١) انظر أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٣ وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٥٠٧.

(٢) فتح القدير ٢/ ٥٠٧.

(٣) تحداهم أولاً بالقرآن كله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨، فعجزوا فنزل بالتحدي إلى عشر سور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ هود: ١٣، فعجزوا أيضاً فتحداهم بسورة واحدة كما في هذه الآية من سورة يونس، وفي آية سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾البقرة: ٢٣.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٤.

وليس إعجاز القرآن في فصاحته وحسن نظمه فقط، بل في معانيه التي لا تنتهي، وفيما اشتمل عليه من أخبار الأمم السابقة والحوادث المستقبلية، ولذا دعا القرآن الناس إلى تدبره واكتشاف ما فيه من إعجاز، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، فجاءت الآية هنا توبّخ المخالفين للقرآن أن يتدبروا آياته قبل أن يسارعوا في تكذيبه فقال:

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾فتكذيبهم للقرآن غير مقبول لأنه صدر عن جهل لا عن علم، من قبل أن يتدبروا ما فيه أو يفهموه، وهذا شأن المعاند الجاهل، ثم تابعت الآية ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ أي كذبوا أيضا بالقرآن قبل أن يأتيهم التأويل المنتظر، وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات[1]، من حكاية ما سلف من أخبار المتقدمين وما سيحدث من الأمور المستقبلية.

وقيل في ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾أي: كما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليداً للآباء كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شانه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة تمرداً وعناداً وبغياً وحسداً[2]، وقيل إنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه من وعيد الله بالعذاب، ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه الوعيد إذ لو رأوا العذاب ما كذبوا[3] ومثل ذلك كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وتدبرها، لذلك وجّه تعالى المخاطبين للنظر في عاقبة الظالمين المكذبين للأنبياء والاعتبار بمصيرهم، فقد أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب ونصر أنبياءه وأولياءه، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهؤلاء إن لم يتوبوا فسوف يحل بهم ما حل بغيرهم.

---

(١) روح المعاني، ٣/ ١٢١.

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٧٩.

(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٤٧٤.

وبعد الإنذار لهم ذكر أن المشركين في الحال والاستقبال فريقان فريق يصدق بالقرآن في نفسه ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، وفريق يشك فيه لا يصدق به.. وقد يراد به الاستقبال، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من سيؤمن بهذا القرآن ويتبعك.. ومنهم من سيصرّ على كفره ويموت على ذلك، والله أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلالة فيضله، فالله أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك فلا أمل فيهم، وإن كذبك هؤلاء وأصروا فتبرأ منهم ومن عملهم، وقل لهم لي عملي وهو تبليغ الرسالة ولكم عملكم وهو الظلم والفساد، ثم إعلان مبدأ المسؤلية الفردية﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ وهي مسؤولية كل إنسان بنفسه وعدم سؤاله عن ذنب غيره، ثم تتابعت الآيات في بيان مواقف المشركين، فيقول تعالى لنبيه: وأما موقف المكذبين فلا تعجب منه، فمنهم من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن ولكنهم لا يعون، وإنما يسمعون دون تدبر، فلا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك، ولا يعقلون ما يسمعون، ومنهم من ينظر إليك عند قراءتك القرآن نظرة إعجاب ولكنه لا يبصر نور الإيمان والقرآن، فلا تقدر على هداية هؤلاء لأنهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة، لفقدهم نعمة البصيرة المدركة ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، والله لا يظلم الناس فلا يسلبهم حواسهم وعقولهم التي يدركون الأشياء بها، ولكن الناس هم الظالمون لأنفسهم بتعطيلهم نعمة العقل وتنكرهم لهداية الدين، وهذا وعيد للمكذبين فإن عذابهم يوم القيامة عدل وحق لا ظلم فيه[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة لمحمد ﷺ ، التي من أدلتها تصديق القرآن للكتب السابقة وعدم مناقضتها، مما يدل على وحدة المصدر، وهذا التصديق نفسه معجزة مستقلة لموافقته للكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ لم يطلع على ذلك ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك.

(١) انظر التفسير المنير، ١١/ ١٨٤-١٨٥.

٢- القرآن لا ريب فيه من رب العالمين، لأن من مقتضى ربوبيته إنزال كتاب فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه العبد في تربيته وكماله البدني والروحي والعقلي والخلقي[١].

٣- ثبوت التحدي بالقرآن، وثبوت العجز عن الإتيان ولو بسورة من مثله، ويصدق ذلك على أصغر سورة منه وهي سورة الكوثر، وما يزال التحدي والعجز ثابتين، دالين على إلوهية مصدره المتضمن الإعجاز بألفاظه ومعانيه.

٤- من سنن التحدي أن النبي يتحدى بما برع فيه القوم، فكان قوم قريش من ذوي الفصاحة والبلاغة، ومع ذلك عجزوا مجتمعين على أن يأتوا بأقصر سورة منه، لذلك فغيرهم أكثر عجزا منهم.

٥- عداوة المشركين للقرآن من باب من جهل شيئا عاداه، فقوله ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ فالإحاطة إرادة ما هو كالحائط حول الشيء، فإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه.. قال العلامة ابن الجوزي في زاد المسير: قيل لسفيان بن عيينة: "يقول الناس كل إنسان عدو ما جهل فقال: هذا في كتاب الله، قيل أين؟ فقال:﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾". [٢]

٦- الإخبار بالغيب الدال على إعجاز القرآن في قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾وتم كما أخبر تعالى فقد آمن عدد كبير من المشركين ولم يؤمن آخرون.

٧ - التهديد والوعيد للمكذبين المفسدين، وتقرير المسؤولية الفردية لكل إنسان وعدم أخذ أحد بذنب آخر، بإعلان براءة رسول الله ﷺ من أعمال الكافرين، فعمله الدعوة والتبليغ، وقد أدى الأمانة ولا يتحمل عاقبة أعمال المكذبين.

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٣.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٣، وقال كذلك: وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن من جهل شيئا عاداه؟ فقال: نعم، في موضعين قوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ ﴾ الأحقاف:١١.

٨- أن عمى البصيرة حجب المشركين عن الإيمان فهم يستمعون للقرآن وينظرون للنبي وهو يتلو ويعلم، فهم لا ينتفعون بأسماعهم وأبصارهم للهداية فكأنها بحكم المعطلة لأنها لا تسمع الحق ولا تنظر إلى الحق فتهتدي وما ذلك إلا لعمى البصيرة، وهو معنى قوله تعالى:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

٩- مواساة الرسول ﷺ بأنه أدى ما عليه وبلغ وليس عليه هدايتهم بل هدايتهم على الله، لأنه كما لا يقدر على إسماع من سُلب السمع، وإبصار من حرم البصر فلا يقدر أن يوفق هؤلاء للإيمان إذا أصروا على الكفر. وتعليم رسول الله ﷺ طريق الحجاج والرد على الخصوم المشركين[١].

١٠- انتفاء الظلم عن الله وإثباته للإنسان نفسه، فالله لا يظلم الناس بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم بإرسال الرسل،.. ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حواسهم ومداركهم فيما خلقت له[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة

جاء في صلب محور السورة الذي يؤكد على تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة لمحمد ﷺ مضيفا إليه أنه لا ينبغي لهذا القرآن المعجز أن يفترى وينسب لغير الله، متحديا الجن والإنس أن يأتوا بسورة من مثله، وأن المكذبين له - عنادا وجهلاً - لم يستعملوا حواسهم كما ينبغي لفرط حقدهم، وهم مسؤولون عما يؤول إليه أمرهم لأن الله لا يظلم أحدا.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

المقطع متواصل مع ما مضى من المقاطع في إثبات عقيدة الوحي بالقرآن للرسول محمد ﷺ مؤكداً على ذلك بالتحدي به ولو بسورة واحدة فثبت التحدي وثبت إعجازه بالدليل القاطع.

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٧.

(٢) - تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل 37/ 9.

المقطع العاشر

سرعة زوال الدنيا وعذاب المشركين في الدارين

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٤٥-٥٦].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن بينت الآيات السابقة أحوال الكافرين ووصفتهم بقلة الإصغاء وترك التدبر، وتكذيبهم القرآن الكريم والنبي ﷺ وكان عملهم عمل من يكذب بالجزاء ورأى هذه الدنيا الزائلة فقط، أتبعه هنا بالوعيد بالجزاء في الآخرة على ما كان منهم في الدنيا، ذاكراً الحشر وما فيه من أهوال تجعلهم يستقلون مدة مكثهم في الدنيا وأعمارهم وكأنها ساعة من نهار لا تنفع إلا للتعارف بينهم، ومن مشهد الحشر ينتقل السياق للحديث مع الرسول ﷺ بشأن المكذبين، بأن بعض هذا العذاب سيكون في الدنيا وتراه أيها الرسول وتقر عينك برؤيته، وبعضه آجلا في الآخرة، واتبعه ببيان الشبهة الأخرى لهم وهي أنهم كلما هددهم القرآن بنزول العذاب ومرّ زمان ولم يظهر قالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قاصدين القدح بنبوته فأجابهم تعالى

بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله وأنه بشر مبلغ، ولو نزل العذاب ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم نؤمن عنده فالإيمان حينئذٍ باطل، فيكون العذاب في الدنيا وأشد منه في الآخرة، راداً على من يسأل استهزاءا ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾؟ للمعاد والعذابَ ملقنا نبيه الجواب مدعوما بالقسم: إِي وَرَبِّي.. وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به والملك لله، وأن النبوة والبعث قائمة على الإيمان بالله القادر الحكيم.

التفسير الإجمالي:

تتحدث الآيات عن موقف المكذبين في مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو الحشر، تبدو فيه الحياة التي شغلتهم وأخذت كل اهتمامهم سريعة قصيرة الأمد، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم، وحينها يحسون بخيبة الأمل ويدركون الحقيقة المرة، فيطلب تعالى من نبيه: أن أنذرهم أيها الرسول يوم يجمعهم الله ويسوقهم إلى موقف الحساب والجزاء، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مدة قليلة ثم انقضت.. هذه الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل ستزول بموتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها، إنها ساعة من نهار لا تتسع لأكثر من تعارف - والساعة مثل للقلة - ثم انقضت حال كونهم يتعارفون[1]، أي: يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال، أو فهم يتعارفون.. [2] يقول ابن كثير: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه[3].

وفي قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ وجهان: **أحدهما**: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، **الثاني**: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من النهار لقربه[4]،

---

(١) انظر تفسير المراغي ١٠/ ١١٣.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ١٨٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٦.

(٤) النكت والعيون، ٢/ ٤٣٧.

قال بالأول الضحاك، وبالثاني ابن عباس[١].

ثم يعلن القرآن خسارتهم لأنهم كذبوا بالبعث والنشور، ومن ثم يخاطب تعالى نبيه: وإن أريناك بعض ما نعدهم من العذاب فذاك، أو نتوفينك قبل ذلك، فعلى كل حال مرجعهم إلينا جميعا بعد موتهم فيحاسبهم ويجازيهم بحسب سلوكهم في الدنيا.. [٢]، وقد تحقق ذلك وأراه الله ما نزل بهم من القحط والمجاعة، ونصره عليهم في أول معركة قتل فيها رؤساؤهم وصناديدهم في بدر وما بعدها حتى فتح الله عليه أم القرى.. وختم الآية بقوله:﴿ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ تقرير لمجازاتهم يوم القيامة بأعمالهم، وشهادته عليها كافية في وجوب تعذيبهم.

وكل قوم يُنظرون حتى يجيء رسولهم فينذرهم ويبين لهم، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة، وبعد الإعذار لهم بالتبيين، وعندئذٍ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول[٣].

ويلتفت السياق إلى تحدي واستعجال الكفار﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ مشككين بوقوعه واستهزاءاً وسخرية مما كان يعدهم من نزول العذاب.. إذ يقول المشركون: متى هذا العذاب الذي تعدنا به يا محمد إن كنت صادقا؟ وقد أرشده الله إلى الرد ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ﴾أي: قل لهم: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضررا ولا أجلب لها نفعا، إلا إذا شاء الله، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب، فما أنا إلا رسول مبلغ عن الله أوامره، ولست بإله حتى آتيكم بما تطلبون[٤]، ثم يلتفت السياق ليتحدث عن مصير المكذبين بأن لكل أمة من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم - والأجل هنا العذاب والهلاك - فإذا جاء أجل الهلاك فلا يتأخر عنهم برهة ولا يتقدم. وفي هذا المعنى

---

(١) انظر معالم التنزيل للبغوي، ٢/ ٣٦٤.
(٢) النكت والعيون، ٢/ ٤٣٨.
(٣) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٩٦.
(٤) قبس من نور القرآن، ١٥٤.

آيات كثيرة في القرآن الكريم.

ثم طلب تعالى من رسوله أن يسألهم: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون به، وفي وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم، أو بأمور معاشكم بالنهار، فأي نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون؟ أعذاب الدنيا أم الآخرة؟ وأي من ذلك حماقة وجهالة.. لأنهم أحق بالخوف منه، والإيمان به يدفعه عنهم، ثم إذا وقع بالفعل أتؤمنون به حين لا ينفع الإيمان إذ صار ضرورياً بالمشاهدة والعيان، لا تصديقا للرسول ﷺ، وقال لهم على سبيل التوبيخ: الآن آمنتم به اضطرارا وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكذيباً به واستكباراً، فتجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، وما ذاك العذاب إلا جزاء ما صنعوا في الدنيا وبما كنتم تكسبون باختياركم الكفر والظلم والإصرار عليه، وليس في هذا الجزاء ظلم لأنهم لم يعودوا أهلاً للكرامة وجوار المولى في جنة الخلد[1].

وقد أقسم تبارك وتعالى على ذلك لأهمية الموضوع حين يكرر المكذبون السؤال ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد على جهة الاستهزاء والإنكار أحق ما وعدتنا به من أمر البعث بعد الفناء للحساب والجزاء؟ أو ما تعد به في العاجل والآجل؟ فقل لهم: نعم والله إنه لكائن لا شك فيه، ولستم بمعجزين ربكم لأنكم في قبضته وسلطانه.

وجاءت الآيات الكريمة لتصور لنا حال هؤلاء المجرمين المنكرين للبعث والجزاء، وحسرتهم وندامتهم على ما فرطوا في هذه الحياة الدنيا.. وتذكر أنهم يتمنون لو يفتدوا من عذاب الله بملئ الأرض ذهبا، ولكن هيهات أن يقبل منهم فداء أو تنفعهم شفاعة لأن القيمة هناك للأعمال لا للمال.. [2]، والآيات في منع قبول الفداء في الآخرة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ

(١) انظر المراغي ١٠/ ١١٩-١٢٠.

(٢) قبس من نور القرآن الكريم، ١٥٧.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقوله: ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج: ١١-١٤]. ويذكر تعالى عن الكافرين أنهم لما رأوا النار أسروا الندامة أي: أخفوها ولم ينطقوا بها في ندمهم الشديد على عدم اتباعهم الرسول ﷺ وقضى الله بينهم بالعدل الإلهي والحال أنهم لا يظلمون بأن أخذوا بما لم يكتسبوا، ومن ثم يوجه تعالى نداء تحذير للمشركين أن له ما في السموات والأرض يتصرف في ملكه كيف يشاء، وما وعدكم به من العذاب حق ثابت لا يتخلف، وهو القادر على الإحياء والإماتة، وإحياء الكافرين وحشرهم ومجازاتهم، مقررا مرة أخرى مبدأ المعاد بقوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ .

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- قصر أمد الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى الآخرة الباقية، ولذلك استقل المكذبون المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا كأنها لم تكن[1]، ويرى سيد قطب أن قوله تعالى:﴿ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾أن هذا مجرد تشبيه لهذه الحياة الدنيا وللناس الذين دخلوا ثم خرجوا كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف[2].

٢- تقدير الكفار لقصر الحياة الدنيا في ذلك الموقف الرهيب معنى يتكرر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله:﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله:﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ

(١) فتح القدير للشوكاني، ٢/ ٥١٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١/ ١٧٩٥.

أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

٣- الخسارة الكبرى لمن خسر الآخرة وكذب بالبعث، وهي خسارة لن تعوض لأن يوم القيامة لا يرجى القيام فيه بالبديل، ولا تنفع التوبة والندم، فجميع لذات الحياة الدنيا لا تساوي شيئاً أمام عذاب الآخرة، فمن باع آخرته بالدنيا فقد أعطى الكثير وأخذ القليل.

٤- يتعارف الناس في الآخرة كما يتعارفون في الدنيا، ولكنه تعارف عابر لهول ما يرون، قال الكلبي: يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورأفة وعطف، ثم تقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، كما قال:﴿ وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج:١٠]، ويبقى تعارف التوبيخ وهو الصحيح لقوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [سبأ:٣١-٣٣]، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب:٦٧]، فأما قوله ﴿ وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ و﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فمعناه لا يسأل سؤال رحمة وشفقة، وقيل معنى يتعارفون: يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم.. والله أعلم.[(١)]

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٢٩٥.

٥- الله يتولى تدبير الأمور، فلا يستعجل قضاء الله، ففي الوقت الذي سرى فيه تعالى عن نبيه بأنه سيريه بعض ما ينزل بالكفار لكنه جعل في النهاية المرجع له، وهو شهيد على ما يفعلون في حياة الرسول وبعده.

٦- أن الله لا يعذب قوما حتى يبعث فيهم رسولاً يبلغهم وينذرهم ويبين لهم، حتى تقوم الحجة عليهم، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة، كما قال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥]، وبعد الإعذار لهم بالتبيين، وعندئذ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول.

٧- تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر حتى يؤدي رسالته بإعلامه بأنه سيعذب أعداءه، وفي ذات الوقت توضح الآيات حقيقة الألوهية والعبودية، فقضية عذابهم وتوقيته بيد الله، قد تكون في حياة الرسول أو بعد وفاته وتبقى مهمته التبليغ والإنذار، ولذلك أمره تعالى حين أعادوا السؤال في تحد واستعجال العذاب أن يجيبهم بأنه لا يملك ذلك لنفسه فكيف لغيره.

٨- لا يملك أحد من الخلق لنفسه فضلا عن غيره، ضرا يدفعه أو نفعا يجلبه إلا بإذن الله تعالى ومشيئته، وخاب الذين يعولون على الأولياء في جلب النفع لهم ودفع الشر عنهم(١)، وفي قوله «لا أملك لنفسي ضرا..» قدم الضر في الآية هنا وإن كان مأموراً أن يتحدث عن نفسه، لأنهم هم يستعجلون الضر، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر، أما في موضع آخر في سورة الأعراف فقدم النفع في مثل هذا التعبير، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢) ﴾ [الأعراف:١٨٨].

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨١.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٩٧.

٩ - تقرير ربوبية الله تعالى لسائر المخلوقات في العالمين العلوي والسفلي. وتقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة، فقد ركزت الآيات على البعث بأساليب متعددة، وبراهين متنوعة لما في الإيمان به من استقامة أمور الحياة والانضباط على المستوى الفردي والعام، لأنه صمام الأمان من كل فساد وظلم.

١٠- لا ينفع الإيمان ولا التوبة عند معاينة العذاب أو ملك الموت، وعظم عذاب يوم القيامة حتى أن الكافر ليود أن يفتدي منه بما في الأرض جميعا.

١١- جواز الحلف بالله إذا أريد تأكيد الخبر، و(إي) حرف إجابة تقترن دائما بالقسم نحو: إي والله، وإي وربي. وقد ورد القسم على اليوم الآخر في القرآن في ثلاثة مواطن يقول ابن كثير: "وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد: في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ(١) ﴾ [التغابن:٧].

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع لا يخرج عن محور السورة الأصلي وهو التأكيد على العقائد، والإيمان بأهم ركن من أركانها وهو اليوم الآخر وما فيه من مشاهد كالحشر وعذاب الكفار والمعاد الذي ركز عليه المقطع، وهو ما أخبر به القرآن وبلغ به الرسول ﷺ.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

يتناغم هذا المقطع مع بقية المقاطع التي تتحدث جميعها عن أركان العقيدة الثلاثة: التوحيد، والنبوة واليوم الآخر، فجاء هذا المقطع لتقرير عقيدة البعث وما يترتب عليه والتي لا بد من الإقرار بها.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٧.

المقطع الحادي عشر

خصائص القرآن ومقاصده وخصوصية الله بالتشريع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [٥٧-٦١].

المناسبة بين المقطع لما قبله:

بعد بيان قضايا العقائد الثلاث في الآيات السابقة: التوحيد والرسالة والبعث، والدلائل عليها والتحذير من التكذيب بها، جاء هنا دور النصح والتذكير بذكر التشريع العملي للقرآن مجملا لمقاصده الأربعة: الموعظة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين، وفيها من إصلاح الناس ما يظهر للعاقل أنه حق وخير وصلاح بذاته، ولا يصح للعاقل أن يماري فيه، بل هو أعظم نعمة تقتضي الفرح والشكر على المنعم، وهو خير من كنوز الدنيا الزائلة، مبينا بعد ذلك التشريع بالتحليل والتحريم، بأنه حق لله تعالى فقط، وأن الأصل في الأشياء والأرزاق الإباحة، وأن ما يقوم به المشركون من تحليل وتحريم لا دليل لهم عليه، وأنه افتراء على الله لأنه لم يقم لهم دليل عقلي ولا نقلي على هذا التمييز بين الأمور، فهو منهج فاسد باطل قائم على الهوى، وأن ما عليه الأنبياء هو الحق والصواب، مع وعيد هؤلاء المفترين بالعذاب يوم القيامة، ومطمئناً النبي ﷺ بأنه والمؤمنين في كل شأن من شؤونهم الدينية والدنيوية هم في رعاية الله شهيدا عليهم فهو تعالى لا يغيب عن علمه مقدار ذرة في الأرض ولا في السماء لأنه المالك لكل شيء.

التفسير الإجمالي:

يخاطب تعالى الناس كافة بأنه جاءهم كتاب عن طريق الوحي لنبيه محمد ﷺ جامع لكل أنواع الخير والحكم، فيه سعادة الدنيا والآخرة.. ذلك الكتاب الذي تكذبون فيه، فيه الموعظة الحسنة التي تصلحكم، وفيه الشفاء والهدى والرحمة، فهو كفيل لحل كل المعضلات.

وقد تضمنت هذه الآية مقاصد القرآن وخصائصه وهي:

١ - كونه موعظة حسنة من عند الله، يجمع بين الترغيب والترهيب، فيبعث على فعل الحسن ويدعو إلى ترك القبيح مثل قوله تعالى:﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

٢ - وهو شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك والنفاق والكفر وسوء الاعتقاد والخلق، كقوله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

٣ - وهو هاد إلى الحق واليقين والصراط المستقيم المحقق لسعادتي الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

٤ - وهو رحمة للمؤمنين خاصة ينجيهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، ويحجبهم من النيران، ويرفعهم إلى درجات الجنان، وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالإيمان[(١)].

فكأن الله تعالى يقول للناس بعد بيان هذه المقاصد الأربعة: فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم تحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب، ولا تفكرون في آدابه ومواعظه وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه... [(٢)]

فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان، فبذلك

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٠٠، وانظر تفسير المنار/ ١١/ ٤٠٤.

(٢) تفسير المنار، ١١/ ٣٩٩-٤٠٠.

وحده فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال ولا أعراض الحياة، إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبدا خاضعا لها[١].

وقد من الله تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة فأمر رسوله أن يبلغ المؤمنين بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان، وبالرحمة الخاصة بهم الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة.

وبعد أن بينت الآيات سعادة البشرية باتباع القرآن.. تعرض لأفعال الجاهلية في حياتها العملية البعيدة عن منهج الله واتباعا لأهوائهم واعتداءً على خصائص الله سبحانه وتعالى، ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله، وهو من حق الله تعالى وحده، والأصل في الأرزاق وسائر الأشياء التي ينتفع بها الإباحة، فطلب من رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني أيها الجاحدون للوحي ماذا ترون في رزق الله الذي أنزله إليكم؟ وكله من ذلك المقام الأعلى فإذا أنتم من عند أنفسكم ودون إذن من الله لكم تحرمون منه أنواعا، وتحلون منه أنواعا، والتحليل والتحريم تشريع، والتشريع حاكمية والحاكمية ربوبية وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم![٢]

فهل الله أذن لكم في هذا التشريع بوحي منه، أم على الله تفترون؟ فإن قلتم أذن لنا بوحي فلم تنكرون الوحي وتكذبون به، وإن قلتم لا وحي ولكننا نكذب على الله فموقفكم إذا شر موقف إذ تفترون على الله الكذب والله تعالى يقول:﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [يونس: ٦٠][٣].

وجاءت أمثلة هذا التحريم والتحليل في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٩٩.

(٢) السابق ١١/ ١٨٠٨.

(٣) انظر أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٥.

مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام:١٣٦]، وقوله:﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، فذكرت الآيات مما حرموه البحيرة والسائبة، والثياب التي يحرمون للطواف بها، والحرث الذي جعلوه لآلهتهم، ومما أحلوه كالميتة التي استباحوها.

وبعد أن سجل سبحانه عليهم جريمة افتراء الكذب على الله أتبعه بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء وشدة عقابهم يوم القيامة إذا هم وقفوا بين يديه سبحانه، فما ظنهم في ذلك اليوم أيغفر لهم ويعفى عنهم ويتركون بلا عقاب؟ لا بل سينالون عقابهم الذي يستحقون ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرع لهم من الدين ومن ذلك أن جعل الأصل الإباحة وحق التحريم والتحليل له وحده[(١)]، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلك الفضل كما يجب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

وقيل إن الله لذو فضل على الناس في كونه لا يعجل لهم العقوبة... ولكن أكثر الناس لا يشكرون وذلك لجهلهم وسوء التربية الفاسدة فيهم، وإلا العهد بالإنسان أن يشكر لأقل معروف وأتفه فضل[(٢)].

ومن شكر النعمة أن يظهر أثرها على الإنسان، فلا يترك الطيبات ولا يسرف، فقد أخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت الرسول ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: هل لك مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال:

---

(١) تفسير المراغي، ١١/ ١٢٥.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٥.

«إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمته عليك وكرامته»[١].

وبعد بيان فضله على عباده وواجب شكرهم لها بالطاعة ذكّرهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم ما دق منها وما عظم في جميع ملكوت السموات والأرض، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأنا في أعظم شؤونه «وما تكون» أيها الرسول في شأن: أي أمر من أمورك المهمة، الخاصة والعامة، التي تعالج بها أمر الأمة في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة،... وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك، تعبدا به أو تبليغا له، ثم انتقل الخطاب إلى الأمة كلها في شؤونها وأعمالها ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ ولا تعملون أي عمل خيرا كان أو شرا، شكرا كان أو كفرا وإن كان كمثقال الذرة إلا كنا رقباء مطلعين عليكم إذ تخوضون وتندفعون فيه فنحفظه عليكم لنجزيكم به، ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه أقل شيء ولو كان مثقال ذرة في الوجود السفلي والعلوي وقدم النبي لعلو مقامه كقدوة، ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه فقال ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ولا شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩]، ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كعرشه عز وجل﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ إلا وهو معلوم ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن تام البيان، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها كمالاً للنظام.

ويرى سيد قطب أن في الآية طمأنة الرسول ﷺ ومن معه بأنهم في رعايته وولايته، لا يضرهم المكذبون الذين يتخذون مع الله شركاء، إنه ليس شمول العلم وحده، ولكن شمول الرعاية، ثم شمول الرقابة.. [٢]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٤/ ١٣٧. والبيهقي في شعب الإيمان، ٤/ ١٣٦، وفتح الباري ١٠/ ٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- بيان فضل القرآن الكريم وعظمته ببيان مقاصده التي يحملها من الموعظة والشفاء للصدور، والهدى، والرحمة للمؤمنين. وموعظة القرآن وشفاؤه لما في الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل، وهدايته إلى الحق موجهة إلى أمة الدعوة وهم جميع الناس، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها[١].

٢- مَنّ الله تعالى على المؤمنين بالجمع بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منهما في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١، ١٤]، وأن دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هذا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به.. ويؤيده ما روي عن أنس مرفوعا: «فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله»[٢]، وعن ابن عباس روايتان أحدهما: «إن فضل الله القرآن ورحمته الإسلام»، والثانية: «إن الفضل العلم، والرحمة محمد ﷺ»، وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد: «فضل الله الإيمان ورحمته القرآن»[٣] وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها. والجامع لمعاني الروايات كلها إن فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن، ورحمته ثمرته التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم...[٤]

٣- إن نعمة الهداية والإيمان بنزول القرآن أعظم من جمع المال، وعلى الناس أن يشكروا ربهم

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٣.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٥٥١٢) ٥/ ٣٤٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي، ٨/ ٣٥٣.

(٤) انظر تفسير المنار، ١١/ ٤٠٥-٤٠٦.

على ما منّ عليهم، ولا ينخدعوا بما عليه الكثيرون من الاشتغال بجمع حطام الدنيا ونعيمها الفاني، وأن الفرح بما تفضل به الله، وبما رحم به المؤمنين هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعونه من الأموال وسائر خيرات الدنيا لا محالة لأنه يؤدي إلى سعادة الدارين، وتلك الأموال سبب السعادة في الدنيا فقط.

٤- يستحب الفرح بالدين ويكره الفرح بالدنيا، فقد ذم القرآن الفرح في مواضع كقوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله:﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠]، ولكن هذا مطلق فإذا قيد الفرح لم يكن ذماً لقوله تعالى:﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وها هنا قال تعالى﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ أي: بالقرآن والإسلام[١]، وروي أن النبي ﷺ قال: «من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن، ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه، ثم تلا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾الآية»[٢].

٥- تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ ، وبيان أن التحريم والتحليل من حق الله تعالى وحده، وليس لأحد سواه من الخلق، ولو كان نبيا أو رسولاً، والرسول يبلغ ما يحرم الله وما يحلل عن طريق الوحي، وفيه حرمة الكذب على الله، وأن صاحبه مستوجب للعذاب، ووعيد من يفتري على الله الكذب فينسب الكذب إليه. وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ الاستفهام تقريري مشوب بالإنكار عليهم، وفيه توبيخ من تجرأ على تبعيض الأحكام الشرعية فجعل بعضها حلالاً، وبعضها حراما، وهذا تنديد بمن يتهاون في الفتوى ولا يحتاط في وصف الأحكام فيحلل أو يحرم دون تثبت[٣].

٦- عبر عن إعطائهم الرزق بإنزاله لهم لأن أرزاقهم من حبوب وثمار وأنعام كلها متوقفة على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٠٠.

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/١٤٦-١٤٨، والقرطبي في تفسيره ٨/ ٣٥٤، والطبراني في الأوسط.

(٣) التفسير المنير، ١١/ ٢٠٦.

المطر النازل من السماء، حتى سمى العرب ببني ماء السماء، وشاهده قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤- ٢٥].

٧- إن الله ذو فضل على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرعه لهم من الدين ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده، كيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضاراً بهم، وحصر محرمات الطعام في أمور معينة[1].

٨- حاجة البشرية إلى هدي القرآن وشرعه، بدليل ما كان عليه الناس في الجاهلية وما هم عليه الآن من فوضى التشريع، فقد حرمت الجاهلية كثيراً من الطيبات من الرزق من غير دليل يستندون عليه، مما يؤكد حاجة الناس إلى تشريع يقطع على ذوي الأهواء التلاعب بتلك القضية المهمة.

٩- وجوب مراقبة الله تعالى وحرمة الغفلة، لاطلاعه على ما تكنه النفوس، وشعور الإنسان بذلك يملأ النفس رهبة وخوفاً، فتكون باعثا على الطاعة ورادعاً عن المعصية، وفي التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يُفيض الإنسان مهتما به مندفعا فيه، جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليهم وكذلك في التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى[2]. وذلك كله مثبت في كتاب وهو اللوح المحفوظ كما صرحت الآيات والأحاديث بذلك. [3]

١٠- في الآية الأخيرة إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدركها الأبصار، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر المرئيات أضعافا مضاعفة، ولم يكن هذا مما يخطر في

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٥.

(٢) المصدر السابق ١٢٨.

(٣) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٦.

البال في عصر التنزيل، فهو من دقائق تعبير القرآن التي تظهر حكمتها للناس آنا بعد آن، وهي من أنواع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع في بيان مقاصد القرآن في كونه موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين، يتماشى مع محور السورة القائم على تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد بطرق مختلفة ودفع الشبهات حوله، فجاء هذا المقطع لتقرير الوحي بإلزام المنكرين له من المشركين بالأدلة العقلية، التي لا ينكرها عاقل.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

جاء هذا المقطع متماشياً مع بقية المقاطع الأخرى في تقرير الوحي وإثبات النبوة، بالإشادة بفضل القرآن وعظمته الخارجة عن طوق البشر، لما يتضمنه من مقاصد جمة تستوجب الفرح به وشكر الله تعالى على تلك النعمة، وخاصة نعمة اختصاص الله بالتشريع وتجنب أهواء البشر، مع التهديد والوعيد لمن ينكره بأنه مطلع على خفايا الأمور صغيرها وكبيرها.

المقطع الثاني عشر

قواعد الجزاء

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [٦٢-٧٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لعباده سعة علمه ومراقبته لعباده، وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها، وذكرّهم بما يجب عليهم من شكره على تفضله عليهم ذكر هنا حال الشاكرين المتقين الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة(١)، ووصفهم بالأولياء لله المقربين منه لتقواهم، وهؤلاء لا خوف عليهم من شيء يستقبلونه، ولا يحزنون على ما يفوتهم من حظوظ الدنيا لأن قلوبهم معلقة بالله، ولما نفى الحزن عنهم زادهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا بظهور دينهم وخذلان أعدائهم، وبالرؤية الصادقة، وفي الآخرة بالفوز بالجنة، وعداً لن يتبدل، ثم طمأن الرسول ﷺ إزاء شبهات المكذبين وتهديداتهم بأن لا يحزن مواساة له، لأنهم ضعفاء والعزة لله

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٩.

جميعا فهو المالك للسموات والأرض مدللاً على عظمته بتذكير الناس بآثار قدرته وبديع صنعه وتدبيره لخلقه بما يصلحهم بأن جعل لهم الليل للراحة والنهار للعمل، وأعداؤه شركاء يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، مبينا وفاضحا لبعض شبهاتهم القائمة على الظن، في نسبة الولد إلى الله من غير دليل، بأنها افتراء على الله، كما افتروا عليه في التحريم والتحليل، متوعدا لهم بالعذاب الشديد يوم القيامة بسبب كفرهم.

التفسير الإجمالي:

يخبر تعالى مؤكداً الخبر بأداة التنبيه (ألا) وأداة التوكيد (إنّ) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ﴾ وأولياء الله هم أحباؤه وأصفياؤه الذين اختارهم الله لجواره في دار الخلد والنعيم، فهؤلاء لا يخافون أن يفوتهم شيء من الدنيا فرحين بفضل الله ورحمته، ولا يحزنون عليه إذا فاتهم، أو أنهم لا يخافون من حصول ضارها، ولا يحزنون من فوات نافعها، أو أنهم لا يخافون ولا يحزنون يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أو أنهم عند الموت لا يحزنون على مفارقة الدنيا ولا يخافون مما يستقبلون من أمور الآخرة بسبب ما تحمل لهم ملائكة الرحمة من البشارة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقد يكون المعنى شاملاً لجميع هذه المعاني ولمعان أخر يعلمها سبحانه[١]، وقيل لا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي لا تخافون أولياء الشيطان وأنصارهم.[٢] ثم عرّف بهم تعالى ووصفهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فهم آمنوا بالله ورسوله، ويتقون سخط الله فلا يتركون واجباً ولا يغشون محرما، فأولياء الله هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح، وعن ابن عباس أنه

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف، ٩٤.

(٢) التفسير المنير، 11/ 211.

قال: قال رجل يا رسول الله من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُأووا ذُكِرَ الله» (١) .

ولما نفى الخوف والحزن عنهم زادهم مبيناً توليه لهم بعد أن شرح توليهم له، بأن لهم البشرى الكاملة الخاصة في الحياة الدنيا بالنصر والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع الله ودينه ﴿ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١]، وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [النور: ٥٥].

ومن بشائر الدنيا لهم الرؤيا الصادقة في النوم عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له» (٢)، وعن الرسول ﷺ قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» (٣) وفي رواية: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» (٤).

ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال، وبالدرجة الرفيعة عند النزع، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢ ﴾ [النحل: ١٦].

ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة وتلقي الملائكة يبشرونهم بالجنة (٥) وهي الفوز العظيم، لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح، كما قال

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد، ص ٢٤٨-٢٤٩، والنسائي في التفسير ١/ ٥٧١، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٦، وله شواهد كثيرة.

(٢) رواه الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٦/ ٥٥٤، وابن ماجة في الرؤيا برقم (٣٨٩٨) ٢/ ١٢٨٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ٢/ ٣٤٠، ٤/ ٣٩١، والدارمي في الرؤيا ٢/ ١٢٣، والإمام أحمد في المسند ٢/ ٣١٥، ٣٢١، وانظر تفسير البغوي معالم التنزيل ٢/ ٣٦٩.

(٣) رواه الترمذي في سننه (٢٢٧٢) ٤/ ٥٣٣، والدارمي (٢١٨٣) ٢/ ١٦٦، وابن ماجة ٢/ ١٢٨٣، وأحمد ٦/ ٣٨١.

(٤) رواه البخاري في التعبير، باب المبشرات ١٢/ ٣٧٥، والمصنف في شرح السنة ١٢/ ٢٠٢.

(٥) التفسير المنير، ١١/ ٢١٢.

تعالى:﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[التوبة: ٢١].

ومنها الذكر الحسن، وعن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن"[١].

وهذه البشرى وعد من الله لا تبديل لكلمات الله فلا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده كما قال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾[ق: ٢٩].

ولما تقدمت البشرى بنفي الخوف والحزن عن الأولياء علم أن المعنى: هذه البشرى للأولياء وأنت رأسهم فلا تخف، فعطف عليه قوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ في نحو قولهم: إنهم يغلبون، وفي تكذيبك والاستهزاء بك وتهديدك فإن ذلك قول يراد به تبديل كلمات الله الغني القدير، وهيهات ذلك من الضعيف الفقير فكيف بالعلي الكبير! وإلى هذا يرشد التعليل لهذا النهي بقوله: «العزة لله» أي الغلبة والقهر، وتمام العظمة لله الملك الأعلى حال كونها جميعا، فسيذلهم ويعز دينه والمراد بذلك التسلية عن قولهم الذي يؤذونه به[٢] وهو وعد بالنصر على أعدائه، وبشرى له فلا يبالي بما يتفوهون لأن العزة لله ولرسله كما وعد تعالى كما قال: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقد نهى الله رسوله عن الحزن من قول الكفار في آيات أخرى مثل:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:٣٣]، وقد ختم الله الآية بالسمع له والعلم به وقصرهما عليه، فهو السميع لما يقولون، وهو العليم بما يفعلون من إيذاء وكيد، وسوف يجازيهم على ذلك بإذلالهم وإحباط أعمالهم.

ثم الدليل على أن العزة لله جميعاً، وكون الجزاء بيده بأن لله كل ما في السموات والأرض

(١) رواه مسلم في كتاب البرروالصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٤٢) ٤/ ٢٠٣٤، وأحمد (٢١٤٢،٢١٤٣٨، ٢١٥١٥) ٥/ ١٥٦، ١٥٧، ١٨٦. كما روا ابن حبان في صحيحه في عدة مواضع، وراجع مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٠.

(٢) نظم الدرر، ٣/ ٤٦٢.

عبيدا مملوكين له،... والعبادة للمالك دون المملوك وللرب دون المربوب، كما بين تعالى أن هؤلاء المشركين الذين بعبدون غير الله ويستغيثون بهم في الشدائد ويقدمون لهم النذور والقرابين فهم لا يتبعون شركاء له في الحقيقة يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر، إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة فقاسوا الرب في تدبير أمور عباده على الملوك وجهلوا أن أفعاله تعالى تجري بمقتضى مشيئته الأزلية... وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له، وما هم باتباع هذا الظن إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون، ثم أقام البرهان على مضمون ما قبله من نفي الشركاء له في الخلق والتقدير، بأن جعل الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع، فجعل الليل مظلما لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش، وجعل النهار مضيئا ذا إبصار[1] لتنتشروا في الأرض وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب. وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء:١٢].[2]

وفي هذا من الدلائل والآيات على أن المعبود بحق هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما، لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر واعتبار.. كما قال تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

ثم ذكر تعالى نوعا آخر من أباطيلهم وشبهاتهم وهو زعمهم أنه تعالى اتخذ ولداً كما قال اليهود والنصارى مثل ذلك، يقول المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن

---

(١) مبصراً: أي مضيئا لتهتدوا به في حوائجكم، والمبصر: الذي يبصر، والنهار يُبصر فيه، وقال مبصرا تجوزا وتوسعا على عادة العرب... انظر تفسير القرطبي ٦/ ٣٠٥.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٣٣.

الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، فنزّه سبحانه نفسه عما لا يليق بربوبيته وألوهيته باتخاذ الصاحبة والولد وعن الشركاء والأنداد لغناه المطلق، فأكد هذا التنزيه﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ فهو في غنى عن الخلق وعن الولد، فكل ما في الوجود من العالمين العلوي والسفلي ملك له، والجميع في حاجة إليه، كما أن اتخاذ الولد من صفات المخلوقين لحاجتهم لذلك، «والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانسه شيء ولا يشابهه شيء»[1]، كما أنه ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد هذا القول فهو بلا علم ولا وحي، وأكد ذلك بأسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أي: أتقولون على الله قولا لا حقيقة له، وتنسبون إليه تعالى ما لا يصح عقلا وواقعا نسبته إليه، وهنا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، أو الإنكار والوعيد الأكيد والتهديد الشديد[2]، فهذه كذبة كبرى لا فلاح ولا نجاة لمن يقول بها، ولذلك توعدهم بعدها بأن أمر الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء المفترين بأن الذين يفترون على الله بنسبة الشركاء، واتخاذ الولد، وبدعوى اطلاع الأولياء على أسرار خلقه... لا يفوزون بشفاعة هؤلاء، ولا ينجون من عذاب الآخرة، وتمتعهم بحظوظ الدنيا - كما هو مشاهد عند بعضهم - متاع قليل وقصير مُلئ بالمنغصات والمكدرات، ثم مصيرهم إلى الله الذي حكم عليهم بالعذاب الشديد.. فلهؤلاء متاع في الدنيا حقير قصير يتلهون به، ومهما يبلغ من العظمة -كالمال والجاه- فهو قليل بالنسبة إلى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين. يقول سيد: «مجرد متاع واطٍ، وهو متاع قصير الأمد، وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة، إنما يعقبه ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٠٦.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٢١.

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٧.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- ولاية الله بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه، وتقواه في أداء الفرائض واجتناب النواهي، فالأولياء هم الذين اجتمع لهم: الإيمان والتقوى، ولهم علامات ذكرت في أحاديث منها:

قال عمر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى «قيل يا رسول الله خبّرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، يقول سيد قطب رحمه الله: إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه،... لا كما يفهمه العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء[1].

٢- البشرى هي ما يكرم الله به أولياءه، وقد جمعت بين سعادتي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر والعز والثناء الحسن، وفي الآخرة الفوز بالجنة، ومن البشارات الرؤيا الصالحة في النوم يراها الولي أو ترى له، وبشارة الله للنبي ﷺ وللأولياء ونفي الحزن إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، في الوقت الذي كان أعداؤهم يغترون بقوتهم في مكة بكثرتهم.

٣- في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يفرد الله بالعزة هنا، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين - كما في الموضع الآخر- لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه، فيفرده بالعزة جميعاً، - وهي أصلا لله وحده، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه- ليجرد منها الناس

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٤.

جميعاً، ومشركو قريش العتاة داخلون في الناس، أما الرسول ﷺ فهو في الحماية الإلهية التي أضفاها على عباده، فلا يحزن لما يقولون.. فكل ذي قوة من خلقه داخل في سلطانه وملكه[1].

٤- على المؤمن الداعي إلى الله تعالى أن لا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا يثنيه عن دعوته، وليعلم أن العزة لله جميعا وسوف يعزّه بها ويذل أعداؤه. [2]

٥- شركة الله في الربوبية محال، وما يدّعيه المشركون شركاء ليسوا حقيقة شركاء، لأنهم يتبعون الظن، وكل قول أو دعوى لا يقام عليه دليل وبرهان قاطع فهو جهالة لا قيمة لها.

٦- مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والتدبير كافية لإثبات العبادة له ونفيها عمن سواه، والليل والنهار من مظاهر قدرة الله ووحدانيته، وفي الآيات تذكير بنعمة خلق الليل والنهار التي يغفل عنها كثير من البشر، فإنه لو استمرت الحياة فكانت كلها ليلاً لتعطلت مصالح الناس، وتعطلت أسباب العيش، فلم ينبت نبات ولا ثمار ولم يعش إنسان ولا مخلوق لأنها جميعا تحتاج إلى الشمس، ولو كانت الحياة كلها نهاراً لما أمكن العيش، لأن الإنسان يحتاج إلى الراحة والهدوء النفسي... ولولا غياب الشمس لاحترقت كل الزروع والثمار[3]، ولهذا كان تعاقب الليل والنهار نعمة أشار إليها في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

٧- كفر من ينسب إلى الله أي نقص كالولد والشريك أو العجز، وادعاؤه سفاهة وجهالة، ففي قوله﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول البيضاوي: «وفي هذا دليل على أن كل

---

(١) المصدر السابق

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٠.

(٣) قبس من نور القرآن، ١٦٦.

قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ»، فالله هو الغني ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مستغنٍ أزلاً وأبدا.

٨- أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم[١]، لأن الفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع.. ودل قوله ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ على إفلاس الكافر وخسارته المحققة يوم القيامة.

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع يدور ضمن المحور الأصلي للسورة في تقرير عقيدة الوحي، بالبشارة للنبي ﷺ ومن تبعه بأنهم أولياء الله لتصديقهم للوحي والعمل بكل ما جاء به القرآن الكريم، ومن ثم نفي الحزن عنهم في الدنيا والآخرة، بخلاف المكذبين والمفترين على الله جهلاً بأنهم سينالهم العذاب لأنهم يتبعون الظن الذي لا دليل عليه.

مناسبة المقطع لبقية المقاطع

المقطع يواصل إثبات العقائد في التوحيد والنبوة والمعاد، بدفع شبهات المشركين حول الوحي ويسفه اتخاذ الشركاء ومزاعمهم بنسبة الولد إليه، وإقامة الأدلة على ذلك بأن الله خالق لكل ما في السموات والأرض والكل ملكه وتحت سلطانه، وأن من آياته الليل والنهار لدوام الحياة، كما نزّه نفسه عن اتخاذ الولد لغناه عن ذلك.

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٣٦.

المقطع الثالث عشر

نصر الله لأوليائه من الأنبياء وأتباعهم

يتضمن المقطع ثلاث قصص للأنبياء يتخللها خطاب للرسول ﷺ من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [٧٠ - ١٠٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله

انتهى المقطع السابق بإعلان ولاية الله لمن آمن وعمل صالحاً، ونصر الله لأوليائه المتقين، ثم إعلان عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء بأنهم لا يفلحون، بل ينالون متاع الدنيا الزائل، مع إنذارهم بأنهم سيرجعون إلى الله ويذيقهم العذاب الشديد بما كسبت أيديهم وذلك بعد تطمين الرسول ﷺ والطلب منه ألّا يحزن لقولهم، وبأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... فاستمر السياق بتكليف جديد: أن يتلو عليهم طرفا من نبأ نوح وموسى وهارون، ويونس بما يناسب المعاني القريبة فيها بطريقة مناسبة لموقف المشركين في مكة من النبي ﷺ والقلة المؤمنة معه، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان، فيعرض المقطع الحلقة الأخيرة من قصة نوح، بالتحدي لقومه بعد الإنذار الطويل والتذكير الذي يقابل بالتكذيب، وإبراز هذا التحدي بالاستعانة بالله وحده والتوكل عليه، ثم ما كان من نجاته ومن معه واستخلافهم في الأرض وهلاك المكذبين له وهم العدد الكبير من أصحاب القوة، ومن قصة موسى وهارون مرحلة التكذيب والتحدي، وينهيها بمشهد غرق فرعون وجنوده، ملما بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ والقلة المؤمنة معه، ويتخلل ذلك خطاب للرسول ﷺ تسلية له وتثبيتا بما حدث للرسل قبله فيهون عليه ما يتعرض له من الشدائد، ببيان علة التكذيب بأنه ليس ذلك لنقص في الآيات، بل هي سنة الله في المكذبين قبلهم وفي خلقه باستعدادهم للخير والشر والهدى والضلال، ثم إلمامة

سريعة بقصة يونس وإيمان قومه بعد أن كاد العذاب ينزل بهم لعل فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان، والخاتمة بذكر سنة الله التي مضت في الآخرين وهلاك المكذبين ونجاة الرسل ومن معهم حقا كتبه الله على نفسه وجعله سنة ماضية لا تتخلف، أما أمر الإيمان فهو متروك للاختيار لا يكره الرسول عليه أحد[1].

وجاء المقطع في ثلاث مجاميع، في كل مجموعة طرف من قصة أحد الأنبياء عليهم السلام كما يلي:

المجموعة الأولى – قصة نوح عليه السلام في تحديه لقومه

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [٧٠ – ٧٤].

التفسير الإجمالي

يقول تعالى لنبيه ﷺ اخبرهم واقصص عليهم أي: كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك خبر نوح مع قومه[2]، الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٩.

(٢) جاء تعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح في قوله: «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» إذ ليس ثمة طريق لتعريفهم غير ذلك، إذ لم يكن لتلك الأمة اسم تعرف به، فإنهم كانوا أمة واحدة في الأرض فلم يحصل داع إلى تسميتهم باسم جد أو أرض، ولم يكن ما يدعو إلى تمييزهم، إذ ليس ثمة غيرهم، إلا ترى حكاية الله عن هود في قوله لقومه: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ ﴾ الأعراف:٦٩، ولما حكى =

ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك[(١)].

أتل عليهم خبره الذي له شأن وخطر مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان، وما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعل كفار قريش وأمثالهم حين قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾ أي: عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]، ويقال: تعاظمه الأمر[(٢)]، والمقام بفتح الميم: الموضع الذي يقام فيه، وبالضم: الإقامة، وقد اتفق القراء على الفتح، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان، أي لأجله، ومنه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ [الرحمن:٤٦]، أي: خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام المكث، أي: شق عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام لأن الواعظ يقوم حال وعظه، والمعنى: إن كان كبر[(٣)] عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم وكبر عليكم تذكيري بآيات الله[(٤)] وحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعزمتم على قتلي وطردي فإني اعتمدت على الله في دفع ما قصدتموني ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ والواو بمعنى (مع) والمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم[(٥)].

وهنا يتحدى نوح قومه ويريد المفاصلة ووضع حدا لتمادي قومه في غيهم فيقول لهم: إن

= عن صالح إذ قال لقومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ﴾ [الأعراف:٧٤]، انظر: التحرير والتنوير م٦، ١١/ ٢٣٦.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠١.

(٢) تفسير الزمخشري، ٢/ ٣٥٩.

(٣) يستعار الكبَر ليكون وصفا من أوصاف الذوات أو المعاني،.. فقد يكون مدحاً كقوله: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»، ويكون ذماً كقوله: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» ويستعار الكبر للمشقة كقوله تعالى:﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ الشورى:١٣، وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾الأنعام:٣٥، وكذلك هنا انظر: التحرير والتنوير، ١١/ ٢٣٦

(٤) فتح القدير، ٢/ ٥٢٥.

(٥) تفسير الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٥٩، ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/ ٣٧٥.

كان الأمر بلغ منكم مبلغ الضيق فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم، وتذكيري إياكم بآيات الله، فأنتم وما تريدون وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله عليه وحده، فهو حسبي دون النظراء والأولياء وتدبروا أنتم مصادر أمركم وموارده، وخذوا أهبتكم متضامنين، وليكن أمركم واضحا في نفوسكم وما تعتزمونه مقررا لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد فيه ولا رجعة، بل أظهروه لي وتبصروا فيه وافصلوا حالكم معي، ونفذوا ما اعتزمتم بشأني ولا تنظرون، أي: لا تمهلوني للأهبة والاستعداد فكل استعدادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه[1]، والغمة إما ضيق الأمر الذي يوجب الغم، أو المغطى من قولهم: غم الهلال إذا استتر[2].

فإن توليتم أي: أعرضتم عن تذكيري وكذبتم بعد دعائي إياكم وتبليغ رسالة ربي إليكم فلن تضروني، فأنتم وشأنكم، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية فينقص أجري بتوليكم، فإن ثواب عملي وجزائي على الله ربي الذي أرسلني إليكم، وأمرني أن أكون من المسلمين أي المنقادين الممتثلين لما أدعوكم به، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا[3]، وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية كما

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (بتصرف قليل) ١١/ ١٨١١.

(٢) النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٢/ ٤٤٣، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أما الأمرالأول فالقصد إلى إهلاكه، يعني فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي... وأما الأمر الثاني ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم اهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أي غماً وهماً، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة الستر من غمه إذا ستره، ومنها قوله ﷺ: "ولا غمة في فرائض الله" أي لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونني به. انظر: الكشاف ٢/ ٣٥٩-٣٦٠

(٣) وهو ما ذكره القرآن عنهم عليهم السلام، فهذا نوح يقول: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وإبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ البقرة: ١٣١-١٣٢، وقال يوسف:=

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، لأن الأصل واحد، فقد روي أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء أولاد عَلات»[1] أي: أننا أولاد من أمهات شتى والأب واحد وديننا وإيماننا واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا.

ويعجل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه حين كذبوه وأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته، فنجيناه هو ومن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا، ثم جعلنا الناجين مع نوح في السفينة خلائف أولئك الهالكين بالطوفان في الأرض وسكناها، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان، وهذه عاقبة كل من كان على شاكلتهم، وعاقبة المؤمنين بالنصر في نهاية الأمر.

وبعد ما ذكر من خبر نوح عليه السلام مع قومه بين تعالى عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل ليعتبر أهل مكة ويعلموا أن لله سننا لا تتبدل فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم من المكذبين، فيشير السياق بإجمال إلى أن الله بعث رسلا بعد نوح إلى أقوامهم جاءوا بالبينات،

=﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ١٠١، وقال موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ : يونس:٨٤، وقال السحرة: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الأعراف:١٢٦، وقالت بلقيس: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ النمل:٤٤، وقال تعالى واصفاً رسالة الأنبياء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾المائدة: ٤٤، وقال تعالى عن الحواريون: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المائدة: ١١١، وقال محمد سيد البشر ﷺ امتثالاً لقول الله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢- ١٦٣، أي من هذه الأمة، ونقل ابن كثير عن ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، المختصر ٢/ ٢٠٢.

(١) رواه البخاري في الأنبياء، باب قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...، برقم (٣٢٥٨)، ومسلم في الفضائل باب فضائل عيسى (٢٣٦٥)، وانظر في معنى (عَلات) بفتح العين: النهاية ٣/ ٢٩١ مادة علل.

فكانوا مثل قوم نوح في تكذيب رسلهم.. فقد أرسل هودا إلى عاد، وصالح إلى ثمود وابراهيم ولوط، وشعيبا إلى أهل مدين وجيرانهم أصحاب المؤتفكة، كل رسول جاء إلى قومه بالحجج الدالة على صدقه، والنص يقول: ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي: فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل، ممن كان مثله في سبب كفره وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء[1]، فهم منهم وطبيعتهم واحدة وموقفهم تجاه البينات واحد لا يفتحون قلوبهم ولا يتدبرونها بعقولهم، وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة، ذلك لأنهم يعطلون مداركهم التي أعطاها الله لهم ليتدبروا بها وبذلك تغلق قلوبهم وتوصد منافذها، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي: نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا سواء من المتقدمين أو ما شابههم من المتأخرين في العناد كأهل قريش فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال تعالى عن تلك الأقوام: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار لمشركي العرب المكذبين[2].

قال الزمخشري: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجتهم لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به[3]، كما جاء بلفظ الختم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦-٧].

الهدايات المستنبطة من المجموعة الأولى

١- بدأ تعالى بقصة نوح لأنه أول رسول بعد آدم عليهم السلام، كما كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاءً وأعظمهم محنة... فمكث فيهم مدة تقارب ألف عام. وفي قوله تعالى حكاية عن نوح ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، ورد مثل ذلك عن كل الأنبياء، فكلهم

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٠

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٢.

(٣) الكشاف، ٢/ ٣٦١.

كانوا على الإسلام منقادين لله تعالى.

٢- جمع خطاب نوح بين التلطف في قوله: «يا قوم..» وبين التحدي والترغيب والترهيب، ولهذا «على الداعي أن يشعر المدعو بالشفقة والنصح له، وأن يبتعد عن روح الاستعلاء»[1]. والدعوة إلى الله لا ينبغي أن يأخذ الداعي عليها أجراً إلا للضرورة.

٣- مفاصلة نوح لقومه بعد الإنذار الطويل والمكث الطويل يدعو ويذكر بآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته، ويظهر فيها القوة والثبات على المبدأ. فكلمات نوح مكونة من شرط وجزاء، فأما الشرط ففيه أمران: {المقام والتذكير}، وأما الجزاء ففي خمسة أمور:﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذا دليل الإباء وعدم المبالاة بما ينفذون من قرار، وهو أيضا من دلائل النبوة فإنه أعلمهم أنهم لا يصلون إليه بسوء، لأن الله عاصم أنبياءه[2]، وفيه تسلية للرسول ﷺ وصحابته، وللدعاة من بعدهم.

٤- إن السر في قوة نوح وتحديه ظاهر في قوله:﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾لقد توكل على الله واعتمد عليه واستعان به، واطمأن إليه واستنصره.. وهذا هو استعلاء الإيمان والتوكل على الله، وهو درس إيماني دعوي لكل داعية يقتدي بنوح. يقول سيد قطب: «إنه التحدي الصريح المثير الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول أن يهاجموه... كان معه الإيمان.. القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان[3]، وعلى أصحاب الدعوة

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان، ١/ ٥٤.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٣٠-٢٣١.

(٣) انظر في ظلال القرآن ١١/ ١٨١١، والقصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ١/ ١٨٣-١٨٤.

الاقتداء بالأنبياء أمثال نوح، وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله، حيث كان غرض نوح أن يظهر لقومه اعتزازه بالله وعدم خوفه منهم ومن وعيدهم وكيدهم فمن توكل على الله كفاه، ومن استجار به حماه[1].

٥- إن من أسباب هلاك الأمم الماضية الظلم، فقد أهلك الله قوم نوح بالغرق بسبب ظلمهم، ولذا قال بعد هلاكهم: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤]، وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤]،... فالهلاك من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين، كما قال في هذه السورة ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس: ١٣]، أي: كفروا وأشركوا[2].

٦- كانت العاقبة في نجاة نوح ومن آمن معه من كيد الكفار، وجعلهم الله خلائف في الأرض خلفوا من هلك بالغرق، وأما الكفار فلهم سوء العاقبة، فقد أهلكهم الله بالطوفان، وفي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض بالمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك لأن حال نوح مع قومه مثل حال محمد ﷺ مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوره. [3] ففيها عبرة للكفار أن الإنذار بالعذاب لابد أن يتحقق، لأن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول ﷺ لهم ويكذبونه به.

٧- المفارقة بين موقف نوح وموقف القوم، موقف المؤمن الجسور الذي لا يتردد ويتحدى، ولا يخاف الموت في سبيل دعوته، وموقف القوم المتخاذل المتردد في الحسم واتخاذ القرار، ذلك هو ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة.

٨- إن عقوبة الطبع على القلوب كانت - على أحد وجهي التفسير- بسبب الرفض للحق عندما عرض على القلوب أول مرة، وفي هذا إنذاركبير لمن يرفض الحق وقد اتضح لقلبه

---

(١) قبس من نور القرآن ص ١٧٠.

(٢) المستفاد من قصص القرآن ١/ ١٦٤.

(٣) انظر التحرير والتنوير، م٦، ١١/ ٢٣٤-٢٣٥.

كما أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يشير إلى أنه لا طبع إلا بسبب اعتداء، وهذا إنذار كبير للإنسان ألا يقف موقف اعتداء أبداً[1]، وفي ذلك يقول سيد قطب: «حسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر، فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال، لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء، وإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال»[2].

٩- تكذيب الأنبياء سنة ماضية في الأمم، لتأثرهم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسل من تصميم على الكفر ورسوخ به، وتحقق وعد الله بنصر أوليائه ممن جاء من بعد نوح، وهي سنة الله في هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

المجموعة الثانية - قصة موسى عليه السلام مع فرعون وصراع الحق والباطل

ونظراً لطول النص فقد جعلته في خمسة مواقف (مشاهد) وهي:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ٧٥- ٧٨

التفسير الإجمالي

بعدما ذكر الله تعالى طرفا من قصة نوح في تحديه لقومه، شرع في ذكر قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه بشكل أكثر تفصيلاً للمواقف التي تناسب سياق السورة، كما أن قصة موسى تكرر ذكرها في كثير من السور القرآنية لعظيم شأنها وخطرها، وذكر منها هنا المواقف ذات الشبه بمواقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ والقلة المؤمنة التي معه.

---

(١) الأساس في التفسير، م ٥/ ٢٤٩٥-٢٤٩٦.

(٢) في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٣.

والمعنى: ثم بعثنا من بعد تلك الرسل صلوات الله عليهم موسى وهارون إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، أما بقية الناس فهم تبع لهم في الكفر والإيمان ولذلك لم يذكروا، وقيل الملأ يطلق على كبراء القوم وسادتهم، كما يطلق ويراد به عامة القوم، بعثناهما بالآيات - وهي التسع المذكورة في سورة الأعراف[١] - واكتفى النص بذكر الآيات دون تفصيل لأن السياق لا يقتضيها.. ولكن القوم تلقوا الآيات بالاستكبار والإنكار، فاستكبروا عن اتباع الحق، أي تكبروا وأعجبوا بأنفسهم وتعظموا عن الاتباع ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ تفيد اعتيادهم الإجرام، وهو فعل الذنب العظيم. وكانوا قوماً شأنهم ودأبهم ذلك، وقد يؤخذ مما ذكر تعليل استكبارهم[٢] وأعظم الذنب أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها.

فلما جاء موسى بالأدلة الدالة على الربوبية والألوهية قالوا من فرط عنادهم وعتوهم مع تناهي عجزهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ لما أبهرتهم المعجزات وأبطلت إفكهم قالوا ذلك تخلصا من الهزيمة التي لحقتهم، وقد صرحت آيات في مواضع أخرى في القرآن عن تلك الآيات في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨]، فقولهم هذا سحر ظاهر واضح والإشارة إلى الحق الذي جاءهم، والمراد الآيات، فقالوا مُقْسمين على قولهم مؤكدين له: بأن واسم الإشارة واللام في الخبر والجملة الاسمية، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، فقال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا[٣] ﴾ أي حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه دون أن تتدبروا فيه، عجباً

---

(١) وهي: السنون (أعوام الجدب والقحط)، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ الأعراف" ١٣٣.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، م٧، ١١/ ٢٣٨، والكشاف، ٢/ ٣٦١.

(٣) تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحرا، أسحر هذا! فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. انظر: معالم التنزل للبغوي ٢/ ٣٧٣.

لكم أسحر هذا! وهو أبعد شيء عن السحر الذي هو الباطل البحت، وأنتم تعرفون أن السحر تخيل وتمويه وليس هذا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم، وقد مضت سنة الله بأن﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴾ لا يفوزون في الأمور الهامة كالدعوة لدين، والتأسيس لملك، وذلك ما تتهموني به على ضعفي وقوتكم فإن السحر شعوذة لا تلبث ان تفتضح وتزول. وهذا تأكيد للإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل.

وبعد أن أفحمهم بحجته ولم يجدوا رداً مقنعا اضطروا إلى التشبث بذيل التقليد للآباء والأجداد، وتلك حجة العاجز الضعيف المفلس: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ فحين ألقمهم الحجر انقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه، فقالوا عاجزين عن المحاجة منكرين له: ما جئتنا إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا لنتبع دينك ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وتكون لك ولأخيك الكبرياء والرياسة الدينية وما يتبعها من عظمة دنيوية على أرض مصر كلها، وما نحن بمصدقين مهما تدعيانه من دين جديد غير دين الأسلاف، أو ما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان يخرجنا من دين الآباء الذي عليه عامتنا وتتمتع بكبريائه خاصتنا[1].

وفي النص خاطبوا موسى أولا «أَجِئْتَنَا» لأنه الداعي للإيمان بما جاء به، ثم أشركوا معه أخاه هارون «لَكُمَا الْكِبْرِيَاء[2].. لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» في الإفادة من ثمرات الدعوة وهي النفوذ والسلطة والعظمة[3].

وهنا تتكشف حقيقة صد موسى وتكذيبه، إنه الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة..

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤١ (بتصرف).

(٢) الكبرياء: الملك كما روي عن مجاهد فهو كأطلاق الملزم وإرادة اللازم، وعن الزجاج أنه سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا، وقيل أن العظمة والتكبر على الناس باستتباعهم. انظر: روح المعاني، ٧/ ٢٣٧.

(٣) انظر: روح المعاني، م٧ ج١١/ ٢٣٧، والتفسير المنير، ١١/ ٢٣٧.

والخوف على السلطان في الأرض المستمد من الخرافات.. وهي علة قديمة جديدة.. وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله: وما كان رجال من أذكياء قريش مثلا ليخطئوا إدراك ما في رسالة محمد ﷺ من صدق وسمو، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد، لكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد، كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض، فقالوا متبجحين: «وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ».

الموقف الثاني: الاستعانة بالسحرة لمقاومة دعوة موسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [٧٩-٨٢].

التفسير الإجمالي

بعد الحوار الساخن بين موسى وفرعون الذي انتهى برمي موسى واتهامه بالسحر للسيطرة على ملك مصر، أي: سلكوا مسلك الاتهام السياسي[١]، تعلق فرعون بحكاية السحر وأرادوا إقناع الناس بذلك، عندما رأوا معجزة العصا واليد، واعتقد أنهما سحر حاذق لظنهم لا فرق بين المعجزة الإلهية والسحر، فأحضر السحرة ليتحدوا في مواجهة موسى ودحض حجته وبذلك ينتهي خطره على معتقداتهم وسلطانهم في الأرض.

فلما جاء السحرة، وبعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً، أو يلقوا ما عندهم كما جاء في سورتي الأعراف وطه، قال لهم موسى: ﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من فنون السحر ليظهر الحق ويبطل الباطل... والنص يختصر الموقف لأن النهاية هي المقصودة في قول موسى ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ ردا على تهمة السحر التي وجهت إليه، وقد أراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا ويستنفدوا ما لديهم من خبرات، ثم يأتي بالحق ليدفع

(١) انظر، أيسر التفاسير، ٢/ ٢٩٦.

باطلهم، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٦-٦٩]، فلما ألقوا ما عندهم من الحبال والعصي قال موسى واثقا غير مبال بهم: ما أتيتم به السحر بعينه، لا ما سماه فرعون سحراً مما جئت به من الآيات والمعجزات من عند الله، وهذا السحر الذي أظهرتموه إن الله سيمحقه وسيظهر بطلانه قطعاً أمام الناس، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة تفوق السحر وأشكاله المختلفة.

ثم علل ذلك بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾أي: لا يثبته ولا يقويه، ولا يجعله صالحا للبقاء[1]، ويشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحرة دخولاً أوليا، والواو في «وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ» للعطف على سيبطله، أي يبينه ويوضحه «بِكَلِمَاتِهِ» التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» من آل فرعون أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أولياً[2]، أي نصر الحق على الباطل كما جاء في آية أخرى ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١١٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩].

الموقف الثالث: من آمن بموسى عليه السلام من بني إسرائيل ووصيته لهم

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٤١.

(٢) فتح القدير، ٢/ ٥٢٩.

التفسير الإجمالي

ولما حكى سبحانه أن موسى عليه السلام أبان ما أبان من بطلان السحر وكونه إفساداً، فثبت ما أتى به لمخالفته له، أخبر تعالى تسلية للنبي ﷺ وقطعا عن طلب الإجابة للمقترحات، أنه ما تسبب عن ذلك في أول الأمر عقب إبطال سحرهم من غير مهلة إلا إيمان ناس ضعفاء عددهم غير كثير فقال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾ أي متبعاً لموسى بسبب ما فعل، ليعلم أن الآيات ليست سببا للهداية إلا لمن أراد ذلك منه، وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ أي شبانهم هم أهل لأن تذر فيهم البركة من قومه أي موسى(١)، وهذا رأي أكثر المفسرين أن الضمير عائد إلى موسى عليه السلام وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل، الذين كانوا بمصر وخرجوا معه كما قال مجاهد، وقال آخرون: الهاء راجعة إلى فرعون، روى عطية عن ابن عباس قال: هم ناس يسير من قوم فرعون منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطة ابنته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله. وقيل غير ذلك(٢) والمهم أنهم كانوا من الفتية الصغار - من بني إسرائيل على الأرجح - لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى خوفاً من فرعون وملئهم(٣) وتأثير كبار قومهم من ذوي المصالح عند أصحاب السلطان،

---

(١) نظم الدرر، ٣/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٢) وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غُلبت السحرة، وقال الفراء: سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. انظر: معالم التنزيل، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤، وفتح القدير، ٢/ ٥٢٩-٥٣٠. والمستفاد من قصص القرآن ١/ ٣٥١، والذي فسره بقوم فرعون.

(٣) قيل أراد بفرعون: آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم،... وقيل: إنما قال: «وملئهم»=

والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من بني إسرائيل[1]، ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، وقد كان فرعون ﴿ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ذا سلطة ضخمة وجبروت متكبر، كما كان مسرفا في الطغيان، لا يقف عند حد، لدرجة أنه ادعى الربوبية، فلا يتحرج من إجراء قاس.

ولما ذكر خوفهم وعذرهم فهنا لا بد من إيمان يغلب الخوف ويطمئن القلوب ويثبتها على الحق، فأتبعه ما يوجب طمأنينتهم وهو التوكل على الله الذي من راقبه تلاشى عنده كل عظيم فقال موسى لمن آمن به ياقوم: فاستعطفهم بالتذكير بالقرب ثم هيجهم على الثبات إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا، وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، «وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام، وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك»[2]. واستجاب المؤمنون للنداء فقالوا: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ممتثلين أمره حين علموا أن إنجاز الوعد موقوف على ذلك، ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين، والمقصود ألا يمكن الظالمين منهم فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون، ويكون هذا استدراجا لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم، فهم يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم.

ولفظ «فتنة» هنا يحتمل الفاتن والمفتون فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنوننا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا

=وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه.. وقيل: أراد ملأ الذرية فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. معالم التنزيل، ٢/ ٣٧٤.

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨١٥.

(٢) المصدر السابق

كفرا وعناداً وظلما بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على حق وأننا على باطل[١].

والتوكل على الله من أعظم علامات الإيمان قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣]، والدعاء يستجاب مع الطاعة واتخاذ الأسباب، وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣]، ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال العصمة لأنفسهم فقالوا:﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم[٢] أي: خلصنا من فرعون وقومه لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة[٣]، ودعاؤهم هذا دليل التوكل على الله، فالمؤمن لا يتمنى البلاء ولكن يثبت عند اللقاء.

وبعد إظهار الإيمان والتوكل أمر الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتا﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي اتخذوها مساجد متوجهة نحو القبلة[٤]، حيث أنهم كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا أن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة[٥]، ثم قال «وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ» التي أمركم الله بإقامتها مما يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة التي يتوجهون إليها في المساجد والبيوت، «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بالثواب والنصر القريب، والخطاب لموسى ﷺ وقيل لمحمد ﷺ على طريق الالتفات، والأول أظهر، بأن يبشر بني اسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٣٥٣.

(٢) فتح القدير ٢/ ٥٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣١٢.

(٤) المراد بالقبلة بيت المقدس وهي قبلة اليهود إلى اليوم، وقيل الكعبة كانت قبلة موسى ومن معه، والقول لابن عباس. انظر: الجامع لأحكام القرآن٨/ ٣١٣، والكشاف، ٢/ ٣٦٤، وفتح القدير ٢/ ٥٣٠.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٨، والكشاف ٢/ ٣٦٤، والمستفاد من قصص القرآن ١/ ٣٥٢.

وقد خوطب موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض للأنبياء، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى بالبشارة التي هي الغرض، تعظيما لها وللمبشر بها[(١)].

والهدف من اتخاذ البيوت خاصة مساجد هو الفرز والتنظيم والاستعداد للرحيل من مصر في الوقت المختار، فكلفهم بتطهير بيوتهم وتزكية نفوسهم والاستبشار بنصر الله، وهي التعبئة الروحية إلى جانب التعبئة النظامية الضرورية للأفراد والجماعات قبيل المعارك والمشقات[(٢)].

الموقف الرابع: الدعاء المستجاب لموسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

بعد أن يئس موسى عليه السلام من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير وأنه لا يرجو لهم صلاحا وخصوصا بعد أن بالغ في إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات، وقابل فرعون وملأه ذلك بالإصرار على الكفر والجحود، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب إقدامهم على ذلك هو حبهم للدنيا والنعيم الذي أبطرهم من المال والزينة، والتي تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين، فتنتهي وتتهاوى أمام الجاه والمال، ثم إلى الضلال، اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ويزيل كل ما أبطرهم للراحة من شرهم.

فبعد أن أعد موسى قومه من بني إسرائيل للخروج من مصر وغرس في قلوبهم الإيمان والعزة والكرامة، دعا ربه مبينا سبب الدعاء: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي:

---

(١) الكشاف، ٢/ ٣٦٤، وفتح القدير ٢/ ٥٣١، ونظم الدرر، ٣/ ٤٧٤.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨١٦، (بتصرف)

أعطيتهم من الدنيا والنعمة ما أبطرهم، وهو الزينة الشاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع ونحوها من الزروع والأنعام، أدى النعيم بهم إلى أن تكون عاقبتهم إضلال عبادك عن الدين، والطغيان في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧]، ويشهد لما ذكر ما يوجد في قبور الفراعنة والآثار المصرية من الذهب والفضة والحلي والتحف... [١]

وفي قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ [٢] ﴾ ، أي ليفتتن بما أعطيت من شئت من خلقك ليظُن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم[٣].

ومن هذه المقدمة نجد موسى عليه السلام لما رأى القوم مصرّين على الكفر والعناد، أخذ في الدعاء عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدّم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال لتتحقق إجابته، ولذا بيّن أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أي: اهلكها، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير، ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي يعاينوا ويوقنوا به، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك[٤].

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذي تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجئ منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٥١.

(٢) أختلف في لام (ليضلوا) قيل لام العاقبة والصيرورة، أي آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك فكان عاقبى أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك، وتجويز جعل اللام للعلة استدراجا، أو لام الدعاء عليهم بذلك.. أنظر: تفسير القاسمي م٦ ج٩/ ٧٢.

(٣) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٣٥٤.

(٤) تفسير القاسمي، محسن التأويل ٩/ ٧٣.

دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي أمّن فيها أخوه هارون»[1]﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ حيث إن موسى كان يدعو وهارون يؤمّن على دعائه، ويجوز أن يكونا جميعا يدعوان، والمعنى: أن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته «فَاسْتَقِيمَا» فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: ولا تسلكا طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، وإنجاز وعدي لرسلي، فتستعجلان الأمر قبل أوانه[2]، وقال الزمخشري: لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦]. [3]

الموقف الخامس: إغراق فرعون وجنوده ومآل بني اسرائيل

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

لما أجاب الله دعاء موسى وهارون، أمر الله تعالى موسى أن يخرج بقومه بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وكان فرعون غافلاً عن ذلك، فذكر هنا خاتمة القصة الدالة على تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه. وهو مشهد إغراق فرعون وجنوده ونجاة موسى وبني إسرائيل، فقد فعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عزّ وجل وأعلمه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٥

(٢) ابن كثير، ٢/ ٢٠٥، وتفسير القاسمي، ٩/ ٧٤. وتفسير المنار، ١١/ ٤٧٢-٤٧٤.

(٣) الكشاف، ٢/ ٣٦٦.

بأن فرعون سيتبعهم هو وجنوده قال تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢]، وتفصيل القصة في سور أخرى وخاصة في سورة الشعراء، وملخصها: أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى وهم فيما قيل ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية، ولما علم فرعون غاظه ذلك، فجمع جنوده من مختلف البلاد وسار بهم للحاق بموسى، فلحقوهم وقت شروق الشمس عند ساحل البحر الأحمر، ولما تقارب الجمعان وصار كل فريق يرى الآخر، فخاف أصحاب موسى من وصول فرعون، ولكن موسى طمأنهم بوعد ربه له وأنه سيهديه طريق النجاة كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٣]، أي: لما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر ومن ورائهم فرعون وجنوده، أوحى الله لموسى أنا اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير، قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقا لكل سبط من بني إسرائيل طريق، وقد جعل الله هذه الطرق في قاع البحر يابسة يمكن السير عليها بسهولة ويسر كما قال تعالى:﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:٧٧]، فسار موسى ومن ومعه، ولما قرب فرعون وجنوده ودنو من البحر دخلوا على أثر بني إسرائيل، ومن هذه النهاية يبدأ هذا المشهد الحاسم والأخير في قصة التحدي والتكذيب في سورة يونس.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾يخبر تعالى في هذه الآيات أن الله هو الذي جاوز[١] ببني إسرائيل البحر، والجواز مسند إلى الله فهو الذي شق لهم البحر بقدرته وقوته، وقادهم وجاوز بهم حتى اجتازوه، وقد اتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل ولحقوا بهم، وكان اتباعهم لهم بغيا وظلما وعدواناً، أي أنهم كانوا باغين معتدين ظالمين في لحاقهم بهم، يريدون إهلاكهم وقتلهم

(١) يقال: جاز فلان الطريق: إذا قطعه وسار فيه، ويقال: جاوز فلان بآخر الطريق: إذا قاده حتى يقطع الطريق. انظر المعجم الوسيط ١/ ١٤٦.

ولذلك أغرقهم الله. [١]

ولما اجتاز موسى ومن معه البحر كان فرعون وجنوده على الجانب الآخر من البحر ليلحقوا بهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان، وأراد موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ليعود إلى طبيعته، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال، ولكن الله سبحانه يريد غير ذلك، أراد أن ينجي ويهلك بالشيء الواحد، فأوحى إلى موسى﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[الدخان:٢٤]، أي: اترك البحر على حاله فينخدع فرعون وجنوده، وما أن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء، سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده وينجو موسى وقومه[٢]، ولم ينجو منهم أحد، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت..

ويصور القرآن لحظة غرق فرعون بقوله:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ أي: قهره وأحاط به الموت بالماء، كما سأل موسى في أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم،﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ لما تحقق الهلاك وعلم أنه لا نجاة إلا بالصدق، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان لأنه إيمان وقت مشاهدة العذاب، وسنة الله هي عدم قبول إيمان الكافر وقت نزول العذاب، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[غافر: ٨٤-٨٥]، ثم قال:﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أمنت أنه لا إله بحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعدما كان مني من جحود بآياته وعناد لرسوله، فكرر قبول ما كان دعي إليه فأباه استكباراً، وعبر بما دل على ادعاء الرسوخ فيه بياناً لأنه ذل ذلاً لم يبق معه شيء من ذلك الكبر ولم ينفعه ذلك لفوات شرطه وقد أجابه الله موبخاً له ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: أتسلم الآن

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٣/ ٩٩.
(٢) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٨١

حين يئست من الحياة وأيقنت المهات؟ وقد عصيت قبل ذلك وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل، فقد صار إسلامك اضطراراً لا اختياراً.. فهلا أقررت بها أقررت به الآن وباب التوبة لك منفتح[١].

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾أي: نرفعك على نشز من الأرض بجسدك بلا روح سوياً صحيحا لم يتمزق ليعرفوه ويتحققوا موته، ﴿ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك[٢]، ويرون عاقبة التصدي لوعيد الله بالتكذيب، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي: معرضون عن التأمل لآياتنا والتفكر فيها[٣]، ووجه العبرة في ذلك أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله، ووعيده لأعدائه، كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم.

ثم يعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بني إسرائيل بعدها﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ ﴾ والمبوأ: مكان الإقامة الأمين، وإضافته إلى الصدق تزيده أمانا وثباتا واستقرارا كثبات الصدق الذي لا يضطرب، ولا يتزعزع اضطراب الكذب تزعزع الافتراء، وكلمة الصدق تعني جماع الخير والبر، في مصر والشام، وعلى عادة العرب إذا مدحت شيئا تضيفه إلى الصدق، ولقد طاب لهم المقام ﴿ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال والأنعام وصيد البر والبحر.

والعلماء في تحديد المراد ببني إسرائيل هنا قولان: الأول أنهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى فيكون مبوأ الصدق مصر والشام.. وإن التوراة هي العلم الذي أدى إلى الاختلاف بينهم، والقول الثاني: هم اليهود المعاصرون للنبي محمد ﷺ ومبوأ الصدق ما بين المدينة والشام

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٥١.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٦، والكشاف، ٢/ ٣٦٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٨١.

والمراد بالعلم القرآن[١] ﴿ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ ﴾ أي: فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعدما علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته والإقرار به وبمبعثه غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن آخرون، فيكون علمهم بمجيء الرسول هو مصدر اختلافهم.. [٢] ولما لم يفصل السياق في خلافهم بعدما جاءهم العلم وكلها بما فيها الله في يوم القيامة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾أي في هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته في دار الدنيا بل سيقضي الله بينهم في الآخرة فيميز المحقين من المبطلين.

الهدايات المستنبطة من المجموعة الثانية

١- تكررت قصة موسى عليه السلام مع فرعون أكثر من غيرها في قصص القرآن الكريم، وذلك لأنها تمثل قمة الصراع بين الحق والباطل، ودلالتها على أن قوة الحق وصوت النبوة يعلوان الملك والحكم والسلطان، ويقوضان العروش ويزيلان دعائم الباطل، كما فصلت تفصيلا وافياً لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر، ولما فيها من العبر في انتصار الحق على الباطل، وهي قصة تتكرر صورها في كل زمان ومكان بين جند الرحمن وجند الشيطان. [٣]

٢- إن التوكل على الله هو أعظم علامات الإيمان ولا يكمل إلا بالصبر على الشدائد، كما أنه عنصر القوة للقلة الضعيفة، وقد ذكر موسى لأتباعه الإيمان والإسلام، وجعل التوكل على الله مقتضى الاثنين، والدعاء لا يستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب.

٣- تسلية الرسول ﷺ ببيان انتصار موسى بالمعجزات ومع ذلك لم يتابعه إلا القليل من قومه، وبيان سنة الله في الأمم المكذبة، فلم يختلف شأن قوم فرعون عمن قبلهم في العناد والإصرار على دين الأسلاف، كما نجد التشابه بين أقوال المكذبين في مواجهة الحق، ورمي

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٥٣، والشعراوي، ١٠/ ٦١٩٤.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٠، والتفسير المنير، ١١/ ٢٣٥-٢٣٦، وقبس من نور القرآن، ١٧٢.

الأنبياء بالكذب، واتهامهم بالسحر، فكلما رأوا الآيات الدالة على صدق النبي لم يجدوا ما يقولون إلا كما قال فرعون وكفار قريش بصيغة التوكيد «إن هذا لسحر مبين»، وهو اتهام من غير دليل كما هو شأن أهل الباطل، كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في كل العصور.

٤- ذم الاستكبار وأنه سبب كثيرا من الإجرام، فكل ما فعله فرعون هو بدافع الخوف على الملك والسلطان، الذي يسلط على الناس عن طريق الموروثات للأسلاف، فمن أهم أسباب مقارعة الأنبياء هو الخوف على الملك والجاه والسلطان، وأن الأنبياء يؤثرون على مكانتهم وكبريائهم في الأرض، مما يجعلهم يرمونهم بأبشع التهم[١].

٥- إن التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو لغيرهم، من أكبر المعوقات التي تقف في وجه الإصلاح والمصلحين في كل زمان ومكان، وهو أول ما يسارع المبطلون إلى الاحتجاج بها، ثم يكيلون التهم لدعاة الإصلاح بأنهم لا يقصدون الإصلاح إنما يقصدون أن يحلوا محلهم في سلطانهم وملكهم[٢].

٦- للسحر طرق يتعلم بها، وله علماء به، وتعلمه حرام واستعماله حرام، وعقوبة الساحر القتل لأنه إفساد في الأرض، كما عدّه الرسول ﷺ، أحد الكبائر الموجبة للقتل. والساحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب، فقصة موسى مع فرعون تمثل الصراع بين الحق والباطل بين التكذيب والتحدي، بين المعجزة والسحر، بين آية إلهية خارقة للعادة يؤيد بها الله النبي لتصديق دعوته، وبين السحر فهو فساد وتمويه لم يصمد أمام الحقيقة، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أي: لا يضر أحدا كيد ساحر، ولذلك قال العلماء: لا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر[٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٣-١٨١٤.

(٢) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ١٠٥.

(٣) التفسير المنير، ١١/ ٢٤١، فقد روي عن ابن عباس: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآيـــة =

٧- اعتزاز موسى - على ضعفه - بالإيمان والنبوة أمام القوة، حيث بادر إلى دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله دون سواه، وفي رده لتهمة السحر وإعلان أن الله سيبطله تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح، بل يمحقه بكلماته "كن فيكون" وهو تعبير عن توجه المشيئة الإلهية، وإن كراهة المبطلين للحق لا تعطل مشيئة الله، وهذا ما حصل وبطل السحر وعلا الحق، وقد أيد الله موسى عليه السلام بتسع آيات ذكرت في سورة أخرى وهي: القحط المتوالي، ونقص الأنفس والأموال والثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومع ذلك لم يؤمنوا ووصفوا الآيات بالسحر.

٨- جواز المبارزة للعدو والمباراة إظهاراً للحق وإبطالاً للباطل[1]، إن الله أبطل ومحق ما جاء به السحرة بإلقاء العصا التي انقلبت ثعبانا عظيما التهم جميع الحبال والعصي، ولذلك أدرك السحرة خسارتهم وعرفوا أن فعل موسى ليس بسحر، لأنهم أعرف بفنونه، فلم يعاندوا فشرح الله صدورهم للإيمان ولم يرهبهم تهديد فرعون، فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون، وأسقط في يد فرعون وملئه.

٩- لا تكون الآيات سببا للهداية دائماً فمن سنة الأقوام أن تكذب البراهين وترميها بالسحر ولذلك لم يستجب الله تعالى لمطاليب كفار قريش حين طلبوا الآيات، قال تعالى معللاً ذلك: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس:٤٦].

١٠- جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان، وتخضع رقاب الناس لأربابها، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقد أثبت البحث والتنقيب في قبور المصريين ما يشهد بكثرة تلك

=﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ لم يضره كيد ساحر.

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٩٨.

الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحلي لم تكن لتخطر على البال.. [(١)] ولذلك دعا موسى أن يطمس على أموالهم لأنه ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيل الله، إما بالإغراء أو بالقوة، كما أن وجود النعمة في يد المفسدين يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار..

١١- في طلب الله تعالى من موسى وأخيه أن يتخذوا بيوتا بمصر للصلاة وتوحيد قبلتها ما يدل على أهمية الصلاة في التعبئة الروحية والنظامية للجماعة المؤمنة وخصوصا حين تكون قبيل المشقات، كما أن فيها اعتزال معابد الجاهلية والانعزال والتميز عنهم، كما تدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى ﷺ.

١٢- مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم، وقد جاء عن الرسول ﷺ في اتقاء دعوة المظلوم لأنها مستجابة "اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"[(٢)] وليس هناك ظلم أكبر من الشرك، ولهذا استجاب الله دعوة موسى لأنها كانت غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه حين تبين له أن لا خير فيهم، كما دعا نوح ﷺ من قبل، والمؤمن داع فهو شريك في الدعاء، فلذا يؤمّن أهل المسجد على دعاء الإمام فتحصل الإجابة للجميع[(٣)].

١٣- خاتمة قصة فرعون مع موسى في المشهد الأخير من التحدي، يعرض مختصرا مجملاً يؤدي الغرض في سياقه ببيان رعاية الله لأوليائه، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه الذين يغفلون آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة، وإن أسباب هلاك فرعون وإلقاء جثته وإبقاءها ليكون عبرة وآية هو ادعاؤه الربوبية وتكذيبه بآيات الله وجحودها بعدما استيقنتها أنفسهم، والاستكبار والظلم والإفراط في

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٨.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٣١٦) في الشركة، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، والترمذي، باب ما جاء في دعوة المظلوم، (٢٠١٤)

(٣) انظر: ايسر التفاسير، ٢/ ٥٠٣، والتفسير المنير ١١/ ٢٥١.

المعاصي، وقد كان هلاكه مع جنده يوم عاشوراء من شهر المحرم، كما أخرج البخاري عن ابن عباس قال: "قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ : "أنتم أحق بموسى منهم فصوموه"(١).

١٤- في دعاء قوم موسى:﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ دلت التجارب أن سوء حال المؤمنين وضعفهم وتسلط الكفار عليهم يجعلهم موضعا لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم باعتقاد أنهم خير من المؤمنين، كما هو فتنة للمؤمنين مما يطرأ من شك في أنهم على حق، وواقع المسلمين شاهد على ذلك.

١٥- في مصير جنود فرعون عبر ودروس للدعاة والمؤمنين وهو التحذير من معونة الحاكم الظالم، فأعوان الظلمة ظلمة، وفي القرآن إشارات كثيرة في النهي عن معونة الظالم والركون إليه، منها قوله تعالى:﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨]، ولذلك يكون مصيرهم واحدا فيشتركون بالعذاب ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٤٠] و﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال:٥٤]. (٢) وعليه فلا يجوز إعانة الظالم ونصرته كما قال تعالى:﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

١٦- العبرة بما حل بفرعون وجنوده، قال تعالى في إهلاك فرعون بالغرق جزاء كفره وعصيانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ آية ٩٢، أي: نخرجك من البحر

---

(١) رواه البخاري برقم (١٩٠٠، ١٩٠١) في كتاب الصوم باب صيام يوم عاشوراء، ومسلم برقم (١١٣٠، ١١٣١) في كتاب الصوم باب صوم يوم عاشوراءز

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٣٦٦.

بجسدك الذي لا روح فيه، لتكون "لِمَنْ خَلْفَكَ» عبرة لبني إسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون، وللأمم اللاحقة الكافرة، لتكون لهؤلاء جميعا «آيَةً» عبرة من الطغيان والتمرد على أوامر الله لكل من كان على شاكلته من طواغيت الأرض، فلا يجترئون على ما اجترأ عليه فرعون، ولكن﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ معرضون عن التأمل فيها ومهمة الدعاة تكون تذكيرا وتبصيرا للناس بما حلّ بفرعون حتى لا ييأسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم، ولا يكبروا في عيونهم، لأنهم فراعنة صغار، وهذه سنة الله في الطغاة الظالمين﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] [١] .

المجموعة الثالثة: صدق القرآن والإشارة لقصة يونس وتوبة قومه

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [٩٤-١٠٠].

التفسير الإجمالي

يتضمن النص خطابا للرسول ﷺ، وطرفا من قصة يونس عليه السلام مع قومه:

أولاً- تأكيد صدق القرآن من خلال الخطاب للرسول ﷺ آية ٩٤-٩٧.

بعد أن أخبر الله تعالى عن قصص الأنبياء السابقين كنوح وموسى وهارون عليهم السلام والنصر لهم على أقوامهم، وحكى اختلاف بني إسرائيل عندما جاءهم العلم حسدا وبغيا،

(١) المصدر السابق، ٣٨١-٣٨٢.

أورد هنا ما يقوي صدق القرآن فيما وعد وأوعد وخاطب النبي ﷺ وأراد قومه، فخاطبه لبيان علة تكذيب قومه له، وهذا من سنة الله في المكذبين من قبلهم، وفي خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال.

وكان آخر الحديث عن بني إسرائيل، وهم أهل كتاب ويعرفون هذه القصص ويقرؤونها في كتابهم، فوجّه الخطاب للرسول ﷺ إن كان في شك مما أنزل إليه من هذا القصص أو غيره فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله، فلديهم عنه علم مما يقرؤون ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ﴾ من أحبار اليهود ورهبان النصارى فإنهم يعرفون نعوتك وصفاتك في التوراة والإنجيل وإنك النبي الخاتم والمنقذ، وإن من آمن بك نجا ومن كفر هلك.

ولكن الرسول ﷺ لم يكن في شك مما أنزل الله إليه، كما روي عنه: «لا أشك ولا أسأل» ولذلك ذكر المفسرون أن الخطاب للسامع أو الرسول ﷺ والمراد به أمته، وهذا تعبير مألوف في أساليب العرب، كما أن افتراض الشك في الشيء لنفي احتمال وقوعه مألوف أيضا لدى العرب. وفيها تنبيه لمن خالجته شبهة في الدين أن يلجا إلى أهل العلم﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وقد ثبت عنه بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ وهو تعريض بالشاكين والمكذبين للنبي ﷺ من قومه،﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله[1]، وهذا أيضا من باب التهييج والتثبيت.. وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي الذين ثبتت عليهم كلمة الله وقضاؤه وحكمه بالعذاب لا يؤمنون أبداً لفقدهم الاستعداد للإيمان وتصميمهم على الكفر، بتعطيل مداركهم فلا ينتفعوا بها فتكون نهايتهم الضلال ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وهؤلاء سيبقون على كفرهم وجحودهم ولو جاءتهم كل آية كونية حسية كآيات موسى التي اقترحوا مثلها على الرسول ﷺ، والآيات المنزلة

(١) الكشاف، ٢/ ٣٧٠، والتفسير المنير، ١١/ ٢٦٥.

عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند الله وعلى أحقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ بأعينهم ويذوقوه حين ينزل بهم فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم، فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم، ويقال لهم إذ ذاك ﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ يونس:٥١. وقد مر مثل ذلك في نهاية فرعون عندما تيقن العذاب والهلاك فأعلن الإيمان بعد فوات أوانه، لعدم وجود فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة.

ثانياً- إيمان قوم يونس عليه السلام قبل معاينتهم العذاب آية ٩٨-١٠٠.

وبعد المواقف التي ظهرت فيها حتمية سنن الله، تطل نافذة مضيئة فيها شعاع من أمل في النجاة ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع العذاب، فبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أن الخسران لازم لمن كذّب بآيات الله، وإن الذين وجب لهم العذاب لإحاطة ذنوبهم بهم لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان، ذكر هنا ما يحض به أهل مكة على الإيمان وعدم الإصرار على الكفر والتكذيب فقال:﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ ﴾ أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها وعدم إيمانها برسولها، آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف عنها بسببه العذاب لوقوعه وقت الاختيار[1] فانتفعوا بإيمانهم فنجوا من العذاب اللازم لمن لم يؤمن ﴿ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ ﴾ [2] استثناء من القرى: لأن المراد أهلها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن

(١) الكشاف، ٢/ ٣٧١، وتفسير القاسمي، ٩/ ٨٢.

(٢) روي في قصتهم: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام فكذبوه - قيل أنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم - فذهب عنهم مغاضبا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح وعجوا (رفعوا أصواتهم) أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحن بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة=

قوم يونس لما آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا، أو متصل بمعنى النفي: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس[١]﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ فلم نهلكهم بعذاب استئصال وإبادة شاملة لأنهم لما رأوا أمارات العذاب بادروا إلى التوبة قبل نزوله بهم فكشف الله عنهم العذاب ومتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم، فما لأهل أم القرى لا يتوبون كما تاب أهل نينوى من أرض الموصل وهو قوم يونس عليه السلام[٢].

وقد جاء تفصيل قصة يونس في سور أخرى[٣]، وما ذكر هنا في السورة التي خصه الله بها «سورة يونس» فيها من العبرة الشيء الكثير، لكون قومه استثناء من بقية الأقوام المكذبة حين تابت رفع الله عنها العذاب، ولما يناسب هذا القدر ما قبله في بيان سنة الله في أخذ الأقوام الذين أصروا على الكفر حتى رأوا العذاب.

ثم عاد الخطاب للرسول ﷺ ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ولما كان ما مضى ربما أوجب اعتقاد أن إيمان مثل أولئك محال، جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان لأن حرص الرسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع، ومبالغته في إزالة الشبهات وتقرير الدلائل لا تفيد إلا بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافيا لآمنوا بهذه

=وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أنهم ترادّوا المظالم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: « يا حي حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت» فقالوها فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» راجع: الكشاف ٢/ ٣٧١-٣٧٢، والجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٢٣-٣٢٤.

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١٠.

(٣) جاء ذكر قصة يونس في سور أخرى هي: القلم:٤٤-٥٠، الصافات: ١٣٩-١٤٨، والأنبياء: ٨٧-٨٨.

السورة فإنها أزالت شبهاتهم.. [(١)] فقال: لو شاء.. ويحمل دلالتين: الأولى: أن عرض الله تعالى الإيمان على أهل مكة وحضهم عليه وتوبيخهم على تركه لا ينبغي أن يفهم منه أن الله عاجز عن جعلهم يؤمنون، بل لوشاء إيمان أهل الأرض جميعا لآمنوا، والثانية: تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه من ألم وحزن لعدم إيمان قومه، وهو يدعوهم بجد وحرص ليل نهار فأعلمه ربه أنه لو شاء إيمان كل من في الأرض لآمنوا، ولكنه التكليف المترتب عليه الجزاء، فيعرض الإيمان على الناس عرضا لا إجبار معه فمن آمن نجا، ومن لم يؤمن هلك، ويدل على ذلك قوله له ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾أي: إن هذا ليس لك ولا كلفت به[(٢)]وهو سؤال إنكار ينكر على رسوله شدة حرصه على إيمان قومه، وتشكل الآية قاعدة كلية في الكفر والإيمان، فلو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقا واحدا هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً، أو لجعل له استعدادا واحدا يقود جميع أفراده إلى الإيمان.. ولو شاء لأجبر الناس وقهرهم عليه حتى لا تكون لهم إرادة إلا في اختياره[(٣)]، فإن هذا الإكراه لن يكون فأكده ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾تقرير لما مضى من أن الإيمان لا يتم لأحد إلا بإرادة الله وقضائه، ووفق سننه الماضية فمن أراد الإيمان أخذ بأسباب الهداية المؤدية إليه، ولا يمنع أحد أراده وسلك طريقه، لمن أراد أن ينتفع بعقله﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: إلا أنه تعالى يدعو الناس إلى الإيمان مبينا لهم ثمراته الطيبة، ويحذرهم من التكذيب مبينا لهم آثاره السيئة، فمن آمن نجاه وأسعده، ومن لم يؤمن جعل الرجز الذي هو العذاب عليه محيطا به جزاء له لأنه لا يعقل، إذ لو عقل لما كذب[(٤)]، لما في هذه السورة من الدلائل إلى حد لا يحتاج فيه إلى غير مجرد العقل، فهم لا يعقلون لأنهم لم ينتفعوا بالآيات فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

---

(١) نظم الدرر، ٣/ ٤٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١١.

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢١.

(٤) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١١.

الهدايات المستنبطة من المجموعة الثالثة

١- تقرير نبوة الرسول ﷺ، فالقرآن حق ونبوة محمد حق، وأدلة إثبات أحقيتهما: صدقهما فيما أخبرا به من قصص الأنبياء، ومغيبات المستقبل، وغيرها من الآيات.

٢- سؤال من لا يعلم أهل العلم، فعلى الشاك في شيء أن يبادر إلى سؤال العلماء لإزالته وتثبيت يقينه وترسيخ عقيدته، لأن الشك والافتراء في أصول الدين وفروعه كفر، ولذلك كانت الإحالة في تبين صدق القرآن وصحة النبوة على من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وأمثاله. ومنهج القرآن هو سؤال أهل الذكر، ولو كان أخص أمور العقيدة، لأن المسلم مكلف أن يستيقن من عقيدته ولا يعتمد على التقليد دون تثبت.

٣- التكذيب بآيات الله كفر وصاحبه من الخاسرين، ولكن افتراض الشك أحيانا يفيد في إثبات عكسه وهو اليقين، وهذه نظرية أخذ بها بعض الفلاسفة مثل (ديكارت).

٤- الخطاب في الآيتين﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ ﴾ و﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ ﴾ للنبي ﷺ والمراد غيره فالفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته، والدليل قول الرسول ﷺ لما نزلت الآية: «والله لا أشك»، يقول سيد قطب: وهذا التعريض يترك الفرصة لمن يريد منهم أن يرجع ليرجع، لأنه إذا كان الرسول ﷺ مأذونا في أن يسأل إن كان في شك، ثم هو لا يسأل ولا يشك، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق، وفي هذا إيحاء للآخرين ألا يترددوا وألا يكونوا من الممترين[1].

٥- تقرير عقيدة القضاء والقدر، واحتج أهل السنة بهذه الآية﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب، وقال الزمخشري: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا، فلا يكون غيره، وتلك

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٠.

كتابة معلوم لا كتابة مقدر.[1] وهم الذين ثبت عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون، حتى ولو جاءتهم الآيات تترى بما يطلبون.

٦- عدم قبول توبة من عاين العذاب في الدنيا بأن رأى ملك الموت مثلاً، قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2] أو عندما يرى العلامات القطعية كما أخبر ﷺ: «لا تقبل التوبة حين ظهور الشمس من مغربها»، وفي الآخرة بعد أن يبعث ويشاهد أهوال القيامة لانقطاع العمل، وحين يتيقن من العذاب والهلاك كحالة فرعون لا ينفعهم الإيمان لأنها توبة يائس، وإلجاء وقسر وليس اختياراً. ولذا ففيها الحض على الإيمان وقت الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب، ومن رحمة الله تعالى لعباده دعوتهم للإيمان وحضهم عليه.

٧- قبول التوبة قبل معاينة العذاب ورؤية العلامات لا تمنع التوبة، فقوم يونس تقبل الله توبتهم عند رؤية العلامات التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان[3] وقد رأى سيد قطب أن ما يستفاد من هذه اللمحة من قصة قوم يونس أمران هامان:

أولهما: الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الدنيا، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق.

وثانيهما: أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى، بل مضت ونفذت، لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول فلا جبرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها[4]، وعلى الداعي

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٣٧) في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة، وابن ماجة (٤٢٥٣) في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وأحمد ٢/ ١٢٣، ١٥٣، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣): حسن.

(٣) تفسير الطبري، م٦ ج١١/ ٣٨٤، ونسب القول للزجاج.

(٤) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢١.

أن يفهم المدعوين بقبول توبة التائبين، حتى لا ييأس العصاة من صلاحهم ومن رحمة الله بهم، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، ويستحسن أن يذكروا للناس توبة قوم يونس[١].

٨- لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه، فلا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا، لأن الله كتب عذابهم أزلا وقضى به. والإكراه في الدين ممنوع، فقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان جميع الناس فأخبره تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

٩- جعل الله الرجس – وهو أبشع الدنس الروحي- لمن عطلوا عقولهم عن التدبر وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفر، والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة

إن عرض المقطع لطرف من قصص بعض الأنبياء في تحديهم للكفار ظاهر الصلة بمحور السورة الذي هو إقرار الوحي والنبوة ونفي التعجب من إرسال محمد ﷺ ، من أنه ليس بدعا من الرسل، بل سبقه أنبياء كثير، كما أن تكذيب القوم سنة سبقت في الأمم قبلهم، إشارة إلى الشبه بين قوم قريش وجحودهم وعتوهم، وعتو تلك الأمم.

فقد ناقشت هذه السورة الشك في القرآن الكريم من ناحيتين: إنكار القوم أن ينزل الله عليهم وحيا، وهذا القرآن ليس وحيه، وكون الرسول ﷺ مفتريا على الله بنسبة هذا القرآن إليه، وفند ذلك كله، وإذ تبين أن القرآن لا شك فيه بذكر خصائصه، ذكر في هذا المقطع نموذجا لقصص أنبياء للإشارة إلى أن الله أرسل رسلا قبل محمد وأنزل عليهم وحيا، وقد بشروا

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، ٢/ ٥٠٩، ٥١١، والتفسير المنير، ١١/ ٢٦٦، ٢٧٣، وفي ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٠-١٨٢١.

وأنذروا، فكأن الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على أن إرسال محمد ﷺ ليس بدعا للإيماء للمشابهة بين الأقوام[١].

ففي قصة نوح نفي العجب وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن، وقصة موسى الذي اتهم بالسحر بكل المؤكدات ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ آية:٧٦، وجاء في العجب من الوحي لمحمد﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ آية:٢، فكما اتهم محمد بالسحر اتهم موسى بنفس الصيغة، فتأتي قصة موسى لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل، ولتبين نهاية المكذبين الغابرين ليحذر المكذبون الجدد[٢]، ثم يبين السياق أن الاستثناء الوحيد كان لقرية يونس، نفع معهم التخويف والإنذار بعد أن عاينوا أسبابه، فدعوا الله فرفع الضر عنهم لما عرف صدق التوبة منهم.

مناسبة المقطع لمقاطع السورة

المقطع له صلة بكل مقاطع السورة من عدة وجوه منها:

فيما مضى من السورة ذكر الله ناساً يتعجبون من أن ينزل الله وحياً، ويرسل رسولاً، وفي هذا المقطع قصص رسل بعثوا تفنيدا لمن يكذب بالوحي.

ومر في السورة أن الله حذر وأنذر من يكذب بالرسل بالعذاب الدنيوي والأخروي، وفي هذا المقطع قصة أقوام كذبوا فعذبوا.

ومر كذلك في السورة أن الله بشّر أهل الإيمان في الدنيا والآخرة، وفي هذا المقطع بيان العاقبة الحميدة لأهل الإيمان، فعن نوح﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ و﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾[٣].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، م٥، / ٢٤٨٩.

(٢) المصدر السابق، م٥/ ٢٤٩٦.

(٣) السابق، م٥/ ٢٤٩٠

ولما تقدم سؤالهم بما يقترحون من الآيات ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات... إلى أن بيّن هذا أن متاع المفترين الكذب قليل، ذكر هنا قصة نوح لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة، ثم أخذوا وزالت آثارهم[1].

وسبقت الإشارة في هذه السورة إلى القرون الخالية وما كان من عاقبة تكذيبهم واستخلاف من بعدهم لاختبارهم في قوله﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ آية:١٣-١٤

كما سبقت الإشارة بأن لكل أمة رسولاً فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾آية:٤٧.

فالسياق في هذا المقطع في جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين فيسوق طرفا من قصة نوح مع قومه، وموسى مع فرعون وملئه تتحقق فيها عاقبة التكذيب والقضاء في أمر الأمة بعد مجيء رسولها وإبلاغها رسالته وتحذيرها عاقبة المخالفة، وتجيء إشارة عابرة لقصة يونس الذي آمنت قريته فرفع عنها العذاب ونجت بالإيمان، وهي لمسة لتزيين الإيمان للمكذبين لعلهم يتقون العذاب ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وموسى المهلكين[2]، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال.

فالقصص هنا متصل بما سبق من مقاصد السورة أتم الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين[3].

---

(١) انظر: نظم الدرر، ٣/ ٤٦٥، بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨٠٩-١٨١٠.

(٣) تفسير المنار، ١١/ ٤٥٨.

المقطع الرابع عشر

الدعوة إلى الدين الحق واتباع الإسلام

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [١٠١-١٠٩].

علاقة المقطع بما قبله

لما بيّن سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، ولا ينبغي الإكراه عليه، خاطب الرسول ﷺ أن يأمر المكذبين بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، نظر تدبر وتفكر، حتى لا يتوهموا الجبر المحض، فالله خلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر، والإيمان والكفر، ومهمة الرسول التبشير والإنذار، والدين يساعد العقل على حسن الاختيار، لكن المكذبين عطلوا مداركهم عن التدبر فجعل الله الرجس عليهم لعدم الانتفاع بها، فأوضح هنا بأن الآيات والنذر لا تغني عن الذين لا يؤمنون وهي معروضة أمامهم فالسموات والأرض حافلتان بالآيات، فلم ينظروا فيهما النظر المؤدي للاستدلال على الوحدانية، لذا حذر مشركي قريش بالاعتبار بمن قبلهم بأن يحلّ بهم ما حلّ بمن مضى من المكذبين لأنبيائهم، فسنة الله لا تتبدل في إهلاك المكذبين ونصر الأنبياء ومن آمن معهم، ثم طلب من الرسول ﷺ أن يخبرهم

بأنهم إن استمروا على الشك فيما جاء به فإنه ثابت على ما جاء به، وهو دين الإسلام، وأمر رسوله بإظهار دينه وإظهار المفارقة بينه وبين الشرك لعبادتهم أوثان لا تضر ولا تنفع، ومن ثم إعلان مبدأ شريعة الله الموحاة إلى محمد ﷺ ، والتعريض بعقيدة المشركين في اعتقادهم الأصنام شفعاء، وأبطل أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة وأن إرادة الله النفع أو الضر لأحد لا يستطيع أحد أن يصرفه، وأخيرا جاء النداء المؤكد بحرف (قد) بأن الحق قد بلغ إليهم وهو الدين الذي جاء به القرآن الكريم من ربهم[١].

التفسير الإجمالي

الآيات في دلالتها إرشاد وتذكير، وهي تحمل في مضمونها الوعيد والتهديد، لأولئك الذين أغمضوا أعينهم عن النظر في دلائل القدرة والوحدانية، وصموا آذانهم عن سماع دعوة الحق، فلم يستجيبوا لدعوة الله ولم يطيعوا رسل الله[٢].

طلب تعالى من المنكرين النظر ماذا في السموات والأرض من الآيات وواضح الدلالات التي أخرجتموها بإلفكم عن عداد الآيات، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات.. ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصا حال الإنسان[٣].

فقل يا محمد لهؤلاء الكفار انظروا الظواهر الدالة على أسمائه وصفاته، وما أكثرها وما أغزرها، فهي تدل على وحدانيته وكمال قدرته، إذ المقصود من النظر المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوحدانية، فإن جحودهم إياها هو الذي أقدمهم على تكذيب الرسول ﷺ . ولكن الكافرين لا يستفيدون من ذلك شيئا ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ

---

(١) انظر: فتح القدير، ٢/ ٥٤١، روح المعاني، ٢٨٥، التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠٠.

(٢) قبس من نور القرآن ص ١٩١.

(٣) نظم الدرر، ٣/ ٤٩٢.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية (والنذر) الإنذارات أو الرسل المنذرون، بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون؟ لقد عميت قلوبهم وصمت آذانهم فلم يعودوا يرون الحق ولم يعودوا يسمعونه، فإذا كان أمر هؤلاء كذلك فماذا بقي إلا انتظار العذاب[١]،﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ أي: وهل ينتظر كفار مكة إلا مثل أيام[٢] أسلافهم وما حل بهم من العذاب والنكال؟﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ فقل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب، فأنا معكم انتظر وعد ربي بهلاككم ودماركم،.. فقد كان الكفار في زمانه ﷺ يقولون سخرية واستهزاءً﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾آية:٤٨، فأمره تعالى أن يقول لهم ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾[٣] إن سنة الله لا تتخلف وعاقبة المكذبين معروفة فجاءهم التهديد الذي ينهي الجدل.

ثم بشر تعالى رسوله بالنصر بعد الوعيد والتهديد للكفار فقال﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي المرسل إليهم ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بهم، وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها، وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما جاء في غير موضع ليتصل به قوله سبحانه:﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ننجيهم إنجاء كذلك الإنجاء الذي كان لمن قبلهم[٤]، وجعله الله حقا عليه تحقيقا للتفضل به والكرامة حتى صار كالحق عليه[٥].

وقد تكفل الله بنصرة الحق، ونصر أوليائه المؤمنين ورسله المكرمين، كما جاء في آيات

---

(١) الأساس في التفسير، م٥/ ٢٥١٦.

(٢) أي: مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم.. وجاء استعمال الأيام في الوقائع كقولهم: أيام العرب، وهو مجاز مشهور من التعبير بالزمان عما وقع فيه كما يقال: المغرب للصلاة الواقعة فيه. انظر: روح المعاني ١١/ ٢٨٧، وتفسير القاسمي ٩/ ٨٦.

(٣) قبس من نور القرآن ١٩١.

(٤) روح المعاني، ١١/ ٢٨٧.

(٥) التحرير والتنوير، ١١/ ٢٩٩.

أخرى، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، و﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، و﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، إنها الكلمة التي كتبها الله على نفسه: أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب(١).

ولما تقدمت آيات كثيرة في نفي الريب والشك عن القرآن وأقامت الأدلة والبراهين على ذلك وبشرت وأنذرت، فناسب هنا أن تأتي الآيات في ثبات الرسول ﷺ وأن الله مظهر دينه، رضي من رضي وسخط من سخط، لأن البيان وصل إلى غايته، مرشداً نبيه إلى أسلوب إلجام الخصم بالبرهان، فالآيات التالية تمثل القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كلها.. وسيقت القصص لإيضاحها، وضربت الأمثلة لبيانها.. فكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس إعلانا عاما، وأن يأتي إليهم بالكلمة الحاسمة: أنه ماض في خطته، مستقيم على طريقته حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.. فقال:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قل: أيها الناس جميعاً، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركي قريش، إن كنتم في شك من أن ديني الذي أدعوكم إليه هو الحق، فإن هذا لا يحولني عن يقيني، ولا يجعلني أعبد آلهتكم التي تعبدونها من دون الله﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي يملك آجالكم وأعماركم، وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمتة وله دلالته، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم، وانتهاء آجالهم إليه، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التي لا تحيي ولا تميت(٢). وفي ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه، وإنما ينبغي أن تشكوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا

(١) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٤.
(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٥.

يستنكرها ذوو الفطرة السليمة، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذي لب وعقل سليم[١].

وجملة ﴿ فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ﴾واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى فتقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتبعه، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله.

ولما كان مضمون هذه الجملة هو أصل دين الإسلام، فيجوز أن يكون في الآية معنى ثان أي: إن كنتم في شك من معرفة هذا الدين فخلاصته أني لا أعبد الذي تعبدون ولكني أعبد الله وحده، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ ﴾ [الكافرون:١-٢]، ثم قوله:﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ [الكافرون:٦]، فيتأتى في الآية غرضان، ويكون المراد بالناس في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ جميع أمة الدعوة الذين لم يسلموا[٢].

﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فأنا عند الأمر لا أتعدّاه. فهذا هو ديني الذي أدعو إليه، وأنا مأمور أن أكون عبداً مؤمناً مطيعا لربي، لا أعبد أحداً سواه، أما الأوثان التي تعبدونها أنتم فإنها حجارة صماء بكماء، والإنسان أشرف حالاً منها، فكيف يليق بالأشرف الأسمى أن يشتغل بعبادة الأخس الأدنى؟

وأريد بالمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وبالقرآن والبعث، فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتصفوا بالإسلام.. وفي جعل النبي ﷺ من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به[٣].

﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ﴾ معطوف على جملة ﴿ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر لأن المقصود من﴿ أَنۡ ﴾الدلالة على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية، أو يكون المعطوف عليه في معنى الإنشاء، كأنه قيل: كن مؤمناً ثم

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠١.
(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠٢.

أقم والمعنى: أن الله سبحانه أمر بالاستقامة في الدين والثبات فيه، وعدم التحول عنه بحال من الأحوال، وخصّ الوجه: لأنه أشرف الأعضاء، وأمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها، و«حَنِيفا» حال من الدين أو من الوجه، أي: مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام، ثم أكد الأمر المتقدم للنهي عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على أقم وهو من باب التعريض بغيره ﷺ[1].

وقيل: هنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر، كأن الرسول ﷺ يتلقاه في مشهد حاضر للجميع، وهذا أقوى وأعمق تأثيرأي: متوجها إليه خالصا له، موقوفاً عليه،﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ زيادة في توكيد معنى الاستقامة للدين، فيكون من المؤمنين عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان[2].

وفيه معنى التوجه إلى الله وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى شيء سواه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:٧٩].

بعد هذا الإعلان العظيم والمفاصلة الكاملة والتعريض الواضح بما عليه أهل مكة من الضلال والخطأ الفاحش، واجه الله تعالى رسوله بالخطاب وهو من باب «إياك أعني واسمعي ياجارة» فنهاه بصريح القول أن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وهو كل المعبودات ما سوى الله عزّ وجل[3]فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت في هذه الحال من الذين ظلموا

---

(١) فتح القدير، ٢/ ٥٤٢.

(٢) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٥.

(٣) أيسر التفاسير، ٢، ٥١٥.

أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى،... لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه، فهو وضع الشيء في غير موضعه[1]. وقد ذكر تعالى بأن الشرك أكبر الظلم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

ثم أكد تعالى سلب صلاحية النفع والضر من غير الله فقال: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك، فإن مسك الله بضر، بأن تتعرض لضرر يمس جسمك أو مالك من مرض أو فقر أو ألم، فلا كاشف ولا رافع له إلا الله، فلن يكشفه عنك إنسان، إنما يكشف باتباع سنته وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة، وقد جعل سبحانه للأشياء أسباباً يعرفها خلقه بتجاربهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها ومعرفة خواص العقاقير التي تداوى بها، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتي البيوت من أبوابها ونتوجه إلى الله وحده، وندعوه مخلصين له متوكلين عليه. ﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سننه فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه، وهذا الفضل قد يكون في دينك أو دنياك من نصر ورخاء ونعمة وعافية، فلا دافع لفضله إلا الله، إذ لا راد لقضائه، فهو يمنح ويمنع، ويعطي ويحرم يفعل كل ذلك بحكمة وعلم، فهذا الفضل يصيب به من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسننه الماضية، والفضل الإلهي يكون عادة عاماً بعموم الرحمة، أما الضرر فإنه لا يقع إلا بسبب، فإن البلاء لا يقع إلا بذنب، ولا يرتفع إلا بتوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي يغفر ما مضى متى وقعت التوبة، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم، ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعا بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة كما قال: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٦٣، والتفسير المنير، ١١/ ٢٨٢.

تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى [(١)] ﴾ [النحل: ٦١].

وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[(٢)]، ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَد منك الجَد»[(٣)].

ما مرّ من الآيات من الأوامر والنواهي، والأجوبة على ما يقترحونه على وجه التعنت، والختام بأن من دعا غيره كان راسخاً في الظلم لا مجير له منه، كل ذلك كان خلاصة العقيدة، مما تضمنته السورة، وقد كلف رسول الله ﷺ أن يعلنها للناس، ويوجه إليه الخطاب بها كاملاً على مشهد منهم، وهم هم المقصودون بها، إنما هو أسلوب من التوجيه الموحي المؤثر في النفوس ختم ذلك إكمالاً للدعوة بإعلان آخر للناس هو أن فائدة الطاعة راجعة إليهم، وضرر النفور عائد عليهم فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وفيها وجهان: القرآن والرسول[(٤)] هذا هو الإعلان الأخير: قل أيها الرسول للناس قاطبة، من حضر ومن ستبلغه هذه الدعوة، قد جاءكم الحق المبين من ربكم، أي الكامل بهذا الرسول ﷺ وهذا الكتاب وهو القرآن، وهو خير عظيم أصابكم المحسن إليكم ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان بمحمد ﷺ وعمل بما في الكتاب، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة، لأنه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل، فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة، وفيها وجهان أيضاً: أحدهما:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٥-١٨٢٦، وتفسير المراغي، ١٠/ ١٦٤، والتفسير المنير، ١١/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله ﷺ برقم (٢٥١٦) ٤/ ٦٦٧، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٦٦٩) ١/ ٢٩٣، والبيهقي في شعب الأيمان (١٩٥) ١/ ٢١٦-٢١٧.

(٣) رواه ابخاري في كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة، برقم(٨٠٨) وفي كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله (٦٢٤١، ٦٨٦٢)، ومسلم في كتاب الصلاة في ثلاثة أبواب برقم (٤٧١، ٤٧٦، ٥٩٣).

(٤) النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٢/ ٤٥٤.

فمن اهتدى لقبول الحق فإنما يهتدي بخلاص نفسه، والثاني: فمن اهتدى إلى معرفة الحق، فإنما يهتدي بعقله[١] ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي بالكفر بهما أو بشيء منهما، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فوبال الضلال عليها، لأنه ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء لأنه فان فقد غرّ نفسه، والمعنى: لم يبق لكم بمجيء الحق عذر، ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق، فما نفع إلا نفسه ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه،﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ ولما كان السياق لنفي تصرفه ﷺ فيهم وأن ذلك إنما هو إلى الله تعالى، كان تقديم ضميرهم أهم، أي: بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير، فلا يطلب مني حفظكم مما يؤدي إلى الهلاك ومنعه عنكم كما يطلب من الوكيل[٢]، فليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم، وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية.

والختام خطاب للرسول ﷺ باتباع ما أمر به والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ في التبليغ وإن لم يهتدوا، فعليك اتباع الوحي الذي أنزل إليك في كتابه، اعمل به وعلّمه لأمتك، وذلك على نهج التجديد والاستمرار، والتعبير عن الحق المفسر بالقرآن إليهم بالمجيء، وإليه ﷺ بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنافي[٣]، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾على أذاهم في الدعوة في كل ما يصيبك من الأذى والمكاره مما تناله من قومك،﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ حتى يقضي الله بينك وبين المكذبين لك، بالنصر عليهم والغلبة،﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾وينجز لك ما وعدك، وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر، وله الأمر من قبل ومن بعد[٤].

وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق[٥].

---

(١) المصدر السابق

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٩، ونظم الدرر ٢/ ٤٩٦.

(٣) روح المعاني، ١١/ ٢٩٥.

(٤) تفسير القاسمي، ٩/ ٩٠، وتفسير المراغي ١٠/ ١٦٥.

(٥) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٦.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- إن النظر في السموات والأرض يوصّل إلى الإيمان، فمن نظر في التاريخ وتقلبات الأيام وحياة الرسل وحياة أهل الإيمان وعاقبة كل منهما فإنه سيجد في ذلك ما يدفعه للإيمان، إلا إذا كان ممن عمي قلبه، وعندئذٍ فلينتظر مصيره المظلم[١]، يقول المرحوم سيد قطب: والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وسعة الشعور بالوجود، والتعاطف معه، وذلك كله في الطريق إلى إمتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله، وجلالة تدبيره وسلطانه وحكمته وعلمه، والمعارف الحديثة عن هذا الكون زادت هذا الزاد للبشرية إن كان الإنسان مهتدياً بنور الله، من التأمل في الكون والتعرف عليه والاشتراك معه في التسبيح بحمد الله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله[٢].

٢- لا تنفع الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها غير المؤمنين، ومن عميت قلوبهم وصمت آذانهم لم يعودوا يرون الحق ويسمعونه، ولذلك فالمعارف العلمية إذا لم تصادف بشاشة الإيمان ونوره فإنها تقود صاحبها إلى مزيد من البعد عن الله، كما لا تنفع الموعظة – مهما بولغ فيها – عبدا كتب أزلاً من أهل النار[٣].

٣- البشارة للرسول ﷺ بالنصر له ولأتباعه المؤمنين لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وسنة الله مطردة في نصر أنبيائه وأوليائه، ووعده ثابت لأوليائه بإنجائهم من الهلاك عند إهلاك الظلمة المشركين، وما ينتظر الظلمة

(١) الأساس في التفسير، م٥/ ٢٥١٦.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٢ (بتصرف)
(٣) أيسر التفاسير/ ٢/ ٥١٣.

في كل زمان ومكان ليس إلا ما حل بمن ظلم من قبلهم من الخزي والعذاب(١).

٤- تعليم الحوار مع الشّاكين، وكيف يقابل موقف الشك من هذا القرآن، وذلك بمقابلة ذلك بمزيد من التنائي عن المشركين والشرك، بالإقبال على الله والإخلاص له وإفراده بالعبادة والدعاء، كما يفيد موقف الرسول بإعلانه البراءة مما يشركون تعلم مواقف التحدي والاعتزاز بالدين.

٥- إن شك الشاك لا يبطل إيمان المؤمن، ولا يؤثر عليه، فلذا لم يترك محمد دينه الذي وثق فيه من أجل أن الآخرين يشكون في صحته، وفي الوقت نفسه لم يفرض عليهم أن يؤمنوا بدينه قهرا وجبرا.. فعلى المؤمن أن لا يترك الحق، لأن الحق لا يشك فيه، ويستحسنه ذووا العقول الصحيحة والفطرة السليمة، وأما عبادة الأصنام فمقطوع ببطلانها لأنها لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، ويستنكرها كل عاقل فإنها أحجار، ويلاحظ التدرج في نفي عبادة غير الله، لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات، والتخلي مقدم على التحلي، فالتدرج من نفي عبادة الأصنام إلى إثبات من يعبده وهو الذي يتوفاكم، وفي ذكر الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة(٢).

٦- تخصيص الله بالعبادة في قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي لا أعبد غيره من معبوداتكم، وتخصيص صفة المتوفي من بين صفاته الأخرى: لما في ذلك من التهديد لهم أي: أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم. (٣)

---

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ١٩٢. وأيسر التفاسير، ٢/ ٥١٣.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٨١، وانظر: أيسر التفاسير ٢/ ٥١٥، والتيسير في أحاديث التفسير، ٣/ ٩٠.

(٣) فتح القدير، ٢/ ٥٤٢

٧- الشرك ظلم للنفس، فدعوة غير الله نفعاً وضراً هو شرك، وفي الخطاب للرسول ﷺ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾فحاشا النبي ﷺ أن يفعل ذلك فالخطاب له تثبيت ولغيره تحذير.

٨- عبّر تعالى بالفضل مكان الخير ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقون بأعمالهم،... وفي تخصيص الإرادة بالخير والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشر بالعرض، [١] وقيل: ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني، للإشارة إلى أنهما متلازمان، فما يريده يصيبه، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته، لكنه صرح في كل منهما بأحد الأمرين إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم، وليس مقصوداً بالذات، لذا لم يعبر فيه بالإرادة. وقيل: قصد الإيجاز فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب، وهو نوع من البديع، يسمى احتباكاً[٢].

٩- في الآيات من صفات الإله الحق القادر على كل شيء المتصرف في شؤون عباده ما يحمل إلى استحقاقه للعبادة ونبذ الشرك، وبيان أن الضار والنافع هو الله تعالى، أما تخصيص العبادة وإخلاصها بنحو كامل نقي لله عز وجل فيتطلب ضوابط تفهم من الآيات الثلاث الأولى كالامتناع المطلق عن عبادة غيره بمختلف الأشكال، وعبادته دون سواه مع التصديق الكامل الذي لا يخالجه شك، والاستقامة على أمر الدين[٣].

١٠- النفع والضر من القدر، وقد مرّ في السورة قوله تعالى:﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ آية: ٤٩، فكل ما يصل إلى المخلوق فبقضائه سبحانه وبقدره. وتقرير مبدأ أن المرء يشقى ويسعد بكسبه لا بكسب غيره، ومن شواهده في القرآن ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٨-٨٩. والكشاف ٢/ ٣٧٥.

(٣) انظر تفاصيل هذه الشروط في التفسير المنير، ١١/ ٢٨٣-٢٨٤.

١١- تقرير أن القرآن حق والرسول ﷺ حق والإسلام حق، فالإسلام دين الحق وشريعة الله الكاملة، والقرآن مصدر هذا الحق والشرع، والرسول ﷺ هو المعبر عن الدين الحق المبلغ له، والإسلام منهج هداية والاستمساك به هو طريق النجاة، فمن اتبع سبيل هدايته الإلهية فاز ونجا، ومن تنكب طريق الحق هلك وكل ذلك يعود عليه.

١٢- إعلان الوصية العامة للدعوة وتتضمن عدة أمور:

أ- وجوب اتباع الوحي الإلهي الذي تضمنه القرآن والسنة الصحيحة، والاهتداء بهما وهو المقصود بالحق. ويتضمن اتباع الرسول ﷺ الموحى إليه لأنه الأسوة للمسلمين والوصية بالصبر للتنويه على الصعوبات المقبلة، وفي الأمر بالاتباع توحيد في العقيدة والمنهج والبلاغ والتطبيق(١).

ب- تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ﷺ في قوله تعالى ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾من جانب نفع أو ضر، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته(٢).

ج- تسلية الرسول ﷺ ووعده للمؤمنين، ووعيده للكافرين متضمن في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، والآية وعد سابق من الله لرسوله - وهو لا يزال بمكة يكافح الشرك والمشركين- بما سيناله دينه من الظهور على بقية الأديان، وبما سيناله أتباعه من نصر مؤزر وفتح قريب.. (٣)

د- أهمية الصبر في الدعوة، وهو شأن كل الأنبياء والدعاة، لذلك فالأمر بالصبر دليل فضيلته فلا بد منه للداعية وهو ينتظر الفرج من الله مهما طال.

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٢٦٢- ٦٢٦٧.

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٩.

(٣) روح المعاني، ١١/ ٢٩٥، والتيسير في أحاديث التفسير، ص ٩١.

هـ- شرف أمة محمد ﷺ بالدعوة لأنها تستمر بالدعوة بعده، وفي ثنايا السورة كان قد وعدهم الله بخلافة الأرض - آية ١٤- وأنه يختبرهم بهذه الخلافة.

وما على الدعاة إلا الاتباع والامتثال والاستمرار مهما اشتدت المحن، واضعين نصب أعينهم هذا التوجيه الحكيم للرسول ﷺ: «واتبع... واصبر»، قال الزمخشري: روي أنها لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي إثرة فاصبروا حتى تلقوني»[1]، فالسر والله أعلم أنه لما أعلمت هذه الآية أن من اتبع الوحي ابتلى بما ينبغي الصبر عليه.. وكان الأنصار عليهم السلام أحق بهذا الوصف من غيرهم..[2].

و- في الختام يشعر التعبير القرآني في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ بالإنصاف في رد الحقوق، وهو كناية عن معاقبة الظالم، لأن الأمر بالصبر يشعر أن المأمور معتدى عليه، وفيه إيماء بأن الله ناصر رسوله والمؤمنين، لأنه خير الحاكمين، فهو يحكم وينفذ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]. [3]

مناسبة المقطع لمحور السورة

أن محور السورة كان عن معالجة الشك في القرآن وإثبات الوحي والرسالة والتحدي به وضرورة اتباعه، وقد تم ذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة، وجاء هذا المقطع في نفس سياق المحور، آمراً بالنظر في ملكوت الله كطريق للوصول للإيمان بالله وكتابه، ومن ثم نفى الشك عن دين محمد الذي جاء عن طريق الوحي بهذا الكتاب، والإعلان بأنه حق وواجب الاتباع مع الصبر في الدعوة إليه، حتى يحكم الله فيعاقب المكذب به ويجزي المصدق العامل به منهجا

(١) رواه البخاري برقم (٣١٦٣، ٣٧٩٤، ٢٣٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٣٣٥) وأحمد ٣/ ٢٢٤، ١١١، ١٨٢، ١٧١ من حديث أنس.

(٢) انظر: نظم الدرر، ٢/ ٤٩٦-٤٩٧، والكشاف، ٢/ ٣٧٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ٣١٠، وتفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٢٧٢.

للحياة، لذا فالمقطع هو تأكيد للمحور باعتباره خاتمة السورة وخلاصته.

مناسبة المقطع لبقية المقاطع

المقطع مترابط ومتتابع بوضوح مع بقية المقاطع، في التأكيد على العقائد (التوحيد والوحي والكتب والرسل واليوم الآخر، والقدر) ففي التوحيد جاء الأمر بالنظر إلى ما يوصل إليه في الكون، وفي الأمر بالعبادة، وانفراده تعالى بالمشيئة، كل ذلك مما هو مكرر في المقاطع السابقة بأسلوب بديع ونظم بليغ بحيث يحدث في نفس سامعها أروع الاقناع والتأثير من حيث لا يشعر بما فيه من التكرار[١]، وفي الأمر باتباع الوحي في هذا المقطع وأن الرسول متبع له عملاً وتبليغاً، فقد مرّ ذلك في ثنايا السورة ومقاطعها، ومثل ذلك في صفاته تعالى من العلم والمشيئة والعزة والرحمة، وجاء في هذا المقطع أنه بيده الضر والنفع وأنه خير الحاكمين، في إشارة للبعث والجزاء الذي تكرر في السورة حتى بلغ ثلثها، كما مر تنزيهه وغناه عمن سواه، وفي الوحي المحمدي وهو محور السورة جاء في الافتتاح نفي العجب من وحيه، ومن ثم نفي اقتراح المشركين أن يأتي بغيره أو يبدله، وإيراد الحجج العقلية عليه لكون ﷺ لبث فيهم عمراً ويعرفون صدقه كما جاء نفي الافتراء عنه، وبيان مقاصده وخصائصه، حتى إذا ما جاء هذا المقطع الأخير في الآيات الأخيرة من السورة كان خلاصة لذلك كله في تبليغ الدعوة للناس كافة بأنه الحق والأمر بالاتباع، وعليهم الاختيار إلى أن يحكم الله، وهو تهديد للمكذبين، مع بيان ضرورة الصبر في التبليغ[٢]، وقد ختم تعالى السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب والإشارة لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دل عليه، أو أشار إليه... وهذا لعينه هو أول التي بعدها، فكان ختم هذه السورة وسطا بين أولها وأول التي تليها، ففيه رد المقطع على المطلع، وتتبع لما استتبع[٣].

---

(١) تفسير المنار، ١١/ ٤٩٤.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: تفسير المنار في الخلاصة الإجمالية للسورة عند نهايتها، وجاءت هذه الخلاصة لسورة يونس في ستة أبواب، ١١/ ٤٩٤-٥١٠.

(٣) نظم الدرر، ٢/ ٤٩٧.

سورة هود

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة: سميت هذه السورة الكريمة باسم نبي الله (هود) ﷺ. قال ابن عاشور: « سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال: «يا رسول الله قد شِبتَ ؟ قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذي[1] بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

ثم قال ابن عاشور: «وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات، ولأن ما حكي عنه فيها أطولُ مما حكي عنه في غيرها، ولأن عاداً وُصفوا فيها بأنهم قومُ هود في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾هود:٦٠»[2]

ب - مكية السورة أو مدنيتها: السورة مكية إجماعاً[3]. قال الأستاذ رشيد رضا: «هي مكية حتماً كالتي قبلها، واستثنى بعضهم منها ثلاث آيات. الأولى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ ١٢. والثانية: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ١٧. والثالثة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ١١٤. قيل: إن هذه الآيات الثلاث مدنية، وهو خلاف الظاهر ولا يقوم عليه دليل»[4].

ويقول سيد قطب: «هذه السورة مكية بجملتها. خلافاً لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١٢، ١٧، ١١٤)فيها مدنية. ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها تجيء في موضعها من السياق، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادئ ذي

---

(١) سنن الترمذي (متن عارضة الأحوذي) ـ أبواب التفسير ـ من سورة الواقعة، ١٢/ ١٨١.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١١/ ١٩٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ١/ ٢٤٦، مصاعد النظر للبقاعي ٢/ ١٧٠.

(٤) تفسير المنار ١٢/ ٣.

بدء. فضلاً عن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة، وموقف مشركي قريش منها، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله ـ ﷺ ـ والقلة المسلمة معه، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار»[1].

ج. عدد آيات السورة: «هي مئة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري، واثنتان في المدني الأول والشامي، وثلاث في الكوفي»[2].

د. محور السورة: يدور محور سورة هود حول قضية الألوهية، وتثبت العقيدة في قلوب المدعوين ولذلك كثر الحوار بين الرسل وأقوامهم لتثبيت هذه الحقيقة.

ولقد تحدثت سورة هود عليه السلام عن حقائق العقيدة، وحركتها عبر التاريخ، ثم بينت في خواتيمها التعقيبات والتعليقات المبنية على سياق السورة من المقدمة ومن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تسلية لرسول الله ﷺ في دعوته.

ومن المناسب والمفيد تقسيم هذه السورة الكريمة إلى ثلاثة قطاعات[3] أو محاور رئيسة يقوم عليه جسم السورة الكريمة.

هـ. المناسبات في السورة.

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

في اسم السورة (هود) التي تحمل اسم النبي هود عليه السلام صلة وطيدة بمحور السورة، لأن قصة هود عليه السلام جاءت في هذه السورة مفصلة ومبينة منهجه في الدعوة مع قومه عاد، وما جرى بينه وبين قومه من حوار لتثبيت العقيدة في قلوبهم، وهو ما يتفق وأسلوب الأنبياء جميعاً في البشارة والنذارة في دعوتهم إلى الله تعالى. يقول البقاعي رحمه الله تعالى: «وأنسب ما فيها لهذا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٣٩.

(٢) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني ١٦٥.

(٣) اعتمدت تقسيم الأستاذ سيد قطب لمضامين آيات سورة هود كتابه الفذ(في ظلال. القرآن).

المقصد ما ذكر في سياق قصة هود عليه السلام من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والآجل...»[1].

٠٢ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها تعجب الناظر، وتبهر السامع، فقد ختمت السورة بقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾. وهذا الاختتام يتفق تماماً مع بدء السورة الكريمة بقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾. فحريّ بمن يؤمن بأن الله تعالى وحده يرجع إليه الأمر كله أن يستجيب لما في كتاب الله تعالى من أحكام مفصلة فيها البشارة والنذارة لكل الناس. وقد أوجز البقاعي الكلام في المناسبة بعد تفسيرة آية ختام سورة هود بقوله: «وهذا بعينه مضمون قوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾»[2].

٠٣ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة يونس عليه السلام بقوله تعالى (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)، وفيه «إيماء بأن الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا»[3]. فجاءت سورة هود مبدوءة بقوله تعالى﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ لبيان صفة الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، ليبلغ دعوة ربه بالنذارة والبشارة.

٠٤ المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتألف السورة الكريمة من ثلاثة قطاعات رئيسة عرض الأول منها لحقائق العقيدة الإسلامية في مقدمة السورة، ثم عرض القطاع الثاني لحركة العقيدة في التاريخ وذلك بسرد

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٩/ ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق ٩/ ٤٠٧.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١١/ ٣١٠.

قصص الأنبياء مع أقوامهم بدءاً من قصةالأب الثاني للبشر نوح ﷺ مع قومه.

وأما القطاع الثالث فجاء تعقيباً على حركة العقيدة في التاريخ، وقد ختم بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

والحق أن هذه القطاعات الثلاثة ـ التي ينضوي تحت كل منها عدة مقاطع متآخية ـ تتفق ومحور السورة الرئيس الذي يدور حول قضية الألوهية، وتثبيت العقيدة في قلوب المدعوين.

٠٥ المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

من أنعم نظره في مضامين مقاطع السورة الكريمة يدرك أن كل مقطع منها يتفق مع المقطع السابق في النظم، وأن المعاني الكامنة في كل واحد منها تحمل رسالة هادفة في الكشف عن الوحدة الموضوعية في كيان السورة. فقد ارتبطت الخاتمة بمقدمة السورة، وجاء بينهما قصص الأنبياء التي تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور لتحقيق العبودية لله تعالى.

٠٦ المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

جاءت سورة هود لتعانق أختها سورة يونس عناقاً متناسقاً متلاحماً في مقاطعها وآياتها. قال الأستاذ سيد قطب في مقدمته لتفسير سورة هود: «.. والعجيب أن هناك شبهاً كبيراً بين هاتين السورتين، في الموضوع...

إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل... إشارة إلى قصة نوح.. وإشارة إلى الرسل من بعده.. ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها السورة.

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة. وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها، إلاّ أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز»[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٤٤.

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

يمكن تقسيم السورة الكريمة إلى ثلاثة قطاعات[1] رئيسة عرضت للعقيدة من حيث حقائقها، وحركتها في التاريخ، والتعقيب على الحركة في السورة، وقد تضمن كل قطاع أو محور عدة مقاطع للآيات الكريمات التي يتألف منها القطاع الواحد. وهذه القطاعات الثلاثة التي تتألف منها سورة هود هي:

القطاع الأول: حقائق العقيدة في مقدمة السورة (الآيات ١ـ٢٤).

القطاع الثاني: حركة حقائق العقيدة في التاريخ (الآيات ٢٥ـ٩٩).

القطاع الثالث: التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ (الآيات ١٠٠ـ١٢٣).

القطاع الأول: حقائق العقيدة في مقدمة سورة هود (١ـ٢٤)

هذا «القطاع الأول من السورة.. يمثل المقدمة ـ التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب ـ وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية»[2]. وقد تضمن هذا القطاع خمسة مقاطع رئيسة يأخذ بعضها بحجز بعض وهي:

المقطع الأول: (الآيات ١ـ٤) أصول الدعوة الإسلامية.

المقطع الثاني: (الآيتان ٥ـ٦) مشهد فريد ترتجف له القلوب.

المقطع الثالث):الآيات ٧ـ١٠) اضطراب نفوس الكافرين.

المقطع الرابع: (الآيات ١١ـ١٧) تسلية الرسول ﷺ.

المقطع الخامس: (الآيات ١٨-٢٤) بيان حال الفريقين: الكافرين والمؤمنين.

---

(١) اعتمدت تقسيم الأستاذ سيد قطب لمضامين سورة هود في الظلال.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٥٠.

المقطع الأول: (الآيات ١-٤) أصول الدعوة الإسلامية

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

من أنعم نظره في مطلع سورة هود أدرك أنها جاءت لنفس الهدف الذي جاءت من أجله سورة يونس، وهو من أبرز الحقائق الإيمانية من خلال عرض قصص الأنبياء.

لقد بدأت سورة هود بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الكريم، فقد وصف الله تعالى كتابه بأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت.

إنه كتاب لا يتطرق إليه خلل في أحكامه، وأنه مفصل لا خفاء فيه، ثم أخذت السورة تعدد بعض هذه الآيات التي تحمل في مضامينها المبادئ الإيمانية، والحقائق الاعتقادية.

ثم عرضت الآيات لمطلبين مهمين هما: الاستغفار والتوبة، إذ التخلية قبل التحلية ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾، ومن يفعل ذلك يعش عيشة طيبة لا يفوته منها شيء مما يشتهي ولا ينغصه شيء من المكدرات إلى آخر عمره في الدنيا.

وقد نبهت الآيات إلى أن من زاد في الإحسان زيد له في الثواب والفضل في الدنيا والآخرة.

وأما المخالفون العصاة فأنذرتهم الآيات وخوفتهم من عاقبة أمرهم إن تولوا عن قبول دعوة التوحيد﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾إنه عذاب يوم كبير لما فيه من الأهوال يوم القيامة جزاء التولي عن دعوة التوحيد، دعوة الحق سبحانه وتعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الإحكام والتفصيل في هذا القرآن الكريم من أجل تحقيق مقصد العبادة لله تعالى وحده.
- دلت الآيات على أن المقصد الأول لهذا القرآن العظيم هو العبادة، وأن كل شيء فيه من

أجل تحقيق هذا المقصد، ومن ذلك الاستغفار والتوبة في كل وقت وعلى أي حال.

- المؤمن الطائع لربه يعيش حياته سعيداً حتى يلقى ربه﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾.
- العصاة المذنبون لهم عقوبة أخروية، وعذاب أليم جزاء كفرهم وتوليهم عن طاعة ربهم سبحانه وتعالى.

المقطع الثاني: (الآيتان ٥-٦) مشهد فريد ترتجف له القلوب

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

افتتحت آيات المقطع بالتنبيه لأمر غريب يبين بعض أحوال الذين تولوا عن التوحيد، ويكشف هذا المقطع جهل هؤلاء وما هم عليه من أوهام، وظاهر السياق أن المذكورين في الآية هم المشركون الذين يجهلون إحاطة علم الله تعالى بكل حال.

« بعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.. يمضي السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات عندما يقدمها لهم النذير البشير، يصور السياق الوضع الحسي الذي يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له، وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي، ويكشف عن العبث في تلك المحاولة وعلم الله تعالى يتابعهم في أخفى أوضاعهم...»[(١)].

إن العلم الإلهي محيط بكل شيء، ومن ذلك أرزاق الدواب فإن الله تعالى قد تكفل بها ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾، « ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا، وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول..

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٥٥.

هاتان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس بربهم الحق الذي عليهم أن يدينوا له وحده، أي أن يعبدوه وحده، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرزاق الذي لا يترك أحداً من رزقه»[١].

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

ـ الكفار يصرون على عدم سماع القرآن الكريم، ولذلك يستخفون عن الله سبحانه، ولا فائدة من ذلك لأن الله تعالى لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم.

ـ تكفل الله سبحانه بأرزاق الخلق جميعاً، وهذا دليل على اتصافه سبحانه بالرحمة، هذه الرحمة السابغة تشمل الإنسان والحيوان والطير والنبات وكل المخلوقات، فقد جعل رزقها مقدراً عنده سبحانه.

المقطع الثالث: (الآيات ٧ـ١١) اضطراب نفوس الكافرين

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تناولت آيات هذا المقطع بيان سعة علم الله تعالى وقدرته، فقد كان عرشه سبحانه على الماء، وخلق سبحانه السموات والأرض والأجرام، وهي من مظاهر قدرة الله تعالى، وما

(١) المرجع السابق ٤/ ١٨٥٧.

خلقها إلاّ « لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه»[1].

وعلى الرغم من ذلك يستعجل العصاة الذين كفروا نزول العذاب بهم، على وجه التكذيب والإنكار والاستهزاء، وما يقوله بعض المعاصرين إنما هو تقليد للمكذبين بالبعث الذين عرضت لهم الآيات الكريمات.

« ثم ترشد الآيات إلى أن إعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه، وإنما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء، وبطر النعماء، ولو أنهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر في قلوبهم لكان لهم من صبر الإيمان وصالح الأعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾...»[2]. « فقد نسجت هذه الآية على المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طرق الحذر من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر كل مذهب ممكن»[3] ذلك لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إن نالتهم رحمة شكروا، وإن زالت عنهم صبروا، لأنهم موقنون بحكمة الله تعالى في كل حال.

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

- إتقان صنع الله تعالى في خلقه السموات والأرض.
- يجب أن يكون عمل العبد خالصاً لوجه الله تعالى، وأن يكون صواباً متبعاً فيه الشرع والسنة.
- أحوال الدنيا غير باقية، فهي متغيرة من النعمة إلى المحنة، وبالعكس وهو الانتقال من المكروه إلى المحبوب.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٨٠.

(٢) إلى القرآن الكريم/ محمود شلتوت ص ٧٣.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١١/ ١٥.

- طبيعة الإنسان أنه ظالم جاهل متقلب الأطوار ينقا للقنوط أحياناً، ويفرح ويبطر أحياناً أخرى.
- الإنسان الموفق هو الذي يصبر إن حرم، ويشكر إذا أكرم.

المقطع الرابع: (الآيات ١٢-١٧) تسلية الرسول ﷺ

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٞ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحْمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٖ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

عرضت الآية السابقة من المقطع الثالث لمنزلة الذين صبروا وعملوا الصالحات وما أعدّ الله لهم من مغفرة وأجر كبير جزاء صبرهم.

«وإذا كان للصبر هذه المنزلة، فأول أوصاف النبيين الصبر، الصبر في سبيل الدعوة والاستمرار في التبليغ، والصبر على الأذى... ولذلك قال تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ الآية. وليس المعنى أن النبي ﷺ قد ضاق صدره أو يضيق، إنما المعنى أنهم يرجون أن تترك بعض ما أوحي إليك وأن يضيق صدرك بإيذائهم فتتركه مضطراً، والنبي ﷺ لم يكن منه شيء من ذلك..»[1] البتة،

(١) زهرة التفاسير / محمد أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٦.

لأنه ﷺ نذير للناس وليس موكلاً بكفرهم أو إيمانهم،﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ آية ٤٠.

لقد كان المشركون قوماً لداً، كانوا متعنتين في مطالبهم، ومتكبرين في مقالتهم، ومن ذلك مقالتهم بأن القرآن مفترى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾، فجاء الأمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ليقول لهم ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، لقد تنزل معهم القرآن الكريم في التحدي إلى الإتيان بعشر سور مثل القرآن في نظمه، وإن كانت معانيها مفتراه فعجزوا عن ذلك وكاعوا عن المعارضة، ولذلك وجب على المخاطبين أن يكونوا مسلمين بعد هذه الحجة الدامغة.

ولبيان فتنة الدنيا وما فيها من سوء العاقبة لمن تمسك بها، ونسي الآخرة، قال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لكن هذا الصنف من الناس يخسر الآخرة وليس له فيها إلاّ النار لسوء عمله، وفساد معتقده.

إن هؤلاء الذين أرادوا الدنيا وزينتها من الكافرين والمنافقين والمرائين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، ولم يفيدوا من كل ما صنعوا من عمل في الدنيا، وإنما وجدوه باطلا لا قيمة له. ذلك أن قلوبهم قد فسدت بالشرك فلم يكن لهم خير يحمدون عليه البتة.

ثم تنتقل الآيات لبيان حال الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال أضدادهم الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا.

تعرض الآية الكريمة حال رسوله محمد ﷺ، ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثلهم فقال﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة.. ويتلو هذه البينة والبرهان شاهد الفطرة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله تعالى وشرعه وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه.

ثم شاهد ثالث: كتاب موسى، وهو التوارة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، التي جعلها الله تعالى إماماً للناس ورحمة لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟. لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله.. أولئك يؤمنون بالقرآن العظيم حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله. أو من أن موعدهم النار. [(١)]

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

- إن إنكار الكفار لدين الله، وتكذيبهم للقرآن العظيم إنما سببه التعنت والصلف.
- لا ينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين، لأن الداعية على الحق المبين.
- إن هذا القرآن معجز بنفسه لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، لأن الأعداء الألداء من أهل اللسان تحداهم فعجزوا عن معارضته.
- من أراد الدنيا وزينتها حرم من نعيم الآخرة وما أعد الله تعالى لعباده في دار كرامته.
- الصبر من صفات الداعية المسلم، كما كانت صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٣٥٧، وصفوة البيان لمعاني القرآن لمخلوف.

المقطع الخامس: الآيات (١٨-٢٤) بيان حال الفريقين من الكافرين والمؤمنين

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ختمت آيات المقطع الرابع السابق ببيان حال الذين خسروا أنفسهم ببطلان ما قدموا من أعمال في الدنيا.

ثم جاءت آيات هذا المقطع لتوازن بين أهل الحق وأهل الباطل. بين الذين يتبعون الحق والذين يطلبون الدنيا وزينتها. حقاً إن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالله ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان... وأشدهم ظلماً لنفسه من بينهم من يدّعي مع ذلك كذباً على الله تعالى، فيجعل غيره نداً له وشريكاً معه في استحقاق الإلوهية... أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.

إنهم يستحقون لعنة الله وغضبه، لأسباب ثلاثة رئيسة لا توصل إلاّ إلى الشرور والإضرار بالآخرين:

السبب الأول: أنهم يصرفون الناس عن إتباع الحق وسلوك سبيله..

السبب الثاني: أنهم لا يريدون استقامة بين الناس..

السبب الثالث: أنهم كما يكفرون بالله، يكفرون باليوم الآخر..

«وهذه الأسباب الثلاثة تكوّن الصفات لمن هم أشدّ الناس ظلماً من بين الكافرين. وهؤلاء هم الماديون»[1].

قال الإمام البقاعي: «ولما توعد الكافرين وأخبر عن مآلهم بسببه، كان موضع أن يسأل عن حال المؤمنين فقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ آية ٢٣ [2].

لقد نال هذا الفريقُ الجنة، لأنه جمع بين الإيمان والعمل الصالح، والخشوع لله تبارك وتعالى فاستحقوا أن يكونوا من أهل الجنة.

وقد ختم هذا المقطع بآية كريمة عرضت لحال الفريقين الكافرين والمؤمنين، قال المكي الناصري رحمه الله تعالى: « في بداية هذا الربع ضرب كتاب الله المثل لفريق الذين كفروا وعملوا السيئات، ولفريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما الفريق الأول فهو كالأعمى بالنسبة للبصير، وكالأصم بالنسبة للسميع، وذلك لأنه لا ينتفع ببصره وسمعه الانتفاع المطلوب، فكأنه فاقد لهما بالمرة، إذ يسمع كلام الله ولا يتأثر به، ويرى صنع الله ولا يتأمل فيه.

وأما الفريق الثاني فهو سميع بصير، لأنه ينتفع بحاستي السمع والبصر انتفاعاً تاماً ويستعملهما استعمالاً لائقاً، السمع: في سماع الدعوة إلى الحق، والبصر: في مشاهدة بدائع الخلق، وذلك قوله تعالى﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

---

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسورة هود، د. محمد البهي ص٢٨، ٢٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ٩/ ٢٦٣.

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، ٣/ ١٠٨.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الكفر والإيمان في صراع دائم في الحياة الدنيا لا ينتهي.
- الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، والحق أن الكافرين الماديين سيكون عذابهم مضاعفا في الآخرة.
- الإجمال في الإثبات والتفصيل في النفي، هذا أسلوب القرآن الكريم، وهو المنهج الذي يتخذه الداعية في دعوته.

القطاع الثاني: حركة حقائق العقيدة في التاريخ (الآيات ٢٥-٩٩)

ترتبط سورة هود بأختها سورة يونس بعدة وشائج، منها عرضها للقصص القرآني الذي يعد في سورة هود هو قوامها، ولكنه لم يجئ فيها مستقلاً، إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها، والتي أجملها السياق في مطلع السورة ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ، فيبدأ بنوح، ثم هود، ثم صالح، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط، ثم شعيب، ثم إشارة إلى موسى... ويشير إلى الخط التاريخي، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب، وتبدأ بقصة نوح مع قومه، أول هذا القصص في السياق، وأوله في التاريخ»[1].

وقد تضمن هذا القطاع سبعة مقاطع متآخية في موضوع واحد هو القصص، وهذه المقاطع هي:

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٠-١٨٧١.

المقطع الأول: (الآيات ٢٥ـ٤٩) قصة نوح ﷺ مع قومه.

المقطع الثاني: (الآيات ٥٠ـ٦٠) قصة هود ﷺ مع قومه.

المقطع الثالث: (الآيات ٦١ـ٦٨) قصة صالح ﷺ مع قومه.

المقطع الرابع: (الآيات ٦٩ـ٧٦) تبشير الملائكة إبراهيم ﷺ.

المقطع الخامس: (الآيات ٧٧ـ٨٣) إجرام قوم لوط ﷺ.

المقطع السادس: (الآيات ٨٤ـ٩٥) قصة شعيب ﷺ مع قومه.

المقطع السابع: (الآيات ٩٦ـ٩٩) موقف فرعون من موسى ﷺ.

المقطع الأول: (الآيات ٢٥ـ٤٩) قصة نوح ﷺ مع قومه

ترتبط آيات هذا المقطع بآيات المقطع الخامس من القطاع الأول، ذلك المقطع الذي يبين حال الفريقين من الكافرين والمؤمنين، وجاءت آيات هذا المقطع تحمل في أعطافها دعوة نوح ﷺ لقومه، وما لقيه من تعنتهم، ثم تبين الآيات الكريمات قصة الطوفان، وهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، وبذلك ترتبط آيات هذا المقطع بالمقطع السابق ارتباطا وطيدا.

وفي سياق هذه الآيات الكريمات «انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم»[1].

ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٤٣.

- دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد وجواب قومه (الآيات ٢٥-٢٧)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

دعا نوح عليه السلام قومه إلى عقيدة التوحيد ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، هذه الدعوة التي تحمل في مضامينها حب نوح عليه السلام إلى هداية قومه إلى الإيمان، فرد عليه الملأ الذين كفروا من قومه بأربع حجج داحضة هي:

الأولى: أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة..

الثانية: أنه لم يتبعه منهم إلاّ أراذلهم في الطبقة والمكانة الاجتماعية..

الثالثة: عدم رؤية فضل له مع جماعته هؤلاء عليهم من قوة عصبية أو كثرة غالبة..

الرابعة: أنهم بعد الإضراب أو صرف النظر عما ذكروا يرجحون الحكم عليه وعليهم بالكذب في هذه الدعوى..»[(١)].

- دحض شبهات الملأ الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام (الآيات ٢٨-٣١)

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا ١٢/ ٥٣، ٥٤.

لقد تضمنت هذه الآيات الأربع دحض تلك الشبهات الأربع التي ردوا بها على نوح ﷺ، وللإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت كلام في التفسير الموضوعي لهذه الآيات أرى من المناسب نقله هنا لدقته في عرض معاني الآيات، يقول رحمه الله تعالى: «جاءت الآيات تفند هذه الطعون، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولاً أن صاحب الدعوة، وقد توافرت لديه أدلة الإيمان بها، وليس من شأنه أن يكرههم عليها إذا خفيت عنهم، وهو لا يطلب منهم مالاً ولا عزة، ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان، وإنما يدعوهم إليها طلباً لخيرهم، وعملاً على مصلحتهم فعلامَ هذا الموقف الذي يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق؟... وإلاّ فكيف ينقمون منه أن أجاب الفقراء دعوته؟ وهي دعوة الله الذي لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر، ولا بميزان القوة والضعف، وإنما يزنهم بمقياس الصفاء والإخلاص، والإيمان بالحق الذي يدعو إليه. كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه أن يطردهم،﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾... إن الله قد كلفه بتبليغ رسالته، ولم يجعل الناس أمامه في التبليغ إلاّ كما جعلهم في الخلق، سواسية لا طبقات، ولا أسياد، ولا أراذل﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»[١].

ومما يدل على قسوة قلوب قوم نوح ﷺ أنه ناداهم بأسلوب الاستعطاف الدعوي ليدعوهم إلى خيري الدنيا والآخرة، ناداهم بـ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ليرفع من مكانتهم في النداء، ولتلين قلوبهم، لكنهم استكبروا في جدالهم، وتعنتوا في إجاباتهم.

(١) إلى القرآن الكريم/ محمود شلتوت ص٧٥-٧٦.

- جواب قوم نوح عليه السلام ورده عليهم (الآيات٣٢-٣٥)

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد كان جواب قوم نوح عليه السلام قاسياً جاسياً قالوا لنبيهم يا نوح قد خاصمتنا وجادلتنا فأكثرت من الجدل معنا حتى أصابنا الملل من جدالك، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والعقوبة إن كنت نبياً صادقاً في قولك.

أما نوح عليه السلام فأجابهم بقوله﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي:أن إنزال العذاب ليس إليّ، وإنما هو خلق الله فيفعله إن شاء، وإذا أراد سبحانه إنزال العذاب فإن أحداً لا يمنعه من ذلك.

ثم يبين نوح عليه السلام لقومه أن نصحه لا ينفعهم إن أراد الله تعالى أن يغويهم، إذ قبول النصح إنما يكون لمن عنده قابلية الانتفاع به.

وللأستاذ سيد قطب كلام لطيف في سياق تفسير هذه الآيات، يقول رحمه الله تعالى: «وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياق لفتة عجيبة، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً ﷺ يفتري هذا القصص فيرد هذا القول قبل أن يمضي استكمال قصة نوح: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، فالافتراء إجرام، قل لهم: إن كنت فعلته فعليّ تبعته، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب..»[1]. وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات قصة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٦.

نوح ﷺ لتتحدث عن موقف المشركين من القرآن الكريم الذي فيه تفصيل لقصة نوح ﷺ، ولتؤكد هذه الآية لآيات مقدمة السورة التي تحدثت عن آيات القرآن الكريم.

- نوح ﷺ يصنع السفينة (الآيات ٣٦-٤١)

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

وتأتي مرحلة جديدة من مراحل قصة نوح ﷺ، مرحلة صنع السفينة، لأن القوم قد طغوا، ولن يؤمن من قومه إلاّ من قد آمن، فلا بد من اتخاذ وسيلة للنجاة، ويأتيه الوحي ويأمره أن يصنع سفينة﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فيطيع نوح ﷺ أمر ربه سبحانه، ويصنع الفلك، ولكن القوم ظلوا سادرين في غيهم وضلالهم ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾، كيف يصنع سفينة في أرض يابسة، لكن نوحاً ﷺ يستمر في صنعه ويقول لهم ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، «وسخرية نوح ﷺ والمؤمنين من الكافرين من سفه عقولهم وجهلهم بالله وصفاته، فالسخريتان مقترنتان في الزمن... فهو تشبيه في السبب الباعث على السخرية، وإن كان بين السببين بون»(١).

ثم يبين لهم نوح ﷺ أن العذاب المقيم يصيب المعرضين عن الحق الذين تكبروا على دعوة التوحيد﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ثم يمضي السياق ليتحدث عن لحظة حاسمة مرعبة لحظة مجيء التنور ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور١٢/ ٦٨.

وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

وهنا يحلو لي أن أنقل كلاماً للأستاذ سيد لا تشم منه رائحة الإسرائيليات في تفسير هذه الآيات، خلاصته أن الأقوال حول فوران التنور قد تفرقت، وذهب الخيال ببعضها بعيداً، فالتنور هو الموقد، وقد يكون الفوران من عين فارت فيه، وربما يكون هذا الفوران علامة من الله تعالى لنوح عليه السلام.

وبعد مرحلة فوران التنور يأتي الأمر﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ وهنا نأخذ المعنى من ظاهر السياق دون أن نبحث في الإسرائيليات عن التفاصيل، غاية ما في الأمر أن نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، ومن آمن بدعوته.﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾... « وهذا تعبير عن تسليمه للمشيئة في جريانها ورسوها، فهي في رعاية الله وحماه... وماذا يملك البشر في اللجة الطاغية بله الطوفان؟ »[1].

- نهاية القوم واستشفاع نوح عليه السلام لابنه (الآيات ٤٢-٤٩)

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٨.

﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ركب نوح عليه السلام السفينة التي صنعها ومعه الذين آمنوا بدعوته، وبدأت السفينة ﴿ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ بعد أن التقى ماء السماء بماء الأرض ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وهنا تحركت عاطفة الأبوة فنادى نوح ابنه ليركب معه في السفينة خشية الغرق، ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ وقد عزل نفسه عن أبيه الداعي إلى الحق... ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وبعد الطوفان جاء الأمر الإلهي للأرض والسماء بالتوقف عن انهمار الماء﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾. « بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا... وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى...

والآن وقد هدأت العاصفة، وسكن الهول، واستوت على الجودي. الآن تستيقظ في نفس نوح عليه السلام لهفة الوالد المفجوع،﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾... قالها نوح عليه السلام يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء..

وجاءه الرد من ربه﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾... جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد، وفيما يشبه التأنيب... ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه...﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾... وأدركت رحمة الله تعالى نوحاً ﷺ، تطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم..»[1].

لقد جاء قوله تعالى﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ ليكون خاتم آيات قصة نوح ﷺ في سورة هود ﷺ، دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وأما الكافرون والكافرات الذين لم يؤمنوا فيتمتعون بنعيم الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم جزاء وفاقاً، لأنهم كفروا بدين ربهم، وكذبوا رسله المبلغين للناس وحيه.

وهكذا تأتي قصة نوح ﷺ مع قومه تحكي لنا ما جرى بينه وبينهم، وتترجم لنا مع بقية القصص في السورة ما جاء في مقدمة السورة الكريم، ولتأخذ آيات قصص الأنبياء مع أقوامهم بحجز آيات مقدمة السورة، ولا تنفك عن خاتمتها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- إن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فنوح ﷺ وغيره أول ما يقولون لقومهم﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.
- من آداب الدعوة وتمامها الصبر على الدعوة، فنوح ﷺ صبر في دعوته صبراً عظيماً كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبين البراهين.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ١٨٧٩، ١٨٨٠.

- إن الشبه التي يثيرها أعداء الرسل ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل، من ذلك قولهم لنوح عليه السلام ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، فالآية بينت ترهات القوم وأباطيلهم في رد دعوة نوح عليه السلام.

- إن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله سبحانه ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾، ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

- إن القدح في نيات المؤمنين وفيما منّ الله عليهم به من الفضائل من مواريث أعداء الرسل.

- ينبغي الاستعانة بالله تعالى، وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله تعالى والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما عند النجاة من الكربات والمشقات، وهو ما يحتاج إليه كل مسلم ومسلمة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن والعياذ بالله تعالى.

- إن تقوى الله تعالى والقيام بواجبات الايمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والأرزاق وقوة البدن. (١)

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان للسعدي ص١٠٩.

المقطع الثاني: (الآيات ٥٠-٦٠) قصة هود عليه السلام مع قومه

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

بدأ هذا المقطع بقوله تعالى﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾وختم بقوله﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ففي بداية آيات المقطع يذكر الله تعالى قصة هود مع قومه عاد﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾[الفجر: ٧-٨].

وعاد هذه هي التي كانت تسكن جنوب الجزيرة العربية في منطقة الأحقاف لقوله تعالى ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الأحقاف: ٢١].

وقصة هود مع قومه في هذه الآيات معطوفة على قصة نوح عليه السلام بتقدير فعل محذوف تقديره وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.

والحق أننا « نجد الدعوة إلى التوحيد كما دعيت إليه قريش، وناؤوا هودا كما ناوءت

قريش، وصابرهم كما يصابرهم، ولما أصروا على الشرك والإيذاء أنزل الله عليهم ماءهم»[١]

لقد أخذ هود ﷺ بقومه إلى سبيل النجاة والخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده، واستغفارهم فيما هم فيه من الشرك والطغيان والافتراء على الله تعالى﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

« ورسالة هود مع عاد لا تختلف في جوهرها عن رسالة أي رسول أرسل إلى شعب غلبت عليه المادية فانحرف عن التوحيد إلى الشرك وأنكر الإيمان باليوم الآخر، تحت مغريات الحياة وما لها من خداع»[٢]

ولاستعطاف قومه وترغيبهم بالإيمان قال﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ « إذ تردُّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك»[٣] ولذلك نادى قومه للإقبال نحوه، وطالبهم باستغفار ربهم الذي خلقهم وأمدهم بنعم لا تعد ولا تحصى ثم أمرهم بالتوبة والإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه، لأن الدوام عن الإقلاع عن الشرك أهم من طلب العفو عما سلف من الذنوب، فإن فعلتم ما أمركم به أمدكم الله تعالى بمطر غزير متتابع ويزدكم قوة إلى قوتكم التي أنتم عليها وإنني أنهاكم عن التوالي عن أمر الله تعالى.

وعلى الرغم من هذه الحجة الواضحة في دعوة هود ﷺ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾.

« إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذي، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء؟، فأصيب بالهذيان»[٤]، هكذا زعمت عاد أن نبيهم هودا ﷺ قد أصابته

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧١٦.

(٢) تفسير سورة هود، محمد البهي ص٥١.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٠٢.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب٤/ ١٨٩٨.

آلهتهم وأصنامهم بسوء في عقله عندئذ رد عليهم هود ﷺ بقوله﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ « وهذه الآية من أعلام النبوة الواضحة لهود ﷺ، فكأنه قيل: هب أن آلهتنا لا شيء، فما حملك على الاجتراء على مخالفتنا نحن وأنت تعلم كثرتنا وقوتنا وأنت لا تزيد على أن تكون واحدا منا، فقال:﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦ ﴾ ظاهر أمره لكل أحد لا لبس فيه أصلا ولا خلل ولا اضطراب ولا اعوجاج بوجه...»[1].

لقد أبلغ هود ﷺ رسالة ربه سبحانه، ولم يبق ألا أن ينزل بهم العذاب الذي كذبوا به، فقال تعالى﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧ ﴾.

ففي الآية ثلاثة أمور:

الأول: أن هودا ﷺ قد قام بتبليغ رسالة ربه.

الثاني: الإعلان بنهاية القوم ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾.

الثالث: أن عاداً لا يضرون هوداً ﷺ في تبليغ رسالته.

وجاء ختام الآية وتذييلها بقوله تعالى﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ « يحفظ دينه وأولياءه وسنته من الأذى والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً، وكانت هي الكلمة الفاصلة، وانتهى الجدال والكلام ليحق الوعيد والإنذار ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٨ ﴾... حل بالمكذبين، ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتناسق مع الجو، ومع القوم الغلاظ العتاة.

والآن وقد هلكت عاد، يشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللعنة والطرد في تقرير وتكرار وتوكيد ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٩/ ٣١٠.

رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾... لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد، هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة»[1]

كونهم يستأهلون هذا الهلاك بسبب طغيانهم واستكبارهم ولذلك جاء تفظيع حالهم للاعتبار بقصتهم مع نبيهم هود ﷺ، ولعل وصفهم بقوم هود في قوله تعالى﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ لتمييزهم عن عاد الثانية، إذ قوم هود هم عاد الأولى التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم: ٥٠].

وهكذا تعرض آيات هذا المقطع لقصة هود ﷺ مع قومه عاد الذين كفروا ربهم فاستحقوا البعد عن رحمة الله تعالى، فحري بالطغاة والكافرين أن يعتبروا من قصة عاد ويرعووا عن غيهم وكفرهم بربهم قبل أن يأيتهم عذاب يوم عظيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الجاحدون لآيات الله تعالى، والعاصون لأوامره إن أمهلهم في الحياة الدنيا فإن عاقبته وخيمة.
- التوكل على الله تعالى في كل حين من مقاصد الإيمان.
- مهمة الداعية تبليغ الدعوة، وبيان الحجة والبرهان وبهذا يكون قد أبرأ ذمته أمام الله تعالى.
- الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى طريقان للخير والنفع في الدنيا والآخرة.
- الجاحد لآيات الله تعالى، المكذب لرسل الله، عاقبته وخيمة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ١٩٠٠- ١٩٠١.

المقطع الثالث: (الآيات ٦١-٦٨) قصة صالح عليه السلام مع قومه

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

بدئت آيات هذا المقطع وختمت بنفس أسلوب البدء والختام في آيات مقطع قصة هود عليه السلام مع قومه، فالقصة بدأت بقوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾ وختمت بقوله تعالى ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾.

وأما صلة هذه القصة بقصة نوح عليه السلام فهي معطوفة على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ « فالمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل نوحا ومن بعده هودا وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما صالحا إلى ثمود. وكانت دعوته الأولى هي التوحيد، لب الرسالات السماوية ومجتمعها والمشترك فيها جميعا ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾...»[1]؛ إن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقكم وأكرمكم بالتمكين في الأرض، فجعلكم عمارها وسكانها، ورزقكم من خيرات الأرض، «وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبنون، وتغرسون وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٢٣.

في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته»[١]، فاستغفروا ربكم الذي منحكم هذه النعم، ثم توبوا إليه سبحانه من ذنوبكم، ولبيان قرب رحمة الله تعالى من عباده قال لهم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ قريب من عباده، مجيب لدعواتهم، يقول الأستاذ محمد الغزالي- رحمه الله تعالى- « والواقع أن الخطاب لثمود يتناول البشر كلهم الذين أنشأهم الله من الأرض، ووظفهم في عمرانها، وكلفهم بعبادته فيها حينا من الدهر، ثم يعودون بعدئذ إليه ليسألهم عما قدموا...»[٢]. فحريّ بنا معشر المسلمين أن نحقق العبودية لله تعالى في أرضه سبحانه لنكون من عباده المخلصين.

ولبشاعة ما صنع الأعداء في الأرض أصبحت كلمة(الاستعمار) - التي معناها طلب الاعمار والبناء- كلمة ممقوتة، لأنهم ظلموا الناس، فامتد ظلمهم إلى الكلمة التي صارت ترادف الظلم والطغيان عند الكثيرين في هذا الزمان.

لقد أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكان الجواب منهم﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ آية ٦٢.

وفي هذا الجواب شهادة من ثمود لنبيهم صالح عليه السلام « أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه، لما جاءهم بهذا الأمر، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها، أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت الظن فيك، وصرت في حالة لا يرجى منك خير»[٣].

ومع هذا الرد القاسي من قومه، خاطبهم صالح عليه السلام بأسلوب دعوي رائع يأخذ بالألباب ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٣٦٣.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي ٢/ ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ٣٦٣.

عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾.

وفي هذا الرد بيان أن معصية الله تعالى خسران مبين، ومن آتاه الله الحكمة والإيمان فقد أوتي خيراً كثيراً. ومن الذين آتاهم الله تعالى الحكمة المستضعفون من قومه الذين آمنوا بدعوته إلى التوحيد، بينما الملأ من قومه ظلوا سادرين في غيهم وشركهم.

«ولما تخوّفوا من استفحال دعوته وغلبتها، أخذوا يتحدونه ويطالبونه مرة أخرى بآية محسوسة تراها العين تكون دالة على صدق رسالته، فكانت تلك الآية التي طلبوها، هي ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣]، وإنما أضيفت إلى اسم الله لكونها جاءت على خلاف ما هو معتاد في جنسها، لا شكلاً، ولا حجماً، ولا غذاء، فأمرهم صالح بتركها تأكل في أرض الله، وبأن يكون لها وحدها شرب يوم معلوم، كما يكون لمواشيهم شرب اليوم الذي يليه، بحيث تقاسم (ناقة الله) مواشيهم مياه الشرب مناصفة، يوم لها ويوم لهم[١].

لكنّ القوم تحدوا صالحاً عليه السلام فعقروا الناقة، لأن التكذيب بدعوة صالح قد تأصل في قلوبهم، فجاء التعدي على الناقة التي تعد آية من آيات الله في الأرض.﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ «فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا، ومن أيام هذه الحياة.. فلما جاء موعد تحقيق الأمر ـ وهو الإنذار أو الإهلاك ـ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا... نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً... كأن لم يقيموا ويتمتعوا.. وإنه لمشهد مؤثر...

ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة: تسجيل الذنب، وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾»[٢].

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، ٣/ ١٣١ـ ١٣٢.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ١٩٠٨، ١٩٠٩.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الاستغفار من الذنوب والتوبة إلى الله تعالى شرط لقبول الدعاء واستجابة الله تعالى لنا.
- في قصص الأنبياء وما حصل لأقوامهم الجاحدين لله تعالى العبرة والعظة للناس في كل زمان ومكان، فالله تعالى خالق الناس ومدبر أمورهم، قادر على تعذيبهم.

المقطع الرابع: (الآيات ٦٩-٧٦) تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

تأتي آيات هذا المقطع التي تتحدث عن تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام في سياق قصص الأنبياء مع أقوامهم، « فمن قصة ثمود في شمال شبه الجزيرة العربية تنتقل السورة إلى قصة لوط في بلاد الشام، في الأرض المجاورة»[1] التي عرض لها المقطع السابق وتعرض آيات هذا المقطع في السورة لإبراهيم عليه السلام مع أضيافه من الملائكة قبل ذهابهم إلى قوم لوط لتعذيبهم، يقول الأستاذ سيد قطب: « وفي قضيتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه كنوح ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه: إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل،

(١) تفسير سورة هود د. محمد البهي ص ٦٢-٦٣.

وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين»(١).

لقد بدأت قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة بالقسم، أي ووالله لقد جاءت رسل الله من الملائكة إبراهيم عليه السلام بالبشرى «وحيوه بالسلام ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ فرد هذه التحية بأحسن منها ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾أي أمري كله سلام، وأتم التحية بكرم الضيافة الذي امتاز به أبو العرب إبراهيم عليه السلام بأن أعد الطعام الشهي (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) مشوي على النار» (٢).

أكرم إبراهيم عليه السلام أضيافه ليأكلوا من طعامه، لكنهم امتنعوا عن تناول الطعام، فأحس أن القوم غرباء عنه، فلم يمدوا أيديهم لتناول الطعام، ولم يعتذروا فاستنكر إبراهيم فعلهم واستوحش منهم خيفة لقوله تعالى﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾، «وعند هذا كشفوا عن حقيقتهم ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾. وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط، ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾، وربما كان ضحكها ابتهاجا لهلاك القوم الملوثين﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا ففاجأتها البشرى بإسحاق، وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب»(٣).

« والذي يدل على قدرته تعالى أن الملائكة بشرت إبراهيم عليه السلام بالولد قبل امرأته سارة فسمعت فعجبت لقوله تعالى في سورة الذاريات ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولما شافهوها بذلك، صرخت بوجه العجب من انه جامع بين عجبين في كونه منه ومنها بأن ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ الآية ٧٢»(٤).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٩١٠.

(٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة ٣٧٣٠/٧.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤\ ١٩١٢ .

(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٩/ ٢٣١.

وهنا رد الملائكة عجبها بقولهم لها﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ الآية ٧٣.

« جاء رد الملائكة بأسلوب الاستفهام الإنكاري لاستفهامها التعجبي، أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ فلا محل للعجب أن يكون من آياته تعالى أن يهب رسوله وخليله الولد منكما في كبركما وشيخوختكما. فما بأول آية له وقد نجاه من نار قومه الظالمين، وآواه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهذه الرحمة والبركات والسلام عليهم.

وأما جملة﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ فجاءت لتعليل ما قبلها وقد وصف الله كتابه بالمجيد كما وصف نفسه به لسعة هداية كتابه، وسعة كرمه وفضله على عباده. ومن هذه الآية أخذ النبي ﷺ دعاء الصلاة الذي أمر به أمته عقب التشهد الأخير من الصلاة»[١].

لقد اطمأنت نفس إبراهيم ﵇ وزوجه بالبشرى، وسكن قلبه وذهب عنه الخوف والروع الذي أصابه في بدء لقائه مع أضيافه الملائكة.

« ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودودة لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ ﴾وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال لأن النص القرآني لم يفصله»[٢].

إن الصفات الحميدة التي كان يتصف بها إبراهيم ﵇ جعلته يجادل الملائكة، فإبراهيم «غير عجول على كل من أساء إليه ﴿ أَوَّٰهٞ ﴾ كثير التأوه من الذنوب ﴿ مُّنِيبٞ ﴾ تائب راجع إلى

---

(١) انظر: تفسير المنار / رشيد رضا ١٢/ ١٠٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤ / ١٩١٢-١٩١٣.

الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»[١].

ولذلك حري بنا معاشر المسلمين أن لا نتعجل بالدعاء على العصاة والمذنبين، وإنما علينا الدعاء لهم بالهداية والإنابة لا بالهلاك والاستئصال تأسيا بإبراهيم ﷺ في دعوته.

عرض إبراهيم ﷺ على أضيافه الملائكة تأجيل العذاب لقوم لوط بالاستئصال لكن الملائكة الكرام عليهم السلام قالوا له﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- من آداب الإسلام: كرم الضيافة، والابتداء بالسلام على الآخرين.
- ملازمة الدين وتقوى الله تعالى هما أساس السعادة في الدنيا والآخرة.
- رقة القلب والحلم والمجادلة بالتي هي أحسن، من صفات الداعية المسلم.

المقطع الخامس: (الآيات ٧٧-٨٣) إجرام قوم لوط ﷺ

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٤١٢.

ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

عرضت آيات المقطع السابق لبشارة الملائكة إبراهيم عليه السلام بإسحاق، ثم انتقلت في هذا المقطع إلى لوط عليه السلام لتخبره بوقوع العذاب على قومه وأنه أمر واجب لازب لا يرد عن القوم الظالمين، فاستقبلهم لوط عليه السلام استقبال المتضرر بهم، وعبر عن هذا الضيق الشديد بأن يومه عصيب﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾الآية٧٧.

لقد جاءت اللحظة القاسية حين علم قوم لوط عليه السلام بأضيافه من الملائكة، وصاروا يهرعون إليه طالبين الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، جاءوا مندفعين بسرعة هائلة وغير طبيعية، لأن نزعاتهم الحيوانية كانت تسيطر عليهم فأفقدتهم كل القيم الخلقية، فنسوا الحياء والخجل، وقد خاف لوط عليه السلام على ضيوفه بوجوههم المشرقة من اعتداء رجال قومه الشاذين جنسياً، ولذلك دعا لوط عليه السلام هؤلاء الشاذين للزواج من بنات القوم بالطرق المشروعة بدعوتهم إلى الفطرة السليمة﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ الآية ٧٨

في هذا النداء يحاول لوط عليه الصلاة والسلام إيقاظ الفطرة السليمة في نفوس رجال قومه، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله تعالى للرجال، فهن أطهر بكل معاني الطهر عرض عليهم التزويج من النساء في قومه لأنهم في مقام بناته.

« ولكن هل استمع القوم إلى دعوته تلك؟ طبعا لا، وهذا أمر متوقع، فالقوم الذين وقعوا فريسة لغرائزهم الحيوانية المحضة، بعدوا كل البعد عن أي طريق للتعقل أو للحكمة». [١]

والحق أن الأمر اشتد، ولوط عليه السلام غضب غضباً كونه لا يملك قوة تردع سفهاء قومه، عندئذ قال لوط عليه السلام﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾، « حينئذ أخبرته ملائكة الرحمن

(١) أحسن القصص، د. زاهية الدجاني ص٧٨.

بأمرهم وأنهم أرسلوا لإهلاكهم.. فكان هذا عذاباً معجلاً وأنموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطاً أن يسري بأول الليل بأهله ويلح في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب، فخرج بهم فلما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد[1].

لقد أصابهم العذاب جزاء ما اقترفوا من شذوذ جنسي، ومخالفة للفطرة، فنالوا جزاءهم الذي لا يزال شاهداً على إجرامهم الذي صاروا فيه قدوة لكل الشاذين في أي زمان، وأي مكان.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الغيرة على حرمات الله تعالى من الدين.
- الاستعانة بالآخرين على أمور الخير ولو كانت الاستعانة بذلك من أهل الشر، فلعل الله يؤيد دينه بالرجل الفاجر.
- اللواط جريمة أخلاقية، وقتل لأخلاق الرجولة.

المقطع السادس: (الآيات ٨٤-٩٥) قصة شعيب عليه السلام مع قومه

تتواصل الآيات الكريمات ذكر حلقات المكذبين لأنبيائهم، وما أصابهم، وهنا يذكر نبي الله شعيبا - عليه الصلاة والسلام- مع قومه أهل مدين الذين قيل إنهم كانوا يسكنون أطراف الجزيرة بمحاذاة الشام وتعرف بلادهم بمعان مدينة معروفة ببلاد الأردن حاليا.

وعلى أي حال فإن هذه القصة تختلف عن سابقاتها وما سيأتي بعدها حيث تركز على قضية الأمانة في المعاملة، ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

---

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص ١٢٥.

- الآيات (٨٤- ٨٦) دعوة شعيب عليه السلام ونصيحته لقومه:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

جاءت في هذا المقطع الكريم الدعوة الكريمة الصادقة من نبي الله شعيب عليه السلام- لقومه حيث دعاهم إلى توحيد الله القاعدة الأولى في الحياة التي يقوم عليها كل ما عداها من عقيدة وعبادة ومعاملة، وبدأ بها، لأنها الأصل الثابت الذي ينبني عليه غيره ثم ثنى بنهي قومه آل مدين عن التطفيف في الكيل والميزان، وقد كان هذا العمل السوس الذي ينخر في عظام أولئك القوم؛ كما اشتهر قوم لوط بفاحشة عمل قوم لوط.

ولم يكتف – عليه الصلاة والسلام- بالنهي مجردا بل إنه علله ليحسن وصوله إلى عقولهم المتحجرة فذكرهم بأنهم في رغد من العيش وبسطة في الجسم وأمن في البلدان؛ فلا ينبغي لهم أن يمدوا أيديهم إلى أموال الآخرين بنقص كيلهم، وكل ذلك دل عليه جزء آية كريمة الذي جاء بأسلوب تحليلي «إني أراكم بخير».

وكما علل نهيه عن التطفيف في الكيل فقد حذرهم نقمة الله العاجلة والآجلة.

ثم تجيء الآية الثانية من قصة سيدنا شعيب مع آل مدين مبدوءة بالنداء « يا قوم» الذي تكرر ست مرات في سياق هذه القصة ليفيد الحنو والعطف الذي كان يجيش به صدر نبي الله شعيب- عليه الصلاة والسلام-.

ثم تأتي النصيحة الغالية على الطريقة الموجبة (الأمر) بعد ما جاءت بطريقة السلب والنهي من باب التأكيد على أهمية الأمر ومن أجل الإشارة إلى أن التخلية تكون قبل التحلية، ثم ينهاهم عن نقص حقوق الناس؛ إذ إن نقصها ظلم وأي ظلم، وهنا يلحظ أن السياق ينتقل بنا من

الخاص إلى العام؛ ذلك أن نقص الكيل والوزن متعلق الأمر بهما فقط، أما النهي عن بخس الناس أشياءهم فهو نهي عن كل معاملة باطلة كالربا والغش والرشوة والسرقة والتدليس...

فكل هذه المعاملات الخبيثة تؤدي إلى تدابر الناس وتحاسدهم فيما بينهم، ولأنها توصل إلى جو خرب يقضي على الأخضر واليابس ولهذا فقد جاء المقطع الأخير من الآية الكريمة لينهاهم عن إشاعة الفساد المتعمد كالقتل وتهديد الأمن العام.

ثم تأتي الآية التي بعد هذه لتذكر القوم بأن ما عند الله خير وأبقى، وعبرت الآية الكريمة عنه بكلمة (بقيت) التي تدل على الدوام وتؤذن بضده وهو الزوال، وقد أفادت أن ما يقترفونه من آثام متاع زائل، وأن ما يدعوهم إليه شعيب حظ وافر باق، وبقاءه يشمل الدنيا والآخرة أما كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن تراض لا يؤدي إلى الخنق وأمراض القلوب وأما كونه أخرويا فلأن النهي عنه مقارن بالوعيد، فإذا تركوه كان لهم الجزاء الحسن والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً.

وكان الذي عند الله خير وأبقى مشروط بالإيمان الذي يولد القناعة ويقمع الطمع ومعروف أن مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

وفي آخر نصيحة سيدنا شعيب – عليه الصلاة والسلام- الآن تأتي الإشارة إلى خطورة الأمر وعظم المسؤولية، وأنه لم يرسل لحفظهم من المعاصي أو معاقبتهم عليها إنما هو مبلغ لهم وناصح أمين، وكل سيحاسب على ما عمل.

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم مبينة استنكار القوم وسوء معاملتهم لنبيهم وسخريتهم منه وتهكمهم به. (١)

---

(١) -انظر فيما سبق: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٥، ظلال القرآن ٤/ ١٩١٧، وزهرة التفاسير ٧/ ٣٧٣٨، والتفسير الموضوعي لسورة هود للدكتور البهي ص٧٠.

- الآيات(٨٧- ٩٣) مجادلة شعيب ﷺ لقومه ولجاجهم معه:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾

في هذا المقطع الكريم يواصل نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام مجادلة قومه بالتي هي أحسن مبتدئاً تذكيرهم – في تودد وتحبب– بأواصر القربى مستخدما كلمة طالما استخدمها (يا قوم) ويبين لهم ما يريد تبيانه في أمور ثلاثة[1]:

١ – إنه على بينة من ربه وأنه مبعوث بحق من عنده فهو الذي خلقه ورباه وقام عل شؤون الوجود، وفي استخدام كلمة رب ما يفيد ذلك كما لا يخفى.

٢ – إن الله رزقه رزقا مباركا طيبا لا ظلم فيه ولا غش ولا تطفيف، وفي كلامه هذا تلميح وإشارة إلى أن رزقهم ليس كذلك فينبغي لهم أن يقتدوا به من حيث اكتساب الرزق الحسن.

٣ – إنه يطبق على نفسه ما يدعوهم إليه وما ينهاهم عنه؛ إذ إنهم أنبياء مجبولون على فعل ذلك دائما فهم قدوة لأتباعهم في كل زمان ومكان، يقول العلامة البيضاوي: «... ولهذه الأجوبة

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٣١٤، وزهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤١.

الثلاثة على هذا النسق شأن وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله تعالى وثانيها حق النفس وثالثها حق الناس»[1].

وبعد ما بين لهم الأمور الثلاثة ذكرهم بما يهدف إليه وما يريد أن يحققه من جراء ذلك كله ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ فالصلاح والإصلاح للفرد والمجتمع والحياة هو الهدف الرئيس الذي يجعله الأنبياء نصب أعينهم، وفي هذا ما يعود على الفرد والمجتمع والحياة بالخير واليسر والسرور.

وفي أخر الآية الأولى من هذا المقطع الكريم يبين نبي الله شعيب أنه يستمد فلاحه وصلاحه، وكل ما يأتيه من القوة المطلقة من رب الأرباب وملك الملوك فهو وحده سبحانه الذي يوفق إلى الهداية ويوصل للغاية، وعليه المعتمد وإليه المصير والمرجع فهو الذي يجازي المسيء ويثيب المحسن دنيا وآخرة.

ويواصل عليه السلام محاولة تذكير قومه علهم يتعظون فيبدأ بكلمة فيها رقة الأب الحاني والخائف على ذويه وأقاربه من التهلكة ومصير الظلمة ثم يحذرهم أنه لا ينبغي لهم أن تحملهم مشاقتهم له ومكابرتهم ومعاندتهم على استمرارهم في العصيان والمخالفة حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من ريح صرر عاتية أو قوم صالح من الصيحة أو قوم لوط من العذاب والخسف، وهؤلاء ليسوا ببعيدين عن قوم شعيب زماناً ومكاناً، فالمكان قريب من مكانهم فقوم مدين على أطراف الشام ومكانهم معان القرية المعروفة، ومكان قوم لوط هو غور الأردن، وكذا الحال مع الزمان فمدين من إبراهيم جد القبيلة التي سميت باسمه كان متزوجا بابنة لوط عليه السلام، ثم يحلق بهم في جو آخر من أجواء النصيحة الخالصة فيدعوهم إلى طلب المغفرة من الله ذي الجلال والإكرام والتوبة إليه عما ارتكبوه من شرك وسوء معاملة فإن الله واسع المغفرة والرحمة وإنه لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى.

هكذا كانت نصيحة شعيب لقومه فيها التودد والمجادلة بالتي هي أحسن فماذا كان رد

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٧٨.

أولئك القوم أصحاب القلوب الغلف؟

مع كل أسف كان الرد عنيفاً وسيئاً، وفيه من صدود وصلف ونكير وعنف، وأول ذلك أن نادوه باسمه مجرداً فقابلوا الإحسان بالإساءة وقالوا لا نفهم كثيراً من أقوالك التي تهدف من دلائلها كبطلان عبادة آلهتنا وحرية التصرف في أموالنا ثم أخذوا يقيسون القيم والأخلاق بمقياس المادة الظاهرة، فهو فيهم ضعيف وفي نظرهم حقير ولولا عصبية العشيرة القريبة التي تحميه لقتلوه شر قتله وهي الرمي بالحجارة فهو ليس بذي عزة ومنعة منهم فلولا رهطه لرجموه.

بعدما أجابوه تلك الأجوبة القاسية الموزونة بموازين الجاهلية الأولى غضب شعيب- عليه الصلاة والسلام- لربه فبدأ بإنذارهم مبتدئاً جوابه- كعادته- بلفظ الحنو الأبوي الرقيق (يا قوم) ثم نصحهم مستنكرا عليهم أن يكون الرهط والقبيلة أعز من الله عندهم فهم الذين أشركوا بالله وجعلوه نسياً منسياً رغم أنه سبحانه العالم بهم وبأسرارهم المحيط بهم، ولقد أحسن عليه السلام الاختيار لكلمة ربي دون غيرها إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن الله حاميه منهم؛ لأنه هو الذي خلقه ورباه وحماه من قبل أفلا يحميه بعد؟

ثم يسترسل النبي الهادي في النصح الأخير لقومه والأسلوب هو الأسلوب الرفيق الرقيق فيه الحكمة وحسن الأدب فلعل القلوب تلين، والعقول تهتدي، لكن هذه المرة الأخيرة ينذرهم ويخوفهم العقاب فيطلب منهم أن يمضوا في طريقتهم وخطتهم وسيمضي هو كذلك في طريقه وخطته»[١].

والأيام هي خير من يشهد لصاحب الموقف الحق، والواقع الآتي هو أقوى من يبين زيف الكاذب، وكلنا منتظرون ومرتقبون ما يقع لكم ولنا، يقول الأستاذ سيد قطب: «وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق»[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤١٥، والتحرير والتنوير ١١/ ٣١٨، وزهرة التفاسير٧/ ٣٧٤٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٣.

- الآيات (٩٤- ٩٥) النهاية المؤلمة لقوم شعيب عليه السلام:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

في هذا المقطع الأخير من قصة سيدنا شعيب -عليه الصلاة والسلام- مع قومه، تصوير وبيان لما حل بالقوم نتيجة تكذيبهم نبيهم، فما إن جاء وعد الله الحق الذي لا يتخلف ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين نجّى الله تعالى من شاء أن ينجيه، وهم شعيب وثلة من الذين آمنوا معه، أما العذاب الذي أراده الله للمكذبين فكان الصيحة والجزاء من جنس العمل، فغدوا باركين على ركبهم، ميتين لا حراك لهم فخلت منهم الدور كأن لم تكن لهم دور وكأنهم لم يعمروها حينا من الدهر.

فهلاكاً لأولئك القوم وتباً لهم وبعداً كما هو الحال مع أسلافهم قوم ثمود[1]، فمضى القوم كلهم المشبه والمشبه به مشبعين باللعنة والسخط، وطويت صفحتهم السوداء والغبراء المكفهرة «وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد»[2]

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- إن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.
- إن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات قادر على جعل العذاب يصيب به من يشاء ويدفعه عمن يشاء وفق ناموس لا يتغير ولا يتبدل فالبقاء للأصلح والعاقبة للمتقين.
- التفكير في مصير الظلمة يجعل المرء العاقل يربأ بنفسه عن أقوالهم وأفعالهم الشنيعة.
- بخس الناس أشياءهم يشيع في النفوس مشاعر الألم والحقد مما يؤثر سلباً في حل الروابط

(١) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٣.

الاجتماعية ولا يبقى شيء صالح في دنيا الناس ومعاشهم.

- الإيمان بالله تعالى يولد الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل.
- الصلاة تربط الإنسان بخالقه فتيقظ قلبه وتجعله مراقباً لمولاه في كل ما يأتي وما يذر من عبادات ومعاملات.
- الرفق والرقة في الأسلوب مما ينبغي للداعية المسلم أن يتحلى بهما طوال سني دعوته مهما أصابه من نصب ووصب مع المدعوين.
- من اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على غيره ذل، ومن اعتمد على الله فلا ذل ولا قل.
- اتباع الأسلوب العقلي العاطفي مع المدعوين كي تؤتي الدعوة ثمارها مع المدعوين.

على الإنسان العاقل- في دنيا اليوم- أن يفكر من أين وكيف أتى؟ وأين سيذهب؟ وما مصير الذين سبقوه؟ ففي هذا مدعاة إلى الإيمان وحسن العمل.

المقطع السابع: (الآيات ٩٦-٩٩) موجز قصة موسى مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

عرضت آيات هذا المقطع الكريم لخبر سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام- مع الطاغية فرعون، والخبر مجمل في ذاته، وإنما أريد به في هذا السياق الإعلام بأن عاقبة فرعون وأشراف قومه هي اللعنة والهلاك كحال أولئك الأقوام الظالمين الذين سبق الحديث عنهم في المقاطع السابقة.

وهنا يبدأ المشهد الكريم بعرض إرسال موسى ﷺ مدعما بالآيات التسع المعدودات

المذكورات في سورتي الأعراف وبني إسرائيل، وكذا إعطاؤه البرهان الواضح، وقيل المقصود بالسلطان المبين العصا؛ لأنها أكبر آياته فيكون من باب عطف الخاص على العام.

وأيا كان الأمر بإرسال موسى ﷺ بالآيات البينات والحجج البالغات أمر لا يجادل فيه ولا يشك. فقد أرسل ﷺ إلى فرعون طاغية الزمان والمكان ومعه كبراء قومه- لكن السياق هنا يطوي القصة طيا ليوصلنا إلى نهايتها.

فإذا كان القوم يتبعون أمر فرعون ويتركون « أمر الله ورسوله رغم ما في فرعون من حماقة وطيش وجهل وشطط، ثم تأتي الآية الثالثة من هذا المقطع الكريم لتبدي لنا ما يقع يوم القيامة وكأنه وقع، ففرعون يتقدم قومه إلى الحطمة يوم القيامة فيورد نفسه جهنم وبئس المصير ويورد قومه معه كما يورد الراعي القطيع من الغنم، نعم فقد كانوا كذلك من حيث قلة تفكيرهم وتنازلهم عن أهم خصوصيات الآدمية وهي حرية الإرادة وحسن الاختيار. وذلك المرد الذي أورد فرعون نفسه وقومه إياه بئس المكان إذ إنه نار تلظى لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تروي من ظمأ»[1].

ثم تجيء الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم لتبين ما جلبه فرعون وآله على أنفسهم من نقمة الله تعالى وهي اللعنة تلحقهم في هذه الدنيا بإغراق الله لهم « فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين» تلك هي النار عطاء الله لآل فرعون وبئس الرفد والعطاء والمنة التي أذل بها فرعون قومه وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

يقول أبو زهرة: «وهذا تصوير لحالهم إذ تعاونوا على الظلم والذل والإذلال في الحياة، فتعاونوا على المقت وإرفاد النار بعد الوفاة»[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٦، والتحرير والتنوير ١١/ ٣٢٣.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤٧.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الله سبحانه وتعالى أعطى الناس عقولا يفكرون بها ليميزوا الخبيث من الطيب، وترك لهم حرية الاختيار ثم إنه سيحاسبهم على اختيارهم ذاك وإذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب.
- على الإنسان أن يوطن نفسه وألا يكون إمعة بل ينبغي أن يُحسن الاختيار لنفسه وإلا فلا يلومن إلا إياها.
- أهمية اختيار الرفقة الطيبة فالأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.
- لا يكتفي الظالم بأن يورد نفسه الهلاك بل يضر غيره من الذين يتبعون كل ناعق ويسيرون خلف كل منافق.

القطاع الثالث: التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ (الآيات ١٠٠-١٢٣)

جاءت آيات القطاع الثالث خاتمة لآيات سورة هود ﷵ في ثلاث وعشرين آية كريمة، متضمنة هذه الآيات «تعليقات وتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك»[1]. فيها التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ بدءاً من نوح ﷵ الأب الثاني للبشر وانتهاء بسيد البشر محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن الكريم ليكون المعجزة والرسالة.

هذا، وقد تضمن هذا القطاع أربعة مقاطع هي:

المقطع الأول: العبرة فيما قص الله تعالى علينا دنيا وأخرى (١٠٠-١٠٩).

المقطع الثاني: الاختلاف في الحق والركون الى الظلمة (١١٠- ١١٥).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٩٢٦.

المقطع الثالث: الفتنة تعم بسكوت الصالحين (١١٦ - ١١٩).

المقطع الرابع: في القصص تثبيت للفؤاد وتسلية للقلب(١٢٠ - ١٢٣).

المقطع الأول: الآيات (١٠٠-١٠٩) العبرة فيما قص الله تعالى علينا دنيا وأخرى

ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

- الآيات (١٠٠- ١٠١) الظلم سبب لهلاك الأمم وخراب العمران:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

تبدأ آيات هذا المقطع باسم الإشارة (ذلك) الذي يشير إلى الاسم المذكور في القصص السابقة، وإنما اختير هذا الاسم (ذلك) لبيان بعدهم عن الحق ومكانتهم الحقيرة في نظر الله تعالى.

تلك القصص إنما هي غيض من فيض، وقليل من كثير، فهم كثر لا يحصون وأخبار تلك القرى الظالمة التي قصها الله على نبيه منها لا يزال آثاره قائما مشاهدا إلى يوم الناس هذا كبقايا عاد في الأحقاف ومنازلهم بجنوب عمان، وبقايا ثمود في الحجر، وبعض هاتيك القرى أمسى كالزرع المحصود اجتثها الله من فوق الأرض كقوم نوح وقوم لوط.

وتأتي الآية الثانية من المقطع الكريم لتبين أن سبب هلاك أولئك الأقوام إنما هو ظلمهم لأنفسهم بالشرك وسائر المعاصي، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون بما اقترفوه من تكذيب لآيات الله تعالى واستهزاء بالوعيد، ولو تركوا أزمنة أخرى لما ازدادوا إلا ظلما وفسادا، كما قال نوح عليه السلام ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٧].

هذا وقد اتكل أولئك الأقوام على معبوداتهم في دفع عذاب الله وبطشه ونقمته، ولكن هيهات ثم هيهات لحجر أو مدر أن يغلب خالقه ومدبره فما نفعتهم معبوداتهم التي كانوا

يدعونها من دون الله لما حق عليهم قول الله، وحل عذابه، وآن حلول بطشه.

فتلك المعبودات المسكينة في نفسها لم تزدهم نفعاً بل زادتهم خسراناً إلى خسرانهم وهلاكاً إلى هلاكهم فتعساً لهم جميعاً وبعداً للقوم الظالمين في كل زمان ومكان(١).

يقول الأستاذ سيد قطب: «ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظي وجرسه المشدد ذلك أنهم اعتمدوا عليهم، فزادهم استهتاراً وتكذيباً. فزادهم الله نكالاً وتدميراً»(٢).

ثم تجيء الآية الثالثة من هذا المقطع لتبدأ باسم الإشارة كذلك الذي يشير إلى استئصال تلك القرى الظالمة « والتقدير وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى أخذ ربك إذ اخذ القرى والتشبيه في الكيفية والعاقبة» نعم فالكيفية واحدة وإن اختلفت الوسائل والسبل والعاقبة واحدة وهي النهاية المؤلمة للقرى الظالمة. وأخذ الله المفاجئ الذي لا يرتقبه الظلمة موجع ومؤلم بل شديد في إيلامه، كيف لا وقد أخذ الناس على حين غرة وبسرعة لا تكاد تتصور، وإذا أراد القارئ المعاصر أن يقارن فلينظر ما حدث من الأعاصير في بعض البلدان العربية والأجنبية ففيها العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

- الآيات(١٠٢- ١٠٨) الناس بسبب عملهم فريقان:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود٣/ ٣٥٠، وتفسير المنار١٢/ ١٥٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨ .

جاءت آيات هذا المقطع لتنقل قارئها من الدنيا إلى الآخرة فابتدأت بتذكير الناس جميعا أن ما حدث ويحدث للأقوام المكذبين فيه عبرة وعظة؛ لأنه يذكر بالدار الآخرة خاصة لأولئك الذين يخافون الآخرة ويعملون لها، أما نقيضهم وهم لا يخشون الآخرة فتظل قلوبهم كالحجر الصلد لا يحس بحركة ولا ينتفع بموعظة.

وفي الآية نفسها يتكرر اسم الإشارة مشيراً هذه المرة إلى أقرب مذكور وهو الدار الآخرة. فالناس جميعا مجموعون في ذلك اليوم من أول الخليقة إلى آخرها وهو يوم مشهود من حيث عظم الموقف وشدته وما فيه من أحداث جسام وحساب وعقاب.

وكل الناس حاضر شاء أم أبى فينظر ما سيكون حينئذ، وهنالك العدالة الإلهية المطلقة التي تقتص من كل ظالم وتحاسب على القليل والكثير والنقير والقطمير، فنسأل الله السلامة ولطف الله بنا.

ثم تأتي الآية الثانية من هذا المقطع لتذكر أن يوم القيامة كائن لا محالة، وتأخيره ليس لأجل التأخير ذاته بل لأجل معدود في علم الله لايتقدم ولا يتأخر، وقد أعطت لكلمة معدود هذا المعنى؛ إذ إن المعدود لا يقبل الزيادة ولا النقصان ولا التقديم ولا التأخير، وإذ كان كذلك فإنه آت لا محالة فلا يتقدم باستعجال قوم ولا يتأخر بطلب آخرين. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ثم يجئ السياق مصدرا هول الموقف فهناك الخشوع والخضوع يغشى الجميع، والرهبة والرغبة تسيطر على الناس حينئذ، صمت مطبق بحيث لا يجرأ على الكلام كائن من كان ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

الناس يومئذ فريقان فاجر شقي، وسعيد تقي، فأما الذين حقت عليهم كلمة الله فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وشقاوتهم هي التي أنزلتهم ذلك المنزل وأوردتهم

ذلك المورد. فبئس القرار الذي فيه حر لقلى وضيق وكرب في النفوس وخنق في الصدور[١].

وتلك النار هي مثوى أولئك الظالمين لا يخرجون منها أبداً وكل ذلك بمشيئة الله التي قضت أن يكونوا كذلك.

يقول الشيخ أبو زهرة: «إلا ما شاء ربك فيه بيان أن العذاب والعقاب متعلق بمشيئة الله فهو الفاعل المختار، والأمر في ذلك متعلق بمشيئته هو في العدل والرحمة فليس بحتم عليه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فإذا كان قد أدخل الكفار النار فبمشيئته، وإذا كان قد أعطى المؤمنين الأتقياء جنة فبرحمته ومشيئته وعطائه ولذا قال بعد ذلك ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وهذا القول مستقيم نختاره»[٢].

ثم ينتقل السياق الكريم ليذكرنا بنزل السعداء فهم في جنة عالية منعمون، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لايبلى شبابها ولا ينتقص عيشها ولا يتكدر صفوها. فكلها عطاء لا ينقطع ولا يبلى فسبحان من بيده كل ذلك.

- الآية (١٠٩) صيحة ونصيحة:

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

بدئت هذه الآية الكريمة بالفاء التفريعية التي تفيد أنه مفرع عن القصص السابقة، فهي تكسب سامعها يقينا بباطل ما عليه عبدة اللات والعزى وأضرابها.

فأضرابهم من الأمم السابقة حق عليهم أمر الله وأصبحوا في خبر كان، وهؤلاء ليسوا بأحسن حالا من أولئك فسوف يصيبهم مثل ما أصابهم فلا ينبغي لك أيها الرسول خصوصا والسامع عموما أن يخالجك أدنى ريب في ذلك.

---

(١) انظر: تفسير المنار١٢/ ١٥٦، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٩.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٥٥.

فأهل مكة لا زالوا بعقلية آبائهم الأولين الذين يعبدون ما لا ينفعهم شيئا ولا يضرهم[1].

والله سيوفيهم حظهم من العذاب كما وفى أسلافهم من قبل والمراد بنصيبهم حظهم من عذاب الآخرة، لأن الله لم يستأصلهم كما أستاصل الأمم السابقة ببركة وجود النبي ﷺ ودعائه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- النهاية المؤلمة لكل ظالم آجلا أو عاجلا.
- ظلم الناس هو سبب الهلاك، ولا يأخذ الله القرى إلا وهي متلبسة بالظلم سادرة في غينها.
- لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم.
- الظلمة هم الظلمة فالسابقون يتبعهم اللاحقون لا يختلف بعضهم عن بعض إلا باختلاف الزمان والمكان وتكرار الأشخاص بأسماء جديدة، والنهاية واحدة لكل منهم.
- الحق أبلج والباطل لجلج وعلى كل أحد أن يختار منهما اختيار الحر العاقل.
- كل أحد سيوفى نصيبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر فكل يعمل على شاكلته والله المستعان.

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٣٣٣، زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٥٧.

المقطع الثاني: الآيات (١١٠ – ١١٥) الاختلاف في الحق والركون إلى الظلمة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

ابتدأت آيات هذا المقطع الكريم ببيان أن الله سبحانه آتى موسى الكتاب، وكان فيه الآيات البينات والأحكام الزاجرات لكن أهل الكتاب كانوا بطبيعتهم أهل شقاق واختلاف فاختلفوا في فهم الكتاب بناء على فساد نفوسهم وليس مرجع الخلاف إلى الكتاب ذاته.

ثم يبين الجزء الثاني من الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى لولا أنه يمهل الظالمين المختلفين في الكتاب إلى يوم الجزاء وأن ذلك سابق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل لحكم بينهم ولبين المحق من المبطل كما قضى بين الرسل والمكذبين. فإرادة الله تعالى الأزلية هي التي قضت في هؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب حتى يميز الخبيث من الطيب، ولأنه جعل لهم مدارك وعقولا يفهمون بها ويميزون بين الحق والباطل.

ثم يجيء الجزء الثالث من الآية الكريمة ليبين أن أهل الكتاب وهم اليهود خاصة في شك وريبة من كتابهم ذلك. تأتي الآية الثانية لتبرز لنا أن كل أولئك المذكورين قبل من أهل القرى ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى ومن المشركين المعرض بهم في السياق الكريم وغيرهم من السابقين واللاحقين سيلاقون جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر(١).

وتواصل الآيات الكريمات تتابعها في نسق جميل ومثير فبعد أن عرضت الآيتان السابقتان

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤١٩- ٤٢٠، التحرير والتنوير١١/ ٣٣٦، زهرة التفسير٧/ ٣٧٥٩.

إلى قضية اختلاف أهل الكتاب في كتابهم وأن الله سيجازي جميع الناس بأعمالهم يجيء الحض على دوام التمسك بالإسلام على وجه قوي وقويم، وعبر التنزيل عن ذلك بالاستقامة من أجل إفادة الدوام على العمل بتعاليم الإسلام في كل شأن من شؤون العبادات والمعاملات والأخلاق؛ ثم تنهى الآية الكريمة في الجزء الثاني منها عن قلة الاكتراث والجرأة مخالفة الحق وسائر المأمورات والمنهيات، ثم يعلل ذيل الآية الكريمة ما سيق الأمر به والنعي عنه ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾فالمولى جل وعلا بصير مطلع على كل صغيرة وكبيرة وإنما جاء العمل أولا لأنه مناط الجزاء والمحاسبة[(١)].

ثم تجيء الآية التالية ناهية المسلمين عن الميل إلى الظلمة والركون إليهم ويبين عاقبة من فعل ذلك أن جهنم جزاؤه وبئس المصير ولا ينفعه من ركن إليه يوم القيامة إذ لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف بغيرهم، يقول العلامة أبو السعود - مفتي الديار التركية في زمانه-: «... وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بميل من يميل إلى الراشحين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على مصاحبتهم ومناداتهم ويلقى شراره على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيي بزيهم ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب»[(٢)].

وتواصل آيات المقطع الكريم الأوامر الإلهية فتأمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، والمقصود بطرفي النهار أوله وآخره إذ يدخل فيه صلاة الفجر والظهر والعصر، والمقصود بزلفا من الليل، الساعة القريبة من أختها ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، «ويتناول ذلك قيام الليل فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى»[(٣)].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير١١/ ٣٣٩، وزهرة التفاسير٧/ ٣٧٦١.

(٢) انظر: ارشاد العقل السليم٣/ ٣٥٦.

(٣) انظر:تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٧.

ويلحظ أن إقامة الصلاة جاءت بعد الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الظلمة ذلك أنها توصل العبد بمولاه وتذكره بآخره وترقق مشاعره وتهذب أخلاقه، فمن أتى بها كما ينبغي عرف ربه ومن عرف ربه خافه، ومن خافه عمل بما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر.

ثم يأتي الجزء الثاني من الآية الكريمة ليعلل فائدة إقامة الصلاة وهو محو السيئات والقضاء عليها.

وجاء تذييل الآية مصدرا باسم الإشارة الذي يرجع إلى المذكور قبله من المأمورات والمنهيات، وتنتهي الآية بقوله تعالى﴿ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾نعم، فالذين يقيمون الصلاة ويبتعدون عن منكرات الأفعال وأقوالها هم في تذكر دائب لسكرات الموت وعظم موقف يوم القيامة[1].

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع المبارك لتحث على الصبر؛ إذ إن كل ما سبق ذكره من العبادات والمأمورات والمنهيات يحتاج إلى صبر﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا: «أي وطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه في هذه الوصايا حتى الصلاة... واستعن بالصبر والصلاة على سائر أعباء الدعوة إلى الإسلام والإصلاح»[2].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الاختلاف المذموم هو ذلك الذي ينشأ عن فساد في النفوس.
- الجزاء من جنس العمل.
- الركون إلى الظلمة يعني الإقرار لهم بما يعملون، والإقرار لهم يعني مشاركتهم في كل منكر يأتونه، والمشاركة لهم ساعتها وخيمة.
- الصلاة أسس الأعمال وعمودها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٠، التحرير والتنوير ١١/ ٣٤٣.

(٢) تفسير المنار ١٢/ ١٨٩.

المقطع الثالث: الآيات (١١٦- ١١٩) الفتنة تعم بسكوت المصلحين

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾

جاءت آيات هذا المقطع الكريم مبينة عظم المسؤولية الملقاة على الفئة المؤمنة القليلة التي ينبغي لها أن تكافح الفساد بكل أشكاله وصوره حتى لا تغرق سفينة الحياة في البحر الخضم وعلى كل حال فقد جاءت الآية الأولى قائلة: هلا وجد من القرون الغابرة والأمم الماضية بقية قليلة من أهل الخير تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف وتحب الصلاح وتحارب الفساد!!

نعم قد وجد من ذلكم الصنف لكنه قلة قليلة ممن أنجاهم الله مع رسله، ثم إن الظالمين اتبعوا ما هم فيه من النعيم والبذخ ولم يبغوا به بدلا صح عليهم وصف الإجرام وحقت عليهم كلمة الله وما ظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين(١).

ثم تجيء الآية الثانية من هذا المقطع الكريم لتبرز لنا منهجا من مناهج الله في معاملته للأمم والشعوب والجماعات والإفراد فتقول وما كان من شأن ربك وسنته في خلقه أن يهلك الأمم والشعوب بظلم منه لها مع وجود من يصلح ويدعو للصلاح وينهى عن الفساد، وإنما يكون الهلاك سابقاً ولاحقاً بسبب ظلم أولئك لأنفسهم شركاً وفساداً وظلماً لبعضهم بعضاً وما ربك بظلام للعبيد(٢).

ثم يخبر سبحانه وتعالى في الآية الثالثة أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة متفقة في هدي الإسلام متحدة في أمورها ولكن اقتضت حكمته وسبق في علمه أن يكونوا مختلفين في أديانهم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٢، تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٧.

(٢) انظر: تفسير المنار ١٢/ ١٩٢.

ومعاشهم وسلوكهم فلولا الشر لما عرف الخير وبضدها تتميز الأشياء.

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم لتستثني من رحمهم الله تعالى من أتباع الرسل الذين اعتصموا بحبل الله وتمسكوا بدينه وهم قلة قليلة أندر من الكبريت الأحمر.

ثم إن خلق الله البشر كان من حكمته أن يختلف الناس ليعرف المفسد من المصلح، والخير من الشر، والظلم من العدل. وقد سبق في قضاء الله تعالى وعلمه أن يكون حطب جهنم من مخلوقات الله من الجن والأنس[1]، وليس هذا ظلماً – حاشا لله – بل بسبب ظلمهم لأنفسهم وأعمالهم الشريرة، وقد اختاروا لأنفسهم ذلك الطريق الوعر فليتعلموا مسؤولية اختيارهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- سكوت أهل الصلاح عن التعسف والظلم والفساد يزرع الديار بلاقع.
- لا بد أن تكون هنالك طائفة تقوم بالحق إلى يوم يبعثون.
- الاختلاف في سنة الله في خلقه فلا ينبغي أن يتخذ ذريعة للفرقة والتشرذم بين المسلمين.

المقطع الرابع: الآيات (١٢٠- ١٢٣) في القصص تثبيت للفؤاد وتسلية للقلب

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يكشف المقطع الأخير من السورة الكريمة عن الغاية من عرض قصص الأولين وأهم أنبائها كما يؤذن سياق السورة بانتهائها فيقول: وكل الأخبار والقصص التي قصها القرآن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٤٣، والتحرير والتنوير ١١/ ٣٥٠، وتيسير الكريم الرحمن ص٣٤٨.

عليك يا رسول الله وعلى أمتك إنما جاءت لتثبت فؤادك بالتسلية والتسرية عنك فالأنبياء والرسل قبلك كذبوا كما كذبت فلست بدعا منهم.

كما إنه جاءك في هذه السورة الكريمة المواعظ والمذكرات التي تصقل أصحاب القلوب النيرة، أما غيرهم من الذين لا يؤمنون بهاتيك المواعظ والمذكرات فقل لهم مهددا وموعدا: اعملوا ما مكنتم ووسعكم واستطاعتكم من مناوأة الدعوة إلى الله فإنا عاملون مكنتنا من الثبات والصبر على أذاكم وانتظروا ما تنسونه أن يحصل لنا فإنا منتظرون ما وعدنا به ربنا من النصرة عليكم، والله متم نوره ولو كرهتم وعارضتم. والأيام كفيلة بكشف كل ما هو آت وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ثم تأتي الآية الأخيرة لتختم بما بدأت به السورة الكريمة من الدعوة إلى توحيد الله فهو وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض والأمر كله له وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، ومن كان كذلك فحقه أن يعبد ويطاع ولا يعصى وأن تفوض إليه كل الأمور[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- القصص القرآني فيه تسلية وتسرية للرسول ﷺ ولجماعة المسلمين في كل زمان ومكان.
- على الإنسان أن يفكر ويتفكر في مصائر الأمم السابقة ثم يختار بعد ذلك المسلك الذي يناسبه.
- العاقبة للمتقين دائماً والأرض لله يورثها من يشاء من عباده.
- من توكل على الله كفاه كل شيء.
- من كان أعلم بنا منا حقّ له الخضوع التام في كل أمر.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٣، وتفسير المنار ١٢/ ١٩٥، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٤، والتحرير والتنوير ١١/ ٣٥٤.

وكأني بهذه الآية الكريمة وهي تشير إلى سنة التغيير والاستبدال، لتنتظم مع غيرها من السنة التي تضمنتها السورة الكريمة.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ أقول: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ وكافةَ المؤمنين به أن يقتدوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فهم نجومُ الهدى ومصابيح الدجى وجوامعُ العلوم والحكم وينابيع الفضائل، ومعادن الخيرات وشآبيبُ الرحمات، فعلى كلِّ مسلم أن يُعنى بدراسة سيرتِهم العطرة في ضوء الكتاب والسنة ويقتطف منها العبر ويلتمس الفوائدَ، ويستنبط الدروس والحِكم سيَّما في هذا العصر، وما يشهده من غربةٍ في أحوال المسلمين، وفرقةٍ بين دعاةِ الحقِّ، مع تسلطِ الأعداء وكيد الأدعياء، واختلاط المفاهيم، وتخبُّطٍ في بعض المناهج ما بين يائسٍ ومداهنٍ ومتعجِّل ومتعصِّب، من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعا، فالدراسةُ المتجردةُ الواعيةُ لهذه الحياةِ الحافلةِ المباركة: حصنٌ مكينٌ، ومنارٌ للسالكين، ومبعثٌ إلى الوحدة والاعتصامِ بحبلِ الله المتين، واتباعِ صراطه المستقيم، ومنطلقٌ إلى النصرِ والتمكين».

سورة يوسف

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة.

الاسم الوحيد لهذه السورة هو «سورة يوسف» (فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف يعني بعد أن بايع النبي ﷺ يوم العقبة، ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر، وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف ﴿ الٓر ﴾)[1].

وقيل: إنّ ﴿ الٓر ﴾ اسم السورة: أي هذه السورة المسماة ﴿ الٓر ﴾[2]، ولكن الأول أقوى لأن الثاني لم يذكره معظم المفسرين المشهورين ممن يعتد بقولهم في تفاسيرهم. ولأن كثيراً من السور بدأت بـ ﴿ الٓر ﴾ ولم يرد تسميتها بذلك.

ب - فضائل سورة يوسف.

قصة يوسف عليه السلام خاصة سماها الله أحسن القصص؛ لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك.

(قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة.

وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليه)[3].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢١٥٧.

(٢) تفسير القرطبي، ٩ / ١٠١.

(٣) تفسير ابن كثير، ٢ / ٦١٢، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير به ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري عن علي بن زيد بن جدعان وعن عطاء=

وأما الحديث المروي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ « علموا أرقاكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلما» فهو من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية، وكان عمر ﷺ يقرأ في الفجر بسورة يوسف.

ج - سبب نزول السورة:

«روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة، قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾»[1].

د - مكية السورة أو مدنيتها.:

ذكر كثير من المفسرين أنها مكية، (وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره، وقد قيل: إن الآيات الثلاث من أولها مدنية: وهو واه لا يلتفت إليه، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف الطَّيْلاً هذه السورة من الإطناب)[2] وبعضهم استثنى بعض الآيات وقال عنها مدنية: «سورة يوسف مكية إلا الآيات ١ و٢ و٣ و٧ فمدنية»[3].

وأرجح أنها كلها مكية، لأنها ذكرت قصة يوسف الطَّيْلاً في موضع واحد، فناسب أن تكون نزلت في موضع واحد وهو مكة، والله تعالى أعلم.

= بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه.

(١) تفسير القرطبي، ٩/ ١٠١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٥٧، وانظر روح المعاني/ الألوسي، ١٢/ ١٧٠.

(٣) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي، والسيوطي، ١/ ٣٠.

هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

وعدد آيتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العد في الأمصار، ولم يختلف القراء والمفسرون في عدد آيات سورة يوسف.

و - محور السورة:

سورة يوسف ﷺ، دافعت عن العقيدة، وأكدت قضية التوحيد، توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، من خلال تركيز يوسف ﷺ على وجوب أن تكون الحاكمية لله وحده، موظفاً تأويله للرؤى، وما صاحب ذلك من أحداث في تثبيت الوحدانية الخالصة لله، وإبطال الآلهة المزيفة. وهذه هي وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعاً عليهم السلام.

ز. المناسبات في السورة:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

يوسف ﷺ رسول من رسل الله، ورسل الله عليهم السلام، دعوا إلى التوحيد الخالص لله، وبتتبع مراحل حياة الرسول الكريم يوسف ﷺ بدءاً من الرؤيا، ومروراً بمكر إخوته به وما حدث له في مصر، ولقائه بإخوته مرة أخرى، وعودته لأبويه، وانتهاء بالتعقيب على أحداث القصة، كل ذلك يدل دلالة واضحة على التوحيد، وهذا ارتباط وثيق بين الاسم والمحور.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، قال الله في أولها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وقال ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ وقال في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴾.

وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك. فتحقق الهدف الديني كاملا، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع.

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة؛ لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس، أو حلقة قصة مولد مريم، أو حلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نوح والطوفان، الخ... فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها. أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها [1].

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختم الله سورة هود عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ٣٢١]، فالآية ترد الأمور إلى الله وحده سبحانه، وأن الغيب لا يعلمه إلا هو، والله جلّ جلاله لا يغفل عن شيء، فأمر بعبادته والتوكل عليه وحده دون غيره. وجاءت افتتاحية سورة يوسف عليه السلام بالتركيز على الوحدانية من خلال أحسن القصص؛ قصة يوسف عليه السلام، وحسن توكل يعقوب ويوسف عليهما السلام على الله كما توكل هود عليه السلام من قبل، وأحداث قصة يوسف عليه السلام في علم الله، فناسب ما ختم به سورة هود ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

تم التأكيد في سورة هود عليه السلام، على أن كتاب الله محكم، وأنه من عند الله، ووجوب الإيمان بالتوحيد الخالص، وذكر دعوة مجموعة من الرسل كهود وصالح ونوح ولوط وشعيب وموسى وهارون، وكلهم دعوا أقوامهم للتوحيد الخالص، وذكر عاقبة كفر أقوامهم وتكذيبهم، فناسب أن يتم ذلك بذكر قصة يوسف عليه السلام، من خلال قصته الكاملة.

---

(١) في ظلال القران، سيد قطب، م٤/ ١٩٧٠.

تقسيم السورة إلى مقاطع كالآتي:

المقطع الأول: من أدلة إعجاز القرآن الكريم: الآيات (١ – ٣)

قال تعالى:﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

بدأت السورة بالحروف المقطعة ﴿ الٓر ﴾ للدلالة على إعجاز القران الكريم، فهو يتألف من جنس الحروف التي يتكلم بها العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله وهو بيّن واضح، ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾المبين لكل ما يحتاجه الناس في دنياهم وآخرتهم، تبين حلاله وحرامه ورشده وهداه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ نزل باللسان العربي لتعقلوا حدوده وتعليماته، وأوامره ونواهيه، وأنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنا عربيا على العرب «لأن لسانهم وكلامهم عربي فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه»[1]، تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم. فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ والله سبحانه يقص على رسوله في هذا القرآن أحسن القصص؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها بأسلوب بليغ وبديع، وأدق عبارة، ﴿ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ بما اشتمل عليه هذا القرآن الكريم، منّة من الله عليك وفضلاً. لذا ذكر قصه يوسف ﵇. ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ ما كنت تدري ولا تعلم بتلك القصص، فهي من الغيب.

(١) تفسير الطبري / الطبري، ٧/ ١٤٦ - ١٤٧.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

١ - الحروف المقطعة الواردة في سور القران، فيها دلالة على إعجاز القرآن الكريم، فالذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً، ولا بد عقلا أن يكون وحيا من عند الله سبحانه.

٢ - في سورة يوسف ﷺ، تسلية للنبي ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى، وقد لقي النبي ﷺ من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه مثل عمه أبي لهب والنضر بن الحارث وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

٣ - في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ، وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث «رستم» و«اسفنديار» من أبطال فارس فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم بأخبار الفرس فكان ما بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه أشبع للسامع فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديا لهم بالمعارضة

٤ - على المسلم أن يفهم عن الله ما قصه على رسوله ﷺ، ويدع ما سوى ذلك مما لم يرد في كتاب أو سنة النبي ﷺ، وذكر الله أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، ولا يجوز الالتفات إلى ما ذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

ذكر في هذا المقطع الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله الواحد، الذي لا يجوز لأحد أن يعبد غيره وهذا هو محور السورة.

المقطع الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام: الآيات (٤ – ٦)

قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

لما مدح الله ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته القصة العجيبة الحسنة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراما وإعظاما، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها، ولهذا قال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة. ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ خشي يعقوب عليه السلام أن يحدث يوسف عليه السلام، بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها [1]، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

١ - السورة فيها من الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدا. وهو بين أظهرهم صباحا ومساء، وهو أُمِّيٌّ لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة.

٢ - في سورة يوسف عليه السلام، أصول تعبير الرؤى، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يهبها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وجه المناسبة

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١٦.

فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً، لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته

٣ - رؤيا يوسف عليه السلام ورؤى جميع الأنبياء حق، لا يجوز إنكاره، فهو معلوم من الدين بالضرورة، وأول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي هو الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح، وكذا تحققت رؤى إبراهيم ويوسف عليهما السلام بتأكيد القرآن الكريم.

٤ - تأويل الرؤى علم؛ فلا يجوز لأحد أن يؤولها بدون علم؛ وكثير من الناس من يزعمون أنهم يعلمون تأويل الرؤى بغير علم فيَضلون ويُضلون.

٥ - اجتباء الرسل وانتقاؤهم من الملائكة ومن الناس أمر إلهي صرف، لا يتدخل فيه أحد، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ورؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، والجد يقال له أب، وهذا دليل على أن الله إذا أحبّ عبداً أكرمه.

٦ - نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف عليه السلام.

٧ - ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لذا نصح يعقوب عليه السلام، ابنه ألا يقص ما رآه على إخوته خوفاً من كيد الشيطان، فمن رأى رؤيا وخشي أن تؤدي إلى فتنة

وعداوة بذكرها فلا ينبغي أن يذكرها، لأن الشيطان يوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر.

٨ - ويجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾

٩ - تبليغ الدعوة أمر فيه مشاق وأعباء فيحتاج إلى التقديم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على الداعية من المشاق، لطفاً وإحساناً من الله بعباده.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

دارت أحداث المقطع الثاني حول الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، والحوار الذي جرى بينه وبين أبيه يعقوب عليه السلام، حيث حذره من كيد الشيطان وإخوته، لأن الشيطان يفسد على الإنسان عقيدة التوحيد الخالص.

المقطع الثالث: تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه: الآيات (٧ – ١٨)

قال تعالى:﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدٗا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءٗ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرٗاۖ فَصَبْرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

لما ذكر الله في المقطع الثاني تخوف يعقوب على ابنه يوسف عليهما السلام، من ذكر رؤياه أمام إخوته خشية الفتنة بينهم، جاء المقطع الثالث ليذكر ما توقعه يعقوب ﷺ وما تخوّف منه.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ ﴾ عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات.

﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ بنيامين، شقيقه، وإلا فكلهم إخوة. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لفي خطأ بيِّن، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها. فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلا لا يتفرغ لكم، ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطا من بعضهم لبعض. ﴿ قَالَ قَآئِلٌ ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو نفيه: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ فإن قتله أعظم إثما وأشنع، والمقصود يحصل بإبعاده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى إبعاده بأن تلقوه ﴿ غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم، لأجل أن ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحتفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض

الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ قالوا يا أبانا خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا مالك أي شيء لكلا تجعلنا أمناء لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا [(١)].

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس. ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده. فأجابهم بقوله: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله، مانع ثان، وهو إني ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب. ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة، حريصون على حفظه[(٢)]، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة،

---

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود، ٤/ ٢٣٧.

(٢) تفسير الجلالين ١/ ٣٠٤.

﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ليكون إتيانهم متأخرا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلا لهم، وقرينة على صدقهم. ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ توفيرا له وراحة. ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ بمصدق لنا، تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه. ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ دم سخلة، زعموا أنه دم يوسف[1] وكل هذا، تأكيد لعذرهم، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال ما دلّه على ما قال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتَّشكّي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

١ - في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة، لا يجوز التفريق بين الأبناء في المعاملة، لأنها تؤدي إلى الفتنة والحقد والكراهية بين الأخوة، ولكن المحبة شيء خارج عن قدرة الإنسان، فالرسول ﷺ كان يحب عائشة ﵂ أكثر من كل زوجاته ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»، ولكن لا يمنع أن يحاول الأب ألا يظهر ذلك لبقية أبنائه ما أمكن.

(١) الدر المنثور / السيوطي، ٤/ ٥١٢.

٢ - الحذر من الذنوب وعواقبها، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء، ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

٣ - جريمة القتل أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله.

٤ - التوبة التي تعد قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، ليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان ! وليست هذه توبة إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة.

٥ - المجرم قد يستغل الظروف ويستجيش العواطف كما صنع اخوة يوسف مع أبيهم واستعملوا من أساليب الكذب حتى نجحوا في تنفيذ خطتهم الماكرة. فعلى القاضي أن يكون فطناً نبيهاً مثل ما حدث مع القاضي شريح: جاءت امرأة إلى شريح ﷺ تخاصم في شيء فجعلت تبكي فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون.

٦ - سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ .

٧ - بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم.

٨ - المسلم يجب عليه الصبر والتحمل عند وقوع الابتلاء، كما صبر يعقوب عليه السلام متحملا، لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

في هذا المقطع أغوى الشيطان إخوة يوسف عليه السلام، ففعلوا ما فعلوا به، والاستجابة لوسوسة الشيطان ونزغاته، انتصار للباطل على الحق، وللشرك على الإيمان، لذا دعت الآيات للتنسك بطاعة الله وتوحيده.

المقطع الرابع: محنة يوسف عليه السلام في مصر: الآيات (١٩ – ٣٤)

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن

نَفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

بعد أن منّ الله على يوسف عليه السلام فهيأ له الخروج من الجب، ناسب أن يذكر الأحداث التي مر بها في مصر، في بيت العزيز، وتعرضه للفتنة، وهي الحلقة الثانية من حلقات الابتلاء التي تعرض لها. والتي سنتناولها في هذا المقطع الرابع:

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ قافلة تريد مصر، ﴿ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ الوعاء الذي يسقي به فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج. ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ وكان إخوته قريبا منه، فاشتراه السيارة منهم، ﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ قليلٍ جداً، ﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، (وفي الفرائد أنه ضمن أسروه معنى جعلوه أي جعلوه بضاعة مسرين إياه فهو مفعول به)[1]، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٢٠.

لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[1]﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كذلك مكنا له فى الأرض، أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ولنعلمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين والله غالب على أمره لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة. منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً آتيناه حكماً وعلماً حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو تحكما بين الناس وفقها ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيه على أنه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره[2]. ودل هذا، على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر. المراودة: مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعني: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها "[3].

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ قيل سبعة، وصار المحل خاليا فزادت المصيبة، وهما آمنان من

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ١٩٧.

(٢) تفسير النسفي، ٢/ ١٨٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢١٧٨.

دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم. فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هما تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، (همته لم تكن من جهة العزيمة وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله قال معاذ الله إنه ربي)[1] ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي. فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ ولم تقل "من فعل بأهلك سوءا" تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل. وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ السجن أو العذاب الأليم.

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٠٥.

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ فبرأ نفسه مما رمته به، فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق وكان مع العزيز رجل من أهل امرأته وهو الذي شهد وكان فطناً عارفاً بوجوه الدلالة، وسمي قوله شهادة لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البينة لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض. ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه ولولا ذلك ما خطر ببال المشاهد أن تمزيقاً وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[1].

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب. ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة.

فقال لها سيدها: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢١٨٠.

إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلبا للستر على أهله، ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى ﴾ أيتها المرأة ﴿ لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة. اشتهر الخبر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه،. ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغا عظيما.

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهذا أعظم ما يكون من الحب، (دخل حبه في شغاف قلبها وهو موضع الدم الذي يكون داخل القلب)[1] ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عن طريق الرشد بحبها إياه﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكراً، فقال: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ أي: محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة، طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف: ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي: أعظمنه في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿ وَقَطَّعْنَ ﴾ من الدهش ﴿ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أي:

---

(١) الوجيز، الواحدي، ١/ ٥٤٤.

تنزيها لله﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير، أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ لمتنني فيه أي في حبه ثم أقرت عندهن فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أي امتنع [1] ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء، ﴿ وَأَكُن ﴾ إن صبوت إليهن ﴿ مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فإن هذا جهل، لأنه آثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟ فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة. ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ حين دعاه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء الداعي ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه. فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٢٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

١ - صبر المسلم باختياره أعظم أجراً من صبره جبراً، فهذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، (وذلك أن يوسف عليه السلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجد المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله. إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه "الطبقة الراقية " وما يغشاها من استهتار وفجور، الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب حبها الشديد ليوسف، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة)[1].

٢ - الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى. فكان ممن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: "رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله".

٣ - ينبغي على المفسر أن يلتزم بحدود النص القرآني، ولا ينساق وراء الإسرائيليات فبعض المفسرين رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعا شبقا، وبعضهم أوّل الهم بالضرب، تنزيهاً ليوسف، وهذا تكلف وإبعاد عن مدلول النص، وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل، وهم بها هم النفس، ثم تجلى له برهان ربه فترك.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، م٤/ ١٩٨٠.

٤ – من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه.

٥ – ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام –لما راودته التي هو في بيتها– فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

٦ – إذا حلّ بالمسلم البلاء وصبر فإن معية الله سبحانه تكون معه، فيأتيه الفرج والنصر والتمكين، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية، لذا خرج من محنته سليما معافى في خلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها. فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين – إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية – أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.

٧ – وصف الله كيد النساء بأنه عظيم، ووصف كيد الشيطان بأنه ضعيف، وهذا يوجب الحذر من مكر النساء، فالمرأة إذا أحبت عبدت، وإذا كرهت قتلت.

٨ – ينبغي على العبد أن يلجأ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

٩ – أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

المقطع الخامس: يوسف ﷺ ومحنة السجن، الآيات (٣٥ – ٥٣)

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ

بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الخامس والرابع:

بعد أن استقر الرأي واتخذ القرار بسجن يوسف ﷺ، تتحدث الآيات في هذا المقطع عن نعمة الله على يوسف ﷺ، بما حباه من تأويل الرؤى، والطريقة التي منّ بها عليه، فأخرجه من السجن، مع التركيز على توظيف هذه النعمة في الدعوة إلى الله، دعوة التوحيد الخالص.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ ظهر لهم، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ الدالة على براءته، فالقميص من الآيات وشهادة الشاهد من الآيات وقطع الأيدي من الآيات وإعظام النساء إياه من الآيات وقيل: ألجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي إذا منعت من نظره [1] قال فاشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح. ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا ﴾ وذلك الخبز ﴿ تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، نبئنا بتأويل ما رأينا وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزي الحزانى قال الضحاك: كان إذا

---

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٥٩.

مرض الرجل من أهل السجن قام به وإذا ضاق وسع له وإذا احتاج جمع له وسأل له وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي العالمين الذين أحسنوا العلم[١].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.

﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا. فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم. ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ويجعله إماما يقتدى به في الخير وداعيا إلى سبيل الرشاد ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أوحى إلينا هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[٢].

ثم صرح لهما بالدعوة، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا

---

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ٦٢٨.

شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، القهار الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي حجة ولا أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ الذي له صفات الكمال[1].

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾

كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة.[2]

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، فإنه يخرج من السجن

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٦٢٩.

(٢) تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٧٩.

﴿ فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ ﴾ وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

﴿ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ تسألان عن تعبيره وتفسيره[1]. ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ اذكر له شأني وقصتي، لعله يرقُّ لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾.

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين: وهو الشرابي والمعنى: إنساء الشيطان الشرابي ذكر سيده: أي ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف مع ذكره عند سيده ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني "[2] فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه[3]. ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه

---

(١) تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٨٠.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم، ٣٨٦ / كتاب الصلاة: باب التوجه نحو القبلة .

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٢.

وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ ﴾ رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، رأى سبع من البقرات ﴿ عِجَافٌ ﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كنَّ نهاية في القوة.

﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد. ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ تعلمون تعبير الرؤى، فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجها. ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أحلام لا حاصل لها، وكوابيس لا تأويل لها. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، ثم قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من الفتيين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها. فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ كثير الصدق في أقواله وأفعاله. ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم. [١] فعبر يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك - والله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٩١.

أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك، لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجدب فقال: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ متتابعات.

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ من تلك الزروع ﴿ فَذَرُوهُ ﴾ اتركوه ﴿ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ دبروا أيضا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلا، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد تلك السنين السبع المخصبات. ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ مجدبات جدا ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرا. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن. ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد السبع الشداد ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.[1]

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ لمن عنده ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٩٢.

تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني به الملك. ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ اسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

فأحضرهن الملك، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ شأنكن ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرَّأنه و﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فـ ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾في أقواله وبراءته.

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ﴾ من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، عاصية على داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ﴾ هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف

إذ ذاك في السجن لم يحضر[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

١ - في محنة السجن التي تعرض لها يوسف عليه السلام درس للدعاة؛ فالداعية لا بد أن يتعرض للابتلاء خاصة بعد ظهور البراءة، والسجن أو العقوبة عموماً للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى، فالله يربط على قلوب الصابرين.

٢ - إذا ابتلى الله عبده فوجده صابراً، جعل الله له من بلائه مخرجاً، فلما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، جعل تأويلها على يد يوسف عليه السلام، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن تقدير الله أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

٣ - كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، فـ «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً: أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

٤ - الابتداء بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٧٨.

تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

٥ - من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولكن يجب الاعتقاد بأن الله هو رب الأسباب، وان الأسباب بغير توفيق الله لا تصنع شيئاً. في نسيان الذي نجى من صاحبي يوسف أن يذكر ما أوصاه به يوسف عند الملك، شاء الله أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه وإكرامه. ولكن هذا لا يمنع المسلم من الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد الجازم أن الله هو وحده الملك والقادر على كل شيء.

٦ - ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

٧ - ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

٨ - لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن

أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

٩ - علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وقال الملك: ﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰىَ ﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

١٠ - لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور، ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

١١ - الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخيري الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

١٢ - جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب

التي تنفعه في دينه ودنياه.

١٣ - إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب. أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، فلا دين فيما سوى هذا الدين، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة.

١٤ - استغل يوسف عليه السلام الوقت المناسب للحصول على براءته، لقد رد أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها، كل أولئك لأنه واثق من نفسه، وبراءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً.

١٥ - يجوز استخدام كلمة الرب للسيد لغة، ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة (رب) بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين له.

١٦ - الإقرار هو سيد الأدلة، وهي الشهادة الكاملة بنظافة المظلوم وبراءته وصدقه؛ فشهادة امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام، إقرار واضح ببراءته.

المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

في هذا المقطع دعا يوسف عليه السلام إلى التوحيد، وأكد عليه، وأبطل الدعوة للآلهة المزيفة، وأثبت أن الوحدانية لله، مستغلاً ما وهبه الله من علم بتأويل الرؤى، وهذا ينسجم مع محور السورة.

المقطع السادس: استلام الحكم بعد الخروج من السجن، الآيات (٥٤ – ٥٧)

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

بعد إعلان براءة يوسف عليه السلام على رؤوس الأشهاد أراد الله سبحانه أن يكرمه، ويرفع قدره، في الدنيا، كما اصطفاه بالرسالة، فيسر له استلام الحكم، وفي المكان الذي ظلم فيه.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ فلما تحقق الملك والناس من براءة يوسف التامة طلبه الملك لجعله من خاصته، ومقرباً له، فأتوه به مكرما محترما، ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ متمكن، أمين على الأسرار، فـ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلا حافظا مدبرا للمصلحة العامة. ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة مكنا له في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا. ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ فله في الدنيا حسنة وفي

الآخرة حسنة، وأجر الآخرة أعظم من أجر الدنيا ولهذا جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

١ - معية الله ونصره وتأييده لعبده ورسوله، واضحة المعالم في هذا المقطع، ظهور البراءة، واستلام الحكم عند ملك مصر، وفي هذا درس لكل من يؤمن بالله ويعتصم به، ويخلص دينه لله وهو محسن، ففرج الله قريب ونصره قريب.

٢ - على المظلوم أن يهتم برفع الظلم أكثر من اهتمامه بالنفع الشخصي؛ لذا طلب يوسف ﵇ رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، وطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك لقد وقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلما، حتى ظهرت براءته.

٣ - يجوز للمسلم الكفؤ أن يتقدم لطلب الوظيفة، أو المنصب أو المكانة إذا وجد في نفسه المقدرة على أداء تلك المهام بكفاءة تامة، كما طلب يوسف ﵇ من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة.

٤ - طلب التولية محظور لأن الرسول ﷺ كان لا يولي هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه. ولأنه تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

٥ - إن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد رسول الله ﷺ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف ﵇ والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

٦ - والأمر الآخر أنه إذا انعدمت الكفاءات وساد الظلم، فلا مانع من تزكية النفس ليس طمعاً في المنصب، ولكن أملاً في إصلاح الأوضاع وردها إلى أصولها بما يتفق مع شرع الله .

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

حصول يوسف ﷺ على البراءة، وتمكين الله له بالحكم عند الملك، ورفع درجته بذلك دليل على قدرة الله الواحد القهار، الذي يقلب الأمور كيفما شاء سبحانه، فهذه من الأدلة الدالة على وحدانيته وهو ما يتفق مع محور السورة.

المقطع السابع: لقاء يوسف ﷺ مع إخوته مرة ثانية (٥٩ – ٩٨)

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ

﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ
فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ
ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟
نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ
فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾
وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟
بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟
أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا
لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السابع والسادس:

نجح يوسف عليه السلام عندما تولى خزائن الأرض، فدبرها أحسن تدبير، وزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة، زروعا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئا كثيرا وحفظه، وضبطه ضبطا تاما، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، كما سيتم الحديث عنه في هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ رأوه ولم يعرفوه. ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين. ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ في الضيافة والإكرام. وهددهم بعدم الإتيان به﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاجوا إلى مراودة أبيهم في بعثه معهم[1].

---

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٨٩.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ الذين في خدمته: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ الثمن الذي اشتروا به من الميرة. ﴿ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ يعرفون بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لأجل التحرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ ليكون ذلك سببا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا:﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من أن يعرض له ما يكره. ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ لقد طلبت منكم التزاماً أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها. فـ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ترغيباً في إرسال أخيهم معهم، أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟ ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ إذا ذهبنا بأخينا صار سبباً لكيله لنا، فمرنا أهلنا، وأتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لن أوافق على أخذه إلا إذا أخذت منكم عهدا ثقيلا، وتحلفون بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ على ما قال وأراد ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته. ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ وأوصاهم أن لا يدخلوا من باب واحد؛ لأنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب. ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون، القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ ﴾ ذهبوا ونفذوا ما أوصاهم به أبوهم، وهو من باب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره. وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ لصاحب علم عظيم لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير[1].

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ لما دخل إخوة يوسف على يوسف آوى إليه شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لا تحزن فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ﴾ كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا جعل الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ ﴾ أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ولعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال.

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٢٥٣.

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم ﴾ قال إخوة يوسف لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة. ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أجرة له على وجدانه ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ بجميع أنواع المعاصي، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: { تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق }.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ما جزاء هذا الفعل بأن كان معكم؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ الموجود في رحله بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ بدأ المفتش وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ولم يقل «وجدها، أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة. فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم، جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من

إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد، وهذا بمشيئة الله.[١]

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ فليس هذا غريبا منه يعنون: يوسف ، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا. وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أسرها يوسف في نفسه لم يقابلهم على ما قالوه بها يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرَّ الأمر في نفسه. ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أبوه كبير في السن، وأنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك. ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ قال يوسف :هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ إن أخذنا غير من وجد في رحله حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها. ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾، فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في

(١) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٢٦١.

يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وصَّاهم بما يقولون لأبيهم:أخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ إن شككت في قولنا فقد اطلعوا على ما أخبرناك به، لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف و«بنيامين» وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومنّته، واضطراري إلى إحسانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من

ذلك. ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك. ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ فانيا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ ﴾ قال يعقوب: ما أبث من الكلام الذي في قلبي ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ قال يعقوب ﷺ لبنيه: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، واليأس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ على يوسف ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقَّ لهم يوسف رقَّة شديدة، وعرَّفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ما فعلوا بهما، واتهامهما بالسرقة ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا

ينبغي ولا يليق منهم. فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا:﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، وإبعادك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[1]. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ قال يوسف ؑ، كرماً وجوداً: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين. ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شمَّ يعقوب ريح القميص، فقال:﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام، صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول. فوقع ما ظنه بهم فقالوا: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لا تزال تائها في بحر

(١) روح المعاني، للآلوسي، ١٣/ ٤٨.

الحبّ لا تدري ما تقول. ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، جاء البشير وألقى القميص على يعقوب ﵇، رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ حيث كنت مترجيا للقاء يوسف، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن. فأقروا بذنبهم ونجوا بذلك و﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا. ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ استجاب لهم، وأطلب من الله أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتمّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

١ – يوسف ﵇ لم يكشف لأخوته عن نفسه، رغم أنه أنزلهم منزلاً طيباً، وهذا أمر مهم للدعاة؛ فعليهم التخفي وعدم الظهور، إذا اقتضى الأمر ذلك، فالتخفي والحيطة والحذر في الوقت المناسب، والظهور في الوقت المناسب.

٢ – دلت الآيات على مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

٣ – استعمال الأسباب الدافعة للعين أوغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾

٤ – جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

٥ – ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض القولية

والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهما أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال. وهذا يدل على وجوب استخدام الذكاء والفطنة، ليتحقق النجاح، وهذا كثير الوقوع في قصة يوسف ﷺ.

٦ - لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

٧ - الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين. هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب ﷺ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، فصبر، فكان خيراً له.

٨ - الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

٩ - جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ولم ينكر عليهم عاقبة التقوى

والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما، أحسن العواقب، لقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٠ - يجب أخذ العهد والميثاق على ما نتعامل به مع الآخرين، وما يحدث بعد ذلك بقدر الله، علينا الرضا والتسليم به لذا طلب يعقوب عليه السلام لبنيه: لتقسمن لي بالله قسما يربطكم، أن تردوا علي ولدي، إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه، ولا تجدي مدافعتكم عنه: وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضا منهم واختيار، وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي، وهذا كذلك لا يكون إلا لله، شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد:هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه..

١١ - لا ينبغي الأخذ بالروايات التي لا سند لها، فتضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدى وتعيد بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم. فلو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال. ولكنه قال فقط - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق، احتفاظا بالجو الذي أراده. فالحاجة في نفسه؛ إنما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة. فقد علمه الله هذا فتعلم.

١٢ - رد يوسف عليه السلام العلم إلى الله، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى، وهو احتراس لطيف دقيق؛ فالفضل كله لله.

١٣ - يحاول البعض أن يدعو إلى استبدال بعض الأحكام الشرعية بأحكام أخرى، أخف من وجهة نظرهم، مستدلين بأن يوسف عليه السلام عمل بمدلول كلمة «دين الله» فلم يقطع يد أخيه، بل كان العقاب في دين الملك بحجز السارق، وهذا غير شرع الله، وهذا فهم خطأ؛ لأن يوسف عليه السلام، كان مختصاً بعدالة توزيع الأرزاق، وإصلاح الوضع الإقتصادي، ولا

حول له بتغيير دين الملك.

١٤ - من الحكمة تأخير الرد على بعض الأقوال والأفعال إلى الوقت المناسب؛ قلنا سمع يوسف عليه السلام قولهم ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أسرها وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها. وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا. وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس، وهذه فطنة، ينبغي أن يلتفت إليها ويفاد منها.

١٥ - قد يصل الحال ببعض القلوب القاسية التي لا تعرف الرحمة، عقابها أليم، ويبلغ الحقد بقلوب بني يعقوب عليه السلام، ألا يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرون عنه، ولا يعزونه، ولا يعللونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير.

١٦ - إذا انقطعت الأسباب الدنيوية، يجب على العبد أن يفوض أمره إلى الله، كما فعل يعقوب عليه السلام، توكل على الله وأخذ بالأسباب، فوجههم إلى تلمس يوسف وأخيه، وألا ييأسوا من رحمة الله، في العثور عليهما، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور: فالمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب.

١٧ - العفو عند المقدرة من كريم السجايا وأرفعها، تحلى به يوسف عليه السلام، إذ عفا عن إخوته فقال لهم: لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم فيستحسن بالمؤمن أن يقتدي به.

١٨ - معرفة يوسف عليه السلام أن رائحته سترد على أبيه بصره، هو مما علمه الله، دلالة على علم الله وقدرته.

١٩ - وعد يعقوب عليه السلام بنيه بالاستغفار لهم؛ فقال: سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم، وقيل: إنه أخره إلى وقت السحر، والاستغفار به تفرج الكرب، وتتحقق المغفرة

وهي في وقت السحر أكثر استجابة.

٢٠ - العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب ﷺ جرى ليوسف منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

الأحداث التي دارت في هذا المقطع، من عودة إخوة يوسف إليه، وتمكنه من أخذ أخيه، دلالة على قدرة الله ووحدانيته.

المقطع الثامن: لقاء العائلة كلها في مصر، الآيات (٩٩ - ١٠٢)

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾

المناسبة بين المقطع الثامن والسابع:

بعد أن أرسل يوسف ﷺ قميصه لأبيه، فارتد بصيراً، يبدأ تأويل رؤياه فتجتمع العائلة كلها في مصر مرة ثانية، وتتحقق رؤياه، وينصره الله، فيخرجه من المحن التي تعرض لها، وهذا ما يتحدث عنه هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، فلما وصلوا إليه، وضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً، ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ لجميع أهله من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ سجد له أبوه، وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له، تذكر حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام[1].

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ إحساناً جسيماً، وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي؛ فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: "أحسن بكم" بل قال ﴿ أَحْسَنَ بِي ﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فلم يقل "نزغ الشيطان إخوتي" بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ٢٢٤.

إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، حكيم في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها. ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به، الذي لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً لديهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ إخوة يوسف يمكرون به، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها، فهذا أدل دليل على صدق ما جاء به رسول الله ﷺ [1].

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

١ - سجود أبوي يوسف له سجود احترام، وهذا جائز في شرعهم، وأما في شريعة محمد ﷺ فلا يجوز. والساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه وإخوته.

٢ - يتحقق فرج الله بالصبر، فالله منّ على آل يعقوب، بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الضاميء الشديد، وكذا كل مؤمن صابر.

٣ - وفي الآيات عبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى. وكيف

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٩٣.

تكون لهم العاقبة

٤ - وفي الآيات عبرة بهجرة قوم النبي ﷺ إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب عليه السلام وآله وذلك إيماء إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبي ﷺ.

٥ - بالشكر تدوم النعم، فيوسف عليه السلام ذكر نعمة الله عليه دوماً، وعدم الشكر يمحق البركة، ويزيل النعم.

٦ - طلب يوسف عليه السلام من الله الوفاة على الإيمان، وهكذا المؤمن يدعو بالوفاة إن كانت خيراً له، وبالحياة إن كانت خيراً له. ويبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه عليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه، وأن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة.

المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة

تابع نفس المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة، فالأحداث التي دارت في هذا المقطع، من لقاء يوسف عليه السلام مع عائلته كاملة، وتحقق رؤياه، دلالة على قدرة الله ووحدانيته.

المقطع التاسع: تعقيبات على قصة يوسف الآيات (١٠٣ – ١١١)

قال تعالى:﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع التاسع والثامن:

لما ختمت قصة يوسف عليه السلام كان من المناسب أن يتم استخلاص العبر والمواعظ، فجاءت التعقيبات المناسبة قي هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ خطاب موجه لنبيه محمد ﷺ يبين له فيه أحوال الناس، فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال: ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه[1].

---

(١) جامع الطبري، الطبري، ٧/ ٣١٢.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وكم من علامة دالة لهم على توحيد الله، ومع هذا لا يؤمنون، وإن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿ يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفاجئهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله، عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فجأة، فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، ويتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ قل يا محمد ﷺ للناس هذه طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.

ومع هذا فأنا من ديني، على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. ومن اتبعني واقتدى بي كذلك، يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ من أهل القرى الذين هم أكمل عقولا، وأصح آراء، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، يسيروا ويشاهدوا كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه فيصيبكم ما أصابهم، ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ الجنة وما فيها من النعيم المقيم، خير

وأفضل لمن أطاع الله واتقاه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبدا، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، وهم على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من اليأس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال جاءهم نصرنا، وهم الرسل وأتباعهم، ولا يرد عذابنا، عن المكذبين، الذين أجرموا في حق أنفسهم، وتجرؤوا على الله[1].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، عبر يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة ويعتبرون بها أيضاً، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المختلقة، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ٦٨.

الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

١ - دلالة قصة يوسف على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. فمحمد عليه الصلاة والسلام، لا يعلم الغيب، وإنما هو وحي من عند الله، وهذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعث إليهم. وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة، وقد غبرت بهم القرون.

٢ - يوم القيامة لا يعلم موعده أحد، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم، آيات الله الدالة على وجوده ووحدانيته، وقدرته، كثيرة مبثوثة في الكون، ولكن قليل من يستجيب ويؤمن، وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم قد لا يثبت على الإيمان؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب الغفلة والإعراض.

٣ - الدعوة إلى الله واجبة على كل من آمن بالله وبرسوله، هذه طريق الرسول ﷺ، فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم.

٤ - لا يجوز للدعاة أن يسألوا الناس شيئاً من أموالهم، فهذا يبعد الناس عن الاستجابة للحق وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلا ذكر للعالمين، وهذا هو منهج رسل الله جميعاً.

٥ - على الداعي أن يحرص على هداية الناس، فكان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه، وإن كان حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثير من المشركين إلى الإيمان لأنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين. فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان.

٦ - لا يجوز استعجال النصر، فمن سنن الله الابتلاء، حتى إذا استيئس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا، ولكن يجب الاعتقاد أن الله لا محالة ناصر عباده المؤمنين، جاءهم نصرنا ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين.

٧ - ذكر قصص الأولين فيها مواساة للرسول ﷺ، وللدعاة، فعلى الداعية الرجوع إلى القرآن باستمرار، للإفادة منها، ففيها العبرة والموعظة والهداية. وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد.

المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

عقّب الله في هذا المقطع بتعقيبات مناسبة، فيها تأكيد على أهداف السورة، فدعت إلى الدعوة لوحدانية الله، والصبر على الدعوة، ومحاربة الشرك، وأخذ العبرة من خلال قصص السابقين، فالمؤمن يحرص على وحدانية الله، ويحتكم لله وحده، وهذا منسجم مع محور السورة.

سورة الرعد

بين يدي السورة

تعد سورة الرعد الوحيدة في القرآن الكريم التي تنازع فيها العلماء على قولين في مكيتها أو مدنيتها[1]*. والقول الراجح الذي نطمئن إليه أنها مكية لجمعها ضوابط وخصائص القرآن المكي بالكلية ويعضده جوها المكي العام، (نزلت بعد سورة محمد)[2].

وعدد آياتها ثلاث وأربعون وسميت بالرعد لقوله تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ الآية ١٣.

عنيت بأصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، والبعث والجزاء وبينت معنى الألوهية والعبودية، وأن الله وحده هو الرازق والمحيي والمميت، وهو الوحيد المستحق للعبادة، وأن القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، الدالة على صدق محمد ﷺ ورسالته، فقد تحدى الله تعالى الكفار والمشركين، لما ادعوا أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ

---

(١) * مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل، وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلت بمكة، وهما ٣١ و٣٢. للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٢٧٨. ومن المحدثين الذين يجزمون أنها مكية سيد قطب انظر، في ظلال القرآن: ٥/ ١٠٣.

وهي أربع وأربعون آية في المدني، وثلاث وأربعون في الكوفي، نظراً للاختلاف في اعتبار بعض فواتح السور من الحروف المقطعة آيات مستقلة أم لا. انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي:٢/ ١٩.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن فواتح السور من الحروف المقطعة وردت كآياتٍ مستقلة في تسع عشرة سورة هي: (البقرة وآل عمران والأعراف ومريم وطه والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف)، وجاءت غير مستقلة مدرجة مع سياق الافتتاح في عشر سورٍ هي: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنمل وص وق والقلم).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: ٢/ ٤٩٢.

وليس من عند الله تعالى أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور مثله ثم بسورة من مثله فعجزوا، وفي هذا دليل على بيان منزلة القرآن الكريم وسموه من أي نقص أو عيب، لأنه تنزيل رب العالمين. وذكرت السورة بعض صفات الله تعالى وآثار قدرته ورحمته، مع عرض الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وقد تضمنت السورة طائفة من الأمور منها:

١ - إنكار الله تعالى على المشركين تعجبهم من أن يوحي إلى بشر مثلهم لينذرهم، مع بيان مهمة النبي ﷺ في إنذار الناس، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى، وتبشير المؤمنين بثواب الله تعالى ورحمته.

٢ - إنكار الله تعالى على المشركين طلبهم من رسول الله ﷺ آية كونية وليدة اللحظة دليلاً على صدق رسالته مكراً وجحوداً وتعنتاً واستهزاءً وسخريةً.

٣ - بيان كمال قدرة الله تعالى في الخلق وعظيم حكمته وتدبيره للكون، وهذا مما يغفل عنه الكافرون ولم يتفكروا فيه، فاستحقوا عذاب الله تعالى يوم القيامة، خلافاً للمؤمنين الذين انتفعوا بالتأمل في آيات الله تعالى، فنالوا بذلك ثوابه ورضوانه.

٤ - تذكير قريش بمصير الأقوام الذين كذبوا الرسل في القرون السابقة، ليأخذوا العبرة منهم.

٥ - إنكار الله تعالى على المشركين عدولهم عن الحق إلى الضلال، بعد أن بيَّن لهم أدلة وحدانيته وربوبيته القاطعة، من رفع السموات بغير عمد وتعاقب الليل والنهار وحركة الشمس ومنازل القمر، وإنزال الغيث وإخراج الزروع والثمار، وبعث الخلق يوم القيامة للحساب وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وتصريف شؤون الكائنات جميعها.

٦ - بيان ضعف الإنسان وعجزه وحاجته إلى خالقه سبحانه وتعالى في كل الأمور، من لحظة تلقيح البويضة بالحيوان المنوي في الرحم إلى بعثه من قبره يوم القيامة.

٧ - دعوة الله تعالى نبيه أن يتبرأ من المشركين وأعمالهم، والتأكيد على أن الآيات الظاهرة الدالة على صدق نبوته ﷺ من أدلة عقلية وسمعية وبصرية، إنما ينتفع بها المؤمنون أولو البصائر والنهى، أما المشركون المكذبون فلا يتعظون بما يسمعون ولا يعتبرون بما يبصرون.

٨ - تذكير الله تعالى الكفار والمشركين، قدرته على إعادة الخلق يوم القيامة كما بدأهم من العدم، وان هذا يوم معلوم عند الله تعالى استأثره بعلمه، وأن الحياة الدنيا لا تقاس بالدار الآخرة.

٩ - الله تعالى مالك السموات والأرض، وما وعد به من البعث والجزاء واقع لا محالة، وفي هذا إنذار عظيم للمشركين الذين كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين في دعوته، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

١٠ - إرشاد الله تعالى عباده إلى التفكير في آياته الكونية الدالة على وحدانية وكمال قدرته.

١١ - التأكيد أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، والمؤمن الحق هو الذي يشعر بمراقبة الله تعالى في أقواله وأفعاله في السر والعلن.

١٢ - يخبر الله تعالى عباده أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، لا تخفى عليه خافية، وأن علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأمكنة.

١٣ - أوضحت السورة أهمية الدعوة إلى الله تعالى، وهذا من دعائم قواعد التوحيد الذي دعت إليه السورة، وتظهر أهمية الدعوة في كونها وظيفة الرسل الذين اختارهم الله تعالى لحمل رسالته وتبليغها إلى الناس، فالداعية حسب منطوق سورة الرعد المُضمر يقوم بأشرف عمل وهو حمل رسالة الإسلام، من خلال توجيه نظر المدعو أو المجادل إلى ما في مظاهر الكون من عِبَر بكلماتٍ مؤثرة بالترغيب والترهيب، ويقصد بالأولى كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق، ويقصد بالثانية كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض دعوة الحق.

١٤ – وجوب طاعة الله تعالى في الرخاء والشدة، وهذا مندرج في باب مصداقية التوكل على الله في السراء والضراء.

١٥ – بينت آيات السورة عدداً من صفات الله تعالى كالعلم والقدرة والرحمة، ومما تجدر ملاحظته أن علاقة سورة الرعد بسورة يوسف التي قبلها وسورة إبراهيم التي بعدها تكاملية، وما أُجمِل في سورة بسط القول في سورة أخرى.

وفيما يلي أهم القواسم المشتركة بينها:

أ– السور الثلاث تزخر بالعديد من ضوابط القرآن المكي وخصائصه الموضوعية.

ب– أن هذه السور افتتحت بحروف التهجي، ولم يكن هذا مألوفاً في افتتاح الكلام بين العرب أيام الجاهلية، والاستفتاح بالحروف المقطعة ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين سورة كلها مكية عدا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان.

وتباينت فواتح السور من حيث عدد الحروف، فبعضها مؤلف من حرف واحد ومثاله ص، ق، ن، ومن حرفين ومثاله حم، طس، طه، يس. وبعضها مؤلف من ثلاثة أحرف ومثاله (الم) و(الر) و(طسم)، ومنها ما ورد من أربعة أحرف ومثاله (المر) و(المص) كما ورد بعضها من خمسة أحرف ومثاله (كهيعص) و(حم عسق).

واللافت للانتباه أن عدد أحرف فواتح السور من الحروف المقطعة أربعة عشر هي: (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي).

جـ – ورد في هذه السور التأكيد على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله تعالى.

د – أجمَل الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته في الخلق. وفصَّل القول في سورة الرعد في مواضع متعددة للتأكيد على أن الكون كتاب مفتوح ينطق بقدرة الله تعالى وعظمته.

هـ– انتظم في هذه السور الإخبار عن بعض الماضين من الأقوام من باب التحذير وأخذ

العظة والعبرة، وغاية هذه القصص التحذير من الشرك وبيان منزلة الأنبياء والرسل، ومقابلتهم للإساءة بالإحسان والصبر والعفو والصفح.

غ- بينت السور الثلاث جانباً من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما أصابهم من العذاب بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، لأجل دعوة قريش ليؤمنوا بالله تعالى ويصدقوا رسوله محمداً ﷺ ويتبعوا دعوته.

ك- أكدت السور الثلاث على وحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال رسله إليهم.

حـ- أكدت السور الثلاث على تحريم موالاة الكافرين، فقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة أو لصداقة أو لمصلحة دنيوية، فالمؤمن يحب في الله تعالى ويبغض في الله تعالى وقد توعد الله تعالى الذين يوالون الكافرين بالعذاب الشديد.

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن السورة قد قسمت إلى ستة مقاطع ليتيسر تفسيرها موضوعياً، إذ يحتوي كل مقطع منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة، وما ترشد إليه من هدايات مع بيان وجه الارتباط بينها وبغيرها ممن تقدم أو تأخر، ويقوم محور السورة على التعريف بمكانة القرآن الكريم وبيان منزلة الرسول ﷺ، وتقرير أركان الإيمان، على ضوء آيات الله في الكون، لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام وهذا بالكلية من أصول قواعد التوحيد.

وفيما يلي سرد موجز لمقاطع السورة:

المقطع الأول: ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢.

المقطع الثاني: ويمتد من الآية ٣ إلى الآية ٤.

المقطع الثالث: ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ١١.

المقطع الرابع: ويمتد من الآية ١٢ إلى الآية ١٣.

المقطع الخامس: ويمتد من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩.

المقطع السادس: ويمتد من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٣.

والمقطعان الأخيران يشغلان معظم مساحة السورة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول

ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾

افتتحت آيات المقطع الأول بقوله تعالى ﴿ الٓمٓرۚ ﴾ وهي أربعة حروف هجائية مقطعة، تلفظ: ألف، لام، ميم، راء. ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات عند سماعها لأجل الإصغاء لما سيرد بعدها. وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من هذه الحروف التي يلفظ بها العرب كلامهم.

تعددت آراء العلماء في جواز أو حرمة تأويلها إلى قولين:

- جماعة ترى وجوب تدبر آيات القرآن الكريم بما فيها فواتح السور من الحروف المقطعة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤ ﴾ [محمد: ٢٤].

ويعتقد أنصار هذا الرأي كلما تقدم العلم الإنساني كشف عن بعض وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عليها الأوائل، ولقد أورد صاحب البرهان عشرين رأياً اجتهاداً جمعها من علماء علوم القرآن والتفسير الذين سبقوه، ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي محمد ﷺ. ومن أشهر وجوه تفسيرها أنها مفاتيح لأسماء الله الحسنى، وكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد)

والراء مفتاح اسمه (الرزاق)[١].

- وبالمقابل فإن جماعة ثانية من العلماء ترى حرمة الخوض في تأويلها وهي من المتشابه نقيض المحكم. علم مستور وسر محجوب استأثر الله به وهو العالم بمراده منها، وهي من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر حتى قيام الساعة.

وترى طائفة منهم ليس من الدين في شيء أن يجترئ أحد من الخلق على تفسيرها خشية الزلل في الاجتهاد، لأنها لا تملك أمامها إلا التسليم بها دون إعمال العقل فيها[٢]*.

وبعد الاستفتاح بالحروف المقطعة انتقلت الآية الثانية إلى التعريف بمكانه القرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين. وإن في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دلالة على عظيم منزلته بين الكتب السماوية كافة.

حيث اقتضت إرادة الله أن يكون هذا الكتاب معجزة عقلية ليكون التحدي به قائماً على امتداد الأزمنة والعصور، وهذا أوضح دليل على عالمية دعوته والعمل بما جاء به كفيل بتحقيق السعادة للإنسانية قاطبة، فيه من عظمة الإعجاز التشريعي ما يناسب الفطرة التي جبل عليها الإنسان، صالح للتطبيق في كل زمان ومكان. ومع كونه الحق الذي يكفل للبشرية الحياة الكريمة، إلا أن أهل قريش أعرضوا عنه جهلاً وعناداً لوقوعهم تحت غريزة المحاكاة والتقليد لآبائهم الأولين. وقد فاتهم أن الله عز وجل أرسلك فيهم يا محمد بشيراً ونذيراً ورحمةً وهادياً، ومن أقبل منهم عليه كان من أهل السعادة في الدارين.

(١) للمزيد انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني: ١/ ٢٧.

(٢) * يعد كتاب الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ، من أشهر المؤلفات التي أفردت لفواتح السور ومعرفة أسرارها.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأول

١ - **قررت آيات المقطع** التأكيد على عظمة القرآن الكريم وبيان موقف المشركين منه، وما يستحقون من عذاب جهنم.

يقول الله تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أن القرآن الذي يتلى عليكم وما فيه من الرسل والرسالات، منزل من الله رب العالمين، نزل به جبريل عليه السلام، وهو الملك المكلف بالرسالات السماوية.

فخبره صادق وحكمه نافذ إلى قيام الساعة، لينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له، أنزله بلسان القوم ولغتهم، عربياً فصيحاً ليكون قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، لدفع معذرتهم وحجتهم، فهو وإن كان بلغتهم فليس من جنس كلام البشر.

ويخبر تعالى أن كتب الأولين من الأنبياء كالتوراة والإنجيل بشرت بالنبي ﷺ وبقرآنه، يعلمه المنصفون العدول من علماء بني إسرائيل، كما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⁽٦⁾﴾ [الصف: ٦] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ومع هذا فإن الملأ من مشركي مكة، لم يؤمنوا به لمرض في أنفسهم كبراً وعناداً، وحفاظاً على مكانتهم وزعامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى. فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن والرسول وأثاروا حولها مرذول الشبهات.

وزعموا منكراً من القول وزوراً أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ (شاعرٌ وقيل ساحر وقيل إفكٌ افتراه أعانه عليه قوم آخرون، وقيل افتعله من تلقاء نفسه عن أساطير الأولين وكتبهم

وقيل أن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة، يدور في فلكهم حيث داروا فأوقعوه أسيراً لهم، وقيل تارة أنه كذاب وتارة أخرى أنه مجنون، وتارة ثالثة أن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بما لا يعرف مع استحالة نبوته كبشر). فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله عن هذه الافتراءات. ولعل في تعددها واضطرابها دليلاً على بطلانها وعدم صحتها، وهذا مكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل، ونبي الله ﷺ ليس بدعاً في ذلك. مما يدعم وحدة خطاب رسل الله في الدعوة لله، وتبعاً لمنطق العقل فإن افتراءاتهم هذه من أشنع درجات الكفر المستحق للتوبيخ والتقريع، وبداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ قامت كل الحجج على مصداقية رسالته.

وتقرر الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله.وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم، عندئذ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال ويقولون نادمين، يا ليتنا أطعنا الله ورسوله ويوم القيامة ليس للظالمين والكافرين من ناصر ولا معين ولا شفيع. ويتمنون لو أن لهم كرةً أخرى في الدنيا ليكونوا من المؤمنين، ولكن هيهات أن يستجاب لهم، ويقال لهم في مشهدٍ توبيخي: ألم نمكنكم في الأرض، ونطيل أعماركم فيها، وجاءكم الرسول يحذركم من هذا العذاب، فذوقوا في جهنم ما وعدتم به من عذاب شديد.

٢- تؤكد الآيات حاجة البشرية إلى رسالة الإسلام، لتربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- إن في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد: ١] مطابقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء/ ٨].

ولعل المضمر في خطاب هاتين الآيتين يشير على وجه الخصوص أن الناس كانوا منذ آدم عليه السلام أمة واحدة على دين الفطرة السليمة، فانحرفوا عن ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى، فبعث الله إليهم الأنبياء والرسل لهدايتهم، وأنزل مع كل رسول كتاباً خاصاً بقومه عدا القرآن الكريم الذي جاء للعالم كافة، فما آمن أكثرهم وهذا شأنهم في دعوات الرسل جميعاً.

وإن في ذلك لآية وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل الناس جميعاً على الإسلام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]. ولكن الله عز وجل ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء/ ٤].

٤- تحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعاب في ألطف العبارات الربانية وأرقها. وغاية المقطع إثبات نبوته ﷺ ليؤمن أهل مكة عن تبصر وتعقل، ومع ذلك فإن المشركين كذبوا بالكتاب الذي نزل عليهم وأعرضوا عنه واستهزؤوا به. وقد فاتهم أن الله على كل شيء قدير.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

ويمتد من الآية ٣ إلى الآية ٤

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

القراءات: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وجعفر ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع والباقون بالجر. وقرأ حمزة والكسائي (يفضّل) بالياء، والباقون (نفضّل) بالنون[1].

بعد أن أشارت آيات المقطع الأول إلى بيان حكمة نزول القرآن بالحق على محمد ﷺ، لهداية

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي. ٢/ ١٩.

البشرية من ظلمة الجهالة إلى نور التوحيد، انعطفت آيات المقطع الثاني إلى خلق السموات كآية كونية، دالة على وحدانيته وعظمته وكمال قدرته وتدبيره لها على قاعدة من التوازن الرباني.

سموات مرفوعة متداخلة فيما بينها على شكل حلقات دائرية، كحلقات البصلة تماماً فالسماء الأولى محيطة بجميع مجراتها، ثم السماء الثانية محيطة بالأولى كإحاطة السوار بالمعصم وهكذا حتى السابعة بعضها فوق بعض كقطعة واحدة متلاصقة.

يتربع فوقها عرش عظيم وسع كرسيه فيها السموات والأرض(١)* وبهذا تكون السماء الأولى عمداً لما فوقها حتى السابعة رفعت جميعها بغير عمدٍ تحملها، خلاف المألوف في فكر البشر وهندستهم طبقاً لسنن ثابتة أبدعتها قدرة الله عز وجل.

ثم أشارت آيات المقطع أيضاً أن الله عز وجل سخر الشمس والقمر منافع للبشر وللكائنات الحية. وجعل الشمس تدور حول محورها، والقمر يقطع مداره متنقلاً في منازله فتراه على عدة أوجه فتارة هلالاً وتارةً تربيعاً وثالثة نصف دائرة ورابعة دائرة مضيئة وهكذا، وهو التابع الوحيد للأرض ومرتبط بها ارتباطاً وثيقاً بفعل الجذب والمجال المغناطيسي. والقمر يرسل ضياءه على الأرض بفعل انعكاس الأشعة الشمسية عليه من وجه واحد فقط، وليس له غلاف جوي يحيط به كالأرض لهذا تنعدم الحياة على سطحه.

ولم تزل حركة الشمس والقمر على سيرتها الأولى من التسخير، تجريان في فلكيهما حتى قيام الساعة، عندها يطوي الله السموات ويبدلها فتكور الشمس والقمر.

وبعدها انعطفت الآيات لذكر خبر حكمة الله في خلقه للأرض وهنا يقول ابن كثير: {لما اخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه في خلق السموات بغير عمد، شرع في ذكر قدرته

---

(١) * للعلماء فيه اجتهادات عديدة أرجح الأقوال صواباً: أنه شيء عظيم استأثره الله بعلمه، مع وجوب تنزيهه سبحانه وتعالى من الجلوس عليه كالملوك، فالله عز وجل يستحيل عليه المكان كان ولا شيء معه، واستحدث العرش بعد أن لم يكن، والكرسي دال على ملك الله وعظيم سلطانه وتدبيره وتصريفه للكون بما يليق بجلاله ويناسب كماله.

وحكمته للعالم السفلي بعد إحكامه للعالم العلوي}[(١)].

وتشير الآيات هنا أن الله عز وجل قد بسط الأرض رغم كرويتها ليسهل الانتقال عليها والانتفاع بها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٩-٢٠].

ومن عظيم خلقه أنها تظهر للناظر لها من الجو تحت مستوى الفضاء الخارجي مبسوطة مع إنها مكورة. وجعل فيها جبالاً مغروسة في باطن القشرة الأرضية لئلا تميد بالخلق ولتحفظ التوازن عند دوران الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]. وخصها بالأنهار وعيون الماء التي تعتمد على سقوط المطر اللازمة للكائنات الحية جميعاً، فأخرج من خلال الماء الزروع والثمار والأشجار. وجعل النهار فيها معاشاً للعباد يلتمسون فيه ضروب العمل المختلفة في القطاعات الإنتاجية كافة، والليل سكناً لهم راحة لتجديد النشاط والحيوية استعداداً لليوم التالي.

ثم تحدثت الآيات عن عظمة الله في خلق النبات، فمن كمال قدرته سبحانه وتعالى وبديع صنعه أن جعل الزرع من الجنس الواحد، يسقى بماء واحد ويعيش في تربة واحدة ويتلقى من أشعة الشمس مقداراً واحداً يختلف من نبتة أو شجرة لأخرى، في طعمه ورائحته ولونه، تبعاً لاختلاف خصوبة الأرض، وما بها من أملاح ومعادن ومواد عضوية، مع أنها قد تكون قطعة واحدة أو متلاصقة أو متجاورة. كما جعل من المزروعات أصنافاً منها الحلو والحامض وبين المنزلتين درجات. ومنها الأبيض والأسود والأصفر والأخضر وغير ذلك من الألوان. وليس هذا فحسب فقد تزرع في الأرض الواحدة مسميات متعددة من المزروعات، كالخضراوات والفواكه، والبقوليات، والدرنيات، وغير ذلك ويفضل بعضها على بعض في الأكل. ويعزى التفسير العلمي في ذلك إلى ماهية التربة، وهي تلك الطبقة الرقيقة التي يتراوح سمكها بين عدة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني:٢/ ٢٦٩.
للمزيد حول خلق السموات والأرض، انظر، بداية خلق الكون، لابن كثير: ص٨٧.

سنتيمترات إلى عدة أمتار، تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والتركيب ومن الماء ومن الهواء ومن المواد العضوية المتحللة.

إن نظرة تأملية شاملة لخصائص التربة الطبيعية والكيميائية والحيوية تدل على قدرة الله عز وجل في خلق النبات وتكوينه وصفاته وأشكاله وألوانه وطعومه، بالرغم من أنها تسقى بماء واحد تبعاً لاختلاف قوام التربة في تكوينها وحرارتها ورطوبتها وحموضتها ولونها وما بها من مواد عضوية ومعدنية وخصوبتها ومصدر مكوناتها،فسبحان الله القادر على كل شيء[1].

وينتهي المقطع الثاني بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]. وفيها دعوة للبشر بوجوب النظر والتأمل في قدرة الله على الخلق وأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته، فإذا انتفعنا في آيات الله الكونية التي سخرها لنا انتصرنا بالنور على الظلمات والهدى على الضلال، وسيجزي الله عز وجل الناس بما هم أهل له يوم القيامة، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب والنهى والأبصار الذين يعقلون فيتدبرون، وتهديهم عقولهم إلى جادة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثاني

تضمنت آيات المقطع عدداً من الشواهد الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته في هذا الكون العجيب منها:

أ- بيان الحكمة الربانية من حركة الشمس ومنازل القمر:

حدد الله تعالى لكل مجرةٍ في هذا الكون مدارها الخاص بها لا تتعداه إلى غيره. كما حدد لكل مجموعة شمسية في كل مجرة مدارها الثابت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]. مما يحفظ للكون توازنه وانسجامه وقد خص الله في السورة ذكر الشمس والقمر والأرض.

---

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د.عطية محمد عطية: ص٢٧٠.

والشمس في عرف علماء الفلك نجم فوق القزمي بقليل قياساً مع النجوم العملاقة، تسير في مدار حول محورها لا تتجاوزه، وسوف تستمر في حركتها إلى يوم القيامة حيث تنتهي وظيفتها، وهذا مما استأثر الله بعلمه وعندئذ يتوقف سيرها وتسكن حركتها وتنتهي طاقتها إيذانا بنهاية الحياة الدنيا. وهي مركز المجموعة الشمسية التابعة لمجرة درب التبانة، تدور الكواكب التابعة لها حولها بفعل الجاذبية وهي «عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو وكوكب X»، وهي مصدر الحياة على سطح الأرض للكائنات الحية ولولاها لانعدمت الحياة على سطح الأرض.

كما قدر الله عز وجل للقمر[1]* السير في ثمانية وعشرين منزلاً ينزل في كل ليلة منزلاً يتخطاه لأجل ذلك يتم معرفة الشهور والأيام وتحديد بداية ونهاية الأشهر القمرية. ففي الليلة الواحدة يكون القمر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوره حتى يكتمل في الليلة الرابعة عشرة. ويأخذ بعدها في التناقص بشكل تدريجي حتى إذا كان في آخر منازله ظهر كغصن النخلة اليابس في دقته وتقوسه واصفراره بسبب وقوع الأرض بينه وبين الشمس، مصدقاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس/ ٣٩].

ب- بيان الحكمة الربانية من خلق الأرض وتعاقب الليل والنهار.

لقد انتظم في القرآن الكريم عدة آيات تتحدث عن الأرض وما عليها لتلفت أنظار الناس إلى التأمل في قدرة الله تعالى على الخلق، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) * القمر جرم سماوي يستمد ضوءه من الشمس، وللأرض قمر واحد يدور حولها كل ٢٩,٥٣ يوماً يطلق عليها اسم الشهر القمري ولكواكب النظام الشمسي جميعها أقمار تدور حولها عدا كوكبي عطارد والزهرة، فللمريخ قمران وللمشتري ثلاثة وستون قمراً ولزحل ستة وأربعون قمراً ولكوكب أورانوس سبعة وعشرون قمراً ونبتون ثلاثة عشرة قمراً ولكوكب بلوتو قمراً واحداً. لكل منها خصائص فيزيائية، فسبحان القائل: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس/ ٤٠. للمزيد انظر: منشورات معهد الفلك وعلوم الفضاء/ جامعة آل البيت لعام ٢٠٠٥.

سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١١] اختارها الله عز وجل لتكون الكوكب الذي يفيض بالخير والبركة. أعطيت من الخصائص ما حرمت منه الكواكب الأخرى، اختارها الله عز وجل لآدم وذريته من بعده، وأرسل عليها الأنبياء والرسل فكانت الكوكب الأمثل في الخلق. مرت بحقب وعصور متطاولة في أزمانها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها. ثلاثة أرباع مساحتها ماء، تبعد عن الشمس حوالي خمسين ومائة مليون كيلو متر تقريباً، تصل إليها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية. لها دورتان الأولى حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ينشأ عنها تعاقب الليل والنهار، وبمقتضى حكمته سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل، ودورة ثانية حول الشمس بشكل إهليلجي في فلك محدد مرسوم لها من رب العالمين، بسرعة تسعة وعشرين كيلومتر في الثانية وتكتمل دورتها حول الشمس في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً تقريباً وست ساعات وبضع دقائق تقريباً. ينتج عنها الفصول الأربعة.

مجموع عناصرها بلغت مؤخراً مائة وستة وعشرين عنصراً وهذه العناصر في مجملها مكون من الذرة وهي مخلوقات الله ومنها تكون كل شيء في الكون بإرادة الله ومشيئته.

لأجل هذا كانت مهيأة لاستقبال الحياة على سطحها دون غيرها من الكواكب. ومن هنا جاء استخلاف الله عز وجل للإنسان عليها، وكان آدم وحواء أول من استوطنها ومن ذريتهما توالدت البشرية وفيها الحياة الدنيا بوابة الحياة الآخرة الأبدية. وعلى خلفية ما تقدم فإن الأرض نعمة من نعم الله تعالى جعلها مذللة ومسخرة للإنسان ليقيم فيها شرع الله على مراده سبحانه وتعالى.

جـ- تحرض آيات المقطع الثاني على وجوب النظر والتأمل والاعتبار بدلالات عظمة الله تعالى في خلق الكون، بصورة تتسم بدقة مثيرة للدهشة. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]وقوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن فهم الصيرورة الطبيعية لنشأة الكون يفرض علينا الخضوع لمراد الله، فعندما يتأمل الإنسان الكون وما فيه من سموات ومجرات وشموس وكواكب وأقمار، يدرك بعقله أن لهذا الكون خالقاً أحكم نظامه على قاعدة من التوازن الدقيق، يتحكم في كل حركة من حركاته بعلمه وإرادته بصورة متناسقة متكاملة وفق النظام البديع الذي أوجده فيها، وقد حاول العلماء إيضاح التفسير العلمي الذي يكمن وراء هذا التوازن الكوني وأرجعوه إلى القوانين الفيزيائية التالية(١):

أ-القوة التجاذبية وهي المسؤولة عن تماسك الكون في فلكه ومداره.

ب-القوة الكهرومغناطيسية وهي المسؤولة عن بقاء الإلكترونات في مدارها وتعمل على جذب الإلكترونات والبروتونات ضمن الذرة الواحدة نحو بعضها البعض. والقوتان أ و ب تقومان بالتحكم في ذرات المادة.

جـ- القوة النووية الشديدة: وهي المسؤولة عن بقاء البروتونات والنيوترونات مع بعضها البعض في النواة دون أن تتطاير بعيداً.

د- القوة النووية الضعيفة وتمثل حزام أمان الذرة وهي المسؤولة عن التوازن في النيوترون والبروتون داخل النواة، فتحول دون انبعاث أشعة ضارة منها خلاف ما هو عليه الحال في التفجير النووي.

هـ- القوة الناشئة عن سرعة دوران المجرات وما بداخلها من مجموعات شمسية ونجوم حيث تحافظ كل مجرة ونجم وكوكب على مسار خاص.

---

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د.عطية محمد عطية: ص٣١٠.
وللمزيد انظر: الموقع الإلكتروني لكل من:
- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- د.زغلول النجار، موقع الإعجاز العلمي في القرآن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أي زيادة أو نقصان في هذه القوى يؤدي إلى اختلال توازنها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [افاطر/ ٤١].

د- تقرر الآيات التأكيد على الثنائية الزوجية لكل خلق الله: فالزوجية لغةً كل شيء معه آخر يقابله من جنسه. لو أمعنت النظر في خلق الله فإنك ترى الزوجية بارزة في الكائنات الحية وغير الحية.

فالنباتات فيها الذكر والأنثى إما متصلة أو منفصلة، كذلك أيضاً في عالم الحيوان من وحيد الخلية إلى متعدد الخلية إلى الثديات، كما أن الزوجية واضحة في الإنسان إذ يشار إلى الذكورة Y والى الأنوثة X [(١)].

وتتكون الذرة أيضاً من الإلكترون السالب والبروتون الموجب والكهرباء فيها السالب والموجب.

يتضح مما تقدم أن نظام الزوجية قاعدة الخلق في الكون كله فيما نعلمه من خلق الله. وفيما يلي ذكر الآيات القرآنية التي تناولت الزوجية في الكون:

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[الرعد: ٣] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف: ١٨٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] وقال تعالى:

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي الباز: ص١٦٤.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[الزمر: ٦] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[الروم: ٢١].

وتأسيساً على ما تقدم نرى تفرد الله عز وجل عما خلق فهو واحد أحد، كل ما سواه مخلوق على الزوجية، وسبحانه عز وجل لا أول لوجوده، كان ولا شيء معه وهو الأول والآخر ومع هذا فان أكثر الناس لا يؤمنون بسبب جهالتهم وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم.

هـ- تؤكد الآيات أن الإنسان الذي منحه الله عز وجل العقل وحرية الإرادة والاختيار والقدرة على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل والاستعداد للخير والهداية، قادر على إدراك وجود الله تعالى من خلال مشاهدته للظواهر الكونية المتعددة، كما أن الإنسان العاقل يستخدم عقله ويعمل تفكيره فيما حوله من المخلوقات لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام، لمقارعة الغرب باللغة التي يفهمونها.

و- من الدلائل المذكورة في آيات هذا المقطع الاستدلال بكروية الأرض، وفي هذا الصدد يعلق **الفخر الرازي** قائلاً: [ثبت بالدلائل أن الأرض كرة، وأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠] [1]. وفي هذا سبق علمي للإمام الرازي سبق به علماء الغرب بقرون.

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، ٥٧/ ٥.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

وتمتد من الآية ٥ إلى الآية ١١

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

القراءات:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع والباقون بالجر.

وقرأ حمزة والكسائي: (يفضل) بالياء والباقون: (نفضل) بالنون وقرأ ابن كثير: (المتعالي) بإثبات الياء[1].

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ من باب التسرية أن لا تعجب من تكذيب أهل مكة لما نزل عليك من الحق. وسوء ظنهم في دعوتك ناجم عن كفرهم واضطراب تفكيرهم، بل العجيب العاجب والعجب العجاب الحقيق بالغرابة والدهشة، إنكارهم للبعث ورؤيتهم فيه أنه محال وفي غاية الامتناع لقياسهم قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فبعد أن رأوه ممتنعاً في قدرتهم ظنوا أنه

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي: ٢/ ٢١.

ممتنع على قدرة الخالق وتناسوا أن الله عز وجل على كل شيء قدير، خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً فزعمهم هذا من مستغرب العجائب، لأنهم دعوا إلى الإيمان فلم يهتدوا رغم وقوفهم على العديد من الدلالات على وحدانيته سبحانه وتعالى.

لقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزاؤهم يوم القيامة أغلال في أعناقهم يقادون فيها إلى نار جهنم خالدين فيها[1]. ثم وقع العجب منهم أيضاً أنهم يستعجلونك يا محمد أن تأتيهم بعذاب الله بدلاً من أن يطلبوا هدايته ورحمته، ولقد مضت عقوبات الله على أمثالهم ممن أهلكهم الله من الماضين بذنوبهم، وهذا مشاهد ومكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل مع أقوامهم، ورغم هذا فإن ربك عفو غفور لمن تاب منهم شديد في عذابه لمن اتبع خطوات الشيطان في ضلاله. ثم يخبر تعالى عن جهالة من نزل فيهم الكتاب الحق من أهل مكة، الذين وُعظوا غير مرةٍ فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الحجة بالبراهين فلم يستجيبوا لها، بل جاهروا بالإنكار وتأولوا حلم الله فيهم على غير مراده سبحانه وتعالى في عدم معاجلتهم بالعذاب، وبدا لهم أنهم بهذا يحسنون صنعاً حتى اجترؤوا على رسوله وطالبوه بآية قاهرة على مصداقية دعوته فإن لم يفعل فعليه أن يستعجل بعذابهم. وتمضي آيات المقطع حتى تنعطف إلى بيان إحاطة علم الله تعالى بأحوال الناس كلها الخفي منها والظاهر، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى شيء من حال خلقه حتى ما يخفيه الآحاد منهم في صورة حديث النفس، فالحق تبارك وتعالى أقرب إلى عبده من وريده الذي يغذي جسمه بالدم، وورد في الآيات على وجه التخصيص علم الله الأزلي بما في الأرحام من ذكر وأنثى، قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، وليس هذا فحسب، بل وسع علمه إلى مدة حمل كل جنين ما اكتمل منه وما نزل دون ذلك مقدر في مدته لا يزيد ولا ينقص. وهذا بالكلية من دلائل قدرة الله عز وجل في الخلق الذي استأثره بعلمه. وهذا ما يعجز عنه أهل الاختصاص في علوم الطب ممن تنحصر معرفتهم فيما ذكر آنفاً في القواعد الطبية العامة

(١) تيسير التفسير، الشيخ إبراهيم القطان: ٢/ ٥٤١، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٨٩.

التي تتحصل لصاحبها بالعلم والدراسة والدراية من خلال التعامل مع الأجهزة، فيعلمون جنس الجنين بعد شهره الرابع. ثم تسوق آيات المقطع دليلاً آخر على قدرة الله تعالى الفعال لما يريد المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه. فقد وكل سبحانه وتعالى للإنسان ملكين يكتبان أعماله من قول أو فعل، فلا يتلفظ بكلمة ولا يقوم بعمل إلا والملك ملازم له يراقبه ويدون مخرجات أعماله وأقواله ونظراته من خير أو شر في صحيفة أعماله لتقدم إليه يوم القيامة للحساب. فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. وفي ذكره تعالى للآية الأخيرة من المقطع الثالث وردت لطيفة قرآنية، تومئ أن الله عز وجل لا يصوب ما اعوج من خلقه في شؤونهم ونظم حياتهم حتى يلتزموا جادة الإيمان، فإرادة التغيير نحو الخير تبدأ من الإنسان، فإن فعل بحزم واقتدار فالله يكلأه برعايته وعنايته.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث

١- تقرر آيات المقطع أركان الإيمان الستة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

٢- تقدم آيات المقطع صورة أولية لبعض المشاهد التي تتصل باليوم الآخر كالبعث والحشر والنشور والعرض والحساب والشفاعة والميزان والصراط والجنة والنار.

واليوم الآخر: هو نهاية الحياة الدنيا وبداية الحياة الآخرة، وفيه يأمر الله تعالى ملكاً أن ينفخ في الصور حين يأذن بقيام الساعة، فتتشقق السموات وتتناثر النجوم وتزول الجبال ففي هذا اليوم يبعث الله تعالى فيه الناس من قبورهم بأجسامهم وأرواحهم ويحشرهم ليحاسبهم على أعمالهم، فيكافئ المؤمن بدخول الجنة ويجازي الكافر بدخول نار جهنم، والإيمان به ضروري لاستقامة الحياة الدنيا حتى يبادر المسيء إلى التوبة والكافر إلى الإيمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ويستفاد من نبأ اليوم الآخر أن حياة الإنسان لا تنتهي بالموت، بل سيبعث الله الخلائق يوم القيامة للحساب فيبعث الإنسان على ما قبض عليه من معصية أو طاعة.

٣- تشير الآيات إلى وجوب الاتعاظ بمصير الأمم السابقة وتجنب أسباب هلاكها وتعذيبها، والعاقل الحصيف هو الذي يستفيد من أخبارهم وأحوالهم، فيقبل على الله تعالى بالمداومة على العبادات والدعوة إليه، والاجتهاد في الدعوة إلى رسالة الإسلام بحسن المعاملة والحكمة والموعظة الحسنة.

٤- تهدف الآيات إلى إيضاح حكمة عدم تلبية الله عز وجل لمطالب المشركين في رؤية معجزات مادية قاهرة لتعنتهم وشططهم، مع قدرته سبحانه وتعالى على تحقيق ما أرادوه.

وقد كان الله عز وجل في الرسالات السابقة يستجيب لطلب بعض المعجزات، فيجريها على أيدي أنبيائه ورسله للدلالة على صدق الدعوة، أما إذا كان طلب المعجزة فيه سوء قصد ورغبة في التفكه فإنه سبحانه وتعالى لا يستجيب لطلبهم، ولا يلتفت إليهم لأنهم وطنوا أنفسهم على الجحود والعناد مهما رأوا من آيات وبراهين، فسبحانه يخلق من المعجزات ما يشاء بقدرته ويختار بحكمته ما يشاء منها، وليس في مقدور الخلق ولا من حقهم أن يختاروا على الله ما يشاؤون. وكل نبي يدعو قومه بما يعطيه الله من الآيات، لا بما يقترح القوم على أنبيائهم حسب مراد كفرهم.

٥- تؤكد الآيات أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان شأن الكافرين فهم صمٌّ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسول الله، عميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة الدالة على عظمته في الكون. كما لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى، فالرابطة هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب.

٦- كشفت الآيات أن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن لا يصلح لعباده المؤمنين إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الدعوة والصبر عليها والأخذ بأسبابها.

لهذا كان يمنحهم على الدوام بالسراء والضراء، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالدعاء والاستغاثة والاعتصام بحبله. وليعلم بالبلاء والمحنة منازلهم على حقيقتها، فيظهر

بالامتحان أهل الإيمان، ليميزهم عن غيرهم ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة أصحاب الثبات على المبدأ ومن لا يصلح، لهذا جعل سبحانه وتعالى الحياة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه، والعاقبة وإن طالت طريقها فهي حصر للمؤمنين الصادقين الصابرين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.

٧- أبانت الآيات أن حكمة الله تعالى شاءت في دعوات الأنبياء والرسل أن تكون واحدة في فلسفة تكاملها وجوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها وتناسقها فيما بينها، وتكامل السابق منها باللاحق حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ، من هنا برزت عظمة الرسالة ومنزلة القرآن فيها.

٨- إن في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ دليلاً على أن دعوة جميع الرسل لتوحيد الله ثم عبادته دعوة واحدة، أما شرائعهم فمختلفة، والشريعة ما أنزله الله تعالى للناس من أحكام لتنظيم حياتهم على لسان رسله الكرام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]. ويستفاد من ذلك أن الشرائع التي تقدمت رسالة محمد ﷺ كانت محصورة في أقوام معينة وأزمان محدودة، في حين كانت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين عالمية لصلاحيتها لكل زمان ومكان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَـٰذِيرًا ﴾[سبأ: ٢٨].

٩- يستفاد من دروس المقطع أن من أدبيات منهجية البحث العلمي في الإسلام، أن يتناول الباحث المنصف فكر من تقدمه بأسلوب جديد يقوم على قراءة تحليلية نقدية، بحيث لا يجعل للمتقدم سلطاناً عليه يحول دون مخالفته أو معارضته في قضية علمية ثبت خطأ المتقدم فيها، وألا يتهيب من اجتهادات من سبقوه وينظر إليها وكأنها فوق مستوى النقد الموضوعي، وخاصة عند الاجتهادات الخاطئة في تفسير بعض الآيات الكونية، بسبب إدراك جهل الأوائل للمدلول العلمي للآية المراد تفسيرها، وليس أدل على ذلك من تعدد أقوال بعض العلماء في مدة الحمل (أقله وأكثره) عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ

﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد:٨].

ودليله اضطراب أقوال بعض العلماء حيث بلغت مدة الحمل عندهم في حالات خاصة من سنتين إلى خمس سنوات[١]. وقد أورد **الفخر الرازي** في تفسيره: أن مدة الحمل قد تصل إلى سنتين عند أبي حنيفة وإلى أربعة عند الشافعي وإلى خمس عند مالك[٢].

وقد قلّبت وجوه الرأي فيها وفي غرابة طرحها واستفسرت غير مرةٍ من أهل الاختصاص في كليات الطب عن درجة مصداقيتها علمياً على ضوء معارف العصر، فانتهى الرأي إلى عدم إقرار مثل هذه الاجتهادات لمخالفتها الفطرة وعقلانية الإسلام وهو أمر ينكره الطب الحديث[٣].

---

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٢٨٥-٢٨٩ وأضواء البيان في إيضاح القرآن. للشيخ الشنقيطي: ٢/ ٢٢٥.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٥.

(٣) للمزيد: انظر خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي الباز: ص١٠.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الرابع

ويمتد من الآية ١٢ إلى الآية ١٣

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

يستمر السياق القرآني لهذا المقطع في بيان قدرة الله الكونية فدلائل قدرته عز وجل بارزة للناس كافة. فهو الذي يرسل السحاب[(١)]* الثقال وما يحمله من نافع الغيث للكائنات الحية جميعاً.

وحكمة تخصيص البرق هنا في الآية الكريمة ورد لأحد أمرين:

- إما رجاء الخير منه لوفرة المطر واعتدال سقوطه معاً فيتأتى عنه خصب الزرع والضرع وكلاهما ضروري لحياة الإنسان الذي يعيش عليهما وتنعدم حياته من غيرهما، وهذا داخل في باب نعمة الله وفضله على عباده.

- أو ذهاب بأبصار الناس لشدة بريقه حين يضيء جانباً من قبة السماء، كما في الصواعق الحارقة والأمطار الشديدة المدمرة وما ينجم عنها من السيول الجارفة، وهذا مندرج في باب الخوف من نقمة الله على بعض عباده. حين يشاء صرف ما ينفعهم منها وابتلاؤهم بضرها من انجراف وتدمير وحرق فيصيب بها من يريد، لأجل ذلك كان من هديه ﷺ عند سماعه للرعد يقول (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثم يقول إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد)[(٢)]. وتسبيح الرعد في الحديث من باب المجاز خضوعٌ وحمدٌ وشكر لخالقه، إذ

---

(١) * السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة، انظر: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٢.

(٢) موطأ مالك: باب القول إذا سمعت الرعد، حديث رقم ١٥٧٦.

أودع سبحانه وتعالى في كل شيء من خلقه صفاته الخاصة وتسبيحه الخاص، الذي يؤهله لأداء وظيفته التي خلق لها على مراد الله منه، وإن في ذلك لعبرة لذوي العقول السليمة المتبصرة وفي كلتا الحالتين من إيجاب وسلب ونعمة ونقمة، فإن البرق والرعد والأمطار[(١)] والصواعق والأعاصير، دالة على جبروت الله وتدبيره للكون بإرادته، سخرها كيف يشاء ليصيب بها من يشاء بالقدر المحدد الذي يريده عز وجل في وقته وزمانه.

والحق تبارك وتعالى لا يبدل ما بقوم من نعمة إلى نقمة إلا إذا كفروا بتلك النعمة واستبدلوها بالمعاصي، لأجل ذلك يجزي كل إنسان بما يستحق إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فالنعمة والخير أو النقمة والشر الذي يصيب الإنسان مقدر في سنن الله، فالابتلاء والنعمة سنة ربانية لها صور متعددة لا تتوقف في حياة الإنسان، وإن طريق الجنة والتمتع بنعيمها لا يتحقق إلا بالإيمان وطاعة الله ورسوله، وهذا من قواعد التوحيد الذي دعت السورة إليه.

وغاية آيات هذا المقطع أن يتعظ أهل مكة بما نزل بالماضين من أهل الكفر الذين أنكروا نبوة رسلهم، من صور الهلاك التي حاقت بهم كالصواعق والأعاصير والأمطار المدمرة أو القحط وانحباس المطر والزلازل والخسف ونحو ذلك.

ليكون إيمانهم بالقرآن الحق ونبوة رسولهم ﷺ عن تدبر وتعقل وفصاحة منهم، بيد أنهم عدلوا عن الهدى إلى الضلال، فلم يتعظوا ولم يعتبروا، وكانوا كالأنعام أو أضل صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يبصرون ولا يتفهمون، غلبت عليهم شقوتهم فعبدوا غير الله، وشمروا ساعد العداوة والبغضاء لرسول الله الذي بعثه الله لهدايتهم، وتناسوا أنهم عاجزون عن أن يقدموا نفعاً لأنفسهم أو يوقعوا ضراً بأحدٍ ممن ناصبوه العداء من المؤمنين، إلا في حدود ما قدره الله تعالى، فالنفع والضر بيده سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ

---

(١) ** من غريب شطحات الصوفية المنكرة قولهم: أن الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم، انظر: التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٣.

﴿لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥٠-٥١] إن في ذلك دلائل لقوم ينتفعون بها يشاهدون ويسمعون، فالله عز وجل يعاقب الكافرين في الدنيا ببعض أعمالهم لعلهم يرجعون عن المعاصي والكفر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

١. تقرر آيات المقطع حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول القرآن الكريم، وهي حمل الرياح لبخار الماء الناجم عن تسخين الشمس للمسطحات المائية، في دورة هيدرولوجية للماء مبشرة برحمته لما تحمله من السحب الممطرة، يبسطها الله في السماء كيف يشاء هنا وهناك في قلة أو كثرة، وبين المنزلين درجات في الكمية أو القحط يسوق الريح سحاباً يضم بعضه إلى بعض ويجعله متراكماً على شكل تضاريس جبلية، فترى المطر يخرج من خلال السحاب الثقال، فينزل على قوم فينفعهم وعلى قوم آخرين فيضرهم، وقد يحبسه عن آخرين تبعاً لإرادته عز وجل.

وتوجه الآيات الأنظار إلى التفسير العلمي لنشأة السحب والبرق[(١)]* والرعد والأعاصير. حيث ينشأ البرق بفعل التفريغ الكهربي بين منطقتين مختلفتي الشحنة داخل السحابة الواحدة، أو عند التقاء سحابتين أحدهما موجبة وأخرى سالبة، فيتولد البرق على هيئة شرارات كهربائية وومضات تنتشر في حيز كبير من السماء، وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة قد تصل أحياناً إلى نيف وثلاثين تفريغاً في الدقيقة الواحدة.

ويحصل التفريغ الكهربي لظاهرة البرق في محيطها الحيوي من السماء بين السحابة والهواء المجاور، وفي حالات أخرى قد يطال هذا التفريغ الكهربي المنطقة الممتدة من السحابة إلى

---

(١) * يعتقد علماء الأرصاد الجوية أن الجليد عامل ضروري في ظاهرة البرق التي لا تحدث إلا عندما يتكون الجليد في الطبقات العليا من السحب الرعدية بانخفاض الحرارة، وقد بينت التجارب أن الماء عندما يتجمد يصبح الجليد سالب الشحنة كهربائياً والماء موجب الشحنة، لهذا توزع الشحنة في السحابة الممطرة كشحنات موجبة في أعلاها وأسفلها وشحنات سالبة في وسطها، وتسمى البنية الكهربائية للسحابة ثنائية القطب.

الأرض، وتعرف عندئذ بالصاعقة يكون لها تداعيات خطيرة على الإنسان والحيوان والنبات والتجمعات السكانية، والمرتفع من البنايات الشاهقة، وللوقاية منها تركب مانعات الصواعق احترازاً من أي مكروه[١]. ونظراً للتباين بين سرعة الضوء وسرعة الصوت فإننا نرى البرق أولاً يليه صوت الرعد.

وبفعل البرق يتمدد الهواء بسبب الارتفاع المفاجئ في حرارته بصورة فجائية فيندفع الهواء المجاور ليحل محله محدثاً أصواتاً رعدية شديدة متلاحقة مصحوبة بالمطر والبرد والثلج الغزير قد ينتج عنها أحياناً الفيضانات المدمرة والانزلاقات الطينية المهلكة قد تصيب فيها بعض من غيروا ما بأنفسهم، حيث اقتضت حكمته ألا يمهلهم لعلمه أن لا خير في إمهالهم فاستحقوا هذا العذاب.

٢- تؤكد آيات المقطع على بيان دور الرياح في حمل بخار الماء من المسطحات المائية[٢]* ورفعه إلى مناطق الجو العليا من الطبقة الأولى من طبقات الغلاف الجوي، حيث يتكاثف بخار الماء على شكل سحب منبسطة أو متراكمة ثم يسقط مطراً حيث شاء الله بعد تلقيح الرياح له[٣]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[الروم: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ

---

(١) مفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية: ص٥١.

(٢) * يقرر العلماء أن الكمية الكلية للمياه في الكرة الأرضية ثابتة لم تتغير منذ خلقت الأرض حسب قانون حفظ الكتلة، والحجم الكلي للمياه يساوي ٤١٠٠,٠٠٠,٠٠٠كلم٣، تشكل ثلثي مساحة الكرة الأرضية وتوزع المياه بالنسب التالية: ▪ ٩٥٪-٩٧٪ مياه مالحة. ▪ ٣٪ - ٥٪ مياه عذبة موزعة على النحو التالي: ● ٢٢٪ مياه جوفية، ●٧٧٪ كتل جليدية في القطبين، ● ١٪ تشكل دورة المياه في الطبيعة ومياه الأنهار والبحيرات.

(٣) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية، ص٢١٠. ومفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية، ص٧٥.

ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر: ٩] وقوله تعالى: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [النبأ: ١٤]. ويراد بالمعصِراتِ هنا السحب وما ينشأ عنها من البرق والرعد والأمطار.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن مسميات الرياح المحملة بالأمطار الواردة في القرآن الكريم هي:

(الذاريات) التي تنشئ السحاب أولاً، ثم (الحاملات) وهي الرياح التي تحمل نوايات حب المطر بعد تكاثفه، ثم (الجاريات) وهي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها إلى حيث شاء الله، و(المقسمات) وهي الرياح التي تفرق الأمطار على أقطار الأرض حسب مشيئته سبحانه وتعالى. و(الناشرات) التي تنشر المطر فوق المزروعات والأراضي القاحلة لتعينها على الإنبات و(الفارقات) والتي تفرق السحب في الفضاء.[1]

وفي قراءة تأويلية للآية الأخيرة نلحظ تكرار (ثم) التي تفيد الترتيب والتعقيب والتراخي في عملية تداخل بخار الماء بعضه ببعض وتشكل السحب. كما نلحظ حرف العطف في كلمة (فترى) التي تفيد الترتيب والتعقيب دون التراخي يفصل بينها فترة زمنية استعداداً لنزول المطر على مراد الله في مكانه وزمانه وكميته، وهذا سر من أسرار المطر كشفه العلم حديثاً، صرح

(١) المرجع السابق: ص٢٥٦.

به القرآن قبل أربعة عشر قرناً ونيفاً.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الله عز وجل قد شبه إنزال الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها بيوم البعث، حيث يبعث الناس من قبورهم، في دلالة على قدرة الله في الخلق والتدبير وإن في ذلك لآية.

٣- إن مصطلح السحاب الثقال الواردة في الآية قد تحتمل علمياً أحد الاجتهادات التالية:

أ- السحب الممطرة بكل مسمياتها وأشكالها التي تنشأ فوق المسطحات المائية، ويستثنى منها السحب الصيفية غير الممطرة ذات الارتفاع الشاهق التي تبدو على شكل القطن أو الريش في لونها الأبيض.

ب- السحب قطبية المنشأ الداكنة اللون التي تتحرك في شكل متتابع على شكل موجات متلاحقة، تدفعها الرياح مع المنخفضات الجوية وتكون ثقيلة في حمولتها للمياه والبرد والثلج، وتمتد لمساحات هائلة جداً قد تغطي دولاً كاملة في مساحتها، تكون مصحوبة بالبرق والرعد والعواصف.

جـ- السحب التي تنشأ في المناطق الاستوائية قرب خط الاستواء، حيث تكون مثقلة بالأمطار المصحوبة بالبرق والرعد والعواصف.

والسحب بارتفاعاتها المختلفة يمكن تقسيمها إلى فئتين:

- مجموعة السحب السمحاقية وهي ذات هطول خفيف.

- مجموعة السحب الركامية وهي سميكة وتظهر على شكل طبقات وجبال متموجة التضاريس، وتكون ثقيلة في حمولتها للماء والبرد والثلج، وغالباً ما تميل إلى اللون القاتم الشديد لشدة كثافتها، وتكون مصحوبة بعواصف رعدية، من أشهر أنواعها سحب المزن الركامي وسحب المزن الطبقي. وللسحب أنواع كثيرة بعضها يهطل منه المطر والبعض الآخر يهطل منه

البرد والثلج، ولكل ميزاته الخاصة. وتنقسم في ارتفاعها إلى ثلاثة أقسام:

- سحب عالية تمتد على ارتفاعات قد تصل من ستة كيلومترات إلى اثني عشر كيلومتراً.
- سحب متوسطة تمتد على ارتفاع بين كيلومترين إلى ستة كيلومترات.
- سحب منخفضة وتصل في ارتفاعها إلى أقل من كيلومترين.

وتتكون السحب بوجه عام من بخار الماء المتصاعد من المسطحات المائية ومن نتح النباتات، حيث يتكاثف في طبقات الجو العليا حول نوايات الغبار الدقيق والأملاح المتطايرة في الجو والتي تقاس بالمايكرون ١/ ١٠٠٠ ملم، ولا تستقر السحب على حال واحدة بل يتغير شكلها دوماً تبعاً لنوعها وتحرك الرياح فيها.

٤- تعارف العلماء على تقسيم الغلاف الجوي الذي يغلف الكرة الأرضية إلى الطبقات الرئيسية التالية يفصل بعضها عن بعض طبقات ثانوية:

أ- طبقة تروبوسفير وهي الطبقة الأولى من طبقات الغلاف الجوي، ويحدث فيها كل الظواهر الجوية الواردة في سورة الرعد من التبخر والتكاثف والسحب والهطول والبرق والرعد والرياح والعواصف وتيارات الحمل الصاعدة والهابطة، ويقل فيها الأوكسجين بالارتفاع، ويصل ارتفاعها عند خط الاستواء ثمانية عشر كلم وفوق القطبين تسعة كلم.

ب- طبقة ستراتوسفير وهي طبقة الأوزون الثانية في الترتيب ووظيفتها حماية الأرض من الأشعة فوق البنفسجية[1]* الضارة، ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي خمسة وخمسين كلم فوق سطح الأرض، تمثل هذه الطبقة درعاً واقياً لكوكب الأرض تحمي الكائنات الحية التي تعيش

---

(١) * توزع الطاقة الشمسية على النحو التالي:
٤٦٪ أشعة تحت الحمراء. ٤٥٪ أشعة ضوئية مرئية. ٩٪ أشعة فوق البنفسجية، لا يصل منها على سطح الأرض إلا الجزء اليسير بالقدر الذي لا يؤثر على حياة الكائنات الحية، وهذا ما تنفرد به الأرض عن سائر الكواكب الأخرى مما ساعد على تجدد التفاعلات الكيماوية بصفة مستمرة حسب تسخير الله لها.

عليها من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، فسبحان الله الذي خلق كل شيء بحكمة وتوازن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر: ٤٩] فقد شاءت رحمة الله تعالى أن تمتص أغلب هذه الأشعة في هذه الطبقة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١] ومما يؤسف له أن تدمير الإنسان للبيئة نجم عنه ثقب الأوزون الذي يهدد الحياة على سطح الأرض، والقرآن حين يلفت الأنظار إلى توازن عناصر البيئة، إنما يريد المحافظة عليها من أي ضرر يلحق بها، لأن حياة الإنسان وسعادته من أسمى مقاصد الشريعة.

جـ- طبقة الميزوسفير وهي الثالثة ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي تسعين كلم، ومن أهم خصائصها اصطياد الشهب والنيازك التي تسقط على الأرض من الفضاء الخارجي، وقد ورد في القرآن الكريم رصد هذه الطبقة لشياطين الجن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ [الجن: ٨] وقوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

د- طبقة الأيونوسفير وهي الطبقة الرابعة ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي ثلاثمائة كلم فوق سطح الأرض، ومن أهم خصائصها عكس الموجات اللاسلكية القصيرة إلى الأرض فسبحان الله الذي سخر ذلك للإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

هـ- طبقة الثرموسفير وهي الطبقة الخامسة وتصل في ارتفاعها حتى ثمانمائة كلم فوق سطح الأرض. ويمكن تسميتها بطبقة الجو المؤين، التي تتميز بشحناتها الكهربائية مما يجعلها وسطاً موصلاً له، من خصائصها تسهيل اتصالات الراديو، فسبحان الله عز وجل القائل: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

و- الطبقة السادسة وتعرف باسم أكسوسفير، وتصل في ارتفاعها ألف كلم فوق سطح الأرض، ومنها يخرج الإنسان نحو الفضاء الخارجي، وإذا تيسر لرائد الفضاء أن يتجاوز

هذه الطبقة فإنه يرى الكون مظلماً حوله[1]، نستخلص مما تقدم أن طبقات الغلاف الجوي في الإسلام كتابٌ مفتوح للتأمل في آيات الله الكونية، ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من رب العالمين، مصداقاً بقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وحكمة هذا التقسيم للطبقات أن من يُكتب له الهداية يتسع صدره لنور الإسلام، ومن يُكتب عليه الضلال يكن صدره ضيقاً شديد الضيق كمن يصعد إلى السماء، فتتصاعد أنفاسه وتضيق إلى أن يموت اختناقاً لقلة الأوكسجين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

ومما يجدر التنبيه إليه هنا تكرار كلمة (سفير) وتعني الجسم الدائري أو الكروي.

ولما كانت اللغة العربية تستوعب كل جديدٍ من العلوم، يمكننا تعريب المصطلحات السابقة على النحو التالي: طبقة الأثير الأولى و طبقة الأثير الثانية و طبقة الأثير الثالثة و طبقة الأثير الرابعة و طبقة الأثير الخامسة وطبقة الأثير السادسة، ويمكن ترجمة الطبقة الوهمية الفاصلة بين كل طبقتين أساسيتين مما ذكر آنفاً بغشاء الطبقة فتصبح غشاء الطبقة الأولى وغشاء الطبقة الثانية ... وهكذا حتى السادسة.

٥. مما يجدر التنبيه إليه أن سوابق هذه الظواهر الكونية مذكور في سور القرآن الكريم وفيها إشارة تفيد أن أهل الكفر والشرك على وتيرة واحدة، مهما تباعد الزمن وتطاولت الدهور واختلفت العصور، وقد سبق عليهم القول بهلاكهم وعذابهم لكفرهم. كما ترينا أن دعوة

---

(١) للمزيد انظر: منشورات معهد الفلك وعلوم الفضاء/ جامعة آل البيت- الأردن، ٢٠٠٥. ومفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية: ص١٢٣-١٢٤.

الأنبياء والرسل واحدة، والله ينتصر لرسله متى يشاء وينتقم من أعدائه المكذبين متى يشاء بالطريقة التي يشاء، مع اختلاف صور الهلاك:

فهذا نبأ قوم نوح عليه السلام فقد أُهلكوا بالطوفان من مياه الأرض وأمطار السماء، ونبأ قوم عاد عليه السلام أهلكوا بالريح العاتية، وقوم ثمود عليه السلام أهلكوا بالصيحة الرعدية التي زلزلت الأرض من تحت أقدامهم، وهذا نبأ قوم صالح عليه السلام إذ جاءتهم الصيحة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم، أما قوم هود عليه السلام فكان أول ما ابتدأهم العذاب رأوا عارضاً (سحباً) في السماء فظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب لم تبق منهم أحداً، وهذا قوم لوط عليه السلام إذ أهلكهم الله بالصحية الرعدية والمطر الشديد المصحوب بحجارة من سجيل.

٦. تؤكد الآيات على عدم جواز التطير من هبوب الريح أو صوت الرعد أو البرق أو المطر الشديد فالقدر تدبير الله للأشياء حسب علمه وإرادته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وكان من هديه ﷺ عند رؤيته للريح يقول: (لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به)[1].

٧- تقرر آيات المقطع أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، لأجل ذلك شرعت صلاة الاستسقاء عند انحباس المطر[2].

---

(١) رواه الترمذي ٣٤٤٩، وابن ماجة ٣٨٩١.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٢.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الخامس

ويمتد من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

القراءات:

- **قرأ حمزة والكسائي (وهل يستوي الظلمات والنور) بالياء والباقون (تستوي) بالتاء.**
- **قرأ حمزة والكسائي وحفص(يوقدون) بالياء، والباقون (توقدون) بالتاء**[1].

كان من عادة العرب قديماً أن تضرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه وعجز عنه بالكلية، كالقابض على الماء باليد حيث خانته فروج الأصابع، لأن الماء ليس ببالغ إليه لا يستطيع له حصولاً وطلباً رغم ظمئه الشديد وحاجته إليه، لفساد طريقة جمعه له في كفه وضياعه هدراً.

وفي ضربه عز وجل للمثل في الآية الرابعة عشرة، دليل على يأس الكفار والمشركين، وتوهمهم في نفع آلهتهم لهم إذ كانوا يستنصرون ويستمطرون ويستشفون بها، فدعوتهم لآلهتهم غير حق فهذه الآلهة بزعمهم لا تستجيب لهم دعاءً ولا تسمع لهم نداءً أو استغاثةً، ودعوة الحق وقف على الله تعالى، وما دعاؤهم إلا ضلال وشرك كالسراب الذي يراه الظمآن ماءً في الصحراء، أو من يرى خياله في الماء ولا يستطيع إليه طلباً حتى يدركه الموت عطشاً، أو لا تناله كفاه لبعده واستحالة الوصول إليه.

والشواهد السابقة من الأمثلة كناية على يأسهم من استجابة الله عز وجل لدعائهم لكونهم ليسوا أهلاً لها، بسبب ما وقر في عقولهم أن آلهتهم واسطة بينهم وبين الله في السماء فهم لا يستجيبون لله إلا كرهاً ورهبةً من عقابه عند رؤيتهم لآياته في الهلاك، في حين يسجد المؤمن لله طوعاً وإخلاصاً ومحبة في السراء والضراء على مدار الوقت في الغدو والآصال.

ثم تمضي الآيات في مقارعة المشركين بالحجة، إذ أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، أن يلامس عقول المشركين إلزاماً للحجة ومقارعتهم بها، ويخبرهم عن قدرته سبحانه وتعالى في الخلق والرزق، عسى أن يحملهم على الاستسلام والخضوع والانقياد له، لأجل تحريرهم من محاكاتهم

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد بن أبي طالب القيسي: ص١٦. والتبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري: ص٧٥٦.

وتقليدهم لآبائهم الأولين في عبادتهم للأصنام التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً. فإن استمروا على شركهم فإن الآحاد منهم في منزلة الأعمى الذي يسير على قارعة الطريق في ظلمة الليل، وهل يستوي في منزلته عند الله مع المؤمن البصير في نور الله إذ تحفظه معيته في حله وترحاله ومنامه.

وكان من تمام الاحتجاج أن خاطبهم ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في إشارة لإعمال العقل في التفكر بقدرة الله عز وجل في الخلق والتدبير، فالكون وما فيه من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك من مخلوقات الله ما عرف منها وما لم يعرف مخلوق لله بإرادته وحكمته، يسير مخلوقاته حيث يشاء، فلزم هذه المخلوقات جميعها واجب العبادة والتسبيح والحمد والشكر والسجود لله، كل شيء منها حسب حاله والهيئة التي خلق عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتأسيساً عليه فلا مقايسة بين خلقه تعالى للسموات والأرض وما فيهما وتقديره لحركة بعضها وأقوات بعضها الآخر، وبين نحت المشركين لآلهتهم بأيديهم والزعم بأن صناعتهم لها مساوية لخلق الله، وقد فاتهم أن الله عز وجل هو الواحد الأحد القهار المعز المذل الغالب لكل شيء، فأين هم من هذا وهم العاجزون عن خلق جناح بعوضة؟ وحقيق بهؤلاء أن تكون جهنم نُزلاً لهم خالدين فيها، فبئساً لمسكنهم ومقامهم هذا لما مهدوه لأنفسهم من الكفر والشرك والضلال والزعم بمشاركة الله في الخلق.

ودفعاً للتوهم يضرب الله عز وجل في الآية السابعة عشرة مثلاً للحق والباطل، فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو ماء السيل المتدفق ويعلق بجنباته في كل اتجاه، فيعلو ويهبط تبعاً لاتجاه الريح ودفعه دونما خير ولا فائدة ترجى منه. والزبد هذا ليس محبوساً على الماء الذي يجري في السيول حسب تقدير الله عز وجل للماء فيها، بل يشاركه أيضاً ما يطفو من المعادن كالذهب من خبث مماثل عند صهره وفرزه عن شوائبه من التراب، فيستقر الجوهر وتعدم الشوائب التي لا فائدة منها، (والزبد في كليهما يشير إلى الباطل وما خلص من الماء الزلال، فيمكث في الأرض

والذهب الصافي يصاغ منه أنواع الحلي وهذا المقصود من مكثها في الأرض)[1].

وحكمة ذكر زبد الماء وخبث المعادن وردت للتدليل أن الكفر في منزلة فقاقيع، وإن علت مكانة أهله حيناً من الوقت، من باب مداولة سنن الله في الأرض جولات صعوداً وهبوطاً، إلا أنه في زوال حتمي مصيره عبرة لغيره يتعظ بمصير أهله من الخلائق ما يتعظ وعاقبته الخسران والندم. فأهل الكفر لا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأنهم لو امتلكوا ذهب الأرض، عاجزون أن يفتدوا بها أنفسهم يوم القيامة، وستكون أموالهم هذه حسرة وندامة. وبالقياس والمقابلة نرى أهل الإيمان في نعيم مقيم، نُزلاً في جنات تجري من تحتها الأنهار، فإيمانهم استقر في الأرض استخلافاً على مراد الله، فأينعت بذور إيمانه في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثبات على المبدأ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشرك هي السفلى، فاستحقوا صفة ذوي الألباب الموفون بعهد الله في أوامره ونواهيه، وهل يستوي أولو الألباب الذين اتبعوا دعوة الحق وأوفوا بعهودهم مع الله مع الكفار والمشركين الذين تنكبوا طريق جادة الإيمان تعنتاً ونقضوا عهدهم مع الله، فالآحاد منهم أعمى البصر والبصيرة فاقد العقل، لا يعقل ولا يتبصر ولا يتفكر لما ركب في عقله من دلائل النقص لوقوعه تحت غريزة المحاكاة والتقليد في عبادتهم لآبائهم الأولين وكانوا بشأنها أكثر الناس جدلاً. ويرى **الزمخشري** في أهل نقض العهد الوارد في الآية: {الذين ينقضون عهد الله عليهم اللعنة، لما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته في عالم **الذر** مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وما قبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق}[2]. وفي هذا الشأن يقول **الفخر الرازي**: [اعلم أن الوفاء بالعهد مستحسنٌ في العقول والشرائع ومن أجَل مراتب السعادة[3]].

---

(١) التفسير الوسيط: ص ٤٢٦.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري: ٢/ ٥٠٤.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٣٣.

ويرى (**ابن كثير**) أن علامات نقض عهد الله {أن الشخص إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإذا عاهد غدر ونقض العهد والميثاق وأفسد في الأرض}[(١)].

كما فصلت آيات المقطع بعض صفات المؤمنين ذُكر منها أنهم ذوو العقول البصيرة القادرة على تمييز الحق من الباطل، صاحبة النفس المؤمنة، يتعظون بالمواعظ والعبر، القائمون على عهدهم مع الله الخاشعون له إجلالاً وتعظيماً ومحبةً، الصابرون على أداء العبادات بأنواعها من صوم وصلاة وزكاة وحج المستوفية لشروطها وأركانها وآدابها، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر من غير رياء وسمعة، يقابلون السيئة بالحسنة ابتغاء وجهه الكريم، وقد توقف (**صاحب الظلال**) عند هذه الجزئية بالقول: {إن في مقابلة السيئة بالحسنة إشارة خفية بهدف درء السيئة ودفعها، وأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ويحتاج الشر إلى الدفع، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة، ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملات الشخصية ولا يجوز في دين الله، فلا ينفع مع المفسد في الأرض والظالم إلا الدفع الصارم بالقوة حسماً لفساده وظلمه}[(٢)].

وقررت آيات المقطع أن الله عز وجل سيدخل المؤمنين جزاء صفاتهم هذه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومن صلح من أهليهم آباءً وأولاداً وأزواجاً وزوجات ممن جرى عليهم حسن العاقبة والختام. ومن جمال نعيم الله عز وجل لهم في الجنة دخول الملائكة عليهم من كل باب من أبوابها بالسلام عليهم تهنئة من الله وتحية لهم، على صدق إيمانهم وحسن صبرهم في الدنيا على الطاعة وما نزل بهم من ألوان البلاء.

ولمثل هذا فليعمل العاملون وليتنافس المتنافسون في دنياهم، وفي هذا بيان لتفاهة التنافس على المال والجاه والرياسة، وما يتأتى عنها من ظلم واستبداد وإذلال واستعباد وكبر وخيلاء يصيب القوي فيها الضعيف.

كما تؤكد الآية الرابعة والعشرون من المقطع وجوب وصل كل ما أمر الله به أن يوصل،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ الصابوني: ٢/ ٢٨٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٩١.

قولاً وفعلاً ظاهراً وباطناً بدءاً من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، مروراً إلى بر الوالدين وصلة الأرحام مهما تباعدت، وكفالة اليتيم وموالاة أهل الإيمان وأداء الحقوق لأصحابها، وانتهاءً بالنظم التي شرعها الله لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض وما يندرج في منظومتها من تمام العلاقات والحقوق الدنيوية.

ثم يخبر الله تعالى في المقطع أن من قابل ذلك بالنقض والإعراض والصد والعزوف عن مراد الله فيها، وابتغى الفساد في الأرض كفراً حقيق بالطرد من رحمة الله وجعلت له جهنم نُزلاً ليذوق وبال كفره. وفي الآية ما يفيد أن الناس ليسوا على درجة واحدة في قبولهم للهدي القرآني فمنهم المؤمن الذي له من الصفات أجَلّها ومن المناقب أفضلها ومن السلوك أحسنه، ومنهم الكافر الذي له من الصفات والسلوك أقبحها وأرذلها. ولكل من الفئتين منازل ودرجات في طبقات الجنة ونعيمها أو النار وعذابها كلما نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها. ولا يستوي في ذلك الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور فاستحق بذلك المجيب لأمر الله بالجزاء العادل والمعرض بسوء العاقبة. واختتمت آيات المقطع بالتأكيد على أن الله عز وجل بيده مقاليد رزق عباده وفق مراده وحكمته كثرة وقلة واعتدالاً وسعةً وضيقاً. يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء، وليس السعة والبسط دليلاً على الرضا، ولا الضيق دليلاً على المقت والغضب، وقد يكون في كليهما إما امتحان واختبار على شكر النعم أو الصبر على الابتلاء. وفي هذا يقول القرطبي: {لما ذكر الله عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك، بين أنه تعالى يبسط الرزق ويقدر في الدنيا لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم}[1] وقد جاء في المنتخب : {واعلم أن الله تعالى قد يعطي الرزق الوفير لمن يشاء، إذا أخذ بالأسباب فهو يعطيه للمؤمن وغير المؤمن، ويعطي الدنيا لمن يحب ولا يحب، وما الحياة الدنيا قياساً بالآخرة إلا متع ضئيلة فانية}[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٥/ ٣١٤.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص٣٥٨.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس

١ - تؤكد الآيات على أن الدعاء والخوف والرجاء والرهبة لا تنبغي أن تصرف لأحدٍ غير الله عز وجل، فهو الرازق المحيي المميت المعز المذل، وكل مخلوق من البشر فوقه مخلوق آخر يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه حتى ينتهي القهر للواحد الأحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان له سبحانه وتعالى وحده.

٢ - شبه الله تعالى في المقطع دعوة الحق التي نزلت على رسوله محمد ﷺ بالماء، الذي ينزل من السماء وتجري به أنهار وسيول طمعاً في خيرها وما تحمله من بشر يرجى منه، لما فيه من النفع للكائنات الحية جميعاً وبدونه تنعدم حياتها. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وحكمة تشبيهه الكافرين بالزبد الذي يطفو فوق الماء، والخبث الذي يطفو عن صهر الذهب والمعادن. تتغيا تقرير عالمية دعوة الحق الذي فيها نفع للبشرية إلى قيام الساعة كنفع الماء لحياة الكائنات الحية.إذ لا خيار للبشرية إلا بهذه الرسالة المخلصة لها من ضلالاتها وأوجاعها وهمومها على مدار العصور وكر الدهور، تماماً كما يمكث في الأرض من ماء زلال وذهب صافٍ، فبوفرتها تنعم الدول والممالك والبشر وتشعر بالضيق والحرج من قلتهما أو شحهما. فالبشرية اليوم لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها، إلا بالإسلام الحق وحاجته إليه كحاجة الإنسان والحيوان والنبات للماء.

٣ - شبهت آيات المقطع قلوب المؤمنين بالأودية الزاخرة بالمياه النازلة من السماء، فتنعشها وتجدد فيها الحياة، لأن قلوب أهل الإيمان تستقر فيها أنوار القرآن الكريم[1].

٤ - تقرر الآيات وجوب التزام الصبر كخلق إسلامي يبعث على تحمل المشاق والتعب والأذى في سبيل الله تعالى، والرضا بقضائه عند وقوع المصائب، مع عدم جواز التظلم والتشكي والتذمر مما وقع من بلاء، ولقد امتدح الله عز وجل الصابرين ووعدهم بالنصر والتأييد كما

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٩.

أعد لهم ثواباً عظيماً في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ١٢] وقد دعا الإسلام المؤمن إلى التحلي بالصبر في مختلف ميادين الحياة لما له من فضل كبير وثواب عظيم، وللصبر أنواع منها:

أ- صبر على الطاعة:

فقد فرض الإسلام على الناس طاعة الله وأمرهم بعبادته وكلفهم ببذل المال والوقت وتحمل المشاق في سبيل ذلك.

ب- صبر عن المعاصي:

ينهى الإسلام عن ارتكاب المعاصي من كذب وغيبة وخيانة وغش وغيرها، فالنفس البشرية قد تميل إلى المعصية وتجد فيها متعة ورغبة، فمقاومه المسلم لها ولمغرياتها وشهواتها هو ضرب من ضروب الصبر طلباً لرضوان الله تعالى.

جـ- صبر على المصائب:

يعصف بالإنسان في حياته أنواع من مصائب الدنيا ونوازلها وقوارعها، من موت أو مرض أو خسارة مالية أو فقدان عمل عزيز أو سجن أو عقوق أولاد أو فساد زوجة أو ثقل مديونية ونحوه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٦].

فالمسلم الحق يواجه مواقف الحياة بشجاعة وإيمان ويتلقى مصائب الدنيا بصبر وثبات، حتى يكون من الفائزين برضوان الله تعالى يوم القيامة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الصبر لا يعني الاستسلام للمصائب فإذا كان قادراً على مواجهتها وتصويب أمرها، ولم يفعل ذلك في حدود الأعمال الإرادية فسوف يؤثم، أما ما يدخل منها في حدود اللا إرادية فعليه أن يسأل الله عز وجل أن يلطف به.

وفيما يلي **قراءة تحليلية** تأملية مؤطرة بمرجعيات إيمانية في أصناف الناس ودرجة تحملهم للمصائب والنوازل والابتلاءات، ليسهل على الدعاة التعامل معهم على خلفية تحليل شخصياتهم[(١)]*:

(أ) هناك ضرب من الناس قادر على مواجهة الشدائد بكل مسمياتها أياً كانت تداعياتها عليهم وهم أهل التقوى والعقيدة، لقوة إيمانهم وحسن تسليمهم بقضاء الله وقدره، لاعتقادهم الراسخ أنهم في معية الله ورعايته وحفظه مهما عصفت بهم المحن وعوادي الأيام.

وما امتازوا به من فلاح إيماني حملهم على اعتبار أن ما أصابهم مقدر من الله عز وجل لتدبير إلهي محض، لا يستطيعون له دفعاً وأن الحياة إنما هي دار نكدٍ وكدرٍ وغمٍ وهمٍ إلى جانب السعادة.

وحكمة هذا الابتلاء في نظرهم قد وقع إما لأجل تطهيرهم من ذنوب سبقت كنوع من أنواع العقاب الرباني لهم، لأنهم حادوا عن الحق حيناً من الوقت، ليصوبوا ما اعوج من أمرهم أولاً بأول، لغاية تزكيتهم ورفع درجاتهم عند الله في الحياة الآخرة.

أو لرسوخ تقواهم بأن الحياة الدنيا جعلها الله عز وجل دار امتحان وابتلاء، ليعلم سبحانه وتعالى منازل الناس على حقيقتها، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان والصبر ليميزهم عن غيرهم، فعاقبة الصبر في نظرهم وان طالت طريقها حصر على المؤمنين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم. لهذا تولد لديهم شعور داخلي أن الله يمتحنهم بالغلبة والقهر والغنى والفقر والصحة والمرض دولاً وجولات، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالتضرع والإكثار من الدعاء والاعتصام بحبله ولسان حالهم يقول: «ولله الحمد والمنة والشكر على كل ما هم فيه من الأحوال».

---

(١) * من الشروط الواجب توافرها في الداعية أن يكون واعياً لما يجري حوله، بصيراً بأحوال الناس ومشكلاتهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، قادراً على تحليل شخصية المدعو ليسهل التعامل معه في الدعوة، فالنفوس جُبلت على حب من أحسن إليها وخاطبها باللين والموادعة بأسلوب يشرح الصدر.

وهذا الضرب من الناس يستشعر عظمة الخالق فيرضى بما يصيبهم من خير أو شر فإن أصابتهم نعمة شكروا الله تعالى، وإن كان غير ذلك صبروا مما جعلهم مطمئنين في حياتهم بعيدين عن الجزع موقنين أن الأمر كله بيد الله تعالى قدّره بعلمه وحكمته، فينسحب عليهم الحديث الشريف: [احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف ،][1] شعارهم الآيات القرآنية التالية قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي دراسة سيكولوجية (نفسية) لهذه الفئة تراهم أكثر الناس اعتدالاً في مخرجات سلوكهم في حالتي الأفراح والأحزان مع بعدهم عن مزالق الترفع والتكبر والخيلاء.

وبقراءة **تحليلية** فقد استدل بقرينة إيمان أهل هذه المنزلة أنهم الفائزون بالدنيا والآخرة لتضافر سماتهم في كونهم يكثرون من التوبة إلى الله مع ملازمتهم لها في جميع الأحوال والظروف فهم العابدون المتصفون بعبوديتهم لله عز وجل، الحامدون على الدوام لربهم في السراء والضراء واليسر والعسر، المعترفون بنعم الله عليهم بظاهرها وباطنها، المكثرون من الصلاة في مواقيتها الصابرون عليها بخشوعهم، الحافظون لحدود الله في تحليل وتحريم علماً وعملاً، السائحون في سبيل الله التماساً لجهاد أو علم نافع أو كسب حلال أو ضرب من سفر فيه قربة لله، المخرجون لزكاتهم وصدقاتهم وهذه الصفات بالكلية لا تتحقق إلا لهم لحسن عبادتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد امتدحهم الله لصبرهم ومداومتهم على ذكره، لهذا أطبقت الشواهد على

(١) أخرجه الترمذي، رقم الحديث ٥٦.

أن أهل هذه المنزلة أبعد الناس عن التأثيرات النفسية والعصبية لرباطة جأشهم واطمئنانهم لحكم الله لعلمهم أن الخير والشر فتنة وابتلاء وقد يكون في الابتلاء خير وفي سعة العيش فتنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾[البقرة: ٢١٦]. فان أصابه خير كان من الشاكرين وان أصابه شر تضرع إلى ربه بالدعاء ليكشف عنه ما نزل به من الضر تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وهذه مرتكزات مفاتيح السعادة في حياتهم فجعلتهم أكثر الخلق هدوءاً وأقربهم إلى الله ذكراً، فيريح جهازه العصبي من أي توتر وانفعال، وهم بذلك قد صحت لهم مقامات الكرامة الربانية.

(ب) وهناك ضرب آخر من الناس قادر على مواجه هموم الدنيا ونوائب الأيام مكرمة خصهم الله بها دون غيرهم تمثلت في اعتدال إفراز غددهم الصماء من[**الأدرينالين والنورادرينالين والكورتيزون والسيروتونين**] بالإضافة إلى منزلتهم من الإيمان فأصبحت لديهم القدرة على ضبط السيطرة على انفعالاتهم، وعدم الاستجابة السلبية للمؤثرات المحيطة البيئية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية يعيشون حياة اعتيادية حتى في أحلك الظروف سوداوية. ويطلق على الآحاد من هؤلاء في المصطلح الشعبي (فلان أعصابه باردة) وأهل هذه الفئة لا يتسلل الوهن العصبي والنفسي إليهم، لكمال مقومات صحتهم النفسية فيستقبلون يومهم بالحيوية والمزاج المعتدل ويقبلون على الحياة ببشر واطمئنان، وأهل هذه المنزلة من الناس قدح الله في نفوسهم الهدوء والسكينة وأضاء لهم طريق السعادة باعتدال التوازن في إفرازات غددهم.

وهي واحدة من نعم الله الكثيرة والتي لا يمكن حصرها لأنها أعظم من أن تستقصى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

من هنا يتبين لنا غلط من يحصر نعم الله في المال فقط، والعقلانية تستوجب أن نعترف بما أفاض الله به من النعم، كنعمة التقوى والإيمان والصحة والولد والسمع والبصر والنطق والحياة والعلم وغير ذلك مما يعود بالنفع. فالزوجة الصالحة نعمة والنجاح نعمة والتفاؤل نعمة والتوفيق في العمل نعمة، وبركة الراتب الشهري نعمة، وبركة طول العمر دون اعتلال نعمة وتوفيق الأبناء نعمة ومحبة الناس نعمة والتسليم بإرادة الله في الشكر الزائد نعمة، والعيش في أمان نعمة، ويستفاد من نبأ هذه الشواهد أن نعم الله كثيرة لا حصر لها وعلى أهل هذه الفئة شكر الله عز وجل على آلائه ونعمه عليهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]. فشكر النعم فيها النماء والبركة ودفع البلاء والفوز برضا الله ومحبته.

(جـ) وهناك ضرب ثالث من الناس غير قادر بالكلية على مواجهة النوازل حتى المتوسطة منها فيتسرب إليهم اليأس والقنوط بسرعة، بسبب ضعف إيمانهم فيظهر عليهم السلوك المضطرب ويكونون عرضة للإصابة بالاضطرابات [**السيكوسوماتية**] أكثر من غيرهم، وترى التأفف والضجر والضيق والقلق والأرق والكآبة والنظرة السوداوية للحياة واضحة عليهم، ممزوجة بمشاعر التيه والضياع والخوف من الغد، وما يحمله من مفاجآت غير سارة فتزداد معها الأمور تعقيداً، [والحالات السيكوسوماتية هي الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسي، كقرحة المعدة والإثنى عشر والقولون العصبي والسكري وارتفاع ضغط الدم والصداع واضطرابات الكلى والمسالك البولية](١)*.

وجملة القول إنها أمراض تصيب أجهزة الجسم كافة كالجهاز الهضمي والعصبي والتنفسي والبولي والتناسلي والأنف والأذن والحنجرة والجلد والشعر، وهذا النوع من الاضطرابات متفاوت من شخص لآخر فقد تبدأ من القلق المرضي وتمتد إلى الأرق الشديد وتتطور إلى

(١) * للمزيد انظر: الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، د.محمد عوده، والاضطرابات العصابية والذهانية والسلوكية، د.فيصل الزراد.

اضطرابات المزاج.

وقد تنتهي إلى اضطرابات الشخصية إذ لكل إنسان تركيبه الفسيولوجي، وحسب تكوينه تختلف استجاباته للمؤثرات تبعاً لاستعداداته الفطرية ودوافعه ومزاجه وشعوره واتجاهاته واستعداده الوراثي.

(د) وهناك ضرب رابع متقلبون في إيمانهم - فتارة يزيد وأخرى ينقص- في منزلة وسط بين أهل الضرب الأول والثاني وهؤلاء أهل الضرب الثالث في وسط المنزلتين، فتراهم تارة يواجهون الشدائد والمحن بعزيمة واقتدار إذا صاحبهم الإيمان والأمل، ثم ما تلبث عزائمهم أن تنهار تبعاً للظروف والتأثيرات المحيطة بهم إذا كانت أقوى منهم، فيحدث عند البعض الاستسلام للواقع وتبدأ المعاناة وتظهر بعض الأمراض السيكوسوماتية على صاحبه.

وغاية ما تقدم من قراءة فلسفية إيمانية حول منزلة الصبر ومكانته في الإسلام، التأكيد على سبق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، المناداة إلى التحكم في الانفعالات بالسيطرة عليها، لما فيه من فوائد صحية ونفسية وجسدية وعقلية. إذ يعد الإيمان بالله وبقضائه وقدره أعظم علاج للغضب وما يصاحبه من انفعالات غير محمودة.

وتعقيباً على ما تقدم حول مراتب الصبر عند الناس في مختلف ضروبهم يقول صاحب **التفسير الكبير**: [اعلم أن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه:

- أن يصبر ليقال عنه ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

- أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

- أن يصبر لئلا تحصل له شماتة الأعداء.

- أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع.

- أن يصبر على البلاء لعلمه بأن ذلك قسمة قدرها الله عز وجل لحكمة بالغة ومصلحة

راجحة، فالصابر هنا يكون في أعلى مقامات الصديقين لكمال النفس وسعادة القلب، فأهل هذه الفئة حصلت في قلوبهم الطمأنينة، واحترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب(١)].

ونراه في موضع آخر يقول: [أن المحن والمصائب يزيلها الله عز وجل بالدعاء والصدقة(٢)].

٤- تؤكد آيات المقطع أن الإيمان هو الكفيل بتحقيق السعادة وهي أعظم ما ينشده الإنسان في حياته. فالسعادة ليست بالمال والجاه والسلطان كما يتوهم بعض المتوهمين، فقد ثبت بالمشاهدة أن المال ربما كان سبباً لمتاعب وشقاء صاحبه، وأنه ليس الجسر الموصل إلى السعادة المنشودة، كما أن بعض أهل الجاه والسلطان عندما ظفروا بمواقعهم المتقدمة وخلعت عليهم من النعوت والألقاب التي كانوا ينشدونها بالأمس البعيد، ربما تأكد لهم أن نُزُلَهم هذا كان من أسباب متاعبهم وآلامهم، وأنهم لو كانوا يعلمون مخرجاته هذه، لما تزاحموا عليها بالمكر والخديعة والبطش، وإنك قد تسمع من أحدهم عند محاسبة النفس أنه قد اجتاز جسراً إلى غير الغاية التي ينشدها، ولا تعدم أن ترى أهل الاستمتاع بالملذات والشهوات الفانية، من يصرح لك أنها جلبت له خسائر وفضائح لم تك في حسبانه وأن لذته لم يبق منها إلا الذكريات المؤلمة، لاقتراب أجله حيث أفنى شبابه في غير طاعة الله.

وبالمقابل فإنك تجد المؤمن يحس بمشاعر السعادة، وإن لم يك لديه ما يحبه من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان، لشعوره بأنه في معية الله، وأنه بفضل من الله ورحمته تكلأه العناية الربانية، وبأن سعادة أبدية تنتظره يوم القيامة، ولله در من قال من الصالحين: لو علم الملوك ما نحن عليه من السعادة لقاتلونا عليها.

٥- يخبر الله تعالى في الآية الثامنة والعشرين أنه أمر بتطهير القلوب وتزكيتها بالذكر(٣)*، الذي

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٥١.

(٣) * للمزيد انظر، كتاب الأذكار: للإمام النووي.=

تطمئن فيه القلوب، وتجد لذة لحياتها أكثر من لذة الغريب والنادر من أطايب الطعام والشراب، فالمداومة على ذكر الله من الأسباب التي تعين على الشفاء والعافية من الهم والغم والحزن، لهذا يشرع للمسلم أن يكون لسانه رطباً بذكر الله في كل وقته.

والدعاء ضرب من ضروب الذكر وسلاح المؤمن في كل أحواله وملجؤه عند كل شدة وكرب وضر، لهذا فإنك تجد المؤمن حريصاً دائماً على أن يسأل الله من فضله وخيره وبره، ويسأله أن يكفيه من كل شر ومصيبة ويعافيه من كل مرض وداء، وهذا الأمر لا يتيسر إلا لمن تطهر قلبه من أمراض القلوب، كالنفاق والرياء والحسد والغيرة والكبر وعجب النفس ومحبة غير الله واتباع هوى الشيطان. فالذكر ينير للإنسان طريقه ويحفظ عليه عقله، وهو البلسم الشافي لأمراض النفس وعللها، ليعيش في حياة آمنة مفعمة بالنشاط والحيوية، فيحول الوهن إلى نشاط واليأس إلى أمل والكآبة إلى بشاشة، يحيا معها حياة سعيدة في نفسية صافية وادعة تعكس صفاءها على الجسد والسلوك، ينأى بنفسه عن إيثار العاجلة على الآجلة والعرض الزائل على النعيم الدائم. فالطمأنينة والسعادة وراحة البال تكمن في طرق باب الله بالدعاء والذكر، وهما العاصم من السقوط في هاوية الانحرافات والحزن والكآبة، مع التسليم لمراد الله في الشدائد والابتلاءات عند حدوثها مع عدم اليأس وان طالت سنين طويلة. فذكر الله يطمئن القلب ويعين على مواجهة الكآبة والملل، ويطرد تسلل الوهن على النفس، ويساعد في الإقبال على الحياة ببشر واطمئنان، وهذا البعد الديني في الدعاء والذكر مفيد جدا في علاج الكثير من الأمراض النفسية والعصبية، ولا يكاد يتفطن إليه إلا الآحاد من أهل الإيمان من ذوي الاختصاص، وهذا مشاهد ومكرور في العديد من المشافي العلاجية. ويعضد ذلك اشتمال القرآن الكريم لعشرات الآيات التي تدلل على إن الإيمان بالله وبقضائه وقدره أعظم

= يرى ابن تيمية أن جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الأذكار، كما أن الذكر أفضل من جنس الدعاء، الفتاوى الكبرى ١/ ١٩٠.

علاج للأمراض النفسية والعصبية، وخير وقاية من أمراض الخوف والقلق والتوتر. ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن أكثر الناس هدوءاً أقربهم إلى الله ذكراً. وأكثر الناس سوداوية في نظرتهم للحياة أبعد الناس ذكراً لله، فإن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل انحدرت إلى تمجيد الدنيا وملذاتها وشهواتها وتطلعت إلى مما في أيدي الغير حسداً وحصل لها التوتر النفسي، فترادفت على أهلها أسباب الذل وموجباته من القلق والاكتئاب والأرق والتوتر وتفكك الشخصية ونحو ذلك، بسبب ما قد يلحق بها من اضطرا بات جسدية ونفسية وعصبية وذهنية. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. وبالمقابل فإن أهل التقوى والإيمان الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله خالون منها ومن تداعياتها الخطيرة، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالآحاد من أهل هذه الفئة المؤمنة حيثما ولّى وجهه ألفيت منه شكراً وسمعت حمداً لله عز وجل في السراء والضراء، ولا تكاد تستمع إلى احدهم إلا وجدته متفائلاً مستبشراً، يستقبل يومه بالبهجة والسرور ويستدبره بجمال القادم من الأيام، فأورثتهم التقوى إيماناً على إيمانهم فطوبى لهم وحسن مآب.

وختاماً وإتماماً للفائدة نؤكد أن عاقبة ترك الذكر وخيمة تعود على صاحبها بالحسرة والندامة والهلاك والضلال والخسران، ويكون الشيطان له قريناً يلازمه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩].

٦- تؤكد الآية السادسة والعشرون من المقطع الخامس طمأنة الخلق على أرزاقهم، ويعضده أن الله عز وجل قد كفل الرزق لعباده مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وعلى خلفية هذا فإن الإنسان أياً كان عمله لا يكون الرازق لنفسه وإنما الله، فالرزق محدود بقدره شريطة أن يأخذه صاحبه بالعمل في أرض الله، مع العلم أن السعي إليه حالة للرزق وليس سبباً له في بسطته ووفرته، وعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله له ليكون أغنى الناس قناعة، ليعيش في سعادة وهدوء بال، لئلا تمتد

عينيه إلى غيره حسداً، ممن بسط الله له الرزق على إطلاقه، فلينظر إلى ما هو دونه ليشكر الله على نعمائه، ولينأى بنفسه عن التزاحم والتدافع في طلب نصيبه من متاع الدنيا مع الآخرين بالمكر والافتراس، ومما يؤسف له أننا نعيش اليوم في عالم طغت فيه المادية على القيم والمبادئ، وبات المال هدفاً للحياة وغدا الحصول على المزيد منه من أولويات تفكير الناس في حياتهم.

وفيما يلي قراءة تأملية مؤطرة بمرجعيات إيمانية نشخص فيها حكمة تفاوت الناس في مراتب الرزق واختلاف درجاته بينهم ليخدم بعضهم بعضاً، إذ شاءت حكمته تعالى أن يكون الناس ليسوا على طبقة واحدة، لاختبارهم فيما وهبهم من المال أو ابتلاهم به، وليس لأحدٍ أن يسأل عن سبب التفاوت في مقدار الرزق قلة أو كثرة إلا للحكمة من مراد الله في ذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه إلا للاعتبار والعظة، ولقد شاءت حكمته تعالى أن يكون الناس في طبقاتهم للمال على النحو التالي:

أ- فئة من الخلق الدنيا من أول حياتها لآخرها دار ابتلاء مادي لشحته وقلته، وفي هذا حكمة ربانية بالغة وهو الرحيم في عباده، وحقيق بأهل هذه الفئة ديمومة الثبات على الصبر وحسن الظن بالله، ولو طال طريق الأمل في فرج الله.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الله عز وجل إذا قبض على أهل هذه الفئة ما قدره من المال، فقد يمُنُ على بعض أهلها بالقوة والصحة، وهي نعمة لا يقدرها إلا من سلبت منه من أهل العلل والأسقام.

ب- وهناك فئة ثانية من الخلق قد يولد الآحاد منهم وفي فمه ملعقة من ذهب، يعيش حياته في نعيم دائم يرفل بأجمل الثياب ويتناول أجود أنواع الطعام والشراب، ويتبوأ النادر من القصور، ويستقل الجديد المتطور من المركوب، دائم الأسفار والاستجمام، مهيب بين الناس في حله وترحاله لوفرة ماله، ومع هذا فقد يبتلي الله بعضهم بالأمراض المستعصية مما يحمله على التمني أن يكون فقيراً مقابل صحة خالية من العلل، وفي ذلك حكمة بالغة وإن في ذلك لآية.

والحكمة التي ترشد إليها هذه الفئة أن الله عز وجل قد بسط لها المال، وبالمقابل قد يسلب من بعضهم نعمة الولد فيجعله عقيما، وغير ذلك من الابتلاءات كفقدان الصحة ونعمة الأمن وغياب السعادة ونحو ذلك.

ومما يدعو إلى الاستغراب أن كثيراً من أهل هذه الفئة قد تنكَّروا لنعم الله عليهم، وأخذوا يضيقون ذرعاً بالعبادة، وانقلبوا على أعقابهم خاسرين لبطرهم وغرورهم حتى كانت سيرتهم في قومهم سيرة كبر وخيلاء وغطرسة، وفي شأن هذه الفئة يقول صاحب الظلال {وقلّ من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ولا تصيبه حماقة الكبر والخيلاء}[(١)].

ومما يجدر التنبيه إليه أن الغني المؤمن الذي يقيم في ماله شرع الله من زكاة وصدقات ووقف لله تعالى، خير له في الدنيا والآخرة من الغني المقتر الشحيح في زكاته وصدقاته الذي نزل المال منه منزلة الابتلاء وليس النعمة.

جـ- فئة ثالثة تداولت عليها سنن الله فانقلبت من حياة العيش الرغيد إلى الفقر، بسبب زوال ما كانت عليه من رياسة ومال وجاه، وتلك حكمة الله عز وجل في مداولة الأيام بين الناس، ويستفاد من نبأ هذه الفئة كم من نعمة انقلبت بالغرور نقمة، وكم من مترف في قومه صيرته آيات الله وقدرته ذليلاً.

د- وهناك فئة رابعة ولد الآحاد منهم إما في حالة من الفقر أو التوسط في العيش، ثم دارت عجلة الأيام دوراتها معه على مراد الله، فأصابته تخمة الثراء وهو في منتصف العمر وأصبحت الأموال تجري في حساباته من حيث لا يدري ولا يحتسب، وهذا مشهد مألوف بين الناس ومكرور في المجتمعات كافة. والدرس الذي نستخلصه هنا وجوب الأخذ بالأسباب في ألوان المعايش المختلفة، وترك الرزق على مراد الله ساعة يشاء، فإنه مرهون بوقته وأن لكل شيء وقتاً مقدراً.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٩٠.

هـ- وهناك فئة خامسة ينطوي تحت لوائها معظم الناس على مر العصور وهي تمثل الطبقة الوسطى في المجتمعات كافة.

وبالقياس والمقابلة نرى أن الفئات الأربع المشار إليها آنفاً هي استثناءات على القاعدة إذ يشار إليها لقلة شواهدها، والأصل في قاعدة الرزق هي الطبقة الأخيرة، حتى صارت الوسطية بين الناس منزلة الطبيعة والجبلة. ويستفاد من نبأ هذه الفئات الدروس التالية:

- أن المال في الأصل هو مال الله ونحن مستخلفون فيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣].

- وجوب تداول المال بين إفراد الرعية مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

- المال لا يعد ملكية إلا إذا كان في أصله مشروعاً.

- بسط المال أو قلته ليس محكوماً بدرجات الإيمان.

- اختيار الله عز وجل لنا درجة الرزق التي تناسبنا على مراد حكمته خير من اختيارنا لأنفسنا فيه، لعلمه عز وجل أن ما يصلح لهذا قد لا يصلح للآخر.

- المال وسيلة في الحياة وليس غاية، وأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده من غير إسراف أو تقطير.

- ملكية المسلم لماله لا تخوله حق التصرف فيه حسبما شاء وكيفما أراد، إنما هي ملكية موزونة بضوابط شرعية.

- المال ليس أداة للتقييم والتفاضل بين الناس، لأن للحياة قيماً أجلّ من المال.

- تقرير الملكية مع صيانتها من كل سفه وانحراف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥].

- ملكية الإنسان لماله ملكية آنية وليست أبديه، تنتهي ملكيته لها بموته، ولم يتبق له منها إلا ما أقام فيه شرع الله من زكاة وصدقات وحقوق أخرى سواهما.

- أن الله تعالى يبسط الرزق ويقبض على مراد حكمته، ساعة يشاء بالقدر الذي يشاء في زمانه ومكانه، وليس على مراد الناس من الله، وسنن الله تقتضي أن يجرب الإنسان في حياته الغنى والفقر صعوداً وهبوطاً للاعتبار.

- تحريم كنزه لضرره بالمصلحة العامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

- وجوب الحجر على السفيه الذي ينفق أمواله في غير وجه حق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

- أن الغاية من المال هو إقامة مجتمع الكفاية والعدل الذي يكفل للجميع العيش الكريم.

- حرمة استخدام المال أداة للضغط على الفقراء وإذلالهم، لان لهم حقاً فيه يؤخذ من زكاة أموال الأغنياء.

- المال ليس أساساً للسعادة في الحياة وان كان دوره فاعلاً في حياة المحتاجين إليه لضرورة العيش الكريم.

- أن الله عز وجل قد يصيب الإنسان بالعسر واليسر، وأحوال الناس لا تدوم على وتيرة واحدة فيه، إنما اختلاف من حال لآخر على مر الأيام والسنين، فلزمهم شكر نعمته حال توافره والصبر عند قلته.

- قد ينشأ عن تزاحم بعض الناس في طلب الحصول على المال لأجل شهوته، صراع وخصومة واحتراب ومكر وتباغض وفتن على غير مراد الله منه، وهو أساس البلاء والفتنة.

٧- تقرر الآيات بيان عظمة أمثال القرآن الكريم كضرب من ضروب إعجازه في

إيجازه.

فلقد صورت الآية السابعة عشرة من المقطع تشبيه سلبية استقبال أهل مكة لدعوة الحق بسبب ضلالهم وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، بمنزلة من انتفع بالمطر مادياً، دون أن يترتب عليه نفع إيماني في قلبه. فجاء في الآية تشبيه الكافر بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق وعواصف وأعاصير، فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصبيه أو برق يخطف بصره. وحكمة التشبيه أن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه، نزل عليهم نزول الصواعق الماحقة، رغم دعوته لهم المتضمنة للنور والهداية، كضياء البرق في قبة السماء.

وغاية ذلك أن الإيمان إذا ترسخ في القلب دفع الشهوات الباطلة جانباً، كالسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً، فالشهوات يطرحها قلب المؤمن كطرح السيل والنار للزبد والخبث.

كما ويحتمل المثل تشبيه الحياة بالماء، وتشبيه أعمال الكافر بالسراب، ومما يقتضي التنويه إليه أن عناصر التشبيه القرآني مستمدة من مكونات البيئة الطبيعية بأغلفتها المتعددة، كالغلاف الجوي والمائي والصخري وغلاف التربة وما عليه من نبات وزرع وحيوانات ومن شواهد ذلك (السحاب والبرق والرعد والمطر والأعاصير والعواصف والرياح والبرد والثلج والوابل والطل والماء الفرات الزلال والآسن والأجاج والبرزخ المائي والبحر اللجي، والصفوان والجبال والحجارة والياقوت والمرجان والذهب والفضة، وأعجاز النخل والعرجون وحب القمح وأنواع الزرع من حبوب وكروم ونحوه، والإبل والعنكبوت والحمار والكلب والجراد والذباب والبعوض ونحوه).

والمثل في القرآن يضرب للاتعاظ والاعتبار، ورغم أن الكتاب العزيز قد نزل على مقتضى كلام العرب ولغتهم، إلا انه لا يجوز حمل آيات الأمثال على معناها اللغوي، وخاصة إذا كان التشبيه ضمنياً غير صريح، ومن أدوات التشبيه في القرآن الكريم الكاف وكأن ومثل ونحوه.

ويستفاد من نبأ الأمثال في بيان أهمية الوعظ والزجر والإقناع والتشويق والإيضاح

والترغيب والترهيب والتقريع والمدح والذم ونحو ذلك[1]. وفيما يلي طائفة من الأمثلة:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[القمر: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤]. وقوله تعالى:﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾[هود: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾[القمر: ٧].

ومن أقسام التشبيه في القرآن[2]:

- تشبيه المحسوس بالمحسوس.

- وتشبيه المعقول بالمحسوس، وشواهد الأول والثاني الآيات السابقة.

- وقد يرد المشبه به غير محسوس لقوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٥].

٨- جاء في الآية الخامسة عشرة من هذا المقطع سجدة لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي

(١) للمزيد انظر: الإتقان للسيوطي، باب الأمثال. وأعلام الموقعين، لابن القيم. والبرهان، للزركشي، ٣/ ٤١٤- ٤١٥

(٢) علوم القرآن، د.عدنان زرزور، ص٣٠٩، ومباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ض٢٨١.

ﱡﭐ... ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥ ﱠ [الرعد: ١٥]. إذ يُسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد في سجدات القرآن الكريم في أربع عشرة[1] سجدة وردت في المواضع التالية:

١- الأعراف/ ٢٠٦. ٢- النحل/ ٤٩ و٥٠. ٣- الإسراء/ ١٠٧. ٤- مريم/ ٥٨.

٥- الفرقان/ ٦٠. ٦- الحج/ ١٨ و٧٧. ٧- الرعد/ ١٥. ٨- النمل/ ٢٥.

٩- السجدة/ ١٥. ١٠- فصلت/ ٣٧. ١١- النجم/ ٦٢.

١٢- الانشقاق/ ٢١. ١٣- العلق/ ١٩.

وحُكم سجود التلاوة سنة مؤكدة، فإذا قرأ المسلم أو استمع إلى آية فيها سجدة، فيُسَنُّ له أن يسجد سجدة واحدة للتلاوة. وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا معه[2]. ويشترط لصحة سجدة التلاوة ما يشترط لصحة الصلاة كاستقبال القبلة والطهارة.

وفي أثناء الصلاة إذا قرأ المصلي آية فيها سجدة، كبَّر وسجد سجدةً واحدة يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً، ثم يكبر ويقف متابعاً صلاته. وإذا لم يكن في صلاة وقرأ آية فيها سجدة، كبَّر وسجد سجدة واحدة يقول فيها: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً، ثم يرفع رأسه من السجود قائلاً: الله اكبر، ثم يجلس ويسلم عن اليمين وعن الشمال.

٩- تشير آيات المقطع إلى وجوب الوفاء بالعهد سواء أكانت عهوداً مع الله تعالى أم مع الناس. وأي تقصير في الوفاء به يعتبر إثماً كبيراً يستوجب المقت والغضب، وكل ما يقطعه الإنسان على نفسه من عهد فهو مسؤول عنه ومحاسب عليه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤] ولقد كان الوفاء خلق الأنبياء والرسل

(١) اختلف في سجدة الحج الثانية آية ٧٧، وفي سجدة ص آية ٢٤.

(٢) سنن أبي داوود، كتاب الصلاة، رقم ١٤١٣، باب الرجل الذي يسمع السجدة.

عليهم الصلاة والسلام. والوفاء بالعهد واجب كالوفاء بالعقد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]. والصدق في احترام العهود والمواثيق واجب إسلامي، ودليل على كمال المروءة ومظهر من مظاهر العدالة، والوفاء به جزء من الإيمان ليس له إلا الجنة. ومن عهود المسلم المهمة عهده مع ربه، فالإيمان عهد بين العبد وربه يجب الوفاء به حسب منطوق آيات المقطع لقوله تعالى: ﴿ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ ﴾ [الأنعام: ١٥].

ويشترط في العهود التي يجب احترامها والوفاء بها.

- ألاّ تخالف حكماً من الأحكام الشرعية المتفق عليها.

- أن تكون عن رضا واختيار.

- أن تكون واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

يجب إتمام مدة العهد لمن حافظ عليه، وينقض عند ظهور الغدر والخيانة[1]، ودليله نقض النبي ﷺ لعهده مع قريش بسبب غدرهم، في السنة الثامنة للهجرة.

جماليات مشاهد المقطع السادس والأخير من سورة الرعد

ويمتد من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٣

﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ

---

(١) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٧٠٠-٧٠١.

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾

القراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (وصدوا عن السبيل) بفتح الصاد، والباقون بضم الصاد وهي قراءة المصحف[1].

وقُرِئ قوله تعالى (وسيعلم الكفار) بالجمع والإفراد: (وسيعلم الكافرون) (وسيعلم الذين كفروا)[2] الآية ٤٢.

يخبر الله تعالى في المقطع الأخير من سورة الرعد نبيه محمداً ﷺ أنك لست بدعاً من الرسل،

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي: ٢/ ٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣، والبيان في إعراب القرآن، للعكبري: ٢/ ٧٦٠.

فقد أرسلنا قبلك رسلاً من آدم وحتى عيسى عليهم السلام إلى أقوامهم لتبليغ رسالات الله فدعوتكم جميعاً واحدة في توحيدها وعبوديتها لله عز وجل. وقد أنزلنا عليك القرآن لتتلوه على قومك وفيه خاتمة الشرائع السابقة، حيث لا شريعة بعدها ولا رسول بعد رسولها، شريعة طبعت بالعالمية وجعلت ديناً عالميا للناس أجمعين، تحررهم من العبودية لغير الله ومن الخرافات والتقاليد البالية ومن الجشع والظلم والأنانية والاستبداد، لتبني فيهم العزة والكرامة والحرية وتكسبهم روح الانضباط والمسؤولية والاستقامة على منهج الله، وتحقق لهم السعادة والطمأنينة والأمن لو عقلوها وأخذوا بما جاء فيها. بيد أنهم لم يفعلوا ذلك وتنكبوا طريقها تعنتاً وكفرا وأن قوماً ديدنهم الكفر لا بد أن تصيبهم قارعة من الله تهلكهم عبرة وعظة، من صاعقة أو قتل أو أسر أو قحط وغير ذلك من ألوان المصائب والابتلاءات، أو تحرير البيت الحرام من شرور أوثانهم بفتح قريب سيمن الله به على المؤمنين، ناهيك عن عذاب يوم القيامة للكفار والمشركين. وما مطلب صناديد قريش منك يا محمد رؤية آية كونية تحملهم على الإسلام بمستجاب لهم كطلبهم رؤية جبال مكة تتحرك أمامهم أو تفجر انهاراً فيها أو تسخر الريح لهم ليركبوها في أسفارهم، أو إحياء بعض موتاهم ليخاطبوهم عن العالم الآخر، محاكاة لمعجزات داوود وسليمان وعيسى عليهم السلام[1]*.

وقد غفل القوم أن مطلبهم ليس مما يلتمسونه بالقرآن، ولو أن كتابا إلهياً أعطي من المعجزات وقدر له بأمر ربه أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان القرآن الكريم، ولكن اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن يكون إعجازه في لغته وتشريعه ونظمه

(١) * روي أن نفراً من مشركي قريش فيهم أبو جهل وعبد الله بن أمية، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا له أيسرك أن نتبع دعوتك، فسّير لنا جبال مكة بالقرآن واجعل لنا فيها عيوناً وانهاراً، وسخر لنا الريح فنركبها لتقضي حوائجنا التجارية إلى بلاد اليمن والشام، أو إن شئت فابعث بعض موتانا نكلمهم، وهذا أهون على ربك من معجزات داود وسليمان وعيسى، ولأجل هذه المناسبة نزلت الآية. للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣١٩، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٠٩. وأسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوري: ص٢٠٦.

وبيان الحلال والحرام فيه.

وقد فاتهم أيضاً أن المعجزات لا تكون إلا بأمر الله ومراده ساعة يشاء من غير اشتراط على الله. وأنه سبحانه وتعالى لعلمه بباطنهم لو أراد هدايتهم لهداهم، ولكن شاءت حكمته أن يتركهم في إيمانهم لأنفسهم طواعية واختيار.

ثم تمضي الآيات في استفهام توبيخي لأجل مقارعة قريش بالحجة العقلية، حين زعموا بإلوهية بعض أصنامهم كاللات والعزة وهبل، لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ٣٣] بمعنى أتنبئون الله بباطن لا يعلمه وانتم تعلمونه حسب زعمكم وهو علام الغيوب، وتقطع الآيات أن الله عز وجل لا يعلم له شريكاً، لا في الخلق ولا في الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة، وما هذا الإدعاء الباطل إلا نتيجة تقليدكم لآبائكم الأولين، وخضوعكم لخطوات الشيطان لعدم إعمال عقولكم، بسبب تزيين ما أنتم عليه من الكفر والمكر والاستهزاء، وآلهة صفاتها لا تجلب نفعاً ولا تدفع شراً ليست جديرة بالعبادة، والاشتغال بها إتعاب للبدن في غير فائدة، فاتقوا الله بالكف عنها فاعتبروا قبل فوات الأوان. وفي الآية ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد: ٣٢] نجد تسرية للنبي ﷺ لتثبيت قلبه في مواجهة تكذيب قومه له، وأخبرت أن الله عز وجل لا يخلف وعده في الكافرين، الذين استهزءوا بالذي أُنزل عليهم. وهذا ليس وقفاً عليك يا محمد بل هذه سيرة الكافرين مع أنبيائهم ورسلهم على امتداد تاريخ الرسالات السماوية، لأجل هذا فإن مصيرهم نار جهنم خالدين فيها أبداً، خلاف المؤمنين الذين استقاموا على الحق لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، لهم من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما خطر على بال بشر، فرحون بفوزهم العظيم هذا.

كما خصت الآيات اللاحقة خطاباً للنبي ﷺ: اعلم يا محمد أن الجاحدين برحمة الله فيما أنزل عليك من الوحي، وأنكروه عداوةً وعناداً، واستهزءوا في بعض ما نزل عليك من الوحي وأنكروا بعضه الآخر، من أهل قريش ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى، فأجبهم أن القول

الفصل في خاتمة أمرهم بيد الله، واني أمرت عبادة الله وحده لا أشرك به شيئا كمن سبقني من الأنبياء، فهو ناصري واليه مرجعي، ومحال أن أتوقف عن الدعوة لرسالة الإسلام، إلى أن يفصل الله بيننا بالحق فلكم دينكم الباطل الذي ارتضيتموه لأنفسكم منكراً من الاعتقاد وزوراً من القول، ولي الدين الحق، والخطاب هنا وإن كان خاصّاً بالنبي ﷺ فالعبرة فيه بعموم اللفظ إذ لا يجوز مهادنة أهل الكفر والشرك وممالأتهم أو التقرب إليهم على حساب الدين الحق. وفي هذا يقول صاحب الظلال: (الكلام الموجه للرسول ﷺ في الآية، أبلغ في تقرير حقيقة الدعوة للإسلام، إذ لا تسامح في الانحراف عن مبادئها حتى ولو كان من رسول الله وحاشاه عليه الصلاة والسلام)[1].

ويخبر الله تعالى في الآية السادسة والثلاثين أن نفراً من مؤمني أهل الكتاب، الذين ما زالوا على صحيح التوراة والإنجيل، فرحون بما جئناك به من الكتاب الحق، لموافقة ما ورد في كتبهم.

ثم يقول تعالى تسرية للنبي ﷺ: وكما أرسلناك في أمتك رسولاً تتلو عليهم قرآناً بلغتهم تبلغهم رسالة الله في أشرف الكتب السماوية، بأشرف اللغات على أفضل الرسل فوق أقدس بقاع الأرض، على خير أمة أخرجت للناس حال أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فكمل من كل الوجوه ما شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل ففيه الحكم القاطع للحلال والحرام في كل شيء من أمور الحياة ونظمها. ومع هذا فإن أغلب المشركين كافرون جاحدون به. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٨]. ثم تعقد الآيات اللاحقة مقارنة بين مصير الكفار الذين زين لهم مكرهم شراً بالمؤمنين الفائزين بالجنة. وهذا مكرور في سور القرآن الكريم، إذ كثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الأولى ويحذر من الثانية مع وجوب البراءة من أهلها وتحذير المؤمنين من اتباع أهواء أهلها ابتغاء مرضاتهم على حساب الدين، وفي هذا حكمة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٠١

الثبات على مبدأ الإسلام والصبر في الدعوة وعدم التعجل في النتائج، إذ لكل أمرٍ وقته وأجله وغاية المستعجلين فوته.

وتتابع آيات المقطع إلى أن تصل الآية الثامنة والثلاثين، فقد كشفت عن خبث اليهود وسوء طويتهم حين عابوا النبي محمد ﷺ وعيرته بالنساء بقولهم: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن ذلك[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. ففي الآية تذكير على وجه الخصوص لنبي الله داوود وسليمان عليهما السلام لكثرة ما كان عندهما من النساء والأولاد. والآية في معناها العام أن الله عز وجل قد أرسل رسلاً بشراً، يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا وخصهم بالنساء والأولاد كغيرهم من البشر وهذا موافق للفطرة البشرية.

وإنما التخصيص في الوحي القائم على تبليغ الشريعة الربانية، وتبين معاني ما أنزل لأجل هداية الناس إلى كل خير، وتربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة، بحيث لو ترك الناس لأهوائهم لظلوا في الضلالات يتيهون بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم. ثم يرد قوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد: ٣٩] إذ تفيد الآية الكريمة أن الله قادر على أن يغير كل شيء من حال لأخر، كأن يجعل الغني فقيراً والفقير غنياً، والسليم عليلاً والعليل سليماً، ويغفر أو يعذب، ويقبل توبة هذا ولا يقبل توبة الآخر، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء فبيده ملكوت كل شيء ويمحو الحياة بالموت، ويمحو السيئات لمن يشاء، ويمحو الليل بالنهار والنهار بالليل والشمس بالقمر والقمر بالشمس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] ويمحو ما يشاء من الشرائع ويثبت ما يشاء منها ويمحو ما يشاء من الأقوام والأجيال ويثبت ما يشاء منها، ويمحو الدنيا ويثبت الآخرة، كل ذلك في أم الكتاب مدون في اللوح المحفوظ.

---

(١) الجامع لإحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٢٧

ومما يقتضي الإشارة إليه: (أن ما في علمه سبحانه وتعالى من تقدير الأشياء لا يبدل فلا راد لحكمه، والذي في علم الله ثابت لا تبديل له، ولا تبديل لقضاء الله، وأن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب وهو المحو)(١).

و أخيراً يعود الخطاب في الآية الأربعين إلى النبي ﷺ، فتوجه الأنظار إلى حتمية مصير الكافرين تسرية للنبي ﷺ، فتوضح لئن أريناك يا محمد بعض مشاهد عذاب الماضين الذين كذبوا رسلهم، وبعض ما وعدنا قومك من العذاب كالأسر والقتل والسبي والقهر ونحوه فقد نتوفينك قبل أن نريك مصير الكافرين، فلا تبتئس فليس عليك إلا التبليغ وعلينا الجزاء والعقوبة، وفي هذا درس للدعاة عدم تعجل النتائج.

ثم تنعطف الآيات بعد ذلك في تخصيص الخطاب لأهل مكة من باب العظة والاعتبار فتشير ألم يروا أننا قادرون على كل شيء من خراب الأرض وذهاب بركاتها وثمارها، وقبض أهلها في بطنها بسبب جورهم وظلمهم وكفرهم وعنادهم ومكرهم، والله عزيز ذو انتقام الواحد الأحد، لا راد لحكمه في مراده للأمور، بالرد والإبطال، في نقص أو تغيير أو رفض أو تذمر أو تبديل. وقيل في رواية أخرى أن المراد في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١]. أن الله تعالى قد وعد المسلمين بحسن العاقبة بما يمن عليهم من تناقص أرض الكفر وزيادة أرض الإسلام بالنصرة والظفر، ففي الآية حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى ديار الكفر بالإدبار والانتكاس ما داموا على طاعة الله(٢).

وهناك تفسير علمي معاصر للآية الكريمة سنورده في الدروس والعبر المستفادة من المقطع.

---

(١) الجامع لإحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٣٢.

(٢) الكشاف ،للزمخشري.٥١٤/ ٢ :

وبمناسبة قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ ما يفيد أن مكر أهل الكفر لا يضر أحداً من المؤمنين إلا بإذنه تعالى، والله سيجازيهم بعذاب جهنم يوم القيامة على كفرهم ومكرهم عدا ما قد يصيبهم من مصائب وابتلاءات الدنيا. وأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل، وهي ماضية في الآخرين كما كانت في الأولين، والقرآن حين يتحدث عن الأمم الماضية وما حل بها من الهلاك والبوار، أنما مقصوده الإنذار والتحذير والتهديد والوعيد، وأخذ العبرة من هلاك الأمم السابقة وتجنب الأسباب التي أوجبته، ومن شواهد مكر الكافرين في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾ [النمل: ٥١-٥٠] ويعضده قوله تعالى حين تآمر المشركين في قتل محمد ﷺ ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] فكانت النتيجة نجاة محمد ﷺ وفتح مكة وهزيمة المشركين وإسلام كثير منهم وتلك حكمة العليم الحكيم. وتفيد كلمة المكر في القرآن الكريم معنى الخسة والنذالة وخوارم المروءة بالنسبة للبشر، وحسن التدبير والتقدير والعدل إذا اقترنت باسم الله عز وجل.

واختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: ٤٣]. إذ تفيد الآية الكريمة نفي أهل مكة النبوة والرسالة عن النبي ﷺ، وزعمهم انه متقول ليس بنبي ولا رسول لبشريته وآدميته فيهم، فهو مثلهم في الخلق يأكل ويشرب ويتزوج ويمشي في الأسواق. ونسوا أن الرسل قبله بشر مثله ذوي أزواج وذرية، وما كان أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم من ذوات أنفسهم إلا بإذن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وهنا يعلق الإمام **الفخر الرازي** على شبهات المشركين في إبطال نبوة الرسول ﷺ فيقول: طعنوا في نبوته ﷺ بسبب جدالهم في إنكار البعث وإبطال الحشر والنشر، ثم طعنوا في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة،

كما أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات، ولإبطال نبوته بالكلية تساءلوا منكراً من القول: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٨].

وقالوا في شبهة أخرى: لا بد للرسول أن يكون من جنس الملائكة، ولا يجوز أن يكون له ذرية أو زوجات، وهذا من مرذول الشبهات[١].

وتناولت الآية أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أجبهم يا محمد أن حسبي الله الشاهد على صدق ما دعوتكم إليه فيما أبلغتكم من رسالة ربي، وهو شاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وكفى صدق ما دعوتكم إليه، إيمان بعض أهل الكتاب بما نزل علي من رب العالمين تصديقاً لما ورد في كتبهم من البشارة به. وحسبي أنكم تلتمسون منهم بعض أنباء الماضين ورسلهم وقصصهم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم. وعليه فأنتم بكفركم لستم بأهل للحكم على هذه الرسالة، وأنتم تعلمون أن العاقبة للمتقين فيها وليس لكم: والأجدر بكم تأدباً في حق الله واعترافاً بالعبودية له، أن تؤمنوا بما أنزل عليكم، فإن لم تفعلوا فلا تستعجلوا العذاب فإن كل ما هو آتٍ قريب ولا تغتروا بإمهالكم فلكم أسوة فيمن قبلكم، فمن اختار الكفر ودلائل الإيمان حاضرة أمامه أخذه الله بالهلاك أخذ عزيز مقتدر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير من سورة الرعد

١ - أن الله تعالى لا يأذن بالمعجزات إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، وليس استعجال الكفار بالآيات أو العذاب موجباً لأن يقدم الله عز وجل ما أخره، مع أنه تعالى فعال لما يريد فهو الذي يدبر الأمور بحسب أرادته وعلمه، وما منع الله عز وجل من إرسال الآيات التي اقترحها كفار مكة إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم، فأخر الله سبحانه وتعالى العذاب عن كفار قريش، رغم عنادهم واستعجالهم بها، لعلمه عز وجل

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٢ و٤٩.

أنه سيخرج من أصلابهم ما تقوم دعوة الإسلام على يديه، فتنقلب أحوالهم من الكفر إلى الإيمان خلاف ما وقع في الرسالات السابقة وأن في ذلك لآية.

٢ - لقد تكرر مرتين في المقطع الأخير الاستشهاد بالمؤمنين من أهل الكتاب على صدق رسالة الإسلام، بما لهم من دالة سابق المعرفة بهذه الرسالة، ولما ورد في كتبهم من البشارة في صفات خاتم الأنبياء والمرسلين والعقل يقتضي أن كل أمرٍ إنما يستشهد منه بأهله، الأعلم به من غيرهم، بخلاف المنكر له عناداً وتعنتاً عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم في رسالات الله السابقة[1]، الذين تخيلوا أباطيل ظنوها حقاً، كانت سبب كفرهم.

٣ - من تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله تعالى إلى البشر رسولاً منهم، وصفة البشرية في رسل الله هي من كمال الحكمة ليكونوا حجة عليهم فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم. وإذا تعجب أهل الكفر ببشرية الرسل فتعجبهم هو الذي يستدعي العجب!. هب لو جاء الرسول من الملائكة مثلاً، فلا بد أن يأتي على صورة بشرية حتى يستطيعوا مشاهدته والتحدث إليه بما يتناسب ومستوى إدراكهم ومشاعرهم وفهمهم، وفي كلا الأمرين لا بد من دعوتهم للإيمان من رسول على هيئه بشرية. ولو أعملوا العقل لتبين لهم أن بشرية الرسول خيراً لهم وأكثر أُنساً لنفوسهم. يجوز عليه ما يجوز على الناس من الأكل والشرب والذرية والنوم والموت وهذا أدعى في التأثير والقبول لطول الرؤية والملازمة له والسؤال عن كل جديد طارئ.

وبشرية الرسول هي اصطفاء من الله بالوحي مبلغ عنه أحكام شريعته، مطاع بإذن الله مصدق من ربه بمعجزة مقرونة بالتحدي. كما أن سابق سيرته في قومه تدل على مصداقيته في الرسالة، أليس من مظاهر استدلال صدق النبوة حسن سيرة النبي في قومه؟ فلم العجب في بشريته!.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ص٣٩٦.

٤ - اقتضت مشيئة الله عز وجل أن ميز الإنسان بالعقل، وبقراءة تأملية بالرسالات السماوية فإنك تجزم ليس هناك رسالة كرمت العقل والفكر وأشادت بأولي الألباب والنهي ودعت إلى النظر والتفكير وحرضت على التعقل والتدبر كالإسلام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الروم: ٨] ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧] وبهذا الصدد يعلق د.يوسف القرضاوي (وقد اعتبر العلماء أن العقل مناط التكليف ومحور الثواب والعقاب، وهو أساس النقل الذي يثبت صدق الوحي والنبوة)[1]. وفي موضع آخر نراه يقول: (ومن هنا قرر المحققون من العلماء: أن إيمان المقلد المطلق غير مقبول، لأنه لم يؤسس على برهان، ولم يقم على حجة بينة، بل على تقليد محض)[2]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وتأسيساً على ذلك فإن القرآن يطالب كل ذي دعوة بإقامة البرهان على دعواه، مصداقاً لقوله تعالى في زعم المشركين شركاء الله عز وجل في الألوهية ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] فالعقائد لا بد أن تؤسس على البراهين اليقينية، لا على الظنون والأوهام ولهذا عاب الله المشركين حين أنكروا البعث بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية/ ٢٤] ولا عجب أن نرى أن العلم في الإسلام إنما هو علم في حضانة الإيمان، فالعلاقة بينهما علاقة وئام وانسجام لا تنافر وتقاطع يسيران جنباً إلى جنب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] (ومن فضل العلم القائم على الإيمان انه يثمر اليقين الذي به حياة القلب وطمأنينته)[3].

---

(١) الحياة الربانية والعلم، د. يوسف القرضاوي: ص٧٦

(٢) المرجع السابق: ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٩٨.

وعلى خلفية هذا يحرم على المسلم أن يعطل ما وهبه الله من السمع والبصر والفؤاد في تحصيل المعرفة، فقد نهى الله عز وجل عن القول بلا عمل ولا علم ولا نظر بتدبر وتعقل، ونهى عن سمع الأوهام والظنون والأباطيل والخزافات، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. كما نهى عن المحاكاة والتقليد وحث على الإبداع والابتكار والتجديد.

وبقراءة موضوعية تحليلية حول منزلة العقل ومكانة العلم في المعرفة، على ضوء ما اشتملت عليه سورة الرعد من الآيات الكونية، وقضايا الغيب والعلم نقول: إن العقل على عظيم منزلته مقيد بعلم الحس لا عمل له في الحكم على عالم الغيب، فعالم الغيب لا تستطيع عقولنا أن تحكم على شيء فيه استقلالاً ذاتياً، إلا أن يأتيها خبر يشهد العقل بوجوده ولا يتأتى ذلك إلا بالوحي. وإن كل ما زعم به الفلاسفة على امتداد التاريخ، أنهم فسروا أسرار الحياة وعالم الغيب إنما هي ظنون وأوهام، لمحدودية العقل في استيعاب الحس فكيف به أن يحيط علماً ومعرفة بعالم الغيب ،فكما للنظر حد ينتهي إليه فإن للعقل حداً ينتهي إليه كذلك.

فإذا كان العقل عاجزاً عن فهم أشياء الكون من حوله، فهو عن إدراك حقيقة الغيب أضعف وأعجز مما يوجب التسليم عقلاً وإيماناً بعالم الغيب وأسرار الكون الربانية.

وفي هذا رد على المشركين قديماً الذين أنكروا البعث، وفيه رد على ملاحدة العصر ممن يظنون توهماً أن العلم قادر على مشاركة الله في الخلق، كالزاعمين أن بمقدور العلم من خلال التعامل مع الـD.N.A (الحامض النووي الرايبوزي منقوص الأكسجين) الذي يحمل الشيفرة الوراثية للإنسان، استنساخ بشر محاكاة لخلق الله، علماً أن أهل العلم عاجزون بالكلية عن خلق جناح بعوضة من ذوات أنفسهم. وأن استنساخ البشر إن أقدم العلماء عليه يوماً وكتب لهم النجاح فيه، فما تم إلا بإرادة الله وقدرته، فجوهر الـ D.N.A من خلق الله وليس من خلق البشر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد: ٨]. وإن تعجب من ملاحدة اليوم في مزاعمهم

هذه فعجبهم ليس بأقل من عجب أهل الجاهلية الأولى حين أنكروا البعث، وقالوا من باب الغرابة والاندهاش: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد: ٥].

ونستخلص مما سبق: (أن الوحي هو الطريق الوحيد الذي يعرفنا على كل ما يتصل بمسائل الغيب)[١]. ولا يصح قياس هذا العالم بالعالم السماوي لتغايرهما في كل شيء، وقد قسم القرآن الكريم العالم بالنسبة للمخلوقات إلى قسمين هما:

(عالم الغيب وعالم الشهادة)[٢]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد: ٩]. فعالم الغيب ما تفرد الله به، واستأثره بعلمه كالروح ويوم القيامة وساعة الموت وغيره، أما عالم الشهادة فهو عالم الإيمان القائم على إشهاد الخلق بأن الله تعالى خلق الكون وما فيه من آيات تدل على قدرته سبحانه وعظيم صنعه، لهذا ورد تكرار الظواهر الكونية الواردة في سورة الرعد للدلالة على وجود الله ، فالعقل يدرك وجود الله تعالى بالتأمل في الكون، ويدرك حاجة الناس إلى الرسول، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥] كما يدرك العقل أن القرآن الكريم هو خاتمة الكتب السماوية، ويدرك مسؤولية الإنسان عن أعماله ومحاسبة الإنسان على هذه الأعمال واجبة يوم القيامة.

كما يمكن تأويل عالم الشهادة في قراءة ثانية: كل ما يستطيع العلم أن يصل إليه ويجسده إلى واقع ملموس في حياة الإنسان للانتفاع به بعد أن كانت غائبة عنه دهوراً طويلة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

---

(١) المرجع السابق: ص٧٣.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني: ص٢٧.

ومن شواهده معرفة بعض نواميس الكون وقوانينه كالجاذبية ونزول المطر ومعرفة جنس الجنين بعد شهره الرابع أو الخامس ومعرفة تكون الرياح والأعاصير والزوابع واستمطار السحب الصناعية ونحو ذلك.

فعالم الشهادة هو من نتاج استخلاف الله للإنسان على الأرض، ودور العلماء فيه واضح تمام الوضوح، عن طريق العلم الذي يوصل إلى الإيمان بالله وبكل عقائد الإسلام ومبادئه.

ومما يقتضي التنويه إليه هنا (أن ثمة أشياء قد تكون من عالم الشهادة الغيبي المقيد بالنسبة لمخلوقات أخرى كالجن مثلاً)(١). وبهذا الصدد يعلق الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الفتاوى ص٣٤٦: (الغيب نوعان: الغيب المطلق والغيب المقيد)، فالغيب المطلق لا يعلمه إلا الله عز وجل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أما الغيب المقيد وهو ما يعلمه بعض الناس ويجهله البعض الآخر، كمعرفة المعلم رسوب الطالب غير المجتهد قبل الامتحان.

وجاء في فتاوى الشيخ محمود شلتوت: (الغيب ثلاثة أنواع هي الغيب الحاضر والغيب الماضي وغيب المستقبل. أما الغيب الحاضر فهو غيب مكاني بمعنى أن تقع الحادثة في مكان بعيد ويعلمها المنجم بعد وقوعها بقليل، والغيب الماضي وهو الغيب الذي وقع في الماضي. وهذان الغيبان يمكن للإنسان معرفتهما عن طريق الجن، أما غيب المستقبل فهو الغيب الذي لم يحدث، وقد اختصه الله سبحانه وتعالى بعلمه)(٢).

٥- تقرر الآية الثامنة والثلاثون ترغيب النكاح والنهي عن التبتل، وتحض على طلب الذرية،

---

(١) المرجع السابق: ص٢٩.

(٢) الفتاوى، الشيخ محمود شلتوت: ص٢٨.

وهذه سنة المرسلين حسب منطوق الآية[١]، وحكمة النكاح في الإسلام هي:

-تحقيق السكينة والمودة والرحمة والعفة بين الزوجين.

-الحفاظ على النسل الطيب وصيانة الأنساب من الاختلاط.

-المشاركة في التربية السوية للأبناء.

-قضاء الرغبة الجنسية بشكل مشروع.

-إقرار تبادل الحقوق والواجبات لكلا الزوجين.

والزواج سنة مؤكدة من سنن الرسول ﷺ، فقد تزوج ﷺ النساء، ونعى أولئك المتشددين الذين أرادوا أن يترهبنوا، وينقطعوا للعبادة فلا يتزوجون ظناً منهم أن الزواج مجرد متعة جسدية تلهيهم عن عبادة الله تعالى، ولم يتنبهوا إلى أن الإقدام عليه عبادة، ففيه العفة وغض البصر، وفي الحديث (فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

٦- من الدروس التربوية في توجيه خطاب الله عز وجل إلى نبيه ﷺ ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ تأكيد على أهمية الدعوة والثبات عليها. فالخطاب وإن كان في صورته موجهاً للنبي ﷺ، إلا أنه في الحقيقة تعليم للأمة وإرشاداً لها لتسلك طريق التقوى وتعمل بهدي القرآن، لأجل تربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة. وأن النبي ﷺ مع اصطفائه وعلو منزلته وعصمته قابل للتحذير، فكيف من نزلت فيهم الرسالة.

وهذا التوجيه الحاسم بما فيه من التحذير جاء مع عظيم منزلة الامتنان بعصمته تحذيراً له ﷺ وحاشاه من أي نقص أو خلل في الدعوة، ليكون الدعاة أسوة في الصبر وتحمل مشاق الدعوة من غير مداهنة ولا مهادنة لأحد في أمور العقيدة، فالجهر بالدعوة من أول

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٩/ ٣٢٧.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٩/ ١٠٤، حديث رقم ٥٠٦٣ كتاب الترغيب في النكاح. للمزيد حول الترغيب في النكاح انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ٣٠، كتاب آداب النكاح.

مراتب الجهاد فلا ألوهية ولا ربوبية ولا خضوع إلا لله عز وجل، وإن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ويعقلون ويتدبرون ويبصرون، فإن فعل الدعاة هذا كانوا أسوة برسول الله ﷺ في الصدع بقول الحق، ويستفاد من حكمة هذه الآية في سياقها الذي ذكرت فيه:

وجوب التصريح بالوعيد والتحذير بحق الدعاة الذين قد يخرجون عن قواعد الدعوة لله، طمعاً في أسباب دنيوية.

فالعقيدة ليست من الأمور التي يجوز فيها المجاملة لأحدٍ أيّاً كانت مكانته. وليس أدل على ذلك من فقهاء السلاطين ومن دار في فلكهم، لتغليبهم الغرض الدنيوي والمصلحة الشخصية في دعوتهم، إما التماساً للرزق في غير موضعه، أو خوفاً من بطشهم أو حفاظاً على مناصبهم وما تحقق لهم من امتيازات، وهم في غفلة مما يراد بهم من إصدار فتاوٍ يُشتم منها رائحة المنفعة يشرعون للسلاطين من الأحكام ما لم يأذن به الله، يصرفونها كيفما شاءوا وأينما شاءوا ومتى شاءوا، ولو التمسوا أمانة الدعوة لوجدوها أمام أعينهم.

٧- المناداة بعدم الزج في القرآن الكريم في كل قضية علمية تستجد، وعدم تأويل الآية الكونية فوق ما تحتمل، مع إقرار التسليم بتفسيرها علمياً حال موافقتها للمنهج البحثي السليم وخروجها من إطار الفرضية إلى المسلمات، ومن شواهد ذلك قول الله عز وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١]. كان للمفسرين قديماً في تأويلهم للآية مذاهب متعددة من الاجتهادات، إلى أن انتهى تفسيرها اليوم بصورة مغايرة لكل التفسيرات القديمة، فالآية تتضمن حقائق علمية سلمت بها البحوث العلمية الأخيرة، إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها وقوة طردها المركزي يؤديان إلى تفلطح في القطبين ونقص في طرفي الأرض وانبعاج عند خط الاستواء[1].

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص٣٦١.

الخاتمة

إن التفكر في سورة الرعد وتدبر آياتها، يكشف لنا تآزر مقاطعها الستة، في ربط وثيق عميق محكم، تبدَّى في تشابك نسيجها بشكل رائع متلاحم، في خيوط النظم والأسلوب والشكل والجوهر والمحور، فبدت وحدة متجانسة في وشائج ترابطها، فكل مقطع يشد عضده بالمقطع الآخر حتى نهاية السورة، وليس هذا فحسب بل كل آية تتكامل مع الآيات التي تليها في المقطع ذاته والمقاطع الأخرى، مهما بدا ظاهرها من تعدد مقاطعها وتشعيب قضاياها، فزاد السورة حسناً في عرض محورها الذي يقرر إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة، ومما يرصده القارئ الفهيم عند إعمال العقل في آياتها، أنه ما انفك ينتقل من محطة لأخرى في أمور العقيدة وآيات الله في الكون والقضاء والقدر، وإثبات نبوة محمد ﷺ أمام استهزاء المشركين، وحكمة ابتلاء الإنسان في حياته (ابتلاء صبر أو ابتلاء شكر أو ابتلاء نعمة أو ابتلاء تطهير ورفع درجات أو ابتلاء نقمة)[1]*.

كما كشفت السورة عدداً من صفات الله عز وجل فهو القادر على كل شيء وبيده تدبير الكون، المحيي والمميت، الغفور الرحيم، لمن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى، المعز المذل، شديد العقاب، وهذا بالكلية في منزلة الترغيب للمؤمنين والترهيب بالوعيد والإنذار للكاذبين لعلهم يهتدون وينأون بأنفسهم عن حماقة الملأ من أهل مكة كأبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف وغيرهم.

وأفادت آيات المقاطع أن بداهة العقل تحكم أن القرآن الكريم حكم على الكتب السماوية السابقة، فليس للمؤمنين تحت رايته أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، فهو المعز لأوليائه المذل لأعدائه، فمن يلجأ إلى الله تعالى في كافة أموره، يجد في كنف معيته الرحمة والرعاية والعناية والعلم والصبر والعصمة من ضلالات الجهالة والظلام، مما ينير للمؤمن ظلمات حياته فتصغر

(١) * للمزيد حول الرضا بالمصائب أنظر: الفتاوى الكبرى ،لابن تيمية :١/ ١٩٤.

أمامه الأهوال والمصائب، وهذه واحدة من وجوه الحكمة التي برزت في السورة.

ومن لطائف الاستدلال القرآني التي زخرت فيها السورة مناقشة منكري البعث، فأبانت لهم أن الله عز وجل قد بين في غير موضع من القرآن، أن إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه، ثم صرفهم إلى النظر في أنفسهم، وفي مظاهر قدرته في الكون، ولقد توقفت السورة عند ذكر الأرض وبعض الظواهر الطبيعية كالسحاب الثقال والبرق والرعد والعواصف ونحو ذلك.

لحكمة أرادها الله عز وجل، فقد كشفت الآيات أن الله عز وجل قد شاءت حكمته أن جعل الأرض موطناً لذرية آدم يخلف بعضهم بعضاً وحملهم أمانة المسؤولية عليها، وسخر كل شيء فيها لخدمته، وهيأ له من أسباب الحياة على أكمل وجه، وقدر له من الأرزاق ما يفي بحاجته وحاجة الكائنات الحية الأخرى، وأنزل من السماء ماءً عذباً فراتاً طهوراً أحيا به الكائنات الحية، وكل هذه النعم وغيرها مما لا يعد ولا يحصى، يجري وفق نواميس الله في الكون، وهي ما تعارف عليها العلماء في قوانين توازن الكون .

فبرز الخلق في السورة ناطقاً حياً بسلطان الله في الوحي والرسالة والتوحيد ومشاهد يوم القيامة والجنة والنار، والتمكين لأهل الأرض من المؤمنين والإهلاك للكافرين.

ثم برزت السورة في لمسات وجدانية عقلية، صورت تصويراً دقيقاً ثبات رسول الله ﷺ في الدعوة، في وقت اشتد فيه الإعراض والتكذيب والتحدي وطلب الخوارق من كفار مكة.

وتعاضدت مقاطع السورة في إبراز منزلة القرآن وعظمة الله عز وجل في سعة ملكه وسلطانه، وتكرر ذلك في أكثر من موضع من السورة.

وورد فيها طائفة من الدروس التربوية والعبر، هدفت إلى تعميق الإيمان وتقويم الأخلاق وتزكية النفوس وتهذيب الطباع وإعمال العقل في التدبير والتفكر، وهذا من أمهات المقاصد التي يدعو إليها القرآن الكريم وأسماها.

وبدأت السورة في إثبات الرسالة وختمت بإنكار الكفار والمشركين لها، وانفردت بتكرار

تسرية رسول الله ﷺ، وتعزيته عن تكذيب المشركين له ونعيهم على سلوكهم هذا.

ولقد توقفت السورة عند ذكر المقاصد التالية بالتفصيل تارةً والاعتدال تارةً أخرى وبالإشارة الخاطفة عند بعضها:

١ - التأكيد على مكانة القرآن الكريم، حيث اقتضت مشيئة الله عز وجل أن تكون معجزة الإسلام فيه. فإن لهذا الكتاب عطاءً متجدداً في كل عصر، يتجلى لكل جيل بمعجزة عقلية لم يقف عليها السابقون، فالتحدي به قائم إلى قيام الساعة، وهذا أوضح برهان ومصداقية على عالميته، وإن في تفسير بعض آياته الكونية علمياً معين لا ينضب في أساليب الدعوة، فالقرآن لا يخالف علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لا يحتمل الشك والارتياب وبات من المسلمات.

٢ - لقد حث القران الكريم على وجوب التأمل والتفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين، فالقرآن الكريم وإن كان كتاب هداية وتشريع، إلا انه يلفت العقل إلى اعتماد المنهج العلمي البحثي السليم في أمور الحياة من الذرة إلى المجرة[1] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ١٠١] فقد انتظم فيه نيف وسبعمائة آية كونية، تناولت العلوم المختلفة، و سورة الرعد شاهد على ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٣ - قررت الآيات أن للمعرفة قنوات ثلاثاً هي الوحي ثم العقل ثم الحواس، والأولى أصدقها ومهيمنة على ما عداها و خاصة في أمور الغيب المطلق.

---

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٣٤. للمزيد حول مكانة التفكر والتفكير، انظر : إحياء علوم الدين، للغزالي، كتاب التفكر ٤/ ٥٣٢-٥٤.

كما أكدت آيات سورة الرعد أن التفكر في الكون فريضة إسلامية هي أساس الإيمان بالله، ومن أغفل عقله و حواسه في النظر إلى صفة الكون بالتدبر والتفكر، كان مشاركاً للأنعام في تقليب الحدقة من غير إعمال للعقل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٤ - الكون في منظور سورة الرعد، شأن القرآن الكريم في سوره كافة، يشمل المادة والزمان والمكان والسموات السبع، وما يندرج في السماء الأولى من المجرات والمجموعات الشمسية والكواكب المختلفة والأقمار، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية الحية وغير الحية على كوكب الأرض، وقد ورد تخصيص الأرض والقمر بالذكر في السورة لبيان أهميتهما في حياة الكائنات الحية، وخاصة الإنسان الذي حمل مسؤولية الأمانة على الأرض، فكان ظلوماً جهولاً في تلويث البيئة وتدميرها على غير مراد الله منه في الاستخلاف.

٥ - أكدت سورة الرعد أن الرسول ﷺ شاهد على أمته في تبليغ الرسالة و نصح الأمة وأداء الأمانة، والناس جميعاً على قدم المساواة بين يدي دعوته، لهذا كان الجزاء أثراً من آثار صفة العدل الإلهي بين الخلائق يوم القيامة.

٦ - تقرر آيات المقاطع الحاكمية لله في كل شيء والسيادة لشريعة الإسلام، فالله المحلل والمحرم، ويحرم علينا أن نتحاكم إلى غير شرع الله، ولا يجوز لنا أن نتصرف في شيء على غير مراد الله في أمور حياتنا كلها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

٧- تعد سورة الرعد من عيون سور القرآن الكريم التي زاوجت بين الدعوة إلى الله والعلم والإيمان، وهذا من تمام الحكمة الربانية في الدعوة لتكون حجة على الناس بما يتناسب وفهمهم، ليؤسس الإيمان على برهان يقيني، يكون داعماً لمحور السورة في إفراد العبودية

والألوهية والوحدانية المطلقة لله عز وجل، وهذا أساس دعوة القرآن الكريم في تحقيق الربط الإيماني بالعلم الذي يعمل بنور الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤] فالعلم الرباني نور يكشف للبشر قوانين وأسرار الكون، الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذُ أسراره، حتى يتأكد للناس أن خالق هذا الكون هو منزل القرآن الكريم.

ومطلوب من المسلم أن يتدبر كتاب الله لأجل الهداية أولاً ثم كمفتاح للسبق في كل جديد، ليتمكن من تصنيف الآيات الكونية في القرآن الكريم حسب الاختصاصات الدقيقة التي تناولَتها، وصولاً إلى تأسيس مكتبة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فيعطي لكل جيل شيئاً جديداً لم يعطه للجيل الذي سبقه.

٨- تقرر آيات سورة الرعد أن الناس في إيمانهم صنفان، صنف يقوم إيمانه على الفطرة التي جُبل عليها كإيمان العجائز، وصنف آخر يؤسس إيمانه على قاعدة من إعمال العقل، لمعرفة سنن الله في الكون ليزداد إيماناً على إيمانه، فالناس في عقولهم متفاوتون، فمنهم من يطلب الحق لذاته، ومنهم الجدلي المتفلسف الذي ينشد جوهر الحقيقة بالعقل، ومنهم العاصي الذي ينشد الشك في طرحه، وعليه فقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء نوعاً من الخطاب الذي يناسب عقله، فكانت سورة الرعد خير مثال لذلك.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الرابع

إبراهيم - طه

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

بين يدي السورة

سورة إبراهيم مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر، وقال ابن عباس وقتادة إلاّ آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وهما قوله تعالى:﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾. نزلت بعد سورة نوح.[1]

جاء ترتيبها في المصحف العثماني السورة الرابعة عشرة. عدد آياتها اثنتان وخمسون آية **موضوعها:** الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وذكر القيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية. **اشتملت:** على ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لكفار قريش حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم.

وجو السورة: من بيان حقيقة نعمة الله على البشر، وزيادتها بالشكر نصيب ملحوظ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران، وفيها يعدد الله عز وجل نعمه على البشر مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، طائعهم وعاصيهم لعلهم يشكرون، ورد فيها تشبيه الإسلام بالكلمة الطيبة والكفر بالكلمة الخبيثة.

وتيسيراً لتفسيرها موضوعياً روعي في تقسيمها إلى سبعة مقاطع، يحتوي كل منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة والقياس، مع بيان ما ترشد إليه من هدايات، وتوضيح وجه ارتباط كل مقطع بغيره مما تقدم أو تأخر.

وتشكل مقاطع السورة قالباً واحداً يمكن تصنيفها على النحو التالي:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري: ٢/ ٥١٦.

- المقطع الأول ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤.
- المقطع الثاني ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨.
- المقطع الثالث ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧.
- المقطع الرابع ويمتد من الآية ١٨ إلى الآية ٣١.
- المقطع الخامس ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤.
- المقطع السادس ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١.
- المقطع السابع ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢.

ومحور السورة هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بالقرآن الكريم على يد النبي ﷺ مصداقاً لقوله تعالى:﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، وهذا مكرور في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويقدم محور السورة التعريف بمكانة الكتاب ووظيفة الرسول، ونصر الله للمؤمنين المستخلفين في الأرض، لأجل عمارتها على قواعد الهدى الرباني في نظم الحياة كافة، وبيان وحدة تكامل الرسالات السماوية إلى أن بلغت النضج في القرآن الكريم خاتمة الكتب الربانية وهذا بالكلية من أصول قواعد التوحيد.

ومما تجدر ملاحظته في مناسبة السورة مع غيرها تناغم العلاقة ووجه الارتباط بين سورة إبراهيم وسورتي الرعد التي قبلها والحجر التي بعدها.

فهذه السور مكية افتتحت بحروف التهجي التالية ﴿ الٓمٓر ﴾ في سورة الرعد و﴿ الٓر ﴾ في سورتي إبراهيم والحجر. كما جاء فيها تسمية القرآن بالكتاب. جمعت ضوابط القرآن المكي وخصائصه الموضوعية وتشابهت هذه السور في المقاصد التالية:

- الإشارة إلى آيات الله في الكون لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام من خلال إعمال

العقل والفكر.

- ذكر بعض صفات الله تعالى وآثار قدرته ورحمته.
- بيان غاية خلق الله للإنسان في تحقيق العبودية والاستخلاف في الأرض ومسؤولية الإنسان عن أعماله التي تفضي به بإلطاف الله للهداية أو الضلال.
- عرض الأدلة العقلية على وجود الله تعالى بالبراهين والحجج القوية.
- تسرية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعاب بما اتفق للأنبياء قبله مع أقوامهم.
- القدح في سلوك الكفار المذموم لإثارتهم الشبهات ضد رسلهم وانتحالهم ألواناً من الشرك.
- الإخبار عن مصير الماضين من الأمم والشعوب للعظة والعبرة.
- توصيف جانبٍ من سمات شخصية المشركين وتنكرهم للإيمان بالرسل.
- الاستشهاد بضرب الأمثال للوعد والوعيد والترغيب والترهيب وللتحبيب أو الإكراه في الشيء.
- بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.
- وصف أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم لو كانوا مسلمين.
- التأكيد على إقرار الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل.
- التأكيد على إقرار العبودية لله عز وجل الوحيد المستحق للعبادة فهو الخالق الرازق المحيي المميت المعز المذل.
- بيان أن القرآن حجة على الخلائق فيه المنهج القويم والصراط المستقيم.

- دعوة الناس كافة إلى تدبر معاني القرآن الكريم وفهم أحكامه.
- التذكير بنعم الله على الإنسان، وبيان أن النعمة إذا استأنست من صاحبها الشكر تأهبت بإذن الله تعالى للمزيد من المنح المبارك فيها والعطايا والمكرمات تعظيماً لشكرها. وإن النعمة إذا وقعت من صاحبها موضع الريبة والشك والجحود والنكران تكون مجلبة للنقم، فمن قام بشكرها دخل الجنة ومن أنكرها أو ردها أو كفر بها دخل النار.
- دعوة الكفار للاتعاظ بما أصاب من قبلهم من الأمم بسبب كفرهم، ودعوة المؤمنين للثبات على دينهم وعدم الوهن والضعف في مواجهة قوى الكفر والشرك.

وانفردت سورة إبراهيم ﷺ، ببيان أن محمداً وموسى عليهما السلام قد بعثا بالقرآن والتوراة لأجل الهداية شأن الرسل كلهم، وتكفلا بما أنزله الله عليهما لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد فصلت مقاطع السورة لخاتم الأنبياء والمرسلين ما لم تفصله لأولي العزم من الرسل الوارد ذكرهم في السورة كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وهذا من أسلوب العرض القرآني، فقد يصرح في مقطع بأشياء ما لم يصرح به المقطع الآخر، والمثال ذاته ينسحب على السور، وحكمة هذا التفصيل هنا أن الله عز وجل قد فضل بعض الرسل على بعض في مراتب ودرجات كما فضل بعض الكتب على بعض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وعليه فإن أجلهم وأرفعهم منزلة عند الله محمدٌ ﷺ، لأجل هذا خصته العناية الإلهية ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وللناس كافة إلى قيام الساعة. وأعظم الكتب السماوية منزلة القرآن الكريم، فقد تكفل الله بحفظه من التحريف والتصحيف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: ٩]، وأنبياء الله إلى الناس رسلاً كثيرين، ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين رسولاً منهم، وطلب منا الإيمان بهم جميعاً دون أن نفرق بين رسولٍ ورسول، وهؤلاء الرسل هم: (**آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وأيوب وذو الكفل**

وموسى وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام). أمرنا الله تعالى أن نؤمن بهم، فلا يصح إيمان المسلم إلا إذا آمن بجميع هؤلاء الرسل الذين خصهم الله بالذكر، وغيرهم مما لم يأت القرآن على ذكرهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

لم تذكر كتب أسباب النزول سبباً في نزول سورة إبراهيم عليه السلام إلا في الآيتين المشار إليهما آنفاً ٢٨ و٢٩، فقد نزلتا في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وبسط لهم العيش الكريم وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقيل نزلتا في قتلى المشركين يوم بدر. [1]

والمناسبة بين افتتاحية السورة في مقطعها الأول والمقطع السابع الأخير قوية إذ في كليهما دعوة للتوحيد، وقد جاء هذا الارتباط إلزاماً للحجة، وكررت لتكون أبلغ في التحدي والتبكيت والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كأن السورة قد غلفت بسياج التوحيد لله تماماً كإحاطة السوار بالمعصم. وفي الختام سنورد مزيداً من المناسبات بين محور السورة ومقاطعها وبين المقاطع بعضها ببعض عند الحديث عن المقاطع استقلالاً.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٦٤، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٤، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي: ص٢٥.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الأول

ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤

(ويفيد بيان منزلة القرآن الكريم وحجيته على العرب والخلائق جميعاً بصرف النظر عن أجناسهم ولغاتهم)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾

افتتحت السورة بقوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ وتُقرأ ألف لام راء، لم يكن هذا مألوفاً في افتتاح الكلام عند العرب، وقد حاول العلماء معرفة أسرار هذه الفواتح للكشف عن الحكمة في استهلال بعض السور بها، ولهم فيها مذاهب شتى من الاجتهادات أقواها حجة أنها مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني، ليكون في غرابتها أبلغ الأثر في قرع أذن السامع لحمله على الإصغاء والانتباه إن كان من أهل الإيمان. وهي من المتشابه الذي على المسلم أن يؤمن بظاهر الآية ويكل المضمر الخفي فيها إلى الله عز وجل لأنها غير واضحة الدلالة.

والاستفتاح في هذا الضرب من الحروف الهجائية﴿ الٓر ﴾ لم يقتصر على سورة إبراهيم فحسب، بل جاء في سور يونس وهود ويوسف والحجر.

وقد بيّن الله تعالى بعد هذا الاستفتاح أن هذا الكتاب العظيم الخالد على مر الأزمان والدهور إلى قيام الساعة، أنزله الله على نبيه ﷺ ليخرج البشرية كلها ابتداءً بقومه، من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى، ولم تقتصر هذه الحقيقة الإيمانية على سورة إبراهيم بل انتظمت غير مرةٍ في العديد من السور تعضيداً لمنزلة القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد: ٩] وقوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وبعد بيان وظيفة القرآن في إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر، ومذموم الخلق، وخوارم المروءة، وضروب المعاصي، إلى نور العلم والهداية والإيمان، والخلق الحسن المحمود الذي يفضي إلى جادة الصواب في القول والعمل والسلوك، نرى توعد آيات المقطع بالدليل والبرهان أهل الكفر والشرك بالويل (وهي كلمة تقال للهلكة والعذاب الشديد والموت لأنهم يولولون من عذاب نار جهنم ويقولون يا ويلاه). [١]

وهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واطمأنوا إليها وقدموها عن الحياة الآخرة التي تنكبوا طريقها إما إنكاراً وجحوداً وإما غفلة، فهؤلاء هم أهل الضلالة الذين استبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير، وسعوا في الأرض فساداً بإثارة الشبهات حول رسل الله وتشكيكهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونفيهم للبعث والحساب والجنة والنار، ونابذوا ربهم بالعداوة والمحاربة، وهذه صفات من ضل وأضل وشاقّ الله ورسوله، فأي ضلالٍ أبعد من هذا؟؟

وقد وصف الله تعالى الكافرين بصفات ثلاث: **الأولى** أنهم آثروا الحياة الدنيا بلذاتها القصيرة الفانية على نعيم الآخرة، حيث تناسوها وتركوها وراء ظهورهم بالإيثار والاختيار الطوعي فكانوا من أهل ظلمات الكفر والضلالة والجهل.

والثانية إصرارهم على منع الناس عن شريعة الله وانتحلوا لذلك ألواناً شتى من المكابرة والعناد التي لم يسبقهم إليها سابق إشباعاً لرغباتهم وأهوائهم.

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٦.

والثالثة سعيهم المشبوه في تحويل شريعة الله عن مرادها الصحيح التي تنزلت لأجله، لتكون معوجة لا استقامة فيها لينفروا الناس منها، لأجل هذا فهم أهل ضلالة لا يرجى منهم صلاح لا في حاضرهم ولا في الغد من أيامهم ولكن الله لهم بالمرصاد لمكرهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]، وهو الهادي لمن قُدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث للناس كافة، فالله عز وجل هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، لا يضره من خالفه ولا من خذله، وهو العزيز الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أفعاله فيُضل من يستحق الإضلال، ويهدي من كان أهلاً للهداية بتيسيره وتسهيله وتوفيقه ولطفه.

وفي الآيات شهادة من الله عز وجل بتأييد رسوله ﷺ، وإقراره عز وجل أنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله مما يجعل الآحاد منهم محموداً في أموره الدنيوية حسناً في خاتمة عاقبته الأخروية، ومن لم يتبعه فله النار وعليه سخط الله، وهذا وذاك لا يحصل إلا بإرادة الله الحكيم في أحكامه وتدبيره وتقديره لأمور الخلائق.

ثم ذكرت آيات المقطع أن من صفات أهل الإيمان أنهم يؤمنون بأركان الإسلام، ويستحبون الآخرة على الدنيا غايتهم في حياتهم تحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله وشريعته في نظم الحياة كافة، يدعون إلى سبيل الله في حلهم وترحالهم ليل نهار، ما انفكوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأبرزت آيات المقطع أيضاً خطاباً للنبي ﷺ، أن من لطف الله عز وجل بعباده أنه ما أرسل رسولاً من رسله الكرام الوارد ذكرهم في القرآن الكريم إلا بلسان قومه ليقيم عليهم الحجة أمراً ونهياً بألسنتهم.

ويستدل من هذا الخطاب أن الرسول الذي يبعث بلسان قومه لحملهم بالإيضاح والتفسير للعمل بحقائق دعوة شريعته أنه مع عظيم دعوة رسالته إلا أنه لا يقدر أن يهدي أحداً، فالمضل والهادي هو الله، فليس على الرسول هدايتهم، فالله تعالى يضل من يشاء لعدم سلوكه سبل

الهداية، ويهدي من يشاء لفتح قلبه لنور الهداية، فقلوب الناس بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء، حسب إقبالهم، أو صدهم.

واشتمل المقطع على ثلاث صفات لله عز وجل وهي العزيز والحميد والحكيم، للدلالة على أن الله عز وجل لا يهدي ولا يضل إلا لحكمة، وهو القوي الذي لا يغلب على مشيئته، له التفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب، فالله عز وجل لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا على مراد حكمته، وعلمه الأزلي بسلوك خلقه، وهذا من تمام قدرته وعدله، فحقت بذلك كلمته سبحانه وتعالى على أهل الإيمان من عباده بأن مصيرهم الجنة، وأهل الشرك مصيرهم النار.

ويفيد اسم **العزيز**: الغالب الذي يغلب لكمال قوته وقدرته.

والحميد: الموصوف بجميع الصفات التي يحمده بها الأولون والآخرون، وهو المحمود بعظيم صفاته سبحانه، وهو **الحامد** يحمد أهل طاعته من عباده، ويثني عليهم بما هم عليه من خير وحسن الخاتمة.

ويفيد اسم **الحكيم**: الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فإنه يضع الأحكام في مواضعها بعلمه وحكمته وتدبيره وتقديره، بصورة موافقة للحكمة والرشاد. ولعل حكمة اشتمال المقطع على هذه الأسماء يعزى إلى بيان أن ما خفي عنا من الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى، فذلك من قصور نظرنا وضيق تفكيرنا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الله عز وجل وصف نفسه في آخر المقطع حكيماً، وحكمته سبحانه وتعالى تنافي كونه خالقاً للكفر مريداً له، وفي هذا يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لقد وصف الله عز وجل نفسه عزيزاً بمعنى الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع عدم قدرة الكافر على ذلك لما سمي عزيزاً غالباً). [١] والعزيز هنا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه وتعالى وعدله.

وأخيراً فإن المناسبة بين افتتاحية المقطع الأول وخاتمة السورة في المقطع الأخير، خير شاهد على وحدة هدف ومحور السورة. ففيها أصول دعوة التوحيد بإخراج الناس من الظلمات إلى النور على يد النبي ﷺ.

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الأول

١ - افتتحت آيات المقطع الأول بقوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾ وهي ثلاثة حروف هجائية مقطعة، تلفظ: ألف، لام، راء. ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات عند سماعها لأجل الإصغاء لما سيرد بعدها. وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من هذه الحروف التي يلفظ بها العرب كلامهم.

تعددت آراء العلماء في جواز أو حرمة تأويلها إلى قولين:

- جماعة ترى وجوب تدبر آيات القرآن الكريم بما فيها فواتح السور من الحروف المقطعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

ويعتقد أنصار هذا الرأي أنه كلما تقدم العلم الإنساني كشف عن بعض وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عليها الأوائل.

ولقد أورد صاحب البرهان عشرين رأياً اجتهاداً جمعها من أقوال علماء علوم القرآن والتفسير الذين سبقوه، ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي محمد ﷺ. ومن أشهر وجوه تفسيرها أنها مفاتيح لأسماء الله الحسنى، وكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، ومثاله في قوله تعالى ﴿ الٓر ﴾ فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد) والراء مفتاح اسمه (الرزاق)[1].

- وبالمقابل فإن جماعة ثانية من العلماء ترى حرمة الخوض في تأويلها وهي من المتشابه نقيض المحكم. علم مستور وسر محجوب استأثر الله به وهو العالم بمراده منها، وهي من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر حتى قيام الساعة.

- وترى طائفة منهم ليس من الدين في شيء أن يجترئ أحد من الخلق على تفسيرها خشية

(١) للمزيد انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني: ١/ ٢٧.

الزلل في الاجتهاد. [١]

ومما تجدر ملاحظته هنا أن فواتح السور من الحروف المقطعة وردت كآيات مستقلة في تسع عشرة سورة هي: (البقرة وآل عمران والأعراف ومريم وطه والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف)، وجاءت غير مستقلة مدرجة مع سياق الافتتاح في عشر سور هي: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنمل وص وق والقلم).

ويعزى ذلك إلى الاختلاف بين البصريين والكوفيين حول اعتبارها آيات مستقلة أم لا، فالبصريون لم يصنفوها آيات منفردة بذاتها، أما الكوفيون فقد صنفوا بعضها آيات مستقلة دون بعضها الآخر.

والاستفتاح بالحروف المقطعة ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين سورة كلها مكية عدا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان.

وتباينت فواتح السور من حيث عدد الحروف، فبعضها مؤلف من حرف واحد ومثاله ص، ق، ن، ومن حرفين ومثاله حم، طس، طه، يس. وبعضها مؤلف من ثلاثة أحرف ومثاله (الم) و(الر) و(طسم)، ومنها ما ورد من أربعة أحرف ومثاله (المر) و(المص) كما ورد بعضها من خمسة أحرف ومثاله (كهيعص) و(حم عسق).

واللافت للانتباه أن عدد أحرف فواتح السور من الحروف المقطعة أربعة عشر هي: (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي). وقد جاء في كافة السور التي استهلت بالحروف المقطعة التأكيد على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله تعالى.

وإتماماً للفائدة فيما يلي جانبٌ من وجوه اجتهادات العلماء في تأويل فواتح السور من

---

(١) يعد كتاب الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ، من أشهر المؤلفات التي أفردت لفواتح السور ومعرفة أسرارها.

الحروف الهجائية أو المقطعة أو النورانية، الأربعة عشر حرفاً المشار إليها آنفًا، والتي يجمعها تسهيلاً للحفظ قولك (نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سِرٌ)، وهي في عرف البعض أجل وأشرف من النصف الآخر المتروك من حروف اللغة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أقوال العلماء ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وإنما يغلب عليها الظن الاجتهادي، ليس فيها إجماع وليس أحدها بأولى من الآخر، وفيما يلي جانب من أقوالهم:

أ - هي أسماء للسور ولا يمانع أصحاب هذا الرأي تسمية السور المتشابهة في فواتحها بمسمى واحد غير أسمائها المعروفة به، كسورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ونحو ذلك في البقرة وآل عمران في مقطع﴿ الٓمٓ ﴾.

ب - اسم من أسماء الله الأعظم.

جـ- قسم أقسم الله به أسماءه تعالى إذ يدل كل حرف منها على اسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

د - استفتح بها لأجل التحدي والإعجاز اللغوي، وكررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة، ولهذا فإن كفار قريش عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من جنس الحروف التي يتخاطبون بها، ومن أنصار هذا الرأي القرطبي والرازي والزمخشري وابن تيمية، وهو أكثر الأقوال قبولاً وهذا المذهب عليه إطباق أكثر المفسرين قديماً وحديثاً.

هـ-أنها دالة على معرفة المُدد التي يستخرج منها أوقات الحوادث ومددها الزمنية، ويقاس عليها أيضاً استخراج كل كلمة من كلمات القرآن، فالألف تفيد واحد واللام ثلاثون والميم أربعون، وهذا حساب فواتح البقرة﴿ الٓر ﴾، ١+٣٠+٤٠=٧١.

وفيما يلي حساب الأرقام عند العرب وقيمة كل رقم العددية في نظام حساب الجُمَّل:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠

س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ولإيضاح حساب الجمل في قوله تعالى:﴿ الٓمٓصٓ ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه تمثل إحدى وثلاثين ومائة.

وفي قوله تعالى:﴿ الٓر ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وثلاثين ومائتين.

وفي قوله تعالى:﴿ الٓمٓر ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وسبعين ومائتين.

وتعطي كلمة القرآن العدد ٣٨٢ وتعطي كلمة الكتاب العدد ٤٥٤ وكلمة الحق ١٣٩ وكلمة الإنسان العدد ١٩٣ وهكذا.

غ- الله أعلم بمراده منها، وباعتقادي أن القول بهذه العبارة أجل من الاجتهاد في إخضاع القرآن إلى حساب الجمل، وهي في منزلة شطحات لأرقام جوفاء.[(١)]

ك- ومن الدراسات الجديدة حول فواتح السور محاولة د. رشاد خليفة إبراز الإعجاز العددي للرقم ١٩، فقد وجد أن عدد أحرف البسملة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ هو تسعة عشر حرفاً، له علاقة وثيقة بالحروف المقطعة التي استهلت بها بعض السور القرآنية، إذ اكتشف أن كل سورة افتتحت بحرف أو أكثر من هذه الحروف قد تكرر في السورة نفسها، وفقاً لعدد دقيق

(١) للمزيد حول فواتح السور انظر: تفسير الطبري والقرطبي وابن عطية الأندلسي والزمخشري والرازي وابن كثير في تفسير (الم) من سورة البقرة. وانظر أيضاً: الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ. والبرهان للزركشي.

هو عبارة عن مضاعفات للعدد ١٩.[1]

٢- إن في قوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في منزلة الإنعام عليه من حيث أنه فوض الله إليه هذا العمل العظيم لحمل الناس كافة على الإسلام لكونه خاتم الأنبياء والمرسلين، والكتاب الذي نزل عليه خاتمة الكتب السماوية. وإنعاماً على الخلق أيضاً من حيث أنه أرسل إليهم صفوة رسله ليخلصهم من ظلمات الكفر، ويرشدهم إلى نور الإيمان، وخصه دون غيره بالعموم والعالمية في رسالته.

ويعد هذا الإنعام للنبي ﷺ هو الأفضل والأكمل خلاف من سبقه من الرسل، ومن الآيات الدالة على عالمية شريعته وعموم دعوته للبشرية قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ: ٢٨]. ويستفاد من ذلك أن الشرائع التي تقدمت رسالة محمد ﷺ كانت محصورة في أقوام معينة وأزمان محددة، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨]. في حين كانت رسالته ﷺ عالمية لصلاحيتها لكل زمان ومكان، فلا نبي بعده ولا كتاب سماوي بعد القرآن الكريم، وبموته انقطع وحي السماء عن الأرض، وبهذا يكون الدين عند الله الإسلام بمنطوق الرسالة والدعوة والشريعة التي تنزلت على محمد ﷺ. ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم هو أشرف الكتب السماوية، أنزله الوحي على أشرف رسول بعثه الله في أهل الأرض، نزل في أقدس بقعة لأفضل وخير أمة، إذا التزمت شرع الله وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وبهذا فإن عملية الإخراج من الظلمات إلى النور لا تتم إلا بالقرآن الكريم، أصل كل هداية ومنبع كل نور. وأضيف الفعل في قوله تعالى ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر

(١) في تاريخ القرآن وعلومه، د. محمد الدسوقي: ص١١٧.

الهادي بأمر ربه.

٣- تقرر آيات المقطع عدم استواء الظلمات والنور، وأن نعمة الإيمان هي أجلّ نعمة في الوجود.

وبمناسبة قوله تعالى﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٣]، جاء وصف الضلال بالبعد مع أن البعد للضال، لأنه هو الذي يباعد صاحبه عن طريق الحق، وفعل الضلال ملازم له لا يفارقه.

وهذا التعبير القرآني يدخل في باب الإسناد المجازي في التمثيل، ويندرج في سياق الإعجاز البلاغي واللغوي. [١] ودليله في المقطع أيضاً أن الظلمات والنور، استعارتان للضلال والهدى كناية عن الكفر والإيمان، وهذا محمول على التمثيل لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور[٢].

وقد جاء تشبيه الجهل والكفر والباطل بالظلمات وهي على صيغة الجمع، وبالمقابل عبرت الآيات عن الإيمان بالنور والهداية بلفظ المفرد، مما يدل على أن طرق الجهل كثيرة وطريق الإيمان واحد. [٣]

٤- إن من لطف الله عز وجل اختصاص كل رسول بلغة قومه، ليكون إدراكهم لمضمون الخطاب في الدعوة أسهل، ووقوفهم على أوامر الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد والثواب والعقاب أكمل، بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، لأجل أن يكون فهمهم للدعوة أعمق حتى لا يكون لهم حجة على الله، منعاً لقولهم لم نك نفقه لغة ما خوطبنا به.

وعلى خلفية هذا فإن القرآن الكريم وإن نزل بالعربية فقد جاء للعالم كله، ولا حاجة هنا لنزوله بجميع الألسن واللغات لأن الترجمة تنوب عن ذلك، فاستوجب على المسلمين ترجمته إلى لغات العالم كله، فتعلمه بمعانيه وعند ترجمته يتشعب عنه جلال الفوائد وعظيم المنافع لغير الناطقين بالعربية، فيلزم عندئذ كل من بلغه ترجمته حجته، وخاصة إذا ما علمنا

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٧٧٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٣٨.
(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٥٨.

أن أكثر من ثلثي سكان العالم وثنيون، يحتاجون إلى ترجمة تفسيرية معنوية للقرآن الكريم، لأن إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام، وما يتوقف على تفعيل هذه الدعوة من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها فواجب، كما أن مخاطبة أهل الكتاب من الغرب بلغتهم فواجب كذلك، لإيضاح أسس الدعوة إلى الله وإظهار مصداقية الرسول ﷺ في دعوته، ومقارعتهم بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وحرفوه من مواضع الكلم في كتبهم.

٥- إن استحباب الحياة الدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أجلها ليصل بها إلى الآخرة كجسر موصل للجنة، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله فلا يكون مذموماً.

أما إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته، فهذه المحبة مذمومة لمخالفتها قول الله عز وجل ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

(ومن كان موصوفاً بحب الدنيا فهو ضال، ومن منع الخير عن نفسه وحبس الآخرين عن فعله فهو مضل). [1] ومن فعل ذلك كان غافلاً عن الحياة الآخرة وعن معايب الحياة الدنيا الزائلة، وحسبك أن القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من حيث قيمتها الحقيقية وعلاقتها بما وراءها، وما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها ومدى ما ينبغي أن يستفيده منها حسب ما تقتضيه مصالحه وسعادته، فالحياة الدنيا من حيث قيمتها فانية، معبر إلى الحياة الأبدية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والمتأمل للنصوص القرآنية يرى أن الله عز وجل قد سخر ما في الأرض خدمة للإنسان لإسعاده شريطة ألا تكون همّه الأول مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٣.

﴿ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧].

ويحذر الله عز وجل من معارضة الفطرة الإنسانية بعدم الانتفاع من متع الحياة الدنيا وطيباتها مصداقاً لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

وهكذا يأمر الله الإنسان بالإقبال على الحياة الدنيا بشروط للتمتع بطيباتها للإفادة من نعيمها وعدم الاغترار بمظهرها، وهذه نظرة القرآن للإنسان في الكون والحياة. [١]

٦- إن كل من أدخل بدعة محرمة ودعا إلى منكر من قول أو عمل أو سلوك، وحمل الناس على اتباع ذلك بالترغيب أو الترهيب ليصرفهم عن الدين الحق كإشاعة الفن الهابط وتدشين الفضائيات المشبوهة، ومحاربة الدعاة إلى الله والاستقواء بالأجنبي والدعوة للسفور وملاحقة صيحات الأزياء ونحو ذلك، داخل بالكلية في مضمون قوله تعالى:﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [إبراهيم: ٣].

وصفة أهل هذا الضرب من الناس أنهم في ذهاب عن الحق بعيدون عنه عليهم وزر من عمل بها كما ورد في الحديث الشريف: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيءٌ ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده كتب عليه مثلُ وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء). [٢]

٧- إن في قوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٤] دعوة للإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، ولا يكتمل إيمان الإنسان إلا به، ولا مسوغ في الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله ثم يتعذر بالقدر، لأن الله عز وجل خلق للإنسان عقلاً وإرادة تجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر والكفر والإيمان والظلمات والنور.

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢٥٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، حديث رقم:٤٨٣٠.

وقد انقسم الناس في القضاء والقدر إلى ثلاث جماعات:

- طائفة ترى أن الإنسان مخير دائماً وهي جماعة القدرية، وقد نفت هذه الفئة تأثير القدر على الإنسان.

- طائفة ترى أن الإنسان مسير دائماً لأنه لا إرادة له وأن الله وحده هو الفاعل لكل شيء وهم جماعة الجبرية.

- جماعة ترى أن الإنسان مخير في أموره الإرادية ومسير في أموره اللا إرادية التي لا تدخل في نطاق قدرته، وترى هذه الجماعة أن القدر لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله كما يمكن رده في الأمور الإرادية للإنسان، أما الأمور اللا إرادية كالموت مثلاً فهذا خارج عن نطاق قدرته، وأهل هذا الضرب هم الأرجح صواباً.

- وعلى خلفية هذه التوطئة في القضاء والقدر نقول: إن الفعل في الكفر واقع باختيار الكافر وإرادته، لأن الله تعالى لم يرد الشر ولم يأمر به، بل أراد الخير للإنسان وأمر به، ولم يسلبه القدرة على الانتقال من الظلمات إلى النور وأنه لو أعمل العقل لفعل ذلك.

- ولا صحة لمن يزعم أن الله عز وجل هو الذي يجبر عباده ويقرر أزلاً من سيكون منهم مؤمناً ومن سيكون كافراً، ومما يعضد هذا القول اتفاق الشرع والعقل على تقرير أن الإنسان فاعل حر ومختار لأموره الإرادية، بدليل أن الشارع قد دفع المسؤولية عن المكره ومن لم يبلغ الرشد والمجنون.

وفي آيات المقطع دلالة على إبطال القول بالجبر ويعضد ذلك قول الفخر الرازي في تفسيره: (إن الله تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب المنزل.... ومن حق الكافر على سبيل الافتراض القول هنا إذا كان الله خالق الكفر فينا فكيف يصح للرسول إخراجه منّا). [١]

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٥٧.

ومما يدلل على أن أهل الكفر والإضلال اختاروا كفرهم بإرادتهم قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾[الشعراء: ٤]. فلو شاء الله لحملهم على الإيمان عنوة وقسراً إلا أن حكمته سبحانه وتعالى قد قضت وقامت حجته ألا يحمل أحداً من خلقه على الإيمان قهراً، تاركاً لهم حرية الإيمان الاختياري، فإن استمروا على كفرهم كانوا من أهل النار، وإن كانوا من أهل الهداية شملهم الله بلطفه وعنايته وهدايته فكانوا للحق والإيمان أقرب وأبعد عن الباطل والغي والضلال بفضل الله، وفق ما قدره من سنن وأسباب، فترك الضال على إضلاله وأخذ بيد المهتدي بعناية لطفه.

يتضح مما سبق أن الإصرار على الكفر والضلال والشرك لا توجب حصول لطف الهداية للضال من رب العالمين، ويعلق الإمام الفخر الرازي على هذه الجزئية قائلاً: (إن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، مع امتناع أن يكون الضلال والشرك حاصلاً بخلق الله تعالى، وإلا حق للكافر أن يسأل: ما جدوى القرآن والرسول إذا كتب الله علينا الكفر، وهذا يلزم أن يكون الرضا بالكفر إرادياً). [(١)]

٨- تقرر آيات المقطع عدم استواء الهداية والضلال، فالهداية: سلوك الطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته وهو اتباع شرع الله تعالى، وسمي اتباع شرع الله تعالى هداية لأنه يرشد الإنسان إلى الحق، ويرشد إلى اتباع كل خير والتحذير من الشرور ما ظهر منها وما بطن. ومن رحمة الله تعالى بعباده أن هيأ لهم سبل الهداية، وهي السبل التي تقود المرء إلى الهداية وترشد إليها إذا اهتدى بهديها وسلك وفق ما يرشد إليه ومنها: الاستعدادات الفطرية، والعقل، وإرسال الرسل.

والضلال: هو الانحراف عن شرع الله تعالى بما فيه من تيهٍ وضياع وانحراف، وسمي الانحراف عن شرع الله تعالى ضلالاً والمنحرف عنه ضالاً بسبب مجانبته للحق والهداية.

وأما الضلال فقد جعل الله تعالى له سبلاً، ومن سُبل الضلال اتباع الشهوات والانصياع

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

لوساوس الشيطان وغوايته. وقد فطر الله تعالى الإنسان على الاستعداد للإيمان وعلى استعداد للغواية، وجعله قادراً على اختيار الهداية أو الضلال، وبناءً على اختياره هذا يثاب أو يعاقب مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإنسان: ٣] وقوله تعالى:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾[التكوير: ٢٧-٢٨] وقوله تعالى:﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾[يونس:١٠٨]. فالإنسان حسب منطوق الآيات حكَمٌ على نفسه مسؤول عن اختياره وقراره ولا يجازى إلا بما قدم لنفسه من خير أو شرٍّ ومن هُدى أو ضلالٍ.

والشيطان في الضلال يزين للإنسان الكفر بما يثيره من شكوكٍ وشبهاتٍ. وبما يثيره في النفس من قنوطٍ ويأسٍ وتزيين الشهوات وتهوين أمرها.

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالعقل الذي به تعرف الأشياء ويميز بين الخير والشر، فمن أعطي نعمة العقل كان مكلفاً مسؤولاً عن تصرفاته.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثاني

ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨

(دعوة الرسل في الإخراج من الظلمات إلى النور)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

علاقة هذا المقطع بسابقه خير شاهد على تكامل أساليب الدعوة لله بما يخدم هدف السورة ومحورها في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي المقطعين من أدبيات الدعوة والعبر والعظات والدروس التربوية للأمة، ما يحملها على صدق الإيمان وحسن الاستخلاف في الأرض لو التزمت مسارب الهدايات الربانية.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أنه أرسل موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل وآل فرعون بحججه وبراهينه العظيمة الدالة على مصداقية رسالته، بالآيات التسع كالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى، وقيل أيضاً أن المراد بهذه الآيات: العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات.[1]

وأمره بما أمر الله به خاتمة رسله محمداً ﷺ، وبما أمر به جميع رسل الله كافة، أن يخرج قومه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، مع خلاف جوهر دعوة موسى عليه السلام الخاص بقومه ودعوة الرسول ﷺ للناس كافة على وجه العموم والعالمية غير المحدد بزمان ومكان.

ويذكِّر الله تعالى موسى عليه السلام أن أخبر قومك بأيام الله ونعمه عليهم ووقائعه بالكافرين ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه، فنعم الله وأياديه عليهم كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى والتذكير بها واجب نظراً لما ينطوي عليه من عبر ودلالات دالة على عظمة التوحيد لله وكمال قدرته، لا يقف على جوهرها إلا من كان كثير الصبر على المحن والمنح، وهذه من صفات كل عبد أواهٌ منيب صابر على البلاء في الضر شاكراً للنعماء والأعطيات في السراء.

ويُراد بأيام الله إنجاء القوم من عذاب وذل واستعباد فرعون لهم وعبودية القوم له، وقتله لأولادهم الذكور بسبب حلم فسره الكهنة له أن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكه على يديه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤١، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٤.

ومن كرم الله على القوم تطبيق سننه فيهم في مداولته للأيام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، فانتقل حالهم من محنة وبلية إلى منحة وعطية، ومن شدة في الحياة إلى الرخاء والراحة، ومن الشعور بالخوف إلى السلامة والأمان.

وقد خص الله عز وجل الصبّار الشكور بالذكر في هذا المقطع، لأن أهل هذا الضرب من المؤمنين أكثر الناس انتفاعاً بآيات الله هذه وبأيامه في السراء والضراء، وما التذكر بأيام الله إلا لأخذ العبرة والعظة من باب التسرية والترغيب والترهيب وهي موجبة لمحبة الله تعالى، ومقام هؤلاء أعلى مقامات الصديقين. إذ ليس خافياً على أحد أن عنوان السعادة كلها ومنبعها السير على صراط الله، حتى يصبح حب الله مقدماً على كل شيء ويكون حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى نعمه وهذه صفة كل صبار شكور من المؤمنين.

كما أخبرت الآيات أن موسى عليه السلام أعلم قومه بالتصريح العلني أن الاشتغال بشكر نعم الله يوجب تزايدها في الدنيا والآخرة، والانصراف عنها بكفرها يوجب العذاب الشديد الذي يعود على صاحبه بالضرر في آجله وعاجله.

وتفصل الآيات أنكم إن شكرتم هذه النعم، فإن الله يزيدكم نعمة إلى نعمة، وإن كفرتم بها بالشر والجحود فإن عذاب الله شديد.

وكفر النعمة يكون على أوجهٍ منها: عدم شكرها أو إنكارها أو استخدامها بالبطر والكبر.

أو توظيفها في شهوات الدنيا الزائلة، أو الزعم أن الآحاد منهم قد احتصل عليها بعلمه وعلى مراده. وحول هذا الشأن يعلق سيد قطب قائلاً: (إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يجب أن يشكر وهذا هو جزاؤه الطبيعي عند أصحاب الفطرة السليمة المستقيمة، والنفس التي تشكر الله على نعمته هي النفس التي تراقب التصرف بهذه النعمة، بلا بطر وبلا استعلاء وبلا استخدام لها في الشر والفساد).[1] والصبار الشكور هو

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٣٩.

الذي يكون الصبر والشكر من سجاياه ويدرك هذه الآيات وما وراءها من عبرة وعظة، لتكون نافعة له في حاضره ومستقبله في الدنيا والآخرة.

ويستمر موسى ﷺ في بيانه وتذكيره لقومه، فدعاهم إلى وجوب تدريب النفس على الشكر وعلى طاعة الله، مع التحذير من كفر النعمة الجماعي المنذر لها بالزوال بالكلية، لأن من يكفر بأنعم الله فإن الله سيذيقهم ألواناً من العذاب الشديد بدءاً من زوالها إلى عذاب نار جهنم الشديد، وقد لوحظ تركيز موسى ﷺ في هذا المقطع على شكر النعم والتحذير من الكفران والعصيان، وكلمة الكفر هنا عامة تصرف على الكفر الذي يقابل الإيمان وعلى الكفران الذي هو عكس الشكر.

ويختم المقطع بقول نبي الله لما أيقن كفر قومه: لئن كفرتم أنتم وجميع الخلق فلن تضروا الله شيئاً، وهو غنيٌّ عن شكر عباده مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن لم يحمده من كفره، فهو الغني عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، فلا ينتفع بشكر من شكر ولا يتضرر بضرر من كفر، وكل منها محبوس على صاحبه من السلب والإيجاب وما يوجبه من رضا الله أو غضبه.

وفي هذا الشأن يعلق الفخر الرازي قائلاً: (الله واجب الوجود لذاته بحسب جميع صفاته، فهو المستحق للحمد، وهذه المعاني من لطائف الأسرار، فالله غني عن العالمين في جلاله وصفاته)[1].

ويعلق الزمخشري على الآية الأخيرة في المقطع﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٨]، قائلاً: (والله مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون). [2]

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

(١) التأكيد على أن المقصود من بعثة الأنبياء واحد، وهو سعيهم إلى نقل أقوامهم من دياجير التخلف ووهدة الضلالة وظلمة الجهالة إلى نور الهدى بتوحيد الألوهية والربوبية

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٧.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٠.

والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، ولا يتأتى نقلهم من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات الربانية، إلا بالحكمة في الدعوة والرفق واللين في الخطاب، مع مراعاة القدرة العقلية للمخاطبين واختيار الوقت الملائم للمدعوين، واختيار الألفاظ الواضحة اللينة التي لا تثير المدعوين ولا تهيج مشاعرهم، مصداقاً لقوله تعالى مخاطباً رسوليه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم أكثر من الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ليشوق المدعو من الاستجابة لدعوة الحق، وتحذيرهم من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أساليب ذلك تذكير المدعوين بما هم عليه من نعم، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[الأعراف: ٦٩].

وهذا يتطلب من الداعية المران والدُربة على أساليب الدعوة للنجاح في دعوته وتحقيق غايته، وفي مقدمتها الابتعاد عن الاستعلاء على الناس واحتقارهم وإظهار فضله عليهم، وأن يكلمهم بروح الناصح المخلص المتواضع الذي يدلهم على ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، بالجدال المحمود الحسن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التزام الأدلة المقنعة وتجنب الغضب والصخب في أثناء المجادلة.

(٢) تقرر آيات المقطع أن من وظائف رسل الله:

أ- إرشاد الناس إلى معرفة ربهم معرفة حقة وتحريرهم من العبودية لغير الله مصداقاً لقوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، ويتحصل هذا عبر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ب- تنظيم حياة الناس وفق شريعة كل رسول حسب وما ورد فيها من أحكام.

جـ- إقامة حجة الله تعالى على الناس بأن دينه وشرائعه قد بلغتهم على ألسنة رسلهم والدعاة إلى الله تعالى من بعدهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥].

د- تصويب ما أعوج من المجتمعات البشرية وتحريرها من الرذائل ومذموم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هـ- إصلاح النفوس البشرية بجميع أبعادها الروحية والعقلية والوجدانية والإنسانية.

و- تحقيق الهداية والرحمة المقصودة من إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

ز- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من أعظم قواعد الإسلام، والمقصود الأكبر من بعثة رسل الله، وقد حث عليها القرآن والسنة، ووعد الله تعالى من قام بهما بخير الجزاء وتوعد من تركهما وتهاون فيهما بالعذاب الشديد، فهما خصلتان من أهم خصال المؤمنين، وقد شهد القرآن بالصلاح لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٤]. والتخلف عنها يجلب سخط الله وعقابه، ويحول دون استجابة الدعاء ولو كان صادراً عن أناس مؤمنين[(١)]، ما داموا لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر مصداقاً للحديث الشريف: (**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**).[(٢)]

(٣) بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ٥]، فإن للعلماء في تأويلها اجتهادات منها أن اليوم مفرد أيام، ويبدأ اليوم من طلوع الشمس إلى غروبه، ويعبر عن الأيام في لغة العرب مجازاً بالوقائع العظيمة مصداقاً لقولـه تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. والمراد منها حصول العبرة بأحوال المتقدمين، ومثاله في المقطع ما نزل بقوم نوح

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٧٨١.

(٢) سنن الترمذي، حديث رقم: ٢٠٩٥.

وعاد وثمود من الإهلاك لكفرهم. كما يفيد معنى الأيام هنا أن حياة الإنسان لا تستقر على وتيرة واحدة من صعود تارة وهبوط تارة أخرى، في تداول من محنة وابتلاء، إلى نعيم ورفاه وهكذا، ومن الحكمة إن جرى الوقت على ما يلائم طبع الإنسان أن يكون شكوراً، وإن جرى بما لا يلائم طبعه وجب عليه أن يكون صبوراً، فالبلاء والابتلاء من أسماء الأضداد(١) في اللغة العربية قد يكون بالنعمة تارة وبالمحنة تارة أخرى، (٢) والنعمة هنا اسم جامع للمال والنفس وصحة البدن وحواسه وغير ذلك مما سخره الله للإنسان في الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وللابتلاء مراتب ودرجات قدرها الله لأجل التمحيص للاختبار أو الامتحان والتطهير من الذنوب أو الاصطفاء والتزكية ونحو ذلك.

كما ويحتمل معنى أيام الله الواردة في المقطع نعم الله، ويدخل في هذا الباب نعمه على قوم ونقمه على قوم آخرين بالحدث نفسه، فنعمة الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون رافقها نقمة الله على فرعون، (٣) ومما يعضد هذا القول ما ذهب إليه ابن عباس: (بأن أيام الله نعماؤه وبلاؤه، فأما نعماؤه فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفلق لهم البحر وأما بلاؤه فإهلاك القرون). (٤) وهذا داخل في العظة والاعتبار بما سلف من أيام الماضين بما كان فيها من النقمة والمنحة.

(٤) بمناسبة قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

---

(١) لا يعني البلاء نزول النوائب والعاديات القارعة بالإنسان فحسب، من مرض عضال أو موت عزيز أو خسارة تجارةٍ أو فقدان رياسة أو مديونية لا قبل له عليها، أو فشل مكرور في حياةٍ زوجية ونحوه، فإن لم تكن المصائب كذلك فإن عقوق الأبناء أو فشلهم أو تعاطي المخدرات أو الكحول حتى السجائر وما يتصف به الإنسان من مذموم الخلق وغيره من الصفات القادحة، كله ضرب من ضروب أنواع البلاء وإن تعددت وتفاوتت بالآحاد من البشر في شدتها وقسوتها.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤٢.

(٤) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥١٩.

ما يفيد أن الاشتغال بالصبر والشكر يوجب انفتاح أبواب الخير على صاحبه في الدنيا والآخرة والصبر لا منتهى لأجره. فالصبار هنا صيغة مبالغة للمؤمن كثير الصبر، والصبر خلق إسلامي يبعث على تحمل المشاق والتعب والأذى في سبيل الله، والرضا بقضائه عند وقوع المصائب وعدم التظلم والتشكي والتذمر مما وقع من بلاء. وقد امتدح الله تعالى الصابرين في الدنيا ووعدهم بالظفر والتأييد كما أعد لهم ثواباً عظيماً في الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾[الإنسان: ١٢].

ومن صفات الصبار الشكور هنا:

- الصبر على الطاعة وتحمل المشاق في سبيلها.
- الصبر على المعاصي كمقاومته للشهوات والمغريات طلباً لرضوان الله تعالى.
- الصبر على المصائب، فالصبار الشكور هو المؤمن الذي يواجه مصائب الدنيا وآلامها في النفس والمال والولد وغير ذلك بصلابة واقتدار وشجاعة، حتى يكون من الفائزين برضوان الله تعالى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]. والصبار الشكور يكون مؤمناً بأن أمور الحياة كلها بيده سبحانه وتعالى، مما يجعله راضياً بقضاء الله تعالى، يتحلى بالطمأنينة والرضا، لأنه يعلم أن الصبر طريق النصر وطريق مرضاة الله تعالى، مع الأمل بالله تعالى أن يرفع الشدة في الدنيا ويعطي الثواب في الآخرة.

والصبار هنا صيغة مبالغة للتدليل على صفات المؤمن كثير الصبر على طاعة الله وعن معاصيه، شكور لأنعم الله إذا أُعطي شكر وإذا ابتلي صبر، مصداقاً للحديث الشريف: (عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمرَه كله خيرٌ وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له). [1]

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمرؤ، حديث رقم: ٥٣١٨

ومما تجدر ألإشارة إليه أن الصبر لا يعني الاستسلام للمصائب إذا كان الإنسان قادراً على مواجهتها وتغييرها، فإن لم يفعل مع قدرته على ذلك فإنه آثم، ومما يعضد هذا القول مع أن القدر لا مفر منه إلا أنه لا يعني أن الإنسان مجبر على القيام بالأعمال أو الاستسلام للواقع في حدود إرادته، فلو صح ذلك لبطلت التكاليف وبطل الثواب والعقاب المترتب عليها ولوقف مستسلماً لكل ما يعصف به من نوازل، فالقدر يمكن رده فيما يتعلق بالأمور الإرادية للإنسان لأنه صاحب إرادة وعقل وفكر يدرك بها الأمور ويميز بينها، إضافة أن الله تعالى خلق للحياة سنناً لا بد للإنسان من أن يسير عليها، وهذه السنن هي أقدار أو أسباب أودعها الله في الأشياء، وهذه الأقدار أو الأسباب يمكن ردها عن طريق بعضها البعض بإذن الله الذي خلقها.

فالهزيمة العسكرية تدفع بقدر إعداد الأمة للجهاد، والتخلف يدفع بقدر إعداد الأمة للتنمية في مجالاتها كافة، تماماً كالمرض قدر يدفع بقدر العلاج، والرسوب من الامتحان قدر يدفع بقدر الاجتهاد وليس أدل على مصداقية ما أشرنا إليه آنفاً من النقاش الذي حدث بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة، حين قرر العودة إلى المدينة بعد تسلمه مفاتيح بيت المقدس حين سمع بطاعون عمواس، وقال له أبو عبيدة: أتهرب من قدر الله يا عمر؟ فأجابه لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ثم قال نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله.

(٥) كشفت الآيات أن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الدعوة والصبر عليها والأخذ بأسبابها.

لهذا كان يمنحهم بالسراء والضراء، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالدعاء والاستغاثة للاعتصام بحبل الله. وليعلم بالبلاء والمحنة منازلهم عند الله، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان، ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة، لهذا جعل سبحانه وتعالى الحياة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه.

(٦) قررت الآيات أن حكمة الله تعالى شاءت في دعوات الأنبياء والرسل أن تكون

واحدة في فلسفة تكاملها وجوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها وتناسقها، وتكامل السابق منها باللاحق، حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ، لأجل هذا برزت عظمة الرسالة ومنزلة القرآن فيها وعموم عالميتها.

(٧) يحسن بنا إتماماً للفائدة تطبيق منهجية التفسير الموضوعي لقصة موسى عليه السلام المكرورة في القرآن الكريم لأجل أخذ العبرة والعظة منها بشكل شمولي على النحو التالي:

تُعد قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم، سواء ما انتظم من قصته مع فرعون الطاغية، أو قصته مع قومه بني إسرائيل قبل الخروج وبعده. فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة من قصة موسى عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة. [1] وعدد السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وفي سورة الشعراء وحدها ثماني مرات. أمَّا أخوه هارون عليه السلام فقد جاء ذكره تسع عشرة مرة، منها مرتان في سورة الشعراء. وورد اسم فرعون أربعاً وسبعين مرة، وفي الشعراء وحدها ست مرات.

كما تكرر لفظ (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات في سورة الشعراء. [2]

وأكثر السور حديثاً عن موسى عليه السلام وأخيه هارون وبني إسرائيل وفرعون هي: (البقرة والأعراف ويونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والنازعات).

أما السور التي عرضت لقطاتٍ مجملةٍ من قصته فهي (سور النساء والمائدة وهود وإبراهيم والإسراء والأنبياء والمؤمنون والأحزاب والصافات والزخرف والذاريات والصف).

وبقراءة شمولية وبنظرة تحليلية فاحصة للقصص القرآني التي عرضت لقصة موسى عليه السلام نرى أن جذوره في مصر تعود إلى يوسف عليه السلام، حين أصبح حاكماً على خزائن الأرض فيها في عهد الملوك الرعاة أو الهكسوس، فاستدعى أبويه وإخوانه للإقامة معه في مصر، حسب ما ورد

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٧٧٧-٧٧٨.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/ ٢٧٠.

في سورة يوسف.

وقد أشارت الآيات القرآنية في غير موضعٍ أن سلطان مصر من الهكسوس زمن قصة يوسف ﷺ، كان يلقب بالملك وهم قوم موطنهم الأصلي جنوب بلاد الشام، وفدوا مصر واحتلوها عنوة لمدة قرنين ونيف تقريبا حسب تقديرات المؤرخين، (١) أذلوا أهلها ورحبوا بكل غريب وافد إليها، فكان وقتئذٍ قدوم بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلهم معززين مكرمين مما حمل المصريين على نبذهم وكرههم.

ثم مرت السنون تليها السنون وبنو إسرائيل في توالد مستمر، وبتوالي الأيام استجدت تطوراتٍ ضد الغزاة الهكسوس بقيادة (أُحمس) مؤسس السلالة الثامنة عشرة. الذي قام بثورةٍ داخليةٍ لطرد المحتلين فكان له ما أراد، وتم طردهم نهائياً من مصر بعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن، وبتغير السلطة استبدل مسمى كل من حكم مصر من ملك إلى فرعون.

وفي العهد الفرعوني الجديد عاش بنو إسرائيل معذبين مضطهدين، فتفرعنوا عليهم وتكبروا وتجبروا بسبب اتهامهم أنهم كانوا عيوناً للهكسوس الغزاة، ومن أشهر فراعنة مصر حسب أقوال المؤرخين (أُحمس) الذي تقدم ذكره و(أخناتون) الذي حمل المصريين على توحيد ديانتهم بإلهٍ واحد هي (الشمس) وأطلق عليها اسم الإله (أتون)، ورمسيس الثاني فرعون موسى ﷺ، الذي ولد في عهده وعاش في بلاطه وهو صغير وهرب منه بعد قتله للفرعوني ولقب بفرعون الاضطهاد، وقد مات أثناء إقامة موسى ﷺ في أرض مدين، (ومنبتاح أو منفتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم بعد وفاة أبيه، وهو الذي قابله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وعرضا عليه دعوة الإيمان والتوحيد، فأنكر دعوتهما وطاردهما وكان من المغرقين ولقب بفرعون الخروج. (٢)

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص١٦٨.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/ ٣٩٣.

وقد سجلت آيات القرآن الكريم في العديد من السور مظاهر كفر فرعون ودعوته لقومه إلى تأليهه وعبادته، وادعائه الألوهية والربوبية. فتغطرس وتجبر وسعى إلى إذلال خصومه واستعبادهم واحتقارهم.

واختتمت قصة موسى عليه السلام في العديد من السور بغرق فرعون وقذفه إلى الشاطئ ليكون للناس آية وعظة على مر الأزمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس: ٩٢]. وتصور مشاهد الآيات في السور المختلفة قلة المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من قوم فرعون ومن أبرزهم آسية امرأة فرعون التي قالت لزوجها الفرعون عند مشاهدتها لصندوق موسى بعد قذف أمواج اليم به باتجاه القصر الفرعوني:﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص: ٩].

وقد ورد في القصص دعوة فرعون لها بالكفر فأبت فعذبها ولم يزل في تعذيبها حتى فارقت الحياة. وكان منها أن دعت الله عز وجل أن يبني لها بيتا في الجنة. ومن القلة المؤمنة أيضاً برسالة موسى عليه السلام: الرجل الصالح مؤمن آل فرعون، الذي قدم الموعظة والمشورة والحجة لقومه بشأن رسالة موسى عليه السلام وهو الذي نصح له بالخروج لئلا يقتل عندما فر إلى أرض مدين. ولعله كان متأثراً بدعوة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وكان من القلة المؤمنة أيضاً السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وسجدوا لله وقالوا لفرعون:﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧٢]. وقولهم في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[الشعراء: ٥١].

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن الإله الذي كان أنبياء بني إسرائيل يدعون لعبادته هو الله رب العالمين، وديانتهم هي ديانة الإسلام بالمعنى العام في توحيدهم للعبودية والألوهية لله الواحد القهار، فقد جاء على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢]، وعن يوسف عليه السلام قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] وجاء على لسان موسى عليه السلام:﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤]،

وعن حواريي عيسى ﷺ: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ولعل من المفيد الإشارة هنا أن الله رب العالمين هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة والتلمود.

وتعود تسمية (يهود) على جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر ونسبةً إلى مملكة يهوذا فإله اليهود المزعوم (يهوه) ابتدعه كتبة التوراة المحرفة، في السبي البابلي بعد ثمانمائة عام من وفاة موسى ﷺ، فطرأ عليها التحريف والتصحيف والتبديل باعتراف آيات القرآن. فكان إلههم (يهوه) لا غاية له من العالم سوى اليهود شعبه المختار، الذين خصهم بالخيرية والتمجيد والاصطفاء وجعل النبوة قاصرة عليهم إلى قيام الساعة.

ولعل الناظر في التوراة والتلمود يرى دعوة (يهوه) لقومه الجنوح للبطش والقسوة والشر والمكر والخديعة والعدوان والتدمير وتعطشه للدماء، وله من صفات البشرية من مأكل ومشرب ومنام وحب وكراهية وغير ذلك الشيء الكثير، فأي إلهٍ هذا ؟ ولله المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القرآن الكريم فرق بين مصطلحين هما (بنو إسرائيل) وهم ذرية يعقوب ﷺ الذي كثرت النبوة في نسله، فكان منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام. وبين كلمة (اليهود) التي وردت تسع مرات في القرآن الكريم. ثلاث منها في سورة البقرة، وأربع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سورتي آل عمران والتوبة.

ونرى من بديع إعجاز القرآن أنه يطلق اسم بني إسرائيل على قوم موسى ﷺ في مواضع الرضا في أغلب الحالات، كالذي نراه في ذكر اصطفاء الله لهم، وخصهم بالرسالة وإسباغ الحكمة والنبوة فيهم.

وبالمقابل يطلق اسم اليهود على بني إسرائيل في مواضع السخط عليهم، والتنديد بقبح أعمالهم.

أو عند التحدث عن تمردهم على أنبياء الله ورسله، وما أصابهم جزاء ذلك من الذلة والعبودية لفساد طويتهم.

أو عند تحذيرهم لغلو منكر القول الذي أدخلوه في كتبهم وقالوا هذا من عند الله وكفرهم بأنعمه. وقد اقترن اسم اليهود في آيات القرآن الكريم في غير موضع بالسوء والفحش واللعن والانحراف والشدة في عداوة المؤمنين[1] لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[المائدة: ٨٢].

وبنظرة فاحصة لسلوك اليهود في القرآن والسنة نرى أنهم أصحاب الباطل، ما انفكوا يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم بعضاً، تأبى طبيعتهم العظة والاعتبار. استكبروا على موسى عليه السلام في سيناء وكانوا قوماً مجرمين. استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم طريق الرشاد الذي جاءت به الرسل، أتتهم رسلهم بآيات الله فلم ينظروا إليها بعين الاعتبار لغفلتهم، وهم قوم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها، لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج. مشهود لهم بالكبر والمكابرة والعناد، عقيدتهم فاسدة لا تخضع لأي منطق سليم يتفق وفطرة الإنسان. وأنبياء بني إسرائيل بريئون منهم ومما يعبدون من دون الله، وإنهم وإن علا شأنهم اليوم، فإن مصيرهم الهلاك والدمار في مستقبل الزمن.

ومما تجدر الإشارة إليه في نهاية المقطع أن الآيات الواردة فيه ركزت على التحليل النفسي لقوم موسى عليه السلام من بني إسرائيل، فكشفت سلوكهم وأزاحت الستار عن خباياهم، واختلافهم من بعد ما جاءهم من الحق فضلوا وأضلوا، بسبب كفرهم بأنعم الله عليهم وتمردهم على نبيهم وانتحالهم من ألوان الكفر والضلال مذاهب شتى، ولم يكن لأيام الله في أخبار الماضين من الأمم الهالكة عندهم عبرة وعظة، فانسحب عليهم مثل الله عز وجل في الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص٤٦٣.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثالث

ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧

(استفتاح الرسل بالنصر على أعدائهم سلوك ملزم للدعاة في كل عصر)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر الله تعالى في هذا المقطع على وجه العموم ما وقع بالأمم المكذبة لرسلها من عقاب يستحقونه على سبيل الترهيب لأخذ العظة والعبرة، وهذا ضرب من ضروب القرآن الكريم في عرض الدعوة لله إذ يجمع بين الترهيب والترغيب، فبعد التهديد والوعيد يميل إلى الترغيب حتى يتدارك الإنسان تقصيره في الإيمان ويرجع إلى هداية الشرع وجادة الطريق ليجنب نفسه مصارع السوء وسوء العاقبة.

ويحتمل أن يكون استهلال المقطع﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ خطاباً من موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ضمن سياق التذكير بأيام الله، وهذا رأي الطبري.

ويعتقد أيضاً أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى لأهل قريش تحذيراً لهم عن مخالفة أمره، والى هذا يميل ابن كثير وهو أولى القولين بالصواب.

وخصت الآية الأولى ذكر ثلاثة أقوام هم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وأسقطت الأقوام التي جاءت بعدهم ولا يعلمهم ويحصي عددهم إلا الله، وما يذكره النسابون فيها مجرد توهم ومحض افتراء، بسبب عدم ذكر القرآن لهم واندراس أخبارهم، كما لا يمكن القطع على مقدار السنين بين هذه الأقوام ورسالة موسى عليه السلام أو محمد ﷺ، فهؤلاء وهؤلاء استقبلوا دعوة رسلهم بالشك والارتياب والغيظ الشديد، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ليوقفوا رسلهم عن الكلام بسبب كرههم سماع تسفيه آلهتهم.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٩] فإن للعلماء في تأويلها الاجتهادات التالية:[١]

- أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل وكراهية استماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا أقوى الوجوه حجة رغم تقاربها في المعنى.

- أنهم لما سمعوا كلام الرسل تملكتهم الدهشة من غريب ما سمعوه فضحكوا على سبيل السخرية والتهكم، وما كان منهم أن ردوا أيديهم على أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك فوضع يده على فيه لأنه لا يريد أن يكشف عيب أسنانه للآخرين، ولو كانت أسنانه سليمة لما فعل ذلك.

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٤٥، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢١، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٦٩.

- أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها إما على أفواه الرسل أو على أفواههم هم ليسكتوا الرسل ويقطعوا كلامهم.

- أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم.

- أنهم جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم.

- أنهم أومئوا للرسل بالأيدي أن اصمتوا.

- أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩].

- وقيل إنّ الرسل لما أيسوا منهم التزموا الصمت وآثروا أن يضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم، في إشارة منهم للقوم أنهم بلغوا رسالات ربهم، وأنهم لا يبالون بما قد يقع عليهم من أذى القوم جراء دعوتهم ووعظهم وهدايتهم، وفي هذا كناية على تحمل الأذى بالاصطبار على سفاهة سلوك القوم والله ناصرهم وإن طالت طريق الدعوة.

- أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن أحسنوا صنعاً فاصمتوا، فإن التزمتم الصمت والسكوت كففنا عنكم الغلظة في القول، لأننا لا نريد سماع قولكم البتة.

- وقيل: إن الأيدي ههنا تفيد النِّعم، لأن إرسال هؤلاء الرسل بالشرائع نعم للبشرية إلا أنهم كذبوا بأفواههم ما جاءت به رسلهم.

ثم تنتقل الآيات لتخبر عن موقف الرسل من أقوامهم، بعد أن ردوا أيديهم ضجراً وتعنتاً، فأجابوهم على كفرهم: أفي وحدانية الله وألوهيته وربوبيته تشكون على خلاف فطرتكم التي جبلتم عليها؟ أتكفرون بخالقكم وخالق الكون بما فيه من السموات والأرض؟ أتكفرون بالله غفار الذنوب المحيي المميت الفعال لما يريد على مراد حكمته؟ وتساءلوا ما الذي حملكم على معاداة رسل الله؟ فانظروا ما جئناكم به فإن وجدتموه حقاً وهو الحق بعينه فاقبلوه، وإن كان

غير ذلك فردوه بعد مقارعة الحجة بالحجة، فلا تجعلوا بشريتنا سبباً في كفركم وعدم إيمانكم إذ ليس لأحدٍ أن يحجر على الله فضله في اختيار رسله وقد اصطفانا بالرسالة إليكم لهدايتكم من الظلمات إلى النور، وما نحن إلا بشر مثلكم يجري علينا ما يجرى عليكم من المأكل والمشرب والنوم والحياة والموت ونحو ذلك، وهذا أدعى لقبول الرسالة من نزول ملك عليكم حتى نخاطبكم بلسانكم الذي ألفتموه، كما أن في بشريتنا ما يدلل على أن منهج الله قابل للتطبيق في الأرض.

ثم أخبر هؤلاء الرسل أقوامهم اعلموا أن مع شرف اختيار الله لنا في الدعوة، إلا أنه ليس لأحدٍ منا القدرة أن يأتي من تلقاء نفسه بمعجزة خارقة مفحمة، إلا بإذن الله ساعة شاء على مراد حكمته، وهو الذي هدانا إلى سبل الرشاد وجادة الطريق والصراط المستقيم، واصطفانا من عموم خلقه لإزالة الضلال عنكم وهذا أكمل ما يكون عليه التوكل الذي هو مفتاح كل خير، فاعتبروا من حكمة الإرسال إليكم، فالعاقل من اتعظ بغيره والجاهل لا يتعظ إلا بنفسه، وأن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، ودفع مكر وكيد عدوه.

ثم تبين الآيات أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، فما كان منهم بعد أن أعيتهم الحيلة وعجزوا عن مقاومة الدليل أن قال أهل الرياسة من الكفر لرسلهم:﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣]. وهذا ما انتهى إليه تفكيرهم مع رسلهم، والمشهد هنا متكرر في كل الرسالات، إذ قالوا ليس لكم علينا من فضل بادعاء النبوة والرسالة، فكيف نؤثركم على ديانة الآباء والأجداد. ومن شواهد ذلك في القرآن:

﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله تعالى عن قوم لوط:﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[النمل: ٥٦]، وقوله تعالى عن مشركي قريش: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾

[الإسراء: ٧٦]، وقوله:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفي الآيتين الثالثة عشر والرابعة عشر يبين الله تعالى أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم وإن طال طريق الدعوة، وأن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن يسكن المؤمنين مساكن من أهلكهم الله بذنوبهم، ودليله قوله تعالى:﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإن في هلاك الظالم الكافر، ونصرة المظلوم المؤمن أبلغ ما يكون من الرد على أهل الشرك فخاب بذلك كل جبار متكبر معاند للحق أثيم لأن العاقبة للمتقين.

وتخبرنا الآيات التي تلي ما تقدم ذكرها أن مكر أهل الكفر قد انتهى بهم إلى نار جهنم خالدين فيها، فتصف لنا جانباً من ألوان عذابهم، إذ يسقون من ماءٍ صديد ليس من جنس الماء المألوف فهو غريب في قبحه ولونه ورائحته وكراهة منظره وقذارته وحرارته، يتجرعونه قسراً ولا يكادون يطيقونه أو يسيغون ابتلاعه، ويتمنون الموت وما هم بميتين، رغم أنهم محاطون بأسبابه ليستكملوا درجات عذابهم بمختلف صورها وأشكالها.

وفي قوله تعالى:﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] صيغة مبالغة واستعارة لما هم فيه من البلايا والكرب الشديد يوم القيامة، حيث يتقلبون من عذاب لآخر أشد مما قبله وأغلظ. (والصديد في الآية كل ما يسيل من جلود أهل النار من القيح)[١] وقيل أيضاً: (ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم) [٢].

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٥١.

ويختتم المقطع بضرب الله مثلاً لأعمال الكفر الحسنة في حياتهم كصلة الأرحام وإغاثة الملهوف وكرم الضيافة ومساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك، إن أعمالهم هذه يوم القيامة بسبب كفرهم محبطة غير مقبولة لا يثابون عليها تماماً كالرماد الذي لا يبقى منه أثرٌ بعد احتراق الشيء في يوم عاصف شديد الرياح، فالله يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق.[1]

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث

(١) يخبر الله تعالى عن جهالة الكفار على مدار الرسالات كلها الذين وعظوا فلم يتعظوا وأقيمت عليهم الحجة بالبراهين فلم يستجيبوا لها، بل جاهروا بالإنكار وتأولوا حلم الله فيهم في عدم معاجلتهم بالعذاب لظنهم السيئ، وبدا لهم بتطاولهم على رسل الله أنهم يحسنون صنعاً فقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزاؤهم يوم القيامة ألوان من العذاب منها أغلال في أعناقهم يقادون فيها إلى نار جهنم خالدين فيها.

(٢) تقرر الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله، وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم عندئذٍ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال، ويقولون نادمين يا ليتنا أطعنا رسل الله، ويتمنون لو أن لهم كرة أخرى في الدنيا ليكونوا مؤمنين، ولكن هيهات أن يستجاب لهم لأنهم قوم وطنوا أنفسهم على الجحود والعناد مهما رأوا من آيات وبراهين.

(٣) من تمام الحكمة الربانية أن يبعث إلى البشر رسلاً من جنسهم، وهذا من كمال الحكمة ليكونوا حجة عليهم، فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم، وإذ تعجب أهل الكفر ببشرية الرسل فتعجبهم هو الذي يستدعي العجب، فبشرية الرسل أدعى في التأثير والقبول لطول الرؤية

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٢٦.

والملازمة له والسؤال عن كل طارئ جديد في مجتمعاتهم، وبهذا تتحقق ملامسة عقول المشركين إلزاماً للحجة ومقارعتهم بها.

(٤) إن الأنبياء والرسل مع اصطفائهم وعلو منزلتهم وعصمتهم. إلا أن الله تعالى لا يأذن لهم بأن تجري المعجزات على أيديهم حسب طلب أقوامهم، وليس استعجال الكفار بالآيات القاهرة موجباً لأن يقدم الله عز وجل ما أخره، مع أنه تعالى فعال لما يريد فهو الذي يدبر الأمور بحسب إرادته وعلمه.

(٥) قررت آيات المقطع على وحدة الرسالة والرسل، ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال الرسل إليهم لهدايتهم، بحيث لو تركوا لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من الضلالات وظلمات الجهالة فأعفاهم الله منها.

(٦) تؤكد الآيات الثبات على الصبر، والإيمان بالفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، فالله هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه.

(٧) تفيد الآيات القدح في وحدة سلوك الكفار المذموم بإثارة الشبهات ضد رسلهم. من نوح ﷺ إلى محمد ﷺ، فهذا السلوك المرضي هو دأبهم على امتداد العصور وكر الدهور ومن صور إثارتهم للشبهات نعت الرسل بقوادح القول كالتكذيب والجنون والتلبس بالجن والسحر والسفه والطيش والغفلة. ومعلوم أن من استهزأ بواحد من هؤلاء الرسل فهو في منزلة المستهزئ بجميعها.

(٨) تؤكد الآيات على ذم الاستعلاء في الأرض، لأنه يورث الظلم بكل صوره، وعاقبته الذل والهلاك وهذا ما كان من نبأ أهل الرياسة في قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، فالطواغيت في كل زمان ومكان صاغتهم القوة ونسجت حولهم أوهاماً وأساطير، فهؤلاء الطغاة على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون وفي آذانهم وقر لا يسمعون، وقلوبهم غلف لا يعقلون، والمألوف عن أهل الرياسة في الكفر والضلالة أنهم حين يغلبون على أنفسهم ويخشون افتضاح أمرهم ويعوزهم الدليل والحجة عدلوا عن الجدل والمناظرة مع خصومهم، وعمدوا إلى ترهيبهم

إرضاءً لنفوسهم المتعطشة للقتل والثأر والطرد والتهجير، علهم بهذا السلوك الشاذ يسترون عوراتهم ويخفون باطلهم بإخافة الآخرين، ولعل في درس أهل الرياسة في الكفر من قوم نوح وعادٍ وثمود وغيرهم من الأقوام اللاحقة، وثبات الرسل في دعوتهم، درساً للجهر بقول الحق في الدعوة لله، مع تحذير المؤمنين في كل زمان ومكان من الاستسلام لحكم الطواغيت.

(٩) يحسن بنا إتماماً للفائدة واحتراماً لقواعد منهجية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن نربط حلقات ذكر قوم نوحٍ وعادٍ وثمود في سلسلة واحدة للإيضاح والتنوير:

ورد ذكر قصة نوح عليه السلام في مواضع متعددة من سور القران الكريم وقد تفاوتت طولاً وقصراً بما يتفق مع موضوع السورة وسياقها ومشاهد لقطاتها والعبرة المتوخاة منها. وتكرر اسمه في القران ثلاثا وأربعين مرة في ثمانٍ وعشرين سورة[١].

ويلاحظ أن السور التي ذكرت مشاهد طويلة من قصته هي سور مكية هدفها إثبات نبوة محمد ﷺ. وبيان أن القران منزل من الله عز وجل معجز بسرد نبأ الأقدمين من الرسل للعظة والاعتبار[٢].

وقد وردت أجزاء من قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة منها: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، وأنزلت في شأنه مع قومه سورة بتمامها وأشير إلى مضمون قصته في سور أخرى للعبرة[٣].

وقد تحدثت سورة الأعراف (٥٩-٦٤) عن نبوة نوح ودعوته لقومه، وتفنيد شبهات القوم له. وعجب الملأ من القوم أن يرسل الله بشراً من جلدتهم لهدايتهم.

ثم جاءت سورة يونس (٧١-٧٣) وأبرزت مشاهد من مواجهة نوح عليه السلام لقومه بالتحدي

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٨١٥.
(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ١/ ١٥٦.
(٣) قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل: ص٤٢.

والثبات ومحاججتهم بالحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته وتكذيب القوم له.

ثم جاءت سورة هود (٢٥-٤٩) وعرضت مشاهد مطولة من قصته وأبرزت دعوته لقومه، وعدم تصديقهم له، وطلبهم الاستعجال بإيقاع العذاب بهم فكان الطوفان.

ثم جاءت سورة المؤمنون(٢٣-٣٠) لتبرز أن الله بعث نوحاً إلى قومه نبياً ورسولاً لهدايتهم، وإنكار قومه عليه ذلك مع القدح بدعوته بإثارة الشبهات ضده. واستنصاره بخالقه ودعوته أن يهلك الكافرين من قومه لضلالهم وفسادهم.

ثم جاءت سورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) فأخبرت بتوسع أن الله عز وجل أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه السلام لأهل الأرض من قومه. كأول رسول بعثه الله بعد آدم بسبب شيوع الكفر فيهم إذ كان الشرك طارئاً شاذاً غريباً، أول ما تحقق في قوم نوح وكان انحرافهم عبر أجيال متطاولة متعاقبة. انتقلوا خلالها من التوحيد إلى الشرك بالتراخي والتدرج.

ثم جاءت سورة العنكبوت(١٤-١٥) فانفردت دون غيرها من السور، بذكر المدة التي استغرقها نوح عليه السلام، بدعوة قومه وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاءت سورة الصافات(٧٥-٨٢) وعرضت اللقطات السابقة التي تقدم ذكرها من بداية الدعوة وحتى الطوفان مع الثناء على نوح عليه السلام لطول صبره وجلده وحسن حججه وقوة براهينه وإعراضه عن استهزائهم في حلم وأناة صابراً على أذاهم صامداً للغوهم.

ثم جاءت سورة القمر (٩-١٧) لتحدثنا عن دعاء نوح ربه﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾وترينا لقطات من مشاهد هلاك القوم كآية باهرة.

ثم جاءت سورة نوح (١-٢٨) فأخبرت أن الله عز وجل أمر نوحاً بإنذار قومه﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وكشفت عن دعوته لهم بالعبادة والتقوى والطاعة، ووعده لهم بالمغفرة إن فعلوا ذلك.

ثم عرضت استخدام نوح عليه السلام مختلف الأساليب في دعوته حتى الكونية منها، فلفت أنظارهم كيف خلقهم أطواراً وأنبتهم من الأرض، وخلق سبع سموات، وجعل القمر نوراً

والشمس سراجاً. [١] وهذا الشاهد مألوفٌ ومشاهدٌ في يومنا هذا، حيث يعمد الدعاة إليه لبيان عظمة الله في الخلق بكشف أسرار الإعجاز العلمي في القرآن ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. حيث اقتضت سنة الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام في القرآن الكريم بلفت العقل إلى النظر والتأمل، بحثاً عن أسرار الكون ومظاهر عظمة الله في الأنفس والآفاق. مع وجوب التفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين.

وذكرت قصة هود وقومه عادٍ في القرآن الكريم، بعد قصة نوح ﷺ. بشكل يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث ولقد فصلت قصته بتوسع مع قومه في عشر سور، وبإشارات موجزة بشكل متفاوت في ثماني عشرة سورة.

وتكررت كلمة (هود) في هذه السور سبع مرات، وكلمة (عاد) أربعا وعشرين مرة، [٢] وفيما يلي موجز لأبرز ما جاء في هذه السور من نبأ هود ﷺ وقومه عاد، لإبراز وشائج الوئام والترابط بينها بما يتوافق ومحور السورة.

ففي سورة الأعراف تُحدثنا الآيات (٦٥-٧٢) عن دعوته لقومه عبادة الله وحده، وهي دعوة الأنبياء كافة لأقوامهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإنكارهم لدعوته، ثم نجاة هود ﷺ والقلة التي آمنت معه. [٣]

وفي سورة هود تحدثنا الآيات (٥٠-٦٠) عن إثبات نبوة هود، واتهام القوم له بالسفه والجنون.

---

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي، الجزء الأول: ص١٥٦.
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٨٣٠، ٦٠٥.
(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ص١/ ١٢١٨.

وفي سورة المؤمنون تمضي الآيات (٣١-٤١) دون ذكر اسم هود وعاد، وتخبرنا عن إنكار القوم لنبوة بشر من جنسهم، وتقف عند هلاك القوم بالصيحة.

وفي سورة الشعراء تتوسع الآيات (١٢٣-١٤٠) في ذكر قوم هود وتخبر أن عاداً استكبروا في الأرض وبغوا وظلموا، وجعلوا من قوتهم أداة لظلم الآخرين، ثم تبرز إثبات نبوته وتكذيب القوم له، وإنكار نصحه لهم وعدم قبول دعوته، لمخالفتها عقيدة الآباء الأولين، أوعظ أم لم يكن من الواعظين. وتبرز غرابة بناء القوم للأبراج والقصور، وتكذيبهم للبعث.

وفي سورة الأحقاف تحدد الآيات (٢١-٢٥) المكان الجغرافي لأرض القوم في الأحقاف ثم تبرز استعجالهم العذاب، فكان العارض الممطر الذي أهلك القوم بالريح المدمرة.

وفي سورة الذاريات أخبرت الآيتان (٤١-٤٢) عن مكر الله بالقوم لكفرهم، فحبس عنهم المطر وأصابهم بالقحط، وأرسل إليهم ريح العقيم فكان هلاكهم.

وفي سورة القمر جاءت الآيات (١٨-٢٢) لتخبر عن تعذيب القوم وهلاكهم بالريح الصرصر، شديدة الصوت والبرد تارة والحرارة تارة أخرى، مع وصف النحس المشؤوم.

وفي سورة الحاقة أشارت الآيات (٦-٨) إلى هلاك القوم بالريح الصرصر العاتية لشدة سرعتها واستمرارها لسبع ليال وثمانية أيام، فكانت حاسمة لخبرهم وآثارهم.

وفي سورة الفجر تتحدث آياتها (٦-٨) عن قوة القوم وشدة بطشهم، ووصف براعتهم في نحت البيوت والأبراج والقصور الشامخة.

ووردت قصة نبي الله صالح عليه السلام في عدة سورٍ، وتكرر اسمه تسع مرات، في حين وردت كلمة (ثمود) ستاً وعشرين مرةً. [1] وتراوحت مشاهد قصته مع قومه في سور القرآن الكريم بصور ولقطات متفاوتة، بين البسط في التفاصيل إلى التوسط والاعتدال إلى الاكتفاء بالإيجاز بإشارات خاطفة أو مجرد الذكر فقط، حسب ما يقتضيه السياق القرآني من الحكمة والاعتبار.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٩٦- ١٩٧ و٥٠٤- ٥٠٥.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٧٣-٧٩) نبأ دعوته لقومه وطلبه لهم عبادة الله وحده. وتقديمه الناقة معجزة له، واستهزاء الملأ من القوم به وبالذين آمنوا معه، وإقدامهم على قتل الناقة.[1]

وفي سورة هود أخبرتنا الآيات (٦١-٦٨) عن إثبات نبوته فيهم، وما خصه الله من معجزة الناقة، وإهلاك القوم بالعذاب حيث أخذهم الله بالصيحة.

وأخبرتنا سورة الحِجْر في الآيات (٨٠-٨٤) عن موطن القوم الجغرافي والتي منها اشتق اسم السورة.

وفي سورة الشعراء أخبرتنا الآيات (١٤١-١٥٩) عن دعوته لقومه بتقوى الله وطاعته ولزوم أمره واجتناب نواهيه، وأبرزت مظاهر ترف القوم وطلبهم لمعجزة مادية وعقرهم للناقة.

وفي سورة النمل أخبرت الآيات (٤٥-٥٣) عن دعوته لقومه وتطيُّر الكافرين به وبالمؤمنين الذين معه على قلة عددهم، واستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإبراز مكرهم وما هم عليه من الإفساد في الأرض، فكان عاقبة مكرهم الدمار والصيحة.

وفي سورة القمر أخبرت الآيات (٢٣-٣٢) إلى دعوته في قومه وعقرهم للناقة، ومعاقبتهم بالصيحة.

أما السور التي تناولت إشارات خاطفة لقصته ﷺ فكانت (الإسراء٥٩، فصلت١٧-١٨، الفجر٩-١٠، الذاريات٤٣-٤٥، التحريم٥١). وهي في مجملها تخبر عن نبوته ومعجزة الناقة وأخذهم بالصاعقة، وبالمقابل نرى ورود اسم قومه (ثمود) مجرد ذكر فقط في السور التالية:

(التوبة٧٠، إبراهيم٩، الحج٤٢، الفرقان٣٨، العنكبوت٣٨، ص١٣، غافر٣١، ق١٢ البروج١٨).

---

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ١/ ٢٦٧.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الرابع

ويمتد من الآية ١٩ إلى الآية ٣١

(مقارنة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ﴾[1]

---

(١) قرأ حمزة والكسائي في الآية ٢٠ (خالق السموات والأرض) والباقون (خلق السموات والأرض) كما في المصحف. قرأ حمزة في الآية ٢٢: (وما أنتم بمصرخي) بكسر الياء المشددة وقرأ الباقون بفتحها كما في المصحف. انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي: ص٢٥.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أهل قريش ألم تعلموا أن الذي خلق السموات والأرض بالحق على مقتضى حكمته، قادر على الخلق من العدم، وإن قدرته على إهلاك الكافرين واستبدالهم بخلق جديد أسهل، فليس ذلك متعذراً ولا ممتنعاً عليه سبحانه وتعالى.

وتتوقف آيات المقطع في الآيتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، لتصوير مشهد رهيب إذ تقف جميع الخلائق بارزة بين يدي الله يوم القيامة برها وفاجرها من الأولين والآخرين. وتقع المناظرة بين الرؤساء والأتباع بما فيها من الجدل والملاسنة، ويقول الضعفاء التابعون من عوام أهل الكفر ممن أسقطوا عقولهم، لأهل الرياسة أكابر جماعة الكفر والغواية، لقد كنا تابعين لكم في تكذيب رسل الله، واقتصر دورنا في الحياة على الائتمار بأمركم عملاً بوعودكم وآمالكم: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١٢٠]. فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من عذاب يوم القيامة؟

وهنا يجيب الذين استكبروا على صغار القوم من الكافرين توبيخاً لهم على جهلهم: لو هدانا الله للهداية لهديناكم وسلكنا بكم طرق النجاة بدلاً من العذاب الذي نجازى به، فليس لنا مهربٌ مما نحن فيه من عذاب جهنم، ولا جدوى من الخصومة والاحتراب بيننا واتهام بعضنا بعضاً في إضلال صاحبه، وسواء علينا أجزعنا أم صبرنا فلا مفر من عذاب الله وإنه آتٍ لا محالة.

وبعد أن يقضي الله الأمر بالعدل بين الخلائق ويذهب أهل النار إلى عذابهم، يقف إبليس بين أتباعه خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم:

إن الله وعدكم وعد الحق في البعث والجزاء والجنة والنار من خلال رسله فأنجزه بعدله ووعدتكم منكراً من القول وزوراً من الإفك تدليساً وتزييناً وعداً باطلاً، أن لا بعث ولا حساب فأخلفتكم وعدي بإضلالي ووسوستي لكم، فما كان منكم أن أسرعتم طوعاً واختياراً لطاعتي، فلا تلوموني على صنيع فعلكم القبيح هذا، بل لوموا أنفسكم على سرعة هرولتكم في الاستجابة لضلالي وشروري، ونحن اليوم جميعاً في نار جهنم مع اختلاف مراتبها ودرجاتها،

وليس لأحدٍ منا القدرة في دفع العذاب عن الآخر.

ثم يصرح إبليس بذلة وانكسار، الآن حصحص الحق فلست أشاطركم الرأي فيما ذهبتم إليه في الدنيا حين أطعتموني في أعمال الشر وإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة وتدبير الكون توهماً منكم، إني أنكر عليكم اليوم طاعتكم لي وأنتم صاغرون أمام وسوستي، فأنتم أهل ضلالة لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله بكم فانحرفتم من الإيمان إلى الكفر، بسبب الميل الحاصل عندكم من تأثير الشهوة والغضب والوهم والخيال، فالكافر منا (والقول ما زال في سياقه لإبليس) إذا أحس بشيءٍ ترتب عليه شعوره توهماً. فقد أقامت عليكم رسل الله الحجج على صدق ما جاءوا به، بيد أنكم خالفتموهم والتمستم طريق الضلالة فما أنا بمنقذكم ولا أنتم بمنقذي، إن كلينا اليوم لكفره له عذاب شديد.

ويرى بعض المفسرين أن خطبة إبليس هذه تكون بعد الفراغ من القضاء وقبل الدخول إلى النار، بسبب ضغط الكافرين عليه وقولهم له لقد أضللتنا وكنت سبباً فيما نحن فيه. [١] إذ يقف الكافرون بين يدي الله تعالى أذلاء خافضين رؤوسهم بسبب كفرهم، بعد أن رأوا بأعينهم أهوال يوم القيامة، وما أعده الله لهم من العذاب فعرفوا أن وعد الله حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فينظرون إلى النار التي أعدت لهم فيظهر على ووجوههم آثار الكآبة ويبدو عليهم الحزن والغم ويغشاها الخزي والذل، وعندها يدرك الكافرون أن ما توعدهم الله تعالى به من العذاب الشديد كان حقاً فيتوجهون باللوم إلى إبليس الذي تنازلوا له عن عقولهم وألغوا تفكيرهم لأجل طاعته على غير هدىً وبصيرة منهم لجهالتهم وظلمهم لأنفسهم.

وبعد ذكر أحوال أهل النار تفرد الآيات اللاحقة توصيفاً رائعاً في مشهد جميل لأهل الجنة، وما خصهم الله به من النعيم الأبدي وتحيتهم فيها سلام، فالمؤمنون يحيون بعضهم بعضاً بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٥٦، والكشاف للزمخشري: ٢/ ٥٢٩.

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، والله عز وجل يحييهم بها كذلك[1] لقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ ﴾ [يس: ٥٨].

وتبرز الآيات أن المؤمن يوم القيامة يكون موضع حفاوة وتكريم، فيدخله الله الجنة وينعم عليه فيها بنعيم دائم، ثواباً على ما قدم من أعمال صالحة في الدنيا، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى إذ لا يستوي عنده المؤمن والكافر ولا المطيع والعاصي، فيثيب المؤمن على إيمانه ويعاقب الكافر على كفره، وقد جعل لعذاب الكفار ألواناً من صورها شدة الغليان فعندما يطرح الكافرون فيها، يسمعون لها أصواتاً وزفراتٍ مخيفة ويتقلبون فيها وهي تفور من شدة الحرارة، كما تكون النار في حالة غيظ وغضب شديدين يتطاير شررها في كل مكان.

وعندما يلقى الكافرون تباعاً في النار جماعة بعد أخرى، تسألهم ملائكة العذاب لتوبيخهم وتحقيرهم ولتذكرهم بتقصيرهم في اتباع رسل الله، فيقولون لهم ألم يأتكم رسلُ ينذرونكم ويحذرونكم من هذا العذاب الشديد، فيجيب الكافرون وهم متحسرون بلى قد جاءنا رسلٌ من الله تعالى، ولكن كذبنا الرسل وزعمنا أن الله لم ينزل أحداً منهم، فكنا من الضالين المكذبين، وكان علينا أن نسلك طريق الهداية بدلاً من طريق الشقاء والضلال الذي كان مآله نار جهنم، ويقولون بحسرةٍ وألم شديدين ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ ﴾ [الملك: ١٠].

وبعد أن أخبر الله تعالى عن أحوال أهل النار والجنة، انتقلت مشاهد المقطع في لطيفة قرآنية إلى تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، في إشارة للكلمة الطيبة بعبارة التوحيد: لا إله إلا الله،[2] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشجرة الطيبة بالمؤمن طيب الذكر بفضائل خلقه وحسن عمله الخالص لوجه الله، أما الكلمة الخبيثة فجاءت كناية عن عمله الفاسد الذي لا يراد به وجه الله، وأمره بالمنكر ونهيه عن المعروف. فالكافر لجهله بالله وعمله الفاسد أصل المصائب والابتلاءات والجهالات والشقاوة والفتنة

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٨٩.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٢.

والخراب، فلزم اجتثاثه لشركه وفساده كاجتثاث الشجرة التي لا طائل منها، وحكمة هذا التشبيه أن الكلمة الطيبة حاصل النفع بها على الدوام في الدنيا والآخرة، ثابتة في قلب المؤمن تصعد إلى السماء على مدار الوقت ليثاب صاحبها على كريم خلقه، تماماً كالشجرة الطيبة في ثبات جذورها العصية عن الاقتلاع أياً كانت شدة الأعاصير التي تصطدم بها، وهذا الضرب من الشجر جميل في رائحته وثماره ولونه وأوراقه ولحائه وعصائره وجذوره وأزهاره، مع روعة ارتفاعه السامق إلى الفضاء، لهذا جاء تشبيه المؤمن بها لأنه لا يخلو من العطايا ووجوه الخير والبر في الأوقات كلها. (فالمؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيءٍ ينتفع به). [١] ولا يكتمل السرور إلا بحضرته أو عند ذكره، وتبقى أعماله الصالحة صدقة جارية له بعد موته.

وقد أورد الرازي قول أحد الصالحين في مماثلة تشبيه الشجرة الطيبة بالكلمة الطيبة: (إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بتوافر ثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وأغصان عالية، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب وقول باللسان وعمل بالأبدان). [٢]

ويستفاد من ذلك أن الكلمة الطيبة يتأتى عنها كل خير متدفق، ينبغي لكل حصيف فهيم أن يسعى لتحصيلها في أمور حياته الدينية والدنيوية لتكون ملازمة له، والانتقال بها من مقام التنظير في القول إلى مقام التطبيق في العمل، كعمل الشجرة في إنتاج غذاءها بنفسها حسب مراد الله لها في نموها وتحصيل النافع منها، فهي حاضرة في منافعها على الدوام، للإنسان والحيوان والطير والبيئة المحيطة بها.

ولما بيّن الله عز وجل صفة الكلمة الطيبة التي يكون أصلها ثابتاً رسوخ الشجرة في تربتها الصالحة، والكلمة الخبيثة التي تتغيا الشك والفتنة والاقتتال والإفساد في الأرض، بالشجرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٦٠.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٢.

الخبيثة التي لا قرار لها، مثالاً على الكافر الذي (لا حجة لرأيه ولا ثبات لموقفه ولا خير منه وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح). [١]

ثم انتقل الخطاب بعد ذلك إلى بيان أن الثبات على طاعة الله ومحبته في الدنيا، توجب الثبات للميت عند سؤال الملكين له في القبر، حين يسألانه: (من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول إن كان مؤمناً ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ [٢]، [٣] وقد ثبته الله تعالى بهذا القول ولقنه إياه بسبب مواظبته على العبادات وعلى الشهادة، وبعده عن مواطن الغلو والزلل والشهوات والفحش في القول والعمل، وتعطر فمه بذكر الله وبتلاوة القرآن، وبالمقابل فإن الكافر إذا سئل هذه الأسئلة أجاب: لا أدري! وكان في ضلال كبير، والله فعال لما يريد إن شاء هدى وإن شاء ضل، أراد الخير لهم إلا أنهم لم يشاءوا ذلك لأنفسهم فتركهم أحراراً لذواتهم.

ثم جاءت الآية الثامنة والعشرون والتي تليها وقد نزلت في المشركين الذين قاتلوا رسول الله يوم بدر، إلى تخصيص الخطاب لأهل مكة وبيان فضل الله على أهلها، حيث أسكنهم حرمه الآمن واجتثت الكفر منها، ولم يعد المشركون يشاركون المؤمنين في حجهم، ووسع عليهم معيشتهم وأكرمهم بأن أرسل فيهم محمداً ﷺ منهم وإليهم بلغتهم، ومع هذا لم يعرفوا قدر النعمة وبدلوا شكرها كفراً، وجعلوا لله أنداداً فكانت شبهاتهم لرسولهم ومحاربتهم له وما ضربوه من أصنام حول الكعبة وما نحتوه منها خير شاهدٍ على ذلك، وجعلوا من أيديهم معاول هدم لبيوتهم في الدنيا، (فأصابهم الله بالقحط تارة وبالأسر والقتل كيوم بدر تارة أخرى، وأذهبً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٤.

(٢) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عن البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾قال : نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٤.

عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم).[1]

ويختتم المقطع بالتأكيد أن قوماً هذا ديدنهم، فإن عاقبة أمرهم جهنم خير نُزُلٍ لهم، ساءت مستقراً ونُزُلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه شدة صلة هذا المقطع بمحور السورة، لاشتماله على أحكام وآداب وأساليب تربوية لا نظير لها لحمل الناس على الهداية، وعدم التيئيس من رحمة الله بفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب، ومما يعضد محور السورة في الإخراج من الظلمات إلى النور اشتمال المقطع للعديد من التشبيهات والأمثال لأجل العظة والعبرة.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

(١) إن الظاهر من سياق الاستشهاد بذكر أقوام نوح وعادٍ وثمود، هدفها أخذ العظة من أحوال الماضين من الأمم التي كفرت بأنعم الله وبرسالاّته، حتى تتحصل لدينا تجنب المزالق في أحوال الدين والدنيا من باب قياس الحاضر بالغائب. وفيها من لطائف الحكمة تقرير أن أحوال الأمم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف وتبدل من حال إلى حال على مر الأزمنة والعصور. كما فيها من العبرة والتسرية لتكون سياجاً للحصيف من كل ضعف وانحلال، تخرجه من الغفلة والنسيان من نعمة الاعتبار هذه، فلربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع لهم من تغير أحوالهم وانقلاب الدهر بهم، واندراس تاريخهم وانتقال الملك إلى غيرهم، ويفوته في ذلك الكثير من الحكم.

(٢) تقرر الآيات ليس للشيطان على الإنسان من سلطان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومن هنا يتبين لنا غلط من يزعم أن للشيطان قوة التأثير بالتهديد والوعيد على مخالفيه من البشر، فقولهم هذا من السفاهة مالا يقوم عليه دليل ولا حجة، وهذا توهم مما أحدثه بعض الناس وابتدعوه ممن تحجرت

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٤.

عقولهم. وكل قول لا يعضده حجة زائف باطل دل على فساده بذاته. وقد أقامت آيات المقطع الدليل المشاهد على عجز الشيطان أمام المؤمنين، الذين وطنوا أنفسهم على مخالفته ودليله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فالشيطان في حقيقته مغلوب مقهور مما يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٧٦]، وقد أعطى الله المؤمن الآيات النافعة على مواجهة الشيطان، ما لا يأتي عليها التعدد والإحصاء كالفاتحة والبقرة والمعوذتين ونحو ذلك. ومما يؤسف له في هذا الزمان استحكام الجهل بالدين، مما أدى إلى ازدياد أعداد المتوهمين بالتلبس في كل طارئ صحي، وإن في ذلك لعبرة لمن كان له عقل يفكر به.

(٣) أفردت آيات المقطع مناظرتين للشياطين.

الأولى بين رؤسائهم وأتباعهم من كفرة الإنس.

والثانية بين إبليس وأتباعه من شياطين الإنس والجن، لأجل بيان أن كليهما يوسوس لصاحبه ويزين له الشر، لقوله تعالى:﴿ شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى:﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويفيد ظاهر الآية أن الشيطان لا يكون له مدخل على الإنسان إلا في حالة ضعف الوازع الديني المصحوب بظلمات أمراض القلب، المفضي إلى الغضب والطيش والسفه وانقطاع من الآخرة وإقبال من الدنيا مع استغراق طلب شهواتها، ويكون الآحاد من هؤلاء مغلوباً على أمره طعمة لكل مشعوذ ونصاب، وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم، لما فيهم من طبائع التخيل والاستسلام لوساوس الشيطان، فصار لهم التوهم خلقاً والتلبس سجية تنزل فيهم منزلة الطبيعة والجِبلة، فحصل لهم توهم الانقياد للشيطان بذل وانكسار.

(٤) تبيّن الآيات أن المؤمنين الذين صحت لهم مقام العبودية وأحوال الصِدّيقين، أبعد الناس تأثراً عن أمراض القلب وهوى النفس، وهذا مشاهد ومكرور بين الناس في كل زمان، فالمؤمن أسرع الناس قبولاً للحق لسلامة فطرته التي جُبل عليها. وهذه الصفة ممتنعة وعسيرة على غيرهم

من أهل مرضى القلوب، فالقلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف بالباطل بينها، بسبب ما تحمله من طول الأمل في الحياة والتطلع إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ وثروةٍ وسلطان، وهذا مفسد للنفس مورث لسقم الأبدان، ومن كان ديدنه ذلك سارعت وساوس الشياطين إليه، فاستحق أن تنسحب عليه الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة. أما إذا انصرفت القلوب إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله بصدقٍ وإخلاصٍ ذهب عنها التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد بينها بسبب ائتلاف نفوسها، ورسخ فيها العبادة على مقتضى الأحكام الشرعية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وتحقق لها مظاهر استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض، وأهل هذا الضرب هم الذين شبههم الله في المثل بالكلمة الطيبة والشجرة الطيبة.

(٥) بمناسبة قوله تعالى:﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، تفيد هذه الآية أن حال الكافر في الدنيا أياً كانت: من عسر أو رخاء ونعيم، ومن سقم واعتلال أو صحة وقوة ومن بسط أو ضيق، فإنها قياساً بعذاب الآخرة تمتع ونعيم إلى حين،[1] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨]، ونظير ذلك في القرآن الكريم كثير منها قوله تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقوله تعالى:﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، وقوله تعالى:﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٧٠]. فكل نعيم سوى الجنة حقير وكل عذاب سوى النار هين ميسور. ويفيد ظاهر آيات المقطع أن الله عز وجل لا يغفر الكفر إلا بالتوبة والدخول في الإيمان، فالكافر إذا أسلم صارت ذنوبه مغفورة وجبت ما قبلها، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

(٦) إن اشتمال المقطع على ضرب الأمثال يفيد أن المثل في كتاب الله يعتبر إما لوناً متميزاً من ألوان التشبيه، أو لوناً خاصاً من ألوان الاستعارة، فإن كان الممثل له مذكوراً في الكلام كان

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٥.

تشبيهاً، وإن كان محذوفاً فهو استعارة[(١)].

وحكمة ضرب الأمثال في كتاب الله وردت لتحقق هدف تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة والعظة من خلال قياس الحال على الحال.

أو للترغيب في العمل كقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

أو لمدح الممثل كقوله تعالى في تشبيه الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

أو للتنفير والاستقباح، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢].

أو لإبراز التهديد والوعيد بالأسلوب الذي يليق به، كمعاداة بني إسرائيل لرسالة موسى عليه السلام ومنابذتهم له بالعداوة لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]. ومثاله أيضاً تشبيه شجرة الزقوم وهي طعام أهل النار بأن طلعها كرؤوس الشياطين، لما استقر في النفس من بشاعة الشياطين،[(٢)] لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥]، سيقت هذه الأمثلة للبيان والتقريب لتحمل الناس على التصديق بالعقل والقلب والتفكير والتذكر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧]، ومن العلماء من أفرد لأمثال القرآن بالتأليف كتباً مستقلة كالماوردي، ومنهم من عقد لها باباً في

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢١٠.

(٢) علوم القرآن، د. عدنان زرزور: ص٣١٩.

أحد مصنفاته كابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين والسيوطي في الإتقان.

وتقسم الأمثال في القرآن على ثلاثة أنواع: الأمثال المصرحة، التي جاءت بلفظ المثل أو التشبيه، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٧-١٩]، ثم الأمثال التي لم ترد بلفظ التمثيل كقوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]. وأخيراً الأمثال المرسلة وجاءت بدون التصريح بلفظ التشبيه، لحكمتها أصبحت تجري على ألسن الناس مجرى المثل من باب التدبر والعظة والجدة في القول، [1] ومثال ذلك كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر/ ١٤].

ومما يجدر التنبيه إليه هنا احتراماً لقدسية القرآن الكريم تحريم القول في هذه الأمثال، من باب الهزل والسخرية والمزاح، كقول أحدهم تهكماً إذا وجد نفسه في بيئة اجتماعية فاسدة من شرب خمر أو عند سماع فساد قولٍ، لحمل الناس على الضحك مداعبة لهم ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]، ويرى الزمخشري أن حكمة ضرب الأمثال في القرآن ما جاءت عبثاً بل: (زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ليتأتى الفهم التام منها). [2]

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ٢٨٦.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٣٢.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الخامس

ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤

(عظمة الله في الكون ونعمه على خلقه)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

أعلم سبحانه وتعالى في نهاية المقطع الرابع الحث والتحريض على الإنفاق الخالص ابتغاء مرضاته من غير منٍّ ولا أذى سواء أكان ذلك بالسر لصدقة التطوع والعلن للفرض الواجب منها، ونظير هذه الآية جاء في سور القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣]، ففي المجاهدة بالمال انتفاع لصاحبه في الدنيا والآخرة، قبل أن يدركه الموت فلا انتفاع وقتئذ ببيوع تجارة ولا مخالّة لقرابة أو صداقة لأحدٍ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

بعد هذا الإعلام انتقل الخطاب في المقطع الخامس إلى عرض الدلائل الدالة على كمال قدرة الله عز وجل في الخلق والتدبير، مما يؤكد وحدة الترابط بين مقاطع السورة ومناسبتها،

فالمتقدم منها يمهد للآحق ويؤطر له، وهذا من الأساليب القرآنية في التأكيد على مراد الله من محور السورة.

ففي هذا المقطع يخبر الله عباده أنه خص كل شيءٍ في الكون بنعمة يقف وراء كل منها حكمة مخصوصة كخلق السموات والأرض وإنزال المطر من السماء وتسخير الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، للحكمة والمصلحة، بما يكون فيها صلاح أمر عباده واستقامة شؤون حياتهم وهذه المنافع التي يسخرها الله بالكلية للإنسان، لا تتحصل له إلا بتحمل المشاق في العمل لإعالة النفس في كسب الرزق، وقد شاءت إرادة الله عز وجل أن جعل الأرض بيئة الحياة الكبرى للإنسان وذللها بساطاً له، ووفر له فيها كل أسباب الحياة، وقدر له فيها من الأرزاق ما يفي بحاجته وحاجة كل الأحياء التي على ظهرها، بدءاً من الكائنات الدقيقة وانتهاءاً بالإنسان نفسه أجلّ مخلوقات الله، كما سخر الشمس والقمر دائبين لا يفتران، فحصل منهما مع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس الليل والنهار، فجعل من الأولى سكناً ومن الثانية السعي في أمور العمل والمعايش لعباده، كما تحقق لأهل الأرض الانتفاع من الشمس والقمر الاستضاءة بضوئهما، ومن الشمس ظاهرة الفصول الأربعة إلى غير ذلك من المنافع كالتبخر الموجب للسحب وإنضاج الزروع وسلامة الأبدان والبيئة.

وتوقفت آيات المقطع بذكر جانب من فوائد مياه المطر والبحار والأنهار، فجعل من الأولى غيثاً يصيب الكائنات الحية بالخير من إنسان وحيوان ونبات، فنشأ من المطر صورٌ لحياة متنوعة في أشكالها وأحجامها وأنواعها وأنماط معيشتها في سلسلة غذائية تعتمد بعضها على بعض في علاقة توصف بالآكل والمأكول باستمرارية وتوازن، يلعب فيه النبات والشجر والزروع المتباين في ألوانه وأشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه فيصلاً في حياة الإنسان والحيوان، ولهذا يطلق على النباتات مصطلح المنتجات، لأنها تنتج غذاءها بنفسها بفعل ما سخره الله لها من التربة ومياه المطر وأشعة الشمس، وعلى سواها من الكائنات الحية المستهلكات، لأنها تعتمد في غذائها على الأولى، والعلاقة الغذائية بينها متداخلة تأخذ صورة سلاسل غذائية بحيث ينتقل

الغذاء من المنتج إلى المستهلك الأول فالثاني فالثالث وهكذا تبعاً للبيئة التي تستوطنها الأحياء كل ذلك على مراد الله وحكمته وتدبيره في الخلق، كما جعل الله عز وجل من مياه المسطحات المائية من بحار وأنهار منافع عظيمة، سخرها للإنسان تساعده على الاستخلاف في الأرض ويسر له صناعة السفن بأنواعها لتحمله وأمتعته وتجارته من بلدٍ لآخر يقصده، تجري في المياه بأمره، إلى غير ذلك من منافع مياه الأنهار العذبة في السقاية والري.

وعلى ضوء هذه العجالة في المعنى الإجمالي للمقطع، يتبيّن لنا أن مجمل ضروب نعم الله كثيرة، مما لا يحصى عده لو فصلت تفصيلاً دقيقاً، فالواجب علينا مقابلة هذه النعم بشكرها وتعظيمها آناء الليل والنهار، وتقريع الكافرين الجاحدين بها. فمن كرم الله عز وجل على عباده منذ الخلق الأول، أن ذلل لهم ما سألوه وما لم يسألوه من نعم عامة كخلق السموات والأرض، وما فيها من ظواهر سخرها للإنسان، فلولا السماء لم يصح إنزال الماء منها، ولولا الرياح لم يصح انتقال السحب من مكان لآخر على مراد الله، ولولا الأرض وما عليها من تربة وصخور لم يوجد ما يستقر الماء فيه، ولولا الخيرات الدفينة في باطن الأرض كالبترول ومختلف أنواع الثروات الأخرى لما قامت حضارة، ولولا التربة لانتفت حياة النباتات التي تعيش عليها المخلوقات الأخرى، ولولا الشمس لانعدمت الحياة على سطح الأرض بالكلية، ولو اقتربت الشمس في مسافتها قليلاً أو بعدت قليلاً عن الأرض لما قامت حياة عليها بسبب ارتفاع حرارتها أو برودتها، ولولا دورات الكربون والنيتروجين والماء في الطبيعة وقوانين الحرارة والحركة الالكترونية في الذرات لاستغلقت الحياة على الأرض، ولو كان الأكسجين أكثر من نسبته الحالية في الهواء لاحترق كل شيءٍ على سطحها، ولولا الجبال لتناثرت الأرض أثناء دورانها، وهذا بالكلية قياس على باب النعم العامة جاءت بميزان الحكمة والتقدير والتدبير في الخلق والعلم الأزلي بما ستكون عليه احتياجات الخلائق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]، أما نعم الله الخاصة على الإنسان فهي أكثر من أن يحصيها العباد ويأتي على رأسها نعمة الإسلام والصحة والأمن والولد والمال والنجاح في الحياة، فالولد الصالح نعمة والتفاؤل في الحياة نعمة والصبر على الابتلاء نعمة والزوجة الصالحة نعمة إلى ما سواه

ويمتنع حصره من النعم، مما لا نستطيع له عداً لأنه فوق الحصر والإحصاء، ثم اختتم المقطع بقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ما يفيد معنى أن الإنسان رغم وفرة نعم الله عليه إلا أنه ظالم لنفسه شديد الكفران بها، وقد جاء نعت جاحد النعمة على صيغة مبالغة للتشديد والتأكيد في جحوده للنعمة وظلمة لها. وحول هذه الجزئية يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لو أن عقول جميع الخلائق ركبت وجعلت عقلاً واحداً، يتأمل في عجائب حكمة الله تعالى في الأفلاك والأنفس وعجائب البحر والبر والنبات والحيوان، لما أدرك منها إلا القليل) [١] ثم نراه يقول في موضع آخر: (والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث، دلالة على صحة البرهان القاهر في قوله تعالى:﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾. [٢]

وختاماً فإن شكر النعمة هنا هو المخلص من مقام الظلم والكفران والشكوى والجزع والتذمر والمحرر للنفس من ظلم جشعها في جمع المال وحبسه عن الآخرين. وإذا كنت في نعمة فارعها، فإن الله سريع النقم، وإن الذاكر لنعم الله حيٌّ وإن حبست منه الأعضاء، والمنكر لها ميتٌ وإن تحركت فيه الأعضاء، فابشر بفضل الله عليك إن كنت من أصحاب شكر النعم.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا: ارتباط العلاقة بين هذا المقطع والمقطع الثاني في وجوب شكر نعم الله على الإنسان وعدم الجحود بها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٧].

وفي هذا التشابه دلالة على وحدة ترابط مقاطع السورة بما يخدم محورها، بدليل قوله تعالى:﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس

(١) تقرر آيات المقطع أن نعم الله على الإنسان كثيرة، فمتى حاول الواحد منا التأمل في بعضها، غفل عن إدراك الباقي منها لأن الآحاد منا مجبول على النسيان، استغراقاً في طلب

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٩٩-١٠٠.

الدنيا، ومثاله إذا تحقق له اليوم نعمة كانت عنه بعيدة المنال بالأمس تجاهل قيمتها، وتطلع إلى غيرها بظلمه ونكرانه وجحوده. ولأجل هذا ورد التأكيد في هذا المقطع على وجوب شكر نعم الله العامة والخاصة بالكلية، ومن يك خلاف ذلك من الخلق فإن مكره عائد عليه. وليس هناك كرامة لإنسان بلا عقل لا يشكر لله نعمائه، ومن ينسحب عليهم كفر النعم عميت بصائرهم عن التأمل، لمرورهم عن آيات الله ونعمه غافلين، لا ينظرون ولا يعتبرون ولا يتعظون، فالآحاد من هؤلاء عاجز عن توظيف عقله وتفكيره على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل، ومما يدعو إلى الدهشة أن أهل هذا الضرب من الناس ليسوا غافلين عن نعم الله المادية والمعنوية فحسب، بل يضيقون ذرعاً في العبادات المخصوصة من صلاة وصوم وزكاة وحج لأنها تذكرهم بنعم الله هذه وتحثهم على شكرها.

(٢) إن في آيات المقطع دعوة التحريض على وجوب النظر والتأمل والاعتبار بدلالات عظمة الله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فعندما يتأمل الإنسان الكون وما فيه من سموات ومجرات وشموس وبروج وكواكب وأقمار، يدرك بعقله أن لهذا الكون خالقاً أحكم نظامه على قاعدة من التوازن الدقيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]. وتتشابه آيات هذا المقطع مع الآيات الكونية التي انتظمت في سورة الرعد التي تقدمتها في الآيات (٢-٤ و١٢-١٣) ففيها إخبار من الله عز وجل عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، في خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا دليلٌ على تكامل سور القرآن ووحدة دعوتها لله بالعقل والتدبر.

(٣) بيان الحكمة الربانية من حركة الشمس ومنازل القمر.

إن الناظر في آيات المقطع يرى أن الله عز وجل قد خص هذا المقطع بذكر الشمس والقمر والأرض، والشمس في عرف علماء الفلك نجم فوق القزمي بقليل قياساً مع النجوم العملاقة

تسير في مدار حول محورها لا تتجاوزه، وسوف تستمر في حركتها إلى يوم القيامة حيث تنتهي وظيفتها، وهذا مما استأثر الله بعلمه وعندئذ يتوقف سيرها وتسكن حركتها وتنتهي طاقتها إيذانا بنهاية الحياة الدنيا. وهي مركز المجموعة الشمسية التابعة لمجرة درب التبانة، تدور الكواكب التابعة لها حولها بفعل الجاذبية، وهي مصدر الحياة على سطح الأرض للكائنات الحية ولولاها لانعدمت الحياة على سطح الأرض. ولقد أقسم الله عز وجل بالشمس في سورة حملت اسمها ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾ في إشارة ربانية إلى مكانتها.

كما قدر الله عز وجل للقمر السير في ثمانية وعشرين منزلاً ينزل في كل ليلة منزلاً يتخطاه لأجل ذلك يتم معرفة الشهور والأيام وتحديد بداية ونهاية الأشهر القمرية. ففي الليلة الواحدة يكون القمر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوره حتى يكتمل في الليلة الرابعة عشرة. ويأخذ بعدها في التناقص بشكل تدريجي حتى إذا كان في آخر منازله ظهر كغصن النخلة اليابس في دقته وتقوسه بسبب وقوع الأرض بينه وبين الشمس ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس: ٣٩]، وقوله تعالى:﴿ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾. [يس: ٤٠]، يستفاد من ذلك أن دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنه الليل والنهار، ودورتها حول الشمس ظاهرة الفصول الأربعة، ودوران القمر حول الأرض الشهر القمري، ومن رؤيتنا للقمر يتم تحديد بدايات ونهايات الأشهر القمرية. وفي هذا برهان قاطع على أن كل أجرام السماء تدور في دوائر خاصة بها، لا تحيد عنه حتى لا يدرك الآخر صاحبه.[1]

(٤) بيان الحكمة الربانية من خلق الأرض وتعاقب الليل والنهار.

لقد انتظم في القرآن الكريم عدة آيات تتحدث عن الأرض وما عليها لتلفت أنظار الناس إلى التأمل في قدرة الله تعالى على الخلق، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٢٣٣.

مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١١]، اختارها الله عز وجل لتكون الكوكب الذي يفيض بالخير والبركة، أعطيت من الخصائص ما حرمت منه الكواكب الأخرى، اختارها الله عز وجل لآدم وذريته من بعده، وأرسل عليها الأنبياء والرسل فكانت الكوكب الأمثل في الخلق، مرت بحقب وعصور متطاولة في أزمانها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها. ثلاثة أرباع مساحتها ماء، تبعد عن الشمس حوالي خمسين ومائة مليون كيلو متر تقريباً، تصل إليها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية. لها دورتان الأولى حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ينشأ عنها تعاقب الليل والنهار، وبمقتضى حكمته سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل، ودورة ثانية حول الشمس بشكل إهليلجي في فلك محدد مرسوم لها من رب العالمين، بسرعة تسعة وعشرين كيلومتر في الثانية وتكتمل دورتها حول الشمس في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً تقريباً وست ساعات وبضع دقائق تقريباً. ينتج عنها الفصول الأربعة. وقد أحصى العلماء مؤخراً مجموع عناصر الأرض مائة وستة وعشرين عنصراً، وهذه العناصر في مجملها مكون من الذرة ومنها تكون كل شيء في الكون بإرادة الله ومشيئته.

(٥)	جاءت كلمة السماء في القرآن الكريم بمدلولات عديدة هي:

- وردت بمعنى السماء الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥].

- احتملت معنى السحب وما يصحبها من مطر وبرق ورعد لقوله تعالى﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ [نوح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٣٢].

- تفيد معنى العلو والصعود في الفضاء، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

- كما وردت بمعنى السقف لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

- وتفيد كلمة السموات بالجمع الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾[البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولقد أورد ابن منظور في لسان العرب أن السماء: اسم مشتق من الفعل سما يسمو بمعنى الارتفاع، وعليه يقال سموت وسميت بمعنى علوتُ وعليتُ، والسماء سقف كل شيء، والسماء أيضاً كل ما علاك فأظلك. (١) والسماء بالمفهوم العلمي: الفضاء اللا متناهي الذي يحيط بمجرات السماء الدنيا من جميع الاتجاهات، ما يرى منها بالعين المجردة وما لم ير إلا بالمراصد الفلكية العملاقة، وما عجزنا عن رؤيته اليوم قد يكشف العلم عنه مستقبلاً من مجراتٍ مجهولة لدينا. (٢)

(٦) من عظيم سلطان الله عز وجل في الخلق والتدبير ،أن عَبر بألفاظ صريحة في سور كثيرة ،ما يفيد معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء والقدرة على فعل ذلك من العدم كألفاظ: الخلق والتسخير والإبداع والفطر والجعل والقضاء ومثال ذلك قوله تعالى :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢].

(١) لسان العرب، لابن منظور: ٢/ ٢١٠-٢١٣.

(٢) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٩٦.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع السادس

ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١

(نبأ إبراهيم ﷺ أبا الأنبياء في دعوته)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

يخبرنا الله تعالى في هذا المقطع عن جانبٍ من قصة إبراهيم ﷺ المكرورة في القرآن الكريم لمن أراد أن يتعظ، وما يعتبر بها إلا العقلاء الذين يتدبرون، إذ استهلت الآيات بحكمة أن اذكر يا محمد لقومك من أهل قريش أحفاد إبراهيم ﷺ الذين انقلبوا عن ملته وقصته في قومه، كمثال الصدع بالحق بالكلمة الطيبة التي أينعت الشجرة الطيبة، فأثمرت كلماته بطيبها هداية نقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، وذكِّر أيها النبي قومك عداوة إبراهيم ﷺ للأوثان والأصنام التي كانت سائدة في قومه، وأخبرهم في طلب دعائه من ربه أموراً سبعة هي:

١- الإنعام بنعمة الأمن للبيت الحرام وما حوله، بمعنى أن يجعل مكة بلداً آمناً ذا أمن حتى يأمن أهلها فلا يخافون من شيءٍ ما داموا نزلاء فيها، وأن يصرف عنهم الخوف من الفقر وكيد الجبابرة والظالمين، ويأمنها من كل خراب أو دمار أو فتنة ومن ألوان الشرك، ونظيره في آيات القرآن قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وحكمة الابتداء بطلب نعمة الأمن في مجمل دعائه دلالة على أنها من أجلّ أنواع النعم وأعظمها

إذ لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، ويرى الرازي في تفسيره أن بعض الحكماء قد فضلها على نعمة الصحة، لأن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد، [١] وقد استجاب الله عز وجل دعاء إبراهيم ﷺ فجعل البلد آمناً تتقاطر إليه الخلائق للعبادة رغم جاهليتهم، ومن الأسيف أن أهله سلكت طريقاً مغايراً مخالفاً لملته، فكفروا بنعمة الأمن وجعلوا لله أنداداً وصدوا عن سبيل الله، [٢] فكان هذا التذكير لهم.

٢- الطلب من الله عز وجل أن يجنبه وولديه إسماعيل وإسحاق على وجه الخصوص، وعموم أحفاده إلى قيام الساعة فتنة عبادة الأصنام على إطلاق مسماها، وما تحتمله من تأويل سواء كانت تلك الأصنام حجرية أم طواغيت بشرية، إذ جاء ذكر إبراهيم ﷺ في مختلف كتب التفسير مقروناً بعهد الطاغية الكافر(نمرود)، الذي قال بالإلوهية فعبده قومه إلى جانب عبادتهم للكواكب، حيث أبطل بالعقل مزاعمه مدللاً على ربوبية الله وحده لا شريك له وحكمة تخصيص نفسه في قوله:﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، مع أنه معصوم عن خطأ عبادتها كسائر الأنبياء والرسل، إنما وردت في سياقها (هضماً للنفس وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله)[٣] في كل مطلب له آناء الليل وأطراف النهار. ويعلق سيد قطب في تفسيره على دعاء إبراهيم ﷺ هذا: (أنه ﷺ بدعائه أراد التسليم المطلق إلى ربه بالتجائه إليه في أخص مشاعر قلبه، لأجل أن يخرج من القلب ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده فلا معبود إلا الله). [٤] وقد أجاب الله دعاءه في حق بعض ذريته دون البعض الآخر، ودليل ذلك: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ويرى بعض العلماء أن دعاء إبراهيم ﷺ هذا خاص

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧٠.
(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧١.

بالمؤمنين من أحفاد ذريته، بدليل قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفي قوله ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، لم يكن طلبه في الآية الشفاعة للكافرين، وإنما طلبٌ للمغفرة والرحمة لكل من كان عاصياً دون الكفر والشرك، لأن من مات على الكفر لا شفاعة له. [1] كما يفيد مضمر الدعاء التماسه من الله أن يؤخر قبضهم إليه وعدم تعجيل عذابهم حتى يؤمنوا طواعية، أو يصرف قلوبهم بالإلطاف من الكفر إلى الهداية والتوبة إن كانوا من أهلها، لأجل هذا اتصف إبراهيم عليه السلام أنه حليم أواه منيب متسامح عطوف.

٣- ويمضي إبراهيم في دعائه الثالث فيقول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ويذكر فيه إسكانه بعض أبنائه إسماعيل وأمه هاجر في هذا الوادي المقفر من ضروب الزروع وألوان الفلاحة، إذ لم يكن فيه يومئذٍ ماء وليس فيه من الخلائق أحد، فلا أنيس للنزيلين من أهل بيته إلا الله الغفور الرحيم القادر على كل شيء، فالتمس من ربه أن يدركهما بفضله وكرمه، وأن يكلأهما برعايته في آية من آياته فكانت ماء زمزم، ثم جعل الخلق تستوطن هذا الوادي بدءاً بقبيلة (جُرهم) اليمنية التي تنتسب إلى العرب العاربة من أهل قحطان، ومن يومذاك أخذ الناس يتقاطرون إليها، خاصة بعد أن أخذ إبراهيم عليه السلام في زيارته الثانية برفع قواعد البيت وإسماعيل، لحمل الناس على الحج وأداء شعائر العبادات المفروضة. وكان من لطف الله وببركة هذا الدعاء، أن جلبت الخيرات إلى مكة مذ ذاك الزمان إلى يومنا هذا، ولم تزل وفرة الخيرات فيها إلى قيام الساعة بإذن الله. وبمناسبة قوله في الدعاء ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ فإن (من) هنا تفيد التبعيض، بمعنى أنه عليه السلام أسكن إسماعيل ولده الأكبر وهو من بعض ذريته في هذا المكان، واحتبس ولده الآخر إسحاق عليه السلام معه في أرض كنعان بفلسطين في بلدة حبرون (الخليل)، ينتظر أمر الله بشأنه، وهذا في غاية التضحية والفداء لأجل الله عز وجل.

---

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٣.

٤- ويتتابع دعاء إبراهيم عليه السلام في هذا المقطع حتى بلغ مطلبه الرابع في قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٨]. وحكمة هذا الدعاء ما تضمنه من أدب الإشارة، لقوله أنه ما أنزل بعض ذريته في هذا المكان، لهدف دنيوي يصيبه بل لإقامة شعائر العبادة على مراد الله من خلال وحي الله وإلهامه له بهذا العمل، رغم ما في ظاهره من قسوة الحنو على فراق ولده الأكبر، والله شهيد على طاعته وامتثاله أوامره، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ونظير ذلك في القرآن مكرور منها قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر: ١٩].

٥- وفي الدعاء الخامس يتضرع إبراهيم عليه السلام بالحمد والشكر لله عز وجل الذي رزقه، بعد أن بلغ من الكبر عتياً واشتعل الرأس شيباً، بولديه إسماعيل من هاجر وإسحاق من سارة، إذ كانت عاقراً لعقود استطال العهد عليها، ومما تجدر ملاحظته من واقع حال بعض الناس أن هبة الذرية مع التقدم في السن بعد طول انتظار، أوقع في النفس، موجب لمضاعفة الحمد والشكر والدعاء للظفر برضى الله على نعمائه، التي لا منتهى لقيمتها في نفس صاحبها بعد أن أدركه اليأس عقوداً، مع العلم بأن لا يأس مع رحمة الله، فالصبر في مثل هذه المواقف أصدق الامتحانات لكشف معادن الناس، والركون إلى اليأس مع فقدان الأمل ليس من الإسلام في شيء. وقد شاءت حكمته تعالى أن يكون الرزق بالذرية، في وقته وسنته ويومه وظروفه وأسبابه، على مراد الله مقدر بترتيب إلهي للحكمة، وبالمقابل قد يجعل من يشاء عقيماً لحكمة ومقدرة عنده سبحانه وتعالى.

٦- ويتوقف عند دعائه السادس بالقول:﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، يفيد هذا الدعاء بالطلب إلى ربه الذي أكرمه بالرسالة أن يثبت قلبه وذريته على الإيمان بالله، وأن يخلع عليهم من ضروب الصبر على الطاعة والصبر عن المعاصي والصبر على المصائب ما يعينه على أداء الرسالة، ويعين المؤمن من ذريته على ديمومة الحفاظ على الشعائر بأوقاتها على مراد الله منها، بعد أن علم بإعلام

الله له أنه سيكون في ذريته المؤمن والكافر.

٧- واختتم دعاءه في هذا المقطع بقوله:﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[إبراهيم: ٤١]، إذ أراد به الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته، بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً يوم يقوم الحساب، وقصد إبراهيم عليه السلام من دعائه لأبيه حمله على الإسلام، فلما تبين خصومته وعداوته لدين الله تبرأ منه. (ويلاحظ في الدعاء حرصه على استمرار الخير في ذريته، وهذا خلق ينبغي أن يتحقق في كل مؤمن). [١]

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من آيات المقطع السادس

(١) يحسن بنا إتماماً للفائدة وتوافقاً مع قواعد منهجية التفسير الموضوعي التعريف بإبراهيم عليه السلام: إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، أثبت الله نبوته في آيات عديدة من سور القرآن الكريم، وكرمه تكريماً خاصاً، وشهد له بأنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لأنعمه بالحمد والولاء، يذكر اسمه في القرآن والسنة مقروناً بالكرم والدعاء والتضحية، وهو صاحب الفداء بالذبح العظيم، آتاه الله رشده في صغره مذ عقِل، واختاره رسولاً واتخذه خليلاً[٢]، وفضله على كثير من خلقه، متسامح حليم أواه منيب، جاء ربه بقلب سليم، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين، وأمرنا الله تعالى باتباع ملته، وجعل في ذريته من نسل هاجر وسارة النبوة والكتاب والحكمة. ويعد حج البيت العتيق من أعظم آثار اتباع ملته، يتفق المؤرخون أن مولده كان في العراق في القرن التاسع عشر ق. م. منذ أربعة آلاف عام. [٣] عاش في قوم اعتادوا عبادة الكواكب السيارة والنجوم كالشمس وعطارد والقمر والزهرة، ومنهم من توجه إلى عبادة الأصنام

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٨١٤.

(٢) ورد في الحديث (يا أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم٥٣٢/ ٢٣.

(٣) العرب واليهود في التاريخ : د. أحمد سوسة: ص٧٤، ٤٨٠.

والتماثيل، فأحس بفطرته تفاهتها فأنكرها وأعلن براءته منها وحطمها، وتوجه صادقاً لفاطر السموات والأرض. وهنا بدأ صراعه مع أبيه وقومه، فما كان منهم بعد أن غلبهم في جداله ومناظراته حول آلهتهم المحطمة، أن طرحوه في النار ليقتلوه قصاصاً لفعلته. فأنجاه الله منها وكانت له برداً وسلاماً. وحتى لا يؤذيه بردها، قال تعالى: وسلاماً إذ لو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه لكانت برداً قاتلاً وهذا من لطيف التعبير القرآني، وكان من المفروض أن تنتقم آلهة القوم لنفسها ممن حطمها، ولكنهم حين أرادوا إحراقه لم تحرقه النار وخذلتهم آلهتهم. وتعطل قانون خاصية الإحراق. (وهنا تحجرت قوانين الكون وأصبحت عاجزة أمام قدرة الله وإرادته فكانت المعجزة). [١]

وبعد تلك الواقعة قصد بلدة (حاران) مولياً ظهره لمسقط رأسه بصحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط. ومنها توجه إلى أرض كنعان (فلسطين) فمكث فيها مدة من الزمن، ثم انطلق بعدها إلى مصر وكل حركاته مقدرة له من رب العالمين حسب حكمته ومشيئته، فما لبث أن غادرها عائداً إلى أرض كنعان مع أهله وجاريته هاجر، ونزل في بلدة (حبرون) وهي الخليل اليوم ولعل اسم المدينة مشتَقّ من خليل الله.

ولم يمض وقت طويل حتى رزقه الله ولده الأول إسماعيل من جاريته المصرية هاجر، فأسكنه وأمه مكة وشيد معه البيت الحرام. وعهد الله عز وجل لهما عليهما السلام أن يطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

ثم ولدت له زوجته سارة لاحقاً ابناً في شيخوخته أسماه إسحاق بعد أن بشرت الملائكة به حين زيارتهم له وإعلامه بمصير هلاك قوم لوط.

ومما يجدر ذكره أن اسم إبراهيم مكرور في القرآن تسعاً وستون مرة في خمس وعشرين

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد متولي الشعراوي: ١/ ١٠.

سورة. [1] وكان ذكره في كل سورة يأتي مناسباً لسياقها العام وما يعرض منها يتفق وموضوع كل سورة، ومناسبة الآيات في السورة تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، والمناسبة التي تساق القصة من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والمشهد الذي تعرض له ومدته، ومعلوم أن كل قصة مجملة أم مفصلة أم قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، وقد يذكر في القصة ما لا يرد في غيرها من الصور والمشاهد. كأن يذكر إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الكواكب والأصنام في سورة، ويرد تحطيمه للأصنام ومحاكمته على أعين الناس في سورة أخرى، ومحاججته للملك الكافر المنكر لوحدانية الله وربوبيته وألوهيته وتحديه له أن يأتي بالشمس من المغرب في سورة ثالثة، وطلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في سورة رابعة، وحمده أن وهب الله له على الكبر إسماعيل وإسحاق وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة وذريته وأن يقبل دعاءه ويغفر لوالديه يوم يقوم الحساب في سورة خامسة. ونجاته ولوط إلى الأرض المباركة في سورة سادسة، والأمر باتباع ملة إبراهيم في سورة سابعة.

ويتضح لنا مما سبق اختصاص كل سورة بحدث معين. والنهج ذاته مكرورٌ في قصص الأنبياء والرسل كافة، مما يتطلب على من يأخذ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يربط بين مختلف الصور والمشاهد والأحداث المشتركة التي يقتضيها السياق الواحد.

وورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التوسع في ذكر بعض تفاصيل ومشاهد قصته، وتعد سورة البقرة خير دليل على ذلك. إذ ذكر نبأه في الآيات ١٢٤-١٤١ و٢٥٨ و٢٦٠. كما ورد ذكره في آل عمران بشيء من التفصيل أيضاً في الآيات ٣٣ و٦٥ و٦٧-٦٨ و٨٤ و٩٥ و٩٧.

الحالة الثانية: التوسط والإعتدال في بعض المشاهد واللقطات وهذا القول ينسحب على

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: ص٢-٣.

سور إبراهيم والشعراء والزخرف والحديد.

الحالة الثالثة: الاكتفاء بذكر اسمه بإشارات بسيطة ضمن بعض الأنبياء، وهي كثيرة منها على سبيل المثال: الأحزاب وص والشورى والنجم. وفيما يلي مجمل السور التي ورد فيها ذكر إبراهيم عليه السلام حسب العدد: البقرة خمس عشرة مرة، وآل عمران سبع مرات، والنساء وهود والأنبياء أربع مرات لكل منها، والتوبة ومريم والحج والصافات ثلاث مرات لكل منها، ويوسف والنحل والعنكبوت والممتحنة مرتان لكل منها. وورد ذكره عليه السلام مرة واحدة في السور التالية بعضها بإيجاز بسيط وبعضها بتفصيل: الشعراء وإبراهيم وص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والأحزاب والحجر والأعلى [١].

(٢) بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان. فالتقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، فأهل الكفر والشرك - صم بكم عمي فهم لا يعقلون - صمٌّ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسل الله، عُميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة في الكون. [٢]

(٣) التأكيد أن لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى. كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين تبرأ من أبيه لشركه بالله، وما وقع لنوح عليه السلام مع ابنه وامرأته عند الطوفان، وما تحقق للوطٍ عليه السلام مع امرأته من الشرك قبل الهلاك. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب. ولقد بينت آيات القرآن عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أولي القربى. فإبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه - فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه. وتعد رابطة العقيدة بين المؤمنين إحدى مقومات التربية في الإسلام

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص٢-٣.

(٢) روح الدين الإسلامي، عفيف طباره: ص٢٧١.

ولا تقوم صلة بين اثنين إلا على أساسها. (١)

(٤) التأكيد على مكانة البيت الحرام وقدسيته الذي جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمناً، فهو أول بيت وضع للناس للعبادة، وتحققت فيه دعوة أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ، فأذِن الله عز وجل لنوره أن يشرق على أرض جزيرة العرب من جديد. فاقتضت حكمته تعالى أن تكون مكة مهداً لرسالة الإسلام، فقد جعل فيها الكعبة المشرفة واختار محمداً ﷺ العربي رسولاً إلى الناس كافة. ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولم تكن رسالة محددة يختص بها جيل من الناس شأن الرسالات السابقة، بل جاءت عامة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. والعرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم ﷺ، توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه في توحيد الله وعبادته، وفي تعظيمهم للبيت الحرام وتقديسه وخدمته، ومن الحكمة الإشارة هنا أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب عن سائر الناس في الرسالة، وفضل قريشاً عن سائر القبائل وفضل اللغة العربية على اللغات الأخرى.

(٥) لوحظ في آيات المقطع تكرار توظيف كلمتي (ربنا ورب) في الدعاء تأدباً، ففيهما القول الفصل لمقصد توحيد الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، وفي تكرارها التأكيد على سحر فعلها في نقل الناس من الظلمات إلى النور. (٢)

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٢٢١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧٤.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع السابع

ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢

(صورٌ من مشاهد يوم القيامة)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]

بعد أن بيّن الله عز وجل في المقطع السادس دلائل التوحيد والتماس إبراهيم عليه السلام من ربه صونه عن الشرك بالله عز وجل، وأن يوفقه للأعمال الصالحة ويخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة، انعطف الخطاب بعدها في المقطع الأخير إلى التأكيد أن الله عز وجل يمهل الكافر ولا

(١) قراءات: قرأ أبو عمرو في الآية ٤٢: (إنما نؤخرهم) بالنون وقرأ الباقون كما في المصحف. وقرأ الكسائي في الآية ٤٦: (لتزول) بفتح اللام الأولى وضم الأخيرة، وقرأ الباقون بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخيرة كما في المصحف. وحجة من قرأ هذه القراءة أنه جعل (إن) بمعنى (ما) وجعل اللام الأولى لام نفي، والتقدير هنا ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، ونظيره في القرآن (ما كان الله ليذر المؤمنين) آل عمران/ ١٧٩، بهدف تصغير مكر الكافرين تحقيراً لهم وشماتة في إهلاكهم. انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي: ص٢٧-٢٨.

يهمله. وللزمخشري هنا تعليق لطيف على افتتاح هذا المقطع إذ يقول: (إن الله عز وجل يتعالى عن السهو والغفلة في عقابهم عما يعملون، ومراد الله من إرجائهم تحقيق الوعيد والتهديد، فهو الرقيب عليهم والحاسب على ظاهر وباطن أعمالهم، وفي هذا الاستفتاح تسرية للمظلوم وتهديد للظالم). [١]

وتمضي آيات المقطع لتبرز بعضاً من مشاهد يوم القيامة التي تحيط بالكافرين إذ يستجيبون لله في تسارع (مهطعين) شاخصة أبصارهم في استطالة التحديق إلى السماء بذهول وانكسار، كل في انتظارٍ تسلم صحيفة حياته الدنيا بشماله، ويرجون الله تعالى أن يردهم للحياة الدنيا في كرة ثانية ليتداركوا ما فرطوا في أمر الله، بسبب ما كانوا فيه من الغفلة واستيلاء الجهل والسفه على عقولهم، ويعملوا الصالحات بعد أن رأوا أهوال هذا اليوم وما أعده الله لهم فيه من العذاب، وشواهد تمنيهم هذا مكرور في آياتٍ عديدة منها: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون: ١٠] فيجيب الله عز وجل على مطلبهم هذا توبيخاً وتحقيراً وتهكماً وتبكيتاً، ألم تقسموا غير مرة في الحياة الدنيا أن لا بعث ولا حساب وإن هي إلا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر، ألم تقولوا أن البعث والحشر ممتنع بالكلية، فهذا هو دليل زعمكم:﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠]، كما تبيّن الآيات ما أصاب الأمم السابقة من العذاب بسبب كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم رسله وإعراضهم عن دينه، وفي هذا تنبيه للعقلاء لأخذ العبرة من إرسال الله على تلك الأقوام ألواناً من العذاب التي أهلكهم بها، ولم يبق منهم إلا آثار تشهد على ما حل بهم من العذاب الأليم وفي ذلك دليل على قدرة الله تعالى، فليعتبر الكافرون بما حدث لمن سبقهم ويتعظوا من عاقبتهم إذ بوأهم منازل تلك الأقوام يستقرون بها.

والمتأمل لسور القرآن الكريم التي تناولت مشهد أهل النار يوم القيامة يمكنه رصد خمس دعوات لهم، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٤١.

﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ [غافر: ١١]، فيجيبهم الله ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾[غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ ﴾[إبراهيم: ٤٤]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات/ ٣٥-٣٦][1].

وتتابع الآيات في اتساق هادف تفصيل الله عز وجل شيئاً من عظيم مكر الكفار الذين استفرغوا جهدهم في معاداة رسول الله، وهذا مكرور مع رسل الله كافة، حتى أن مكرهم لشدته ما تزول منه الجبال، ومع هذا فإنه عند الله أوهن من بيت العنكبوت في ضعفه، لأن الله محبط أعمالهم ومفسدها. والله سيجازيهم بمكر أعظم من مكرهم، ويراد بمكر الكافر هنا الشرك بالله ومنابذة رسل الله بالعداوة، والشك في رسالاتهم، بما في ذلك من خسة ونذالة واحتيال وخديعة وإفك في القول. أما مكر الله فهو تقدير وتدبير على مراد حكمة الله عز وجل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٠-٣٨١.

ولله المثل الأعلى وشتان بين المكرين، فمكرهم معول هدم أما مكر الله فأداة بناءٍ لصرح عظيم لنقل الناس من الظلمات إلى النور، وقد ورد تخصيص الجبال لاستحالة زوالها، فالأولى بالقياس عليها استحالة طمس شريعة الله ورسالته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، والعاقبة للمتقين والله لا يخلف وعده بنصر أوليائه، فمن أسمائه أنه عزيز ذو انتقام.

وبعد هذا الوصف لمكر الكفار ينتقل سياق الخطاب ثانية إلى تصوير مشاهد أخرى من يوم القيامة، كتبدل الأرض إلى أخرى مغايرة لها، مبسوطة مستوية كالأديم لا تضاريس لها ولا يرى فيها اعوجاجاً، وتتبدل السموات بتناثر مجراتها وتكوير شموسها، كمقدماتٍ وتوطئة لبروز الخلائق للحساب مؤمنهم وكافرهم في أرض المحشر. ولعل في حكمة تكرار مشاهد القيامة إبلاغ الإنذار والتهديد والوعيد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة (برزوا) قد وردت بصيغة الماضي لتفيد الاستقبال على التأكيد في وقوع هذا المشهد.

كما تنقلت آيات المقطع في لقطاتها فأبرزت صوراً من مشاهد عذاب الكفار، ففي المشهد الأول يكون بعضهم مقروناً بالأصفاد إلى بعضهم البعض مع شياطينهم الذين أضلوهم، وفي مشهد آخر يقرنون بالأصفاد والأغلال إذ تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وفي مشهد ثالث تدهن جلود الكفار بالقطران فتبدو للناظر ثياباً (سرابيل) يلبسونها، لتضاعف من عذابهم بسبب شدة تفاعلها مع النار وأثرها الحارق على الجلد، مع كراهية رائحتها النتنة باحتراقها على الجسم، فتصبح مصدراً للقيح والصديد، منبع شراب أهل النار، وكلما احترقت أجسادهم وتفحمت أعادها الله إلى سيرتها الأولى ليقاسوا العذاب من جديد بديمومة في عذاب أبدي خالدين فيه، يجزي الله فيه كل نفس كافرة ما كسبت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء: ٥٦]، وصور العذاب هذه وغيرها مما أتى القرآن على ذكرها،

تختلف باختلاف درجات ومراتب أهل النار. وقد خصت الآية في هذا السياق الجلد بذكر الحرق دون سائر الأعضاء مع أن العذاب ممتد إلى الجسد كله، لأجل كشف إعجاز طبي يفيد حقيقة أن الجلد هو المسؤول عن حاسة اللمس والإحساس والألم إلى عموم الجسد وإلى النفس، وبهذا تتم المزاوجة بين عذاب الجسد وعذاب النفس من خلال الشعور بألم الجلد.

كما خص الله الوجه بالذكر في المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه، وهو محط المشاعر والحواس[1]، والإنسان بلا وجه إيماني مظلم قاتم أصمٌ أبكمٌ أعمى كالأنعام أو أضل، ليس له عقل يتعظ به ويتدبر، ومن كان ديدنه كذلك فالنار أولى به، وهذا ضربٌ من ضروب العذاب في النار ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨]، واختتم المقطع الأخير بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، تبيّن هذه الآية الكريمة وجوب الإيمان بأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى حق لا شك فيه، أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ ككتاب هداية يدعو الناس إلى الإيمان وعمل الخير ليفوزوا برضوان الله تعالى، ومن سار على هديه أقر الله عينه وأراحه بنعيم دائم في الجنة جزاءً على صدق إيمانه. وفي هذا الخير كله دعوة للاشتغال بالنظر والتأمل والتذكير والموعظة، ليتحرر الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العالمين، ولا يحسن فهم هذا البلاغ القرآني إلا ذوو العقول الراجحة القادرة على التمييز بين الحق والباطل والظلمات والنور.

وبهذا الخطاب انعطف المقطع الأخير ليتحد في هدفه ومحوره مع المقطع الأول في الدعوة إلى الله وتوحيد الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل. فهذان المقطعان يؤلفان مع بعضهما البعض وحدة متجانسة فيهما من وشائج الترابط ما يشد عضدهما بمقاطع السورة الأخرى فزادها حسناً وجمالاً، فأكدت هذه الخصوصية أن سورة إبراهيم بمقاطعها السبعة مجموعة واحدة في هدفها وغايتها وإن تعددت مقاطعها، وقد حفل هذان المقطعان بالعديد من

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٨١٩.

الدروس والعظات لأهل مكة بما شمله من التذكر والإنذار والبلاغ، ليس من باب التكرار بل على سبيل التأكيد للوفاء بالغرض الذي سيق من أجله المقطعان.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير

١ - تحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ، لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر، على ما يواجهه من صعاب في قومه، وفيه درس لشحذ همم الدعاة لتقوية عزيمتهم في الدعوة، مهما تعاظمت التحديات التي تواجههم، بهدف الاستماتة في الثبات على مبدأ الدعوة أياً كانت المغريات أو المعوقات.

٢ - أكدت آيات المقطعين الأول والسابع الأخير أن الرسول ﷺ شاهد على أمته في تبليغ الرسالة ونصح الأمة وأداء الأمانة، والناس جميعاً على قدم المساواة بين يدي دعوته، لهذا كان الجزاء أثراً من آثار صفة العدل الإلهي بين الخلائق يوم القيامة.

٣ - مع أن الخطاب في المقطع الأخير خاص بالرسول ﷺ وقومه، إلا أن الله عز وجل تشريفاً لمنزلة رسوله ومكانته عند ربه شاءت حكمة الله مخاطبة رسوله الكريم بمضمر القول، بالتلميح دون التصريح بهمساتٍ رقيقة دافئة المشاعر، تفيد معنى أن إمهاله للكافرين رغم مكرهم يجب ألا يُحمل بالظنون ولو كان عبر حديث النفس من بعض المسلمين، فهذا لا يليق بجلال الله وعظمته مع استبعاد الرسول ﷺ من هذا التوهم لكونه ممتنعاً عليه للعصمة، فهو أكمل الخلق في صفاته وخلقه وصبره وتضحيته، وظنون الغفلة والنسيان محال أن يتصف بها الله عز وجل ولما كان للكلمة في القرآن الكريم وزنها وقدسيتها، فإن أدب الخطاب هنا جاء للمسلمين كافة انطوى على دروس تربوية عظيمة يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

أ - في هذا الخطاب تنبيه مبطن للمسلمين وتحذير لهم، من تسلل وساوس الشيطان إليهم بالظن السيئ بالله، أياً كانت النوازل والعوادي التي تعصف بهم جماعات وأفراداً.

ب- أن الدعوة إلى الله مرتبتها عظيمة ليس لأحدٍ بلوغها إلا بقوة العقيدة وما تتطلبه من

الصبر لحصول المقصود منها.

جـ- أن الجهاد بالمال والنفس والكلمة من أصدق الامتحانات لنصرة العقيدة.

د - أن الله عز وجل قد يصيب بعض المسلمين مرارة الضعف والهزيمة تارة وبالغلبة والظفر تارة أخرى جولاتٍ لتدبيرٍ إلهي محض، لكشف معادن النفوس وصلابتها حسب درجات إيمانها، ليثاب كل حسب درجته ومنزلته.

هـ- تقرير أن الصبر في الدعوة والثبات عليها وقت الشدائد من مفاتيح النصر والظفر برضوان الله تعالى.

و- أن السبيل لمعرفة منازل المؤمنين لا تتأتى إلا بالبلاء والمحنة، فيظهر الله بها أهل الإيمان من غيرهم.

ز- التحريض على التروي والتحلي بالأناة احترازاً من العجلة في الحكم على ظواهر الأشياء التي عقباها الحسرة والندامة، لأجل ذلك خلق الله للإنسان أذنين ولساناً واحداً ليستمع أكثر مما يتكلم، ومن خالف فطرته هذه كان من أهل فضول الكلام بمرذوله وقوادحه وجب زجره تأدباً.

حـ- التأكيد على أن العاقبة للمؤمنين وإن استطالت طريقها، بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.

ط- أن الحكمة من إمهال إهلاك الكافرين لأجل أن يتقرب المؤمنون إليه أكثر بالتضرع والدعاء للاعتصام بحبله.

ي- اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء، فلو بسط لهم النصر على الدوام لطغوا وتواكلوا وتجنبوا الأخذ بالأسباب.

٤- إن وجه الارتباط بين هذا المقطع والمقطع الخامس الذي تقدمه واضحة المعالم والأهداف، فالمقطع الأخير تناول جانباً من الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ

﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. أما المقطع الخامس فقد اشتمل بالكلية على جوانب متعددة من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن، وفي هذا من العبرة والعظة دلالة على عظمة الله في الخلق، ما يحمل الإنسان على التأمل بما يراه وما لا يراه وبما خلق الله وما سيخلق وما يجري في الكون من تبدل وتغير وفق سنن ربانية، وفي هذا التشابه بين المقطعين دعوة لتوظيف العقل والفكر والحواس لإدراك حقيقة الكون وظواهره.

٥- إن ظاهر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] دالة على فناء الكون يوم القيامة، ودليل هذا الفناء مكرور في القرآن الكريم في السور التالية: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١-٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار/ ١-٤].

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ١-٢]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥﴾ [طه: ١٠٥].

﴿نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: ٦-٧].

ولقد أخبر الله تعالى أن بداية هذا الفناء سيحدث بعد النفخة الأولى وفيه تتعطل سنن الكون وقوانينه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١-٢].

ثم يعقبها النفخة الثانية وهي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت، ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: ٦-٧]، فالنفخة

الأولى هي الراجفة والثانية هي الرادفة، حسب قول ابن عباس.

ودليل ذلك قوله تعالى:﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقد جاء تسمية الصور في القرآن بالناقور.

٦- التأكيد على وجوب الإيمان باليوم الآخر كركن من أركان العقيدة مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

فعقيدة الإيمان بالله تعالى لا تنفك عن الإيمان باليوم الآخر، فمقتضى الإيمان يوجب تصديق الله في كل ما أخبرنا به في وعده ووعيده.

وقد ورد في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بنيف وعشرين اسماً منها: يوم البعث ويوم القيامة ويوم الدين ويوم الخروج ويوم الحشر ويوم الجمع ويوم الفصل ويوم الحسرة ويوم الوعيد ويوم الخلود والدار الآخرة ودار الخلد ودار القرار والواقعة والقارعة والحاقة والطامة والآزفة والغاشية. ومع أن الإيمان باليوم الآخر من أركان العقيدة، إلا أن الإيمان به ضرورة أخلاقية تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي ليشعر المؤمن بسعادة عدم استواء منزلته مع الكافر يوم القيامة.

٧- انتظم في القرآن الكريم والسنة النبوية طائفة من أوصاف الجنة والنار وأن في الجنة أنواعاً من النعيم المادي والروحاني، لا تخطر ببال أحد من الخلق مصداقاً للحديث الشريف: (قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[١]، وأن في النار أنواعاً رهيبة من العذاب المادي والروحاني، وأنها دركات ووديان بعضها أشد عذاباً من بعض،[٢] وما سيق في المقطع الأخير من صور العذاب إلا اليسير منه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله، حديث رقم: ٦٩٤٤.

(٢) العقيدة الإسلامية، د. عبد الرحمن الميداني: ص٦٦١.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بداية اليوم الآخر تكون بنفخة البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت، ثم بالحشر، فبعد البعث يتم حشر الخلائق لموقف الحساب لقوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾[الزلزلة: ٦].

ثم الحساب والميزان للفصل بين الخلائق لإقامته العدل بينهم، لقوله تعالى:﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾[الغاشية: ٢٥-٢٦].

ثم الصراط وهو طريق يسلكه الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمنون يجتازونه إلى جنة الخلد بسرعات تتفاوت على مقدار تفاوت الإيمان والأعمال الصالحة، أما غيرهم من المنافقين والكفار فيسقطون في نار جهنم، وقد أشار القرآن الكريم إلى الصراط في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾[مريم: ٧١]، وهي المرحلة الأخيرة وفيها الثواب والعقاب،[1] ثم الجنة والنار.

٨ - بمناسبة قوله تعالى في الآية ٤٢ ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ ما يفيد أن الكفار إذا دُعو للحساب امتثلوا لأمر الله مهرولين مسرعين مطأطئي الرؤوس في ذل وانكسار، وشواهد ذلك مكرور في القرآن الكريم في أكثر من آية كقوله تعالى:﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[القمر: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[ق: ٤٢-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[المعارج/ ٤٢-٤٤]. وحكمة هذا الشاهد أن هؤلاء الكفار قد سجلوا على أنفسهم التقصير في حق الله وتمنوا لو كانوا على عقيدة التوحيد، منكرين على شياطينهم سبب ما هم عليه من العذاب. ولعل من عجيب

(١) المرجع السابق: ص٦٥٩.

اللطائف القرآنية في هذا السياق تشابه بعض الآيات في أرقامها مع اختلاف سورها.

٩- بمناسبة قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لقد ورد في كلمة قطران أربع قراءات هي (قِطْرَانٍ) و(قَطِرَانٍ) و(قَطْرَانٍ) و(قِطْرِآنٍ) [١].

تحتمل كلمة القطران معنى الزفت والقار وقد تحتمل أيضاً ما يشتق من ضربٍ من الشجر يقال له الأبهل، يستحلب منه قطرات ثم تطبخ على النار وتوضع بعد ذلك على الإبل وشتى أنواع البهائم المصابة بالجرب، فتحرق جلدها وتقضي على جربها، وهناك من رجح القطران في الآية ما يسكب على الكافر وهو في النار من النحاس المصهور. [٢]

وبقراءة تأملية تحليلية في هذه الجزيئية نرى أن منطق العقل يقتضي القول أن العذاب بالقطران واقع لا محالة، وهو لون من ضروب عذاب أهل النار حسب منزلة الكافر منها، ونرى أن قطران الآخرة مختلف ومغاير بالكلية عن قطران الدنيا، ولا يجمعها إلا الاسم فقط مع اختلاف في الجوهر، تماماً كعسل الدنيا إذ لا يجتمع مع عسل الآخرة إلا في الاسم فقط، مع اختلافٍ في ماهيته وتكوينه وطعمه ولونه ورائحته وكثافته ولزوجته ونوع نحله وأزهاره، والمثال ذاته ينسحب على الفارق بين ماء الدنيا وماء الجنة، فهذا مما استأثره الله بعلمه، وحكمة ضرب هذا الشاهد: هب أنك اجتمعت إلى إنسان هو لعسل الدنيا كاره، فكيف له بعسل الآخرة إن كان من أهل الجنة وهو له في الدنيا كاره ومنكر، فالجواب على هذا الافتراض يكون مما تقدم ذكره، إن عسل الآخرة وماء الآخرة ولبن الآخرة وكل ما ذكره القرآن من نعيم الجنة معروف لدينا بأسمائه، مغاير له في الطبيعة ولا يجمعه إلا الاسم فقط. ولعل سبب ربط المفسرين عذاب أهل النار بقطران الدنيا سببه القياس على شدة اشتعاله وكراهية رائحته وسرعة نفاده في جوف الجلد، وعلى خلفية هذا القول نرى أن لا قياس في المقابلة والمشابهة بين قطران الآخرة وقطران

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٥، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٤٥، والتفسير الكبير، للفخر الرازي: ٧/ ١١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٨٧.

الدنيا، وهو من المتشابه الذي استأثره الله بعلمه، وهي من الأمور التي سكت عنها القرآن في تركيبها وشكلها ومضمونها ومحتواها للحكمة والاعتبار.

١٠- وحول قوله تعالى:﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فإن الآية هنا تؤكد على وجوب القدح والتوبيخ الموجب للخلود في النار لإثارتهم الشبهات حول رسول الله ﷺ، فقد أثار الملأ من مشركي قريشٍ لأجل الحفاظ على مكانتهم ورياستهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الافتراءات حول رسالة الإسلام فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن وللرسالة وأثاروا حولها مرذول الشبهات، وزعموا منكراً من القول وزوراً من الإفك، طائفة من الافتراءات نزه الله سبحانه وتعالى رسوله عنها، ومن شبهاتهم التي أثاروها:

- أن القرآن شعر وأن النبي ﷺ شاعر ودليله: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل إنه ساحر ودليله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦].

- وقيل إفك افتراه أعانه عليه قوم آخرون، ودليله:﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل كذاب، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ويكفي محمداً ﷺ أن يصفه الله عز وجل بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]. وقد وصفته السيدة عائشة أم المؤمنين بقولها: (كان خلقه القرآن) ووصف رسول الله ﷺ نفسه فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، [١] ودليل افترائهم هذا ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤]،

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ٨٥٩٥.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر: ٢٥].

- وقيل: إنه مجنون، ودليل ذلك قولهم﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ٣٦].

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦].

- وقيل: إن الرسول ﷺ افتعل القرآن من تلقاء نفسه، وجمعه عن أساطير الأولين وكتبهم ودليله:﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المطففين: ١٣].

- وقيل: إن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة يستكتبهم، فأوقعوه أسيراً لهم، ودليله﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥].

- وقيل: إن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بما لا يعرف ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

- وقالوا في تهكم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧].

- وقالوا باستحالة نبوته كبشر، ودليله: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

- ومن صور إثارتهم للشبهات ضد رسول الله ﷺ الاستهزاء به وهو صابرٌ محتسبٌ، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١].

وكانت قريش تستهزئ بالنبي ﷺ وأصحابه، ودليله قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١].

- ومن صوره أيضاً: اتهامه ﷺ أنه مولع بالنساء وقالوا: ما نرى لهذا الرجل من همّ إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً حقاً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الرعد: ٣٨].

- ومن أنماط السلوك القبيح التي أثارها كفار مكة ضد نبيهم ﷺ، أنهم لما سمعوا دعوته لهم بالتوحيد ونبذ الأصنام عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك، وهذا الشاهد مكرور مع رسل الله كافة.

وبقراءة تأملية: فإن الإنسان العادي قبل الفطن يرى أن تعدد واضطرابات هذه الشبهات دليل على بطلانها وعدم صحتها، كما أن بداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ قامت كل الحجج على مصداقية رسالته، وما أوردناه آنفاً من بعض صور الافتراءات تشهد على صحة كفر القوم المستحق ليس للتوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد بل الخلود في نار جهنم، إضافة إلى ما أصابهم من العذاب الأدنى في الحياة الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الافتراءات مكرورة في تاريخ الأنبياء والرسل، والرسول ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإن كان حجم الافتراءات والشبهات التي أثارها كفار قريش هي الأكثر، ويعزى ذلك لاستحكام عوائد المكر والحقد والجهل وطبائع الظلم والعدوان فيهم، وخبث طويتهم وفساد سريرتهم، لمحاكاتهم الآباء والأجداد في تقليد وثنيتهم من غير إعمال للعقل والتفكير، فكانوا أشد الناس كفراً، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾[التوبة: ٩٧]، لا يأنسون للهداية ولو كان صاحب الدعوة من ذوي القربى وسيرته فيهم الصادق الناصح الأمين الكيِّس الفطين الصبار الشكور الحليم الرشيد.

الخاتمـــة

إن قراءة تأملية تحليلية موضوعية لما بين يدي سورة إبراهيم ﷺ، بعد هذا التطواف في مقاطعها السبعة، تؤكد تطابق جو السورة وانسجام مقاصدها مع محورها العام وسياقها الخاص. ويراد بالمحور العام هدف السورة وغايتها ومراد الله لها من التنزيل، لتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، إذ بينت السورة بالدلائل القاهرة والبراهين الساطعة أن لا معبود إلا الله. ويراد بالسياق الخاص ما يتفرع من المحور الرئيس من روافد ثانوية، تزيدها بهجة وجمالاً، فهذه بالكلية تمهد للمحور العام وتؤطر له وتؤسس بهدف تجسيد مراد الله من تنزيل السورة إلى واقع محسوس، توطئ له بتوطئاتٍ تدل على عظمة الخالق في خلقه وتدبيره للكون، حتى يكون الناس على الصراط عبر حملهم على التفكر في مظاهر عظمته سبحانه وتعالى وإفهامهم الدين بالعقل والقلب، وقد مر تقرير هذا مراراً في سياق كل مقطع، وفيما يلي مجمل للمحاور الثانوية التي اشتملت عليها سورة إبراهيم ﷺ، التي برزت في عرض سياقها الخاص: محور الرسل والرسالات وموقفهم من أقوامهم وموقف أقوامهم منهم.

أ - محور نعم الله تعالى على عباده وموقفهم منها.

ب- محور مكانة القرآن الكريم وموقف أهل قريش منه.

جـ- محور نموذج إبراهيم ﷺ في الدعوة.

د- محور بيان الإعجاز العلمي فيما اشتملته السورة من الآيات الكونية.

هـ- محور الهدف من ضرب الأمثال.

ز- محور إبراز بعض مشاهد يوم القيامة للوعد والوعيد.

وقد تناولت هذه المحاور الثانوية بالمناقشة والتحليل وما شملته من الدروس والعبر والهدايات المستنبطة كلٌ في مقطعه، وما يميز سورة إبراهيم ﷺ عن غيرها من السور، تناولها للآيات من خلال عرض خاص في عشر صور متقابلة مع عقد المقارنة بينها، لإبراز وجه

العلاقة بينها وغايته وما تحتويه من حكم ولطائف من الترغيب والترهيب وقياس الشيء على نظيره أو أضداده للعبرة والاتعاظ.

وفيما يلي إيجاز لهذه الصور المتقابلة التي عقدت الآيات لها بالمقارنة، وقد عولجت في مواطنها بالإيضاح والتعليق:

تناولت **الصورة الأولى** دور الرسل في إخراج أقوامهم من الظلمات إلى النور، ومقارنة ذلك بدور الشياطين في إخراج الناس من النور إلى الظلمات.

وفي الثانية: وقعت المقارنة بين نعمة الإيمان ونقمة الكفر.

وفي الثالثة: عقدت المقارنة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

وفي الرابعة: تناولت مقابلة فوائد الصبر ومقابلته بالجزع.

وفي الصورة الخامسة: عقدت المقارنة بين التوبة والإصرار على الكفر، وعدم جواز حمل الشفاعة والتوبة للمشرك.

وفي السادسة: توقفت الآيات بإبراز المناظرة بين الملأ من شياطين الإنس والجن مع أتباعهم، ثم خطاب إبليس فيهم وعتبه عليهم جميعاً، ومقارنة ذلك بنعيم أهل الجنة.

وفي الصورة السابعة: عالجت الأمثال المضروبة المقارنة بين الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

أما الثامنة من هذه الصور: فقد قارنت بين مكر الكفار ومكر الله، بما في الأولى من خسة ونذالة وخداع، وما في الثانية من تقدير وتدبير.

وفي التاسعة: عقدت المقارنة بين الهداية والضلال.

وفي العاشرة: استحباب الحياة الآخرة على الدنيا عند المؤمنين، ومقابلتها باستحباب الدنيا على الآخرة عند الكافرين والمشركين والمنافقين، دون أن يعملوا لآخرتهم شيئاً وفي ذلك دروس

وعبر، وقد كان لحكمة هذه الصور في مقابلتها ومقارنتها جليل الفوائد، فقد أكدت بالكلية على حقيقة أن القرآن الكريم أجل خيرٍ ساقه الله للبشرية، وأن الله عز وجل أقام بالحجج دليل مشاهد على صدق ما جاء به الرسل، ومن نازع في ذلك كان أقرب الناس للجنون والطيش والسفه وتفاهة الرأي لملازمة وساوس الشيطان له، ولوقوعه تحت غريزة المحاكاة والتقليد لديانة الآباء الأولين من غير إعمال للعقل والفكر. كما وجهت الأنظار أن نبأ قصة إبراهيم ﷺ واحدة من القصص التي حفل بها القرآن الكريم، أعلمها الله عز وجل لخاتمة رسله، وكان غير عالم بتفصيلاتها قبل أن تنزل وتخبره مضمون أحداثها، وهذا من أنباء غيب الماضي أوحى الله به إلى نبيه ﷺ ليوظفه في أمور دعوته.

كما لفتت صور التسخير والكلمة الطيبة ونعم الله الأنظار إلى الحكمة من تسخير الكون لهذا الإنسان ليفيد من نعم الله هذه في بناء صروح التقدم الحضاري، والمسلم هنا أولى من غيره في عمارة الأرض فيجب ألا يكتفي من الحضارة موقف المتأثر المتلقي المستهلك، بل المؤثر الفاعل القادر على الابتكار والتجديد والمساهم الفاعل في اكتشاف قوانين الكون وظواهره وثرواته، إذ لا يجوز للمسلمين ألبتة تحت راية القرآن أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، وليس أدل على أمر الله للأمة الآخذ بأسباب العلم وقوانينه من اشتمال السورة على ألفاظ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ ثلاث مرات﴿ وَإِذۡ ﴾ مرتان﴿ وَسَخَّـرَ لَكُمُ ﴾ أربع مرات، وكلها ألفاظ دالة على إعمال العقل بالبحث والتنقيب والتمحيص والتطور في جوانب الحياة كافة، وجاء التخصيص لأولي الألباب إعلاءً لشأن من يقيم شرع الله في الاستخلاف على مراد الله وفيها تحريض على العلم النافع وجهاد في سبيل الله ونحو ذلك. ومع أن لفظ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾يفيد التعجب والخطاب فيه للأمة، إلا أن العجب العجاب والعجيب العاجب أن الأمة بتخلفها وجمودها وانقيادها لغيرها موقفها سلبي في البناء الحضاري، مع أن لهم في تاريخ حضارتهم ما يُقتدى به. فالله عز وجل لا يريد للأمة أن تنزل طائعة مختارة لغيرها من الأمم عن سلطان العلم وأسبابه.

وفي قراءة تأملية فلسفية يمكننا القول أن لفظ ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ تفيد الرؤيا البصرية والمنامية

والعلمية والتدبر والاتعاظ، فكيف إذا حمل معنى التسخير على تأويل المعاني كلها، ففي ذلك حث للأمة على كل خير ديني ودنيوي مادي ومعنوي لتستقيم حالها وتكون كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس.

ولا يفوتنا التنويه هنا أن بُعد الأمة عن العلم النافع داخل في منزلة تبديل نعمة الله كفراً، وما سبب انقياد الأمة اليوم لغيرها ما كان ليتحقق إلا لأن النفس عند حبسها عن العلم مع اغتراب في الدين تعتقد على وهم منها أن القوة والذكاء وقفٌ فيمن غلبها فتنقاد إليه على غير هدىً وتسلم الراية له. ويا لقبح حال الآمة إذا مرت الأيام والسنون ولم يزل العلم ممتنعاً عنهم فإن كان كذلك لا سمح الله وهذا محال بإذن الله، استوجب الذم والتعزية فيها، لتقصيرها في متابعة كل ما هيأ الله للأمة من أسباب الحياة على أكمل وجه ومنحهم كل ما سألوه وما لم يسألوه، والله قادر على أن يستبدلهم بقوم آخرين أطوع منهم لله في عبوديته والأخذ بأسباب ونواميس ما أودعه لهم في الكون من قوانين، فلله في ذلك سنن وأسباب، مصداقاً لقوله تعالى:﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وقد جاء حمل آيات التسخير الواردة في السورة على عموم أحوال التأويل، لصرف الأمة عن مذمومات المحاكاة والتقليد للغرب، وأخذهم بممدوح العلم وما يتطلبه من القضاء على جيوب الجهل، في كافة أحواله لما في ذلك من المصلحة والاعتبار، خدمة لرسالة الإسلام بما ينسجم وعظمة هذه الرسالة.

سورة الحـجر

أولاً: بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

تسمى هذه السورة سورة الحجر، وذلك لورود هذه اللفظة ضمن آياتها في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾، والحجر اسم وادٍ بين المدينة المنوَّرة والشام كانت تسكنه ثمود قوم صالح عليه السلام، وتسمية هذا المكان بهذا الاسم لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال الحجرية لقوله تعالى:﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾، أو لأنها كانت محاطة بالحجارة كحِجْر الكعبة[١]، ولا مانع من الجمع بينهما.

ب- فضائل السورة:

لم يرد في فضل هذه السورة حديث خاص، وما ذكره بعض المفسرين في فضلها فهو جزء من حديث موضوع في فضائل السور[٢].

ج- وقت نزول السورة:

هي سورة مكيَّة، نزلت على الرسول ﷺ قبل الهجرة بالإجماع[٣]، إلا أن بعض المفسرين[٤] استثنى من ذلك الآيات الآتية:

١- قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٩.

(٢) ذكر البيضاوي وأبو السعود أحاديث في فضل السورة عن ابن عباس، انظر ما قاله السيوطي فيها الإتقان، ص١١٢٩.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ١٢/ ١٦، الخازن ٣/ ٤٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٧.

(٤) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٤٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾

٣- قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وأما استثناء الآية الثانية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ فبناءً على ما جاء عن الحسن من أن معنى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾. هي الفاتحة وأنها مدنية، والأصح أنها مكيَّة فلا وجه لما قالوه(١).

وأما استثناء الآية الثالثة: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ فبناء على تفسير المقتسمين بأهل الكتاب وأن المقصود بهم يهود المدينة، وهو باطل لما سيأتي من عدم تلاؤمه مع السياق(٢) وبذلك يبقى الإجماع على أنها مكيَّة بأكملها.

د- عدد آيات السورة:

عدد آياتها تسع وتسعون آية بلا خلاف في ذلك بين أنواع العدِّ(٣).

هـ- أسباب النزول:

هذه السورة من سور القرآن التي نزلت ابتداءً بمجملها دون أن يكون لنزولها سبب خاص.

وقد ذكر بعض المفسرين(٤) أسباباً لنزول بعض آياتها، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾، وسيأتي الحديث عن ذلك عند بيان معنى الآيات.

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٢١٣.

(٢) انظر تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٤٩.

(٤) لباب النقول في أسباب النـزول، السيوطي، ص ١٨١-١٨٣.

و- الناسخ والمنسوخ:

هذه السورة بجملتها محكمة لا منسوخ ولا ناسخ فيها، إلا أن بعض المفسرين قال بأنَّ فيها خمس آيات نسخن بآية السيف، وهنَّ:

١- قوله تعالى:﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

٢- قوله تعالى:﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

٣- قوله تعالى:﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

٥- قوله تعالى:﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وسيأتي الكلام على ذلك، وبيان أن جميع هذه الآيات محكمة غير منسوخة، عند بيان معاني الآيات.

ز- محور السورة:

محور سورة الحجر الرئيس هو: إبراز المصير المخوِّف الذي ينتظر الكافرين المكذبين. ويدور السياق حول هذا المحور بعدة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يشاهد من الكون، أو وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وما تخلل ذلك كله من تعقيبات والذي يرجع إلى المحور الرئيس ويدور حوله[1].

---

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٤٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٨.

ح- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الصلة بين اسم السورة ومحورها هو أن اسم السورة يشير إلى ذكر أصحاب الحجر الذين كذبوا المرسلين بتكذيبهم لصالح ﷺ، وكيف كانت عاقبتهم، وهو نموذج يمثل محور السورة الذي يدور حول إبراز مصير الكافرين المخوف الذي ينتظرهم.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تحدثت بداية السورة ونهايتها عن كيفية التعامل مع الكافرين ففي بدايتها قال تعالى:﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وفي نهايتها جاء قوله سبحانه:﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾(٨٥).

كما اشتركت البداية والنهاية بالحديث عن القرآن الكريم ففي بدايتها تحدثت عن حفظ الله عز وجل للقرآن، وهو قوله عز وجل:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، وفي النهاية قال سبحانه وتعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه الصِّلة بين افتتاحية سورة الحجر وخاتمة السورة التي قبلها- وهي سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام- هو: أنَّه سبحانه وتعالى لما قال في خاتمة سورة إبراهيم في وصف يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٠]، قال هنا: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا من النار تمنوا لو كانوا في الدنيا من المسلمين[2].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٩٩.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، ١/ ١١١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٦.

كما أن طرفي السورتين تشابها إذ إن سورة إبراهيم اختتمت بوصف الكتاب بأنه كفاية للناس في العظة والعبرة والتذكير وهداية الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، نجد أن هذه السورة افتتحت بذكر القرآن وبوصفه أنه كتاب بيِّن الهداية وظاهرها لمن تأمله، وذلك في قوله تعالى:﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾[1].

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

وجه المناسبة بين مضمون هذه السورة لسورة إبراهيم التي قبلها أن في كليهما وصف للسماوات والأرض، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام، وبعض قصص السابقين، تسلية للرسول ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بما تعرض له الأنبياء من قبله[2].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة

المقطع الأول: ١-١٥: سنَّة الله عزَّ وجلَّ في إرسال الرسل

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾تفتح السورة بهذه الحروف الهجائية

---

(١) المرجعين السابقين.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٥، تفسير المراغي، المراغي ١٤ / ٣.

المقطعة، وهي إشارة إلى لغة القرآن وكلامه التي هي بمتناول الجميع والتي يتكون منها ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن المبين الواضح المميز بين الحق والباطل[١]، وعلى الرغم من كونه بحروف وكلام عربي واضح إلا أن الناس عجزوا عن الإتيان بمثله.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ ثم بيّن الله تعالى حال الكفار من قريش وغيرهم يوم القيامة بأنهم سيندمون على كفرهم ويتمنون لو كانوا مسلمين، وذلك إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أو إذا ما رأوا الجهنميين يخرجون من النار إلى الجنة[٢]. كما جاء في ما روي عن الرسول ﷺ: «إن أناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وانتم معنا في النار؟! فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين» وفي رواية أخرى قريبة المعنى عن الرسول ﷺ « فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا»[٣].

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ ويخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يدعهم يأكلوا ويتمتعوا في الدنيا حالهم حال الأنعام،﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ أي يشغلهم آمالهم الكاذبة عن إتباع النبي ﷺ، وعن التوبة والإنابة،﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وبال فعلهم ذلك في وقت لا ينفع فيه الندم[٤]، وفي هذا تهديد لهم[٥].

وقيل إن هذه الآية منسوخة[٦]، وبالتحقيق نجد أنها تهديد ووعيد كما مرّ، وذلك لا ينافي

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٥، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٣.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٥، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٥٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٦٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤.

قتالهم، فلا وجه للنسخ.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾ يبين الله سبحانه أنه لم يهلك أهل قرية من القرى السابقة إلا بعد أن حان الأجل الذي كتب لهم أنهم سيبلغونه[١].

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ دون تقديم لذلك الأجل أو تأخير.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ أي قال المشركون للرسول ﷺ الذي أنزل عليه الذكر -أي القرآن- على وجه الإنكار والاستهزاء،﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ في دعواك النبوة والرسالة وإنزال القرآن عليك، وفي توهمك أننا سنتبعك[٢].

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ يعنون هلا جئت بالملائكة يشهدون على صحة وصدق ما تدعيه.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ هذا جواب من الله تعالى لما يطلبونه من شهادة الملائكة بأنها لا تنزل إلا بالحق وهو الرسالة أو الموت وعذاب الاستئصال، ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ولو نزلت الملائكة كما طلبوا أو أنزلناها نحن لما أمهلوا ولما أخروا. لأنها لو نزلت حال التكذيب لما أتت إلا بالعذاب، وهو ما يستحقونه في تلك الحالة[٣].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ يعقب الله أنه يريد لهم خيراً مما في أنفسهم مما طلبوه من إنزال الملائكة التي تأتي بالعذاب بأنه أنزل لهم ما هو خير من ذلك وهو القرآن[٤] المحفوظ من التحريف والتبديل، وقد يكون المراد بقوله:﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أي الرسول

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ١٩٤.

يحفظه الله سبحانه من كيد المشركين وأذاهم[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك الرسل في الأمم السابقة وفرقهم.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بإخباره أن هذا هو حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ومن أرسل إليهم، بأنهم كانوا يستهزئون بهم لأنهم يستبعدون ما دعوهم إليه ويستنكرونه، حتى توهموا أنه مما لا يكون ولا يصح، لمخالفته ما وجدوا عليه آباءهم[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ إشارة إلى إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء في الأمم السابقة.﴿ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ندخل الذكر في قلوب الكفار من أهل مكة بإلقائه فيها وتفهيمهم إياها. مقروناً بالاستهزاء كحال الأمم السابقة[٣]، وقيل: نسلك الشرك في قلوب الكافرين[٤]، وهذا لا يتناسب مع قوله تعالى بعدها﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾إذا لو كان الأمر كذلك وأنهم لا يؤمنون بالشرك لكانوا ممدوحين على فعلهم، ولكنَّ الآية وردت على سبيل الذم لهم[٥].

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي مضت طريقة الأمم المتقدمة في تكذيب المرسلين عند دعوتهم إياهم إلى الحق[٦]أو قد علم ما فعل الله تعالى بمن كذَّب رسله من الهلاك

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٦، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨.
(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٨، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٦.
(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.
(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.

والدمار، وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم.[١]

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ هنا يذكر سبحانه ما تقدم من اقتراحهم إنزال الملائكة بأننا لو فعلنا ما هو أكثر من ذلك بأن فتحنا لهؤلاء المشركين باباً من أبواب السماء يصعدون فيه[٢]، أو ينظرون إلى الملائكة وهي تصعد وتنزل من ذلك الباب.[٣]

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي لنفوا ذلك وما صدقوا به ولقالوا: سكرت وسدت وغطيت أبصارنا، بل سحرنا، فلا ننظر ببصرنا حقيقة وإنما سحرنا ساحر فيخيَّل إلينا ذلك، وهذا بيان لشدة كفرهم وعنادهم.

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يتضمن بيان سنة الله عز وجل التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات وإيمان الناس وتكذيبهم بها، ومحور هذه السورة يتحدث عن تلك الطائفة من الناس الذين كذبوا الرسل، ووجه صلة هذا المقطع بمحورها ظاهرة للعيان.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٥٤٤.
(٢) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٠، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩.

المقطع الثاني: ١٦-٢٥: إقامة الحجة على الكافرين

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

لمّا بين الله سبحانه في المقطع الأول سننه التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات والإيمان والتكذيب بها، وكيف كذَّب المشركون رسول الله ﷺ، ولما كانوا بهذا التكذيب يستحقون العقاب، كان لابد من إقامة الحجَّة عليهم ببيان صدق الدعوة وما فيها، ومن أجل هذا جاء المقطع الثاني يعرض بعض آيات الله في الكون ودقَّة نظامه، وأن كل شيء مرجعه إلى الله لعلهم يعودون عن تكذيبهم.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ أي منازل للشمس والقمر ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ بالكواكب الثوابت والسيارة النيِّرة لمن نظر وتأمل ذلك[١] من أجل التفكر والاستدلال بذلك على وجود الله عزّ وجلّ وقدرته.[٢]

﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي حفظنا السماء من دخول كل شيطان ملعون إليها.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ والاستثناء هنا إمّا أن يكون منقطعاً بمعنى حفظناها من دخول الشياطين إليها ومن استراق السمع أي اختلاس المعلومة اليسيرة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٠.

منها فمن حاول منهم ذلك ردّ خائباً بشهاب مبين، وهي نار ممتدة ظاهرة لأهل الأرض- لشدة ضوئها- تحرق الشيطان أو تخبله أو تقتله فلا يتمكن من السَّماع أو إذا سمع لا يتمكن من إبلاغها لغيره(١).

وقد يكون الاستثناء متصلاً والمعنى حفظنا السماء من كل شيء إلا من استراق الشياطين السمع منها فمن فعل أحرقته الشهب أو خبلته. وبالقول الأول قال القرطبي(٢) والرازي(٣) وبالثاني قال الطبري(٤)والبيضاوي(٥).

بعد أن ذكر الله سبحانه السماء وما فيها من الأدلة اتبعه بذكر ما في الأرض من أدلة فقال عزّ وجلّ:﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ أي بسطناها، وهي من نعم الله بأن جعلها مبسوطة ومهيأة لعيش الإنسان﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أي جعلنا فيها جبالاً راسخة تجعلها ثابتة غير مضطربة أثناء دورانها السريع(٦).﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾أي أنبتنا في الأرض ما أنبتناه مقدراً بقدر وحكمة، بحيث لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، فيطغي بعضه على بعض(٧).

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي وصيرنا في الأرض من أسباب الطعام والشراب الذي يعتاش ويتغذى به الإنسان(٨). ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ وكذلك هيأنا لكم فيها من العبيد والإماء والدواب والأنعام لمصلحتكم، ورزق هؤلاء ليس عليكم وإنما على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٣٤.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٣ / ٢٠.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٤.
(٦) الأساس في التفسير، سعيد الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.
(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٢، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٥.

الله سبحانه وتعالى، ولكم منهم المنفعة[١].

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ وليس من شيء ينبت من الأرض أو ينزل من السماء[٢]، وغير ذلك[٣]،﴿ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾أي مالكوه أو مالكو مفاتحه أو قادرون على إيجاده.﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ بحكمة وبحسب مصلحة العباد وحاجتهم أو بحدٍّ معلوم عندنا ومقدر، لا يزيد عنه ولا ينقص[٤].

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي أجرينا الرياح ملقَّحةً -أي محملة- بالسحاب[٥]، وليس أنها تحمل اللقاح من شجرة إلى أخرى لأن السياق لم يجر فيه ذكر للنبات[٦]، ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ أي أنزلنا من السحاب لأن كل ما على الإنسان فهو سماء، مطراً فجعلناه شرباً لكم ولأنعامكم وأرضكم تنتفعون به متى شئتم[٧]، لا أنه أنزل من أجل سقياكم منه مرّة واحدة كما لو كان التعبير به فسقيناكموه التي تدل على ذلك[٨]. ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾وما أنتم أيها الناس بحافظين له بل الله هو الذي يحفظه ثم يخرجه من الأرض بقدر الحاجة فلا يستطيع أحد أن يحرز ما يحتاج إليه من الماء في موضع[٩]، أو أن المعنى وما أنتم بخازني ما أنزلت من الماء فتمنعوه من أسقيه لأن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٥.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٧٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٦٨.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٢٧.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ١٩٨ في الهامش.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٢.
(٨) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٠.
(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٠، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.

ذلك بيدي وإليّ أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء(١)، وكلا المعنيين صحيح.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فيه تأكيد على أن إحياء الموتى وإماتة الأحياء كلها بيد الله ومشيئته(٢)، وقدرته على ذلك(٣)، ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾يرث الله الأرض ومن عليها بإماتتهم فلا يبقى سواه عزّ وجلّ(٤).

وهذه الآية إخبار منه سبحانه عن علمه تمام علمه بهم أولهم وآخرهم(٥)، فهو سبحانه يعلم المستقدمين منكم ولادة وموتاً والمستأخرين ولادة وموتاً(٦)، وهو بيان لكمال علمه بعد بيان كمال قدرته(٧).

وما قاله بعض المفسرين من إن المستقدمين هم من تقدم في الطاعات والمستأخرين هم المتخلفين عنها، أو من أنها نزلت بشأن صفوف الصلاة لا يتناسب مع السياق كما نرى(٨)، إذ إن السياق يتحدث عن الإحياء والإماتة، والرواية بشأن الأخير ضعيفة بل منكرة كما تقدَّم عن ابن كثير.

إلا أن تكون الآية تنبيهاً على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فيدخل فيه القولان الأخيران فلا نخص حالة دون أخرى(٩).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.
(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٢.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ يجمع المتقدم والمتأخر[(١)]، أي يوم القيامة بعد أن أماتهم من أجل الحساب[(٢)]. ﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فالحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر من أجل الحساب[(٣)]، وهو العالم بما استحق كل واحد منهم[(٤)].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يعرض بعض آيات الله في السماء والأرض وما بينهما، وتقديره لذلك بحكمته، وأن كل شيء مرجعه إلى الله عز وجل.

وبما أن محور هذه السورة يتحدث عن مصير الكافرين المخوف، وما سيقع لهم من العذاب، وبما أن العذاب لا يكون إلا بعد إقامة الحجة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] جاء هذا المقطع ليقيم الحجة على الكافرين ببيان مظاهر قدرة الله عز وجل في الكون الدّالة على وجوده والداعية إلى الإيمان به سبحانه وتعالى[(٥)].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٤.

(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٧٤.

المقطع الثالث: ٢٦-٤٨ : بيان أصل الغواية والهداية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على الكافرين جاء المقطع الثالث ليبين أصل الغواية التي لحقت بالكافرين فأدت إلى تكذيبهم ومصدرها إبليس، على الرغم من قيام الحجة عليهم ووضوح الأدلة أمام ناظريهم، وأصل الهداية وهي العبودية لله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ فيه إخبار عن أصل خلق الإنسان، وأنه مخلوق﴿ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾وهو الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة أي صوتاً متردداً[١]. ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾طين متغيِّر نحو السواد[٢]، أي أن الصلصال من طين[٣]. ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.

مصبوب على هيئة الإنسان كما تفرغ الجواهر في القوالب[١]. وقيل بمعنى أملس[٢]، أو متغير[٣]، ولا مانع من الجمع بينهما فإذا صُبَّ في القوالب تغيرت هيأته وأصبح أملسا.

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ المقصود به إبليس﴿ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾أي من قبل خلق الإنسان المبدوء بخلق آدم ﷺ. ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾من نار لها ريح حارة تقتل[٤] وسميت ريحها بذلك لأنها تنفذ إلى مسام الجلد للطفها[٥].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ المعنى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة أني سأخلق بشراً، والمقصود آدم ﷺ، وسمي بذلك أي بشراً لأنه ظاهر الجلد لا يواريه صوف ولا شعر[٦].

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ بإتمام خلقته وإكمال خلقه[٧]، على الصورة الإنسانية والبشرية[٨].﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ أجريت فيه من روحي التي هي ما يحيا بها الإنسان[٩]، وإضافة الروح إلى نفسه تعالى تكريماً للإنسان وتشريفاً[١٠] وهي من باب إضافة الملك إلى المالك، كقوله (ناقة الله) (وبيتي)[١١].﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي خروا ساجدين

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٣

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٦.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٧.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٨.

(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٤.

(٩) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٤.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦.

(١١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.

له تحية وتكريماً لا سجود عباده[١].

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ كلهم تنفيذاً للأمر الإلهي. ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تدل على اجتماعهم في السجود فلم يتأخر أحد[٢].

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ استثناء متصل فإذا كان من جنس الملائكة فالاتصال ظاهر، ومنقطع إذا لم يكن من جنسهم وكان فرداً مغموراً بينهم وكان داخلاً في الخطاب على وجه التغليب[٣]، وعلى أي حال فلا شكَّ أنه كان مأموراً بالسجود[٤].

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي ما منعك أن تكون من الساجدين، وهو تعالى يعلم سبب عدم سجوده لكن ليقيم الحجة عليه وليعلمنا بالسبب.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهذا جواب إبليس، فعلل عدم السجود بأن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون، فاقتصر هنا على الإشارة الإجمالية إلى إدعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاءً بما صرح به حين قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢][٥].

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي عاقبه الله بإخراجه من الجنة أو السماء أو زمرة الملائكة، مطرود من كل خير وكرامه[٦].

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ وهذا الطرد والإبعاد سيمتد أمره إلى يوم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩١.

(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي٢/ ٣٧٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦

القيامة[١]، وفيه إشعار بتأخير عقوبته إلى ذلك اليوم[٢].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أخر موتي إلى يوم القيامة، وذلك لئلا يموت إذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد[٣].

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فأخَّره الله عز وجل إلى آخر أيام التكليف المنتهية بالنفخة الأولى حين يموت الخلائق، فيموت إبليس معهم ثم يبعث[٤]، فلم يتحقق له ما أراده من النجاة من الموت كما دلَّ عليه ظاهر الآية السابقة.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ يقول إبليس مقسماً بإغواء الله تعالى له[٥]، أي بإضلاله له، فالباء فيها للقسم[٦]، وقد تكون الباء سببيه، والمعنى بسبب ما أغويتني وأضللتني[٧]. ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأُحسننَّ لهم معاصيك ولأحببنها إليهم في الأرض[٨]. ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأضلنهم أجمعين[٩]، عن طريق الهدى[١٠].

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ استثنى من الغواية والإضلال عباد الله الذي

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٨.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٠، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥١٨.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٩.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٧٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٢.
(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩.

أخلصهم الله لطاعة، وطهَّرهم من الشوائب لأن كيد إبليس لا يعمل فيهم[١].

﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ أي حقٌّ عليّ أن أراعيه لا انحراف عنه وهذا الحق هو ما تضمنه الاستثناء السابق من تخليص من إغواء الشيطان[٢]، أو أن الإخلاص السالف الذكر هو طريق يؤدي إلى ثواب الله وإكرامه[٣].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي عباد الله الذين قدَّر لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم لإغوائهم[٤].﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَـاوِينَ ﴾ الاستثناء إما أن يكون منقطعاً بمعنى أن إبليس ليس له على أحد من الناس سواء من المخلصين أو الغاوين من سلطان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡـتُمۡ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ويكون منتهى تزيينه التحريض والتدليس[٥].

أو أن يكون الاستثناء متصلاً بمعنى إن لإبليس سلطان على الغاوين فقط دون المخلصين واختار القول الأول غير واحد من المفسرين[٦].

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي موعود إبليس ومن اتبعه جميعاً[٧].

﴿ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ سبعة مداخل يدخلون منها بحسب

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٢٩٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.

أعمالهم[١]، أو أن لها سبع أطباق واحدها فوق الآخر[٢]، ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾أي لكل مدخل من هذه المداخل أو الطبقات قسماً ونصيباً معلوماً من الغاوين[٣].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ سبب نزول الآية هو ما أخرجه الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لمّا سمع قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فوالذي بعثك بالحق لقد قطّعت قلبي، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ فبعد أن ذكر سبحانه عقاب الغاوين اتبعه بذكر ثواب المخلصين[٤]، وأنهم في بساتين فيها عيون ماء وخمر وعسل ولبن[٥].

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يقال لهم ذلك يوم القيامة أي ادخلوا الجنان بسلامة من العقاب[٦]، ومن كل خوف وفزع[٧]، ومن الآفات والمكاره والمضرات[٨]، ومن الموت[٩].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي أزلنا ما في قلوبهم من حقد على بعضهم كان في الدنيا[١٠]. وقيل إن سبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه ابن أبي

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٢.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤/ ٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٢/ ٥٤٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٠.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٦.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٨.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٠.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٤.
(١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٠.

حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قيل: وأي غلّ؟ قال: غلّ الجاهلية، إنَّ بني تيم، وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابُّوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة (وهو مرض يصيب صاحبه بالوجع في خاصرته) فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

وهذه الرواية لها نظائر أخر منها: ما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنها نزلت في أهل بدر، وأخرى أنها نزلت في أبي بكر وعمر، وأخرى أنها نزلت في علي وطلحة والزبير، وغير ذلك[١].

وفي كون هذه الأحداث سبباً لنزول الآية نظر إذ أن الآية تتحدث عن أمر يقع في الجنة وهو نزع الغل، كما أنها سورة مكيَّة نزلت قبل الهجرة أي قبل غزوة بدر، وقبل النزاع الذي حدث بين علي وطلحة والزبير الذي وقع بعد تمام نزول القرآن، ولا يكون السبب متأخراً عن المُسَبَب أي الآية، ولو كانت تتحدث عن نزع الغل في الدنيا لكن أقرب الأقوال في سبب نزولها هو ما قيل إنها نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ولكنَّ ظاهر الآية لا يدل على ذلك.

وهذا ما يدل على أنها تنزيل أو تطبيق من الرواة أو المفسرين على هؤلاء المذكورين لا أنها أنزلت بسببهم[٢].

﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ فيكونون بعد نزع الحقد كالإخوان المتوادين جالسين على سرر ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ ينظر بعضهم إلى وجوه بعض[٣]، وهي أشرف الأحوال[٤]، أي مقابلة الإنسان أخاه بوجهه لا بظهره.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ لا يلحق بهم في الجنة مشقة ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٩، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٢.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢/ ١٧٦.
(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.
(٤) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣.

أذى ولا تعب[١].﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ بيان لتمام النعمة بالخلود في الجنة بلا زوال وبقاء بلا فناء[٢].

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

إن هذا المقطع جاء ليعرض قصة البشرية، وأصل هداية من اهتدى وغواية من غوى، في تركيبها وأسبابها، ومصير المهتدين والغاوين في النهاية المتمثلة بيوم القيامة.

ولهذا علاقة بمحورها الذي يدور حول مصير قسم من الناس، وهم الكافرون المكذبون فجاء هذا المقطع ليوضِّح محور السورة ويبيِّن سبب كفرهم وتكذيبهم، مكملاً له ببيان مصير المهتدين، وهذا من أساليب القرآن التي توازن بين الترغيب والترهيب.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٣، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.

المقطع الرابع: ٤٩-٨٤ مصارع الغابرين

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه مصير الكافرين والمتقين في المقطع السابق ذكر سبحانه وتعالى في هذا المقطع نماذج دنيوية على ذلك كله، فذكر ترغيباً: رحمته إبراهيم عليه السلام ببشارته بالولد، وتخليصه لوطاً عليه السلام وآله من العذاب، وليذكر في المقابل ترهيباً ما وقع للكافرين من العذاب كقوم لوط وشعيب وصالح، ليكون ذلك أبلغ في الترغيب والترهيب.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

(٥٠) سبب نزول الآية هو ما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون فقال: «أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم؟!» فنـزلت هذه الآية:﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وأخرج ابن مردويه من وجه أخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطَّلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر، ثم رجع القهقرى، فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال: يا محمد إنَّ الله يقول لك: لم تقنِّط عبادي؟﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ [١] ﴿٥٠﴾ ﴾.

ومعناها أخبرهم يا محمد- ﷺ- أن الله كثير المغفرة والعفو والستر لذنوب المؤمنين، وكثير الرحمة لهم[٢]، وأخبرهم عن شدَّة عذابي، وروى أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه»[٣] أي أملكها. والمعنى لا تعولوا على محض غفراني ورحمتي، وخافوا عقابي[٤].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي وأخبرهم يا محمد ﷺ عن ضيوف إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٥].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي إذ جاءوا عليه فسلموا عليه سلاماً على وجه التحيَّة، فبيَّن لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام خوفه منهم، وقيل أن خوفه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٢.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠.

عليه الصلاة والسلام لأنهم دخلوا عليه بغير إذن[١]، أو لأنه أنكر منهم السلام فلم يكن يُعرف في بلادهم[٢]، أو أنه قال ذلك بعدما قدَّم إليهم العجل المشوي فلم يأكلوا منه[٣]، والقول الأخير هو الأولى بالصواب لوجود الدليل عليه من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠].

﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي لا تخف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ بيان وجه نهي الملائكة له عن الخوف؛ فإن المبشِّر لا يُخاف منه[٤]. ﴿بِغُلَٰمٍ ﴾ أي ولد، وهو إسحاق ﷺ، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي يكون عليما إذا بلغ[٥].

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ وهذا تعجب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من البشارة، التي تخبر بأنه سيولد له مع كبر سنه[٦]. ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ أي فبأي شيء تبشرون فان البشارة تكون بما يتصور وقوعه عادة، فإذا كانت بغير ذلك كانت بشارة بغير شيء[٧].

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي بأمر واقع لا محالة ولا رجعة فيه[٨]، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ أي لا تكن من الآيسين من ذلك[٩].

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٤) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢.
(٧) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٩) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ جواب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهم على وجه الاستفهام والاستنكار[1]، وكأنه يقول لهم إنه استبعد الولد لكبر سنه لا لأنه قانط من رحمة الله[2]، فذلك لا يكون إلا من المخطئين الذين لا يعرفون سعة رحمة الله[3].

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي فما الشأن الخطير والمهم الذي أرسلتم به سوى البشارة، وذلك لأن البشارة لا تحتاج إلى هذا العدد[4].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يعنون بذلك قوم لوط ﷺ، ووصفوهم بالإجرام ذماً لهم[5].

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فلم نرسل إليهم لأنهم ليسوا بمجرمين[6].

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾لمُخلِّصوهم من العذاب جميعاً.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ استثنيت من آل لوط، ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾أي قضينا أنها تهلك مع الهالكين[7].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ أي وصلوا إلى داره.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي تنكركم نفسي وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٤) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٢.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٣.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٧، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٤.

بشر[١]، أو بمعنى إني لا أعرفكم[٢].

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعد به قومك، وكانوا يشكون فيه[٣].

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي وجئناك بالصدق واليقين من عذابهم ونحن صادقون فيما نقول[٤].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ هذا بيان لكيفية نجاتهم من العذاب بأن يسير بأهله ليلا [٥]، ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾أمروا لوطاً عليه السلام بأن يكون خلفهم ليطلع عل أحوالهم، ويحثهم على المسير[٦]، فلا يتخلف أحد منهم فيكون أحفظ لهم[٧]، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾أي لا ينظر أحد منكم وراءه فيرى من الهول ما لا يطيق، فيصيبه ما أصابهم من العذاب[٨]، ﴿ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾إلى المكان الذي أمركم الله بالانتقال إليه[٩].

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي وأوحينا إليه الأمر بأن قومه سيتأصلون في وقت الصباح[١٠].

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٤) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٤.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
(٩) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(١٠) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٥.

﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المدينة هي سدوم (في غَوْر الأردن، ويقع فوقها اليوم البحر الميت) جاءوا مبشرين بعضهم بعضا فرحين، طامعين أن ينالوا الفجور منهم[١]، لِما علموا من صباحة وحسن وجوههم[٢].

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ ﴾ أي قال لهم لوط عليه السلام إن هؤلاء أضيافي فلا تفضحوني بفضيحة ضيفي فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه[٣]، والفضيحة هي إلزام العار والشنار بالإنسان[٤].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ ذكرهم بتقوى الله بعدم ارتكاب الفاحشة[٥]، ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾ وتلحقون بي الخزي بسببهم[٦]، بالإنقماع بالعيب الذي يُستحيى منه[٧].

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ أي ألم ننهاك أن تجير أحداً من الناس، وتحول بيننا وبينه، فقد كانوا يتعرضون لكل من مرَّ بهم، وكان لوط يمنعهم بقدر استطاعته، أو بمعنى ألم ننهك ونمنعك من ضيافة الناس[٨].

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ إشارة إلى نِساء قومه فهو بمنزلة الوالد لهن[٩]

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥١.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٥) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٥.
(٩) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.

أو إلى بناته من صلبه[١]، وهنَّ داخلات في القول الأول، وذلك ليدلهم على الطريق المباح بتزوجهن[٢].

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾يقسم الله سبحانه بحياة النبي ﷺ - تشريفاً له- أي وحياتك يا محمد، ومدة بقائك حياً[٣]،﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾أي في ضلالهم وغيِّهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون، فكيف يسمعون نصحك[٤].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ هذا إخبار عن كيفية هلاك قوم لوط بأنهم أخذتهم الصيحة؛ وهي الصوت العالي الهائل حال شرق الشمس[٥].

﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾أي قلبت مدينتهم بمن فيها رأسا على عقب،﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾أي أنزلنا عليهم من أجل تعذيبهم، ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي من الطين المتحجر[٦].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي إن في سماع تلك القصة، وما حلَّ بقوم لوط عليه السلام من العذاب عبرة وعظة للمتفكرين المتفرسين الذين يمعنون النظر في الأمر حتى يعرفوا حقيقته[٧].

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي وإنَّ المدينة تقع على طريق ثابت يسلكه الناس فيرون آثار

---

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٧، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٧.
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.
(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٦.

ذلك[١]. والتي تحولت إلى بحيرة مالحة تعرف اليوم باسم البحر الميت.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي دلالة واضحة لمن كان يؤمن بالله ورُسُله، وخصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بها[٢].

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ يخبر سبحانه وتعالى أن أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب[٣] عليه السلام- والأيكة الشجر الكثيف الملتف المجتمع[٤]- يخبر أنهم كانوا ظالمين، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان[٥].

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي فعاقبناهم على أفعالهم بتعذيبهم وإهلاكهم في يوم الظُّلَّة؛ وهو أن الله سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام ثم بعث سحابة - فالتجئوا إليها يطلبون الرَّوْح والبرودة فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم[٦]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وإنَّ سدوم- قرية لوط عليه السلام- والأيْكة قرية شعيب عليه السلام، أوالأيكة ومدين- وهما القريتان اللتان بعث إليهما شعيب[٧] عليه السلام، لبطريق واضح ظاهر يؤم ويسلك ويتبع[٨]. (وهي تقع اليوم في الأردن إلى الجنوب من عمَّان العاصمة، وتبعد عنها ١٤٠ كيلو متر، وإلى الجنوب الشرقي من سدوم البحر الميت اليوم، ويبعد عنه ٥٠ كيلو مترا).

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ويخبر سبحانه عن تكذيب أصحاب الحجر

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٦.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٥٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٢.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٧.
(٧) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٧.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.

وهم ثمود قوم صالح له ﷺ، ومن كذَّب نبياً واحداً فكأنما كذَّب الجميع[١]، والحجر وادٍ بين المدينة والشام، كما مرَّ في مقدمة السورة.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾وقد كان الله آتاهم الحجج والبراهين والأدلة على صدق الأنبياء والرسل[٢]، ومنها الناقة التي أخرجها الله سبحانه لهم من الصخرة الصماء بدعاء صالح[٣]ﷺ، فأعرضوا عن التفكير فيها والاستدلال بها[٤]، وعن العمل بما تقتضيه[٥]من الإيمان.

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾أي يصنعون لأنفسهم بيوتاً من الجبال الصخرية بنحتها لشدة قوتهم، آمنين من أن تسقط عليهم[٦].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾أي فأهلكوا بالصَّيحة في أوَّل الصباح[٧].

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ فما دفع عنهم العذاب ما كانوا يتخذونه من البيوت الوثيقة المحكمة، والأموال الوافرة والأعداد المتكاثرة[٨]، ولا ما أعطوه من القوة[٩].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:-

أن هذا المقطع يتضمن الحديث عن مصارع بعض الغابرين الكافرين المكذبين، وهم قوم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٢، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٩.
(٥) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣١٩.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٠.
(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٦.
(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨.
(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠.

لوط عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام(أصحاب الأيكة)، وقوم صالح عليه السلام(أصحاب الحجر)، ويبين رحمة الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولما كان المحور يدور حول بيان مصير الكافرين، فقد اتصل به هذا المقطع ببيانه لنماذج دنيوية لما حلَّ بالكافرين من العذاب، كما جاء فيه نماذج دنيوية لمن غشيهم الله برحمته كإبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام وآله، مبيناً في ذلك أسلوب القرآن في الموازنة بين الخوف والرجاء.

المقطع الخامس: ٨٥-٩٩

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يأتي المقطع الخامس ليبين أن ما سبق من إرسال الرسل وإقامة الحجج، وبيان مصير الكافرين والمتقين، وعرض نماذج على ذلك هو ما يقتضيه الحق الذي من أجله خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وليوجه الخطاب لرسوله الكريم بالمضي بأمر الدعوة، وبيان ما ينتظر الناس وأن لا يلتفت إلى ما يقوله المكذبون، فهذا هو ديدنهم كلما جاءهم رسول يبين لهم طريق الحق والنجاة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ

ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي ما خلقنهما عبثاً بل بما تقتضيه الحكمة، وهي تعبُّد أهلها ثم مجازاتهم بما عملوا[١]، ومما تقتضيه الحكمة عدم استمرار الفساد ودوام الشر، ولذلك أهلك أمثال هؤلاء[٢].﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾لكائنة وواقعة لا محالة، ولا شك في ذلك.﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾وهنا يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيَّه الكريم ﷺ ويأمره بالإعراض عنهم إعراضا جميلاً لما فيه من الحلم الإغضاء[٣]، أو الخلو من العتاب[٤].

وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهي: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠]، وقد ذكر القرطبي القول بأنها ليست منسوخة، وأنه أُمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم[٥]، وقال الزمخشري: يجوز أن يراد به المخالفة، فلا يكون منسوخاً[٦]، فالمقصود إظهار الخُلق الحسن بالعفو والصفح، وهي أمور لا تنسخ[٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ أي إنَّ الله سبحانه الذي خلقك وخلقهم وخلق الأشياء كلها عالم بحالك وحالهم، فاترك الأمر له ليحكم بينكم[٨].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾أي ولقد أعطيناك يا محمد ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ سبع آيات هي سورة الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال ﴿ ٱلْمَثَانِى ﴾ مأخوذ من التثنية أي الذي يكرر قراءته في الصلاة، أو من الثناء أي التي يُثْنى فيها على الله سبحانه بما

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٠.
(٢) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٤.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٠، لروح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠.
(٦) الكشّاف، الزمخشري ٢/ ٣٩٧.
(٧) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٤، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٠.
(٨) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨، روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢١.

هو أهله[١]، ﴿ وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم، وقد وصف بالعظيم لأنه يتضمن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين بأوجز لفظ وأحسن نظم وأتم معنى[٢]، وعطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أنها جزء من القرآن من باب عطف الكل على البعض أو العام على الخاص[٣]، وفي ذلك دلالة على امتياز هذا البعض أو الخاص على الكل أو العام كأنه غيره[٤]، تنويهاً بشرفه وفضله[٥].

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يأمر الله سبحانه نبيَّه بأن لا ينظر نظر الطموح والراغب[٦]، إلى ما أنعم به على أصناف الكفار من زينة الدنيا وزخرفها، ولا تغبطهم عليها[٧]، فلقد أنعم عليه بما هو أفضل من ذلك كالنبوة والقرآن والإسلام[٨].﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إن لم يؤمنوا بك[٩].﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن جانبك لهم[١٠]، وتواضع لهم وأرفق بهم[١١].

وقيل إن الآية منسوخة، وقد ردَّ ابن الجوزي القول بنسخها، لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا، ولا وجه للنسخ[١٢].

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٨.
(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(٤) روح المعاني، الآلوسي ٧/ ٣٢٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٥.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٩.
(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣، أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨.
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٣.
(١١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٣٨.
(١٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه النذير الواضح الإنذار للناس من عذاب أليم يحل بهم[١]، إنْ هم أصروا على التكذيب.

قال ابن الجوزي: زعم بعضهم أن معناها نسخ بآية السيف لأن المعنى عنده اقتصر على الإنذار، وهذا خيال فاسد لأنه ليس في الآية ما يتضمن هذا، ثم هي خبر فلا وجه للنسخ[٢].

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ اختلف المفسرون في معنى هاتين الآيتين، والذي أراه أن معناها: قل يا محمد أنذركم عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسموا طريق مكة ليصدوا عن السَّماع لرسول الله ﷺ والإيمان به، وكانوا ستة عشر رجلا[٣]، فأنزل الله عز وجل بهم عذاباً فماتوا شرَّ ميتة. ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ صفة للمقتسمين، وهي أنهم جعلوا القرآن أجزاء؛ فقالوا عنه: إنه سحر، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين، وبعضهم قال: إنه مُفترى.

وهذه الآية تجعل القول بأن المقتسمين هم أهل الكتاب لأنهم قسَّموا كتبهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾، أو أنهم قوم صالح لأنهم تقاسموا على قتله عليه السلام لما جاء في قوله تعالى إخباراً عن قوم صالح: ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ لا يتناسب مع السياق إذ أن أهل الكتاب فرقوا كتبهم ولم يفرقوا القرآن، كما أن السورة مكية نازلة في أوائل البعثة ولم يبتلِ الإسلام يومئذ باليهود والنصارى ذلك الابتلاء[٤]، حتى يجري ذكرهم هنا، وأما قوم صالح عليه السلام فلم يتعرضوا للقران أصلا بعينه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يقسم الله سبحانه بربِّ محمد ﷺ- تشريفا له- أنه سيسأل جميع أصناف الكفرة سؤال توبيخ وتقريع، ويدخل فيه دخولاً أولياً المقتسمين الذين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٤.
(٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.
(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣١.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢/ ١٩٣.

جعلوا القرآن عضين[١]، وذلك يوم القيامة.

﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها في الدنيا من الكفر والمعاصي وتكذيب الرسل.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ يخاطب الله سبحانه نبيه ﷺ آمرا إيَّاه بإبلاغ ما بعث به[٢]، جاهراً ومُفرِّقاً به بين الحق والباطل[٣].﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدُّوك عن التبليغ، ولا تهتم باستهزائهم ولا تبالي بقولهم[٤].

وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، والراجح أنها غير منسوخة لأن معنى الإعراض هنا ترك المبالاة[٥]، وليس ترك قتالهم.

﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ سبب نزول الآية ما أخرجه البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مرّ النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل. فغمز جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر (أو الطَّفر) في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى انتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله:﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[٦].

ومعناها أن الله سبحانه بعد أن أمر نبيَّه بالإعراض عنهم بين له أنه سيكفيه المستهزئين منهم بتوالي أمرهم وبمنعهم عن أذاه، وذلك بقمعهم وإهلاكهم، لكي يستطيع الرسول ﷺ الجهر بالدعوة كما أمر دون خوف من شرهم وأذاهم.

---

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٦٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٦.
(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٧١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ١٠٨.

والمستهزئون هم نفر من قريش اختلف المفسرون في عددهم وأسمائهم وكيفية استهزائهم، ولا حاجة لنا إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورئاسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه[١].

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ وهذه صفة أخرى لهم غير الاستهزاء بالرسول وهي الشرك بالله، وذكر هذه الصفة لهم تسلية للرسول ﷺ وتهويناً للخطب عليه بإعلامه أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به بل إنهم اجترءوا على الإشراك بالله[٢].﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة[٣]، وهذا تهديد ووعيد لهم[٤].

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾وإنا لنعلم يا محمد أنه يحصل لك ضيق صدر وانقباض من أقوالهم[٥]، كالشرك والطعن في القرآن والاستهزاء[٦].

﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فافزع إلى الله فيما يحصل لك من ضيق الصدر بالتسبيح والتحميد فإنَّ الله سبحانه يكفيك ويكشف عنك الغم[٧]، وقد يكون المراد بذلك الصلاة فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس، وهو ما يناسب نهاية الآية من قوله: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ[٨] ﴾.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[٩].

---

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٧١.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٢.
(٣) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.
(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٣٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٦.
(٦) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٩٠.
(٧) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٧.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥٧.

وقد يكون المعنى إذا سمعت ما يقولون من الشرك فنزِّه الله عما يقولون حامداً له على هدايتك للحق[١]، وكلها معان متقاربة.

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي استمر ودُم على ما أنت عليه من العبادة حال حياتك[٢] إلى أن يأتيك الموت الذي أنت موقن به[٣].

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يكشف عن الحق الكامن من خلق السماوات والأرض المنتهي بقيام الساعة، وما يليها من ثواب المطيعين وعقاب العاصين، والمتصل بالحديث عن دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا يتناسب مع محورها التحدث عن مصير الكافرين بأن ذلك حق وواقع بقيام الساعة فيثاب المطيع ويعاقب الكافر، وليس للرسول ﷺ في ذلك سوى الإنذار والتحذير والتبشير.

---

(١) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١.

(٢) أنوار التنـزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٩٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٨٩.

سورة النحل

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

سميت سورة النحل بهذا الاسم لاشتمالها على قول الله تعالى:﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ النحل/ ٦٨، ففيها العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق وتدلُّ على الوحدانية بهذا الصنع العجيب. (١) وسميت بسورة النعم؛ لأن الله ذكر فيها من النعم الكثيرة التي امتن بها على العباد (٢). فمن الملاحظ أن كثيراً من سور القرآن جاءت تسميتها بالأمر المهم الوارد فيها؛ ليتفطن إلى الغرض الذى يرمى إليه من إنزال تلك السور، « فمثلاً سميت سورة الجمعة بهذا الاسم؛ لأهمية الاجتماع الأسبوعي، والعنكبوت والنحل، للتفطن إلى صغار الحيوانات الحكيمة الصنع». (٣)

ب - فضائل السورة:

بما أن سورة النحل تعد من أكثر السور التي ذكرت نماذج عدة من نعم الله، وهى بحق تسمى سورة النعم، فإنها تصلح مثالاً جامعاً لسائر نعم الله عز وجل الواردة في سائر سور القرآن الكريم. وما اشتملت عليه من أمثال وحقائق، جامعةً لما ذكر في السور الأخرى أو قريبا من ذلك.

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتثبيت المؤمنين إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، والرد على المشركين، وقد نزلت آياتها منجمة حسب

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٣ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ج ٣ / ص٣٧٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ج ٦ / ص ٣٤٩.

الوقائع والأحداث. ويوجد أسباب نزول لبعض آيات في السورة سيعرض لها في حينها إن شاء الله.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

جميع آيات السورة مكية ما عدا آخر ثلاث آيات فهى مدنية نزلت بعد غزوة أحد، بين مكة والمدينة «[1]وهي من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ١٢٦ - ١٢٨ جاءت تعقيباً على غزوة أحد، والغزوة وقعت بعد الهجرة، وجبل أحد في المدينة، فعلى هذا تكون هذه الآيات مدنية حسب المعايير التي اعتمدها العلماء عند تقسيمهم للمكي والمدني من حيث اعتبار الزمان والمكان والموضوع. وفي رواية هي: مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة وهي: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ٩٥ - ٩٧، وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات: آخر ثلاث آيات من السورة والآيتان: ٩٦ -٩٧ وقال ابن السائب: هي مكية ماعدا آخر ثلاث آيات وآيتان رقم ٤١ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ورقم ١١٠﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ بينما قال مقاتل: سبعة وأضاف إلى الثلاث الأخيرة: رقم ١٠٩ و ٤١ و١١٢ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ وانفرد جابر بن زيد بقوله: إنّ سورة النحل أنزل من أولها أربعون آية مكية وبقيتها مدنية»[2].

---

(١) الطبرى، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، م٧/ ص٦٦٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي ٤ / ٤٢٥ - ٤٢٦.

هـ - عدد آيات السورة:

وأما آيات السورة فعددها هو مائة وثمان وعشرون آية باتفاق العلماء وقد نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح ﷺ فهي السورة التاسعة والستون من حيث النزول»(١) إلا أن ابن عاشور قال إنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب النزول (٢)ولعله استند إلى الرواية التي وردت في الإتقان إذ ذكر السيوطي من رواية جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة نوح وليس قبل السجدة» (٣) فاتفقا على نزولها بعد سورة الأنبياء واختلفا في السورة التي بعدها.

والحق أنه من خلال الإستقراء تبين أنها نزلت قبل سورة نوح؛ لأن السيوطي عقب على الرواية التي ذكرها بقوله: « هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن» (٤).

و - محور سورة النحل:

يدور المحور الرئيس للسورة حول أصول العقيدة الإسلامية، وهي الوحدانية والألوهية والوحي والبعث. ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة وأقامت الحجج والبراهين الدالة على ذلك.

وورد في السورة العديد من الإشارات الكونية التي صيغت صياغة علمية غاية في الدقة والشمول والكمال مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق ، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشى، ج١ / ص٢٨٠-٢٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١٤ / ص٩٣.
(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطى،، ج١ / ص٨١.
(٤) السيوطى، الإتقان في علوم القرآن، ص٨١ -٨٢.

وكان للتركيز على ذكر النعم في هذه السورة أكبر الأثر في الدفاع عن العقيدة، وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد، لذا تعرضت السورة لمدح إبراهيم عليه السلام بسبب ثباته على التوحيدالخالص(١).

وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عمّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

ز - المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

النحل مخلوق من مخلوقات الله ومنه يستخرج العسل كما سيرد عند تفسير الآية ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ففي خروج العسل من بطونها مختلف ألوانه.. معجزة دالة على قدرة الله ووحدانيته والسورة تتحدث عن الوحدانية فبينهما ترابط وتناسق .

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة بالحديث عن اليوم الآخر ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فأمر الله آت لا محالة فلا بد من اتباع دينه والدعوة إليه لذا ختمت الآيات بقوله تعالى:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾مع الصبر على تبليغ الدعوة (واصبر وما صبرك إلا بالله) لتكون معية الله مع الموحدين نصراً وتأييداً وهو المحور الرئيس الذي افتتحت به السورة ليتناسب مع ختامها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ووعد الله قريب فالنصر إن شاء الله قريب.

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

يظهر الترابط بين آخر آية من سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وهو صالح لموت الكل ولكشف الغطاء عنهم بعد الموت بإتيان ما

---

(١) ، بتصرف. - الظلال، سيد قطب ١٢/ ٢١٥٧.

يوعدون به، لذا ابتدأ سورة النحل بهذا المعنى الذي ختم به سورة الحجر، فقال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١].

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

المناسبة بينها وبين سورة الحجر التي سبقتها؛ كلاهما تشتركان في موضوع واحد حيث نزلت سورة الحجر في وقت اشتد فيه أذى المشركين على الرسول ﷺ والمسلمين، وبلغ العناد والصدود مبلغاً كبيراً، فنزلت الآيات تسليه وتواسيه، وتحثه على الصبر. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤]. فهي تتحدث عن توحيد الألوهية والبعث والرسل واليوم الآخر وقضايا العقيدة عموماً.

ونلمس الترابط بين السورتين من قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢] وفي هذا إشارة إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عمّا أجرموه في دار الدنيا ومن قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١]، وهو يوم القيامة [1].

٥ - المناسبة بين خاتمة سورة النحل وافتتاحية السورة التي بعدها:

أشار الله في ختام سورة النحل إلى معيته سبحانه وتعالى مع المتقين وحفظه لهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل/ ١٢٨. وافتتح سورة الإسراء بمعجزة الإسراء والمعراج المنحة الإلهية لسيد المرسلين ﷺ والتي دلت على معية الله معه ونصرته له تأكيدا لما ذكرته سورة النحل.

هذا وسنعرض لمناسبات أخرى أثناء تفسير السورة، وهي: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها في نهاية كل مقطع. و بين مقاطع السورة بعضها مع بعض في بداية كل مقطع.

---

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، ص٧٩.

٦ - تقسيم السورة إلى مقاطع كالآتي:

المقطع الأول: إثبات وحدانية الله: (الآيات ١ - ٢)

قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

سبب نزول الآية:

كان المشركون يستعجلون ما وعدهم الرسول ﷺ به من قيام الساعة، أو حكم الله بهلاكهم، ويقولون إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا، وتخلصنا منه، فنزلت الآية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فسكنوا. [١]

التفسيرالإجمالي للمقطع الأول:

تتحدث هذه الآيات عن قرب قيام الساعة، وينبه إلى عدم الاستعجال، فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ﷺ وأتى الخطاب بصيغة الماضي، إشارة إلى أنه واقع لا محالة، « لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوثُ فلا تجزع، وعبر باسمه الأعظم الجامع لجميع معانى الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد، وعبر عن الآتى بالماضى إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى وإلى أن كل آت ولابد قريب» [٢]. وفسر بعض المفسرين ﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾: «يعني القيامة وقيل النصر على الكفار وقيل عذاب الكفار في الدنيا ووضع الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوع الأمر ولقربه وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله ﷺ قائما فلما قال ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ سكن». [٣]

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٣.

(٢) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ / ١٥٢ابن جزي.

والآيات تنزِّه الله وتقدسه عن شركهم وعبادتهم غيره من الأنداد والأوثان. لذا شاءت إرادة الله أن ينزّل الملائكة بالوحي والنبوة على من يصطفي من خلقه، وسمّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، لينذروا أنه لا معبود إلا الله.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

١ - جاء مطلع السورة حاسما جازما: أتى أمر الله. وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه؛ فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال. ولا يؤخرها رجاء. فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر في علم الله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر؛ فلا يجوز لمسلم أن يستعجل عذاب الله أو يدعو على نفسه بل يدعو بدعاء الرسول ﷺ: « لا يتمنين أحدكم الموت من مرض أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي »[1]. من أجل مخالفة مشركي مكة الذين كانوا يستعجلون الرسول ﷺ ليأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة استهتاراً. ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته بهم، ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون وآياته في القرآن.

٢ - يجب تنزيه الله عن الشريك: عن الولد والوالد، والأوثان والأنداد، والتنزيه يقتضي إثبات الوحدانية والقدرة المطلقة لله.

٣ - التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى، وأن الوحي إلى رسل الله لا يكون إلا بواسطة الملائكة؛ فيجب الإيمان بالوحي واتباع الهدى، وانكاره كفر لأن الله ينزل على الناس من السماء ما يحييهم وينجيهم: فهو لا ينزل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها بل ينزل ما يحيي به القلوب؛ فالوحي حياة ومبعث حياة وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس، وأول النعم التي يمن الله بها على العباد.

(١) أخرجه البخاري، رقم/ ٦٣٥٧.

٤ - الإنسان بحاجة إلى الإيمان لتستقيم الحياة فلا قيمة لعيش الإنسان بجسده إذا كان قلبه ميتا، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، والحياة الحقيقية لا تكون إلا بالهداية، فمصدر الهداية الحقيقية من عند الله سبحانه.

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة:

افتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحور؛ فذكر الساعة والملائكة والأنبياء من أجل التركيز على الوحدانية وهو محور السورة الأساس، لذا ذكرها بترابط وتناسق « حيث بدأ سبحانه بذكره ثم أتبعه بذكر الملائكة؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحي هو الكتب التي يوصلونها إلى الأنبياء والرسل فكان الترتيب متناسباً متدرجاً موضحاً رتبة الملائكة والأنبياء الذين أرسلوا للدعوة إلى وحدانية الله. »[1].

المقطع الثاني: أدلة إثبات وحدانية الله تعالى، الآيات: (٣ - ١٦)

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/ ٨٧ .

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

بعد أن قرر الله سبحانه أن الألوهية له وحده في المقطع الأول أقام عليها الأدلة في المقطع الثاني، يعرضها فوجا فوجا، ومجموعة مجموعة وهي أدلة متعددة ومتنوعة يقف العقل أمامها حائراً، ولا يملك إلا التسليم المطلق لله تعالى كما يأتي بيانه:

التفسير الإجمالي للمقطع االثاني:

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾. الحق قوام خلقهما، والحق قوام تدبيرهما، والحق في تصريفهما؛ فما خلق الله شيئاً عبثاً، إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر في النهاية إليه. ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعالى عن شركهم، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السماوات والأرض، وخلق من فيهما وما فيهما فلا أحد وليس شيء شريكا له وهو الخالق الواحد

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشراً تاماً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا أعجب بنفسه ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلا متكلما، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي

أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ ﴾ يمتن الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام لمنافعهم ومصالحهم، ومن جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفۡءٞ ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت، وغيرها من المنافع الأخرى كالركوب ونقل المتاع، وخص وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها بالذكر، ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ ﴾ «وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، وخص الله هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب وفي ذلك مفاخرة بالقطيع يذكر بنعمة الله على الإنسان، وقدّم الرواح على الذهاب؛ لأن الفائدة فيها أتم فمجيئها يدل على الشبع وكثرة الحليب مما يملأ النفوس بهجة وسروراً والعين متعة، فهي عنصر للغذاء وأداة انتاج في الاقتصاد»[1].

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾ «والله ذللها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة،، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره»[2].

﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى ذكر في كتابه ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره: كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ ﴾ [الرحمن: ٥٢]، فكذلك هنا ذكر ما نعرفه

(١) التفسير المنير، الزحيلي ج١٤ / ص٩٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ر، ج٤ / ص٤٢٩.

من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله، ونهى عن الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة مع أن الله قادر أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين ولكنه كرمهم فجعل لهم الاختيار، فهدى الذين اهتدوا كرما منه وفضلا، وأضل الضالين، حكمة منه وعدلا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ والماء ينزل من السماء وفق الإرادة الله وهو نعمة من نعم الله للشراب وللمراعي التي تربون فيها السوائم، وذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها، ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وكل هذا يدفعنا لمعرفة تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبية لحاجاته.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ وسخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك

من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأة له مستعدة تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ فيما خلق الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

هو وحده لا شريك له ﴿ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة، كأكل السمك والحوت الذي يصطادونه منه واستخراج الحُلى التي تزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم، ولتركبوا السفن والمراكب ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ تمخر في البحر العجاج الهائل حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ خلق الله الجبال العظام لئلا تميد بهم الأرض وتضطرب، وليتمكنوا من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارا على وجه الأرض، وأنهارا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلا، أي: طرقا توصل إلى الديار المتنائية ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ السبيل إليها حتى إنك تجد

أرضا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها وقد جعل الله فيها بينها منافذ ومسالك للسالكين. فأما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا.

وفي مقابل الجبال الرواسي يوجه النظر إلى الأنهار الجواري، والسبل السوالك والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال ففي الجبال في الغالب تكون منابع الأنهار، حيث مساقط الأمطار والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار، وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال، ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات، وفي السماء من النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

١ - التفكير في مخلوقات الله أمر تعبدي؛ فالذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين الظواهر الكونية كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، والبحر وما يحتويه، وسائر الظواهر وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره. أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الظواهر وهم غافلون، لايتفكرون ولا يعتبرون.

٢ - خلق الله السماوات والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، ووحدانيته، وقدرته، ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا يجب تنزيه الخالق عن شرك المشركين به.

٣ - من نعم الله على المسلم أن جعل له من مخلوقاته ما يبعث في نفسه السرور والارتياح كالنظر إلى الأنعام؛ لأن الناظر لها يرى جمال خلق الله، صنع الله الذي أتقن كل شيء. « فالجمال عنصر أصيل وليس الأمر متوقف على تلبية الضرورات من الطعام والشراب والركوب وسائر وجوه الانتفاع. وفي مقابل هذا يجب على المسلم أن يذكر الله ويشكره.

٤ - الركوب نعمة تستوجب الشكر لأنها توفر كثيراً من الجهد والتعب، «وإذا نظرنا إلى الخيل نجد أن لها أثراً كبيراً في الجهاد، ونشر دعوة الإسلام، والدفاع عن الأوطان وعن الحرمات والأعراض، وكانت من وسائل نصر المسلمين على أعدائهم» (١).

وأما من حيث جواز أكل لحومها وعدمه؛ فهي مسألة فقهية مختلف فيها: فمالك وأبو حنيفة قالا: بعدم الجواز لأن الاية ذكرت الركوب والزينة، ولم تذكر الأكل، وللحديث « نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير... الحديث» (٢) وقال الإمام القرطبي: يجوز أكل لحومها، لأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، للحديث «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل»(٣) وأرى أنه يجوز أكلها، وإن كان الأولى تركها لأن مهمتها أعظم من جواز ذبحها وأكلها.

٥ - - الله أباح الزينة في حدود الحلال وهذا يدل على أن المسلم لا يجوز أن يتمتع بالزينة الحرام لأن الله جعل له بديلا عنها بالزينة الحلال وتجاوز الحلال يدل على السلوك المنحرف الذي ينبغي أن يتنزه عنه المسلم. فمن مظاهر الإنتفاع التزين بهذه الأنعام « فالتزين ضمن الحدود المشروعة أمر مباح»(٤).

٦ - وتعلم الحكمة في الخطاب مع الناس فالآيات لم تذكر وسائل التنقل غير الموجودة لئلا يكذب الناس فالحكمة هي مخاطبة الناس بما يعقلونه ولكنها حثتهم على العلم والاستكشاف لقوله تعالى:﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾فحدثهم بما هو موجود في بيئتهم وترك لهم آفاقاً يكتشفونها في المستقبل، وليظل المجال مفتوحا في التصور البشري، لتقبل

---

(١) الخيل والفروسية، سلامة، محمد أحمد، ص٩٨.

(٢) رواه أبو داوود والنسائي والداراقطني وفي مصنف ابي شيبة ج٧، برقم ٣٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠ / ٧٦ - ٧٧.

(٤) التوحيد والشكر في سورة النحل، طهماز ص١٦.

أنماط جديدة، من أدوات النقل والحمل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة وخارج حدود الزمان الذى يظلهم، فوراء الموجود في كل زمان ومكان صور أخرى يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد، أو حين تكتشف، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها، والإنتفاع بها[1].

وهذا كله من فضل الله على الناس ليشكروه.

٧ - الآيات تعلم إكتساب الموعظة والعبرة؛ فإذا كانت الأنعام التي سخرها الله لخدمة الإنسان تطيعه ولا تتمرد عليه فكذا حري بالإنسان أن لا يتمرد على الله ومن أجل هذا جاء التعبير بلفظ العبرة لنتعلم الطاعة لله ولا نعصيه البتة.

٨ - مما يدل على كمال قدرته سبحانه: نزول المطر لأن الماء سبب الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مذللات لمعرفة الأوقات، والزروع والإهتداء بالنجوم في الظلمات، وتسخير البحر ومافيه من الأسماك والكنوز آيات للعباد، وتسخير الأرض مافيها وما عليها كل ذلك يدل على الخالق وحده لا شريك له.

(١) في ظلال القرآن، سيد، قطب، ٤/ ٢١٦١.

المقطع الثالث: الله الخالق المنعم القادر وعجز المعبودين من دونه (١٧ – ٢١)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير في المقطع الثاني يعقب السياق عليه في هذا المقطع بما سيق هذا الاستعراض من أجله. فقد ساقه في صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون، وهي من خصائص الألوهية: الخلق والإبداع، وعلم السر والعلن، والحياة الدائمة، وناسب أن يذكر أسباب الشرك مع أن أدلة التوحيد التي سبقت في المقطع السابق ظاهرة وقوية لا يزيغ عنها إلا هالك.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

الله سبحانه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له لذا قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه أولو العلم شبيها بها.

والمراد بمن لا يخلق: كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه أولو العلم منهم أو الأصنام وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق، أو للمبالغة وكأن قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر، والتفات جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد [1] « فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه:

---

(١) تفسير البيضاوي، للبيضاوي ٣/ ٣٩١.

أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

والثاني المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده»[١].

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ ﴾ عددا مجردا عن الشكر ﴿ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون أكثر من أن تحصى، والتعبير جاء بلفظ نعمة ولم يقل النعم بالجمع؛ ليدل على أن النعمة الواحدة يتفرع منها نعم كثيرة فإن كانت النعم بالجمع لا تحصى فكيف بالفروع لذلك عقب الله بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير لأنكم لا تطيقون شكرها.

وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿ وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟» ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره.

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ أَمْوَاتٌ أي هي أموات غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ يعني الأصنام أَيَّانَ متى يُبْعَثُون عَبّر عنها كما عبّر عن الآدميين وقيل ومايدري الكفّار عبدة الأوثان متى يبعثون[٢] فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين.

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢ / ٥٦٠.

(٢) تفسير الثعالبي، للثعالبي ج٦: / ١٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

١ - لا يجوز لإنسان أن يسوي في حسه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق كله ومن لا يخلق مثقال ذرة ؟ فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها.

٢ - الإنسان قد يتعرض للنسيان فهو بحاجة للتذكير فليجعل القرآن خير مذكر له، وأكثر النعم لا يذكرها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها. وهذا تركيب نفسه ووظائفها لا يشعر بما فيه من النعم إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال لفقد بعض النعم، فما يسعه إلا غفران الله لتقصيره ورحمته لضعفه. لذا يجب شكر الله في السراء والضراء.

المقطع الرابع: ذم المتكبرين ومدح المتقين الآيات (٢٢ - ٣٥)

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا

خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

تم في المقطع الثالث استعراض آيات الخالق في خلقه، وفي نعمته على عباده، وفي علمه بالسر والعلن، بينما الآلهة المدعاة، لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة. ولا تعلم شيئاً، بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة. وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء وهذا وذلك قاطع في بطلان عبادتها، وفي بطلان عقيدة الشرك كافة. وفي هذا المقطع تعلل الآيات عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة وتمدح المتقين الذين اهتدت قلوبهم لمعرفة الحق، فشتان بين المؤمن والكافر.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

يقرر الله وحدانيته ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد. فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، وأما الكافرون الذين أنكرت قلوبهم الإيمان بالله جهلاً وعناداً وتكبراً ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ حقا لا بد أن الله يعلم جهرهم وسرهم، و يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

وإذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون ؟ فيكون جوابهم أقبح جواب، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها.

وسبب نزول الآية: أنه كان النضر بن الحارث قد اتخذ كتاب تواريخ وكان يقول إنما يحدث محمد بأساطير الأولين وحديثي أجمل من حديثه. [1]

وبهذا الافتراء حملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئا» [2]، «وقال مجاهد يحملون أثقال ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً» [3]

ووصف الله مكرهم برسلهم واحتيالهم بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة، ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به، « يعني مكر نمروذ بن كنعان وهو الذي حاج إبراهيم في ربه»[4]

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ

---

(١) التفسير الكبير ج٢٠ / ١٠٦-١٠٧.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، رقم / ٢٦٧٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٦٧.

(٤) فسير مجاهد، مجاهد ١:/ ٣٤٦.

إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

ثم يسألهم لماذا تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله ؟ فلم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم والشهادة على أنفسهم وساعتئذ يقول المؤمنون، العلماء الربانيون حين يرون خزي الكفار: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ وَٱلسُّوٓءَ ﴾ أي: العذاب ﴿ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ عليهم لا علينا [١] وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. عندها استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فيقال لهم لا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم، فيدخلوا نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

لما ذكر الله قول المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا لها ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب،

---

(١) فسير الواحدي، الواحدي ١/ ٦٠٤.

وأمن وسرور.

﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال: ﴿ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه،﴿ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم لا بحولهم وقوتهم. «قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ويبشرك بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون بعملكم»[١] ويعود السياق للمستكبرين، يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا،

(١) تفسير النسفي، النسفي ٢ / ٢٥٥.

وذكّروا فلم يتذكروا، ﴿ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم، ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ﴾ إذ عذبهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي: نزل ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

ثم يجادل المشركون في ربهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥ ﴾ احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئا من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله. فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

١ - كل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، وهي وحدانية الله (إلهكم إله واحد)؛ فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. فقلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ،وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول. فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم.

٢ - كشفت الايات عن سبب شرك المشركين وهو تحجر قلوبهم، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات، وهم مستكبرون، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم. بينما المؤمن يسارع إلى التصديق بربه. وفساد في تفكيرهم لأن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها، فهي لا تضر ولا تنفع فكيف تتخذ آلهة ؟ وبسبب إنكارهم لنعم الله وإحسانه لهم، والأجدر بهم شكرها.

٣ -الخالق يعلم ما خلق في السر والعلانية مما يوجب على المسلم أن يعبده كأنه يراه لأن الله يراه. والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث وهو علم استأثر الله به، فينبغي الإعداد والاستعداد لأنه قريب.

٤ - جمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة. بل جعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء؛ فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء، تعذيب الكفار يوم القيامة ليس ظلماً من الله بل هم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله، وجازى المتقين المحسنين بإحسانهم .

٥ - ظهور الإعجاز في أسلوب القرآن من خلال تشبيه الذنوب بأحمال ذات ثقل، وساءت أحمالا وأثقالاً؛ فهي توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور، وهي تثقل القلوب، كما تثقل

الأحمال العواتق، وهي تتعب وتشقي كما تتعب الأثقال حامليها بل هي أدهى وأنكى ! وهذا كله من أجل التنفير من الذنوب والمعاصي.

٦ - وصف الكفار للقرآن بأنه أساطير الأولين لما يحويه من قصص الأولين بعيد عن الحقيقة لأن القرآن الذي يعالج النفوس والعقول، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل. وورود قصص الأولين في القرآن لأخذ العبرة والموعظة.

٧ - ذكر عاقبة الكفار وجزاء المؤمنين أسلوب من أساليب الترغيب والترهيب يستحسن أن يوظفه الداعية في الدعوة إلى الله؛ فمن أساليب القرآن: ضرب المتقابلات المتعاكسة كذكر صفات الكفار ومقابلتها بصفات المتقين، وكذكر الجنة والنار.... الخ.

المقطع الخامس: عاقبة المكذبين بالرسل وباليوم الآخر وجزاء المؤمنين بهما (٣٦ - ٥٠)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ

يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع الرابع:

تم في المقطع الرابع بيان موقف كل من المشركين والمؤمنين تجاه القرآن الكريم وجزاءهما عن موقفهما وفي هذا المقطع يقارن بين موقفيهما تجاه الرسل، وذكر الرسل مناسب بعد ذكر القرآن، لأن الرسل هم الذين كلفوا بتبليغ الكتب.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

يخبر الله تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ فاتبعوا المرسلين علماً وعملاً، ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ فاتبع سبيل الغي.

فناسب أن يوجههم إلى السير في الأرض لأخذ العبرة ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان عاقبته الهلاك. ولكن الجاحد ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، شريطة أن يبدأ الإنسان باسباب الهداية وإلا فلا ناصر لهم ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

ويخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، فيؤكد الله أنه سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا ﴾ لا يخلفه ولا يغيره، ولكن الناس من جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء.

وهذه الأية لها سبب نزول: قال الربيع بن أنس: عن أبي العالية: « كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله هذه الآية»» [1]. وذكرالجزاء والبعث من المسائل التي بين الله حقائقها.

ويخبر الله عن أحوال الكافرين حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، فيتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، لا حول لها ولاقوة.
يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته الذين تعرضوا للأذية والمحنة من قومهم، ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من أجر الدنيا، وورد أنهم هم الذين: «عذبوا وأوذوا في الله نزلت في بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وقال قتادة هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين لنبوئنهم في الدنيا حسنة وهو أنه أنزلهم المدينة روي عن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية وقيل معناه لنحسنن إليهم في الدنيا وقيل الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون وقوله لو كانوا

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ١٢٩.

يعلمون ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه»[1] .

ثم ذكر فضل الصبر، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية في سبيل الله وعلى المحن، وزادهم هو التوكل على الله لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

والله يذكر بالصبر تسلية لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهذا حال الرسل السابقين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء. ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، وذكر﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ الكتب السابقة ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله رجالاً ؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، في كل شيء، بالتفكير في آياته؛ لأن القرآن دستور الحياة ثم ناسب أن يخوف الله من يعرضون عن القرآن فإنهم لا يأمنون مكر الله، وهذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

---

(١) تفسير البغوي، البغوي ٣ / ٦٩.

« أو يأخذهم على تخوف فيه وجهان: أحدهما: أن معناه على تنقص أي ينتقص أموالهم وأنفسهم شيئا بعد شيء حتى يهلكوا من غير أن يهلكهم جملة واحدة ولهذا أشار بقوله فإن ربكم لرؤوف رحيم لأن الأخذ هكذا أخف من غيره وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التخوف في الآية حتى قال له رجل من هذيل التخوف التنقص في لغتنا.

والوجه الثاني: أنه من الخوف أي يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا هم ذلك فيأخذهم بعد أن توقعوا العذاب وخافوه ذلك خلاف قوله وهم لا يشعرون»[1] ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة لعلهم يرجعون.

ولكي يوقنوا بقدرته على إنزال العذاب بهم دعاهم للنظر فيما حولهم إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها، عن اليمين والشمائل، كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده. لذا مدح الله عباده الخاضعبن له بالسجود ومنهم الملائكة الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم، لذا مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، ومدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره يمتثلون لأمره، طوعاً واختياراً.

وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان:

سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره.

وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ١٥٤.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

١ - إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى الله وحده، وترك عبادة الطواغيت، والناس أمام دعوة الله فريقان: فريق اهتدى وفريق اختار الضلال.

٢ - شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل ليهتدوا به، فهو مناط التكليف، ووضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، صواب تقديره أو خطئه.

٣ - لم يجعل الله الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان، ففريق استجاب، وفريق سلك طريق الضلال .وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله، وكلاهما لم يقسره الله قسرا على هدى أو ضلال، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه، بعد أن هداه الله النجدين؛ فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه، بل وظيفته البلاغ.

٤ - إثبات بشرية الرسل؛ فهم بشر ليسوا ملائكة، ليسهل الاقتداء بهم لأن صفات الملائكة غير صفات الرسل، وكانوا رجالاً لتحمل مشاق الدعوة.

٥ - فندت الآيات شبهات المشركين حول البعث وبيان حكمته ؛ فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، فوعد الله لا يتخلف بحال من الأحوال فهو يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء.

٦ - مدح الله أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله.

٧ - الله سبحانه يكرم المؤمنين المصدقين، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال، في الله، وفي سبيل الله. جزاء المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وديارهم جزاء عظيم، ومنزلة حسنة، لذا على المسلم أن يبحث عن المكان الذي يتمكن فيه من عبادة ربه وأما إن كان وجوده في ديار الكفر فيه منفعة لصالح دعوة الإسلام فله البقاء بل قد يجب لتبليغ دعوة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٨ - من سنن الله سبحانه أنه يمهل ولا يهمل، فيجب الخوف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة،، وإذا لم يرجعوا إليه فإنه يأخذ العاصين أخذ عزيز مقتدر، فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

٩ - يجب مشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه ؛ فالأرض كلها ساجدة لله، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة، والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار، وامتلأت بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا جدال . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر وكل ما حوله يحمد ويسبح، وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يغني عنهم مكرهم وتدبيرهم، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم.

المقطع السادس: أدلة أخرى على توحيد الألوهية الآيات: (٥١ - ٦٤)

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

المناسبة بين المقطع السادس والمقطع الخامس:

تم التأكيد في المقاطع السابقة على وحدانية الله واثباتها وفي هذا المقطع يعرض مزيداً من الأدلة لتأكيدها وليستيقن الذين كفروا ويزداد المؤمنون إيماناً.

التفسير الاجمالي للمقطع السادس:

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه « وقد قيل إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية والإفراد في إله قد دل على الوحدة فما وجه

وصف إلهين باثنين ووصف إله واحد فقيل في الجواب إن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله وقيل إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها وإنما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فإياي فارهبون أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري» [1].

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوا له. لأنكم إذا عبدتم غيره فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعاً، فحين يمسكم الضر تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة؛ فيجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر -نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

وقالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله وأبقوا لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم إذا بشر بالأنثى أصابه الحزن والأسف لدرجة أنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣:/ ١٦٨.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها هل يتركها من غير قتل على إهانة وذل أم يدفنها وهي حية ؟ وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه؛ فنسبوا له أقل القسمين نفعاً في المهمات الجسام، وهو الإناث اللاتي يأنف العرب بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

وردت الآيات بأن هذا المثل الناقص والعيب التام لهم، والله سبحانه له كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه. لأنه هو الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه. « ولما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه بخلقه وصبره عليهم مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، تبعا لإهلاك بني آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً»[1] فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه. وأخبر تعالى عن فساد معتقد المشركين ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم -وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ في حين أنهم يزعمون أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، والله يقرر أن لهم النار قادمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدا.

بيَّن تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب بل أرسل من قبله رسلا يدعون إلى التوحيد، فكذبوهم قومهم، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٧٤.

فأطاعوه واتبعوه وتولوه، وتولوا عن ولاية الرحمن، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

١ - لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير. ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

٢ - الآيات تبرز قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية؛ فهذه الآيات تصحح نظرة المجتمع للمرأة، فالأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم، ووأدها قتل للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة، ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة.

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها من جديد؛ فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الناس، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها، نشأت من الانحراف الذي أصاب الناس في عقيدتهم، ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - في مسألة المرأة . في حين أن الإسلام أمر بالإحسان للبنات ففي الحديث «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار»[(١)]، وقال ﷺ «واستوصوا بالنساء خيراً»[(٢)].

٣ - اقتضت حكمة الله أن يؤخر العذاب إلى أجل. لعلهم يهتدون، والله قادر أن يأخذ الناس

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٤٣.

(٢) رواه البخاري رقم/ ٥١٨٥، ومسلم برقم/ ١٤٦٨.

بظلمهم الذي يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميراً.

٤ - جعل الله موقفا خاصا للرسول ﷺ شاهداً على قومه، شفيعاً للمؤمنين، فالله أنزل معه الكتاب تبيانا لكل شيء فلا حجة بعده لمحتج، ولا عذر معه لمعتذر؛ فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتي اليوم المرهوب، فلا عذر ولا عتاب للذين كفروا .

٥ - وظيفة القرآن والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم. إذ الأصل هو التوحيد، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور، ومن تشبيه وتمثيل. كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه. وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه . وإنزال الكتاب - هو خير ما أنزل الله للناس لأن فيه حياة الروح - فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام والروح أهم.

المقطع السابع: نعم دالة على الوحدانية تتمة النعم التي ذكرت في المقطع الأول (الايات من ٦٦ - ٨٩)

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

المناسبة بين المقطع السابع والسادس

لما ذكر سبحانه افتراء أهل الجاهلية على الله بنسبة الأنثى إليه، ووأدها ناسب أن يذكر في هذا المقطع أدلة تفرده سبحانه وتنزيهه عن الشريك والولد.

التفسير الإحمالي للمقطع السابع:

تعود الآيات للتذكير بنعمه لستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وأنه على كل شيء قدير وسخر الأنعام لمنافعكم ولتستدلوا بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصاً أي: سهلا في الشرب لا يشجى به شاربه ولا يغص وقال بعضهم سائغا أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم «[1] فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، واستبدلها بالطيبات من أنواع الأشربة اللذيذة المباحة. « قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما حل من ثمرها»[2] وهذا كله دليل كمال قدرة الله حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك. وتقييد الرزق بالحسن وعدم وصف السكر به دليل إباحة الرزق وتحريم المسكرات.

وفي خلق النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه «وقيل لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء أو لكلها بضميمته إلى غيره أقول وبدونها بنيته

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ج٤ / ٤٦٣ .

(٢) تفسير الصنعاني ج ٢ / ٣٥٧ .

وقد أمر به ﷺ من استطلق عليه بطنه، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون في صنعه تعالى»(١) .

ثم أخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره إلى أرذل العمر أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، فالله سبحانه قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤].

« والله فضل الخلق في الرزق بعضهم على بعض، فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق لا يردون ما رزقهم الله غلى عبيدهم، ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ وهذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها، لما أشركوا به أحداً»(٢).

ويخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها من جنسكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت وإليك نسعى ونحفد .

«واختلف في الأحفاد، فقيل: هم الأختان على البنات وقيل أولاد الأولاد وقيل أولاد المرأة من الزوج الأوّل وقيل المعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم، كأنه قيل وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون

(١) تفسير الجلالين ج١:ص٣٥٥.
(٢) تفسير السعدي ج١:ص٤٤٤.

وهم حافدون أي جامعون بين الأمرين»[1]، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها. فهل بعد هذا يؤمنون بغير الله ؟

وأخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً، ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟

«وجمع الضمير فيه وتوحيده في لا يملك لأن ما مفرد في معنى الآلهة ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئا من ذلك فكيف بالجماد»[2].

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

١ - تؤكد الآيات على وحدة الألوهية الواحدة التي لا تتعدد، يبدأ فيقرر وحدة الإله، ووحدة المالك، ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأولى متواليات، تأكيداً لما سبق في الآيات المتقدمة وهي دلائل الألوهية لا سواها: فالله أنزل من السماء ماء فاحيا به الأرض بعد موتها فالذي يحول الموت إلى حياة والذي يسقي الناس لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم. ببديع صنع الله العجيب، فالله الذي خلق هذه الشياء كلها هو الذي يستحق أن يكون إلها.

٢ - وصف الرزق بالحسن وعدم وصف الخمر به، فيه توطئة لما جاء بعد من تحريمها، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب، وليس فيه نص بحلها، بل فيه توطئة لتحريمها .

٣ - العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب . شرحاً فنياً. وهو ثابت

---

(١) الكشاف ج٢:ص٥٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي ج٣:ص٤١١.

بمجرد نص القرآن عليه. وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادا إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله؛ كما أثر عن رسول الله. وروى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال:يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا. قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال:يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً. فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرىء[1]. ويروعنا في هذا الأثر يقين الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه. وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية. وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله. مهما بدا في ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها. فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، الذي ينثني في النهاية ليصدقها.

٤ - القرأن يدعو الإنسان إلى التفكير، حينما يرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة. هذه الصورة قد ترد النفس إلى شيء من التأمل في أطوار الحياة، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته؛ لأن العلم الشامل الأزلي الدائم لله، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله. وأن علم الإنسان إلى حين، وقدرته إلى أجل، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان.

٥ - الله فضل بعض الخلق على بعضهم في الرزق وجعلهم متفاوتين فيه، وفق الأسباب الخاضعة لسنة الله وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة، لأن له مواهب في ميادين أخرى. وقد يبدو غبياً جاهلاً ساذجاً، ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته، ومن الرزق الأزواج والأبناء والأحفاد، وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً. ويجعلون له الأشباه والأمثال وأنتم لا تساوون أنفسكم مع أصنامكم التي تعبدونها من دون الله

(١) البخاري

فلماذا تساوون بين الله وعباده ؟

٦ - كشفت الآيات عن ظلم العباد لأنفسهم لأن الله خلقهم، ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئاً. والله فضل بعضهم على بعض في الرزق وجعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة. وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء، ويجعلون لله الأشباه والأمثال.

المقطع الثامن: ضرب الأمثلة لاثبات الوحدانية لله: الآيات (٧٤ - ٧٧)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابع

لما ذكر سبحانه أن المشركين ساووا بينه وبين الأصنام في الرزق والملك ناسب في هذا المقطع أن يضرب لهم الأمثال الدالة على وحدانيته والتي تبين عجز الآلهة المزعومة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

« التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئاً والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشؤون فإن ضرب المثل

مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤون»[١] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه.

أحدهما عبد مملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا.

والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً.

هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير ممكن استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني: ضرب مثلين أحدهما أخرس وهو الصنم لا يقدر على شيء من مال ولا منفعة وهو كل على مولاه أي ثقل على وليه وقرابته يعني الصنم عيال ووبال على عابده أينما يوجهه لا يأت بخير أي حيث يبعثه لا يجيء بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل يعني بالتوحيد وهو على صراط مستقيم، يدل الخلق إلى التوحيد ويقال هذا المثل للكافر مع النبي ﷺ يعني الكافر الذي لا يتكلم بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالتوحيد ويدعو الناس إليه وهو على صراط مستقيم يدعو الناس إليه وهو على دين الإسلام وقال السدي المثلان ضربهما الله لنفسه وللآلهة»[٢].

---

(١) تفسير أبي السعود ج٥/ ص ١٢٨.

(٢) السمرقندي، تفسير السمرقندي ٢:/ ٢٨٣.

يخبر الله غن قرب الساعة في قرب كونهاإلا كلمح البصر إذ قال له كن فيكون أو هو أقرب بل هو أقرب إن الله على كل شيء قدير

وسبب نزول قوله تعالى نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء [1] فهو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

١ - ضرب الأمثال في هذه الآيات أكد بشكل قاطع الوحدانية لله وأبرز عجز المدعوين من دونه، ذات إيقاعات عميقة، تؤثر في النفس، وينبغي أن يكون المثل المضروب مأخوذاً من واقع الناس لتقريب الفهم.

٢ - قضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلا شديدا في كل عصر، ومع كل رسول. وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه. وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا وقت الساعة؛ ليعملوا ويعبدوا في كل وقت.

المقطع التاسع: نعم دالة على وحدانية الله تتمة للنعم المذكوة في المقطعين الأول والسابع الآيات (٧٨ - ٨٣)

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ

(١) تفسيرالبغوي، البغوي ٣/ ٧٩.

أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع الثامن:

لما ذكر الله في الآيات السابقة الأمثال للدلالة على وحدانيته وذكر أن مرد علم الساعة إليه، ذكر لهم في هذا المقطع نعماً يرونها ولكنهم لا يدركون سرها وكنهها فكيف بما هو غيبي ؟ فالأولى لهم التوحيد والطاعة وعدم إنكار نعم الله بدلاً من الافتراء على الذات الإلهية ووصفه بالنقص والتعدد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذكر هذه النعم في هذا المقطع يكون تأكيداً وتتمة لما ذكر في المقطعين الأول والسابع.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء «وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء.

الثالث لا تعلمون شيئا من منافعكم وتم الكلام ثم ابتدأ فقال وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة أي تعلمون بها وتدركون لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته وقد قيل في ضمن قوله وجعل لكم السمع إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق»[1]،

---

(١) تفسير القرطبي ج١٠: ص١٥١.

وذلك لأجل أن يشكروا الله.

ودعاهم للتفكبر في الطير: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ألم ينظروا إليها مسخرات مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة له، [1]

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ يُذكّر تعالى عباده نعمه ومنها: السكن في الدور والقصور ونحوها تكنُّكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، تصنعونها إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

وتكون خفيفة الحمل في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، «وجعل لكم من الأنعام من الصوف والشعر والوبر مما هو شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك مما تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله». [2]

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ جعل لكم مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ظلالاً، وذلك كأظلة الأشجار والجبال والآكام ونحوها، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء. ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ جعل لكم ألبسة وثيابا تقيكن الحر ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم

(١) تفسير أبي السعود ج٥: ص١٣٢.
(٢) السعدي/ ٤٤٥.

وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾. وقيل: لم يذكر البرد لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً وقيل ما يقي من الحرّ يقي من البرد فدل ذكر الحرّ على البرد.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ إذا لم يستجيبوا للرسول ﷺ فليس عليه من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك، فحسابهم على الله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها وهذه الآية لها سبب نزول: «فروي أن أعرابياً أتى النبي صلى الله فسأله، فقرأ عليه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ قال الأعرابي نعم، ثم قرأ عليه: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم حتى بلغ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات لفساد مشاعرهم، وسوء قصودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله» [١].

الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

١ - من نعم الله السمع والأبصار والأفئدة والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعقل، وهذه النعم تستوجب الشكر، وأول الشكر الإيمان بالله الواحد.

٢ - ضرب الله لهم من أمور الدنيا التي يرونها ولكنهم لا يعلمون من أسرارها شيئاً فكيف بما لا

(١) الكشاف، الزمخشري ٢ / ٥٨٤.

يرونه ؟ فهذه أطوار الجنين قد يراها الناس، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم ؟ لأن سرها هو سر الحياة المكنون، وطيران الطيور الدال على كمال قدرة الله لا يمسكهن إلا هو، والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب، علم حادث مكسوب.

٣ – المؤمن يزداد إيماناً وتوحيداً، بتأمله في مخلوقات الله؛ فمشهد الطير مسخرات في جو السماء يزيده تعظيماً وتسبيحاً لله وحده الذي لا يمسكهن في جو السماء إلا هو.

٤ – والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريبا عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر. والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

٥ – تستعرض الآيات النعم التي تلبي الضرورات فيذكر المتاع إلى جانب الأثاث، والمتاع يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح: وللنفس في الظلال راحة وسكن، ولها في الأكنان طمأنينة، ولها في السرابيل التي تقي الحر من الأردية والأغطية راحة وفي السرابيل التي تقي البأس من الدروع وغيرها وقاية . . وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها؛ فهذه نعم معروفة لا ينبغي لعاقل إنكارها.

المقطع العاشر: من مشاهد اليوم الآخر، الآيات (٨٤ - ٨٩):

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع التاسع:

لما ذكر في المقطع التاسع إنكار الكفار لنعم الله، وتكذيب الرسول ﷺ ناسب أن يبين في هذا المقطع حالهم يوم القيامة والجزاء الذي ينتظرهم، لأن الرسول ﷺ قد أدّى وظيفته فبلغهم ما أنزل إليه من الهدى والرحمة.

التفسير الإجمالي للمقطع العاشر:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الكافرون في يوم القيامة لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء، لذا جعل الرسل عليهم شهوداً ثم الذين إذا شهدوا، ثم لا يؤذن لهم فيعتذرون وذلك حين تطبق عليهم جهنم لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً.

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ عند معاينة العذاب لا يجدون من يخففه عنهم أو ينقذهم منه، ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يوم القيامة عندما يرى المشركون شركاءهم ويعلمون بطلان كون الشركاء آلهة فإنهم يلقون باللوم على شركائهم فيقولون هؤلاء الذين كنا نعبدهم أو نطيعهم «ولعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم» فيرد شركاؤهم إليهم القول: إنكم لكاذبون، فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص من غائلة مضمونه وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم (بل كانوا يعبدون الجن) ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام[1].

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ واستسلموا له وفي

---

(١) تفسير أبي السعود، ٥/ ١٣٤.

المشار إليهم قولان: «أحدهما: أنهم المشركون. قاله الأكثرون، ثم في معنى استسلامهم قولان: أنهم استسلموا له بالإقرار بتوحيده وربوبيته أو: أنهم استسلموا لعذابه.

والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلهم قال الكلبي والمعنى أنهم استسلموا لله منقادين لحكمه.

وفي قوله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بطل قولهم أنها تشفع لهم.

والثاني: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان أن لله شريكا وولدا ردت عليهم شركاؤهم قولهم فقالت لهم: { إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم»[1].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾وذم الله الذين كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في الأرض.

وبعث الله في كل أمة رسولاً ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا﴾ على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة[2] ما يحتاجونه في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم فهو هدى ورحمة وبشرى.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٨١.

(٢) تفسير الجلالين ١ / ٣٥٨.

الهدايات المستنبطة من المقطع العاشر:

١ - الرسول شاهد على الجميع ولا شفاعة للكفار وهم واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل.

٢ - يتلاوم الكفار فيما بينهم يوم القيامة، ويكذب بعضهم بعضاً، ولا يجدي اللوم والمعاتبة شيئاً، لأن المتبوعين يتخلون عمن اتبعهم يوم القيامة، فلا يملكون لهم نصراً.

٣ - القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، تبياناً لكل شيء وموعظة، وهدى من الضلالة.

المقطع الحادي عشر: توجيهات حول مكارم الاخلاق (٩٠ - ٩٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع العاشر:

عرضت الآيات السابقة مزيداً من الأدلة على إثبات وحدانية الله، وختم المقطع العاشر بالحديث عن نزول القرآن الكريم وفي هذا المقطع بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى. كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي... وغيرها، من مباديء السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب المنزل من الواحد الأحد.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

أمر الله بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده.

«والإحسان هو فعل كل مندوب إليه فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ومنها ما هو فرض إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان»[1]، فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى: -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

ونهى عن الفحشاء ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١٥.

والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.، « فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمرنا به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء. ولعل ما ذكره لكم في كتابه بأمركم بها فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها[1].

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه من العهود التي بينكم وبين الله تعالى والعهود التي بينكم وبين الناس فلا تنكثوا العهود بعد تغليظها»[2].

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فأوف له بما قلته وأكدته.

---

(١) تفسير المنان، السعدي ١/ ٤٤٧.

(٢) فسير السمرقندي ج٢:ص٢٨٨.

والله يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ فلا تكونوا في نقضكم للعهود كالمرأة التي تغزل غزلاً قوياً فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته، فجعلته أنقاضاً من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وتلقب بجعر وكان بها وسوسة وكانت اتخذت مغزلا بقدر ذراع، وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فهذا كان فعلها، ومعناه أنها لم تكف عن العمل ولا كفت عن النقض بعد العمل، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به، أنكاثا يعني أنقاضاً، واحدتها نكث، وهو ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبلاً ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أي دخلا وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في شيء للفساد، وقيل الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ أي لأن تكون أمة هي أربى، أي أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوما أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء، وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك فالله يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا»[١] فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. قال رسول الله ﷺ: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان»[٢].

(١) تفسير البغوي ٣/ ٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٣١٨٨، وصحيح مسلم، ١٧٣٥ ومسند الإمام أحمد، ٤٠٤٥.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فالله قادر على جمع الناس على الهدى، وجعلهم أمة واحدة ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلا، ويمنعها من لا يستحقها عدلا. ويحاسبكم على أعمالكم من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ لا يجوز لكم أن تتخذوا عهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، وتذوقوا العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم حيث ضللتم وأضللتم غيركم فيضاعف لكم العذاب.

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها « ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ﷺ ثمناً قليلاً عرضاً من الدنيا يسيراً، كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ فثبتهم الله إنما عند الله من ثواب الآخرة هو خير لكم إن كنتم تعلمون من أعراض الدنيا ينفد وما عند الله من خزائن رحمته باق لا ينفد فالذين صبروا على أذى المشركين ومشاق الاسلام أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم النوعين وهو مؤمن شرط الإيمان لأن أعمال

الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان فلنحيينه حياة طيبة أي في الدنيا ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله»[1] .

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

١ - أمر الله بمكارم الأخلاق وأمر بالالتزام بها ومنها: العدل والإحسان والوفاء والنهي عن الفحشاء والمنكر ونقض العهد ؛ لأن الكتاب الكريم جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعاً على الفضيلة والأخلاق، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب.

وإلى جوار العدل (الإحسان) يلطف من حدة العمل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، والإحسان أوسع مدلولا، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً.

٢ - قد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات كأن تكون دولة أقوى من دولة فتغدر بسبب قوتها وضعف الأخرى.

---

(١) تفسير النسفي، ٢ / ٢٩٦ - ٢٧٠.

٣ - الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله. ومع أن لفظ (من) حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل:من ذكر أو أنثى لزيادة تقرير هذه الحقيقة. وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى، وضيق المجتمع بها، واستياء من يبشر بمولدها، وتواريه من القوم حزناً وغماً وخجلاً وعاراً.

٤ - العمل الصالح لا بد له من قاعدة أصيلة يرتكز عليها، قاعدة الإيمان بالله، فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته؛ فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير. لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

٥ - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ... ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان.

المقطع الثاني عشر: التأدب بآداب القرآن ورد الإفتراءات الآيات (٩٨ - ١١١)

قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثتني عشر والمقطع الحادي عشر:

لما ذكر الله جملة من توجيهات القرآن الكريم في المقطع الحادي عشر ناسب في هذا المقطع ذكر الآداب التي ينبغي للمسلم أن يتأدب بها حين يقرأ القرآن وأن يكون مدافعاً عن كل فرية تحاك ضده.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني عشر:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾وجهت الآيات المسلم إذا أراد قراءة كتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة إلى الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، متدبرا لمعناها، معتمدا بقلبه على الله في صرفه عنه.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ويقتصر سلطانه على أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم، ومنهم من يشرك به.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يخبر الله تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو

أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رأوه كذلك قدحوا في الرسول وبما جاء به و كانوا يقولون إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق بل أكثرهم لا يعلمون الحكمة في ذلك»[١] « ومعنى مفتر أي: تأتي بشيء وتنقضه فتأتي بغيره قال وهذا التبديل ناسخ ولا نبدل آية مكان آية إلا بنسخ»[٢].

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ذكر تعالى حكمته في إنزال روح القدس وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾لتثبيت قلوب المؤمنين عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكما من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

والقرآن يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم لحق من الباطل والهدى من الضلال ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً. وأيضا فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه؛ ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغا عظيما، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين.

---

(١) تفسير النسفي، ٢/ ٢٧١.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ١٧٦.

وهذه الآية لها سبب نزول: حيث نزلت حين قال المشركون: «إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم وما هو إلا مفترى يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله هذا الكتاب الذي جاء به ﴿ بَشَرٌ ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال:كان لنا عبدان صقليان، يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، واستمع الرسول صلى الله علبه وسلم لقراءتهما فقال المشركون: إنما يتعلم منهما فنزلت الآيات»[٢]. وذكر في اسميهما أكثر من رواية وأشهرها أنه حداد الرومي.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ قضى الله على الذين لا يؤمنون بآياته الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها، حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم. أن لهم في الآخرة عذاب أليم.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يخبر الله عن مصدر افتراه الكذب من المعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

(٢) التفسير المنير٢٣٢ وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

فمحال أن يكذب على الله ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ وهذا تصوير لشناعة حال المرتد بعد الإيمان، ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها، وهذه الآية نزلت في عمار بن ياسر في قول أهل التفسير لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه قال بن عباس أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم وربطت سمية بين بعيرين ووجأ قُبُلَها بِحَرْبَة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: « كيف تجد قلبك قال: مطمئن بالإيمان فقال رسول الله ﷺ: فإن عادوا فعد»[1].

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء، عذاب عظيم، في غاية الشدة مع أنه دائم أبدا، حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ ﴾ فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي

(١) تفسير القرطبي، القرطبي ١٠ / ١٨٠.

وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها،

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ فهم حقاً الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم». [1]

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ومرة أخرى في نفس السورة يذكر الله فضل المهاجرين في سبيله ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير وشر﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني عشر:

١ - تسوق الآيات جملة من آداب تلاوة القرآن والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان. فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي / ٤٥٠.

صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب.

٢ - كلام المشركين عن القرآن الكريم افتراءات غير صحيحة ردّها القرآن، لأن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب. لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبا قط، فما يمكن أن يكون افتراء. وقد نزله روح القدس بالحق لا يتلبس به الباطل.

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة لأن هؤلاء الذين لا يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما. بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ولهم عذاب أليم» بعد ذلك الضلال المقيم. ثم يثني بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون.

٣ - الرخصة في النطق بكلمة الكفر مع إطمئنان القلب بالإيمان مباح، والصبر على الإيمان أولى كما فعل بعض الصحابة مثل خبيب بن زيد وغيره.

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه. لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة. فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية. ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون.. ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة.

٤ - ولقد كان مجموعة من ضعاف العرب، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره، ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة، وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله صابرين على تكاليف الدعوة. فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم.

٥ - يوم القيامة تشغل كل نفس بأمرها، لا تتلفت إلى سواها عن نفسه وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب ولا غناء في انشغال ولا جدال. إنها هو الجزاء، كل نفس وما كسبت.

المقطع الثالث عشر: ضرب أمثلة تتمة للأمثلة المذكورة في المقطع الثامن الايات (١١٢ - ١١٩)

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع الثاني عشر:

سبق أن اشتمل المقطع الثامن مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة، وفي المقطع الثاني عشر عذر الله الذين ينطقون كلمة الكفر بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان وفي هذا المقطع الثالث عشر مثل آخر لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم وتصوير لافتراء اليهود الكذب على الله لينتظروا المصير الذي يتهددهم من خلال المثل الذي ضرب لهم، لعله يكون عبرة لهم ولغيرهم.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾وهذه القرية هي مكة المشرفة»[1] التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب كفرهم وعدم شكرهم فظلموا أنفسهم.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرا عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ. واشكروا نعمة الله بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها في طاعة الله. إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ والله حرم عليكم الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ ﴿ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك. ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه

---

(١) الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٧٤.

وشحمه وجميع أجزائه.﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك.

﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ومن اضطرإلى شيء من المحرمات -بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك- فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا، أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره هذا حلال وهذا حرام يعني البحيرة والسائبة لتفتروا على الله الكذب فتقولون إن الله أمرنا بهذا إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون لا ينجون من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾ وإن تمتعوا في الدنيا فإنه متاع قليل ومصيرهم إلى النار، في العذاب الأليم [1]، فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه، وصيانة عن كل مستقذر.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم، جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم، عقوبة لهم خاصة.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾ ﴾ ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم، وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً وهو يجهل عاقبة ما جناه، فإذا تاب

(١) تفسير البغوي، ٣/ ٨٨.

وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

١ - توعد الله من جحدوا نعمه بالعقاب الأليم كما ضرب أمثلة في هذا المقطع حيث بدّل أمنهم خوفاً ورزقهم جوعاً، ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس. لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.

٢ - النهي عن التحريم بغير أمر الله، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله. فهما تشريع. والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر. وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر والمفترون على الله لا يفلحون. ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين، وينتظرون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله إشارة إلى بعض ما حرمه على اليهود عقوبة لهم .

٣ - أمر الله بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكره على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله.

٤ - الآيات تفتح باب التوبة، فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ; ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله إلى يوم الدين.

المقطع الرابع عشر: أهمية الدعوة وأساليبها: الآيات (١٢٠ - ١٢٨)

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

مناسبة المقطع الرابع عشر للمقطع الثالث عشر:

في المقطع الثالث عشر ذكر الله حال المكذبين لرسلهم وافتراءهم على الله خاصة اليهود، فناسب في هذا المقطع أن يفند ادّعاء نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، و يوجه الأمر إلى الرسول ﷺ أن يكون متبعاً لملة إبراهيم عليه السلام على الحنيفية السمحاء، ويدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتخلق يآداب الدعوة

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ يخبر تعالى عمّا فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فكان إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا. مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين، مقبلا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه. ولم يشرك في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ شاكراً ما آتاه الله في الدنيا

حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة، اجتباه ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين. وهداه إلى الصراط المستقيم في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره. ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ فاعطاه رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقا مرضية وجعله من الذين لهم المنازل العالية والقرب من الله تعالى.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

وذكرت الآيات سبب تحريم يوم السبت على اليهود ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه « قال كانوا يطلبون يوم الجمعة فأخطؤوه وأخذوا يوم السبت فجعله عليهم ليحكم بين هؤلاء المختلفين بينهم في استحلال السبت وتحريمه عند مصيرهم إليه يوم القيامة فيقضي بينهم في ذلك وفي غيره مما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بالحق ويفصل بالعدل بمجازاة المصيب فيه جزاءه والمخطئ فيه منهم ما هو أهله»(١).

ويوجه الله رسوله للتخلق بآداب الدعوة، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده. وفي المراد بالحكمة ثلاثة أقوال أحدها أنها القرآن رواه أبو صالح عن ابن عباس والثاني الفقه

(١) تفسير الطبري ج١٤ / ١٩٤.

قاله الضحاك عن ابن عباس والثالث النبوة ذكره الزجاج وفي الموعظة الحسنة قولان أحدهما مواعظ القرآن قاله أبو صالح عن ابن عباس والثاني الأدب الجميل الذي يعرفونه قاله الضحاك عن ابن عباس»[(١)].

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. لأن الله يعلم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها. ويُعلم عباده المهتدين أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى - مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان - إن عاقبتم من أساء إليكم بالقول والفعل فعاقبوا من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. وإن صفحتم عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم، وصبرتم لهو خير من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة.

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٥٠٦.

أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس هو الذي يعينك عليه ويثبتك. وإذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. ولا تكن في شدة وحرج من مكرهم، فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

١ - بيان العلاقة بين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من قبل، وبين رسالة محمد ﷺ المرتبطة بنفس دعوة التوحيد لله تعالى، فقد جاء هذا الكتاب لتبيان العقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود . فدعوة الرسول ﷺ هي دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر

والتأنيب في غير موجب، ولا يفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر ! لأن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة. فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق، ودفعاً لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي، وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه.

٢ - مع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً. وأكثر فائدة للدعوة. فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر. فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هي الأولى. ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت

للفطرة، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله). . فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره.

٣- يوصي القرآن الرسول ﷺ وهي وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال. وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئا لنفسه، وقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويُبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون.

٤ - النصر لدعوة التوحيد قادم بإذن الله؛ لأن معية الله مع المؤمنين المتقين المحسنين والغلبة لهذا الدين ولو كره الكافرون كما وعد الله . ومن أصدق من الله؟

سورة الإسراء

أولاً: بين يدي سورة الإسـراء:

أسماء سورة الإسراء:

سُميت هذه السورة بسورة الإسراء لورود قصة إسراء النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فيها، حيث قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾ [الإسراء: ١]، وتُسمى سورة بني إسرائيل لورود قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم فيها ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ ﴾ [الإسراء: ٤].

(وتُسمى سورة «سبحان» الذي هو عَلَم للتنزيه فمن أظهر ما يكون فيه؛ لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص كان جديراً بأن لا نعبد إلا إياه، وأنه مستغن عن كل ما سواه لكونه متصفاً بما ذكر)[١]

فضل سورة الإسراء:

وَرد في فضل سورة الإسراء ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي». [٢]
و العتاق: جمع عتيق، وهو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وهن من تلادي: أي مما حفظ قديماً، و التلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطريق.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي، ج٤، ص٣٢٧، ط١ دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب التفسير: سورة الأنبياء، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج٤، ص١٧٤١، ط٣، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م. وفتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، ج٨، ص٣٨٨، دار المعرفة، بيروت.

ومراد ابن مسعود ﷺ: إنهن من أول ما تعلم من القرآن الكريم، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطر، ويُفطر حتى نقول: ما يُريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر». [1]

مناسبة سورة الإسراء لما قبلها:

أ - ذكر سبحانه وتعالى في آخر سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [النحل:١٢٣-١٢٤] وبيَّن في سورة الإسراء شريعة أهل السبت وشأنهم وجميع ما شرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل».

ب - أمر الله نبيه محمداً ﷺ في آخر سورة النحل بالصبر على أذى المشركين: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النحل:١٢٧] وسلَّاه في الإسراء وأبان شرفه، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

ج- ذكر في سورة النحل نعم الله الكثيرة حتى سُميت سورة النحل بسورة «النعم» وفصلت في سورة الإسراء أنواع النعم الخاصة والعامة كما في قوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ

---

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، باب فضائل القرآن، ج٥، ص١٨١، دار إحياء التراث العربي، بيروت. و المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ج٢، ص ٤٣٤ ط١ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الآيات ٩-١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الآية: ٧٠].

د. في سورة النحل بيَّن الله عز وجل أن القرآن الكريم من عنده لا من عند البشر كما زعم المشركون: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الآيتان: ١٠١-١٠٢].

وهنا ذكر في سورة الإسراء الهدف الأساسي من نزول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[الآية:٩].

في سورة النحل ذكر الله تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية من الآية الخامسة: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ ﴾ إلى الآية الثامنة:﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾، وفي سورة الإسراء ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من بر الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من غير تقتير ولا إسراف وتحريم القتل و الزنا، وأكل مال اليتيم...[1]

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٢٧-٣٢٨.

زمان نزول سورة الإسراء:

سورة الإسراء مكية النزول، وهناك روايات تقول بأن فيها آيات مدنيات، من تلك الآيات: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد قال: لما نزلت ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال - أي البزار - لا نعلم من حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبا يحيى التميمي وحميد بن حماد بن الخوار، وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، و «فدك» إنما فُتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتم هذا مع هذا ؟! فهو إذاً حديث مُنكر و الأشبه أنه من وضع الرافضة، والله أعلم»[(١)] .

ومن الآيات التي قيل إنها مدنية[(٢)] قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الآية:٦٠] وقوله:﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الآية:٧٦] وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الآية:٨٠]

والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو قول ابن جرير الطبري وابن كثير والبيضاوي، وأنه لا يثبت أي شيء من ذلك، وأن جميع هذه الآيات مكيات.[(٣)]

---

(١) أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، ص٩٨ وما بعدها، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٩٩م

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج٤، ص٣٢٨، دار الشعب - القاهرة

(٣) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج٣، ص٣، ط١، دار الفكر، بيروت، و تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٣، ص٥، مؤسسة علوم القرآن، عمان.

ومن الآيات التي وَرَد استثناؤها من هذه السورة المكية آية الروح، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الآية:٨٥] فقد ورَدَ في فتح الباري بشرح صحيح البخاري في كتاب التفسير، باب: ويسألونك عن الروح قال: حدثنا عُمَرُ بن حَفْص بن غِيَاثٍ حدثنا أبي حدثنا الأَعْمَشُ قال: حدثني إِبْرَاهِيمُ عن عَلْقَمَةَ عن عبد الله - أي ابن مسعود - ﷺ قال: بَيْنَا أنا مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عن الرُّوحِ فقال: ما رابكم إليه ؟ - ما حاجتكم إليه - وقال بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ فَسَأَلُوهُ عن الرُّوحِ فَأَمْسَكَ النبي ﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إليه فَقُمْتُ مَقَامِي فلما نَزَلَ الْوَحْيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

قال ابن حجر: ولابن مردويه من وجه آخر عن الأعمش في حرث للأنصار وهذا يدل على أن نزول الآية وقع بالمدينة، لكن روى الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن بن عباس قال:قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾.

قال ابن حجر: ورجاله رجال مسلم وهو عند بن إسحاق من وجه آخر عن بن عباس نحوه ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك.[١]

قلت: ووجدت ابن كثير أيضاً يجمع بين الحديثين، أي: سبب النزول الذي وَرَدَ بشأن سؤال مشركي مكة لليهود، ثم سؤالهم بعد توجيه اليهود لهم للرسول ﷺ، والسبب الذي ذُكر بشأن سؤال اليهود للرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة بتعدد النزول، وعلى ذلك فالآية مكية مكرر نزولها في المدينة، وعليه فإني أرجح أنها كلها مكية النزول، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدرسابق، ج٨، ص ٤٠١.

عدد آيات سورة الإسراء:

إن عدد آيات سورة الإسراء هو مائة وأحد عشرة آية، وقيل: مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين، و مائة وعشرة عند الباقين. وسبب ذلك الاختلاف الذي وقع في المصاحف التي نُسخت على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وأرسل بها إلى الأمصار. (١)

محور سـورة الإسراء:

إن محور سورة الإسراء الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية مثلها مثل سائر السور المكية

من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء، وإبراز شخصية الرسول ﷺ، وتأييده بالمعجزات الكافية الدالة على صدقه فيما يُبلغ عن ربه سبحانه وتعالى، وتفنيد شبهات المشركين، وتخلل ذلك من المستطردات و النذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، ومن الأمثال ما فيه علم وحكم.

كما تناولت الحديث عن القرآن الكريم، وإثبات أنه وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، ويمكن أن يلحظ ذلك المتدبر لكلام الله تعالى من افتتاحية السورة، حيث إنها تضمنت الأخبار عن حدث عظيم ومُعجزة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وهي معجزة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل، وهي دليل على قدرة الله تعالى وتكريم إلهي لهذا الرسول الكريم.

كما أخبرت عن قصة بني إسرائيل في حالتي الإصلاح والفساد، وذكرت الأدلة الكونية الدالة على قدرة الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الآية:١٢]

و وضّحت أصول الحياة الاجتماعية: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الآية: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج١٥، ص٧. دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م.

إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الآية:٣٩].

ونعت على المشركين نسبتهم البنات لله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الآية:٤٠] إلى غير ذلك مما سنبينه أثناء دراستنا للسورة.

المناسبة بين اسم سورة الإسراء ومحورها:

تقدم أن محور هذه السورة الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية، من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء،... إلخ.

وبينت آيات السورة الكريمة هذه القضايا في وحدة موضوعية متماسكة من افتتاحيتها لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وهو التنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى عن كل نقص، وختمت هذه السورة بالتحميد وهو صفة المدح والثناء كما في قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ فناسب ختام السورة لافتتاحيتها، وبهذا تتجلى الوحدة الموضوعية لهذه السورة فسبحان القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢] فاسم السورة مناسب لمحورها، كما أن افتتاحيتها مناسبة لخاتمتها كما هو مبين فيما تقدم. والله أعلم.

المناسبة بين افتتاحية سورة الإسراء وخاتمة سورة النحل:

في آخر سورة النحل وَرَدَ قول الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧] أي: اصبر على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية، وما عانيته من إعراضهم. ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ أي وما صبرك ملابساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى، وفيه من تسلية النبي ﷺ وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه.

و بعد هذا الذي تقدم في آخر سورة النحل، سلاه سبحانه هنا وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له وتعظيماً للمسجد الأقصى.

المناسبة بين مضمون سورة الإسراء ومضمون سابقتها وهي سورة النحل:

بما أن سورة الإسراء سورة مكية إجماعاً، فإن مضمونها هو مضمون سورة النحل التي عالجت موضوع العقيدة. فهي تتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته، وهذه القدرة جعلها الله في نوع من مخلوقاته يصعب الاقتراب منه لشدة بطشه في الدفاع عن مملكته، ومع ذلك جعل فيه سراً يطلبه البشر جميعاً ويحرصون على الحصول عليه، وهذه القدرة جعلت في النحل ميزة عن سائر أنواع المخلوقات وذلك إظهاراً لقدرة الخالق سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٩] لذا سميت السورة باسم هذا المخلوق: النحل.

وفيها ذَكَر الله أيضاً كثيراً من النعم التي أوجدها لنفع الناس، ولذا عقَّب بعد ذكر هذه المخلوقات بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل:١٧]

وجاءت سورة الإسراء تحمل المضامين نفسها من قضايا العقيدة، من تنزيه الله تعالى والنظر في نعمه الكثيرة التي لا تحصى، وتكريمه لبني آدم. وخُتمت بأمر العقيدة: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الآية:١١٠]

فمضمون سورة النحل ومضمون سورة الإسراء متشابهان. فقط هناك تنوع في العرض والأساليب لتأكيد أهمية أمر العقيدة.

ثانياً: التفسير الإجمالي لسورة الإسـراء

المقطع الأول

قصة الإسراء

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

سبب النزول:

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ - قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ»[١].

يعني فطرت الإسلام وهناك روايات أخرى[٢].

فبعد أن عاد النبي ﷺ من الإسراء والمعراج، خرج إلى المسجد الحرام، وأخبر قريشاً فتعجبوا منه لاستحالة ذلك في نظرهم، وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق - ﷺ - وذكروا ما قاله لهم رسول الله ﷺ فقال: « إن كان قال لقد صدق. قالوا تُصدقه على ذلك ؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسُميَ الصديق. وطلبت طائفة سافروا إلى بيت المقدس من النبي ﷺ أن ينعت المسجد لهم فجُلِّيَ له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا. فأخبرهم بعدد جمالها و أحوالها، وقال: تَقْدُم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، حديث رقم ١٦٢.

(٢) انظر صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث رقم ٣٨٨٧، وانظر كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١، ص١٠٨.

أورق، فخرجوا ينشدون العير إلى الثنية، فصادقوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين»[١] .

الإسراء كان بالروح والجسد معاً:

إنه ﷺ أُسْريَ به بروحه وجسده، ولا عبرة لقول من قال: إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد. ويقول ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ إن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أُسْريَ بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكان يدفعون به لمن صدق فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل ؟!كما أن الله تعالى أخبر في كتابه أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قال الله تعالى إلى غيره)[٢] .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾: فيه براعة الاستهلال؛ لأنه لما كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة، بدأ السورة بما يُشير إلى كمال القدرة، وتنزهه تعالى عن صفات النقص التي وصفه بها المشركون، حيث نسبوا له من خلْقِه شريكاً، وإن له صاحبة وولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن كثير رحمه الله: (يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه. ﴿ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ لَيۡلٗا ﴾ أي: في

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج١٥، ص١١، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

(٢) جامع البيان، مصدر سابق، ج٩، ص٨.

جنح الليل. - ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾: من المسجد الحرام، وهو مسجد مكة ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل ﷺ[1] ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ أي: في الزروع والثمار.

﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي: محمداً ﴿ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم و كافرهم مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة).[2]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ثبوت حادثة الإسراء بنص القرآن الكريم (أسرى بعبده).
- كان الإسراء بالروح والجسد يقظة لا في الرؤيا والمنام، بدليل (عبده) وهو مجموع الروح والجسد.
- الدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أسرى بعبده محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى بيت المقدس بالشام، ثم عاد إلى مكة المكرمة وأخبر ﷺ قومه بما جرى له وما أكرمه الله به في صبيحة تلك الليلة.
- الرسول ﷺ رآى عجائب قدرته الإلهية المتمثلة في مشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم السلام له ووقوفهم على مقاماتهم ذلك ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٣، ص٤

(٢) المصدر سابق، ج٣، ص٥.

المقطـــع الثـاني

إكرام سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لّما أثبت بهذه المعجزة الخالدة الإسراء ما أخبر به عن نفسه المقدسة، من عظم القدرة على كل ما يريد، أخبر أنه آتى موسى عليه السلام التوراة وجعله هدى لبني إسرائيل، فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: أكرمنا محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وأكرمنا موسى عليه السلام بالكتاب وهو التوراة.

وقيل معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، وآتى موسى الكتاب.

﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾: معيناً ونصيراً، وقرأ أبو عمرو: «ألا يتخذوا» بالياء وهو العهد الذي في هذا الكتاب، ألا تتخذوا مع الله شريكاً يا ذرية من حملناهم مع نوح، و أنجيناهم من الغرق، وهديناهم إلى الحق والخير، أنتم أولى الناس بالتوحيد الخالص، والسير على سنن الأنبياء والمرسلين، وها هو ذا نوح أبوكم عليه السلام كان عبداً شكوراً، فاقتفوا أثره واتبعوا سنته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إكرام سيدنا موسى عليه السلام بالكتاب وهو التوراة.
- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن اتخاذ الشريك، فالله وحده هو الولي والنصير والمعين.
- الدعوة إلى السير على سنن الأنبياء والمرسلين.

المقطع الثالث

من أحوال بني إسرائيل في التاريخ

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزاله التوراة عليهم لتكون لهم هدى يهتدون بها، ذكر أنهم ما اتبعوا هداها، بل أفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وسفك الدماء، فسلط الله عليهم البابليين بقيادة «بختنصر»، فقتلوهم، ونهبوا أموالهم وخربوا بيت المقدس، وسبوا أولادهم ونساءهم، وذلك أول الفسادين وعقابه، ثم لمَّا تابوا أعاد الله لهم الدولة والغلبة، وأمدهم بالأموال و البنين، ثم عادوا إلى فسادهم وعصيانهم فقتلوا زكريا و يحيى عليهما الصلاة السلام، فسلط الله عليهم الفُرس فقتلوهم وسلبوهم، وخربوا بيت المقدس مرة أخرى، ثم وعدهم الله تعالى بالنصر إن أطاعوه، وبالعقاب بنار جهنم إن عصوا وأفسدوا...)[1] .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أي: وأوحينا إلى بني إسرائيل في التوراة وحياً مقضياً مقطوعاً بحصوله بأنهم يفسدون في الأرض مرتين: في أرض الشام و بيت المقدس، أو في كل أرض تحلون فيها، ولتفسدن نفوسكم بمخالفة ما شرعه لكم ربكم في التوراة.

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أما أولاهما: فبمخالفة التوراة وقتل الأنبياء.

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٢١.

والثانية: بقتل زكريا ﷺ، وقيل: بقتل يحيى، والعزم على قتل عيسى ابن مريم، وقيل غير ذلك.[١]

﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾: أي ولتتجاوزن الحدود، حدود الشرع والعقل بالبغي، والظلم والتعالي على الناس.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

أي: فإذا جاء وعد المرة الأولى وحان وقت العقاب الموعود به في الدنيا، بعثنا عليكم عباداً من عبيدنا أولي بأس وقوة، وأصحاب عدة في الحروب وعدد، وهؤلاء القوم قد جاسوا خلال الديار، وفتشوا البلاد ونقبوا عليكم؛ ليستأصلوكم بالقتل والتشريد، وهذا مصير كل أمة تُفسد في الأرض بالبغي والظلم حتى تفسد نفوس أبناءها وتطغى، لا بد من أن يُرسل الله عليها من يذلها ويذيقها سوء العذاب جزاء فسادها، ولو كان المؤدب لها من الكفار والمشركين، كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾. وتلك سنة الله تعالى في خلقه لا تتخلف ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إخبار الله تعالى لبني إسرائيل أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي، لماعلم منهم في علمه السابق الأزلي أنهم أرباب انحراف وفساد وتخريب، والمراد بالمعاد مخالفة أحكام التوراة.
- تكرر العقاب مرتين والإنقاذ من العذاب مرتين أيضاً فيه رحمة من الله تعالى بعباده لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتربية والتهذيب.
- عقاب اليهود أولاً على يد بختنصر وثانياً على يد ملك بابل أو قيصر الروم.

---

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، م٢، ص٣٥٤، ط١٠، دار الجيل، بيروت١٩٩٣م.

المقطع الرابع

إعادة الدولة والغلبة لهم

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لما بيّن سبحانه أنه قادر على إذلال العزيز بعد ضخامة عزه، بين أنه مقتدر على إدالته على من قهره بعد طول ذلك إذا نقاه من درنه وهذبه من ذنوبه، فقال تعالى مشيراً بأداة التراخي إلى عظمة هذه الإدالة بخرقها للعوائد.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾: جعلنا لكم الدولة والغلبة عليهم حينما تبتم ورجعتم إلى دينكم بعد ذلك البلاء الشديد، ومنحناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من أعداءكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم.

ثم عاد اليهود إلى فسادهم والإفساد في الأرض، فقال سبحانه وتعالى لهم:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾: أي فعليها كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي المرة الآخرة، فإذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ بالإهانة والقهر ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: وليدخلوا بيت المقدس كما دخلوه أول مرة ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾: وليدمروا ويخربوا

---

(١) نظم الدرر، مصدر سابق، ج٤، ص٣٣٧.

كلما ظهروا عليه.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾: يعني: عسى ربكم أن يصرفهم عنكم، ومتى عدتم إلى الفساد في الأرض، عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما يدخر لكم في الآخرة من العذاب و النكال. (١)

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾: أي جعلنا جهنم مُسْتَقَرًّا وَ مَحْصَرًا وَسِجْنًا لَا مَحِيد لَهُمْ عَنْهُ. (٢)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- قوة شوكة بني إسرائيل - بعد الهزيمة الأولى - وذلك بإمدادهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عدداًوعدة من عدوهم.
- جزاء الإحسان والإستقامة على طاعة الله تعالى عائدة على الإنسان نفسه في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك الإساءة والمخالفة لأوامر الله تعالى عائدة للإنسان نفسه.
- رحمة الله تعالى غالبة على غضبه؛ لأنه سبحانه وتعالى لما ذكر إحسانه أعاده مرتين ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ولمّا ذكر إساءتهم ذكرها مرة واحدة ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٤-٣٥.

(٢) المصدر السابق.

المقطع الخامس

أهداف القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أكرم به نبيَّه محمداً ﷺ وهو الإسراء، وما أكرم به موسى عليه الصلاة والسلام وهو التوراة، وأنها هدىً لبني إسرائيل، وما سلَّط عليهم بذنوبهم من عذاب الدنيا والآخرة مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله، ذكر ما شرَّف به رسوله ﷺ من القرآن الكريم الناسخ للتوراة وكل كتاب إلهي، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم، والتبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه و إنذار الكافرين بالعذاب الأليم.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾: قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويُسدد من اهتدى به « للتي هي أقوم » يقول للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين إلى قصد السبل التي ضل عنها سائر أهل الكتاب المكذبين). [1]

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾: ويُبشر مع هدايته من اهتدى للسبيل الأقصد، الذين يُؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به وينتهون عما نهاهم عنه. - ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾: أي ثواباً عظيماً من الله، وذلك الأجر العظيم هو الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج٩، ص٦١-٦٢.

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾: ويلي ذلك جزاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يصدقون بالمعاد إلى الله، ولا يتحاشون من ركوب معاصي الله، وهذا الجزاء عذاب جهنم و بئس المصير.

ثم ذكر حال الإنسان عند الغضب والعجلة، يدعو على نفسه بالشر، فقال تعالى:

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾: أي يدعو الإنسان بالشر على نفسه مثلما يدعو لها بالخير عند وقوع كرب عليه، ولو استجيب له في ذلك لهلك، وذلك لما جُبل عليه من العجلة وعدم التمهل. قال ابن عباس ﷺ: (هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده عند الضجر، يقول اللهم أهلكه، اللهم دمره،... ونحو ذلك). [١]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ سبب اهتداء للبشرية كافة، يُرشِد لأقوم الطرق، وأوضح المناهج، وأعدل المسالك وهي توحيد الله، والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
- كما إن للقرآن الكريم هدف آخر، وهو التبشير والإنذار، تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة، وإنذار الكافرين بالعقاب في نار جهنم، وهما - أي الوعد والوعيد - منهج من مناهج القرآن الكريم الدعوية التربوية.
- وبيَّن النص هذا طبع الإنسان وفيه القلق والعجلة، وبما دعا على نفسه وولده وماله لكن الله رحيم ودود. ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ ﴾ [يونس:١١].

(١) انظر التفسير الواضح الميسر، محمد الصابوني، ص٦٨٩، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

المقطع السادس

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لَمَّا أثبت سبحانه وتعالى ما لصفته من العلو ولصفة الإنسان من السفول، تلاه بما لأفعاله تعالى من الإتقان ذاكراً ما هو الأقوم من دلائل التوحيد والنبوة في العالمين العلوي والسفلي، ثم ما لأفعال الإنسان من العوَج جرياً مع طبعه، أو من الإحسان بتوفيق اللطيف المنان، فقال تعالى مبيناً ما منحهم به من نعم الدنيا بعدما أنعم به عليهم من نعم الدين. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾:

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على قدرتنا وبديع صنعنا، وفي تعاقبهما و اختلافهما

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤، ص٣٦٦.

تحقيق لمصالح الإنسان، ففي الليل سكنه وهدوءه وراحته، وفي النهار حركته وشغله وتقلبه في أنحاء الدنيا للمعيشة والكسب والصناعة والعمل...

كما أن في الليل ظلام دامس ومحو للضوء يتلاءم مع راحة النفس والعين والسمع، وفي النهار ضوء ونور يناسب الحركة و العمل وإبصار الأشياء، فهذان منتان من الله تعالى على خلقه بجعل الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يُستبان فيه شيء، وجعل النهار مُبصراً أي تُبصر فيه الأشياء و تُستبان). [1]

﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾: ولتعلموا أيضاً باختلافهما عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل و أوقاتها.

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾: أي وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتُخلصوا له العبادة دون الآلهة والأوثان، ومثله ما جاء في سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾: وكل إنسان من بني البشر ألزمناه ما قُضيَ له أنه عامله وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه ألا يفارقه.

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾: يقول حسبك اليوم نفسك عليك حساباً يحسب عليك أعمالك، فنحصيها عليك، لا نبغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب عليك مُحصياً سواها. [2]

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٣٣.

(٢) انظر جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص١٥١.

لذلك قال الله تعالى:

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾: أي: من استقام على طريق الحق فاتبعه، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ - ﴿ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ ﴾: فليس ينفع بلزومه الاستقامة وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه.

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾: ومن جار عن قصد السبيل فأخذ على غير هدى وكفر بالله ورسوله محمد ﷺ، وبما جاء من عند الله من الحق، فليس يضر بضلاله وجوره إلا نفسه؛ لأنه يُوجب لها بذلك غضب الله تعالى وألم عذابه.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ﴾: وقد كانوا يقولون: « نحن لا نُعَذب في شيء، وإن كان هناك عقاب فهو على آباءنا، إذ نحن مُقلدون فقط لهم»، فردَّ الله بهذا عليهم أبلغ رد و آكده ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾: يدعوهم إلى الخير، ويُحذرهم من الشر، وهذه الآيات تحثنا - نحن المسلمين - على العمل، وتدفعنا إلى الجد وعدم الكسل.

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾: أي: إذا أردنا أن نُدمر قرية من القرى وقد دنا وقت هلاكها، ولم يبق من زمان إهلاكها إلا قليل، أمرنا مُترفيها بالطاعة، ففسقوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن طاعته، والأمر هنا للجميع مُترَفاً كان أو غير مُترَف، غنياً أو فقيراً، ولكن لمَّا كان الأمراء والأغنياء هم القادة وغيرهم تَبَع، والعامة شأنها التقليد دائماً، قيل: أمرنا المترفين الأغنياء حتى كأن الفقراء غير مأمورين على ما جاء في سورة إبراهيم: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [إبراهيم:٢١].

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (هذا وعيد من الله تعالى ذكره لمكذبي رسوله محمد ﷺ من مُشركي قريش، وتهديدهم لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم بأنهم إن لم ينتهوا عمّا هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام، أنه مُحِل بهم سخطه، ومُنزِل بهم من عقابه

ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر بالله وتكذيب رسلهم سبيلهم). [١]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقص و تعاقبهما، وضوء النهار وظلمة الليل، دليل على وحدانية الله تعالى ووجوده، وكمال علمه وقدرته.
- النهار وقت مناسب للعمل والحركة، والتقلب في الأرض لكسب المعاش وتحصيل الرزق.
- إن كتاب الإنسان وسجله بما قدمت يداه من خير أو شر يُعرض عليه يوم القيامة، ويُقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.
- إن عذاب الاستئصال لا يكون إلا بشيوع المعاصي والذنوب والمنكرات، فإذا أراد الله إهلاك قرية أَمَر مُترفيها وغيرهم بالطاعة والرجوع عن المعاصي، فإذا فسقوا وظلموا وآثروا المعصية على الطاعة خلافاً للأمر، حقَّ عليها القول بالتدمير والإهلاك.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص١٥١.

المقطع السابع

من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة

قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما تقرر أنه سبحانه خبير بذنوبهم بعد تزهيده في الدنيا بما ذكر من مصارع الأولين، أتبعه الإخبار بأنه يعاملهم على حسب علمه على وجه معرف بعلمه بجميع طوياتهم من خير وشر مرغب في الآخرة، مرهب من الدنيا[١]. يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (الآيات مرتبطة بما قبلها بنحو واضح، فبعد أن بين الله تعالى ارتباط كل إنسان بعمله، قسَّم العباد إلى قسمين:

قسم يريد الدنيا ويعمل لها وعاقبته النار.

وقسم يريد الآخرة ومآله إلى الجنان، وكل من الفريقين يرزقهم ربهم في الدنيا؛ لأن عطاء الله ليس ممنوعاً عن أحد، ولكنهم متفاضلون في الرزق ومراتب التفاوت في الآخرة أكثر من مراتب تفاوت الدنيا...)[٢] .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾: أي من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يسعى وإياها يبتغي لا يُوقت بميعاد، ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤، ص٣٧١

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٤٢.

فيُعجِّل الله له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته. (١)

فمن كان همَّه الدنيا فقط لا همَّ له غيرها، ولها يسعى ويتعب، عجَّلنا له من نعيمها ما نشاء نحن، لا ما يُحب ويهوى، (فترى أن القرآن الكريم قيّد التعجيل بأمرين: أولاً: يُعجل الله بما يشاء هو لا بما يحبه العبد، والثاني: يُعجل الله لمن يشاء لا لكل من أراد الدنيا.

ألست ترى كثيراً ممن يُحبون الدنيا ويريدون العاجلة يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعض أمانيهم.

أما الصنف الثاني وهو من لم يجعل الدنيا أكبر همه بل كان قصده المهم الآخرة أرادها وسعى لها سعيها المناسب لما لها من فضل وثواب، والحال أنه مؤمن بالله، واثق فيه مصدق به وبكتبه ويومه الآخر، فأُولئك البعيدون في درجات الكمال والجلال كان سعيهم مشكوراً ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ انظر إلى هؤلاء يريدون بعملهم الآخرة، ولا يُبالون بشيء بعدها، فإن أوتوا حظاً من الدنيا شكروا ربهم، وإن مُنعوا رضوا وصبروا معتقدين أن ما هم فيه خير وأبقى...

والسعي المشكور والعمل المأجور تقدمه ثلاث، إن تحققت فاز صاحبها وشكر ربه:

أ - قصد الآخرة والاتجاه إليه في كل عمل حتى يكون رائده ثواب الدنيا لا متاع الآخرة.

ب - العمل لها عملاً يناسبها، عملاً كاملاً تاماً خالياً من الرياء والسمعة والغرض الحقير.

ج - الإيمان العميق بعد الفهم الدقيق، والإخلاص الوثيق، فتلك سفن التجارة ومركب السعادة، وما عدا هذا فمتاع زائل، وعرض حائل لا غنى فيه ولا خير. (٢)

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾: يقول ابن جرير الطبري رحمه

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص٧٦.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص٣٦٢.

الله: (لا تجعل يا محمد مع الله شريكاً في ألوهيته و عبادته، والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المُكلف في عبادتك ربك به شريكاً فتقعد « مذموما» على شركك به»، مخذولاً «؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك، ويكِلُك إلى الذي عبدت معه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له). [1]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الناس في مجال العمل في الدنيا صنفان: صنف يريد الدنيا، وصنف يريد الآخرة. أما الصنف الأول: فلا يُعطيه الله من الدنيا إلا ما يشاء ولمن شاء، ثم يؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذا اختار الفاني على الباقي.
- وأما الصنف الثاني: وهو الذي يريد الدنيا على الآخرة، ويعمل لها عملها من الطاعات، وكان مؤمناً؛ لأن الطاعات لا تُقبل إلا من مؤمن، فيكون عمله مقبولاً غير مردود.
- اقتضت حكمة الله تعالى أن يرزق المؤمنين والكافرين - رحمة منه - فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد، لكن الناس في الدنيا متفاوتون في الرزق بين مُقل ومُكثر والتفاوت في الرزق ليس مُرتبط بالإيمان ولا بالكفر، فقد يكون مؤمنٌ غنيٌ وآخر فقير، وقد يكون كافرُ موسرٌ مترفٌ وآخر معسرٌ معدوم، أما في الدار الآخرة فدرجات تفاضل المؤمنين أكبر وأفضل، فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرة، وقُتر على المؤمن مرة، فالآخرة لا تُقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم.
- إن هذه الآية: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ مُقيِّدة لإطلاق سورة هود: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود: ٥١]، وكذلك آية الشورى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج٩، ص٧٩.

- إن قبول الأعمال عند الله مشروط بشروط ثلاثة:

أ- الإيمان الصحيح ب- النية الطيبة الحسنة ج- العمل الصالح الذي يُرضي الله تعالى.

- إن رزق الله تعالى مكفول لكل إنسان بشرط السعي والعمل، وليس الرزق محظوراً عن أحد من المؤمنين والكافرين.

التحذير من الشرك، وبيان أن عاقبته الندم والخسران.

المقطع الثامن

حق الوالدين

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

تقدم أنه تعالى نهى أن يشرك مع الله غيره، وبيَّن أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزَّه عن جميع النقصان، (ولما قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده، أتبعه الإخبار بالأمر بذلك جمعاً في ذلك بين صريحي الأمر والنهي تصريحاً بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر، إعلاماً بعظم المقام فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾.[1]

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، ج٤، ص٣٧٣.

التفسير الإجمالي للآيات:

بيَّن سبحانه وتعالى في هذا النص أنه المستحق للعبادة وحده خالصة له دون غيره كما جاء في سورة النساء: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦]، ثم عقَّب ذلك بالإحسان للوالدين، فقال: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ فقرَن سبحانه الإحسان للوالدين بتوحيده، وفي هذا إشارة إلى عِظم حقهما على الأبناء. و بر الوالدين من أفضل القربات إلى الله تعالى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن ابن مسعود ﷺ قال: سَأَلْتُ النبي ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إلى اللهِ ؟ قال: الصَّلَاةُ

على وَقْتِهَا. قال: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قال: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال: الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ»[(١)].

فالحديث النبوي ظاهر في أن بر الوالدين من أفضل الأعمال إلى الله تعالى، وهذا البر لا يقتصر على الوالدين المسلمَين، بل يجب البر بهما ولو لم يكونا مسلمَين، فعن أَسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رسول اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قال: «نعم صِلِي أُمَّكِ»[(٢)] .

وهذا يُبِّن رحمة الإسلام بالوالدين وإن اختلفا في الدين، فبرهما في الدنيا ومُصاحبتهما بالمعروف أمر حتمي، كما قال سبحانه: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فلا طاعة لهما في الكفر ومعصية الخالق، و لهما العشرة بالمعروف.

ثم حذَّر سبحانه وتعالى من إهمالهما خصوصاً في مرحلة التقدم في العمر ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، بَاب فضل الصلاة لوقتها، ج١، ص ١٩٧ . و صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، بَاب بيان كون الإيمان بالله تعالى من أفضل الأعمال، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج١، ص٨٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) صحيح البخاري، مصدر السابق، ج٢، ص ٩٢٤.

عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ فعند تقدم سن الوالدين يكونا في أمس الحاجة للأبناء، من أجل ذلك كان النهي من تضجر الأبناء والتأفف مما يصدر من الوالدين من أقوال و أفعال، فعلى المسلم ألا يُظهر الضجر والملل والاستثقال في تعابير وجهه أو سوء تصرفه، قال مجاهد: (إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخران فلا تقل لهما أف تقذرهم)[1] فكذلك كان الإبن من قبل.

وزيادة في الإحسان قال الله تعالى:﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ التذلل بالطاعة لهما، وتحقيق متطلباتهما، فالآية الكريمة تدعو الإبن أن يُراجع ذاكرته، فيتذكر تلك الأيام الخوالي عندما كان صغيراً، كيف كانت الرحمة والعطف ينصبان عليه من والديه، فيتألمان بألمه، ويضحكان بضحكه، فتجيش عاطفته تجاههما، فيرعاهما في الدنيا ويدعو لهما بالرحمة بعد مماتهما قائلاً: ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾. قال قتادة: (هكذا علمتم، وبهذا أُمرتم، خذوا تعليم الله تعالى وأدبه)[2] .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾: (هذا تذييل يُعلمنا أن العبرة بالقلب وما فيه، فإن بدرت منه بادرة ليست مقصودة منه، فالله أعلم به ولا يُعاقبه عليه ما دامت نيته حسنة وهو من الصالحين، وإذا تُبتم إلى الله وندمتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم). [3]

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأنه الأساس الذي تُبنى عليه كل دعائم الإسلام.
- الإحسان إلى الوالدين و برهما؛ لأنهما اللذان تسببا في وجود الأبناء.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج١٥، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق، ج١٥، ص ٧٦.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٨

- ومن البر الدعاء لهما بعد وفاتهما.
- وتتوجب الرعاية لهما عند كبر السن، وعدم التأفف لما يصدر عنهما من أقوال وأفعال.
- التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى مُطّلع على قلوب عباده، وهو يعلم الصالح منها وغير الصالح، وهو كثير المغفرة للأوابين الراجعين إليه.

المقطع التاسع

حق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل

قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا حث سبحانه وتعالى على الإحسان إلى الوالدين خاصة ورغّب في ذلك، عمَّ بالأمر به كل ذي رحم وغير ه، فقال: «وآت ذا القربى» من جهة الأب أو من جهة الأم وإن بعُد حقه، وآت المسكين وإن لم يكن قريباً، وابن السبيل وهو المسافر المُنقطع عن ماله، لتكون متقياً لله مُحسناً. وقد جمعت هذه الآية أربع وصايا مما أوصى به الله تعالى بقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾: فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مُقارب للمقصد من الإحسان للوالدين، رعياً لاتحاد المنبت القريب، وشداً لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة، وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المساكين: فالمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون في الغالب من القبيلة، وأقعده العجز عن العمل، والفقر عن الكفاية. وأما إيتاء ابن السبيل: فلإكمال نظام المجتمع؛ لأن المار به من غير بَنِيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً لَيقيَه من عَواد الوحوش و اللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقايةً من أضرار الجوع والفقر، أو الحر). [١]

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾: التبذير تفريق المال كما يُفرَّق البذر كيفما كان من غير تعمد لموقعه، وهو الإسراف المذموم، قال الشافعي رحمه الله: (التبذير إنفاق المال في غير محله، ولا تبذير في عمل الخير). [٢]

إن من منهج الإسلام نهيه عن التبذير وحثه على الاقتصاد في الأمر كله، وتَدَبر وصفهُ للمُبذرين بأنهم ﴿ إِخْوَانَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ إنه تصوير لاذع، أُبرز في صورة بشعة، حيث كانوا إخوان الشياطين ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (وهكذا المُبذرون كفروا بنعمة ربهم، وفرّقوا المال في غير موضعه، وأسرفوا فيه إسرافاً مذموماً لمجاوزتهم الحد المُستحسن شرعاً، والآية تفيد أن المُبذر مماثل للشيطان والشيطان كفور لربه، فالمُبذر كفور لربه جاحداً لنعمته)[٣]

ثم بيّن القرآن الكريم الأدب والخلق الذي ينبغي أن يتحلى به مَن أراد إعطاء مَن تَقدم ذكرهم ولكنه لا يجد أن يخاطبهم بلطف ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾. قولاً ميسوراً: لطيفاً يُرقِّق، ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مُطمئنة خواطرهم

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾: هذا قصدٌ بالإنفاق والتوسط في المعيشة على سبيل التمثيل، وذلك أن البخيل وإن امتنع عن الإنفاق

---

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج٧، ص٧٧-٧٨

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج، ص٩٦١

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، مج٢، ص٣٦٩.

يُشبه رجلاً يده مغلولة إلى عنقه فلا يقدر بالتصرف على حال، والمُسرِف الذي يُضيع ماله شمالاً ويميناً بغير حساب يُشبه رجلاً بسط يده كل البسط حتى لم يبقَ في كفه شيء. حقيقة كل فضيلة وسط بين رذيلتين، فالتقتير مذموم، والإسراف مذموم، والتوسط بينهما محمود عقلاً وشرعاً.

و إذا علمنا أن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأن الأمر كله لله، وهو القائل سبحانه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧] إذا علمنا ذلك فإننا مأمورون بالقصد في الإنفاق لأنه حكمة جليلة، وأما الغنى والفقر فمرجعه إلى الله عز وجل فقط؛ فالله سبحانه يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء، فهو أعلم بهم وبحالهم، وما يصلحهم وما يفسدهم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بإيتاء المستضعفين الثلاثة حقهم، وهم فئات من فئات المجتمع يجب برهم والإحسان إليهم ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.
- نهت الآيات عن التبذير، ووصفت المبذرين بأوصاف منفرة ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾.
- ظهر من الهدايات القرآنية النهي عن البخل والتقتير، كما نهت عن الإسراف والتبذير، ومنهج الإسلام الوسطية بين الاثنين.

كما ظهر من هدايات النص القرآني أن الله سبحانه وتعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويُضيقُه على من يشاء ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

المقطع العاشر

من ثوابت المجتمع الإسلامي

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من الوصية بالأصول وما تبع ذلك، وختمه بما قرر من أن قبض الرزق وبسطه منه من غير أن ينفع في ذلك من حيله، أوصاهم بالفروع لكونهم في غاية الضعف وكانوا يقتلون بناتهم خوف الفقر، وكان اسم البنت قد صار عندهم لطول ما استهجنوه مُوجِباً للقسوة، فقال عن ذلك مواجهاً لهم إعلاماً ببعده ﷺ عن هذا الخلق قبل الإسلام وبعده... فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ ﴾: معبراً بلفظ الولد الذي هو داعية إلى العطف والحنو.

﴿ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾: أي فقر متوقع لم يقع بعد.

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾: مقدماً ضمير الأولاد لكون الإملاق مُترقباً من الإنفاق عليهم غير حاصل في حال القتل، بخلاف آية سورة الأنعام وهي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١]، إن سياق الآية يدل على أن الإملاق حاصل عند القتل، والقتل للعجز عن الإنفاق.

وعلل ذلك بما هو أعم منه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾. والخِطْأ

- بكسر ثم سكون- لا يكون إلا تعمداً إلى خلاف الصواب، والخطأ -محركاً- قد يكون من غير تعمد.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾: حذر سبحانه وتعالى من دواعيه ومسبباته وما يشجع عليه من نظرة وابتسامة وكلمة ولقاء، و﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ والفاحشة ما زاد من القبح، وقد نهى الله عن الفحشاء.

ومن هذه المنهيات التي نهى الله عنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ تحريماً صريحاً إلا بحقها الشرعي، فقد عصمها الله تعالى، وحض على صيانتها، وحرم العدوان عليها، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لديته المُفارق للجماعة». [1] - ثم جعل الله سبحانه وتعالى فرجاً لولي من قتل مظلوماً بأن سلطه على القاتل بقوله سبحانه: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾ فإن شاء ولي الدم عفا عن القاتل واكتفى بالدية، وإن شاء عفا عنه دون مقابل، وإن شاء طالب بالقَوَد.

﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ وعلى الولي ألا يُسرف فيأخذ القاتل، أو يمثل به، فإنه منصورٌ على القاتل ومؤيدٌ بشرع الله فحسبه ذلك..

ومن هذه المنهيات الإلهية الترفع عن أكل اليتامى، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ولعل الحكمة - والله أعلم- في النهي عن أكل مال اليتيم بعد النهي عن القتل، أن أخذ مال اليتيم وأكله فيه معنى القتل لليتيم، وذلك بحرمانه من ماله الذي به قوام حياته، كما جاء في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج٦، ص٢٥٢١. وصحيح مسلم، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٠٢

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- تحريم قتل الأولاد خشية الإنفاق، وهي عادة جاهلية بغيضة فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.
- ومنها النهي عن الزنا وما يؤدي إليه، وهي أيضاً من عاداتها الجاهلية المذمومة، وقد نهى القرآن عن قربانه و إتيانه.
- كما نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
- وجعل لولي الدم سلطاناً، لا يتجاوزه بل يقف عند ما حده له.
- ومن هذه الهدايات القرآنية: النهي عن أكل مال اليتيم حتى يبلغ أشده، وفيها الوفاء بالعهد وأخبر الله سبحانه بذلك: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

المقطع الحادي عشر

توجيهات ربانيَّة في المعاملات والأخلاق.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم، وكان الائتمان

عليه كالمعهود فيه، أتبعه بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ الآيات. [١]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾: الواجب على المسلم أن يفي بالكيل و الوزن على وجه العدل و السوية من غير نقصان و لا زيادة، و الزيادة على العدل فضل و خير، و قد ندب الرسول ﷺ لذلك فقال:» إذا وزنت فارجح». [٢] وفي هذا حصول الخير للفرد و المجتمع.

ثم بعد هذا الأمر و الأوامر السابقة له، جاءت هذه النواهي الإلهية و فيها إبراز لشخصية المسلم متى ما تحلى بها و استقام على ذلك، فقال سبحانه و تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ كما أن فيها النهي عن تتبع العورات و القول بالحدس.

« فديننا الحنيف يرشدنا إلى أننا لا نتبع في سلوكنا الظن و الحدس، و لا نقف ما ليس لنا به علم، فلا يصح أن يقول إنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، و لا يليق بك أن تذم أحداً بما لا تعلم، و على هذا فشهادة الزور و القذف و التكلم في الناس بالظن و تتبع العورات كل هذا محرم شرعاً، إن السمع و البصر و الفؤاد وكل واحد من ذلك كان صاحبه عنه مسؤولاً فيُقال له: لِمَ سمعت ما لا يحل لك سماعه ؟ و لِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ؟ و لِمَ نويت و عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه ؟»[٣]

و من هذه الأمور المنهي عنها: الكبر و الخيلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾:

---

(١) نظم الدرر مرجع سابق جـ ٤ صـ ٣٧٩

(٢) السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، جـ ص٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م. ط١، تحقيق: د. عبد الغفار البنداري.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، صـ ٣٧٣.

لا تمش مشية المتكبر المحتال، فلن تبلغ الحبال طولاً، و لن تخرق الأرض بهذا الاحتيال و هذا المرح الممقوت عند الله تعالى، فإن ذلك المتقدم ذكره سيءٌ عند الله و مكروهٌ.

(و لما تمت هذه الأوامر و الزواجر على هذا الوجه الأحكم و النظام الأقوم، أشار إلى عظيم شأنه و محكم اتقانه بقوله على طريق الاستئناف تنبيهاً للسامع على أن يسأل عنه: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ﴾: أي «ذلك» الأمر العالي جداً « مما أوحى» أي بعث إليك في حقيقة « ربك» المحسن إليك «من الحكمة» التي لا تستطيع نقضها و الإتيان بمثلها من الدعاء إلى الخير و النهي عن الشر)[1] .

يقول ابن جرير الطبي رحمه الله: (هذا الذي بينا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها و نهيناك عن قبيحها) [2] .

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴾ « لا تتخذ إلها شريكاً مع الله فتُعاقَب بالإلقاء في جهنم ملوماً تلوم نفسك، و يلومك الله و الخلق.

﴿ مَّدۡحُورًا ﴾ أي: مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى و من كل خير، و الخطاب للأمة بواسطة الرسول صلى الله عليه و سلم، فإنه معصوم فيكون المراد به: كل من سمع الآية من البشر. وقد بدأ الله تعالى هذه التكاليف بالتوحيد و النهي عن الشرك و ختمها بهذا المعنى «بعينه» و المقصود من التنبيه على أن أول كل عمل و قول و ذكر و آخره يجب أن يكون مبتدئاً و مقترناً بالتوحيد و التعمق فيه»[3] .

وقد رتَّب الله تعالى على الإشراك به وترك التوحيد في البداية كون الشخص مخذولاً وفي آخر الآيات كونه ملوماً مدحوراً، فثبت أنه في أول الأمر يصير مخذولاً، وفي آخره يصير

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق. ج٤، ص٣٨٢.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، جـ١٥، ص ١٠٤.

(٣) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٧٨

مدحوراً. والمخذول ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، والمدحور: إهانته والاستخفاف به.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إيفاء الكيل وإتمام الوزن بالحق والعدل دون بخس ولا زيادة ولا نقصان.
- على الإنسان ألا يتبع مالا علم له به، و ما لا يعنيه.
- كل إنسان سيسأل يوم القيامه عن سمعه وبصره وفؤاده.
- النهي عن الخيلاء وتحريمه، والأمر بالتواضع والحض عليه.

المقطع الثاني عشر

إبطال دعوى الشريك لله

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَّما كان ادعاءهم أن الملائكة بنات الله ادعاءً؛ لأن له مناسباً و مجانساً في أخص الصفات و هي الإلهية كانت عبادتهم لهم تحقيقاً لذلك، و كان ذلك أزيد من مجرد الشرك في الجهل، ساقه مساق التقريع و التوبيخ تنبيهاً على ظهور فساده متصلاً بما مضى من النهي عن الشرك بالعطف بفاء السبب على « ما» بعد الاستئناف بهمزة الانكار، فكأنه قيل: لا تفعل ذلك كما فعل هؤلاء الذين أفرطوا في الجهل فنسبوا إليه من خلقه أدنى الجنسين كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾. ثم عبدوا ذلك الجزء، و هم لا يرضونه لأنفسهم، ثم التفت إليهم

مخاطباً بما دل على متناهي الغضب فقال: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾. [(١)]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾: «بعد أن فند الله تعالى زعم من نسب لله شريكا... هنا على من نسب له الولد، و ردَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثا ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم عبدوهن، مقرعاً لهم و منكراً عليهم و مبيناً خطأهم العظيم قائلاً: أيكرمكم فيخصكم بالذكور من الأولاد، و يختار لنفسه - على زعمكم - البنات، و أنتم تئدوهن و لا ترضونهن لأنفسكم ؟!...»[(٢)] .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾: إنكم تقولون قولاً عظيماً يوردكم مورد الهلاك؛ لأن هذا القول مناف لأبسط العقول، و هو كما ورد في سورة مريم: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

ثم رد الله على المشركين الذين يتخذون شريكا لله، فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾: قل لهم يا محمد لو كان مع الله - تبارك و تعالى - آلهةً وشركاء كما تقولون أيها المشركون إذاً لابتغوا إلى صاحب العرش سبيلاً، و لطلبوا طريقاً لمقاتلته، و لتنازعوا على الألوهية كما ذكر ذلك سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم يبين الله عز وجل مظهراً من مظاهر جلال ملكه و عظيم سلطانه و كمال وحدانيته فقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾: تسبح له السماوات السبع و من فيها، و الأرضون السبع

---

(١) نظم الدرر، مصدر سابق جـ ٤ ص ٣٨٢.

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق جـ١٥ ص٨٢.

و من فيهن، و ليس هناك شيء في الوجود إلا يسبح بحمده، فكل ما في الكون من إنسان و حيوان و نبات و جماد و أجرام يدل دلالة واضحة بينة على وجود الصانع القادر، و كل شيء يسبح بحمد الله وشكره.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد. و مع ذلك الكفر و الإنكار و العناد، فهو سبحانه الحليم بعباده، الغفور الذي يغفر السيئات و يقبل التوبة من عباده.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن نسبة الملائكة بجعلها بنات الله افتراء كبير و قول على الله عظيم الإثم.
- بيان الحجج القرآنية الواضحة الدالة على توحيد الله و وحدانيته المطلقة، و مع ذلك فإن المشركين المعاندين لا يزدادون بعد هذا البيان تباعدا عن الحق، و الغفلة عن النظر و الاعتبار.
- لو كان هناك آلهة مع الله كما يزعم المشركون لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب لله بالعبادة و التعظيم، لتجعل لنفسها مكانة عند الله تلتمس عنده الزلفة؛ لأنهم دونه، و المشركون اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقد في الأصنام أنها محتاجة إلى الله تعالى، فقد بطل أنها آلهة، و كان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحق، وهو الله جل جلاله.
- ما من مخلوق من مخلوقات الله تعالى إلا يسبح بحمد الله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

المقطع الثالث عشر

السر في كفر المشركين وعنادهم

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَمَّا تقدم إخبار الله لرسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ و عقَّب على ذلك بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة و جوامع الأعمال، و ما تخلل ذلك من المواعظ و العبر، عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص وتنبيهاً للمشركين على وجوب إقلاعهم عن مكابرتهم وعنادهم، وتأميناً للنبي ﷺ من مكرهم وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته للقرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام، لذا فقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

« وحقيقة الحجاب الساتر الذي يحب غض البصر عن رؤية ما وراءه وهو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبي ﷺ عن الإضرار به...»[1] .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾: يقول صاحب التفسير الواضح: (إذا قرأت يا محمد القرآن كله أو أي آية منه جعلنا بينك وبين هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً حاجزاً، وستراً ساتراً بحيث لا يبصرون ببصائرهم

(١) التحرير والتنوير، مصدر سابق، م ٧، صـ١١٦

نور القرآن وهدايته، وجعلنا على قلوبهم أكنة وأغطية تحول دون تفهم معاني القرآن وتدبر آياته وأمثاله، وجعلنا في آذانهم صمماً حتى لايسمعوا سماع قبول أو تدبر.. »[١]

وهذا الحجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لاتراه الأعين ولكنها ترى آثاره، (وقد تبين في أخبار كثيرة أن نفراً هموا الإضرار بالنبي ﷺ فما منهم إلا وقد حدث له ما حال بينه وبين ما هم به وكفى الله نبيه ﷺ شرهم، قال تعالى: « فسيكفيهم الله» وهي معروفة في أخبار السير). [٢]

وتُظهر هذه الآية ما ورد في سورة فصلت: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت:٥]

﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾: بمعنى أنه إذا جاء ذكر الله تعالى في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، ولم تقل والله و العزى، أدبروا راجعين على أدبارهم نافرين نفوراً تكبراً من ذكر الله وحده كما جاء في سورة الزمر: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الزمر:٤٥].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾: نحن أعلم بما يستمعون به حينما يستمعون إليك يا محمد، وسنجازيهم على استهزائهم وكفرهم وقت سماع القرآن؛ لأن ربك أعلم بما يتناجون به في خلواتهم، والشيطان معهم إذ يقول هؤلاء الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم: إن تتبعون إلا رجلاً قد سُحِر، فاختلط عقله.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾: انظر كيف ضربوا لك الأمثال يا محمد ؟ فهم قد ضلوا في جميع ذلك عن سواء السبيل، فلا يستطيعون طريقا إلى الهدى

(١) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٨٠

(٢) التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص١١٧.

والحق.[١]

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الله سبحانه وتعالى حجب رسوله ﷺ عن أبصار كفار قريش عند قراءة القرآن، فكانوا يمرون به ولا يرونه.
- حجب الله سبحانه وتعالى القرآن عن أبصار المشركين وعقولهم وأفهامهم، وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه.
- عندما يذكر النبي ﷺ ربه في القرآن وحده، ولَّى هؤلاء المشركون على أدبارهم نفوراً عند سماعه.
- الله عز وجل عليم بما يقوله هؤلاء المشركون حينما يستمعون إلى القرآن الكريم، فيتناجون فيما بينهم لتنفير الناس عن النبي ﷺ، ويقولون عنه أنه ساحر أو مسحور.
- والكفار بعملهم هذا تجاه النبي ﷺ وتجاه القرآن الكريم ضلوا عن الحق فلا يجدون إلى الهدى طريقاً.

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص٩١.

المقطع الرابع عشر

إنكار المشركين البعث بعد الموت والرد عليهم

قال تعالى: قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

قلنا فيما تقدم إن محور هذه السورة هو العقيدة، ولذا بعد أن تكلم الله تعالى فيها عن الإلهيات، ثم أتبعه فيها بذكر شُبه المشركين في النبوات، ذكر في هذا النص شبهاتهم في إنكار البعث والمعاد وبالقيامة، ورد عليها بما ينفعها، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ الآيات.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾: الرفات: ما بُولغ في دقه وتفتيته حتى صار كالتراب وقيل: الرفات هو التراب نفسه. وقد قال المشركون حين سماع القرآن الكريم وسماع أمر البعث: أئِذا كنا عظاماً بالية في قبورنا و رُفاتاً بسبب تكسر هذه العظام - والاستفهام إنكاري فهم يُنكرون ذلك - أئنا لمبعوثون عائدون بعد ما بُلينا وصرنا عدماً ؟ وقولهم هذا مثله ما جاء في سورة

---

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص٩٤.

النازعات: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النازعات:١٠-١٢]، وكقولهم في سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس:٧٨] فيرُد الله عليهم بأن إعادة الحياة إلى الجسم أمر ممكن، بل هو أهون على الله من خلقه أول مرة - وهو أهون بالنسبة إلى إدراكنا - وإلا فخلق الجبال والناس جميعاً عند الله كخلق ذرة واحدة، ولو فرضتم أيها المشركون أن بدن الميت قد صار أبعد شيء عن الحياة بأن صار حجراً أو حديداً، أو خلقاً آخر مما يكبر في صدوركم وعقولكم كالسماء الأرض، فالله سبحانه وتعالى قادر على إحياءه وبعثه من جديد.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: فالله تعالى قادر على إعادتكم وإحياءكم بالبعث.

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾: بمعنى أنهم يُحركونها عجباً مما تقول، ويقولون: متى هذا ؟ وفي أي وقت يكون ؟ فقل لهم: عسى أن يكون قريباً، فهم من وحي كفرهم وتكذيبهم يستبعدون ذلك كما أخبر الله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٦-٧] - ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾: تستجيبون حامدين طائعين مُنقادين كما أخبر الله تعالى بذلك في سورة القمر: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦-٨].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: إن أنت إلا بشير ونذير وربك أعلم بمن في السموات ومن في الأرض جميعاً، علم إحاطه وانكشاف ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٤].

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾: أي:ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ونحن أعلم بخلقنا، فموسى كليم الله، وعيسى كلمته وروح من عنده، وإبراهيم خليله،

ومحمد حبيبه وخاتم رسله وصاحب الإسراء والمعراج، ولا تتعجبوا من إعطاءه القرآن، فداوود عليه السلام أعطيناه الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- بيان فساد عقيدة المشركين باتخاذهم آلهة مع الله سبحانه وتعالى، وزادوا على ذلك بإنكارهم البعث بعد الموت.
- تعجبَ المشركون من إعادة الحياة إلى العظام البالية كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة النازعات: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾[النازعات:١١]، وكما أخبر عنهم في سورة الرعد: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[الرعد: ٥] وما ذلك إلا لقصور إدراكهم وضعف قدراتهم، فالله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.
- إن البشر حينما يُدعوْن إلى الخروج من قبورهم لا يسعهم إلا الإذعان والاستجابة لأمر الداعي.
- تقدير الناس بعد البعث أنهم ما لبثوا إلا يوماً أو بعض يوم.
- أمر الله لجميع المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب و إلانة القول، وخفض الجناح، و طرح نزغات الشيطان فيما بينهم: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.
- والقول الحسن مطلوب أيضاً مع غير المسلمين: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]
- ليس الأنبياء كلهم على درجة واحدة في الفضل، فقد فضَّل الله بعضهم على بعض، فقد آتى الله داوود عليه السلام «الزبور» كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود وإنما هو دعاء وتمجيد، وفيه إشارة إلى اليهود وإعلام لهم أنه كما آتينا داوود الزبور فلا تنكروا أن يُؤتى محمد ﷺ القرآن الكريم تبياناً لكل شيء.[1]

---

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج٥، ص١٠١- ١٠٢

المقطع الخامس عشر

مناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ندد الله تعالى بإنكار المشركين للبعث، عاد - سبحانه - إلى الرد عليهم في عبادتهم للملائكة والجن والمسيح و عزير، فهؤلاء يتوسلون إلى الله بالطاعة والعبادة، ويخافون عذابه، فالمستحق للعبادة هو المالك لهؤلاء، والقادر على النفع و الضر دونهم، وليس المراد الأصنام لأن ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يكون بالأصنام البتة. ثم ذكر وعيد هؤلاء، وأن مصيرهم إما الإبادة أو الاستئصال، أو العذاب دون ذلك كالقتل والسبي واغتنام الأموال.[(١)]

أهل مكة قد سألوا رسول الله ﷺ أن يصير لهم جبل الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأله قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يُمهلوا، وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[(٢)] .

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص١٠٧.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري، ص١٦٦، ط١، مصطفى البابي الحلبي.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله كعيسى ابن مريم، و عزير وطائفة من الملائكة والجن والأصنام، هل يجيبون دعاءكم ؟ وهل يستطيعون كشف الضر عنكم أو تحويله إلى غيركم ؟ إنهم لا يستطيعون دفع شيء من ذلك، وإنما ذلك خالق الخلق ومالكه، فأولئك الذين عبدتموهم من دون الله، يدعون ربهم ويبتغون الوسيلة إليه والقربى منه بالطاعة، ويخصونه بالعبادة، وهم أقرب إلى الله وأولى به؛ لأنهم عباده الأطهار المُخلصون من ملائكة وأنبياء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾: أخبر سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عندما طلب كفار مكة المعجزات المادية - كما تقدم - أن سبب منع إرسال الآيات الحسية واستجابة طلباتهم التي سألوها هو تكذيبهم للأولين، فإننا إن أرسلناها وكذب بها أولئك، عوجلوا بالعذاب ولم يُمهلُوا كما هو سنة الله مع الأمم الماضية.

ثم قصَّ الله عز وجل على رسوله ﷺ قصة ثمود وقوم صالح، وفيها أنَّا آتينا ثمود الناقة كما طلبوا، فكذبوا بها وعقروها، وهذا مثل ما جاء في سورة الشمس: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[الشمس: ١١-١٥] فكانت آية لمن بعدهم ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى مُحرضاً رسوله محمد ﷺ على إبلاغ رسالته، ومُخبراً له بأن قد عصمه من الناس: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ ﴾ فإنه سبحانه قادر على عباده وهم في قبضته وتحت قدره، وقد عصم رسوله من أعدائه.

ثم ذكر الله تعالى آية الإسراء حيث قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أما الرؤيا التي رآها النبي ﷺ فقيل: إنها بشرى الله له بانتصاره على قريش في بدر وغيرها، وأنه سيهزم الجمع ويُولون الدبر، ولذلك كان يقول النبي ﷺ وهو في العريش مع أبي بكر الصديق ﷺ قبل بدء معركة بدر: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك»، ولعل الله أراه مصرع قومه في منامه، فكان يقول: «هذا مصرع فلان و ذلك مصرع فلان»، تسامعت قريش بذلك، وبما رأى في منامه، فكانوا يضحكون ويسخرون، ويستعجلون العذاب. [1]

وقيل الرؤيا هي الإسراء، فقد آمن بها بعض الناس، وكفر بعضهم، وهو ضعيف؛ لأن الإسراء كان يقظةً وليس مناماً.

﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾: هي شجرة الزقوم ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤-٤٦] فكان من سخرية المشركين من قصة «شجرة الزقوم» قولهم: إن محمداً يزعم أن نار جهنم وقودها الناس والحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر.

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾: ونُخوف الكفار بالوعيد والعذاب في الدنيا والآخرة، فما يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الطغيان، فكيف يؤمن قوم هذه حالهم بإنزال ما يقترحون من الآيات؟!.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- كشف الضر من مرض أو فقر أو بلاء أو أي ضر، لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾.
- بطلان الاستعانة بهذه الآلهة المزعومة من دون الله، كالملائكة وعيسى و عزير، فهم أنفسهم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، مج٢، ص٣٨٢.

يطلبون من الله سبحانه الزلفى والقربة، ويتضرعون إلى الله في طلب الجنة.

- إخبار الله تعالى بأنه ما من قرية من القرى الظالم أهلها إلا سيهلكها الله أو يعذبها عذاباً شديداً قبل مجيء يوم القيامة. قال ابن مسعود ﷺ: (إذا ظهر الزنا والربا في قرية، أذن الله في هلاكهم، و لا يكون الهلاك إلا بظلم من الناس ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

- إخبار الله لنا بأن إيتاء ثمود الناقة آية دالة على صدق صالح ﷺ، وعلى قدرة الله تعالى، ولمّا ظلموا أنفسهم بتكذيبها وجحدوا بها، استأصلهم الله بالعذاب الأليم.

- إن آية الإسراء وشجرة الزقوم اختبار للناس، واستهجان لهم، ليكفر من حقت عليه كلمة العذاب، ويصدق من سبق له الإيمان، لذا فإن الله تعالى يُخوف المشركين وغيرهم بالزقوم فما يزيدهم التخويف إلا الكفر، نعوذ بالله من الشرك والكفر. [١]

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج٥، ص١١٣.

المقطع السادس عشر

الحسد أصل الداء

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما تقدم أنهم استبعدوا الإعادة من أجل صيرورتهم من بعد الموت رفاتاً، و أخبر تعالى بقدرته على ذلك، ولو صاروا إلى ما أعسر عندهم من الإعادة من الرفات « بأن يكونوا حجارة أو حديداً» و أشار إلى قدرته على التصرف بخرق العادة في الحديد، بإلانَتِه لعبد من عبيده، ثم في الحجارة على سبيل الترقي في النشر المشوش بما هو أعجب من ذلك، و هو إفاضة الحياة عليها - أي الحجارة - لعبد آخر من عبيده، أشار إلى تصرفه في التراب الذي هو نهاية الرفات الذي حملهم على الاستبعاد بما هو أعجب من كل ما تقدمه، و ذلك بإفاضة الحياة الكاملة بالنطق عليه من غير أن تسبق له حالة حياة أصلا، وذلك بخلق آدم عليه السلام الذي هو أصلهم مع ما في ذلك من حفظ السياق في التسلية بأن الآيات لا تنفع المحكوم بشقاوته، و بأن آدم عليه السلام قد سلط عليه الحاسد و اشتد أذاه له مع أنه صفي الله و أول أنبيائه، مع البيان؛ لأن أغلب أسباب الطغيان الحسد الذي حمل إبليس على ما فعل، لذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ الآيات. [1]

---

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق جـ٤ ص ٤٠٢.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾: و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم امتثالاً لأمري و إظهار لمحبة بني آدم لا سجود عبادة و خضوع، فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى و استكبر و قال: أأسجد لمن خلقته من طين، و أنا خلقت من نار، فأنا خير منه فكيف أسجد له ؟ و الاستفهام في «أأسجد» للإنكار يستنكر اللعين هذا الطلب من الخالق الأحد الفرد الصمد.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾: قال إبليس: أخبرني هذا الذي كرمت علي بم كرمته علي مع ضعفه و قوتي ؟ تالله لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأستولين عليهم بالإغواء و الإضلال جميعاً، آدم و ذريته، إلا قليلا منهم و هم عبادك المخلصون، و من قبل هذا قول الله تعالى في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠].

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾: اذهب فامض لشأنك الذي اتخذته لنفسك فمن تتبعك منهم و أطاعك فإن جهنم مأواكم و جزاؤكم جميعاً أنت و من اتبعك جزاءً موفوراً.

(مكملاً وافياً تستحقون على أعمالكم الخبيثة). [1]

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ استفزز: أي حضه، وادعه بكل ما تستطيع من قوة و إغراء، و اجمع عليهم خيلك وفرسانك ورجالك، (و المراد اجمع لهم مكائدك

(١) المصدر السابق، حـ٤ ص٤٠٣ .

و ما تقدر عليه، و شاركهم في الأموال حتى يتصرفوا بها خالف وجه الشرع من سرقة و غصب و غش و خديعة، أو أخذ بالربا، وشاركهم في الأولاد عن طريق الزنى و تسميتهم بأسماء غير شرعية، و عدم احترام الحقوق الشرعية في الزواج و الطلاق، وعدهم بكل ما تعد به من زخرف القول وباطله.

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾: كلاماً باطلاً كاذباً، وإظهاراً للباطل في صورة الحق.

و هذا نظير ما جاء في سورة النساء:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾[النساء:١١٧-١٢٠].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، و لا قوة، إلا من اتبعك، وكفى بربك يا محمد وكيلاً يتوكلون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان، و يعصمهم من إغوائه.

و من هنا نعلم أن الناس -كما يقول صاحب التفسير الواضح- صنفان:

صنف مؤمن تقي إذا مسه الشيطان تذكر نفسه و ما حمل من أمانة، و ما عليه من حساب، و استعاذ بالله فإذا هو مبصر محاسب نفسه، و هؤلاء هم العباد الذين ليس للشيطان عليهم سبيل.

و الصنف الثاني: هو العاصي الذي يتولاه الشيطان و يستولي عليه مستعيناً بالمال و الدنيا و النفس الأمارة بالسوء). [1]

---

(١) التفسير الواضح، جـ١٥ ص ٣٤٨.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن تمادي المشركين و عتوهم على ربهم يذكر بقصة إبليس حين عصى ربه و أبى السجود تعالياً، و تكبر بحجة أن آدم خُلق من طين و هو من نار ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾.
- استهانة الحق تبارك و تعالى و استخفافه بإبليس و من تبعه من بني آدم ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.
- و فيها أن عباد الله الصالحين لا سلطان لإبليس عليهم و لا تسلط، و كفى بالله عاصماً و حافظاً، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.
- في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ فيها الدلالة على تحريم المزامير و الغناء و اللهو، لأن صوت الشيطان داع يدعو إلى معصية الله تعالى، و كل ما كان من صوت الشيطان أو فعله و ما يستحقه فواجب التنزه عنه، وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل براحلته عن الطريق و هو يقول:يا نافع أتسمع ؟ فأقول نعم، فمضى حتى قلت له: لا، فوضع يديه و أعاد راحلته إلى الطريق و قال: رأيت رسول الله ﷺ سمع (صوت) زمّارة راع فصنع مثل هذا»[1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، جـ١٠ ص ٢٩٠. و انظر التفسير المنير، مرجع سابق، جـ١٥ ص١١٨.

المقطع السابع عشر

من نعم الله على الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه، لاختصاصه بشمول علمه وتمام قدرته، أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك فقال تعالى، عوداً إلى دلائل التوحيد الذي هو المقصود الأعظم بتذكيرهم أحوال البحر الذي يخوضون فيه، في أسلوب الخطاب استعطافاً لهم إلى المتاب، فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

تقدم لنا أن هذه السورة محورها الأساسي هو التوحيد، فتابع ذلك و أخبرهم فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾: ربكم الذي يستحق العبادة وحده، هو الذي يسير لكم السفن في البحر يدفعها بقوة الريح و تيار الماء أو قوة البخار أو الطاقة الكهربائية أو الذرية لنقل الأشخاص للسياحة أو للارتزاق بين بلاد الدنيا، أو نقل البضائع من إقليم إلى إقليم و طلب الرزق من فضل الله، و أنتم أيها المشركون أمركم عجيب إذا

---

(١) انظر نظم الدر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، جـ٤ ص٤٠٦.

مسكم الضر، واضطرب بكم البحر، و عدا على سفنكم هوج الرياح، فانخلع قلبكم من خوف الغرق المحقق، إذا حصل هذا ضل من تدعونه من الآلهة إلا الله، و لم يدر بخلدكم ذكر واحد منهم، فإنكم لا تذكرون سوى الله و حده، فلما كشف الضر عنكم و نجّاكم إلى بر السلامة أعرضتم و كفرتم و صرتم تدعون غيره معه، و هذا حال الإنسان ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾: أفأمنتم و قد نجاكم من البحر و صرتم في البر أن يرسل عليكم ريحاً حاصباً تصيبكم بالحصباء ؟ فأنتم تحت قبضته في كل مكان في البر و البحر، و إن لم يصبكم من أسفل أصابكم إن شاء من فوقكم كما جاء ذلك في سورة الأنعام:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥].

بل أأمنتم و قد نجاكم من مخاطر البحر أن يعيدكم فيه تارة أخرى، بأن يهيئ لكم أسباب ركوبه مرة ثانية فيرسل عليكم و أنتم في سفن من الريح الشديد فتكسر كل ما يقابلها، فيغرقكم بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم بسبب هذا تبيعاً علينا يطلب الثأر منا، كما ورد في سورة الشمس ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس: ١٤، ١٥] و التبيع: هو الناصر والمعين.[1]

ثم عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾: فضلنا بني آدم، ومن مظاهر هذا التكريم والتفضيل خلقه في أحسن تقويم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤]، وذلك بحسن الصورة، والمزاج المعتدل، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل والعلم، والإفهام بالنطق والإشارة، والاهتداء إلى أسباب المعاش و المعاد، والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات، والطهارة بعد الموت، أي أن التكريم بالخلق في أحسن تقويم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص ٣٨٦. والتفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥ص١٢١.

وبالعقل أداة العلم والمعرفة والتقدم والتمدن.[١]

ومن مظاهر هذا التكريم حمله على ظهر السفن في البحر، وعلى الدواب وعلى كل حامل في البر والجو، (على الدابة والسيارة والدراجة والقطار، وفي البحر على السفن وفي الجو بالطائرة والقلاع الجوية، وإنها لم تذكر لأنه سبحانه كان يخاطب العرب الذين لا يمكنهم تصور هذا..»[٢] يعني وقت نزول القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: أما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم مما يشاء مما يروق له، وجعل في المطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها.

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾: (وأما التفضيل على كثير من المخلوقات فالمراد به: التفضيل المشاهد؛ لأنه موضع الامتنان، وجماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية...)[٣].

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- نعم الله على الإنسان كثيرة لا تحصى، منها تسخير السفن في البحار، أو الدواب بمختلف أنواعها في البر والرزق من الطيبات﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.
- ومن هذه الهدايات تفضيل الله للإنسان في تكريمه لبني آدم بخلقهم في أحسن تقويم وبالفعل والتفكير، والحمل له في البر والبحر والجو والرزق من الطيبات والتفضيل على كثير من المخلوقات لا على كلها.

---

(١) المرجع السابق، ج١٥ ص ١٢١.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص ٣٨٦.

(٣) انظر التحرير والتنوير، مصدر سابق، م٧، ص١٦٦.

المقطع الثامن عشر

من مشاهد يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما بيّن الله سبحانه - فيما تقدم - قدرته على التفضيل في الحياة الحسية والمعنوية، والمفاضلة بين الأشياء، فتثبت بذلك قدرته على البعث، وختم ذلك بتفضيل البشر، وكان يوم الدين أعظم يوم يظهر فيه التفضيل، قال هنا: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾يعني: بمتبوعهم الذي يتبعونه فيقال يا أتباع نوح ! ويا أتباع إبراهيم ويا أتباع موسى! ويا أتباع عيسى! ويا أتباع محمد! فيقومون فيميز بين محقيهم ومبطليهم، ويقال: يا أتباع الهوى، يا أتباع النار، يا أتباع الشمس، يا أتباع الأصنام، ونحو هذا، أو يكون المراد بسبب أعمالهم التي ربطناهم بها ربط المأموم بإمامه، كما تقدم في السورة نفسها ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾: اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي تحاسب فيه كل أمة بإمامهم - أي بكتاب أعمالهم على ما ذكره ابن كثير، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، وقوله: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾. [الكهف:٤٩] فالكتاب يسمى إماماً لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم، ويحتمل أن يكون «إمامهم» قائدهم كما تقدم في ذكر المناسبة.

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾: «فمن أوتي كتابه» من هؤلاء المدعوين «بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم» فرحاً وابتهاجاً مما جاء فيه من العمل الصالح.

﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾: أي: لا يظلمون من أجورهم قدر فتيل وهو الخيط الموجود في شق النواة، فإن الفتيل مَثَل في القلة.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: من كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق الحق، ولا سبيل النجاة، وأضل سبيلاً من ضلاله في الدنيا.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الحساب يوم القيامة بين الخلق يكون مدعماً بالوثائق والمستندات ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].
- فرحة من يأخذ كتابه بيمينه، ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ لأنه فاز بالسعادة الأبدية.
- إن الأعمى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق من خلال الأدلة والبراهين يكون في الآخرة أشد عمىً وضلالةً عن سبيل النجاة.

المقطع التاسع عشر

محـــاولة المشركين فتنة النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا عدد الله سبحانه وتعالى نعمه على بني آدم، ذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومن عَمَى أهل الشقاوة، أتبع ذلك بما همَّ به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع، والتلبيس على النبي ﷺ سيد أهل السعادة، فقال: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ الآيات.[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾: فيها إخبار عن تأييد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، و تثبيته، وعصمته، وتولي أمره وحفظه، فإن المشركين لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم، وقوة شكيمتهم كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره.

وقد وردت روايات متعددة مختلفة في سبب نزول هذا النص، لكنها كلها مراسيل، و لا يُطمئن إليها، منها: « أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تُعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا نحني في الصلاة، ولا نكسر أصناماً بأيدينا وإن تمتعنا باللات من غير أن نعبدها، فإن خشيت

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٣٥.

أن يسمع العرب: « لم أعطيتهم مالم تُعطنا ؟ فقل لهم: الله أمرني بذلك». قال الإمام الطبري تعقيباً على هذا: (يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر، ويجوز أن تكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر صحيح يقطع العذر أيّ ذلك كان، فالأصوب الإيمان بظاهره، حتى يأتي ما يجب التسليم له). [1]

﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾: أي غير ما أوحينا إليك، وهو قولهم: الله أمرني بذلك.

يقول الدكتور محمد محمود حجازي في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾: فيها إشارات إلى أن التهاون في شأن الدين وأحكامه خطر وأيُّ خطر وعليه عذاب مُضاعف في الدنيا والآخرة، فيا ويلنا مادمنا نتهاون في شأن الدين وحكمه، وعلى المؤمنين جميعاً إذا قرؤوا هذه الآيات أن يملئوا قلوبهم خشية وخوفاً وتصلباً في دين الله، وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[2] .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾: لقد قارب أهل مكة ليزعجوك بعداوتهم ومكرهم، ويُخرجوك من أرضهم التي أنت فيها - أي أرض مكة – وإذا أخرجوك لا يبغون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً، فإن الله مُهلكهم، وقد حدث هذا الوعيد كما قال، فأهلكهم الله بـ« بدر» بعد إخراجه بقليل، وهو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة أو الإخراج.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾: أي هكذا سنتنا في الذين كفروا برُسلنا وآذوهم، بأن، يأتيهم العذاب بخروج الرسول ﷺ من بينهم. ولولا أنه ﷺ رحمة رب العالمين إلى العالمين، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبَلَ لأحد به، ولكنه سبحانه هو القائل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ [الأنفال:٣٣] إلا أنه لا تغيير لسنة الله ونظامه، ولا خُلف

(١) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج٦، ص٢٥٤، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص٣٨٩.

في وعده.

﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾: (أي ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره)[(١)]

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- يظهر لنا مما تقدم تعرض النبي ﷺ لأنواع كثيرة متعددة من مكايد المشركين، ولكن الله عصمه من خبثهم.
- النبي ﷺ معصوم، وهو لم يُهادن الكفر والكفار والشرك والمشركين، بل ولم يهم بذلك ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر:٦٤]
- لقد همَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ، ولو أخرجوه لما أُمهلوا؛ لأن سنة الله الثابتة الدائمة تعذيب كل قوم أخرجوا رسولهم من بلده، فإذا أخرجوه أُهلِكوا ودُمِّروا)[(٢)].

---

(١) انظر فتح القدير، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٣٩.

المقطع العشرون

أوامر وإرشادات للنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

أعجبني في هذا المقام ما ذكره الدكتور وهبة الزحيلي حيث قال: (بعد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ وما كانوا يرمونه به، أمره الله تعالى بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم، وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد، والنبوات، فأردف ذلك الأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان وهي الصلاة، ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين، ولمّا أمره الله تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود أمره بأن يدعوه بما يشمل الأمور الدينية والأخروية بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى ﴾ والظاهر كما قال أبو حيان: إنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية)[1].

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾: دلوك الشمس يعني: زوال الشمس عن كبد السماء، وقيل المعنى: غروب الشمس. «فتهجد» الهجود: النوم بالليل

---

(١) المرجع سابق، ج١٥، ص١٤٣.

والتهجد: ترك الهجود، مثل: التأثم والتحرج.

يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبة في أوقاتها، بمعنى: أدِّ الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك، تامَّة الأركان والشروط من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل وهذا يشمل الصلوات الأربع: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته، وإنما وجهَّ الخطاب إلى النبي ﷺ لمكانة المأمور به وهو: الصلاة.

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: وأقم صلاة الفجر، وتلك هي الصلاة الخامسة.

وقد أبانت السنة النبوية المطهرة المتواترة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مقادير أوقات الصلاة، بدأً وانتهاءً على النحو المعروف اليوم)[1].

﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾: تشهده ملائكة الرحمن، وهو كما في الصحيحين: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجمع فيها، أي في صلاة الفجر. فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾: يعني: وبعض الليل تهجد بالقرآن، والصلاة نافلة زائدة عن الفرائض المطلوبة.

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾: وهو المقام المرموق المُعد للنبي ﷺ، وهو المقام المحمود الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه. والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون.

ومعنى النظم الكريم: (كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة

---

(١) المرجع السابق، ج١٥، ص١٤٣.

قيام الليل)[١].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾: وقل يا محمد: رب أدخلني مدخل صدق الذي وعدتني به، وأخرجني مخرج صدق، وإضافة المدخل والمخرج إلى الصدق لأجل المبالغة، والآية تشمل كل مدخل للنبي ﷺ وكل مخرج كدخوله إلى المدينة المنورة وخروجه من مكة المكرمة، واجعل لي في هذا سلطاناً وحجة قوية.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾: وقل يا محمد: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد».

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾: إن هذا القرآن هدىً وشفاء لما في الصدور، ورحمة وخير للمؤمنين، وهو الوسيلة إلى الله، والدواء والعلاج من كل داء، كما أخبر الحق سبحانه وتعالى، وهو شفاء نفسي وجسمي وعلاج للأمة و الفرد ورحمة للمؤمنين فهو الذي حوَّل العرب الجاهليين الحفاة العراة إلى أمة ذات حضارة وعزة وسلطة بعد أن كانوا في ضلال مبين ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة:٢] أي ضلال أكبر من أن يتخذ الإنسان شريكاً لله وهو الذي أوجده من العدم، لكنه الإنسان الذي يُقابل النعمة بل النعم الإلهية بالجحود. ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ ﴾: أعرض عن ذكر الله ونأى بجانبه وولى ظهره، وهي عادة المتكبرين.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾: وإذا مسه الشر من فقر أو مرض ونحوهما كان شديد اليأس

---

(١) محاسن التأويل، مرجع سابق، م٦، ص٢٦٩.

يؤوساً من رحمته تعالى قنوطاً، وهي كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الآية:١٢].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾: يعني طريقته التي جُبل عليها، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾: يسألك المشركون وغيرهم كاليهود عن الروح - أي حقيقتها - التي تُحيى به الأبدان، قل الروح من أمر ربي وشأنه، وهي من الأمور التي استأثر الله تعالى بعلمها، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا بالنسبة لعلم الله جل جلاله، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات القرآنية التي ظهرت لنا: أهمية الصلوات الخمس المكتوبة، وعلى تحديد أوقاتها جملة، وقد بينتها وفصّلتها السنة النبوية ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
- إن الصلاة المفروضة لا تتم إلا بالقراءة.
- وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ وقد تقدم أن قرآن الفجر مراد به صلاة الفجر.
- قيام الليل - وهو التهجد - مطلوب من النبي ﷺ نافلة، زيادة له وكرامة.
- المقام المحمود هو الشفاعة العُظمى للناس يوم القيامة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي وبن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر». قال النقاش: (لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، و شفاعة في السبق إلى الجنة،

و شفاعة في أهل الكبائر»[١] .

- في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ دليل على كسر نصب المشركين والأصنام وجميع الأوثان ، قال القرطبي: (ويدخل فيه كسر آلة الباطل، وما يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير،...)[٢] .

- القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، و لا يزيد سماعُه الكافرين الظالمين لأنفسهم إلا خساراً، وذلك لتكذيبهم كما يزيدهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

- إن سؤال اليهود والمشركين للنبي ﷺ عن الروح وحقيقتها ما هو إلا نوع من أنواع تعنتهم، فأرشدهم القرآن إلى ما هو خير لهم وأجدى، فإن القرآن كتاب هداية وإرشاد يبحث الأشياء بحثاً ليتفق مع المصلحة العامة، لذا يقول عز وجل لنبيه محمد ﷺ آمراً له: قل لهم يا محمد إن الروح من أمر ربي وشأنه، ومما استأثر الله بعلمه، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلى علوم الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيء علماً). [٣]

---

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، مصدر سابق، ج١، ص٣١٤.

(٣) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م٢، ص٣٩٢

المقطع الحادي و العشرون

من إعجاز القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن امتن الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بالنبوة، وبإنزال وحيه عليه، وبتنزيل القرآن الكريم شفاءً للناس، امتنَّ عليه أيضاً ببقاء القرآن محفوظاً ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، وذكر ما منحه تعالى من الدليل على نبوته بقاء الدهر، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، مع اشتماله على أصح القواعد، وأقوم الحِكم والأحكام والآداب المفيدة في الدنيا والآخرة، بل إن فُصحاء اللسان الذي نزل به وبُلغاءهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله، ولو تعاون الثقلان عليه)[1] لذا ناسب قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾: أي من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، و عبرا بالموصول «الذي» تفخيماً لشأنه، ووصفاً له بما هو في حيِّز الصلة، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق. - ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾: أي من يتوكل علينا بردّه.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾: قال الزمخشري: (وهذا امتنان منَّ الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المِنَّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم ألا

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٥٩.

يغفل عن هاتين المِنَّتين والقيام بشكرهما)(١).

هذا القرآن وهو المعجزة والحجة الدائمة التي تحدى الله بها العرب كلهم فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل فصاحة وبلاغة، والنبي ﷺ واحد منهم وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، وفيهم الشعراء والخطباء، وقادة البلاغة والبيان، فحيث عجزوا فغيرهم من باب أولى تحداهم به بأسلوب لاذع، مع الحكم عليهم بالعجز والقصور، ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا كلهم و بذلوا النفس والنفيس)(٢).

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾: قل يا محمد مُتحدياً: والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المُعجز في بلاغته وحسن نظمه وبيانه لعجزوا عن الإتيان بمثله حتى ولو كان الجميع متعاونين مُتآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإنه أمر غير مُستطاع لمخلوق، فهو كلام المخلوق، وأنى لكلام المخلوق أن يُشبه كلام خالقه.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾: (لقد صرَّف الله للناس في هذا القرآن، وقلّب فيه الأمور كلها على وجوهها بألوان شتى وعبارات مختلفة، مرة بالإيجاز وأخرى بالإطناب، موفياً الغرض من أمر ونهي ووعظ وإرشاد وقصص وحِكم وتشريع،.... ومع هذا يأبى أكثر الناس إلا الكفور والجحود، والناس هنا هم أهل مكة وأمثالهم)(٣).

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- تُبين الآيات القرآنية فضل الله ونعمته على نبيه محمد ﷺ بإنزال القرآن كتاب هداية وإعجاز، بل هو مُعجزة الرسالة والرسول إلى يوم الدين.

---

(١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج٢، ص ٦٤٦، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥.

(٣) المرجع السابق، م ١٥، ص٣٩٥.

- كما تبين أنَّ هذا القرآن أعجزَ الثقلين (الإنس والجن) وإن تعاونوا على ذلك وتظاهرا.
- ظهر في هذه الآيات فضل الله على نبيه محمد ﷺ فهو خاتم المرسلين، ورسالته خاتمة الرسالات، وكان فضل الله عليه كثيراً.

المقطع الثاني والعشرون

اقتراح مُشركي مكة الآيات الحسية

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعدما تحدى الله تعالى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعد ما ألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم، ببيان إعجاز القرآن، وظهر عجزهم، أخذوا يتعللون ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة، فقالوا ما ذكره عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

هذا قول نفر من زعماء مكة منهم عتبة و شيبة إبنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وآخرين، قالوا: لرسول الله ﷺ لن نُصدق برسالتك حتى تُخرج لنا من الأرض ينبوعاً يتدفق، وهو العين الجارية، أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب، وطلبوا من هذه الآيات القرآنية ما ورد في النص القرآني المتقدم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، وقال ما جاء في القرآن: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فلست أقدر على طلبكم المعجزات،

والله سبحانه هو القادر، وقد أيدني بمعجزة القرآن، وهي المعجزة الباقية الخالدة).[1]

وقد تقدم مثله في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

يقول صاحب التفسير المنير: (قل يا محمد مُتعجباً من اقتراحاتهم: تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، فهو الفاعل لما يشاء، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وليس للرُسُل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وِفق الحكمة والمصلحة، وأمركم إلى الله إن شاء أجابكم وإن شاء لم يُجبكم)[2].

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ظهر لنا ضعف عقول المشركين وظنهم الآثم أن الله سيفعل لهم ما يريدون، وذلك فيما ذكر الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ إلى آخر الآيات الست التي طلبوا تحقيقها من الرسول ﷺ، وكان جواب رسول الله بتوفيق من الله ورحمة: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.
- إنَّ حدوث الآيات بأمر الله، ولا يقترحه الرسول ﷺ على ربه.
- من رحمة الله أنه لو جاءتهم الآيات كما طلبوا ثمَّ كذبوا به ﴿ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام:٨].

---

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥. وفتح القدير، مرجع سابق، ج، ص

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، م ١٥، ص١٦٦.

المقطع الثالث والعشرون

بعض شبهات المشركين والرد عليها

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعدما أنكر المشركون المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ وهي القرآن الكريم وطالبوه بمعجزات حسية، أخبر الله تعالى عن سبب ذلك التعنت والتكبر، وهو استبعادهم أن يبعث الله رسولاً إلى الناس من البشر، و هذا كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس:٢]، فناسب أن يذكر الله ذلك في هذا المقام فقال سبحنه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾: عموم الناس وقيل المراد أهل مكة، فهم المخاطبون مباشرةً بهذا حينما جاءهم الوحي من عند الله سبحانه بواسطة رسوله محمد ﷺ، و بين ذلك لهم وأرشدهم إليه.

﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾: وهذا إنكار أن يكون الرسول بشراً، هذا الفهم

الخاطئ هو الذي منعهم من الإيمان بالكتاب و الرسول، فأنزل الله على رسوله الإجابة على إنكارهم هذا فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾: ساكنين يعيشون مع الناس و يتفاهمون معهم و يتلون عليهم آيات الله، و تعرف الناس أخبارهم و أحوالهم... لو كان في طبيعة الملك ذلك لنزلنا عليهم ملكاً رسولاً. إذ لا يعقل أن يدين الإنسان لمن لا يعرف عنه شيئاً، و من ليس بينه اتصال و ألفة حتى يتم التفاهم، من أجل ذلك كانت الحكمة الإلهية أن يرسل الله الرسول للقوم من نوعهم للتمكين من المخاطبة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة...)[1] .

و هذا من قبيل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾: أي قل لهم يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به، من أمور الرسالة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾: محيطا بظواهرها و بواطنها.

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾: لا تذهب يا محمد نفسك عليهم حسرات، و اعلم أن من يهديه الله إلى الخير فهو المهدي الموفق و من يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه يتولون أمره و يدافعون عنه، و هم يوم القيامة محشورون يمشون على وجوههم، فإن الذي أقدرهم على

(١) التحرير و التنوير، مصدر سابق، م ٧ ص ٢١٣.

المشي على أرجلهم قادر على جعلهم يمشون على وجوههم ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء:٧٢]، مأواهم جهنم التي وقودها الناس و الحجارة ﴿ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴾ و كلما أكلت جلودهم و لحومهم و عظامهم أبدلوا غيرها ليذوقوا العذاب، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [النحل:٣٣] و ذلك جزاؤهم بسبب كفرهم و قولهم: أإذا كنا عظاماً نخرة و صرنا تراباً لتعود إلينا الحياة ؟ نعم ﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾[الأعراف:٢٩].

﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ ﴾: قل لهم يا محمد لو تملكون خزائن رحمة الرحمن الرحيم لبخلتم بها، و أمسكتم خشية الإنفاق و كان الإنسان قتوراً بخيلاً. فما بالكم تطلبون الآيات بعد الآيات!! و أنتم لا تقومون بواجب شكر الله المنعم الذي تفضل و أنعم عليكم بكافة النعم ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ ﴾[العاديات:٦][1] .

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات: ظهر لنا تكبر زعماء قريش و أنهم قوم معاندون، لذا رفضوا معجزة القرآن الخالدة و طالبوا رسول الله بالمعجزات الحسية حيث قالوا له: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.
- و منها زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾
- و منها أن الهداية بيد الله ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ [يونس:٩٩].
- و أن الكفار يحشرون يوم القيامة على وجوههم عمياً و بكماً و صماً إلى غير ذلك.

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣٩٨.

المقطع الرابع والعشرون

آيات موسى و صفة القرآن الكريم

قال الله تعالى قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد ما ذكر الله تعالى عن زعماء قريش تفننهم في اقتراحهم للرسول ﷺ، في إيجاد المعجزات الحسية لهم حتى يؤمنوا به، و أخبرهم بأن هذا الأمر ليس له إنما هو بشر رسول مبلغ عن الله تعالى، ناسب أن يقص الله عليه ما دار بين نبي الله موسى عليه السلام و قومه و طلبهم موسى حيث قالوا له: ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء:١٥٣] و قول قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٩٢] و قولهم: ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ [الفرقان ٢١]. و أنه أنزل آيات تسع على موسى مثلما اقترح قومه فلم تفد تلك الآيات فرعون و قومه في الإقبال على الإيمان، و يكفيكم يا معشر قريش ما أنزل الله على محمد ﷺ من آيات علمية عقلية غير مادية فإن لم تؤمنوا كانت عاقبتكم الدمار و الهلاك كما أهلك فرعون و قومه بالغرق، فكان قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ مناسب لما تقدمه من النصوص القرآنية. [١]

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾: و هذه الآيات هي كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (العصا و اليد و السنين و البحر و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات). أمدَّ الله بها موسى عليه السلام و هي دلائل قطعية على صدقه و صحة نبوته.

وقيل الآيات التسع هي:كما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبي ﷺ و سألاه عنها فقال: «هن ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا، و لا تسحروا، و لا تأكلوا الربا، و لا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، و عليكم خاصة اليهود أن تعدلوا يوم السبت. فقام يهوديان فقبلا يديه و رجليه، و قالوا:نشهد أنك نبي و لولا نخاف القتل و إلا اتبعناك»[٢].

ثم قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات و الأرض، ولكنك يا فرعون ما أظنك إلا هالكاً ممنوعاً من الوصول إلى الخير.

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾: فأراد فرعون بعد ذلك أن يخرجهم من أرض مصر مطرودين مبعدين فأغرقه الله في البحر هو و جنوده.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾: أورث الله بني إسرائيل أرضهم و ديارهم، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

---

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٠. و التفسير المنير، مرجع سابق، ج١٥، ص١٨١.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ١٨٢

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ثم عاد الكلام إلى القرآن نفسه، و ما أنزلنا هذا القرآن إلا بالحكمة و المصلحة العامة الناقصة في الدنيا و الآخرة، و ما أرسلناك يا محمد إلا بشيرا و نذيراً وعلى الله الثواب والعقاب.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾: فقل لهم يا محمد: آمنوا به أو لا تؤمنوا، وهذا أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم حتى لا يكترث بهم، وهم إن لم يؤمنوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن هناك مَن هو خير منهم وأفضل، وهم أهل الكتاب والعلماء منهم الذين عرفوا الوحي والنبوة، أمثال عبد الله بن سلام وتميم وغيرهما، هؤلاء إذا يُتلى القرآن عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾: ويزيدهم سماع القرآن خشية من الله وخشوعاً له، هكذا هو حال كل مؤمن صادق في إيمان إلى يوم الدين.

- الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى قد أيّد نبيّه موسى عليه السلام بتسع آيات بيّنات، دلالةً على صدقه وصحة ثبوت رسالته، وهي آيات حسية.
- قوم سيدنا موسى عليه السلام كفروا بذلك، فدمرهم الله تعالى وأغرقهم مع فرعون باليمّ، و ما كانوا معجزين.
- ظهر لنا أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ آيةً باقيةً إلى قيام الساعة، متضمناً الحق والعدل والشريعة كما قال سبحانه: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾.
- كما ظهر لنا من هذه الهدايات تهديد مشركي قريش بعد إعراضهم عن القرآن ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ فإن العلماء السابقين من أهل الكتاب وهم مؤمنوا أهل الكتاب لم يتمالكوا أنفسهم عند سماعه، إلى أن خرجوا ساجدين خاشعين لله باكين حيث قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

المقطع الخامس والعشرون

الدعاء بأسماء الله الحسنى

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَّما ثبت أنَّ الله تعالى أنزل القرآن على نبيّه محمد ﷺ، وأن العرب عجزوا عن معارضته، وأنه ﷺ قد جاءهم بتوحيد الله ورفض آلهتهم، عدلوا إلى رميه عليه الصلاة والسلام بأن ما نهاهم عنه رجع هو إليه، فقالوا: هذا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهين (يعني قوله عليه الصلاة والسلام: يا رحمن يا رحيم) فجاء هذا النص للرد عليهم: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾: فيه رد لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن، وإذن بتسميته بذلك. وكلمة «الحسنى» للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الإسمين، ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني الحمد والتقديس والتعظيم، وهي كقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾: أي لا تجهر بقراءة صلاتك أو تسمية القرآن صلاة؛ لكونها من أهم أركانها.

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا

وسبُّوا، فأمر بأن يتوسط في صوته كي لا يسمع المشركون وليبلغ من خلفه قراءته.[١]

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾: الحمد لله والثناء بالجميل على الفعل الجميل لله سبحانه، الذي لم يتخذ ولداً، فهو سبحانه ليس محتاجاً إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث والله عز وجل مُنزه عنها.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾: ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه غير محتاج إليه.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾: ولم يُوالي أحداً من الذل؛ لأنه القادر المقتدر الخالق صاحب النعم جل جلاله.

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾: عظِّمْه تعظيماً يتناسب مع جلاله وقدسيته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- وضَّحت الآيات أن دعاء الله سبحانه يكون بكل اسم من أسمائه الحسنى، والتي منها الرحمن والرحيم.
- القراءة أو الدعاء يكونان بطريقة متوسطة بين الجهر والسر﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ وسطاً بين هذا وذاك.
- ومن هذه الهدايات الثناء على الله سبحانه المتفرد، الغني عن الشريك والمعين، والصاحبة والولد، فهو الخالق
- القادر الغني عن عباده، الذي يحتاج إليه كل مخلوق ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ولا تجهر بصلاتك، ج٤، ص١٧٤٩، حديث رقم٤٤٤٥. و صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٤٥.

سورة الكهف

بين يدي السورة

اسم السورة:

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة الكهف؛ نسبةً إلى الكهف الذي أوى إليه الفتيةُ، فكان فيه نجاتُهم وعصمتُهم.

وقد دارت السورة الكريمة حول العواصم من الفتن، فهي عصمةٌ ونجاةٌ من الفتن عموما، ومن أعظم الفتن التي تتربصُ بالإنسانية، وقد حذَّر منها نبيُّنا ﷺ أشدَّ التحذيرِ، فتنةُ المسيح الدجال، فكان من خواصِّ هذه السورة الكريمة، أنها عصمةٌ من فتنته ونجاةٌ من شرِّه.

وفي تسميتها بسورة «أصحاب الكهف»: تنويهٌ على شرفهم وتخليدٌ لذكرهم، وتكريمٌ لهم، وتقديرٌ لثباتهم وتضحيتهم، فضلا عما تحويه قصتُهم من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، لمن سلك طريقَ النجاة من الفتن.

فضائل السورة:

ورد في فضائلِ هذه السورةِ الكريمةِ أحاديثُ وآثارٌ كثيرةٌ، تدلُّ على فضلِها، وتنوِّه بِشَرَفِهَا وترغِّبُ في قراءتِهَا، وحُسْنِ تَدَبُّرِها:

فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**).[1]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي حديث ٢٥٧ - (٨٠٩). وقال مسلم في نفس الكتاب والباب: و حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ جَمِيعاً عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ شُعْبَةُ **مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ**.
وفي رواية لمسلم «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ **فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**» صحيح مسلم كتاب الفتن باب=

وعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: **(مَنْ قَرأَ سورةَ الكهفِ في يومِ الجُمُعَةِ أضاءَ له من النورِ ما بينَ الجُمُعَتَين)** [1].

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ فَقَالَ (... **إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ**

= ذكر الدجال وصفته وما معه ٤ / ٢٢٥٠ حديث ١١٠ (٢٩٣٧).

ورواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال حديث ٤٣١٤، ونصه « مَنْ حَفظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ»، وقالَ أَبو دَاوُد: « وَكَذَا قَالَ هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَنْ حَفِظَ مِنْ **خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ** و قَالَ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ **مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ**».

ورواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح ونصه « عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ **(مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ عُصِمَ** مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ قَالَ حَجَّاجٌ **مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ)**. مسند الإمام أحمد ٦/ ٤٤٦. وفي لفظ: (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ **آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ** مِنْ الدَّجَّالِ). مسند الإمام أحمد ٥/ ١٩٦.

من هنا فقد ورد أن من قرأ فواتح سورة الكهف أو خواتمها عصم من فتنة الدجال، وجاء في بعض الروايات تحديد هذه الفواتح بأنها العشر الأول، كما جاء تحديد الخواتم بأنها العشر الأواخر، وعلى هذا فالوعدُ بالعصمة يتحقق لمن قرأ العشر الأول أو قرأ العشر الأواخر، بل جاء في رواية للترمذي عن أَبِي الدّرْدَاءِ، عن النبيّ ﷺ قالَ: «مَنْ قَرَأَ ثَلاَثَ آيَاتٍ مِنْ أَوّلِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدّجّالِ»، رواها الترمذي في السنن كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ باب ما جَاءَ في فضل سُورَة الكَهْف هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ حديث ٣٠٤٧، وفي بعض الروايات من قرأ خمسَ آياتٍ. ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن العصمة تتحقق بقراءة ثلاثة أو خمس أو عشر من أولها أو عشر أو خمس من آخرها، ففي الأمر سعةٌ، **مع ملاحظة أن العشر الأواخر بناء على عد المدنيين والمكي تبدأ من قوله تعالى** ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة " د ".

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجمعة باب: ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها من كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ وقراءة سورة الكهف ٣ / ٢٤٩ والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢ / ٣٦٨) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وأورده السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم: ٨٩٢٩- وعزاه إلى الحاكم والبيهقي وصححه، وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح كتاب فضائل القرآن ١/ ٦٦٧ حديث ٢١٧٥ وقال الألباني: حديث حسن.

فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ...) الحديث[1].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « **بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي**»[2].

فسورة الكهف: نورٌ وضياءٌ لقارئِهَا، تبددُ ظُلُمَاتِ الفتن، وهي عصمةٌ لقارئِهَا من فِتنةٍ كبرى، فتنةِ المسيحِ الدجالِ، عَصَمَنَا اللهُ منها؛ وذلك من ثَمَرَاتِ قراءَتِهَا وتدبُّرِها والعملِ بها، وفي ضوءِ ما قدّمَتْه من مفاتيحَ للتعامل مع مغاليقِ الفتن، وتحصيناتٍ من الاغترارِ بزينةِ الدنيا وزخارفِها، وبهارجِ الباطلِ وزخارفِه.

وحين ننظرُ في فواتحِ هذه السورةِ الكريمةِ - الآيات العشر الأول - نجدُها قد افتُتِحَتْ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه - كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ بَاب ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ حديث ١١٠-(٢٩٣٧)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب فضائل القرآن - باب الكهف ٥/ ١٥ حديث ٨٠٢٤، وأبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال ٤/ ١١٤ - حديث ٤٣٢١، ورواه الترمذي في السنن كتاب الفتن - باب مَا جَاءَ فِي فِتْنَةِ الدَّجَّال ٤/ ٤٤٢ حديث ٢٢٤٠ وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ وفي رواية النسائي والترمذي: « **فَمَنْ رَآهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ** »، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٨١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٧٦ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن حديث ١٣٣، وابن الضريس في فضائل القرآن حديث ٢١٠. والعتاق الأول: أي من السور المكية، والعتاق جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلادي: أي ما حفظته قديما، وقال البيهقي « والعتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كلَّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم » شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

بالحمد وهو الثناءُ على الله تعالى بما هو أهلُهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾الكهف: ١، ثم ختمت بالدعاء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ الكهف: ١٠.

وفي الاستفتاح بالثناء والختام بالدعاء ما لا يخفَى من تناسبٍ، فمن داوم على قراءتها وتأمل ما فيها من حِكَمٍ باهِرَةٍ وحُجَجٍ ظاهرة وآياتٍ بيناتٍ وعجائب ومعجزات لم يستغرب أمر الدجال ولم يغترَّ به ولم ينخدع بما يأتي به من أعاجيب.

ج. مكية السورة:

كان نزولُها في العهدِ المكي حيث لقيَ الرسولُ ﷺ ومن آمن معه كثيراً من المحن والابتلاءات، على طريق الدعوة الذي حُفَّ بالمكاره والعقبات.

جاءت سورة أصحاب الكهف تسلية وتسرية وتثبيتا لقلب النبي ﷺ حيث كادت نفسه ﷺ تذهب حسرات من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيِّهم سادرون، وفي ضلالهم يعمهون، فجاءت السورةُ لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه، فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يمنحها من يستحقها.

نزلت هذه السورة على القلوب المستضعفة بردا وسلاما تروي شغافها، وتقوي دعائمها.

نزلت لتكون حجة ساطعة تشهدُ بصدق هذا النبي الصادق الأمين.

وجاءت برسالةٍ موجهةٍ إلى أهل الكتاب: أن في القرآن فصلَ الخِطَابِ لكل ما يطرحونه من تساؤلات.

د. عدد آيات السورة:

وعدد آيها مئة وعشر آيات [١١٠] في الكوفي، وخمسة في المدنيين والمكي، وإحدى عشرة

في البصري، وستة في الشامي.

اختلافها ١٠ آيات: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ المدني الأخير.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ المدني الأول والكوفي والبصري والمكي والشامي.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأول والمكي.

﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأخير والشامي.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ لم يعدها المدني الأول و المكي.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ لم يعدها المدني الأخير والكوفي.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ لم يعدها المدنيان والمكي.

وكلماتها ألف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة [١٥٧٧].(١)

هـ. محور السورة:

تدورُ السورةُ الكريمةُ حولَ مِحْوَرٍ من المحاورِ الأساسيةِ والركائزِ الجوهريةِ لهذا الدين إنه الهدفُ الأساسي الذي نزل من أجله القرآن: إنه العصمة من أمواج الفتن المتلاطمة وحُشُودها المتلاحمة، فتنٌ متنوعةٌ متباينةٌ متزاحمةٌ متراكمةٌ، تجعلُ الحليمَ حيرانَ: فتنة السلطان وفتنة الشباب،

(١) يراجع: كتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ١٧٩، وكتاب «أقوى العدد في معرفة العدد» لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ، جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٠٦.

وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاغترار بالدنيا الفانية، وفتنة إبليس اللعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء.

وبيْنَا تُبيِّنُ لنا السورةُ الكريمةُ أنواعَ الفتنِ وتحذِّرُ من مخاطِرِها، فإنها تخُطُّ لنا طريقَ العصمة، وتبرزُ لنا معالم النجاة، وذلك بإتباع المنهج الرباني، والاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه، وتصحيح المفاهيم وتقويم الموازين، وتأصيل القيم، والنظرة الصحيحة للكون والحياة، وإدراك حقيقة الدنيا الفانية، والعمل لدار الخلود، إلى جانب الصحبة الصالحة، والتحصُّن بالعلم النافع، والتزود بالعبادةِ الصحيحة، والتذرع بالصبر والثبات، والتحلي بمكارم الأخلاق، والاعتبار بقصص السابقين.

و. المناسبات في السورة:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة كما ذكرنا هو العصمة من الفتن والنجاة من شرورها وأخطارها، كما أن الكهف مأوى وملجأ للإنسان من الوحوش الضارية والآفات والتقلبات، وحين لجأ إليه الفتية وجدوه ملاذا آمنا، كذلك السورةُ الكريمةُ عصمةٌ ونجاةٌ لقارئِها، وقد ذكرنا أن أصحاب الكهف نموذجٌ عمليٌّ للعصمة من الفتن، وبهذا يظهر لنا التناسبُ بين اسم السورة ومحورها.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما بدأ الحديث بنعمة إنزال الكتاب كان مسكُ الختام بالحديث عن آيات الله التي لا تنقضي عجائبُها ولا تُحصى معانيها، ففي ختامها تقريرٌ لما جاء في مقدمتها وتذكيرٌ به ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وكما أشارت مقدمة السورة إلى خصائص الكتاب ومقاصده قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ١ – ٤ فلقد ختمت السورة الكريمة ببيان طبيعة النبي ﷺ ومهمته ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

وفي مقدمة السورة جاءت البشارةُ للمؤمنينَ الصالحينَ بالأجرِ الحسنِ ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾، ثم فصَّلت الخاتمةُ في هذا الأجرِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾، كذلك جاءت النذارةُ في المقدمة للكافرين بالعذاب الشديد ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وقد فصَّلته خاتمةُ السورة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

ولما تضمنت المقدمةُ دعوةً إلى التنافسِ في صالح الأعمالِ وأحسنِها بتحقيق مرادِ الله فيها، وذلك بالإخلاصِ والمتابعةِ، قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ جاءت الخاتمةُ بتأكيد وتقرير هذا المعنى بالتحذير من محبطاتِ الأعمالِ قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

استهلت سورة الإسراء بالتسبيح وهو تنزيهُ الله تعالى عن كل نقص وعيب، واستهلت سورة الكهف بالحمد وهو إثباتٌ لصفات الكمال، فالتسبيحُ تنزيهٌ ونفيٌ لكل نقصٍ، والحمد إثباتٌ لكل كمالٍ، والتسبيحُ مقدم على الحمد؛ وذلك من باب: « التخلية قبل التحلية».

الصلة بين خاتمة سورة الإسراء وفاتحة سورة الكهف واضحة: حيث اختتمت الإسراء

بحمد الله تعالى و تكبيره وبدأت الكهف بالحمد، وهذا من باب « تعانق الأطراف».

وتتجلى المناسبة بين السورتين الكريمتين في ختام الأولى بإثبات تفرده تعالى بالألوهية والملك ونفي الشريك والولد، ومجيء مقدمة الثانية بالإنذار والوعيد لمن يدعي لله ولدا.

وكما استُهلّت سورة الإسراء بالتنويه على تلك الرحلة العجيبة « رحلة الإسراء»، فقد جاء الحديث في سورة الكهف عن رحَلاتٍ أخرى عجيبةٍ، منها رحلةُ أصحابِ الكهفِ ورحلة موسى مع الخضر، ورحلات ذي القرنين.

ولئن كان الإسراءُ آيةً عجيبةً ومعجزةً باهرة: فإن إنزال الكتاب هو الآية العجاب والمعجزة الكبرى التي منَّ الله بها على الإنسانية.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

تتناسبُ مقاطعُ السورة الكريمة مع المحور العام لها إذ تفصِّل السورة الكريمة في أنواع الفتن وسبل العصمة منها بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطعُ السورةِ كما بيّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الاعتصامُ من الفتنِ ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأمُّلاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأصيل الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وتثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديثُ عن الإيمان بالله، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر.

بين مقدمة السورة ومحورها :

لما دارتِ السورةُ حول العواصِمِ من الفتنِ: استُهلَّت بالحديثِ عن كتابِ اللهِ وهو العصمةُ والنجاةُ لكلٍّ من استمسك بهديه القويم، واعتصم بنوره المبين.

مقدمة السورة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ١ – ٨]

المناسبة

تأتي مقدمةُ السورة الكريمة منتظمةً ومتسقةً مع محورها وموضوعاتها، حيث جاء الحديث عن الكتاب: نزوله وسماته ومقاصده، ثم انتقل السياقُ إلى تثبيت قلب النبي ﷺ وتسليته، وبيان حقيقة الدنيا الفانية، والحكمة من زينتها العارضة، وزخارفها الزائلة.

التفسير الإجمالي

براعة الاستهلال

بدأت السورةُ الكريمةُ بحمدِ اللهِ سبحانه على ما اتصف به من صفات الكمال ونعوتِ الجلالِ، فهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من نعمٍ وأسدى على عباده من لطف وكرمٍ، ومن تمام إنعامه وجميل إحسانه أن علمنا كيف نحمدُهُ.

ومن أعظم وجوه تفضله وإنعامه وأجلِّ أيادي جودِه وإكرامه: إنزالُهُ خيرَ الكتب على

خير الرسل، هدايةً ورحمةً، وتفضُّلا ونعمة لكل من اهتدى بهديه، واقتبس من أنواره، واقتطف من ثماره، والتقط من درره، واستفاد من عبره.

وفي إخباره عن نزوله بيانٌ لشرفه وسموٌ مصدره ورفعة مقاصده، واللام في الكتاب لام العهد الذهني، وإنما عبر بوصف العبودية لأنها أسمى المقامات، تناسباً مع شرف نزول الكتاب عليه ﷺ، وإشارة إلى أن من أسمى مقاصده بيان العبودية وتفصيل ما يتعلق بها من معانٍ وأحكام.

فعلَّم الله جل وعلا عبادَه في أول هذه السورة الكريمة أن يحمَدوه على أعظم نعمائه، نعمة إنزال أعظم الكتب على خير الرسل بأكمل الشرائع وأقوم الهدايات، وأيسر الطرق إلى العصمة والنجاة.

قال البيضاوي: « رتَّب استحقاقَ الحمدِ على إنزالِهِ: تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد»[1].

من خصائص الكتاب ومقاصده

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾.

دلت الآية الأولى على أن هذا الكتاب من عند الله سبحانه، أنزله على قلب نبيه ﷺ، وفي التعبير بالنزول إشارة إلى سمو مصدره، ورفعة قدره، وفي الحمد دليلٌ على كونه من أجلِّ النعم التي منَّ الله بها على عباده.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي ص٤٧٤.

﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾

بيَّن تعالى سلامتَه من كل عِوَج: فلا يتطرق إليه خللٌ أو نقصٌ، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، كيف وقد جمع بينَ فصاحة ألفاظه ودقتها وقوة دلالتها، وبين جمال التراكيب وروعة الأساليب، وصدق الأخبار، وعدل الأحكام.

فلا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢].

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الزمر: ٢٧-٢٨].

﴿ قَيِّمًا ﴾

بعد أن نفى عنه العِوَج: بيَّن كماله وتمامه بهذا الوصف ﴿ قَيِّمًا ﴾ فهو قيِّمٌ في ذاته، مُقيمٌ لغيره، وهذا من باب «التخلية قبل التحلية»، فنفى عنه العوج، وأثبت له الكمالَ والإكمال في ألفاظه وتراكيبه، ومقاصده وأساليبه، فهو المنهج القويم والصراط المستقيم، وهو الداعي إلى الاستقامة في جميع الأمور، وبه قوامُ الحياة وصلاحها، فهو مصدرُ نهضتنا، ونبراسُ حضارتنا، وأساسُ عزِّنا، وعنوانُ مجدِنا، ومنارُ هدايتنا، ودستورُ وَحدتنا، وطريقُ نجاتِنَا، وسبيلُ سعادتِنا.

قال صاحب روح البيان: «﴿ قَيِّمًا ﴾: مستقيما معتدلا، لا إفراط فيه ولا تفريط، أو قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال»[(١)].

كذاك فهو قيِّمٌ على الكتب السابقة: مصدِّقٌ بها، داعٍ إلى الإيمان بها، ومهيمنٌ عليها، قد استوعبَ ما جاء فيها من أخبارٍ وأحكامٍ، وقصصٍ وأمثالٍ، شاهدٌ على صحتها، مصدقٌ لها.

---

(١) روح البيان للبروسوي ٥/ ٢١٥.

﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ ﴾

نزل هذا الكتابُ القيمُ بهذا النهج القويم: لينذر الكافرين بعذاب شديدٍ بأسُهُ، في العاجل والآجل، وجاء التعبير بـ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ للإيذانِ بشدةِ هذا العذابِ، وقدَّم النذارة على البشارة من باب الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ولأن دفع المكروه مقدمٌ على تحصيل المطلوب ونيلِ المرغوب، من باب درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ إلى القرآن، أو يعود إلى النبي ﷺ أي ينذر بالقرآن، كما في قوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله سبحانه ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠ ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠].

﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ ﴾

جاء القرآن بالبشارة للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة والتي يتعدى نفعُها للآخرين، وعبَّر بالفعلِ المضارعِ للدلالة على التجدد والاستمرار، والأجرُ الحَسَنُ كما قال صاحب لطائفِ الإشاراتِ: «ما لا يجري مع صاحبِهِ استقصاءٌ في العملِ، ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل، ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكِّر صاحبَه تقصيرَه، ويسترُ عنه عيوبَ عمله، لا ينتقلون عنه، ولا ينقلون منه»[1].

﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ ﴾: فهو نعيم دائمٌ، ومقامٌ أمينٌ، في دار الخلد التي لا يتحولون عنها.

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ ﴾: بعد بيان عظمة وخطر المنذَرِ به، بيَّن شناعةَ جرمِ المنذَرين ممن افتروا على الله الكذب، فادَّعوا اتخاذه ولدا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا: كادعاء يهود بأن عزيراً ابن الله، ودعوى النصارى أن المسيح ابن الله، وادعاء طوائف من المشركين أن الملائكة بنات الله !

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٣٢٦.

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ لا علم لهم بما يدَّعونَ، وإنما يقولونه عن جهلٍ مفرطٍ وظنٍّ كاذبٍ، وتقليدٍ أعمى لمن سبقهم إلى هذه المقولات التي لا أصل لها ولا برهان عليها.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ إنها دعاوى كاذبة وكلماتٌ عاريةٌ عن الدليلِ والبرهان، قد اكتستْ ثوبَ الزور والبهتان، بل إنها من أعظمِ الكذبِ، وأفرى الفِرى، مقولةٌ خاطئةٌ لا يُسَلِّمُ بها عقلٌ، ولا يطمئنُّ إليها قلبٌ، ولا مصدرَ لها إلا تلك الأفواهُ الكاذبةُ، التي تردِّدُها دونَ وعيٍ أو إدراكٍ، فما أبشعَها مقولةً وما أشنعها فريةً !

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ فهي كذبٌ صُراحٌ وكفرٌ بواحٌ، يَبِينُ عن جُرْأتِهم على النطق بها، ووقاحتهم في تقوُّلها.

« والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها، وفيه إيماء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه»[(١)].

والشرك بالله أعظم وأشدُّ أنواع الظلم، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾. [لقمان: ١٣]، وروى البخاري في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عز وجل (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً)[(٢)].

تسليةٌ... وعتابٌ

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾: فإنهم لا يستحقُّون هذا الوجدَ، فلا يستبدَّ بك الهمُّ أسفاً لحالهم وحرصا على هداهم، وفي هذا تسليةٌ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣ / ٢٥٧.
(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير - باب: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة: ١١٦ الحديث رقم: ٤٢١٢.

لفؤاده، مع ما ينطوي عليه الكلام من عتابٍ لطيفٍ، إذ كيف تنشغلُ بما لم يطلب منك ؟ وتفكرُ فيما لا تملك ؟

كما قال سبحانه ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [القصص: ٥٦].

من أسباب الصدود والإعراض :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾

بيَّن تعالى سبباً رئيساً من أسباب صدودهم وإعراضهم، وهو تعلُّقُهم بحبال الدنيا البالية ولذاتِها الفانية، فكلُّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثروات، وضَيْعاتٍ وروضات، ومراكب فارهة، وأسواق عامرة، ومراتب عالية، كلُّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعيٍ، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتُتن بسرابِها، وركن إلى متاعها بأن عمرَها قصير وإلى الفناءِ تصير.

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾: قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا بناء، قد استؤصل ما عليها، واجتثَّ من أصوله وجذوره.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* الانتفاع بهدي الكتاب والاعتصام به والدعوة إليه.
* سلامة الكتاب من أي تناقض أواضطراب، واشتماله على منهج قويم لإصلاح الدنيا والدين.
* من مقاصد إنزال الكتاب نذارة الكفرة العاصين، وبشارة المؤمنين الطائعين.
* مما يدفع الحزن ويذهب الهم: النظر والاعتبار في حقيقة الدنيا ومصيرها.
* الدعوة إلى إحسان العمل وإتقانه لقوله تعالى ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، وذلك بموافقته وجمعه لمراد الله من إخلاص ومتابعة.

المناسبة بين محور السورة ومقدمتها:

لما دار محورُ السورة الكريمة حول العصمة من الفتن، جاءت المقدمة بالتنويه على نعمة إنزال الكتاب فهو عصمةٌ ونجاةٌ، وقد جاء بالبشارة والنذارة، منذرا لمن سقطوا في خضم الفتن ومبشرا لمن سلكوا طريق العصمة، ثم أشارت المقدمةُ إلى محورٍ أساسي من محاور الفتن ألا وهو الاغترار بالدنيا التي أودع الله فيها من ألوانِ الزينةِ وأصنافها؛ ابتلاء لعباده وتمحيصا لهم.

-١-

قصة أصحاب الكهف

نموذج عملي للنجاة من الفتن

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً

ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٩ - ٣١]

تمهيد

القصصُ القرآني نهرٌ متدفقٌ بالعطاء والنفحات، وبحرٌ زاخرٌ بالعبر والعظات، وروضٌ أنيقٌ، نتنسم شذاه، ونقتطف جناه، ونجومٌ نيرات وبدور ساطعاتٍ، نترسم خطاها، ونقتبس ضياها، وحججٌ ساطعاتٌ تنطق بصدق النبي الأمين.

من هذا الروض الباسم والبحر الزاخر هذه القصة العجيبة، قصة أولئك الفتية الذين خرجوا فراراً بدينهم، معتصمين بربهم فآواهم المبيتُ إلى كهفٍ أجمعوا أمرَهم على البقاءِ فيه حتى تنجلِي الفتنةُ الظلماءُ، وينقشعُ البلاءُ، ولم يخطر ببالهم أن نومهم سيطول ليتجاوز ثلاثة قرون، وهم في رقادٍ عميق، حتى أشرق عليهم فجر جديد، وهبت نسائمُ الحرية، بعد أن تعاقبت ممالكٌ، وانطوت عهودٌ، وولّى ليلُ الطغاة.

المناسبة

المناسبة بين القصة وما قبلها: لما كادت نفسه ﷺ تذهب حسرات وتهلك غما وهما من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيهم سادرون وفي ضلالهم يعمهون، جاءت هذه القصة وما تلاها لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يختص بها من يشاء ويمنحها من يستحقها، وأولئك الفتية نموذج لمن ملأ الله قلوبهم بالإيمان وهداهم إليه بالفطرة والبرهان.

قال تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾. إلى آخر الآيات.

المناسبة بين القصة ومحور السورة وسياقها:

لما بين الله أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس ويجلِّي مقاصدهم ويثير همتهم نحو العمل الصالح قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، لما بين الله تعالى ذلك: ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة وزينة الأبهة والسلطان بل تركوا كلَّ هذه الملذات وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي ابتُلِيَ بفتنة المال، فأصابه الغُرور والعجبُ، في حين نجح صاحبه في الابتلاء ونجا من الفتنة، حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فلم يغترَّ بها ولم يقع في شِراكها، بل كان لصاحبه الغارق في حب الدنيا، ناصحا أمينا وواعظا بليغا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة ببيان حقيقة الدنيا الفانية وزينتها الفاتنة، التي تسلب

العقول وتأسر النفوس وتصرفها عن غاية وجودها.

وإذا كان هناك من يغترّ بالمال أو بالولد فإن هناك من يغترّ بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يُمَنّي بها إبليسُ اللعينُ، هذا العدوُّ اللدودُ الذي أظهر عداوته قديما يوم أن امتنع عن السجود لآدم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]،

ثم تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام لتبين أن العلم الشرعي عصمةٌ من الفتن، وأن العالم مهما بلغ من العلم ففوق كل ذي علمٍ عليمٌ، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب !

ثم يضرب الله مثلا لمن لم يغترّ بفتنة الملك وزينة السلطان، بل وظّف ملكه ووجّه سلطانَه لنشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكرا، وكلما رفع الله مقامَه زاد تواضعاً.

مفارقات عجيبة: ندركُها حين نتعايش مع أحداث السورة العجيبة وقصصها المؤثرة: منها أننا أمام ثلاثة ممالك متباينة وأنظمة مختلفة:

ففي قصة أصحاب الكهف نلمسُ صورةَ الملكِ الظالم الذي سَلَبَ قومَه عقولَهم وغصبهم حريّتهم فَأَطَرَهم على الكفر أطْرا، يتبين ذلك من قول الفتيةَ كما أخبر القرآن ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفي قصة موسى والخضر نلمح شخصية الملك الغاصب الذي يسرق أموال رعيته ويسلب ممتلكاتهم فلا يجدُ من يتصدّى له ويرده عن ظلمه، قال تعالى على لسان الخضر عليه السلام ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف: ٧٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام

ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل رايةَ الحقِّ ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً.

فشتان بين عهدينِ:

عهدٍ ساد فيه الكفر والفساد.

وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة.

مملكة كافرة تجعل الكفر لها دستوراً وسياجاً، وملكٌ غاصبٌ طاغيةٌ.

ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجاً ونوراً وسراجاً!

وبضدها تتبين الأشياء.

من هنا تتجلى لنا الصلة بين قصة أصحاب الكهف وبين القصص الأخرى التي انتظمتها هذه السورة الكريمة، حيث تدور حول الابتلاء بزينة الدنيا والافتتان بزخارفها وموقف الناس منها، والعواصم من هذه الفتنة الطاغيةِ وسائر الفتن.

وجه آخر للمناسبة

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن وأوردت نموذجا عمليا ومثالا واقعيا يُحتذى به، حيث تعرَّض الفتيةُ لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنتهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله تعالى من كل تلك الفتن لَّما خلُصَت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزيمتهم وصدق توجهُهم إلى الله تعالى.

وهكذا نجدُ السورةُ الكريمةُ تبرزُ لنا طريقَ النجاةِ من جميعِ الفتنِ، فتنةِ السلطانِ وفتنةِ الأهلِ والعشيرةِ وفتنةِ المالِ وفتنةِ الولدِ وفتنةِ العلم وفتنةِ إبليسَ اللعينِ وفتنةِ القوةِ والتمكينِ من خلالِ قصةِ ذي القرنينِ، وفتنةِ يأجوجَ ومأجوجَ وفتنةِ إتباعِ الأهواءِ والاغترارِ بزخرفِ القولِ، مما يتواكبُ مع خواص السورةِ وفضائِلِها وعصمتها لتاليها من الفتنِ الحوالكِ.

سبب نزول هذه القصة

ذكر ابن إسحاق: أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما: سَلاهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخْبِرَاهُمْ بِقَوْلِه، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأُوَلِ وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمٍ؛ فَخَرَجَا حَتّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ وَأَخْبَرَاهُمْ بِبَعْضِ قَوْلِه، وَقَالَا لَهُمْ إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَاة، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا؟ فَقَالَتْ لَهُمَا أَحْبَارُ يَهُودَ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجَبٌ؟ وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبَؤُهُ؟ وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ؟ فَإِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِك فَاتَّبِعُوهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَا لَكُمْ، فَأَقْبَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتّى قَدِمَا مَكَّةَ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ أَخْبَرَنَا أَحْبَارُ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوِّلٌ فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

فَجَاءُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوّافاً قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؛ وَأَخْبِرْنَا عَنِ الرّوحِ مَا هِيَ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَداً وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا يَذْكُرُونَ - خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحْدِثُ اللهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَحْياً، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ حَتّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمّدٌ غَداً، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً قَدْ أَصْبَحْنَا مِنْهَا لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ مِمّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ وَحَتّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُكْثُ الْوَحْيِ وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ: ثُمّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَاتَبَتُهُ إِيّاهُ عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَخَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ الْفِتْيَةَ وَالرّجُلِ الطّوّافِ.[1]

---

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢١، ورواها الطبري في جامع البيان ١٧/ ٥٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢ / ٢٦٩ وأوردها ابن كثير في تفسيره ٥/ ١٣٣، وأوردها=

التفسير الإجمالي

مطلع القصة وبراعة الاستهلال

بدأ السياق بهذا الأسلوبِ الشيق أسلوبِ الاستفهام التعجبي ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ فنحن أمام قصة عجيبة، وإن كان هناك ما هو أعجب منها، فخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وآيات الأنفس والآفاق وعالم النبات وعالم البحار فضلا عن عالم الغيب وما فيه من حكم وأسرار ودقائق وأخبار وغير ذلك من عجائب صنع الواحد القهار، كلها آيات عجيبة تستوجب التأمل فيها والاعتبار بها.

وكم يغفل كثيرٌ من الناس عن النعم الظاهرة والآيات الباهرة لكونها مألوفةً لهم، بل وقد يغفلون عن شكر النعم الظاهرة، كنعمة السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار !

قال الرازي رحمه الله: « اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبا من آياتنا فقط، فلا تحسبنَّ ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإنه من كان قادراً على خلق السموات والأرض وتزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم بعد ذلك يجعلها صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم، هذا هو الوجه في تقرير النظم والله أعلم»[(١)].

والكَهْفُ: كالمَغارةِ في الجَبَلِ إلاّ أَنَّه واسعٌ، أما الرقيم فهو العلامة أو الكتابة أو الرسم على الشيء، قيل: هو اللوح الذي سجلت عليه أسماؤهم، وقيل كتاب دونت فيه أسماؤهم، وقيل اسم الجبل وقيل اسم القرية.

قال سعيد بن جبير ومجاهد: الرقيم لوح من حجارة وقيل من الرصاص كتب فيه أسماؤهم

=السيوطي في تفسيره الدر المنثور ٥ / ٣٥٧، وعزاها لابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل.

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٨١، ٨٢ بتصرف.

وقصتهم ثُمَّ وضع عَلَى باب الكهف.[(١)]

والذي أرجحه: أنه اسم اللوح الذي سجلت فيه أسماؤهم، وسمي بذلك لأن أسماءهم كانت مرقومةً عليه، أي مكتوبة فهو بمثابة لوحة شرفٍ لهم تخليدا لذكرهم.

والذي يفيده السياق أنهم عاشوا في زمان ملك كافر مشرك ظالم، يحملُ الناس على الكفر مستعينا بمن حوله من الكهنة والسدنة، الذين يروِّجون للكفر، ويصرفون أنظار العوامِّ إلى الخرافات والأساطير ويلهونهم بالأعياد والملاهي والطقوس، ولما شرح الله صدور أولئك الفتية، وتآلفت قلوبهم وتعارفت أرواحهم واجتمعت كلمتهم على رفض ما عليه قومُهم من ضلال، بل والإنكار عليهم ودعوتهم إلى الحق؛ رُفعَ أمرُهم إلى الملك الظالم، ولم تُجْدِ معهم الوعودُ والإغراءاتُ، فتوعَّدهم وهددهم إن لم يرجعوا إلى دينه ودين أتباعه، وأمهلهم، وقبل انقضاء المهلة لم يجدوا بُدّاً من الفرار بدينهم، فخرجوا تحت جُنْحِ الظلام وساروا حتى وصلوا إلى الكهف.

عصمة ونجاة

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

أوى الفتية إلى الكهف: ليمكثوا فيه بعيداً عن أعين الراصدين لهم والباحثين عنهم من قِبَلِ الملكِ الغاشِم الذي أرسل في طلبهم من يأتي بهم بعد أن هربوا من بطشه وظلمه.

فجمعوا بين الأخذ بالأسباب والتوجه إلى العزيز الوهاب فقالوا (رَبَّنَا): وفي التعبير بعنوان الربوبية تأدُّبٌ مع الله تعالى وتودُّدٌ إليه، وتضرُّعٌ واستعطافٌ، أي: يا من خلقتنا ورزقتنا وهديتنا ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ دعاءٌ صادقٌ من ألسنةٍ ذاكرةٍ وقلوبٍ خالصةٍ ونفوسٍ زكيةٍ، ترجو رحمةَ ربها وتلتمسُ رُشدَهُ، فكان أن عمَّهم اللهُ بفضلِهِ وشَمِلَهُم برحمتِهِ وأحاطَهم بعنايتِه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

---

(١) رجح هذا القول الرازي في تفسيره ٢١ / ٨٢.

فالسمعُ هو الوسيلةُ الرئيسةُ في تنبيهِ النائِمِ خاصةً من ينام بمعزِلٍ عن الناسِ، والنائمُ لا يسمعُ في العادةِ ما حولَه من أصواتٍ بمجردِ استغراقِهِ في النوم.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

أي ليتحقق ذلك الذي في علم الله تعالى عيانا، ويصير واقعا، فيتبين أيُّ الحزبين أحصى أَمَدَهُمْ: أي مدة لبثهم في الكهف، حيث صارت تلك المدةُ موضعَ خلاف بين العلماء، أو المراد بالحزبين: أهل الكهف حيث زعم بعضهم أنهم لم يلبثوا إلا يوما أو بعض يوم، وبعضهم ظنَّ أن المدةَ طالت فتوقف وفوَّض علم المدة إلى الله، كما سيأتي بيانُه في الحوار الذي دار بينهم، عندما انتبهوا من نومهم فتساءلوا بينهم قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

الفتية في رحاب الإيمان وكنف الرحمن.

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ تفصيلٌ بعد إجمال وتقريرٌ بعد بيانٍ، فالقرآن الكريم كتاب الحق نزل بالحق على قلب رسول الله ﷺ الذي لا ينطق إلا بالحق، وقصصه الحق وكل ما فيه من حكم وأحكام وعبر وعظات ووعد ووعيد هو الحق من عند الله.

والذي يقص نبأهم هو العليم بحالهم، المدبِّر لشؤونِهم، وفي هذا تشويقٌ للقارئ؛ حين يسمعُها من المولى عز وجل، وفي التعبيرِ بالنبأ: إشارة إلى أن قصتهم لها شأن عظيم وخطب جليل.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

وفي التعبير بالفتوة بيان لحداثة سنهم، مع قوة إرادتهم وحماسهم للحق.

واختلفوا في سبب إيمانهم: قيل: إنهم آمنوا عن طريق حواري المسيح عليه السلام، ونقل المفسرون روايةً مردُّها إلى الإسرائيليات [1].

وقيل: إنما استجابوا لنداء الفطرة فاهتدوا بفطرتهم السليمة وعقولهم الغضة، ولعلهم

(١) راجع لباب التأويل للخازن ٤ / ١٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢١.

توصلوا إلى الحق بقراءةٍ واعية واطلاعٍ واسع.[١] والله تعالى أعلم، لكن القراءةَ أو التفكر وحده لا يكفي للوصول إلى الحق، ولعل هناك من دعاهم فاستجابوا له، والله أعلم.

﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

أي بصّرناهم بمقتضيات الإيمان وأركانه وبراهينه، فازدادوا إيمانا على إيمانهم وهدى على هداهم مصداقا لقول الحق جل وعلا ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة مريم ٧٦]، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة محمد١٧].

قال أبو السعود: «﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾: بأن ثبتناهم على الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه»[٢].

والذي يتأمل حديثَهم الممتع وعرضَهم الرائع لأصول الإيمان وإدراكهم لما عليه قومهم من كفر وضلال، ودقة براهينهم وعمق تحليلاتهم، وتبصُّرهم بأمر دعوتهم، وتحليهم بمكارم الأخلاق في مجتمعٍ ساد فيه الفساد والانحلال وعمَّه الكفرُ والضلال، المتأمل في ذلك كله يدرك أنهم كانوا على بينةٍ من أمرهم وعلم نافع وبصيرة نافذة، فضلا عن فطرتهم السليمة وعقولهم الراجحة.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾

شددنا على قلوبهم وثبتناها، ليواجهوا رياح الفتن وأعاصير المحن، ويجابهوا موجات الكفر العارمة وتياراته الجارفة، التي تولى كبرَها وحَمَلَ لواءَها الملكُ المستبدُّ وبطانتُه ودعاة الكفر وسدنته، فألهم الله عز وجل أولئك الفتية بالصبر والثبات في مواجهةِ محاورِ الشر.

قال صاحب روح البيان: « ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قوّيناهم حتى اقتحموا مضايق

(١) كما دخل كثير من غير المسلمين في الإسلام بعد قراءةٍ واعيةٍ ومقارنةٍ بين الأديان.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥ / ٢١٠ ويراجع روح البيان ٥ / ٢٢١.

الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، واجترؤوا على الصدع بالحق من غير خوفٍ ولا حَذَر، والرد على دقيانوس الجبار [١]، وفي الحديث (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)» [٢].

تقرير العقيدة الصحيحة

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

قاموا بين يدي الملك الجبار، أو قاموا بمعنى اجتمعوا، أو انبعثوا وعزموا على المضي قدما في طريق الحق.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل ثلاثةَ معانٍ:

أحدها: أن يكون هذا وصفُ مقامِهم بين يدي الملك الكافر - كما تقدم، وهو مقامٌ يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته.

والمعنى الثاني: فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعا فقالوا: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾: أي لئن دعونا إلهاً غيره فقد قلنا إذا جورا ومحالا.

والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة

---

(١) زعموا أن هذا اسم ذلك الملك الظالم، وليس في القرآن ولا في السنة ذكر لاسمه، والله أعلم به

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٢ والحديث: رواه النسائي في السنن عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ كتاب البيعة - باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر. حديث: ٤٢٠٧ ـ ورواه الترمذي في السنن عن أبي سعيد الخدري أبواب الفتن باب أفضل الجهاد كلمة عدل سلطان جائر حديث ٢٢٦٥ وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه أبو داود في السنن عنه كتاب الملاحم باب الأمر والنهى حديث ٤٣٤٤ ورواه ابن ماجة في السنن عنه كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حديث ٤٠١١.

الناس؛ كما تقول: قام فلانٌ إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجد»[١].

وهذه المعاني جميعها محتملة ومتلازمة ولا تعارض بينها، فلا مانع من حمل القيام عليها وتضمينه معنى العزم والمضاء والنهوض بالحق والقيام به وتحمل تبعاته، واجتماعهم على غير موعد، وصدوعهم بالحق أمام الملك.

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: لقد تآلفت قلوبُهم، واجتمعت كلمتُهم وتوحدت دعوتهم، فقالوا جميعا: ﴿ رَبُّنَا ﴾ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه، والعجيب أن المشركين بالله تعالى يقرون له بالربوبية ومع ذلك يشركون به آلهة أخرى.

﴿ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾: كما يزعم المشركون، حيث أشركوا بالله غيره في الألوهية مع إقرارهم بأن الخالق الرازق هو الله، لذلك جاء التعبير بـ﴿ رَبُّ ﴾.

﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾: إن نحن قلنا بمقولتهم الباطلة فقد انحرفنا عن المنهج القويم ونكبنا عن الصراط المستقيم، والشطط: هو مجاوزة الحد والانحراف عن الجادة والبعد عن الحق.

بيان بطلان عقائد الشرك:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

بعد أن أعلنوا عقيدة التوحيد أعلنوا البراء من عقائد الشرك فأنكروا ما كان عليه قومُهم من ضلال، حيث ادعوا لله شركاء.

﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ فالدعاوى لا بد لها من بينات، وإلا فأصحابها أدعياء.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ : أي ليس هناك أظلم ممن افترى على الله عز وجل وأشرك به سبحانه وهو الذي خلقه ورزقه.

طريق العصمة والنجاة

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٥

لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله: بيَّنوا واجبهم الذي يتحتم عليهم فعله وهو اعتزال قومهم وما يعبدونه من دون الله والبراء من شركهم، فما - في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ - موصولة أو مصدرية، والمعنى: اعتزلتم عبادتهم أو اعتزلتم معبوداتهم من دون الله.

﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾: أي امكثوا فيه مدة، واجعلوه مأوى لكم إلى أن يقضي الله أمراً واللام في ﴿ ٱلْكَهْفِ ﴾ تدلُّ على العهدِ الذهني أي الكهف الذي يتبادرُ إلى أذهانِهم لذا قالوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ ولم يقولوا: إلى كهف.

والذي يبدو لي: أن هذا الكهف كان معروفا لهم، إما لشهرته وإما لأنهم مرُّوا به في تريضهم وسياحتهم، والله أعلم.

﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾: أي يبسطُ لكم ويفيضُ عليكم من رحمته التي تستنزلونها وتستمطرونها بطاعتكم لربكم وخروجكم في سبيله وتضحيتكم؛ ابتغاء مرضاته.

﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ : أي ما فيه من منافع لكم فترتفقون به، قال ابنُ عباسٍ: « يسهِّل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتكم باليسر وبالرفق واللطف »[1].

وفي هذا دليل على حسن ظنهم بربهم، وجميل توكلهم عليه.

في كنف الرحمن

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي النيسابوري ٣/ ١٣٨.

انطلق الفتية نحو الكهف، واتخذوه مأوى إلى أن يقضي الله أمرا، وقد كان فتنزلت الرحمات ولاحت الكرامات وهبت نسائم النفحات حين اتخذوا مضاجعهم في هذا الكهف الموحش وخلدوا في نوم عميق فهيأ الله لهم أسباب البقاء ووسائل السلامة ليجتازوا بنومهم حواجز السنين، حيث تتهالكُ الممالك، وتتساقطُ الأنظمةُ، وتتبدل أجيال، بينما هم في سبات رهيب لم ينهضوا منه إلا بعد مئات السنين.

قال الزمخشري: «المعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض للشمس لولا أن الله يحجبها عنهم»[(١)]. وقيل إن باب الكهف كان من جهة الشمال فكانت الشمس تطلع على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس لم يكن يصل إليها البتة، لكن الهواء الطيب والنسيم العليل كان يصل.[(٢)]

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ ﴾ : أي متسع، ومن دقائق التعبير القرآني قوله عز وجل ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ذلك لأن كثيراً من الظواهر الخاصة بالشمس إنما تكون بحسب الرائي وبطبيعة المكان وبإمكانية الرؤية فهو وصف لرؤية العين، وإدراك الرائي.. وليس للحقيقة العلمية الخاصة بالشمس في علاقتها بالأرض ودورانها، وحقيقة المعنى العلمي للشروق والغروب وغير ذلك من الظواهر.

لذا نقرأ في نفس السورة الكريمة في قصة ذي القرنين رحمه الله قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الكهف: ٨٦] فالشمس أعظم من أن تحتويها الأرض أو تحيط بها.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

أي ما حدث لهم من لطائف ربانية ومنن إلهية من آياته عز وجل الدالة على عنايته بأوليائه

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٧٦ ويراجع مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٥ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥ / ٢١٠.

(٢) ذكر هذا الرأيَ فخر الدين الرازي في تفسيره ٢١ / ٩٩، ١٠٠.

وحفظه لهم، والشاهدة بكمال قدرته، وجلائل نعمه ولطائفه التي لا تحصى ولا تعد.

فالهداية من الله يمنُّ بها على من يشاء فمن شاء الله هدايته هداه ومن هداه تعالى فهو المهتد فلا هادي إلا الله، ولا هداية إلا من الله، ومن كتب الله له الشقاء وحكم عليه بالضلال فلا هادي له، ولو اجتمعت الأمةُ بأسرها عليه فلا تُجْدِ العبرُ ولا تغنِ النذر.

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ ﴾

و قوله: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ ﴾ في الكلام إشارة إلى أنهم كانوا مفتوحي الأعين حال نومهم كاليقظان، والحكمة في ذلك حفظ أبصارهم أن تتجمد في المآقي وتلتصق الأجفان بطول المدة، وهذا من لطف الله بأهل الكهف.

﴿ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ ﴾ حتى لا تتآكلَ أجسادهم.

﴿ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ ﴾ لما سار الفتية في طريقهم نحو الكهف، تبعهم كلب لعله كان لأحدهم. والوصيد فناء الكهف و قيل: عتبته أو بابه.

و المعنى كانوا على ما وصف من الحال، والحال أن كلبهم مفترش بذراعيه باسط لهما بفناء الكهف، وفيه إخبار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم، وكان ماكثا معهم طول مكثهم في الكهف.

﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾

أي لو أشرفت عليهم وهم نيام في كهفهم على هذه الحال لوليت منهم فرارا من الوحشة والرهبة التي حفظهم الله بها، ولملئت منهم رعبا حين تطبع صورتهم في ذهنك فلا تكاد تفارقك.

الحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترضُ الإنسان ما يخيفه فيفرُّ منه وينتهي الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكنا قلبه، لذا أتبع التولي فرارا بالامتلاء رعبا.

وليس السبب في هذا الرعب والتولي هو ما زعمه بعض المفسرين أن شعورهم وأظفارهم

طالت؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكان أول تساؤل لهم بعد أن استيقظوا من نومهم كما سيأتي بيانه في الآية التالية، ولكن هيئتهم وسباتهم العميق وما أضفاه هذا الكهف من رهبةٍ مع هول المفاجأة: كلٌّ ذلك يُفضي إلى الفرار والرعب.

من الكهف إلى المدينة

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقظة وحيرة.... وحذر وحيطة

كان أول تساؤل لهم حين قاموا من نومهم قول أحدهم ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فأجاب آخرون ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وغاب عنهم أنهم ناموا مئات السنين، فرد عليهم آخرون ﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي أشهى وأطيب، وقيل هو الحلال الطيب، ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي فوضوا أمر ذلك إلى الله تعالى وانشغلوا بما يصلحكم وهو إحضار الطعام.

وفي هذا دليل على أنهم لم ينووا طول البقاء في الكهف وإلا لتزودوا بما يكفيهم من الطعام والشراب مدة لبثهم فيه، وإشارة إلى ضرورة اختيار الطعام الطيب.

﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

أي يبالغ في الحذر والحيطة، والتخفي أو يتلطف في الشراء، فلا يتعنت مع البائع أو يبخسه حقه أو يتلطف مع البائع، يتفطن له حتى لا يغبنه، قال النسفي: « وليتكلف اللطف فيما يباشره

من أمر المبايعة، حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف»[(١)].

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

لو عرفوا مكانكم وتمكنوا منكم فلن تسلَموا منهم، وفي هذا ما يدل على أنهم كانوا مهددين مطاردين، بعد أن أمهلهم الملك بالعودة إلى دينه، ففروا بدينهم وقد أرخى الليلُ سدولَه حتى وصلوا إلى الكهف.

﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ بناء على ما توعدكم به إن لم ترجعوا إلى دينهم فإما الرجم حتى الموت وإما البقاء مع العود إلى ملتهم وفي هذا من الخسران ما فيه.

﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ إذا عدتم إلى ملتهم، قال الرازي رحمه الله: «فإن قيل أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لهذا الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله أعلم»[(٢)].

في المدينة... بعد ثلاثة قرون !

مئات السنين مرت على هذه المدينة حيث توالت العهود وتعاقبت الملوك وولت دولة الاستبداد والطغيان، وانحلت مملكة الشرك والأوثان، وحلت دولة العلم والإيمان، وتنسمت الأجيال عبير الحرية.

غريبٌ... في مدينته !

خرج من وقع عليه الاختيارُ من الكهف إلى المدينة، فراعَهُ ما وجَدَهُ من وجوهٍ جديدةٍ

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٠٢، ١٠٣.

ومعالمَ مختلفةٍ حتى التبسَ الأمرُ عليه ولسانُ حالِهِ يقولُ:

أمــا الديــارُ فإنها كديارِهِــم وأرى رجالَ الحيِّ غيرَ رجالِهِمْ

عجبا ! أليست هذه مدينته التي عاش في أحضانها، وسلك دروبها وعاش فيها طفولته وأحلامه، وشهدت فتوته وشبابه، كاد أن تتشعب به دروب الحيرة ويستبد به الهمُّ، لكن الوقتَ والمقامَ لم يسعفه كي يتحقق من الأمر؛ حتى لا يلفت الأنظار إليه، فأسرع السير ودلفَ إلى السوقِ الذي لم يسلم من التغيير، وهنا حدث ما لم يكن في حسبانه حيث كانت الدراهم التي ألقاها في يد البائع وراء انكشاف أمره، وانتَقَلَ الخبرُ بسرعة البرقِ، وظن البعضُ أن هذا الفتى الغريب قد وقع على كنز عجيب ! فرفعوا أمره للملك الصالح، الذي وجد ضالته حين انكشف أمرُ الفتى، وجاءته الحجةُ الساطعةُ التي طالما انتظرها، ففرح أيّما فرح أن ساق الله إليه الدليل المادي على بعثِ الأبدان، وخرجت المدينة وراء الفتى وكأنها تشيعُه حيا إلى مثواه، حيثُ عادَ إلى رفاقِهِ وانضمَّ إليهم في رحلةٍ إلى دار الخلود، بينما القوم ينتظرون أمام باب الكهف، فلما طال انتظارُهم أجمعوا أمرهم على دخول الكهف، فراعهم أن وجدوا الفتية قد أخذوا مضاجعهم في مشهدٍ مهيبٍ بعد أن قدموا للبشريةِ قصةً من روائع القصصِ وعبرةً من أجلِّ العبر.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: « حكي في القائلين ذلك قولان: أحدهما أنهم المسلمون منهم، والثاني أنهم المشركون، و الظاهر أنهم أصحاب النفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال (**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارىَ. اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**)» [(١)] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. وعنها رضي الله عنها ١٩- (٥٢٩) وعَنْ عَائِشَةَ، أَنّ أُمّ حَبِيبَةَ وَأُمّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ، فِيهَا تَصَاوِيرُ، لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ=

ولقد تعقب هذا الكلامَ الإمامُ القاسميُّ رحمه الله فقال في المحاسن: « وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده المسجل بلعن فاعل ذلك، وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي أو الولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه؛ ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح: ٢٣: ٢٤].

كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى قادهم ذلك لعبادة الأصنام. إلى آخر ما ذكره رحمه الله [(١)].

وقال السعديُّ رحمه الله: «﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ قال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذمَّ فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى» [(٢)].

=رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْمَنَاقِب بَاب هِجْرَةِ الْحَبَشَةِ حديث ٣٦٦٠ ورواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها ١٦ - (٥٢٨).

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ٢١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

كم كان عددهم ؟

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

أخبر المولى عز وجل عن اختلاف أهل الكتاب في عددهم، وبين أن قول من قال بأنهم ثلاثة أو خمسة قول لا دليل عليه، وإنما بُنِيَ على الظن والتخمين، لذا جاء التعقيب على القولين بقوله تعالى﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ وأتبع قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ بردِّ العلم إليه تعالى ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وبيَّن سبحانه أن هناك من يعلم عدَّتهم، وهم قليل بالنسبة إلى غيرهم ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من القليل الذي استثنى اللهّ عزَّ وجلَّ، كانوا سبعة، وكذا روي عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة[1].

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾: أي واضحا وبيِّنا دون تعمقٍ أو خوضٍ فيما استأثر الله بعلمه. قال الشوكاني: « وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب»[2].

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾: ففيما قصَّ الله عليك ما يُغْنِيكَ عن سؤالِ أحدٍ.

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: « أي ولا تسأل أحدا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فترد عليه أو تزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد، لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم، وهذا من أدب المسلم أن لا يستفتي أحداً من خلق الله غير أهل العلم من المسلمين»[3].

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

---

(١) يراجع في ذلك معالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٥٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٣٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي النيسابوري٣ / ١٤٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣ / ٢٧٨، ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣ / ٢٩٤.

(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦ / ٣١٧٣.

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

نهاه عز وجل أن يقطع بشيء أو يعزم على فعل دون أن يستثني فيقول إن شاء الله؛ ذلك أنه ﷺ لما سألوه عن الأسئلة الثلاثة وعد أن يجيبهم في الغد؛ ثقةً بمجيء أمين الوحي جبريل بالجواب الكافي من عند الله تعالى، ولم يقل ﷺ إن شاء الله، فلبث الوحي مدةً لا ينزل، حتى أشاع المشركون أنه هجره، وإنما كان ذلك درسا له ﷺ أن يربط كلَّ ما هو متوقعُ الحصول بمشيئة الله تعالى، لما في ذلك من تفويض الأمر إلى علام الغيوب والتماس التوفيق والسداد، والبركة والتيسير منه تعالى.

قال ابن عطية: « أي عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعدُ تعُمُّ أمتَهُ»[1].

« .. وقد تقدم في أول السورة ذكرُ سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم»، فتأخر الوحيُ، ولأن المرء معرضٌ للنسيان فلقد شرع الله لمن نسي أن يقول « إن شاء الله» أن يذكر ربه، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾».

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾: إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف والمعنى لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة أني نبي من عند الله ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف، وقد كان: حيث أعطاه الله عز وجل من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك «أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسي»[2].

كم لبثوا في الكهف ؟

قال تعالى ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٠٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١١١.

بين الله عز وجل مدة لبثهم وهي ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي، أو ما يقابلها بالحساب القمري وهي الثلاثمائة وتسع سنوات تقريبا، فبين الله عز وجل مدة لبثهم بالحسابين، وبين الله عز وجل وجوب رد العلم إليه تعالى في مدة لبثهم فهو الأعلم بها.

وقوله تعالى ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أسمعه وأبصره، وفي هذا بيانٌ لكمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفرادِه بالولايةِ العامةِ والخاصةِ، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يَكِلْهُمْ إلى أحد من الخلق. ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ وهذا يشمل الحكمَ الكونيَّ القدريَّ، والحكمَ الشرعيَّ الدينيَّ، فإنه الحاكم في خلقه، قضاءً وقدراً، وخلقاً وتدبيراً، والحاكم فيهم، بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

تعقيب على القصة:

وصايا وتوجيهات

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

أي واقرأ عليهم ما أوحى الله إليك فهو الحق والصدق والهدى والرشاد، واتبع هذا الوحي الإلهي فهو الحق الثابت الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فقصصُهُ ووعدُهُ الحق، وأمثالُه الصدقُ، وكل ما فيه من أخبار لا مبدل لها، كما أنه لا مبدل لسننه عز وجل في عباده والتي من بينها نصرتُه لأوليائه وسنةُ التداول، تداول العصور وانقضاء العهود وهلاك الظالمين مهما طال بهم الزمان، واضمحلال دولتهم مهما علت، وقصة أصحاب الكهف دليل على ذلك حيث نجَّى الله هؤلاء الفتية من بطش قومهم وجعلهم آية باهرة وحجة ظاهرة على إمكانية البعث بالروح والجسد.

ومن خلال القصة أيضا نتعلم أن لا ملجأ لنا ولا ملاذ ولا عاصم إلا الله.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

لما تبين لنا من قصة أصحاب الكهف كيف اجتمعوا على طاعة الله وتعانقت قلوبهم

وتآلفت أرواحهم على الحب في الله واجتمعت كلمتهم على نصرة دين الله دعا المولى عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فلا ينصرف عنهم لفقرهم أو لضعفهم، فهم بالإيمان أغنى وباليقين أقوى وبالتقى أكرم من غيرهم.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعد بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلاَءِ لاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا.

قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلاَلٌ، وَرَجُلاَنِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢]

وعَنْه ﷺ قال فِيَّ نَزَلَتْ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ .

قَالَ: نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ: أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ. وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ: تُدْنِي هَؤُلاَءِ ![1]

حرية الاختيار ومصير الكفار.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩].

المناسبة

بعد هذه الآيات البينات والحجج الباهرات لم يبق للكفار عذرٌ في البقاء على ما هم عليه من صدودٍ وإعراضٍ، وجحودٍ وعنادٍ، فأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يردد كلمة الحق على مسامعهم، أما ثمرةُ الدعوةِ ونتاجُها فأمرُ ذلك مفوَّضٌ لله تعالى، الذي يحاسب عباده فيثيب من سلك طريق الإيمان، ويعاقب من آثر الكفر والعصيان.

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ الحديث رقم: ٤٦ - (٢٤١٣).

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ فهم في سجنٍ مطبقٍ، لا مناص ولا خلاص من أسرِه وقبضته؛ ولا أمل في النجاة منه، بل لا مطمع في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيه استرواح !

وذلك بكفرهم بالبينات، وصدهم عن سواء الصراطِ، وظلمهم لأنفسهم حين أوردوها موارد الهلاك، وظلمهم للآخرين، فاستحقوا هذا العذاب المهين والمصير الأليم الذي لا مفرَّ منه ولا خلاص.

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ ﴾ من حرِّه، وقال تعالى في موضع آخر ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٠].

﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ أي ذلك الذي يغاثون به فَيُرَاقُ عليهم ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ أي النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾: منزلاً، مجتمعاً، وأصل المرتفق المتكأ، وإنما جاء كذلك تهكُّما بهم ومشاكلة لقوله ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ.

وفي هذا تعريضٌ بمجالس السوء ومنتديات الباطل التي كانوا يعقدونها ويحرصون على ارتيادها والظهور فيها، قد أُبدِلوا بالشرابِ الحميمَ المغليَّ، وبالصحبةِ والرفاقِ في هذا المجتمعَ الجَهَنَّمِي ! ألم يستنكفوا من قبل من صحبة أهل الإيمان ! ويتعللوا بفقرهم وضعفهم ! فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا... أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي ! يشوي الوجوه حين يقترب منها، فكيف بالجوف ؟ ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾!

عاقبة أهل الإيمان

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

بعد الترهيب من عاقبة الكافرين الخاسرة ونهايتهم الأليمة، يحمل السياقُ نسائم المبشرات لأهل الإيمان والصلاح قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ فإيمانهم الصادق وأعمالهم الصالحة لها أجرها وثوابها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾: بيانٌ لبعدِ منزلتِهم ورفعةِ مقامِهم ﴿ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾: حيث المكثُ الأبدي، ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ فيزدادون بهجةً وحبوراً، وأنساً وسروراً، ونضرة ونعيما ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾فما أروعها وأبهاها من حليةٍ بهيجة.

﴿ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ السندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه وثخُن، والمعنى: يلبسون ثيابا فاخرةً ناعمةً من رقائقِ الحرير وما غلظ منه، وإنما خص اللون الأخضر هنا لكونه أحسن الألوان وأزهاها وأحبَّها إلى العيون، وقد قيل ثلاثة يذهبن الحزن: الخضرة والماء والوجه الحسن.

وجمع بين السندس وهو ما رقَّ من الديباج، وبين الإستبرق وهو الغليظ منه زيادةً في النعيم، وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي للنفس أحب وإلى القلب أقرب، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ ﴾خص الاتكاء: لأنه هيئة المنعمين المُطمئنين، وشأن الملوك على أسرَّتهم. ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ { فيها } في قصور الجنة ودورها وأفنيتها ورياضها وأنديتها ومجالسها

﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ ﴾: نعم الجزاءُ ﴿ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾: أي مقراً ومجلساً، وصُحبةً وأنسا.

المناسبة بين قصة أصحاب الكهف ومحور السورة:

قدمت لنا هذه القصة العجيبة نموذجاً عملياً ومثالاً واقعياً، لمن منَّ الله تعالى عليهم بالعصمة والنجاة من الفتن، حيث الفهم الصحيح والإيمان الخالص، والثبات واليقين والاستعانة برب العالمين مع الأخذ بالأسباب والتزام الحذر والحيطة.

الهدايات المستنبطة

من قصة أصحاب الكهف

في قوله تعالى ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾: درس عملي للدعاة والمصلحين أن لا يغفلوا عن سلاح الدعاء مع مراعاة الأدب مع الله، وانتقاء العبارات المناسبة فلكل مقام مقال، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية أدعيةٌ مباركةٌ لها دلالتُها وخواصُّها وآثارُها

التمس أهلُ الكهف أمرين مهمين هما رحمة الله بهم وإرشاده لهم، وفي طلبهم للرحمة مع الرشاد ما يدلُّ على أنهم ماضون في طريق الحق ثابتون عليه مهما كلَّفهم من تضحيات.

وتتجلى أهميةُ هذا الدعاء للدعاة والمصلحين حين يواجهون المحن والابتلاءات والفتن والعقبات، أو تتشعب بهم الآراء، أو يقفون على مفترق الطرق.

وفي قصة أصحاب الكهف دليل على جواز الفرار بالدين والعزلة حين تشتد الفتن.

قال الإمام ابن العربي: « فِيهِ جَوَازُ الْفِرَارِ مِنْ الظَّالِمِ: وَهِيَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ»[1] .

وقال الإمام الجصّاص: « فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَهْرُبَ بِدِينِهِ إذَا خَافَ الْفِتْنَةَ فِيهِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إذَا أَرَادَ الْهَرَبَ بِدِينِهِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَحَكَاهُ لَنَا عَلَى جِهَةِ الِاسْتِحْسَانِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ»[2].

وقال السعدي رحمه الله: « وفي هذه القصة دليلٌ على أن من فرَّ بدينِه من الفتن، سلَّمَهُ الله منها، وأن من حَرَصَ على العافيةِ عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٣٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٢٦١.

ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العزّ العظيم من حيث لا يحتسب ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨]» (١).

وفي المنار نقل الأستاذ رشيد رضا عن شيخه الإمام محمد عبده « ولا معنى عندي للخلاف في وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه، أو يؤذى فيها إيذاءً لا يقدر على احتماله» (٢)، وعقب الأستاذ رشيد رضا على ذلك بقوله « فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن دينه بأن يكون ممنوعا من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرا في تصرفه وإقامة دينه» (٣).

وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧].

« وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة» (٤).

وذكر ابن العربي في أحكام القرآن من الأسباب الداعية إلى هجر الأوطان: « الْفِرَارُ مِنْ الْإِذَايَةِ فِي الْبَدَنِ؛ وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْخَصَ فِيهِ، فَإِذَا خَشِيَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ؛ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْذُورِ» (٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

(٢) المنار « تفسير القرآن الحكيم » لرشيد رضا ٥/ ٣٥٧.

(٣) نفس المرجع ٥/ ٣٦١.

(٤) الكشاف للزمخشري ١ / ٤٥١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٤٥٤.

لقد تذكرت والذكرى مؤرقةٌ: المسلمين في الأندلس لما تمكن النصارى منهم فأجبروا من لم يتمكن من الفرار على ترك الإسلام ونسيان لغة القرآن ففر من فر بدينه وبقي من بقي على دينه خفية لا يستطيع=

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: إشارة إلى حداثة سنهم

= أن يجهر به وإلا فإن محاكم التفتيش مصيرُه؛ حيث العذاب صنوف وألوان، حتى أُجبروا على دخول الكنائس، وممارسة شعائر النصرانية وتسمية أولادهم بأسمائهم. وفي هذه المحنة قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
دهى (الجزيرة) أمر لا عزاء له ... هوى له (أحد) وانهدّ (ثهلان)
فاسأل (بلنسيةً) ما شان (مرسية)؟ ... وأين (شاطبة) أم أين (جيان)؟
وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ... ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر تبكي وهي عيدان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
يا من لذلة قوم بعد عزتهم ... أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم في ثياب الذل ألوان
يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أروح وأبدان
وطفلة مِثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

يراجع: نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني ٤ / ٤٨٦، ومحاكم=

وفتوتهم وطاعتهم لربهم في هذه المرحلة المهمة في حياة الإنسان مرحلة الشباب، وهي مرحلة البذل والعطاء، ومرحلة القوة والحماس، ولقد عُنيَ الإسلام بإعداد الشباب وتوجيههم ورعايتهم، فهم عماد الأمة وأساس نهضتها ونبراس حضارتها ومنطلق تقدمها وتحررها، ومبعث عزِّها وصنَّاع أمجادها.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي رحمه الله حيث يقول:

ملكنا هذه الدنيا قرونا	وأخضعها جدودٌ خالدونَ
وسطرنا صحائف من ضياء	فما نسي الزمان ولا نسينا
بنينا حقبةً في الأرض ملكا	يدعمه شباب طامحونَ
شبابٌ ذللوا سبلَ المعالي	وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهم فأنبتهم نباتاً	كريما طاب في الدنيا غصونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماةً	يدُكُّونَ المعاقلَ والحصونَ
شبابٌ لم تحطمْه الليالي	ولم يُسْلِمْ إلى الخصم العرينَ
وإن جنَّ المَساءُ فلا تراهم	من الإشفاق إلا ساجدينَ
كذلك أخرج الإسلامُ قومي	شبابا مخلصاً حراً أمينا

إن مرحلة الشباب مرحلة حاسمة في حياة الإنسان لها أهميتها ولها خطرها.

وحين ينشأ الشاب في رحاب القرآن ويحيا تحت ظلال الإيمان فإن جزاءه يوم القيامة أن ينعم بظل الرحمن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ**

=التفتيش في الأندلس تأليف محمد علي قطب ط مكتبة القرآن بمصر وقد أورد فيه المؤلف نقلا عن مراجع عربية وأجنبية صورا بشعة لأنواع التعذيب الوحشي للمسلمين بعد أن حكم الطغاة الأسبان.

إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ...) الخ الحديث [(١)].

فهنيئاً لشاب حافظ على شبابه وصرفه في طاعةِ ربِّه، سيَّما في مجتمعات شاعت فيها فتَنَ الشبهات، وتأججت فتن الشهوات، فترى الدعوةَ إلى الأديان المحرفة والرايات الزائفة، وتجد من يشوّه الحقائق، ويزخرف الأباطيل، وينشر الفسادَ والانحلالَ.

فعجباً لمن يحفظُ شبابَهُ في هذا التيه، يصارعُ أمواج الفتن، ويجابهُ أعاصير المحن فيصمُدُ ويثبتُ ويعبرُ هذه المرحلةَ الحاسمةَ سالماً معافى ؟

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ)**[(٢)].

ومن المستفاد من هذه القصة أيضا:

ضرورة إعداد الدعاة وتربيتهم تربية راشدة وتثقيفهم ثقافة واسعة.

حاجة الداعية إلى العلم النافع والبصيرة النافذة والبديهة الحاضرة والقراءة المتأنية للأحداث ومعايشة الواقع، واستشراف المستقبل، والتخطيطِ الدقيقِ.

حاجة الدعاة إلى روح الألفة والمودة والتعاون والتنسيق والمدارسة، والحوارات الهادفة البناءة.

ومن الفوائد الجليلة ما أورده القرطبي في تفسيره: «عن ابن عطية [(٣)] [قال: تعلقت

---

(١) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﷺ كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ح ٦٦٠، ورواه مسلم في صحيحه عنه ك الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ح ٩١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٥١ برقم (١٧٥٠٦)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة حديث ٤٦٢ والطبراني في المعجم الكبير للطبراني ١٢ / ٢٧٥ حديث ١٤٢٦٩، وأبو يعلى الموصلي في المسند ٤ / ٣١٦ حديث ١٧٠٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٤٨٧: « رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن»، وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة وحسَّنه، قال: «وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى وسنده حسن...» المقاصد الحسنة ١ / ٦٨، وحسنه العجلوني في كشف الخفا ١ / ٢٤٦ برقم ٧٤٨.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٣٧٣ .

الصوفية في القيام والقول بقوله تعالى ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾]، وتعقبه القرطبي بقوله: « قلت: وهذا تعلق غير صحيح هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروه لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى، وقد تقدم في «سبحان» عند قوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية، وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد: فأولُ من أحدثه أصحابُ السامري؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل، على ما يأتي [(١)].

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾: أن الدعاوى لا بد لها من بينات، وينبغي على كل من جاء برأي أو قول لا أصل له ولا برهان له به أن يأتي بالدليل إثباتا لما ادعاه وإلا فهو مُدّعٍ، وقد قيل:

والدَّعاوى إن لم تقيموا عليها بينـــــاتٍ أصحابُهـــا أدعياءُ

قال الرازي: « فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية»[(٢)].

وقال البروسوي: « وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود، والآية إنكار وتعجيز وتبكيت لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال» [(٣)].

(١) الجامع لحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٦.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٩٨.
(٣) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٣.

ومن الفوائد الجليلة: أهمية مدارسة العقيدة، وعرضها على العقول تقريراً لها وتذكيراً بها وتوصية بالثبات عليها، فضلاً عن تجديد الإيمان وزيادته، وهي من التواصي بالحق، وتثبيته في النفوس، وترسيخه في القلوب.

في قصص الأنبياء والصالحين من الصفحات المضيئة والمواقف الرائعة والعبر والعظات ما يثبِّت الفؤاد، ويرطِّبُ الأكباد، ويُسلِّي النفوسَ، ويربِطُ على القلوب برباط الإيمان.

ومن الفوائد الطبية في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ضرورة تقليب المرضى على الفراش؛ حتى لا تترسب الأملاح في جهة واحدة، فتتآكل أجسادهم وتتعرض للتلف والتعفن.

ومن لطائف الفوائد: أنه ورد ذكر كلبهم في القصة أربع مرات، وقد شغل هذا الكلب اهتمام بعض المفسرين والباحثين، فاستطردوا إلى الحديث عن اسمه ولونه وعن قصة لحاقه بهم، فاهتموا بتفصيلات لا فائدة منها ولا ثمرة في البحث عنها، غير أنها تدل على ثمرات الصحبة الطيبة وعموم نفعها وشمول بركتها، فهذا كلب جاء ذكره في أشرف الكتب التي نزلت على أشرف الرسل ﷺ بمجرد سيره وراء الصالحين وحرصه على ملازمته ألا يدل ذلك على شرف الصحبة الطيبة ورفعتِها وثمرةُ صحبةِ الصالحين والتعلق بهم ؟

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِــبُّ الـصَّـالِحِـينَ وَلَـسْـت مِنْهُمْ		لـعـلِّي قــدْ أنــالُ بهــمُ الـشَّـفَـاعَـةَ

وقال ابن كثير رحمه الله «وشملت كلبَهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبرٌ وشأنٌ»[1].

وقال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبٌ أحبَّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٤٠.

أهل فضلٍ وصحبَهم فذكره الله في محكم تنزيله[١].

قال ابن كثير «إذ كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل»[٢].

وفي الصحيح عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَارِجَيْنِ مِنْ الْمَسْجِدِ فَلَقِينَا رَجُلاً عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **مَا أَعْدَدْتَ لَهَا** قَالَ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، **قَالَ فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ»[٣].

قلت: وهذا الذي تمسك به أنسٌ رضي الله عنه يشمل من المسلمين كلَّ ذي نَفَس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين؛ كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠][٤].

ومن الفوائد المهمة: من قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٤٠.

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الصحابة٦ - باب: مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه. الحديث رقم: ٣٤٨٥، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٢٢٧.

(٤) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٣٧٢ وحاشية الجمل على الجلالين ٣/ ١٢، ١٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٤٠.

مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ [الكهف: ١٩]. الاشتغال بالمهم دون غيره، فقد يخوض الدعاة في جدل عقيم حول مسائل لا أهمية لها ولا ضرورة للغوصِ فيها، بل يجبُ الالتفاتُ إلى واجباتِ الوقتِ ومراعاةِ الأولوياتِ.

ومما يجدرُ التنبيه عليه: أنه في عصور الجهل والانحطاط استغل بعض أصحاب المصالح وأرباب النفوذ بساطة الناس وسذاجتها في تحقيق مآربهم فيدعون اكتشاف كهف في المكان الفلاني به أصحاب الكهف وينسجون حوله الروايات ويقدمون الأدلة على صحة ادعائهم حتى يشيع الخبر بين الناس ويطير بين البلاد ويصير الكهف مزارا يؤمه الناس من بلاد شتى، وما زلنا نسمع عن بعض الجهال أن هناك شجرة في المكان الفلاني، وبئر في البلد الفلاني يتزاحم عليه الجهلة طلبا للتداوي والاستشفاء من الأمراض المزمنة والمستعصية وفي هذا من المخالفات الشرعية ما لا يخفى، فينبغي على أهل العلم تحذيرُ العوامِّ من ذلك.

ولعل هذا يفيدُ في معرفة أسباب اختلاف الناس في مكان الكهف، حتى قيل إنه ببلاد الأندلس أو ببلاد الترك ! والله أعلم.

كما يستفاد من القصة:

* وجوب تفويض العلم إلى الله عز وجل وعدم القطع في المسائل بدون أدلة قطعية.
* وفيه أيضا من آداب الصحبة: إسداء النصح وتقبله وحسن الحوار وترك الجدال.
* ومراعاة الحذر والحيطة، وأن التوكل على الله عز وجل واليقين به لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.
* وفيه جواز الوكالة في البيع والشراء والشركة في المطعم والمشرب.
* وفيها أيضا جواز التمتع بالطيبات كالماء البارد واللحم والفاكهة وغير ذلك، مع القصد والاعتدال، ومراعاة التوازن الغذائي، ولا يتنافى ذلك مع الزهد والورع قال سبحانه

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢ - ٣٣].

* وفي حملهم النقود مع صدق توكلهم على الله: ردٌّ على من يتواكل بحجة التوكل فربما خرج بدون أخذٍ بالأسباب أو حملٍ للمالِ بدعوى التوكل، قال النسفي: «وفي هذا دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأيُ المتوكلين على الله، دون المتَّكلين على الاتفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات» [١].

ومما يستفاد من الآية الواردة في التعقيب على القصة:

* الدعوة إلى تلاوة كتاب الله والاعتصام به، فهو حبل الله المتين ونبراسه المبين وهديه القويم.
* سنن الله في الكون ثابتة وأقداره نافذة فلا مبدِّل لها، وفي هذا ما يدعو إلى الطمأنينة والسكينة والرضا واليقين.
* إذا تعلق القلبُ بزينة الدنيا انصرفت النفسُ إلى صحبة أصحاب الوجاهة والرياسة طمعا في الدنيا الفانية وتعلقا بزينتها، فعلى الداعيةِ أن يخرجَ حبَّ الدنيا من قلبه وأن يقرب أهل الطاعة وإن كانوا فقراء ضعفاء.
* هجرُ أهلِ الغفلةِ، ومجانبةُ أصحاب الأهواء، وذوي التفريط.
* حرية الاعتقاد في الإسلام؛ ذلك أن الحقَّ واضحٌ أبلج لا يفتقرُ إلى إكراه، فالحرية مكفولة للجميع على أن هناك حسابا عسيرا وعذابا نكرا لمن اختار طريق الضلال.

---

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٦، ٧.

* ومما يستفادُ من القصةِ استحضار العبد لمشيئة الله تعالى، فيما إذا عزم على فعل أمر في المستقبل كما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، أَوِ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ، إِلاَّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكاً لَهُ فِي حَاجَتِهِ). [(١)]

* للمؤمنين عند الله تعالى ثوابٌ عظيم مضاعفٌ، في دار الخلد والكرامة التي تزدان بكل ألوان البهجة والسرور، وأطياف الهنا والحبور.

-٢-

فتنة المال

نظرات في قصة صاحب الجنتين

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢ – ٤٤]

(١) صحيح مسلم كتاب الأيمان والنذور – باب الاستثناء، الحديث رقم: ٢٣ – (١٦٥٤).

المناسبة

أمر الله رسوله الكريم أن يضرب لهم هذا المثال للعظة والاعتبار، والتذكرة والاستبصار وتصحيح المفاهيم، وأن العبرة بالخواتيم، وأن تقلبَ الكافرِ في النعم إمهالٌ واستدراج، ومكابدةَ المؤمنِ في الدنيا ابتلاء وتمحيص.

فهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لمن يتعزّز بالدنيا، ويستنكف عن مجالسة الفقراء، فهو على هذا متصل بقوله ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبيَّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما الذي يجبُ حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية»[1].

ويقول صاحبُ الظلال: « ثم تجيءُ قصة الرجلين والجنتين تضربُ مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذجٌ إنسانيٌ لطائفةٍ من الناس: صاحب الجنتين نموذجٌ للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوةَ الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم. موجبة لحمده وذكره، لا لجحود وكفره»[2].

ولهذه القصة وجهُ اتصالٍ مع قوله تعالى في مقدمة السورة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ١٥/ ٩٣.

زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ٧ – ٨] فهذان رجلان أحدهما: غرَّته زينةُ الحياة الدنيا، فوقع في حبائلها وغرق في خضم فتنتها، والثاني: زهدَ في الدنيا، فعصمه الله من غرورها وفتنتها.

المعنى الإجمالي

بين أيدينا قصةُ رجلينِ: أحدهما كافر، وهو المبتلى بالرخاء، والآخر مؤمن: وهو الممتحن بالشدة، جعل الله للكافر جنتين من أعناب، والعنب فاكهةٌ وقوتٌ، فوائدُهُ جمةٌ ومنافعُهُ عظيمةٌ وأشجارُه على اختلاف ألوانه وتنوع مذاقه ومنظرِه مما تبتهج به العيون وتنشرح له الصدور.

عطاءٌ وابتلاء

قال تعالى ﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

أي جعلنا له جنتين من أعناب، على حافة الجنتين نخيلٌ يحيط بهما إحاطة السوار بالمعصم وجعلنا بينهما زرعا لتتم النعمة وتكتمل تلك البهجة.

قال الرازي: «﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ والمقصود منه أمور:

أحدها: أن تكون تلك الأرض جامعةً للأقوات والفواكه.

وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض.

وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة»[1].

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٢٤ ويراجع: روح المعاني للألوسي ١٥ / ٢٧٤.

إشارة إلى خصوبة التربة ووفرة المحصول وسلامة الزرع من الآفات وكثرة الثمار ونضجها وطيبها، على غير ما هو معهود في سائر الحقول والبساتين، التي يتفاوت جَناها زيادةً ونقصاً وجودة ورداءةً، بحسب اختلاف الأعوام، وتقلبات الجوِّ، وآثارِ الآفات.

﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾: يجري بالخير الوفير ويجود بالسَّلسلِ النَّمير، فيسقِي الزرعَ ويروي الظمآنَ، وتكتملُ البهجةُ ويتم الأنسُ بمائِهِ الرقراقِ، وجداولِهِ التي تسرِي بين بساتينِ العنبِ وصفوفِ النخيلِ وسطورِ الحقولِ.

قال صاحب الكشاف: « جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلةٌ متشابكةٌ لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها»[1].

تكاثرٌ وافتخارٌ !

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ أي كان له تجارة يصرفها وينميها، وأموالٌ يستغلُّها ويُرْبيها، ودوابٌّ يعلِفُها ويُرَبِّيها، فضلا عن الجنتين مما زاده فخرا وتِيهاً، حتى قال لصاحبِهِ المؤمِنِ ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ تباهى بكثرة أمواله، واغترَّ بأهله وعشيرته.

ظنونٌ واغترارٌ !

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ أراد بدخوله أن يترفَّع على صاحبه المؤمن ويتعالى عليه بما عنده من خيرات وثروات، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾: حمله على هذا القول الذي لا يُلقي له بالا: ما هو عليه من عُجبٍ وغرورٍ وتبطُّرٍ وجحودٍ، فقال

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨٩، والسَّيْحُ: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأَرض.

ذلك في زهوٍ وخُيلاء ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

أنكر البعث والحساب؛ رُكُوناً إلى الدنيا واطمئناناً بها، وحتى لا يحاسب على تلك النعم ويعاقب على كفرانه وطغيانه، وجوره وقصوره، وغروره وخيلائه، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾: أي ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، وإما أن يكون هذا ظنُّه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، فأيُّ تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهلِه وحماقتِه: أن من أعطي في الدنيا يعطى في الآخرة، ومن أغناه الله في دنياه فقد رضي عنه وأرضاه ! بل إنه تعالى قد يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه؛ إذ لا نصيب لهم في الآخرة.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٨ – ١٩].

وقال جلَّ وعلا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ كيف يحسنُ الظن بالله وقد أساء العمل فتوهم أنه ما أوتي هذه النعم إلا عن جدارةٍ واستحقاقٍ، وأنه لو رجع إلى ربه لوجد المزيد من الحفاوة والإغداق !

نصيحة وإعذار.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ .

قال له صاحبه ناصحا ومذكِّرا، في حوار هادفٍ بنَّاء، يقصد من خلاله أن ينتشله من أعماق الفتن ويردَّه إلى الحقِّ: ﴿ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ ؟

إن هذا البطر والاغترار والجحود والإنكار كفرٌ بواحٌ بمن خلقك من تراب، فردَّه إلى أصله وطبيعته ليعالجه من داء الكبر، بتذكيره بمادة الخلق التي يتساوى فيها مع سائر البشر فمن التراب وإلى التراب، كما قيل:

خلقتَ من الترابِ فصرتَ حيّاً ... وعُلِّمتَ الفصيحَ منَ الخطاب

وعدتَ إلى التراب فصرتَ فيه ... كأنك ما خرجتَ من التراب

فكيف يتكبر من أصلُه التراب، ومنشأهُ النطفةُ ! وكيف يغفل عن الحكمة مِنْ خَلْقِهِ وهي عبادة الواحد القهار، وكيف ينصرف عن التفكر والاعتبار، وقد سوَّاه الله رجلا مكتمل الخِلقة وافر العقل !

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾: بعد إنكار ما هو عليه من كفر وضلال بيَّن له صاحبُه العقيدة الصحيحة والنهج القويم، وهو الإقرار لله تعالى بالربوبية والشهادة له بالوحدانية، والتأدب معه تعالى والثناء على نعمه الجليلة.

فكان قصدُ المؤمنِ من حواره: تصحيح المفاهيم، وضبط الموازين، وتأصيل القيم، وذلك ببيان أن العبرة ليست بكثرة المال والولد، فتلك أعراضٌ فانيةٌ، وعاريةٌ مستردَّةٌ.

قال صاحب الظلال: « وهكذا تنتفض عزةُ الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنَّفر ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم

وهو يطمع في فضل الله»[١].

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾: «هلا قلت: ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، حضَّه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الإقرار بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوّته وقدرته»[٢].

ثم التفت إليه ليصحو من غفلته وينتبه من غفوته قبل فوات الأوان وتبدلِ الحال: فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ فهذا ميزان خاطئٌ وفهمٌ قاصرٌ ونظرةٌ مادية مجرّدة، إذ لا يقاس الناس بما لديهم من أموالٍ وبنين.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وفي هذا ما يدل على الرضا بما قسم الله، واليقين بفضل الله، والاستبشار برحمة الله.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يرسل عليها من الصواعق والمهلكات، بقدر ما يخَربها ويدمِّرُها، عقابا لك على كفرك وبَطَرك، ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي فتصبح جنتُك بعد أن كانت خصبةً طيبةً زاخرةً، أرضاً قاحلةً جرداء، لا نبتَ فيها، قد خيَّم عليها الخرابُ وأحلَّ بها البوارُ: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي يغوصُ ويذهبُ في أعماقِ الأرض: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾: لا تقدر على ردِّه إلى موضعه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠١ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤١٠.

لما أعرض عن الحق، وصَدَفَ عن البرهان، عوقب بالنقص والحرمان، وباءَ بالخَيبة والخُسرانِ: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ أصابَهُ الدمارُ الشاملُ، وأصلُهُ من إحَاطةِ العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملَكه واستولى عليه، ثم استُعمِلَ في كل إهلاك، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ندما وحسرة على ما سلف منه، ووقعَ له، وحزنا على ما أنفق فيها.

﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ بعدما أصابها من هلاك ودمار، وخراب وبوار.

﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أدرك أن ما أصابه بجريرةِ شركِهِ وشؤم معصيته.

إنها ساعة المحاسبة ولحظة المراجعة، ساعة الحسرة والندم على ما فات، أين ماله الذي ساقه إلى الفخر والتيه ؟ أين أهله وعشيرته وخدمه وحشمه ؟ هل وجد فيهم ما كان يرتجي من العزة والمنعة ؟

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ما كان له من ينصره ويعصمه من أمر الله وما كان منتصراً بنفسه، إذ لا حول له ولا قوة.

ولكن: ما هو مصير هذا الرجل ؟ هل كان ندمُهُ بدايةَ توبةٍ صادقةٍ ؟ أم كان مجرد حسرةٍ وندمٍ على ضياعِ دنياه ؟ وإذا كان الرجلُ قد تاب توبة ناصحةً فهل عوَّضه الله في الدنيا عما سلبه منه ؟

يقول السعديُّ رحمه الله: « ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه اللهُ الإنابةَ إليه، ورَاجَعَ رشدَه، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجَّل له العقوبةَ في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول» [1].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٧.

سننٌ ثابتةٌ في كونٍ متغيِّرٍ !

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

إذا كانت الدنيا متقلبةً لا يدوم لها حالٌ، وإذا كان الكونُ خاضعا للتغيير، والأيام تدولُ فإن هناك سننا ربانيةً ثابتةً، لا تحُولُ، منها: ولاية الله لأوليائه ينصرهم ويجبرهم، وأن عاقبة الأمور لله تعالى، فإليه المرجع والمصير، هو خير ثواباً لأوليائه في الدنيا والآخرة، و خير عاقبة لمن رجاه وآمن به وسعى إليه.

هنالك في ضوء هذه القصة وما انطوت عليه من عبر وعظات، فالولاية لله تعالى يعزُّ من أطاعه ويذل من عصاه، ينصر أولياءه ويخذل أعداءه.

تعقيب على القصة

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥ – ٤٩].

المناسبة

لما كان الاغترار بالدنيا والافتتان بزخارفها من أعظم البواعث على الفتن والدواعي إلى الصدود عن الحق: ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ لزوالِ الدنيا وضآلتِها بماء نزل من السماء فَرَوَى الأرضَ وأخرجَ النبات ليدور دورته المعهودة، حتى يحين الحصاد، فإذ بأوراقه النضرةُ المُخضرةُ قد

ذَوَتْ واصفَرت وذَبُلَتْ، وسيقانُهُ تساقطتْ وتحطمتْ، وتأتي الرياح لتذروه فيصبحُ كأن لم يغن بالأمس، ثم انتقلَ السياقُ إلى مشاهدٍ من أهوالِ يومِ القيامةِ؛ لترهيبِ المفتونين بزينةِ الدنيا المغترينَ بها؛ ولتسليةِ المؤمنين وتذكيرِهم بهذا اليومِ الموعودِ.

مثلُ الدنيا

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ كما اختلط النبات بعضه ببعض حتى التفت سيقانه وتشابكت أغصانه، وتفتحت أزهاره وتفتقت وأينعت ثماره ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ الهشيم: الكسير، وهو من النبات ما تكسر وتفتت، بسبب انقطاع الماء عنه أو بانتهاء دورته وانقضاء أوانه.

﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ تفرقُه وتنسفه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي: على كل شيء من الأشياء يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

لما كشف بهذا المثل المحسوس عن حقيقة الدنيا الفانية، أشار إلى أبهى محاسنها وأعظم مفاتنها وأحلى زينتِها: المال والبنون، فبيّن أنها زينةٌ ماحلة وعارية مستردة ولذة فانية، أما ما ينفع الإنسان ويبقى أثره ويخلد ذكرُه ويدومُ نفعُه فما قدَّم من أعمالٍ صالحاتٍ وما وفَّى من واجباتٍ.

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

أعمال الخير التي تبقى ثمرتُها للإنسان، وتشملُ كلَّ عمل صالح وكلَّ طاعة واجبة أو مستحبة من صلاة وصيام، وزكاة وصدقات، وحج وعمرة، وقراءة وذكر، وطلب علم نافع وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر الوالدين، والقيام بالحقوق الزوجية، وحقوق

الأولاد، وسائر الحقوق، وجميع وجوه الإحسان، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خيرٌ عند الله ثوابا وخيرٌ أملا، فثوابها باقٍ، وثمارها ممتدةٌ وارفةٌ.

«وصاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله على حالٍ خيرٍ من حالِ ذي المال والبنين دونَ عملٍ صالحٍ»[1].

وقيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكا وعملا في منزلهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

من مشاهد القيامة

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧ – ٤٩]

المناسبة:

بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالِها، ناسب ذلك الانتقال إلى مشاهد القيامة وأهوالِها: فقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾: أمر تعالى بتذكر هذا اليوم إذ لا يجوز لعاقلٍ أن يغفل عنه، ودعا إلى تصوُّر هذا المشهدِ الرهيب واستحضاره حتى يكون المؤمن دائما على حذرٍ من الآخرة واستعدادٍ

(١) جزء في « تفسير الباقيات الصالحات» لأبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي ص ١٨.

لها، فكم في هذا اليوم العظيم من أهوالٍ عظام، منها تسييرُ الجبالِ كما تسير السحاب، ودكُّها ونسفُها وبسُّها وتطايرُها قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير: ٣].

و قال جلَّ وعلا: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل: ٨٨] وقال سبحانه ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤] وقال عز وجل ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٥ - ٦]. وقال تعالى﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٥].

وقال سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾: بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان، وبروز ما دُفِنَ في بطنها، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال جل وعلا ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الزلزلة: ١- ٢].

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾: فلم نترك منهم أحداً. ونظيره قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠] ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ لم يتخلَّف منهم أحد، وقد وقفوا في صفوف منتظمة، في خضوعٍ واستسلام وتجرُّدٍ وانكسارٍ.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ يقول لهم رب العزة لقد جئتمونا حفاةً عراةً، قد تجرَّدتم من كل حولٍ وقوةٍ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ إضراب وانتقال من كلام إلى كلام، لتبكيت وتقريع

منكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم، وننجز ما وعدناكم به من البعث والجزاء فقد جاء الموعد !

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ كتاب الأعمال، فظهر لكلِّ إنسانٍ عمله يقرأه مكتوبا ويشاهده مصوَّرا بل ويسمعه ناطقا.

قال تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٨ – ٢٩].

وقال جلَّ وعلا ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٤].

﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي: خائفين وَجِلينَ مما في الكتاب، لما ينطوي عليه من الفضيحة والعذاب.

﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل والثبور لوقوعهم في الهلاك، ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها.

وقدم الصغيرة اهتماماً بها، ليحذِّر من مغبَّتها، فما بالكَ بالكبيرةِ؛ أليس الحذرُ منها أحرى وأولى.

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزاء ما عملوا مكتوباً مثبتاً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي: لا يُحصي على أحدٍ غيرَ ما قدم، ولا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه.

لقد مضت الدنيا بسرابها الخادع وبريقها الزائف وزخرفها الماحل، ولم يبق منها إلا الباقيات الصالحات، فهي خير زادٍ وأعظم زخرٍ ليوم المعاد.

المناسبة بين محور السورة وقصة صاحب الجنتين

لما كانت مباهجُ الدنيا من أعظم دواعي الفتن، وردت هذه القصة وتضمَّنت نموذجين متباينين من الناس: النموذج الأول من اغترَّ بزينة الدنيا وجحد نعم الله عليه، والنموذج الآخر لمن عصمه الله من الوقوع في حبائل الدنيا بعلمه وإيمانه وثباته ويقينه وإيجابيته في دعوة صاحبه ثم يضرب الله للدنيا مثلا لبيان اضمحلالها وزوالها، لينتقل السياقُ إلى عرضِ مشاهدَ من يومِ الحشرِ، لشحذِ الهممِ وصرفِ العزائم للعمل لهذا اليوم.

الهدايات المستنبطة من قصة صاحب الجنتين

* في هذه القصة الهادفة: اعتبارٌ بحال ومآلِ الذي أنعم الله عليه، فكفر بأنعم الله وأساء الأدب مع مولاه، واغترَّ بها أولاه، فخسر دنياه.
* التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من نعيمٍ مقيمٍ وفَرَحٍ مُستديم.
* ضرورة توجيه النصح إلى الغافلين المفتونين، وإقامة الحجة عليهم.
* جواز الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب كفره وطغيانه وتمرُّده وعصيانه، وتبطُّره على أهله وخِلانه.
* « إن تذكر الموت وتصور الحياة الآخرة مما يقضُّ مضاجعَ المترَفينَ البطرين الأشرين، لذا يحاولون إلقاء حجب كثيفة بينهم وبين الاعتقاد باليوم الآخر». [(١)]
* ضرب الله تعالى مثلا واقعيا محسوسا لحقيقة الدنيا وسرعة انقضائها وتلاشي نعيمها حتى لا يغتر بها المؤمن؛ فإن الاغترار بها من أعظم أسباب الوقوع في الفتن وتسلطها على الساقطين في براثنها.
* إذا كان المال والبنون من أعظم زينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى: فعلى المؤمن أن يحرص

(١) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٢٣٠.

على الباقيات الصالحات، وهي كل عمل نافع يتقرب به إلى الله ويبتغي به وجهه الكريم.

* من دواعي العزوف عن زينة الدنيا والنجاة من فتنها، والسلامة من آفاتها: استحضار اليوم الآخر، وتذكُّره، والاستعداد له.

* ضَرَبَ اللهُ تعالى في كتابه الكريم أمثلةً عديدةً متنوعةً تصورُ لنَا حقيقة الدنيا وتوجه أنظارنا إلى التفكر والاعتبار في شأنها، وفي هذه السورة الكريمة كانت هذه الصورة الواقعية المعهودة مثلا حيّاً محسوسا للدنيا، حيث شُبِّهَتْ بماء المطر، ينزل على الأرض اليابسة، فتنبت من كل زوج بهيج، حتى يختلط النباتُ بعضه ببعض، فتتشابكُ الأغصان وتلتفُّ السيقان، ويأخذ النباتُ دورته حتى يزهر ويثمر، فإذا أينع الثمر وحان وقت الحصاد وتمَّ القطافُ، ذهبت نُضرتُه وذبُلَ ويبس، وأضحتِ الأرضُ كأن لم تغن بالأمس، وهكذا تبدأُ الحياة وتنتهي فما أقصرها وأهونها ! وهذه حال الدنيا، تقبلُ على صاحبِها حين تُدْبِرُ عن غيره، فتعيره من محاسنها ما سلبته الآخرينَ، حتى إذا ذاق من حلاوتها وأمَّل فيها، وركنَ إليها، وهام بها وارتمى في أحضانها: انزوت عنه وهجرته إلى حبيبٍ غيره، فعلى العاقل أن يكون منها على حذر، وأن يجعلها قنطرةً إلى دار المستقرِّ.

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) [1].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ « أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبى سعيد الخدري ﷺ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (الرقاق) باب بيان فتنة النساء ٤/ ٢٠٩٨ حديث ٧٢- (٢٧٢١).

وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[١].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً فَقَالَ **(مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)**[٢].

وصدق من قال في وصفها:

أحــــلامُ نــــومٍ أو كــظــلٍّ زائــلٍ إن الـلـبـيـبَ بـمـثـلِـهَـا لا يُخْــدَعُ

***

تـرُوحُ لنا الدُّنيا بغيرِ الـذي غَـدَت وتَحْـــدُث مِــن بعد الأمـــورِ أمـورُ
وتجْـــرِي الـليـالي بـاجتـماعٍ وفُـرْقَـةٍ وتَــطْــلُــع فـيـهـا أنــجـمٌ وتَـغـورُ
وتَـطْـمـع أن يَبقى الـــسُّرُورُ لأهله وهـــذا مُحـــالٌ أن يَـــدُوم سُرُورُ

وقال أبو العتاهية:

هــي الـــدنـيــا إذا كَـمُــلَــتْ وتَــــمَّ سرُورُهــــا خَــذَلَـــتْ
وتَــفْــعَـــل في الـــذيـــن بَـقــوا كــما فــيــمــن مَــضى فَـعـلَـتَ

وما أروع قول أبي نُواس:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكَشَّفت لــه عــن عـــدوٍّ في ثِـيـاب صـديـقِ
ومـا الـنـاسُ إلا هالكٌ وابـنُ هالكٍ وذو نـسَـبٍ في الهـالـكـين عَـريـقِ

وقال ابن عبد ربه في عقده الفريد :

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الرِّقَاقِ باب: قول النبي ﷺ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) حديث ٦٠٥٣.

(٢) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. سنن الترمذي تابع أبواب الزهد، باب ٣١، ورواه ابن ماجة في السنن كتاب الزهد باب مثل الدنيا حديث ٤١٠٩.

ألا إنما الدُّنيا نضارةُ أَيْكةٍ إذا اخضرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ
هِيَ الدَّار ما الآمالُ إلا فَجَائعُ عليها ولا اللَذَّاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخُنت بالأمسِ عينٌ قَريرةٌ وقَرَّت عُيُونٌ دمعُها اليوم ساكِبُ
فلا تَكْتَحِلْ عَيْناك فيها بِعَبْرَةٍ على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

-٣-

فتنةُ إبليس

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠ - ٥٣].

المناسبة

بعد الحديث عن فتنة الدنيا وزوالها، وما يتعقَّبها من حساب وجزاء، جاء الحديث عن فتنة أخرى ينبغي أن يحذَرها المؤمنُ ويتوقَّاها ويتحصَّن منها، فهي من أعظم الفتن وأشدُّها خطرا، إنها فتنةُ إبليس اللعين، العدو الأكبر للإنسانية، والذي يتزعم شياطين الإنس والجن في معركة الإغواء والتضليل، فكم من بدعةٍ حسَّنها وكم من معصية هوّنها وكم من طاعةٍ صَرَفَ عنها، وكم من توبةٍ سوَّفها، فهو العدوُّ الأولُ للإنسانية، أبى واستكبر، وكفر وتبطَّر، وامتنع عن السجود لآدم حسدا وكبرا، ثم لم يزل به حتى أخرجه من الجنة بوساوسه وأكاذيبه، أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم فسجدوا جميعا غيرَ إبليس، أُمر فلم يسجد؛ كبرا وعنادا وتمردا وعصيانا، وغُرورا وعُجبا وتعصُّبا لعنصرِهِ الناريِّ، ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢].

المعنى الإجمالي

أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم عليه السلام سجود تكريم ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ « خانه أصلُه؛ فإنه خُلِقَ من مارجٍ من نارٍ،... فعند الحاجةِ نضح كلُّ وعاء بما فيه، وخانه الطبعُ عند الحاجة، وذلك أنه كان قدْ تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة »[1]، أبعد هذا يُستجَابُ لوساوسِهِ ؟ ويُترَكُ له القِيادُ؟

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ أتوالونه وذريته مع ظهور عداوتهم وانكشاف ضلالهم وإضلالهم ؟ ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ استبدلوا طاعة إبليس وذريتِه بعبادة ربهم وطاعته، فبئس ما صنعوا.

تعقيب

دحض شُبَهِ المشركينَ، وبيان أسباب صدودهم

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥١ -٥٢] .

ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولا اتخذت أولئك المضلين عضدا: فكيف تتخذونهم أولياءَ من دون الله ؟ وتدَّعون معرفتَهم بالغيبِ ؟ فالآيةُ دحضٌ وردٌّ على أولياء الشيطانِ، أو ما أشهدتُ المشركين خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، ولا كنت متخذا لهم عضدا، فهي ردٌّ على أصحاب النظريات الخاطئة في نشأة الكون مثل نظرية دارون وغيرها من نظريات الكفرة الملاحدة الذين لا قيمة لهم ولا وزن لهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٦٧.

عند الله.

واختار الرازي عودة الضمير إلى المشركين فقال: «... الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة، بل هم قوم كسائر الخلق، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له لست بسلطان البلد... حتى نقبل منك هذه الاقتراحات»[1].

﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ ﴾ يعني يقول الله تعالى يوم القيامة للمشركين ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ﴾ المرادُ بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى، وقيل: إبليسُ وذرِّيتُه ﴿ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ ﴾ يعني أنهم شركائي ﴿ فَدَعَوۡهُمۡ ﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينصروهم.

قال أبو السعود « ﴿ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ فلم يُغيثوهم؛ إذ لا إمكان لذلك وفي إيراده مع ظهوره: تهكُّمٌ بهم وإيذانٌ بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به»[2].

﴿ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴾ يعني حاجزا بين الضالين والمضلين، أو بين المشركين ومعبوداتهم التي عبدوها من دون الله، أو بين أهل الهدى والضلال، أو بين كل هالكٍ وهالكٍ، حتى يظلَّ في معزلٍ عن غيرِه ويبقَى وحيداً مستوحشاً.

﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ ﴾ أي فأيقنوا ﴿ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٣٨ بتصرف .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٢٩.

أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعةَ، وقد راعهم منظرُها وصُعقوا من شهيقها وفزعوا من هولها ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ انصرافاً أو معدِلاً ينصرفون إليه، كيف وقد أحاطت بهم.

الهدايات المستنبطة

* في إيراد قصة إبليس تحذيرٌ من فتنته ووساوسه، واعتبارٌ بِكِبْرِهِ وغروره وعُجبه واختيالِهِ الذي حَمَلَهُ على التمرُّدِ والعصيانِ وأودى به إلى التهلكة والخسران، وفي هذا درسٌ لكل متكبِّر مغرورٍ أن يحذَر عاقبة ذلك، ودرسٌ للإنسانية أن تحذَر من موالاة إبليس وذريته والانسياق لوساوسه ونزغاته فهو أعظم خطرٍ يهدد الإنسانية.

* إن من أمضى أسلحة إبليس وأشدها خطرا على الإنسانية فتنة الاغترار بزينة الدنيا الماحلة وزخارفها الباطلة، ولقد قال تعالى محذرا من ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر: ٥ – ٦].

* لإبليس اللعين أعوانه وجنوده الذين يسخرهم ويقودهم في معركته مع الإنس:

فعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ، قَالَ الْأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ فَيَلْتَزِمُهُ)**[1].

* مع ما أقيم على المشركين في الدنيا من الحجج الساطعة، تقامُ الحجةُ العمليةُ الواقعية عليهم

(١) رواه مسلم في صحيحه – كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار – باب تحريش الشيطان، وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا – ٤ / ٢١٦٧ حديث ٦٧ – (٢٨١٣).

يومَ القيامة، فيقرون حين لا ينفع الإقرار.

* كثرت النظريات المضلِّلة والتصورات الخاطئة عن نشأة الكون وأصل الإنسان، ومع أنها مبنيةٌ على الظن والتخمين والافتراضات والأوهام إلا أنها لقيت رواجا في أسواق الجهل.

* وكم من كلامٍ لا يوافقُ حكمةً لَقِيَ الرواجَ بسوقِ من لا يعلمُ.

وفي قوله تعالى ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ أبلغ ردٍّ على أصحاب هذه النظريات ومروّجيها، وأن أولئك المضلين لا قيمة لهم ولا اعتداد بهم فكيف يتجرؤون على الخوض في هذا الشأن ؟

-٤-

الاعتصام بالكتاب والسنة

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾

المناسبة

في هذا المقطع بيان لأساس العصمة ونبراسها: كتاب الله تعالى الذي حوى أساليب متنوعة وحججا ساطعة، ومع ذلك فقد قابلها الكفار بالصدود والإعراض، فعن سمات

القرآن ومقاصده، ومظاهر الصدود ودوافعه تدور آيات هذا المقطع.

المعنى الإجمالي

من سمات الأسلوب القرآني

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

جاء القرآن الكريم بالحجج الساطعة والبينات القاطعة والأساليب المتنوعة التي تخاطب العقل والوجدان وتلامسُ الحسَّ، تارة بالوعد والوعيد وتارة بالقصص والأمثال وتارة بالحوار، فعارضوا وانصرفوا عن الحق وتمادوا في الضلال ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ فالجدل سجيةٌ في الإنسان، و منه المحمود وهو ما كان الهدف منه الوصول إلى الحق، والمذموم وهو ردُّ الحق وإثارةُ الشُبَه

وهذا المعنى الذي ذُكِرَ في هذه الآية الكريمة قررته آياتٌ أُخَر. كقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الروم: ٥٨].

ومع عظمة القرآن، وجلالته، وما صرِّف فيه من كل مثلٍ، لهداية للناس في معاشهم ومعادهم، ومع ما اشتمل عليه من حجج ساطعاتٍ وآيات بيناتٍ، فإن هناك من يجادلُ بالباطل، مع وضوح الحقِّ وجلائه ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي: مجادلة ومنازعة فتلك سجيَّةٌ إنسانيةٌ، إلا من رحم الله وعصمه من الجدل، وهداه إلى الحقِّ.

ماذا بقي للمعرضين !

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

لم يبق لهم وقد أعرضوا عن الحق إلا أن يأتيهم العذابُ الذي أصاب من سبقهم أو يأتيهم عذابٌ عاجلٌ غيرُ معهودٍ، كما وقع للمشركين في بدر من قتلٍ وأسرٍ، فليرجعوا عن غيِّهم قبل فوات الأوان.

وفي هذا المعنى: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦ ٩٧].

مهمة المرسلين وجدال المبطلين !

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

بعد الحديث عن الكتاب يأتي الحديثُ عن وظيفة الرسل ومهمتهم الجليلة، وهي مهمةٌ واضحةٌ، تتلخَّصُ في البشارة والنذارة، وما يتعلق بذلك من بيانٍ، ومع وضوح رسالتهم وقوة حجتهم فإن دأب الكفار هو الجدل العقيم، الذي يستندون فيه على قلب الحقائق وزخرفةِ الأباطيلِ، فضلا عن استهزائِهم واستهانتِهم بالآياتِ والنذرِ.

من مظاهر الصدود وأسبابه

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

جمع الكفارُ بين امتناعهم عن قبولِ الحق المبينِ، وجدالِهم العقيم، واستهزائهم بآيات الله مع إعراضهم ونسيانهم المتعمَّد وتهاونهم بالذنوب، وإصرارهم على الضلال مهما عاينوا من حججٍ، فأضرُّوا بأنفسهم، حيث أوردوها موارد الهلاك.

باب التوبة مفتوحٌ

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن

يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ٥٨].

لما توعدهم وهددهم: فتح لهم باب الرحمة، وبيَّن لطفه بهم وإمهاله لهم؛ لعلهم يبادرون بالتوبة، قبل أن تُطوى صحائفُهم، وَيَحِلَّ موعدُهم الذي لا مفرَّ ولا ملجأ منه.

﴿ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴾ أي: لهم موعد، يُجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته تعالى في الأولين والآخرين أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، أما إن استمروا على ظلمهم وعنادهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ أي: وقتا مقدرا، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

المناسبة بين المحور وآيات المقطع: تنتظمُ آياتُ هذا المقطع مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث جاء الحديث فيها عن أساليب القرآن ومقاصدِه وعن مظاهر الإعراض ودوافعه، وعن مهمة المرسلين، وفي هذا تسليةٌ وتثبيتٌ لقلب النبي ﷺ، ودحضٌ لِشُبَهِ المشركين وتفنيدٌ لما يتعللون به من أباطيل وأوهام.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* نزل القرآن هداية ورحمة ونورا وعصمةً، واشتمل على أساليب متنوعة ومسالك رائعة لإقامة الحجج وتفنيد الشُّبه.

* مع وضوح البراهين وجلاء الأدلة: إلا أن هناك من يصرُّ على إعراضه وعناده ويقيم على ضلاله، من الغارقين في لُجَجِ الفتن.

* من رحمته تعالى أن أمهل العصاة ودعاهم دعوةً متجددةً إلى التوبة الخالصة قبل أن يأتيهم العذاب الذي لا ملجأ منه ولا منجَى.

* مهمةُ الرسلِ واضحةٌ جليةٌ ورسالتُهم عظيمةٌ جليلةٌ، تتلخصُ في البشارةِ والنذارةِ، وتشملُ

كل ما يتعلقُ بها، وفي اتباعهم والتأسي بهم عصمةٌ من الفتن.

* دَأَبَ الكفار على الجدال العقيم؛ سعيا إلى طمس الحقائق وزخرفة الأباطيل والاستهزاء بالآيات والاستخفاف بالنذر.

* الجدل العقيم لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة ولا يفضي إلى حق، بل ينافحُ به أهل الباطل عن باطلهم، بالمقدمات الخاطئة والمغالَطَات والدعاوى الكاذبة.

* والجدل سجيَّةٌ إنسانيةٌ طُبع عليه الإنسانُ، ولقد نهى الإسلام عن الجدل العقيم الذي لا ثمرة له ولا جدوى منه؛ فقد يصرُّ المبطلُ على باطله فلا يسلم للحجج والبراهين، وقد ورد في السنن: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»[1].

فإذا لزم ترك الجدال وهو محق فكيف وهو مبطل.

(١) رواه أبو داود في السنن، كتاب الأدب - باب في حسن الخلق ٢/ ٦٦٨ حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن وقال هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ لا نعرفهُ إلاَّ من حَدِيثِ سَلَمَةَ بنِ وردَانَ عن أنس. سنن الترمذي كتاب البر والصلة بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمِرَاءِ ٤/ ٣٥٨ حديث ٢٠٦١، ورواه ابن ماجه في السنن، افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل١/ ١٩ حديث ٥١، ورواه ابن حبان في صحيحه ١٠ / ٤٧٩ حديث ٤٦١٩، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٧٢ حديث ١١١٧٦ وابن بطة في الإبانة الكبرى حديث ٦٤٧، والطبراني في المعجم الكبير ٧/ ١٠٤ حديث ٧٣٦١ وفي شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٢٤٢حديث ٨٠١٧.

-٥-

رحلة موسى والخضر

الاعتصام بالعلم الراشد

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥٩ - ٨٢].

تمهيد

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجز المكان لتعود بنا إلى زمنِ موسى عليه السلام، بعد أن مكّن الله تعالى له ونجاه من فرعون وجنوده، وقام عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل يذكرهم بأيام الابتلاء والتمحيص والملاحقة والاضطهاد من قِبَلِ فرعونَ وجنودِهِ، ثم أيام النصر والتمكين من عند الله تعالى، فكان لكلامه عليه السلام وقعاً في النفوس وتأثيراً على القلوب، حتى قام أحد المعجبين بهذه الخطبة البليغة العصماء، المُلْهَجِينَ [١] بتلك البلاغة والطّلاقة المتدفقة من ينابيع العلم التي تتفجر على لسان نبي الله موسى عليه السلام، حين يدور الحديث عن الماضي القريب الذي شاهدوه وعاينوه.

سأله: يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك ؟

هل على ظهر الأرض: من تفجرت له ينابيعُ الحكمةِ وجُمِعَتْ له أوابدُ البلاغةِ وحَمَلَ بين جنبيه رسالة خيرٍ وإصلاحٍ كتلك التي حملتها لنا وقدمتها بصبرٍ وأناةٍ ؟

ظنَّ موسى عليه السلام أن الإجابة يسيرة لا تحتاج إلى تفكرٍ وإمهالٍ، فقال: لا.

لكنْ المفاجأةُ تأتي مطويَّةً في: رسالةٍ إلهيةٍ محمَّلةٍ بروحِ العتابِ على هذه العجلةِ في الجواب.

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «... مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْماً حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ لاَ، فَعُتِبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ...» الحديث [٢].

---

(١) لَهِجَ بالأَمرِ لَهَجاً ولَهْوَجَ وأَلْهَجَ كلاهما أُولِعَ به واعْتادَه، وأَلْهَجْتُه به ويقال فلان مُلْهَجٌ بهذا الأَمْر: أَي مُولَعٌ به، واللَّهَجُ بالشيء الوُلُوعُ به. يراجع: لسان العرب لابن منظور ٢ / ٣٥٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ حديث ٤٧٧٢.

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبّاسٍ: إِنَّ نَوْفاً الْبَكَالِيّ يَزْعُمُ أَنّ مُوسَىَ ﷺ، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَىَ صَاحِبَ الْخَضِرِ ﷺ ! فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللّهِ: سَمِعْتُ أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَامَ مُوسىَ ﷺ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيّ النّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللّهُ إِلَيْهِ: أَنّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَىَ: أَيْ رَبّ كَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَىَ ﷺ، حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَىَ ﷺ وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتّىَ خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتّىَ كَانَ مِثْلَ الطّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَىَ وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَىَ أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمّا أَصْبَحَ مُوسَىَ ﷺ قَالَ لِفَتَاهُ: آتنا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتّىَ جَاوَزَ الْمَكَانَ الّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾، قَالَ مُوسَىَ: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾، يَقُصّانِ آثَارَهُمَا، حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ فَرَأَىَ رَجُلاً مُسَجّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلّمَ عَلَيْهِ مُوسَىَ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنّىَ بِأَرْضِكَ السّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىَ، قَالَ: مُوسَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنّكَ عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَكَهُ اللّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَىَ ﷺ: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَىَ يَمْشِيَانِ عَلَىَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىَ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىَ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ

إلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً، ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾، قَالَ: ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؟ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولَى، قَالَ: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»[1].

المقاصد السامية لتلك القصة

هنالك مقاصدُ ومعانٍ تحملُها لنا هذه القصةُ الهادفةُ البناءةُ، الشافيةُ الكافية، التي سيقت لتعالج قضايا حيوية ومشكلاتٍ أساسية تعاني منها كثيرٌ من المجتمعات والبيوت.

مشكلاتٍ عويصةٍ مزمنة، متشابكةٍ متعاقبة، جاءت هذه الرحلة لتسلط الأضواء عليها

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم - باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله. الحديث ١٢٢، وفي كتاب الأنبياء باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. الحديث ٣٢٢٠، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل - باب من فضائل الخضر عليه السلام ١٧٠ - (٢٣٨٠).

وتلفت الأنظار إليها، وتبين المنهج الأمثل والحلول الحاسمة لها.

من هذه المشكلات: مشكلة الظلم الاجتماعي: المتمثل في نموذج الملك الغاصب الذي ينهب الرعية ويستبيح أموالهم ويستنزف ثرواتهم، دون أن يلقي لذلك بالا، أو يجد من ينكر عليه أفعاله الشنيعة، ويحول بينه وبين ركوبِ متنِ الحرام، وارتكابِ الجرائم العظام، سيَّما في حق المساكين من الضعفاء المقهورين ! المستضعفين الكادحين ! وأنَّى لأحدٍ أن ينكرَ أو يشتكي وقد ألجمَ الطاغيةُ الألسنةَ، وكمَّمَ الأفواهَ وأذهلَ العقولَ وشرَّد الجموعَ، وملأ القلوب رعبا وهلعا وجعل من مملكتِهِ سجونا مُفتَّحةً قد عجَّت بالأبرياءِ واكتظَّت بالمظلومين.

على حد قول الأخطل الصغير:

أَلجِمْ لسانَكَ أَلجِمْ فالموتُ للمتكلِّم

لا يسألونك إن أُخذتَ أَثِمْتَ أم لَم تأثَمْ

فالسِّجنُ خيرُ مرحِّبٍ والحبلُ خيرُ مسلِّم

وكما قيل:ولربَّ مأخوذٍ بذنبِ عَشيرَةٍ ونجا المُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنبِ

قال تعالى ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ ﴾

مشكلة أسرية: تتمثل في أخطر ما يهدد مستقبلَ الأسرة الهادئة الهانئة: ويُكدِّرُ صفوَها ويبدد جُهْدَهَا ويُشتتُ جمعَها ويُعطِّل مسيرها: وهو ما قد تُسفرُ عنه الأيام من عقوق الوالدين في زمانٍ تمسُّ الحاجةُ فيه إلى برِّهما، فإذا المودةُ وقد انقلبت عداوةً ونكرانا، وإذ بالبر والإحسان يُقَابَلُ بالعقوق والجفاءِ، والجحود والنسيان.

ولسان حال ذلك الذي تفطَّر قلبه وتفتت كَبِدُهُ غما وكمدا على فَلَذَةِ كبدِهِ الذي قابَلَ الإحسانَ بالإساءةِ: كما قال إبراهيم بن العباس:

وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانَ ... فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذمُّ الزَّمَانا

وَكُنْتُ أعِدُّكَ لِلنَّائِبَات ... فها أَنا أَطْلُبُ مِنْكَ الأَمَانا !

أيصيرُ الولدُ محنةً وشرّاً، وقد كان لنوائب الزمان مُدَّخَراً !

كُنْتُ مِنْ مِحْنَتي أَفِرُّ إِلَيْهِمْ ... فَهُمُ مِحْنَتِي فَأَيْنَ الفِرارُ ؟

***

وإخوانٍ حسبتُهم دروعاً ... فكانُوها ولكنْ للأعادي

وخِلتُهُم سهاماً صائباتٍ ... فكانُوها ولكنْ في فؤادي

وقالوا: قد صَفَتْ منا قُلوبٌ ... لقد صدقُوا، ولكن مِنْ وِدَادِي[1]

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

مشكلة اقتصادية أم أزمةٌ أخلاقيةٌ !

نوعٌ آخر من أنواع الفساد ومشكلة أخرى من أخطر المشكلات: هي المشكلة الاقتصادية أو الفساد الاقتصادي، وهو بلا شك مترتبٌ على الفساد السياسي ونتيجةٌ للظلم الاجتماعي الفسادُ الاقتصاديُّ: حيث الأنانيةُ والأَثَرَةُ، ممزوجةً بالطَّمَعِ والجشع، في مجتمعاتٍ قتلها الفقرُ وأهلكَها الشحُّ، وأرهقها الطغيانُ الماديُّ، حتى غدت مضيِّعةً حقَّ الضيفِ المعلوم، فضلا عن حقِّ الضعيفِ المهضوم، أما أموالُ اليتامى فلو ظَفِرَ بها يوما لأضحتْ غنيمةً باردةً وأمست لقمة سائغةً، من هنا كانت مهمة الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ليحفظ الكنزَ.

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا

(١) أنشدها السمعانيُّ بإسنادِه لعليٍّ بنِ فضالٍ المجاشعيِّ، في ترجمة صاعد بن سيارٍ الهروي.

صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

وهكذا تلمسُ هذه القصةُ الواقعيةُ جوانبَ مهمةً في حياةِ الأمم والمجتمعات.

إلى رحاب القصة

المناسبة

لهذه القصة الجليلة صلتها الوثيقة واتساقها العجيب وانتظامها الدقيق مع سياق السورة الكريمة، وبيان ذلك من وجوهٍ:

صلتها بما قبلها: لما بين الله عز وجل في الآية السابقة أنه تعالى رحيمٌ في ملكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ٥٨].

بيَّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للعدلِ الإلهيِّ، ولما جعل الله لهلاك الظالمين موعداً محدداً: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعدا مؤكَّداً، فكلُّ شيء له وقتٌ وتقديرٌ.

وليعلم الدعاةُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمسارعة لهم في الخيرات لِحَكَمٍ جليلةٍ، كما تمخضتْ أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حِكَمٍ عجيبةٍ.

صلتها وانتظامها مع باقي القصص الواردة في السورة الكريمة ومحورها العام:

اشتملت سورةُ الكهف على مجموعةٍ من القصصِ العجيبةِ والأمثالِ الواقعيةِ والنماذجِ البشريةِ والقيم والمعاني الساميةِ التي تُحلِّق بنا في أجواءِ الفضيلة، وتغوصُ في أعماق النفس البشرية لتسبرَ لنا أغوارها، وتكشفَ شيئا من مكنوناتها، وتُجلِيَ لنا معالمَ العصمة وطرائق النجاة من الفتن، وتقدم لنا مفاتحَ الثبات أمام المحن.

فتنٌ كثيرةٌ كم كانت سبباً في هلاكِ أنفُسٍ، وإتلافِ أموالٍ، وضياعِ ثَرَوَاتٍ، والانحراف

عن طريق الحق إلى دركِ الشقاء في الدنيا والآخرة.

جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتبين لنا قيمة العلم النافع وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام جحافل الفتن وكتائبِ البلاء والمحن.

جاءت لتأخذ بأيدينا وتوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى عليه السلام يحدوه العزمُ والإصرارُ على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهلَ من علمه.

ومن وجوه المناسبات أيضا: أنه تعالى لما أشار في هذه السورة الكريمة إلى زينةِ الدنيا ومباهِجِها جاءت الرحلةُ الميمونةُ: لتمسَّ ثلاثةَ ألوانٍ من ألوانِ الزينةِ: زينةُ المُلْكِ والسلطان ولكن ما قيمتُهُ إذا كان بيد ملِكٍ غاصبٍ ! وزينةُ الولد: ولكن ما مزيَّته إذا خرج الولد عاقّاً جاحداً ! وزينة المال: فما أزينَهُ إذا كان لعبدٍ صالحٍ ! كما في قصة الغلامين اليتيمين.

ولقد أبرزَ الفخر الرازي مناسبةً بين قصة موسى والخضر وبين قصة أصحاب الكهف والرد على الكفار الذين افتخروا على الفقراء وتعالَوا عليهم، فقال: «... أما نفعُ هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خيرٌ من التكبر، وأما نفعُ هذه القصة في قصة أصحاب الكهف: فهو أن اليهودَ قالوا لكفارِ مكة إن أخبركم محمدٌ عن هذه القصة فهو نبيٌّ وإلا فلا، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمرِ الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصةٌ مستقلةٌ بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقريرِ المقصودِ في القصتين المتقدمتين»[(١)].

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢١/ ١٤٣ ويراجع فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٢٤.

وقال صاحب الظلال «... وهكذا ترتبطُ في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار...»[(١)].

التفسير الإجمالي

عزيمةٌ وإصرارٌ

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾: تذكيرٌ لكلِّ سامعٍ وتالٍ بهذه الرحلة العجيبة وتلك الصحبةِ المباركة التي جمعت بين نبي الله موسى عليه السلام وبين فتاه الذي قيل إنه يوشع بن نون، وإنما سمي فتى: « لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه»[(٢)]، يقول له موسى عليه السلام ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ سأسير سيراً طويلاً وأُمضي زماناً مديداً، إلى أن أصل إلى مجمع البحرين.

إصرارٌ من نبي الله موسى عليه السلام على مواصلةِ الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقةٍ وعناءٍ ومهما أمضى من وقتٍ في سبيل هذا المقصد السامي، وفي هذا ما يدل على صدق عزيمتهِ وشدة حرصه على طلب العلم النافع والاستزادة منه وصحبة أهله.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾

وقد اخْتُلِفَ في البحرينِ.. ما هما ؟ وأين ملتقاهما، أو مجمعهما ؟

والذي أميل إليه، أنهما خليج السويس، وخليج العقبة، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالا ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء.. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما.. أي هو مجمعهما، وهو مجمع

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٠

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ١٩

البحرين..

ويقوي هذا الرأي، أن تحرك موسى بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء، حيث ضُرِبَ فيها التيه على بني إسرائيل أربعين سنة. والله أعلم

فلما وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالخضر عليه السلام نسيا حوتهما، وبيان ذلك كما جاء في السنة: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. قَالَ: قُلْتُ لاِبْنِ عَبّاسٍ: إِنّ نَوْفاً الْبَكَالِيّ يَزْعُمُ أَنّ مُوسَىَ عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ، عليه السلام فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوّ اللّهِ. سَمِعْتُ أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: « قَامَ مُوسَىَ عليه السلام خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيّ النّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. قَالَ: فَعَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىَ اللّهُ إِلَيْهِ: أَنّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَىَ: أَيْ رَبّ كَيْفَ لِي بِهِ ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ. وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَىَ عليه السلام حُوتاً فِي مِكْتَلٍ. وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ. فَرَقَدَ مُوسَىَ عليه السلام، وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتّىَ خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللّهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ، حَتّىَ كَانَ مِثْلَ الطّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً وَكَانَ لِمُوسَىَ وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَىَ أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمّا أَصْبَحَ مُوسَىَ عليه السلام قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتّىَ جَاوَزَ الْمَكَانَ الّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَىَ الصّخْرَةِ فَإِنّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاّ الشّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً.

قَالَ مُوسَىَ: ذَلِكَ مَا كُنّا نَبْغِ فَارْتَدّا عَلَىَ آثَارِهِمَا قَصَصاً، قَالَ: يَقُصّانِ آثَارَهُمَا، حَتّىَ أَتَيَا الصّخْرَةَ فَرَأَىَ رَجُلاً مُسَجّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلّمَ عَلَيْهِ مُوسَىَ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنّىَ بِأَرْضِكَ السّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىَ، قَالَ: مُوسَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنّكَ عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَكَهُ اللّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىَ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللّهِ عَلّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَىَ عليه السلام ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ

تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ ﴾. قَالَ: نَعَمْ.

والحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة حيث قال مرة ﴿ سَرَبٗا ﴾ وقال مرة أخرى ﴿ عَجَبٗا ﴾: الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: (فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً)[(١)].

فَسِرُّ اختلاف التعبير، هو الناحيةُ التي لحظها التعبير القرآني، والزاوية التي نظر للقصة من خلالها.

فهو في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظ حركة الحوت في البحر فقال ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾.

أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى ؏ وفتاه، ويلحظُ أَثَرَ حركة الحوت على نفسية وشعور موسى وفتاه، ولاشك أنهما سيعجبان من حركة الحوت، ولذلك قال: ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴾.

«ونشير هنا إلى أن العجب الذي أثارتْهُ حركةُ الحوتِ وَبَعْثُهُ، ليس مبعثه الإنكار والاستغراب، لأن موسى ؏ وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشة المفاجأة، والانفعال بها»[(٢)].

ومثارُ التعجب: أن يحيا حوتٌ مُمَلَّحٌ، ثم يثب إلى البحر ويبقى أثرُ جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر !

ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ﴾ وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) مع قصص السابقين في القرآن الكريم ٢/ ٢٠٤ «دروس في الإيمان والدعوة والجهاد» صلاح عبد الفتاح الخالدي.

والعبودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خلق الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر ﷺ من اجتهادٍ في العبادة، وهذه صفة أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح، وفي وصفه ﷺ بأنه عبد من عباد الله: ردٌّ على كل من غالى في شأن الخضر حتى توهم بعض الغلاة أن الخضر لا يزال على قيد الحياة وأنه يظهر لبعض الناس فيرشدهم ويوجههم ! وهذا كلام لا يشهد له نقل صحيح ولا يصدقه عقل راجح، ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ قيل: الرحمة هي النبوّة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وهو ما خصَّه الله تعالى بعلمه ومعرفته، وفي قوله ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له وبيانٌ لخصوصيته واختصاصه ﷺ به.

لما التقى موسى بالخضر وتم التعارف بينهما طلب موسى ﷺ من الخضر أن يتبعه حتى يقتبس من علمه وينتفع به.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

طلب منه موسى ﷺ حين لقيه أن يتبعه ليقتبس من علمه ويسترشد منه ما ينفعه في دينه ودنياه، إذ الغايةُ من تحصيل العلم هو الانتفاع به والتماس الرشد منه.

فترفَّق موسى ﷺ في طلبه وتواضع في سبيل تحصيل العلم «وفي هذا العرض أمور:

- استئذان مصحوب برجاء وتلطف..
- أن يكون موسى تابعاً يقفو أثر متبوعه، ويمشي في ظله.
- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيل العلم والمعرفة، فيفيد موسى علماً وينال العبد الصالح أجراً.
- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علم علمه، وإذن فهو مطالب بأن يعلّم كما عُلِّم..
- هذا العلم المطلوب تعلُّمه، هو مما يكمُلُ به الإنسانُ ويرشُد.. فهو علم يهدي إلى الحق وإلى

الرشاد، لا إلى الضلال والفساد»[(١)].

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾: بيَّن له الخضرُ أن الرحلةَ معه ومتابعتَهُ تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، ففيها من المفاجآتِ والعجائبِ ما قد يُخْرِجُ عن حدِّ الصبر.

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ فقدَّم له العذرَ لما سيلقاهُ من عجائبَ وغرائب.

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ أي: كيف تصبر على علم ظاهره منكر، وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكرٍ والإقرار عليه.

لكن موسى عليه السلام أصرَّ على متابعته مستعينا بالله تعالى ومؤملا أن يلهمه الصبر والثبات ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

فاشترط عليه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾: أي إذا رأيت مني شيئاً تنكره فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك.

أين ذهب الفتى ؟

قال الماوردي: « يحتمل أن الفتى تأخر عنهما لأن الإخبار عن اثنين، ويحتمل أن يكون معهما ولم يذكر لأنه تَبَعٌ لموسى، فاقتصر على حكم المتبوع»[(٢)].

خرق السفينة !

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٦٥٢.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٥٥٨.

جاء في الحديث (... فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ. فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ. فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا. ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ...)[١].

أنكر موسى على الخضر خرقَه للسفينة لما يترتب على ذلك من غرق أهلها، وظن أن هذا من مقابلة إحسانهم بالإساءة، ثم حكم على هذا الفعل بأنه أمر عظيم منكر ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾: لقد أتيت أمراً عظيماً وارتكبت جرما كبيرا ![٢]

فعاتبه الخضر عليه السلام وذكره بما اشترطه عليه عند أول لقاء فاعتذر له موسى عليه السلام بقوله ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

قتل الغلام !

قال تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) أنكر موسى عليه السلام على الخضر خرقَ السفينة وجاء التعبير بكلمةٍ حَوَتْ معانيَ كثيرة كلُّها تدلُّ على فظاعة وبشاعةِ التسبب المتعمد في إغراق الأبرياء، وهنا نسجل للتاريخ تلك المآسي التي تنتج عن الإهمال والتقصير والطمع من أصحاب البواخر والعبارات، والتغاضي والسلبية من بعض المسؤولين، كما حدث للعبارة التي غرقت في عرض البحر الأحمر، ومات عليها أكثر من ألف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انطلقا بعد أن غادرا السفينة حتى لقيا غلاما يلعب مع أقرانه فأخذه الخضر من بينهم وقتله، وهنا غضب موسى عليه السلام أشدَّ الغضب، وحزن على موت هذا الغلام، فقال منكرا على الخضر ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾!

قال صاحب الظلال: « وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها؛ فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبرى لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾...»[(١)].

﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾: زكية طاهرة لم تذنب، بريئةً لم تُجرِمْ !

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ أي: فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع، قيل: معناه: أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ زاد هنا لفظ « لك »، لأن سبب العتاب أشد، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني، ولأنه سبق له أن قال له ذلك، فبادر موسى عليه السلام بالاعتذار فقال ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي: بعد هذه المرة، ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ أي: لا تجعلني صاحباً لك «نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف»[(٢)].

إقامة الجدار في قرية اللئام !

قال تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٣٢.

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

لقد انطلقا حتى أتيا أهل هذه القرية، وقد استبدَّ بهما الجوعُ فاضطُرَّا إلى استطعام أهلِها، فإذا هُمْ أشحةٌ لئامٌ، أبوا أن يضيفوهما، مع ما عندهم من سَعةٍ، وهنا ينصرفُ الخضر إلى أداء مهمة عاجلة، إقامة جدارٍ قبل انقضاضه، فيتعجب موسى من صنيعه ويقول له: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ؟ فيجيبه الخضر بقوله ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ لقد حانت ساعة الفراق ليمضي كلٌّ إلى حال سبيله، ولكن قبل المفارقة لا بدَّ من مكاشفةٍ.

المكاشفة قبل المفارقة

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف ٧٩-٨٢].

السفينة ؟

كشف له الخضرُ عن الحكمة من هذه الأفعال التي أنكرها عليه: فبدأ بالسفينة، مبينا أنها كانت ملكا لمساكين يعملون في البحر، لا يكادُ دخلُها يُوفِّي بنفقاتهم، ومع ذلك كانت كغيرها من السفن مطمعا للملكِ غاصبٍ، يستولي بقوته الغاشمة وسلطانه الجائر على كلِّ سفينةٍ صالحة ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ خلفهم وفي إثرهم، ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب، فإذا مرَّ بها تركها لعيبها فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها.

الغلام ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

وأما الغلام الذي بادر لقتله: فلقد كان لأبوين صالحين، وكان في بقائه وقد طبع على الكفر إرهاقٌ وإحراجٌ لهما، ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾ رحمةً بهما وإشفاقاً عليهما، ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾: ديناً وعملاً وصلاحاً، ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾: أوصلَ رحما وأبرَّ بهما.

روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً)[1].

الجدار ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحا، فنفعهما الله بصلاحه وقيَّض لهما الخضرَ ليقيم الجدارَ حمايةً للكنز، حتى إذا بلغا أشدهما استخرجاه.

ولعل التعبير عن القرية بالمدينة: « لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح»[2]، وكم عرفت بلادٌ واشتُهرت بصالحيها ونجبائها.

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي نعمة من ربك ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي « باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي، لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم، لا يكون

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. حديث ١٧٢ - (٢٣٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٣٨ .

إلا بالنص وأمر الله تعالى»[١].

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي وما فعلت ما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأي، وإنما فعلته بأمر الله، وهذا يدل على أنه نبيٌّ أوحي إليه.

قال ابن عطية « والخضر نبيٌّ عند الجمهور، وقيل هو عبدٌ صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته، لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي من الله»[٢].

وقال أبو حيان: « والجمهور على أن الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن قد أوحيت إليه وعلم موسى الأحكام والفتيا بالظاهر»[٣].

﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ تفسيرُ وبيان ما لم تطق أن تصبرَ عليه.

الصلة بين قصة موسى والخضر ومحور السورة

جاءت قصة موسى والخضر لتبين لنا أهمية العلم النافع، وبركة اتباع العلماء، وأثر الصحبة المباركة في العصمةِ والنجاةِ من براثنِ الفتنِ، وبهذا تنتظم هذه القصة مع محور السورة الذي يدور حول العواصم من الفتن.

الهدايات المستنبطة من القصة

* السفر في طلب العلم وعلو الهمة وقوة العزم في طلبه، والصبر على المشقة والعناء ومكابدة الصعاب التي تعترض طالب العلم.
* يستحب للمسافر أن يطلب الرفيق قبل الطريق، و شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميراً والثاني مأموراً له ومتابعاً، ومنها أن يعلم الرفيق عزيمته ومقصده ويخبر عن مدة مكثه في سفره، ليكون الرفيق واقفاً على أحواله، فإن كان موافقاً له يرافقه في ذلك.

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٢٩ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ١٤٧ .

* قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾: فيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ تَبَعٌ لِلْعَالِمِ، وَلَوْ تَفَاوَتَتْ الْمَرَاتِبُ، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، وفيه الحاجة إلى التخصص الدقيق في العلم، والرجوع إلى أهل التخصص.

* العلم بحر لا ساحل له، تأمل في حوار موسى مع الخضر حين لقيه «... حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلاً مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ...».

* ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه فلعلَّه ينطوي على حكمةٍ لا يعرفها.

* تعلمُ العلم عبادةٌ وقربةٌ، وهو ليس غايةً في ذاتِهِ بل الغرضُ الانتفاعُ به في أمورِ الدينِ والدنيا، ولهذا قال: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾، أي أسترشد به وأتزود منه لدنياي وآخرتي.

* قال ابن القيم: العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه» فهذا هو العلم اللدني الحقيقي[(١)]

* وقال أبو حيان رحمه الله « وفي قول الخضر لموسى: من أنتَ ؟ وقد علمه الله بواطن الأشياء ومآلها دليل على كذب هؤلاء المتمين للتصوف المدعين علم الغيب والكشف عن أحوال

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٤٧٦ .

الناس أعاذنا الله من ذلك»[١].

* ورد في القصة مؤهلات المعلم والمربي والمصلح: وهي العبودية، الرحمة، العلم، الإخلاص، النصح، البذل، الإحسان، فلا بد أن يكون مجتهدا في العبادة، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق والتي تمثلُ الرحمةُ لبابَها وأساسها.

* في تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، فلا يعقل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يهدد خطرَ الإنسانية وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر ولوَّثوا الأجواءَ والأجوافَ، كذلك رأينا كيف عَدم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليمُ تجارةً رابحةً لا رسالةً ساميةً، وصار التعنتُ شعارَهم ودثارَهم.

* كذلك انتُزعت الرحمة من قلوب بعضِ طلاب العلم، فأساءوا إلى معلميهم، ولربما تطاولوا عليهم !

* ومما يستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

* تحلي طالب العلم بالصبر والأناة وتأدبه مع شيخه وترفقه عند السؤال.

* ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه «المقابلة الشخصية» وذلك لطلاب العلم خاصة العلم الشرعي لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهمَّتِهِ في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جِدٍّ واجتهاد وبذل وعطاء.

قال صاحب روح البيان: « يمتحنه بأن يخبره عن دِقةِ صراطِ الطلبِ وعزةِ المطلوبِ وعُسرتِه، وفي ذلك يكون له مبشِّراً ولا يكون منفراً، فإن وجده صادقاً في دعواه وراغباً فيما

(١) تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر المحيط ٦/ ١٤٢ .

يهواه معرضا عما سواه يتقبله بقبول حسن ويكرم مثواه ويقبل عليه إقبال مولاه ويربيه تربية الأولاد ويؤدبه بآداب العباد»[١].

* وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ فالتمس له العذر في ذلك لما سيلقاه من عجائب وغرائب.

* ومنها الإشارة إلى جملةٍ من مناقب نبي الله موسى عليه السلام ومنها الصدق وعلو الهمة والمثابرة وحسن الصحبة والتواضع واللين والحياء والإيجابية.

* ومن الفوائد المهمة: ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع لدراسة الواقع والتعامل معه ومعايشة هموم الناس وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث.

* وفيها: « دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته...»[٢]، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تغفل عن هذا المسكين الذي لا يستطيع بدخله المحدود أن يلبي احتياجات بيته، في ظلِّ هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية والغلاء الفاحش الذي تعاني منه معظمُ الشعوب المسلمة حيث تتسع الهوَّة بين الأغنياء الفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم.

* ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرَّين، ولقيا العنت، فكان موتُه راحةً لهما ورحمةً بهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصدق من قال:

---

(١) روح البيان للبروسوي ٥/ ٢٣٥.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٧.

عَطِيَّتُهُ إِذَا أَعْطَى سُرُوراً وَإِنْ أَخَذَ الذي أعطَى أَثَابَا

فَأَيُّ النعمتينِ أجلُّ قدراً وَأَحْمَدُ في عَوَاقِبِهَا مَآبَا ؟

أَنِعْمَتُهُ التي أَهْدَتْ سُرُوراً ؟ أَم الأُخْرَى التي أَهْدَتْ ثَوَابَا ؟

بَلِ الأُخرَى وإن نزلتْ بِكُرْهٍ أَحَقُّ بِشُكْرِ مَنْ صَبَرَ احتِسَابَا

* ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

* ومنها: أن الأمور تجري أحكامُها على ظاهِرِها، وتعلق بها الأحكامُ الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى ﷺ أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى ﷺ لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل ﷺ وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

* ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز ولو من غير إذن.

* **ومن لطائف الفوائد**: التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ فقال ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾ لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد.

* ومن العبر والعظات المستمدَّةِ من القصة: أنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيَّض نبيين مثل موسى والخضر عليهما السلام في مصلحة يتيمين فعلى العلماء والدعاة أن لا يضنُّوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم.

* وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام والحمد لله تقام في طول بلاد المسلمين وعرضها جهودٌ طيبةٌ لكفالة الأيتام.

* ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته الصالحة من بعده، قال محمد بن المنكدِر: « إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله»[(١)].

* إذا رأى المسلم منكرا فيجب عليه أن يسارع إلى إنكاره أيّاً كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل، لاحتمالِ أن يكون للمسألة وجهٌ؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف.

(١) معالم التنزيل للبغوي ١ / ١٩٥.

-٦-

قصة ذي القرنين

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣ – ٩٨].

المناسبة

بعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عِبَرٍ وعِظاتٍ، يأتي الحديثُ عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكّن الله له، وهيأ له الأسبابَ فأخذ بها، واجتهدَ في استثمارها وتطويرها، فطوّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً وعبداً شكوراً، فملأ الدنيا عدلاً ونوراً.

طاف موسى ﷺ طلباً للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلّغ دعوة

الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويُرسِّخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة.

كذلك تضعُنَا الآياتُ أمام مقارنةٍ بيِّنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكِّره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظِّف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

المعنى الإجمالي

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ فما جوابي عن سؤالكم إلا من الذكر الحكيم، فهل من متأملٍ ومعتبرٍ ؟

جاءت القصة جواباً عن سؤالهم عن شأن هذا الرجل الصالح الذي مكَّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثياب العز وتاج الوقار والهيبة.

أما اسمه فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال كثيرة منهم من قال هو الإسكندر المقدوني ومنهم من زعم أنه قورش الفارسي أو دارا الفارسي أو أفريقس أو ملك من ملوك اليمن أو ابن فرعون مصر، والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدُها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن والاحتمال، فضلا عن أن ذا القرنين كان مؤمناً موحداً.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ مكَّن الله له فسعى جاهداً ومتجرِّداً لنشر الحق والعدل.

والذي يعنينا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء.

ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾: مكّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنحِ

والمواهبِ على أتمِّ وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقا إلى ريادةِ الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكَّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكينا عظيما في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبتِ أعدائِهِ وتحقيق مراده.

والسبب: هو الوسيلة التي يُتوصَّل بها إلى المطلوب.

قال ابن عباس: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ عِلْماً يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العِلْم بالطُّرق والمسالك.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: سلك وسار طريقا يوصلُهُ إلى المقصود، وأخذ بكلٍّ ما أمكنه تحصيله من علومٍ، وتتبع السبلَ والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته في الدعوة والإصلاح ونشرٍ العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات بل كان تمكينه من منطلق الأخذ بالأسباب، وفق نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

الرحلة إلى المغرب

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً بما هيأه الله له من أسباب، حتى شاهد غروبها ﴿ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾عين ماء ذات حمأة، وقرئ (فِى عَيْنٍ حامِيَةٍ) يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة. جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها.[1]

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥ / ١٨٥ .

والمقصود بقوله تغرب في عين حمئة: أي كما ترى العين لا في الحقيقة إذ الشمس لا تغرب في الماء وإنما يبدو ذلك للناظر.

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾: لما تمكن منهم وخُيِّرَ في شأنهم: كان حَكَماً مقسطاً، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، « فقال ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي قولاً ذا يسر وسهولة كما قال قولاً ميسوراً، ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً.

وفي تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلم بيِّنٍ، وصدٍّ عن الحق، مما يستوجبُ معاقبتَهم.

لذا قال ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ وجاء التعبير بسوف: ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ للدلالةِ على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب.

وقوله ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم.

قال البقاعي: «﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي شديد النكارة لأن العقل يحارُ في أمره لأنه لم ير مثله ولا قريباً منه ليعتبره به»[(١)].

(١) نظم الدرر للبقاعي ٤/ ٥٠٢ بتصرف.

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحا فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلا عن حسن معاملته في الدنيا، وسنقول له من أمرنا يسرا: فهو أهلٌ لكلِّ فضل وسماحةٍ.

قال الرازي: «﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما؛ ذلك أنه إذا دخل في دين الله عز وجل يلقى في رحابه اليسر والسماحة، وهذه سياسةُ العدلِ والإنصافِ»[1].

« فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والودَّ والقربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسطِ في الدنيا، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يداه في حياته الأولى»[2].

«... وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد»[3].

الرحلة إلى أقصى الشرق

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقا آخر إلى أقصى الشرق

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/ ١٦٨.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن ١٦ / ١٢ بتصرف.

ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: « وقوله ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرقَ المؤديةَ إلى مقصِدِهِ، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضَهُ أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره»[(١)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ قيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، أو لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍّ من جميع مظاهر التمدُّن والرقيِّ.

ولا بدّ أنه رحمه الله – وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح – قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة المؤمن رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير رسالة نهوض وتطوير.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ﴾ أي لا يعزب ذو القرنين وجيوشُه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرَّق أو غرَّب في محيط ملكِ الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكلٍّ هذه البلاد البعيدة التي

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٤٠.

وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط ربُّ العالمين خبرا بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطارِ قائداً مُظَفَّراً وحاكماً عادلاً.

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب أهل الكفر والطغيان وسالَمَ أهل الحقِّ وكرَّمهم وقربهم وبشَّرهم بما عند الله من ثواب عظيم.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾ فلا يزال يرتقي سُلَّمَ النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدلُّ على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

الرحلة الثالثة

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٨].

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجَّه بهذا الخير إلى موضعٍ عبَّر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وَعِرانِ، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدا منيعا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

وقوله ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وجد ذو القرنين من دون السدّين قوما لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يُفقِهون أحدا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب[١].

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السدِّ، وأجرة بنائه ليحميهم من أولئك المفسدين.

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

أجابهم هذا القائد الزاهد والإمامُ الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادا وعزماً واجتهادا في غرس بذور الخير أينما حلَّ.

قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطّأه لي، وقوّاني عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلة وصُنَّاعٍ يُحسنون البناء والعمل[٢].

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما، والردم: هو

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ١٨ / ١٠٣، قرأ حمزة والكسائي وخَلَف بضمّ الياء وكسر القاف: (يُفقِهون) من أفقهت فلانا كذا أفقهه إفقاها: إذا فهمته ذلك، والباقون بفتح القاف والياء، من فقَه الرجل يفقَه فقها. النشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٥ والغاية في القراءات العشر ١٩٩ والسبعة ص ٣٩٩.

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ١١٣.

الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردما تواضعا.

جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة التواضعَ الرفيعَ والإيمانَ العميقَ والنفْسَ الراضية العفيفةَ، والأياديَ السخيةَ النظيفةَ، والأريحية والشَّهامة: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

لم يستغل حاجتُهم في تجريدِهم من الممتلكاتِ والثرواتِ، كما تفعلُهُ في عصرِنا الحاضرِ الأممُ الغالبةُ «المتحضرة» مع الشعوب المقهورة «النامية» من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم ! والتآمر على بقائهم تحت وطأة الجهلِ ونير الاستبداد.

ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركَّبة، تطوِّقُ بها أعناقهم وتُلهب بها ظهورَهم، وتنتزعُ ولاءَهم وخنوعهم ! وترغِمُ أنوفَهم.

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ﴾ أي جيئوني بزُبَرِ الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد.

فجعلها بين الصدفين أي حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبر الحديد، قال للعمَّال: انفخوا النار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾، أصبّ عليه قِطراً، والقِطْر: النحاس.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقُه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلةِ الناجحة.

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾: فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله

ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلُّوه ومَلاسَته ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسُمْكِهِ وصلابَتِهِ.

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أي: مساوياً للأرض، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي: كائناً لا محالة.

فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أَمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْش أَنَّ النَّبِيّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»... الحديث [١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْم حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الأنبياء - باب: قصة يأجوج ومأجوج - ٢/ ٣٦٨ حديث رقم: -٣٣٤٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، - ٤ / ٢٢٠٧ - حديث رقم: ٢ - (٢٨٨٠).

أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شَكَراً مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ[1].

المناسبة بين محور السورة وقصة ذي القرنين

تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة وهو كما أسلفنا: حول العواصم من الفتن: فتبرز لنا أهمية التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاةِ من الفتن.

كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دورُ الحاكمِ العادلِ في حمايةِ البلادِ من شرورِ الفتن.

الهدايات المستنبطة من قصة ذي القرنين

* من عوامل النهوض وأسباب الرقيِّ: الأخذُ بالأسبابِ المُعِينَةِ على ذلك من الإيمانِ الخالصِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.

* ويحضرني في هذا المقام قول إقبال

لو يمسَّ التوحيدُ فكراً نقيّاً وضميراً حيّاً وقلباً أبيّاً

لأحال الخمولَ والضعفَ إيماناً وعزماً يغزو نجومَ الثُّريَّا

* في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائدِ الراشدِ والحاكمِ العادلِ والفاتحِ المؤيَّد الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين

---

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجة في السنن كِتَاب الْفِتَنِ بَاب فِتْنَةِ الدَّجَالِ وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ٢/ ١٣٦٤ حديث ٤٠٨٠ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٥١٠ ورواه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٠٩، وقوله: (فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً) بِفَتْحِ النُّونِ وَالْغَيْنِ الْمُعْجَمَة: دُودٌ يَكُونُ فِي أُنُوفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ جَمْعُ نَغَفَةٍ.

ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق

* ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعُوِّين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.

* من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله، وسلم لأولياء الله، يدني أهل الطاعة ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائماً بفضل الله ورحمته ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروه: قال ابن العربي: « وَعَلَى الْمَلِكِ فَرْضٌ أَنْ يَقُومَ بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ، وَسَدِّ فُرْجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَنَتُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتْهَا الْحُقُوقُ، وَأَنْفَدَتْهَا الْمُؤَنُ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرُ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

الثَّانِي: أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينُهُمْ.

الثَّالِثُ: أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ الْخِزَانَةِ وَبَقِيَتْ صِفْراً، فَأَطْلَعَتْ الْحَوَادِثُ أَمْراً بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالُهُمْ تُؤْخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ.

فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْت أَحْتَاجُ إلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، أَيْ اخْدُمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ لَا تُغْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إنْ أَخَذُوهَا أُجْرَةً نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ فَكَانَ

التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَى[(١)].

* في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرِّهم وتقويم سلوكهم.

* ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمِهِ وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج.

* ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شكر المنعم وإجلالُهُ والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: « فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مُوليها وقال: ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان ﷺ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾، [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم تزيدهم أشرا وبطرا»[(٢)].

* ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد ويقطعون دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد إقبال:

فأين جحافلُ الأبطالِ منا　　　يضيء مسيرُها للسالكين
وتغبطُها شعوبٌ أرهقتها　　　بالاستبدادِ أيدي الظالمين

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٨٦.

خاتمة السورة

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ٩٩ - ١١٠].

المناسبة:

جاءت خاتمة السورة الكريمة متسقةً مع سياقها ومحورها:

حيث بينت جزاء المخدوعين المفتونين الذين اغتروا بزخرفِ القولِ وانقادوا للأهواءِ فغرقوا في خضم الفتن، وتاهوا في شعابها السحيقة، وفي المقابل تذكرُ خاتمة السورة عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجاهم من الفتن فكانت لهم جنات الفردوس نزلا، ثم تختم السورة بما بدأت من حديثٍ عن كلمات الله التي لا يحصيها عدٌّ ثم العودُ إلى التذكير بطريق العصمة والنجاة والفوزَ والرضوان، وهو طريق سهلٌ واضحٌ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

من هنا يتبين لنا وجه المناسبة بين مضمونها وبين ما ورد في فضلها، كما ذكرنا في فضائل السورة الكريمة أن قراءة العشر الأواخر منها عصمة من الدجال، مع ملاحظة ما ذكرناه في مقدمة السورة أن العشر الأواخر في عدِّ المدني الأول والأخير والمكي تبدأ من قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ وتنتهي بنهاية السورة.

المعنى الإجمالي

من مشاهد القيامة

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٩ - ١٠٢]

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾: لما فرغ ذو القرنين رحمه الله من بناء السد الذي صار حاجزا بين يأجوج ومأجوج والبلدان المنكوبة، فمنعوا من الخروج، وماج بعضهم في بعضٍ خلف هذا البنيانِ المَشِيدِ، وقيل هذا التفات لما يجري قبل قيام الساعة من شدة الزحام واختلاط الناس، وقيل عند انفتاق السدِّ وخروج يأجوج ومأجوج واختلاطهم بالناس وما يحدث من هرجٍ ومرجٍ[1].

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾: النفخة الثانية التي تجمع الناس كما قال سبحانه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وكما في الصحيحين « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْماً ؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْراً ؟ قَالَ أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْماً وَاحِداً وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ومعنى عرض جهنم: إبرازها وكشفها للذين

---

(١) يراجع: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٣٦، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٥ / ٢١٢، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الزمر: ٦٨ حديث ٤٥٣٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ما بين النفختين الحديث١٤١- (٢٩٥٥).

عموا عنها في الدنيا، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفزع.

﴿ عَرْضًا ﴾ أي عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادَر قدرُه، وتخصيصُ العَرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمعِ قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)[١].

﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

الذين كانوا في غفلة وإعراض عن النظر في آيات الله و التفكر والاعتبار، ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ نفى عنهم السمع، أي: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله.

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

أحسبوا أن ما عبدوه من دون الله ينفعهم ؟ ويشفع لهم عند الله ؟ ويدفع عنهم عذابه؟ فقد أعددنا لهم نزلا لا يناسبُ جُرمَهم، ولو أمعنوا النظر وأصغوا السمع لتراجعوا عن هذه الحسابات الخاطئة والمزاعم الواهية.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ قال أبو السعود: « وفيه تخطئةٌ لهم في حسبانهم وتهكُّمٌ بهم حيث كان اتخاذُهم إياهم أولياءَ من قبيل إعتاد العتادِ وإعدادِ الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم من العُدة والذُّخر جهنمَّ عُدّةً»[٢].

فتنة الأهواء

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حرّ نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين حديث ٢٩-(٢٨٤٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٤٨.

﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٢ – ١٠٦].

بعد إنكاره عليهم اتخاذهم عباد الله أولياء من دونه، بين تعالى خسرانهم المبين وضلالهم البعيد وتقليدهم الأعمى وتعصبهم المقيت لما هم عليه بسبب فتنة الأهواء التي تزين القبيح، فجمعت السورة الكريمة بين فتنة الدنيا وفتنة إبليس وفتنة الهوى حتى يكون المسلم على حذرٍ ويسلك طريق العصمة من هذا الخطر.

وقد قيل

إني بُلِيتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا ... إلا لشدةِ شقوتي وعنائِي

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائِي ؟

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

من أشدِّ الفتن وأعظمها خطرا وأعمقها أثرا فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيغ، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الأدلة الشرعية والفطرة النقيَّة والعقول الراجحة، فتراهم يتهربون من سماع الحق والنظر في أدلته وبراهينه ولا يُسلمون بالحججِ، فيؤثرون الهوى على الحق ويشترون الضلالة بالهدى.

شأن أصحاب الملل الوضعية والمحرفة والمذاهب الضالة، ممن انتصروا لأهوائهم وتعصبوا لآرائهم، وانخدعوا ببريق الدنيا وتعلقوا بسرابها، واغتروا بالمال، وانحازوا إلى السلطان، وتفاخروا بالأهل والعشيرة.

وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم من الأعمال الحسَنةِ في أنفسهم وفي حُسبانهم أيضاً حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدةِ آثارِها.

روى البخاري في صحيحه بسنده عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبِي ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾: هُمْ الْحَرُورِيَّةُ ؟ قَالَ: لا: هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: أَمَّا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا

مُحَمَّداً ﷺ وَأَمَّا النَّصارَى: فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمْ الْفَاسِقِينَ[(١)].

فالأخسرون أعمالا: هم « الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً وفضلاً فنالوا به عَطَباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكِسَ في الذي رجا فضله.

وقال ابن العربي: «... وَيَرْجِعُونَ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، إِنْفَاذاً لِمَشِيئَتِهِ، وَحُكْماً بِقَضَائِهِ، وَتَصْدِيقاً لِكَلَامِهِ.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ [آل عمران: ٧] كَأَهْلِ حَرُورَاءَ وَالنَّهْرَوَانِ، وَمَنْ عَمِلَ بِعَمَلِهِمْ الْيَوْمَ، وَشَغَبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أُولَئِكَ حِينَئِذٍ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرٌّ مِنْهُمْ.

الصِّنْفُ الثَّالِثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَضَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَلْحَقُ بِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْنَوْا زَمَانَهُمْ النَّفِيسَ فِي طَلَبِ الْخَسِيسِ»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فرؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعُهم مقلِّدون بغير دليل»[(٣)].

(١) صحيح البخاري في تفسير سورة الكهف (٩٥٣٤) ٤١/ ٣٥٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٥/ ٣٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ٢٠١ والحرورية نسبة إلى حروراء قريةٌ انحاز إليها الخوارج فنُسِبُوا إليها.

فالآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) ﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور: ٣٩].

عاقبة الأخسرين أعمالا

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾

فهؤلاء الأخسرين لا قيمة لهم ولا وزن لهم عند الله تعالى، وذلك يدلُّ على خستهم وحقارتهم وضلال سعيهم، كما لا يثقل لهم ميزانٌ يوم القيامة، بل الوزن عليهم لا لهم، إذ لا يعتدُّ بما جاءوا به.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ اقْرَءُوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[1].

---

(١) صحيح البخاري - باب ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ رقم (٤٧٢٩)، وصحيح مسلم - صفة القيامة والجنة والنار - رقم (٢٧٨٥).

مسك الختام

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [**الكهف ١٠٧- ١١٠**].

بعد الحديث عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، المعجبين بالباطل، وبيان مصيرهم المحتوم، ونهايتهم الأليمة، تهبُّ نسائمُ الخيرات، وتفوحُ أطايبُ المسرات، لأهل الإيمان والأعمال الصالحات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة، فلا يملُّون ولا يفتُرُون ولا يتحولون عنها، كيف وقد جمعت معاني الحسن.

وقد جاء في الحديث الصحيح قولُ نبيِّنا ﷺ (... فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)[1].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

ثم يأتي هذا الختامُ وقد حوى جوامعَ الكلم وناسب ما جاء في مقدمة السورة الكريمة وثناياها من آيات بينات وحجج نيرات.

فكلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ، وكنوزٌ لا تحصى، فلو كانت كل قطرة من بحار الدنيا مداداً، ولو استحالت جذورُ الأشجار

(١) صحيح البخاري - باب درجات المجاهدين في سبيل الله - رقم (٢٧٩٠).

وجذوعُها وأغصانُها أقلاما، لتكتب بها كلمات الله لنفد المداد والأقلام قبل أن تنفد كلمات الله.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾

ختمت السورة الكريمة بما بدأت به من بيان مهمته ﷺ وطبيعته فهو بشر كسائر البشر، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

فمن كان في شوق للقاء مولاه، راجيا رضاه فليُعدَّ لهذا اللقاء زادَه وعُدَّتَهُ.

الصلة بين محور السورة وخاتمتها

لما جلَّت لنا السورة الكريمة الفتن القواصم: حذرت من أولئك الغارقين في بحار الفتن المائجة وهم لا يبالون بالخطر الذي يتهددهم والعذاب الذي يترصَّدهم، بل لا يسلمون بأنهم على ضلال مبين، وأدهى من ذلك وأمرُّ ما أصابهم من عُجبٍ واغترار بما هم عليه من ضلالٍ.

ثم يجيء مسك الختام ببيان عاقبة الذين عصمهم الله من الفتن وسهل لهم طريق النجاة بإيمانهم وصلاحهم، ثم الإشارة الأخيرة لهذا الطريق ونبينا الهادي إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

الهدايات المستنبطة من الخاتمة

في تذكر أهوال يوم القيامة واستحضار مشاهدها: تسليةٌ وتثبيتٌ، وعظةٌ واعتبارٌ لأهل الحقِّ، وترهيبٌ للمعرضين المفتونين.

من أشدِّ الفتن وأعظمها خطراً وأعمقها أثراً: فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيغ، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الفطرة النقيَّة

والعقول الراجحة.

زفَّت لنا خاتمةُ السورة الكريمة بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتنِ وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوزَ بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة.

كلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهرٌ لا ينضب، وعطاءٌ لا ينفدُ وكنوزٌ لا تحصى.

نبينا ﷺ بشرٌ كسائرِ البشرِ، جاء بوحي من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

سورة مريم

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ [١] بسورة مريم، حيث وردت فيها قصتها رضي الله عنها.

وفي ذلك تكريمٌ لها وتخليدٌ لذكرها، وتسجيلٌ لمآثرها ومناقبها، وتقديرٌ لصدقها وعفَّتها فضلا عما تحويه قصتُها من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، للمرأةِ العفيفةِ الطاهرةِ العابدةِ الزاهدة.

ولسوف نرى في هذه القصة: كيف تجلت الرحماتُ وتنزلت البركاتُ على هذه الصّديقة التي عاشت حياتها في كنف الرحمن، وعلى مائدته العامرة تغذتْ روحُها وارتوى فؤادُها.

ولما كانت قصتها أقوى دلالةً وأجلى بيانا على رحمةِ الله تعالى بعباده الذين تسنَّمُوا أعلى مقامات العبودية: سُمِّيَت السورةُ باسمها؛ فحيثما ذكرت مريم يرتبط اسمها برحمة الله تعالى لها، وكمال عبوديتها لله تعالى فهي ممن بلغن درجة الكمال الإنساني، كما في الحديث عن أبي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: (**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وفَضْلُ عَائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثّرِيدِ على سَائِرِ الطعَامِ**) [٢].

---

(١) هناك تناسب بين أسماء السور وبين مضمونها، حيث دلالة الاسم على المسمى، وفي ذلك يقول الإمام الزركشي تحت عنوان: « اختصاص كلِّ سورة بما سميت: «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز» **البرهان في علوم القرآن** للإمام بدر الدين الزركشي ١ / ٢٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله=

وأخرج الترمذي والحاكم عن أَنَس رضي الله عنه أَنّ النّبيّ ﷺ قالَ: (**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**)[1].

وعن هدف هذه السورة يقول الإمام البقاعي: « مقصودٌ بها بيانُ اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه، بما يدل على اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال...»[2].

ب. فضائل السورة.

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة أحاديثُ وآثارٌ ترغِّب في تلاوتها وتبيِّن مزيَّتها:

* فعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[3].

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني، والمثاني هي التي تلي المئين، والمئون: كل سورة بلغت مائة فصاعدا، والمثاني كل سورة دون المئين.

* وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « **بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي**»[4].

= تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾[التحريم: ١١] صحيح البخاري ٢/ ٣٩. حديث ٥١١٢، ورواه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٨٤، والدارمي في السنن ٧٥, ٢.

(١) حديث **صحيح**: رواه الترمذي في السنن عنه - كتاب المناقب باب / فضل خديجة ٥ / ٥١٥ حديث ٣٨٧٨ وقال حديث صحيح، و أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين «، ووافقه الذهبي ٢ / ٥٩٥ .

(٢) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** للبقاعي ٤/ ٥١٤ بتصرف.

(٣) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في **تفسير سورة الأنعام**.

(٤) رواه البخاري في **صحيحه** باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٧٦ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في **فضائل القرآن** حديث ١٣٣، وابن الضريس في **فضائل القرآن** حديث ٢١.. والعتاق الأول: أي من السور المكية، والعتاق جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلادي: أي ما حفظته قديما، وقال البيهقي « والعتاق: جمع عتيق، والعرب=

* وحين قدم وفدُ قريشٍ إلى النجاشي ملك الحبشة في طلب من هاجر إليها، دار حوارٌ طويلٌ بين جعفر بن أبيٍ طالب رضي الله عنه الذي تحدث باسم المهاجرين وبين النجاشي والقساوسة وبين وفد قريش: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ومعه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ: وكان فيما دار في هذا الحوار مما يتعلق بفضل السورة الكريمة: ما رواه الإمام أحمد وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «... **فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ (كهيعص)، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَداً**»(١).

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة. قال القرطبي «وهي مكية بإجماع»(٢).

- كان نزولها مبكّرا في العهد المكي، كما يتضح من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

=تجعل كلَّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا، يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم » **شعب الإيمان** للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

(١) **حديث حسن**: أخرجه مطولا الإمام أحمد في المسند ١/ ١ ,٢ : ٣ ,٢ وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد** «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحق صدوق يدلس وقد صرّح بالسماع» مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير- باب الهجرة إلى الحبشة ٦/ ٢٥ : ٢٨ - الحديث رقم ٩٨٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٧١ .

د. عدد آيات السورة.

عددُها في المدني الأخير والمكي تسع وتسعون، وعند الباقين ثمانٍ وتسعون آية.

واختلافهم في ثلاث آيات.

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾. عدها الكوفي، وتركها غيره.

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾ معدود للمكي والمدني الثاني، ومتروك لغيرهما.

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ﴾. منع ضمها الكوفي للآيات المعدودة وضمها غيره.

وكلماتها تسع مئة واثنتان وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان [(١)] .

هـ. محور السورة.

تدور آياتُ السورة الكريمة حول صفتين بينهما تناسبٌ وتلازمٌ:

الصفةُ الأولى: صفة الرحمة، وهي من صفات الكمال الرباني، والتي تتجلى في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وتفيض بظلالها على كل مخلوقٍ، ففي هذه السورة الكريمة نستشعر الرحمة في كل آيةٍ من آياتها، ونلمسها ونرى آثارها في كل معنى من معانيها.

ولقد تكرر اسم الله «الرحمن» وكلمة «رحمة» كثيرا في هذه السورة؛ مما يؤكد ويقرر الهدف العام من هذه السورة؛ ليمتلئَ قلبُ المؤمن ويفيضَ بالرحمات، ويعظُمَ رجاؤه ويستبشرَ فؤادُه برحمة الله، فيزداد من الله تعالى حبا وقربا ورجاءً، ويقوى يقينُه حين يعاينُ في رحلته مع هذه السورة الكريمة صورا ومشاهد تتجلى فيها لطائفُ الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء.

---

(١) يراجع: كتاب **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ١٨١، وكتاب « **أقوى العدد في معرفة العدد**» لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ، **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢,٦ **وفنون الأفنان في علوم القرآن** لابن الجوزي ص ٢٩١.

ومن رحمته تعالى التي تتجلى في هذه السورة الكريمة: إمهاله العصاة وصبرُه على المشركين مع إقامة الحجج ودحض الشبه وفتح باب التوبة والرجوع.

الصفةُ الثانية: وهي من صفات الكمال الإنساني ومن أسمى وأجلِّ المقامات وأسنى المقاصد التي من أجلِها خُلق الإنسان، إنها العبوديةُ لله تعالى وهي سموٌّ وارتقاءٌ وتحررٌ ونقاء وخشوعٌ وتبتُّل.

وإذا كانت رحمته تعالى هي من كمال صفات الربوبية، فإن غايةَ الإنسانية وكمالها في عبوديتها الخالصة لله تعالى، وهذه الصديقة العابدة مريم التي سميت السورة باسمها قد نذرتها أمُّها محررةً أي خالصةً للعبادة، وسمّتها مريم قيل تعني العابدة[1]، والعبودية لله سمو وارتقاء ونهوض وتحرر وعزٌّ.

من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

من هنا كان الهدف من هذه السورة: تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكماله، وتحقيق الغاية من وجوده والهدف الأساسي لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

قال ابن تيمية رحمه الله: « وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا»[2].

وقال رحمه الله: « من عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز»[3].

---

(١) قال ابن حجر «ومريم بالسريانية تعني الخادمة» **فتح الباري** ٦/ ٥٤١، ويراجع **روح البيان** للبروسوي ٢/ ٢٧، **ومحاسن التأويل**، للقاسمي ٤/ ٩١.

(٢) **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية ١ / ٢١٣.

(٣) نفس المرجع ٩ / ٢٩٧.

ومن هنا تتجلى لنا الصلة بين تعظيم الربوبية وتحقيق العبودية؛ إذ بقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهرا وباطنا، بقدر ما يزيد العبد إجلالا وتعظيما للرب سبحانه.

و. المناسبات في السورة.

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة كما ذكرنا يدورُ حول صفة الرحمةِ ومقام العبودية، وتأتي قصةُ مريمَ وقد ظللتها الرحمةُ وشمِلتها في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتها المباركة المديدة، فعاشت مريمُ في رحابها حتى في لحظات الامتحان التي مرت بها، من ذلك عندما تمثل لها روح القدس في صورة بشرية فلهجَ لسانُها بالاستعاذة من هذا الذي قطع عليها خلوتها، وهتف قلبُها متوسِّلا بالرحمن أن يحفظها ويصونها، فقلبها دائمُ التعلقِ برحمةِ الرحمنِ التي لا تفارقُها.

هذا بالنسبة لقصة مريم، أما باقي آيات السورة فإن رحمة الله تعالى تتجلى لنا في كلِّ آياتها وسائر قصصِها ومشاهِدِها، رحمة الله تعالى بأنبيائه عليهم السلام وسائر عباده المؤمنين، بل رحمته تعالى التي تشملُ الكافر في الدنيا حين يمهله ويخاطبه ويحاوره وينذره ويفتح له باب التوبة، ورحمته تعالى بإدخاله عبادَه المؤمنين الجنة.

وتتجلى الصلة بين اسم مريم وبين معنى العبودية من كون مريم قد نذرتها أمُّها محررة أي خالصة للعبادة وسمتها مريم أي العابدة بلغتهم، وقد بلغت الغاية في مقام العبودية لله تعالى من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها الذي يتجه نحو غايتين: الرحمة وبها كمال الفيض الرباني، والعبودية وهي غاية الوجود الإنساني.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة بالأحرف المقطعة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ﴾ وفيها تنويهٌ إلى أن القرآن كتابٌ عربيٌّ مبينٌ في حروفه وكلماته وجمله وأساليبه، وفي الختام تجلت الحكمة من نزوله بهذا اللسان العربي المبين ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

* ولما افتتح السورة الكريمة بالثناء العطر على نبي الله زكريا ﷷ وتذكير الأنام برحمة الله تعالى وعنايته به ورعايته له وثنائه عليه في الذكر الحكيم، وهو السجلُّ الخالدُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۞ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۞ ﴾ نرى في المقابل وعلى الجانب الآخر مَنْ طُوي ذكرُهم ومُحِيَت آثارُهم وطُمِرَت مراسمهم بعد أن كانوا ملءَ الأسماع والأبصار، قال تعالى في ختام السورة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۞ ﴾.

وصدق من قال:

أين الملوكُ الماضيةُ　　　تركوا المنازلَ خاليةً

جمعوا الكنوزَ بجَدِّهم　　　تركُوا الكنوزَ كما هِيَ

فانظرْ إليهم هل تَرَى　　　في دارِهِمْ من باقيةٍ

إلا قبوراً دارساتٍ　　　فيها عظامٌ باليةٌ

٣. المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة الكهف وسورة مريم: صلة واضحة جلية:

* اختتمت الكهف بتأكيد بشرية الرسول ﷺ ونبوته، وجاءت سورة مريم مؤكدة ومقررة بشرية المسيح ﷷ ونبوته قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۞ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ ﴾.

* وكما استهلت سورة الكهف بالتنويه على شرف نزول الكتاب على محمد ﷺ ووصفه بالعبودية وهي أسمى المقامات فقد استهلت سورة مريم بالتنويه على شرف ومكانة نبي الله زكريا واستحقاقه لأن يُذْكَرَ وتنشر محاسنُه في أشرف الكتب وعلى لسان خير الرسل، قال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۞ ﴾.

* ختمت سورة مريم بما بدأت به سورة الكهف من بيان مقاصد القرآن: قال تعالى في مطلع سورة الكهف ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف: ١ - ٢].

وقال تعالى في ختام سورة مريم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٩٧].

* أيضا لما بين في ختام سورة الكهف طريق النجاة والفلاح ذكر في سورة مريم نماذج إنسانية وأمثلة واقعية وتراجم عملية لمن نهج هذا الطريق من النبيين والصديقين، فجاءت قصة زكريا وابنه يحيى، ومريم وابنها عيسى، وإبراهيم وابنه إسحاق وابنه يعقوب، وموسى وأخيه هارون، وإسماعيل وإدريس عليهم السلام كما أعقب ذلك التنويه بسائر النبيين والصديقين.

* اختتمت الأولى بجزاء المؤمنين الصالحين وما لهم عند الله تعالى من مقام أمين ونزلٍ كريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧ – ١٠٨]، وفي ختام سورة مريم ذكر تعالى من إكرامه لهم وتفضله عليهم أن غرس في قلوب العباد محبتهم، ونَشَرَ محاسنَ سيرتهم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم: ٩٦].

* اشتملت سورة الكهف على قصص عجيبة كذلك جاءت سورة مريم بأمور عجاب منها استجابة الله تعالى لدعاء زكريا مع كبر سنه وعقم زوجته، فقد وهبهما الله يحيى بقدرته تعالى ولطفه، كذلك حمل مريم بعيسى عليه السلام من غير أب بقدرة الذي يقول للشيء كن فيكون قال السيوطي في حديثه عن سياق هذه القصة: " أقول ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب، قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين، وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا وقصة ولادة عيسى

فناسب تتاليهما»[1].

* لما أنذر الله تعالى في مقدمة الكهف من ادعى لله ولدا: جاءت سورة مريم بتقرير ما جاء في سورة الكهف من نفي الولد وإنذار من زعم ذلك، فوردت قصةُ حمل مريم وولادتها عيسى عليه السلام وجاءت الآيات بنفي الولد.

* ورد في سورة الكهف حديثٌ مستفيضٌ عن رحمة الله بعباده المؤمنين وباليتامى والمساكين والمستضعفين، وجاءت سورة مريم تكشفُ لنا عن جوانب أخرى لهذه الرحمة التي وسعت كلَّ شيء.

* في سورة الكهف حديثٌ عن صاحب الجنتين الذي اغتر بماله وجاهه، وفي سورة مريم نرى تكرار هذا النموذج البشري في كفار قريش قال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

٤. المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تفصِّل السورةُ الكريمة في مظاهر الرحمة وآثارها وظلالها وثمارها، بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

٥. المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث المستفيض عن رحمة الله تعالى وآثارها العجيبة، وإخلاص العبودية لله تعالى، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ١١٥ وذكر هذه المناسبة أبو جعفر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٢٨.

٦. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأصيل الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة، وتثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديث عن الإيمان بالله، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر، فضلا عن التشابه بين السورتين في استجلاء آثار الرحمة الإلهية، حيث تجلت آثار رحمة الله في سورة الكهف في مواطن عديدة.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

وقال سبحانه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال تعالى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال عزَّ شأنُهُ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

كذلك سورة مريم نبعٌ فائضٌ، وكنزٌ زاخرٌ بالرحماتِ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

٧. بين مقدمة السورة ومحورها

لما دارت السورةُ حول الرحمةِ الربانية، وتجريد العبودية: استُهِلَّت بالحديث عن رحمته تعالى بعبده زكريا عليه السلام، هذه الرحمة التي تجلَّى أثرُها في استجابة دعوته عليه السلام وهبته الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجه، فكانت ولادة يحيى تكريما ورحمة بهذا النبي العابد.

فالأنبياء عليهم السلام هم أكثرُ الخلقِ مسارعة إلى الخيراتِ وأصدقهم توجُّها وتذلُّلا لله تعالى؛ وأعظمهم رغبةً ورهبةً، فهم النموذجُ الإنسانيُّ الكامل للكمال البشرى بما امتازوا به من كمالِ العبوديةِ للهِ تعالى.

كلمة في السياق العام للسورة وصلته بمحورها

تستهل السورة الكريمة بالحديث عن نبي الله زكريا عليه السلام ثم ابنه يحيى عليه السلام ثم يأتي الحديث المستفيض عن مريم تكريما لها وتخليدا لذكرها ونشرا لمحاسنها وبيانا لرحمة الله تعالى بها وكمال عبوديتها له سبحانه، ليتصل الكلامُ بعيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى ورحمته تعالى به ثم يذكر طائفةً أخرى من الأنبياء يأتي في مقدمتهم أبو الأنبياء عليه السلام فيدور الحديثُ حول رحمة الله بهم وكمال عبوديتهم لله، ليتضح لنا من خلال هذه القصص: كيف عاشَ الأنبياء والصالحون في ظلال الرحمة الربانية التي شملتهم وأظلّتهم ورافقتهم في سائر أحوالهم ؟ وكيف حققوا الغاية من وجودهم بعبوديتهم الخالصة لله وحده.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصص ببيان سوء عاقبة من انحرفوا عن منهج النبيين وسَنَنِهِمُ القويم إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فإن جزاءه الجنة، دار النعيم المقيم ودار السلامة من جميع الآفات والمنغصات، والجنةُ من أعظم الرحمات التي خص الله بها من يشاء من عباده، ثم تستطردُ الآياتُ إلى الحديث عن تنزلات الملائكة بأمر الله تعالى وعلمه ورحمته، يلي ذلك جولاتٌ حواريةٌ مع المشركين تضمنت عرضا لشبههم وأباطيلهم مع دحض هذه الشبه والأباطيل بالحجج والبراهين وتقرير العقيدة الصحيحة مع عرض صورٍ ومشاهد لمواقف يوم القيامة... وفي هذه الجولات تتجلى رحمة الله في إمهاله للعصاة وفتح بابَ التوبة أمامهم.

- ١ -

رحمته تعالى بزكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ ﴾ [مريم ١: ١٥]

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾

براعة الاستهلال

تبدأُ السورةُ الكريمةُ بـ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ وهي من الحروف المقطعة التي استُهلَّت بها بعضُ السورِ، وفيها تحدٍّ وإعجازٌ؛ إذِ القرآنُ الكريمُ قد أُلِّفَ من هذه الحروفِ العربيةِ وتحدَّى العرب وهم أربابُ فصاحةٍ وبيانٍ أن يأتوا بمثله.

وفي الاستفتاح بها تنبيهٌ وتشويقٌ لما يأتي بعدها من آيات.

قال صاحب الظلال: « هذه الأحرف المقطعة التي تبدأ بها بعض السور، والتي اخترنا في

تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن، فتجيء نسقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل القرآن»[1].

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾

إضافة رحمة الربِّ جلَّ وعلا إلى النبي ﷺ إضافة تشريفٍ وتكريم، والآيةُ تذكيرٌ للنبي ﷺ برحمة الله عز وجل بعبده ونبيه زكريا ﵇.

وقد اتسمت السورة الكريمة بهذه السمة فذكَّرت بالصديقة بنت الصديق مريم ابنة عمران كما ذكرتنا بابنها نبي الله عيسى ﵇، وذكَّرتنا أيضا بأبي الأنبياء إبراهيم ﵇ وطائفة أخرى من الأنبياء عليهم السلام، الذين هبت نسائمُ ذكراهُم وفاح أريجُها الذَّكيُّ في هذه السورة العطرة لنترسَّم خُطاهم ونهتدي بهداهم، فهم نجوم الهدى وأعلام الحق ومناراتُ السبيلِ.

نقرأ في السورة الكريمة:

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣ بتصرف.

ذكَّرت السورة الكريمة بهذه المناقب العظيمة، ونثرت هذه الزهورَ الندية، ونشرت هذه الصفحات المَضيَّة، حتى يتعايش قارئ القرآن مع هذه الذكريات العطرة، ويتنسم عبق هذا الماضي المجيد، ويحلِّق بروحه ويطوِّف بعقله ووجدانه مع هذه الآفاق الرحيبة والصفحات المشرقة التي تشحذ الهمم وتسمو بالأرواح، ويلمسُ في حياة الأنبياء والصديقين العبوديةَ الخالصةَ، والأسوةَ الحسنةَ، والقدوةَ الطيبةَ، والأمثلةَ الواقعيةَ، التي يُحتذى بها، ويُقتفى أثرُها.

دعاء زكريا ﷺ

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾

دعا ربه خفيةً، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء، فهو سبحانه سميع الدعاء، ولكن للدعاء في السر مزيةٌ فهو أدعى للخضوع والخشوع والإخلاص، وأرجى للقبول، يقول قتادة: « إن الله يعلمُ القلبَ التقيَّ، ويسمعُ الصوتَ الخفيّ»[(١)].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾

تفصيلٌ وبيانٌ لدعاء زكريا ﷺ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضَعُفَتْ عظامي وخارت قواي، « وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عمادُ البدن ودعائِمُ الجَسَدِ، فإذا أصابَهُ الضعفُ والرخاوةُ تَدَاعَى ما وراءَه وتساقطتْ قواه»[(٢)].

﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾: أي انتشر الشيبُ فيه انتشارَ النار في الهشيم، وفى هذا إشارة إلى ضعفه، وفقره إلى رحمة الله عز وجل.

﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾: أي ولم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي، فأنت رجائي وغايتي، وأنت قصدي ووجهتي، وأنا اليوم أحوجُ إلى رحمتك ولطفك وإحسانك وقد قيل:

---

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١، والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٥٩ والكشاف للزمخشري ٣ / ٤ والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

لقــد أحســـن اللهُ فيمـــا مضـــى   كــذلــك يحســـنُ فيمـــا بقـــي

قال صاحب روح البيان: «... روي أن محتاجا قال لبعضهم: أنا الذي أحسنتَ إليّ وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته، وكأنه يقول ما رددتني حين ما كنت قوي القلب والبدن ... فلو رددتني الآن بعدما عودتني القبول مع نهاية ضعفي: لتضاعف ألمُ قلبي، وهلكتُ، يقال: سَعِدَ بحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب ...»[1].

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ ﴾

يخبر زكريا عليه السلام عن أسباب طلبه للولد: فقد وهن منه العظم وشاب الشعر، وتقدم به العمر، وهو خائف من أن يموت دون وارث له، يرث عنه النبوة والصلاح.

* وقال الإمام القاسمي: « ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾: أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ العباد، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين»[2].

﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾: لم تلد في شبابها، ولم تحمل، لكنَّ قدرتَك لا يُعجزُها شيء.

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾: أي هب لي من لدنك من يلي أمري، ويسير على نهجي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾: والمقصود هنا ميراث الهُدَى والصلاح.

﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾: أي مرضيا عندك في جميع أحواله، وعند خلقك يحبونه ويتأسُّون بأفعاله المرضية.

استجابة الدعاء، والبشارة بيحيى عليه السلام

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾

---

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣١٤ بتصرف يسير.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١١.

جاءته الملائكة تبشره بيحيى عليه السلام الذي منحه الله هذا الاسم الحسن وجعل له حظّاً عظيماً منه، ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نجعل له شبيهاً من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم.

« وللأسماء المبتكرة الفريدة مزايا منها، قوة تعريف المسمى بها لقلة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيراً مدة وجوده، وكذلك مزيةُ اقتداء الناس به من بعد، حين يسمُّون أبناءهم ذلك الاسم تيمُّنا واستحسانا»[1].

أما عن سر التسمية بهذا الاسم، فلقد قيل: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، فالإيمان حياة القلوب، والطاعة زادها، وقيل لأن الله أحيا قلبه بالنبوة، وقيل لأن الدين يحيا به، وزكريا عليه السلام طلبه من أجل الدين، أو لأنه يموت شهيدا، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه الوجوه كلها صحيحة، فلقد أحياه الله عز وجل بالإيمان والنبوة، وأحيا به القلوب، وجدد به الدين، ونال الشهادة في سبيل الله .

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى عز وجل لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، ولقد كانت البشرى مفاجأةً لزكريا عليه السلام، فقال متعجباً من هذه البشارة، وشاكراً المولى عز وجل على هذه النعمة، ومتسائلاً عن كيفية تحققها ووقت وقوعها: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾.

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦ / ٦٩ .

تساءل زكريا عليه السلام عن كيفية وقوع هذه البشارة، فامرأته عاقرٌ، وقد بلغ السن الذى تعتو فيه العظام والمفاصل، أي تيبس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها.

كمال قدرة الله تعالى

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

وفى التعبير بوصف الربوبية دلالةٌ بالغةٌ: فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشؤون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا عليه السلام ولم يك شيئاً؛ فهو سبحانه قادرٌ على أن يأتي بالولد مع كبر السن وعقم الزوجة؛ فالله سبحانه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، فهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا عليه السلام ويقف أمامه مشدوهاً ومبهوراً، هو أمر هين يسير على الله عز وجل .

علامة عجيبة لبداية الحمل

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

طلب زكريا عليه السلام آية من المولى عز وجل، أي علامة تدل على استجابة الله لدعائه، حتى يفرح قلبه بذلك بعد أن فرح بالبشارة ليتعجل السرور به، وحتى يتلقى ذلك بالشكر لله عز وجل واهب النعم ويحتفل ويحتفي بهذا الحدث الجليل .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي علامة لوقت الحمل .

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

أجاب المولى تعالى زكريا عليه السلام فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل، وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء، ففي سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤١] أي إلا إشارة، وفى سورة مريم ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي كاملة وتامة ومتتابعة، بدون علةٍ،

وإنما يحتبس لسانُه بقدرة الله تعالى كعلامة على بداية وقوع الحمل .

ولقد مُنعَ زكريا عليه السلام من الكلام لطلبه آية تدل على استجابة الله لدعائه، فاختار له الله سبحانه الصمت ولذلك حكمة بليغة؛ فللصمت فوائده العديدة، ففيه وقفةٌ مع النفس، وهدوء البال، وسكينة الفؤاد، واجتماع القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل، وكان زكريا في حاجة إلى ذلك لأنه أعطي الولد بعد أن لم يكن ينتظره، فقد بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً، فكان يحتاج إلى هدوء النفس بعد ذلك الفرح العارم بمجيء الولد بعد المشيب. ومن هنا فمنع زكريا عليه السلام من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له .

الدعوة في صمتٍ !

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

نبي الله زكريا عليه السلام رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه المداومة على الذكر، وتأملْ كيف يواصل زكريا ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً .

والعشي: من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، وأصل العشي الظلمة، وسمي ما بعد الزوال عشاء لاتصاله بالظلمة، **وأما الإبكار** فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وأصله التعجيل، لأنه تعجيل الضياء.

يواصل عليه السلام دعوة قومه إلى ذكر الله عز وجل، وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾: أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات، وإنما خص التسبيح من بين سائر الذكر ليتناسب مع هذه الآية العجيبة التي تستنطق الأفواه بالتسبيح؛ تعجباً من قدرة الله وتنزيهاً له تعالى، فيتعايش الناسُ مع هذا الحدث الجليل، في ظلِّ هذه الرحمةِ الربانية، ويستنشقون عبير هذه النفحة القدسية.

الرحمة منبع الفضائل

قال تعالى ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾

طوى السياق ذكر ولادة يحيى عليه السلام وما صاحبها من بهجةٍ وسرور، ثم نموه وترعرعه إلى أن وصل إلى سن الطلب والتحصيل، فأُمِر بالجد والاجتهاد والعزم والرشاد.

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾

أُمِرَ يحيى بأخذ التوراة بجدٍّ واجتهاد وحرصٍ على فهمها والعمل بها ودعوة الناس إليها.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾

منَّ الله تعالى عليه منذ صباه عليه السلام بالحكمة والمعرفة وحسن التدبير والحزم والعزم في الأمور.

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ ﴾

﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ حنانٌ ربانيٌّ أودعه الله في قلب هذا الصبي، فنما معه وترعرع وأزهر وأينع، وجمع عليه السلام بين الجدِّ والحزم وبين الرفق والحنان؛ فكان حازِماً راحماً، هيِّناً ليِّناً سهلاً سمحاً، قد فاض قلبُهُ بالحنانِ فكان سجيةً فيه لا يتكلفه.

﴿ وَزَكَوٰةٗۖ ﴾: أي وطهارة، فالزكاة هي الطهارة والنمو، وتزكية الأنفس تطهيرها، والنهوضُ بها، وهبه الله تعالى نفسا زكية: طاهرة، ترتقي مدارجَ القبولِ وتنهضُ بغيرها إلى أعلى المقامات وأسمى الدرجات .

﴿ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾: كان مطيعا لله عز وجل، يمتثل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه.

﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ ﴾: كان باراً بهما محسناً إليهما، ولم يكن متكبراً أو متعاليا على الآخرين، بل كان متواضعا ليِّنا، رفيقا بالناس محبا للحق ومذعنا له، ومطيعا لله عز وجل في جميع أحواله .

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾: تحية طيبة مباركة لهذا النبيِّ الذي جمع هذه الخلال الحميدة والشمائل الكريمة، فاستحق السلام الذي يعمُّ جميع أوقاته، ويستغرق كلَّ لحظاته الحافلة بالطمأنينة والسكينة حتى في أوقات المحن التي لا تخلو منها حياة الأنبياء والصالحين تمر عليه وهو في سكينة وطمأنينة ويقين ورضا.

قال الإمام القرطبي: « سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى»[(١)].

وقال صاحب روح البيان «﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ ﴾ أي سلامة من الله تعالى وأمان على يحيى أصله وسلمنا عليه في هذه الأحوال وهي أوحشُ المواطن»[(٢)].

المناسبة بين هذه القصة ومحور السورة

تبدأ السورةُ الكريمةُ بالحديث عن رحمة الله تعالى بعبده زكريا ﷺ حيث استجابَ دعاءه ورزقه الولد مع كبر سنه وعقم زوجه التي هيأها الله تعالى لهذه الآية العجيبة، وتتناسب آيات هذا المقطع مع محور السورة وهو الحديث عن رحمة الله تعالى، والتي تتجلى في استجابته سبحانه لدعاء زكريا ﷺ وما اتسم به يحيى من الرحمة وهي غُرَّةُ الشمائل، وينبوعُ الفضائل وعن عبودية زكريا لله تعالى حيث الإخلاص في العبادة والاجتهاد في الطاعة والتذلل والخشوع في الدعاء ونشأة يحيى ﷺ في محراب العبادة وساحات العلم، وشمائله الكريمة التي تجمع بين الحزم والعزم والرحمة واللين.

الهدايات المستنبطة

* جُبِلَتْ النفوسُ على حب الأولاد، فهم قرة العيون، وثمرات الفؤاد، وفلذات الأكباد وبهجة النفوس وزينة الحياة، قال تعالى ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٨٨.

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢.

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦]، والولد هبة من الله عز وجل وإنعام منه سبحانه، قال تعالى ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩].

وقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد هبة وإنعام من الله، وحب الولد: فطرة إنسانية .

ولقد جاء الإسلام بما لا يجافي هذه الفطرة، ولا ينافي تلك النزعة، بل ينمِّيها ويهذبها، فهذا زكريا عليه السلام يطلب الولد: قال تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ولقد دعا ﷺ لأنس بن مالك بكثرة الولد فقال (**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**)[1] وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه .

قال القرطبي رحمه الله: « وفي هذا رد على بعض جهال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولد أحمق، وما عرف أنه هو الغبي الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الشعراء: ٨٤ وقال سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ترجم البخاري على هذا "باب طلب الولد". وأورد فيه حديث الرسول ﷺ وفيه قال لأبي طلحة حين مات ابنه: (**أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ ؟**) قال: نعم. قال: («**بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا**»). قَالَ: فَحَمَلَتْ. وفي روايةٍ للبخاري: قال سفيان بن عيينة: فقال رجل من

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أنس كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة حديث ٦٣٧٨، ٦٣٧٩ فتح الباري ١١/ ١٨٦ ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك/ فضائل الصحابة -باب من فضائل أنس بن مالك -صحيح مسلم حديث ٢٤٨.-٤ / ١٩٢٨.

الأنصار: فرأيتُ لهما تسعةَ أولاد، كلُّهم قد قرأ القرآن. [١] أي من ولدهما عبد الله» [٢].

* في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم: ٣]: ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى للخشوع وأرجى للقبول.

* ومن الدروس المستفادة من قصة زكريا عليه السلام: فضل المداومة على ذكر الله تعالى، والذكر من أفضل الطاعات ومن أجل القربات، وزكريا عليه السلام رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى عز وجل قد أمره بالذكر قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤١].

قال القرطبي: «أمره الله تعالى بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو رُخّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام - لما حبس لسانه عن كلام الناس ولرُخِّص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء، ولكن الله عز وجل أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر، وأمر المجاهدين بكثرة الذكر قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥]» [٣].

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾: نشير إلى أن العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب، فإنه إلى الآن لم يُكْتَشَف ولن يكتشِف علاجا لمرض الشيخوخة وما يعترى الطاعنين في السن من ضعف ووهن .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز. باب: من لم يظهر حزنه عند المصيبة الحديث رقم: ١٢٣٩ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب، التسمية بعبد اللهِ وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عليهم السلام حديث ٢٣ - (٢١٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ / ٧٣.

(٣) نفس المرجع ٤ / ٨٢ بتصرف .

* من قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ مريم: ١١.

نستخلص دروسا مهمة في الدعوة إلى الله عز وجل، منها: أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبدا، وأن يعيشوا بها ويتعايشوا معها في كل زمان ومكان وفى كل الظروف والأحوال، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمثبطات، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقات وأوقات وملكات، وأن لا يستقلوا أيَّ عمل أو جهد دعوى مهما كان يسيراً، فزكريا ﷺ وهو ممنوع عن الكلام إلا أنه يعتمدُ في دعوته على الإشارة وهي وسيلة من وسائل التعبير، ولقد بدأ اهتمام القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة بدعوة الصم عن طريق لغتهم التي يفهمونها لغة الإشارة .

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليلجؤوا إلى غيرها، وإذا أغلق أمامهم بابٌ فليطرقوا بابا آخر، فمن داوم قرع الأبواب ولج، فعلى الدعاة إلى الله أن يتزودوا بالعزم واليقين وأن يعلموا أن الدعوة كما أنها مزية وتشريف فهي مسؤولية وتكليف، وكما أنها أمر طريف شائق، فهي أيضا طريق صعب شائك.

* ومن قوله تعالى ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ دعوةٌ لنا إلى الجِدِّ والاجتهادِ والعزمِ والمضاء في طلب العلم وفى العمل به وفي دعوة الناس إليه .

* وفي قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ إرشاد للآباء والأمهات أن يحسنوا تربية أولادهم منذ نعومة أظفارهم، وأن يعوِّدوهم الجد في الطلب، وأن يوجهوا أطفالهم إلى الاستفادة من أحوال الأنبياء، وأخبارهم خاصة ما كانوا عليه في صغرهم .

* وفى قوله تعالى ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ما يفيد أن صفة الحنان وأيضا صفة الرحمة من الصفات الفطرية التي أودعها المولى عز وجل قلوب من يحب من عباده، وعلى الداعية إلى الله أن يتحلى بصفات الرحمة والحنان والرفق، فإن النَّبِيِّ ﷺ يقول (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا

زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)[1] .

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ أي وطهارة ونماء، والطهارة هنا طهارة النفس والقلب والنماء هو الرقي والسمو في المقامات العلية والأحوال الشريفة المرضية، فعلى الداعية إلى الله أن يسعى إلى تزكية نفسه بالطاعات والقربات، وأن يجمع بين العلم والعمل والإخلاص حتى تكون دعوتُهُ ناجحةً، وعلى القائمين على تأهيل الدعاة وإعدادهم أن يركِّزوا على الجانب العملي، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ما يرشدنا إلى أهمية التقوى فهي سر النجاح وطريق الفلاح.

* ومن قوله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ ما يفيد أن الداعية قدوة في بيته، رحيما بأبويه، يحسن إليهما، فينال بذلك بركة رضاهما وصالح دعائهما، كما أن الداعية ينشد الحق، ولا يتعالى على الخلق، ويجتهد في تجنب المعاصي، ويتحرى الطاعات

ومن تحلى بهذه الأوصاف الحسنة التي اجتمعت في نبي الله يحيى عليه السلام فلقد ترسَّم طريق الهدى والفلاح والأمن والأمان.

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة كتاب البر والآداب والصلة باب/ فضل الرفق حديث ٢٥٩٤.

-٢-

رحمته تعالى بمريم

وابنها عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ١٦ – ٤٠]

المناسبة:

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا ﷺ وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عُجاب .

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى قصة زكريا ﷺ، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكيّاً طاهراً مباركاً: عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى ﷺ منها من غير أب فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدُلَّ عبادَه على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قدير»[(١)].

مريم في خلوتها

قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾: أي في القرآن الكريم لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزود به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثَمَّ فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاقتباس من أنوار الأنبياء والصديقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريمٌ لها.

قال القرطبي: « ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب لمحمد ﷺ، أي عرِّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا»[(٢)] .

وقوله تعالى ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ من النبذ، وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣/ ١٤ وقريب من ذلك ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٩.

قال الزمخشري: والانتباذ: الاعتزال والانفراد [١].

وفي لسان العرب: « وانْتَبَذَ فلانٌ: أي ذَهَبَ في ناحيةٍ، وانتبَذَ عن قومِهِ: تنحَّى عنهم» [٢].

والمكان الشرقي هو شرقي بيت المقدس، اتجهت إليه لتعتكف وتختلي للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس وسمو بالروح وشحذ للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل.

وإنما جاءها المَلَكُ في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلي في المحراب حيث البركات والرحمات والنفحات.

﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾: أي جعلت بينها وبينهم سترا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادةِ.

قال القاسمي: « لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق» [٣].

﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾: هو جبريل عليه السلام، وسمى عليه السلام روحاً: لأن الدين أساسه الوحي وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء.

والإضافة في ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قِبَلِ ربِّ العالمين مُنزَّلٌ بأمره.

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ امتحانا لها لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتَها تقواه.

وإنما تمثَّل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تُطيقُ رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ٩.

(٢) لسان العرب ٦ / ٤٣٢٢ مادة (ن ب ذ).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١٥.

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾: استعاذت مريم رضي الله عنها بربّها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفى استعاذتها بالله تعالى ما يدلُّ على كمال إيمانها، وورعها وتمام عفافها وشدة حيائها وحسن أدبها ولباقتها وسرعة بديهتها .

وفي استعاذتها بالله تعالى متوسلةً باسمه الرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شَمِلَها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تَدَارَكها رحمةُ الرحمن، وفى الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك الشخص، فهو إن كان رحيما فسوف يرحم ضعفَها ووحدَتَها، وإن كان تقيا فسوف ينصرف عنها ولا يمسّها بسوء .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالةِ خوفِها، ووضّح لها أنه مَلَكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيا، أي غلاما طاهرا مباركا [١] .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذى بين يديها مَلَكٌ مرسل من عند الله ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حملٍ، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) قرأ أبو عمرو وورش والحلواني عن نافع (لِيَهَبَ لكِ) بالياء لأن الواهب هو الله عز وجل.
وقرأ الباقون (لِأَهَبَ لَكِ) لأن الواهب هو الله عز وجل، وجبريل عليه السلام أرسله ربه ليبشرها وليقوم بمهمة النفخ فيها لتتحقق هذه المعجزة بقدرة الله عز وجل . يراجع: **حجة القراءات** لابن زنجلة ص ٤٤. والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٧.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يحدُّها حدود ولا تقيدها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]
﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ ﴾رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته عليه السلام، فهو رحمة لمريم لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها لأنها صارت به أمَّ نبيٍّ له وجاهتُهُ ومكانتُهُ في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمةٌ مهداةٌ.

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أمراً مقدوراً من الله عز وجل ونافذاً فلا رجوع فيه.

حمل مريم بعيسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى عليه السلام .

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذى ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم ولها اتساقها مع الموضوع العام الذي وردت فيه .

وحين نجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد، وبناء محكم متلائم وموضوع متكامل .

* في سورة الأنبياء يقول المولى عز وجل ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن

﴿ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم يقول تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢].

فقد حصل الحمل بنفخة من روح القدس في مريم رضي الله عنها لتحمل بقدرة الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾: كان حملها طبيعياً كما تحمل سائر النساء، ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾: مكانا قصياً: أي مكاناً بعيداً عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم حيث وُلِدَ المسيحُ ﷺ، كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء وفيه يقول ﷺ (... **ثُمَّ قَالَ**[1]**: انْزِلْ فَصَلِّ: فَنَزَلْتُ فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ ؟ صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ؛ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَى** ﷺ)[2].

وفي صلاته ﷺ في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادةَ نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبيِّ.

﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ الظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعته في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريباً منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً .

المخاض وتمني الموت

قال تعالى ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا

---

(١) أي جبريل.

(٢) رواه النسائي في **السنن** من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب الصلاة - باب فرض الصلاة سنن النسائي حديث ٤٤٦، ورواه الإمام البيهقي في **دلائل النبوة** ٢/ ٣٥٦ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح عن شداد بن أوس، ورواه الطبري في **تهذيب الآثار** حديث ٢٧٧٥.

مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

ومعنى ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ أي ألجأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جَهْد وإعياء وآلام وزفرات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذى لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه .

لحظات عصيبة

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: تمنت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصيب، وكانت نسياً منسياً، أي شيئاً حقيراً لا يعتدُّ به ولا يؤبهُ له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمنت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟

عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة:

يقول الإمام ابن كثير في التفسير « .. وقوله تعالى إخباراً عنها ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾أي قبل هذا الحال، ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئا، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس»[1] .

وفى حاشية الجمل على الجلالين « تمنت الموت من جهة الدين إذ خافت أن يُظَنَّ بها السوءُ في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياءُ بشارة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: لئلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمنت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١١٦، ١١٧ بتصرف .

وولدها آية للعالمين ...»[١] .

رحماتٌ ونفحاتٌ

قال تعالى ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ في غمرة الآلام التي ألّمت بمريم رضي الله عنها، وفى تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقب لما ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرُها رحمةُ الله تعالى فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه[٢] المولى عز وجل ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ ﴾، أنطقَ اللهُ عيسى عليه السلام تسلية لأمه وتثبيتاً لقلبها، وإشارة لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجراها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه تثبيتا لموسى عليه السلام وإعدادا له لمواجهة هذا الموقف[٣] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٣ / ٥٧، ٥٨ ويراجع روح البيان ٥ / ٣٢٦ كما يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٢ - وإرشاد العقل السليم لأبى السعود ٣ / ٥٧٨ .

(٢) التفسير الكبير للرازى ٢١ / ٢,٤ .

(٣) مما يؤيد ويؤكد أن المنادي هو عيسى عليه السلام أن الضمائر تعود عودة الضمائر إليه (فحملته، فناداها، فأتت به، تحمله، فأشارت إليه)، وكذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية شعبة بفتح ميم (مَن) على أنه اسم موصول، وفتح تاء تحتها (مِن تَحۡتِهَآ) والذي تحتها هو عيسى عليه السلام حين وضعته، فأنطقه الله تعالى بما يزيد أمّه فرحا به واستبشارا بقدومه ويقينا بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة تكريما ومزية. يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤١ والتبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي ص ٥٨٦ .

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾: السريّ: قيل هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمى بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين [١].

والسياق يدلُّ على ذلك قال تعالى ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فدل الأكلُ على وجود الرطب ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿ سَرِيًّا ﴾: نهرٌ صغيرٌ بالسّريانية [٢].

وأخرجه الحاكم عن البراء قال: « السريُّ هو الجدولُ، أي النهر الصغير» [٣].

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهرَ كرامةً لها، وإرهاصاً لعيسى ﷺ، وتسليةً لقلبها.

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾

نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلةُ يابسةً فاخضرَّت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسلية لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهاراً لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه [٤].

---

(١) يراجع جامع البيان للطبري ١٦ / ٥٤ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٢٢١، والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٢,٥ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢٧.

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب/ أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ) فتح الباري ٦ / ٥٤٩.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي - المستدرك كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ٢ / ٣٧٣.

(٤) يراجع: قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٦٥، ٥٦٦. وغرر التبيان في من لم يسم في القرآن لابن جماعة ص ٣٢٩.

﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾، كلي من ذلك الرُّطَبَ الجنيَّ واشربي من ذلك الماء العذب، وقرِّي عينا: أي وطيبي نفساً بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهنئي بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

أمرت بالصوم عن الكلام لأمرين: أحدهما: أن كلام عيسى ﷺ وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى، والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعِرْضِ وأنسب لحيائها.

مواجهة فاصلة

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة مريم ٢٧، ٢٩

قال الإمام القرطبي « لما اطمأنت لما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها أتت به تحمله من المكان القصي الذى كانت انتبذت فيه»[1].

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ وفى نهاية المطاف ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾.

* ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدا عن قومها خوفا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنِّهم السيئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل .

(١) الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٩ .

* وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينُها به واطمأن قلبها إليه وانشرح صدرها، بالكرامات التي وقعت لها، وامتلأ قلبها يقينا، وتبدل خوفُها أمناً، وحزنُها سروراً وضعفُها قوة وعزة وترفعاً وتحدياً وتعالياً على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها الحبيب نبيَّ الله عيسى عليه السلام، جاءت ولسان حالها يقول معبراً عن نفسها الطاهرة الزكية العزيزة الأبية، الآمنة المطمئنة، الراضية المرضية، الهادئة الهانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية، جاءت ولسان حالها يقول:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ وليتَكَ ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ ما فوقَ الترابِ ترابُ

لقد أصبحت مريم أمّاً لنبي، وأيُّ شرف لأمٍّ أعظمُ من ذلك، وأيُّ رجاء أعظم من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سالفا موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنُّها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكر أو تمهل كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾: أي شيئاً فظيعاً منكراً .

قال صاحب المفردات: «الفري قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما وفي الإفساد أكثر ... وقوله تعالى إخبارا عن قول قوم مريم ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ قيل معناه عظيماً، وقيل عجيباً وقيل مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد»[1].

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض .

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: مادة ف ر ى ص ٣٧٩ باختصار.

قالوا ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ تشبيها لها: بهارون النبي أخي موسى عليهما السلام في تقواه وصلاحه وحيائه.

ويجوز في اللغة إطلاق الأخ على النظير والشبيه والمعين، قال تعالى ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٧].

ويؤيد هذا: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه «عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. قال: لما قدمتُ نجرانَ سألوني: فقالوا: إنكم تقرؤون: [﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم: ٢٨]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمتُ على رسولِ الله ﷺ سألتُهُ عن ذلك، فقال (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ)» [1].

كلام المسيح عليه السلام في المهد

قال تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ نطق عيسى عليه السلام وهو في المهد بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهٌ لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردٌّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

* يقول الرازي في هذا المقام: « إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنما هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينصَّ على ذلك وإنما نصَّ على إثبات عبوديته لله كأنه

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب النهي عن التَّكَنِّي بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء - ٩- (٢١٣٥)، ورواه الترمذي في السنن عنه أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة مريم - حديث ٥١٦٤ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخصُّ الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى»(١) .

وقال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولا: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفى جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجلُّ من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة»(٢).

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾: فهو عليه السلام عبد من عباد الله، أنعم الله عليه وآتاه الكتاب قال تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فنطق عليه السلام أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته: عبوديته لله تعالى.

﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ آتاه المولى عز وجل الإنجيل كما قال سبحانه ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾أنعم الله عليه بالنبوة، وهي اصطفاء خاصٌّ، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله .

فنبوته عليه السلام دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء هم أطهرُ الناس نسباً.

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٢١ / ٢,٩ .

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾أي نفَّاعا حيث كنت، وقيل معلماً للخير، وقيل ثابتاً في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالباً موفقاً إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء(١).

والمقصود من كلامه: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ﴾، ﴿ وَجَعَلَنِي ﴾، ﴿ وَأَوْصَٰنِي ﴾ باعتبار ما سيكون، إخبارٌ عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله(٢).

﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

أي أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها.

وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيا عاقلا وفي ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين يقولون بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة .

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾: أي جعلني المولى عز وجل بارا بأمي، رفيقا بها، محسنا إليها، وفي ذلك بيان لنزاهتها وبراءتها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردٌّ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكُّره لها ونفوره منها(٣).

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾أي ولم يجعلني متجبراً متكبراً على الحق والخلق بل جعلني براً رحيماً عطوفاً كريماً متواضعاً للحق، مطيعاً لأوامر الله عز وجل .

---

(١) يراجع غرائب القرآن للنيسابوري ١٦ / ٥٣ والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٢١٤، ٢١٥ .

(٢) يراجع فتح القدير للشوكاني ٣ / ٣٢١ . ويراجع ما ذكره الطبري في جامع البيان ١٦ / ٨. وابن كثير في تفسيره ٣ / ١١٩ وابن الجوزي في زاد المسير ٥ / ٢٢٩ وقال الإمام الألوسي: « والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع» روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٦٦٣: ٦٦٦ .

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة .

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾

ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحقُّ لا يفتقرُ لغيرِه، ولا يحتاجُ إلى من سواه.

تعقيب على القصة

ضلال النصارى في شأن عيسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

طوى السياق القرآني موقف قومها من هذه الآية القاطعة والحجة الساطعة، وأشارت الآية الكريمة إلى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى: فاليهود كذبوه واستهانوا به، واتهموا أمه بما هي بريئة منه رغم ثبوت براءتها وظهور نزاهتها، وحسن سيرتها والنصارى غالوا فيه وادعوا ربوبيته وألوهيته.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: هذه قصة عيسى عليه السلام قد عرضها القرآن الكريم عرضا واضحا فهو عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، قضى الله تعالى أن يولد من غير أب ليكون آيةً للناس وجعله الله رحمةً وهدى، أبعد هذا القول الحق لا يزال هناك من يمتري في شأنه بل ويفتري على الله الكذب بدعوى أن عيسى ابن الله ! ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ فالله تعالى

منزهٌ عن اتخاذ الولد؛ إذ اتخاذ الولد افتقار إليه، والله هو الواحد الصمد، الغني فلا يفتقر إلى أحد، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾: تقريرٌ لربوبيته تعالى وحده ودعوةٌ إلى توحيده تعالى بالعبادة، فهذا هو الصراط المستقيم والسَّنن القويم.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾: اختلف اليهودُ والنصارى في شأن عيسى ﷺ؛ وما ذلك إلا بسبب الجهل والتقليد الأعمى واتباع الهوى والتعصب للباطل، والإعراض عن الحق، مما دفعهم إلى الاختلاف في شأن المسيح ﷺ بين جفاء وإطراء، وتفريط وإفراط، أما اليهود فقد افتروا عليه ونالوا منه، وأما النصارى فقد ضلوا فيه ضلالاً بعيداً، وغالوا فيه غلواً شديداً، فجعلوه لله نداً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فاليهود والنصارى على طرفي نقيض، ومع ذلك فكلٌّ متعصِّبٌ لباطله متحزِّبٌ له.

فالويلُ لهم من أهوال يوم القيامة ومشاهدها العظام حين يفصل بينهم.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾: ما أبصرهم وأسمعهم في ذلك اليوم العصيب ! بعد أن صموا في الدنيا آذانهم وعموا أبصارهم وأهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم، فاليوم يسمعون ما يخلعُ قلوبَهم ويبصرون ما يروعهم، بعد أن كانوا في دنياهم الخاسرة في غفلة وحيرةٍ ونسيان.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾: أنذرهم بيومِ تتابعِ الحسراتِ التي لا جدوى لها بعد أن قضي الأمر، لكنهم في غفلة وإعراض عن هذا اليوم العصيب، فلا يؤمنون ولا يرعوون مع جلاء الآيات وكثرة النذر.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ**

النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾: فالملك اليوم خالصٌ لله لا ينازعه فيه أحد، ولا معقب لحكمه ولا مردَّ إلا له وليس لله تعالى وارثٌ فهو تعالى الذي يرثُ ولا يُورَثُ وهذا ردٌّ على ادعاء النصارى أن المسيحَ ابن الله؛ إذ الولد يرث أباه ويصبح امتدادا له، والله تعالى هو الحي الباقي وهو الوارثُ.

المناسبة بين قصة مريم وعيسى عليه السلام ومحور السورة

لهذه القصة ارتباطُها الوثيقُ بمحور السورة الكريمة، حيث تبينُ لنا شمولَ رحمةِ اللهِ لمريمَ وابنِها، وكمالَ عبوديتهما لله تعالى، وفيها ردٌّ صريح على ما ادعاه النصارى، فهو عبد الله ورسوله وليس ابنَ الله كما يزعمون.

الهدايات المستنبطة من القصة

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ أقول: هذه الأمثلة الرائعة والنماذج المضيئة في تاريخ الإنسانية جديرةٌ بأن تذكر محاسنُها وتنشرَ مآثرُها ليتأسى بها الصالحون وينتفع بسيرتها الدعاة والمصلحون.
* ومن المستفاد من هذه القصة: أهمية الخلوة للعابد والداعية والمربي والمصلح فهي رياضة للنفس وسمو بالروح وشحذ للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل .

لستُ أخلو لغفلةٍ وسكونٍ   وفرارٍ من الورى وارتياحٍ
إنما خلوتي لفكرٍ وذكرٍ   هي زادي وعُدَّتِي لكفاحي

* دلت هذه القصة على عفاف مريم وورعها وحشمتها وحجابها، وتقواها لله عز وجل وخلوتها للعبادة والتفكر وحسن أدبها وبلاغتها وسرعة بديهتها حين فوجئت بمن دخل

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير بَاب قَوْلِهِ {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ } حديث ٤٣٦١، وصحيح مسلم كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهله باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء. حديث ٧٣٦٠.

عليها خلوتها وامتثالها لأمر الله ويقينها بوعده.

* **في القصة: فائدة حول حكم تمنى الموت:** ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تمنى الموت عند حدوث مكروه ونزول ضرر .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْراً) [١] .

وروى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّياً لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي) [٢] .

ويجوز الدعاء بطلب الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان، ومن ذلك أيضا ما يتعرض له المسلم في بعض المجتمعات من الاضطهاد والتعذيب والمساومات التي لا طاقة له بها ففي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ رضي الله عنه وفيه يقول ﷺ في دعائه المأثور (... وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ) [٣] .

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به -صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٨ ورواه الإمام أحمد في مسنده، الفتح الرباني كتاب الجنائز - باب كراهة تمنى الموت ٧ / ٤٤، ٤٥ .

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة حديث ٦٣٥١ فتح الباري ١١ / ١٥٤ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به -صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٧، ورواه الإمام أحمد في مسنده كتاب الجنائز باب كراهة تمنى الموت وفضل طول العمر مع حسن العمل الفتح الرباني ٧ / ٤٣، ٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد / أبواب الدعاء، باب ما جاء في أدعية كان يدعو بها النبي ﷺ الفتح الرباني ١٤ / ٢٨٣=

فوائد الرطب للنفساء

وفى أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبته الطب من أهمية الرطب للمرأة، النفساء حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل، فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى، ويحتوى الرطب على نسب عالية من السكريات السهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر: فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي ﴾، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة، ثم يعود لطبيعته، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازفة، والرطب أيضاً من المواد الملينة للقولون ومن المعلوم طبيا أن الملينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة [1]، قال تعالى ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤٨] أي سهلُ التناولِ والهضم.

* **فائدة حول الصمت:** ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم: ٢٦]، التزمت مريم بالصمت؛ حتى تفسح المجال لمن هو أفضل منها وأبلغ منها ليثبت لقومها طهارتها ونزاهتها وعفتها .

ولقد بلغ قومها من السفاهة مبلغاً عظيماً حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بما هي بريئة

=ورواه الترمذي في السنن أبواب التفسير، تفسير سورة ص ٥/ ٣٤٣ حديث ٣٢٣٥ وقال هذا حديث حسن صحيح وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣ / ٩٧، ٩٨ حديث ٢٥٨.

(١) يراجع في هذا الموضوع: « الطب النبوي» لابن القيم ص ٢٤. وهو يتحدث عن الرطب وفوائده ويذكر من ضمنها فوائده في حالة المخاض، ويراجع: «مع الطب في القرآن الكريم» تأليف د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز ص ٢٨، ٢٩ .

منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم .

قال الإمام الشافعي

**إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تجبْهُ		فخيرٌ من إجابتِهِ السكوتُ**

**سكتُّ عن السفيهِ فظنَّ أني		عييتُ عن الجوابِ وما عييتُ [١]**

حكم نذر الصمت في شريعتنا: لا يجوز نذر الصمت في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس .

ففي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ». [٢]

* قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾: أبلغ ردٍّ على ما ارتكبه النصارى في حملاتهم الصليبية من فظائع وجرائم باسم المسيح كما يزعمون حتى قال أمير الشعراء متهكما ومنكرا:

يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى		كثُرتْ عليكَ باسمِكَ الآلامُ !

وهذا بناء على ما يعتقده النصارى من أن المسيح صُلِبَ فداء للبشرية وتكفيراً عن خطيئة آدم، وهذا اعتقاد باطل فالمسيح ﷺ لم يصلب وآدم لما أكل من الشجرة تاب فتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وهداه [٣].

---

(١) ديوان الإمام الشافعي / راجعه وعلق عليه د. محمد زهدي يكن ص ٤٩

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النذور والإيمان – باب النذر فيما لا يملك وفى معصية حديث ٦٣٢٦ فتح الباري ١١ / ٥٩٤ . ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٨ وجامع البيان للطبري ٨/ ٣٣٢، والتفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ١٦ / ٧٧

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ١/ ١٢٣: ١٣٥ .

-٣-

رحمته تعالى بإبراهيم عليه السلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤١ – ٥٠]

المناسبة

بعد الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ومريم الصديقة وابنها عيسى عليهم السلام، وبيان رحمة الله تعالى بهم وتفضله عليهم وكمال عبوديتهم لله تعالى: يأتي الحديث عن أبي الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فهو جديرٌ بأن يذكر لما اتسم به من كريم الشمائل وعظيم الفضائل، فهو صديقٌ صدق مع الله ومع الناس وكان صادقا في سره وعلنه، وفيّاً بعهده ووعده، ومن كمال عبوديته وصدقه في دعوته وأدائه لرسالته: دعوته لأبيه وتأدبه معه وبره به مع بقائه على كفره وإصراره على ضلاله، وفي إيراد قصته ردٌّ على النصارى وغيرهم من المشركين ممن يدعي إتباع إبراهيم عليه السلام، فإن كانوا صادقين في محبته واتباعه والانتساب إليه فهذه هي دعوته التي دعا بها وابتلي بسببها، دعوة التوحيد.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة مريم وابنها عيسى واختلاف الأحزاب فيهما وعبادتهما من دون الله، وكانا من قبيل من قامت بهما الحياة

ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً والفريقان وإن اشتركا في الضلال، والفريق العابد الجماد أضل ثم ذكر قصة إبراهيم مع أبيه عليه السلام تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله وتبيين أنهم سالكو غير طريقه، وفيه صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وأن ذلك متلقى بالوحي»[1].

التفسير الإجمالي

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾

إن أول ما يستوقفنا في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها لإقناع أبيه، حيث حاكمه إلى مقدمات مسلَّمة، وثوابت لا مجال لإنكارها، وذلك من باب النصح والإرشاد النابع من قلبٍ صادق وعاطفةٍ رقيقةٍ وعقلٍ راجح: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾: فهذا الحوار جدير بأن يذكر ليقتبس منه الدعاةُ والمصلحون منهجاً للدعوة والحوار.

﴿ يَا أَبَتِ ﴾: نادى عليه بعاطفةٍ قوية نابعة من فطرة نقية، فالابن البارُّ دائمَ الحرص على والده، والإشفاق على حاله ومآله، ومن ثَمّ كان هذا النداء الرقيق (﴿ يَا أَبَتِ ﴾: ليفتح قلب أبيه ويرققَ مشاعرَه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾

ما الذي يرغمك على عبادة أحجارٍ لا تسمع ولا تبصر ؟ وكيف تتوجه لها بالدعاء وتتضرع لها وتقدم لها القرابين، مع أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنك شيئا ؟

فالأصل في العبادة أن تكون موجهة لذي الكمال والجلال، أمَّا أن تعبد أصناماً ناقصة في

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ١٩١.

ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا ينمُّ عن جهلٍ ويَبِينُ عن سَفَهٍ.

ولقد بدأ عليه السلام حواره بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى التعجب والإنكار، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ، يحملُ المحاورَ المخالفَ على التفكيرِ، وإعادةِ النظر في الأمر، للوصول إلى الحق بنفسه، حتى لا يشعر بأنه أُفحِم وبُهِت، فتأخذه العزة بالإثم، ويمتنع عن قبول الحق انتصاراً للنفس، ولو بالباطل.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾: أراد أن يلفت نظر أبيه إلى أن الحوار الهادف الذي بدأه معه لا بد وأن ينبني على العلم حتى يصل إلى نتائج صحيحة؛ فالعلم هو الذي يهدي إلى الحق ويبصِّر بالنور، وأنه عليه السلام لما كان على علم، صارَ جديراً بأن يُتبع، وهذا من تأدبه وترفقه بأبيه فلم يصرح له بجهله وإنما عبَّر بهذا الأسلوبَ الذي يحقق المطلوبَ، دون أن يجرح مشاعرَ أبيه وينفره من دعوة الحق.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾.

فكل من سلك طريق الغوايةِ والضلالِ فهو عابدٌ للشيطانِ ووليٌّ له، والشركُ من وسوسةِ الشيطانِ وتزيينِهِ.

ثم يختمُ كلامه بتحذيره من سخط الله وعذابه فيرافق الشيطان في جهنم كما وافقه في الدنيا، فحذره وأنذره من عذاب الرحمن مع مرافقة أهل الكفر والعصيان في النيران.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ ﴾

مع هذا اللطف في الدعوة والترفق في المحاورة من إبراهيم عليه السلام، فقد قابله أبوه بالإنكار والتقريع والعنف والتهديد الشديد بالرجم وطلب منه أن يهجره.

فالعجب من هذا الأب الكافر الذي يقابل هذه الدعوة الطيبة والأسلوب الهادئ بالتهديد

والوعيد إنه منطق الكفر حين تعييه الحجج ويعجز عن مقابلة البرهان بالبرهان.

لكن إبراهيم عليه السلام يقابل هذه الغلظة والجفوة برقة وحنان ورفق ولين، فيقول ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾: قابل الهجر والخصام، باللين والسلام، ووعده بأن يستغفر له ربه الذي تعود منه الحفاوة والإكرام.

فهو سبحانه البرُّ اللطيفُ: والمراد أنه يستجيب لي إذا دعوته لأنه عوَّدني الإجابة لدعائي وهو بذلك يرغِّب أباه ويحببه في هذا الرب الكريم ويعرِّفه به.

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ أعلن البراء مما عليه أبوه وقومه واعتزالهم، مع رجائه وحرصه في توبتهم، فوهبه الله تعالى ذرية طيبةً وجعل النبوة والكتاب فيهم.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾أي: عسى اللهُ أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فهذا إبراهيم يعتزل قومه وينتصر للحق على حساب العاطفة والمصلحة، فيعوضه الله تعالى بأهله وعشيرته ذريةً طيبةً، ويجعل النبوة فيهم ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الطيبة، الذين كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾: فذكرهم في الخافِقَين يترددُ على ألسنة الناس، والثناء

عليهم ومحبتهم نبضُ القلوب، وحديثُ الألسنة، فهم أئمة الهدى وأعلام الحق، ولا تزال ذكراهم في سائر العصور تتجدد، وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها الله لهم عليهم السلام.

المناسبة بين قصة إبراهيم ﷺ ومحور السورة

لهذه القصة اتساقها وانتظامها مع محور السورة الكريمة حيث تبينُ لنا شمولَ رحمةِ اللهِ لإبراهيم ﷺ، وكمال عبوديته لله تعالى، ودعوته إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وتجريد التوحيد من كل شوائب الشرك.

الهدايات المستنبطة.

* في وصف إبراهيم ﷺ بالصديقية قبل وصفه بالنبوة: إشارة إلى أن الصدق سجيةٌ فيه وأنه كسائر الأنبياء عليهم السلام عُرفوا بين الناس بالصدقِ قبل بعثتهم، كما كان نبينا ﷺ يدعى قبل بعثته بالصادق الأمين، فاستقامة الداعية وحسن سيرته أدعى إلى قبول دعوته وثقة الناس فيه.

* لطف الخطاب، وأدب الحوار مع المخالف، فرغم عِظَمِ المخالفةِ وجلاء الحق وزيف الباطل، إلا أن هذا لا يمنع من الحوار حول هذه القضية المحسومة؛ فالحوار هو وسيلة الإقناع.

* «يبدأ إبراهيم ﷺ خطابه لأبيه بلين وأدب جميل، واستعطاف يبدؤه بنداء الأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ يستثير بهذا النداء أبوته الحانية، ويحرك مشاعره الراكدة، يلامس بهذا شغاف قلبه، ليس هذا فقط، بل يكرر هذا النداء المؤثر أربع مرات مع كل خطاب لأبيه، إن لم تؤثر الأولى فعسى أن تؤثر الأخرى»[(١)].

* من فنون الحوار التي تعين على نجاحه: براعة الاستهلال وحسن الختام، وهذه الفنون

---

(١) الحِوار في قصص إبراهيم ﷺ في القرآن الكريم دروس ودلالات، إعداد أ. د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة - ص٥.

تتجلى في حوار إبراهيم ﷺ مع أبيه [(١)].

* تدرج إبراهيم ﷺ في الحوار حيث بدأ بالاستفهام الإنكاري ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾.

ثم بالتقرير الخبري ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾.

ثم بالنهي الصريح ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم بالترهيب ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾.

وذلك لما يعلمه من تشبث أبيه بالشرك وإصراره عليه.

* ومع التدرج في الحوار: نلمس التنوع في العرض، فمرة يكشف له عن زيف معتقده، وأخرى يقرر له العقيدة الصحيحة، وثالثة يحذره من كيد الشيطان، ورابعة يحذره من غضب الرحمن وعذابه.

* تكرر اسم الله الرحمن في هذا الحوار، وذلك ليحمل إبراهيم ﷺ أباه على التفكر والنظر في هذا الإله الرحيم الذي يمهله، ولو شاء الله لعجّل بعقاب الكفرة لكنه تعالى يرزقهم ويحفظهم إمهالاً لهم، وأنه تعالى لا يعذب إلا من يستوجب العذاب، وأن الذي يطيعه تعالى يدخل في رحمته.

* استحباب متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج مع مقابلة إساءته بلطف وإحسان كما فعل إبراهيم ﷺ حين أنهى الحوار مع أبيه بالسلام.

* ومن أدبه ﷺ: اختياره كلمة الاعتزال في مقابل تعبير أبيه بالهجر، فالهجرُ أشدُّ من الاعتزال إذ الاعتزال يعني الابتعاد وعدم المشاركة والموافقة في الرأي مع تكرار المحاولة إذا سنحت الفرصة أما الهجرُ فيحملُ معنى القطيعة والجفاء.

---

(١) يراجع بحث الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام لأحمد الشرقاوي، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.

- ٤ -

رحمة الله تعالى

بموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ﴾ مريم: ٥١ - ٥٨

المناسبة

كما امتنَّ اللهُ تعالى على زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وتعهَّدهم برحمته، كذلك امتن الله تعالى على موسى وهارون وإسماعيل وإدريس وغيرهم ممن هداهم الله واجتباهم وآثرهم واصطفاهم، فبلغوا أسمى مقامات العبودية.

التفسير الإجمالي

رحمته تعالى بموسى وهارون عليهما السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ ﴾

جاء ذكر موسى متناسباً مع السياق؛ لأنه من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو من أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن؛ لما انطوت عليه قصته من دروس وعبر وفوائد لا حصر لها، ولما اتسم به من كريم الخصال، وفي مقدمتها إخلاصه لله تعالى، وقيامه بواجبات النبوة ومهامِّ الرسالة على أتم وجهٍ من تبليغٍ وأداءٍ وتطبيقٍ.

ولصاحب الأساس لفتة لطيفةٌ تبين سر ذكر موسى في هذا السياق، يقول رحمه الله: «وفي ذكر موسى في هذا السياق تذكيرٌ برسالته، وأنه من سلسلة الرسل المبشرين والمنذرين وتذكير بشأنه وحاله، فقد كان يدعو إلى عبادة الله وحده، وهو شيء يعرفه العام والخاص من بني إسرائيل وغيرهم، فكيف يزعم من يزعم أن لله ولدا هو عيسى فيعبده، إن التذكير بموسى وبصفاته في هذا السياق تعريضٌ بمن ينتسب إليه، ولا يوحد الله كما وحده كأن يجعل المسيح ابنا لله، وموسى لا يعلم ذلك ولا يعرفه ولا يدعو إليه»[1]، كما في ذكر موسى عليه السلام ثم ذكر إسماعيل بعد ذلك إشارة إلى ما أعطاه الله لنبيه إبراهيم من ذرية صالحة.

ومن سمو قدره ورفعة مقامه أن ناداه ربه نداء حب وإكرام من بقعة مباركة ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ حيث قدسية المكان، ﴿ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾ اصطفاه الله تعالى واجتباه وأدناه وناجاه.

والنجيّ بمعنى المناجي كالجليس والنديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾

منَّ الله على أخيه هارونَ بالنبوةِ ليشدَّ به أزرَه ويشاركه في همّ الدعوة؛ تفضلا منه تعالى ورحمة.

وكان موسى عليه السلام قد سأل ربه أن يشد أزره بأخيه قال تعالى ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ ﴾ [طه: ٢٩ – ٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظمَ من شفاعةِ موسى في هارونَ أن يكون نبيّاً قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣ ﴾[2].

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦/ ٣٢٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٢٦.

رحمته تعالى بإسماعيل عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ ﴾اذكره في الكتاب الخالد: تشريفاً وتكريماً، وإعظاما وإجلالا، وتقديراً وإكباراً، وتأسياً واعتباراً.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ ﴾: لم يعد ربَّه عِدةً إلا أنجزها، فكان صادق الوعد مع ربه ومع الناس، وقد تجلت هذه الخلة الكريمة في أبهى صورها حين استجاب لأمر الله تعالى وامتثل لأبيه بصبر وثبات.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الصافات: ٩٩ - ١٠٧].

﴿ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ جمع الله له بين مقام النبوة والرسالة تشريفا وتكريما، فأدى مهام الرسالة وواجبات النبوة على أتم وجه، وكان أسوة حسنة وقدوة طيبة في سائر أحواله.

﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ ﴾

كان حريصاً على صلاح أهله واستقامتهم على منهج الله يتفقَّد أحوالهم، ويتعهّدُهم بالنصح والإرشاد، ويأمرهم برعاية حقوق الله وحقوق العباد، فكان من جملة ما يدعوهم إليه ويرغبهم فيه المحافظة على الصلاة وهي حق لله تعالى، وإيتاء الزكاة وهي من جملة حقوق العباد، فإنَّ من بذل ماله للفقير ووفّاه حقَّه المعلوم في مالِهِ لخليقٌ بأن يتحرى الحلالَ الطيبَ وجديرٌ برضا ربِّه.

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾: وكان هذا أشرفَ خِصاله وأجلَّ صفاته؛ فإن من تحلَّى بمكارم

الأخلاق وفي مقدمتها الصدق والوفاء، ومن أدى رسالته في هذا الوجود على أتم وجه، ومن صدق مع الله تعالى ومع الناس، ووافق ظاهرُه باطنَه واستوت أفعالُه بأقوالِه، وأدّى حق الله ووفَّى بحقوق العباد: لجديرٌ بأن يحظى برضا ربه، ومن أرضى ربَّه فحقٌّ على الله أن يرضيه.

قال الله تعالى ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى عن جزاء المؤمنين الصادقين ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٨].

رحمته تعالى بإدريس عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

وممن يستحقُّ الذكرَ؛ تكريماً له وتنويهاً على شرفه وفضله ولفتاً إلى محاسنه واستجلاءً لمآثره نبي الله إدريس عليه السلام، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الصدق حتى بلغ منازل الصديقين لتحريه الصدق ومداومته عليه، فضلاً عن مقام النبوة، وهي أعظم المواهب الربانية وأسمى المراتب الإنسانية ولقد قام بحقِّها، فاستحقَّ الدرَجات العُلى.

فاستحق الذكرَ والتكريم في القرآن الكريم، على لسان أفضل الرسل وخير الأمم.

وفي صحيح مسلم بسنده من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنه رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قال: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ (ثُمَّ عَرَجَ بنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلامُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحّبَ وَدَعَا لي بِخَيْرٍ. قَالَ الله عَزّ وَجَلّ: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾)[1].

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ السماوات وفرض الصلوات- حديث ١٦٢ – (٢٥٩). ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس (١٢٥٢٧)، ورواه أبو يعلى الموصلي في=

من تمام رحمته وكمال إنعامه على أنبيائه وأصفيائه

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

* «لما أفرد سبحانه كلَّ رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم في هذه السورة بالثناء عليه بما هو جدير به، أعقبه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم، فقد هداهم إلى سبيل الخير واصطفاهم من سائر خلقه» [(١)].

* بعد أن نثر في هذه السورة الكريمة ذكر هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم السلام، نظم في ذلك العقد الفريد تلك الدرر البهية، لتزداد وهي مجتمعةٌ منتظمةٌ حسنا ورونقا، وروعةً وتألقا وتبينَ عن المعدن النفيس والأصل الطاهر الذي تفرَّعت منه تلك الشجرة العريقة المباركة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: أولئك الذين ورد التنويهُ بذكرِهم تشريفاً وتكريماً وإبرازاً لمحاسِنِهم ونشراً لمناقِبِهم، فهم نجومُ الهدى ومصابيحُ الدجى وأعلامُ الحقِّ، هم الذين أنعم الله عليهم واصطفاهم بالنبوة من ذرية آدم وممن نجاهم الله مع نوح ومن ذرية إبراهيم وابنه إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وممن هداهم الله وطهرهم واجتباهم وآثرهم، وحبَاهُم بخير المواهبِ ورفعهم إلى أسمى المراتب، فهم خيارٌ من خيارٍ، ومن كريم خلالهم ودليل صدقهم: حسن تدبرهم وتأثرهم بكلام الله تعالى، حين يتلى عليهم فتراهم سجداً وبكياً، خشوعا وخضوعاً وهيبةً وإجلالاً لمقام ربهم وعظمة كتابه الذي يرقق القلوبَ ويسمو بالأرواح ويغذِّي العقول.

والآية تشير إلى أن الأنبياء جميعاً قاموا لله تعالى بالعبودية وكذلك المسيح عبد الله ورسوله كان لله قانتاً خاشعاً، فكيف يدعي النصارى أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

= مسنده ٥ / ٢٩٣، وقال محققه حسين سليم أسد: « قال: إسناده صحيح ».

(١) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ١٧/ ١٦٩.

«وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ دلالة على أن نزول آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة» (١)..

المناسبة بين محور السورة وهذا المقطع

بينت هذه الآيات الكريمة رحمة الله تعالى بأولئك الأنبياء وكمال عبوديتهم لله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* العبودية هي طريق القرب من الله، وسبب رحمته وإنعامه وتفضله وإكرامه، وطريق السعادة الأبدية.
* فضيلة الإخلاص والصدق في القول والعمل والوعد، وأثرهما في صلاح وارتقاء النفس والمجتمع.
* وجوب تعهد الأهل بالنصح والإرشاد وتفقد أحوالهم مع الله ومع الناس، فلقد امتدح الله تعالى إسماعيل ﷺ بحرصه ومداومته على تعهد أهله وأمرهم بالصلاة وهي حق الله والزكاة وهي حق المستحقين من العباد، ولقد أوصى الله تعالى بدعوة الأهل وإصلاحهم ونصحهم وإرشادهم: قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦] أي: قوا أنفسكم بأعمالكم وقوا أهليكم بتعهدكم لهم ونصحكم، ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ الله رَجُلاً قامَ مِنَ اللّيْلِ فَصَلّى وَأَيْقَظَ امْرَأتَهُ، فَإنْ أَبَتْ نَضَحَ في وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ الله امْرَأةً قامَتْ مِنَ اللّيْلِ فَصَلّتْ وَأيْقَظَتْ زَوْجَها، فَإنْ أَبَى نَضَحَتْ في وَجْهِهِ المَاءَ) (٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٦.

(٢) حديث صحيح: رواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الصلاة باب قيام الليل=

* التلازم بين الصلاة والزكاة فالصلاة حق الله تعالى والزكاة حق العباد، وفي الوفاء بحق الله تعالى وحق العباد تحصيل رضا الله تعالى.

* التلازم بين خشوع الجوارح وخشوع القلب لله تعالى، فبقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهراً وباطناً، بقدر ما يزيد العبد إجلالاً وتعظيماً للرب سبحانه.

-٥-

طريق النجاة

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٥٩ – ٦٥

المناسبة

بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفيائه عقب ذلك بمن حُرموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيَّعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات، فبيَّن تعالى عاقبة انحرافهم عن

=(١٣٠٨). حديث ٩٣٠، وابن ماجة في السنن كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل حديث ١٣٣٦، وأحمد في مسنده (٧٤٠٤)، ٤٣٦، وابن خزيمة في صحيحه في إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله ليلا ٢/ ١٨٣ حديث ١١٤٨ وقال محققه الشيخ محمد مصطفى الأعظمي: «إسناده صحيح»، ورواه ابن حبان في صحيحه حديث ٦٤٦ – والحاكم في المستدرك ١/ ٣٠٩ صلاة التطوع وقال صحيح على شرط مسلم.

منهج النبيين وسَنَنِهِمُ القويم، وأن مصيرهم إلى التيه والخسران، ثم بيَّن تعالى طريق النجاة الذي يتمثل في التوبة الناصحة والإيمان الخالص والعمل الصالح، وبشَّر من سلك هذا الطريق بالرحمة والغفران، والفوز بالجنان، دار القرار والسلامة من جميع الأكدار، ولما كان أساس هذا الطريق ونبراسه هو الوحي، ناسب ذلك الحديث عن تنزلات الملائكة، وأنه لا يكون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى، ومن معالم طريق النجاة العقيدة الصحيحة المتمثلة في إفراده تعالى بالربوبية، والعبادة الخالصة التي تحتاج إلى صبرٍ وأناةٍ.

التفسير الإجمالي

المحرومون !

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفيائه: عقَّب ذلك بمن حُرموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: نكبوا عن نهج أسلافهم فأضاعوا الصلاة: تركوها بالكلية أو أهملوها وقصروا فيها، ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾: انساقوا وراءها، وانغمسوا في مستنقعاتها، فألهتهم عن ذكر الله وجرّأتهم على محارم الله، فاستباحوا المحرمات إشباعاً للملذات وإتباعاً للشهوات، ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾: أي خسارةً وشراً، وضلالاً وحيرةً، فعن عبد الله بن عمرو: وادٍ في جهنم، وعن عبد الله بن مسعود: نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر[1].

باب التوبة مفتوح

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم ٦٠- ٦٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٤٥.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾: يفتح الله تعالى لعباده باب التوبة، ويرشدهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفْضِي إلى النعيمِ المقيمِ، بعدلِهِ تعالى ورحمته وفضله وكرمه.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾: لا يُبْخَسون من جزاء أعمالهم الصالحةِ شيئاً، ولا يُجْمَعُ بينهم وبين الذين هلكوا.

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

تلك الجنان التي وعد الرحمن بها عباده المؤمنين فآمنوا بها دون أن يروها، فوعد الله صادق وآت، ومن تمام المنَّة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ إذ الجنةُ دارُ السلامةِ من كلِّ المنغصات.

والسماع وسيلةٌ للإمتاع، وذلك بتبادل التحية والسلام وسماع المبشرات، والتلذذ بسماع كلام الرحمن، ومطارحة الأحاديث مع الإخوان، والتمتع والأنس بالأصوات الشجية مع أعذب الألحان من الحور الحسان، في جنة الرحمن.

فـهـم أضـيـافُـهُ في كـلِّ وقـتٍ ومـن يـكُ ضيـفُـهُ أمسـى هَـنِـيّاً
ومـن يـكُ ضـيـفُـهُ يَـسْـعَـدْ ويغنمْ وكـان لـضـيـفِـهِ ربِّي حـفـيّاً

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ولهم رزقُهم فيها بالغدوِّ والرواح.

«قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء»[1].

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٤٠، ٣٤١.

ورثةُ الجنان:

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ ﴾

فهي دار المتقين ومنازل العابدين، ورِثُوها بصالح أعمالهم، ونزلوها بفضل ربهم.

فمن شاء الوراثة فالطريق معروف: التوبة والإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عملٌ صالحٌ، فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيّين وممن هدى الله واجتبى؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب.

تنزل الملائكة بأمر الله

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ ﴾

سبب النزول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ ﴾ الْآيَةَ[1]

المناسبة

من وجوه المناسبة بين هذه الآية الكريمة وبين ما قبلها:

* لما جاء الحديث عن الجنة مشوِّقا لها بيَّن الطريق المؤدية إليها وهي إتباع الوحي فناسب ذلك بيان أن نزول الملائكة لا يكون إلا بأمر من الله تعالى.

* لما ذكر هذه القصص العجيبة المشوقة التي يتنزل بها أمين الوحي جبريل فتقع على قلب النبي ﷺ برداً وسلاماً وتسليةً وتسريةً وأنساً وإمتاعاً، مما هيَّج أشواقه إلى نزول القرآن بالمزيد

(١) نفس المرجع ٣/ ٣٤١، ٣٤٢.

من هذه القصص المشوِّقة والأخبار التي تثبت فؤاده، فتعجل نزول الوحي بها، وأبدى حرصه على أن يكثر من زيارته ليعلم النبي ﷺ المزيد والمزيدَ ويزداد يقيناً وتثبيتاً.

ومن وجوه المناسبة: والله أعلم: أنه لما ذكر في أول السورة نزول جبريل عليه السلام إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ بيَّن هنا أن الملائكة أجمعين لا تتنزل إلا بأمر من الله تعالى وتقدير.

التفسير الإجمالي

وما تتنزل الملائكة الكرام إلا بأمر الله تعالى فهو تعالى العليم بهم، المدبِّر لأحوالِهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لا يقع منه نسيانٌ.

قال القشيري رحمه الله: « إن الملائكةَ - عليهم السلام - أبداً يَنْزِلون بإذن الحقِّ تعالى فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللهُ - سبحانه - لا يترك جاحداً ولا عابداً من حِفْظٍ وإنعامٍ، أو إمهالٍ ونكَال....» [(١)].

وقال النسفي رحمه الله: «... فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملِكِ ومشيئته، فهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه»[(٢)].

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾: فهو الخالق المالك المدبِّر لا رب غيره ولا معبود سواه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ فالعبادة تحتاجُ إلى صبرٍ وأناةٍ، وعزمٍ وثباتٍ.

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٥٢.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٣/ ٤٠.

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾: فلا نظيرَ له ولا مثيلَ، ومن مظاهر تفرُّدِهِ تعالى أنك لا تجدُ على وجهِ الأرضِ ومرِّ الزمان من تسمَّى باسم (الله) أو (الرحمن) سواه تعالى.

فلا سميَّ له ولا ندّ ولا مثيل ولا شبيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

أو هل تعلم أحداً يستحق كمال الأسماء والصفات ما يستحقه الله تعالى ويتصف به حقيقة؟

أو هل تعلم اسماً أعظم من هذا الاسم المفرد الذى اختصه الله لنفسه ووصف به ذاته وقدَّمـه على جميع أسمائه، وأضاف أسماءه وصفاته كلها إليه ؟ فهو المتصف بصفات الكمال والمجد.

الصلة بين المقطع ومحور السورة

تتناسب آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من حيث بيان سعة رحمة الله تعالى وشمولها، فباب التوبة مفتوح أمام العصاة، ومن رحمته تعالى أن منَّ على عباده المؤمنين بدخول الجنة، بعد أن يسر السبيل إليها بالإيمان والعملِ الصالح، ومِنْ رحمته سبحانه إنزال الملائكة بالهدى والرحمة، وحتى ينال الإنسان حظاً عظيماً من هذه الرحمات العاجلة والآجلة فعليه أن يجتهد في العبادة ويصطبر عليها، ولما حُرِمَ أولئك الخلف حلاوة العبودية ضيعوا الصلاة إذ لم يدركوا غايتها ولم يتذوقوا حلاوتها، ووقعوا في أسر الشهوات وانغمسوا في أوحالها.

الهدايات المستنبطة

* التلازم بين إضاعة الصلوات والانغماس في الشهوات، فالصلاة ميزانٌ للعبد وعصمةٌ له وسموٌّ بروحه وتهذيبٌ لنفسه.

* من رحمته تعالى بعباده فتح باب التوبة لهم، وإرشادهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفْضِي إلى النعيمِ المقيمِ.

* من تمام المنَّة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ فضلا عن الصخب والضجيج؛ إذ الجنةُ دارُ السلامةِ من كلِّ الأكدار. « وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن»[١].

* وراثة الجنة بالإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عملٌ صالحٌ فقد وَرِثَ قومٌ نَسَبَ أولئك الأتقياءِ من النبيّين والصديقين؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب، كما في حديث نبينا ﷺ: (وَمَنْ أَبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ: لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)[٢].

* الملائكة خلقٌ من خلق الله تعالى يفعلون ما يؤمرون، ولا يتنزلون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى.

-٦-

جولاتٌ مع شبه الكافرين وأباطيلهم

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٦/ ١١٢.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَرضي الله عنه كتاب الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث ٣٨- (٢٦٩٩).

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٦٦ - ٩٥].

المناسبة:

بعد هذا البيان القصصي الذي أبرز لنا معالم الرحمة الربانية وصوَّر لنا مقام العبودية وهو غاية الوجود الإنساني: جاء البيانُ الحُواري متناسقا مع المحور العام للسورة ومع القصص الواردة فيها ومقررا لما جاء فيها بهذا الأسلوب الذي يخاطب القلوب ويحاور العقول ويناجي الوجدان، فَعَرَضَ شُبَهَ المشركينَ ودَحَضَهَا بالحُجَجِ والبراهينِ، وبينَ تفرُّده تعالى بالعبادة.

وتبرزُ صلة هذا المقطع بالمحور العام للسورة: من كون هذا الحوار إنما سيقَ رحمةً من الله تعالى بعباده؛ إذ الهدف منه هدايتهم إلى طريق نجاتهم؛ وذلك بتحقيق الغاية من وجودهم وهي عبادة الله وحده.

وبعد نظرة كلية لهذا المقطع قمت بتقسيمه إلى خمس فقرات تتضمن خمس جولات حوارية مع المشركين تعرِضُ وتُفنِّد شبههم بالحجة والبرهان.

الجولة الأولى

إنكارهم البعث !

قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الرد على منكري البعث

ينكر هذا الكافرُ مصيرَه ويتناسى أصله وطبيعته، ويتعدى حدوده، ويتجاوز قدره، حين يتجرأ على خالقه، ويبادر إلى إنكار حقيقةٍ جليةٍ، فضلاً عن تنكره لنعم الله عليه وعلى من حوله من كائنات، ولو أمعن فكره وأعمل عقله لما وصل إلى هذه النتائج الخاطئة.

هل فكر في نفسه وحياته كيف خلقه الله ولم يك شيئا ؟ ثم نقله من ضعف إلى قوة ؟ ومنحه العقل والإدراك ؟

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

ويحَ هذا الكاذب المغرور، وويله: حين يحشر مصفَّدا مع أقرانه من المكذبين الضالين وقد صُفُّوا حولَ جهنّم جثياً على ركبهم في ذلةٍ وصَغَارٍ، وحسرةٍ وانكسار.

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

لننزعن من كل فرقة وطائفة تشايعت على الباطل وتواطأت عليه أشدَّهم عتواً ونفوراً وظلماً وفجوراً، وهم الكبراءُ والقادةُ، فيتقدمون أتباعهم، ويقودونهم إلى جهنم، ثم يسبقونهم إليها، ويُطرحون فيها، ليلحق بهم الأتباع والمستضعفون، فتزداد بهم صلياً، أي حرارة ولهيباً

وإحراقا وضيقاً.

كما قال سبحانه عن حال أهل النار حين يقتحمونها أفواجا متتابعة: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٥٩ - ٦١].

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ فترتيب دخولهم النار وفق حساب دقيق يرجع إلى قدر جرمهم الفاضح، وعذابهم فيها يتفاوت بتفاوت عملهم الطالح.

المرور على الصراط

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الورود: هو المرور على الصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على ظهرِ جهنمَ: يمرُّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، فينجي الله المتقين، ويتساقط أهل الضلال، تنزلق أقدامهم أو تتخطفهم الكلاليب، لتلقي بهم في النار.

ففي الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... **فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِه وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو...**) [1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كتاب صفة الصلاة باب: فضل السجود، حديث ٧٧٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية -حديث ٢٩٩- (١٨٢).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... **وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَميناً وَشِمالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كالْبَرْقِ، قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ ؟ قَالَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ، يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفاً، قَالَ وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ: إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفاً**)[١].

الجولة الثانية

النظرة المادية القاصرة والموازين المقلوبة

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ مريم: ٧٣ - ٧٦.

إلى جانب إنكار أولئك الكفرة ليوم البعث مع ظهور علاماته وجلاء آياته، فكذلك دأبهم مع آيات الله البينات، لا ينتفعون ولا يتأثرون بها حين تتلى عليهم، بل يتعمدون الانصراف إلى التفاخر بالحسب والمال.

قال القرطبي: « وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين، وإيهامهم أن من كثر ماله دل

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هُرَيْرَةَ كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث ٣٢٩ - (١٩٥). قال النووي رحمه الله: « أَمَّا (شَدّ الرِّجَال) فَهُوَ بِالْجِيمِ جَمْع رَجُل هَذَا هُوَ الصَّحِيح الْمَعْرُوف الْمَشْهُور، وَنَقَلَ الْقَاضِي أَنَّهُ فِي رِوَايَة اِبْن مَاهَانَ بِالْحَاءِ. قَالَ الْقَاضِي وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى وَشَدّهَا عَدْوهَا الْبَالِغ وَجَرْيهَا..» صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٧٢.

ذلك على أنه المحق في دينه، وكأنهم لم يروا فيهم فقيراً ولا في المسلمين غنياً ولم يعلموا أن الله تعالى نحّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا وفَرْطِ الميلِ إليها»[1].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾

بدلا من أن تُثيرَ شجونَهم، وتَرِقَّ قلوبُهم فيخرون لله سجداً وبكياً، تراهم يزيدون عتوّاً ونفوراً واستعلاءً وغروراً، وعلامة ذلك قولهم: أيُّ الفريقين خير مقاماً أي أعظم منزلة وأحسن ندياً أي مجلساً ومنتدىً، تفاخروا بمجالسهم ونواديهم التي كانوا يجتمعون فيها للتشاور في أمورهم، والتفاخر فيما بينهم والتسامر حتى غدوا يتباهون بتلك المجالس وزينتها وأثاثها وأضوائها وروّادها.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ أي من أمة أو جيل أو جماعة هم أحسن أثاثاً الأثاث متاع البيت وهو من أبهي صور الزينة، وفيه يتنافس أهل التفاخر والتباهي، ﴿ وَرِءْيًا ﴾ أي منظراً وهيئة، لكن ليست العبرة بالأثاث الفاخر أو الجمال الظاهر.

يقول صاحب الظلال: « إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد، وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والمنتديات الفقيرة إلا من الإيمان، لا أُبّهة ولا زينة، ولا زخرف، ولا فخامة.. هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان !

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة: تقف بمالها وجمالها، بسلطانها وجاهها، بالمصالح تحققها، والمغانم توفرها، وباللذائذ والمتاع، وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع، تهزأ بالمال والمتاع، وتسخر من الجاه والسلطان؛ وتدعو الناس إليها، لا باسم لذة تحققها، ولا مصلحة توفرها، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان، ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردةً

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٤١، ١٤٢.

من كل زخرف، عاطلة من كل زينة، معتزة بعزة الله دون سواه.. لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئاً في هذه الأرض، إنما هو القرب من الله، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب.[(١)]

استدراجٌ وإمهال !

قال تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

من كان سادراً في غيِّه غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمدَّ لَهُ في العطاءِ استدراجاً لَهُ، كَمَا قالَ سبحانه ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال سبحانه ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾.

أمدَّ لهم وأرجأهم: حتى إذا انكشف الغطاء وتبدَّت أمامهم الحقائق وحلَّ بهم العذاب: فسيعلمون عندئذ ولكن حين لا ينفع العلم ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أي يعلمون حقارتهم ومهانتهم، ويدركون ضعفهم وهوانهم.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه يمدُّ للظالمين في ضلالهم بين سبحانه أنه يثبت المؤمنين على الهدى ويزيدهم في النصرة وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم، ففي مقابل المد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٨.

لأهل الضلال وإملائهم، يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضون قدماً على هذا الطريق، ويرتقون معالي رتبه ومدارج منازله، « والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهَّله عليه ويسره له، ووهب له أمورا أخر، لا تدخل تحت كسبه»[1].

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ كلُّ كَلِمٍ طيبٍ وعَمَلٍ صَالح ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾: أي في ميزانه العادل ﴿ ثَوَابًا ﴾ أي مثوبة في الدنيا وفي الآخرة ﴿ مَّرَدًّا ﴾ أي عاقبةً ومرجعاً.

الجولة الثالثة

غرورٌ وعجبٌ !

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

سبب النزول: عَنْ خَبَّابٍ رضي الله عنه قَالَ كُنْتُ رَجُلا قَيْناً، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

بعد أن بيَّن تعالى ما عليه المشركون من انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم وانتكاس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: قوله عز وجل: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ سورة مريم، حديث ٤٤٥٨ ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١١١).

القيم، وذكَّر تعالى بجملةٍ من سننِهِ الثابتَةِ، وأقداره النافذة: أورد مثالاً لمن اغترَّ بنعم الله عليه وإمهاله، فأحسن الظنَّ مع سوء عمله وفساد معتقده، ثم هو يطمع في المزيد ؟ فيقول مقولةَ الواثق المغرور بالأماني الكاذبة والسراب الخادع: ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ فهل اطلع الغيب فعلم بذلك علم اليقين ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟ وهذا الاستفهام على جهة الإنكار إذ لا سبيل له إلى معرفة الغيب، ولا كرامة له حتى ينال وعداً بدخول الجنة، فالجنة لا يدخلها بكفره وافترائه، وصده عن سبيل الله.

﴿ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ ﴾: سنحفظُ عليه قوله ونسجِّله عليه، لنجازيَه به في الآخرة، عذابا مديدا مضاعفا.

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ ﴾: يجرَّد من ماله الذي ينتقل لورثته ويخرج من دنياه صفر اليدين، فلا يدوم متاعُه بأولاده وَحَشمِه وخَدَمِه وقَوْمه، بل يعودُ إلينا منفرداً عنهم، وقيل: معنى قوله: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، وقيل: نرثه ما يقول أنه له في الجنة، فنجعله لغيره من المسلمين، فنجعل ما يتمنى من الجنة لغيره[1].

﴿ وَيَأۡتِينَا ﴾ على فقره ومسكنته ﴿ فَرۡدٗا ﴾ من المال والولد، « لم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان: تبعة قوله ووباله، وفقد المطموع فيه»[2].

الجولة الرابعة

ماذا وراء هذه الأباطيل والأوهام ؟

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا

---

(١) يراجع: البحر المحيط ٦ / ٢١٤ ويراجع: معالم التنزيل للبغوي ٥ / ٢٥٤ وزاد المسير لابن الجوزي ٥ /٢٦١.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤ / ١١٤.

نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

جاءت الجولة الرابعة تفنِّد عبادتهم للآلهة مع كونها لا تضرُّ ولا تنفع، فكما يتعللون بالأماني الكاذبة، ويتعلَّقون بالأعراض الفانية، فإنهم يتعزَّزون بالآلهة التي اتخذوها من دون الله، يطلبون بها القوة والمنعة، بل يدَّعون أنها تقربهم إلى الله زلفى.

وهذا من عجيب صنيعهم وغريب أمرهم ! ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ حين يعاينون العذاب فيكفرون بهم ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾: يتبرؤون من عبادتهم وينقلبون عليهم.

كما قال تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر: ١٣ - ١٤].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾[مريم: ٨٣ – ٨٧].

ثم بيَّن سبحانه أن هناك ما يدفع الكفار إلى التمرُّد والعصيان والجحود والنكران ويغريهم بشتى الوساوس والإغراءات، فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

تهيِّجهم وتستفزُّهم وتُغريهم بفتن الشهوات وتحرِّكهم بالإغواء والإضلال وتقودهم وتستحوذ عليهم بسلاح الوساوس والشبهات وتزعجهم وتهيُّجهم بالهواجس والتسويل، فتزين لهم الأباطيل وتدفعهم إلى معصية الجليل.

قال صاحب اللطائف: «... فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحقِّ يكون

بِرَوْحٍ وسكينة»[(١)].

وفي الآية الكريمة بيانٌ لسببٍ من أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شراكهم.

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين ببيان أسباب صدود المشركين وإعراضهم، والدافع وراء مقولاتهم الباطلة وأمانيهم الكاذبة، وتحذيرٌ للمشركين من هذا الانقياد الأعمى والانسياق المهين وراء الشياطين.

﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ ﴾ نعدُّ عليهم أنفاسَهم ونحصي أعمالهم «الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها، وإذا انتهى الأَجَلُ فلا تنفع بعد ذلك الحِيَلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل»[(٢)].

وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد، كما قيل:

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسُ		لا يمنعُ الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
وكيف يفرحُ بالدنيا ولذتها		فتى يُعَدُّ عليهِ اللفظُ والنَّفَسُ[(٣)]

ثم بين تعالى مشهد المتقين وهم يُزَفُّون إلى الرحمن في مقابل مشهد المجرمين الذين يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام، فقال تعالى ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ ﴾: يُحْشَرُ المتقون بهذه الهيئة الحسنة، كما تفدُ الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، وتفخيما لموكبهم، وتساق إليهم البشائر وتقدم لهم الهدايا والجوائز، فهم وفود إلى الرحمن، ومن شأن الوفود أن يُحتفى بهم، ويُقابَلون بالتهاني والبشائر، ويُتْحَفُونَ بالجوائز والمكرمات، ويَنَالُونَ الهدايا والمثوبات فقد

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٦٨
(٢) نفس المرجع ٤ / ٤٦٩
(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ١٨٨.

وَفَدُوا على أكرمِ الأكرمين، وقَدِمُوا على الرحمن إخواناً متحابِّين، فهم في ضيافة الرحمن.

وفي مقابل هذه الصورة التي تتشوق العيون لرؤيتها وتستنشق النفوسُ عبيرَها نرى في المقابل مشهداً مروِّعاً وموكباً مفزعاً، مشهد المجرمين وقد صفِّدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وتثاقلت الخُطَى، وهم يُساقون إلى جهنم كما تُساقُ الأنعامُ العطشى إلى مواردِ الماءِ ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ وإنما يُساقُون بهذه الصورةِ المهينةِ؛ ازدراءً لهم، ونكالاً بهم.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاءُ ويرضى، كما قال سبحانه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾[النجم: ٢٦].

وقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ١٠٩].

الجولة الخامسة

دعوى باطلة ومقولة شنيعة

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

جاءت الجولة الخامسة لتدفع مقولةً ظالمةً ودعوى كاذبةً، دعوى بعض طوائف المشركين وعلى رأسهم النصارى أن لله ولدا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾: منكراً عظيماً وأمراً فظيعاً.

قال الراغب: « الإد المنكر فيه جلبة من قولهم: أدت الناقة تئد أي رجّعت حنينها ترجيعاً شديداً»[(١)].

وقال الألوسي: « وفي هذا ردٌّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريقِ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطابِ المنبئ عن كمالِ السخطِ وشدةِ الغضبِ المُفْصِحِ عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»[(٢)].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾: تكاد السموات حين تسمع من يردد هذا القولَ المنكرَ العجيبَ أن تتشققَ غيظاً وتسَّاقطَ غضبا، وتنشق الأرض من هول هذا القول وثقله وبشاعته، وتخر الجبال فتهوي كما يهوي البناء الشاهق غضبا لله وغيرةً.

« قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْب: لَقَدْ كَادَ أَعْدَاءُ اللهِ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ بِقَوْلِهِمْ هَذَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾، وَصَدَقَ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ عَظِيمٌ»[(٣)].

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾: نفى سبحانه عن نفسه الولد، فالله تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقر الناس إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضُداً وذُخراً وذِكْراً، يحملُ اسمَهم، ويرحمُ ضعفَهم، ويخلِّدُ ذكرَهم، ويواصِلُ مسيرَتَهم، ويعقبُهم ويرثُ أموالهم، فضلا عن الحاجةِ الفطريةِ للولدِ لإشباعِ عاطفةِ الأبوةِ، وإرواءِ عاطفةِ الأمومة.

أما الخالق جلا وعلا: فهو الغني فلا يفتقر إلى أحد، وهو الملك فكل ما سواه مملوك، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الوارث الباقي، وهو الأول والآخر، تعالَى ربُّنا وتقدس»[(٤)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب الألف مع الدال ص١٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ١٣٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٢٤١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٥٨ ويراجع لباب التأويل للخازن ٤/ ٣٦٣.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وفي التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره تعالى على أذاهم وإمهاله لهم لعلهم يرجعون، ويتوبون عن هذا القول الشنيع.

وفي الصحيح: عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ أَحَدٌ أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَداً وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)[1].

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ فكلهم عبيدٌ لله تعالى ومن لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا فسوف يقرُّ ويشهدُ حين يرى العذابَ وتنقطعُ الأسبابَ، ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ أي أحاطَ بهم وجَمَعَهُمْ وعدهم عداً، ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾أي واحداً متجرداً لا ينفعه إلا ما قدم.

كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأنعام: ٩٤

فائدة لطيفة: قال النسفي رحمه الله: « وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك غطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن»[2].

---

(١) الحديث : رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْأَدَبِ بَاب الصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى حديث ٥٧٤٨، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم: ٢٨٠٤.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٤٧.

الهدايات المستنبطة

* البعث حقيقة لا مراء فيها، فينبغي على العاقل أن يستعد له ويتأهَّب لما يتبعه من حساب وميزان وصراط.

* الصراط: جسر ممدود على ظهر جهنم: يمرُّ به المؤمن والكافر، فينجي الله الأتقياء، ويتساقط الأشقياء، فما أحوج كل عاقل إلا أن يتذكر هذا اليوم ويتزود له: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّهَا ذَكَرَتْ النَّارَ فَبَكَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُبْكِيك ؟ قَالَتْ ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَداً: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ١٩]، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ [(١)]

* ليست العبرةُ بكثرةِ الأموالِ والبنينَ أو بالمجالس العامرة والأثاثات الفاخرة، فكلها من أعراض الدنيا التي لا بقاء لها، وإنما العبرة بتقوى الله تعالى والانتفاع بآياته.

* من عجيبِ أمرِ الكفارِ موقفُهم الغريبُ من آيات الله؛ إذ بدلاً أن من تُثير شجونَهم وترقَّ قلوبُهم فيخرون لله سجداً وبكياً كما أخبر تعالى عن عباده المصطفين من الأنبياء والصديقين تراهم يزيدون عتوّاً ونفورا واستعلاءً وغروراً.

* من كان ماضياً في غيِّه، غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمدَّ لَهُ في العطاءِ استدراجاً لَهُ.

---

(١) رواه أبو داود في سننه عَنْ عَائِشَةَ كتاب السنة باب في ذكر الميزان حديث ٤٧٥٥، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠١، والحاكم في المستدرك وقال « هذا حديث صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة، على أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة رضي الله عنها وأم سلمة » وأقره الذهبي. المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤ / ٦٢٢، وقال العراقي في المغني حديث ٤٤٦٩ « وإسناده جيد».

* في مقابل المد لأهل الضلال وإملائهم يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضُون قُدُماً على هذا الطريق ويرتقون معالي رتبه ومدارج منازله.

* بيَّن تعالى ما عليه المشركون من انقلابِ الموازينِ واختلاطِ المفاهيمِ وانتكاسِ القيمِ، وذكَّر تعالى بجُملةٍ من سننِهِ الثابتَةِ، وأقدارِهِ النافذةِ.

* من أسباب صدودِ المشركين وإعراضِهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شراكهم.

* المتقون يوم القيامة وفودٌ إلى الرحمن، ومن شأنِ الوفودِ أن يُحتَفَى بهم، ويقابلون بالتهاني والبشائر، ويُتحفون بالجوائزِ والمكرُمات، وينالُون الهدايا والمثوبات، فقد وفدوا على أكرم الأكرمين، وقدموا على الرحمن إخواناً متحابين، فهم في ظلال الرحمن وفي ضيافة خالق الأكوان.

* من المشاهد المروِّعةِ يوم القيامة، مشهد المجرمين وقد صفِّدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وتثاقلت الخطى، وهم يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام العطشى إلى موارد الماء ازدراء لهم ونكالاً بهم.

* لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاء ويرضى، كما قال سبحانه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* نفى سبحانه عن نفسه الولد، فاللهُ تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقرُ الناسُ إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضداً وذخراً وذكراً، يحمل اسمهم ويخلد ذكرهم ويواصل مسيرتهم ويحلُّ مكانهم ويرث أموالهم.

* من لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا اختياراً، فسوف يقرُّ ويشهد حين يرى العذاب وتنقطع الأسباب إجباراً.

ختام السورة الكريمة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

المناسبة

خُتمت السورةُ بما بدأت به من بيان محبةِ الله تعالى وتكريمه لأوليائه، ثم بيان الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره وهي البشارة والنذارة، وفي نهاية المطاف تطرح تساؤلاً عمن كانوا ملءَ الأسماعِ والأبصارِ وحديثَ الليلِ والنهارِ وقد صاروا في بطونِ اللحودِ ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾

مودة في قلوب عباده بإيمانهم وصلاحهم، وفي الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)[1].

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ ﴾

بيّناه بلسانك العربي وجعلناه سهلاً على من تدبّره وتأمّله ويسّرنا تلاوته وحفظه وفهمه والعمل به والدعوة إليه، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ وينذر كل ألد: أي شديد الخصومة أصمّ الآذان عند سماع الحق.

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

أين من سبقهم إلى دار القرار ؟ أين من طوي ذكرهم وطمرت آثارهم بعد أن كانوا ملء

---

(١) صحيح البخاري كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، باب: ذكر الملائكة حديث ٣٠٣٧، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم: ٢٦٣٧.

الأسماع والأبصار ؟ هل بقي منهم أحد ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ وهل تحس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم صوتا خفياً ؟

كما قال قُسّ بن ساعدة الإيادي:

في الذّاهبين الأوّلين ... مِنَ القُرون لنا بَصائرُ

لما رأيتُ موارِداً ... لِلمَوْتِ ليس لها مَصادرُ

ورأيتُ قَومي نَحْوَهَا ... يَمْضِي الأصاغرُ والأكابرُ

لا يَرْجِع الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابرُ

أَيْقَنْتُ أنّي لا مَحالَةَ ... حَيث صار القَوْمُ صائرُ[1]

قال صاحب اللطائف: «أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك - لما شاء - أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسَيُطَالبونَ - يومَ النشور - بالنقير والقطمير»[2].

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾: « صوتاً خفياً، أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرَى ولا صوت يسمع، يعني هلكوا كلهم، فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم»[3].

قال صاحب الظلال: « وتُخْتَمُ السورةُ بمشهَدٍ يتأمله القلب طويلاً؛ ويرتعش له الوجدان طويلاً؛ ولا ينتهي الخيال من استعراضه ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾، وهو مشهد يبدؤك بالرجَّة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق كأنما يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون؛ وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد

---

(١) الأغاني للأصفهاني ١٥/ ٢٣٧.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٧٧.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٤٩.

يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نأْمَة. لا حس. لا حركة. لا صوت.. ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ انظر وتلفت ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ تسمَّع وأنصت، ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب. وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت [1].

الهدايات المستنبطة من خاتمة السورة

* محبةُ اللهِ تعالى وتكريمُه لأوليائه، ونشرُ حبهم وودهم بين العباد.
* الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره: البشارةُ والنذارةُ وما يتعلقُ بهما من بيانٍ.
* تختتمُ السورةُ بسؤال يلفتُ الأنظارَ ويُثيرُ الانتباهَ ويذكرُ بمن طُويَ ذكرُهُم وطُمِرَتْ آثارُهم بعد أن كانوا ملءَ الأسماعِ والأبصارِ ؟ هل بَقِيَ منهم أحدٌ ؟ وهل تُحِس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم ولو صوتاً خفياً ؟

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٢، والنّأْمةُ الصوتُ نأَم الرجلُ يَنْئِمُ ويَنْأَمُ نَئِيماً وهو كالأَنِينِ، وقيل هو الصوت الضعيف الخفيّ أيّاً كان، يراجع لسان العرب ١٢ / ٥٦٧ مادة (ن أ م).

سورة طه

المبحث الأول: بين يدي السورة:

أولا: اسم السورة:

الاسم التوقيفي للسورة: اسم السورة التوقيفي هو «طه» لما دلت عليه الأحاديث والآثار التي ستأتي -قريبا- في مبحث فضل السورة، وهو الاسم الذي أطلق عليها في المصحف، وبه بدئت السورة، وهو من الأحرف المقطعة، وقد جاءت تسمية بعض السور بما بدئت به من أحرف التهجي مثل: «يس» «ص» و«ق».

الاسم الاجتهادي: ذكر السيوطي في الإتقان عن كتاب «جمال القراء» للسخاوي أنها تسمى سورة «**الكليم**»، وعن كتاب الكامل للهذلي أنها تسمى سورة «**موسى**»، ثم علق عليه بقوله: «وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر»(١).

علاقة الاسمين بالسورة:

أما اسم «الكليم» أو «موسى» فعلاقته بالسورة جلية لأن قصة موسى عليه السلام قد بسطت في هذه السورة، فقد تناولت السورة أحداثا تتعلق بموسى عليه السلام من ميلاده إلى خروجه مهاجراً إلى مدين فارا من بطش فرعون وملئه، ثم عودته، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، والمواجهة بينه وبين السحرة، ثم نصر الله له، وخروجه ببني إسرائيل، وإهلاك فرعون وجنده، وما تخلل ذلك من فتنة السامري لهم بإخراج العجل، وعبادة قومه للعجل، وموقف موسى من عباد العجل وصانعه.

وأما تسميتها بـ«طه» فإن له صلة بالسورة إذا أخذنا في الاعتبار ترجيح بعض العلماء(٢)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي:١/ ١٥٧، وينظر: روح المعاني، للألوسي:١٦/ ١٤٧، والتحرير والتنوير:١٦/ ١٧٩.

(٢) رجح ذلك الإمام الطبري، وصححه القرطبي، وجوزه الشوكاني. ينظر: جامع البيان، =

بأن لحرفي «طه» معنى النداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ورد في لسان العرب أنهما بمعنى «يارجل» أو «ياحبيبي» بما دلت عليه الشواهد من استعمالهم، وعلى هذا فإن الحرفين هما نداء بصيغة الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكرر الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا في هذه السورة [(١)]، كما كثر فيها -أيضا- الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومهمته في تذكير الناس بالقرآن، وعن القرآن المنزل إليه، وما قصه عليه من قصتي موسى وآدم، ثم ختمت بتوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: فضل السورة.

وردت أحاديث وآثار في فضل سورة طه، نوردها فيما يلي:

١- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عز وجل قرأ طه وياسين قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة نزلت عليها هذا، طوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا» [(٢)].

= للطبري: ١٦/ ١٣٥-١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(١) اقرأ إن شئت: قوله تعالى: ﴿ طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (٢) ﴾ ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) ﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) ﴾ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان: ٦/ ٢٣٥، وذكره أبو المظفر السمعاني بنحو هذا، تفسيره:٣/ ٣١٨، وأخرجه الدارمي في مسنده: ٢/ ٥٤٧، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة طه ويس، برقم: ٣٤١٤، وفيه «... قبل أن يخلق الله السموات والأرض بألف عام»، والطبراني في الأوسط:٥/ ١٣٤، والبيهقي في الشعب: ٢/ ٤٧٧، باب ذكر سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، وفي الأسماء والصفات: ٢٣٢، وابن عدي في الكامل في الضعفاء: ١/ ٢١٦. =

وهذا الحديث ضعيف لأن مداره على إبراهيم بن المهاجر وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان، وكلاهما تكلم فيهما[1].

٢- عن زياد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه»[2].

= وينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٤، وعزاه ابن كثير إلى محمد بن إسحاق وابن خزيمة في كتاب التوحيد، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور: ٥/٥٤٨، إلى الديلمي، والعقيلي في الضعفاء، وهو فيه: ١/ ٦٦.

(١) قال ابن كثير: «هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما» تفسيره ٥/ ٢٢٥٦، وعزا الشوكاني هذا القول إلى ابن خزيمة. فتح القدير: ٣/ ٣٥٤، وقال الذهبي: «هذا حديث منكر فابن مهاجر وشيخه ضعيفان» سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٦٩١، ونبه أبو المظفر السمعاني على غرابته. ينظر تفسيره:٣/ ٣١٨، وبهذا وقع الاتفاق على ضعفه، وذهب بعضهم إلى اعتباره حديثا موضوعا، إلا ابن حجر رد ذلك بقوله: «وقد زعم ابن حبان أنه موضوع وتبعه ابن الجوزي»، وذلك فيما نقله عنه تلميذه البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٦.

وأما إبراهيم بن المهاجر فقد قال فيه البخاري، وابن حبان «منكر الحديث جدا». كتاب المجروحين: ١/ ١٠٨، الضعفاء، للعقيلي: ١/ ٦٦، نقله عن البخاري، وقال يحيى بن معين: «ضعيف». العلل ومعرفة الرجال، لإمام أحمد:٣/ ٢٩، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار وضعفه البخاري بهذا الحديث ووثقه ابن معين» مجمع الزوائد:٧/ ٥٦، غير أنه سبق قريبا أن ابن معين ضعفه كما في العلل للإمام أحمد، وقال ابن عدي: « وإبراهيم بن مهاجر لم أجد له حديثا أنكر من حديث قرأ «طه ويس» لأنه لم يروه إلا إبراهيم بن مهاجر ولا يروي بهذا الإسناد ولا بغير هذا الإسناد هذا المتن الا إبراهيم بن مهاجر هذا وباقي أحاديثه صالحة» الكامل في الضعفاء: ١/ ٢١٦.

وأما عمر بن حفص بن ذكوان فقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس بشيء» وقال علي بن المديني: «ليس بثقة». وقال النسائي: «متروك الحديث» وقال الدارقطني: «ضعيف» وقال ابن حبان: «كان يشتري الكتب ويحدث بها من غير سماع»، وقال أحمد: «تركنا حديثه وحرقناه». الكشف الحثيث، لسبط ابن العجمي: ١/ ١٩٥، المغني في الضعفاء، للذهبي: ٢/ ٤٦٣، لسان الميزان، لابن حجر: ٤/ ٢٩٨، والميزان: ٥/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره قال: أخبرنا أبو عمرو الفراتي قال أبو نصر منصور بن عبد الله السرخسي عن محمد بن الفضل عن إبراهيم بن يوسف عن المسيب عن زياد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم...=

٣- عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع على أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئا إلا طه ويس، فإنهم يقرؤون بهما في الجنة»[(١)].

٤- عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلةً»[(٢)].

٥- عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: اسم الله الأعظم[(٣)] الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه»[(٤)].

= الحديث. الكشف والبيان: ٦/ ٢٣٥، وينظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣/ ٧٣.

(١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه: ٥/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره: ٥/ ٢٦١، وفي سنده: أبوبكر الهذلي قال فيه ابن حجر: «أخباري متروك الحديث». التقريب: برقم: ٨٠٠٢، وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه. الدر المنثور: ٥/ ٥٤٨. وفيه «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسيم... الحديث.
وأخرجه الحاكم: ١/ ٧٥٧، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ القرآن وتعلمه وعمل بها فيه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعا، قال البقاعي مستدركا على تصحيح الحاكم: «وليس كما قال، عبيدالله بن أبي حميد ضعيف جدا». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٧. وتعقب الذهبي الحاكم بقوله: «عبيدالله، قال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك، وقال دحيم: ضعيف». ميزان الاعتدال، للذهبي: ٣/ ٥، برقم: ٥٣٥٤.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٢٠/ ٢٢٥، وقال الهيثمي: وله إسنادان في أحدهما عبيدالله بن أبي حميد وقد أجمعوا على ضعفه وفي الآخر عمران القطان ذكره ابن حبان في الثقات:٧/ ٢٤٣، وضعفه الباقون». مجمع الزوائد:١/ ١٧٠، وأخرجه البيهقي في الشعب: ٢/ ٤٨٥، وقال: « عبيد الله بن أبي حميد تكلموا فيه». السنن: ١٠/ ٩.
وينظر: الجواهر الحسان، للثعالبي: ٣/ ٢٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٣/ ٨٧.

(٣) والاسم الأعظم هو «الحي القيوم» ينظر: مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٥، ٢٧٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: ٢/ ١٢٦٧، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، برقم : ٣٨٥٦، والحاكم=

٦- عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»[(١)].

٧- عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي[(٢)].

٨- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول سورة تعلمت من القرآن كلها بأسرها «طه» فكنت إذا قرأتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ قال: لا شقيت يا عائشة»[(٣)].

٩- عن شهر بن حوشب قال: «يرفع القرآن عن أهل الجنة إلا طه ويس»[(٤)].

١٠- **يقول البقاعي**: «ومن أعظم فضائلها أن قراءة أولها كان سببا لإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

= في المستدرك: ١/ ٥٠٥، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، والطبراني في المعجم الأوسط: ٨/ ١٩٢، ترجمة موسى بن سهل بن عمران الجوني، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن العلاء إلا الوليد تفرد به هشام»، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٣/ ١٠٠، تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٢. وقال المناوي: « موضوع من حديث أبي بن كعب» الفتح السماوي: ٢/ ٨٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسراء، برقم: ٤٤٣١.
والعتاق: جمع عتيق والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيق، يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد: ما كان قديما من المال يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام لأنها مكية وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن والله أعلم. شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ٣٧٦.

(٣) ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار: ٢٥٠، وعزاه إلى الوائلي، ثم ختمه بقول الوائلي «هذا حديث غريب شامي الطريق حسن».

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن: ١٣٣، من طريق أحمد بن يونس، عن فضيل بن عياض عن هشام، عن العطار، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥، وعزاه إلى أبي عبيد في فضائل القرآن، وذكر نحوه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢.

وهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحا أيدالله به هذا الدين ففرق به بين الحق والباطل، فعز به المسلمون فرغب في الإسلام بسبب ذلك من وفقه الله له، وذلك هو عين مقصودها»[1].

١١- ويكفي في بيان إعزاز الله المسلمين بإسلام عمر ﷺ أن المسلمين ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر ﷺ، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب، وقال أيضا: إن إسلام عمر كان فتحا وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى صلينا»[2].

١٢- وقال صهيب الرومي ﷺ: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به»[3].

١٣- وقال ابن عباس ﷺ: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[4].

ثالثا: زمان ومكان نزول السورة، وترتيبها بين السور، وعدد آياتها.

أ- زمان نزول السورة

نزلت هذه السورة قبل إسلام عمر ﷺ، وكان إسلامه في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشه، فعلى هذا تكون السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة[5].

---

(١) مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧٩.
(٢) ينظر: صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، برقم: ٣٦٥٠، الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٠٧، والمعجم الكبير: ٩/ ١٧٨، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.
(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.
(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.
(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

ب- مكان نزولها:

ذهب جمهور المفسرين إلى أنها كلها مكية[1]، وذكر السيوطي[2] أنه استثني منها قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾. [طه: ١٣٠]

ثم رأى أن يستثني هو منها قوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ لحديث أبي رافع الذي أخرجه البزار وأبو يعلى[3]،

---

(١) روي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ. ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥/ ٥٤٨، والشوكاني في فتح القدير: ٣/ ٣٥٤.
وينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥، بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/ ٣٨٩، تفسير الوجيز، للواحدي، ٢/ ٦٩١، تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني: ٣/ ٣١٨، معالم التنزيل، للبغوي: ٣/ ٢١١، الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥١، المحرر الوجيز، لابن عطية: ٤/ ٣٦، زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٢٦٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٣، الجواهر الحسان، للثعالبي: ٣/ ٢٣.

(٢) الإتقان: ١/ ٥٠، ونقله ابن عاشور عنه في تفسيره، إلا أنه لم يرتض قوله في الآية الثانية فقال: «وعندي أنه إن صح حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول. فلعل النبي ﷺ قرأها متذكرا فظنها أبو رافع نازلة ساعتئذ ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النزول على التلاوة. ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٠. ومع هذا فإن الحديث ضعيف لأن مداره على موسى بن عبيدة بن نشيط بن عمرو بن الحارث الربذي «ضعيف». التقريب: ٥٥٢، برقم: ٦٩٨٩.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ١/ ٣٣١، برقم: ٩٨٩، من طريق الحسين بن إسحاق التستري عن عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع.
وأخرجه البزار في مسنده: ٩/ ٣١٥، برقم: ٣٨٦٣، من طريق عمرو بن علي عن أبي عاصم عن موسى بن عبيدة به. وأخرجه الروياني في مسنده: ١/ ٤٦٢، برقم: ٦٩٥، من طريق محمد بن بشار عن أبي عاصم به، و١/ ٤٧٢، من طريق سفيان بن وكيع عن أبيه، عن موسى بن عبيدة الربذي به.

والذي فيه أن أبا رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض». فلم أخرج من عنده حتى نزلت ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه:١٣١]

ج- ترتيبها بين السور من حيث النزول، ومن حيث موضعها في المصحف.

نزلت هذه السورة بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة، وترتيبها في المصحف بعد مريم وقبل الأنبياء، وهي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب نزول السور، والسورة العشرون في ترتيب المصحف[(١)].

د - عدد آياتها: اختلف في عدد آياتها على أقوال:

١- ذهب أهل البصرة إلى أن عددها مائة واثنتون وثلاثون[(٢)].

٢- ذهب أهل المدينة ومكة إلى أن عدد آياتها مائة وأربع وثلاثون آية[(٣)].

٣- ذهب أهل الكوفة إلى أن عددها مائة وخمس وثلاثون[(٤)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٠.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٣) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، وتفسير البيضاوي: ٤/ ٣٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥، الكشف والبيان، للثعلبي: ٦/ ٢٣٦، تفسير الوجيز، للواحدي: ٢/ ٦٩١، والكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥١، التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٣، وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣/ ٤٨، مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

٤- ذهب أهل الشام إلى أن عددها مائة وأربعون[(١)] .

خامسا: المحور الذي تدور عليه السورة

إن المحور العام الذي تدور عليه السورة ويجمع بين موضوعاتها: **هو رعاية الله للمختارين لحمل الدعوة من الرسل وأتباعهم**[(٢)] ، والرفق بالمدعوين، والعناية بهم[(٣)] .

وإن المتتبع لهذه السورة يجد في ثناياها عبارات وإشارات تبين مدى عناية الله تعالى بالرسل وأتباعهم من المؤمنين، وبالمدعوين من غير المؤمنين أيضاً.

فأما الرسل فإن الله تعالى اعتنى بهم أكبر عناية حيث رباهم فأحسن تربيتهم، وأدبهم فأحسن تأديبهم، وصنعهم على عينه، فهم صفوته من خلقه ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾[الحج:٧٥] خصهم بحمل رسالاته على علم منه سبحانه أنهم لذلك أهلا ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾[الأنعام: ١٢٤]، وتتابعت عنايته سبحانه بهم فأيدهم بالمعجزات الباهرة تصديقا لهم، وحفظهم من بطش أعدائهم، وعصمهم منهم﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[المائدة: ٦٧] وثبتهم على الحق حتى مكنهم من تبليغ رسالات ربهم، ثم أنهى مواجهتهم مع أقوامهم بالنصر على أعدائهم، والتمكين لدعوتهم، والخذلان لأعدائهم. ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾[غافر:٥١]. ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٢) أشار سيد قطب رحمه الله تعالى إلى هذا المحور، واعتبر قصة موسى ﷺ نموذجا لذلك. ينظر: في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٢٧، ٢٣٢٩.

(٣) يقول البقاعي: «ومقصودها: إعلام الداعي صلى الله عليه وآله وسلم بإمهال المدعوين، والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرفه صلى الله عليه وآله وسلم». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٧١، نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٥٥.

نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يونس:١٠٣].

وأما المدعوون فإن الله تعالى قد أولاهم عنايته أيضا، حيث بعث إليهم رسله ليذكروهم ويعظوهم، ويبشرونهم وينذرونهم، لئلا تكون لهم حجة على الله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء:١٦٥] وأمر أنبياءه باستعمال اللين والرفق في دعوتهم استمالة لقلوبهم، وحرصا على استجابتهم﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النحل:١٢٥] وهنا في طه: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، وشرع لهم ما يصلحهم في أولاهم وأخراهم، وأغدق عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل:١٨].

وهذه السورة لا يكاد يخلو مقطع من مقاطعها من إشارة إلى هذه العناية وتلك الرعاية، وسأذكر في نهاية كل مقطع العلاقة بين المقطع وهذا المحور التي تدور عليه السورة أثناء التعرض إلى تفسيرها إن شاء الله تعالى.

سادسا: المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هذه السورة اسمها «طه» وهو الاسم التوقيفي الذي جاء في الأحاديث والآثار، وبيان ارتباطه بمحور السور ينظر إليه من وجهين:

الأول: أنهما حرفان من الأحرف المقطعة التي لا يعلم معناها.

الثاني: أنهما حرفان لهما معنى في استعمال العرب إذ يراد بهما «يارجل»، أو «يا حبيبي».

فأما على الوجه الأول: فإن جمهور المفسرين يرون أن الحكمة من ورود الحروف المقطعة في أوائل بعض السور هو الدلالة على إعجاز القرآن، وعليه يمكننا القول بأن هذه التسمية في هذه السورة لها علاقة بمحورها، فقد تضمنت السورة جوانب متعددة من العناية بالرسل والمدعوين

بطريق التصريح أو التلميح، كما تكرر التنويه فيها بالقرآن، وتكرر فيها الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون في بيانها ومضمونها جزء من هذا القرآن المعجز إلى أنواع أخرى من الإعجاز القرآني التي يظهرها الله للبشر متى شاء وكيف شاء عبر القرون والأزمان.

وأما على الوجه الثاني: فإن العلاقة بينة جلية بين اسم السورة ومحورها الذي هو العناية بالدعاة والمدعوين؛ ذلك أن «طه» أول كلمة ابتدئت بها السورة وهي تعني خطابا لطيفا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ معناها في لسان العرب «يارجل» أو «ياحبيبي»، لتكون تمهيداً لما سيعقبها من ظلال اللطف والعناية في ثنايا آيات السورة سواء فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه[1]، أو فيما يحكيه له ربه من قصص الأنبياء التي تضمنت العناية بالرسل والمدعوين، أو فيما تخلل السورة من بيان رحمة الله تعالى بالبشر حيث أنزل إليهم منهجا من عنده، من تمسك به سعد ومن أعرض عنه خاب وخسر.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في آخر السورة أن يقول للمشركين قولا خاتما بعد الإنذار والإعذار، فقال له: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ «ولقد علموا يقينا ذلك يوم فتح مكة المشرفة، واشتد اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السيف والنقم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقفهم عنه، ونفرتهم منه، وهذا معناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه هم السعداء الأغنياء الراضون في الدنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ فقد انطبق الآخر على الأول، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل، والله أعلم»[2].

كما أن خاتمتها تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ هذا القرآن وذكر به فلما

---

(١) وقد سبق التنبيه على كثرة الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الكلام على علاقة الاسم بالسورة.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٧٧.

لم يكونوا من أهل الخشية تركهم وضلالهم، يقول ابن عاشور: «ومن محاسنها: أن فيها شبيه رد العجز على الصدر لأنها تنظر إلى فاتحة السورة، وهي قوله ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق»[(١)] .

ويقول سيد قطب: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ «بذلك تختم السورة التي بدأت بنفي الشقاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تنزيل القرآن وحددت وظيفة القرآن ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله»[(٢)] .

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها.

يقول البقاعي: «لما ختم الله تعالى سورة مريم بالإخبار عن إهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللدّ[(٣)] ولم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك كان ربما أفهم أنه انقضت مدتهم، وحل بوارهم، وأتى دمارهم، وأنه لا يؤمن منهم أحد -لما هم فيه من اللدد- إلا من قد آمن فحصل بذلك من الغم والحزن ما لا يعلم قدره إلا الله لأن الأمر كان في ابتدائه، ولم يسلم منهم إلا نفر يسير جدا فسكّن سبحانه الروع بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ بتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعا بعد استئصال قومك وشقائهم بإنذارك»[(٤)] .

وأرى من تمام الفائدة أن تذكر مناسبة خاتمة هذه السورة لمطلع سورة الأنبياء بعدها،

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٩٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٥٨.

(٣) قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾ (مريم:٩٨).

(٤) نظم الدرر: ١٢/ ٢٦٦، ٢٧٤.

وهي على ما ذكره السيوطي «أنه سبحانه لما قال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ وقال قبله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ قال في مطلع هذه: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] إشارة إلى قرب الأجل ودنو الأمل المنتظر، وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ فإن قرب الساعة يقتضي الإعراض عن هذه الحياة الدنيا لدنوها من الزوال والفناء"[1].

٤- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٥- المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

سيأتي الحديث عنها في بداية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٦- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

يقول السيوطي: «لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء وهم: زكريا ويحيى وعيسى، والثلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة وأشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالا ذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم الذي وقع في «مريم» مجرد ذكر اسمه.... فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب»[2].

ونقل البقاعي عن ابن الزبير قوله في كتابه البرهان: «لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام

(١) أسرار ترتيب القرآن: ١١٠. وجاء عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاءه الرجل فقال إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واديا ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾.

(٢) تناسق الدرر، للسيوطي: ٩٤-٩٥.

وما منحه وأعطاه، وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به وأعقب ذلك بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾[مريم: ٥٨]. وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه الله تعالى بملاطفة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾[1].

المبحث الثاني: تمهيد بين يدي التفسير

أرى من المناسب قبل الشروع في تفسير مقاطع هذه السورة أن أقدم بين يدي التفسير تمهيدا عن ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة، من خلال قراءة لبعض أحداثها، ثم أختمه ببيان الأهداف التي ترمي إليها السورة من خلال قراءة عامة لموضوعاتها حتى يتبين للقارئ الأمور التي عالجتها السورة في هذه المرحلة من النزول.

ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة:

نزلت هذه السورة في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، وقد جاء أن قراءة عمر لمطلعها كانت سببا في إسلامه، وهي الفترة التي جهر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الله تعالى[2]، استجابة لأمر الله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[الشعراء:٢١٤]، ولقوله ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[الحجر:٩٤] وكان ذلك في السنة الثالثة.

نزلت السورة والمسلمون في عناء شديد من أذى الكفار، خاصة بعد إعلانهم الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧٣-٢٧٤، والآية من سورة طه:٢.

(٢) ومع أنه صلى الله عليه وآله وسلم جهر بالدعوة إلى الله تعالى إلا أن المسلمين لم يزالوا يتخفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم حرصا على أن يكون التنظيم سريا.

كما أن السورة مكية تتسم بطابع القرآن المكي الذي يعنى بتصحيح العقيدة المنحرفة، ويفصل في ذكر البلاء والابتلاء، ويأمر بالصبر عليه.

وبالرجوع إلى السورة في قراءة متأنية يمكن أن نلمح من خلالها ملامح المجتمع في وقت نزولها، ويمكن إجمال ذلك في الملامح التالية:

أولا: ملامح تتعلق بالاعتقاد، ودلالات السورة عليها.

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وقت بلغ الكفار فيه المنتهى في الكفر والإشراك، فقد شاع فيهم عبادة الأصنام والتقرب إليها، واعتقاد نفعها وضرها، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها شافعة لهم عند الله، وهم مع - توغلهم في الإشراك، وتعظيم الآلهة- إلا أن فطرتهم أبت عليهم إنكار الربوبية، فهم يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم [(١)] وخالق السموات والأرض [(٢)].

ومن عقيدة المشركين المتأصلة في نفوسهم إنكار ما يتعلق باليوم الآخر، من قيام الساعة والبعث، والحشر، والحساب حتى بلغ من أمرهم أنهم زعموا بأنهم لن يبعثوا [(٣)]، واستبعدوا وقوعه [(٤)] بل أقسموا على نفيه [(٥)].

ولم يقف بهم الأمر إلى هذا الحد بل تجرأوا على الله تعالى فافتروا عليه الكذب بتحليل ما

---

(١) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. الزخرف:٨٧.

(٢) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ العنكبوت:٦١.

(٣) ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ (التغابن: من الآية٧) .

(٤) ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ (ق:٣) .

(٥) ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(النحل:٣٨) .

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: من الآية٧) .

حرم وتحريم ما أحل، فأحلوا ما لم يحله الله وحرموا ما لم يحرمه الله[(١)] .

ونزلت سورة «طه» **لترسيخ مبادئ العقيدة في الله تعالى؛** من توحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق به، وإثبات العبودية له من خلال ما أوحى الله به تعالى من قصة موسى ﷺ، فكان التوحيد أول الأسس التي أوحى الله بها إلى موسى ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾، وبه ختم موسى حواره مع عبدة العجل، والسامري لما قال لهم: {إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو}.

ووصف الله تعالى نفسه بصفات الكمال والجمال، ووصف أسماءه بأنها الأسماء الحسنى بقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ وهذا بيّن في مجموعة من الآيات الصريحة في السورة.

وأما الربوبية فقد جاء التأكيد عليها في السورة، حيث تكرر ذكر لفظ «الرب» ٢٧ مرة[(٢)] عدا ما جاء في السورة من معاني الربوبية، وهذا -وإن كان المشركون لا ينكرونها- إلا أن التركيز على إثباتها إنما كان لأجل الاحتجاج عليهم؛ إذ كيف يقرون بربوبيته ثم يتركون عبادته وهو سبحانه المتصف بصفات الربوبية، فكانت هذه دعوة لهم إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة، بعد أن أقروا له بالربوبية.

وهذا واضح فيما حكاه الله تعالى في حوار موسى مع فرعون لإثبات الربوبية لله تعالى وما حشده موسى من الأدلة على ذلك، لإقناع رجل قد تجاوز حد الانكار إلى ادعاء الربوبية لنفسه[(٣)] ، بل والألوهية أيضا[(٤)] .

---

(١) ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾. الأنعام:١٣٨.
﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (الأنعام:١٤٠).

(٢) الآيات: (١٢، ٢٥، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨٤، ٨٦، ٩٠، ١٠٥، ١١٤، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤).

(٣) ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾. النازعات:٢٤.

(٤) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾. القصص: من الآية٣٨.

هذا بالإضافة إلى ما في السورة من بيان معاني الربوبية كالرحمة بالخلق، وخلق السموات والأرض، ومنن الله تعالى على موسى، وتمهيد الأرض، وإنزال المطر من السماء، والإحياء والإماتة والبعث، ونصر المؤمنين، وتأييدهم، والمغفرة لهم، وإهلاك أعدائهم، ونسف الجبال، ونحو ذلك مما يشهد أنها ليست في مقدور أحد من الخلق.

واعتنت السورة عناية كبيرة بتقرير قيام الساعة (١)، والبعث (٢)، والحشر (٣) والحساب (٤)، والجنة (٥)، والنار (٦)، وهو ما أصر على إنكاره المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسالة ودلالات السورة عليها:

اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لحمل القرآن وأمره بتبليغه للناس، فما كان من المشركين تجاه هذا الكتاب إلا الإنكار والمواجهة، والتعنت، فطلبوا الآيات الحسية، وجعلوها شرطا لإيمانهم، ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ (٧) [الإسراء:

---

(١) ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

(٢) ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

(٣) ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

(٤) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

(٥) ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

(٦) ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾.

(٧) الاسراء:٩٠.

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (الاسراء:٩٣).

٩٠]، **تعجيزا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم،** ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[العنكبوت:٥٠]، **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[العنكبوت:٥١]، **وهنا في هذه السورة يقول الله تعالى:** ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾، **واستعانوا باليهود للإتيان بأسئلة تعجيزية**[1] .

ومن الشواهد على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به فأنزل الله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[2] .

وكان بعضهم يحث بعضا على ترك الاستماع إلى القرآن الكريم، بل يدعون إلى التشويش عليه حتى لا يسمع[3] .

وفي محاولة يائسة لإيهام الناس بأن القرآن من كلام البشر، بعد وضوح إعجازه قال الوليد بن المغيرة إرضاء لقومه: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[المدثر:٢٥] بل نفى المشركون أن يكون الله قد أنزل شيئاً على رسله فحكى الله مقالتهم موبخاً لهم بقوله:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾ وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنعام:٩١]، وأعرض المشركون عن الذكر واتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر، والافتراء.

ونزلت سورة «طه» في هذا الجو لتعالج الانحراف من خلال حكاية قصة إيمان السحرة

---

(١) فأشار اليهود عليهم بسؤالهم إياه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح.

(٢) صحيح البخاري، برقم: ٤٤٤٥، ولباب النقول، للسيوطي: ١/ ١٤٢.

(٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾. فصلت:٢٦.

إثر معجزة موسى الحسية بعد أن كانوا مستشعرين الثقة بالنصر، والغلبة على موسى، حتى كان من فرط ثقتهم أن أقسموا إنهم لهم الغالبون، ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤]،

وفي السورة تتجلى أثر المعجزة القرآنية غير الحسية حيث كان مطلعها سببا في إسلام عمر رضي الله عنه بعد أن كاد أن يكون ميؤساً منه.

وفي قصة موسى أيضاً: بيان إعراض فرعون وملأه عن الإيمان بما جاء به موسى من البينات، وتكذيب فرعون بآية موسى (١)، واتهامه بالسحر (٢)، وهو نفسه ما وقع من الكفار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعرضوا عن رسالته، واتهموه بالسحر، وكذبوه.

- ويبرز في السورة الاعتناء بمعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأبانت الآيات أن القرآن منزل من عند الله تعالى الذي خلق السموات والأرض، وأنه تعالى قد صرف فيه من الوعيد، وأن متبعه ينال سعادة الدارين بعيداً عن الشقاء، وأن المعرض عنه هو الذي له المعيشة الضنك، وهو وحده الحامل لوزره يوم القيامة (٣).

ثالثا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودلالات السورة عليها.

قست قلوب المشركين فقسوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدعوا أسلوبا أو طريقة إلا سلكوها في إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجمعوا له بين الإيذاء النفسي

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(٢) ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾.

(٣) ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

والمعنوي والجسدي، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصا أشد الحرص، على إيمانهم وإنقاذهم، ويمكن إجمال ذلك في **المظاهر التالية**:

* السخرية والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، والضحك منهم والغمز واللمز[(١)].
* الإشاعة في الناس أنه إنما أنزل عليه القرآن ليشقى، وأنه كان سببا في شقائه.
* لقي من أبي جهل إيذاء وشتما إلا أنه لم يصل إليه الإيذاء بيده لمنع الله تعالى له منه ومن كل الناس[(٢)].
* اتهموه باتهامات باطلة لصد الناس عنه، فاتهموه بالجنون[(٣)]، والسحر، والكذب[(٤)] والاتيان بالأساطير[(٥)]، ونفوا أن يكون القرآن من الله تعالى[(٦)]، واتهموا المؤمنين بالضلالة[(٧)].
* هم أبو جهل أن يطأ رقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي عند الكعبة فمنعه الله بملائكته[(٨)].
* يغشاهم رسول الله في أسواقهم، وهو ينادي (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وأبو

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ ﴾ المطففين:٢٩-٣٠.

(٢) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾. المائدة:٦٧.

(٣) ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ ﴾القلم: من الآية ٥١.

(٤) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾. ص:٤.

(٥) ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾. الفرقان:٥.

(٦) ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾. النحل:١٠.

(٧) ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ ﴾. المطففين:٣٢.

(٨) قال صلى الله عليه وآله وسلم «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا». رواه مسلم في الصحيح، باب قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ ﴾، برقم: ٢٧٩٧.

جهل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبه وهو يقول «يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب»[1]. وهم ينهون الناس عنه، وأبو جهل خلفه يسفي عليه التراب.

* خنقه عقبة بن أبي معيط بردائه وهو يصلي، فدفعه عنه أبوبكر الصديق، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[*].

* ألقى المشركون على ظهره الشريف سلى بعير[2]، فأماطته ابنته فاطمة رضي الله عنها عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصرعوا يوم بدر.

* اجتمعت كلمة كفار قريش على النيل من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فطلبت إلى أبي طالب أن يخلي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو يأمره بالكف عن سب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، أو ينازلوه وإياه في ذلك، وكثرت مراجعتهم له في ذلك، ولكنه أبى عليهم ذلك، لعلمه بصدقه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مما قاله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم «اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا»[3].

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختاره: ٨/ ١٢٨، وقال: إسناده صحيح.

(*) صحيح البخاري (٣٦٧٨).

(٢) اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية المشيمة.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي(السيرة النبوية): ١٥٠.

وقال أبو طالب في ذلك شعرا:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فامض لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقرّ بذاك منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قدما أمينا

وعرضت دينا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

* شق عتيبة بن أبي لهب قميصه وتفل في وجهه إلا أنه لم يقع البزاق عليه فدعى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسلط عليه كلبا فذبحه السبع وهو في الزرقاء في الشام.

* آذاه أهل الطائف، وسخروا منه، وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم.

ونزلت سورة «طه» **لتعبر تصريحا وتلميحا عما لقيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الآيات التي فيها التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأمر بالصبر**، فنفى الله في افتتاحيتها أن يكون تنزيل القرآن عليه شقاء، وإنما هو تذكرة لمن يخشى، وهي دعوة لهم للتذكر والخشية، كما تضمن إشعاره صلى الله عليه وآله وسلم بالأنس- في غمرة أهل الشرك- لأن الله تعالى معه بعلمه إذ يعلم الجهر والسر، بل يعلم ما هو أخفى من السر.

وفي حكاية الله تعالى لنبيه قصة موسى تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفترة العصيبة التي اشتد فيها أذى الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه، وهم مع ذلك منعوا من القتال، بل أمروا بالكف والصبر والعفو، واتهموه بالسحر، وهو عين الاتهام لموسى، وتضمنت قصة موسى عليه السلام صوراً من بطش فرعون ببني إسرائيل واستعبادهم، مع عدم تكليفهم بقتال فرعون، ثم بيان ما آل إليه أمرهم – بعد ذلك- من النصر والنجاة من فرعون، وهزيمة فرعون، ثم غرقه، وأوضحت السورة أن موسى عليه السلام لم يكن ساحراً، وذلك من خلال وضوح معجزته التي ألقت السحرة سجداً، وجاء في القصة حكاية حال السحرة، وأن الساحر لا يفلح أبداً.

وفي السورة تهديد للمشركين المكذبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم المفهوم من قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ إشارة إلى سوء عاقبة الكفار ذلك أنهم أسرفوا في الكفر وأوغلوا في الشرك، وإن لهم في قصص من قبلهم لعبرة، كما أن بذكر القرون الأولى إعذار لهم [(١)].

(١) ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

رابعا: ملامح تتعلق بموقف المشركين من المؤمنين ودلالات السورة عليها

ولئن اشتد الأذى بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإن المسلمين قد نالهم أيضا من الأذى الجسدي والمعنوي والاقتصادي عناءً كثيراً، ويمكننا معرفة ذلك من خلال المظاهر التالية:

* كان الصحابة في خوف من قريش فإذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم.
* فر المسلمون بدينهم إلى أرض يتمكنون فيها من العبادة، حين اشتد إيذاء قريش لهم، بعد أن أعلنوا إسلامهم وجهروا بالدعوة إلى الله تعالى، فتركوا أوطانهم، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمنعهم.
* قام أبوبكر خطيباً في المسجد الحرام فضربه المشركون ضرباً شديداً.
* ضرب عبدالله بن مسعود ﷺ لما جهر بالقرآن، وكان أول من جهر بالقرآن من الصحابة.
* اعتدي على عمر لما أسلم حتى كاد يقتل.
* أوذي عثمان بن مظعون، وكان من ذلك أن ضربه رجل من كفار قريش على عينه فخضّرها.
* ضرب أبو ذر الغفاري لما جاء إلى مكة يسأل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أغشي عليه.
* عذبت قريش الموالي فألبسوهم الحديد وصهروهم في الشمس.
* كانوا يجرون في بطحاء مكة في اليوم الشديد الحر.
* كان آل ياسر يعذبون أشد العذاب.
* أعلنت قريش المقاطعة العامة، لبني هاشم، فتعاهدت قريش وكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فأصابهم الجهد

حتى أكلوا الخبط[(١)]، وورق السمر، وكان أبو طالب قد جمع بني هاشم وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعبهم ويمنعونه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعلة حمية، ومنهم من فعله إيماناً.

ونزلت سورة «طه» بدلالات وإشارات فيها تثبيت للمسلمين على الدين، ومن ذلك ما يلي:

* أمر الله تعالى بإقامة الصلاة في هذه السورة[(٢)] في الوقت الذي كان المسلمون يستخفون بها في الشعاب.

* حكى الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يشير إلى خروجه إلى مدين، ثم رجوعه إلى وطنه بعد هجرته فراراً من بطش فرعون، ثم هجرته بعد ذلك مع بني إسرائيل فراراً بدينهم، وما أعقبه من نجاتهم من بطشه وجبروته وإهلاك عدوهم، وكأن في ذلك إيماء إلى هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وهجرة الصحابة قبله إلى الحبشة، ثم هجرتهم -من بعد- معه إلى المدينة.

* حكى الله تعالى خبر تعذيب فرعون لبني إسرائيل[(٣)] ونجاتهم بالخروج من مصر، في الوقت الذي كان المسلمون يعذبون بمكة، وكأن في ذلك إيماء إلى أن عاقبتهم ستؤول إلى النجاة، وعاقبة معذبيهم إلى الهلاك.

* في السورة تسلية للمؤمنين، وتثبيتا لهم، وإنذار ووعيد للمشركين، من خلال ما تخلل السورة من الترغيب والترهيب[(٤)]، وبيان عاقبة المجرمين[(٥)]، وإيضاح حال المؤمنين من السحرة الذين ثبتوا على إيمانهم غير آبهين بتوعد فرعون الشديد.

---

(١) الخبط: ورق العضاه يضرب بالعصي ليتناثر فتعلفه الإبل. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام: ٢/ ٢٣٥.

(٢) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

(٣) ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾.

(٤) ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾.

(٥) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

أهداف السورة الأساسية

إن ما سبق من عرض ملامح المجتمع في وقت نزول السورة، وما سيأتي من بيان أهدافها يعطي الصورة الإجمالية لما سيقف عليه القارئ في ثنايا السورة من موضوعات قبل أن يدخل في مفرداتها، وإليك بيان أهم أهداف هذه السورة:

* إبراز عناية الله بالرسل وأتباعهم، والرفق بالمدعوين، وهذا الهدف قد تميزت به السورة عن كثير من السور المكية، مما دعانا إلى جعله المحور الذي تدور حوله السورة، وسيأتي في ثنايا مقاطع هذه السورة بيان العلاقة بين محورها ومقاطعها إن شاء الله تعالى.
* إثبات رسالة محمد ﷺ، وتأييده بالمعجزات، وأنها رسالة تماثل رسالة أعظم رسول قبله، شاع ذكره في الناس «موسى عليه السلام».
* التعريض - بما قصه الله من شأن موسى - بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه.
* الدعوة إلى استعمال اللين في الدعوة إلى الله تعالى مهما بلغ عتو المدعوين وعنادهم.
* تعميق معنى التوكل على الله، مع اتخاذ الأسباب، والثقة به، واستشعار معيته.
* الدعوة إلى الاهتمام بالصلاة وتخصيصها بالعناية من بين العبادات الأخرى.
* بيان عاقبة الأقوام المكذبين للمرسلين قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
* تسلية النبي ﷺ، وتثبيته على الدين، تسلية المؤمنين وتبشيرهم بحسن عاقبة المواجهة بين الرسل وأقوامهم.
* بيان أهمية الالتزام بالهدي الإلهي في تحقيق السعادة في الدارين.
* التنويه بشأن المسلمين، بأنهم من أهل الخشية لما تذكروا بالقرآن.
* بيان أهمية التذكير والوعظ بالقرآن في الدعوة إلى الله تعالى.

* بيان وظيفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدود تكاليفه.
* بيان ضرورة طلب العون من الله تعالى في أداء التكاليف.
* بيان أهمية الوفاء بعهد الله تعالى والتحذير من عاقبة نكثه.
* تهويل يوم القيامة ببيان ما يتقدمه من الحوادث والأهوال.
* التنبيه على خطورة الفتنة في الدين، والتحذير منها.
* تقرير قضية توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته.
* بيان أهمية التأدب مع الله تعالى، ومع مقدساته.
* بيان إعذار الله إلى الخلق بإرسال الرسل.
* بيان أثر الترهيب والترغيب في المدعوين.
* الدعوة إلى اتباع هدي الله سبحانه.
* ترسيخ الإيمان باليوم الآخر.
* التنويه بعظمة الله تعالى.
* التنويه بشأن القرآن.
* إثبات البعث.

وبعد هذا العرض الإجمالي لأهداف السورة، وبيان ملامح المجتمع في وقت نزولها، يمكننا الشروع في تفسير السورة تفسيراً موضوعياً، وقد رأيت أن أقسم السورة إلى افتتاحية وخاتمة وبينهما خمسة دروس لكل منها عنوان يعبر عن مضمونه.

الافتتاحية

- يقول الله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى الإجمالي للافتتاحية:

افتتحت هذه السورة بحرفين من حروف الهجاء أعقبهما ذكر القرآن الكريم كما هو الشأن في السور التي بدئت بحروف الهجاء، وذلك بياناً لإعجاز القرآن، وإثباتا بأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها[1]، غير أن الإمام الطبري رجح بأن حرفي هذه السورة ليسا من الحروف المقطعة المجهولة المعنى وإنما هما حرفان لهما معنى في لغة العرب، إذ يعنيان في لغة عك «يا رجل»[2]، أو «يا حبيبي» وهو ما روي عن

(١) وهو ما رجحه الشنقيطي واستدل عليه بالاستقراء بأن كل السور المبدوءة بحروف الهجاء يأتي بعدها ذكر القرآن أو الاحتجاج له. ينظر كتابه أضواء البيان: ٢/ ١٦٦-١٧٧، عند تفسير مطلع سورة هود.

(٢) وقيل: هي كذلك باللغة السريانية، أو النبطية، أو الحبشية، أو العبرانية، وقد روي نحو ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى وغيرهم. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٥-١٣٦، وتفسير ابن كثير:٣/ ١٤٢، وأضواء البيان:٤/ ٣، والكشف والبيان: ٦/ ٢٣٦، روح المعاني، للألوسي:١٦/ ١٤٨ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ١٦٥.

وقال القرطبي: «والصحيح أنها وإن وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا وأنها لغة يمانية في عك وطيء وعكل أيضا». الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ١٦٦.

وقال الشوكاني: «ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل» فتح القدير: ٣/ ٣٥٥.

وقال أيضا: «وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة، وهكذا إذا كانت لهذا=

عبدالله بن عمرو أنها كذلك بلغة عك[(١)].

لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قومه العنت والمشقة بسبب إعراضهم عما جاء به من الذكر، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً أشد الحرص على إسلامهم، فكان يتحسر ويأسف عليهم أنهم لم يتبعوا الحق الذي جاء به، وكان مما لقيه منهم أن قال بعضهم: إنك شقي حين تركت دين آبائك وأن القرآن نزل عليك لتشقى، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾[(٢)] ملاطفة للنبي ﷺ وتسلية بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك بفرط التأسف عليهم وعلى كفرهم، والتحسر على أن يؤمنوا، وهو القائل له:﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾[فاطر: ٨]، وبهذا يكون الله

= المعنى في لغة من لغات العجم واستعملها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب». فتح القدير: ٣/ ٣٥٦.

وقال ابن الأنباري: إن لغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا لأن الله تعالى لم يخاطب نبيه (ﷺ) بلسان غير لسان قريش. ذكره الألوسي في روح المعاني:١٦/ ١٤٨، ورجحه، وقيل: إنها معربة. ذكره ابن كثير عن أبي صالح. تفسيره:٣/ ١٤٢.

(١) ذكره الشنقيطي في أضواء البيان:٤/ ٣، وعزاه إلى الغزنوي.

وجاء في معنى هذين الحرفين أقوال أخرى ضعيفه. ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/ ٣٨٩، والكشف والبيان، للثعلبي: ٦/ ٢٣٦-٢٣٧، ومعالم التنزيل، للبغوي: ٣/ ٢١١،، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/ ٢٦٩-٢٥٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٥٦، وأضواء البيان: ٤/ ٤، وقد نبه الرازي على ترك الاعتماد عليها. التفسير الكبير: ٢٢/ ٤، وضعفها الشنقيطي، ووصف بعضها بالتعسف والبعد عن الظاهر. أضواء البيان:٤/ ٤.

(٢) وجاء أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورَّمتْ قدماه، فأنزل الله ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة. فنكلفك ما لا طاقة لك له من العمل. ينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٣٧، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٣، ولباب النقول، للسيوطي: ١/ ١٤٦، وأضواء البيان، للشنقيطي:٤/ ٤.

تعالى قد نفى عن نبيه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب سعادته [(١)].

ثم بين الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة لمن من شأنه أن يخشى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه، أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف، وأن مهمته صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي التذكير والبلاغ، وقد بين الله في آيات أخرى ما يؤكد بأنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا مذكراً بالقرآن، وأن ذلك هو غاية ما كلف به، وأنه لم يرسل جباراً يجبر الناس على الإيمان، قال سبحانه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، وقال:﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥].

ثم ذكر الله تعالى أن هذا القرآن إنما نزل ممن [(٢)] خلق الأرض والسموات العلى [(٣)]، تنويها بعظمته، فإنه لما كان منزل القرآن بهذه العظمة، لا جرم أن القرآن شيئا عظيما [(٤)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٠، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦. وقال ابن عاشور: «ووقوع فعل (أنزلنا) في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله. لأن الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه. وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور، فيعم نفي جميع كل إنزال للقرآن فيه شقاء له، ونفي كل شقاء يتعلق بذلك الإنزال، أي جميع أنواع الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سببا في شيء من الشقاء للرسول ﷺ».

(٢) يقول ابن عاشور: «والعدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من تحتم إفراده بالعبادة، لأنه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقا». التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٦.

ويقول البيضاوي: «والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه». تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١.

(٣) وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها. الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٣، والتفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥-٦.

(٤) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

ثم شرع سبحانه بالتعريف بنفسه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على سعة رحمته وعظمة ملكه، وإحاطة علمه فأثبت لنفسه الاستواء على عرشه، ودقة علمه بحيث لا يخفى عليه شيء بل هو يعلم السر وأخفى.

ولْيُعلم بأن الأصل فيما وصف الله نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم «أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ـ ﷺ ـ نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل... فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل"[(١)].

---

(١) والفرق بين التمثيل والتكييف: أن **التمثيل**: ذكر كيفية الصفة مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يقول قائل: يد الله كيد الإنسان. قال سبحانه:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(الشورى: من الآية١١)
والتكييف: ذكر كيفية الصفة غير مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يتخيل ليد الله كيفية معينة لا مثيل لها في أيدي المخلوقين فلا يجوز هذا التخيل، وهذا لا يمكن للبشر لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، لأن الصفة تابعة للذات، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها. ولهذا لما سئل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ فقيل له:﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ كيف استوى فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهذا يقال في سائر الصفات. شرح لمعة الاعتقاد، لمحمد بن صالح العثيمين:٧.
والتحريف: نوعان:
النوع الأول: تحريف اللفظ وهو العدول به عن جهته إلى غيرها إما بزيادة كلمة أو حرف أو نقصانه، أو تغيير حركة كقول أهل الضلال في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ أي: استولى، فزادوا في الآية حرفًا. وكقولهم في قوله تعالى:﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي: أمر ربك، فزادوا كلمة. وكقولهم في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ بنصب لفظ الجلالة فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب.
النوع الثاني: تحريف المعنى، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر كقول المبتدعة: إن معنى الرحمة: إرادة الإنعام. وإن معنى الغضب إرادة الانتقام.
والتعطيل: المراد به هنا نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى. =

وعليه فيجب الإيمان بأنه سبحانه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله على كيفية «لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً"[1]، وقد قال الإمام أحمد: «نحن نؤمن بأن الله تعالى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد"[2].

ثم أتبع الله تعالى بيانه لصفاته ببيانه بأنه مالك لما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى لا يشاركه في ملكه أحد، وهو مدبر ذلك كله ومصرف جميعه[3]، وبأن علمه محيط بجميع ما ملك سبحانه، يعلم ما أعلنوه من القول، وما أسروه لغيرهم أو في أنفسهم، وما هو أخفى من السر مما علم الله وأخفاه عن العباد ولم يعلموه مما هو كائن ولم يظهره لأحد، فهو مما

= والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التحريف هو نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنى آخر غير صحيح.

والتعطيل: هو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر، كفعل المفوضة. فكل محرف معطل وليس كل معطل محرفًا.

(١) كتاب العلو، للذهبي: ١٠٤.، ونص على أنه قول أهل السنة قاطبة.

(٢) نقله القاسمي في محاسن التأويل: ٧/ ١٠٤، ١٠٥.

وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ومكحول ومالك، وإسحاق وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمروها كما جاءت بلا كيف. التمهيد، لابن عبدالبر: ٧/ ١٤٩، فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٤٠٧.

(٣) « وتقديم المجرور في قوله (له ما في السماوات) للقصر، ردا على زعم المشركين أن لآلهتهم تصرفات في الأرض، وأن للجن اطلاعا على الغيب، ولتقرير الرد ذكرت أنحاء الكائنات، وهي السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٨.

لا يعلمه إلا الله[(١)]. وكان ذلك بطريق الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)] لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن، ويواجه الكافرين بلا سند[(٣)].

وهذا الذي هذه صفته هو الذي أنزل القرآن، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦].

ثم يختتم مطلع السورة بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه سبحانه وأن من اتصف بتلك الصفات الجليلة الذي له الأسماء الحسنى[(٤)] هو المستحق للعبودية المختص بالألوهية، وأن ما دونه من الآلهة والأوثان ليست أهلا للعبادة[(٥)].

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١، وتفسير أبي السعود: ٦/ ٥. ويقول سيد قطب: «وينسق التعبير بين الظل الذي تلقيه الآية﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ والظل الذي تلقيه الآية بعدها ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ ينسق بين الظاهر الجاهر في الكون، والظاهر الجاهر من القول. وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء في الصدور: السر وأخفى على طريقة التنسيق في التصوير. والسر خاف. وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار، كما هو الحال تحت أطباق الثرى». في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٨.

ويقول ابن عاشور: (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) عطف على جملة ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٨.

(٢) فالخطاب في قوله (وإن تجهر) يجوز أن يكون خطابا للنبي ﷺ وهو يعم غيره. ويجوز أن يكون لغير معين ليعم كل مخاطب. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٩.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٢٨.

(٤) يقول ابن عاشور: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ تذييل لما قبله لأن ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته. التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩١.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١، ويقول أبو السعود: « وقوله تعالى ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول يا الله يا رحمن قالوا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر» تفسير أبي السعود: ٦/ ٥-٦.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الافتتاحية

* قوله تعالى: ﴿ تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ «تنويه بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادّكروا بالقرآن[1]» وهو في الوقت نفسه دعوة لغيرهم ممن سمع هذا القرآن - بطريق الإيماء- أن يكونوا من أهل الخشية.

* إن الله تعالى عظم القرآن ببيان أنه نزل ممن خلق السموات العلى، وإنما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه، واستنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان[2]، وهو خطاب لهم بما يسلمون به من خلق السموات والأرض، ليكون حجة عليهم في صحة إنزال القرآن منه.

* لما كان هذا القرآن من خالق قوي قدير اتصف بصفات الكمال والجلال فإن الذي يتخذ هذا التنزيل الكامل الخالد مرشداً وهادياً سوف يصل بإذن الله تعالى إلى سعادة الدارين «وأين من هذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة، تحمل في طياتها جهل واضعيها، وقصورهم، وأهواءهم التي تضطرب بها أحوال البشر فلا تستقر على حال من القلق»[3].

* في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ ﴾ **دلالات علمية يحسن الإشارة إليها هنا**؛ ذلك أن الآية جاءت في سياق تفخيم القرآن لكونه نزل ممن خلق الأرض والسموات العلى المالك لما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى، وهذه الدلالات تدل على عظمة خلق الله تعالى، وهذا فيما أدركه البشر منها بما هيأه الله له من الأسباب والوسائل العلمية، وما وراء ذلك أعظم مما استأثر الله بعلمه، حتى إذا شاء كشْفه، كشفه لمن يشاء متى يشاء، وكيف يشاء سبحانه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

(٢) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى ‍عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٣.

وقد توسع في بيانها الدكتور زغلول النجار [(١)] حفظه الله، فذكر القدر المدرك من السموات بالسنوات الضوئية [(٢)]، وذكر سرعة اتساعه [(٣)]، ودقة بنائه، ومكوناته، وكيفية تجمعها وتكونها [(٤)]، ومراحل حياة النجوم من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود الى دخان السماء.

كما بين ما يتعلق بحجم الأرض [(٥)]، ومكونات كل أرض من الأرضين السبع، وتطرق إلى بيان ما بين الأرض والسماء، وما يتركب منه ذلك الفاصل من الغازات بنسب مختلفة وفق تقدير العزيز العليم [(٦)].

وختم بذكر ما يتضمنه تحت الثرى، من مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة

---

(١) http: //www. islamicmedicine. org/zaghlool/99. htm)

(٢) حيث قدره بأكثر من أربعة وعشرين بليونا من السنين الضوئية٢٤ بليونا ٩. ٥ مليون مليون كم=٢٢٨ الف مليون مليون مليون كم.

(٣) وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الذاريات:٤٧)

(٤) وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب، والنيازك حول كل نجم من النجوم التي تنتظم بملايين الملايين في مجرات، وتنتظم المجرات في مجموعات محلية، ثم في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك في تصاعد إلى نهاية لايعلمها الا الله(سبحانه وتعالى).

(٥) حيث قدر بمائة وثمانية ملايين كيلو متر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي٥. ٥٢ جم/ سم٣، تقدر كتلتها بحوالي الستة آلاف مليون مليون طن، والأرض بداخلها ست أرضين.

(٦) فهو يتكون من جزيئات النيتروجين(بنسبة٧٨. ١٪ بالحجم)، والأكسجين(بنسبة٢١٪ بالحجم)، والأرجون(بنسبة٠. ٩٣٪ بالحجم)، وثاني أكسيد الكربون(بنسبة٠، ٠٣٪ بالحجم)، وذلك بالاضافة الي نسب ضيئلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من غازات الميثان، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماما لتركيب المادة بين الكواكب الأخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكوني الذي خلقت منه السماوات والأرض ابتداء.

للنباتات الكبيرة[(١)] ، ومن مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات[(٢)] .

وإن ازدهار الحياة فيما تحت الثرى من التربة حقيقة لم تكن معروفة في زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها في القرآن الكريم يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، وبأنه كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض.

* عرف الله تعالى بنفسه بذكر صفات الكمال والجلال والعظمة ليزداد المؤمن اطمئناناً وأنساً به سبحانه، لأنه متعلق بالله الرحمن الذي على العرش استوى، الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الذي له الأسماء الحسنى.

* لقد اختير وصف (الرحمن) لتعليم الناس به لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمن ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾[الفرقان: ٦٠] كما إن في ذكره هنا، وكثرة التذكير به في القرآن بعث على إفراده بالعبادة، وشكر على إحسانه بالرحمة البالغة[(٣)] .

* إن وصف الله تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ للإيذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة، وللإشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما

---

(١) مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب والأنواع وحبوب اللقاح، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا ما يعمل علي تثبيت النيتروجين، أو الأيدروجين، أو ثاني أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التي تزيد من خصوبة التربة، ومنها مايقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السيليولوزية، أو البروتينية، أو الدهنية في البقايا العضوية الموجودة بالتربة فتثريها بما يحتاجه النبات النامي فوقها من غذاء.

(٢) منها الدقيقة مثل الأوليات(الطلائعيات)، والمتوسطة إلي الكبيرة مثل الديدان، والرخويات، والحشرات ويرقاتها، والعناكب، وبعض القشريات، والفقاريات الحفارة، وغيرها.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾[الرحمن:١-٢] [١].

* قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ دليل على إحاطة علمه بخفايا الذات الإنسانية ليرتدع المرء عن ارتكاب المعاصي الخفية، وليكون دائما على حذر ويقظة، ودوام الرقابة لله تعالى، وليزداد أنسا بقربه من ربه. «والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه يطمئن ويرضى، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين، ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له في العقيدة والشعور» [٢].

* ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨ ﴾ توحيد ختم الله بها افتتاحية هذه السورة وحيا إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أول ما ابتدأ به -سبحانه- وحيه إلى موسى فقال له: ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾.

علاقة الافتتاحية بمحور السورة:

المحور الذي تدور حوله هذه السورة، هو عناية الله تعالى بالرسل والمدعوين، وقد «افتتحت بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك» [٣] مع تضمن السياق الرد على كل زاعم يزعم بأن إنزال القرآن كان شقاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال سبحانه: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ ومفهوم ذلك أن القرآن إنما أنزل لسعادته صلى الله عليه وآله وسلم، وسعادة من اتبعه [٤].

ثم بين تعالى أن هذا القرآن إنما أنزله تذكرة للمدعوين، رجاء أن يتذكروا فتلين قلوبهم لذكر الله تعالى وما أنزل من الحق، فكان هذا الإنزال للقرآن، وهذا الإرسال للرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

(٤) يقول ابن عاشور: «وفي هذا تنويه أيضا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادكروا بالقرآن». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

وسلم من عنايته تعالى ولطفه بالمدعوين حيث لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجاهلية والضلال[(١)].

وإن في تعريف الله تعالى بنفسه بصفات الكمال والعظمة والجلال، والملك تحبيب للمدعوين، وتذكير لهم بأن الله تعالى عظيم جليل رحيم وسعت رحمته المؤمنين والكافرين فيزداد المؤمنون حبا لله تعالى، واستشعارا لمنته عليهم لما يرونه من مظاهر الرحمة الشاملة لهم.

وإن في اختيار لفظ «التنزيل» للقرآن الكريم لدلالة على الترفق بالمدعوين بتنزيل القرآن تدريجا «إزالة لشبههم، وشرحا لصدورهم، وتسكينا لنفوسهم، ومدا لمدة البركة فيهم بتردد الملائكة الكرام إليهم»[(٢)].

الدرس الأول: قصة موسى عليه السلام

العلاقة بين قصة موسى والافتتاحية:

ذكر سيد قطب رحمه الله أن قصة موسى عرضت في القرآن بما يناسب موضوع السورة التي تعرض فيها، وجوها، وظلها، واتجاهها[(٣)]، ثم ذكر مناسبة عرض قصة موسى هنا بمطلع

---

(١) اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الانبياء:١٠٧)، ﴿ وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(القصص: من الآية٤٦) ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (القصص:٨٦) ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (الدخان:٥-٦).
﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (ابراهيم:١).
﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾ (الحديد:٩).
﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ (الطلاق:١١).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٦٧.

(٣) قال رحمه الله: «وقصة موسى أكثر قصص المرسلين ورودا في القرآن، وهي تعرض في حلقات تناسب=

السورة فقال: «أما هنا في طه: فقد سبقها مطلع السورة الذي يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، فجاءت القصة مظللة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام، وتثبيته، وتأييده، وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة، فقد كانت ترافقه في طفولته، فتحرسه وتتعهده: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1].

ويقول ابن عاشور رحمه الله: «أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أنزل عليه بذكر قصة موسى عليه السلام ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب[2]. وتسلية له بأن الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم

= موضوع السورة التي تعرض فيها، وجوها، وظلها... ففي المائدة كان حلقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين.

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة... وفي البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملأ الأعلى، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له، فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيرا لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه، واستقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى، وذكر مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده، ثم غفرانه لهم، وعهدهم إليهم تحت الجبل، ثم عدوانهم في السبت، وقصة البقرة.

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى -عليه السلام- فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين، ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى، وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

وفي يونس سبقها مصارع المكذبين. فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة، ومصرع فرعون وقومه بالتفصيل». في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(٢) ويبدو أن ابن عاشور أخذ هذا القول عن البيضاوي فقد قاله في تفسيره: ٤/ ٤٢، وتعقبه أبو السعود=

من المكذبين، ولذلك جاء في عقب قصة موسى قوله تعالى ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾[1].

ولما كانت قصة موسى قد شغلت أكثر من نصف هذه السورة، حيث بلغ عدد آياتها ٩٠ آية من ١٣٥ آية رأيت أن أقسمها إلى مشاهد ستة: **مشهد** المناجاة في الوادي المقدس، **ومشهد** التكليف والرعاية، **ومشهد** الحوار والجدال مع فرعون، **ومشهد** المباراة بين موسى والسحرة **ومشهد** خروج موسى ببني إسرائيل، **ومشهد** المناجاة إلى جانب الطور الأيمن وموقف موسى مما أحدث قومه من بعده.

وفيما يلي عرض لتلك المشاهد، وبيان لما تضمنته من معان ودلالات وهدايات:

=رحمه الله بقوله: «وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي ﷺ في الاتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق» تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٣.

المشهد الأول: مشهد المناجاة في الوادي المقدس

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

يتضمن هذا المشهد أمر رجوع موسى بأهله من مدين، ورؤيته النار بجانب الطور والذهاب إليها اقتباسا من نورها، وتدفئة من برد الشتاء، إضافة إلى طهي شيء من الطعام، أو التماسا لهاد يهديه الطريق بعد أن ضل، ثم خبر نداء الله تعالى له، وما تضمن ذلك النداء من الأوامر لموسى بخلع نعليه والاستماع لما يوحى إليه من أمر التوحيد، والعبادة، وإقامة الصلاة، وشأن الساعة والإيمان بها، ومعجزتي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية، وما

طلبه موسى من ربه من شرح صدره، وتيسير أمره، وفك عقدة من لسانه، وجعل هارون وزيراً له، ثم تذكيرالله له بمننه عليه، حيث حفظه صغيراً، وأحاطه بعنايته التي رافقته منذ ولادته إلى هجرته إلى مدين، ثم عودته ليلقى اليوم الذي قدره الله تعالى له، ليوحي إليه بالرسالة والتكليف بالذهاب إلى فرعون مع أخيه ليبلغاه ما أمرهما الله تعالى به بقول لين لعله يتذكر أو يخشى.

المعنى الإجمالي:

أخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الاستفهام بـ «هل أتاك» وهو **نوع من الاستفهام يستعمل في تشويق السامع إلى الخبر، وبفعل النداء «نودي» المبني للمجهول، الذي به يزداد الأمر تشويقا إلى استطلاع القصة**، فإبهام المنادي يشوق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ علم أن المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن[(١)].

يحكي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ قصة موسى «مسليه عما يلقى من الشدّة من مشركي قومه، ومعرّفه ما إليه صائر أمره وأمرهم، وأنه معليه عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجدّ في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مُشركي قومه وغيرهم وفيما يزاول من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات الله عليه من عدوّه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاء والشدّة طفلاً صغيراً، ثم يافعاً مترعرعاً، ثم رجلاً كاملاً»[(٢)].

وهذا المقطع هو المشهد الأول من هذه القصة في هذه السورة إنه مشهد رجوع موسى من مدين إلى وطنه مصر، والآية تنبئنا عن سبب التماس موسى النار، فقد كانت ليلة باردة ضل فيها الطريق، وكل ذلك بقدر من الله تعالى حتى يصل موسى إلى الوادي المقدس حيث التكليف بالرسالة، فكانت هذه النار التي رآها موسى، واستبشر بها، فمنها يقتبس قبساً، أو

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٣، ١٩٥.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤١-١٤٢.

يجد هاديا يهديه الطريق، فأمر أهله بالمكوث، ومضى هو لوحده «فريدا في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور» فإذا بنداء الله تعالى له بخلع نعليه «ليباشر بقدميه بركة الوادي [(١)] إذ كان مقدسا» [(٢)] استعدادا لتلقي أمر التشريف بالاختيار للرسالة، وأوامر التكليف بأسس الرسالة الثلاثة، وهي الاعتقاد بالوحدانية، والوحدانية هي قوام العقيدة، والتوجه له بالعبادة، والعبادة تشمل التوجه لله تعالى في كل نشاط الحياة [(٣)]، ويخص منها إقامة الصلاة، لأهميتها [(٤)]، ثم الساعة [(٥)]، والساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق [(٦)]، «وقد أبهم الله وقت الساعة فلم يطلع عليه أحد

---

(١) واسمه «طوى». جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤٧.

(٢) وهو ما رجحه الطبري، ورد قول من قال: لأنها من جلد حمار، وعلل ذلك بقوله: «لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعها من أجل أنها من جلد حمار ولا لنجاستها، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ} بعقبه دليلاً واضحا، على أنه إنما أمره بخلعها لما ذكرنا». ينظر جامع البيان للطبري:١٦/ ١٤٤.

(٣) يقول ابن عاشور: « ثم فرع على ذلك الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب». التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.

(٤) «وإقامة الصلاة: **إدامتها، أي عدم الغفلة عنها**» التحرير والتنوير: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠، والمعنى: «وأقم الصلاة لتذكرني فيها. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٤٨، ورجح ابن جزي «أن المراد أقم الصلاة عند ذكري كقوله ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ أي عند دلوك الشمس، وذلك لأن النبي ﷺ استدل بالآية على وجوب الصلاة على الناسي إذا ذكرها». بقوله صلى الله عليه وآله وسلم ««إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: وأقم الصلاة لذكري». رواه الإمام أحمد. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١،

(٥) «وجملة (إن الساعة آتية) مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠١.

(٦) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

حتى أنه كاد أن يخفي وقوعها لإبهام وقتها ولكنه لم يخفها إذ أخبر بوقوعها»[(١)] .

ثم أعقب سبحانه خبره عن الساعة بقوله:﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ والمعنى « فلا يردّنك يا موسى عن التأهّب للساعة، من لا يؤمنٰ بها، أي: من لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد المهات، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً. ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي: فتهلك إن أنت انصددت عن التأهّب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها»[(٢)] .

ثم يوجه الله تعالى سؤالا إلى موسى ﷺ عما في يده فيفهم موسى ﷺ أن السؤال إنما عن وظيفتها معه، فأجاب بأنها عصاه يتوكأ عليها، ويضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم، وقد كان راعيا.

ولكن ما وراء السؤال أن يقرره بأنها خشبة، ولينظر موسى بعينيه إلى قدرة الله تعالى في تحويل العصا حية تسعى، لتكون في يد موسى آية إلى فرعون، فانقلبت العصا حية، فخاف موسى، إلا أن الله أزال عنه ما عراه بأمره إياه ألا يخاف وأن يأخذها فإنه سعيدها عصا كما كانت بقدرته سبحانه، وبهذا عرف موسى كيف يتعامل مع العصا حين يريدها حية تسعى أوعصا في يمينه.

ثم أشفعه الله بآية أخرى فأمره أن يضم يده ويضعها تحت عضده لتخرج بيضاء من غير برص أو مرض، زيادة في أمنه واطمئنانه.

---

(١) وهو ما صححه ابن جزي، ونص أنه اختيار المحققين، ثم قال: « فالأخفى على معناه المعروف في اللغة وكاد على معناها من مقاربة الشيء دون وقوعه». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١-١٢.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٣، وقال ابن كثير: « المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين. أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فتردى} أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وما يغني عنه ماله إذا تردى}. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٢.

وكأن موسى يترقب من وراء ما شاهد أمراً ما يجهله، فإذا بالأمر تكليف بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، وقد فارقه موسى، وهو يعلم طغيانه وجبروته، فأحس بعظم المسؤولية، فسأل ربه الذي أكرمه بالرسالة، وأكرمه بالمعجزات طمعا في مزيد كرمه أن يعينه في مهمته التي انتدب لها فبسط حاجته بين يدي ربه في مقام التكريم، فسأله بقوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترىء به على خطاب فرعون[1].

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ أي: وسهل عليّ القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة[2]، وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله[3]، وطلب أن يعينه بمعين من أهله، هارون أخيه، لأنه يعلم عنه فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وهدوء الأعصاب[4] ليشد به ظهره، وطلب أن يشركه بالنبوة ليكون ذلك العطاء عونا لهما على تعظيم الله وتسبيحه، وكثرة ذكره، لأنهما مقدمان على أمر جليل يحتاج إلى التسبيح الكثير والذكر الكثير، والاتصال الكثير ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير.

فلما أن انتهى موسى من طلبه حتى من عليه الكريم بالإجابة وهو في موقف التكريم والامتنان فناداه باسمه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾. وأي تكريم أكبر من أن يذكر

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٩، في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٤.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٩.

(٣) وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة. «وإنما قال عقدة بالتنكير لأنه طلب حل بعضها ليفقهوا قوله ولم يطلب الفصاحة الكاملة» « ولو سأل أكثر لأعطي، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ أي يفصح بالكلام». ينظر التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٥، وفقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٤) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

الكبير المتعال اسم عبد من عباده[١].

وبعد هذا العطاء يذكّر الله تعالى موسى عليه السلام بمننه عليه قبل أن يصير رسولا، وأنه إنما رعاه وهو صغير، ولم تفارقه عناية الله تعالى حتى بلغ أشده، واختير للرسالة، ليزداد موسى بذلك اطمئناناً، وأنساً، لأن ربه معه وهو صغير، ولن يتخلى عنه وهو اليوم رسول[٢]، وهو سبحانه الذي أوحى إلى أمه من قبل أن تقذفه في التابوت[٣]، وتلقيه في اليم، ليلقيه اليم بالساحل فيأخذه فرعون الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، وهو الذي ألقى عليه محبة منه هبة وعطاء، فلم تنله يد فرعون بالضر والأذى، وهو الذي أعاده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ذلك حين منعه قبول الإرضاع إلا من أمه بتدبير من الله تعالى ليعيش موسى مع أمه آمناً مطمئناً، ولتقر عينها دون خوف من فرعون وبطشه، فبأمره أرضعته، وعلى مرأى من فرعون وبصره ترعرع ونما[٤].

وكان ختام ذلك الامتنان أن نجاه الله تعالى من الغم الذي أصابه بسبب قتله نفس[٥]، «فربه يذكره هنا بنعمته عليه إذ هداه إلى الاستغفار، فشرح صدره به، ونجاه من الغم، ولم يتركه

---

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(٢) وآية ذلك اليقين بعون الله تعالى ورعايته، وتلك الثقة بتأيده أن قال لقومه واثقا: «إن معي ربي سيهدين» لما قالوا له {إنا لمدركون} بسبب قرب فرعون وجنده منهم، وقد كان أن أمره ربه أن يضرب بعصاه البحر، فنجوا جميعا، وأهلك الله فرعون وجنده فأغرقهم في اليم.

(٣) «وأطلق «القذف» هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المخفي عمله، فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٦.

(٤) يقول ابن جزي: «ولتصنع على عيني» أي تربى ويحسن إليك بمرأى مني وحفظ. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٥) وهو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص:١٥).

مع هذا بلا ابتلاء[١] ليربيه، ويعده لما أراد فامتحنه بالخوف، والهرب من القصاص، وامتحنه بالغربة ومفارقة الأهل والوطن، وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم... وفي المقدر في علم الله تعالى جيء بموسى من أرض مدين، وهو يظن أنه هو الذي جاء﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي «ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون رسولاً ولمقداره»[٢] .

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ «أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن اجتباء مني لك، واختيارا لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي»[٣] . ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ خالصا مستخلصا ممحضا لرسالتي ودعوتي... فامض لما اصطنعتك له ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ هارون ﴿ بِـَٔايَٰتِى ﴾ «أي: بأدلتي وحججي، اذهبا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغه رسالاتي»[٤] .

﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ «أي: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إيّاي يقوّي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مَنّي عليكما نِعَما جمّة، ومِننا لا تحصى كثرة»[٥] .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ[٦] يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾...

---

(١) يقول ابن جزي: «﴿وفتناك فتونا﴾ أي اختبرناك اختبارا حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوة والرسالة وقيل خلصناك من محنة بعد محنة لأنه خلصه من الذبح ثم من البحر ثم من القصاص بالقتل». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٧ . التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٩.

(٦) يقول الطبري: «معنى لعلّ ههنا كي. ووجّهوا معنى الكلام إلى ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ فادعواه وعظاه ليتذكر أو يخشى، كما يقول القائل: اعمل عملك لعلك تأخذ أجرك، بمعنى: لتأخذ أجرك». جامع البيان:١٦/ ١٦٩.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته.. راجيين أن يتذكر ويخشى[١]. فيرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: {لمن أراد أن يذكر أو يخشى}[٢]، وقال الحسن البصري: ﴿ لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه[٣].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* «في سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله»[٤].

* ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ﴾ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه ينتهي مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرا عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ وبه ختم عليه السلام مقاله

---

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥-٢٣٣٦.

(٢) فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦. ثم نقل شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: فاذهب وهارون فادعُوَا	إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولا له: هل أنت سويت هذه بلا	وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا	عمد أرفق إذن بك بانيا
وقولا له: أأنت سويت وسطها منيراً	إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له: من يخرج الشمس بكرة	فيصبح ماَمَسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له: من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبة في رؤوسه ؟	ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

(٤) فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٥٨.

بعد إبطال ألوهية العجل بإحراقه، فقال: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [(١)] .

* إن اجتلاب موسى إلى الوادي المقدس لتلقي الوحي باستدعائه بنور في ظلمة رمز على أنه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد» [(٢)] .

* «أجرى الله على لسان موسى معنى قوله ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ إلهاما إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيماً، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم [(٣)] ، «أتى النار ليُقبس أهله منها ناراً أو يجد عندها هدى، فمنح من هدى الدارين والنصرة على الأعداء» [(٤)] .

* إن الإخبار عن ضمير المتكلم بأنه رب المخاطب [(٥)] لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه فإن شأن الرب الرفق بالمربوب [(٦)] .

* قوله: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله: ﴿ فَٱسْتَمِعْ ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف [(٧)] .

* لله سبحانه أن يقدس ما شاء من الأمكنة والأزمنة، وعلى المسلم أن يعظم ما عظمه الله تعالى، وأن يراعي الأدب مع الله تعالى ومقدساته، وهاهو موسى يأمره ربه بخلع نعليه «تعظيما منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي» [(٨)] ، و«ليتأدب ويعظم البقعة

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٥. وتدبر كيف أجرى الله على لسانه التعبير بلفظ «هدى» ولم يقل «هاديا» فكان أن قد وجد الهدى.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧١.

(٥) ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾.

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٦.

(٧) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ١٧.

(٨) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٦-١٩٧.

المباركة ويتواضع في مقام مناجاة الله»[(١)] . فيفعل.

* إن في تعريف الله تعالى بنفسه لموسى «إشارة إلى أن أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمه[(٢)] وعلّم كليمه اسمه[(٣)] ، وهو الله»[(٤)] ، ثم إن «الأخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات[(٥)] الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علما عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم[(٦)] .

* ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ ﴾ ومن كان هو اختيار الله تعالى فقد نال أعلى مراتب التشريف والتكريم، لأن الله إنما يختار من عباده المصطفين الأخيار ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[الحج: من الآية٧٥] ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾[الأنعام: من الآية١٢٤].

* ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ «إن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يعبد»[(٧)] .

* ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ **تخصيص للصلاة بالذكر مع كونها داخلة في العبادة المأمور بها[(٨)] ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها**

---

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية: ٤/ ٣٩، « واستحسنه ابن جزي». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١.

(٢) ﴿ نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾.

(٣) ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠. ثم قال: وجملة (لا إله إلا أنا) خبر ثان عن اسم (إن). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.

(٥) حيث قال له: «إنني أنا الله».

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩.

(٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.

(٨) في قوله سبحانه:﴿ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ .

تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده، وتتجمع للاتصال بالله[١]، «**ولأنها تجمع أحوال العبادة**»[٢].

* التأكيد على الإيمان بالساعة وما يترتب على قيامها من الجزاء العادل، لما فيه من انعكاس إيجابي على الفرد بدوام الاستعداد لمستقبل حتمي وهو الحساب والجزاء، ولأن «الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب، وتحاسب، وتخشى الانزلاق»[٣].

* إن إخفاء الساعة يغرس في نفس العبد أنها من اختصاص الله تعالى، فهو الذي يقيمها متى شاء[٤] ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، وليس على العبد إلا العمل، وقد سأل سائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: متى الساعة؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ما أعددت لها»[٥].

* ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ «وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله»[٦].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٩٩- ٢٠٠.

(٣) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(٤) واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ (لأعراف: من الآية١٨٧) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ (الأحزاب:٦٣) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ (النازعات:٤٢-٤٤)

(٥) البخاري في صحيحه، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، برقم: ٣٤٨٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، برقم: ٢٦٣٩، وفي مواضع أخرى من صحيحه.

(٦) الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٨، ونظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٧٩.

* **سأل الله تعالى موسى عما في يمينه ليعرفه بعظيم قدرته سبحانه على قلب العصا حية[(١)] وفيه إيناس له، وبسطه بالكلام[(٢)].**

* **بسط موسى الكلام في بيان منافع العصا استئناسا بلذيذ المخاطبة، وخوفا من الأمر بإلقائها كالنعل[(٣)] الذي أمر بخلعه في أول اللقاء.**

* «ولما كان موسى أكمل أهل ذلك الزمان، خاف التطويل على الملك فقطع على نفسه ما هو فيه من لذة المخاطبة كما قيل: «اجلس على البساط وإياك والانبساط»، وطمعاً في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال مجملاً: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ ﴾ أي حوائج ومنافع يفهمها الألبّاء»[(٤)]. **أو أنه إنما «فصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده»[(٥)].**

* إن الغرض من إظهار قلب العصا حية لموسى أن يعرف أن **العصا** تطبعت بالانقلاب حية فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لئلا يحتاج حينئذ إلى وحي»[(٦)].

* **طلب موسى من ربه أربعة عوامل من دواعي أداء الرسالة، لما كلفه بالذهاب إلى فرعون الطاغية «بدأها بشرح الصدر﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾، ثم تيسير الأمر﴿ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ وهذان عاملان ذاتيان[(٧)]، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو اللسان في الإقناع﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً**

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٥٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٢.
(٣) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٨٠.
(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٢٨٠.
(٥) لتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠٥.
(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٠٧.
(٧) «وزيادة (لي) بعد (اشرح) وبعد (يسر)... لأن الشرح والتيسير متعلقان به فكان قوله (لي) فيها زيادة بيان كقوله (ألم نشرح لك صدرك) وهو هنا ضرب من الإلحاح في الدعاء لنفسه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١١.

﴿مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[(١)] ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾[(٢)].

* إن «انشراح الصدر ينسجم به الإنسان مع وظيفته، فإذا هي أمر محبب إليه، أثير لديه، فإذا ما زاول هذه الوظيفة لم يبال بما يواجهه من صعاب، وما يتحمل من أثقال، لأنه لا ينهض بهذه الأعمال بساعده وطاقته المادية، ولكن بهذا المدد الوارد إليه من الله سبحانه وتعالى»[(٣)].

* إن انشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه إلى لذة ويجعله دافعا للحياة لا عبئا يثقل خطى الحياة[(٤)].

* إن انشراح الصدر مدد إلهي «يحرك الجسم إلى ما يريد الله، وانقطاعه يسخر الجسم إلى ما يريد

---

(١) لم يقل هنا: «واحلل لي عقدة من لساني، «لأن ذلك سؤال يرجع إلى رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٢.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٠. ويبدو أن عمارة أفاد هذا من كلام الإمام الشنقيطي حيث قال رحمه الله» فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل بدأها بشرح الصدر ثم تيسير الأمر وهذان عاملان ذاتيان ثم الوسيلة بينه وبين فرعون وهو اللسان في الإقناع واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولي ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة واجعل لي وزيراً من أهلي هـارون أخي اشدد به أزري فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته لأنه به يقابل كل الصعاب ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم
وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي كقوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجـاهلين وكقوله والكـاظمين الغيظ والعـافين عن الناس والله يحب المحسنين مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره
ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة وتلقى كل ذلك بصدر رحب، وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجملا بالصبر أضواء البيان - الشنقيطي ج٨/ ص٥٧٤- ٥٧٥.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

الجسم، ويجعله عبدا لشهواته... وضيق القلب المحروم من نور الله يشوش على الخواطر ولا يمكن صاحبه من إصابة الهدف»[(١)].

* إن تيسير الأمر، إنما هو التوفيق، وكل مجتهد مسلوب التوفيق لا محالة أنه لا يفلح ولا ينجح في الوصول إلى مراده، وإنما الفلاح لمن صاحبه توفيق الله تعالى وتيسيره، لذلك كان هذا الدعاء من موسى في هذه المهمة الصعبة، ومثله أيضا لكل من يتصدى للدعوة إلى الله فإن من لم ييسر الله له أمره خاب.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده[(٢)].

* إن تيسير الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟![(٣)].

* لما كان البيان من لوازم التبليغ حتى يفهم عن الداعية ما يريد تبليغه سأل موسى أن يحل الله عقدة من لسانه، لتصل الكلمة إلى «قلب فرعون موزونة خالية مما يثير سخريته في نبرة تحمل على التأثير»[(٤)]، ولتحقيق كمال التبليغ طلب موسى من ربه أن يرسل إلى هارون، وبين العلة في ذلك لما قال: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾[القصص:٣٤].

* إن للفصاحة في بيان الحق وتبليغه أهمية كبرى، لذا كان واجبا على الداعية أن يأخذ من اللغة ما يقيم به لسانه ويعينه على بيان الحق الذي معه، وقد أرسل الله الرسل بألسنة أقوامهم ليبينوا لهم ما أمروا بتبليغه، قال سبحانه:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[ابراهيم:٤]، وإن هذا القرآن بيان عربي لا يتسنى حسن إبلاغه إلا باللفظ العربي المبين، فمطلوب لنجاح

(١) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١١٠.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١١١.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١١١.

الداعية» طيب الكلام، وصدق النوايا، وسلامة في التعبير، ورقة في الأسلوب... ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[(١)].

* طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه، وأن يشركه في أمر النبوة، حبا منه لأخيه ما أحبه لنفسه، وشعوراً بأهمية أن يكون معه من يعينه في مهمته الصعبة هذه، فكلما كثر الأنصار كلما قوي الرجاء في بلوغ الغاية، ولذا يكاد أن يكون الاجتماع على الدعوة لنصرة الدين والحق أمر لازم، خاصة في ظل اجتماع الباطل المنظم ضد الحق وبالضدين تتحقق سنة التدافع، ليحق الله الحق، ويبطل الباطل، ويتحقق بإذن الله وعد الله الحق﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ولا بد من الصحبة على طريق الدعوة، لأن حملها ثقيل يخففه الرفقة الصالحة المتجانسة في الفكر والهم، وتشتد الحاجة إليها حين يكون العدو طاغية مستبدا، «وإن في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العمل الضروري لحياتهما فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ»[(٢)].

* إن في طلب موسى وزارة أخيه حتى يتكامل الاثنان في طباعهما بين شدة موسى وحدة طبعه وسرعة تأثره، وبين سعة صدر هارون وتروّيه، وكل منهما له مكانه في وسط الدعوة. «لأن المزاج الحاد يحقق نجاحا ولا شك.. وهو أمر مطلوب في زمان تضغط فيه الرذائل بثقلها البغيض، ولا يفل حديدها إلا دفاع قوي، بيد أن مصلحة الدعوة تفرض ألا ينفرد هذا المزاج بتصريف الأمور-التي لا غنى لها عنه- بل لا بد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة المعتدلة تستثمره لصالح الدعوة، وتوجهه إلى حيث يفيد، وبذلك يتكامل الدعاة على الطريق.. بلا نزاع أو تصادم، وما أحوجنا إلى أن نعي هذا الدرس جيدا»[(٣)].

---

(١) فقه الدعوة من قصة موسى ، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٤.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى : ١٢٤.

* **إن الاستعانة بالمخلصين الأكفاء أمر مطلوب لإبلاغ الدعوة، وقد طلب موسى من ربه معينا فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾، ليكون ذلك سببا في إقامة الشعائر: ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.**

* **إن «فيما سأله موسى لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضاً على الدعوة. ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح» [(١)]. ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.**

* **﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ هذه استجابة فورية لطلبه عليه السلام، والله سبحانه لا يرد سائلا مخلصا في دعائه، فهو الذي أمر بالدعاء ووعد بالاستجابة بقوله: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فكان لا بد للداعية أن يعي أهمية الدعاء، ويدرك أثره في إنجاح دعوته، مع ما يتضمنه الدعاء من معاني العبودية والتذلل لله تعالى، ولذا كان الدعاء هو العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء هو العبادة» [(٢)].**

* «إن جملة ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٣/ ١٧٢، برقم: ٨٩٠، والنسائي في سننه الكبرى: ٦/ ٤٥٠، ١١٤٦٤، وأبوداود في السنن: ٢/ ٧٦، برقم: ١٤٧٩، والترمذي في سننه: ٥/ ٢١٢، برقم: ٢٩٦٩، وقال: حسن صحيح.

يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٥-٨]، ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام القسم» و«قد» في قوله: «ولقد» إنما هو لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾[1].

* **ذكّر الله تعالى موسى بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وليزداد شكراً له، ولينشط للدعوة، ويشتد عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما ضاق السبيل بقومه فقالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ قال لهم موسى واثقاً بهداية ربه له: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، فهداه بضرب البحر بعصاه.**

* **إن فيما أوحاه الله تعالى إلى أم موسى من وضعه في التابوت وقذفه في اليم، تعليم للعباد أن يعتقدوا بأن عاقبة ما أمر الله به خير لهم، وإن لم يتبين ذلك في أول الأمر، وهو أيضا حث للعباد أن يتوكلوا على الله بعد أن يتخذوا لذلك ما تيسر لهم من الأسباب، ويتركوا الأمر من بعد لله تعالى، ثقة به، فإن من توكل على الله كفاه، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾.**

* **إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون، ليتربى في كنف فرعون - بلا خوف ولا وجل - فيكون لهم عدواً وحزناً.**

* إن من دلائل إلقاء الله المحبة على موسى أن حببه إلى «آسية» امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه. وقد قيل: «إنما قيل: وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»[2]. **ولعل من إلقاء المحبة عليه أن أعجبت بنت شعيب بقوته**

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٥.

(٢) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٢.

وأمانته، فأومأت إلى رغبتها فيه، فآواه شعيب وزوجه إحدى ابنتيه.

* ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ تعبير عن «الكرامة والتقريب؛ أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني»[(١)].

* «بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى كيف حفظ موسى في التابوت رضيعاً، وما يثمره ذلك من يقين ثابت بالله تعالى وبنصره يكلفه الله سبحانه وتعالى بمواجهة فرعون في صحبة هذه الثقة الوطيدة الناشئة عن سابق فضله تعالى عليه﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾[(٢)].

* «إن أمر الله تعالى لموسى وهارون بألا يفترا في ذكر الله، وخاصة في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له»[(٣)].

* إن طغيان فرعون وجبروته، لم يمنع من الذهاب إليه لتبليغ الدعوة، بل إن هذا الطغيان أقوى دواعي المبادرة إذ جعله الله علة للذهاب حيث قال ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٤)].

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ احترام للعقل الإنساني، «فهذا تعليل للأمر بالذهاب، أي أن الأمر لا ينصب حاسما لينفذ بلا أسباب ولا مناقشة، وإنما هو المنهج القرآني الذي يحترم العقل الإنساني ويقدره، وآية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها، لتنشط أجهزة الإنسان كلها عاملة داعية إليها، وليكون لنا درساً يفيدنا في عرض قضايانا على الآخرين عرضاً يدخل في حسابنا أن للآخرين عقولاً وقلوباً لها ذاتيتها، ولها اعتزازها بآرائها، ولها أيضا طبعها الذي ينفر من كل عرض تشم منه رائحة الضغط أو الإكراه، وإنما هو تجلية الحق وتوضيح الدليل، وبعد ذلك ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[(٥)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٧٥.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة:١٠٨.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩.

* ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ «لأن القول اللين لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان»[(١)].

* «واللين من شعار الدعوة إلى الحق، أمر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدعو عتاة قريش وطغاتهم، فقال له: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾[النحل:١٢٥] وقال ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[آل عمران: من الآية١٥٩]، ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[النازعات:١٨-١٩]. وقوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾، وقال تعالى عن موسى ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾»[(٢)].

* **إن من حكمة الله تعالى في أمره موسى ﷺ بمخاطبة فرعون بالقول اللين، أنه رباه، وقد قال له: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[الشعراء:١٨]، فكان من رعايته لحقه ألا يغلظ عليه في القول، هذا بالإضافة إلى أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا، فيكون ذلك سبباً في أن ينهي حياة الداعية في غمضة عين، لأنه يملك من وسائل القوى ما يمكّنه من ذلك، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر**[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٦،

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٢٥.

(٣) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥١، وفقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٤٦.

* «إن هذه الآية[(١)] فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[(٢)].

* **على الداعية أن يعي أهمية القول اللين، ليلتزمه في دعوته إلى الله تعالى،** «فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه»[(٣)]. **«وعليه أن يفهم أيضا نفوس العصاة الذين يعنى بدعوتهم، وأنه سيواجه نفوسا تطبعت بطبائع تحجب النفوس فلا ترى الحق، وتصرف القلوب فلا تتجه إليه، فيصعب حينها الدخول إلى نفوسهم وإقناعهم بالحق الذي معه، ما لم يستعمل اللين في دعوتهم، وقد قيل: «ولا تخاشن العاصي وأنت تدعوه إلى الحق فتجمع عليه مرارتين: مرارة التخلي عن عادة أنس بها زمنا، ثم مرارة الشدة المزعجة له»[(٤)].**

ومما ينبغي أن يعيه الداعية في دعوته العصاة[(٥)]:

* **أنه يقف ضد ميولهم ونزعاتهم المندفعة نحو الشر، وأن عوامل الشر أظهر من دواعي الخير.**

* **أنه يعدهم بحياة أبدية، لكنها متوقعة، وليست بواقعة، وانتظار المتوقع مقلق للنفوس.**

* **سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة، والنفوس أقرب إلى المحسوس منها إلى المعقول.**

إن القول اللين أثمر في دعوة فرعون ثمرات هي[(٦)]:

* **تراجع فرعون، فبعد أن كان يقول «أنا ربكم الأعلى» اتسع صدره ليتصور إلهاً غيره، فصار يخاطب موسى وهارون بأسلوب الحوار** ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

---

(١) ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٢٠٠.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٧.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٣.

(٦) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٧١.

ٱلۡأُولَىٰ ﴾.

* **أنه لم يبطش بموسى وهارون ولم يبدأهما بالعدوان، واستعمال القوة، وهو ما كان يخافان منه﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾**

* **أنه قد تحقق التذكر والخشية من فرعون، وإن كان بعد فوات الأوان. يقول القرطبي:** « وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[يونس: ٩٠]، ولكن لم ينفعه ذلك[1] ».

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك الرعاية والعناية في هذا المشهد ما يلي:

* التلطف مع موسى - عليه السلام - بإيناسه حين أخبره الله بأن الذي يخاطبه هو ربه، ثم أمره بلزوم الأدب معه بخلع نعليه، ليباشر بهما الوادي المقدس، ثم تفضل عليه باختياره للرسالة، وتأييده بمعجزتي العصا واليد، وتعليمه كيفية استخدامها عند الحاجة إلى ذلك.

* إن من عناية الله تعالى برسوله موسى - عليه السلام - أن أذهب عنه ما في نفسه من الخوف حين انقلبت العصا حية تسعى حين أمره أن يأخذها وألا يخاف، وبين له بأنه سيعيدها كما كانت، فقال له في غير هذه السورة: ﴿ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

* «والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولى مدبراً ولم يعقب. إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى - عليه السلام - من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيداً، واطمأن موسى - عليه السلام - والتقط

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/ ٢٠١.

الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا"[(١)].

* أن الله تعالى آتى موسى - عليه السلام - ما طلبه من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفك عقدة من لسانه، ووزارة أخيه هارون، فقال له:﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ وهي أمور لا بد منها في تبليغ دعوته على الوجه الأكمل.

* **ذكّر الله تعالى موسى - عليه السلام - بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وشكرا له، ولينشط للدعوة، ويشتد عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما خاف قومه أن يدركهم فرعون وجنده قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فقال لهم موسى -واثقا بهداية ربه له-: قال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، فهداه بضرب البحر بعصاه.**

* «إن جملة ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أحرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلة، كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٥-٨]، ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام» القسم و«قد» في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ إنما هو لتحقيق الخبر، لأن موسى عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾»[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٥.

* **إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى - عليه السلام - هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون ليتربى في كنف فرعون، ليكون لهم عدوا وحزنا، ولعل من عناية الله به أن أوحى إلى أم موسى - عليه السلام - أن تلقيه في اليم حتى يبقى التردد في نفس فرعون في قتله، لعدم تيقنه أهو من القبط أم من بني إسرائيل، لأنه لو علم أنه من بني إسرائيل لقتله.**

* إن الله تعالى ألقى المحبة على موسى، فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه. وقد قيل: إنما قيل: «وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه»[(١)] ، **وأعجبت بنت شعيب بقوته وأمانته، فأومأت إلى أبيها بالإفادة منه في العمل، فآواه شعيب وزوجه احدى ابنتيه.**

* تهيئة الله تعالى موسى وهارون بتعريفهما بطغيان فرعون وتجبره، وأنهما إنما أرسلا إليه من أجل ذلك﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾، ومن لطفه بهما أنه سبحانه علمهما أسلوب مخاطبة فرعون، فأمرهما باستعمال القول اللين، استمالة لقلبه، ودرءا لبطشه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.

---

(١) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٦٢.

المشهد الثاني: مشهد التكليف والرعاية

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد: حكاية الله تعالى لخطاب موسى وهارون ربهما بإبداء ما في نفوسهما من التخوف من بطش فرعون، استجلابا لتأمينه سبحانه لهما، فكان أن من الله عليهما بالأمن حين نهاهما عن الخوف، لأنه سبحانه معهما، يسمع شكواهما، ويرى مكانهما، فاطمأنت -عندها- أنفسهما، ثم أعقب الله لهما بالوحي إليهما بما يتضمنه إرسالهما من إعلام فرعون بأنهما رسولا ربه، يطلبان منه إرسال بني إسرائيل معهما، والكف عن تعذيبهم، مبيِّنين أنهما قد جاءا بآية تدل على صدقهما، ثم استعملا مع فرعون أسلوب الترغيب والترهيب بعيداً عن الخطاب المباشر له بقولهما: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد ما أتم الله تعالى لموسى - عليه السلام - المناجاة، وختمها بالأمر بالذهاب إلى فرعون الطاغية لدعوته إلى التذكر والخشية، أعقبه بحكاية ما رفعه موسى وهارون -إلى ربهما- من التخوف من طغيان فرعون وبطشه، فكان فزعهما إلى الله تعالى مناسباً لما سبق من بيان الله تعالى لهما بأن فرعون طغى، لأن من شأن الطاغية أن يفرط ويطغى، فخافا أن «يفرط» عليهما فرعون بتعجيل العقوبة قبل إبلاغ ما كلفا به، أو أن يطغى فيستكبر، فخاطبا ربهما بذلك استجلاباً لتأمينه لهما، فأمنهما حين قال لهما: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

المعنى الإجمالي:

هذا هو المشهد الثاني [(١)] من مشاهد قصة موسى - ﷺ - في هذه السورة: مشهد التكليف، فقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون الطاغية، فكان لا بد من الذهاب إلى فرعون الطاغية، على خوف منه، وقبله كان لا بد أن يتوجها إلى الله بما في نفوسهما من الخوف.

« يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرَين بالله تعالى شاكيَين إليه: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك... فكان الرد من الله تعالى بتأمينهما ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي». [(٢)] وابتداآه بإيضاح قاعدة رسالتهما ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسِلْهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة [(٣)]، ليشعر فرعون منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما بإرسال بني إسرائيل معهما، ورفع العذاب عنهم ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾ معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [(٤)] على أنه أرسلنا

---

(١) «وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى. وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون... والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس". في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٧. وينظر جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٠.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٤) «وإنما وحدهما وهما آيتان لأنه أراد إقامة البرهان وهو معنى واحد». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

إليك بذلك، إن أنت لم تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها[(١)].

ثم ترغيب واستمالة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: «والسلامة لمن اتبع هدى الله وهو بيانه»[(٢)]، ثم تهديد وتحذير غير مباشر ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾[(٣)]. «أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته»[(٤)].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* **إن تأمين الله تعالى لموسى وهارون بقوله:{لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} منحهما الثقة في الانطلاق في الدعوة، وأزال عنهما الخوف من بطش فرعون، لأن من كان الله معه أمن واستغنى عمن سواه، ولْيأمن السالكون سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فهم على هدى الأنبياء ماضون.**

* **«إن في تكرار لفظ الربوبية مضافا إلى فرعون كما في قوله سبحانه:**﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ **ترغيب وتحبيب في جو من السلام والأمن لا يسمح لخواطر الانتقام أن تثور في نفس فرعون»[(٥)].**

* يظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل، ويذلهم بقتل المواليد الذكور. واستبقاء الإناث؛ وتسخير الكبار في الشاق المهلك

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١.

(٣) في ظلال القرآن:٤/ ٢٣٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٨.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٩٦.

من الأعمال» [١].

* ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ ﴾ **استعداد الداعية بحجته في الجدل والحوار ليدحض حجة خصمه.**

* إن في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ بعد قولهما ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ ترغيب يسبق الترهيب، ثم هو ترهيب بأسلوب غير مباشر، فلم يواجه فيه موسى - عليه السلام - فرعون بالخطاب، وإنما استعمل الاسم الموصول الذي يفيد الإبهام والعموم، وهذا متسق مع ما أُمِرَا به من استعمال اللين مع فرعون، استمالة لقلبه، وسنة القول اللين وتقديم الترغيب على الترهيب سنة ينبغي على الدعاة الحرص عليها لإنجاح دعوتهم.

* فزع موسى وهارون إلى ربهما خوفا من سرعة بطش فرعون وطغيانه، وكان لذلك الخوف مسوغاته، وأسبابه، منها: [٢].

أ- أن موسى عليه السلام تربى في قصر فرعون، ورأى بعينه صور النكال بأفراد الشعب داخل القصر.

ب- أنه قاس قدرته كداعية إزاء قدرة المدعو، وما يملك من قوى وطاقات... فهو وأخوه هارون في جانب، والدولة كلها في جانب آخر.

ج- كان فرعون وقومه على غاية ما تكون العنجهية والاستكبار في الأرض.

د- أن فرعون وملأه منعمون بنعم يتقلبون فيها، مما يثير في أنفسهم مشاعر الزهو والخيلاء.

هـ- أن موسى وهارون كانا من طبقة الأتباع، فكيف يرضخ لهما فرعون فيكون تابعاً لهما.

و- تفرد فرعون بالرأي، واعتبار رأيه هو الحق، وهو القائل: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٠.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٨٧-١٨٨، ١٩٢.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك العناية والرعاية في هذا المشهد ما يلي:

* بعد أن فزع الرسولان إلى ربهما جاءهما تأمين ربهما من طغيان فرعون﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وقد قال لهما في موضع آخر﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص:٣٥].

* تأييد الله تعالى الرسولَين بالمعجزة ﴿ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ ﴾.

* أعقبا التصريح برسالتهما الإدلاء ببينتهما على صدق ما صرحا به من الرسالة، احتراماً لعقله وإلزاماً للحجة، فقالا: ﴿ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ ﴾.

* من عناية الله تعالى بفرعون أنه أمر موسى وهارون أن يخاطباه بأسلوب الاستعطاف بالربوبية، حيث قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، ليتذكر أن ما هو فيه من الملك والنعيم إنما هو من عطاء ربه الذي أرسلهما.

* مخاطبته بلفظ السلام استعطاف وترغيب له:﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾

* تخويفه بالعذاب بلفظ الموصول «من»، وعدم مواجهته بالخطاب لئلا يستفز فيستكبر عن الحق، فقالا:﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾، وبهذا الأسلوب اللين جمعا له بين الترغيب والترهيب استمالة لقلبه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.

* إن من أهم أولويات موسى وهارون إنقاذ بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، لذا ضمنا حديثهما إلى فرعون أن يرسل بني إسرائيل معهما، ويرفع عنهم العذاب.

المشهد الثالث: مشهد الحوار والجدال مع فرعون

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد الحوار والجدل بين موسى وهارون من جانب، وفرعون من جانب آخر، وقد تناول هذا الحوار الربوبية، وما رافق ذلك من الأدلة والحجج البينة على إثباتها وشأن القرون الأولى التي علمها عند الله، والتحدي بالمعجزة من قبل فرعون، وطلبه موعد المباراة، وتحديد موسى - عليه السلام - الموعد مكاناً وزماناً.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

لما تضمن المقطع السابق إبلاغ موسى وهارون لفرعون بمهمتهما، وأنهما رسولا ربه يطلبان إليه إرسال بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، ناسب أن يعقب ذلك جواب فرعون عن قولهما هذا، فكان هذا المشهد الذي ابتدأه فرعون بالسؤال عن الرب الذي أرسلهما، وهو ما كان ينكره فرعون حتى قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ وقال: ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ وهذا المشهد يعرض الحوار والجدل المشفوع بالأدلة الدامغة الدالة على ربوبية الله تعالى مما هو مشاهد معاين عنده، من الأرض وسبلها، والماء المنبت للنبات، والأنعام وأقواتها، وهو ما لم يستطع فرعون إنكاره، لينتهي المشهد بالتحدي من قبل فرعون، فيطلب من موسى - عليه السلام - تحديد زمان ومكان المباراة، فكان التحديد من قبل موسى يوم عيدهم في ضحوة من النهار.

المعنى الإجمالي:

ذهب موسى وأخوه هارون بما أمرهما الله أن يذهبا به إلى فرعون فبلغاه ما كلفا به، وهنا يحكي الله تعالى ما دار بين موسى وفرعون من حوار، ومن ذلك أن فرعون وجه سؤالا إلى موسى عن رب موسى وهارون[١] ، **فأجابه بما لا يستطيع إنكاره أو ادعائه فقال:** «ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها»[٢] . ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها[٣] .

وثنى فرعون بسؤال آخر عن شأن القرون الأولى.. أين ذهبت؟ ومن كان ربها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت وهي لا تعرف إلهها هذا ؟

وعندها أحال موسى -عليه السلام- ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله[٤] .

«أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى -عليه السلام- بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره[٥] ، فقال له موسى في جواب ذلك،

---

(١) فقال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾وأفرد موسى بالنداء بعد جمعه مع أخيه هارون، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، أو لأن موسى الأصل في النبوة وأخوه تابع له. ينظر: جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧١، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.

(٢) وقيل: « المعنى أن الله أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه فخلقه على هذا المعنى بمعنى المخلوقين، أي أعطى مخلوقاته، واستحسنه ابن جزي. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٣) أو هداهم إلى التوصل لما أعطاهم وعلمهم كيف ينتفعون به. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٥) «يحتمل أن يكون سؤاله عن القرون الأولى محاجة ومناقضة لموسى أي ما بالها لم تبعث كما يزعم موسى،=

هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً؛ يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، وتنزه، علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك»[(١)] .

ثم يستطرد موسى[(٢)] ليعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والماء الموفور والزرع والأنعام[(٣)] .

ويختم الاستطراد ببيان أنها آيات عظيمة، ولكن المعتبر بها هم أولو النهى.. أصحاب العقول السليمة الذين يتأملون بها هذا النظام العجيب ليطلعوا فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ويكمل السياق حكاية قول موسى -ﷺ- بقول مباشر من الله جل وعلا.. من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهداً وسلكنا لكم فيها سبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى، للأكل والمرعى.. "أخرجناكم ولم تكونوا شيئا خلقا سويا، وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرّة أخرى، كما أخرجناكم منها أوّل مرّة"[(٤)] .

= أو ما بالها لم تكن على دين موسى، أو ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب كما زعم موسى في قوله ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٢) يقول ابن عاشور: « ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله (فأخرجنا به أزواجا)». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٣٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥.

ثم «يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه وأقوات أنعامكم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾ أي: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره ﴿ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾يعني: أهل الحجى والعقول»[1].

ويخبر الله تعالى عن موقف فرعون من الآيات كلها آيتي العصا واليد، والآيات الكونية التي حاجه فيها موسى ﷺ، بأنه كذب بها وأبى: «فيقول تعالى ذكره: ولقد أرينا فرعون آياتنا كلها، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولَينا، موسى: وهارون إليه ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحقّ استكبارا وعتوّا»[2]. «كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ الآية»[3].

وبعد أن أخبر الله تعالى أنه أرى فرعون آياته كلها أتبعه بحكاية قول فرعون لموسى عقبه، فقال: "أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ لا نتعدّاه، لنجيء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أينا يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ أي: بمكان عدل بيننا وبينك ونَصَف"[4].

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥. وقال: « وخصّ تعالى ذكره بأن ذلك آيات لأولي النّهي، لأنهم أهل التفكّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ».

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٥، «وتأكيد الكلام بلام القسم و(قد) في «ولقد» مستعمل هنا في التعجيب من تصلب فرعون في عناده، وقصد منها بيان شدته في كفره وبيان أن لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تجد في إيمانه، وأجملت وعممت فلم تفصل، لأن المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره». التحرير والتنوير، لابن عاشور:١٦/ ٢٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٦.

وكان جواب فرعون عن آية العصا واليد بأن ذلك سحرا، لأن السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتهما إلى المعروف من السحر، فلذلك طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة.. وترك له اختيار ذلك الموعد: للتحدي، وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي... وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف مبالغة في التحدي[(١)] !.

وقبل موسى - عليه السلام - تحدي فرعون له؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة، وطلب أن يجمع الناس ضحى، ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحي، فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية[(٢)] .

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* **لما قال موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ لم يستفهم فرعون عن ربه، فلم يقل لهما «فمن ربي» وإنما قال: «فمن ربكما»** «إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا»[(٣)] . **وهو الذي كان يقول:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.
* بادر فرعون موسى وهارون بطرح الشبهات عليهما، فسألهما عن ربهما، وعن القرون الأولى، وكان الجواب من موسى مباشرة، ما حكاه الله تعالى هنا، وفي ذلك ما يدعو الدعاة أن

---

(١) وهو ما عبر عنه بـ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ والمراد: مكان مستوى في القرب منا ومنكم وقيل: مستوى الأرض ليس فيه انخفاض ولا ارتفاع». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٣٢.

يكونوا دائما على أتم الاستعداد للإجابة عن شبه الجاحدين الذين يتكررون عبر الأزمنة والأعصار.

* ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ **بهذا الوصف** « يلخص موسى -عليه السلام- أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود:هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها. وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها"[1] ، والعلم الحديث اليوم يكشف ما في هذه الآية من إعجاز علمي يأخذ بالألباب، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء (من إنسان ونبات وحيوان وكائنات حية دقيقة وجماد) صورته اللائقة بخاصته ثم أرشده إلى ما يصلح له، وقد بين الدكتور نظمي خليل أبو العطا ما تضمنته هذه الآية من إشارات لطيفة تتعلق بها أثبته العلم الحديث في عالم النبات مما يدل على أنه سبحانه خلق النبات في أحسن صورة وأكمل خلقة ثم هدى كل نبات إلى ما يصلح له معيشته، ومن ذلك: التزاوج والتكاثر والحفاظ على الحياة في عالم النبات، ومواجهة الأخطار، والتعامل مع تقلبات البيئة وتغير الطقس من برودة أو حرارة، كما أن الله تعالى خلقها على هيئة تساعدها على الانتشار بحثا عن الرزق، وأودع فيها أحاسيس ومشاعر، فهي تحس بتغير البيئة من حولها، فتشعر بالحرارة والبرودة، وتتكيف معها، وتشعر بالشمس ونور الصباح، وتشعر بالظلام، فتراها حين تشرق الشمس تستيقظ، وحين تغيب تنام، إنه عالم جدير بالتدبر تحققت فيه هداية الله تعالى لخلقه إلى ما يصلحه، فسبحان الله رب العالمين الذي خلق فسوى وقدر فهدى، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[2] .

* **إن انتقال فرعون من السؤال عن الرب إلى السؤال عن القرون الأولى كان يرمي منه إشغال موسى -عليه السلام- عن الدعوة إلى التوحيد لأنه أخوف ما يخافه هو التوحيد خشية أن يحرك**

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) ينظر موقع: www. 55a. net عن كتاب «آيات معجزات من القرآن وعالم النبات» للدكتور نظمي خليل أبو العطا.

قلوب الحاضرين نحوه، أو ربما أراد أن يكسب ود الحاضرين، ويثير حميتهم الجاهلية لتوقعه أن موسى -عليه السلام- سيجيب بذكر مصيرهم وهو النار، فيثير ذلك سخط الحاضرين عليه، أو أنه يجاملهم ببيان أنهم يستحقون الاحترام، وعليه يحتج فرعون بأنهم كانوا على عقيدتي، وأنت معترف باحترامهم[(١)]، ولكن جواب موسى -عليه السلام- لم يحقق توقع فرعون حيث أجابه بقوله: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ثم استمر يعدد صفات الله التي كان يتهرب منها فرعون، فهو سبحانه الذي جعل الأرض مهدا وسلك فيها السبل وأنزل من السماء ماء فأحيى به الأرض، وأنبت به الزرع مما يأكلون منه هم وأنعامهم[(٢)].

* قطع موسى -عليه السلام- على فرعون أي إمكانية في المغالطة أو الإيهام حين «وصف الله تعالى بأوصاف لا يمكن فرعون أن يتصف بها لا على وجه الحقيقة ولا على وجه المجاز ولو قال له هو القادر أو الرازق وشبه ذلك لأمكن فرعون أن يغالطه ويدعي ذلك لنفسه»[(٣)].

* إن الإنسان مرتبط بهذه الأرض فهو» مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالا، ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتا يختلط بترابها، وغازا يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق في النشأة الأولى"[(٤)].

* قوله تعالى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ «دليل على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية

---

(١) «ويحتمل أن يكون قال ذلك قطعا للكلام الأول وروغانا عنه وحيرة لما رأى أنه مغلوب بالحجة ولذلك أضرب موسى عن الكلام في شأنها فقال علمها عند ربي ثم عاد إلى وصف الله رجوعا إلى الكلام الأول». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٢) ينظر: فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ٢١٠-٢١١، عن كلام الندوي بتصرف.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

لمواراة الموتى سواء كان شقا في الأرض أو لحدا، لأن كليهما إعادة في الأرض؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ ﴾ [المائدة:٣١] فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض»[١] .

* ليس على الداعية إلا البلاغ، ومن أنذر فقد أعذر، ولا يشغلن الداعية نفسه -كثيرا- بالنتائج، وليترك أمرها إلى الله، فهو سبحانه يحققها متى شاء وكيف شاء، ألا ترى أن موسى وهارون قد بلغا، وأرى الله فرعون على أيديهما آياته: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ ومع ذلك كذب وأبى.

* قول فرعون ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ استثارة لنفوس الحاضرين واستفزازها بتذكيرهم بالانتماء إلى وطنهم وخطورة إخراجهم منه حتى يزدادوا تمسكا به[٢] ، وكم هو ثقيل على النفس أن تنتزع من أرضها، بسبب سحر هم أعلم الناس به وأقدر عليه، «وحتى يزيل -بقوله ذلك- ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى -عليه السلام- وكونه على الحق، لعل ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر»[٣] . وليظهر لهم حرصه عليهم.

* ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ قالها فرعون إيهاما للسامعين بأن ما جاء به موسى -عليه السلام- ليس إلا سحر، يمكن أن يقابل بمثله، ثم خير موسى -عليه السلام- في تحديد الموعد المناسب

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ٢٢١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٥.

للمناجزة والمبارزة، وكأنه أراد أن يوهم السامعين بقوة سحره، وثقته به، بيد أن ثقة موسى -عليه السلام- بربه وبنصره فاقت ثقة فرعون بسحره حيث قبل موسى -عليه السلام- تحدي فرعون مباشرة، «وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية"[1]، وكان هذا **الاختيار لهذا الوقت** « ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى»[2]، «وقصد موسى أن يكون موعدهم عند اجتماع الناس على رؤوس الأشهاد لتظهر معجزته ويستبين الحق للناس»[3]. وهذا كله يؤكد ثقته العظيمة بنصر الله تعالى.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة

تتجلى في هذا المشهد عناية الله تعالى بموسى وهارون حيث منعهما من بطش فرعون وطغيانه حتى بلغا ما كلفا به، وألهمهما الأجوبة الدامغة على شبهات فرعون، الداحضة لحججه، ومنحهما الثقة بتأكيد التحدي لفرعون حين بادرهما بالتحدي، ليكون ذلك كله لطفا آخر بفرعون ومن معه، حيث أزال عنهم الشبهات، وأقام عليهم الحجة، فكان المعقول منهم أن يعودوا إلى الحق ويرعووا إليه، هذا بالإضافة إلى ما يحمله التذكير بمنن الله تعالى من اللطف والعناية بهم، فالله سبحانه هو جعل لهم الأرض مهداً، وسلك لهم فيها سبلاً، وأنبت فيها الزرع، لهم ولأنعامهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٥.

المشهد الرابع: مشهد المباراة بين موسى -عليه السلام- والسحرة

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد موعظة موسى -عليه السلام- للسحرة، وإصرار السحرة على المواجهة مع قوة الموعظة، ثم وقوع المنازلة، والنتيجة التي أسفرت عنها المباراة، وأثر هذه النتيجة في صفوف المهزومين، وتهديد فرعون وتوعده للسحرة المؤمنين بالقتل والصلب، وبيان قوة إيمانهم في إصرارهم على الموت على الإيمان، طمعا في أن يغفر الله لهم ما قد أكرهوا عليه من السحر، مع ما تضمنه السياق من وصف الوقوف أمام الله تعالى لمن أتاه مجرما ولمن أتاه مؤمنا، وجزاء كل منهما.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد أن انتهى المشهد السابق من الإجابة عن شبهات فرعون، وختم بتحدي فرعون وقبول موسى -عليه السلام- التحدي وتحديد الموعد، ناسب أن يعقبه بيان موقف فرعون من تلك

الحجج وذلك التحدي، أيرعوي فيسلّم، أم يعرض ويأبى، فكان من بيان حاله أنه اختار التولي عن قبول الحق، والاستعداد لمواجهة موسى، ثم مضى المشهد يحكي قصة المباراة، والمبارزة ونتائجها.

المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ ﴾ أي: فأدبر فرعون معرضا عما أتاه به من الحقّ ﴿ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ﴾ أي: فجمع مكره، وذلك جمعُه سحرتَه بعد أخذه إياهم بتعلمه، ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته»[(١)].

تصوِّر هذه الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجمع كيده، والإتيان به، وهي آية تضمنت بإجمال كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه"[(٢)].

رأى موسى - عليه السلام - قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويدعون التحدي بالسحر، والسحر افتراء.

"يقول تعالى ذكره: قَالَ مُوسَى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ﴿ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾، أي لا تختلقوا على الله كذبا، ولا تتقوّلوه ﴿ فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ ﴾ أي: فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم... ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾، فلم يظفر بحاجته التي طلبها به، ورجا إدراكها به"[(٣)].

ويبدو أن الموعظة أثرت فيهم فصار أمرهم إلى التنازع في شأن موسى وهارون،

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤١.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٨-١٧٩.

فتنازعوا أمرهم بينهم، وأسروا النجوى وكانت تلك النجوى قولهم: «إن كان هذا ساحرا فإنا سنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، أو أن قولهم: ما هذا القول بقول ساحر، أو قولهم الذي ذكر الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[1].

وإنما أردوا بقولهم هذا: «أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم[2] أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب»[3].

وفي هذه النجوى تحميس من المصرين على المواجهة للمترددين فيها، ثم تابعوا تحميسهم بدعوتهم إلى إحكام كيدهم والعزم عليه وأفصحوا عن طريقتهم في المواجهة فقالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ وفرعون معهم يعدهم ويمنيهم مبشراً إياهم بالفلاح وهم في غمرة الاغترار بسحرهم وأمل الفوز بجائزة فيقول لهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره"[4].

ولم يكن بد من المواجهة بعد هذا التحميس وذاك الغرور، فتقدم السحرة إلى موسى -عليه السلام- بتخييره بين أن يبدأ أو أن يبدؤوا، فأذن لهم بأن يبدؤوا، «فكان أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كلّ رجل منهم ما في يده من العصي

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) نقل الشوكاني عن الفراء قوله: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم» فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢١.

(٣) والمثلى: تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال فلان أمثل قومه: أي أفضلهم، وهم الأماثل. فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٢١، وينظر جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٢. وقيل: المعنى: ويغيرا سنتكم ودينكم الذي أنتم عليه»، وهو قول لم يستجز الإمام الطبري القول به وإن كان له وجه في لغة العرب. ينظر تفسيره: ١٦/ ١٨٣.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٤.

والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا» [(١)].

«فأوجس في نفسه خيفة موسى» أي أحس، أو وجد، أو أضمر، أو خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه، وقيل خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا» [(٢)]، «وقال: والله إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه» [(٣)].

فأذهب الله ما به من الخوف لما قال له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، والقاهر لهم» [(٤)]، لأن معك الله الذي هو الأعلى ولا يعلى عليه.

ثم أمره أن يدخل في المباراة بأن يلقي عصاه التي في يمينه، ليشهد مشاهد العلو والمعجزة فألقاها «فإذا هي تلقف ما صنعوا، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ أي: ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان» [(٥)]. «ووقع السحرة سجدا، قالوا: آمنا بربّ هارون وموسى، لو كان هذا سحر ما غلبنا» [(٦)].

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٦.
(٢) فتح القدير للشوكاني: ٣/ ٢٢، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٢.
(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٧-١٨٨.
(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٦.
(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٢.
(٦) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

فتثور ثائرة فرعون وينكر على السحرة إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم ويتهمهم بالتواطؤ مع موسى وأخذهم السحر عنه فقال: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي أصدّقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي: إن موسى لعظيمكم ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [1] ، وإنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٣]» [2] .

فتوعد وهدد وقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾[الأعراف:١٢٤] أي: فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم مخالفا بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعا من خلاف، وكان فيما ذُكر أوّل من فعل ذلك فرعون» [3] . «ولتعلمنّ أيها السحرة أينا أشدّ عذابا لكم، وأدوم، أنا أو موسى» [4] .

وبالرغم من قوة التهديد والوعيد إلا إنهم لم يأبهوا بوعيده لعلمهم بأن قضاء فرعون فيهم لا يتعدى هذه الحياة الدنيا، وليس لهم الآن وقد تجلت لهم الحقيقة، أن يؤثروه على ما جاءهم من البينات فقد رأوا شواهد الحق بأعينهم، وهم بإيمانهم يطمعون أن يغفر الله لهم خطاياهم.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[الشعراء:٥١] ويرجون أن يلقوا الله على الإيمان لينالوا ما وعدهم الله تعالى من الجزاء، الذي قالوا عنه في سياق موعظتهم لفرعون وملئه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٤.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.

«**يقول تعالى ذكره**: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعّدهم به: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ فنتبعك ونكذّب من أجلك موسى عَلى الذي جاءنا من البينات يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى، ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ أي: ولن نؤثرك على الذي فطرنا: أي خلقنا.

ويحتمل أن يكون معنى قوله «والذي فطرنا» قسم فيكون المعنى: والله فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ أي: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك إنما تَقْضِي هَذِهِ الحَياةَ الدّنيا يقول: إنما تقدرُ أن تعذّبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى»[(١)] .

ثم إنهم أفصحوا عن علة إيمانهم بالله تعالى بقولهم: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ أي: إنا أقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا بوعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حقّ ليغفر لنا ذنوبنا، وتعلّمنا ما تعلمناه من السحر، وعملنا بالسحر الذي أكرهتنا على تعلّمه والعمل به. «وذُكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر»[(٢)] . أو أن المعنى: «أنه أكرههم على تحديهم موسى بسحرهم فعلموا أن فعلهم باطل وخطيئة لأنه استعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة»[(٣)] .

«وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ يقول: والله خير منك يا فرعون جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابا لمن عصاه وخالف أمره»[(٤)] .

ثم يخبر الله تعالى عما قالته السحرة لفرعون: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ ﴾ من خلقه ﴿ مُجْرِمًا ﴾ أي: مكتسبا الكفر به، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فتخرج نفسه ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ فتستقرّ نفسه في مقرّها فتطمئنّ، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم، ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا ﴾ موحداً لا يُشرك به ﴿ قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: قد عمل ما أمره به ربه،

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٨٩.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٧.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.

وانتهى عما نهاه عنه ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي درجات الجنة العُلَى»[(١)].

وقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي: وهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب من تزكى، أي: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه»[(٢)].

وهكذا انتهت المعركة بعلو موسى وهارون، وهزيمة فرعون وجنده، وظهور الحجة البالغة، التي ألقي بسببها السحرة ساجدين إيمانا بالله رب موسى وهارون، ثم استقبالهم للابتلاء بالرضى والصبر، راجين أن يغفر الله لهم ما قد سلف، وطامعين في نيل ما عند الله فإن ما عند الله خير وأبقى، وقد كان، فإنهم أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، **يقول ابن كثير**» والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»[(٣)].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* إن موقف فرعون الرافض للحق، والمصر على المواجهة -مع وضوح الحق- يشير إلى عمق الاستكبار الذي استولى على نفس فرعون، ولم يكن رفضه ذلك إلا علوا واستكبارا، وقد قال تعالى في حقهم: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤].

* تقدم موسى ﷺ بالموعظة للسحرة، والإنذار بعذاب الله تعالى، وحذرهم من الخيبة إن هم افتروا على الله الكذب، وبذلك يكون أعذر إلى الله تعالى، حتى إذا ما وقع عليهم العذاب لم يكن لهم حجة عليه، ومن أنذر فقد أعذر، وسرى أثر هذا الترهيب إلى قلوب بعض السحرة، وكذا شأن الكلمة الصادقة حين تلمس القلوب وتنفذ فيها، فقد تأثر بعضهم بالكلمة المخلصة،

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.
(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٥.

فتلجلج في الأمر[١]، وحصل التنازع في صفوفهم قبل دخول حلبة الصراع﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ وحتى أولئك المصرين من السحرة على المواجهة بقي أثر الموعظة في قلوبهم، فلما غلبوا وتحقق النصر لموسى عليه السلام آمنوا، وثبتوا على الإيمان.

* إن من عوامل التأثير في موعظة موسى أنه عليه السلام استعمل اللين في موعظتهم، فلم يوجه الخطاب إليهم بالخيبة، فلم يقل "وقد خبتم" مع أنه معلوم لديه أنهم مفترون، وهذا من حسن الإنذار، حيث لم يباشرهم به، وإنما قال:﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾[٢].

* ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ «إعلان بأنه-عليه السلام- لا يتقول على الله ما لم يأمره به لأنه يعلم أنه يستأصله بعذاب، ويعلم خيبة من افترى على الله، ومن كان يعلم ذلك لا يقدم عليه»[٣].

* ﴿ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ كلمة قالها فرعون، وردَّدها أتباعه أسوة به فقال بعضهم لبعض ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ وكلمة أخرى قالها فرعون: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر:٢٩] ومثلها ردد الأتباع هنا حين قالوا في التحذير من موسى وهارون: ﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ ليُعلم بهذا أن الأتباع المنتفعين يتأسون بمتبوعهم في التأكيد على أن النظام القائم هو الأصلح والأفضل، وأن الخروج عليه شطط عن الحق يجب الوقوف أمامه، ومواجهته.

* أراد السحرة إرهاب الناس وإرهاب موسى وهارون، **فحمس بعضهم بعضا بأن يأتوا** صفا، «لأن ذلك أهيب لهم، ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم يتخيرون لذلك بهاء الهيئة وحسن السمت وجلال المظهر. فكان من ذلك جلوس الملوك على جلود الأسود وربما لبس الأبطال جلود النمور في الحرب»[٤]، كما أن الإتيان صفا يشير إلى أهمية توحيد

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤١.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٠.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٦.

الجهود، وأنه ذو أثر قوي في تحقيق النصر.

* ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ هذه تمنية بالجوائز إن هم علوا وغلبوا، وهكذا شأن المتسلطين يمنون أنصارهم بالمكافآت والجوائز، والعطايا.

* إن أمر موسى -عليه السلام- لهم بالإلقاء ربما للتعرف على قوة سحرهم، أو لإبراز قوة معجزته أمام سحرهم العظيم وهو أقصى ما علموه من السحر، فإنه لو سبقهم لربما أحجموا عن الإلقاء بسبب قوة معجزته، فتضيع فرصة إقامة الحجة البينة عليهم أمام الناس.

* أذن الله تعالى للسحرة أن يؤثروا بسحرهم على موسى -عليه السلام- حتى خيل إليه حبالهم وعصيهم من سحرهم أنها تسعى، وربما كان ذلك ليعلم هو أن الناس قد رأوا ما رآه فيستشعر منة الله عليه وعلى الناس حين تعلو معجزته على سحر السحرة.

* ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ هذا دليل على عظمة هذا السحر حتى بلغ إلى أن أوجس موسى في نفسه خيفة، ليري الله موسى من بعد أن قوة المعجزة أعظم مما جاءوا به من السحر، وهذا أيضا "من أقوى الدلائل على صدقه -عليه السلام- في النبوة لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة"[1] فلما لم يكن موسى عليه السلام ساحرا وقع الخوف في نفسه، أو «إنما خاف موسى من أن يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعبانا، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاقوه بالكثرة»[2]، فأوحى إليه ربه أن يلقيها ليرى كيفية فعلها بحياتهم، فيستشعر منة الله تعالى عليه، ويطمئن إلى نصره.

* ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ هذه الجملة رد على كل من يعتقد في السحر الفلاح والغلبة وهي في سياق القصة هنا إشعار بأن السحر مهما بلغ في القوة والتأثير فمآله إلى الهزيمة والخذلان، فكان كما قال الله تعالى، ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ

---

(١) نقله الرازي عن أبي القاسم الأنصاري. التفسير الكبير: ٢٢/ ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٥٩.

سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الأعراف: ١١٩-١٢١].

* **﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ بني الفعل للمجهول ليشعر بقوة المعجزة، وكأن ملق قد ألقاهم سجدا، ليعلنوا إيمانهم -على الفور- برب موسى وهارون لما عرفوا الحق، فلم يتنازعوا كما تنازعوا من قبل.**

* لقد كان «تعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى، لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون»[1].

* «لما رأى فرعون إيمان السحرة تغيظ ورام عقابهم ولكنه علم أن العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة فاختلق للتشفي من الذين آمنوا علة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾، فعد ذلك جرأة عليه وأوهم أنهم لو استأذنوه، لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ ﴾.

* ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى -عليه السلام- لم يأت بما يعجز السحرة إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شنشنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر. ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة»[2].

* هدد فرعون وتوعد بالقتل والصلب، وهكذا هو فعل الطغاة حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح، وعن إقناع الناس بباطلهم يلجؤون إلى التهديد بالعذاب الغليظ على الجسوم والأبدان[3]، ولكن جواب السحرة المؤمنين، كان جواب الثابت على الحق، فعلى

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦١.
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٣-٢٦٤.
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٣.

قدر وضوح المعجزة لهم كانت قوة إيمانهم ويقينهم بالله فأجابوه بقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ ثم بينوا علة إصرارهم على الإيمان، فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾، وأظهروا بقولهم هذا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه[1]، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. «ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد ﷺ مثل صدق»[2]، ثم ألقوا موعظتهم على السامعين فقالوا[3]: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ وهي موعظة نابعة من قلوبهم يوقنون بها، ويطمعون أن ينالوا الدرجات العلى، وقد حقق الله لهم ذلك، فقد أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسل والمدعوين والرعاية لهم، وإن من عناية الله تعالى بموسى عليه السلام أن أذهب عن موسى الخوف، حين نهاه عن الخوف، وأنزل السكينة على قلبه حين بشره بأنه هو الأعلى، وكان الأمر كما بشره ربه، فعلت قوة المعجزة على كيد الساحرين علوا بينا، وأقر الله عينه بإيمان السحرة على مرأى من فرعون وملئه، وحماه من فرعون وبطشه رغم شدة تغيظه في هذا الموقف.

كما تجلت عناية الله تعالى بالمدعوين حين ألهم نبيه موسى عليه السلام أن يتقدم إلى السحرة بالموعظة التي أثرت فيهم، فأوقعت في نفوسهم التردد قبل المباراة، فتنازعوا في شأن موسى

---

(١) حين قال لهم من قبل: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٧.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٦٦.

(٣) يستبعد ابن عاشور أن يكون هذا القول من كلام أولئك المؤمنين، لأنه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصة. التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٨.

-عليه السلام- بين التصديق والتكذيب، فلما تبين صدقه بالغلبة والنصر، أيقنوا حينها أن ما جاء به موسى -عليه السلام- هو الحق فآمنوا إيماناً صادقاً، واتصلت رعاية الله لهم بعد إيمانهم بتثبيتهم على الإيمان مع قوة تهديد فرعون، وكذلك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[ابراهيم:٢٧].

المشهد الخامس: مشهد خروج موسى ببني إسرائيل

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد تذكير الناجين من بني إسرائيل بمنة الله عليهم، وتحذيرهم من الطغيان، وقصة إهلاك فرعون وجنوده، ونجاة بني إسرائيل، ثم المواعدة جانب الطور، وإنزال المن والسلوى عليهم، وختمه بالترهيب بالتهديد بالغضب على من طغى من بني إسرائيل وبسط الأمل بالمغفرة ﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ليعتبر المؤمنون، ويستمروا على شكر المنعم.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

«إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة. فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود.

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تأكدت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى - عليه السلام - من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة»[(١)] .

إن السامع للمشهد السابق بما فيه من غلبة القلة المؤمنة الضعيفة، وبما فيه من التهديد والوعيد من قبل فئة متسلطة متغطرسة ليترقب الخبر عما يحدث بعد، فكان هذا المشهد الذي يحكي الله تعالى فيه نجاة بني إسرائيل، وهلاك فرعون وقومه، فتكتمل الصورة لدى السامع من بداية المعركة إلى هزيمة الطغاة ونصر المؤمنين، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يونس:١٠٣].

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا ﴾[(٢)] إلى نبينا ﴿ مُوسَىٰ ﴾ إذ تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيب لأمر ربه، وطغى وتمادى في طغيانه ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ ليلاً ﴿ بِعِبَادِي ﴾ أي بعبادي من بني إسرائيل ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أي: فاتخذ لهم في البحر طريقا

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) يقول ابن عاشور: «افتتاح الجملة بحرف التحقيق للاهتمام بالقصة ليلقي السامعون إليها أذهانهم». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٩.

يابساً»[(١)] ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ أي: لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك ولا تخشى غرقاً من بين يديك ووَحَلاً»[(٢)]. «وهو وعد لموسى دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشرى»[(٣)].

«فسرى موسى ببني إسرائيل إذ أوحينا إليه أن أَسْرِبهم، فأتبعهم فرعون بجنوده في الطريق الذي سلكوا حين قطعوا البحر، فغشي فرعون وجنده من اليم ما غشيهم، فغرقوا جميعا ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩ ﴾ أي: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أي: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه»[(٤)].

«فلما نجا موسى بقومه من البحر، وغَشِيَ فرعون وقومه من اليم ما غشيهم، قلنا لقوم موسى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ فرعون ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي: كلوا يا بني إسرائيل من شهيات رزقنا الذي رزقناكم، وحلاله الذي طيبناه لكم ﴿ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ أي: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضكم بعضا»[(٥)]. «... فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به»[(٦)]، أو أن المراد «النهي

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩١.
(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩١.
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٠.
(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٢.
(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٣.
« ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.

عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم»[(١)]. ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ ﴾ أي: فتنزل عليكم عقوبتي... ومن يجب عليه غضبي، فينزل به ﴿ فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾، أي فقد تردّى فشقي»[(٢)].

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ ﴾ أي: وإني لذو مغفرة لمن تاب من شركه، فرجع منه إلى الإيمان لي[(٣)] ﴿ وَءَامَنَ ﴾، أي: وأخلص لي الألوهية، ولم يشرك في عبادته إياي غيري. ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ أي: «وأدّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنب معاصيّ. ﴿ ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ أي: ثم لزم ذلك، فاستقام ولم يضيع شيئا منه»[(٤)].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* أيد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بمعجزة العصا حين أمره أن يضرب بها البحر ليسلكوه في أمان من الدرك بعد أن قالوا إنا لمدركون.

* إن «الإضافة في قوله ﴿ بِعِبَادِي ﴾ لتشريفهم، وتقريبهم، والإيماء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون»[(٥)].

* «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٥.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٣-١٩٤.

(٣) حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٤-١٩٥. وقد اختار الطبري هذا القول في معنى {ثم اهتدى} ثم قال: « وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه، فلا شكّ في اهتدائه» وقيل: ثم اهتدى: أي ولزم الإيمان والعمل الصالح، وقيل: لم يشكك في إيمانه، وقيل: ثم استقام. وقيل: أصاب العمل، وقيل: عرف أمر مثيبه: إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا». جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٤-١٩٥

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٠.

لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستنكانة وخوفاً. فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب... هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال، وبتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات. ليستيقنها أصحاب الدعوات ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض. والطغاة يملكون المال والجند والسلاح"[1].

* «هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه، ولا يفصله، ليبقى وقعه في النفس شاملا مهولا؛ لا يحدده التفصيل.
* وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار"[2].
* إن في إيمان السحرة وثباتهم على الحق درس بليغ للدعاة إلى الله في الثبات، وقد كان من قبل تثبيت لأولئك المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت نزول هذه السورة.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم، وتأمل حال القوم الذي حكاه الله بقوله:﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الشعراء:٦١].. ولك أن تستشعر ما تحمله جملة «إنا لمدركون» من قوة التأكيد إذ اجتمع فيها حرفا التأكيد «إن» و«اللام»، ولك –أيضا– أن تتصور بعد ذلك حجم الهم والغم الذي غشي القوم وهم يظنون

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٤.

أنهم مدركون من قبل فرعون الطاغية، فإذا بلطف الله تعالى يدركهم قبل أن يدركهم بطش فرعون وجنوده، فألهم الله موسى -عليه السلام- أن يطمئنهم بلسان الواثق بالله ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الشعراء:٦٢]، وقد هداه. وهنا في هذه السورة يخبرنا الله تعالى بما أوحاه إلى موسى من الأمن والاطمئنان حين قال:﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾، « وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله – بني إسرائيل – ليلا. فيضرب لهم طريقا في البحر يبسا... مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه» [1]، ليقر الله أعينهم بإغراق فرعون وقومه.

«لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسري ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها. فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلا. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده» [2].

وتتابع منن الله تعالى على بني إسرائيل عناية بهم ورعاية لهم، فواعدهم الله جانب الطور «ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر واقع؛ وكانت مواعدة لموسى عليه السلام -بعد خروجهم من مصر- أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه، ليسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة، المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دورا

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر"[(١)] . ونعمة نزول الشريعة نعمة عظيمة وردت هنا في موضع التذكير بها إذ هي منة من الله تعالى عليهم.

وأنزل عليهم المن والسلوى: «وتنزيل المن؛ وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر. والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء. وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد"[(٢)] .

المشهد السادس: مشهد المناجاة إلى جانب الطور الأيمن
وموقف موسى -عليه السلام- مما أحدث قومه من بعده

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد عتاب الله لموسى -عليه السلام- لتعجله لقاء ربه، وتركه قومه، وفتنة السامري حين صنع لهم عجلا جسدا له خوار، ودعاهم إلى عبادته، فعبدوه بعد فراق موسى -عليه السلام- لهم، وموقفه من قومه بعد رجوعه إليهم غضبان أسفا، ولومه لهم على عبادتهم العجل، وموقفه مع أخيه، ولومه على عدم اتباعه حين تيقن ضلال قومه، وحواره مع السامري، ثم ما صار إليه السامري من العقوبة بالإبعاد، وما آل إليه العجل المصنوع من الإحراق والنسف في اليم، ليختم المشهد بالتأكيد على ألوهية الله تعالى بعد إثبات أن العجل لا يستحق أن يعبد من دون الله وقد نسف في اليم نسفا.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله.

الاستفهام بقوله ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ ﴾ «استفهام مستعمل في اللوم، وذلك أن موسى -عليه السلام- تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبان الذي عينه الله له، اجتهاداً منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيه مكراً»[1]. ولما كان الأنبياء أعلى مقاماً وقع اللوم لموسى عليه السلام في أمر اجتهد فيه مريداً الخير، فاحتاج اجتهاده ذلك إلى الاستغفار، إذ لم يقع على ما أراده الله منه، فناسب أن يساق هذا اللوم هنا بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ ﴾ ليشعر السامع بأن الله تعالى غفر لنبيه، لأنه غفار لمن استغفره، وقد

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٧.

استغفره موسى من بعد حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى ﴾.

هذا بالإضافة إلى أن هذا السؤال «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى -عليه السلام- بأنهم يأتون على أثره، فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل»[1]. والذي أفاض المشهد ببيان أحداثه.

ولما كان المشهد السابق تضمن عرض المنن الكثيرة التي من الله بها على بني إسرائيل، وختمها بالوعيد بغضب الله لمن لم يشكرها ناسب أن يعقبه هذا المشهد الذي تحقق فيه ذلك الوعيد لما طغى القوم، وكفروا بنعم الله تعالى، ولم يرعوها حق رعايتها، فعبدوا العجل واتخذوه إلها، فحق عليهم اللوم والتبكيت، وحقت على السامري العقوبة، وباجتماع المشهدين درس للسامع بأن يلازم الشكر، فبالشكر تدوم النعم، وبكفرها تحل العقوبة والنقم، والله أعلم.

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: وما أعجلك؟ وأيّ شيء أعجلك عن قومك يا موسى، فتقدمتهم وخلّفتهم وراءك، ولم تكن معهم؟ ﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾، أي: قومي على أثري يلحقون بي. ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي: وعجلت أنا فسبقتهم ربّ، كيما ترضى عني»[2].

ثم « قال الله تعالى ذكره لموسى: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك، -أي: من بعد فراقك إياهم- بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى. ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل. ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾أي: فانصرف موسى -عليه السلام- إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ متغيظاً

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٥. ثم قال الطبري: «وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك؟ لأنه جلّ ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدَهم جانب الطور الأيمن، فتعجّل موسى إلى ربه، وأقام هارون مع بني إسرائيل، يسير بهم على أثر موسى».

على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله»[١] . « وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم"[٢] .

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ ﴾ ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم»[٣] .

أو أن المعنى «أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله»[٤] .

﴿ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾، أي: أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم[٥] ، أم[٦] أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: أي: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى -عليه السلام- للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: ﴿ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾[٧] ، فقال قوم

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٥) يقول ابن جزي: وهذا الكلام توبيخ لهم. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٧.
(٦) « أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.
(٧) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٦-١٩٧.

موسى لموسى: ﴿ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ ﴾، يعنون بموعده: عهده الذي كان عهده إليهم»[(١)] .

وقولهم: ﴿ بِمَلۡكِنَا ﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة[(٢)] .

«ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر»[(٣)] . فقالوا: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾ أي: ولكنا حملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم، يعنون من حليّ آل فرعون وذلك أن بني إسرائيل لما أراد موسى -عليه السلام- أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمر الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى -عليه السلام- حين قال لهم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ ﴾[(٤)] .

«وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة»[(٥)] .

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٧.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٧، ١٩٨. وقال: أيضا: وقيل: بأمرنا، وقيل: بطاقتنا، وقيل: بهوانا. «وكلّ هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى، لأن من لم يهلك نفسه، لغلبة هواه على ما أمر».

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٩.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

«وقوله: ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ يقول: فألقينا «فنبذنا» تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

أي: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامريّ ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل[(١)].

ثم «يقول تعالى ذكره موبخا عَبَدة العجل، والقائلين له ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾[(٢)]، وعابهم بذلك، وسفّه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلهكم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلّموه لم يردّ عليهم جوابا، ولا يقدر على ضرّ ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلها»[(٣)].

و«لما فرغ موسى -عليه السلام- من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم انتقل إلى خطاب أخيه هارون، فقال: يا هارون أيّ شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ١٩٩. « وقيل بل خلق الله منه العجل من غير أن يصنعه السامري ولذلك قال لموسى قد فتنا قومك من بعدك». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.
وقال الطبري: «والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من الله عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من السامريّ عنه بذلك أشبه من غيره» جامع البيان:١٦/ ٢٠١.

(٢) وإنما «صنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل «ايبيس»، فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا رسخ في أوهامهم الآفنة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾، لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل «إيبيس»، وإذ قد كانوا يثبتون إلها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٨٧.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني»[1].

قيل: عذله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه. وقيل: بل عذله على تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم»[2].

وقيل: « ألا تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر لمن عبد العجل، وقتالهم بمن لم يعبده»[3].

وقيل: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع[4]. ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[5].

فقال هارون ﷺ: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ «أي لو قاتلت من عبد العجل منهم بمن لم يعبده لقلت فرقت جماعتهم وأدخلت العداوة بينهم»[6].

وقيل المعنى: خشيت أن نقتتل فيقتل بعضنا بعضاً.

وقيل: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد قالوا له ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ –فعندها– يقول له موسى:

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٣.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٣. ثم قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي قاله ابن عباس من أن موسى عذل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بيّن في قول هارون للقول ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ وفي جواب القوم له وقيلهم ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ جامع البيان:١٦/ ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك[١].

«وقوله: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي: ولم تنظر قولي وتحفظه»[٢].

والقول الذي لم يرقبه هو قوله له: «اخلفني في قومي وأصلح»[٣].

ولما اشتد غضب موسى وحصل منه أن أخذ برأسه ولحيته يجره إليه «ترقق هارون له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى -عليه السلام- في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له»[٤].

«وقوله: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾: أي: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون من قبل رجوع موسى -عليه السلام- إليهم، وقيله لهم ما قال، مما أخبر الله عنه: ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل، الذي أحدث فيهم الخوار ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاكّ في دينه» ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾: أي: وإن ربكم الرحمن الذي يعمّ جميع الخلق نعمه، فاتّبعوني على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له.

وقوله: قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ يقول: قال عَبَدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٢) «من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه «. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

نعبده، حتى يرجع إلينا موسى»[(١)]. «ونسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه»[(٢)].

ولما اتجه موسى -عليه السلام- بالخطاب إلى السامري، وقال له ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥﴾ **قال له:**«﴿بَصُرْتُ[(٣)] بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: قال السامريّ: علمت ما لم يعلموه أي: صرت بها عملت بصيراً عالماً»[(٤)].

وقيل: «﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ **يعني فرس جبرائيل** عليه السلام»[(٥)].

«وأما قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: فأخذت بكفي تراباً من تراب

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

(٣) من البصيرة.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٤.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥.

قال الطبري: «واختلف القرّاء في قراءة هذين الحرفين، فقرأته عامّة قرّاء المدينة والبصرة ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ **بالياء**، بمعنى: **قال السامريّ**: بصرت بما لم يبصر به بنو إسرائيل. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بهِ} **بالتاء** على وجه المخاطبة لموسى ﷺ وأصحابه، بمعنى: **قال السامريّ لموسى**: بصرت بما لم تبصر به أنت وأصحابك.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء مع صحة معنى كل واحدة منهما، وذلك أنه جائز أن يكون السامريّ رأى جبرائيل، فكان عنده ما كان بأن حدثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب، أن تراب حافر فرسه الذي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل، ولم يكن علم ذلك عند موسى، ولا عند أصحابه من بني إسرائيل، فلذلك قال لموسى: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ» أي علمت بما لم تعلموا به. وأما إذا قرىء بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ بالياء، فلا مؤنة فيه، لأنه معلوم أن بني إسرائيل لم يعلموا ما الذي يصلح له ذلك التراب» جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥-٢٠٦.

أثر حافر فرس الرسول، أي: جبرائيل»[١].

«وقوله: ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي: فألقيتها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلاً جسدا له خوار ﴿ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك»[٢].

وعندها «قال موسى -عليه السلام- للسامريّ: فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن تقول: لامساس: أي لا أمسّ، ولا أُمسّ.. وذُكر أن موسى -عليه السلام- أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول لامساس، فبقي ذلك فيها ذكر في قبيلته»[٣].

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ «بمعنى: وإن لك موعدا لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا العجل من دون الله، لن يخلفكه الله، ولكن يذيقكه»[٤].

«وقوله: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي: وانظر إلى معبودك الذي ظلت

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٥، ٢٠٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨. وقال الطبري: ورويت القراءة بالصاد «فقبصت قبصة» والمعنى: «بمعنى: أخذت بأصابعي من تراب أثر فرس الرسول، والقبضة عند العرب: الأخذ بالكفّ كلها، والقبصة: الأخذ بأطراف الأصابع»

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦. وقيل: ألقاها على العجل فصار له خوار. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٣) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦. وقيل: « وجعل له مع ذلك أن يقول طول حياته لا مساس أي لا مماسة ولا إذاية وروي أنه كان إذا مسه أحد أصابت الحمى له وللذي مسه فصار هو يبعد عن الناس وصار الناس يبعدون عنه» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٦-٢٠٧. وقرئ « لَنْ تُخْلِفَهُ». قال الطبري: «والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شكّ أن الله موف وعده لخلقه بحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب الصواب في ذلك».

عليه مقيما تعبده»[1]. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾[2]. «والمقصود بإحراقه بالنار إذابته وإفساد صورته»[3]. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: ثم لنذرّينه في البحر تذرية»[4].

ثم ختم كلامه بإثبات ألوهية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة، بعد إبطال ألوهية العجل بنسفه في اليم نسفاً، فقال:﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما لكم أيها القوم معبود، إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تَنبغي أن تكون إلا له ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط بكل شيء علما فعَلِمَه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك»[5].

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد

* يبدو أن سؤال الله لموسى -عليه السلام- «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى -عليه السلام- بأنهم يأتون على أثره فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل، أو أن سؤاله كان على وجه الإنكار لتقدمه وحده دون قومه»[6].

* انشغل بنو إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن ألقوا الحلي التي حملوها معهم في النار -تورعا- لأنهم سرقوها من القبط، وبذلك انشغلوا بالذنب الحقير عن الذنب العظيم، وكم نرى -في

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٧.

(٢) بضم النون وتشديد الراء، بمعنى لنحرقنه بالنار قطعة قطعة، وقرئ بضم النون، وتخفيف الراء، بمعنى: لنحرقنه بالنار إحراقة واحدة، وصوب الطبري قراءة التشديد. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٨.

(٣) وهو ما صححه ابن جزي: ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٨.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٨. يقال: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترابه باليد أو الريح.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٠٩. يقال: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه.

(٦) «فاعتذر موسى بعذرين أحدهما أن قومه على أثره أي: قريب منه فلم يتقدم عليهم بكثير فيوجب العتاب، والثاني أنه إنما تقدم طلبا لرضى الله» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.

حياة الناس- من منشغل بكبائر الذنوب، متورعا عن صغائرها، وما ذاك إلا بتلبيس إبليس عليهم.

* **عكف بنو إسرائيل على العجل الذي** ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[1] **وقالوا عن نبيهم** ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ **وهذا القول** «يضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه»[2].

* لم يتوجه موسى -عليه السلام- باللوم إلى السامري منذ البدء[3]، مع أنه هو الذي أضل قومه، وذلك «لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول، ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا»[4].

---

(١) «وقدم الضر على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيته، لأن عذر الخائف من الضر أقوى من عذر الراغب في النفع». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٨٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٨.

(٣) يقول ابن عاشور: «ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان فاندس في بني إسرائيل. ولما كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٣.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٨.

* قوله ﴿ فَٱذۡهَبۡ ﴾ الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة» [(١)] .

* مع أن هارون شقيق لموسى إلا أنه ناداه بأمه فقال: {يا ابن أم} «**لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ** في الحنو والعطف» [(٢)] ، وفيه إشارة إلى أهمية اختيار الألفاظ المؤثرة في أوقاتها المناسبة طمعا في التأثير على المخاطب، وقد نتج -هاهنا- عن ذلك تأثر موسى -عليه السلام- بذلك، فتراه يطلب لنفسه ولأخيه المغفرة «رب اغفرلي ولأخي».

* قال هارون معتذرا لموسى﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ « وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجماعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجح الثانية. وإنما رجحها لأنه رآها أدوم فإن مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى -عليه السلام- وإبطاله عبادة العجل حيث جعلوا غاية عكوفهم على العجل برجوع موسى. بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها» [(٣)] .

---

(١) «إما لأنه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإما لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، مثل الذين قال الله تعالى فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)، ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحي أو إلهام، مثل الذي قاتل قتالاً شديداً مع المسلمين، وقال النبي ﷺ (أما إنه من أهل النار)، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمدا ﷺ وكان النبي عليه الصلاة والسلام أعلم حذيفة بن اليمان ببعضهم. فقوله فاذهب الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٣) ذكر ابن عاشور هذا الاجتهاد، ثم تعقبه بقوله: «وكان اجتهاده ذلك مرجوحا لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه. لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع... ولذلك لم يكن موسى خافيا عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها =

* إن لنوازع الشر في النفس البشرية أثر في تصرفات البشر، خاصة حين لا يوجد فيها من الإيمان والتقوى ما يردعها ويكفها عن الشر، وها هنا السامري نموذج لذلك، فقد صرح بأن نفسه هي التي سولت له صناعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾، ومن قبل طوعت نفس ابن آدم له قتل أخيه، فيما أخبر الله في كتابه حين قال: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٠].

* ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ أضاف موسى -عليه السلام- الإله إلى ضمير السامري تهكما به، وتحقيرا له، واستدل على بطلان إلهيته بالدليل الحسي الذي لا يحتاج إلا إلى المشاهدة، لأن دلالة المحسوسات أوضح من دلالة المعقولات [(١)].

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وهنا يحكي الله تعالى لنا إضلال السامري لقوم موسى **بصناعة العجل، فكان من لطف الله تعالى بهم أنه لم يتركهم في ضلالهم، فألهم هارون أن يعظهم ويذكرهم بأن ما وقعوا فيه فتنة، وأن ربهم هو الرحمن بما تحمله هذه الصفة من ظلال اللطف والرعاية، ويتصل لطف الله بهم حين عاتب الله موسى -عليه السلام- على استعجاله اللقاء، ليعود إليهم موسى، فينكر عليهم هذا الفعل الشنيع، ويثبت لهم بطلان عبادة العجل، وليشاهدوا بأعينهم تحريق العجل الذي اتخذوه إلها، فيوقنوا عندها أنه غير مستحق للعبادة البتة، وأنه كما قال الله ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ثم يصحح لهم موسى -عليه السلام- عقيدتهم، فيثبت الألوهية لله تعالى بقوله:** ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ

= وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها كما بينته في كتاب مقاصد الشريعة. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٩٣-٢٩٤.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٩٩.

كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

« وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف، يعلن موسى - عليه السلام - حقيقة العقيدة. ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.. وينتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى -عليه السلام- في هذه السورة تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يبتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بني إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان. وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فمن الحكمة أن لا يكون عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل»[1].

الدرس الثاني: جزاء المعرضين عن القرآن الكريم

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع إنباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار السابقين مما قصه عليه في كتابه الكريم، وتضمن بيان جزاء المعرضين عن الذكر الذين يحملون أوزارهم وحدهم يوم القيامة، وساء لهم حملا، وبيان كيفية حشرهم، وما يتسارون به بينهم **من تذاكر قدر مدة لبثهم في الحياة الدنيا، وإقرارهم بسرعة مرورها حتى قال أعدلهم «إن لبثتم إلا يوما»**.

المناسبة بين هذا المقطع والمشهد الذي قبله.

«ولما تمت قصة موسى -عليه السلام- على هذا الأسلوب الأعظم، والسبيل الأقوم، متكفلة

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٩.

بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة أول السورة بتكثير هذه الأمة ورد العرب عن غيهم بعد طول التمادي في العناد، والتنكب عن سبيل الرشاد، إلى ما تخللها من التسلية بأحوال السلف الصالح والتأسي بهم، مفصلة من أدلة التوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم، بما يبعث الهمم، على معالي الشيم، كان كأنه قيل: هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرفيع؟ فقيل: نعم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا القص العالي، في هذا النظم العزيز الغالي لقصة موسى -عليه السلام- ومن ذكر معه ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء؛ وأشار إلى جلالة علمه بقوله: ﴿مِنْ أَنبَاءِ﴾ أي أخبار ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من الأزمان والكوائن الجليلة، زيادة في علمك، وإجلالاً لمقدارك، وتسلية لقلبك، وإذهاباً لحزنك، بما اتفق للرسل من قبلك وتكثيراً لأتباعك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتأكد الحجة على من عابه»[(١)].

ولما كانت قصة موسى -عليه السلام- من القصص التي ما كان لرسول الله ﷺ أن يعلمها من قبل هذا القرآن ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود:٤٩] **ناسب أن يذكر القرآن الكريم الذي قص الله به على نبيه أخبار ما قد سبق، وإن اختيار اسم الذكر للقرآن الكريم -هنا- له دلالته في السياق،** «فهو ذكر لله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى"[(٢)]. و«إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها»[(٣)].

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٢.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٠٢.

المعنى الإجمالي[1]:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك يا محمد نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: كذلك نخبرك بأخبار الأمم التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاينها» ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾. أي: وقد آتيناك يا محمد من عندنا ذكرا يَتذكر به، ويتعظ به أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين» ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: من ولّى عنه فأدبر فلم يصدّق به ولم يقرّ، ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: وساء ذلك الحمل والثقل من الإثم يوم القيامة حملاً، وحقّ لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مهلكة لا منجي منها»[2].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: وساء لهم يوم القيامة، يوم ينفخ في الصور، ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: ونسوق أهل الكفر بالله يومئذٍ إلى موقف القيامة زرقا، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق[3].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتهامسون بينهم، ويسرّ بعضهم إلى بعض: إن لبثتم في الدنيا، يعني: أنهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشراً[4]. لاستقلالهم مدة الدنيا.

ثم يقول تعالى ذكره: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقيلهم: ﴿إِن

---

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٠.

(٣) وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عميا، كالذي قال الله {وَنحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْيا}». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٠.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١١. وقيل يعنون لبثهم في القبور. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٩.

﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ لا يخفى علينا مما يتساررونه بينهم شيء ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أي: حين يقول أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم: إن لبثتم في الدنيا إلا يوماً».

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع

* ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ هذا إثبات بأن القصص وحي من عند الله تعالى وفيه رد على زعم الكفار قديماً لما قالوا ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان:٥]، ودحض لكل شبهة تزعم أن هذا القرآن من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها [١].

* أخبر الله تعالى عن الكفار حين يختلفون يوم القيامة في تقدير مدة لبثهم في الدنيا، «وإنما عنى جلّ ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذٍ، إعلام عباده أن أهل الكفر به ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدّة جزعهم من عظيم ما يردون عليه ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذّات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حتى يخيل إلى أعقلهم فيهم وأذكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلا يوما» [٢].

* في الآيات إثبات وقوع القيامة، والجزاء، والنفخ في الصور، والحشر، وهي أمور كان الكفار ينكرونها وقت نزول هذه السورة.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٠٢.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١١.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ تثبيت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لما في القصص من التثبيت ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[هود: ١٢٠] وهذا القدر الذي قصه الله في هذه السورة المشار إليه في هذا الموضع «تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يبتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا... لأن جو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل"[1].

وهذا القرآن رحمة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزل عليه القرآن، وبالأمة التي أنزل عليها القرآن، لأنه إيتاء من الله تعالى فهو «عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده»[2].

ويجيء القصص القرآني ليلقي في قلوب المؤمنين الطمأنينة والتسلية في وقت يعاني في المؤمنون أقسى أنواع الابتلاء، وهنا رحمة أخرى بأولئك الكفرة العتاة لما يقص الله عليهم من أنباء ما قد سبق ليكون لهم عبرة، وعظة، وزجراً وإنذاراً، وكثيراً ما يرد في القرآن الكريم عقب القصص قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾[3].

ومن لطف الله تعالى بالمعرضين عن القرآن أنه تلطف معهم بالتعريض لهم بالإنذار عن إعراضهم عن القرآن باستخدام اسم الموصول المفيد للعموم والإبهام، ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ ولم يواجههم بالخطاب، استمالة لهم، واتساقا مع جو الرعاية والعناية التي تتسم به السورة.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٩.

(٢) التحرير والتوير: ١٦/ ٣٠٢.

(٣) واقرأ بتدبر القصص القرآني في سورة الشعراء، وغيرها.

الدرس الثالث: عنوانه: مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع الإجابة عن أسئلة المشركين بشأن الجبال، وبيان حالها يوم القيامة وحال الناس يوم القيامة، من اتباعهم الداعي إلى الحشر، وخشوع الأصوات للرحمن، وانقطاع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا، وخضوع الوجوه للحي القيوم، وجزاء الظالمين، وثواب المحسنين، فهو سبحانه لا يظلم أحدا.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله:

«لما أخبر عن بعض ما سبق ثم عن بعض ما يأتي من أحوال المعرضين عن هذا الذكر فيما ينتجه لهم إعراضهم عنه، وختم ذلك باستقصارهم مدة لبثهم في هذه الدار، أخبر عن بعض أحوالهم في الإعراض فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ ما يكون حالها يوم ينفخ في الصور»[(١)].

و«لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذر إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها، ذكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي ﷺ سؤال تعنت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها... وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشادا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلما للمؤمنين»[(٢)].

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٤٤.

(٢) وروي أن رجلا من ثقيف سأل النبي ﷺ عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل =

المعنى الإجمالي[(١)]:

«يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمد قومك عن الجبال، فقل لهم: يذريها ربي تذرية ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودكّ بعضها على بعض، وتصييره إياها هباءً منبثاً ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها نسفاً، قاعاً: يعني: أرضاً ملساء، صفصفا: يعني مستويا لا نبات فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع»، ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ أي: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستوية ملساء، كما قال جلّ ثناؤه: قاعا صَفْصَفا»، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾ يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أي: لا عوج لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون»[(٢)]. ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن... فلا تسمع لناطق منهم منطقا إلاّ من أذن له الرحمن»[(٣)]. ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي: وطء الأقدام إلى المحشر[(٤)]، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أي عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ كقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾. وقال: ﴿ وَلَا

= كرى. التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٠٦-٣٠٧.

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧.

(٢) وقيل: لا عوج له، والمعنى: لا عوج لهم عنه، لأن معنى الكلام ما ذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه. ولكنهم يؤمونه ويأتونه، كما يقال في الكلام: دعاني فلان دعوة لا عوج لي عنها: أي لا أعوج عنها. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٤.

(٣) فوصف الأصوات بالخشوع. والمعنى لأهلها إنهم خُضّع جميعهم لربهم. جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢١٤.

(٤) مروي عن ابن عباس: جامع البيان:١٦/ ٢١٤-٢١٥. يقول الطبري: وأصل الهمس: الصوت الخفيّ، يقال همس فلان إلى فلان بحديثه إذا أسرّه إليه وأخفاه... وقيل: تخافت الكلام: خفض الصوت»

نَفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾، وقال: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨]»[1] .

ثم يقول سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[2] أي: ولا يحيط خلقه به علما، ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علما، ولا يحيط عباده به علما» .

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ يقول تعالى ذكره: استسَرّت وجوه الخلق، واستسلمت للحيّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا»[3] . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي: ولم يظفر بحاجته وطلبته من حَمل إلى موقف القيامة شركا بالله، وكفرا به، وعملاً بمعصيته.

ثم يقول تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده.

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: وهو مصدّق بالله، وأنه مجازٍ أهل طاعته وأهل معاصيه على معاصيهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥.

(٢) كقوله: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥.
يقول ابن جزي: « والصحيح عندي أن المعنى لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ولو أراد المعنى الأول لقال ولا يحيطون بعلمه ولذلك استثني إلا بما شاء هناك ولم يستثن هنا». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ٢٠.

(٣) وأصل العنو: الذلّ، يقال منه: عنا وجهه لربه يعنو عنوا، يعني خضع له وذلّ، وكذلك قيل للأسير: عان لذلة الأسر، وقيل: وضع الجبهة والأنف على الأرض. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٥-٢١٧.

﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ أي: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليه.

﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع.

* إن التعبير بالنسف للجبال بعد التعبير بنسف العجل دلالة على قدرة الله الذي ينسف الجبال نسفاً، وعجز العجل عن دفع النسف عنه، فكانت هذه القدرة وذلك العجز دليل على استحقاق الله تعالى الألوهية، وامتناعها عن العجل.

* وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة، وتخفت كل حركة وكل نأمة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون - وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون - ويعبر عن استسلامهم بأنهم ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء[١].

* إن التعبير بنفي العوج عند اتباع الداعي، ليذكرهم باعوجاج أنفسهم عن اتباع داعي الحق فكأن اتباع الداعي بلا اعوجاج في الآخرة جزاء لامتناعهم عن اتباع داعي الحق في الدنيا.

* إنهم كانوا في الدنيا يقولون ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] وهاهم يوم العرض في خشوع الأصوات لا تسمع منهم إلا همسا.

* إنهم كانوا يعبدون مع الله آلة أخرى يعتقدون فيها الشفاعة عند الله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨] وأما اليوم فقد انقطعت شفاعة الشافعين إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة، ورضي له بالقول، ولا يأذن الله إلا لمن ارتضى، وهؤلاء الآلهة ليسوا أهلاً للرضى.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٢.

* أحاط الله بكل شيء علما، وامتنع أن يحيط أحد بالله علما.

* المؤمنون يوم القيامة أولئك لهم الأمن، اطمأنت نفوسهم إلى عدل الله تعالى فلا يخافون ظلما ولا هضما.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وإن من العناية بالخلق والرحمة بهم أن يبين لهم من الحجج والآيات على قدرته تعالى المطلقة، ليقروا له باستحقاق العبادة وحده، فإن الذي نسف الجبال نسفا هو المستحق للعبادة، وليس العجل الذي نُسف في اليم نسفاً.

ومن الرحمة بالخلق أن أخبرهم بيوم الحساب، وأن الملك فيه لله وحده، ولا شفاعة إلا لمن أذن له ورضي له قولاً، ليجتهد العبد أن يكون من أهل الشفاعة والرضى، ويختم المشهد ببيان عدله سبحانه، ليطمئن العبد بأنه أمام رب رحيم عادل، لا يظلم أحداً مثقال ذرة، فعندها لا يخاف ظلماً ولا هضماً.

الدرس الرابع: محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع تقرير عروبة القرآن، وبيان الحكمة من تضمينه الوعيد، ثم إرشاد الله نبيه إلى كيفية تلقي القرآن، وأمره بطلب زيادة العلم.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله

«يقول الله تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين، فصيح لا لبس فيه ولا عي» [1]، و«كما رغبنا أهل الإيمان في

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمُقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربيا، إذ كانوا عَرَبا»[(١)].

ولما اشتملت الآيات السابقة على حسن المعاني، فبشرت ويسرت، وأنذرت وحذرت، وبينت الخفايا، وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلالة السبك وبراعة النظم، كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالتها: أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي ومثل هذا الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي هذا الذكر كله بعظمتنا ﴿ قُرْءَانًا ﴾ جامعاً لجميع المعاني المقصودة ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ مبيناً لما أودع فيه لكل من له ذوق في أساليب العرب»[(٢)].

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: كما رغبنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمُقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذ كانوا عَرَبا ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فبيناه: أي: وخوّفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي: كي يتقونا، بتصريفنا ما صرّفنا فيه من الوعيد «فيتركون المآثم والمحارم والفواحش»[(٣)] ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[(٤)] أي: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذّبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله[(٥)].

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٤٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

(٤) «وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات». تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

(٥) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.

أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة»[(١)] .

ثم يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أي: «ولا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرأ عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه مَنْ كان يُكْتِبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه، وقيل: لا تتله على أحد، ولا تمله عليه، حتى نبينه لك»[(٢)] .

وقيل: المعنى: «إذا أقرأك جبريل القرآن فاستمع إليه واصبر حتى يفرغ وحينئذ تقرأه أنت فالآية كقوله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾»[(٣)] .

ويشهد لهذا التفسير ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[(٤)] .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله: «ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل»[(٥)] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.
(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢١٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦، ونص ابن جزي على أنه الأشهر. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ٢٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾، برقم: ٤٦٤٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب الاستماع للقراءة، برقم: ٤٤٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* إن قوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ إشارة إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة[(١)].

* كما أن في وقوع جملة ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ وبين جملة ﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ ﴾. «إنشاء ثناء على الله منزل القرآن، وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بيّن لعباده من وسائل الإصلاح، وحملهم عليه بالترغيب والترهيب، وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب»[(٢)].

* إن في وصفه سبحانه نفسه بأنه الملك الحق «إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص كما قال تعالى ﴿يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾»[(٣)]. وانتفاء أي منازع له في ملكه سبحانه يوم القيامة، وقد كانوا يدعون الملك في الدنيا.

* إن النهي عن التعجل بالقرآن ليشعرنا بأهمية التأني في تلاوته، والتمعن في قراءته، وتمكين القلب من فهمه وتدبره. وقد جاء عن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمله عليهم حتى تتبين لك معانيه[(٤)].

* ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ «فيه تلطف مع النبي ﷺ؛ إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغب بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن، أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، إيماءً إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٦.
(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.
(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.
(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٧.
(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور االسورة الرعاية والعناية، وإن من عناية الله تعالى بالمدعوين أن أنزل عليهم هذا القرآن بلسان عربي مبين، لئلا يكون لهم حجة في دعوى عدم فهمه، وكذا من رحمته بهم أن ضمن كتابه صنوفا من الترغيب والترهيب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ بعد ذكر الإنزال والتصريف ليتبين لك «أن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشئ عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمور مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأنفذ طرق السياسة»[(١)].

الدرس الخامس: آدم وعداوة إبليس له ولذريته:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾

تضمن هذا المقطع حكاية نسيان آدم لعهد الله، واجتباءه له بعد توبته، وتكريم الله له

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

بإسجاد الملائكة له، والتصريح له بعداوة إبليس له، ومكره به، وسعيه إلى إخراجه وزوجه من الجنة، والتفصيل بما أعد الله لآدم في الجنة من نعيم، وإغراء إبليس لآدم وزوجه بالملك الدائم إن هما أكلا من الشجرة، حتى وقعا في المعصية، وبيان ما نتج عن المعصية من العقوبة، من بدو سوآتهما، وإهباطهما إلى الأرض، ثم ما كان من لطف الله تعالى بآدم بالاجتباء والتوبة، لينتهي المقطع ببيان جزاء من أعرض عن منهج الله وثواب من اتبعه.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله:

لما سبق ذكر القرآن وتصريف الله فيه من الوعيد للمشركين الذين لم ينتفعوا بذلك الوعيد ولم يتذكروا بهذا القرآن، أعقب الله تعالى هنا بذكر قصة آدم، فكأن الله يقول: «وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديما ما فعل ذلك أبوهم آدم»[1].

«ولما كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبي ﷺ وعاندوه، وذلك المقصود من قصصها... فكأن النبي ﷺ استحب الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم[2]... أعقبت تلك القصة بقصة آدم عليه السلام وما عرض له به الشيطان، تحقيقا لفائدة قوله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. فالجملة عطف قصة على قصة»[3].

«وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء

---

(١) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٠.

(٢) «فلما كان النبي ﷺ حريصا على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طلبة في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم» فنهاه الله بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ وأن يكل الأمر إليه فإنه أعلم بحيث يناسب حال الأمة العام». التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٨.

الوحي خشية النسيان يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله"[(١)].

«ولما قرر سبحانه بقصة موسى ﵇ ما أشار إليه أول السورة بما هو عليه من الحلم والتأني على عباده، والإمهال لهم فيما هم عليه من النقص بالنسيان للعهود والنقض للمواثيق، وأتبعها ذكر مدح هذا الذكر الذي تأدت إلينا به، وذم من أعرض عنه، وختمه بما عهد إليه ﷺ في أمره نهياً وأمراً، أتبع ذلك سبحانه قصة آدم ﵇ تحذيراً من الركون إلى ما يسبب النسيان، وحثاً على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن، وبياناً لأن ذلك الذي قرره من حلمه وإمهاله عادته سبحانه من القدم، وصفته التي كانت ونحن في حيز العدم، وأنه جبل الإنسان على النقص، فلو أخذهم بذنوبهم ما ترك عليها من دابة»[(٢)].

«وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان. وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه. ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة. وكأنما هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه"[(٣)].

وقصة آدم هنا معطوفة على قصة موسى -﵇- من قبل، لما بينهما من التناظر من حيث: «التفريط في العهد، لأن في القصة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، وفي قصة آدم تفريط في العهد أيضا. وفي كون ذلك من عمل الشيطان كما قال في القصة الأولى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ وقال في هذه ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾. وأن في القصتين نسيانا لما يجب الحفاظ عليه وتذكره

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥١.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣.

فقال في القصة الأولى ﴿ فَنَسِيَ ﴾ وقال في هذه القصة ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [(١)] .

المعنى الإجمالي [(٢)] :

« يقول تعالى ذكره: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقدياً ما فعل ذلك أبوهم آدم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ ﴾ إِلَيْهِ أي: ولقد وصينا آدم وقلنا له: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿ مِن قَبْلِ ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرف لهم الوعيد في هذا القرآن وقوله:

﴿ فَنَسِيَ ﴾ يقول: فترك عهدي» [(٣)] . ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي: «ولم نجد له عزم قلب على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه» [(٤)] .

ثم يقول تعالى ذكره معلماً نبيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرّفه بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم: واذكر يا محمد ﴿ وَإِذْ

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٨.

(٢) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) وقيل: ﴿ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢٠.

(٤) وهو ما اختاره الطبري، واستدل له بلسان العرب فقال: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْما فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٢.

قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ أن يسجد له.

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ «ولذلك من شنآنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له ﴿ مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي: فيكون عيشك من كدّ يدك، فذلك شقاؤه الذي حذّره به»[1]. ﴿ إِنَّ لَكَ ﴾ يا آدم ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ ﴾ أي: لا تعطش في الجنة ما دمت فيها ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾، يقول: لا تظهر للشمس فيؤذيك حرّها. ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: فألقى إلى آدم الشّيطان وحدّثه، ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكا لا ينقضي فيبلى، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ أي: فأكل آدم وحوّاء من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي: فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: أقبلا يشدّان عليهما من ورق الجنة، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ أي: وخالف أمر ربه، فتعدّى إلى ما لم يكن له أن يتعدّى إليه، من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها.

ثم قال الله تعالى لآدم وحوّاء: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ﴾ إلى الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي: أنتما عدوّ إبليس وذرّيته، وإبليس عدّوكما وعدوّ ذرّيتكما، ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ أي: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه. وقوله: ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ يقول: وهداه

---

(١) «وقال تعالى ذكره: ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ولم يقل: فتشقيا، وقد قال: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ لأن ابتداء الخطاب من الله كان لآدم عليه السلام، فكان في إعلامه العقوبة على معصيته إياه، فيما نهاه عنه من أكل الشجرة، الكفاية من ذكر المرأة، إذ كان معلوما أن حكمها في ذلك حكمه، كما قال: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ اجتزىء بمعرفة السامعين معناه، من ذكر فعل صاحبه». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٢.
وقيل «لأن الشقاء في معيشة الدنيا مختص بالرجال». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢٠.

للتوبة، فوفّقه لها، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ أي: فإن يأتكم يا آدم وحوّاء وإبليس مني هدى: أي: بيان لسبيلي، وما أختاره لخلقي من دين ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ أي: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ منه ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ أي: فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: فإن له معيشة ضيقة»[1].

قيل: الضنك المراد هو الضيق أوالشقاء، وقيل: في جهنم، وقيل: المعيشة الحرام في الدنيا، وقيل: الرزق في معصيته، وقيل: الكسب الخبيث، وقيل: في البرزخ بعذاب القبر يضيق بهم حتى تختلف أضلاعه ورجحه الطبري[2].

---

(١) والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيقا، وعيش ضنك، الذكر والأنثى والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد ومنه قول عنترة:

وإنْ نَزَلُوا بضَنْكٍ أنْزِلِ.

جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٥.

(٢) فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وساق بسنده إلى أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتَدْرُونَ فِيمَ أُنزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: فإنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكا وَنحْشُرُهُ يَوْمَ القيامَةِ أعْمَى أتَدْرُونَ ما المَعِيشَةُ الضّنْكُ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الكافر في قَبْره، والّذِي نَفْسي بيَدِه، إنّه لَيُسَلّطُ عَلَيْه تَسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنّينا، أتَدْرُونَ ما التّنِينُ: تسْعَةٌ وَتسْعُونَ حَيّة، لكلّ حَيّة سَبْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْفُخُونَ في جِسْمِهِ وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إلى يَوْم القِيامَةِ». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٨.

[قال ابن كثير: «رفعه منكر جدا» ثم أورد رواية أخرى تذكر أن المراد بها: عذاب القبر، وقال عقبه: «إسناده جيد»]. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

وأضاف الطبري فقال: وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فكان معلوما بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدّ وأبْقَى معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أشَدّ وأبْقَى. فإذ كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في=

وفسره ابن كثير بقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي «ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة»[(١)]، ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: «يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جلّ ثناؤه، فعمّ ولم يخصص»[(٢)]، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥﴾... أي: قال: ربّ لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بصر بذلك كله»[(٣)]. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ قال الله حينئذٍ للقائل له: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾: فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيّنه في كتابه، ﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل. وعنى بقوله ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ﴾ هكذا أتتكَ.

= قبورهم قبل البعث، إذ كان الأوجه أن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كُلّ من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلّ على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صحّ الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٨.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٩٩. يقول الطبري: « وإنما قيل لمعيشة الدنيا ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقون ما ينفقون من أموالهم على تكذيب منهم بالخلف من الله، وإياس من فضل الله، وسوء ظنّ منهم بربهم، فتشتدّ لذلك عليهم معيشتهم وتضيق». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٧.

(٢) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩، وقيل: أعمى البصر. ينظر المرجع نفسه.

(٣) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩.

« فإن قال قائل: وكيف قال هذا لربه: لَمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى مع معاينته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أن يكون لله أن يفعل به ما شاء، أمَ ما وجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يعرّفه الجرم الذي استحقّ به ذلك، إذ كان قد جهله، وظنّ أن لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: ربّ لأيّ ذنب ولأيّ جرم حشرتني أعمى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيرا وأنت لا تعاقب أحدا... بدون ما يستحق منك من العقاب». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٢٩-٢٣٠.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ «أي: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها فكذلك اليوم ننساك، فنتركك في النار»[(١)].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ﴾ وهكذا نجزي: أي نثيب ﴿ مَنۡ أَسۡرَفَ ﴾ فعصي ربه، ﴿ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ ﴾ برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ. ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أي: ولعذاب في الآخرة أشدّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى، أي: وأدوم منها لأنه إلى غير أمد ولا نهاية.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾ «إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحي حر الظاهر»[(٢)].
* إن «عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة يمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها. وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري. فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري. وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى.

من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب

---

(١) وهذا كقوله: « ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٧-٢٢٩٨.

التي يزينها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمن»[(١)].

* «إن في تذكيرنا هنا بنسيان أبينا آدم العهد بسط الأمل لنا نحن بني آدم في العذر في نسيان الالتزام بالتكاليف، وقد رفع الله عنا الخطأ والنسيان»[(٢)].

* «﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ بهذا لمس الشيطان في نفس آدم الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحظور»[(٣)].

* « اعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة، وانتظام المعيشة بقوله: ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ ﴾، ورغبه إبليس أيضا في دوام الراحة بقوله: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنت بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي. ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٤.

(٢) وقد قال الله عقب قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ قد فعلت. مسلم في الصحيح، باب أنه سبحانه وتعالى لا يكلف إلا ما يطاق، برقم: ١٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٤.

مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره»[١].

* ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، بذلك أعلنت الخصومة في الثقلين، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدري. فقد درى وعلم؛ وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

* ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون، وشهده الملائكة أجمعون. شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه، فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[٢].

* «إن إثبات العصيان لآدم دليل على أنه لم يكن يومئذ نبياً. ولأنه كان في عالم غير عالم التكليف وكانت الغواية كذلك، فالعصيان والغواية يومئذ: الخروج عن الامتثال في التربية كعصيان بعض العائلة أمر كبيرها، وإنما كان شنيعاً لأنه عصيان أمر الله، وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف»[٣].

* ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ هذا إثبات العصيان لآدم

---

(١) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ١٠٩.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٢٧.

دون زوجه، وهو يدل على أن آدم كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه»[(١)] .

كما أن فيه بسط لأمل العاصي في قبول توبته، وقد قبلها من أبيه، فإنما نحن أبناؤه، ويعترينا من النسيان والعصيان ما اعترى أبونا وزيادة، والله سبحانه ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الشورى:٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة الرعاية والعناية، ولقد خلق الله آدم عليه السلام ليجعله خليفة في الأرض، فاعتنى به عناية عظيمة منذ بدء خلقه، حيث أسجد الملائكة، وعلمه الأسماء، وأنعم عليه بنعيم الجنة، ولما عصاه تاب عليه فاجتباه، وفي هذه السورة تتجلى مظاهر العناية الربانية بآدم عليه السلام، من وجوه:

أ- **عرضه لتجربة الابتلاء بالأمر بالأكل، والنهي عنه**[(٢)] «لاختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان، وإرادته، وعهده للرحمن. وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى:﴿ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾»[(٣)] .

ب- تذكيره بنعمة التفضيل بإسجاد الملائكة له: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾«هكذا في إجمال يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية.. فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية»[(٤)] .

ج- **حدد له عدوه، وحذره منه:** ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٢٧.

(٢) ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾. البقرة:٣٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٣-٢٣٥٤.

عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه" [١].

د- تذكيره بنعمه عليه في إسكانه الجنة﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

هـ- «الاجتباء والهداية إلى التوبة، ثم قبولها: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله، بعدما عصاه، فقد كانت هذه هي التجربة الأولى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ بعدما استغفر آدم وندم واعتذر. ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في الجو وحدها" [٢]، وخاصة أن جو السورة جو الرحمة والرعاية «لمن يجتبيهم من عباده، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه» [٣].

- وفي جو من الرعاية واللطف والرحمة يذكر الله تعالى عقب الحكم بإنزال آدم وحواء وإبليس إلى الأرض أنه منزل منهجا من عنده فمن اتبعه فلا يضل ولا يشقى، ومن يعرض عنه فله معيشة ضنكا، وهو هنا تذكير لأولئك الذين تنكبوا منهج الله وأبوا اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الوقت نفسه تبشير للذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتزموا منهج الله تعالى في وقت نزول السورة وما بعدها.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٣.

الخاتمة: إنذار للمشركين وإعذار، وتوجيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاد

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

تضمنت هذه الخاتمة إنذار وتهديد لأهل مكة بالإهلاك، بذكر إهلاك من سبقهم، وإعذار لهم، حيث أرسل الله إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فبشرهم وأنذرهم، وما بين الإنذار والإعذار توجيهات ربانية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يتعلق بتعامله مع المشركين، أو ما يتعلق بخصوص نفسه من التسبيح والصلاة.

المناسبة بين الخاتمة وما قبلها:

«ولما كان ما مضى من هذه السورة وما قبلها من ذكر مصارع الأقدمين، وأحاديث المكذبين بسبب العصيان على الرسل، سبباً عظيماً للاستبصار والبيان، كانوا أهلاً لأن ينكر عليهم لزومهم لعماهم فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يبين ﴿ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن تقدمهم ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ بتكذيبهم لرسلنا، حال كونهم ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ ﴾ ويعرفون خبرهم بالتوارث خلفاً عن سلف أنا ننصر أولياءنا ونهلك أعدائنا ونفعل ما شئنا»[1] .

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٦٤-٣٦٥.

المعنى الإجمالي[(١)]:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما صابهم»[(٢)]. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ أي: إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذّبة رسلها قبلهم، وحلول مُثْلاتنا بهم لكفرهم بالله لآياتٍ أي: لدلالات وعبراً وعظات لأُولي النّهَى: وهم أهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواقعة ما يضره». ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يا محمد أن كلّ من قضى له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغه أجله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي: ووقت مسمى عند ربك، سماه لهم في أمّ الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه﴿ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ أي: للازمهم الهلاك عاجلاً.

ثم يقول جلّ ثناؤه لنبيه: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذّبون بآيات الله من قومك لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: وصل بثنائك على ربك[(٣)].

وقوله: ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ وذلك صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهي العصر ﴿ وَمِنْ

---

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر:١٦/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣١. ثم قال الطبري: «وقد كانت قريش تتجر إلى الشأم، فتمرّ بمساكن عاد وثمود ومن أشبههم، فترى آثار وقائع الله تعالى بهم، فلذلك قال لهم: أفلم يحذّرهم ما يرون من فعلنا بهم بكفرهم بنا نزول مثله بهم، وهم على مثل فعلهم مقيمون».

(٣) وقال: بحمد ربك. والمعنى: بحمدك ربك، كما تقول: أعجبني ضرب زيد، والمعنى: ضربي زيدا. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣.

ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ ﴾ وهي ساعات الليل[(١)] ... والمراد: صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضيّ آناء من الليل. وقوله: ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾: يعني صلاة الظهر والمغرب»[(٢)]. ﴿ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾[(٣)] أي: كي ترضى.

ثم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضُرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، مُتْعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها، من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها ﴿ لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ أي: لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فإن ذلك فانٍ زائل، وغُرور وخُدَع تضمحلّ ﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ ﴾ الذي وعدك أن يرزقكه في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿ خَيۡرٞ ﴾[(٤)] لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا. ﴿ وَأَبۡقَىٰ ﴾ أي: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاذ.

---

(١) واحدها: إنْيٌ. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣.
«ووجه الاهتمام بآناء الليل أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة فيخشى أن تتساهل في أداء الصلاة فيه» التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٨.

(٢) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٣. وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأن صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، وفي أوّل طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف، وقد يحمل أن يقال: أريد به طرفا النهار. وقيل: أطراف، كما قيل صَغَتْ قُلُوبُكما فجمع، والمراد: قلبان، فيكون ذلك أوّل طرف النهار الآخر، وآخر طرفه الأول.

(٣) قرئت بفتح التاء من «ترضى» وبضمها، « والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، وهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأة الأمصار، متفقتا المعنى، غير مختلفين وذلك أن الله تعالى ذكره إذا أرضاه، فلا شكّ أنه يرضى، وأنه إذا رضي فقد أرضاه الله، فكل واحدة منهما تدلّ على معنى الأخرى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب الصواب». جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٤) جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٢. وقال الطبري: وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، من أجل أن رسول الله ﷺ بعث إلى يهوديّ يستسلف منه طعاما، فأبى أن يُسْلفه إلاّ برهن، فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي:﴿ وَأْمُرْ ﴾ يا محمد ﴿أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ أي: لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك، نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾أي: نحن نعطيك المال ونكسبكه، ولا نسألكه. ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: والعاقبة الصالحة من عمل كلّ عامل لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقاباً، ولا يرجو له ثواباً.

ويقول ابن كثير: « وقوله: ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]- إلى قوله -﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٨] ، ولهذا قال :﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ »[(١)].

ثم يختم الله تعالى السورة بالرد على الكفار، وإنذارهم بسوء العاقبة، لما أبوا أن يتذكروا بهذا القرآن، وتبشير المؤمنين بحسن العاقبة لما كانوا من أهل الذكر، فيقول سبحانه مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ والمعنى: هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله[(٢)]؟ قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ والبينة: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين[(٣)] بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٣٠٣.
(٢) كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٨.
(٣) من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجّلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك. جامع البيان، للطبري:١٦/ ٢٣٧.

الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين الخطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]»[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذّبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك يقول: فنتبع حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذلّ بتعذيبك إيانا ونخزى به.

﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أي منا ومنكم منتظر لمن يكون الفلاح مصيره، وإلى ما يؤول أمري وأمركم كل متوقف ينتظر دوائر الزمان ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أي فارتقبوا وانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ﴾ فستعلمون من أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم؟ ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.

«وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٥.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الخاتمة:

* ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) ﴾ « هذا الاستفهام استفهام إنكاري تعجيبي، تعجيبا من حال غفلة المخاطبين المشركين عما حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى معروف من مقام التعريض بالتحذير والإنذار بقرينة قوله ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾، فإنه لا يصلح إلا أن يكون حالاً لقوم أحياء يومئذ»[(١)].

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ جاء في موضع التعليل، وذلك للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيذان بالتعليل... وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول»[(٢)].

* لما كانت الدنيا حلوة نضرة، وما فيها من النعم نعم زائلة «شبهها الله بالزهر، وهو النوار، لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل»[(٣)].

* ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾. «فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم؛ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة. وما أروح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله»[(٤)].

* ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.. على إقامتها كاملة؛ وعلى تحقيق آثارها. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهذه هي آثارها الصحيحة. وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك. وإلا فما هي صلاة مقامة. إنما هي

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٤.
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٣٣٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ٢١.
(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

حركات وكلمات[(١)].

* ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً. فالله غني عنك وعن عبادة العباد، إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾. فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وأخراه. يعبد فيرضى، ويطمئن ويستريح. ويعبد فيجزى بعد ذلك، الجزاء الأوفى. والله غني عن العالمين"[(٢)].

المناسبة بين هذه الخاتمة ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي الخاتمة هنا نلمح العناية بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في توجيه الله تعالى له إلى ما يعينه في دعوته إلى الله تعالى، وإلى ما يقوي قلبه وإيمانه فأمره أولا بالصبر على ما يقوله الكفار، والصبر صفة أولي العزم من الرسل، وأمره بالتسبيح، والتسبيح تنزيه لله تعالى عما لا يليق به تعالى مما يقوله الكافرون، وأمره بالاصطبار على الصلاة ودعوة أهله إلى المحافظة عليها، والصلاة صلة بينه وبين ربه، وهو الذي كان يقول من بعد: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[(٣)].

وللمدعوين من أهل الشرك لطف آخر، فقد لطف الله بهم، إذ قدم لهم بين أيديهم من نذر السابقين من القرون الأولى ما يغنيهم لو كانوا يؤمنون ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١]، «وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله»[(٤)].

وقطع عليهم دعوى الاحتجاج بعدم إرسال الآيات بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ومن عليهم مرة أخرى إذ سبقت كلمته ألا يعاجلهم بالعذاب قبل انقضاء آجالهم.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

(٣) أخرجه أبوداود في السنن، باب في صلاة العتمة، برقم: ٤٩٨٥.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب:٤/ ٢٣٥٨.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH
1997

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الخامس

الأنبياء - العنكبوت

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

UNIVERSITY OF SHARJAH 1997

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيسًا
أ. د. عيادة الكبيسي	عضوًا
أ. د. أحمد البدوي	عضوًا
أ. د. عبد الله الخطيب	عضوًا
د. محمد عصام القضاة	عضوًا
د. قاسم أسعد	عضوًا
د. عواد الخلف	عضوًا

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد
أ. د. عيادة أيوب الكبيسي
أ. د. أحمد محمد الشرقاوي
أ. د. ناصر سليمان العمر
أ. د. أحمد عباس البدوي
أ. د. محمد أحمد عيد الكردي
أ. د. مساعد مسلم آل جعفر
أ. د. شحادة احميدي العمري
أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

أولا: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

تسمى سورة الأنبياء بلا خلاف، فلم يعرف لها اسم آخر(1)، وتسميتها بذلك ظاهرة، لاشتمالها على فضائل جملة من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، من صبرهم وثباتهم وما جرى لهم مع أقوامهم، وتأييد الله تعالى لهم، ـ بلغ عددهم ستة عشر نبيا ـ، بما فيهم أولو العزم الخمسة، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، والملاحظ أنها افتتحت بالحديث عن محمد ـ ﷺ ـ، وختمت بالحديث عنه وعن رسالته ـ ﷺ ـ، فهو ـ ﷺ ـ في هذه السورة الفاتح الخاتم، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأمم، ولها ارتباط وثيق بجميع الذين آمنوا بكلمة التوحيد ورسالته، وأذعنوا لها مستسلمين مسلمين(2).

وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: هي جديرة باسمها، لأن فيها قصصا من أخبار النبيين، وهو غير مكرر في غيرها من القصص(3).

ب ـ فضائلها:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: (بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي)(4).

والعتاق ـ بكسر المهملة ـ جمع عتيق، وهو القديم، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة، والتلاد ـ بكسر التاء وتخفيف اللام ـ المال القديم، وهو بخلاف الطارف، ومراد ابن مسعود

---

(1) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥.

(2) انظر كلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء، للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٨.

(3) انظر زهرة التفاسير ٩/ ٤٨١٩.

(4) أخرجه البخاري برقم ٩٣٧٤ ـ في تفسير سورة الأنبياء.

رضي الله تعالى عنه: أنهن من السور التي أنزلت أولا بمكة، وأنها من أول ما تعلمه من القرآن وأن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم[(١)].

ج- مكية السورة أو مدنيتها:

سورة الأنبياء مكية باتفاق، وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك [(٢)]، واستثناء بعضهم آية: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، مرجوح[(٣)].

د- عدد آياتها:

مائة واثنتا عشرة آية، في عد أهل الكوفة، وعليه أغلب المصاحف وكتب التفسير، ومائة وإحدى عشرة آية، في عد غيرهم[٤].

هـ- محور السورة:

معالم التوحيد وإثبات المعاد في دعوة الأنبياء، وموقف الناس من ذلك[(٥)].

المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

ظاهر، لأن مهمة الأنبياء عليهم السلام تقوم على تصحيح عقائد الناس، وتطهيرها من الخلود إلى الدنيا، والوقوف عندها، ولا يتم ذلك إلا بإثبات التوحيد والمعاد.

---

(١) انظر الهداية في غريب الحديث ١/ ١٩٤و٣/ ١٧٩، فتح الباري ١٠/ ٣٥٨.

(٢) انظر المحرر الوجيز ١٠/ ١٢١، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٦٦.

(٣) انظر محاسن التأويل ١١/ ٢٢٧،

(٤) انظر جمال القراء ١/ ٢٩٧ وقال: اختلافها آية: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، عدها الكوفي وحده، الإتقان ١/ ٣٢١ فصل في عدّ الآي، الزيادة والإحسان ٢/ ٥٩، التحرير والتنوير ١٧/ ٦.

(٥) قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى في زهرة التفاسير ٩/ ٤٨٢٤: (.. وصلبها التوحيد، وما لقيه النبيون في سبيل هذه الدعوة التي هي الحق، وضل من يعاندها).

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما كانت فاتحة السورة بالحديث عن قرب الساعة، وبيان أن الناس في غفلة عنها وإعراض ثم ذكرت أنهم لم ينتفعوا بالتذكير والتنبيه، وأنهم كانوا يقولون عن القرآن بأنه سحر، وأضغاث أحلام، وأن من جاء به بشر مثلهم، ووصفوه بصفات الذم من أنه كذاب مفتر شاعر!! ختمت السورة الكريمة بتعليم نبيه ﷺ هذا الدعاء الكريم ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، المتضمن الإخلاص المستفاد من التعريف في قوله﴿ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾، وإبطال ما تفوهوا به من صفات الذم، المعارضة للحق الذي جاء به ﷺ، وفي تعليم هذا الدعاء إيذان بإجابته ونصره، وإزهاق الباطل ودحضه، وذلك ما حكم به أحكم الحاكمين في هؤلاء المعاندين بالحق يوم بدر، فالحمد لله رب العالمين [1].

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها – وهي سورة طه – ظاهرة، حتى إن الآلوسي اكتفى بقوله: (ووجه اتصالها بما قبلها غني عن البيان)[2]، وذلك أن الله تعالى لما ختم سورة طه بقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: ١٣٥]، أي: إن العلم بالشقي والسعيد حاصل لا محالة، وأعلى أنواع العلم وأرقى درجاته اليقين، وهو ما يعاين بعد الموت ومفارقة هذه الحياة، حين يكشف الغطاء وتزول الحجب عن القلوب، حتى يدرك الأمر على ما هو عليه، لما ختم بهذا افتتح هذه السورة بما يؤكد ذلك ويقرره، وهو يوم الحساب في الآخرة، مخبرا أنه قريب الوقوع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١].

وثمة سبب آخر، وهو أن الله تعالى لما حذر من الاغترار بالدنيا بقوله سبحانه في سورة

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٧٥.

(٢) انظر روح المعاني ١٧/ ٢.

طه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١]، ورغب في الآخرة بقوله ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، افتتح سورة الأنبياء بما يقتضي الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا لدنوها من الزوال، والعمل للآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[1].

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة الأنبياء وسورة طه مكيتان، ومن العتاق الأول، ومضمون السورتين بوجه عام واحد، وهو معالجة موضوع العقيدة وإثبات أصول الدين، المتمثل في ركائز ثلاث وهي: أ - التوحيد. ب - النبوة والرسالة. ج - البعث والجزاء.

فالتذكير بالله تعالى، والدعوة إلى الإقرار بوحدانيته، وإقامة الدلائل القاطعة على ذلك نجده في السورتين، وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووحدة هدفهم، وما جرى لهم مع أقوامهم، وتأييد الله تعالى لهم، وحسن عاقبتهم، وتحقيق انتصارهم، وما فيه من عبر وعظات، نجده كذلك في السورتين، وإن كانت سورة طه أطنبت في الحديث عن موسى عليه السلام، وكذا نجد في السورتين الحديث عن الساعة وأهوال يوم القيامة، وما أعد الله تعالى للمتقين من حسن الجزاء، وللمكذبين من العقاب والنكال، وأن الأصنام وعبادها هم وقود النار يوم القيامة.

والآيات التي تتحدث عما ذكر واضحة بينة، تظهر للقارئ بأدنى تأمل ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

---

(١) انظر نظم الدرر ١٢/ ٣٨٠، التفسير المنير ١٧/ ٦.

المقطع الأول: غفلة الناس عن الساعة، وإعراضهم عن القرآن

قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١-٦].

التفسير الإجمالي:

بهذا الأسلوب البديع المشتمل على الإنذار، افتتح ربنا تبارك وتعالى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فنبه عباده من مشركي العرب وغيرهم، إلى أن وقت وقوع الساعة قد أظلهم، وأن يوم الحساب قد اقترب منهم، بينما هم في غفلة عن ذلك.

ودنو الساعة وقرب وقوعها، إنما هو باعتبار تحققه، أو باعتبار ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي ـ ﷺ ـ فيما رواه سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام، (بعثت والساعة كهاتين)[1].

ومن دلائل غفلتهم: أنه ما ينزل عليهم شيء جديد إنزاله من آيات القرآن، مما يتكرر عليهم إنزاله، إلا استمعوه وهم متشاغلون عنه، غير متأملين ولا واعين.

ومن صفات أولئك الكفار الظالمين: إخفاء التناجي، والمبالغة في كتمانه، لأنهم يرون أن ذلك أدعى لإيقاع الضرر، والصد عن الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ ولئلا يطلع أحد من المسلمين على تآمرهم، فتفشل مخططاتهم.

وما أسروه هو قولهم فيما بينهم: هل محمد إلا بشر مثلكم، يأكل الطعام ويمشي في

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، انظر رقم ٤٩٣٦ كتاب التفسير ـ تفسير سورة النازعات١١/ ١٠٩، ومسلم برقم ٢٩٥٠ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب قرب الساعة.

الأسواق؟ كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧][1]، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه؟ فما معنى اتباعكم له ـ وهو واحد من الناس غير متميز عنهم ـ إلا أنه سحركم فكيف تتبعون السحر وأنتم تشاهدونه وتبصرونه؟ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر، وهو يعلم أنه سحر[2] !!

لكن العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، كشف سرهم، وأطلع نبيه ـ ﷺ ـ على ما كتموه، وأمره أن يجابههم بذلك، ويعلمهم بأن الله تعالى سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم، ولا من أمر سماواته وأرضه سبحانه وتعالى، ألا إنها شبهة واهية باطلة، فهل يكون الرسل إلا من جنسهم؟ إن بشر فبشر، وإن ملائكة فملائكة، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٥].

ومن صفات أولئك الكفار: الحيرة والاضطراب لدى إثارة الشبه والشكوك، فقد أضربوا عن قولهم سحر، إلى قولهم بأن ما يأتي به ما هو إلا رؤى كاذبة، وأحلام مختلطة، يراها في المنام، ثم أضربوا عن هذا إلى قولهم إنه كلام مفترى مكذوب، ثم أضربوا عنه إلى قولهم إنه شاعر من الشعراء، فهم في حيرتهم يترددون، وهكذا شأن المحجوج المبطل، يتردد بين باطل وأبطل منه ويذبذب بين فاسد وأفسد منه[3].

بعد هذا الاضطراب طلبوا منه ـ ﷺ ـ على سبيل التعنت، أن يأتيهم بمعجزة حسية تشبه معجزات الأنبياء من قبله، تشهد بصدقه كما شهدت لهم، كناقة صالح، وانفلاق البحر لموسى

---

(١) وقد رد الله تعالى قولهم هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ الفرقان/ ٢٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٥٥.

وإحياء الموتى لعيسى، ونحوها من الآيات، فرد الله تبارك وتعالى عليهم بأن أولئك القوم لم يؤمنوا بتلك الآيات فأهلكوا، وأنتم مثلهم بل أعتى منهم، إن كثيرا منكم لن يؤمنوا حتى بعد مجيء الآيات، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ ﴾ الأنعام، وحينئذ سيصيبكم ما أصابهم، وقد سبق في علمي أن منكم من يؤمن ولو بعد حين، ومنكم من تكون له ذرية مؤمنة، وأن هذه الأمة معصومة من عذاب الاستئصال الذي أصاب من قبلها من الأمم، فلذا فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن لا تقع تلك الخوارق، ولا تحدث تلك المعجزات.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* من أعظم أسباب الإعراض عن الإيمان، الغفلة والتشاغل عن التذكّر والتأمل، والتعلق بالدنيا وميل القلب إليها.

* الحث على الاستعداد ليوم المعاد، فالناس لم يخلقوا سدى، ووراء هذا العالم عالم آخر، يثيب الله تعالى فيه المحسن ويعاقب المسيء، ويوم مجيئه قريب غير بعيد، ولن يفلت من الموت أحد، ومن حكم الشعر:

الناس في غفلاتهم　　　　ورَحى المنية تطحن[1]

* الصد عن اتباع الحق، والحيلولة دون سلوك طريق الهدى، والتآمر لإخفاء الحقيقة، ظلم سافر عاقبته إلى خسران.

* من ثمرات تفويض الأمور لله تعالى والتسليم له، وصدق الاعتماد عليه، النصر والظفر والتأييد.

* من علامة دعاة الباطل وأهل الضلال، الحيرة والتردد والاضطراب في تقرير ما يرمون إليه من الأقوال والأحكام.

* من خصوصيات هذه الأمة المحمدية، عصمتها من عذاب الإبادة والاستئصال، الذي كان

(١) انظر الأغاني ٤/ ١٠٣، تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٦.

يصيب الأمم من قبلها.

* ليس من آية أنزلها الله تعالى أعظم من القرآن، وهو كفيل بمن تأمله أن يقوده إلى شاطئ الأمن والإيمان، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

قلنا إن محور السورة هو التوحيد، وإثبات المعاد في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وموقف الناس من ذلك، وفي هذا المقطع الذي افتتحت به السورة الكريمة، تذكير للناس بحقيقة ما سيؤولون إليه، وهو الموت، ثم المثول بين يدي الإله الواحد سبحانه وتعالى، وأن الوحي ما جاءهم إلا لبيان ذلك.

غير أن موقف أكثر الناس من ذلك كان اللهو واللعب والغفلة.

المقطع الثاني: الإنذار بالوحي سمة مشتركة بين الرسل عليهم الصلاة والسلام

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧-١٥].

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لما أنكر المشركون رسالة النبي محمد ﷺ، بدعوى أنه بشر مثلهم، مستبعدين أن يكون ذلك، رد الله تعالى عليهم بأن هذه سنته في جميع الرسالات من قبله، فالأنبياء كلهم من لدن آدم

إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام بشر يوحى إليهم، ومحمد ﷺ لم يكن بدعا من الرسل.

وأخبر عن نصره لرسله، وإهلاكه مكذبيهم، وحكى اعتراضات قريش، وأبان أنها ظاهرة السقوط، لأن شرائط الإعجاز لما تمت في القرآن، ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرئاسة فيها، وقد بالغ جل وعلا في زجرهم عن ذلك، معرّضا بإنذارهم أن يهلكوا بسبب ظلمهم كما أهلكت الأمم الظالمة من قبلهم [1].

التفسير الإجمالي:

بهذا الحصر الحقيقي افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع المبارك ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾، وقد تكرر هذا اللفظ في الكتاب العزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومنه نعلم أن ليس بين الرسل امرأة[2]، وقد انعقد الإجماع على هذا، وسر ذلك أنهم أقدر على التبليغ، وأمكن في الأخذ عنهم.

وإذا كان كفار قريش يجهلون هذه الحقيقة فما عليهم إلا أن يسألوا أهل الذكر، وهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى[3]، فإنهم يعلمون ذلك من كلام الله الذي أنزله عليهم في

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٥، التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤، التفسير المنير ١٧/ ٢٤.

(٢) لكنهم اختلفوا في نبوة مريم ـ عليها السلام ـ وآسية امرأة فرعون، فالجمهور على أنهما لم تكونا نبيتين، وقال القرطبي ٤/ ٨٣: والصحيح أن مريم نبية، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك، كما أوحى إلى سائر النبيين، وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صديقيتها وفضلها.

(٣) هذا هو الراجح، وقالت فرقة هم أهل القرآن، وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا من أهل الذكر، ذكر هذا ابن عطية في المحرر الوجيز ١٠/ ١٢٧ وقال: وهذا موضع ينبغي أن يتأمل، وذلك أن الذكر هو كل ما يأتي من تذكير الله عباده، فأهل القرآن أهل ذكر، وهذا أراد علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت، لأنهم كانوا خصومهم.

التوراة والإنجيل.

والرسل في بشريتهم لا يختلفون عن بقية البشر، إنهم ليسوا أجسادا لا حياة فيها، بل هم يأكلون ويشربون، ويحيون ويموتون، غير أن الله تعالى خصهم بكرامته وتأييده، ووعدهم نصره على من كذبهم، وأفادت كلمة ﴿ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴾ أن الله تعالى منجز لهم ذلك لا محالة، وهذا ما حصل، حيث أعز الله تعالى رسله ونصرهم، وأذل مكذّبيهم الذين أفرطوا في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه وخذلهم.

وقد أكرم رسله بوحيه الذي ينير طريقهم، وإذا كانوا يشتركون في هذا الفضل والشرف، فإن محمدا ﷺ، له قصب السبق والقِدْح المعلّى من ذلك، فقد أنزل عليه أشرف كتبه، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي رقيبا على سائر الكتب، يشهد لها بالصحة والثبات[1].

وقد شاء الحكيم جل جلاله أن يكون كتابه بلسان العرب، كما هي سنته مع رسله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فكان ذلك شرفا للعرب وعزا، يحق لهم أن يستبشروا به، ويفاخروا لو استعملوا عقولهم، وتجردوا من عنادهم وتقليد آبائهم.

وقد شاء الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل.. وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد، وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به[2]، وهذا سر ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حيث حركهم بذلك

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٦١٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٠.

إلى النظر(١).

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى هذا اللفظ الدال على كثرة العدد، بصيغة التكثير ﴿كَمْ﴾ فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾، والقصم هو الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، استعير للاستئصال والإهلاك القوي كإهلاك عاد وثمود وسبأ(٢).

وما كان إهلاك القرى الكثيرة، إلا بسبب ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسل عليهم الصلاة و السلام، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، وبعد إهلاك أولئك الظالمين يخبرنا سبحانه وتعالى أنه أوجد بعدهم قوما آخرين، وفيه تهديد لكفار قريش بأن الله تعالى قد يهلكهم ويستبدل قوما غيرهم.

لقد كان من حال أولئك الظالمين أنهم لما تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، وعلموا ذلك علم حس ومشاهدة، ابتدروا الهروب من شدة الإحساس بالبأس(٣) مسرعين.

فقيل لهم: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة والمساكن الطيبة، لتروا ما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة(٤)، لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم، وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: استهزاء بهم(٥).

(١) انظر المحرر الوجيز ١٠/ ١٢٩.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٥.
(٣) وهذا ما يفيده دخول إذا الفجائية في جواب لما. انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦.
(٤) هذا أحد وجوه كثيرة ذكرها الرازي ٢٢/ ١٤٦، لعله أظهرها.
(٥) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٠، والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٧.

فما كان منهم إلا أن يقروا بظلمهم متلهفين نادمين، ولات ساعة مندم، فلم يزالوا يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك، إلى أن صيرهم الله تعالى كالحصيد، وهو الزرع المحصود، وكالنار الخامدة، فلم يبق لهم أثر ولا عين، ولا حس ولا حركة.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* من فضل الله تعالى على عباده، اختيار الرجال لحمل رسالته، لما لهم من قدرات من جهة، ولتيسير الاتصال بهم والأخذ عنهم في كل وقت من جهة أخرى، فلم يكونوا من الملائكة لتعذر الاتصال بهم حسا، ولا من النساء لتعذر ذلك شرعا.

* إن سؤال أهل العلم واجب، فهم أهل الفتيا في الدين، ولا يجوز للعامة ذلك بل يجب عليهم تقليد العلماء[١]، والجاهل لا يعذر بجهله، ما دام يمكنه سؤال أهل العلم، وفي هذا قالوا:

من لم يكن يعلم ذا فليسأل   من لم يجد معلما فليرحل

* لقد تكفل الله تعالى بحفظ رسله عليهم الصلاة والسلام، وحفظ أتباعهم وأعوانهم، حتى يؤدوا رسالته على الوجه الصحيح، وأن يهلك كل من يحاول إعاقة ذلك.

* من لطف الله تعالى بعباده في ترغيبهم في الإيمان، الإتيان بصيغة المستقبل في قوله: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة، وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد، والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد[٢].

* إن عز العرب وشرفهم، منوط بمدى تمسكهم بالكتاب الذي فيه ذكرهم، فعليهم أن

---

(١) انظر التفسير المنير ١٧/ ٢١.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢١.

يفقهوا ذلك ويعوه ويفهموه، وما كشفه الواقع في حياتهم عبر القرون لخير دليل على هذا.

* إن إعمال الفكر في كتاب الله تعالى تدبرا وتأملا، يفتح آفاقا من الفهم والمعرفة، تقود بإذن الله إلى العمل والتطبيق، وبذلك يتم الانتفاع الكامل، وتحصل سعادة الدارين.

* في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، دلالة على عناية الإسلام بالعقل، وتحريضه على التفكير والتدبر، والإنكار على من أهمل ذلك ولم يوله عنايته، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل[1].

* الظلم جرم كبير، وعاقبته وخيمة، وقد حرمه الله تعالى على نفسه، وجعله بين عباده محرما، فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي - ﷺ - فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[2]، ولقبح الظلم وعظيم ضرره فقد توعد الله الظالمين بأفظع أنواع العذاب وأشدها.

* إن الخلق بظلمهم لن يضروا الله شيئا، وهو جل وعلا قادر على أن ينشيء من شاء بدل من شاء، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة [محمد ﷺ: ٣٨].

* لا نجاة بالهرب من عذاب الله، والفرار لا يغني شيئا من ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١].

* المتأمل فيما يجري في زماننا، يجد أن سنة الله تعالى ماضية في إهلاك القرى الظالمة، سواء بطريق الزلازل أو الحروب المدمرة، أو الفيضانات الجارية، أو غيرها، وإذا كان بين المهلكين صالحون، فإنهم على نياتهم يبعثون، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ضمن حديث قدسي طويل برقم ٢٥٧٧ باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤.

ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

* التهكم بالظالمين من أساليب القرآن، وثمة نماذج كثيرة فيه، ومن ذلك هذه الآية: ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾، فأنى لهم العود والرجوع بعد الهلاك، إنْ هو إلا السخرية والاستهزاء.

* الاعتراف بالذنب إنما ينفع صاحبه ما دام في حال صحته وعافيته، وأما عند حلول العذاب فلا، إذ الإيمان يقبل في الاختيار لا في الاضطرار، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، فلم يزل هؤلاء يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، معترفين بشركهم وظلمهم حتى أهلكهم الله، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

إن الرسل ما أرسلوا إلا لتقرير التوحيد، وإنذار المعاندين والمكذبين بيوم الدين، ومحمد ﷺ لم يكن بدعا من الرسل في ذلك، فقد أرسل بما أرسلوا به، فجاء بهذه الآيات التي قابلها المشركون بالرفض فاستحقوا العذاب كما هي سنة الله في أمثالهم من المكذبين.

المقطع الثالث: دلائل الوحدانية والقدرة وتنزيه أفعال الله تعالى عن العبث

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٦-٣٣].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر سبحانه وتعالى إهلاك الظالمين، وأنه كان بأشد أنواع العذاب، أبان أن ذلك ما حصل إلا تحقيقا للعدل، وأنه من أفعال الحكمة المنزهة عن اللعب، فما خلق السموات

والأرض وما بينهما إلا لمنافع جليلة دينية ودنيوية[1].

كما ذكر سبحانه وتعالى دلائل قدرته، في إبداع هذا الكون من سمائه وأرضه على أحسن نظام وأتقنه، وما أودع فيه من عجائب المخلوقات وغرائبها، وأن ذلك كله ملك له وحده لا ينازعه فيه أحد، وأتبعه بدلائل التوحيد القاطعة، وبراهينه الساطعة.

وذكر الرازي رحمه الله تعالى أن الكلام من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا، وأما الآيات التي بعدها فإنها في التوحيد، ونفي الأضداد والأنداد[2].

ولما أقام الله سبحانه وتعالى الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته، ووبخ المشركين الذين اتخذوا آلهة من دونه، أردفه بتوبيخهم على عدم تدبر الآيات الكونية الدالة على وجوده[3]، إذ لو كان ثمة آلهة، لما كان هذا الكون بهذا النظام، وعلى هذا الوجه من الدقة والإحكام.

وفي ذلك ما فيه من الإنذار والتخويف، وإقامة الحجة كما لا يخفى.

التفسير الإجمالي:

يبين الله تبارك وتعالى في هذا المقطع، حكمة خلق السموات والأرض وما بينهما، وما أودع فيهما من العجائب والغرائب، على نظام جاء غاية في الإتقان والإحكام، وأن ذلك ما جاء عبثا، ولا لهوا ولعبا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ [الحجر: ٨٥].

إنه خلق ذلك ليتفكر فيه المتفكرون، فيعرفون الخالق العظيم ويخشونه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٧، نظم الدرر ١٢/ ٣٩٧.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٩.

(٣) انظر التفسير الكبير٢٢/ ١٦١، والتفسير المنير ١٧/ ٤٣-٤٤.

فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وبين جل وعلا أنه يتعالى عن اللهو واللعب، وأنه لو أراده لاتخذه من أحسن خلقه[١]، وفي أشرف الأماكن التي خلقها، وهي السموات التي لم يعص فيها قط، وجاء في التفسير: أن المراد بذلك الزوجة والولد، كقوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤].

ثم أضرب تعالى عن اتخاذ اللهو واللعب، منزها ذاته عن ذلك، قال الرازي رحمه الله تعالى: كأنه قال، سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا، وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه[٢]، أي: كسره، فمعنى (يدمغه): يصيب دماغه، وذلك مهلك في البشر، فكذلك الحق يهلك الباطل[٣]، وهذا تشبيه جاء على غاية الجمال والإبداع.

وبعد أن نزه جل وعلا نفسه عن اللهو واللعب، أردفه بقوله:﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فكلهم خلقه وعبيده، فكيف يكون له شريك أو تكون له صاحبة وولد، وهو الغني الذي ليس بحاجة إلى شيء؟!! قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ

---

(١) اختلف في ﴿إِن ﴾ من قوله تعالى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ على قولين: الأول أنها للنفي، أي: ما كنا فاعلين، والثاني أنها للشرط، أي: إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، قال الفراء: وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية. انظر فتح القدير ٣/ ٤٠١.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٨.

(٣) انظر المحرر الوجيز١٠/ ١٣٣.

ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٩٢-٩٥].

وأما ملائكته الذين خلقهم من نور العزة، وفطرهم على السمع والطاعة، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، فإنهم على عبادة مستمرة لا تنقطع ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، لقد أعطاهم ربهم القدرة على ذلك فهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي: لا يتعبون ولا يعيون.

ثم تهكم بالمشركين بسؤال الاستنكار فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، إذ من شأن الإله أن يكون قادرا على الإعادة قدرته على الإنشاء، وآلهتهم عاجزة عن هذا وذاك، إنها جمادات لا تنشر الأموات من الأرض، فكيف صح أن يعبدوها من دون الإله الحق المبدئ المعيد سبحانه وتعالى، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته جل في علاه؟!!

فمن الأدلة العقلية، هذا الدليل الساطع، المسمى «برهان التمانع»، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، إن وجود إلهين في الكون محال، فلو قدرنا ذلك، فدعا عبد ـ مثلا ـ أن يرزق ولدا، فلا يخلو أن يتفقا على إعطائه الولد، أو يختلفا، أو يقدر أحدهما ويعجز الآخر، فإن اتفقا أفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال ـ كما يقول الرازي ـ، لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع، فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا، فيلزم استغناؤه عنهما جميعا، واحتياجه إليهما معا، وذلك محال، وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد[1].

وإن اختلفا ـ وهذا هو المفروض ـ، كان الفساد بينا، قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

(١) السابق ٢٢/ ١٥١.

﴿٩١﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وإن قدر أحدهما وعجز الآخر، فالأمر بين في أن العاجز ليس بإله، إذ العجز ينافي الألوهية.

وهذا سر ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: فسبحوه سبحانه اللائق به، ونزهوه عما يفترون، وفيه تعجيب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش غيره ممن لا يقدر على شيء البتة[١] !!

وقد أشار أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى إلى أنه لا أبين من قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ في برهان التوحيد، وقال: فلا مزيد على بيان القرآن[٢].

ثم جاءت الآيات الكريمة تقرر وحدانية الله تعالى بالدليل النقلي، وهو رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾، إنها دعوة واحدة، وهذا محور السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

إنها دعوة واحدة، القرآن الذي معي، والكتب السماوية التي مع من سبقني، لا تجدون في شيء منها، دعوة إلى الشرك، فمن أين جاء الشرك إذن؟ وأين برهانكم على ما تزعمون؟

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ﴾، وتكرير هذه الصيغة، تأكيد حدوث الشرك، وأنه أمر مفتعل حادث طارئ، لم يكن مصاحبا للوجود البشري على الأرض، فالتوحيد هو الأصل

---

(١) انظر محاسن التأويل ١١/ ٢٤٥، وقوله: (فسبحوه سبحانه اللائق به): سبحان مصدر سبح، أي سبحوه تسبيحا يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ٨٥.

الثابت الذي يتفق مع صفاء الفطرة الإنسانية، والشرك دخيل طارئ[1]، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران: ٧٩].

وإذا ثبتت وحدانية الله تعالى، بان سخف مقولات مشركي العرب بإثبات بنوة الملائكة لله جل وعلا، إنهم ليسوا بنات الله، بل هم عباد مكرمون، لهم صفات جليلة في الأدب والعبادة، فهم مفطورون على التعظيم والطاعة، لا يقترحون على الله شيئا، لمعرفتهم بجلاله وعظمته، ولا يناقشونه في شيء سبحانه وتعالى، ولا يتدخلون في الشفاعة لأحد، إلا لمن ارتضاه، وهم على طهارتهم وقربهم وعصمتهم خائفون، مشفقون من خشية الله، إنهم عليهم السلام راعوا أدب العبودية في الأقوال والأفعال.

ومع ما لهم من صفات كريمة، وآداب رفيعة، لو أنهم ادعوا ـ جدلا ـ، الألوهية لكان مصيرهم مصير الظالمين جهنم وبئس المصير، وفيه تهديد لكفار قريش في ادعاء الألوهية لأصنامهم.

ثم لفت أنظار من كفر به بهذا الاستفهام الإنكاري إلى دلائل قدرته التي تفرد بها فيما أبدع من خلقه فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ الآية، فما عليهم إلا أن يجولوا ببصائرهم في ملكوت الله، ويتأملوا في هذا الكون الفسيح، ويتدبروا الأدلة المتعددة التي عرضتها الآيات الكريمة التي ترشد المتبصر اليقظ إلى وجود الله تعالى ووحدانيته.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن القرآن الكريم لم يكن دائرة معارف تفصيلية، وليس هو كتاب نظريات علمية، قابلة للتبدل والتغير، إنما هو كتاب هداية يقوم على حقائق علمية راسخة، لا يطرأ عليها التغيير والتبديل.

وأولى هذه الدلائل: توجيه النظر إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة، ملتصقتين،

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص٣٠.

ثم فصلهما الله تعالى بقدرته القاهرة فصارتا على ما هي عليه الآن، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث في زماننا(١) فكان معجزة لكتاب الله تعالى، الذي أخبر عن ذلك قبل أكثر من أربعمائة عام، من شأنها أن تحمل الكافرين على الإيمان، وهذا سر توجيه الخطاب إليهم، أما المؤمنون فليسوا بحاجة إلى ما يكشفه العلم لأنهم قد استمدوا الاعتقاد بصدق القرآن المطلق في كل ما يقرره من إيمانهم بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له(٢).

وهذا لا يعارض تفسير ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حيث قال: فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات(٣)، كما هو ظاهر.

---

(١) وهي ما تسمى نظرية «لابلاس» أو نظرية «السديم» عند علماء الفلك، الذي يثبتون أن الشمس والكواكب والأرض كانت قطعة واحدة، وأن الشمس كانت كرة نارية، وفي أثناء سيرها السريع انفصلت عنها أرضنا والكواكب السيارة الأخرى، وهي تسعة مرتبة حسب قربها من الشمس: عطارد والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون، وبلوتوه، ولكل منها مدار حسب تأثير الجاذبية، وهي تجري في الفلك، وهي تسعة أفلاك دون السموات المطبقة التي يعيش فيها الملائكة، والفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء، أو هو مجراها وسرعة سيرها. انظر التفسير المنير ١٧/ ٤٤، ونحو تفسير موضوعي ص٢٥٣، آيات الخالق الكونية ص ١٠٤.

ويعد «لابلاس» من شيوخ الرياضيين والفلكيين، ومن أكابر الحكماء، وقد أدت نظريته هذه إلى اعترافه مع كثير من الغربيين ـ وخاصة علماء الطبيعة والفلك منهم ـ بوجود خالق عظيم قدير مُنظِّم، على جانب عظيم من العلم والحكمة. انظر آيات الخالق الكونية ص١٠٤ فما بعدها ـ الموازنة في المجموعة الشمسية.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت طلحة واه (٢/ ٤١٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات والفريابي وعبد بن حميد كما في فتح القدير ٣/ ٤٠٦، وذكره ابن عطية ١٠/ ١٤١ دون أن ينسبه إلى ابن عباس مستشهدا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ ﴾ الطارق، وقال: وهذا قول حسن، يجمع العبرة وتعديد النعمة، والحجة بمحسوس بين، ويناسب قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾، أي من الماء الذي أوجد الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار.

وثانيها: تقرير أن الماء أصل الحياة، وأن كل ما فيه حياة فهو من ماء، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥]، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شئ، قال: (كل شيء خلق من ماء) الحديث[١] .

بل قال بعض المفسرين: يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار ناميا، وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، قال الرازي: وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا[٢].

فأين الكفرة عن تدبر هذه الآيات الكونية، التي ما تدبرها عاقل إلا قادته إلى الإيمان؟ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وثالثها: توازن الأرض وعدم اضطرابها، بما تشاهدونه من جبال شامخات، لولاها لاضطربت بكم الأرض وما استقرت، وما أمكن العيش عليها بالصورة التي هي عليها الآن.

وللجبال فائدة أخرى وهي حفظ النيران المشتعلة في باطن الأرض، من الظهور على سطحها بالبراكين والزلازل، وإذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطرابا شديدا، وتخرج نيرانها الملتهبة من باطنها، وتطغى على سطحها فتهلك الحرث والنسل، وهذه معجزة في الآية، ما كان

---

(١) أخرجه أحمد في مواضع من المسند انظر رقم ٨٢٧٨ (٢/ ٣٣٣) وتمامه: قال قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة، قال: (أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام)، قال ابن كثير ٣/ ٢٨٤: وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له، وقد رواه سعيد بن عروبة عن قتادة مرسلا والله أعلم.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٦٤.

محمد ـ ﷺ ـ ولا قومه، ولا الأمم المعاصرون لهم، يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية، التي أيد صحتها تقدم العلوم، والمكتشفات الحديثة[١].

ورابعها: الفجاج في الجبال، وهي الفجوات بين حواجزها العالية، التي جعلها الله تعالى طرقا واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منة أخرى، وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله[٢].

وخامسها: إتقان السموات وحفظها، والسماء كل ما علا، ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف، والقرآن يقرر: أن السماء سقف محفوظ، محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق، ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزا للعلو الذي تتنزل منه آيات الله[٣]، ومحفوظ من السقوط على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٦٥]، ومن تأمل ذلك أدرك أن للكون خالقا مبدعا، فلا يليق بالعاقل أن يعرض عن التدبر والتأمل، وهذا سر ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾، فعلة الكفر هي: الإعراض عن التأمل والغفلة عما في هذا الكون من آيات.

وسادسها: سير الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، في نظام كوني دقيق جاء على غاية الإتقان والإحكام، فهي تجري بقدرة بارئها لا يختلط بعضها ببعض، في سرعة فائقة من غير ارتطام واصطدام.

ومن رحمته بعباده تنويع الحياة إلى ليل ونهار، وظلام وضياء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر: ٦١]، ولا ريب أن التأمل في تعاقب الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب السيارة في هذا الكون الرحيب، دون أن يكون هناك

(١) انظر قبس من نور القرآن ص٣٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٦٧.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٧.

خلل أو اضطراب، مع تعاقب القرون الطوال، كفيل بأن يهدي القلب إلى المبدع العظيم سبحانه وتعالى.

وهكذا جاءت هذه الآيات والشواهد الكونية التي بثها الله تعالى في كونه العظيم، دلائل بينة للمتبصرين اليقظين تهديهم إلى وحدة المبدع العظيم، وتمنحهم معرفته وخشيته جل في علاه، ومن حكم الشعر:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــه　　　أم كيف يجحده الجاحـــــد
ولله في كل تحريكـــــــة　　　وتسكينـــةٍ أبـــداً شاهـــد
وفي كـــل شـــيء لـه آيـــةٌ　　　تـــدل على أنـــه واحـــــد[1]

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* أفعال الله تعالى منزهة عن العبث واللهو واللعب، فما خلق السموات والأرض وما بينهما من شيء إلا لحكمة.

* من نسب إلى الله تعالى الزوجة أو الولد فقد ضل ضلالا بعيدا، وقد ضلت اليهود بقولهم ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾، وضلت النصارى بقولهم ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وضل المشركون بقولهم الملائكة بنات الله، كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل: ٥٧]، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

---

(١) انظر الأغاني ٤/ ٣٩، تاريخ دمشق ١٣/ ٤٥٣، المستطرف ١/ ١٦.

* في بيان عظمة الله تعالى في خلق السموات والأرض وما بينهما، تنبيه إلى ضرورة عبادته. وتحذير من الإشراك به أحدا من خلقه، وفيه ـ أيضا ـ دعوة إلى التأسي بملائكته في طاعته وتذكير بغناه عن عبادة خلقه، وأن نفع طاعتهم عائد إليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨].

* إن للحق صولة، وللباطل جولة، وإن صولة الحق تهلك جولة الباطل، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الرعد: ١٧].

* توعد الله تعالى الظالمين بالهلاك والدمار، ومن الظلم أن ينسب إلى الله الولد والصاحبة.

* العقل السليم يرفض أن يكون لله شريك أو صاحبة أو ولد، وكيف يسلم العقل بذلك، والخلق كلهم ملك الله وعبيده؟ ومنهم ملائكته الذين لا يفترون عن عبادته ولا يعصونه طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

* الإحياء والإماتة من صفات الألوهية، والصنم المصنوع من الأرض غير قادر على شيء من ذلك، فكيف يتخذ إلها ؟

* العقل الذي منحه الله تعالى الإنسان كفيل بإثبات وجود الله تعالى والإقرار بوحدانيته، ولذا فلا عذر للمشركين والوثنيين، ولا للملاحدة من الشيوعيين والطبائعيين، وغيرهم فيما ذهبوا إليه من الشرك، أو نفي الإله جل في علاه.

* ذكر الله تعالى من التسبيح والتهليل ونحوهما يعطي القلب طمأنينة وسكينة، ويمنحه قوة ثبات على الحق، قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وهو بعد العلم والمعرفة أكثر وقعا في القلوب ونفعا، ولذا أمر الله تعالى به بعد قيام الدليل العقلي القاطع على وحدانيته سبحانه وتعالى.

* الاعتراض على تصرفات المالك القاهر الحكيم في ملكه لا يتجه، والتسليم المطلق له لازم فلا يقال: لم فعل الله كذا؟ ولم ترك كذا؟ فإن بانت الحكمة في الفعل والترك فالحمد لله، وإلا

فليتهم العبد نفسه بالقصور، وليجتهد في البحث عنها فقد يفتح الله عليه ويصل إليها.

* كل دعوى لا برهان عليها باطلة، ومن حكم الشعر:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤهـا أدعيـاء[1]

وبطلان الشرك ظاهر، لا يستطيع أحد إثباته، إذ لا يدل عليه دليل عقلي ولا نقلي.

* طلب العلم فريضة، والجهل داء خطير، قاد الكثيرين إلى الإعراض عن الهدى، وعدم الإذعان للحق.

* أساس دعوة رسل الله جميعا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ توحيد الله تعالى وعبادته، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك، ومحور سورة الأنبياء يقوم على هذا.

* الأدب مع الله تعالى مقام رفيع، وقد تجلى في أقوال الملائكة وأفعالهم، فينبغي التأسي بهم في ذلك.

* من عظيم رحمة الله بعباده، ومزيد فضله عليهم، الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم الموحدون كما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ أي لمن قال: لا إله إلا الله، وقال الرازي:

واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر[2]، يؤيده حديث جابر رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا قوله تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾، قال: (إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[3].

* منازعة الله تعالى في ألوهيته وكبريائه، مآلها القصم والخلود في جهنم، لأنها ظلم، وذلك

---

(١) انظر خلاصة الأثر ١/ ٣٧٨ و ٣/ ٢٨٤.

(٢) انظر التفسير الكبير، وتقريره لذلك ٢٢/ ١٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي برقم ٢٤٣٥ وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه ٤/ ٦٢٥، وأبو داود برقم ٤٧٣٩ دون ذكر الآية ٤/ ٢٢٦، والحاكم ـ واللفظ له ـ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ـ كتاب التفسير (٢/ ٣٨٢)، والبيهقي في البعث كما في فتح القدير ٣/ ٤٠٦.

جزاء الظالمين.

* لله الحجة البالغة، فقد أودع في كونه من الآيات ما يدل على وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى، ومنح الإنسان عقلا ـ إن أحسن استعماله ـ هداه إلى ذلك، وحث جل وعلا على النظر والتأمل فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فما وجه الكفر بعد هذا؟!!

* القرآن معجزة عظمى، تضم معجزات كثيرة، وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إشارة إلى أن الكافرين سيكتشفون هذه الحقائق ويبرهنون عليها[1]، وقد حصل هذا في زماننا، فكأن الآية تتنزل اليوم تخاطب أهل هذا الزمان.

* إنّ تعدد معاني الرتق والفتق في الآية الكريمة، يعدّ معجزة من معجزات القرآن العلمية، حيث قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس، وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم[2].

* من تحاليل الكائنات الحية، اتضح أن الماء يكون ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من وزنها، فهو لذلك عنصر أساسي في الكائن الحي، ويقرر العلم الحديث: أن جميع المواد الغذائية اللازمة للأحياء على اختلاف أنواعها ناتجة أصلا من النبات، وهذه المواد الغذائية تكونت في النبات من اتحاد كيماوي حيوي بين الماء وثاني أكسيد الكربون. وقد دلت آخر الأبحاث التي تمت بالاستعانة بالعناصر المشعة، أن الأكسجين الذي يدخل في تكوين اللبنة الأولى من المواد الغذائية، وما يترتب عليها من المواد الأخرى التي يتغذى عليها الكائن الحي فتسبب حياته، مصدره الماء وحده، برغم أن الأكسجين الموجود في ثاني أكسيد الكربون ضعف الموجود في الماء، وهذا ما يطابق الآية الكريمة التي نزلت قبل عصر الذرة، والعناصر

(١) انظر الأساس في التفسير ٧/ ٣٤٥٤.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥٦.

المشعة بعشرات المئات من السنين[(١)]

* تتناول الهداية في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ معنيين، أحدهما حسي، وهو سيرهم في الأرض بين الجبال بما جعل الله فيها من فجوات، فيسلكون فيها طرقا من بلد إلى بلد، وثانيهما معنوي يرتبط بالعقيدة، فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال[(٢)].

* التأمل مفتاح المعرفة وطريق الإيمان، وكثرة الآيات لا تجدي نفعا، مع الغفلة والإعراض قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

* الليل والنهار من أجل النعم، لأنهما هما الزمن، الذي هو نعمة كبرى، بل من أجل أصول النعم، قال تعالى مؤكدا هذه المنة العليا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢]، والآيات في هذا كثيرة[(٣)].

* القرآن يحث على التأمل في أسرار الكون، والانتفاع بما أودع الله تعالى فيه، وقد غفل المسلمون في عصرهم المتأخر عن هذا، بينما خاض فيه غيرهم، فملكوا ناصية العلم، ومن ثم تحكموا في شؤون العالم كما نسمع ونرى !! قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: عندما كان سير جينز (جيمس) يقرأ معلوماته عن الفلك على بعض المسلمين ويرتعش من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدث عن الله وعن الإيمان وعظمته لما رأى من عظمة المجرات التي درسها، كان أقرب إلى الإسلام من كثير منا عندما درس السماء، أما نحن

---

(١) انظر «الله والعلم الحديث» ص ٢٤٨-٢٤٩ باختصار.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٧.

(٣) انظر قيمة الزمن عند العلماء ص١٧-١٨.

فنكتفي من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: ١٦]، بأن الله لفتنا إلى أن هناك علامات في الأرض والسماء، ولكن ما هي؟ وماذا صنعنا مع هذه العلامات؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هذا الموضوع؟[1].

* من دلائل القدرة: دقة حركة الأفلاك وجريانها بهذه السرعة الرهيبة، وبهذا الاطراد المستمر، دون خلل أو توقف أو اصطدام، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

* في هذه الآيات دلالة على المعاد، وأن الله تعالى سيعيد الخلق كما بدأه، فإن القادر على إنشاء هذا الكون العظيم وحفظه وتدبيره، لقادر سبحانه وتعالى على أن يخلق الخلق بعد انعدامه، قال تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٩٩][2] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يقرر هذا المقطع بالدلائل العقلية والنقلية وجود الله تعالى ووحدانيته، بما لا يدع مجالا لجاحد أو متشكك، وبذلك قامت حجة الله تعالى على جميع خلقه، فلم يكن جحود من جحد من الناس بعد هذا إلا لون من ألوان الكبر والعناد.

ويمكن أن نعد هذا المقطع عنصرا أساسيا في تشكيل محور السورة الكريمة، وأنه العمود الفقري لها.

---

(١) انظر كيف نتعامل مع القرآن ص٥٨و٥٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥٥.

المقطع الرابع: المصير المحتوم، وعناية الله بخلقه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء: ٣٤-٤٧].

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر ربنا تبارك وتعالى أنه حق، وأقام الأدلة العقلية والنقلية على وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته، أردف ذلك بأن الموت حق كذلك، وأنه ضربة لازب على كل مخلوق، وأن لقاء الإله الحق لا مناص منه، وفي ذلك تنبيه للعباد للاستعداد ليوم المعاد، وتحذير من مخالفة الرسل الذين جاؤوا بذلك.

وبين سبحانه وتعالى أن الكفرة عاجزون عن كف النار عن وجوههم وظهورهم يوم القيامة، وأنهم في الدنيا كذلك عاجزون عن دفع العذاب عن أنفسهم لولا حفظ الله تعالى لهم، وأن الإعراض عن التأمل ديدنهم، وهو سبب كفرهم وضلالهم ولحوق العذاب بهم.

التفسير الإجمالي:

يبين ربنا تبارك وتعالى في هذا المقطع الكريم، أنه كتب الموت على الخلائق كلها، سنة إلهية لا تتخلف، شاملة للأنبياء والرسل بما فيهم محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، دل على هذا لفظ ﴿كُلُّ ﴾ المضاف إلى نكرة وهي كلمة ﴿ نَفْسٍ ﴾، نظيرها قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، فلا معنى لتمني المشركين موته ﷺ، فإنهم سيذوقون ذلك كما تذوقه كل نفس.

تمنى أناس أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فما عيش من يبغي خلافي بضائري ... وما موت من يمضي أمامي بمخلدي

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيا لأخرى مثلها فكأن قد[1]

غير أن هذا الموت ليس هو النهاية، بل تعقبه حياة وأي حياة، إنها حياة الآخرة، حياة الحساب والجزاء على ما كان في الحياة الأولى من نتائج التكليف بالابتلاء بالشر وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين، وبالخير وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات[2].

وقد فشل الكفار بالاختبار، فسلكوا مع النبي ـ ﷺ ـ مسلك السخرية والاستهزاء، بما كشف عن حمقهم وسفههم وجهالتهم، حيث استنكروا أن يعيب النبي ﷺ آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، وكفروا بالرحمن الحقيق بالذكر والثناء والتمجيد!! ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

(١) قال ابن كثير ٣/ ٢٨٦: وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين، وانظر النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، والمنتظم ١٠/ ٢٨١.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٦٩.

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن حماقتهم وغفلتهم استعجالهم العذاب، وهم وإن فطروا على العجلة ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[١] إلا أنه كان عليهم أن يلزموا أنفسهم بالتأني، فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان من عجل أعطاه القدرة على ضبط نفسه، وذلك حين يتصل بالله خالقه فيثبت ويطمئن، ويكل الأمر له فلا يتعجل قضاءه، والإيمان ثقة وصبر واطمئنان، لكن هؤلاء المشركين كانوا يستعجلون العذاب[٢].

وكما استعجلوا وقوع العذاب، استبعدوا وقوعه، فهم يقولون للنبي ﷺ وللمؤمنين مستهزئين: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾، فرد الله تعالى عليهم مبينا حماقتهم بأن لو علموا شيئا من أحوال النار وأهوالها، لما استعجلوا ذلك، فقال تعالى معرضا لونا من ألوان عذاب الآخرة الذي سيصيبهم: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، فحذف جواب لو ليذهب الذهن في تصوره كل مذهب، إنها النار التي لا تأتيهم إلا فجأة، فإذا هم في حيرة، ليس لهم حيلة في النجاة منها، ولا يقدرون على ردها عنهم بالكلية، ولا يمهلون ليستريحوا طرفة عين[٣].

ونظير هذه الآية في إحاطة العذاب بهم من جميع الجهات، قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ

---

(١) يرى ابن عاشور رحمه الله تعالى أن هذا الاستعجال صادر من المؤمنين، وذلك أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ يهيج حنق المسلمين عليهم فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث، وان لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين.. إلخ انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٦٧، ولعل ما عليه أكثر المفسرين ـ وهو الذي اخترناه ـ أولى لمناسبته للسياق كما لا يخفى، والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٩.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٦٨.

﴿ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ٤١]، في آيات أخر بهذا المعنى دائرة في الكتاب العزيز.

ثم سلى نبيه ﷺ ـ كما هي عادة القرآن ـ بأن حماقة الكفار واستهزاءهم لا تضره شيئا، كما لم تضر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٥]، فلقد أحاط بالمستهزئين عقوبة استهزائهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم يأمر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ بأن يقول ـ على سبيل التقريع والتوبيخ[1] ـ لأولئك الغافلين المعرضين عن ذكر ربهم مع توافر الأدلة النقلية والعقلية: من يحفظكم ويحرسكم في ليلكم ونهاركم من عذاب الله وبأسه إن جاءكم؟ ولقد وقع اسم الرحمن موقعا حسنا في السياق الكريم، إذ فيه إشارة إلى أن هذا الحفظ لهم مع ما هم عليه من الكفر والإعراض إنما هو من رحمة الله تعالى وفضله، ونظير هذا آيات كثيرات منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٧].

ومن عجيب أمرهم أن يتعلقوا بآلهة غير قادرة على حفظهم، بل هي أعجز منهم، فهم غير متمكنين من نصر أنفسهم وحمايتها، لأنه لا يصحبهم نصر من الله تعالى، فكيف ينصرون

---

(١) قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضواء البيان٤/ ٥٧٨: وهو عندي يحتمل الإنكار والتقرير، فوجه كونه إنكاريا أن المعنى: لا كالئ لكم يحفظكم من عذاب الله البتة إلا الله تعالى، أي فكيف تعبدون غيره؟ ووجه كونه تقريريا أنهم إذا قيل لهم: من يكلؤكم؟ اضطروا إلى أن يقروا بأن الذي يكلؤهم هو الله، لأنهم يعلمون أنه لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا يدعون معه غيره.

غيرهم؟ وكما قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه[(١)]!! ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]، ثم تكشف الآيات عن سبب غرورهم الذي جرأهم على الاستهزاء، وهو طول العمر ومتع الحياة، من سعة الرزق ورغد العيش، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

ولو تأمل العاقل في تقلبات الزمن وتغير الأحوال، لكانت له من ذلك عظة وعبرة، ولذا فقد دعت الآيات الكريمة إلى هذا التأمل، ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون[(٢)]، وقد حصل هذا في عهود الإسلام الزاهرة، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، واتسعت رقعة الإسلام ونقصت أراضي الكفر، وما يجري لأمة الإسلام اليوم عرض زائل، وستعود قوة المسلمين وعزتهم عن قريب بإذن الله، ويسعد الناس يومئذ بظل الإسلام كما سعدوا به من قبل.

وتبين الآيات الكريمة مهمة النبي ﷺ وهي الإنذار بالقرآن، فهو المبلغ عن ربه، فمن لم يجب دعوته فلا يضر إلا نفسه، إنهم عمي البصيرة، مثلهم مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا أصلا، ولا ينتفعون بنصح وتذكير، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١].

ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به،

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص ٥٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٨.

فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون، حين لا ينتفعون، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ الآية[1].

ويختم المقطع الكريم بالحديث عن الآخرة وأنها دار العدل، كما قال تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧]، في الآخرة تنصب موازين العدل، فلا يترك شيء دون حساب، وإن كان حبة من خردل وهي أصغر ما تراه العيون، وأخفه في الميزان، قال سيد قطب رحمه الله تعالى: فلتنظر نفس ما قدمت لغد، وليصغ قلب إلى النذير، وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه، فلا تظلم نفس شيئا، ولا يهمل مثقال حبة من خردل.

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة، بنواميس الكون الدقيقة، بسنن الدعوات، وطبائع الحياة والناس، وتلتقي كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة، مما يشهد لقضية التوحيد وهي محور السورة الأصيل[2].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الموت حقيقة لا يتنازع فيها عاقلان، وقد احتج به ربنا تبارك وتعالى على الكفار لأنهم لا يستطيعون إنكاره.
* ما من عام إلا وخص، ومنه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾، فإنه تعالى نفس، لقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، مع أن الموت لا يجوز عليه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الأشياء[3]، وما أشبهها كما قيل فيمن يسكن الجنة

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٦.
(٢) انظر في ظلال القرآن ١٧/ ٢٣٨٢.
(٣) انظر التفسير المنير ١٧/ ٥٩.

الآن كالحور العين ونحوهم.

* أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مخلوقون لله، وهم من جملة عباده الذين يصيبهم ما أصابهم من الموت وغيره، إلا أنهم أكرم خلقه عليه، فلم يسلمهم لأعدائهم بل تكفل بنصرهم وتأييدهم.

* الابتلاء بالخير أشد وطأة من الابتلاء بالشر، وإن خيل للناس أنه دونه، ذاك لأن الابتلاء بالشر من المرض والضعف والفقر والحرمان مفهوم أمره، وإن كثيرين يصمدون له ويصبرون عليه، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير من الصحة والقدرة والثراء والمتاع، وما تثير من شهوات وأطماع، فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان[1].

* في ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ، على هذه الصورة التي دلت على سفههم وحماقتهم تذكير للدعاة من بعده للتأسي به ﷺ في صبره وثباته، وعدم اكتراثه بحماقاتهم وضلالهم.

* قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى ﴾، أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[2].

* خص الوجوه والظهور بمس العذاب، لأن تأثرها به أعظم موقعا، ولكثرة ما يستعمل

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٧، وقارن بما نقلناه عن ابن عاشور قبل قليل (ص٣٢)، مع أن ابن كثير يرى أن الآية في المشركين حيث قال بعدها: يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم.. إلخ.

ذكرهما في دفع المضرة عن النفس(١).

* في قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ تذكير لإمهالهم في الدنيا(٢) وفي ذلك من التنبيه وأخذ العظة والعبرة ما فيه.

* الإعراض عن الذكر وترك التأمل ديدن كفار قريش بسبب تصورهم الفاسد عن موضوع الرسالة والرسول ﷺ، فنلاحظ أن هذه هي المرة الثالثة التي تكررت فيها كلمة الإعراض فهم معرضون عن السماع، ومعرضون عن التدبر، ومعرضون عن الإجابة على السؤال المذكر لهم بالله، وقد رد الله تعالى عليهم ذلك كله، بلغة التذكير، فالسورة نموذج على كون هذا القرآن ذكرا(٣).

* حري بمن يستشعر الحاجة إلى النصر والمدد ـ في كبير الأمور وصغيرها ـ أن يطلبه ممن يستطيع تحقيقه، وأن يخلص العبادة له، والآلهة المزعومة عاجزة عن نصر أنفسها، فكيف تنصر غيرها؟ ولذا فإن الله تعالى يرشد عباده أن يتوكلوا عليه لا على غيره فيقول: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ويذكر أن أولئك المشركين لا يفزعون في الشدة إلا إليه، ولكنهم بعد ذلك ينكثون، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

* إن متع الحياة ورغد العيش وتوالي النعم، وحلم الله تعالى وإمهاله وعدم تعجيل العقوبة،

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٣.
(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٦٨.
(٣) انظر الأساس ٧/ ٣٤٦٥.

سبب في اغترار أولئك المشركين وتماديهم، والترف يفسد القلب، ويبلّد الحس، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها، ويصلها دائما بالله، فلا تنساه[1].

* رجح الشنقيطي رحمه الله تعالى[2]: أن معنى ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أي ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام، مستدلا بأن القرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله تعالى: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾، والاستفهام لإنكار غلبتهم، قال: ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ الرعد، وهذا المعنى الذي ذكره الله هنا ذكره في آخر سورة الرعد: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١].

أقول: هذا وعد الله تعالى، وقد حققه لرسوله ﷺ ولمن سار على نهجه من صحابة وتابعين، وما نشاهده اليوم من الواقع المرير الذي تعيشه أمة الإسلام، فسببه بين وهو البعد عن ذلك النهج المنير، وما هذا الواقع إلا عرض سيزول، وسيتحقق وعد الله مرة أخرى، يوم يعود المسلمون إلى أيام أسلافهم، وإنهم بإذن الله لعائدون.

* إن الختم على السمع أخطر وأضر على صاحبه من صمم الأذن، وأنى لمن هذه حالته أن ينتفع بالإنذار والتخويف؟! وذكر الصمم هنا جاء مناسبا للوحي الذي هو من المسموعات، والمراد بنفي السماع نفي جدواه[3].

* الاعتراف بالذنب والإقرار بالخطيئة والندم على التفريط، إنما ينفع ما دام المرء في عالم الغيب، أي: ما دام في هذه الحياة، أما إذا دخل عالم الشهادة فلا ينفع ندم ولا اعتراف، إذ

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨١.

(٢) انظر أضواء البيان ٤/ ٥٨٢.

(٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣١٥.

الجميع حينئذ سيعترفون إذا مسهم أدنى شيء من عذاب الله.

* جمهور العلماء على أن ثمة ميزانا توزن به الأعمال، وقال بعضهم: ذلك على سبيل التمثيل عن المبالغة في العدل التام، وهو قول الضحاك وقتادة قالا: ليس ثم ميزان، ولكنه العدل والقسط مصدر وصفت به الموازين مبالغة(١).

* ذكر العلماء نبات الخردل وما فيه من منافع كثيرة، و فوائد كبيرة، وهو مستخدم في الطب القديم والحديث، كما ذكروا غاز الخردل وما فيه من أضرار فادحة، وغازات متفجرة، ولدى التأمل في المصطلح القرآني لنبات الخردل يرد سؤال مهم ـ كما يقول صاحب كتاب الهندسة الكيمائية ـ وهو: لماذا هذا الاختيار دون غيره؟ أهو تنبيه لاستخدام المتضادات كما هو شأن القرآن الكريم في تبيان قدرة الله تعالى على ضرب المثل بالأضداد، كاستخدام الماء من مركبين حارقين، وكوجود الشحنات النارية في السحب المحملة بالمياه وغير ذلك؟ أم هو تنبيه لمستخدميه بشكله الطبي المعالج، وكذلك بشكله الصناعي القاتل؟ بأن الله تعالى قد وضع الموازين القسط في كل شيء حتى في هذا النبات الصغير والغاز الحقير، فمن يستخدمه للخير يأخذ نصيبه، ومن يستخدمه للشر ينال وزر من قتلهم ظلما وعدوانا، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾(٢) [الزلزلة: ٧-٨].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

الملاحظ أن في هذا المقطع الكريم تقريرا لإثبات الحياة الآخرة، وما سيلاقيه الناس من مصيرهم المحتوم الذي لا مفر منه لمخلوق، وذلك بإثبات الموت والبعث والجزاء، وهو المحور الرئيس الذي تدور عليه السورة الكريمة.

---

(١) السابق ٦/ ٣١٦.

(٢) انظر كتاب الهندسة الكيميائية وهندسة النفط للدكتور خالد العبيدي ص ٢٦-٣١ فقرة «كيمياء الخردل».

المقطع الخامس: القصص التفصيلي في دعوة الأنبياء إلى التوحيد

مناسبة المقطع لسابقه:

لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾، أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله، وورود قصص الأنبياء بعد دلائل التوحيد والنبوة والمعاد تسلية للنبي ﷺ فيما يناله من قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها، وابتدئ بقصة موسى وهارون عليهما السلام مع قومهما، لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفه العرب، ولأن أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمة يلي عظمة شريعة الإسلام[1]، فكان الإيماء إلى التوراة تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم[2]، ثم تتابعت القصص: قصة إبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، ويحيى، ومريم، وابنها عيسى -عليهم الصلاة والسلام-، وعلاقة قصص الأنبياء بمحور السورة وثيقة كما هو ظاهر.

ولنقسم آي هذا المقطع من القصص إلى مجموعات على النحو الآتي:

المجموعة الأولى: قصة موسى وهارون عليهما السلام، وعلاقة التوارة بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

التفسير الإجمالي:

بهذا القسم المؤكد افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع، بأنه أعطى موسى وهارون عليهما السلام، كتابا مشتملا على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٨، والتحرير والتنوير ١٧/ ٨٨.

(٢) انظر نحو تفسير موضوعي ص٢٥٥.

والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نورا في القلوب، وهداية وخوفا وإنابة وخشية، وتذكيرا وعظة للمتقين[١]، الذين يخافون ربهم في السر، لا رياء ولا سمعة، ويخافون يوم القيامة وما فيه من عذاب وأهوال، فجعلوا بينهم وبين ذلك وقاية، بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

ولما كان ربنا كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، قرن بينهما هنا، فقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فالكتابان من أعظم كتب الله تعالى في إبراز التوحيد وتقريره، ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور[٢] ؟! فهو إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة[٣].

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* تقدم ذكر الرسل ودعوتهم إلى التوحيد، وما لاقوه من قومهم من السخرية والاستهزاء بطريق الإجمال، وهذا شروع في التفصيل بذكر عدد منهم، وفي ذلك تسلية للنبي -ﷺ-، وتثبيت لفؤاده، وتعليم للأمة بأن الديانات السماوية تشترك في أصول الدين والأخلاق وأن الاستهزاء بهم سنة ماضية، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ ﴾ [الذاريات: ٥٢].
* التقوى جماع كل خير، وهي سبيل النجاة عند كل قوم، وقد خص الله المتقين بالذكر في التوراة تشريفا لهم كما خصهم في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ٢]، لأنهم هم المنتفعون بما فيهما من أنوار وأسرار.
* لفظ ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ باعتباره وصفا للكتاب العزيز، من الألفاظ الدائرة فيه، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٠.

(٢) انظر السابق.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٧٢.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام:٩٢] وقال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩]، وهي كلمة جامعة تعني: أنه كثير المنافع والفوائد[1]، فبركته شاملة لكل من تعلق به حفظا وتلاوة وفهما وعملا، قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: (وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم [2]، أي: التفسير.

أقول: وقد حصلت بركته على أمة الإسلام إبان عهودها الزاهرة، يوم كانت تتخذ من هذا الكتاب منهجا لها في جميع نواحي الحياة، العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، فما أحوجها اليوم وقد تردت حالها في هذه النواحي جميعها إلى الارتباط بكتاب ربها ارتباط أسلافها، لتشهد بركته في أيامها الحالكة هذه كما شهدتها من قبل !!

(١) انظر مدارك التنزيل ٢/ ٢٣.

(٢) انظر التفسير الكبير ١٣/ ٨٥.

المجموعة الثانية: قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].

التفسير الإجمالي:

أولا: الحوار العقلي:

بهذا القسم المؤكد افتتح ربنا تبارك وتعالى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، بأنه ألهمه رشده منذ صغره، وذلك لعلمه بأنه أهل لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولقد واجه إبراهيم أباه وقومه بهذا السؤال الإنكاري المثير ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أي: منكبون على عبادتها، ومتعلقون بها، وهو سؤال يتضمن تحقير الأصنام التي نحتوها بأيديهم، وجعلوها على صورة البشر مثلهم!!

فلم يكن لهم جواب إلا الاعتراف بتقليد الآباء، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية[1].

فما كان من إبراهيم إلا أن يكشف لهم بصراحة وقسم مؤكد، عن الحقيقة الناصعة بأن الفريقين من المقلِّدين والمقلَّدين كانوا في ضلال قديم موروث قد تمكنوا فيه، غير مستند إلى دليل، وهو ما أفادته {في} الظرفية التي جاءت في السياق الكريم[2].

ولما رأى القوم شجاعة إبراهيم وصراحته، وجرأته في مجابهتهم بهذا الأمر الخطير الذي لم يجرؤ عليه غيره، قالوا متعجبين: أأنت جاد فيما تقول يا إبراهيم أم أنت ممن يهزأ ويمزح؟ وهنا يصدع إبراهيم الملهم المسدد بما يريد من إظهار الحق والكشف عن الحقيقة، معرضا عن تعجبهم ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾وهذا منطق قوي وشهادة حق، تدل على قوة إيمان إبراهيم وثقته المطلقة بربه جل وعلا، ورب كل شيء بما في ذلك تلك الأصنام المخلوقة المنحوتة.

ثانيا: التنفيذ العملي:

لم يقف إبراهيم عند الدليل القولي، بل أتبعه بما هو أظهر وأقوى في إثبات عجز الأصنام، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، فأقسم بالله الخالق العظيم، أن يحتال لإظهار عجزها، متحينا فرصة تركهم لها بلا حارس يحرسها، وذلك في يوم عيدهم الذي يبتعدون فيه عن آلهتهم بعد أن يدعوا

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٥.

(٢) انظر محاسن التأويل ١٢/ ٢٦٣.

عندها الطعام والشراب، ريثما يعودون إليها بعد فراغ مراسيمهم.

وفي همة عليا بتأييد رباني، كسر إبراهيم الأصنام كلها، وجعلها قطعا متناثرة خلا الصنم الكبير، الذي كانوا يولونه حظا من العبادة والتعظيم، فقد تركه سليما وعلق الفأس في عنقه، لعل ذلك يكون محركا لعقول قومه، ومرتفعا بها عن الجمود والتبلد، إلى التأمل والتبصر فيسألوا ذلك الصنم عن سر سلامته وتحطيم ما سواه !!

لكن التقليد الأعمى حجبهم عن السؤال، وبدل أن يسألوا الصنم ويتعجبوا من عدم قدرة الآلهة عن الدفاع عن نفسها، تساءلوا فيما بينهم عمن تعدى على حرمة الآلهة، فقال الذين لا يعلمون شيئا من أمر إبراهيم ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾، فأجابهم الذين سمعوا توعده ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾، فكرهوا أن يأخذوه بغير بينة[١] دون أن يشهد عليه الناس بما يكون حجة عليه بما فعل[٢]، فـ ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾، فكان هذا من نصر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، إذ مقصوده الأكبر أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرا، ولا تملك لها نصرا، فكيف يطلب منها شيء من ذلك[٣] ؟

وبعد أن سألوه إن كان هو الذي حطم آلهتهم، أجابهم في تهكم واضح وسخرية مكشوفة ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾!! وقد كان إبراهيم موفقا في هذا الجواب، إذ نفع القوم بعض الشئ، ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ فكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم

---

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة بإسناد صحيح ١٠/ ٤٠.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٨٤ قال: وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٣.

وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1] !!

ولم يأبه إبراهيم بهذا الانتكاس والارتكاس، المنبئ عن إلغاء العقل، والرجوع إلى التقليد الأعمى، بل دفعه ذلك إلى صولة الحق، فصاح بهم في قوة المؤمن الغيور على توحيد ربه وخالقه، ملزما لهم بما أقروا به من عدم نطقهم، واعترافهم بضعفهم عن نصر أنفسهم، ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾؟ ثم أعرب عن ضجره القوي وغيظه الشديد لأجل إصرارهم على عبادتها بعد قيام الحجة على عدم استحقاقها، تاركين عبادة المستحق لذلك فقال منكرا فعلهم: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟!!

ثالثا: انتصار إبراهيم ونجاته من النار:

وبعد أن انتصر إبراهيم بحجته، ودمغهم بأدلته الواضحة المقنعة، لم يستسلم قومه للهزيمة، ولم يرضخوا للحق الذي لزمهم، ولكنهم لجأوا إلى استعمال القوة وإلحاق الضرر به، انتصارا لآلهتهم التي عجزت عن الانتصار لأنفسها، ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾، وهذا منطق الجبابرة في كل زمن حين يعجزون عن مقارعة الحجة بالحجة، ولولا حماية الله وحراسته لاحترق إبراهيم بتلك النار التي أججوها بالحطب الكثير، حتى بدت نارا عظيمة لا مثيل لها في نيران الدنيا، لكن الذي وضع في النار الإحراق سلبها إياه، بالكلمة التي يتكوَّن بها كل متكوِّن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، وهكذا كان الأمر مع تلك النار المتأججة، ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

لقد كانت النتيجة مذهلة، وعجيبة في مقاييس البشر، فقد سلم إبراهيم من النار، وباء الجبابرة بالخسران، ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

رابعا: هجرة إبراهيم عليه السلام:

بعد تلك النعمة العظمى، والمعجزة الكبرى، قرر إبراهيم أن يترك أرض العراق، التي لم يستجب له أهلها، ويهاجر مع ابن أخيه لوط ـ عليهما السلام ـ إلى أرض الشام، تلك الأرض التي خصها الله تعالى بالبركات الحسية والمعنوية، فهي أرض الخصب والرزق، وطيب العيش ورغده، وهي أرض مبعث الرسل، ومهبط الوحي عبر القرون.

لقد كانت العوض المبارك لإبراهيم الذي صبر ووفى، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، أجل هو عوض مبارك في الوطن والأهل والولد، ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ ﴾، بركة لم تقتصر على الولد وإنما شملت الحفيد، فكانت ذرية صالحة، تؤدي حق الله تعالى وحق عباده، وأئمة يقتدى بهم على تعاقب الأجيال ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾.

وهذه المجموعة من هذا المقطع وثيقة الصلة بمحور السورة، لما فيها من دعوة صادقة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والعمل من أجل تحقيق السعادة في الدارين، وتحقيق المهمة التي أرسل من أجلها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

لقد احتوت هذه المجموعة الطويلة المفصلة على عدد كبير من الدروس والعبر، منها:

* يعد الحوار من الأساليب المهمة في إيصال كلمة الحق، وعلى من أراد أن يدخل في ذلك أن يكون متمكنا مما هو بصدد الحديث عنه، قوي الحجة فيه، كما نشاهد في إبراهيم عليه السلام، لئلا تأتي الهزيمة من قبله.
* لا مانع من استعمال الغلظة والإنكار القوي في الحوار إذا ما اقتضى المقام ذلك، كما صنع إبراهيم ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ ﴾.[1]

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

* الكذب مذموم غير أن من ابتلي بمثل موقف إبراهيم عليه السلام، فله فسحة ورخصة في أن يقول مثل ما قال[١]، وتسمية هذا كذبا قد صح عن النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وواحدة في شأن سارة.. الحديث[٢]، وللمفسرين تعليلات وتوجيهات متعددة[٣].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٢، والأساس في التفسير ٧/ ٣٤٧٨.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ٢٢١٧ في كتاب البيوع، باب شراء المملوك ٦/ ٢٦٥، ورقم ٣٣٥٧ و٣٣٥٨ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ٨/ ١٦٧-١٦٨، ومسلم برقم ٢٣٦٩ في كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم ﷺ، وتمام الحديث واللفظ لمسلم: (فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة ـ وكانت أحسن الناس ـ فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلم غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام، انصرف فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرا كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء). قال النووي رحمه الله تعالى: أي وهبني خادما، وهي هاجر ويقال: آجر بمد الألف، والخادم يقع على الذكر والأنثى، وقوله (مهيم): أي ما شأنك وما خبرك. انظر شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٢٥.

(٣) أطنب المفسرون وأفاضوا في الحديث والتعليل عند قوله تعالى فيما حكاه عن إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وحملوه على المعاريض لئلا ينسب الكذب إلى إبراهيم عليه السلام، ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في الظلال ٤/ ٢٣٨٧: (والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام، والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون، فالأمر أيسر من هذا بكثير)، ثم بين أنه أراد أن يعلمهم بأن هذه التماثيل لا إدراك لها أصلا، وكلام الرازي في مفاتيح الغيب=

* جرت عادة المنهزمين أمام الحجة والبرهان، أن يستعملوا قوتهم في البطش والطغيان، انتقاما وتشفيا، [1] وهكذا فعل قوم إبراهيم معه، ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾، كما أراد فرعون أن يفعل مع موسى عليه السلام ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وكما فعل مع السحرة حين آمنوا ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وكما فعل المشركون من قريش مع رسول الله ﷺ حين عجزوا عن معارضة القرآن الكريم، وكما يفعل الحكام الظلمة في زماننا مع الدعاة والمصلحين، إنها ذريعة المبطل المهزوم أمام صولة الحق المبين.

* صدق اللجوء إلى الله تعالى سبب مهم من أسباب النجاة والفوز، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2] [آل عمران: ١٧٣].

* يعد إبراهيم أول من هاجر في سبيل الله تعالى مع لوط عليهما السلام، وبه يظهر شرف الهجرة وفضلها، وقد تجب إذا لم يتمكن من أداء ما افترض الله تعالى عليه، أو خشي فتنة في دينه، قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا ﴾ دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك[3].

* في الهجرة إلى الأرض المباركة إشارة إلى فضيلة بلاد الشام، عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع، فقال رسول الله ﷺ يوما

=٢٢/ ١٨٥-١٨٦ قريب من هذا، فهو إذن مما صورته صورة الكذب.

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٥، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٥٦٣ في التفسير ـ باب ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ١٠/ ١١٧.

(٣) انظر أضواء البيان ٤/ ٥٩١.

ونحن عنده: (طوبى للشام، فقلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: لئن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه)(١).

* يخطئ من يتصور أن قضية التوحيد جاءت في مرحلة متأخرة، وأن إبراهيم عليه السلام هو مؤسس الدعوة إلى توحيد الخالق جل وعلا، بل التوحيد قضية من القضايا الفطرية التي فطر الخلق عليها قبل خلق الإنسان، بل قامت عليها السموات والأرض، وهاهم الملائكة قبل أن يخلق آدم ـ كما جاء في القرآن ـ يقولون: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠](٢).

المجموعة الثالثة: قصة لوط عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

التفسير الإجمالي:

تتحدث هذه المجموعة المباركة من الآيات عن نبي كريم من أنبياء الله تعالى وهو لوط عليه السلام، الذي سبق ذكره في هجرته مع إبراهيم عليه السلام، حيث إن الله تعالى اصطفاه واختاره رسولا إلى أهل سدوم وما حولها، وكانت سبع قرى أهلها أهل سوء، ابتدعوا فاحشة منكرة ما سبقهم بها أحد من العالمين، ألا وهي إتيان الذكور بدل النساء في قضاء الشهوة، وهو ما يسمى بالشذوذ الجنسي، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا

---

(١) أخرجه الترمذي برقم ٣٩٥٤ وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث يحيى بن أيوب ٥/ ٧٣٤، وأحمد برقم ٢١٦٤٧ (٥/ ١٨٤)، وابن أبي شيبة برقم ١٩٤٤٨ في فضل الجهاد ٤/ ٢١٨.

(٢) انظر قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ص١٥٣-١٥٤.

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، ولم يكتفوا بهذا الشذوذ بل جمعوا إليه منكرات أخر، قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ومن أخبث جرائمهم تكذيب نبي الله لوط عليه السلام، وعزمهم على إخراجه وإخراج من آمن به لا لشيء إلا لأنهم يترفعون عن الوقوع في ما وقعوا فيه من السوء والانحراف، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

لقد آتى الله تعالى لوطا حكما وعلما لصبره وصلاحه، فهو يقضي به على بصيرة، ونجاه سبحانه وتعالى من أهل تلك القرية التي خرجت عن سنن الفطرة في قضاء الشهوة، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* إن لوطا عليه السلام من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وفي هذه الآيات رد على افتراءات اليهود عليه والقدح في عصمته عليه السلام، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين: أن ابنتي لوط سقتا أبيهما خمرا، فزنى بهما، وحملتا منه، وولدت كل واحدة منهما ولدا، ابن الكبيرة أبو اللوابيين، وابن الصغيرة أبو بني عمون إلى اليوم[١].

* كل ما حرمه الله تعالى على عباده فهو من الخبيث الضار، وقد جرّت الممارسات الجنسية غير الشرعية على البشرية شرا مستطيرا، وما مرض الإيدز[٢] الخطير إلا مثال واضح على

(١) انظر الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور الذهبي ص٣١.

(٢) الإيدز: وهو مرض فيروسي يصيب الخلايا الليمفاوية المناعية، فيعطل وظيفتها ونشاطها المقاوم لشتى الأمراض الميكروبية والفيروسية الأخرى، مما يجعل الجسم مرتعا خصبا وفريسة سهلة للأمراض الانتهازية والأورام الخبيثة. انظر قصة الإيدز للأستاذ رفعت كمال ص١٣، وقد قتل هذا المرض=

أن الشرائع السماوية إنما جاءت في مصالح العباد.

* العلم النافع شرف عظيم، وما من نبي إلا وقد وهبه الله تعالى من العلم ما يقضي به بين الناس على بصيرة.

* جرت سنة الله تعالى أن يهلك المفسدين، ولذا ورد التحذير بعد إهلاك قوم لوط بقوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، غير أن هذه الأمة قد حماها الله من عذاب الاستئصال.

المجموعة الرابعة: قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [لأنبياء: ٧٦-٧٧].

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى نوحا بعد ذكر موسى وهارون وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، حيث لم يرد التسلسل التاريخي في هذا القصص، وإنما أريد أخذ العبرة والعظة، فنوح عليه السلام قبل كل الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة، وأطولهم عمرا في الدعوة إلى التوحيد أهم موضوعات هذه السورة وأبرزها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٧] وغيرها من الآيات.

لقد أصاب نوحا ما أصابه من الهم والكرب، من جراء تعنت قومه وعدم استجابتهم له،

=الخبيث عدداً كبيراً من الناس، وبلغ عدد المصابين به في العالم إلى هذا العام (٢٠٠٧م) نحو أربعين مليون مصاب!!

مع هذه المدة الطويلة التي استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاما، سالكا معهم كل سبل التذكير ووسائل النصح، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾ [نوح: ٥-٩]، فرحمه الله تعالى فنجاه من ذلك الكرب الشديد، وحماه من أهل السوء، مع أهله والمؤمنين ما خلا زوجته وابنه الذين كانا مع القوم الظالمين، فأغرقهم الله تعالى أجمعين.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* جعل الله تعالى في قصة نوح عظة بالغة، ودرسا مهما في الصبر، وإذا علمنا أن الكرب هو أقصى الغم، علمنا ما كان يعانيه نوح عليه السلام من الشدة والبلاء.
* إهلاك المكذبين والمفسدين واستئصال شأفتهم، سنة إلهية في الأمم السابقة، ولولا عصمة هذه الأمة من ذلك لأصابها ما أصاب الأمم من قبل.
* لم يدع نوح على قومه إلا بعد أن أخبره الله تعالى بعدم إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ [هود: ٣٦].
* في هذا النص الكريم إلماحة لرسوله محمد ﷺ، بأنه إذا اشتد عليه أمر كفار قريش ونادى ربه كما نادى نوح ربه، استجاب له ونجاه ونصره[١].

(١) انظر نوح عليه السلام وقومه ص ٢٤٦.

المجموعة الخامسة: قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

التفسير الإجمالي:

تتحدث هذه المجموعة المباركة عن النبيين الكريمين الأب داود وابنه سليمان عليهما السلام، وتبين ما أنعم الله تعالى به عليهما من النعم الكثيرة، وأعظمها العلم الذي به تستنبط الأحكام ويعرف الحلال والحرام، وبدأت الآيات بقصة الحرث الذي رعته الغنم، وكيف أن الله تعالى فهم سليمان الحكم الصائب الذي رجع إليه داود[1].

ثم إن النعم على النبيين الكريمين، منها ما هو مشترك بينهما كالنبوة والحكم والعلم ومنها ما هو خاص بأحدهما، حيث خص الله تعالى داود بالصوت الجميل، وسخر له الجبال والطير يرددن معه التسبيح، وعلمه صنعة الدروع، وكانت دروعا متميزة قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ

(١) خلاصة هذه القصة كما في مدارك التنزيل ٣/ ٨٥: (أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلا، فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتاهما أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث، فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق بالفريقين، فعزم عليه ليحكمن فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادان فقال: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك، وكان ذلك باجتهاد منهما).

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ [سبأ: ١١]، قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة[١]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ قال: كالعجين[٢].

وخص سليمان بتسخير الرياح التي جعلها الله تجري بأمره إلى الأرض المباركة، إن شاء قوية وهو ما ذكرته الآية هنا، وإن شاء فلينة هادئة قال تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: ٣٦]، كل ذلك بعلم الله المطلق المتعلق بكل شئ، وسخر له الجن الذين يغوصون في قاع البحار، ويعملون أعمالا دون ذلك، سامعين مطيعين يسخرهم كيف يشاء قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: ٣٧-٣٩]، ومع هذا فإن الله تعالى كان حافظا لهم فلا يستطيعون هربا ولا إفسادا.

ولقد كان النبيان الكريمان شاكرين لله تعالى، وذلك من تمام معرفتهما بالله تعالى وتوحيده.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* الابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة، فهذا سليمان ﷺ يقول كما حكى الله تعالى عنه: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]، ومن حكم الشعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[٣]

* بشرية الرسل ثابتة، وحاجتهم إلى معونة الله تعالى وهدايته ظاهرة، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ

(١) انظر فتح القدير ٤/ ٣١٦.

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في المرجع السابق ٤/ ٣١٨.

(٣) انظر الصناعتين ١/ ٢٢٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥.

لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ ونظائرها، وفيه رد على المشركين في قولهم ما حكاه الله تعالى عنهم في أول السورة: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

* عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)[١]، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى بعد أن قرأ هذه الآية ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾: فحمد سليمان ولم يلم داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده[٢].

* جعل الخلاف في فروع العبادات والمعاملات مثار فرقة وهجاء، يغاير منهج القرآن الذي رأيت[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٧١٦ في كتاب الأقضية ـ باب أجر الحاكم إذا اجتهد ٣/ ١٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الأحكام باب: متى يستوجب الرجل القضاء ١٦/ ٥١١. وتعقبه ابن المنير: بأن فيه نقصا لحق داود، قال: والأصح في الواقعة أن داود أصاب الحكم وسليمان أرشد إلى الصلح، غير أن ابن حجر قال: ومن تأمل ما نقل في القصة ظهر له أن الاختلاف بين الحكمين كان في الأولوية لا في العمد والخطأ، ويكون معنى قول الحسن «حمد سليمان» أي لموافقته الطريق الأرجح، «ولم يلم داود» لاقتصاره على الطريق الراجح. انظر فتح الباري ١٦/ ٥١٤.

(٣) انظر نحو تفسير موضوعي ص٢٥٦.

المجموعة السادسة: قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

التفسير الإجمالي:

بهذا النداء الذي جاء على غاية الأدب، المنبئ عن الصدق في العبودية، ومعرفة مقام الربوبية، دون شائبة ضجر أو اعتراض، عرض أيوب عليه السلام حالته أمام ربه، وقد وصف نفسه بالضعف والافتقار، وربه بالرحمة المطلقة ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعا: أن نبي الله أيوب ابتلي فلبث في بلائه ثماني عشرة سنة.. فوثب ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾، إخبارا عن حاله، لا شكوى لبلائه[1].

لقد رحم الله تعالى استعطاف أيوب عليه السلام، فكشف بلاءه وأزال ضره، وآتاه ما سلب منه مضاعفا، مالا أكثر من ماله، وولدا ضعف ولده[2]، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٣/ ١٦٧، وأبو نعيم ٣/ ٣٧٤-٣٧٥، وابن حبان ٤/ ٢٤٥، والحاكم ٢/ ٥٨١، والبزار٣/ ١٠٧-١٠٨، والضياء المقدسي كما نقله الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٥.
وهذا أحسن ما جاء في قصة أيوب عليه السلام، وفيه غنى عن الاسرائيليات الكثيرة التي ينزه عنها نبي الله أيوب عليه السلام.

(٢) أخرج ابن جرير بسند صحيح عن الحسن وقتادة ١٠/ ٧٣ قالا: أحيا الله أهله بأعيانهم، وزاده إليهم مثلهم.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* في قصة أيوب ﷺ ما يفيد أن الابتلاء الذي أصاب الأنبياء على أنواع، فمنه ما كان بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، ومنه ما كان بالنعمة كما في قصة داود وسليمان، ومنه ما كان بالضر كما في قصة أيوب(١)، وفي كل يفزع الأنبياء عليهم السلام إلى ربهم طالبين منه وحده النصر ورفع البلاء.

* الأنبياء منزهون من الأمراض المنفرة، وما حل بأيوب ليس فيه شيء من ذلك، إنما كان ابتلاء عظيما فوق العادة، فكان أيوب غاية في الصبر، حتى إن المثل ليضرب به في ذلك.

* الدنيا دار ابتلاء، والمؤمن أكثر عرضة لذلك من غيره، فعن النبي ﷺ وقد سئل: أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة)(٢).

* الشكوى إلى الله تعالى لا تقدح في الصبر، قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد ذلك جزعا، إذا كان في شكواه راضيا بقضاء الله تعالى، إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦](٣).

* في الصحيح عن النبي ﷺ قال: (بينما أيوب يغتسل عريانا، فخر عليه جراد من ذهب فجعل يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي - واللفظ له - برقم ٢٣٩٨ في كتاب الزهد - باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: هذا حديث حسن صحيح ٤/ ٥٢٠، وأحمد برقم ٢٧١٢٤ (٦/ ٣٩٦)، والحاكم برقم ١١٩ مطولا وقال: صحيح على شرط مسلم ١/ ٩٩، وابن حبان في صحيحه برقم ٢٩٠٠ (٧/ ١٦٠).

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢٠٩، ولم أقف عليه في تفسير ابن عيينة.

غنى بي عن بركتك)[١].

* في قوله تعالى: ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب، وإنما خص العابدين بالذكر، لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك[٢].

المجموعة السابعة: قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة أيوب ﷺ، أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء صبروا كصبره، وهم إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل عليهم السلام، أما إسماعيل فأبرز ما جاء في صبره تسليمه لأبيه الخليل ﷺ في قصة الذبح، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وأما إدريس فلم نقف على شيء صحيح في صبره، غير أنا نعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذي يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي[٣] وقد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم: ٥٦]، وأما ذو الكفل[٤] ـ الذي قيل إن اسمه إلياس ـ، فمن صبره ما ذكروا من أنه تكفل أن يقوم

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه انظر رقم ٢٧٩ في كتاب الغسل باب من اغتسل عريانا ٢/ ٤٧، وأخرجه الحاكم بنحوه في كتاب التاريخ ـ ذكر أيوب ﷺ ٢/ ٥٨٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه !!

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٠.

(٣) انظر الظلال ٤/ ٢٣٩٣.

(٤) الذي اختاره ابن جرير ١٠/ ٧٣: أنه رجل صالح تكفل إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك =

الليل ويصوم النهار، ولا يغضب في القضاء، فوفى بما تكفل به.

فهؤلاء الثلاثة عليهم السلام، كانوا مثالا يحتذى في الصبر، ولذا استحقوا أن يعطفوا على أيوب ﷺ، وأن يذكروا في الصالحين.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

إن بعض ما تقدم في قصة أيوب ﷺ يصلح أن يدرج هنا، ويمكن أن نضيف:

* إن في اقتران الصبر والصلاح تنبيه على أهمية هاتين الصفتين في حياة العابدين، والدعاة والمصلحين.

* من شارك الصالحين في شيء من صفاتهم، ألحق بهم بفضل الله تعالى، وفي هذا حث للتأسي بالصالحين، ومتابعتهم في أعمالهم الصالحة.

المجموعة الثامنة: قصة يونس ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

التفسير الإجمالي:

ذو النون هو يونس بن متى ـ ﷺ ـ، والنون نسبة إلى الحوت الذي التقمه، في قصته التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وأحسن ما جاء فيها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعثه الله إلى أهل قريته

= بعمل من الأعمال فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، ثم ساق الآثار الدالة على ذلك.

فردوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه أني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأعلم الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها، أدلج فرآه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا، واستقالوا فأقالهم، وتنظّر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مار فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، ثم عجوا إلى الله فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب[١].

ومن ثم ذهب مغاضبا من أجل ربه، ولم يدر بخلده أن يضيق الله تعالى عليه[٢]، ويقدّر عليه كل ما حلّ به، فقوله تعالى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: فظن ألن نقدّر عليه أي نقضي عليه[٣]، فما كان منه وقد رأى نفسه في ظلمات ثلاث ـ ظلمة الليل وظلمة قعر البحر وظلمة بطن الحوت[٤] ـ إلا أن يفزع إلى ربه، ويهتف بقوة وإلحاح بهذا الدعاء الذي تجلى فيه التوحيد والتنزيه والافتقار: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فما كان من أبواب السماء إلا أن تفتح، ويأتيه الفرج سريعا ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾، وكما

(١) انظر رقم ٣٢٧٣ في تفسير سورة يونس عليه السلام لابن أبي حاتم الرازي بتحقيقنا ص ٤٢٠-٤٢٣، وهو حسن بشواهده.

(٢) اختاره ابن جرير ١٠/ ٧٨و٧٩ كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ الطلاق/ ٧.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧ قال: فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد قال الشاعر:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ القمر/ ١٢ أي قدّر.

(٤) أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود برقم ٣٤٤٥ في تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٤١٥، وأخرجه أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا كما في فتح القدير ٣/ ٤٢٤.

كشف الله تعالى عنه الكرب الشديد، فإنه سيكشفه عن جميع الموحدين، المتأسين بيونس في دعائه في السراء والضراء، فيفزعون إلى الله وحده في كل حال، ولا يفزعون إلى أحد سواه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* الصدق في الدعاء سبب النجاة من كل كرب وشدة، وفي دعوة يونس ﷺ إرشاد وتعليم، قال ﷺ: (دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له)[1].
* من ظن أن الله تعالى لن يقدر عليه من القدرة، أي: يعجز تعالى عن ذلك، فقد كفر بالله تعالى، والأنبياء عليهم السلام ينزهون عن هذا، فهو من القدر لا من القدرة.
* الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى صبر وأناة، وجد ومثابرة، وترفع عن الغضب والضجر فمن لا يستجيب اليوم قد يستجيب غدا، والداعية سبب والهادي هو الله جل في علاه.
* الندم والاعتراف بالتقصير ديدن عباد الله الصالحين، متأسين بأبيهم آدم ﷺ، بعيدين عن دأب إبليس في العناد والإصرار.
* دعاء يونس شبيه بدعاء أيوب عليهما السلام، في إظهار كمال الربوبية، وضعف البشرية وهذا القدر يكفي في السؤال على ما قال المتنبي:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة		سكوتي بيان عندها وخطاب[2]

(١) أخرجه أحمد برقم ١٤٦٢(١/ ١٧٠)، والترمذي برقم ٣٥٠٥ باب ٨٢(٥/ ٥٢٩)، والنسائي برقم ١٠٤٩٢ ذكر دعوة ذي النون ٦/ ١٦٨، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ـ كتاب التفسير ٢/ ٣٨٣، وقال الذهبي: صحيح، والبيهقي في الشعب برقم ٦٢٠ فصل في إدامة ذكر الله عز وجل ١/ ٤٣٢، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، وانظر فتح القدير ٣/ ٤٢٤.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٦، وفيه: كلام بدل بيان، وديوان المتنبي ص ٤٨١.

المجموعة التاسعة: قصة زكريا وابنه، ومريم وابنها عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩١].

التفسير الإجمالي:

زكريا نبي كريم من كبار أنبياء بني إسرائيل، تقدمت قصته مفصلة في سورتي آل عمران ومريم، وتشير الآية هنا إلى أنه دعا ربه بإلحاح وضراعة شديدة، دعاء ممتزجا بثناء، بأن لا يجعله فردا بلا أنيس ولا معين، فطلب أن يرزقه ولدا يؤنسه في وحدته، ويعينه في كبره، ويخلفه في عبادة ربه ودعوة الناس إليه.

فآتاه الله سؤله، وأصلح له زوجه، حيث زالت موانع الولادة، وتهيأت للحمل بعد أن كانت عاقرا لاتلد[1]، فأنجبت ولدا صالحا كان قرة عين لوالديه.

وقد مدحه الله تعالى وأهل بيته[2] بخير ما يمدح به عباده الصادقين، وهو المسارعة في

---

(١) فالواو في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ - كما يقول أهل العربية - لا تفيد الترتيب.

(٢) يرى بعض المفسرين أن المدح هنا لكل الأنبياء السابقين، ولعل ما ذكرناه عن جمهور العلماء أرجح، ومما يؤيده ما أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٤٤٣١ (٧/ ٩١)، والحاكم مطولا وقال: هذا حديث صحيح الإسناد - كتاب التفسير ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ وقال الذهبي: عبد الرحمن بن إسحاق كوفي ضعيف، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب - كما في فتح القدير ٣/ ٤٢٧ - عن عبد الله بن عكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، أن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.
أقول: ولو كان يعم الجميع لذكر بعد قصة مريم وابنها عليهما السلام، والله تعالى أعلم.

طاعة الله تعالى، والفزع إليه طمعا في ثوابه، وخوفا من عقابه، مع ما كانوا عليه من الخشوع الذي ملأ قلوبهم، فهو لا يفارقاها أبدا(١).

وبعد قصة زكريا جاءت آية عظيمة مقرونة ومرتبطة بها، تظهر عظيم قدرة الله تعالى في إيجاد ولد من أنثى بدون قربان ذكر، بعد أن ذكر الله تعالى إيجاد ولد من شيخ كبير، وعجوز عقيم، فكانت أعجب منها وأعظم، آية فذة غير مسبوقة ولا ملحوقة(٢) !!

وقصة مريم عليها السلام تقدمت مبسوطة في السورة التي سميت باسمها، وقد أكد النص هنا عفتها، وصيانة فرجها عن الحلال والحرام، وبيان سر النفخ غير محدد الموضع، الذي كان سببا في تحرك الجنين في أحشائها!! فكانت دلالة واضحة على قدرة الله تعالى، وأنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد سبحانه وتعالى.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* جاء دعاء زكريا كدعاء أيوب عليهما السلام على غاية من الأدب، فكأنه يقول: يا رب إن لم ترزقني من يرثني، فلا أبالي فحسبي أنت، فإنك خير وارث، وخير سند(٣).
* سارع الله تعالى في إجابة دعاء زكريا ، لأنه كان يسارع في ما يرضي الله، وفي ذلك تعليم لمن أراد أن يسارع الله تعالى في إجابة دعائه.
* في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وقوله في دعاء أيوب ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ استحباب ذكر صفة من صفات الله تعالى عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها(٤).
* لم تذكر مريم باسمها هنا، لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عليهما السلام، وقد

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٧، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٠.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٠، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.
(٣) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٧، وقبس من نور القرآن ص٦٧.
(٤) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٣٥.

جاءت هي تبعا له في السياق الكريم[١].

* في قوله تعالى: ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾، تنزيه لها عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل[٢].

* في قوله تعالى: ﴿ ءَايَةً ﴾ بالإفراد، إشارة إلى أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة، ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل[٣].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يؤكد هذا المقطع الكريم بشرية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن الله تعالى قد ابتلى بعضهم بالسراء فشكروا، وابتلى آخرين بالضراء فصبروا، وأنهم كانوا على درجة عالية في صدق التوجه إلى الله الذي لا رب سواه، وإخلاص الدعاء له سبحانه وتعالى، ونسبة النعم إليه، والتسليم المطلق والرضا التام بقضائه وقدره، لما يعلمون من أن مرجعهم ليس إلا إليه، وما حسابهم إلا عليه، فأصبحوا بذلك قدوة حسنة للخلق في السراء والضراء، وحجة على المكذبين بالمعاد والجزاء.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٣٩.

المقطع السادس: وحدة الملة وعدل الجزاء

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢-١٠٦].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى قصص جملة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما يدل على أن له القدرة الباهرة، والقوة البالغة الشاملة للبعث وغيره، وكان ذلك دالا على التوحيد الذي هو أصل الدين، وأنهم كلهم متفقون عليه، أعقبه بهذا الخطاب الدال على أن دين الإنسانية واحد، وأنه يجب اتباع الأنبياء في ذلك التوحيد[1].

وذكر أيضا أن أمة التوحيد واحدة، وأوجب على عباده اتباع أنبيائه في هذا التوحيد، وبين حال العباد يوم القيامة، وأن لا نجاة إلا لمن التزم المنهج ممن سبقت له السعادة.

---

(١) انظر نظم الدرر بتصرف ١٢/ ٤٧٦-٤٧٧.

التفسير الإجمالي:

هذا المقطع كسابقه وثيق الصلة بمحور السورة، حيث إن الله تعالى يبين فيه أن الدين الحق واحد، وهو قدر مشترك بين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يختلفون في شيء من أصول التوحيد أو الأخلاق أو العبادات، وإنما يختلفون في الفروع التي جاءت وفق ما يناسب أزمنتهم وأقوامهم، كما قال النبي الخاتم ﷺ: (والأنبياء إخوة لعَلات[١]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)[٢]، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][٣].

وما الاختلاف الحاصل بين الأمم، إلا نتيجة الاختلاف على الرسل، مما أدى إلى التفرق، وما علموا أن مصيرهم وعاقبة أمرهم إنما هو الرجوع إلى الله وحده، وهو الذي يتولى حسابهم وجزاءهم، وفيه وعيد لهؤلاء المتفرقين، ووعد لأولئك الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح على هدي أنبيائهم، فإن الله تعالى لا يبطل ثواب أعمالهم، بل يحصيه لهم كاملا غير منقوص، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

والرجوع إلى الله حقيقة لا مناص منها، واستحالة الرجوع إلى الدنيا بعد ذلك فكذلك[٤] وسيظل امتناع رجوعهم إلى الحياة حتى اختلال نظام الحياة، يوم يخرج يأجوج ومأجوج، تلك القبائل المفسدة والموجات البشرية، التي تتدفق من كل مكان مرتفع من الأرض، تسرع في

---

(١) في رواية: أولاد علات، وأولاد العلات ـ بفتح العين ـ: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. النهاية ٣/ ٢٩١ مادة: علل.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري واللفظ له برقم ٣٤٤٣ كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ٨/ ٣٠٨، ومسلم برقم ٢٣٦٥ باب فضل النظر إليه ﷺ ٤/ ١٨٢٧.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١١.

(٤) هذا بناء على أن {لا} هنا زائدة، وذهب بعضهم إلى أنها غير زائدة، والمراد: أنهم لا يتوبون، قال ابن كثير ٣/ ٣١١: والقول الأول أظهر.

النزول، وتكتسح كل شيء أمامها، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه[١]، وذلك لدى اقتراب الساعة ونهاية الحياة[٢]، يومئذ يبعث الناس من قبورهم فتتكشف الحقائق، فإذا الذين كفروا من هول الموقف شاخصون بأبصارهم، ينادون بالويل والثبور، معترفين بظلمهم إذ وضعوا العبادة في غير موضعها.

وتأتي حقيقة مآلهم، حيث النار وبئس القرار، ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي شجرها الذي توقد به، كما قال تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٧] وإنما حشرت معبوداتهم معهم ـ وهي لا تعقل ـ تبكيتا لهم، بأنها لو كانت آلهة صحيحة لما وردت النار ولما دخلتها، وليزدادوا غما وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببها[٣].

ولما كان ممن عبد من دون الله من لا يرضى بعبادتهم كالملائكة وعزير وعيسى عليهم السلام،[٤] قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾، فهم في أمان من النار، لا يذوقون عذابها، ولا يسمعون صوت لهيبها، وفي اطمئنان ببشرى الملائكة بالنعيم المقيم. وأنه لا يصيبهم من أهوال يوم القيامة والفزع الأكبر ما يحزنهم، ذلك اليوم الرهيب المذهل، يوم تطوى صفحة الكون كما تطوى صحيفة الكتاب، فهؤلاء الذين سبقت

---

(١) أخرجه الحاكم مطولا في كتاب التفسير ـ تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٣٨٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح.

(٢) للعلماء كلام طويل عن يأجوج ومأجوج، لا يناسب ذكره في هذا المقام، انظر بسط ذلك ومناقشته في التحرير والتنوير ١٧/ ١٤٨-١٥١، ومباحث في التفسير الموضوعي ص ٣١٥-٣٢١ فقد رجح أن الذين يخرجون قبيل الساعة هم من نسل يأجوج وماجوج الذين حجزوا خلف سد ذي القرنين، وانظر نحو تفسير موضوعي ص ٢٥٧.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥.

(٤) انظر في سبب النزول ما أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ١/ ٤٣١، والطبراني في الكبير ١٢/ ١٥٣، قال في الصحيح المسند ص١٣٧: صحيح لغيره، وأخرجه الحاكم في تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٣٨٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل: ٨٧][1].

وإعادة الخلق كما بدئ أمر كائن لا محالة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وذلك للجزاء العادل، قال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

ثم بين الله تعالى سنته في وراثة الأرض، بهذا السياق المؤكد المكتوب في كتبه السابقة من التوراة والزبور، بأن هذه الأرض[2] لا تكون عاقبة ميراثها إلا لعباد الله الصالحين، الذي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومنه عمارة الأرض وإصلاحها، قال سيد قطب رحمه الله تعالى: (وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم)[3].

ويختم هذا المقطع الكريم بذكر عباد الله الصالحين الذين عبدوا الله تعالى بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعته سبحانه وتعالى على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم، فكان في هذا القرآن منفعة لهم وكفاية [4].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٥٧.

(٢) مشينا في هذا على قول من يقول: إن المراد بالأرض أرض الدنيا، ولعله هو الراجح لمناسبته للسياق، وهناك من يقول: إن المراد بها أرض الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الزمر/ ٧٤، وانظر نحو تفسير موضوعي ص ٢٥٧.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢١.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* وحدة الأمة إنما تقوم على التوحيد، وبدونه ينشأ الاختلاف والتفرق.
* إن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجمع كل الشرائع، فيجب أن يتمسك به جميع الناس.
* الإيمان والعمل الصالح مقترنان، وبهما تتحقق سعادة الأبد.
* من مقتضيات الإيمان، التصديق بما جاء به محمد ﷺ، لأنه هو الذي بين للناس كيفية الاستسلام لكلمة التوحيد والعمل بها(١).
* المقصد الأعظم من بعثة الرسل، هو تحقيق توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له والإسلام بمعناه العام دين جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.
* الاختلاف في أمر الدين سبب الهلاك والخسران.
* في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ تمثيل بديع، فقد مثل لاختلاف الأمم في الدين، وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بجماعة تنازعوا ثوبا، فاقتطع كل واحد منهم قطعة، فأصبح مزقا بالية، وهكذا حال الأمم جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، حسب الأهواء والمشتهيات، وهذا من لطيف الاستعارة(٢).
* المقارنة بين المؤمنين والكفار وما أعد الله لكل منهما، من عادة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وفيه إشارة إلى أن في الآخرة دارين لا ثالث لهما.

همـــا محلان ما للمـــــرء غيرهمـا فاختر لنفســك أيّ الدار تختـار(٣)

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص ١٠٤.

(٢) انظر قبس من نور القرآن ص ٧١ هامش١.

(٣) هذا البيت مذكور في ديوان صالح عبد القدوس، وهناك بيتان لأبي العتاهية، كما في ديوانه ص ١٦، مرتبطان به، وهما: =

* الأرض وما فيها ملك للمسلمين الموحدين، وما غلبة الكفار عليها في وقت من الأوقات إلا اغتصاب للحق، يقتضي أن تتضافر الجهود لاستنقاذه واسترجاعه، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥][١].

* ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة، فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذا المقطع دعوة صريحة إلى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى، وبيان صريح في وجود الحياة الآخرة، وأن الجزاء العادل حاصل لا محالة، وأن أهل الخير وأهل الشر في ذلك على حد سواء، فهذا المقطع كما قلنا وثيق الصلة بمحور السورة الكريمة.

=

الموت باب وكل الناس داخله		يا ليت شعريَ بعد الباب ما الدار؟

الدار جنة خلد إن عملت بما		يرضي الإله وإن قصّرت فالنار

قال الأستاذ جعفر خريباتي في كتابه: أبو العتاهية حياته وشعره ص ٧٥-٧٦: (وقيل اجتمع الخلفاء الراشدون ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فقال أبو بكر من نوع الإجازة: الموت باب (البيت الأول)، فأجازه عمر بن الخطاب بقوله: الدار جنة خلد (البيت الثاني)، فأجازه عثمان: هما محلان (البيت الثالث)، فأجازه علي بن أبي طالب:

ما للعباد سوى الفردوس منزلة		وإن هفوا هفوة فالربّ غفار

ولم ينسبها إلى مرجع.

(١) انظر المرجع السابق ص ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

المقطع السابع: ختام سلسلة الأنبياء رحمة مهداة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠-١١٢].

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال الناس يوم القيامة، وأن لا نجاة إلا لمن التزم منهج التوحيد الذي جاء به الأنبياء، بين هنا أن النبي الخاتم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ما أرسل إلا بذلك المنهج السديد، الذي يحقق السعادة لمن التزمه، وخصه ﷺ بأن جعله رحمة شاملة للعالمين.

التفسير الإجمالي:

بهذه الآية الكريمة التي تتحدث عن مسك الختام في سلسلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع الكريم، مشيرا إلى خصوصية عموم الرسالة التي امتاز بها النبي الخاتم ﷺ، فهو الرحمة المهداة للعالم كله أنسه وجنه، دنياه وآخرته، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وكما قال ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداة)[١] وقوله أيضا صلوات الله وسلامه عليه: (إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة)[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣١٧٨٢ (٦/ ٣٢٥)، والدارمي برقم ١٥ (١/ ٢١)، والحاكم برقم ١٠٠ وقال صحيح على شرطهما ١/ ٩١.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٥٩٩ باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ٤/ ٢٠٠٦ وأوله: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال:...).

ثم يسطع التوحيد محور هذه السورة، في أمر الله تعالى نبيه ﷺ ليعلم الكافرين بالحقيقة الموحى بها إليه من الله تعالى، ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، فمن أعرض وأصر على الكفر والشرك، فإني بريئ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس: ٤١]، وأن عاقبته الهلاك والخسران في الوقت الذي يعلمه الله وحده، ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ سبحانه وتعالى، فلعل في تأخير العذاب ابتلاء لكم، وتمتيعا بلذائذ الحياة إلى أجل مسمى لتزداد ذنوبكم، حين تنسيكم النعم شكر مسديها، فيأخذكم في الوقت الذي قدره أخذ عزيز مقتدر.

ثم يختم المقطع والسورة كلها، بدعاء النبي الخاتم، المشابه لما تقدم من دعوات الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ أي تصفون وتفترون من الكذب، وتتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، مما هو ناشيء عن غفلتكم الناشئة عن إعراضكم عن هذا الذكر من الاستهزاء والقذف بالسحر وغيره، والمناصبة بالعداوة والتوعد بكل شر، والله المستعان عليكم في ذلك.

ويلاحظ أنه قد انطبق آخر السورة على أولها، بذكر الساعة ردا على قوله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾، والدعوة إلى التوحيد، والاستعداد للآخرة، وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك[1].

وهكذا يتجلى التوحيد في هذه السورة الكريمة على غاية من الوضوح والبيان، حتى لو اختير لها اسم اجتهادي لكان « التوحيد».

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الإيمان بمحمد ﷺ فرض على كل من أدركه، أو بلغته دعوته من الإنس والجن، ففي الصحيح أنه ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٤، ونظم الدرر ١٢/ ٥١٥، ونحو تفسير موضوعي ص ٢٥٨.

نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)(١).

* متاع الدنيا قليل، وأيامها إلى انقضاء، فلا يصح للعاقل أن تشغله بلذائذها عن طاعة مولاه قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

* في نسبة الرب إليه في أول الدعاء ﴿قَٰلَ رَبِّ﴾ عرفان بمقام الربوبية، وفي نسبته إلى الجميع ﴿وَرَبُّنَا﴾ تعريض بالمشركين الجاحدين فضل الله عليهم بالتربية والإنعام، وقال البقاعي رحمه الله تعالى: إنه لما سأل الحق المراد به الهلاك للعدو والنجاة للولي، أفرد الإضافة إشارة إلى تخيصصه بالفضل، وإفرادهم بالعدل، ولما سأل العون عمّ الإضافة والصفة قنوعا بترجيح جانبه بالعون وإن شملتهم الرحمة(٢).

* لقد وقع اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في هذا الدعاء موقعه الحسن، فصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول، فهو الذي أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون، واستهزأ المستهزئون، وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ﷺ ويعينه على ما يصفون(٣).

* وهو رحمن، ومن رحمته إيجاد يوم الدين، ليجازي به المحسن بإحسانه، والمسيء بكفرانه وفي ذلك أعظم ترهيب(٤) وترغيب.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

نلاحظ في هذا المقطع الكريم دعوة صريحة إلى توحيد الله تعالى، وإنذار من تولى وأعرض، وأن مرد وقت العذاب الذي يحيق بالمكذبين إلى الله تعالى، وبيان أن مهمة النبي ﷺ إنما هي البلاغ المبين.

ولا يخفى أن مناسبة هذا المقطع لمحور السورة ظاهرة، والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٤٠ في كتاب الإيمان باب: وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ ١/ ١٣٤

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/ ٥١٥.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٣.

(٤) انظر نظم الدرر ١٢/ ٥١٥-٥١٦.

سورة الحج

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة.

سميت بسورة الحج؛ لذكر فريضة الحج على لسان إبراهيم الخليل ﷺ بعد بناء البيت العتيق ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾، فبلغ صوته أنحاء الأرض، وأسمع النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام، فلبوا النداء: لبيك اللهم لبيك، « وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران»[1] وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ب - فضائل سورة الحج.

جاء في فضلها: «عن عقبة بن عامر قال قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين ؟ قال: نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» [2].

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت مسألة التوحيد، وشأن السور المدنية التي تناولت: شعيرة الحج، وبعض التشريعات.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها. وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال. وآيات العقاب بالمثل. فهي مدنية قطعاً. فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة. وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٧٥٢ .

(٢) رواه أبو داود و الدارقطني والترمذي وقال: هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي.

« اختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية ؟ أو أكثرها مكي أم مدني ؟ فعن ابن عباس من رواية مجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ إلى ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾. قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات وعن ابن عباس من رواية والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فهن مكيات. وهي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكية ومدنيا وحضريا وسفريا وحربيا وسلميا وليليا ونهاريا وناسخا ومنسوخا: فأما المكي: فمن رأس الثلاثين منها الى آخرها وأما المدني: فمن رأس خمس وعشرين الى رأس ثلاثين، وأما الليلي: فمن أولها الى آخر خمس آيات وأما النهاري: فمن رأس خمس آيات الى رأس تسع وأما السفري: فمن رأس تسع الى اثنتي عشرة وأما الحضري: فمن رأس العشرين منها نسب الى المدينة لقرب مدته»[1].

هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

عدد آيات السورة: ثمان وسبعون آية، ولم أقف خلاف في ذلك بين القرآء.

و - محور السورة:

سورة الحج من السور المشتركة بين المدني والمكي كما تقدم، فموضوع الإيمان، والتوحيد والإنذار والتخويف، وموضوع البعث والجزاء، ومشاهد القيامة وأهوالها، هو البارز في السورة الكريمة، حتى ليكاد يحسب القارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهَدي، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية، وسيتم ربط المواضيع المكية والمدنية بهذا المحور من خلال مقاطع السورة.

(١) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ٥ / ٤٠ .

ز. المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة الأمر بالتقوى، والتوحيد، والحديث عن الساعة، والتخويف من هولها والاستعداد لها، بالإضافة إلى ذكر شعيرة الحج؛ فيوجد ارتباط بين المحور والتسمية؛ إذ الحاج يستعد للحج بالنفقة الحلال والتجرد من الثياب وهو رمز للتجرد من الدنيا، ثم التجمع الكبير في عرفة والمزدلفة ومنى وحول الكعبة بلباس واحد وهتاف واحد لبيك اللهم لبيك، الكل ينشد ربه القبول والمغفرة والنجاة من زلزلة الساعة.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة بالأمر بالتقوى وبالحديث عن زلزلة الساعة وأهوال يوم القيامة، ولما كانت أهوال الساعة شديدة توجب الاستعداد بالتقوى والصلاة والركوع والسجود، وطاعة الرسول ﷺ والجهاد أمر الله في آخر السورة بذلك فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

ورد الحديث عن يوم القيامة في آخر سورة الأنبياء وأول سورة الحج تحدّث " لما ذكر الله الإعادة وما قبلها وما بعدها قي ختام سورة الأنبياء، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر يوم القيامة وأهوالها، حثاً على التقوى، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد "(١).

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

ورد الحديث في سورة النبياء عن الساعة في أكثر من موضع « افتتحت سورة الأنبياء

---

(١) فتح القدير، للشوكاني، ٣/ ٦٢١.

بقوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ وكان وارداً في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها الآيات رقم: {٣٥}، {٣٧}، {٣٩]، {٤٦}، { ٤٧}، { ٤٩}، {٩٣}، { ٩٧ }، وغيرها، إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد، وشديد الوعيد، وبالمقارنة مع مضمون سورة الحج تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بها في الساعة وما بعدها وما بين يديها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ - إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ثم اتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان»[1].

المقطع الأول: الأمر بالتقوى والإيمان بالساعة وأهوالها، الآيات: (١ – ٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وجماع القول في التقوى هو: طاعةُ الله واجتناب محارمه بمعنى: أن لا يراك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك.

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى، أي: إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله؛ فالزلزلة: شدة التحريك وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ [الزلزلة: ١].

« وروي: أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بني المصطلق فقرأهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٢ / ٦٠.

النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر»[١].

﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾ في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدونه فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها، « وقيل: تكون مع النفخة الأولى وقيل:تكون مع قيام الساعة حتى يتحرك الناس من قبورهم في النفخة الثانية ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة»[٢].

﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ ﴾ تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع. « ذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل «ومن قال: تكون في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته كقولهم: أصابنا أمر يشيب فيه الوليد يريد شدته»[٣] .

﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* بدأت الآيات بنداء الناس جميعا إلى تقوى الله، لأن التقوى هي أساس الخوف من الله والباعث الأساس إلى عبادته والالتزام بطاعته، واجتناب معاصيه، وبدون التقوى لا يمكن لأحد النجاة من عذاب الله، ولا الفوز برضوانه وجناته.
* أسلوب الدعوة إلى الله ينبغي أن يكون بالترهيب كما يكون بالترغيب؛ فالآيات في هذا

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٧٩٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، ١٢/ ٨ .
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ١ / ٣٦٣.

الموضع فيها ترهيب وتخويف من زلزلة الساعة، ووصفت الأهوال المصاحبة لها، وهو هول عنيف مرهوب، وذلك لأن «زلزل» مضاعف زل - إذا زال عن مقره بسرعة ضوعف لفظه لتضاعف معناه فإذا هو أشد رهبة من التهويل.

* من أسلوب الدعوة الاستدلال بالحس المشاهد على الغائب كتصوير شدة الهول كحال ذهول المرضعة عن رضيعها، وسقوط الحمل قبل أوانه، وحالة السكران بغير سكر. وإن كانت تلك الأهوال لا تقاس بالحجم والضخامة، إلا أن لها دلالة في النفوس خاصة النفوس الجامحة التي لا تردع عن معصية، فيدفعها إلى الاستعداد والتقوى.

* الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأنها تباغت الناس وهم على حالهم؛ والمشاهد المذكورة من رضاعة وحمل وسكر هي في الدنيا، وأما نسبتها للآخرة فهو على سبيل التعظيم.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

لما أمر الله بالتقوى استعداداً ليوم القيامة وهو المحور الأساس في السورة علل ذلك مرهباً لهم بقوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا ما يوجب الحذر والتقوى.

المقطع الثاني: المجادلة بغيرعلم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

سبب النزول:

«نزلت في النضر بن الحارث وجماعته ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قالوا: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وأنكروا البعث وإحياء من صار ترابا»[1].

(١) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي والسيوطي، ١ / ٤٣٣ .

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل كقولهم :الملائكة بناتُ الله ،والقرآن أساطير الأولين ،ولا بعث بعد الموت .فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار ترابا بغير علم يعلمه بل بجهل منه بما يقول»[1] .

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه ولياً فأنه يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم، وعبر بلفظ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾على سبيل التهكم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

* نهت الآيات عن إتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ويجعله يتطاول فيكفر بالله، ولا يستشعر تقواه، ولا يؤمن بالساعة فضلاً عن أن يستعد لها.
* والجدال في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعا، والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه، يبدو عجيبا من ذي عقل و قلب، سواء في وجود الله تعالى، أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة ما من صفاته.
* هذا النوع من الجدال بعيد عن كل علم ومعرفة ويقين؛ فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى فهو حتم مقدور يقوده إلى عذاب السعير. وأما الجدال بالأدلة لغرض الوصول للحق، المبني على الدليل الساطع والبراهين الواضحة فهو مطلوب.

وسيرد تفصيله في الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع.

(١) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، ٩ / ١٠٩ .

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

نهت الآيات عن إتباع الشياطين لأنها توقع الإنسان في غفلة عن التقوى والاستعداد للآخرة، وهذا يتفق مع محور السورة.

المقطع الثالث: الأدلة على البعث. الآيات (٥ - ٧)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

لما ذكر الله تعالى في المقطع الثاني المجادلين في قدرته، المنكرين للبعث والنشور ذكر في المقطع الثالث دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان، والثاني في النبات.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم مرة ثانية، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ثم جعلنا نسله من المني ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

مُخَلَّقَةٍ ﴾ واضحة الخلق مصورة وغير مصورة، والمخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا، فمن قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾ ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ كمال قوتكم وعقلكم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البينة، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي: وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها «ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فخاطب جمعا وقال في الثاني: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ فخاطب واحدا فانفصل اللفظ عن اللفظ ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث»[1] ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ وأخرجت من كل صنفٍ عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته شاهد بأن الله هو الحق ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا

---

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٩ .

الأرض الميتة بالنبات ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وبأنه قادر على ما أراد ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ يحيي الأموات ويعيدهم بعد ما صاروا رميماً، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

* ذكر الله في هذه الآيات الكريمة من الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة ما لا يستطيع أحد ردّها، ولا يملك العاقل إلا التسليم والإيمان كدلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان، وحياة النبات؛ فلينظروا في أنفسهم، وفي الأرض من حولهم.

* وجه الدلالة في هذه الآيات على البعث دلالة مزدوجة؛ فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على خلق الإنشاء قادر على إعادتها. «وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر»[1].

* لا ينبغي للمسلم أن يغفل عن أهمية الاستدلال بالأدلة الحسية المشاهدة؛ لأن الكفار لا يؤمنون بالقرآن ولا السنة فلا بد من مناقشتهم عقلياً وهذا ما اهتم به القرآن فلينتبه إليه الدعاة إلى الله.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

الحديث في هذا المقطع عن أدلة وقوع الساعة ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وهذا يتفق مع محور السورة التي أمرت بالتقوى وحذّرت من أهوال الساعة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٠٨.

المقطع الرابع: تابع المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيات (٨ – ١٦)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦ ﴾.

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

بعد ذكر الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود في المقطع الثالث، ناسب في ذكر من يجادلون في الله بغير علم ولا دليل ويبنون عقيدتهم على معيار النفع والضر واليأس من نصر الله. وقد أشار إليهم في المقطع الثاني ثم ذكر بعض الأدلة على وجوده سبحانه، ثم عاد في هذا المقطع الرابع: ليصف حالهم ويبين بطلان معتقدهم.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ﴾ نزلت في أبي جهل أنذره الله بالخزي والهوان في الدنيا، فقتل يوم بدر، وقيل في النضر بن الحارث ومعظم المفسرين على هذا، يجادل في وجود الله تعالى، أو أسمائه وصفاته، من غير علمٍ صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتابٍ نير بيّن الحجة بل بمجرد الرأي والهوى،

« كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس

مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان»[١] ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه، فهو كتصعير الخد ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ليصُدَّ الناس عن دين الله وشرعه. ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ « فمن كبره إذا دعي إلى الله أعرض عن داعيه، ولوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكباراً»[٢]، ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ والله لا يظلم أحداً من خلقه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ سبب نزول هذه الآية: «عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما رضي به واطمأن إليه وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرا ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ والفتنة البلاء أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا وذلك الفتنة»[٣].

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ﴾ أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله من الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبه حالهم بحال من أبعد

(١) تفسير الطبري، الإمام الطبري، ٩ / ١١٣ .

(٢) تفسير الطبري، الطبري، ٩ / ١١٣.

(٣) المرجع السابق.

في التيه ضالاً عن الطريق ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة، وقيل: الآية على الفرض والتقدير: لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ بئس الناصر وبئس القريب والصاحب﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ جزاء المؤمنين به، جنّات النعيم تجري من تحتهم أنهار الخمر والعسل واللبن.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله. فيتلقى جزاءه عدلاً، ولا ظلم في الحساب.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟ (١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

* ذكرت الآيات الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه، إلا أنه يوجد من يجادل في الله: كالنضر بن الحارث حيث ذكرت الآية رقم «٢» أنه كان يريد إنكار البعث، وفي الآية رقم «٨» أراد إنكار النبوة ونزول القرآن ووصف بأنه أعرض عن القول الحق ولوّى عنقه تكبراً ليضل عن سبيل الله، فحق عليه الهوان والذل في الدنيا والآخرة، وهو عاقبة كل متكبر، منكر للحق.

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا غير مقبول. فكيف إذا كان جدالا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٨٣.

بغير علم، لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على حجة ومعرفة، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق، ويهدي إلى اليقين، فيعوض عن هذا بالكبر ليضل عن سبيل الله فلا يكتفي بأن يضل، إنما يحمل غيره على الضلال.

* الله سبحانه لا يدع المتكبرين، إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزي أعظم، والتحقير أوقع، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع، والله ليس بظلام للعبيد.

* بينت الآيات المصير البائس لمن يعبد الله على حرف؛ فهم صنف من الناس يجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة: فإن أصابه خير اطمأنّ به وقال: إن الإيمان خير وإن أصابه سوء عاد للكفر والضلال، وأما المؤمن فإنه يعبد ربه شاكراً له في الرخاء وصابراً على البلاء لا يفتتن في دينه.

* من مسه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليزيد من ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضر عنه فإن الله ناصره كما وعد الله رسوله ﷺ بالنصر فنصره وأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة، ويقنط من عون الله له حين تشتد المحنة، فليفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بنفسه كل مذهب، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء.

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

ذكر الله مِن عباده مَن يعبدونه على حرف، قلوبهم غير مطمئنة بالإيمان إن حظوا بخير ثبتوا على إيمانهم، وإن أصابهم مكروه عادوا للضلال والكفر، ونسوا أهوال الساعة، فلا زاد لهم يدرؤون به عن أنفسهم العذاب، ومحور السورة ركّز على زاد التقوى، فالمؤمن التقي يصبر عند البلاء ويشكر وقت الرخاء.

المقطع الخامس: الفصل بين الأمم والاعتبار بهم. الآيات (١٧ – ٢٤)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الخامس والرابع:

بعد ان ذكر الله أحوال المشركين والمنافقين والمؤمنين، بين في هذا المقطع أن الله يقضي بينهم جميعاً، ليبين المحق من المبطل، ومن يهديه ومن لا يهديه، وبين أنه ما كان لهم ان يختلفوا لأن الكون كله خاضع لسلطانه طوعاً أو كرهاً.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ هم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿ وَٱلۡمَجُوسَ ﴾ هم: عبدة النيران ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ ﴾ هم:العرب عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يسجد لعظمته

كل شيء طوعاً وكرهاً، الملائكة في أقطار السماوات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع،: « وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة. والغرض من الآية: بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره»[1] ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويُغني ويُفقِر، ولا اعتراض لأحد عليه. ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ ﴾ يهنه الله ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته»[2].

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ سبب نزول هذه الآية: «عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم بالله لنزلت هذه الآية في ستة من قريش حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد ابن عتبة هذان خاصمان اختصموا في ربهم الى آخر الآية ١٩ »[3]، وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار قالت الجنة: خلقني لرحمته وقالت النار: خلقني لعقوبته»[4] والأول أظهر لذكره سبحانه ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين، والمعنى عام يشمل كل مؤمن وكل كافر. ﴿ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه؛ فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٨٣.
(٢) تفسير البغوي، ١/ ٣٧١ .
(٣) تفسير الثوري، ١/ ٢٠٩ .
(٤) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٦٣٥.

﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ فصلت لهم ثيابٌ من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قُطِّعَتْ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي؛ لأن الموعود منه كالواقع المحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان) « والغرض أن الحميم إذا صب على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم [1]، ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ يقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغوٌ ولا كذب ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين.

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازي ٣ / ٣٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

* قسمت الآيات الناس إلى قسمين مؤمن وكافر، فالمؤمن استجاب لربه وسجد له مع سائر المخلوقات التي خلقها الله في السموات والأرض من جبال وشجر وشمس وقمر.. الخ ونعم الساجدين، فله جنات الخلود، والكافر شذّ عن سنن الله ومنهجه وتمرد عليه، سجد لغيره فله عذاب السعير. وهذا يتفق مع عدل الله سبحانه.

* رهّب الله سبحانه الكافرين من عذابه الأليم بتصوير مشاهد وأهوال يوم البعث؛ فهو يوم مزلزل عنيف رهيب: كما ورد في المقطع الأول. وكذلك رهّب في هذا المقطع فذكر صورة العذاب: للكافرين فثيابهم من نار، يصب من فوق رؤوسهم الماء المغلي الحار، يذيب ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد، لا يستطيعون الخروج من حريقها ولهيبها؛ فأيُّ عاقل لا يعتبر ويفيء إلى ربه، اللهم إلا الذين كفروا.

* رغّب الله المؤمنين، فوعدهم بدخول جنات تجري من تحتها الأنهار ويلبسه من اللؤلؤ والحرير، لأن من يحذر من الترهيب، ويخشى الله ويتقه فمن حقه أن يطمع في رحمة الله وكرمه، والله سبحانه لا يضيع جزاء المحسنين.

* يستفاد من أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة ،وسبق ذكره.

المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

المتقون يكونون بين الخوف والرجاء ،والترغيب والترهيب ،فيحرصون على السجود لله وهو ما يدل على الطاعة والتقوى والخشية من الله والاستعداد للقائه ،والطمع في رحمته ،وهو محور السورة.

المقطع السادس: الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام. الآيات(٢٥ – ٣٧)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وذكر ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته، ناسب أن يذكر فرقاً بينهم، كعدم تعظيم الكافر لشعائر الله والصد عن المسجد الحرام، بينما المؤمن يعظم الله وشعائره لأنها من تقوى القلوب.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

عدّد تعالى بعض جرائم الكافرين ،فقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾جحدوا بما جاء به محمد ﷺ ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه «لا يريد به حالا ولا استقبالا وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم :فلان يعطي ويمنع ولذلك حين عطفه على الماضي وقيل هو حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ ﴾ وخبر ﴿ إِنَّ ﴾ محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون[١] » وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية، وحاولوا صدّ المؤمنين مرات عديدة ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ ﴾ الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم الحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ ﴾ ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يهم فيه بمعصية ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ نذقه أشد أنواع العذاب الموجع « قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدَنَ همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد: تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات». [٢] ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة وأعظمها وهو القيام والركوع والسجود ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ ونادِ في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق «ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذن في الناس بالحج، قال يا رب: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إنّ الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من

(١) تفسير البيضاوي، ١/ ١٢٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ٤٢٠.

كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك»[1] ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركباناً على كل جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد ورد الضمير إلى الإبل ﴿ يَأْتِينَ ﴾ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾ [العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية: «وإنما نكَّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات»[2] ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم والمعز ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة، والفقير الذي أضعفه الإعسار، والبائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه والفقير الذي لا يكون كذلك، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل، والعتيق: القديم الذي سمي به لأنه بيت وضع للناس. ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾ من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم، ﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هي ما لا يحل انتهاكه ﴿ فَهُوَ ﴾ أي تعظيمها ﴿ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أكلا بعد الذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه في ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه

---

(١) الجامع للقرطبي، ١٢/ ٣٨.

(٢) التفسير الكبير، الرازي ٣/ ٤٠.

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ من للبيان أي الذي هو الأوثان ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ أي الشرك بالله في تلبيتكم أو شهادة الزور»[1].

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله، ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ شرعنا لكل أُمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله: وهو مشروع في جميع الملل ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ ﴾ ليحضروا منافع لهم من أمر الدنيا والآخرة ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام يعني: التسمية على ما ينحر في يوم النحر وأيام التشريق ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة «وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من نسائكهم فأُمر المسلمون أن يأكلوا ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ الشديد الفقر»[2] ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ بشر المطيعين المتواضعين

---

(١) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، ١ / ٤٣٧ .

(٢) الوجيز، الواحدي، ١ / ٧٣٢ .

الخاشعين بجنات النعيم، تخبت له قلوبهم تخضع وتطمئن، و«المخبت الخاضع المطمئن إلى ما دعى إليه»[١]، ووصفهم بأربع صفات فقال﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليهم فكأنهم بين يديه واقفون ،ولجلاله وعظمته مشاهدون﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ والإبل السمينة - سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى ،وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الأثمان روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب وأن عمر ﷺ أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار فإنها أي فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ ﴾ نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ ﴾ أاذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا ﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كنايةٌ عن الموت ﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ ﴾ كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتر أي السائل، « الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال»[٢] ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة

---

(١) التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد المصري، ١/ ٣٠٤.

(٢) التفسير الكبير، الرازي، ٣/ ٤٥.

أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها، وسبب نزولها: « كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب الرسول ﷺ: نحن أحق أن ننضخ، فنزلت»[1]، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

* أمر الله إبراهيم – عليه السلام – أن يقيم الكعبة على التوحيد، وأن يطهرها من رجس الشرك؛ لكي لا يكون معبوداً في الأرض إلا الله وحده.

* يجب أن تكون حرية العبادة في الحرم المكي لجميع الناس ،من أهل مكة وغيرهم ،ولا يجوز لأحد أن يهم فيه بمعصية؛ فمن فعل قاصداً عامداً فله عذاب أليم.

* تبين الآيات مدى محاولات الكفار للصد عن سبيله، ويستنكر الصد عن المسجد الحرام، وليس المسجد الحرام فحسب بل المقصود كل أماكن العبادة، خاصة المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، لا يجوز الاعتداء عليها وهذا ما أمر به الرسول ﷺ وأمراء الجيوش من الصحابة رضي الله عنهم، خاصة عند الغزو والفتوحات سواء كانت في بلاد المسلمين أم الكفار. ومن صدهم عن سبيل الله، محاولتهم الآن هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان المزعوم مكانه، ومنع المسلمين من الصلاة فيه.

* شرّع الله تقديم الذبائح في جميع الشرائع والملل و تقديم الذبائح لله دليل شكر له على نعمة الهداية؛ لذا يجب أن يكون الذبح خالصاً لوجهه الكريم، وأن يذكر اسمه تعالى عند الذبح

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبه الزحيلي، ١٧ / ٢١٧.

لمخالفة المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان التي لا تخلق شيئاً، والله هو الخالق الرازق المستحق الطاعة.

* ذكرت الآيات بعض شعائر الحج وما وراءها من أجل تحريك مشاعر التقوى في القلوب، فالله لا يحتاج للهدي بل الناس يحتاجون لتنفيذ أوامر الله ليحظوا بالتقوى، وأضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب، ينبغي أن يقدم الحاج أفضل ما يستطيع من الهدي، لأن الرسول ﷺ فعل ذلك كما تقدم في التفسير الإجمالي للآيات.

* ركّز الله على إطعام الفقراء، القانع و المعتر وفي هذا إشارة إلى أهمية تحقيق التكافل الاجتماعي والتعاون في المجتمع وهومن دروس وفوائد الحج.

* لا يجوز لمؤمن مستطيع، يملك الزاد والراحلة، أن يؤخر الحج، فإن مات فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً كما أشار الحديث.

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

لما كان تعظيم شعائر الله وحرماته ومقدساته والدفاع عنها من التقوى البالغة، بين الله أهمية تعظيم شعائره، فإنها من تقوى القلوب، وهذا هو محور السورة.

المقطع السابع: الإذن بالقتال والدفاع عن المؤمنين. الآيات (٣٨ – ٤١)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السابع والسادس:

لما بيَّن تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، ناسب في هذا المقطع أن يبيَن: أنه يدافع عن المؤمنين، وذكر الحكمة من مشروعية القتال، ومنها الدفاع عن المقدسات، ومنع الصد عن سبيل الله والمساجد، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفِّ كيدهم عنهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ ﴾ فيه محذوف تقديره: أُذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا، وورد في سبب نزول هذه الآية أكثر من رواية وكلها بنفس المعنى منها: « أخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير:أن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلى المسلمون بمكة وسطت بهم عشائرهم ليفتنوهم عن الإسلام وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم فأنزل الله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الآية» [1]، وهي أول

(١) الدر المنثور، السيوطي، ٦ / ٥٧ .

آيةٍ أُذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ يعني محمداً وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج:﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ ﴾ لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ أي كنائس اليهود ﴿ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ ﴾ ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً، ومعنى الآية أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ « قسمٌ أي: والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، عزيزٌ لا يُقهر ولا يغلب ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، هم أمة محمد ﷺ ولله عاقبة الأمور أى مرجعها إلى حكمه وتقديره وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم»[1] والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ دعوا إلى الخير ونهوا عن الشر ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره.

---

(١) تفسير النسفي، ٣/ ١٠٦ .

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

* هذه الآيات الكريمة هي أول آيات الإذن بالقتال، بعد أن أمروا بالصبر في مكة فلم يؤذن لهم بسبب قلة عددهم، وخشية الفتنة في الدين ولكن بعد أن قويت شوكة المسلمين وتحولوا للمدينة، أصبح بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم ودينهم.
* أهداف مشروعية القتال في الإسلام أهداف سامية؛ لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا:ربنا الله، وليس المقصود التدمير والفساد في الأرض وظلم الناس وحملهم على الدخول في الدين فلا إكراه في الدين، لذا كانت أهداف القتال في الإسلام متميزة عن أهداف الدول الباغية والمعتدية وإن رفعت شعارات الحضارة والإصلاح والتطوير والحرية.
* الهدف الأساس من نصر الله لعباده وتمكينهم في الأرض أن يقيموا شرع الله، وفعل ما أمر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده؛ لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر، ولن يضيع الله رجلا قط حفظ له دينه.
* خص المساجد دون غيرها من أماكن العبادة بقوله: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أماكن العبادة الحقيقية، فلم يذكر هذا الوصف في أماكن العبادات الأخرى مثل الكنائس والصوامع والدير... الخ.
* وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، وهذا فيه تأكيد للمؤمنين أنه سبحانه قادر على نصرهم إذا نصروا دين الله مهما بلغت قوة الكفار.

المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

وعد الله المؤمنين بالنصر، والتمكين لهم في الأرض، وتكليفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك للقضاء على الشرك والدعوة للتوحيد وهذه الأوامر هي التي تمكن الموحدين من التقوى والاستعداد لزلزلة الساعة.

المقطع الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم السابقة: الآيات (٤٢- ٤٨)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الثامن والسابع.

في المقطع السابع وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض وناسب قي هذا المقطع ذكر نموذج من نصر الله لرسله السابقين على الأمم البائدة كعاد وثمود وغيرهم، وهو تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين ليصبروا على ما وجدوه من أذى من الكفار، فإن الله مهلكهم كما أهلك الأمم الغابرة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته، وعظم معجزاته، ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً؟ ألم أبدّلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خراباً؟ فكذلك

أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ وهي مشركة كافرة ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟[1] وقيل المراد بالبئر: بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على تلة كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما [2]

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار!! وهلاّ عقلوا ما يجب أن يُعقل من الإيمان والتوحيد! ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً، وإن ذلك واقع لا محالة، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلِم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟ ولهذا قال بعد ذلك ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإليَّ المرجع والمآب قال أبو حيّان: لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أُمهلوا

(١) تفسير أبي السعود، ٦ / ١١١ .

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٣٧.

ثم أُهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم.[(١)]

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

* عرضت الآيات نماذج من مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين. وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من صد وإعراض، وتطمئن المسلمين، بالنصر والفوز!

* ذكرت الآيات أهمية وعي القلوب التي في الصدور، فمن لايفقه بقلبه ويستقيم فهو الأعمى الحقيقي لذا قال سبحانه « فإنها لا تعمى الأبصار » لفظ مبالغة كأنه قال ليس العمى عمى العين وإنما العمى كل العمى عمى القلب. من أجل هذا كانت منافذ الإدراك مهمة من يوظفها بحقها فإنه يزداد تقرباً من الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق: ٣٧].

* وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون، وإلى جوارها يعرض صورة مزرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون، وهي لا تملك لهم نصراً.

* نهت الآيات عن استعجال عذاب الله جلّ جلاله وقوله سبحانه ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ لطول العذاب وبؤسه السنين فما أجهل من يستعجل هذا.

* وكرر قوله: ﴿ وَكَأَيِّن ﴾؛ لأنه جلب معنى آخر، فذكر أولا القرى المهلكة دون إملاء بل بعقب التكذيب ثم ثنى سبحانه بالممهلة ليلا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم، فوعد الله لا يتخلف.

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٧ / ١٦٩.

المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة.

من لم يحافظ على التقوى ويتبع منهج الإسلام ويستعد لليوم الآخر، فسيكون مصيره كمصير الأمم السابقة من الهلاك في الدنيا والآخرة. لأنه لم يمت على التوحيد.

المقطع التاسع: إحكام الوحي للنبي ﷺ الآيات (٤٩ – ٦٠)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع التاسع والثامن:

لما ذكر الله مصير الأمم الهالكة بين في هذا المقطع سبب هلاكهم وهو عدم إتباعهم لدعوة رسلهم، مدح الله المؤمنين المصدقين برسالة رسوله والمهاجرين لنصرة دين الله ورسوله وبين ما أعد لهم من الجزاء وذم الكافرين وتوعدهم بسوء العقاب.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ يوجه الله رسوله ليعلن للناس: « إنما أرسلني الله إليكم نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد وليس إلي من حسابكم من شيء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم وإن شاء تاب على من يتوب إليه وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ »[1].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة ورزق كريم في جنان النعيم ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فأولئك هم أصحاب النار، الشديد عذابها ونكالها شبههم من حيث الدوام بالصاحب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نداءً لهم، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإيذائهم. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ وما أرسلنا رسولاً ولا نبياً فحدث نفسه بشيء وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوسواس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأنَّ الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين. هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين، وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون إلخ « ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح. ومما يدل على

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٦.

بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانك هذا بهتان عظيم»[1].

﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها « وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه المجمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعريهم شبهة ولا تزل أقدامهم»[2]. ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وفتنةً للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل، والنضر، وعتبة ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ ﴿ بَعِيدٍ ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ يؤمنوا بهذا القرآن ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف مَنْ في قلبه مرض ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٨٠٧.

أيضاً كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل وقيل اليوم العقيم هو يوم بدر « في قوله عذاب يوم عقيم يوم بدر الآية» [1] ووصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ ﴾ ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ ﴾ ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم «بمعنى المماثلة في الجنس فإن المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن ولا يستطيعون ذلك إلا بالجهاد لأن المشركين كانوا أهل كثرة وكانوا مستعصمين ببلدهم فإلجاء من يمكن إلجاؤه إلى مفارقة وطنه إما بالقتال فهو إخراج كامل أو

(١) تفسير الثوري، ٢١٥ .

بالأسر»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك.

الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

* وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار بالنار، والتبشير بالجنة، قدّم الله الإنذار على البشارة فإن قيل: إنه ﷺ بشر المؤمنين أولاً، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال {إنما أنا لكم بشير ونذير} والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب، وهذا من باب مراعاة الخطاب لمقتضى الحال حبّذا يستفيد منه الدعاة.
* بين سبحانه أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم وهو الجنة.
* تسلية جديدة للرسول لما يردده الكفار على لسان الشياطين فقد أصاب الرسل السابقين.
* السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم في أمور الدنيا جائز؛ لأنهم بشر، ولكن الله عصمهم من الخطأ في تبليغ الرسالات وهو فتنة،. وهي تدل على إحكام الوحي.
* حذّر الله من الساعة مرة ثانية وهو دليل على خطورتها، وضرورة الاستعداد لها.
* ذكر الله فضل المهاجرين في سبيله ووعدهم بالرحمة والمغفرة والرزق الحسن، ففيه دلالة على فضل الهجرة والبحث عن مكان يتمكن المسلم من طاعة ربه فيه.
* سمي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا في قوله تعالى ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ لأن الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء هو قصد العقاب على خروج المؤمنين عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم، وهو عقاب ظلم.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٧٩٩.

المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

التركيز على مهمة الرسول ﷺ منذراً ومبشراً، وعصمة الله له من فتنة الشياطين، ثم بيان فضل المهاجرين الذين نصروا الله ورسوله، يتفق مع محور السورة.

المقطع العاشر: تابع المقطع الثالث مزيد من دلائل قدرة الله تعالى

الآيات (٦١- ٦٦)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع العاشر والتاسع:

لمّا ذكر تعالى ما دّل على قدرته الباهرة في المقاطع السابقة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه، أتبعه هنا بأنواع أخرى من الدلائل على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

التفسير الإجمالي للمقطع العاشر:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار، يدخل كلاً منهما في الآخر. بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء، ﴿ وَأَنَّ

﴿ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ ذلك بأن الله هو الإله الحق﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر. ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ استفهام تقريري أي ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟ ﴿ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ ﴾« فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء بصيغة المضارع ﴿ فَتُصۡبِحُ ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن»[1]﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ لطيف بأرزاق عباده خبير بها في قلوبهم من القنوط، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ جميع ما في الكون ملكه جل وعلا، خلقاً وملكاً وتصرفاً، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد، وهو المحمود في كل حال ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن﴿ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ ﴾ وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾ أي إذا شاء وذلك عند قيام الساعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ﴾ يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ بعد موتك للحساب والثواب والعقاب ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ مبالغ في الجحود لنعم الله، المراد بالإنسان الكافر.

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٣/ ٦٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع العاشر:

* ذكرت الآيات مزيداً من أدلة قدرته تتمة للمقاطع السابقة، وفيها تأكيد على نصره للمؤمنين، وقدرته على إهلاك الكافرين؛ فهو يولج الليل في النهار، والنهار في الليل وينزل المطر من السماء فتصبح الأرض مخضرة، مقدراً فيها أرزاق العباد، فهو لطيف بهم، ويمسك السماء أن تقع على الأرض، فهو رحيم ورءوف بهم، ثم بعد ذلك يجعلون له أنداداً، أفلا يعقلون ؟ فتعساً لهم، وهنيئاً للموحدين.

* على الرغم من ذكر الدلائل الباهرة القوية الدالة على قدرة الله وعظمته وما لها من رهبة إلا أنه وردت فيها إشارات تطمئن المؤمنين برحمته كقوله تعالى:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فليحمدوه ويوحدوه ولا يشركوا به ولا ينكروا نعمه لئلا ينطبق عليه قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾. والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره ؟ وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف!!

المناسبة بين المقطع العاشر ومحور السورة:

نفس المناسبة التي ذكرت في المقطع الثالث حيث الغرض من ذكر هذه الأدلة لإثبات أن الله واحد، ولا معبود سواه فليحذر العاقل من عذابه ومن أهوال الساعة، ويستعد للقائه.

المقطع الحادي عشر: بطلان شريعة ومنهاج المشركين الآيات (٦٧ – ٧٦)

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)﴾.

المناسبة بين المقطع الحادي عشر والعاشر:

في المقطع السابق ذكر مزيداً من دلائل قدرته سبحانه؛ فذكر في هذا المقطع موقف الناس من تلك الدلائل بين مؤمن وكافر، فهو تأكيد للمقاطع السابقة بأن الله سبحانه يفصل بين المكذبين والصادقين فهو أعلم بما فيه يختلفون.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ لكل نبي من الأنبياء وأمةٍ من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ هم عاملون به أي: بذلك الشرع، وسبب نزولها: «قال كفار خزاعة للمسلمين تأكلون من ذبائحكم التي تذبحونها، ولا تأكلون من الميتة التي

يذبحها الله، فنزلت» [١].

﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ ﴾ لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ أدعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإنك على طريق واضحٍ مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون في أمر الدين، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهلُ عليه يسيرٌ لديه.

ثم بيَّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله فقال ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿ وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ ﴾ وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴾ ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ وإذا تليت على هؤلاء المشركين ءايات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ يكادون يبطشون بالمؤمنين

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ١٧ / ٢٦٩.

الذين يتلون عليهم القرآن ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ ﴾ قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ ﴾ يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ﴾ إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله! ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾ « لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف»[1] ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ ﴾ ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير؟! ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ ﴾ الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ ﴾ يعلم ما قدموا وما أخّروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* تؤكد الآيات على أن الله جعل لكل أمة منهجا ومسلكا من الشرائع، والله جعل للمسلمين منسكاً لا يجوز مخالفته؛ لأن الحق ظهر ورسالة الإسلام هي الخاتمة التي يجب إتباعها

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ٤١٥.

والالتزام بها.

* الآيات تعلمنا الأدب فإذا خاصم الناس بالباطل، فلنقل لهم: «الله أعلم بما تعملون».
* إن عبدة الأوثان ليس لهم دليل سمعي نقلي أو عقلي، فهم يستمدون شرعهم من أهوائهم وأمزجتهم، الله جلّ وعلا محيط بأفعال وأقوال عباده يحاسبهم عليها يوم القيامة.
* ضرب الله مثلاً لتقريب الأفهام، بيّن فيه ضعف من يطلب أو يرجو غيره بمخلوق ضعيف وهو الذباب، إذا أخذ شيئاً من طعامهم فإنهم لا يستطيعون طلبه؛ فهذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً « وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان»[1].
* الاختيار المطلق لله في اصطفاء الملائكة والرسل من الناس ،فلا يحق الاعتراض.

المناسبة بين المقطع الحادي عشر ومحور السورة:

بعد أن تكلم عن الإلهيات والنبوات أتبعه بالشرائع والأحكام تؤكد الآيات في هذا المقطع على ضرورة إتباع منهج الرسول ﷺ وعدم الخروج عنه ،لأن طاعة غير الله لا فائدة منها، فغيره لا يستطيع أن يخلق ذبابا ،ولا استرداد ما أخذه الذباب ،لذلك يجب أن يكون التوحيد الخالص لله وحده.

(١) الجامع لتفسير القرآن، القرطبي، ١٢ / ٨٩.

المقطع الثاني عشر: أوامر الله للمؤمنين الآيتان (٧٧ – ٧٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الثاني عشر الحادي عشر:

ذكر الله في المقطع السابق ضعف المدعوين من دونه وأنهم لا يملكون شيئاً ولا يخلقون شيئاً وأن الطاعة له وحده بيّن لهم في هذا المقطع بعض التكليفات كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والاعتصام بالله، وهي التي تمت الإشارة لها في المقطع السادس.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ ﴾ صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ ﴾ افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات كصلة الأرحام ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾ دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه؛ لأنه الدين القيم ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ الله سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي

هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً « المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضاً بيَّن فضلكم على الأمم وسمَّاكم بهذا الاسم الأكرم، لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه»[1] ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلَّغتهم ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ استمسكوا بحبله المتين واثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ فتمام الفضل والمنّة أن يكون الله تعالى معيناً لكم وناصركم في جميع أموركم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* كلف الله المؤمنين بأوامر؛ لأن فيها فلاحهم وفوزهم إذ علق به الفلاح بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة خصهما بالذكر، وأجمل سائر التكليفات بقوله ﴿ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ ليشمل كل الخيرات ويتنافس فيه المتنافسون.
* الأمر بالسجود فيه دلالة على الخضوع الكامل لله وقد سبق في المقطع الرابع بيان أن المخلوقات جميعاً تسجد لله ما عدا أكثر الناس، لذلك دعاهم إلى السجود مرة ثانية وإن ورد بعض الخلاف في هذه السجدة الثانية على النحو الآتي: « واختلف العلماء في عدد سجود القرآن فروي عن أحمد روايتان إحداهما: أنها أربع عشرة سجدة وبه قال الشافعي وأبو حنيفة هي أربع عشرة فأخرج التي في آخر الحج، والثانية:أنها خمس عشرة فزاد سجده»[2].
* قيّد الجهاد بقوله ﴿ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ بذل كل طاقة وجهد وغاية ما في الوسع للدفاع عن

---

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٣ / ٧٨.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ١٥٦.

العقيدة والعرض والممتلكات، ورفع راية الإسلام خفّاقة عالية، فعلى كل مسلم بذل ما يستطيع من نفسه أو ماله أو غير ذلك ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ [التوبة: ١١١].

* يذكر الله عباده برحمته حيث يسر لهم فلم يكلفهم ما لا يطيقون، ورفع عنهم كل حرج، فهو دين الحنيفية السمحاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ والتي كان عليها إبراهيم عليه السلام فهو سمّانا مسلمين من قبل، فهّلا استسلمنا وانقدنا لله وحده ولازمنا الشكر والثناء الحسن وعبدناه حق عبادته.

* ميّز الله هذه الأمة فأكرمها بأن جعلها شاهدة على الأمم يوم القيامة بأن رسلهم بلغتهم مع شهادة الرسول ﷺ وهذا له يقتضي الشكر والحمد.

* اللجوء والاعتصام لا يجوز أن يكون إلا بالله وحده، فهو نعم المولى ونعم النصير

المناسبة بين المقطع الثاني عشر ومحور السورة:

ما ورد في هذا المقطع من أوامر وتكليفات؛ تقوى الله حق تقاته، والصلاة والزكاة والجهاد وطاعة الرسول ﷺ به تتحقق الوحدانية والتقوي والخشية والاستعداد للقاء الله.

سورة المؤمنون

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

سميت بسورة «المؤمنون»؛ لذكر صفات المؤمنين فيها، أو هي سورة الإيمان، بكل قضاياه ودلائله وصفاته التي تميّز شخصية المؤمن. " وقد وردت تسمية هذه السورة في السنة عن عبد الله بن السائب قال: صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة فركع "، ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ﴾، ويسمونها أيضا سورة الفلاح». [1]

ب - فضائل سورة المؤمنون:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: « كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا - ثم قال - أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة - ثم قرأ - ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ حتى ختم عشر آيات». [2]

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت قضية التوحيد والإيمان.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

سورة المؤمنون مكية بالاتفاق « ولا اعتداد بتوقف من توقف في ذلك بأن الآية التي ذكرت

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٨١٤.

(٢) الجامع القرطبي، ١٢ / ٩٤ والحديث رواه الترمذي في سننه، رقم ٣٠٩٧.

فيها الزكاة وهي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ تعين أنها مدنية لأن الزكاة فرضت في المدينة؛ فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعينة في الأموال، وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦-٧]، وفصلت سورة مكية بالاتفاق، وقال تعالى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [مريم: ٥٥]، ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل»[1].

أقول: وعلى فرض وجود آية أو بعض آيات مدنية، فهذا لا يخرجها عن كونها مكية.

هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه:

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الطور وقيل:الملك، وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور.

وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة فالجمهور عدوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ آية، وأهل الكوفة عدوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ آية وما بعدها آية أخرى»[2].

و - محور السورة:

هذه السورة تدور آياتها تتحدث عن الوحدانية، وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه، فصفات المؤمنين، ودلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وإرسال الرسل تترا وموقف أقوامهم منهم، والتوجيهات الربانية لرسوله ﷺ، وما ذكر من بعض اللقطات من مشاهد يوم القيامة، كل ذلك يثبت وحدانية الله، ويبطل الشرك؛ لذا عقّب في نهاية السورة بتقرير التوحيد المطلق والتوجه إلى الله وحده بطلب المغفرة والرحمة.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٨١٤.

(٢) المرجع السابق.

ز. المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة المؤمنون، أو الإيمان - كما تقدم - وهو يرتبط بمحورها ارتباطاً وثيقاً فالاسم مشتق من موضوع السورة ومحورها.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة وختمت بالحديث عن الفلاح، فأثبتت الفلاح للمؤمنين في مطلعها ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، ونفته عن الكافرين في ختامها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وهذا ربط واضح واتساق قوي بين المطلع والختام، فلما ذكر الفلاح للمؤمنين في مطلعها، قد يتوهم البعض باحتمال الفلاح لغيرهم فنفى ذلك الوهم في ختام السورة.

وقد اتسم مطلع السورة بأسلوب الترغيب في التوحيد والإيمان، وبأسلوب الترهيب من الشرك في آخرها، للجمع بين الترغيب والترهيب، باتساق مطلع السورة وختامها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

ختمت سورة الحج التي سبقت سورة المؤمنون بتوجيه المؤمنين إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، وفعل الخيرات، فلما كان لابد من معرفة جزاء وثواب من يلتزم بهذه الصفات، كان الافتتاح به في سورة المؤمنون، فوعدت بالفلاح، والفردوس الأعلى في جنّات النعيم، وهذا هو الكرم الرباني والثواب العظيم.

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

مضمون سورة المؤمنون يشبه مضمون سورة الحج، ففي سورة الحج: الخشية من الساعة وذكر دلائل قدرة الله قي خلق الإنسان وفي الكون، وفصلت موقف الأمم من الرسل، وجزاء المؤمنين، وسوء عاقبة الكفار، والتوجيه لفعل الخير والطاعات، وهي نفس المواضيع التي تناولتها سورة المؤمنون.

المقطع الأول: صفات المؤمنين (١ – ١١)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

يبشر الله المؤمنين بالفلاح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ فازوا وسعدوا، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم: ﴿ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ والخشوع في اللغة الخضوع والتواضع، والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أولها إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، لا قيمة لها، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

سبب نزول الآية:

« قيل: إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها فنهوا بهذه الآية عن ذلك»[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ تاركوه، ترفعا عنه، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى، وحفظ اللسان حفظ لجميع الأعضاء، لذا قال النبي ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟» قلت : بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا،

(١) الجامع، الطبري، ٩ / ١٩٦.

قال وهل نحن مؤاخذون بها نتكلم به يا رسول الله، قال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد السنتهم » [(١)] فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات، والحرص على أداء الزكاة:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ ﴾ مؤدون لزكاة أموالهم، طهرة لأنفسهم وأموالهم ومجتمعهم، فأحسنوا في طاعة الله، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ ﴾ عن الزنا، ومقدماته، كالنظر واللمس ونحوهما ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ الزوجة الشرعية، والأمة من الإماء المملوكات ﴿ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلهما ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ غير الزوجة والأمة المملوكة، وهؤلاء حكم الله عليهم بالغفلة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحريم كل نكاح ليس شرعياً، كنكاح المتعة، وغيره ﴿ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ الإيماء، أسيرات الحرب.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ ﴾ مراعون لها، حريصون على أدائها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ، وكذلك العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ ﴾ يداومون عليها بخشوع تام، في أوقاتها وحدودها وشروطها وأركانها، كاملة غير منقوصة.

ثم تذكر الآيات جزاء من يتصف بتلك الصفات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ ﴾ لهم الفردوس الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله،

---

(١) مسند الإمام أحمد، رقم ٢١٠٠٨.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يبغون عنها حولا لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وليس بعده نعيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* وعد الله المؤمنين بالفلاح، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة فلاح الفرد والجماعة، وعد الله لا يخلف الله وعده، فلاح فوق التصور والإدراك.

والتعبير بـ قد يجوز أن يكون تأكيدا لفلاح المؤمنين، ويجوز أن يكون تقريبا للماضي من الحال؛ لأن قد تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه كقول: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها؛ فيكون المعنى: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال.

* وصف الله عباده المؤمنين المستحقين للفلاح والفوز بصفات، وأوجب عليهم أن يتصفوا بها، فلا فلاح بدونها؛ لأنها صفات تميز حياة الإنسان عن حياة الحيوان.

* يخشعون في صلاتهم؛ فتخشع جوارحهم وأرواحهم، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

* ويعرضون عن اللغو، ليتفرغوا لذكر الله وطاعته، ويجوز للمؤمن أن يروح عن نفسه بين الحين والحين، ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو.

* ويؤتون الزكاة، طهارة للقلب والمال، فهي تأمين اجتماعي للأفراد، ووقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.

* تحريم الزنا طهارة للروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع، والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية، ويحرم نكاح المتعة، وكل نكاح غير شرعي.

* النسوة اللواتي يجئن إلى المعسكر الإسلامي أسيرات، تقضي قاعدة التعامل بالمثل

باسترقاقهن، إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق، ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب – وهذا ما حرمه الإسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية.

ويشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

* أداء الأمانات إلى أهلها؛ فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، والأمانات والعهود تشمل كل ما بين العبد وخالقه، وما بين العبد والمخلوقين.

* وكرر الصلاة مرة أخرى لأهميتها، فلا يفوتونها كسلا، ولا يضيعونها إهمالا، ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام، إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة، وختمت بالصلاة؛ للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.

* جعل الله ثواباً لمن يتصف بتلك الصفات أن يدخله الفردوس الأعلى، وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

محور السورة يتحدث عن التوحيد والإيمان بالله، فلما ذكر الله صفات المؤمنين الموحدين ذكر نتيجة توحيدهم وهو الفلاح والنجاح في الفردوس الأعلى.

المقطع الثاني: أدلة وحدانية الله الآيات (١٢ - ٢٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والأول:

لما ذكر الله صفات المؤمنين الفالحين في المقطع الأول، ثني بذكر دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، كما أن في عرض تلك الأطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة والدلائل الكونية:في خلق المخلوقات بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والاتصاف بصفات المؤمنين التي ذكرت في المقطع السابق، هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال، في الحياتين: الدنيا والآخرة. وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه فذكر ابتداء خلق آدم عليه السلام، وأنه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ قد سلت وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك، ثم يستطرد قي ذكر بقية المراحل:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو الرحم، القرار المكين.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ ﴾ التي قد استقرت قبل ﴿ عَلَقَةً ﴾ دما أحمر، بعد مضي أربعين يوما من النطفة، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ ﴾ بعد أربعين يوما ﴿ مُضْغَةً ﴾ قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها. ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عمادا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً، إلى أن صار حيواناً، وفي الحديث الصحيح: « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح» [١] الحديث فإذا نفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة»[٢] وأثنى الله على نفسه، وهو المستحق سبحانه للثناء والمجد ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى وتعاظم وكثر خيره ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها.

لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ سقفا للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ سبع سماوات طباقا، كل طبقة

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم/ ٣٠٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور١ / ٢٨٢٢.

فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقا ولا ننساه، ولا نخلق خلقا فنضيعه، وكثيرا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه؛ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ يكون رزقا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقص فتختل الحياة، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضا معدا في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلا، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب في أغوار الأرض لا يوصل إليه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ بذلك الماء ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ خص الله تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في تلك الجنات ﴿ فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ متعددة وكثيرة، ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر؛ لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الآكلين، أي: يجعل إداماً للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، وجلودها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم، ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ

﴿تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ جعلها سفنا لكم في البر، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلا كان أو كثيرا، فالذي أنعم بهذه النعم، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، وتوحيده، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

* ذكر الله في هذه الآيات أدلة واضحة بينة، تدل بكل وضوح على وحدانيته سبحانه، وقدرته العظيمة، لا يغفل عنها إلا هالك، ولا ينكرها إلا جاحد.
* التفكير فيما خلق الله عبادة يؤجر عليها، وطريق يزيد الإيمان ويثبته، فمن عظيم قدرته مراحل خلق الإنسان، من البداية إلى النهاية، وهذا ما يثبت وجود الخالق.
* عندما يتوصل العلماء إلى صنع جهاز، يعجب الناس ويدهشوا، فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾
* الآيات تدل على البعث؛ فالإيمان به واجب، والله القادر على خلق الإنسان أول مرة قادر على خلقه مرة أخرى.
* العاقل ينتفع بدلائل الإيمان الموجودة في الأنفس وفي الآفاق، المذكورة في هذه الآيات، ولا يغفل عنها، والربط بين هذه الدلائل الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية في سياق السورة.، ليعطي مساحة واسعة من التفكير والتأمل.
* خلق سبع سموات مستواها أعلى من مستوى الأرض في هذا الفضاء - خلقها الله بتدبير وحكمة، وفيها دليل القدرة الربانية.
* نزول المطر من السماء نعمة عظيمة، وهو ينزل بقدر؛ بحكمة وتدبير، لا أكثر فيغرق ويفسد ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب بددا بلا فائدة، وما أشبهه وهو مستقر في الأرض بماء النطفة وهو مستقر في الرحم، بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة.
* أنشأ الله بالماء جنّات من النخيل والأعناب نموذجان من الحياة في عالم النبات - كما ينشأ

الناس من ماء النطفة في عالم الإنسان - نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التي تحيا بالماء.

وخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون المباركة، وهي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء، عند الوادي المقدس المذكور في القرآن، لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص.

* سخّر الله بقدرته للإنسان مخلوقات ينتفع بها، فيها عبرة لمن يعتبر، فذكر منها اللبن السائغ اللطيف الذي يشربه الناس منها خارج من بطونها، فهو مستخلص من الغذاء الذي تهضمه وتمثله، فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائل السائغ اللطيف، وهذه معجزة إلهية، وأباح أكل لحوم الإبل والبقر والضأن والمعز، ولم يحل له تعذيبها ولا التمثيل بها، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية في نظام الحياة.

* ربطت الآيات بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك، بوصفهما مسخرين بنظام الله الكوني، الذي ينظم وظائف الخلائق جميعا، والكون كله مستسلم لله، يسير وفق سننه وإرادته.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة

من يتدبر دلائل الإيمان في الإنسان والكون، تدبر الفهم والإدراك، فإنه لا يملك إلا أن يوحد الله، ويخضع له، ولا يعرض عن تلك الدلائل والآيات العظيمة إلا غافل، أو جاحد، وكل هذا ذو صلة بمحور السورة.

المقطع الثالث: الإيمان بالرسل وموقف أقوامهم منهم: الآيات (٢٣ – ٥٢)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد أن ذكر الله الأدلة على وجوده وقدرته، في الأنفس والآفاق، التي توجب الإيمان به في المقطع الثاني، وربما لا ينتبه لها الغافلون، ولا يستدلوا بها على وحدانية الله؛ لذا ناسب في هذا المقطع أن يتحدث عن حكمته من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده ونبذ ما سواه، وبين سبحانه حال الأمم الذين كذبوا رسلهم، وسوء عاقبتهم، ليحذر العاقل كي يأخذ بالعبرة والموعظة، ويقبل على طاعة الله وتوحيده، ويبتعد عن الشرك والضلال.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

ذكر الله في هذه الآيات الكريمات قصة نوح مع قومه بشيء من التفصيل، وقصة الرسل دون تفصيل، وختم بنبينا الكريم صلى اله عليه وسلم:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ دعاهم إلى طاعتنا وتوحيدنا، والبراءة من كل شرك ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم نوح: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أطيعوا الله ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ما لكم من معبود غيره يجوز لكم أن تعبدوه ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فقال الأشراف من قومه: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم إنما هو إنسان مثلكم ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ « يريد أن يصير له الفضل عليكم فيكون متبوعا وأنتم له تبع ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ولو شاء الله أن لا نعبد شيئا سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدي إليكم رسالته.

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يدعونا إليه نوح من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية وهي آباؤهم الأولون"[1]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ اتهموه بالجنون﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ دعا نوح ربه ليستنصره على قومه ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

---

(١) تفسير الطبري، ٩ / ٢٠٩.

وَوَحْيِنَا ﴾ فأمره الله تعالى بصناعة السفينة، وإحكامها وإتقانها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وقد امتثل نوح عليه السلام فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، فدعا ربه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وهو من الدعاء المسنون عند النزول، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ «إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين دلالة واضحة على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء، عليم بكل شيء ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين»[1].

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ثم أنشأ الله بعد قوم نوح قوماً آخرين، قيل: المراد بهم عاد فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ فهم الذين عذبوا بالصيحة، ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ هود أرسل لقوم عاد، وصالح لثمود، وكل كذبوا الرسل فاستحقوا الهلاك، وفي هذا عبرة لكل معتبر.

ثم تحدث الآيات عن دور الملأ وموقفهم المعادي من الدعوة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ وصف أشرافهم وقادتهم بالكفر والتكذيب ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ كذبوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب أو كذبوا بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ ﴾ وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٢٧- ٣٢٨.

﴿ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ قال الملأ لقومهم واصفين الرسول بأنه يساويهم في البشرية وفي الأكل ﴿ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ والشرب مما تشربون منه وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ مغبونون بترككم آلهتكم وإتباعكم إيّاه، من غير فضيلة له عليكم.

ثم صرحوا بنفي البعث وأنه افتراء على الله ﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ تعودون للحياة بعد الموت﴿ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ بعد ما توعدون أو بعيد ما توعدون،﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿ وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ بمصدقين له فيما يقوله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي ﴾ قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقونه البتة: رب انصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إيّاي ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ قال الله سبحانه مجيبا لدعائه واعدا له بالقبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ ﴾ وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه، وورد أنه " صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعا وقيل الصيحة: هي نفس العذاب الذي نزل بهم.

ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ ﴾ صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم"[(١)]

﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ من بعد إهلاكهم ﴿ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ « قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في سور القرآن كالأعراف وهود، وقيل:هم

(١) جامع القرطبي، ١٢ / ١١١.

بنو إسرائيل، والقرون الأمم ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ما تتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها»[١].

وسلسة الرسل متصلة ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لأن بين كل نبيين زمانا طويلا ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ بالهلاك أهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ سمراً وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم وهي جمع أحدوثة.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ بحجة بينة من اليد والعصا وغيرهما﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ تعظموا عن الإيمان﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ يعني: موسى وهارون ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من دان للملك: عابدا له، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ لكي يهتدي به قومه، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ « دلالة على قدرتنا ولم يقل آيتين قيل: معناه شأنهما آية وقيل: معناه جعلنا كل واحد منهما آية، ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ مستوية منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر". [٢]

ثم يوجه الله رسله للأكل من الطيبات، وعمل الصالحات﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء، على معنى أن كلا منهم خوطب به في زمانه فيدخل تحته عيسى دخولا أوليا ويكون ابتداء الكلام تنبيها على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم، واحتجاجا على الرهبانية في رفض الطيبيات أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا، والطيبات ما يستلذ

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٦٩٢-٦٩٤.

(٢) تفسير البغوي، ١/ ٤١٨.

به من المباحات، وقيل: الحلال الصافي القوام؛ فالحلال ما لا يعصى الله فيه والصافي ما لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل ﴿ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فأجازيكم عليه ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ ليس لكم رب سواي تعبدونه وتتقوه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث

* تؤكد الآيات حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا، ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات،. فبدأ بذكر نوح - عليه السلام - ليحدد نقطة البدء، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة، ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية، ولتقرير كلمة التوحيد التي جاء بها الجميع، والاستقبال نفسه الذي لقوه من الجميع، فإذا الكلمة التي قالها نوح - عليه السلام - هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين، فتجيب البشرية جوابا واحدا، تكاد ألفاظه تتحد على مر الأزمان.

* شاءت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر للاقتداء بهم والكفار يستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر، والاعتراض على بشرية الرسول اعتراض مكرور في كل زمان، تعرض له كل رسول، فهو اعتراض لا وجه له؛ لأن الملائكة لا يمكن الاقتداء بهم لاختلاف صفاتهم عن البشر، فاقتضى أن يكون الرسول من البشر.

* أعداء الإسلام يتهمون الرسل والدعاة بأنهم طلاب الدنيا والمناصب، وهذا مردود عليهم لأن الرسل جميعاً لم يطلبوا أجراً ولا سيادة على دعوتهم، ورسولنا الكريم ﷺ عرض عليه كل العروض الدنيوية، من منصب وجاه وسيادة ومال ونساء فأبى ترك هذه الدعوة.

* من أساليب أعداء الإسلام، إطلاق الشائعات ضد الرسل والدعاة واتهامهم بالكذب والافتراء، كاتهامهم بالجنون والسحر وغير ذلك، فمن يتعرض من الدعاة لمثل هذا، عليه

أن يصبر ويحتسب أجره على الله، ويستمر في دعوته.

* وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، وتوعد الظالمين بالهلاك، فاستجاب سبحانه لنوح ﷺ، فأرسل الطوفان، الذي يجرف كل شيء، ويطهر الأرض من رجس الشرك، فتنشأ على نظافة وطهارة الإيمان والتوحيد.

* أمر الله لنوح ﷺ بصناعة السفينة، دليل وجوب الأخذ بالأسباب؛ فالمدد والعون الرباني لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار لذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلين، جلسا بباب المسجد لا يعملان بالدرة وقال إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

* يحرص المسلم على دعاء الركوب والسفر فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، والدعاء دليل على تأكيد العبد لحاجته لربه واللجوء إليه في السراء والضراء.

* من سنن الله الابتلاء، ابتلاء للصبر وابتلاء للشكر وابتلاء للأجر وابتلاء للتوجيه وابتلاء للتأديب وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين.

* الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة، والمترفون هم من أشد الناس إنكاراً للبعث بعد الموت، ويعجبون من هذا الرسول الذي ينبئهم بهذا الأمر الغريب، واستعمال لفظ هيهات هيهات دليل شدة الإمعان في إنكار البعث الذي يعدهم به.

* التعبير بالغثاء وهو ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ; فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وهو دليل على الطرد من رحمة الله. وهذا مصير كل فرد وكل مجتمع

يبتعد عن منهج الله.

* أسلوب الاختصار مع التركيز على الموضوع المهم، أسلوب قرآني يحسن مراعاته في كلامنا وتعبيرنا، فهذه آيات قصيرة لخص الله بها تاريخ الدعوة في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة، وموسى وعيسى في أواخرها، إلى خاتم المرسلين، عليهم السلام، كل قرن يستوفي أجله ويمضي، وكلهم يكذبون، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله، وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون.

* إنه نداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون، فالأكل من مقتضيات البشرية عامة، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذي يرفع هذه البشرية ويزكيها ويصلها بالملأ الأعلى، وهو سبب في استجابة الدعاء خاصة وقت الشدة.

* نداء للرسل، ليصلحوا في هذه الأرض؛ فالعمل هو مهمة البشرية لتعمير الأرض، وعدم الإفساد فيها، والعمل الصالح هو الذي يميز الصالحين المختارين، فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا، وغاية موصولة بالملأ الأعلى.

* وحدة الرسالة والرسل يعني وحدة الأمم، فتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل، ووحدة الطبيعة التي تميزهم. ووحدة الخالق الذي أرسلهم، ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

تحدث الله سبحانه عن حكمته في هذا المقطع من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده، ونبذ ما سواه، وتكررت دعوة كل رسول بالوحدانية بنفس الألفاظ، وبينت الآيات جزاء كل من المصدقين والمكذبين، فالرسل الذين دعوا للوحدانية هم، مبشرون بالجنة، ومنذرون من النار، وهذا هو محور السورة.

المقطع الرابع: تفرق الأمم بعد رسلهم الآيات (٥٣ – ٧٨)

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

لما ذكر في المقطع السابق دعوة الرسل للتوحيد ختمت في هذا المقطع بذكر موقف الأمم وتفرقهم، وتلك الحال التي جاء خاتم المرسلين ﷺ فوجدهم عليها، مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التي جاءهم بها الرسل من قبل جميعا، فكانت رحمة الله برسوله بالتوجيه له وتسليته عما يلاقيه من قومه في هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

يخبر الله عن حال الأمم كيف تفرقوا واختلفوا من بعد رسلهم ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ « فتقطعوا أمر دينهم جعلوه أديانا مختلفة أو فتفرقوا وتحزبوا ﴿ زُبُرًا ﴾ قطعا، جمع زبور الذي بمعنى الفرقة ﴿كُلُّ حِزْبٍ ﴾ من المتحزبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين ﴿ فَرِحُونَ ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق". [(١)]

ثم يوجه الله رسوله ﷺ، ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ اترك كفار مكة ﴿ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ ضلالتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين موتهم ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾ نعطيهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ في الدنيا ﴿ نُسَارِعُ ﴾ نعجل ﴿ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ لا ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك استدراج لهم.

«ثم يبين صفات عباده المؤمنين، وهب تتمة للصفات الواردة في مطلع السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾ خوفهم منه ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفون من عذابه﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ معه غيره﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ ﴾ يعطون ﴿ مَآ ءَاتَواْ ﴾ أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ معتقدون باليوم الآخر، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ في علم الله»[(٢)].

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ لا يحمّل الله نفساً فوق طاقتها، ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ ﴾ يعني: اللوح المحفوظ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يبين بالصدق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا ينقصون من ثواب أعمالهم.

ثم عاد إلى ذكر المشركين﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ في جهالة وغفلة ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الكتاب الذي ينطق بالحق ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ وللمشركين أعمال خبيثة دون أعمال المؤمنين يفعلونها، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم ﴾ رؤساءهم وأغنياءهم ﴿ بِٱلْعَذَابِ ﴾ بالقحط

(١) تفسير البيضاوي، ١ / ١٥٨.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ١ / ٤٥١.

والجوع سبع سنين ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يضجون ويجزعون﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم، ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني: القرآن ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ على أدياركم ﴿ تَنكِصُونَ ﴾ ترجعون القهقرى مكذبين به﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ بالحرم تقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ﴿ سَٰمِرًا ﴾ سماراً بالليل﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ تهذون وتقولون: الهجر من سب النبي ﷺ.[1]

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

سبب نزول هذه الآية:

«عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مستكبرين به سامرا تهجرون قال: كان المشركون يهجرون رسول الله ﷺ في القول في سمرهم»[2].

ثم يوبخهم الله على تنكرهم للرسول، الصادق الأمين، الذي يعرفوا سيرته وأمانته ومكانته عندهم، زاعمين محافظتهم على ما تركه عليهم آباؤهم ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آبائهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أومنعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ـ ﷺ ـ غير معروف عندهم، فهم منكرون له ؟ يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة، في حين أنهم يعرفون الرسول ـ ﷺ ـ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة –الأمين– فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة

---

(١) الوجيز، الواحدي، ٧٥٠.

(٢) الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ١١٠ – ١١١.

بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

وردَّ الله عليهم﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون به جنون ؟! بل هو في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق. ولكن الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكا ولا تكذيبا للرسول، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾لأن الأهواء تفسد كل نظام.

ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس. ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ، نسوا الله فنسيهم فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران ؟.

ويستمر تبكيتهم وتوبيخهم﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾، أو منعهم من إتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجرا، يتكلفون من إتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم، ليسوا يدعون الخلق طمعا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحا لهم، وتحصيلا لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن

أممهم خير الجزاء، وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجرا لا أنه قد سألهم".[١]

والآيات تركز على وظيفة الرسول ﷺ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، حنفية سمحة، حنفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إيّاهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك ؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات. وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفا في جميع أموره.

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ الجوع، وسبب نزول الآية: عن ابن عباس قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر - بالدم»[٢].

ثم يبين الله أنهم لا يعتبرون، حتى بعد نزول العذاب بهم ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ ما خضعوا وما ذلوا﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، «وقبل فيه ثلاثة أقوال:أحدها: أنه يوم بدر رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، والثاني: أنه الجوع الذي أصابهم قاله مقاتل، والثالث: باب من عذاب جهنم في الآخرة»[٣].

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٥ - ٤٨٦.
(٢) الدر المنثور، السيوطي، ٦ / ١١١ - ١١٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٥ - ٤٨٦.

﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

* بيّنت الآيات أن الرسل صلوات الله عليهم، أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وهي كلمة التوحيد ولكن الناس تفرقوا من بعد الرسل، أحزاباً متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق؛ لأن اتباع غير منهج الله يؤدي إلى التفرق والضلال.

* استعمل القرآن أسلوب التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء، وإنما هي الفتنة، وإنما هو الاستدراج، وهو نوع من الابتلاء بالخير.

* لا يجوز لأحد أن يغتر بكثرة طاعته وعبادته، بل عليه الإخلاص في العمل ويرجو ربه قبوله؛ فمن صفات المؤمنين أن قلوبهم وجلة، ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى ; وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به. وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم. وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا، ولكنهم بعد هذا كله يؤتون وهم خائفون لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت:يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل»[1] .

(١) جامع الترمذي، رقم/ ٣٠٩٩.

* من صفات المؤمنين أنهم يسارعون في الخيرات، وهذا واجب كل مسلم، التنافس في فعل الخيرات، والبعد عن العجز والغفلة.
* تضرع الكفار عند العذاب والشدة، ونسيان الطاعة وقت الرخاء، والواجب طاعة الله وشكره في السراء والضراء.
* شريعة الإسلام يسيرة، سمحة، خالية من التعقيد، والله جعل التكاليف في حدود الطاقة، فلا عذر لأحد في ترك طاعة الله. وتمرد أهل المعاصي، ليس في تكليفهم فوق طاقتهم؛ إنما العلة أن قلوبهم في غمرة، لا ترى الحق الذي جاء به القرآن، ويتبعون منهجاً آخر.
* المترفون أشد الناس استغراقا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وهم أشد عداوة للرسل والدعاة.
* موقف المشركين من القرآن والرسل والدعاة يتكرر في كل زمان ومكان، في تهجمهم في نواديهم وفي سمرهم، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام. ومثل هؤلاء في كل زمان وليست جاهلية العرب إلا نموذجا لجاهليات كثيرة خلت في الزمان، وما تزال تظهر الآن وبعد الآن !
* فنّد القرآن الشبهات التي تصرفهم عن الإيمان، شبهة، شبهة، وهذا أسلوب جيد في الرد على الخصوم، للدعاة أن ينتفعوا به.
* الحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الكون كله، فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة.
* هذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذي يتمثل فيه، وما كان لها من ذكر لولا الله في العالمين: وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى ربها.
* لا يجوز للدعاة طلب شيئاً من الناس على دعوتهم، فهم يفرون مما تسألهم من أجر على

الهداية، فما عند ربك خير مما عندهم، وهذا هو منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، لم يسألوا أقوامهم على دعوتهم أجراً.

* الابتلاء بالشدة أو الرخاء، سنة من سنن الله، ينتفع بها المؤمنون، والذين لا يؤمنون بالآخرة، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة، ولا الابتلاء بالنقمة. فإن أصابتهم النعمة حسبوا أن الله يسارع لهم في الخيرات، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم، ولم تستيقظ ضمائرهم، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر.

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

الكلام في المقطع الرابع دار حول رسالة الرسل عليهم السلام، وتبليغهم دعوة الله للبشرية وتم في هذا المقطع تركيز الرسل على الوحدانية، وموقف أقوامهم من قضية التوحيد، وهذا هو محور السورة.

المقطع الخامس: مزيد من أدلة إثبات وحدانية الله وقدرته

الآيات: (٧٩ – ٩٨) تابع للمقطع الثاني

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع الرابع:

لما ذكر في المقطع الرابع حال الأمم، وتقطعهم زبراً بعد رسلهم، ناسب أن يذكر في هذا المقطع مزيداً من الأدلة تتمة للأدلة الواردة في المقطع الثاني، الدالة على قدرة الله، ليزداد المشركون علماً بأنهم لن يفلتوا من عقاب الله إذا استمروا في مواجهتهم ضد دعوة الله، وتحديهم لوحدانيته.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

من رحمة الله بالإنسان أن جعل له وسائل يهتدي بها إلى طريق الحق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لتدركوا بها

المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم. ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ العقول التي تدركوا بها الأشياء وتتميزون بها عن البهائم، فلو أخذ الله سمعكم، وأبصاركم، وعقولكم، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم ؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتوحدوه وتطيعوه ؟ ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم. ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ يريد أنهم لا يشكرون أصلا، وإن شكروا فشكرهم قليل.

والله هو الذي أنعم علينا بنعمة الوجود ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بثكم في أقطارها، وجهاتها، وسخر لكم ما في ظاهرها وباطنها، وجعلها كافية لمعايشكم ومساكنكم، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض، من خير وشر، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده، ، ثم يلفت الأنظار إلى تعاقب الليل والنهار﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ تعاقبهما وتناوبهما. آية لكل معتبر.

ولهذا قال هنا: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع والأبصار، والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تعبدوا غيره.

وموقف الكفار من الرسل والدعاة لا يتغير﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ هذا لا يتخيل وقوعه ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم يأت بعد ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ قصصهم وأسمارهم، التي يتحدث بها وتلهى، وإلا فليس لها حقيقة. وأنكروا البعث، رغم الأدلة التي ساقها لهم ومنها: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجا عليهم بما أثبتوه، وأقروا به، من توحيد الربوبية

وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك. من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له ؟ وإذا سألتهم عن ذلك، قالوا : الله وحده. فقل لهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات.

والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.

ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ سيقرّون بأن الله رب ذلك كله ، قل لهم حين يقرون بذلك:﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله وتوحدوه، وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، واسألهم ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره ؟. و" الملكوت " صيغة مبالغة بمعنى الملك . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ لا يقدر أحد أن يجير على الله. ولا يدفع الشر الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه. ﴿ قُلْ ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزما لهم، ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر

عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، وهو الصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع ؟ وليس عندهم ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، فإذا كان الله وحده صنع ذلك، فلا ينبغي أن يكون له شريك، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ ممتنع عنه الشريك والولد ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع وجود إلهين فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤] لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته، واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته، ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، فالكون منذ وجد وهو يسير وفق سنن الله ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المدبر إله واحد كامل الأسماء والصفات ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والممكنات، ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿ فَتَعَٰلَىٰ ﴾ ارتفع وعظم، ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ اعصمني وارحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضا من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة إذا نزلت فإنها تعم العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فنحن قادرون على إيقاعه فيهم.

ومن مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾

إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن فوائد ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى للتأثير المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل.

ويوصي الله رسوله ﷺ للصبر والحلم ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فاصبر على ما يقولون، وقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة الداعية في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ اعتصم بحولك وقوتك متبرئا من حولي وقوتي ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزعات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

ويستمر التوجيه للرسول ﷺ ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ «فيه أربعة أقوال أحدها:ادفع إساءة المسيء بالصفح قاله الحسن والثاني:أدفع الفحش بالسلام قاله عطاء والضحاك والثالث: ادفع الشرك بالتوحيد قاله ابن السائب والرابع:ادفع المنكر بالموعظة حكاه الماوردي وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بأية السيف».[1]

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يقولون من الشرك والتكذيب والمعنى إنا نجازيهم على ذلك ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ ألجأ وامتنع بك ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ وهمزات الشياطين دفعهم

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٩.

بالإغواء الى المعاصي﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أن يصيبوني بسوء لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء لهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

* الآيات لفتت أنظار الكفار إلى الدلائل الكونية؛ علها توقظ وجدانهم إلى توحيد الله وحده، ولو تدبر الإنسان خلقه وهيئته، وما زود به من الحواس والجوارح، وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد، فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير.

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفا معجزا في عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، فهذه نعم تستوجب الشكر، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، وتمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده.

* الحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس إلا الله يملك الموت والحياة؛ فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها، ويملك أن يهبها ويستردها، والبشر قد يكونون سببا وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يسلبون حياة الحي على وجه الحقيقة، إنما الله هو الذي يحيي ويميت، وحده دون سواه، لذا ما نراه من جهود لمحاولات الاستنساخ لا تعني أن البشر قادرون على الإحياء، بل هي أسباب والمحيي والمميت الحقيقي هو الله وحده.

* البعث حق يجب الإيمان به، ولا يجوز إنكاره كما أنكره الكفار، وقصرت مداركهم عن إدراك حكمة الله، وقدرته على البعث، وسخروا مما يوعدون من البعث والجزاء بحجة أن هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل، ولم يقع بعد ! والبعث جعل الله له موعداً، وفق تدبيره وحكمته، لا يستقدم ولا يستأخر، تلبية لطلب جيل من أجيال الناس، أو استهزاء جماعة من الغافلين.

* وهب الله الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليكون مسؤولا عن نشاطه وعمله، مجزيا على صلاحه وفساده ;.والحساب والجزاء يكونان في الآخرة، فالمشهود في هذه الأرض أن الجزاء قد لا يقع؛ لأنه متروك إلى موعده في الآخرة، وتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة، إنما ذلك يعد إكراماً للنبي ﷺ.

* الآيات تثبت العقيدة الصحيحة، وترد على المشركين؛ ليصحح فساد معتقداتهم، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون: فيسألهم عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم؛ فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ والدعوة إلى التأمل والتفكير في هذه المخلوقات عبادة، ودعوة.

* توظيف الأدلة العقلية توظيف مهم لإقامة الحجة على الجاحدين، وهذا ما تم الرد به على الكافرين المعاندين، كنفي الشريك عن الله، تقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، فالآيات ناقشت المسألة بدليل عقلي مقنع، فلو كان للكون إلهين ؟ لآل الملك لواحد منهما بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف واحد، وتدبير واحد.

* توجيهات للرسول ﷺ، للمفاصلة والإستعاذة من الشيطان، والصبر على ما يقولون، وطلب الرسول الله ﷺ أن لا يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ويتحقق ما يوعدون، ما هو إلا طلب لزيادة في التوقي، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله، وأن يظلوا أبدا أيقاظا، وأن يلوذوا دائما بحماه. ولقد أراه بعض ما وعدهم في غزوة بدر، ثم في الفتح العظيم. فأما حين نزول هذه السورة - وهي مكية - فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتي هي أحسن والصبر حتى يأتي أمر الله، وتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب.

* استعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفعاتهم - وهو معصوم منها - زيادة

كذلك في التوقي، وزيادة في الالتجاء إلى الله، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها، أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين، بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعاذة بالله من مجرد قرب الشياطين، لا من همزاتهم ودفعاتهم.

المناسبة بين المقطع الخامس والمحور:

المقطع الخامس اشتمل على أدلة عديدة أقامت الحجة على المشركين، وأثبتت التوحيد الخالص لله ولو فكر هؤلاء بأدنى تفكير في مخلوقات الله فإنه لا يملك إلا التسليم، والطاعة لله واتصفوا بالصفات الواردة في مطلع السورة والتي ذكرت في المقطع الأول وحده وهذا هو المحور الأساس في السورة.

المقطع السادس: من مشاهد يوم القيامة الآيات (٩٩ – ١١٨)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

لما ذكر الله مزيداً من الأدلة الدالة على وحدانيته، في المقطع الخامس، فربما كثير من الكفار والمشركين، لا ينتفعون بها، ولا ينتفعون بما وهبهم الله من نعمة السمع والبصر والفؤاد، ناسب في هذا المقطع أن يذكرهم بنهاية آجالهم وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، فلا تغرنهم هذه الحياة الدنيا، ولا يملكون وسيلة للعودة للحياة ثانية ليصلحوا ما أفسدوه من قبل.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ

﴿٩٩﴾ من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّآۚ ﴾ لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا ﴾ مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾ مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه. ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند الموت "فان قيل كيف قال ارجعون وهو يريد أرجعني؛ فالجواب أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن وذلك أنه يخبر عن نفسه فيه بما تخبر به الجماعة كقوله ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ ق / ٤٣، فجاء خطابه كإخباره عن نفسه "[1].

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبته.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها ؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها ؟ وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، حتى ما كان مثقال ذرة، من الخير والشر، ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته،

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٩.

وأحاطت به خطيئته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ خسارة لا تعدلها خسارة، حسبهم ما سيؤولن إليه ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، ولكن من مات من أهل المعاصي من غير المشركين والكافرين، فإنه وإن دخل النار لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم ـ توبيخاً ولوماً ـ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ظلما منكم وعنادا، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر وترك ما ينفع، ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، ولم يبق الله لهم حجة، فأجابهم الله ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا القول أعظم ألوان التوبيخ، والذل، والخسارة، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم، "تكلمون فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم ولا كلام بعد ذلك"(١) .

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته

---

(١) تفسير النسفي، النسفي، ٣/ ١٣٢.

عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم، ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام ﴿ سِخۡرِيًّا ﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

وسبب نزول الآية "نزلت في كفار قريش مع صهيب وعمار وبلال ونظرائهم ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديما وبقية الدهر وكسرها من السخر وهو الاستهزاء ومعنى الاستهزاء هنا أليق "[1].

﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر وعبادة الله، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة ؟!

﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي. ﴿ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ ﴾ كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جدا، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا: ﴿ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾ الضابطين لعدده، وأما هم ففي شغل شاغل وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾ سواء عينتم عدده، أم لا ﴿ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ وأنّى لهم العلم ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ سدى وباطلا، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون

---

(١) تفسير الثعالبي، ١/ ١٠٧.

بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم ؟ ولهذا قال: ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ﴾ تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فكونه ملكا للخلق كلهم حقا، في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوها معبودا، لما له من الكمال ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثا﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾. ومن دعا مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلما وعنادا، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئا، لأنه كافر، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿ وَقُل ﴾ داعياً لربك مخلصا له الدين ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

* بعد تذكير الكفار بالأدلة العظيمة في أنفسهم وفي الآفاق، بتركهم إلى مصيرهم المحتوم، يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ، ليعلمه مكارم الأخلاق، وألا يغضب لعنادهم، وأن يدفع السيئة بالحسنى، وأن يستعيذ بالله من الشياطين التي تقودهم إلى الضلال المبين وهذا تعليم لأمته ﷺ بتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب، والدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة من همزات الشياطين.

  وهذه توجيهات ربانية يجب على كل مسلم أن يتحلى بها.

* الحث على التوبة قبل الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال، وطلب الرجوع للدنيا، كلمة لا معنى لها، ولا مدلول وراءها،

ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. والندم بعد فوات الأوان لا ينفع.

* حياة البرزخ حق يجب الإيمان به والاستعداد له، والأموات فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة، إنما هم في ذلك البرزخ بينهما، إلى يوم يبعثون، وعذاب القبر حق. فهلا للعاقل أن يستعد للقاء ربه، ويعلم أن الحياة الدنيا قصيرة.

* انقطاع الأنساب والوشائج، يوم القيامة فلا ينفع أحد أحداً، إنما تقطعت الروابط وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا، ولا واسطة إلا العمل الصالح.

* يجب تنزيه الله - سبحانه - عما يقولون ويصفون. فهو الملك الحق، والمسيطر الحق، الذي لا إله إلا هو.

* كل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع، وقوة وسلطان، في بعض الأحيان، فليس فلاحا في ميزان القيم الحقيقية. إنما هو فتنة واستدراج، ينتهي بالوبال في الدنيا. فإن نجى بعضهم في الدنيا، فالآخرة تنتظره، والآخرة أشد وأنكى.

* يعرض ميزان الحساب وعملية الوزن في سرعة واختصار، بالعدل التام، فهنيئاً لمن ثقلت موازينه فهم المفلحون الذين ذكروا في مطلع السورة. وتعساً لمن خفت موازينه، في جهنم خالدون. وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء.

* تصوير حال الكافرين يوم القيامة وهم تلفح النار وجوههم حتى تكلح، وتشوه هيئتها ويكدر لونها، على العاقل أن يرهب منه.

* أسلوب العذاب المعنوي، فالعذاب الحسي - على فظاعته - أهون من التأنيب والخزي الذي يصاحبه، وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة.

* الاستهزاء بالرسل والمؤمنين جريمة أخرى بعد جريمة الكفر تدخلهم النار، فقد بلغ السفه بالكفار أن سخروا، وضحكوا منهم حتى ألهاهم عن ذكر الله، وباعد بينهم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود.

* تنتهي السورة بتقرير الإلوهية الواحدة، وتحذير من يدعون مع الله إلها آخر، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله، في مقابل الفلاح في أول السورة الذي وعد الله به المؤمنين.
* لا يجوز الدعاء إلا إلى الله وحده؛ لأنه لا يملك إجابة الدعاء إلا هو سبحانه، ومن هنا وجهت هذه الآيات إلى الله في طلب الرحمة والغفران، وهو أرحم الراحمين. وبرحمته يتم الفلاح والفوز.

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة

ذكرت الآيات مشاهد ومقاطع من أحوال يوم القيامة في هذا المقطع لتذكير الناس أنهم إذا استطاعوا إنكار وحدانية الله في الدنيا، وأخر عذابهم، فلن يملكوا في الآخرة إلا الاعتراف والإقرار بوحدانيته سبحانه، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع للدنيا.

سورة النور

بين يدي السورة:

١- **اسمها:** سورة النور، وسميت بهذا الاسم لقوله تعالى فيها:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ قال ابن عاشور: (وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة ولا يعرف لها اسم آخر) [1] فقد اشتملت السورة على كثير من إشعاعات النور، التي تمثَّلت بتشريع الأحكام والآداب والفضائل الأخلاقية، التي تعتبر قبسا من نور الله تعالى، الذي عمَّ الوجود كله، وأنار قلوب المؤمنين بكتابه الحكيم، الذي جاء نوراً وضياء وفيضاً من فيوضات رحمته على عباده

٢- **عدد آياتها:** اثنتان أو أربع وستون آية [2]، وكلمُها ألفٌ وثلاثمائة وست عشرة كلمة وحروفها خمسة آلاف وستمائة وثمانون حرفا، وهي ستون وآيتان في المدنيين والمكي، وأربع وستون في عدد الباقين [3].

٣- **نزولها:**

سورة النور كلها مدنية بإجماع أقوال العلماء [4]. قال ابن عاشور: (وهي مدنية باتفاق أهل العلم ولا يعرف مخالف في ذلك) [5] نزلت بعد سورة الأحزاب بأشهر في النصف الآخر من سنة ست من الهجرة بعد غزوة بني المصطلق التي وقعت فيها حادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنا من قبل المنافقين، وقد حدث ذلك باتفاق جميع الروايات المعتدِّ بها أثناء رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق [6].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٣٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١٨٥، وانظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ١١٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن: ١/ ١٩٣.

(٤) الجامع لأحكام الرآن للقرطبي: ١٢ / ١٥٨.

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٣٩.

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٢٦٠، والسير الحلبية: ٢ / ٢٠٥.

مرحلة نزولها:

من المفيد في هذا المقام أن نسلط الأضواء على المرحلة التاريخية التي نزلت فيها هذه السورة، لأهميته البالغة في فهم الأحكام والتشريعات التي حفلت فيها سورة النور، فقد ظهرت في هذه المرحلة قوة المسلمين بعد انتصارهم في غزوة بدر، وتأكدت هذه القوة بعد انتصارهم الساحق على المشركين في غزوة الأحزاب، ذلك الانتصار الذي جعل المشركين والمنافقين واليهود يحسبون لتلك القوة ألف حساب، بعد فشلهم الذريع في تحقيق النصر في غزوة الأحزاب، رغم القوة الكبيرة التي حشدوها لسحق المسلمين واستئصالهم، فقد تأكَّد أعداء الإسلام أن النصر على المسلمين لن يتحقق بقوة السلاح وكثرة العدد والعتاد، فكل المعارك السابقة التي خاضوها مع المسلمين كان الكفارفيها هم المتفوقون عددا وعدة، ومالا واقتصادا، عندها أدركوا أن السبب في انتصار المسلمين عليهم ليس قوة السلاح، إنما هو تفوقهم في ميدان الأخلاق والفضائل، على مستوى الفرد والجماعة، الذي وثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، ووحّد صفوفهم وأهدافهم.

وانطلاقا من هذا الاستنتاج حوّل أعداء الإسلام الكثير من طاقتهم في هذه المرحلة من الأعمال الحربية إلى أعمال خفية، لإحداث الفتن والقلاقل بين صفوف المسلمين، وقد تولّى المنافقون تنفيذ تلك الخطة، مستغلِّين بعض الأحداث الهامة التي ابتدأت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة عندما تزوَّج النبي ﷺ مطلقة متبناه زيد بن حارثة زينب بنت جحش، فقد استغلَّ المنافقون هذه الحادثة أسوأ استغلال، من خلال شائعاتهم التي روَّجوها زاعمين أن النبي ﷺ وقع في غرام زوجة متبناه، وساعدهم في نشرها اليهود والمشركون وتفننوا في نشرها حتى فُتِن بتلك الشائعات بعض المسلمين، ثم جاءت الفتنة الثانية التي أحدثها المنافقون في غزوة بني المصطلق، وذلك لبث الفرقة والاختلاف في صفوف المسلمين في تلك الغزوة، التي شارك فيها زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، مستغلا خلافاً حدث بين غلامٍ لعمر بن الخطاب، يُقال له جَهجاه، وبين سِنان بن وَبَر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء،

فاقتتلا، فصرخ الجهني: يامعشر الأنصار، وصرخ جَهْجَاه: يامعشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبيّ فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ثم أقبل على مَن حوله من قومه، وقال لهم: هذا ما فعلتموه بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غيركم [1].

هكذا حاول المنافقون تمزيق مجتمع المسلمين من خلال تلك الفتنة العنصرية البغيضة، ولكن الرسول الكريم وأدها في مهدها بحكمته البالغة، وسلَّم المسلمين من شرورها.

ثم جاءت الفتنة المزلزلة في نفس هذه الغزوة، والتي بلغت في خطورتها حداً كادت أن تعصف بالمجتمع الإسلامي الأول وتقتلعه من جذوره، وذلك عندما تجرَّأ المنافقون في هذه المرة على عرض رسول الله نفسه، فاتهموا زوجته الطاهرة عائشة رضي الله عنها بارتكاب فاحشة الزنا.

تلك هي الظروف والأحوال التي عاشها المسلمون عند نزول سورة الأحزاب وسورة النور بتشريعاتهاالأخلاقية والاجتماعية، والتي جاءت رداً على محاولات المنافقين للنيل من أخلاق المسلمين تمهيدا لهزيمتهم في ذلك الميدان، الذي كان سببا في تفوقهم وغلبتهم على أعدائهم، فكان ردُّ الله تعالى على تلك المحاولات تشريع العديد من الأحكام، التي تسدُّ الثغرات وتصلح مواضع الخلل في الجبهة الخُلُقية، والتي جاءت متكاملة في سورتي الأحزاب والنور.

وسوف نبين تلك الأحكام التي وردت في سورة النور، والتي زادت في عددها عن ثمانية عشر حكما، نظَّمت من خلالها الشؤون الأخلاقية، والآداب الاجتماعية للأمة الإسلامية، وذلك أثناء عرضنا لتفسيرها الموضوعي.

---

(١) انظر السير النبوية لابن هشام: ٤ / ٢٥٣- ٢٥٤.

٤- فضلها:

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ (علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور).

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور[١]. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النورِ أَعطِي من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ فيما مضَى وفيما بقى»[٢].

٥- **محور السورة**: المحور الأساس الذي تدور حوله سورة النور هو: **(التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية للفرد والجماعة)**، وذلك من خلال تشريع الأحكام والآداب اللازمة لبناء المجتمع الفاضل.

ولبيان هذه الوحدة الموضوعية، التي تتجلى في هذه السورة العظيمة من أولها إلى آخرها نجد آياتها ابتدأت بتشريع أحكام لبعض الجرائم الأخلاقية، التي تنال من طهارة المجتمع وعفته، مثل الزنا وما يتعلق به من أحكام كالقذف واللعان، ثم قدَّمت لنا نموذجاً عمليا من واقع حياة المسلمين، يمثل خطورة جريمة القذف عل الفرد والجماعة، عندما عرضت لنا حادثة الإفك التي رميت بها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بفاحشة الزنا.

ثم شرَّعت السورة جملة من الوسائل، لوقاية المجتمع من جريمة الزنا، وذلك بسدِّ السُبُل المؤدِّية إليها، فمنعت كل وسائل الإغراء والغواية، فشرّعت آداب الاستئذان عند دخول البيوت، وأمرت بغض البصر، ونهت النساء عن إبداء الزينة، وحثَّت أولياء الأمورعلى تزويج الأيامى، وحذَّرت من البغاء، الذي يمثل انحدارا رهيبا، واعتداء صارخا على كرامة الإنسان، ومكانته في هذا الوجود.

---

(١) فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٣. وكنز العمال: ٢ / ١٣٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٩٩. وتخريج الأحاديث والآثار: ٢ / ٤٥٣.

ثم توسَّطت السورةَ الكريمة إشارةٌ رائعة إلى مصدر هذه الأحكام والآداب، فهي منزَّلة من عند الله تعالى لعباده، لتكون لهم نورا وهداية في حياتهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ثم تأتي إشارة أخرى، إلى مراكز إشعاع ذلك النور الإلهي في الأرض، وهي بيوت الله تعالى، التي تشعُّ ذلك النور لتولِّد الهداية في قلوب الناس، وتحدث التزكية المطلوبة في نفوس المؤمنين، بخلاف الكفار الذين لم ينتفعوا من ذلك النور، لإيثارهم ظلمات الكفر على نورالهداية، الذي عمَّ الكائنات الأخرى المنتشرة في هذا الكون الفسيح من طير وسحاب، وليل ونهار، ومن كل الدواب، التي انتظمت بالفطرة مع هداية الله تعالى، واستسلمت لخالقها خضوعا وتسبيحا.

ثم تسوق السورة الكريمة - ضمن محورها- نموذجا لفئة من الناس لم تتأثر بنور الله تعالى الذي عمَّ السموات والأرض، ولكنه لم يخالط شغاف قلوبها، فبقيت في ظلمتها رغم تظاهرها بالإسلام، وهؤلاء هم المنافقون، الذين اضطربت أحوالهم، وساء سلوكهم، فلم يلزموا أنفسهم بالآداب اللازمة في معاملة رسول الله ﷺ، وفي التزام طاعتة والتحاكم إليه.

ثم تأتي المقارنة بين سلوك المنافقين السابق وبين سلوك المؤمنين، الذين أشرقت قلوبهم بنور الله تعالى، فبادروا إلى طاعة رسول الله ﷺ، وألزموا أنفسهم بالآداب الواجبة في التعامل معه، فأفاض الله عليهم من نوره، ووعدهم بالاستخلاف في الأرض، والتمكين لهم في الدين، والنصر على الكافرين.

ثم تعود السورة إلى محورها الأساس، لتكمل ما بدأته من تشريعات للآداب الاجتماعية مثل آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت والأقارب والأصدقاء، وكذلك الآداب اللازمة مع رسول الله ﷺ في توقيره، واستئذانه وندائه، ثم كانت خاتمة السورة إعلانا مؤثرا عن مالكية الله تعالى لما في السموات والأرض، وعن علمه الشامل المحيط بأحوال الناس الذين سيصيرون إليه تعالى ليحاسبهم على أعمالهم.

وبهذا الختام المؤثر، تضع السورة المؤمن أمام مسؤولية خطيرة، تدفعه لتنفيذ ما ورد في

هذه السورة من أحكام وآداب، تمثل الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الفاضل كما يريده الله تعالى في هذه الأرض.

المناسبات:

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بإعلان قوي عن نزولها، وفرضها للأحكام التي وردت فيها، حيث قال الله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ وهذا الإعلان يشعر بأهميتها، ووجوب تطبيق أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها تذكيرا للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم، التي سيحاسبهم عليها يوم يرجعون إليه، ليعُدوا أنفسهم للسؤال أمام الله عن تلك الآيات والأحكام التي أنزلها إليهم، خاصة المذكورة في سورة النور وبذلك رد الختام على المبدأ والتحم الآخر بالأول [(١)].

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

ووجه اتصالها بسورة (المؤمنون) جليٌّ ظاهر، فقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين، وجعل من أجلِّ صفاتهم أنهم حافظون لفروجهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥] ثم ذكر في سورة النور أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، قال السيوطي: «أقول وجه اتصالها بسورة قد أفلح أنه لما قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فروجهن الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا، ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق» [(٢)].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ٥ / ٢٩٠.

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي: ١ / ١١٨ - ١١٩، وانظر تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٧٤.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة المؤمنون بإشارة إلى مغفرة الله ورحمته بعباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وجاءت سورة النور محققة لتلك الرحمة من تشريعاتها الحكيمة التي أنارت للعباد الطريق الموصل إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة، قال الإمام البقاعي رحمه الله: «لما ختم الله تعالى سورة (المؤمنون) بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ابتدأ سورة النور بأنه منَّ على المخاطبين ببيان ما خلقوا له من الأحكام لأنهم لم يخلقوا سدى، بل لتكاليف تعبدهم بها ترفع التنازع وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة والعطف بسلامة الصدر بما فيهم من الجنسية» [(١)].

المناسبة بين خاتمة سورة النور وافتتاحية سورة الفرقان:

لما ذكر جل وعلا في آخر سورة النور، وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ، ومدح المتابعين، وحذر المخالفين، افتتح سبحانه سورة الفرقان، بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، أو على كثرة خيره تعالى ودوامه، وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، إطماعا في خيره، وتحذيرا من عقابه جل شأنه، وفي هذه السورة أيضا من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها، فقال تبارك وتعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].

ولما ختم سبحانه سورة النور بسعة الملك وشمول العلم وتعظيم الرسول والتهديد لمن تجاوزالحد، افتتح سورة الفرقان بمثل ذلك على وجه- مع كونه أضخم منه- هو برهان عليه فقال: « تبارك» أي: ثبت ثبوتا مع اليُمن والخير، به سبقت الرحمة الغضب، والتعالي في الصفات والأفعال [(٢)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٥/ ٢٢٩.

(٢) روح المعاني للألوسي: ١٨/ ٢٣٠. بتصرف يسير.

المقطع الأول: (الزنا والأحكام المتعلقة به)

حدُّ الزنا

قال الله تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

سبب النزول:

أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وأنه وجد رجلا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق فابصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت اليَّ عرفتني، فقالت: مرثد! فقلت: مرثد، فقالت: مرحبا وأهلا، هلم فبت عندنا الليلة؟ قلت: يا عناق حرم الله الزنا، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فجاؤا حتى قاموا على رأسي فبالوا وظل بولهم على رأسي، ونحاهم الله عني، ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقا؟ فأمسك فلم يرد علي شيئا حتى نزلت﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ فلا تنكحها[(١)].

---

(١) سنن الترمذي: ٥ / ٣٢٨، وقال: حسن غريب، وتفسيرابن كثير: ٣ / ٢٦٤، ولباب النقول للسيوطي: ١ / ١٥٢.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل، لما قدم المهاجرون المدينة، قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم والمدينة غالية السعر شديدة الجهد، وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب، وأما الأنصار منهن أميمة وليدة عبد الله بن أبيٍّ ومسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الانصار قد رفعت كل امرأة منهن علامة على بابها ليعرف أنها زانية وكنَّ من أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيرا، فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي هم فيه من الجهد، فاشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من فضول أطعامهن! فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ﷺ، فأتوه فقالوا يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل! وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن فاذا وجدنا عنهن غني تركناهن؟ فأنزل الله ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ ﴾ فحُرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالنات زناهن) [١].

وروي أنها نزلت في أهل الصفة، وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صفة المسجد، وكانوا أربعمائة رجل، يلتمسون الرزق بالنهار، ويأوون إلى الصفة بالليل، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور، مخاصيب بالكسوة والطعام، فهمّ أهل الصفة أن يتزوجوهن فيأووا إلى مساكنهن، ويأكلوا من طعامهن وكسوتهن، فنزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك [٢].

التفسير الاجمالي للمقطع الأول:

مطلع سورة النور مطلع فريد لم يتكرر في القرآن الكريم، حيث جاء الاستهلال بإعلان قوي وتنبيه لافت يدلُّ على أهمية ما ورد في هذه السورة من أحكام وحدود وآداب ملزمة للمؤمنين وليست مجرَّد توصيات وتمنيات تعطي الخيار في الفعل أو الترك، بل هي أحكام قاطعة لابد من تنفيذها وتطبيقها وإقامة الحياة على هديها ونورها، وهي في نفس الوقت أحكام وردت

(١) تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٢٧.
(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٦٨.

في آياتها بينة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، لتكون عبرة وعظة وتذكرة للمؤمنين لما استقر في فِطَرهم من آداب وأخلاق قد ينساها الناس تحت تأثير المغريات والشهوات قال تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾، فقوله:﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ (تنويه بالسورة بما يدل عليه﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ من الإسناد إلى ضمير الجلالة الدال على العناية بها وتشريفها) [1] والمراد بالآيات البينات جميع ماشتملته السورة من أحكام شرعية، وهدايات متعددة، كالدعوة إلى الوحدانية، وإقامة الأدلة على سعة قدرة الله وعلمه وحكمته، وما أطلع الله عليه رسوله من أسرار المنافقين وفضح دخائلهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وبعد هذه البداية الفريدة تبدأ السورة ببيان تلك الآيات البينات، فتشرَّعت حدَّ الزنا، وقرَّرت له عقوبة محددة وهي جلد الزانيين غير المحصنين مائة جلدة لكل منهما، ونهت عن تخفيف العقوبة والتراخي في تنفيذها، وربطت ذلك بحقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين، لأن الزنا جريمة أكبر من أن تستدرَّ العطف أو تستجلب الرحمة بالزناة، وأمرت بإقامة الحدّ في مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين، لتكون العقوبة أوقع وأوجع في نفوس الفاعلين وأكثر زجرا لكل من تسوِّل له نفسه ارتكاب هذه الفاحشة الفظيعة من الآخرين.

وهذه العقوبة التي وردت في سورة النور، سبقتها عقوبة أخرى كانت مخففة ومؤقتة حيث كانت عقوبة الزانيين في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء: ١٥- ١٦]. فكانت عقوبة الزنا الحبس في البيتوت للنساء، والأذى والتعييرللرجال، ثم نسخ ذلك

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ١٤٢.

الحكم[١]، ونزل حدُّ الزنا في سورة النور، فكان هو السبيل الذي أشارت إليه سورة النساء، في قوله تعالى:﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ وهو الذي بينه النبي ﷺ في حديثه الشريف، الذي رواه مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله أنه قال: « قال كان نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إذا أُنْزِلَ عليه كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ له وَجْهُهُ قال فَأُنْزِلَ عليه ذَاتَ يَوْمٍ فَلُقِيَ كَذَلِكَ فلما سرى عنه قال خُذُوا عَنِّي فَقَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ»[٢].

وحدّ الجلد هوعقوبة الزاني البكر من الرجال والنساء، وأما المحصن وهو الذي سبق له وطء صحيح وهو مسلم حر بالغ فحدّه الرجم كما بين الحديث السابق، وقد ثبت الرجم بالقرآن الكريم في آية نسخت تلاوتها وبقي حكمها، وهي قوله تعالى: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله..» وهو ثابت بالسنَّة المطهرة، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « قال عمر بن الخطاب وهو جَالِسٌ على مِنْبَرِ رسول اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ قد بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عليه الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عليه آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رسول اللَّهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَه، فَأَخْشَى إن طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ ما نَجِدُ الرَّجْمَ في كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله وَإِنَّ الرَّجْمَ في كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ على من زَنَى إذا أَحْصَنَ من الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إذا قَامَتْ الْبَيِّنَةُ أو كان الْحَبَلُ أو الِاعْتِرَافُ»[٣].

وثبت بالسنة المطهرة عندما أقامه النبي ﷺ في حياته على ماعز والغامدية، وهذا ثابت في الصحيحين فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال: جاء مَاعِزُ بن مَالِكٍ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فقال وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ ثُمَّ جاء: فقال: يا رَسُولَ اللهِ طَهِّرْنِي، فقال رسول اللهِ ﷺ، وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ للنحاس: ١ / ٥٨١.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٣١٦ رقم (١٩٦٠)

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٣١٧ رقم (١٦٩١).

اللَّهَ وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ ثُمَّ جاء فقال يا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فقال النبي ﷺ مِثْلَ ذلك حتى إذا كانت الرَّابِعَةُ قال له رسول اللَّهِ ﷺ، فيما أُطَهِّرُكَ؟ فقال: من الزِّنَى. فَسَأَلَ رسول اللَّهِ ﷺ، أَبِهِ جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ ليس بِمَجْنُونٍ، فقال: أَشَرِبَ خَمْراً؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فلم يَجِدْ منه رِيحَ خَمْرٍ، قال: فقال رسول اللَّهِ ﷺ أَزَنَيْتَ؟ فقال: نعم. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِم، فَكَانَ الناس فيه فِرْقَتَيْنِ: قَائِلٌ يقول: لقد هَلَكَ، لقد أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يقول: ما تَوْبَةٌ أَفْضَلَ من تَوْبَةِ مَاعِزٍ، إِنَّهُ جاء إلى النبي ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ في يَدِه، ثُمَّ قال: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قال: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أو ثَلاثَةً، ثُمَّ جاء رسول اللَّهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، فقال: اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بن مَالِكٍ، قال: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بن مَالِكٍ، قال: فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لقد تَابَ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بين أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ. قال: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ من غَامِدٍ من الْأَزْدِ، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فقال وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إليه، فقالت: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كما رَدَّدْتَ مَاعِزَ بن مَالِكٍ قال: وما ذَاكِ؟ قالت: إِنَّهَا حُبْلَى من الزِّنَى، فقال: آنْتِ؟ قالت: نعم، فقال لها، حتى تَضَعِي ما في بَطْنِكِ، قال فَكَفَلَهَا رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ حتى وَضَعَتْ، قال: فَأَتَى النبي ﷺ، فقال: قد وَضَعَتْ الْغَامِدِيَّةُ، فقال: إذاً لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيراً ليس له من يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ، فقال: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يا نَبِيَّ اللَّهِ، قال فَرَجَمَهَا [(١)]».

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: أتى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ من الناس، وهو في الْمَسْجِدِ، فَنَادَاهُ يا رَسُولَ اللَّهِ إني زَنَيْتُ، يُرِيدُ نَفْسَهُ، فَأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ، فَتَنَحَّى لِشِقِّ وَجْهِهِ الذي أَعْرَضَ قِبَلَه، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ إني زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عنه فَجَاءَ لِشِقِّ وَجْهِ النبي ﷺ، الذي أَعْرَضَ عنه، فلما شَهِدَ على نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، دَعَاهُ النبي ﷺ فقال: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قال: لَا يا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: أَحْصَنْتَ؟ قال: نعم يا رَسُولَ اللَّهِ، قال اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ، قال بن شِهَابٍ أخبرني من سمع جَابِراً قال فَكُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُ فَرَجَمْنَاهُ بِالْمُصَلَّى فلما

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٢٢ رقم (١٦٩٥)

أَذْلَقَتْهُ الْحِجَارَةُ جَمَزَ حتى أَدْرَكْنَاهُ بِالْحَرَّةِ فَرَجَمْنَاهُ» .[١]

ثم بينت الآيات فظاعة هذه الفاحشة وبشاعتها، وأنها تتنافى مع الإيمان، فالذين يرتكبونها لايليق بهم أن يتزوجوا المرأة المؤمنة العفيفة، بل يليق بهم الزواج من الزانية، أو من هو شر منها وهي المشركة، والزانية كذلك لايليق بها أن تتزوج المؤمن العفيف، وإنما يليق بها من هو مثلها من الزناة، أو من هو شرٌّ منهم وهم المشركون، إلا أن تقع التوبة التي تطهِّر النفوس من ذلك الدنس، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ وهناك خلاف مشهور بين علماء السلف في هذه المسألة، حيث تباينت آراؤهم على قولين، بين من يرى حرمة الزواج بالزانية والزاني، وبين من يرى جواز ذلك النوع من النكاح، وهو مذهب جمهور العلماء، ولكل أدلته التي اعتمد عليها، ويمكن مراجعتها في مصادرها، ولكن المتأمل في أسباب النزول يمكنه حصر المسألة في نطاقها المحدَّد لها، فالزانيات اللواتي رغب بعض الصحابة بنكاحهن، كنَّ من البغايا، اللواتي احترفن الزنا، وكنَّ من المشركات، وهذا ماوضحه ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس أنها نزلت في بغايا متعالنات كن في الجاهلية، وكنَّ زوانى مشركات، فحرَّم الله نكاحهن على المؤمنين[٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس، فأتاه رجل فقال: إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرم الله عليّ، وقد رزقنى الله منها توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال الناس: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنَّ نساء بغايا متعالنات، يجعلن على أبوابهن رايات، يأتيهن الناس يعرفن بذلك، فأنزل الله هذه الآية، تزوجها فما كان فيها من إثم فعليّ)[٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٠٢ رقم (٦٤٣٩).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ٥٤٠ رقم (١٦٩٢٩). وتفسير الطبري: ١٨/ ٧٢.

(٣) تفسير الدر المنثور: ٦/ ١٢٩، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦٥.

ولا شك أن هناك فرق كبير بين المرأة التي سقطت مرة في فاحشة الزنا، وبين تلك المرأة التي جعلت الزنا مهنتها، فالزواج من هذا الصنف من البغايا، لايمكن أن يقبله شرع، ولا يقرّه منطق، طالما أن البغيّ لم تقلع عن هذا العمل الشنيع، وتبادر بالتوبة إلى الله تعالى، فإن تابت وظهرت عليها أمارات الصلاح صحَّ الزواج منها، فكم من تائب من معاصية، تملّكه الندم والخوف من الله فتغير حاله ليصبح من الصالحين، فالتوبة الصادقة تجبُّ ما قبلها.

فهذا الحكم ينطبق على أولئك الزناة من الرجال والنساء الذين لايقلعون عن فعل تلك الفاحشة; ولا يتوبون منها، ولكنهم لو تابوا وأصلحوا أنفسهم، فلا ينطبق عليهم هذا الحكم لأن التوبة أسقطت عنهم صفة الزنا (فالآية الكريمة تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد... وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة العفيفة) [١].

مناسبة الآيات لمحور السورة:

افتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحورالرئيس، لأنها تمثل الخطوة الأولى في منهج القرآن للتربية الأخلاقية المتكاملة للفرد والمجتمع التي وردت في سورة النور، والتي حدَّد الله تعالى فيها حدّ الزنا، ونفّر من الزواج بالزناة، تمهيدا لإقامة الأسرة الطاهرة، والمجتمع الفاضل.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* يعتبر الإسلام الزنا جريمة دينية وخلقية واجتماعية، لأنها تمثّل اعتداء على العرض والشرف والنسل والكرامة الإنسانية، وتؤدي إلى هدم الأسرة، وتحطيم كيان المجتمع، لذلك قرنها الله تعالى بالشرك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

(١) ظلال القرآن: ٤ / ٢٤٨٨ بتصرف يسير.

* يجب على الحكام المسلمين إقامة الحدود، وخاصة حدّ الزنا الذي يجب استيفاؤه كاملا غير منقوص في صفته أو عدده، ودون رحمة بالزناة، وعلى مرأى من الناس، ليكون عقوبة زاجرة لهم، ولأصحاب النفوس الضعيفة الذين تراودهم أنفسهم ارتكاب الفاحشة.
* حذَّر الإسلام من الزواج من المرأة الزانية، فلا يليق بالمؤمنة أن تتزوج من الرجل الزاني الفاسق، ولا يليق بالمؤمن أن يتزوج من المرأة الزانية، لأن الزنا فعل شنيع يجعل مرتكبه - مع كونه مسلما - لايجدر به أن يرتبط بالصالحين الأعفَّاء من أفراد المجتمع، بل يرتبط بأمثاله من الزناة، أو بمن هم شر منهم وهم المشركون.

المقطع الثاني: حدُّ القذف

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

سبب النزول:

يرى بعض المفسرين أن سبب نزول الآيات هو حادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والتي نزلت براءتها من السماء، يقول الطبري: (وذكر أن هذه الآية إنما نزلت في الذين رموا عائشة زوج النبي ﷺ بما رموها به من الإفك)، ثم روى عن سعيد بن جبير أنه سئل هل الزنى أشد أو قذف المحصنة؟ قال: لا بل الزنى، قلت: إن الله يقول «والذين يرمون المحصنات...» قال: إنما هذا في حديث عائشة خاصة [١].

والصحيح ما ذكره القرطبي، واختاره الطبري أن هذه الآيات نزلت في القذفة عامة وليست خاصة في حادثة الإفك التي رميت بها عائشة رضي الله عنها [٢].

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ٧٤ - ٧٦.
(٢) انظر تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٢.

مناسبة الآيات لما قبلها:

المناسبة واضحة بين الآيات السابقة وبين هذه الآيات، التي تحدثت عن حدِّ القذف فالآيات السابقة قررت حدَّ الزنا، وتشدَّدت فيه صيانة للمجتمع من أخطار انتشار الفاحشة بين أفراده، ولكن هذه العقوبة لا تكفي وحدها لتحقيق هذا الهدف، لذلك شرَّعت الآيات حدَّ القذف لمن يرمي غيره ويتهمه بارتكاب الفاحشة دون بينة من شهود أربعة.

التفسير الإجمالي

المراد برمي المحصنات في الآية الكريمة هو قذف المحصنات العفائف بفاحشة الزنا الذي اعتبره الإسلام جناية، وشرع له حدا، عقوبة رادعة لأصحاب النفوس الخبيثة، التي تحاول النيل من أعراض الناس، وتلويث شرفهم من خلال التهم الكاذبة، التي يمكن توجيهها إلى أي فرد من أفراد المجتمع، وهذه الحالة تساعد على نشر الفاحشة والترويج لها، وتشجع أصحاب النفوس الضعيفة أمام إغراء الفاحشة على ارتكابها، وعندها تتهيأ بيئة المجتمع لانتشار الدعارة حتى تصبح ظاهرة فيه، لايتهيَّب أحد من ارتكابها، وعندها لايمكن لحدّ الزنا بمفرده أن يمنع وقوع فاحشة الزنا، لذلك جاء حدُّ القذف عقوبة رادعة للقاذف، تمثلت في جانب حسي، وهو الجلد ثلاثين جلدة، وجانب أدبي، وهو إسقاط شهادته، وثالث ديني، وهو الوصف بالفسق فمن رأى أحداً متلبسا بفاحشة الزنا فعليه لزوم السكوت، حتى تبقى الرذيلة في موضعها، ولا ينتشر قذاها إلى مواضع أخرى، وإن توفرله أربعة من الشهود قد رأوا بأعينهم فعلة الزنا عندها يجوز له أن يرفع الأمر إلى القاضي لإثبات جريمة الزنا، وإقامة الحدّ على الزاني.

ومن المفيد في هذا الموضع، الإشارة إلى أن الفقهاء قد حددوا شروطا لابد من توفرها في كل من القاذف والمقذوف والمقذوف به، حتى يقام الحدُّ على القاذف، منها ما ذكره القرطبي في تفسيره فقال: « للقذف شروط عند العلماء تسعة، شرطان في القاذف، وهما: العقل والبلوغ

لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما. وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو: أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحدّ وهو الزنى واللواط، أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي. وخمسة في المقذوف وهي: العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رمي بها (١).

وهناك تفصيلات كثيرة أخرى مذكورة في كتب الفقه حول تلك الشروط، يضيق المقام عن ذكرها (٢).

مناسبة الآيات لمحور السورة:

المناسبة واضحة جلية بين آيات القذف ومحور السورة، لأن حدَّ القذف يمثل حاجزا أمام انتشار فاحشة الزنا في المجتمع، مما يساعد على تحقيق الهدف المنشود في الوصول إلى التربية الأخلاقية وترسيخ الآداب الفاضلة في سلوك الفرد والجماعة التي ينشدها الإسلام، وهو المحورالأساس الذي تدور عليه آيات السورة.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* اعتبر الإسلام قذف المحصنات من كبائر الذنوب الموجبة لغضب الله وسخطه، وأوعد عليها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]. وعدَّها النبي ﷺ من الكبائر المهلكات، فقال: (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يارسول الله؟ قال: (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) (٣).
* يعتبر الإسلام الكلمة من أخطر أنواع المسؤوليات التي يتحمل الإنسان تبعاتها في الدنيا

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٣.
(٢) انظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٣٣- ١٣٦.
(٣) صحيح البخاري: ٣ / ١٠١٧ رقم (٢٦١٥)، وصحيح مسلم: ١ / ٩٢ رقم (٨٩).

والآخرة، والقذف نوع من الكلام الخطير، الذي يتسبب في أذى الناس في أعراضهم، لذلك كان اللسان من أوسع الأبواب التي تدخل أصحابها إلى النار، فقد سأل معاذ بن جبل ﷺ رسول الله ﷺ سؤالا، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ ما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعَاذُ بن جَبَلٍ ! وَهَلْ يَكُبُّ الناس على مَنَاخِرِهِمْ في جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» [1] .

* جعل الإسلام عقوبة الزاني العذب - غير المحصن - جلد مائة جلدة، وجعل عقوبة القاذف جلد ثمانين جلدة وإسقاط شهادته ووصفه بالفسق، وتعدُّد هذه العقوبات على القاذف دليل على عظم جرمه وخطورة فعلته، فكم من أعراض جرحت، ونفوس حُطِّمت بسبب تهمة نكراء رمي بها بريء، وكم من فتاة عفيفة شريفة قتلت بسبب كلمة خبيثة رماها بها فاسق جبان، خاصة في هذا الزمن الذي عطِّلت فيه أحكام الشريعة، مما شجع البعض على الولوغ في أعراض الناس دون خوف من عقوبة حاكم في الدنيا، أو عذاب في الآخرة.

* خصَّت الآية الكريمة النساء بالذكر دون الرجال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ مع العلم أن حدَّ القذف يطبَّق على كلٍّ من رمى غيره بالزنا رجلا كان أو امرأة، وذلك لأن قذف المحصنات أشنع وأقبح في حقهن، ولشدة الضرر والأذى الذي يصيبهن وأهلهن من زوج ووالد وولد وأخ وأخت وغيرهم من أقربائهن، قال القرطبي رحمه الله: (ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هنَّ أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأمة على ذلك) [2].

* دلَّ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ على أن توبة القاذف وحدها لاتكفي حتى تقبل شهادته على رأي القائلين بذلك، بل لابد من ظهور علامات الصلاح على القاذف، قال الرازي: أما قوله وَأَصْلَحُواْ فقال أصحابنا إنه بعد التوبة لا بد من مضي مدة

---

(١) المعجم الكبير: ٢٠ / ١٢٧ رقم (٢٥٨)، والمستدرك على الصحيحين: ٢ / ٤٤٧ رقم (٣٥٤٨) .

(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٢.

عليه في حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته [(١)].

* نهى الإسلام عن قبول شهادة القاذف في المستقبل حماية لأعراض الناس وصونا لكرامتهم فالذي تجرأ على القذف مرَّة بدون إثبات لايتورع عن تكراره مرات وكرات، فكان جديرا بأن تردَّ شهادته.
* دلَّ أسلوب (الحصر في قوله تعالى: ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ على المبالغة في شناعة فسقهم حتى كأن ما عداه من الفسوق لايعدُّ فسقا) [(٢)].

المقطع الثالث: اللعان

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾

سبب النزول

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البينة أو حدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا أري أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة وإلا حدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحدّ، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ فقرأ حتى بلغ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما، فجاء هلال والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٤٣.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٥٩.

فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس فتلكأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت فقال النبي ﷺ: أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[1].

وروى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما نزلت هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ قال سعد بن عبادة: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ لو أتيت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟ قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلا عذراء، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، قال سعد: يا رسول الله بأبي وأمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فوالله ما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلا مع أهلي، رأيت بعيني، وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً حتى عُرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلا حقا فإني لأرجو أن يجعل الله فرجا قال واجتمعت الأنصار، فقالوا: ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال بن أمية وتبطل شهادته في المسلمين؟ فهمَّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورسول الله ﷺ جالس

(١) صحيح البخاري: ٤ / ١٧٧٢ رقم (٤٤٧٠).

مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه، حين عرفوا أن الوحي قد نزل حتى فرغ، فأنزل الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ (١).

مناسبة الآيات لما قبلها:

يعتبر اللعان لونا من ألوان القذف، ولكنه شُرع لمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة، ناشئة من اتهام الزوج لزوجته ورميه لها بارتكاب فاحشة الزنا، وبيان ذلك: أنه لما نزل القرآن الكريم بحكم القذف، وقع بعض المسلمين في حرج شديد - كما أشارت الرواية الثانية لسبب نزول الآية - فقد يكون من السهل على الرجل أن يسكت على زنا الغير إن لم يجد أربعة من الشهود ولكنه من المستحيل أن يسكت على زنا زوجته الذي أبصره بعينه وسمعه بأذنه، فهل يلتمس أربعة من الشهود وقد يقضي الزاني حاجته قبل أن يحضر الشهود؟ أو يقتلهما معا فيقتل بهما قصاصا؟ أو يسكت على غيظ وغضب؟ لذلك تداركت رحمة الله عباده من خلال هذا التشريع الذي يرفع الحرج والظلم االذي قد يوقعه أحد الزوجين بالآخر.

التفسير الإجمالي

قرّر القرآن الكريم حكم اللعان بعد تشريع حدّ القذف، وبيان ذلك: أن المسلمين لما علموا حكم القذف الذي يلزم القاذف بإحضار أربعة من الشهود لإثبات جريمة الزنا، وإن لم يتوفر له ذلك لزمه السكوت، وإلا اعتبر قاذفا ويقام عليه حدّ القذف، والسكوت على زنا الأجانب قد يكون سهلا على النفس، لأنه متعلق بالآخرين، ولكن هذه الفاحشة لو رآها الرجل في أهله وعلى فراشه وأمام ناظريه، فإن وقعها شديد على النفس، ولو أُلزم الزوج بإحضار أربع من الشهود فقد يفر الجاني، أو يقضي حاجته قبل إحضار الشهود، وإن قتله قتل به، ويبدو من خلال استعراض روايات أسباب النزول، أن هذه المسألة قد أربكت المسلمين بعد نزول حد

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ٨٢- ٨٣، ومسند أحمد: ١ / ٢٣٨ رقم (٢١٣١) ومسند أبي يعلى: ٥ / ١٢٤ رقم (٢٧٤٠).

القذف، فأزالت الشريعة ذلك الإرباك، من خلال تشريع حكم خاص يتعلق بزنا الزوجة، وهو حكم اللعان فمن رمى زوجته بالزنا، ولم يكن له أربعة من الشهود لإثبات صدقه فيما ادعاه على زوجته، فالواجب عليه أن يشهد أمام القاضي أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى به زوجته من الزنا، وهذه الشهادات تقوم مكان الشهود الأربعة، ويحلف في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رمى به زوجته من الزنا، فإن شهد هذه الشهادات فلا يقام عليه حدّ القذف وأما الزوجة المقذوفة فإما أن تُقِر وتعترف وتقام عليها عقوبة الرجم وإما أن تلاعن زوجها، وذلك بأن تحلف أربعة أيمان بالله إنه لمن الكاذبين، فيما رماها به من الزنا تقوم مقام الشهود أيضا في إثبات براءتها، وفي المرة الخامسة تحلف بأن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنا، فإن لاعنت زوجها لم ترجم وفرق بينهما وهذا التشريع نابع من رحمة الله بعباده ولطفه بهم، ولذلك كان ختام هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾. ولولا تلك الرحمة التي تجلّت في تشريع حكم اللعان لوجب على الزوج حدّ القذف لأنه لم يحضر أربعة من الشهود مع ظهور صدقه - غالبا - لاشتراكه في تحمل تبعات قذفه لزوجته وفضيحته بها، ولو جعل الله تعالى شهادات الزوج الأربعة موجبة لإقامة عقوبة الرجم على الزوجة للحق بها ظلم رهيب إن كان زوجها كاذبا، ولو جعلت شهاداتها عليه بالكذب موجبة لإقامة حدِّ القذف عليه - وقد تكون كاذبة - لأدّى ذلك إلى ظلمه أيضا، ولكن رحمة الله تعالى رفعت الحد عنهما في حال الملاعنة، مع اليقين أنه لابد أن يكون أحدهما كاذبا وقد أشار ابن عاشور إلى بعض مظاهر رحمة الله المستفادة من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فقال: (تذييل لما مرَّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضل والرحمة منه، والمؤذنة بأنه توَّاب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعه، وكفَّ بعض الناس عن بعض) [(١)].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٦٨.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

الآيات كسابقاتها وثيقة الصلة بمحور السورة، لأنها عالجت مشكلة اجتماعية خطيرة تهدِّد كيان الأسرة، وتزرع الشكَّ بين الزوجين، لأن اللعان يمثل اتهاما صريحا للزوجة بارتكاب فاحشة الزنا، فجاء تشريع حكم اللعان حلاً وسترا لحال الزوجين، منعا للفاحشة من الانتشار، وبذلك يعتبر هذا الحكم ركيزة هامَّة في منهج تربية القرآن للأسرة والمجتمع.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* شرَّع الله تعالى حكم اللعان في الزوجات دون الأجنبيات، لأن قذف الزوجة يلحق العار بالزوج ويفسد عليه النسب، فإقدامه على القذف رغم أضراره الخطيرة دليل على صدقه في قذف زوجته. قال الإمام الرازي: « وإنما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الأجنبيات لوجهين: الأول: أنه لا معرّة عليه في زنا الأجنبية، والأولى له ستره، أما إذا زُني بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد، فلا يمكنه الصبر عليه، وتوقيفه على البينة كالمعتذر، فلا جرم خصّ الشرع هذه الصورة باللعان. الثاني: أن الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة، فإذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقاً، إلا أن شهادة الحال ليست بكاملة، فضمَّ إليها ما يقويها من الإيمان، كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد، والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء »[1].

* خصَّ القرآن الكريم اللعنة في الزوج الملاعن، وخصَّ الزوجة بالغضب، لأن الغضب أشدُّ في العقوبة من اللعن، ولاشك أن اقتراف المرأة لجريمة الزنا أكثر إثما من اقتراف الرجل لجريمة القذف، وقد يكون اللعن أقل وقعا في قلوب النساء من الرجال، لكثرة

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٤٥.

جريانه على ألسنتهن، فسبحان العليم الخبير بخفايا نفوس البشر.

* شرَّع الله تعالى حكم اللعان عند اتهام الزوجة بالزنا، سترا من الله تعالى على عباده وفتحا لأبواب التوبة أمام الزوجين عند الإلمام بالمعصية، حيث يترك إثبات ارتكاب الزوجة للفاحشة معلقا، وكذلك إثبات كذب الزوج في اتهامه لزوجته، وفي هذا الحال توأد الجريمة في مهدها، دون أن تلطخ بقذرها من لهم صلة بالزوجين.

المقطع الرابع: حادثة الإفك

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

سبب النزول:

يعتبر سبب نزول هذه الآيات الحدث الأبرز في هذه السورة، ومعلوم أن حادثة الإفك وما استتبعها من أحداث خطيرة في المدينة، استدعت رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يكشف عنهم هذه الغُمَّة بأنوار هذه السورة العظيمة، وسبب النزول روته معظم كتب السنة ومنها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَراً أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها معه، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا في غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ معه، بَعْدَ ما أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنَا حتى إذا فَرَغَ رسول اللَّهِ ﷺ من غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا من الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حين آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حتى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فلما قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ أَظْفَارٍ قد انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ على بَعِيرِي الذي كنت أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فيه، وكان النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافاً لم يَثْقُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ من الطَّعَامِ، فلم يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حين رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فيه أَحَدٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الذي كنت بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إلي، فَبَيْنَا أنا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وكان صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ من وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي وكان يَرَانِي قبل الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حين أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فوطىء يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حتى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ ما نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ من هَلَكَ وكان الذي تَوَلَّى الْإِفْكَ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بها شَهْراً يُفِيضُونَ من قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِيبُنِي في وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى من النبي ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أَرَى منه حين أَمْرَضُ، إنما يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يقول: كَيْفَ تِيكُمْ؟

لَا أَشْعُرُ بشَيْءٍ من ذلك حتى نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لَا نَخْرُجُ إلا لَيْلاً إلى لَيْلٍ وَذَلِكَ قبل أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيباً من بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ في الْبَرِّيَّةِ أو في التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أبي رُهْمٍ نَمْشِي فَعَثَرَتْ في مِرْطِهَا فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فقلت لها: بِئْسَ ما قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً؟ فقالت يا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي ما قالوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضاً إلى مَرَضِي، فلما رَجَعْتُ إلى بَيْتِي دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ فَسَلَّمَ، فقال: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فقلت: ائْذَنْ لي إلى أَبَوَيَّ، قالت: وأنا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ من قِبَلِهِمَا فَأَذِنَ لي رسول الله ﷺ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فقلت لِأُمِّي: ما يَتَحَدَّثُ به الناس؟ فقالت: يا بُنَيَّةُ هَوِّنِي على نَفْسِكِ الشَّأْنَ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كانت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إلا أَكْثَرْنَ عليها، فقلت: سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ الناس بهذا؟ قالت: فَبِتُّ اللَّيْلَةَ حتى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رسول اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بن أبي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بن زَيْدٍ حين اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا في فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عليه بِالَّذِي يَعْلَمُ في نَفْسِهِ من الْوُدِّ لهم، فقال أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يا رَسُولَ اللَّهِ ولا نَعْلَمُ والله إلا خَيْراً، وَأَمَّا عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ لم يُضَيِّقْ الله عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رسول اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فقال: يا بَرِيرَةُ هل رَأَيْتِ فيها شيئا يَرِيبُكِ؟ فقالت بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إن رأيت منها أَمْراً أَغْمِصُهُ عليها أَكْثَرَ من أنها جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عن الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ [1] فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رسول اللَّهِ ﷺ من يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ من عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: من يَعْذُرُنِي من رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ في أَهْلِي؟ فَوَاللَّهِ ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلا خَيْراً، وقد ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلاَّ خَيْراً، وما كان يَدْخُلُ على أَهْلِي إلا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أنا والله أَعْذُرُكَ منه إن كان من الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كان من إِخْوَانِنَا من الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فيه أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بن عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وكان قبل ذلك رَجُلاً صَالِحاً وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فقال كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ

---

(١) الداجن: الشاة: التي يعلفها الناس في منازلهم، لسان العرب: ١٣ / ١٤٨.

على ذلك، فَقَامَ أُسَيْدُ بن الحضير فقال: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ واللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عن الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حتى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حتى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ قد بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْماً حتى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قالت: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وأنا أَبْكِي إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ من الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لها فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دخل رسول اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ، ولم يَجْلِسْ عِنْدِي من يَوْمِ قِيلَ فِيَّ ما قِيلَ قَبْلَهَا، وقد مَكَثَ شَهْراً لَا يُوحَى إليه في شَأْنِي شَيْءٌ، قالت: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قال: يا عَائِشَةُ فإنه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بشيء فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إليه، فإن الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عليه، فلما قَضَى رسول اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حتى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فقلت لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالت وأنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيراً من الْقُرْآنِ، فقلت: إني والله لقد عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ بِهِ الناس، وَوَقَرَ في أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قلت لَكُمْ إني بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إني لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أَجِدُ لي وَلَكُمْ مَثَلاً إلا أَبَا يُوسُفَ، إِذْ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ على فِرَاشِي، وأنا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي الله وَلَكِنْ والله ما ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ في شَأْنِي وَحْياً وَلَأَنَا أَحْقَرُ في نَفْسِي من أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ في أَمْرِي، وَلَكِنِّي كنت أَرْجُو أَنْ يَرَى رسول اللَّهِ ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله فَوَاللَّهِ ما رَامَ مَجْلِسَهُ، ولا خَرَجَ أَحَدٌ من أَهْلِ الْبَيْتِ حتى أُنْزِلَ عليه الْوَحْيُ فَأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ من الْبُرَحَاءِ[1] حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الْجُمَانِ[2] من الْعَرَقِ في يَوْمٍ شَاتٍ،

---

(١) شدة الكرب من ثقل الوحي، لسان العرب: ٢/ ٤١٠.

(٢) حبات اللؤلؤ الصغار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ وفيه تشبيه عرق الرسول ﷺ بحب اللؤلؤ. لسان العرب: ١٣ / ٩٢.

فلما سُرِّيَ عن رسول اللَّهِ ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تكَلَّمَ بها أَنْ قال لي: يا عَائِشَةُ احْمَدي الله، فَقَدْ بَرَّأَكِ الله، فقالت لي أُمِّي: قُومِي إلى رسول اللَّهِ ﷺ، فقلت: لَا والله لَا أَقُومُ إليه ولا أَحْمَدُ إلا اللَّهَ. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الْآيَاتِ، فلما أَنْزَلَ الله هذا في بَرَاءَتي قال أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وكان يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ منه، والله لَا أُنْفِقُ على مِسْطَحٍ شيئا أَبَداً بَعْدَ ما قال لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ إلى قَوْلِهِ:﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾فقال أبو بَكْرٍ بَلَى والله إني لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لي، فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ الذي كان يُجْرِي عليه، وكان رسول اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عن أَمْرِي: فقال: يا زَيْنَبُ ماعَلِمْتِ؟ ما رَأَيْتِ؟ فقالت يا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي والله ما عَلِمْتُ عليها إلا خَيْراً، قالت: وَهِيَ التي كانت تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا الله بِالْوَرَعِ [1].

مناسبة آيات حادثة الإفك لما قبلها:

ترتبط هذه الآيات بما قبلها ارتباطا وثيقا، حيث ابتدأت بتشريع حدّ الزنا، ثم كان حدّ القذف وحكم اللعان، ثم جاءت حادثة الإفك أنموذجا واقعيا للوقوف على أخطار القذف وأضراره ولرصد آثاره على الفرد والمجتمع.

التفسير الإجمالي:

هذه عشر آيات نزلت كلها في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين، بما قالوه من الكذب البحت والفرية الشنيعة، التي غار الله تعالى لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان

---

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٩٤٢- ٩٤٥ رقم (٢٥١٨) وصحيح مسلم: ٤ / ٢١٣٠ رقم (٢٧٧٠).

يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقي الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة [1].

إن قصة الإفك كما روتها سورة النور، وكما فصلتها كتب الصحاح، تمثل أنموذجا عمليا لأخطار القذف وأضراره، خاصَّة عندما يمسُّ رموز الأمة وقادتها، ويصيبها في مثلها العليا وقدوتها، فقد روَّج المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن سلول، شائعة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما اتهموها بارتكاب فاحشة الزنا، تلك الشائعة التي سببت للرسول ﷺ آلاما رهيبة مدة شهر كامل، قبل أن ينزل الوحي ببراءتها رضي الله عنها، وهذه التجربة رغم مرارتها كانت خيرا للمسلمين ﴿ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴾ لأنها كانت سببا في نزول سورة النور، التي حملت في طياتها العشرات من التشريعات الربانية، الكفيلة بتنشئة المسلمين وتربيتهم على أعظم القيم الأخلاقية، وكانت خيرا لهم عندما كشفت لهم، عن بعض مكائد المنافقين، الذين أثاروا هذه الفتنة لإلحاق الهزيمة بالمسلمين في ميدان الأخلاق، الذي تفوّقوا فيه على غيرهم، وكانت خيرا لهم، عندما بينت الأخطار الرهيبة التي تترتب على إطلاق الألسنة للخوض في أعراض الناس، مما استدعى تشريع عقوبة مناسبة لهذا الأمر الخطير.

وتشير الآيات الكريمة إلى جزاء أولئك الخائضين في ذلك الإفك ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾، فلكل واحد منهم نصيب من الإثم بقدر خوضه، والذي تولى كبره منهم باختلاقه لتلك الحادثة ونشرها بين الناس، وهو عبد الله بن سلول رأس النفاق وحامل لواء الكيد للمسلمين له عذاب عظيم يوم القيامة.

ثم بينت الآيات الكريمة المنهج السليم الواجب اتباعه بين المؤمنين، والذي يقوم على مبدأ حسن ظن المؤمن بأخيه المؤمن، وعدم التسرع في اتهامة والظن السيء به، فإن من مقتضيات الإيمان ألا يصدِّق مؤمن على أخيه قول طعن ونقص. قال تعالى: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦٩.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ قال ابن كثير: « هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيء وماذكر من شأن الإفك فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ ﴾ أي: هلا، ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المومنين رضي الله عنها، ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى»[١].

ويبدو أن هذا الموقف الإيماني كان موجودا بين المؤمنين، الذين سارعوا إلى رفض تلك الشائعات، كما حدث بين أبي أيوب الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، عندما قالت له: يا أبا أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال نعم. وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة والله خير منك»[٢].

وهذا المنهج هو الجدير واللائق بمنزلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لأنها فوق التهمة، وبمجرد سماع المؤمن لمثل تلك الشائعات، فالواجب عليه المسارعة إلى تكذيبها ووصفها بأنها إفك مبين، وأدلة كذبه واضحة ظاهرة لكل عاقل، يقول ابن كثير: « وقوله: «وقالوا» أي بألسنتهم ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ولو كان الأمر فيه ريبة لم يكن هذا فيه جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا، فتعين أن ماجاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والزور والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة» [٣].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٤.

(٢) فتح الباري: ٨ / ٤٧٠. و تفسير الطبري: ١٨ / ٩٦، وتفسير ابن كثير: ٣ / ٢٧٤. والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤ / ١٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٤.

وتبين الروايات التي تحدثت عن الافك أن الذين خاضوا فيه هم جماعة من المنافقين والمؤمنين، فالمنافقون منهم:عبد الله بن سلول زعيم المنافقين، وزيد بن رفاعة، والغالب أنه من اليهود المنافقين،، والمؤمنون منهم: مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش الذين انخدعوا بمكائد المنافقين فخاضوا مع الخائضين.

وبعد بيان الخطوة الأولى في ذلك المنهج، تأتي الخطوة التالية التي تطالب بالأدلة والبراهين التي تثبت التهمة عن طريق أربعة من الشهود، فإن لم يتوفر ذلك العدد من الشهود ثبت كذب أولئك المتهمين، قال تعالى:﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ وفي ذلك توبيخ كبير للذين سمعوا الإفك ولم يسارعوا إلى تكذيبه وإنكاره، ولكن فضل الله ورحمته بأولئك الخائضين في شأن عائشة رضي الله عنها، حال دون تعجيل إنزال العذاب بهم. قال القرطبي: « هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائبا»[1].

ثم بينت الآيات الكريمة قبح ما فعله الخائضون في الإفك، عندما أطلقوا العنان لألسنتهم، كل يتلقى عن الآخر ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ وهذا التعبير يوحي بأن ذلك الخبر تلقاه أولئك الخائضون بلا تدبّر ولا رويّة، ودون عرضه على العقل والقلب، غافلين عن عظمة ذلك الذنب المترتب على الخوض في عرض زوجة رسول الله ﷺ الطاهرة البريئة، التي اختارها الله تعالى زوجة لرسوله ﷺ، ثم تتعجب الآيات من سلوك بعض المؤمنين، الذين لم يسارعوا إلى تكذيب ذلك الخبر بمجرد سماعه، لكمال وضوحه في الكذب والبهتان، وتختم هذا الموقف ببيان العظة والعبرة من هذه الحادثة، التي أنزل الله تعالى فيها أحكاما تشريعية وآدابا اجتماعية، تشكل أساسا متينا في بناء المجتمع الصالح.

ثم فضحت الآيات الكريمة المنافقين، مبينة أهدافهم الخبيثة من نشر خبر الإفك، وهو

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢٠٢.

حبهم الكبير ورغبتهم الشديدة في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، من خلال تشهيرهم وتناولهم عرض رسول الله ﷺ، الذي تتمثل فيه قدوة الأمة وطهارتها، فإذا اهتزت ثقة الناس بهذه القدوة واتُهم عِرض أطهر الناس، فإن الفاحشة ستنتشر إنتشارا واسعا بين أفراد المجتمع الإسلامي قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حددت عقوبة مناسبة لأصحاب تلك النفوس الخبيثة في الدنيا والآخرة، وهددت المذكورين بإشارة إلى علم الله تعالى المحيط الذي يكشف للمؤمنين بواطن الأمور، ويفضح خفايا نفوس المنافقين، وذلك فضل من الله تعالى ورحمة منه، ليدفع عن عباده المؤمنين شرور الحاقدين المتربصين بالمسلمين الدوائر.

ثم توجهت الآيات الكريمة بنداء إلى المؤمنين، ليكونوا على حذر شديد من فتن الشيطان فقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ فالشيطان يزيِّن للناس فعل المعاصي، من إشاعة للفواحش والمنكرات والخوض في أعراض الناس، كما حدث في قصة الإفك، التي شارك فيها بعض المؤمنين، ولكن رحمة الله تعالى وفضله على عباده، فتح للعصاة بابا لتزكية أنفسهم، وتطهيرها من آثامها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والأمر اللافت في ختام هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فالله سبحانه سميع للأقوال، عليم بالأحوال وبكل ما يخطر على بال، « فهو خبير بمن هو أهل للتزكية، ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيته لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم، ممن خذله نوعا من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم وسببا لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾... »[1].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٥ / ٢٤٧.

وفي أجواء هذه التزكية، تأتي الدعوة إلى الصفح والتسامح بين المؤمنين، فقد يتسبب المؤمن في مظلمة أخيه، وحتى لا تكون القطيعة سيدة الموقف، تأتي دعوة القرآن صريحة مشوقة ليعفو المؤمن عن الذي ظلمه، فالله سبحانه وتعالى يعفو ويصفح عن عباده رغم ذنوبهم. لذلك نهت الآيات المؤمنين بعامة، وأهل الصلاح والفضل منهم خاصة، الذين وسَّع الله تعالى عليهم في أرزاقهم، أن يمتنعوا عن دفع مساعداتهم إلى الفقراء والمهاجرين، التي كانوا يؤدونها إليهم بسبب خوضهم في حادثة الإفك، قال تعالى:﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وهذا الموقف يبرز لنا أفقا عاليا من آفاق تزكية النفس البشرية، لتتخلص من رغبتها في الانتقام من الآخرين، الذين يتسببون في إلحاق الأذى بها، كما بين ذلك سبب النزول السابق فخوض بعض المؤمنين في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بنت الصديق، وما سببه من آلام رهيبة في نفس أبيها، جعلته يتخذ هذا الموقف من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض مع الخائضين في الإفك، ولكن القرآن الكريم يربي النفوس على أخلاق رفيعة، تجعل المؤمن يكبح رغباته وغرائزه الحيوانية، ويرقى بها إلى أعلى آفاق السمو الإنساني، الذي تمثل في دعوة القرآن الكريم المؤمن، إلى العفو والصفح اقتداء برب العزة، الذي يعفو ويصفح عن المؤمنين، ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾، قال ابن عاشور: (وعطف ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ على جملة ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه، وتنبيها على الأمر بالتخلق بصفات الله تعالى) [(١)] فهذه المسحة الربانية على آلام تلك القلوب، جعلتها نظيفة طاهرة زكية مشرقة بنور الله، لا تعرف الحقد والضغائن وهذا ما عبَر عنه أبوبكر ﷺ عندما سمع تلك الآيات، فقال: (بلى والله إني لأحب أن يغفر لي)، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، ويحلف ويقول: والله لا أنزعها منه أبدا.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٩٠.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تلك المغفرة التي تحدَّث القرآن عنها، إنما هي مقصورة على المؤمنين التائبين من خطيئة رمي المحصنات، وأما الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الطاهرات ويتهمونهن بالزنا عن خبث وإصرار، كابن سلول وأمثاله، فلا عفو عنهم ولا سماحة معهم، وإن أفلتوا من عقوبة الدنيا، فإن الله تعالى قد لعنهم بسبب بهتانهم، وطردهم من رحمته، وأوجب لهم العذاب االعظيم في الآخرة، في ذلك اليوم الذي ستشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون من آثام، وستكون فضيحتهم مخزية على رؤوس الأشهاد وسينالون الجزاء العادل على جرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا، وعندها يعلمون أن الله عادل لا يظلم أحدا من خلقه، لأنه هو الحق المبين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن كثير: (هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات خرج مخرج الغالب فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما)[١].

وبعد بيان القرآن الكريم لعقوبة الخائضين في الإفك ومصيرهم يوم القيامة لابد من إشارة إلى السنة النبوية التي عدَّت قذف المحصنات من أكبر الكبائر، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ وما هُنَّ قال الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ[٢].

ثم كان مسك ختام الآيات التي تحدثت عن الإفك براءة من الله تعالى للسيدة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك، قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ فأتى

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٧.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٠١٧ رقم (٢٦١٥)

بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، والقول الفصل، في عصمتها ونزاهتها، فهي زوجة وحبيبة رسول الله الطيبة الطاهرة، ورسول الله ﷺ طيب طاهر، وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة، والنفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، فالخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، أولئك المتهمات من النساء بريئات من تلك التهمة الشنيعة، ولهم مغفرة من ذنوبهم على ما نالهم من الأذى، ورزق كريم في جنات النعيم. قال ابن كثير: (ما كان الله ليجعل عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لاشرعا ولاقدرا ولهذا قال تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ ﴾أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان،﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾، أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾، أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة. [(١)]

وبذلك أظهر الله تعالى براءة عائشة رضي الله عنها، مما اتهمت به من فاحشة الزنى، وشهد لها القرآن بأنها طيبة، لأنها زوجة أطيب الطيبين، وأكرم مخلوق عند الله رب العالمين، وما كان الله تعالى ليجعلها زوجة لأحب عباده، لو لم تكن عفيفة طاهرة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

هذه الآيات تشكل أساس المحور الذي تقوم عليه هذه السورة، وهو التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، وذلك لأن منهج الإسلام في تربيته الأخلاقية للأسرة والمجتمع، يقوم على أساس طهارة الحياة الزوجية من كل مظاهر الانحراف خاصة الزنا، سواء حدث الانحراف فعلا من أحد الزوجين، أو تعرض أحدهما للقذف، فهذا كله يساعد على نشر الفاحشة في المجتمع، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فبصلاحها يصلح، وبفسادها يفسد.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٩.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* نزول القرآن الكريم ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، مما رماها به أهل الإفك، دليل قاطع على عفتها وطهارتها، ومن خاض في عرضها بعد ذلك، فهو كافر مرتد عن الإسلام لإنكاره أمرا صريحا جاء في القرآن الكريم قال ابن كثير: (وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها ورماها بها رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم)[1].

* يجب على المؤمن أن يحسن الظن بأخيه المؤمن، فلا يظن به إلا خيرا، وهذه القاعدة مستفادة من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ فهذا حثّ لإحسان ظن المؤمن بأفراد مجتمعه وملّته، ولذلك يعتبر من رمى عائشة باقتراف الفاحشة وهي زوجة النبي ﷺ، قد بلغ الغاية في سوء الظن، بنفسه، وبنبيه وأهل بيته وبأخلاق أمتة وهذا المعنى يتطابق مع قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾.

* تعتبر حادثة الإفك دليلا ساطعا على نبوة محمد ﷺ، فاالحالة التي عاشها عليه الصلاة والسلام أثناء فتنة الإفك كانت فظيعة وأليمة، واستمرت قرابة شهر كامل، لم يستطع فيها أن يخرس ألسنة الخائضين في عرضه، بل صبر على آلامه حتى نزلت البراءة من السماء، بل أن المتتبع لرواية سبب النزول، يكاد يرصد نوعا من الشك لدى الرسول ﷺ تجاه زوجته وهذا يفهم من قوله ﷺ لها:(إن كنت بريئة فسيبرؤك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى، وتوبي إليه)، ونجده تارة أخرى يسأل خادم بيتها، ويسأل علياً أخرى، وأسامة بن زيد ثالثة، وأزواجه رابعة، وكل هذه الحيرة تدل على حجم المعاناة التي سببتها له حادثة الإفك، فلو كان القرآن من كلامه لحل مشكلته بسرعة من خلال بضع كلمات

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٧.

يرتجلها وتنتهي هذه الفتنة النكراء، ولكنه ينتظر نزول الوحي من السماء ليكشف له ماكان خافيا عنه من أسرار هذه الحادثة الأليمة، والتي تكشف لنا حقيقة أخرى وهي تلقين الله تعالى للمسلمين درسا في بشرية الرسول ﷺ،وأنه يجري عليه ما يجري على سائر البشر من عدم معرفة الغيب إلا ما يطلعه الله عليه وأنه يتألم ويشك، وغير ذلك من الأحوال التي تعرض للبشر حتى لا يغالوا في شخصه ﷺ.

* قررت الآيات الكريمة قاعدة في الاتهام والمرافعة، تقوم على أساس أن كل اتهام لا بد له من دليل وبينه، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ فعندما لاتتوفر الأدلة والبينات، والشهداء لتوثيق الاتهام فأولئك عند الله هم الكاذبون.

* إذا حلف المسلم على يمين ثم رأى أن الخير في تركها، خاصَّة إن كانت في قطيعة رحم فيجب الحنث فيها، والتكفيرعنها، عملا بقول الرسول ﷺ: «من حَلَفَ على يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى غَيْرَهَا خَيْراً منها، فَلْيَأْتِ الذي هو خَيْر، وَلْيَتْرُكْ يَمِينَهُ»[1] وهذا ما فعله أبوبكر ؓ عندما أعاد لمسطح نفقته وكفَّر عن يمينه.

* حثَّت الآيات الكريمة المؤمنين على التحلي بخلق العفو والصفح، بأسلوب لافت، من خلال تذكيرهم بعفو الله تعالى وصفحه عنهم﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالمؤمن رحيم بأخيه المؤمن، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد بادر أبوبكر ؓ إلى العفو والصفح عن مسطح رغم خوضه في عرض ابنته، وقد جرت عادة الناس على ممر العصور على عدم التساهل في مثل هذه الأمور، ولكن أبابكر كانت إجابته لدعوة الله بالعفو والصفح سريعة، ودون تردد، حيث قال: « والله إني لأحب أن يغفر الله

(١) مسند أحمد: ٤ / ٢٥٩ رقم (١٨٢٩٩).

لي «وأرجع إلى مسطح نفقته، التي كان ينفق عليه، وقال: « والله لاأنزعها منه أبدا» وفي رواية أخرى، أنه زاد له في النفقة، وجعلها ضعفي ماكانت عليه كما مر في سبب النزول.

* بينت الآيات الكريمة أن جوارح الناس وحواسهم تشهد عليهم يوم القيامة بما اقترفوه من المعاصي في الدنيا، وبذلك يكون الشهود على الإنسان من ذاته، فلا يستطيع إنكار ما اقترف من إثم يوم القيامة، قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى أيضا: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: ٦٥]، هذه اللفتة القرآنية من شأنها أن تزيد من مراقبة الإنسان لنفسه ومحاسبتها على تصرفاتها.

* قررت الآيات مبدأً هاماً جداً في علم النفس والاجتماع، وهو أن النفوس الخبيثة تتوق إلى النفوس الخبيثة، والنفوس الطيبة الطاهرة لا تلتئم إلا مع مثيلاتها من النفوس الطيبة وهذه الحقيقة لها أهميتها في دراسة أنماط السلوك، وأساليب المعاملات، وقواعد الآداب، التي تساعد الباحثين في مجالات كثيرة، خاصة في اختيار الأزواج والأصدقاء، وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية في الإسلام.

* فضل عائشة رضي الله عنها، على سائر أزواجه ﷺ، قال الرسول:(إن فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1] وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (خِلالٌ فِيَّ سَبْعٌ لم يَكُنْ في أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إلا ما أتى اللهُ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرَانَ وَاللَّهِ ما أَقُولُ هذا فَخْراً على أَحَدٍ من صَوَاحِبِي فقال لها عبد الله بن صَفْوَانَ وما هُنَّ يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ قالت نَزَلَ الْمَلَكُ بِصُورَتِي وَتَزَوَّجَنِي رسول اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِسَبْعِ سِنِينَ وَأُهْدِيتُ إليه لِتِسْعِ سِنِينَ وَتَزَوَّجَنِي بِكْراً لم يَشْرُكْهُ فِيَّ أَحَدٌ مِنَ الناس وكان الْوَحْيُ يَأْتِيهِ وأنا وهو في لِحَافٍ وَاحِدٍ وَكُنْتُ أَحَبَّ الناس أليه وَبِنْتَ أَحَبِّ الناس إليه وقد نَزَلَ فِيَّ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ وقد

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٠٦٧ رقم (٥١٠٢)، وصحيح مسلم: ٤ / ١٨٨٦ رقم (٢٤٣١)

كَادَتِ الأُمَّةُ تَهْلِكُ فِيَّ وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ ولم يَرَهُ أَحَدٌ من نِسَائِهِ غَيْرِي وَقُبِضَ في بَيْتِي لم يَلِه أَحَدٌ بجيرتي وقف الملك) [1] وقد مات النبي ﷺ وهو راض عنها.

* عدالة الجزاء في الإسلام، وهذا ما نلحظه من موقف القرآن من مسطح، فهذا الصحابي ورغم معصيته الكبيرة في خوضه في عرض عائشة رضي الله عنها، ولكن الله تعالى لم يمسح له كل أعماله الطيبة، وخاصة هجرته، ولذلك وجدنا الرسول ﷺ عندما نزلت الآية: (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة......) استدعى أبا بكر وتلاها عليه وقال له: ألا تحب أن يغفر الله لك؟ قال: بلى. قال: فاعف عنه وتجاوز، كما ذكرت الرواية الثانية لسبب النزول.

* شدَّد الله النَّكيرعلى الخائضين في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، (ولو فَلَيت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلَّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلاّ هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾، فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكَّد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا الأمرّ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات، فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة،

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٢٣ / ٣١ رقم (٧٧)، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد للهيثمي: ٩ / ٢٤١.

وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرّأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها إني عبد الله، وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذاك إلاّ لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محلّ سيد ولد آدم، وخيرة الأوّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمّل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه)[1].

المقطع الخامس: آداب الاستئذان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

سبب النزول:

سبب نزول هذه الآية رواه الطبري وغيره، عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٢٧- ٢٢٨.

طرق الشام؟ ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[١].

المناسبة بين آيات الاستئذان والتي قبلها:

بينت الآيات السابقة التي تناولت حادثة الإفك، أن المنافقين فتحوا بإفكهم ذلك، باب الظنون السيئة بين المسلمين، فأمر الله عباده المؤمنين _ دفعاً لتلك الظنون - بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بها يحسم الفساد، فأهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به[٢].

التفسير الاجمالي:

بعد أن بينت الآيات السابقة عقوبة الزنا وقذف العفائف به (شرع في تفصيل الزواجر عما عسى يؤدي إلى أحدهما من مخالطة الرجال والنساء ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه وإلا فالمآجر والمعير أيضا منهيان عن الدخول بغير إذن)[٣]، فمقصود الآيات استئصال الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في فاحشة الزنا، التي يزداد انتشارها بتهيئة الأجواء المناسبة لها، من خلال تنشئة الأوساط الشهوانية الذي تحرِّك شهوات الناس الكامنة، وتثير غرائزهم، وقد وضع القرآن الكريم خطة وقائية

(١) انظر تفسير الطبري: ١٨ / ١١١، ولباب النقول للسيوطي ١/ ١٥٨.،وأسباب النزول للواحدي: ١٨٦.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٧٠، ونظم الدرر في تناسب الايات والسور للبقاعي: ٥ / ٢٥٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٦٨.

متكاملة لتحقيق هذا الهدف النبيل، تمثلت في نهيه عن دخول بيوت الآخرين بغير استئناس أهلها واستئذانهم، ونهي الرجال عن النظر إلى النساء الأجنبيات، وكذلك النساء عن النظر إلى الرجال الأجانب، ونهي النساء عن إبداء زينتهن لغير محارمهن وأزواجهن والنهي عن البغاء، الذي يفتح أوسع الطرق أمام الفاحشة، وأمر بتزويج العزَّاب والذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، حتى العبيد والإماء، وهذه الأمور هي التي تؤمن الجوَّ الآمن للمجتمع السليم البعيد عن الشهوانية الحيوانية التي لايهمها إلا إرواء النزوات كيفما اتفق، وإلهاب الشهوات التي تحوِّل الإنسان إلى عبد ذليل، مسلوب الإرادة أسير شهواته، لايفكِّر إلا بالمتعة الجسدية بعيدا عن الأهداف العظيمة التي أنيطت به في هذا الوجود.

والآيات التي معنا في هذا المقطع، تعتبر الخطوة الأولى من الخطة التي وضعها الإسلام لاستئصال أسباب الفتنة والغواية، التي يتسبب بها النظر والاطلاع على العورات، خاصَّة عند دخول بيوت الآخرين دون استئذان، لذلك أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى طريقة حكيمة تقطع دابر الفتنة، فنهى الزائر عن دخول البيوت دون استئذان أهلها والسلام عليهم، ليأنسوا به، ويأمنوا نظراته، التي قد تقع على عوراتهم، أو على مكروه لا يحبون أن يطلع عليه أحد، قال تعالى: ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، ففي الاستئذان والسلام راحة، وأمن لأهل الدار، وفيه دفع لخطر الريبة والظن السيء عن المستأذن، وبعد الاستئذان إن كان في البيوت أحد من أهلها، فأذن للزائر دخل، وإلا فمجرد الاستئذان لا يخول الزائر الدخول واقتحام البيوت، لأن الإسلام جعل للبيوت حرمة،﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وإن رفض طلب الاستئذان وطلب من المستأذن الرجوع، فعليه أن يتقبل ذلك بنفس راضية، لا يشعر معها بإساءة أهل البيت له، أو انتقاصهم من قدره ومكانته وكرامته، مقدرا أعذار الناس وأوضاعهم التي قد تضطرهم إلى ذلك،﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ « فالرجوع أفضل من الإلحاح وتكرارالاستئذان والقعود على الباب، وأطهر من التدنيس بالمشاحة على الدخول،

لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة، والفرار من الدناءة». [١]

ثم كان ختام الآية قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ وفيه تذكير للمؤمنين بعلم الله الشامل المحيط بهم، الذي سيجازيهم على أعمالهم وتصرفاتهم، « وفيه توعّد لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى مالايحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محظور»[٢].

وأما البيوت العامة التي لااختصاص لها بسكن شخص معين، كالفنادق، والحوانيت، والحمامات، والمدارس، والمستشفيات، والدوائر العامة التي ترتبط بمنافع الناس كافة، فلا يحتاج دخولها إلى استئذان كالبيوت الخاصة.

ثم ختمت الآيات بهذا الوعيد ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ وفي ذلك تهديد لأصحاب النوايا الخبيثة الذين يرغبون في التجسس على الناس وتتبع عوراتهم، قال أبو السعود: «وهذا وعيد لمن يدخل مدخلا لفساد أو اطلاع على عورات الناس» [٣]. فالله تعالى مطّلع على خفايا الأمور وظواهرها، ومراقبته دائمة في السر والعلانية، وفي ذلك دعوة لهذا الإنسان لامتثال أمره، والتزام هذا الأدب الرفيع، الذي حثت عليه الآيات الكريمة، وفيه حظر على النظرات المفاجئة التي تحرك الشهوات الساكنة والرغبات الدفينة، واللقاءات المشبوهة التي يزينها الشيطان، الذي حذرنا الله تعالى من اتباع خطواته في الآيات السابقة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

هذه الآيات الكريمة حملت في طياتها الخطوة الثانية من الخطة الوقائية التي وضعها الإسلام لمنع وقوع فاحشة الزنا وهي بدورها تشكل جانبا هاما من محور السور الكريمة.

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٢٠.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢٢٠.

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٦٩.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* إن الشريعة إذا حرمت شيئا، فإنها تحرِّم كل السبل المؤدية إليه، حتى تجعل فاصلا بين العبد والمعصية، لأن القرب من المعصية قد يضعف النفوس، ويغريها بارتكاب المعاصي ولذللك كان الأمر بالاستئذان منعا لوقوع البصر على العورات، التي تحرك رؤيتها الشهوة الممهدة لارتكاب الفاحشة، فالإسلام لم يحرم الزنا فقط، بل حرَّم كل السبل الموصلة إليه وهذا المعنى عبَّرت عنه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء/ ٣٢].

* وجوب الاستئذان عند الرغبة في دخول بيوت الآخرين، انطلاقا من مبدأ حق الإنسان في الخلوة، ومنع الآخرين من إقحام أنفسهم فيها بدون إذن صاحب الخلوة، وقد كان من عادة العرب في الجاهلية أنهم يقتحمون بيوت الناس اقتحاما دون استئذان، وقد تقع أنظارهم على عورات الناس، أو على أوضاع لايرغبون بأن يطَّلع عليها أحد، قال مقاتل بن حيان في تفسير قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾، كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول: حييت صباحا وحييت مساءا، وكان ذلك تحية القوم بينهم: وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت ونحو ذلك، فيشقُّ ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقيا منزها من الدنس والقذر والدرن [1] .

* شرعت الآيات الكريمة للزائراستئناس أهل البيوت والسلام عليهم، لإزالة الوحشة عنهم، وإشعارهم بالأمن قبل الدخول، والتعبير بقوله تعالى ﴿ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ لايراد به مجرد الاستئذان، وإنما المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته، (وفي

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٢.

ذلك من الآداب أن المرء لاينبغي أن يكون كلا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين، وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية) [١]، وأما السلام فقد علَّمه النبي ﷺ لأصحابه، ومن ذلك أن رجلا من بَنِي عَامِرٍ اسْتَأْذَنَ على النبي ﷺ وهو في بَيْتٍ فقال أَلِجُ فقال النبي ﷺ لِخَادِمِهِ اخْرُجْ إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ له قُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فقال السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ فَأَذِنَ له النبي ﷺ فَدَخَلَ» [٢].

* الحكمة الأساسية من تشريع أدب الاستئذان هي الحيلوله بين النظر وبين عورات الآخرين، وتحقيقا لهذه الحكمة، أوصت السنة المطهرة الزائر ألا يستقبل الباب بوجهه، بل يجعله عن يمينه أو شماله، وهذه الطريقة علَّمها النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرج الطبراني بسنده عن سعد بن عبادة أنه قال: جئت إلى النبي ﷺ وهو في بيت فقمت مقابل الباب، فاستأذنت فأشار إلي أن تباعد، ثم جئت فاستأذنت، فقال: وهل الاستئذان إلا من أجل النظر؟ [٣].

* لم يحدد القرآن للاستئذان صيغة معينة، (وما ورد في بعض الآثار فإنما محملة على أنه المتعارف عليه بينهم، أو على أنه كلام أجمع من غيره في المراد. وقد بينت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإن لم يؤذن له انصرف) [٤] والدليل على ذلك ماأخرجه البخاري بسنده عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أنه قال: كنت في مَجْلِسٍ من مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جاء أبو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فقال اسْتَأْذَنْتُ على عُمَرَ ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ لي فَرَجَعْتُ فقال ما مَنَعَكَ

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٩٧.
(٢) سنن أبي داود: ٤ / ٣٤٥ رقم (٥١٧٧).
(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٦ / ٢٢. رقم (٥٣٨٦)، ومجمع الزوائد للهيثمي: ٨ / ٤٤ وقال رجاله رجال الصحيح، وتفسير الدر المنثور: ٦ / ١٧٤.
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ١٩٩.

قلت اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ لي فَرَجَعْتُ وقال رسول الله ﷺ إذا اسْتَأْذَنَ أحدكم ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ له فَلْيَرْجِعْ فقال والله لَتُقِيمَنَّ عليه بينة أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ من النبي ﷺ فقال أُبَيُّ بن كَعْبٍ والله لَا يَقُومُ مَعَكَ إلا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ معه فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النبي ﷺ قال ذلك) (١).

المقطع السادس: غضّ البصر

قال تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

سبب النزول

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينا الرجل يمشي إلى جنب حائط ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري، فأتاه فقصَّ عليه قصته، فقال النبي ﷺ: هذا عقوبة ذنبك، وأنزل الله﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ الآية(٢) .

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٠٥ رقم (٥٨٩١) وصحيح مسلم: ٣/ ١٦٩٤ رقم (٢١٥٣).
(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦/ ١٧٦، وكنز العمال: ٢/ ٢٠١ رقم (٤٥٣٨).

وروى ابن كثير عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا والله أعلم، أن جابر بن عبد الله الأنصاري، حدَّث أن أسماء بنت مرثد، كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا؟ فأنزل الله ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ (١).

مناسبة الآيات لما قبلها:

ترتبط هذه الآيات بما قبلها ارتباطا محكما، لأنها تمثل الخطوة الثانية التي وضعها الإسلام في منهجه لاستئصال فاحشة الزنا من المجتمع، وتجلَّت في أمر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات، بغض أبصار بعضهم عن بعض إذا ماحصلت الخلطة بعد الاستئذان (فقد أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ماتقتضيه المجالسة بعد الدخول، وهو أن لايكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه) (٢).

التفسير الاجمالي:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بغض البصر وحفظه وتنكيسه وصرفه عما لا يجوز النظر إليه من مفاتن المرأة الأجنبية من غير المحارم، وبيان ذلك أن الله تعالى (لما ذكر حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غضُّ البصر من المستأذن، كما قال ﷺ: (إنما جعل الإذن من أجل البصر) وخصَّ المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها وأولى بذلك ممن سواهم) (٣).

ومن المعروف أن حفظ الفرج ثمرة طبيعية لغضِّ البصر، ومن استطاع كبح جماح نفسه عن

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ٢٠٣.

(٣) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤/ ٢٢.

النظر الحرام، فإنه يستطيع أن يتحكم بإرادته لحفظ فرجه، وعندها تتحقق الطهارة بمفهومها الكامل الشامل، طهارة النفس في تصوراتها ومشاعرها وانفعالاتها من الخيانة، وطهارة المجتمع من كل المظاهر التي تؤدي إلى انتشار الفاحشة، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾ والله تعالى مطَّلع على عباده، خبير بأحوالهم عليم بنياتهم. وقد أرشد الرسول ﷺ أصحابه إلى ضرورة غضِّ البصر، فقد أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جَرِيرِ بن عبد اللَّهِ قال سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عن نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي) [١]. وقال لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد " [٢].

وهذا الأمر للمؤمنين بغض البصر لايمكن أن يثمر الطهارة التي يريد الإسلام ترسيخها في المجتمع إلا إذا أمرت المرأة بنفس ذلك التكليف السالف للمؤمنين، لذلك أمر الله تعالى المؤمنات بغضِّ البصر وحفظ الفرج، وزادهن في التكليف على المؤمنين في النهي عن إبداء زيتهن إلا للزوج، الذي يطَّلع من زوجته على ما لا يجوز أن يطَّلع عليه أحد سواه وكذلك المحارم الذين يطَّلعون على بعض الزينة، ممن لا ينظرون إلى المرأة بشهوة وذلك (لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة، وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان أو لأن الأحوط أن يتسترن عنهم حذرا أن يصفوهن لأبنائهم»[٣].

وهؤلاء المحارم ليسوا على مستوى واحد في حدود ما يجوز النظر إليه من زينة المرأة، يقول أبو حيان: "وبدأ تعالى بالأزواج لأن اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثَنَّى بالمحارم وسوَّى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر فالأب

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٩٩ رقم (٢١٥٩).
(٢) المسند المستخرج على صحيح مسلم: ١ / ٣٨٥ رقم (٧٦٣).
(٣) تفسير البيضاوي: ٤ / ١٨٣.

والأخ ليس كابن الزوج فقد يُبدي للأب ما لا يبدى لابن الزوج " [١].

وأما الأنواع الباقية الذين استثنتهم الآية الكريمة ممن يجوز لهم النظر إلى زينة المرأة فهم: النساء أوملك اليمين، والتابعين غير أولي الإربة من الرجال البُله المغفلين الذين لاحظَّ لهم في النساء، وكذلك الأطفال الذين لايثيرهم جسد المرأة لصغر سنهم، وعدم معرفتهم بمعاني الجنس، وهناك خلافات فقهية بين الأئمة في هذه الأنواع لايتسع المقام لتفصيلها.

وأما ما يظهر من زينتها دون قصد ولا نية سيئة في إبداء المفاتن، أو ما يظهر من الزينة عند الضرورة كالوجه والكفين، فلا إثم عليهن فالله غفور رحيم.

فمقصود الآية تحقيق الوقاية المانعة من إثارة الشهوات، التي توقظها الحركات الناشئة عن رغبة المرأة في إبداء زينتها، لذلك نهى النساء عن الضرب بالأرجل، الذي كانت تفعله النساء وقتئذٍ ليسمع صوت خلخالها، فتلتفت الأنظار إليها، ويطمع فيها الذي في قلبه مرض. يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾: « أي ما يخفينه من الرؤية من زينتهن، أي: ولا يضربن بأرجلهن الأرض، ليتقعقع خلخالهن فليعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن، ويوهم أن لهنَّ ميلا إليهم وفي النهى عن إبداء صوت الحليّ بعد النهى عن إبداء زينتها من المبالغة في الزجر عن إبداء موضعها مالا يخفى" [٢].

وقال أبو محمد بن حزم ما معناه أنه تعالى نهاهن عن ذلك لأن المرأة إذا مرّت على الرجال قد لا يُلتفت إليها، ولا يُشعر بها، وهي تكره أن لا ينظر إليها، فإذا فعلن ذلك نبهن على أنفسهن وذلك بحبهن في تعلق الرجال بهن، وهذا من خفايا الإعلام بحالهن [٣].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤١٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٧١.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤١٤.

ثم كان ختام الآية دعوة للرجال والنساء إلى التوبة والرجوع إلى الله، لأنها طريق المغفرة ونيل رضا الله تعالى، الموصل إلى السعادة الدائمة في دار النعيم ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأبلغ أوامر الله ونواهيه في كل باب، لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة "[١].

المناسبة بين هذه الآيات وبين محور السورة

أمر الله تعالى المؤمنين والمؤمنات في هذه الآيات بغضِّ البصر، للمحافظة على العورات من النظر، لأن النظرة الحرام قد يستتبعها بحث عن المعصية ونشر للفاحشة، فيأتي غضُّ البصر كوسيلة وقائية مانعة من وقوع المعصية، وهذه الخطة تساهم في تحقيق التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، وهذا هوالمحور الأساس للسورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* بين القرآن الكريم أن حبَّ المرأة للزينة أمر فطري، وكذلك رغبتها في إظهار زينتها وجمالها، والإسلام أقرَّ هذه الرغبة الفطرية، ولكنه وضع لها الضوابط التي تحدِّد أماكنها ومواضعها الصحيحة التي تثمر فيها، فطالبها بالتزيين لزوجها، وأن تظهر له كل ما يحب النظر إليه فيها. وأما الأجانب عنها فيحرم عليها أن تظهر شيئا من زينتها أمامهم، إلا الوجه والكفين فيجوز كشفهما إذا أمنت الفتنة، فقد روى أبو داود في سننه بسنده عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أبي بَكْر دَخَلَتْ على رسول الله ﷺ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ فَأَعْرَضَ عنها رسول اللهِ ﷺ، وقال: يا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إذا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لم تَصْلُحْ أَنْ يُرى

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٣٨.

منها إلا هذا وَهَذَا، وَأَشَارَ إلى وَجْهِهِ وَكَفَّيْه» [١] .

* أجاز القرآن الكريم للمرأة أن تظهر زينتها أمام محارمها، لأن الفتنة مأمونة من جانبهم فلا تتوفر فيهم الرغبات الشهوانية تجاهها، وهم: الآباء والأبناء، وآباء الأزواج وأبناؤهم وأبناء الأخوات، والنساء المؤمنات، وأما غير المسلمات فلا يصح للمسلمة أن تظهر زينتها أمامهن لأنهن قد يصفنها لأزواجهن وإخوتهن وأبناء دينهن.

* الأمر بغضِّ البصر عن النساء الأجنبيات، استثنت منه الشريعة بعض الصور التي تضطر الرجل للنظر في وجه المرأة، كالرغبة في الزواج منها فإنه يستحب للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، وهذا أمر بينته السنة المطهرة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: كنت عِنْدَ النبي ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً من الْأَنْصَار، فقال له رسول اللهِ ﷺ: أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ قال: لَا، قال: فَاذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فإن في أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شيئا [٢]. وفي حديث آخر مروي عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: قال رسول الله صلىالله عليه وسلم: (إذا خطب أحدكم امرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل، فخطبت امرأة من بني سليم فكنت أتخبأ لها في أصول النخل، حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها [٣].

وقد قاس الفقهاء على ذلك صورا أخرى يجوز فيها للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة كالنظر في وجه المشتبه بها أثناء التحقيق، أو الشهادة، أو نظر الطبيب إلى المرأة لعلاجها عند الضرورة، أوعند محاولة انقاذها من الحرق أو الغرق.

* لا يحلُّ لرجل أن ينظر إلى امرأة غير زوجته أو محارمه من النساء، أما نظرة الفجاءة فهو معفو عنها، بخلاف النظرة التي تستجلب لذة، فهي آثمة كما قال الرسول ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ

(١) سنن أبي داود: ٤ / ٦٢ رقم (٤١٠٤).

(٢) صحيح مسلم: ٢ / ١٠٤٠ رقم (١٤٢٤).

(٣) المستدرك على الصحيحين:٢ / ١٧٩ رقم (٢٦٩٦)وقال: صحيح على شرط مسلم.

كَتَبَ على بن آدَمَ حَظَّهُ من الزِّنَا، أَدْرَكَ ذلك لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تتمنى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّهُ أو يكذبه "[١].

* لا يحل للنساء أن ينظرن إلى الرجال عمدا، وإذا وقع ذلك منهن فجأة فليصرفنه، وهذا ما أمر به النبي ﷺ نساءه، فعن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: كنت عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ، فَأَقْبَلَ بن أُمِّ مَكْتُوم، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ، فقال النبي ﷺ: احْتَجِبَا منه، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا ولا يَعْرِفُنَا؟ فقال النبي ﷺ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟» [٢].

* أقارب المرأة الذين لا يحرم عليهم الزواج منها تحريما مؤبدا، لا يعتبرون محارم بالنسبة للمرأة، فلا بد من حجابها أمامهم، وقد يتساهل الكثير من الناس في هذا الحكم بحجة القرابة خاصة مع أخت الزوجة، وأبناء الأعمام والعمات وأبناء الخالات وبناتهم.

* حرَّم الله تعالى على المرأة عند خروجها من بيتها أن تتعطر، لأنه من المثيرات لغرائز الرجال واعتبرالنبي ﷺ المرأة المتعطرة عند خروجها كالزانية فقال عليه الصلاة والسلام: « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ وَالْمَرْأَةُ إذا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا يَعْنِي زَانِيَةً» [٣] .

* نهى النبي ﷺ أصحابه عن الجلوس على الطرقات لحكم كثيرة منها غض البصر فقال رسول الله ﷺ، (إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٠٤ رقم (٥٨٨٩)، وصحيح مسلم: ٤ / ٢٠٤٧ رقم (٢٦٥٧).
(٢) سنن أبي داود: ٤ / ٦٣.
(٣) سنن الترمذي: ٥ / ١٠٦.
(٤) صحيح البخاري: ٢ / ٨٧٠، رقم (٢٣٣٣).

المقطع السابع: الترغيب في الزواج

قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

سبب النزول

روى السيوطي عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: «كنت مملوكا لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتاب فأبى، فنزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾»(١).

وأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبيٍّ يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة، فكان يريدهما على الزنا، فشكيا ذلك إلى النبي ﷺ، فانزل الله: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ ﴾(٢).

مناسبة الآيات لما قبلها:

أمرت الآيات السابقة بغض البصر وحفظ الفرج وقاية من الزنا، وأمرت النساء بستر أجسامهن وعدم إبداء زينتهن إلا لطائفة خاصة من الرجال، وكل تلك المقدمات تهدف إلى حماية المجتمع من آفة الزنا (فلما تقدمت أوامر ونواهٍ في غض البصر وحفظ الفرج وإخفاء الزينة وغير ذلك، وكان الموجب للطموح من الرجال إلى النساء ومن النساء إلى الرجال هو عدم التزوج غالباً، لأن في تكاليف النكاح وما يجب لكل واحد من الزوجين ما يشغل، أمر

(١) تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٨٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤ / ٢٣٢٠ رقم (٣٠٢٩).

تعالى بإنكاح الأيامى، وهم الذين لا أزواج لهم من الصنفين، حتى يشتغل كل منهما بما يلزمه فلا يلتفت إلى غيره) [١]، لذلك قدَّم القرآن الكريم الحلَّ الأمثل للوقاية من الزنا من خلال دعوته الرجال والنساء إلى الزواج، ونهيه عن البغاء، وأمره بالتوبة إلى الله تعالى، يقول الإمام البقاعي في بيان المناسبة: « لما تقدم سبحانه إلى عباده في الأمور العامة للأحوال والأشخاص في الزنا وأسبابه، فحكم وقرر، ووعظ وحذر أتبعه أسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة فقال: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [٢].

التفسير الإجمالي:

رغَّب الله تعالى في النكاح، وأمر أولياء الأمور بإنكاح الأيامى، والأيامى جمع أيِّم ويقال ذلك للرجل الذي لا زوج له، وللمرأة التي لا زوج لها... قال تعالى:﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾، فهذا أمر من الله تعالى لجماعة المسلمين، أن يهتموا بتزويج من كان في مجمعهم بلا زوج من الرجال والنساء الأحرار ومن وجدوا فيه صلاحا من العبيد والإماء، فعلى المسلمين أن يقوموا بواجب الإعانة على الزواج وتسهيل سبله، لأن الزواج هو الطريق الطبيعي النظيف لتنظيم الغريزة الجنسية، والذي يجب إزالة كل العقبات التي تعترض طريقه سواء، كانت هذه العقبات مالية أو غير مالية، لأنه هو السبيل الوحيد الذي يحقق إعفاف الشباب، ويحصِّن البنات، وهو الطريق الوحيد للحفاظ على النوع الإنساني، ومن هنا لا يجوز أن يقف الفقر حاجزا أمام التزويج، طالما أن الراغبين في الزواج لتحصيل العفة على درجة من الصلاح، وقد تكفَّل الله تعالى بالتوسعة عليهم، ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، والرسول ﷺ قد عدَّهم من الأصناف التي تعهَّد الله تعالى بعونهم، حيث قال رسول الله ﷺ:(ثلاثة حق على الله عونهم، المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف) [٣].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤١٤.

(٢) نظم الدرر: ٥ / ٢٦٠.

(٣) سنن الترمذي: ٤ / ١٨٤ رقم (١٦٥٥) وقال: حديث حسن. والبيهقي: ١٠ / ٣١٨ رقم (٢١٤٠١).

وأمام هذا الوعد تصبح أمور الزواج سهلة ميسَّرة وغير معقَّدة، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ ﴾ لا يعني لزوم إغناء الله تعالى لمن تزوج على فقر، وغاية ما يفهم منه، أنه لا ينبغي أن يكون الفقر صارفا للناس عن الزواج، وفي ذلك دعوة لأولياء أمورالبنات ألا يبالغوا في المهور، خاصَّة إن كان الخاطب فقيرا وصاحب خلق ودين، وفيه دعوة كذلك لأولياء أمور الشباب أن لا يؤخروا تزويج أبنائهم إن كان كسبهم قليلا، ودعوة للشاب نفسه أن لا يؤخروا الزواج انتظارا للمزيد من الغنى، ويكفيهم وعد الله تعالى بعونهم والتوسعة عليهم، فإن بقي بعض من الأيامى دون نكاح، فعليهم التزام الصبر والاستعفاف حتى يغنيهم الله تعالى من فضله، ويتمكنوا من الزواج، وخير تفسير لمعنى الاستعفاف الوارد في الآية الكريمة ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ ﴾ هو قول الرسول ﷺ: « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١]. فهذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله تعالى أن يستعفف، أي أن يكفَّ عن المحرَّم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه[٢] .

وبهذا التشريع يكون الإسلام هو المصدر الوحيد الذي قدم الحلَّ الأمثل والطبيعي للمشكلة الجنسية، والذي يقوم على تأمين الزواج لكل راغب فيه، وفي نفس الوقت أوصد كل أبواب التصريف الجنسي القذر، الذي يظهر في تجارة بيع الأعراَض (البغاء)، والإباحية، الذي ارتبط وجوده بوجود الرقيق في الجاهلية، لضعف إحساسهم بكرامتهم الإنسانية، لذلك حثَّ الإسلام الأسياد على مكاتبة عبيدهم - إن علموا فيهم خيرا - مقابل مبلغ من المال لقاء الحرية، لتضييق مجالات الرقِّ الذي مثَّل الخطر الأكبر على الفضيلة في الجاهلية الأولى، لأن أكثر المحترفات للبغاء كن من الرقيق (الإماء) حيث كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٦٧٣ رقم (١٨٠٦) وصحيح مسلم: ٢ / ١٠١٨ رقم (١٤٠٠).
(٢) تفسير السعدي: ١ / ٥٦٧.

أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة من المال تدفعه إليه كل شهر، وهذه الفعلة الشنيعة التي تتنافى مع كرامة الإنسان، حذَّر منها القرآن الكريم عندما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾، وسبب نزول الآية السابق يبين لنا ذلك. فالآية الكريمة حملت نهيا صريحا للذين يكرهون فتيتاهم على الزنا ليكفوا عن ذلك الفعل الشنيع، ووبختهم على طلبهم المال عن طريق هذا العمل الخبيث، وحذّرت الظالمين المكرهين للفتيات بالعذاب الأليم، ووعدت المكرهات على الزنا بمغفرة الله تعالى ورحمته.

ثم كان ختام الآيات بيان من الله تعالى بأنه أنزل آيات واضحات، وأحكاما وحدودا مفصَّلات، وأمثالا عرضت مصائر الغابرين الظالمين المنحرفين، الذين حلَّ بهم سخط الله وعذابه، وفي تلك الأمثال موعظة للمؤمنين الذين يستشعرون رقابة الله تعالى لهم فتخشع قلوبهم، وتستقيم جوارحهم على هداية الله تعالى.

المناسبة بين الآيات ومحور السورة:

تندرج الآيات السابقة في محور السورة الأساسي الذي يدور حول التربية الاخلاقية للفرد والمجتمع، من خلال تشريع الآداب والأحكام التي تؤدي إلى بناء المجتمع الفاضل، وهي في نفس الوقت تمثل حلا حقيقيا وواقعيا للمشكلة الجنسية، من خلال دعوتها الصريحة إلى تيسير أمور الزواج، والمعاونة عليه، وتضييق كل السبل التي تمثل انحرافا وخروجا عن العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة كالبغاء ونحوه.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* رغَّب الإسلام في الزواج وحث عليه، وجعله من القُربات إلى الله تعالى، لأنه الطريق الآمن والوسيلة الوحيدة لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة، ولبناء الأسرة الصالحة، وهو من سُنَّة رسول الله وفطرته، لذلك أمر به وحثَّ عليه فقال: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي

ومن سنتي النكاح»[1]، ودعا الله تعالى أولياء الأمور إلى إعفاف الشباب والبنات عن طريق الزواج، وتذليل كل العقبات التي تعترضه، خاصة العقبات المالية التي تجعل الكثير من الشباب يتهيبون الزواج لأجلها، ويخافون من الفقر والعيال، وهذا الخوف وسوسة من الشيطان تزهيدا لهم بالزواج، وإفساحا وترويجا للفاحشة كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

* في الآيات دعوة للشباب الذين لا يملكون تكاليف الزواج لإعفاف أنفسهم حتى يهيء الله تعالى لهم أسبابه، وهنا يظهر لنا خطأ القائلين بأن مهنة البغاء التي تحترفها بعض النساء هي بمثابة صمام أمان لحماية البيوت الشريفة من الاعتداء، لأنه يهيء مصرفا جنسيا لأصحاب الحاجة، فالإسلام يرفض فكرة تخصيص مقاذر بشرية للتخلص من الفضلات الجنسية، ويوجه الشعور الفطري بين الرجل والمرأة نحو علاقة إنسانية سامية تظللها المودة والرحمة، وتمدُّ المجتمع الإنساني بالأجيال الناشئة اللازمة لاستمرار دورة حياة الإنسان على الأرض.

* حثت الآيات الكريمة على مكاتبة الرقيق في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ ﴾ وذلك تقريرا لرغبة الإسلام في نشر الحرية بين الأرقاء، ولتضييق الخناق على ظاهرة البغاء القائمة في معظمها على الإماء كما بينت روايات أسباب النزول.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٧/ ٧٧. رقم (١٣٢٢٩)، ومصنف عبد الرزاق: ٦/ ١٦٩ رقم (١٠٣٧٨).

المقطع الثامن: نور الإيمان وظلام الكفر

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

قال ابن عاشور: (أتبع منَّة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية بالامتنان بأن الله هو مكوِّن أصول الهداية العامة والمعارف الحق للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق مع مافي هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته)[1]. وتوضيح ذلك أن الله تعالى بيَّن في الآيات السابقة أنه أنزل آيات فصَّل فيها الحق من الباطل، وبيَّن فيها الأحكام والتعاليم على الوجه الأكمل، التي تسعد الآخذين بها في الدنيا والآخرة، وتعرِّض المخالفين لنقمته وعذابه، كما حلَّ بالأمم السابقة التي قصَّ الله تعالى علينا قصصهم، ففي التزام منهج الله تعالى درء لعذابه ونقمته، والفوز بقربه ومرضاته، وتحصيل نورهدايته، فالآيات الكريمة تشير إلى مصدر تلك الآيات المبينات، وهو

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ٢٣٠.

الله تعالى الذي أنزلها لتكون نوراً وهداية لعباده المؤمنين، (فأهل الأرض والسماوات بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلال يعتصمون) [١].

التفسير الإجمالي:

اشتملت الآيات السابقة على جملة من الأحكام الشرعية التي عالجت أخطر الأمراض التي تفتك بهذا الكيان البشري، وهي آفة الزنا، فشرَّع الله تعالى لها حداً رادعا، كما شرَّع حدَّ القذف لمن يرمي غيره بتهمة الزنا، وحدد الوسائل الوقائية التي تمنع وقوع هذه الفاحشة، بتشريع آداب الاستئذان على البيوت، وغضِّ البصر، وإخفاء الزينة، والنهي عن المثيرات، والترغيب في الزواج، والتحذير من البغاء، وكل تلك التشريعات تهدف إلى الرقي بالإنسان وحادثة الإفك وما استتبعها من فتن وأزمات، عاشها المسلمون فترة من الزمان، خيَّم فيها الظلام على المدينة فلم يعرفوا الحقيقة، وباتوا متطلعين إلى السماء لتكشف عنهم هذه الظلمة فنزلت سورة النور، لتكون نورا مشرقا للمسلمين بما اشتملته من علم، لأن من معاني النور العلم، كما أن من معاني الجهل الظلمة، فالله تعالى نوَّر الكون، بمعنى أنه لا يمكن أن تعرف الحقائق ولا تحلُّ المشاكل إلا من خلال نور الله تعالى المتمثل بما شرَّعه لعباده من أحكام، وما أنزله عليهم من علم يقشع عنهم ظلمات الجهالة والضلالة، وبتلك التشريعات عالج القرآن الكريم أغلظ وأخطر مايمكن أن يصيب الإنسان في كيانه البشري، وهو الانحراف الجنسي، وما يستتبعه من انحدار وهبوط، وانحطاط وقذارة، تمسخ إنسانية الإنسان وتلصقه بتراب هذه الأرض، وهذا يتنافى مع الكرامة الإنسانية والمكانة العظيمة التي ارتضاها الله تعالى للإنسان حيث جعله خليفته في أرضه، وهذه الخلافة لايمكن أن تتحقق إلا بدوام الصلة بالله تعالى، التي تمنحه الشفافية، وتؤهله لتلقي نور الله تعالى الذي يملأ الآفاق، فالله تعالى هو نور السماوات والأرض، أنار السماوات بكواكبها المضيئة، وأنار الأرض برسالاته وأحكامه وشرائعه، والله تعالى ذو نور في السماوات والأرض، لأنه مظهرهما بإيجادهما، وإيجاد أهلهما، وهاديهم بالتنوير

(١) تفسير الطبري: ٨/ ١٣٥.

بالعلم الجاعل صاحبه لهدايته إلى الصراط المستقيم، كالماشي في نور الشمس لايضع شيئا في غير موضعه[١].

(فالمراد بالنورما تظهر به الأشياء، أي: ما كان ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره، هذا هو المفهوم الحقيقي للنور في ذهن الإنسان، فهو يعبر بالظلام عن كيفية عدم رؤيته شيئا، ويقول عندما يتبين له كل شيء قد بدا النور. فكلمة (نور) إنما استعملت لله تبارك وتعالى باعتبار مفهومها الأساسي هذا، ولم تستعمل بمعنى أن الله تعالى - والعياذ بالله - شعاع يسير ١٨٦٠٠٠ ميل في كل ثانية، وينعكس على الشبكية في العين ويؤثر في مركز الإبصارفي الدماغ)[٢].

وأحسن ما نفسر به قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي وهو من استعمال المشترك في معانيه) [٣] وقد مثل الله لنوره بهذا المثل فقال:﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾، (أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن ككوة الحائط لا منفذ لها لتكون أجمع للضوء فيبدو قويا متألقا. وهذا المصباح في زجاجة تقيه الريح وتصفي نوره، فيزداد تألقا وانتشارا، وهذه الزجاجة بحدِّ ذاتها كأنها كوكب دري في صفائها ونقائها وشدة نورها، وهذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة، ومن المعروف أن النورالحاصل من زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون، وهذه الشجرة المباركة ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء متكشفة كما يقول ابن عباس ﷺ: (هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها) [٤].

(١) نظم الدرر: ٥ / ٢٦٣.
(٢) تفسير سور النور لأبي الأعلى المودودي: ١٩٦.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٣٣.
(٤) تفسير ابن كثير: ٣ / ٢٩١.

وزيت هذه الشجرة من شدة صفائه وحسنه وجودته يكاد يضيء بذاته دون أن تمسه نار وهنا تتجمع الأنوار، نور على نور، نور السراج وحسن الزجاجة وصفاء الزيت، وهذه الأنوار مجتمعة التي ذكرت مثالا لهداية الله تعالى، لا يوفق إليها إلا من هداه الله تعالى.

ولما ذكر الله تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه الهداية، وهي بيوت الله تعالى المساجد، فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فأحب البقاع إلى الله- تعالى- تلك البيوت، التي أذن الله تعالى أن ترفع ويعظم شأنها، لتكون منارات لنشر هداية الله ومركزاً لعبادته، وتلاوة آياته، وتسبيحه بصورة دائمة، خاصة من أولئك الرجال المؤمنين الذين خلصت قلوبهم لله تعالى، فلم تشغلهم الدنيا وزخارفها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم البيع و الشراء عن طاعة الله تعالى، فهم رغم عملهم بالتجارة، والبيع والشراء، لا يغفلون عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة المستحقة عليهم في أموالهم، ليقينهم بيوم الحساب، ذلك اليوم الرهيب الذي تضطرب من هوله وترتعد قلوب الناس وأبصارهم، ولكن الله تعالى طمأنهم بأن فضله سيصيبهم عندما يكافئهم على أعمالهم، التي فعلوها في الدنيا بأحسن الجزاء، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا الرزق يفوق الحدَّ ويفوق العدَّ، وهو كناية عن السعة في عطاء الله تعالى لهم، وقد يكون المعنى أن الله تعالى يدخلهم الجنة بغير حساب يوم القيامة، وهذا ما وضحه الحديث الشريف الذي رواه ابن كثير عن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله ﷺ: « إذا جمع الله الأولين والأخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق» [1] .

وبعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة حال المؤمنين الصادقين المهتدين بنور الله تعالى

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢ / ٤٣٣ رقم (٣٥٠٨)، وشعب الإيمان: ١ / ٤٥٤ رقم (٦٩٣)، وتفسير ابن كثير: ٣ / ٢٩٧.

تحدث عن حال أضدادهم من الكفار والمنافقين الذين أبوا اتباع الرسول ﷺ وتلك هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نور الله تعالى وهدايته، وقد ضرب الله تعالى مثالين لحال الكافرين هما:

الأول: لبيان مصير أعمالهم. **والثاني**: لبيان فساد اعتقادهم وتخبطهم في الظلمات والضلال، ففي المثل الأول شبَّه الله تعالى أعمال الكفار، بسراب في أرض مكشوفة مبسوطة، يحسبه الظمآن من شدة ظمئه ومزيد حاجته إليه ماء، فيقصده ويتحمل المشاق في سبيل الوصول إليه، ويحسب أن نجاته وسعادته ستتحقق عندما يشرب منه، غافلا عما ينتظره هناك، وعند وصوله لا يجد ماء يرويه، بل هو مجرد سراب مخادع لا يروي ظمأ، ولا يطفيء عطشا، وإنما يجد مفاجأة مذهلة لم يكن يتوقعها أبدا، وهي ظهور خصمه المتربص به في ذلك الموضع دون أن يعدَّ نفسه لذلك اللقاء، وكذلك حال الكافر الذي يعتقد بأنه سينال ثوابا على أعماله يوم القيامة، ولا يدري أن كفره محبط لعمله، فإذا مات وانقلب إلى ربه، أو وقف موقف الحساب كانت المفاجئة التي لم يكن يتوقعها أبدا، فكل أعماله التي كان ينتظر ثوابها ذهبت هباء منثورا كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]. والأمر العجيب في تلك المفاجئة أن هذا الكافر كان ينتظر المثوبة من الله تعالى على أعماله، فإذا به يجدُ بدلا منها العقوبة والعذاب الأليم.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ (أي: وجد عقاب الله الذي توعَّد به الكافر عند ذلك، فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق) [1].

فالكفار يعتقدون أن أعمالهم الظاهرة سوف تنقذهم من النار يوم القيامة، ويرجون نفعها

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ٨

في الآخرة، ولكنهم عندما يقفون للحساب يوم القيامة لا يجدون لها نفعا، بل يجدون الله تعالى ليوفيهم حسابهم على كفرهم.

وفي المثل الثاني، شبَّه الله تعالى عقائد الكفار الفاسدة بالظلمات المتراكبة المتطابقة التي تحجب كل أثر للنور، فهي ظلمات كثيفة متراكمة بعضها فوق بعض، وصلت في ظلمتها إلى أن الإنسان الذي بداخلها إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فإن ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب تكاثفت عليه حتى حجبت عنه أقرب شيء إليه وهو يده، وكذلك الكافر يتخبط في حياته في ظلمات الكفر والضلال، وظلمات الجهل التي تجعله يغفل عن ضروريات وجوده، ويعمى عن رؤية أظهر الحقائق في هذا الوجود، وهو الخالق الذي لا تظهر الكائنات إلا بنوره، وهذا النور لا يهتدي إليه إلا المؤمنون الذين أشربت قلوبهم بنور الله تعالى، واستنارت بصيرتهم فرأوا هذا الكون كله إشراقات من نور الله تعالى. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾(أي: من لم ينوِّر قلبه بنور الإيمان ويهده إليه فهو في ظلمة ولا نور له ولا يهتدي أبداً وهذا النور هو في الدنيا وقيل هو في الآخرة أي من لم ينوره الله بعفوه ويرحمه برحمته له وكونه في الدنيا أليق بلفظ الآية وأيضاً فذلك متلازم لأن نور الآخرة هو لمن نور الله قلبه في الدنيا) [(١)]. فالكفر حاجب يمنع وصول نور الله تعالى إلى قلب الإنسان، والإيمان هو الطريق الوحيد للوصول إلى ذلك النور المنبثق في كل جنبات هذا الكون الفسيح الذي انتظم في نور الله، وهدى الله عز وجل.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تلتقي الآيات الكريمة مع محور السورة في إشارتها إلى مصدر الهداية وهو الله تعالى الذي ينير للإنسان طريقه في الدنيا والآخرة من خلال تشريعاته للأحكام المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالآداب والتربية الأخلاقية للفرد والجماعة التي مرت سابقا، وهو المحور الأساس للسورة الكريمة.

---

(١) البحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* إن مصدر الهداية الوحيد الذي ينير للإنسان طريقه في حياته ويبعده عن الظلمات، هو الله تعالى وكل محاولة من الإنسان لاستبدال مصدر تلك الهداية من خلال الأنظمة البشرية والقوانين الوضعية، إنما هي غوص في الظلمات، وجلب للشقاء الدائم الذي يفسد على الإنسان حياته في الدنيا، ومصيره في الدارالآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

* نور الله تعالى المتمثل بهدايته للإنسان غير محدود، فكلما اقترب العبد من ربه، وهبه الله تعالى المزيد من نورهدايته، الذي يشرق في النفس فترتقي إلى أعلى الدرجات، وعندها يلفُّه النور من كل جانب ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ فيصبح ذلك الإنسان الرباني المستنير بهداية الله الشاملة، ويصل إلى مرتبة الأولياء الذين قال الله عنهم في حديثه القدسي الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ أن رسول اللَّهِ ﷺ قال: (إنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1].

* أظهرت الآيات الكريمة دور بيوت الله (المساجد) في بثِّ نور الله تعالى إلى عباده، فهي بيوت مرفوعة ومخصصة لذكر الله، وتسبيحه وربط قلوب عباده به، لتصبح وضيئة بفضل مداومتها على التسبيح وذكر الله تعالى، وعدم انشغالها بأعمال الدنيا كالبيع والشراء عن حقوق ربها كإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وبذلك تظهرالآية الكريمة أدوار المساجد في تربية الفرد والجماعة على منهج الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٨٤ رقم (٦١٣٧).

* المؤمن لا يشغله طلب الرزق ومطالب الدنيا عن واجبات ربه، كإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعليه أن يستصحب معه دائما شعور الخوف من الله تعالى، والاستعداد للقائه وحسابه يوم القيامة، في ذلك اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار.

* يجازي الله تعالى عباده المؤمنين يوم القيامة أعظم الجزاء، فيضاعف لهم ثواب أعمالهم أضعافا مضاعفة، فكلما خلُصت نياتهم في التوجه إلى الله تعالى، وأعمالهم من الرياء، كلما زاد الأجرعند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا محض فضل من الله تعالى، الذي يكافيء عباده المؤمنين بكرمه، فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وهذه المضاعفة تكون في جزاء الأعمال الصالحة، وأما السيئات فإن الله تعالى يحاسب عليها عباده على أساس العدل، وذلك كما ورد في الحديث القدسي الذي رواه مسلم بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ، قال: قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ ولم يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا له حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سبعمائة ضِعْفٍ، وإذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ولم يَعْمَلْهَا لم أَكْتُبْهَا عليه، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(١).

* الكفار هم أكثر الناس غفلة وحمقا وانخداعا في الحياة الدنيا، وهم يعيشون أسوأ خداع للنفس، لأنهم يعتقدون أنهم سيثابون على أعمالهم يوم القيامة، ولكنهم واهمون وسيعلمون هذه الحقيقة كاملة عندما ينقلبون إلى عذاب النار يوم القيامة، وإن المؤمن لتتملكه نزعات من الشفقة على أولئك الكفار، الذين يعيشون في ظلمات الضلال والشقاء ومنغصات الحياة الدنيا، ومع ذلك لن تدركهم رحمة الله يوم القيامة، فأوجبوا على أنفسهم العذاب الدائم، وخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

* من الملاحظ أن الآية الكريمة ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ رقمها ٣٥، في ترتيب آيات السورة، وبذلك تكون هذه الآية هي قلب السورة ومصباحها، فقد توسطت

(١) صحيح مسلم: ١ / ١١٧ رقم (١٢٨).

السورة كما يتوسط المصباح الغرفة، وهذه الآية النورانية أشعَّت بنورها على نصفها الأول من خلال تشريع سلسلة الأحكام التربوية الأولى، وكان وسطها ذلك النور الذي سكبه الله على كائناته كلها من خلال الإشارة إلى الآيات الكونية التي تربط الإنسان بنور الله، وكل ما شرعه الله من أحكام هي بمثابة إشعاعات النور التي تهدي الإنسان في متاهات الحياة المختلفة. ثم استوفت السورة في شطرها الآخر بقية الأحكام الشرعية لتكمل الخطة الأخلاقية والمنهج الأدبي لبناء الفرد والجماعة المؤمنة الفاضلة.

المقطع التاسع: من آثار قدرة الله وعظمته

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه تعالى نوّرالسموات والأرض، خلقهما وأبدعهما وأفاض على من فيهما من نوره، فاهتدى المؤمنون بنوره، وأعرض الكافرون عن ذلك النور فضلوا ضلالا بعيدا، والآيات التي معنا تسوق مجموعة من الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وكمال قدرته وعظمته، فهي بمثابة النور الذي يظهر الموجودات للدلالة على موجدها وهذه الأدلة سيقت بعد بيان موقف الكفار المتعنت لإقامة الحجة عليهم بعد إصرارهم على كفرهم، مع كثرة البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، على وحدانيته تعالى وكمال قدرته.

التفسير الإجمالي:

تقدم الآيات الكريمة مجموعة من الآثار الكونية الدالة على وحدانية الله وعظمته تعالى وقد درج القرآن الكريم في كثير من آياته على توجيه الإنسان للنظر فيما حوله من مظاهر صنع الله تعالى في السماوات والأرض، فالكون كله يسبح لله تعالى، إنسه وجنه، أرضه وسماؤه، طيره وحيوانه... كل منهم انتظم في صلاته وتسبيحه لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهم يسبحون لله تعالى، وكذلك الطير الصافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبِّح الله تعالى، (والصلاة الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها)[1]. وكذلك الكون كله مسبح لله تعالى، قائم بصلاته بالفطرة، وها هي الجبال عندما كان داوود يرتل مزاميره تؤوِّب الجبال معه، وكذلك الطير، قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يغفل عن ذكر ربه، مع العلم أنه هو الأجدر بالإيمان والتسبيح، نظراً لما وهبه الله تعالى من نعمة العقل والتفكير، الموصل إلى المعرفة الحقيقية بالله تعالى وكماله في ذاته وصفاته (وقد نبه سبحانه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له سبحانه في الألوهية ونسبتهم إياه عز وجل إلى اتخاذ الولد ونحو ذلك مما تعالى الله عنه علوا كبيرا وإطلاق من على العقلاء وعيرهم بطريق التغليب)[2].

ثم تستعرض الآيات دليلا آخر يحمل في طياته قبساً من نور الله تعالى إلى قلب الإنسان، من خلال هذه الظاهرة الكونية التي يمرُّ الناس عليها غافلين، لكثرة ألفهم لها وهي المطر، فيقول

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٥٠، وانظر التحرير والتنوير: ٩ / ٢٥٨.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨ / ١٨٧.

تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾. فالله سبحانه يزجي السحاب ويدفعه من مكان إلى آخر، ثم يؤلف بينه ويجمعه، ليصبح ركاما بعضه فوق بعض، كأمثال الجبال، وينزل منه المطر النافع، أوالبرد الضار، فيصيب به من يشاء من عباده، بالمطر النافع، أو البرد الضار بالزرع والثمروالماشية والبشر وغيرها، ويدفعه عمن يشاء فلا يلحق بهم ضررا، ويخرج من ذلك السحاب ضوءا بارقا، يكاد يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه، فقوة البرق دليل على تكاثف السحاب وغزارة المطر ولكنه نذير بنزول الصواعق في نفس الوقت، وكذلك يحوِّل الله تعالى بقدرته الظلام ضياء والضياء ظلاما، لينتج من ذلك التحويل والتقليب بين الحرِّ والبرد، والنمو والينوع واليبس وغيره، وكل ما سبق من تلك الظواهر والمشاهد الكونية أدلة قاطعة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ينتفع بها أصحاب البصائر المستنيرة والقلوب النافذة[١].

ثم ختمت هذه الأدلة الكونية بإشارة إلى الأصل الواحد الذي خلقت منه سائر المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها وحركاتها... وهو الماء. يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾، فالماء هو أصل الحياة لجميع أنواع الدواب، ولكن على الرغم من ذلك، تفاوتت هذه المخلوقات في حركة مشيها، فمنها ما يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها ما يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنها ما يمشي على أربع كالأنعام، قال أبو حيان: « قدم ما هو أظهر من القدرة وأعجب، وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع»[٢]. وهذا الاختلاف الواضح في الدواب في أشكالها وأحجامها، وأصولها وأنواعها وألوانها، وهي خارجة من أصل واحد، دليل قاطع على وجود الصانع

---

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥ / ٢٧٣.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٢٨.

القدير صاحب التدبير والتقدير، الذي أحسن كل شيء خلقه، قال الفخر الرازي:(واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال، ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لا بد وأن يكون بتدبير مدبِّر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون) (١).

وكل تلك الأدلة السابقة على وحدانية الله تعالى واضحة ظاهرة، لا خفاء في شيء منها عند أحد من الخلق، فهي آيات واضحات دلالاتها ظاهرة على نور الله تعالى، ولكن ذلك النور يرشد الله تعالى إليه من يشاء من خلقه، وهم الذين أعملوا عقولهم في تلك الآيات البينات فاهتدوا بها إلى الإيمان بالله تعالى واستدلوا من خلالها على وحدانيته وكمال قدرته وعظمته.

مناسبة الآيات لمحور السورة

الأدلة السابقة التي ساقتها الآيات الكريمة واضحة الدلالة على وحدانية الله تعالى وعلى كمال قدرته وعظمة حكمته، فقد درجت كل الكائنات وفق منهجه ومشيئته، فانتظمت أمورها، وتحققت أهدافها، وهذه دعوة للإنسان ليدخل نفسه في منظومة هذه الكائنات، لتنفيذ أحكام الله وشرائعه، خاصَّة تلك الأحكام المتعلقة بالتربية الأخلاقية التي شكَّلت محور هذه السورة الكريمة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* كل الكائنات التي خلقها الله تعالى تسبح الله تعالى من إنس وجن وملائكة وطير وشجر وحجر ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ١٨.

* المالك الحقيقي للمخلوقات جميعا هو الله وحده، وهو المتصرف في جميع شؤونها ومصيرها إلى الله تعالى، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ وهذه تذكرة للإنسان ليتصرف فيما يملكه وفق مشيئة المالك الحقيقي للمال، وعدم الخروج عن تعاليمه، التي حدَّدها لكسب المال وإنفاقه، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾ [الحديد: ٧].

* يربي القرآن الكريم أتباعه تربية عاطفية متوازنة، قائمة على إبقاء شعورالمؤمن مترددا بين الخوف والرجاء، ليبقى قلب المؤمن متعلقا بالله تعالى، يرجوه الخيرالدائم في الدنيا واللآخرة، وفي نفس الوقت يخافه من أن ينزل به الضر والشر، وهذا المعنى نلحظه في آية السحاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ فرؤية السحاب تثير في النفس رجاء وترقبا بنزول المطرالنافع، ولكن ذكر البرد الضار يوقظ فيها الشعور بالخوف، وكذلك رؤية البرق قد تبشر بغزارة المطر، ولكنها قد تنذر بنزول الصواعق. وهكذا يبقى قلب المؤمن متقلبا بين الخوف من الله وبين رجائه وهذا المنهج يساعد على دوام مراقبة النفس وإبعادها عن الغفلة.

* التأمل في الظواهر الكونية ترسِّخ الإيمان بالله تعالى ووحدانيته وكمال قدرته، مثل ظاهرة الليل والنهار وتقليب الله لهما، بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد، وكذلك ظاهرة خلق الدواب من أصل واحد هو الماء، رغم الاختلافات الكبيرة فيما بينها في الأشكال والأحجام والألوان وغيرها، مما يدلُّ على كمال التدبير، وغاية التقديرفي دقة خلقها وتناسقها وإبداعها، وهذا يلغي الفكرة القائلة بأن هذا الكون وجد صدفة دون حاجته إلى خالق حكيم مدبِّر، كما تزعم الفلسفات المادية الوجودية في القديم والحديث.

المقطع العاشر: المنافقون لم ينتفعوا بآيات الله

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

سبب النزول:

نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي، حين اختصما في أرض فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وروي أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب ﷺ خصومة في ماء وأرض، فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه، فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ»[1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

ذكرت الآيات السابقة مجموعة من الأدلة الساطعة، الدالة على وحدانية الله وعظمتة تعالى وكمال قدرته، ورغم توفر هذه الآيات البينات التي أوصلت المؤمنين إلى نور الله تعالى وهدايته فإن هناك فريقا من الناس جاء موقفهم منها في غاية الغرابة، لأنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم عن التفكر فيها، فلم يهتدوا بها، ولم يصلوا إلى أهدافها،، وأغمضوا أعينهم عن نورها، فمكثوا في ظلام كفرهم، وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فخالف ظاهرهم

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، وتفسير الكشاف: ٣ / ٢٥٣.

باطنهم، وأقوالهم أفعالهم، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة.

التفسير الإجمالي:

قررت الآيات السابقة مبدأ ازدواجية الإيمان والعمل واقترانهما معا، فدعوى الإيمان باللسان لا تكفي، بل لا بد أن تظهر آثارها في السلوك، والذين يحاولون الفصل بين الإيمان والعمل هم مرضى واهمون، شخَّص القرآن حالتهم بأنهم في قلوبهم مرض، وهو مرض النفاق، فهؤلاء كانوا يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾، يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن تلك الطاعة لم تظهر في أعمالهم وسلوكهم، تكذِّب أعمالُهم ما قالته ألسنتهم، لذلك وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأكثر المواطن التي تفضح المنافقين في سلوكهم، وتظهر كذبهم ونفاقهم، عندما يُدعَون إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم على أساس شريعة الله عزَّ وجلَّ التي أنزلها عليه، لأن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله تعالى، ولكن هؤلاء المنافقين يعرضون عن ذلك الاحتكام، ويستنكفون عن الحضور إلى مجلس الرسول ﷺ، ولكنهم إن كان الاحتكام في مصلحتهم، جاؤوا إلى الرسول ﷺ وأذعنوا لحكمه، قال الرازي: « ونبَّه بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم، أو شكُّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض، بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق وإنما يريدون النفع المعجل وذلك أيضاً نفاق» [١].

ثم تعلِّق الآيات على ذلك السلوك المنحرف من أولئك المنافقين، وتطرح جملة من التساؤلات، ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

والتساؤل الأول يفترض مرض قلوبهم، الذي حال دون وصول الإيمان إلى تلك القلوب فاكتفوا بإظهار الإسلام، مخادعة لأفراد المجتمع، ليحرزوا مصالحهم الدنيوية.

والتساؤل الثاني يفترض سبب إعراضهم عن حكم الله ورسوله، ذلك الريب والشك في

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤/ ١٩.

رسالة محمد ﷺ، وفي القرآن الكريم الذي نزل من عند الله تعالى، وفيه كل الحقائق التي أثبتتها رسالة محمد ﷺ.

وأما التساؤل الثالث، فيفترض أن يكون سبب إعراضهم عن حكم الله ورسوله، هو خوفهم من الظلم والأذى والضرر الذي سيلحق بهم لو تحاكموا إلى الله تعالى وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وكل هذه الاحتمالات تجعل صاحبها ظالما، ولذلك حكم الله سبحانه عليهم بالظلم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، (أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه) [1]، ولذلك وصفوا بالظلم لأنهم لا يريدون للحق أن يسود ولا للعدالة أن تعم سائر البشر.

أما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فلهم موقف آخر يعارض الموقف السابق للمنافقين، وضحته الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ فالآية بينت موقف المؤمنين الصادق من طاعة الله ورسوله، وفي ذلك توبيخ للمنافقين وتأديب لهم لأنهم يدَّعون الإيمان بألسنتهم ولكن أعمالهم تناقض ذلك الادعاء. يقول الطبري في هذا المعنى: (إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا سمعنا ما قيل لنا وأطعنا من دعانا إلى ذلك ولم يعن بـ (كان) في هذا الموضع الخبر عن أمر قد مضى فيقضى، ولكنه تأنيب من الله الذي أنزل هذه الآية بسببهم، وتأديب منه آخرين غيرهم) [2] ولكن موقف المؤمنين هو موقف السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال، بل التسليم الكامل لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، انطلاقا من ثقتهم المطلقة بأن ذلك الحكم هوالذي يحمل الخيرالمطلق والسعادة الحقيقية للإنسان في الدنيا والآخر، وما سواه من أحكام فمردها الهوى

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٥٣.

(٢) تفسير الطبري: ١٨ / ١٥٧.

ومنشؤها الباطل، وهذه الحقيقة لا تدركها إلا القلوب الواعية التي غمرها نور الله، وغمرها حب الله فأقبلت راغبة في طاعته، وهؤلاء هم المفلحون الفائزون.

يقول تعالى ذكره: (ومن يطع الله ورسوله فيما أمره ونهاه ويسلم لحكمهما له وعليه ويخف عاقبة معصية الله، ويحذره ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه فأولئك يقول فالذين يفعلون ذلك هم الفائزون برضا الله عنهم يوم القيامة وأمنهم من عذابه)[1] لأن الله تعالى هو الذي يدبِّر أمورهم، ويصرِّفها لهم، وينظم علاقاتهم، فتغدوا نفوسهم مطمئنة، وأوضاعهم مستقرة، لاعتمادهم على حكم الله تعالى ورسوله، بعيدا عن حكم البشر للبشر، الذي يحكمه الهوى والمصلحة والشهوة والنتيجة ستكون انتشارالظلم والاستبداد والفساد. فطاعة الله وتقواه هما السبيل إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وهو أدب رفيع يشير إلى مدى إشراق قلب المؤمن بنور الله واتصاله به، وفيه إشارة إلى عزَّة المؤمن الذي تدفعه عزته لعدم طاعة أي مخلوق إذا تعارضت طاعته مع طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وبعد هذه المقابلة التي أبرزتها الآيات بين موقف المنافقين المنحرف عن طاعة الله، وموقف المؤمنين القائم على طاعة الله، تعود الآيات مرة أخرى للحديث عن المنافقين، فيقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وهذا موقف آخر يظهر خبيئة جديدة للمنافقين وهي الكذب، فالمنافقون كانوا يقسمون لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج للجهاد ليخرُجُنّ، ولكن الله تعالى يعلم كذبهم، فردَّ عليهم متهكما ساخرا من أَيمانهم قائلا: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ ﴾ فإن أيمانكم كاذبة، وطاعتكم لله وللرسول معروفة، فإنها مجرَّد قولٍ باللسان دون القلب، والقول دون الفعل، والله تعالى بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم، ثم يكرر الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ،

---

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ١٥٧.

الطاعة الحقيقية لا الطاعة المزيفة، فإن تولوا وأعرضوا فإنما يتحمل الرسول مسؤولية ومهمة التبليغ، وقد قام بها على خير وجه، وعليكم ما حملتم من الأمر بالطاعة، وقد نكصتم عن ذلك، وإن تطيعوا الله والرسول طاعة حقيقية فإنها ستوصلكم إلى الهداية والفوز والفلاح، وإن أعرضتم فما على الرسول إلا البلاغ، وليس مسؤولا عن إيمانكم، وأنتم المسؤولون والمحاسبون والمعاقبون بما توليتم، وبما عصيتم وبما خالفتم أمر الله ورسوله.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تبين الآيات الكريمة موقف المنافقين المتناقض بين القول والعمل، والمحكوم بتقديم المصلحة الشخصية على كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية، وهذه نتيجة طبيعية سببها كفرهم الباطن الذي حرمهم من نورهداية الله تعالى، الذي لايشرق إلا في القلوب المؤمنة، وأما قلوب المنافقين فهي مريضة بالنفاق، مغمورة بالظلمات، محرومة من طاعة الله والاحتكام إلى شريعته، خاصة في الأحكام الشرعية التي وردت في هذه السورة وشكلت محورها الدائر حول الآداب والتربية الأخلاقية للفرد والجماعة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* الإيمان قول وعمل، وهذه الحقيقة بينتها الآية الكريمة بوضوح كامل من خلال عرضها لموقف المؤمنين الذين قرنوا استجابتهم لله تعالى بالعمل﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ولو صحَّ أن يكون الإيمان بالقول فقط لما نفى الله تعالى عنهم وصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
* الاستجابة لحكم الرسول ﷺ استجابة لحكم الله تعالى، وهذه الاستجابة ليست مقصورة في فترة حياته ﷺ، بل هي ممتدة إلى ما بعد وفاته، وقد أوصى الرسول ﷺ أمته بذلك صريحا في حديثه الشريف حيث قال: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض)[1].

(١) المستدرك على الصحيحين: ١ / ١٧٢ رقم (٣١٩) وكنز العمال: ١ / ١٠٠ رقم (٨٧٦).

* ينبغي على المؤمنين الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، والانصياع لأحكامها بالكلية، بنفس راضية وقناعة تامة بأنها المصدر الوحيد لإنقاذ المسلمين، وتلبية حاجاتهم في كل زمان ومكان للوصول بهم إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

* شريعة الله كاملة وعادلة في أحكامها، فمن اعتقد نقصانها، أو اشتمالها على أحكام ظالمة، أو رغب في استبدالها بأنظمة بشرية وقوانين وضعية، أو أخذ بالأحكام التي تناسبه في مصالحه الشخصية، ورفض مايخالف مصلحته وهواه، فقد اتصف بصفات المنافقين.

* من أسوأ أساليب المنافقين التي يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم الخداع، من خلال كثرة الحلف والأقسام، ليوهموا السامع بصدقهم فيما يقولون، أو ليحموا أنفسهم من العقوبة. قال تعالى:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المنافقون: ٢].

المقطع الحادي عشر: جزاء الطاعة في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

سبب النزول:

روى القرطبي بسنده عن أبي العالية أنه قال: " مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه، خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سراً وجهراً، ثمَّ أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجلٌ يا رسول الله: أما يأتي علينا يوم

نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ﷺ: (لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة) ونزلت هذه الآية، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأمنوا. قال النحاس: فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله ﷺ، لأن الله جلَّ وعزَّ أنجز ذلك الوعد[1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

يبين الله تعالى في هذه الآيات جزاء الطاعة الكاملة والإيمان الصادق في هذه الدنيا قبل يوم الحساب، فقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح، وعدهم بالاستخلاف في الأرض، كما استخلف المؤمنين من قبلهم في الأمم السابقة، والتمكين لدينهم بإظهاره على الأديان الأخرى، وإبدالهم أمنا بعد حالة الخوف التي كانوا يعيشونها وهذه النِّعم جزء من الفلاح المترتب على طاعة الله وطاعة رسوله، الذي أشارت إليه الآية الكريمة السابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

بينا فيما سبق أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين الصالحين بأن يُنجز لهم الوعود الثلاثة السابقة، ولكن هذه الوعود لن تتحقق إلا بتحصيل أسبابها، وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك فقال: (ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا بذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول ﷺ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة)[2]، وقد تحققت تلك الوعود- كما أخبر سبحانه في فترة زمنية قصيرة - عندما فتح

(١) انظر أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، وتفسير الطبري: ١٨ / ١٥٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٨٢- ٢٨٣.

المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، وتحقق الاستخلاف في الأرض على خير وجه عندما ملَّك الله تعالى المسلمين، وجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم وتحققت بشارة رسول الله ﷺ لأصحابه التي وردت في حديثه الذي رواه مسلم في صحيحه بسنده عن ثوبان أنه قال: « قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوى لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوّاً من سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال يا محمد: إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنه لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوّاً من سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً» [١].

يقول ابن كثيررحمه الله تعالى في بيان كيفية إنجاز وعده للمؤمنين: (وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنَّة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه، ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلَمَّ شعثَ ما وَهَى عند موته ﷺ، وأطَّد جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبه خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة، ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياما تاما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢١٥ رقم (٢٨٨٩).

على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر أقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة، ثمَّ لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ[(١)].

وتحققت المُكنة لهذا الدين، عندما أعزَّ الله المسلمين وأعلى دينهم فوق بقية الأديان، وتحقق الأمن لهذه الأمة بعد خوفها عندما عاشوا في استقرار، وهذه النعم التي حصَّلها المسلمون الأولون كانت ثمرة ومكافئة لهم لتحقيقهم العبودية الحقيقية لله تعالى، وبعدهم عن أي مظهر من مظاهر الإشراك بالله تعالى، فإن خرجوا عن طاعة الله تعالى، ووقعوا في معصيته، وجحدوا تلك النعم سلبها الله منهم، فالمراد بالكفر هنا كفر النعم كما قال الطبري: لأن الله وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم عليهم، ثم قال:﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾: أي كفر هذه النعمة، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[(٢)].

ثم يأتي الأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول، التي تجلب رحمة الله، وتطمئن الآية المؤمنين بأن قوة أعدائهم لن تعجز الله تعالى، وهو قادر عليهم، وهو وعد من الله تعالى بنصره رسوله والمؤمنين، عندما يحققون شروط الاستخلاف في الأرض، من اتصال بالله تعالى بإقامة الصلاة، وتطهير النفس من الشُحّ ببذل الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠١.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١٨/ ١٦٠.

وتنفيذ منهج الله سبحانه في سائر أوجه الحياة، فإن استقامت الأمة على ذلك النهج، فإن قوة أعدائها من الكفارلن تعجز الله تعالى مهما بلغت لن تتمكن من رقاب المسلمين، طالما حصلوا أسباب الاستخلاف السابقة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تحدثت الآيات عن استخلاف الله تعالى للمؤمنين في الأرض، والتمكين لدينهم الذي يجعلهم أصحاب الشأن والقرار في الأرض، وعندها يحكِّمون شريعة تعالى في سائر أوجه الحياة، وبدون هذا الاستخلاف في الأرض وذلك التمكين في الدين، لن يتمكن المسلمون من الحكم بشريعة الله خاصة في التربية الأخلاقية الاجتماعية، كما هو المشاهد في هذه الأيام، بعد إخلال المسلمين بشروط الاستخلاف، وإحجامهم عن طاعة ربهم وبذلك الإخلال كان الزوال لتلك النعم.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* الوعد المذكور في الآيات الكريمة لعباد الله المؤمنين الملتزمين بالشروط الواردة في الآيات والذين يدعون الإيمان بألسنتهم لايتحقق لهم هذا الوعد،

* ينبغي فهم الاستخلاف الوارد في الآيات الكريمة بمفهومه القرآني الدقيق الذي يعني الالتزام الكامل بتطبيق منهج الله الشامل في جميع مناحي الحياة، فإن تحقق الملك لأحد بعيدا عن ذلك الالتزام، فإنه لايكون دليلا على صلاحه واستخلاف الله تعالى له، وإنما هو مجرَّد قهر وغلبة وهيمنة على البشر.

* الوعود السابقة من الله تعالى لعباده المؤمنين ممتدة إلى يوم القيامة، فكل من حصل شروطها من عبادة الله وحده، ونبذ كل مظاهر الشرك، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول والرضا بأحكامه، فإنها تتحقق له، وهذه حقيقة واقعية تاريخية لايستطيع أحد إنكارها فكل مرحلة مرت بها الأمة وحققت هذه الشروط تحقق لها الاستخلاف، وما من مرحلة

خالفت هذه الشروط إلا ذلت وخضعت للأمم الأخرى.

* تعالج الآيات الكريمة حالة الهزيمة النفسية التي قد تتعرض لها الأمة عندما تفقد إحساسها بكرامتها ورفعة مكانتها، واليأس من مستقبلها، فهي تفتح باب الأمل أمامها، فما على المؤمنين إلا تحصيل شروط الاستخلاف، وأما قوة أعدائهم فقد تكفل الله تعالى بردِّها مهما بلغت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

المقطع الثاني عشر: آداب الاستئذان داخل البيوت

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

سبب النزول:

١ - أخرج بن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حبان قال بلغنا أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا طعاما فجعل الناس يدخلون بغير إذن فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها غلامهما وهما في ثوب واحد بغير اذن فنزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[1].

(١) فتح الباري: ١١/ ٣١. وانظر تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦ / ٢١٧.

٢- وروي أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضي الله تعالى عنه غلاما من الأنصار يقال له مدلج، وكان رضي الله تعالى عنه نائما، فدقَّ عليه الباب ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن، فانطلق معه إلى رسول الله - ﷺ - فوجد هذه الآية قد نزلت، فخر ساجدا، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضي الله تعالى عنه للوحي [١].

٣- وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات فيغتسلوا ثم يخرجون إلى الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [٢].

مناسبة الآيات لما قبلها:

مناسبة الآيات لما قبلها بينة واضحة، إما باعتبارها تتمة لما تقدم الحديث عنه من تشريع الأحكام السابقة، وإما باعتبار أن امتثال المؤمنين لأحكامها هو تحقيق لطاعة الله ورسوله التي حثت عليه الآيات السابقة، قال الألوسي رحمه الله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ الخ رجوع عند الأكثرين إلى بيان تتمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الإمتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد وفي التحقيق، ويحتمل أن يقال أنه مما يطاع الله تعالى ورسوله ﷺ فيه، وتخصيصه بالذكر لأن دخوله في الطاعة باعتبار أنه من الآداب أبعد من غيره) [٣].

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١٢ / ٣٠٤، وأحكام القرآن لابن العربي: ٣ / ٤١٥. وروح المعاني للألوسي ١٨ /٢١٠.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢١٠.

(٣) روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢٠٩.

وقال البقاعي: (ابتدأت السورة بطائفة من الأحكام، وفصلها بدرر الوعظ وجواهر الحكم والحث على معالي الأخلاق ومكارم الأعمال، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها، وعن علي مقاماتها تفرعت فصولها، فلما ختمت بالتمكين لأهل هذا الدين وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيدا لما حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيرا مما ختمه به من العذاب المهين، وتحقيقا لما ألزم به من الطاعة ولزوم السنة والجماعة، فقال واصلا بها ختم به الأحكام الأولى من الأمر بإنكاح الأيامى، والكفِّ عن إكراه البغايا، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾)[1].

التفسير الإجمالي:

بعد هذه الوقفة الطويلة مع الإلهيات التي ابتدأت بالإشارة إلى نور الله تعالى الذي أنار قلوب عباده المؤمنين، فأقبلوا على طاعته وتحاكموا إلى شريعته، واستجابوا لله ورسوله، فكافأهم على ذلك استخلافا وتمكينا وأمنا في الأرض، ولكن ذلك النور لم يحرك ساكنا في قلوب المنافقين والكافرين، فأصروا على ضلالهم وسوء أدبهم مع الله ورسوله، فحرمهم الله من ذلك النور، ليعيشوا في ظلمات بعضها فوق بعض.

بعد ذلك السياق، تعود السورة إلى موضوعها الأساس، لتكمل ما بدأته من تشريع للآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بالأسرة والمجتمع، فتحدثت عن الاستئذان داخل البيوت، إلى جانب الاستئذان في مجلس رسول الله صلى اله عليه وسلم، وتنظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء، إلى جانب بيان الأدب الواجب في خطاب رسول الله ﷺ ودعائه، وكلها آداب اجتماعية هامة تنظم علاقات المسلمين فيما بينهم، وقد مرسابقا في هذه السورة، تشريع أدب الاستئذان للدخول على البيوت، وهنا يأتي التشريع لأدب الاستئذان داخل البيوت، فقد جاء الأمر صريحا، بوجوب الاستئذان على الأرقاء، من العبيد والإماء،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥ / ٢٨١.

وكذلك الأطفال، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار، وذلك في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، وهذه الأوقات هي: من قبل صلاة الفجر عند النوم والخلود إلى الراحة، ووقت الظهيرة حيث يتخفف المسلم من ثيابه أثناء قيلولته، ومن بعد صلاة العشاء عندما تخلع الثياب وترتدي ثياب النوم. وسميت هذه الأوقات عورات لاحتمال انكشاف العورات فيها، لذلك أوجب الله تعالى على المذكورين الاستئذان كي لا تقع أنظارهم على عورات الأهل والأسياد.

وأما الأوقات الأخرى فلا حرج على الأرقاء والصغار من الدخول بغير استئذان، وذلك لكثرة دخول وخروج الصغار على أهلهم، أو قيام الرقيق بواجب الخدمة، وبتشريع ذلك الأدب الرفيع تستر العورات، ويزال الحرج والضيق، فلو وجب الاستئذان على المذكورين في كل الأوقات كما يفعل الكبار لشق الأمر عليهم، ولكن عندما يبلغ الصغار سن البلوغ، فإنهم يعاملون معاملة الكبار في وجوب الاستئذان في كل وقت.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بنفوس البشر وبما يصلحها من الشرائع المنطلقة من حكمته تعالى في علاج النفوس والقلوب.

وبذلك التشريع تكون الآيات قد قدمت تنظيما رائدا داخل البيوت يكفل بناء الأسرة والمجتمع على طهارة الأبصار وطهارة القلوب وطهارة الأعراض.

والمتأمل في هذا النوع من الاستئذان يجده نوعا من الاستثناء لحكم الاستئذان العام الذي مرَّ سابقا في هذه السورة، وهذا الأمر نلحظه كذلك في حكم آخر يتعلق بحجاب المرأة المسلمة، الذي سيق في هذه السورة كذلك، والذي أمر النساء بإخفاء زينتهن منعا لإثارة الفتن والشهوات، فجاء استثناء القواعد من النساء، اللاتي بلغن سن اليأس وقعدن عن الحيض والولد، لكبر سنهنَّ، بحيث لا يبقى لديهن طمع في الزواج، ولا يرغب فيهن الرجال، لذهاب مفاتنهن، فرفعت الآية الحرج عنهن إذا وضعن ثيابهن غير متظاهرات بزينة لجلب أنظار الرجال إليهن. قال أبو حيان: (وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، أو غير قاصدات التبرج

بالوضع، ورُبَّ عجوز يبدو منها الحرص على أن يظهر بها جمال)[١].

وليس المراد بوضع الثياب أن تخلع المرأة كل ما عليها من الثياب حتى تتعرى، لأن المراد بالثياب الجلابيب التي تخفي زينة المرأة كما اتفق على ذلك الفقهاء والمفسرون، والتي ذكرت في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وأما آية سورة النور التي معنا، فإنها أفادت جواز إلقاء هؤلاء القواعد جلابيبهن وخمرهن أمام الرجال، لكونهنَّ لم يعدن يرغبن في التزيُّن، وانعدمت فيهن الغرائز الجنسية، فإن بقي فيهن ميل لإظهار الزينة فلا يصح لهن وضع الجلباب.

ورغم تلك الرخصة في وضع الثياب لأولئك القواعد من النساء، فقد بينت الآية أن الأفضل لهن الاستعفاف، الذي يعني التعفف (والسين والتاء فيه معنى المبالغة مثل استحباب، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو ﴿ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ ﴾ أي وضعا لايقارنه تبرج بزينة)[٢]وذلك يقتضي بأن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة، وسمى القرآن ذلك استعفافا، ليبرز الصلة الوثيقة بين التبرج والفتنة وبين التحجب والعفة، فهما أمران متلازمان وواقع الناس أكبر دليل على صحة تلك الصلة.

ثم يأتي ختام الآية فوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ فالله تعالى سميع لكلامهن إذا خاطبن الرجال هل يخضعن بأقوالهن، ويتصنعن في ترخيم أصواتهن، أو يقلن قولا معروفا، والله تعالى عليم بخفايا نفوسهن إن وضعن ثيابهن هل يضعنها للفتنة أو لغيرها، والله تعالى سيجازي كل إنسان على عمله[٣].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤٣٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ٢٩٨.

(٣) انظرنظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ٥/ ٢٨٤.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

الآيات الكريمة بمضمونها من الأحكام التشريعية تشكِّل جزءا أصيلا من الأجزاء التي شكَّلت محور السورة المتعلق بالآداب الاجتماعية والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، حيث اشتملت على أدب الاستئذان داخل البيوت، ووضع الثياب للقواعد من النساء.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* يوصي الإسلام أتباعه بتربية أبنائهم الصغار ورقيقهم وخدمهم على أدب الاستئذان داخل البيوت، في الأوقات الثلاثة المذكورة، منعا من وقوع أنظارهم على العورات، وهذا الأدب الرفيع يغفل عنه الكثير من الآباء والأسياد، ويتهاونون به ظنا منهم أن رؤية الصغار للعورات لاتؤثر فيهم، وقد أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية أن تلك المناظر تؤثر تأثيرا سيئا على حياتهم في المستقبل، ويُلحق بهم أضرارا نفسية وعصبية وخلقية خطيرة.

* خصَّص القرآن الكريم الأوقات الثلاثة لاستئذان الصغار والخدم والرقيق منعا للحرج والضيق، وذلك لكثرة دخولهم على أهلهم وأسيادهم، وبهذا التشريع جمع القرآن بين حرصه على عدم انكشاف العورات، وبين مصلحة الصغار والخدم، فلو وجب الاستئذان عليهم في كل وقت كالكبار لشقَّ الأمر عليهم.

* يربط الإسلام أحكامه الشرعية بعلاتها وجودا وعدما، فالمرأة مأمورة بالحجاب وعدم إبداء زينتها للأجانب، منعا للغواية وإثارة الشهوات، فإذا انتفت علَّة الحكم بكبر السِّن وذهاب الفتنة جاز لها وضع الثياب بالضوابط الشرعية السابقة. قال ابن عاشور: (فلما كان في الأمر بضرب الخمر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة على النساء المأمورات اقتضاها سد الذريعة، فلما انتفت الذريعة رفع ذلك الحكم رحمة من الله فإن الشريعة ما جعلت في حكم مشقة لضرورة إلا رفعت تلك المشقة بزوال الضرورة وهذا معنى الرخصة)[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٩٧.

المقطع الثالث عشر: إباحة الأكل من بيوت الأقرباء

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

سبب النزول:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩]. تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفي الطعام، فنزلت هذه الآية. [١]

٢- وعن سعيد بن المسيب أن ناسا كانوا إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا، فكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت هذه الآية [٢].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان المسلمون يذهبون مع رسول الله ﷺ في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون: إنه لايحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء. فأنزل الله تعالى:

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٨٩. وانظر زاد المسير: ٦/ ٦٣- ٦٤.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ١٩٠، وزاد المسير: ٦/ ٦٤، وتفسير البحر المحيط: ٦/ ٤٣٤.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[١].

٤- وعن مجاهد بن جبر أن قوما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمون المريض والزمن ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمى الله عز وجلَّ في هذه الآية فكان أهل الزمانة يتحرجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكه فنزلت هذه الآية. [٢].

٥- وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم ان عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطرمة وأبي صالح قالا كانت الأنصار اذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل معهم الضيف فنزلت رخصة لهم. [٣].

مناسبة الآية لما قبلها:

شرَّعت الآيات السابقة أدب الاستئذان داخل البيوت، ورخَّصت للقواعد من النساء في وضع ثيابهن، وكل ذلك يأتي لاستكمال التشريعات الأدبية والأخلاقية التي يريد الإسلام ترسيخها في المجتمع المسلم، وهذه الآيات سيقت لنفس الغرض السابق، حيث اشتملت على اسثناء جديد، يتصل بموضوع الاستئذان، وهو إباحة الشريعة للمسلم تناول الطعام من جملة من البيوت ذكرتها الآية الكريمة، من خلال تنظيم العلاقات وتحديد الارتباطات بين الأقرباء والأصدقاء، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾الآية.

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٩٠، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠٦.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ١٨٩- ١٩٠، وزاد المسير: ٦/ ٦٤.

(٣) تفسير الدر المنثور: ٦/ ٢٢٥.

التفسير الإجمالي:

رفعت الآية الكريمة الحرج عن المعذورين المذكورين في الآية الكريمة وهم العميان والعرج والمرضى، فأجازت لهم الأكل من كل بيت، لأن عذرهم يثبت لهم حقا على المجتمع وأما سائر الناس فلهم أن يأكلوا من البيوت المذكورة دون استئذان، قال الرازي: (والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب) [(١)]، وهذا هو المعنى الظاهر الذي يؤيده سياق الآيات ولاحقها وهذا رأي جمهور المفسرين، ولكن بعض المفسرين يجعلون رفع الحرج عنهم محصورا في إباحة قعودهم عن الجهاد [(٢)] ويرى فريق ثالث أن قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾منفصل عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وأنه متعلق بالاستئذان الذي سبق ذكره، وليس في غرض الأكل في البيوت، والمناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان للأعمى أنه لايتعين عليه الاستئذان لانتفاء سببه، وكذلك الأعرج لاحرج عليه في التكاليف التي يشترط فيها المشي، وكذلك المريض فالحرج مرفوع عنه في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم والجهاد [(٣)].

والملاحظ أن الآية لم يذكر فيها بيوت الأبناء مع الأقرباء، وذلك لأن بيت الابن هو بمنزلة بيت النفس، لحديث الرسول ﷺ، (إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه) [(٤)].
والمراد بقوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ كما يقول القرطبي رحمه الله: (يعني مما اختزنتم، وصار في قبضتكم، وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأويل

---

(١) تفسير الرازي: ٤ / ٣٢.
(٢) انظر تفسير الكشاف: ٣ / ٢٦١، وتفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٣٤.
(٣) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٩٩- ٣٠٠.
(٤) سنن الترمذي: ٣ / ٦٣٩ رقم (١٣٥٨)، وابن ماجه: ٢ / ٧٦٨ رقم (٢٢٩٠)، وابن حبان: ١٠ / ٧٧ رقم (٤٢٦١).

الضحاك وقتادة ومجاهد، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأُجراء، قال ابن عباس: عَنَى وكيل الرجل على ضيعته وخازنه على ماله، فيجوز له أن يأكل مما قيم عليه)[1].

ولما انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها دون استئذان، بين الحالة التي يجوز عليها الأكل، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾، فالآية رفعت الحرج عن الآكلين سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين، وذلك رداً على سلوك بعض أحياء من العرب الذين ألزموا أنفسهم منهجا قاسيا، وعرفا متشددا، حيث كانوا لايأكلون طعامهم إلا مجتمعين كما بين سبب نزول الآية، فأخبرهم الله تعالى، بأن الرجل إذا أكل وحده فلا حرج عليه. قال ابن عطية: (وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ ردٌ لمذهب جماعة من العرب، كانت لا تأكل أفرادا البتة، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إذا ماصنعتِ الزاد فالتمسي		له أكيلا فإني لست آكله وحدي

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مبينة سنة الأكل، ومذهبةً كل ما خلفها من سنة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وأن إحضار الأكيل لحسن، ولكن بأن لا يحرم الانفراد) [2].

ولما انتهى من بيان الحالة التي يجوز الأكل عليها، شرع في بيان آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها، فقال:﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾.

فالآية الكريمة أمرت بإلقاء السلام على من بداخل البيوت، والتزام الآداب عند دخولها،

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٥.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية: ٤ / ١٩٦.

وتلك تحية طيبة مباركة شرعها الله تعالى لعباده المؤمنين، (ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها) (١)، وكل هذه الأحكام الشرعية، والآداب الاجتماعية الراقية، شرَّعها الله تعالى لعباده، ليتدبروها، ويعقلوا مقاصدها.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

مناسبة الآيات لمحور السورة واضحة جلية لأنها اشتملت على مجموعة من الآداب الاجتماعية والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع التي تشكِّل عماد محور السورة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* خصَّ الإسلام أهل الأعذار بتكريم خاص، فأسقط عنهم الجهاد في سبيل الله، وأباح لهم الأكل من بيوت الناس بدون استئذان، كحق مكتسب لهم على المجتمع الذي يعيشون فيه، وهذا التكريم لم تعرفه أكثر الأنظمة العالمية، التي تدَّعي التقدم والمحافظة على حقوق الإنسان في العالم.
* أباح الإسلام الأكل بدون إذن من بيوت الأقرباء كالآباء والأمهات والإخوان والأخوات الأعمام والعمات، والأخوال والخالات... لما في ذلك من تقوية للروابط الاجتماعية، وبثٍّ لروح الألفة والمودة بين الأقرباء.
* نبَّه الإسلام على شرف منزلة الصداقة، وأعلى من مكانتها، عندما سوَّى في إباحة الأكل من بيوت الأقرباء والأصدقاء بدون إذن، (وقد جعل - أي الصديق - في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء، وسئل بعض الحكماء: أيُّ الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال:لإنما أحب أخي إذا كان صديقي) (٢). وهذا أدب اجتماعي رفيع، يقوِّي الروابط الدينية بين المسلمين ويزيد من تماسك المجتمع المسلم.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٣٠٢.

* أباح الإسلام الأكل في حالة الانفراد، رداً على منهج بعض قبائل العرب المتشدِّدين، الذين ألزموا أنفسهم بالأكل مجتمعين، وهذا يظهر لنا يسر الشريعة الاسلامية في تكاليفها، ولكنه رغم تلك الإباحة، حبَّبَ الإسلام لأتباعه الإجتماع على الطعام، تحصيلاً للبركة، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه عندما سألوه قائلين: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ ولا نَشْبَعُ قال فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟ قالوا: نعم. قال: فَاجْتَمِعُوا على طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عليه يُبَارَكْ لَكُمْ فيه [١].

وأخرج ابن ماجه بسنده عن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: كُلُوا جميعا ولا تَفَرَّقُوا فإن الْبَرَكَةَ مع الْجَمَاعَةِ. [٢]

* أمر الإسلام المؤمنين بإلقاء التحية عند دخول بيوت الآخرين، وجعل شعار تلك التحية (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) لما في ذلك من إفشاء لروح السلام والألفة والمودة بين المسلمين، قال رسول الله صلى الله عايه وسلم: « والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. [٣]

* كشفت لنا روايات أسباب النزول عن أثر القرآن في تربية الصحابة رضي الله عنهم على خلق الورع وشدة الخوف من الله تعالى، الذي جعلهم في غاية رهافة الحسِّ في التمييز بين الحلال والحرام، فنزول آية ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ كان كافيا لهم للامتناع عن مشاركة المرضى والزمنى والعمي في الطعام خوفا من أكل الحرام، كما أظهرت

---

(١) سنن أبي داود: ٣ / ٣٤٦، رقم (٣٧٦٤) وصحيح ابن حبان: ١٢ / ٢٧ رقم (٥٢٢٤) وابن ماجه: ٢/ ١٠٩٣ رقم (٣٢٨٧)

(٢) سنن ابن ماجه: ٢ / ١٠٩٣ رقم (٣٢٨٧).

(٣) مسند أحمد: ١ / ١٦٤ رقم (١٤١٢)، وسنن الترمذي: ٤ / ٦٦٤ رقم (٢٥١٠)، والسنن الكبرى: ١٠/ ٢٣٢ رقم (٢٠٨٥٤)

لنا رواية ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا الخلق تجلّى أيضا في سلوك أولئك الضمناء الذين ائتمنهم المجاهدون مع الرسول على أموالهم، فإنهم رغم الإباحة الصريحة لهم بالأكل مما وُكِّلوا عليه، ولكنهم امتنعوا عن الأكل خوفا من أن نفوس أصحاب الأموال غير طيبة بذلك.

المقطع الرابع عشر: أدب المؤمن مع الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

سبب النزول:

روى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق، حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عيينة بن حصن، فضرب النبي ﷺ الخندق على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يتسللون لواذا من العمل، ويعتذرون بأعذار كاذبة [1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

قال ابن عاشور: (لما جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول، عقب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع، فاعتنى من ذلك بالواجب منه، وهو استئذان الرسول ﷺ في مفارقة مجلسه، أو مفارقة جمعٍ جُمِع عن إذنه، لأمر مهم كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦/ ٢٢٩. وتفسير القرطبي: ١٢/ ٣٢١.

ونحو ذلك) [١]. فالمناسبة بين الآيات السابقة والتي معنا قوية وموضوعية، لأنها انتقال من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء، إلى تنظيم العلاقة بين المؤمنين ورئيسهم وقائدهم محمد ﷺ وذلك بإبراز بعض الآداب اللازمة في معاملته ﷺ.

التفسير الإجمالي:

حملت الآيات الكريمة ثناء من الله تعالى على عباده المؤمنين، حيث شهد الله تعالى لهم بكمال إيمانهم بالله ورسوله، وشهد لهم بكمال أدبهم في التعامل مع رسول الله ﷺ، فهم إذا كانوا معه في أمر هام وجامع فيه مصلحة للمسلمين، لا يذهب واحد منهم حتى يستأذنه، (والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذى يعم نفعه أو ضرره وهو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب قال العلماء كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن) [٢] وهؤلاء المؤمنون لا يستأذنون الرسول ﷺ إلا وهم مضطرون، فإيمانهم الراسخ يمنعهم من التخلي عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الأمة، ومع ذلك فالقرآن يعطي الخيار لرسول الله ﷺ بإعطاء الإذن لأولئك المؤمنين أومنعهم منه، وفي نفس الوقت يطالبه بالاستغفار لهم، لأن الاستئذان ولو لعذر يعتبر قصورا، لأنه تقديم للمصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية وتقديم للدنيا على الآخرة.

ثم تنتقل السورة إلى أدب آخر يرتبط برسول الله ﷺ ويتجلى في توقير المؤمنين لرسولهم فيقول تعالى:﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾.

فقد نهت الآية الكريمة المؤمنين أن يتعاملوا مع دعاء الرسول كما يتعاملون فيما بينهم سواء كان ذلك الدعاء أمرا وتكليفا من الرسول للمؤمنين، فإذا دعاهم وجبت عليهم الإجابة وفي عدمها خطرعلى الإيمان وحبوط للعمل، وقد يكون المراد بالدعاء نداء الرسول ﷺ، فلا

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٣٠٦.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٥٧.

تجوز مناداته باسمه، فلا ينادى: (يا محمد)، أو(يا أبا القاسم) أو (يا أبا عبد الله) كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا، إنما يُنادى ويُدعى بتوقير وتشريف الله له من خلال وصف النبوة أو الرسالة فيُقال: (يا نبي الله) (يا رسول الله).

وقد يكون المراد بالدعاء، دعاء الرسول على غيره من المخالفين، وفي هذا المعنى قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾ (لا تقيسوا دعاءه إيَّاكم على دعاء بعضكم بعضا في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرَّمة، وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظم، مثل يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتواضع، وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض، فلا تبالوا بسخطه، فإن دعاءه موجب) [١].

ثم حذَّرت الآيات الكريمة المنافقين الذين يتسللون لواذا أي قليلا قليلا، ويخرجون من الجماعة خفية يستتر بعضهم ببعض، قال الطبري: « واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا» [٢]، فقد حذرهم الله تعالى من مخالفة أمره أو أمر رسوله ﷺ لأنها سبب في نزول المحن الشديدة بهم في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة وقد بين الإمام الرازي المراد بالفتنة فقال: (والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم عذاب الآخرة، وإنما ردَّد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين، لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا، وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد، ثم قال الحسن: الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القتل وقيل الزلازل والأهوال). [٣]

ثم كان مسك الختام لهذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ

(١) تفسير البيضاوي: ٤ / ٢٠٣.

(٢) تفسير الطبري: ١٨ / ١٧٨.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ٣٨.

قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾. فلله تعالى كل مافي السموات والأرض (من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا إيجادا وإعداما بدءا وإعادة لا لأحد غيره شركة أو استقلالا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق، ودخول المنافقين مع أن الخطاب فيما قبل للمؤمنين بطريق التغليب... وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم، لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك، وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده، وفيه إشعار بأن علمه جلَّ وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا) [١] ففي ذلك الختام إشارة رهيبة تشعر القلوب بدوام مراقبة الله لهذا الإنسان، واطلاعه على أعماله، مما يجعل القلب مرتبطا بربه، يخشاه ويتقيه في كل أحواله وهذا الشعور هو الحافز الوحيد الذي يدفع الإنسان لفعل الطاعات واجتناب المنهيات والحرص على نيل مغفرة الله تعالى ورضوانه.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

يأتي ختام هذه السورة بهذه الآيات الكريمة، التي تناولت جملة من الآداب الواجبة في التعامل مع الرسول ﷺ، من استئذانه، واستجابة دعائه، وتوقيره عند ندائه، وعدم مخالفة أوامره، وكل تلك الآداب من صميم محور السورة الأساس الذي انتظمها من أولها إلى آخرها وهو: (التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع).

الهدايات المستفادة من الآيات:

* يدعو الإسلام إلى تنظيم العلاقة بين القائد والرعية خاصة في المواطن الخطيرة والأوقات الحرجة، التي تستدعي مشاركة الجميع، كالحروب والنكبات والنوازل وغيرها، فلا يجوز الانصراف من تلك المشاركة إلا باستئذان من القيادة ولظروف قاهرة، وعلى القائد أن يقدِّر

(١) روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢٢٨.

حالة الاضطرار ويوازن بين مصلحة بقاء المستأذن أو انصرافه. (وفي قوله: ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفاءته فمفارقة أحدهم في مثل هذه الحالة مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه فمن ثم غلظ عليهم وضيق الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه واعتراض ما يهمهم ويعينهم... لذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه) [١].

* توقير الرسول ﷺ أمر واجب، فهو رسول الله، فلا تجوز مناداته والتعامل معه كالآخرين، وهذه لفتة هامة جداً من القرآن الكريم للمسلمين، يشعرهم بهيبة القائد ووقاره تمهيدا لطاعته والتزام أوامره، فإن هان أمره على الرعية، قلت هيبته، ورغب الكثير عن طاعته وعندها تدبُّ الفوضى، وتتفرق الكلمة، وأعظم بهما من بلاء يدمِّر الأمة.

* يعتبر الإسلام طاعة الرسول من طاعة الله، لأن أوامره وحيٌّ من عند الله، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠]. وأما مخالفته فهي مسخطة لله تعالى، تعرِّض المخالفين للفتن والمحن في الدنيا، وللعذاب الأليم في الآخرة.

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ٦ / ٤٣٦.

سورة الفرقان

بين يدي السورة:

اسمها:

تسمى سورة الفرقان، لما ورد في الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت القراءة، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر، فقرأت التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه [1].

عدد آياتها:

عدد آيات سورة الفرقان سبع وسبعون آية في قول جميع القراء [2]، وعدد كلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا[3] وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة ﴿ يسٓ ﴾ وقيل سورة فاطر[4] وهي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام بعضهم في بعض ٣/ ٩٠ رقم الحديث(٢٢٨٧). والإمام مسلم، حديث رقم (٨١٨).

(٢) انظر منار الهدى للأشموني ص ١٩٨، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٦/ ٤٠٥.

(٣) انظر منار الهدى للأشموني ص ١٩٨.

(٤) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

المرحلة الزمنية لنزولها:

القول الراجح أنها مكية جميعها، كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان: عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ فقرأت عليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي فقال هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء [1].

محور سورة الفرقان:

تقدم في ثنايا الحديث عن المناسبات أن محور سورة الفرقان هو القرآن باعتباره معجزة رسول الله ﷺ ودليل صدقه.

ووفق المنهج المتبع عادة للتعرف على محور السورة وهو(التعرف على المحور من خلال اسم السورة، أو من خلال المناسبات في السورة، أو من خلال المرحلة الزمنية لنزول السورة، أو من خلال القضايا المعروضة في السورة).

لو طبقنا هذا المنهج على سورة الفرقان للتعرف على محورها لوجدناه(الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن).

المناسبات في السورة:

(١) المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور:

أ- توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه:

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في مظهرين:

الأول: عدم انصراف المؤمن من مجلس رسول الله ﷺ إلا بإذنه ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير ٦/ ١٥ رقم الحديث(٤٤٨٤).

وذلك لضبط الأمور وتنظيمها مع القيادة الرشيدة.

الثاني: عدم مناداته باسمه المجرد ولا بكنيته، وإنما ينادى بلقب الرسالة ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾.

- وجاء في افتتاحية سورة الفرقان في مظهرين أيضا:

الأول: وصف رسول الله ﷺ بصفة العبودية المضافة إلى الله تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

الثاني: كون رسول الله ﷺ مبعوثا للعالمين، وكون رسالته عالمية، وهذه ميزة لم يعطها أحد من الأنبياء والمرسلين غيره، فقد صح عنه قوله:(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) [(١)].

ب- مهمة الرسول ﷺ العظمى (الإنذار):

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] والتحذير عن مخالفة أمر رسول الله لون من ألوان الإنذار. وجاء بصيغة التعميم ليشمل التحذير عن المخالفات في العقيدة والأحكام والأخلاق، ويدخل فيه الانصراف بدون إذنه دخولا أوليا.

- وجاء النص على هذه المهمة صريحا في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى:﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾والشق الثاني من المهمة يأتي ضمنا في الإنذار، فإذا كان الإنذار للمخالفين لأوامره فإن البشارة للمؤمنين به المتبعين لما جاء به من الهدى والنور.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم ١/ ٨٦، الحديث رقم (٣٢٨).

ج- مظاهر من قدرة الله تعالى وعظمته وتفرده بالملك والتصرف:

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: ٦٤].

فلله سبحانه ملك السماوات والأرض وما بينهما خلقا وتقديرا وتدبيرا وإنهاء وتدميرا، وفي تقديم لفظ الجلالة بيان تفرده بذلك. وعلم الله المحيط بكل شيء، ومنه إحاطته بأحوالهم وما هم عليه من الصفات والأحوال والأعمال ليجازيهم بها يوم الرجوع إليه.

- وجاءت جملة من مظاهر التفرد والعظمة في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ فلله ملك السماوات والأرض وحده لا شريك له في ذلك - دل على ذلك تقديم الجار والمجرور المتعلقين بالخبر على المبتدأ - وهو المنزه عن الولد والشريك، فلا يعجزه شيء﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس: ٨٢]. وخلق المخلوقات بتقدير، ولا يكون إلا بناء على العلم بدقائق الأمور وجلائلها، ويستلزم الحكمة لوضع الشيء المقدر في مكانه بناء على العلم المحيط.

(٢) المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمتها:

أ- الحديث عن المعبود بحق وبعض صفاته، والحديث عن الآلهة المزيفة وبيان عجزها

- جاء ذلك في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[الفرقان: ٢].

أما الحديث عن الآلهة المزيفة العاجزة فجاء في قوله تعالى﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣].

فالإله الحق يتفرد بالملك والتدبير والتقدير. أما آلهتهم المزيفة فلا تملك دفع الضر عن نفسها وهي مخلوقة لغيرها ولا تدفع عن نفسها الموت ولا تهب الحياة فكيف تتخذ آلهة من دون الله تعالى.

- وجاء الحديث عن المعبود بحق في خاتمة السورة بالثناء على عابديه﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وجاء الحديث عن المعبود الباطل في خاتمة السورة بالوعيد على عابديه في قوله تعالى﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

ب- الحديث عن اليوم الآخر في الافتتاحية في قوله تعالى﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

والحديث عن اليوم الآخر في الخاتمة في قوله تعالى﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٩].

ج- والحديث عن الرسالة في الافتتاحية في قوله تعالى﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وجاء الحديث عن الرسالة في الخاتمة في قوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٥] وهي مهمة الرسول البشارة، والمهمة الأخرى النذارة ذكرت في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

(٣) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم أن السورة تسمى سورة (الفرقان)، ومحور السورة هو إثبات صدق رسول الله ﷺ من خلال القرآن الكريم(المعجزة العظمى لرسول الله ﷺ).

فوجوه إعجاز القرآن الرئيسية الأربعة موجودة في السورة:

- فالإعجاز البياني من خلال نظمه﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾[الفرقان: ٣٢].
- والإعجاز العلمي في أسرار مخلوقاته ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان: ٦]، ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ ﴾[الفرقان: ٥٣].
- والإعجاز الغيبي بذكر أخبار الأنبياء والأمم السابقة كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ ﴾ ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ ﴾ [الفرقان:٣٥-٤٠].
- والإعجاز التشريعي بذكر الهدايات القرآنية في العقائد وأصول التشريع والأخلاق كما في قوله تعالى﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[الفرقان: ٦٣-٧٧].

فالمناسبة بين اسم السورة (الفرقان) وهو المعجزة والمحور الذي يثبت صدق الرسول ﷺ من خلال هذه السورة بذكر أوجه إعجازه جلية واضحة.

(٤) المناسبات بين مقاطع السور بعضها ببعض:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع مع سابقه.

(٥) المناسبات بين مقاطع السور ومحورها:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع.

(٦) المناسبات بين مضمون سورة الفرقان ومضمون سورة النور

على الرغم من أن سورة النور مدنية وسورة الفرقان مكية، فهناك وجوه من المناسبات بين مضمون السورتين منها:

أولاً: اشتملت سورة النور على كثير من الأحكام كالزنا والقذف والاستئذان، والكشف عن مغيبات.. تبين بمعرفتها الخبيث من الطيب... ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين بالتمكين في الأرض وفضح المنافقين الذين كانوا يتسللون من مجلسه بغير إذنه. فكان مجموع ذلك فرقانا يعتضد به الإيمان.. يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته، ويوضح عظيم قدره عند ربه..

جاء في سورة الفرقان قوله تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده.. «فهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر».. [(١)].

ثانياً: ذكر في سورة النور الدلائل على توحيد الله سبحانه وتعالى من الآيات الكونية وجاء مثلها في سورة الفرقان فمن ذلك:

أ - جاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ [النور: ٤٣].

وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ

(١) انظر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٣ ص٣٣٤، ط دار السلفية، بومباي، الهند.

كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الآية ٤٨-٤٩].

ب- جاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥].

وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الآية: ٥٤].

ثالثاً: جاء في كلتا السورتين مصير أعمال الكافرين يوم القيامة، فجاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾[النور: ٣٩]، وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى:﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الآية:٢٣]. [١]

افتتاحية سورة الفرقان

صفات الإله الحق، وعجز الآلهة المزيفة

قال تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ١ - ٣].

المعنى الإجمالي للافتتاحية:

افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى الذي تنامى خيره وتكاثر، فشمل كل شيء، ومن أعظم مظاهر الخير المتنامي إنزال القرآن على صفيه وخليله وعبده ونبيه خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ليبلغ عن ربه ما أوحي إليه وينذر به العالمين، وفيه الميزان الذي يفرق به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ، ويميز بين منهج السعادة والنجاة ومنهج الشقاء والهلاك.

---

(١) انظر الزحيلي، وهبة مصطفى: التفسير المنير ج١٩ ص٦.

ومن أوائل المبلغين المنذرين أولئك الذين اتخذوا معبودات صنعوها بأيديهم ثم أضفوا عليها بأوهامهم صفة القدسية، وهم يدركون عجزها المطلق عن دفع الضر عن أنفسها أو جلب النفع لها، ناهيك عن دفع الضر أو إيصال النفع إلى عابديها ففاقد الشيء لا يعطيه، ولو أنهم فكروا في أنفسهم وما وهبهم الله من قدرات وطاقات لأدركوا من أنهم أفضل من تلك الأصنام والأوثان، فإنها عاجزة عن الفهم والحركة والتصوف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٤- ١٩٥].

إن من شأن المعبود الحق ملك السماوات والأرض خلقا وإيجادا من العدم، وأن يكون غنيا عن مساعدة غيره في تدبير هذا الملك، وأن لا ينازعه أحد في ملكه، وأن تكون مخلوقاته قد وجدت لأداء وظائفها بحكمة وعن سابق علم محيط فقدرها خالقها تقديرا.

وأن يكون له مطلق الإرادة والمشيئة في مخلوقاته إذا أراد إنهاء وجودها، أو أراد بعثها للمحاسبة والجزاء. فهل تقدر آلهتهم المزيفة على شيء من ذلك ؟.

تضمنت افتتاحية سورة الفرقان الحديث المجمل عن قضايا العقيدة الأساسية:

الألوهية:

فبعد تقديس الله عز وجل، جاءت أربعة أوصاف تؤكد التنزيه والتقديس للمعبود بحق:

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

- وذكرت الافتتاحية بطلان آلهتهم المزيفة من خلال أربعة صفات:

﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾.

﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾.

﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

البعث بعد الموت:

وتحدثت الافتتاحية عن عقيدة البعث بعد الموت في لمحات خاطفة، كما تكرر الحديث عن اليوم الآخر والبعث والنشور من خلال مقاطع السورة باختصار لأن هذا المجال لا يشكل محور السورة الرئيس.

الرسالة، الرسول، المعجزة:

فقد ذكرت الرسالة المتضمنة في(الفرقان)، وذكر الرسول الذي أنزل عليه الفرقان(عبده)، وذكرت المعجزة وأوجه إعجازها كما تقدم في المناسبات بإيجاز وسيأتي المزيد عن أوجه إعجاز الفرقان في ثنايا تفسير المقاطع. فإن محور السورة هو(الاستدلال على صدق الرسول ﷺ من خلال معجزة القرآن) كما تقدم.

من الفوائد المستنبطة من الافتتاحية:

* إثبات صفات الجلال والكمال والعزة لله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز وعن الشريك والولد أساس عقيدة المؤمنين.

* عموم رسالة محمد ﷺ للعالم الإنس والجن، ومن بلغه دعوة محمد ﷺ ولم يؤمن به فهو في النار.

* بطلان عبادة من اتخذ آلهة لا تتصف بصفات الجلال والكمال. أو تعجز عن الخلق والتدبير والتقدير، وعن الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت.

المقطع الأول

شبهاتهم حول القرآن وردها

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ [الفرقان: ٤-٦].

المناسبة بين المقطع الأول والافتتاحية:

بعد الثناء على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله، وذكر النعمة العظمى على عباده بإنزال كتابه على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرا، وبيان عجز آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وضلال ما هم عليه من الشرك والإلحاد. ذكر موقف المشركين من القرآن العظيم، الذي أنزله رب السماوات والأرض وخاطب به الإنسانية. وكان من المفترض منهم وهم العقلاء الأذكياء أن يتدبروا معاني هذا الكتاب، وما يدعوهم إليه، فإن من شأن العاقل إذا خوطب أن يلقي السمع لما يسمع، وأن يتدبر مضمون الكلام الموجه إليه، ليتخذ حياله الموقف الحكيم. ولكن القوم اتخذوا حيال القرآن موقفا مخالفا تماما.

المعنى الإجمالي للمقطع الأول:

كانت آيات القرآن الكريم كالأضواء الكاشفة لظلمات جهل المشركين وفساد عقولهم وسوء تصرفاتهم فأرادوا أن يطفئوا نور الله بكل ما أوتوا من مكر وافتراء. فقالوا إن هذا القرآن اختلقه محمد واستعان ببعض بتلقينه أساطير الأولين ثم صاغها محمد بأسلوبه ونسبها إلى ربه ليضفي عليها صفة التقديس. وتكررت هذه الفرية من القوم كلما تحداهم القرآن الكريم وأظهر عجزهم. ولكن موضع الضعف في مقولتهم هذه من جانبين:

الأول: أن محمداً ﷺ الذي جاء بالقرآن لا يدعيه أنه منه وإنما ينسبه إلى ربه عز وجل، وهم لم يجربوا عليه كذبا قط. ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾.

الثاني: أن محمدا واحد منهم ومداركه العلمية التي تلقاها من بيئته لا تزيد على ما كان عند القوم، بل لعل بعض القوم كان لديه من الإطلاع والقدرات الكسبية أكثر منه، كقول الشعر والإطلاع على أخبار الماضين، وكان لبعضهم أسفار إلى أقوام وشعوب مما أكسبهم ثقافة لا عهد لقريش بها مثل النضر بن الحارث الذي كان يقول: إن لديه من قصص رستم واسفنديار وأساطير الفرس ما يضاهي به قصص القرآن. ومحمد ﷺ معروف لديهم بأميته.

حاول القوم تغطية هذه الفجوة في ادعائهم بأن قالوا: إنه اختلقه بالتعاون مع بعض أتباعه حيث زودوه بالمعلومات ومادة القصص، وصاغها محمد ﷺ بأسلوبه البياني البليغ.

لقد رد القرآن الكريم قولهم هذا بقوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨].

إن الكلام المفترى لا يكلف صاحبه شيئا سوى السرد بعد تذويقه وإضفاء المسحة الجمالية عليه، فلو كان القرآن مختلقا مفترى من عند أحد من البشر لكانوا أقدر الناس على الإتيان بمثله، لأن طبائعهم تلائم الاختلاق والكذب، بخلاف نفس محمد ﷺ المطبوعة على الصدق والأمانة والاستقامة.

أما الذين نسبوا إليهم مساعدة محمد ﷺ والتعاون معه في الخفاء فقد ذكروا منهم: يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر.

ولكن لماذا اختاروهم من الموالي الغرباء عن قريش ؟

لقد اختاروهم من المغمورين المجهولين لعل الغربة تجد قبولا لدى العامة من الناس، ولدى الغرباء من قريش فيتوهموا أن هؤلاء الموالى على علم لا تعلمه قريش فاستعان بهم محمد ﷺ.

ولكن الذي غفلوا عنه أو تغافلوا، أن يوجهوا لأنفسهم سؤالا وهو:لو كان الموالي يملكون علوم الأولين والآخرين، وعلوم الكون وعلوم الأديان... أما كانوا أحق أن يدعوا لأنفسهم دون محمد ﷺ ؟.

ثم إن القرآن ليس كله قصصا وأخبارا، بل جاء بشرائع تنظم مجالات الحياة كلها بأسلوب

معجز، وتصاريف من القول أعجزت فصحاء الضاد، فكيف ينسجم مع زعمهم أن محمدا تلقاه من البشر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣].

إن ما اشتمل عليه آي الذكر الحكيم من حقائق الكون وسننه، وما يتعلق ببدء الحياة على الأرض وما بث فيها من المخلوقات، وما يتعلق بمستقبل ما يجري في قادمات الأيام... دليل على أن القرآن منزل من الذي أحاط بكل شيء علما، بأسرار الكون والمخلوقات في السماوات والأرض، ولم ولن يستطيع أحد أن يبطل حقيقة ذكرها القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

إن الذين يفترون الكذب ويزعمون أن مصدر القرآن بشري، يعرضون أنفسهم لعذاب الله الأليم، ولولا سعة مغفرة الله ورحمته بعباده لأنزله بهم، ولكن الله رحم أمة الدعوة بتأجيل حسابهم إلى يوم القيامة لعل بعضهم يعود إلى الحق والصواب، فيستغفر الله ويتوب إليه عما كان عليه من الضلال. ووجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم أمان لهم من العقوبة العاجلة﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال: ٣٣].

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

لقد تقدم أن محور السورة هو(الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن) والمقطع الأول يتحدث عن شبهة المشركين حول القرآن ودفعها ببيان أن الذي أنزل القرآن عالم غيب السماوات والأرض. فالمناسبة واضحة لأن الحديث في صميم المحور.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الأول:

* العناد والجحود يلجيء صاحبه إلى الوقوع في المتناقضات. فالمشركون يقولون بصدق محمد ﷺ ويصرحون له (ما جربنا عليك كذبا قط) ثم يتهمونه بأكبر فرية باختلاق القرآن من نفسه ونسبته إلى الله تعالى.

* شبهات الكافرين حول القرآن الكريم سطحية لا تعتمد على عقل، ولا تصمد للمناقشة والدحض. سواء ما أثارتها قريش، وما يثيرها اليوم المستشرقون وأذنابهم المستغربون. ففي أسلوب القرآن الكريم المعجز ومضامينه الهائلة وتحديه المستمر إلى يوم الدين حجة لمن رام الحق وبحث عنه.
* مشركو قريش أكثر إنصافا من المستشرقين اليوم، لأنهم سلموا بأمية الرسول ﷺ فقالوا عنه إنه اكتتب القرآن أي طلب كتابة القرآن من غيره. وقالوا إن قصص القرآن تملى عليه، أي يقرؤها غيره عليه. لأنه لم يقرأ في حياته كتابا ولم يخط بيده مكتوبا. أما المستشرقون اليوم فيحاولون جاهدين أن يثبتوا أن محمدا ﷺ كان قارئا كاتبا. وأنى لهم ذلك؟

المقطع الثاني

شبهاتهم حول الرسول ﷺ وردها

قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧-١٠].

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

بعد أن أثار المشركون الشبهات حول الوحي المنزل، أثاروا شبهات حول الرسول الذي أنزل عليه الوحي. وهذا الترتيب ينسجم مع الترتيب في قوله تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ حيث ذكر الفرقان أولا ثم الرسول المنزل عليه الوحي.

المعنى الإجمالي للمقطع:

شبهة الأقوام للأنبياء والمرسلين قديمة قدم الرسالات فكل قوم أثاروا هذه الشبهة حول نبيهم، قال قوم نوح عليه السلام لنبيهم ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال قوم شعيب عليه السلام لنبيهم ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال قوم صالح عليه السلام ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾ [القمر: ٢٤].

وهكذا جميع الأقوام ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ ﴾ [التغابن: ٦].

وأتبعت قريش سنن من قبلهم من الأقوام فاستغربوا أن يكون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..، ويعتوره من الأعراض والهيئات ما يعتور البشر جميعاً.

وهذا جهل من الأقوام بحكمة الله سبحانه وتعالى في الرسالات، وجهل بقيمة الإنسان في ميزان الله العلي الحكيم.

أما جهلهم بحكمة الله: فإن الإنسان خلق لأداء مهمة على وجه الأرض وهي عبادته واستخلافه في عمارتها. كما ذكر القرآن الكريم ذلك ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر: ٣٩]. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٥٦] ولمعرفة المهمة والتكاليف المنوطة بالإنسان لا بد من تبليغه بها وبيانها له، والطرق المتصورة في التبليغ ثلاث لا رابع لها.

الأولى: أن يبلغ كل فرد مباشرة من ربه وهذا ينافي الحكمة من الابتلاء، إذ الابتلاء يقتضي الاختيار في الإرادة.

الثانية: أن يرسل إليهم رسولا من غير جنسهم من الملائكة أو الجن، فإن كانوا على صورتهم الأصلية لا تتحقق الغاية من التبليغ، لأنهم لو أتوهم على صورتهم الأصلية لا يتحقق معه التلقي والبيان والتطبيق العملي والقدوة حيث الانسجام بين التكوينين مفقود، يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨-٩] وإذا ظهر لهم على صورة البشر كانت مطابقة للطريقة الثالثة.

الثالثة: أن يكون الرسول من جنس البشر وهي الطريقة التي يتحقق معها المراد من إرسال الرسل.

إن الحكمة الإلهية لا تتحقق إلا أن يكون رسول البشر من البشر واحد من البشر يحس إحساسهم ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم... وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد... فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم.. ولو كان ملكا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ولا شوق إلى تحقيق صورته[١] .

هذه سنة الله في الرسالات أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يقول جل شأنه ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤- ٩٥].

أما جهلهم بقيمة الإنسان في ميزان العلي الحكيم:

فإن الإنسان خلق من مادة الطين لأنه مهيأ للحياة على هذه الأرض ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه: ٥٥]. وجاء التكريم الرباني من نفخة الروح التي

---

(١) في ظلال القرآن٥/ ٢٥٥٣ باختصار.

استحق بها سجود الملائكة ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص:٧١- ٧٢]. بهذه النفخة الإلهية تميز، واستخلف في الأرض وأودع الاستعداد للاتصال بالملأ الأعلى. فلا مجال للاعتراض على بشرية الرسل إذا أدركنا سنة الله في الرسالات، ومكانة الإنسان في ميزان الله جل جلاله.

ومن خلال اعتراضهم على بشرية الرسول نجد أن لهم قيما معينة ينطلقون منها، ففي تصورهم أن يكون الرسول مستغنيا عن الطعام والشراب، وإن احتاج إليهما فينبغي أن يكون مكفيا عن ذلك بأتباعه فلا يحتاج للمشي في الأسواق للتكسب والسعي على الرزق.

أو يلقى عليه كنز من السماء، فينفق على نفسه وأتباعه لتظهر لهم المزية على غيرهم، فإن لم يكن شيء مما تقدم فلا أقل من جنة(بستان من نخيل وأعناب) يأكل منها. وإن احتاج إلى حماية ونصرة مثلا نزل ملك ليكون نذيرا على معانديه يخوفهم من البطش بهم.

وكل ما اقترحوه أمور مادية منبثقة من قيمهم المادية التي يزنون بها الرجال، فمنتهى نظرهم أن يكون المرء في هذه الحياة وافر المال كثير الأتباع، أما الكمالات النفسية والسمو الروحي والخلقي فلا وجود لها في موازينهم، هذا ما قاله بنو إسرائيل من قبل ﴿ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وقالت قريش﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١].

وإذا لم تتحقق في الرسل مواصفاتهم، فليبحثوا عن سبب دفعه إلى هذه المقولة، وعرض نفسه للصدام مع القوم وقد كان في غنى عن ذلك. في تصورهم لا يقدم على هذا الفعل إلا رجل فقد عقله أو غلب عليه فهو يهرف بما لا يعرف ويقول ما لا يعقل.

﴿ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

إنه لعجب حال هؤلاء القوم، كانوا يصفون محمدا قبل البعثة بالصادق الأمين ولم يجربوا عليه كذبا، ولم يعرفوا عنه طيشا في التصرفات ولم يلحظوا عليه انحرافا في السلوك. ولكنهم

اليوم تاهوا واحتاروا في اختيار الأوصاف والألقاب السيئة لإلصاقها بجنابه الكريم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. لا تستند على حقيقة معقولة ولا على سبب وجيه. وإنما تبرير لبقائهم على معهودات الآباء والأعراف التي نشأوا عليها.

لذا جاء الاستغراب من مقولاتهم هذه ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٩].

ويأتي الرد مجملا لينتقل إلى البيان الدامغ الحقيقي لمقولتهم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٠-١١].

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

الحديث في هذا المقطع عن الشبهات التي أثارها القوم على رسول الله ﷺ يعد الشق الثاني من المحور، فالمحور كما بيناه يدور حول الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن. فالمناسبة واضحة لا تحتاج إلى بيان.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني:

* القيم والموازين الربانية مختلفة عن موازين أهل الدنيا فالإصطفاء الرباني لرسله يكون للكمالات الروحية والخلقية، أما المقاييس البشرية فتعتمد على كثرة المال والأتباع والمنصب والجاه.

* مشروعية دخول الأسواق للكسب للأنبياء وأتباعهم، ولا يؤثر ذلك على مكانتهم الرفيعة بل هم قدوة للناس في الكسب الحلال وأداء الأمانة وتطبيق أحكام الله في المعاملات.

* الاتهامات الباطلة لا تؤثر على أهل الحكمة والصلاح والحصافة والعقل لأن واقعهم يكذب تلك الاتهامات والافتراءات، ولا تحتاج إلى جواب لذا جاء الرد الإلهي﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾الفرقان/ ٩.

* أراد الله سبحانه وتعالى لأنبيائه الذكرى الخالدة بمآثرهم الخلقية وعطائهم الثر للبشرية. ليكونوا قدوة الأجيال إلى يوم القيامة.

المقطع الثالث

الدوافع الحقيقية وراء تكذيبهم

قال تعالى﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان: ١١- ١٩].

المناسبة بين المقطع الثالث وما قبله:

تقدم في المقطع السابق الحديث عن شبهاتهم حول الرسول ﷺ، ثم انتقل في هذا المقطع إلى الحديث عن السبب الحقيقي لتكذيبهم، فإن تكذيبهم لرسول الله ﷺ ودعوته مبني على إنكار الساعة. وجاء تقرير الساعة مفصلا بسرد وقائع تقع بعد قيام الساعة إمعانا في التقرير والتوضيح فكأن وقوع الساعة والبعث بعد الموت أمر مفروغ منه، ولكن قد يلتبس عليهم صور أهل الشقاء، فجاء ذكر مصير المكذبين بالساعة والسعير المتقد عليهم...

المعنى الإجمالي للمقطع:

إن الدافع الحقيقي للمشركين إلى تكذيب الرسول ﷺ وإثارة الشبهات حوله هو إنكارهم قيام الساعة، لأن قيام الساعة يعني هدم ملذاتهم وتنغيص متعهم الهابطة، ولأن البعث بعد الموت يعني محاسبتهم على جرائرهم في الحياة الدنيا.

ولم تورد الآيات الكريمة الأدلة العقلية على قيام الساعة- كما جاءت في سياق آخر-وإنما

ذكر جزاء من يكذب بها، فالنار المستعرة مهيأة معدة لهم، إذا ظهرت للناظر وكانت على مرأى منهم سمعوا الدوي الهائل الذي يدور في جنباتها تكاد تميز من الغيظ من أقوال المجرمين وأفعالهم ومواقفهم من رسل الله ورسالاتهم، كلما اقترب منها فوج شهقت لتجذبهم إلى جوفها. وزفرت لتنفس عما في جوفها من الغيظ. إنه لمنظر رهيب ومصير تعيس ليس منه مفر فهم يساقون إليها سوقا يجرون إليها بالسلاسل مقرنين بالأصفاد، يكبون فيها على وجوههم ومناخرهم، تتعاظم أجسادهم لتتسع دائرة مس العذاب حتى يكون ضرس أحدهم مثل جبل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث[1]، ويضيق عليهم المكان حتى يكون كالزج للرمح، وفوق كل ذلك قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأصفاد والأغلال، فليس لديهم إلا الدعاء بالويل والثبور على أنفسهم...

وحسب عادة القرآن في التزاوج بين الترهيب والترغيب، والإنذار والبشارة جاء ذكر ما ينتظر المؤمنين المتقين من النعيم المخلد بعد ذكر ما أعد للأشقياء التعساء المكذبين بالساعة.

ويأتي ذلك في صيغة الاستفهام للتوبيخ والتقريع، ولما كان الدافع الحقيقي للمشركين في التكذيب بالساعة هو تعلقهم بمتعهم الدنيوية ورغبتهم في الاستمرار عليها، والإيمان بالساعة معناه انتهاؤهم وزوالهم عنها، جاء التأكيد على الخلود في مثوبة المتقين، فالجنة خالدة ولا تزول ولا تنتهي ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان: ١٥]. ولقطع دابر الظن أو توهم زوالهم عنها جاء التأكيد على خلودهم فيها ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾ [الفرقان: ١٦]. وذاك وعد من الله عز وجل قطعه على نفسه ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١٦]. وبعد عرض تلك الصور المتقابلة لشقاء التعساء، ونعيم السعداء، يتجه السياق إلى تحديد المسؤوليات في الحياة الدنيا عن إضلال الضالين الناكبين عن طريق الحق.

---

(١) انظر في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه. باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٨/ ١٥٤.

وتعرض الصورة الجديدة وقد حضر العابدون ومعبودوهم، كل عابد وما عبد من دون الله، يقفون في صعيد واحد، ويوجه السؤال إلى المعبودين سواء كانوا على علم بعبادة هؤلاء لهم أم لم يكونوا عالمين ولا راضين ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

وبدهي في هذا اليوم قول الحق والصدق. فلا مجال للإنكار أو الإخفاء، فأما المعبودون من دون الله من الذين لم يرضوا بعبادة الناس لهم كالملائكة والأنبياء والصالحين، والمخلوقات التي ليس من شأنها النطق في الحياة الدنيا كالكواكب والأشجار والحجارة فتقول ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾الفرقان/ ١٨. ننزهك ونقدسك عن سفه السفهاء وجهل الجهلاء، وإننا كنا في حياتنا الدنيا نعبدك ونثني عليك الخير كله، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، فكيف نتخذ من دونك أولياء، وكيف ندعو الناس إلى عبادتنا ونحن مشفقون من هذا اليوم (إننا نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاول؟)[1].

وإلى جانب توجيه الخطاب العام للمعبودين عامة يخص بعض الأجناس والأفراد بخطاب خاص فمن الذين عبدوا من دون الله الملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤٢].

وممن عبد من دون الله عيسى عليه السلام فيوجه له الخطاب﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨/ ٣٣٩.

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

أما الذين رضوا بعبادة العباد لهم فلهم شأن آخر، حيث يتبرأ كل فريق من الآخر ويحمله المسؤولية ويفصل بينهم فاصل من الكره والبغض ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥٢]. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت: ٢٩].

إنها صورة من الخذلان والندم والحسرة ولكنها لا تنفع أصحابها يومئذ لأنهم في الدنيا كانوا في بطرهم واستمتاعهم بملذاتهم الهابطة، وقلبوا منح الله لهم ورغد العيش إلى وسائل للبغي والطغيان والأشر والبطر﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴾الفرقان/ ١٨. فاستحقوا بصنيعهم هذا الهلاك والبوار لأن نفوسهم خلت من الخير وأصبحت قلوبهم قاسية وعقولهم مظلمة كالأرض البور والصحراء القاحلة.

ويعود السياق مرة أخرى إلى تبكيت الضالين مرة أخرى، كيف كنتم تحملون هؤلاء المعبودين مسؤولية ضلالكم؟ هاهم قد كذبوكم في قولكم، ولم يأمروكم بشيء مما نسبتم إليهم فما التوجيه عندكم عما كنتم عليه من ضلال، وما المعدل والمصرف الذي يصرفكم عن المصير المحتوم ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف:٥٣]. إنه العذاب الكبير للظالمين الذين اتخذوا من دون الله آلهة، وكذبوا بكتابه وعادوا رسوله، ولم يرفعوا لدعوة الحق رأسا ولم يلقوا لنداء الله أذنا صاغية.

المناسبة بين المقطع الثالث والمحور:

في هذا المقطع نوع من الاستطراد بذكر ما يجري للمكذبين عند قيام الساعة التي كذبوا بها، وكان إنكارها الدافع الحقيقي لإثارة الشبهات حول القرآن المنزل والرسول المبلِّغ، فإثارة الشبهات من باب ذر الرماد في العيون وإخفاء الدافع الحقيقي للتكذيب.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث:

* الدافع الحقيقي لتكذيب المشركين بالرسالة والنبوة هو إنكار يوم القيامة، لعدم رغبتهم في تصور زوال متعهم وملذاتهم في الحياة الدنيا، ومحاسبتهم عليها يوم القيامة. لذا كان رسول الله ﷺ يقول(أكثروا من ذكر هادم اللذات)[1] أي الموت، حتى لا تطمئن النفس إلى هذه الحياة فتتقاعس عن العمل للآخرة.

* الروابط والعلائق بين أصحاب المصالح الدنيوية، وبين الأتباع وبين المتبوعين تنقطع ويعادي بعضهم بعضا يوم القيامة إلا المتقين ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فلا رابطة يوم القيامة إلا رابطة الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

* الجنة والنار مخلوقتان موجودتان، ففي الجنة النعيم الخالد والمسرات الدائمة وفيها ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي النار عذاب أليم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. يصب من فوق رؤوسهم العذاب ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين يتمنون الموت للخلاص من شدة العذاب. فلا يحصل لهم.

* وعد الله سبحانه وتعالى المتقين بالخلود في دار النعيم ووعد الله محقق، وقد أوجبه على

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد. أو ذكر رقم الحديث ٢٤٦٠ والنسائي في الجنائز أو ذكر رقم الحديث والإمام أحمد في مسنده٢/ ٢٩٣.

نفسه تفضلاً وتكرماً. وعلم عباده الدعاء بذلك ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾[آل عمران: ١٩٤]. ولقن الملائكة هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[غافر: ٨].

المقطع الرابع

سنة الله في اختيار المرسلين

وعادة المكذبين المستكبرين

قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفرقان: ٢٠ -٢٩].

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

ذكر في المقطع السابق الدافع الحقيقي لتكذيبهم القرآن الكريم ومعاداتهم رسول الله ﷺ واستطرد إلى ما ينتظرهم يوم القيامة من التوبيخ وإقامة الحجة عليهم والعذاب المهين. عاد السياق في هذا المقطع إلى رد شبهتهم مباشرة ببيان سنة الله في المرسلين. ثم استطرد السياق إلى بيان عتوهم واستكبارهم وتماديهم في طلب الخوارق بإنزال الملائكة أو رؤية الله سبحانه، وتبين أن رؤيتهم الملائكة يعني وقوع القيامة ولا يدرون ماذا ينتظر المجرمين أمثالهم حين يتغير نظام

الكون وتنزل الملائكة حيث يتبرأ الطغاة بعضهم من بعض، وهم يعضون أصابع الندم على فوات الإيمان بالرسول وصحبته.

المعنى الإجمالي للمقطع:

يوجه الخطاب لرسول الله ﷺ، أن لا يلتفت إلى اعتراضات القوم وشبهاتهم، فإن سنة الله سبحانه وتعالى جارية عليه وعلى قومه، فكل من اصطفاه الله جل وعلا لرسالته ابتلي بهذا التكليف وابتلي قومه به.﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

إن هذه الدار دار ابتلاء وفتنة، فإن رسول الله ﷺ فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به، وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان بالدين الذي يسويهم بهم، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأضرابهم يعلمون: إن أسلموا وقد أسلم قبلهم عمار بن ياسر وصهيب وبلال فإن السابقة لأولئك. وكانوا يعرضون على رسول الله ﷺ إبعادهم عن مجلسه حتى لا يعيروا بهم إن جلسوا في مجلس كانوا فيه. فكان الرد الحاسم لمطالبهم وأطماعهم ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢- ٥٣].

لقد أعمى العناد والكبر منافذ النور إلى قلوبهم الخاوية، فلا يدرون سنن الله في هذه الحياة الدنيا ولا يعرفون الممكن من غير الممكن، ولا يدركون عواقب الأمور وما يترتب على مطالبهم، يطلبون إنزال الملائكة عليهم، والملائكة لا تنزل على الأرض إلا بمهمة، إما التأييد والنصرة لأولياء الله، أو إنزال العذاب على أعداء الله.

وهؤلاء القوم يعرفون أنفسهم فليسوا بأولياء الله، فنزول الملائكة عليهم ليس في صالحهم.

وطلبوا ثانية أن يروا ربهم، وهذا الطلب نابع عن جهلهم بالنبوات والرسالات، فقد

طلب بعض بني إسرائيل هذا الطلب، فقد جاء على لسانهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥]. إنهم سيرون الملائكة يوم القيامة، ولكنها رؤية تسوؤهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، فلا بشرى يومئذ للمجرمين، ويبحثون عن ملجأ ومجير ولا ملجأ ولا محجر، ويقولون عوذا معيذا[1]. أما اغترارهم ببعض ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من إطعام الطعام وإقراء الضيف وسدانة الكعبة وخدمة الحجيج، فقد عوضوا عنها في حياتهم الدنيا بالصحة والجاه والأمن في الديار. فلا وجود لها في الآخرة، أما أصحاب التوحيد والعمل الصالح، فهم آمنون مستقرون في أحسن هيئة وفي خير مقام وأفضل مقيل. فإن مالك الملك المتفرد فيه قرب أهل التوحيد في هذا اليوم وأكرمهم. وأبعد أهل الشقاء وأهانهم، فتراهم في هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٨]. في هذا اليوم تأكل الحسرة قلوبهم، يعض أحدهم على يديه ندما وحسرة على الفرصة التي واتته ففاتته فلم يتبع سبيل الرسول، لقد كان قرناء السوء يوغرون صدره على الرسول ﷺ ويحولون بينه وبين نور القرآن، فأين هم الآن ؟ لقد تخلوا عنه، ليته لم يتخذهم أخلاء ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بالمحور لأنه تناول في بدايته سنة الله في إرسال الرسل وكونهم من البشر يعيشون كأي واحد منهم في المأكل والمشرب والسعي على الرزق، وتعرض في أوسطه لما ينتظرهم يوم القيامة نتيجة استكبارهم على دعوة الحق، وفي آخر المقطع ذكر ندمهم على فوات إيمانهم وصحبتهم للرسول الذي كذبوا به. وكما قلنا فإن الحديث عن تصديق الرسول من خلال معجزة القرآن هو محور السورة.

---

(١) قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: حجرا محجورا، أي حرام قتلي، وهي عوذة. انظر التحرير والتنوير: ١٩/ ٧.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع:

* سنة الله سبحانه وتعالى في الأنبياء والمرسلين واختيارهم من البشر لتتحقق الحكمة من بعثتهم وكونهم يأكلون ويشربون ويتكسبون في الأسواق لا يتنافى مع مكانتهم عند الله وكونهم من خير البشر، فامتيازهم عن غيرهم في الاتصاف بالكمالات النفسية والخلقية.

* الدنيا دار ابتلاء وامتحان لكل الناس، فالأنبياء والمرسلون مكلفون بأداء رسالات ربهم فهم مبتلون بها، والأمم مكلفة بالإيمان بهم مبتلية بهم، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم... وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك...)[1]. وكذلك الابتلاء والفتنة لسائر الناس فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، فعلى كل واحد أن يتقي الله ويصبر على الحق ولا يحسد غيره ولا يسخر منه، والله بصير بهم جميعا.

* الجاحد المعاند يتفنن في مطالبه لتبرير موقفه على ما هو عليه من الكفر، ولو أعطي كل طلب لم يكن ليغير موقفه، لأنه يريد التعجيز لا الوصول إلى الحق، كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١].

* لا ينتفع الكافر بأعمال البر التي عملها كإكرام الضيف والإنفاق على الفقراء والمساكين وغيرها في الآخرة لافتقارها إلى الشرطين الأساسين: الإخلاص فيها لله تعالى ومتابعة شرع الله سبحانه وتعالى ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١١]. وهؤلاء لم يتوفر فيهم شرط الدخول إلى حظيرة الإيمان وهو كلمة التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكن الله يعوضهم في الدنيا بالصحة والجاه والغنى أما

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة والنار، ١٧/ ١٩٦. المطبعة المصرية بالأزهر، ط١ ١٣٤٩ هـ.

في الآخرة ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

* تتجلى الحقائق يوم القيامة، يستبشر المؤمنون بإيمانهم ويسعدون بأعمالهم في مقام صدق عند مليك مقتدر. أما الكافرون المعاندون، فتأكل الحسرة قلوبهم ويندمون ولات ساعة مندم. يترك الصديق صديقه وتحل العداوة والكره والبغض بين الأخلاء لأن كل علاقة مقطوعة وكل رابطة مبتورة إلا ما كان مبنيا على الإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح.

المقطع الخامس

شكوى رسول الله ﷺ من تصرفات القوم وتسليته عن ذلك

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠-٤٠].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

ذكر في المقطع السابق بيان المصير السيء الذي ينتظر المكذبين بالرسول ورسالته يوم القيامة حيث يتخلى الأخلاء عن بعضهم وتناكر القرناء وندموا حيث لا ينفع الندم، جاء الحديث هنا عن شكوى رسول الله ﷺ من هجرانهم للقرآن وعدم تدبره، واقتراحاتهم وشبهاتهم كما جاء

تسلية رسول الله ﷺ في ذلك بذكر سنة الله في جملة من الأنبياء مع أقوامهم والمآل السيء الذي ينتظر هؤلاء كما كان لأولئك.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال المشركون:إن كان محمد كما زعم نبيا، فلم يعذبه ربه، ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فينزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[1].

المعنى الإجمالي للمقطع:

بعد إلقاء القوم شبهاتهم على شخص رسول الله ﷺ، هجروا ما جاءهم به من الهدى والبينات ولا شيء يؤثر في نفس الصادق عندما يرى إعراض الناس عن الصدق، وإتباعهم الباطل والكذب. ولا ألم أشد على نفس المصلح عندما يرى قومه يتركون ما فيه سعادتهم وعزهم وفلاحهم ويتمسكون بما يعود عليهم بالفساد والهلاك والدمار.

فشكاهم رسول الله ﷺ إلى ربه، إنهم هجروا القرآن:

- بترك الاستماع إليه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].
- وهجروه بالإعراض عنه إذا طرق سمعهم من غير إرادة منهم﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية: ٧- ٨].
- وهجروا القرآن حيث استبدلوا به لهو الحديث من لغو القول السيء ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم برقم (١٥٩٢٢).

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان:٦- ٧]. كانوا يقصدون من كل ذلك الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن من رسول الله ﷺ ولحملهم على عداوته.

فجاءت تسلية رسول الله ﷺ ومواساته من رب العزة والجلال أن ذلك سنة الله في الرسالات والأقوام وللرسول أسوة بإخوانه المرسلين ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وإمعانا منهم في هجر القرآن حاولوا إثارة الشكوك والشبهات حوله،﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]. فقد سمعوا أن التوراة كتبت لموسى عليه السلام في الألواح، فلماذا ينزل القرآن منجما مفرقا الخمس والعشر في أوقات متباينة ؟!

ويأتي الرد القرآني على مقترحهم المشبوه ببيان الحكمة في نزوله مفرقاً فمن هذه الحكم.

الحكمة الأولى: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ويكون هذا التثبت في صور:

١- إن القرآن نزل على أمة أمية أنا جيلها في صدورها. ونزوله جملة واحدة يصعب حفظه واستيعابه.

٢- لو نزل جملة واحدة ثم انقطع الوحي لأدى إلى دخول اليأس والملل إلى القلوب، أما تجدد الاتصال والتتابع يسكن القلب بأن ربه ما قلاه ولا ودعه.

٣- إن تكرار نزول الملك بالوحي ينشرح له صدر النبي ﷺ ويتلذذ بهذا العالم الروحي. قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزل قوله تعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾[1] [مريم: ٦٤].

٤- اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون تربية هذه الأمة بالتدريج، وذلك من لطف الله سبحانه وتعالى بها، فجاء تشريع بعض الأحكام ثم نسخها إلى الأخف للتيسير، أو إلى الأثقل لمضاعفة الثواب، أو المماثل للابتلاء. ونزول القرآن جملة لا يتناسب مع هذه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم ٥/ ٢٣٧.

المزية العظيمة.

٥- إن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل جملة واحدة، وفي إظهار الحجة عليهم تثبيت لقلب رسول الله ﷺ.

٦- لو لم ينزل القرآن منجما على حسب الحوادث والوقائع لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها، لتدخل الطمأنينة إلى قلب رسول الله ﷺ.

الحكمة الثانية: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والترتيل مأخوذ من الرتل، وهو التتابع في ترسل وتثبت مع التبيين، ووجه الحكمة في ذلك أن الآيات أو السورة إذا نزلت عقب الحادثة أو تبعتها فإن ذلك أدعى إلى الفهم وأقوى لمعرفة دلالة الآيات ومضامينها وأرسخ في الذهن وأشد تأثيرا في النفس.

الحكمة الثالثة: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٣].

استفسارات القوم لا تنتهي، وتساؤلاتهم ليس لها حدود، وكلها من قبيل التعجيز وإثارة الشبهات وكلها تحتاج إلى جواب أو رد، فلو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لم يتمكن الرسول ﷺ من إجابتهم أو الرد عليهم في كل مرة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ فلا يأتون بحجة أو شبهة إلا أجابهم الله سبحانه وتعالى بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأفصح من مقالتهم. وهذا الاقتراح أو التساؤل هل هو آخر ما أوردوه عن القرآن وعن الرسول، فقد تقدم جملة من تساؤلاتهم التي نمّقوها ورصفوا ألفاظها فأشبهت الأمثال في غرابتها:

-﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.

- ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

-﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾.

-﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾.

-﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ ﴾.

-﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾.

لقد قصدوا بهذه الأمور إفحام رسول الله وابتغاء إظهار حاله أنها لا تشبه حال الرسل السابقين، لكن الله قذف بالحق على باطلهم فأزهقه، وجاء رسوله بالصواب وما هو الحق في الاستدلال فبرز أمر رسول الله ﷺ لكل ذي بصيرة.

لقد أرادوا بمقولاتهم تلك الغض من شأن رسول الله ﷺ، فانعكس الأمر عليهم فكانوا خاسئين في الدنيا ويحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم فكانوا شر الناس وأضلهم سبيلا[١]. وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ونصرة له، ووعيد للمشركين وذم لهم.

وفي أكثر من موضع في القرآن الكريم يذكر حشر المناوئين لرسول الله ﷺ الجاحدين لدعوتهم المعاجزين في طلباتهم على وجوههم، فكأنهم يريدون قلب الحقائق والظهور بمظهر مخادع، والجزاء من جنس العمل فيكون حشرهم يوم القيامة فبه قلب لأوضاعهم، كما جاء في سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ﴾[الإسراء: ٩٤-٩٧].

---

(١) في صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﵁، أن رجلا قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة! قال: أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. كتاب التفسير ٦/ ١٤.

ثم ذكرهم بمصير أقوام سبقوهم إلى تكذيب أنبيائهم ورد رسالاتهم، والعاقل يأخذ العبرة من غيره، وأورد في السياق جوانب من قصصهم فيها تعريض بقريش:

أولا: ففي قصة موسى عليه السلام:

أ- ذكر الكتاب الذي أنزل عليه إن هو إلا وحي أوحي إليه من ربه، فجمع في كتاب.

ب- وفي ذكر هارون مع موسى تعريض بالرد على المشركين إذ قالوا﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾فإن موسى عليه السلام لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله من البشر.

ج- في وصف القوم الذين كذبوا بآياتنا اختزال للقصة واقتصار على ذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود للوصول إلى الغاية وهو استحقاق المكذبين التدمير بتكذيبهم رسلهم وفيه تعريض بقريش لموقفهم من رسول الله ﷺ.

ثانيا: وفي قصة نوح عليه السلام:

أ- جاء التأكيد على القوم بأسلوب الاشتغال[1]، لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.

ب- في قوله تعالى﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾تعريض بأمرين وقعت فيهما قريش في مجيء(لما)الظرفية إفادة سرعة وقوع الجزاء بمجرد وجود السبب، فما أن وجد التكذيب وجد الإغراق.

وفي مجيء كلمة(الرسل)بصيغة الجمع وهم لم يكذبوا إلا رسولهم نوحا عليه السلام، لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لسائرهم جميعا، لأن دعوتهم واحدة وهو تعريض بقريش أيضا، لأنهم قالوا لرسولهم كما قالت قريش ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

(١) قوم: منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده تقديره(وأغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم).

﴿ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ج- في تذييل قصصهم بقوله ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾وهي قاعدة عامة تنطبق على كل ظالم ومنهم قريش الذين قالوا عن القرآن وعن الرسول ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

ثالثا: ثم أدمجت قصص أقوام ثلاثة كانوا بالقرب من ديار قريش جنوبا وشمالا وشرقا وهم من القبائل العربية المعروفة لقريش.

أ- فقبيلة عاد كانت تسكن الأحقاف جنوب الجزيرة العربية في حضرموت وما جاورها وأرسل إليهم نبي الله هود عليه السلام ﴿ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦].

ب- وقبيلة ثمود كانوا يسكنون الحجاز شمال الجزيرة العربية(مدائن صالح)، أرسل إليهم نبي الله صالح عليه السلام فكذبوه فأهلكوا بالصيحة الطاغية المزلزلة.

ج- وأما أصحاب الرس[1]: فكانوا يسكنون وسط الجزيرة العربية بوادي الرمة. كما قال زهير بن أبي سلمى:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للغم.

يقول المفسرون: كان نبيهم يسمى(حنظلة بن صفوان). قيل خسف بهم وقيل أخذتهم الزلزلة بعد أن قتلوا نبيهم، وقيل سدوا عليه باب البئر.

رابعا: وقرونا بين ذلك كثيرا:

التعبير بالقرون يدل على كثرتهم وامتدادهم عبر التاريخ لأن سنة الله تعالى ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]. ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. ولقد

---

(١) الرس: البئر غير المطوية (غير المبنية).

أهلكوا جميعا لتكذيبهم رسلهم.

خامسا: القرية التي أمطرت مطر السوء وهي قرية لوط، والعبرة بهم أبلغ لأنهم يمرون عليها في رحلة الصيف إلى بلاد الشام للتجارة ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

لقد ورد ذكر مصائر هؤلاء الأقوام الذين يحيطون بقريش وكانت قريش على علم بتاريخهم وأيامهم ليتفكروا في مآلهم، إن أولئك كما الحال مع قريش «كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لما نشؤوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل، لم يعنوا إلا بأسباب ووسائل العاجلة»[1].

إن ذكر كل هؤلاء ومصائرهم تحذير لقريش، وتسلية لرسول الله ﷺ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بالمحور لأن فيه رداً على شبهات المشركين وتحذير لهم بذكر مصير أقوام ارتكبوا صنيعهم في تكذيب أنبيائهم ورد ما أوحي عليهم.

كما أن اشتمال القرآن على هذه الأنباء عن الأنبياء السابقين وأممهم دليل على أن الله أوحى به إلى نبيه محمد ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

من فوائد ما يستنبط من المقطع الخامس:

* الوسيلة الفعالة في الدعوة إلى الإسلام هي القرآن الكريم، وأدرك الجاهليون قديما دور القرآن فهجروه بعدم الاستماع إليه، واللغو عند قراءته، وترك الإيمان به وصد الناس عنه، والدعوة

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/ ٣١.

إلى ترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والعدول عنه إلى أنظمة الجاهلية.

* كما أدرك الجاهليون المعاصرون دور القرآن في حياة المسلمين فقال قائلهم: لن يقر قرار للغرب في بلاد المسلمين ما دام القرآن في أيديهم، وما دامت الكعبة قبلتهم يتوجهون إليها خمس مرات في اليوم[١].

* شبهات أعداء الإسلام حول القرآن الكريم وحول الرسول الله ﷺ مستمرة منذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، وفي كل عصر يضيفون إلى افتراءات من تقدمهم من الجاهليين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف: ٨].

* منطق أهل الشرك واحد: إنكار الغيب، الاعتراض على بشرية الرسل، تكذيب ما جاء من عند الله(الكتب المنزلة)، إنكار البعث بعد الموت. هذا ما ظهر من قوم نوح ومن بعدهم إلى مشركي قريش وإلى يومنا هذا.

* سنة الله الغالبة تدمير المكذبين وإهلاكهم ونصر رسله وأنبيائه، إلا أن العذاب المستأصل لأمة الدعوة بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام أخره إلى يوم القيامة تكريما لرسول الله ﷺ كما أخبر القرآن بذلك ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فقد نصر رسوله على أعدائه من غير أن يستأصل الكافرين.

* أهل الحجا والنهى وأولوا الألباب الذين يأخذون العظة والعبر من غيرهم ويدرسون الأسباب التي أودت بالممالك والحضارات السابقة ودمرتها فيجتنبون مسالكهم، وطرائقهم في الحياة وإدارة شؤونهم.

---

(١) في كلمة لوزير المستعمرات البريطانية.

المقطع السادس

الاستهزاء والسخرية سلاح العاجز عن الحجة

قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤١-٤٤].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

- عودة من القوم إلى الطعن في الرسول ﷺ، وهذه المرة لم يجدوا ما يثيرون حوله من شبهات فلجأوا إلى السخرية والاستهزاء، وهو دليل إفلاس القوم وفراغهم الفكري والنفسي.
- والحكمة في تأخير ذكر استهزائهم برسول الله ﷺ - والله أعلم- تكريم رسول الله ﷺ فكأنه قيل: إذا كان القوم قد تطاولوا على الذات الإلهية فاتخذوا معه شركاء، واعترضوا على كلام الله المنزل وقالوا عنه أساطير الأولين واعترضوا على طريقة نزوله... فلا غرابة أن يستهزئوا برسول الله ﷺ، وقد انعكست عندهم القيم والمفاهيم فهم كالأنعام... وفي كل ذلك تطييب لقلب رسول الله ﷺ قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليه.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد تفنن المشركون في المطالب وتفننوا في إثارة الشبهات والاتهامات فلم يجدوا أثرا لتفننهم واتهاماتهم على المعجزة والرسول، ولم يصلوا إلى غايتهم في ثني رسول الله ﷺ عن المضي قدما في تبليغ رسالة ربه، لجأوا إلى السخرية والاستهزاء وهو علامة إفلاسهم الفكري، فلو وجدوا مسلكا في إثارة شبهة أو أسلوبا جدليا في الطعن لما ادخروا وسعاً في ذلك.

لقد ألقى الله الحق على باطلهم فأزهقه، وما أتوا بمثل إلا جاء الله بالحق وأحسن تفسيرا، فلم يبق أمامهم إلا الاستهزاء بالرسول والحط من شأنه لتنفير الناس منه وصرفهم عن دعوته،

هذا منطق الطغاة والعتاة عبر القرون، فقد قال فرعون قبلهم يخاطب قومه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقال أيضاً ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٢]. وهؤلاء يقولون عن رسول الله ﷺ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن عندما تزال الحجب وتتكشف الحقائق، يتميز الضلال عن الهدى ويبرز المصلح من المفسد وتوضع موازين الحق ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٢]. إن هؤلاء المشركين ليس لديهم أثارة من العلم المنقول يتبعونه في ضلالهم، وليس لهم أسلوب من التفكير السليم يوصلهم إلى ما يعتقدون، وليست عندهم حجة أو برهان من المحسوس يستندون إليها، إنهم يرددون كالبهائم شعارات جوفاء سمعوها من أسلافهم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠- ١٧١].

إن هؤلاء الذين أعطوا ملكة العقل والتفكير ثم عطلوها واتبعوا أهواءهم، أضل سبيلا من البهائم التي لم تستخدم ما وهبها الله في غير ما خلقت له، والبهيمة تقدّر من أحسن إليها فلا تؤذيه، والبهيمة لم تتخذ مع الله إلها آخر بل تسبح الله وتحمده ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩- ٥٠]. لقد استحق المستهزئون هذا التحقير والعلة واضحة والحكمة ظاهرة، أما استهزاؤهم برسول الله ﷺ ومحاولة الحط من شأنه فهو جائر ظالم لا مبرر له.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

لقد اشتمل المقطع على دفع شبهة وطعن في رسول الله ﷺ حيث استخدم المشركون أسلوب السخرية والاستهزاء للحط من شأنه، فرد الله كيدهم في نحرهم، وبين أنهم المستحقون له لانحطاطهم إلى دركات الجهل والبهائم العجماوات، وهذا الدفاع من صلب محور السورة حيث لا يبرز صدقه ولا تظهر مكانته إلا إذا أزيح ركام الباطل وقتم الأراجيف عن شخصيته النبيلة الطاهرة.

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* أهل الشرك والضلال والباطل يحاولون تبرير مواقفهم والبقاء على ما هم عليه بشتى الوسائل والأساليب، باتهام خصومهم بالضلال وإثارة الشبهات حولهم والتهكم والاستهزاء بهم لإقناع أنفسهم بسلامة مواقفهم... وأنى لهم ذلك ؟.
* إن الذي لا يستخدم ما وهبه الله سبحانه وتعالى من المزايا والمواهب والإمكانات فيما خلقت له أسوأ حالا من الأنعام التي تنحصر حركاتها على ردود الأفعال الانعكاسية للغرائز المودعة فيها. لذا لا حساب ولا عقوبة على الأنعام في الآخرة. أما الكافر فعليه الحساب والجزاء جراء ما اقترفت يداه من الآثام والموبقات.
* لم يعبد إله في الأرض كالهوى، فلا دليل من النقل ولا حجة من العقل تؤيد عبادة غير الله سبحانه وتعالى، وإنما اتباع الهوى، لذا كان متبعوا الهوى أضل من البهائم حيث منحوا العقل للتفكير في الحال والمآل، فلم يفكروا إلا في شهواتهم العاجلة الفانية.

المقطع السابع

من دلائل النبوة، الحقائق الكونية التي وردت على لسان الأمي

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٥-٥٥].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد الحكم على القوم في المقطع السابق أن لا سبيل لإفهامهم ولا رجاء في اهتدائهم عن طريق المحاكمات العقلية، جاء في هذا المقطع جملة من الظواهر الكونية المحسوسة، لعلها تثير فيهم التأمل والتدبر، فإن هذه الظواهر تدل على النظام في الكون، والإرادة المدبرة لشؤونه، ولا يمكن أن تكون صدفة عمياء أوجدت هذا النظام الكوني الدقيق الذي يحقق مصالح المخلوقات في هذا الكون...

إن تدبر المشاهد المحسوسة في الكون سبيل للتفكير فيما وراء المحسوسات من عالم الغيب فإن المحسوسات طريق إلى المعقولات، وهي طريق للإيمان بعالم الغيب.

وهذا المقطع تفصيل لقوله تعالى ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦].

تمهيد بين يدي البحث في الآيات الكونية :

كثر الحديث في عصرنا عن ما يسمونه التفسير العلمي والإعجاز العلمي في الآيات الكونية. وانزلقت أقدام بعض الباحثين نتيجة اندفاعهم وراء المكتشفات الحديثة وحاولوا ليّ أعناق النصوص الكريمة وتحميلها ما لا تحتمل من التفسيرات لمسايرة التطور الفكري والصناعي. وكان في المقابل ردود أفعال عند بعضهم مما جعلهم يديرون ظهورهم للحقائق القرآنية التي وردت الإشارات إليها في القرآن الكريم في الآفاق وفي الأنفس. ونذكر فيما يلي بعض الضوابط التي تعصم الباحثين من الزلل عند البحث في مثل هذه الآيات الكريمة:

أولاً: القرآن الكريم كتاب هداية، والإشارات التي وردت في آياته تنسجم مع هدف إخراج الإنسان من متاهات الضلال وظلمات الشرك إلى نور التوحيد، وتنبيه الغافلين إلى حكمة الله في مخلوقاته والتفكير في الحال والمآل. ولا ينبغي تفسير الآيات على وجه يخرج القرآن عن هذه المهمة.

ثانياً: أن يجعل الباحث الحقائق العلمية المسلم بها عند أهل الاختصاص مجال الاستشهاد بها وترجيح دلالات الآيات وأقوال المفسرين بعضها على بعض، ويبعد النظريات والفرضيات عن مجال البحث والترجيح. وذلك تنزيها للنصوص الكريمة من تطرق احتمال الشك والغش في دلالاتها.

ثالثا: عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة العلمية الواحدة

إن من إعجاز القرآن وأسرار خلوده أسلوبه المرن الذي يسع فهوم الأجيال المتعاقبة وخاصة في الآيات الكونية والسنن الاجتماعية، فلو برزت حقيقة علمية في عصر ما لا ينبغي قصر دلالة الآية عليها، بل تكون تلك الحقيقة أحد أوجه دلالة الآية، وتبقى مجالات أخرى تتسع دلالات الآية لها.

رابعا: استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية

إن الحقائق التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الكون، والحقائق التي أشار إليه القرآن

الكريم تخرج من مشكاة واحدة ومن مصدر واحد، فيستحيل التناقض بينهما ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾الفرقان/ ٦.

وإن توهم بعض الباحثين التناقض بينهما، فمرجعه إلى أحد أمرين:

- إما أن ما ظنه حقيقة علمية ليست كذلك وإنما هي نظرية، شاعت وانتشرت فتوهمها حقيقة علمية.

- وإما أن يكون فهمه للآية غير سديد لعدم رجوعه إلى دلالات الآية المختلفة، واقتصاره على وجه واحد منها، فكان هذا الوجه مرجوحا.

خامسا: ترك الإفراط والتفريط.

الالتزام بالمنهج الوسط عند البحث في الآيات الكونية فلا تحمل أكثر مما تحتمل ولا تلوى أعناق النصوص لتتسع دلالة معينة. كما لا ينبغي إهمال الإشارات الدقيقة إلى الحقائق العلمية التي وردت فيها، بل يتوجه الباحث حيث توجهه الآيات الكريمة إسهابا أو اختصارا.

ولا ينبغي أن توجهه قناعاته المسبقة حول قضية ما. فالقرآن هو الموجه وهو الهادي إلى المنهج الأمثل في البحث.

المعنى الإجمالي للمقطع:

اشتمل هذا المقطع على جولات في أرجاء الكون المنظور تخللها وقفات وتعقيبات للنظر والتدبر:

الجولة الأولى: (الظل والشمس).

امتداد الظل وتقلصه تبع لقرب الشمس من الأفق وابتعادها منه، وهي النظرة السطحية الظاهرة أما النظرة الاختصاصية فتقول إن ذلك تبع لدوران الأرض حول نفسها حيث يتولد الليل والنهار لمقابلة ضياء الشمس، فكلما دارت الأرض امتد النور لتتقلص ظلال الأجسام على الأرض.

ومن الجانب الآخر ليمتد الظل من جديد للأجسام، وحيثما كانت الشمس عمودية على

جسم فلا ظل له. بهذا الاختلاف في النظام توجد أسباب الحياة على الأرض، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا كما هو الحال في ظل القمر أو غيره من الكواكب التي تقابل الشمس بوجه واحد، فالوجه المقابل للضياء يحترق من الحر والوجه الآخر يتجمد من البرد، فنظام دوران الأرض وتعاقب الليل والنهار هو السبب في تهيئة الأرض للحياة.

أما القبض اليسير للظل فهو إشارة إلى اعتدال الكرة الأرضية عن محورها المائل بدرجة قدرها الفلكيون بـ٢٣° لينشأ اختلاف الفصول، واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا في الشتاء والصيف، وتساويهما في الخرف والربيع. يقول عز من قائل ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

الجولة الثانية: (الليل والنوم، النهار والنشور): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧].

هذه الظواهر الأربع آثار للظل والشمس، فإذا امتد الظل فغطى جانبا من الكرة الأرضية جاء الليل فغشي ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ [الليل: ١]. والساعة البيولوجية لدى الإنسان موزونة على ذلك فيدب الفتور والسكون إلى أنحاء الجسم فتهدأ الأعصاب وترتخي العضلات ويحدث النوم(الموت الأصغر كما عبر عنه القرآن) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]. ونوم الليل يحقق الراحة للجسم أكثر من نوم النهار في آي وقت آخر، وهو من التكامل في نظام الكون الذي تشكل حياة الإنسان ونظام عمله جزءا منه ﴿ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ: ٨- ١١]. كان من دعاء رسول الله ﷺ بعد قيامه من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما

أماتنا وإليه النشور»[١]. هذا النظام الكوني الدقيق تتكامل معه العادات والطبائع التي أودعها الله في النفس الإنسانية، فلا تصادم بين النظامين، بل انسجام وتآلف وتلاؤم.

الجولة الثالثة: (الرياح والمطر).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨- ٤٩].

ظهور السحب في الأفق وملامسة الرياح الرطبة للوجه، تدخل البشر والسرور إلى نفوس الناس وبخاصة من ترتبط حياته بالزراعة والماشية، لأن في ذلك بشائر المطر والخصب والفناء.

وعلاقة الرياح في تكوين السحب والتأليف بينها وسوقها إلى مساقط المطر علاقة وطيدة وأساسية، وقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من هذه الحقائق وفي آيات عديدة منها:

- قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم:٤٨].

- وقوله عز وجل﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣].

ويقول جل جلاله ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢].

- ويقول تبارك اسمه ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن هذه الحقائق في الرياح والسحب والمطر وتكييف حرارة الأجواء لم يصل إليها الإنسان

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام: ٧/ ١٤٧.

إلا بعد تطور علم الأرصاد واستخدام الأجهزة الحديثة في هذه الدراسات، يقول المختصون (... عندما يتبخر الماء يمتص كمية من الحرارة من الجو المحيط في المناطق المدارية، فيعمل على تلطيف جوها، وعندما يتكاثف بخار الماء ويتحول إلى سحب وأمطار في المناطق الباردة، فإنه يعيد إلى الجو نفس الطاقة الحرارية التي اكتسبها عند تبخره من قبل. وبهذا يتم رفع درجة حرارة المناطق الباردة إلى حد ما، وكأن هذه الدورة تكييف إلهي مذهل جبار. ولا بد من استمرارها من أجل عدالة التوزيع الحراري على سطح الأرض). (١)

- الماء والحياة: يقول عز من قائل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨- ٤٩]. ويقول جل شأنه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. من الحقائق العلمية المسلم بها: حيث يوجد الماء ابحث عن الحياة.

وخاصية الطهارة والنظافة في الماء خاصية لا يشاركه شيء آخر فيها، فطهارة الأجسام ونظافة الهواء والأجواء والسهول والبطاح والجبال والوديان لا يكون إلا بالماء الطهور.

وإحياء البلد الميت، وسقيا البلاد والعباد والأنعام لا يكون إلا بالماء العذب الفرات ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر: ٩].

الجولة الرابعة: وقفة للتذكير والتعقيب.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٠ -٥٢].

---

(١) انظر الكون والإعجاز العلمي للقرآن/ للدكتور منصور حسب النبي ص١٩٠ ط دار الفكر العربي. ويقول المؤلف (إن المناطق المدارية على الأرض- حيث أشعة الشمس القوية- أشبه ما تكون بالغلاية في ماكينة التكييف، والمناطق الباردة أشبه ما تكون بالمكثفات فيها.

ذهب جمهور المفسرين إلى إعادة الضمير في (صرفناه)إلى الماء، ومعنى تصريف الماء جريانه في مسالك الأرض ووديانه، حيث تتحقق مصالح العباد بها بالإفادة منه في مجاري الأنهار وينابيعه من العيون والآبار، ومواطن تجمعه في البحيرات والغدران، ولكن أكثر الناس أشركوا بالله وقالوا إنما مطرنا بنوء كذا وكذا، ولم ينسبوا الفضل إلى الله تعالى. كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، ومؤمن بالكوكب». [1]

وذهب قلة من المفسرين إلى إعادة الضمير في(صرفناه) إلى القرآن، وإن لم يتقدم له ذكر ويعضد هذا القول سياق الآية حيث جاء بعدها(وجاهدهم به) [2]. كما يرجح هذا القول الاستعمال القرآني لكلمة(صرف) المشددة المسندة إلى الله تعالى، والتي تأتي بمعنى التحويل من حال إلى حال أو من وجه إلى وجه آخر[3]. كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء: ٤١] وقوله سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]، وغيرها كثير.

ووجوه تصريف القول في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، فمن ألوان التصريف: توجيه الخطاب إلى الفطرة الإنسانية، ومخاطبة العقول والقلوب بالحق الناصع والحجة المقنعة. ومنها الأسلوب البياني الذي يسيطر على المشاعر والعواطف بسحر البيان، ومنها ما يعرضه القرآن من مشاهد يوم القيامة ما تتفطر له القلوب ويهتز له كيان الإنسان ويقشعر له بدنه. ومن ألوان تصريف القول ما ورد فيه من قصص الغابرين الداعية إلى الاعتبار بما آلوا إليه. ومن ذلك ما

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١١/ ٤٩.

(٣) انظر مفردات الراغب ٤١٣، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢٩٢، مادة صرّف

ورد فيه من الحقائق الكونية المذهلة.

كل هذا من تصريف القول في القرآن وآياته، وهي من أنواع أسلحة الجهاد بالقرآن الكريم ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

الجولة الخامسة: البرزخ بين البحرين.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ظاهرة عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح من الظواهر التي أدركها الناس بأشكال وصور مختلفة:

- على شكل أنهار ضخمة تحت مياه المحيطات، أمكن رصدها من الجو.
- وجود ينابيع عذبة تحت ماء البحر في المياه الضحلة.
- في مصبات الأنهار الكبيرة في البحار حيث تتكون أحواض وحجر محجورة تمتاز بخاصيتها عن مياه النهر، ومياه البحر في الكائنات الحية، والنباتات والأملاح.

ويعلل المختصون هذا التمايز بين المياه العذبة والمياه المالحة بوجود ظاهرة(المط السطحي)أو قوة التوتر السطحي. الناشئة من اختلاف التجاذب بين جزيئات الماء العذب والمالح لاختلاف كثافتهما، فيبدو الحد الفاصل بينهما. «فسبحان من جعل بين العذب الفرات- النهر- وبين البحر الملح الأجاج برزخا مائيا- وهو الحاجز المائي المحيط بماء المصب- حبسا على كائناته الحية، ممنوعا عن الكائنات الحية الخاصة بالبحر والنهر»[1].

---

(١) من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار ص١٧ من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

الجولة السادسة: خلق الإنسان- النسب والصهر -

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٤].

خلق الجنين من ماء النطفة الأمشاج أغرب وأعقد من حال الكائنات الحية التي تخلق من ماء السماء، إن الخلية الواحدة من ماء الرجل والخلية الواحدة من ماء المرأة(البويضة) تحملان عناصر الوراثة للجنس كله، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة الإلهية من خلق واتجاه في طريق الإنسان.

فجعل هذا المخلوق ذكرا يتزوج فيولد له ويثبت النسب إليه، أو أنثى فتتزوج فيصاهر بها. وبوجود هذه القرابات من الأصهار- وهم أهل بيت المرأة بالنسبة للزوج- والأحماء- وهم أهل بيت الرجل بالنسبة للزوجة- تقوم العلاقات الاجتماعية. وتتلاحم وشائج الأرحام. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الجولة السابعة: تعقيب واستغراب.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٥].

يأتي التعقيب والاستغراب بعد هذه الجولات في الآفاق والنفس الإنسانية التي تدل على تفرد الله سبحانه وتعالى في الخلق والإبداع، وافتقار كل شيء من المخلوقات إليه، كيف يتخذ هؤلاء الكافرون من دون الله آلهة هي عاجزة عن جلب النفع لأنفسها ولعابديها أو دفع الضر عن أحد.

لكن الكافر الذي حجب العقل عن التفكير والفطرة عن الاشتياق لخالقها هو عدو للحق حرب على أولياء الله، فهو يحارب الله عندما يكذب بآياته، ويحارب رسول الله عندما يزعم أنه افترى هذا القرآن من عند نفسه ونسبه إلى ربه، وفي كل ذلك هو عون للشيطان يعلن العداوة لربه ولكتابه ولرسوله.

مناسبة المقطع السابع لمحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بمحور السورة، ففيه إبراز لوجوه من إعجاز القرآن الكريم من خلال سنن الله في الآفاق والأنفس. وقد جاءت هذه الحقائق الكونية على لسان النبي الأمي الذي لم يكن له عهد بها كما لم يكن للمشركين عهد بها.

إن ورود هذه الحقائق الضخمة في آيات القرآن الكريم دليل باهر على أن القرآن كلام الله المنزل من لدن العليم الخبير ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦].

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* من نعم الله العظمى بث دلائل قدرته في الكون، ولفت النظر إليها، ليتدبرها العقلاء ويؤمنون بالخالق جل وعلا عن قناعة، فيقومون بتوجيه العبادة والإخلاص فيها له وحده لا شريك له.
* المنهج القرآني في الاستدلال على الغيبيات البدء بالمحسوسات التي لها أثر في حياة الناس ومصالحهم ثم الترقي بهم للاستدلال من خلالها إلى خالقها ومدبر شؤونها ومسخرها لمصالح العباد. وقدرته على البعث بعد الموت للحساب والجزاء.
* ورود الحقائق الكونية في آيات القرآن الكريم دليل باهر على مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من الذي يعلم السر في السماوات والأرض، لأن علم البشر على الرغم من تقدمه عاجز عن اكتناه الحقائق التي وردت فيه، فكيف يزعم الجاحدون المعاندون أن هذا القرآن افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون.
* الكافر المعاند، عدو للحق، عدو لنفسه، عدو لمصالحه. فإنه في صف عدوه مشاق لله ولرسوله. إنه نسي الله فأنساه نفسه، فهو حرب على الله ورسوله سلم لأعدائه. وهذه المشاقة والعداوة لا تنفعه لأن من يناصرهم ليس لهم من الأمر شيء في الدنيا والآخرة. ومآلهم جميعا إلى الله ليجازي كلا على ما قدم.

المقطع الثامن

مهمة الرسول ﷺ ومنهجه في دعوة المعاندين

قال تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٦- ٦٢].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد بيان الدلائل والبراهين الحسية والفعلية على إثبات وحدانية الله تعالى، وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ذكر ما يتعلق بمهمة الرسول ﷺ الرئيسية وهي البشارة والإنذار، وأن لا يحزن على إعراضهم عنه، وأن يفهمهم أنه غير طامع من دعوتهم أن يعتز باتباعهم إياه. [(١)]

المعنى الإجمالي للمقطع:

جاءت الآيات في هذا المقطع بنوع من التسلية لرسول الله ﷺ، لإصرار القوم على عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وتنكرهم للحق الذي جاء به الرسول ﷺ، لأن مهمة الرسول هي التبليغ- البشارة والإنذار- وليس مطالبا بهدايتهم وحملهم على الإيمان به وبرسالته، فهذا تحت مشيئة الله خالقهم، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [القصص: ٥٦]. ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦].

وبعد قصر مهمة الرسول ﷺ على البشارة والإنذار، عطف عليه الأمر بأن يذكرهم أنه لا

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/ ٥٧ بتصرف.

يبتغي بذلك منهم أجرا ولا مالا ولا جاها.

ولما كان الاستمرار في دعوة القوم إلى قوة دافعة وعزم قوي، جاء الأمر بأن يتوكل على الحي الذي لا يموت، الغني عن كل شيء، الذي لا يضام من توكل عليه، ولا يذل من والاه، وتسبيحه وتمجيده آناء الليل وأطراف النهار، وتنزيهه عما ألصق به الجاهلون السادرون في ضلالهم من صفات النقص والعجز، فإنه خبير بما ينسبون إليه، سميع بما يقولون عنه، عليم بدخائل نفوسهم العاتية وعقولهم الزائغة.

إن في جملة ما ينزه عنه الحي القيوم إضاعته من يتوكل عليه أو إنقاص أجره، وخذلانه من يستنصره وعجزه عن عقوبة من يكفر به ويكذب رسوله.

ومن مظاهر كمال قدرته وعظمته تفرده بخلق السماوات والأرض، ووضع نظامها، وبث المخلوقات فيها ووضع أقواتها وطاقاتها، وخلق السنن التي تسير بموجبها، كل ذلك في ستة أيام، فكيف يكفر بهذا الخالق العظيم وكيف يجحده الجاحدون ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

إن هؤلاء المعاندين لا يزالون على عنادهم- مهما أقيمت عليهم الحجج وبرزت لهم البينات وذكرت لهم صفات الجلال والكمال- فإذا طلب منهم الخضوع للرحمن بعد كل ما تقدم قالوا: وما الرحمن؟! مستغربين متجاهلين، واستهزؤا بمن دعاهم وغالطوا وقالوا: انظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن. وما أدركوا أن لله الأسماء الحسنى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

إن الرحمن قد سبقت رحمته غضبه، فهو يحسن إلى عباده في الدنيا كافرهم ومؤمنهم، فلا

يقطع عنهم الرزق والرعاية، وسخر للجميع السنن الكونية، وأطلق للجميع السعي للتعرف عليها وتسخيرها لمصالحه ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الإسراء: ٢٠].

ومن رحمته بعباده أن جعل في السماء بروجا، وخلق فيها السراج الوهاج والقمر المنير فتولد من خلق الشمس ووضع نظام المجموعة الشمسية وفق تلك البروج الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر، فهل من متدبر لدقائق صنع الله تعالى في هذه البروج والليل والنهار. فإن فيها الدلائل الباهرة على عظيم قدرة الخالق جل جلاله وواسع رحمته بعباده، مما يستوجب شكر المنعم على إنعامه ولطفه بعباده. (١)

مناسبة المقطع الثامن لمحور السورة:

محور السورة هو تصديق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن، وهذا المقطع يصب في إبراز مهمة الرسول ﷺ وهي البشارة والإنذار، من خلال تبليغ الناس رسالة ربه المتمثلة في القرآن الكريم، وأن لا يتطرق اليأس إلى قلبه بسبب عنادهم واستهزائهم به وبما جاءهم به من الحق. واتهامه بالرغبة في الزعامة عليهم أو جمع حطام الدنيا.

إن هذا المقطع رافد هام يصب في مجرى السورة وتيارها لإبراز شأن الرسالة وصدق الرسول في دعوته وصبره على الاستمرار في أداء مهمته.

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* هم الكافر ومبلغ علمه الحياة الدنيا وزينتها من المال والجاه والشهوات، لذا يتهمون

---

(١) يقول علماء الفلك: عدد البروج اثنا عشر برجا، وتنقسم إلى قسمين: شمالية تخص الربيع والصيف وجنوبية: تخص الخريف والشتاء. وبحلول الشمس في كل برج يختلف الزمان حرارة وبرودة، والليل والنهار طولا وقصرا. مما له الأثر الكبير في الحياة على الكرة الأرضية وسكانها. انظر روح المعاني للآلوسي ١٩/ ٤٠. بتصرف واختصار.

المصلحين في كل العصور بأنهم يريدون ذلك المتاع بدعوتهم، ولا ترتقي مداركهم إلى الأجر الأخروي الذي يرغبون فيه، وما عند الله خير وأبقى.

* على الدعاة إلى الله والمصلحين الذين يسعون إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أن يتوكلوا على الله سبحانه وتعالى حق التوكل مع اتخاذ الأسباب الظاهرة، وأن لا يتطرق اليأس إلى قلوبهم إذا قابلهم الجاحدون المعاندون بالتهم الباطلة، والاستهزاء والسخرية فإن العاقبة لهم، ولهم الأجر الوافر عند ربهم يوم القيامة.

* الله جل جلاله خالق كل شيء، يقول للشيء كن فيكون، إلا أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ليعلم الناس التثبت والتروي والتؤدة. وخلق العرش واستوى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته، وما على الجاهل إلا أن يسأل خبيرا بالله أو عالماً، ثم يتبعه ويقتدي به. (١)

* من لطف الله بعباده ورحمته بهم أن جعل في السماء بروجا للشمس ومنازل للقمر. وجعل الشمس ضياء والقمر نورا، وجعل الليل والنهار متعاقبين على الكرة الأرضية كل ذلك لتحقيق مصالح عباده. ففي الليل سكون وفي النهار حركة وسعي ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٣].

---

(١) انظر التفسير المنير للزحيلي، ١٩/ ٩٨.

المقطع التاسع (خاتمة السورة)

ثمرات الرسالة الربانية

قال تعالى﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾[الفرقان: ٦٣-٧٧].

المناسبة بين الخاتمة والمقطع السابق:

ذكر في المقطع السابق الكفار وعداوتهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وإصرارهم على إنكار استحقاق الرحمن للعبادة والخضوع، وذكر في خاتمة السورة ما يضاد الكفرة وصفاتهم. ليبين صفات الذين استجابوا لدعوة الحق وآمنوا بالرسول ﷺ. فهم ثمرة هذه الدعوة ونتاجها، وفي وصفهم بصفة العبودية المضافة إلى الرحمن تكريم وتشريف لهم، ورد وتحقير لمن أنكر الرحمن وأبى السجود له.

ووصف عباد الرحمن بخصال تتعلق بتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع الناس

ومعاملتهم لربهم جل جلاله. وهم المثل الحية الواقعية للفئة المؤمنة والأنموذج الذي يكونه الإسلام بمنهجه التربوي الخاص. وهم محل رعاية ربهم، ولولاهم ولولا تضرعهم إلى ربهم لم يعبأ الرحمن أن ينزل بأسه بأهل الأرض جميعا.

سبب نزول قوله تعالى﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: لما أنزلت في الفرقان﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الآية. قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت:﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾الآية[1].

المعنى الإجمالي للخاتمة:

ختمت سورة الفرقان- التي اشتملت مقاطعها على المنهج الرباني الذي نزل به القرآن والرسول الذي قام بتطبيق هذا المنهج وبلغه للناس ودعا إليه- ختمت بصفات عباد الرحمن، وهي شهادة ضمنية لرسول الله ﷺ بنجاح دعوته، ونجاح المنهج التربوي الذي دعا إليه من خلال تبليغ الفرقان.

فعباد الرحمن هم المثل الحية الواقعية التي أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوي الخاص وهم المستحقون لنزول الرحمة، ولولا وجودهم لم يعبأ الله عز وجل أن يأخذ أهل الأرض في طرفة عين.

واشتملت الآيات الكريمة في الخاتمة على اثنتي عشرة صفة من صفات عباد الرحمن وزعت على أربعة أقسام: القسم الأول: في تحليهم بالكمالات، والقسم الثاني: التخلي عن الضلالات، والقسم الثالث: الاستقامة على شرع الله، والقسم الرابع: تطلعهم إلى الزيادة من صلاح الحال.

وهذه الصفات الخلقية الاثنتي عشرة التي ذكرت لعباد الرحمن هي من أسس الأخلاق

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٤٧٦٥).

الإسلامية وهي ثمرة من ثمرات العقيدة الإسلامية والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك ومنهج حياة وهذه الأخلاق حسب ورودها في الآيات الكريمة هي:

- التواضع، الحلم، التهجد، الخوف من الله، ترك الإسراف والتقتير، البعد عن الشرك اجتناب القتل، النزاهة عن الزنى، التوبة، تجنب الكذب، قبول الموعظة، الابتهال إلى الله.

ويحسن أن نشرح كل صفة من هذه الصفات بإيجاز، لبيان أهميتها ومكانتها بين الأخلاق الإسلامية:

١- **التواضع**: خلق رفيع يزين أهل العلم والفضل والنسب والجاه، يزيدهم جمالا وبهاء وعزا على ما هم في.

فالمؤمن هين لين، يمشي بسكينة ووقار، لا يريد علوا في الأرض ولا فسادا، وقد تكرر الأمر بهذا الخلق في آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٧]. وكما جاء على لسان لقمان لابنه ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٨- ١٩].

٢- **الحلم**: إذا تعرض المؤمن لسفاهة الجهلاء لم يقابلهم بالمثل ولم ينزل إلى دركتهم، كما أخبر القرآن عنهم في آية أخرى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥]. وهو سلام متاركة وإعراض، لا سلام تحية وترحيب، لأن مجاراة السفهاء نوع من السفاهة والطيش.

٣- **التهجد ليلا**: بعد ذكر معاملتهم لأنفسهم ولغيرهم، ذكر تعاملهم مع خالقهم جل وعلا، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾وخص قيام الليل بالذكر لأنه أبعد عن الرياء، وأشد أثرا في تهذيب النفس كما أخبر المولى عن ذلك﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل: ٦].

٤- **الخوف من سوء المصير**: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾إن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فمع خشوعهم وقيامهم بالليل يخشون ربهم أن يردها عليهم، ويتهمون أنفسهم بعد أدائها على الوجه الأكمل بعدم صدق النية والإخلاص فيها لله تعالى. يقول عز من قائل ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. (قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل)[١].

٥- **الاعتدال في الإنفاق**: الإسلام دين العدل والوسطية في جميع شؤون الحياة، وقد وجه رب العزة والجلال رسوله ومن ورائه أمته بقوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وهذا الاعتدال يكون في الإنفاق على الملذات المباحة. أما في الأمور المطلوبة شرعا فلا يقال فيها سرف، قال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. وقالوا: لا سرف في الخير، ولا خير في السرف.[٢]

٦- **البعد عن الشرك**: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾. وكأن في ذكر هذه الكبائر في هذا السياق وبيان تنزه عباد الرحمن عنها تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من المكذبين بالقرآن والرسول الذي جاء به. والشرك بالله من أكبر الكبائر على الإطلاق. وقد صرح القرآن الكريم أن الذنوب جميعها تحت مشيئة الله تعالى إن لم يتب عنها المذنب، إن شاء غفرها وإن شاء عاقب عليها، إلا الشرك فلا تجاوز عن المشرك يقول جل جلاله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦]. عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تدعو لله ندا وهو خلقك.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٩.

(٢) التفسير المنير للزحيلي ١٩/ ١٠٨.

قال ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك». (١)

٧- **اجتناب القتل**:﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾: لقد حرم الإسلام قتل النفس وعصمها إلا في حالات حددها الإسلام بثلاث كما جاء في قول رسول الله:(لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث:الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) (٢). والحفاظ على النفس وعصمة الدماء من الكليات الخمس التي جاءت شرائع الإسلام للحفاظ عليها. وهي: الدين، النفس، العقل، العرض، المال.

٨- **النزاهة عن الزنى: (ولا يزنون).**

نظم الإسلام الغرائز لدى الفرد وهذبها، فلم يطلق لها العنان للإشباع، ولم يكبتها فيحرمها من نيل نصيبها من الاستمتاع، وإنما أشبعها بطريق منظم لتؤدي وظيفتها الإيجابية في الحياة. وعلى رأس هذه الغرائز غريزة الجنس فشرع النكاح وشرط له شروطا لضمان استمرار النسل البشري من غير اختلاط في الأنساب ليبقى المجتمع متماسك البنيان، سليما من الآفات والأمراض الناجمة من الفوضى الجنسية والانحرافات الخلقية.

ولقد سمى الله سبحانه وتعالى عقد الزواج ميثاقا غليظا يقول تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء:٢١]. ووضع للأعراض سياجا واقيا فمن تعرض لها بمقالة سوء فعليه أن يأتي بأربعة شهداء وإلا جلد على ظهره يقول عز من قائل﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الديات ٨/ ٣٤، صحيح مسلم: باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٦٣، الترمذي: كتاب التفسير ٥/ ١٧٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الديات ٨/ ٣٨، صحيح مسلم: باب ما يباح به دم المسلم٥/ ١٠٦.

ومن تجاوز الحدود ووقع في الفاحشة، فإن كان بكرا جلد مائة جلدة، وإن كان محصنا رجم بالحجارة حتى الموت. يقول تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور:٢]. ويقول رسول الله ﷺ (... والثيب بالثيب الرجم...)[١].

٩-التوبة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

من رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، فمن حسنت توبته وأخلص لله في عمله بعد التوبة، فإن الله يغفر ذنبه ويستر عليه، بل يبدل تلك السيئات حسنات. عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(إني لأعرف آخر أهل الجنة خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فقال له: عملت يوم كذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا: كذا وكذا وكذا، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول:يارب عملت أشياء لا أراها ههنا. قال فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه)[٢].

وجمهور المفسرين على أن لا تعارض بين آية الفرقان وهي مكية وآية سورة النساء وهي مدنية قوله تعالى﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣]. فإن سورة النساء مطلقة فتحمل على من لم يتب، أما آية سورة الفرقان فإنها مقيدة بالتوبة.

وقد جاء الحث على التوبة والاستغفار في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٤٥١١) بنحوه.

(٢) صحيح مسلم: باب آخر أهل النار خروجا ١/ ١٢١.

إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، ويقول رسول الله ﷺ: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه؛ من رجل كان في سفر في فلاة من الأرض، نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فأوى إلى ظل شجرة، فوضع رأسه فنام نومة تحتها، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، فأتى شرفا فصعد عليه فلم ير شيئا، ثم أتى آخر فأشرف فلم ير شيئا، حتى اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، رفع رأسه فإذا راحلته قائمة عنده، تجر خطامها، عليها زاده طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها، فالله أشد فرحا بتوبة المؤمن من فرحه براحلته وزاده»[1].

وتكرر النص على التوبة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فالاستثناء على التوبة من الشرك والقتل والزنى، أما هذا فلبيان حال من تاب من جميع المعاصي.

١٠ - **تجنب الكذب** (الترفع عن حضور مجالس الزور واللغو): ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

من أشد أنواع الكذب الزور، فأثر هذه الجريمة مضاعف لأن الأصل في الشهادة أن تكون عونا لإبراز الحق وإيصاله إلى صاحبه، فالميل بها عن حقيقتها تعطيل لها عن أداء دورها، والثانية يكون قد ساهم في إلحاق الظلم بآخرين، وتمكين أهل الباطل من تحقيق مآربهم، لذا اعتبرها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور

(١) صحيح البخاري كتاب الدعوات ٧/ ١٤٦، صحيح مسلم: باب في الحض على التوبة والفرح بها ٨/ ٩٢.

فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[1].

وذهب بعض المفسرين إلى أن الزور يعم كل باطل، وبهذا المعنى يكون من صفات عباد الرحمن عدم حضورهم مجالس الباطل، ولعل ذكر مرورهم كراما على اللغو يؤيد هذا التعميم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥].

إن الوقت رأس مال الإنسان، والمؤمن يضن أن ينفق رأس ماله فيها لا فائدة فيه، ومجالس اللغو أقل ما يقال فيها: إنها للثرثرة والعبث وضياع الوقت والغفلة...

١١- قبول المواعظ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾[الفرقان: ٧٣].

من شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء، فإذا سمع آيات الله تتلى، أو ذكره أحد الناصحين بآيات من كلام الله تعالى لم يردها عليه ؟ يفهم معناها مقدرا لما تهدي إليه، مقارنا حاله على ضوء هدايات الآيات، فإن كان في سلوكه أو فعله أو قوله خلل عدّله واستقام على الهداية.

كما أن آيات ربهم تشمل الآيات الكونية، التي يستدل من خلال التمعن فيها وأوضاعها وهيئاتها على النظام التام الذي يسود أجزاءه ومجراته ونجومه وكواكبه، ويستدل من خلال ذلك على الخالق المبدع، بخلاف الكافر الذي لا يهمه مما حوله إلا ما يوفر له اللذة الفانية والمتعة الدنيوية العابرة، فهو أصم وأعمى عن هدايات تلك الآيات ما كان منها وحيا، وما كان آية مرئية أو مسموعة مما يحيط به من حوله.

١٢- الابتهال إلى الله تعالى والدعاء له ولذريته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات. باب ما قيل في شهادة الزور٣/ ١٥٢. صحيح مسلم، باب الكبائر وأكبرها:١/ ٦٤

وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٖ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

من أصول العبادة الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والالتجاء إليه في كل شيء (فالدعاء مخ العبادة)[1]. والدعاء مطلوب في أمور الدنيا كما هو مطلوب في أمور الآخرة ومما يجمع به خيري الدنيا والآخرة الذرية الصالحة، فبهم تقر الأعين في الحياة الدنيا، وهم استمرار لعمل المرء بعد مماته وانقطاع عمله.

ففي الذرية الصالحة حياة مديدة للآباء والأمهات، وعمل صالح مستمر، يقول رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»[2]. لا شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى ولدا أو أخا أو حميما مطيعا لله.

والإمامة في الدين مرغوب فيها بموجب هذه الآية الكريمة، فدعاء عباد الرحمن لم يقتصر على طلب الذرية الصالحة التي تخلفه من بعده، بل يدعون أن يكونوا هم وذرياتهم أئمة في الدين يقتدى بهم، هداة مهتدين يتعدى نفعهم وخيرهم إلى غيرهم من الناس. لذا كان من دعاء خليل الرحمن ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٖ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

هذه أخلاق عباد الرحمن التي وعدهم ربهم عليها الدرجات العلى في الجنة، بسبب صبرهم على هذه الأخلاق الكريمة وصبرهم على ما يلاقونه من الأذى والمصائب بسبب عقائدهم وسلوكهم المتميز.

يجزون على ذلك الغرف العالية يكرمون بالتحية والدعاء بالسلامة والإقامة الدائمة في نعيم الجنة الذي لا ينقطع ولا الخوف من الزوال.

يتوج كل ذلك بالتحية والسلام من ربهم عز وجل ﴿ سَلَٰمٞ قَوْلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس:٥٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٦ رقم ٣٣٧١) وقال: حديث غريب.

(٢) رواه مسلم، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته: ٥/ ٧٣.

والأمن من زوال النعم عنهم أو زوالهم عنها، أمر تكرر في ثنايا السورة، لأن مما ينغص على أهل النعمة استمتاعهم بنعمة المال والجاه تعرضها للزوال منهم، أو تحولهم عنها بالموت، لذا فإن إدخال الأمن والطمأنينة إلى القلوب يقتضي النص على الخلود في جنات الخلد: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨] ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾ [الفرقان: ١٥- ١٦].

هذا ما ينتظر عباد الرحمن، أما الذين لا يرفعون لهدايات القرآن رأسا ولا يلقون لمنهجه التربوي بالا، فهم أهون عند الله من أن يجعل لهم وزنا، أو يكترث بهلاكهم، ولولا كون بعثة رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، وقد أرجأ الله سبحانه وتعالى عقوبتهم إلى الآخرة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]. لولا ذلك لأنزل بهم عذاب الاستئصال، ولا يبالي بشأنهم ولا يعبأ بهم فقد استحقوه بأقوالهم وأفعالهم التي كذبوا بها الرسول وأنكروا دعوته وقاوموا منهجه. والله من ورائهم محيط.

مناسبة الخاتمة لمحور السورة:

خاتمة السورة اشتملت على صفات عباد الرحمن بمثابة النتيجة لمحور السورة، فالمحور يتحدث عن المعجزة- القرآن الكريم- والرسول الذي أنزلت عليه المعجزة. واشتملت المعجزة على المنهج الذي التزمه الرسول ﷺ ودعا إليه في العقائد والسلوك والأخلاق، وذكر هذه الصفات في الخاتمة شهادة على سلامة المنهج وتصديق للرسول ﷺ في دعوته ونجاحه فيها.

إن هذه الصفوة من عباد الرحمن تشمل المؤمنين إلى يوم القيامة - ويدخل فيهم صحابة رسول الله ﷺ دخولا أوليا- هم محل العناية الربانية ولولاهم لم يكترث بأهل الأرض.

وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ لأن من أثمرت جهوده هذا النتاج الطيب عليه أن يتحمل المشاق ويصبر على الشدائد لتحقيق هذه الغاية النبيلة. وكل ذلك من صلب المحور.

من الفوائد المستنبطة من الخاتمة:

* المناهج التربوية الصحيحة تنتج أناسا ربانيين يتصفون بالكمالات الخلقية، والسلوك المستقيم والاعتدال والوسطية في جميع تصرفاتهم ومعاملاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم من الناس ومع خالقهم عز وجل.
* من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن فتح باب التوبة لهم من جميع المعاصي والآثام كبيرها وصغيرها، وحث عليها وأبعد اليأس والقنوط عن قلوب عباده. وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، وحتى تدخل النفس حال سكرات الموت.
* طلب الزعامة والرياسة في الدين مرغوب فيه، لأن القدوة في الدين يكتب له أجر من يقتدي به وكل من يتبعه، فأعماله في صفحة عمل إمامه وقدوته من غير أن ينقص من أجره شيء.
* تكرر في السورة في أكثر من موضع النص على الخلود، ومنها الخاتمة لبيان أهمية الأمن النفسي والاستقرار والطمأنينة في حياة الإنسان وخاصة في الجنة، أما في الدنيا فلا أمن على البقاء على حالة واحدة لأن النعيم معرض للزوال عن صاحبه للعوارض التي تعتور أحواله. أو صاحب النعمة سيزول عن النعيم بالموت. أما نعيم الجنة فهو المخلد الذي لا يزول. ولا موت فيها لأصحاب النعيم.

سورة الشعراء

بين يدي سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية، وآياتها سبع وعشرون ومائتان، نزلت بعد الواقعة، وهذه السورة السادسة والعشرون حسب ترتيب المصحف وتلي سورة الفرقان، وتقع في الجزء التاسع عشر. وهي السابعة من المجموعة الثالثة من قسم المئين، ورد تسميتها في تفسير الإمام مالك بسورة الجامعة، [1] لأنها جمعت ثماني حلقاتٍ قصصيةٍ لأنبياء الله ورسله عليهم السلام.

وقد جاء في رواية ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير إطلاق القول بمكيتها، وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، من قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾. [2]

وتتكون السورة من تسع مجموعاتٍ أو مقاطع على النحو التالي:

المجموعة الأولى: وتبدأ من الآية (١) إلى تمام الآية (٩) وتتعرض للقرآن والتوحيد.

المجموعة الثانية: وتبدأ من الآية (١٠) إلى تمام الآية (٦٨) وتتناول قصة موسى ﷺ.

المجموعة الثالثة: وتبدأ من الآية (٦٩) إلى تمام الآية (١٠٤) وتتناول قصة إبراهيم ﷺ.

المجموعة الرابعة: وتبدأ من الآية (١٠٥) إلى تمام الآية (١٢٢) وتتناول قصة نوح ﷺ.

المجموعة الخامسة: وتبدأ من الآية (١٢٣) إلى تمام الآية (١٤٠) وتتناول قصة هود ﷺ.

المجموعة السادسة: وتبدأ من الآية (١٤١) إلى تمام الآية (١٥٩) وتتناول قصة صالح ﷺ.

المجموعة السابعة: وتبدأ من الآية (١٦٠) إلى تمام الآية (١٧٥) وتتناول قصة لوط ﷺ.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/ ٦٤٣.

(٢) أسباب النزول: أبو الحسن الو احدي النيسابوري، ص ٢٥٢.

المجموعة الثامنة: وتبدأ من الآية (١٧٦) إلى تمام الآية (١٩١) وتتناول قصة شعيب عليه السلام.

المجموعة التاسعة: وهي الخاتمة وتبدأ من الآية (١٩٢) إلى نهاية السورة (٢٢٧)، وترتبط بالمقدمة في تعظيم القرآن الكريم وإثبات نبوة محمد ﷺ وتفنيد شبهات المشركين.

ومحور السورة هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾. وقد تكررت ثماني مرات عقب نهاية كل قصة في الآيات التالية:(٩ و ٦٨ و ١٠٤ و ١٢٢ و ١٤٠ و ١٥٩ و ١٧٥ و ١٩١). وما يلفت الانتباه وضوح الصلة بين محور السورة وبين دعوة ونصيحة كل رسول لقومه بعبارة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ التي تكررت في سبع قصص، بمعدل مرة إلى مرتين في كل قصة عدا قصة موسى عليه السلام، مما يدلل على أن التقوى والطاعة من أسس الدعوة. [١] ومحور السورة يفيد الاعتبار والعظة مما تعرضه هذه القصص من حِكم تدل على قدرة الله تعالى وعظمته في الخلق والتدبير والإهلاك، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما، وله الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة المدبر للكون على مشيئته وعلمه. كما يرينا محور السورة طريقة مخاطبة كل نبي ورسول لقومه، وما لاقوه من أنواع التكذيب، لتوصلنا في النهاية إلى إثبات وحدة الرسالات. ليكون في ذلك عبرة لأهل مكة وكفارها، وهم يرون آثار مصارع الأقوام السابقة، لعلهم يرتدون عن الكفر والشرك، ويؤمنون بالله العزيز الرحيم، وعقدت السورة بمقاطعها ووحداتها المتعددة مقارنة بين ما يؤول إليه المتقون من جنات النعيم، وما ينتهي إليه الكفرة والمشركون من عذاب، جزاء كفرهم واستهزائهم وتطاولهم وسفاهة افتراءاتهم على رسل الله، وختمت السورة بمثل ما افتتحت به بالتأكيد على عظيم الكتاب المنزل وجلال قدره، ومما تجدر الاشارةِ اليه اشتمال السورة على طائفة من ضوابط وخصائص القرآن المكي الموضوعية. [٢] ويلاحظ بوجه عام عمق اتصال

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٠٣.

(٢) أهم خصائص السور المكية ومقاصدها: د. أحمد عباس البدوي، ص٤٥.

سورة الشعراء بسورة الفرقان التي قبلها، وسورة النمل التي بعدها، برباط واضح ومتين [1] فهذه السور الثلاث مكية افتتحت في الغالب بما يفيد مدح القرآن الكريم وما يتبع ذلك من تسرية النبي ﷺ. ويجري عليها التشابه في إقرار عقيدة التوحيد، والأمر بتقوى الله تعالى، وإيراد الدليل المشاهد على قدرته سبحانه وتعالى الكونية، وإبراز شواهد ولقطاتٍ من أهوال يوم القيامة للاتعاظ. كما تتشابه في الإخبار عن بعض الأنبياء والرسل وما أثير من شبهات أقوامهم لهم كالكذب والسحر والجنون ونحوه. وامتد التشابه في هذه السور أيضاً إلى إنكار بشرية الرسل بالكلية. ولا يفوتنا التنويه هنا أن القصة القرآنية الواحدة قد ترد في سورٍ متعددة، ليس من باب التكرار، بل على سبيل التأكيد تارةً، ولذكر مقاصدها المرجوة، وللوفاء بالغرض الذي سيقت من أجله تارةً أخرى. وقد يرد في سورة ما لم يرد في أخرى. وما يرد منها حسب موقعه يكون مناسباً بالقدر والطريقة التي تناسب الإطار العام للسورة وسياقها. [2]

ويرى المتأمل في قصص الرسل الواردة في سورة الشعراء أنها امتدت لتشمل مئة وثمانين آية من إجمالي آيات السورة. [3]

توطئة في بيان المقطع الأول من سورة الشعراء ووجه االعلاقة مع غيره

يؤلف هذا المقطع وحدةً متجانسةً ومتكافئةً مع غيره من مقاطع السورة، وفيه من وشائج الترابط والوئام ما يشد عضده بالمقاطع الأخرى حتى نهاية السورة الذي انعطف على أولها فزادها حسناً وإعجازاً، مما يشير إلى أن سورة الشعراء مجموعة واحدة في هدفها وغايتها، وإن تعددت مقاطعها.

وتحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعابٍ في ألطف العبارات الربانية وأرقها.

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى: ٧/ ٣٨٩٧.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٧٥.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ١٩٠.

وغاية المقطع إثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن كلام الله ليؤمن أهل مكة عن تبصر وتعقل، ويمهد المقطع إلى مقارعة قريش بالحجة من خلال الإشارة أن الله ﷻ أرسل رسوله بشيراً ونذيراً ورحمةً للعالمين، وقد مضت سنته تعالى في الأمم المكذبة بإمهالهم ثم أخذهم بذنوبهم، فتأملوا يا كفار قريش كيف كانت عاقبة من كان قبلكم، ومع ذلك فإن المشركين كذبوا بالذكر الذي نزل عليهم وأعرضوا عنه واستهزؤوا به، وقد غاب عنهم أنه سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير.

وقد حفل المقطع بالعديد من الدروس والعظات لأهل مكة بما شمله من التذكير والإنذار. كما انتظم فيه من المعالم التربوية للأمة الشيء الكثير. فالخطاب وإن كان في صورته موجهاً للنبي ﷺ، لكنه في الحقيقة تعليم للأمة وإرشادٌ لها لتسلك طريق التقوى وتعمل بهدي القرآن.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول من سورة الشعراء

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

افتتحت آيات المقطع الأول من سورة الشعراء(١-٩) بقوله تعالى﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾: وتلفظ عند القراءة بأسماء حروفها طا، سين، ميم. وهذه الحروف ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات.

وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من الحروف كالحروف التي يؤلف منها العرب كلامهم. والذين عجزوا عن الإتيان بمثله، وفيها إشارة إلى أن الكتاب معجز ذو شأن عظيم، يتحدى به لأنه يفصل بين الحق والباطل[1].

(١) ورد الاستفتاح بالحروف المقطعة في تسع وعشرين سورة كلها مكية سوى البقرة وآل عمران. وعدد =

ثم تنعطف الآيات إلى تسرية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له. ويخبر الله تعالى رسوله ﷺ موجهاً: لعلك أيها الرسول مهلك نفسك وقاتلها حسرةً وتأسفاً على عزوف قومك عن القرآن والرسالة فهون عليك وأشفق واصبر على مشاق الدعوة.

ولا يضيق صدرك ولا تبتئس بما يعملون ضدك وما يتفننون فيه من إثارة الشبهات، ولا تحزن لإعراضهم فقد خسروا الدنيا والآخرة، وإن العزة لله ورسوله ونصر الله قادم لا محالة.

وبرهان إنكارهم للكتاب والرسالة متكرر في القرآن الكريم في غير موضع منها: قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف:٦].

وقد حملهم الارتياب من الدعوة أن طالبوا الرسول ﷺ، أن يُريهم معجزات مادية لتكون لهم أية. أوَلَم يكفهم أن الله عز وجل أيد رسوله بالقرآن دليلاً على مصداقية نبوته فيهم، ومع تعنتهم في طلب المعجزة المادية، أخبرَ سبحانه وتعالى عن قدرته أن يأتيهم بها متى شاءت حكمته لتخضع لها أعناق القوم، وتضطرهم إلى التسليم قسراً لا يملكون معها جدلاً، ليس بعدها إعراض ولا تكذيب ولا استهزاء البتة. وما ذلك على الله بعزيز، ولكن سنن الله عز وجل في الإيمان تقوم على حرية الاختيار وعدم الإجبار، ومما يؤسف له أن قولهم المشروط لإيمانهم، ما كان إلا تكذيباً وعناداً لا تبصراً واسترشاداً. وإرادة الله تأبى ذلك.

ثم أعقبه تهديد الكافرين الذين أضلتهم أهواؤهم عن التفكر والتدبر بقدرة الله عز وجل على إنزال العذاب لهم. لاستهزائهم بالنذر وإعراضهم عن كل جديد يتنزل من آيات الله.

وبداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ، قامت كل الحجج على صدق رسالته. ثم تمضي

= الحروف التي تتركب منها أربعة عشر حرفا وهي:(ا، ح، ر، س، ص، ط، ق، ك، م، ن، ه، ي). وهذه الفواتح منها ما جاء على حرف واحد وهي (ص، ق، ن). ومنها ما هو مؤلف من حرفين ومنها من ثلاثة أحرف، ومنها ما هو مؤلف من أربعة أحرف، ومنها خمسة أحرف. وللعلماء قديماً وحديثاً عدة أقوال في تفسيرها والله اعلم بمراده منها.

الآيات لتقريع المشركين وتوبيخهم بالاستفهام الإنكاري، أما بلغكم عاقبة استهزاء الذين جاءتهم رسلهم بالحجج الدالة على صدقهم فأعرضوا ووضعوا أيديهم على أفواههم استغراباً واستنكاراً، فَلِمَ هذا العناد والتقليد لآبائكم في مواصلة الطعن بالقرآن الذي نزل هداية لكم لينقلكم من دياجير التخلف ووهدة الضلالة إلى نور الإيمان. فانتظروا ما سيحل بكم من عاجل العذاب وآجله كما وقع لمن قبلكم. فهل من متعظ ومعتبر؟ فليس هناك أشد ظلماً ممن كفر وافترى الكذب على الله ورسوله مع قيام الحجة القاطعة. وبعد هذا الإنذار والترهيب تسجل الآيات عزوف المشركين، عن إعمال العقل فيما يشاهدونه من قدرة الله في الخلق، فوجه أنظارهم إلى الكون ونعم الله تعالى فيه. وخص منها تحديداً أصناف المزروعات النافعة بمسمياتها المتعددة ومذاقها المختلف، التي نبتت من الأرض بعد أن أنزل الله من السماء ماءً فأخرج ثمراتٍ مختلفاً ألوانها. نتجت عن تزاوج عناصر الذكورة والأنوثة في كل نبتة. وفي هذا تنبيه من الله عز وجل إلى إعجاز القرآن في الخلق والرزق. حتى لا يكون للناس على الله حجة يتعللون بها، وإن في ذلك لأيةً لأولي النُّهى الذين يعملون عقولهم، ولكن المشركين مع هذا كله يطلبون آيةً باهرةً، ويغفلون عن آيات الله في أنفسهم. فما آمن أكثرهم وظلوا على سيرة آبائهم الأولين في معتقداتهم الموروثة. فهم بذلك لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتدبرون ولا يتعظون، وكان من الواجب عليهم أن يتلقوا آيات الله بالفهم لكن الشيطان أضلهم وصدهم عن الهدى.

ثم يختتم المقطع الأول من سورة الشعراء ببشارة النصر لرسول الله ﷺ، وغلبته لأعدائه والظفر بهم وإظهاره عليهم، فالله ذو العزة الغالب لكمال قوته وقدرته، القوي القادر على أخذ المكذبين بالعذاب الذي يستحقونه، ذو الرحمة الواسعة الذي يمهل الكافرين فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير. ورحمته تقتضي أن يبعث الرسل عليهم السلام للتبصير والتنوير والتبشير والتحذير. فمن اختار الكفر ودلائل الإيمان حاضرة أمامه أخذه الله بالهلاك أخذ عزيز مقتدر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأول من سورة الشعراء

إن جملة القول في آيات المقطع الأول تقتضي الإشارة إلى ترابط كل آيةٍ فيه مع المقطع الآخر الذي يليه حتى خاتمة السورة. رغم اختصاص كل قصة بذكر نبيٍّ معين مع قومه. وما يذكر في كل قصة يتلاءم مع سياق القصص الأخرى، وهذا دليل على وحدة الهدف التي سيقت من أجله، فالآيات تخدم سياق بعضها بعضاً. وعليه فإن حاصل ما ترشد إليه آيات المقطع الأول من العبر والدلالات متعددة منها:

١- تأكيد القرآن الكريم حاجة الناس إلى رسل الله وأنبيائه. لتربيتهم على منهج الشريعة الربانية، وتأديبهم بآدابها، وتبليغهم رسالات الله على الوجه الذي أمرهم الله به، بالحكمة والموعظة الحسنة. ولتبيين معاني ما أنزل عليهم من نصوص وتوضيح مدلولاتها للعمل بمقتضاها. [١]

٢- إيضاح حكمة عدم تلبية الله عز وجل لمطالب المشركين، في رؤية معجزات مادية قاهرة لتعنتهم وشططهم، مع قدرته سبحانه وتعالى على تحقيق ما أرادوه، وقد كان الله عز وجل في الرسالات السابقة يستجيب لطلب المعجزات من بعض الأمم، فيجريها على أيدي أنبيائه ورسله، للدلالة على صدق الدعوة، وليتحدى الرسول قومه بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا في شك من دعوته. أما إذا كان طلب المعجزة فيه سوء قصدٍ ورغبةٍ في التفكه فإن الله عز وجل لا يستجيب لطلبهم، ولا يلتفت إليهم، لأنهم وطَّنوا أنفسهم على العناد والجحود مهما رأوا من آيات وبراهين. فاقتضت حكمة الله عدم الاستجابة لهم، فالله يخلق من المعجزات ما يشاء بقدرته ويختار بحكمته ما يشاء منها على مقتضى علمه، وليس في مقدور الخلق، ولا من حقهم أن يختاروا على الله ما يشاءون. وأن خلق الله للأشياء تكون

(١) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٣١٣.

بتوجيه الإرادة والأمر فإذا أراد سبحانه وتعالى أن يخلق شيئاً، قال له كن فيكون. فقدرته عز وجل لا تقف دونها حدود. فالله لا يعجزه شيء وهو القادر على كل شيء. يضاف إلى ذلك حكمة بالغة، وهي أن القوم إذا طلبوا آية بعينها، وأجيبوا إليها ثم لم يؤمنوا بها أُخذوا بالهلاك والعذاب، والله تبارك وتعالى لم يشأ أن يكتب على هذه الأمة، التي نزلت عليها خاتمة الشرائع السماوية الهلاك الذي جرى على الأمم من قبلها.[١]

لهذا اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإيمان من خلال إعمال العقل بالمطلق، في ملكوت الله بعد أن بلغ العقل الإنساني رشده ونضجه.

٣- لعل من تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله عز وجل إلى البشر رسولاً منهم، ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجة عليهم، فإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل من الله إليهم بشراً، فتعجبهم يستدعى العجب من عجابة أمرهم وغرابة شأنهم وتفكيرهم. وهذا مكرورٌ في تاريخ دعوات الرسل كافة، من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، فلو جاء الرسول للبشر من الملائكة حسب طلبهم، فلا بد أن يأتي علىٰ صورة بشرية حتى يتمكنوا من مشاهدته ليتفاعلوا معه وينصتوا إليه.

ولطالما الأمر كذلك، فالأولى في رسل الله أن يكونوا بشراً مثلهم من جنسهم، فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم. مما يستدعي محاكاتهم والتأسي بهم والعمل بدعوتهم، لحسن سيرتهم التي ألفوها منهم في حياتهم التي كانوا عليها قبل النبوة.

٤- أقامت الآيات الدلائل والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته في الخلق، وخص منها سبحانه وتعالى إخراج النبات والزرع. فالمزارع يحرث الأرض ويلقي الحب أو يزرع الشتل، ويتوكل على الله تعالى ثم ينزل الغيث من السماء، فينبت الزرع بعد انشقاق الحبوب في التربة، ويتغذى عليها الإنسان والحيوان والطير.

---

(١) المرجع السابق: ص٣٤١.

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن الأرض الواحدة تسقى أشجارها ونباتها بماءٍ واحدٍ، وتتغذى من تربةٍ واحدةٍ، فتعطي ثمراً مختلفاً ألوانه ومذاقه وأحجامه وروائحه وفوائده.

إنه الله تعالى الذي أحسن كل شيءٍ خلقه، وإن الناظر ليعجب من عظيم صنع الله وبديع خلقه ودقة تنظيمه في الكون ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

أليس في هذا دعوة للمشركين بوجوب النظر في آيات الله تعالى. وترك ما اعتادوه من التقليد لآبائهم بتأمل وتفكر في ملكوت الله ونعمه.

٥- إن استهزاء الكفار والمشركين في رسل الله وكتبهم مألوف في تاريخ دعوة الرسل كلهم. لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٧]. ويعزى قبح سلوكهم هذا بالاستهزاء على رسل الله، إما لبشرية الرسل وإنكار المشركين عليهم ذلك. أو لقلة نصيبهم من متاع الدنيا كالجاه والمال والسلطان، والمشركون في كلتا الحالتين أساءوا الأدب مع الله تعالى ورسله. فهم لم يستعملوا عقولهم ولم ينتفعوا بها، حيث يقول الواحد منهم يوم القيامة حين يشاهد العذاب في حسرةٍ وألم. ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

ولقد شاءت سنن الله تعالى أن الذين يسخرون اليوم يسخرُ منهم غداً، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس عظةً وعبرةً.

وسيرون عاقبة استهزائهم وما سيحل بهم من عاجل العذاب وآجله، في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود: ٨]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النحل: ٣٤]. فليضحكوا قليلاً في دنياهم وليبكوا كثيراً في آخرتهم، جزاءَ ما كانوا يعملون من باطل، وما كانوا يفعلون من منكر.

٦- لعل ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يشير على وجه الخصوص أن الناس كانوا منذ آدم عليه السلام أمة واحدة على دين الفطرة السليمة، فاختلفوا على ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى والشيطان، فبعث الله النبيين ليبشروهم بالنعيم ولينذروهم بالعذاب، وأنزل مع كل رسول كتاب يهدي إلى الحق، فما آمن أكثرهم وهذا شأنهم في دعوات الرسل كافة.

وبمقابلة حكمة هذه الآية ومراد الله بها حسب مشيئته وقدرته، نرى على وجه العموم أن عدد سكان الأرض يقترب من سبعة مليارات نسمة حسب تقديرات الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٥، وبالمقاربة والمقارنة بين عدد الوثنيين وعدد الذين يدينون بالديانات السماوية مع الإقرار بتحريف كتب بعض هذه الديانات بالتبديل وبالزيادة وبالنقصان، وخروجهم عن حظيرة الإيمان من حيث نظرة الإسلام لهم حسب صريح القرآن. يتضح لنا أن أقل من ثلثي سكان الأرض بقليل، وثنيون يدينون بالديانات الوضعية الكنفوشوسية والبوذية، وخير مثال على ذلك قارة آسيا والقارة الإفريقية، التي تدين بعض قبائلها وشعوبها بديانات وضعية تحت مسميات متعددة. إضافةً إلى ذلك جيوب الوثنية في غابات أمريكا الجنوبية. ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ولدقة المقابلة نرى عدد النصارى حوالي مليار ونصف نسمة، والمسلمين مليار ومائتي مليون نسمة، وأتباع اليهودية يقتربون من عشرين مليوناً حسب أدق التقديرات.

وإن في ذلك لآيةً وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى، ولو شاء ربك لجعل الناس جميعا على الإسلام مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه سبحانه وتعالى ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

٧- اقتضت حكمة الله تعالى في دعوات الأنبياء والرسل، وحدة فلسفة تكاملها في جوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها، وتناسقها فيما بينها وتكامل السابق منها باللاحق، حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ لتكون للعالم كافة.

ودعوة الرسل كلهم أجمعين واحدة في أسس ومبادئ إسلامها. وما نراه اليوم من الخلاف بين الديانات السماوية الثلاث، إنما يعزى لما طرأ على الديانتين اليهودية والنصرانية من تحريف الكلم عن مواضعه.

ولو أن الديانات السابقة بقيت من غير تحريف لالتقت مع رسالة القرآن الكريم المنزل على رسول الله ﷺ.

توطئة في بيان مقطع قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

تُعد قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم، سواء ما انتظم من قصته مع فرعون الطاغية، أو قصته مع قومه بني إسرائيل قبل الخروج وبعده. فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة من قصة موسى عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة. [١] وعدد السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وفي سورة الشعراء وحدها ثماني مرات. أمّا أخوه هارون عليه السلام فقد جاء ذكره تسع عشرة مرة، منها مرتان في سورة الشعراء. وورد اسم فرعون أربعاً وسبعين مرة، وفي الشعراء وحدها ست مرات.

كما تكرر لفظ (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات في سورة الشعراء[٢].

وأكثر السور حديثاً عن موسى عليه السلام وأخيه هارون وبني إسرائيل وفرعون هي: (البقرة والأعراف ويونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والنازعات).

أما السور التي عرضت لقطاتٍ مجملةٍ من قصته فهي (سور النساء والمائدة وهود وإبراهيم

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٧-٧٧٨.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ٢/ ٢٧٠.

والإسراء والأنبياء والمؤمنون والأحزاب والصافات والزخرف والذاريات والصف).

والسور التي اكتفت بذكر اسم موسى عليه السلام فقط فهي باقي السور الأخرى من إجمالي السور الأربع والثلاثين.

وبقراءة شمولية وبنظرة تحليلية فاحصة للقصص القرآني التي عرضت لقصة موسى عليه السلام نرى أن جذوره في مصر تعود إلى يوسف عليه السلام، حين أصبح حاكماً على خزائن الأرض فيها في عهد الملوك الرعاة أو الهكسوس، فاستدعى أبويه وإخوانه للإقامة معه في مصر، حسب ما ورد في سورة يوسف.

وقد أشارت الآيات القرآنية في غير موضعٍ أن سلطان مصر من الهكسوس زمن قصة يوسف عليه السلام، كان يلقب بالملك وهم قوم موطنهم الأصلي جنوب بلاد الشام، وفدوا مصر واحتلوها عنوة لمدة قرنين ونيف تقريبا حسب تقديرات المؤرخين،[1] أذلوا أهلها ورحبوا بكل غريب وافد إليها، فكان وقتئذٍ قدوم بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلهم معززين مكرمين مما حمل المصريين على نبذهم وكرههم.

ثم مرت السنون تليها السنون وبنو إسرائيل في توالد مستمر، وبتوالي الأيام استجدت تطوراتٍ ضد الغزاة الهكسوس بقيادة (أُحمس) مؤسس السلالة الثامنة عشرة. الذي قام بثورةٍ داخليةٍ لطرد المحتلين فكان له ما أراد، وتم طردهم نهائياً من مصر بعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن، وبتغير السلطة ونظام الحكم الوطني الجديد في البلاد استبدل مسمى كل من حكم مصر من ملك إلى فرعون.

وفي العهد الفرعوني الجديد عاش بنو إسرائيل معذبين مضطهدين، فتفرعنوا عليهم وتكبروا وتجبروا بسبب اتهامهم أنهم كانوا عيوناً للهكسوس الغزاة، ومن أشهر فراعنة مصر حسب أقوال المؤرخين (أُحمس) الذي تقدم ذكره و (أخناتون) الذي حمل المصريين على توحيد

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص١٦٨.

ديانتهم بإلهٍ واحد هي (الشمس) وأطلق عليها اسم الإله (أتون)، ورمسيس الثاني فرعون موسى ﷺ، الذي ولد في عهده وعاش في بلاطه وهو صغير وهرب منه بعد قتله للفرعوني، ولقب بفرعون الاضطهاد، وقد مات أثناء إقامة موسى ﷺ في أرض مدين، (ومنبتاح أو منفتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم بعد وفاة أبيه، وهو الذي قابله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وعرضا عليه دعوة الإيمان والتوحيد، فأنكر دعوتهما وطاردهما وكان من المغرقين، ولقب بفرعون الخروج.[1]

وقد سجلت آيات القرآن الكريم في العديد من السور مظاهر كفر فرعون ودعوته لقومه إلى تأليهه وعبادته، وادعائه الألوهية والربوبية. فتغطرس وتجبر وسعى إلى إذلال خصومه واستعبادهم واحتقارهم.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة موسى ﷺ في سورة الشعراء

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

---

(١) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ٢/ ٣٩٣. وقصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٠٢.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

قراءات:

- (قرأ يعقوب: ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، بنصب يضيق وينطلق، والباقون بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح: أأمنتم بهمزتين، والباقون: آمنتم. وقرأ حفص: تلْقَف بسكون اللام وفتح القاف دون تشديد. والباقون: تلَقَّف بفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر: «حاذرون» بألف بعد الحاء. والباقون: حذرون)[1]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٠١.

-(هناك قراءة أخرى حَذُرون بضم الذال)[١].

-(قرأ حفص: معيَ ربي بفتح الياء، والباقون: معيْ ربي بسكونها). [٢]

تبين الآيات الكريمة التي امتدت في سورة الشعراء من الآية١٠ إلى الآية٦٨ جانباً من قصة موسى ﵇، فافتتح مقطع القصة بقوله تعالى (وإذ) وتفيد معنى (واتلُ) أو (واذكر) وفيها إخبارٌ من الله عز وجل إلى عبده ورسوله ﷺ، أن يا محمد نحن نقص عليك من نبأ موسى ﵇ لتتلوه على قومك، لعلهم يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ليعلم قومك أنك ما كنت حاضراً وقت عُهد إليه بأمر الرسالة ولا شاهداً على ذلك، حين ناداه ربك بالوادي المقدس طوى، أن اذهب رسولاً نبياً إلى فرعون وقومه، الذين استعبدوا بني إسرائيل وذبحوا أبناءَهم وظلموا أنفسهم بالكفر. وهذا خبرٌ في غيب الماضي نسوقه إليك ليعلموا صحة دعوتك، ثم انعطفت الآيات للحديث عن قصة موسى ﵇ وتبرز مشهد استجابة الله عز وجل لنبوة هارون مع موسى عليهما السلام، ليفيد من فصاحة لسانه وقوة بلاغته. إذ كان يعترف لأخيه بوضوح كلامه وقوة فصاحته وحسن بيانه، وقد التمس من ربه ذلك اتقاءً للتقصير في الدعوة لا نكوصاً عنها.

ثم تمضي الآيات وترصد في غير موضع دعاء موسى ﵇ أن يشرح الله صدره لينطلق لسانه بالحق أمام فرعون، لأن ضيق الصدر يورث حبسة في الكلام، قد تعجز صاحبها عن أداء رسالته وتضعف حجته وما قد يتأتى عن ذلك من تكذيب. وتبرز الآيات تأييد الله عز وجل لموسى وهارون - لا تكُ في خوفٍ ولا تبتئس من سابق سيرتك مع فرعون، فإني معكما أسمع وأرى- وفي هذا التعبير تسرية لهما من باب الحفظ والرعاية والعناية، فإني يا موسى اصطنعتك لنفسي واصطفيتك لرسالتي، ووجههما إلى حسن مخاطبة فرعون باللين والموادعة لإقامة الحجة عليه لعله يؤمن برب العالمين، وبعد أن أتياه وقالا ما أمرهما الله به، نظر فرعون

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٦.

(٢) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٤.

إليهما نظرة ازدراء واحتقار ولم يتعامل مع موسى ﷺ باعتباره رسولاً، وإنما كواحدٍ من بني إسرائيل المستضعفين الذين استرذلهم.

ورد عليه فرعون باستهزاء قائلاً: ألم تكن في بيتي ربيباً، وفعلت فعلتك بقتل رجل من شيعتي، ثم وليت هارباً خوفاً من بطشنا فمتى كان هذا الذي تدعيه من أمر النبوة؟.

ولم يكتف بذلك بل اتهم نبي الله أنه من الكافرين المنكرين لنعم فرعون عليه في طفولته وصباه.

فأجاب موسى ﷺ أنه جرى على يديه قتل القبطي الذي من شيعتك دون قصد وعن جهل مني، بما قد يتحقق من موته بمجرد وكزه وأنا أسيف للذي حدث، فلا تثريب عليَّ لأنه كان سابقاً للنبوة، وهذا لا يطعن ولا يقدح برسالتي إليك وكان من أثره أن فررت خيفة قتلي واتجهت إلى مدين فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، وها أنا أقف أمامك لأدعوك إلى عبادة رب العالمين خالق كل شيء ومدبره.

فأين أنت من رب العالمين بالمقارنة؟ إذ بلغ بك الكفر أن ادعيت الألوهية وحملت قومك على عبادتك وزعمت بقولك أنا ربكم الأعلى وأنت بهذا في منزلة الأبالسة من شياطين الجن.

ثم تدرج موسى ﷺ بالرد على فرعون إلى أن قال: أتمنُّ علي بأن ربيتني وليداً ومنعت عني القتل وأنت الذي استعبدت بني إسرائيل وأوغلت في قتلهم، فلو كنت عكس ذلك لما قُذِفت في اليم حين خشيت أمي افتضاح أمرها، بعد أن وضعت بي وقادني القدر الإلهي إليك لأكون نزيلاً في بلاطك وأنا الآن عدو لك.

فاغتاظ فرعون وقال: وما صفة رب العالمين الذي تدَّعي أنك رسوله؟

وهنا تفصل سورة الشعراء جانباً من الحوار بين موسى ﷺ وفرعون، وما طرحه من أسئلة فيها تعبير السخرية والتهكم عن رب العالمين، ومصير القرون الأولى من الخلائق وإجابات موسى ﷺ عليها مؤكداً أن الألوهية والربوبية لا تكون إلا لله الخالق رب العالمين

الجدير بالعبادة وحده لا شريك له. وهو رب السموات والأرض وما بينهما، ورب المشرق والمغرب وما بينهما، وهو الذي خلقك وخلق آباءك الأولين، وكان في الرد لفتة حكيمة للتدليل على عظيم قدرة الله في الخلق.

ثم أوضح للقوم مخاطباً عقولهم أن فرعون هذا مربوبٌ لا ربٌ كما يزعم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم من جنسكم؟

وهنا استعظم فرعون واستغرب من صلابة موسى ﷺ في الرد وقوة حجته فأنكر دعوته، موجهاً كلامه للملأ من قومه، إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون أسأله عن شيء فيجيب بغيره. ثم تمضي الآيات لتشيرَ إلى رد موسى ﷺ حين وقف وخاطب الملأ: إن كنتم تعقلون فآمنوا برسالتي، فإن لم تفعلوا فأنتم الأحق بالجنون إن أنا إلا نذير مبين.

فما كان من فرعون عندئذٍ أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت من صلابة موسى ﷺ فتوجه إلى تهديده وترهيبه إذ قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، وهذا ديدن المحجوج الضعيف على مدار التاريخ. يلجأ إلى البطش والقوة حين تعوزه الحجة وينقصه الدليل. فأجابه ﷺ: أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيءٍ على صدق رسالتي إليك فالتقط فرعون أنفاسه وقال عليَّ بها فأتِ بالذي يشهد على نبوتك إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فانقلبت ثعباناً يسعى، وأخرج يده من جيبه فإذا هي خالصة في شدة بياضها ولمعانها.

فلمّا وقف على رؤية ما رآه من معجزات أفزعه الأمر، وطلب الرأي والمشورة من أعيان قومه في أمر موسى، متظاهراً باحترام الرأي والرأي الآخر ليستدر عطفهم ومؤازرتهم في محنته هذه بعد أن كُشِفت عورته للملأ من حوله، وقد عمد قبل سماع رأيهم إلى إخافة القوم أن غاية موسى ﷺ أن يخرجهم من أرض مصر بسحره ليتملكها وقومه. فأشار عِلْيَةُ القوم عليه، إن موسى لساحر، فأرسل في طلب مشاهير السحرة من المدائن والحواضر في مختلف الأقاليم كافة. لنشهد على أعين الناس في ميقات يوم معلوم، منازلتهم له ولسحره، وحُدّد وقت الضحى من يوم الزينة وهو عيد عند الفراعنة كموعدٍ لمعارضة السحر بالسحر على زعمهم.

ولما تقاطر السحرة إلى بلاط فرعون، قالوا له عند اجتماعهم معه، أيكون لنا أجرٌ عظيمٌ إن كنا الغالبين بعزتك؟ فأجابهم بل أنتم من صفوة المقربين في بلاطي ولكم ما شئتم.

ولما حان الموعد، وتراءى الجمعان في حلقة المنازلة، أقسم السحرة بعزة فرعون أنهم الغالبون، والقوم مجتمعون حولهم على شكل حلقات متداخلة، فألقوا حبالهم وعصيهم وخُيِّل للناس أنها حيّات تسعى فاسترهبوا أعينهم، ولما وقف فرعون على رؤية ما شاهد تملكه الفخر والزهو والغرور. وهنا قذف الله في قلب موسى عليه السلام الصلابة، وأوحى إليه لا تخف من سحرهم وعِصيهم وكيدهم إنك أنت الأعلى، فأنت على حق وهم على باطل، ولك النصر عليهم وسيرون هزيمة مكرهم. فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة تبتلع سريعاً ما ظهر على أيديهم من سحر التخييل والتدجيل. فأيقن السحرة حقيقة المعجزة لأن ما شاهدوه مقرون بالتحدي مع عجزهم أن يأتوا بمثله. وهنا كشف الله عن قلوبهم الغشاوة والغفلة وأنارها بالهدى فأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين.

وتظهر الآيات بعد هذا المشهد جانباً من غضب فرعون الذي أنكر على السحرة إيمانهم قبل أن يأذن لهم، فتهددهم وتوعدهم، وزعم أن موسى هو كبيرهم الذي علمهم السحر وتتلمذوا على يديه في المعابد الفرعونية قبل هذه الواقعة. وتوعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم مختلفات من خلاف بعضها بعضاً. كقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس، مع التصليب حتى الموت في جذوع النخل. وتصور لنا آيات القرآن ثبات السحرة على إيمانهم دون اكتراثٍ لتهديد فرعون لهم. وأجابوه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين، أسلمنا لله واتبعنا رسله، فاقضِ ما أنت قاضٍ. وهنا وقف الطغيان عاجزاً أمام الحق وكانوا أول المؤمنين.

ثم ينعطف المشهد إلى بيان تتابع الأحداث بعد تلك الواقعة بشكل متسارع بين موسى عليه السلام وفرعون، بعلم الله وإرادته وتقديره للأحداث، فهو المقدر لها الفعال لأمرها وفق حكمته ومشيئته، فتخبرنا عن وحي الله لرسوله بالخروج من مصر ليلاً ومن آمن معه من بني إسرائيل. وهنا ترصد الآيات خروجهم من مصر دون علم الفراعنة، فانطلقوا سراً باتجاه سيناء لبلوغ

الأرض المقدسة أرض كنعان بفلسطين، وكان بين دخول بني إسرائيل إلى مصر في عهد يوسف عليه السلام، وبين خروجهم منها بصحبة موسى عليه السلام، خمسمائة سنة تقريباً، في أرجح الروايات التاريخية، وكان عددهم يتراوح ما بين ستة إلى سبعة آلاف نسمة فقط.(١)

ونشير هنا إلى عدم مصداقية عددهم في العديد من الكتب والروايات التي نقلت عن الإسرائيليات والعهد القديم لمبالغتها الفلكية فهي باطلة ومردودة(٢)، ودليلنا في ذلك تحكيم العقل بعددهم عند قدومهم إلى مصر، إذ كانوا قرابة خمسين إلى ستين شخصاً. وباستمرار تناسلهم لأجيال متعاقبة بلغ عددهم الرقم المشار إليه عند الخروج هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قول فرعون عنهم عندما علم بخروجهم سراً: - إنَّ هؤلاء لشرذمة قليلون - تقليلاً وتصغيراً لعددهم وشأنهم في الحياة المصرية.

ثم تمضي آيات قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء، بإيضاح وكشف ما كان عليه فرعون من الغضب والغيظ بخروجهم من غير إرادته وعلمه ومخالفتهم لأمره.

فلحق بهم حتى أدركهم وقت شروق الشمس عند شاطئ البحر الأحمر، ولما رأى كل فريق صاحبه ولم يبق بينهما إلا مسافة الأفق، ليقاتل كل منهم الآخر، صاح قوم موسى خائفين

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص٥٢٨.

(٢) تجدر الإشارةِ هنا إلى مسألةٍ على قدر من الأهمية والحساسية وهي بيان مخاطر اشتمال طائفة كبيرة من كتب التفسير والقصص والتاريخ، على غرائب الإسرائيليات التي يرفضها العقل والمنطق، ومن صور ذلك ما نحن بصدده من أحداثٍ في مقطع قصة موسى عليه عليه السلام إذ أورد الطبري، ت ٣١٠هـ في تاريخ الأمم والملوك ١/ ٢٤٦، والثعلبي، ت٤٢٧هـ في قصص الأنبياء غرائب المجالس ص١٧٤، وابن الأثير، ت٦٣٠هـ في كتابه الكامل في التاريخ ١/ ١٤٣، وابن كثير، ت٧٠٧هـ في قصص الأنبياء ص٢١٦، وابن خلدون، ت٨٠٨هـ في المقدمة ١/ ١٤وغيرهم، ضخامة أعداد بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وقد تراوحت تقديراتهم ستمائة ألف مقاتل ونيف غير الصبية والنساء وكبار السن، كما اختلفت تقديراتهم لجند فرعون حتى تجاوزت في هذه الكتب ألف ألف وستمائة ألف، وهذه أرقامٌ منكرة بعيدة عن المصداقية وجادة الصواب؟!!!

رهبةً من بطش فرعون وظلمه (إنا لمدركون) وقالوا لموسى عليه السلام: سيلحقنا أذىً كبيرٌ لا طاقة لنا به من فرعون وجنوده على فعلتنا هذه. فأجابهم موسى عليه السلام: لا تجزعوا من رؤيتهم فلن يدركونا لأن معي ربي هادياً وناصراً ومذللاً للصعاب ومرشداً للنجاة، فاتبعوني ولا تلتفتوا إليهم، ولما بلغ الماء أوحى الله عز وجل إليه أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق أرضاً يبساً إلى اثنتي عشرة طريقاً بعدد أسباط بني إسرائيل، وكان الماء عن اليمين وعن اليسار حاجزاً كالجبل العظيم. فأدركهم الله بلطفه وعنايته ونجّى موسى عليه السلام وقومه. فلمّا جاوزوا البحر وانفصلوا عنه بمسافة يسيرة، انتهى فرعون وجنده إلى مياه البحر فأطبقت عليهم، ولم ينج منهم أحد وفي ذلك آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى. وقُذِفَ فرعون إلى الشاطئ ليكون للناس آيةً وعظةً وعبرةً على مر الأزمان والدهور إلى يومنا هذا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢]. وليس غريباً ولا خافياً على أحد أن مومياء فرعون الخروج والمطاردة لم تزل على حالها محنطة في المتحف القومي بالقاهرة، يتوافد إليها السياح من مختلف دول العالم للاعتبار بهلاكه.

ثم اختتمت قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء بمحور السورة المتكرر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾. فالآية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ تهدف إلى إنذار الكافرين والمشركين من قريش وتحذيرهم من الاستمرار في كفرهم، ودعوتهم إلى الابتعاد عن الإفساد في الأرض، لعلهم يفيقون من غفلتهم ويؤمنون بالله عز وجل، فيعبدونه ويصدقونه برسله، ويعتبرون بما نزل بالأقوام السابقة من العذاب الشديد عظةً وعبرةً. وفي هذا دليل واضح على ارتباط الخاتمة بمقدمة السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى قلة عدد المؤمنين برسالات الرسل كافة على وجه العموم. وفيها بيان عدد المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من قوم فرعون وقلتهم على وجه الخصوص. ومن أبرزهم آسية امرأة فرعون التي قالت عندما رأت موسى عليه السلام وهو رضيع: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا

يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص: ٩].

وقد ورد في القصص دعوة فرعون لها بالكفر فأبت فعذبها ولم يزل في تعذيبها حتى فارقت الحياة. وكان منها أن دعت الله عز وجل أن يبني لها بيتا في الجنة. ومن القلة المؤمنة أيضاً برسالة موسى ﷺ : الرجل الصالح مؤمن آل فرعون، الذي قدم الموعظة والمشورة والحجة لقومه بشأن رسالة موسى ﷺ وهو الذي نصح له بالخروج لئلا يقتل عندما فر إلى أرض مدين. ولعله كان متأثراً بدعوة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وكان من القلة المؤمنة أيضاً السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وسجدوا لله وقالوا لفرعون: ﴿ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧٢]. وقولهم في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾. وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ فتفيد أن باب التوبة مفتوح للإنسان ما لم يغرغر تحت وطأة سكرات الموت وهذا مشاهد في فرعون عند غرقه حين قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠]. وهنا تصور الآيات المشهد الأخير من حياة فرعون وهو يُحتضر ورده تعالى: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١].

ففي هذا الرد استفهام إنكار نص على عدم قبوله تعالى منه التوبة لأنها جاءت متأخرة بعد فوات الأوان، وهو العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالفه وعبد غيره القاهر للكافرين بالانتقام منهم، مع كونه كثير الرحمة في الإمهال وعدم المعاجلة بالعقوبة، لعلهم يعقلون قبل فوات الأوان حين لا ينفع نفساً إيمانها. (١)

(١) قصص الأنبياء:للإمام الحافظ ابن كثير، ص٢١٩.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء

١- إن التفسير السيكولوجي لقول فرعون لنبي الله موسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ يفيد أن الطواغيت في كل زمان ومكان صاغتهم القوة ونسجت حولهم أوهاماً وأساطير، فالطاغية عصبي المزاج نزق في سلوكه السيكولوجي ليس حليماً ولا صبوراً ولا متأنياً، وإذا سمع شيئاً لا يعجبه ولا يتفق مع هواه يسارع بالعقوبة ويتعجل بالقتل، فالطغاة على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون وفي آذانهم وقر فلا يسمعون، وقلوبهم غلف فلا يعقلون والمألوف عن الطغاة أنهم حين يغلبون على أمرهم ويخشون افتضاح أمرهم، ويعوزهم الدليل والحجة، عدلوا عن الجدل والمناظرة مع خصومهم. وعمدوا إلى ترهيبهم إرضاءً لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر وإشباعا لرغبتهم في القتل، علهم بهذا السلوك الشاذ يسترون عوراتهم ويخفون باطلهم بإخافة الآخرين.

وليس خافياً أن هؤلاء الطغاة على امتداد التاريخ لا يبغون إلا المحافظة على ما يتقلبون به من نعيم العيش والسلطان، وإذا أوجس الآحاد منهم من أحدٍ من الدعاة والمصلحين خيفةً منه. أعلن له العداء، وكشف له عن البغضاء، وتربص به الدوائر، ثم ما انفك ينتظر الفرصة السانحة للانتقام منه، وسعى من باب المكر والخديعة بث عيونه بين عوام الرعية، ليحذروا من اتباعه لحملهم على مجاراة الطاغية في عداوته. لعله يأنس منهم سكوتاً لو أقدم على تصفيته جسدياً.

فهل هناك محنة أشد مما يتعرض له الدعاة المخلصين في دعوتهم لله في كل زمان، وحسبنا من قصص الأنبياء مع طواغيت أقوامهم آية بوجه عام، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون بوجه خاص. وفي هذا درس للجهر بقول الحق في الدعوة لله وتحذير المؤمنين من الاستسلام لحكم الطواغيت.

٢- إن في هلاك فرعون وقومه دعوة للناس كافة على امتداد العصور للاعتبار والعظة، وبياناً أن طريق السعادة ليس بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان بل بعمق الإيمان، الذي لا يتأتى إلا بقوة العقيدة، التي تدفع إلى الاستماتة على المبدأ و الصمود باقتدار وثقة أمام العاديات وصعاب النوازل والأهوال، حتى ينتصر الحق على الباطل، وفي هذا شحذ للهمم وتقوية العزائم وإزالة الوهن من النفوس وإبعاد اليأس عن القلوب، فيتحرر الإنسان من خوف الذات وسلطان التقليد للآباء الأولين، ويعيش حياة السيد العزيز. والعاقبة للمتقين بالنصر المؤزر أو الشهادة في سبيل الله، لينعم في الجنة جزاء إيمانه وتصديقه لرسل الله.

٣- إيضاح تفرد نبي الله موسى عليه السلام بأمرين لم يكونا لأحدٍ من أنبياء الله ورسله، لا من قبل ولا من بعد وهما: (أ) شرف تكليم الله له من وراء حجاب بلا واسطة ملك، فسمع كلام ربه عليه السلام دون أن يراه، ولهذا لُقب بـ-(كليم الله). وتحققت له هذه المنزلة الرفيعة في المكان المبارك والليلة المباركة عند الجانب الأيمن الغربي من جبل الطور في الوادي المقدس طِوى وقت عودته من مدين[1] إلى مصر بصحبة أهله ليلاً، ولقد بدأ الله عز وجل كلامه لموسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والوحدانية، حيث أخبره أنه لا إله إلا هو، وأنه رب العالمين، وكلفه أن يذهب إلى فرعون ويبلغه الدعوة وأيده بمعجزتين العصا واليد. (ب) التماسه من ربه أن يصحبه في رحلته الدعوية أخوه هارون، فكان النبي الوحيد الذي سأل النبوة لأخيه فاستجاب الله له. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٣٦].

ومعلوم أن طلبه هذا لم يكن لمقصد دنيوي، بل ليكون أخوه هارون مساعداً له يتقوى به في دعوته، كما لا يفوتنا الإشارة هنا أن موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء والرسل في عدد معجزاته المادية وهي على النحو التالي:

أ- معجزة انقلاب عصاه حية تسعى وابتلاعها حبال وعصي سحرة فرعون.

(١) ورد في الحديث الشريف: (أتم موسى أوفى الأجلين وأبرهما وأوفاهما مع شيخ مدين). صحيح البخاري٢٦٨٤.

ب- معجزة اليد التي تظهر بيضاء من غير سوء.

ج- معجزة الرجز أي العذاب وتتضمن صوراً متتاليات من الآيات الربانية وهي رجز السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع ورجز الدم.

د- معجزة فلق البحر وغرق فرعون وجنوده.

هـ- معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بتفجير اثنتي عشرة عينا.

و- معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بالعديد من النعم في صحراء سيناء.

ز- معجزة بعث جماعة من بني إسرائيل إلى الحياة بعد موتهم بالصاعقة.

ح- معجزة رفع جبل الطور فوق جماعة من بني إسرائيل.

ط- معجزة إحياء قتيل بني إسرائيل بضرب جسده ببعض البقرة التي أُمروا بذبحها.

٤- إن الإله الذي كان أنبياء بني إسرائيل يدعون لعبادته هو الله رب العالمين، وديانتهم هي ديانة الإسلام بالمعنى العام في توحيدهم للعبودية والألوهية لله الواحد القهار.

فقد جاء على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢]. وعن يوسف عليه السلام قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء على لسان موسى عليه السلام : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]. وعن حواريي عيسى عليه السلام : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٥٢]. ولعل من المفيد الإشارة هنا أن الله رب العالمين هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة والتلمود.

وتعود تسمية (يهود) على جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر ونسبةً إلى مملكة يهوذا، فإله اليهود المزعوم (يهوه) ابتدعه كتبة التوراة المحرفة، في السبي البابلي بعد ثمانمائة عام من وفاة موسى عليه السلام، فطرأ عليها التحريف والتصحيف والتبديل باعتراف آيات القرآن.

فكان إلههم (يهوه) لا غاية له من العالم سوى اليهود شعبه المختار، الذين خصهم بالخيرية والتمجيد والاصطفاء وجعل النبوة قاصرة عليهم إلى قيام الساعة.

ولعل الناظر في التوراة والتلمود يرى دعوة (يهوه) لقومه الجنوح للبطش والقسوة والشر والمكر والخديعة والعدوان والتدمير وتعطشه للدماء، وله من صفات البشرية من مأكل ومشرب ومنام وحب وكراهية وغير ذلك الشيء الكثير، فأي إلهٍ هذا ؟! ولله المثل الأعلى الذي ليس كمثله شيء. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القرآن الكريم فرق بين مصطلحين هما (بنو إسرائيل) وهم ذرية يعقوب عليه السلام الذي كثرت النبوة في نسله، فكان منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام. وبين كلمة (اليهود) التي وردت تسع مرات في القرآن الكريم. ثلاث منها في سورة البقرة، وأربع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سورتي آل عمران والتوبة.

ونرى من بديع إعجاز القرآن أنه يطلق اسم بني إسرائيل على قوم موسى عليه السلام في مواضع الرضا في أغلب الحالات، كالذي نراه في ذكر اصطفاء الله لهم، وخصهم بالرسالة وإسباغ الحكمة والنبوة فيهم.

وبالمقابل يطلق اسم اليهود على بني إسرائيل في مواضع السخط عليهم، والتنديد بقبح أعمالهم، أو عند التحدث عن تمردهم على أنبياء الله ورسله، وما أصابهم جزاء ذلك من الذلة والعبودية لفساد طويتهم. أو عند تحذيرهم لغلو منكر القول الذي أدخلوه في كتبهم وقالوا هذا من عند الله وكفرهم بأنعمه. وقد اقترن اسم اليهود في آيات القرآن الكريم في غير موضع بالسوء والفحش واللعن والانحراف والشدة في عداوة المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[1] [المائدة: ٨٢].

وبنظرة فاحصة لسلوك اليهود في القرآن والسنة نرى أنهم أصحاب الباطل، ما انفكوا

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص٤٦٣.

يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم بعضاً، تأبى طبيعتهم العظة والاعتبار. استكبروا على موسى ﷺ في سيناء وكانوا قوماً مجرمين. استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم طريق الرشاد الذي جاءت به الرسل، أتتهم رسلهم بآيات الله فلم ينظروا إليها بعين الاعتبار لغفلتهم، وهم قوم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها، لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج. مشهود لهم بالكبر والمكابرة والعناد، عقيدتهم فاسدة لا تخضع لأي منطق سليم يتفق وفطرة الإنسان. وأنبياء بني إسرائيل بريئون منهم ومما يعبدون من دون الله وإنهم وإن علا شأنهم اليوم، فإن مصيرهم الهلاك والدمار في مستقبل الزمن.

٥- إن في قصة موسى ﷺ مع فرعون درس للتحذير من الذهاب للسحرة والكهان والعرافين فالساحر رجل انحرف عن جادة الإيمان واستخدم عالم الجن وسخره لخدمته. وأصبح خادماً لشيطانه الذي تعهده بإضلال الناس وغوايتهم. وفي الحديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[1].

والسحر عمل مذموم قبيح مستهجن مُخل بالعقيدة، وسمي سحراً لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، وهو من تعليم الشيطان لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وهو كفر وضلال وشرك يسعى إليه الإنسان عند الجهل بالدين والتهاون بالعقيدة. وفيه تقرب إلى الشياطين بما يحبونه من ذبح لغير الله أو كتابة الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية أو بإلقاء القرآن في نجاسة، وفي الحديث: (اجتنبوا السبع الموبقات)[2]. كان منها الشرك بالله والسحر، والسحر عمل يجري على أيدي الدجالين والمشعوذين طلباً للفتنة كالتفريق بين الزوجين أو المرض أو الوسوسة .... الخ.

والاعتقاد بوقوع السحر الذي يغير قدر الله إلى قدر الساحر كفر وخروج من الملة. وإن للسحر أعراضاً منها الصد عن ذكر الله وضيق في الصدور عند سماع القرآن أو الحديث

(١) صحيح مسلم/ ٢٢٣٠.

(٢) متفق عليه: البخاري٥/ ٢٩٤ ومسلم٨٩.

وتكرار رؤية الأحلام المزعجة والقلق والبله والغفلة والنسيان وجحوظ العينيين وهلاوس وهذاءات سمعية وبصرية، ومما يؤسف له ظهور بعض السحرة بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات كدخول النار والضرب بالسيف دون أن تؤثر فيه، والادعاء بعلم الغيب بواسطة قراءة الكف أو الفنجان أو الكهنة أو السحر أو التنجيم[١].

٦- ليس للمؤمنين بالله أن يكونوا مغلوبين على أمرهم أمام هؤلاء الدجاجلة والمشعوذين وعليهم أن يحصنوا أنفسهم بالآيات القرآنية والأذكار النبوية الشريفة التالية:

أ- الفاتحة. ب- أول خمس آيات من سورة البقرة. ج- آية الكرسي. د- أواخر سورة البقرة. هـ- سورة الإخلاص. و- سورة الفلق. ز- سورة الناس. ويضاف إلى ذلك عند التباغض والخصومة في الحياة الزوجية الآيات (١٠٢و١٠٣) من سورة البقرة.

أما الأذكار النبوية فهي:

أ- (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)[٢].

ب- (لا إله ألاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير)[٣].

ج- (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامّة ومن كل عينٍ لامّة)[٤].

د- (اللهم إني عبدك ابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري،

(١) كتاب التوحيد: د. صالح الفوزان، ص٤٧.
(٢) مسند أحمد ١/ ٦٢. وأبو داود٥٠٨٨. وابن ماجة٣٨٦٩. سنن الترمذي٣٣٨٨.
(٣) صحيح مسلم٥٩٤.
(٤) صحيح البخاري٣٣٧١، كتاب أحاديث الأنبياء.

وجلاء حزني، وذهاب همّي)[١].

ويستأنس بتلاوة الآيات والسور السابقة في الصباح والمساء عند النوم، أما الأذكار النبوية الشريفة فيتم ذكرها عقب كل صلاة. ولا يفوتنا الإشارةِ هنا من تلاوة البقرة والكهف أسبوعياً.

٧- قد ثبت في الصحيحين في باب فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته عن النبي ﷺ قال (لا تخيروني على موسى)[٢].

(لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور)[٣].

ويفهم من هذا الحديث من باب الهدايات المستنبطة لقصة موسى عليه السلام، النهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه العصبية، مع أن الله عز وجل قد رفع الأنبياء بعضهم على بعض درجات، لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفي الحديث (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)[٤].

وفي الحديث أيضاً (والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)[٥].

وهذا يدلل على وحدة الرسالات السماوية في معناها العام للإسلام لتكون في خدمة الإسلام بمعناه الخاص، وهي الرسالة التي نزلت على محمد ﷺ، الذي اقتدى بمن سبقه من أولى العزم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) وصبر كصبرهم ففعل، وجمع مختلف أنواع الصبر الذي صبروه، فكان أحقهم بالدرجة الأولى في أولي العزم.

٨- بمناسبة قوله تعالى عند دعوة موسى وهارون لفرعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

(١) سنن أحمد ١/ ٣٩١ و ٤٥٢ وابن حبان٩٧٢.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ٣٤٠٨، ومسلم ٥٣٧٣/ ١٦٠.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ٣٤٠٨ ومسلم ٥٣٧٣/ ١٦٠.

(٤) الترمذي ٣١٤٨، وأحمد١٠٩٨٧.

(٥) رواه أحمد ٣/ ٣٨٧، رقم الحديث ١٥٠٩٤.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الشعراء: ١٦]. نلاحظ ورود كلمة (رَسُوْلُ) مفردة مع أنهما مثنى، في حين جاءت الكلمة في سورة طه بصيغة المثنى لقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ٤٧. وتفيد الآية معنى نحن رسولان من عند ربك، وهنا يتحقق توافق المبتدأ والخبر في صيغة المثنى، أما في آية سورة الشعراء فلم يتطابق اسم إنّ وخبرها، حيث جاء اسم إنّ مثنى (إنّا) بينما جاء خبرهما مفرداً (رسول) واللطيفة القرآنية في الحكمة من تفاوت التعبير بين الآيتين، يمكن تعليله بأن سورة طه خاصّة بقصة موسى عليه السلام منذ ولادته إلى وفاته، ومن هنا جاءت دعوتهما لفرعون وملئه وقومه بصيغة المثنى، فكل منهما نبيّ في دعوته بينما لوحظ في سورة الشعراء حقيقة وحدة الرسالة والدعوة، فكل من موسى وهارون عليهما السلام يدعو إلى دين واحد شأن دعوة رسل الله جميعاً ممن ورد ذكرهم في السورة. [١]

وبالمقابل يرى العُكبري أنّ موسى عليه السلام هو الأصل وهارون تَبعٌ له فذُكر الأصل واكتفي به، إذ كان موسى على أمرٍ واحد في الدعوة مع هارون وهو مصدر رسالة، والتعبير المفرد هنا لكلمة (رسول) يُحمل على المثنى أيضاً بمعنى إنّا ذَوَا رسالة رب العالمين. [٢]

توطئة في بيان قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، أثبت الله نبوته في آيات عديدة من سور القرآن الكريم، وكرمه تكريماً خاصاً، وشهد له بأنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لأنعمه بالحمد والولاء، يذكر اسمه في القرآن والسنة مقروناً بالكرم والدعاء والتضحية، وهو صاحب الفداء بالذبح العظيم، آتاه الله رشده في صغره مذ عقِل، واختاره رسولاً واتخذه خليلاً[٣]، وفضله على كثير من خلقه، متسامح حليم أواه منيب، جاء ربه بقلب سليم، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين، وأمرنا الله تعالى باتباع ملته، وجعل في ذريته من

(١) قصص القرآن، د. صلاح الخالدي، ٢/ ٤٠٤.

(٢) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٤.

(٣) ورد في الحديث (يا أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم٥٣٢/ ٢٣.

نسل هاجر وسارة النبوة والكتاب والحكمة. ويعد حج البيت العتيق من أعظم آثار اتباع ملته يتفق المؤرخون أن مولده كان في العراق في القرن التاسع عشر ق. م. منذ أربعة آلاف عام. [١] وقد جاء ذكره في مختلف كتب التفسير مقروناً بعهد الملك الطاغية الكافر(نمرود)، الذي قال بالأُلوهية فأبطل بالمنطق العقلي والبرهان مزاعمه، مدللاً على ربوبية الله وحده لا شريك له. عاش في قوم اعتادوا عبادة الكواكب السيارة والنجوم كالشمس وعطارد والقمر والزهرة، ومنهم من توجه إلى عبادة الأصنام والتماثيل، فأحس بفطرته تفاهتها فأنكرها وأعلن براءته منها وحطمها، وتوجه صادقاً لفاطر السموات والأرض. وهنا بدأ صراعه مع أبيه وقومه، فما كان منهم بعد أن غلبهم في جداله ومناظراته حول آلهتهم المحطمة، أن طرحوه في النار ليقتلوه قصاصاً لفعلته. فأنجاه الله منها وكانت له برداً وسلاماً. وحتى لا يؤذيه بردها، قال تعالى: وسلاماً إذ لو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه لكانت برداً قاتلاً وهذا من لطيف التعبير القرآني، وكان من المفروض أن تنتقم آلهة القوم لنفسها ممن حطمها، ولكنهم حين أرادوا إحراقه لم تحرقه النار وخذلتهم آلهتهم. وتعطل قانون خاصية الإحراق. فكأن آلهتهم التي كانوا يزعمون أنهم ينتقمون لها ليست آلهة إنما أصنام لا تضر ولا تنفع. إذا وقفت عاجزة على أن تقول: يا نار احرقي من حطمنا. وهنا تحجرت قوانين الكون وأصبحت عاجزة أمام قدرة الله وإرادته فكانت المعجزة. [٢]

وبعد تلك الواقعة قصد بلدة (حاران) مولياً ظهره لمسقط رأسه بصحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط. ومنها توجه إلى أرض كنعان (فلسطين) فمكث فيها مدة من الزمن، ثم انطلق بعدها إلى مصر وكل حركاته مقدرة له من رب العالمين حسب حكمته ومشيئته، فما لبث أن غادرها عائداً إلى أرض كنعان مع أهله وجاريته هاجر، ونزل في بلدة (حبرون) وهي الخليل اليوم ولعل اسم المدينة مشتَقّ من خليل الله.

ولم يمض وقت طويل حتى رزقه الله ولده الأول إسماعيل من جاريته المصرية هاجر

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٧٤، ٤٨٠.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد متولي الشعراوي، ١/ ١٠.

التي وهبها الفرعون (سنسوسرت الثالث) ١٨٧٢-١٨٤٣ ق. م [1] إلى زوجته سارة، فوهبتها لزوجها إبراهيم فاستولدها نبي الله إسماعيل. فأسكنه وأمه مكة وشيد معه البيت الحرام[2]. وعهد الله عز وجل لهما عليهما السلام أن يطهرا البيت للطائفيين والعاكفين والركع السجود.

ثم ولدت له زوجته سارة لاحقاً ابناً في شيخوخته أسماه إسحاق بعد أن بشرت الملائكة به حين زيارتهم له وإعلامه بمصير هلاك قوم لوط.

ومما يجدر ذكره أن اسم إبراهيم مكرور في القرآن تسع وستون مرة في خمس وعشرين سورة. [3] وكان ذكره في كل سورة يأتي مناسباً لسياقها العام وما يعرض منها يتفق وموضوع كل سورة، ومناسبة الآيات في السورة تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، والمناسبة التي تساق القصة من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والمشهد الذي تعرض له ومدته، ومعلوم أن كل قصة مجملة أم مفصلة أم قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، وقد يذكر في القصة ما لا يرد في غيرها من الصور والمشاهد. كأن يذكر إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الكواكب والأصنام في سورة، ويرد تحطيمه للأصنام ومحاكمته على أعين الناس في سورة أخرى، ومحاججته للملك الكافر المنكر لوحدانية الله وربوبيته وألوهيته وتحديه له أن يأتي بالشمس من المغرب في سورة ثالثة، وطلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في سورة رابعة، وحمده أن وهب الله له على الكبر إسماعيل وإسحاق وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة وذريته وأن يقبل دعاءه ويغفر لوالديه يوم يقوم الحساب في سورة خامسة. ونجاته ولوط إلى الأرض المباركة في سورة سادسة، والأمر باتباع ملة إبراهيم في سورة سابعة.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٤٩٥.

(٢) قد ثبت في الصحيحين في ذكر بناء البيت العتيق عن أبي ذر قال: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة). متفق عليه، صحيح البخاري٣٣٦١ ومسلم٥٢٠/ ١.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢-٣.

ويتضح لنا مما سبق اختصاص كل سورة بحدث معين. والنهج ذاته مكرورٌ في قصص الأنبياء والرسل كافة، مما يتطلب على من يأخذ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يربط بين مختلف الصور والمشاهد والأحداث المشتركة التي يقتضيها السياق الواحد.

وورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التوسع في ذكر بعض تفاصيل ومشاهد قصته، وتعد سورة البقرة خير دليل على ذلك. إذ ذكر نبأه في الآيات ١٢٤-١٤١ و ٢٥٨ و ٢٦٠. كما ورد ذكره في آل عمران بشيء من التفصيل أيضاً.

الحالة الثانية: التوسط والاعتدال في بعض المشاهد واللقطات وهذا القول ينسحب على السور التالية: إبراهيم والشعراء والزخرف والحديد.

الحالة الثالثة: الاكتفاء بذكر اسمه بإشارات بسيطة ضمن بعض الأنبياء، وهي كثيرة منها على سبيل المثال: الأحزاب وص والشورى والنجم، فقد ورد ذكره في كل منها مرة واحدة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ

وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يخبرنا الله تعالى في هذا المقطع عن أمره عبده ورسوله محمد ﷺ، أن يقص على قومه من كفار قريش، قصة إبراهيم عليه السلام لمن أراد أن يتعظ ويعتبر، وصراعه في الدعوة مع أبيه وقومه في عبادتهم للأوثان والأصنام، التي كانوا ينحتونها بأيديهم ويصنعونها على أعينهم وينصبونها أرباباً لهم، كتلك التي ضربت حول الكعبة، وما انفك قومك يتعبدون بها ويزعمون أنهم على ديانة إبراهيم وملته. (١)

وليعلموا أن فيما ذكره الله من نبأ إبراهيم لعظة وعبرة، وما يعتبر بها إلا العقلاء الذين يتدبرون، لعلهم يهتدون ويقرون على صدق الرسل وقدرة الله. و أُتلُ عليهم يا محمد إقبال إبراهيم على الله بقلب سليم من مرض الشرك والكفر والنفاق حين صدع بقول الحق كما تدعوهم أنت الآن، بيِّن لقومك يا محمد خطاب إبراهيم لأبيه وقومه، تبكيتاً بقصد تقبيح أصنامهم للتنبيه على عجزها وفسادها وسؤاله عن عجب واستنكار: أي آلهةٍ هذه التي تفردتم بعبادتها؟ أوضح لقومك يا محمد ما كان من أمر إبراهيم في آلهة قومه حين أبطل أمرها وكشف زيفها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع. قل لقومك وعشيرتك الأقربين، أرأيتم وحدة رسالة الإسلام بيننا. فأين أنتم من ديانة وملة أبيكم إبراهيم على وثنيتكم؟ فاعتبروا مما يتلى عليكم على لسان نبيكم.

ثم تمضي الآيات لتخبرنا أن سؤال إبراهيم لقومه (ما تعبدون) كان سؤال إدانة لهم وتقريع لا سؤال استفهام. إذ كان يعلم أن أباه وقومه يعبدون الأصنام، ولكنه أراد إلزامهم الحجة أن لا وجه لعبادتها لعدم نفعها لهم. وهو بهذا أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وحواسهم

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٣١٧.

علَّهم يرشدون. لكن القوم كذبوه وأبوا أن يستجيبوا له استكباراً، ولو كانوا أهل علم وفطنة لما فعلوا ذلك، فأجابوه بإقرار عجز آلهتهم أن تجلب خيراً أو أن تدفع شراً، ومع ذلك بقَوا يقيمون على عبادتها لأنهم مدينون لتقليد الآباء والأجداد.

ثم تمضي الآيات لترينا تبرؤ إبراهيم ﷺ من أبيه وقومه ومن آلهتهم لأنهم قوم لا يرجون لله وقاراً مع إقامة الحجة عليهم. ثم عرَّفهم بالله عز وجل بقوله رب العالمين رب السموَات والأرض وما بينهما، ورب المشرق والمغرب وربكم ورب آبائكم الأولين الذي له الفضل على الخلائق في الهداية والإطعام والشفاء من المرض بأخذ الأسباب الموجبة وبيده غفران الذنوب في الدنيا والآخرة، وهو رازقي بما سخر ويسر من أسباب الرزق وهو الذي يميتني إذا حل أجلي، والذي يحييني مرة أخرى يوم القيامة والذي أطمع في غفرانه عما سلف مني وهذا شأنه مع الخلائق كلها.

واللافت للانتباه هنا أن موسى ﷺ عرَف فرعون على الله رب العالمين من خلال إظهار ربوبيته في الخلق كما تقدم ذكره. وها هو إبراهيم ﷺ يكررها في تعريف قومه على الله مما يدل على وحدة الرسالات، وأن دعوة الرسل واحدة ومتكاملة يكمل بعضها بعضا. (١)

ثم تمضي الآيات بتسلسلٍ وتخبرنا عن توجه إبراهيم ﷺ بالدعاء إلى الله عز وجل فقال: رب هب لي علماً ومعرفةً وحكمةً بحدود الله وأحكامه وألحقني بالنبيين من قبلي في الجنة، واجعل لي ثناءً حسناً في الآخرين، وذكراً جميلاً يبقى أثره بين الناس إلى يوم القيامة، واجعلني من عبادك الذين يدخلون جنة النعيم، ولا تُذلني يوم القيامة يوم لا ينفعُ أحداً ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولا أولاده إلا من جاء إلى الله بقلب مؤمن سليم، ومن كل كفر وشرك(٢).

ثم تتدرج الآيات لتعرض جانباً من صور ومشاهد أهل الجنة من المؤمنين، وأهل النار من

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٢٣.

(٢) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٦.

الكفار والمشركين، بما يتناسب مع موضوع السورة وسياق القصة أيضاً. فأشارت إلى أحوال أهل الجنة وما يلاقون من نعيم مقيم، وحال أهل النار وما يلاقونه من عذابٍ شديد.

فالمؤمن ينعم في الجنة جزاء إيمانه وتصديقه لرسل الله عليهم السلام. والكافر يحبط عمله، ويعذب في النار جزاء كفره وتكذيبه لرسل الله، ويفيد قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾. أن الله عز وجل قرب الجنة وأدناها لتكون بارزة للمؤمنين، ليشموا رائحة نعيمها قبل أن يدخلوها، وأظهر النار للكفار قبل أن يدخلوها ليشتد حزنهم جزاء شركهم. وبعد ذلك عرضت الآيات جانباً من حوار الكفار والمشركين مع أوليائهم من شياطين الإنس والجن، فيتخاصمون معهم بسبب ما هم فيه من الضلال، ويعترف الأدنى من الكفار بغفلته وجهله في مساواة الأعلى من شياطينهم بالعبادة مع رب العالمين. ويقولون لهم لسنا ندري كيف جعلنا أمركم مطاعاً علينا. ثم يصور لنا مشهد الكافرين حين يُلقَون في الجحيم على وجوههم هم والذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر والشرك، وعندها يتمنون لو عادوا للحياة من جديد ليعملوا صالحاً، ويعتبروا مما يتلى عليهم من الرسل، وليعملوا بطاعة ربهم. ولكن هيهات وأنى لهم أن يعودوا للحياة ثانية، والله تعالى يعلم أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون. [١] وفي مشهدٍ آخر نرى ما يوجه إليهم من تقريع وتوبيخ: أين آلهتكم التي كانت أرباباً من دون الله؟ هل يسمعونكم أو يستجيبون لكم لنجدتكم ؟ هل يستطيعون إنقاذكم من نار جهنم ؟

ماذا تحقق لكم من نفع في تقليدكم لآبائكم الأولين فيما كانوا يفعلون؟ إنكم وإياهم في جهنم، فالنار أولى بكم فذوقوا وبال أمركم وليس لكم من شفيع، وبعد هذا المشهد لأهل النار تختتم قصة إبراهيم عليه السلام بمحور السورة المتكرر﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾. لعل المقصود بالخطاب هنا قوم إبراهيم عليه السلام للإشارة إلى قلة المؤمنين بدعوته، فما آمن به من قومه إلا نفر قليل في أرض بابل بالعراق رغم طول مقامه بين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني٢/ ٦٥٢.

أظهرهم، وفيه إضاءة أيضاً لقلة المؤمنين برسالة محمد ﷺ من أهل مكة، ومما يصدق هذا الرأي أن النبي ﷺ عاش في مكة يدعو أهلها إلى الإسلام ثلاث عشرة سنة لم يتجاوز عدد المؤمنين برسالته بضع عشرات، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وكانت نعمة الله عليه عظيمة بعد الهجرة، حيث امتد الإسلام ليشمل في سنوات بسيطة الجزيرة العربية بأكملها فكانت قاعدة لانطلاق الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾. دعوة للرسل في الصبر على المكاره ومدح الثبات على العقيدة والإيمان بالفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر. وإن الله هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء

١- بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان. فالتقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين، ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]. فأهل الكفر والشرك – صم بكم عمي فهم لا يعقلون – صمٌ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسل الله، عُميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة في الكون.[(١)]

٢- تأكيد القرآن الكريم للمؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى. كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين تبرأ من أبيه لشركه بالله، وما وقع لنوح عليه السلام مع ابنه وامرأته عند الطوفان، وما تحقق للوطٍ عليه السلام مع امرأته من الشرك قبل الهلاك. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب.

---

(١) روح الدين الإسلامي: عفيف طباره، ص٢٧١.

ولقد بينت آيات القرآن عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أولي القربى. فإبراهيم ﷺ استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه - فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه. وتعد رابطة العقيدة بين المؤمنين إحدى مقومات التربية في الإسلام ولا تقوم صلة بين اثنين إلا على أساسها. [١]

٣- إن في قول إبراهيم ﷺ في دعائه ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. قد يحتمل تأويل اللسان بالذكر الحسن، بمعنى واجعل لي ذكراً حسناً في الأمم التي ستأتي بعدي، وقد يحتمل التأويل إجعل لي من ذريتي من يصدقني فيما دعوت إليه ويذكرني بخير. فيكون المقصود بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فكانت الاستجابة بعد آلاف السنين. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾[٢] [البقرة:١٢٩].

٤- إنّ في قول إبراهيم ﷺ يوم لا ينفع مال ولا بنون، ما يفيد أن المال إذا كان مصدره حلال وصُرف في وجوه البر والإحسان، مع إقامة شرع الله فيه من زكاةٍ وصدقاتٍ ونحو ذلك فهو مالٌ يُنتفع به في حياة صاحبه وعند موته، وهذا من أوجه حسن التصرف بالملكية الذي يتحقق فيه أدبيات استخلاف الإنسان لمال الله، ويعد ضابطاً لعلاقته بالمال وصيانته وإنفاقه، وخلاف ذلك فلا يتأتى عن الملكية إلاّ الخسران المبين في الدنيا والآخرة بحيث لم ينفع المال صاحبه لو افتدى ملء الأرض ذهباً.

٥- لمَّا كان إبراهيم ﷺ أفضل الرسل بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين، أمر الرسول ﷺ المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين (اللهم صلي على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على إبراهيمَ وآل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيمَ وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد) متفق عليه، صحيح البخاري ٣٣٧٠ ومسلم ٤٦٠/ ٦٦.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢١٨، ٢٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٠، وقصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص٢٨٠.

وإن في هذا من الهدايات ما يؤكد على وحدة النبوة والرسالة وتكاملها، ودليلاً على وجه الارتباط القوي بين إبراهيم ﷺ ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ففي هذه الآية الأمر بالصلاة على النبي ﷺ وهي مكملة لأمر النبي ﷺ بالصلاة على إبراهيم ﷺ مما يومئ إلى وحدة رسالة الإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق حول وجه الارتباط بين إبراهيم ﷺ ومحمد ﷺ في الشكل والجوهر، ما ورد في حديث الإسراء أن النبي ﷺ قال: (ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به)(١).

توطئة في بيان قصة نوح ﷺ في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

ورد ذكر قصة نوح ﷺ في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم وقد تفاوتت طولاً وقصراً بما يتفق مع موضوع السورة وسياقها ومشاهد لقطاتها والعبرة المتوخاة منها. وتكرر اسمه في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة في ثمانٍ وعشرين سورة(٢).

ويلاحظ أن السور التي ذكرت مشاهد طويلة من قصته هي سور مكية هدفها إثبات نبّوة محمد ﷺ. وبيان أن القرآن منزل من الله عز وجل معجز بسرد نبأ الأقدمين من الرسل للعظة والاعتبار(٣) وقد وردت أجزاء من قصة نوح ﷺ في سور كثيرة منها: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، وأنزلت في شانه مع قومه سورة بتمامها وأشير إلى مضمون قصته في سور أخرى للعبرة. (٤) وقد تحدثت سورة الأعراف (٥٩-٦٤) عن نبوة نوح ودعوته لقومه، وتفنيد شبهات القوم له. وعجب الملأ من القوم أن يرسل

---

(١) صحيح البخاري٣٣٩٤ وصحيح مسلم٤١٧ وأحمد٧٧٩٤.
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨١٥.
(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي١/ ١٥١.
(٤) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٤٢.

الله بشراً من جلدتهم لهدايتهم.

ثم جاءت سورة يونس (٧١-٧٣) وأبرزت مشاهد من مواجهة نوح عليه السلام لقومه، بالتحدي والثبات ومحاججتهم بالحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته وتكذيب القوم له.

ثم جاءت سورة هود (٢٥-٤٩) وعرضت مشاهد مطولة من قصته وأبرزت دعوته لقومه، وعدم تصديقهم له، وطلبهم الاستعجال بإيقاع العذاب بهم فكان الطوفان.

ثم جاءت سورة المؤمنون(٢٣-٣٠) لتبرز أن الله بعث نوحا إلى قومه نبيا ورسولا لهدايتهم، وإنكار قومه عليه ذلك مع القدح بدعوته بإثارة الشبهات ضده. واستنصاره بخالقه ودعوته أن يهلك الكافرين من قومه لضلالهم وفسادهم.

ثم جاءت سورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) فأخبرت بتوسع أن الله عز وجل أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه السلام لأهل الأرض من قومه. كأول رسول بعثه الله بعد آدم[1] بسبب شيوع الكفر فيهم إذ كان الشرك طارئاً شاذاً غريباً أول ما تحقق في قوم نوح وكان انحرافهم عبر أجيال متطاولة متعاقبة. انتقلوا خلالها من التوحيد إلى الشرك بالتراخي والتدرج. فبعثه الله ناهيا ومحذرا، فكذبوه وما زادهم ذلك إلا فراراً من الهدى، وإعراضاً عن الحق، وظلوا يعبدون أصنامهم تعنتاً وشططاً، وأوصى بعضهم بعضا بالعكوف لها، غير مبالين بما توعدهم به نبيهم عليه السلام وكفوا عن مجالسته والسماع لنصحه واتهموه بالضلال والكذب والجنون، وكانوا إذا

---

(١) ورد في الحديث (بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) رواه الطبراني في الكبير٨/ ١٣٩-١٤٠ رقم٧٥٤٥ وابن حبان٦١٩٠، (وكان بعد تلك القرون الصالحة أن طرأت على أهل الأرض عبادة الأصنام وهي بالأصل أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا وعبدت بعد هلاكهم) البخاري٤٩٢٠ كتاب التفسير باب(وداً ولا سواعاً ولا يغوث). والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام بعث الله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض وقد ثبت ذلك في الصحيحين في حديث الشفاعة (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه صحيح البخاري٣٣٤٠ ومسلم١٩/ ٣٢٧.

رأوه وضعوا أصابعهم في أذانهم، وغطوا وجوههم بثيابهم، ولكن نوحا ﷺ كان يغشاهم في مجالسهم ليسمعهم كلمة الحق رغم أنوفهم، ويجادلهم في شان أصنامهم ليريهم مدى ما هم فيه من ضلال وجهل وعمى.

ومع هذا لجوا في الجدل وأمعنوا في المراوغة والتكذيب[١] ونزّل الله تعالى تكذيبهم له بمنزلة تكذيبهم لعموم الرسل لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[٢]. وأمام عناد قومه وإصرارهم على تكذيبه استنصر ربه فنجاه والذين آمنوا معه وأغرق الكافرين وهذا واحد من المشاهد التي أشارت إليها سورة الشعراء.

ثم جاءت سورة العنكبوت(١٤-١٥) فانفردت دون غيرها من السور، بذكر المدة التي استغرقها نوح ﷺ، بدعوة قومه وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاءت سورة الصافات(٧٥-٨٢) وعرضت اللقطات السابقة التي تقدم ذكرها من بداية الدعوة وحتى الطوفان، مع الثناء على نوح ﷺ لطول صبره وجلده وحسن حججه وقوة براهينه، وإعراضه عن استهزائهم في حلم وأناة صابرا على أذاهم صامدا للغوهم.

ثم جاءت سورة القمر (٩-١٧) لتحدثنا عن دعاء نوح ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾، وترينا لقطات من مشاهد هلاك القوم كآية باهرة.

ثم جاءت سورة نوح (١-٢٨) فأخبرت أن الله عز وجل أمر نوحاً بإنذار قومه ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. وكشفت عن دعوته لهم بالعبادة والتقوى والطاعة، ووعده لهم بالمغفرة إن فعلوا ذلك.

ثم عرضت استخدام نوح ﷺ مختلف الأساليب في دعوته حتى الكونية منها، فلفت أنظارهم كيف خلقهم أطواراً وأنبتهم من الأرض، وخلق سبع سموات، وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً. [٣] وهذا الشاهد مألوفٌ ومشاهدٌ في يومنا هذا، حيث يعمد الدعاة إليه

---

(١) المرجع السابق: ص٤٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/ ٦٥٢.

(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ١٥٦.

لبيان عظمة الله في الخلق بكشف أسرار الإعجاز العلمي في القرآن. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. حيث اقتضت سنة الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام في القرآن الكريم. يلفت العقل إلى النظر والتأمل، بحثاً عن أسرار الكون ومظاهر عظمة الله في الأنفس والآفاق. مع وجوب التفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل قصة من القصص اللاحقة في هذه السورة تبدأ بنفس البداية التي وردت فيها قصة نوح عليه السلام فهي على الترتيب:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الشعراء/ ١٠٥. ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ الشعراء/ ١٢٣. ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ الشعراء/ ١٤١. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ الشعراء / ١٦٠. ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الشعراء / ١٧٦.[1]

وتومئ هذه الآيات بالكلية أن كل قوم كذبوا نبيهم فكأنما كذبوا الرسل كافة. كما تصب هذه الآيات الكريمة في خدمة مقدمة السورة وخاتمتها. وفيها إشارة تفيد أن أهل الكفر والشرك على وتيرة واحدة، مهما تباعد الزمن وتطاولت الدهور واختلفت العصور، وقد سبق عليهم القول بهلاكهم وعذابهم لكفرهم. كما ترينا أن دعوة الأنبياء والرسل واحدة، ومصير المؤمنين واحدٌ ومصير الكافرين واحد في كل دعوة، والله ينتصر لرسله متى شاء وينتقم من أعدائه المكذبين متى يشاء، مع اختلاف صورة الهلاك من قوم لآخر، فقوم نوح أهلكوا بالطوفان، وقوم عاد بالريح العاتية، وقوم ثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وقوم فرعون بالغرق. وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، تخفيفاً عن الرسول ﷺ، وتحذيراً وعبرةً للكافرين. وهذه آية باهرةٌ معجزةٌ للناس كافةً إلى قيام الساعة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٣٠.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة نوح ﷺ في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قراءات:

- (قرأ يعقوب واتباعك الأرذلون. وقرأ الباقون: واتبعك الأرذلون). [١]

أن نبأ نوح في القرآن الكريم هي واحدة من القصص القرآني. التي قصها الله على رسوله محمد ﷺ، وكان غافلا عنها غير عالم بتفصيلاتها وأحداثها، قبل أن تنزل وتخبره عن أحداث الماضيين من الرسل والأقوام، بوصفها من أنباء الغيب.

وقد عرض الله عز وجل آية من آياته في قصة نوح ﷺ وقومه، إذ كانت له العاقبة ولقومه الهلاك، وفي ذلك معجزة شاهدة على صدق الرسل فيما يقولونه عن الله.

كان قوم نوح يعبدون الأصنام بعد أن طرأ الشرك عليهم. بتعاقب الأجيال واتخذوها آلهة يرجون منها الخير والبركة. وقد أثبت القرآن الكريم خمسة أوثان لهم، كانوا يقدسونها وهي (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر). على حسب ما يملي عليهم الجهل، ويزين لهم الهوى، فأرسل الله عز وجل إليهم نوحاً ﷺ، فأثبت لقومه نبوته ورسالته في دعوة امتدت ألف سنة إلا خمسين عاماً. اعتاد أن يخاطبهم بلطف ولين قائلاً: أنا رسول من الله إليكم، أمين فيما أبلغكم عنه فاتقوا

(١) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٩.

الله بترك الشرك والكفر وعبادة الأصنام. أطيعوني فيما أمركم به، وقاية لأنفسكم من عذاب الله، وما أنا إلا نذير لما أمرني الله به إليكم. ولا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بدعوتكم للإيمان، بل أدخر ثواب ذلك عند الله. فأجابه قومه بغلظةٍ وقسوةٍ واستكبار: لا نستجيب لدعوة يستوي فيها الشريف والوضيع. ولن نؤمن لك وقد اتبعك الأرذلون منا الأقل جاهاً ومالاً والأخس نسباً وصنعة. وترينا الآيات مكر القوم إذ عرضوا عليه من باب المكر والمكيدة إن شئت أن نتبعك فما عليك إلا طردهم واستصغارهم وذلتهم لأننا لا نرغب أن نتأسى بهؤلاء الأرذلين لقلة نصيبهم من نعيم الدنيا وزخرف الحياة وتواضع ألوان معايشهم. فأجابهم على سفاهة قولهم قائلاً: ألا إنكم قوم تجهلون، ما كان لي وما ينبغي أن أطردهم من رحمة الله، وأنا مكلف بدعوتكم للإيمان وليس من شأني النظر في باطن أمورهم وعلم ذلك عند الله. فردوا عليه بإنكار دعوته والاستهزاء به والتكذيب برسالته لبشريته، فهو من جلدتهم وأخوهم في العشيرة والنسب. ثم تخبرنا الآيات توجه القوم له بالتهديد والترهيب: لئن لم تتوقف عن دعواك هذه وتترك قدح ما ألفناه من آلهة الآباء الأولين لتكونن من المرجومين بالحجارة موتا، واعلم لو كان في دعوتك خيرا ما سبقنا إليها أحد.

وتمضي الآيات لتظهر لنا حكمة تعامله مع قومه فجادلهم بالحجج والبراهين وجاءهم في إبلاغ الدعوة، بكل الأساليب والوسائل كالترغيب والتحبيب والترهيب سراً وجهراً ليلاً ونهاراً.

ولم يزل صامداً في دعوته لهم، فأنذرهم بالعقاب فعموا وصموا، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم.[1] وكلما زادهم دعاءً وتذكيراً زادهم فراراً وإعراضاً، وإصراراً على الباطل، واحتقاراً لأتباعه من الضعفاء المسترذلين حسب زعمهم.[2]

ثم تمضي الآيات لتبرز لنا مشهد اشتداد دعوته عليهم حتى ضاقت صدورهم وغلبت

(١) قصص القرآن: محمد أحمد المولى، ص١٥.

(٢) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٤٢٠.

عليهم شقوتهم، فطالبوه أن يعجل عليهم بما يعدهم من العذاب إن كان صادقاً في دعوته. ولما يئس من حمل القوم على الإيمان فزع نوح عليه السلام إلى ربه شاكيا ملتجئاً ودعا بهلاك الملأ الكافر من قومه لضلالهم وفسادهم، فاستجاب الله دعاه، وأمره أن يشرع من فوره بصنع سفينة النجاة له وللقلة التي آمنت من قومه. وتُخبرنا الآيات أنه لم ينج من سخرية قومه واستهزائهم له، كلما وقعت أعينهم عليه أثناء صناعته للسفينة. ومع هذا كان صابراً على أذاهم، وعند حلول الأجل الذي قدره الله عز وجل للطوفان، أمره بشحن السفينة من كل زوجين اثنين. ثم جرى الطوفان الذي أغرق القوم بالكلية وكان من أعيان المغرقين امرأته وولده. وأبحرت السفينة وسط أمواج البحر العالية باسم الله مجراها ومرساها ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

ثم تختتم قصة نوح عليه السلام بمحور السورة المكرور في كل قصة من سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢١-١٢٢]. للدلالة على قلة المؤمنين في دعوة نوح عليه السلام وهذا شأنهم في دعوات الرسل كافة، وإنَّ في هلاك قومه عبرة وعظة بالله القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، ثم يفيد الخطاب قوم النبي ﷺ في مكة وما كان أكثر الذين تتلو عليهم يا محمد من قومك بمؤمنين.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة نوح عليه السلام في سورة الشعراء

١- بيان تجرد الرسل عليهم السلام عن الغرض الدنيوي والمصلحة الشخصية في دعوتهم بقولهم لأقوامهم بلسان واحد في كل قصة: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. فقد تكررت هذه الآية في سورة الشعراء وحدها خمس مرات:(١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠). وهي تفيد إثبات نبوتهم بإقامة الحجة على الكافرين لحملهم على الإيمان طواعية، قبل أن يسألوا يوم القيامة من ملائكة العذاب: ألم يأتكم رسلٌ ينذرونكم ويحذرونكم من هذا العذاب الشديد الذي تلاقونه اليوم؟. ولقد جاءت هذه الآية لتخدم محور السورة وتعلل لها وتدلل، وكررت لتكون أبلغ في التحدي والتبكيت.

٢- القدح في وحدة سلوك الكفار المذموم، بإثارة الشبهات ضد رسلهم، من نوح ﷺ إلى محمد ﷺ. فهذا السلوك المرضي هو دأبهم وديدنهم على امتداد الأمم السابقة كلها. ومن صور إثارتهم للشبهات:

- نعت الرسل بقوادح القول كالتكذيب والجنون والتلبس بالجن والسحر والسفه والطيش والغفلة والحذق بنظم الشعر ونحوه.
- مطالبة الرسل الاستعجال بالعذاب إن كانوا صادقين.
- الطعن في بشرية الرسل من باب الغرابة والاندهاش، إذ كان قولهم لكل نبي ورسول: ما أنت إلا بشرٌ مثلنا وواحد منا، ألفناك منذ طفولتك تأكل مما نأكل وتشرب مما نشرب، ويجري عليك ما يجري علينا من متاع الدنيا ومن خلق وموت، ولو شاء الله هدايتنا لأنزل علينا ملائكة، ولو أعملوا العقل لتبين لهم أنَّ بشرية الرسول خير لهم وأكثر أنسا لنفوسهم.
- تقليدهم لآبائهم الأولين في معبوداتهم وآلهتهم من غير تبصر وتدبر.
- الاستهزاء بالله وكتبه ورسله، ومعلومٌ أن من استهزاء بواحد منها فهو مستهزئٌ بجميعها فكيف إذا كان الاستهزاء بها متلازم؟
- استضعافهم لرسل الله لقلة نصيبهم من متاع الدنيا وزخرف العيش.

٣- إن المتأمل لآيات القرآن الكريم في سورة الشعراء يرى أن الفقراء دوما هم السابقون إلى الرسل والرسالات وإلى الإيمان، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة ولا خوف على مصلحة أو وضع اجتماعي أو أي مكانة أخرى، ومن ثم فهم الملبون السابقون، الأكثر استجابة لدعوة الأنبياء من علية القوم الأكثر ثراءً الذين تقعد بهم كبرياؤهم ومصالحهم التي احتصلوا عليها في غفلة من الزمن فيأنفون أن يسويهم التوحيد بغيرهم من الرعية. [1]

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٢٦.

توطئة في بيان قصة هود عليه السلام في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

ذكرت قصة هود وقومه عاد في القرآن الكريم، بعد قصة نوح عليه السلام. بشكل يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث ولقد فصلت قصته بتوسع مع قومه في عشر سور، وبإشارات موجزة بشكل متفاوت في ثماني عشرة سورة.

وتكررت كلمة (هود) في هذه السور سبع مرات، وكلمة (عاد) أربعا وعشرين مرة، [١] وفيما يلي موجز لأبرز ما جاء في هذه السور من نبأ هود عليه السلام وقومه عاد، لإبراز وشائج الوئام والترابط بينها بما يتوافق ومحور السورة.

ففي سورة الأعراف تحدثنا الآيات (٦٥-٧٢) عن دعوته لقومه عبادة الله وحده، وهي دعوة الأنبياء كافة لأقوامهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإنكارهم لدعوته، ثم نجاة هود عليه السلام والقلة التي آمنت معه. [٢]

وفي سورة هود تحدثنا الآيات (٥٠-٦٠) عن إثبات نبوة هود، واتهام القوم له بالسفه والجنون.

وفي سورة المؤمنون تمضي الآيات (٣١-٤١) دون ذكر اسم هود وعاد، وتخبرنا عن إنكار القوم لنبوة بشر من جنسهم، وتقف عند هلاك القوم بالصيحة.

وفي سورة الشعراء تتوسع الآيات (١٢٣-١٤٠) في ذكر قوم هود وتخبر أن عادا استكبروا في الأرض وبغوا وظلموا، وجعلوا من قوتهم أداة لظلم الآخرين، ثم تبرز إثبات نبوته وتكذيب القوم له، وإنكار نصحه لهم وعدم قبول دعوته، لمخالفتها عقيدة الآباء الأولين، أوعظ أم لم يكن من الواعظين. وتبرز غرابة بناء القوم للأبراج والقصور، وتكذيبهم للبعث.

وفي سورة الأحقاف تحدد الآيات (٢١-٢٥) المكان الجغرافي لأرض القوم في الأحقاف، ثم تبرز استعجالهم العذاب، فكان العارض الممطر الذي أهلك القوم بالريح المدمرة.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨٣٠، ٦٠٥.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ص١/ ١٢١٨.

وفي سورة الذاريات أخبرت الآيتان (٤١-٤٢) عن مكر الله بالقوم لكفرهم، فحبس عنهم المطر وأصابهم بالقحط، وأرسل إليهم ريح العقيم فكان هلاكهم.

وفي سورة القمر جاءت الآيات (١٨-٢٢) لتخبر عن تعذيب القوم وهلاكهم بالريح الصرصر، شديدة الصوت والبرد، قيل أيضاً شديدة الحر، مع وصف النحس المشؤوم.

وفي سورة الحاقة أشارت الآيات (٦-٨) إلى هلاك القوم بالريح الصرصر العاتية لشدة سرعتها واستمرارها لسبع ليال وثمانية أيام، فكانت حاسمة لخبرهم وآثارهم.

وفي سورة الفجر تتحدث آياتها (٦-٨) عن قوة القوم وشدة بطشهم، ووصف براعتهم في نحت البيوت والأبراج والقصور الشامخة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة هود عليه السلام وقومه عاد في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قراءات:

- (ورد في تفسير القرطبي ١٣/ ١٢٥: وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: خُلُقُ الأولين في قراءة أخرى بفتح الخاء وسكون اللام)[1].

---

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٩.

بعد أن استوت سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي، عادت الحياة للأرض من جديد فعمرها نوح ومن آمن معه وبالتراخي تفرقوا في مختلف الأمصار فمنهم من استوطن الشام ومنهم من نزل العراق، ومنهم من سكن مصر، واتخذ قوم عاد لهم سكناً في الأحقاف، وكانت أرضهم قاحلة يقل فيها الماء، ويعتمدون في السقيا على مطر السماء.

أقامت عاد الأولى في الأحقاف كما تقدم في جنوب الجزيرة العربية، شمال حضرموت بين اليمن وعُمان قرب صحراء الربع الخالي على وجه التحديد.

حباهم الله عز وجل نعماً وافرة فجروا العيون ووظفوها في فلاحة الأرض، وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون، وزادهم في الخلق بسطة، وجعلهم أشد أهل زمانهم في الشدة والبطش.

كانوا جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادتهم لأصنامهم (صمدا وصمودا و هرا) وهم أول من عبد الأوثان بعد الطوفان، فاتخذوها آلهة بعد أن ساءت أخلاقهم وفسدت فطرتهم أرسل الله لهم رسولا من أنفسهم من أوسطهم نسبا، وأعرقهم حسبا، وأفصحهم لسانا فدعاهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك بالعقوبة الإلهية، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه واتهموه بالسفه والكذب والجنون، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. [1]

بوأهم الله أرضاً تدر عليهم الخيرات، ومكن لهم في ديارهم يبنون القصور الشامخات العالية، وينحتونها عند تقاطع طرق القوافل التجارية الهامة. كعلامات فارقة لإظهار حذقهم ومهارتهم، وبلغ بهم الغلو في الإسراف أن أنفقوا عليها ما لم ينفقه أحد من شعوب زمانهم.

وليس لهم نفع فيها غير التفاخر والمباهاة، لعلهم يعمرنوها سنين متطاولة، كأنهم باقون مخلدون لا يدركهم الموت. عثوا في الأرض فساداً، فأذل القوي منهم الضعيف عند الخصومة

(١) قصص الأنبياء: للإمام الحافظ ابن كثير، ص٦٥.

والاحتراب، وبطش القريب بالغريب بلا رحمة ولا شفقة لفسقهم وفجورهم. فأنكر عليهم نبيهم هود ﷺ ذلك. وشرع يذكرهم نعم الله عليهم إذ جعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، وزادكم قوة على قوتكم، وأنعم عليكم بالبنين والأنعام والواحات الخضراء في جوف الصحراء، وهي نعم تقتضي منكم أن تشكروه فلا تقابلوها بالكفر، ثم بين لهم سفاهة عبادتهم بالحجج المقنعة والبراهين الساطعة، وينصحهم أن يفكروا بعقولهم فيما يدعوهم إليه، ويتدبروا لأنفسهم ويعتبروا لعلهم يهتدون قبل فوات الأوان.

فآلهة هذا شأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع شراً ليست جديرة بالعبادة، وأن الاشتغال بها إتعاب للبدن في غير فائدة، فاتقوا الله بالكف عنها، وأطيعوه، ثم أبلغهم أمانة نقل الرسالة إليهم فإني لكم نذير وما أريد منكم أجراً ولا جُعلاً على دعوتي لكم. [(١)] ومن عمل صالحاً واتقى فلنفسه، ومن أساء ولم يزل مصراً على كفره ومخالفته لأوامره، فإن الله صارعه ومهلكه بالعذاب، ولن يضيرني إعراضكم ولا أبالي بما تأتمرون علي وتنعتوني به من قوادح الصفات، فلست أبالي مخلوقاً سوى الله، ولا أتوكل إلا عليه، وهذا ليس بعجيب على هود ﷺ في شدته وصلابته أمام قومه، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهذا شأن رسل الله في قوة الشكيمة كافة. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا تعجيزاً وتيئيساً عله يتوقف عن دعوته لهم حسب ظنهم: ما نظن إلا أن أصابك غضب بعض آلهتنا بسوء فمس عقلك فاعتراك جنون بسببه. [(٢)]

ثم تمضي الآيات فتصور لنا ردهم عليه بقولهم سواء أوعظت أم لم تكن من الواعظين - فإننا لن نخالف آباءنا الأولين في عبادتهم، ولن نعبد إلهك الذي تدعوننا إليه، فإن كنت صادقا فيما تدعوننا إليه فأتنا بالعذاب الموعود، وما أنت إلا مبتدع متقول لم نسمع بدعوتك في آبائنا الأوائل. وما أنت إلا سفيه طائش، فاسد العقل، تعيب آلهتنا التي وجدنا عليها آباءنا، فمن أنت ومن تكون فينا؟ وبأي شيءٍ تميز علينا حتى يخصك الله بالرسالة من بين أظهرنا؟ هلاّ اختار لها

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/٦٥٤.

(٢) قصص القرآن: للإمام الحافظ ابن كثير، ص٦٦.

عظيماً من أعيان القوم وعلية صفوتهم ذا مال وسعة وجاه وسيادة؟[١] وإن دعوتك باطلة وما هي إلا حياتنا الدنيا، نعيش كما عاش الأوائل ونموت كما ماتوا وما نحن بمعذبين. [٢] فأجابهم هود ﷺ في مشهدٍ آخر من مشاهد رده: يا قوم ليس بي سفاهة عقل ولا حماقة رأي، وما جربتم عليَّ من كذب، ولقد لبثت فيكم عمرا طويلا فلم تروا مني إلا خيرا، وما العجب في أن يختص الله واحدا منكم من أهل جلدتكم ولسانكم لتبليغكم أمر ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوما تجهلون. [٣] ولم يزل في مواصلة الدعوة يحبب لهم الإيمان بالله، والقوم معرضون عنه مكذبون له، حتى أخذهم الله بعذابه فأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية شديدة الهبوب، صرعت القوم وهم في اضطراب من أمرهم من هول المفاجأة، وكان أول ما ابتدأهم العذاب أن رأوا عارضا في السماء ظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب. ريحٌ عقيمٌ لا جدوى منها في خير، حسبوه رحمة فإذا هو العذاب بعينه. فلم تبق منهم أحداً. وقد ثبت في الصحيحين عن الرسول ﷺ : (نُصرت بالصَّبا[٤] وأُهلِكت عادُ بالدَّبُور)[٥].

واختتمت قصة هود ﷺ بمحور السورة المتكرر في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾. وفيها إشارة إلى أن معجزة هلاك القوم ما وقعت إلا لقلة المؤمنين برسالة هود ﷺ، وفي آية الإهلاك لدلالة على صدق الرسالة فمن عزته تعالى أن يهلك أعداءه ويقهرهم، ومن رحمته أن ينتصر لأوليائه، لعل قريشا في مكة تتعظ وتعتبر من قوم عاد الأشد منهم قوة وبطشاً، فإن ربك لهو العزيز الرحيم.

---

(١) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٥٠.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ص٦٥٤.
(٣) المرجع السابق: ص٥٠.
(٤) الصَّبا: الريح الشرقية والدَّبُور: الريح الغربية.
(٥) صحيح البخاري٣٢٠٥، ومسلم٩٠٠/١٧.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة هود في سورة الشعراء

١- عدم جواز التطير من هبوب الريح وصوته، على خلفية موروث تاريخي، يرتد إلى هلاك قوم هود عليه السلام، بالريح الصرصر العاتية. خشية معاودة الهلاك ثانية وانقلاب الزمان بأهله صرعى كما حدث مع عاد في السحيق من الأزمنة، وفي هذا الاعتقاد منافاة لأدب الإيمان بالقضاء والقدر، وحسبنا التأسي بالحديث الشريف إذا عصفت الريح قال النبي ﷺ : (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)[1].

٢ - لقد ذكر الله عز وجل إهلاك قوم هود في غير ما آية مجملاً ومفصلاً، بالصيحة ثم بالريح الصرصر العاتية، ما يدلل على وحدة تكامل الآيات وشدة ترابطها، في المضمون والسياق والهدف والغرض، بحيث تردف بعضها بعضا، بشكل متكامل وهي في الكلية آية دالة على العظة والاعتبار، للناس كافة في مختلف الأزمان للتعبير عن قدرة الله تعالى في تدبيره للكون.

٣ - عدم الركون إلى القوة المادية والتعويل عليها وحدها. دون تقوى الله، حتى لا تدفع صاحبها إلى الاستكبار والاستبداد والغطرسة والبطش، وهذا شأن قوم هود عليه السلام (عاد) التي لم يخلق مثلها في البلاد، الأكثر بطشا في زمانها فكفرت بأنعم الله اغترارا بعزة قوتها. وهذا الشاهد مكرورٌ في كل زمان ومكان ينسحب على الطغاة والجبابرة الذين يعتزون بجبروتهم، والدول القوية الظالمة التي تركن إلى قوتها دون اعتراف بفضل الله عليها، وتأخذ الدول الأخرى بالظلم والعدوان ولا تسعى لنصرة الضعيف.

٤ - إن من أهم القضايا العقدية في مقطع قصة هود عليه السلام، في سورة الشعراء تكذيب قومه له وإنكار نبوته، وإن في قولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ إقراراً منهم بإنكارهم للغيب. وعدم

(١) الترمذي٣٤٤٩ وابن ماجه٣٨٩١.

الإيمان باليوم الآخر الذي توعدهم به، فانتحلوا لأنفسهم ألواناً من الكفر، بسبب تحكيم عقولهم الوثنية التي تقوم على الجهالة والغي والتعصب، في أمور الغيب مما أوقعهم في خطأ تخيلاتهم للدار الآخرة، وما فيها من بعث وحساب لقياسهم أمور الغيب قياسا تاما على الأمور المحسوسة الدنيوية، وتوهموا أن الأشياء التي يشاهدونها بالحواس ينبغي عدم التسليم والتصديق بها، فهي ممتنعة الحدوث بزعمهم لأنهم لم يروا حياة بعد موت لأحد في دنياهم.

وإن من أسباب الضلالات الاعتقادية عندهم، عزوفهم عن مصادر الوحي الرباني لانحرافهم النفسي عن منهج التفكير السليم، والخلق القويم، فكان في تقليدهم لآبائهم الهلاك والدمار.

ولو أعملوا عقولهم على فطرتها الإيمانية من غير تعصب وهوى، لعلموا أن الكون مخلوق لله ومملوك له، ومطيع لقوانين الخلق الرباني، وكل شيء فيه خاضع لمشيئته وإرادته، حيث تقف قوانين الكون عاجزة أمام قدرته سبحانه وتعالى، كعجز آلهتهم عن تقديم نفع لهم أو دفع شر عنهم في الدنيا والآخرة.

وبقراءة تحليلية لدوافع منكري البعث نرى أنها ظاهرة ممتدة في التاريخ من عهد نوح ﷺ إلى يومنا هذا، مما يخدم محور السورة﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. إذ يمكن حصر فئات المنكرين في ثلاث مجموعات:

أ- مجموعة تجمع بين إنكار الخالق وإنكار البعث معا، كالوجوديين الماديين في عالمنا المعاصر، وهؤلاء في عددهم أقل من ثلثي سكان العالم بقليل.

ب- مجموعة تعترف بوجود الخالق ولكنها تشرك به لعبادتها الأوثان والأصنام، وما وجدوا عليها آباءهم الأولين في طقوس عبادتهم لها، وهذا شأن الأقوام السابقة، منذ نوح ﷺ إلى محمد ﷺ.

جـ- مجموعة تعترف بوجود الخالق ووحدانيته، ولا يشركون معه أصلا، ولكنهم ينكرون البعث الجسدي، ويثبتون الحياة الأخرى بشكل روحاني فقط. [١]

٥- لقد أجمع أهل الملل والشرائع السماوية أن البعث حق لا شك فيه، ومن الأمور المقررة المقضية بقضاء الله وقدره، وواقع لا محالة، ستعود فيها الحياة من جديد إلى الأجساد التي تحللت تراباً. والإيمان باليوم الآخر ضرورة لحل مشكلة الجنوح الإنساني لدفع الإنسان إلى فعل الخير والارتقاء في سلم الفضائل، وهذا من أسلوب التربية بالترهيب.

ومن لطائف الاستدلال القرآني في مناقشة منكري البعث أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن في غير موضع من القرآن أن إعادة الخلق أهون من ابتدائه، ثم صرفهم إلى النظر في أنفسهم وفي مظاهر قدرته في الخلق، وإن في ذلك لحجة تدل على كمال قدرة الله عز وجل [٢].

٦- إن الناظر لبطون كتب التفسير يرى أن للعلماء قديما وحديثا عدة أقوال في (عاد)، بسبب اللبس في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم: ٥٠-٥١]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر: ٦-٨].

مما يحمل على طرح السؤالين التاليين: هل هناك عادٌ واحدة أم اثنتان؟ ما حقيقة مدينة إرم؟

وللإجابة على السؤال الأول نقول: اختلف المفسرون في قوله تعالى﴿ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ فذهب بعضهم إلى القول أن الأولى هنا تفيد التمايز للفصل والتفرقة بين قبيلتين إحداهما عاد الأولى التي شهدت عذاب الصيحة، والثانية عاد الآخرة التي قضت بالريح الصرصر العاتية.

---

(١) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٦٦٧.

(٢) المرجع السابق: ص٦٦٩.

وقد تبنى هذا الرأي ابن كثير في تفسيره وكتابه قصص الأنبياء، [(١)] ودار في فلك هذا الرأي أبو السعود في تفسيره، وقد اختلفوا في عاد الثانية، فرأى بعضهم أنها ثمود وقيل غير ذلك.

ومن أنصار هذا من المحدثين الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء. وبالمقابل نرى الشيخ ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير يميل إلى الاعتقاد أن المراد بقوله تعالى ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ يراد به بيان قدم قبيلة عاد في جذور التاريخ الموغلة في القدم، بوصفهم إحدى قبائل العرب البائدة كثمود وطسم وجديس.

ويرى لفيف من العلماء الأقدمين والمحدثين في رأي آخر أن أولى الآراء بالصواب أن عادا قبيلة واحدة كان عذابها على مرحلتين الصيحة التي كانت مقدمة للثانية الريح الصرصر العاتية، التي سخرها الله عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدا. [(٢)]

وللإجابة على السؤال الثاني حول حقيقة مدينة (إرم عاد) نقول أن للعلماء المتقدمين والمتأخرين فيها عدة أقوال، ومما تجدر الإشارة إليه ابتداء أن كتب أهل الكتاب من يهود ونصارى لم تتعرض إلى ذكر قوم (عاد) إذ ليس لها مصدر إلا القرآن الكريم.

ومع هذا ومن باب الغرابة والاندهاش نرى أن بعض كتب التفسير وقصص الأنبياء، استقت نقولاً متطاولة من الخرافات والأساطير عن الإسرائيليات حول قوم عاد ومدينتهم (إرم) من غير دليل ولا حجة، فمنهم من توهم وأطال الوصف عن عجائب مدينة (إرم) الواردة في سورة الفجر كقولهم: أن المدينة بنيت لبنة لبنة من ذهب وفضة ونحاس، وهي في حالة تنقل دائم بين أمصار الأرض وحواضرها، وليست مستقرة في مكان واحد، فتارة هي في اليمن وأخرى في الشام وثالثة في الحجاز، وهي في حالة تجوال مستمر من مكان لآخر على

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٧١.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٢١٠، والقصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٢٣.

امتداد الأرض، مهما تناءت الديار وتباعدت الأمصار.

ويرى ابن كثير أن المراد في ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إرم عاد الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام إلى جوار قصورهم، [1] وهناك بعض الباحثين من يرى أيضا أنها مدينة خرافية أسطورية لا حقيقة لوجودها ولعل المراد في (إرم) أحد أجداد عاد الذي سميت القبيلة باسمه، وكلمة (ذات العماد) صفة لعاد القبيلة. [2] ومن أنصار هذا الرأي ابن خلدون.

وبالمقابل هناك من يؤكد وجود مدينة اسمها (إرم) الواردة في الآية، بلغ أهلها حسب الوصف القرآني درجة عالية في فنون النحت وعمارة الأبراج العالية والقصور الشاهقة مما استحق ذكرها في القرآن، لكنها ليست أسطورة كما ورد في الإسرائيليات ونرى أن ظاهر الآية يشير إلى ذلك من غير تكلف وتعسف في التأويل.

كما أن (إرم) في اللغة تفيد المجموعة من الحجارة المرفوعة العالية، وهذا يتفق مع هيبة بناء القوم للأبراج والقصور العالية في كل مكان مرتفع حسب ما ورد في سورة الشعراء وعليه فإن المراد بـ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ هي صفة المدينة الحقيقية عكس الشاهد الذي تقدم.

ومع هذا كله رجح فريق آخر من الباحثين في علم الآثار مؤخرا بناءً على تنقيبات أثرية قاموا بها، أن (إرم) تتوضع في منطقة (جبال رم) شمال الحجاز جنوب الأردن قرب البتراء، حيث وجدت في المنطقة آثار جاهلية قديمة، [3] وبقراءة موضوعية تحليلية لهذا الرأي نرى رغم التشابه بين كلمتي (إرم) و (رم) والتشابه في جغرافية المنطقتين إذ أن كليهما رمال قاحلة لا أنيس فيها ولا ديار إلا أن ظاهر سورة الأحقاف ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ ينفي هذا الاعتقاد بالكلية ويثبت وجود آثار القوم بالأحقاف جنوب شبه الجزيرة العربية.

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٦٧.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٣١.

(٣) مع الأنبياء في القرآن الكريم: عفيف عبد الفتاح طبارة، ص٨٦.

توطئة في بيان مقطع قصة صالح ﷺ في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

وردت قصة نبي الله صالح ﷺ في عدة سورٍ، وتكرر اسمه تسع مرات، في حين وردت كلمة (ثمود) ستاً وعشرين مرةً. [1] وتراوحت مشاهد قصته مع قومه في سور القرآن الكريم بصور ولقطات متفاوتة، بين البسط في التفاصيل إلى التوسط والاعتدال إلى الاكتفاء بالإيجاز بإشارات خاطفة أو مجرد الذكر فقط، حسب ما يقتضيه السياق القرآني من الحكمة والاعتبار.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٧٣-٧٩) نبأ دعوته لقومه وطلبه لهم عبادة الله وحده. وتقديمه الناقة معجزة له، واستهزاء الملأ من القوم به وبالذين آمنوا معه، وإقدامهم على قتل الناقة. [2]

وفي سورة هود أخبرتنا الآيات (٦١-٦٨) عن إثبات نبوته فيهم، وما خصه الله من معجزة الناقة، وإهلاك القوم بالعذاب حيث أخذهم الله بالصيحة.

وأخبرتنا سورة الحِجْر في الآيات (٨٠-٨٤) عن موطن القوم الجغرافي والتي منها اشتق اسم السورة.

وفي سورة الشعراء أخبرتنا الآيات ١٤١-١٥٩ عن دعوته لقومه بتقوى الله وطاعته ولزوم أمره واجتناب نواهيه، وأبرزت مظاهر ترف القوم وطلبهم لمعجزة مادية وعقرهم للناقة.

وفي سورة النمل أخبرت الآيات ٤٥-٥٣ عن دعوته لقومه وتطيُّر الكافرين به وبالمؤمنين الذين معه على قلة عددهم، واستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإبراز مكرهم وما هم عليه من الإفساد في الأرض، فكان عاقبة مكرهم الدمار والصيحة.

وفي سورة القمر أخبرت الآيات ٢٣-٣٢ إلى دعوته في قومه وعقرهم للناقة، ومعاقبتهم بالصيحة.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٩٦-١٩٧ و ٥٠٤- ٥٠٥.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٦٧.

أما السور التي تناولت إشارات خاطفة لقصته ﷺ فكانت (الإسراء٥٩، فصلت١٧-١٨، الفجر٩-١٠، الذاريات٤٣-٤٥، التحريم٥١). وهي في مجملها تخبر عن نبوته ومعجزة الناقة وأخذهم بالصاعقة، وبالمقابل نرى ورود اسم قومه (ثمود) مجرد ذكر فقط في السور التالية:

(التوبة٧٠، إبراهيم٩، الحج٤٢، الفرقان٣٨، العنكبوت٣٨، ص١٣، غافر٣١، ق١٢ البروج١٨). [1]

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة صالح ﷺ في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قراءات:

- (وردت كلمة فارهين في قراءة أخرى فرهين وهي في موقع حال)[2].

أورث الله عز وجل ثمود منطقة الحِجر شمال شبه الجزيرة العربية لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الحِجر: ٨٠]. وهي ديار ممتدة تتوضع بين الحجاز وتبوك

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٦٩

(٢) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ١٠٠٠.

على طريق الشام. فاستخلفهم على أرضها، واستعمرهم فيها، وجعلهم خلفاء من بعد عاد، وفجروا عيون الماء، وغرسوا الأرض زرعاً ونخلاً. ونحتوا من جبالها بيوتاً وقصوراً فارهة للدلالة على تميزهم وحسن دربتهم ومحكم صنعهم في فنون العمارة. لقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٩]. وأوسع لهم في رزقهم فعاشوا في حياة رغيدة. إلا أنهم لم يشكروا الله على آلاء نعمته، فكفروا بأنعمه وازدادوا عتواً وفساداً في الأرض، فانحرفوا عن الإيمان وأشركوا بالله أصناماً متعددة عُرف منها: (ود) و (جد) و (هد) و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (اللات). [1] نحتوها بأيديهم وصنعوها على أعينهم، محاكاة لتقاليد آبائهم الأولين وبلغ بهم الغرور أن ظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السعة من جميل الحياة متروكون. فبعث الله عز وجل رجلاً من صفوتهم، عاش بين أظهرهم حكيماً لهم، وهو عبده ورسوله صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، والتوجه بالتوحيد المطلق له في كل جوانب حياتهم ليسعدوا في الدنيا والآخرة، وحذرهم من العبودية لغير الله، ومما هم فيه من الظلم والضلالة، وما ألفوه من خرافات وأساطير، ليرسخ العزة والكرامة والطمأنينة في أنفسهم.

وطلب إليهم في مشاهد متعددة أن يتقوا الله بوجوب طاعته، وأن يطيعوه فيما بلغهم، وأخافهم بأسه وبطشه وغضبه إن هم ظلموا وتجاوزوا حدود الله. وأبان لهم أنه لا يسعى إلى رياسة دنيوية فيهم، ولا يطلب أجراً على دعوته لهم على عظم ما فيها من نفعٍ لهم في دنياهم وأخراهم.

فما كان جواب قومه إلا أن صموا آذانهم، وأنكروا نبوته وهزئوا ببعثته ودعوته فيهم وأظهروا التعصب لآلهتهم. وأغلظوا له القول وأجابوه، ما هذا الذي تدعوننا إليه، مما لم نسمعه في تاريخ آبائنا الأولين. إننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب، وليس لك أن تدعي النبوة وأنت بشرٌ مثلنا، واتهموه أن شيطاناً نفث فيه سحره، فأصبح يتخيل أموراً من الباطل وينطق بها لا

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي ١/ ٩٢.

يعرف. وإنك بهذا قد أتيت شيئا نكراً. [١] ثم تواصلوا في كيدهم ومكرهم فقالوا: قد كنت فينا قبل زعمك بالنبوة مرجواً، عزيزاً كريماً سديد الرأي رشيداً حليماً، ادخرناك للمات الدهر وعوادي الزمن، بيد أنك في دعوتك نطقت منكراً من القول وزوراً، وإنا بالذي تدعوننا إليه منكرون، إلا أن تأتينا بآية خارقة لتكون لنا برهانا ساطعا على صدق ما تقول وتزعم.

ومرَّت الأيام ولم يزل هذا مطلبهم، لِعتوهم عن أمر ربهم وكفرهم بالنذر. ولما رأى استعجالهم الشك بدعوته دون اليقين. أخذ منهم موثقاً وعهداً لئن أجابهم إلى ما سألوه ليكونن من المؤمنين فوافقوا. ثم تمضي الآيات لتبرز طلبهم للمعجزة فأشاروا إلى صخرة عندهم وطلبوا إليه أن يريهم منها آية، فقام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيب الملأ من القوم على سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة عن ناقة وكانت المعجزة. [٢] وقال لهم في مشهدٍ آخر هذه آية قاهرة لكم، فذروها تأكل وترعى حيث شاءت وترد ماء العين يوما بعد يوم ولكل نصيبه من الماء. وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء. فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، فلما طال عليهم الحال، زين الشيطان لتسعة رهطٍ من القوم، فاجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على عقر الناقة نكاية بنبي الله صالح ﷺ. وتصدى للمهمة واحدٌ منهم بالتشاور، والتنسيق مع هؤلاء الرهط التسعة بمباركة جمهور القوم وترحيبهم. فعقروها بسيوفهم رغم تحذيرهم بالعذاب وتوعدهم بالهلاك. فلما وقع من أمرهم ما كان أسرع نفراً من ملأ القوم إلى صالح ﷺ يعتذرون، إلاّ أنه لم يلتفت إلى مسوغات تبريرهم، فأنكر عليهم عقر الناقة بالكلية. وتوعدهم بالعذاب على استخفافهم وسؤالهم له التعجيل بعذابهم. فقال لهم نبيهم ﷺ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. أي انتظروا العذاب بعد ثلاثة أيام وبعد انتهاء الأجل أخذهم الله بالعذاب الذي وعدهم به، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، ثم جاءتهم الصيحة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، وأصبحت بيوتهم أطلالا أثرا بعد عين خاوية بما ظلموا.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٢.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٧٦.

ثم اختتم مقطع القصة بمحور السورة المتكرر﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾. إذ تبرز الآيات السابقة في مشهدٍ جديد قدرة الله في تدبير الكون خلقاً وإهلاكاً، وإن في قصتهم لآية للعظة والاعتبار، فأصابتهم سنة الله في الاستئصال، فهم الذين اقترحوا الآية وأجابهم الله، وسنة الله في الكون أن من كفر بعد أن جاءته آية اقترحها أن يستأصل فكيف بالذي اعتدى على الآية نفسها. [١]

ولعل من باب الاتعاظ لّما مر النبي ﷺ ببيوتهم الخاوية في غزوة تبوك، أسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم. وخاطب القوم: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[٢]. وفي الحديث أيضاً: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم)[٣].

وإن في تقريع الحديث الشريف لمنازل القوم على كفرهم لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين. والله ناصر أولياءه على أعدائه رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، وكل آيات محور السورة المتكرر يصب في التأكيد على رسالة محمد ﷺ، وتحذر المكذبين به وتردف بعضها بعضاً حتى خاتمة السورة.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة صالح عليه السلام في سورة الشعراء

١ - إبراز بعض مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق كمعجزة الناقة.

٢ - وجوب الاعتدال في المعايش والنهي عن الإسراف والبطر والتبذير، فالغلو في الإسراف من أسباب فساد الأفراد وسقوط الممالك على امتداد التاريخ. وهي من مظاهر الذنوب

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤١.

(٢) رواه أحمد ٢/ ١١٧.

(٣) صحيح البخاري ٣٣٨٠ ومسلم ٢٩٨٠/ ٣٨.

والمعاصي، التي إذا انتشرت في أمة كانت سبباً في شقائها وهلاكها. وهذا مشاهد من حال قوم صالح ﷺ، لمن رأى منازلهم في العُلا والتي لا زالت تدهش من يراها.

٣ - ذم الاستعلاء في الأرض لأنه يورث الظلم بكل صوره، وعاقبته الذل والهلاك. وهذا ما كان من نبأ قوم فرعون ونوح وهود وصالح ومن جاء بعدهم من الأنبياء. وكل آية في عاقبة المكذبين تختلف عن أختها لاستعلائهم وشركهم وكفرهم.

٤ - استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ على جواز المهيأة في بعض الأموال المشتركة، قال بذلك الإمام النسفي.[1]

٥ - إن في قول صالح ﷺ لقومه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ وجوب الطاعة بالكلية لله ولرسوله وللمؤمنين في كل زمان ومكان، ثم لجماعة المسلمين وإمامهم، ولا يجوز أن تعطى لكل مسرف مفسد غير صالح، ولكل صاد عن سبيل الله غير ملتزم بالإسلام، لقوله تعال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

وطاعة الأمة لحاكمها ليست عمياء أو مطلقة، وإنما هي طاعة لله ورسوله خالية من أي مصلحة أو منفعة أو ارتزاق، وليس فيها معصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٦ - من المعروف أن الناقة كانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها كفايتهم يوماً آخر ومع ذلك قام أشقاهم بعقرها نكايةً بنبيهم، فأخذ الله القوم بجريرة قتل أحدهم للناقةِ لمباركتهم فعله، فانسحب عليهم قول النبي ﷺ (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فسار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذاً استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤٢

جميعاً)[١]. يضرب الرسول ﷺ في هذا الحديث مثلاً لأولئك الذين يسيرون في هذه الحياة حسب أهوائهم وشهواتهم، كما يضربه لأولئك الذين رأوا المنكر فسكتوا عنه كأن الأمر لا يعنيهم، وهنا يصور النبي ﷺ المجتمع بما فيه من أخيارٍ وأشرار بركاب سفينةٍ تسير في بحرٍ متلاطم الأمواج، فإن تُرِكَ الأشرار على إرادتهم وطيشهم دون ردعهم بالقوة، هلك ركابُ السفينة جميعاً، وإن مُنِعوا وأُخذوا على أيديهم نجوا جميعاً. ولعل ما يرشد إليه هذا الحديث في قصة صالح عليه السلام أن الحياة كحال ركاب السفينة وإنّ المجتمع فيه الصالح والطالح، فإن تُرِكَ أهل الشر والفساد يسرحون ويمرحون ويفعلون ما يحلو لهم دون أن نوجه لهم النصح أو نمنعهم عن اقتراف الموبقات والآثام هلكنا جميعاً، وإن منعناهم نجونا جميعاً فكان في ذلك نجاتنا ونجاتهم وحياتنا وحياتهم. ومما يرشد إليه الحديث أيضاً في سياق قصة صالح عليه السلام وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمنع العابثين والمرتكبين للفواحش ما ظهر منها وما بطن امتثالاً لأمر الله من أجل نجاة المجتمع بالكلية.

توطئة في بيان مقطع قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

مما تجدر الإشارة إليه ابتداءً من قصص الأنبياء التي تقدمت قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء، يتبدى لنا بوضوح أن خطيئة أقوام هؤلاء الأنبياء الذين قضت إرادة الله عز وجل بهلاكهم، كفرعون وقوم إبراهيم ونوح وهود وصالح كان الشرك بالله، أما خطيئة قوم لوط فقد جمعت الشرك بالله وفاحشة إتيان الذكران من العالمين، التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من الخلائق، وورد ذكر لوط عليه السلام في القرآن سبعاً وعشرين مرة. [٢] في طائفةٍ من السور منها: (الأعراف وهود والحجر والأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت والصافات وص وق والقمر والشمس والتحريم).

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٩٤ و ٢١٦، ٢١٧. (القائم على حدود الله تعالى) معناه: المنكر له، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه. (استهموا): اقترَعُوا.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٢-٧٥٣.

وقد امتدت قصته عليه السلام في هذه السور بشكل متفاوت، بين التوسط في بيان ذلك، فالإيجاز بإشارات خفيفة سريعة، وهي بالكلية تتفق مع السياق العام والخاص للسور التي ذكر فيها. والأمر اللافت للنظر في مجمل سياق قصة لوط عليه السلام. أن الله عز وجل أطلق على قرى قوم لوط المؤتفكات. وهي جمع مؤتفكة ومشتقة من الإفك، وتفيد معنى المصروف عن الحق إلى الباطل[1]. وفي هذا إشارة إلى كذبهم وظلمهم وانحرافهم السلوكي والعقلي بسبب قلبهم للموازين، فأصبح الحق هو الباطل والباطل هو الحق، والصحيح من الخلق في منزلة الغريب المستهجن، والشاذ هو السائد المألوف، وقوم هذا شأنهم لا يصلحهم الإنذار، فهم غافلون معرضون ظالمون لأنفسهم، علتهم فيهم منهم وإليهم، وهم مستغرقون في الإعراض والتآمر والمكر على لوط عليه السلام ورسالته، لهذا كان الإهلاك بصوره المتعددة التي عصفت بهم تصديقاً للوعد الذي وعدهم به لوط عليه السلام. وفيما يلي وصف لما ورد في بعض السور من مشاهد قصته.

تناولت سورة الأعراف بآياتها (٨٠-٨٤) إبراز فاحشة قوم لوط، وإسرافهم فيما هم فاعلون، وسعي قومه لطرده ومن آمن معه لأنهم أناس يتطهرون، بدلا من أن يستجيبوا لمنطق الهدى والعقل والفطرة، وانتهت الآيات بالإخبار عن نجاة الله له وهلاك القوم لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأعراف:٨٤].

ثم جاءت آيات سورة هود (٧٦-٨٣) فأخبرت عن زيارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبشارته بولده إسحق. ومجادلته لهم في قوم لوط، وأبرزت الآيات نفسية قوم لوط عليه السلام عند نزول الملائكة في ضيافته وما أصابه من ضيق وحرج.

وفي سورة الحجر أخبرت الآيات (٥٧-٧٧) عن ضيف إبراهيم وهلاك قوم لوط بالصيحة مشرقين، فقلبت قرى القوم عاليها سافلها، وأُمطروا بحجارة من سجيل، فمن عزته سبحانه وتعالى أن يستأصل من شاء، ومن رحمته أن ينجي رسله والمؤمنين.

---

(١) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص٨٠.

وأخبرت سورة الشعراء (١٦٠-١٧٥) دعوة لوط إلى قومه عبادة الله تعالى لا شريك له، ونهيه لهم عن تعاطي المحرمات والفواحش من المنكرات والأفاعيل المستقبحة، ولما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ من عملهم، وسأل الله النجاة ومن معه من المؤمنين.

وأخبرت آيات سورة النمل (٥٤-٥٨) إنكاره ﷺ على قومه إتيان الفاحشة وهم مبصرون قبحها وقذارتها. واستهزاء القوم به وبدعوته.

وأخبرت آيات سورة العنكبوت (١٨-٣٤) تقريعه ﷺ لقومه ثم تبين مجيء رسل الله إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، وإخبارهما بمصير القوم الفاسقين، وفي هذا بيان لعاقبة مكر الكافرين.

وأخبرت آيات سورة الصافات (١٣٣-١٣٨) عن إثبات نبوة لوط ﷺ، ونجاته ومن آمن معه، وهلاك القوم مصبحين.

وأخبرت آيات سورة الذاريات (٣١-٣٧) عن ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم، وهلاك القوم بحجارةٍ من طين مسومة معلمة مكتوب على كل حجرٍ اسم صاحبه الذي يصرعه.

وأخبرت آيات سورة الأنبياء (٧٤-٧٥) عن لوطٍ في إشارة موجزة متسقة مع موضوعها وأبرزت ما أنعم الله به عليه من الحكمة والعلم والرحمة.

وفي سورة الحاقة أتت الآيتين (٩-١٠) على ذكر الماضين من المكذبين، مع تخصيص تسمية قرى لوط بالمؤتفكات ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ ﴾ ووردت تلك التسمية أيضاً في سورة النجم: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ ﴾ [النجم: ٥٣-٥٥]. وتفيد الآية الكريمة الإشارة إلى قلب قرى قوم لوط رأساً على عقب، بعد أن أنذروا فكذبوا فعوقبوا وحاق بهم ما كانوا يمكرون.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

أرسل الله لوطاً عليه السلام إلى عدة قرى عامرة بالسكان، من حواضر أرض الغور من بلاد الشام، منها سدوم وعمورة، على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر الميت، في منطقة ممتدة اليوم بين غور المزرعة وغور الصافي، والمنطقة جغرافياً من أعمال الكرك بالأردن. ومما تجدر الإشارة إليه أن لوطاً عليه السلام، قد هاجر مع إبراهيم عليه السلام من أرض العراق بعد واقعة تحطيمه للأصنام كما تقدم ذكره، إلى أرض كنعان بفلسطين، في القرن التاسع عشر ق. م. (١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء: ٧١]. وكان لوط قد نزل هذه الديار بأمر إبراهيم عليه السلام وإذنه. (٢)

ويتضح لنا من سياق ما تقدم: أن لوطاً عليه السلام كان غريباً عن القوم الذين نزل بأرضهم، لم يك من جلدتهم، كان ضعيفاً بمقياس الدنيا المادي أمامهم في قوة العصبية والعشيرة، ليدفع عنه اعتداء القوم عليه، لو أرادوا به شراً، مع علمه اليقيني من تأييد الله لرسله بالنصر على أعدائهم، وليس أدل على ذلك من قوله:﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود: ٨٠]. عند رؤيته هرولة الملأ من قومه إليه، وازدحامهم أمام باب بيته لمّا علموا بنزول

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٤٩٩.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١١٩.

الضيوف الغرباء في بيته، في وقت تمنى لو لم ينزلوا في ضيافته لعدم قدرته الدفاع عنهم، ولم تتوقف مخاوفه من القوم، إلا عندما عرّف الضيوف على أنفسهم بأنهم ملائكة قدموا لتعذيب القوم وهلاكهم، فاطمأنت نفسه وزال ضيقه وحرجه، وفي الحديث: (رحمة الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عز وجل، فما بعث الله بعده نبيّاً إلا في ثروة من قومه)[١].

إن الناظر للآيات القرآنية يقف على مشاهد مرذول قوم لوط، فقد كانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث. [٢]

ولم يكن بينهم رجل رشيد، يسعى إلى تصويب ما اعوج من أمر أخلاقهم الشاذة، في وطء الذكور للذكور مع وجود النساء، فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل، وحده لا شريك له، مخبراً أنه رسول الله فيهم، أمين على تبليغ رسالته، كارهاً مبغضاً لما هم فيه من الفاحشة، لا يطلب أجراً على دعوته. ثم تمضي مشاهد هذه الآيات لتخبرنا ما كان من جواب قومه أن أنكروا دعوته فيهم واستخفوا به، وهددوه إن لم ينته ليكونن من المطرودين خارج قراهم وحواضرهم. ولم يزل يخاطبهم بمنطق المروءة والحياء، فلما تيقن أنهم لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم، فلا هم نادمون على ما سلف من ماضيهم، ولا ينشدون في المستقبل تحويلاً تبرّأ منهم وسأل الله النجاة والقلة المؤمنة معه. [٣]

وهنا ترصد الآيات مشهد صورة الملائكة الذين وفدوا إليه على هيئة بشر وأمرهم له أن يخرج عنهم ليلاً. ونصيحتهم عدم النظر إلى ما خلفه من أحداث. وجعلوا الصبح ميقاتاً لهلاكهم، فلم يلتفت من أهله أحدٌ إلا امرأته، فأخذها من العذاب ما أخذ الظالمين فكانت

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٣٢ والترمذي٣١٢٧.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٢.

من الغابرين. (١) فقد كان هواها مع القوم تقر انحرافهم، وكانت عيناً لهم على ما يكون عند بعْلِها من الضيفان. (٢) فلما جاء أمر الله بوقوع العذاب، جعل قرى القوم عاليها سافلها. وأمطر عليهم حجارةً من سجيل، مكتوبٌ على كل حجرٍ اسم من رُمي به، وتم خسف الأرض بالقوم الكافرين، بظاهرة تشبه الزلازل والبراكين، وما يصاحب ذلك من تصدع وانهيارات وانكسارات وصعود وهبوط لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. ولهذا عُرف البحر الميت عبر التاريخ بأسماء تتناسب مع هذه الآية القاهرة، كالبحيرة المنتنة والبحيرة المقلوبة والبحيرة المخسوفة وبحيرة لوط، ولم يزل يخفي في باطنه في ساحله الجنوبي الشرقي بعض أطلال القوم. (٣)

وترك الله دمار القوم آية واضحة وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر: ٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥]. تركها الله عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، وترك معاصيه، وخاف أن يشابه من تشبه بقوم لوط. (٤)

وبعد أن مضت الآيات على نحو ما تقدم من المشاهد المتعددة، تختتم قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء، بمحور السورة المتكرر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾. فهذه الآيات تشير إلي قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله واتبع هواه وعصى، ودليلٌ على رحمته بعباده المؤمنين وإن قل عددهم الذين أخرجهم من الظلمات إلى النور وأيدهم بنصره. (٥) وفيها إشارة لقوم

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.
(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٦.
(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.
(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.
(٥) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٧.

النبي ﷺ من كفار قريش، أن يفيدوا من قوم لوط عليه السلام العظة والاعتبار، لئلا يستحقوا سخط الله بكفرهم، ودعوة لهم بالدخول في الإسلام، وإلا سيصيبهم ما أصاب الماضيين من أقوام الأنبياء والرسل.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء

١ - إن في قصة لوطٍ مع قومه، دعوة للاعتبار مما جرى لهم بسبب فسقهم وشذوذهم، فإتيان الذكور لجنسهم، قضاء للشهوة في غير موضعها، فالله عز وجل فطر ميل الجنسين كلاهما للآخر، بهدف تكوين الأسرة، التي تنشأ عن زواج الرجل بالمرأة بوصفها نواة المجتمع الأولى، فبصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد، وإن الغاية من اجتماع الرجل بالمرأة يحقق الحكم والهدايات التالية:

أ - حفظ التناسل البشري من الانقراض.

ب - إشباع الرغبة الجنسية بشكل مشروع.

ج - تعاون الزوجين على تربية الأولاد التربية السوية.

د - تنظيم علاقة الزوجين على أساس تبادل الحقوق والواجبات.

هـ- توفير جو المودة والرحمة والسكن النفسي بين الزوجين.

وإن في هذه العلاقة ما يوافق العقل والفطرة، أما سلوك قوم لوط فهو ضرب من ضروب تجاوز الحد في العدوان على شرع الله.

وإن في قولهم لا أرب لنا في نسائنا لقضاء شهوتنا، دليلاً على تحجر عقولهم وخروجهم عن فطرة الحياء، فاستحقوا لعنة الله وغضبه، فاجتمعت عليهم أكثر من آية من آيات الإهلاك والاستئصال، وإنّ في ذلك لعبرة وعظة.

٢ - إن إتيان الرجال شهوة من دون النساء، شذوذ مخالف للفطرة، وانحراف في نفسية الفاعل والمفعول به، يتأتى عنه مضار ذات أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وصحية ونفسية وخلقية وسلوكية، مدمرة للمجتمع الذي تتفشى فيه، تسارع في تصدعه وانهياره وتسوده أمراض عديدة منها السيلان والزهري والإيدز وغير ذلك.

وقد شدد الإسلام على تطهير المجتمعات البشرية من بؤر أهل الشذوذ، حفاظا على سنن الله في الكون، وفي الحديث: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[1]. وعلى خلفية هذا الحديث ذهب طائفة من الأئمة والعلماء كالشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما، إلى رجم اللائط، ويرى أبو حنيفة أن اللائط يُلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط. [2]

٣ - تصويب ما علق ووقر في الأذهان من مفاهيم خاطئة موروثة، تقادم عليها العهد في تداولها، حتى جرت على الألسن كأنها حقيقة مسلم بها، وهي قرن الشذوذ الجنسي اللواط باسم لوط عليه السلام، وهذا أمر مستقبح مستهجن منكر، غير مقبول ألبتة تأدباً مع الله عز وجل أولاً، ثم مع عبده ورسوله لوط ثانياً، فليس من الجائز إسقاط اسم النبي على فاحشة قومه ليصبح مثلاً في ذلك. وبنظرة فاحصة تحليلية في قواميس اللغة يتضح أن لوطاً اسم أعجمي غير عربي، وهو ليس اسماً عربياً مشتقاً، أما كلمة اللواط فهي عربية مشتقة: (لاط، يلوط، لوطاً، ولواطاً).

واللواط في اللغة هو اللصوق والالتصاق، كأن تقول: لاط الشيء بقلبي، إذا لصق به والولد ألوط بالقلب أي ألصق بالقلب. وتأسيساً على ذلك سمي فاحشة الذكر بالذكر لواطاً لأنهما يلتصقان معاً عند ارتكابها تلك الفاحشة الشاذة، ولا صلة بين اللواط واسم

---

(١) رواه أحمد ١/ ٣٠٠ وأبو داوود٤٤٦٢ والترمذي١٤٦١ وابن ماجه٢٥٦١.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٦-١٢٧.

نبي الله لوط ﷺ[١].

٤ - التحذير من مطالب المنظمات والهيئات الدولية التابعة للأمم المتحدة، التي تسعى جاهدة عبر مؤتمراتها الدولية إلى إشاعة هذه الرذيلة بدافع من المنظمات الصهيونية، على خلفية المناداة بحقوق الإنسان واحترام حرية الفرد الشخصية.

ولعل الجانب الخفي وراء هذه الدعوات المشبوهة مؤطرة بمرجعيات بروتوكولات حكماء صهيون الهادفة إلى نشر الفساد والرذيلة في العالم.

وإذا كانت الحرية المطلقة في عيون الغرب مقبولة بما فيها من شذوذ، فإن الحرية في الإسلام ملتزمة بالضوابط الشرعية. وعليه فإن من واجب المسلمين شعوباً وحكومات إنكار هذه الدعوات ومقاومتها بشتى الأساليب والوسائل، احتراماً لسنن الله في الكون.

توطئة في بيان مقطع قصة شعيب ﷺ في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

إن شعيباً ﷺ هو نبي من أنبياء العرب، مصداقاً للحديث الشريف:(الأنبياء العرب أربعة هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ)[٢].

ورد ذكره في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة. [٣] خمس منها في سورة الأعراف، وأربع في سورة هود، ومرة واحدة في كل من الشعراء والعنكبوت.

وردت قصته ﷺ في مواضع متعددة، وجاءت في سورة الشعراء في خاتمة قصص الأنبياء علماً أن مكانها التاريخي قبل قصة موسى وبعد قصة لوط عليهما السلام.

فتقدم عليهما نبأ موسى وتوافق ترتيبها بعد نبأ لوط، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩]. فلم يكونوا ببعيدين عن قصة شعيب لا مكاناً ولا زماناً. (فالتسلسل

(١) مواقف الأنبياء في القرآن: د. صلاح الخالدي، ١/ ١٥٣.

(٢) أخرجه ابن حيان في صحيحه٢/ ٧٦ رقم٣٦١.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٧١.

التاريخي للأحداث ليس مطلوباً لذاته، ولعل الحكمة تقتصر على خبر العبرة والاتعاظ من نهاية الشرك والتكذيب بالإهلاك والاستئصال). [١] وعليه فإن الترتيب التاريخي في قصص سورة الشعراء ليس مطلوباً لذاته.

ولعلماء التفسير قولان حول إرسال شعيب عليه السلام إلى قومه، أصحاب الأيكة وقوم مدين. فمنهم من يرى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، ومنهم من يرى أنهما أمتان بعث الله إليهما شعيباً، فأرسل إلى مدين مرة لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٨٤]. فأخذهم الله بالصيحة، ومرة ثانية إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٦]. ومن المفسرين من يرى أيضاً: أن شعيباً أرسل ثلاث مرات، مرة لأهل مدين وثانية لأصحاب الأيكة وثالثة لأهل الرس. [٢] ويرى ابن كثير بالقول الفصل أن الرأي الأول هو الأظهر والأولى بالصواب فهم أمة واحدة، وإن تعددت فيهم ألوان العذاب، وقد رد على الأقوال الأخرى وفنّدها وبيّن ضعفها. [٣].

وبنظرة تأملية لقصة شعيب في القرآن الكريم. نرى ورود إهلاك قومه في أكثر من موضع. وفي كل مرة يرد ذكر العذاب بما يتفق وسياق السورة، وقد أطلق القرآن على عذاب القوم ثلاثة أسماء هي **الرجفة** وتعني الاضطراب الشديد الذي يشبه الزلزال القوي، وما يصاحبه من تموجات وصعود وهبوط وارتدادات أرضية، و**الصيحة** التي جاءتهم من السماء وكانت مصحوبة مع رجفة الأرض القوية، وعذاب **يوم الظلة** وهي السحابة التي استظلوا تحتها وظنوها خيرا لهم، فكانت عليهم شرراً ولهباً وناراً.

وقد تفاوتت قصة شعيب في سورة القرآن بين التوسط، كما هو في سور الأعراف وهود والشعراء، إلى الإيجاز الشديد كما هو في سورتي الحجر والعنكبوت.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ص٦/ ٢٣٦.
(٢) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤٨.
(٣) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٤.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٨٥-٩٣) أن الله عز وجل أخذهم بالرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقد ورد ذكر الأنبياء في هذه السورة مرتباً ترتيباً زمنياً، فذكر خبر آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام. وذكرت قصته معطوفة على ما قبلها.

وفي سورة هود أخبرت الآيات (٨٤-٩٥) أن الله سبحانه وتعالى أخذهم بالصيحة جزاء كفرهم وسخريتهم، أخذَ عزيزٍ مقتدر فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقد جاء ذكر شعيب بعد نبأ نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط.

وفي سورة الشعراء أخبرت الآيات (١٧٦-١٩١) عن تكذيب القوم لنبيهم واتهامه بالسحر، فأخذهم الله عذاب يوم الظلة. وكان ترتيب قصته بعد نبأ موسى وإبراهيم وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

وفي سورة الحجر أخبرت الآيتان (٧٨-٧٩) عن ظلم أصحاب الأيكة وانتقام الله منهم. والأيكة مشتقة من الأيك، والجمع أيكة، وهو الشجر الملتف على هيئة الغابة.

وفي سورة العنكبوت أخبرت الآيتان (٣٦-٣٧) إثبات نبوة شعيب في قومه، وهلاكهم بالرجفة.

ومما تجدر الإشارةِ إليه، ونحن في نهاية قصص الأنبياء في سورة الشعراء، تشابه تساؤلات قوم شعيب واتهاماتهم له، بما جرى للأقوام السابقة مع أنبيائهم، كالتكذيب والاتهام بالسحر والسفه ونفي بشرية الرسل، والاستهزاء به والمطالبة برؤية آيات قاهرات على صدق النبوة. مما يدل على وحدة الرسالة والرسالات من ناحية، وغلظة قلوب الكافرين وشدة ألفاظهم على رسلهم ووحدة حالهم في تعنتهم. ولا يفوتنا التنبيه هنا أن القصة القرآنية ضربٌ من ضروب تاريخ دعوة الأنبياء والرسل إلى الله. وردت من أجل تسرية فؤاد النبي ﷺ، وليأخذ أهل قريش العظة والعبرة من مصير الأقوام الهالكة. وقد سكت القرآن لحكمة ربانية، عن ذكر تحديد المكان أو الزمان أو الأسماء في القصص القرآني، وكل ذلك من مبهمات القرآن.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قراءات:

(هناك قراءة أخرى: أصحاب لَيْكَةَ بدون ألف بياء بعد اللام وفتح التاء، ولَيْكَةَ هنا اسم القرية، في حين قرأ الآخرون: الأَيْكَةَ)[1].

استوطن أهل مدين والأيكة شمال الحجاز جنوب الأردن. في المنطقة الممتدة بين مدينتي معان والعقبة. في أقصى الجنوب الشرقي من بحيرة لوط. كانوا أمة واحدة توزعت مساكنهم في منطقتين جغرافيتين هما مدين والأيكة. أُعتبروا من أسوأ الناس معاملة في بيوع التجارة. يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها يقطعون الطريق ويتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك. عكفوا على عبادة الأيكة وهي غيضة كثيفة بالأشجار. بعث الله إلى مدين والأيكة أخاهم شعيباً، أشرفهم نسباً وأرجحهم عقلاً وأرشدهم رأياً، بدأهم بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم،[2] دعاهم إلى توحيد الواحد القهار. كما فعل المرسلون من قبله، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٣٤، والتبيان، العُكبري، ٢/ ١٠٠٠.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب٦/ ٢٣٦.

ونصح لهم الحكمة والموعظة الحسنة، وأخبرهم أنه أمين على نقل الرسالة ولا يسألهم على دعوته أجراً فأجره على الله. وحذرهم عاقبة ظلمهم وفسادهم في الأرض، وذكرهم نعمة الله عليهم، وأخافهم نعمته وعذابه إن خالفوا ما أرشدهم إليه، ونهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف في الكيل والميزان، [(١)] وأظهر لهم فساد اعتقادهم، وتقدم لهم ناصحاً في مشهد مؤثر حيث ابتدرهم بالقول: لا يحملكم مخالفتي وكراهيتكم إلي وبغضكم ما جئتكم به من رب العالمين. الاستمرار تعنتاً على ضلالكم وجهلكم. فاعتبروا واتعظوا بما وقع للمكذبين من الأقوام الهالكة كقوم نوح وهود وصالح، فما كان جواب قومه رغم مكانته فيهم، أن أغلظوا له الرد، وأنكروا دعوته واستهزؤوا به وسخروا منه ومن القلة التي آمنت معه، وأنذروه ومن معه وتوعدوه بالطرد خارج حواضرهم. وسألوه التعجيل بالعذاب إن كان من الصادقين، وخصوه بالقول لولا قبيلتك وعشيرتك لكنت مستضعفا مضطهداً مهجوراً.

ثم تمضي الآيات لتخبرنا استهجانه ﷺ لمقالتهم، ولما يئس من هدايتهم، استنصر ربه ودعا أن يجزيهم على عنادهم وكفرهم، وأن يعجل بعذابهم، فاستجاب الله دعاءه، فاجتمع عليهم ثلاثة أنواع من العذاب الصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة.

ويرى ابن كثير في طريقة العذاب ومراحله: (أن الله عز وجل سلط عليهم حرّاً شديداً، ففروا هاربين إلى البرية، فأظلتهم سحابة ظنوها دافعة لهم من شدة الحر. فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكامل عددهم عن آخرهم، رمتهم بشررٍ وشهبٍ ونارٍ وصواعق ثم اهتزت الأرض تحت أقدامهم واضطربت، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت أرواحهم). [(٢)] وكان ذلك (يوم الظلة) فالظلة سمة اليوم المعلوم لهلاكهم. [(٣)] ولما رأى هلاك القوم نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً. نصحتكم وحرصت على هدايتكم فأبيتم ذلك، وها أنا لست

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٠.

(٢) المرجع السابق: ص١٣٤.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٧.

أسيفاً بما وقع لكم. [١]

ولم تزل الآيات تمضي بتسلسل حتى انتهت بمحور السورة المتكرر الذي اختتمت به قصص الأنبياء السابقة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

إن في آيات محور السورة المتكرر من البداية حتى خاتمة السورة، دعوة تأملية للنظر في عاقبة مكر الأقوام المكذبة لرسلها. على امتداد تاريخ البشرية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ. وهي تشير صراحة إلى نصر الله رغم قلة المؤمنين في دعوة كل رسول. وكثرة الكافرين الذين لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج فهم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها.

وإن في آيات الإهلاك دلالة على قدرته سبحانه وتعالى في الكون الخاضع لمشيئته وإرادته، العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده من المؤمنين وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود عليهم فمن أسرع بالتوبة إليه تاب عليه وغفر ذنوبه.

كما وتصب آية المحور من بداية السورة وحتى الخاتمة، التأكيد على إثبات نبوة محمد ﷺ وتسليته أمام استهزاء وتنقص وتهكم قريش له. وله في نبأ الأنبياء السابقين أسوة حسنة. وفيها تحذيرٌ للمكذبين من قومه أن مكرهم سيحيق بهم عقاباً. كعاقبة أقوام الأنبياء السابقين الذين كانوا في سكرتهم يعمهون.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي يرشد إليها مقطع قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء

١ - أخذت قضية المال مساحة غير قليلة من دعوة شعيب عليه السلام. فأراد أن يقيم في أموال القوم مراد الله حسب قواعد شرعية رشيدة. [٢] فأبوا عليه وأنكروا واشتد نيلهم به.

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٥.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٤٦٩.

ولما كانت دعوة الرسل واحدة في أُصولها، نرى عظمة ما تنزل به القرآن الكريم من نظام اقتصادي صالح للبشرية، في كل زمان ومكان. لإقامة مجتمع الكفاية والعدل، وتنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه.

فالمال مال الله ونحن مستخلفون فيه، وهو ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى عنه، إلا أنه بالمقابل ليس غاية في حد ذاته وليس هدفاً للحياة، لأن للحياة قيماً أجلّ من المال.

وعليه وقعت الحرمة في البيوع الفاسدة والتلاعب بالميزان في العمليات التجارية كافة. فالمال الذي يتأتى لصاحبه من وفاء الكيل والميزان من المنظور الشرعي، خيرٌ من أخذ أموال الناس بالتطفيف. والقليل من المال الحلال خيرٌ وأحبُّ عند الله من الكثير الحرام. فالحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر. وفي هذا دعوة للأمانة والاستقامة في البيع والشراء. وترك الغِش والتلاعب بالميزان لأنه صورة من صور الإفساد في الأرض.

٢ - المالُ ليس أساساً لتقييم الناس والتفاضل بينهم، فلا يقيم الإنسان بما يملك. وإنما يقيم بتقواه واستقامته. وحكمة ذلك شرعاً من منظور الفكر الاقتصادي في الإسلام ضبط طغيان المال على نفسية صاحبه لقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [العلق: ٦]. حتى ينتصر الحق على الباطل كما انتصر شعيب على الملأ من قومه الأكثر جاهاً ومالاً إذ لا عبرة للملكية مع الكفر.

٣ - بيان أثر الصلاة الإيجابي على سلوك الإنسان. فقد لاحظ القوم تأثير صلاة شعيب والقلة المؤمنة معه. فأصبحت نفوسهم تعاف المعاصي وتأبى أن تتردى في مهاوي الضلالة.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي عمود الدين ومن مقتضيات العقيدة. ومن صور العبودية لله، مما دفع الملأ من قومه مخاطبته:﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود: ٨٧]. ومع هذا بقوا على ضلالهم وكفرهم تعنتاً وتقليداً لآبائهم.

٤- وجوب أن تتميز الدعوة لله بالحكمة والموعظة الحسنة. والمجادلة بالتي هي أحسن والتلطف في الكلام باللين، والموادعة، حتى يستميل الداعية القوم إليه أسوةً بدعوة الأنبياء والرسل في قومهم.

توطئة في بيان المقطع الأخير وعلاقته مع غيره من المقاطع

مما تجدر الإشارةِ إليه أنه بنهاية نبأ شعيب ، انتهى القصص القرآني في سورة الشعراء بما فيها من عظيم العظة والاعتبار لأولي الألباب، ومن اللافت عودة السياق ثانية إلى موضوع السورة التي تضمنته المقدمة. فانصبت الخاتمة والمقدمة بما بينهما من تجانس ووئام على تثبيت فؤاد النبي ﷺ وإقامة الحجة على أن القرآن من عند الله عز وجل، وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم الأنبياء والمرسلين، مع التأكيد على وجوب صدق الاعتقاد بالقرآن والنبوة معاً، وجوباً عقلياً وشرعياً بلفت الأنظار إلى آيات الله في الكون.

وتوافقت المقدمة والخاتمة على إبراز أن القرآن معجز يتحدى به لا يعارض بكلام مثله، ولم يقاربه من كلام الآدميين كلام، لم تعهد العرب أسلوبه في سالف أيامها، ولهذا أرادت آياته أن تُسمع البشرية الحق سماع تدبر واعتبار وتبصر، لا سماع محاكاة وتقليد للآباء الأولين الذي كانت عليه الأقوام البشرية الماضية على امتداد تاريخها.

كما أشارت المقدمة والخاتمة إلى بيان قدرة الله تعالى في الخلق، وهو القادر على كل شيء وبيده سبحانه تدبير الكون وما عليه من خلائق، المحيي والمميت، الغفور، الرحيم، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، شديد العقاب للمكذبين به وبرسالته.

وهذا في منزلة الترغيب للمؤمنين والترهيب بالوعيد والإنذار للكافرين من قريش لعلهم يهتدون وينأون بأنفسهم عن حماقة الملأ منهم، كأبي لهبِ وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، ممن بارزوا الله في العداوة.

وتفيد المقدمة والخاتمة أن بداهة العقل تحكم أن القرآن حكمٌ على غيره من الكتب

السماوية، وحكمٌ على اللغة والشعر، وما يجدد الله فيه من آيات يؤكد على رسالة الإسلام بمعناه العام والخاص، دين البشرية حتى قيام الساعة، فليس للمؤمنين بالله أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، فهو المعز لأوليائه المذلُّ لأعدائه.

ولعل الحكمة العظيمة التي يستأنس بها من المقدمة إلى الخاتمة، تكرار محور السورة، وما شمله من نبأ مصارع المكذبين للرسل على مدار الرسالات السماوية.

وأهم ما يميز الخاتمة عن المقدمة أمر الله عز وجل للنبي ﷺ أن يصدع بأمر الدعوة جهراً للأقربين من عشيرته بعد سريتها لثلاث سنوات. وأن يعرض عن المشركين المؤثرين للضلالة على الهدى، وأن يصبر على أذاهم كصبر رسل الله السابقين مع أقوامهم حتى جاءهم نصر الله.

ثم انعطف خطاب الخاتمة إلى استحالة تنزل الشياطين بالقرآن لأنه وحي من السماء وهذا ليس بحاصل لهم ألبتة، وزائل عنهم بالمطلق، وضرب من ضروب المستحيل. وقد أخبر الله تعالى في الخاتمة عن تخاصم أهل النار مع شياطينهم من الإنس والجن. وتوقفت الخاتمة عند اسم السورة وأبرزت مرتبتين للشعراء بحسب طاعتهم ومعاصيهم:

- الشعراء الغاوون: وهم أخس من أن نشتغل بهم وأسخف من أن نفكر فيهم لنظمهم الشعر القبيح الذي لا يلتمسون فيه وجوه الخير بالكلية، مفتونون بالباطل من القول والفعل.
- الشعراء المؤمنون: وهم المستثنون من عموم الشعراء المرذولين، الذين أُستحسن خلقهم وإيمانهم فأتبعوا قدوة، واستملح نظمهم للشعر في الدفاع عن الدين، فَقُصِدوا من المؤمنين حباً وشغفاً بشعرهم، لا يصدر عنهم من الأفعال إلا كل خير في الدنيا والآخرة مجزيون بمحبة الله ورحمته. ويتضح مما تقدم وضوح الصلة والترابط بين آيات الخاتمة وسياق السورة في مقاطعها الثمانية، وما ذكر في المقدمة يصب في خدمة محور السورة وخاتمتها.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأخيرمن سورة الشعراء

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

قراءات:

-(قرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي: نزل به الروح الأمين بتشديد الزاي المفتوحة ونصب الروح الأمين، والباقون: نزل به الروح الأمين: بفتح الزاي دون تشديد، ورفع الروح الأمين. وقرأ ابن عامر: أولم تكن لهم آية، بالتاء ورفع آية، اسم تكن، والباقون: أولم يكن لهم آيةً بالياء، ونصب آية، خبر يكن). [1]

(١) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣٢٦.

- (وفي قوله تعالى:﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ قرأ الحسن: الأعجميين)[1].

يقول الله تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أن القرآن الذي يتلى عليكم وما فيه من الرسل والرسالات، منزل من الله رب العالمين، نزل به جبريل ﷺ، وهو الملك المكلف بالرسالات السماوية.

فخبره صادق وحكمه نافذ إلى قيام الساعة، لينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له، أنزله بلسان القوم ولغتهم، عربياً فصيحاً ليكون قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، لدفع معذرتهم وحجتهم، فهو وإن كان بلغتهم فليس من جنس كلام البشر.

ويخبر تعالى أن كتب الأولين من الأنبياء كالتوراة والإنجيل بشرت بالنبي ﷺ وبقرآنه يعلمه المنصفون العدول من علماء بني إسرائيل، كما جاء على لسان عيسى ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ومع هذا فإن الملأ من مشركي مكة، لم يؤمنوا به لمرض في أنفسهم كبراً وعناداً، وحفاظاً على مكانتهم وزعامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى. فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن والرسول وأثاروا حولها مرذول الشبهات.

وزعموا منكراً من القول وزوراً أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ : (شاعرٌ وقيل ساحر وقيل إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وقيل افتعله من تلقاء نفسه عن أساطير الأولين وكتبهم وقيل أن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة، يدور في فلكهم حيث داروا فأوقعوه أسيراً

---

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ١٠٠١.

لهم، وقيل تارة أنه كذاب وتارة أخرى أنه مجنون، وتارة ثالثة أن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بها لا يعرف مع استحالة نبوته كبشر). فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله عن هذه الافتراءات. ولعل في تعددها وإضطرابها دليلاً على بطلانها وعدم صحتها، وهذا مكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل، ونبي الله ﷺ ليس بدعاً في ذلك. مما يدعم وحدة خطاب رسل الله في الدعوة لله.

وتبرز الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله. وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم عندئذ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال ويقولون نادمين، يا ليتنا أطعنا الله ورسوله ويوم القيامة ليس للظالمين والكافرين من ناصر ولا معين ولا شفيع. ويتمنون لو أنهم مؤخرون كرة أخرى في الدنيا ليكونوا من المؤمنين ولكن هيهات أن يستجاب لهم. ويقال لهم في مشهدٍ توبيخي: ألم نمكنكم في الأرض، ونطيل أعماركم فيها، وجاءكم الرسول يحذركم من هذا العذاب، فذوقوا في جهنم ما وعدتم به من عذاب شديد.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[الشعراء: ٢٠٨]. فيها إخبار من الله عز وجل ألا يهلك أمة حتى يبعث فيها رسولاً مبشراً ومنذراً، ليقيم عليها الحجة ويكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم من الأمم.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠]. وقوله تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢١]. في هذه الآيات رد على افتراءات قريش حين زعموا أن الشياطين هي التي توحي إلى النبي ﷺ بالقرآن، فبرأه سبحانه وتعالى لأن الشياطين لا تنزل على الأنبياء، بل على كل كاذب فاجر من الآثمين المنحرفين، الذين يختلقون من عندهم ما يقولونه لأتباعهم بشيء من التفخيم والتهويل والتدليس. فسجاياهم الفساد وإضلال العباد وأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، فالسماء ملئت حرساً شديداً وشهباً.

وبالمقاربة نرى أن القرآن فيه نور وهدى والشياطين لا يتأتى عنهم إلا الفساد والشرور وهم لا ينزلون إلا على من يشاكلهم ويشابهم من الكهان الكذبة.[١] الذين يلجأ الناس إليهم ويزعمون علم الغيب، ويركنون إلى نبوءاتهم وأكثرهم كاذبون. وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ الشعراء/ ٢١٣. دعوة للنبي ﷺ أن يخلص العبادة لله وحده وفيها بيان لمقام محمد ﷺ في العبودية ونقل الرسالة، وإن هو إلا بشر يوحى إليه، وعليه إتمام الدعوة على أكمل وجه لا يشرك به سواه، وهذا إخبار من الله تعالى أن من أشرك به عذبه أياً كان وكائناً من كان، وحين يكون الرسول ﷺ متوعداً بالعذاب، لو دعا مع الله إلهاً آخر، وهذا محال ولكنه فرض للتقريب من ناحية، وبيان خضوعه ﷺ لأوامر ربه من ناحية أخرى، وهو أكرم خلق الله وسيد البشرية، فكيف يكون غيره؟!.[٢]

ثم تمضي آيات الخاتمة لنرى أمر الله لرسوله أن ينذر عشيرته الأقربين، ليكونوا عبرة لمن سواهم، لئلا يتهددهم العذاب لو بقوا على شركهم. وإن حكمة البدء بإنذار الأقربين علامة على صدق الداعية في دعوته، وعلى جديته فيها. وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية، أتى النبي ﷺ (الصفا) فصعد عليه ثم نادى: (يا صباحاه ! فاجتمع الناس إليه، فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم: قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال: أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ فأنزل الله تعالى: تبت يدا أبي لهبٍ وتب)[٣].

ثم تمضي الآيات لتخبر عن أمر الله لرسوله ﷺ، اعتماد اللين والموادعة واللطيف من القول في دعوته. والصبر على أذى الكفار والمشركين، والتوكل على الله العزيز الناصر لأوليائه القاهر لأعدائه. واتجه الخطاب القرآني لإخبار رسول الله عناية الله وحفظه له، ورؤيته لعموم أحواله

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣. والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٥٩.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣، والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٥٩.

(٣) صحيح مسلم/ ٢٠٤.

كلها في صلواته ودعوته في حله وترحاله. وهذا في منزلة إيناس وتسرية ورعاية للنبي ﷺ.

وتمضي آيات الخاتمة حتى تصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ الشعراء/ ٢٢٤. حتى تمام السورة، ولقد جاءت هذه الآيات للرد على من يزعم من العرب أن القرآن شعرٌ، وأن رسول الله ﷺ شاعرٌ، مع أن منهج الرسول ومنهج الشعراء مختلفان.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت بشأن كفار قريش:(اهجهم وجبريل معك). وقال محمد بن إسحاق: لما نزلت الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك، إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء، فتلى النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال أنتم: ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾، قال أنتم. ويستفاد من هذا الثناء على فئة الشعراء المؤمنين.

واختتم الله السورة بالتهديد العظيم والوعيد الشديد لكل ظالم، وما سينتظرهم من الهلاك وأن عاقبة التكذيب الهلاك، لقوله تعالى:﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1]الشعراء/ ٢٢٧.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير

١- التأكيد على أهمية الإعلام كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، فالإعلام سلاح ذو حدين سلباً وإيجاباً. فهو إما أن يستخدم في تضليل الناس، وإما في هدايتهم. لهذا افتتح المقطع الأخير بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

ولعل الحكمة في ذلك أن الشعراء في عهد النبوة كانوا أهم أدوات الإعلام في زمانهم. فقد يكونون سبباً في الإغواء والصد عن سبيل الله، وقد يكونون منابر للهدى وإيصال كلمة الحق.

واللافت للانتباه هنا أن المقطع الأخير يدفع باتجاه الدعوة إلى الله كالمقدمة وباقي مقاطع

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣، والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٦٩.

السورة بما يخدم محورها.

وعطفاً على ما تقدم ينبغي على الدعاة في أيامنا هذه استخدام أفضل الأساليب والطرق في الدعوة، مع امتلاك أدوات الإعلام المختلفة المسموعة والمقروءة والمرئية، لتكون أدوات بناء لا معاول هدم كالترويج للمعاصي وإثارة الشهوات.

٢- محاربة الإسلام لمنهج الشعراء الغاوين لفحشهم وكفرهم وبذاءة ألسنتهم، لتبعهم طريق الشيطان لهوى النفس، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يتطاولون على المؤمنين بالتهكم والسخرية وتارة يأتون المجون في كل شعب من شعاب شعرهم.(١)

فالآحاد من هذه الفئة الضالة المضلة بعيد عن سلامة الفطرة، تقوده تخيلاته إلى انتهاج سلوك قبيح، يوجه إرادته لتسلك مسلكاً شاذاً، صفاته ذميمة يتغاضى عن نقائصه وعيوبه، مفتون بالخُيلاء والعجب، طالبٌ للجاه والسلطان والمنافع الخاصة يؤثر مصلحته بالمقاتلة ووسائل المكر والخديعة. لا يتغيا الإصلاح فيه من خوارم المروءة ما لا يمكن حصره، كالكذب والفحش والسب واللعن والمخاصمة وتتبع عورات الآخرين والغيبة والنميمة، ظالم لنفسه بالاستغراق في المعاصي والذنوب. وهذا الذم ينسحب على الشعراء الغاوين المتقدمين والمتأخرين فالعبرة من الآية الكريمة في سياقها عموم اللفظ لا خصوص السبب.

ولو تُرك هذه الضرب من الشعراء لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد وتوبيخ وقدح، لاستمروا في الضلالات يتيهون، فاقتضت حكمته سبحانه وتعالى، أن ينزل بشأنهم قرآناً يتلى، لبيان فساد طويتهم لعلهم يرشدون للجادة.

٣- الثناء على فئة الشعراء المؤمنين للمتقدمين والمتأخرين منهم في كل زمان ومكان.

إذ تفيد آيات خاتمة سورة الشعراء(٢٢٤-٢٢٧) تخصيص الاستثناء من عموم الشعراء

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٥.

الغاوين، الذين لا يجيدون غير صناعة الكلام، وقد سلف في هذا ما يغني عن الإعادة.

وقد استثني من سياق العام نص خاص يفاد منه تخصيص فئة الشعراء المؤمنين من استثناء عموم الآيات.

ولعل من لطائف التعابير القرآنية أن الخاص يرد ليوضح ويفسر مفهوم اللفظ العام، والأخير يحمل على الخاص، كما يحمل المطلق على المقيد، والمجمل على المبين. وكأن الخاص هنا استثني له حُكمٌ من حكم اللفظ العام لوضوح قرينة التخصيص.(١) وضروب التخصيص في القرآن الكريم متنوعة فهناك تخصيص الاستثناء كما تقدم، وتخصيص الوصف وتخصيص الغاية والتخصيص المتصل، والتخصيص المنفصل، ويكون التخصيص في الأخبار وغيرها، وتراعى فيه قرينة سابقة أو لاحقة أو مقارنة، وأدلته الكتاب والسنة والحس والعقل.(٢)

٤- إن في قوله تعالى﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أن الإيمان يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح، والإيمان بالله والعمل الصالح يترتب عليه مرضاة الله ومكافأة صاحبه نعيم الدار الآخرة. ومن شروط الإيمان التوكل على الله والالتجاء إليه في جميع الأحوال والأوقات. والإنسان المؤمن ليس هناك ما يدعوه لليأس والجزع وإن تقلبت عليه عوادي الأيام، لأن الإيمان ينير له ظلمات الحياة وتصغر أمامه الأهوال والمصائب وهذا من ضروب الحكمة.

قال الرازي: الحكمة عبارة عن التوفيق بين العلم والعمل، فكل من أوتي توفيق العلم بالعمل فقد أوتي الحكمة وأحكمته التجارب.(٣) والحكمة هبة إلهية لا تنال إلا بطريق التقوى والعمل الصالح. والتقوى هنا لفظ جامع يراد منه فعل كل خير واجتناب كل

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، ٢/ ١٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٨٤، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي، ٢/ ١٥-١٦.

(٣) مفاتيح الغيب: الفخر الرازي، ٦/ ٧٣٣.

شر. وفي هذا تنبيه للمقام الرفيع الذي أعطاه الله للمسلم الذي يزاوج بين الإيمان والعمل الصالح. وفي الآية الكريمة إشارة إلى عدم تكامل الإيمان إلا بالعمل الصالح، وهذا الاقتران مألوف في آيات القرآن كلها وإشارة إلى سلوك طريق الصالحين الذين أتاهم الله العقل والرشاد.

٥- إن في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ الشعراء/ ٢٢٧. دعوة من رب العالمين للوقوف في وجه الظلم كافة بضروبه الثلاثة: الظالم لدينه والظالم لنفسه والظالم للآخرين، والمسلم مطالب بالعزوف عنه امتثالاً لله ولرسوله. والظالم هو الذي يتبع هواه وكان أمره فرطاً لسواد صحيفة حياته. وتفيد هذه الآية التحذير من الاغترار بسطوة الملك والجاه والسلطان الذي يولد في صاحبه الظلم. وفي الآية تأكيد على محاربة الظلم لتجاوزه الحد في العدوان أياً كانت صوره ومصادره. وعدم الاستسلام له ودفعه عن النفس بالمقاتلة والدعاء. فدعوة المظلوم مستجابة وأبواب السماء مشرعة لها، وتفيد الآية الكريمة أيضاً وجوب العمل على نصرة المستضعفين، والدعوة للعدل الذي هو وضع الأمور في موضعها الصحيح على أساس المساواة وهو سر بقاء الدول وقوتها. في حين نرى الظلم يقف وراء زوال الممالك وانهيار الحضارات على امتداد التاريخ.

والظلم ظلمات عقباه الندم، وينبغي للظالم أن يتوقف عن ظلمه ويتحلل من المظلوم في دنياه.

فالذنب لو كان بين العبد وربه، فإن الله تعالى كريم يتجاوزه، وإذا كان بين الإنسان وأخيه فلا خيار له سوى رضاه فإن لم يفعل كان مفلساً يوم القيامة، لا حسنات له. وليعلم الظالم إذا دعته قدرته على ظلم الآخر فليتذكر قدرة الله عليه، والله يُملي له ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ومن أعان ظالماً على ظلمه باء بغضب من الله ومن قبض على ظلم فهو من سوء خاتمته، وإن في قصص مصارع الظلمة من المتقدمين والمتأخرين لآية.

الخاتمة

تناولت سورة الشعراء العديد من مقاطع قصص الأنبياء والرسل، وعرضت لنا جانباً من حياتهم ومواقفهم مع أقوامهم، وما انتهى به أمر الدعوة من إهلاك الكافرين ونصرة المؤمنين.

ولقد امتازت القصص على شريف المقاصد والأغراض وسموّ الغايات، واشتملت على مسالك الحكمة والاعتبار والتدبر، وانتظم فيها فصول في الأخلاق والتربية والآداب والدعوة والثبات على المبدأ والصبر والتهذيب، بالترغيب تارةً والترهيب تارةً أخرى، لحمل أهل مكة خاصةً على الإسلام، وجعل المسلمين عامةً يقتدون بسيرة رسل الله، فيما أخبر عنهم وأثنى عليهم سبحانه وتعالى، من جميل الدعوة وحسن الخلق، والصبر والتضحية.

عسى أن ترعوي هذه الأمة عن أمور عوقبت بها الأمم السابقة لمخالفتهم رسلهم، لكونها خير أمة أخرجت للناس. ففي هذه القصص منهج تربوي يقوم على أسس عقدية وأخلاقية تهدف إلى هداية الإنسان لما فيه من صلاح أمره في الدنيا والآخرة، وفيها دعوة لمخالفة الشيطان واتخاذه عدواً، وقهر النفس الأمارّة بالسوء وكبح جماح هواها.

ومن اللافت للانتباه في القصص القرآني، توظيف القرآن الكريم لكلمتي الخبر والنبأ للتعبير عن الماضي، فاستعمل النبأ والأنباء في الأخبار عن الأحداث والقصص البعيدة زماناً ومكاناً، في حين استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع والأحداث قريبة العهد بالوقوع في تسلسلها التاريخي، أو تلك التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان.[1]

وتعكس هذه القصص مرآة عصر كل نبي ورسول في زمانه ودعوته في قومه، وتُبرز في مشاهد ولقطات مؤثرة قلة المؤمنين بكل دعوة، مصداقاً لقوله تعالى في محور السورة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ولقد شاء الله سبحانه وتعالى اختيار مشاهد هذه القصص بالقدر الذي يخدم الدعوة ويفتح للناس أبواباً واسعة، للتأمل والعظة بما يخدم المقاصد والأهداف.

---

(١) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٧.

وقد أظهرت مقاطع القصص في سورة الشعراء، أن الأقوام التي تقدم ذكرها، لم تهلك إلا بعد أن كفرت بأنعم الله وصدت عن دعوة الإيمان، فأذاقها الله لباس الموت والهلاك بسبب طاعتهم لشياطينهم والاقتداء بهم واتباعهم.

وجملة القول في غلبة القصص القرآني على مجمل الآيات في سورة الشعراء، دليل صريح على عظمة التعريف بالإعجاز الغيبي في الكشف عن ماضي الحوادث للأنبياء وأقوامهم، لنعلم بالكلية أن الله عز وجل قص على عبده ورسوله ﷺ أخبار الماضين من الرسل والأمم الخالية لحكم مستطيلة ومتطاولة يصعب حصرها.

ويكفي المرء أن يقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَاتْلُ، وَاذْكُر، وَمَا كُنتَ، وَإِذْ قَالَ) ليعلم كم مرة أخبر الله عز وجل رسوله بأنباء غيب الماضي. فهي لم ترد للسرد التاريخي وإنما للعبرة والعظة، من أجل تحقيق أهدافٍ تربويةٍ دعوية، لعل الناس يتفكرون ويتعظون ويعتبرون، ولا يأخذ بهذا إلا أولو الألباب والأبصار، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للأولين فهو أعمى البصر والبصيرة والعلة فيه ومنه.

ولعل من فضائل هذه القصص تسرية النبي ﷺ، وتثبيت فؤاده في الدعوة، والصبر على ما يواجهه من صعاب، بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1] [هود: ١٢٠].

وانتهت السورة إلى ذم الشعراء الغاوين الذين غرقوا في الضلالة فضلوا وأَضلوا، وكان لهم الرياسة في الفساد في كل زمانٍ ومكان، مصداقاً للحديث الشريف (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً)[2] واستُثني من الذم الشعراء المؤمنون.

---

(١) قصص الأنبياء: أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي، ص٣.

(٢) مختصر صحيح البخاري، د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز، ص٦٧٨، رقم الحديث ٢١٠٨ عن ابن عمر رضي الله عنه باب ما يكره من الشعر.

ولعل من الحكمة الإشارة إلى بيان وجه الارتباط، بين سورة الشعراء وسورة الفرقان التي قبلها وسورة النَّمل التي بعدها وسورة القصص التي تليها، في كونها سور مكية اجتمعت فيها ضوابط وخصائص وأغراض القرآن المكي الموضوعية.

كما تعاضدت هذه السور في إبراز منزلة القرآن وعظمة مُنزِّله وسعة ملكه وسلطانه وإثبات النبوة وسرد المعجزات والآيات الكونية وذكر بعض قصص الأنبياء والرسل.

وتُعد سورة الفرقان تمهيداً لسورة الشعراء في حين تعتبر سورة النمل تتمةً لها، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء، قصص داود وسليمان مع تفصيل وبسط لقصتي لوط وموسى عليهما السلام.

كما يتجلى وضوح العلاقة بين سورة الشعراء وسورة القصص التي تلي سورة النَّمل، في تشابه كل منهما في فواتح السورة، إذ افتتحت كل منهما بقوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ وقد اشتملت على تفصيل لما ذُكر قبلها إجمالاً من شأن موسى ﷺ مُنذ وُلد.

وفي هذا دروس وعبر شأن قصص القرآن في عموم سوره بهدف تقويم الأخلاق وتزكية النفوس وتهذيب الطباع لما فيها من المواعظ والعبر والدعوة إلى الحق والهداية، وهذه بالكليَّة من أمَّهات المقاصد التي يدعو إليها القرآن الكريم وأسماها.

سورة النمل

بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

أشهر أسمائها (سورة النمل)، وتسمى أيضا (سورة سليمان)، وذكر أبو بكر بن العربي[1]: أنها تسمى (سورة الهدهد). ووجه الأسماء الثلاثة: أن لفظ النمل، ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من سور القرآن غيرها، وأما تسميتها بسورة سليمان فلأن ما ذكر فيها من ملك سليمان مفصلاً لم يذكر مثله في غيرها.[2]

(ب) هل السورة مكية أم مدنية؟ وما عدد آياتها؟

وهذه السورة مكية بالاتفاق، وعدد آياتها: ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون، وقيل: خمس وتسعون آية.[3]

(ج) محور السورة:

سورة النمل من السور المكية التي تهتم بنواحي العقيدة، وأصول الإيمان من توحيد الله – عز وجل– والاعتقاد بكتبه ورسله، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله، لا يعلمه سواه والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله.[4] وهي إحدى ثلاث سور نزلت متتالية– ووضعت حسب نزولها في المصحف متتالية – وهي(الشعراء – النمل – القصص).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٨/ ٢١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٥٤.

(٤) في ظلال القرآن الأستاذ/ سيد قطب ٥/ ٢٦٢٤.

ويكاد يكون منهجاً واحداً في سلوك مسلك العظة والإعتبار ممن سبق من الأمم فنجد حلقة من قصة سيدنا موسى ﷺ تأتي في مقدمة السورة ورؤيته للنار، ونداء الله تعالى له، وتكليفه بالرسالة إلى فرعون وقومه، وكيف كان جزاؤهم عندما كذبوا وأعرضوا عن منهج الله تعالى.

ثم نجد قصة سيدنا داود وسليمان عليهما السلام وما آتاهما الله من النعم، وهي نعمة العلم والملك والنبوة وتسخير الجن والطير لسليمان ﷺ وقصته مع ملكة سبأ وكيف دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار. ثم تأتي قصة قوم ثمود وما آل إليه مصيرهم عندما كذبوا رسولهم ثم تختم السورة هذه القصص، بقصة قوم لوط وكيف أن الله – عز وجل أهلكهم. وفي ذكر هذه القصص تسلية للنبي ﷺ وتنشيطا له، وتعريفاً بعلو منصبه. ثم تختم السورة بالحديث عن توحيد الله – عز وجل –وضرب المثل لتثبيت المعاني في أذهانهم فقال سبحانه﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

ثم يختم السورة بإيقاع يناسب جوها وموضوعها: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1]

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

سميت هذه السورة بسورة النمل نظراً لورود قصة النمل مع سيدنا سليمان ﷺ فيها وذلك لأخذ العظة والاعتبار من قصص السابقين، وكيف أن الله أعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين حينما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٥.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

ابتدأت هذه السورة الكريمة بذكر القرآن الكريم، وهو المعجزة الخالدة تحداهم الله - عزوجل - أن يأتوا بمثله - وهم أرباب الفصاحة والبيان - فعجزوا، وهذا خير دليل على صدق النبي ﷺ، وختمت هذه السورة المباركة بذكر القرآن الكريم حيث أمره الله تعالى أن يتلو القرآن ففيه الهدى والنجاة لمن أراد النجاة في الآخرة، أما من يضل عن الطريق فلا يملك من أمرهم إلا أن يقول: ما أنا إلا نذير مبين.

المناسبة بين إفتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الله سبحانه سورة الشعراء بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، ونفي الشك عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول بنسبته إلى السحر، والأضغاث، والافتراء والشعر وكل ذلك ناشيء عن أحوال الشياطين، ابتدأ سبحانه هذه بالإشارة إلى أنه من الكلام القديم المطهر عن وصمة تلحقه بشيء من ذلك تلام بوصفه بأنه منظوم مجموع لفظا ومعنى، لا فصم فيه ولا خلل، ولا وصم ولازلل، فهو جامع لأصول الدين ناشر لفروعه[1].

المناسبة بين مضمون هذه السورة ومضمون ما قبلها:

تعتبر سورة النمل كالتتمة لسورة الشعراء حيث زاد سبحانه وتعالى - فيها ذكر داود وسليمان، وبسط فيها قصة لوط - عليه السلام - أبسط مما هي قبل، وقد وقع فيها ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ الآية.

وذلك كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١] وقد اشملت كل من السورتين على ذكر القرآن، وكونه من الله تعالى، وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥/ ٤٠٦.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١١/ ٢٣١.

مناسبة السورة لما بعدها:

لما ختم الله - تبارك وتعالى - سورة النمل بالوعد المؤكد بأن يظهر آياته فتعرف، وأنه ليس بغافل عن شيء تهديداً للظالم، وتثبيتاً للعالم، وكان من الأول ما جاء في سورة النمل من الأساليب المعجزة من خفايا علوم أهل الكتاب فلا يقدرون على رده، ومن الثاني ما صنع بفرعون وآله فقال في سورة القصص﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾[القصص: ١-٣]. (١)

بيان إعجاز القرآن الكريم

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

ابتدأت سورة النمل بالأحرف المقطعة، للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة الكريمة، والقرآن كله، وهذه الأحرف معروفة عند العرب، ومع هذا عجزوا أن يألفوا كتابا مثله، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا يقول تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[هود: ١٣].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا يقول تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٣].

وقد اختلف المفسرون في الأحرف المقطعة التي في أوائل السور:

فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها، وقالوا: هي سر الله في القرآن الكريم، ونسب هذا القول إلى أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود - رضي الله عنهم - والشعبي والثوري والربيع بن خُثيم. (٢)

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ٤٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٥٤.

ومنهم من فسرها واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة: فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وقيل: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب - حين تحداهم بالقرآن وهو مؤلف من نفس الحروف التي منها بناء كلامهم - ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، وقيل هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها[١]

قال ابن جرير بعد أن ذكر هذه الآراء: ولا منافاة بين الواحد منها وبين الآخر، وإن الجمع ممكن فهي أسماء للسور، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سور كثيرة بتحميده وتسبيحه، وتعظيمه[٢].

قال الحافظ ابن كثير: مجموع هذه الحروف التي في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً مجموعه في قولك: (نص حكيم قاطع له سر) وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك[٣] .

أما عن الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور:

قالوا: إنما ذكرت هذه الأحرف التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثل هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي فيها بالصريح في أماكن وجاء منها على حرف واحد (ص، ن، ق) ومنها ما جاء على حرفين مثل (حم) ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف مثل (الم)، (الر) ومنها ما جاء على أربعة أحرف مثل (المص)، (المر) ومنها ما جاء على خمسة أحرف مثل (كهيعص)، (حم عسق).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٥٥ ١/ ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٧٦.

قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة يقول سبحانه ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ١-٢]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [آل عمران: ١- ٢]، ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [النمل: ١-٢].

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر.

والقرآن الكريم فيه الهداية والبشارة لمن آمن وعمل صالحاً يقول سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ٢] إذ القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي، ينتفع به كل من يقرأه ويستوعب ما فيه، إنما القرآن يخاطب القلوب أول ما يخاطب ويسكب نوره وعطره في القلب الذي يتلقاه بالإيمان واليقين، وكلما كان القلب ندياً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن، وأدرك من معانيه ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف[1].

وقد جعل الله تعالى في القرآن النفع به للمؤمنين فجعله شفاءاً يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ويقول سبحانه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كون القرآن شفاء لكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٦.

فالقرآن يذهب ما في القلوب من أمراض كالشك والنفاق والشرك والزيغ، والميل، فهو يشفي من ذلك كله وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق واتبعه فإنه يكون شفاءاً في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم لنفسه فلا يزيده القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر كفره وعناده واستكباره وليست الآفة من القرآن كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يتضمن المحور ذكر قصص السابقين وبيان عاقبتهم، وإنما يكون ذلك من خلال القرآن الكريم فهو وسيلة البلاغ لذلك بدأ الله تعالى بتعظيمه وبيان فضله ليهيء النفوس لسماع ماجاء به من الأخبار الصادقة والجليلة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

١-بيان أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى.

٢- الدلالة على أن القرآن الكريم معجز تحدى الله به العرب.

٣- تضمن القرآن الهداية لمن صدقه وآمن به وعمل بما فيه.

بيان صفات المؤمنين وجزاؤهم وصفات الخاسرين وجزاؤهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما بين الحق - تبارك وتعالى -: أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، شرع سبحانه في بيان وصف الإيمان بما يصدقه من الأمور الظاهرة - إذ أن وصف الإيمان لا يظهر - فقال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾. وذلك تأكيداً بأن ادعاء الإيمان لايقتصر على اللسان فحسب بل لأن العمل ووجود الوصف يتطلبه من المؤمن وهكذا يوضح للمكلفين هذا الجانب المهم.

ولما أُفهم من هذا البيان أن هناك من يكذب بها وكان أمرها في الطباع مركوزاً راسخاً لما عليها من الأدلة الباهرة في العقل والسماع، وتشوقت النفس إلى معرفة حالهم فقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

تمضي بنا الآيات في وصف أولئك المؤمنين الذين جاءهم الكتاب المبين فيقول سبحانه: أولئك هم المداومون على إقامة الصلاة بفروضها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، والإقبال عليها بالخشوع والخضوع لله تعالى.[1]

والصلاة هي سبب للرزق، وذهاب الأسقام والأوجاع يقول سبحانه ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

وكان المصطفى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة إذ هي تذهب بالغم والحزن وتقرب العبد

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٦٤.

من ربه، وكفا بذلك نعمة أنعمها الله على عباده المؤمنين.

ثم تضيف الآية الكريمة وصفاً آخر للمؤمنين، وهم أنهم يؤدون حق الزكاة، فيطهروا نفوسهم من رذيلة الشح، ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال، ويصلون إخوانهم في الله ببعض ما رزقهم الله، ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها أعضاء، ويصير المجتمع المسلم مجتمعاً متكافلاً يساعد الغني فيه الفقير.

وهم مع ذلك هم بالآخرة والمغيبات يؤمنون بها عن يقين فإذا الخوف من الله يغمر قلوبهم ونفوسهم، وهؤلاء هم المؤمنون الذاكرون لله، القائمون بتكاليفه، المشفقون من حسابه وعقابه، الطامعون في رضائه وثوابه، هؤلاء هم الذين تنفتح قلوبهم للقرآن، فإذا هو هدى وبشرى، وإذا هو نور في أرواحهم، ودفعة في دمائهم وحركة في حياتهم، وإذا هو زادهم الذي يبلغون، وريهم الذي به يشتفون[1].

ثم تذكر الآية جزاء من يكذب ويكفر بالواحد القهار فيقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النمل: ٤].

فالإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة، والذي لا يؤمن بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة، إذ إنه يظن أن متاع الحياة الدنيا هو منتهى القصد والغاية التي يبذل في سبيلها كل شيء، وينسى أن هناك يوم آخر يحاسب فيه الله العبد المؤمن على إيمانه والكافر على كفره.

والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفس البشرية على هذا النحو، وجعلها مستعدة للإهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها، ومشيئته سبحانه نافذة في حالتي العمى والهدى فالذين لا يؤمنون بالآخرة زينت لهم الحياة الدنيا

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٧.

وشهواتهم وكفرهم فهم في غيهم حائرون لا يهتدون وأولئك في الآخرة هم الأخسرون[1].

ثم تذكر الآية الكريمة أن القرآن وهو الكتاب المبين الذي ذكر الله فيه قصص الغابرين إنما هو من لدن حكيم عليم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا دليل على صدق النبي ﷺ إذ إنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يعلمه معلم فمن أين له ذلك فحتماً أن يكون من لدن حكيم عليم.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذا المقطع بيان صفات وعاقبة المؤمنين والكافرين، ليقتدى بالمؤمنين، ويجتنب سبيل الكافرين.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن الإيمان بالله تعالى يقتضي التصديق بكل ما أمر الله به من العمل المؤكد للإيمان باليوم الآخر.
* أن الذي لا يؤمن بها يستلزم التصديق بالآخرة سيكون من الخاسرين.
* أهمية الصلاة والزكاة في الإسلام، وأن من لا يؤدي تلك الفريضة فلاحظ له في الإسلام.
* عظمة يوم القيامة ومافيه من غبن، وحسرة على الصنف المعرض عن أمر الله.

ثم تمضي الآيات بعد ذلك لتبين لنا قصة سيدنا موسى عليه السلام.

فتعرض لنا نداء الله له بوادي طوى، وكيف أن الله اختاره لحمل الرسالة العظيمة وإبلاغها إلى فرعون وقومه، وكأنها يقول للرسول ﷺ إنك لست بدعاً من الرسل في هذا التلقي فها هو ذا موسى يتلقى التكليف ويناديه ربه لحمل تلك الرسالة، وليس ما تلقاه من قومك بدعاً في التكذيب، فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله. ولكنهم يجحدون بها ظلماً وعلواً فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين.

---

(١) المرجع السابق.

نداء الله لموسى بوادي طوى

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما وصف الحق تبارك وتعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مبين وأنه من لدن حكيم عليم، بدأ سبحانه في سرد قصة سيدنا موسى ﵇ تسلية لقلب النبي ﷺ وتثبيتا له وليكون سرده لقصص الأولين أكبر دليل على أنه من لدن حكيم عليم، إذ من أين لمحمد الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم بمثل قصص الأولين فقال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ الآيات.

تعرض الآيات هذه الحلقة السريعة من قصة سيدنا موسى ﵇ فيقول الحق سبحانه اذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً وقد تكررت هذه القصة في سورة طه فيقول سبحانه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه: ٩-١٠].

قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى ﵇ رجلاً غيوراً، يصحب الناس بالليل ويفارقهم غيرة منه لئلا يروا امرأته، فأخطأ الرفقة لما سبق في علم الله تعالى، وكانت ليلة مظلمة شاتية باردة،

وقد حاد عن الطريق، وتفرقت ماشيته، وفي تلك اللحظة رأى موسى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا[١].

وعبر هنا بالسين في قوله﴿ ءَاتِيكُم ﴾وفي سورة طه ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم ﴾.

لأن العدتين على سبيل الظن أو لأنه إن لم يظفر بها فلم يعدم أحدهما بناءاً على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله عز وجل أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده[٢].

فلما توجه موسى عليه السلام نحوها، فإذا النار في شجرة، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء وشدة خضرة تلك الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار. [٣]

وقد ورد هذا الموقف أيضاً في سورة القصص بقوله سبحانه ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٢٩] والجذوة: الجمرة الملتهبة.

فلما آتاها موسى عليه السلام ناداه الملك سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ وفي سورة طه يقول سبحانه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ ﴾[طه: ١١-١٢].

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله، وتتصل به العوالم والأفلاك، ويخشع له الوجود كله، وترتعش له الضمائر والأرواح، النداء الذي تتصل به السماء بالأرض، ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله.

﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ إنها لم تكن ناراً من التي نوقدها – على الأرجح – إنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى. ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٢- آية / ١٠ من سورة طه. والأثر صحيح.
(٢) روح المعاني للآلوسي ١١/ ٢٣٨.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٢.

الكبرى - إيذاناً بفيض من البركة العلوية على من في النار ومن حولها [١] .

وأصبحت هذه البقعة بقعة مباركة مقدسة كما قال تعالى في سورة القصص ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٠]

ولهذا أمره سبحانه وتعالى أن يخلع نعليه لينال بركة هذا المكان.

ثم يأتي بقية النداء الذي اشتمل على تنزيه الله وإعلان ألوهيته بقوله ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ فكشف الله لعبده أن الذي يناديه هو رب الأرباب وملك الملوك سبحانه - فيجب تنزيهه والإقرار بالعبودية له سبحانه - وكان هذا النداء للاصطفاء وليختاره الله سبحانه ليكون نبياً مرسلاً يقوم بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ثم أخذ سبحانه يبين له المعجزات الدالة على صدق نبوته فقال سبحانه ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ هذا باختصار عن سورة طه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: ٧١-٨١].

فقد أمره سبحانه بأن يلقي عصاه، وهي التي له فيها منافع كثيرة منها: ما ذكره، ومنها: ما أجمله فلما ألقاها فإذا هي تدب وتسعى وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير من الحيات ﴿ ٱلْجَآنّ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ وأدركت موسى عليه السلام طبيعة البشر، وأخذته هزة المفاجأة فناداه جل وعلا ليطمئن قلبه ﴿ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ وفي سورة القصص ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

أمره ربه - سبحانه - أن يثق به كل الثقة، وأن يتوكل عليه كل التوكل إذ إنه نبي مرسل ينبغي ألا يخاف إلا من الله سبحانه.

ثم استثنى سبحانه منهم بقوله ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٩.

فالاستثناء هنا منقطع، وفيه بشارة عظيمة لبني آدم، وذلك أن من عمل شيئاً ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه فيقول سبحانه ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

وقوله سبحانه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

ثم أخذ سبحانه في ذكر آية أخرى تدل على صدق موسى في نبوته، وهي أن يدخل يده من فتحة صدره تخرج بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف فقال سبحانه ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ وفي سورة طه ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ٢٢] وفي سورة القصص ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٣٢].

ثم أجمل المولى تبارك وتعالى بقية المعجزات التي أعطاها موسى لتكون براهين على صدق دعوته﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

وهذه الآيات منها ما ورد في سورة الأعراف ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والسنين كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٠].

والفلق كما في قوله تعالى ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وإلى ما ذكرت نضيف العصا واليد فتصير المعجزات تسعاً كما ذكرت مجملة في هذه الآية ولكن بعد مجيء هذه الآيات على صدق سيدنا موسى في دعواه كذبوا فانظر يا محمد - ﷺ -

كيف كان عاقبة المكذبين.

ثم تجمل الآيات مجئ سيدنا موسى وتلبية هذا النداء إلى فرعون وقومه والتي جاءت مفصلة في سورة أخرى منها سورة الشعراء.

فلما جاءتهم هذه الآيات الكثيرة العدد، القوية في الحجة ومع هذا قالوا عنها: هذا سحر مبين، قالوا ذلك لا عن اقتناع به، ولا عن شبهة فيه، إنما قالوا ظلماً وعلواً مع أن قلوبهم متيقنة أنه الحق الذي لا شبهة فيه [١].

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ويوقنون أنه الحق الذي لا مرية فيه، ولكنهم يجحدون، وذلك لأنهم يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم، لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم، وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة، التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم، ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب [٢].

فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، وعاقبة فرعون وقومه معروفة، كشف عنها القرآن في مواضع أخرى، وإنما يشير إليها هذه الإشارة لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين.

ولنذكر هنا هلاك فرعون وقومه والتي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٠.

(٢) المصدر السابق.

وفي سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

فقد أغرق الله فرعون وقومه لأنهم جحدوا الآيات وكفروا بالله سبحانه وهذه نهاية الظالمين.

ثم تمضي الآيات في ذكر قصة أخرى تسلية لقلب النبي محمد ﷺ ولكنها قصة مختلفة عن سابقتها فالأولى كذب فرعون وقومه أما هذه القصة فما أن جاءتهم الآيات إلا أن أذعنوا وآمنوا بالله الواحد القهار وهي قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ.

مناسبة المقطع بمحور السورة الكريمة:

أنها قصة عظيمة من القصص القرآني المتكررة في ثنايا كتاب الله بدأها ببيان رسالة موسى ومعجزاته وقوة دلائله وبيناته ليكون تكذيبهم بعد أشنع في الميزان الفطري والعقلي وتكون عقوبتهم هي الحكم العادل الذي يستحقونه، وعبرة لمن تسول له نفسه السير على هذا المنوال، الذي عاقبته الوبال.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* فيه دليل قاطع على نبوة محمد ﷺ، حيث لم يكن في قلب الحدث المتعلق بموسى عليه السلام، إذ ذاك.
* الدليل على اصطفاء الله لموسى عليه السلام كما أخبر الله بذلك.
* الإعداد الرباني العملي لمواجهة الطاغية فرعون وقومه، وتدريبه على العصا التي تنقلب ثعبانا، بقدرة الله تعالى.
* إظهار قدرة الله جلية أمام موسى عليه السلام ليأنس بها ويكون ثابت الجنان في دعوته لفرعون.
* وفيه أن الله يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وهذه سنة الله فيهم.

بيان ما أوتي داود وسليمان عليهما السلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما ذكر الحق تبارك وتعالى في بداية السورة أنه كتاب مبين، وأنه من لدن حكيم عليم فأخذ يقص على العرب مالا علم لهم به من قصص السابقين، فابتدأ بنبذة موجزة عن حلقة من قصة موسى عليه السلام، ثم أتبعها بقصة داود وسليمان عليه السلام وكيف أن الله امتن عليهما بنعم عظيمة ونجد أن هذه السورة قد بسطت القول في قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وملكة سبأ.

وفي هذه القصة نتعلم منها فضل العلم فيقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ ﴾. ففيها دليل على شرف العلم ومكانته وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة: ١١][(١)].

وفي هذه القصة أيضاً: استعراض لنعم الله على العباد وآياته في الكون واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ولا يشكرونه، وفيها نموذج للعبد الشاكر، الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه، المتدبر لآيات الله الذي لا يغفل عنها، ولا تبطره النعمة ولا تطغيه القوة.

تمضي الآيات في هذه القصة مجملة ما آتاه الله داود عليه السلام، فقد كان رجلاً صالحاً قوياً في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١١٠.

عبادة ربه إذ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان يقوم نصف الليل، وكان دائم الرجوع إلى ربه فقال سبحانه ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧].

وقد أعطى الله داود ﷺ فضلاً على عباده المؤمنين فقد أتاه الله النبوة والزبور والعلم كما في هذه الآية.

وقد سخر الله عز وجل له الجبال يسبحن معه والطير فيقول سبحانه ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠].

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص ١٨-١٩].

فكانت الجبال تسبح مع داود ﷺ وكانت الطير تساعده على ذلك فقد أعطاه الله صوتاً حسناً فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات وفي الصحيح: (أن الرسول ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقرآته ثم قال ﷺ: (**لقد أوتى هذا مزمار من مزامير آل داود**)[(١)].

قال وهب بن منبه: كان الماء الجاري ينقطع عن الجري، وكانت الوحوش تتزاحم لحسن صوته[(٢)].

وكان من نعم الله عليه أن ألان له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله مثل الخيوط ولهذا قال سبحانه:

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ:١١].

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٥ح٤٧٦١، وصحيح مسلم ١/ ٥٤٦ح٧٩٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٦٧.

وهي الدروع، وكان داود عليه السلام أول من صنعها فأمره الله سبحانه أن تكون سابغات أي: واسعة متينة.

وكانت قبله صفائح فأمره ربه أن يجمع بين الخفة والحصانة [١] ثم أمره ربه أن يقدر في السرد فقال: (وقدر في السرد) أي لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ولا تغلظه فيقسمها بل أرجعه بقدر وهذا هو ما عبر عنه الله بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء ٨٠] وهي اتخاذ الدروع.

وفي هذا دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخالي من الامتنان[٢] فقد ورد عن النبي ﷺ: **(ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)** [٣].

وقد أتاه الله أيضاً قوة في ملكه حتى أصبحت له الهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب.

قيل ذلك لكثرة جنوده، وقيل بالنصر والتأييد فيقول سبحانه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

وقد أتاه الله أيضا الفصل في القضاء، وقيل هو: البينة على المدعي، واليمين على من أنكر وقيل: البيان الفاصل بين الحسن والباطل، وهذه الأقوال متقاربة فقد آتاه الله فصلاً في القضاء بحكمة بها يفرق بين الحق والباطل.

وقد حكى القرآن الكريم مشهداً من قصة حكم فيها داود عليه السلام فيقول سبحانه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٦١.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٠ح١٩٦٦، سنن ابن ماجه ٢/ ٧٢٣ مختصراً، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٧.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

قال ابن كثير: وقد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عزوجل، فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضاً[١].

ذكرت الآيات خبراً تقريرياً عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود عليه السلام، وهي نعمة العلم. فأما عن داود فذكرت نعم الله عليه في سور أخرى على نحو ما ذكرت سابقاً. وأما سليمان عليه السلام ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير، وما إليه بالإضافة إلى ما ذكرت في سور أخرى فنجد أن الله قد سخر له الريح عاصفة تجرى بأمره حيث أراد فيقول سبحانه ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ [سبأ: ١٢]. أي: تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهرين في يوم[٢].

وقيل: جعل الله الريح مسخرة لسليمان تجري بأمره إلى الأرض المباركة يعني الشام، يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد. .

وكذلك سخر الله تعالى النحاس فأصبح سائلاً يجري فيقول سبحانه ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ [سبأ:١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٦٩.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكان بأرض اليمن، ولم يذب النحاس لأحد قبله، وكان لا يذوب ومن وقته ذاب، وإنما ينتفع الناس به إلى اليوم بما أخرجه الله تعالى لسليمان.

قال القرطبي: والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته. [1]

كذلك جعل الله الجن مسخرة لأمره فيقول سبحانه ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢].

فقد سخر الله له الجن يطيعه ويأتمر بأمره، وينتهي لنهيه، فيعمل بين يديه ما يأمره طاعة له بإذن ربه، ومن يذل ويعدل من الجن عن أمرنا نذقه من عذاب السعير في الآخرة.

فكانوا يصنعون له التماثيل والمحاريب فيقول سبحانه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ: ١٣].

فكانوا يصنعون له التماثيل ويصورون له الصور، وقيل إنها صور الأنبياء والعلماء وكانت تصور في الساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً كما جاء في حديث: (**إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور**)[2].

وقيل: في هذا دليل على أن التصوير كان مباحاً ثم نسخ بشرع سيدنا محمد ﷺ.

وقد وردت الأحاديث الكثيره الدالة على حرمة التصوير كما في حديث (**إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله - عز وجل**) كما في صحيح البخاري[3] وبألفاظ متعددة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٧٠.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٧٠، ح٥٧٧٩.

(٣) صحيح البخاري ح(٦١٠٩).

واستثنى العلماء لعب البنات لما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لى صواحب يلعبن معى فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معي)[1].

قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلوى أو من العجين لا بقاء له[2].

وكذلك كانوا يعملون له المحاريب وهي أشرف مكان في الدار والمسجد، وكانوا يصنعون له أيضاً الجفان وهي القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء.

وقدور راسيات قد نحتت من الجبال الصم ما عملت له الشياطين أثافيها منها منحوته ثوابت لا تحمل ولا تحرك لعظمتها[3].

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٢].

فقد كانت الشياطين يغوصون تحت الماء يستخرجون له الجواهر من البحر.

وقد آتاه الله سبحانه الفهم فكان له نصيبه أيضاً في فصل القضاء والخصومات بين الناس.

فيذكر الله سبحانه في سورة الأنبياء طرفاً من قضية حكم فيها داود ﷺ إلا أن حكمه لم يكن صائبا في هذه المرة فاستدرك عليه سليمان وطلب منه أن يغير هذا الحكم فيقول سبحانه: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ

---

(١) صحيح البخاري١/ ١٦٥ح ٤١٧، ومسلم ١/ ٣٧٥ ح٥٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٧٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٧٢.

وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

فقد أفسدت الغنم بستان من الكرم قد أنبتت عناقيده فقضى داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم فطلب منه سليمان أن يغير هذا الحكم فقضى بأن يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها وهذا هو قول الله تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ فهو سبحانه أثنى على سليمان ولم يذم داود عليه السلام.

قال ابن كثير: أما الأنبياء فهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، أما من سواهم فقد ثبت في الصحيح عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**)[1].

تبدأ القصة هنا في سورة النمل بمدح العلم وبيان فضله، وفضل من يؤتاه من عباد الله المؤمنين.

والعلم كله هبة من الله عز وجل يؤتيه من يشاء، وينبغي ألا يكون العلم بعيداً عن الله عز وجل.

فالعلم الذي يبعد الإنسان عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه، لا يثمر لصاحبه سعادة لنفسه ولا للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، وها هو الواقع يؤيد صدق ذلك، فقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم، بتحطيم الذرة واستخدامها، ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله، ولا يخشونه، ولا يحمدون له؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي (هيروشيما) (وناجازاكي) وغير الخوف والقلق الذي يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٧٦ ح٦٩١٩، صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٢ ح١٧١٦.

والدمار والفناء؟[١].

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان تمضى بنا الآيات لتبين أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود في الملك والنبوة والعلم ثم تذكر الآيات تحدث سليمان بنعم الله عليه وهذا من باب ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ لا مباهاة ولا فخر ثم يعقب على هذا بقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ فهذا الذي أوتيه سليمان من تعليمه منطق الطير وغير ذلك من النعم - أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

وقد ورد في سورة النمل في قصة سليمان تفصيل لم يذكر في سور غيرها فقد علمه سبحانه منطق الطير وهي لغاتها ومنطقها، وهذا على سبيل الخارقة التي تخالف قوانين البشر، لا على طريق المحاولة والاجتهاد، فكان يعرف لغاتها وهو أمر لم يعطه أحد من البشر، ومن زعم من الجهلة أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا بل لم تزل البهائم وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل ولكن الله سبحانه أفهم سليمان ما يخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها.

نعود إلى تفصيل قصة سليمان عليه السلام فيقول سبحانه ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور، يتألف من الجن والإنس والطير، والإنس معروفون، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن، وهو أنه خلقهم من مارج من نار وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم يقول سبحانه: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٤.

وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية، وأن منهم المؤمنون ومنهم الكفار كما ورد ذلك في سورة الجن فيقول سبحانه ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن ١-٢].

ويقول سبحانه ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن ١٤-١٥].

وكانت الجن مسخرة لسيدنا سليمان يبنون له التماثيل والمحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة كما ذكرت سابقاً.[١].

وقد سخر الله عز وجل لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، ولم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان - إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له، إنما كانت طائفة في كل أمة.

ومما يدل على ذلك أن الهدهد لما غاب علم سليمان بفقده فلو كانت جميع الهداهد مسخرة له لما علم سليمان بفقد واحد من ملايين الهداهد ولما قال: مالى لا أرى الهدهد؟

فهو إذن هدهد خاص بذاته وشخصه، وكان سليمان ﷺ إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه طائفة من كل صنف من الطير، فنظر فرأى من أصناف الطيور كلها من حضره إلا الهدهد فقال: ﴿ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ الآية[٢].

وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير وهو موكب عظيم، وحشد كبير يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، قال مجاهد: جعل على كل

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٥.

(٢) المرجع السابق ٥/ ٢٦٣٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١١٨.

صنف وزعة يردون أولها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملك اليوم [١].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾الآيات.

تمضي بنا الآيات لبيان موقف آخر لسليمان ﷺ وهو حديثه عن النملة، وهي معجزة أخرى لسليمان ﷺ، فقد سار موكبه على هذا النحو المنظم الدقيق، حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على باقي النمل قالت للنمل بلغة التفاهم بينهم: ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. وفي هذا بيان لفضل سليمان وجنوده وعدلهما إذ إنهم لا يحطمون ضعيفاً إلا لكونهم لا يشعرون إذ لو شعروا لم يحطموه، كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ ﴾ [الفتح: ٢٥]، وهذا ثناء على جند محمد ﷺ التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمثنى على جند محمد ﷺ هو الله عز وجل، لما لجنود محمد ﷺ من الفضل على جند غيرهم من الأنبياء، كما لمحمد ﷺ فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم أجمعين [٢].

فأدرك سليمان - ﷺ - ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس، لاستغلاق التفاهم بينهم وقيام الحواجز، وانشرح صدره لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة مثل هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع. [٣]

فلما أدرك سليمان هذا ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ والتبسم غالباً ضحك للأنبياء، أما ما روي أن النبي ﷺ كان يضحك حتى تبدوا نواجذه فهذا محمول على أنه أحياناً كان يضحك حتى تبدوا نواجذه الشريفة، أما في الغالب الأعم فقد كان

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٤.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٦.

ضحكه التبسم. [١]

ودعا سليمان عليه السلام بأن يلهمه الله عزوجل شكر هذه النعمة التي منَّ بها عليه، وهي: تعليمه منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ فالعمل الصالح هو فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ويتضرع سليمان إلى ربه بأن يوفقه إلى شكر نعمته، وأن يوفقه إلى العمل الصالح، وأن يدخله في عباده الصالحين، فهذا سليمان الذي أنعم الله عليه بنعم لم يعطها لأحد من خلقه ومع هذا فهو غير آمن من مكر الله حتى بعد أن اصطفاه، صار خائفاً أن يقصر به علمه وأن يقصر به شكره. [٢]

ونقف هنا أمام خارقتين لخارقة واحدة: خارقة إدراك سليمان بتحذير النملة لقومها وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده، فأما الأولى: فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة، فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة، أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي سليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج عن المألوف، وتحسب في عداد الخوارق. [٣]

مناسبة المقطع لمحور السورة الكريمة:

وهذا هو دأب القرآن الكريم في إظهار النعمة التي يمن الله بها على أنبيائه تذكيراً لهم وبياناً لأهمية هذه النعمة، ولتكون نصب عيني ذلك المرسل من الأنبياء، ولتأخذ منحى الاعتبار والعظة فيما يعطي الله من شاء ويمنع من شاء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٧- وانظر حديث النواجذ في مسلم رقم (٤٧٩) والترمذي رقم (٢٩٦٩).
(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.
(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* فضل العلم وأنه من أعظم نعم الله التي يمتن بها على عباده.
* بيان فضيلة داود وسليمان واختصاص الله لهما بخصائص ليس لغيرهم.
* تسخير الله تعالى جميع الكائنات لهذا الإنسان ليسير على منهج الله تعالى.
* التأمل والتفكر في أصناف هذا الخلق.
* الحكمة الإلهية التي حبكت هذا المشهد العجيب الدال على الوحدانية.
* إظهار القدرة الإلهية على جعل الناطق من البشر يفهم لغة الحيوان الأعجمي.

سليمان عليه السلام وملكة سبأ

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مناسبة المقطع بما قبله:

وههنا الانتقال إلى حلقة أخرى عن قصة سليمان عليه السلام. لم تذكر في سورة غير هذه – وهي قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ ونجد فيها جمال العرض القرآني للقصة لنحقق العبرة التي من أجلها يساق القصص القرآني.

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير وإلى نعمة العلم، فإن القصة تحتوي أدوار لكل من الجن والإنس والطير، ويبرز فيها دور العلم وكما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية في القصة، كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان، وشخصية الملكة، وشخصية الهدهد، وشخصية حاشية الملكة [١].

تبدأ الآيات بعرض سليمان وتفقده لجنوده بعدما أتوا على وادي النمل وما حدث هناك فيقول سبحانه ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ فعلم سليمان بغياب الهدهد فسأل متعجباً كيف يتسنى لهذا الهدهد أن يغيب بغير عذر.

وفي هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره، كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك، ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب، لسأل عنها عمر، فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية والرعيان [٢].

ثم توعده سليمان عليه السلام فقال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ فسليمان لم يجزم بتعذيبه وفقط - بل خيره بين ثلاثة أمور إما أن يعذبه أو يذبحه أو يأتي بحجة قوية - لأنه قد يكون له عذر بين.

وفي الآية دليل على أن الحد على قدر الذنب لاعلى قدر الجسد، أما أن يرفق بالمحدود في الزمان والصفة.

فمكث الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء فقال لسليمان﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي: بما لم

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٩.

تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بخبر صادق، وسبأ هم: حمير، وهم ملوك اليمن ثم أخبره بما رأى في سبأ فقال ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ وقد أتاها الله من كل متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، وكان لها عرش عظيم مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر.

وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم، عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان حتى سأل أبا موسى الأشعري[1]، وكان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود، حتى قالا: لا يتيمم الجنب [2].

ثم أخذ الهدهد يحثه بما هو أعظم وأخطر فقال ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول الهدهد لسليمان: لقد وجدت ملكة سبأ وقومها وثنيين، يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد، وقد حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، وهي عبادة الشمس والكواكب، فمنعهم عن طريق الخير والهدى، فهم لا يهتدون إلى الله وإلى توحيده، ثم قال الهدهد متعجباً: أيسجدون للشمس ! ولا يسجدون لله الخالق المدبر العظيم، الذي يعلم الخفايا والنوايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي، ويعلم السر والعلن، وهو رب العرش العظيم، والمتفرد بالعظمة والجلال

ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي النبي ﷺ عن قتله فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: (نهي النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب – النمله، والنحلة

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٩) ومسلم (٤٠٠٦).
(٢) سنن البيهقي (٢٧٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ١٢٢).

والهدهد، والصرد)[١].

أما النملة فلأنها أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه لأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، وأما الهدهد فلأنه كان دليل سليمان ورسوله إلى بلقيس، والصرد يقال له الصَّوام - أول من صام - وقيل كان دليل إبراهيم في بناء البيت الحرام فكان دليله على الموضع[٢]. وأما النحلة فلما تخرجه من بطونها من العسل الذي فيه شفاء للناس.

هنا أراد الله لسليمان أن يثبت من هذا النبأ الخطير، الذي اهتزت له مشاعره، فكيف يكون في زمانه، من يسجد للشمس ويعبد غير الله، وهو الذي قد بعث بدعوة التوحيد والإيمان، ولهذا أراد أن يثبت من الأمر فكتب كتاباً وأرسله مع الهدهد، وطلب منه أن يأتيه بجوابه: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وفي الآية: دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أحوالهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، ولكنه لم يتسرع في قبول كلامه حتى امتحنه - إذ أن هذا الأمر من الأمور العظيمة التي ينبغي جهاده، ولكنه طلب منه أن يذهب بكتابه إليهم. وفيها دليل كذلك على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار.

قوله ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فيه حسن الأدب مع الملوك حيث أمره أن يكون قريباً حتى يرى مراجعتهم[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٣٢، وإسناده صحيح.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٥-١١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٧.

ثم أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى ملكة سبأ، فرفرف فوق رأسها، ثم ألقى الكتاب في حضنها، وتنحى جانبا أدباً وامتثالاً.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذه القصة العجيبة التي تعتبر متابعة لقصص الأنبياء، ومااختصهم الله تعالى به من المعجزات التي تحتم تصديقهم واتباعهم فهي عين المحور وملاكه.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* شرف سليمان عليه السلام وفضله.
* مكانة الهدهد وحرمته التي اكتسبها من قيامه بدعوة التوحيد.

موقف ملكة سبأ من كتاب سليمان عليه السلام

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة المقطع بما قبله:

هذا المقطع لصيق الصلة بما قبله، وإنما فصلته هنا ليسهل تناوله فهو في بيان الحالة التي استقبلت فيها بلقيس الكتاب.

هنا وصل الكتاب إلى الملكة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب ففتحته وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ووصفت الكتاب بأنه كريم لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظمته إجلالا

لسليمان ﷺ أو لأنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه.

ومن هنا اتفقوا على كتب ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول الكتب والرسائل وعلى ختمها، لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف [1].

فلما علمت أن الأمر خطير، فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبار رجال دولتها ثم قالت لهم:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي موحدين طائعين مستسلمين، تشير الآية إلى قوة الملك والسلطان ولهذا لم تبت في الأمر بل استشارت الكبراء والوزراء، لأنها شعرت أن هذا الكتاب لا يصدر إلا من ملك عظيم، له عزة ومنعه وسلطان فقالت: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: ماكنت لأبرم قضاء دون مشورتكم ورأيكم وخاصة في هذه النازلة الكبرى، فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى رأيها، وهذه محاورة حسنة.

وفي هذه الآية دليل على صحة المشاورة وقد قال الله لنبيه ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد مدح الله الفضلاء بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية تعبد الشمس ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٩.

لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم وحزمهم فيما يقيموا أمرهم، وإمضاءهم على الطاعة لها، إذ أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم.

وإنما أجابوها بقولهم ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أرجعوا المشورة والرأي إليها بعد أن أظهروا قوتهم وشدة بأسهم، فلما أحست منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف رأيهم، وتنبيههم إلى خطأهم في التعجل في الحكم دون روية.

وفي هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام فقالت ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قالت لهم: إني أخشى أن نحاربهم فلا نقدر عليهم فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار، وإن عادة الملوك إذا استولوا على بلدة قهراً، خربوها وأهانوا أشرافها وأذلوهم بالأسر، وهذه عادتهم في كل بلد يدخلونها عنوة ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة فإن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه، وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، ولا يقبل الصدقة وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها لأنه قال لها في كتابه: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ولا تأخذ منهم هدية [1].

وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد، وعلى كل حال ما لم يكن من مشرك، والهدية مندوب إليها وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة فقد روى عن النبي ﷺ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٣٢.

(تصافحوا يذهب الغِلُ وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء)[١]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ (تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر ولا تحقرن جارة لجارتها ولو شق فرسن شاة) [٢].

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة، وكانت آنية من ذهب، فلم ينظر إليها بل أعرض عنها، وقال منكراً عليهم: أتصانعوني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وشرككم فما أعطاني الله من النبوة، والملك، والجنود، خير مما أعطاكم من زينة الدنيا، بل أنتم تفرحون بمثل هذه الهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

ثم قال لمن قدم الهدايا: ارجع إليهم بهديتكم، فسوف نأتيكم بجنود لا طاقة لكم بمقاتلتهم ولنخرجنكم من مملكتكم أذلة صاغرين ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ثم تمضي بنا الآيات لتبين موقف سليمان فيما بعد ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

فلما رجعت الرسل إلى بلقيس فعرفت أن هذا ما هو بملك، وليس لها قدرة على قتاله فبعثت إليه أني قادمة مع أشراف قومى لأنظر ما أمرك، وما هذا الدين الذي تدعون إليه؟ فلما علم بقدومها طلب من يأتيه بعرشها ليريها بعض الخوارق التي أجراها الله على يديه، الدالة على عظم ملكه وسلطانه وصدقه في دعوى النبوة، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١) موطأ مالك ٢/ ٩٠٨ وهو عن عطاء بن أبي مسلم معضلاً، فهو ضعيف كما في إرواء الغليل (٦/ ٤٦).

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٤٤١ وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، مسند أحمد ٢/ ٤٠٥، وفي إسناده أبو معشر المدني وهو ضعيف. ومعنى وحر الصدر: (غشه وحقده).

فقال رئيس الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلس الحكم وإني على حمله قوي أمين على ما فيه من الجواهر [(١)].

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ فقال له آصف بن برخيا كاتب سليمان أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك بصرك، أي: آتيك به بلمح البصر، قبل أن تفتح عينك ثم تغمضها، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه، وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم قام هذا الرجل الصالح فتوضأ ودعا الله، فإذا بعرش بلقيس بين يديه. [(٢)]

فلما عاين سليمان ذلك ورآه مستقراً عنده قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾. إنها معجزة أخرى لسليمان إذ كيف يأتي بهذا العرش، وقد خبأته في قصرها وعليه من الحراس ما شاء الله. وكيف له ذلك والمسافة بين بيت المقدس واليمن ليست بالقصيرة؟

فما كان من سليمان عليه السلام إلا أن توجه بالشكر لملك الملوك الذي هو غني عن العباد وعبادتهم وهو كما قال موسى:﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾. [إبراهيم:٨].

وكما جاء في الحديث القدسي: يقول الله تعالى: **(ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)**[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٣٦، وإسناده ضعيف فيه محمد بن إسحاق لم يصرح بالسماع.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ح٢٥٧٧، مسند أحمد ٥/ ١٦٠، والمستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٦٩.

ولما جيء سليمان - عليه السلام - بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾؟ غيروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يعرف لينظر هل تعرف أنه عرشها أم لا !﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب، ودهاء، وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.[1] ثم قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ لقد أعطانا الله العلم والإسلام قبلها فنحن أسبق منها علما وإسلاما، وقد منعها عن عبادة الله وحده أنها كانت تعبد الشمس والقمر لسبب نشوئها بين قوم كافرين، وهذا كالإعتذار لعبادتها الشمس من دون الله.

أمر سليمان عليه السلام الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ثم قال لها: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ ﴾ أي: القصر ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ ﴾ فلما رأت ذلك القصر الذي هو أعظم من ملكها ظنته لجة ماء فشمرت عن ساقيها ظناً منها أنه ماء ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ ﴾ فما توهمته ماء ليس بماء، وإنما هو قصر أملس، مصنوع من الزجاج الصافي فلما عاينت تلك المعجزة قالت: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها وإنما اتخذ سليمان هذا القصر العظيم ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره وانقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم فأسلمت لله - عزوجل -[2]

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٤، إسناده حسن، وانظر مخطوطة رسالة الماجستير بتحقيق د. نشأت من سورة النمل ص ٢٦٨ / ٣٤٤- ولم تطبع.

موت سيدنا سليمان ﷺ.

يذكر القرآن كيفية موت سليمان ﷺ وكيف أخفى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته بلغة الحبشة، وظل متوكئاً على عصاه مدة عام، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأرضة، ضعفت وسقط على الأرض، وعلم الجن أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة.

فيقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

ففي الآية: دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمونه ما ظلوا في السخرة هذه المدة الطويلة بعد موت سليمان ﷺ، إذ كانوا مسخرين في بناء المسجد الأقصى، ولم يكتمل هذا البناء إلا بعد موت سليمان بسنة كما ذكر المفسرون.

قال ابن مسعود: (ظل حولاً والجن تعمل بين يده حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط ويرى أنه لما سقط لم يعلم منذ أن مات، فوضعت الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة). [(١)]

قال القرطبي: وحكي أن سليمان ﷺ ابتدأ بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة، وكان مدة ملكه خمسين سنة وابتدأ بنيان بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور، ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يده إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان وقويتني على بناء هذا المسجد، اللهم فأوزعني شكرك على ما أنعمت علي وتوفني على ملتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتنى، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجدخمس خصال: لا يدخله مذنب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ١٧٨.

دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه، ولا خائفاً إلا أمنته، ولا سقيماً إلا شفيته، ولا فقيراً إلا أغنيته، والخامسة: أن لا تصرف نظرك عن من دخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحاداً أو ظلما، يا رب العالمين [١].

وهذا أصح ما تقدم أنه لم يفرغ من بنائه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة ذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاث: حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه حتى يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه)[٢]

وهكذا نجد أن أولئك الجن الذين يعبدهم بعض الناس هؤلاء هم سخره لعبد من عباد الله، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

هذه الآيات الكريمات هي المحور الأساسي في السورة الكريمة حيث التفاصيل التي مرت بالقارئ بين نبي الله سليمان عليه السلام وملكة سبأ التي كانت تعبد الشمس من دون الله تعالى وكيف أخبر الهدهد عنها سليمان، فأرسل اليها يدعوها إلى الله تعالى، كما فصل ذلك القرآن الكريم وماكان من أمرها.

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ١٨٠.

(٢) سنن النسائي ٢/ ٣٤ح٦٩٣، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥٢ح١٤٠٨، والمستدرك على الصحيحين ١/ ٨٤ح٨٣.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* اختصاص سليمان ﷺ من النعم العظيمة لبيان عطاء الله غير المجذوذ وإظهار فضيلة سليمان ﷺ.
* الحث على التواضع والافتقار إلى الله تعالى قصداً .
* فضيلة ملكة سبأ ومسارعتها إلى الإسلام فور ظهور الدلائل والبينات، وهكذا شأن المنصف العاقل.
* ثبوت الكرامات للأولياء، وأن الله تعالى يظهر على أيدي عباده مايشاء من خوارق العادات.

قصة نبي الله صالح ﷺ

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

بعد أن أفاضت السورة في ذكر ما خص الله به نبيه الكريم سليمان بن داود ﷺ الذي وهبه الله الملك والنبوة، والذي جعل من الملك وسيلة للدعوة إلى الله والتبشير بدينه، وما كان من أمره مع ملكة سبأ (بلقيس) التي أسلمت مع قومها بدعوة الملك النبي الصالح (سليمان

(عليه السلام) ذكر سبحانه قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود حين بعثه الله إليهم فدعاه إلى عبادة الله وحده فانقسموا إلى فريقين مؤمن وكافر.

وهذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، وقد ذكرت هنا بإيجاز دون تفصيل لأن الغرض من القصص العظة والاعتبار والتذكير والإنذار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين.

كذلك لخصت قصة صالح - عليه السلام - في حقيقة واحدة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فهذه هي القاعدة التي تركزت عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل، ومع كل رسول، وهذا هو المناسب للجو العام للسورة فهي إحدى السور المكية التي تحدثت عن وحدانية الله تعالى.

فيقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وثمود قبيلة من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر الرسول ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع[1].

فعن عبد الله بن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا عجين الإبل ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب فيه الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[2].

وقد دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهي دعوة المرسلين جميعاً

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٩.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٧ ح٢٤٢٥، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٦ ح٢٩٨٠.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

فلما دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده سألوه أن يأتيهم بآية فقال لهم قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به وكانوا هم الذين اقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفرده في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لإن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثقهم. قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله - عزوجل - فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت تلك الصخرة عن ناقة جوفاء وبراء فآمن به رئيسهم وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم.[(١)]

وأقامت تلك الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم قال تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وكانت تلك الناقة خلقاً عظيماً ومنظراً رائعاً إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلماطال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي - عليه السلام - عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال: أنهم اتفقوا كلهم على قتلها ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس: ١٤].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٧٠.

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

فدل ذلك على رضى الجميع بذلك فكأنهم عقروها جميعاً. (١)

وقد أنعم الله على ثمود نعماً عظيمة فكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً عظيمة تناسب أعمارهم الطويلة هذا إلى جانب الزروع والنخيل والجنات التي كانوا يعيشون في رغدها فيقول سبحانه ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء ١٤٦ - ١٤٩].

ومع كل هذه النعم لم يؤمنوا فأحياناً ينسبونه إلى السحر فيقول سبحانه ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء ١٥٣- ١٥٤].

وتارة يسخرون منه فيقول سبحانه ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هـود:٦٣].

وتارة يستهزؤن بأتباعه فيقول سبحانه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف ٧٥-٧٦].

وتارة يتشاءمون منه فيقول سبحانه ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فكانوا يظنون أنهم سبب ما حل بهم من قحط وجوع فكانوا يتشاءمون منه ومن أتباعه، فأمره الله عزوجل أن يقول لهم: طائركم عند الله فليس ما حل بكم من بلاء بسببنا، بل هو بشؤم أعمالكم وبكفركم وإجرامكم، فليس لنا دخل فيه فإن الله كتب الشقاء والبلاء على من كفر

(١) المرجع السابق ٣/ ٢٧٠.

وكذب بآيات الله وهذا كما حكى القرآن عن قوم فرعون: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف:١٣١].

وكما حكى كذلك عن كفار مكة عندما تشاءموا بالنبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨].

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه لأنهم قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه إلى خرافة الدين !

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه، نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم إلى آخر هذه الخرافات الساذجة ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة فلما قالوا ذلك رد عليه صالح بأن حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله، والله قد سن سنناً وأمر الناس بأمور، وبين لهم الطريق المنير فمن اتبع سنة الله وسار على هداه فهذا هو الخير بدون حاجة إلى زجر الطير، ومن انحرف عن السنة وحاد عن الطريق المستقيم فهذا هو الشر بدون حاجة إلى زجر الطير [1].

ثم تخبرنا الآيات بعد ذلك عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح، وقد وصفهم القرآن بأنهم أشقياء فيقول سبحانه ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ [الشمس: ١٢].

فيقول سبحانه ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فقد اتفق هؤلاء الأشقياء الذين عقروا الناقة وهم الذين ذكرهم الله بقوله ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي: تسعة أشخاص حلفوا بالله بأن يبيتوه في أهله، ويقتلوه ليلاً غيلة، ثم ينكروا أمر القتل ولكن الله تعالى العليم الخبير كان لهم بالمرصاد، فقد أهلك هؤلاء الطغاة المجرمين بالصيحة بحجارة، ودمرهم بها ونجا صالحاً ومن كان معه من المؤمنين فيقول سبحانه ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٤٥.

مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ فقد جعل الله عليهم الدائرة، (يروى أنهم بعد ما عقروا الناقة قالوا: هلموا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً فقد عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله، فقذفتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رموا بالحجارة وماتوا فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح فقالوا لهم: والله لا تقتلوه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث فإن يك صادقا فلا تزيدوا رأيكم غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم). [1]

ولكن الله من ورائهم محيط جعل تدميرهم في تدبيرهم فيقول سبحانه ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فمكرهم معروف وهو ما أخفوه من تدبير القتل لصالح ﷺ وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون [2].

فلما دبروا قتل صالح أرسل الله الملائكة عليهم رضختهم بالحجارة قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح ﷺ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث وجوههم مسودة ثم أصبحوا في اليوم الرابع منتظرين لعقاب الله - عياذاً بالله تعالى من ذلك - لا يدرون ما يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب.

ولما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت أرواحهم وزهقت النفوس في ساعة واحدة يقول سبحانه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[3] [الأعراف:٧٨].

وقال سبحانه ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٣٧٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧١.

يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هـود: ٦٧-٦٨].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤].

فما أغنى عنهم ما كانوا يستغلونه من زروع ونخيل وبيوت فارهة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾. فانظر يا محمد إلى أولئك الظالمين كيف دمرهم الله – عزوجل – فأصبحت بيوتهم خربة بعد أن كانت عامرة، فما أغنى عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى لماجاء أمرهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وهكذا ختمت الآية بالعلم الذي ركزت عليه السورة في أكثر من آية في مضمونها ثم يأتي المشهد المقابل لهلاك الظالمين وهو النجاة للفريق المؤمن فيقول سبحانه﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ نجا الله صالحاً ومن آمن معه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هـود: ٦٦].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وهذه أيضاً قصة سيقت للعظة والاعتبار كسابقتها من القصص إلا أن هذه القصة كانت أكثر دلالة على عاقبة أولئك الذين كادوا لنبيهم وأرادوا الإيقاع به، لكن الله جل جلاله حال دون مايريدون، فكان تدبيرالله تعالى أدق وأسرع من كيدهم، وهكذا يكون العقاب الأبلغ في المجرمين.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن الله ينصر عبادة المؤمنين من الأنبياء والصالحين ولو بعد حين ويفرج عنهم من حيث لايحتسبون.
* أن عاقبة الظلم وخيمة، ولو تأخرت عقوبة الظالمين، فإنها واقعة بهم لامحالة.

قصة لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

بعد أن ذكر الله عزوجل قصة ثمود وتكذيبهم لنبي الله صالح - عليه السلام - وما آل إليه مصيرهم من الهلاك والتدمير مضت الآيات بعد ذلك لتذكرنا قصة قوم لوط - عليه السلام - في عجالة قصيرة أيضاً، وذلك على سبيل العظة والاعتبار لقريش الذين كذبوا النبي ﷺ حتى يعتبروا مما حدث بالأمم السابقة.

وهذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجئ مختصره، تبرزفعل قوم لوط بإخراجه، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية، فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال، وترك النساء، على غير الفطرة التي فطر الناس عليها بل عامة الأحياء. وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية، فقد يشذ أفراد لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتيه فيميل الذكور لإتيان الذكور وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي، محرومين من الاتصال بالنساء، أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره، مع وجود النساء وتيسير الزواج، فهذا هو الحادث الغريب حقاً في تاريخ الجماعات البشرية ![1].

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٤٧.

التزاوج فقال سبحانه ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس:٣٦] فجعل الأحياء كلها أزواج سواء النبات والإنسان وما لا نعلمه، ولما كان التزاوج هو ناموس الكون، فقد جعل التجاذب بين الزوجين هو الفطرة التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تتوقف على تفكير، ومن ثم يكون عجيباً أن تنحرف الفطرة الإنسانية انحرافاً جماعياً، كما حدث في قوم لوط بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم ولهذا وجههم لوط عليه السلام بالإنكار عليه فيقول سبحانه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ابن أخي ابراهيم عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.[1]

فيقول سبحانه ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

وقال منكراً عليهم فعلتهم الشنيعة فيقول سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت:٢٩]

فماذا كان جواب أولئك السفهاء؟ فقد كان جوابهم أقبح من الذنب:

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧٢.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: اطردوا لوطاً وأهله ومن معه من المؤمنين من بلدكم، وأخرجوهم من أوطانكم وسبب هذا القرار الظالم أنهم أناس يتنزهون عما نفعله من إتيان الرجال في الأدبار، عجباً لهؤلاء السفهاء!! لقد صارت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصار من لا يفعل الرذيلة مجرماً يجب أن يعاقب بالطرد والإبعاد من وطنهم، وصارت النجاسة طهارة، والقذارة شرفاً يفخر به الإنسان، هذا هو منطق السفهاء في كل زمان ومكان، يسخرون ممن يجتنب القاذورات والموبقات ويعدونه متخلفاً (رجعياً) لأنه لا يساير الناس في أهوائهم، وأما من غرق في الفسوق والمجون إلى الآذان، وسخط إلى درجة الحيوان، فهو الإنسان الألمعي المتقدم الذي يسمونه (تقدمياً) وما أكثر ما نسمع في عصرنا من يسخر من الشباب المسلم المستمسك بدينه، المحافظ على آداب الإسلام الذي أبى الإنحراف مع الشهوات الدنيئة، من نساء، وخمور، وفجور، ويعينهم من البله الذين لم يعرفوا طعم الحياة، ويصفونهم بألفاظ قبيحة، يقولون أنهم (رجعيون، متأخرون متزمتون) تماما كما قال قوم لوط عن المؤمنين الشرفاء: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

فما أشبه الليلة بالبارحة، وقد كانت عاقبة قوم لوط وخيمة، فقد دمر الله ديارهم، وقلب عليهم مساكنهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر فأهلكهم عن بكرة أبيهم، فلم تبقى منهم عين تطرف، ولم يبقى لهم ذكر ولا أثر، وجعل الله عذابهم عبرة لمن اعتبر فيقول سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات كما يقول سبحانه ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم: ٥٣].

قال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبعة أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء فسمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم،

ومن لم يمت منهم أمطر الله عليهم الحجارة فقتلهم.[١]

ونجى الله عزوجل لوطاً وأهله إلا امرأته كانت مع أولئك الهالكين، وذلك لأنها كانت مع قومها على زوجها، وكلما جاءه ضيف كانت تخبر قومها ليأتوا الضيفان ليراودوهم عن نفسهم كما حكى القرآن الكريم ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ ﴾[هـود:٧٨].

ونجى الله لوطاً ومن معه من المؤمنين فيقول سبحانه ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾. أي: الهالكين. وقال تعالى ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الذاريات: ٣٥- ٣٦].

وقد أمر الله لوطاً أن يسير بأهله ليلاً، ويمشي هو خلفهم ليكون أحفظ لهم فيقول سبحانه ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الحجر: ٦٥-٦٦].

وهكذا كانت نهاية قوم لوط هذه النهاية الأليمة جزاءاً وفاقاً على فعلتهم القبيحة، واختلف العلماء في عقوبة اللائط:

فذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وروي عن الشافعى أنه يرجم سواء أكان محصناً أم لا [٢]

والأولى هو قتله، والحجة في ذلك ما روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧٨.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٠٠ح٢٧٢٧، شعب الإيمان ٤/ ٣٥٧.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وههنا خبر عن قوم آخرين قارفوا الفواحش، وتنكروا لدعوة نبيهم، فضرب الله بهم أبلغ الأمثال، وأوقع بهم أشد العذاب، وليعتبر من بعدهم بهم، فكان المقطع متعانقاً مع المحور ومفصلاً له.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* دعوة جميع الأنبياء متوافقة مع الفطرة، فلايأمرون إلا بما هوطيب فطرة، كما لاينهون إلا عما تتجنبه الفطرة.
* أن أصحاب الفواحش إذا أعلنوها وتوافقوا عليها استحقوا عذاب الله عليهم.

البراهين الدالة على وحدانية الله

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط - عليهم السلام - وهذا الختام متصل بمطلع السورة في الموضوع، والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام، كل قصة تؤدي جانب من جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها.

وهو يبدأ بحمد الله وبالسلام على من اصطفاهم من عباده من الأنبياء والرسل، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل يفتح بذلك بالحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس، وأطواء الغيب، وفي أشراط الساعة ومشاهد القيامة، وأهوال الحشر الذي يفزع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. (١)

وفي هذه الآيات يوقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون، وفي أطواء النفس، لا يملكون إنكار وجودها، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق سبحانه. ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة، تأخذ عليهم أقطار الحجة، وأقطار المشاعر وهو يسألهم أسئلة متلاحقة: من خلق السماوات والأرض؟ من أنزل من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً؟ وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ من يجعلكم خلفاء الأرض؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ ومن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يقرعهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾

وهم لا يملكون بهذه الدعوى أن يقولوا: إن إلهاً مع الله يفعل كل شيء، وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله. (٢)

ثم تمضي الآيات إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول وفزع، ويرجع بهم في ومضة

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٤.

(٢) المرجع السابق.

خاطفة إلى الأرض، ثم يردهم إلى الحشر، وكأنما يهز القلوب هزاً عنيفاً. ثم في النهاية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم بعد أن قدم الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

ثم يختم الجولة بالحمد لله كما ابتدأها بالحمد له وحده، ويتركهم وآيات الكون ومشاهده التي تدل على وحدانية الله وربوبيته ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

البرهان الأول:

فبعد أن ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ قصص المرسلين مع أقوامهم، وما لاقوه من إيذاء وتكذيب، وصبرهم في تبليغ الدعوة إليهم، أثنى الله ـ عزوجل ـ عليهم هذا الثناء العاطر، وخصهم بالسلام والإكرام عن رب العزة والجلال، لينبه على فضلهم وعظيم أجرهم فقال سبحانه ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ تهكم وسخرية وتقريع وتوبيخ لأولئك المشركين الضالين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، هي جمادات لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيء فيقول سبحانه﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟

هل الخالق المبدع الحكيم خير أم الأوثان التي عبدوها من دون الله؟ وهل فيها من صفات إله الحق، ما تستحق به أن تسوى بينها وبينه في الألوهية والربوبية؟ وهو تهكم لاذع، فيه سخرية واستهزاء بعقول المشركين لا يطلب منهم الجواب ولا يريده غيره لأنهم كانوا مقرين بأن هناك إلهاً خالقاً لهذا الكون، ولكنهم أشركوا معهم غيره فيقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

فهم معترفون ومقرون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه

غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ثم يسوق سبحانه الدلائل الصارخة من الكون على وحدانيته وقدرته على الخلق والإيجاد، وهي مشاهد يرونها بأعينهم حتى يجعلهم يقروا بأنه الخالق الواحد، وهذا دائماً هو أسلوب القرآن الكريم في خطاب المشركين يسوق الدلائل في سورة استفهام إنكاري توبيخي، فنجد في سورة المؤمنون قوله تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فها هو يأمر بالتفكر في الكون حتى يجعلهم يقروا بأنه لا خالق ولا مبدع إلا الله سبحانه وتعالى ويقول سبحانه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[القصص: ٧١-٧٢].

فيأمرهم بالتبصر في أحوالهم، والله جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار للمعاش فكيف بهم إذا انقلب الأمر وصار النهار دائماً أو الليل دائماً ويقول سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة:٢٧].

فيأمرهم بالنظر في الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض اليابسة الجامدة التي لا نبات فيها.

ويقول سبحانه ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤]. فمن ذا الذي يرزقكم من السماوات والأرض؟ من الذي يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السماوات ومن المطر ومن الشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع؟ ومن الأرض من الماء والنبات؟ فلا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا؟ وهكذا نجد أن هذا هو نهج القرآن عندما يخاطب المشركين يقدم لهم البراهين

الدالة على وحدانية الله فما هو مشاهد وواقع كما في هذه السورة فقدم هنا خمسة براهين على وجوده سبحانه ووحدانيته.

أما الأول فيقول سبحانه ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾.

فالسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ولا يملك كذلك أن يدعى أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها، وهي أصنام أو أوثان، أو ملائكة وشياطين، أو شمس أو قمر، فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء، ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بذاته كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهافت في القرون الأخيرة ![1].

فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض، والتوجيه إلى التفكر فيمن خلقها كفيلاً بإلزام الحجة ودحض الشرك، وإفحام المشركين، وما يزال هذا السؤال قائماً، فإن خلق السماوات والأرض الذي يبدو فيه القصد ويتضح فيه التدبير، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون مصادفة، ملجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد، الذي تتضح وحدانيته بآثاره. [2]

ثم يقدم لهم لمحة أخرى من واقعهم أيضاً، وهو الماء النازل من السماء وهو أمر مشاهد ملموس ولا يمكن لأحد أن ينكره فهو يوجه قلوبهم وأبصارهم إلى آثار ذلك الماء ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾.

لقد أنبت الله لكم الحدائق الجميلة التي تسر الناظر وتبعث في نفسه البهجة والنشاط، فتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل أيضاً بتمجيد الصانع الذي أبدع كل شيء خلقه.

فإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإن تموج

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٥٦.

(٢) المرجع السابق ٥/ ٢٦٥٦.

الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الوريقات للزهرة الواحدة ليبدوا معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث فضلاً عن معجزة الحياة النامية في الشجر، وسر الحياة لا يزال مستغلقاً على الناس سواء في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان[1].

فمع التطور العلمى الهائل لا يستطيع البشر أن يقفوا على حقيقة الحياة وسرها.

قال القرطبي وقد يستدل بهذه الآية على منع التصوير لشيء كان له روح أم لم يكن، وهو قول مجاهد[2] ويعضده قوله ﷺ: (قال الله عزوجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)[3].

فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله، وضاهاه في التشبيه في خلقه، وقد ذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والإكتساب به وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: (إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجرة وما لا نفس له)[4].

ثم يهجم عليهم بالسؤال ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾؟

أإله مع الله يستحق العبادة، لا مفر من الإقرار له بالوحدانية، ومع هذا هم يسوون آلهتهم المدعاة بالله سبحانه فيعبدونها من دون الله فيقول سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

البرهان الثاني:

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٧.

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٧/ ح ٧١٢٠، صحيح مسلم ٣/ ١٦٧١ح ومسند أحمد ٢/ ٢٣٢.

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٦٧٠ح٢١١٠، ومسند أحمد ١/ ٣٨٠ح٢٨١١.

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى، وهي الهيئة التي خلق الله عليها الأرض لتكون صالحة للحياة مستقرة ثابتة لا تتحرك، وجعل لها وضعاً معيناً من الشمس والقمر بحيث لو تغير وضعها أو تغير شكلها، أو تغيرت عناصرها المحيطة في الجو بها، أو تغيرت سرعة دورانها حول نفسها أو حول الشمس أو حول القمر، لو تغير شيء من هذا لما كانت الأرض صالحة للحياة.

وربما لم يكن المخاطبين إذ ذاك يدركون من قوله ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾؟كل هذه العجائب، ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرة صالحة للحياة على وجه الإجمال، ولا يملكون أن يدعوا أن أحداً من آلهتهم كان لهم شرك في خلق الأرض على هذا المنوال، وهكذا نجد أن النص بقي بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئاً من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال، وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان فهو صالح لكل زمان ومكان. (١)

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ ثم هو سبحانه بعد أن خلق الأرض وجعل فيها الأنهار جعل فيها الرواسي وهي: الجبال الشامخات التي تثبت الأرض، وتحافظ عليها من أن تميد بمن فيها. ثم بعد ذلك تذكر الآية مشهداً آخر من مشاهد الكون ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي: جعل بين البحر الملح الأجاج، والنهر العذب الفرات مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٧.

فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها [1] كما قال تعالى ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ ﴾ [الفرقان٥٣].

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾؟

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى، ووحدة التصميم أمامه تجبره على الإعتراف بوحدة الخالق ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهنا يذكر العلم لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتدبر السنة فيها والناموس، ولأن التركيز في السورة كلها على العلم كما ذكرت سابقا. [2]

البرهان الثالث:

ثم تنتقل الآيات من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾. فيلمس وجدانهم، وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم وواقع أحوالهم فالمضطر في لحظات الكرب والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه ما به من ضر فهو سبحانه المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ ﴾ [الإسراء:٦٧].

وقال سبحانه ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وهو هنا يقول ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ من الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه.

فالمضطر في لحظات الضيق لا يجد مأوى ولا ملجأ إلا إلى الله حين تضيق الحلقة، وتشتد

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٠.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٨.

الخنقة، وتتخاذل القوى، وينظر الإنسان فلا يجد أسباباً للخلاص والنصر ولا قوة في الأرض تنجده، وكل ما كان يعده لساعة الشدة تخلى عنه في هذه اللحظة فتستيقظ فيه الفطرة ويلجأ إلى الله الذي هو وحده القادر على أن يكشف ضره.

فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت) [(١)].

وقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمن سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾[يونس:٢٢]

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥].

فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم وقال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥ ﴾ العنكبوت:٦٥].

وكذلك يجيب دعوة المظلوم فقد قال ﷺ لمعاذ حين وجهه إلى اليمن: (واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب)[(٢)]

وقال ﷺ: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده)[(٣)]

---

(١) سنن أبي داود ٤/ ٣٢٤ح٥٠٩٠، صحيح ابن حبان ٣/ ٢٥٠ح٩٧٠، والمستدرك على الصحيحين ١/ ٧٣٠ح٢٠٠٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٤٤ح١٤٢٥، صحيح مسلم ١/ ٥٠ح١٩.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣١٤ح١٩٠٥، صحيح ابن حبان ٦/ ٤١٦ح٢٦٩٩.

فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر، لأنه منقطع عن الأهل والوطن منفرداً عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته، وتصدق ضرورته إلى المولى فيخلص إليه في اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده لا تصدر منه مع ما يعلم من حنانه عليه وشفقته إلا عند تكامل عجزه عنهم وصدق ضرورته وإياسه عن بر ولده مع وجود إيذائه، فيسرع الحق تبارك وتعالى إلى إجابته [١].

ثم يلمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم فقال تعالى ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٣]. وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وقال تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةًۖ ﴾ [البقرة:٣٠]. أي: قوماً يخلف بعضهم بعضا وهكذا في هذه الآية ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيل بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء سبحانه لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته سبحانه وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل، وتفرغ البرية كما قدر ذلك سبحانه، ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله.

ولهذا قال تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٩.

أيقدر أحد على ذلك أو هناك إله معبود سوى الله؟ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم [(١)].

البرهان الرابع:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

فالناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم، ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم، ويهتدون فمن يهديهم؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات والمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون وطاقاتهم بأسراره من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ولعيونهم القدرة على التقاط الأضواء؟ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ؟ ومَنْ يرسل الرياح؟ ومهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية، تابعه لتصميم الكون الأول الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به، حاملة السحب من مكان إلى مكان مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله وهو سبب الحياة. ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[(٢)].

البرهان الخامس:

ثم ختم تلك البراهين بما كانوا منكرين له من إعادة الخلق فقال سبحانه﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

فهو سبحانه الذي بدأ الخلق قادر على إعادته كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ [البروج: ١٢-١٣].

أما بدأ الخلق حقيقة واقعة لا يمكن لأحد إنكارها، ولا يمكن تعليلها بغير وجود الله

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٢.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥٢/ ٢٦٥٩.

ووحدانيته، فوجود الكون على هذا النظام الدقيق والتدبير المحكم، ملجئ للإقرار بوجود إله خالق واحد، وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو بغير الإقرار بوجود الله ووحدانيته، وأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون فالإقرار ببدء الخلق على هذا النحو ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء، وهذا لا يتم في الحياة الدنيا، فلابد من التصديق بحياة الآخرة يتحقق فيها التناسق والكمال، ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]

فالرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء، ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان، والماء، والهواء، الطعام، والشراب، والاستنشاق ومنها: كنوز الأرض من معادن، وكنوز البحر من طعام وزينة، وقوى أخرى لا يعلمها إلا الله، ويكشف عن شيء منها لعباده آن بعد آن.

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا: الضوء، والحرارة، والمطر، وسائر ما يسيره الله لهم من القوى والطاقات، ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم.

والرزق من السماء والأرض متعلق بالبدء والإعادة فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد، وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا، وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة فهو في الدنيا للحياة وهو في الآخرة للجزاء، وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب)[2].

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وإنهم ليعجزون عن البرهان كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٦٠.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٠.

وهكذا ساق القرآن خمسة براهين في هذه السورة الكريمة على ألوهيته جل وعلا ووحدانيته، وذلك بالخلق والإيجاد والإبداع، والرزق والإحياء، والإماتة وكلها براهين ساطعة قاطعة لا يستطيع المشركون أنفسهم أن يكابروا فيها أو يعادوا، وكل هذه البراهين مشتقة من واقع الحياة، من الطبيعة التي يعيشونها، والكون الذي يشاهدونه، فالسماء والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكارها، ولا أن يزعم أن هذه الآلهة المصنوع خلقها، والماء النازل من السماء كذلك حقيقة مشهورة يستحيل إنكارها، والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة، والجبال الرواسي هي في الغالب منابع الأنهار، والبحر الملح الأجاج، والنهر العذب الفرات، سماها بحرين على سبيل التغليب، والحاجز هو اليابسة، وهو الحاجز الطبيعي الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده، إذ إن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر، ولو كان العكس لطغى البحر على النهر فأفسده، وأفسد الحياة على وجه الأرض، فمن فعل هذا كله؟ ومن نظم الكون بهذا النظام الدقيق البديع؟ ولهذا كان القرآن يذكر هؤلاء الغافلين، بهذه الحقائق الكونية المشاهدة، وفي كل مرة يقرعهم بهذا الخطاب التهكمي الساخر ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟ لينبههم إلى سخافة ما يعبدون من حجارة وأوثان، وقد أعيدت هذه العبارة خمس مرات مع كل برهان يذكره القرآن.

ففي الأولى ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

وفي الثانية ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وفي الثالثة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وفي الرابعة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وفي الخامسة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وهذه هي طريقة القرآن في الجدل حول العقيدة والإيمان، يستخدم مشاهدة الكون وحقائق النفس البشرية، فيجعل الكون كله مسرحاً للمناظر والجدل، ويقطع على الخصم

طريق الشغب، حيث يحمله ليقر بنفسه، فلا يستطيع أحد أن يقول أنا خلقت، أو الأصنام ترزق، أو تحيي أو تميت.!

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

بعد هذه الجولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشرك، يأخذ معهم في جولة أخرى عن الغيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر، وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله، يشهد المنطق والبداهة، والفطرة بضرورته، ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد موعده.

والإيمان بالبعث والحشر، وبالحساب والجزاء، عنصر أصيل في العقيدة، لا يستقيم منهجاً في الحياة إلا به، فلا بد من عالم مرتقب، يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر، ويتعلق به القلب، وتحسب حسابه النفس، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك. [1].

ولقد كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ، سخرياً فجاءت الآيات لتقرر أن الساعة من أمر الغيب، وأن الغيب لا يعلمه أحداً من نبي، ولا ملك، ولا بشر إنما هو من خصائص الخالق الواحد المدبر علام الغيوب، فإذا لم يخبرهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة فلا ينبغي أن يكون هذا مجالاً للطعن في رسالته، والشك في صدق ما أخبرهم عنه من أمور الآخرة، ولهذا قال تعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾.

فهو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب، والآخرة كذلك أمر غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله قال تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ والآيات كثيرة جداً في هذا. وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦١.

أن محمداً يعلم ما في الغد فقد أعظم على الله الفرية: والله تعالى يقول ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١]

وهذه الآية هي نص قاطع لا تبقي بعده دعوى لمدعي، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة فإذا لم يعرف الرسول ﷺ، وقتها فلا يقدح ذلك في رسالته ودعوته ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي انتهى علمهم وعجزوا عن معرفة وقتها، وقرأ آخرون ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾ من الإدراك أي: تساوى علمهم كما في الحديث (إن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: ما المسئول عنها بأعلم من السائل)[٢].

أي تساوى في العجز عن معرفة وقتها، وقيل أدرك بمعنى غاب، ثم تبين الآية حالهم ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بل هم يشكون في الآخرة بل هم في عمى عنها، ليس لهم بصيرة يدركون بها الأشياء لأنهم كالبهائم والأنعام، لا يتبصرون ولا يتدبرون كما قال سبحانه ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

أن ماذكره الله تعالى في المحور كان يومي بإشارات لاخفاء فيها حيث جمع القرآن العظيم مابين ماقصه من الأمور التاريخية البحتة، وعاقبة أولئك الذين كذبوا رسل الله، وما آل اليه مصيرهم من دمار لهم ولبنيانهم، ثم أعقب ذلك محاجة المعاندين والمكابرين وذلك بطلبه للأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ليدل على المقصود مما هو مطلوب منهم.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* بيان القدرة الإلهية فيما خلق وأوجد جل في عُلاه.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٥٩ ح١٧٧، وسنن الترمذي ٥/ ٢٦٢ح٣٠٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٩٣ح٤٤٩٩، صحيح مسلم ١/ ٣٧ح٨.

* حث الخلق وخاصة المنكرين منهم على قدر الله حق قدره لأنه الأول في كل شيء.
* إنصاف الخلق لأنفسهم وذلك بالإيمان بوجود الخالق الموجد لهم.
* التحدي الواضح لأولئك المدعين بأن مع الله خالقاً آخر أن يأتوا ببرهان ذلك، ولكن دون ذلك خرط القتات فلاخالق إلاّ الله، ولاموجد إلاّالله، تعالى الله عمايقول الظالمون علّواً كبيراً.

إنكار المشركين للبعث، والرد عليهم

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

تبين الآيات بعد ماسبق موقف أولئك الكفار الذين كانوا يسألون عن وقت الساعة مع أنهم منكرون لها، ومنكرون للبعث والنشور، مستبعدين الحياة بعد موت الأجساد، وبعد أن تصير رفاتاً وتراباً فيقول سبحانه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

فذكر سبحانه الشبهات التي أوردها المشركون حول البعث والنشور، وأراد فيها بذكر الدلائل القاطعة وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدى الساعة.

ومسألة البعث والنشور من أعقد المسائل في نظر المشركين من كفار مكة، وهي عقدة

المنكرين للبعث والنشور من ملاحدة العصر !! يقولون: أإذا فارقتنا الحياة، وبليت أجسادنا، وتناثرت أشلاؤنا، فأصبحت ذرات مختلطة بتراب الأرض، هل سنرجع إلى الحياة مرة أخرى؟

يقولون هذا وتوقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى، وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً، ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى، فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وفي الفضاء ولكنهم هكذا كانوا يقولون، وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الإختلاف، ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار [1].

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مستبعدين الإعادة، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١١-١٤].

وقوله سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[يس: ٧٧-٧٩]. فهم كانوا يعرفون أن الرسل أنذروا آباءهم بالبعث والنشور، مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة، ولا غفلاً عن معانيها، إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد، فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين: إنها أساطير الأولين، غافلين أن للساعة موعداً لا تتقدم عنه ولا تتأخر إنما تجئ في الوقت المحدد لها، ولقد قال رسول الله ﷺ لجبريل - عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٢.

وأما هذه السخرية والإستهزاء بالعذاب الذي كان يخوفهم به رسول الله ﷺ يأتي دور الوعيد والتهديد للمكذبين، والتسلية للرسول ﷺ لئلا يأسف ويحزن عليه فيقول سبحانه مسلياً له -ﷺ- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

فهنا يأمر أولئك المشركين بالنظر، والتدبر في أحوال من مضى ومصارعهم التي يمرون عليها كقرى قوم لوط، وآثار قوم ثمود في الحجر، وآثار عاد في الأحقاف، ومساكن سبأ بعد سيل العرم، وما حدث لهؤلاء سوف يحدث لمن يكذب من المشركين، فإن السنن لا تنقطع، والقرآن يأمرهم بالسير في الأرض لتتفتح أذهانهم ويعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق.

ثم يوجه نبيه ﷺ ألا يحزن على أولئك المشركين، ولا يضيق صدره بمكرهم فإنهم لن يضروه شيئاً فقد أدى واجبه تجاههم، وأبلغهم دعوة الله إليهم وإن الله ناصرك ومؤيدك.

ثم تمضي الآيات في سرد استهزاءهم واستهتارهم بالبعث والنشور فيقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ثم يأتيه الرد على هذا السفه: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: لعل الذي تستعجلون به من العذاب قدرنا وقرب منكم بعضه، والرديف هو الشخص الذي يكون خلف الراكب، وهو تمثيل لقرب العذاب منهم، وكأن العذاب خلف ظهر الراكب وهم لا يشعرون.

ومن يدرى فالغيب لا يعلمه إلا الله، فقد يكون العذاب على قيد خطوات ما يذهل وما يهول، وإنها العاقل من يحذر.

ثم تبين الآيات فضل الله على عباده في تأخير العقوبة، وإدرار الرزق عليهم، وهم مذنبون أو مقصرون، مع علمه - سبحانه - بما تكن صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم، ولكن

أكثر الناس لا يشكرون على هذا الفضل فيقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ثم تختم هذه الآيات ببيان علم الله الشامل الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض فالله تعالى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال تعالى ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طـه: ٧]. وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج: ٧٠].

وإن الفكر ليجول في السماء والأرض وراء كل غائبة من شيء، ومن سر، ومن قوة، ومن خير، وهي مقيدة بعلم الله سبحانه الذي لا تغيب عنه غائبة فيقول سبحانه ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

هو بيان لعاقبة الظالمين المنكرين لخبر الله تعالى فيما أخبر عنه مما سيكون يوم القيامة من أهوال وأمور تلحق بالجاحدين، وفيه أعظم العظة والاعتبار، وهو عين محور السورة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* بعد كل ماسبق من آيات الله الكونية كان التكذيب بالبعث جريمة شنيعة من هذا الإنسان الملحد المكابر.

* أن الله سبحانه حليم ذو فضل على الخلق يرزقهم وهم به كافرون، ويحلم عليهم وهم بآياته مكذبون.

إخبار القرآن الكريم عن أنباء السابقين

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لما قبله:

وبمناسبة الحديث عن علم الله الشامل، الذي لا تغيب عنه غائبة إلا وقد أحاط بها وبأصحابها علماً، يأتي الحديث عن القرآن، وما فيه من فصل الخطاب، فيما اختلف فيه بنو اسرائيل، وهو في أنبائه وأخباره عما في كتب السابقين أعظم شاهد على صدق محمد ﷺ، فمن أين لرسول الله – النبي الأمي – أن يخبرهم عما في كتبهم من التحريف والتبديل، وأن يبين لهم ما وافق الحق وما خالفه منها، لو لم يكن نبياً صادقاً يوحى إليه من عند الله؟

هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة، وبيان الاختلاف الجوهري الخطير في معتقداتهم وبيان القول الصواب فيه

يقول سبحانه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

فالقرآن الكريم بما فيه من الهدى والبيان يقص على بني اسرائيل – وهم حملة التوراة والإنجيل – أكثر الذي هم فيه يختلفون، فالنصارى اختلفوا في المسيح وأمه فقالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة إن الأب والابن والروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والابن والروح القدس (فالابن هو عيسى) وقالت جماعة إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ولذلك هو دون الأب وخاضع له.

فجاء القرآن الكريم ليقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً فقال عن المسيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا

عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

كما اختلفوا كذلك في مسألة صلبه فمنهم من قال: أنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء، ومنهم من قال إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب، وقص علينا القرآن الكريم الخبر اليقين فقال سبحانه ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال تعالى ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

والمراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الزمر: ٤٢].

وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا)(١).

وأخبر ﷺ اليهود (أن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة)(٢).

وكذلك حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية، فجاء القرآن يثبت الأصل

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٢٦ ح٥٩٥٣، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٨٣ح٢٧١١، سنن الترمذي ٥/ ٤٨١ح٣٤١٧.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٨.

الذي أثبته الله فيقول سبحانه ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥].

فإن هذا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار.

كذلك نسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام الأساطير التي كتبوها في التوراة فلم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً فيزعمون أن إبراهيم قدم امرأته لملك فلسطين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما، ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده بطريق السرقة والحيلة والكذب، وداود رأى امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنوده فأرسل هذا الجندي إلى الحرب ليفوز بامرأته إلى غير ذلك من تلك الأساطير.

فجاء القرآن الكريم ليطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة فالقرآن الكريم فيه الهدى والرحمة للمؤمنين، والمنهج القرآني منهج رباني فريد، فهو يتفق مع الفطرة التي خلقها الله فهو يرحمهم من الشطط والحيرة والتخبط، بل يجعل النفوس مطمئنة بهذا المنهج، تعيش معه في أمان وسعادة لا يدركها إلا المؤمنون بالله وحده. ولذا يقول تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾[النمل٧٧: ٧٨].

ثم تمضي الآيات في تسلية رسول الله ﷺ فقد أوحى الله إليه بهذا القرآن ليبلغه لقومه وللناس أجمعين، وهو لم يقصر في دعوته، ولكنه إنما يسمع الأحياء أحياء القلوب، الذين تعي آذانهم، فتتحرك قلوبهم، فيقبلون على الناصح الأمين، فأما الذين ماتت قلوبهم وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان فما له فيهم حيلة، وليس له إلى قلوبهم سبيل فيقول سبحانه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى

اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك عنك مدبرون كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله سبحانه فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه.

والصحيح عند العلماء أن الميت يعرف بزيارة الحي ويستبشر له وذلك لما روى من حديث عبدالله بن عمر في مخاطبته ﷺ لقتلى بدر حتى قال له عمر يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون) [١].

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم بسلام من يخاطبونه فيقول المسلم: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين) وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا هذا لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد[٢].

فالتعبير القرآني البديع يرسم سورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة، حالة جمود القلب، وجمود الروح، وبلادة الحس، وهمود الشعور فيخرجهم مرة في صورة الموتى، والرسول - ﷺ- يدعو، وهم لا يسمعون الدعاء، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة في صورة العمى يمضون في عماهم، لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون[٣].

وفي مقابل الموتى والعمي والصم، يقف المؤمنون فهم أحياء، وهم السامعون، وهم

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٤٦٢ح١٣٠٤، وصحيح مسلم ٣/ ٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٦٦.

المبصرون فيقول سبحانه ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله، بالحياة والسمع والبصر، وآية الحياة الشعور، وآية السمع والبصر الإنتفاع بها يسمع وبها يرى، فالمؤمنون هم المنتفعون بالهداية كذلك، فالإسلام دين الفطرة فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وهذا المقطع يدور حول المحور نفسه من الاعتبار بقصص السابقين الذين أخبر عنهم القرآن الكريم لإرشاد الأمة وحثها على تلقي تلك الدروس الإيمانية تلقياً قوياً من مصدر الهداية، وهو وحي الله تعالى.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن القرأن هو مصدر الهداية، والمرجع عند الاختلاف، فحكمه الفصل ومنبره الحق.
* أن كل اختلاف وقع للسابقين واللاحقين إنما هو لتنكرهم هدى القرآن، وتنكبهم عن سبيله.

بعض علامات الساعة وبعض مشاهد يوم القيامة

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد أن ذكر -الحق تبارك وتعالى- فضل القرآن وحكايته للأنبياء السابقين وأن فيه الهداية للمؤمنين بعد ذلك يجول بهم في جولة أخرى في أشراط الساعة وبعض مشاهدها، قبل الإيقاع الأخير الذي يختم به السورة، جولة يذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية، ويرسم مشهداً للحشر والتبكيت للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون ثم يعود بهم من هذا المشهد إلى آيات الليل والنهار المعرضون للأبصار وهم عنها غافلون، ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ في الصور ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ويعرض عليهم مشهد المحسنين الآمنين من ذلك الفزع والمسيئين كبت وجوههم في النار[1].

---

(١) المرجع السابق ٥/ ٢٦٦٧.

فيقول سبحانه ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ والمراد بالوقوع: الدنو والاقتراب كما في قوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النحل: ١].

أي: إذا دنا واقترب وقت قيام الساعة، ونزول العذاب بالمجرمين المكذبين، أخرجنا لهم دابة من الأرض، هي (الجساسة) لأنها تتجسس أخبار الناس، وهي من آيات الله الكبرى، ومن علامات الساعة الباهرة، لأنها تكلم الناس كلاماً فصيحاً صحيحاً، وتخاطبهم مخاطبة صريحة تقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، كما روي عن عطاء وابن عباس.

فهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله -عزوجل- وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، من مكة، وقيل: من غيرها، فتكلم الناس كلاماً أي: تخاطبهم مخاطبة[1]، وقد رُوي عن وهب بن منبه قال: تخرج تكلم الناس، كل يسمعها وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجا، ويتعادى الأخلاء، ويرفع العلم، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيها لا ينالون، ويعملون فيها لا يأكلون.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث كثيرة منها ما روي عن ابن عمرو قال: حفظت من رسول الله حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً**)[2].

وما روي عن النبي ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال، وثلاثة خسوف -يعنى خسوف الأرض- خسف بالمغرب - وخسف بالمشرق وخسف**

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٦.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٠ ح ٢٩٤١، سنن الترمذي ٤/ ٤٧٧ح٢١٨٣.

بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا)[1].

فإذا آل أمر الناس إلى أن كانوا لا يؤمنون بآيات الله المشهودة لهم، وبطل استعدادهم للإيمان بالله بالتعقل والاعتبار، فذلك وقت أن يريهم الله ما وعدهم من الآيات الخارقة للعادة، ومن هذه الآيات خروج الدابة، وقد ذكر المفسرون أحاديث كثيرة في وصف الدابة وهل هي من الإنس وغير ذلك، وهي أمور لا حاجة إلى ذكرها إذا لم يصح من هذه الأحاديث شيء، وحسبنا أن نقف على النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة.

صور من مشاهد يوم القيامة:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الحق – تبارك وتعالى – علامة من علامات الساعة وهي خروج الدابة التي تكلم الناس، جاءت الآيات بعد ذلك لتذكر بعض من مشاهد يوم القيامة، وموقف المكذبين لآيات الله ورسله، حين يقفون بين يدى أحكم الحاكمين، ويسألون سؤال تحقير وتصغير: أكذبتم بآيات الرحمن من غير دليل ولا برهان؟ وماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ وهناك لم يكن لهم جواب إلا الصمت والخذلان، واسوداد الوجوه فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

فهو توبيخ لهم وتقريع وتحقير كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢]. وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير: ٧].

فهؤلاء يساقون كما تساق الأنعام يرد أولهم على آخرهم، حتى يتلاحقوا ويتجمعوا في موقف التوبيخ والتحقير ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ

(١) صحيح مسلم ح٢٩٠١، والترمذي ح٢١٨٤.

تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النمل: ٨٤].

أي: حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال، خاطبهم الله تعالى بقوله: أكذبتم بآياتي التي جاء بها الرسل، من غير تفكر ولا تدبر؟ أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟

والسؤال الأول للتأنيب فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله والسؤال الثاني للتهكم والسخرية، كأنه يقول لهم ماذا قدمتم ليومكم هذا؟ وما هي الأعمال الصالحة التي تستحقون بسببها الإكرام؟

فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله عنهم ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القيامة٣١: ٣٢]. فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال تعالى ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات ٣٥-٣٦].

وهكذا قال ها هنا: ﴿ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم الجواب لأنهم كانوا في الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.[1]

ولما ذكر الحشر، استدل عليهم بحشرهم كل ليلة إلى الميت، والختم على مشاعرهم، وبعثهم من المنام، وإظهار الظلام الذي هو كالموت بعد النور، وبعث النور بعد إفنائه بالظلام فقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وقد جعل الله الليل للراحة لتسكن النفوس، وتستريح من النصب والتعب في النهار، وجعل الله تعالى النهار للسعى وكسب المعايش، والأسفار، والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم فالليل والنهار جزء من نظام الكون، الذي هيأه الحكيم العليم لمصالح العباد، فلو لم يكن ليل ولا نهار لانعدمت الحياة على وجه الأرض بل لو كان النهار أو الليل أطول مما هما

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٨.

الآن عشر مرات فقط، لأحرقت الشمس كل نبات ولتجمد في الليل كل نبات ولا استحالت الحياة على وجه الأرض ولهذا لفت القرآن أنظارهم إلى تعاقب الليل والنهار إذا هي من أعظم الآيات والدلائل على وجود الله فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان:٤٧].

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة وهو النفخ في الصور فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

فلما ذكر الله تعالى مشهد الحشر وموقفهم المهين بين يدى الله تعالى تنتقل الآيات إلى مشهد آخر وهو النفخ في الصور فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فيخبر سبحانه عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة في الصور وهو كما جاء في الحديث (قرن ينفخ فيه)[1] وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ فيه أول نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على أشرار الناس من الأحياء فيفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون[2].

ففي الحديث «قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن والله عظيم، والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات، النفخة الأولى: نفخة الفزع،

(١) هذا الحديث رواه أبو داود (٢٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠) وحسنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٨.

والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث، والقيام لرب العالمين»، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ولهذا قال سبحانه ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ أي: طائعين صاغرين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء:٥٢].

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥].

قال القرطبي: والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبدالله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث وهو الصحيح قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر:٦٨].

فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن كلا الأمرين لا زمان لهما أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو المراد النفخة الثانية، أي: يحيون فزعين يقولون ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس: ٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم، وهذا النفخ كصوت البرق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء (١).

وعن أبي هريرة قال: عن النبي ﷺ قال: ما بين النفختين أربعون؟ قالوا: يا أبا هريرة؟ أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة(٢).

ثم استثنى سبحانه من نفخة الفزع هذه الذين لا يعتريهم الفزع إلا من شاء الله قيل: هم الشهداء لما روي عن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: سألت جبريل عليه السلام عن هذه الآية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣ / ١٥٩.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٥).

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من الذين لم يشاء الله تعالى أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله[1].

ثم تذكر الآيات مشهداً آخر أعظم من فزع الناس وهو الجبال الجامدة الراسخة فيقول سبحانه ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

أي يحسبها الرائي ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطور:٩-١٠]. وقال سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[طه: ١٠٥-١٠٧] وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف:٤٧]. وقال تعالى﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ففي هذا إشارة إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب الدنيا وهدم للعالم، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو موليها من سعادة أو شقوة لأن ذلك صنع الله الذي اتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما اتقنه ولا يسلط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير للآخرة فهو سبحانه الخبير الحكيم.

ثم تبين الآيات بعد ذلك حال الناس بعد أن يحشروا وبعد أن يروا تلك الجبال التي صارت هباءاً منثوراً فيقول سبحانه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾. وقد يبين الله تعالى في موضع آخر أن الحسنة بعشر أمثالها فيقول سبحانه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٠].

وهذه الآية مفصلة لما أُجمِل في الآية الأولى ووردت أحاديث مطابقة لهذه الآية فقد روى

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣ وصححه.

عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزوجل قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ربكم عزوجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عزوجل ولا يهلك على الله إلا هالك)(١).

وفي حديث عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله -عزوجل -: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتانى ماشياً أتيته هرولا)(٢).

قال ابن كثير(٣): واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله عزوجل – فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الحديث (إنما تركها من جرائي) أي لأجلي وتارة يتركها ناسياً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينوب خيراً ولا فعل شر وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا يتنزل منزلة فاعلها كما جاء في الحديث (إذا توجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار وقالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) (٤).

ثم تختم الآيات بأن الجزاء لابد أن يكون من جنس العمل جزاءاً وفاقاً على ما قدموه فالمؤمنون أمنوا من هذا الفزع الأكبر وهو وحده جزاء منه وفضل من الله كما قال سبحانه

(١) رواه أحمد ١/ ٢٧٩، وأخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) دون قوله: «إن ربكم رحيم».
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٤.
(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٠ ح ٣١، صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٣ ح ٢٨٨٨، سنن أبي داود ٤/ ١٠٣ ح ٤٢٦٨.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ومن عمل السيئات فكان جزاؤه أن يلقى في النار جزاء ما قدم وهو مشهد مفزع، وهم يكبّون في النار على وجوههم، فقد أعرضوا عن الهدى، وأشاحوا عنه بوجوههم، فهم يجزون به كباً لهذه الوجوه في النار.

وفي النهاية تجئ الإيقاعات الأخيرة حيث يلخص الرسول ﷺ دعوته ومنهجه في الدعوة ويكلهم إلى مصيرهم الذي يرضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان، ويختم بحمد الله كما بدء ويدعوهم إلى أن الله يكشف لهم آياته ويحاسبهم على ما يعملون: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وتختم السورة فكانت مكة حرماً آمنا لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر، وهذه الآية تبين منهج الدعوة الحق التي فيها التبشير والإنذار لإتمام الحجة من غير أن يرجع إليه رسول الله ﷺ من أمرهم شيء، وإنما الأمر إليه وحده سبحانه وسيريهم آياته فيعرفونها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش ٣-٤].

فأمرهم سبحانه أن يوحدوه ويفردوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً فقد ت تفضل عليهم بنعمة الأمن وهو الذي أطعمهم من جوع فيفردوه بالعبادة ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من آمن بالله جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ومن عصاه

سلبها منه كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل ١١٢-١١٣].

وقد حرمها النبي ﷺ أيضاً فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ يوم فتح مكة «إن الله حرمه يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها بتمامه»[1] فقد أثبتت الآيات أن الله تعالى له كل شيء وإليه المرجع والمآل.

وبعد أن بينت الآيات ذلك المنهج الذي رسمه الله تعالى للدعوة الإسلامية بدأ ليبين وسيلة تلك الدعوة وهي تلاوة القرآن فقال سبحانه ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

فالقرآن هو الكتاب الخالد ودستور تلك الدعوة إلى أن تقوم الساعة وقد أمر أن يجاهد به الكفار، وفيه وحده الغناء في جهاد الأرواح والعقول، وفيه ما يأخذ عن النفوس أقطارها وعلى المشاعر طرقها، وفيه ما يزلزل القلوب القاسية ويهزها هزاً لا تبقى معه على قرار، والقرآن فيه الهداية فمن اهتدى فلنفسه ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليَّ لأني لست إلا منذر مأمور بذلك ولست عليه وكيلاً والله هو الوكيل عليه قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود:١٢] وقا ل سبحانه﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

وهنا تتمثل فردية التبعة في ميزان الله، فيما يختص بالهدى والضلال وفي فردية التبعة تتمثل كرامة الإنسان، التي يضمنها الإسلام فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان، قال تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ

(١) والحديث عند الشيخين البخاري (١٨٣٢) ومسلم (١٣٥٤) وبألفاظ متعددة.

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: ١٥].

فلا يحمل أحد ذنب أحد ولا يجنى جان إلا على نفسه، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

لأن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ولا يحمل عنهم شيئاً وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وقال تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٨-٣٩].

فقد استنبط الإمام الشافعي رحمه الله من هذه الآية أن إهداء ثواب القراءة إلى الموتى لا يصل لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، إذ لو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والأراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها. والمسألة خلافية بين أهل العلم.

وأما ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به)[١]. فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه)[٢] والصدقة الجارية كالوقف ونحوها هي من آثار عمله والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى الناس به بعده هو أيضاً من سعيه وعمله.

ثم تختم السورة بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى فيقول سبحانه ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ

---

(١) صحيح مسلم رقم (٤٣٠ ٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١) وأبوداود (٣٥٢٨) والترمذي (١٣٥٨)والنسائي (٧/ ٢٤٠) عن عائشة، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح).

ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي وقل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعا الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأمات قلوبهم وأصم آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذبوا بآياته وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

أي: سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية في الآفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وكذلك الدلائل في أنفسهم كما هو معروف في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة وقيل انظر في نفسك تعرف ربك.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا في كتابه التفكر والإعتبار عن شيخه أبى جعفر القرشى أنه قال وأحسن المقال:

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ففيك معتبَر
أنت الذي تمسي وتصبح في	الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر	ثم استقل في شخصك الكبر
أنت الذي ينعاه خلقته	ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب	لا ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بماله القدر

ثم تختم الآية بأن الله وحده لا يخفى عليه شيء، ولا يغفل عن شيء فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ياأيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة)[1] .

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٠.

وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

مناسبة المقطع لمحور السورة:

مما يسترعي الانتباه أن السورة ختمت بالتذكير باليوم الآخر معرجة على ذكر الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم الجلل فكان الارتباط جلياً واضحاً ينادي العباد بالإستقامة وسلك سبيل الرشاد للنجاة من أهواله، ويكون بمثابة التحذير الضمني لهم، وفيه مزيد اعتبار وعظة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* الرجوع الى القرآن في جميع شؤون الحياة الدنيا والآخرة فهو زاد المؤمنين، ودستور الدعاة المصلحين.
* الدعوة إلى الله تعالى ترتكز على ركيزتين أساسيتين هما: الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير.
* فضل الله تعالى على عباده بمضاعفة الحسنات وعدم المؤاخذة إلاعلى مااقترفه العبد من السيئة ومع ذلك فالعفو مرجو منه ليس ببعيد.
* مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال، وتذكر الآخرة والإعداد للقائه والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

سورة القصص

أولا: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

تسمى سورة القصص، ولم أقف على من ذكر لها اسماً آخر، وكان يمكن أن تسمى باسم موسى عليه السلام لبسط قصته فيها [(1)]، ولكن اسم القصص أليق وألصق بها، كما سيأتي بيانه.

وأما سبب تسميتها بسورة القصص فظاهرة، لأنها تناولت الكثير من القصص وخصوصاً قصص موسى عليه السلام وقومه، حيث تناولت السورة حياة موسى عليه السلام، فمهدت بأمر فرعون مع قوم موسى، ثم تناولت ميلاد موسى عليه السلام، ثم قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصته مع الرجلين، ثم قصة خروجه وعمله مع الرجل الصالح وزواجه من ابنته، ثم قصة الوحي إليه وكلام الله تعالى له، ورسالته وإيتائه الكتاب، وكفر قومه به. ثم ربطت السورة ذلك بتكذيب كفار قريش للنبي ﷺ، ثم انتقلت السورة إلى تسلية النبي ﷺ، فتناولت قصة قارون من قوم موسى، وتكذيبه للدعاة من قومه، وكيف خسف الله به الأرض رغم ماله وطغيانه، وختمت ببشارة النبي ﷺ بالوعد بالعود إلى مكة، وأمرته بالإعراض عن المشركين، وأن لا يكون ظهيراً للكافرين.

ونلاحظ أن سورتين في القرآن الكريم تبدآن بطريقة متشابهة، هما سورتا يوسف عليه السلام وسورة القصص، وفي كلتا السورتين تركيز على قصة أساسية تتخللها قصص فرعية تشكل جوانباً رئيسة في القصة الأساسية، مع الفارق بينهما.

نجد أن سورة يوسف عليه السلام بدأت هكذا: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: ١-٤]، فيما بدأت سورة القصص هكذا: ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٥٧).

وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾.

وقد يقول البعض: إن سورة يوسف ﵇ ألصق باسم القصص من هذه السورة، لورود لفظة القصص في أولها، وتداخل قصص عديدة ضمن القصة الأساسية، إلا أن سورة يوسف ﵇ لم تتناول الصراع بين الخير والشر المطلقين، بل إن الشر فيها يؤول إلى خير؛ فتتوب امرأة العزيز وتعترف بالذنب، يتوب إخوة يوسف ﵇، ولهذا كانت تسميتها بيوسف ﵇ أليق والصق بالسياق، لما أنها تناولت قصة يوسف ﵇ دون غيره.

بخلاف سورة القصص التي وإن تناولت عدة جوانب من قصة سيدنا موسى ﵇ إلا أنها ركّزت بالذات على علاقة الإيمان بالكفر، والخير بالشر، علاقة موسى بفرعون، وكيف تتداخل قصتهما وحياتهما قبل الصراع والمواجهة، وكيف تنتهي.

وبما أن أكثر القصص الدينية والدنيوية تتمحور حول الصراع بين الخير والشر، وهو ما تتناوله هذه السورة، سميت بسورة القصص، وكان هذا الاسم أليق بها من أن تسمى بسورة موسى ﵇ مثلاً؛ لأن المحور الأساسي فيها هو الصراع بين الخير والشر، حيث تمثل الخير في موسى ﵇ بطريق مباشر، وفي محمد ﷺ بطريق غير مباشر، وتمثل الشر فيها طغيان سلطة فرعون وطغيان مال قارون بطريق مباشر، وفي كفار قريش بطريق غير مباشر.

قال السمرقندي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ، فيشكون إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه السورة في شأنهم، لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه، ليصبروا كصبرهم، وينجيهم ربهم كما أنجى بني إسرائيل من فرعون وقومه، وهذا كقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية[١].

---

(١) بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي (٢/ ٥٠٨).

الجدير بالذكر أن لفظ القصص ورد في أول سورة القصص لكن بطريق غير مباشر وذلك في قوله تعالى ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾، أي: نقص قصاً متتابعاً متوالياً بعضه في إثر بعض[١]، والله أعلم.

ب ـ فضائلها:

سورة القصص هي إحدى السور المثاني[٢]، ولم أقف على حديث خصّها بالفضل[٣]، والله أعلم.

ج ـ مكية السورة أو مدنيتها:

سورة القصص مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة: إلا قوله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، فإنها نزلت بين مكة والمدينة وقال ابن سلام: نزلت بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٤]، وعن ابن عباس أنها نزلت في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا وقعة أحد[٥].

---

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٤).

(٢) انظر: الإتقان (١/ ١٧٦). نقله عن ابن أشته.

(٣) ذكر السمرقندي في بحار العلوم (٢/ ٥٢٩) حديثاً في فضل سورة القصص، فقال: وعن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ سورة القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة إنه كان صادقاً في قوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، وذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٩٤)، وأبو السعود (٧/ ٢٨)، والبيضاوي (٤/ ٣٠٦). ولم أقف عليه، كما لم يذكر له سند فيدرس. والله أعلم.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٤٧)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٢٧٥)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٠١).

(٥) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٥١).

د- عدد آياتها:

عدد آياتها: ثمان وثمانون آية باتفاق، لكن اختلف في التقسيم، فعدّ أهل الكوفة قوله تعالى {طسم} آية كاملة، وهو الذي في المصاحف، وعدّ الباقون بدلها قوله تعالى {أمة من الناس يسقون}[1].

هـ: محور السورة:

محور السورة هو إبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة للحق وأهله. فتدور مقاطع السورة حول الصراع بين الحق والباطل والخير والشر، حيث تمثل الخير في موسى عليه السلام بطريق مباشر، وفي محمد ﷺ بطريق غير مباشر، وتمثل الشر فيها في طغيان السلطة عند فرعون وطغيان المال عند قارون بطريق مباشر، وفي كفار قريش بطريق غير مباشر.

كما بيّنت السورة أن العاقبة للحق وأهله، والعقاب للباطل وأتباعه، فلم ينفع فرعون سلطته ولا أعوانه، ولم ينفعهم هو أيضاً، كما لن ينفع المشركين آلهتهم المزعومة يوم القيامة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ بل تتبرأ منهم، وكذلك لم ينفع قارون ماله، بل يكون عقابه عبرة لمن خلفه ممن كان يتمنى مالا مثل ماله. وبهذا تشير السورة إلى مصير مشركي قريش الذين كذبوا بمحمد ﷺ.

و: المناسبات في السورة:

- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها ظاهرة، لأن القصص هو أفضل وسيلة لإبراز جانب الصراع بين الحق والباطل وعاقبة هذا الصراع ونتيجته، وهو ما توضحه جوانب القصص في هذه السورة الكريمة.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٣).

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما بدئت السورة بالحديث عن أمر موسى عليه السلام مع قومه ونصرته، وتمسكه بعبادة الله تعالى حيث قال ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾، وخروجه من وطنه، ختمت بأمر النبي ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين، وبتسليته عليه الصلاة والسلام عن إخراجه من مكة، ووعده بالعود إليها، ويناسب هذا أيضاً ما جاء في أول السورة الكريمة من قول الله تعالى ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[1].

وظهر لي فيها مناسبة أخرى، وهي: أنه لما ذكر في أول السورة علو فرعون في الأرض وإفساده، نبّه سبحانه وتعالى في آخر السورة إلى أن الدار الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

مناسبة سورة القصص لما قبلها وهي سورة النمل -وكذا لسورة الشعراء- ظاهرة، ووجه المناسبة اشتمالها على شرح بعض ما أجمل في سورة النمل وسورة الشعراء معاً من أمر موسى عليه السلام.

قال السيوطي: لما حكى سبحانه في سورة الشعراء قول فرعون لموسى ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾، إلى قول موسى ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾، وذكر في سورة النمل قول موسى لأهله ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، إلى آخر ما وقع له بعد الفرار، ولما كان ذلك على سبيل الإشارة والإجمال هناك بسط في هذه السورة ما أوجزه في السورتين وفصّل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما. فبدأ بشرح تربية فرعون له مصدراً بسبب ذلك من علو فرعون وذبح أبناء بني إسرائيل

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ١٨٥-١٨٦)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢/ ٢٩٦).

الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل، إلى الهم بذلك عليه والموجب لفراره إلى مدين، إلى ما وقع له مع الرجل الصالح وتزوجه بابنته إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله ﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه وبعثه إياه رسولاً وما استتبع ذلك إلى آخر القصة. فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معا على الترتيب[1].

يضاف إلى ذلك أن في هذه السورة من الإعجاز بذكر الغيب من أخبار الأمور الماضية في عصر موسى ﷺ، وقبله وبعده، مصداقاً لقوله تعالى في آخر سورة النمل: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣][2].

وهناك مناسبة خفية أخرى بين السورتين؛ وهي قوله تعالى في آخر النمل ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾إلى آخر السورة، وفيها ذكر حرمة مكة المكرمة، والتهديد والوعيد لكفار قريش الذين لم يراعوا حرمتها، ففيها إشارة إلى أن النبي ﷺ سيفتح مكة، فتعود حراماً كما كانت. والمناسبة هي أن ذكر نصر الله تعالى لموسى على فرعون وقومه في أول سورة القصص، يناسب الوعد للنبي ﷺ بفتح مكة في آخر سورة النمل.

ومناسبة أخرى وهي بين قوله تعالى في آخر النمل: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، أي: ليسمعوا ما جرى لمن كفر وطغى وكيف كانت عاقبته، وبين قوله في أول القصص: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾، فكأنه قيل لهم: لستم أكثر قوة وجبروتاً من فرعون وقومه، وليس أتباع النبي ﷺ في مكة بأضعف من بني إسرائيل في عصر فرعون حين كان يعذبهم ويذبح أبناءهم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتم أنهج الطريقين[3].

---

(١) انظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (ص١٢٢-١٢٣)، وروح المعاني، للآلوسي (٢٠/ ٤١).

(٢) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٥-٢٣٨).

- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح تام، لأن محور السورة العام هو: إبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة للحق وأهله، وهو ما توضحه القصص المذكورة في هذه السورة الكريمة، فهي تبيّن عاقبة الظلم والاستكبار والطغيان، وعاقبة الإيمان وأهله.

ففي بداية السورة بيان لوجه من أوجه القدرة الإلهية؛ حيث نجّى الله تعالى موسى ﷺ من القتل عند الولادة، بينما استمر فرعون في ذبح الأولاد خوفاً من مولود يقضي على ملكه، لكن عندما ولد موسى ﷺ تولى فرعون بنفسه تربيته وخدمته، ليعلم لمن التدبير والقضاء والإمضاء[1]، قال تعالى ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

ثم نجى الله تعالى موسى ﷺ من الغرق، وأمّن أمه من الخوف عليه من الغرق والحزن على فراقه، ثم ردّه إليها ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم نجى الله تعالى موسى ﷺ من فرعون وملئه لما أرادوا قتله في شبابه بعد أن قتل القبطي. وأمّنه منهم لما عاد وخاف أن يقتلوه، ﴿ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [٣٣]، فأيده بالآيات الباهرات، ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ﴾، وشدّ عضده بأخيه هارون، وجعل لهما سلطاناً، كي لا يتمكنوا من إيذائهما، ووعد بنصرهما ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

ثم نصره على السحرة بعد أن ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وخيّل ﴿ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه: ٦٦-٦٨].

ثم نجى الله تعالى موسى ﷺ وبني إسرائيل من فرعون وقومه بأن فلق لهم البحر،

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٨).

وأغرق فرعون وجنوده ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم فيها بعد ذلك تحذير لكفار قريش من الركون إلى الدنيا والاغترار بها والبطر فيها حتى لا يصيبهم العذاب بظلمهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ ويخسروا يوم الحساب، حين يتبرأ الأتباع من الأصحاب، عندما يرون العذاب.

تلا ذلك قصة قارون وطغيانه في المال، وعدم قيامه بحقه، وظلمه لقوم موسى، وأنكر فضل الله عليه، وأنكر حق عباد الله تعالى في المال فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، ولم يتعظ بمن قبله ممن هو ﴿ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض.

وهكذا تختم هذه القصص بقاعدة عامة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، تليها قاعدة مثلها: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

لتختم السورة ببشارة عظيمة للنبي ﷺ بالعودة إلى مكة منتصراً، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾، وفيها تهديد ووعيد ضمني لكفار قريش، كي يتعظوا بهذه القصص وما جاء فيها، ويلحظوا تدبير الله تعالى لعباده الصالحين، عندما يثبتون على الحق.

هذا وعد الله تعالى لعباده الصالحين، ووعيده للمكذبين والظالمين، لا يتخلف ولا يتبدل فهو الله سبحانه الإله الحق ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾. وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ قولان: أحدهما: إلا ما أريد به وجهه، من الإيمان والعمل الصالح[1]، والثاني: إلا هو سبحانه وتعالى[2]. وكلاهما ينسجم

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ٢٠٣)، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٨).

مع السياق العام للآيات، ومع محور السورة.

وهكذا تتناسب مقاطع السورة مع محورها أفضل تناسب وتنسجم وتتناغم، حيث توضح هذه المقاطع في هذه السورة الكريمة سوء خاتمة الظالمين المستكبرين المفسدين، وعاقبة المؤمنين الصادقين الموحدين. والله أعلم.

- المناسبة بين مقاطع السورة مع بعضها:

يأتي في بداية كل مقطع أثناء التفسير إن شاء الله تعالى.

- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة النمل وسورة القصص مكيتان، وترتيبها في النزول كترتيبها في المصحف والسورتان تكملان ما ورد من قصص الأنبياء في سورة الشعراء، وفي كل سورة زيادة تفصيل في جانب من الجوانب.

فسورة النمل ذكرت قصة سليمان وداود عليهما السلام، وفيها مزيد بسط لقصة لوط عليه السلام، وفيها تفصيل قصة الوحي لموسى عليه السلام، حيث جاء في سورة الشعراء قوله تعالى ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وتفصيلها في سورة النمل عند قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، وما بعدها.

وفي سورة القصص تفصيل قصة موسى عليه السلام مع قومه، وفيها بيان عاقبة الأنبياء وأتباعهم المتقين، وهلاك المتعالين والمفسدين [١].

ويدخل هنا ـ أيضاً ـ ما سبق ذكره من المناسبة بين سورتي النمل والقصص.

فاتحة سورة النمل وفاتحة سورة القصص:

افتتحت سورة القصص بعد الحروف المقطعة بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

---

(١) انظر: أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي (ص١٢١-١٢٢).

﴿٢﴾»، أما سابقتها سورة النمل فقد افتتحت بعد الحروف المقطعة بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، وبعد النظر في السورتين يتبين أن سورة النمل فيها إشارة للقرآن الكريم أكثر مما في سورة القصص، وفي سورة القصص إشارة للكتاب أكثر مما في سورة النمل ولعله من أسباب الاختلاف بين فاتحتي السورتين، كما يأتي:

الإشارة إلى القرآن الكريم في سورة النمل:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾(الآية: ٦).

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾(الآية:٧٦).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾(الآية: ٧٧).

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الآية: ٩٢).

والإشارة إلى القرآن الكريم في سورة القصص:

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾(الآية: ٨٥).

- وهناك إشارات أخرى ليست صريحة، وهي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (الآية: ٥٣)، وقوله ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ ﴾(الآية: ٥٤)، وقوله ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ ﴾(الآية: ٨٧).

وأما بخصوص الإشارة إلى الكتاب، فإنها في سورة القصص أكثر مما في سورة النمل، كما يأتي:

الإشارة إلى الكتاب في سورة النمل:

٢ - ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾(٢٨). وهذا كتاب سليمان عليه السلام، ولعل فيه إشارة إلى ضرورة حسن أداء مهمة التبليغ.

٣ - ﴿ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾(٢٩). وهذا كتاب سليمان ﷺ، ولعل فيه إشارة إلى ضرورة حسن استقبال ومعاملة كتاب الله تعالى.

﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾(٤٠). والكتاب هنا: قيل اللوح المحفوظ، وقيل اسم الله الأعظم، أو غير ذلك[1].

﴿ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٧٥ ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

والإشارة إلى الكتاب في سورة القصص:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾(٤٣).

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ ﴾.

﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦ ﴾.

وهكذا، نجد أن ذكر الكتاب في سورة النمل يتجه إلى غير القرآن الكريم، ولعل هذا من أسباب قوله تعالى في بدء سورة النمل﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾. أما في سورة القصص فإن ذكر الكتاب يتجه إلى القرآن الكريم تارة وإلى التوراة تارة أخرى، وجمع بينهما في آية واحدة؛ ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾، والله أعلم.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٧٠)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٣١)، والدر المنثور، للسيوطي (٦/ ٣٦١).

ونشرع بعد هذه المقدمات في التفسير الموضوعي لمقاطع هذه السورة الكريمة، وهي أحد عشر مقطعاً، كما يأتي.

المقطع الأول: طغيان فرعون وإفساده، ووعد الله تعالى بإنقاذ المضطهدين، وتوعّده بعقوبة المفسدين

قال تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص (١-٦).

التفسير الإجمالي:

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة، وقد سبق الحديث عنها في بداية التفسير. ثم تقرر حقيقة أن ما يتلى من آيات عظيمة الشأن عالية القدر هو آيات القرآن الكريم الذي وصف هنا بأنه الكتاب المبين الموضح لحقائق الأمور، وأن ما يتلى سيتناول جوانب من نبأ موسى وفرعون، ولأنه كلام الله تعالى فهو الحق، ولا ينتفع بالحق إلا القوم المؤمنون.

تشرع السورة في التمهيد لقصة موسى عليه السلام، فتبدأ بها قبل ولادته، من طغيان فرعون وعلوه في الأرض، وكيف قام بتقسيم أهلها إلى شيع وطوائف وفرق، حيث فرّق بينهم لئلا يتمالؤا عليه فيصل إلى ما يريده منهم[1]. وفي الآية احتباك؛ حيث ذكر العلو أولاً دليلاً على السفول ثانياً، وذكر الافتراق ثانياً دليلاً على الاجتماع أولاً[2].

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٣٩)، وكأن في المطبوعة خطأ طباعيا: (فلا يصل إلى ما يريده).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٣٩).

كما تذكر السورة قيام فرعون باستعباد طائفة من الناس وهم بنو إسرائيل واستضعافهم، حيث أمر بذبح أولادهم الذكور، وجاء فعل الذبح مشدداً ﴿ يُذَبِّحُ ﴾، أي: تذبيحاً كثيراً، خوفاً من مولود يقضي على ملكه، كما أمر فرعون بالإبقاء على نسائهم ربما من أجل العمل في الخدمة ونحوها، فصار من المفسدين. وسمّي هذا الفعل استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم[١].

وقد قيل في سبب ذبح الأبناء وجوه:

الوجه الأول: أن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، فأمر بقتل الأولاد الذكور من بني إسرائيل.

وقد قال بعضهم: في هذا دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يستفد من القتل، وإن كذب الكاهن فما وجه القتل؟[٢]، وقال الزجاج: والعجب من حمقه، لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل[٣]، والحذر لا يرد القدر، قال الزمخشري: وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يدل على أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب لأنه فعل لا طائل تحته، صدق الكاهن أو كذب، ولا أثر له في دفع قضاء الله تعالى[٤].

وقد يجيب المنجمون بأن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لذهب بملك فرعون، وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثاً. ذكر ذلك الإمام الرازي، وأجاب عنه إجابة مقتضبة، فقال: واعلم أن هذا الوجه ضعيف لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على

---

(١) معالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٨٩).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٩٧)، ومفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٤٩).

(٤) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٩٧)، وينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٠).

صدق الرسل، وهو بإجماع المسلمين باطل[١].

والذي أراه أن الجواب عن مثل هذه الشبهة يكون بقولنا:

١- لو صدق تنبؤ الكاهن لتنبأ بالمولود بعينه، فيحدد عائلته ومولده، ونحو ذلك، فيتمكن فرعون من قتله.

٢- إن قول الكاهن (لو لم يقتل لحصل كذا) غير كاف في التدليل على علم الكاهن، ولو علم لقال: (سيقتل فلا يكون كذا)، أو (ولن يقتل فيكون كذا)، ونحو ذلك، والله أعلم.

وعلى كل احتمال، فلا تدفع شبهة الحمق عن فرعون وأعوانه.

الوجه الثاني: وهو قول السدي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور[٢].

الوجه الثالث: أن القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد مصر، أو قول غيره من الأنبياء عليهم السلام، وأنهم بشروا بمجيئه، وسمع فرعون بهذا القول، فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل[٣].

وقد رجّح الرازي هذا الوجه، ولعله هو الأولى بالقبول، والله أعلم.

وعلى كل حال، فإن الله تعالى أثبت لفرعون فعله القبيح بقتل الأولاد والإفساد في الأرض، وهذا يكفي في القصة.

لكن إرادة الله تعالى فوق كل طاغية، وهنا تذكر السورة إرادة الله تعالى أن يمن على هؤلاء المستضعفين في الأرض، ووعده سبحانه لهم بأن يمكّن لهم في الأرض، أي: يوقع لهم التمكين،

---

(١) مفاتح الغيب، الرازي، (٢٤/ ١٩٣).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ٢٧)، ومفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٩٥)، وقارن بمفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

وأن يجعلهم ﴿ أَيِمَّةً ﴾ أي: ولاة[1]، يرثون أرض أعدائهم وملكهم ويحكمون بلدهم، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾[الأعراف: ١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾[الشعراء:٥٩]، كما وعد سبحانه أن ينتقم من عدوهم فرعون ووزيره هامان وجنودهما، وهي عاقبة جميع المفسدين، ولو بعد حين، والحمد لله رب العالمين.

وجاء لفظ التمكين مقروناً بالتهديد والوعيد لفرعون ووزيره هامان وجنودهما، لبيان أن هذا التمكين هو تمكين عظيم يؤدي إلى القضاء على ملك فرعون وملئه[2]، وهو الأمر الذي كانوا يخشونه، وذبحوا بسببه الكثير من أبناء بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

وفي هذا بيان لكمال القدرة الإلهية في التصرف والتدبير، من الحكيم الخبير.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* يهدف القصص القرآني في هذه السورة إلى إبراز جوانب الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبيان حقائق الأمور، ولذا وصف بوصف (المبين).
* لا يعتبر ولا يستفيد من القصص القرآني إلا المؤمنون.
* التفريق بين الفساد الشخصي، والإفساد الذاتي الذي يتعدى إلى الغير، والإفساد هو الذي يؤدي إلى عقوبة الله تعالى، وإيقاع الظلمة في شر أعمالهم.
* المتتبع لآيات القرآن الكريم يصل إلى وجود علاقة وثيقة بين العلو والتكبر والطغيان وبين الإفساد، وبعد اجتماعهما يكون أخذ الله تعالى.
* يجب اجتناب الاستعلاء في الأرض، والتعزز بكثرة الأتباع والأموال، كما فعل فرعون

---

(١) تفسير القرآن من كتاب الجامع، لابن وهب، (٢/ ١٦٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤١).

وقارون، وفي قصتهما حجة على مشركي قريش وأمثالهم، فكما أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، فكذلك قرابة قريش لمحمد ﷺ لن تنفعهم يوم القيامة ما لم يؤمنوا[١].

* يعمد الظلمة والمجرمون إلى التفريق بين أهل البلد الواحد ليسهل استعبادهم والسيطرة عليهم، كما فعل فرعون ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾.

* العاقبة للحق والخير، ولو بعد حين، حيث ينصر الله تعالى المستضعفين الصابرين، وينتقم من الظلمة وأعوانهم.

* قد يفتح الله بسبب البلاء أبواباً من الخير ولو بعد حين، فتجبّر فرعون أخرج بني إسرائيل من ذلّ العبودية، وصاروا أئمة يحكمون، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[٢].

* إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين وأن علو فرعون لم يغن عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة[٣].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهذا المقطع يتحدث حول الصراع بين الحق والباطل، فيبين أفعال الظالمين وجرائمهم، كما يبين وعد الله تعالى بنصرة عباده المستضعفين.

وقد ذكرت فيه خمس صفات ذميمة للعتاة، وهي الاستعلاء في الأرض، واستضعاف الغير وقتل الأبناء، وإبقاء البنات واستعبادهن، والسعي في الإفساد. وذكر في مقابل هذه الصفات الخمس، خصائص خمساً للمستضعفين من بني إسرائيل، وهي: إنقاذهم من الظلم، وجعلهم القادة بعد فرعون وقومه، وجعلهم ورثة لملكهم، وتمكينهم وجعل السلطة لهم، وإظهار ما كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما من دمارهم وذهاب ملكهم على يد بني إسرائيل[٤].

---

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٦٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٥).

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٧).

المقطع الثاني: ميلاد موسى عليه السلام، ونجاته من القتل

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

المناسبة ظاهرة، فهذا المقطع يكمل القصة، ويتحدث هنا عن ميلاد موسى عليه السلام، وخوف أمه من أن يقتله أتباع فرعون، وكيف نجاه الله تعالى منهم.

التفسير الإجمالي:

بعد ميلاد موسى عليه السلام خافت أمه عليه، لأن أتباع فرعون كانوا بالمرصاد لكل مولود ذكر. وهنا تتدخل الإرادة الإلهية، فيأتي الوحي إلى أم موسى عليه السلام - وكان وحي إلهام[(١)] - ويأمرها بأن ترضعه، وتلقيه -عند خوفها عليه- في اليم، كما بشرها الوحي بأن موسى عليه السلام سيرجع إليها، ويكون من المرسلين، فلا داعي لأن تخاف أو تحزن.

وفي الآية لفتة عجيبة إلى تعانق الأخذ بالأسباب مع الثقة بالله تعالى، والتسليم لقضائه فقد

---

(١) ذكره ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (٢/ ٥٣-٥٤)، وينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٣٩٠)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٠). وقيل: أتاها جبريل بذلك. والله أعلم.

أمر الله تعالى أم موسى أن تحافظ عليه وترضعه، ثم إذا خافت عليه الذبح تلقيه في اليم، ونهاها عن الخوف عليه من الغرق أو الذبح أو الموت جوعاً أو أي خوف آخر قد يتصور، كما نهاها عن الحزن عليه لفراقه، وبشرها بعودته ولقائه وإكرامه بالرسالة، أي: أنه هو النبي المنتظر الذي سيقضي على ملك فرعون.

ويسير المهد بموسى عليه السلام في حفظ من الله ورعايته، حتى يصل إلى قصر فرعون، لتلتقطه زوجة فرعون، التي كانت محرومة من الولد، فرغبت في الاحتفاظ به وتربيته، وتوسلت كي لا يقتلوه، فكان أن تربى موسى عليه السلام في قصر ألد أعدائه فرعون الذي أمر بقتل كل مولود ذكر! لكنها إرادة الله تعالى، وهي فوق كل شيء.

ولما كانت عاقبة التقاط موسى عليه السلام إهلاك فرعون وملئه، عبّر سبحانه وتعالى بلام العاقبة التي معناها التعليل، فقال تعالى ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[١]، وذلك تهكماً بفرعون لحمقه وجهله، إذ أن العاقل - لاسيما المتحذلق - لا ينبغي له أن يقدم على شيء حتى يعلم عاقبته، فكيف إذا كان هذا الإنسان يدعي أنه إله، كما فعل فرعون؟، ففي الآية تهكم بحمق فرعون وجهله، وبيان لكذب ادعائه، فلم ينفعه وزيره ولا جنوده، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أي: دأبهم تعمد الذنوب والضلال عن المقاصد؛ فالخاطئ هو من تعمد ما لا ينبغي[٢]، فلا بدع في أن يخطئوا ويربّوا من ذبّحوا الأبناء من أجله، مع أنه من بني إسرائيل[٣].

ثم أكدت الآيات على كذب فرعون في ادعائه الإلوهية حيث وافق على طلب زوجته

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٩٧).

(٢) بخلاف المخطئ، لأن الخطأ هو: ما لم يُتَعَمَّد، ويقال لـمن أَراد شيئاً ففعل غيره أَو فعل غير الصواب: أَخْطَأَ، وقال الأُموي: المُخْطِئُ: من أَراد الصواب، فصار إِلـى غيره، والخاطِئُ: من تعمَّد لـما لا ينبغي. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (خ ط أ).

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٥-٢٤٦).

أن لا يقتل موسى ﵇، ولو كان إلها لعلم الغيب، أما وقد وافق فهو لا يعلم عاقبة فعلته، لذا قال تعالى ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ أي: بعاقبة فعلتهم، وأدخل في الآية أتباعه الذين أطاعوه وصدقوه، ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف، ٥٤].

أما أم موسى ﵇ فقد طغت عليها مشاعر الأمومة الفطرية، وكادت من شدة حزنها عليه أن تظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن تداركتها عناية الله تعالى بالصبر والتثبيت[1]. ثم أرسلت الأم أخت موسى ﵇ لتقص أثره وتتبع خبره، حتى وقفت عليه في قصر فرعون دون أن يشعروا بها ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، بل هم في صفة الغفلة التي هي أبعد ما يكون عن صفات الإله[2]، ففيها تكذيب لفرعون وتبكيت لأتباعه.

وكان من شأن الرضيع أنه امتنع عن أخذ الحليب ﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ ﴾، تحريم منع لا تحريم شرع[3]، وخشي آل فرعون عليه من الهلاك، فتدخلت أخت موسى ﵇ دون أن تعرّف عن نفسها، وقالت لهم إنها تعرف أهل بيت لا يرفض حليبهم، وأنها على استعداد لكي تدلهم عليه، وهم لن يرفضوا لفرعون طلباً، فوافقوا على ذلك، وهكذا اجتمع شمل الأم بوليدها، وقرت عينها برؤيته.

وهنا أيضاً دليل آخر على كذب فرعون في ادعائه الإلوهية، حيث إن كل ما تقدم من القرائن يؤكد أن هذا الرضيع من بني إسرائيل ويجعله موضع الريبة والشك، حيث كان ملقى في البحر، والتقط منه، والتي دلّتهم على المرضعة من بني إسرائيل، والمرأة التي سترضعه من بني إسرائيل، وقد قبل ثديها دون غيرها من القبط، فلو علم شيئاً لتخلص منه. ولكنها إرادة الله تعالى، ولذا قال تعالى ﴿ فَرَدَدۡنَٰهُ ﴾، أي: مع هذا الظاهر في الكشف لسره الموجب للريبة في

---

(١) ينظر: لباب التأويل، للخازن (٣/ ٣٩٩).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٠٦)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٥٧)، ومدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٢٩).

أمره، فعدوّه في كفالته، وهو يقتل العالم لأجله(١).

وهذا كله مصداق وعد الله تعالى، فهو الحق وقوله الحق ووعده الحق، ﴿ وَلِتَعْلَمَ ﴾ علم اليقين ﴿ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ واقع، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، فكثير من آل فرعون ومن الناس لا يعوون هذه الحقائق، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم:٧]، وفيها تأكيد لما تقدم من كذب فرعون في ادعائه الإلوهية. وهكذا أبدل الله تعالى أم موسى من بعد خوفها أمنا، في عزّ وجاه ورزق مستمر(٢).

ولله تعالى حِكَم فيما يجري لخلقه، فقد يكون الشيء مكروهاً للنفس وعاقبته خير، كما قال تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ احتباك: حيث ذكر الإرضاع أولاً دليلا على تركه ثانياً، وذكر الخوف ثانياً دليلاً على الأمن أولاً(٣).

وفي الآية أيضاً بلاغة عالية أخرى، حيث جمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين وبشارتين.

فالخبران هما ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ وقوله ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ لأنه يشعر أنها ستخاف عليه. والأمران هما:﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾و﴿ فَأَلْقِيهِ ﴾. والنهيان: ﴿ وَلَا تَخَافِى ﴾ و﴿ وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾. والبشارتان ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٤).

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٤).

(٤) انظر: أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٣/ ٤٩١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٢٥٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٧٤-٧٥).

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* إرادة الله تعالى فوق كل شيء.
* الفرج بعد الشدة.
* من عجائب قدرة الله تعالى أن تكون النجاة على يد من لا يتوقع منه ذلك.
* عاطفة الأمومة تغلب على النساء، ولولا تثبيت الله تعالى لأم موسى عليه السلام لكشفت عنه.
* هناك فرق بين العلم بالظواهر والعلم بالحقائق.
* وجوب الأخذ بالأسباب، حيث أمر الله تعالى أم موسى عليه السلام أن ترضعه، وتحافظ عليه، حتى إذا خافت عليه ألقته في اليم، لترعاه عناية الله تعالى.
* يقين المؤمنين بالله تعالى يجعلهم يثقون بوعد الله تعالى، بخلاف غيرهم.
* الإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾[البقرة: ٢١٦] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم[١].
* لا يشعر الناس بتدبير الله تعالى للأمور، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات فقال تعالى ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].
* إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو[٣]، وقد قيل: من مأمنه يؤتى الحذِر.
* وعد الله -سبحانه- للمؤمنين ووعيده -جلّ وعلا- للكافرين حق لا يتخلف، وقد يتأخر

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٥-٨٦).

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٦٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٦).

لحكمة يعلمها الله تعالى، وقد ردّ الله لأم موسى ولدها، وانتقم من فرعون وجنوده، ومكّن لبني إسرائيل.

* تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى مبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا حفظ الله ورعايته لموسى ﷺ، وإنجائه من الذبح، ومن الغرق، ومن الموت جوعاً، ومن القتل من قبل فرعون وأعوانه. ثم إعادته إلى أمه وإقرار عينها باجتماعها معه. وهكذا يتحقق وعد الله تعالى، ووعده الحق، وهكذا يتولى الله الصالحين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٦).

المقطع الثالث: قتل القبطي خطأ، ثم الخروج إلى مدين

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فهنا متابعة لقصة موسى ﷺ، والحديث هنا عن شباب موسى ﷺ وحادثة قتل القبطي، ثم توبة موسى ﷺ واستغفاره، ثم المطاردة ومحاولة القتل، وصولا إلى هروب موسى ﷺ من المدينة.

التفسير الإجمالي:

هذا الآيات تفصيل لما جاء في شطر آية في سورة طه، وهو قوله تعالى ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: من الآية: ٤٠].

لما بلغ موسى ﷺ أشده ونمت قوته واكتمل عقله آتاه الله تعالى الحكم والعلم ثم آتاه النبوة من بعد[١]، فعلم موسى ﷺ وحكم قبل أن يبعث نبياً[٢].

---

(١) في معنى بلوغ الأشد والاستواء أقوال، ينظر: مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٩).

(٢) معالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٦).

وقد وردت آية شبيهة بهذه عند الحديث عن يوسف ﷺ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[يوسف: ٢٢]، بدون قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾، ولعل الزيادة هنا في وصف موسى ﷺ تشير إلى أنه أوتي قوة كبيرة، كما تشير القصة بعد ذلك، حيث أنه ﷺ قتل القبطي بضربة بجمع كفه. وفسّر مجاهد الاستواء بأنه بلوغ أربعين سنة(١)، والله أعلم.

أكرم الله تعالى موسى بالحكم والعلم، وقيل: معناها النبوة، وهذا - والله أعلم - بعيد، لأن الوحي إلى موسى ﷺ وتكليفه بالرسالة كان بعد أن أنهى العمل مع الرجل الصالح، كما سيأتي في الآيات. وقد كان إكرام الله تعالى لموسى جزاء على إحسانه في حياته قبل النبوة، فقد ذكر أنه ﷺ كان يحسن إلى الفقراء والضعفاء كما فعل حين ساعد المضطهد الذي استغاث به من بني إسرائيل، فكافأه الله تعالى على إحسانه ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فعاقبة الإحسان حسنة، كما قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[سورة الرحمن: ٦٠].

تنتقل القصة بعد ذلك إلى حادثة فارقة في حياة موسى ﷺ، حيث دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، قيل: في وقت راحتهم وقيلولتهم أو في يوم عيد، وقيل ما بين المغرب والعشاء(٢) وقيل غير ذلك، فوجد في المدينة رجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل شيعة موسى ﷺ والآخر من أعدائهم القبط، فطلب الإسرائيلي الغوث من موسى ﷺ على القبطي، فأجابه موسى ﷺ، فضرب القبطي بلكمة أو طعنة أو ضربة أو دفعة، وقد ذكرنا أن موسى ﷺ كان قوي البنية ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾، فمات القبطي.

ندم موسى ﷺ على هذه الحادثة واستحى من ربه الذي أكرمه ونجّاه، وأحسن إليه

---

(١) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (١/ ١٣٤)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٢).

(٢) ذكر ابن وهب هذا القول في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٣٤-٣٥).

ورعاه[١]، إذ كيف يقع منه ذلك وهو الذي أوتي حكماً وعلماً، فندم في الحال، وقال: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، قال ذلك: لأنه لم يؤمر بهذا القتل، ولم يكن يقصد أن يفعله. ثم أخذ في تنبيه نفسه وتحذيرها من مكائد الشيطان لأنه ﴿ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ في عداوته وفي إضلاله[٢]، ومع كون القتيل كافراً معتدياً إلا أن القتل بدون سبب ذنب عظيم، فبادر موسى ﷺ بعد الندم إلى الاستغفار، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾، ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران، ١٣٥] ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

لم يكتفِ موسى ﷺ بذلك، بل أخذ على نفسه عهداً أنه لن يكون ﴿ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: لن يكون معيناً للمجرمين[٣]، فالظهير هو المعين[٤].

أدت هذه الحادثة إلى خوف موسى ﷺ من انتقام القبط لهذا القتيل، فأصبح خائفاً مترقباً[٥] ينتظر وقوع مكروه، ففوجئ بالإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس، يصرخ طلباً

---

(١) سيبقى موسى ﷺ يذكر هذه الحادثة، ويستحي منها، كما جاء في حديث (الشفاعة) الصحيح، وفي لفظ مسلم (١٩٣): (ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها)، وفي لفظ ابن ماجة (٤٣١٢): (فيقول: لست هُناكم، ويذكر قتله النفس بغير النفس)، وفي لفظ أحمد (١١٧٤٣): (فيقول: لست هُناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحيي ربَّه من ذلك).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥٧).

(٣) اختار البقاعي أن يكون المعنى: أي: لا أكون بين ظهراني القبط، فإن فسادهم كثير، وظلمهم لعبادك متواصل وكبير. ينظر: نظم الدرر (١٤/ ٢٥٨).

وهذا المعنى بعيد، إذ الظاهر من السياق أن المعنى: فلن أكون معيناً ومساعداً للمجرمين. ولعل المقصود بالمجرمين الإسرائيلي وأمثاله، بدليل قول موسى له في اليوم التالي: {إنك لغوي مبين}، والله أعلم.

(٤) ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (ظ هـ ر)، ومختار الصحاح، للرازي، مادة (ظ هـ ر)، وينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠١)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٤١).

(٥) التَّرَقُّبُ: الانتظار وتوقع الشيء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ر ق ب). ويستخدم في انتظار المكروه. ينظر: ينظر: لباب التأويل، للخازن (٣/ ٤٠١). وأصله كثرة الالتفات برقبته ذعراً. ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

للنجدة، فوقع في نفس موسى أن هذا الإسرائيلي صاحب خصام وغواية وضلال، إذ لم يمر يوم على مقتل شخص بسبب خصامه، وإذا به يعاود الخصام في اليوم التالي!، فقال له موسى ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ثم لما أراد موسى ﷺ أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى ﷺ وللإسرائيلي ويخلص الإسرائيلي منه قال أحد الرجلين لموسى ﷺ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾، لأنه ليس من شأن المصلحين القتل بدون سبب، بل هو من شأن الجبابرة العتاة الذين يقتلون بغير حق.

وقائل هذا الكلام أما أن يكون الإسرائيلي ويكون المعنى: لما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي ظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به إذ قال له ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال الإسرائيلي لموسى: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾[1]، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف[2]، وإما أن يكون القائل هو القبطي، ويكون قد عرف القصة من الإسرائيلي[3]، كأن يكون الإسرائيلي هدده بموسى ﷺ وقوته وأنه قد قتل بالأمس رجلاً بمجرد لكمه، وقد رجّح الرازي أن يكون القائل هو القبطي، ولعله هو الأقرب إلى السياق، والله أعلم.

وصلت قصة قتل موسى ﷺ للقبطي إلى فرعون وتأكد من أنه موسى ﷺ هو الذي قتل القبطي، فبدأ الملأ يأمر بعضهم بعضاً بقتل موسى ﷺ.

وهنا تتدخل الإرادة الربانية مرة أخرى حيث يأتي ﴿ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾[4] ماشيا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٤٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٨).
(٢) مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠٢).
(٣) مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠٢).
(٤) قدم لفظ الرجل في هذه الآية {رجل من أقصى المدينة} لأن هذا الأمر مهم يحتاج إلى عزم وقوة وجرأة، بخلاف ما في سورة يس حيث أخّر اللفظ هناك {من أقصى المدينة رجل}، والله أعلم. ينظر: نظم =

وفي كون الرجل يأتي من أقصى المدينة ماشياً بيان للقدرة الإلهية[(١)]، ومزيد من الإثارة في القصة حيث ينزل النصر بعد أن تضيق الأمور، كما في قوله تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾.

يأتي الرجل فيخبر موسى بالمؤامرة التي تحاك ضده من قبل أتباع فرعون، وعزمهم على قتله حيث لن يشفع له كونه عزيزاً عند فرعون، وينصحه بالخروج من المدينة، فيخرج ﷺ بسرعة، خائفاً يتلفت، ويلتجئ إلى ربه التجاء الخائف الوجل الصادق في التجائه ودعائه ويقول: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فيستجيب له ربه تبارك وتعالى، ويلهمه سلوك الطريق إلى مدين، فقال وهو متوجه إليها ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[(٢)] فلا يضل الطريق أو يسلك طريقاً يجده فيه أتباع فرعون.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* بعثة الأنبياء تأتي على خلاف المعتاد، حيث يبعثون بعد الأربعين ويفتح الله عليهم من عنده بحار المعرفة والعلوم التي لم يعرفوها من قبل ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢].
* قتل موسى ﷺ للقبطي كان خطأ، والقتل الخطأ ذنب، بدليل إيجاب الكفارة عليه في شرعنا، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المعروفة، قال تعالى ﴿ وَمَن

= الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٦٢). وقد يدلّ الذي في سورة يس على انتشار الدعوة أيضاً، حتى وصلت إلى أقصى المدينة، لذا قدم اللفظ هناك إغراءً لهم باتباع الدعوة.

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٢).
ومن الملاحظ في قصص الأنبياء وفي السيرة النبوية كثرة الوقائع التي تضييق فيها الأمور، حتى ليتخيل للسامع أن لا مخرج، ثم يتنزل النصر من عند الله تعالى، كما حصل في غار ثور، وفي طريق الهجرة، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، وغيرها.

(٢) من اللفتات في الآية تقديم موسى ﷺ في دعائه لفظة {ربي}، وذلك من شدة مراقبته لله تعالى، واتكاله عليه. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٤).

قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء:٩٢][١].

* نصر المظلوم وإغاثة الملهوف دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع[٢].

* فضيلة الاستغفار من الصغائر والكبائر، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد استغفر موسى عليه السلام ربه، ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

* من توكّل على الله كفاه، ونلحظ لجوء موسى عليه السلام إلى ربه في كل أحواله، وسيأتي المزيد من ذلك في المقطع الآتي.

* شكر النعم يقتضي الابتعاد عن مواطن الفتن، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

* دلّ قول موسى عليه السلام ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ على أنه لا تجوز معاونة الظلمة والفسقة[٣].

* الخوف غريزة بشرية، وهو لا ينافي المعرفة بالله تعالى ولا التوكل عليه[٤].

* الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين، ولهذا بادر مؤمن آل فرعون – وهو ابن عم فرعون فيما روي – إلى إخبار موسى عليه السلام بمكيدة فرعون وملئه، ونصحه بالخروج مسرعاً[٥].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا مزيد من الكرم والإنعام على موسى عليه السلام، حيث بلغ أشده واستوى

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨).
(٢) أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٣/ ٤٩٢).
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨).
(٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨-٧٩).
(٥) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٩).

خلقه، وآتاه الله تعالى حكماً وعلماً. وفي المقطع أيضاً: انتصار موسى عليه السلام للإسرائيلي المضطهد وضربه للقبطي الظالم. وفيه أيضاً: إنجاء موسى عليه السلام من القتل، حيث جاء الرجل الصالح من أقصى المدينة لنصرة موسى عليه السلام ونصحه بالخروج حتى لا يقتل.

المقطع الرابع: اللجوء إلى مدين، والزواج من ابنة الرجل الصالح

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فلا يزال الحديث حول شباب موسى عليه السلام، ولجوئه إلى مدين، ثم تعرّفه على الرجل الصالح، الذي عرض عليه العمل أجيراً مقابل الزواج من إحدى ابنتيه.

التفسير الإجمالي:

هدى الله سبحانه وتعالى عبده موسى عليه السلام إلى طريق مدين بعد توجهه إليها، فنجا من فرعون وجنوده، حتى وصل إلى مكان الماء الذي يستقي منه أهل مدين لأنفسهم وأنعامهم، فشاهد منظراً لفت انتباهه، فبينما تزاحم الرعاء على الماء كلهم يريد أن يسقي أنعامه إذا بامرأتين

تذودان[١] وتبعدان أغنامهما عن السقي!، وقيل: تمنعان غنمهما أن تختلط بأغنام الناس[٢] فسألهما عن حالهما، فأجابتاه بعذر المرأة المحتشمة ﴿ لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فالسبب كونهما امرأتين فلم ترغبا في مزاحمة الرجال، أو لم تتمكنا من مزاحمة الرجال لضعفهما[٣]، وقد اضطرتا لسقي الماشية لأن أبوهما شيخ كبير لم يعد يستطيع ذلك.

فقام موسى عليه السلام بشهامته المعهودة[٤] في السقي لهما[٥]، ثم جلس في الظل يستريح، وقام بمناجاة ربه الذي أكرمه وتعهده منذ ولادته قائلاً: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

والخير الذي أنزله الله تعالى إليه كثير، فمن ذلك أن نجاه من القتل حين كان صغيرا، ورباه في بيت الملك، وجعله قوياً حسن الخِلقة، ونجاه من القوم حين قرروا قتله، وهداه الطريق إلى مدين حين خرج هارباً. ولذلك أظهر فقره الآن أمام الله تعالى إلى مثل هذا النوع من الخير والإحسان.

فاستجاب الله دعاءه، وهيأ له الرجل الصالح ليستضيفه شكراً على مساعدة ابنتيه، ثم هيأ الله تعالى له عملاً ومأوى وطعاماً وزوجة، وكل هذا لدى رجل من الصالحين[٦]، وكل هذا

---

(١) الذَّوْدُ: السَّوْق والطرد والدفع. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ذ و د).

(٢) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٠٠)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٣).

(٤) كما مرّ في نصرته للإسرائيلي.

(٥) في المصنف لابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠) أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم. وإسناده صحيح كما يقول ابن كثير. وليس العجب من قوة موسى عليه السلام الذي {بلغ أشده واستوى}، ولكن الظاهر من سياق الأثر أنه يخالف ظاهر سياق القرآن الكريم، بدليل قول المرأتين: {لا نسقي حتى يصدر الرعاء}، ولو كان كما في الأثر لما تمكنتا من السقي أصلاً. والله أعلم.

(٦) يرى بعض المفسرين أن الرجل الصالح في القصة هو شعيب عليه السلام، ينظر: جامع البيان، للطبري، =

بطلب من الرجل، وليس بطلب من موسى ﷺ.

وذلك بأن أتت إليه إحدى المرأتين، تمشي على استحياء يزين المرأة ويدفع عنها سوء الظن ووساوس الشيطان، فتقول له بعبارة في تأدب ووضوح: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة [1]، فالدعوة صادرة من أبيها، والغرض منها مجازاته ومكافأته على ما قام به من مساعدة المرأتين في السقي.

ويفهم من سياق القصة شدة حاجة موسى ﷺ في هذه المرحلة[2]، حيث دعا ربه وتضرع إليه، وأبدى فقره بين يديه أولاً، ثم أجاب إلى المكافأة دون تردد ثانياً[3]، ومكافأة المحسن خلق

= (٢٠/ ٦٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٠٠)، وغيرها.

وقد تعقب ذلك ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٠٥) فقال: كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده.

وقد تراجع سيد قطب في ظلال القرآن عن قوله بأن هذا الرجل هو شعيب ﷺ، ورجح أنه شيخ آخر من مدين. (٥/ ٢٦٨٧) حاشية رقم (١).

وقد جزم ابن زمنين في تفسيره بأنه ليس شعيباً، ولكنه كان سيد أهل الماء يومئذ. ينظر: تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩١).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٠٤).

(٢) هكذا حال كبار النفوس مع الدنيا، فها هما أعظم رجلين في زمانهما، وهما من المصطفين الأخيار، وكلاهما ليس في يده من الدنيا إلا القليل، وما ذاك إلا صوناً للأنبياء عن الدنيا، ورفعة لدرجاتهم في الأخرى، والله أعلم. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٣/ ٢٦٧).

(٣) يلحظ عدم التردد من التعقيب بالفاء في قوله تعالى {فلما جاءه}، والله أعلم. ولدى الكاتب بحث يصدر قريباً إن شاء الله تعالى حول: اللفظين: {ولما} و{فلما} وعلاقتهما بالمعنى في القرآن الكريم، سورة يوسف ﷺ أنموذجاً.

كريم، وقبول المكافأة لا عيب فيه[١].

قص موسى ﷺ قصصه على الرجل الصالح، فبشره بالأمان والنجاة من أتباع فرعون الظالمين. وهنا تتحدث إحدى المرأتين إلى أبيها كي يستأجر موسى ﷺ للعمل في السقي، معللة ذلك بحكمة سارت مثلاً: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾، وهذا كلام حكيم، فلا خير في قوة بلا أمانة، ولا كبير فائدة من أمانة بلا قوة، قال أبو حيان: وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر فقد تم المقصود[٢]. قال ابن مسعود ﷺ: أفرس الناس ثلاثة،...، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[٣].

قال شريح القاضي واصفاً أمانته: أمرها أن تمشي خلفه، وغضّ عنها بصره[٤]. وقد

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٨). وقد ورد في بعض الروايات أن موسى ﷺ رفض أن يقبل ضيافة الرجل الصالح خوفاً من أن تكون عوضاً لما سقي لهما، وهو لا يبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً. ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٣٩٦).

وفي هذه الرواية تكلف شديد، بل إن ظاهرها يخالف ظاهر الآيات، حيث استجاب موسى ﷺ لدعوة الرجل ليجازيه على ما فعل، والله أعلم.

(٢) وهو كلام جرى مجرى المثل. البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ١١٤).

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٢٧٣)، وأخبار المدينة، للنميري (١/ ٣٥٥)، وتفسير القرآن العظيم مسنداً، لابن أبي حاتم، سورة القصص، برقم (١٦٨٣٨).

(٤) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٩)، وقارن بـ: لباب التأويل، للخازن (٤٠٣).

وتعقبه سيد قطب في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٨) فقال: ولا حاجة لما رواه المفسرون عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها، فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها. وموسى ﷺ عفيف النظر نظيف الحسن، وهي كذلك. رغم أنه قال قبل ذلك بقليل (٥/ ٢٦٨٧): (ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته)، ولم يبين ما الذي رأته وأين. والذي يهم في التفسير هو وصفها له بالأمانة لشيء رأته أو لاحظته، سواء أكان تصرفاً منه =

وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام بالأمانة، فقال على لسانه مخاطباً فرعون: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان:١٧-١٨].

تتوالى نعم الله تعالى على موسى عليه السلام، حيث يعرض عليه الرجل الصالح الزواج من إحدى ابنتيه الموجودتين أمامه، ليس مقابل المال الذي لا يملكه الفقير إلى ربه موسى عليه السلام وإنما مقابل العمل أجيراً عنده لمدة ثمانية أعوام، أو عشرة أعوام إذا أراد الإكرام[(١)]، دون مشقة منه في العمل أو المدة على موسى عليه السلام، مع التأكيد على التساهل معه بقوله ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وافق موسى عليه السلام على هذا الشرط، وجعل الأمر بينهما على التساهل والتراضي، مع التأكيد على حق موسى عليه السلام في قضاء أي من الأجلين دون تبعية عليه في ذلك ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾، قال القاسم بن محمد: ما أبالي أي ذلك كان، إنما هو موعد وقضاء[(٢)].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، مع الستر والحياء[(٣)].
* في الآيات دليل على أن شكوى الضر إلى الله تعالى مباحة، وسؤاله الغوث جائز، وليس على من أصابه ذلك أن ينتظر إتيانه من الله قبل المسألة اعتماداً على أن الله جل جلاله يعلم حاله فيأتيه برزقه، فمثل هذه المسألة لا تؤثر في درجات المتوكلين، بل هي زيادة في

= معها أو مع غيرها، وهذا يكفي في التفسير، والله أعلم.

(١) علل البقاعي سبب تعيين ثماني حجج بقوله: (وكان تعيين الثماني لأنها - إذا أسقطت منها مدة الحمل - أقل سن يميز فيه الولد غالباً، والعشر أقل ما يمكن فيه البلوغ، لينظر [الرجل الصالح] سبطه إن قدر فيتوسم فيه بما يرى من قوله وفعله)، نظم الدرر (١٤/ ٢٧١).

(٢) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (٢/ ٣٤-٣٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠١).

درجاتهم[١].

* جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه[٢].

* في القصة دليل على أن من تطوع بعمل لآخر فعليه أن يطعيه أجراً على سبيل المروءة وحسن الخلق لا على سبيل الفرض، إلا أن يمتنع من أخذه[٣].

* وجواز أمور منها: ولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهرا، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة[٤]، وقد استوفى القرطبي الكلام عليها[٥].

* جواز تزكية النفس لغرض الدَّيْن أو المعاملة، لأنه لغاية حسنة، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف، من الآية: ٥٥]، وأما تزكية النفس المنهي عنها فهي ما قصد به الفخر والتمدح[٦].

* يحكم على الإنسان بظاهره، كما استدلت المرأة على عدل موسى عليه السلام وأمانته من ظاهر عمله[٧].

* الحرص على الفضائل والأخلاق الحسنة، كالتي كان عليها موسى عليه السلام، من صنع المعروف وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والزهد والقناعة، وشكر الله تعالى، والرغبة في عشرة

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٤).

(٢) ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٦).

(٣) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٥).

(٤) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦١-٥٦٢)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠١).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٧١ وما بعدها)، وينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦١-٥٦٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٧). وقارن بـ: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤-٥١١).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٩).

(٧) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٦).

الصالحين، والوفاء بالعهد، وكالتي كان عليها الرجل الصالح من كرم الضيافة، وتأمين الخائف، والرفق في المعاملة[١].

* يمكن للعاقل أن يلتمس جوانب الشبه بين أخلاق النبي ﷺ وما عرف به من زكي الخصال وكريم الفعال، وأخلاق الأنبياء من قبله، وبين زواجه صلى الله عليه وسلم من أفضل نساء قومه، وزواج موسى ﵇ من ابنة الرجل الصالح من مدين. وفي هذا إشارات واضحة وإرهاصات بينة على نبوة محمد ﷺ[٢].

* الترغيب في الخير، والحث على المعاونة على البر، وبذل المعروف للغير[٣].

* وجوب تأسي المسلمين بأخلاق الأنبياء والصالحين، وخصوصاً أخلاق أفضل الأنبياء محمد ﷺ[٤].

* جواز قبول المكافأة، ولا غضاضة في ذلك، والمكافأة من شيم الكرام[٥].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد تولى الله تعالى رعاية أوليائه، فأرشد موسى إلى الطريق، وهيئ له عملاً وسكنا وطعاماً وزوجة، وهيئ للرجل الصالح نسيباً صالحاً، وعاملاً قوياً أميناً، وكفى المرأتين الخروج ومزاحمة الرجال.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٠).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٠-١١١).
(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٧).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١١).
(٥) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٨).

المقطع الخامس: بعثة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وتأييدهما

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فبعد الحديث عن شباب موسى عليه السلام وتعرّفه على الرجل الصالح، وبعد انتهاء مدة عمله أجيراً وزواجه من المرأة، ينطلق في طريقه عائداً إلى أهله في مصر، حيث يأتيه الوحي من الله تعالى، ويكلف بالرسالة، ويرسل إلى فرعون وملئه لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى بعد فسقهم وخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى.

التفسير الإجمالي:

قضى موسى عليه السلام الأجل الأوفى وهو عشر سنين، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قضى أكثرهما وأطيبهما)[1]، ثم سار بأهله راجعاً إلى قومه بمصر. وفي طريق العودة رأى

---

(١) ينظر: الكتاب الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: الشهادات، باب: من أمر بإنجاز الوعد (٢٦٨٤).
وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عدة آثار مرفوعة منها: (عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأوفاهما)، وأخرج عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: أي الأجلين قضى موسى، فقال: =

ناراً فأنس برؤيتها، إذ تدل على وجود أناس حولها، يمكنه أن يسألهم عن الطريق أو يعطوه جذوة أو عوداً غليظاً مشتعلاً ليوقد به ناراً يتدفأ هو وأهله بها. وليس في هذا دليل على أن الوقت كان شتاءاً، وإن كان يستأنس به، لأن ليل الصحراء بارد.

عندما وصل موسى عليه السلام إلى النار سمع نداءاً من الجانب الأيمن للوادي ﴿ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ ﴾، وكان النداء صادراً من الشجرة[1]. كانت بداية الوحي إلى موسى عليه السلام، حيث ناداه الله تعالى قائلاً: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ثم أمره الله تعالى أن يلقي عصاه ليريه من آياته سبحانه[2]، فألقاها موسى عليه السلام ﴿ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٢]. وقع الخوف في نفس موسى عليه السلام، عندما رأى هذه الحية العظيمة، وهي على كبر حجمها وضخامتها كانت تهتز وتتحرك بسرعة وخفة ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ أي: حية صغيرة!، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن انطلق هارباً خوفاً منها، ولم يلتفت إلى جهتها وهي خلفه، كناية عن شدة التصميم على الهرب والإسراع فيه خوفاً من أن تلحق به[3]. فناداه الله تعالى ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ ﴾ وتقدم جهة الحية ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾ منها، وطمأنه بقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾، وذلك لأن النفس لا تنسى الخوف بسرعة وسهولة.

ثم أمره الله تعالى بقوله ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾، أمره الله تعالى أن يدخل يده في شق ثوبه

= أتمها وأكملها. ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي، رقم (١٦٨٦٤، ١٦٨٦٥)، وما بعدها. وقارن بـ: المستدرك على الصحيحين، للحاكم (٢/ ٤٤٢)

(١) اختلف في نوع الشجرة المذكورة، فقيل كانت سمرة، وقيل عوسجة، أو من العليق، أو العناب. ولا فائدة من تعيين نوعها.

(٢) ذكر بعض المفسرين هنا أقوالاً ورويات عن هذه العصا ومصدرها. ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ٦٦-٦٧)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ٢٠٤-٢٠٥). وليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، ولا يترتب على معرفة نوعها ومصدرها فائدة تذكر. بل الذي يسبق إلى ذهني أن كونها عصا عادية أقرب، وأظهر للإعجاز. والله أعلم.

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٨٠).

ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء بياضاً خارقاً للعادة، بخلاف البياض الذي يكون من سوء ومرض نحو البرص وأثر الحريق وغيره، وأمره بقوله ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ ﴾، والجناح هو العضد أو اليد كلها(١)، وفي تفسير هذه الجملة قولان؛ أحدهما على أن المراد أن يدخل يده مرة أخرى في الرهب، وهو الكم(٢)، لتعود إلى لونها الطبيعي كما كانت، وثانيهما على أن المراد أن يضم يده إلى صدره كي يذهب خوفه من الحية، أو خوفه من آل فرعون(٣). والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أن موسى عليه السلام أمر إذا خاف من شيء أن يضم يده إلى صدره ووعده أنه إذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف(٤).

كانت العصا واليد آيتين عظيمتين وبرهانين ساطعين من الله تعالى أظهرهما على يد موسى عليه السلام، وأرسله بهاتين الآيتين إلى فرعون وملئه بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى. وهنا تذكر موسى عليه السلام النفس التي قتلها فخاف أن يقتلوه بها(٥)، فطلب من الله تعالى أن يرسل

---

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ج ن ح).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ر هـ ب).

(٣) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩٣).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢١٤). قال ابن كثير بعده: (وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة)، وقارن بمعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ٢٠٧)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤٠٥).

(٥) خوف الأنبياء من ظلم قومهم لا ينقصهم من قدرهم شيئاً، إذ أنهم لم يتركوا الدعوة خوفاً، وإنما استفسروا عن الأمر كيف يكون؟، كما قال النبي ﷺ في الصحيح (مسلم: ٢٨٦٥): (وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً). وكأن مراد الأنبياء عليهم السلام الاستفسار عن الأمر هل يجري على العادة أم لا؟، فإن كان يجري على العادة وطنوا أنفسهم على الموت في سبيل الله، وإلا ذكر لهم الأمر الخارق فيكون بشارة لهم ليمضوا في الأمر على بصيرة. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٨٥).

معه أخاه هارون[١]، ﴿ رِدۡءٗا ﴾ أي: زيادة[٢]، كي يعينه على مشاق الرسالة، ويقف معه عندما يكذبه المعاندون، فيشرح لهم إذ هو أفصح لسانا[٣] من موسى عليه السلام[٤].

استجاب الله تعالى لطلب موسى فأرسل معه أخاه هارون عليهما السلام[٥]، ووعده

---

(١) ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منّة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣١٥).

(٢) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٢٥).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر (١٤/ ٢٨٣): (... فاشترط لنفسه حتى رضي، وتلك كانت عادته ثباتا وحزما، وحلما وعلما، ألا ترى إلى ما فعل معنا عليه السلام والتحية والإكرام من الخير ليلة الإسراء في السؤال في تخفيف الصلاة).

(٤) قيل: بسبب العقدة التي حصلت له في طفولته عندما اختبره فرعون، فوضع موسى عليه السلام الجمرة في فمه. وقد يكون في هذا القول شيء، إذ سأل موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة لسانه قبل أن يطلب وزارة أخيه ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ﴾ [طه، ٢٧-٣٠]، والله أعلم. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هذا القول ولم ينتقده (٦/ ٣١٥). ونقل محققوا معالم التنزيل للبغوي في الحاشية (٦/ ٢٠٧) انتقاد ابن كثير لهذا القول في البداية والنهاية (١/ ٣٠٠-٣٠٧)، وقد رجعت إليه فوجدته انتقاد لخبر طويل يعرف بحديث الفتون، فيه جوانب من قصة موسى عليه السلام، والظاهر أنه من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة. فتعليق ابن كثير كان منصباً على بعضه لا كله، والله أعلم.

(٥) في سبب اختيار الله سبحانه سن الأربعين لبعثة الأنبياء حكمة عظيمة، لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذبا إليها، فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون، فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي (مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٩)). وفي اختيار هذا السن إعجاز أيضاً، وتأكيد للناس على صدق المرسلين، لأن هذا السن هو بداية الانتكاس في الخَلْق، قال: تعالى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ ﴾ [يس، ٦٨]، فلا يزاد بعدها في قواه الظاهرة ولا الباطنة شيء، بل يبدأ في التناقص، وهي سنة الله تعالى في جميع بني آدم، إلا الأنبياء، فإنهم في هذه السنّ يؤتون من بحار العلوم بغير اكتساب، ويؤتون من قوة الأبدان كذلك، ففي وقت انتكاس غيرهم يكون نموهم (ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥٤)).

الحماية والتأييد، وبالنصر له ولأتباعه(١).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالى، ولا يمكن تحصيلها إلا بذلك.
* يأتي الوحي بالرسالة بغتة، كما نودي موسى ﷺ بجانب الطور، وكما نودي محمد ﷺ في غار حراء، وكلاهما اعتراه الخوف منها، ثم ثبته الله تعالى(٢).
* فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيحمي محمداً ﷺ من أعدائه، كما حمى موسى وهارون عليهما السلام من فرعون وأتباعه(٣).
* الغلبة والنصر لأتباع الأنبياء عليهم السلام على أعدائهم.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد أكرم الله موسى ﷺ بالرسالة، وكلفه أداء الأمانة، وأظهر على يديه الآيات المعجزات، وأمنه من خوفه، وأمره بالذهاب بالآيات إلى فرعون وملئه لدعوتهم وأرسل معه أخاه هارون ﷺ مؤيداً ومعيناً، وتكفل بحمايتهما ورعايتهما، ووعدهما وأتباعهما بالنصر والتأييد.

---

(١) قال البقاعي: (وهذا يدل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به، لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين لأنفسهم في الله)، نظم الدرر (١٤/ ٢٨٦). وليس في هذه الآية دليل على ذلك، إذ لا يلزم من قوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ دخول جميع الأتباع فرداً فرداً فيها، فلا يقتل منهم أحد، وإنما المراد الأتباع بجمعهم، فلا يمنع من أن يصل الأذى إلى بعضهم، وهذا مشهور في التاريخ والسير، والله أعلم.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٨).

(٣) المرجع السابق.

المقطع السادس: بدء الدعوة، وتكذيب فرعون وجنوده لها ونزول العقاب بهم

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فبعد تكليف موسى ومعه هارون عليهما السلام بالرسالة، انطلق موسى عليه بالآيات البينات التي أظهرها الله على يديه إلى فرعون ملئه، فكذبوا واستكبروا، فعذبهم الله تعالى، وكانت عاقبتهم كعاقبة كل ظالم.

التفسير الإجمالي:

انطلق موسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، مستجيباً لنداء الله تعالى وتكليفه، عائداً إلى مصر، إلى فرعون وملئه، ومعه الآيات البينات التي أظهرها الله على يديه؛ العصا واليد البيضاء.

وقد كان توقع موسى عليه السلام لموقفهم من الدعوة صائباً، فقد كذبوه واتهموه بالسحر والافتراء، وتمسكوا بالشبهة المتكررة وهي تقليد الآباء، وقالوا عن معجزاته ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ

مُّفْتَرًى ﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما يستطيعوا[1].

وقد اختصرت السورة تفاصيل المواجهة بين موسى ﵇ وفرعون، وهي مبسوطة في سور أخرى، وإنما ركّزت على إبراز جانب العلو والاستكبار عند فرعون وملئه، وجانب القدرة الإلهية على الانتقام من الظلمة وهم في أوج كبريائهم وطغيانهم.

ويظهر جانب الغش والخداع من فرعون لقومه وملئه، حيث أظهر نفسه بمظهر المنصف الباحث عن الحق، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾، وحتى يمعن في التشكيك أمر وزيره أن يبني له بناء عالياً لكي يصل إلى إله موسى الذي يدعوهم إليه، رغم أنه يظن أن موسى ﵇ من الكاذبين - حاشاه ﵇ -.

وهنا نلحظ جانباً آخر من نفسية فرعون وطريقة خداعه لشعبه، وهي تشبه كثيراً ما يفعله الجبابرة والطغاة في كل زمان، ويبدو أن فرعون لجأ إلى هذا الأسلوب بعد فشله في المواجهة الأولى مع موسى ﵇، والتي مرت في أول سورة الشعراء[2].

والعجيب أن تصرف فرعون هذا ينسجم مع نفس الحماقات التي قام بها من قبل، حيث ظن هنا أنه يستطيع أن يبني بناء يصل إلى السماء[3]، ثم على تقدير وصوله إلى السماء وصعوده على ظهرها على عظمتها فهل كان يظن أنه سيتمكن من منازعة بانيها وخالقها؟[4].

وهكذا يواصل فرعون وجنوده استكبارهم في الأرض بغير الحق، غافلين عن الحياة الآخرة، ظانين أن لا بعث ولا حساب، فحق عليهم من الله العذاب، فأخذه الله تعالى وجنوده فقذفهم في

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣١٦).

(٢) ينظر: سورة الشعراء، الآيات: ١٦-٣٥.

(٣) وهذا لا ينسجم مع الرأي الشائع من أن قوم فرعون بلغوا مبلغاً عالياً من المعرفة بالفلك والنجوم، فعلى هذا الافتراض فإن فرعون قال قولاً يستهزئ به قومه العارفون بحقائق الفلك، ولم يجرؤ أحد من الملأ على تبيان ذلك لفرعون.

(٤) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٩٦).

اليم كما تقذف الحجارة الصغيرة، وجعلهم عبرة لأولي الألباب، وهكذا (ذهبوا في طرفة عين كأن لم يكونوا، وغابوا عن العيون كأنهم قط لم يبينوا، وسكتوا بعد ذلك الأمر والنهي فصاروا بحيث لم يبينوا، فليحذر هؤلاء الذين ظلموا إن استمروا على ظلمهم أن ينقطعوا ويبينوا)[(١)].

وهكذا كانت عاقبة الظالمين، حيث جعلهم الله تعالى أئمة في الظلم والفساد، والدعوة إلى النار، أي: صاروا ولاة[(٢)] وقادة في ذلك، وأصبحوا مثلاً يوصم به أهل الظلم والضلال، والكفر والطغيان، دون أن ينفعهم أتباعهم وأعوانهم، بل يتبرؤون منهم يوم القيامة، وربما تبرؤوا منهم في الدنيا وأظهروا الندامة، واستحقوا التابع والمتبوع جميعاً اللعنة في الدنيا والفضيحة يوم القيامة، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* في الآيات دليل على أن ما أقيم عليه البرهان فهو حق، وإن لم يسبق به قول متقدم، وأن الراد لما لم يسبق به قول متشبه بهؤلاء القوم[(٣)]، فهؤلاء حكموا العادات والتقاليد القديمة على الحقائق والبراهين القائمة[(٤)].

* تشابه أحوال أهل الضلال في الإعراض والاستكبار، وإنكار الحق وتكذيب أهله[(٥)].

* الإمامة قد تكون في الشر، كما تكون في الخير، لأن معناها أن يصير المرء قدوة يؤتم به فيما يقول ويفعل[(٦)].

١- تشابه أحوال أهل الضلال في طلب المحال، كما أراد فرعون أن يطلع إلى الإله، وطلب

---

(١) تعبير أدبي للبقاعي في نظم الدرر (١٤/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) تفسير القرآن من كتاب الجامع، لابن وهب، (٢/ ١٦٤).

(٣) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦٥).

(٤) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي، (١٤/ ٢٩٢).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٢٥-١٢٦).

(٦) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦٩).

مشركو قريش أن يروا الله تعالى جهرة، وتشابه أحوالهم في إنكار البعث(١).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد خسر فرعون المواجهة والمحاجة مع موسى عليه السلام، ولجأ إلى الخداع والمراوغة، وتكبر وطغى، فعاقبه الله تعالى عقاباً شديداً، وأغرقه وجنوده في اليم، وهكذا هي عاقبة الظالمين. كما جُعل فرعون مثلاً يضرب لكل مجرم وجبار وطاغية، تتنزل اللعنات عليه وعلى أتباعه كل حين، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾.

المقطع السابع: إيتاء الكتاب المقدس لموسى عليه السلام، والقرآن الكريم لمحمد ﷺ، وتكذيب الكفار لهما

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٢٦).

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، حيث تواصل آيات السورة الحديث عن قصص موسى ﵇، فبعد قصة المواجهة مع فرعون وإغراقه وملئه في اليم، تتجه الآيات بالحديث إلى إيتاء التوراة لموسى ﵇، والمنة على بني إسرائيل به، وتربط ذلك بإيتاء القرآن الكريم لمحمد ﷺ، والمنة على مشركي العرب به، وتتحدث الآيات عما لاقاه الكتابان التكذيب من الكفار.

التفسير الإجمالي:

يبدأ هذا المقطع بواو القسم مع (قد) التي جاءت هنا تفيد التحقيق أو تفيد التوقع[1] وذلك لأن حال كفار قريش كحال المنكر لحقيقة القدرة الإلهية على نصرة المستضعفين، إذ كذبوا النبي ﷺ وعذبوا أصحابه وأنكروا كتابه، فاحتاج السياق إلى تأكيد الخبر بالقسم.

والتوراة هي أول كتاب أنزل من الله تعالى متضمناً لتفاصيل الفرائض والأحكام، ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام، ١٥٤]، ولهذا عبر عنها بلفظ ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾. جاء نزول التوراة بعد أن أهلك الله القرون الأولى من المكذبين من قوم نوح ﵇ إلى فرعون وملئه، وفي السياق إشارة إلى أنه لا يعم أمة من الأمم الهلاك بعد إنزالها[2]، وفيه إشارة بالوعيد والتهديد للمكذبين الظالمين، كي يتذكروا ما جرى للسابقين[3].

---

(١) اقتصر البقاعي على معنى التوقع هنا، وعلله بأن العرب وإن كانوا مصدقين لما وقع من المنة على بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون وإنزال الكتاب عليهم، فحالهم بإنكار التمكين لأهل الإسلام والتكذيب بكتابهم حال المكذب بأمر بني إسرائيل. ينظر: نظم الدرر (١٤/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٠١).

(٣) ذكر البقاعي هنا أن في قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إشارة إلى أنه ليس في الشرائع ما يخرج عن العقل، بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله، نظم الدرر (١٤/ ٣٠٢)، وقد يفهم من العبارة غير ما قصده البقاعي رحمه الله تعالى، فهو لا يقصد استقلال العقل بمعرفة ذلك، وإنما دلالته على ما جاء به الوحي. وقد صرّح بهذا في موضع آخر (١٤/ ٣٠٦-٣٠٧) فقال إنهم (إذا قبلوا ما جئت به وتدبروه أذكرهم إذكاراً ظاهراً ... ما في عقولهم من شواهده، وإن كانت لا تستقل بدونه).

وهنا تقرر الآيات حقيقة رسالة محمد ﷺ، الذي جاء بالقرآن العظيم وقال إنه من عند الله تعالى، وأخبر فيه عن أحوال الأمم السابقة كقصص موسى عليه السلام وأخبار موسى وفرعون، وما جرى بينهما قبل البعثة وبعدها، وهذه الأخبار لم يكذبها الأحبار من بني إسرائيل، ولم يعرفها النبي ﷺ من قبل الوحي، فدل دلالة قاطعة للمنصف على أن القرآن من عند الله تعالى، فما كان النبي ﷺ بجانب الجبل عندما بعث موسى عليه السلام بالرسالة، ولم يكن ممن شهد نزول التوراة على موسى عليه السلام[1]، كما لم يكن ممن شهد غير ذلك من المواقف في حياة موسى عليه السلام ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، كما لم يأخذ هذه المعلومات ممن شهدها أو عرفها[2]، بل إن هذه الأخبار قد حرفت وبدلت ونسي بعضها بسبب مرور الأيام والقرون، فلم يبق إلا أن يكون النبي محمد ﷺ أخذه من الخالق سبحانه وتعالى الذي أرسله وأنزل عليه القرآن رحمة من عنده لينذر به[3].

ثم بينت الآيات جانباً من حكمة إرسال الأنبياء، وهو قطع حجة الكفار وتعللهم عند نزول العذاب بعدم مجيء الرسول إليهم وتباعد الفترة بينهم وبين الرسل السابقين.

وهي حجة باطلة وكاذبة في نفس الوقت، فأهل الضلال يتشبثون بالشبهات لرد الحقائق والآيات، ولو أرادوا الإيمان لكفتهم آية واحدة، بل لو عادوا إلى فطرتهم لعرفوا الحق واتبعوه دون لجاج.

ولهذا انتقل الحديث إلى بعثة النبي ﷺ، والحق الذي جاء به متضمنا آيته العظمى وهي القرآن الكريم، فماذا فعلوا لما جاءهم الحق؟، كفروا به كما كفر من قبلهم، ولجؤوا إلى حيلة أخرى وهي المقارنة بين آيات موسى عليه السلام وآيات النبي محمد ﷺ وطالبوا بآيات شبيهة لآيات موسى عليه السلام ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾. وهذا طلب

---

(١) مع السبعين الذين حضروا مع موسى عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف، ١٥٥].

(٢) وهو ما يعرف بالإعجاز بأخبار الغيب الماضية.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٢٠-٣٢١).

يقصد به المجادلة فقط، فقد كفر الناس بموسى عليه السلام رغم كثرة آياته وتنوعها، واتهموه بالسحر، فاتباع الناس للأنبياء ليس مرتبطاً بكثرة الآيات، بل بنوعيتها، كما قال النبي ﷺ: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١]، فمعجزة النبي ﷺ عقلية باقية إلى قيامة الساعة، بخلاف معجزات موسى عليه السلام التي انقطعت في وقتها.

وهكذا يكون موقف الطغاة من الدعوة والدعاة في كل الأوقات، ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ أي: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر[٢]، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ حيث وصفوا التوراة والقرآن بالسحر كما روي عن ابن عباس وغيره[٣]، أو: اتهموا موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، أوالمعنى أنهم اتهموا موسى ومحمد عليهما السلام بالسحر والاتفاق على ما جاءا به، وهو الأقرب والأليق بالسياق[٤]. وهذه التهمة باطلة من كل وجه، إذ أن مجرد تظاهر السحرة واتفاقهم لا يجعل الأمر معجزاً خارقاً للعادة، ولكان تظاهر سحرة فرعون معجزاً لا يقدر موسى عليه السلام على ردّه.

وتنزّلاً معهم في المجادلة، وإظهاراً لعجزه وكذبهم في ادعائهم قال الله تعالى لنبيه أن يأمرهم بالإتيان بأي كتاب يزعمون أنه من عند الله تعالى ﴿ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ أي: من التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام والقرآن الذي جاء به محمد ﷺ، كي أتبع هذا الكتاب وأترك التوراة والقرآن، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن موسى ومحمد عليهما السلام ساحرين. ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ يا نبي الله ولهذا الطلب المنصف ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ولا يبحثون عن الحق والهدى، فيسيرون في الضلال والعمى، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم مسنداً، لابن أبي حاتم، تفسير سورة القصص، (١٦٩٥٩).

(٤) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٠٩)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٢٣).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* بيان عاقبة أصحاب الحق، وعقاب أصحاب الباطل، فهنا إكرام موسى ﷺ بالتوراة، وإهلاك الكافرين المعاندين.
* الإعجاز بأخبار الغيب الماضية من الأدلة على صدق النبي ﷺ وأن القرآن الكريم من عند الله تعالى، حيث لم يشهد النبي ﷺ هذه الأحداث، ولم يسمعها من أحد، وجاء بها مطابقة للواقع.
* إرسال الرسل لحكم عظيمة، منها: تبليغ شرع الله وإقامة الحجة على الناس، كي لا يقولوا ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].
* اللجاج بالباطل والمغالطة هي من صفات الكافرين المعاندين، إذ بعد مجيء الحق إليهم على لسان النبي ﷺ ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ رغم كفرهم بما جاء به موسى ﷺ من الآيات.
* إن اتباع الهوى هو أقصر طريق إلى الضلال. وإن من صفات المؤمنين مخالفة هوى النفس ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠].
* في الآيات دليل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سبباً لذلك[2].
* خطة الكفار واحدة في كل زمان، دأبهم المكابرة والعناد والإنكار، وطلب المعجزات المادية المحسوسة، وإنهم بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا؛ لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات[3].

---

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١١٧).
(٢) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، (٣/ ٣٥٠-٣٥١).
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢١).

* حجة الكفار في تكذيب كتب الله تعالى ورسله واحدة أيضاً، وهي الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق، وأولئك الرسل سحرة مبطلون، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف: ٥][(١)].

* قسمت الآية الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع لهواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه[(٢)].

* في الآية دليل على أن الهوى قد يكون في الحق أيضاً، إذا كان فيه هدى من الله تعالى، وهدى الله في هذا الموضع حجته، وهي كتابه ورسوله ﷺ[(٣)].

* إقامة الدليل على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى، عبر تحدي الجميع لأن يأتوا بكتاب من عند الله تعالى فيه هداية وإرشاد، فيكون أهدى من التوراة والقرآن، فلم يفعلوا. وقد صرح بالتحدي في آيات أخرى كثيرة[(٤)].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا يتواصل التأييد والكرم الإلهي لأتباعه، فيؤتي موسى عليه السلام التوراة فيها هدى ونور، ويؤتي محمداً ﷺ القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويقيم الدلائل على صدق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه. كما تهدد الآيات الذين يعرضون عن الهدى ويتبعون الهوى.

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢١).

(٢) بدائع التفسير، لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥١-٣٥٢).

(٣) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٧٠).

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢٣).

المقطع الثامن: الإشارة إلى مؤمني أهل الكتاب، وتحذير كفار قريش من الإعراض والركون إلى الدنيا، مع تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من الأمن والخيرات

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين هذا المقطع والذي سبقه ظاهرة أيضاً، فبعد أن بين الله تعالى صدق النبي ﷺ وأنه جاء بالحق من الله تعالى، ذكر هنا نزول القرآن الكريم ووصوله إليهم تذكيراً لهم بما في الفطرة من توحيد الله وعبادته. كما نبّه إلى استجابة أهل الكتاب لهذا القرآن الذي جاء مصدقاً لما بين يديهم من خبر الأمم السابقة، وحذر كفار قريش من التكذيب والإنكار مع ما أنعم الله به عليهم من الأمن والخيرات، حتى لا يلاقوا مصير القرى التي كفرت بأنعم الله واغترت بمتاع الدنيا وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، ورغبّهم في اتباع النبي ﷺ للحصول على ما وعد الله به الصالحين من الجنة ونعيمها يوم القيامة بدلاً من الحساب والعقاب.

التفسير الإجمالي:

يبدأ هذا المقطع - كسابقه - بواو القسم مع (قد) التي جاءت هنا تفيد التحقيق، وذلك لأن كفار قريش برفضهم اتباع النبي ﷺ رغم كل الأدلة والبراهين التي جاءتهم وأخبار الغيب التي وصلتهم كانوا كأنهم منكرون لأن يكون جاءهم شيء من ذلك[1]، فأكد الخبر بالقسم.

ونبه إلى وصـول القرآن الكريم إلى قريش خاصة وللناس عامة، عبر نزوله على النبي محمد ﷺ، لعلهم أن يتذكروا ويعودوا إلى فطرتهم التي جبلت على عبادة الله تعالى وتوحيده.

ثم جاءت الآيات التالية كجواب عن سؤال تقديره: هل تذكروا؟، لتشهد باستجابة الصادقين من أهل الكتاب لهذا القرآن، فهم أهل كتاب وعلم، وقد جاء القرآن مصدقاً لما بين أيديهم من خبر الأمم السابقة، كما تسجل الآيات شهادتهم للقرآن الكريم بأنه الحق من الله تعالى، مما يدل على صدق إسلامهم لله تعالى فيما مضى، وتسليمهم له فيما قضى، فعندما وصلتهم الرسالة الجديدة من الله تعالى على لسان خاتم الأنبياء ﷺ استجابوا لها وآمنوا بها، كما استجابوا وآمنوا من قبل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، ولهذا استحقوا ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، لإيمانهم بالكتابين التوراة والقرآن، كما قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي} الحديث[2]، أو لأنهم آمنوا بالنبي ﷺ إيماناً غيبياً قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه، وصبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك.

ثم تذكر الآيات بعض لوازم الصبر الحقيقي وصفات الصادقين من أهل الكتاب من درء [3] السيئة من الأقوال والأفعال ودفعها بالأقوال والأفعال الحسنة، ودفع الأموال للمحتاجين.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(٣) الدرء هو الدفع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (د ر أ).

ولما ذكر أن بذل ما تضن به النفوس من فضول الأموال من أمارات الإيمان، أتبعه بذكر أن منع ما تبذله الألسن من فضول الأقوال هو من علامات العرفان[1]، لذا وصفهم الله تعالى بالانصراف عن اللغو وفضول اللسان وما لا ينفع من الكلام[2]، فقال سبحانه ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾، أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢][3]، ثم بعد إعراضهم عنه قالوا - ربما على سبيل الموعظة والنصح لأصحاب اللغو -: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾، لا تجازون على أعمالنا، ولا نسأل عن أعمالكم، (لأن ذمكم لنا لا ينقصنا شيئاً من أجرنا، ولا الاشتغال برده [ينفعنا])[4]، ثم أتبعوا ذلك بإلقاء السلام على أصحاب اللغو تطميناً لهم أن إعراضهم لا يعني أنهم سيسعون في أذيتهم، وإنما بعداً عن الجاهلين وأعمالهم.

وبعد الحديث عن إيمان الصادقين من أهل الكتاب تنتقل الآيات إلى تقرير حقيقة أزلية ربانية هي أن الهداية بيد الله تعالى، وليست بيد النبي ﷺ، وأن الله تعالى أعلم بمن كتب لهم الهداية سواء من قريش أو أهل الكتاب أو غيرهم.

وقد جاءت هذه الآية في هذا السياق لأن المعلوم أن العاقل يسعى في منفعة أحبائه وأقرب الناس إليه أولاً، ويحرص على ذلك، وبما أن الحديث قد سبق عن إيمان أهل الكتاب، ومعلوم أن أكثر قريش لم يؤمن وقتها، فلربما ظن ظان أن هذا بسبب تقصير من النبي ﷺ - حاشاه - في الدعوة أو بذل الجهد[5]، فأتت هذه الآية لتقرر هذه الحقيقة المطلقة دفعاً لهذه الشبهة، وتسلية للنبي ﷺ، وذلك قبل الانتقال إلى تحذير كفار قريش من تكذيب النبي ﷺ وإنكار القرآن.

---

(١) تعبير أدبي للبقاعي، في نظم الدرر (١٤/ ٣١٦).

(٢) وهو نفس الوصف الذي وصف به المؤمنون من أمة نبينا محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقوله ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٢٦).

(٤) نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٦)، وفيه: (ولا الاشتغال برده ينقصنا)، ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٧).

والهداية المنفية في الآية هي التي تكون بخلق الإيمان في قلب العبد، فهذه ليست إلا لله تعالى، وأما هداية الإرشاد والبيان فهي مثبتة لكل من قام بها، بل هي أساس إرسال الأنبياء، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد ورد في سبب نزول الآية: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنه)، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[1].

ثم تتابع الآيات نقل أقوال قريش للنبي ﷺ فبعد قولهم السابق: ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾، يقولون هنا: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾، أي: إننا نخاف إذا اتبعناك وآمنا بك أن تتخطفنا العرب لقلتنا وكثرتهم، والخطف: سرعة أخذ الشيء[2]. وقولهم هذا خلاف الواقع، فقد أنعم الله عليهم بالأمن والخيرات، في حلّهم وترحالهم، مع كثرة قطاع الطرق والعداوة بين العرب، بل الحق أن العرب سوى قريش كانت تعاني من ذلك، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أما قريش فقد كانت آمنة بسبب البيت الحرام، ولهذا قال تعالى في سورة قريش: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش: ١-٤]، وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾، وقد أقر الإسلام الأمن في الحرم، فأمّن حتى الشجر والطير كما هو معلوم.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٨٨٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٤).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ ط ف).

وبالإضافة إلى الأمن وهو النعمة العظمى فقد أكرم الله تعالى قريشاً بجلب الخيرات من ثمار وغلال وأنعام إليها بسبب الحرم أيضاً ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، رزقاً من الله تعالى لهم وبشارة بالنبي ﷺ[١].

وبعد الامتنان عليهم بالأمن والخيرات حذرهم الله تعالى من الهلاك والويلات بسبب البطر والطغيان في النعمة[٢] وعدم شكرها وإنكارها، وحذرهم من ملاقاة مصير القرى التي كفرت بأنعم الله فعصوا الله الذي خولهم فيها فخالفوا أمره، وأنساهم الكبر بما أعطاهم ذكرَه[٣] واغتروا بمتاع الدنيا وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، فجاءهم العذاب وفجأهم فأهلكهم، وبقيت وراءهم مساكنهم، ﴿ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من قبل بعض المسافرين والسائحين، كما قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]، فلم يظلمهم الله سبحانه وتعالى شيئاً بل أرسل إليهم الرسل وأظهر الآيات وأنذرهم وأمهلهم ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإن الله تعالى أخذ على نفسه ألا يهلك القرى إلا بعد أن يبعث في مكة المكرمة [٤] وهي أعظمها وأشرفها رسولاً يدعو أهل القرى إلى عبادة الله تعالى[٥]، ويتلو عليهم آيات الله تعالى، فإن هم أبوا وظلموا أهلكهم الله

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٢٥)، فقد قال: (توطئة لنبوتك، وتمهيداً لرسالتك)، لكنه أضاف بعدها: (ومتى غبت عنهم غاب عنهم ذلك كله وسينظرون)!، ولم أفهم موقعها في السياق، والله أعلم.

(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ب ط ر).

(٣) التعبير للبقاعي، نظم الدرر (١٤/ ٣٢٨)، بتصرف.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٠).

(٥) يحتمل سياق الآية أن يكون المراد عاماً، كما يحتمل أن يكون المراد بعثة النبي ﷺ في مكة أم القرى، ولعله الأقرب لقول الله تعالى بعده: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾. ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٥)، وتفسير=

تعالى بعد أن يعم ظلمهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾.

ثم تقرر الآيات حقيقة أخرى يفقهها العاقلون وغفلت عنها قريش عندما زعموا أن اتباعهم للنبي ﷺ سيؤدي إلى أذيتهم من قبل باقي العرب، ويغفل عنها كثير من الناس، وهي: أن الحياة الدنيا هي محطة مؤقتة، ومتاعها وزينتها زائلة، وما عند الله أفضل وأحسن بالإضافة إلى كونه دائماً لا ينقطع، فلا يمكن لعاقل أن يقارن بينهما، فكيف بالذي يفضل الدنيا على التي هي خير وأبقى، ولهذا ختمت الآية بالإنكار المغلظ عليهم بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، كأنه قال: على افتراض أن اتباعكم للحق الذي جاء به محمد ﷺ سيؤدي إلى حصول الأذى لكم وذهاب بعض متاع الدنيا وزينتها عنكم أفلا تعقلون أن ما سيكون لكم عند الله تعالى بالمقابل هو خير وأبقى؟. ثم أي الفريقين خير: الذي وعده الله وعداً حسناً سيلاقيه يوم القيامة يقيناً، أم الذي ركن إلى الدنيا واستمتع بها وبطر نعم الله تعالى مع أنه سيُحْضَر يوم القيامة للحساب على ما فعل؟

ففي الآية ترغيب لهم في اتباع النبي ﷺ للحصول على الوعد الحسن الذي وعد الله به أتباعه، وفي الآية أيضاً تهديد ضمني لهم من يوم الحساب والعقاب.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* إذا كان الإيمان بالله صحيحاً منسجماً مع الوحي الثابت الصحيح، سهُل التقاء رافدي الإيمان، كما آمن الصادقون من أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الكريم[1].
* للإيمان لوازم وتوابع، من عمل صالح وصبر وإنفاق في سبيل الله تعالى.
* من شأن المؤمن الصادق الابتعاد عن اللغو الذي لا فائدة فيه، وتجنب الجاهلين، والاشتغال بصالح الأعمال.
* وفي المقطع دليل على أن من آمن بمحمد ﷺ وكان قبل ذلك على شريعة من مضى لم يغير

= القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣١).

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢٨).

ولم يبدل، فآمن به وبما جاء به، ضوعف له الأجر مرتين[١].

* الهداية بخلق الإيمان في القلوب هي من خصائص الله تعالى، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، سبحانه. وأما هداية الأنبياء والدعاة فهي هداية البيان والإرشاد.
* وفي الآية حجة على المعتزلة والقدرية[٢].
* البطر في العيش وكفر النعمة يستجلب غضب الله تعالى وعقابه، ويكون ذلك بسبب ظلمهم وطغيانهم.
* في الآيات دليل على أن النبي محمد ﷺ المبعوث من أم القرى هو رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم، كما قال تعالى ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧][٣].
* لا مقارنة عند العاقل بين متاع الدنيا الزائل، وخير الآخرة الدائم. قال رسول الله ﷺ: {والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر ماذا يرجع إليه}[٤].
* سيقف الناس يوم القيامة أمام ربهم فيحاسبهم ويجازيهم، وسيحضر الذين استهوتهم متع الحياة الدنيا ولذائذها فأنستهم الآخرة والعمل لها، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر: ٨].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا الحديث عن استقبال طائفتين من الناس للقرآن العظيم، حيث كذبت به قريش، وآمن به الصادقون من أهل الكتاب، وفي هذا المقطع بيان لبعض صفات المؤمنين الصادقين.

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٧١).
(٢) المرجع السابق (٣/ ٥٧١-٥٧٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٠-٣٣١).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٨).

كما تتحدث الآيات عقوبة البطر والكفر بنعم الله تعالى، وحث الناس على عدم الانسياق وراء متاع الدنيا القليل الزائل، والسعي وراء نعيم الآخرة الدائم. كما تمهد الآيات لعاقبة الصنفين من الناس يوم القيامة.

المقطع التاسع: موقف المشركين يوم القيامة، ودعوتهم للتوبة، وتوحيد الله تعالى قبل فوات الأوان

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين المقطعين ظاهرة، فقد ختم المقطع السابق بالترغيب فيما عند الله من الخيرات، والتهديد من الوعيد والويلات، وافتتح هذا المقطع بموقف من مواقف يوم القيامة لتأكيد

المعنى الذي سبق، كما ختم المقطع بموقف آخر من مواقف يوم القيامة، وتوسطهما موقف ثالث.

كما تضمن هذا المقطع تأكيد الترغيب الذي مر بالدعوة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾، والتحذير من مصير الكافرين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان ولن ينفعهم ما أشركوا بالله شيئاً ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

التفسير الإجمالي:

يصور هذا المقطع عدة مواقف من مواقف يوم القيامة، تدور كلها حول إحضار الكافرين المنكرين للمساءلة، حيث ينادون بعد إحضارهم، فيقول الله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟، أين هم في هذا اليوم، وماذا لهم من الملك؟، وهنا يجيب الشركاء المزعومون ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ واستحقوا العذاب، فيقولون في ذلة وخضوع لا يتناسب مع طغيانهم وكبريائهم بالباطل في الأرض: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الغواة التابعون لنا ﴿ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ أي: دعوناهم إلى الغي[1] والشرك، فغووا غياً مثل ما غوينا نحن، فكما لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم[2]، دون أن نجبرهم أو نكرههم على الغواية، كما يقول إبليس لأتباعه يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم:٢٢]، ثم يتبرؤون منهم بقولهم: ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منهم، ويتبرؤون من عبادتهم لهم بقولهم: ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾، وإنما كانوا يعبدون الأوثان، يقولون ذلك خوفاً من العذاب وتهربا من العقاب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢١٧)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤١٠).

(٢) تفسير النسفي، بهامش لباب التأويل، (٣/ ٤١٠)

وهنا يعود الخطاب إلى الأتباع الغاوين، فيُقال لهم: ﴿ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الذين زعمتم، ومن شدة ذهولهم وحيرتهم وتقطع الأسباب بهم يفعلون ذلك، فيدعون شركاءهم!، كما يتعلق الغريق بأي شيء يصله ولو كان قشة طمعاً في النجاة. يدعون شركاءهم، وشركاؤهم لا يستجيبون!، إذ كلاهما مصاب بالحيرة والذهول، وهنا يتمنون أن يتمكنوا من التخلي عن هؤلاء الشركاء المزعومين، كما جاء في موضع آخر: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وهكذا يصابون بخيبة الأمل والحسرة، مع تيقن العذاب، ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾، أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا[١]، وكم كان سهلاً عليهم ألا يقفوا هذا الموقف ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾عندما جاءهم النذير من الله تعالى.

وهنا وبعد المساءلة الأولى تكرر عليهم المساءلة مرة أخرى، وهذه المرة يسألون عن موقفهم مما جاء به المرسلون، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾؟، لقد جربوا اللجاج والحجاج بالباطل فلم ينفعهم شيئاً، ووقع الخصام بين شركاء السوء، ولهذا فإنه في هذه المرة لا يردون ولا يجيبون فقد ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ والأخبار العظيمة التي يمكن أن تنفعهم في هذه اليوم، والمعنى: عموا عنها من شدة الهول فلم يجيبوا، وأيقنوا بالهلاك ولم يعد ينفع الكلام والخصام، ولذا ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ هذه المرة.

وبعد هذا التهديد والتخويف من هذا الموقف في يوم القيامة ومن مصير الكافرين، تنتقل الآيات إلى تأكيد الترغيب الذي مر من قبل، والدعوة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾. وفي قوله تعالى ﴿ فَعَسَىٰٓ ﴾ إشارة إلى صعوبة الاستمرار على طريق الهدى إلا بالمجاهدة، كما أنها تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٣).

(٢) نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٣٨).

وبما أن سياق الآيات لبيان تفرد الله تعالى بالألوهية، والملك المطلق، والهداية لمن يشاء فقد أكد هذا المعنى في الآية التي بعدها فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ من الهداية والضلال لمن شاء، لا رادّ لقضائه، وليس لأحد سواه أن يوقع الهداية أو الضلال، أو يختار النبي أو الآيات التي يأتي به، ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾، ولا لشركائهم المزعومين، في أن يختاروا الأنبياء[1] أو الآيات التي تظهر على أيديهم، تنزه الله تعالى عن أن يشركه شيء في اختياره، والاختيار المقصود في الآية هو الاجتباء والاصطفاء[2]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وتستمر الآيات في تقريع الكافرين والرد على زعمهم أنه لو جاء محمد بآيات كآيات موسى عليه السلام فإنهم يؤمنون، بينما هم في الحقيقة يخفون الكفر ويظهرون البحث عن الحق والإنصاف، ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ الله الذي خلقك وتولاك يا نبي الله ﴿ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ وتخفي ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ من الكذب والمعاندة واللجاج بالباطل ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من ذلك، إذ هو الله سبحانه وتعالى، الإله الحق الواحد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ والكمال المطلق ﴿ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، كما أنه له وحده ﴿ ٱلْحُكْمُ ﴾ والقضاء المطلق، ولا راد لقضائه، وكلكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيحاسبكم ويجازيكم.

وقبل الانتقال إلى موقف المساءلة الثالث، تأتي ثلاث آيات مناسبتها للسياق قد لا تكون ظاهرة، وهذه الآيات هي حول رحمة الله تعالى لعباده في تقلب الليل والنهار، ولم أقف في أقوال المفسرين على ما تطمئن إليه النفس في مناسبة الآيات للسياق، إلا أنه خطر في ذهني بعض المناسبات التي رأيتها أليق بالسياق.

فبعد أن ذكر الله تعالى تفرده بالخلق والاختيار، ذكر هنا آيتي الليل والنهار، وهما الآيتان اللتان اختارهما الله تعالى على هذه الهيئة، وتختم الآيتان بتقريع المنكرين لنعم الله تعالى، بينما

---

(١) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩٩).

(٢) بدائع التفسير، لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥٣).

تدعوهم الآية الثالثة إلى شكر نعم الله تعالى. فالآيات تؤكد الحقيقة التي مرت في الآيات السابقة وهي تفرد الله بالخلق، وفيها تحد ضمني للمنكرين والمشركين بأن يغيروا هاتين الآيتين المتعاقبتين، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾. ونفس الذي قيل هنا عن تفرد الله تعالى بالخلق والاختيار يقال أيضاً في تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء والسياق يحتمله، والله أعلم.

ومعنى الآيات: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني، ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ بظلامه وبرده ﴿ سَرْمَدًا ﴾دائماً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ كي يكون نهار تتمكنون فيه من مزاولة معاشكم وأمور حياتكم، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾، فتعوون وتشكرون.

و﴿ قُلْ ﴾ لهم أيضاً يا محمد ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني، ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ ﴾ بضوئه الساطع وحرارة شمسه ﴿ سَرْمَدًا ﴾ دائماً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ وترتاحون من عناء النهار، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، فتعرفون نعم الله وتشكرون.

وقد قيل في سبب ختم الآية الأولى بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ وختم الثانية بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أقوال. والذي أراه أن ختم الآيتين بهاتين الجملتين هو لإضفاء مزيد من الواقعية على هاتين الصورتين المتخيلتين، فكأن الخطاب في الأولى يوجه إليه وهم في ليل مظلم لا ضياء فيه، فيقال في آخر هذا الخطاب ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾، وكأن الخطاب في الثانية يوجه إليه وهم في نهار ساطع، فيقال في آخر هذا الخطاب ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، والله أعلم بأسرار كلامه.

وختمت هذه الآيات بامتنان الله تعالى على عباده بنعمتي الليل والنهار، حيث الليل للسكون والراحة، والنهار للسعي في المعاش، وتذكيرهم بهاتين النعمتين من أجل شكره، ففيها دعوة وترغيب لهم في اتباع أوامر الله تعالى والإيمان به وبما جاء به نبيه ﷺ قبل أن يقفوا هذا الموقف يوم القيامة، فلا تنفعهم الندامة، التي يقع فيها الكفرة والمشركون حين يتمنون لو

أنهم كانوا مهتدين.

ولهذا أتبع هذه الآيات بالمساءلة الثالثة في موقف يوم القيامة، وهي قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ الله تعالى ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، وهذه المرة لا ينتظر منهم جواب، فقد عميت عليهم الأسباب، بل لا يؤذن لهم في الخطاب، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النحل: ٨٤].

ثم ينتقل الخطاب إلى أسلوب العظمة لله تعالى، فيقول سبحانه ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أي: أفردنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾، هو رسول تلك الأمة، يشهد عليها بما فعلت به وبدعوته، كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، وقال عن عيسى عليه السلام ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]، وقال على لسانه ﴿ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، فيشهد الأنبياء على أقوامهم. ثم يوجّه الخطاب إلى المكذبين المشركين، فيقول الله تعالى لهم ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ودليلكم على ما أشركتم بي. وأنّى لهم ذلك هنالك، ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ ﴾ في الألوهية ﴿ لِلَّهِ ﴾ تعالى وحده، ﴿ وَضَلَّ ﴾ وغاب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ويكذبون في الدنيا ويزعمون الشريك لله سبحانه بدون دليل ولا برهان.

وفي الآية تحذير لأهل الدنيا من مصير أولئك المشركين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان حين لا ينفعهم ما أشركوا بالله شيئاً.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* تهديد الكافرين والمشركين من الموقف المهين يوم الدين، وإعلامهم أن الشركاء المزعومين لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، بل سيتبرؤون منهم.

* ترغيب الناس في التوبة إلى الله تعالى وإخلاص العبادة له والعمل الصالح من أجل النجاة والفوز والفلاح يوم القيامة.

* تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى، كما مرّ تفويض الهداية إليه سبحانه وتعالى، فهو يخلق ما

يشاء ويختار، وليس لأحد فيها لم يشأ اختيار.

* علم الله تعالى مطلق غير محدود، يشمل الظاهر والباطن، وما تكن الصدور.
* تفرد الله تعالى بالإلوهية والعبادة، والحكم المطلق في الدنيا والآخرة.
* إثبات البعث بعد الموت، والوقوف للحساب والجزاء.
* امتنان الله تعالى على عباده بنعمتي الليل والنهار، وهما نعمتان مستمرتان على الدوام، مما يستدعي المؤمن الصادق أن يشكر الله تعالى عليهما بالقول والعمل.
* سيعلم المشركون علم اليقين أن الحق في العبادة هو لله تعالى وحده لا شريك له.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، ففي هذه المواقف من يوم القيامة تظهر الحقائق. وكما لم ينفع فرعون سلطانه وجنوده عند نزول العذاب، فلن ينفع المشركين شركاءهم يوم القيامة حين يرون العذاب، بل سيتبرؤون منهم. وكذلك لن تنفع قارون أمواله ولن ينفعه أتباعه، كما سيأتي. ففي هذا المقطع بيان لحال أهل الباطل والضلال يوم القيامة.

كما يبين المقطع ضرورة التوبة والعمل الصالح للنجاة يوم الحساب. ويبين أيضاً تفرد الله تعالى بالخلق والاختيار في هذا الكون، وعليه فإنه سبحانه متفرد بوقت وكيفية نصرة أوليائه والانتقام من أعدائه.

المقطع العاشر: قصة قارون، وعاقبة البغي والتكبر

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه ليست ظاهرة تماماً، وإن كانت مناسبته لمحور السورة أكثر ظهوراً. وقد اجتهد بعض العلماء في الربط بين هذا المقطع وسابقه، فقال: لما دلّ عجزهم في الآخرة وعلموا أن المتصرف في جميع الأقدار هو الله الواحد القهار، دلّ على أن ذلك له أيضاً في هذه الدنيا، بوقوع عقابه في أهل البطر والطغيان[1]. وخطر في ذهني مناسبة أخرى، وهي: أنه لما ذكر سبحانه وتعالى أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً، بل ينادونهم فلا يستجيبون، وعنهم يضلون، ذكر بعد ذلك قصة قارون التي تدل على أن المال لن يغني أهل الطغيان أيضاً، والله أعلم.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٤٧).

التفسير الإجمالي:

يبدأ المقطع بالتأكيد على أن قارون كان من قوم موسى ﷺ، وليس من قوم فرعون وسبب التأكيد هو أن قارون بغى على قومه وهو منهم، وكان المتوقع ألا يبغي عليهم وهو منهم[١]، وأكثر أهل العلم على أنه ابن عم موسى ﷺ[٢].

وسبب بغيه أن الله تعالى آتاه كنوزاً لا تحصى، حتى إن مفاتح الكنوز ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: تثقل مفاتحه على الجماعة من الرجال الأقوياء حتى تميل بهم[٣]، والمعنى: أن العصبة أولو القوة تعجز عن حمل مفاتيح الخزائن[٤]، والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة[٥]، فأنسته كثرة الأموال، شكر الكبير المتعال.

وقد بغى قارون على قومه عندما وعظوه ونصحوه ألا يفرح فرحاً يطغيه وينسيه الآخرة[٦]، فيبعد عن فريق من يحبهم الله تعالى، كما نصحوه أن ينفق الأموال في سبيل الله والدار الآخرة، لا على سبيل الزهد والتخلي عن كل متع الحياة، وإنما على سبيل الاعتدال، ولذا قالوا له ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، ودعوه إلى الإحسان بدفع الأموال للمحتاجين والمستحقين، شكراً لعطاء الله تعالى وإحسانه إليه[٧]، وحذّروه من اتباع سبيل فرعون وملئه المفسدين في الأرض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٤٩).

(٢) جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١٠٥-١٠٦).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١٠٩-١١٠)، وغريب القرآن، للسجستاني (ص ١٥٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٣/ ٢٤٢)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٥١).
يقال: ناء به الحمل، إذا أثقله حتى أماله. انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤).

(٤) بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي (٢/ ٥٢٦).

(٥) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد، مادة (ع ص ب).

(٦) روي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ قال: يعني: الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٧).

(٧) في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أقوال كثيرة، جماعها: استعملْ نعم الله =

لكن قارون لم يكتف بعدم الإصغاء إليهم والسعي في ما هو فيه من اللهو ومتاع الدنيا، كما لم يكتف بما أوقعه في بني قومه من البغي والعدوان، بل زاد أن أنكر فضل الله عليه وإحسانه إليه، فقال عن المال الذي بين يديه ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وهذا العلم هو سبب حصولي على هذه الكنوز(1).

وكغيره من الطغاة يتناسى مصير أمثاله ممن سبق، فلا يعتبر بغيره حتى يكون هو عبرة لغيره، ولهذا وبخ بقول الله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾، حيث بلغوا من الإجرام والبغي ما بلغوا حتى اشتهر ذلك وانتشر ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، والله عليم بما يفعلون.

وبعد أن رفض قارون النصيحة، أراد أن يستعرض زينته وأمواله على قومه، ليبين لهم أنه على حق وأنهم على باطل، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ وأبهته وسلطانه، مستعرضاً متكبراً. وعندما رآه العوام من الناس ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قالوا متمنين ما هو مستحيل في نظرهم ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ من الأموال والكنوز، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾. وهنا أجابهم العقلاء من قومهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بحقائق الأمور وبواطنها زجراً لهم عن الدنيا وحثاً لهم على الآخرة ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ ما أعجب أمركم، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ من كنوز الدنيا ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ ابتغاء وجه الله، كما قال تعالى ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ

= في طاعته. ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٥١٢).

(١) قيل في معنى العلم أنه علم الكيمياء، وتعقبه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٣٨) فقال: وهذا القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل. الجدير بالذكر أن المقصود بعلم الكيمياء عندهم تحويل المعادن إلى ذهب، وليس علم الكيمياء الذي نعرفه الآن.

وقيل: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، فكان يدعو به حتى كثر ماله، وقيل: المعنى: على علم أني أهل لذلك. وهذان القولان بعيدان، والله أعلم.

ووقع في ذهني معنى ثالث، وهو أن يكون حصل المال بعلمه وتجارته ومهارته، حيث نسب العلم لنفسه {علم عندي}، ولم ينسبه إلى الله تعالى، والله أعلم.

﴿ أَتْقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال سبحانه ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

ومثل هذه النصيحة في مثل هذا الموقف مع معاينة الزينة حاضرةً صعبةٌ على النفس لذلك ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: لا يجعل لاقياً لهذه النصيحة وعاملاً بها، أو لا يوفق لقيل هذه الكلمة ﴿ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[1].

وهنا ينتقل المشهد بسرعة إلى خاتمة مروعة لهذا المجرم المفسد، حيث خسفت الأرض به وبداره التي تحتوي على أمواله، حتى لا يقال إن الخسف كان للرغبة في أخذ أمواله[2]، كما قال رسول الله ﷺ {بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة}[3] ولم ينصره قرابته ولا أعوانه ولا عماله من عذاب الله تعالى، ولم يكن هو ذا قوة للانتصار لنفسه، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وفي الآية تحذير ضمني لكفار قريش وهم من قوم النبي ﷺ، وقد بغوا عليه وعذبوه، وتخويف لهم من نزول العذاب بهم كما نزل بقارون وهو من قوم موسى لما بغى عليهم.

وعندما وقع الخسف وحل العذاب عاد الجهال الراغبين في الدنيا إلى عقلهم، ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾القريب ﴿ يَقُولُونَ ﴾ تعجباً وندماً: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾، أي: يضيق على من يشاء، وذكروا فضل الله تعالى عليهم ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾، وعلموا أنه لا يفلح الكافرون. وفي هذه الآية تأكيد على إلوهية الله تعالى وتفرده سبحانه بالحكم والقضاء، في توزيع الرزق وإنزال العذاب.

وبعد بيان حقيقة الدنيا ومتاعها، يختتم المقطع ببيان عظمة الآخرة، وترغيب الناس في العمل من أجلها، والحصول على الكرامة فيها بحقها، فقال تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾، بل يتبرؤون من أعمال المفسدين المتعالين كفرعون

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١١٦)، ونظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٩٠).

وهامان وقارون وكفار قريش، إذ الكبر خلق ذميم محرم، كما قال النبي ﷺ {إنه أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد}[١]، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ في الدارين ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. ثم يتلو ذلك بيان أن الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أضعافاً مضاعفة فضلا وكرامة من الله تعالى، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢٦]، وأظهر في الآية ﴿ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ تصويراً لحالهم وتقبيحاً لأعمالهم وتنفيراً من فعالهم[٢].

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* البغي مرتعه وخيم، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار[٣].
* كثرة المال قد تكون محنة وبلاء، وسبباً للطغيان والفساد في الأرض[٤].
* يغتر الكفار بمتاع الحياة الدنيا، ويبطرون نعم الله تعالى، مما يجعلهم مستحقين للعقوبة.
* لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب، فالله عليم بكل شيء، ولا يقبل اعتذارهم يوم القيامة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ[٥].
* الإيمان الصادق يقتضي العمل الصالح، والصبر على التكاليف.
* العاقل من اتعظ بغيره، ولم ينتظر حتى يكون هو عبرة لغيره.
* من الناس من يغتر بظواهر الأمور[٦]، وينبهر بالمظاهر، وهم الذين أعجبوا بمنظر قارون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٧٣).
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٦٢، ١٦٩).
(٤) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٢).
(٥) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٣).
(٦) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٨).

وهو خارج في زينته، حتى إنهم تمنوا مثل ماله، واعتبروه إنساناً محظوظاً. ولكنهم بعد قليل من وقوع العذاب به عادوا إلى رشدهم، وتذكروا نعمة الله عليهم في أن أنقذهم من مصير قارون وأتباعه.

* العلو والكبر والفساد في الأرض من الموبقات في الدنيا والآخرة.
* العاقبة للمتقين، والخاتمة الحسنة للحق وأتباعه.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا بيان لعاقبة أهل البغي والفساد، وهنا تضرب قصة قارون كمثل للبغي والفساد بسبب كثرة الأموال.

وفي المقطع دعوة إلى استخدام خيرات الدنيا من أجل الحصول على الدرجات العليا في الدار الأخرى. وفيه دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، والاتعاظ بمصائر الظالمين المفسدين وتذكر أن العاقبة للمتقين، والاستعداد للحساب يوم الدين.

المقطع الحادي عشر: بشارة النبي ﷺ بالعودة إلى مكة وخاتمة السورة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۢ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍۢ مُّبِينٍۢ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةًۭ مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًۭا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين المقطعين ظاهرة؛ فعلى تفسير {المعاد} بأنه يوم القيامة يقال في المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى الدار الآخرة وما يكون فيها من جزاء وحساب وثواب وعقاب، أتبع ذلك بتأكيد

القيامة والبعث بقوله ﴿ لَرَآدُّكَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[١].

وعلى تفسير {المعاد} بأنه مكة المكرمة يقال في المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المفسدين المعاندين، وبين أن العاقبة للمتقين، بشّر نبيه ﷺ بحسن العاقبة ووعده بالعودة إلى مكة المكرمة عوداً حميداً مكرماً. وكلا التفسيرين ينسجم تماماً مع محور السورة في بيان الصراع بين الحق والباطل، وبيان عاقبة المتقين وعقاب المفسدين.

التفسير الإجمالي:

يبدأ المقطع بمخاطبة النبي ﷺ وتأكيد أن الله تعالى الذي أنزل عليك القرآن وأوجب عليه اتباعه والعمل به[٢] ﴿ لَرَآدُّكَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي: مرجع هو يوم القيامة، ليثيبك على قيامك بمهام الرسالة والدعوة التي كلفت بها، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]. هذا على أن المراد بالمعاد يوم القيامة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، قال: إلى مكة[٣] فمعاد الرجل: بلده، لأنه يتصرف في البلاد، ويضرب في الأرض، ثم يعود إلى بلده[٤]، فسميت مكة معاداً لعوده إليها[٥]، وقيل المراد بالمعاد: الموت، وقيل: الجنة[٦].

ثم يتواصل الخطاب للنبي ﷺ: ولا عليك من الكافرين المعاندين المنكرين، بل قل لهم ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وهو النبي ﷺ الذي جاء بالقرآن الكريم ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وربي أعلم بمن

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٧٤)، بتصرف.

(٢) ينظر: لباب التأويل، للخازن (٤١٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، برقم (٤٧٧٣).

(٤) مشكل القرآن، لابن قتيبة. وقارن بـ: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١).

(٦) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥٠)، ولباب التأويل، للخازن (٤١٥)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٤٥-٣٤٧).

﴿ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وهو أنتم أيها المنكرون، الذين رفضتم اتباع ما جئتُ به من الله تعالى.

ثم ينتقل الخطاب إلى النبي ﷺ امتناناً عليه بفضل الله وإحسانه إليه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الذي جئتَ به من الله تعالى، وإنما ألقي إليك ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بك ورحمة للناس كافة تهديهم به، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ ومعينا ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ بعد أن علمت كفرهم وعنادهم، وتبين لك أن طلباتهم إنما كانت على سبيل المغالطة والعناد، وليس بحثاً عن سبيل الهدى والرشاد. بل استمر في دعوتهم وبيان الحق لهم، ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ الكفار بإعراضهم وكفرهم ﴿ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ والدعوة إليها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي: بعد وقت إنزالها[١]، فادع إلى ما فيها من أوامر ونواهي، وترغيب وترهيب، ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الذي أحسن إليك، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بأن تترك نهيهم عن شركهم فتكون معدوداً في عدادهم، إذ الساكت عن فاعل المنكر شريك له، وفي تأكيد النهي في الآية تنبيه على الاهتمام بدرء المفاسد قدر المستطاع[٢].

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ كما قد يطلب منك المشركون أن تعبد آلهتهم المزعومة والتي لا تغني شيئاً، لأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده جل وعلا، وهو وحده الذي يبقى سبحانه وتعالى، إذ ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ ﴾ لا محالة إلا الله سبحانه وتعالى الحي القيوم، ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ والتصرف النافذ المطلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم[٣]، والعصمة للنبي ﷺ لا تمنع من توجيه النهي[٤]، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٣/ ١٩٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٨١).

(٣) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٨)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤١٦). وقارن بـ: زاد المسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥١).

(٤) تفسير النسفي، بهامش لباب التأويل (٣/ ٤١٦).

وهكذا تختتم هذه السورة الكريمة بهذا البيان البديع لحقائق الأمور في الدنيا ومآلها في الآخرة، بعد أن تنوعت مقاطعها، وانسجمت في عقد نضيد، مبينة أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً، لا في الدنيا عند نزول العذاب، كما حصل لفرعون ولهامان ولقارون، ولن يغنوا عنهم شيئاً يوم القيامة، كما سبق بيانه في مواقف المساءلة الثلاثة، وحينها يتمنى هؤلاء المشركون ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* البشارة للنبي ﷺ في العودة إلى مكة منصوراً ظافراً، بعد أن أخرجه قومه منها، مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

* ضرورة استعمال أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه ودفع المقابل إلى التفكير في حقيقة الإسلام، وفسح المجال للمناقشة والأخذ والرد، وهو الأسلوب الذي استخدمه القرآن في قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[(١)].

* لم يكن أحد يعلم أن الله سيبعث محمداً ﷺ رسولاً، وينزل عليه القرآن الكريم نوراً وهدى وتشريعاً مفروضاً، حتى الرسول محمد ﷺ لم يكن يعلم بذلك[(٢)].

* في الآيات نفي لكل معبود سوى الله تعالى، وإثبات العبادة لله تعالى وحده، حيث كلّفت الآيات الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى وتحمل المشاق التي قد يواجهها، وعدم الالتفات إلى أقوال الكفار وأذاهم، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتكليف موصول إلى أمته ﷺ[(٣)].

* إثبات يوم القيامة، والبعث والنشور، وإعادة الخلق بعد الموت، ووقوفهم بين يدي الله

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٧٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، (١٩/ ١٨٠).

تعالى للحساب والجزاء.

* بيان نهاية العالم كله، وهي الهلاك الشامل لكل شيء سوى الله تعالى، ففيها إخبار بأنه سبحانه الدائم الباقي الحي القيوم، كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦-٢٧]، وفيها إخبار برجوع الخلق كلهم إليه للحساب والجزاء[١].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا وعد بحسن عاقبة سيد المتقين، وأفضل الخلق أجمعين، ﷺ، وعد له بالرجوع إلى مكة المكرمة ظافراً منتصراً معززاً مكرماً. وقد جاء هذا الوعد وهو في طريق خروجه من مكة المكرمة!، زيادة في تأكيد تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء والاختيار. وفي المقطع تحذير من اتباع سبيل الكافرين أو التساهل معهم أو التكاسل في دعوتهم أو الخوف منهم.

ويختتم المقطع والسورة ببيان حقائق كونية، هي تفرد الله تعالى بالإلوهية، ونفي الشركاء عنه، وإثبات البقاء له وحده سبحانه، وتفرده بالحكم والقضاء، وإثبات البعث والحساب والجزاء. والله أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٤٨)، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٤).

سورة العنكبوت

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى سورة العنكبوت، وسميت بهذا الاسم عند أهل التفسير والحديث، وهو اسم توقيفي لها، ويدل على هذه التسمية، حديث ابن عباس -رضي الله عنهما - فيما نزل بمكة وما ذكر بمكة «سورة العنكبوت» واتفاق المصاحف على ذكرها بهذا الاسم وهذا الاسم موافق لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[العنكبوت: ١٤][1]

وذكر السخاوي أن لها اسما آخر وهو﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[٢: العنكبوت] والذي يبدوا ان هذا الاسم من باب تسمية السورة بأول جملة فيها[2].

عدد آياتها:

تسع وستون آية بالإجماع[3].

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في سورة القصص قبلها استعلاء فرعون وجبروته وقوته، باستضعاف بني إسرائيل وذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم، ونجاة موسى - عليه السلام- وقومه، وانتصاره

---

(١) عبدالله بن سالم الهنائي: أسماء سور القرآن: ٢٠١.

(٢) السخاوي، جمال القراء: ١/ ٢٠٠.

(٣) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٤/ ٣٨٤. وانظر: الآلوسي: روح المعاني: ٦/ ٣٩٢.

على فرعون ومن معه، وذكر الله تعالى قصة قارون وبغيه، وعاقبه بأن خسف به الأرض، وفي هذه السورة ذكر قصة المشركين في مكة، الذين عذبوا المؤمنين، وقصة نوح مع قومه واغراق الذين كذبوه وختمت سورة القصص [الآية ٨٨]، بقوله تعالى:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وفي مطلع هذه السورة رد على منكري الحشر، وأن الله يثيب المطيع العابد، ويعذب الكفور الجاحد. فالمناسبة بين السورتين، بذكر الأمثلة الواقعية من الصراع بين الحق والباطل والصبر وعدم الصبر، والبعث والجزاء[1].

ومحورها:

محور سورة العنكبوت يدور حول الإيمان وتثبيته وقت الابتلاء والشدائد والمحن فالإنسان معرض لأن يفتن في كثير من الأمور، كفتنة المال، والبنين، والشهوة، والسلطة، وهذا الابتلاء من تدبير الله سبحانه وتعالى ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً، من أول حياتهم إلى نهايتها فلا يظن الإنسان أن الإيمان يبعده عن البلايا، فإذا نزلت به ارتد، وعذاب الآخرة أشد وأبقى وقد ابتلى الأنبياء، فواجهوا الابتلاء بالصبر، فكان النصر حليفهم. وفي هذا يقول سيد قطب: إن محور السورة هو الحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدن النفوس، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف عن طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف[2].

سبب نزولها:

أنزلت في أناس كانوا بمكة، أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا، فخرجوا قاصدين المدينة، فتبعهم المشركون، فردوهم،

(١) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ١٨١. وانظر: البقاعي: نظم الدرر: ١٤/ ٣٨٤.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧١٨.

فنزلت فيهم هذه الآيات. فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج، فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومن هم من نجا فنزل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩][1].

مقاطعها:

والسورة تنقسم إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: اختبار الناس وجزاؤهم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ابتدأ هذا المقطع بالحروف المقطعة التي تنبه على إعجاز القرآن، ثم بالاستفهام الإنكاري لمن ظن من المؤمنين الذين كانوا بمكة مستضعفين، وكان كفار قريش يعذبونهم ويؤذونهم لأنهم أسلموا، فضاقت صدورهم، فآنسهم الله بهذه الآية، ووعظهم وأبان لهم أن هذه سنته في عباده المؤمنين السابقين الذين أوذوا وعذبوا فصبروا، وثبتوا على الإيمان، وعليهم الصبر كذلك ليميز الله الصادقين من الكاذبين في دعوى الإيمان، فمن اعترف بالآخرة وعمل لها لن يضيع الله عمله، ولا يخيب أمله. ومن كان يرجو ثواب الله فليصبر على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه، وهو سبحانه السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة. فمن جاهد بالصبر على الطاعة، وكبت نفسه عن الشهوات المحرمة، فسيلقى منفعة جهاده لنفسه،

(١) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ١٨٦.

والله مستغن عن عبادة العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فالذين آمنوا وعملوا مع الإيمان الأعمال الصالحة يمح الله عنهم سيئاتهم التي سبقت منهم ويجازيهم بأحسن أعمالهم وهي الطاعات. قال النسفي:﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة[١]، وقال الشيخ هود: «يجزيهم بأعمالها الجنة»[٢].

دروس وعبر:

* المؤمن هو المجاهد الصابر، الذي يصبر على المكاره والأحداث الجسيمة، وهو في اختبار في هذه الحياة الدنيا، على الشدائد والمحن فإن صبر ظفر بالجنة، ونال رضاء الله.

* أما المنافق أو مهتز الإيمان فلا يتحمل الأذى في سبيل الله وسرعان ما يظهر الكفر، ويعود إلى الضلال، وجزاؤه جهنم، وعذابها أشد عذاباً من عذاب الدنيا.

* الدنيا دار ابتلاء واختبار، وتكليف؛ فمن صبر وأدى ما أمره الله من طاعات واجتناب للمعاصي فاز، ومن عصى الله وعمل المعاصي هلك، والهدف من الابتلاء في الدنيا إظهار صدق الصادقين، وكشف كذب الكاذبين.

* الحث على العمل الصالح وكل ما أمر الله به، واجتناب كل ما نهى الله عنه، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها.

---

(١) النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٦٥.

(٢) الشيخ هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز: ٣/ ٢٩٧.

المقطع الثاني: التوصية بحسن معاملة الوالدين وبيان خسة المنافقين

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يأمر الله سبحانه الإنسان بالإحسان إلى الوالدين، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان فعليه طاعتهما إلا إذا أمراه أن يشرك بالله ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومرجعكم جميعا إلى الله يوم القيامة، المؤمن والكافر والبار بوالديه والعاق لهما، فيجازي المحسن بإحسانه وصبره على دينه والمسيء بإساءته. فالذين عملوا بما أمرهم ربهم، فأصلحوا نفوسهم وأدوا فرائضهم، لندخلنهم في زمرة الصالحين في الجنة: وهم الأنبياء والأولياء[١]، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه حين أسلم أمرته أمه أن يتراجع فلم يطعها، وأمره رسول الله ﷺ بصلتها والعطف عليها[٢]. وقال القرطبي: ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾كرر تعالى التمثيل بحال المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم وقوله: ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ مبالغة على معنى؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته، وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه الجنة[٣].

ولما ذكر الله تعالى ما أعده للمؤمنين الصادقين، ذكر حال المنافقين المتقلبين، الذين

(١) أ. د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢٠١.

(٢) الشيخ عبدالكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٢٥٥.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢١٤.

يقولون بألسنتهم آمنا بالله، فإذا أوذي أحدهم ارتد عن الدين، وجعل ما يصيبه من أذى الناس صارفا له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر، «ولئن جاء نصر من ربك للمؤمنين بأن صارت لهم غنيمة، ليقولن: إنا معكم فاتركونا فيما عندكم من الغنائم والخيرات، والله يعلم أن أولئك الناس كانوا كافرين ولم يكونوا مع المسلمين، فالله يعلم المخلصين ويعلم المنافقين»[١] يعلم ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، ويعلم ما في قلوب الناس من إيمان ونفاق، إنه بكل شيء عليم، وأكد ذلك بقوله: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ﴾أي وليظهرن الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا، فيفتضح المنافق، ويظهر شرف المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ثم يقول الله تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا نحمل آثامكم وقد كذبهم الله فقال: وما هم بحاملين، لأنه لا يحمل أحد وزر أحد، وليحملن أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء، وليسألن يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع، عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل[٢].

دروس وعبر:

* برّ الوالدين واجب على المؤمنين لأنهما سبب وجوده وتربيته والإنفاق عليه، فطاعتهما واجبة إلا إذا دعوا الابن إلى الشرك والعصيان، فلا تجوز طاعتهما.
* كشف المنافقين الذين يقولون بألسنتهم إنهم مصدقون بالله، مؤمنون به ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، لأنهم سرعان ما يتخلوا عن دينهم، خسروا الدنيا والآخرة وذلك لأن الإيمان كان مجرد قول باللسان، فإذا تعرض لأذى ترك الإيمان.
* محاولة فتنة المؤمنين عن دينهم، وهذا شأن الكافرين في كل زمان أن يرتد المؤمن عن دينه،

(١) الشيخ عبدالكريم: مواهب الرحمن: ٦/ ٢٥٦.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٦.

ويغرونه بكل ما يستطيعون من صنوف الإغراء بالمال، والشهوات، بل يقولون أكثر من ذلك لهم كما أشارت الآيات الكريمة تحمل أوزاركم يوم القيامة، وهم كاذبون فيما يقولون، فإنهم لا يستطيعون عمل شيء بل يتبرؤون منهم.

المقطع الثالث: قصة نوح ﷺ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وقد ذكر الله تعالى في هذا المقطع قصة نوح ﷺ مع قومه حيث مكث يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده تسعمائة وخمسين سنة، فكذبوه وأصروا على كفرهم وظلمهم، وعبادة الأصنام فأهلكهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان فأغرقهم، ونجى نوحا ومن كان معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه من المؤمنين، وجعل الله تلك الحادثة عظة وعبرة للناس. وفي هذه القصة تسلية للنبي ﷺ عما كان يلقاه من أذى المشركين، وعدم اتباعهم له، وإيذاء أتباعه، فمكث نوح ﷺ هذه المدة الطويلة يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ومع هذا ما زادهم إلا فرارا عن الحق وإعراضا عنه وتكذيبا له وما آمن معه إلا قليل، فما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، واعلم أن الله سينصرك عليهم ويؤيدك ويذلهم ويجعلهم أسفل سافلين[١].

دروس وعبر:

* ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لأن قومه أعرضوا عنه، ولم يقبلوا دعوته، فأخبره الله بأن الأنبياء قبله أوذوا من أقوامهم فصبروا، وخص نوحاً في هذا لأنه لم يلق نبي مثل ما لقي نوح من قومه فصبر، دعاهم إلى توحيد الله ولم يؤمن برسالته إلا

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٧.

القليل.

* يجب على الدعاة إلى الله اليوم الصبر، وتحمل الأذى في سبيل نشر الدعوة إلى عبادة الله واتباع دينه، والصبر على المكاره التي سيلاقونها والنصر حليفهم في الدنيا وفي الآخرة.

* مصير المؤمنين النجاة في الدنيا وفي الآخرة، ومصير الكافرين الخذلان في الدنيا والعقوبة في نار جهنم في الآخرة.

المقطع الرابع: قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وجوابهم له

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يخبر الله سبحانه وتعالى عن قصة رسوله وخليله سيدنا «إبراهيم» ﷺ، الذي دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وشكره على نعمه التي لا تحصى، فهو الذي يسدي النعم، وبين لهم أن عبادة الأوثان التي يعبدونها لا تنفع ولا تضر وإنما هي حجارة صنعتموها بأيديكم، فهي لا تقدر على رزقكم، فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك، وخصوه بالعبادة وحده، واخضعوا له واخشعوا، واشكروه على نعمه التي أنعم عليكم، فإليه مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله[1].

وإن تكذبوني في رسالتي، فلا تضروني أبدا، فإن الأمم السابقة كذبوا رسلهم، وبلغكم ما حل بهم من العذاب والعقوبة في مخالفة الرسل، فأضروا أنفسهم، وما على الرسول إلا أن يبلغ ما أمره الله به من الرسالة.

وبعد بيان التوحيد وهو الأصل الأول، والإشارة إلى الرسالة وهي الأصل الثاني، شرع في بيان الأصل الثالث، وهو الحشر والبعث يوم القيامة، والنشور، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ فإن الله خلق الخلق بعد أن لم يكونوا شيئا، وهو قادر على إعادته، بل هو أهون عليه، فقل لهم يا محمد سيروا في الأرض أيها المنكرون للبعث والنشور فانظروا كيف بدأ الله خلق السموات وما فيها من الكواكب، والأرضين وما فيها من جبال وأنهار وبحار، وأشجار وأثمار كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها المتفرد بالخلق، ومن قدر على الخلق قدر على الإعادة يوم القيامة فإن الله قدير على كل شيء، أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة[2].

ثم ذكر سبحانه ماذا يكون بعد الإعادة، إنه الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر، وإليه ترجعون يوم القيامة، ولا مهرب لكم في الأرض ولا في السماء، قال القرطبي: ليس لكم غير الله ولي يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه،

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٩.

(٢) وهبه الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢١٦.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث، أولئك المنكرون الجاحدون يئسوا من الجنة ونسب اليأس والمعنى أويسوا وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة[١]. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم، فما كان جواب قومه حين دعاهم إلى الله تعالى إلا أن قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوه أو حرقوه بالنار، فألقوه في النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه، إن في ذلك أي في إنجائه من النار، لدلائل وبراهين على قدرة الله تعالى لقوم يصدقون بوجود الله، وكمال قدرته...

وقال إبراهيم لقومه: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله، من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها، وفي يوم القيامة ينقلب الحال فتصبح الصداقة والمودة عداوة وبغضاء، ويلعن ويشتم كل فريق منكم الفريق الآخر ومصيركم جميعا إلى جهنم فهي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبدا، وما لكم ناصر أو معين يخلصونكم منها[٢] وينقذكم من عذاب الله. ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه لم يؤمن بإبراهيم ولم يصدق دعوته إلا لوط، وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ثم ترك إبراهيم الخليل وطنه﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ رغبة في رضى الله، فهاجر من سواد العراق إلى حران، ثم إلى فلسطين، وهاجر معه لوط ونزل بلدة سدوم.

ثم عدد تعالى نعمه على إبراهيم في الدنيا والآخرة فقال: ووهبنا لإبراهيم بعد إسماعيل اسحق، وكذا من نسله يعقوب حفيدا له وجعلنا في ذريته النبوة، فكان الأنبياء كلهم بعد إبراهيم من ذريته، وأتيناه الكتاب، فكانت التوراة منزلة على موسى، والزبور على داود والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعا وكلهم من نسله. وآتيناه أجره في الدنيا بكثرة الذرية والأموال والزوجة الصالحة والثناء الحسن ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي وأنه يحشر في الآخرة في زمـرة الكاملين في الصلاح الذين لهم

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢١٩.

(٢) الشيخ إسماعيل البرسوي: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: ٣/ ٢٦٦.

الدرجات العلا[(١)].

قال ابن كثير: (وهذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلا، وجعله للناس إماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم -عليه السلام- إلا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن اسحق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، فقام في ملئهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة: الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم عليهم السلام، ولم يوجد [نبي] من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام[(٢)].

دروس وعبر:

* أن دعوة إبراهيم -عليه السلام- كانت كدعوة جميع الأنبياء -عليهم السلام- وهي توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشرك عنه، وعبادة الله تعالى بفعل أوامره وترك معاصيه.
* أن الله سبحانه هو الذي يطلب منه الرزق وحده، وهو الذي ينفع ويضر، أما الأصنام التي يعبدها المشركون فلا تنفع ولا تنصر، ولا تقدر على جلب الرزق لأحد.
* الله سبحانه هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهلكهم، ثم يعيدهم إلى الحياة يوم القيامة وكل شيء عليه هين يسير، إنما أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئاً يقول له (كن فيكون). فالإنسان وآفاق الكون سمائه وأرضه خلقها الله، وهو المتصرف فيها، ويحكم ما يريد يعذب من يشاء وهم الكفار المكذبين، ويرحم المؤمنين المصدقين، والجميع عائدون إليه فالذين كذبوا رسله وكفروا بما أنزل، رغم ما أقام لهم رسلهم من أدلة على وجوده وقدرته لا نصيب لهم في الآخرة من رحمة الله، والذين آمنوا فيكونون في رحمة الله.
* وقد أثبت لهم سيدنا إبراهيم خليل الله - عليه الصلاة والسلام - أصول الدين الثلاثة:

(١) وهبه الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢٢٤.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٥.

الوحدانية، والرسالة، والبعث، وأقام لهم البراهين على ذلك، فكان نصيبه أن اتفقوا على إحراقه بالنار وقتله، ونجّاه الله منها فكانت النار برداً وسلاماً، ولم يؤمن الكفار بعد هذه المعجزة العظيمة بدعوته فهاجر من أرض الكفر. وفي هذه الهجرة عبرة للمؤمنين بجواز الهجرة عند الشدائد إلى دار الإيمان.

* أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

المقطع الخامس: قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: واذكر رسولنا لوطا عليه السلام حين قال لقومه: إنكم لترتكبون أقبح فاحشة لم يسبقكم إليها أحد من الخلق (وهي اللواطة) أي أنكم لتأتون الذكور في الأدبار، وذلك منتهى القذارة والخسة وتقطعون الطريق على المارة بالقتل والسلب والنهب، وأخذ الأموال، فقد كانوا قطاع طرق، وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من المنكرات

جهارا وعلنا[١].

فكان جواب قومه ردا على نصحه لهم الاستهزاء به: وقالوا: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا إن كنت من الصادقين فيما تهددنا به، فيئس منهم لوط: وقال: رب اهلكهم وانصرني عليهم، فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى منهم صلاح، فاستجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لاهلاكهم، فمروا على إبراهيم أولا فبشروه بغلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله، إن الله أرسلهم لإهلاك هذه القرية، قرية قوم لوط. فقال لهم إبراهيم: إن فيها لوطا وهو نبي ومن الصالحين، فكيف تهلكوها؟ فأجابوه، نحن أعلم بمن فيها، ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين إلا امرأته، فستكون من الهالكين، لأنها توافقهم على الكفر. وساروا من عنده إلى لوط، فدخلوا عليه في صورة شبان حسان فحزن لوط بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم، لأنه خاف عليهم من قومه، فأعلموه أنهم رسل الله، وقالوا: لا تخف ولا تحزن بسببنا فلن يصلوا إلينا، وسننجيك وأهلك منهم إلا امرأتك ستكون من الهالكين معهم في العذاب، وسننزل عليهم عذابا من السماء بسبب فسقهم المستمر، وكان ذلك العذاب كما وصفه ابن كثير: (وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ أي واضحة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويعتبرون.

دروس وعبر:

* أن واجب المؤمن أن ينكر الفاحشة مهما كان نوعها: قطع الطريق، واللواطة، وفعل المخازي في المجالس كما فعل سيدنا لوط.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٥.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٧.

* أن اللواطة كالزنى توجب الحد، فما شرع زاجراً للزنا يكون زاجراً للواطة.

* جواز الدعاء بطلب هلاك القوم الذين ييأس الداعي لهم من الهداية، وذلك لكثرة إفسادهم، والهلاك يلحق بالظالمين المفسدين في الأرض مرتكبي الفواحش، والدالين عليه.

* إن على الناس أن ينظروا إلى آثار منازل المفسدين الخربة، ومصير الظالمين الضالين.

* أن الله رحيم بالمؤمنين، وشديد العقاب للكافرين.

المقطع السادس: قصة شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يبين الله قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم وما ارتكب أقوامهم من ذنوب، ولم يستجيبوا لأنبيائهم، فشعيب -عليه السلام- أرسله الله تعالى إلى أهل مدين وقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وخافوا عقابه في اليوم الآخر، واتركوا الفساد في الأرض، فكذبوه ولم يستجيبوا

له، فأهلكهم الله برجفة عظيمة دمرت بلادهم، وصيحة كبيرة هائلة، فأصبحوا هالكين. كما أهلك عادا وثمود، وقد ظهر ذلك لكم يا أهل مكة من منازلهم التي كانت بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون؟ وحسن لهم الشيطان أعمالهم من المعاصي والكفر، حتى رأوها حسنة، فصدهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من الاستدلال والنظر ولكنهم أصروا على الكفر والعناد.

وكذلك أهلكنا الجبابرة الظالمين قارون وهامان وفرعون، فقارون صاحب الكنوز الكثيرة، وفرعون صاحب السلطان والملك، وهامان الذي كان يعينه على الظلم والطغيان. هؤلاء الذين استكبروا في الأرض عن عبادة الله وطاعة رسوله موسى، الذي دعاهم لعبادة الله وجاءهم بالحجج الباهرة، والآيات الظاهرة،﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ قال البرسوي: أي فائتين بل أدركهم أمر الله فهلكوا ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي فكلا من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه، وعاقبناه بجنايته[1]. قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه فمنهم من أرسلنا عليه ريحا عاصفة مدمرة، فيها حجارة كقوم لوط، ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كثمود، ومنهم من خسفنا به وبأمواله الأرض حتى اختفى كقارون، وأصحابه، ومنهم من أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده، وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون ظالما لهم، ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار[2].

وفي نهاية هذا المقطع شبه الله تعالى عبدة الأوثان، واعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يغني عنها، أي لا يقيها من حر ولا برد ولا مطر ولا أذى، وأن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته وحقارته، وهو مثل الأصنام التي عبدوها لا تجلب

(١) البرسوي: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: ٣/ ١٦٨، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٣.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٨، وانظر: النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٧٦.

لهم نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا. والله عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه، وسيجازيهم على كفرهم، وهو سبحانه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وتلك الأمثال التي بينها للناس في القرآن الكريم، ليقر بها إلى أذهانهم، وما يفهمها إلا الراسخون في العلم الذين يعقلون مراد الله سبحانه وتعالى.

دروس وعبر:

* أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب كفرهم وعنادهم، وفسادهم بارتكابهم المعاصي والكبائر، فزلزل الله الأرض تحت أقدام قوم شعيب الذين رفضوا عبادة الله، وعاد وثمود أنكروا وجود الله القادر فدمر بنيانهم بالريح وآثار التدمير باقية لتكون عبرة لمن يعتبر من أهل النظر والاعتبار.
* ورؤوس الطغيان والبغي في مصر قارون وفرعون وهامان طغوا وبغوا واستكبروا، فخسف الله الأرض بقارون وأغرق فرعون وهامان ليكونوا عبرة لمن يسير في طريق الطغيان والكفر.
* أن الله سبحانه سيأخذ الظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم وعدم إتباعهم أوامر أنبيائهم، وأن أخّر عقابهم في الدنيا، فسيكون عقابهم في الآخرة أشد وأبقى.
* أن الله ضرب مثلاً لعبدة الأوثان، وأن ما يعبدون لا ينفعهم وأن بنيانهم كبنيان العنكبوت المتشابك الواهي الضعيف، ولكنهم لم يفهموا ولم يعتبروا، واستمروا في ضلالهم.
* أن الكافر والمشرك يعبد ما لا ينفعه، وأما المؤمن فيعلم أن نجاته بعبادة الله الواحد القهار.

المقطع السابع: فائدة خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع من السورة نقلة أخرى ترتبط بالمقطع السابق الذين يتفكرون ويعقلون مراد الله عز وجل، فبين لهم أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض لا على وجه العبث واللهو بل للدلالة على وجوده ووحدانيته، خلقها بشكل بديع، وصنع محكم، وفي ذلك آية للمؤمنين الموحدين، ثم خاطب نبيه محمد ﷺ أن يقرأ القرآن الذي أوحاه الله ويتقرب إليه بتلاوته، وترداده، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق، وأن يقيم الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها فهي عماد الدين، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا أداها المصلي خاشعا في صلاته، متذكرا عظمة خالقه متدبرا لما يتلو، فذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، فيجب أن لا يغيب عن الإنسان في الصلاة، وفي أمور حياته كلها، والله يعلم جميع أعمال الإنسان وأفعاله فيجازيه عليها أحسن الجزاء.

دروس وعبر:

* أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض ليستفيد منها الإنسان في معرفة الله سبحانه وتعالى والاستدلال على وجوده في هذا الخلق المحكم، والصنع المتقن، وما ينكر ذلك إلا الكافر.
* على المؤمن المواظبة على تلاوة القرآن، والتمسك به في جميع أمور حياته، فهو طريقه إلى النجاة في الدنيا وفي الآخرة.

المقطع الثامن: مناقشة أهل الكتاب بالحسنى، ومطالبهم التعجيزية

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع تعليم للمؤمنين كيف يناقشون أهل الكتاب في أمر الدين؟ ويكون ذلك بالطريقة الحسنى، كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه وبيناته، فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي -عليه الصلاة والسلام-. وفي هذا يقول الرازي[1]: فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم، وتبيين جهالتهم. وقولوا لأهل الكتاب: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون أي مطيعون، مستسلمون، لحكمه وأمره. فكما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد أنزلناه عليك والذين أعطيناهم الكتاب كعبدالله بن سلام وأمثاله من اليهود والنصارى ممن

---

(١) الرازي: التفسير الكبير: ٢٥/ ٦٣ المجلد التاسع.

أسلموا يؤمنون بالقرآن، كما يؤمن به من أهل مكة من المؤمنين، وما يكذب بأياتنا وينكرها بعد قيام الدليل على صحتها إلا المصرون على الكفر والعناد.

وإنما يكون الجحود بعد المعرفة: وهم يعرفون أنك ما كنت تتلو يا محمد قبل هذا من كتاب، فقد عشت بينهم وما علموا أنك تقرأ أو تكتب قبل نزول القرآن، عرفوك أميا، ولو عرفوا أنك تقرأ وتكتب لكان معهم دليل وشك في القرآن، ولقالوا لعله التقطه من كتب السابقين ونسبه إلى الله.

وفي هذا المعنى يقول ابن كثير[1]: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وكان له كتاب يكتبون له الوحي. وهذا دليل على أنها آيات واضحات الإعجاز ساطعات الدلالة على أنها من عند الله سبحانه، محفوظة في صدور المؤمنين العلماء، وما ينكر هذه الآيات ويكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر من أهل مكة الذين قالوا: هلا أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصى موسى ومائدة عيسى فقال لهم النبي ﷺ، إنما الآيات من عند الله، فهذه الخوارق والمعجزات ليست بيدي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله.

ثم قال لهم: أولم يكف هؤلاء المشركين من الآيات هذا الكتاب وهو المعجزة الكبرى التي لا تزال تقرع أسماعهم وهو أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صدق نبوة محمد ﷺ هذه المعجزة التي أعجزت فصحائهم وبلغاءهم عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أو لم يكف أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى؟ وفي إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت والكفر، وقل لهم يا محمد: كفى أن يكون الله

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٤.

سبحانه شاهدا على صدقي يشهد لي أني رسوله، ولا تخفى عليه خافية من أمر العباد، فلو كنت كاذبا لانتقم مني، والذين اتبعوا الأوثان وكفروا بالرحمن أولئك هم الخاسرون، حيث اشتروا الكفر بالإيمان[1].

هؤلاء الكفار المشركون يستعجلونك يا محمد بالعذاب ويقولون امطر علينا حجارة من السماء، استهزاء وتكذيبا.

ولولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتا محددا لجاءهم العذاب الذي طلبوه، وسوف يأتيهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه، ويتعجب من قلة فطنتهم وتعنتهم وعنادهم كيف يستعجلون العذاب، وجهنم محيطة بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم، لا مفر لهم منها؟ ويوم يحيط بهم العذاب من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن جميع جهاتهم يقول الله عز وجل لهم: ذوقوا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام وسيء الأعمال.

دروس وعبر:

* المناقشة والجدال يجب أن يكون بين الأفراد بالحكمة والموعظة الحسنة لأنها السبيل إلى الإقناع وتحقيق الأهداف، وخاصة في إيصال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحجة والمنطق والبرهان ولين الخطاب.
* إثبات نبوة محمد ﷺ أنه كان قبل نزول القرآن لا يقرأ ولا يكتب وعاش بين قومه أربعين سنة على ذلك، وقد شهد له بذلك الكتب المتقدمة، وأميته ﷺ دليل واضح وقاطع على أن القرآن كلام الله سبحانه، لأنه آيات واضحات محكمات، وليس بشعر، ولا سحر، ولا ينكره إلا المبطلون الجاهلون، والكفار الظالمون، حفظه الله من التغيير والتبديل.
* لقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل عشر

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٧.

سور، أو بمثل سورة واحدة من أقصر السور، وتحداهم فعجزوا وهذا دليل قاطع على أنه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ.[١]

* القرآن الكريم المعجزة العقلية الباقية على مر الزمان والتحدي لا يزال قائماً وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو كتاب الله الخالد، من آمن به وعمل به نجى من عذاب الله، ومن كفر به ولم يعمل بما فيه عاش في ضنك العيش وهو في الآخرة من الخاسرين سواء كانوا من المشركين أو الكفار أو أهل الكتاب.

* أن الله يمهل ولا يهمل العقوبة للكافرين والمشركين الذين طلبوا العقوبة العاجلة، فقد اقتضت الحكمة الإلهية رحمة بالعباد إعطائهم فرصة التوبة وإصلاح أنفسهم، فمن أصرّ على الكفر فقد أعد له الله عذاب جهنم، الذي هو أشد عذاب.

المقطع التاسع: حض المؤمنين على الهجرة عند التضييق عليهم

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

وفي هذا المقطع بين حال الأبرار المتقين من ضعفاء المؤمنين الذين كانوا بمكة، وآذاهم المشركون، ولم يهاجروا خشية من الجوع، وضيق العيش، فخاطبهم اله تعالى خطاب تشريف لهم ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تحريضا لهم على الهجرة إلى دار الإسلام ولا تجاوروا الظلمة في مكة، فأرض الله واسعة، وأمرهم بأن لا يعبدوا إلا الله سبحانه. قال ابن كثير: هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله

(١) الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٣.

الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم...، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك.. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة يثرب المطهرة[١].

وإن كنتم تخافون الموت فالموت يدرككم أينما كنتم، فكونوا دائما وأبدا في طاعة الله، فحيث أمرتكم فهاجروا، ثم إلى الله المرجع والمآب، فالذين جمعوا بين إخلاص العقيدة والعبادة والعمل لننزلنهم أعالي الجنة، ولنسكننهم منازل رفيعة حدائقها تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبدا، إنها جنات النعيم التي أعدها الله أجرا للعاملين الذين صبروا على تحمل المشاق والهجرة في سبيله وعلى ربهم يعتمدون في أمورهم، وهذان جماع الخير كله: الصبر وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى.

ثم يبين لهم الله سبحانه، كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها الله تعالى يرزقها كما يرزقكم، وقد تكفل سبحانه برزق جميع خلقه، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم قال في التسهيل: والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، كما يرزق الحيوانات الضعيفة وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم وبحركاتكم وسكناتكم[٢].

دروس وعبر:

* الحض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام عندما يكثر الأذى وإذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.
* وعد الله المؤمنين الصابرين بالجنة عند صبرهم على الأذى، وتحملهم المكاره.
* بدد الله مخاوف المؤمنين الذين خافوا من الهجرة، وبين لهم أن الموت حق يأتي المقيم والمهاجر، وأن الرزق مكفول ييسره الله لجميع مخلوقاته.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٩.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٠١.

المقطع العاشر: تبيين حال الدنيا والآخرة واعتراف المشركين بالله الخالق الرازق المحيي

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه وتعالى إقرار المشركين بوحدانية الله[1]، فيقول: ولئن سألتهم يا محمد من خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب والغرائب؟ ومن سخر الشمس والقمر لمصالح العباد بجريانهما وفق نظام دقيق محكم؟ ليقولون: الله خالق ذلك فكيف يصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادته[2]، وهو سبحانه وتعالى الرازق لعباده يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيق الرزق على من يشاء، امتحانا وابتلاء، ليظهر الشاكر والصابر، والله تعالى يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ويوجه لهم توبيخا آخر ليقيم الحجة عليهم فيقول: ولئن سألتهم من أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جدب الأرض ويبسها؟ ليقولن: الله فاعل ذلك. فقل يا محمد: حمدا لله على ظهور الحجة عليهم، بل أكثرهم لا يعقلون، حيث يقرون بأن الله هو

---

(١) النسفي: مدارك التنزيل: ٢/ ٦٨٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير: ٩/ ٧٤.

الخالق والرازق ويعبدون غيره.

ثم أقام على المشركين حجة ثالثة وهي دعائهم الله عند الشدائد واشراكهم في حال الرخاء فإذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو سبحانه، فلما نجاهم من أهوال البحر إلى البر، عادوا إلى إشراكهم وكفرهم، ونسوا ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال، فوجه إليهم تهديدا بقوله: (فليكفروا) بما أعطاهم الله من النعم، والإنجاء من البحر، وليتمتعوا في هذه الحياة، وسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

أولم ير هؤلاء الكفار أنا جعلنا بلدهم (مكة) حرما مصونا من السلب والنهب، والقتل والسبي والناس حولهم يسبون ويقتلون، أفبعد كل هذه النعم التي أنعمها الله عليهم يؤمنون بالأوثان، ويكفرون بالرحمن؟ فلا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذب بالقرآن حين جاءه ومثواهم جهنم جزاء كفرهم وكذبهم.

ويختتم المقطع والسورة بأن المجاهدين الصادقين الذين جاهدوا أنفسهم، والشياطين والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاة الله لنهدينهم طريق السير إلينا وإن الله مع المؤمنين بالنصر والعون. قال صاحب الظلال: «الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه، ويتصلوا به الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا. الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب، أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم... وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء»[1].

دروس وعبر:

* أن المشركين متناقضين مع أنفسهم فهم يقرون بأن الله هو الخالق المبدع الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر، وسخر الليل والنهار، وأنه هو سبحانه الرازق لعباده، والذي يحيي الأرض بعد موتها بالماء، ثم يشركون معه إلهاً آخر.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٢.

* كل شيء بقضاء الله وقدره، فالرزق بأمره، والتقتير بأمره، وهو أعلم بما يصلح لعباده، وقد أوضح الحجج والبراهين على قدرته ولكن المشركين لا يعون هذه الحجج ولا يتدبرونها.
* الحياة الدنيا زائلة والحياة الآخرة باقية، والحياة الدنيا ملهاة بما فيها من المال والجاه والسلطان وكل شيء فيها زائل، أما الحياة الآخرة فباقية وهي الحياة الحقيقية.
* المؤمنون يعرفون الله في وقت الرخاء والشدة فيعملون للآخرة أما المشركون فلا يعملون إلا في وقت الشدة الشديدة، حيث يلجؤون إلى الله إذا خافوا الغرق، فإذا نجاهم يعودون إلى ضلالهم، ويجحدون نعم الله عليهم، فهم بالشرك يؤمنون وبالله الواحد يكفرون، ولا أحد أظلم ممن جعل لله شريكاً، وإذا فعل فاحشة قال: وجدت عليها آبائي. وهذه صفة المشركين في مكة الذين جعل الله لهم البيت الحرام فيها آمناً يستحق الشكر، وحمد الله على ذلك.
* إن الذين يطلبون مرضاة الله، وينصرون دينه، ويردون على الظالمين، ويتحملون أذاهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون أنفسهم في طاعة الله يحفظهم الله وهم سعداء الدنيا والآخرة.

الخاتمة:

سورة العنكبوت كسائر السور المكية تقرر أصول العقيدة الإسلامية وهي: الوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء وتثبيت الإيمان. فالمؤمنون في حالة اختبار في الدنيا على الشدائد والمحن. فلا يحسبوا أن الله لا يبتليهم، وأن الإيمان يحميهم من الابتلاء والشدة، فإذا نزلت بهم الشدة ارتدوا عن الإسلام، لكي لا تصيبهم الشدة في الدنيا، وكأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا فوصفهم الله بهذا الوصف بقوله:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[١٠: العنكبوت]. فالمؤمن هو الذي يصبر عند الشدائد ويتحمل الأذى.

والسورة تحدثت عن محنة الأنبياء صلوات الله عليهم، وما لاقوه من الشدائد والمصاعب في سبيل تبليغ الرسالة بدءاً بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب - صلوات الله عليهم وتحدثت عن بعض الأمم والطغاة والأفراد كعاد وثمود، وقارون وهامان وغيرهم، وتذكر السورة ما حلّ بهم من الهلاك والدمار، كما أشارت الآيات الكريمة:﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٤٠: العنكبوت].

وفي هذه القصص دروس من المحن والابتلاء، ذكرها الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين تسلية لهم على ما لاقوه من أصناف العذاب، فما عليهم إلا الصبر في الدعوة إلى الله، والآيات خطاب للمشركين لأنها تدل على صدق نبوة محمد ﷺ، الرجل الأمي الذي عاش بين أظهرهم لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بكل هذه الأخبار عن الأمم السابقة، والأنبياء الذين أرسلهم إليهم، فلم يؤمنوا وعاقبهم الله، وكان النصر للمؤمنين، والهلاك للكافرين.

وقد تحدثت السورة عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية بمسلماتهم منبثقة من هذا الكون الفسيح، وأخبرهم بأن الحياة الدنيا التي تؤثرونها على الآخرة شيء قليل حقير في جنب الآخرة، وذمهم لتقلبهم وشنع عليهم إيمانهم بالباطل وكفرانهم نعمة الله[1].

ثم ختمت السورة ببيان جزاء الصابرين أمام البلايا والمحن والشدائد، وجاهدوا المفسدين الضالين من الكفار، واحتملوا أذاهم بقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٦٩: العنكبوت]. وفي ذلك إشارة إلى أن الفتن مستمرة في حياة الإنسان من أولها إلى آخرها، وأن الله مع الصابر على الفتن التي يمتحنهم الله تعالى بها، وكيف يواجهونها؟ فإن اشتد الأذى يؤذن لهم بالهجرة من ديارهم فراراً بدينهم من الفتن وإبعاد خوف الموت عن نفوسهم، وترغيبهم بالصبر الذي تكون عاقبته السلامة.

---

(١) الشيخ القاضي شمس الدين بن بشير محمد: أنوار التبيان في أسرار القرآن: ١٥٩، تحقيق: د. حكمت الحريري.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

جامعة الشارقة

UNIVERSITY OF SHARJAH

1997

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد السادس

الروم - غافر

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

UNIVERSITY OF SHARJAH 1997

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١+)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيسًا
أ. د. عيادة الكبيسي	عضوًا
أ. د. أحمد البدوي	عضوًا
أ. د. عبد الله الخطيب	عضوًا
د. محمد عصام القضاة	عضوًا
د. قاسم سعد	عضوًا
د. عواد الخلف	عضوًا

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد
أ. د. عيادة أيوب الكبيسي
أ. د. أحمد محمد الشرقاوي
أ. د. ناصر سليمان العمر
أ. د. أحمد عباس البدوي
أ. د. محمد أحمد عيد الكردي
أ. د. مساعد مسلم آل جعفر
أ. د. شحادة احميدي العمري
أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم[1]

بين يدي السورة:

تسميتها: تسمى سورة «الروم» وسميت بهذا الاسم عند السلف والخلف، ويدل على هذه التسمية ما روي من حديث عن الأعز المزني من أصحاب رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ: «أنه صلى الصبح فقرأ سورة الروم والتبس عليه، فلما صلى قال: ما بال أقوام لا يحسنون الطهور فإنما يلبس علينا القرآن أولئك»[2] واتفقت المصاحف على كتابتها بهذا الاسم، وهكذا ورد في حديث ابن عباس: فيما نزل بمكة حيث سماها «سورة الروم» وذكر السخاوي اسما آخر هو: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ [الروم: ١]، وهذا الاسم على ما يبدو من باب تسمية السورة بأول جملة منها[3].

عدد آياتها:

ستون آية[4].

مناسبتها لما قبلها:

تتشابه سورة الروم مع السورة التي قبلها (سورة العنكبوت) أن كلا منهما افتتح بـ﴿ الٓمٓ ﴾ الحروف المقطعة غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة، فإنها كلها قرنت بذلك، وقد ذكر في أول هذه السورة أخبار عن

(١) أسماء سور القرآن الكريم: عبدالله الهنائي: ٢٠٢.

(٢) سنن النسائي (المجتبى) أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ط، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦: جـ٢: ص ١٥٦، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه، أسماء السور القرآنية: ٤٢، ٢٠٢.

(٣) السخاوي: جمال القراء: ١/ ٢٠٠.

(٤) البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ١.

الغيب[1]، كما ذكر في السورة السابقة لتنبيه السامع والإقبال على الاستماع لما هو معجزة.

وسورة العنكبوت «اختتمت بـ (الجهاد) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت: ٦٩] وبدئت هذه السورة بوعد المجاهدين في سبيل الله بالنصر على الكافرين.

قال البقاعي: ختم سورة العنكبوت بمدح المجاهدين فيه، وأنه سبحانه لا يزال مع المحسنين، وكانت قد افتتحت بأمر المفتونين، فكان كأنه قيل: لنفتننكم ولنعمين المفتنين، ولنهدين المجاهدين، وكان أهل فارس قد انتصروا على الروم، ففرح المشركون وقالوا للمسلمين: قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب، فلننصرن عليكم، فأخبر الله تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا، فصدق مصدق، وكذب مكذب، فكان في كل من ذلك من نصر أهل فارس، وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة، يعرف بها الثابت من المزلزل، وكان من له كتاب أحسن حالاً في الجملة ممن لا كتاب له، افتتحت هذه السورة بتفصيل ذلك تصريحاً بعد أن أشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحاً غيبيا، وشهادة دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمور، وأنه يسر المؤمنين بنصره من له دين صحيح الأصل وخذلان أهل العرافة في الباطل والجهل، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين».[2]

كما أن التوحيد في هذه السورة جاء مفصلا للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ ﴾[العنكبوت: ١٩] وقوله تعالى:﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾[العنكبوت: ٢٠]، وفي هذه السورة جاء التفصيل في قوله تعالى:﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ

(١) د. محمد وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٤٢.

(٢) البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ٢.

خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[الروم: ١٩- ٢٧].

محورها:

إن محور سورة الروم هو زرع القيم الإيمانية، وربط المسلمين بما يدور حولهم، في الكون كله، وليصل ما بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، ثم ينتقل بها إلى العالم الآخر، وتتحدث السورة عن أصول العقيدة الإسلامية في إطارها العام، وميدانها الفسيح، وهي التوحيد وصفات الله، والإيمان بالرسالة النبوية والقرآن والبعث والجزاء في الآخرة، وتربط السورة بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة، أنه دين الفطرة، الإيمان بالله وعدم الشرك والاستقامة على ذلك، وتزرع السورة القيم الإيمانية والأخلاق القرآنية كالصبر، وتعرض أهوال يوم القيامة للبشارة والإنذار. ويقول سيد قطب: «وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان في تصوير موضوعها الرئيسي: وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها وسنن الكون ونواميس الوجود، وفي ظلال هذه الارتباطات يبدد أن كل حركة وكل نامة، وكل حادث وكل حالة، وكل نشأة وكل عاقبة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة برباط وثيق محكومة بقانون دقيق وأن مرد الأمر فيها كله لله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾[الروم: ٤]، وهذه الحقيقة بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير»[1].

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٦.

أسباب النزول:

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة، حين غلبت فارس الروم، وكان الروم دينهم النصرانية، والفرس مجوس يعبدون النار، ويسيطرون على الجزيرة العربية، ووجد المشركون من أهل مكة في هذا الحادث فرصة للاستعلاء على المؤمنين، وأنهم سينتصرون على المؤمنين، كما انتصر الفرس على الروم وهم أهل كتاب. فنزلت هذه الآيات تبشر بأن أهل الكتاب من الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، وبهذه الغلبة يفرح المؤمنون، الذي يحبون انتصار ملة الإيمان من كل دين[١].

مقاطعها:

وقد قسمتُ السورة إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: الإخبار عن غيب المستقبل

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الروم: ١-٧]

هذه الآيات الكريمة من المعجزات الغيبية التي تدل على أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير ووقع كما أخبر[٢]، وهزم الرومُ الفرسَ، وفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس لأن

(١) السابق: ٥/ ٢٧٥٤. البقاعي: نظم الدرر: ١٥/ ٢.

(٢) الحافظ بن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٠٤. النسفي عبدالله بن أحمد، تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٩٠.

الروم أهل كتاب والفرس مجوس يعبدون النار، وليس لهم كتاب وصادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر، قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران، ينصر من يشاء من عباده، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه الرحيم بأوليائه وأحبائه، فوعده بالنصر حق وكلامه صدق ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم عمي عن أمر الآخرة، وعلمهم محصور في أمور الدنيا، وفي هذا يقول الرازي: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» أي أن علمهم منحصر في الدنيا كما هي، يعلمون ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها، فهم عن الآخرة غافلون(١)، وفي هذا اشارة إلى أنهم عرفوا القشور ولم يعرفوا اللباب، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم. أي أنهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى(٢).

دروس وعبر:

* في هذا المقطع من السورة إعلام بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لأنه أخبر عن مغيبات في المستقبل ستقع، ووقعت كما أخبر سبحانه وتعالى، وفي هذا دليل على صدق نبوة محمد ﷺ، فانتصر المؤمنون من الروم وهم أهل كتاب على الفرس المجوس وفرح المؤمنون.
* إن أكثر الناس يعملون للدنيا من اكتساب الأموال ومعرفة شؤون الحياة الدنيوية لكي يتمتعوا بزخاريف الحياة والتنعم بملاذها، وينسون أمور الآخرة الباقية فما الحياة الدنيا في الحقيقة الا طريق يتزود المرء منها إلى الآخرة بالطاعة والأعمال الصالحة.
* كل ما في العالم بإرادة الله وقدرته، فلا يتم شيء إلا بعلمه، وهو القوي العزيز في نقمته والرحيم لأهل طاعته.

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب: جـ٢٧/ ٨١ مجلد/ ٧.

(٢) المدرس الشيخ عبدالكريم: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٢٨٤.

المقطع الثاني: التفكير بمخلوقات الله يدل على وجوده وهو الذي يعيد خلق الإنسان يوم القيامة

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الروم: ٨-١٦]

وفي هذا المقطع خطاب للمشركين ليتفكروا بعقولهم ويعلموا أن الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض عبثا، فهم وإن ملكوا الدنيا فإنها فانية لا تبقى لهم.

قال الشيخ البرسوي: أجل معين، قدره الله تعالى لبقائها لابد من أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة[1]، وان لكل مخلوق فيها أجل سينتهي إذا جاء أجله. ثم يحاسب على عمله فيثاب المحسن ويعاقب المسيء.

هؤلاء المشركون الجاحدون ألم ينظروا مصير من كان قبلهم من الأمم كيف أهلكهم الله سبحانه بتكذيبهم رسلهم، وتلك الأمم كانت أشد منهم قوة كما أشار سبحانه وتعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

---

(١) البرسوي: إسماعيل حقي البرسوي: تنوير الأذهان في تفسير روح البيان: ٣/ ١٧٨.

﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤] فأهلكهم الله بجرمهم ودمر بنيانهم وعمرانهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ومصيرهم إلى نار جهنم وهي عاقبة المسيئين الذين استهزؤوا بآيات الله ورسله. وأنكروا البعث والنشور، فقل لهم: الله الذي خلق الخلق ثم يعيده يوم القيامة ويوم القيامة يفتضح أمرهم حيث يحشرون للحساب، ولا يتكلمون، وتنقطع حجتهم، قال الزجاج: «أعلم الله عز وجل أنهم في القيامة ينقطعون في الحجة انقطاع يئسين من رحمة الله، والمبلس الساكت المنقطع في حجته اليائس من أن يهتدي إليها»[١]، ولا تشفع لهم أصنامهم التي عبدوها، بل يتبرؤون منها وتتبرأ منهم. وكرر لفظ قيام الساعة، لأن قيامها أمر عظيم وبعد الحساب يتفرقون فريق المؤمنين في الجنة وفريق الكافرين في النار فالمؤمنون المتقون الذين صدقوا بالله ورسوله، وأدوا الفرائض والسنن يفرحون وينعمون ويسرون، وأما الذين كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن (ولقاء الله) يعني البعث بعد الموت فأولئك في عذاب جهنم مقيمون[٢].

دروس وعبر[٣]:

* الحث على التفكير والنظر في المخلوقات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى، ووحدانيته بانفراده بخلقها، وخاصة المشركين تتضمن الآيات تهديداً لهم لانكارهم الإله واليوم الآخر، وهذا نقص كبير في التفكير، والعاقل من يعمل لما بعد الموت.
* النظر إلى الأمم الماضية المكذبة كيف كانت عاقبتها لأنها كذبت رسلها، وفي ذلك دروس وعبر، فمن عرف ذلك يجب أن يبادر إلى الإيمان بالله، والتصديق برسله وطاعته فلابد من أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح.
* إن المال والقوة لا تنفعان صاحبها يوم القيامة وقد أقام الأدلة على قدرته بأن من بدأ الخلق قادر

(١) الزجاج أبي اسحق إبراهيم بن السري: معاني القرآن وإعرابه: ٤: ١٧٩.
(٢) أبو الليث السمرقندي: تفسير بحر العلوم: ٣/ ٧.
(٣) د. وهبة الزحيلي: ٢١/ ٥٦.

على إعادته يوم القيامة ويكون الناس فريقين، فريق في الجنة وفريق في النار، فالمؤمنون في جنات الخلد ينعمون ويكرمون ويقيمون، والكافرون في عذاب جهنم يقيمون ويهانون ويعذبون.

المقطع الثالث: تنزيه الله وحده، وأدلة وجوده وربوبيته سبحانه وتعالى

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[الروم: ١٧ - ٢٧].

وفي هذا المقطع **أولاً**: أمر من الله تعالى بتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص في كل الأوقات، مساء وصباحا وعشيا وظهرا، وهو المحمود في السموات والأرض، يحمده أهل السموات والأرض ويصلون له.

فهو الله تعالى الذي يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبات من الحب والحب من النبات، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، ويحيي الأرض بالنبات بعد أن تكون يابسة، وكذلك يحي الإنسان بعد موته، فكما يخرج النبات من الأرض، كذلك يخرجكم من قبوركم يوم القيامة للبعث والحساب، قال القرطبي: بين تعالى كمال قدرته، فكما يحي

الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث(١).

وثانياً: ذكر الله بعض آياته الظاهرة التي تدل على ألوهيته وربوبيته وهي:

١ - خلق البشر من تراب، فهم مخلوقون من آدم وآدم مخلوق من تراب، وهذا دال على عظمته وكمال قدرته ثم تطور الخلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة.

٢ - وخلق الزوجة من نفس الرجل لتسكن نفسه، وزرع بينهما المودة والرحمة والألفة والشفقة وفي ذلك عبر عظيمة لإدراك حكمة الله سبحانه، والتفكر في قدرته وعظمته.

٣ - ومن آياته خلق السماوات والأرض الدالة على كمال القدرة.

٤ - واختلاف ألسنتكم وألوانكم باختلاف لغاتكم من عربية وأعجمية، وألوانكم من أبيض وأسود وأحمر، ومنامكم بالليل راحة لأبدانكم، وسعيكم في طلب الرزق في النهار إن في ذلك دلالة على كمال قدرته.

٥ - ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفا من الصواعق وطمعا في المطر الذي ينزل من السماء فينبت الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع، كل ذلك عظات وعبر لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله.

٦ - ومن آياته العظيمة أن تستمسك السماوات بأمره وقدرته بغير عمد، وأن تثبت الأرض بحكمته وتدبيره فلا تتكفئ ولا تنقلب بمن فيها، ثم إذا دعاكم الله إلى الخروج من قبوركم إذا أنتم فورا تخرجون للجزاء والحساب، ولا يتأخر أحد عن ذلك. فلله عز وجل كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن خلقهم، ويتصرف بهم كما يشاء وكلهم له منقادون خاضعون لأمره تعالى. فهو سبحانه الذي أنشأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء. والإعادة أهون عليه من البراءة وهي هينة، قال المفسرون: خاطب عباده بما يعقلون حسب منطقهم وأصولهم، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي الوصف

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٤، المجلد ٧.

الذي ليس لغيره، وله العظمة والسلطان في السماوات والأرض ليس كمثله شيء وهو القاهر لكل شيء الحكيم في كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة[1].

دروس وعبر:

* أمر الله سبحانه بتنزيهه عن كل سوء، وعن جميع صفات النقص، ووصفه بكل صفات الكمال، والتسبيح والتحميد على نعمه وآلائه: ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الروم: ١٧].
* أمر الله تعالى بإقامة الصلوات الخمس المفروضة، ووجوب أدائها بأوقاتها المفروضة، حتى ينال رضوان الله.

أدلة الربوبية والألوهية والوحدانية:

* فقد خلق أصل الإنسان من تراب والفرع كالأصل،﴿ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] إشارة إلى الحركة والقوة.
* وبقاء النوع الإنساني بالتوالد، واحاط رباط الزوجية بأن جعل بين الزوجين المودة والرحمة والشفقة.
* خلق السماوات والأرض، والأنفس، واختلاف الألوان والأصوات، وما يتعرض له الإنسان، من الحركة في النهار والنوم في الليل، وخلق البرق والرعد، وأنزل المطر من السحاب لإحياء الزرع، وإنبات النبات، وإمساك السماوات والأرض بقدرته وتدبيره وحكمته كل ذلك دليل على كمال القدرة الإلهية على الحشر: وأن ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما خلقا وملكا وعبيدا وتصرفات كل له طائعون منقادون لا إله إلا هو الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ما أراده كان وما لم يرد لم يكن سبحانه وتعالى[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢١٨، الرازي: التفسير الكبير، المجلد ٩/ ٩٦. والزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٦٩.

(٢) أ. د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٦٤.

المقطع الرابع: إثبات الوحدانية وبطلان الشرك
والأمر باتباع الإسلام الدين الحق

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٨-٣٢].

وفي هذا المقطع أثبت الله وحدانيته وأبطل عبادة المشركين للأوثان فضرب لهم مثلا واضحا واقعيا من أنفسهم فخاطبهم: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده المملوك له شريكا له في ماله الذي يملكه؟ فإذا لم يرض لنفسه الشريك فكيف يرضاه لله الخالق؟.

ثم يقول: لستم وعبيدكم سواء في أموالكم، كما أنكم لا تخافون عبيدكم كما تخافون الأحرار أمثالكم، وهذا التوضيح للذين يستعملون عقولهم في تدبر هذا المثل والأمثال عموما، وليس هناك حجة ولا معذرة بعد هذا للمشركين لأن اشراكهم يكون باتباع أهوائهم، وتقليد أسلافهم ولا يستطيع أحد أن يهدي من أضل الله، وليس لهم منقذ من عذابه. ثم حثهم على اخلاص الدين لله، والإقبال على التمسك بالإسلام، الدين الحق، دين الفطرة التي فطر الناس عليها، فطرة التوحيد، كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه...»، وهذه الفطرة لا تتبدل ولا تتغير منه سبحانه، ولكن أكثر الناس لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا خلقهم.

فأقيموا وجوهكم على الدين الحق، وارجعوا إلى ربكم بالتوبة، وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم وأقيموا الصلاة كما أمركم، ولا تكونوا من المشركين بالله، الذين اختلفوا في دينهم

وغيروه وبدلوه فأصبحوا شيعا وأحزابا يتعصب كل لهواه الذي استحدثه، وفرح بباطله الذي ظنه حقا وفي هذا يقول ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء[1] أي هم الذين على الحق وغيرهم على الباطل.

دروس وعبر:

* الشركة بين المتفاوتين في الدرجة مرفوضة، كالشركة بين السيد والعبد، ولما كان الخلق كلهم عبيدا لله فلا يمكن أن يكون العبد شريكا لله في العبودية.
* الإسلام دين الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة التوحيد، الإيمان بوجود إله واحد لا شريك له. فيجب على الإنسان اتباع هذا الدين وعدم تغييره.
* أمر الله بإخلاص العبودية له، والرجوع إليه بالتوبة من الذنوب، والإخلاص في العمل والطاعة له سبحانه، والخوف منه بامتثال أوامره، واجتاب نواهيه وطلبا لرضاه.

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٢٣.

المقطع الخامس: لجوء الناس إلى الله عند الشدائد وإعراضهم عند زوالها

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٧].

وفي هذا المقطع يشنع الله على المشركين، الذين يدعون الله في وقت الشدة فقط، ثم إذا أزال الله عنهم تلك الشدة عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك، أي أن المشركين إذا أصابهم الفقر أو المرض، أو أي نوع من أنواع البلايا فإنهم يلجأون إلى الله، ولا يلجأون إلى ما يعبدون من الأصنام لأنهم يعلمون أنه لا يكشف عنهم الضر إلا الله فيخضعون وينيبون إلى الله، فإذا كشف عنهم وأعطاهم الرخاء والصحة، وخلصهم من الضر والبلية، يعودون إلى عبادة الأصنام على خلاف المؤمنين فالمؤمن إذا أصابه الضر صبر، وإذا أصابه الخير شكر.

ثم يقول تعالى ليكفروا بنعم الله عليهم وليتمتعوا في هذه الدنيا، فسوف يعلمون عاقبة هذا النعيم الفاني يوم القيامة إن لم يطيعوا الله، قال القرطبي: وهذا تهديد ووعيد[1] لهم، فمتاع الدنيا ونعيمها زائل وقصير، وعذابه وعقابه في الآخرة شديد. قال النسفي: «فسوف تعلمون وبال تمتعكم»[2]. ثم أنكر الله سبحانه على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة الأوثان التي عبدوها بدون دليل، وإنما هي من ضلالاتهم وشركهم الظاهر.

ثم بين الله سبحانه أنه إذا أنعم على بعض الناس نعمة فرح بها وافتخر على غيره، وإذا أصابته شدة سخط ويئس من رحمة الله، ولم يعلموا أو يشاهدوا أن الله واسع ويوسع الرزق لمن يشاء من

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٦ المجلد ٧.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٧٧.

عباده امتحاناً لهم، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء، فهو المتصرف بحكمته وعدله، فالمؤمن يرضى بكل ما يصيبه فيها ولا ييأس، والكافر ييأس لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

دروس وعبر:

* إن المشركين يلجأون إلى الله في وقت الشدة فقط فإذا مسهم المرض أو الضر لجأوا إلى الله وإذا أزال عنهم عادوا إلى شركهم وكفرهم، فهؤلاء مصيرهم إلى النار.
* إن الكافرين لا حجة عندهم على كفرهم، فلم ينزل عليهم في شأن إقرار كفرهم كتاباً، ولا جاءهم رسولاً، فاتبعوا أهواءهم.
* الله سبحانه الذي يرزق العباد فيوسع الرزق على من يشاء من عباده المؤمن والكافر، على وفق الحكمة والعدل فالمؤمن يفوض الأمر لله إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، أما الكافر فيقنط من رحمة الله.

المقطع السادس: الحث على الإنفاق لذوي الأرحام والتحذير من المال الحرام

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٨-٤٠].

في هذا المقطع يخاطب الله نبيه ﷺ، والمراد هو وأمته[1]، فيأمر الله سبحانه بإعطاء القريب المحتاج من البر والصلة، والمسكين والمسافر الذي انقطع في سفره، أعطه من الصدقة والإحسان

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٧، المجلد/ ٧.

وذلك الإحسان خير لمن ابتغى وجه الله بعمله ونوال ثوابه وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية عند الله.

أما إذا أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى[1] لهم فلا ثواب له في هذه العطية عند الله، وإنما الذي يربو عند الله الزكاة التي يراد بها وجه الله، فهي التي يضاعفها الله لمعطيها ويثيبه عليها، قال ابن كثير: وإن كان لا ثواب فيه إلا انه مباح[2]، وقال ابن عباس: الربا ربوان ربا لا يصح، وهو ربا البيع وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل للرجل يريد فضلها وإضعافها ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم أكد الله تعالى في هذا المقطع أيضاً أنه هو الرازق الذي خلق الإنسان، ثم يميته، ثم يحييه يوم القيامة للحساب ليجازي كل إنسان على عمله، فهل يستطيع أحد من الأصنام التي تعبد من دون الله أن يفعل ذلك تعالى الله وتنزه وحده وتقدس عن الشبيه والمثيل والشريك.

دروس وعبر:

* من مظاهر البر والإحسان النفقة على المحارم والمحتاجين من المساكين وأبناء السبيل.
* إذا أعطى الإنسان عطاء لأجل الحصول على زيادة فهو جائز وإن كان لا ثواب فيه، وهو ربا حلال، أو هبة الثواب أما ربا البيع، وربا القرض فهو حرام، أما إذا كان العطاء من أجل ثناء الناس عليه، وليحمدوه على ذلك، فلا ثواب فيه في الدنيا، ولا أجر له في الآخرة.
* الله سبحانه هو القادر على إحياء الناس يوم القيامة وبعثهم من قبورهم، لا إله إلا هو الخالق الرازق المحيي المميت المنزه عن الشريك.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٢٤.

(٢) السابق نفسه، الدر المنثور: ٥/ ١٥٦.

المقطع السابع: جزاء المفسدين والمؤمنين

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم: ٤١-٤٥].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه أن ما أصاب الناس وما يصيبهم بسبب فسادهم وبما كسبت أيديهم من المعاصي والذنوب. قال ابن كثير: أي النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة[1]، فليذيقنهم الله وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم في الآخرة، لعلهم يتوبون ويتركون المعاصي والآثام.

وقل يا محمد لهؤلاء المشركين سيروا في البلاد، وانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف خرب الله ديارهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر من بعدهم، لأنهم كفروا بالله فأهلكم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾[الروم: ٤٣] قال الزجاج، ونقل عنه القرطبي: أي قصد له، واجعل جهتك اتباع الدين القيم من قبل أن تأتي الساعة وتقوم القيامة، فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، فيومئذ يتفرقون فيصيرون فريق في الجنة وفريق في السعير[2]، فمن كفر بالله فعليه أوزار كفره والخلود في النار ومن عمل صالحا وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير، ويلقون ما أعد الله لهم في دار النعيم، فيجازيهم الله من فضله الذي وعدهم به ويعاقب الكافرين بعدله.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٢٦.

(٢) الزجاج: معاني القرآن واعرابه: ٤/ ١٨٨، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣١.

دروس وعبر:

* الشرك أعظم الفساد، وهو الذي يؤدي إلى ارتكاب جميع المعاصي والذنوب والانحراف، ويسبب القحط، ويذهب البركة.
* ظهور الفساد في البلاد يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل ويوجب العقاب في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا كثرة الحروب، وقلة المطر، والغلاء.
* الاعتبار بالأمم السابقة التي كذبت رسلها كيف كان مصيرها.
* الناس مدعوون إلى اتباع تعاليم الإسلام والتمسك به والعمل بما فيه.
* ينقسم الناس في الآخرة إلى فريقين بحسب أعمالهم فالذي يعمل بأوامر الله ويجتنب نواهيه ففي الجنة، والذي يخالف تعاليم الله والرسل فإلى النار، فمقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم، وأن يكافأ العاملون المؤمنون بالجنة[1].

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ٩٩.

المقطع الثامن: الرياح والأمطار دالة على قدرة الله، وتشبيه الكفار بالموتى

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: ٤٦-٥٣].

وفي هذا المقطع يذكر الله سبحانه نعمه وفضله على خلقه بإرسال الرياح والأمطار الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يحيي الأرض بعد يبسها، وينبت الزرع، ويخرج الثمر، وليذيق الناس من رحمته بالمطر الذي يحيي به البلاد والعباد وتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته، وليتمكن الناس من التنقل في البلاد والأقطار طلبا للرزق بالتجارة في النقل البحري، وبشكر الله تعالى على هذه النعم الظاهرة والنعم الباطنة التي لا تعد ولا تحصى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تسلية للنبي ﷺ بأنه وان كذبه كثير من قومه فقد كذبت الرسل من قبله الذين أرسلهم الله تعالى مع ما جاءوا به من الدلائل الواضحات، وانتقم الله منهم أي من الذين كذبوا رسلهم، ونجى المؤمنين.

ثم أبان تعالى كيفية خلقه للسحاب الذي ينزل منه المطر فقال الله الذي يرسل الرياح أي يبعثها فتتحرك السحاب وتسوقه أمامها فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفا أو كثيفا فيجعل من القليل كثيراً: ثم يجعله قطعا متفرقة، وتارة يأتي مشبعاً بالرطوبة، فينزل المطر من وسط ذلك

السحاب، فإذا أصاب بعض البلاد والعباد فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وإن كانوا من قبل نزوله عليهم يائسين من نزوله، فكانت الفرحة كبيرة في نفوسهم لهذا الضيف الذي كادوا أن ييأسوا من نزوله.

فانظر يا محمد إلى آثار رحمة الله بهذا المطر كيف أحيا الأرض بعد موتها، قال ابن كثير: ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ [الروم:٥٠]، أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات[١] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم:٥٠] قال البرسوي: أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها احياء الإنسان بعد موته في الحشر، ثم قال: واعلم أن الله سبحانه زين الأرض بآثار قدرته، وأنوار فعله وحكمته، فأنبت الخضرة، وأضاء الزهر[٢].

ثم بين حال الكافرين وتنكرهم للمعروف، وعدم ثباتهم على منهج واحد، فنراهم يفرحون بالخير، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء فقال تعالى: ولئن بعثنا عليهم ريحا ضارة أو سامة على نبات أو زرع أو ثمر، فرأوا ذلك الزرع قد اصفر، ومال إلى الفساد بعد خضرته[٣]، لظلوا يجحدون، أي فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا نعمة الله عليهم.

ثم نبه سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال: فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع من كان في أذنيه صم تلك المواعظ، وهذا مثل ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي، وما أنت يا محمد بهاد ومرشد من أعماه الله عن الهدي، وما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون وينقادون لطاعة الله.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٢٩.

(٢) البرسوي: تنوير الأذهان: ٣/ ١٩١.

(٣) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٠٧.

دروس وعبر:

* أقام الله سبحانه الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار، فالرياح مبشرات بالمطر والخصوبة وعند هبوبها تسير السفر وتنتقل البضائع والركاب من مكان إلى آخر، وفي ذلك دليل على قدرته بإحياء الأرض بعد موتها، وكذلك دليل على البعث والنشور.
* النبوة والرسالة من نعم الله كذلك، فقد أرسل الله الرسل والأنبياء بالمعجزات والأدلة على نبوتهم فكذبوهم وسخروا منهم، وآذوهم فانتقم الله منهم ونصر المؤمنين، ونجاهم، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين في كل زمان ومكان أن الله معهم وسينجيهم وينصرهم على القوم الكافرين والعاقبة للمتقين.

المقطع التاسع: أطوار حياة الإنسان، وقسم المجرمين في الآخرة

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٤-٥٧].

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي خلق الإنسان من أصل ضعيف وهو النطفة، ثم إنه هو تعالى الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالا بعد حال، فجعل النطفة علقة، ثم مضغة، ثم كون عظاما، ثم كسا العظام لحما، ونفخ فيه من الروح، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفا واهن القوى، ثم يشب قليلا قليلا فيكون صغيرا ثم جعل من بعد هذا الضعف قوة الشباب وهو دور القوة، وبعد ذلك يأتي دور ضعف آخر وهو ضعف الهرم

والشيخوخة فتضعف القوة والحركة، وهذا كله دليل على قدرة الله الخالق يخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بخلق ما يشاء، من ضعف وقوة وشباب وشيب، وهو العليم بتدبير الخلق القدير على ما يشاء، قال الشيخ المدرس: وهو العليم بكيفية الخلق القدير على تنفيذ ما بعلمه، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس للحساب والميزان يقسم المجرمون أنهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة أي زمانا قليلا وذلك لقلة زمانهم في الحياة الدنيا بالنسبة إلى بقائهم في البرزخ أو موقفهم الطويل في الحشر[١]، ومثل ذلك العزوف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث، كانوا يعزُفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب[٢] فهم كاذبون في قسمهم وحلفهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كما كانوا يكذبون في الدنيا.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف يوم القيامة، وهم المؤمنون بالآخرة، لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة من أيام الدنيا، ولكنكم كنتم منكرين للبعث، فهذا هو اليوم الذي كنتم تنكرونه، وفي ذلك اليوم لا ينفع الكافرين والظالمين اعتذارهم ولا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة أو بطاعة، فما تنفعهم التوبة لأن وقتها في الدنيا، وهي دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء لا عمل فيها.

دروس وعبر:

* إن أطوار خلق الإنسان الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآيات وهو الانتقال والتحول من حال إلى حال ومن مرحلة إلى أخرى دليل على قدرة الله الخالق سبحانه وتعالى الخالق المبدع، ولا يستطيع ذلك أحد غير الله سبحانه فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف، وهو العليم بتدبيره، القدير على إرادته، المتصرف في مخلوقاته والفعال لما يريد كيف يشاء.

---

(١) الشيخ عبدالكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٩٩.
(٢) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١١٧.

* إن الحياة الدنيا هي دار العمل، ويقبل الله توبة عبده فيها، فإذا قامت القيامة، أو جاء الموت لا تنفع التوبة وينال الإنسان جزاءه على ما قدم، فيثاب المحسن، ويعاقب المسيء وفي ذلك اليوم يقول المؤمنون للكافرين: هذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه واقعا مشاهدا.
* إن عمر الدنيا قصير جدا إذا ما قورن بالآخرة، والكفار يكذبون في الآخرة كما كانوا يكذبون في الدنيا، ويصرفون عن الحق فيقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة.

المقطع العاشر: ضرب الأمثال للعبرة والموعظة، وأمر النبي ﷺ بالصبر على الأذى والدعوة

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم: ٥٨-٦٠].

في هذا المقطع يبين الله سبحانه أنه بين للناس في هذا القرآن الدلالة على وحدانيته، وعلى صدق رسوله ﷺ، وعلى اليوم الآخر، بما يحتاجون إليه من الأمثال والمواعظ، والأخبار والعبر التي توضح الحق وتزيل اللبس، ولكن الكفار لو جئتهم يا محمد بكل المعجزات المادية المحسوسة، كفلق البحر والعصا التي جاء بها موسى عليه السلام لقومه، وإبراء الأكمه والأبرص التي جاء بها عيسى عليه السلام وغير ذلك من المعجزات التي يطلبونها كانشقاق القمر ونحوه، لقال الكفار: ما أنتم إلا قوم مبطلون، أي تتبعون الباطل والسحر، فهم معرضون عن الإيمان، وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادا واستكبارا أن ختم الله على قلوبهم، والله يختم على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن الكريم لإصرارهم على الكفر واتباع الخرافات، وما وجدوا عليه آباءهم[1].

---

(١) وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٢٢.

ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ومخالفتهم، واستمر على ما أنت عليه في تبليغ رسالتك، فإن وعد الله الذي وعدك بالنصر عليهم لحق لا شك فيه، وإن النصر لك ولأتباعك من المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقول الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فإنهم ضالون.

دروس وعبر:

* إن القرآن الكريم وأمثلته التوضيحية، وبيانه الواضح ينبه على التوحيد، وصدق نبوة محمد ﷺ فهو المعجزة الكبرى، والاستمرار على الدعوة إلى الله، والصبر على الأذى من قبل المعاندين.
* الثبات على الدين الحق دين الإسلام، وعدم التأثر بسفاهات الكفار والمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.
* إن الذين كفروا قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينتفعون بالدلائل القرآنية، والمعجزة القرآنية، والمعجزات الحسية، فهم عديمي الفائدة، بسبب عنادهم، وسوء استعدادهم.

الخاتمة:

القرآن الكريم المعجزة العقلية الكبرى الباقية، تحدى العرب قديماً على أن يأتوا بمثل سورة منه، وما زال هذا التحدي، وقد افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة للتنبيه على هذا الإعجاز، وهذا التحدي، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقى بعدها، وما جاء بعدها إعجاز آخر من نوع آخر، إنه الإعجاز الغيبي، حيث أنبأت السورة عن انتصار الروم على الفرس في بضع سنين بعد أن انتصرت الفرس على الروم، قبل وقوعه، وقد وقع هذا الخبر كما أخبر القرآن فانتصرت الروم، وفرح المؤمنون من المسلمين بهذا الانتصار، لأن الروم كانوا من أهل الكتاب دينهم النصرانية، والفرس دينهم المجوسية، وهذا الإعجاز الغيبي يثبت نبوة محمد ﷺ، لأنه أمر خارق

للعادة أتى على لسان رجل أمي، لا علم له بالغيب إلا من علام الغيوب وبهذا الإعجاز الغيبي الذي يعزز صدق ما جاء به النبي ﷺ يجب على الناس جميعاً اتباع ما جاء به.

وتناولت السورة حقيقة المعركة بين المؤمنين والكافرين، فهي معركة قديمة مستمرة لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل، وخير وشر، فالشيطان يحشد أنصاره لإطفاء نور الله، بغواية الناس وإضلالهم وإبعادهم عن الحق فمن تبعه كان شيطاناً، ومن عصاه كان من عباد الله المخلصين، وقد جاء في السورة شواهد ودلائل على انتصار الحق على الباطل في كل العصور وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ثم تنتقل السورة إلى العالم الآخر بعد عالم الأرض، إلى المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الدالة على مقدرة الله سبحانه وتعالى، ووحدانيته وعظمته، ليرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد، ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم، ويتطلع إلى السماء والآخرة ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار... ويعرف قيمته هو، وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله، فيؤدي دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام[1]. فلعظمة الله تخضع رقاب العباد، وتعنو له الوجوه.

وتحدثت السورة عن مصير أهل الكفر والضلال في يوم القيامة، ذلك اليوم الرهيب حيث يكون أهل الكفر في العذاب، وأهل الإيمان في النعيم وتلك نهاية المطاف لأهل الكفر وأهل الإيمان.

وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش الذين لم تنفعهم الآيات والنذر ولم يعتبروا، وشببهم الله بالموتى الذين لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك تسلية للنبي ﷺ عما كان يلقاه من أذى المشركين للصبر على أذاهم حتى يأتي النصر المؤكد من الله تعالى.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٥.

سورة لقمان

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسمها:

تسمى: سورة لقمان. وهو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، وعرفت به من لدن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم.

فعن البراء بن عازب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا الظهر، فنسمع منه الآية بعد الآيات من سورة لقمان، والذاريات [(١)].

وجه التسمية:

ذكر قصة لقمان عليه السلام وحكمته، ووصاياه لابنه، حيث لم يرد له ذكر في غيرها من السور[(٢)].

ب - فضلها:

ما ورد من قراءة الرسول ﷺ لها في صلاته، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم.

ج - السورة مكية:

فقد روى البيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس ﷺ قال: أنزلت سورة لقمان في مكة [(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها. باب الجهر بالآية أحياناً في صلاة الظهر والعصر. حديث رقم (٨٣٠)، (١/ ٢٧١). والنسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب القراءة في الظهر حديث رقم (٩٧٢)، ٢/ ١٦٣ وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه ص: ٦٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٧).

(٣) انظر: دلائل النبوة (٧/ ١٤٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٠٣) وزاد نسبته لابن مردويه.

د - عدد آياتها:

آياتها أربع وثلاثون آية في عد أهل الشام، والبصرة، والكوفة [1].

هـ - محور السورة:

بيان الآيات والنعم، والدعوة إلى الإيمان والشكر.

و - المناسبات:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

إن لقمان ﷺ جمع بين التمتع بنعمة الحكمة التي وهبها الله تعالى له، وشكر تلك النعمة بالدعوة إلى الله، وإخلاص النصح لعباد الله.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

الاستمرار بالتذكير بالنعم، وتأكيد التحذير من الاغترار بلهو الحياة وزخرفها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

في خاتمة سورة الروم حديث عن المجرمين المكذبين بالبعث، وبآيات الله، وفي فاتحة سورة لقمان حديث عن المحسنين بذكر أوصافهم وجزائهم فكان في ذلك تقابل أدى إلى التكامل في الكلام على أصناف البشر من مؤمن وكافر.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة الكريمة تدور كلها في فلك تعداد النعم بأنواعها الحسية والمعنوية والإيمانية، وما يوجبه ذلك من إيمان بالمنعم، وشكر للنعم.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٨) والبيان في عد آي القرآن للداني (٢٠٦).

٥ - المناسبة بين مضمون السورة، ومضمون ما قبلها:

تتلخص هذه المناسبة بالتكامل، والتقابل.

فالتقابل في حديث سورة الروم عن صراع ملوك الروم والفرس. وفي سورة لقمان عن حكمة الفرد المؤمن.

والتكامل في تنوع الآيات، وتفصيل المواقف والعظات في باقي السورتين [1].

ثانياً: التفسير:

المقطع الأول: (المحسنون: تعريف وجزاء)

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

أرشد الله عباده إلى أن كتابه الذي أنزله إليهم كتاباً حكيماً. يدعو لكل حق، وخير، وخلق كريم. وينهى عن كل شر وباطل وخلق لئيم.

وأن في الإيمان به هداية من الضلال، ونعمة ورحمة من الشقاء.

وقد عرف الله المحسنين من عباده بأعمالهم التي هي دلائل ظاهرة على صحة الإيمان وصدق الأقوال. وأنهم الذين يقيمون الصلاة على صفتها الشرعية، فتكون عوناً ودليلاً على صفاء النفس، واستقامة السلوك. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

---

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٤٨-)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ١٣٩)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٠٥).

وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهم من يؤتون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، فتتحقق بها طهارة النفوس، وإلفة القلوب، وتراحم المجتمع.

وهم من يؤمن بالآخرة بيقين لا يشوبه شك، يؤمن بالآخرة وجوداً وجزاءً. وهو إيمان يوقظ القلب، ويجعله حياً ويحاسب صاحبه على ما يأتي ويذر من الأقوال والأفعال في هذه الحياة. ومن كانت هذه سريرته، وسيرته فهو محسن. والإحسان أعلى مراتب الإيمان فهو في دنياه على هدى، وفي آخرته في فلاح، وهذا غاية النجاح [١].

ويرتبط هذا المطلع والمقطع بمحور السورة من حيث أن من أجل النعم على الناس إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الرسول إليهم. لما في ذلك من رحمة بهم وهدى لهم. وأن الذين عرفوا هذه النعمة وشكروها هم المحسنون المتصفون بتلك الصفات الكريمة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان الصادق بالآخرة.

من هدايات الآيات:

* أن الله أنزل هذا القرآن محْكماً لا اختلاف فيه ولا خلل. وأنه نعمة على الناس بما فيه من هدى ورحمة.
* أن الإيمان بالقرآن والعمل به فيه صلاح الدنيا، وفلاح الآخرة.
* عظم فضل الصلاة والزكاة، وأن فيهما صلاح النفس والمجتمع.
* اليقين بالآخرة يوقظ القلوب، فتصدق الأقوال، وتصلح الأعمال [٢].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وتفسير السعدي (٥٩٤).
(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٠٥).

المقطع الثاني: (فريق اللهو من الناس)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر صنف الهداة السعداء من المحسنين.. ذكر الله في هذا المطلع صنف اللهاة المستكبرين. فهناك صنف من الناس يشتري بعزيز ماله، أو يبذل غالي حياته ووقته في (لهو الحديث) وهو كل ما يلهي القلوب، ويصد عن أجل مطلوب، وأكمل مرغوب مما فيه سعادة الدنيا والآخرة، سواء كان ذلك مزامير شيطان، أو محرم القول وباطل الكلام. وتكون غايته إضلال الناس عن الهدى والحق بعد أن ضل بنفسه عن سبيل الله وهداه. يفعل ذلك عن كبير جهل، وفقدان علم وإن تعاظم في نفسه، وبدا أنه غير ذلك. وهو مع جهله سيئ الأدب مع ربه يسخر بآياته، ورسله، والمؤمنين من عباده.

فيلبس بذلك على الناس.. بذم الحق، ومدح الباطل، وتزيين اللهو؛ فيضل الناس عن سبيل الله، فإضلاله ناتج عن ضلاله.

هذا الصنف من الناس متوعد بعذاب شديد؛ يلقى فيه ألم العذاب، ومهانة المكانة لاستهزائه بمنهج الله، وإضلاله عباد الله؛ فناسب جزاؤه عمله.

وتكمل الآيات وصف هذا الصنف من الناس بأنه حين تتلى عليه آيات الله ليسمعها ويتبعها مؤمنا بها، يتلقى هذه الدعوة بالاستكبار والإدبار كأنه لم يسمعها، بل كأن في أذنيه صمماً فلا تصله الأصوات، ولا تبلغه الآيات. فسماع الآيات وعدمه في حقه سواء! وهذا صنف لا حيلة في هدايته؛ فإعراضه عن كبر وإصرار على الغواية فحقه أن يبشر بما لا يسره من

عذاب يؤلم بدنه، ويحزن قلبه يكافئ استهزاءه وكبره[١].

وصلة هذا المقطع بمحور السورة أنه بيان لصنف من الناس كفر نعمة إنزال القرآن وإرسال الرسول بدل شكرها ومعرفة فضلها، والإيمان بها.

من هدايات الآيات:

* من الناس صنف ضال في نفسه، مضل لغيره، يزين اللهو وينشر الرذيلة.
* الجهل والكبر داء يمنع من سماع الحق وقبوله.
* الوعيد الشديد لدعاة الضلالة والفساد المسهزئين بالخلق، والمستكبرين على الحق[٢].

المقطع الثالث: (آية الحكمة والقدرة)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات الحديث عن جزاء الإيمان المقترن بالعمل الصالح؛ وفق شرع الله وأمره. فأعمال القلوب لا بد لها من شواهد أعمال الجوارح. ولذا يقترن الإيمان بالعمل، فيبشر هؤلاء بما أعد الله لهم في الآخرة من جنات متنوعة فيها نعيم البدن والروح، نعيم مقيم دائم لا ينقطع. وهذا وعد متحقق من الله لا يتخلف، ولا يتبدل، ولا يتغير؛ لأن الله لا يخلف الميعاد. فضل من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٠)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٧٨٥).

الله من ثمار عزته في ملكه، وحكمته في خلقه جل وعلا.

ومن آية الحكمة، ظاهرة القدرة لله جل وعلا، وكريم النعمة في خلق هذا الكون الكبير الهائل في دقة نظامه وتناسق أجزائه، وتكامل أنواعه:

سماوات عظيمة، رفعها الله وأمسكها كما ترونها بأبصاركم بغير عمد، فإذا أعاد الناظر بصره من السماء إلى الأرض وجد على ظهرها جبالاً عالية الارتفاع، ثابتة القرار، يحفظ الله بها توازن الأرض فلا تميد بأهلها، ولا تضطرب. فباستقرارها يطيب العيش لأهلها.

ومن دلائل الحكمة، وظواهر القدرة: ما خلق الله ونشر على ظهر الأرض من أنواع الدواب عجيبة الخلق، متنوعة النفع، مختلفة الشكل.

ولحاجة هذه المخلوقات للرزق: ذكّر الله عباده بنعمه عليهم في إنزال المطر، وإنبات أصناف الزرع والنبات في منظر جميل، وتزاوج كريم.

هذا الكون العظيم بأرضه وسماه، وما فيه من أصناف الحياة الذي ترونه وتمرون على آياته هو خلق الله وحده. فما الذي خلقته آلهتكم ؟ هاتوه، اذكروه !

إنه تحدٍ قاهر، يظهر عجز آلهتهم عن الخلق، وجهلهم حين عبدوها من غير بصيرة ولا علم. وهذا عين الظلم للنفس، والضلال في الاعتقاد حين يعبد الإنسان عاجزاً جاهلاً لا يقدر على الخلق، ولا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويترك عبادة الخالق القادر [(١)].

وصلة المقطع بمحور السورة أنه لفت نظر لعظمة الخلق لهذا الكون، وحكمة الخالق وقدرته، وما يوجبه ذلك من الإيمان به، وشكر نعمته سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٢)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٥)، والأساس سعيد حوى (٨/ ٤٣١٢).

من هدايات الآيات:

* الإيمان والعمل الصالح عنصران متكاملان، فالإيمان مبعث العمل. والعمل شاهد الإيمان. فلا عمل صالح متقبل لمن لا إيمان له. ولا إيمان صادق لمن لا عمل له.
* وعد الله صادق متحقق فهو الحكيم في شرعه. والعزيز في حكمه.
* هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما وعليهما، آيات ظاهرة معجزة دالة في عظمتها ودقتها وبديع صنعها على وجود الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده للعبادة دون شريك.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فهذا الكون كما يستفاد منه، ويستمتع به يجب أن يستدل به على الله جل في علاه في عظيم قدرته، وكمال حكمته، ووحدانيته [١].

المقطع الرابع: (بيان نعمة الحكمة والدعوة إلى شكر النعمة)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٠٨)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا عن ذاته بعض صفاته من العزة والحكمة:

﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾. ووصف كتابه وآياته بالحكمة ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، ذكر سبحانه مثالاً لنعمته على عبده لقمان بالحكمة. وهي الإصابة بالقول، والإجادة في العمل، فهي العلم النافع والعمل الصالح. وأمر لقمان بشكره عليها. فالنعم تدوم وتزيد بالشكر. وتنقص وتزول بالكفر. وشكر الإنسان للنعم يعود نفعه لنفسه. فالله غني عن العالمين سواء كانوا شاكرين أو جاحدين. ومن شُكْر لقمان لنعمة ربه عليه بالحكمة: أن أوصى بها ابنه، ومن بعده. ووصية الأب خير محض لا مطمع فيها ولا غرض.

وقد بدأ لقمان وصيته ببيان أعظم الحقوق، وهو حق الله جل وعلا في وحدانيته وعدم الشرك به؛ لأن الشرك ظلم للنفس بصرف العبادة أو بعضها لمن لا حق له فيها، ووضعها في غير موضعها. وذلك هو الظلم بعينه بل أعظم الظلم وأبشعه وأشنعه.

وتمضي الآيات في عرض العلاقة الواجبة، والصورة الواضحة بين الوالدين والأولاد؛ بأسلوب رقيق رفيق، فهي وصية الله للإنسان – وما أعظمها من وصية – بأن يحسن إلى والديه، ويشكر فضلهما عليه.. فيذكّره ربه بضعفه، وأصل خلقه حين كان حملاً في بطن أمه وما لاقته من تعب شاق؛ لا يكاد يطاق في: حمله، ووضعه، وإرضاعه، وفطامه. وما لاقاه والده من كدٍّ في لقمة العيش، وتعب في التربية حيث قدم الوالدان له ذلك وغيره بلا تأفف ولا شكوى، بل بنشاط وفرح وسرور وحبور.

فوجب على الإنسان أن يذكر جميل والديه، ويشكر إحسانهما إليه، وإنعامهما عليه. فإن المصير في نهاية رحلة الحياة إلى الله، وهناك يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

فشكر الوالدين حق وواجب.. ولكنه مسبوق، وهو تابع.

فحق الله سابق، فشكر الله أولاً، فالحق الأول والأخير لله جل وعلا: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ وهذه الحقيقة مقدمة على كل علاقة وثيقة.

فإن اختلفت العقيدة، أو أخطأ الوالدان أو أحدهما المسيرة؛ سقط حق الطاعة لهما. فحق العقيدة مقدم على كل وشيجة وعلاقة وثيقة، ويبقى للوالدين حق الصحبة الكريمة، والمعاملة الحسنة، فاختلاف الدين لا يعني سوء المعاملة للآخرين.

ويقدم على الوالدين في الطاعة والمتابعة من تاب وأناب إلى الله واتبع سبيله، فإن المرد إلى الله. وحينئذ يعلم كل إنسان ما عمل من خير أو شر؛ فيلقى ثوابه وجزاءه.

ثم يمضي لقمان ينادي ابنه بوصف البنوة الشفيق الرقيق؛ يذكره بعظمة قدرة الله في خلقه وإحاطة علمه بكل شيء، فإذا كان مقدار حبة من خردل سابحة في الكون العلوي، أو مختفية في الكون الأرضي السفلي يأتي بها الله جل وعلا حيث أحاط بها علمه، وطالتها قدرته.

وما هذا إلا برهان على دقة الحساب، وعدالة الثواب والعقاب يوم القيامة؛ فلينتبه الإنسان لنفسه، وليحرص على عمله صغيره وكبيره.

وليحافظ على صلاته فيقيمها على الوجه الشرعي؛ تصله بربه، وتزكي نفسه، ولينطلق للآخرين يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر. يدعوهم إلى صلاح حالهم ومآلهم، وليصبر على ما يصيبه من الأذى منهم؛ تتطاول به الألسنة، أو تمتد به الأيدي، فإن الصبر على الأذى، والبلاء يحتاج إلى عزم؛ وهو مما أوجبه الله وحث عليه، ودعا الناس إليه.

ويستطرد القرآن الكريم في حكاية وصية لقمان العظيمة لابنه، ولغيره ممن يسمع القول فيتبع أحسنه، فيوصيه بجملة آداب عليه أن يتصف بها، وجملة أخلاق عليه أن يتعامل بها مع الناس، فيحذره من الكبر والإعراض عن الناس تعاظماً وتكبراً عند تكليمهم له، بل عليه أن يُقبل على الناس بوجهه هاشّاً باشّاً.

حتى المشي في الأرض له صفة مذمومة، فمشية الخيلاء والإعجاب بالنفس، وقلة المبالاة بالناس مشية تدل على مرض نفسي لا يحبها الله، ولا يحبها الناس.

وأما المشية الممدوحة فمشية القصد والاعتدال، مشية التواضع والسكينة. لا مشيَ الخيلاء، ولا مشيَ التهاوت.

وكما أن للمشي آدابه؛ فللصوت والحديث أدبه؛ المتمثل بخفض الصوت، وعدم رفعه حيث يكفي منه ما يسمع المخاطب ولا يؤذيه.

فليس لرفع الصوت مزية. وغايته أن يكون شبيهاً بصوت الحمار؛ الذي هو أ بشع الأصوات وأنكرها. وتلك صورة معبرة، ومنفرة لرفع الصوت في الحديث.

فالقصد والاعتدال في الحركة، والصوت أدب جميل دعت إليه الآيات، ونهت عن ضده.

فهذه الوصايا العظيمة التي وصى بها لقمان ابنه، وحكاها الله عنه وأقره عليها؛ جاءت متنوعة الموضوعات، جميلة العرض، متحدة الأسلوب.. ذكرها الله لبيان حكمة لقمان، وليكون للمؤمنين بها أسوة حسنة [1].

وهذا المقطع من السورة هو المحور الرئيس فيها بما فيه من بيان نعمة الحكمة على لقمان. وما تضمنته تلك الحكمة – من وصايا عظيمة نافعة لابنه، وكل من ألقى السمع وهو شهيد من بعده مع التوجيه بشكر النعمة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾، فكان بياناً صريحاً بنعمة الحكمة، وأمراً واضحاً بشكر تلك النعمة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٥)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٧٨٧)، وتفسير السعدي (٥٩٧).

من هدايات الآيات:

* تقرير التوحيد، وأنه أعظم الحقوق.
* التنديد بالشرك، والتحذير منه، وأنه أعظم الظلم وأشنعه.
* حق الله مقدم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإن كان ملكاً أو والداً.
* تقرير حق الوالدين، ووجوب طاعتهما وشكر فضلهما.
* الدين المعاملة، فحسن التعامل مع الآخرين من تعاليم الدين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.
* استشعار عظمة الله في إحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، مهما قلّ عدده، أو صغر حجمه.
* وجوب الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر عن الأذى والبلاء.
* حرمة التكبر في القول والفعل، ولزوم القصد في حركة المشي والصوت [(١)].

المقطع الخامس: (إسباغ النعم)

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

التفسير الإجمالي:

في هذا المقطع تذكير بنعم الله الكاملة الظاهرة والباطنة: نعم الدين ونعم الدنيا. مما يظهر

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١١، ٥١٣).

للناس وما يخفى عليهم. فإن نعم الله كثيرة: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[إبراهيم: ٣٤] ومن تلك النعم تسخير ما في السموات وما في الأرض لمصلحة الناس ومنافعهم. وحق النعم شكر المنعم ومحبته، وطاعته، وعدم استعمالها في معصيته. لكن من الناس من بدل نعمة الله كفراً، وجادل في الله فأنكر وجوده، وأنكر حقه وفضله، وجحد نعمه، وهو مع ذلك جاهل لا علم له، ضالّ لا هدى معه، لا يتبع في لجاجه وجداله كتاباً منزلاً ينير له الطريق. ولا يتابع نبياً مرسلاً يهديه السبيل.

والحجة العجيبة لهذا الصنف من الناس: تقليد الآباء، والتعصب لهم وما هم عليه من ضلال، واتباع للشيطان، والشيطان لا يدعوا أتباعه إلا إلى عذاب السعير وبئس المصير [١].

وهذا المقطع ظاهر الصلة بمحور السورة فهو صريح بفضل الله على عباده حين أسبغ عليهم نعمه ظاهرة يرونها، وباطنة يجهلونها أو يغفلون عنها. وهي من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عد، ولا يحدها حد، وكل واحدة منها تستوجب الشكر وعدم الكفر.

من هدايات الآيات:

* الدعوة إلى الاستدلال بالخلق على الخالق، وبالنعم على المنعم.
* أن النعم أنواع منها: الظاهر الواضح. ومنها: الباطن الخفي.
* وجوب ذكر النعم وشكرها، والاستعانة بها على الطاعة.
* أن الجدال بالجهل ودون العلم يؤدي إلى الضلال.
* تقليد الآباء والتعصب لهم يمنع من معرفة الحق وقبوله [٢].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٢).
(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٥).

المقطع السادس: (الإنسان بين الكفر والإيمان)

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تستكمل الآيات هنا الصنف الآخر من البشر، وتقرر الحقيقة في هذا الشأن حيث ينقسم الناس إلى مسلم يعيش نعمة الإسلام، وكافر يتيه بنقمة الكفر.

فمن أسلم وجهه لله، وانقاد له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأحسن في طاعته لربه فكانت عبادته وفق شرعه وأمره. وأحسن إلى عباد الله طاعة لله، فقد هدي إلى الحق، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا تنقطع بصاحبها فلا يهلك، ولا يضل. فإن في دروب الحياة ضلالات وظلمات، وفي مسارب الحياة مزالق، ومهالك. فصار الإنسان محتاج إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها. فعروة الله هي الوثقى التي لا تهين ولا تلين. وشرع الله هو النور المبين.

والأمور محكومة بعواقبها وخواتيمها. والعبرة بفلاح النهايات لا بفرح البدايات.

والفريق الآخر من الناس من اختار لنفسه، أو اختار له الشيطان خيار الكفر ! فجحد بالله، وكفر بأنعمه، فلا يحزنك كفره، ولا يضرك ضلاله، فإن مرجعه ومصيره إلى الله العليم بما ينطوي عليه قلبه، ويخفيه صدره فيجازيه على عمله بعدله وبما هو أهله.

فهذا الكافر يستمتع بحياته قليلاً من الوقت ثم يصير ولا بد.. إلى عذاب شديد يستحقه بكفره وكبره.

ومن عجائب الأمور، وغرائب الأحوال: أن هؤلاء الكفار لو سئلوا عمن خلق السموات

التي يرونها بأبصارهم، والأرض التي يمشون عليها بأقدامهم ؟ لقالوا معترفين: إنه الله !

فالحمد لله الذي أنطقهم بما هو حجة عليهم؛ فإن المتفرد بالخلق هو المستحق للإفراد بالعبادة.

ولكن أكثرهم لا يعلمون ! بل يجهلون ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ! ولكن الحق أبلج. وحجة الله أبلغ. فإن الله خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وهو المتصرف بكونه في خلقه وأمره سواء أقروا بذلك أو أنكروه، فإنه الغني عن غيره. المستحق وحده لكمال الحمد والشكر [1].

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة بكشفه لأصناف الناس ومواقفهم من آيات الله في خلقه ونعمه على عباده فمن استدل بآيات الله في خلقه وشكر نعمه فهو المسلم، ومن أعرض عن آيات الله، وأغفل نعمه فهو الكافر، ولكل جزاؤه.

من هدايات الآيات:

* انقسام الناس إلى مسلم وكافر.
* الإحسان مرتبة أعلى في الإسلام.
* حاجة الإنسان إلى نور يهتدي به، وعرى يستمسك بها في هذه الحياة. وذلك هو دين الله.
* أن الكافر لا يضر بكفره غير نفسه، وأن الله محاسبه على عمله، ومجازيه عليه.
* أن المشركين من العرب موحدون في الربوبية، ومشركون في العبادة.
* أن الله غني عن خلقه محمود بذاته، مالك لكونه، متصرف فيه بشرعه وأمره [2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧)، وفي ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٧٩٣)، وتفسير السعدي (٥٩٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٧).

المقطع السابع: (كلمات الله التي لا تنفد)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

عظمة متناهية في الخلق والقدرة لا تحد، وعلم محيط لا ينفد، يجسده ويجسمه هذا المقطع من السورة المباركة، فلو تحولت أغصان أشجار الأرض إلى أقلام، وصارت مياه البحر مداداً وأحباراً يمدها ويرفدها سبعة أبحر مثلها إلى أمثال ذلك من الشجر والبحر فإنها لا تحصي كلمات الله لخلقه. وعلمه بكونه في امتداد الزمان، واتساع المكان.

إن عظمة الصفات من عظمة الذات، فلله – جل في علاه – الكمال المطلق في ذاته وصفاته. وإنما هذا تقريب للبشر فيما يعرفون من أقلام ومداد يقرب لهم ما لا يحيطون به علماً من صفات الله وعظمته في كمال عزته في ملكه، وتمام حكمته في خلقه.

وتعبر الآية عن كمال القدرة في الخلق – بعد تقرير وتصوير تمام إحاطة العلم – بأن خلق الناس ابتداء، مع كثرتهم واختلاف أجناسهم وأحوالهم واختلاف أقطارهم وديارهم وأزمانهم. وبعثهم بعد موتهم وفنائهم ما هو إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛ لأن الأمر مرتبط بمشيئة الخلق والبعث وإرادته من قبل الخالق جل وعلا. ولا تعلق له بالقلة والكثرة أو الجهد، فاستوى بذلك خلق الواحد وخلق البلايين ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس:٨٢].

ويتصل هذا المقطع بمحور السورة في أن إعلام الله لخلقه بكمال قدرته في الخلق، وتمام إحاطته في العلم نعمة تستوجب الشكر. وحكمة تدعو إلى الإيمان، والخضوع له جل وعلا.. فإنه سبحانه سميع لعباده، بصير بأحوالهم، مجازيهم على أعمالهم [1].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٨)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٥).

من هدايات الآيات:

* سعة علم الله، وأن كلماته لا تنفد بحال.

* ضرب الأمثال في التعليم، وتقريب الحقائق للناس.

* بيان أن قدرة الله لا تحد، وأن الله لا يعجزه شيء لتعلق ذلك بالأمر التكويني.

* دلالة الآيات على جملة من الصفات لله تعالى: كالعزة والحكمة، والسمع والبصر [1].

المقطع الثامن: (نعمة التسخير)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

يتوالى تذكير البشر بالنعم التي يسرها الله جل وعلا وسخرها لهم حيث يزخر هذا الكون بآيات القدرة، الموحية بعظمة الخلق، والدالة على وجود الخالق وعظيم قدرته، ووجوب شكره وطاعته، ولكن إلف الناس لهذه الآيات الكونية، وطول معايشتهم لها؛ أفقدهم عظيم دلالتها.. فكانت الآيات القرآنية منبهة لهذه الآيات الكونية.

فمن ذلك: إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وزيادة أحدهما ونقص الآخر عند اختلاف فصول السنة في دورة كونية دائبة دائمة، دقيقة منتظمة.

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥١٨).

ومن ذلك تسخير الشمس والقمر بعد وجودهما، كل منهما يجري في فلكه إلى أجل مسمى؛ بانتظام تام.

هذه الآيات العظيمة دالة على أن الله جل وعلا هو الحق، وجوداً، وخلقاً وقولاً، وأنه العلي على خلقه، الكبير في ملكه، وأن ما يدعى ويعبد من دونه هو الباطل؛ كل الباطل في ضعفه وعجزه، وعدم استحقاقه للعبادة والدعاء.

ثم تذكر الآيات بنعم الله الأخرى على الناس، فقد أنعم الله على الناس بالدواب على الأرض، تحمل أثقالهم.

وأنعم عليهم في البحر بالسفن، تطفو على الماء فلا تغرق. وتجري في البحر بأمان فلا تقف، تنقل ذواتهم وتجاراتهم فتربط بين أجزاء الأرض، فيتعارف الناس ويتبادلون المصالح.

كل ذلك بنعمة الله وفضله، فإذا ما أراهم الله بعض آياته المنذرة حين تهيج البحار وتعلوهم الأمواج، ويستشعرون ضعفهم وقلة حيلتهم، فيتذكرون ربهم ويدعونه بإخلاص أن ينجيهم مما يرونه وينتظرونه من هلاك؛ فإذا استجاب الله دعوتهم ورحم ضعفهم وأنجاهم من شدتهم فوصلوا إلى بر الأمان، ووطئت أقدامهم الأرض؛ نسوا ما كانوا فيه، وما عاهدوا الله عليه، فمنهم مقصر لم يقم بحق الشكر لنعم الله عليه حين هداه وأنجاه.

وآخرون كانوا أكثر غدراً وفجراً وكفراً، فغدر بعهده، ونكث وعده فكفر بنعمة ربه عليه؛ فنسيها وجحد شكرها. وهذه أخلاق كل كفّار بالنعم، غدّار بالوعد، لا يشكر نعمة، ولا يفي بعهد ووعد.

فسبحان الرحيم الحليم الذي يذكر آياته، ويذكر بها عباده ليعرفوا نعمه عليهم، وإحسانه إليهم فيشكروه ويعبدوه [١].

وصلة هذا المقطع بمحور السورة شديد الوضوح بما فيه من تعداد النعم التي يسرها الله وسخرها لهم فعظم انتفاعهم بها، فوجب عليهم شكرها وصرف العبادة لموجدها ومسخرها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٠)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٦).

من هدايات الآيات:

* التذكير بما في هذا الكون من آيات القدرة على الخلق، والإحاطة بالعلم.
* تسخير الآيات الكونية لمصلحة الإنسان وراحته، وأن هذا التسخير من نعم الله المستوجبة للشكر.
* دلالة الآيات الكونية على أن الله هو الإله الحق، العلي على خلقه، الكبير في ملكه، فيكون هو المستحق وحده للعبادة والطاعة.
* أن عبادة غير الله ودعوته هي الباطل الذي لا حق معه.
* الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والشكر على النعمة؛ أوصاف متكاملة.
* التوحيد في الشدة، والشرك في الرخاء، من أعمال المشركين [(١)].

المقطع التاسع: (المغيبات وغرور الحياة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله جل وعلا نعمه على عبده لقمان، وعلى الناس أجمعين؛ بما خلقه ويسّره وسخّره، وما يستوجبه ذلك من الشكر؛ دعاهم إلى تقواه بامتثال طاعته، واجتناب معصيته، وخوفهم يوم القيامة حين يجازى الناس فرادى كل بحسب عمله، فلا ينفع أحد أحداً؛ لا والد

---

(١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٠).

ولا ولد. وهم أقرب الناس إليك، وأعزهم عليك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

إن يوماً هذه حاله لعظيم، وإنه وعد حق، وقول صدق.

فلا ينبغي لمؤمن أن يغتر بزخرف الحياة وزينتها، وما فيها من شهوات ومغريات. فما هي إلا متاع الغرور. أياماً معدودة، وسنين محدودة، تمضي سريعاً وتنقضي عاجلاً، فإذا الإنسان صائر إلى ما قدم من عمل، وهو تحت الأرض حبيساً بعد أن كان فوقها طليقاً.

وليحذر المؤمن من الشيطان حين يخادعه، ويغرر به، فيوظف حلم الله وإمهاله لعباده على أنه دليل السلامة فيزين لهم المعاصي ويهونها عليهم، ويجسّرهم عليها، ويحول بينهم وبين التوبة بالتسويف.

فإن غرور الشيطان، وشهوات الحياة المحرمة مصيدة للإنسان.

ثم يختم الله السورة التي ذكر فيها شواهد القدرة، وأنواع النعم، ودلائل الإحاطة بالعلم بما خصّ الله به ذاته من مفاتيح الغيب الخمسة؛ التي استأثر بعلمها مما يحسه الإنسان في حياته، ويراه أمام ناظريه، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر »[١].

فعلم الساعة متى تقوم ؟ لا يعلمه أحد إلا الله، وعلم وقت نزول المطر، في أي ساعة من ليل أو نهار، وأحوال ما في الأرحام من المواليد.

وكذلك الإنسان في أخص أحواله، وأهم احتياجه حيث لا يعلم المرء ماذا يكسب في غده من غنى أو فقر، ومن خير أو شر، كما أنه لا يعلم أين ومتى يموت ؟

وهذه أمور جلية لا ينازع فيها الإنسان ويراها في ذاته وحياته. وبها يعرف الإنسان حدود

(١) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب ٢٩ (٢/ ٢٣).

علمه، ومقدار عجزه، وضعفه، وأن الأمر كله لله، فعليه أن يجيب داعي ربه، وينيب إلى خالقه ويوظف حياته بما فيه خير دينه ودنياه وسعادة دنياه وأخراه [(١)].

وصلة هذا المقطع الخاتم للسورة بمحورها أنه بيان لحال الشاكر للنعم، والكافر بها والذاكر للآيات المعتبر بها، والمعرض عنها، وذلك بتذكير الإنسان وحثه بالمسارعة بتقوى ربه وطاعته وشكر نعمته لينجو في آخرته.

وتحذيره من الإعراض عن آيات الله وكفر نعمه والاغترار بشهوات الحياة وزينتها فيخسر آخرته وذلك هو الخسران المبين.

من هدايات الآيات:

* وجوب تقوى الله.
* تقرير عقيدة البعث.
* أن يوم القيامة يوم عصيب لا ينفع فيه والد ولا ولد.
* التحذير من الاغترار بمتاع الحياة الدنيا وشهواتها.
* التحذير من الشيطان في تزيينه المعاصي للإنسان.
* اختصاص الله تعالى في معرفة مفاتيح الغيب الخمسة.
* أن معرفة نوع الجنين من كونه ذكراً أو أنثى بواسطة الأشعة ونحوها غير داخلة في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾؛ لأنها بمنزلة فتح البطن، ومع معرفة كون الجنين ذكراً أو أنثى فلا أحد يستطيع معرفة شكله الحقيقي ولا كونه شقياً أو سعيداً.
* ادعاء معرفة الغيب كذب وضلال [(٢)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥١)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٨)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٤٠).

(٢) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٢)، وتفسير السعدي (٦٠١).

سورة السجدة

أولاً: بين يدي السورة:

أ - أسماء السورة:

١) **سورة السجدة**: وهو أشهر أسماء السورة، وأخصرها. وبه سميت في المصاحف وكتب التفسير، وترجم لها به الترمذي في جامعه [١].

سميت بذلك لشهرة سجدتها حيث كان النبي ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة فجر يوم الجمعة، ومضى المسلمون على ذلك إلى اليوم.

٢) **سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾**:

سميت بذلك تسمية لها بمطلعها.. فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [٢].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ: كان يقرأ في الصبح يوم الجمعة بـ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ في الركعة الأولى، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [٣].

وقد جاءت تسميتها بـ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ في بعض الآثار عن ابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر [٤].

وعنون لها البخاري في صحيحه بسورة (تنزيل السجدة) [٥].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب التفسير (٥/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب فضائل القرآن ٥ / ١٦٥ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة (٢/ ٥٩٩) حديث رقم (٨٨٠).

(٤) انظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١٠).

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٦/ ٣١٩).

وجاءت تسميتها في بعض المصاحف المخطوطة بـ (سورة التنزيل) (١).

وكل ذلك تسمية لها بمفتتحها على سبيل الاختصار أو التفصيل.

٣) سورة المضاجع:

سميت بذلك أخذاً من قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ وجاءت تسميتها كذلك في بعض كتب التفسير كتفسير: ابن الجوزي، والرازي، والآلوسي.

٤) سورة سجدة لقمان:

سميت بذلك لوقوعها بعد سورة لقمان، وتمييزاً لها عن سورة (حم السجدة) حيث تسمى هناك: سورة سجدة (المؤمن) لوقوعها بعد سورة (المؤمن) (٢).

٥) سورة المنجية:

وردت هذه التسمية في خبر مرسل عن خالد بن معدان أنه قال: (اقرؤوا المنجية وهي: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾.

ب - فضائلها:

ورد في فضلها أحاديث متنوعة مختلفة الدرجة، منها:

١) عن جابر بن عبد الله - ﷺ - قال كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ و﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ (٣).

---

(١) مخطوطات جامعة الإمام بالرياض رقم (٨٠٥٨). وانظر: أسماء السور، د. منيرة الدوسري (٣١١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وأحمد في المسند، وأبو عبيد في فضائل القرآن، والدارمي والترمذي، والبغوي في شرح السنة، والبغوي في شعب الإيمان، والطبراني في المعجم الصغير والأوسط، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٢٩ رقم ٥٨٥. وقال: حديث صحيح. وانظر: الأحاديث الواردة في فضائل القرآن دراسة نقدية، د. إبراهيم علي السيد علي عيسى ص٢٨٤.

٢) وعن أبي هريرة - ﷺ - يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر:﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾[١].

٣) ومن فضائلها أنها تسمى المنجية. فعن خالد بن معدان، قال: (اقرؤوا المنجية، وهي ألم * تنزيل فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه، وقالت: رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي، فشفعها الرب فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة، وارفعوا له درجة)[٢].

وعن المسيب بن رافع قال: قال رسول الله ﷺ: (تجيء﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها، تقول: لا سبيل عليك، لا سبيل عليك)[٣].

ج - السورة مكية[٤].

د - عدد آياتها ثلاثون آية[٥].

هـ - محور السورة:

بيان عظمة الله تعالى في صفاته، وكمال قدرته في الخلق والأمر، والبعث والجزاء.

و – المناسبات:

١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن السجود دليل الإيمان بعظمة الله، وعنوان الخضوع لقدرته، والطمع في ثوابه وحسن جزائه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة. رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة رقم (٨٨٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٦) رقم (٣٤٠٨) وفيه انقطاع ويتقوى بما بعده.

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص(٢٥١)، وابن الضريس ص(١٠٠) وهو مرسل إسناده حسن.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٨)، والمكي والمدني في القرآن الكريم د. محمد الشايع (٧١).

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/ ٢٠٤)، والبيان في عدة آي القرآن لأبي عمرو الداني (٢١٧).

٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

تقرير الحق في شأن القرآن بأنه تنزيل رب العالمين في افتتاح السورة، وتقرير الحق في شأن البعث بأنه واقع وأنه ممكن في خاتمة السورة من خلال المثال في إحياء الأرض بعد موتها.

٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال السيوطي في وجه اتصالها بخاتمة السورة التي قبلها.. سورة لقمان:

(إنها شرحت مفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان. فقوله هنا: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [٥] شرح لقوله هناك:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾.

ولذلك عقب هنا بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [٦].

وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ [٢٧] شرح لقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [٧] شرح لقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾.

وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ و﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [١٣] شرح لقوله: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [٣٤].

وقوله: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [١١] شرح لقوله: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [٣٢]. فلله الحمد على ما ألهم) [١].

وجعل الآلوسي المناسبة بين السورتين: (اشتمال الكل على دلائل التوحيد) [٢].

٥) المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة كلها تأكيد على عظمة الله تعالى في كمال صفاته، وكمال قدرته في خلقه

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي. تحقيق عبد القادر عطا ص (١١١).

(٢) تفسير الألوسي (٢٢ / ١١٥).

وكونه ابتداء، وانتهاء.. إماتة وبعثاً، أمراً وشرعاً. وكمال عدله بين خلقه، وكمال الصفات والقدرة هو محور السورة [1].

ثانياً: التفسير:

المقطع الأول: (القرآن حق منزل)

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

التفسير الإجمالي:

بينت الآيات الكريمات مصدر القرآن الكريم، ووصفه، وغرضه، فهو كلام الله المنزل دون شك أو ارتياب، فالله مصدره، والحق صفته، وهداية الناس غرضه وغايته. لم يأت به محمد ﷺ من عند نفسه، ولا يستطيع، ولو استطاع لاستطعتم مثله. وإنما أنزله الله على محمد ﷺ لينذر به قومه والناس من بعدهم حيث لم يأتهم نذير قبله، فمن آمن به كان له حسن الحال والمآل. ومن أعرض عنه وكفر به كانت له النار. وقامت على الخلق الحجة، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل وليس بعد الإنذار إلا الإعذار [2].

وافتتاحية السورة بهذا المطلع والمقطع شديد الارتباط بمحور السورة من حيث إنه بيان لمصدر الخبر عن الله تعالى في عظيم صفاته وكمال قدرته في خلقه ووجوب طاعته في شرعه وأمره وأن مصدر ذلك وحي إلهي لا افتراء بشري.

---

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي (١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٨)، وتيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٦٠١).

من هدايات الآيات:

* بيان مصدر القرآن، وأنه كلام إلهي، لا افتراء بشري.
* أنه كله حق، وكلام صدق.
* أن غرض القرآن الكريم هداية الخلق للحق.

المقطع الثاني: (الخلق مدة وحُسنا)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

تعرض الآيات الكريمة لصفات القدرة والعظمة لرب العالمين؛ الذي أنزل القرآن الكريم. فهو الله الذي لا رب سواه؛ الذي خلق هذا الكون العظيم بأرضه وسماه وما بينهما، وفيهما من خلائق منوعة متعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والألوان، والخواص والأغراض.

خلق تعالى ذلك كله في مدة محددة تبلغ ستة أيام من أيام الله ثم استوى على عرشه استواء يليق بكماله وعظمته يدبر كونه ويحكم أمره. فالكون ملكه، والناس خلقه، ليس من شيء أو أحد خارج عن ذلك، فلا نصير لأحد من دونه ولا شفيع إلا من بعد إذنه. فوجب على الناس التفكر في ذلك والتذكر، ومن ثم الإجابة والإنابة لله الخالق المدبر.

فالله في سماه وعلاه يدبر أمر خلقه وكونه، ويتصرف فيه كما يشاء وجوداً وفناءاً، وأمراً ونهياً. ثم يوم القيامة في يوم كان مقداره من أيام الناس في الدنيا ألف سنة في ذلك اليوم يصعد

إليه الأمر، ويصير له - جل وعلا - ا الحكم.

ذلكم المدبر لهذه الأمور والمصرف لها هو العالم بكل شيء مما غاب أو حضر، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. العزيز في رحمته فلا ذلّ. والرحيم في عزته فلا ضعف الذي أبدع خلقه وأحكمه، فأحسن كل شيء خلقه، فأتمه وأكمله، فلا نقص ولا عيب، فجاء كل شيء على ما أراده واقتضته حكمته.

وممن خلقه تعالى.. هذا الإنسان الذي بدأ خلقه بخلق أبيه آدم من طين، وجعل ذريته تتوالد من بعده، مخلوقة من ماء وهو منيّ الرجل حين يقذفه في رحم المرأة فيتخلق هناك بأعضائه وحواسه من سمع وبصر وعقل. وينفخ الله فيه الروح فتدب فيه الحياة، خلق عظيم يستوجب الذكر والشكر، ولكن كثيراً من الناس قليل الذكر للنعم، قيل الشكر للمنعِم [١].

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بكونه تفصيل، وتأكيد لبعض صفات الخالق جل وعلا، وتعريف للإنسان بضعفه ببيان أصل خلقه وأنه من طين ثم من ماء مهين، وكيف صار إنساناً سوياً في أكمل خلق وأحسن تقويم.

وأن ذلك دليل على قدرة الخالق توجب كمال الشكر لله رب العالمين.

من هدايات الآيات:

* بيان قدرة الخالق، ومدة الخلق.
* إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى؛ على الوجه اللائق بكماله وجلاله.
* أن الخلق والأمر كله لله، في الكون كله: علويه وسفليه.
* بيان مادة خلق الإنسان وكيفيته.
* وجوب ذكر النعم، وشكر المنعم [٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٩)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٨٠٦).

(٢) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/ ٥٢٦).

المقطع الثالث: (إثبات البعث)

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بداية خلق الإنسان وسلالته، ذكر هنا نهايته حيث يموت الإنسان ويعود للأرض التي بدأ منها خلقه، فيفنى ويصير تراباً.

وهذه النهاية المشاهدة والمحسوسة جعلت المشركين ينكرون البعث وعودة الحياة من جديد مرة أخرى.

وهذا الإنكار عنوان الكفر بالله، والجهل وضعف العقل.

فإن بداية الخلق دليل على نهايته، فالذي أوجد الإنسان وأحياه ابتداء، وأماته قادر على بعثه بعد موته، وهذا نص الخبر، وحجة العقل. ولكن الكفر يعمي ويطغى. فإنكار الكافر للبعث وما بعده، لا يلغي ثبوته وأنه لابد من الموت، والبعث، والرجوع إلى الله، فليس الإنكار حجة.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة ظاهر من حيث إثبات القدرة على البعث والرجوع إلى الله للثواب والعقاب.

من هدايات الآيات:

* إثبات البعث والجزاء بعد الموت.
* إنكار البعث كفر وجهل.
* بيان أن للموت ملَكاً موكّلاً بكل نفس [1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٢٧).

المقطع الرابع: (ذل المجرمين يوم الدين)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير الإجمالي:

حينما قررت الآيات السابقة حقيقة البعث والمصير إلى الله، صورت هذه الآيات مشهد وقوف المجرمين أمام رب العالمين؛ بأنهم يقفون ذليلين أمام ربهم، قد خفضوا رؤوسهم ذلاً مقرين بالسمع والطاعة بعد أن أبصروا وشاهدوا الحقيقة؛ طالبين الرجعى إلى الدنيا لإعلان الإيمان واليقين، والقيام بالعمل الصالح.

ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً فهم خلقه، وفي ملكه وأمرهم جميعاً بيده، لكن حكمته جل وعلا في الكون، وحكمه في الخلق أن يمتحنهم في الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب فمن آمن فله الجنة، ومن كفر فله النار، وأن كلاً من الجنة والنار ستملأ بأهلها.

هذا جزاء الله بمن كفر به، ونسي لقاءه؛ بأنه سوف يعذب جزاء كفره وسوء عمله.

يتصل هذا المقطع بمحور السورة من حيث التأكيد على البعث والجزاء وما يدل عليه وأن ذلك من كمال القدرة لله تعالى، وكمال الملك والتصرف له سبحانه في خلقه وأمره.

من هدايات الآيات:

* ذل المجرمين الكافرين يوم القيامة.
* أن الإيمان بالغيب لا يكون بعد المعاينة له.
* حكم الله بامتلاء جهنم من مجرمي الإنس والجن.
* أن الأعمال سبب في الجزاء: إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشرّاً[1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٠٢-٦٠٧)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٨٢٥).

المقطع الخامس: (علامات الإيمان)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله تعالى جزاء المجرمين، وهم المكذبون بآيات الله.. ذكر هنا المؤمنين بصفاتهم وجزائهم، فتكامل بذلك الحديث عن أصناف الناس.

فبينت الآيات هنا علامات الإيمان، وصفات المؤمنين بأنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن سارعوا للإنابة والإجابة. فإن أمروا فيها بالسجود تهاووا إلى الأرض ساجدين غير متكبرين يسبحون بحمد ربهم وينزهونه عن النقائص والعيوب. ومن صفاتهم في سائر حياتهم مقاومتهم لإغراء الراحة والنوم حين ينزعون أجسادهم من وثير الفراش. لينصبوا أقدامهم في صلاة الليل يدعون ربهم، طمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه. وكما سارعوا إلى نوافل الصلوات، هم كذلك يسارعون إلى الصدقات بعد الزكاة، فينفقون من فضول أموالهم ما يقربهم إلى الله زلفى.

وهنا تجمل الآية الكريمة بإيجاز وإعجاز: أصناف النعيم والتكريم؛ الذي أعده الله لهم جزاء إنابتهم وطاعتهم بقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ نعيم لا يبلغه وصف، ولا يحيط به بشر. فعن أبي هريرة - ﷺ - قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر). قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة أن ما قررته الآيات السابقة من كمال قدرة الله تعالى

(١) صحيح البخاري رقم (٤٧٧٩). ومسلم برقم (٢٨٢٤).

في خلقه وعظيم صفاته في ذاته دعت فئة من الناس إلى المسارعة إلى الإيمان بالله، والمبادرة في طاعته خضوعاً له سبحانه ورجاء ثوابه وخوف عقابه، فذكر سبحانه هنا صفاتهم وجزاءهم.

من هدايات الآيات:

* فضيلة التسبيح في الصلاة وغيرها.
* ذم الاستكبار وأهله، ومدح التواضع لله وأهله.
* فضيلة نوافل الطاعات من صلاة ليل، وزكاة مال، وغير ذلك.
* بشارة المؤمنين بعظيم النعيم والتكريم [1].

المقطع السادس: الجزاء العادل
واختلاف الجزاء باختلاف العمل

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد عرض أوصاف المؤمنين والمجرمين في الآيات السابقة؛ تقرر الآيات الكريمة هنا مبدأ الجزاء العادل، واختلاف الجزاء باختلاف العمل، وأنه لا يستوي مؤمن وكافر، مطيع

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٣)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٨١٢)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٣٠).

وعاص.

فالذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعملوا بما أمروا به من الصالحات، وسائر الطاعات، واجتنبوا المحرمات؛ فلهم الجنة.. إليها يأوون، وبها ينزلون. فهي دارهم ومستقرهم.

وأما الذين فسقوا، فخرجوا عن طاعة الله، فلم يؤمنوا بالله رباً، ولا بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ رسولاً! فعاشوا في العقيدة مشركين، وفي العمل عاصين؛ فمأواهم ومثواهم النار، يعذبون بها جزاء سوء عملهم.

وإذا ما حاولوا الخلاص من هذا العذاب، والخروج من النار؛ أعيدوا فيها، ودفعتهم زبانية العذاب إليها. وقيل لهم إذلالاً وإهانةً: ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

ولأن من الناس من لا يستقيم إلا بالتأديب والتعذيب؛ توعدهم الله - جل وعلا - بصنوف من العذاب والأذى والابتلاء الدنيوي؛ لعلهم يرجعون إلى ربهم فيردهم العذاب إلى الصواب، فيؤمنوا بربهم. وبذلك تكون نجاتهم من العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

وهذه مواعظ الله تترى، وآياته تتلى، وليس هناك أحد أظلم لنفسه ممن أعرض عن هذه العظات والآيات. ومن فعل فهو مجرم يستحق العذاب والانتقام.

وهذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة لأنه تفصيل للجزاء على الأعمال الذي يكون بعد البعث وإحياء الموتى يوم القيامة، هذا البعث الذي أكدته السورة كأحد دلائل القدرة وأمور الغيب الذي جاء به الخبر، ونصب عليه الدليل. وأن الجزاء في ذلك اليوم يكون من جنس العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك الجزاء العدل.

من هدايات الآيات:

* اختلاف الجزاء باختلاف العمل.
* بيان خطأ من يسوي بين المؤمن والكافر، والبارّ والفاجر، والمطيع والعاصي.
* بيان جزاء كل من المؤمنين والفاسقين.
* أن التأديب قد يكون بنوع من التعذيب.
* الإعراض عن آيات الله القرآنية والكونية ظلم للنفس البشرية [1].

المقطع السابع: (الإمامة في الدين)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما بين الله تعالى في المقطع السابق عدله بين الناس مؤمنهم وفاسقهم وأنهم لا يستوون، أكد هذا المعنى في بني إسرائيل وأن منهم هداة دعاة كانوا مؤمنين موقنين، وأنه سبحانه سوف يفصل بين المختلفين منهم ومن غيرهم بالعدل يوم القيامة، فالعدل مع كل أحد، وفي كل زمن، وفي كل شيء.

ولقد أعطى الله نبيه موسى بن عمران عليه السلام التوراة، كما أعطى رسوله محمداً ﷺ القرآن. فهذه سنته تعالى في إرسال رسله، وإنزال كتبه.

فلا تكن يا محمد في شكّ من لقائك بموسى ليلة الإسراء والمعراج، أو من لقاء موسى

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٩)، وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٨١٣)، وأيسر التفاسير (٣/ ٥٣٢).

الكتاب [١] وتلقيه له.

ولقد كان كتاب موسى التوراة؛ هادياً لبني إسرائيل إلى الصراط المستقيم والدين القويم. ولذا جعل الله من المؤمنين من بني إسرائيل قادة وهداة ودعاة؛ يدعون الناس في زمنهم إلى ربهم متصفين بالصبر واليقين، وبهما تنال الإمامة في الدين. وما يقع من خلاف بين الناس في الأعمال والاعتقادات فإن الفصل فيه يوم القيامة لله رب العالمين.

وصلة هذا المقطع بمحور السورة تظهر من خلال كمال عدل الله جل وعلا في السابقين كما في اللاحقين، وبيان نعمه على الناس أجمعين بإنزال كتبه وإرسال رسله.

من هدايات الآيات:

* من نعم الله على الناس إنزال الكتب، وإرسال الرسل.
* بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.
* كل خلاف في هذه الحياة سينتهي بحكم الله فيه يوم القيامة [٢].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٧/ ٨٠)، والأساس في التفسير، سعيد حوى (٨/ ٤٣٦٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، تفسير السعدي (٦٠٤)، أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٣/ ٥٣٥).

المقطع الثامن: (آيات وعظات)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى في المقطع السابق من الأمم السابقة بني إسرائيل على وجه الخصوص، ثم عمم هنا للتذكير بمصير المكذبين من عموم السابقين وما فيه من عظة للآخرين.

من سنن الله في خلقه إهلاك المكذبين، وقد مضت أمم وأجيال. وقرى وأقوام من عاد وثمود قوم صالح، وقوم لوط، وغيرهم. أهلكهم الله لما كذبوا الرسل. فهلاكهم وآثارهم التي تمشي فيها الأجيال اللاحقة، يجب أن تكون مواضع عبرة وعظة، تهز القلوب، وتدمع العيون وتجيش بها النفوس.

فينيبوا إلى ربهم ويسلموا له. ويسارعوا إلى ذلك حتى لا يكون مصيرهم كسابقيهم الذين يرون آثارهم وديارهم رأي العين، وكيف أهلكهم الله، فإنهم ليسوا بخير منهم. ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القمر: ١٦]، فليسوا بخير وليست لهم براءة.

إنها آيات مؤثرة معبرة؛ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم تعرض الآيات نوعاً من الأدلة المحسوسة على البعث، فهذا الماء النازل من السماء حين يسوقه الله إلى أرض جرداء يابسة لا نبات فيها، فتتغير صورتها. فإذا هي خضراء ممرعة تموج بالزرع مما يأكله الناس والأنعام.

وهذا المشهد ملء البصر، ومثال حيّ على الحياة بعد الموت.. فالذي أحيا الأرض وهي

ميتة؛ قادر على إحياء الإنسان وبعثه بعد موته. ولكن الكافرين شديدي العناد، لا يلتفتون إلى الآيات. ولا يتأثرون بالعبر والعظات، فيستعجلون يوم الحكم والفصل حين تتبين الحقائق. وتنكشف الدقائق وحينئذ لا ينفع الكافرين الإيمان والتصديق عند رؤية العذاب وحصول الحساب. ثم تُختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المكذبين المعاندين بعد أن لم تنفع معهم الآيات والعظات. وأن ينتظر تحقق وعيد الله فيهم في الدنيا والآخرة، كما أنهم ينتظرون موته أو قتله.

وتظهر صلة هذا المقطع بمحور السورة بالتذكير والتأكيد على البعث الذي أنكره المشركون واستبعدوا وقوعه، ولكن السورة الكريمة أكدته خبراً ومثالاً، حين مثلت ذلك بالأرض الميتة التي تحيا بنزول المطر ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] فكان استدلالاً بالمثال بعد الاستدلال بالمقال ولكن الأمر كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

من هدايات الآيات:

* من سنن الله إهلاك المتكبرين، وفي ذلك عظة للآخرين.
* تقرير عقيدة البعث، وتقريبها بالمثال.
* استعجال الكافرين للعذاب دليل جهل وكبر.
* بيان أن التوبة لا تقبل عند معاينة العذاب [1].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢)، في ظلال القرآن سيد قطب (٥/ ٢٨١٤)، وأيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٥٣٥).

سورة الأحزاب

بين يدي السورة:

١ - اسم السورة:

اسمها التوقيفي هو سورة الأحزاب ولا يعرف لها اسم آخر غير هذا، وقد ورد هذا الاسم في حديث أبي بن كعب، فعن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب ﷺ كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم). [(١)] **وجه تسميتها بذلك:** هو ما ذكر فيها عن أحزاب المشركين من قريش غطفان وبعض العرب ويهود بني قريظة الذين اجتمعوا وتحزبوا لغزو المسلمين في المدينة فرد الله تعالى كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال، [(٢)] قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٢ وقال المهايمي: «سميت بها لأن قصتها معجزة لرسول الله ﷺ متضمنة لنصره بالريح والملائكة بحيث كفى الله المؤمنين المنافقين وهذا من أعظم مقاصد القرآن». [(٣)]

---

(١) **قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه**، المستدرك للحاكم النيسابوري، ج: ٤، ٤٠٠، وصحيح ابن حبان، ج:١٠، ص: ٢٧٤، وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن منيع والنسائي وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف والدار قطني في الأفراد والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن زر، والسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٥٨.

(٢) منيرة محمد ناصر الدوسري، أسماء سور القرآن وفضائلها، (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢٦)، ط١، ص: ٣١٧-٣١٨.

(٣) تفسير المهايمي، ٢/ ١٥٢. عن المرجع السابق ص: ٣١٨ الحاشية رقم ١.

٢- عدد آياتها:

هي ثلاث وسبعون آية كما وردت في المصاحف وفي حديث أبي بن كعب السابق.

٣- مرحلة النزول:

هي مدنية بإجماع العلماء، [١] وتتناول هذه السورة قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحديبية، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرا واقعيا مباشرا، [٢] وقد نزلت بعد سورة الأنفال. [٣]

٤-محور السورة:

هذه السورة لها ثلاثة محاور رئيسة:

أ- **المحور الأول**: يدور حول: «ربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير **وهو أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره**، ذلك كافتتاح السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾، وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعية في أول السورة: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾، **والتعقيب** على موقف المرجفين «يوم الأحزاب» التي سميت السورة باسمها: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج٢٥/ ص١٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص: ٢٨١٧.

(٣) برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م)، ط ١، ج:٦، ص:٧٥.

مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾، ومثل قوله في صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة، المخالفة لمألوف النفوس في الجاهلية: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾، وأخيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.[١] **هذا هو المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، ومن هنا فإن البقاعي** يؤكد المقصد الرئيس السابق للسورة بقوله: «الحث على الصدق في الإخلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاة بوجه ما للخلائق لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله فهو يعلي من يشاء وإن كان ضعيفا، ويردي من يريد وإن كان قويا، فلا يهتمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره ولا خوف منه في عظيم شره وخفي مكره»[٢].

ب- **المحور الثاني**: الرئيس الذي تدورحوله السورة هو **النبي ﷺ وتشريفه وتنزيهه** مع آل بيته والمؤمنين معه، قال ابن عاشور: «افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ»[٣]، وقال الطبرسي: «لمّا صوّر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر بعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه»[٤].

ج- **المحور الثالث**: الحديث عن غزوة الأحزاب التي سميت السورة بها، والحديث عن نعمة الله على النبي ﷺ وأصحابه الكرام بالنصر المؤزر على قوى الباطل في هذه الغزوة.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص: ٢٨١٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج:٦، ص:٦٧.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ط١، ج: ٢١، ص: ٢٤٩.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج: ٢٢، ص١٦٥.

٥- المناسبات في السورة:

أ- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لما كان محور السورة يدور حول الاعتقاد بالله تعالى والاستسلام له، ناسب أن يطلق اسم الأحزاب على هذه السورة لأن حادثة الأحزاب كانت تعبيرا واضحا لاستسلام النبي وأصحابه الكرام لإرادة الله ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، وزادهم إيمانا وتثبيتا بالله تعالى، وذلك على عكس طائفة المنافقين الذين أشاعوا الخوف بين صفوف المؤمنين وشككوا بوعد الله تعالى ووعد الرسول بقولهم: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾، وبينت السورة نتيجة التسليم لله تعالى والتوكل عليه بقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾.

وبما أن من محاور السورة أيضا تشريف النبي ﷺ وبيان قدره فقصة الأحزاب فيها أبلغ تشريف وتأييد لهذا النبي الكريم حيث نصره الله تعالى بجنوده من الملائكة الكرام وبالريح وبالخندق، نصره الله وأيده على الأحزاب من قريش وغطفان واليهود الذين أتوا مع الأحزاب والذين نقضوا العهد في المدينة وعلى الأعداء الداخليين من المنافقين، فوضعت حدا لكل هؤلاء ولذلك كانت غزوة الأحزاب حدا فاصلا لمرحلة جديدة، فأعلن النبي ﷺ أنه لن يأتي أحد بعد هذه الغزوة ليغزو المسلمين بل هم سيقومون بغزو أعدائهم.

ب- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما افتتحت السورة بنداء خير الخلق **محمد** ﷺ وأمره بالتقوى التي هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، **ختمت السورة** بأمر المؤمنين بتقوى الله تعالى وبالحث على الالتزام بالأمانة **وبيان عقوبة من خانها وجزاء من التزم بأدائها.** وكما اختتمت **الآية الأولى من السورة باسمي الحكيم والعليم** اختتمت **السورة باسمي الغفور والرحيم ليستدل بذلك على حكمة الله وعلمه فيما أمر ونهى وقضاه وقدره مما**

ذكر في هذه السورة، وكيف وفق الله المؤمنين وخذل الكافرين والمنافقين الذين خرجوا عن سنة الله تعالى في الكون، ثم ختمت السورة بالمغفرة والرحمة لأن الله تعالى يعلم تقصير عباده في أداء الأمانة فبذلك يطمعون في عفوه وغفرانه ويرجون رحمته وجنته.

ج-المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها:

يقول أبو حيان: «ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة وهو أنه حكى أنهم يستعجلون الفتح وهو الفصل بينهم، وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم، فأمره في أول هذه السورة بتقوى الله ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ علياً بالصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة، حكيماً لا يضع الأشياء إلا مواضعها منوطة بالحكمة». (١)

ووجه اتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي هو تشابه مطلع هذه ومقطع تلك «فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عز وجل». (٢)

(١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط،، ج: ٧، ص:٢٠٦.
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج:٢١، ص: ١٤٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٦٧.

المقطع الأول

افتتاحية سورة الأحزاب

أمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي والتوكل على الله ومخالفة الكفار والمنافقين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

أولاً: سبب النزول:

روي في أسباب نزول الآيات السابقة روايات عديدة منها: ما أخرجه «ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾»(١) وروي «أنّ النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبني قينقاع وقد بايعه أناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه وكان يسمع منهم فنزلت». (٢)

ثانياً: المعنى الإجمالي للافتتاحية:

ينادي الله تعالى نبيه ﷺ بأجمل نداء وألطفه آمرا له أن يتقي الله تعالى بالالتزام بطاعته وأداء فرائضه والانتهاء عن محارمه والابتعاد عن حدوده، ونهاه أن يطيع الكافرين عامة وخصوصا أولئك الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يطرد من معه من المؤمنين الضعفاء، ونهاه أن يطيع المنافقين الذين يظهرون الإيمان بالله والنصيحة للرسول وهم يقصدون إيذاء المؤمنين

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٦٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص:٥٢٧.

والإضرار بهم فنهاه الله أن يقبل رأيهم ومشورتهم لأنه سبحانه العليم الحكيم فهو يعلم بأنهم أعداء ألداء ويعلم ما تضمره نفوسهم وما تنطوي عليه من الشر، وهو حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك وغير ذلك من تدبير جميع خلقه. ثم يأمر الله رسوله بأن يعمل بما أنزل الله عليه من وحي فهو سبحانه خبير بما تعمل به أنت وأصحابك من هذا القرآن وغير ذلك من أمور، وهو سبحانه خبير لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو مجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء، ولهذا فوض يا محمد إلى الله أمرك وثق به وكفى بالله وكيلا أي وحسبك بالله فيما يأمرك وكيلا وحفيظا بك. [1]

ثالثاً: أسلوب القرآن الكريم في مخاطبة النبي ﷺ

يخاطب الله تعالى سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بأجمل خطاب فيناديه ويشرفه ويعلي من شأنه بخطابه بوصف النبوة، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم إذا أرد أن يخاطب النبي يشرفه بذكر النبوة أو الرسالة دون ذكر اسمه تنويها بفضله، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبما أن أحد أهم محاور السورة هو تشريف النبي ﷺ فقد ذكرت السورة أوصافه بالنبي خمس عشرة مرة وبالرسول ثلاث عشرة مرة، وبخاتم النبيين وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله وسراج منير مرة واحدة[2]، وكذلك ذكرت أمور عديدة في هذه السورة الكريمة تدل على مكانته العظيمة عند الله تعالى كجعل ولايته عامة على كل المؤمنين، وأنه أولى بهم من أنفسهم، وإعلامنا بصلاة الله تعالى عليه وملائكته، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وغير ذلك من أمور نوضحها لاحقاً.

ولم يناد الله تعالى النبي باسمه كما نادى الآخرين بيا آدم ويا موسى ويا عيسى ويا داود تعظيما له، وأما عندما ذكر اسمه فإنما ذكره في معرض الإخبار كما في قوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١١٧، وقارن بالسعدي، تفسير السعدي، ج: ١، ص: ٦٥٨.

(٢) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، (دمشق: دار القلم، ١٤١٧/ ١٩٩٦)، ط١، ص: ٣٥-٣٦.

اللَّهِ) [الفتح: ٢٩] ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار. [١] ومما يدل على أهمية المنادى كما يقول الفخر الرازي هو أسلوب النداء بـ(يا أي) دون يا، فقولك: يا رجل، غير قولك: يا أيها الرجل، إذ الثاني ينبئ عن خطر خطب المنادى له. [٢]

رابعاً: دلالة أمر النبي ﷺ بالتقوى:

إن النبي ﷺ هو أتقى الناس وأخشاهم لله تعالى، فهو قد طبق هذه الآية تطبيقا قوليا وفعليا من خلال حياته مع زوجاته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، وسيرته خير شاهد على ذلك. فعن عائشة قالت: دخلت امرأة عثمان بن مظعون واسمها خولة بنت حكيم عليّ وهي باذة الهيئة، فسألتها ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، فدخل النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فلقي النبي ﷺ فقال: (يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أما لك فيّ أسوة فوالله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأنا)، [٣] وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها: (أَنَّ رَجُلاً جاء إلى النبي ﷺ يَسْتَفْتِيهِ وَهِيَ تَسْمَعُ من وَرَاءِ الْبَابِ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وأنا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ؟ فقال رسول اللَّهِ ﷺ وأنا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وأنا جُنُبٌ فَأَصُومُ فقال لَسْتَ مِثْلَنَا يا رَسُولَ اللَّهِ قد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، فقال: والله إني لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي). [٤] ولهذا قال المفسرون إن أمر النبي بالتقوى وهو متق لله فعلا إنما هو أمر له بالثبات والدوام عليه وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره، [٥] وكذلك هو تنبيه لأتباعه من المؤمنين بأنه إذا كان النبي مأمورا بالتقوى فهم مأمورون به من باب أولى، [٦] لأن «تقوى الله والشعور برقابته واستشعار

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص٥٢٧.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٤.
(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٣، ص: ١٤٥.
(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ٧٨١، رقم الحديث: ١١٠٨.
(٥) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص٥٢٧.
(٦) ذكر الرازي دلالات أخرى لأمر الله تعالى نبيه بالتقوى، فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

جلاله هي القاعدة الأولى، وهي الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ»، [١] وهي التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه، ومما يدل على ذلك هو قوله تعالى مخاطبا أمة النبي ﷺ في ختام الآية الثانية:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. [٢]

ومن أهم ثمار التقوى الالتزام بأوامر الله تعالى واجتناب الطاغوت المتمثل بطاعة الكافرين والمنافقين الذين لا يحبون الخير والرقي للمسلمين، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقد أثبت الزمان الذي نعيش فيه صدق هذا فالكفار والمنافقون فينا هم ما بين مستعمر لبلادنا، أو ناهب لخيراتنا، أو مستهزئ بديننا وقليل منهم المنصف فكيف نطيعهم في أمور تتعلق بمصيرنا وثقافتنا وعقيدتنا؟ ويلاحظ أن الله تعالى وصف المعارضين بالكفار هنا للدلالة على أنهم منكرون لحقوق الله تعالى ولحقوق العباد فكيف بمن هذا شأنه أن يطاع؟

وقد ختمت الآية الكريمة بفاصلة دالة على اسمين من أسماء الله الحسنى وهما: العليم والحكيم، وذلك إشارة إلى أن التقوى يجب أن تكون في أعلى مراتبها لأن الله تعالى عليم بذات الصدور[٣] ويعلم السر وأخفى، ويعلم المتقي من غير المتقي حيث إن مصدر التقوى قلبي قبل أن يكون ظاهريا، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: (لَا تَحَاسَدُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ، **التَّقْوَى ها هنا وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). [٤] وفي اختتام هذه الآية

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص:٢٨٢٢.

(٢) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٤٤.

(٣) فانظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٦٥.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٥٦٤.

بفاصلة: ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾إشارة إلى أن الأمر بترك طاعة الكافرين والمنافقين فيه حكمة عظيمة لا يعلمها إلا العليم الحكيم لأن المطيع لهم لا يعلم الغيب ولا يعلم النتائج المترتبة على طاعتهم، فكان هذا الأمر تحذيرا مسبقا للمؤمنين من طاعتهم حتى لا يفشلوا ويندموا بعد فوات الأوان.

خامساً: المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

وهذه الآيات تتناسب مع محور السورة العام حيث إنها تحث النبي ﷺ على التعلق بالله تعالى وحده دون غيره تقوى واعتمادا وتوكلا، وأما تناسب الآيات مع بعضها فنرى بأن الافتتاح بالأمر بالتقوى فيه دلالة على أمر عظيم يأتي بعده هو الابتعاد عن طاعة الكافرين والمنافقين واتباع أوامر الوحي والتوكل على الله حق التوكل، وفيه تهيئة أن «تشريعا عظيما سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين. وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي ﷺ لا يقبل أقوالهم لييأسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكايد ويظهرون أنهم ينصحون النبي ﷺ ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهرا بالإسلام». [(١)]

سادساً: من الفوائد المستنبطة من المقطع الأول:

* تعظيم النبي ﷺ عند ذكره بوصف النبوة والصلاة والسلام عليه.
* أهمية التقوى في حياة المسلم لأن عليها ينبني كل شيء في تصرفات الإنسان وسلوكه.
* النهي عن طاعة المعادين للإسلام من الكفار والمنافقين الذين لا يحبون الخير للمسلمين.
* ضرورة اتباع الوحي الرباني فيما يأمر وينهى.
* لزوم الاعتماد على الله تعالى والثقة به والتوكل عليه حق التوكل في كل الأمور، ومن اعتمد عليه أفلح.

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢١، ص: ٢٥٠-٢٥١.

المقطع الثاني

تصحيح مفاهيم اجتماعية وأسرية خاطئة

قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ثلاثة أقوال:

١- أخرج ابن أبي حاتم من طريق ضعيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت، وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني فهم قال: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له جميل بن معمر.

٢- أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ يوما يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلبا معكم وقلبا معه، فأنزل الله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾.[1]

٣- أنه عنى بذلك زيد بن حارثة من أجل أن رسول الله ﷺ كان تبناه فضرب الله بذلك مثلا كأنه يقول: كما أنه ليس لرجل قلبان، فكذلك ليس ابن رجل آخر ابنك. وقد رجح الطبري

(١) السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ج:١، ص:١٧١.

السبب الذي يقول إنها نزلت في الرجل الذي ادعى أن له قلبين، ولم يمنع الطبري جواز السبب الثاني إلا أن المقصود العام هو أن الله نفى عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة. (١)

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

لما كان موضوع المقطع الأول الحث على التقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين بدأ هنا يبطل بعض معتقدات الكافرين وعاداتهم كالاعتقاد الباطل بوجود قلبين لدى الأذكياء من البشر، ويبين أن تشبيه الرجل لزوجه في الحرمة كظهر الأم غير صحيح ومحرم، ويمهد بذلك لتحريم التبني بنفي كون الولد المتبنى ابنا حقيقيا، وكان لهذا علاقة بزيد بن حارثة الذي كان للمنافقين فيه نصيب، وما كل تلك العادات والتقاليد الجاهلية إلا دعاوى لا أساس لها من الصحة بحيث لا تتجاوز الأفواه.

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

افتتحت الآية بنفي أن يكون لرجل قلبان في جوفه وبيان الحقيقة في ذلك تصحيحا لما كان بعض الناس في الجاهلية يعتقدونه، وذلك تمهيدا لبيان حقيقة الظهار وهو بأن يحرم الرجل زوجته على نفسه بأن يقول: أنت علي كظهر أمي، فهذا القول محرم ومنكر ولا يجعل الزوجة أما، وتمهيدا لتحريم التبني واعتباره لا حقيقة له من حيث ثبوت النسب، فكل هذه الأمور ادعاءات لا أساس لها من الصحة فهي أقوال بالفم لا تغير شيئا من حقيقة الواقع. والقرآن يختم هذه الآية بفاصلة رائعة تناسب السياق بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ فما قاله الله تعالى في نفي أن يكون لرجل أو امرأة قلبان، وفي نفي أن تجعل الزوجة كالأم في الحرمة بمجرد التلفظ بكلمة، وفي نفي أن يجعل تبني شخص غريب ابنا حقيقيا، فهذا القول هو الحق لاغير لأن قائله هو الحق تعالى ولا يصدر عنه إلا الحق، وهو سبحانه يهدينا الطريق المستقيم

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١١٩.

والصائب في كل الأمور لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى وهو خلق الإنسان وهو يعلم أعضاءه ويعلم كل شيء ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾. فالطريق الصحيح والعدل عند الله تعالى هو أن ننسب هؤلاء المتبنين لآبائهم الحقيقيين، وأن نحافظ على الأنساب، ومن هنا كان الذي يسلك غير هذا السبيل ضالا، فعن أبي ذَرٍّ أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: (ليس من رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أبيه وهو يَعْلَمُهُ إلا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى ما ليس له فَلَيْسَ مِنَّا وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أو قال عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إلا حَارَ عليه). [(١)] وإذا لم يعرف للمتبنى أب فيقال له: يا أخي ويا مولاي، وليس يا ابني ولهذا لما نزلت هذه الآية لم يعد الصحابة يدعون زيد بن حارثة بزيد ابن محمد بل نسبوه لأبيه الحقيقي، وإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أي عوضا عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنها تنادي ياعم ياعم فأخذها علي ﷺ وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فاحتملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة فقال علي ﷺ: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب ابنة عمي وخالتها تحتي، يعني أسماء بنت عميس فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي ﷺ: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر ﷺ: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد ﷺ: أنت أخونا ومولانا). [(٢)] وقد رفع الله الحرج والإثم عمن دعا إنسانا لغير أبيه خطأ لأن الله غفور رحيم، أما من تعمد الخطأ فعليه إثم، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)، [(٣)] ولهذا ناسب أن تختتم الآية بالفاصلة: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مراعاة للسياق قبلها.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص: ٦٩، رقم الحديث: ٦١. وأخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج:٣، ص: ١٢٩٢، رقم الحديث: ٣٣١٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٦٧.

(٣) الطبراني، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص: ٢١٦، رقم الحديث: ٢٨٠١، وابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:١٦، ص:٢٠٢، رقم الحديث: ٧٢١٩.

رابعا: المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

بما أن من محاور السورة الرئيسة الحث على الإخلاص لله تعالى، لذا فقد ضرب الله المثل لمن ينزع إلى جهتين متناقضتين بأن يدعي أن ظهر زوجته كظهر أمه، وأن من ليس ابنه ابنا له كالذي يدعي باطلا بأنه يتصرف بقلبين في جوفه، وذلك ليؤكد الله تعالى ضرورة الإخلاص له والالتزام بالواقع والحقيقة. وإذا كان للإنسان قلب واحد، «فلا بد له من منهج واحد يسير عليه. ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه»، [1] **وهذا المنهج هو الإسلام.**

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني:

* إطلاق المسميات الحقيقية على الأشياء من غير تبديل أو تغيير يؤدي لقلب الحقائق، فعندما يطلق الرجل على شخص أنه ابن لفلان وهو ليس كذلك فهذا تغيير للحقيقة.
* القرآن الكريم هو مصدر الحق لأنه من الله الحق سبحانه وتعالى، وقد تأكد علميا أنه لا يمكن للإنسان أن يعيش بقلبين.
* لا عبرة للتقاليد والعادات المنتشرة بين الناس والجارية على أفواههم إذا ما خالفت الحقيقة أو الشريعة.
* ضرورة أن يوحد المسلم هدفه تجاه خالقه وهو الله تعالى، فيطيعه في كل ما أمر، وينتهي عن كل ما نهى عنه، فلا يجوز للمسلم أن يأخذ من مصدر يخالف القرآن أو السنة، سواء كان المصدر من الشرق أو من الغرب، فالله تعالى جعل منهجا واحدا للإنسان كي يتبعه ولا يمكن أن يتبع منهجين متناقضين في آن واحد إذ لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه.
* رفع الإسلام الظلم عن المرأة بتحريم الظهار على صورته في الجاهلية، ورتب عليه أحكاما قاسية في الإسلام كي يبتعد عنه المسلم لأن فيه ظلما للمرأة وبذلك يكون الإسلام أول من دافع عن حقوق المرأة.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص:٢٨٢٨.

* حرم الإسلام التبني لأنه يخلط بين الأنساب وفيه قلب للحقائق، وهو يؤدي لمفاسد كثيرة أخرى، فهذه السورة أساس في أمور تنظيم الأسرة.
* بما أنه من صفات الله تعالى المغفرة والرحمة، فالله تعالى لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ ولكن يؤاخذه على تعمد الخطأ.

المقطع الثالث

الولاية العامة للنبي ﷺ على المؤمنين وأخذ الله الميثاق من النبي ﷺ ومن النبيين عليهم السلام لتبليغ الدعوة

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾ ﴾

أولا: العلاقة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد أن منع الإسلام التبني وأوضح أن العلاقة الحقيقية تكون بالنسب فقط، **ناسب** أن يبين القرآن أن قرابة الأخوة الإيمانية بين المؤمنين التي كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بناء عليها، والتي اقتضها مرحلة صعبة تأسيسية في حياة المسلمين، **ناسب** أن ينسخ هذا الحكم لتعود الأمور إلى أصلها وهو التوارث بناء على صلة النسب مع بقاء الأخوة الإيمانية. وكذلك **لما** منع الإسلام التبني **ناسب** أن يبين ماهية ولاية النبي ﷺ بالنسبة لزيد بن حارثة خاصة والمؤمنين عامة، فبين القرآن أن هذه الولاية هي ولاية عامة على كل المؤمنين وأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم وعليهم أن يقدموه على أنفسهم لأنه السبب في إخراجهم من الظلمات إلى النور، فعلاقته ﷺ بالمؤمنين أعظم من أي علاقة فهو أب لهم ورحيم ورؤوف بهم، وكذلك قررت الآية الأمومة الروحية لزوجات النبي ﷺ وذلك حرمة له ﷺ وتشريفا لقدره.

ثانيا: المعنى الإجمالي للمقطع:

جعل الله تعالى ولاية النبي ﷺ عامة على المؤمنين لأنه يستحق هذه المكانة وهو أولى بهم من أنفسهم في كل أمور الدين والدنيا لأنه أعلم بمصالحهم وأحرص عليهم من أنفسهم، ولهذا كان مقدما على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، [النساء: ٦٥]، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فقد جمع النبي ﷺ بين حرص الوالد على مصلحة ولده وعطف الأم ورحمتها بأولادها، فعن أبي هريرة ﷺ أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: إنما مَثَلي وَمَثَلُ الناس كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً فلما أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ التي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النَّارِ وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها)[1]، وقال النبي ﷺ: (ما من مُؤْمِنٍ إلا وأنا أَوْلَى بِهِ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اقرؤوا إن شِئْتُمْ: (النبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِمْ)، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ من كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أو ضَيَاعاً فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ)، [2] وقال: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)، [3] وقال ﷺ أيضا: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). [4] فاللهم اجعل حبه في قلوبنا أكثر من حبنا لأنفسنا وأموالنا وأولادنا والناس أجمعين. وهذه الولاية العامة تكون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد بينتها الأحاديث السابقة، وأما في الآخرة فهي تتجلى بشفاعة النبي ﷺ للمؤمنين به، حتى قال بعضهم: «أرجى آية في كتاب الله عز وجل ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج:٥، ص: ٢٣٧٩، رقم الحديث: ٦١١٨، ومسلم، صحيح مسلم، ج:٤ ص: ١٧٨٩، رقم الحديث: ٢٢٨٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج:٢، ص:٨٤٥، رقم الحديث: ٢٢٦٩.

(٣) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ١، ص: ٣، رقم الحديث:١١.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج:١، ص:١٤، رقم الحديث: ١٤.

رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥]، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى أن يبقى أحد من أمته في النار».[(١)]
وبما أن كل من اتصل بهذا النبي بصلة ما صارت له أهمية واحترام، فمن باب أولى أن يكون لزوجاته التقدير والاحترام بأن جعلهن الله تعالى **أمهات للمؤمنين** من حيث حرمة التزوج بهن بعد موت النبي ﷺ ومن حيث احترامهن. وقد غلظ القرآن العقوبة لمن لا يحترم أمهات المؤمنين فيرمي إحداهن بفاحشة فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣]، فهذه الآية نزلت في عائشة خاصة، وفي أمهات المؤمنين عامة، فلم يجعل الله تعالى لمن قذفهن توبة ولعنه الله تعالى قاله ابن عباس والضحاك[(٢)]، فرضي الله عنهن أجمعين. ثم انتقلت الآية الكريمة للكلام عن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض فنسخت حكم التوارث الذي كان في بداية الإسلام بين المهاجرين والأنصار وأرجعت الأمور إلى نصابها فجعلت التوارث مبنيا على القرابة النسبية، فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في التوارث خصوصا، فهم أولى من غيرهم من المؤمنين ممن لا قرابة نسبية لهم، إلا إذا أراد المورث أن يوصي للبعيد بما دون الثلث فقد سمح بذلك، وإن مضمون هذا الحكم قضاه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ.

ثم أوضحت الآية الثانية أمرا خطيرا وهو أخذ الله العهد القوي والعقد من النبي ﷺ ومن إخوانه الأنبياء عليهم السلام كي يؤدوا وظيفة النبوة والتبليغ على أحسن وجه في المنشط والمكره، وبأن يعبدوا الله ويدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل، وأن يبشر كل واحد منهم بمن بعده،[(٣)] وهذا يدل على أمرين أولهما: عظم وخطر أمر النبوة، وثانيهما: هو مكانة خاتم الأنبياء ﷺ عند الله فهو مقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا أخذ الله العهد منهم في مكان آخر أن يؤمنوا بالنبي ﷺ إذا هو بعث في زمانهم فقال تعالى: ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٢، ص: ٢٠٩.
(٣) السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج:٣، ص:٤٢.

﴿ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران: ٨١]. ونتيجة هذا العهد هو إقامة الحجة فيثيب الصادقين في وفاء العهد والمخلصين في إيمانهم، ويعذب الكافرين المنكرين عذابا أليما.

ثالثا: المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

لما كان أحد محاور السورة الرئيسة هو بيان مكانة النبي ﷺ، فقد أوضحت هذه الآية بشكل صريح أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأن عليهم أن يقدموه على أنفسهم في كل شيء، ويتبع مكانة النبي الرفيعة زوجاته الشريفات فهن من خير نساء العالمين ولهذا استحققن أن يعطين لقب «أمهات المؤمنين» رضي الله عنهن أجمعين. وكذلك بينت الآية التي تلت آية الولاية مكانته ﷺ بتقديم ذكره على ذكر الأنبياء في أخذ الميثاق بتبليغ الدعوة، وبأخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام بوجوب الإيمان بالرسول ﷺ ونصرته.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث:

* على المؤمن أن يطيع النبي ﷺ طاعة لا تردد فيها، وعليه أن يحبه أكثر من نفسه، وأن يجاهد نفسه في ذلك، لأنه مقدم على كل شيء في الحياة بعد الله تعالى.
* تتجلى مكانة النبي ﷺ من خلال هاتين الآيتين: إذ أعطته الأولى مكانة الولاية على كل المؤمنين، والثانية قدمته على جميع الأنبياء مكانة بتقديم ذكره على ذكرهم مع أنه متأخر زمنا عنهم، وفي هذا رد واضح على الجهلاء الذين لا يعرفون مكانة هذا النبي الكريم ﷺ.
* لذوي الأرحام حق عظيم على الإنسان، إذ جعل الله تعالى لهم الأولوية على غيرهم، ومن هنا مدح الإسلام الذين يصلون أرحامهم ويتقون الله فيهم قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١].
* لامانع أن يحسن الإنسان لغير أقاربه بعد أن يقوم بحق الأقرباء فهم الأصل ويأتي بعدهم غيرهم.
* إن الله تعالى كتب الأشياء قبل وقوعها في اللوح المحفوظ فالمؤمن يسلم ولا يعترض وينفذ أوامر الله تعالى دونما شعور بالتردد.

* الأنبياء عليهم السلام إخوة من علات، وكلهم أتوا بدين واحد، وأيد بعضهم بعضا، وكذلك على الدعاة أن يقتدوا بهم فيؤيد بعضهم بعضا، قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة، قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد وليس بيننا نبي». [(١)]

المقطع الرابع

قصة غزوة الأحزاب

التذكير بنعمة النصر على الأحزاب وابتلاء المؤمنين

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾.

أولا: علاقة المقطع الرابع بالمقاطع السابقة:

قال سيد قطب: «يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدأه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه، لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين». [(٢)] وفي نصر المسلمين في هذه الغزوة نعمة عظيمة يمن الله تعالى بها على عباده المؤمنين المخلصين في تقواهم التي أمر الله تعالى بها في أول السورة

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج:٣، ص: ١٢٧٠، رقم الحديث: ٣٢٥٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج:٤، ص: ١٨٣٧، رقم الحديث: ٢٣٦٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢١، ص: ٢٨٣٦.

فكان النصر الإلهي نتيجة لتلك التقوى والتوكل الحقيقي على الله تعالى، فهذه النعمة تذكر المؤمن بأن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من الله الخالق وحده لا من خلقه لأن الأمر كله بيد الله تعالى، فمن كان مع الله كان معه كل شيء، ومن لم يكن معه الله فلا شيء معه ولو ملك كل مقومات القوة الظاهرية، لذا يقول الفخر الرازي في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: «تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد... والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره، ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن»[1].

ثانيا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يذكر الله تعالى عباده المؤمنين بنعمة من نعمه العظيمة عليهم، إذ نصرهم في غزوة الأحزاب وهم أذلة ضعفاء يخافون أن يغلبوا من كثرة عدوهم الذي كان زهاء اثنتي عشرة ألفا من قريش وغطفان وقبيلتي بني النضير وقريظة من اليهود، وتذكير النعمة يراد به شكران المنعم سبحانه، فهو الذي أيد المؤمنين ونصرهم بجنوده التي لايعلمها إلا هو، وفي هذه المرة كانت الريح هي أهم تلك الجنود وأبرزها حيث حسمت الريح المعركة بعد أن استمر حصار المدينة زهاء خمسة وعشرين يوما، حسمت الريح المعركة لصالح المسلمين، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)،[2] وأرسل الله تعالى نوعا آخر من الجنود وهم الملائكة لنجدة المسلمين «وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم، وسفت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، ج:٤، ص:١٥٠٧، رقم الحديث: ٣٨٧٩، ومسلم، صحيح مسلم، ج:٢، ص:٦١٧، رقم الحديث: ٩٠٠، والنسائي، سنن النسائي، ج: ٦، ص: ٤٥١، رقم الحديث: ١١٤٦٧،

بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال». [١]

الله أكبر وأَعظِمْ به من نصر، الله أكبر وأَعظِمْ بها من معركة، سلاحها الفتاك هو الريح والملائكة والرعب، فمن كان معه الله سخر له ما يشاء، نصر الله المؤمنين بالرغم من إتيان الأعداء من كل الجهات فحاصروا المدينة المنورة حصارا شديدا، أتى النصر من الله البصير بأعمال المؤمنين الصادقين في نصرة دينه وذلك بعد أن اشتد الامتحان وعظم فزاغت الأبصار واضطربت القلوب وخافت وظن المؤمنون أنهم ممتحنون فخافوا من الزلل، وظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون، ولكن خابت ظنون المنافقين ونصر الله عباده المتقين.

واختبر المؤمنون اختبارا عظيما واضطربوا اظطرابا شديدا من هول الموقف وبسبب خيانة المنافقين واليهود وهجوم الكافرين عليهم، إلا أنهم كانوا متيقنين بنصر الله تعالى لهم، فحقق الله تعالى لهم وعده، ونصرهم على الأحزاب.

ثالثا: المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

يتناسب الكلام عن غزوة الأحزاب مع محاور السورة في الحديث عن غزوة الأحزاب ثم في بيان مكانة النبي ﷺ وشمائله الرفيعة وأخلاقه الكريمة فقد كشفت هذه الغزوة العصيبة -التي امتحن الله تعالى فيها المسلمين امتحانا عسيرا -عن المعدن الثمين الكريم للنبي ﷺ الذي كان همه نصرة الدين والإشفاق التام والمحبة الشديدة لأصحابه الكرام من خلال اشتراكه معهم في حفر الخندق ومن خلال دعوته لهم إلى الطعام الذي أعده جابر وغير ذلك من أمور تجلت في هذه الغزوة، [٢] وكشفت أيضا عن معدن الصحابة الكرام الذين وقفوا لجانب النبي في أحلك الساعات وأشدها حيث زلزلوا زلزالا شديدا ولم يثنهم ذلك عن تأييده والتضحية

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٤.

(٢) قارن بعبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ٥٥، وصالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، (الشارقة: جامعة الشارقة، ٢٠٠٦)، ص: ٢٧٣-٢٧٤.

في سبيل الله تعالى. وكذلك فإن نصر الله تعالى للمؤمنين في أشد حالات الضعف وتأييده لهم في أقوى حالات الوهن وقوة بطش أعدائهم عدة وعددا إذ كان الأحزاب اثني عشر ألفا من مختلف قبائل العرب واليهود كل ذلك يؤكد ضرورة الإخلاص لله تعالى والاعتماد عليه إذ إن هذا الإخلاص والتوكل على الله حق التوكل كان أحد أهم أسباب النصر حيث تجلى ذلك في سلوك النبي ﷺ الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، وهذا أحد أهم مقاصد السورة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾، أما المنافقون فقد محصتهم هذه الغزوة، وكشفت عن كفرهم الدفين، فميز الله بين الخبيث والطيب والكافر والمؤمن.

ثالثا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع:

* أن يشكر الإنسان ربه على ما أنعم عليه من نعم كثيرة، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يستطيع أداء هذا الشكر ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشكر له نتائج جميلة قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١]، وأعظم أنواع الشكر عبادة الله وأداء الفرائض وأولها الصلاة فقد جاء عن ابن مسعود أنه قال: «من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه عقبها فقد شكر لهما». [١] وربنا سبحانه أرأف بنا من أمهاتنا، فهو يستحق الشكر والحب لما يغذونا من نعم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)، [٢] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته وأدخله في محبته قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: من إذا أعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر). [٣]

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج:٢، ص: ١٠، رقم الحديث: ٥٠٤.
(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج: ٣، ص: ١٦٢، رقم الحديث: ٤٧١٦، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج: ١، ص:٢١٤، رقم الحديث:٤٣٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد فإن عمر بن راشد شيخ من أهل الحجاز من ناحية المدينة قد روى عنه أكابر المحدثين.

* أن الله تعالى يسخر لعباده المتقين أسباب النصر فيؤيدهم بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ولكن المهم هو أن ننصر الله حتى ينصرنا.
* إن الريح هي جند من جنود الله تعالى وكذلك الملائكة يرسلهم لنصرة أوليائه، كما حدث للمسلمين في غزوة الخندق.
* حسن الظن بالله تعالى ضروري فلا يظن العبد بربه إلا خيرا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني). [1]
* الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين بأشد أنواع البلاء حسب درجاتهم ليرفع مقاماتهم عنده، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].
* وردت في كتب السير تفصيلات عن غزوة الخندق ارتأينا أن لا نذكرها هنا منعا للإطالة ولكننا نذكر بعض الفوائد والبصائر المستنبطة من هذه المعركة:

أ-المسلم منفتح على كل جديد نافع لأمته والحكمة ضالته أينما وجدها التقطها، ولهذا فقد أخذ النبي ﷺ بمشورة سلمان الفارسي ﷺ فحفر الخندق حول المدينة، وشكل هذا الخندق مفاجأة حربية كبيرة للأحزاب وكان أحد أهم أسباب هزيمتهم.

ب-تحققت معجزات عديدة في هذه الغزوة ومنها بركة تكثير الطعام في شاة جابر التي كفت ألفا وثمانمائة من أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا يحفرون الخندق، ومنها: «إخباره ﷺ عن أمور ستحدث في مستقبل الإسلام من فتح الشام والعراق واليمن، وهم في أضيق حال... وإرسال الله تعالى الصحابي نعيم بن مسعود ليثبط همة الأحزاب ويفرق شملهم، فقد كان من غطفان، وكان نديما لليهود في الجاهلية، وكان معروفا لقريش بوده، وفراقه لمحمد ﷺ، فاستطاع بطريقة ذكية أن يشكك اليهود بالمشركين، وغطفان بقريش، وقريشا بالطرفين». [2]

---

(١) الحميدي، الجمع بين الصحيحين، ج: ٣، ص: ٧، رقم الحديث: ٢١٧٠.

(٢) صالح أحمد رضا، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، ص: -٢٧٤.

ج-ظهور غدر اليهود وعداوتهم الشديدة للرسول ﷺ وذلك بتأليب بني النضير للأحزاب وبنقض بني قريظة للعهد، وهذا تصديق لقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ﴾ [المائدة: ٨٢]، حيث إن اليهود والمشركين تحزبوا للقضاء على الإسلام في هذه الغزوة، ولكن الله تعالى خيبهم وخذلهم وأهلك طائفة منهم وهم اليهود، ولما علم النبي ﷺ بخيانة اليهود العهد قال رسول الله: (الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين)، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين. (١)

د-ظهر النفاق في هذه الغزوة واضحا وهو ما ستبينه الآيات القادمة، وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز؟. (٢)

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٤٧، والطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٢٨.

المقطع الخامس

فضح موقف المنافقين في هذه المعركة وبيان صفاتهم القبيحة

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أولا سبب النزول:

١- في قوله تعالى: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإن العلماء يذكرون حادثة حفر النبي للخندق وما بشرهم به النبي من فتوحات لبلاد فارس والروم وغيرها ثم يقولون: قال معتب بن قشير: كان محمد يرى أن يأكل من كنز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط [١] إلا قتل، هذا والله الغرور، فأنزل الله تعالى في هذا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.[٢]

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٧٥.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٧٧-٥٧٨.

٢- قال أوس بن قيظي في ملأ من قومه من بني حارثة: (إن بيوتنا عورة) وهي خارجة من المدينة ائذن لنا فنرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا فأنزل الله على رسوله حين فرغ منهم ما كانوا فيه من البلاء يذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم بعد سوء الظن منهم ومقالة من قال من أهل النفاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾.[1]

٣- قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ ﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ فقال له: أنت ها هنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: هلم إلى هذا فقد بلغ بك وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبدا، فقال: كذبت والذي يحلف به، قال: -وكان أخاه من أبيه وأمه- أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال: فوجده قد نزل جبرائيل عليه السلام بخبره: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.[2]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع السابق:

بعد أن بين الله تعالى نعمته على عباده المؤمنين في هذه المعركة وما حدث لهم من الابتلاء العظيم، أوضح أنواع الظنون التي كانت تختلج في نفوس المنافقين وفضح أعمالهم وأقوالهم الشنيعة وصفاتهم القبيحة التي ظهرت في هذه المعركة.

وهذه الأمور التي ذكرها الله تعالى عن المنافقين تنطبق على المنافقين في كل زمان ومكان وكما يقول سيد قطب: «فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»،[3] ذكرها الله تعالى لنا لنحذرها ونعرف صفات عدونا.

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج:٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩، وقارن بالسيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٥٨٠-٥٨١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٣٨.

ثالثا: المعنى الإجمالي للآيات:

تبين هذه الآيات الكريمة حالة المنافقين مع الأمة الإسلامية ومع الرسول ﷺ في حالة الشدائد وتفضحهم. فتبدأ الآيات ببيان كفرهم بإنكار وعد الله الصادق فيما وعدهم الله ورسوله من نصر في بداية معركة الأحزاب، واعتبار الوعد وعدا كاذبا، ولهذا لم يكن لهم دافع للقتال لعدم إيمانهم، فمنهم من بدأ يثبط المؤمنين ويطلب منهم الرجوع إلى المدينة وترك ساحة المعركة، وقسم آخر بدأ يستأذن من الرسول للرجوع إلى المدينة وساق الأعذار الكاذبة بادعاء أن بيوتهم عورة أي مكشوفة على الأعداء فهم يريدون الرجوع إلى بيوتهم ليدافعوا عن أعراضهم وأولادهم، فنفى القرآن أن يكون كلام هؤلاء صادقا ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾، وإنما الهدف هو سوق العذر أيا كان بهدف الفرار من المعركة، وهذا هو شأن المنافق حيث يترك المؤمنين في أشد الحالات وأصعبها ليواجهوا الصعاب، فالمنافق غدار كذاب. إنهم سريعون في غدرهم وارتدادهم عن الدين، فلو أن الأحزاب اجتاحوا المدينة ودخلوها من مختلف أطرافها، ثم سيطروا على المدينة وسألوا المنافقين أن يؤيدوهم ويرتدوا، لفعلوا هذا الأمر بسرعة وبدون تردد. وغدرهم ونقضهم للعهود هو من صفاتهم المتأصلة فيهم، فهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل المعركة أن لا يهربوا من المعركة إلا أنهم خانوا وسيسألهم الله ويحاسبهم على نقضهم العهد. وإذا كان الأجل محتما على الإنسان وله وقت محدد معلوم عند الله تعالى ولا يمكن لأحد أن يهرب منه فقد قرر القرآن الكريم أن فرار المنافقين من ساحة القتال كي لا يقتلوا أو يموتوا لن يؤخر ذلك إتيان الأجل لأن ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح: ٤]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]، وهم وإن توهموا أنهم قد نجوا مؤقتا من الموت إلا أنهم سيمكثون فترة زمنية يسيرة في هذه الدنيا ثم يأتيهم أجلهم الذي قضاه الله تعالى عليهم. والحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يعصم أحدا أو أن يمنعه من وقوع قضاء الله عليه سواء كان ذلك القضاء خيرا أم شرا، فالله تعالى مالك الملك وبيده ملكوت كل شيء. وإن الله عليم بأفعال المنافقين الشنيعة وصفاتهم القبيحة فهم يشيعون الإشاعات ليمنعوا المؤمنين ويثبطوهم

عن الذهاب للقتال في سبيل الله، ويطلبون من إخوانهم في الدين والرأي أن اتركوا ساحة القتال والتحقوا بنا في المدينة، ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا ودفعا عن أنفسهم[١] من أن يتهمهم المؤمنون فهم يقاتلون رياء. وأما صفاتهم القبيحة الأخرى فهم أشحة عليكم و«الشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير، وأصله عدم بذل المال، ويستعمل مجازا في منع المقدور من النصر أو الإعانة... والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي إذا حضروا البأس -وهو القتال- منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحهم بأنفسهم وكل ما يشح به»، [٢] قال الطبري: «إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح ولم يخصص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى فهم كما وصفهم الله به أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين». [٣] وأما الصفة القبيحة الثانية لهؤلاء المنافقين فهي جبنهم الشديد عند رؤيتهم للأعداء في ساحة المعركة وهم يلوذون بك وينظرون نظر الهلع المختلط الذي تدور عيناه في كل الجهات المحيطة وتضطربان كاضطراب عيني الذي يغشى عليه بسبب النزع عند سكرات الموت. [٤] وأما الصفة القبيحة الثالثة لديهم فهي أنهم إذا ما انتهى القتال وذهب الخوف آذوكم وخاصموكم بكلام مستكره وبألسنة سلطة ذربة، قال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين. [٥] و«قال قتادة ومعناه: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا أعطنا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، قال النحاس: هذا قول حسن لأن بعده أشحة على الخير». [٦] فهم أشحة على الخير أي هم

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٣٩.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٥-٢٩٦.
(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٠.
(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ١٠، ص: ٢٩٦-٢٩٧.
(٥) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص: ١٦٥.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج، ١٤، ص: ١٥٤.

بخلاء حريصون على مال الغنائم إذا ظفر المؤمنون، [١] وذهب أبو حيان إلى عموم الخير. [٢]

ولأن المنافقين كفرة أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر فقد أبطل الله أعمالهم، وهذا الأمر هين وسهل على الله عز وجل. والمنافقون من شدة خوفهم يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا والحال أنهم تركوا حصار المدينة وذهبوا، ويتمنى المنافقون من شدة الخوف والجبن أنه إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا في حينها قد خرجوا إلى البادية مع الأعراب خوفا من القتل ويتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ولو كانوا معكم في المعركة ما نفعوكم وما قاتلوا المشركين إلا قليلا، أي إلا تعذيرا، لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب، [٣] بل يقاتلون رياء فلا أجر لهم، ولو كان قتالهم لله تعالى لكان أجرهم عظيما وكثيرا.

رابعا: المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

بما أن محور السورة يدور حول الإخلاص لله تعالى والتوكل عليه بين القرآن الكريم فئة من الناس مرضى النفوس والقلوب، لا تتقي الله تعالى ولا تخلص له سبحانه وتعالى في اعتقادها ولا في أعمالها، فهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، وهم يراؤون الناس في أعمالهم الصالحة وهم غير مخلصين في أداء الأعمال: ففي الصلاة: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، وفي القتال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وفي الإنفاق يبغون الشهرة، وكذلك في سائر أعمالهم. وهذا النوع من الناس لا يتوكلون على الله تعالى في أعمالهم، فهم مضطربون في إيمانهم يظنون بالله ظن السوء بدليل قولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، ويخونون العهود، ويظنون أنّ باستطاعتهم الفرار من الموت الذي قضاه الله تعالى. وفي سوق صفات المنافقين هذه حث للمؤمن على الحذر من الوقوع في هذه الصفات تحقيقا للإخلاص الكامل لله تعالى. وكذلك فإن في سوق هذه الآيات عن المنافقين توضيح لعظمة النبي ﷺ في صبره على هذا

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤١.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢١، ص:١٦٥.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٢-١٤٣.

الصنف من الناس لنقتدي به في التعامل مع المنافقين المبثوثين في الأمة الإسلامية.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس:

* إن المنافق مريض القلب والنفس، قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [البقرة: ١٠].
* المنافق يظن بالله تعالى ورسوله ظن السوء.
* المنافق لا يقاتل عن عقيدة ولهذا إذا وجد الفرصة للهرب من أي مهمة صعبة فهو لا يتحمل المسؤولية بل يتنصل من واجباته.
* لا يحافظ المنافق على العهود مع الله تعالى، فهو يخونها وسيسأله الله ويحاسبه على ذلك يوم القيامة، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].
* إن قدر الله تعالى لا يمكن أن يفر منه أحد، فإذا قدر الله شيئا فهو كائن لامحالة، فعلى الإنسان ألا يفر من قضاء الله بل أن يتلقاه بكامل الرضا والقبول.
* من أهم صفات المنافقين التي يجب الابتعاد عنها: الشح والبخل وعدم حب الخير للآخرين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٤].
* إن المنافقين جبناء إلى درجة عالية بحيث إذا وقعوا في مصيبة كالحرب تراهم مضطربين كالميت الذي ينازع في السكرات تتحول عيناه يمنة ويسرة من هول ما يعانيه.

المقطع السادس

الرسول هو الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام هم نجوم يهتدى بهم

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

«قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر ﷺ سميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع، قال فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ، فقال له أنس ﷺ: يا أبا عمرو أين واها لريح الجنة إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل ﷺ، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال فنزلت هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة به ورواه النسائي أيضا وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ﷺ به نحوه». [١]

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٧٦، وقال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، الترمذي، سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٣٤٨، رقم الحديث: ٣٢٠٠.

ثانيا: علاقة المقطع السادس بالمقطع السابق:

هذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به ومن غير المؤمنين، فالمؤمن عليه أن يكون مع رسول الله حيثما كان وألا يتخلف عنه لأن النبي ﷺ قدوة له حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق، (١) وأما المنافق فتقوم عليه الحجة، ولما أخبر تعالى عن المنافقين «بهذه الأحوال التي هي غاية في الدناءة، أقبل عليهم إقبالا يدلهم على تناهي الغضب، فقال مؤكدا محققا لأجل إنكارهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ أيها الناس كافة الذين المنافقون في غمارهم ﴿ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الذي جاء لإنقاذهم من كل ما يسوءكم، وجلاله من جلاله المحيط بكل جلال، وكماله من كماله العالي على كل كمال، وأشرف الخلائق، فرضيتم مخالطة الأجلاف بدل الكون معه»، (٢) ومقابل هذه الصورة القاتمة للمتخلفين عن القتال وللمثبطين عنه من المنافقين كان هناك صورة رائعة يرسمها الرسول الأسوة الحسنة وأصحابه الكرام، صورة «مطمئنة وسط الزلازل، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب»، (٣) وكذلك رسم أصحاب رسول الله صورة الواثق بنصر الله الموفي بعهد الله تعالى، فكانوا بذلك قدوة لمن يأتي بعدهم من المؤمنين على مر العصور «ونموذجا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير». (٤)

ثالثا: المعنى الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هو أصل عظيم في وجوب

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢١، ص: ١٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٥٥.

(٢) الإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، الطبعة الأولى، ج:٦، ص: ٩٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤١.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٤.

الاقتداء برسول الله في كل الأمور واتباع سنته السنية، ومن لم يقتد به فقد ضل ضلالا بعيدا. فهو القدوة الحسنة لكل المسلمين في أقواله وأفعاله وأحواله، ففي غزوة الخندق بذل نفسه لنصرة دين الله فشارك في حفر الخندق، وجاع مثلما جاع المسلمون، فعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين) أخرجه أبو عيسى الترمذي وقال: حديث غريب، وقال ﷺ لما شج: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، فقد ضرب النبي ﷺ المثل للمسلمين في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، ولقد شج وجهه وكسرت رباعيته وقتل عمه حمزة وجاع بطنه ولم يلف إلا صابرا محتسبا وشاكرا راضيا،[١] فألف ألف صلاة وسلام عليه، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.[٢] ومعنى الأسوة الحسنة كما يقول الزمخشري: إما أنه في نفسه أسوة حسنة أي قدوة وهو المقتدى به، وإما أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع وهي المواساة بنفسه،[٣] ولهذا قال البغوي:

«اقتداء حسن أن تنصروا دين الله وتوازنوا الرسول ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه، وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا انتم كذلك أيضا واستنوا بسنته».[٤]

والذي يقتدي برسول الله ويتخذه قدوة حسنة إنما هو ذاك المؤمن الذي يرجو ثواب الله تعالى ويخافه، ويرجو الثواب يوم القيامة ويخاف عذاب الله تعالى فيه، والمؤمن الصادق يذكر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص: ١٥٥-١٥٦.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣ ص٤٧٥.
(٣) الزمخشري، الكشاف، ج: ٣، ص: ٥٣٩.
(٤) البغوي، تفسير البغوي، ج ٣ ص ٥١٩.

الله تعالى كثيرا فإن من ذكر الله كثيرا خافه ولان قلبه ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وذكر الله يؤدي لملازمة الطاعة، ومن ثَم يلزم عنها محبة رسوله ﷺ والاقتداء به، وفي ذكر هذه الصفات رد على المنافقين الذين لم يقتدوا برسول الله ﷺ حيث لم يتوفر لديهم الرجاء في ثواب الله تعالى والخوف من عذابه، وهم لا يذكرون الله إلا قليلا. فاللهم اجعلنا من الذاكرين الله ذكرا كثيرا، والمقتدين برسولك الكريم اقتداء صحيحا. وقد ضرب لنا أصحاب النبي مثلا عظيما في حسن الاتباع به ﷺ والالتزام بسنته السنية، فمثلا: أخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم بن عمر قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة ولا بعدها، فقال: يا بن أخي صحبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا فلم أره يصلي قبل الصلاة ولا بعدها. [(١)] وأخرج ابن ماجه عن إسحاق بن قَبِيصَةَ عن أبيه: أَنَّ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ النَّقِيبَ صَاحِبَ رسول اللَّهِ ﷺ غَزَا مع مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّوم فَنَظَرَ إلى الناس وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كِسَرَ الذَّهَبِ بِالدَّنَانِيرِ وَكِسَرَ الْفِضَّةِ بِالدَّرَاهِم فقال: يا أَيُّهَا الناس إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرِّبَا، سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: لَا تَبْتَاعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إلا مِثْلاً بِمِثْلٍ لَا زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا ولا نَظِرَةً، فقال له مُعَاوِيَةُ: يا أَبَا الْوَلِيدِ لَا أَرَى الرِّبَا في هذا إلا ما كان من نَظِرَةٍ، فقال عُبَادَةُ: أُحَدِّثُكَ عن رسول اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عن رَأْيِكَ، لَئِنْ أَخْرَجَنِي الله لَا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لك عَلَيَّ فيها إِمْرَةٌ، فلما قَفَلَ لَحِقَ بِالْمَدِينَةِ، فقال له عُمَرُ بن الْخَطَّابِ: ما أَقْدَمَكَ يا أَبَا الْوَلِيدِ فَقَصَّ عليه الْقِصَّةَ وما قال من مُسَاكَنَتِهِ، فقال: ارْجِعْ يا أَبَا الْوَلِيدِ إلى أَرْضِكَ، فَقَبَحَ الله أَرْضاً لَسْتَ فيها وَأَمْثَالُكَ، وَكَتَبَ إلى مُعَاوِيَةَ: لَا إِمْرَةَ لك عليه، وَاحْمِلْ الناس على ما قال فإنه هو الْأَمْرُ. [(٢)] وهناك حوادث كثيرة

---

(١) مسند أبي عوانة، ج:٢، ص: ٦٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج:١، ص:٨، رقم الحديث: ١٨. مصنف عبد الرزاق، ج: ٨، ص: ٣٤، رقم الحديث: ١٤١٩٣.

أكثر من أن تحصى تؤكد التزام الصحابة الكرام باتباع الرسول ﷺ التزاما دقيقا حتى قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا. [(١)]

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ﴾ من الابتلاء ثم قالوا ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾، في مقابلة قول المنافقين: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[(٢)] فلما عاين المؤمنون جماعات الأحزاب قادمة بحماسة لمحاربتهم علموا أنهم سيبتلون بشدائد عظيمة وأنهم سينتصرون في النهاية على الأحزاب، [(٣)] وزادهم هذا الأمر إيمانا بالله تعالى حيث عاينوا ما وعدهم الله حسا في عالم الشهادة بعد أن سبق وأخبرهم به قبل وقوعه، وزادهم تحقق هذا الوعد تسليما بما يخبرهم به الله ورسوله من أمور غيبية أو غيرها، قال الطبري: «وعدهم بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم وتسليمهم لأمره الثناء فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانا بالله وتسليما لقضائه وأمره ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء». [(٤)]وفي إظهار اسم الله واسم الرسول في قوله: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ زيادة تعظيم لله تعالى فلم يقل: وصدقا. وذكر الصدق هنا تأكيد للوعد الذي وعدهم الله تعالى ورسوله به، قال ابن عطية: هذا « ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا: ﴿ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ﴾ وقد وقع، وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس. [(٥)] وشأن المؤمن أن يزداد إيمانه ويسلم أمره لله تعالى كلما

---

(١) البغوي، تفسير البغوي، ج: ١، ص: ١٨٢.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

(٣) محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، دار المعارف ص٥٥٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٤٤.

(٥) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٣٧٧.

رأى آية من آيات الله تعالى الكونية أو القرآنية. وقد جمع الله تعالى هنا لهم بين وصفي الإيمان الذي هو التصديق القلبي، والإسلام عبر كلمة تسليما والتي هي صيغة مبالغة من الإسلام، ليشير إلى أنهم سلموا لقضاء الله وقدره بجميع جوارحهم.[١]

ومقابل صورة الخائنين للعهود غير الموفين بها من المنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾، يرسم القرآن لنا صورة رجال مؤمنين صادقين وفوا بعهودهم فقال تعالى: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ﴾ فمن المؤمنين الكاملي الإيمان رجال أوفوا بعهودهم مع الله تعالى، وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من وفّى بنذره فاستشهد في سبيل الله كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم من الصحابة الكرام، ومنهم من يتنظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة،[٢] كعلي بن أبي طالب وطلحة اللذين كانا حيين عند نزول هذه الآية، فعن مُوسَى بن طَلْحَةَ قال: دَخَلْتُ على مُعَاوِيَةَ فقال ألا أُبَشِّرُكَ؟ قلت: بَلَى، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ،[٣] فهؤلاء الرجال المؤمنون ما غيروا عهد الله ولا بدلوه كما غير المنافقون، ولا نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾. ونتيجة الطاعة والوفاء بالعهد أن الله تعالى يثيب أهل الصدق بسبب صدقهم، وأما الغدارون من المنافقين فيعذبهم إن شاء تعذيبهم بأن لا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا النار، أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، إن الله كان دائما غفورا لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا، رحيما بهم، حيث

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٢.

(٢) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ج:٥، ص: ٣٥٠، رقم الحديث: ٣٢٠٢، وقال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إلا من هذا الْوَجْهِ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عن مُوسَى بن طَلْحَةَ عن أبيه.

وفقهم للتوبة النصوح.[1]

رابعا: المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

يبين القرآن لنا هنا مكانة النبي من أمته فهو جدير بأن يؤتسى به، فهو القدوة الحقيقية لكل المؤمنين وهو الإنسان الكامل حقا. وكذلك ربى النبي ﷺ أصحابه على الصدق والوفاء بالعهود والإيمان الكامل والاعتماد على الله حق الاعتماد ليكونوا نموذجا عمليا لنا، وبسبب تطبيقهم هذه الصفات اسحقوا هذا المدح من الله تعالى، وهذان الأمران من أهم محاور السورة.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس:

* أن يتخذ المسلمون من رسول الله ﷺ قدوتهم الوحيدة في الحياة.
* إن من مستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر اتباع الرسول ﷺ المعرف بهما حق التعريف.
* من شأن المؤمنين حقا: التصديق بما وعد الله عباده المؤمنين في القرآن من أمور غيبية وكذلك بما وعدهم وبشرهم به الصادق المصدوق ﷺ، وأن يسلموا نفوسهم لقضاء الله وقدره في الحياة الدنيا دون اعتراض.
* مدح الله تعالى أصحاب النبي ﷺ مدحا عظيما لا يمكن لأحد أن يمدحهم به أو أن يدركهم به، وذلك كي نقتدي بهم قدر الإمكان، فهم أولا رجال مؤمنون حقا، صادقون في عهودهم مع الله تعالى، باعوا نفوسهم له وضحوا بها في سبيله حتى آخر لحظة من حياتهم. ولهذا وجب تعظيمهم واحترامهم رضي الله عنهم أجمعين.
* إن خير ربح هو في بيع النفس والمال الذي نملكه لله تعالى الذي هو المالك الحقيقي لكل شيء، فمن باع نفسه وماله لله يربح الجنة ويرتاح من متاعب الحياة ووطأة تكاليفها ويرتاح من الخوف من المستقبل، لأن المؤمن يسعى ثم يترك النتائج دائما للخالق سبحانه ويسلم له

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٤٢١.

كل أموره، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

* إن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكذلك من عمل سوءا يجز به، وإن باب التوبة مفتوح لمن أراد أن يدخله حتى ولو اقترف أكبر الكبائر فإن الله تواب وغفور رحيم سبحانه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، فسبحان من سبقت رحمته غضبه.

المقطع السابع

نتيجة المعركة ونتيجة خيانة اليهود

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

أولا: المعنى الإجمالي للآيات:

رد الله تعالى الذين كفروا من قريش وغطفان خائبين خاسرين مغتاظين مغمومين لم ينالوا الخير في الدنيا بالنصر على المسلمين، ولا في الآخرة، وكفى الله القوي العزيز الذي لا يغلب المؤمنين القتال بأن أرسل على الأحزاب الريح والجنود التي لم يروها وهم الملائكة. وهزم اليهود الذين أيدوا الأحزاب بأن أنزلهم أذلة صاغرين من حصونهم، فأقام النبيُ ﷺ عليهم حكم الله تعالى فيهم من فوق سبع سماوات فقتّل الرجال وأسر النساء والأطفال. وأورث الله تعالى القدير على كل شيء المسلمين أرضهم الغنية بالزراعة والنخيل وبيوتهم، ووعد الله

تعالى المؤمنين بأن يرثوا في المستقبل أرضا لم يطؤوها بعد كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ ﴾ [النور: ٥٥]، وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوى لي منها)[١] ففتح المسلمون بعد فترة وجيزة من نزول هذه الآية الكريمة بلاد فارس والروم. وكذلك قدم قوله: (وأنزل) على قوله (وقذف) وإن كان قذف الرعب قبل الإنزال وذلك لأن الاهتمام والفرح بذكر الإنزال أكثر. [٢] وكذلك قدّم مفعول (تقتلون) وهو: (فريقا)، لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين، وكان الاعتناء بحالهم شديدا ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل بقاؤهم هناك بالأسر أشد، وكذلك للاهتمام بذكره لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى ولذلك لم يقدم مفعول (تأسرون) إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله، [٣] ولأنه لو قال: (وفريقاً تأسرون) فإذا سمع السامع قوله (وفريقاً) ربما ظن أنه يقال بعده يطلقون أو لا يقدرون على أسرهم. [٤] ومن النكات في الآية أن فيها ترتيبا بناء على ما حدث في الواقع فإن المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها، ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم، ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم. [٥]

وأما خلاصة قصة المسلمين مع اليهود كما يرويها الطبري: «عن قتادة قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج:٤، ص: ٢٢١٥، رقم الحديث: ٢٨٨٩.

(٢) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمّي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، ط١، ج: ٥، ص: ٤٥٧، وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٣

(٤) نظام الدين الحسن محمد بن حسين القمّي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج:٥، ص: ٤٥٧- وانظر محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٥.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٣، ص: ٢٠٦.

﴿ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان وراسلوه فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فبينا رسول الله عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه إذ أتاه جبرائيل فقال: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة فانهض إلى بني قريظة فإني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال، قال: فاستلأم رسول الله ثم سلك سكة بني غنم فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب، قال: فأتاهم رسول الله فحاصروهم وناداهم: يا إخوان القردة فقالوا يا أبا القاسم ما كنت فحاشا، فنزلوا على حكم ابن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأومأ إليهم أبو لبابة أنه الذبح فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا، قال: فإنكم كنتم ذوي عقار وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم، وذكر لنا أن رسول الله كبر وقال قضى فيكم بحكم الله». [١]

ثانيا: علاقة المقطع السابع بالمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى المؤمنين بنعمه عليهم بأن أرسل على أعدائهم جنودا لم يروها، وجعل رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وبين أحوال المنافقين والصادقين وجزاءهم، بعد كل هذا أوضح الله تعالى هنا تمام النعمة بأنه صرف الأعداء على كثرتهم وقوتهم بطريقة معجزة بقدرته وعزته فصدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم أوضح أنه لما «أتم أمر الأحزاب أتبعه حال الذين ألبوهم وكانوا سبباً في إتيانهم من اليهود كحيي بن أخطب والذين مالؤوهم على ذلك ونقضوا ماكان لهم من عهد فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، »[٢] فتجلت بذلك قدرة الله تعالى على كل ما يظنه الناس مستحيلا، وكافأ عباده الضعفاء الفقراء فقواهم بالنصر على الأعداء، وأغناهم بأن أورثهم أرض الأعداء وديارهم ووعدهم بالاستيلاء على أراض أخرى.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢١، ص: ١٥٥.

(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب بين الآيات والسور، ج:٦، ص: ٩٥-٩٦.

ثالثا: المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

لما كان المسلمون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ متعلقين بالله وحده، ومستسلمين لقدره، وواثقين بوعده، كافأهم الله تعالى بالنصر على أعدائهم والظفر بهم، ووعدهم بفتح أماكن أخرى نتيجة لهذا الاستمساك والاعتصام به سبحانه، وقد أنجز الله تعالى فعلا وعده.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع:

* إن عاقبة الكافرين والمعادين للإسلام هي الخذلان في الدنيا والآخرة ولنا في مصير الأحزاب ومن أيدهم من اليهود عبرة.
* إذا شاء القدير العزيز سبحانه أن ينصر عباده المستضعفين في الأرض على أعدائهم الأقوياء فإنه ينصرهم، ومن هنا على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يستمدوا العون من القوي العزيز وحده لا من الشرق أو الغرب، وأن يردوا الأمر كله لله، وبهذا فإن القرآن يرسخ في قلوب أتباعه الاعتقاد برد الأمر كله إلى الله تعالى ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس[1].
* نصر الله نبيه محمدا ﷺ بالرعب وهذا ما حدث مع اليهود والأحزاب.
* إن الله وعد المؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات أن يستخلفهم في الأرض ويبدلهم بعد الخوف أمنا، وصدق الله وعده إذ أورث المسلمين أرضا لم يكونوا قد وطئوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلادا أخرى كبيرة وكثيرة.[2]
* إن من شأن اليهود على مدى التاريخ الغدر وخيانة الأنبياء ورسالاتهم، ولهذا كان عاقبتهم السوء، فعلينا أن لانثق بعهودهم ومواثيقهم لأن شأنهم دائما هو الخيانة والغدر خصوصا

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٩.

(٢) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨

مع المسلمين، (١) وقد عبر سيد قطب عن ذلك أحسن تعبير عندما قال: «ومنذ هذا اليوم -أي غزوة الخندق- بدأت الحرب التي لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام واليهود». (٢)

* على المسلم أن لا يخون العهود وأن لا يخون المسلمين فيدل الأعداء على أسرار المسلمين، وفي إخبار أبي لبابة لليهود عما سيقوم الرسول ﷺ به تجاههم ثم توبته من ذلك مثل لكل مؤمن كي لا يقدم على مثل ما فعله أبو لبابة ﷺ، وكذلك ضرب لنا أبو لبابة مثلا في اعتراف العبد بذنبه ورجوعه عنه.

المقطع الثامن

النبي ﷺ مع زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين

تخيير النبي ﷺ لزوجاته أن يطلقهن أو يبقيهن معه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

مما ذكره أهل التفسير في سبب نزول هذه الآيات: « أن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئا من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرا وصعد إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت هذه الآية، وكن أزواجه يومئذ تسعا: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة أم سلمة وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش

(١) أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ص: ١٠١٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢١، ص: ٢٨٤٦.

وجويرية بنت الحارث فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن فبدأ بعائشة فاختارت الله ورسوله ثم قالت: يا رسول الله لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال: إن الله بعثني مبلغا ولم يبعثني متعنتا»[(١)] والقصة بطولها مذكورة في كتب الحديث[(٢)] والتفسير.

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابق:

لما نصر الله نبيه ﷺ، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وطلبن منه أمرا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات. وروي أيضا أن بعضهن سألنه أشياء من زينة الدنيا، وقلن: « يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول (الخدم)، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق»، يعني أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة، فغم النبي ﷺ وآلمن قلبه بمطالبهن له بتوسعة الحياة، وقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ من مطالبة نسائه له بالنفقة وبسط الحياة مبلغا كبيرا أدى لأن يعتزلهن شهرا، وأزواج النبي ﷺ آنذاك تسع سبق ذكر أسمائهن. [(٣)] وقيل أيضا: إن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ، وكان قد تأذى من بعض زوجاته. [(٤)]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٦.

(٢) انظر القصة بتفاصيلها في كل من صحيح البخاري، ج: ٢، ص: ٨٧١-٨٧٣، رقم الحديث: ٢٣٣٦. وصحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٢٠٣، رقم الحديث: ١٧٤٥.

(٣) قارن بالسعدي، تفسير الكريم الرحمن، ج:٦، ص:١٠٤، والزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٢٥٨، والطبرسي، مجمع البيان، ج: ٨، ص: ١٣٣، ووهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج١٢، ص: ٢٨٩ – ٢٩٠، وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤ – ٣١٥، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٥، ص: ٢٨٥٤، والصابوني، صفوة التفاسير، ج:١٢، ص: ٥٨.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٠، ص: ٣١٤.

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

يأمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بأن يخير نساءه اللاتي اجتمعن عليه يطلبن منه زيادة النفقة، بين أن يفارقهن دون ضرر أو إيذاء فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله وما أعدَّ الله لهن في الدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة. [1] وفيما خيرهن فيه الرسول ﷺ قولان:

أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها، **والثاني:** أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن أو اختيار الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهن في الطلاق، قاله الحسن وقتادة.

وفي سبب تخييره إياهن ثلاثة أقوال:

«**أحدها:** أنهن سألنه زيادة النفقة، **والثاني:** أنهن آذينه بالغيرة، والقولان مشهوران في التفسير، **والثالث:** أنه لما خير بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة أمر بتخيير نسائه ليكن على مثل حاله حكاه أبو القاسم الصيمري». [2]

رابعا: المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة:

بما أن أحد أهم محاورالسورة يدور حول مقام النبي ﷺ ومكانته وأنه الأسوة الحسنة لكل مؤمن، فقد بينت هذه الآيات الكريمة كيفية تعامل النبي ﷺ مع أسرته ومقام النبي الزوج، وهو الذي كان يقول: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). [3]

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج:٣ ص: ٤٨١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٦٧-٧٦٨.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير، ج: ٦، ص: ٣٧٧.

(٣) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:٩، ص: ٤٨٤، رقم الحديث: ٤١٧٧.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثامن:

* في الآيات حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته، ولو من أقرب الناس إليه وفيها أدب عال خاص ببيت النبوة ونسائه الطاهرات، وفيها ترفع عن حطام الدنيا وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.
* القول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية، أو الطلاق. فاخترن البقاء، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته. فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعده طلاقا، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق. [١]
* بيان حب النبي ﷺ لزوجه عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنها وعن أبيها حيث بدأ بتخييرها، وفيه بيان فضلها وفضل أمهات المؤمنين على غيرهن من نساء العالمين حيث إنهن اخترن رضاء الله تعالى ورضاء رسوله ﷺ على متاع الدنيا الزائل.
* أراد النبي ﷺ أن يرفع أزواجه إلى المستوى العالي المتجرد عن حظوظ الدنيا كي يكن قدوة لنساء العالمين، وفي ذلك دلالة واضحة على أن دعوة الرسول ﷺ لم يكن هدفها سوى رضاء الله عز وجل وأنه كان أزهد الزاهدين في الدنيا التي فتحت له أبوابها وغنائمها فأعرض عنها إلى الطاعة الخالصة لله عز وجل بالتجرد عن حظوظ الدنيا، وجعل الآخرة هي المقصد الأساس، قال النبي ﷺ: (من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلي أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، رفع له علم فشمر إليه، اليوم المضمار وغدا السباق، والغاية الجنة أو النار). [٢]

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٩٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ٩٩.

المقطع التاسع

بيان فضل نساء النبي ﷺ على سائر نساء العالمين ومستلزمات ذلك

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

أولاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يا نساء النبي مَن يأت منكن بمعصية ظاهرة يُضاعَف لها العذاب مرتين. فلما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل الله الذنب الواقع منهن عقوبته مغلظة؛ صيانة لجنابهن وجناب رسول الله ﷺ، وعلى قدر علو المقام يكون الملام، وبقدر النعمة تكون النقمة،[1] وكان ذلك العقاب على الله يسيراً. قال ابن كثير: «يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار والآخرة واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخيرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة»[2] يضاعف عذابها، ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل بما أمر الله به، نُعْطها ثواب عملها مثلَي ثواب عمل غيرها من سائر النساء وأعددنا لها رزقاً كريماً، وهو الجنة.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٤٨٣.

يا نساء النبيِّ -محمد- لستنَّ في الفضل والمنـزلة كغيركنَّ من النساء، إن عملتن بطاعة الله وابتعدتن عن معاصيه، فلا تتحدثن مع الأجانب بصوت لَيِّن يُطمع الذي في قلبه فجور ومرض في الشهوة الحرام، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، وقُلن قولا بعيداً عن الريبة، لا تنكره الشريعة. والْزَمْنَ بيوتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تُظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام، وهو خطاب للنساء المؤمنات في كل عصر. وأدِّين - يا نساء النبي - الصلاة كاملة في أوقاتها، وأعطين الزكاة كما شرع الله، وأطعن الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، إنما أوصاكن الله بهذا؛ ليزكيكنَّ، ويبعد عنكنَّ الأذى والسوء والشر يا أهل بيت النبي -ومنهم زوجاته وذريته عليه الصلاة والسلام- ويطهِّر نفوسكم غاية الطهارة. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من القرآن وحديث الرسول ﷺ واعملن به، واقدُرْنه حقَّ قَدْره، فهو من نِعَم الله عليكن، إن الله كان لطيفاً بكنَّ؛ إذ جعلكنَّ في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والسنة، خبيراً بكنَّ إذ اختاركنَّ لرسوله أزواجاً. (١)

ثانيا: المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع السابق:

نتيجة للعهد الذي عاهدن عليه رسول الله ﷺ وهو اختيار الله تعالى واختيار الرسول ﷺ، فإن الله عز وجل كرم نساء النبي فخاطبهن مباشرة، متوعدا من اقترفت ذنبا أو فاحشة بمضاعفة العذاب، وواعدا المحسنات منهن -وكلهن محسنات والحمد لله-أجرا عظيما، وأول بوادر هذا الأجر هو مضاعفة حسناتهن ووعدهن بجنة عرضها السموات والأرض. (٢) ولما كان مقامهن عظيما خصهن بأمور ليقتدى بهن لأنهن خير نساء العالمين:

١- النهي عن ترقيق الكلام بأن يكون لينا عذبا رخما. (٣)

٢- القرار في البيت وعدم الخروج إلا لحاجة.

---

(١) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص:٧٦٨- ٧٦٩.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج: ٢٥، ص: ١٧٩.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠١.

٣- عدم إظهار زينتهن التي يحرم إظهارها للأجانب.

٤- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

٥- تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى.

٦- أمرهن بتعليم غيرهن القرآن والسنة، وتذكر نعم الله تعالى عليهن[1] بأن جعلهن في أطهر بيت وبأن أذهب عنهن الرجس وطهرهم تطهيرا، فلتقتد نساء العالمين بخير نساء العالمين وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

ثالثا: المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

لما كان من أهم محاور هذه السورة بيان مكانة النبي ﷺ، اقتضى ذلك بيان فضل نسائه عليهن الرضوان والرحمة، ولما كانت هذه السورة تحث على الطاعة الكاملة والاستسلام لله تعالى وقد فعلت نساء النبي ﷺ ذلك واخترن الله ورسوله على الدنيا وزينتها، فقد كافأهن الله تعالى الكريم الرحيم ففضلهن على نساء العالمين وجعلهن قدوة يقتدى بهن.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع:

* إن الله عز وجل يخوف عباده بعدم الاقتراب من المعاصي والذنوب لأن في ذلك عذابا أليما، ولا يمنع القرب من النبي ﷺ مرتكب الذنب من أن يناله العقاب حتى ولو كن زوجاته بل العقوبة للأقرب تكون مضاعفة. وهذا من عدل الله تعالى، وأما نتيجة الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ فهو مضاعفة الثواب ودخول الجنة، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه.

* كل ما أمر الله تعالى به نساء النبي ﷺ من أوامر فهو أمر لنساء المؤمنين، وهن بالتالي مأمورات بتبليغ هذه الأوامر الربانية والنبوية للأمة: فليبلغ الشاهد الغائب، قال الزمخشري: أمرهنّ أن لا ينسين ما يتلى في بيوتهن «من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدلّ على صدق النبوّة لأنه معجزة بنظمه، وهو حكمة وعلوم وشرائع».[2]

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٧.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٥٤٦.

* هذه الآيات تدل على عظمة نساء النبي ﷺ وشرفهن وفضلهن على غيرهن من النساء، فهن لسن كأحد من النساء بشرط الالتزام التام بالتقوى.

* أول نتيجة للتقوى هي الابتعاد عما يغضب الله تعالى بتليين الكلام للأجانب إلى درجة تطمع الرجل بالمرأة التي أمامه. فالمرأة مأمورة بالقول المعروف وهو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس[١] السليمة.

* إن المرأة مأمورة أن لا تخرج من بيتها إلا لحاجة كقضاء حاجة أو عمل ضروري، وعليها أن تخرج محتشمة بحجاب العفة والطهر، لا كما تخرج كثير من نساء اليوم بلا حشمة كاسيات عاريات رؤوسهن كأسنمة البخت كما حدثنا النبي ﷺ، يخربن نفوس الشباب وعقولهم وأفئدتهم، ولهذا فهن لا يشممن رائحة الجنة.

* خص الله تعالى أمهات أركان الإسلام بوجوب الأداء كما في الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأن الصلاة تمثل رأس الشكر وهي عبادة بدنية وروحية وهي عماد الدين، وأما الزكاة فهي عبادة مالية تطهر النفس من الشح والمجتمع من الفقر، فهاتان العبادتان لهما آثار عظمى على النفس والمجتمع.

* **إن آل البيت** هم على الراجح عند أهل السنة والجماعة: أولاده ﷺ، وأزواجه[٢]، والحسن والحسين وعلي منهم، وكذلك بنو أعمامه: العباس وأبي طالب، [٣] وسياق الآيات يؤيد دخول الزوجات في أهل البيت لأنها نزلت تخاطب نساء النبي ﷺ وهن أولى من يدخل

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٣.

(٢) قال عكرمة ؓ: من شاء بأهلته انها نزلت في أزواج النبي ﷺ، انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٣.

(٣) أخرج مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أذكركم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد رضي الله عنه، ومن أهل بيته، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. انظر الرازي، التفسير الكبير، ج: ٦، ص: ٦٠٥.

في أهل بيته، وكذلك أولى من يدخل في أهل البيت هم **آل العباء**: علي وفاطمة والحسن والحسين، فعن عطاء بن يسار عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنك أهلي خير، وهؤلاء أهل بيتي اللهم أهلي أحق. [1] وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: جئت أريد عليا رضي الله عنه فلم أجده فقالت فاطمة رضي الله عنها انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فاجلس فجاء مع رسول الله ﷺ فدخل ودخلت معهما قال: فدعا رسول الله ﷺ حسنا وحسينا فأجلس كل واحد منهما على فخذه، وأدنى فاطمة من حجره وزوجها ثم لف عليهم ثوبه وأنا شاهد فقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا اللهم هؤلاء أهل بيتي. [2]

* إن محبة آل البيت فرض على كل مسلم ومسلمة قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وأما أيذاؤهم فهو إيذاء لله ورسوله فعن ابن أبي مليكة قال: جاء رجل من أهل الشام فسب عليا رضي الله عنه عند ابن عباس رضي الله عنهما فحصبه ابن عباس رضي الله عنهما وقال: يا عدو الله آذيت رسول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لو كان رسول الله ﷺ حيا لآذيته. [3]

---

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص:٤٥١، رقم الحديث:. ٣٥٥٨، هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:٢، ص:٤٥١، رقم الحديث: ٣٥٥٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) السيوطي، الدر المنثور: ج: ٦، ص: ٦٥٦.

المقطع العاشر

المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

وردت روايات عديدة في سبب نزول هذ الآية الكريمة منها: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهرا إلا نداؤه على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.(١)

ثانيا: المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع السابق:

بعد أن أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ ونهاهن عن الأمور السابقة، وبين ما يكون لهن من ثواب، أبان الله تعالى ما أعد للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة.(٢)

يقول برهان الدين البقاعي: «ولما حث سبحانه على المكارم والأخلاق الزاكية، وختم بالتذكير بالآيات والحكمة، أتبعه ما لمن تلبس من أهل البيت بما يدعو إليه ذلك من صفات الكمال

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ١٠.

(٢) وهبة الزحيلي، التفسيرالمنير، ج: ٢١، ص: ١٧.

ولكنه ذكره على وجه يعم غيرهم من ذكر وأنثى مشاكلة لعموم الدعوة وشمول الرسالة»[١].

ويقول سيد قطب: « وهكذا يعمم النص في الحديث عن صفة المسلم والمسلمة ومقومات شخصيتهما، بعدما خصص نساء النبي ﷺ في أول هذا الشوط من السورة. وتذكر المرأة في الآية بجانب الرجل كطرف من عمل الإسلام في رفع قيمة المرأة، وترقية النظرة إليها في المجتمع وإعطائها مكانها إلى جانب الرجل فيما فيه سواء من العلاقة بالله، ومن تكاليف هذه العقيدة في التطهر والعبادة والسلوك القويم في الحياة». [٢]

ثالثا: المعنى الإجمالي للمقطع:

ذكر الله تعالى عشرة صفات ومراتب لمن وعدهم بمغفرته وجنته وهي: إن المنقادين والمتذللين لأوامر الله، والمنقادات والمتذللات، والمصَدِّقين والمصدِّقات رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله، والمطيعين لله ورسوله والمداومين على الطاعة والمطيعات، والصادقين في أقوالهم وأعمالهم والصادقات، والصابرين عن الشهوات وعلى الطاعات وعلى المكاره والصابرات، أو والصابرين لله في البأساء والضراء على الثبات على دينه وحين البأس والصابرات والخائفين من الله والخائفات، أو المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، والمتصدقين بالفرض والنَّفْل والمتصدقات والصائمين في الفرض والنَّفْل والصائمات، والحافظين فروجهم عن الزنى ومقدماته، وعن كشف العورات والحافظات، والذاكرين الله كثيراً بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، أعدَّ الله لهؤلاء مغفرة لما اقترفوا من الصغائر، وثواباً عظيماً في الآخرة على ذلك من أعمالهم وهو الجنة. [٣]

وفي مدح الذاكرين الله تعالى والذاكرات قيدها بالكثرة هنا وفي مواطن أخرى من القرآن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٣.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ٩، والرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، والبيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٧٥، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: ٧٦٩.

الكريم، يقول الرازي: « ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال من قبل: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢١]، لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولأن جميع الأعمال بذكر الله تعالى وهي النية»[1]، و»قال مجاهد: لايكون ذاكر الله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا، وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»[2] فاللهم ارزقنا أن نتصف بهذه الصفات الكريمة التي جعلتها لعبادك الصالحين ميزة، عبادك الذين يستحقون مغفرتك ودخول جنتك.

رابعا: التناسب في الآية نفسها:

يقول الإمام القرطبي: «بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عظم الإسلام ودعامته»[3]، وقال الرازي: إن الله تعالى ذكر «الإسلام والانقياد لأمر الله أولا، والثانية الإيمان بما يرد به أمر الله فإن المكلف أولاً يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام، فإذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان، ثم اعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٨٥-١٨٦.

الثالثة المذكورة بقوله:﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾، ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾، ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾، ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله: ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾، أو نقول: لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمور شتى فقوله: ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ أي المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ أي الباذلين الأموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم إياها، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله، ثم قال تعالى:﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾، أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾، يعني هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله». (١)

خامسا: المناسبة بين المقطع العاشر ومحور السورة:

لما كان بعض أهم محاور السورة يدور حول أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره، ناسب أن تذكر الصفات التي يتصف بها هؤلاء الذين يستسلمون لله تعالى وقدره ليلتزم بها المؤمنون، يقول سيد قطب: «وفي صدد تطهير الجماعة الإسلامية وإقامة حياتها على القيم التي جاء بها الإسلام الرجال والنساء في هذا سواء.. يذكر الله الصفات التي تحقق تلك القيم في دقة وإسهاب وتفصيل». (٢)

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٢، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٥-١٠٦.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٢.

سادسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع العاشر:

* أوضحت الآية عشر آداب إسلامية تجمع بين أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص لله عز وجل وهو المراد بذكر الله كثيرا،[١] قال ابن عاشور: اشتملت هذه الخصال العشر على جوامع فصول الشريعة كلها.[٢]
* أظهرت هذه الآية المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء،[٣] وفي هذا رد على كل من يدعي أن الإسلام ميز سلبيا بين المرأة والرجل وجعل منزلتها دون منزلة الرجل.
* كل مؤمنة وكل مؤمن يمكن أن يتصف بالصفات الجليلة التي اتصفت بها نساء النبي ﷺ لينال بذلك رضى الله سبحانه.

---

(١) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ٢٢.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دارسحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ج: ٢٢، ص٢٢.

(٣) عبد الحميد طهماز، من موضوعات سور القرآن الكريم: في سورة السجدة وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ص: ١١٢.

المقطع الحادي عشر
قصة زيد وزينب رضي الله عنهما

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

أولاً: سبب النزول:

ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ أقوال عديدة أهمها:

عن زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ قالت: خَطَبَنِي عِدَّةٌ من قُرَيْشٍ فَأَرْسَلْتُ أُخْتِي حَمْنَةَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَسْتَشِيرُهُ، فقال لها رسول الله ﷺ: أَيْنَ هِيَ مِمَّنْ يُعَلِّمُهَا كتابَ رَبِّهَا وَسُنَّةَ نَبِيِّهَا، قالت: وَمَنْ هو يا رَسُولَ الله؟ قال زَيْدُ بن حَارِثَةَ، قال: فَغَضِبَتْ حَمْنَةُ غَضَباً شَدِيداً وَقَالَتْ يا رَسُولَ الله أَتُزَوِّجُ بنتَ عَمَّتِكَ مَوْلاكَ؟ قالت: جاءَتْنِي فَأَعْلَمَتْنِي فَغَضِبْتُ أَشَدَّ من غَضَبِهَا وَقُلْتُ أَشَدَّ من قَوْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾، قالت: فَأَرْسَلْتُ إلى رسول الله ﷺ وَقُلْتُ: إني أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأُطِيعُ اللهَ وَرَسُولَهُ افْعَلْ ما رَأَيْتَ، فَزَوَّجَنِي زَيْداً وَكُنْتُ أَرْثِي عليه، فَشَكَانِي إلى رسول الله ﷺ، فَعَاتَبَنِي رسول الله ﷺ، ثُمَّ عُدْتُ فَأَخَذْتُهُ بِلِسَانِي فَشَكَانِي إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أمسك عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ، فقال: يا رَسُولَ الله أنا أُطَلِّقُهَا، قالت: فَطَلَّقَنِي، فلما انْقَضَتْ عِدَّتِي لم أَعْلَمْ إلا رَسُولَ الله ﷺ قد دخل عَلَيَّ بِبَيْتِي وأنا مَكْشُوفَةُ الشَّعْرِ، فقلت: إنه أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ

فقلت: يا رَسُولَ اللهِ بِلا خِطْبَةٍ وَلا إشهاد فقال: اللهُ الْمُزَوِّجُ وَجِبْرِيلُ الشَّاهِدُ. [١]

وعن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريدها لزيد، فظننت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾. فرضيت وسلمت [٢]

وأما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ فسبب نزولها كما قال ابن حجر: «لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش»، [٣] فقد روى البخاري عن أَنَس قال: جاء زَيْدُ بن حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النبي ﷺ يقول: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، قال أَنَسٌ: لو كان رسول اللَّهِ ﷺ كَاتِماً شيئا لَكَتَمَ هذه، قال: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ على أَزْوَاجِ النبي ﷺ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تَعَالَى من فَوْقِ سَبْعِ سماوات. وَعَنْ ثَابِتٍ: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ نَزَلَتْ في شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بن حَارِثَةَ. [٤] وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية. [٥] **وقال الْحَسَنُ ما أُنْزِلَتْ عليه آيَةٌ أَشَدَّ من قوله: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ﴾، وَلَوْ كان رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم كَاتِماً شيئا مِنَ الْوَحْيِ لَكَتَمَهَا. ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ قال: خَشِيَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ قَالَةَ الناس، وقوله: ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ قال جَعَلَ يقول: يا نَبِيَّ اللهِ إنها قَدِ اشْتَدَّ عَلَيَّ خُلُقُهَا وَإِنِّي**

---

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص:٣٩.

(٢) ابن حجر الهيثمي، مجمع الزوائد، ج:٧، ص:٩١-٩٢، وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج:٦، ص: ٢٦٩٩، رقم الحديث: ٦٩٨٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

مُطْلَقٌ هذه الْمَرْأَةَ، فَكَانَ النبي ﷺ إذا قال زَيْدٌ ذلك قال: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ. (١)

وقال ابن حجر معلقا على أسباب النزول الأخرى التي ذكر فيها متعلق ما أخفاه النبي في نفسه من أنه أحب زينب وغير ذلك من أمور لا تليق بعصمته ﷺ، فقال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد».(٢)

ثانيا: المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع السابق:

قال البقاعي: «لما كان الله سبحانه قد قدم قوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ - الآية، فعلم قطعاً أنه تسبب عنها ما تقديره: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ لأن يكون له ولي غير النبي ﷺ، فطوى ذلك للعلم به، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب، وأتبعها نتيجة ذلك مما ذكر تأديب الأزواج له ﷺ وتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء من الإباء، وختمها بأن ذكر الله يكون ملء القلب والفم وهو داعٍ إلى مثل ذلك لأنه سبب الإسلام، **عطف** على مسبب آية الولاية ما يقتضيه كثرة الذكر من قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ﴾». (٣)

وقال ابن عاشور: «المناسبة تعقيب الثناء على أهل خصال هي من طاعة الله، بإيجاب طاعة الله والرسول ﷺ فلما أُعقب ذلك بما في الاتصاف بها هو من أمر الله مما يكسب موعوده من المغفرة والأجر، وسوّى في ذلك بين الرجال والنساء، أعقبه ببيان أن طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به ويعتزم الأمرَ هي طاعة واجبة، وأنها ملحقة بطاعة الله، وأن صنفي الناس الذكور والنساء في ذلك سواء كما كانا سواء في الأحكام الماضية». (٤)

---

(١) السيوطي، المعجم الكبير، ج: ٢٤، ص: ٤٢.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.
(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٠٦-١٠٧.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٢٧.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

إن الله تعالى بهذه الآيات المحكمات يضع قاعدة اجتماعية وهي أنه لا فرق بين الناس في أنسابهم، وأن التفاضل بينهم يكون بالتقوى، ولهذا ناسب أن يتزوج زيد زينب التي تفوقه نسبا، وناسب أن يتزوج بلال الحبشي أخت عبد الرحمن بن عوف، وهذه القاعدة أكدها القرآن الكريم في آيات أخرى تؤكد الأصل الواحد للإنسانية والمساواة بين الناس في الخلق وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾، [الحجرات:١٣]. وتستمر الآيات تضع قاعدة أخرى هو التسليم لله والرسول ﷺ في كل ما أمرا به أو نهيا عنه، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله تعالى، وها هي زينب أم المؤمنين قد أطاعت الله ورسوله حقا فسلمت أمرها لله والرسول ﷺ، وتزوجت بزيد طاعة لله ولرسوله قبل الهجرة، ثم كافأها الله تعالى بأن تزوجت بسيد الخلق محمد ﷺ. وتمضي الآيات تقول: ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم حُكماً أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم أو أن يخالفوه، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم، ومن يعص الله ورسوله فقد بَعُدَ عن طريق الصواب بُعْداً ظاهراً وجار عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد.

ثم يعاتب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: **واذكر يا محمد إذ تقول** للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام -وهو زيد بن حارثة، وأنعمت عليه بالعتق بعد أن تبنيته: أَبْقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تطلقها، واتق الله يا زيد، وتخفي -يا محمد- في نفسك ما أَخبرك الله به من أنها ستصير زوجتك بعد أن يطلقها زيد، والله تعالى مظهر ما أخفيت، «والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشيةُ قول الناس تزوجَ امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يُدعى ابنا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم»[1]، وهذا القول هو ما عليه المحققون من المفسرين

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٥٢٣-٥٢٤.

والراسخون في العلم، وقد نفى ابن حجر كما ذكرنا سابقا في أسباب النزول وكذلك القرطبي كلَّ الرواياتِ الأخرى التي فيها تخبط فيما يتناول متعلق ما كتمه الرسول وخشي الناس من الاطلاع عليه مما يتنافى مع عصمة النبي ﷺ، وذلك كقول بعض المجّان: إن النبي ﷺ عشق زينب رضي الله تعالى عنها. [١]

والله تعالى أحق أن تخافه. فلما قضى زيد منها حاجته، وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، لتكون أسوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المتبنى بعد طلاقها، ولا يكون على المؤمنين إثم وذنب في أن يتزوجوا من زوجات من كانوا يتبنَّوْنهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم. وكان أمر الله مفعولا لا عائق له ولا مانع. وكانت عادة التبني في الجاهلية، ثم أُبطلت بقوله تعالى:﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾. [٢] ثم خاطب القرآن الكريم جميع الأمة يعلمهم أنه ما كان على النبي ﷺ من إثم فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها، كما أباحه للأنبياء قبله، سنة الله في الذين خَلَوا من قبل مثل داود وسليمان عليهما السلام حيث وسع الله عليهم بالنكاح، وكان أمر الله قدراً مقدوراً لا بد من وقوعه. [٣] ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ إلى الناس، ويخافون الله وحده في تركهم تبليغ ذلك للناس، ولا يخافون أحدا إلا الله فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليهم، وكفى بالله محاسباً عباده على جميع أعمالهم ومراقباً لها. فالقرآن يقول لنبيه محمد ﷺ فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم كن ولا تخش أحدا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه ولا يمنعك أحد من خلقه منه إن أراد بك سوءا. [٤]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام االقرآن، ج:١٤، ص: ١٩١.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٨، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢.

(٣) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٤، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٤، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

(٤) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

رابعا: المناسبة بين المقطع الحادي عشر ومحور السورة:

لما كان أحد أهم محاور هذه السورة أصل العقيدة في الله والاستسلام لقدره لذا يؤكد هذا المقطع أنه ليس للمسلمين في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء، إنما هم وما ملكت أيديهم لله يصرفهم كيف يشاء ويختار لهم ما يريد.. وعندما فهم الصحابة الكرام الصف الأول من المسلمين هذا الفهم سلموا نفوسهم لله عز وجل، فرضيت نفوسهم بما قدره الله لهم فاستراحت نفوسهم ولم تجزع لحادثة الليالي، مع أخذهم بالأسباب والعمل ضمن سنة الله تعالى وتوفيق الحركة مع حركة الوجود، وتحقيق هذا التوازن الذي حققه الرعيل الأول هو الذي أهلهم لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة وكفل لها تحقيق المنجزات الخارقة في فتح القلوب والبلاد. [١]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* المسلم يسلم نفسه لله تعالى ورسوله فيقوم بما أمر الله تعالى به ورسوله دون تردد، وينتهي عما نهى الله تعالى ورسوله عنه دون تلكؤ أو تباطؤ.
* لزيد مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث إنه الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن، فهو حب رسول الله، وقد عوضه الله تعالى بعد أن كان يدعى زيد بن محمد بأن جعل اسمه يتلى إلى يوم القيامة وفي صحف مكرمة مرفوعة مطهرة.
* أما زينب رضي الله عنها فقد كانت مثالا للمرأة الصالحة التي أطاعت الله تعالى ورسوله في المكره والمنشط. وقد كانت تفتخر على نساء النبي الأخريات بأن الله زوجها من سبع سموات وأن الشاهد كان سيد الملائكة جبريل عليه السلام. قال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإن الله أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام. [٢]

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٢، ص: ٢٨٦٦-٢٨٦٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ١٩٥.

* على الإنسان أن لا يخشى أحدا إلا الله تعالى فهو الذي بيده الخير، وهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يعز ويذل، وهو الذي بيده الملك وحده. فيعلم الوحي المؤمنين أن لا يخشوا أحدا في الدنيا، إذْ لا أحد يستحق الخشية إلا الله تعالى.

* **من آمن بالقدر أمن من الكدر**، فكل ما قدر الرحمن مفعول فعلينا التسليم لله سبحانه وقضائه وقدره.

* الإسلام هو دين المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وتزويج النبي ﷺ لزينب التي هي من قبيلة مرموقة لزيد الذي كان عبدا هو دليل واضح على أن الإسلام ألغى الفوارق القبلية والطبقية في المجتمع، وجعل الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

* إن هذه الآيات تدل على صدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله عز وجل فهو قد نقل الوحي وبلغه كله دون أن ينسى أو يكتم منه شيئا، ولو كان كاتما شيئا لكتم هذه الآيات التي تعاتبه في إخفائه أمرا عن الناس خشية من المنافقين.

* اقترنت واقعة زواج النبي ﷺ بزينب في السيرة بأحكام شرعية منها: استخارة الله تعالى في الأمور، وندب وليمة الزواج.

المقطع الثاني عشر

محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زينب قالوا تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ وكان رسول اللَّهِ ﷺ تَبَنَّاهُ وهو صَغِيرٌ، فَلَبِثَ حتى صَارَ رَجُلاً يُقَالُ له زَيْدُ بن مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ الله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ فُلَانٌ مولى فُلَانٍ، وَفُلَانٌ أَخُو فُلَانٍ، ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يعني أعدل [١].

وعن قتادة قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، قال: نزلت في زيد إنه لم يكن بابنه ﷺ، ولعمري ولقد ولد له ذكور إنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر، ولكن رسول الله وخاتم النبيين. [٢]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الثاني عشر والمقطع السابق:

لما بين سبحانه الفوائد الجليلة في زواج النبي ﷺ من زينب، وأن ذلك الزواج كان خاليا من المفاسد وخصوصا خلوه مما كان يعتقد خطأ أنه زواج بزوجة الابن، أكد الله تعالى ذلك

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج:٥، ص: ٣٥٢، رقم الحديث: ٣٢٠٧، وقال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج:٢٢، ص: ١٦.

بنفي أن يكون الرسول ﷺ أبا لأحد من الرجال وأولهم زيد، بل مقامه ﷺ أعلى من ذلك فهو خاتم النبيين وهو بمقام الأب الرحيم لكل المؤمنين بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وبما أن مبنى السورة، وأحد مقاصدها تعظيم النبي ﷺ وتأديبه وما ينبغي أن يكون عليه مع الله وهو التقوى، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع أهله وأقاربه **بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ الأحزاب: ٢٨، والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين، لذلك أرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال:** (ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)، **كما قال لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ الأحزاب: ١.** [1]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

ما كان محمد ﷺ أبا زيد بن حارثة، ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يلده محمد ﷺ، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة، فلا نبوة بعده إلى يوم القيامة. وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك، ذا علم لا يخفى عليه شيء، [2] فيعلم سبحانه الأحكام والحكم التي بينت فيما سبق، والحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين. [3] وفي هذا رد واضح على كل كذاب ادعى النبوة بعد رسول الله كمسيلمة الكذاب قديما، كزعماء فرقتي البابية والبهائية الموجودة في زماننا، وقد صح عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ **قال: (إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ قال فَأَنَا اللَّبِنَةُ** وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ). [4] قال الرماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح فمن لم يصلح به فميئوس

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٦.

(٣) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٤٢.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٣٠٠، رقم الحديث: ٣٣٤٢، ومسلم، صحيح مسلم، =

من صلاحه. [١]

ثم يقول جل ذكره: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْراً كثيراً، [٢] واستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وأشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب، فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير[٣]. وقد ورد في فضيلة الذكر أحاديث كثيرة منها: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (**أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون**)، [٤]وعن معاذ بن جبل قال سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله قال: (أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله). [٥]

ونتيجة لذكر الله تعالى ذكرا كثيرا فإنه سبحانه هو الذي يرحمكم ويثني عليكم وتدعو لكم ملائكته؛ وقيل: إن معنى قوله: ﴿ يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله، ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلالات والكفر إلى نور الإسلام والهدى، ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين له. وتحية هؤلاء المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سلام، وأمان لهم من عذاب الله، ويمكن كذلك أن تكون التحية فيما بين المؤمنين في الجنة سلام يقول بعضهم لبعض أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذبنا بالنار، وقد أعدَّ لهم ثواباً حسناً، وهو الجنة. [٦]

= ج:٤، ص: ١٧٩١، رقم الحديث: ٢٢٨٦.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:١٤، ص: ١٩٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧١.

(٤) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج:١، ص: ٦٧٧، رقم الحديث: ١٨٣٩، وقال الحاكم معلقا: هذه صحيفة للمصريين صحيحة الإسناد وأبو الهيثم سليمان بن عتبة العتواري من ثقات أهل مصر.

(٥) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج:٣، ص:٩٩، رقم الحديث: ٨١٨.

(٦) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١٧.

رابعا: المناسبة بين المقطع الثاني عشر ومحور السورة:

إن أحد مقاصد السورة الرئيسة بيان عظمة الرسول ﷺ ومقامه السامي وهذا المقطع يبين حقيقة هذا النبي الكريم وهو أنه ليس نبيا عاديا بل هو خاتم النبيين، والخاتم يكون سيد الأنبياء وشريعته أكمل الشرائع لأنه لا وحي بعدها.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني عشر:

* إن محمدا ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين، وفي ذلك حجة قاطعة على أهل الكتاب، وكل من ادعى النبوة بعده أو كل من ينتظر عودة نبي من الأنبياء باستثناء عيسى عليه السلام الذي ينزل ويتبع دين محمد ﷺ. فكل من ادعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كلهم يَزْعُمُ أَنَّهُ رسول اللهِ**)، [1] وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث: «**وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة**». [2]
* الحض على ذكر الله تعالى وشكره على نعمه، وتسبيحه في معظم الأحوال بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير.
* إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين، وتسخير الملائكة للاستغفار لهم بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين.
* يشعر المؤمن بالقوة والطمأنينة عندما يعلم أن الله تعالى وملائكته يصلون على المؤمنين.

(١) أبوداود، سنن أبي داود، ج:٤، ص: ١٢١، رقم الحديث: ٤٣٣٣، وأحمد بن حنبل، المسند، ج: ٢، ص: ٤٢٩، رقم الحديث: ٩٥٤٣.

(٢) انظر شرح الحديث في ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج:٦، ص:٦١٧.

المقطع الثالث عشر

بعض أسماء النبي ﷺ وصفاته

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع السابق:

من أفضل ما قيل في علاقة هذا النص مع ما قبله هو قول الرازي: «قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي ﷺ من ربه فقوله في ابتدائها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ اشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق.»[1]

ثانيا: المعنى الإجمالي:

يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً على أمتك بإبلاغهم الرسالة، قال: مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم،[2] وهو ﷺ أيضا شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[البقرة: ١٤٣]. **وهو مبشرهم بالجنة إن صدقوه وعملوا بما جاء به من عند الله، ونذير من النار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوه وخالفوا ما جاءهم به من عند الله**، وداعياً إلى توحيد الله وعبادته وحده بأمره إياك، وسراجاً منيراً لمن استنار بك وبالقرآن الذي نزل معك، فأمْرك ظاهر فيما جئتَ به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند، **وعن ابن عباس قال: لما نزلت** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ **دعا رسول الله ﷺ**

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٨٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٨٨.

أبا موسى ومعاذا فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا فإنه قد نزل علي الليلة آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ من النار ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله. [١]

وقد كان النبي ﷺ فعلا السراج المنير فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: (ما رأيت شَيْئاً أَحْسَنَ من رسول اللهِ ﷺ، كان كَأَنَّ الشَّمْسَ تجري في جبهته)، [٢] وكما جمع القرآن وشريعته الغراء صفات الكمال فهو كذلك جمع صفات الكمال حسا ومعنى وببعثته كان تمام الأخلاق. وقد أورد العلماء للنبي ﷺ أسماء عديدة يقول القرطبي: «وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة، وقد سماه الله في كتابه: محمدا وأحمد، وقال ﷺ فيما روي عنه الثقات العدول: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وفي صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم وقد سماه الله رءوفا رحيما، وفيه أيضا عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فيقول: (أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة). وقد تتبع القاضي أبو الفضل عياض في كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ومما نقل في الكتب المتقدمة وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة قد صدقت عليه ﷺ مسمياتها ووجدت فيه معانيها. وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه في هذه الآية من أسماء النبي ﷺ سبعة وستين اسما. وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس: إن لمحمد ﷺ مائة وثمانين اسما من أرادها وجدها هناك». [٣] وهذا كله يدل على علو مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى.

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيب، (مكة المكرمة، مكتبة مصطفى نزار الباز، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج: ٩، ص: ٣١٤٠.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، وهو حديث حسن، ج: ٢، ص: ٣٨٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٠٠.

وبشر -يا محمد- أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثوابا كبيرا مضاعفا وهو روضات الجنات، قال ابن عطية: قال لنا أبي ﷺ: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا وقد بين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الشورى: ٢٢]، **فالآية التي في هذه السورة خبر والتي في حم عسق تفسير لها.**[١] ولا تطع لقول كافر ولا منافق فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه، وثق بالله في كل أمورك واعتمد عليه؛ فإنه يكفيك ما أهمَّك من كل أمور الدنيا والآخرة.[٢]

ثالثا: المناسبة بين المقطع الثالث عشر ومحور السورة:

جمع الله تعالى لنبيه ﷺ كل صفات الكمال، ومن محاور السورة الرئيسة بيان فضله وكماله فوضح الله تعالى في هذه الآيات بعض صفاته بأنه شاهد على أمته وكل الأمم، وكذلك هو مبشر ونذير والسراج المنير بشخصه ورسالته وكتابه فهو نور على نور، وهو فوق هذا داع إلى الكمال المطلق إلى الله تعالى بإذنه وبتوفيقه، ولولا بعثته ﷺ وصفاته الشريفة لما استجاب أحد ولما وصل الإسلام إلى ما وصل إليه الليل والنهار، ولما عرف الله تعالى، ولما عرفت حكمة خلق السموات والأرض والكون كله.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

* أرسل الله محمدا ﷺ **يدعو إليه سبحانه بإذنه وتوفيق منه تعالى، وجعله سراجا للخلق ينير لهم الطريق ويبشرهم بجنات عرضها السموات والأرض، وينذر من أعرض منهم بعذاب شديد، فالعاقل من أجاب، والشقي من كفر وأعرض.**

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٠٢.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ١١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٠.

* إن النبي ﷺ ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدنيا. ولكنه مأمور أيضا بأن يدع أذاهم مجازاة على إذايتهم إياه، فلا يعاقبهم، وإنما يصفح عن زللهم معتمدا على الله بنصر دينه وتأييده وعصمته من الناس.

* من توكل على الله كفاه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟.. بلى.

المقطع الرابع عشر

خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

١- سبب نزول الآية رقم (٥٠)

أخرج ابن سعد وابن راهويه وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله

عنها قالت خطبني رسول الله ﷺ **فاعتذرت اليه فعذرني فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾، إلى قوله: ﴿ هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ قالت: فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء.** [(١)]

وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ وكانت جميلة فقبلها، فقالت عائشة رضي الله عنها: «ما في امرأة حين وهبت نفسها لرجل خير قالت أم شريك رضي الله عنها، فأنا تلك فسماها الله تعالى (مؤمنة) فقال: ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾، فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة رضي الله عنها: إن الله يسارع لك في هواك». [(٢)]

٢- سبب نزول الآية رقم (٥١)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير عن الحسن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عائشة قالت: «كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ **وأقول كيف تهب نفسها فلما أنزل الله ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك».** [(٣)]

وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة فخشين ان يطلقهن فقلن يا رسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك وما شئت ولا تطلقنا فأنزل الله ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ ﴾، إلى آخر الآية، قال وكان المؤويات خمسة: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأم حبيبة والمرجآت أربعة: جويرية وميمونة وسودة وصفية. [(٤)]

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٢٨.

(٢) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٠.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٤.

(٤) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٣.

٣- سبب نزول الآية (٥٢)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه. وأخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس ﷺ قال: لما خيرهن الله فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾.[1]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الرابع عشر والمقطع السابق:

لما ذكر الله سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب وكان قد دخل بها وخطبها النبى ﷺ **بعد انقضاء عدتها،**[2] **خاطب المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول**، وقال ابن عاشور: «إنه لما خاض المنافقون في تزوّج النبي ﷺ زينب بنتِ جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبنّاه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية مَن يحل للنبي تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون. ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعة للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردد والاحتمال».[3]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا عقدتم على النساء المؤمنات -ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد-[4] ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن مِن قبل أن تجامعوهن، فما لكم عليهن مِن عدَّة تحصونها عليهن، فأعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها بحسب الوسع

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٣٧.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.

(٣) ابن عاشور التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ٦٣.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٠.

جبراً لخواطرهن، وخلُّوا سبيلهن مع الستر الجميل، دون أذى أو ضرر، [١] ولا تمسكوهن ضرارا، وأخرجوهن من منازلكم إذ لا عدة لكم عليهن. [٢] **وتخصيص المؤمنات في قوله تعالى: (نكحتم المؤمنات) والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا لنطفته.** [٣]

ثم تنبه الآية الكريمة التالية على أن الله تعالى أحل لنبيه أربعة أصناف من النساء فتقول: **١**- يا أيها النبي إنَّا أَبَحْنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن، **٢** - وأَبَحْنا لك اللاتي مَلَكَتْ يمينك من إمائك اللواتي سبيتهن فملكتهن بالسباء وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء فهن مما أنعم الله به عليك، **٣**-وأبحنا لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك **دون من لم يهاجر منهن معك**، **٤**- وأبحنا لك امرأة مؤمنة مَنَحَتْ نفسها لك من غير مهر، إن كنت تريد الزواج منها خالصة لك، وليس لغيرك من المؤمنين أن يتزوج امرأة بالهِبَة. قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم بألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الوليِّ والمهر والشهود عليهم، ولكنا رخصنا لك في ذلك، ووسَّعْنا عليك ما لم يُوسَّع على غيرك؛ لئلا يضيق صدرك ولا يكون عليك إثم في نكاح مَن نكحت مِن هؤلاء الأصناف. وكان الله غفوراً لك ولذنوب عباده المؤمنين، رحيماً بالتوسعة عليك وعليهم. وقد كان لرسول الله ﷺ **قبل أن تنزل عليه هذه الآية أن يتزوج أي النساء شاء فقصره الله على هؤلاء فلم يعدهن، وقصر سائر أمته على مثنى وثلاث ورباع.** [٤] ولم يكن تحت رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها بالرغم من عرض ما يقرب من ثلاث نسوة أنفسهن على رسول الله ﷺ منهن أم شريك. [٥]

تؤخر مَن تشاء مِن نسائك في القَسْم في المبيت، وتضم إليك مَن تشاء منهن، ومَن طَلَبْتَ

---

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٣٨.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٠.

(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٠.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢١-٢٢.

(٥) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢٣.

ممن أخَّرت قَسْمها، فلا إثم عليك في هذا، ذلك التخيير أقرب إلى أن يفرحن ولا يحزنَّ، ويرضين كلهن بما قسمت لهنَّ، والله يعلم ما في قلوب الرجال مِن مَيْلها إلى بعض النساء دون بعض. وكان الله عليماً بما في القلوب، حليماً لا يعجل بالعقوبة على من عصاه. وعن قتادة قوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ قال: فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن ويأتي من يشاء منهن بغير قسم وكان نبي الله يقسم،... ويعدل بينهن حتى لقي الله،[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستأذن إذا كان في يوم المرأة منا بعد ما نزل: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾، قالت معاذة فقلت لعائشة: ما كنت تقولين لرسول الله ﷺ ؟ قالت: كنت أقول: «إن كان ذاك إلي لم أوثر أحدا على نفسي».[2]

ثم يخاطب الله تعالى نبيه بأنه لا يباح لك النساء من بعد نسائك اللاتي فى عصمتك، واللاتي أبحناهنَّ لك، وهنَّ المذكورات في الآية السابقة رقم [٥٠] من هذه السورة، ومن كانت في عصمتك من النساء المذكورات لا يحل لك أن تطلِّقها مستقبَلا وتأتي بغيرها بدلا منها، ولو أعجبك جمالها، وأما الزيادة على زوجاتك من غير تطليق إحداهن فلا حرج عليك وأما ما ملكت يمينك من الإماء فحلال لك منهن من شئت. وكان الله على كل شيء رقيباً، لا يغيب عنه علم شيء.[3]

رابعا: المناسبة بين المقطع الرابع عشر ومحور السورة:

لما بين الله تعالى في بدء السورة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكان من أهم مقاصد السورة بيان ما شرف الله تعالى به نبيه وبيان مناقبه وما خصه الله به مما قد يطعن فيه المنافقون من كونه أولى من كل أحد بنفسه وما له، **ناداه** بوصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٢٥-٢٦.

(٢) الحاكم، المستدرك، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦٢، **وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.**

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢-٧٧٣.

من الخلائق تشريفا له به، ثم بين أنه مع ذلك لا يرضى إلا بالأكمل، فبين أنه كان يعجل المهور ويوفي الأجور، وأحل له أصنافا محددة من النساء دون غيره من المؤمنين نظرا لأهمية الدور الذي يقوم به في الدعوة إلى الله تعالى مما اقتضى تشريعات خاصة به. [١]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

* المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعا. وإن العدة ليست خالص حق العبد، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معا؛ لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضا، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلق لأن الشرع أثبتها. [٢]

* إذا طلق الرجل زوجته فعليه أن يسرحها سراحا جميلا ويحسن لها ولا يؤذيها.

* ظاهر قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ ﴾ ناسخ لما كان قد ثبت له -ﷺ- من أنه إذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها، وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي اللاتي اخترنه وهن تسع، [٣] **وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده، حرم عليه أن يتزوج غيرهن.** [٤]

* قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: كنت عِنْدَ النبي ﷺ **فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً من الْأَنْصَارِ فقال له رسول اللَّهِ ﷺ: «أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ قال: لَا قال: فَاذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فإن في أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شيئا».** [٥]

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١١٨-١١٩.

(٢) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص: ٤٥.

(٣) الزحيلي، تفسير المنير، ج: ٢٢، ص:٧٥-٧٧.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج: ٤، ص: ٢٩٣.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، ج:٢، ص:١٠٤٠، رقم الحديث: ١٤٢٤.

* ظاهر عموم قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يدل على إحلال الأمه الكافرة للنبي ﷺ وهو قول مجاهد وسعيد، والأصح أن الكافرة لا تحل له تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة.

* خص الله تعالى النبي ﷺ بخصائص فأحل له أشياء لم يحلها لأحد غيره، وحرم أشياء عليه لم يحرمها على أحد غيره.

* كل من يعدد بين الزوجات فالنبي ﷺ قدوته في العدالة، فقد كان ﷺ متشددا في ذلك حتى أنه كان إذا سافر يجري القرعة بين زوجاته، وفي مرض موته استأذن من زوجاته أن يمرض في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها، فصلى الله عليك يا رسول الله ألف ألف مرة. فالعدالة المادية ممكنة ولكن الحب فوق الطاقة البشرية، **فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول: اللهم هذا** قسمي فيما أملك **فلا تلمني فيما تملك ولا أملك).** [١]

* أن يحذر المؤمن اطلاع الله تعالى على ما في قلبه من نوايا غير صالحة لأنه عليم بذات الصدور مطلع عليها، وهو رقيب على كل شيء. وهذا مدعاة كي يراقب العبد ربه في كل أحواله.

* إن الله تعالى ذكر في هذه الآيات الكريمة أسماء حسنى له مثل الغفور والرحيم والعليم والحليم وكونه على كل شيء رقيب، كل ذلك ليزداد الإنسان حبا لله تعالى وتعلقا به ويعرف صفات خالقه وأسمائه الحسنى.

(١) الحاكم، المستدرك، ج: ٢، ص: ٢٠٤، رقم الحديث: ٢٧٦١، **وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.**

المقطع الخامس عشر

آداب دخول بيت النبي والأمر بالحجاب

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

١- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ﴾عن أَنس ﷺ قال بُنِيَ على النبي ﷺ بزَيْنَب بنْت جَحْش بخُبْز، وَلَحْم فَأُرسِلْتُ على الطَّعَام دَاعياً، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حتى ما أَجِدُ أَحَداً أَدْعُو، فقلت: يا نَبِيَّ الله ما أَجِدُ أَحَداً أَدْعُوهُ، قال: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ، وَبَقِيَ ثَلاثَةُ رَهْط يَتَحَدَّثُونَ في الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النبي ﷺ فَانْطَلَقَ إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ الله، فقالت: وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ الله، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ الله لك؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ يقول لَهُنَّ كما يقول لِعَائِشَةَ وَيَقُلْنَ له كما قالت عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النبي ﷺ فإذا ثَلاثَةٌ رَهْط في الْبَيْت يَتَحَدَّثُونَ وكان النبي ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاء، فَخَرَجَ مُنْطَلِقاً نحو حُجْرَةِ عَائِشَةَ فما أَدْرِي آخْبَرْتُهُ أو أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حتى إذا وَضَعَ رِجْلَهُ في أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. [1] وفرض

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٧٩٩، رقم الحديث: ٤٥١٥.

الحجاب على نساء النبي ﷺ من موافقات سيدنا عمر ﷺ حيث قال: (وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ فقلت: يا رَسُولَ اللهِ لو اتَّخَذْنَا من مَقَام إبراهيم مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وَآيَةُ الْحِجَابِ قلت يا رَسُولَ اللهِ لو أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فإنه يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النبي ﷺ في الْغَيْرَةِ عليه فقلت لَهُنَّ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، فَنَزَلَتْ هذه الْآيَةُ.[١]

٢- سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ الآية (٥٣):

قال ابن كثير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان أهي عائشة قال: قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم...، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين.[٢] وروي عن ابن عباس أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله ﷺ إلا أن القرطبي رد هذه الرواية وقال: « وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله والكذب في نقله وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال». [٣]

ثانيا: المناسبة بين المقطع الخامس عشر والمقطع السابق:

يتتابع الكلام عن خصائص الرسول فبعد أن انتهى الكلام عن خصائصه المتعلقة بالزيجات بدأ الكلام عن خصوصية دخول بيته المبارك، ومخاطبة نسائه من وراء حجاب، وكما أكدت الآيات السابقة على مراقبة الله تعالى عادت هذه الآيات لتؤكد على هذه المراقبة الذاتية

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص:١٥٧، رقم الحديث: ٣٩٣.

(٢) ابن كثير، التفسير القرآن العظيم، ج:٣، ٥٠٧.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.

لله تعالى بقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ **وقوله تعالى:** ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾، ويلاحظ في هذا المقطع والذي سبقه التركيز على القلوب واطلاع الله تعالى عليها كي يطهرها المرء من الأدناس الحسية والمعنوية، ولهذا أمر الله تعالى المؤمنين بمخاطبة النساء من وراء حجاب حفاظا على طهارة القلب ثم حذرهم من اطلاعه على ما في قلوبهم وعلى كل أعمالهم وأنه شهيد عليهم، كل ذلك ليرقى الإنسان إلى مرتبة الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.

ثالثا: المعنى الإجمالي:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا بإذنه لتناول طعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا دعاكم رسول الله فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم فانصرفوا من منزله غير مستأنسين بالحديث بينكم؛ فإن انتظاركم واستئناسكم يؤذي النبي، فيستحيي من إخراجكم من البيوت مع أن ذلك حق له، والله لا يستحيي من بيان الحق وإظهاره. وإذا سألتم نساء رسول الله ﷺ حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال؛ فالرؤية سبب الفتنة، وتركها نفي للريبة والتهمة، وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أبداً؛ لأنهن أمهاتكم، ولا يحلُّ للرجل أن يتزوج أمَّه، إنَّ أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده إثم عظيم عند الله. وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه[1]. إن تُظْهِروا شيئاً على ألسنتكم -أيها الناس- مما يؤذي رسول الله مما نهاكم الله عنه أو من مراقبة النساء، أو تخفوه في أنفسكم، فإن الله تعالى **بكل ذلك وبغيره من أموركم وأمور غيركم عليم لا يخفى عليه شيء وهو يجازيكم على جميع ذلك**، قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤.

مزيـد تهويـل ومبالغة في الوعـيد. (١)

ولما نزلت آيات الحجاب تساءل بعض أقارب أمهات المؤمنين أنحن نكلمهن من وراء حجاب فرد الله سبحانه عليهم: لا إثم ولا حرج على نساء النبي ﷺ وأمهات المؤمنين في عدم الاحتجاب من آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن وعني بإخوانهن وأبناء إخوانهن إخوتهن وأبناء إخوتهن، والنساء المؤمنات والعبيد المملوكين لهن؛ لشدة الحاجة إليهم في الخدمة. وخفن الله -أيتها النساء- أن تتعدَّيْن ما حَدَّ الله لكنَّ، فتبدين من زينتكن ما ليس لكُنَّ أن تبدينه، أو تتركن الحجاب أمام مَن يجب عليكن الاحتجاب منه. والزمن طاعته إن الله كان على كل شيء شهيداً، يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، وسيجزيهم عليها، يقول الطبري: «**فاتقين الله في أنفسكن لا تلقين الله وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلكن فإنه شاهد على كل شيء**». (٢)

رابعا: المناسبة بين المقطع الخامس عشر ومحور السورة:

لما كان محور السورة يدور حول تعظيم الرسول ﷺ وإظهار شرفه ومناقبه، بين القرآن كيفية الدخول إلى بيته وأن في ذلك خصوصية له، وكذلك هناك خصوصية في الكلام مع زوجاته وفي حجابهن، وأن الهدف من كل هذه الأوامر هو تقوى لله تعالى والارتباط به، وقد ختمت الآيات بحرمة إيذاء الرسول ﷺ مطلقا وخصوصا فيما يتعلق بتزوج نسائه من بعد موته.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الخامس عشر:

* **أمر الله تعالى المؤمنين ألا يدخلوا بيوت النبي إلا إلى الطعام وطلب من الذين يدعون لمأدبة في منزل النبي أن يتفرقوا وينتشروا بعد الانتهاء من الطعام، وذلك لأن الدخول حرام وإنما**

---

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج: ٤، ص: ٣٨٤.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص:٤٣، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣١، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٤-٧٧٥، ومحمد محمود حجازي، التفسير الواضح، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣)، ط ١٠، ص: ١١٢.

جاز لأجل الأكل فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله. [(١)]

* في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها. [(٢)]

* **يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل، له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.** [(٣)]

* **أذية رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه.** [(٤)] **قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ومن استحل ذلك كان كافرا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.** [(٥)]

* إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد إحاطة علم الله تعالى بكل شيء فهو جل وعلا عالم بما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض تقضى ولا مستقبل يأتي، وهذا الوصف مدح لله تعالى، وهو كذلك توبيخ ووعيد لمن أضمر إيذاء النبي ﷺ في زوجاته كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. [(٦)]

* استثنى الله تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي صلى الله علبه وسلم الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٦.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٨.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٢٩.
(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٣٠.

الأخوات والنساء المؤمنات، وهو رأي بن عباس ومجاهد، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي ﷺ من الكافرات. ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القريبات، وتكون إضافتهن إليهن لمزيد اختصاصهن بهن، لما لهن من صلة القرابة، وكذلك الخادمات. وأيضا ماملكت أيمانهن من الذكور والإناث.

* توج الله تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى، كأنه قال:اقتصرن على هذا، واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره، وخص النساء بهذا الامر وعينهن، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن، ثم توعد تعالى بأنه رقيب على كل شئ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا﴾ أي أنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينه، فيجازي على مايكون. [1]

المقطع السادس عشر

بيان مكانة النبي عند الله وفي الملأ الأعلى وعند الخلق إنسا وجنا وحرمة إيذائه وإيذاء المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن ابن عباس في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ ﴾، قال: نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب. [2]

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج:٢١-٢٢، ص: ٨٢.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥.

ثانيا: المناسبة بين المقطع السادس عشر والمقطع السابق:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله ﷺ وذكر منزلته منه وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر أزواجه ونحو ذلك،(١) قال الفخر الرازي: «لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلواته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾، وحالة يكون في ملأ، والملأ إما الملأ الأعلى وإما الملأ الأدنى، أما في الملأ الأعلى فهو محترم فإن الله وملائكته يصلون عليه، وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.(٢)

ثالثا: المعنى الإجمالي:

شرف الله تعالى في هذه الآية رسوله عليه الصلاة والسلام، وبين مقامه ومنزلته منه بأنه سبحانه وتعالى يثني على النبي ﷺ عند الملائكة المقربين ويباركه ويرحمه، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له، وأكد الله تعالى تمجيده ﷺ بصيغة (إن)، وبالجملة الاسمية لتفيد الدوام، وذكر اسم (الله) تعالى، وفعل المضارع (يصلون) الذي يفيد تجدد الثناء. **ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بأن يصلوا** على رسول لله ويدعوا له، وأن يسلِّموا عليه تسليماً، تحية وتعظيماً له **فجمع الله تعالى في هذ الآية الثناء عليه** من **أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا**. وأما حكم الصلاة والسلام عليه فهي فرض في العمر مرة، قال ابن عطية: «والصلاة على رسول الله في كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه».(٣) وعند الإمام الشافعي هي فرض في الصلاة ومن تركها فسدت صلاته.(٤)

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج:، ص:.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: ٤، ص: ٣٩٧-٣٩٨.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:٣، ص: ٥٠٩.

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ فقد وردت أحاديث كثيرة حول ذلك منها: عن ابن أبي لَيْلَى عن كَعْبِ بن عُجْرَةَ ﷺ قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلَاةُ؟ قال: «قُولُوا: اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما صَلَّيْتَ على آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهم بَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». (١)

أما أجر الصلاة عليه فقد وردت أحاديث عديدة منها: عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «من صلى عَلَيَّ وَاحِدَةً صلى الله عليه عَشْراً». (٢) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات». (٣)

وعن أَوْسِ بن أَوْسٍ قال: قال النبي ﷺ «إِنَّ من أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يوم الْجُمُعَةِ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ من الصَّلَاةِ فيه فإن صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ قال فَقَالُوا يا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أَرَمْتَ؟ قال يَقُولُونَ بَلِيتَ قال إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ على الأرض أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صلى الله عليهم». (٤)

وزيادة على ما سبق من فوائد متعلقة بالصلاة على النبي ﷺ فقد ذكر ابن قيم الجوزية جملة من الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة على النبي ﷺ ومنها: امتثال أمر الله تعالى، وأنها سبب لغفران الذنوب، وكفاية العبد ما أهمه، وأنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وأنها سبب لقضاء الحوائج. (٥)

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج: ٤، ص: ١٨٠٢، رقم الحديث: ٤٥١٩.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ج: ١، ص:٣٠٦، رقم الحديث: ٤٠٨.

(٣) علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ج:١، ص:٥٩٤، رقم الحديث: ٢٣٩٠.

(٤) أبو داود، سنن أبي داود، ج: ٢، ص: ٨٨، رقم الحديث: ١٥٣١.

(٥) ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢٠)، ط٣، ص: ٦١٢-٦١٣.

وإذا بان شرف رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تعالى وعند الملأ الأعلى، وفضل المسلم عليه فعندئذ يعرف عظم ذنب من يذمه أو يؤذيه باستحقاقه اللعنة التي هي أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير، [١] ولهذا قال الله تعالى محذرا ومنبها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾ بالشرك أو غيره من المعاصي، ويؤذون رسول الله بالأقوال أو الأفعال، أبعدهم الله وطردهم مِن كل خير في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً يذلهم ويهينهم فيه بالخلود فيه. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب عملوه، فقد ارتكبوا أفحش الكذب والزور، وأتوا ذنباً ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة، فكيف إذا أوذوا بالمعروف فذلك يضاعف له العذاب. [٢]

رابعا: المناسبة بين المقطع السادس عشر ومحور السورة:

قال الطبرسي: لما صدر سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ وقرر في أثناء السورة ذكر تعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم ولا يدانيه. [٣]

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السادس عشر:

* إن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها بنفسه مع ملائكته الكرام وأمر بها المؤمنين، ولا يوجد عبادة مماثلة لها من هذا الوجه.
* إن الأمر بالصلاة على النبي ﷺ بهذه الطريقة تفيد أن الرسول ﷺ هو أكرم مخلوق على الله تعالى وأفضل الخلق أجمعين، وهو أفضل الأنبياء قاطبة حيث لم نؤمر بالصلاة على غيره من الأنبياء عليهم السلام.
* يصلى على النبي شفاهة كلما ذكر، أما كتابة فقد ذكر ابن كثير: أن أهل الكتابة استحبوا أن

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٧.

(٢) قارن بالطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٥، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الحياة)، ج: ٢٢، ص: ١٦٥.

يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ **كلما كتبه**، ولم يصح في ذلك حديث، ونقل **ما ذكره الخطيب البغدادي قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظا.** (١)

* لا يفرد غير الأنبياء بالصلاة والسلام عليهم، لأن هذا صار شعارا لهم إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: أبو بكر عليه الصلاة والسلام ولا علي عليه الصلاة والسلام بل ﷺ، فعن ابن عباس أنه قال: **لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة.** (٢)

* يستحب الصلاة على الرسول في مواطن عديدة منها: بعد إجابة المؤذن وعند الإقامة، وعند الدعاء، ويوم الجمعة، وغيرها من مواطن وأزمنة، ومن المواطن التي مضى عليها عمل الأئمة ولم تنكرها الأمة: الصلاة على النبي ﷺ في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة. (٣)

* من المواطن التي لا تصح فيها الصلاة على النبي ﷺ: عند طنين الأذن،(٤) وعند أكل الفجل، ولمن اتهم وهو بريء. (٥)

* إيذاء النبي ﷺ من أكبر الكبائر التي تستوجب الطرد من رحمة الله تعالى، ولم يتعرض أحد في التاريخ للأذى كرسول الله ﷺ، وما نراه اليوم من التطاول على مقام النبي ﷺ ومكانته بالرسوم الكاريكاتورية وغيرها دليل على ما نقوله، وبذلك نعلم حكمة إظهار مقامه الحقيقي عند الله تعالى وإثم من اعتدى عليه، وبشاعة عمله، ويصور هذا التعبير ﴿ إِنَّ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٨.
(٣) القاضي أبو الفضل عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق عبد السلام محمد أمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢)، ط٢، ج: ٢، ص: ٤.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥١٧.
(٥) السخاوي، القول البديع في الصلاة على النبي الشفيع، ص: ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٤٧.

ﵟٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥﵞ الحساسية بإيذاء الرسول وكأنما هو إيذاء لله عز وجل، فما أبشع وما أشنع هذا العمل.[١]

* لا يجوز إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالافتراء عليهم بنسبة أمور سيئة لم يرتكبوها، وها نحن اليوم نرى هذا ونسمعه من كثير من أعداء الإسلام الذين يتهمون المسلمين زورا بالإرهاب، وقد قال الله تعالى محذرا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

المقطع السابع عشر

حجاب المرأة المسلمة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾.

أولا: سبب النزول:

عن أبي مالك قال: كانت نساء المؤمنين يخرجن بالليل الى حاجاتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن ويؤذونهن، فنزلت هذه الآية. وقال السدي كانت المدينة ضيقة المنازل، وكان النساء إذا كان الليل خرجن، فقضين الحاجة، وكان فساق من فساق المدينة يخرجون فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا هذه حرة فتركوها، وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا هذه أمة فكانوا يراودونها فأنزل الله تعالى هذه الآية.[٢]

(١) سيد قطب، الظلال، ج: ٥، ص: ٢٨٧٩.
(٢) علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٥)، ط٢، ص:٢٥٧.

ثانيا: المناسبة بين المقطع السابع عشر والمقطع السابق:

لما نهى الله تعالى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، ناسب أن يتبع ذلك أمر المؤمنات باجتناب أسباب الأذى ومواطن التهم بفرض الحجاب عليهن عند الخروج كي لا يتعرض لهن الفساق من الناس، وفي ذلك حصانة لهن وطهر ومنع من وصول الأذى إليهن. وأما سبب تخصيص النهي عن إيذاء النساء هنا فلعل سببه ما قاله الرازي: «ولما كان الإيذاء القولي مختصاً بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء، فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء. بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه». [١]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

تعد هذه الآية الكريمة من أهم آيات الأحكام المتعلقة بحجاب المرأة المسلمة، وهي عنوان لحشمة النساء وتبيان لعلة فرض الحجاب عليهن بأنه الحفاظ عليهن من الفسقة المعتدين، ومعناها: يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن يرخين ويسدلن على رؤوسهن ووجوههن من أرديتهن وملاحفهن؛ لستر وجوههن وصدورهن ورؤوسهن، والجلباب ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل، وقيل الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره، [٢] ورجح القرطبي أنه الثوب الذي يستر جميع البدن. [٣] ذلك أقرب أن يميَّزن بالستر والصيانة وأن يعرفن بأنهن حرائر، فلا يُتعَرَّض لهن بمكروه أو أذى، وهذا هو علة الأمر بالحجاب. وكان الله غفوراً رحيماً حيث غفر

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ١٩٨، وقارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٢٢، ص: ١٠٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج:٣، ص: ٥٦٩.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٤٣.

لكم ما سلف من عدم إدنائهن من جلابيبهن، ورحمكم بما أوضح لكم من الحلال والحرام. (١) والإدناء: التقريب وضمن معنى الإرخاء والإسدال ولذلك عدي بـ(على)، وكما قال الطبري: اختلف أهل التأويل في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به، (٢) وقال ابن عطية: اختلف الناس في صورة إدنائه فقال ابن عباس وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضا وقتادة: وذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بأنهن حرائر ولسن بإماء، فإذا عرفن لم يقابلن بأذى. (٣) وأيا كان الأمر فالأمة مجمعة على وجوب أن تغطي المرأة شعرها ورأسها أما الأمر بتغطية الوجه فقد اختلفوا فيه، وهذا مبني على اختلافهم في معنى الزينة التي يجب على المرأة أن تسترها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهل وجه المرأة عورة أم لا؟ والقول ومعلوم أن للعلماء رأيين في هذا المجال: رأي يوجب تغطية البدن جميعا مع الوجه والكفين، ورأي آخر يوجب تغطية البدن كله ما عدا الوجه والكفين، **وكلا الرأيين حق**، ولسنا هنا في معرض الترجيح بينهما وإنما نكتفي بالقول: **إن الأكمل والأحسن للمرأة هو ستر الوجه والكفين، وأما التي كشفت وجهها وكفيها دون زينة زائدة فقد التزمت شرع ربها ولا يجوز أن ننكر عليها ذلك خصوصا في هذا الزمان العصيب الذي قل فيه الالتزام بأدنى متطلبات الحجاب في كثير من الدول الإسلامية، والمفروض في زماننا أن يقوم الدعاة بنصح أولئك الكاسيات العاريات كي يرجعن إلى الله تعالى قبل أن يمتن فلا يشممن رائحة الجنة**، فعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ من أَهْلِ النَّارِ لم أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بها الناس، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رؤوسهن كأسنة الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ**

(١) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٤٦.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج:٤، ص: ٣٩٩.

رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ من مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». (١) وقد دخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق، فقالت عائشة: إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قبطي معصفر فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا. (٢)

رابعا: المناسبة بين المقطع السابع عشر ومحور السورة:

إن من أهم مقاصد السورة تبيان مقام الرسول وأنه قدوة للناس، وفي هذه الآية أمر الله تعالى الرسول ﷺ القدوة بأن يكون أول من يبادر إلى تطبيق الحجاب على زوجاته ليسير خلفه قافلة المؤمنين فيطبقوا هذا الأمر على زوجاتهم.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع السابع عشر:

* إن الرسول ﷺ هو سيد الأمة وقدوتها ولهذا توجه الأمر إليه أولا في فرض الحجاب على زوجاته، وكذلك تبعه المؤمنون من الصحابة والصحابيات فبادروا لتطبيق هذا الحكم دون أي تردد، فقد ذكر عند عائشة نساء قريش وفضلهن فقالت: إن نساء قريش لفضلاء ولكني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان. (٣) وهذا الأمر يدعونا في هذا الزمان للمسارعة إلى تطبيق ما أمر الله تعالى به دون أي تردد خصوصا في مسألة الحجاب الذي يصعب على بعض النفوس تطبيقه.

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ج:٣، ص: ١٦٨٠، رقم الحديث: ٢١٢٨.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص:٢٤٤.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج: ٨، ص: ٤٩٠.

* إن الحجاب حصانة للمرأة ونور يغطيها، **وهو من شعائر الإسلام**، يميز المرأة المسلمة عن غيرها أينما كانت، فلابد من الالتزام به وحث المرأة عليه.

* إن الحجاب مناسب لفطرة المرأة، لأنها لا ترغب في أن ينظر إلى جمالها الفسقة من الناس [(١)] والحجاب سبب لدوام حب الزوج لزوجته التي لا تبدي زينتها إلا لزوجها خلافا للمرأة المتبرجة، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى: «إن الهدف صيانة المجتمع كله من الفتنة وإبقاء الاستقرار والأمن بالنسبة للمرأة حتى لا يخرج زوجها من بيته وهي لا تعلم هل ستفتنه امرأة أخرى فيتزوجها... أم أنه سيعود إلى بيته؟». [(٢)]

* أدى ترك الحجاب في مجتمعاتنا إلى مفاسد عظيمة لكل من الرجال والنساء.

المقطع التاسع عشر

جزاء المنافقين والكفار

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

---

(١) سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة محمد زاهد الملازكردي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٥/ ١٩٨٥)، ط١، ص:٣٠٣.

(٢) بليغ فتحي عبد الخبير، تأملات في سورة الأحزاب، ص: ٣١١.

أولا: سبب النزول:

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة ﷺ قال: إن أناسا من المنافقين أرادوا ان يظهروا نفاقهم فنزلت فيهم: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾، لنحرشنك بهم. [١]

ثانيا: المناسبة بين المقطع التاسع عشر والمقطع السابق:

لما كان المؤذون بما مضى وغيره أهل النفاق ومن داناهم، حذرهم الله تعالى من استمرار الأذى كي لا يظنوا أن حلم الله عنهم سيستمر، وتشير هذه الآية إلى أن إيذاء الرسول بالقول أو الفعل، والتعرض بالسوء لنسائه وآل بيته، وعدم امتثال أمر الله مطلقا وخاصة في ستر عورات النساء، كل هذا من لوازم النفاق العملي الذي يأباه الله ويتنافى مع حقيقة الإسلام. [٢]

ثالثا: المعنى الإجمالي:

لئن لم يكفَّ الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان والذين في قلوبهم شك وريبة من شهوة الزنى وحب الفجور، والمنافقون أصناف عشرة في سورة براءة، فالذين في قلوبهم مرض صنف منهم مرض من أمر النساء. والذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تخيف قلوب المسلمين في مدينة الرسول ﷺ، يتوعدهم الله تعالى إن لم ينتهوا عن نفاقهم لنسلطَنَّك عليهم، ثم لا يسكنون معك في المدينة إلا زمناً قليلا فتنفيهم عنها وتخرجهم منها. وهم مطرودون من رحمة الله، في أي مكان وُجِدوا فيه أُسِروا وقُتِّلوا تقتيلا إذا هم أظهروا الكفر وداموا على النفاق ونشر الأخبار الكاذبة بين المسلمين بغرض الفتنة والفساد.

وتلك هي سنة الله مع منافقي الأمم السابقة أن يؤسَروا ويُقَتَّلوا أينما كانوا، ولن تجد

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج: ٦، ص: ٦٦٢.

(٢) قارن بالبقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٦، ومحمود حجازي، التفسير الواضح، ج: ٣، ص: ١١٩-١٢٠.

-أيها النبي- لطريقة الله تحويلا ولا تغييراً، يقول القرطبي: «**وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد والدليل على ذلك بقاء المنافقين مع الرسول ﷺ حتى مات**». [1]

ولما بين الله تعالى ما أعد لأعداء دينه في الدنيا، وبين أن طريقته جادة لا تنخرم، لما لها من قوانين الحكمة وأفانين الإتقان والعظمة، وكان من أعظم الطرق الحكمية والمغيبات العلمية الساعة، وكان قد قام ما يحرك إلى السؤال عنها في قوله: ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ الأحزاب: ٥٧، وكان قد مضى آخر السجدة أنهم سألوا استهزاء وتكذيباً عن تعيين وقتها، وهددهم سبحانه على هذا السؤال، قال تعالى مهدداً أيضاً على ذلك مبيناً ما لأعداء الدين المستهزئين في الآخرة:[2] يسألك الناس -أيها الرسول- عن وقت القيامة استبعاداً وتكذيباً، قل لهم: إنها علم الساعة عند الله وما يدريك -أيها الرسول- لعل زمانها قريب؟، **فأرشده إلى أن رد علم الساعة إلى الله** كما أعلمه في سورة الأعراف، وأعلمه في آيات أخرى كذلك بقرب الساعة مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]. [3]

ثم توعد تعالى الكافرين بعذاب لا ولي لهم منه ولا ناصر فقال: إن الله طرد الكافرين من رحمته في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً موقدة شديدة الحرارة، ماكثين فيها أبداً، لا يجدون وليّاً يتولاهم ويدافع عنهم، ولا نصيراً ينصرهم، فيخرجهم من النار. يوم تُقَلَّب وجوه الكافرين في النار، وخصت الوجوه بالذكر لأنها طالما عصت ربها، وآذت رسوله، وتكبرت على عباده المؤمنين. [4] واذكر يوم يقولون نادمين متحيِّرين عندما يسحبون في النار على وجوههم:

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٤٨.
(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج: ٦، ص: ١٣٧.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص: ٥٢٠.
(٤) محمد حجازي، التفسير الواضح، ص: ١٢١.

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا، فكنا من أهل الجنة،(١) ومثل هذا قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

وقال الكافرون يوم القيامة معتذرين: ربنا إنا أطَعْنا أئمتنا في الضلال والشر وكبراءنا في الشرك، فأزالونا عن طريق الـهُدى والإيمان. ربنا عذِّبهم من العذاب مثلَيْ عذابنا الذي تعذبنا به، واطردهم من رحمتك طرداً شديداً. وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله في مخالفة أمره وأمر رسوله، موجبة لسخط الله وعقابه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، فليحذر المسلم ذلك، لأن الله تعالى خلق لكل إنسان عقلا وفكرا مستقلا يحاسبه عليه بناء على ما يختار من خير أو شر.

رابعا: المناسبة بين المقطع التاسع عشر ومحور السورة:

لما كان من أهم مقاصد السورة تعظيم النبي، بين الله تعالى جزاء المنافقين والكفار الذين يؤذون الرسول ﷺ، وما سيتعرضون له من العقاب الدنيوي والأخروي جزاء وفاقا لهذا الإيذاء.

خامسا: من الفوائد المستنبطة من المقطع التاسع عشر:

* النفاق مرض قلبي وهو أنواع منه حب الشهوات المحرمة كالزنى وغيره، نعوذ بالله تعالى منه ومن كل أمراض القلوب.
* إن المدينة المنورة بلدة مباركة وهي كما قال النبي: (**أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي الناس كما يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**)،(٢) فمن جاور فيها فهو ذو حظ

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ٤، ص: ٤٠٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج:٢، ص: ٦٦٢، رقم الحديث: ١٧٧٢، ومسلم، صحيح مسلم، ج: ٢، ص: ١٠٠٦، رقم الحديث: ١٣٨٢، وعبد الرزاق الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، ج:٩، ص: ٢٦٩، رقم الحديث: ١٧١٦٥.

عظيم، اللهم ارزقنا ذلك.

* إن لله تعالى سننا في الكون لا تتغير ولا تتبدل، فعلى الإنسان أن يحذر عذاب الله تعالى وغضبه، وأن يتحرى رضوانه بأن يراعي سنن الله في الكون ويوافق حركته لها.
* غيب الله تعالى علم وقوع الساعة عن الإنسان لحكم عظيمة، منها متعلق بالتكليف كي يبقى الإنسان مستعدا دوما للقاء الله تعالى فيستعجل في عمل الخير ويبتعد عن اقتراف المعاصي.
* أن لا يكون الإنسان إمعة يتبع كل ناعق، بل على الإنسان أن يستخدم عقله في كل أموره فيتنبه لأصحاب الدعاوى الباطلة فيحذرهم لأنه يوم القيامة سيحاسب على عمله وعلى من يتبع ويحب فالمرء يحشر مع من يحب، ويوم القيامة لا تنفع الندامة. وفي ذلك اليوم لا ينفع السادة الضالون من اتبعوهم من الضعفاء والمساكين وغيرهم.

المقطع العشرون

توجيهات وعظات للمؤمنين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع العشرين والمقطع السابق:

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله والمؤمنين بأنواع عديدة من الأذى وتوعدهم بأصناف من العذاب، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم سيدنا موسى عليه السلام حتى لا ينالهم ما نال المنافقين والكفار من العذاب. ويقول النسفي: «وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ، **وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما**

يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه». [١]

ثانيا: المعنى الإجمالي:

ابتدأ الله تعالى بنداء المؤمنين تنبيها إلى أهمية وخطورة ما سيأتي بعد النداء فقال: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تؤذوا رسول الله ﷺ بقول أو فعل، ونداء المؤمنين فيه تعريض بمن لا يؤمن بالرسول من المنافقين لأنه يصدر منه إيذاء الرسول ﷺ قولا وفعلا مثل الأذى الذي عمله المنافقون حول زواج النبي بزينب، أو الأذى الذي تعرض له النبي أثناء قسمة الغنائم وغيرها، ونهى الله تعالى المؤمنين بأن لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيَّ الله موسى باتهامه بأنواع من الأذى مثل قولهم: إنه آدر أي: منفوخ الخصيتين، أو أبرص، أو أنه قتل أخاه هارون، ورجح الطبري الأول لورود الحديث التالي في ذلك، فبرَّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، وكان عند الله عظيم القدر والجاه. فنفر الله المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضربهم القرآن مثلا صارخا للالتواء. [٢]

ومثل عموم هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، حيث لم يحدد نوع الإيذاء فكما آذوه شخصيا آذوه كثيرا من جانب الرسالة كما بينه تعالى في قوله عنهم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقالوا له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٤٢]، فآذوه بالعصيان والتهكم، وقالوا له مرة: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾ [البقرة: ٦٧]، فنسبوه إلى الطيش والسخرية، ولهذا رد موسى عليهم بقوله: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]. وقال صاحب أضواء البيان: ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة

---

(١) النسفي، مدارك التنزيل، ج: ٣، ص: ٣١٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:٢٥، ص:٢٨٨٣- ٢٨٨٤.

ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم والعلم عند الله تعالى.(١) أما إيذاء موسى الشخصي فقد أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ مُوسَى كان رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لَا يُرَى من جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً منه فَآذَاهُ من آذَاهُ من بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا ما يَسْتَتِرُ هذا التَّسَتُّرَ إلا من عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قالوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْماً وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ على الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فلما فَرَغَ أَقْبَلَ إلى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يقول ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حتى انْتَهَى إلى مَلأٍ من بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ ما خَلَقَ الله وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَباً من أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثاً أو أَرْبَعاً أو خَمْساً فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قالوا وكان عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً)».(٢)

وهذه الآية تدل على وجوب توقير النبي والابتعاد عن إيذائه وقد التزم أصحاب النبي بذلك أشد التزام، وقد حصل الإيذاء من بعض المنافقين أو الغافلين فعن عَبْدَ اللهِ ﷺ قال: **قَسَمَ النبي ﷺ قَسْماً فقال رَجُلٌ إِنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللهِ فَأَتَيْتُ النبي ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَغَضِبَ حتى رأيت الْغَضَبَ في وَجْهِهِ ثُمَّ قال يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قد أُوذِيَ بِأَكْثَرَ من هذا فَصَبَرَ.**(٣)

وبعد الانتهاء من نهي المسلمين عن إيذاء الرسول أمرهم بجماع الأمر كله وهو التقوى وذلك بأن يعملوا بطاعته، ويجتنبوا معصيته؛ لئلا يستحقوا بذلك العقاب، وأمرهم بأن: قولوا في جميع أحوالكم وشؤونكم قولا مستقيماً موافقاً للصواب خالياً من الكذب والباطل. والقول السديد يشمل مدح النبي ﷺ وقول الصدق، والإخلاص في القول العمل، بل هو يعم الخيرات كلها.(٤)

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان، ج: ٩، ص: ١٠٩.

(٢) البخاري صحيح البخاري، ج: ٣، ص: ١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٣.

(٣) البخاري صحيح البخاري، ج:٣، ص:١٢٤٩، رقم الحديث: ٣٢٢٤.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:١٤، ص: ٢٥٣.

وإذا اتقيتم الله وقلتم قولا سديداً أصلح الله لكم أعمالكم، وغفر ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى فقد فاز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة. قال الرازي: «**أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال أما الأفعال فالخير، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب**». (١)

ثالثا: المناسبة بين المقطع العشرين ومحور السورة:

لما ابتدأت السورة بأمر النبي ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع الوحي ناسب أن يثني هنا بأمر المؤمنين في ختام السورة بهذا الأمر العظيم وهو التقوى، وكذلك لما كانت السورة في بيان فضل النبي وبيان مقامه العظيم ناسب أن يؤكد على المؤمنين كيف يعظمونه بالابتعاد عن إيذائه وبأن يقولوا في حقه ما يناسب مقامه الجليل ﷺ.

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع العشرين:

* حرمة إيذاء النبي ﷺ، **وضرورة تعظيمه.**
* **إن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، فمن كان مع الله كان الله معه ومن لم يكن الله معه فلا شيء معه ولو كانت الدنيا كلها معه.**
* ضرورة التزام التقوى لأن النتائج كبيرة ومهمة، وضرورة الصدق في القول و**العمل**، لأن النتيجة هي مجتمع صالح يصلح الله له أعماله في الدنيا ويغفر له ذنوبه في الآخرة ويكون له الفوز العظيم بالجنة.

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢، والتفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٧.

المقطع الحادي والعشرين

عظمة تكليف الإنسان وحمله الأمانة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾.

أولا: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين والمقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تعالى أهمية التقوى ونتائجها الحميدة وأمر بطاعة الله تعالى ورسوله وبين أن نتيجتها الفوز بالجنة، عقب ذلك عظيم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا إبرام وعبر عنها بالأمانة، فالطاعة هي الأمانة التي هي التكليف. (١)

ثانيا: المعنى الإجمالي:

ينبئنا الله تعالى بأنه عرض تحمل الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وخفن أن لا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه فهو ظلوم بترك حمل الأمانة وجهول بما يترتب على حملها من تبعات، فالذي كلف به «الإنسان بلغ من عِظَمِهِ أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه، إنه كان ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خان بضمانه فيها». (٢)

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج: ٢٢، ص: ٩٦، وسعيد حوى، الأساس في التفسير، (دار السلام للنشر والتوزيع)، ج: ٨، ص: ٤٤٩٠.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل، ج:٣، ص: ٣١٨.

فما هي هذه الأمانة التي خافت منها كل المخلوقات عدا الإنسان؟ ذكر المفسرون أقوالا عديدة ولكنها كلها ترجع إلى معنى جامع لها هو **التكليف** والشعور بتحمل المسؤولية، إنها **(الأنا)**، يقول ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال العديدة حول معنى الأمانة: « وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله». [(١)] وقال الطبري مرجحا: «إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس وذلك أن الله لم يخص بقوله: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ بعض معاني الأمانات»، [(٢)] لهذا فقد عد من قصر في طاعته لله تعالى خائنا للأمانة قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالإنسان إذا اعترف بألوهية الله تعالى وعبوديته له سبحانه واعترف بعجزه وفقره، عرف أنه ضيف في ملك الله تعالى القدير المطلق والغني المطلق، وأنه خلق لعبادة الله فيؤدي الأمانة على وجهها الأتم ويرضى بقضاء الله وقدره فيصير عبدا صالحا يقتفي أثر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأما إذا خان الأمانة فأنكر ألوهية الله تعالى أو عصاه وتفرعنت نفسه وأنانيته واتخذ إلهه هواه فقد خان الأمانة ويصير من زمرة الضالين والمغضوب عليهم من الفراعنة والنهاردة والظلمة المعتدين.

وكانت النتيجة: أَنْ حملَ الإنسانُ الأمانة وذلك كي يعذب الله الذين خانوا الأمانة من المنافقين والمنافقات الذين يُظهرون الإسلام ويُخفون الكفر، والمشركين والمشركات في عبادتهم غير الله تعالى، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بستر ذنوبهم وترك عقابهم. وكان الله غفوراً للتائبين من عباده، رحيماً بهم. [(٣)] وههنا لطيفة في ختم الآية الكريمة بصفتي المغفرة والرحمة قال

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:٣، ص: ٥٢٣.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٢، ص: ٥٧.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٩.

الرازي: «إن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم». (١)

ثالثا: المناسبة بين المقطع الحادي والعشرين ومحور السورة:

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي ﷺ بأحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة. (٢) ولما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين، أمر بالتزام أوامره، والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح. (٣)

رابعا: من الفوائد المستنبطة من المقطع الحادي والعشرين:

* جعل الله الإنسان ثمرة للكون فخلقه في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، ولهذا كان تكليفه بحسب مقامه فحمله الأمانة والتكليف الذي أبت السموات والأرض حملها.
* الإنسان يبلغ إلى درجة أعلى عليين إذا هو اعترف بربوبية الله تعالى وأذاب أنانيته وأطاع ربه فيتوب الله عليه ويوفقه ويرحمه فيستحق بذلك الجنة وهذا هو شأن المؤمنين والمؤمنات. وينزل الإنسان إلى دركة أسفل سافلين إذا هو خان الأمانة وادعى الربوبية واتبع هواه وعصى ربه فيعذبه الله تعالى وهذا هو شأن المنافقين والكافرين. (٤)
* إن فعل الحسنات هو محض فضل وتوفيق من الله تعالى لأن طبيعة الإنسان الميلان للمعصية والظلم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٣٥].

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٥.
(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ٢٥، ص: ٢٠٢.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٤، ص: ٢٥٣.
(٤) سعيد النورسي، المقالات، ترجمة الملا محمد زاهد الملازكردي، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦/ ١٩٨٥)، ط١، ص: ٣٥٢-٣٥٣.

كلمة الختام

لقد بينت سورة الأحزاب مقام هذا النبي الكريم صاحب الخلق العظيم وخير خلق الله أجمعين، بدءا من ندائه في أول السورة بصفة النبوة ثم تخصيصه بتشريعات متعلقة بالزواج وبأهل بيته الذين طهرهم الله وأذهب عنهم الرجس، ثم بينت مكانته عند الله وفي الملأ الأعلى وفي العالم العلوي والسفلي بأن الله بذاته مع ملائكته يصلون على النبي وقد أمر المؤمنين إنساً وجناً أن يصلوا عليه، ثم بين الله تعالى جزاء الذين يؤذون النبي واعتبر إيذاء النبي إيذاء لله تعالى. وفصلت سورة الأحزاب الطريق العملي للتقوى وبينت ما يتناقض معه فبدأت بأمر النبي بالتقوى وختمت بأمر المؤمنين بذلك.

وبينت سورة الأحزاب كيف يتعامل المسلم مع الأحداث اليومية والمحن على مختلف المستويات وكيف ينبغي أن يكون حاله القلبي وسلوكه اليومي، وسورة الأحزاب حددت أطر الحياة في المجتمع الإسلامي وحددت الأخلاقيات العليا للمرأة حتى تسلك عليها فتخرج من الظلمات إلى النور.

إن سورة الأحزاب تذكرنا بأن على الإنسان أن يحاسب نفسه[1] وأن يذكر الله كثيراً، إنها تدور حول المحور الأساسي ألا وهو الاستسلام لله تعالى ورسوله فيما يأمران أو ينهيان عنه، والتي عبرت السورة عنها بالأمانة التي من خانها استحق غضب الله وعذابه، ومن راعاها أدخله الله في رحمته وجنته، وما أجمل ما ختمت به السورة من صفتي المغفرة والرحمة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ليعلم الإنسان أن الله تعالى سبقت رحمته غضبه فيطمع المؤمن بذلك فاللهم رحمتك ومغفرتك.

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج: ٨، ص: ٤٤٩٥.

سورة سبأ

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سُمِيَتْ هذه السورةُ الكريمةُ بسورةِ سبأ، حيث وردت فيها قصةُ قوم سبأ، حين كفروا بأنعمِ الله، وأعرضوا عن الحق، فجزاهم الله بكفرهم وجحودهم وجعلهم آيةً وعبرةً.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾[سبأ: ١٥ - ١٩].

ب. فضائل السورة.

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني، ومما ورد في فضائل هذه السور الكريمة ترغيبا في تلاوتها وتبيينا لمزيَّتها:

* ما رواه الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**) [١].

ج. مكية السورة.

* هذه السورة مكية، نزلت بمكة قبل الهجرة. [٢]

---

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

(٢) قال القرطبي « مكية في قول الجميع، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. فقالت =

* نزلت لتكون حجة ساطعة تشهد بصدق النبي ﷺ.
* نزلت لتقرر الإيمان بالبعث وتبين الحكمة منه.
* كان نزولُها تسليةً وتسريةً وتثبيتاً لقلبِ النبيِّ ﷺ.
* جاءت بتقريرِ معنى الشكرِ لله تعالى وجزاء الشاكرين، مع التحذير من عاقبة الكافرين بأنعم الله.

د. عدد آيات السورة.

عددُ آيها: خمسون وخمس آيات في الشامي، وخمسون وأربع في عدد الباقين.

وكلمُها: ثماني مئة وثلاث وثمانون كلمة.

وحروفها: ثلاثة آلاف وخمس مئة واثنا عشر حرفا.

اختلافها:﴿ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ ﴾[سبأ: ١٥]، عدَّها الشاميُّ ولم يعُدَّها الباقون.[(١)]

= فرقة: هي مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي ﷺ؛ قاله ابن عباس، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره قاله مقاتل، وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ المؤمنون به كائنا من كان". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٥٨ ويراجع المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢/ ١٣٠.

وأرى أن هذه السورة كلها مكية، والآية السادسة ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ عامة في كل من آتاه الله العلم النافع من أمة محمد ﷺ وسائر الأمم، فالعلم يبصِّرُ صاحبه بالحق ويهديه إليه، يقول صاحب الظلال « ومجال الآية أكبر وأشمل، فالذين أوتوا العلم في أي زمان وفي أي مكان، من أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صح علمهم واستقام؛ واستحق أن يوصف بأنه { العلم }! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال، وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذي علم صحيح، وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله، وهو أصدق ترجمة وصفيةٍ لهذا الوجود، وما فيه من حق أصيل. في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(١) يراجع: كتاب **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ص ٢٠٩، وكتاب « **أقوى العدد في معرفة العدد** « لعلم الدين السخاوي»، **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢١٢ **وفنون الأفنان في علوم** =

هـ. محور السورة.

تدور آياتُ السورة الكريمة حول قضيةٍ أساسيةٍ وحقيقةٍ إيمانيةٍ: إنها قضية البعث، الذي قرّره القرآن، وأثبته بالحجة والبرهان المادي والعقلي.

وعن ذلك يقول صاحب الظلال: « موضوعات هذه السورة المكية هي موضوعات العقيدة الرئيسية: توحيد الله، والإيمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح لا الأموال ولا الأولاد هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله، وما من شفاعة عنده إلا بإذنه.

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ولطفه، وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرقٍ منوَّعة، وأساليب شتى؛ وتظلل جوَّ السورة كله من البدء إلى النهاية.

فعن قضية البعث قال تعالى﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٣.

وعن قضية الجزاء يقول سبحانه﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ سبأ: ٤ – ٥[1].

= القرآن لابن الجوزي ص ٣٠٠.

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٨.

و. المناسبات في السورة.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت سورة سبأ: نسبةً إلى قصة سبأ، ولهذه القصة صلةٌ دقيقةٌ بمحور السورة، حيث وردت احتجاجا على منكري البعث؛ مع إقرارهم بهذه القصة التي استفاضت بها الأخبار وتداولتها الأجيالُ، حتى صارت مَثَلا عربياً شائعا يدلُّ على الفرقةِ بعد اجتماعٍ، يقولون: [ذَهَبُوا أَيْدِي سَبا، وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبا]. (1).

قال تعالى﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[سبأ ١٥ - ١٧]

فهذه القصة التي يعرفها العرب، ويضربون بها المثل، دليلٌ جليٌّ على كمال قدرته تعالى وعجيب صنعه، فلئن كانت تلك الوفرة والرفاهية وَرَغَدُ العيش آيةً من آيات الله، فإن تبدُّل النعم وتداول الأجيال وانقلاب المنحة إلى محنة آيةٌ عظيمة تدل على قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه، حضارات تزدهر وأخرى تضمحل وتتلاشى، أممٌ تنهض وترتقي سُلَّمَ المَجد وأخرى تتنحَّى عن مقدمةِ الركبِ ثم تتداعَى وتتساقط.

خصوبةٌ ورغدٌ ووفرةٌ ورخاء، يعقبه جدبٌ وقحطٌ وفقرٌ وهوانٌ وفُرقةٌ وشتاتٌ: ألا يدلُّ ذلك على وجودِ إرادةٍ غالبةٍ ومشيئةٍ عليَّةٍ وأقدارٍ مقضيَّةٍ، وأحكامٍ عادلةٍ فاصلةٍ، لا تقبل النقض أو الاستئناف، وجزاءٍ دنيوي عاجل يُعَدُّ مقدمةً وبرهانا وتمهيدا وعنوانا على الجزاء الأخروي الآجل؛ إذ لا بدَّ من مجازاة كلِّ كفورٍ، ومثوبة كلِّ صبَّارٍ شكور.

فهذه القصةُ لمن تأملها برهانٌ ساطعٌ على كمالِ قدرتِهِ تعالى وجزائِه العادل وإرادته الغالبة

---

(1) يراجع: مجمع الأمثال للميداني ١ / ٢٧٥ برقم ١٤٥٤.

ومشيئته النافذة، ومِنْ ثَمَّ فهو قادرٌ على البعثِ والجزاء.

المناسبة بين افتتاح السورة وخاتمتها.

* بدأت السورةُ الكريمة ببيان موقف المشركين من البعث حيث الإصرار على إنكاره واستبعاده والسخرية والتهكُّم بالنبي ﷺ حين أخبر عنه، ومضت السورة الكريمة في إقامة الأدلة على البعث، ثم جاء الختام ببيان إقرارهم بالبعث ولكن بعد فوات الأوان.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ: ٥٢ - ٥٤].

* افتتحت السورةُ الكريمةُ بحمد الله تعالى على نعم الدنيا والآخرة، وتضمنت العديدَ من النعم منها نعمةُ الخلق والرزق، ونعمة البعث والجزاء، ونعمة الهداية إلى طريق الحق والنجاة، لكن الكفارَ في غفلةٍ عن هذه النعم وجحودٍ لها، لم يتأسَّوا بمن أدَّى شكرَ هذه النعم كنبي الله داود وسليمان عليهم السلام، ولم يعتبروا بمن سلف من الأمم التي كفرت بأنعم الله كقوم سبأ.

المناسبة بين السورة وسابقتها

مع نزول سورة الأحزاب في المدينة، ونزول سورة سبأ في مكة إلا أن الترابط بينهما وثيقٌ متينٌ، قد تجلَّى في وجوه عديدة، نذكرُ منها:

* حديث السورتين عن الريح، فهي جندٌ من جنودِ الله تعالى ونعمةٌ من نعمه: ففي سورة الأحزاب بين تعالى أنها حسمت غزوة الأحزاب لصالح المسلمين حين سلطها الله على المشركين فكانت شديدة عاتية باردةً قلعت خيامهم وأطفأت نارهم وأكفأت آنيتهم دون أن تجاوز عسكرهم إلى أن تبدد شملُهم ولاذوا بالفرار، وبيَّن تعالى في سورة سبأ أنها كانت من جنود سليمان عليه السلام تحمله وجنَده بسرعةٍ فائقةٍ وتهبط بسلام حيث شاء.

كما سلط الله الماء على قوم سبأ، فانفتق السدُّ وفاضَ الماءُ، فسلط الله الريح على الأحزاب وعاقب سبأ بالماء.

* في سورة الأحزاب تذكير بنعم الله تعالى، ومنها نصرُ المؤمنين على الأحزاب، وجملةٌ من نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، وفي سورة سبأ تذكير بنعمه تعالى العاجلة والآجلة، نعمة الخلق والرزق والهداية والرعاية ونعمة البعث والجزاء، فضلا عن نعمه تعالى التي أسداها على داود وسليمان عليهما السلام

* في سورة سبأ دعوة لآل داود عليه السلام أن يشكروا الله تعالى شكرا تاما بالقلب واللسان والجوارح، وفي سورة الأحزاب توجيهاتٌ عديدة لآل بيت النبي ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

* في السورتين الكريمتين بيانٌ لمهمةِ النبي ﷺ الجليلة ورسالته السامية ودعوته العامة:

قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥ – ٤٨].

وقال تعالى في سورة سبأ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦].

* في السورتين الكريمتين بيان لعاقبة المستضعفين والمستكبرين وتخاصمهم يوم الدين، قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا

ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٤ – ٦٨].

وقال تعالى في سورة سبأ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة التي قبلها:

* اختتمت سورة الأحزاب بقوله تعالى ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٣].

وافتتحت سورة سبأ بقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [سبأ: ١].

ونظير هذا ختام سورة المائدة مع بداية سورة الأنعام: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨ – ١٢٠].

وقال تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١].

فتعذيبُ العصاة وإثابة الطائعين نعمةٌ عظيمةٌ تستوجبُ الحمد.

قال السيوطي في وجه مناسبة سورة سبأ لما قبلها: « ظهر لي في وجه اتصالها بها قبلها أن تلك لما ختمت﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾، افتُتِحَت هذه بأن له ما في السموات وما في الأرض، وهذا الوصفُ لائقٌ بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك».

* في السورتين الكريمتين دفاعٌ ونصرةٌ للحبيب المصطفى ﷺ، أما الأحزابُ: ففيها دفاعٌ عنه من أراجيف المنافقين، وأما سبأ: ففيها دفاعٌ عنه من دعاوَى وافتراءات المشركين.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطعُ السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تتصلُ جميعُ مقاطعها بقضية البعث والجزاء، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورةِ كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو تقريرُ أمر البعث والجزاء، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة، وتفسير كلٍّ مقطع على حدةٍ.

بين مقدمة السورة ومحورها

لما دارت السورةُ حول تقرير قضية البعث والجزاء: استُهلَّت بحمد الله تعالى على نِعَمِهِ في الدارين فهو تعالى المحمود فيهما قال تعالى في مطلع السورة ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [سبأ: ١ – ٢]

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أثنى على نفسه سبحانه، فهو المحمودُ قبل أن يحمَدَهُ الحامدون، وأمرنا بالثناء عليه، فهو الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ، المنعِم المتفضلِ على عبادِه في الدنيا والآخرة.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ورزقاً وتدبيراً وتصريفاً وتقديراً وقضاءً، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه؛ وكما أوجد هذه النعم في الدنيا فهو تعالى قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعمُ العاجلة دليلٌ على النعم الآجلة، ونعيم الدنيا يذكِّر بنعيم الآخرة، وعالمُ الشهادة دليلٌ وعنوانٌ على عالم الغيب.

﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ على كمال عدله وتمام رحمته؛ إذ يفصل بين العباد ويقضي بينهم فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين، وينصف المظلومين، ويقتصُّ من الطغاة المجرمين، فهو المحمود في الآخرة، حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا، أو يشركون معه غيره عن جهلٍ وضلالةٍ، أو هوىً متبعٍ أو عصبيةٍ وتقليدٍ، إذ تنكشف لهم الحقائق وتنجلي الحجج، ويتبينُ لهمَّ فضلُ الله عليهم في الدنيا وإمهاله لهم، وعدله في حكمه، فيقرون له بالحمد والثناء.

قال النيسابوري: « واعلم أنه تعالى وصف نفسه في أول هذه السورة بأن له ما في السموات وما في الأرض؛ إيذاناً بأنَّ كونه مالكاً لكل الأشياء يُوجبُ كونَه محموداً على كل لسان، لأن الكل إذا كان له فكل من ينتفعُ بشيء من ذلك كان مستنفعاً بنعمه، ثم صرح بأن له الحمد في الآخرة: تفضيلاً لنعم الآخرة على نعم الدنيا وإيذاناً بأنها هي النعمة الحقيقية التي يحقُّ أن يحمد

عليها ويثنى عليه من أجلها [1].

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله.

﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ببواطن الأمور، فضلاً عن ظواهرها، فالخلقُ خلقُه والملكُ مُلكُهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ ﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾أي ما يدخل فيها من قِطْرٍ وكائناتٍ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الزمر: ٢١]﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من كنوزٍ ونباتٍ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرحمات. فما من شاردة ولا واردة، ولا والجةٍ ولا خارجةٍ، ولا نازلة ولا صاعدةٍ إلا وقد أحصاها ربُّنا عدّاً، وأحاط بها قدرةً وعلماً.

﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ نَشَرَ بساطَ رحمتِه وبثَّ آثارَها، وأمطرَ سحائبَ مغفرتِهِ وفتَّح أبوابَها.

المناسبة بين مقدمة السورة ومحورها

الموضوعُ الرئيسي في هذه السورة هو تقرير حقيقة البعث وبيان الحكمة منه، وقد استهلت السورة بحمد الله تعالى على ما اتصف به من كمال الربوبية، فالسموات والأرض وما بينهما وما فيهما ملكه وتحت سلطانه وتدبيره، وعلمه تعالى شاملٌ لكل ما جلَّ ولطُفَ وكلِّ ما صغر وكبُرَ وكلُّ والجٍ وخارجٍ وكل نازلٍ وعارجٍ، فله الحمد في الدنيا على نعمه الجليلة التي لا تعدُّ ولا تحصى، وله الحمد في الآخرة على فصله بين العباد، وإثابة المطيعين، وإنصاف المظلومين، وعقاب المعرضين الجاحدين.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٧٤، ٧٥.

وفي الآية الكريمة: ردٌّ على منكري البعث ببيان إحاطة علمه تعالى وشمول قدرته، ونظير هذا قوله تعالى في سورة (ق): ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٢ – ٨].

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

* أثنى الله تعالى على نفسه سبحانه، فهو المستحقُّ لجميع المحامد، الموصوفُ بصفات الكمال والجلال المنعِمُ المتفضِّلُ على عباده في الدنيا والآخرة.
* ورد الحمد في القرآن الكريم متعلقا بنعم كثيرةٍ ومتنوعةٍ، منها العامُّ والخاصُّ،والماضي والحاضرُ، والعاجلُ والآجلُ، والظاهرُ والباطنُ، واستفتح الله تعالى خمس سورٍ بالحمد، كما اختتمت به بعض السور؛ وذلك للتذكير به والتنويه على فضله، وتنبيه الغافلين عن جلائل النعم فضلا عن لطائفها.
* لله تعالى ما في السموات وما في الأرض، فالجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه.
* القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنعم العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.
* لله الحمد في الآخرة على كمال عدله وتمام رحمته وقضائه بين خلقه.
* هو تعالى الحكيم في ملكه وتدبيره، وحكمه وتقديره، وأفعاله وأقواله، الخبير ببواطن الأمور، فضلاً عن ظواهرها.
* علمُه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علما.

-١-

قضية البعث والجزاء

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ﴾ [سبأ: ٣ - ٩]

المناسبة

دارت مقدمةُ السورة حول تفرده تعالى بالحمد واستحقاقه له، فهو المالك المتصرف، وهو الحكيم الخبير، وهو العليم بكل معلوم، وهو الرحيم الغفور، وهذا تمهيدٌ وتوطئةٌ للحديث عن قضية البعث والجزاء؛ لذا أتبع هذه المقدمة ببيان موقف المشركين من هذه القضيةِ، وتجلية الحكمة من البعث وإبرازِ موقف أهل العلم منه، وبهذا تتجلَّى المناسبة بين آيات هذا المقطع ومقدمة السورة ومحورها.

التفسير الإجمالي

موقف الكفار من البعث

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ

مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾.

مع هذه الآيات البينات التي تشهد بكمال ملكه وتمام عدله، وعظيم حكمته، وإحاطة علمه، وطلاقة قدرته إلا أن الكفار يصرون على إنكار البعث ! مع أنهُ أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ لإقامة موازين العدل ونشر بساط الرحمة، وهذا الإنكار: « ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله لا تترك الناس سدى، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء؛ ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته، وقد أخبر الله على لسان رسله: أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره.. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة»[(١)].

ولقد أمر سبحانه رسولَه الكريم وهو الصادق المصدوق أن يقسم لهم مؤكدا لهم أن الساعة آتية لا محالة، حتى لا يترك لهم حجةً، فقد سلك بهم جميع طرق الإقناع: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم بَرْهَنَ على مجيئها باستئثاره تعالى بعلم الغيب وإحاطته به وشمول علمه لكل ما دقّ ولطف وكل ما ظهر وخفي فلا يعزب عن علمه شيء﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، فأكد تعالى وقوعها بأشدِّ أنواع التوكيد، وأتبع ذلك ببيان علمه للغيب؛ فالساعةُ أمرٌ غيبيٌّ، وموعدها مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ولطف، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون.

وفي هذا ردٌّ قاطعٌ على ما أثاره المنكرون للبعث من شكوك وشبهات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٢/ ٤٠.

جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧ – ٩٨].

البعثُ عدلٌ ورحمةٌ

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ سبأ: ٤ – ٥

بيّن عز وجل حكمته في بعث العباد؛ ليفصلَ بينهم، ويقضيَ فيهم، فيثيب المؤمنين بالمغفرة والرضوان والفوز بالجنان﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾، ويعاقب الجاحدين المعاندين بالشقاء والحرمان والخلودِ في النيران﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾: سعوا في آياته صداً عنها وقدحاً فيها، وتعجيزاً لمن جاء بها وتثبيطاً لمن آمن بها ودعا إليها، ظانين بإنكارهم للبعث والنشور أننا لن نقدر عليهم، وناسبين العجز لمن تبع النبي ﷺ، وساعين إلى تعطيل سير قافلة الدعوة أو إبطائها، أو إعاقة الناس عن اللحاق بها، وباذلين كلَّ جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، ومسرعين في تكذيبها، وجاهدين في إظهار المؤمنين بمظهر الضعيفِ العاجز عن الدفاع عن دينه والذَّبِّ عن عقيدته.

عن قَتادة رحمه الله قال:﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ قال: كذبوا بآيات الله فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه.

قرأ الجحدري وابن كثير: ﴿ مُعَجِّزِينَ ﴾ بدون ألفٍ: أي معجِّزينَ قدرة الله تعالى فيهم بزعمهم، وقال ابن الزبير: معناه مثبطين عن الإيمان من أراده مدخلين عليه العجز في نشاطه وهذا هو سعيهم في الآيات[1].

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٢.

وعن مجاهد، قوله: «مُعَجِّزِينَ» قال: مبطِّئين يبطِّئون الناس عن اتباع النبيّ ﷺ.[(١)]

وقال الطبري: « وقراءة: (مُعَجِّزِينَ) بتشديد الجيم بغير ألف، بمعنى أنهم عجَّزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان بالقرآن، ومن عجز عن آيات الله فقد عاجز الله ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله، والعملِ بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطِّئون الناس عن الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله ﷺ ويغالبون رسول الله ﷺ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله»[(٢)].

وقال البغوي: « ... ومعنى يعجِّزوننا: أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقيل: «معاجزين» مغالبين، يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه»[(٣)].

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾: أي مؤلم لأبدانهم ولمشاعرهم، فهو عذابٌ حسيٌّ ومعنويٌّ، والرجز يعني سوء العذاب، وشدة الإيلام، وما يَضِيقُ به الإنسان من قذرٍ ووجعٍ.

موقف أهل العلم من البعث

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثقُ عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم الأعمى، ذكر موقف أهل العلم: وهو التصديق والتسليم بأن هذا اليوم حق وأن النبيين حق

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣٣٤ ويراجع الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٥٤ وحجة القراءات لابن زنجلة (أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه) ص ٤٨٠.

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦٢ ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦١ والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني ١ / ٣٢٣.

(٣) جامع البيان للطبري ١٨ / ٦٦١.

وأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وأنهم موقنون به حقَّ اليقين.

﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ يهدي إلى طريقِ الهُدَى والنور، طريق العزِّ والتمكين، وهو طريقٌ محمودُ العواقب.

قال صاحب الظلال: « وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذي أراده للوجود؛ واختاره للبشر لينسِّق خطاهم مع خطى هذا الكون الذي يعيشون فيه، وهو الناموس الذي يهيمن على أقدار هذا الكون كله، بما فيه من الحياة البشرية التي لا تنفصل في أصلها ونشأتها، ولا في نظامها وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه».(١)

شبهات وأباطيل

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ: ٧ – ٨]

إلى هذا الحد من الدهشة والاستغراب كانوا يثيرون الشكوكَ حول قضية البعث ويتهكَّمونَ ويسخرونَ من النبي ﷺ ويَشِيعُون بين الناس هذه الإشاعة الكاذبة المغْرضة ! حتى أخرجوا كلامهم مخرج الألغاز والأحاجي: ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ !

ونحو هذا قوله تعالى عنهم ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق: ٢ – ٥].

فقد كذبوا بالساعة، واستبعدوا وقوعها ونالوا من النبي ﷺ فرموه بالافتراء تارةً والجنون تارةً أخرى، وأشاروا إليه إشارة تعبِّرُ عن تجاهلهم له « كأنهم لا يعرفونه ﷺ، مع أنه أظهر من الشمس.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٥ / ٣٩٢.

وليس قولك من هذا بضائره... العُرْبُ تعرفُ من أنكرتَ والعَجَمُ»[1].

فرد عليهم تعالى أبلغ الردِّ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾؛ إذ أي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهده فيما حولهم، بل في أنفسهم، وأيُّ ضلالٍ أشدُّ من تنكرهم لهذا النبي الذي يعرفون صدقه وأمانته ورجاحة عقله وفطانته، لكنها الأهواء الجامحة والنفوسُ المريضة والقلوب القاسية والعقول التي احتجبت عن هذه البصائر الجلية، وعمتْ عن الآيات الصريحة، وغفلت عن الشواهد الناطقة والبراهين العقلية، وتجاهلت الأدلة الحسِّيَّة التي تقرِّر البعث على حدِّ قولِ القائل:

لقد ظهرتَ فما تخفَى على أحدٍ		إلا على أكمهٍ لا يعرفُ القمرَ

« وحاصل الآية إثبات الجنون الحقيقيِّ لهم؛ فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب وعن الضلال الموجب لذلك جنون أي جنون واختلال عقل أي اختلال؛ إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاما وكاملا لفهموا حقيقة الحال ولما اجترؤوا على سوء المقال»[2].

الأدلة العقلية والمادية على البعث

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾[سبأ: ٩].

دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما سبقهم وما حولهم من آياتٍ بيناتٍ، ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال﴿ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ﴾، فالأرض والسماء مسخرةٌ لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله تعالى لأمر الأرض فخسفت

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٤.

(٢) البيت للفرزدق ويقصد به زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب y حين تجاهله هشام بن عبد الملك لما رآه يطوف حول الكعبة والأبيات موجودةٌ في كثير من كتب الأدب، يراجع الأغاني للأصبهاني - ٥ / ٤٤٥، وزهر الآداب وثمر الألباب للحُصري: أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المعروف بالحُصري القَيرَواني ص ٢٧.

بهم، أو السماء فأسقطت عليهم كسفا، وأمطرتهم بالحجارة، أو رجمتهم بالشهب، ولكنه تعالى يمهلهم ويستدرجهم.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾: إن فيما سبق ذكره والإشارة إليه لآية لكل عبد منيب مقبل على مولاه راجع إليه في كل أحواله، فهو تعالى قصده ووجهتُه ورجاؤه وغايته.

الهدايات المستنبطة

* البعث أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف ونشر بساط الرحمةِ وظلالها، وصدق الله جلَّ وعلا إذ يقول ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

* علمُ الساعة أمرٌ غيبيٌّ، مما استأثر الله تعالى بعلمه، وهو تعالى لا يعزب عن علمه شيء مهما صَغُرَ ولَطُفَ، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حوى كل ما كان وما يكون وما سيكون، وفي هذا ردٌّ على شبهات المشركين التي أثاروها حول البعث.

* كشفت الآيات عن موقف أعداء الإسلام من الحق وأساليبهم الملتوية في الصد عنه وتشكيكهم في قدرة الله تعالى وتثبيطهم للمؤمنين وبثِّ روح الهزيمة فيهم، والسعي الدءوب إلى إبطاء مسيرة الدعوة، وإظهار المؤمنين بمظهر الضعيفِ العاجز عن الدفاع عن دينه والذَّبِّ عن عقيدته.

* لما ذكر موقف المنكرين للبعث الذي ينبثقُ عن جهلهم واتباعهم للهوى وتقليدهم لأساطين الكفر وأئمةِ الضلال، ذكر موقف أهل العلم وهو التصديق والتسليم بأن هذا الوعد حق. قال السعدي رحمه الله: « وهذه منقبةٌ لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علما وتصديقا بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحِكَم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ،

احتج الله بهم على المكذبين المعاندين»[١].

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾يقول صاحب الظلال: « يهدي إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه في إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه؛ ومكان هذا الإنسان منه، ودوره فيه؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله وهو معها في تحقيق مشيئة الله وحكمته في خلقه، وتناسق حركات الجميع وتوافقها في الاتجاه إلى بارئِ الوجود.

* ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوي الذي يعد الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية، ويعد الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق أفراداً وجماعات مع مجموعة الخلائق التي تعمر هذا الكون! ويعد هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذي تعيش فيه.

* ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه، متناسقة مع القوانين الكلية التي تحكم بقية الأحياء، وسائر الخلائق؛ فلا يشذُّ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته، وهو أمة من هذه الأمم في نطاق هذا الكون الكبير». [٢]

* دلَّ إنكارُ الكفارِ للبعث على توغلهم في غَمَرَاتِ الضلال وتردِّيهم في دركاته، فضلا عن تقلبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾، وأي ضلالٍ أشدُّ من إنكارهم للوعد الحق مع تسلسل آياته وتجلي شواهده فيما حولهم، بل وفي أنفسهم !

* فهم في ضلالٍ بعيدٍ وعذابٍ دائم، ودليلُ ذلك عيشُهم في عذابٍ نفسيٍّ؛ إذ لا شعور

---

(١) روح البيان لإسماعيل حقي ١١ / ١٦٦.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٥ .

بالراحة ولا إحساس بالسكينة، ولا غاية لهم في هذه الحياة، فإن وقع عليهم ظلمٌ واستبدادٌ فهم في يأسٍ وقنوطٍ، إذ لا أمل عندهم في تعويضٍ من حرمان أو إنصافٍ من ظلم وطغيان، حتى المتقلبُ منهم على فراشِ العافية، الرافل في أثواب النعم يعيش حياةً مفعمةً بالهموم والمنغصات والخوف والقلق والحيرة؛ مخافة أن تسلب منه تلك النعمُ العارضةُ، وفي الحياة مواقفُ وابتلاءاتٌ لا يقوى الإنسانُ على مواجهتها إلا وفي قلبه يقينٌ وفي نفسه رجاءٌ بالآخرة، وتعلُّقٌ بثوابها، فيتسلى عن كل نقص وحرمان وتعبٍ ونصَبٍ بما ينتظره عند الله من حسن الثوابِ.

* عن أَنَس رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَق فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ).[1]

* وعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه قَالَ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَحْفِرُ الْخَنْدَقَ وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)[2].

فدعها وسلِّ النفسَ عنها بجنَّةٍ — من الحُسنِ في روضاتها الدر يبسم
ومن تحتِها الأنهار تخفق دائما — وطير الأماني فوقها يترنم
وقد ذُللت منها القطوفُ فمن يُرد — جَناها ينلْه كيف شاء وينعم
وقد فتحت أبوابها داعي الهدى — هلموا إلى دار السعادة تغنموا

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير. باب: التحريض على القتال. حديث ٣٦٧٩، ورواه مسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق، رقم: ١٢٧ – (١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة – باب دعاء النبي ﷺ (أصلح الأنصار والمهاجرة) حديث ٣٥٤٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. حديث ١٢٦– (١٨٠٤).

وقــد طــاب منها نُــزْلُهــا ومقيلها		فطوبى لمـن حـلُّـوا بهـا وتنعموا
وقــد غــرس الــرحمــنُ فيها غراسه		من الناس والرحمن بالغرس أعلم
فمن كــان مــن غــرس الإلــه فإنه		سـعـيـدٌ وإلا فـالـشـقـا متحتم
فيا مــسرعــينَ الــسيرَ بــالله ربكم		قفوا بي على تلك الربوع وسلموا
وقولــوا محب قاده الشــوق نحوكــم		قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا [١]

* وقال أبو تمام:

والحــادثــاتُ وإنْ أصابك بُؤْسها		فهو الــذي أدْراك كيفَ نعيمُها

وقال أيضا:

وليس يعرفُ طيبَ الوصل صاحبُه		حتى يـصـابَ بـنـأيٍ أو بهِجران

فإذا أنعم الله على المؤمن بنعمةٍ كانت النعمُ حافزةً له ومشوقةً لنعيمِ الآخرة التي يستحضرها ويستشعرها ويجدد ذكراها مع كل نعمةٍ ينالُها.

* دعاهم الله تعالى إلى النظر والاعتبار فيما حولهم وما سبقهم من آياتٍ بينةٍ وعظات بليغة، ثم توعدهم سبحانه بعذاب عاجل فقال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فالأرض والسماء مسخرةٌ لأمره، خاضعة لسلطانه، ولو شاء الله تعالى لعجل بهلاكهم ولكن يمهلهم ويستدرجهم.

* الإنابة إلى الله تعالى هي الرجوع إليه في جميع الأحوال، في السراء والضراء، في الشدة والرخاء، وتفويض الأمر إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه والمسارعة إلى عفوه ورضاه، ومِنْ ثمرات الإنابة نفاذُ البصيرة وصفاء الذهن وحضور القلب وخشوع الجوارح وعمق الفكرة وبعد النظرة وجلاء العبرة.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ١ / ٩٣.

-٢-

مع داود وسليمان عليهما السلام

مثالٌ عمليٌّ للأوابين الشاكرين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

لهذه الآيات صلة جلية بمحور السورة الكريمة وسياقها العام والذي يدور حول قضية البعث، فقدرة الله تعالى لا تحدُّها حدودٌ، والكون مشحونٌ بعجائب الآيات.

فالجبل الأشمُّ ينبض بالروح وتسري فيه الحياة ويخشع ويتصدع من خشية الله ويتجاوب مع نبي الله داود فيردد معه.

والطير مع وحشتها ونفورها تترنم في ألفةٍ ووئام وأُنس وانسجامٍ.

والحديد مع صلابته يلين كالشمع أو العجين، بين يديه ﷺ.

والريح تطير بسليمان ﷺ وجنده وعتاده فتنقلهم من مكان إلى مكان.

والجن مع نفوره وتمرده يذعن خاضعا وينقاد مستسلما في خدمة سليمان.

والنحاسُ وهو معدنٌ جامدٌ يذوبُ نعمةً وكرامةً وآيةً لهذا النبيِّ الملك.

كل هذه الأمور الخارقة ألا تدل على إمكانية البعث ؟

أليس القادر على هذه الآيات قادر على أن يحيي الأموات ؟

أليس من منح داود وسليمان هذه الفضائل والمكرمات بقادرٍ على أن يبعث عباده ليجزل لهم المثوبات، ويغدق عليهم الجوائز والهبات ؟ بل هو قادر.

قال أبو حيان: « مناسبة قصة داود وسليمان، عليهما السلام، لما قبلها، هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكارُه، إذ طفحت ببعضه أخبارُهم وشعراؤهم على ما يأتي ذكره، إن شاء الله، من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد، وهو الجرمُ المستعصي، وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة.

وقيل: لما ذكر من ينيب من عباده، ذكر من جملتهم داود، كما قال:﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[ص: ٢٤] وبين ما آتاه الله على إنابته فقال:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾، وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان، عليهما السلام، احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ: أي لا تستبعدوا هذا، فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا». [(١)]

وقال البقاعي: « ولما أشار سبحانه بهذا الكلام الذي دلَّ فيه على نفوذ الأمر إلى أنه تارة يعدل وتارة يفضل، وكان الفضل أكثر استجلاباً لذوي الهمم العلية والأنفس الأبية، بدأ به في عبد من رؤوس المنيبين على وجه دالٍّ على البعث بكمال التصرف في الخافقين وما فيهما بأمور شوهدت لبعض عبيده تارة بالعيان وتارة بالآذان، أما عند أهل الكتاب فواضح، وأما عند العرب فبتمكينهم من سؤالهم فقد كانوا يسألونهم عنه ﷺ» [(٢)].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٢٦٢.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٦/ ١٥٧.

التفسير الإجمالي

مع نبي الله داود ﷺ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ: ١٠- ١١]

ضرب الله مثلاً بنبيه داود ﷺ على كمال قدرته وجميل عطائهِ وجليل نعمائه على عباده الشاكرين، حيث تفضل الله على داود بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التآلف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبال تؤوب بأمر من الله تعالى، دليلا على صدقه وإخلاصه وخشوعه وتضرعه، وقوةِ تأثيره، فتنسجمُ مع هذا الصوت الجميل الذي صدر من قلب حاضر ولسان شاكر، فتثيرُ المشاعر وتوقظ الهمم وترقق القلوب وترهف الأسماع، وترنو الأنظار لهذا المشهد المهيب، مشهد الجبال الشامخات وصداها العجيب حين تخشع وتلين وتؤوب مع داود، ومنظرُ الطير وهي تشدو بأحلى الألحان وأعذب الأصوات وأطيب الكلم.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قيل: كان داود ﷺ إذا تخلل الجبال فسبَّح جعلت الجبالُ تجاوبُهُ بالتسبيح نحو ما يسبح.

وقيل: كان داود ﷺ إذا لحقه فتورٌ أسمعه الله تسبيحَ الجبال تنشيطا له [(١)].

ولقد ضرب النبي ﷺ أروع المثل بهذا الصوتِ النديِّ الشجيِّ حين امتدح تلاوةَ أبي موسى الأشعري فقال ﷺ: (**لَقَدْ أُعْطِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرَ دَاوُدَ**) [(٢)].

---

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٣٨٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن – باب: حسن الصوت بالقراءة للقرآن الحديث: ٤٧٦١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث: ٢٣٥ – (٧٩٣)، ورواه النسائي في السنن عن أبي هريرة ﷺ كتاب الافتتاح، باب=

وكما لانت له الجبال مع صلابتها وألِفَتْهُ الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان الله له الحديد ليصنع به الدروع السابغات المحكمات، فكان الحديد في يده كالشمع أو العجين، يعمل منه ما يشاء من غير طرقٍ أو تسخينٍ.

قال السدِّي: « كان الحديد في يده كالطين المبلول، والعجين، والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة» [1]. فيصنع منه بدقة وإحكام دروعا حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، حيث أرشده سبحانه إلى أُسُسِ الجودة وأصول الإتقان وفنون الإبداع في صناعتها ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ اجعلها سابغةً محكمةً وقدِّر في سردها ودقِّقْ في حلقاتِها حتى تكون منتظمة متينةً متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام.

فهذه نعمة على نبي الله داود ﷺ بل وعلى البشرية جمعاء، كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

لما ذكر جملةً من نعمه عليه أمره بالمبادرة إلى عمل الصالحات التي يعمُّ نفعُها ويمتدُّ أثرُها في العاجل والآجل فقال سبحانه: ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ مطلعٌ على أعمالكم بصيرٌ بدقائقِها ولطيفِها فضلا عن جليلها .

=تزيين القرآن بالصوت - الحديث: ١٠١٣ والمراد بآل داود نفسه وكثيرا ما يطلق آل فلان على نفسه. ورواه الترمذي في السنن أبواب المَنَاقِب عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مناقب أبي موسى الأشعري ﷺ وقال: " هذا حديث غريب حسن صحيح، وفي الباب عن بريدة وأبي هريرة وأنس "، ورواه ابن ماجه في السنن كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب في حسن الصوت بالقرآن حديث ١٣٤١.

ورواه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٩، ورجال أحمد رجال الصحيح●

(١) معالم التنزيل للبغوي ٦ / ٣٨٨ فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣١٥.

مع نبي الله سليمان ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤]

المناسبة

* كما سخر الله الجماد والطير لداود ﷺ فأوَّبت معه الجبالُ وترنَّمت الطيور ولان الحديد فقد سخر الله لسليمان ﷺ الإنس والجن والطير والرياح.

* وكما امتن الله على داود بهذه النعم الجليلة، كذلك امتن الله على سليمان فسخر له الريح تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وتهبط بهم آمنين مطمئنين.

* وهذه النعم الربانية تدل على كمال قدرته وجليل حكمته تعالى، وفي هذا ردٌّ على منكري البعث لجهلهم بربهم، وغفلتهم عن شهودِ عظمتِه.

* ولقد كان ملك سليمان العادل وعهده المبارك امتداداً لملك أبيه داود ﷺ ومواصلةً لمسيرةِ الخير والنماء وطريق الأمن والرخاء.

التفسير الإجمالي

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ ﴾ أي تقطع في الغدو أو الرواح مسيرة شهر مما يدل على سرعتها الفائقة.

جاء في المصباح المنير: « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ: أَيْ ذَهَابُهَا وَرُجُوعُهَا »(١)، وقال قتادة: معناه: إنها كانت تَقْطَعُ به في الغُدُوِّ إلى قُرْبِ الزَّوَالِ؛ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَتَقْطَعُ في الرَّوَاحِ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ إلى الغُرُوبِ كذلك(٢).

وقال سبحانه ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وفي هذه الآية ما يدل على سرعتها الفائقة.

وقال تعالى﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٦].

وفي هذه الآية وصف لها بالليونة وأنها موجهةٌ حيث أراد نبي الله سليمان عليه السلام.

فهذه الريح مسخرة لسليمان تسير بأمره حيث شاء، وهي سريعة ومأمونة الجانب ولينةٌ.

فجمعت الريح بين القوة الرهيبة والمعجزة العجيبة مع كونها وسيلةً آمنةً مريحةً وآيةً فريدةً لا يمكن للبشر مهما أوتوا من علم وقوة أن يتمكنوا منها ويتحكموا فيها ويوجهوا مسيرها فتنقلهم وتحمل متاعهم من بلد إلى بلد..

وكما ألان الله الحديد لداود وتجاوبت معه الجبال وألفته الطير، فقد أسال الله تعالى القطرَ لسليمان، قال تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، في التشييد والبناء وصناعة الآلات والأواني والأسلحة، كما سخر الله تعالى له الجن يعملون بين يديه فيراهم ويشرف على عملهم ويوزع عليهم المهام كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص: ٣٧ - ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ٤ / ٣.
(٢) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٣٦٢.

حَفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

فسخر له الشياطين في بناء وتشييد المساكن والمحاريب، وصناعة الجفان والتماثيل وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار.

﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فسليمان عليه السلام نبي ملك تجب طاعته من جهتين: من جهة كونه نبيا مرسلا، ومن جهة كونه ملكا وقائدا، فطاعته من طاعة الله تعالى فكل من تمرَّد على سلطانه، فقد عرَّض نفسه للعذاب العاجل فضلا عن الآجل.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحراب: كل موضع مرتفع، وقيل للذي يصلَّى فيه: محراب لأنه يجب أن يرفع ويعظم فالمساجد، والأبنية المرتفعة من قصور حصينة ودورٍ شريفة وحصونٍ منيعة من المحاريب، وسميت بها لأنها يذبُّ عنها ويحارب عليها، والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت [(١)].

﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ قصاع ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ جمع جابية وهي الحياض التي يجبى فيها الماء، يقال: كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها، ولما ذكر الصحاف على وجه يعجب منه ويستعظم، ذكر ما يطبخ فيه طعامها فقال ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحرَّكن عن أماكنها، ولا ينزع عنها أثافيها لعظمها، وكان يصعد إليها بِدَرَجٍ.

فقال: ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ أي ثابتات ثباتاً عظيماً.

قال الألوسي « وقدمت الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل؛ لأنه لما ذكرت الأبنية الملكية ناسب أن يشار إلى عظمة السماط الذي يمد فيها فذكرت الجفان أولاً لأنها تكون فيها بخلاف القدور فإنها لا تحضر هناك، كما ينبىء عنه

---

(١) معالم التنزيل البغوي ٦ / ٣٨٩، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٩٤.

قوله تعالى: ﴿رَّاسِيَٰتٍۚ﴾، وكأنه لما بين حال الجفان اشتاق الذهن إلى حال القدور فذكرت للمناسبة» [(١)].

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، أو اعملوا عملاً يُعبِّر ويعربُ ويترجمُ عن شكركم لله تعالى، وخصَّهم بالذكرِ مع أن الشكر واجب على سائر الخلق لأنهم موضع التأسي والاقتداء ومحطُّ الأنظار.

علوٌّ في الحياة وفي الممات!

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾

كما كانت حياته عليه السلام حافلة بالمنح والمكرمات زاخرةً بالدلائل النيرات والمعجزات الباهرات، فقد كان موته آيةً من أعظم الآيات؛ إذ كان شياطينُ الجنِّ قد ادعوا معرفة الغيب فأراد اللهُ تعالى أن يُطْلِعَ الإنسَ على كذبهِم، وكان سليمانُ عليه السلام يشرف على الأعمال فيجلس الساعات الطوال يتابع سير العمل، وهو متكئ على عصاه، حتى أتاه الموت وهو على حاله والجن مستغرقون في العمل؛ هيبة له وإجلالاً، وخضوعا وإذعانا، حتى أكلت الأَرَضَةُ عصاه، فخرَّ سليمانُ، ليعلمَ الجميع بموته ويستيقن الإنس أن الجن لا علم لهم بالغيب وتسقط تلك الأوهام والادعاءات، ويواجه الجنُّ بهذه الحقيقة التي غابت عنهم أو غفلوا عنها، فكان معرفتهم بموتِ سليمان كالصاعقة التي أفاقوا منها على تلك الحقيقة التي كانت الأرضةُ هذه المخلوقةُ الضعيفةُ وراء انكشافها؛ لينكشف للجميع كذب ادعائهم معرفة الغيب إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في هذا العمل الشاق الذي كلفهم به سليمان عليه السلام.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٧٢ بتصرف.

الهدايات المستنبطة

* تفضل الله تعالى على أنبيائه بالنعم الجليلة والمواهب العظيمة تأييدا لهم وإنعاما عليهم.

* « في قصة داود ﷺ وتعلمه صناعة الدروع دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقُصُ من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان، وفي الصحيح عَنْ الْمِقْدَامِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[(١)]، وإنما خصَّه ﷺ بالذكر لأنه مع نبوته كان ملِكاً، فلم يمنعه ذلك من العمل.

* إتقان العمل من شيم أهل التقى والصلاح، والاجتهاد في تطوير الحرف والصناعات النافعة مطلب شرعي وأمر ضروري.

* في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ دعوة إلى توظيف الملكات والمواهب والنعم في الأعمال الصالحة، ومراقبة الله تعالى في جميع الأحوال والأعمال، قال صاحب روح البيان: « ومن عرف أنه البصير راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره»[(٢)].

* قَوْله تَعَالَى: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَ التماثيل كَانَ مُبَاحاً، وَهُوَ مَحْظُورٌ فِي شَرِيعَتِنا، كما جاء في الحديث: (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٣٤ والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع. - باب: كسب الرجل وعمله بيده. حديث ١٩٦٦ .

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي ١١ / ١٧٣.

فِيهِ صُورَةٌ) [١]، وحديث (لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِينَ) [٢].

قال ابن العربي: « فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ شَاءَ عَمَلَ الصُّوَرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا ؟ قُلْنَا: لَمْ يَرِدْ أَنَّهُ كَانَ مَنْهِيّاً عَنْهَا فِي شَرْعِهِ، بَلْ وَرَدَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ كَانَ أَمْراً مَأْذُوناً فِيهِ، وَالَّذِي أُوجَبَ النَّهْيَ عَنْهُ فِي شَرْعِنَا وَاللهُ أَعْلَمُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، فَكَانُوا يُصَوِّرُونَ وَيَعْبُدُونَ، فَقَطَعَ اللهُ الذَّرِيعَةَ وَحَمَى الْبَابَ... وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا فَيَكُونُ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ الصُّوَرِ نَسْخاً...

وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الَّذِي كَانَ يُصْنَعُ لَهُ الصُّوَرُ الْمُبَاحَةُ مِنْ غَيْرِ الْحَيَوَانِ وَصُورَتِهِ فَشَرْعُنَا وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ» [٣].

وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَهَا وَهِيَ بِنْتُ سَبْعِ سِنِينَ، وَزُفَّتْ إِلَيْهِ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ، وَلُعَبُهَا مَعَهَا وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ [٤].

وعنها أيضا: أَنَّهَا كَانَتْ تَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: وَكَانَتْ تَأْتِينِي صَوَاحِبِي فَكُنَّ يَنْقَمِعْنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ [٥].

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عائشة كتاب اللباس باب: من كره القعود على الصور. حديث ٥٦١٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب. حديث ٨١- (٢١٠٤).

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة كتاب الطلاق - باب: مهر البغي والنكاح الفاسد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٨، ٩ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، وقدومها المدينة، وبنائه بها حديث ٣٦٨٣.

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب: الانبساط إلى الناس. حديث ٥٧٧٩.
ورواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب في فضل عائشة، رضي الله

قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن ثم إنه لا بقاء لذلك وكذلك ما يُصنَع من حلاوة أو عجين لا بقاء له فرخص في ذلك، والله أعلم[١].

وكذلك ما يصنع من تماثيل لأغراضٍ علمية، كدراسة علم الطبِّ والتشريح ونحوه.

* وهب الله سليمان ملكا عظيما وأيده بجنود عجيبة منها الريح والطير والجن فضلا عن الإنس، وإذابة عين النحاس له، فشهد عصره ازدهاراً حضارياً وتقدماً ورقيّاً مادياً وروحياً.

* الشكر من أعمال القلوب والألسنة والجوارح: وهو اعتراف القلب بنعمة الله واستحضارها وثناء اللسان وعمل الجوارح.

وشكر الله تعالى لا نهاية له ولا حد له، بل التوفيق للشكر نعمة تستوجب الشكر، وقد نظم هذا المعنى بعضُهم فقال:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً ... علي له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتسعَ العُمرُ
إذا مس بالنعماء عمَّ سرورُها ... وإن مسَّ بالضراء أعقبها الأجرُ[٢]

* قوله تعالى﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾: قال صاحب الظلال: « تعقيبٌ تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصصِ، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله، وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء، فكيف إذا قصروا وغفلوا عن الشكر من الأساس ؟!

تعالى عنها. ٨١- ٢٤٤٠، والانقماع: الاختفاء حياء وهيبة.

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٤٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٧٤ .

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام!»[١] انتهى كلامه رحمه الله.

* وإنما خصَّ آل داود بالذكر مع أن الشكر واجب على سائر الخلق فالخير قد عم الجميع في هذه المملكة العادلة ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾؛ لأنهم موضع التأسي والاقتداء ومحطُّ الأنظار، وفي هذا درسٌ لآلِ كلِّ داعيةٍ وأسرة كلِّ حاكم أن تكونَ أسرعَ استجابةً وأشدَّ حرصا وأعظم إقبالا على طاعة الله وشكر نعمه، شكرا تاما عمليا.

-٣-

مع قوم سبأ

مثالٌ واقعيٌ لعاقبة من كفر بأنعم الله

قَالَ تَعَالَى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سبأ: ١٥ – ٢١

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٨٩٩.

المناسبة

* لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقَّبه بحال بعض الجاحدين لها، فقال:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾

* كذلك لما بين تعالى أن الحكمة من قيام الساعة جزاء المؤمنين ومجازاة الكافرين، ذكر مثالا لمجازاة الكافرين في الدنيا بقوم سبأ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

* وكذلك جاءت هذه القصة مفصلةً ومقررةً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ: ٩] فهي عبرةٌ وعظةٌ لكفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث وما يستتبعه من جزاءٍ، وكذّبوا بالنبيِّ ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، وهذه القصةُ التي يعرفونها من أجلِ العبرِ وأبلغِ النذُر.

التفسير الإجمالي

بعد أن ذكر الله أحوال الشاكرين وضرب لهم مثالا بداود وسليمان عليهما السلام، ذكر عاقبة الكافرين بأنعم الله، فضرب مثالاً بقوم سبأ الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والنكران والإعراض والنسيان.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾: آيةٌ عجيبة تحتاج إلى وقفة وتأمل ونظرة واعتبار، فهي عظةٌ وعبرةٌ، ودلالةٌ على قدرة الله تعالى، وإرادته الغالبة وسننه الماضية والجارية.

قال الألوسي: « أي علامة دالة بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة على وجود الصانع

المختار، وأنه سبحانه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة، مجازٍ للمحسن والمسيء»[1].

﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾: هذه الجنانُ عن اليمين والشمال رمزٌ لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب.

لقد ارتقوا في سُلَّم الحضارةِ والمدنيَّةِ، حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميات وفيرةٍ وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا موردٌ مائيٌّ عظيم، عُرِفَ باسم « سد مأرب ».

﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾: فالأرض بساطٌ سندسيٌّ أخضر، قد طبعتْ فيها الزهورُ الفواحةُ بألوانها الزاهية أبدع النقوش.

وقد دعاهم الله تعالى بلطفٍ ولينٍ إلى مائدته العامرةِ ورزقه الكريم﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾: دعوة من الكريم للتمتع بهذه الطيبات ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ من الآفاتِ، خاليةٌ من المنغصاتِ، قد طاب فيها المقامُ ورَغدَ العيشُ، وثمارٌ يانعةٌ دانيةٌ، وقصورٌ منيفةٌ ومساكنُ عاليةٌ، ومناظرُ رائعةٌ، وسهولٌ ممتدةٌ، وربوعٌ خضراءُ، وأنهارٌ تتدفقُ بالخيرات، وأشجارٌ تتفتقُ بأطايبِ الثمراتِ، وحقولٌ تجودُ بأجودِ المحاصيلِ، وهواءٌ عليلٌ،﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ يعفو عن الكثير ويثيبُ على القليلِ ويمنحُ الثوابَ الجزيلَ.

فماذا فعل قوم سبأ ؟

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية معرضين عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحرمان.

(١) روح المعاني للألوسي ١٦/ ٢٧٥ .

﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ عن المنعم جل وعلا،﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ السيل الجرار الذي خرب سدهم وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت تلك الحقول والبساتين المثمرة، بأشجارٍ رديئة الثمر، قليلة النفع.

قال الشوكاني: « وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، فردموا ردماً بين جبلين، وحبسوا الماء، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الثالث، فأخصبوا، وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض، فدخل الماء جنتهم، فغرقها، ودفن السيل بيوتهم، فهذا هو سيل العرم، وهو جمع عرمة وهي: السِّكْرُ التي تحبس الماء»[1].

﴿ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ وَشَيۡءٍ مِّن سِدۡرٍ قَلِيلٍ ﴾

وتسمية البدل جنتين: للمشاكلة اللفظية، والتهكم بهم.

وقال قتادة: بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرِّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر، ويحتمل: أن يرجع قوله: ﴿ قَلِيلٍ ﴾ إلى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

وقال الخليل: الخمط الأراك، وكذا قال كثير من المفسرين، وقال أبو عبيدة: الخمط كل شجرة مرّة ذات شوك، وقال الزجاج: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكن أكلُهُ، وقال المبرّد: كل شيء تغيّر إلى ما لا يشتهى يقال له: خمط، ومنه اللبن إذا تغير[2].

وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بريٌّ لا ينتفع به، ولا يصلح للغسول، وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى: الضال، والثاني سدر ينبت على الماء، وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب، قيل: ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وهو

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٢٤٩ .

النوع الثاني الذي ذكره الأزهري.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾: ذلك التبديل بسبب كفرهم وجحودهم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ « كانوا في رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته، فأُمِروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا، وكفروا بالنعمة، وضَيَّعوا الشكر، فَبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قيل:

تبدلت وتبدلنا، يا حسرةً لِمَن　　　ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

بين الجحود والفتور !

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ بين تعالى ما كانوا فيه من نعم ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة ليِّنة، وبلاد طيبة آمنة وقرى متقاربة متواصلة التي باركنا فيها، قيل هي بلاد الشام.

﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾: متواصلة تتراءى للناظرين، فلا يغادر المسافرُ قريةً إلا ويشرف على قرية أخرى، وتظهر معالُمها فلا يحتاج إلى دليلٍ ولا حمل زاد أو مبيت في أرض خالية ولا يخشى من عدوٍ أو وحوشٍ ضارية.

﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قريةٍ والمبيتُ في قريةٍ أخرى، وإنما يبالغُ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء أو قلتهما، أو لخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة.

﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ ونعمة الأمن من أعظم النعم؛ فهم في أمن من كل المخاطر والآفات مهما ساروا بالليل أو النهار.

والتعبير بـ﴿ سِيرُواْ فِيهَا ﴾ «مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى»[١]، وقدم الليالي لأنها مظنة الخوف؛ وقد قيل الليل أخفى للويل، أو لأنها سابقة على الأيام أو قلنا سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة.

﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾

قرأ ابن كثير وأبو عمرو فقالوا ربنا بعِّدَ بالتشديد وقرأ الباقون باعد بالألف، وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب ويروى عن ابن عباس: (ربُّنَا باعَدَ) تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا كأن الله تعالى يقول: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشرا وبطرا: لقد بوعدت علينا أسفارنا وعلى هذا فإنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بطرا وعجبا مع كفرهم، وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس (ربُّنا بَعَّدَ بين أسفارنا) وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم، وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري (ربَّنَا بَعُدَ بينُ أسفارنا) ربنا نداء مضاف ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: (بَعُدَ بينُ أسفارِنا) ورفع (بينُ) بالفعل (بعُدَ) أي بعُد ما يتصل بأسفارنا، وبعدت المسافات بين البلاد، وروى الفراء وأبو إسحاق (بَعُدَ بينَ أسفارِنا): بعد سيرنا بين أسفارنا.[٢]

والمعنى: تبطروا على هذه النعم وطلبوا زوالها وتمنوا لو كان السفر طويلاً وشاقاً، وبلغ الترفُ ببعضهم والدَّعَةُ أن اشتكى من بعد الأسفار جحوداً وإنكاراً لنعم الله تعالى فكانوا بين جاحدٍ للنعمة وبين متبرم منها متململٍ يتمنى زوالَها، وذلك لما طالت بهم مدة النعمة فبطروا وملوا وآثروا الذي هو أدّنى على الذيّ هو خير، وقالوا: لو كانت متاجرُنا أبعدَ كان ما نجلبُه منها أشهى وأغلى.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٨٨.

(٢) يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٨٢ والنشر في القراءات العشر ٢ / ٣٥٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٤ / ٢٥٦ .

فسئموا طيب العيش وملوا العافية، وطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان السلوى والعسل، وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء.

قال الشوكاني: « وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى: أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء، والشجر، والأمن: المفاوز، والقفار، والبراري المتباعدة الأقطار، فأجابهم الله إلى ذلك، وخرّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير، والماء، والشجر. [(١)]

﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتململهم وتعنتهم.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ يتحدث الناس بها ويتعجبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرقهم بعد اجتماع شملهم وذلهم بعد عزهم.

﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾أي فرقناهم حتى صار تفريقهم مثلاً سائر لكل فُرقة ليس بعدها وصال فقالوا، تفرقوا أيادي سبأ، وذهبوا أيادي سبأ، يؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ سَبَأٍ مَا هُوَ أَرَجُلٌ أَمْ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ ؟ فَقَالَ: (بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَبالشَّام مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارٌ وَحِمْيَرُ عَرَباً كُلُّهَا، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ). [(٢)]

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤ / ٣٢٢.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣١٦) وإسناده حسن.

ضحايا إبليس !

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ: ٢٠ – ٢١].

تأتي هذه الآيةُ الكريمة تعقيباً على قصة سبأ واستخلاصاً لبعض دلائلها وعبرها، فتبين قيمة الإيمان باليوم الآخر وأثره في وقاية الإنسان من مكائد الشيطان وعصمته من فتنته، وكيف وقع قوم سبأ في مصائد الشيطان فصدق عليهم ظنُّه لما أعرضوا عن شكر النعم ونسوا المنعم بل وجحدوا النعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبائل الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قوله كما أخبر رب العزة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧].

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾: تركوا له الذمام وأذعنوا له وساروا في ركابه.

﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: ممن عصمهم الله من وساوسه ونجّاهم من إغوائه.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾: ما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أن الله تعالى قدّر ذلك فتنة وابتلاء للناس، فلم يقهرهم إبليس على الكفر وإنما كان منه الدعاء والتزيين والسلطان: القوة وقيل الحجة أي لم تكن له حجة يبينها لهم، ولا برهان يقيمه عليهم، وإنما اتبعوه بأهوائهم الجامحة، وتقليدهم الأعمى، لا عن حجة ودليل.

﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ ﴾ «أي: ليقوم سوقُ الامتحان، ويعلَم به الصادقُ من الكاذبِ، ويعرف من كان إيمانه صحيحا، يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعوه إلى ضده،

فالله تعالى جعله امتحانا، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب»[١].

﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾: يحفظ العباد، ويحصي عليهم أعمالهم، فيجازيهم بها.

الهدايات المستنبطة

* الجزاء الدنيوي تمهيدٌ وبرهان ودليلٌ وعنوانٌ على الجزاء الأخروي.
* سيقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث وكذبوا بالنبيِّ ﷺ وأعرضوا عما بين أيديهم وما خلفهم من الآيات.
* أقبل قوم سبأ على المائدة الربانية ولكنهم تغافلوا عن شكرها، فقابلوا النعم بالجحود والنكران، والآيات والعبر بالغفلة والنسيان، فكان جزاؤهم الشقاء والحرمان.
* دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾: على عدله سبحانه في حكمه وسنته في مجازاة كل كفور، ومن هنا تتجلى حكمة البعثِ لإقامة موازين القسطِ وردِّ الحقوق لأصحابها والانتصاف للمظلومين.
* في قصة سبأ درسٌ للأمم الآمنة المطمئنة أن تعبد الله وتشكره على نعمه وتوظفها في طاعة الله تعالى.
* كم من أُناس تحولت نعمتهم إلى نقمة وعذاب؛ بكفرهم وفسادهم، وكم من أمة شقيت من حيث ترتجي وتأمل وقد قيل:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعَها ... فإن المعاصي تزيلُ النعم

وداوِمْ عليها بشُكْرِ الإلهِ ... فشكرُ الإلهِ يُزيلُ النِّقَم

* اقترن ذكر «الصبار الشكور» بهذه الصيغة الدالة على المبالغة في أربعة مواضع هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٦٧٧.

إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥].

٢ - وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان: ٣١].

٣ - وقوله تعالى﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ: ١٩].

٤ - وقوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٣].

ذلك أنه حين تمتزج مرارة الصبر بحلاوة الشكر مع حرارة الإيمان: تتفتق عن بصيرةٍ نافذةٍ وفكرٍ ثاقبٍ وعقلٍ مستنيرٍ وقلبٍ حاضرٍ يستنبط الدروس ويستوعبُ العبر، ويستجلي الآيات ويستنطق الآثار.

* ذاك هو حال المؤمن بين الصبر والشكر، فأمره كلُّه خير وحياته كلها ثمرٌ: كما في الصحيح عَنْ صُهَيْب قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ "عَجباً لأَمْرِ الْمُؤْمنِ؛ إنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ»[1].

* كلُّ من ضلَّ وغوى فقد صدق فيه ظنُّ إبليس حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين كما أخبر رب العزة ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

---

(١) رواه مسلمٌ في صحيحه كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. ٦٤ وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٥٥ حديث ٢٨٩٦، وهو على شرط مسلم والبيهقي في شعب الإيمان ٤ / ١١٦ حديث ٤٤٨٧.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩ – ٤٠].

* فتنة إبليس ابتلاءٌ وامتحانٌ للناس ليتبين المؤمنُ الصادقُ من الكافر المرتاب، فيثبتُ المؤمنُ ويعصمُه الله، ويقعُ المرتابُ في حبائل الشيطان، وبقدر إيمان العبد بالله ويقينه باليوم الآخر بقدر ثباته أمام هذه الفتنة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

-٤-

حوارٌ مع المشركين

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢ – ٢٨]

المناسبة

هذه جولاتٌ حواريةٌ مع المشركين لتقرير القضية الأساسية في هذه السورة، قضية البعث والجزاء، بعد قيام الحجةِ عليهم بقصة داود وسليمان عليهما السلام، ثم بقصة سبأ وتحذيرِهم من اتباع الشيطان.

وفي هذه الآيات تقريرٌ لوحدانية الله تعالى وبيانٌ لعظمة سلطانه، وإشعارٌ بهيبته تعالى

وجلاله، ودحضٌ لمزاعم أهل الشرك، وتمهيدٌ للحديث عن مشاهد القيامة.

الملكُ والأمرُ لله وحده

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: بعد ذكر هذه القصة وما انطوت عليه من دلائل وعِبَر أمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين احتجاجاً عليهم وتبكيتاً لهم وتهكماً بهم: ادعوا آلهتكم التي زعمتم، فهل يملكون في هذا الكون مثقال ذرة ؟ أم لهم شرك في السماوات والأرض؟ أم الله تعالى في حاجة إليهم فيستعين بهم ؟

فإذا لم يصحَّ شيء من ذلك فلم توجهون لهم الدعاء وتلتمسون منهم الرجاء ؟

قال القرطبي: « هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرةٌ على شيء من ذلك ؟ وهذا خطاب توبيخ وفيه إضمار: أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم فإنهم لا يملكون ذلك» [(١)].

﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾: والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى معين.

﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾: حتى الملائكة الذين كانت العرب تدعوهم بنات الله؛ وتزعم لهم شفاعة عند الله، لا يملكون من الأمر شيئا.

الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله لمن ارتضاه.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٦٠ .

ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾: فالشفاعةُ مرهونةٌ بإذن الله، والله لا يأذن في الشفاعة في غير المؤمنين به المستحقين لرحمته، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لأن يأذن بالشفاعة فيهم، أما الأصنام التي عبدوها فأنَّى لها أن تشفع وهي لا تضر ولا تنفع، والشفاعة لا تكون إلا لمن ارتضاه الله وأذن له من الملائكة المقربين والنبيين والصديقين.

« ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص وعن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها في الجملة فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى» (١).

والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة وغيرهم، إلاّ أن الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء، ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى:﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٨]، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سُرّي عنهم﴿ قَالُواْ ﴾ للملائكة فوقهم، وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن:﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ ﴾ أي: ماذا أمر به ؟ فيقولون لهم: قال: القول ﴿ ٱلْحَقَّۖ ﴾ وهو: قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ استشعارٌ وتعبيرٌ عن هيبته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريد.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾: إنه مشهد في ذاك اليوم العصيب، يوم يقف الناس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام، ويطول الانتظار، ويطول التوقع، وتعنو الوجوه، وتسكن الأصوات، وتخشع القلوب في انتظار الإذن من ذي الجلال والإكرام، ثم تصدر الكلمة الجليلة

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٢٩٧.

الرهيبة، فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ «وكشف الفزع الذي أصابهم، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم، ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ ﴾يقولها بعضهم لبعض، لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى، ﴿ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾.. ولعلهم الملائكة المقربون هم الذين يجيبون بهذه الكلمة المجملة الجامعة: ﴿ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾.. قال ربكم: الحق... ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾.. وصف في المقام الذي يتمثل فيه العلو والكبر للإدراك من قريب..

وهذه الإجابة المجملة تشي بالروعة الغامرة، التي لا ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة !

فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب، وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم، فهل بعد هذا المشهد يملك أحدٌ أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء في من يشرك بالله ؟!».[(١)]

وقيل: إن الذين يقولون: ماذا قال ربكم هم: المشفوع لهم، والذين أجابوهم: هم: الشفعاء من الملائكة، والأنبياء.[(٢)].

وهذا المشهد المهيب: مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربهم، خاشعين مذعنين لأمره تعالى مشهدٌ متكررٌ في الدنيا، كما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾...) الحديث.[(٣)]

الرزق والهداية من الله

﴿ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠٤ بتصرف.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٦ / ٥١٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾ الحجر: ١٨.

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سبق ذكره من بيان عجز آلهتهم عن الخلق والرزق﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإنهم يعلمون أن الخالق الرازق هو الله، فلماذا يلجئون إلى الأصنام وهي لا تملك لهم رزقا ؟

وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالذي يُنْزِلُ عليكم الخيرات ويمنحكم البركات من السموات هو الله وحده، والذي ينبت لكم الأرض ويخرج خيراتها وكنوزها هو الله تعالى، ومن ثَمَّ فهو وحده المستحقُّ للعبادة أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرةٍ.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وهذه غاية النُّصفة والاعتدال والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدي منهما والضال، ليثير دوافع التدبر ونوازع التفكر في رفقٍ ولطفٍ بعيدا عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فلا رازق سواه ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ فالحقُّ لا يتعددُ، فإما هدى وإما ضلالٌ. وبعد هذا البيانِ الساطعِ والبرهانِ القاطعِ تبينَ لمن له أدنى نظر من المحق ومن المبطل

« وإيثار (على) في صاحب الهدى و(في) في مقابله: للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنِهِ واطلاعِهِ على ما يريدُ، كالواقفِ على مكانٍ عالٍ أو الراكب على جواد، وانغماس الضال في ضلاله، حتى كأنه في مهواة مظلمة» [١].

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١٤/ ٢٣ .

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥]

هذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ سبأ: ٢٦]

أمرٌ لهم على سبيل التعجب من حالهم وتبكيتهم وإثبات عجزهم وضلالهم.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٧]

« وأريد بأمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطئهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم، أي أرونيها لأنظر أيَّ صفة فيها اقتضت إلحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة، وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزامهم الحجة... »[1].

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم، فأمر رسوله أن يبلغهم قوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ يوم القيامة وجهاً لوجه، ثم يحكم بيننا بالقول الفصل والحكم العادل، وهو سبحانه الفتاح: يفتح بين عباده بالحق، العليم بصالحهم وطالحهم لا يخفى عليه منهم شيء.

ومن عرف أنه تعالى هو العالم بكل شيء، راقبه في كل شيء وفوَّض إليه كل أمر.

عموم الرسالة

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذه الآية بمثابة الختام لما قبلها والتمهيد لما بعدها، إذ بعد أن أقام سبحانه الأدلة على

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن - للسيد محمد صديق خان الهندي ٧/ ٤٥٢.

البعث، وضرب لذلك الأمثال، وأورد من الآياتِ والعبرِ ما يقرر صدق النبي ﷺ في ما أخبر عنه، من ذلك قصة داود وسليمان وقصة سبأ، وفي إيرادها دليلٌ على صدقِ رسالتِه ﷺ، شرع في ذكر الرسالة وبيَّن أنها عامةٌ للناس جميعا، وأن من سماتها البارزة البشارة والنذارة، فكانت هذه الآية بالنسبة لما سبقها كالنتيجة لهذه المقدمات، كما أنها تمهيدٌ للحديث عن مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وما أرسلناك إلى قومك خاصة بل للناس عامة، مبشراً من أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً من عصى بأليم العقاب.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: لا يعلمون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول، فيحملهم جهلُهم إلى الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد ويدفعهم إلى سوء الأدب مع الرسل عليهم السلام، فتراهم يتطاولون على الأنبياء ويوسعونهم افتراءً، ويطالبونهم بمقترحات تنمُّ عن تعنتهم وعنادهم.

الهدايات المستنبطة

* الخالق الرازق والمالك المصرف هو الله تعالى ولا شفيع إلا بإذنه ورضاه، ولا شفاعة إلا لمن ارتضاه.
* قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، يدل على غايةِ الإنصاف والموضوعية، والتجرد للحقِّ وابتغائه في رفقٍ ولطفٍ بعيدا عن أجواء التعصب والهوى، والجدل على هذا النحو المهذب الموحي أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والاقتناع العميق، وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة.
* قوله تعالى ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[سبأ: ٢٥].

دليلٌ على الرفقِ بالمخالف والتلطف معه في الخطاب وترغيبه وكسب وُدِّه وعاطفته؛ حتى يقبل على الحقِّ ويذعن له فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.

* الجهل بحقيقة الرسالة ومهمة الرسل، من دواعي الصدود والإعراض والتكذيب والاستبعاد والتجني على الأنبياء، ومطالبتهم بمقترحات تنمُّ عن تعنتهم وعنادهم، من هنا كان الحديث عن الرسول والرسالة من محاور القرآن الرئيسة.

- ٥ -

من مشاهد القيامة

حواراتٌ صريحةٌ

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المناسبة

* صلة هذه الآيات بمحور السورة الكريمة واضحة جلية حيث تنتقلُ بنا إلى مشاهد القيامة وحال الكفار في هذا اليوم لتخاطب وجدانهم وتثير مشاعرهم وتنقلهم إلى أجواء هذا اليوم.

* وصلتها بالآية السابقة واضحةٌ حيث إنها تتصلُ بمهمة الرسول ﷺ وهي البشارة والنذارة حيث أنكر الكفار ما أُنذروا به واستعجلوه استبعادا له وتهكما به.

التفسير الإجمالي

وعدُ اللهِ آتٍ.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

من سوء أدب الكفار وفرط جهلهم وشدة تعنتهم ولجاجهم: سؤالهم سؤال استبعاد وإنكار عن وقت مجيء هذا الوعد الحق فيقولون: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؟

ولكن: أيُّ تلازم بين معرفةِ ساعةِ هذا الوعدِ الحقِّ، وبين التصديق بها حتى يربطوا هذه بتلك ؟ أليس هذا دليل على جهلهم وسفههم؟.

وتأتي الإجابة الحاسمة: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾: فالذي قدره وحدَّده هو الله عز وجل، وإذا حلَّ بكم فلا مفرَّ منه ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله كما لا يمكن تقديمه.

عاقبة التكذيب

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ إنه منطق الكفر الذي تأصل فيهم وتغلغل في أعماقهم، فاندفعوا إلى التكذيب الذي لا مبرر له إلا سحائبُ الجحودِ المعتمة، وحُجُبُ الإنكارِ الكثيفة التي ظللتهم وجللتهم، فلا تنجلي عنهم ولا تنقشع إلا بالمواجهة الواقعية والمعاينة الحسية.

مراجعاتٌ

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ دعوا السؤال عن وقت الساعة، فإنها آتيةٌ لا محالة، وتأملوا في هذا المصير الذي ينتظركم إن متم على ظلمكم وإعراضكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ حوارات صريحة وحقيقية بين الأتباع والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، حوارات حقيقية لا يتبادلون فيها المجاملات والابتسامات، بل يتراشقون الملامة والعتاب، حوارات واقعية لا شكلية تدور حول المصير المحتوم.

يبدأُ المستضعفون بالكلامِ الصَّريحِ بعد أن سقط ذلك الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وتلاشت تلك الهيبة التي كانت تمنع المستضعفين من مراجعة الكبراء فكلُّهم في المذلة والهوان سواء.

لكن الحوارَ يبدأ هذه المرة من جانب المستضعفين بعد أن كانت الصدارة في الدنيا للكبراء والوجهاء، يتراشقون التُّهم ويتبادلون اللوم والعتاب ويسعى كلُّ فريق إلى التنصُّل والانفلات، والنجاة، والتعلُّل والتبرير﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾: أنتم تتحملون مسئوليتنا، فقد كنا لكم تبعاً، وكنا رهن إشارتكم، وعشنا تحت أقدامكم، وكنا عونا لكم لتحقيق مآربكم، وجنودا لضمان سلامتكم !

وهنا يتملص المتبوعون من الأتباع بل ويرمونهم بتهمة الإجرام لينسلُّوا منها، ويتساءلون بكل سماجةٍ وصفاقةٍ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ بعد أن كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يسمعون لهم، ولا يبالون بهم، ولا يعتدُّون بوجودهم، ولا يحفِلون بآرائهم، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا يأذنون لهم بمناقشة ! فهم اليوم يسمعون منهم ويجيبون عليهم في حوارٍ واقعيٍ صريحٍ، يقولون للمستضعفين: بل اخترتم طريق الإجرام بإرادتكم وتسابقتم إلى التزلف منا وبالغتم في الخنوع لنا، وتفننتم وأخلصتم في خدمتنا، من أجل مصالحكم العارضة ومآربكم الحقيرة، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾: فقد جاءكم الهدى فما الذي صرفكم عنه أيها المجرمون ؟ هل أرغمناكم على اتباعنا ؟ أم أنه الإجرامُ يسري في دمائكم والتبعيةُ تحملُكم على الانصياع لنا وممالأتنا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

أجابوهم بكل ما لديهم من لوعةٍ وأسى وحسرةٍ وحُرْقَةٍ وبكل ما يضمرونه من حنقٍ وغيظٍ:﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أنسيتم عملَكم الدائبَ وكيدكم المتواصل وتآمركم الخبيث على الحق وأهله وصدَّكم الدائم وأوامركم الصريحة ودعواتكم المتواصلة إلى الكفر البواح ؟ واتخاذ الأنداد ؟

﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ لما تبين لهم ضلالهم وتحققت خسارتهم، تمنوا لو سلكوا طريق الحق، وأسروا بالندامة خشية الفضيحة، وهنا نلحظُ أنهم في بعض مواقف القيامة يجاهرون بالحسرة والندم، وفي بعضها يتهامسون ويتخافتون ويضمرون ويسرون.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ﴾ إذلالا لهم وتضييقاً عليهم ونكالاً بهم﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كما كانوا عبيداً للشهوات أسارى للأهواء استحقوا المذلة والمهانة والقيد والحبس، فالجزاء من جنس العمل.

قال صاحب الظلال: « ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين. وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان؛ وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان.. وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم، وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء!» [1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٠.

الهدايات المستنبطة

* في تذكر المؤمن أمورَ الآخرة ومواقف القيامة واستحضار مشاهدها ما يسلِّي الفؤاد ويثبت القلب، ويزيدُه يقينا بوعد الله وإجلالا وهيبةً بعظمة مقامِ الله مما يهوِّن عليه كلَّ بلاءٍ.
* ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.
* يشهدُ يومُ القيامة مواجهاتٍ عنيفةً وحواراتٍ صريحةً بين الأتباعِ والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويتراشقون التُّهم ويسعى كلُّ فريق إلى النجاةِ على حسابِ الآخر.
* ينكشف لكلِّ فريق حقيقة الآخر وتفضح النوايا ويظهر المستور، وتتهاوى العلاقة الهشَّة والمودة الزائفة، ويظهر الحقد الدفين.
* يشهد يوم القيامة مواقف الكفار المتباينة والتي تنمُّ عن حيرةٍ واضطراب فتارةً يجاهرون بالحسرة والندم، وتارةً يتهامسون ويتخافتون، ويضمرون ويسرون وتارة يجحدون وينكرون وتارة يقرون ويعترفون !

-٦-

الترف والمترفون

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سبأ: ٣٢ - ٣٩

المناسبة

يخبر تعالى عن أحوال الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء المكذبين، وأن الترف من أسباب الصدود والاستكبار عن الحق، وأنه سبحانه ما أرسل رسولا في قرية من القرى، إلا كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتثبيت له وبيانٌ لما للترف من آثارٍ سلبيةٍ، من أخطرها أنه سببٌ للصدود عن الحق وإنكار البعثِ والجزاءِ مع جلاء الآياتِ والبراهين.

التفسير الإجمالي

المال ليس قيمةً في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلا على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة بل الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب فعادة المترفين في كل العصور: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق وإعلان الحرب على أهله، والاغترار بالأماني الكاذبة والظنون المبنية على الوهم والخيال، والاعتزاز بالمال والولد والتفاخر بذلك.

وهم مع الرفاهية التي يعيشونها والنعم التي يرفلون في أثوابها جفاةُ المشاعر غلاظ

القلوب.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾.

سارعوا إلى الكفر وأعلنوا الحرب على دعاة الحق واستبعدوا العذاب متعللين بكثرة المال والولد.

وخصَّ المترفين بالذكر لأنهم غالبا أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهارجها، فهم منهمكون في شهواتها مستغرقون في ملذاتها قد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم فتراهم يستهينون بالفقراء، ويزدرونهم وينفرون منهم، فكيف بدعوةٍ تجمعهم ورسالةٍ توحدهم وعقيدةٍ تؤاخيهم !

أما الفقراء فهم غالبا أصفياء القلوب أنقياء السرائر قد خلت قلوبهم من حب الدنيا خلوَّ جيوبهم وفراغَ بيوتهم من متاعها وأعراضها، ليس عندهم ما يخافون عليه إن اتبعوا دعوةَ الحقِّ بل إنها طريقهم إلى الخير والسعادة التي يحلُمون بها؛ ولذلك تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وفيه «... وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاس اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ...».[1]

﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ ﴾

وهمٌ كاذبٌ وسرابٌ خادعٌ، ذاك الذي يتعلقون بأهدابه الواهية، أيظنون أن كثرة الأموال والأولاد سببٌ للنجاةِ والرضوان ! أيُّ منطقٍ هذا ! وأيُّ ميزان !

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ ﴾ فليس بسطة الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم؛ فالرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب بدْءِ الْوحْيِ بَاب كيف كان بَدْءُ الْوَحْيِ حديث ٦ .

وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلةً لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بإيمانهم وصلاحهم وقيامهم بحقوق المال والولد.

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إنما الذي يتزلَّف به العبد إلى مولاه هو ما قدمه من إيمانٍ خالص وعمل صالح؛ يرتقي به إلى أعلى مقامات القرب ودرجات الرضوان في أعالي الجنان﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾: أي في أعالي القصور منعمون آمنون في الغرفاتِ الهانئة الوثيرةِ، يُسْعَى إليهم بما يشتهون،﴿ ءَامِنُونَ ﴾من كل آفةٍ فلا موت ولا حرمان ولا أسقام ولا أحزان، بل بهجة وسرور وكرامة وأمان.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أما أولئك الذين يسعون في آيات الله، لا لتدبرها والانتفاع بها بل للتكذيب بها وتعجيز من آمن بها ودعا إليها يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي في جهنم، تحضرهم الزبانية فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ تقريرٌ لهذا المعنى وتمهيدٌ للدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾: ما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أي باب من أبواب الخير فإن الله تعالى يخلف على المنفق، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فاطلبوا الرزق منه والتمسوا أسبابه وأنفقوا ينفق عليكم، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الهدايات المستنبطة

* المال ليس قيمة في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلا على قربه من الخالق الرازق عز وجل، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.

* الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب.

* من أحوال المترفين: الركون إلى الدنيا وملذاتها والصدود عن الحق، والاغترار بالأماني الكاذبة، والاعتزاز بالمال والولد.

* الرزق بتقدير وتدبير من الله عز وجل إن شاء بسطه وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتدني منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً وجعل المال والولد وسيلة لرضا الله تعالى.

* الحث على البذل والإنفاق قال تعالى ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ)، وَقَالَ: (يَدُ اللَّهِ مَلأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، وَقَالَ (أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)(١).

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً)(٢).

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير- باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾.[هود ٧] - حديث ٤٤٠٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة. باب: قول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

-٧-

عودُ إلى مشاهد القيامة

مواجهةُ حاسمة... وعاقبة الظالمين

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[سبأ: ٤٠ - ٤٢]

المناسبة

يعودُ بنا السياق للحديث عن مشاهد يوم القيامة فيوقفُنا أمام موقفٍ مهيبٍ ومواجهةٍ صريحةٍ مباشرةٍ بين المشركين والملائكة الذين يتبرؤون من الشرك وينزهون الله تعالى عن ذلك، ويشهدون على ضلال المشركين واتباعهم لشياطين الجن.

التفسير الإجمالي

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يحشر الله تعالى المشركين ومن أشركوهم معه تعالى في مواجهةٍ فاصلةٍ ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ في هذا المشهد المهيب والموقف العصيب مواجهةٌ حاسمةٌ بين الملائكة ومن عبدوهم، وهذا الاستفهام يتضمن توبيخا وإنكارا على المشركين، ومواجهة لهم بمن عبدوهم من دون الله.

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

تنزيه وتقديس لله تعالى مع تعجب وتبرؤ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكُنا ومدبِّر أمورنا ! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابةً وطاعةً لشياطين الجن الذين وسوسوا وزينوا لهم ذلك.[1]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧١ .

وهنا يلتفت الخطاب إلى هذا الحشد العظيم ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ خاب رجاؤكم وانقطع أملُكم وضلَّ سعيكم، فلا يملك بعضكم لبعض نفعاً وضراً؛ إذ كانوا يعبدون الجن رغبة ورهبة، وكان الجن يستمتعون بعبادة المشركين لهم كما قال سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]

﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أمرٌ لا سبيل إلى التفلُّتِ منه، أمرٌ يحملُ معنى الإهانة والتوبيخ، وسهامَ التقريع، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور: ١٣ – ١٦]

الهدايات المستنبطة

* يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ حاسمةٍ ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبوعين وبين المشركين ومن أشركوهم مع الله.
* تقديس الملائكةِ ربهم وتنزيهه عن شرك المشركين، ويَبْرَؤُون ممن عبدوهم من دون الله.
* لا تبقى للمشركين حجةٌ يتعللون بها بل يستيقنون من ضلالهم ويعاينون العذاب الذي طالما استبعدوه وكذبوا به.

-٨-

عودٌ إلى حال المشركين في الدنيا

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣ – ٤٥]

المناسبة

بعد التذكير بهذا المشهد المهيب والموقف العصيب بين يدي علام الغيوب، تذكر هذه الآيات بسجلِّ المشركين الحافل بالصفحات المظلمة والجرائم المنكرة، فتبين ما كانوا عليه في الدنيا من تكذيب وإعراض وجحود وعناد وصدود وافتراء، وعداءٍ لدعوة الحقِّ التي جاءتهم وتشكيك في الكتاب الذي جاءهم.

وكان الأولى بهم أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي شرفٌ لهم، كان عليهم أن يعتبروا بمن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين ؟ فأين هم منهم ؟ ولم يبلغوا معشار ما بلغوا !

التفسير الإجمالي

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

أعرضوا عن آيات الله تعالى مع جلائها، وافتروا على الله الكذب، ونالوا من نبيه ﷺ وكذبوا بوعيده، واختلقوا الأباطيل، ورفعوا شعار التقليد الأعمى لما كان عليه الآباءُ والأجدادُ، ليصدوا الناسَ عن دعوة الحقِّ.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ فكان أحرى

بهم أن يقبلوا على هذا الكتاب وأن يتمسكوا به ويتشبثوا بهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ من الأمم السالفة والقرون الغابرة، فما بلغ كفارُ قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأمم التي آتاها الله نعماً وفيرة ومكَّن لهم ما لم يمكِّنْ لغيرهم، فما أغنت عنهم النعم حين كذبوا رسلَ الله ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم.

الهدايات المستنبطة

* إعراض المشركين عن آيات الله وصدودهم عنها، واختلاقهم الأكاذيب المتناقضة ونسجهم الافتراءات المتضاربة للصدِّ عنها.
* كان الأولى بكفار قريش أن يقبلوا على هذه الدعوة ويناصروها ويؤازروها فهي لهم شرفٌ وذخرٌ، ومجدٌ وذكرٌ، كما كان عليهم أن يعتبروا ممن سبقهم على طريق الضلال من الأمم الغابرة الذين ما أغنى عنهم ما حازوه من الخيرات وما بلغوه من التمكين.
* تمكين الله لكثيرٍ من الأمم السابقة لم يغنِ عنهم شيئا حين كذبوا وأعرضوا.

خاتمة السورة

دعوة للتفكر والنظر

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سبأ:٤٦ – ٥٤]

المناسبة

بعدما أقام عليهم من حجج، وحذرهم من سوء العاقبةِ، دعاهم إلى التجرد للحق والصدق في طلبه، والتخلي عن الأهواء والمطامع التي تحول دون التفكير الصحيح والنظر الثاقب والقرار الصائب في أمر هذه الدعوة، وأحوالِ إمامها، والنظر في مصيرهم المحتوم ومراجعةِ حالهم قبل فوات الأوان.

التفسير الإجمالي

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ أقدم لكم هذه الموعظة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة العميقة التي إن فعلتموها أصبتم ووُفقتُم:أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتجرد، فتشمّروا عن ساعد الجد، وليحاور كلٌّ واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، ويعرض كلُّ واحد محصولَ فكره على صاحبه، وينظران معا نظر الصدق والإنصاف أو يراجعُ كلُّ فردٍ نفسَهُ فيتفكر ويتأمل بعدلٍ ونُصْفَةٍ ويعزم عزما خالصا على ابتغاء الحق، فإن

من سنن الله تعالى الثابتة أن من ينشُد الحقَّ بعزمٍ وصدقٍ يوفَّقْ إليه.

قال الإمام النسفي: « ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوشُ الخواطر ويُعمي البصائر ويمنع من الرويَّة ويقلُّ الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله». [1]

﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾: ثم تتفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم، هل صحيحٌ ما تدَّعُونَهُ وتصِمُونَهُ به من جنون ؟ أليس للجنون أعراض ؟ فهل ظهر عليه شيء منها؟ أم هل جربتم عليه كذباً ؟ أليس تدعونه بالصادق الأمين ؟ ألستم تشهدون له برجاحة العقل؟ ورحابة الفكر؟

قال القرطبي: «... ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا أو رأيتم فيه جنة أو في أحواله من فساد أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر أو تعلم الأقاصيص وقرأ الكتب أو عرفتموه بالطمع في أموالكم أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ؟ فإذا عرفتم بهذا الفكرِ صدقَهُ فما بالُ هذه المعاندة !». [2]

« وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأذكاهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية، وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبال، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للإيماء إلى أن حاله ﷺ مشهورٌ بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا» [3]، وفي هذا تعريضٌ بتجاهلهم وتنكيرهم له.

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٣/ ٣٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٢٧٢ .

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٦ / ٣٣٠.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: إن هذه هي الحقيقة وهي النتيجة التي تصل إليها العقول السليمة بعد تجريد الفكر وإمعان النظر.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! وهو أسلوب فيه تهكم، وفيه توجيه، وفيه تنبيه.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو وحده رجائي ووجهتي، وهو الذي كلفني، وهو الذي يثيبني، فلا أرتقب إلا ثوابه، ولا أبتغي إلا رضاه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم بجميع الأمور شاهدٌ عليها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ أي يلقيه إلى أنبيائه ويهدي إليه كل من ينشده ويتحراه، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].

وأفادَ التعبيرُ بقوله ﴿يَقْذِفُ﴾ سرعة وصول الحق، وسرعة التحول من الكفر إلى الإيمان فالهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طَرَبٍ وفرحة لا توصف فقذائف الحق دوماً صائبة لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها، والعقولِ التي تبحثُ عنها.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء مهما صغر ودقَّ.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ بعد ما قدمته السورة من حجج وبراهين جاء الحق ولاحت أعلامه، وتجلت حججه وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزقت حجُبُه وتلاشت شبهاتُه، وتبددت ظلماتُهُ وانقشعت غيومه وانطفأ بريقه، فلم تعد له صولة ولا جولة فهو زاهقٌ، أما الحقُّ فإنه ظاهرٌ.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ فالوحي هو طريق الهداية، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الذهن ونقاء الفطرة، فالهداية منحةٌ وتوفيقٌ من الله تعالى.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ لو ترى هذا الموقف حين يروعهم الفزع ويغشاهم الهول ويستبدُّ بهم الرعبُ ويُحاطُ بهم من كل جهة، وفي كلِّ مرحلةٍ عند الموت وعند دخول القبر، وسؤال المَلَكَينِ، وعند يوم الفزع الأكبر، أهوالٌ عظامٌ تتربص بهم.

﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من حيث كانوا فمهما شرَّقوا أو غرَّبوا فهم من الله قريب.

قال الألوسي: ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو نحوه عما يريد سبحانه بهم ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القليبِ أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل»[(١)].

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ قالوها بعد انقضاء الزمان وفوات الأوان وانطواء الصحف، وأنى لهم ذلك وقد انقضت الدنيا فلا مردّ إليها، فلا يُسْمَعُ لهم دعاء، ولا يُرْحَمُ لهم بكاء، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

وقيل:

وَلَيسَتْ عَشِيّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ إِلَيكَ، وَلكِن خَلِّ عَينيكَ تَدمَعَا[(٢)]

والتناوش التناول، والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بُعْدٍ ! يعني: في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وهو معنى ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾: وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد

(١) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٣٣٥.

(٢) البيت: للصّمّة بن عبد الله القشيريّ.

ما فات عنهم، وقيل: التناوش الرجعة، أي: وأنى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تؤوبَ إليَّ ميٌّ وليس إلى تناوشِها سبيلُ[1]

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ أنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموه بالظنون والأوهام.

عَنْ قَتَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِه: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، قَالَ: «يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُكَذِّبُونَ بِالْآخِرَة، وَيَقُولُونَ: لا بَعْثَ، وَلا جَنَّة، وَلا نَار».[2]

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

حيل بينهم وبين ما يشتهون من الأهل والعشيرة والجاه والسلطان والأولاد والخلان.

أو حيل بينهم وبين الإيمان فلا يقبل منهم. أو حيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفها، وحرمانهم من نعيم الجنة وملذاتها.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى التفكر والنظر في رَوِيَّةٍ وهدوءٍ، وإخلاصٍ وتجردٍ بهدف الوصول إلى الحقيقة والتسليم بها.
* تضمنت الآية الكريمةُ الأصولَ الثلاثةَ، فقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ إشارة إلى التوحيد

---

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٢٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٦/ ٤٠٧، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ١٧٩ حديث ١٧٩١٠ .

وقوله: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر. [١]

* الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.

* الهداية تأتي في لحظة واحدة، فإذا القلب وقد تلقفها، وإذا النفس في طرب ونشوةٍ لا توصف، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تتلهف عليها وتتشوق إليها.

* الباطلُ على مَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

* طريق الهداية هو الوحي، فلا هداية إلا من هذا الطريق مهما كانت سعة الإدراك وصفاء الأذهان وجلاء الأفهام، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى... فأكثرُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

* تذكر أحوال الآخرة ومواقفها العظيمة ومشاهدها المهيبة مما يسلي الدعاة ويخفف عنهم ويهون عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.

* بعد فوات الأوان يعترف الكفار ويقرون بالبعث ! وأنى لهم أن يقبل إيمانهم وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشبه والأباطيل ورموا من أخبر عنه بالظنون والأوهام.

* يحال بين الكافر وبين المتع والملذات والجاه والسلطان والأهل والخلان.

* الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان كما ورد عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾، قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشَّكَّ وَالرِّيْبَةَ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْه». [٢].

---

(١) أفاد هذا المعنى الإمام الرازي في تفسيره ٢٥/ ٢٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم - ١٠ / ٣١٦٩ حديث ١٧٩١٤.

سورة فاطر

بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة فاطر، حيث جاء في مطلعها قوله تعالى﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[فاطر : ١] فسميت بهذا الاسم لاستفتاحها بهذه الصفة العظيمة الدالة على عجيب قدرته تعالى وبديع صنعه.

كما سميت بسورة الملائكة لورود ذكر الملائكة الكرام عليهم السلام، في مطلعِها بما يدلُّ على عظمتهم وطاعتهم وجليل قدرهم ورفيع درجتهم عند ذي الجلال والإكرام، وعجيب خلقهم الذي يتناسب مع مهامِّهم الجليلة ويبين عظمة الخالق وبديع صنعه، وفي هذا إشعارٌ بنعم الله تعالى على عباده وتفضُّله عليهم، فإن فطر السموات والأرض : ابتداؤهما وإنشاؤهما وإبداعهما، وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة حتى يتمكنوا من أداء مهامِّهم، حيث لا يتنزلون إلا بالحق ولا يُرْسَلُونَ إلا بالخير.

ب. فضائل السورة:

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة ما يرغِّب في تلاوتها ويبيِّن مزيَّتها :

* فعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[1].

وهذه السورة الكريمة من السور المثاني.

* وروى أبو عبيد القاسم بسنده عن عامر بن عبد قيس قال : « أربعُ آياتٍ من كتابِ الله

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في تفسيرنا لسورة الأنعام.

إذا قرأتهن ما أبالي ما أصبحُ عليه وما أُمسي : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾[فاطر : ٢]، وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ ﴾[يونس: ١٠٧]، وقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق : ٧]، وقوله تعالى﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾[: هود: ٦]» [1].

ج. مكية السورة:

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة.

قال القرطبي : « سورة فاطر مكية في قول الجميع». [2]

* نزلت بما يشهد بعظمة الخالق جل وعلا وبديع صنعه وجليل إنعامه.
* نزلت مقررة لوحدانيته تعالى ومفندة شبه أهل الشرك.
* نزلت لتقرر الإيمان بالبعث بالأدلة والبراهين.
* وكان نزولُها تسليةً وتسريةً وتثبيتا لقلب النبي ﷺ.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيِها : أربعون وست آيات في المدني الأخير والشامي، وأربعون وخمسٌ في عدد الباقين.

وكلمها : (٧٧٧) سبع مئة وسبع وسبعون كلمة.

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ٢ / ٥ حديث ٤٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤ / ٣١٨

وحروفها : ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفا [(١)].

هـ. محور السورة:

حديث هذه السورة الكريمة حول تقرير العقيدة الإسلامية : حيث استفاضت في بيان أركان الإيمان : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأجابت عن الأسئلة الملحّة التي تدور في الأذهان : كيف ؟ ولماذا خلقنا ؟ وما هو دورنا في هذا الوجود ؟ وما هو مصيرنا ؟ فتضمنت السورةُ حديثا عن خلق الإنسان والغاية من وجوده ومصيره الذي ينتظره، كما تحدثت عن نظرة المؤمنِ للكونِ والحياةِ.

والمحورُ الرئيسي الذي تدورُ حوله السورةُ : التذكيرُ بنعمِ الله تعالى الجليلة، من ذلك نعمة فطر السموات والأرض ونعمة إرسال الملائكة بالخير، ونعمة الزيادة في الخلق ونعمة خلق الإنسان ونعمة الرزق ونعمة العناية والهداية، والإنذار والإعذار، ونعمة القرآن ونعمة الفوز بالجنان، والنجاة من النيران، ونعمة الاستخلاف في الأرض، وحرية الاختيار، ونعمة الآثار المبثوثة والعبر الناطقة، ونعمة الإمهال والحلم، ونعمة إهلاك الظالمين وقطع دابر المجرمين هذه النعمُ الجليلةُ حين نتأملُها في ضوء هذه السورة الكريمة : تملأ قلوبَنا هيبةً وإجلالا وتشحَنُ نفوسَنا خشيةً وتعظيما، وأرواحَنا تحفُّزا وتوثُّبا، ورغبةً ورجاءً في فضل ورحمةِ هذا المنعِم العظيم.

و. المناسبات:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة يدورُ حول التذكير بنعم الله تعالى وعظمتِه تعالى، وتسميتها بسورة « فاطر »،

---

(١) يراجع : كتاب **البيان في عد آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢١٠، وكتاب « **أقوى العدد في معرفة العدد** » لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ «، **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢١٣ **وفنون الأفنان في علوم القرآن** لابن الجوزي ص ٣٠١.

وسورة « الملائكة» : يحملُ دلائلَ العظمةِ وآياتِ القدرةِ وشواهِدِ الإبداعِ، وجليلِ النعم حيث خَلَقَ اللهُ هذا الكونَ الرحيبَ بهذا الإبداعِ العجيبِ الشاهِدِ على كمال قدرته وبديع صنعه وعظيم سلطانه ولطيف إنعامه، كذلك خلق الملائكة بهذه القوة العجيبة والسرعة الفائقة والهيئة الرائعة التي تتناسب مع مهامِّهم ووظائفهم.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

* في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خلق السموات والأرض، وفي ختام السورة حديثٌ عن نعمة العناية والحفظ.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ١].

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

* في السورة الكريمة تسليةٌ للنبي ﷺ وتعزيةٌ له عن تكذيب الكفار الذين ساروا على خُطى من سبقهم على طريق التكذيب والإعراض، فإلى الله المرجع والمآب، وبينت السورةُ أسباب صدودهم وإعراضهم وهو الاستكبار والمكرُ السيئُ، وجاء الوعيدُ بسنة الله تعالى في المكذبين وهي الإهلاك والعذاب.

قال تعالى في أول السورة ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤].

و في منتصفها ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر: ٢٥ – ٢٦].

و في آخرها ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ

إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٢ – ٤٣].

المناسبة بين السورة وسابقتها:

الصلة بين سورة فاطر وسورة سبأ: صلة واضحة جلية، من ذلك:

* افتتاح السورتين بالحمد على نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ومنها نعمة الخلق والرزق والهداية والاجتباء، والرحمة والعطاء، ونعمة البعث والجزاء وغير ذلك من النعم.

التناسب بين سور الحمد كلِّها: في القرآنِ الكريمِ خمسُ سورٍ مفتتحةٌ بالحمدِ وهي: فاتحة الكتاب والأنعام والكهف وسبأ وفاطر، ويقترن ذكر الحمد في مطالع هذه السور ببيان نعم الله تعالى العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة التي تضمنتها هذه السور: نعمة الحياة وما يتصل بها من نعمٍ جليلة، ونعمة الهداية وإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونعمة البعث والجزاء.(1)

---

(١) **قال الإمام الرازي**: «السور المفتتحة بالحمد خمس سور: سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف، وسورتان في الأخير، وهما هذه السورة [يقصد سورة سبأ] وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير، والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة، فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم، فلنا حالتان الابتداء والإعادة، وفي كل حالةٍ له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فقال في النصف الأول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات في المشتبهات وأدى ذلك إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في سورة سبأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١] إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ ﴾، وقال في سورة الملائكة:=

* ختام سورة سبأ مع مطلع سورة فاطر تشبه خاتمة الأحزاب مع مطلع سبأ وخاتمة المائدة مع افتتاح الأنعام، فالقضاء بين العباد نعمة تستوجب الحمد وإهلاك الظالمين وقطع دابرهم وحرمانهم مما يشتهون كذلك، ونظير هذا قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قال الإمام أبو حيان : « ولما ذكر تعالى في آخر السورة التي قبلها هلاكَ المشركين أعداء المؤمنين، وأنزلهم منازل العذاب، تعيَّن على المؤمنين حمدُهُ تعالى وشكرُهُ لنعمائه ووصفُهُ بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥] .

فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأنَّ قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ بيانٌ لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر حالهم، ذكر حال المؤمن وبشره بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة» [(١)].

* بينت السورتان بطلان دعاوى المشركين وفساد اعتقادهم في تلك الآلهة التي زعموها من دون الله، فهي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك مثقال ذرةٍ في هذا الكون ولا تقدر على شيءٍ.

= ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١]، إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر : ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلِّمين كما قال تعالى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] وقال تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام» التفسير الكبير للرازي ٢٥ / ٢٣٨.

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٧/ ٢٩٧ بتصرف.

قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

و قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر: ٤٠].

* في سورة سبأ: دعوة إلى التفكر والنظر، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وفي سورة فاطر: دعوةٌ للتأمل والإمعان في آيات الكون، وحثٌّ على السير والنظر والاعتبار في عاقبة السابقين: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤].

* في السورتين حديث عن خطورة المكر، وانكشاف أمر الماكرين، وفضحهم وخسرانهم وسوء عاقبتهم وانقلاب مكرهم عليهم: قال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ وهو استحضارُ نعمه تعالى واستشعارُ عظمتهِ، فتمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث المستفيض عن لطائف نعمه وجليلِ عطائِه وعظيم سلطانه، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوهٍ عديدةٍ: منها تقريرُ أركان العقيدة وبيان أصولها، ورد شبه الكفار ودحض حججهم، واستجلاء نعمه تعالى، واستعراض دلائل القدرة وشواهد العظمة، والدعوة إلى التفكر والنظر والسير والاعتبار.

بين مقدمة السورة ومحورها:

لما دارت السورةُ حول التذكير بنعم الله العظيمة استُهلَّت بالحديث عن نعمة خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات تدلُّ على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

مقدمة السورة

الاستفتاح بالحمد

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾[فاطر : ١ – ٢]

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ : حمد تعالى نفسه قبل أن يحمده الحامدون، وأثنى على نفسه قبل ثناء غيره عليه، وعلَّم خلقه كيف يحمدونه، فله الحمد على ما اتصف به من صفات الكمال والجلال، وله الحمد على ما أولى عباده من كريم السجايا وجميل الخصال، وله الحمد على أن علمنا كيف نحمده ونثني عليه.

﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أبدعهما وأنشأهما، فله الحمد على إيجادهما من غير أن يسبقهما مثالٌ، وله الحمد على ما بث فيهما من مشاهد الجمال وآيات العظمة والجلال، فكل ما في الكون يدل على بديع صنعه ولطائفِ حكمتِهِ.

قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم أعرابيَّان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتُها، أي : ابتدأتُها[1].

﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ فمنهم الموكل بالرزق، ومنهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بحفظ الإنسان، ومنهم الموكل بكتابة الأعمال، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، فلكلٍ مهمته ورسالته التي يؤديها على أتم وجهٍ.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٦/ ٤٧٢.

﴿ أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ : يتفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما يتفاوتون في الرتبةِ والدرجة، فضلا عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، وفي هذه الآية لفتٌ للأنظار إلى هذا العالَم النوراني الذي جُبِلَ على طاعة الله ومحبة أولياء الله، وبيانٌ لتفاضلهم في الرتبة والمنزلة.

وفي الملائكة من له أكثر من أربعة أجنحة، وهذا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾، ففي الصحيحين : « عن ابن مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»[(١)].

﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾ : فالذي فطر السموات والأرض وأبدعهما من غير مثالٍ مسبوق، والذي خلق الملائكة بهذه الهيئةِ الجليلةِ قادرٌ على المزيدِ، فقدرته تعالى لا تحدها حدود وإبداعه تعالى لا منتهى له.

والزيادة في الخلق عامة وشاملة، منها على سبيل المثال : الخُلُقُ الحَسَنُ، والوجه الحسن والصوتُ الحَسَنُ، ومنها مَلاَحَةُ العينين، واعتدال الصورة، وطلاقة اللسان، ومنها كمال العقل وجزالة الرأي، وجرأة القلب، وسماحة النفس، والظُّرف في الشمائل، وخفة الروح، وغير ذلك من الزيادات المحمودة، فهي شاملةٌ لكلِّ وصفٍ محمودٍ، والأولى أن يعمم، ويقال: الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء، فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وهذه دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال القدرة، وبقدرِ معرفة الإنسان وتعمقه بقدر تذوقه لهذا الجمالِ الكونيِّ الباهر الذي يتجلَّى حتى يراه الجميع، ويدقُّ ويلطفُ حتى لا يكتشفه إلا العلماء المدققون.

قال صاحب الظلال : « ولا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها ونسبها، ونسب الفضاء حولها، وطرق سيرها في مداراتها، وعلاقة بعضها ببعض في أحجامها وأوضاعها وحركاتها.. لا يحتاج القلب المفتوح الواعي

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٦/ ٤٧٢.

الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله، ليستشعرَ الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب، فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء، حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحي بالتنفس والانطلاق، حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحي بالوداع والانتهاء، بل حسبه هذه الأرض وما فيها من مشاهد لا تنتهي ولا يستقصيها سائح يقضي عمره في السياحة والتطلع والتملي، بل حسبه زهرةٌ واحدة لا ينتهي التأمل في ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها..

والقرآن يشير إشاراته الموحية لتدبُّر هذه الخلائق... الجليل منها والدقيق... وحسب القلب واحدة منها لإدراك عظمة فاطرها، والتوجه إليه بالتسبيح والحمد والابتهال..»[(١)].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر: ٢].

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾: لا يقدر أحدٌ على إمساكها وحبسها.

﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾: لا يقدر أحد على إرسالها فخزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، فدل هذا على سَعَةِ رحمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ وتواترِ إنعامه وتسلسلِ إحسانه.

« وعبَّر عن إرسالِها بالفتحَ إيذاناً بأنَّها أَنْفَسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون وأعزُّها منالاً»[(٢)].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هو العزيزُ الغالبُ فلا يمتنعُ عليه شيء، والحكيمُ في تصريفِهِ وتدبيرِهِ وتقديره.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة حديث ٢٩٩٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى، رقم: (١٧٤) - ٢٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٠.

قال صاحب الظلال : « وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة تحفُّها رحمةُ الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد، وينام على الحرير -وقد أمسكت عنه- فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر.

ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبُر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه، لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك، ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة!

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب، وتوصد جميع النوافذ، وتسد جميع المسالك فلا عليك، فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء، وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع، وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

هذا الفيض يفتح، ثم يضيق الرزق، ويضيق السكن، ويضيق العيش، وتخشن الحياة، ويشوك المضجع، فلا عليك، فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة، وهذا الفيض يمسك ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء، فلا جدوى، وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء!...

ومن رحمة الله أن تحسَّ برحمة الله! فرحمةُ الله تضمُّك وتغمرُك وتفيضُ عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرةً منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه

في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام... ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية.. لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسرٍ وجهد وضيق ومشقة. واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقة، وعسر من مشقة.. واجهتني في ذات اللحظة. ويسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكُبُ حقيقتَها في روحي؛ كأنما هي رحيقٌ أرشُفُهُ وأحس سريانَه ودبيبه في كياني، حقيقةٌ أذوقُها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها، تقدم نفسها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحت لي تفتحها هذا، وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحيقها وتحقق معناها، وتتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول : هاأنذا.. نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!

إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كلُّ شيء في حسي! إنها نعمةٌ ضخمةٌ أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية، نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها ؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة، وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها، وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي، وهاأنذا أجدُ الفرج والفرح والرِّيَّ والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني ! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسكب فيضها في آية من آياته»[(١)].

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

الصلة بينهما واضحةٌ جلية : حيث بدأت بحمد الله تعالى على نعمه الجليلة وآلائه العظيمة وأشارت إلى نعمة خلق السموات والأرض وكذلك خلق الملائكة بهذه الهيئة العجيبة والقوة الفائقة التي تمكنهم من أداء وظائفهم، وهذا من فضله تعالى على الناس لأن الملائكة لا تتنزل إلا بالحق والخير، كذلك من بديع صنعه وعظمة سلطانه وجليل إنعامه زيادته في الخلق ما يشاء، وفتح خزائن رحمته، وعزته تعالى وحكمته.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٢٢ - ٢٩٢٤ باختصار.

الهدايات المستنبطة

* استفتاح السورة بحمد الله تعالى تنويهٌ وتنبيهٌ على فضائل الحمد، وتقريرٌ لتفرده تعالى به فهو تعالى واهب النعم وصاحبُ العطاء والكرم، وكثيرٌ من الناس في غفلةٍ عن شكره تعالى.

* كل ما في الكون يدل على بديع صنعِهِ وبلاغةِ حكمتِهِ، ولطائِفِ إحسانِهِ وفيضِ جودِهِ ويشهدُ بعظمتِهِ، ويلهجُ بحمدِهِ تَعَالَى.

* تلفتُ الآياتُ أنظارَنا إلى هذا العالَمِ النوراني الذي جُبِلَ على طاعةِ الله ومحبةِ أولياء الله، وبيانِ تفاضلهم في الرتبة والمنزلة، فالإيمان بالملائكة ومحبتهم وتعظيمهم من صميم الإيمان وأركانه، وهم متفاوتون في القوة، وفي السرعة، كما أنهم متفاوتون في الرتبةِ والدرجة، فضلا عن تنوع مهامهم، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة.

* الزيادة في الخلق عامة وشاملة تشمل كلَّ وصفٍ محمودٍ، وكل نعمةٍ جليلةٍ وعطيةٍ حسنةٍ وهبةٍ طيبةٍ.

* في الآيات دعوةٌ للتأمل والنظر في ما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال قدرته تعالى وعظيم سلطانه وجليل تفضله وإنعامه.

* بقدرِ معرفة الإنسان وتعمقه في هذا الكون بقدر تذوقه لما أودعه الله فيه من آيات الجمال وشواهد العظمة والجلال.

وقد قيل :

تأملْ سُطُورَ الكائناتِ فإنها من ... الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملتَ خطَّها ... ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
تأمل في ربيعِ الأرضِ وانظرْ ... إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ
عيونٌ من لُجَينٍ شاخصاتٌ ... كأنَّ حداقَها ذهبٌ سبيكُ
على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ ... بأنَّ اللهَ ليسَ لهُ شريكُ

* خزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيز فلا يمتنع عليه شيء، الحكيم في تصريفه وتدبيره وتقديره.

-١-

النداء الأول

تذكيرٌ وتسليةٌ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾[فاطر : ٣، ٤]

المناسبة

استهلت السورة بحمد الله تعالى وأشارت إلى جملةٍ من نعمه تعالى، وفي هذه الآيات نداءٌ عامٌّ يشمل الناس جميعا، ويأمرهم بذكر نعمته تعالى واستحضارها وحمده عليها، فهو تعالى الخالق الرازق، كما يلتفت الخطابُ إلى النبي ﷺ تسليةً له وتعزيةً وتأسيًا بمن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سجلوه من صفحاتٍ مضيئةٍ بالصبرِ والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم، وأن مرجعَ الأمورِ جميعا إليه تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا هو النداء الأول في هذه السورةِ الكريمةِ، وهو موجَّهٌ إلى الناس جميعا، وفيه تذكيرٌ لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن أجلِّها نعمة الخلق والرزق، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ مما يدلُّ على تفرده تعالى

بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواء،﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ومع ذلك ينصرف الكفار عن هذه المعاني الجليلة ويقلبون تلك الحقائقَ الجلية فيشركون مع الله آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

ثم يجيء الخطاب في الآية التالية بالتسلية والتسرية فتكذيبُهم لا مبرر له، وشأنهم شأنُ من سبقهم من المكذبين، فإلى الله مرجعهم ومصيرهم، وفي هذا وعيدٌ لهم ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾.

وفي اللطائف : « هذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه ؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنّهم صَبَرُوا وأنَّ اللَّه كفاهم، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه» [1].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

يتسق هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث التذكير بنعم الله تعالى، والتفكر في عظمته فهو تعالى الخالق الرازق وإليه المرجع والمصير.

الهدايات المستنبطة

* جاء النداء الأول موجهاً للناس جميعاً مذكراً لهم بنعمه تعالى التي لا تعدُّ ولا تُحصى، ومن أجلِّها نعمة الخلق والرزق، مما يدلُّ على تفرده تعالى بالألوهية، فكيف ينصرف الناس لعبادة غيره، ويعرضون عن هذه الحقائق الثابتة ؟

* تسلية النبي ﷺ وتثبيته ببيان حالِ من سبقه من الأنبياء، حيث كذبوا وأوذوا وصبروا ليتسلَّى بقصصهم ويتأسَّى بهم.

---

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري ٦/ ٣٢٢.

-٢-

النداء الثاني

أسبابُ الغرور

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر : ٥-٨]

المناسبة

بعد الدعوة إلى تذكر نعمه تعالى واستحضارها، والدعوة إلى التوحيد الخالص، تأتي آيات هذا المقطع بالتحذير من الاغترار بالدنيا وزخرفها والاغترار بوساوس الشيطان، والوقوع في شراكِهِ ومكائدِه، والانتماءِ إلى حزبه وأوليائه، فإنما يدعو حزبَه إلى السعير، وهي مصير أهل الكفر والعصيان، أما أهل الإيمان والصلاح فلهم من الله مغفرة على ما بدر منهم من ذنوبٍ وتقصير ولهم أجرٌ كبيرٌ على صالحِ أعمالهم، فضل من الله ونعمة، ومغفرة ورحمة، ثم تبين الآيات سببا من أسباب الصدود والإعراض وهو الاغترار بالباطل وزخارفه، حين تميل إليه النفس وتركن إليه، ومن هنا جمعت الآياتُ بين التحذير من الاغترار بالدنيا والشيطان والاغترار بالنفس وهو العُجْبُ، ودعت دعاةَ الحق إلى الصبر والثبات وأن لا يأسوا على من اختار طريق الضلال واستحسنه ؛ فإن الهدايةَ من الله تعالى، وهو عليم بهم مجازيهم بما يصنعون.

التفسير الإجمالي

تحذيرٌ من فتنة الدنيا والشيطان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ : هذا

هو النداء الثاني في السورة الكريمة وفيه تحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الغَرور، وهو «كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسِّرَ الغَرورُ بالشيطان؛ إذ هو أخبث الغارين، وهو محرِّكُ كلِّ فتنةٍ، ووراء كل اغترار.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾: تأكيدٌ لعداوته ودعوةٌ لأخذِ الحذرِ والحيطةِ منه ومن مكائده ومصائده، والترهيب من سوء عاقبة من والاه وسلَّم له الزمام فقاده إلى عذاب السعير.

وفي الإرشاد: « تقريرٌ لعداوته وتحذيرٌ من طاعتِه بالتَّنبيهِ على أنَّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتِّباعِ الهَوَى والركونِ إلى ملاذِّ الدُّنيا ليس تحصيلَ مطالبِهم ومنافِعهم الدُّنيويَّةِ كما هو مقصدُ المُتحابِّيَن في الدُّنيا عند سعي بعضِهم في حاجةِ بعضٍ، بل هو توريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّد من حيثُ لا يحتسبون» [١].

عاقبة الفريقين

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

بين تعالى حال الفريقين: الفريق المطيع لإبليس والمتحزِّب له، والفريق الذي عصمه الله من فتنة إبليس وجنوده، أما فريق الكافرين فلهم عذاب شديدٌ، وأما أهل الإيمان والصلاح فلهم مغفرة وأجر كبير.

الاغترار بالباطل... وداءُ العُجب

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآيةُ تقريرٌ لما سبق من ذكر التفاوت بين الفريقين وبيانٌ لأسباب الصدود.

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٢.

وإتمامٌ لأسبابِ الصدودِ والإعراضِ، وهي الاغترار بالدنيا والشيطان والنفس وقد قال الشافعي : إني ابتليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا إلا لشدةِ شِقوتي وعنائي

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى كيفَ الخلاصُ وكلُّهم أعدائِي

وأرى الهوى تدعُو إليه خواطري في ظلمةِ الشهواتِ والآراءِ

وفي التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فاستحسنه : إشارةٌ إلى غاية ضلاله واعتلال فكره وسفاهة نفسه، حتى بلغ به الحال أن استحبَّ الكفر على الإيمان، وآثر الباطل على الحق بتزيين ما حوله من شياطين الجن والإنس، وإغرائهم وتهييجهم، حتى تعصب لما عليه من ضلالٍ، وانتصر لباطله ونافح عنه.

قال صاحب الظلال : « هذا هو مفتاح الشر كله، أن يزين الشيطانُ للإنسان سوءَ عمله فيراه حسناً، ويعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثقٌ من أنه لا يخطئ ! متأكدٌ أنه دائماً على صوابٍ ! معجبٌ بكل ما يصدُرُ منه ! مفتونٌ بكل ما يتعلق بذاته، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر، وبطبيعة الحال لا يُطيق أن يُراجعه أحد في عمل يعمله أو في رأي يراه، لأنه حسنٌ في عين نفسه، مزيَّن لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان!»[1].

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨ ﴾

فالهداية من الله تعالى لمن سلك طريقها ورام أسبابها ورَغِبَها بصدقٍ وهمةٍ، أما أولئك الغارقون في ضلالهم، الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الحياة الدنيا ورضوا بها: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ لا تُهْلك نفسك حزنًا على حالهم، فقد ارتضوا هذا الطريق، والله تعالى عليمٌ بأحوالهم مطلعٌ على ضمائرهم، ومجازيهم بما يستحقونه.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢٦، ٢٩٣٦.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

من نعمه تعالى تذكيرنا بوعده الحق وتحذيرنا من الاغترار بدنيانا، وتحذيرنا من أخطار أعدائنا وكشف مكائدهم وأساليبهم حتى نتوقَّى شرورهم ونتوخَّى الحذر منهم، كذلك من نعمه تعالى عقاب الكافرين وإثابة المؤمنين الطائعين، كذلك تسليةُ النبي ﷺ وورثةِ دعوتهِ والتخفيف عنهم من هموم الدعوةِ والتحذير من المبالغة في التأسُّف على المشركين والحسرة عليهم، فالهداية من الله تعالى يمنُّ بها على من يشاء، وفي التفكر في ما اشتملت عليه آيات المقطع من معانٍ إدراكٌ للطائف نعمه تعالى، وإشعارٌ بعظمةِ سلطانهِ.

الهدايات المستنبطة

* التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوةُ لأخذِ الحذرِ والحيطةِ منه والتوقي من الوقوع في مكائده ومصائده والتسلُّحُ بالإيمان والعمل الصالح في هذه المعركةِ الفاصلةِ مع الشيطان وأعوانه.
* من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفهِ، والانبهار بطلائه الزائف.

-٣-

آيات الله في الكون

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر : ٩-١٤]

المناسبة

في هذه الآيات بيانٌ لطائفةٍ من آيات الله الكونية الدالة على عظمته تعالى، الناطقةِ بكمال قدرته، وإنعامه على عباده بالحياة وأسبابها، الحافلة بشواهد العظمة ودلائل القدرة المبثوثة في هذا الكون في تناسق بديع وانسجام تامٍّ، وفيها برهانٌ جليٌّ على أن وعد الله حقٌّ، وفيها لفتةٌ إلى الانشغال بالمنعم بعد التحذير من الاغترار بالدنيا وزخارفها، وبيانٌ لضلالِ أهل الشرك في عبادتهم لما لا يملك مثقال ذرةٍ في هذا الكون الفسيح.

التفسير الإجمالي

إمكانية البعث

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ

ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

في هذه الآية تقريرٌ لحقيقة البعث بدليلِ حسيٍّ مشاهَدٍ وهو إرسالُ الرياح وإثارتُها للسحاب ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورةٌ الحياة التي تدلُّ دلالةً قاطعةً على البعثِ والنشورِ.

قال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت: ٣٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ أَرْبَعُونَ شَهْرًا ؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(١).

طريق العزة وعاقبة الماكرين

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة طريق العزة وأنها لله ومن الله فلا عزَّ إلا به ولا ذلَّ إلا له، فمن اعتز بغيره ذلَّ ومن تذلل له عزَّ، وقد قيل:

وإذا تذللت الرِّقاب تقرُّباً منها إليك فعزُّها في ذلّها

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب: قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨] حديث ٤٥٣٦، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين، حديث ١٤١-(٢٩٥٥).

فالآية تنبيه لأصحاب الهمم، من أين تنال العزَّة ؟ وما السبيل إليها ؟ فمن كان يريد العزَّة، ويطلبها، فليطلبها من الله عزَّ وجلَّ بطاعته وموالاته: فللّه العزّة جميعاً، ليس لغيره منها شيء.

وفي الآية ردٌّ على المشركين الذين تعززوا بعبادة الأصنام كما قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١ – ٨٢]

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ أي : إلى الله يصعد لا إلى غيره، ومعنى صعوده إليه : قبوله له، وصعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخصّ الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر لله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد، والتمجيد.

إذ يشمل كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار ودعوة وإصلاح ووعظ وإرشاد وتذكير.

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح فكلاهما ينهض بالآخر ويُعضده.

قال النسفي : « والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد، وقيل : الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه، وقيل : العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد»[1].

والكلم الطيب مع العمل الصالح من أسباب نيل العزة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ : في مقابل الكلم

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٣٣٥.

الطيب والعمل الصالح نجد من يسعى ويحتالُ في تحصيل السيئات من الأعمال والخبيثاتِ من الأقوال، فيجعلها مرادَه ومطيَّتَه، ويجتهد في إخفائها شأن الماكر الذي يدبر الأمر في خفيةٍ ويظهر خلاف ما يضمره، فمكرهم إلى بوارٍ، كالذي يغرس في أرضٍ بورٍ لا تنبت زرعاً كذلك أعمالهم وكيدهم إلى بوارٍ، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

قال صاحب الظلال: « والذين يمكرون السيئات يمكرونها طلباً للعزة الكاذبة، والغلبة الموهومة، وقد يبدو في الظاهر أنهم أعلياء، وأنهم أعزاء، وأنهم أقوياء. ولكن القول الطيب هو الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح هو الذي يرفعه إليه. وبهما تكون العزة في معناها الواسع الشامل. فأما المكر السيئ قولاً وعملاً فليس سبيلاً إلى العزة، ولو حقق القوة الطاغية الباغية في بعض الأحيان. إلا أن نهايته إلى البوار وإلى العذاب الشديد»[1].

أطوار ومراحل خلق الإنسان

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بينت هذه الآية الكريمة مراحل وأطوار خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم تحديد النوع الإنساني: ذكر أم أنثى، والحمل والوضع عند سائر المخلوقات التي تحمل وتضع كالحيوانات والزواحف والأسماك والحشرات والطير، ومدة حياة كل كائنٍ، كل ذلك مسجَّلٌ في اللوح المحفوظ، وهذا أمر يسيرٌ على الله تعالى، وهذا دليلٌ على إحاطة علمه وشمول قدرته وعظمة سلطانه.

والتعمير يكون بطول الأجل ومد الأعوام؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نقص العمر بقصره؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث وتبديده في الكسل والفراغ.

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٣١.

ورب ساعة تعدل عمراً بما يتم فيها من أعمال وآثار. ورب عام يمر خاوياً فارغاً لا حساب له في ميزان الحياة، ولا وزن له عند الله !

وقد قيل: «رب عمر اتسعت آمادُهُ، وقلت أمدادُه، ورب عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده»(١).

عالم البحار والأفلاك

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾

تلفت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، وتجمع من التنوع والاختلاف ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم.

« هذا التنوع البيئي : يدلُّ على قدرة الله عز وجل وبديع صنعه، وتقديره عز وجل وتدبيره لهذا الكون، فمع تنوعه وتباينه إلا أن أعيننا لا تقع إلا على انسجام تامٍّ وتكاملٍ بين هذه المخلوقات التي تشارك في دورة الحياة، حسب الدور المنوط لكلِّ كائنٍ حي، كما أنَّ هذا التنوع العجيب يكسو هذا الكون روعةً وجمالا، وطرافةً تُثيرُ الدهشةَ، وتدعو إلى النظرِ والتفكُّر في عجائب المخلوقات ونوادرِها، فيزداد المؤمن إيمانا ويقينا»(٢).

فهذا العذب الفرات له مكوناته وخصائصه ومنافعه، وكذلك الملح الأجاج له خصائصه ومنافعه ومكوناته، فلا يستويان في التراكيب ولا في مستوى الماء ولا في الكثافة ولا فيما يحوياه من كائناتٍ إلى غير ذلك من تباين بينهما تتجلى من خلاله عظمة الله تعالى وكمال إنعامه على الناس.

---

(١) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة ص ٢٥٦.

(٢) منهج القرآن في التوعية البيئية، إعداد أحمد محمد الشرقاوي ص٢٤ من بحوث المؤتمر الوطني للبيئة - جامعة القصيم ١٤٢٨هـ.

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.. « واللحم الطري هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ الذي ينمو في القواقع نتيجة دخول جسم غريب كحبة رمل أو نقطة ماء، فيفرز جسم القوقعة داخل الصدفة إفرازاً خاصاً يحيط به هذا الجسم الغريب، كي لا يؤذي جسم القوقعة الرخو، وبعد زمن معين يتصلب هذا الإفراز، ويتحول إلى لؤلؤة ! والمرجان نبات حيواني يعيش ويكوِّن شعاباً مرجانية تمتد في البحر أحياناً عدة أميال، وتتكاثر حتى تصبح خطراً على الملاحة في بعض الأحيان؛ وخطراً على كل حي يقع في براثنها! وهو يقطع بطرق خاصة ومنافعه كثيرةٌ !»[1].

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾: كذلك من منافع عالم البحار والأنهار أنها تحمل السفن المحملة بالخيرات والمنافع فتنقلها من بلدٍ إلى بلد وتنقل الناس بقدرة الله تعالى ولطفه وتيسيره .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾دعوة إلى شكر الله تعالى على هذه النعم التي سخرها للإنسان والكنوز التي استأمنه عليها، ليعمر هذا الكون.

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾: فالليل والنهار نعمتان لا غنى بأحدهما عن الأخرى، ومن رحمته تعالى أن جعل الليل للسكن والراحة والنهار لطلب المعاش، وتجد التداخل بينهما والامتزاج فتارة يطول النهار وتارة يقصر وتارة يطول الليل وتارة يقصر وفي هذا التنوع فوائد جمة ومنافع كثيرة.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: والشمس والقمر من أعظم الآيات على قدرة الله تعالى وتدبيره حيث يجريان بحساب دقيق وتقديرٍ محكمٍ فلا يتوقفان ولا يصيبهما عطَبٌ ولا يعتريهما تغييرٌ.

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾:

---

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٤٣٩٢.

ألا يدل هذا كله على ربوبيته تعالى وسعة ملكه وعظمة سلطانه ؟ فأين تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك مثقال ذرة في هذا الكون ؟

والقطمير القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة، وقيل: هو شق النواة، وقيل: القمع الذي على رأس النواة، وكل ذلك يسيرٌ وحقيرٌ، وفيه دلالةٌ على أنهم لا يملكون شيئا فلماذا الشرك ؟ وأين العقل والإدراك ؟ وأيُّ منطقٍ يدعو الإنسان إلى عبادة أحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ ! ولا تبصر ولا تسمع !

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ : فهي أصنامٌ لا تسمع، ولو قدر لها السماع فأنى لها أن تجيب ؟ وهي لا تملك ذرةً ولا قطميرا، فضلا عن أن الله تعالى يُنْطِقُ تلك الأحجارَ يوم القيامة لتشهد على من عبدها بالكفر وتبرأ إلى الله تعالى من الشرك.

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، وهذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

اشتملت آيات هذا المقطع على جملةٍ من نعم الله تعالى التي امتنَّ بها على عباده منها نعمة الماء، وهو إكسير الحياة وأصلها، ونعمة البعث والنشور، وبيان معالم طريق العزة، وأثر الكلم الطيب مع العمل الصالح في رفعة العبد وارتقائه، وجزاء الماكرين وعاقبة مكرهم، ثم جاء الحديث عن خلق الإنسان، وعن شمول علمه تعالى وإحاطته بكل مخلوقٍ، وعن نعمة الأنهار والبحار ومنافعها التي لا تحصى، كذلك نعمة الليل والنهار والشمس والقمر، فالخلق خلقه تعالى، والملك ملكه وهو المستحق للحمد المتفرِّد بالكمال والجلال، وكلُّ ما في الكون يشهدُ له بالعظمة.

ثم يلتفت إلى الخطاب إلى المشركين منكرا عليهم اتخاذَهم آلهةً من دون الله لا تملك أدنى

شيءٍ في هذا الكون الفسيح، كما أنها لا تسمع ولو سمعت ما استجابت لأنها لا تملك شيئا فضلا عن تبرؤها ممن عبدوها من دون الله، ومن فضله تعالى وإنعامه أن أنبأنا بهذه الحقائق، فهو الخبير ببواطن الأمور فضلا عن ظواهرها.

الهدايات المستنبطة

* تقرير البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهَدٍ وهو إرسال الرياح وإثارتها للسحاب ونزوله بالمطر الذي ينصرف بتقدير الله تعالى إلى حيث شاء سبحانه فيحيي به الله تعالى الأرض القاحلة، إنها دورةُ الحياةِ التي تدلُّ دلالةً قاطعةً على البعثِ والنشورِ.
* تنبيهٌ وتوجيهٌ لذوي الأقدارِ والهممِ إلى طريقِ العزةِ وسبيل نيلها.
* صعود الكلم الطيب والعمل الصالح معا فكلاهما ينهض بصاحبه ويرقى به ويعضده.
* تحذيرٌ لأهل المكر والخداع الذين يضمرون ما لا يظهرون ويحتالون على ارتكاب الخطايا فمكرهم إلى بوار ومصيرهم إلى المذلة والهوان.
* تلفت الآيات الكريمة أنظارنا إلى هذه العوالم التي تنطوي على آياتٍ وعجائب لا حصر لها، ومنافع لا حدَّ لها، كما أنها تجمع من التنوع والاختلاف والتوازن ما يدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده وتفضله عليهم، كما تشهد بتفرده تعالى بالخلق والأمر واستحقاقه وحده للعبادة.
* ما أحوج النفس البشرية إلى تلك الانطلاقة في أرجاء هذا الكون الرحيب بعيدا عن هموم هذا الواقع المرير وآلامه المبرحة وحدوده الضيقة وأحداثه الجارية؛ لتستشعر عظمة الخالق جلَّ وعلا وتستحضر نعمه وتدرك قيمتها وتؤدي شكرها وتصونها.

-٤-

النداء الثالث

غنى الله عن خلقه وعدله فيهم

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر : ١٥-٢٦]

المناسبة

هذا هو النداء الثالث في هذه السورة الكريمة وهو متناسق مع النداءات السابقة التي وُجِّهت للناس جميعا، وجاءت بتوجيهاتٍ رشيدة وحكَم بالغةٍ، وفيه بيانٌ لافتقار الناس الدائم إلى مولاهم الغني الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلهم بغيرهم لاستبدلهم، وأنه لا يؤاخذُ أحدا بجريرةِ غيره، ولا يحملُ أحدا وزر أحدٍ، وأنه لا ينتفع بالإنذار إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة، وأن من يتزكى فلنفسه، وأن الأعمى والبصير لا يستويان، كذلك الظلمات والنور، والظل والحرور، وكذلك الأحياء والأموات، وأن الذي يسمع وينتفع بما يسمعه هم أحياء القلوب، وأن مهمة النبي ﷺ هي النذارة، وأن الله تعالى أرسله بالحق مبشرا ومنذرا، كما أرسل أنبياءه في سائر الأمم السابقة، وأن التكذيب دأب الكفار على مرِّ الزمانِ وأن عاقبة التكذيب وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

التفسير الإجمالي

افتقار الخلق إلى الله !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ بيانٌ لافتقار الناس إلى مولاهم « فالإنسانُ فقيرٌ إلى الله تعالى في دقائقِ الأمور وجلائلها، وعظيمها وهيِّنها، وعسيرها ويسيرها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو به مستغن عن كل واحد، والله تعالى غني عن الناس وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق»[(١)].

«وهو الحميد النافع بغناه خلقه، والجواد المنعم عليهم ؛ إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم»[(٢)].

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلاّ إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق - بإنعامه عليهم أن يحمدوه»[(٣)].

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾

فاللهُ تعالى غنيٌّ عن العالمين لو شاء لاستبدل الخلقَ بغيرهم كما قال سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ : وما ذلك على الله تعالى بممتنعٍ ولا عسيرٍ فهو القادر على كل شيءٍ.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٢/ ٢٣٣.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، ٣/ ٣٣٧.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥ / ٤١٠.

لا يحمل أحد وزر غيره

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

لا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفس أخرى، ولا يستتبعُ ذنبٌ ذنب غيره، وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها ؟

أما قوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾ [العنكبوت : ١٣] فإنه وارد في الضالين المضلين، يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم، ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ ﴾[العنكبوت: ١٢].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ ﴾: بيانٌ لمن يتعظ بالإنذار، ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ : أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، أو يخشونه في الخلوات بعيدا عن أعين الناس.

﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ ﴾: دلَّ ذلك على قيامهم بحق ربهم ومن حافظ على الصلاة حافظ على غيرها من الطاعات.

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ ﴾ : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من أدران الشرك وأدناس المعاصي فإنما تزكيته لنفسه تنفعه في دنياه وتنجيه في أخراه، والله تعالى لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضرُّه معصيةُ العاصين، وإنما يعودُ نفعُ الطاعة إلى صاحبها وضررُ المعصية إلى مرتكبها.

﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فالمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

لا يستويان !

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا مثل للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، أنهما لا يستويان أبدا، وهل يستوي من تعامى عن الحق وأعرض عنه، بمن أبصر الحق واستضاء به، وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى ؟

وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأن نور الحق واحد وطريق الهدى واحد، أما طرق الضلال وسبل الظلمات فإنها كثيرة متشعبة.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ لا يستوي الظلُّ الذي يستروحُ إليه الإنسان ويقيلُ ويتقِي به وَهَجَ الشمس ولهيب الحرِّ بالحرورِ الذي لا يتحملُهُ الإنسانُ، وقيل الظل إشارةٌ إلى الجنةِ والحرورُ إشارةٌ إلى النار أو ظلُّ الإيمان وحرارةُ الكفر.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ ﴾ : من شرح الله صدره للإسلام، ومن أقام على الكفر والضلال. فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وانشراحٌ للصدور وبهجةُ النفوس، وجلاء الأفهام وربيعُ الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمةٌ في القلب ووحشةٌ في النفسِ وموتٌ للروحِ وغشاوةٌ على البصيرة وحيرةٌ للعقول وضيق في الصدور.

وقد قيل :

لَـيْسَ مَـنْ مَـاتَ فَـاسْـتَرَاحَ بِمَيْتٍ   إِنَّـمَا الْمَـيْـتُ مَـيِّـتُ الأَحْـيَـاءِ
إِنَّـمَا الْمَـيْـتُ مَـنْ يَـعِـيشُ ذَلِـيلاً   كَـاسِـفًـا بَـالُـهُ قَـلِـيـلَ الـرَّجَـاءِ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم وأنى لهم أن يسمعوا وقد قُبِرُوا وهم أحياء في غياهب الشرك ولحود الضلال، فلا سبيل إلى سماعهم وقد جعلوا بينهم وبين الحق برزخًا وحاجزا من المكابرة والجحود والتقليد الأعمى والتعصب للأهواء.

مهمةٌ جليلةٌ

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فمهمتك هي النذارة والله تعالى أرسلك بالحق داعيا وهاديا ومبشر ونذيرا، فمن تمام رحمته وكمال عدله وبليغ حكمته تعالى أن أرسل الرسل في سائر الأمم منذرين.

فما عليك إلا الدعوة والبلاغ أما النتائج فهي على الله تعالى فلا تنشغل عما طلب منك بما لم يطلب منك.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

فالتكذيبُ ديدنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فعل من سبقهم على هذا الطريق الشائك والمنعطف الخطير، رغم ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات وبالكتب المنزلة من عند الله، فكان جزاء الكافرين وعاقبتهم أن أخذهم الله أخذا شديدا وجعلهم عبرةً لكلِّ معتبرٍ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسق هذه الآيات مع محور السورة حيث تتجلى فيها عظمة الخالق عز وجل ولطائف نعمه فهو الغني عن خلقه والكل مفتقر إليه، القادر على تبديلهم بغيرهم ولكنه يمهل ويؤخر ويعفو ويصفح، العادل في حكمه وجزائه لا يؤاخذ أحدا بجريرة غيره، ولا يحمل أحدا وزر غيره ولا يحاسبه إلا على ما قدم، ومن عدله وإنصافه أنه لا يسوي بين أهل الهدى والضلال، وأنه لا يحاسب أنبياءه وأولياءه إلا على ما كلفوا به، فلا يضرهم بقاء الكفرة على كفرهم لأن الهداية منه تعالى، ومهمة الرسول هي تبليغ الحق والبشارة والنذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فلا تخلو أمة منهم، وفي الآيات تسليةٌ للنبي ﷺ أن عاقبة المكذبين إلى خسرٍ وهلاكٍ شأن من سبقهم من الأمم الغابرة.

الهدايات المستنبطة

* افتقار الناس إلى مولاهم الغني الحميد، وأنه تعالى لو شاء أن يستبدلهم بغيرهم لاستبدلهم، وفي الحديث القدسي الذي رواه نبينا ﷺ عن رب العزة جل وعلا: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)[١].

* قال ذو النون : الخلق محتاجون إليه في كل نَفَس وخَطرَة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به ! ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المحمود بكل لسان، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء، وقال سهل : لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حُجِبَ عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد، وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء.[٢]

* من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخذُ أحدا بجريرةِ غيره، ولا يحملُ أحدا وزر أحدٍ.

* الإيمان حياة القلوب ونور البصائر وانشراحٌ للصدور وبهجةُ النفوس، وجلاء الأفهام وربيعُ الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمةٌ في القلب ووحشةٌ في النفسِ وموتٌ للروحِ وغشاوةٌ على البصيرة وحيرةٌ للعقول وضيقٌ في الصدور.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، حديث ٥٥/ ٢٥٧٧.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي٣/ ٣٣٧.

* لا ينتفع بالإنذار ويرعوي به إلا أهل الخشية والطاعة ممن أحيا الله قلوبهم وأنار بصائرهم.
* بيان مهمة النبي ﷺ وهي النذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنه لم تخلُ أمةٌ من الأمم السابقة من نذيرٍ.
* التكذيب دأب الكفار على مرِّ الزمانِ، وعاقبته وخيمةٌ ونهايته أليمةٌ.

-٥-

اختلافُ الألوانِ

من روائع الأكوان

كتاب الله المنظور

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨].

المناسبة

تتضمن هذه الآيات : دعوة إلى النظر في جمال الكون، ولفتة إلى هذا الإبداع العجيب والنسق الفريد والتمازج الدقيق في الألوان المختلفة والتي تحتاج إلى وقفةٍ متأنيةٍ ودراسةٍ عميقةٍ وتشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا وبديع صنعه، وتقر افتقار الخلق إليه وغناه عنهم وإنعامه عليهم بما يستوجب حمده.

قال صاحب الظلال : « إنها لفتةٌ كونيةٌ عجيبةٌ من اللفتَاتِ الدالة على مصدر هذا الكتاب

لفتة تطوّف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها، في الثمرات، وفي الجبال وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ؛ وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً «[١].

التفسير الإجمالي

يبدأ هذا المشهد الرائع بإنزال المطر من السماء، وتفتُّق الثمراتِ المختلفةِ الألوان من أكمامها، فترى الحقول والرياضَ في حُللها القشيبةِ، قد تدلت الثمراتُ من أغصانها كالقناديل المعلقةِ بألوانها الزاهية وأشكالها الرائعة، فالماء واحدٌ والتربة واحدةٌ ومع ذلك تخرج الثمرات المختلفة الألوان، فهذا أحمر وهذا أصفر وهذا أخضر وهذا أسودٌ وهذا أبيضٌ بل تجد للصنف الواحد ألوانا متعددةً، بل وللون الواحد درجاتٍ متفاوتة، وتجد للثمرة الواحدة ألوانا متناسقةً متمازجةً، فكيف بالتمازج بين الألوان ؟ فمن الذي أبدع هذا الجمال وصبغَ هذه الألوان ؟

قال صاحب الظلال «.. وألوانُ الثمار معرضٌ بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !»[٢].

وإذا انتقلنا من عالم النبات إلى عالم الجبال : لوجدنا من أبدع الألوان ما تزدهي به الجبال وتزدان، فترى الجمال في أبدع حلله وأزهي ألوانه.

﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

والجُدَد جمع جُدة بالضم، بمعنى الطريقة التي يُخَالِفُ لونُها ما يليها سواء كانت في الجبل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢

أو في غيره، وقد تكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه.

قال صاحب الظلال : « والجدد الطرائق والشعاب، وهنا لفتة في النصِّ صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد، واللفتة إلى ألوانِ الصخورِ وتعدُّدِهَا وتنوعِها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان»[١].

« ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك، يستحق النظر والالتفات.

ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكلُّ فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة!

وكذلك ألوان الدواب والأنعام. والدواب أشمل والأنعام أخص. فالدابة كل حيوان. والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان. والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء»[٢].

وهذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، فكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألسنتهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافا تتجلى فيه عظمةُ الخالق جلَّ وعلا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٢

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٩٤٢، ٢٩٤٣

وعجيب صنعه، وتمام نعمته، ولطائف حكمته، بما يدعو إلى هيبته تعالى وإجلاله.[١]

(١) **وعن الإشارة العلمية في هذه الآية الكريمة : يقول الدكتور كارم غنيم :** « ويصنف علماء الجيولوجيا الجبال تبعًا لصخورها الغالبة على تركيبها إلى ثلاثة أقسام رئيسية: هي جبال رسوبية طبقية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «جدد بيض». وجبال قاعدية متبلورة متحولة وهي المشار إليها في الآية الكريمة «وحمر مختلف ألوانها». وجبال بركانية غير متحولة نارية، وهي المشار إليها في الآية الكريمة بـ «غرابيب سود».

وإذا كان جمهور المفسرين قد ذهبوا إلى أن «جدد» هي الخطط أو الطرق أو الطرائق، فإن من معناها العلمي (الطبقات)، وهذه إحدى خصائص الجبال الرسوبية، إذ هي جبال تكونت بترسيب طبقات فوق بعضها على مر الزمان، وهي «بيض» لأن اللون الغالب عليها هو الأبيض، وهو ما توصل إليه علماء الجيولوجيا، فالجبال الرسوبية إن لم تكن بيضاء فإن لونها يتحول إلى الأبيض بمرور الزمن، ويذكر المتخصصون من صخور هذه الجبال أنواعًا يغلب عليها اللون الأبيض مع وجود بعض الشوائب، ومن هذه الصخور: دياتوميت، وأوبوكا، وليوسيت، وبوكسيت، وكوارتز، وأميانت، وأورثوكلاس، وأنهاريت، ... إلخ.

أما الجبال الحمراء التي ورد ذكرها في الآية الكريمة بـ«حمر مختلف ألوانها»، فيفسر المتخصصون ألوانها إلى شيوع عنصر الحديد فيها، وهو الذي يتأكسد، فيظهر الصخر بلون أحمر، ويصاحب الحديد معادن فلزية أخرى كالنحاس والرصاص، وتختلف نسب وجودها، وبالتالي فاللون الأحمر ذو درجات، وليس أحمر قانيًا أو محضًا.

أما الجبال النارية (البركانية) غير المتبلورة، فيشيع اللون الأسود الغربيب عليها، ويعتبر البازلت هو الغالب في هذه الجبال، ويؤكد المتخصصون أنها أكثر الصخور القاعدية انتشارًا، وتشكل حمم الهضاب وكذلك الجبال البركانية (النارية) التي غالبًا ما تكون على شكل مخاريط. ويعرف معجم المصطلحات الجغرافية للدكتور «يوسف توني» البازلت بأنه صخر ناري أسود اللون، له عدة أنواع، يتكون بفعل تجمد اللافا (الصهارة)، وأهم خصائصه أنه غير بلوري الذرات. والجبال النارية ليس لها سوى اللون الأسود، لأنها -بحكم طريقة تكوينها البركاني- لم يتعرض لإضافة أشياء (مخاليط) إليها.

وللماء دور حيوي في تلوين الجبال : لدور الماء في ألوان الصخور، كما أن دوره حيوي في ألوان الثمرات (النباتات)، فإن له دورًا أيضًا في ألوان الجبال. ويمكن عرض موجز ما توصل المتخصصون إليه في النقاط التالية: تظهر ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) نتيجة لألوان المعادن الموجودة بها، ويتوقف لون المعدن على التركيب الكيميائي له وظروف البيئة التي يتكون فيها، إن كانت مؤكسدة أم غير ذلك.=

﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

= وتتغير ألوان المعادن بامتصاصها لكمية من الطاقة أو الموجات الضوئية، وأشد المعادن تأثرًا بذلك المعادن المحتوية لفلزات انتقالية مثل الحديد والكروم والمنجنيز، وتتغير ألوانها بظاهرة الامتصاص فيما يسمى «نظرية المجال البللوري» ولما كان الماء أكثر السوائل انتشارًا (وخصوصًا السوائل ذات الكثافة المنخفضة)، وأكثر السوائل مقدرة على الإذابة، وأكثرها مقدرة على النقل، وأفضل العوامل المساعدة في تفاعلات المعادن السيليكاتية في الصهارة (الماجما)، وأفضل العوامل المساعدة في تحويل الصخور من نارية أو رسوبية إلى متحولة، فإنه يتدخل في تحديد ألوان الصخور بتدخله في عمليات جيولوجية خارجية وعمليات جيولوجية داخلية. أما العمليات الخارجية فتستمد الطاقة اللازمة لحدوثها من الشمس، وأهمها عملية التجوية وعملية الترسيب، ويتدخل الماء في تغيير ألوان معادن كالفلسبار والبيروكسين والهورينلند والميكا، ويتدخل في أكسدة المعادن الحديدية فينتج مثلاً معدن الجوسان من الأكاسيد الحديدية المائية، وهي الأكاسيد التي يحدد محتواها المائي ألوان المعادن الناتجة عنها. كما أن الماء يقوم بدور ضروري في تحويل العديد من المعادن الأولية إلى معادن ثانوية ذات التراكيب الكيميائية والألوان العديدة، مثل المعدن الأولي المسمى يورانينيت ذي اللون الأسود الداكن، الذي يتحد بأيونات وكتيونات عديدة فينتج أكثر من مائة معدن ثانوي ذات ألوان جميلة.

كما تذوب عناصر مثل الحديد والمنجنيز في الماء، ويعاد توزيعها على أسطح الحبيبات والبللورات، ومن ثم تصطبغ هذه الحبيبات والبللورات بألوان حمراء أو بنية أو بنفسجية أو غيرها من الألوان. وتحدث في المناطق غزيرة الأمطار عمليات التجوية الكيميائية حيث يغسل الماء المعادن، فتتبقى منها رواسب مثل الهيروكسيدات والسيليكات المتميهة والكاولين والبوكسيت (الألومنيوم الخام) والحديد والنيكل.

وأما دور الماء في تغيير ألوان الصخور (ومن ثم ألوان الجبال) عن طريق تدخله في عمليات الترسيب، فهو دور واضح جدًّا؛ إذ تتبلور المعادن نتيجة التبخر، فتصطبغ بألوان معينة ويتوقف هذا على محتواها المائي (مثل الإنهيدريت والجيبسوم)، وتتكون رسوبيات غروية في أثناء فعل عمليات التجوية، وتجري في الماء وتتجدد بأيونات معينة، وكذلك يتكون الكثير من المواد اللاصقة التي تربط فيما بين الحبيبات المنقولة إلى أحواض الترسيب، فتكسب الصخور ألوانًا مميزة، ومن هذه الصخور: الحجر الرملي الحديدي..

الجبال.. اختلاف في الألوان وثراء في الصنعة !! أ. د. كارم السيد غنيم أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر موقع إسلام أون لاين أضيف بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠٠٠

ويقول الدكتور زغلول النجار : « أثبتت دراسات علم الصخور أن العامل الرئيسي في تصنيف =

أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم الجليل

= الصخور النارية هو تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس انعكاسا واضحا علي ألوانها، وتقسم الصخور النارية علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني إلى المجموعات الرئيسية الثلاث التالية:

(١) صخور حامضية وفوق حامضية وتشمل عائلة الجرانيت التي تتكون أساسا من معادن المرو (الأبيض) والفلسبار البوتاسي (المقارب إلي الحمرة) والبايوتايت (الذي يتراوح بين اللونين الأصفر والبني المائل إلي الحمرة أو العسلي).

(٢) صخور متوسطة وتشمل عائلة الدايورايت التي تتكون أساسا من قليل من المرو ومعادن البلاجيوكليز الكلسي والصودي والأمفيبول والتي تتراوح ألوانها بين الأبيض والأحمر والرمادي.

(٣) صخور قاعدية وفوق قاعدية وتشمل عائلتي الجابرو والبريدوتايت وتتميز بالألوان الداكنة التي تميل إلي السواد لوفرة معادن كل من الحديد والمغنيسيوم فيها من مثل معادن البيروكسين والأوليفين والبلاجيوكليز الكلسي. ومن ذلك يتضح بجلاء أن الجدد التي تتداخل في صخور الجبال هي في الأصل من الصخور النارية، وأن أفضل تصنيف لتلك الصخور هو التصنيف القائم علي أساس من تركيبها الكيميائي والمعدني والذي ينعكس علي ألوانها علي النحو التالي:

(١) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر وهي الصخور الحامضية وفوق الحامضية وتشمل عائلة الصخور الجرانيتية(الرايولايت ـ الجرانيت).

(٢) صخور تتراوح ألوانها بين اللونين الأبيض والأحمر من جهة والألوان الداكنة من جهة أخري، ولذا يغلب عليها الألوان الرمادية، وهي الصخور الموصوفة بالوسطية(بين الصخور الحامضية وفوق الحامضية من جهة، والصخور القاعدية وفوق القاعدية من جهة أخري) وتضم عائلة الصخور الدايورايتية (الانديزايت ـ ديورايت)، وتقع تحت الوصف القرآني: مختلف ألوانها..

(٣) صخور تميل ألوانها إلي الدكنة حتي السواد وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية، وتشمل عائلتي الجابرو(البازلت ـ الجابرو) والبريدوتايت. وهذا التصنيف لم يصل إليه العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء، وآلاف الساعات من البحث المضني، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه في هذه الأية الكريمة بهذه الدقة البالغة التي تجمع الجدد البيضاء والحمراء في جهة، تعبيرا عن الصنف الاول من الصخور النارية(عائلة الجرانيت)، ثم تضيف هذه الإضافة المعجزة مختلف ألوانها لتعبر عن كل مراحل الانتقال في هذه المجموعة الحامضية وفوق الحامضية، ومنها إلي الصخور ذات التركيب الوسطي(مجموعة الصخور الدايوريتية)، وتخص المجموعة القاعدية وفوق القاعدية بهذا الوصف المبهر وغرابيب سود (مجموعة صخور الجابرو والبريدوتايت). =

العليم القدير أتمَّ وأعمق، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

« والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب. ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويدركونه بآثار قدرته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. من ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً. لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون. ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب.. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علماً واصلاً. علماً يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل.

إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها، هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح، ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار. وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها!.. والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال.

الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض»(١).

يقول العلامة الهندي الدكتور عناية الله المشرقي : كنت أدرس في كمبريدج. وذات يوم كانت السماء تمطر بغزارة، وكان صبيحةَ يوم الأحد سنة ١٩٠٩م فإذا بي أرى العالم الفلكي

= من أسرار القرآن - الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (٣٤).. ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود بقلم :د. زغلول النجار اسم الرابط hp: //www. geociies. com /zaghloolalnajja /034. hml بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٤٢٢ هـ ١/ ٢/ ٢٠٠٢ م

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٤٣

المشهور «السير جيمس جينز» ذاهبا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه.. فدنوتُ منه وسلمتُ عليه. فلم يرد عليَّ.. فسلمتُ مرةً أخرى فسألني : ماذا تريد مني ؟ فقلت له : أريد سؤالك عن شيئين :

الأول : لماذا لا تفتح مظلتك رغم نزول المطر ؟ فابتسم السير جينز وفتح المظلة.

والثاني : لماذا تذهب إلى الكنيسة وأنت عالمٌ كبيرٌ ذائعُ الصيت ؟ (١)

وهنا توقف العالم الكبير لحظة ثم قال لي : نلتقي معا في هذا المساء لنناقش هذه القضية.. وذهبت إليه في الموعد المحدد، فسألني على الفور : ماذا كان سؤالك لي في هذا الصباح ؟ ودون أن ينتظر مني جوابا، بدأ يتكلم عن الكون ونظامه الدقيق المدهش وعن الكواكب في السماء ونظامها العجيب المحكم... وعن المجرات وأبعادها اللامتناهية وطوفان أنوارها الباهرة.. و... نظرت إلى العالم الكبير فإذا به يبكي.. ويداه ترتعدان من خشية الله. ثم توقف فجأة. وبدأ يقول : عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ كياني يهتز من الجلال الإلهي. وعندما أركع أمام الله وأقولُ : إنك لعظيمٌ أحس بسعادةٍ تفوقُ كل سعادة..

فقلت له : لقد تأثرت كثيرا بما قلت : فهل تسمح لي بقراءة آية من آيات (القرآن) ؟

فأجاب المستر جينز : بكل سرور تفضل..

فقرأت عليه قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨]، وترجمت له معناها، وما كدت أتوقف حتى صرخ السير جينز قائلا: ماذا قلت ؟

(١) تعجب من ذهابه إلى الكنيسة في وقت انتشر فيه الإلحاد.

إنما يخشى الله من عباده العلماء. مدهش.. غريب.. عجيب جدا... من أنبأ محمدا بهذا ؟ هل هذه الآية في القرآن حقا ؟ لو كان كما تقول.. فاكتب شهادة عني أن القرآن وحي من عند الله.. لقد كان محمد أميا.. ولا يمكن أن يكشف هذا السر بنفسه.. ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش وغريب وعجيب جداً.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

صلة هاتين الآيتين بمحور السورة صلة واضحةٌ بيِّنة ؛ حيث تتجلى فيهما عظمة الخالق وجلاله وهيبته في قلوب العالِمين المدققين في آيات الكون، الوقَّافين على بدائعِ المخلوقات وعجائب الكائنات ودقائق الآيات ولطائف الأسرار، الذين يعشقون هذا الجمالَ الذي أبدعه الخالق وأودعه في جميع العوالِم المحيطة بنا في الآفاق وفي الأعماق وفي الثمرات اليانعة والجبال الشامخة، وفي الناس والدوابِّ والأنعام وغير ذلك.

دعوةٌ إلى تذوق هذا الجمال واستحضار عظمة الخالق واستذكار جليل نعمه ودقائقها.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى النظر في الجمال الكوني وما يتمتع به من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازجٍ دقيق في الألوان المختلفة، التي تشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا وبديع صنعه

* هذا الاختلاف والتنوع مما يدعو إلى العظة والاعتبار، فكذلك الناس يختلفون في ألوانهم وهيئاتهم وأجناسهم وألسنتهم ومشاربهم وطبائعهم اختلافا تتجلى فيه عظمةُ الخالق جلَّ وعلا وعجيب صنعه بما يدعو إلى هيبته تعالى وإجلاله ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ : أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة به أتمَّ والعلمُ به أكملُ، كانت الخشية له أعظم.

* فالتقوى والعلم متلازمان التقوى طريق العلم والعلم يقوي التقوى ويزيدها، قال نبينا

ﷺ (... أَنَا أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ)(١). وقال مسروق كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال رجل للشعبي أفتني أيها العالم فقال الشعبي: إنما العالم من يخشى الله عز وجل، وقال مقاتل: أشد الناس خشية لله أعلمهم به، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم(٢).

* على المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم بالله حتى يرتقي إلى أعلى مقامات الخشية وينتفع بثمراتها ؛ فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخشية وتتحقق ثمارُها المرجوة.

-٦-

نعمةُ القرآنِ ومصير المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر : ٢٩-٣٥]

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ(أنا أعلمكم بالله)، وأن المعرفة فعل القلب حديث ٢٠، ورواه الإمام مالك في الموطأ باب ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم موطأ مالك برواية يحي الليثي ١/ ٢٩١ - حديث ٦٤١ وبرواية محمد بن الحسن ٢/ ١٦٥ حديث ٣٥١، ورواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ٥/ ٤٣٤

(٢) يراجع لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥/ ٢٤٧.

المناسبة

بعد الحديث عن كتاب الله المنظور : جاء الحديث عن كتابه المسطور، فكما دعت السورة إلى التأمل في هذا الكون والنظر في شواهده وآياته، كذلك رغبت في تلاوة القرآن وتدبره والعمل به.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءته حتى صارت سمةً لهم كما يشعر به التعبير بالفعل المضارع.

﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ جمعوا بين التلاوة والتدبر والعمل، وإقامة الصلاة والإنفاق في وجوه الخير برهان عمليٌّ على اتباع القرآن والانتفاع بهديه.

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾: فدلَّ هذا على سلامةِ القصد وصدقِ التوجُّه وإخلاص النية مع إتقان العمل، فهم يبتغون الأجر والمثوبة من الله تعالى ويجدُّون في ذلك فتجارتهم رابحةٌ وسعيهم مشكورٌ.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾: يبتغون الأجر من الله والزيادة من فضله والله تعالى يحققُ لهم ما يبتغون، ويبلغهم ما يرتجون، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم فيثيبهم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

فهذا الكتاب وحيٌ من الله تعالى، وهو الحقُّ كما شهدت بذلك الآيات والدلائل وهو المصدق لما بين يديه.

أشرف ميراث

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ : أورث الله تعالى أعظم كتبه لخِيرَةِ خيرِ أممه ممن اختارهم لحمل هذه الأمانة، ثم جعل الله هؤلاء القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصدٌ يكتفِي بترك المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات، وهم أصحابُ الهمم العالية والنفوس المطمئنة والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ، فذلك هو الفضل الكبير والشرف العظيم.

عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنه قَالَ: في قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾: « هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَّثَهُمُ اللهُ كُلَّ كِتَابٍ أُنْزِلَ، فَظَالِمُهُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حُسَابًا يَسِيرًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[(١)].

وعن محمد بن الحنفية رحمه الله قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنات عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله.[(٢)].

وقال ابن كثير: «﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[(٣)].

« وإنما قدم الظالمين للإيذان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون

---

(١) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨١ – برقم ١٧٩٨٥ ولباب التأويل للخازن ٥/ ٢٤٩

(٢) جامع البيان للطبري ٢٠ / ٤٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٨٢ – برقم ١٧٩٩٢ ولباب التأويل للخازن ٥/ ٢٤٩

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦ / ٥٤٦

أقل من القليل، وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله، وقيل : إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه»[(١)].

ونظير هذا قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠-١٠٦].

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعني الأصناف الثلاثة الظالم لنفسه المقصر في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحظورات، وكذلك المقتصد الذي يقتصر على ترك المحرمات وفعل الواجبات دون أن يجتهد في النوافل ويتنافس في الخيرات، وأما السابق إلى الخيرات فهو في أعلى المراتب بعلو همته وسموِّ روحه وصفاء قلبه واجتهاده في الطاعة وتقربه بالنوافل.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وقدم الحلية لأنها أحبُّ إلى النفس والشوق إليها أبلغُ، وقد كان الذهب محرما على الرجال في الدنيا وكذلك الحرير وقد أحله الله لهم وحلاهم بالأساور الذهبية وألبسهم الحرير بألوانه الزاهية وملمسه الناعم كرامةً لهم وتفضلا عليهم.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٣٣٩

فالجنة دار النعيم وأهلها في أفراحٍ متواصلة وسرورٍ دائم، وقد نسوا ما مرَّ بهم في الدنيا من خوف وحزن وهم وغم وشقاء وحِرمانٍ، كما في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ، يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ).[١]

وأهل الجنة في استحضارٍ دائم لتلك النعم الربانية نعمة النجاة والفوز بالنعيم المقيم ونيل الفوز الكبير بالعمل اليسير ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾يغفر الزلات فينساها المُنَعَّمُ في الجنان حتى لا تكدِّر عليه صفو عيشه، وهو تعالى الشكور يثيب على القليل بالثواب الجزيل.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

فالجنة من أجلِّ النعم التي ينالها العباد بفضل الله تعالى وبرحمته : كما في الصحيحين : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا)[٢].

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فلا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب لأنها دار الجزاء لا دار عملٍ، فهي دار الراحة والاسترواح، ودار النعيم في ضيافةِ الكريم.

والنصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له، وأما اللغوب فما يلحقه

(١) رواه الإمام مسلم في صحيح كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة. حديث ٥٥ - (٢٨٠٧)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٠٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: القصد والمداومة على العمل حديث ٦٠٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة اللهِ تعالى. حديث ٧١ - (٢٨١٦).

من الإجهاد أو الإعياء أو الفتور الناتج عن النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة[١].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

إذا كان الكونُ شاهدا على عظمة الخالقِ وبديعِ صنعه، داعيا إلى شكره تعالى على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، فإن كتابَ الله تعالى من أجلِّ النعم وأعظم الشواهد الناطقة بكمال قدرته وإحاطة علمه وشمول رحمته وتمام نعمته، قد منّ الله تعالى على من اصطفاه ليكون من ورثة هذا الخير ووعدهم بالجنات التي تتفاوت فيها الدرجات بتفاوت المقامات والأحوال والأعمال في الدنيا، والكلُّ فيها منعَّمٌ مسرورٌ، قد دخلوها برحمة الله وفضله ولطفه وإنعامه، فهي دار الخلد والمقامة والنعمة والكرامة، لا تعب فيها ولا نصب.

الهدايات المستنبطة

* الدعوةُ إلى التأمل والنظر في كتاب الله المنظور وكتابه المسطور للوقوف على شواهد العظمة وآيات الحكمة ودلائل القدرة.
* الحثُّ على تلاوة القرآن وتدبر معانيه، والنظر في مقاصده وأحكامه وعبره وعظاته مع التمسك بهديه والتخلق بأخلاقه.
* أورث الله تعالى أعظم كتبه لمن اصطفاه واختارهم لحمل هذه الأمانة ونيل هذه المكانة
* القراء على ثلاث مراتب : فمنهم ظالم لنفسه قد بلغ حد التقصير وخلط الصالحات بالسيئات، ومنهم المقتصد الذي يكتفي بترك المحرمات وفعل الواجبات، ومنهم السابق بالخيرات، وهم أصحاب الهمم العالية والنفوس الزاكية والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ.

---

(١) يراجع الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري ٥ / ٤٢٠

* الجنة دار نعيم مقيم وأهلها في فرحٍ وحبور ولذةٍ وسرورٍ، وأنسٍ وبهجةٍ، لا شقاء فيها ولا عناء ولا تعب ولا نصب، فهي دار الجزاء لا دار عملٍ، دار الراحة والاسترواح، ودار النعيم في ضيافةِ الكريمِ.

-٧-

مصير الكافرين

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر : ٣٦-٣٧]

المناسبة

بعد ذكر حال السعداء من ورثة كتاب الله تعالى التالين له العاملين به، ذكر حال أهل الشقاء من الكفرة المعاندين المعرضين.

التفسير الإجمالي

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ ﴾ هذا مصيرهم المحتوم وجزاؤهم المعلوم ونصيبهم المقسوم، فلا يخرجون منها ولا يموتون فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستروحون.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾: جزاءٌ عادلٌ لكل من أصرَّ على الكفر ومات عليه، وأعرض عن الحق وصدف عنه.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ ﴾

يجأرون ويستغيثون ألما وحسرة وندما وحرقةً، فيطلبون الرجوع إلى دار العمل ليستدركوا ما فاتهم ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى، وأنى لهم ذلك وقد أمهلهم الله تعالى وأمدَّ لهم في العمر فما استكانوا لربهم ولا رجعوا إليه، بل كذبوا بالنذر وأعرضوا عنها.

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وهذا وإن كان يشمل كلَّ عُمُرٍ تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وتغيير مساره، إلا أن ذنب من طال عمرُه أقبح وجرمه أعظم.[1]

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً)[2] وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ).[3]

﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

ذوقوا العذاب الذي كنتم تستعجلونه استبعادا وتحديًا وتعجيزا، ذوقوا العذاب بعد ما حيل بينكم وبين ما تشتهونه في الدنيا من متع وملذات، فهو اليوم طعامكم وشرابكم ومهادكم وغطاؤكم، فلا ناصر لكم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

كما أن مصير السعداء فضل من الله ونعمة وعدلٌ ورحمةٌ، فكذلك مصير الأشقياء نعمة تستوجب الحمدَ على أن قطع الله دابرهم وأراح المؤمنين من شرورهم، والمؤمن يحمد الله تعالى

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٣٤١

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ لِقَوْلِهِ: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ حديث ٦٠٥٦

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بسر بسند صحيح المسند ٤/ ١٨٨، ١٨٨ وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ وإسناده حسن المسند ٥/ ٤٧، ٤٨.

على النجاةِ والعافية، كما يحمده على الفوز والرضوان، وفي التأملِ في مصيرِ الكفارِ استحضارٌ لعظمة الله تعالى وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى.

الهدايات المستنبطة

* الترهيب من النار ومن عذابها وشقاء أهلها، فلا يموتون فيستريحون ولا يخفف عنهم العذاب فيستروحون.
* في التأمل في مصير الكفار استحضارٌ لعظمة الله تعالى وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى، وفيه تسليةٌ لأهل الإيمان.
* يُجمع للكفارِ بين العذاب الحسيِّ والمعنويِّ، زيادةً في إيلامهم، وتنكيلا بهم.

-٨-

من دلائل العظمة وشواهد القدرة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾[فاطر : ٣٨-٤١]

المناسبة

بعد بيان مصير أهل الإيمان وعاقبة أهل الكفر والعصيان بيَّن تعالى إحاطة علمه بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، وشموله لعلم كلِّ ما استكنَّ واستتر فضلا عما بدا وظهر، وإنعامه على بني آدم بنعمة الاستخلاف، ووعيده للكفرة بزيادة المقت والخسران بقدر زيادة

الكفر، ثم نفى شُبَهَ المشركين ودحض حججهم الواهية، وجلَّى من شواهد قدرته وعظمته ووجوه لطفه وتمام نعمته : إمساكه السموات والأرض أن تزولا.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ يعلم كل ما غاب واستتر فكيف علمه بما تجلَّى وظهر، فضلا عن علمه بما يدور في الصدور، وما تكنُّه القلوب فيحاسب العباد على ما أظهروه وما أضمروه، ويثيب أهل الإيمان ويعاقب أهل الكفر والعصيان.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

فكان الأولى القيام بواجبات هذه الخلافة والوفاء بحقوقها، فهي تشريف وتكليفٌ، وابتلاءٌ يعقبه جزاءٌ، والله تعالى لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين، بل الكافر هو من يتضررُ بكفره وينال جزاء عناده واستكباره وجحوده وإعراضه، ولا يزداد بكفره إلا مقتاً وبعداً وبغضاً من الله تعالى على هذه الجريمة النكراء، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين لِقَاءَ بقائِهِ على الكفر مع تسلسل الحجج وجلاء البراهين.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن شهدت آيات الكون بعظمة الخالق عز وجل ونطقت بوحدانيته، فلماذا يصرُّ المشركون على شركهم ؟ وقد ظهر لهم أن الخالق الرازق هو الله وحده ؟ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؟

وقد تقرر أنهم لم يخلقوا شيئا ولم يملكوا مثقال ذرةٍ فلماذا يصر المشركون على شركهم وما حجتهم أمام الواحد الأحد ؟ حين يقفوا بين يديه ويستيقنوا من أنهم كانوا على ضلال

بيِّن، وسرابٍ خادع، متعلِّقين بالأماني الكاذبةِ والمعاذيرِ الواهيةِ والشبه الباطلة ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

من شواهد العظمة ودلائل القدرة أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأموره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم، وأنه تعالى يمسك السموات والأرض ولولا ذلك لزالتا، وهل يستطيع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل ؟ ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾، فيا لحلمه تعالى بعباده وإمهاله لهم ولو شاء لأطبق السماء على الأرض وعجَّل بهلاك كل مذنب ومقصر ولكنه تعالى حليم بهم غافر لذنوب من قصده ورجاه وتاب إليه وطرق بابه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

هذه الآيات الكريمة ناطقةٌ بعظمة الخالق جل وعلا ودالةٌ على تمام عدله وشمولِ رحمته وشاهدةٌ بكمال قدرته وتفرده بالوحدانية، وفيها وعيدٌ للكافرين بما يستحقونه من مقت وخسرانٍ بقدر كفرهم، ودحضُ شبهِ أهل الشرك، ومن دلائل العظمة ولطائف النعم إمساكُ السموات والأرض وحفظُهما فلا يقدر على ذلك إلا الله.

الهدايات المستنبطة

* إحاطة علمه تعالى بكل ما غاب واستتر، فضلا عما تجلَّى وظهر، فهو عالم الغيب والشهادة وهو العليم بما يدور في الصدور وما تكنُّه القلوب، وفي هذا ما يدعو إلى الخشية والإجلال والإحسان في سائر الأعمال.
* من نعمه تعالى على البشرية وتكريمه لهم أن استخلفهم في الأرض فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة ومقتضيات هذه المسئولية العظيمة.
* الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا تنفعُه طاعةُ الطائعين، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين.

* التحذير من جريمة الكفر وسوء عاقبته، فالكافرُ لا يزداد بكفره عند ربه إلا مقتا وبعدا، ولا يحظى إلا بالخسارة في الدارين.
* من شواهد العظمة ودلائل القدرةِ ولطائف النعمة : أنه تعالى هو المدبر لهذا الكون المصرف لأموره وفق تقدير عجيب وترتيب محكم.

-٩-

من أسباب الصدود

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر : ٤٢، ٤٣].

المناسبة

هذه الآياتُ متصلة بما سبقها من حوار الكافرين ودحض شبههم وبيان أسباب صدودهم ونفورهم من دعوة الحق، ووعيدهم بما أصاب من سبقهم من المكذبين، فتلك سنة الله تعالى في الأولين لا تبديل لها ولا تحويل، وهذا من تمام عدله تعالى ودلائل قدرته وشواهد عظمته، وفي إهلاك المكذبين نجاةٌ للمؤمنين ونصرٌ لهم وتلك نعمةٌ جليلةٌ.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أقسموا بالله إن جاءهم نذير ليؤمنن به ولينصرنه، فيتسابقون إلى الهداية والرشاد، فلما جاءهم النذير ما زادهم إلا نفورا، وكان أولى بهم أن يشكروا الله على هذه المنَّة، لكنهم بالغوا

في النفور من هذه الدعوة واستكبروا عنها ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ : فماذا ينتظرون بعد ذلك ؟ وقد أنكروا النعمة وردُّوا الهدية واحتالوا لإمام الهدى وكادوا له ولمن آمن به، ماذا ينتظرون إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنةَ الله فيمن سبقهم على طريق الجحود والإعراض ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ ﴾سنة الله في المكذبين أن يعاقبهم بعذاب عاجلٍ مع ما ينتظرهم من العذاب الآجل وتلك سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وحكمٌ فاصلٌ عادلٌ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

أما كان الأولى بكفار قريشٍ أن يحتفوا بهذا النبي العربي وأن يناصروه ويعزِّروه، وقد جاءهم بأعظم الكتب وأتمِّ الشرائعِ وأقوم المناهج التي ترقى بهم إلى قيادة الأمم ؟

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧].

فما حجتهم وقد جعل الله فيهم خير الدعوات وآخرها، وبعث فيهم خير الرسل وخاتمهم؟

لقد كفروا بهذه النعمة المسداة، والرحمة المهداة، شأنهم شأن اليهود كانوا يستفتحون بالنبي الخاتم ﷺ فلما جاءهم وعرفوه كفروا به وجحدوه قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بينت الآيات موقف الكفار من هذه النعمة المهداة نعمة النبي العربيِّ ﷺ الذي منَّ الله عليهم به لكنهم أعرضوا عن نعمة الله وأنكروها استكبارا منهم واحتيالا على دعوة الحق ومكرا بأهلها، وغفلةً عن سنن الله الثابتة.

الهدايات المستنبطة

* من أسباب الصدود والإعراض ومظاهره : التخاذل عن نصرة الحق والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.
* المكرُ السيئ يحيط بأهله فيهلكهم، فترتدُّ إليهم عاقبته وتدورُ الدائرةُ عليهم، ومن مكر الله بهم استدراجهم وسوء خاتمتهم.
* التأمل والنظر في سنن الله تعالى والوقوف على سماتها وأبعادها وآثارها، فهي سننٌ ثابتةٌ لا تتغير ولا تتبدل، وهي سننٌ عادلةٌ، ومن هذه السنن إهلاك المكذبين.

خاتمة السورة

دعوةٌ للسير والنظر

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر : ٤٤، ٤٥].

المناسبة

لما توعدهم بسنته تعالى في الأولين دعا إلى السير للاعتبار بآثارهم والوقوف على أخبارهم

وبين سبحانه أنه يمهلهم استدراجا لهم ومكرا بهم، فإذا حان الأجل، وحُمَّ الأمرُ فإن الله بصيرٌ بهم محيطٌ بأعمالهم فيجزيهم عليها.

التفسير الإجمالي

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ ﴾

تختم السورة الكريمة بهذه الدعوة إلى السير والنظر في آثار الأمم الغابرة وحضاراتهم الآفلةِ، كيف ازدهرت وارتقت ثم تلاشت واضمحلت، وكيف تحولت هذه الأمم من القوة إلى الضعف، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الوحدة إلى الفرقة والشتات، ومن العزة إلى المذلة والهوان، فهل من معتبرٍ وهل من مدَّكر !

أنشدَ قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي :

في الـذَّاهـبـين الأوَلـين   مِـنَ الـقُـرون لنا بَـصَـائـرْ
لمـا رأيـتُ مـوارداً   لِـلـمَـوْتِ ليس لها مَـصَـادرْ
ورأيـتُ قَـومـي نَـحْـوَهَـا   يَـمْـضِي الأصـاغـر والأكـابـرْ
لا يَـرْجِـع المـاضي إليَّ   ولا مـن الـبـاقـين غـابـرْ
أيْـقَـنْـتُ أنِّي لا مَحَـالَـةَ   حَـيـث صـار الـقَـوْمُ صائر

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ ﴾ هل أغنت عنهم حصونهم المنيعة وبروجهم المشيدة وجيوشهم الجرَّارة ؟ كلا واللهِ الذي لا يعجزه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافيةٌ ولا تغيب عن علمه غائبة، القديرُ على إلحاق العذاب بمن خالفه وعصاه. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

حلمه تعالى ولطفه بخلقه

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن

﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

ومن لطفه تعالى وحلمه ورحمته بعباده أنه لا يعجل لهم العقوبة بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويرجعون، ولو عجَّل المؤاخذة وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة وبادر العصاة بحربٍ شاملةٍ لما بقي على ظهر الأرض من دابة، ولكن يمهل ويؤخر إلى أجلٍ قد قدّره فإما أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة وإما أن يدّخر لهم العذاب ليكون أشدَّ وأعظمَ نكايةً.

يقول صاحب الظلال: «إن تتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل، ووراثة هذا لذاك، وانتهاء دولة وقيام دولة، وانطفاء شعلة واتقاد شعلة، وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور.. إن التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة، وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم، وجدير بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمار، وتقلب الصولجان، وتديل الدول، وتورث الملك، وتجعل من الجيل خليفة لجيل، وكل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يحول.

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي، فلا يخلد ولا يبقى، من كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل؛ وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل، وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل، من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثواءه القليل، ويترك وراءه الذكر الجميل، ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير»[1].

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

السير في الأرض من أجلِّ العبر وأبلغ النُّذُر، فالأرضُ حافلةٌ بشواهد العظمة وآيات القدرة، ناطقةٌ بمصير الأمم السابقةِ، واعيةٌ لتاريخهم، حافظةٌ لآثارهم، وهذه النُّذُرُ من أجلِّ النعم؛ لأنها تهزُّ الوجدانَ وتقيمُ الحجةَ والبرهانَ.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٧.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى السير والنظر في أحوال السابقين وآثارهم سيرَ تأملٍ ونظرة اعتبارٍ
* قدرة الله تعالى التي لا تحدُّها حدودٌ، وحكمته تعالى في إمهال الكافرين واستدراجهم وحلمه ولطفه في إمهال العصاة وإعذارهم.

سورة يس

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة يس بهذا الاسم لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) [1].

ومما ورد في فضل سورة يس على وجه الخصوص: ما أخرجه ابن حبان، عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفِرَ له». [2]

ومما هو جدير بالذكر أن سورة يس قد ورد في فضلها أحاديثُ كثيرة، لكنها إما ضعيفة أو موضوعة، ونشير إليها فيما يلي للعلم والحذر:

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ك: الصلاة، ب: قيام الليل، مبحث: استحباب قراءة يس للمتهجد في كل ليلة رجاء مغفرة الله ما قدم من ذنوبه بها ٠ الإحسان) ٦/ ٣١٢ رقم ٢٥٧٤. عن جندب – ﷺ. والحديث صحيح. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٩٤.

- (إن الله تبارك وتعالى قرأ ﴿ طه ﴾ و﴿ يسٓ ﴾ قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليهم، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجوف تحمل هذا) وهذا الحديث ضعيف. [(١)]
- (من دخل المقابر فقرأ سورة ﴿ يسٓ ﴾ خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات) وهذا الحديث موضوع. [(٢)]
- (إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس؛ كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) وهذا الحديث موضوع. [(٣)]
- (من قرأ ﴿ يسٓ ﴾ ابتغاء وجه الله، غُفر الله له ما تقدم من ذنبه، فاقرؤوها عند موتاكم) وهذا الحديث ضعيف. [(٤)]
- (من قرأ ﴿ يسٓ ﴾ في صدر النهار؛ قضيت حوائجه) وهذا الحديث ضعيف. [(٥)]

ج - مكية السورة:

سورة يس مكية، ماعدا الآية «٤٥» فمدنية، وترتيبها في المصحف الشريف السادسة والثلاثون (٣٦). نزلت بعد سورة الجن. من الجزء «٢٣» والحزب «٤٥».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٣ [(٦)].

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٨.
(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٤٦.
(٣) ضعيف الترغيب والترهيب ٨٨٥.
(٤) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨٥.
(٥) ضعيف مشكاة المصابيح ٢١١٨.
(٦) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٨٥.

محور السورة:

تناولت سورة يس ثلاثة مواضيع أساسية هي:

- الإيمان بالبعث والنشور والجزاء.
- قصة أهل القرية.
- الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

والمحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة: إثبات البعث والجزاء، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة يس وخاتمتها واضحة؛ ففي بداية السورة جاء الحديث عن استحقاق الكافرين العذاب، لعنادهم، وختْم الله على قلوبهم.﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وفي نهاية السورة نموذج لواحد من هؤلاء المعاندين الجاحدين، ختم الله على قلبه، وأعمى بصيرته؛ فجاء يجادل النبي ﷺ في قضية البعث ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة يس وخاتمة السورة التي قبلها (فاطر) ففي نهاية سورة فاطر جاء الحديث عن قدرة الله تعالى المطلقة:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]. وجاء في أول سورة (يس) إشارة إلى

بعض مظاهر هذه القدرة المطلقة، مثل قدرته تعالى على إحياء الموتى، وإحصاء الأعمال وتدوينها على العباد بكل دقة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

٣- المناسبة بين مضمون سورة (يس) ومضمون السورة التي قبلها (فاطر).

هناك ارتباط بين مضمون سورة (يس) والسورة التي قبلها (فاطر)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين حديث عن عداوة الشيطان للإنسان: ففي سورة فاطر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٥-٦]. وفي سورة يس: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.
* في السورتين حديث عن آيات الله تعالى في الكون والآفاق: ففي سورة فاطر: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وفي سورة يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

﴿٣٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* في السورتين مقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين: ففي فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي سورة يس: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن قدرة الله تعالى؛ ففي سورة فاطر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ وفي سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ومن أوجه الارتباط بين سورتي فاطر ويس ما أورده السيوطي - رحمه الله - حيث قال:

« لما ذكر – جل شأنه في سورة فاطر قوله : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته وأنه على صراط مستقيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وهذا وجه بين.

وفي فاطر : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ وفي يس ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ وفي يس: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فزاد القصة بسطاً. »(١)

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٦.

التفسير الموضوعي للسورة الكريمة

القَسَم بالقرآن الكريم، وحال النبي ﷺ مع قومه

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾:

عن أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة، فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن آثاركم تُكْتب، فلا تنتقلوا». (١)

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بـ ﴿ يسٓ ﴾ والقرآن الحكيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ. و﴿ يسٓ ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هـذه الحروف التي يتخاطبون بها. (٢)

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٣٦٣ رقم الحديث: ٣٢٢٦. وقال: حسن غريب. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترمذي ٣/ ٩٧.

(٢) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

وقد أقسم الله تعالى هنا بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه، وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً ﷺ رسوله. وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ﷺ ما فيه.

أي وحق هذا القرآن الحكيم، إنك أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا، وتبليغ دعوتنا إلى الناس، لكى يخلصوا العبادة لنا، ولا يشركوا معنا فى ذلك غيرنا.

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا فى شأنه: «لست مرسلا». [١]

والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر، له سوابق مقررة. فليس هو الذي يراد إثباته. إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً ﷺ من هؤلاء المرسلين. ويخاطبه هو بهذا القسم - ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين - ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة. إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول [٢].

وكما أنك أيها نبي من المرسلين، فإنك كذلك على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد، قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى، وهو الإسلام كما قال قتادة، والتنكير للتفخيم والتعظيم.[٣]

ومن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: «هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا!» فى ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

(١) يراجع: تفسير القرطبي ١٥ / ٥.، التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٢٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٢ / ٩٧.

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول. وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة، فهي قائمة كحد السيف، لا عوج فيها ولا انحراف، ولا التواء فيها ولا ميل. الحق فيها واضح، لا غموض فيه ولا التباس. ولا يميل مع هوى، ولا ينحرف مع مصلحة. يجده من يطلبه في يسر وفي دقة. [١]

هذا القرآن الهادي المنير، تنزيلٌ من ربّ العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه لتُحَذِّرَ يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم، فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإِيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان..

« والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة. تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه. فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير. » [٢]

ثم بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإِصرارهم على الكفر والتكذيب فبين أن عذاب النار قد وجب على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإِنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإِنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد..

لقد قُضي في أمرهم، وحق قدرُ الله على أكثرهم، بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون. وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.

وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون:

إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً. فأغشيناهم فهم لا يبصرون..

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم، موضوعة تحت أذقانهم. ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! (١)

قال في الجلالين: وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له. (٢)

قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جُعل في عُنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مُقمحاً، والمُقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغُلِّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغُلَّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق. (٣)

وقال أبو السعود: مثَّل حالهم بحال الذين غُلَّت أعناقهم والأغلال منتهيةٌ إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يُطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحقَّ، أو ينظرون إلى جهته. (٤)

وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيِّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٥٩.

(٢) تفسير الجلالين ٣ / ٣١٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٥.

(٤) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٤٨.

والآيات، قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدِّ طرق الإِيمان عليهم، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده. (١)

يقول الفخر الرازي: يحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود، وسبيل الحق عليه مسدود، وهو لا يبصر السد، ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة، وغير ضال. (٢)

وهؤلاء الذين جعلنا فى أعناقهم أغلالا.. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه، فهم - لسوء استعداداهم وفساد فطرهم - لا يؤمنون بالحق الذى جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به، لأنهم ماتت قلوبهم، وصارت لا تتأثر بشئ مما تدعوهم إليه. (٣) وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان.

إِنما ينفع إِنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه وخاف الله دون أن يراه، فبشره يا محمد بمغفرةٍ عظيمة من الله لذنوبه، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم، قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع، الحسن الجميل وذلك إِنما يكون في الجنة (٤).

ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور، فبين جل شأنه أنه يبعث الموتى من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء. وقبل البعث كان يحصي عليهم في الدنيا أعمالهم ويكتب ما قدَّموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها حتى آثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد.

وكل شيء من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعه الله - جل شأنه - وضبطه في كتاب مسطور، هو صحائف الأعمال كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء:٧١]. أي

(١) يراجع حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣١٩.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ١١٨.
(٣) التفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٢٦.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٦.

بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ.[١] وقال أبو حيان: «ونكتب ما قدَّموا» أي ونحصي، فعبَّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء».[٢]

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً. وسيرد منه في هذه السورة أمثلة منوعة. وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار، كلها تكتب وتحصى، فلا يند منها شيء ولا ينسى. والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله.[٣]

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية وتأكيد رسالته صلى الله عليه وسلم.
* بيان الحكمة من إرسال الرسول وإنزال الكتاب الكريم.
* بيان أن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بعث على فترة من الرسل.
* بيان أن حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة وعدم الالتفات إليها يضعان الإِنسان بين حاجزين لا يستطيع تجاوزهما والتخلص منهما.
* بيان أن الذنوب تقيد صاحبها وتحول بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
* بيان أن من سن سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده يجزى بها كما يجزى على عمله الذي باشره بيده.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.

* تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن كل شيء في كتاب المقادير المعبر عنه بالإمام.[(١)]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في نهاية هذا المقطع تأكيد الله جل شأنه على إحياء الموتى وبعثهم، ليُجازوا بما قدموا من عمل أُحصي عليهم في الدنيا بكل دقة، ودُوِّن في كتاب جامع وواضح.

قصة أصحاب القرية

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد عرض قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، في هذه الصورة التقريرية يعود السياق ليعرضها في صورة قصصية. تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان.[(٢)]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٠ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا قصة أهل القرية الذين كذبوا رسل الله إليهم، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.

« ولم يذكر القرآن الكريم من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. التي لا طائل من تتبعها. وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها.» (١)

والمعنى: واضرب -أيها الرسول- لمشركي قومك الرادِّين لدعوتك مثلا يعتبرون به وهو قصة أهل القرية، حين ذهب إليهم المرسلون، إذ أرسلنا إليهم رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة غيره، فكذَّب أهل القرية الرسولين، فعزَّزناهما وقويناهما برسول ثالث، فقال الثلاثة لأهل القرية: إنا رسل الله مرسلون لهدايتكم؛ فرد عليهم أهل القرية بأنه ليس لكم فضلٌ علينا، وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟ بل الله لم ينزل شيئاً من الوحي والرسالة، وما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى النبوة.

فأجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشدَّ الانتقام وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه، فإِن آمنتم فلكم السعادة، وإِن كذبتم فلكم الشقاوة. (٢)

قال أبو حيان: وفي هذا وعيدٌ لهم، ووصف البلاغ بـ﴿ ٱلْمُبِينُ ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإِرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإِحياء الميت. (٣)

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر ٧ / ٤٧٧.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٣٢٧.

قال لهم أهل القرية: إنّا تشاءمنا بكم وبدعوتكم القبيحة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة آلهتنا. قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دينٍ غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه، ونفرت عنه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعا إليه، كأنهم قالوا: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه. ثم توعَّدُوا الرسل بالرجم والعذاب الأليم[١].

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه؛ وأطلق على الهداة تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير ! ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق: [٢]

قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسببكم، وبكفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم، ألأنا ذكّرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا، وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل أنتم قومٌ عادتكم الإسرافُ في العصيان والإجرام. وهو توبيخٌ لهم مع الزجر والتقريع. [٣]

من هداية الآيات:

* استحسان ضرب المثل. وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما هنا في قصة أصحاب القرية.
* تشابه حال الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.
* لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.
* حرمة التطير والتشاؤم في الإسلام. [٤]

---

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ١٢٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٢.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٠.
(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٥١.

الرجل المؤمن يدعو قومه لاتباع المرسلين

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

التفسير الإجمالي

هذا رجل سمع دعوة رسل الله، فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره، وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.[١]

قال ابن كثير: إن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وطلب من قومه أن يتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله جل شأنه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٣.

والذين لا يطلبون أجرة على دعوتهم، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله. [(١)]

وقد تلطفٌ هذا الرجل المؤمن في الإرشاد لقومه كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وفي هذا الكلام نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم. والمعنى: أيُ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي ؟ وإِليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله.

وكيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً؟ بل هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن يُنزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم، ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟. إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي.

وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه، وأشهر إيمانه، فقال: إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي، واعملوا بنصيحتي. [(٢)]

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة. إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق، متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل. نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة. تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد:

قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمون. بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين..

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير٣/ ١٥٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١١.

الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين.[١]

قال أبو السعود: وإنما تمنَّى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر بالتوبة عن الكفر والدخول في الإِيمان، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء.[٢]

هذا حال الرجل المؤمن ومصيره، فماذا عن مصير المكذبين الجاحدين ؟ « ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدة صاح بهم جبريل، فإذا هم ميتون لا حراك بهم، قد أُخمدت أنفاسهم حتَّى صاروا كالنار الخامدة. ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل ! »[٣]

ويا أسفاً على هولاء المكذبين لرسل الله المنكرين لآياته، ويا حسرةً عليهم، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزؤوا به، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان، وهؤلاء المكذبين الهالكين أحقاء بان يتحسروا على أنفسهم أو يُتحسر عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ بهم مبلغاً عظيماً حيث إنّ كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسل تحسَّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدَّلوا الإِيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة.

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/ ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٤.

الحين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون. [١] وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين.

فما لهؤلاء لا يتعظون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم.

« ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون، على مدار السنين وتطاول القرون.. لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟!. » [٢].

هذا وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها. **قال أبو حيان**: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين، بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب». [٣]

من هداية الآيات:

* بيان كرامة الرجل المؤمن الذي أدى ما عليه في نصيحة قومه.
* بيان ما يلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.
* وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التضحيات.
* بشرى المؤمن عند الموت، لا سيما الشهيد، فإنه يرى الجنة رأي العين.
* مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل القرية بصيحة واحدة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٦.
(٢) المرجع السابق ٥ / ٢٩٦٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٣٥.

* طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اعتبر بغيره.
* تقرير المعاد والحساب والجزاء.[١]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في هذا المقطع التأكيد على هذا المعنى، من خلال سوق نموذج الرجل المؤمن، وإكرام الله له بدخول الجنة مثوبة وجزاء. ومن خلال التأكيد على أن كل العباد يوم القيامة مجموعون لميقات يوم معلوم، حيث قال جل شأنه هنا: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

بعض آيات من قدرة الله عز وجل

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤ بتصرف.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما تقدم في الآيات قبل هذه تقرير عقيدة البعث والجزاء في قوله ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أي على صحة البعث. [1]

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا طرفا من آيات الله تعالى في كونه، لتكون دلالة لهؤلاء المشركين على وحدانية الله تعالى وقدرته سبحانه على البعث والنشور، وهذه الأدلة منها ما هو أرضي ومنها ما هو سماوي، ومنه ما هو بحري، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته.

وأول هذه الآيات: إحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها، أحياها الله بإنزال الماء، وأخرج منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات. [2]

قال القرطبي: نبَّههم تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم على توحيده وكمال قدرته، بالأرض الميتة أحياها بالنبات، وإخراج الحب منها، فمن الحبِّ يأكلون وبه يتغذون وجعل - سبحانه - في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب وجعل فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة. [3]

« والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها؛ إنما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات. وإن رؤية الزرع النامي، والجنان الوارفة، والثمر اليانع، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار، وتفتح الزهرة وتنضج

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٥.
(٢) التفسير الميسر ٧/ ٤٩٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٥.

الثمرة، وتهيئها للجني والقطاف. »[١].

ولما امتنَّ سبحانه على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم وكدِّهم، ولا بحولهم وقوتهم، فهلا شكروا الله على ما أنعم به عليهم ؟[٢]

تنزّه وتقدَّس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال، من جميع الأشياء مَّما تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء الغريبة كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩].

وعلامةٌ أخرى لهم على كمال قدرة الله: الليلُ يزيل عنه الضوء، ويفصله عن النهار، فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل في الكون هو الظلام، والنور عارض وهذا ما أكّده العلم الحديث، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويُكشف ويزول، فيظهر الأصل وهو الظلمة.[٣]

ومشهد قدوم الليل، والنور يختفي والظلمة تغشى.. مشهد مكرور، يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة [فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً، قرب القطبين في الشمال والجنوب] وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد. فهو يصور النهار متلبساً بالليل؛ ثم ينزع الله النهار من الليل، فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٧.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤.

الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته. فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس؛ فإذا هذه النقطة نهار؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير. (١)

وآيةٌ أخرى لهم الشمس تسير بقدرة الله في فَلَك لا تتجاوزه ولا تتخطَّاه لزمنٍ تستقر فيه، ولوقتٍ تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم.

قال ابن كثير: وفي قوله تعالى:﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا أبا ذرٍ أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش..) الحديث. (٢)

والثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتُكور وينتهي هذا العالم إلى غايته، وذلك الجري والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإِله العزيز في ملكه، العليم بخلقه. (٣)

والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس، وصار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس. (٤)

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٦٨.

(٢) رواه البخاري ٣/ ١١٧٠ رقم ٣٠٢٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير٣/ ١٦٢.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥.

قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكبٍ نهاري.

وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلةٍ من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم، قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر.(١)

ولا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد، قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إِدراك القمر فيُذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها، ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً. وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء.(٢)

قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فَلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت. والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر، كما قال قتادة: « لكل حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه » حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ ﴾ [القيامة: ٩]. فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي.(٣)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣.
(٢) يراجع: تفسير الطبري ٢٣/ ٦.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦.

وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال في التسهيل: وإنما خصَّ ذريتهم بالذكر، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة.[١]

« والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار. والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط، يدركون هول البحر المخيف؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار. ويحسون معنى رحمة الله؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء. وذلك حتى يقضي الكتاب أجله، ويحل الموعد المقدور في حينه، وفق ما قدره الحكيم الخبير: ومتاعاً إلى حين.[٢]

وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان. ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم، ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق، ولا ينقذهم إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم..[٣]

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء التي هي القوة الدافعة للإنسان على فعل الخيرات وترك الشرور والمنكرات.

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٠.

(٣) صفوة التفاسير ٣/ ١٦ بتصرف يسير.

* وجوب شكر الله تعالى على نعمه، ومنها نعمة الإِيجاد ونعمة الإِمداد بالغذاء والماء والهواء.
* ذكر القرآن لأمور الفلك التي لم يعرف عنها الناس اليوم إلا النذر اليسير آية عظمى على أنه وحي الله وأن من أوحي إليه هو رسول الله قطعا.
* بيان فضل الله على البشرية في إنجاء ذريّة قوم نوح الكافرين ومنهم كان البشر وإلا لو أغرق الله الجميع المؤمنين الذريّة والكافرين الآباء لم يبق في الأرض أحد.
* حماية الله تعالى للعباد ورعايته لهم وإلاّ لهلكوا أجمعين.. ولكن أين شكرهم ؟[1]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء في صدر هذا المقطع التأكيد على هذه العقيدة من خلال لفت الأنظار إلى آية إحياء الله تعالى للأرض الميتة، والتنويه بذلك على أن من يقدر على إحياء موات الأرض فهو كذلك يقدر على إحياء موات الإنسان.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٥٥ – ٣٥٨.

إعراض الكفار عن الحق وتعاميهم عن الهدى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكَّرهم الله تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق وإعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات.

التفسير الإجمالي

إن هؤلاء الكفار أمرهم عجيب: لقد ساق الله لهم الآيات الظاهرة التي يعرفها كل مخلوق، في الليل والنهار، والشمس والقمر، والأرض الميتة، وحمل ذرياتهم في ظهور آبائهم فما اتعظوا وما تذكروا.

والآن يخوفهم الله عاقبة أمرهم بعد عرض الآيات عليهم لعلهم يتوبون فيرحمون ولكنهم مع كل ذلك معرضون ! [1]

بل إنهم إذا قيل لهم: احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا وجواب الشرط محذوف تقديره: أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله تعالى:﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها:﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك. [2]

ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣ / ٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٣٦.

التى تدل على وحدانية الله – تعالى – وقدرته، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فى دعوته، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضاً تاماً، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم. (١)

وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها. (٢)

والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية، التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى، وتفرده بالألوهية. (٣)

وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين قالوا للمؤمنين تهكماً بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله ؟ ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. فكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق، لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ؟

وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغنيَّ بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله، ولكن للابتلاء. والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحدٍ في مشيئته ولا في حكمه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٢٥٥.

من هداية الآيات:

* بيان عتو الكافرين وسخريتهم من المؤمنين، وذلك لظلمة الكفر على قلوبهم.[(١)]
* إعراض الجاحدين عن كل آيات الله تعالى الدالة علية والناطقة بوحدانيته.
* حرص الكافرين الدائم على إلقاء الشبه المضللة تبريرا لعنادهم واستكبارهم.

إنكار المشركين البعث واستبعادهم قيام الساعة

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

هذا المقطع من الآيات مناسب لما قبله، إذ هو بيان لاستمرار حال الكافرين المتقدم من الإعراض والجحود والعناد.

التفسير الإجمالي

تخبر الآيات الكريمة هنا عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة، فهم يرددون: متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به ؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً ؟

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣ / ٣٦٠.

«ووعد الله تعالى لا يستقدم لاستعجال البشر؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره. فكل شيء عند الله بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه، وكل حادث في إبانه، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين.» [١].

واسمع الجواب - على طلبهم العذاب واستعجالهم له - من جهته تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ وهي النفخة الأولى التي يموت بها أهل الأرض، ولكن:هل هم ينتظرون ذلك، لا ينتظرون، بل هم مكذبون، ولكن لما كان لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها[٢] فتأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم.

وفي الحديث: (لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه -أي يصلحه بالطين- فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعمها) .[٣]

ثم يُنفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعاً، وهم في دهش وذعر يتساءلون: من بعثنا من مرقدنا ؟. قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد .[٤]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٠.

(٢) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣ / ٨.

(٣) رواه البخاري ٥/ ٢٣٨٦ برقم ٤٣٥٩. ومسلم ك: الفتن وأشراط الساعة ب: قرب الساعة رقم ٢٩٥٤. و(لقحته) هي الناقة الحلوب. (يليط) يصلح ويطين. (أكلته) لقمته. (فلا يطعمها) فلا يأكلها ويحول بينه وبين أكلها قيام الساعة فجأة وبأسرع من دفع اللقمة إلى الفم.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير٣ / ١٦٥.

ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون!

ثم إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش. يثوب: فإذا هم جميع لدينا محضرون.. وتنتظم الصفوف، ويتهيأ الاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى. وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع:

فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون.. [(١)].

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبادئها ونهاياتها.
* الساعة لا تأتي إلا بغتة.
* تقرير العدل الإِلهي يوم الحساب والجزاء ليطمئن كل عامل على أنه يجزى بعمله لا غير[(٢)].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه الحقيقة، وبيان أن أمر البعث والجزاء هين على الله القدير سبحانه، فالأمر لا يتعدى إلا نفخة في الصور، يُبعث بها كل الخلق من قبورهم، ثم يحشرون إلى ساحة العدل والجزاء، حيث لا يظلم أحد شيئا، ولا يجزى إلا بما كسبت يداه.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٢.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٣٦٠.

جزاء الأبرار المتقين

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما أخبر سبحانه عن مآل المجرمين، أخبر عن حال الأبرار المتقين، فقال: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾...

التفسير الإجمالي

بعد الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة، جاء الحديث عما أعده الله تعالى بفضله وكرمه للمؤمنين.

وتصور هذه الآيات الكريمة حال أصحاب الجنة يوم القيامة؛ فهم في ذلك اليوم مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار.

يقول أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال. [1]

هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزيَّنة بالثياب والستور، لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه، ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف:٧١]. ولهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم. وفي الحديث الشريف: (بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه،

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٣٤٢.

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم) [(١)].

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب، كما تشير إلى وحدتهم، وإلى حسن المكان، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه، وإلى تلذذهم بالنعيم، وإلى تلقيهم لأجمل تحية.. هذا هو حال المؤمنين، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم.

من هداية الآيات:

* تقرير المعاد.
* بيان نعيم الجنة.
* سلام الله تعالى على أهل الجنة، ونظرهم إلى وجهه الكريم. [(٢)]

جزاء المجرمين الأشقياء

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) رواه ابن ماجة في سننه ب: فيما أنكرت الجهمية ١/ ٢١٦.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦١.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد أن بين سبحانه حال السعداء في الآيات السابقة ذكر هنا حال الأشقياء، للمقابلة بين الصورتين، والمفارقة بين الحالين.

التفسير الإجمالي

يصدر الله جل شأنه أمره القاطع لأهل النار أن ينزاحوا بعيدا عن أهل الإيمان، لينالوا نصيبهم من الخزي والإهانة والعذاب. قال القرطبي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة. (١)

ثم يوبخ الكفرة المجرمين ويقرعهم حين يسألهم: ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم على ألسنة رسلي ألاّ تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي ؟ وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة، لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء، فكيف يطيع الإِنسان عدوه ؟ وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، بتوحيدي وطاعتي وامتثال أمري.. هذا هو الدين الصحيح. والطريق الحقُّ المستقيم. (٢)

ولقد أضلَّ الشيطان خلقاً منكم كثيرين، وأغواهم عن سلوك طريق الحقِّ. قال الطبري: أي صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبدوه أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم ؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار.. (٣)

ثم بشرهم بما ينتظرهم من العذاب، فقال هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها، قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع. أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانةٍ وتحقير

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٤٦.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢١، الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٤٧.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦.

مثل قول الله جل شأنه: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٩][1].

ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فقال في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام، وتنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة.

روى الطبري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنه قال: «يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحده، ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا، فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه، وتكلمت أعضاؤه ثم تلا: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾[2].

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك ؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال من مخاطبة العبد ربه.. يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم ؟ قال يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه؛ فيقال لأركانه: انطقي. قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. قال فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل.[3]

وجعل - سبحانه ما تنطق به الأيدي كلاما، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي - غالباً - تكون بالأيدي، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله.[4]

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٧.

(٣) رواه مسلم ك: الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٨. رقم ٢٩٦٩.

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٨.

قال الجمل: أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا، أو قهراً، والإقرار مع الإجبار غير مقبول. فقال: تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم، أي باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.[1]

ولو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ ؟ قال ابن عباس: المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحقِّ، وهو تهديد لقريش. ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يُقعدهم في مكانهم إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا.

فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديد الجاحدين على استمرارهم فى كفرهم، وبيان أنهم تحت قدرة الله – تعالى – وفى قبضته، وأنه – سبحانه – قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار، ومن مسخ للصور، ومن غير ذلك مما يريده – سبحانه [2].

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار، فقال: ومن نُطِل عمره نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق، فيصير كالطفل لا يعلم شيئا. قال قتادة: يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا، فطولُ العمر يصيِّر الشباب هَرَماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً.

أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم ؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم[3].

« والشيخوخة نكسة إلى الطفولة. بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣ / ٥٢٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٤٩، بتصرف يسير جدا.

(٣) () التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٦.

الشيخ يتراجع، وينسى ما علم، وتضعف أعصابه، ويضعف فكره، ويضعف احتماله، حتى يرتد طفلاً. ولكن الطفل محبوب اللثغة، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة. والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة »[1].

من هداية الآيات:

* تقرير المعاد وبيان موقف الجاحدين منه.
* تأكيد عداوة الشيطان للإنسان.
* عجز الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من سيء أعماله وفاسدها.
* التحذير من عقوبة الله في الدنيا بالمسخ ونحوه.
* مظاهر قدرة الله تعالى في رد الإنسان بعد القوة إلى حالة الضعف الأولى.[2]

إثبات وجود الله ووحدانيته

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٣.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٣.

التفسير الإجمالي

ينفي الله – سبحانه – هنا أنه علم رسوله ﷺ الشعر. وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله.. ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول ﷺ: وما ينبغي له فللشعر منهج غير منهج النبوة. الشعر انفعال. وتعبير عن هذا الانفعال. والانفعال يتقلب من حال إلى حال. والنبوة وحي. على منهج ثابت. على صراط مستقيم. يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله. ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال.

والنبوة اتصال دائم بالله، وتلق مباشر عن وحي الله، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله. بينما الشعر – في أعلى صوره – أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد، وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس. هذه – في أعلى صورها – أشواق تصعد من الأرض. وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء [1].

قال القرطبي: هذا ردٌّ على الكفار في قولهم إنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر، والقرآن الكريم ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أعذبه أكذبه» فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر؟!. [2]

وما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال، لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٥٠.

وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به، وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به. (١)

قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم - لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم، - أمواتٌ في الحقيقة.. (٢)

ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره، فحثهم - جل شأنه - أن ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته يد القدرة الإلهية - من غير واسطة، وبلا شريك ولا معين - مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ؟!

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدي، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه فى ذلك مشارك، أو يعاونه معاون. كما يقول القائل: هذا الشيء فعلته بيدي وحدي، للدلالة على تفرده بفعله. (٣)

وهذه الأنعام هم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله وهي ذليلةٌ لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده !! (٤)

ومن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]. أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة ؟

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٣.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦.
(٣) الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٥٢.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٠.

والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإِقامةُ الحجة عليهم..

يقول صاحب الظلال – عليه رحمة الله –: آية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم، ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير.. إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها. وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى.. وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها. وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان.

وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً. وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم ! أفلا يشكرون؟[1]

ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام، وذلك نهاية الغيّ والضلال حيث عبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن يُنصروا بها وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء، ولا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرةٍ أو إعانة، بل هؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبِّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع.

قال القرطبي: المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يغضبون لهذه الأصنام، ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.[2]

فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعرٌ أو ساحر، فنحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٩٧٥ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٥٦ بتصرف يسير.

كل شيء شهيد.

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية، وأن القرآن ذكر، وليس شعراً كما يقول المبطلون.
* الحكمة من نزول القرآن هي أن ينذر به الرسول الأحياء من أهل الإيمان.
* بيان خطأ الذين يقرؤون القرآن على الأموات ويتركون الأحياء لا يقرؤونه عيهم، وعظاً لهم وإرشاداً وتعليماً وتذكيراً.
* وجوب ذكر النعم وشكرها بالاعتراف بها، وصرفها في مرضاة واهبها وحمده عليها
* بيان سخف المشركين في عبادتهم أصناماً يرجون نصرها وهم جند معبأ لنصرتها من أن يمسها أحد بسوء.[1]

إقامة الدليل القاطع على عقيدة البعث والنشور

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

ارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح؛ ففي الآيات السابقة يسلي الله تعالى نبيه ﷺ وينهاه عن الحزن بسبب قول الجاحدين الكذب على الله ونبيه وكتابه. وهنا يسوق له نموذجا من هؤلاء

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٥.

المنكرين للبعث، القائلين على الله بغير حق؛ وكأن الله تعالى يسليه ويصبره، ويقوي قلبه ويثبته سابقا ولاحقا.

سبب النزول:

جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل، ففتّه، فقال: يا محمد: أيُبعث هذا بعد ما أرَمَّ ؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخر السورة. [1]

التفسير الإجمالي

تقيم الآيات الكريمة هنا الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور الذي هو قضية السورة الأساسية:

وتبدأ الآيات بالاستفهام الإنكاري الذي يحمل معنى التوبيخ والتقريع: أولم ير الإنسان المنكر للبعث ابتداء خلقه فيستدل به على معاده، أنا خلقناه من شيءٍ مهينٍ حقيرٍ هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة ؟ ثم مرَّت بأطوار عجيبة متعددة حتى كَبِر، فإذا هو كثير الخصام، واضح الجدال ؟ يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور !

وضرب لنا المنكر للبعث مثلا لا ينبغي ضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، ونسي ابتداء خلقه، قال: مَن يحيي العظام البالية المتفتتة ؟

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها، قل لهم: يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئاً مذكوراً، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي. تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري. ٢/ ٧٢٧. رقم الحديث ٧١٩. والحديث صححه الألباني رحمه الله انظر: صحيح السيرة النبوية للألباني ١/ ٢٠١.

بعد هلاكه. وهو - سبحانه - بكل شيء في هذا الوجود عليم علماً تاماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، سواء أكان هذا الشيء صغيراً أم كبيراً، مجموعاً أم مفرقا. [١]

الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر الرطب نارًا محرقة، فإذا أنتم من الشجر توقدون النار، فهو سبحانه القادر على إخراج الضد من الضد. وفي ذلك دليل على وحدانية الله جل شأنه، وكمال قدرته، ومن ذلك إخراج الموتى من قبورهم أحياء.

قال أبو حيان - رحمه الله -: ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار، ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء [٢] ولقد أحسن القائل:

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته هذا السَّحابُ به ماءٌ به نارُ

أوليس الذي خلق السموات والأرض وما فيهما بقادر على أن يخلق مثلهم، فيعيدهم كما بدأهم ؟ بلى، إنه قادر على ذلك، وهو الخلاق لجميع المخلوقات، العليم بكل ما خلق ويَخْلُقُ لا يخفى عليه شيء.

إنما أمره سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: « كن » فيكون، ومن ذلك الإماتة والإحياء، والبعث والنشور. فتنزه الإلهُ العظيم الجليل، وتقدس عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء، المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع أو ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته، وتمام نعمته، وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.. [٣]

وهكذا يختم الله جل شأنه السورة الكريمة بهذا الختم الرائع، الدال على كمال قدرته وعظمة ملكه وسلطانه.

---

(١) التفسير الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٣٥٥٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٣٥- ٤١.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أربعة براهين قاطعة.
* مشروعية استعمال العقليات في الحجج والمجادلة.
* تنزيه الله تعالى عن العجز والنقص وعن الشريك والولد وسائر النقائص.
* تقرير أن الله تعالى بيده وفي تصرفه وتحت قهره كل الملكوت فلذا لا يصح طلب شيء من غيره إذ هو المالك الحق وغيره لا ملك له. [1]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة، وتمام الوضوح واضحة، فمحور السورة الأساس: إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلة على ذلك؛ وجاء هذا المقطع بأكمله لتأكيد هذه العقيدة، والتدليل عليها بعدة أدلة وهي:

- خلق الإنسان من نطفة.
- خلق النار من الشجر الأخضر.
- خلق السموات والأرض.

وأخيرا.. فهذه سورة يس، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٦٧.

أهم الدروس المستفادة من سورة يس

احتوت سورة يس على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

- الرسول هو خاتم الأنبياء أرسله الله بالدين الحق على الصراط المستقيم.
- الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.
- العناد والجحود يقيدان صاحبهما، ويحولان بينه وبين فعل الخير وقبول الحق.
- الإحصاء الدقيق من الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان.
- القرآن الكريم هو منهج الرسول الذي يجب اتباعه.
- وجوب إبلاغ دعوة الحق مهما كان حجم التضحيات.
- بشرى المؤمن عند الموت، لاسيما الشهيد فإنه يرى الجنة رأي العين.
- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اتعظ بغيره.
- الإيمان بالبعث والجزاء يعطي الإنسان قوة دافعة لفعل الخير وترك الشر.
- الله تعالى يعرفنا نعمه لنشكره عليها، ونصرفها في مرضاته وطاعته.
- التأكيد على عداوة الشيطان للإنسان.
- بعث الخلق وحسابهم هين على الله تعالى وأدلته شاخصة للناظرين.

سورة الصافات

بين يدي السورة:

١ـ أسماؤها:

سُمِّيت سورة (الصافات) بهذا الاسم من باب تسمية الشيء باسم بعضه، على حكم عادته سبحانه في كتابه الكريم، ولافتتاحها بالقَسَم بالصافات، وهي الملائكة التي تقف صفوفاً للعبادة، أو تصفُّ أجنحتها في الهواء امتثالاً للطاعة، وانتظاراً لوصول أمر الله تعالى إليها. كما تسمى سورة (الزينة)، ونقل السيوطي عن الجعبري تسميتها بسورة (الذبيح)، غير أنه يحتاج إلى مستند من الأثر[١].

٢ـ فضائل السورة:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: إنْ كان رسول الله ﷺ ليأمرنا بالتخفيف، وإنْ كان ليؤمُّنا بالصافات. قال يزيد: في الصبح[٢]. كما وردت عدة أحاديث في فضل سورة (الصافات)، وفي فضل بعض آياتها؛ كالعشر الأُوَل منها[٣]، وفي آخر آية فيها، لكنها ضعيفة الإسناد، وهذا شأن كثير من أحاديث الفضائل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (مَن قرأ يس والصافات ليلة الجمعة، ثم سأل الله تعالى أعطاه سؤله)[٤]. وعن عبد الله بن أرقم ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قال دبر كل صلاة:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ

---

(١) الإتقان ،السيوطي١ :/ ،١٧٨ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ،البقاعي٢ :/ .٤٠٨

(٢) إسناده حسن .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث ،٤٩٨٩ :وسنن النسائي: كتاب الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل، رقم الحديث: ٨١٧.

(٣) عمل اليوم والليلة، ابن السنِّي: ص: ٢٣٦، رقم الحديث: ٦٣٧.

(٤) عزاه في الدر المنثور لابن أبي داود في فضائل القرآن ،وابن البخاري في تاريخه عن نهشل بن سعيد الورداني عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا .كتاب فردوس الأخبار، رقم الحديث: ٥٦٠٥ ٤/ ٣٧.

عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر[1].
وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه أو حين يريد أن يقوم: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[2].

ومما ينبَّه إليه أن ورود أحاديث ضعيفة في فضائل سورة (الصافات) وغيرها لا يدعو إلى تركها، إذ من المعلوم أن الحديث الضعيف أنواع ودرجات، ومنه ما يكون بسبب الإسناد، كما أن من المعلوم جواز العمل بالضعيف إذا كان في فضائل الأعمال، ومن المسلَّم به جواز العمل بما أُثِر عن السلف خاصة إذا كان مما تواردت عليه الأخبار، وأثبتت التجربة أثره ونتائجه. وقد تكاثرت الأخبار في قراءة سورة (الصافات) على الممسوس، وتحقَّق النفع بفضل الله تعالى وزال الأذى بتمام تلاوتها، مما يبشر بفضلها، ويؤكِّد أهميتها، ويدلل على اختصاصها بهذا الأثر الباهر، والاعتماد في مثل هذا على التجربة لا على الإسناد، كما نبَّه لذلك الحافظ المنذري في ترغيبه، تعليقاً على حديث ابن مسعود في صلاة الحاجة، الذي رواه الحاكم، ونَقل عنه وعن عدد من السلف تجربتَهم فيها فوجدوها حقاً[3].

كما نبَّه العلماء أيضاً إلى أحاديث موضوعة في فضل هذه السورة[4].

---

(١) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، والترغيب والترهيب، المنذري: ٢/ ٤٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٢/ ٤١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥.

(٣) الترغيب والترهيب، المنذري: باب الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها١/ ٥٣٧، رقم الحديث: ١٠١١.

(٤) تفسير البيضاوي٥ :/ ،١٣٠وبصائر ذوي التمييز ،الفيروزأبادي١ :/ ،٣٩٨وتفسير أبي السعود: ٢١٢./٧

٣ـ عدد آيات سورة (الصافات):

عدد آياتها إحدى وثمانون ومئة آية عند البصري وأبي جعفر، واثنتان وثمانون ومئة آية في عدِّ الباقين. وعدد كلماتها اثنتان وستون وثمانمئة كلمة، وعدد حروفها ست وعشرون وثمانمئة وثلاثة آلاف حرف. والمختلف فيها آيتان؛ الأولى:﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾[الآية: ٢٢] لم يعدَّها البصري، وعدَّها الباقون، والثانية:﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾[الآية: ١٦٧] لم يعدَّها أبو جعفر، وعدَّها الباقون[1].

٤ـ أسباب نزولها:

لقد تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

٥ـ مرحلة النزول:

مكيَّة بإجماع المفسرين[2]، وهي السورة السابعة والثلاثون حسب تسلسل المصحف العثماني، والسادسة والخمسون في تعداد نزول السور المكية، نزلت بعد سورة الأنعام في آخر العهد المكي، وقبيل الهجرة إلى المدينة، ثم نزلت بعدها سورة لقمان[3].

٦ـ محور سورة (الصافات):

يعالج موضوع هذه السورة بيان أصول العقيدة والتوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء.

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢١٢، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٣٩٣، وجمال القرَّاء، السخاوي: ١/ ٣٠٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأباي: ١/ ٣٩٣، وزاد المسير، ابن الجوزي: ٦/ ٢٩٦.

(٣) الإتقان، السيوطي: ١/ ٨١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ٨١، ونظم الدرر، البقاعي: ١٦/ ١٨٦.

٧ـ المناسبات في سورة (الصافات):

أ ـ المناسبة في افتتاحية سورة (الصافات) بالقَسَم:

أما عن مناسبة هذا القَسَم فهو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله تعالى، واتخاذهم آلهة، بما أنهم ـ بزعمهم ـ بنات الله! إذ تروي تلك الأسطورة زعم القرابة بين الله سبحانه وبين الجن، وتستطرد الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجِنَّة وُلِدت الملائكة، ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله تعالى[١].

ب ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمتها:

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى ونسبوه إليه، مما هو منزَّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك؛ من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون مما لا يليق به، مع وصف نفسه بصفات الكمال، ومدحِه، وتسليمِه على الرسل الكرام، والحمدِ لله رب العالمين على ما قيَّض لهم من حسن العواقب. والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُخِلُّوا به، ولا يغفلوا عن مضمَّنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. عن علي ﷺ: (من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[٢].

ج ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وخاتمة ما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

أولاً: وجود الشبَه بين أول هذه السورة وآخر سابقتها سورة (يس) في بيان قدرة الله تعالى الشاملة لكل شيء في السماوات والأرض، ومنه المعاد، وإحياء الموتى، فلما ذكر سبحانه في سورة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢، ومعالم التنزيل، البغوي: ٤/ ٥٢.

(يس) قدرتَه على المعاد، وإحياء الموتى، علل ذلك بأنه هو منشئهم، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان، ذكر عزَّ وجلَّ هنا ما هو كالدليل على ذلك، وهو القَسَم على وحدانيته سبحانه، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا إذا كان المريد واحداً، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾[الأنبياء: ٢٢].

ثانياً: هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية، المشار إليهم وإلى إهلاكهم إجمالاً في سورة (يس) المتقدمة في قوله سبحانه:﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يس: ٣١].

ثالثاً: تفصيل هذه السورة ما أُجمِل في السورة السابقة (يس) من أحوال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة[١].

د- المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) ومحورها:

إذا تتبعنا مقاطع السورة نجد أنها قد فصَّلت في محورها آيات سورة (البقرة) الأولى في حديثها عن التوحيد، وخاصة في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[البقرة: ٣]، فجاءت سورة (الصافات) تفصِّل في أركان الإيمان، حتى لم يبق ركن من هذه الأركان إلا وقد أصابه نوع تفصيل، وكل ذلك ضمن سياق السورة الرئيس، الذي انصبَّ الكلام فيه على التوحيد[٢].

هـ- المناسبة بين مقاطع سورة (الصافات) بعضها مع بعض:

تعرَّض صاحب الظلال لهذه المناسبة في تقديمه لسورة (الصافات)، حيث قال: هذه السورة المكية كسابقتها؛ قصيرة الفواصل، سريعة الإيقاع، كثيرة المشاهد والمواقف، متنوِّعة الصور والظلال، عميقة المؤثرات، وبعضها عنيف الوقع، عنيف التأثير. وهي تستهدف كسائر السور المكية بناءَ العقيدة في النفوس، وتخليصَها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله.

---

(١) البحر المحيط ،أبو حيان٩ :/ ٨٩،والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٣/ ٦٠، وتفسير المراغي: ٢٣/ ٤١.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٤٨.

ولكنها ـ بصفة خاصة ـ تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى. وتقف أمام هذه الصورة طويلاً؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى.. تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن. وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله تعالى وبين الجِنَّة وُلِدَت الملائكة. ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله!

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة؛ تكشف عن تهافتها وسخفها. ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة.. ويتلوها حديث عن الشياطين المردة، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملأ الأعلى. ولا يتسمَّعوا لما يدور فيه؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة! كذلك يشبِّه ثمار شجرة الزقوم التي يعذَّب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقبيح والتفظيع!

وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة...

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكيَّة. فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود.. وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذَّبين في ثنايا مشهد من مشاهد القيامة.. كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء.. ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت!..

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، والرد عليهم: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الصافات: ٣٦ـ٣٧].

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم. تعرض سلسلة من قصص الرسل: نوح، وإبراهيم وبنيه وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس. تتكشَّف فيها رحمة الله تعالى، ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل..

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل. قصة الذبح والفداء، وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله تعالى في أروع صورها وأعمقها وأرفعها؛ وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء..

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها، تتمثَّل بشكل واضح في:

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها.. وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ومفاجآتها الفريدة، وانفعالاتها القوية. والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقاً، سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً في مكانه من السورة، وفي القصص ومواقفه وإيحاءاته. وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهزُّ القلوب هزّاً عميقاً عنيفاً...، وهو ذو طابع مميَّز يتَّفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة[1].

و ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) وافتتاحية سابقتها:

لأول مرة في السياق القرآني نجد سورة (الصافات) افتُتِحت بقَسَم مباشر، وقد سبقتها سورة (يس) بقَسَم لكنه مسبوق بشيء مثل (يس)، إذ مطلعها:﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [يس: ١ـ٢]، وسوف تتوالى السور بعد (الصافات) مبتدأة بالقَسَم المباشر، بل ربما توالت مجموعة من السور على هذا النمط في الافتتاح؛ كالذاريات، والطور، والنجم، والفجر والبلد، والشمس، والليل، والضحى[2].

ز ـ المناسبة بين سورة (الصافات) وما بعدها:

جاءت المناسبة تحمل معنى التكامل والتداخل بين سورة (الصافات) وتاليتها سورة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨٠.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٦٨٠.

(ص)؛ مع احتفاظ كل منهما بدوره في تفصيل محوره الرئيس.

فقد تابعت سورة (ص) من بدايتها محورَ التوحيد ذاته الذي تضمَّنته سورة (الصافات): ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

ويتجلى الأمر أكثر إذا لاحظنا أن كلتا السورتين تفصِّلان ما ورد في مقدمة سورة (البقرة) حيث الحديث عن المتقين والكافرين والمنافقين؛ فسورة (الصافات) تستعرض صفات الكافرين في معرض الكلام عن التوحيد، وسورة (ص) تتناول صفات المتقين في سياق الإنذار.

وكما فصَّلت سورة (الصافات) في الآيات الأولى من سورة (البقرة) مع امتداد معانيها في سورة (البقرة) كلها، كذلك فإن سورة (ص) تفصِّل آيتي سورة (البقرة) في وصف الكافرين مع امتداد معانيها في سورة (البقرة) أيضاً.

ويظهر التناسب والتكامل أكثر حين يتجلى الخصوص والعموم بين السورتين؛ فحين تتحدث سورة (الصافات) عن (إلياس)، فإن سورة (ص) تذكر اسم خليفته (اليسع).

كذلك حين تتكرر كلمة ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ مراتٍ في سورة (الصافات)، تأتي سورة (ص) لتذكِّرنا بالطريق الذي أُخلِصوا فيه:﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾[ص: ٤٦][1].

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٧٥٥.

المقطع الأول: (إعلان وحدانية الله تعالى) الآيات: (١-١٠)

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أقسم الله تعالى بطوائف من مخلوقاته، واختلف المفسرون في معناها؛ فجمهور السلف على أنها أصناف من الملائكة يتصفون بصفات ثلاث: فهم الملائكة يتمُّون صفوفهم للعبادة ويصفُّون أجنحتهم في الهواء انتظاراً لأمر الله تعالى عبادة وطاعة وذكراً له، والملائكة تسوق السحاب وتحرِّكه، والملائكة تتلو القرآن وتذكر. وذهب بعضهم إلى أن المراد بالصافَّات نفوس الغزاة تصفُّ الصفوف في سبيل الله تعالى، أو في الصلاة، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر. وقيل: الزاجرات: آيات القرآن المتضمنة للنواهي الشرعية، والتاليات: القارئات، أراد بني آدم يتلون الكتب ويسبِّحونه ويكبِّرونه، ولا يضير التأنيث اللفظي هنا، فيجوز تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس، فيطلق ويراد به الطائفة والجماعة. والتأنيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يطلق عليهم. واللفظ يحتمل التعميم، ومذهب الجمهور أرجح، حيث أن الملائكة أسوة في الطاعة وقدوة في التأسِّي، يؤيِّد ذلك حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلَتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَتْ لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعِلَتْ تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[١]. وحديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة ويتراصّون في الصف)[٢].

وجواب القسم أن الله تعالى واحد لا شريك له، وهو المعبود بحق، فيجب إخلاص

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.

العبادة إليه. وإنما أقسم الله تعالى جواباً لكفار مكة الذين قالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق؟ فهو خالق السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات، ومالك ذلك كله، وهو ربُّ مشارق الشمس ومغاربها. وخصَّ المشارق هنا بالذكر واكتفى بها عن المغارب لدلالتها عليها. وقد صرح بها في مواضع أخرى، فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي مطالع الشمس ومغاربها. وقال تعالى أيضاً:﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرحمن: ١٧]، على اعتبار مشرقَي الصيف والشتاء ومغربَيهما. وأما قوله تعالى:﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [المزمل: ٩]. فالمراد به الجهة؛ فالمشرق جهة، والمغرب جهة. وخصَّ الجمع بهذه السورة لمناسبة جموع أولها.

ثم بين سبحانه بعضاً من مظاهر خلقه تأكيداً لوحدانيته، وإثباتاً لقدرته؛ فقد جمَّل الدنيا وزيَّنها[1] بالكواكب تبدو في السماء متلألئة كالجواهر المنيرة، كما يتجلَّى فيها قوة الحفظ والحرز من الشيطان العاتي الخارج عن الطاعة المتجرد للشر. وإنما خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها التي تباشر أبصارنا، كما أن الحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها، فلا يمكَّنون من التسمُّع إلى الملائكة في السماء إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره مبالغة في نفي السماع[2]. وظاهر الأحاديث أنهم يستمعون إلى الآن لكنهم لا يسمعون شيئاً منذ بعثة النبي ﷺ لأنهم يُرمَون بالكواكب، ويُرجَمون بالشهب من كل جهة يصعدون إلى السماء منها إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع، فيُمنعون من الوصول إلى ذلك، ولهم في الآخرة عذاب مستمر موجع.

---

(١) قرأ الجمهور:﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾؛ بالكسر على الإضافة، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم بتنوين الجر على البدل، وكلاهما بمعنى واحد. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٣٦.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ يَسَّمَّعُونَ ﴾بالتشديد، وقرأ الجمهور بالتخفيف (يسْمَعون). والتسمُّع طلب السماع. فنفى طلب السماع على قراءة التشديد، ونفى السماع على قراءة التخفيف. والثاني أرجح، لقوله تعالى:﴿ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾[الشعراء: ٢١٢]. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٣٦، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٦٥.

وطرد الشياطين هو الغالب عليهم، إلا من شذَّ فخطف نبأً، أو اختلس كلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب المنتفض من السماء قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب؛ وهو شعلة ساطعة من النار تكاد تثقب لشدة ضوئها، فتتبع الشيطان فتحرقه أو تقتله أو تخبله، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: إن نبي الله ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفِّه فحرفها، وبدَّد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)[1].

قال صاحب الظلال: والمهم أن هذه الشياطين التي تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ومن التسمُّع لما يدور فيه هي التي يدَّعي المدَّعون أن بينها وبين الله نسباً، ولو كان شيء من هذا صحيحاً لتغيَّر وجه المعاملة. ولَمَّا كان مصير الأنسباء والأصهار ـ بزعمهم ـ هو المطاردة والرجم والحرق أبداً![2].

ويقول الإمام الرازي في تفسيره: دلَّت التواريخ على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك، وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ، امتنع على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، رقم الحديث: ٤٨٠٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٢٩٨٤.

النبي ﷺ، فصارت بسبب الكثرة معجزة[1].

وإنما يعودون إلى استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون إليه أملاً في نيل المراد، كراكب البحر يشاهد الغرق المرة بعد المرة، ثم يعود طمعاً في السلامة.

ولعل سائلاً يسأل كيف يحرق الشهاب الشيطان، وقد خُلق من نار؟ ويُجاب أنه ليس من النار الصرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، كذلك فالأقوى يحرق الأضعف فالنار القوية إذا استولت على الضعيفة أهلكتها، كالحديد يحرق بعضه بعضاً.

المناسبة بين افتتاحية سورة (الصافات) ومحورها:

تتألف السورة بشكل واضح من مقدمة تستمر حتى نهاية الآية العاشرة، تتحدث عن التوحيد، وأدلته، وعن حفظ الوحي.

ثم يأتي مقطعان كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾.

المقطع الأول: ويبدأ من قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ ويستمر حتى نهاية [الآية: ١٤٨].

والمقطع الثاني: ويبدأ من قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ويستمر إلى نهاية السورة.

ويندمج الكلام في المقطع الأول عن التوحيد، واليوم الآخر، والرسل، كمواضيع متلازمة، إذ يرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان باليوم الآخر، بل إن أكثر كفر الكافرين سببه الكفر باليوم الآخر، ويرتبط الإيمان بالله تعالى بالإيمان بالرسل، إذ هم الذين يعرفونه حق المعرفة ويعرِّفون عليه حق التعريف، ومن ثَمَّ يقول تعالى في السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٢٤.

ويندمج الكلام في المقطع الثاني عن الله عزَّ وجلَّ والملائكة والرسل والمؤمنين.

ومن ثَمَّ فإن السورة إذ تعرض التوحيد تعرض معه قضايا الإيمان كلها، لأن التصور السليم عن موضوع التوحيد مرتبط بالتصور السليم عن قضايا الإيمان كلها[١].

دروس وعبر من المقطع الأول

* لا يجوز للمسلم الحلف إلا بالله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، لقول النبي ﷺ: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[٢]. ولله تعالى أن يقسم بما يشاء، على ما يشاء، في أي وقت يشاء، وقد أقسم هنا بالملائكة، وقَسَمُ الله تعالى بمخلوقاته يومئ إما إلى التنويه بشأن المقسم به وعظمته المقرر ضمناً لعظمة قدرة الخالق. وإما لكونه مشرَّفاً عند الله تعالى، وإما بياناً لفضله، وإما لفتاً لنظر العباد إلى ما فيه من فوائد.

* تفيد الآيات فضيلة الصف لله تعالى أو في سبيل الله تعالى، وفضيلة الأجر في الله تعالى، أو في سبيل الله تعالى، وفضيلة تلاوة القرآن والذكر.

* يحمل جواب القسم معنى إثبات توحيد الله تعالى، وأنه لا إله إلا هو سبحانه، ولا ربَّ سواه، ولا معبود بحق غيره، وقد تضمن هذا الجواب الدليل والبرهان الذي يثبت هذه الوحدانية، فهو ربُّ المشارق والمغارب، خالقٌ لها بقدرته، مالكٌ لها بإرادته، قادرٌ على إيجادها وتسييرها بعظمته وسلطانه. وحريٌّ بهذه الصفات أن تدعم معنى الوحدانية التي جاء القَسَم يؤكدها: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

* بيان الحكمة الإلهية من خلق الكواكب في السماء الدنيا، وأنها زُيِّنت بها لمنفعتين هما: تحصيل الزينة والتجميل، والحفظ من أذى الشيطان العاتي المارد.

* تقرير أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء لاستراق السمع، فتُرمى وقتاً ولا ترمى وقتاً،

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٨/ ٤٦٧٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم الحديث: ٢٦٧٩.

وتُقذَف من جانب ولا تُقذَف من جانب، وحين يتلقَّى الشيطان الكلمة اختلاساً من أهل السماء، ويلقيها إلى الذي يليه، وهكذا دواليك، لتصل إلى الكاهن فيضيف إليها تسعاً وتسعين كلمة كذباً وافتراءً، فيصدقها الجاهلون. فلما كانت بعثة النبي ﷺ صاروا يُرمَون دائماً واصباً من كل جانب، حيث مُلِئت السماء بالحرس والشهب والنيازك الراجمة، ولم يعد مجال للشياطين تكذب على الناس في ادِّعاء استراق السمع، واختلاس الكلام، كما كان يحدث قبل البعثة.

* ذكرُ أصناف الملائكة يدعو المسلم للتمثُّل بأخلاقهم، والتحلِّي بخصالهم في الدأب على الطاعة، والصف والانتظام للعبادة، والذكر والتلاوة.
* ذكرُ صفات الشياطين يدعو المسلم للتحرُّز من أذاهم، والتحصُّن ضدَّ شرهم، وتجنُّب مسالكهم.

المقطع الثاني: (إثبات المعاد؛ الحشر والنشر والقيامة) الآيات: (١١-٢١)

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقة:

جاءت افتتاحية السورة في المقطع الأول تتناول الحديث عن إثبات ما يدل على وجود الخالق وقدرته وحكمته في خلق طوائف من مخلوقاته، وما يدل على وحدانيته في خلق السماوات والأرض وما بينهما، مما يدعو إلى التطرُّق لقضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون، وقد جاء

الردُّ القرآني هنا على منكري البعث، بالدليل العقلي والنقلي يثبت هذه الحقيقة ويؤكِّدها، حيث أنه لا يقاس خلق الإنسان في العظمة والقدرة إلى خلق العوالم المختلفة من سماوات ومجرات وأكوان وعوالم مختلفة، فهي لا شكَّ أكبرُ وأعظمُ من خلق الإنسان، كما أن إعادة خلق الإنسان ثانيةً أيسرُ من الخلق الأول الذي يحمل معنى الإبداع والإيجاد من عدم.

التفسير:

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي إخبارٌ عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما. وهي: إما إخبارٌ عن علم يختص به المخبر، أو إخبارٌ عن رأي يُطلب من ذي رأي موثوق به. والمعنى: فاسألهم عن رأيهم. فلما كان المسؤول عنه أمراً محتاجاً إلى إعمال نظر أطلق على الاستفهام عنه فعل الاستفتاء[1]. وجِيء بـ: (مَن) تغليباً للعقلاء من المخلوقات، ويُحتمَل: مَن خلقنا من الأمم السابقة الهالكة.

والاستفتاء نوع من السؤال، وهو هنا للتوبيخ والتقريع، والمحاجَّة والتغليظ. ومما لا جدل فيه أنهم يقرُّون بالجواب في أن تلك المخلوقات أشدُّ خلقاً، وأصعب إيجاداً منهم، فكيف ينكرون البعث وهم يعايشون ما هو أعظم منه؟ ثم بيَّن الحق سبحانه مدى هذا التفاوت في بيان أصل خلقهم لأبيهم آدم من طين لزج رخو يلتصق باليد لِضَعْفِه.

قال الطبري: إنما وصفه باللزوب لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طيناً لازباً[2].

ثم تكاثروا تناسلاً؛ فإذا كانوا في خلقهم على هذه الهيئة من الضعف فكيف يستبعدون المعاد؟

ثم ينتقل في الخطاب القرآني من أسلوب السؤال إلى أسلوب التقرير بذكر (بل) للإضراب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ٩٤.

(٢) جامع البيان ،الطبري: ٢٣/ ٢٨.

الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى أن حالهم العجب[1]. أي لا حاجة لاستفتائهم، فهم أهل

---

(١) في قوله تعالى:﴿ عَجِبْتَ ﴾ قراءتان سبعيَّتان. قرأ الجمهور بفتح التاء، على أن المخاطَب رسول الله ﷺ، وقد حصل العجب منه لمَّا رأى إعراضهم، فيكون الخبر مستعملاً في حقيقته، أو على استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة، والمعنى: اعجب لهم، أو على تقرير همزة الاستفهام، أي: بل أعجبت. وعلى العموم، فالمعنى: أن حالهم هذه حريَّةٌ بالتعجب، كقوله تعالى:﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥]. وقرأ حمزة والكسائي بضمها على أن الله تعالى هو المتعجِّب، ومعناه من الله تعالى أنه صفة فعل، فيكون المراد أن الله تعالى أسند العجب إلى نفسه، ويُعرف أنه ليس المراد حقيقة العجب المستلزمة للروع والمفاجأة بأمر غير مترقَّب، بل المراد التعجب على معنى: المجازاة على عجبهم، فأُطلِق على ذلك العقاب فعلُ (عجبتُ)، كما أُطلِق على عقاب مكرهم المكرُ في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ٥٤]. والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم والغضب والمؤاخذة، كما في هذا الموقف، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا، كناية عن لازمه، وهو استعظام الأمر المتعجب منه، لأنه أبلغ من التصريح. وقد تكرر في كلام النبوة؛ فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الله عزَّ وجلَّ يعجب من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، وقال مرة أخرى: ليضحك من رجلين يقتل أحدهما صاحبه، ثم يدخلان الجنة)، يعني ثم يُسلِم القاتلُ الذي كان كافراً، فيقاتل فيستشهد في سبيل الله. رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب اجتماع القاتل والمقتول في سبيل الله في الجنة، رقم الحديث: ٣١١٤، وعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: (من يضم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبِحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما: فأنزل الله:﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. البخاري: كتاب المناقب، باب:﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾، رقم الحديث: ٣٥١٤. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل). البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، رقم الحديث: ٢٧٨٨. قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَة الأمصار، فبأيَّتِهما قرأ القارئ فمصيب. ثم علَّل ذلك بقوله: إنهما وإن اختلف معنياهما، فكل واحد من معنييه صحيح؛ قد عجب محمد مما أعطاه الله من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب=

عناد، وأنت يا محمد تتعجَّب من قدرته تعالى على هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم للبعث وهم يسخرون من تعجُّبك وتقريرك للبعث. تتعجَّب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث لأنك موقن بقدرة الله تعالى فيما أخبر عنه من البعث بعد الفناء، وهم على النقيض من ذلك يهزؤون من إمكانية البعث، أو أنهم يسخرون من عجبك فيما تريهم من معجزات، ومن آثار قدرة الله تعالى على البعث، ويبالغون في السخرية والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في أبي الأشدِّ بن كَلدة وأمثاله، وكُنِّي بأبي الأشدِّ لشدَّة بطشه وقوَّته[1].

وإذا وعظوا بالقرآن لا يتَّعظون لاستكبارهم، وإذا عاينوا معجزة تدل على صدقك كانشقاق القمر، وتكليم الحجر والشجر، بالغوا في السخرية، وتنادَوا للتهكُّم والاستهزاء.

وقد نزلت الآية في ركانة، وهو من مشركي مكة، لقيه الرسول ﷺ في جبل خالٍ يرعى غنماً له، وكان من أقوى الناس، فقال له: ياركانة! أرأيتَ إن صرعتُك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاء شجرة وإقبالها، فلم يؤمن، وجاء إلى مكة قائلاً: يا بني هاشم! ساحِروا بصاحبكم هذا أهل الأرض[2]، فنزلت فيه وفي نظرائه.

وقالوا: ما هذا الذي يأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر فلا يؤبه له، ولا ننخدع به، ثم تساءلوا منكرين: أنُبعث أحياءً بعد أن متنا وصرنا تراباً وعظاماً بالية؟ وهل يُبعَث أيضاً أسلافنا الأقدمون؟ وهو أشدُّ غرابة، فأجابهم الله تعالى بقوله: قل لهم أيها الرسول: نعم تُبعثون

= ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون بما قالوه. جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٢٨. وللألوسي تأويل لطيف في قراءة الضم، فيقول: وعندي لو قدّر القول بـ: (بل) كان أحسن أي: بل قد عجبتُ، والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب، ولذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب، وهو في الله بمعنى يليق لذاته عزَّ وجلَّ، هو سبحانه أعلم به، فلا يعيِّنون المراد، والخلَف يعيِّنون. روح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٧٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٦٨، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٧٥.

(٢) سنن الترمذي، كتاب اللباس: باب العمائم على القلانس، رقم الحديث: ١٧٠٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وسنن أبي داود، كتاب اللباس، باب اللباس في العمائم، رقم الحديث: ٣٥٥٦.

أحياءً مرة أخرى، بعد أن تصيروا تراباً، وأنتم ذليلون حقيرون، والأمر سهل جداً في قدرة الله تعالى، فلا يتطلب أكثر من نفخ إسرافيل في الصور بأمر الله تعالى للخروج من الأرض، فإذا هم قيام من قبورهم أحياء، وحين ينظرون إلى أهوال يوم القيامة يقولون: يا ويلنا[١]، أي: لنا الويل والهلاك.

قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة[٢]. فيقرُّون بالويل والهلاك، حيث حلَّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدَّموا من كفر بالله تعالى وتكذيب بالرسل، فتجيبهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

علِمْنا من خلال بيان محور هذه السورة حديثَها عن أصول العقيدة والرسالة والبعث في يوم القيامة. وقد أردف في هذه الآيات الحديثَ عن قضية إنكار البعث التي يثيرها المشركون وذلك بالردِّ القرآني على منكري البعث، وباستفهام إنكاري يوصل إلى حقيقة أن البعث أمر لا شبهة فيه، ليثبت بالبرهان والحجة القولَ بالحشر والنشر والقيامة، ببيان أن الذي خلق هذه العوالم والتي هي أصعب في الخلق من الناس قادر على إعادة الحياة فيهم بالأَوْلَى، كما ذكر ذلك في قوله تعالى في السورة السابقة: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ [يس: ٨١]، وكما بيَّن في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧]. وإذا كانت هذه الخلائق أشدَّ وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها، ويستبعدون وقوعها، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى؟.

---

(١) رأى أبو حاتم الوقف هاهنا، وجعل ما بعده من قول الله أو الملائكة. المحرر الوجيز: ابن عطية: ١٢/ ٣٤٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج: ٤/ ٣٠١.

دروس وعبر من المقطع الثاني

* الإيمان باليوم الآخر ركن أساس من أركان الإيمان، يستلزم التسليم بقدرة الله تعالى على البعث والنشر والحشر. وفي الاستدلال على إمكانية البعث تذكر الأمور التالية:

أ ـ قدرة الله تعالى المطلقة في خلق ما يشاء، فقد خلق الإنسان، وخلق ما هو أصعب منه وأشقُّ؛ كالجبال، والسماء، والكواكب، والبحار، فخالق هذه الكائنات العظيمة لا يعجزه إعادة خلق الإنسان. قال تعالى:﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧].

ب ـ صفة الخلق لازمة للخالق، وهي قديمة أزلية أبدية، لا تنفك عنه، فهو سبحانه كان ولا يزال قادراً على كل شيء، ولا يعجزه شيء، والآيات القرآنية تقرِّب لأذهاننا هذا المعنى:﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٨].

ج ـ مِن المسلَّم به عقلاً أن الخلق بمعنى الإيجاد من العدم هو الذي يحمل معنى التحدي والإعجاز، والصنع والإبداع، وهو الذي يُشار إليه في الخلق الأول للإنسان، وتأتي مرحلة إعادة الخلق ثانية يوم القيامة أمراً ميسوراً مقبولاً متوافقاً مع المسلَّمات والبدهيات.

د ـ عدم الانتفاع بالإيمان عند معاينة العذاب، فالدنيا دار سعي وعمل، والآخرة دار جزاء وحساب. قال تعالى:﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[غافر: ٨٥].

هـ ـ تقرير البعث، وبيان طريقة وقوعه.

* تعبَّد الله تعالى عباده بهذا الشرع الحكيم من خلال الدعوة إليه على بصيرة وعلم، مصداقاً لقوله:﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨]. وبناءً عليه فطلب العلم النافع فريضة، والجهل في الدين مرفوض، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الأحكام الشرعية تحريماً وتحليلاً. ومن هنا يجب سؤال

أهل الذكر، واستفتاؤهم فيما يجهله الإنسان من قضايا شرعية، لقوله تعالى:﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٤٣].

* خلَقَ الله تعالى آدم من تراب (طين لازب ـ لاصق باليد ـ) بصريح النص القرآني، وفي خلْق ابن آدم من الطين دلالاتٌ وإشارات، إذ هو امتداد لهذا السَّنَن الإلهي في مردِّ أصل الخِلْقَة إلى التراب، حين يعلم أن تكوينه من الدم المتولِّد من الغذاء، والغذاء بنوعَيه الحيواني والنباتي ينتمي إلى تراب الأرض في مصدر تكوينه. إذ من الأرض ينبع الماء، وتخرج الثمار والحبوب والأعشاب ـ مصدر بقاء الحيوان والنبات ـ، فكأنَّ مردَّ الإنسان إلى جذره ونشأته من تلك الأرض ـ التي يُعتبر الترابُ والطينُ أساسَ تكوينها ـ، فيه إشارةٌ إلى أهمية تواضع الإنسان وعدم غروره، حين يعلم أن أصله من التراب، ومصيرَه الحتميَّ في النهاية إليه. قال تعالى:﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

* الإنسان عدوٌّ ما يجهل، ولكن العاقل هو من يُقيم المحاورة والمحاكاة للأشياء، ويبتعد عن السخرية بالحقائق، والاستهزاء بالمسلَّمات، خاصةً إذا ظهرت له الأدلة والبينات، بمعنى أنه لا يبقى الإنسان أسيرَ هواه، يتعنَّت في قبول الحق والإذعان إليه، بل هو حرٌّ في أفكاره منصفٌ في آرائه، محايدٌ في مواقفه.

* في تسمية يوم القيامة بيوم الفصل إشارة إلى أنه يوم الحُكم والقضاء المبرم بين الناس، حيث فيه يُفصل بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر. وكلٌّ يُجازَى على عمله؛ ففريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير. وهذا منتهى العدل الإلهي، حين يُفصَل بين العباد بالحق، ويُعطَى كلُّ ذي حق حقَّه بلا بخس، وإلا لما كان لهذه الحياة الدنيا معنىً إذا انتهت بدون حساب ولا جزاء. فمِن مستلزمات عدل الله تعالى ـ وهو سبحانه الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرَّماً ـ أن ينشر الميزانَ بالعدل، ويُقيمَ الحسابَ بالقسط. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

المقطع الثالث: (مسؤولية المشركين في الآخرة وأسبابها) الآيات: (٢٢-٣٧)

قال الله تعالى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن أثبتت الآيات السابقة الدلالة على وجود الله وعلمه وقدرته، وذكّرت بمشاهد ليوم القيامة، تُتابع في سياقها الحديثَ عن أحوال المشركين، وكيف يُساقون إلى النار في ذلٍّ وهوان، لا يجدون النصير ولا المعين، ثم تُصوِّر مشاهد من تخاصمهم فيها، وتلاومِ الأتباع والمتبوعين، كلٌّ يُلقي التبِعَةَ على الآخر.

التفسير:

ينتقل السياق من الخبر إلى خطاب الله تعالى الموجَّه للملائكة الموكَّلين بالتنفيذ في موقف الحشر أن يَجمعوا للحساب المكذبين بيوم الدين، وهم الأصناف الثلاثة: الظالمون المشركون وأشباههم، وقرناؤهم من الشياطين، فيُضَمُّ كل شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، أو نساؤهم الكافرات، ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان. ووجه حشرها مع عابديها مع كونها جمادات لا تعقل زيادة في تبكيت عابديها، وحسرتهم وتخجيلهم، وإظهارِ أنها لا تنفع ولا تضر.

وتُؤمر الملائكة أن يعرِّفوهم طريق النار ويدلّوهم عليها، زيادة في التهكُّم والازدراء.

والجحيم طبقة من طبقات جهنم يقال إنها الرابعة. كما تؤمر أيضاً بحبسهم في الموقف للحساب والسؤال عن الأقوال والأفعال من الخطايا، وإنكار كلمة التوحيد، وظلم الخلق. وفي الآية تقديم وتأخير على قول بعضهم؛ فالوقوف قبل السَّوق إلى الجحيم، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى الجحيم، وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشرون للسؤال.

واختُلِف في مضمون السؤال؛ فقيل: عن شرب الماء البارد على طريق الهزء، أو عن لا إله إلا الله، أو عن أعمالهم. قال ابن عطية: السؤال متَّجه عام في الكفر وغيره، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من داعٍ دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً، ثم قرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]). وحديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[2].

ثم يُساءَلون توبيخاً وتقريعاً: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله كما كنتم في الدنيا متناصرين؟ وفيه إشارة إلى جواب أبي جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾[القمر: ٤٤]، بل هم اليوم جميعاً منقادون لا حيلة لهم.

وتشهد ساحة القيامة تلاومَهم وخصامَهم، فيتساءلون تأنيباً وسخطاً وتقريعاً، كلٌّ يُلقي التبعة على الآخر، فيسأل الأتباعُ رؤساءَهم عن سبب إغرائهم، وحملِهم على الضلال، وقسرهم عليه، وذلك حين يأتونهم من جهة الخير فيصدونهم عنه.

وفي لفظ اليمين استعارةٌ لمعانٍ خمسة:

---

(١) سنن الترمذي ،كتاب تفسير القرآن ،باب سورة الصافات ، رقم الحديث٣١٥٢ :. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٢) سنن الترمذي ،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ،باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ،رقم الحديث ،٢٣٤١ :قال أبو عيسى :حديث حسن صحيح .والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٤٤.

١- أنها استعيرت مجازاً لجهة الحق والدين والخير، فعبَّر عنها باليمين، إذ هي الجهة التي يُتيمَّن بها، وبكل ما فيها ومَن فيها. فاليد اليمنى أشرف العضوين، وبها تُباشَر أفضلُ الأشياء؛ من مصافحة، ومناولة، وكتابة، وغيرها. والمعنى: أنكم تأتوننا من قبل الدِّيْن وناحية الخير فتصدوننا عنه، وتَلبسون الحق علينا. وقد رجّحه الطبري، واستحسنه القرطبي[1].

٢- ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة القوة والشدة، حيث يقع بها البطش والقهر. والمعنى أنكم كنتم تغووننا بقوتكم بحكم السيطرة والرئاسة، وتحملوننا على طريق الضلال، وتقسروننا عليه.

٣- ومنها أنها استعيرت مجازاً لجهة التمويه والإغواء، وهي جهة الرشد والصواب، فكأنهم شبهوا أقوال المغوين بالسوانح التي هي عندهم محمودة، فكأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمَد به. والمعنى: أنكم كنتم تموهون في هذه الغوايات.

٤- ومنها أنها استعيرت مجازاً بالحلف، فاليمين هنا بمعنى القَسَم. والمعنى: يَحلفون لنا ويأتوننا إتيان مَن إذا حلف لنا صدقناه[2].

فيردُّ الرؤساء يذكرونهم رفْضَهم الإيمان وإعراضَهم عنه، وأن اختياركم للطغيان طواعية منكم لا جبراً، ولم نتعدَّ أمر الدعوة إليه لنجبركم عليه، بل كانت استجابتكم رغبة منكم لا قسراً.

فلزِمَنا جميعاً وعيدُ الله تعالى بذوق العذاب، فدعوناكم إلى الغيِّ والضلال، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا الجدل بين الطرفين يقرِّر الحق تبارك وتعالى مآلَهم، وأنه حتمٌ لكل مجرم، تابعاً

---

(١) جامع البيان ،الطبري٢٣ :/ ،٤٩والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ،٧٥والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ،٣٤٨والبحر المحيط، أبو حيان٤ :/ ٩٨.

كان أو متبوعاً أن يُلقَى في النار.

ثم يخبر المولى سبحانه عن سبب عذابهم، وهو أنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد أنكروها، وأبَوا إلا الشرك. كذلك أنكروا الرسالة حين اتهموا النبي ﷺ بالسحر والجنون. ولا يخفى ما في اتهامهم ذاتِه من الخلط، إذ كيف يُسوَّى بين الشاعر في حذقه وفهمه، والمجنون في غيِّه وإطباقه؟ فيكذِّبهم بإثبات الحق في شهادة التوحيد، وصدق النبي ﷺ في رسالته التي جاءت خاتمةَ الرسالات، مؤكدةً لمضامينها، ومؤيدةً لأصولها، نافياً عنه أيَّ هيئةٍ من الشعر، أو صفةٍ من الجنون.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المحور الرئيس للسورة يصب في موضوع واحد هو موضوع التوحيد، والمواضيع الأخرى التي تتحدث عنها السورة كلها تتفرع عن هذا الأصل، وفي هذا المقطع يتفرع الحديث عن قضيتين اثنتين من قضايا التوحيد هما: قضية اليوم الآخر، وقضية بعثة الرسل.

فحين دعي الكافرون إلى إعلان التوحيد استكبروا، وتمسكوا بشركهم وكفرهم بدعوة الرسل واتهامهم لهم بالجنون، وهذا يؤكد أن أصل البلاء ومشكلته الأساس الشرك، حيث ينبثق عنه الكفر باليوم الآخر، والكفر بالرسل.

دروس وعبر من المقطع الثالث

* اليمين أشرف العضوين وأمتنهما، وكانوا يتيمنون بها، وبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سمَّوها الشؤمى، كما سمَّوا أختها اليمنى. وتيمَّنوا بالسانح؛ وهو المارُّ من اليسار إلى اليمين، وتطيَّروا بالبارح، وهو عكسه. وكان الأعسر معيباً عندهم، وعضدت الشريعة ذلك؛ فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلَها بالشمال. وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء[1]. وجُعِلت

(١) عن عائشة رضي الله عنها ذكرت: (أن رسول الله ﷺ كان يحب التيامن ما استطاع في طهوره ونعله=

اليمينُ لكاتب الحسنات، والشمالُ لكاتب السيئات، ووُعِدَ المحسنُ أن يُؤتى كتابَه بيمينه، والمسيءُ أن يؤتاه بشماله. وفي الآية استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين أي: مِن قِبَل الخير وناحيته، فصدَّه عنه وأضلَّه.

وجاء في بعض التفاسير: مَن أتاه الشيطان مِن جهة اليمين أتاه مِن قِبَل الدِّيْن، فلبَّس عليه الحق، ومَن أتاه مِن جهة الشمال أتاه مِن قِبَل الشهوات، ومَن أتاه مِن بين يديه أتاه مِن قِبَل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب. ومَن أتاه مِن خلْفه خوَّفه الفقرَ على نفسه، وعلى مَن يخلفُ بعده، فلم يَصلْ رحِماً، ولم يُؤدِّ زكاة[١].

* مهمة الداعية تبليغ الدعوة، وعرضُ كلمة التوحيد على الناس، ويدلل لذلك أن رسول الله ﷺ عرض كلمة التوحيد على عمه أبي طالب، كما في حديث البخاري[٢].

* ذهب ابن عطية إلى أن النبي ﷺ في عَرْضِه قولَ لا إله إلا الله على عمه أبي طالب جرت السنَّة في تلقين الموتى المحتضرين، ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها. ويُستدَلُّ له بما أخرجه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لقِّنوا موتاكم لا إله

=وترجله. قال شعبة: ثم سمعت الأشعث بواسط يقول: يحب التيامن؛ فذكر شأنه كله، ثم سمعته بالكوفة يقول: يحب التيامن ما استطاع). سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب بأي الرِّجْلين يبدأ بالغسل، رقم الحديث: ١١١.

(١) الكشاف ،الزمخشري ٤ :/ ٤٣.

(٢) عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: (أي عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلِّمانه حتى قال آخر شيء كلَّمهم به: على ملَّة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنه، فنزلت:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم الحديث: ٣٥٩٥.

إلا الله)[(١)][(٢)].

* كل إنسان مسؤول عن عمله. قال تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[الأنعام: ١٦٤] والمسؤولية فردية تكليفية، لا يُعفى منها أحد يوم الحساب، في وقفة فردية بين يدي الله تعالى ليس بينهما ترجمان، مروراً على الصراط، وهو الجسر الممدود فوق نار جهنم، لا يتجاوزه إلا بعد إكمال مراحل الحساب. قال تعالى:﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[مريم: ٧١-٧٢]. وفي الصحيح أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: (مَن حوسب عُذِّب). قالت عائشة: فقلت: أوَليس يقول الله تعالى:﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾؟ قالت: فقال: (إنما ذلك العَرْض، ولكن مَن نوقش الحساب يهلك)[(٣)].

* كلمة التوحيد نادت بها جميع الرسالات السماوية، وأكَّدتها رسالة الإسلام. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وبالتالي فأصول الدين واحدة عند جميع الأنبياء، تتجلى في الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والشرائع متعددة متنوعة، وينحصر تباين الشرائع السماوية في أمور العبادة والمعاملة، حيث تميز دعوة كل نبي بخصائص تنفرد بها. قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨].

* الشرك بالله أشدُّ أنواع الظلم. قال تعالى:﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش: (إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم

(١) صحيح مسلم ،كتاب الجنائز ،باب تلقين الموتى لا إله إلا الله ،رقم الحديث١٥٢٤ :.
(٢) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٤٤.
(٣) صحيح البخاري ،كتاب الرقاق ،باب مَن نوقش الحساب عُذِّب ،رقم الحديث٦٠٥٥ :.

بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية) أبَوا وأنِفُوا من ذلك[١]. كذلك استكبر المشركون عن هذه الكلمة يوم الحديبية، وفي كل مناسبة يعرض النبي ﷺ عليهم قبولَ هذه الكلمة فإنهم يأبون قبولها ظلماً وعناداً. وذلك منتهى الظلم وأقبحُه[٢].

المقطع الرابع: (جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين) الآيات: (٣٨-٦١)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

يتتابع الحديث هنا في نُقلة بلاغية من الغيبة إلى الحضور، موضحاً عدم الفائدة من حوار دعاة الضلال وأتباعهم، فقد شملهم العذاب جميعاً بمقتضى قانون العدل الإلهي المطلق فالجزاء من جنس العمل، والعدل هو أساس الجزاء يوم الحساب، فلا تجاوزات ولا اعتبارات، فمن آمن وعمل صالحاً فهو ناجٍ من السعداء في نعيم خالد، ومن جحد وأشرك فهو خاسر من

---

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومِن سورة (ص)، رقم الحديث: ٣١٥٦. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٧٦.

الأشقياء في جحيم دائم، والآخرة هي الفيصل في ذلك، والحجة فيها على الفريقين. ووعْدُ الله تعالى لا يُخلَف.

التفسير:

يخاطب الحق تبارك وتعالى عمومَ البشر بإعلان عهده ووعده في حق الكفار الجاحدين أن العذاب مصيرهم، والجحيم وعيدهم، جزاءً عادلاً على كفرهم ومعاصيهم، وعقوبة مماثلة لشرهم، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]. بخلاف المؤمنين الصادقين؛ فجزاؤهم أضعاف ما أخلصوا وأحسنوا؛ فهم ناجون لا يذوقون العذاب، ولا يُناقَشون الحساب، بل يتجاوز المولى عنهم ويكرمهم برزق معلوم الخصائص؛ من حُسْن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة. وخَصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو سبيل التفكُّه والتلذذ، لا للتغذِّي والتقوُّت، لاستغنائهم عن الحاجة لذلك بمقتضى خلودهم في الجنة. وهم ينعّمون في غاية من الإكرام، فيتكئون على سرر متقابلين تواصلاً وتحبباً، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وفي أحيان ترفع عنهم ستور، فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أن أعظم أحيانهم فيها متحيزون في قصورهم[(١)].

ويبين أبو حيان في (بحره) مظاهرَ الرزق والإكرام، فيقول: ذكر أولاً الرزق، وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ورزقٌ بإهانةٍ تنكيدٌ، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو جنات النعيم، ثم أشرف المحل وهو السرر، ثم لذة التآنس بأن بعضهم يقابل بعضاً، وهو أتم السرور وآنسه، ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم، بل يُطاف عليهم بالكؤوس، ثم وصف ما يُطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد، ثم ذكر تمامَ اللذة الجسمانية وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق، وهي أبلغُ الملاذ، وهي التآنس بالنساء[(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٥٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ١٠٠.

وبعد بيانه صفة الطعام وتعريفه بهيئة المسكن وحالهم فيه، ذكر صفة الشراب؛ فهو يقدم لهم في آنية من عيون تجري[١] بالخمر التي لا تُسكِر، وهي شديدة البياض، لذيذة الطعم، طيبة الرائحة، لا تَذهب بالعقول، ولا تُسبب صداع الرأس، ولا وجع البطن، كما هي صفة خمر الدنيا. وفي ذلك إيماء إلى مفاسد الأخيرة مما اتصفت به من الغَول؛ وهو اسم عام في الأذى، واشتهرت بالإسكار، وذهاب العقل، والاعتصار، والاختزان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومَن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها لم يتب، لم يشربها في الآخرة)[٢].

ثم يتم وصف حالهم في النعيم ببيان صفة زوجاتهم؛ فهنَّ عفيفاتٌ لا ينظرن إلى غير أزواجهن، ولا يُردن غيرهم عفةً وحياءً، ذواتُ عيون واسعة حسان. قال الطبري: يعني بالعِيْن: النُجَلَ من العيون عظامها. وهي جمع عيناء. والعيناء المرأة الواسعة العين عظيمتها وهي أحسن ما تكون من العيون، وشبَّههن في بياضهن بياض البَيض داخل القشر قبل أن تمسه الأيدي. وتشبه العرب الشيء بالحسن والنظافة ببيض النعام المغطى بالريش، كما تشبه النساء بها فيسمَّيْن ببيضات الخدور[٣]. وفسر المكنون بالمصون عن الكسر كناية عن أنهن عذارى.

ثم يجيء الخطاب بصيغة الماضي لصدق الإخبار به، فكأنه قد وقع. والقرينة هي التفريع على الأخبار المتعلقة بالآخرة، فتمضي الآيات تتحدث عن أهل الجنة يتجاذبون أطراف الحديث في مُتَعٍ نفسية، بعد بيان ألوان من المُتَعِ المادية في الجنة، فيسأل بعضهم بعضاً متذاكرين ما مرَّ بهم

---

(١) اختلف القَرَأة في قراءة قوله: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ ﴾؛ فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة وبعضُ قَرَأة الكوفة: (يُنْزَفُونَ) بفتح الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها تنزف عقولهم)، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة: (ينزِفون) بكسر الزاي، بمعنى: (ولا هم عن شربها يَنْفَد شرابهم). جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٥٤-٥٥.

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث: ٥٧٣٠.

(٣) تفسير النسفي ٤ :/ ٢٠.

من أحداث في الدنيا، وما عانوا فيها، فيقول مؤمن منهم متذكراً أحد أصحابه من قرناء السوء في الدنيا من المستهزئين بالبعث والمنكرين له، محتجاً على إعادة الحياة والحساب والجزاء مستخفاً به. ثم يطلب من جلسائه مطالعتَه في النار ورؤيتَه في عذابه يُجازى عليه. ثم يخاطبه بعد أن عاينه يتلظى في عذابه، ورآه في وسط الجحيم[١]، فيذكره موبخاً بمحاولاته في إغوائه في الدنيا وسعيه في إهلاكه، حين كان ينكر الإيمان بالبعث ويسخر منه مقراً بفضل ربه عليه في ثباته على الإيمان الذي حماه وعصمه من حضوره معه في هذا المآل الذي لا يُحسَد عليه. ـ و(أحضر) لا تستعمل مطلقاً إلا في الشر ـ. ثم يعود المؤمن يسائل جلساءه من أهل الجنة مبتهجاً مسروراً، وباستفهام تقريري يعبر عن ابتهاجه وسروره، وتحدثاً بنعمة الله تعالى عليه، وبمَسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة في العذاب: أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذبين؟ والحال أن هذه حال المؤمنين أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى[٢]. بخلاف الكفار في النار، فإنهم يتمنون فيها الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شرٌّ مِن الموت؟ قال الذي يُتمنى فيه الموت[٣].

ثم تأتي خاتمة الموقف الحواري بتقرير قاعدة العدل الإلهي؛ وهي أن الخلود في دار النعيم والنجاة من النار، هي حقيقة الفوز العظيم. فليُعِدَّ العقلاءُ العاملون عدَّتهم بمواصلة عملهم

---

(١) ورد في الآثار أن لأهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبرة، لأن لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٨٣، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣/ ٩٣.

(٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت، ثم قرأ:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا، وهم لا يؤمنون). صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله:﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾، رقم الحديث: ٤٣٦١.

(٣) تفسير النسفي ٤ :/ ٢١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١١٩.

وإخلاصِهم لله تعالى فيه بكثرة الصالحات، واجتناب السيئات لتحقيق هذا الفوز العظيم، فهو الخير الحقيقي. وأما خير الدنيا فنسبي مؤقت، لا يرقى إلى الكمال والتمام مهما تنامى وتسامى.

ويحتمل أن يكون تقرير هذه القاعدة خلاصةَ حوار هذا المؤمن مع جلسائه، أو أن يكون ردّ الله تعالى على هذا الموقف، وخطابه للنبي ﷺ وأمته، فالدنيا دار عمل بلا جزاء، والآخرة دار جزاء بلا عمل، كأنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

الحديث عن جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة جزء أساس في العقيدة، يرتبط بالمحور العام للسورة في تناول قضية التوحيد الكبرى، قضية الإيمان بالله تعالى، وما يتصل بها من الإيمان بيوم القيامة ومشاهده وأحواله. وفي هذا المقطع يتجلى المشهد في وصف حال أهل الجنة وإكرامهم، من خلال تحقق صفة العبودية والإخلاص فيهم، ثم يتتابع الحديث ليبين لنا جزاء المنكرين للبعث، فينقل حواراً لهم حول المآل الذي صاروا إليه، ليقرر حقيقة ترتبط بالمحور الأساس للسورة، مؤكداً قانون العدل الإلهي القائم على أن الجزاء من جنس العمل.

دروس وعبر من المقطع الرابع

* في وصف خصال خمر الآخرة تنزيهٌ لها عن صفات خمر الدنيا، وتلميح وإيماء إلى مفاسدها فتتصف خمر الدنيا بالغَول، وذهاب العقل، وتسبب الصداع والفساد والسُّكْر، وتؤدي إلى العربدة والهذيان، وتوجع البطن، وتفسد الدم وجهاز الهضم، فهي بحقٍّ أمُّ الخبائث[2].

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٦٤.

(٢) عن عثمان ﷺ يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أمُّ الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبَّد، فعلقته امرأة غويَّة، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يَرِمْ حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا =

* الحذر من رفاق السوء، والتحفظ من قرناء الشر، ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك المادية والمعنوية، فالصاحب ساحب، والصديق عنوان صديقه وعلامة عليه، ورحم الله مَن قال: قل لي مَن تُصاحب أقل لك مَن أنت.

* لا حرج من التحدث بنعمة الله تعالى، إظهاراً لفضل الله تعالى، وشكراً له عليها. يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]. ولا شك أن لذكر الأشياء المحبوبة لذة.

* الكفار مخاطبون بأصول الدين، ومكلفون بإعلان التوحيد، ومجازَون على أعمالهم السيئة المناقضة لأصول التوحيد؛ من تمجيد وتعظيم آلهتهم، وتكذيب الرسول ﷺ.

* من فضل الله تعالى على عباده أن الحسنة تضاعف عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف مضاعفة، وأن السيئة لا تُجازى إلا بمثلها وقدرها، وهو باب مفتوح للعبد للتزود من الخير.

* نعيم الجنة وعذاب النار حقٌّ محتَّم، وعدل محقَّق، ومؤكَّدُ الوقوع، ولا ينافي عذابُ الكافرين رحمةَ الله تعالى وعفوه وكرمه، إذ قضت حكمته سبحانه أن عفوَه سبق غضبَه، وأن عذابه لا محالة على مَن كذَّب وتولَّى، والجزاء من جنس العمل، فهو شديد العقاب على مَن تحدَّى أمرَه، غفورٌ رحيم لِمَن تاب وأناب.

* الحياة في الآخرة أبدية خالدة في الجنة والنار، والناس في الآخرة ثلاثُ فئات؛ مؤمنٌ حقاً يدخل الجنة فلا يخرج منها أبداً، وكافرٌ حقاً يدخل النار فلا يخرج منها أبداً، وفاسقٌ عاصٍ يدخل النار فيعذَّب على ذنوبه، ويمكث فيها مدة عذابه، ثم يخرج منها، ليخلد في الجنة أبداً.

* الحوار بين أصحاب الجنة والنار ثابت بالنص في سورة الأعراف[1]، كلاهما يطَّلع على حال

= الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه. سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر: رقم الحديث: ٥٥٧٢.

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا =

الآخر، وقد بلغ العلم في تقنيته الحديثة اليوم مبلغَه في تحقيق ذلك، من خلال الفضائيات ووسائل الاتصال المختلفة وهي من صنع البشر، فكيف بقدرة الله تعالى القادر على كل شيء؟

* الوفاة مرحلتان؛ معنوية مؤقتة، وتتمثل بالنوم، وحقيقية دائمة، وتتمثل بالموت، وهو انتقال من نهاية مرحلة دار الممرِّ وهي الحياة الدنيا، إلى مرحلة دار المستقرِّ وهي الحياة الآخرة، وهي التي لا موت فيها[1]، حيث يُمثَّل للموت فيها بكبش يُذبَح على بابَي الجنة والنار، في إشارة إلى نهاية الموت، كما سبق في حديث البخاري.

= قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾ [الأعراف: ٤٤-٥٠].

(١) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الزمر: ٤٢].

المقطع الخامس: (جزاء الظالمين، وألوان عذاب جهنم) الآيات: (٦٢-٧٤)

قال الله تعالى:﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد هذا العرض لقصة المؤمن مع قرينه، وما آل إليه حاله من استحقاقٍ جزاءَ إنكاره وجحوده، يجري التعقيب القرآني على هذا الحدث بالإشارة إلى مغزاه عظة واعتباراً، ليظهر التمييز بين نعيم المؤمن وجزاء الكافر، وكما تنوعت ألوان نعيم المؤمنين في الجنة فيما سبق، تتنوع هنا ألوان العذاب في الجحيم، ليقيم الله تعالى الحجة على خلقه حين أهملوا عقولهم، وجحدوا بربِّهم، وأنكروا الحساب، فها هو الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

التفسير:

تساؤلاتٌ تحمل في طيِّها التقريرَ لا الاستفهام، تهدف في مضمونها إلى التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه، ومآل الكافر وخسارته، وتقرر لقريش وكفار مكة المستهدَفين بالخطاب حقيقةً لا بد من إدراكهم لها، وهي أن عطاء الله تعالى للمؤمنين في الجنة لا يحدُّ، وإكرامه في وفادتهم حقٌّ وصدق، وقد جاء التفضيل بين شيئين ليس بينهما اشتراك على سبيل التقرير والتوبيخ، فهو حين يقارن بهذا العطاء عذابَ الكافرين، فإنما يهدف إلى التهكُّم والسخرية بهم إذ المعادلةُ بين النزُلَين مقارنةٌ للثرى بالثريا، فأنَّى لطعام الزقوم أن يُعدَّ إكراماً؟ واعتبر النزُلُ ـ وهو الطعام المهيَّأ للضيف ـ إكرامَ أهل الجنة، وأشار إليه باسم الإشارة المفرد البعيد، ليدل على بُعد المرتبة وسموِّها، حيث الشيء النفيس الشريف يُتخيَّل عالياً، والعالي يلازمه البُعدُ عن

المكان المعتاد، وهو السفل.

والزقُّوم طعام أهل النار، جعله الله تعالى فتنةً وابتلاءً لأهل الضلال. فحين سمع الكفار ذِكْرَ شجرة الزقُّوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقُّوم؟ إنه الزبد والتمر، ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الذي يخوِّفنا به محمد ﷺ[١].

والزقُّوم في الدنيا شجر من أخبث الشجر في الصحاري، خشنٌ، منكَرُ الصورة، كريهُ الرائحة، صغير الورق، مسمومٌ، فيه لبن، إذا أصاب جلد الإنسان تورَّم ومات منه في الغالب، وكأنه مشتق من الزُقمة، وهو اسم الطاعون.

أما زقُّوم الآخرة في النار فهو شجرة تنبت في قعر جهنم، تتفرع أغصانها بين دركاتها وعبَّر عن ثمرها بالطلْع، تشبيهاً بطلْع النخلة، وشبَّهه برؤوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة، فهي وإن لم تكن معروفة عند المخاطَبين، إلا أنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[٢]، والعرب تشبِّه القبيحَ بالشيطان، وجميلَ الصورة بالملَك، فقد قال تعالى مخبراً عن صواحب يوسف:﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. وفي الحديث الصحيح: (ولكأنَّ نخلها رؤوس الشياطين)[٣].

---

(١) جامع البيان، الطبري: ٢٣/ ٤١.

(٢) في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية:﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾، قال رسول الله ﷺ: (لو أن قطرة من الزقُّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم الحديث: ٢٥١٠.

(٣) إشارة إلى حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (سُحِرَ النبي ﷺ، حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومَن طبَّه؟ قال: لبيد بن=

ومن معاني التزقُّم البَلْعُ على جهد لكراهتها ونتنها، فتزيد العقوبة حين يشتد جوعهم فلا يجدون مفراً من أكلها كرهاً واضطراراً، ثم بعد ملْءِ البطون منها تزداد الحاجة للريِّ بعد أن يغلبهم العطش، فلا يجدون بُدّاً من شرب الماء الحار، فيكون حال المشروب في البشاعة أعظمَ من حال المأكول، فيصبُّ لهم الماء الحار في الحميم، ويمزج لهم، ليجمع بين مرارة الزقُّوم وحرارة الحميم تغليظاً لعذابهم، وتجديداً لبلائهم، ويكون موضع الأكل والشرب في الحميم خارج الجحيم، فيرِدُون الحميم لشربه كما ترِدُ الإبل إلى الماء، ثم يعودون إلى الجحيم.

ومبرِّر لون هذا العذاب أنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاقتدوا بهم، وقلَّدوهم دون تعقُّل وتدبُّر، بل كانوا يتسابقون في التقليد مسرعين في رعدة دون حجة أو برهان.

وهذا يؤكد أن ظاهرة الكفر قديمة، وأتباعه كثيرون، رغم إرسال الرسل، وإنذار الكافرين إلا أنها سنَّة الله تعالى في خلقه أن يُعرض الكفار عن دعوة المرسلين عناداً واستكباراً، ولا يتبعهم إلا الخُلَّص من المؤمنين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ مما كان يلاقيه من صدِّ قريش عن دعوته. فله في قصص الأنبياء من قبل في دعواتهم لأقوامهم الأسوةُ والقدوةُ في الصبر والتحمل، ولقريشٍ العبرةُ والعظة فيما حلَّ بالكفار والمكذبين بالرسل من هلاك ودمار وعقاب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتصل الحديث في هذا المقطع بمحور السورة في تناول قضية التوحيد، والحديث عن مشاهد الآخرة، من خلال تتابع الكلام عن جزاء الكافرين في جهنم، وما أعد الله تعالى لهم من عقوبةٍ جزاء كفرهم وشركهم، لكنه يعلل ذلك المآل بسبب تقليدهم للآباء والأجداد في مسيرة

=الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحنَّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً، وأمر بها فدفنت). صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، رقم الحديث: ٥٣٢٤.

الكفر والإلحاد، فلم يفتحوا قلوبهم، كما لم يعملوا عقولهم لتجنب ضلال السابقين، واتباع الحق الذي جاءت به الرسل في دعواتهم، ففي النهاية قامت الحجة عليهم، واستحقوا العقاب بما كسبت أيديهم، دون اعتبار بمن سبق، أو اتعاظ بما وقع.

دروس وعبر من المقطع الخامس

* قياس عالم الآخرة على عالم الدنيا قياس مع الفارق، فالدنيا عالم الشهادة والمحسوس، وكل ما جاء في الآخرة من أخبار إنما ترجع إلى عالم الغيب الذي تعبَّدنا اللهُ تعالى بالإيمان به، وجعله الفيصلَ بين المؤمن والكافر. وبالتالي فكل أحوال الآخرة يعتقد المؤمن بصدقها، ويؤمن بوقوعها، ويسلِّم بحدوثها، إذا أيقن أن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وأنه عزَّ وجلَّ عدل لا يظلم أحداً، حين ذلك يجد في كل أهوال النار وألوان عذابها ما يُطمْئِنُ قلبَه، ويُسكِن فؤادَه في عدل الله تعالى وحكمته، ويستشعر قدره بقدرة الله تعالى في جميع ذلك، وإمكانية حدوثه.

* التقليد الأعمى شؤم على المقلَّد وعلى مَن يتبعه، وقد عابه القرآن على المشركين مراراً، وذمَّهم حين عطَّلوا عقولهم، وحجَّروها في الاتباع الأعمى، فلا سعادة للإنسان إلا بالنظر والتفكير والبحث عن الحقيقة، ليصلها عن قناعة وتدبر ويقين.

* الترهيب والترغيب أسلوبان ناجعان من أساليب الدعوة، والمقارنة والموازنة ضربان مهمَّان لكل ذي عقل يميز بين أمرين، ليتخذ اختياره عن حكمة ومعالجة، إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، ولا تدرك الحقائق إلا بمقارنتها بأضدادها. ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس: ٣٢].

* لا ينبغي للعاقل أن يغترَّ بكثرة المشركين، فكثرة العدد لا تبرر ضلال الضالين، ولا خطأ الخاطئين، والهدى والضلال ليسا من آثار العدد كثرة وقلة، ولكنهما حقيقتان ثابتتان مستقلتان متباينتان في الوجهة والغاية، والخير والشر، والحسن والقبح، والحق والباطل. ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠]. فلا حجة ولا اعتبار للقلَّة والكثرة فيهما.

* ضرب الأمثلة بقصص الأمم السابقة فيه تذكير وسلوان للنبي ﷺ، وتهوين وتخفيف مما كان يعانيه ويلاقيه من تكذيب قومه، وصدِّهم عن دعوته. وفيه درس ومثال له وللدعاة من بعده في أخذ العظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية حين كذَّبوا أنبياءهم، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار، وهو لون من ألوان التوجيه والتربية في الصبر والتحمل والتجلُّد. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* تشبيه المحسوس بالمتخيَّل أسلوب قرآني بليغ في الدلالة على المشبَّه به.

* الحسن والقبح ضدَّان يتقلبَّان في الأشياء والمخلوقات لحكمة، وقد خلقهما الله تعالى فتنة وابتلاءً للإنسان، كي يتخير الحسن المليح، ويتجنب السيء القبيح. فالزقُّوم شجرة خبيثة، ذكرها الله تعالى في القرآن مقرونةً بالفتنة واللعن، وهي في الدنيا والآخرة من المستقبح الكريه[١]، بخلاف طوبى فهي من الألفاظ الطيبة، وقد استعملها القرآن في التودد والتجمل، وأشار إليها النبي ﷺ في مقام الحمد والثناء[٢]، وهي شجرة الإنعام والإكرام لأهل الجنة[٣].

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾قال: (هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: والشجرة الملعونة في القرآن؟ قال: هي شجرة الزقُّوم). صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب المعراج، رقم الحديث: ٣٥٩٩.

(٢) عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، رقم الحديث: ٢٢٧٢.

(٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ (أن رجلاً قال له: يا رسول الله! طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها). إسناده ضعيف دون قوله: (طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني) فحسن لغيره. الموسوعة الحديثية =

المقطع السادس: (قصة نوح عليه السلام ودعاؤه) الآيات: (٧٥-٨٢)

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى إرسالَ المنذِرين في الأمم الخالية، وسوءَ عاقبة المنذَرين على سبيل الإجمال أتبع التذكيرَ من جانب النظر في آثار ما حلَّ بالأمم المرسَل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة بتذكيرٍ من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذَّبهم قومهم وآذوهم، وكيف انتصر الله تعالى لهم، ليزيدَ رسوله ﷺ تثبيتاً، ويُلقِمَ المشركين تبكيتاً، وفي تقديم قصة نوح عليه السلام على غيره من الرسل إشارةٌ إلى أنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى الناس، وهو الأسوة الأولى، والقدوة المثلى، وفيه نوع تفصيل لما أُجمِل فيما قبْل، يتضمن سوء عاقبة بعض المنذَرين كقوم نوح، ثم يعقب ذلك الوجهُ الآخرُ في الاستجابة للمرسلين، كما في بيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصوا لله تعالى كقوم يونس[1].

مناسبة هذا المقطع لما بعده من المقاطع:

ذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم، لأن في كل قصة منها خاصية لها شبَهٌ بحال الرسول ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته، ففي القصص كلها عبرٌ بالغة، وأسوة وإنذار، وتهديد وتحذير لمن كفر من أمته، وتسلية للرسول ﷺ، ويجمعها كلها مقاومةُ الشرك ومقاومةُ أهله.

وقد اختير هؤلاء الرسل الستة لأن نوحاً القدوة الأولى، وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية،

=لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ١١٦٧٣.

(١) تفسير النسفي ٤ :/ ٢٤، وتفسير التحرير والتنوير :ابن عاشور ٢٣ :/ ١٢٩.

التي هي نواة الشجرة الطيبة ـ شجرة الإسلام ـ، وموسى لشَبَهِ شريعته بالشريعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان. فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول، ثم ذكر ثلاثة رسل تفرَّعوا عنهم، وثلاثتهم على ملَّة رسلٍ مِن قَبلهم؛ فأما لوط فهو على ملَّة إبراهيم، وأما إلياس ويونس فعلى ملَّة موسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

التفسير:

جاء دعاء نوح ﷺ حين أيس من إيمان قومه، بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً. ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح: ٥ـ٦]. وقد تضمن هذا النداء المبارك لنوح ﷺ الاستغاثةَ بالله تعالى، والدعاءَ على قومه، وسؤالَ النجاة، وطلبَ النصرة. قال تعالى على لسانه:﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[نوح: ٢٦]، وقال أيضاً: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وفي جميعها وقعت الإجابة على أكمل ما أراد نوح ﷺ، وأهلك قومَه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ إذا صلَّى في بيتي فمرَّ بهذه الآية: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] ، قال: صدقت ربنا، أنت أقرب من دعا، وأقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير)[١].

ويشير فعل المدح (نِعْمَ) إلى جملة من مظاهر الإنعام، وصيغة الجمع في ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ، دليل العظمة والكبرياء. ثم يأتي بيان هذا الإنعام في الإجابة مفصلاً بعد أن ذُكِر مجملاً؛

فابتدأه بإنجاء الله تعالى إياه، ثم إنجاء أهل دينه، وهم مَن آمن معه وهم ثمانون، نجَّاهم

(١) روح المعاني ،الألوسي٢٣ :/ ٩٨.

الله تعالى من الكرب العظيم؛ وهو الغرق، وتكذيب الكفرة، وأذى قومه، وركوب الماء وهوله، والخبر الثقيل على القلب، والحزن، والغمّ الشديد. والمعني به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، وإنجاء نوح منه هو سلامته من الوقوع فيه، لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة، والواقع فيه موقِنٌ بالهلاك، ولا يزال الخوف يزداد به حتى يغمره الماء، ثم لا يزال في آلام من ضيق النفس، ورِعدة القرِّ، والخوف، وتحقق الهلاك حتى يغرق في الماء.

أما النعمة الثانية: فهي جعل ذريته أصولَ البشر والأعراق والأجناس، وجعل عمران الأرض بها، وهي نعمة دائمة لأنهم يدعون له، ويذكر بينهم، وهم وحدهم دون غيرهم الباقون على قيد الحياة. والآية تفيد الحصر، وهو أن كل مَن سواه وسوى ذريته ممن كفر بدعوته قد فنوا؛ ومنهم زوجته وولده الرابع كنعان الذي أبى الاستجابة لأمره، وقد أشار القرآن الكريم إليهما في آيات معروفة[1].

قال ابن عباس: ذرِّيتُه بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث. فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك والصقلب والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وعن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش)[2].

فنوح آدم الأصغر، والأب الثاني للبشر، لأن ذرِّيته هم ركَّاب السفينة، وهم الأحياء فقط، والذين بقَوا من نسله بعد هلاك قومه. قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح. وهو شيخ الأنبياء، بل أول الرسل إلى الأرض، كما في حديث الشفاعة: (اذهبوا إلى غيري، اذهبوا

---

(١) قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٥-٤٦].

(٢) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومِن سورة الصافات، رقم الحديث: ٣٨٦٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

إلى نوح، فيأتون نوحاً ﷺ، فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟)[1].

وأما النعمة الثالثة: فهي إبقاء الثناء الجميل والذكر الحسن فيمن يأتي بعده من الأمم، فقد ذُكر لنبي إسرائيل في معرض الاقتداء به، في قوله تعالى:﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]. بل إنه لم يبعث نبيٌّ بعده إلا أمر بالاقتداء به، كما في قوله سبحانه:﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[الشورى: ١٣]. أما تعيين هذا الثناء فيحمل معنى التحية والتعظيم والسلام الدائم في أوساط العالمين؛ من إنس، وملائكة، وجن غابر الدهر. قال الطبري عن هذا السلام: هذه أَمَنَة من الله تعالى لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء[2]. وقال ابن عطية: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة[3].

أما مبررات هذه الإنعامات السابقة فتتمثَّل في:

١ـ مجازاته على إحسانه، فهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى. وثناء الله تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه.

٢ـ وبسبب كونه محسناً، هو كونه من عباد الله المؤمنين، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله تعالى وطاعته أعظم الدرجات، وأشرف المقامات، وفي ذلك إشارة إلى عظمة رتبة الإيمان وفضله، ومكانته ومنزلته.

٣ـ إغراق كفار قومه بالطوفان، وإهلاكهم، وفي ذلك عظة وعبرة، وهذا يقتضي أنه تعالى أغرق قوم نوح وأمَّته ومكذِّبيه، فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذِكْرٌ، ولا أثر، ولا يُعرفون إلا

---

(١) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، رقم الحديث: ٣٠٩٢

(٢) جامع البيان ،الطبري٢٣ :/ ٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٧١.

بهذه الصفة القبيحة.

وليس في الآيات نص على أن الغرق عمَّ جميع أهل الأرض، لكن قال به جماعة من العلماء وأسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا مَن كان معه في السفينة، وعلى هذا يكون الناس اليوم من ذريته.

ومن المعلوم أنه لم يكن الناس في عهد نوح بهذه الكثرة، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوَّته قد بلغَت جميعهم، لطول المدة واللبث فيهم. وكان الجميع عبدةَ أوثان وكفرة لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟

قلت: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين يسلِّمون عليه عن آخرهم. علَّل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية مِن تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسناً، ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً، ليريَكَ جلالةَ محلِّ الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تأتي قصة نوح هذه لتخدم في سياقها محور السورة العام من خلال دعوته عليه السلام قومه إلى التوحيد، فقد أظهر من الجهد ما تَمَيَّز به في الدعوة؛ من خلال طول المدة والمكث في قومه إضافة إلى صبره على أذاهم وإعراضهم عنه، فهو مثال عالٍ لمن يليه من الرسل في الدعوة إلى الإيمان ونبذ الشرك، كما أنه نموذج رائع في أمانة حمل الرسالة، وقدوة حسنة في الدعوة، والصبر على أذى الأتباع، وحيث كان مستحقاً لرتبة الظفر والإنجاء، لذلك نال هذا الإكرام الجميل والثناء الحسن في العالمين.

---

(١) الكشاف ،الزمخشري٤ :/ ٥٠.

دروس وعبر من المقطع السادس

* من مقتضيات الإيمان الصحيح بالله تعالى الإنجاءُ من المهالك، والإسعادُ في الدنيا والآخرة، وبقاءُ الأثر والسمعة الطيبة والذكر الجميل أبدَ الدهر، وعلى عكس ذلك فمن مقتضيات الكفر بالله تعالى الإيقاعُ في أنواع العذاب الأليم، والشقاءُ في الدنيا والآخرة، وسوءُ السمعة، ومحل العظة والعبرة. والسعيد من اتعظ بغيره. والشقي من كان عبرة وأثراً يذكر لغيره.

* الدعاء مخُّ العبادة، وللدعاء آداب وأحكام فصَّلها العلماء، ومما ينبَّه إليه أهميةُ الدعاء، والحذرُ من دعوة المظلوم. فقد أثبتت الآثار أنه ليس بينها وبين الله حجاب، يرفعها الله تعالى إلى سابع سماء، ويقول الحق تبارك وتعالى: وعزَّتي وجلالي لأ نصرنَّك، ولو بعد حين[(١)].

* الإيمان بالله تعالى والانقياد لطاعته أعظمُ الدرجات، وأشرفُ المقامات، وفي هذا إيماء لفضل الإيمان والإحسان، وإكرام الله تعالى لأوليائه المؤمنين، وحسنِ عاقبة أهله المحسنين. وبالمقابل الإشارة إلى خطر الكفر، وسوء عاقبة أهله، وإهانتهم وإهلاكهم.

وذكر القرطبي في تفسيره عن سعيد بن المسيب قال: وبلغني أنه مَن قال حين يمسي: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧]، لم تلدغه عقرب. ذكره أبو عمر في التمهيد[(٢)].

وفي الموطأ: عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: (من نزل نُزُلاً فليقل: أعوذ بكلمات

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا تردُّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ وعزتي لأنصرنَّك ولو بعد حين). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية، رقم الحديث: ٣٥٢٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيام، باب الصائم لا ترد دعوته، رقم الحديث: ١٧٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٩٠.

الله التامَّات من شرِّ ما خلق، فإنه لم يضرُّه شيء حتى يرتحل)[١].

وفيه عن أبي هريرة ﷺ: (أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت هذه الليلة، فقال له رسول الله ﷺ: من أي شيء؟ قال: لدغتني عقرب. فقال رسول الله ﷺ: أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق، لم تضرُّك)[٢].

المقطع السابع: (قصة إبراهيم عليه السلام -١-) الآيات: (٨٣-١٠١)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة إبراهيم هذه عقب قصة نوح عليهما السلام، يربط بينهما الحديث عن وحدة الهدف والرسالة؛ فكلاهما رسول دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك، وفي ذلك بيان للصلة الوثيقة بين الأنبياء في رسالاتهم، فكلهم يؤوبون إلى أسرة واحدة، وطريقهم واحد يفيض بالحق من مشكاة واحدة ـ مشكاة النبوة ـ، كما تجمع بينهما وحدة المآل الواحد، وهو الحماية

---

(١) الموطأ ،كتاب الاستئذان ،باب ما يؤمر به من الكلام في السفر، رقم الحديث: ٣٤.

(٢) الموطأ ،كتاب الشعر ،باب ما يؤمر به من التعوذ، رقم الحديث: ١١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٩٠.

والإنجاء، فحين تتحدث القصة الأولى عن إنجاء الله تعالى لنوح من الغرق، تأتي هذه الثانية لتخبر عن إنجاء الله تعالى لإبراهيم من النار.

التفسير:

في الآيات تذكير للنبي ﷺ بإخوانه من الأنبياء والمرسلين، وكيف أنهم سلسلة واحدة متتالية في حمل الرسالة وأداء الأمانة، يشايع بعضهم بعضاً، ويشابهه في التصلُّب للدين ومصابرة المكذبين. فإبراهيم ممن سار على ملَّة نوح في أصول الدين والتوحيد، وإن اختلفت شرائعهما، أو اتفق أكثرهما. وقد كان بينهما ألفان وستمئة وأربعون سنة تعاقب خلالها نبيَّان؛ هما هود وصالح عليهما السلام. وقد أقبل إبراهيم على ربِّه بقلب مخلص موحِّد، خالٍ من شوائب الشك، نافرٍ من الشرك وجميع النقائص؛ كالغلِّ، والحسد، والكبر، فلم يلعن شيئاً قطُّ. كما أنه جمع مكارم الأخلاق:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[هود: ٧٥]، وهو منزَّه عن كل خلق ذميم، واعتقاد باطل. يقول النبي ﷺ: (بعثت بالحنيفية السمحة)[1].

وقد حاور أباه وقومه في دعوتهم ومنهجهم، وأقام عليهم الحجة حين أنكر عليهم ما يعبدون من الأصنام، وبيَّن لهم وجه الإفك ـ وهو أسوأ الكذب الذي لا يثبت ويضطرب ـ في اتخاذ تلك الأوثان آلهة من دون الله، وحاججهم بأسلوب استفهام توبيخي تقريري يحمل معنى التحذير والوعيد، أي: أكذباً ومحالاً تريدون آلهةً غيرَ الله، حيث جعلتموها بكذبكم

(١) عن أبي أمامة ﷺ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في سريَّة من سراياه، قال: فمرَّ رجل بغار فيه شيء من ماء، قال: فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلَّى من الدنيا، ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له، فإن أذن لي فعلت، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبي الله! إني مررت بغار فيه ما يقُوتُني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أقيم فيه، وأتخلَّى من الدنيا، قال: فقال النبي ﷺ إني لم أُبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خيرٌ من صلاته ستين سنة). إسناده حسن في المتابعات والشواهد. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٢٢٩١.

بألسنتكم آلهة، وهي أحجار وأصنام؟ وما ظنُّكم حين تلقون ربكم أنه فاعل بكم، وقد عبدتم معه غيره؟

ثم أراد إبراهيم أن يقيم عليهم الحجة في أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، فاختار طريقة التفكر والنظر في النجوم، إذ هم يستعملونها في رعيهم وفلاحتهم، ليوهمهم من خلالها أنه عليل، كي يخلّوا بينه وبينها، والحق أن نظر إبراهيم في النجوم إنما كان من قبيل التورية، فإنه أراد شيئاً وفهموا منه شيئاً آخر، تمهيداً لخطته التي بيّتها في أن يكايد أصنامهم حين يخرجون لعيدهم غداً، فيتخلَّف عن الخروج، دون أن يطَّلعوا على ما بيَّت عليه النية. وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها فذلك غير جائز، ولم يكن كاذباً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴾.

واختلف في قوله:﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴾؛ فقالت فرقة: هي كذبة في ذات الله تعالى، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك، وعلى هذا التأويل يجيء الحديث عنه ﷺ قال: (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة: هذه أختي)[1].

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ ثنتين منهن في ذات الله عزَّ وجلَّ، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلِق، ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلِق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر). قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾، رقم الحديث: ٣١٠٨.

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعاريض الجائزة. وفي الحديث: (إن في المعاريض لمندوحه عن الكذب)[1]. فهو حين أخبرهم أنه سقيم أراد أنه سقيم النفس من أموركم وكفركم، وهذا يدل على أنه لم يكن سقيماً، وإنما عرَّض لهم، وهكذا هي المعاريض.

وهذا التأويل لا يردُّه الحديثُ وذِكْرُ الكذبات، لأنه قد يقال لهذا كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، وقد رُخِّص بالكذب تعريضاً في المكيدة في الحرب، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإخبار بضدٍّ ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وتسميته بالكذب في الحديث الصحيح إنما هو بالنظر إلى ما فهم القوم منه، لا بالنظر إلى قصده ﷺ كما أن جعله ذنباً في حديث الشفاعة لما يتبين له أنه كان خلاف الأَولى. وكذا يقال في: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ ﴾. والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عُرِّض به، ووَرِّي عنه.

قال ابن كثير: ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يُذمُّ فاعله، حاشا وكلا ولا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً. وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي، لحديث: (إن لكم في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[2].

وقال القرطبي: فإبراهيم صادق، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم، عُدَّ هذا ذنباً، ولهذا قال:﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢][3].

ثم إن إبراهيم ﷺ بحجته هذه استطاع الانفراد بالآلهة ليحقق هدفه فيها، وقد تركوا

---

(١) بوَّب البخاري له في كتاب الأدب من صحيحه ،كما أخرجه أيضاً في كتاب الأدب المفرد من حديث مطرف ،قال :صحبت عمران بن حصين إلى البصرة ،فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر ،وقال :إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب. الأدب المفرد: باب المعاريض، رقم الحديث: ٨٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/ ٩٣.

عندها طعاماً لتُبارِكَه، فبادرها السؤال تهكُّماً واستهزاءً، مستفهماً المانع من عدم أكلها الطعام، وهو بهذا يعزز وجه الاحتقار لها، لأنها منحطة عن رتبة عابديها، إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها، وليقينه في أنها جمادات لا تعقل، لكنه يتابع خطته فيميل عليها خفية بقوة وشدة فيحطمها إلا كبيرها، حيث تركه، لعل لسان حال المشهد يعيدهم لرشدهم إن هم أنصفوا التفكير، وعقدوا المقارنات.

وحين عادوا من عيدهم فوجئوا بالخبر، فأتوا مسرعين[1] يسألون عمَّن كسرها، وحين أيقنوا الفاعل عاتبوه، فقالوا: نحن نعبدها وأنت تكسرها!. فردَّ عليهم عتابهم بتلويمهم وتأنيبهم بسؤالهم عن عبادتهم لما يصنعونه وينحتونه بأيديهم. والنحت حقيقة في الخشب، مجاز في الحجر. والله تعالى المستحق للعبادة وحده، لأنه خلقكم، وخلق ما تعملون وتصنعون.

وتحتمل (ما) إعرابين؛ المصدرية، والصلة. بمعنى: (والله خلقكم وعملكم)، أو (والله خلقكم والذي تعملون). وفي كليهما دليل على أن الله تعالى خلق الإنسان، وخلق أفعال العباد وأعمالهم المكتسبة. وهذا يؤيِّد مذهب أهل السنَّة، وفيه ردٌّ على القدرية والجبرية، وإبطالٌ لقولهم: أن الإنسان خالقٌ لأفعال نفسه.

روى البخاري عن حذيفة ﷺ مرفوعاً قال: (إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه)[2]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)[3].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾ قراءتان سبعيَّتان: قرأ الجمهور: ﴿يَزِفُّونَ﴾من زفَّ، أي: أسرع، وقرأ حمزة: (يُزِفُّون) مِن أزفَّ، بمعنى: دخل، أي: شرعوا في الزفيف. المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٣٧٨، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد .انظر :فتح الباري ،العسقلاني ،كتاب التوحيد ،باب قول الله تعالى﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾: ١٣/ ٥٤٠.

(٣) ذكره الثعلبي ،وأخرجه البيهقي من حديث حذيفة. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ٩٦.

ولما غلبهم إبراهيم في الحجة، وأقامها عليهم، مالوا إلى الغلَبة بقوة البطش والشدة وتواطؤوا على قتله، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يبنوا له مكاناً واسعاً، ويضرموا فيه النار المستعرة، ويطرحوه فيها انتصاراً لأصنامهم. فأرادوا به سوءاً بحيلهم ومكرهم، فأنجاه الله تعالى، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وجعلهم أذلة مقهورين في إبطال كيدهم.

ولما نجَّا الله تعالى إبراهيم من إحراق النار، وأيس من إيمان قومه، قرَّر هجرهم ومفارقتهم وأعلن هجرته من بلد قومه الذين آذَوه إلى حيث أمره ربه بالمهاجرة إليه، كي يتمكن من عبادته وطمعاً في أن يهديه الله تعالى لما فيه صلاح الدين والدنيا. وإبراهيم أول مَن سنَّ مبدأ الهجرة في سبيل الله، فكانت الهجرة من بلاد بابل إلى بلاد الشام المباركة.

وفي أثناء الهجرة دعا ربه أن يرزقه الذرية الصالحة لتكون عوناً على الطاعة، وأنساً في الغربة، وعوضاً عن قومه، وكان وقتئذٍ وحيداً، فكانت البشارة بغلام انطوت فيه ثلاث خصال: أنه غلام ذَكَر، وأنه سيبلغ أوان الحلم وسن الرشد، وأنه يكون حليماً، أي في كِبَره، لأن الصغير لا يوصف بذلك، والحليم من لا يتسرع في الأمور ويتحمل المشاق. وأيُّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال:﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وجمهور المفسرين على أن الغلام إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نصِّ كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم ستٌّ وثمانون سنة، ووُلِدَ إسحاق وعمر إبراهيم تسعٌ وتسعون، كما أن قصة الذبح جرت بمكة وإسماعيل هو غلامه الذي هاجر معه إليها صحبة أمه، ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)[1]. ويعزِّزُ ذلك أن البشارة التالية بعد تمام قصة الذبح كانت لإسحاق في قوله

(١) فتح الباري ،العسقلاني ،كتاب التعبير ،باب رؤيا إبراهيم ؏١٢ :/ ٣٩٥. ورواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان أن أحد الأعراب قال للنبي ﷺ: (يا ابن الذبيحين، فتبسَّم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه). قال الحاكم: وقد ذكر الواقدي هذا القول بأسانيده، وعدَّدهم، ثم قال: وقد كنت أرى مشائخ الحديث قبلنا، وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه، وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل،=

تعالى:﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ومال جماعة من أهل العلم ومنهم الطبري إلى أن الذبيح المبشَّر به إسحاق، ونقل ذلك عن طائفة من السلف وبعض الصحابة، ولا دليل لذلك من كتاب ولا سنة، إنما هو تلقٍ عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم في ذلك، وحرَّفوا كتابهم الذي فيه أن الله تعالى أمر ذبح ابنه الوحيد البِكْر، فاعتبروا إسحاق وحيداً حين ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة. ولا يخفى ما فيه من تحريف. وقد ردّ ابن كثير ذلك بأدلة وآثار عن السلف، واستنتاجات عدَّة، وأخذاً بما في نصوص التوراة[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

من خلال استعراض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، ودعوته إياهم إلى التوحيد وإقامة الحجة والبرهان عليهم، حين مجادلتهم في أمر الأوثان التي يعبدونها، وتغلُّبهم عليه بإلقائه في النار انتصاراً للآلهة، يظهر لنا مدى الصراع الطويل بين الحق والباطل، وهو مما يؤكد أن قصة إبراهيم هذه لها ارتباط وثيق بمحور السورة الأساس، المتعلق بالدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وهي امتداد وتأصيل لأركان الإيمان ومستلزماتها. وتعميق وتثبيت لبنود العقيدة الصحيحة. كما أنها مثال وأسوة لحال النبي ﷺ في ثباته على دعوة التوحيد، وإبطال الشرك وفيما لقي من المشركين، وإيماء إلى أنه يهاجر من أرض الشرك، وأن الله تعالى يهديه في هجرته ويهب له أمة عظيمة، كما وهب إبراهيم أتباعاً فقال:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠].

=وقاعدتهم فيه قول النبي ﷺ: (أنا ابن الذبيحين)، إذ لا خلاف أنه من ولد إسماعيل، وأن الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب، والآن فإني أجد مصنفي هذه الأدلة يختارون قول مَن قال: أنه إسحاق. المستدرك، الحاكم: ٢/ ٦٠٤ـ٦٠٩.

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ٤ :/ ١٩.

دروس وعبر من المقطع السابع

* مشروعية الدعاء بالولد، واستحباب الدعاء لمن رُزِق بالمولود، كما اشتُهر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى تهنئته بكلام حسن، حين دخل عليه رجل وعنده رجل وُلِدَ له غلام، فعلَّمه أن يقول: (بُورِك لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ رُشده، ورُزِقت برَّه)[١].

* وجوب الهجرة على المؤمن إذا لم يتمكن من إقامة شعائر دينه على الوجه المرضي في أرضه فيجب عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى يتمكن فيها من إقامة هذه المشاعر، ولا يخفى ما للهجرة في سبيل الله تعالى من أجر وفضل ومثوبة، وقد توافرت النصوص تحثُّ عليها وتباهي بها. وإن أول هجرة كانت في الأرض هي هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام من العراق إلى الشام.

* أصل الدين واحد، وهو دين الإسلام الذي نادت به الرسالات السماوية كلها، في دعوتها إلى الإيمانِ بالله تعالى وتوحيده، والإيمانِ بالرسل واليوم الآخر، والحضِّ على أصول الأخلاق والفضائل، ونبذِ الشرك والضلال، إلا أن الأنبياء أُرسِلوا بهذه الدعوة إلى أقوامهم خاصة، وكانت رسالة النبي ﷺ عامة لجميع بني البشر.

* التعريض والتورية والإيهام جائز، إذا كان في ذلك مصلحة شرعية؛ كما في الحرب والإصلاح بين المتخاصمين وغيره من الحالات التي نصَّ عليها الفقهاء. ومنه الحديث: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[٢]. أما تعمُّد الكذب وتقصُّده فهو الممنوع والحرام وقد توعَّد الله الكاذبين باللعن والويل والعذاب الأليم[٣].

---

(١) قال علي لابن عباس رضي الله عنهم حين وُلِدَ له غلام: شكرت الواهب، وبُورِك لك في الموهوب. الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٧]، وقال تعالى:﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ =

* وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه، لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)(١).

* طلب البلاء لا يجوز، والواجب سؤال الله تعالى العافيةَ منه، لكن إن قُدِّر ذلك للمسلم فعليه الصبر، واحتساب أجره على الله تعالى، والرضا بأمره سبحانه.

* إبراهيم الخليل كان أمة مستقلة في فكره، ودعوته، ومنهجه، وصبره، وعبادته، وطاعته وسلامة قلبه، وخشوعه، وأبوَّته، يؤيد ذلك قول الحق تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠]. وهو أبو الأنبياء، وصاحب الملة الحنيفية السمحة، وخليل الرحمن، وإمام كل مهاجِر، وقدوة كل مؤمن، وأسوة كل مسلم، في الإيمان والتوكل والرضا والصبر، والاستسلام لأمر الله تعالى.

* استدل أهل السنَّة والجماعة على أن أفعالَ العباد خَلْقٌ لله عزَّ وجلَّ، واكتسابٌ للعباد والله تعالى هو الخالق للإنسان وخالقٌ لأفعاله، وفي هذا إبطال لمذاهب القدرية والجبرية القائلين بأن الإنسان خالق لأفعال نفسه. قال ﷺ: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)(٢).

=[المطففين: ١٠]، وقال أيضاً:﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً. كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم الحديث: ٧٠.

(٢) سبق تخريجه.

المقطع الثامن: (قصة إبراهيم ـ قصة الذبيح) الآيات: (١٠٢ـ١١٣)

قال الله تعالى:﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي هذه الآيات تقصُّ محنة الذبح والفداء، امتداداً لنظيراتها في المقطع السابق، والتي تناولت محنة الإلقاء في النار، وكلتاهما غاية في الشدة والابتلاء. وحيث كوفئ إبراهيم الخليل عند اجتيازه المحنةَ الأولى البشارةَ بالغلام الحليم، أتبعه هنا بما يدل على حصول ما بُشِّر به، وبلوغه سنَّ القدرة والعمل، ثم أتبعه بقصة الذبيح إسماعيل والفداء، ثم بشَّره بإسحاق نبياً من الصالحين.

التفسير:

تتجلَّى هذه القصة بأروع مثال في التضحية والفداء، وذلك حين كبر إسماعيل، وبلغ سنَّ مَن يمشي ويقدر على الكسب، أخبره أبوه بما رآه في المنام من أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق. وقد أخبره بذلك ليستعدَّ لتنفيذ أمر الله تعالى، ويكسبَ المثوبة بالانقياد لأمره، وليعلمَ صبره لأمر ربه، فلم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ فدعاه إلى نظر العقل لا البصر، وإعمال الرأي ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾. حيث أمْرُ الذبح أمْرُ ابتلاءٍ لإظهار عزمه، وعلوِّ مرتبته. وكان قد سأل ربه أن يهبه مَن يرثه، فبعد الإجابة أمره بذبحه بيده، وهو أحب النفوس إليه مقابل ذلك الامتثال، وهو معنى البلاء المبين. ويأتي جواب الابن ﴿ ٱفْعَلْ مَا

تُؤۡمَرُ﴾، فلم يقل: اذبحني، للجمع بين الإذن وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني لأن الله تعالى أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه، وامتثال أمر الله تعالى فيه.

وفي تحديد ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مبالغة في اتصافه بالصبر، يفيد أنه سيجده في عِدادِ الذين اشتُهروا بالصبر وعُرفوا به. وهو تأكيد لوصفه السابق بالحلم، ولِمَا أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾[مريم: ٥٤-٥٥].

فلما سلَّما أمرهما إلى الله تعالى، انقياداً لحكمه، وتفويضاً إليه في قضائه، ـ وكان استسلام إبراهيم بالتهيؤ للذبح، واستسلام إسماعيل بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه ـ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي وضعه بقوة على وجهه، ووجَّهه إلى القبلة حتى لا تأخذه العاطفة. وفي الحديث: (فتلَّه رسول الله في يده)[1] تشبيه شدة التمكين، كأنه ألقاه في يده. والجبين ما اكتنف الجبهة، وهو أحد جانبيها. ويتناقل المفسرون أخباراً تحتاج لتمحيص في طلب إسماعيل من أبيه شدَّ الرباط، وصرف النظر عن وجهه..

وحين أضجعه للذبح جاءه النداء أنْ قد حصل المقصود من رؤياك، وتحقق المطلوب، فقد صدَّقت الرؤيا بقلبك معتقداً، وعملت بحسبها حين آمنت بها، فوفيتها حقها من العمل. وفي الحديث: (إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن)[2].

والرؤيا اسم لما يُرى من قِبَل الله تعالى في المنام، والحلم اسم لما يُرى من قِبَل الشيطان، كما

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ (أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال: فتلَّه رسول الله ﷺ في يده). صحيح البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إذا أذن له أو أحلَّه ولم يبيِّن كم هو، رقم الحديث: ٢٢٧١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب القيد في المنام، رقم الحديث: ٦٤٩٩.

في الصحيحين: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان)[(١)].

وفي الآيات تعداد لنِعَمٍ خمسة أنعم الله تعالى بها على إبراهيم؛

أولها: الإحسان إليه، فقد جازاه بالعفو عن الذبح حين صبر محتسباً الأجر من الله تعالى وكذلك يجزي كل محسن على طاعته، ويفرِّج همَّه وكربه ومحنته.

ثانيها: افتداء الذبح، وذلك بتقديم الكبش العظيم السمين، ووصفه بالعِظَم لأنه متقبَّل يقيناً، وفي وصفه أقوال وأخبار تحتاج لتمحيص أيضاً.

ثالثها: الثناء الحسن عليه، فقد بقي له في الأمم المتلاحقة ذِكْراً جميلاً، فأحبَّه أتباع المِلل كلها من يهود ونصارى ومسلمين ومشركين، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ ﴾ [الشعراء: ٨٤ـ٨٥].

رابعها: البشارة بإسحاق، فقد وهبه الله تعالى إياه بعد إسماعيل، وجعله نبياً صالحاً، وفي ذِكْرِ هذه البشارة بعد قصة الذبح ما يؤكِّد أن الذبيح إسماعيل.

خامسها: مباركة إبراهيم وإسحاق، فقد أمدَّهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية من كثرة الولد والذرية، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل، وإنَّ من ذرِّيتهما محسن فاعل للخير، وظالم لنفسه بالمعاصي.

وفي هذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب والانتماء، وإنما الانتفاع بالأعمال، وأن لا يعيب الأصولَ ولا ينقصَهم سوءُ بعض ذرِّيتهم، لقوله تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فالظلم في أعقاب إبراهيم

(١) عن أبي سلمة أن أبا قتادة الأنصاري وكان من أصحاب النبي ﷺ وفرسانه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله منه، فلن يضرَّه). صحيح البخاري: كتاب التعبير، باب الحلم من الشيطان، رقم الحديث: ٦٤٨٨.

وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تُجسِّدُ قصةُ الذبح والفداء هذه مثالَ التضحية والانقياد لله تعالى في أمره ونهيه، والذي تجلَّى في موقف إبراهيم الخليل من أمر ربه في الرؤيا، حيث قام يلبي الأمر وينفِّذه امتثالاً والتزاماً، وهذا عنوان الطاعة لله تعالى والاستسلام لأمره، وهو حال المؤمن مع ربه حين أعلن الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، ونفي الشرك عنه، فإن من مقتضى الإيمان الطاعةَ لله تعالى فيما أمر ونهى. وهذا ما يبرز قيمةَ معنى التوحيد لله تعالى، والذي تمحورت السورة حوله في الدعوة إلى العبودية الحقَّة لله الواحد الأحد، ونبذ الشرك. وهو الذي هتفت به دعوة إبراهيم، وتميَّزت به ملَّته: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ [البقرة: ١٣٥]. والأنبياء هم الأسوة لكل مسلم في هذه الطاعة قولاً ودعوة وسلوكاً ومنهجاً. وهكذا كان إبراهيم الخليل مثالَ الطاعة والولاء، وكان ولده إسماعيل الذبيح رمزَ التضحية والفداء.

دروس وعبر من المقطع الثامن:

* الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العِرْق والعنصر، فقد يَلِدُ البَرُّ الفاجرَ، والفاجرُ البَرَّ، وفسادُ الأعقاب لا يعدُّ غضاضةً على الآباء، ومناطُ الفصل هو خصال الذات، وما اكتسب المرء من الصالحات. أما كرامة الآباء فتكملة للكمال، وباعث على الاتسام بفضائل الخِلال. وإنما يُعاب المرءُ بسوء فعله، ويعاقب على ما اجترحت يداه، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

* لا يقال إن أمر إبراهيم بذبح ولده معصية، والمعصية لا تجوز، لأن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للإيمان، إنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعاصي عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح لإبراهيم لابنه صار طاعة وابتلاءً في حقِّه، لذا قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾، ولما تعلق بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

* الأضحية سنَّةٌ ومعروف عند جمهور الفقهاء، واجبة عند الحنفية؛ على المقيم الواجد، وهي في فحول الغنم من الضأن أفضل من الإبل والبقر.
* رؤيا الأنبياء وحي[١]، وكان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة[٢] لكن الشريعة لم تُوحَ إلى رسول الله ﷺ إلا في اليقظة ورؤية جبريل، دون المنام، وهي وحي له دون التشريع؛ كالكشف له على ما يقع، وما أعدَّ له ﷺ ولبعض أمته؛ كالإذن بالهجرة وتأويل البقرة بشهداء أحد، وهو ما يؤكد أن الإسراء والمعراج يقظة بالروح والجسد، إذ فيه شريعة الصلاة.
* من نذر ذبح ولده لزمه الفداء بكبش عند الحنفية.
* الحكمة من القصة أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، فلما سأل ربه الولد وهبه له، فتعلَّقت شعبة من قلبه بمحبته لولده، فأمر بذبح المحبوب ليظهر صفاء الخِلَّة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده[٣].
* سبب تسمية الأيام بالتروية وعرفة والنحر أن إبراهيم الخليل حين رأى في المنام أنه يذبح

---

(١) أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ نام حتى نفخ ثم صلَّى، وربما قال: اضطجع حتى نفخ، ثم قام فصلَّى، ثم حدثنا به سفيان مرة بعد مرة عن عمرو عن كريب عن ابن عباس قال: بِتُّ عند خالتي ميمونة ليلة فقام النبي ﷺ من الليل، فلما كان في بعض الليل قام النبي ﷺ فتوضأ من شنٍ معلَّق وضوءاً خفيفاً، يخفِّفه عمرو ويقلِّله، وقام يصلي، فتوضأت نحواً مما توضأ، ثم جئت فقمت عن يساره، وربما قال سفيان عن شماله فحوَّلني فجعلني عن يمينه، ثم صلَّى ما شاء الله، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة، فقام معه إلى الصلاة، فصلَّى ولم يتوضأ، قلنا لعمرو: إن ناساً يقولون: إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ:﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾. صحيح البخاري: كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، رقم الحديث: ١٣٥.

(٢) صحيح البخاري :كتاب التعبير ،باب أول ما بُدِئ به رسول اُلله ،رقم الحديث٦٤٦٧ :.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين٣ :/ ٣٤٣.

ولده روَّى في نفسه ـ أي فكَّر ـ أهذا الحلم من الله، أم من الشيطان؟ فسمِّي يوم التروية لكنه رأى مثْلَه في الليلة الثانية، فلما أصبح عرف أنه من الله تعالى، فسمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثْلَه في الليلة الثالثة فهَمَّ بنحره، فسمِّي يوم النحر[١].

* اختلف أهل السنَّة والجماعة والمعتزلة في نسخ حكم الذبح؛ فذهب أهل السنَّة إلى أن القصة نُسِخَ فيها العزمُ على الفعل، وذهب المعتزلة إلى عدم النسخ، إذ لا يصح النسخ إلا بعد وقوع الفعل[٢].

* الله تعالى يخلق الآثار عند المسببات بمشيئته وقدرته، والمؤثر الفاعل هو الله تعالى وحده، ولكن جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً، بحيث يصحُّ تخلُّفها، فلم يشأ للمدْيَة أن تذبح وتفرم، ومن خاصيتها ذلك، كما لم يأذن للنار قبلها أن تحرق، ومن خاصِّيتها ذلك. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة[٣].

المقطع التاسع: (قصة موسى وهارون عليهما السلام) الآيات: (١١٤-١٢٢)

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لَمَّا ذكر الله تعالى ما مَنَّ به على إبراهيم مِن فداء ولده، وما مَنَّ به على إسماعيل مِن نجاته

---

(١) البحر المحيط ،ابن حيان٩ :/ ١١٦،وحاشية الصاوي على الجلالين٤ :/ ٣٤٢.

(٢) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥١،والمحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٣٨٩.

(٣) عون المريد لشرح جوهرة التوحيد ، تتّان وكيلاني ١ :/ ٥٥٧.

مِن الذبح، وما مَنَّ به على إسحاق مِن بشارته بالنبوَّة، أتبعه هنا بذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون بنجاتهما وقومهما من الكرب العظيم. وفي ذلك إشارة إلى أن الله تعالى ينصر رسله ويغضب لهم؛ إما باستجابة دعوة، أو جزاءً على سلامة طويةِ قلبٍ سليم، كما في دعوة إبراهيم وإما رحمةً منه ومِنَّة على عباده المستضعفين. وقد تجلَّت المِنَّة الكبرى على موسى وهارون بالنبوَّة فهي أعظم درجة يُرفع إليها الإنسان، وتتمثَّل في إيصال المنافع، فإن الله تعالى أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لإبراهيم وإسرائيل، كما كان في إنجاء موسى وهارون وقومِهما كرامةً أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمةُ إزالةِ الضرِّ، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام؛ وهما إعطاء المنافع، ودفع المضار.

التفسير:

يقسم الله تعالى تحدُّثاً بنعمته على عباده، وامتناناً بفضله. وتحدُّث الله بالامتنان على عباده من عظيم الشرف لهم؛ فقد امتنَّ على موسى وهارون بوجوه إنعام كثيرة تنحصر في نوعين: إيصال المنافع، ودفع المضار. أما إيصال المنافع فعلى قسمين: منافع الدنيا؛ وتتمثل في الوجود، والحياة، والعقل، والتربية، والصحة، وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما. وأما منافع الدين فالعلم والطاعة. وأعلى هذه الدرجات النبوَّة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وقد فصَّلها في مواطن عديدة من باقي السور، واكتفى هنا بالرمز إليها[1].

وأما دفع المضار فهو المراد من قوله تعالى:﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ وفي تفسير (النجاة من الكرب) معانٍ؛ منها:

١ـ النجاة من الغرق، فقد أغرق الله تعالى فرعونَ وقومه وأهلكَه، ونجَّى موسى وهارون ومَن معهما من بني إسرائيل، وذلك حين تراءى الجمعان، فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون، فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق، فاجتازه وبنو إسرائيل، ثم مدَّ

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥٥.

البحرُ أمواجَه على فرعون وجندِه حتى هلكوا.

٢ـ نجاتهم من إيذاء فرعون وتعذيبه لهم، فقد كان يستذلُّهم بسلطانه عليهم، ويسترقُّهم باستعباده لهم، فيقتل الآباء، ويذبح الأبناء، ويستحيي النساء، ويُشغِّلهم في أخَسِّ الأشياء والصناعات والمهن.

٣ـ خلاصهم من استعباد القبط لهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

ثم فصَّل أقسام تلك المِنَّة وعدّدها، فهي:

١ـ النصر والغلبة، فكانوا هم الغالبين عليهم في كل الأحوال بظهور الحجة، وفي آخر الأمر بالدولة الرفيعة.

٢ـ أنزل عليهم الكتاب العظيم وهو التوراة، حيث شملت جميع العلوم التي يُحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما وصفها الله تعالى بقوله:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وقد أوتي موسى الكتابَ أصالة، وهارونُ بالتبعيَّة لأخيه موسى.

٣ـ أرشدهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام وشرع الله تعالى الذي بعث به كافة رسله. وقد كانت شريعة التوراة زمن موسى هي الصراطَ المستقيم، وطريقَ الشرعِ والنبوَّةِ الواضحَ الجليَّ المؤديَ إلى الله تعالى. وقد نُسِخَتْ بالقرآن الكريم، فأصبح القرآن صراطاً مستقيماً إلى يوم الدين ناسخاً لجميع الشرائع قبله.

كما لا يمنع من جواز المقصود بالصراط المستقيم أن يُرادَ به أصولُ الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع؛ من دعوة التوحيد، وكليات الشرائع، التي أشار إليها قول الحق سبحانه:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

٤ـ أبقينا عليهما من بعدهما في الأمم المتلاحقة ذِكْراً حسناً، وثناءً جميلاً عطراً دائماً مستمراً

إلى يوم الدين.

٥-﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾، يحتمل العطفَ على ما سبق، على أنه تفسير وتفصيل لما ترك في الآخرين، فهم يسلِّمون، أو أنه كلام مستقل؛ أي سلام من الله والملائكة والإنس والجنِّ أبداً خالداً على موسى وهارون.

ثم يختم القصة ببيان سبب هذه المِنَّة والإنعام، أي: مِثْلُ هذا الجزاءِ نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كلَّ من أحسن عمله، فأطاع الله تعالى، وانقاد إليه.

ثم بيَّن علة الإحسان أنهما من زمرة عباد الله تعالى المؤمنين إيماناً صالحاً كاملاً. فالفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأكمل الفضائل، ولولا ذلك لما حَسُنَ ختْمُ فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تتناول هذه القصة ثلاثَ قضايا ترتبط بمحور السورة؛

أولاها وأهمها: وحدةُ الرسالات، حيث إن الدين عند الله الإسلام، الذي أرسله الله تعالى إلى الأمم جميعاً، يدعو إلى التوحيد والهدى والإيمان به سبحانه، وينهى عن الشرك والضلال والكفر، ويقيم دعوة الحق، ويأمر بالخير والمعروف، وينهى عن الشر والمنكر.

وثانيها: نجاة عباد الله المخلصين من العذاب في الدنيا والآخرة،

وثالثها: إن الإيمان بالله تعالى أصل كل حسن وخير، وهذا ما نلحظه في التعقيب المتكرر لتقرير نوع الجزاء الذي يلقاه المحسنون، وقيمة الإيمان الذي يُكرَم من أجله المؤمنون[2].

---

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ :/ ١٥٥.

(٢) في ظلال القرآن ،سيد قطب٥ :/ ،٢٩٩٧والأساس في التفسير ،سعيد حوى٨ :/ ٤٧٢٧.

دروس وعبر من المقطع التاسع

* بيان إكرام الله تعالى لأنبيائه ورسله عليهم السلام، وأعظمُ هذا الإكرام درجةُ النبوَّة والرسالة.
* بيان فضل الله تعالى على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون، ونصرِهم عليه، وخلاصِهم من الرقِّ الذي لحق بهم، واستعبادِ فرعون لهم.
* الإسلام هو دين الله تعالى القويم الذي لا اعوجاج فيه، جاءت به الرسل جميعاً، وهو الدعوة إلى التوحيد، والإرشاد إلى طريق الحق والصواب. ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].
* التوراة كتاب سماوي نزل على موسى يدعو بني إسرائيل إلى طريق منير، وهو بليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة، إلا أنه نُسِخَ وسائرُ الكتب السماوية الأخرى بالقرآن الكريم.
* قضت حكمة الله تعالى وسنته في خلقه أن يَجزي المخلصين في العبادة، المحسنين في العمل بخلاصهم من الشدائد، وسلامتهم من المِحن، فالجزاءُ من جنس العمل، ولا يظلم ربُّك أحداً.
* في قصة موسى وهارون عبرةٌ حيَّةٌ ومَثَلٌ كامل للنبي ﷺ في رسالته، وإنزالِ القرآن عليه، وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من دياره وهجرته، وتكبُّده المشاقَّ في سبيل الدعوة ونصرةِ هذا الدين، وفي هذا تثبيت وتصديق له في طريق الدعوة، وتأكيد للمنهج الرباني الذي كتبه الله تعالى، وجعلَه سنَّته في خلقه،﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]،﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١]. فالقصص القرآني غايةٌ في الأهمية لأخذ العظة والاعتبار لإنارةِ الدرب، وشقِّ السبيل، وإزاحةِ العقبات، وشحذِ الهمم. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

المقطع العاشر: (قصة إلياس عليه السلام) الآيات: (١٢٣-١٣٢)

قال الله تعالى:﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

قدَّم الحقُّ سبحانه وتعالى الكلامَ عن ثلاثة رسلٍ هم في الأصل أصحابُ شرائع؛ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، ثم أتبعَهم الخبر عن ثلاثة أنبياء، وما لقوه من قومهم، وذلك كله شواهدُ لتسلية الرسول محمد ﷺ، وزواجرُ من الموعظة لكفار قريش. وابتدأ ذِكْرَ هؤلاء الثلاثة بإلياس عليه السلام في بيان جهده في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، ومقاومة الشركِ وعبادةِ الأصنام ثم أتبعَه بلوط ويونس عليهما السلام، وهم سواءٌ في مرتبة الدعوة إلى دين الله تعالى، وفي أنهم لا شرائع مستقلة لهم. وتأكيدُ إرسالهم بحرف التأكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ للاهتمام بالخبر، لأنه قد يُغفَل عنه، إذ لم تكن لهؤلاء الثلاثة شريعة خاصة[1].

التفسير:

اتفق المفسرون على أن إلياس[2] عليه السلام نبي من بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، ومِن سبطِ هارون عليه السلام، لكنهم اختلفوا في اسمه لاختلاف الروايات في تعيينه؛ فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: إسرائيل هو يعقوب، وإلياس هو إدريس. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو عم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٦.

(٢) قرأ جمهور القراء ﴿ إِلْيَاسَ ﴾ بهمزة قطع، وقرأه ابن عامر بهمزة وصل، فحذفها في الوصل مع (إن)، وسببه أنه اسم أعجمي استعملته العرب، فلم تضبط فيه همزة قطع ولا وصل. حاشية الصاوي على الجلالين: ٤/ ٣٤٤.

اليَسَع. وذهب الطبري إلى أنه إلياس بن ياسين. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقال وهب بن منبِّه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: (بعل) معبود الكنعانيين، بسبب مصاهرة بعض ملوك يهوذا للكنعانيين، لذلك قام يخوِّفهم عقابَ الله تعالى، فدعاهم إلى إفراد الله تعالى بالعبودية، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله تعالى عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاء الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله تعالى أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليَسَعُ بن أخطوب عليهما السلام[1].

وذهب ابن عاشور إلى أن إطلاق وصف الرسول على إلياس لأنه أُمِرَ من جانب الله تعالى بتبليغ ملوكِ إسرائيل أن الله تعالى غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام. فإطلاق وصف الرسول عليه مثلُ إطلاقه على وصف رُسُل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة (يس)﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٣][2].

والمقصود بقومه بنو إسرائيل. واختُلِفَ في تحديد البعل إلى ثلاثة أقوال؛ **أقواها**: أنه صنم الكنعانيين، وهو أعظم أصنامهم، ويقال له: بعل بك، وإليه نسبت مدينة (بعلبك) المشهورة في بلاد الشام (وهي اليوم بلدة في لبنان). **والثاني**: أتدعون بعلاً يعني: رباً، وهي لغة أهل اليمن، قاله عكرمة وقتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ينشد ضالة، فقال له آخر: مَن بعل هذه؟ أي: مَن ربها؟ فقال له آخر: أنا بعلها، فقال ابن عباس: الله أكبر، أتدعون بعلاً؟ ومنه سُمِّيَ الرجل بعلاً، قال تعالى على لسان امرأة إبراهيم عليه السلام:﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾[هود: ٧٢]. قال النحاس: القولان صحيحان، أتدعون صنماً عملتموه ربًّا؟. **والثالث**: أنه اسم امرأة كانت

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير: ٤/ ٢١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٦.

أتتهم بضلالة، فكانوا يعبدونها، ذكره ابن إسحاق.

﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ من حيث قيل للإنسان على التجوّز أنه يخلق وجب أن يكون تعالى أحسن الخالقين، إذ خلْقُه اختراعٌ وإيجادٌ من عدم، وخلْقُ الإنسان مجاز. وجِيء هنا بذكر صفة الله تعالى دون اسمه العلَم تعريضاً بتسفيه عقول الذين عبدوا بعلاً، بأنهم تركوا عبادة الربِّ المتصف بأحسن الصفات وأكملِها، وعبدوا صنماً، فكأنه قال: أتدعون صنماً بشعاً جمع عنصري الضعف؛ وهما المخلوقيةُ، وقبحُ الصورة، وتطلبون الخير منه، وتتركون مَن له صفةُ الخالقيَّة، والصفاتُ الحسنى[1]؟

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾فهو سبحانه وتعالى المستحق للعبادة، وحده لا شريك له، وهو الذي صوركم وأنشأكم ويربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم،﴿ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إسحاق ويعقوب وإبراهيم[2].

وكان تكذيبه مِن قِبَل قومه المشركين فيما جاء به من عند الله تعالى، من الأمر بالتوحيد وترك الأصنام، والإيمانِ بما جاءت به الرسل، وهم بسبب هذا التكذيب لمجموعون لعذاب الله تعالى، ومجازون على ما قدَّموا من سوء الأعمال.﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أطلق الإحضار اكتفاءً منه بالقرينة، ولأن الإحضار المطلق مخصوصٌ بالشر عرفاً، أو حيث استعمل في القرآن، لإشعاره بالجبر[3].

---

(١) المحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢/ ٣٩٤ ، وتفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٦٧.

(٢) في الآية﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ قراءتان سبعيَّتان؛ قرأ الجمهور بالرفع في الأسماء الثلاثة على الابتداء، والاستئناف، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على البدل، أو عطف البيان. وعلى القراءتين الوصل أولى من الوقف على﴿ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، لأن ما بعده مترجم عنه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١١٧.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: ٥/ ١٠ ، وتفسير أبي السعود: ٧/ ٥٥٠ ، وروح المعاني، الألوسي: ٢٣ / ١٤١.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾الموحدين من قومه فإنهم نجوا من العذاب.

وتركنا على إلياس الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين، فقد استحق التكريم والجزاء الحسن لأنه من عبادنا المؤمنين.

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ أي: سلام على إلياس وذويه من آل بيته وأنصاره الذين اتَّبعوه وأعانوه، وهم أهل جبل الكرمل الذين استنجدهم إلياس على سدنة (بعل) فأطاعوه وأنجدوه.

وفي تحليل كلمة﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ لغات شتى وأقوال كثيرة وروايات عديدة لأهل اللغة والتفسير والقراءة، لا تخرج عن الإطار العام في تحديد المراد من وقوع السلام على إلياس عليه السلام، وهو اسم أعجمي، والعرب تضطرب في الأسماء الأعجمية، ويكثر تغييرهم لها، لأنها ليست من لغتهم، فهم يتصرفون في النطق بها على ما يناسب أبنية كلامهم[١].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تناول هذا المقطع الحديثَ عن إلياس عليه السلام بما يخدم محور السورة ويرتبط به؛ من حيث كون إلياس من الأنبياء الذين صدَّقهم رسول الله ﷺ، وفي كونه دعا إلى التوحيد، وذلك دعوة جميع الأنبياء والرسل، وفي كونه من المؤمنين، فهو نموذج إيماني يقتدي به المؤمنون في كل زمان ومكان، كما يرتبط استنكارُه عبادةَ البعلِ وترْكَهم أحسنَ الخالقين باستنكار إبراهيم عليه السلام عبادةَ أبيه وقومه الأصنامَ، واستنكارِ كلِّ رسول عبادةَ قومه الوثنيين[٢].

دروس وعبر من المقطع العاشر

* بيان فضل الإحسان، ومجازاة أهله بحسن الجزاء.
* بيان فضل الإيمان، وأنه سبب كل خير وكمال.

(١) فتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤٠٩ ، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي: ١٥ / ١١٨.

(٢) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨، والأساس في التفسير، سعيد حوي: ٨ / ٤٧٢٧.

* في تأخير عذاب قوم إلياس إلى يوم القيامة بيانٌ أن مهمة النبي تقتصر على الدعوة والتبليغ ولا يلزمه أن يشاهد عقابَ المكذبين، ولا أن يأتي قومَه بالعذاب، ولو طالب به المدعوون قال تعالى:﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٣-٩٥]. فقوم إلياس لم يعذبْهم الله تعالى في الدنيا، بل ترك عذابهم إلى يوم القيامة.

* خُصَّ إلياس عليه السلام بالسلام في هذه القصة لأنها ختام القصص المسلَّم فيها على أهلها ولتكريم رسل الله تعالى، فالسلام عليهم من قِبَله، ولبيانِ جزاءِ المحسنين، وقيمةِ إيمانِ المؤمنين، وأنَّ هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، لذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام[1].

* تناقلَ بعضُ المفسرين خبرَ رفع إلياس إلى السماء كالمسيح عليهما السلام، وهذا يحتاج إلى توثيق، والحقُّ إنما هو نقل عما في التوراة ولا نصَّ فيه، إذ الرفع إلى السماء للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام حصراً، بنصِّ القرآن الصريح:﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء ١٥٧-١٥٨].

* احتجَّ المعتزلة بقوله تعالى:﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾على أن العبد خالق لأفعال نفسه فقالوا: لو لم يكن غيرُ الله خالقاً لما جاز وصفُ الله بأنه أحسنُ الخالقين، كما في قول الله تعالى:﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقد فصَّل العلماء في المسألة، وأثبتوا مذهب أهل السنَّة فيها[2].

* أسلوب إلياس عليه السلام في اتِّباع الحكمة في الدعوة، فقد عاب قومه على عبادة غير الله تعالى، ثم

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨ ، ونظم الدرر ،البقاعي: ١٦ / ٢٨٦.

(٢) سبق البحث فيها ،وانظر :عون المريد لشرح جوهرة التوحيد ،تتان وكيلاني: ١ / ٥٧٨.

صرَّح بالتوحيد، ونفي جميع الشركاء عنه، وهذا درس لكل داعية أن يدرك أمراض المدعوين ويستوعبَها، ثم يقدِّم العلاجَ الناجعَ بما يُلائم طبيعتهم، ويحقق هدفَ الدعوة فيهم، فربَّما يفلح في أسلوب مع فئة ولا يجدي ذاتُ الأسلوب مع فئة أخرى، فلكل قوم خاصيَّة وطبيعة ومزاج يختلف عن غيرهم، وهذا يؤكِّد أهميةَ تعرُّفِ الداعيةِ على طبائع المدعوين.

* ذكر المفسرون أن إلياس أُعطِيَ معجزاتٍ جَمَّةً؛ منها: تسخير الجبال، وإعطاؤه قوة سبعين نبياً، وكان على صفة موسى عليهما السلام في الغضب والقوة[1].

المقطع الحادي عشر: (قصة لوط عليه السلام) الآيات: (١٣٣-١٣٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لا يزال السياق العام للقصص القرآني في هذه السورة يتتالى، فهذه قصة لوط هي الخامسة تلي قصة إلياس عليهما السلام في ذكر إنعام الله تعالى على مَن اصطفى من عباده، وكيف أن دعوات الأنبياء جميعاً تلتقي في وحدة الهدف والمنهج، فكلهم دعَوا إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك، إلا أن موقف المدعوين يكاد يتشابه في الردِّ والصدِّ والأذى، فكما أن قوم إلياس كذَّبوه كذلك قوم لوط كذَّبوه، والنتيجة واحدة، وهي عذاب الله تعالى وانتقامه، بيد أنه في قوم إلياس تأخر إلى يوم القيامة، فهم في الآخرة محضرون للعذاب بسبب تكذيبهم، وما قدَّموه من سوء الأعمال، أما قوم لوط فكان العذاب والردُّ في الدنيا، فقد عاجلهم الله تعالى العقوبة، ودمَّرهم عن بَكرة أبيهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطرهم حجارة من سجيل، وفي ذلك عبرة لمشركي العرب ممن يكذِّب دعوة النبي محمد ﷺ.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٥.

التفسير:

اختُلِف في صلة قرابة لوط بإبراهيم عليهما السلام؛ فذهب بعضهم إلى أنه ابن أخيه، وهو الأرجح، وذهب آخرون إلى أنه ابن أخته، وكان قد هاجر معه إلى العراق، ومن المسلَّم به أن قوم لوط كانوا أقرب زمناً لقوم إبراهيم، إذ كان لوط معاصراً لإبراهيم، لذا يغلب ورود قصة لوط عقب قصة إبراهيم في القرآن.

واختُصَّ لوط بإرساله إلى القرى التي كان يسكن إحداها في أرض سدوم، ولم يكن له في قومه نسب، لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود، حيث تربطهما بقبيلتهما رابطة الأخوة والنسب، كما لم تكن له شريعة سوى أنه جاء ينهى الأقوام الذين حلَّت بهم فاحشة اللواط، وكانوا قد تناهَوا في الخبث والمنكر، ولم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم. فاجتهد في نصحهم وتحذيرهم، لكنهم لم يستجيبوا له، بل استمروا في منكرهم، فهدَّدهم بعقاب الله تعالى، فهدَّدوه بالطرد من الأرض، والإخراج من القرية، فأهلكهم الله تعالى، ونجَّاه وابنتيه وأهله.

ويمثِّل إهلاك ودمار المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعَه، حيث قلب قراهم، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأرسل عليهم صيحة، وقذفهم بالحجارة من فوقهم، فأهلكهم بذلك[1] وخسف بهم الأرض، وأصبح مكان الخسف بحراً ميتاً لا حياة فيه، كما جعل محلهم من الأرض بحيرة منتنة اشتهرت بـ: (بحيرة لوط)، وهي قريبة من شرقي الأردن، فغدت قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمرُّ بها المسافرون ليلاً ونهاراً ليتعظوا ويعتبروا بهم كيف دمَّر الله عليهم، ويعلمون أن للكافرين أمثالها[2].

وأُلحِقت زوجته العجوز بالكافرين، إذ كانت كافرة، وهي: إما مستترة بالكفر، وإما معلنة له، وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزاً. ويحتمل لفظ: ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ معنى الماضين والباقين

(١) جامع البيان ،الطبري: ٢٣/ ٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير٤ / ٢٢.

وكلاهما قائم فيها، فهي في الباقين في العذاب، ومن الماضين الذين قد هلكوا[١]. وإنما بقيت في العذاب لرضاها بفعل القوم، وتواطؤها معهم على ضيوف لوط.

ثم يأتي الخطاب لقريش وأهل مكة من العرب، والهدف من القصة عظتهم وتبليغهم واعتبارهم، حيث إنَّ مِن عادتهم المرور والعودة بالليل والنهار في طريق سفرهم، وكانت متاجرهم إلى الشام على مدائن قوم لوط في سدوم، فيمرون على منازلهم في الطريق ويرجعون، فدعاهم القرآن للعبرة والعظة بما يرونه من آثار العذاب ومظاهر الهلاك في سدوم.

ويأتي الاستفهام الإنكاري التوبيخي والتقريعي، أي: أفليس لكم عقول تتدبرون بها؟ وتتفكرون فتعلمون أن مَن سلك من عباد الله في الكفر به، وتكذيب رسله مسلكَ هؤلاء الذين وصف صفتهم من قوم لوط نازلٌ بهم من عقوبة الله تعالى مثلُ الذي نزل بهم على كفرهم بالله تعالى وتكذيب رسله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وتكذيب محمد ﷺ[٢]. أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون؟ ألا تخافون أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم[٣]؟

وإنما لم يختم قصة لوط ويونس من بعدها بالسلام كما ختم به مَن قبلهم، لأن الله تعالى سلَّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام[٤].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

تلتقي مناسبة هذا المقطع مع محور السورة في قضية التوحيد، من حيث أنها تخدم هذا المحور في مجالين؛ أمْر إنجاء عباد الله تعالى المخلصين من العذاب في الدنيا، وأمْر إهلاك المكذبين للرسل، فالرسل الذين بُعِثوا بالتوحيد أيَّدهم الله تعالى بنصره، فقد نجَّاهم ومَن

---

(١) فتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤١٠.

(٢) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ٩٧.

(٣) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩/ ١٢٣، وروح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٤٢، وصفوة التفاسير ،الصابوني: ٣/ ٤٣.

(٤) تفسير النسفي ٤ / ٢٨.

تبعهم من عذاب الدنيا، ثم عذَّب مَن خالفهم في الدنيا قبل الآخرة، ليكون إهلاكُهم عبرةً وعظةً لِمَن بعدهم بل ليبقى هذا الهلاك باقياً إلى قيام الساعة، شاهداً على انتقام الله تعالى منهم، ونصرِه لعباده المؤمنين. وقد سُبِقت هذه القصة بنماذج متكررة، كلها تدعو إلى العبرة والعظة، في الإشارة إلى هذين الأمرين:﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الصافات: ٧٣ـ٧٤].

دروس وعبر من المقطع الحادي عشر

* وجوب النظر والتفكر والتأمل والتدبر في الأحداث الكونية، وقصص الأمم السابقة للاهتداء إلى معرفة سُنن الله تعالى في الكون والحياة، وللعظة والعبرة بما حلَّ بالأمم الماضية.

* الكفر قاطع للسبب القريب، والإيمان واصل للسبب البعيد، والشفاعة لا تنفع إلا إذا أذن الله تعالى بها، ورضي عن المشفوع له، حتى لو كان الشافع أقرب قريب. وهذا لوط لم يشفع لزوجته في النجاة من الهلاك الذي أصاب المفسدين، وذلك لكفرها وفسادها، حيث حجبها طغيانها عن الدخول في حكم أهله، فكانت باقية في العذاب، ماضية فيه.

* ذهب جمهور السلف والخلف إلى أن امرأة النبي لا يمكن أن تخون أبداً، وما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ، والمراد بالخيانة التي أشارت إليها الآية في امرأتي نوح ولوط:﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ إنما هي في الدين، وحاشا أن تكونا على فاحشة. فالكفر قد يقع وهو خيانة، وهي هنا في امرأة لوط، ومثلها في امرأة نوح، حيث لم تؤمنا بالله تعالى فلم تتبعاهما، فكان مصيرهما النار. قال تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠].

* في رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته، وفي تدمير المكذبين الضالين إشارةٌ تنتهي بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط صباح مساء، ولا تستيقظ قلوبهم، ولا

تستمع لحديث الديار الخاوية، ولا تخاف عاقبةً كعاقبتها الحزينة[١].

* هلاك قوم لوط ودمارهم لأنهم كذَّبوه ولم يؤمنوا به، ونجاته وأهله منهم دليل باهر على نبوَّته، وأنه من المرسلين الذين دعَوا إلى التوحيد، والذين بُعِث النبي محمد ﷺ مصدقاً لهم في دعوته. كما أنه بيان يؤكد أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين وإن كانوا قلَّة، والدمار والهلاك والخسران للمكذبين والكافرين مهما كانوا عليه من الكثرة والقوَّة، وتلك سنَّة الله تعالى في خلقه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[غافر: ٥١].

* عاقبة قوم لوط تحذير لقريش ولأهل مكة، ودعوة لهم أن يصدِّقوا رسولهم، فهم أجدر من قوم لوط بالأخذ، لأنه منهم، ويعرفون شرف أصله، وكريم قوله وفعله، ما لا يعرفه أولئك من رسولهم[٢].

* شأن قصة لوط شأن بقية القصص التي سبقت، فيها شَبَهٌ بحال الرسول محمد ﷺ مع قومه، وبحاله الأكمل في دعوته. ففي القصص كلها عبرة وأسوة وتحذير، ويجمعها كلها مقاومة الشرك، ومقاومة أهله[٣].

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥ / ٢٩٩٨.

(٢) نظم الدرر ،البقاعي: ١٦/ ٢٩٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٢٩.

المقطع الثاني عشر: (قصة يونس ﷺ) الآيات: (١٣٩-١٤٨)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تأتي قصة يونس ﷺ بسياقها تبين لنا عاقبة الذين آمنوا بربهم، وصدَّقوا نبيَّهم، وذلك في خاتمة مطاف قصص خلَت، جمعتها وحدة المآل في الحديث عن عاقبة الذين كفروا بربهم وكذَّبوا رسلهم، ليكون أمام المسلمين مثالَين حيَّين لعاقبتين متباينتين، فيختاروا أيّاً شاؤوا فقد سبق البيان لنهايات أمم خالفت أمر ربها، وعصت أنبياءها؛ فمنهم من عاجله العذاب في الدنيا، ومنهم من ينتظره في الآخرة، أما هنا فإن قوم يونس قد متَّعهم الله تعالى بحياتهم وآجالهم بعفوه وغفرانه، حين آمنوا، واستغفروا، وأعلنوا توبتهم. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

التفسير:

يونس بن متى نبي من بني إسرائيل ينسب إلى أمه، ذكره القرآن باسمه، كما وصفه بذي النون وصاحب الحوت. واختُلِفَ في رسالته؛ هل كانت قبل التقام الحوت إياه، أو بعده؟ والراجح أنه أرسل قبل ذلك إلى قومه في نينوى، وبقي مستمراً على الرسالة. وتختلف الروايات في قصة أبقه، وتذهب مذاهب شتى، والحق أن القرآن لم يبين ممَّ أبق، ولو كان فيه فائدة لذكرها، إلا أن مقام الأنبياء في العصمة والتبليغ يستلزم تخيُّر الاستنتاج الأقرب لمنزلتهم والأليق برتبتهم، وهو ما رجَّحه الرازي وغيره من المفسرين؛ من أن يونس ﷺ كان قد وعد

قومه بالعذاب حين لم يؤمنوا، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم، فعُدَّ آبقاً، فكان فعلُه خلافَ الأَولى، على مبدأ: حسنات الأبرار سيئات المقربين، لكنهم لما رأوا مخايل العذاب تابوا، فتاب الله تعالى عليهم، وصرف عنهم العذاب، فلحقت بيونس غضبة من قومه، وخافهم أن يقتلوه إذ لم تقم له بيِّنة، فهرب إلى السفينة، وعُبِّر عن ذهابه بالإباق من حيث هو عبد لله، فرَّ من غير إذن مولاه، وسُمِّي إباقاً مجازاً[(١)].

ثم إن السفينة لم تجْرِ، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب فاقترعوا، فوقعت عليه ثلاثاً، فرموه في البحر فالتقمه الحوت، وأوحى الله تعالى إليه أن خذه ولا تخدش لحماً، ولا تكسر عظماً.

ثم إن الله تعالى استنقذه من بطن الحوت بعد مدة اختُلِفَ فيها، ولا مرجح لرواية، سوى أنَّ أمْر المكوث في ذاته معجزةٌ لهذا النبي طالت مدته أم قصُرت، حين كتبت له السلامة والنجاة والحفظ في هذا الالتقام. لكن مما يؤكد طول المدة أنه خرج منه سقيماً. وجعل علَّة استنقاذه تسبيحَه، وعليه فإن ركوبه السفينة كان باجتهاد منه، وليس بمعصية لربه، لظنِّه إن بقي معهم قتلوه، كما أن مؤاخذتَه بحبسه في بطن الحوت على مخالفة الأَولى، فإن الأَولى له انتظار الإذن من الله تعالى.

ويرغَب الألوسي عن معنى النبذ الذي فسَّره الراغب في مفرداته بمعنى: الإلقاء والطرح لقلة الاعتداد به، معللاً أن الله تعالى رحيم بأنبيائه، وله سبحانه في كل شيء اعتداد بهم عظيم فيبقى المعنى على عمومه من الطرح والرمي أماماً أو وراءً[(٢)].

واختلفوا في التسبيح إلى معانٍ؛ سبحان الله، أو صلاة التطوع، أو الصلاة وقت الرخاء لكن يجمعها معاً الدعاء الذي صرَّحت الآية به، وهو الذي أخبر به النبي ﷺ بقوله: (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت:﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب ،الرازي٧ / ١٥٨، والكشاف ،الزمخشري: ٤ / ٦٣، وفتح القدير ،الشوكاني٤ :/ ٤١١.

(٢) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٤٥.

فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له)[١].

وقد أوحى الله تعالى إلى الحوت أن يلقيه في البر، ولولا ذلك لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. فألقاه في مكان خالٍ ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء، وكان عليلَ الجسم ضعيفَ البدن، كهيئة الصبي حين يولد، أو الفرخ الذي ليس له ريش، يؤذيه أي شيء يمرُّ عليه. لكن عناية الله تعالى أنقذته بشجرة اليقطين (القرع، أو الدباء)؛ فهو أسرع الأشجار امتداداً ونباتاً وارتفاعاً، تتمثَّل فيه خصال مميَّزة؛ من برد الظلِّ، ونعومة الملمس، وعِظَم الورق، وأن الذباب لا يقربُه، كما أنه يتميَّز بجودةِ تغذيةِ ثمرِه؛ فيؤكل نيئاً ومطبوخاً، بلبِّه وقشره. وقد كان رسول الله ﷺ يحبُّه ويتتبَّعه من حواشي الصحفة[٢]، وحين سئل: إنك تحبُّ القرع؟ قال: (أجل، هي شجرة أخي يونس). كما كان في ظِلٍّ ساقه معجزة له على خلاف العادة في القرع، كما كانت تأتيه وَعْلَةٌ صباح مساء يشرب من لبنها حتى قوي[٣].

ثم لما استكمل عافيته، ردَّه الله تعالى إلى قومه الذين تركهم مغاضباً، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب، فآمنوا واستغفروا، وطلبوا العفو من الله تعالى، فسمع لهم، ولم ينزل بهم العذاب، وكانوا مائة ألف أو يزيدون، وظاهر التخيير يفيد الشك، وهو محال على الله تعالى وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم، وأقرب الوجوه: أو يزيدون في تقديركم، أي: في مرأى الناظر بمعنى: أنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة. كما يكون: (أو) بمعنى: (بل). وعن أبيٍّ بن كعب ﷺ قال: (سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ

---

(١) سنن الترمذي ،كتاب الدعوات ،باب ما جاء في عقد التسبيح باليد ،رقم الحديث: ٣٤٢٧ .

(٢) عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: (إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ فرأيته يتتبَّع الدباء من حوالي القصعة، قال: فلم أزل أحبُّ الدباء من يومئذ). صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب مَن تتبع حوالي القصعة، رقم الحديث: ٤٩٦٠.

(٣) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٢٤، وتفسير النسفي: ٤ / ٢٩، وحاشية الصاوي على الجلالين: ٣/ ٣٤٧.

أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾، قال: عشرون ألفاً)[١].

قال أبو حيان: وإذا صحَّ بطل ما سواه[٢].

وقد دعاهم إلى ربه ثانية بعدما شاهدوا أمارات نبوته، وعلامات العذاب، فكشف الله تعالى عنهم العذاب الذي أظلَّهم، ومتَّعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

ولأنه حَدَثٌ لم يُعهَد مثيلُه من الرسل، ولأجله يقول النبي ﷺ: (ما ينبغي لأحد أن يكون خيراً من ابن متَّى)[٣]، وهنا يحتمل أن يكون المرادُ العبدَ القائل، أو أنه يريد رسولُ الله ﷺ نفسَه. وفي رواية أخرى: (ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى)، كما قال ﷺ أيضاً: (مَن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)[٤].

والمعنى: نفيُ الأخيريَّة في وصف النبوَّة، أي: لا يظننَّ أحدٌ أن فعلة يونس تسلب عنه النبوة[٥].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

سرد الحدث في قصة يونس عليه السلام يخدم محور السورة، مِن حيث أن يونس نبي مرسل، وقد بُعِث النبي محمد ﷺ لتصديقه في الدعوة إلى التوحيد، كما أن فيها درساً من دروس التوحيد

(١) قال أبو عيسى :هذا حديث غريب .سنن الترمذي ،كتاب تفسير القرآن ،باب ومن سورة الصافات، رقم الحديث.٣١٥٣ :

(٢) مفاتيح الغيب ،الرازي: ٧/ ١٦٠ وفي ظلال القرآن ،سيد قطب: ٥/ ٢٩٩٩، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩/ ١٢٥.

(٣) صحيح البخاري ،كتاب تفسير القرآن ،باب قوله :﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾، رقم الحديث: ٤٤٣٠.

(٤) صحيح البخاري ،كتاب تفسير القرآن ،باب قوله :﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ ﴾، رقم الحديث: ٤٢٣٧، وفتح الباري، العسقلاني: ٨/ ١١٦، ٤٠٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير:٢٢/ ٤ ، وتفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور ٢٣/ ١٧٨.

الخالص، في أن الإيمان وحده هو سبيل النجاة من عذاب الله تعالى، فلا ينجو أحد من محاسبة الله تعالى، إلا أن الله سبحانه يكتب لرسله النصر والتأييد، فيونس ﷺ لم يصبر على أذى قومه، وأبق إلى الفلك، فوقع في تلك الشدائد، مما يجسِّد العزيمة والإصرار للسير في طريق الدعوة بجدِّيَة وثبات، والتشبث بثوابت المنهج بمصداقية وإخلاص، لتتحول المبادئ والقيم إلى نتائج وحقائق ملموسة، ولتترجم الأفكار والأقوال إلى حقائق وأفعال، تتمثَّل في صبر النبي ﷺ على أذى قومه، والثقة التامة بمطلق موعود الله سبحانه وتعالى في نصره وتأييده. قال تعالى:﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. كما أن فيها تسليةً للنبي ﷺ فيما يلقاه من ثِقَل الرسالة، وأثراً من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه يونس. قال تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨ـ٥٠].

دروس وعبر من المقطع الثاني عشر

* في الآيات حثٌّ على إكثارِ المؤمن من ذكر الله تعالى بما هو أهله، وإقبالهِ على عبادته، وجمعِ همِّه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة، لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايقِ والشدائد. وفيها تعظيمٌ لشأن الالتجاء إليه، في إشارة إلى حديث: (تعرَّفْ إليه في الرخاء يعرفْك في الشدة)[1]. فمَن أقبل على الله تعالى في السرَّاء أخذ بيده في الضرَّاء.

* في مقارنة قوم يونس بفرعون نجد أن قوم يونس آمنوا لما عاينوا العذاب، لذا نفعَهم

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام، أو يا غُلَيم! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفَّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً). حديث صحيح. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٨٠٣.

إيمانهم، أما فرعون فلم يؤمن إلا بعد حصول العذاب بالفعل، فلم ينفعْه إيمانه، كذلك قوم يونس أخلصوا في الإيمان، وفرعون لم يخلص، إنما كان عند الغرغرة لدفع الشدة، ولو رُدُّوا لعَادوا. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩٠ـ٩١][(١)].

* القرعة طريق من طرق القضاء عند التباس الحق، أو استواء عدد في استحقاق شيء، وهي اقناع لفصل التنازع، ويصار إليها عند التساوي في الحق وفقدان المرجِّح، وإنما جُعِلَتْ تطييباً لأنفس المتخاصمين، ورفعاً للإشكال، وقد كانت في شرعِ مَن قبلنا، فجاء الشرع وعمَّمها في كل مشكل تستوي فيه الحقوق، ويعسرُ التعيين، دفعاً للضغائن، وحسماً لداء التشهِّي؛ فتشرع بين الزوجات في السفر، والقسمة، والعتق، وبين الخلفاء وغيرهم إذا استوت فيهم الأهلية للولاية، والحاضنات، وسائر ما يشاكله. ولا تجوز على إلقاء الآدمي في البحر، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته[(٢)].

* عدمُ ختم قصة يونس ومِن قَبْلِه قصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص من السلام تفرقةً بينهما وبين أرباب الشرائع الكبرى، وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاءً بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين آخر السورة[(٣)].

* في قصة يونس عليه السلام درس ربانيٌّ في التربية، محفوفٌ بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً، بدون إذن صريح من الله تعالى له، يحدِّد له فيه وقت الخروج وإن كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكن مثل هذا الاجتهاد إنْ قُبِلَ من الصالحين العاديين فإنه لا يُقبَل من المرسلين المقربين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللومَ

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ٣ / ٣٤٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٧٥، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي: ١٥/ ١٢٦.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،البيضاوي: ٥ / ١١، وتفسير أبي السعود: ٧ / ٥٥٢.

والتأديب الرباني[١].

* سبب نجاة يونس أنه كان من المسبِّحين الذاكرين، كما أنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي جعله الله تعالى مقرّاً لحمايته، فحين ناداه في أعماق ظلمات ثلاث؛ ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت مسبِّحاً تائباً، جاءته الإجابة بقبول التوبة والنجاة، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ـ٨٨]، وهذا يؤكد أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، قال الحسن البصري: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكَّره الله تعالى به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأً. وإليه يشير الحديث الذي رواه الضياء عن الزبير بن العوام ﷺ موقوفاً: (من استطاع منكم أن يكون له خِبءٌ من عمل صالح فليفعل)[٢]. فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفقره، ويسترها عن خلقه ليصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه[٣].

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ،حبنكة ص: ٤٩٢.
(٢) حديث صحيح ،أخرجه السيوطي في الجامع الصغير رقم الحديث:٨٤٠٥ . والخبء :الشيء المخبوء أو المدَّخر .فيض القدير شرح الجامع الصغير ،المناوي: ٦ / ٥٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥/ ١٢٦، والتفسير المنير ،الزحيلي: ٢٣ / ١٤٣.

المقطع الثالث عشر: (مناقشة عقائد المشركين) الآيات: (١٤٩-١٧٠)

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

سبب النزول:

١- قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٨]:

أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش: سُلَيم وخزاعة وجُهينة:﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾.

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشاً وأجناس العرب: جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله.

وعن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سَرَاةِ الجن، فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾[1].

٢- قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٦٥]:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير:٤ / ٢٤، والمحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢ / ٤٠٦، وزاد المسير ،ابن الجوزي: ٦ / ٣٢٥، ومعالم التنزيل ،البغوي: ٤/ ٤٩.

أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلُّون متبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾، فأمرهم النبي ﷺ أن يصفُّوا[1].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

تعتبر قصة لوط عليه السلام خاتمةَ قصص الأنبياء عليهم السلام في السورة، والتي كانت في مجملها توطئةً لمناقشة المشركين في افتراءاتهم الباطلة. فلما انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة، فكان في استفتاح الخطاب لهم خير مثال لقريش، أنهم إن آمَنوا كما آمن قومُ يونس أَمِنوا من عذاب الله تعالى، كما جرى لهؤلاء. ومن هنا حسُن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾.

مناسبة الاستفتاء هنا لسابقه في بداية السورة:

يأتي طلب الاستفتاء هنا في مناقشة عقائد المشركين وتفنيدها وتقبيحها؛ مِن زعمهم أن لله تعالى ولداً، ووصفهم الملائكة بالأنوثة، ونسْبتها إليه سبحانه، وغيره من الشركيّات، مما هو مخِلٌّ بقضية التوحيد الكبرى، يشابه تماماً طلب الاستفتاء الذي تقدَّم بداية السورة من إبراز حقيقة الإيمان بالله تعالى، وتحديد الصلة بين الله سبحانه وعباده، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة.

كما أن في استفتاح المقطع هنا بالاستفتاء في طلب الرد على مثبتي الولد، يناسب الردَّ على منكري البعث في الاستفتاء الأول بداية السورة؛ من حيث اتحاد الجملتين في: السائل والمسؤول، والأمر[2].

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٣ :/ ١٤٧.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٢ :/ ٤٠٥، وروح المعاني، الألوسي ٢٣ :/ ١٤٩، وصفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٥.

التفسير:

تناولت الآيات الكريمة أسطورتين وادِّعائين للمشركين على غاية من الخطورة والقبح تتعارضان مع تنزيه ذات الله تعالى وتعظيمه وتمجيده؛

أما الأسطورة الأولى: فهي ادِّعاء أن لله تعالى البنات، ولهم البنون. ويتكرر طلب الاستفتاء هنا على جهة التوبيخ والتقريع، والإنكار والتأنيب لهؤلاء المشركين على بهتانهم هذا، وافترائهم على الله تعالى، وقسمتهم الجائرة، وتسفيه عقولهم في جعْلِهم لأنفسهم البنينَ وهو النوع الجيد الذي يستحبُّونه، وجعْلِهم لله تعالى البناتِ التي يكرهونها، ويستنكرون ذكرها، ويئدونها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]. ويحاورهم في صحة هذا الادِّعاء، وأنَّى لهم أن يحكموا على الملائكة بالأنوثة، وهو مما لا يثبت إلا بالدليل العقلي القائم على الحسِّ والمشاهدة، أو النقلي المستند إلى النص الثابت القاطع وكلاهما مستحيل الثبوت، فلما افتقروا إلى إثبات ادِّعائهم بالمنطق والبرهان قامت عليهم الحجة، وثبت في ادِّعائهم هذا وقوعهم في الكفر من زوايا ثلاث؛

الأولى: حين أثبتوا التجسيم لله تعالى، فالولادة مختصة بالأجسام، وهي من أحوالها.

والثانية: حين آثروا أنفسهم بالأفضل، وجعلوا لله تعالى الأقل. فقد استحوذوا أرفع الجنسين لهم، ونسبوا دونَه لله تعالى.

والثالثة: حين وصفوا الملائكة المقربين بالأنوثة، وقد كانوا يتعيرون بأبي الإناث. فاستهانوا بمَن هو مكرَّم عند الله تعالى، حين أنَّثوهم.

لذا كرر الله تعالى هذا النوع من كفرهم في كتابه غير مرة، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[النجم: ٢٧]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ

وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾[النجم: ٢١-٢٢].

ويتكرر الإنكار على حكمهم الجائر هنا حين يسألهم المبرر لاختصاص الله تعالى بالبنات وتفضيلهم بالبنين، وهذا يستدعي إعمالَ العقول ومحاورتَها في تدبر ما يفترونه، والنظر والتفكر فيما يدَّعونه، ثم يسائلهم إن كان لديهم حجة واضحة وبرهان ساطع، يستند إلى وحي السماء فليذكروه، وليأتوا به.

ونخلص إلى أن تعدد هذه الأسئلة إنما يحمل معنى التوبيخ والتقريع، والتبكيت والإنكار تسفيهاً لآرائهم، واستخفافاً بأحكامهم، حين لا تستند إلى مصداقية عقل، ولا منهجية فكر ولا حجية دليل، فضلاً عن أنها تتسم بالإفك الشديد، والبهتان العظيم، والافتراء الشنيع.

أما **الأسطورة الثانية**: فهي ادِّعاء صلة النسب بين الله تعالى وبين الجِنَّة، وهو افتراء نادت به فرقة من زنادقة قريش حين قالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله إله الخير، وإبليس إله الشر فادَّعَوا أن الله نكح سروات الجن، ـ أي أشرافهم ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

واستحسن القرطبي قول الحسن: أنهم أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه[1].

وفي تعيين الجِنَّة قولان: الملائكة أو الجن، وإنما سُمِّيت الملائكة بالجِنَّة لاجتنابهم واستتارهم عن الأبصار، وهو ما يرجحه الرازي، لأنه أبطلَ قولَهم: الملائكةُ بناتُ الله، ثم عطف عليه فوجب أن يكون مغايراً[2]. وعلى أيٍّ من القولين؛ فالشياطين تعلم ضدَّ ذلك، وأنها ستحضر أمر الله تعالى وثوابه وعقابه، كما أن الملائكة تعلم أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله تعالى وعقابه.

ثم نزَّه الله تعالى نفسه عما يصفه الظالمون الملحدون مما لا يليق به، لكن عباد الله المخلصين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥ :/ ١٣٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٧ :/ ١٦١.

المتَّبعين للحق المنزل على الرسل ناجون، فلا يحضرون إلى العذاب، ولا يُساقون إليه، والاستثناء هنا منقطع.

ثم تحدَّى الله تعالى المشركين، وأثبت مدى عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته، فقال لهم: إنكم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله تعالى لا تقدرون على فتنة أحد عن دينه أو إضلاله، إلا من هو أضلُّ مكنم ممن هو داخل في أهل الجحيم، ممن سبق في علم الله تعالى، وهم المصرُّون على الكفر.

قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون على أن المعنى: ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدَّر الله عزَّ وجلَّ عليه أن يَضِلّ[1].

ثم يأتي ردُّ الملائكة على هذه الأسطورة بإقرارهم أن لكلٍ منا مقامَه لا يتعدَّاه، وهو ما يُشار إليه من بيان درجتهم في الطاعة، ورتبتهم في العبودية لله تعالى، يبيِّنه حديث أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء، وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابعَ إلا عليه ملَك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذَّذتم بالنساء على الفرُشات، ولخرجتم على أو إلى الصعدات تجأرون إلى الله، قال: فقال أبو ذر ﷺ: والله لوددت أني شجرة تعضد)[2].

كما أنهم عباد لهم وظائف؛ فهم يصفُّون للصلاة، ويعظِّمون ربهم ويسبِّحونه، وينزِّهونه عن اتخاذ الولد، أو أن يكون له صهر، أو زوجة.

يؤيد هذا المعنى ما روي في حديث الإسراء من استقبال الملائكة للنبي ﷺ وجبريل في استئذان دخول السماوات، وفي تأخر جبريل عند سدرة المنتهى، حيث لا يستطيع التقدم عن

(١) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٢٦، وفتح القدير ،الشوكاني: ٤ / ٤١٤.

(٢) حسن لغيره .الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد :رقم الحديث: ٢١٥١٦.

مكانه، حيث لكلٍ مقام معلوم[١].

ويحتمل أن يكون هذا قولَ المسلمين الذين يصفُّون للعبادة، واقفين إليه صفوفاً بالصلاة وإنما وصف وقوفهم بالصلاة تشبهاً بنظام الملائكة. يؤيد ذلك حديث حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعِلَت لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعِلَت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء)[٢]، وحديث جابر بن سمرة ﷺ قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد، فقال: ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصّون في الصف)[٣]. قال أبو نضرة: كان عمر ﷺ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، إنما يريد الله تعالى بكم هَدْيَ الملائكة عند ربها، ثم يقرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ تأخَّرْ يا فلان، تقدَّمْ يا فلان، ثم يتقدَّم فيكبر[٤].

قال الزهراوي: إن المسلمين إنما اصطفُّوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطفُّ أحد من أهل الملل غير المسلمين[٥].

ثم تختم آيات المقطع بذكر مقالة بعض المشركين قبل البعثة النبوية، حينما يُعَيَّرون بجهلهم فكانوا يتمنَّون وجود كتاب مقروء بينهم، يذكِّر الناس بما يجب عليهم؛ كالتوراة والإنجيل كي يُخلصوا فيه العبادة، ويؤمنوا، لكنهم لم يوفوا بتمنِّيهم إذ تحقَّق، فقد كفروا بنبيِّهم المرسل وبكتابه المنزل، وسوف يرون عاقبة كفرهم، حين تمنَّوا أمراً، فلما جاءهم كفروا بربهم، وكذَّبوا

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/ ١٩١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٣٨.
(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث: ٥٢٢.
(٣) صحيح مسلم: كتاب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد، رقم الحديث: ٤٣٠.
(٤) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير٤ :/ ٢٥.
(٥) المحرر الوجيز ،ابن عطية١٢ :/ ٤٠٩، والبحر المحيط ،أبو حيان٩ :/ ١٣٠، وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،ابن جزي٣ :/ ٣٨٦.

رسوله، واستهواهم الحسد. وهذا وعيد أكيد، وتهديد شديد.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يخدم هذا المقطع محورَ السورة من حيث أنه يناقش المشركين في قضايا التوحيد الكبرى والتى تنال أصول العقيدة والدين، فيقرر بعد الحوار والمناقشة تنزيهَ الله تعالى عن كلٍّ ما لا يليق بذاته سبحانه من ألوان الشرك والكفر؛ كنسبة الولد إليه، ووصف الملائكة بناته، مطالباً إياهم بالدليل العقلي والمنهجي المطلوب في قضايا العقيدة، وذلك بالنظر والتفكير، وإعمال العقل لا إهماله، ولمَّا استحال وقوع ذلك عرفاً وعقلاً وشرعاً، ثبت يقيناً تنزيهُ ذاتِ الحقِّ سبحانه عن كل نقيصة وحاجة، واستحق التسبيح والثناء، والعبادة والولاء، وهو مقتضى محور السورة العام الداعي إلى التوحيد والإيمان.

دروس وعبر من المقطع الثالث عشر

* الحق والباطل ضدَّان أزليان، وصراعهما باقٍ أبد الدهر، والباطل مهما تعالى فهو لا ريب زاهق، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١]، إلا أن إبطاله لا يكون بالتشهي ولا التمني، إنما بالدليل الواضح، والآية البيِّنة، لذا كانت مشروعية دحض الباطل بأقوى الحجج، وأصحِّ البراهين.

* تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق بذاته العلية من صفات النقص والعجز مما يتصف به المخلوقون، وإبطال كل فرية نادى بها المشركون من حاجتِه للولد والزوجة، أو فكرةِ أن الملائكة بنات الله، ووجودِ نسب بين الله تعالى والجن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

* لا يُقَرُّ الكفَّار على حمل أحدٍ على الضلال، إلا إذا سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار لإصراره على الكفر، وعدم استعداده للإيمان، وفي ذلك تقرير لعقيدة القضاء والقدر في أن مَن كتب الله تعالى عليه النار فسوف يصلاها. وفيه أيضاً ردٌّ على القدَرية القائلين بالجبر في حكم الله تعالى وقدَره. قال الرازي: وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء

الشيطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره، لأن قوله تعالى:﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾تصريح بأنه لا تأثير لقولهم، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى:﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله تعالى وتقديره، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى[(١)].

* تسوية صفِّ الصلاة شعار يميِّز المسلمين في الالتزام والخضوع والانتظام والخشوع، وهو حين يتمثل في ضبط اصطفافهم في الصلاة فإنه رمز وعنوان لتعميم هذا المظهر المنضبط في سائر أحوال المسلمين الاجتماعية، وفي ذلك ردٌّ على كل دعوى يثيرها المشككون حول هذا الدين، مما يبديه بعض أتباعه من مظاهر الفوضى والاضطراب في الأحوال العامة للمجتمع، جهلاً وسفهاً. فالإسلام دين الضبط والنظام، والاستقامة والالتزام. عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: (سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)[(٢)].

* تقرير طبيعة الملائكة، وأنهم عباد لله تعالى خلقوا من نور، ودأبهم الطاعة والتسبيح، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون مايؤمرون، وقد اختصت الآيات بذكر ثلاث صفات رئيسة لهم؛ فلكل منهم رتبة ودرجة لا يتجاوز حدَّه فيها، كما أنهم يصفُّون للعبادة والطاعة والخدمة وأداء ما كلفوا من وظائف، فهم يؤدونها في حدود رتبهم دونما تقصير أو تجاوز، كما أنهم في تسبيح وتعظيم وتمجيد وتنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات النقص. وفي هذا دلالة على أن الإنسان مطالب بالتمثل بأخلاق الملائكة في الطاعة والخدمة والتسبيح لله تعالى، وأنه مهما تقدَّم في الرتبة فلن يبلغ درجة الملائكة الذين جبلوا على العصمة، لكن الإنسان في جهاده وصبره يستطيع أن يحقق درجات مميزة في العبودية، وهو الذي رُكِّبَت فيه نوازع الخير والشر.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٦٢.

(٢) صحيح البخاري ،كتاب الأذان ،باب إقامة الصف من تمام الصلاة ،رقم الحديث: ٦٨١.

* يلحظ المتتبع للآيات الكريمة الدعوةَ المتكررة للمسلم في أهمية دور العقل، وإعماله في الملاحظة والحوار الحرّ، والمقارنة واستنتاج الحقائق، وعدم تهميشه بقبول نظريات خرافية أو أفكار ضالة منحرفة، تنزل بمستوى معتنقيها إلى حضيض البهيمية، كما في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

المقطع الرابع عشر: (نصر جند الله تعالى) الآيات: (١٧١-١٨٢)

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

سبب النزول:

قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[الصافات: ١٧٦]:

أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا محمد! أرنا العذاب الذي تخوِّفنا به، عجِّلْه لنا، فنزلت: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾، وهو صحيح على شرط الشيخين[1].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

التهديد الخفيُّ في نهاية المقطع السابق عند قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هو اللائق بالكفر بعد التمني والوعود، وبمناسبة هذا التهديد يقرر الله تعالى وعده لرسله بالنصر والغلبة، والوعد واقع، والكلمة قائمة.. فقد ذهبت عقائد المشركين وسطوتهم ودولتهم، وبقيت عقائد الرسل

(١) التفسير المنير ،الزحيلي٢٣ / ١٥٦.

تسيطر على قلوب الناس.. والوعد سُنَّةٌ كونية ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان.. ولكنها مرهونة بتقدير الله تعالى، يحقِّقها متى يشاء[١]. ويختم المقطع هذه السورة بتسجيل وعد الله سبحانه لرسله أنهم هم الغالبون، وبتنزيهه تعالى عما يصفون، والتوجُّه بالحمد لله ربِّ العالمين.

التفسير:

لما هدَّد الله سبحانه المشركين بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، أردفه بما يقوِّي قلب رسوله ﷺ بوعده بالنصر والتمكين، فجاءت الآيات تحمل المؤانسة والبشرى لنبيِّه ﷺ وأوليائه بأنَّ وعْدَنا وقضاءنا وحكمنا في الأزل قد سبق ومضى في أم الكتاب بنصرِ رسلنا على من ناوأهم، وجحدَ رسالتهم، وظفرِهم بإرادتهم، والمراد بالنصر والغلبة علوُّهم على عدوِّهم؛ سواء كان ذلك في الدنيا بالغلَبة وظهور الحجة والبرهان في مقام الحجاج، والقهر وهزيمة الأعداء بالرمح والسنان في ملاحم القتال، أو في الآخرة بالسعادة والعلوِّ والفوز والنجاح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢]. وجندُ الله تعالى في السماء هم الملائكة، وفي الأرض الغزاة.

ومضمون الكلمة هو تحقيق موعود الله تعالى:﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[المجادلة: ٢١]، وسُمِّيت كلمة وهي كلمات، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، وشبَّهها بالكلمة في سرعة الدلالة، وإيجاز اللفظ[٢].

وفي نعْتِ الرسلِ بالنصرة، والجندِ بالغلبة جرْيٌ للكلام مجرى الغالب، في أكثر الأحوال، وباعتبار العاقبة المحمودة لهم على كل حال، لقوله تعالى﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣]، ولا ينافي ذلك أنهم يُغلَبون نادراً، ابتلاءً ومحنة، أو بسبب تقصير منهم. قال الحسن: المراد

---

(١) في ظلال القرآن ،سيد قطب٥ / ٣٠٠١.

(٢) تفسير النسفي: ٤ / ٣١، والتحرير والتنوير ،ابن عاشور: ٢٣ / ١٩٥.

النصرة والغلبة في الحرب، فإنه لم يقتل من أصحاب الشرائع أحد قطُّ في الحرب، وإنما قُتِل مَن قُتِل منهم غيلة، أو في غير الحرب[(١)].

ويكفي في نصرتهم إعلاءُ كلمتهم، وتعجيز الخلق عن معارضتهم، وحفظهم من القتل في الحروب، ومن الفرار منها، ولا ريب أن نصر أهل الحق يقابله هزيمة أهل الكفر والعصيان والضلال.. وقد تكون الغلبة بقوة الحجة والدولة والاستيلاء بالدوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوباً أحياناً بسبب ضعف الدنيا فهو الغالب[(٢)].

وجاء الأمر بالتولِّي عنهم تحقيقاً لتأنيسه ﷺ وتسلية له، وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بما يقولون، وترك النكد عن إعراضهم.

واختُلِف في تعيين لفظ:﴿ حِينٍ ﴾ إلى أقوال: حتى تنقضي مدة إمهالهم، أو حتى مجيء عذابنا ونزوله بهم، أو حتى نأمرك بقتالهم، على اعتبار الآية هنا محكمة، أو حتى موتهم، أو حتى يوم القيامة، أو أمْرٌ بالموادعة أو المهادنة إلى حد معلوم، وهو يوم بدر، أو فتح مكة، على اعتبار الآية منسوخة بآية السيف والقتال[(٣)].

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾تأمل أحوالهم، فهو وعد للنبي ﷺ، كناية عن تحقق وقرب وقوعه، ووعيد للكافرين بما سيحلُّ بهم يوم بدر.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾قرر الله تعالى نبيَّه على جهة التوبيخ لهم على استعمال عذاب الله تعالى، وهو استفهام إنكاري للتهديد، وقد مثَّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنذِروه فأَنكروه بجيش أنذر بهجومه قومَه بعضُ نُصَّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبَّروا أمرهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم،

---

(١) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٥٦.

(٢) روح المعاني ،الألوسي: ٢٣ / ١٥٦، ومفاتيح الغيب ،الرازي: ٧ / ١٦٤.

(٣) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ١١٥، ومفاتيح الغيب ،الرازي: ٧ / ١٦٤، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ / ٢٩، وزاد المسير ،ابن الجوزي: ٦ / ٣٢٦.

وكانت عادة مغازيهم أن يغيروا صباحاً، فسُمِّيت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر. وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الروعة التي تحسُّ بها، ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. ومنه الحديث: (محمد والخميس)[(١)][(٢)].

والساحة: الفناء، والعرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، كما تعبِّر بالنزول بالساحة فيما يرِدُ على الإنسان من خير أو شر، وسوء الصباح يستعمل في ورود الغارات والرزايا[(٣)].

ومقصدُ تكرار الأمر بالتولِّي والإبصار المبالغةُ في التأكيد والتهديد والتهويل، ووقوع الميعاد بعذاب يحلُّ عليهم، بعد أن أُنذِروا فلم ينفعهم الإنذار. ومن المفسرين مَن ذهب إلى أن الأمر بالتولِّي في الآية الأولى ذِكْرٌ لأحوالهم في الدنيا، وفي الثانية ذِكْرُه في الآخرة، فلا تكرار[(٤)].

ولَمَّا اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله تعالى، ونسبوا إليه مما هو منزَّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوَّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، جاءت الخاتمة بجوامع ذلك؛ من تنزيهِ ذاته تعالى عما وصفه به المشركون، والتسليمِ على المرسلين، والحمدِ لله ربِّ العالمين على ما سبق ذكره من نعمه على المسلمين من هدي ونصر وفوز بالنعيم المقيم، وما قيَّض لهم من حُسْن العواقب[(٥)].

---

(١) عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمسَّاحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس، رقم الحديث: ٢٧٢٦.

(٢) الكشاف ،الزمخشري: ٤/ ٧٠، والجامع لأحكام القرآن ،القرطبي:١٥ / ١٤٠، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١.

(٣) المحرر الوجيز ،ابن عطية: ١٢ / ٤١٠، والبحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١، ومعاني القرآن ،الفراء: ٢/ ٣٤٦.

(٤) البحر المحيط ،أبو حيان: ٩ / ١٣١، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ :/ ٢٩.

(٥) الكشاف ،الزمخشري: ٤/ ٧١، وتفسير النسفي: ٤/ ٣٢.

ومعنى ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ تنزيهه عن كل سوء، والعزَّة تكون صفةَ ذات، نحو قوله تعالى:﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، وتكون صفةَ فعل، نحو قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ ربُّ الغلبة والقدرة التي يتعازُّ الخلق فيما بينهم، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ، وفيه إشارة إلى كمال القدرة، وأنه القادر على جميع الحوادث. وفسَّرها بعضهم هنا بالملائكة(١).

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ ومعنى السلام على المرسلين؛ إما تحيتهم، أو سلامتهم من أعدائهم، فيكون تكميلاً لقوله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾(٢).

قال الطبري: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ أي: وأَمَنَةٌ من الله تعالى للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السورة، وغيرهم من فزع يوم العذاب الأكبر، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قبل الله تبارك وتعالى. وفي الحديث: (إذا سلَّمتم على المرسلين فسلِّموا عليَّ، فإنما أنا بشرٌ من المرسلين)(٣).

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ربّ الثقلين الجن والإنس خالصاً دون سواه، لأن كل نعمة لعباده فمنه، فالحمد له سبحانه، خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه(٤).

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته، أو حين ينصرف منها:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي:١٥ / ١٤١، ولباب التأويل في معاني التنزيل ،الخازن: ٤ / ٢٩.
(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،ابن جزي: ٣/ ٣٨٨.
(٣) أخرجه ابن سعد وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة مرفوعا ،وعن أنس ﷺ قال رسول الله ﷺ: (إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين)، وفي رواية: (فإنما أنا أحدهم). المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٢/ ٤١١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤٢، وفتح القدير، الشوكاني: ٤/ ٤١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: / ٤٧٤٧.
(٤) جامع البيان ،الطبري: ٢٣ / ١١٦.

﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[1].

وعن علي ﷺ: (من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخرُ كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[2].

وعن عبد الله بن أرقم ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من قال دبر كل صلاة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر)[3].

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه، أو حين يريد أن يقوم: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[4].

وقد ورد في السنَّة المطهرة حديثُ كفارة المجلس بروايات منها: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان

---

(١) رواه أبو زكريا يحيى بن يحيى النيسابوري عن هشيم عن أبي مروان العبدي عن أبي سعيد الخدري ﷺ، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤١.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٢، ومعالم التنزيل، البغوي: ٤/ ٥٢.

(٣) الجريب: مكيال قديم. والحديث ضعيف، قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جداً. انظر: مجمع الزوائد: ١٠/ ١٠٣، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، والترغيب والترهيب، المنذري: ٢/ ٤٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٢/ ٤١١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٥، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسند صحيح إلى الشعبي مرسلاً، وذكره الثعلبي من حديث علي ﷺ مرفوعاً. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥/ ١٤١.

في مجلسه ذلك)[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يعتبر المقطع الأخير الخاتمةَ في السورة، من حيث تعزيز ما بحثت فيه من قضايا تتصل بالمحور العام للسورة، وهو قضية التوحيد الكبرى، فجاءت آيات هذا المقطع تبني على ما مرَّ في السورة، وتؤكِّد ما مضى فيها من معانٍ؛ مختتِمةً ما ابتدأت به من وصف الملائكة بأنهم الصافُّون المسبِّحون، وجاء الختام بوعد قاطع وكلمة قائمة، استهدفت بخطابها جميعَ الرسل تذكِّرهم النصرةَ والغلبَةَ لهذا الدين وأنبيائه وأوليائه، والخذلانَ والهوانَ لأعدائه، وهكذا اكتمل بناء قضية التوحيد والإيمان، كما جاء ختام السورة مناسباً لموضوعاتها، ملخِّصاً للقضايا التي عالجتها؛ فاختتم الكلام بالتنزيه والتسبيح لذات الربِّ العظيم، والمدح والتسليم على جميع الأنبياء والمرسلين، والثناءِ والحمدِ لله ربِّ العالمين.

دروس وعبر من المقطع الرابع عشر

* وعْدُ الله لرسله وأوليائه المؤمنين بالنصر لا يُخلَف، فقد تكفَّل سبحانه به، وأخذه عهداً على نفسه في محكم التنزيل، لكن للنصر شروط ومقدمات، وأسباب وعلامات، فلا يُنال بالتمنِّي، وإنما بالإيمان الصحيح بالله تعالى، والعمل بالتنزيل، والتزام دين الإسلام في الحياة سلوكاً ونظاماً، دستوراً ومنهاجاً، عندها يتحقَّق النصر الذي وعد الله تعالى به عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال أيضاً:﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد ﷺ: ٧]، وقال أيضاً:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١]. وقد أنجز الله وعده.
* للنصر أحوال؛ فقد يكون بالغلبة في قوة الحجة والبرهان في ميادين الجدال، وقد يكون

---

(١) وفي الباب عن أبي برزة وعائشة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، رقم الحديث: ٣٣٥٥.

بالغلبة على الأعداء في قهرهم وهزيمتهم، أو بالدولة والاستيلاء، أو بالدوام والثبات. هذا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة بتحقيق السعادة والفلاح، والفوز برضوان الله تعالى في الجنان.

* الغرضُ من ذِكْرِ التسبيح والسلام والثناء في ختام السورة تعليمٌ للمؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يُخِلُّوا به، ولا يغفلوا عن مضمِّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

* فصَّل الفقهاء الحكمَ فيمن حلف بعزَّة الله تعالى؛ فإن أراد صفته الذاتية فحنث فعليه الكفارة، لأنها يمين، وإن أراد العزَّة التي خلقها الله تعالى، وجعلها بين عباده فلا كفارة عليه إن حنث، لأنها ليست بيمين[1].

* يستحب ذِكْرُ كفارة المجلس عند انتهائه بالتسبيح والدعاء المشهور، لحديث أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. فقال رجل: يا رسول الله! إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، فقال: كفارة لما يكون في المجلس)[2].

* تقرير النبوة المحمدية.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ،القرطبي١٥ :/.١٤١

(٢) سنن أبي داود ،كتاب الأدب ،باب في كفارة المجلس ،رقم الحديث.٤٢١٧ :

الخاتمة

مجمل ما حوته السورة من موضوعات:

١ـ التوحيد ودليله في الآفاق والأنفس.

٢ـ خلق السماوات والأرض، ووصفه سبحانه لذلك.

٣ـ إنكار المشركين للبعث، وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار، وهم يطَّلعون عليهم.

٤ـ وصف الجنة ونعيمها.

٥ـ قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل.

٦ـ دفع فرية قالها المشركون وتوبيخهم عليها إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

٧ـ تنزيه الله تعالى عن ذلك.

٨ـ بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة المستعدة للإضلال.

٩ـ وصف الملائكة بأنهم صافُّون مسبِّحون.

١٠ـ مدح المرسلين وسلام عليهم.

١١ـ حمد الله وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ورب الخلق أجمعين، وفي هذا تعليم لنا كي نختم مجالسنا وأعمالنا بـ: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

سورة ص

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

تسمى السورة الكريمة «سورة ص»، وهو حرف من حروف الهجاء، للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) [١].

ج - مكية السورة:

سورة ص مكية، وترتيبها في المصحف الشريف الثامنة والثلاثون (٣٨). نزلت بعد سورة القمر. من الجزء «٢٣»، الحزب «٤٦».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٨٨. [٢]

محور السورة: سورة «ص» مكية، وهدفها نفس هدف السورة المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٨٥.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة ص وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة. حديث عن القرآن ذي الذكر﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ ﴾، وفي نهايتها تأكيد على أن القرآن الكريم ما هو إلا ذكر للعالمين﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة ص، وخاتمة السورة التي قبلها: (الصافات)؛ ففي نهاية سورة الصافات تهديد للكفار بالهزيمة في الدنيا، وبعذاب الله تعالى في الآخرة، ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ۝١٧٩ ﴾، وفي أول (ص) حديث عن إهلاك القرون السابقة المكذبة، ولم ينفعهم ندمهم حين ندموا ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ ﴾.

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

هناك ارتباط بين مضمون سورة (ص) والسورة التي قبلها (الصافات)،

فمجيء (ص) بعد الصافات كـ (النمل) بعد الشعراء، وكـ (طه والأنبياء) بعد (مريم) وكـ (يوسف) بعد (هود) في كونها متممة لها، بذكر من بقي من الأنبياء، ممن لم يُذكروا فيها؛ فإنه سبحانه ذكر في الصافات: نوحا وإبراهيم، والذبيح، وموسى، وهارون، ولوطاً، وإلياس، ويونس. وذكر هنا:داود، وسليمان، وأيوب. وأشار إلى بقية من ذكر. فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء والنمل بعد مريم والشعراء.[1]

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٦، بتصرف يسير.

موقف الكافرين من القرآن وعجبهم من رسالة الإسلام

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

سبب النزول:

جاء في سبب نزول هذه الآيات، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك ؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، كلمة واحدة، قال: وما هي ؟ قال: لا إله إلا الله، قالوا: إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، فنزل فيهم: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ إلى قوله:﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾. (١)

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن – المعجز، ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة السامية، المنزَّل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمداً نبيٌّ مرسل.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٢٧. رقم الحديث ٢٠٠٨. وابن حبان في صحيحه ١٥/ ٧٩ رقم ٦٦٨٦. والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٤٢ رقم الحديث ١١٤٣٦. وأخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٣٣٦٥. رقم الحديث ٣٢٣٢. وقال الترمذي: حديث حسن. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٤٦٩ رقم الحديث: ٣٦١٧. وقال الحاكم: حديث صحيح.

ولكن الكافرين في حميةٍ وتكبرٍ عن الإيمان، وفي خلافٍ وعداوة للرسول ﷺ. قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخَلَلٍ وجده فيه، بل الذين كفروا به مستكبرين عن الحق، معاندين للهِ ولرسوله، ولذلك كفروا به. (١)

والتعبير بـ« في » في قوله:﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف. (٢)

كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم. والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين، فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة، ولكن ليس الحينُ حينَ فرار أو مهرب ونجاة. (٣)

قال ابن جزي: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص، أي مفر ونجاة من ناص ينوص إذا فرّ، ولات بمعنى ليس، وأصلها: لا النافية، زيدت عليها علامة التأنيث. (٤)

وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ، واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر، وقال كفار مكة: إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات، مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله. وإنما وضع الاسم الظاهر:﴿ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ مكان الضمير: « وقالوا» غضباً عليهم، وذماً لهم، وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق. (٥)

أزعم أن الربَّ المعبود واحد ؟ لا إله إلا هو ؟ إنَّ هذا الذي يقوله محمد - إنّ الإِله واحد -

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٤٦ بتصرف يسير.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٥٩٨.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤ / ٢٨١بتصرف يسير.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٧٩.

(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥١.

شي بليغٌ في العجب، قال ابن كثير - رحمه الله -: أنكر المشركون ذلك - قبَّحهم الله - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾ [١].

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة، معادة، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات. وتكرر إرسال الرسل من البشر؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض: وعجبوا أن جاءهم منذر منهم..

وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم. بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون؛ ويحس ما يعتلج في نفوسهم، وما يشتجر في كيانهم، وما يعانون من نقص وضعف، وما يجدون من ميول ونزعات، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل، وما يعترضهم من عوائق وعقبات، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات.. بشراً يعيش بين البشر - وهو منهم - فتكون حياته قدوة لهم؛ وتكون لهم فيه أسوة. وهم يحسون أنه واحد منهم، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة. فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه، ويدعوهم لاتباعه. وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج، فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته. [٢]

وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد، فإن هذا أمرٌ مدبِّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه.

ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٠٨.

بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد ؟ قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دينَ النصرانية وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا، وما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء. (١)

ويصور التعبير القرآني مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة.. أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ كأنه الأمر الذي لا يتصوره مُتصور ! إن هذا لشيء عجاب.. حتى البناء اللفظي (عُجاب) يوحي بشدة العجب وضخامته وتضخيمه ! كما يُصور طريقتهم في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجماهير، وتثبيتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثة متهافتة. وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيء !

وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد.. فليس هو الدين وليست هي العقيدة، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة. شيء ينبغي أن تدعه الجماهير لأربابه، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هي إلى عادتها الموروثة وآلهتها المعروفة، ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها. فلتطمئن الجماهير، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة، والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة. ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء، وكشف للأباطيل التي يغرقون فيها الجماهير. وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل ! (٢)

ثم أنكروا اختصاصه ﷺ بالوحي من بينهم وتساءلوا: هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٠٩.

مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً، وأعلى رياسةً ؟. قال الزمخشري: أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم. (١)

وإنكارهم للذكر ليس عن علم، بل هم في شك منه، فلذلك كفروا، وسبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به.

وهؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأي في شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جئتهم به، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك. (٢)

وهل عند هؤلاء الجاحدين خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا ؟

يقول البيضاوي: يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه الغالب الذي لا يغلب، الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء هل لهم شيء من ملك السماوات والأرض ؟ وهو إنكار وتوبيخ إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبروا شؤون الكون ؟ وهو تهكم بهم واستهزاء. (٣)

قال الزمخشري: تهكم بهم غاية التهكم، فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم،

(١) الكشاف ٤/ ٥٦.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٠٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦.

وينزلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم.(١)

وما هم إلا جندٌ من الكفار، متحزبين على رسل الله، وهم عما قليلٍ يُهزمون ويُولون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون. والآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥].

من هداية الآيات:

* لله تعالى أن يقسم بما يشاء، بخلاف العبد لا يقسم إلا بربّه تعالى.
* بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبي ﷺ.
* بيان جهل المشركين في استنكارهم للتوحيد.
* تحدِّي الله تعالى للمشركين إظهاراً لعجزهم، ودعوته لهم إلى النزول إلى الحقِّ وقَبوله.
* إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك.(٢)

تذكير الكفار بما نال أسلافهم من العذاب

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تسوق الآيات الكريمة هنا جانبا مما أصاب السابقين من دمار، حين كذبوا رسلهم، لكي

---

(١) الكشاف ٤ / ٥٧.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٤.

يعتبر المشركون المعاصرون للنبي ﷺ، ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم.

فقد كذب قبل كفار قريش أممٌ كثيرون، منهم قوم نوح، وقوم هود، وهم قبيلة « عاد». وفرعون الجبار، ذو الملك الثابت بالأوتاد، أو ذو الجموع الكثيرة، وقد سمي بذي الأوتاد لأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد. (١)

وكذبت ثمود، وهم قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب. أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم، فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه، فثبت ووجب عليهم عقابي، وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون، ليس لها من رجوع ولا توقف ولا تكرار. بل إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر، قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد. (٢)

وقال كفار مكة - على سبيل الاستهزاء والسخرية -: عجّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا قبل أن يجيء يوم القيامة، إن كان الأمر كما يقول محمد، وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

من هداية الآيات:

* تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر على أذى قريش وتكذيبها وعنادها.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٩.

* تهديد الجاحدين إذا أصروا على التكذيب بأشد أنواع العقوبات.
* بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. (١)

قصة داود عليه السلام

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويؤول أمرك إلى أحسن مآل. (٢)

التفسير الإجمالي

يأمر الله جل شأنه نبيه الكريم ﷺ بالصبر على أذى قريش وتكذيبهم، ويسليه بما وقع

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٣٩٠.

لنبي الله داود، ذلك النبي الشاكر الصابر، ذو القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وكان دائم الرجوع والإِنابة إلى الله جل شأنه.

إنا سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠]. وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كلٌ من الجبال والطير رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس.

قال ابن كثير- رحمه الله -: كانت الطير تسبّح بتسبيحه، وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور، يقف في الهواء ويسبّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجّع معه وتسبّح تبعاً له. (١)

كان مُلك داود عليه السلام قوياً عزيزاً، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً، ويقطع ويجزم برأيٍ لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان. (٢) وقد قوى الله ملكه وثبته بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وأعطاه النبوَّة والفهم والإِصابة في الأمور بالكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطب به.

ويشاء الله تعالى أن يبلو نبيه داود، ليعلمه درساً عملياً في أصول القضاء بين الناس.

« وبيان هذا الابتلاء أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفوجئ نبي الله داود ذات يوم بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه. ففزع منهم. فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض. وجئنا للتقاضي أمامك فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط.. وبدأ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٥٤.

أحدهما فعرض خصومته: إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال:أكفلنيها [أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي] وعزني في الخطاب [أي شدد علي في القول وأغلظ].

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم:

قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء - [أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض] - ليبغي بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم..

وأدرك داود أن هذا الذي حصل إنما هو اختبار له، فقد كان عليه ألا يستثار، وألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء: وظن داود أنما فتناه.. وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب.. فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب.. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب..

وقد خاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً، وهي لا تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.[1]

قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحاً، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠١٥ بتصرف.

الله، وما حكى القُصَّاص مما فيه غضٌ من منصب النبوة طرحناه. [١]

وقد غفر الله تعالى لنبيه هذه الهفوة وسامحه وعفا عنه، وإِنَّ له لقربةً وكرامة بعد المغفرة وحسن مرجع في الآخرة.

ويحكي الله تعالى خطابه لنبيه داود ﷺ بما امتن عليه به من النعمة والفضل فيقول: يا داود إنا استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم، فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك، ولا تتَّبع هوى النفس في الحكم بين العباد فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم.

إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله، وعدم إِيمانهم بيوم الحساب، لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم المعاد.

وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدلُ على مكانته ﷺ واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إِليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة. [٢]

من هداية الآيات:

* مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
* منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع وتسخير الجبال والطير تسبح تسبيحه.
* تقوية قلب الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده وحمله على الصبر. بعرض مثل هذه القصص.
* حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣ بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق.

* وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب.
* وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإلهي.
* حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار. [١]

الحكمة من خلق الأكوان وإنزال القرآن

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر، وأعقبها بذكر قصة داوود تسلية للنبي ﷺ ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور. [٢]

التفسير الإجمالي

تشير الآيات الكريمة هنا إلى دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته، في هذا الكون المنظور، وما فيه من بدائع الصنعة، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً، وأنه لا بدَّ من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء.

فالله جل شأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة.. ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أنه سبحانه خلق هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب.. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم، كفرُهم بالحق، وجحودُهم ليوم

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٣٩٦، بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٥٧.

القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول ﷺ من هدايات وإرشادات. [١]

إنّ خَلْقَ الكون عبثاً لا لحكمة هو ظنُّ الكفار الفجار، الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور فويلٌ للكفار من عذاب النار، ثم وبخهم تعالى على هذا الظنِّ السيء فقال: هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين ؟ أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار ؟

والغرض: أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرُّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد.

قال ابن كثير: بين تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء يُثاب به المطيع، ويعاقب به الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم والباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمُه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة.. [٢]

ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن الكريم، وهي العمل والتفكر، فقال: هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية، أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة.

قال الحسن البصري: واللهِ ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد أسقطه واللهِ كلَّه، ما يُرى للقرآن عليه

---

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦١٧ بتصرف يسير.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٢.

أثرٌ في خُلُق ولا عمل، اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه. [١]

من هداية الآيات:

* تقرير البعث والجزاء.
* إبطال ظن من يتوهم أن الحياة الدنيا خلقت عبثا وباطلا.
* تنزيه الربّ تعالى عن العبث والظلم.
* فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر.
* بركة القرآن لا تفارقه أبداً وما طلبها أحد إلا وجدها. [٢]

قصة سليمان عليه السلام

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام. أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح سليمان، وأنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه، وأعطيناه النبوة، نِعْم العبد سليمان، إنه كان

(١) الكشاف ٤ / ٧٠.

(٢) يراجع: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٠ بتصرف يسير.

كثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه. (١)

واذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام -أي بعد العصر- الخيل الأصيلة السريعة الجري. التي تقف على ثلاث قوائم وترفع الرابعة؛ لنجابتها وخفتها.

قال الرازي: وُصفت تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون، وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها. (٢)

قال المفسرون: عُرضت على نبي الله سليمان آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشياً، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار، فقال سليمان: إنني آثرت حب المال عن ذكر ربي حتى غابت الشمس، رُدُّوا عليَّ الخيل التي عُرضت من قبل، فشرع يمسح سوقها وأعناقها. (٣)

وقد ابتلى الله تعالى نبيه سليمان بابتلاء آخر، ولعلّه ما رُوي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، كلٌّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل: إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون.) (٤)

« وقد أورد بعضُ المفسرين - في بيان فتنة نبي الله سليمان - آثاراً كثيرة عن جماعةٍ من السلف، وأكثرها أو كلُّها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة». (٥)

---

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ١٨٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٠٤.

(٣) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ١٨٨. وقيل إن المراد أنه شرع يذبحها. ويقطع أرجلها تقرباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله.

(٤) الحديث متفق عليه. رواه البخاري ٣/ ١٠٣٨ رقم ٢٦٦٤، ومسلم ٣/ ١٢٧٥ رقم ١٦٥٤.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٣ بتصرف.

ثم رجع سليمان إلى ربه بالتوبة والندم، وقال رب اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحدٍ غيري، ليكون دلالة على نبوتي، إنك واسع الفضل كثير العطاء.

فذللنا الريح لطاعته، إجابةً لدعوته، أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد.

وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان. وآخرين من الشياطين - وهم المردة - موثقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان.

وقلنا له: هذا عطاؤنا الواسع لك، فأعطِ من شئت وامنعْ من شئت، لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة. وإنّ له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجع في الآخرة.

من هداية الآيات:

* الولد الصالح هبة إلهيّة لوالده، فليشكر الله تعالى من وُهب ذلك.
* من فضل الله تعالى على العبد أن يوفقه إلى التوبة الفوريّة التي تعقب الذنب مباشرة.
* جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقداً لها، وإظهارا لفضل الله ونعمته.
* إطلاق لفظ الخير على الخيل فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسنات لمن ربطها في سبيل الله.
* مشروعية التوبة من كل ذنب صغيرا كان أو كبيراً.
* مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى.
* بيان إنعام الله تعالى على عبده سليمان، وتسخير الله له الريح والجن. وهذا لم يكن لأحد غيره من الناس.[1]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠١، ٤٠٣ بتصرف.

قصة أيوب عليه السلام

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

جاءت قصة نبي الله أيوب – عليه السلام – تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء. وفي عرضها تأسية للرسول ﷺ وللمؤمنين، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة، تفيض من خزائن الله على عباده الصابرين.

وقصة أيوب هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة، وداود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار.

فكأن الله – تعالى – يقول لنبيه ﷺ: اصبر على سفاهة قومك، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره.[1]

والمعنى: اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر. حين نادى ربه متضرعاً إليه قائلاً: إني مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة، وألمٍ شديد في بدني.

وفي هذا النداء من أيوب لربه، أسمى ألوان الأدب والإجلال، إذا اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك، ودون أن يقترح على خالقه – عز وجل – شيئاً معيناً، أو يطلب شيئاً معيناً.

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦ / ٢٠٦.

وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أُصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء عدد سنين.

وقلنا له: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية، وقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده.

والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما واغتسل من الأُخرى فشفي، أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم. (١)

قال الرازي: الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وبماله وقوَّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا. (٢)

وقال أبو حيان: الراجح أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم، رحمةً من الله به لصبره وإخلاصه، وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج. (٣)

وقلنا له خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث وكان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برئ من مرضه.

وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين ؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مئة عود ويضربها بها ضربة واحدةً، ويبرَّ في يمينه، وهذا رحمة من

(١) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٤٠١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢١٥.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٠١ بتصرف يسير.

الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه. (١)

وهذا المخرج من الفرج لمن اتقى الله وأطاعه كنبي الله داوود ﷺ الذي اختبره الله فوجده صابراً على الضراء. نعم العبد أيوب إِنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإِنابة والعبادة.

الإسرائيليات الواردة في قصة أيوب عَلَيهِ السَلام:

نحب أن نشير هنا إلى أن قصة نبي اللَّه أيوب ﷺ ورحلته مع المرض قد حشيت بكم كبير من الإسرائيليات، وهي بعيدة كل البعد عن الهدف الأساسي للقصة، ومجافية لما هو ثابت من عصمة الأنبياء – عليهم السلام – ونشير فيما يلي إلى بعضها:

الإسرائيليات في طبيعة مرض أيوب ﷺ:

قيل: إنه ابتلي بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما اللَّه عزَ وَجَلَ، حتى عافه الجليس، وأُفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. وقال الحسن وقتادة: كانت الدواب تختلف في جسده كثير. وقال السدي: تساقط لحم أيوب، حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه، وتأتيه بالرماد يكون فيه. وقيل: إن الناس كانت لا تستطيع أن تدنو من أيوب لنتن ريحه. (٢)

والحقيقة أن هذه الأقوال بعيدة عن الصواب؛ لأن الأنبياء عليهم السلام مع أنهم أشد الناس بلاء معصومون من الأمراض والعيوب المنفرة. كما أن هذه القوال التي أوردها أصحابها ليس لها حظ من الإسناد الصحيح. وغاية ما يمكن أن يقال في مرض نبي اللَّه أيوب عَلَيهِ السَلام: أن اللَّه تعالى ابتلاه في جسده ابتلاء كبيرًا، بعد أن ابتلاه في ماله وأولاده، وأن هذه المحنة طالت عليه حتى جعلته يلجأ إلى اللَّه تعالى في كشف ما نزل به من ضر.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٦١.

(٢) يراجع تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٩.

الإسرائيليات في مدة هذه المحنة:

اجتهد المفسرون كذلك في تحديد قدر الزمن الذي مرضه أيوب.

قال الإمام ابن كثير: مكث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة. (١)

وقال الإمام النسفي: سبع سنين وأشهرًا، أو ثلاث سنين (٢).

الإسرائيليات في تفاصيل المحنة:

كما جاء في تفاصيل المحنة أخبار كثيرة مستمدة من الإسرائيليات نورد بعضها فيما يلي:

قالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك يفرج عنك فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من ذلك. فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه.

وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين، كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه، واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برئ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما ؟ فقالا: نحن فلان وفلان. فرحب بهما وقال: مرحبا بمن لا يجفوني عند البلاء. فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئًا وتظهر غيره فلذلك ابتلاك اللَّه ؟.

فرفع رأسه إلى السماء فقال: هو يعلم، ما أسررت شيئا أظهرت غيره، ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع. فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برأت. قال: فغضب وقال: جاءكما الخبيث فأمركما بهذا. كلامكما وطعامكما وشرابكما عليَّ حرام. فقاما من عنده.

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع.

(٢) (٣) تفسير النسفي ٣/ ٨٩.

وخرجت امرأته تعمل للناس، فخبزت لأهل بيت لهم صبي، فجعلت لهم قرصًا، وكان ابنهم نائمًا فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال: ما كنت تأتيني بهذا فما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي عليه، فانطلقي به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء. فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي عليه لا يقبل من أهله شيئًا غيره، فقالت: رحمه الله يعني أيوب، فدفعت إليه القرص ورجعت.(١)

ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابًا فليذبحه باسم صنم بني فلان، فإنه يبرأ، ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب فقال: قد أتاكِ الخبيث يعني الشيطان لله عليَّ إن برأتُ أن أجلدكَ مائة جلدة.

فخرجت تسعى عليه، فحُظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع، حلقت من شعرها قرنًا فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعامًا طيبًا كثيرًا، فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا ؟ قالت: عملت لأناس فأطعموني، فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد، فحلقت أيضًا قرنًا فباعته من تلك الجارية، فأعطوها أيضًا من ذلك الطعام، فأتت به أيوب. فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو، فحسرت عن خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا جزع جزعًا شديدًا، فعند ذلك دعا الله عزَ وَجَلَ فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفى رواية أخرى ساقها ابن كثير أيضا قال: كان لأيوب عَلَيهِ السَلام أخوان، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا. فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله من شيء قط. فقال: اللهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠.

إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصُدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميص قط وأنا أعلم مكان عار فصدِّقني. فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك، ثم خر ساجدًا فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف اللهُ عنه.(١)

وهذه الروايات السابقة لا تعدو إلا أن تكون مجرد تصورات وأقاويل، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام، وليس وراءها أثر مستيقن. والواجب إزاء هذه الأمور أن نقف عند حدود النصوص القرآنية ولا نتعداها، اللهم إلا إذا كان هناك نص نبوي صحيح. أما غير ذلك فهو في الحقيقة ضرب في التيه، بدون نتيجة تذكر، أو فائدة ترجى.

من هداية الآيات:

* تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي.
* قد يبتلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علوّ مقامه ورفعة شأنه.
* فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
* وجوب الكفارة على من حنث في يمينه.(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠١.

قصة إبراهيم وذريته:

إسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

واذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة، والبصائر في الدين. قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول المبصرة. إنَّا خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية.(١)

قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها، وهم عندنا المختارون المجتبون على سائر الناس، لأنهم أخيار أبرار. واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضاً: إسماعيل واليسع وكلٌّ من خيرة الله.(٢)

فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله. هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبداً. وإن لكل متقٍ لله، مطيع لرسله، لحسن مرجع ومنقلب، ثم فسره بقوله: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم.

قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وحيوهم

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٦.

بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال، وأجمل هيئة متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة وهم متكئون على الأسرَّة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا. (١) قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواع النعيم شاءوا أتتهم به الخدام. (٢)

قال الصاوي: والاقتصار على دعاء الفاكهة للإِيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنة. (٣)

وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن. أتراب أي في سنٍّ واحدة. ويقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا. وهذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً.

يقول صاحب الظلال: يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء وفي السِّمات والهيئات: منظر المتقين لهم ﴿ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ومنظر الطاغين لهم ﴿ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب ولهم كذلك متعة الحوريات الشابات، وهنَّ مع شبابهن ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن، وكلهن أتراب. وهو متاع دائم، ورزق من عند الله ما له من نفاد. (٤)

من هداية الآيات:

* فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين، وفي الحديث: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير... ». (٥)

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٢١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٧.

(٣) حاشية الصاوي ٣ / ٣٦١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٥.

(٥) رواه الإمام مسلم ٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

* فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائماً، لأنها تساعد على الطاعة.
* فضل التقوى وأهلها، وبيان ما أُعد للمتقين يوم الحساب.
* نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
* فضيلة الائتساء بالصالحين والاقتداء بهم في الخير فهم أولوا القوة في العبادة والبصيرة في الدين.[١]

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا الذي سبق وصفه للمتقين. وأما المتجاوزون الحدَّ في الكفر والمعاصي، فلهم شر مرجع ومصير، وهو النار يُعذَّبون فيها، تغمرهم من جميع جوانبهم، فبئس الفراش فراشهم.[٢]

هذا هو العذاب الأليم، فليذوقوه حميم، وهو الماء الحار المحرق، وغسَّاق وهو ما يسيل من صديد أهل النار. قال الطبري: في الآية تقديم وتأخير، أي هذا حميم وغساق فليذوقوه.[٣]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٥ بتصرف يسير.
(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٢٠.
(٣) تفسير الطبري ٢٣ / ١١٣.

وليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب، تشبه في شكلها وفي فظاعتها وفي شدتها الحميم والغساق، كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم.. لهم من كل ذلك وغيره أنواع وأصناف..

ثم حكى سبحانه ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار، فقال: تقول لهم خزنة جهنم: هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحباً بهم إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم.

قال الرازي: والاقتحامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يحتفون به: مرحباً، أي أتيتَ رحباً في البلاد لا ضيِّقاً، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء. [1]

قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً، قال المفسرون: عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: لا مرحبا بكم أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً - وهذه تحية أهل النار - كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ وهذا على قول القائل: «تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع»، فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحيات والسلام ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم: أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

قال فوج الأتباع: ربنا مَن أضلَّنا في الدنيا عن الهدى فضاعِف عذابه في النار. [2] وهذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٢٢.

(٢) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٢٠٦.

كقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨]. والضعفُ زيادة المثل. وشبيه بهذه الآية أيضا قوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين.

قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضربُ مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم، ثم قالوا يؤنبون أنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية ؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ [١]

إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم، لهو الحقُّ الذي لابدَّ أن يتكلموا به، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم، وعن أقوالهم وهم فيها.

وإنما سمَّى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ﴾ وقول الأتباع: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ من باب الخصومة. [٢]

من هداية الآيات:

* ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله يوم القيامة.
* بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعظة والاعتبار.
* مخاصمة الأتباع من اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٧.

(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٦/ ٢٢٣.

* تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشرور مثلهم.[(١)]

بيان مهمة الرسول ﷺ، وإثبات الوحدانية

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية، والمعاد والجزاء، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسولٌ من رب العالمين، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن، وليس لكم ربٌ ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء، خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب، والمتصرف فيها بالإِيجاد والإِعدام، الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد.

قال الرازي: لما ذكر أنه سبحانه (**قهار**) وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: «الرب، العزيز، الغفار»؛ فكونه رباً مشعر بالتربية والإِحسان، وكونه عزيزاً مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب، وأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإِنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له - برحمته - جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار.[(٢)]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٢٤.

قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ جليل، وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون، لا تلتفتون إليه، ولا تعلمون قدره.

من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ ؟ قال ابن جزي: والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ، لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن الكريم.

ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير المنذر المخوّف من عذاب الله.

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد بأدلته.
* تقرير النبوة والوحي بشواهده من نبأ الملأ الأعلى.[1]
* تقرير عظمة القرآن الكريم وجلاله مع غفلة الناس عنه.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٠٩.

قصة خلق آدم عليه السلام وإكرام الله له

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

شرع تعالى في ذكر قصة آدم عليه السلام فقال: اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم. ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين، وبين وصفه في آيات أخرى بأنه خلق من تراب، أو من صلصال من حمأ مسنون، فإن المادة التي خلق منها آدم وإن كانت واحدة، إلا أنها مرت بمراحل متعددة، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة.

فإذا أتممتُ خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً، وهذا سجود تحية لا سجود عبادة [1].

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته، للإشعار بأن هذه الروح لايملكها إلا هو تعالى، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ، مما استأثر - سبحانه - به، ولا سبيل لأحد إلى معرفته.

فسجد جميع الملائكة خضوعاً وتعظيماً لأمر الله بالسجود له، لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين.

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٧.

قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه. (١)

قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأُم ؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب - سبحانه - الناس بما يعرفونه.

استكبرتَ الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك ؟ وهذا على جهة التوبيخ له، لاستنكافه عن السجود. قال اللعينُ: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل، لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟

وقد علل اللعين فعله بأنه مخلوق من النار وهي في ظنه أفضل من الطين. « ولا شك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى، لأن النار ليست خيراً من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل، إذ النار يطفئها الطين. » (٢).

فصدر إليه الأمر الإلهي: اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة .

قال اللعين: رب أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور. قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٩.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٣٨.

إنك من المهملين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك. [١]

قال اللعين: أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني.

قال تعالى: أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك، وهذا قسم أقسم الله به، وجملة « والحقَّ أقول» اعتراضية لتأكيد القسم. [٢]

ثم تختم السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول، ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام.

قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى أنتحل النبوة وأتقوَّل القرآن. ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإِنس والجن والعقلاء، ولتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب، وهذا وعيدٌ وتهديد.

إنها الدعوة الخالصة للنجاة، بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب. وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون.

وإنه للنبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم، وليعلمن نبأه بعد حين. نبأه في الأرض - وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم، عندما يحق وعد الله اليقين. [٣]

من هداية الآيات:

* تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم عليه السلام وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر الصفات.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٦٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٢٩.

* ذم الكبر والحسد وحرمتهما.
* بيان أن من كتب الله سعادتهم لا يقوى الشيطان على إغوائهم وإضلالهم.
* لا يجوز أخذ الأجرة على بيان الحق والدين.
* ذم التكلُّف المفضي إلى الكذب والتقول على الله وعلى الرسول والمؤمنين.[١]
* أنباء القرآن تظهر كل حين، يصدقها الواقع، ويراها البر والفاجر.

وأخيرا.. فهذه سورة ص، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة ص

* احتوت سورة ص على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:
* تسلية الرسول ﷺ، وتقوية قلبه، وتثبيت فؤاده، وحمله على الصبر بعرض مثل هذا القصص الوارد في سورة ص.
* بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه. وذلك في كل عصر ومع كل رسول أو مصلح.
* منة الله تعالى على نبيه داود بالصوت البديع، وتسخير الجبال والطير تسبح بتسبيحه
* مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.
* حرمة إصدار القاضي الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً.
* وجوب المسارعة بالتوبة عند الوقوع في الذنب صغيرا كان أو كبيراً.

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١١.

* وجوب الحكم بالعدل، ولا عدل في غير الشرع الإِلهي.
* حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار.
* تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم.
* تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإِلهي
* قد يبتلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علوّ مقامه ورفعة شأنه.
* فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.
* نعيم الآخرة لا ينفد، وأهلها لا يموتون ولا يهرمون.
* تقرير عداوة إبليس الشديدة لآدم وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر الصفات.
* تقرير قدر القرآن الكريم وعظمته، مع غفلة العباد عنه.

سورة الزمر

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة الزمر بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) [(١)].

ج - مكية السورة:

سورة الزمر مكية، ماعدا الآيات «٥٢، ٥٣، ٥٤» فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف التاسعة والثلاثون (٣٩). نزلت بعد سورة سبأ. من الجزء: «٢٤». الحزب: «٤٦، ٤٧».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٧٥. [(٢)]

محور السورة: سورة الزمر مكية وقد تحدثت عن «عقيدة التوحيد» بالإسهاب حتى لتكاد تكون هى المحور الرئيس للسورة الكريمة، لأنها رأس الإيمان، وأساس العقيدة السليمةوأصل كل عمل صالح.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. / ١٨٦.

المناسبات في السورة الكريمة

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الزمر وخاتمتها واضحة، ففي بداية السورة جاء التأكيد على أن إنزال القرآن الكريم كان بالحق. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ وفي الخاتمة تأكيد على أن فصل القضاء بين الخلق يوم الحشر يكون بالحق: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهذه مناسبة بديعة.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

لا يخفى وجه اتصال أول سورة الزمر بآخر ما قبلها « ص » حيث قال - جل شأنه - في آخر « ص »: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص: ٨٧] ثم قال في أول الزمر: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل. وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة. [١]

يقول البقاعي - رحمه الله -: لما بنيت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم، واتخاذهم الأنداد والشركاء، ناسب ذلك ما افتُتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم. [٢]

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الزمر) والسورة التي قبلها (ص)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين مناقشة لعقيدة الوحدانية** ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٦ بتصرف يسير.
(٢) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٢١.

﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

* في السورتين حديث عن جزاء المتقين ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

* في السورتين حديث عن مصير المجرمين: ففي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ

ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وفي المناسبة بين السورتين يقول السيوطي - رحمه الله -: ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم، وذكر في صدر الزمر قصة خلق زوجه، وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق، ثم ذكر أنهم ميتون، ثم ذكر وفاة النوم والموت، ثم ذكر القيامة، والحساب، والجزاء، والنار، والجنة وقال:﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر أحوال الخلق، من المبدأ إلـى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها. [١]

القرآن تنزيل الله والعبادة لا تكون لسواه

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الكريم «المعجزة الكبرى» الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، والتأكيد على أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من الله جل شأنه، الغالب على كل شيء، الحكيم في كل تصرفاته وأفعاله.

وليس هذا القرآن قولا مفترى، كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم، واستحبوا العمى على الهدى.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٦.

وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل أو ما يشبه الباطل، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه. [(١)] فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك.

ألا لله - وحده - الدين البريء من كل شائبة. والمشركون الذين اتخذوا من دونه نصراء يقولون: ما نعبد هؤلاء لأنهم خالقون، إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله - تقريباً - بشفاعتهم لنا عنده. إن الله يحكم بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين الموحِّدين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الشرك والتوحيد. [(٢)]

وهو جل شأنه لا يوفق للهدى، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره. وفي الآية إشارة إلى كذبهم وافترائهم في دعوى اتخاذهم الأولياء تقربا بها إلى الله.

لو شاء الله اتخاذ ولد - على سبيل الفرض والتقدير - لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك لقوله سبحانه:﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢].

يقول صاحب الظلال: وهذا فرض جدلي لتصحيح التصور. فالله لو أراد أن يتخذ ولداً لاختار ما يشاء من بين خلقه؛ فإرادته مطلقة غير مقيده. ولكنه - سبحانه - نزه نفسه عن اتخاذ الولد. فليس لأحد أن ينسب إليه ولداً، وهذه إرادته، وهذه مشيئته، وهذا تقديره، وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك. [(٣)]

قال في التسهيل: نزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد. ووصف نفسه

(١) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٠ بتصرف.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٠٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٧.

بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له. [(١)]

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية.
* تقرير التوحيد.
* بطلان الشرك والتنديد بالمشركين.
* تقرير البعث والجزاء يوم القيامة. [(٢)]

من آيات الله في الآفاق والأنفس

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما أثبت سبحانه هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد، وأثبتت له الكمال

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٣/ ١٩١.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٢.

المطلق، دل عليها بقوله:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[(١)].

التفسير الإجمالي

تسوق هذه الآيات الكريمة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، في إبداعه لخلق السماوات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسييره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

فالله تعالى خلق السَّماوَات والأَرض على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع، يُغشي الليل على النهار، ويُغشي النهارعلى الليل، وكأنه يلفُّ عليه، لفَّ اللباس على اللابس.

وتكويرُ الليل على النهار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته، وهو معنى قوله تعالى:﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤].[(٢)]

وسخر سبحانه الشمس والقمر، أي ذلَّلهما لمصالح العباد، كلٌ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة، حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم. إنه جل شأنه كامل القدرة لا يغلبه شيء، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان.

وقد صُدِّرت الجملة الشريفة:﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ بحرف التنبيه «ألا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال: تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري، الستَّار لذنوب خلقي، فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً.[(٣)]

ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد؛ ويشير إلى آية

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٥.

(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٦.

الحياة القريبة منهم في أنفسهم، وفي الأنعام المسخرة لهم. [١]

فالله تعالى خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة، هي آدم، وهذا من جملة أدلة وحدانيته، وانفراده بالعزة والقهر، وجميع صفات الألوهية، ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل.

وأوجد لكم سبحانه من الأنعام المأكولة - وهي: الإِبل، والبقر، والغنم، والمعز - ثمانية أزواج، من كل نوعٍ ذكراً وأنثى. قال المفسرون: والإِنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه. [٢]

يخلقكم في بطون أمهاتكم أطوارا، أي: نُطَفاً ثُمَّ عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عَظْماً ثم لَحْماً، ثم أنبت الشَّعر، إِلى غير ذلك من تقلُّب الأحوال إِلى إِخراج الأطفال. [٣]

ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين، ربكم وربُّ آبائكم الأولين، له الملك والتصرف التام في الإِيجاد والإِعدام. لا معبود بحقٍ إلا الله، ولا ربَّ لكم سواه، فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه، حذَّرهم من الكفر والجحود لفضله وإِحسانه فقال: إن تكفروا أيها الناس بعد ما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه، فإِن الله مستغنٍ عنكم، وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم، ولا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر.

وقد أشار سبحانه إلى أنه وإِن كان لا ينفعه إيمان، ولا يضره كفران، إلا أنه لا يرضى بالكفر، بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه. وإِن كان واقعاً بمشيئته وقضائه. وإِن تشكروا ربكم يرضى هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم. لا لانتفاعه بطاعتكم. [٤]

ولا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى، بل كلٌ يؤاخذ بذنبه، ثم مرجعكم ومصيركم إليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٣٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٠.

(٣) زاد المسير، لابن الجوزي ٥ / ٢٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٤٦.

تعالى، فيحاسبكم ويجازيكم على كسبكم وسعيكم. وهو سبحانه يعلم ما تكنه السرائر، وتخفيه الضمائر. وفيه تهديدٌ للجاحدين، وبشارة للمطيعين.

من هداية الآيات:

* بيان آيات الله تعالى في الكون، وإيرادها أدلة على التوحيد.
* بيان إفضال الله سبحانه على العباد في خلقهم ورزقهم.
* بيان أن الكفر أعجب من الإيمان؛ إذ أدلة الإيمان لا تعد كثرة، وأما الكفر فلا دليل عليه البتة، ومع هذا أكثر الناس كافرون.
* بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
* بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
* بيان إحاطة علم الله بالخلق وأحوالهم ظاهراً وباطناً.[1]

مقارنة بين المؤمن والكافر

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة الكافر والشاكر، أتبعه هنا بتفصيل بعض أحوالهما والمقارنة بينهما.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١٤ بتصرف يسير.

التفسير الإجمالي

يخبر تعالى هنا أن طبيعة الإنسان – الذي لم يهذبه الإيمان – الكفران لنعم الله؛ فإنه في حال الضر شديد التضرع لله، مع الإنابة إليه، فإذا ذهب الضر وانتهت الشدة وجاء الرخاء أعرض عن ربه، ونسي حاله الأول، وأضاف إلى هذا الجحود الكفران لربه ولي نعمته وكاشف ضره.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود: ٩-١٠].

* قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٤٩ – ٥١].

* قوله جل شأنه ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨].

فالإنسان الكافر إذا أصابته شدة من فقر ومرض وبلاء تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً، ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه، وطغى، وجعل لله شركاء في العبادة، ليصد عن دين الله وطاعته.

فيا أيها الجاحد الكافر تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها.

يقول صاحب الظلال – رحمه الله –: «إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر

ويسقط عنها الركام؛ وتزول عنها الحجب، وتتكشف عنها الأوهام؛ فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره. وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء.

فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء، ويخوله الله نعمة منه، ويرفع عنه البلاء، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه. وتطلعه إليه في المحنة وحده، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته.. ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً. »[١]

أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم من هو عابد لربه طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمُل رحمة ربه ؟ قل - أيها الرسول -: هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك ؟ لا يستوون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة.[٢]

قال الإمام الرازي: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟

وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية. وفي الكلام حذف تقديره: أمَّنْ هو قانتٌ كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر. ثم مثَّل بالذين يعلمون، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم.[٣]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤١.
(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٥٠.

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.
* وعيد الضالين عن سبيل الله المضلين عنه بالنار.
* تقرير أفضلية المؤمن المطيع على الجاحد العاصي.
* فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسّة والانحطاط.[1]

إرشاد للمؤمنين ووعيد لعبدة الأصنام

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله. وأضافهم سبحانه إلى نفسه ﴿يَٰعِبَادِ ﴾ تشريفاً لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف وشدة الخصوصية، وإعلاماً

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤١٥ بتصرف يسير.

لهم بأنه حاضر لا يغيب عنهم بوجه. (١)

لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وهي الجنة، دار الأبرار. وأرض الله فسيحة، فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله. إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر، وبدون عدد أو وزن. قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف غرفاً. (٢)

قل يا محمد أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير. وأُمرت أيضاً أن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة.

قال القرطبي: وكذلك كان، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأسلم وجهه لله، وآمن به ودعا إليه. (٣)

وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم. قال الصاوي: والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم. (٤)

قل لهم يا محمد: لا أعبد إلا الله وحده، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة، وليس هذا بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه. (٥)

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٢٣٧.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٤٢.
(٤) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٨.
(٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٣.

وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.. هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. فالنبي ﷺ في هذا المقام هو عبد لله. هذا مقامه لا يتعداه. وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العبـاد، وهذا هو المراد. [١]

فيا أيها الجاحدون اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام، فسوف ترون عاقبة كفركم. وهذه صيغة أمر على جهة التهديد والوعيد.

وإن الخاسرين حقا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران.

قال ابن عباس: إنَّ لكل رجلٍ منزلاً وأهلاً وخدماً في الجنة، فإن أطاع اللهَ أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله. [٢] ألا فانتبهوا أيها القوم، فإن ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ!

ثم لما ذكر خسرانهم في الدنيا، ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال: تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم. ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم، لأنها محرقة، والظلةُ تقي من الحر.

ذلك العذاب الشديد الفظيع، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم. يا أوليائي خافوا عذابي، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي. [٣]

ولما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٤.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٥٦.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٤.

والعصيان، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب.

والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وتباعدوا عنها كل البعد ورجعوا إلى طاعة الله وعبادته، لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم. (١)

قال أبو السعود: «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان، والمراد به الشيطان، وُصف به للمبالغة. (٢)

فبشِّر عبادي المتقين، الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه.

وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها: أن المراد بالقول الذي يتبعون أحسنه. ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة.

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن.

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وكما قال سبحانه: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾ [النحل: ١٢٦]، فيكون المعنى: الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا. (٣)

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة، فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة، فيتبعون الطيب منها، وينبذون غيره.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾ إنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة.. وأراد أن يكونوا نقادا في الدين مميزين بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب ومندوب

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤ / ٣٠٥.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.

اختاروا الواجب... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثواباً عند الله. [١]

وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء.

وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه.

ويبدو أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة. [٢]

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصَّروه وعملوا بها فيه. وأحسنُ الكلام كلام الله وخير الهدي هديُ محمد ﷺ.

وإنما وضع الظاهر ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ بدل الضمير ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه. أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه. وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة. [٣]

أفمن وجبت عليه كلمة العذاب؛ باستمراره على غيِّه وعناده، فإنه لا حيلة لك -أيها الرسول- في هدايته، أفتقدر أن تنقذ مَن في النار ؟ لست بقادر على ذلك.

لكن الذين اتقوا ربهم- بطاعته وإخلاص عبادته- لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري مِن تحت أشجارها الأنهار، وعدها الله عباده المتقين وعداً متحققاً، لا يخلف الله الميعاد. [٤]

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٣.
(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٧.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٥.
(٤) التفسير الميسر ٨/ ٢٤١ وما ببعدها.

من هداية الآيات:

* بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم.
* وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك.
* تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده.
* فضل الإِسلام وشرف المسلمين.
* تقرير البعث والجزاء وبيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها.
* كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسراناً أبداً.
* فضيلة أهل التمييز والوعي والإِدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
* إعلام من الله تعالى أن من وجبت له النار أزلاً لا تمكن هدايته مهما بذل الداعي في هدايته وإصلاحه ما بذل.
* بيان ما أعد الله تعالى لأهل الإِيمان والتقوى من نعيم الجنة وكرامة الله لأهلها.(١)

من دلائل وحدانية الله وقدرته

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما وصف الله تعالى الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤١٧- ٤١٩.

الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها. [١]

التفسير الإجمالي

ألم تر أيها الإنسان العاقل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها. قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً،

قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق في الأرض تغيِّره [٢].

ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك. [٣] أي في الأصناف والكيفيات والطبائع والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء الذي جمعه من أعماق الأرض بعد أن تفتت فيها وصار تراباً. [٤]

ثم ييبس هذا الزرع فتراه بعد خضرته مصفراً، ثم يصبح فتاتاً وهشيماً متكسراً. إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة.

والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بدَّ من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت.

والمقصود من هذه الآية الكريمة، التحذير من الانهماك فى الحياة الدنيا ومتعها، حيث

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٢٤٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٧.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٦.
(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٤٣.

شبهها - سبحانه - فى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبدو مخضرا وناضراً... ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال.[1]

وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[الكهف : ٤٥].

وقوله جل شأنه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحديد: ٢٠].

قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير.[2]

من هداية الآيات:

* أهمية ضرب الأمثال للعظة والتذكير.
* دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته شاخصة وناطقة في خلقه وكونه.
* لا ينتفع بآيات الله الكونية أو المتلوة إلا أصحاب العقول الرشيدة، والفطر المستقيمة.

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٦٤٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

حال المؤمنين مع القرآن، ولمحة من عذاب الكافرين في النيران

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه – فيما تقدم – بعض دلائل وحدانيته وقدرته الموصلة إلى الإيمان به، بين هنا أنه لا ينتفع بهذه الآيات الكونية إلا من شرح الله صدره ويسر له أمر الهدى.

سبب نزول قول الله تعالى:﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: نزل على النبي ﷺ القرآن، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا ؟ فنزل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾. [(١)]

التفسير الإجمالي

أفمن وسَّع الله صدره، فسعد بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على بصيرة من أمره وهدى من ربه، كمن ليس كذلك ؟ لا يستوون. فويل وهلاك للذين قَسَتْ قلوبهم وأعرضت عن ذكر الله، أولئك في ضلال بيِّن عن الحق. [(٢)]

قال الطبري – رحمه الله –: وتُركَ الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره:

(١) المستدرك ٢/ ٣٧٦ رقم ٣٣١٩ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٢/ ٨٧. والحديث وصححه الذهبي.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٤.

كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره، حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى؟[١]

فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده. أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر.

ولما بيَّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال: ﴿ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا ﴾، وهو القرآن العظيم، متشابهاً في حسنه وإحكامه وعدم اختلافه، تثنى فيه القصص والأحكام، والحجج والبينات.

تقشعر من سماعه، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثراً بما فيه مِن ترهيب ووعيد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشاراً بما فيه من وعد وترغيب، ذلك التأثر بالقرآن هداية من الله لعباده.

والله يهدي بالقرآن من يشاء مِن عباده. ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره وعناده، فما له مِن هاد يهديه ويوفقه.[٢]

قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرؤوا آيات الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف. وإذا قرءوا آيـات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لمـا يرجون ويأملون من رحمته ولطفه.[٣]

قال الجمل: « فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت القلوب بها ثانياً ؟.

قلت: ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر، فإذا ذكروا الله تعالى وذكروا رحمته وسعتها، استبدلوا

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣٤.

(٢) التفسير الميسر ٨ / ٢٤٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢١٧.

بالخشية رجاء فى قلوبهم، وبالقشعريرة لينـا فى جلودهم». [١]

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء في رحمته ومغفرته، إذ إن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح. [٢]

ذلك القرآن الذي تلك صفتُه هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه. ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله. [٣]

أفمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمنٌ من العذاب ؟

قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

كذَّب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهةٍ لا تخطر ببالهم. فأذاقهم الله الذُلَّ والصغار والهوان في الدنيا. ولعذاب الآخرة الذي أُعدَّ لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذبوا. [٤]

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٦٧.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١/ ٣٦٥٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٧.

(٤) المرجع السابق، ٣/ ٧٨.

من هداية الآيات:

* بيان أن القلوب قلبان قلب قابل للهداية وآخر غير قابل لها.
* بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
* فضيلة أهل الخشية من الله إذ هم الذين ينفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
* تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة.
* العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي، ومنه الآخروي.
* لو علم الناس عذاب الآخرة علما يقينا ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا، فالجهل سبب الهلاك والشقاء دائماً.[1]

ضرب الأمثال للتذكير، وعربية القرآن

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ولقد ضربنا لهؤلاء المشركين بالله في هذا القرآن من كل مثل من أمثال القرون الخالية تخويفاً وتحذيراً؛ ليتذكروا فينزجروا عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله. وجعلنا هذا القرآن عربياً واضح الألفاظ سهل المعاني، لا لَبْس فيه ولا انحراف؛ لعلهم يتقون الله بامتثال أوامره

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢١ وما بعدها.

واجتناب نواهيه.[١]

ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله، ولمن يوحِّده فقال: ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمرٍ وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحيِّر موزّع القلب، لا يدري مَنْ يرضي؟ ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإِخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إِحساناً. هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال ؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى.

قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد.[٢]

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

« يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع؛ ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح.

هل يستويان مثلاً ؟ إنهما لا يستويان. فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين. وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي

(١) التفسير الميسر ٨/ ٢٤٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٧٧.

الجميع ! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. » [١]

ولما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم الآية بالحمد. والمعنى: الحمد لله على إقامة الحجة عليهم. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله.

إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلَّد أحد في هذه الدار ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين. [٢]

من هداية الآيات:

- مشروعية ضرب الأمثال للمبالغة في الإِفهام والهداية.
- بيان مثل المشرك والموحد، فالمشرك في حيرة وتعب، والموحد في راحة وهدوء بال.
- تقرير أن كل نفس ذائقة الموت.
- بيان أن خصومة ستكون يوم القيامة ويقضي الله تعالى فيها بالحق لأنه هو الحق. [٣]

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٤٩.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٧٨ وما بعدها.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٣.

وعيد للمشركين ووعد للمؤمنين

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين. [١]

التفسير الإجمالي

يؤكد الله تعالى في هذه الآيات الشريفة على أنه لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد، وكذَّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل ؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم.

أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين ؟ والاستفهام هنا تقريري أي بلى لهم مأوى ومكان.

والذي جاء بالصدق في قوله وعمله من الأنبياء وأتباعهم، وصدَّق به إيماناً وعملا، أولئك هم الذين جمعوا خصال التقوى، وفي مقدمة هؤلاء خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ والمؤمنون به، العاملون بشريعته من الصحابة، رضي الله عنهم، فمَن بعدهم إلى يوم الدين. [٢]

لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور، والقصور، والملاذّ، والنعيم ذلك الذي ينالونه هو

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٧٩.

(٢) التفسير الميسر ٨/ ٢٥.

ثواب كل محسن، أحسن في هذه الحياة.

قال بعض المفسرين: « الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدَّق به» هو أبو بكر ﷺ والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾بصيغة الجمع. (١)

هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء عليهم السلام سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة، فلا يعاقبهم بها، ويثيبهم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه، فضلاً منه وكرماً.

قال المفسرون: العدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات، ثم يكون الجزاء. والفضلُ هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتُهم وتعلو وترجّح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.

أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من يريده بسوء ؟

قال أبو السعود: هذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو ليصيبنك منها خبل أو جنون. (٢)

وقال أبو حيان: قالت قريش: لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعييبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء، فأنزل الله هذه الآية، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيّه ﷺ. (٣)

ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع. ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائناً من كان.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٢٩.

ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق، ووفقه لسلوك طريق المهتدين، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله. وهو تعالى منيع الجناب لا يُضام من لجأ إلى بابه. وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه، لأنه غالب لا يُغلب، ذو انتقام من أعدائه. وفي الآية وعيدٌ للمشركين، ووعد للمؤمنين.

من هداية الآيات:

* التنديد بالكذب على الله تعالى والتكذيب به، وبما جاء به رسوله ﷺ من الدين.
* بيان جزاء الكاذبين على الله والمكذبين بما جاء به رسول الله عن ربه.
* الترغيب في الصِّدق في الاعتقادات والأقوال والأعمال.
* فضل التقوى والإحسان وبيان جزائهما عند الله تعالى يوم القيامة.
* تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
* تقرير مقتضى الولاية، وهو النقمة من أعدائه تعالى لأوليائه وإن طال الزمن.[1]

ضلال المشركين وتهديد الله لهم

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ساق الله تعالى فيما سبق البراهين على أنه سبحانه المتصرف في المعاني بتصرفه في القلوب

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٤.

بالهداية والإضلال، وكان التقدير: فلئن أقررتم بهذا الاستفهام الإنكاري ليقولن: بلى ! عطف عليه بيان أن الخالق للذات كما أنه المالك للمعاني والصفات، فقال مفسداً لدينهم باعترافهم بأصلين: القدرة التامة له، والعجز الكامل لمعبوداتهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾[1].

التفسير الإجمالي

يقيم الله جل شأنه هنا البرهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان. أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمَّن خلق السماوات والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ خالقهما، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية.

قال الرازي: إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق، وفطرةُ العقل شاهدةٌ بصحة هذا العلم، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السماوات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، علم أنه لا بدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله.[2]

قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً: أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله - عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ؟

ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة ؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فيقولون: لا، لا تكشف السوء، ولا تمنع الرحمة[3]، الله سبحانه كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون.

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٢٥٧ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٩.

والغرضُ الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وإِقامة البرهان على الوحدانية.

فاعملوا - أيها الجاحدون - على طريقتكم من المكر والكيد والخداع، إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله، وإظهار دينه فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإِنسان وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع، وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم ؟. (١)

وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإِشعارٌ بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده وفي خزي أعدائه دليل غلبته ﷺ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر. (٢)

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد وإبطال التنديد.
* مظاهر ربوبية الله الموجبة لألوهيته.
* وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه.
* تقرير إنجاز الله وعده لرسوله ﷺ والمؤمنين. (٣)

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨١.
(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤/ ٣١٠.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٢٦.

مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى فيما سبق فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد، وكان النبي ﷺ يشق عليه كفر قومه أردفه بكلام يرفع عنه هذا الهم.[1]

التفسير الإجمالي

إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول - القرآن بالحق هداية للعالمين، إلى طريق الرشاد، فمن اهتدى بنوره، وعمل بما فيه، واستقام على منهجه، فنفعُ ذلك يعود على نفسه، ومَن ضلَّ بعد ما تبين له الهدى، فإنما يعود ضرره على نفسه، ولن يضرَّ الله شيئا، وما أنت - أيها الرسول - عليهم

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٦٧ بتصرف.

بوكيل تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، ما عليك إلا البلاغ. (١)

قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال. (٢)

ثم أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام. فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ، فلا يردها إلى البدن. ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي. (٣)

قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت، في كونه لا يُبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وفي الآية عطف والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها. (٤)

قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه سبحانه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه. (٥)

إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة، على كمال قدرة الله وعلمه، لقومٍ يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون.

ولكنهم لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام، فانظر إلى فرط جهالتهم، حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله.

(١) التفسير الميسر ٨/ ٢٥٩.
(٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٧٤.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٩٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٦٠ بتصرف يسير.

قال ابن كثير: هذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله - وهي الأصنام - والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر وليس لها عقل تعقل به، ولا سمعٌ تسمع به، ولا بصرٌ تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات. (١)

قل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء، ولا عقل لها ولا شعور؟ والاستفهام هنا توبيخي.

قل لهم: الشفاعة للهِ وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإِذنه هو المتصرف في المُلك والملكوت.

قال البيضاوي: أي هو تعالى مالك المُلكِ كله، لا يملك أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. (٢)

ثم مصيركم إليه يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلاً بعمله.

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة وهي أنه إِذا أُفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين: لا إِله إلا اللهُ نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين. وإِذا ذكرت الأوثان والأصنام إِذا هم يفرحون ويُسرون.

قال الإِمام الرازي: هذا نوع آخر من قبائح المشركين، فإِنك إِذا ذكرتَ الله وحده وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرتْ آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم. وإِذا ذكرتَ الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم.

وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وذكر الأصنام الجمادات رأسُ الجهالات والحماقات، فنفرتُهم عن ذكر الله واستبشارهم بذكر الأصنام

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٢.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤.

من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ، والحُمق الشديد. [١]

قل: يا الله يا خالق ومبدع السماوات والأرض يا عالم السرِّ والعلانية، يا من لا تخفى عليه خافية، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين.

قال أبو حيّان: لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله، واستبشارهم بذكر الأصنام، أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه. وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام. [٢]

ولو أنَّ لهؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة. وظهر لهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم. [٣] قال أبو السعود: وهذه غايةٌ من الوعيد لا غاية وراءها. [٤]

وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به في الدنيا. [٥]

من هداية الآيات:

* تسلية الرسول ﷺ، وحمله على الصبر والثبات في أصعب الظروف.
* مظاهر قدرة الله في الموت والحياة مما يقتضي الإِيمان به وبلقائه وتوحيده.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٦ / ٢٨٦.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٤٣٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١١.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٤.

* إبطال حجة المشركين في عبادة الأوثان من أجل الشفاعة لهم إذ الشفاعة كلها لله رب العالمين.
* بيان خطأ من يطلب الشفاعة من غير الله، إذْ لا يملك الشفاعة إلا هوسبحانه.
* بيان سفه المشركين وضلالهم في غضبهم عند سماع التوحيد، وفرحهم عند سماع الشرك.
* مشروعية اللجوء إلى الله تعالى عند اشتداد الكرب.
* بيان عظم العذاب وشدته يوم القيامة، وأن المرء لو يقبل منه فداء لافتدى منه بما في الأرض من أموال ومثله معه.
* التحذير من الاستهزاء بأخبار الله تعالى ووعده ووعيده.[١]

الإنسان بين السراء والضراء

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

وبسبب جهده وجده، فإن كان مالاً قال إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح. (١)

وهذه الكلمة القبيحة التي يقولها الكافر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ قالها الكفار من قبل، كقارون وغيره، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ [القصص: ٧٨]. فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام.

فنالهم جزاء أعمالهم السيئة والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش - سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك. (٢)

قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم. (٣) وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.

ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيّقه على آخرين ؟

فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة. إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقوم يصدِّقون بآيات الله.

قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقتيره قد يكون إعظاماً. (٤)

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٧٠.

(٢) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٤ بتصرف.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٦٧.

من هداية الآيات:

* بيان تتناقض أهل الكفر والجهل والضلال في كل حياتهم، لأنهم يعيشون على ظلمة الجهل والكفر.
* تقرير ما من مصيبة إلا بذنب جلي أو خفي كبير أو صغير.
* بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الأفراد أو الجماعات لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.
* أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات، لا يرون الآيات ولا يعقلونها.
* تهديد الله تعالى للظالمين ووعيده الشديد بأنه سيصيبهم مثل ما أصاب غيرهم جزاء ظلمهم وكسبهم الفاسد. [١]

دعوة للرجوع إلى الله

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣١ بتصرف يسير.

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما صور الله تعالى – فيما سبق – الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة. عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة. ويُطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية. ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين. [١]

سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تدعوا إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملناه كفارة؛ فنزلت هذه الآيـة: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[٢].

التفسير الإجمالي

قل -أيها الرسول- لعبادي الذين تمادَوا في المعاصي، وأفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام: لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، لكثرة ذنوبكم. إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإِن كانت مثل زبد البحر؛ إنه سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله:﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ﴾[٣].

وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإِنابة، وإِخبارٌ بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لمن تاب منها، ورجع عنها، مهما كثرت. [٤]

ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح، من قبل حلول نقمته تعالى بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣٠٥٨.

(٢) رواه البخاري ١/ ١١٣ رقم ١٢٢.

(٣) التفسير الميسر ٨ / ٢٧١، صفوة التفاسير ٣/ ٨٥ بتصرف.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.

والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم وهو القرآن الكريم، فيه سعادتكم وفلاحكم، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا.

لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان: يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه.

قال الإمام الشوكاني: واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي.. ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة.. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾

فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك.

ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها النفوس.. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.[1]

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه:

فى هذه الآية من أنواع المعانى والبيان أشياء حسنة: منها إقباله عليهم، ونداؤهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة تشريف، ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فى قوله: ﴿ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾، ومنها: إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى، ومنه: إعادة الظاهر بلفظه فى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ﴾ ومنها: إبراز الجملة من قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ مؤكدة بإن، والفصل، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة.[2]

قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعت من أمر الله، وإِنَّ الحال والشأن أنني كنت من

---

(١) فتح القدير ٤ / ٣١٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣ / ٦١٢.

المستهزئين بشريعة الله ودينه.

لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين.

قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[١].

أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحسن سيرتي وعملي.

بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين[٢]. قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[٣]. ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة، تصوير مؤثرا بليغاً، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذي ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد.

من هداية الآيات:

* بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.
* دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإسلام الخالص له.
* تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال.
* وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت.
* الترغيب في الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٧.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.

(٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٣٧.

* إبطال مذهب الجبرية الذين يرون أنهم مجبورون على فعل المعاصي وغشيان الذنوب كقول أحدهم: لو أن الله هداني لفعلت كذا أو تركت كذا. (١)

* رحمة الله تعالى بالخلق، حيث أعذر إليهم وحذرهم.

أحوال الناس يوم القيامة، ودلائل ألوهية الله ووحدانيته

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه ﷺ الجواب الذى يرد به على المشركين.

ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله - بنسبة الشريك له والولد- وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم. أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن ؟ بلى إنَّ لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم. (٢)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٣.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ٨٦.

ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال: وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم، وهو الجنة دار الأبرار، لا ينالهم هلعٌ ولا جزع، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون.

ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال: الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره ولا ربَّ سواه هو القائم بتدبير كل شيء بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره.

والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة، أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران.

قل يا محمد أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون ؟

قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية. [١]

ولقد أوحى إليك ربك وإلى الأنبياء قبلك لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح، ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك.

وهذا على سبيل الفرض والتقدير. وإلاّ فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإِقامة صرح الإِيمان والتوحيد. [٢]

قال أبو السعود: والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإِقناط الكفرة،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨٧.

والإِيذان بغاية شناعة الإِشراك وقبحه. (١)

أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحداً سواه. وكن من الشاكرين لإِنعام ربك.

وما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، قال أبو حيان: أي ما عظموه حق تعظيمه، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره، إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة. !

وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه، والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال. فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه، والسماوات مضمومات ومجموعات بقدرته تعالى.

أخرج الترمذي وصححه، عن ابن عباس قال: مرّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه- أي على إصبع -، والأرضين على ذه - أي على إصبع -، والماء على ذه - أي على إصبع - والجبال على ذه - أي على إصبع -، فأنزل الله:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية. (٢)

والسلف يقولون: إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى -. إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف، ولا اليمين مجاز عن القدرة، بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح، ويؤمنون بما نسبه - تعالى -: إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام.

وفي الصحيح عن ابن مسعود قال: جَاءَ حَبْرٌ مِنْ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٤ / ٣١٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٧١. رقم ٣٢٤٠. وقال الألباني: صحيح. يراجع: صحيح الترمذي ٣/ ٩٩ رقم ٢٥٨٤.

عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾» [1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ» [2].

من هداية الآيات:

❋ اسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم.

❋ ابيضاض الوجوه يوم القيامة علامة الإيمان والخلود في الجنة.

❋ تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه.

❋ بيد الله كل شيء فلا يصح أن يُطلب شيء من غيره أبدا، ومن طلب شيئاً من غير الله فهو من أجهل الخلق.

❋ التنديد بالشرك وبيان خطورته إذْ هو محبط للأعمال بالكلية.

❋ وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له. فلله الحمد والمنة. [3]

---

(١) صحيح البخاري ١٥ / ١٤.

(٢) صحيح البخاري ١٥ / ١٦.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٣٥.

نفختا الصور وأهوال الآخرة

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما جاء الحديث فيما سبق عن قدرة الله تعالى وعظيم قدره، أتبعه هنا ببيان كمال القدرة، وتمام هذه العظمة.

التفسير الإجمالي

تذكر الآيات الكريمة هنا بعض أهوال الآخرة وأحوالها، كما تعرض لبعض مظاهر القدرة التي يتنافى معها عقلاً وجود من يستحق العبادة معه سبحانه وتعالى.

والنافخ في الصور أي البوق إسرافيل قطعا إذْ هو الموكل بالنفخ في الصور فإذا نَفخ هذه النفخة صعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فهذا استثناء دال على أن بعضا من المخلوقات لم يصعق في هذه النفخة، ثم نفخ في الصور نفخة ﴿ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وهذه النفخة تسمى نفخة القيام لله رب العالمين لأجل الحساب.[١]

وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة، حين تجلى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد، وأحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب، وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال السدي: هم الذين استشهدوا في سبيل الله.[٢]

وقُضي بين العباد جميعاً بالقسط والعدل وهم في الآخرة لا يُظلمون شيئاً من أعمالهم، لا

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٣/ ٤٣٦.

(٢) يراجع: مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٩.

بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

قال ابن جبير: لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، بل جوزي كل إنسانٍ بما عمل من خيرٍ أو شر. وهو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة. (١)

من هداية الآيات:

* تقرير البعث والجزاء بيان أحواله.
* بيان عدالة الله في قضائه بين عباده في عرصات القيامة.
* فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها. (٢)

مآل الأشقياء والسعداء

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى – فيما سبق – أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال:﴿ وَوُفِّيَتۡ

(١) صفوة التفاسير، للصابوني ٣/ ٨٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٣٧.

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ ﴾ بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب، ثم كيفية أحوال أهل الثواب، وختم السورة. (١)

التفسير الإجمالي

بعد الفراغ من الحكم على أهل الموقف، وذلك بأن حكم تعالى فيهم بحسب عملهم فوفّى كل عامل بعمله، من كفر ومعاصٍ، أو إيمان وطاعة، قال تعالى مخبراً عن مصير الفريقين:

وسيق الذين كفروا بالله ورسله إلى جهنم جماعات، حتى إذا جاؤوها فتح الخزنة الموكَّلون بها أبوابها السبعة، وزجروهم قائلين: كيف تعصون الله وتجحدون أنه الإله الحق وحده ؟ ألم يرسل إليكم رسلا منكم يتلون عليكم آيات ربكم، ويحذِّرونكم أهوال هذا اليوم ؟ قالوا مقرين بذنبهم: بلى قد جاءت رسل ربنا بالحق، وحذَّرونا هذا اليوم، ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به. (٢)

قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]. (٣)

قيل لهم ادخلوا جهنَّم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعاتٍ جماعات راكبين على النجائب، قال القرطبي: سوقُ أهل النار طردُهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوقُ أهل الجنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين،

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٢٩٠.

(٢) يراجع: التفسير الميسر ٨ / ٢٨٩، أيسر التفاسير للجزائري ٣ / ٤٣٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٥.

كما يفعل بالوافدين على الملوك، فشتَّان ما بين السوقين. [١]

حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ ﴾ [ص: ٥٠]. قال الصاوي: والحكمةُ في زيادة الواو هنا « وفُتحت » دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها. [٢]

وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار طهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود.

قال البيضاوي: وجواب « إذا » محذوف، للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم، ما لا يحيط به الوصف والبيان. [٣]

قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا، وطابوا، وسُرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم. وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة. [٤]

قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣ ﴾ [مريم: ٦٣].

وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد، فنعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة.

وترى الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب، يسبحون الله ويمجدونه،

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) حاشية الصاوي ١٣ / ٣٨١.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٢.

تلذذاً لا تعبداً. وقُضي بين العباد بالعدل. وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه. (١)

قال ابن كثير: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل، بل أطلقه؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له سبحانه بالحمد. (٢)

وهكذا تنتهي جولات هذه السورة الكريمة ومقاطعها وآياتها بهذا الختم الرائع المؤثر، وبهذه الكلمات القوية المعبرة. وتنتهي القضية الكبرى بالقضاء العادل. وتختم السورة الكريمة بالحمد لله رب العالمين.

من هداية الآيات:

* بيان إهانة أهل النار بسوقهم إليها بعنف وإذلال.
* التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى.
* بيان إكرام الله تعالى لأوليائه، إذ يُحملون على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلاما. تحية احترام وإكرام، وسلام أمان من كل مكروه.
* بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار، واستقرار أهل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار.
* ختم كل عمل بالحمد فقد ابتدأ الله الخالق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم القضاء بين خلقه بالحمد، وقيل الحمد لله رب العالمين. (٣)

وأخيرا.. فهذه سورة الزمر، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان. ولكن حسبي أني حاولت

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٨٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٢.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٣٩ بتصرف يسير.

واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزمر

احتوت سورة الزمر على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* بيان إفضال الله تعالى على العباد في خلقهم ورزقهم.
* بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.
* بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.
* بيان إحاطة علم الله بالخلق، وعلمه بأفعالهم وأحوالهم ظاهراً وباطناً.
* الكشف عن طبيعة الإنسان قبل أن يهذبه الإيمان وهو أنه إنسان متناقض لا خير فيه ولا رشد له، فلا يرشد ولا يكمل إلا بمعرفة الله.
* فضل العالم على الجاهل لعمله، ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسّة والانحطاط.
* بيان عناية الله تعالى برسوله والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم أكبر المصائب الحرمان من الجنة. وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.
* فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه.
* بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.
* فضيلة أهل الخشية من الله؛ إذ هم الذين ينفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.
* تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين، وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.
* بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الناس لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود

لسنن التربية الإِلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.

* أهل الإِيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل، لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات لا يرون الآيات ولا يعقلونها.

* بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.

* دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإِسلام الخالص له. تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجرى في ساحته من أهوال وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت والموت أدهى وأمر حيث لا تقبل توبة بعد الموت أبداً.

* فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها.

سورة غافر

بين يدي السورة

أسمها وفضائلها.. محور السورة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين.

أسماء السورة

وسورة غافر وتسمى كذلك سورة المؤمن، (فقد روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير وآية الكرسي حفظ بهما - وكذا ترجمها البخاري)[1].

عدد آيات السورة

وهي من السور المكية وقيل: إن بعض آياتها مدنية وضعفه أغلب القراء، وآياتها (٨٥) خمس وثمانون آية في الكوفي، وعند البصريين اثنتان وثمانون آية، وفي الحجازي أربع وثمانون آية، وكذا في المصحف الشامي[2].

واختلاف عدد آيات السور بين القراء ناجم عن أن بعض القراء يصل الحروف المستقلة بالآية التي تليها من حيث أن آخرين يعتبرونها آية مستقلة، كما أن في ثنايا بعض السور تعتبر بعض الوقفات آيات مستقلة عند بعض القراء.

قلت أن سورة غافر من السور المكية، والسور المكية لها صفات تميزها عن السور المدنية إن كان في البناء اللغوي أو الموضوعات.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٧٥ برقم ٢٨٧٩.

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص: ١٤٤٥.

وإن أجملنا القول فإن السور المكية سور دعوة لتكوين مجتمع ليس له مثال في الواقع فيلزم أن ترسم صورة ذهنية واضحة المعالم في عقل المدعو لذلك المجتمع، في بنائه الفكري، في عقيدته، في أهدافه، في المنهج الذي يعتمدونه في حياتهم ويسيرون عليه في تحقيق أهدافهم، في علاقة أفراده ببعضهم وفي علاقتهم أفراداً ومجتمع بمن يخالفهم في الفكر والعقيدة.

كما أن الخطاب في السور المكية موجه للمشركين بغية هدايتهم وفي اعتبار الداعية أن بعضهم يحكمه العقل والمنطق وآخرين يخالفون عناداً ومغالطة وتكبراً، فتكون عبارة القرآن المكي قصيرة وتحمل معان كبيرة مهمة ومجملة.

فيكون هذا هو واقع السور المكية فنجد بعض الذين اسلموا أو كلهم يتجه إلى الدعوة ويُقبل عن عقل سليم ودراية، والذي يرفض غالباً ما يكون مغالطاً يدفعه التكبر وما هو فيه من مركز اجتماعي يحقق له مصالح اجتماعية واقتصادية وشهوات نفسية لا يريد التفريط بها.

ولذا فإن السور المكية تؤكد على وحدانية الله رباً وإلهاً وخالقاً وفاعلاً في الكون وأن هناك حياة بعد الموت، وأن الله أرسل رسلاً يعلمون الناس مالهم وما عليهم بما يريد الله منهم، وسيحاسب من أرسل إليهم الرسل فيعاقب عاصيهم ويكافئ بالحسنى طائعهم فيما أعد لهم في الحياة الآخرة. وهذه هي الأسس الرئيسية للعقيدة.

مرحلة نزولها

وسورة غافر المكية هي أول سبع سور تبدأ بحرفي﴿ حمٓ ﴾ فتسمى ذوات الحاميم أو آل الحاميم أو الحواميم وقد وردت هذه الأسماء في أحاديث وأخبار عن الرسول ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم فلا عبرة لمن كره هذه الأسماء أو بعضها. وكان ترتيبها في النزول ٦٠، فتكون قد نزلت بعد ٥٩ سورة، وقد قرأ بعضها أبو بكر الصديق ﷺ حينما آذى المشركون رسول الله ﷺ بأن خنقه ابن أبي معيط خنقاً شديداً فقال ﷺ وهو يكفهم عن الرسول ﷺ ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]. وهذه الحادثة بعد وفاة ابي طالب أي يقرب من السنة الثامنة للبعثة أو قبل الهجرة بثلاث سنين تقريباً.

وقد وردت أحاديث في فضائل الحواميم جملة، ومنها في حديث طويل عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أعطاني..... وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي)[1].

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (الحواميم ديباج القرآن)[2].

وروى أبو داود والترمذي عن المهلب بن أبي صفرة قال حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: (إن بيتم الليلة فليكن شعاركم: حاميم لا ينصرون)[3].

وهناك أحاديث غير ما ذكرنا في فضائل الحواميم جملة أما الأحاديث الخاصة في سورة غافر فلم يصح الا ما روي ان عمر بن الخطاب ﷺ استعان بمطلعها على هداية شخص وهو:

روى ابن أبي حاتم عن يزيد قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال: ما فعل فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب فقال فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ ثم قال لأصحابه ادعو الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كلام عمر بن الخطاب ﷺ، جعل يقرأه ويردده ويقول: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. ورواه أبو نعيم وزاد فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوا ووثقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه)[4].

---

(١) أخرجه محمد بن نصير وابن مردويه - فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ج:٤، ص: ٦٢٦.

(٢) فتح القدير ج ٤/ ص٦٢٦.

(٣) فتح الجواد الكريم في اختصار تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير.

(٤) فتح الجواد الكريم ج٤/ ص٧٦ عن الدر المنثور والحلية.

ذكر سيد قطب رحمه الله أن السورة تمثل الصراع بين الحق والباطل وأيده الصابوني وأضيف أنه الصراع العقلي ففي مكة ليس لديهم سلاح إلا العقل والمنطق.

والذي اراه أنها يتمثل بها السند العقلي الذي يعتمده المسلمون في الدفاع عن عقيدتهم كما أنها تذكر حجج المشركين أو واقعهم.

ولذا فإن محور السورة هو السند العقلي الذي يعتمده كل من الفريقين المتخاصمين في الدفاع عن عقيدته، وأدب الحوار بين المختلفين.

فكما سنرى أن جميع آيات السورة تدور حول هذا المحور وتتجلى بها حجج المتجادلين. وعليه فإن محور السورة هو:

الصراع العقلي بين الحق والباطل وأدب الحوار

واستدلال المؤمنين بالسنن الكونية والتاريخ الإنساني في مصارع الطغاة ومصير الظلمة أمماً وأفراداً وإبراز نصر الله لدعاته والمؤمنين بشريعته وعقيدته المدافعين عنها أن في المحاججة أو الوسائل المتاحة في كل عصر. وفي كل مجتمع بما يناسبه، وفي السورة يبرز دعاء الملائكة للمؤمنين وتوسلهم إلى ربهم بغفران ذنوب مؤمني البشر وإدخالهم الجنة مع أزواجهم وذريتهم الصالحين.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

أن المسلم يتحرى رضاء الله وغفرانه عنه في الدفاع عن عقيدته والدعوة لها فيأتي بالحجج والبراهين التي بيّنها الله عز وجل في القرآن الكريم.

فيخاصم ويحاجج في سبيل رضاء الله وابتغاء غفرانه. فسميت سورة غافر أو سورة المؤمن إذ تتجلى صورة المؤمن وأدبه في حوار المشركين أو الذين يبتغي هدايتهم.

علاقة السورة (سورة غافر) بما قبلها

آخر سورة الزمر وعلاقتها بسورة غافر

والتي تليها سورة غافر والعلاقة بينهما واضحة حيث الكلام على أهل الجنة وكيف يدخلونها وصورة غافر تبين أن الله غفر ذنبهم وقبل توبتهم فقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يتلائم مع مقدمة سورة غافر كما أن الحديث قبل هذه الآيات عن الذين سيقوا إلى جهنم.

فيكون الحديث ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ **فكأنه يفرض سؤالاً عن سورة الزمر وهو:كيف كان؟ فيجاب هذا هو مصيرهم الذي أدى إليه عملهم والذي قرره الله لهم، وفي سورة غافر الدفاع العقلي عن عقيدة المسلمين ضد حجج المشركين فيكون آخر سورة الزمر أو موضوع سورة الزمر نتيجة لما قدمه المؤمنون من مقابلة المشركين بالحجج فهذه السورة تبين ما أوصل المؤمنين إلى الجنة وما أوصل المشركين إلى النار.**

المناسبة بين افتتاحية السورةوخاتمتها

أنها بدأت بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

وفي خاتمتها يذكر الله عز وجل أنهم لما رأو بأسه قالوا: آمنا وهذه في الآخرة وهذا الايمان لاينفع لأن الله عزوجل جاءهم بكل ما يؤدي إلى الايمان والتوبة في الحياة الدنيا فلما أصروا على كفرهم كان مصيرهم إلى العذاب والنار فلاتنفع عندئذ التوبة ولا الإيمان.

المقدمـــــة

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

ولقد ذكر في المقدمة أن الله قسم الناس إلى قسمين بناء على موقفهم من الدعوة؛ ذكر الله جل وعلا أنه قابل التوب وغافر الذنب لأن كل ابن آدم خطاء فمن عرف خطأه وعاد إلى الطريق المستقيم الذي رسمه له فيتجاوز عن خطئه ويقبل عودته وهو شديد العقاب للذين يصرون على كفرهم وعنادهم.

وهذه المقدمة للمتجادلين فالذي يظهر له الحق ويتوب إليه والذي يصر مستكبرا معاندا مغالطاً.

التفسير الاجمالي

تبدأ سورة غافر بمقدمة هي بمثابة مقدمة الكتاب فاختصر وصف ما في السورة ومنهجه وغايته.

﴿ حمٓ ﴾ أرجح الآراء على أنها والحروف التي في أوائل السور دليل إعجاز أو صورة تحدي للمشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن المتكون من هذه الحروف والذي حمله نبي أمي عن ربه عز وجل.

هذا المنهج تنزيل من الله الذي لا يصل إليه مخلوق بقوة ولا بعقل ولا يمتنع عنه مخلوق بأي وسيلة، هذا الكتاب الذي يحوي هذا المنهج وهذا الطريق الحق الواضح نزله من يعرف ماذا يريد خلقه وما يصلح لهم وما يصلحهم.﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

هو الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يريد وهو الذي ركب به ما يطيع به وما يعصى به فهو الذي كلفه ويعلم أن أغلب أفراده لن يقوموا قياماً صحيحاً فيما كلفوا به ولا يؤدونه كما ينبغي فجعل لهم طريقاً يعودون به إليه ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ لمن استغفروا وقابل التوبة التي يعودون بها

إلى الله وإلى الطريق الذي يوصلهم إليه والتوبة: الرجوع من الفعل القبيح إلى الفعل الجميل ومن أركانها الندم على الفعل والإقلاع عنه والعزم على عدم العود والعمل الصالح وهو مع قبوله التوبة عن عباده النادمين على خطئهم هو شديد العقاب لمن أصر على ذنبه وعاند في أمر ربه وتمادى في طغيانه ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

وأنه قادر على معاقبتهم فهو ذو النعم وذو المقدرة على المجازاة التي من جنس عمل العباد ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ صاحب المن والفضل والغنى والقادر عليها.

فلا متصرف بالكون سواه ولا تجب طاعة غيره ولا مقدرة لأحد أن يضع طريقاً يصلح للعباد ويصلحون به سواه عز وجل فهو ذي الطول (النعم والمقدرة) ولا إله غيره.

وسيؤول الناس إليه حتماً يوم القيامة فلا مفر لهم من الحساب ولا طريق لهم عن المساءلة والوقوف بين يديه. (إليه المصير).

علاقة المقطع بمحور السورة:

فالسورة كلها تتكلم عن طريقين وعن فريقين كل يدافع عن طريقه ومنهجه وهذان المنهجان يؤديان إلى وجوب العقوبة واستجلاب الغفران.

فقد أجملت هذه المقدمة هذين الطريقين وغايتيهما والسبيل إلى أي منهما ومصير متبعي الطريقين.

فمن هداية الآيات:

* إن الله جل وعلا هو المصدر الوحيد للقرآن الكريم فيكون تصديقاً لنبوة الرسول ﷺ.
* وأنه تعالى رسم طريقين للإنسان أيهما شاء وأعطاه الحرية في إتباع أحدهما وهذان الطريقان هما الصلاح والفساد ودلل عليهما بنتائجهما وهو غافر الذنب لمن أراد لنفسه الصلاح وهو يقبل عودة عباده إلى الطريق السليم إن أسرفوا على أنفسهم وظلموها بالعصيان ثم استغفروا وهو شديد العقاب لمن تمادى في غيه حتى نهايته فمات كافراً.

* هذا التقرير من لطف الله عز وجل بعباده لأنه لم يغلق أمامهم طريق الصلاح إن تركوه فترة في حياتهم ثم عادوا إليه تائبين.

نشاط المشركين العقلي ضد الرسل

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ﴾

علاقة المقطع بما قبله

آيات المقدمة قسمت الناس إلى قسمين وهذه الآيات بينت عقيدة أحد هذين الفريقين وكيف ينظرون إلى الدلائل التي تبين العقيدة الصحيحة ولقد وضع الله عزوجل في هذه الآيات قاعدة ثابتة وهي أن الذين يتصدون لنقاش آيات الله ومحاولة تكذيبها والتشكيك بها هم الكفار أصلاً والذين أغلقو قلوبهم وعقولهم عن الحق وأنهم ليسو بدعاً في البشر فإن جميع الرسل واجهوا هذا النوع من البشر، وقد بين الله للمسلمين أن تنعم هؤلاء ليس تكريماً لهم.

التفسير الإجمالي

يبدأ الصراع والمحاجة بذكر موقف المشركين وجدلهم الذي يريدون فيه التكذيب والمماحكة ولا يريدون فيه محاولة فهم الطرف الآخر والانصياع إلى حقه إن كان عنده حق وتصحيح توجهه إن كان عنده خطأ ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.. فيستخدمون مراكزهم الاجتماعية ونفوذهم وثرواتهم في صد الناس عن الإيمان، فنبه الله نبيه ﷺ إلى هذه الناحية ﴿ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ فإن تمتعهم بالدنيا وحيازتهم أسبابها أو أسباب التمتع بها لن يعفيهم من سوء المنقلب وسوء المصير، وهذه المراكز وهذه الحيثيات لا تجعلهم على الحق

ولا تؤهل باطلهم ليغلب الحق الذي جئت به. ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

سبب نزول هذه الآية: انها نزلت في الحارث ابن قيس السهمي لانه كثيراً ما كان يحاول رد دعوى المؤمنين.

فقد مضت سنة الله في الذين كذبوا الرسل وعاندوا الحق وغالطوا في جدالهم وتكذيبهم ثم حينما أعيتهم الحيل ولم يجدوا ما يدفعون به الحق حاولوا قتل رسلهم ومنهم من قتل الرسل الذين جاؤوا بالحق، فبني إسرائيل قتلوا يحيى وزكريا، فإن من معاني الأخذ (الإهلاك) فهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه أي ليقتلوه.

ولكن الله يدافع عن رسله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر وأهلكهم ولم يصلوا إلى رسلهم الذين منعهم الله منهم. ولم يقصر إهلاكهم أو عذابهم على الدنيا ولكن الله أعد لهم عذاب الآخرة ومن الأحزاب هم الذين تضافروا لمحاربة أهل الحق وتحزبوا لباطلهم.

وقد أخذهم الله وعذبهم وأهلكهم بما يستحقونه ولم يظلمهم فقد حقت﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ والحق هو الثابت الواجب الصحيح. فقد وجب لهم العذاب وهم أهل له، فهم أصحاب العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين وهم أصحاب النار في الآخرة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﷺ في قوله ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ نزلت في الحرث بن قيس السلمي[(١)]. كما بينا عن أبي هريرة ﷺ: (الجدال في القرآن كفر)[(٢)]. وعنه قال ﷺ: (مراء في القرآن كفر)[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق: من

(١) [الدر المنثور في التفسير المأثور]جلال الدين السيوطي ج٧/ ص٢٧٢

(٢) الدر المنثور ج٧/ ص٢٧٢

(٣) الدر المنثور ج٧/ ص٢٧٢

أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ﷺ).

علاقة المقطع بمحور السورة

ان هؤلاء المصرين على الباطل يحاولون دعم باطلهم بالمنطق الأفلج والجدل العقيم وقد حرم الله هذا النوع من الجدل.

ومن الهداية في الآيات:

* إن الصراع بين الحق والباطل بين الصلاح والفساد محتدم منذ أن خلق الله الأرض وأنزل عليها آدم ونزل معه إبليس.
* فتذكر الآية أن نوح عليه السلام وهو أول رسول إلى قومه وإلى المجموعة الإنسانية فإنهم كذبوه وجادلوه بالباطل وقالوا ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ التي تعبدونها من دون الله.
* فلا يضيق صدر المؤمن الداعية إن واجه دعاة الشر أو وقف أمامه دعاة الفساد. وحاربوه بكل الطرق وبجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة فإنهم سرعان ما يتنكروا للمبادئ التي يعلنون تمسكهم بها إذا تعارضت مع مصالحهم أو جاءت لصالح المسلمين.

إعانة المسلمين على التصدي للمشركين

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ ﴾

علاقة المقطع بسابقه

بعد أن بين الله سبحانه جدل المشركين ودفاعهم عن باطلهم طمأن المسلمين أن الملائكة تكون لهم عوناً في تصديهم للباطل وتفنيد دعواته وأدعيائه.

وهم يستغفرون للمؤمنين ويطلبون لهم العون من الله ويطلبون لهم الجنة وهم ليسوا أي من الملائكة وإنما هم من الملائكة المقربين ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾

التفسير الاجمالي

الذين يحملون العرش هم الملائكة وهم من خلق الله المؤمنين به والذين ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] – والعرش خلق من خلق الله (ونحن لا نعرف ما العرش ولا نملك صورة له ولا نعرف كيف يحمله حملته ولا كيف يكون من حوله حوله. ولا يمكن أن يدخل في تصورنا وخيالاتنا.. ولا جدوى من الجري وراء صورة ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله احداً من المتجادلين عليها)[١].

ولكننا نعلم أن هناك خلق من خلق الله يحملون العرش، هؤلاء مؤمنون ويرجون الله إمداد مؤمني البشر وإعانتهم ويتقربون إلى الله لهذه الإعانة بالثناء عليه بقدرته وعلمه ورحمته

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج٥/ ص٣٠٧٠

هذه التي وسعت كل شيء واحتوته وعلمت ما يصلح له ويصلح به. وهي صورة من صور أدب الدعاء بتقديم الثناء لله بما هو أهله، فيا ربنا إن هؤلاء عبادك وقد كلفتهم بالدعوة إلى دينك وإعلاء كلمتك فلابد للعامل من الخطأ فاغفر له ولا تؤاخذه على خطئه وأعنه على سلوك الطريق المستقيم واهده إلى أقرب الطرق إلى النصر والشهادة التي ينالون بها أعلى الدرجات في الآخرة لأنهم (اتبعوا سبيلك).

ويا ربنا أدخلهم جناتك التي بها مستقرهم واجمعهم مع صالحي أهلهم فهي سعادة أخرى مع سعادتهم بجناتك. فإنك أنت الذي لا ينال أحد ما يريد لعباده ولا يصل إلى إرادته غيره وأنت الذي تضع الأمور بمواضعها التي هي أهلاً لها فإنك ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ربنا وجنبهم ما يغضبك ووفقهم لفعل الخير وتجنب الشر فإن أعنتهم على طاعتك واجتناب معاصيك فإنهم نجوا مما يؤذيهم وأدركوا أمانيهم﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

فإن رحمتك وسعت كل شيء وعلمك أحاط بعملهم وبنيتهم فإنهم اتبعوا سبيلك وساروا على نهجك وجاهدوا لإعلاء كلمتك ورفع رايتك وأنت أعلم بما في قلوبهم وبما يريدون، وهو انتصار الفريق المؤمن وإعانتهم على التغلب على الفريق الآخر وهو فريق المشركين المعاندين وتبقى السورة حول محورها والانقسام الواضح بين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة

في هذه الآيات يشير الله عز وجل إلى أحد الفريقين وهم الذين يدافعون عن عقيدتهم التي رسمها لهم القرآن الكريم وإعانة الملائكة لهم في حوارهم ومنافحتهم عن عقيدتهم

ومن الهداية في الآيات:

* وحدة المؤمنين واتحاد مشاعرهم ودفاع بعضهم عن بعض واعتبارها من دواعي الإيمان أومن دلائله مصداقاً لقوله ﷺ: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**).

* كما أن الآية تبشر المؤمنين في الأرض أن الملائكة تستغفر لهم وتكون لهم عوناً على اتباع الطريق السليم وتجنب ما نهى الله عنه.

مصير المشركين وندمهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله عز وجل في الآيات السابقة استغفار الملائكة للمسلمين أظهر التمايز بين الفريقين لأن الملائكة التي تستغفر للمؤمنين هم الملائكة المقربون ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ ﴾

بين الله سبحانه في هذه الآيات مقته للكافرين الذين أصروا على كفرهم حتى بعد بيان الحق والعدل والصواب وبين الله لهم أنه اكثر بغضاً لهم من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة حينما يرون العذاب ويندمون على فعلهم في الدنيا واتباع شهواتهم.

التفسير الاجمالي

ثم حينما رأوا أنفسهم في النار ندموا أشد الندم وحقدوا على أنفسهم وحنقوا عليها لأنها سلكت كل السبل حتى تدفع الحق الذي جاء به الرسل، فيقال لهم يوم القيامة أن الله حنق عليكم وأبغضكم أكثر من بغضكم أنفسكم فإنه حينما أرسل رسله بالحق وتشهد لهم كل السنن الكونية والقوانين الإلهية وفطرة الإنسان ونزعاته الأصيلة ومع هذا كفرتم مع أنه هيأ لكم جميع السبل ورغبكم أشد الترغيب بالإيمان فكفرتم فكان بغضه لكم ومقته أكبر من مقتكم أنفسكم الآن حينما رأيتم العذاب. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ

أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

فأخذوا يتوسلون بالله وقدرته فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ فلا تقصر قدرتك على أن تعيدنا إلى الحياة فنؤمن لك ونصدق رسلك، والله تعالى حينما أرسل الرسل بالمناهج الحق والقوانين التي ترفع الإنسان وتعليه أن يعبد شيئاً هو صنعه، وتتحرى كرامته أراد من الإنسان أن ينظر بعقله إلى هذه الدعوة ويفتح قلبه لها فيعرضها على المنطق الحق ويقبل منها ما يصح في عقله ولا يقف منها موقف المعاند المغالط تعمي بصيرته شهواته وتحجر مكانته الاجتماعية وأحواله على عقله فلا يسمع إلا نداء المركز والنفوذ ودوافع الشهوة والملذات الجسدية، فجعله في امتحان وبين له مصيره في الحالتين في حالة الإيمان وحالة الكفر. فيقولون أحييتنا من عدم وأمتنا وبعثتنا.

فلما كفر بكل القواعد الأخلاقية وخالف جميع حيثيات المنطق التي تكلمت عن غيبيات فكذبها فلما رآها فلا فضل له في الإيمان بعد المشاهدة. ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾.

لأن الإيمان بوجود الله فطري فمشكلة الإنسان، في إشراك الماديات المحسوسة مع الله في الفعل في الكون. فإن شذوذ عقائد البشر أن يجعلوا فاعلاً في الكون مع الله شيئاً آخر.

وفي هذا اليوم في عالم المشاهدة علمتم أن الله هو الحاكم الوحيد في الكون وهو (العلي الكبير) وهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب ودعى إلى الطريق المستقيم والشريعة السمحة التي فيها حياة النفوس وسعادة القلوب.

فلماذا أصررتم وعاندتم ولم تسمعوا للحق الذي حاوركم به المؤمنون الذين يريدون لكم الخير والفلاح.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله غضب على هؤلاء الذين يسلكون كل السبل ويوردون جميع الحجج في الصد عن سبيل الله وعن شريعته فيجادلون بالباطل ويفرحون بالشرك وينضمون إلى المشركين أياً كان نوع شركهم وتبدوا حجتهم واهية لأن آيات الله واضحة لاينكرها الا مغالط.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الله يحب الإيمان لعباده ويكره لهم الكفر وهو أشد فرحاً بإيمان العبد من العبد نفسه وفي الحديث: (لله أفرح بتوبة عبده من احدكم كان على راحلته وكان عليها طعامه وشرابه فضلت منه في الصحراء فبحث عنها حتى أيس فنام فاستيقظ فإذا هي عند رأسه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح)[1].
* وكما يكون هذا فرح الرب سبحانه وتعالى بتوبة العبد وإيمانه. يمقت العبد الذي يدعى للإيمان فيكفر ومقته أشد من مقت العبد نفسه.
* وهذا مما يستدعي المبادرة إلى التوبة قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه التوبة.
* وأن الله يقبل توبة المرء ما لم يغرغر لأن إيمانه عندئذ يكون إيمان مشاهدة، وليس إيمان غيب، فليبادر قبل أن يقول: أرجعوني أعمل صالحاً فيما تركت.

---

(١) رواه مسلم، السراج الوهاج من مطالب صحيح مسلم ابن الحجاج _ الحسيني القنوجي البخاري.. ج ١١، ص: ٩.

من صفات الله تعالى التي تقتضي أن يفرد بالعبادة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

بعد أن بين الله في الآيات السابقة مقته وغضبه على الذين أصروا على الكفر بعد دعوة الرسل لهم إلى الايمان، بين في هذه الآيات أنه أوضح جميع الدلائل على وحدانيته وفاعليته في الكون وأنه سبب الرزق وهو الذي يختار الرسل الذين يبلغون دين الله لعباده ولم يعذب احداً إلا بعد أن يبين له الحق فيخالفه ويصر على الكفر فأنه تعالى لايظلم نفساً ولا يجازيها إلا بما قدمت.

التفسير الاجمالي

فالله عز وجل وضع في الكون كل ما يدل على وحدانيته من سنن وما به حياة الناس وما لا يمكن أن ينصرف إلا بقدرة واحد أحد، فرد صمد، فهو الذي يبعث لكم من السماء ما فيه صلاح الأرض وحياتها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾.. فهذا الماء الذي فيه حياة الأحياء ولو أنفق أهل الأرض كل ما لديهم من مال وقوة لا يستطيعون أن يوصلوا الماء إلى ما يصل إليه المطر الذي ينزل من السماء فيصل إلى الجبال وإلى الصحارى. ألم تكن هذه آية تدفع العقلاء إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفرده في الكون بالفعل والتصرف؟ وغير المطر كثير الذي ينزل من السماء كما ثبت أن الحديد يتكون في السماء وينزل إلى الأرض، والأشعة الضوئية التي يكون النبات بها غذائه.

فهذه كلها آيات تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى للعقلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهم الذين لا يجحدون الحق ولا يغالطون في سبيل المنافع المادية وهؤلاء هم الذين يعودون إلى الله في كل شؤونهم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

وعلى هذا يكون التوجه إلى الله وحده ولو أن هذا سيغيظ الكافرين الذين يرون الإنسان فاعلاً في الكون بفعله دون إرادة الله أو يتوجهون إلى غير الله في الفعل الكوني كالطبيعة وغيرها.

فلا يضيركم أيها المؤمنون أن تغيظوا المشركين في توجهكم فمهما أعطيتم لهم من أنفسكم فلن يحيدوا عن شركهم أو ما اكتسبوه من متاع الدنيا ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.. مجردين دعوتكم من أي شرك حتى للهوى والرغبة والسمعة هو الله الذي يحتل الرفعة والمكانة التي لا تنال ولا يتوصل إليها ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾.. وهذه المكانة هي التي يتفضل بها على عباده فيوحي إلى من يختاره منهم ليهدي النفوس الضالة ويرشد القلوب الحائرة ويبعث الروح في الكون المظلم فينيره ويوضح السبيل الصحيح والمنهج القويم الذي يرفع الإنسان ويعلي مكانته عن سائر المخلوقات ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا الوحي الذي هو روح النفوس وحياة القلوب فيه أيضاً الإنذار والتخويف من العذاب يوم القيامة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

فهو عز وجل صاحب العرش الذي يحكم به الكون وهو الذي يوحي إلى الرسل وسمى الله الوحي (الروح) لأن فيه روح الوجود وبه حياته وعنه تصدر آلاءه وكل ما يدل على الحياة.

يوحي إلى أنبيائه لينذر يوم التلاق يوم الحساب يوم إحصاء الأعمال حينما تلتقي الخلائق وتعرض عليهم أعمالهم فالمظلوم يعلم من ظلمه والظالم يعلم بم ظلم وتلتقي الملائكة والبشر والجن يعرضون جميعاً على الله عز وجل.

فهم ظاهرون عند الله وعند أنفسهم لا يخفى على الله منهم شيء، لا نية ولا عمل وكيف يخفى عليه وهو الذي خلقهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]. فقد خلق قلوبهم ويعلم لأي شيء تتسع وخلق جوارحهم ويعلم صلاحياتها وما تقدر عمله.

وجميع الخلائق وكل الوجود ينطق أن الحكم لله والملك لله والأمر والنهي لله والكون كله لله سبحانه، هو المتفرد فيما يفعل ويقدر هو ﴿ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.. فهي صيغة مبالغة من الغلبة والإذلال فله يذل كل شيء.

وقال المفسرون يسأل نفسه ويجيب والأولى أن يصدر السؤال منه والجواب هو حال جميع الخلائق والوجود برمته فكلها يقول لسان حالها لله الواحد القهار. والقهار من أسماء الله الحسنى، بذاته وبدلالته.

فتجتمع الخلائق ويجتمع المكلفون وغيرهم فيحاسبهم على ما أرسل رسله لهم به ويحجهم أنه وضع لهم منهجاً واضحاً وشريعة سمحة وأمرهم ونهاهم وأشار إلى سننه التي تدل على صدق الرسل بما جاؤوا به عنه.

ويتكلم من كان أعجم وينطق من لم يكن قد وضع للنطق أصلاً فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم والأرض التي ساروا عليها والماء الذي سقوا به زرعهم وأنفسهم وموطن سجودهم.

ويوضع الميزان ويستعد المحاسبون أو مسجلوا الأعمال وكل تعرض عليه صحيفة أعماله ويقرأها ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١]. ولكن ما هي حجتها وعن أي شيء تجادل وتحاجج وشهود كل نفس أدوات العمل التي حملته فخاصم بلسانه وسار برجله وبطش بيده.. وهكذا وكل هذه شهود فما هي حجته.. ؟.

ويتضائل المتكبرون وتذل الجبابرة ويتبرأ القادة من جنودهم وخدمهم الذين كانوا يطيعونهم في معاصيهم. ويعصون الله لأجلهم.

فتجزى كل نفس بما كسبت فالفعل هو الذي يؤدي بصاحبه إلى رضاء الله ورضوانه، أو

غضبه، وكل مكلف يحاسب عما كلفه الله به وكل مؤتمن يحاسب عن أمانته كيف أداها فإن الله لا يجزي بالحسنة إلا الحسنة وأن الله يرحم المذنبين التائبين بعد أن يريهم أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]. وبعد أن يراه بعينه ويعلم أن الله سجله عليه يغفر الله للمؤمنين التائبين ويغدق لهم العطاء أكثر مما يتوقعون.

أما الذين عاندوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وفتشوا عن الحجج التي يردون بها الأنبياء وفتشوا عن المبررات في كفرهم ونفاقهم، يعرض عليهم ربهم ما تكن صدورهم وما استحفظوا من نيات وأهواء ثم يعلمون أن الله لا يظلم أحداً بل يعفو عن كثير.

﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.. فالأدلة واضحة والجنايات مسجلة والأعمال محصاة فما الذي يؤخر الحساب!!!؟. ولأي جانب من المتجادلين يكون الحق.

علاقة الآيات بالمحور

تشير الآيات في المقطع إلى أن الله بين جميع البراهين التي يحتاجها المؤمنون في الدفاع عن عقيدتهم وإفحام المشركين المخاصمين ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن الهداية في الآيات:

* أن الله مصدر الرزق وهو مقدر الآجال وهذه لا تحكمها قيم الدنيا ولا يحددها الإيمان والشرك أو الطاعة والمعصية، فلا تنقصها المعصية كما لا تزيدها الطاعة.
* وإذا كان ذلك، كذلك فلا يخشى أحد على رزقه أو على حياته في قول الحق والجهاد في سبيل الله والسير على نهجه رضي من رضي وسخط من سخط.
* لا يملك أحد من البشر له شيء.. فإن جاهد في الله لإعلاء كلمته فإنه سيعيش سعيداً ويموت كريماً وهي أفضل له من حياة الخنوع والخضوع وموت الجبناء.

تقرير يوم للفصل بين العباد وأحوال الناس فيه

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في المقطع السابق بين سبحانه وتعالى أنه لم يكن أخذه بالعقاب أو جزاؤه للمخلصين جزافا أو تخمينا فإنه أرسل رسلاً يعلمون الناس ماذا يريد الله منهم ووضحوا لهم الطريق المستقيم والشريعة الحق والعقيدة السليمة.

وأنقذ بهم عباده من التخبط وظلم الطغاة وأنه الحاكم الأوحد في الكون وأن الكون ملكه وفي هذه الآيات ذكر الله عز وجل ان الله اعد لهم يوما يحاسبهم فيه وأن هذا اليوم قريب وأنه تعالى قد أحاط بأعمالهم وخلجات نفوسهم ويعلم مايسرون وما يعلنون فسيجمعهم في هذا اليوم ويحاسبهم عن فعلهم.

التفسير الإجمالي

وتعود المحاجة والجدل ويصدره بالإنذار والتهويل والترهيب وتحذيرهم اليوم القريب وهو﴿ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾فإنه يوم القيامة وسماه يوم الأزفة لقربه فمعنى أزف أي قرب فهو قريب جداً.

ثم يذكر صورة من صوره حيث الناس تحبس أنفاسها من هول ما يرون ينتظرون الأمر الإلهي ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ من الخوف والشدة كأن القلوب تترك مكانها لتصل إلى

الحنجرة وهو تعبير عن شدة الخوف انتظار المجهول المخيف وقد جاء ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ مملوءين غماً وكرباً ويحبسونه ويمسكونه مع عدم قدرتهم إخراجه لأن هذا اليوم لم يكن كأيام الدنيا الذي يحبس الإنسان غيظه وهو قادر على إخراجه، فعلى من كظم غيظه ومن أجل من هنالك ليس له أحد شافع أو منقذ مما هو فيه ولا متحمل جزء مما يجد ولا يمكن لأحد أن يشاركه كربه فإنه ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٧]. فلا صاحب ولا حبيب ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم فيسمع صوته وتجاب شفاعته. ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

عن أي شيء تجادل وبم تحاجج فإن محاسبك ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ فليس لك مهرب وليست لك حجة من التي كنت تتوسل بها في الدنيا فقد غابت عنك حججك وانعقد لسانك.

ومع هذه القدرة العظيمة والمعرفة الدقيقة فإنه لا يظلمك ولا يمنعك حقك بل سيقضي لك بالعدل والصواب ويقرر لك ما تستحق من الثواب أو العقاب. فحكمه العدل.

أما الآخرين الذين كانت هذه الجموع تتبعهم فإنهم لا يستطيعون تقرير شيء ولا حتى ما يخصهم شخصياً فإن الله تعالى وحده ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

كانت عقولهم معطلة ومنطقهم أفلج تدفعه الشهوات من ملذات الدنيا كالجاه والنفوذ والسيطرة على الأتباع فلم يعتبروا بمن سبقهم من الأمم التي خالفت أنبياء الله لهم ورسله إليهم وقد كانوا أشد قوة وأكثر إتباعا - كأن الخطاب لأهل مكة - فإنهم يعلمون أن هناك إمبراطوريات ودول أشد منهم قوة وأكثر إتباعاً وأقرب ما يكون لديهم من الأمثلة التي شهدها بعضهم هي قصة الفيل والملك الذي جاء بجيش جرار بكل عدته وعتاده ومعهم الفيلة لهدم البيت ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل:٥]. ألا يعتبرون بهؤلاء؟

ألم يعتبروا بالأمم التي خالفت الرسل وقد قضت سنة الله فيهم فمن سننه إهلاك الظلمة

أمماً وأفراداً وفي رحلاتهم إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم يمرون بمكان أهل الحجر ومدائن صالح وغيرهم ويرون آثارهم وكيف كانت قوتهم فأهلكهم الله تعالى بظلمهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ولم تكن تنفعهم قوتهم ولم تكن واقية لهم من عذاب الله وإهلاكه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.. واتقاء عذاب الله بطاعة رسله وإتباع دينه والائتمار بأمره وتجنب محارمه ونواهيه وقد كانت لهم الفرصة لتجنب عذاب الله بإتباع رسله.

فإن الله تعالى أرسل الرسل وأيدهم بالدلائل القاطعة التي لا ينكرها عاقل ولا يجنبها سوي.

ومع كل هذه البراهين والأدلة على صدق الرسل وصلاحية التشريع لحياتهم وسعادتهم ولم يكن في دين الله الذي أرسل به الرسل ما يتحرى مصلحة أحد بعينه ولا حتى الرسل أنفسهم.

فإن شريعة الله ودينه للإنسانية جميعاً بلا تفريق وكل ما فيها تدل على أنها تريد سعادة الإنسان وكرامته وفضيلته والمحافظة على الصورة الكريمة التي خلقه الله بها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]. ومن نظر إليها نظرة فاحصة بعقل نير وفكر مستقيم فلابد من أن يهتدي ويعتقد أنها تتحرى سعادته في الدارين.

ولكنهم كفروا بكل هذه البراهين وهذه الأدلة فحق لهم عقاب الله وعذابه ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وعلى هذا يظهر السلوك الحق والمنهج الصدق وهو الذي يتلاءم مع كرامة الانسان وجمال صورته التي أكرمه الله بها.

علاقة المقطع بالمحور

بين تعالى في هذه الآيات أن دفاع المشركين عن أنفسهم غير مجد فإن الحاكم يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور وأنه أنذرهم وحذرهم فلو أنهم حكموا عقولهم واستقبلوا حجج

المؤمنين بصدر رحب لأنقذوا أنفسهم مما هم في ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ لأن حجج المؤمنين تعتمد على كلام الله وسنة رسوله ﷺ

ومن الهداية في الآيات:

* أن الإنسان يجب أن يستحي من الله أكثر من الناس ويحسب حسابهم لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا لا يتهيأ لأحد فليعلم أن الله يرى فعله الخير ويرى فعله الشر فليحسب حسابه في كل شيء.
* وعلى الأمم والطغاة أن يعتبروا بمن سبقهم مهما كانت قوة الأمة وجبروت الأفراد فلا يفلتون من عقاب الله.

صور من مسيرة الدعاة وموقفهم وموقف أقوامهم منهم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة دعاهم لتدبرماحصل لمن سبقهم من الأمم وفي هذه الآيات أورد نموذجاً من هذه الأمم فقال لقد جاء موسى بالبراهين والأدلة على العقيدة الصحيحة ولا ينكرها إلا متكبر لا يريد أن يسمع الحق، فأعلن المؤمن ان العقل السليم والمنطق المستقيم ان نؤمن بما جاء به موسى والحذر كل الحذر من تكذيبه.

ولما كفروا بكل هذه الأدلة والبراهين أورد لهم نموذجاً وصورة لأمة كفرت بالرسول الذي أرسله الله إليهم وحينما أعجزهم البرهان وسقطت حجتهم لجؤوا إلى المغالطة التي ليس لها دليل. واعتمدوا على القوة والنفوذ فقرروا قتل الدعاة ونبيهم.

التفسير الاجمالي

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ونعلم أن السحر تأثير خفي في النفوس فلا يستطيع مدعيه أن يبرهن على حقيقته ولا يستطيع نافيه أن يبرهن على عدمه، فلما جاء موسى بالبراهين والأدلة القاطعة قالوا إنك تؤثر بالنفوس بعوامل غيبية خارقة للعادة فتخدع الناس بها.

فتأثيرك خداع وإدعاؤك النبوة كذب وافتراء.

والنماذج التي أوردها القرآن الكريم تشمل جميع أصناف الناس ذوي القوة والتأثير فمؤثر وقوته بطغيانه ومؤثر بقوته وقوة أسياده ومؤثر بقوة ماله، فهارون الطاغية المتجبر وهامان منفذ الطغيان ومزاول الظلم وقارون مسخر الناس بماله.

هؤلاء هم أصحاب القوة وأمثالهم في جميع المجتمعات وفي جميع العصور فلما أعياهم بحجته وسطوع برهانه وقوة حقه ﴿ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

ولم تكن لهم وسيلة إلا ﴿ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهذه هي طريقة الطغاة في كل عصر وفي كل مكان، فلم تكن هنا طريقة لإيقاف سريان الحق والهدى بين الناس إلا قتل حملته إذ لم ينفع الجدل والمحاججة.

والابتلاء الآخر مع قتل الأبناء ﴿ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ كما قال الله ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩].

ولكن الله سبحانه وتعالى أقوى منهم وأعلم بمكرهم وإبطاله ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ

إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ في ضياع وتخبط وهوان وتيه.

ثم هناك وسيلة أخرى وهي قتل صاحب الفكرة والداعية الأول ورأس الأمر، فإن قتل خمدت الدعوة وانفض الناس وعادوا إلى ما كانوا عليه من العبادة والسلوك. ولكن الله تعالى ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. ويرد كيد الكافرين في نحورهم.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾.. وقال المفسرون أن قوله ﴿ ذَرُونِيٓ ﴾ دليل ضعفه واعتقاده أن النصر لموسى وللمؤمنين فلا يقول القوي الطاغية (اسمحوا لي أقتل المخالفين لي الواقفين ضدي)، لأن الطاغية يفعل هذه الأفعال حتى لو خالفه اتباعه وحاشيته، وضعفه جاء من أنه رأى كثير من أتباعه وأهمهم السحرة آمنوا بموسى وهو وأتباعه لم تكن لهم حجة إلا المكابرة والمغالطة ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] وهذه أهم عوامل ضعفه ومنعه من الإيمان تكبره وطغيانه ومنع أتباعه بطشه ومصالحهم الشخصية المبنية على وجوده على هذه الحالة.

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أما إيمانه بأن رب موسى هو القوي ولكنه جاء بهذه الصيغة وهي التحدي والاستهزاء بقوة الخصم.

وهنا التعليل الأبدي للطغاة وذوي النفوذ ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ فخوف فرعون أن يغير موسى دين القوم ومنهجهم في الحياة وطريقتهم التي يتناولون فيها أمورهم، وبقول فرعون هذا يظهر الفساد والخلل في حياتهم الرتيبة أو السائرة على منهج معين.

يرى فرعون وجميع الطغاة والمنافقون أنهم على حق وأن منهجهم هو الأصلح للأمة وأن القوانين التي يضعونها للبلاد والعباد أحسن من شريعة الله وأن المصلحة والنجاح بطريقتهم وأن الذين يجاهدون في إصلاح المجتمع ويقدمون أرواحهم وما يملكون مقابل نشر الدعوة الحق (دعوة الله) ليسوا عقلاء ولا يعرفون مصالحهم ولا يدركون سعادتهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾.. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣].

وما محاربة الدعاة في عصرنا إلا صورة من تلك التي استخدمها فرعون وجميع الطغاة، فالدعاة (رجعيون، ظلاميون، متخلفون. يريدون تدمير المجتمع)، يدخلون الدين في السياسة والسياسة في الدين. ولا يستحون حينما يعوقهم أمر من الشريعة أو يريدون تبرير موقف ما أو تصحيح مسار جاءوا برجل دين ممن يصنعونهم وأفتى لهم، فلم يبعد (هؤلاء) عن فرعون لأنهم كثيراً ما يصفون المجاهدين بأنهم ضد الإسلام، وهذا رأي جميع طغاة الأمة.

يريد الطغاة أن يقولوا للناس أن الدين هو ما نعتقده والشريعة هي ما نقره وندخل الدين في السياسة بالطريقة التي نريد وليس لكم يا دعاة يا مجاهدين حقاً في الدفاع عن الدين وعن الشريعة.

ففرعون يخاف من موسى ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾.. وفي بعض القراءات ﴿ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وبهذه القراءة يراد حصول الاثنين (تبديل الدين وظهور الفساد)، والحقيقة كأنها علة ومعلول فتبديل الدين يؤدي إلى ظهور الفساد والفساد في رأي الطغاة هو ضرب مصالحهم في سبيل مصالح المجموع.

وأمام هذه المغالطات والهروب من الاعتراف بالصواب والحقيقة لا يسع الداعية إلا أن يركن إلى ربه ويستجير به مما يحاك ضده ومما يحاط به من عوامل النكوص والفشل ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.. فليس للدعاة إلا الله يلجؤون إليه يقيهم شر هؤلاء وقوتهم وبطشهم ونفوذهم وتقلبهم في البلاد.

ومن الملاحظ أن أهم عوامل الكفر ومجابهة الدعوة والإصلاح هو التكبر فإن ذا النفوذ يحز في نفسه أن يتبع رجل ليس له شأن وليس لديه ما يؤهله للقيادة خاصة وأن قيم القيادة لدى هؤلاء هو المال والنفوذ والسلطة.

فحينما أرسل الله تعالى، طالوت ملكاً ليقاتل بنو إسرائيل تحت رايته تلبية لطلبهم ﴿ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ فلما بعث طالوت ملكاً قالوا ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

واعتراض أهل مكة على الرسول ﷺ أنه لم يكن صاحب نفوذ ولا صاحب مال فقالوا: ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾.. وهذان الرجلان من القريتين (مكة والطائف) ذوي مال وجاه ونفوذ.

وإبليس حينما أمر بأن يسجد لآدم قال الله تعالى: ﴿ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾.. وأكثر المتكبرين لا يؤمنون أو لا يتيقنون أن وراءهم يوم يحاسبون فيه على ما فعلوا.

وصورة اخرى من صراع الحق والباطل والجدل حولهما ونقاش موسى لفرعون وعجز فرعون رد حجة موسى ومؤمن قومه فركن إلى أسلوب آخر غير الجدل وهو القتل لصاحب الدعوة.

علاقة المقطع بالمحور

في هذا المقطع تتضح جلياً صورة من صور الصراع الفكري ويظهر موقف المؤمنين وحججهم وموقف المشركين وحججهم فيدعي فرعون أنه يدعوهم إلى الحق وأن موسى يريد أن يبدل دينهم ويفسد عليهم حياتهم .

ويرد المؤمنون ان الواقع الذي يعيشه الناس في ظل فرعون وجنوده هو الفساد وأن موسى والمؤمنين يريدون رفع هذا الفساد عنهم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن جميع الطغاة يعتقدون أن الله لم يخلق أذكى منهم وأن كل ما يفعلونه صلاح وأن كل من عارضهم يريد للأمة الفساد وأنه موتور وأنه مفسد.
* فجميع الطغاة فرعون إذ يقول: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

ٱلْفَسَادَ ﴾.. مع أنه لا فساد بعد الطغيان ولا سوء بعد كَم أفواه الناس ومنعهم من قول الحقيقة التي تزعج الطاغية.

* ولذا فقد قال ﷺ: (سيد الشهداء الحمزة ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله)(١)..

وعند ذلك يجب أن يلجأ الداعية إلى الله ويستعيذ به من الطغاة بعد أن يؤدي واجبه تجاههم

حجج من الوقائع والسنن تدعوا إلى الإيمان

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة يبين قرار فرعون بقتل موسى وهنا يتبين إذا كان فرعون قد أعلن كفره وأمر اتباعه بالاعتقاد بصحة رأيه فما كان من المؤمن إلا أن يذكرهم بما حل بالأمم التي كذبت الرسل.

ولقد اقتنع بعض أتباع فرعون وأهله بصدق دعوة موسى عليه السلام وألزم نفسه بالحجج التي جاء بها موسى عليه السلام، فلما عزم فرعون قتل موسى ودرء ما أسماه فتنة بإزالة رأسها وهو النبي الكريم موسى عليه السلام، أخذت هذا المؤمن نخوته وغيرته على

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ابن حجر، كتاب المغازي.

دينه وعقيدته، ولكنه أراد إبعاد الخطر عن موسى عليه السلام بلطف ومن غير إظهار الانفعال والغضب فيكون هذا الأسلوب أقرب للإقناع.

التفسير الاجمالي

فقال مؤمن آل فرعون: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ دعوة لا تستوجب القتل بأي حال من الأحوال، كما أنه قدم الأدلة على عقيدته وعلى توحيده ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.. فإن كنتم ترونه مخطئاً فردوا أدلته وفندوا حججه وردوا دعواه بحجج أقوى تقنع الآخرين.

ويذكر جميع المفسرين قصة أبي بكر الصديق ﷺ، ومقارنته بمؤمن آل فرعون لحصول موقف للرسول ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ قريب الشبه من موقف مؤمن آل فرعون.

ولابد من الإشارة إلى أن أول رجل أسلم على يد رسول الله ﷺ وشهد الوحدانية لله هو أبو بكر الصديق، وإيمان أبي بكر ليس كأي إيمان، لأن أبا بكر الصديق ﷺ، كان من الرجال المهمين في المجتمع المكي فهو ممن انتهى إليه الشرف في الجاهلية كما تشير المصادر فقد كانت له الاشناق في الجاهلية (يقدر ديات القتلى من كل قبيلة) كما أنه نسّابة قريش ومن فرط ذكائه كان يعبر الرؤيا. فسخر هذه جميعاً لخدمة الإسلام وخدمة رسول الله ﷺ، فكان جهده ومكانته وماله (وكان ثرياً) في خدمة الدعوة من أول يوم أسلم وهو أول من أسلم من الرجال ذوي الشأن. فتخلى عن جميع هذه الحيثيات في سبيل الله.

فقد أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال: قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصديق ﷺ، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب ﷺ، أنه قال: أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس قالوا لا نعلم فمن؟ قال أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلتله، وهم يقولون أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا وينحي هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع (علي ﷺ) بردة كانت عليه، فبكى حتى أخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبون؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه.

إذن.. لقد جاءكم بالبينات من ربكم فما هي حجتكم التي تردون على هذه الدلائل؟ ثم عقب على هذا الانهزام أمام الحجج، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ حذفت نون يكن للتخفيف كما يقول اللغويون، فإن كان كاذباً فلن يضركم كذبه أما إن يجلب عليه عار وسقوط في الدنيا أو عذاب الآخرة كما يعتقد هو ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ ولكن صدقه سيؤدي إلى أخطار عليكم تجنبها ثم أن سلوكه وشخصيته واستقامته أقرب إلى الصدق منه إلى الكذب فإن ﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ وأن اللـه ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].. فكيف وسلوكه وشخصيته وجميع تصرفاته تدل على الصدق وعلى انتهاج السلوك الصحيح وهذا كله من هداية الله وتوفيقه له.

فإذن لو أمنتم له أو تركتموه يؤدي دعوته مع قومه – بني إسرائيل – خير لكم وأفضل من محاربته.

لأن صدقه يعني تحقيق وعيده لكم فإذن بعض الذي يعدكم الهلاك والدمار فالأولى لكم ألا تتعرضوا له بسوء، قال المفسرون: بعض هنا تعني الكل ورجح آخرون منهم أن معنى بعض على حقيقتها وهي الجزء ولا حاجة إلى صرفها إلى المعنى المجاز أو المحتمل.

وأن جزءً من وعيده هو الهلاك فلا أقل من تركه وما هو عليه فإن لم تصدقوه فاعتزلوه

﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الدخان: ٢١]. وفي الأثر أن رسول الله ﷺ قال: (ويح قريش أكلتهم الحرب فلو تركوني والناس، فإن ظفرت فعزي عزهم وإن كانت الأخرى فهي ما يريدون). وحينما حاججه عتبة بن ربيعة حينما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن قال والله ما الذي سمعته شعر ولا سحر ولا كهانة فلو أنكم تركتموه والناس فإن أصاب عزاً فلكم وإن كانت الأخرى فهو ما تريدون فقالوا له سحرك محمد.

ثم استمر مؤمن آل فرعون يحاجج قومه فقال: لكم الملك اليوم ولكم الغلبة فهل أنتم على يقين من بقاء هذا العز وإذا كان بيده هلاك فأين تذهبون من حساب الله وعذابه، وبأس الله: عذابه.

وما حل بالأمم نعرفه فإن جاءتنا داهية مما أصابتهم فما أنتم فاعلين فأجاب فرعون جواب جميع الطغاة والمنافقون ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾..

فأجابهم أنه لا يرى لهم الا ما يراه لنفسه من العقيدة والمنهج والسلوك وأن عقيدته التي يراها لهم هي الطريق الصحيح والمنهج السليم والنظام الأمثل وأن موسى يريد أن يغير نظام حياتكم ويوردكم التعاسة والعذاب في الدنيا.

وفرعون في هذه المقولة كاذب أولاً لأنه كما مر بنا اعتقد بصحة دين موسى ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾.. ولكن كبر في نفسه أن يطيع موسى وهو الوليد الذي تربى في بيوتهم وأنفقوا عليه حتى كبر وبعث، كما أنه كيف يكون سبيل الرشاد هو العبودية لفرعون يقتلهم كما يريد ومتى يريد ويسخرهم في أهوائه ومشاريعه من غير اعتبار لكرامتهم وإنسانيتهم. وحينما قيل للمنافقين ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١]. وهناك دليل على صدق موسى وهو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أي أن الله تعالى لا يجعل عمل وسلوك المسرفين وهم متجاوزي الحد في الآثام والمعاصي فلا يجعل سلوكهم منظم مقبول كموسى عليه السلام.

علاقة المقطع بالمحور:

وهذه الصورة الصادقة لقولة الحق وحجة المؤمنين تتمثل في جدل مؤمن آل فرعون مع قومه. ومن خلال قصة مؤمن آل فرعون يعلمنا الله عز وجل أدب الحوار والأسلوب المقنع الذي يقتضي اتباعه من قبل الدعاة ليكون سبيلاً لنصرة الدعوة وجذب اهتمام الناس وشحذ عقولهم وايقاظ قلوبهم لتتقبل الحق الذي عرضه الداعية.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية لا يتقاعس عن قول الحقيقة والنصح للحكام والدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الذي يقبله الناس ويجدي في جلبهم إلى الحق أو جلب أكثرهم وأن الداعية عليه أن يعرض الدعوة بأسلوب غير متشنج ولا نزق وإنما ينتقي الألفاظ والحجج التي يرضاها الحاضرون ويقتنع بها أغلب السامعين.

  فإن مؤمن آل فرعون قال: إنه لا يستوجب قتل من يخالفكم في العقيدة كما أن العقل والمنطق يقتضي رد حجته ومقابلة بيناته ببراهين تبطلها وإلا فالإيمان بها وترك العناد والتعالي.

* والاستدلال بالسنن الكونية وبتاريخ الدعوة ومصير الظلمة وعاقبة المغالطين، وعاقبة الدعاة إلى الله وسعادتهم بدعوتهم وسعادتهم بمصريهم.

* وترشدنا الآيات أن أسلوب الدعوة الترغيب الترهيب بأسلوب يبدو فيه الداعية أنه حريص على من يدعوهم وحريص على هدايتهم ونجاتهم من سوء العاقبة وهذه حقيقة الداعية فعلاً.

نماذج تطبيقية

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات السابقة

في الآيات السابقة ظهر المؤمن وظهرت حجته في نهيه عن قتل موسى وفي هذه الآيات تهديد مؤمن آل فرعون قومه من عاقبة قتل موسى وعدم الإيمان بما جاء به وضرب لهم المثل بالأقوام السابقة التي كذبت الرسل.

وذكرهم المؤمن بدعوة يوسف عليه السلام وكأنهم ندموا على تكذيبه ولكنهم قالوا أن الله لن يبعث بعده رسولا فما هو الدليل على ذلك... !!؟

فليس للمشركين حجة في التكذيب بالرسول الحالي الذي هوموسى عليه السلام.

التفسير الاجمالي

نقل مؤمن آل فرعون الحوار إلى ما يشبه التهديد أو هو تهديد مزين بالحرص على قومه وعلى عقيدته في آن واحد فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾.. وهم جميع الذين خالفوا رسل الله إليهم وحاربوهم، ثم أخذ يبين لهم بعض الأمثلة من هؤلاء المعاندين والكفار الذين يعلمون أخبارهم وما حل بهم ﴿ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ ﴾ وقد علمتم شأنهم وما حل بهم من الهلاك وهكذا شأن أمثالهم، والله عز وجل لا يجازي أحداً إلا بما عمل والجزاء من جنس العمل فلا يظلم الله أحداً.

فإن سننتم سنتهم فسيصيبكم ما أصابهم فيقول لهم أنه حريص على أن لا يصل حالهم إلى

حال هؤلاء.

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾.. وفسر أهل القرآن التناد بتفسيرين، الأول: التناد من النداء: وفي هذا اليوم (يوم القيامة)، ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾.. وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾، أو ينادى عليهم وعلى جميع المكلفين فأهل السعادة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. وأما أهل الشقاء ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٢][١].

والمعنى الآخر قال المفسرون التنادّ بتشديد الدال فيكون يوم الفرار والتنافر حيث ينفر كل من صاحبه أو ينفر كل من مصيره فيرد إليه مرغماً وينفر الأتباع من أسيادهم والأسياد من أتباعهم ويتبرأ كل منهم من صاحبه أو أصحابه.

يؤيد هذا التفسير (يوم تولون مدبرين) إذ ليس لكم ما يمنعكم أو من يمنع عنكم العذاب الذي تجزون به في ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ولا عن عذابه من مهرب وهكذا أدى بكم ضلالكم وتخبطكم إلى هذا المصير فليس لكم من يعيدكم إلى الصراط المستقيم بعد أن أوغلتم في الضلال والتخبط.

ويستمر مؤمن آل فرعون في الدعوة والتذكير ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.. فعاندتموه وكفرتم بما جاء وأعرضتم عن الهدى الذي أبانه لكم وبكل البراهين والأدلة حتى إذا هلك علمتم أنه على حق وربما تكونوا ندمتم على محاربته ولكنكم لم تعتبروا إنما أخذتكم نفوسكم المريضة إلى أهوائها وعادت بكم إلى مخالفة رسل الله.

فقلتم لن يبعث الله رسولاً بعد يوسف حتى نكفِّر معه عن سيآتنا فلما بعث الله موسى عليه السلام أنكرتم عليه وخالفتموه مع أن الدلائل التي جاء بها تساوي البراهين التي جاء بها

---

(١) تفسير الطبري ج ٣٤/ ص٤٠ (بتصرف)

يوسف والنبيون.

وهكذا تجاوزتم حدود المعقول في التكذيب والريبة فأولاكم الله ما توليتم من الضلال والكفر فوصلتم إلى مصيركم المحتوم لأن الله تعالى لن يرغمكم على الهدى والمنهج القويم إن أحبت نفوسكم الضلال.

ولكن الله يبين طريق الصلاح والإصلاح ويميز طريق الضلال والفساد فيختار العبد ما يريد مع أن الله زين طريق الهداية وبنى العقول على قبوله والمنطق على جدواه.

ولذا فإن الله تعالى قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾.. ولا يضل غيره فإن الذي يتجاوز الحدود المعقولة في عصيانه ويتردد في قبول الحق فهو الذي يضله الله.

وقد ذكر ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، لم يؤمن من آل فرعون إلا هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾[القصص: ٢٠]. والذي أراه غير ذلك إلا أن يكون مرفوعاً إلى الرسول ﷺ فهذا لا كلام فيه، أما نقل الطبري فربما يكون ضعيفاً. فإن كان الكلام عن عائلة فرعون فربما يكون الكلام صحيحاً، أما إذا كان من أتباع فرعون فلا يمكن أن يكون صحيحاً لأن أول من اسلم بعد المناظرة بين موسى وفرعون ودعوة السحرة، هم السحرة أتباع فرعون.

والسحرة كانت لهم مكانة عالية في اتباع فرعون وفي دولته كما تشهد جميع النصوص التي تحكي عن هذا العصر. وهذا هو ظاهر النصوص ولكن كيف نستطيع أن نجزم أنه لا يوجد مسلم سوى هؤلاء مع أن الذي نتكلم عنه كان يكتم إيمانه، ألا يحتمل أن يكون في آل فرعون من يكتم إيمانه غير هذا أو هؤلاء؟

غير أن هذا لم يحتمل التآمر على قتل موسى أو تقرير ذلك وقد كانت كلمة الحق أثنت فرعون عن قراره بقتل موسى فسلك مسلكاً آخر كما سنرى بفضل كلمة هذا المؤمن ولذا لا يستصغر أحد عملاً في سبيل الله مهما كان صغيراً قد تكون له نتائج طيبة كبيرة.

يتبع مؤمن آل فرعون جميع الاساليب ويدلي بجميع الحجج التي يحاول فيها اقناع قومه بالإيمان والدين الصحيح ونبذ ماهم عليه من العقائد الفاسدة.

علاقة المقطع بمحور السورة

لم تفارق السورة محورها في أي من أجزائها فإن مؤمن آل فرعون يأتي بجميع الحجج التي تدل على صحة دعوة موسى وصدقه ويبين لهم ذلك من الواقع الذي عاشته الأمم.

ومن الهداية في الآيات:

* أن الداعية يجب أن يتحلى بالخوف على مجتمعه وأمنه وأن يكون منشغلاً بإصلاحهم وإنقاذهم من المصير الأسود الذي ينتظرهم إن بقوا على ضلالهم وكفرهم.

  فإن مؤمن آل فرعون في جميع مراحل حديثه مع فرعون ومع أتباع فرعون الذين هم قومه يرى فيها جميعاً حرصه على إنقاذهم مما هم فيه من الفساد الذي يؤدي إلى تعاستهم في الدنيا والآخرة.

* كما أن الداعية يجب أن يختار الكلمات التي تخاطب عقول الناس وعواطفهم ويتجنب اللف والدوران حتى يتيه معه السامع. فنجد عبارة المؤمن صريحة في خوفه عليهم وفي الأخطار التي تهددهم وفي المصير الذي يسيرون نحوه.

حجج المشركين الداحضة

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

بعدما بين مؤمن آل فرعون حجته في الآيات السابقة لم يبق للمشركين الا المغالطات

فتبين هذه الآيات أن جدل هؤلاء عبارة عن مغالطات لأنهم لايملكون دليلا على صدق دعواهم في تذكيب الرسل وموسى عليه السلام بصورة خاصة.

ولكن طغيان فرعون وتكبره أوحيا له أنه على الصواب وزينا له رأيه وعقيدته الضّالة فما كان من المؤمن إلا أن يحذرهم سوء العاقبة وأن الحياة الدنيا رحلة قصيرة فلا يبدل العاقل الخلود بالحياة المؤقتة.

التفسير الاجمالي

وحينما يكون العقل والمنطق الإنساني مع قضية واضحة وحكمها ظاهر وحقيقتها لاتخفى على عاقل يكون الجدل حولها نوع من المغالطة والهروب من الإذعان للحق، فالذين جادلوا بقضية الإيمان وصلوا إلى القناعة التامة بصدق موسى عليه السلام ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ فأخذت المحاججة منحى لا يستمر به إلا المغالطون﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾.. فليس لهم دليل ولا حجة فإنهم بذلك يستحقون غضب الله ومقته ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾.. لأن المؤمن الذي يملك الحجج الواضحة والدلائل القوية على ما يقول حينما يأتي جاهل فيجادله بنكران كل الدلائل الواضحة لا يسعه إلا أن ينصرف عن الجدال محملاً بأشد الكراهية والحنق على هؤلاء الذين يعتمدون قوتهم ونفوذهم ومكانتهم

عند السلطان في التغلب على الحق الواضح.

وبعنادهم وتنكبهم الطريق فإن الله تعالى طبع على قلوبهم حيث أنها لا تسمع الحق ولا تقبله، وأهم الموانع في قبول الحق هو التكبر الذي يدفع صاحبه إلى المغالطة وحقيقته دفاع عن مكانته الاجتماعية أو نفوذه السياسي.

هذه المكانة التي صنعت منه جباراً وكما قال ﷺ: (لا زال الرجل يأخذ في نفسه حتى يكتب مع الجبارين الطغاة) أو كما قال ﷺ[1].

قلنا أن فرعون عدل عن قراره في قتل موسى بناءً على كلام المؤمن أو من أثره في نفسه فسلك مسلكاً جديداً في محاجة موسى عليه السلام، فقال لأعوانه ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ بناءً عالياً شديداً قد أصل به إلى ما يدل على صدق موسى ولكنه قرر إبتداءً ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ فهو لا يريد أن يصل إلى الحقيقة بأي شكل من أشكال البرهان حتى الذي اعتمده هو.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾.. فقد زينت له نفسه أعماله السيئة وحسن له منطقه الأفلج وقراره الأهوج وزين له اتباعه والشيطان ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤]. كل أعماله الحقيرة وتصرفاته الهوجاء التي تؤدي به إلى الهلاك وكيده السيء الذي سيحيق به لأن جميع تبريراته ستؤول بالفشل إذ ليس لها قاعدة صحيحة ولا دليل صحيح. ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ خسران.

جادل المشركون بكل ما أتاهم دينهم من حجج حتى بدوا عاجزين عن إقناع الآخرين ولا حتى إقناع أنفسهم فبدا لجاجهم وتلكؤهم وعدم استقرارهم على سبيل واضح ومغالطتهم في رفض الحق الواضح.

---

(١) الاساس في التفسير لسعيد حوى ج٩/ ص٤٩٦٢، رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

علاقة المقطع بالمحور:

تتضح جلياً علاقة هذه الأيات بالمحور الذي هو الصراع العقلي بين الحق والباطل وأن الذين يجادلون في أيات الله ليردّوها حجتهم داحضة ففي هذه الآيات تظهر صورة من صور الجدل العقيم الذي يتّبعه المشركون في دحض حجج المؤمنين

من الهداية في الآيات:

* أن المغالطين يكونون ممقوتين من الله ومن الناس لأن الناس تريد أن تستفيد من الموقف حتى لو لم يؤمنوا به فحينما يتكلم هؤلاء الذين ليس لهم حجة وليس عندهم ما يدفعون به الحق يشعر جميع السامعين بالامتعاض والمقت.

* كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

حجج أخرى للمؤمنين تستوجب التوبة والإيمان

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما قبلها:

وأمام اصرار الطغاة وأتباعهم ونكوصهم عن الحق ومغالطتهم في الأدلة العقلية والوقائع في الآيات السابقة ما كان من الداعية المؤمن إلا أن يفوض أمره إلى الله ويعتذر أنه قدم مايستطيع من النصح والتحذير وعلى ذلك وقاه الله شرهم ومكرهم. وفي هذه الآيات أخذت حجج المؤمن منحى جديداً فيها بعض التذكير وبعض التهديد فهو يرد على فرعون الذي قال: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.. بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، فليس لفرعون سبيل رشاد حتى يهديكم إليه، وإنما هو سبيل الغي والفساد لأنه يدعوكم إلى عبادة نفسه وإذلالكم وتسخيركم لغاياته وشهواته وإنما سبيل الهدى والإستقامة أن تعلموا ان هذه الدنيا متاع زائل انتبهوا إلى أن هذه الدنيا ليست ملكاً وليس لأحد أن يخلد فيها وليس فنائها مسبب فقد يموت الشخص وليس فيه علة وقد يعيش طويلاً وهو يحمل كماً هائلاً من العلل ولكنه يموت أيضاً فاعملوا الحياة لا فناء فيها وتهيؤوا العيش دائم تصنعوه بأيديكم، فإما أن تصنعوا حياة شقية شقاءً أبدياً أو سعيدة سعادة أبدية

التفسير الاجمالي:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الفراعنة كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولكنهم لم يتصوروها على حقيقتها، فقد يكونوا ورثوا هذا الاعتقاد من دين ولكنهم شوهوا صورته الحقيقية بأهوائهم.

فآثار الفراعنة تدل على أنهم يؤمنون بالحياة بعد الموت فأخذ المؤمن يرسم لهم الصورة الصحيحة للحياة الآخرة وطريق الوصول إلى السعادة فيها مخالفاً الصورة التي في أذهانهم، ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾.

إذاً هذا هو الطريق القويم.. السليم إلى السعادة الحقيقية سعادة الدار الآخرة، السعادة الخالدة الأبدية وليس طريق الجبروت وتسخير الخلق للنزعات الشخصية والمآرب العاجلة، وهنا يتجلى الكرم الإلهي والعفو الرباني فمن عمل سيئة فلا يجزى إلا واحدة تناسبها ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢٦]. لا تزيد ولا تنقص وهناك ميزان لا يخطئ ومن عمل حسنة خيراً مع أن الله أعانه عليها وحببها إليه وجعله منسجماً مع السنن الكونية مع هذا كله ومع أن الله خلق الأدوات التي يعمل بها الإنسان الخير والشر فإنه تعالى يجزي بالحسنة عشر أمثالها أو بغير حساب ولذا قيل (شقي من غلبت اعشاره). فهي الجنة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم ذكر فساد رأيهم وسفاهة مسلكهم ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾.. شتان بين الدعوتين والاتجاهين ونوعي المشاعر المؤمن يريد لقومه وللإنسانية الخير والصلاح وتجنب الأخطار، فيدعوهم إلى النجاة من نهاية هذا الطريق النجاة من أخطار هذا المسلك وأنتم تدعونني إلى النار إلى ما يوصل إلى النار ثم يبين ما الذي يوصل إلى النجاة وما الذي يؤدي إلى النار ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾.. وهذا هو المسلك الذي يوصل إلى النار.

فالكفر والجحود بالله والشرك به هو الطريق الموصل إلى النار، ثم أن هذا الكفر والشرك ليس لكم حجة تثبتون بها سلامة عقيدتكم ولا دليل يقنعكم أنتم فضلاً عن الآخرين بأن هذا الذي تشركونه مع الله في تدبير الكون أو في الضرر والنفع ثم يقول لهم إنني لا أجد ما يدفعني أو يقنعني بصواب شرككم ومن هذا الذي له صفات تؤهله ليتساوى مع الله.

فالله سبحانه وتعالى عزيز لا يدرك ولا يتوصل إليه أحد ولا يستطيعه أحد مع قوته وعزته وإقناعه على المخلوقات غفار لذنوب عباده التائبين الذين يراجعون أنفسهم ويتحرون الصواب في عقيدتهم وفعلهم.

حقاً إن الذي تدعون إليه أن كان فرعون أو أي أحد أو أي شيء لا يستطيع إجابة دعوتكم

ولا رفع الضر عنكم ولا جلب الخير لكم ثم هل يستطيع دفع الضر عن نفسه أو يستطيع أن يخلد في هذه الدنيا فهو ميت فهل لميت استجابة دعاء من يدعوه.. ؟.

فهو عاجز أن ينقذ نفسه في الدنيا والآخرة أو يجلب لنفسه الخير أو يدفع عن نفسه العذاب في الآخرة ولا في الدنيا.

ثم أنكم تعلمون أننا جميعاً سنعود إلى الله جل وعلا ويحاسبنا عما اجترحنا وأن المتجاوزين الحدود المعقولة والمقبولة في تصرفاتهم وفي تصوراتهم هؤلاء هم أصحاب النار، والتعبير (بأصحاب النار) ورد في القرآن الكريم كثيراً وهو يدل على أن النار كأنها خلقت لهم فهم يملكونها وتملكهم ولا يستطيعون عنها فكاكاً ولا منها هروباً. ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾..

فإذا كان مصيرنا إلى الله فليس لنا إلا أن نرضيه ونتبع رسله ونسير على النهج القويم الذي أراده لنا.

ثم جزم لهم أنهم سيتقابلون وأنهم سيجتمعون يوماً ويذكر بعضهم بعضاً ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾..

﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ٤٤].

كما أن الآيات تشير إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة وأمام الدين الحق. فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقبول الناس.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ ﴾ وإن دعوتي وجهدي وحججكم وخصومتكم كلها أردها إلى الله تعالى وهو يعلم حقيقة أمري وعنادكم فإنه ﴿ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

وقد أدى واجبه بالدعوة إلى الله وإلى دينه وشريعته ولا يحاسب عن النتائج ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف/ ١٦٤].

وحينما أدى واجبه بالدعوة إلى دين الله وتفنيد حجج المشركين والانتصار لله ورسوله

حينما فعل ما أراد الله وما كلفه به ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.. فإن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ويقيهم كل تدابير الأعداء التي تخفى عليهم ولا يخفى على الله منهم شيء.

ثم أن الله تعالى أنزل بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا حيث عذبهم بالجراد والقمل والدم وعذبهم بالغرق وهذا كله في الدنيا وفي الآخرة عذاب الله أشد وأنكى.

وهذه صورة من صور دفاع الله عن آله ودعاته، ومن أساليب القرآن الكريم في البرهان رسم الصور الصادقة المشاهدة الملموسة عن الحقائق التي يذكرها الله سبحانه وتعالى في محاججة المشركين والطغاة.

ولا تبعد السورة عن محورها فإن الذي آمن يمثل جانب المؤمنين في المحاججة فتراه يتخلق بكل الأخلاق التي فرضها الله للمسلمين إن كان في الإدلاء بالحجة أو في حرصه على هداية قومه.

ففي إعادة الخلق يذكر الخلق الأول الذي هو إنشاء من العدم، وفي نصر المؤمنين بذكر أضعف الجنود من الناحية المادية كيف تنتصر على أعتى الجيوش وأشدها تمكيناً ومن المفارقات أن جميع حروب المسلمين التي فتحوا بها الأرض وقوضوا الدول وأزالوا الطغاة وممالك الشرك، كان الجيش الإسلامي أقل من جيوش المشركين واليهود والنصارى وأحياناً يكون جيش المشركين أكثر من عشرة أضعاف جيش المسلمين.

وهذا حينما كان المسلمون يدافعون عن دين الله وشريعته وكلمته، أما حينما حاربوا من أجل مصالحهم الشخصية ومناصبهم وأموالهم ونسوا الله، فأنساهم أنفسهم.. فإن أقل الجيوش وأصغر الأمم غلبتهم، فحينما احتل اليهود فلسطين سنة ١٩٤٨ كانوا أقل من عشر المسلمين وأقل من عشر العرب الذين خاضوا الحرب، والصورة نفسها في ١٩٦٧.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق الآيات المحور في أيٍّ من حيثياتها فإنها أيضا تذكر إحتجاج مؤمن آل فرعون وطرح الدلائل على صحة رأيه ويذكر طرفاً من توجه المشركين وتفنيد حجتهم في هذا التوجه

الهداية في الآيات:

* لا تزال الآيات تعلمنا أدب الحوار وأسلوب الداعية الذي يجب أن يستخدمه الدعاة إلى الله تعالى، فهو يقتضي أن يذكرهم بالموت هذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد كافراً كان أو مسلم.
* ثم ينبههم إلى أن من المنطق والمعقول أن تكون هناك حياة بعد الموت وأن الحياة الدنيا ليست آخر المطاف.
* وأنه يجب عليهم أن يعرضوا رأي المؤمن على العقل والمنطق وعندئذ سيعلمون أنه يدعوهم إلى النجاة وأن المشركين لا تنفعهم أصنامهم ولا من يعبدون من حجر أو بشر لأنهم مثلهم قابلين للفناء ولا يمكن أن يحكموا ما لم يستطيعون تحقيقه لأنفسهم وهو النجاة أو الخلود.
* وأن الحاكم الوحيد والفاعل في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو الله وحده لا شريك له.

ندم المشركين على كفرهم حينما رأوا ما حذرهم منه الرسل

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه:

في الآيات السابقة بين الله عز وجل كلام المؤمن ونصحه لقومه وحذرهم من العاقبة وأكد لهم أنهم سيعلمون صدق دعواه حينما يحشرون ثم فوض أمره إلى الله

وفي هذه الآيات بين تعالى إستجابة دعوة المؤمن ووقاه شر مكرهم وأن آل فرعون وأتباعه سينالهم العذاب؛وهذا العذاب في الدنيا وفي القبر وبعد الحساب يوم القيامة.

التفسير الإجمالي

ويوم الحساب يتبين كل فريق حقيقة عقيدته وصواب مسلكه فيتبرأ الفرقاء من أتباعهم والأتباع من قادتهم

فما كان إلا أن يذكر الله بالقاعدة التي لا مناص منها وهي أن الله ينصر رسله وأتباعهم.

ونجى الله مؤمن آل فرعون مما دبروا له لقتله وأنزل الله العذاب بآل فرعون، به وبأتباعه وهذا العذاب في ثلاث مراحل وثلاثة أساليب، ففي الدنيا عذبه بالجراد والقمل والدم والغرق وغيرها وفي القبر يعرضون على النار صباحاً مساءً ثم يعذبهم يوم القيامة إذ يخلدهم في النار وفي النار يتجادلون ويتخاصمون فيقول الضعفاء الأتباع الرعاع للذين كانوا يقودونهم ويأمرونهم بكل القباحات، فهؤلاء الضعفاء كانوا في الدنيا أدوات الطغاة ينفذون طغيانهم مغمضة أعينهم عن الحق لا يرون الحق إلا الذي يأمر به الطغاة ولا ينتبهوا إلا في الآخرة حيث ترفع عن أعينهم الغشاوة وعن قلوبهم الأغطية فيقولون لرؤسائهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، ننفذ أوامركم فهل تفون بوعودكم حيث منيتمونا بالمصير السعيد، والآن لا نريد منكم إلا أن تتحملوا عنا جزءً من العذاب الذي نعاني منه في النار

فيجيب الطغاة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.. فلا أتباع ولا متبوعين وهذه الحالة جزء من العذاب وهو الندم واللوم والسخط على النفس كيف أطاعت هؤلاء؟ كيف باعوا آخرتهم بدنيا هؤلاء؟ ألم يكونوا حمقى بهذه الصفقة التي ليس لهم فيها إلا الخسران في الدنيا والآخرة.

ثم يتجه أهل النار جميعاً أتباعاً ومتبعون إلى حراس جهنم وحفاظها وهم جند الله في تنفيذ أمره ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهل لخزنة جهنم إرادة أو حول أمام حول

الله وإرادته وقوته؟ ثم إنهم يستحون من الله أن يطلبوا لهؤلاء الذين عصوا الله وحاربوا أولياؤه تخفيف العذاب.

فيقولون لهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، ألم يرسل الله لكم من يعلمكم صواب السلوك وصحة العقيدة؟ ويأتوا لكم بكل الدلائل والبراهين التي يقبلها العقلاء ويسترشد بها الأسوياء؟ ولكن خالفتم فطرتكم والمنطق السليم واتبعتم أهواءكم وغرتكم زينة حياتكم الدنيا وظهوركم فيها وتقلبكم فيها فاعترفوا بكل هذا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾.. فإذن سوف لن نطلب لكم أي تخفيف وإنما اطلبوه أنتم بأنفسكم وإن كنا نعلم أن طلبكم لن ينفذ ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾..

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع العلماء يستدلون على عذاب القبر بهذه الآيات.

وهناك أحاديث كثيرة على عذاب القبر قال ابن كثير: وهذه الآية ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور[1].

وقد أورد إشكال وهو أن هذه الآية مكية بلا خلاف وأحاديث عذاب القبر كلها عن حوادث في المدينة.

وفي تقديري لا يوجد أشكال حيث أن هذه الآية مكية فعلاً والاستدلال فيها لا غبار عليه، وكون الأحاديث التي رويت عن عائشة رضي الله عنها في المدينة لا تعارض بينها فربما لم يحتج الرسول ﷺ البرهان على عذاب القبر في مكة فلم يفسرها أو لم يذكر عذاب القبر هناك أو ربما ذكره ولكن لم يصل إلينا حديث يتكلم عن الاستدلال في مكة مع وجوده ونحن نعلم أن كثير من الأحاديث في مكة لم تصل الينا إلا في العهد المدني ذلك لأن المسلمين لم يكونوا في مكة لتسمح لهم ظروفهم بتناقل الحديث.

---

(١) فتح الجواد الكريم ج٤ / ص٨٨

علاقة المقطع بالمحور:

ويستمر اسلوب النقاش والمحاججة وهنا يتولى الله عز وجل الدفاع عن أوليائه فيبين أنه عزوجل وقى المؤمن ما يدبر له من الأذى وأهلك خصومه وعذبهم في الدنيا والاخرة وفي القبر. ثم يستمر النقاش بين المشركين أنفسهم ويبقى الطابع الغالب في السورة هو الصراع الفكري بين الحق والباطل.

الهداية في الآيات:

* إن الله ينجي الدعاة ويعصمهم من الزلل وأن من أنواع العذاب هو الندم على ما كان منهم في الدنيا حيث أنهم أطاعوا كبراءهم فتخلوا عنهم.
* وعلى المؤمن أن ينظر إلى الأمور نظرة فاحصة فلا يمار في الدين ولا في الشريعة ولا يطيع أحداً إلا إذا كان ذلك الأحد ملتزماً بحيثيات الشريعة وأن طاعته لأي إنسان يجب أن تقترن بما وافقه ما أمر القرآن الكريم والسنة والشريعة الإسلامية.
* ولا يدفع الإنسان الرضا أو الغضب على طاعة أحد أو سخطه وإنما يدور مع الحق حيث دار وهناك قول: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

عهد من الله على نصر المؤمنين

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

علاقة أيات المقطع بما قبلها:

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة نقاش المشركين فيما بينهم يطمئن الله أولياءه ورسله ويقرر حقيقة أن الدافع وراء كفر هؤلاء إن هو إلا كبر في صدورهم والحقيقة أنهم ينسون أو يتناسون حقيقتهم وأن هذا التكبر لايليق بمن هومحاط بعدمين ولا يملك الوجود الاول كما لايملك الفناء ووقته وسببه فإذن علام التكبر.

ولذلك بعد أن وقى الله مؤمن آل فرعون مما دبر له المشركون يقرر حقيقةً طالما يؤكدها القرآن الكريم وهي أن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

التفسير الإجمالي:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾.. وقد قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]. وفي آيات كثيرة يعد الله المؤمنين بالنصر.

ثم أنها الحقيقة التي لا جدال فيها أن الله ينصر أولياءه وينصر دعاته في الحياة الدنيا وهناك مسألة وهي أن الملاحظ والشاخص الآن غير ذلك فما هي الصورة التي تربط النصر بالمؤمن.

وما هو الإيمان وكيف يقاتل المؤمنون وعن أي شيء يدافعون أو يقاتلون حتى ينصرهم الله.

أولاً: الحقيقة أن المؤمنين الآن إما أن يكونوا مغلوبين على أمرهم فلا يقاتلون إلا في صف غير المؤمنين حيث أن المؤمنين الآن لا صف لهم ولا جيش لهم.

ثانياً: أن تحقق الإيمان في الجيش المقاتل لم يكن على الصورة التي يريدها الله لنصر المؤمنين.

فيجب أن يكون دافعهم للقتال الإيمان وهدفهم تحقيق الإيمان أو تسهيل وصول الإيمان للآخرين ورفع راية الإيمان (وتكون كلمة الله هي العليا). فقد قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[الأنفال: ٣٩].

والفتنة هي غلبة القيم والتقاليد الجاهلية على القيم الإيمانية أو الإسلامية حتى ليرى أن الكفر أولى من الإيمان أو الفعل الذي ينسب للكفر أولى بالإتباع من الفعل الذي ينسب للمؤمنين وللإيمان {أن تروا المعروف منكراً والمنكر معروفاً}.

فمنذ أفول الدولة الإسلامية (الخلافة) إلى اليوم لم يكن للمؤمنين جيش يقاتلون به المشركين كما لم تكن القيم الإيمانية هي الدافع ولا تحقيق الإيمان هو الهدف، فأغلب الجيوش في دول المسلمين تحكم بقيم وقواعد علمانية ويقاتلون عن تلك القيم المنحرفة.

وأوضح شيء الآن هو القتال من أجل تحقيق الديمقراطية فهل الديمقراطية بالشكل السائد في دولها تطابق الإسلام وهل الديمقراطية في أصل نشأتها هي إسلام أو يمكن أن تسمى نظام إسلامي.. ؟

فنجد أن مفهوم الديمقراطية حتى عند المسلمين مشوه وهي في دولها ليست إسلامية بل هي حرب على الإسلام في جميع أحوالها وقيمها.

فالنصر متحقق ونصر الله للمؤمنين وللرسل وفق المنطق السليم والعقل المستقيم إضافة إلى أن الله جلت قدرته هو الذي خلق هذا المنطق وسير هذا العقل.

فمن الطبيعي أن من يرسل رسولاً بمهمة يخلق له الظروف التي تسهل مهمته أو تنجح مسعاه، والمؤمنون هم الذين تحملوا مهمة الرسل ودعوتهم وقاموا بعبئها.

فما داموا يؤدون المهمة كما أراد من يكلفهم بها فهم برعايته ونصره فإذا انحرفوا عن

الطريق المرسوم أو تصوروا غير العقيدة الصحيحة أو استهوتهم الرغبات والظواهر فقاتلوا من أجلها فليس لهم من الله نصر ولا عون.

فينصر الله الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا ويحفظ كرامتهم وعزتهم وكذا يوم يقوم الأشهاد وهو يوم القيامة يوم تجتمع الأمم وتحضر الملائكة والنبيون فيشهدون الموقف وتشهد الملائكة على الأمم التي كذبت وتشهد الرسل الذين بلغوا ما أمرهم الله به.

والانتصار للأنبياء والمؤمنين إما أن يأخذ حقهم ممن ظلمهم أو ينصرهم في حياتهم وكما قلت إذا تحقق فيهم الإيمان وكان هدفهم من المقابلة إعلاء كلمة الله.

يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ وهو قولهم ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾.. والظلم هو ترك الأولى والتخبط بالعقيدة والسلوك، فهؤلاء الذين تركوا الحق الأبلج وتخبطوا في ظلمات الكفر والجهل مبعدون من رحمة الله ومخلدون في النار التي هي أسوأ دار وأقبح مستقر.

ويعود الكلام عن بني إسرائيل وعن موسى، فإن الله تعالى آتى موسى الهدى وهو المنهج الصحيح الواضح الرشيد وهذا المنهج الذي أرسل الله به موسى إلى بني إسرائيل جعله في كتاب وهو التوراة ولم يجعله كلاماً مجرداً من عوامل الثبوت والإتباع ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.. وورث بنو إسرائيل الكتاب من بعد موسى ولكنهم لم يؤدوا حق هذا الموروث مع أنه ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.. العقل السوي والمنطق السليم.

ثم يكون النداء للرسول ولأمته ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فإنه تعالى منجز ما وعدك فهو الثابت الواجب الصحيح ونصره قريب فكما نصر موسى على طاغيته ونصر غيره من الرسل فإنه ناصرك وما عليك إلا الصبر والثبات.

وفي تمام الآية يربط الله عز وجل النصر والسعادة والظهور على الأعداء بما كلف به عباده

من الواجبات ربطاً قد لا ينضبط بالمنطق المادي الإنساني فإن الله سبحانه جعل التسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما يشعر بالنقص. والاستغفار من الذنوب وتنقية النفس من جميع عوامل الشرك وجميع دواعيه وصوره هو العامل الأول للنصر والسعادة والرفاه، فقد قال عز وجل: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

وبهذا نعود إلى القاعدة الأولى وهي﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.. فإن نصر المؤمنين يتحقق بتحقق الإيمان الحق في النفس والهدف والوسيلة والإخلاص لله تعالى والعمل بسنته.

فإذن.. ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾.. وهو أن ترتبط بالله في جميع وقتك وتحسب حسابه في جميع تصرفاتك ولا تركن إلى شيء سواه. فالعشي والإبكار هي أطراف اليوم.

وأمر الله رسوله بالاستغفار قيل أمر لأمته وقيل أن الله كلما قرب الرسول درجة أمره بأن يكون أهلاً لها، وكان رسول الله ﷺ يستغفر ربه كثيراً وذلك كلما ارتفع درجة في القرب زاد شعوره بتقصيره والرسول ﷺ غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيكون استغفاره ﷺ لتتأسى به أمته ويعلم كل مسلم أنه أقل قرباً من الرسول ﷺ فيكون استغفاره أوجب وأكثر وهو مقدمة لكل دعاء.

وهناك مسألة توحيها الآية ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾.. وهي وجوب الاستغفار عند طلب أي نعمة لأنها السبيل إلى جلب النعم وهي الطريق الوحيد للنصر ولإجابة الدعاء، ففيها براءة الإنسان من كل مايغضب الله وهي (الذنوب).

علاقة المقطع بالمحور:

وفي نهاية المحاججة العقلية التي يبذل المؤمنون فيها مايعرفون من حجج وما يستطيعون من وسائل يقرر الله عز وجل نصر المؤمنين على مجادليهم وأن لهم السعادة في الدنيا والآخرة فلا تغيضهم مغالطة المجادلين وعنادهم

الهداية في الآيات:

جمعت هذه الآيات جوانب كثيرة من الهداية:

* أن النصر أكيد للدعاة وللمؤمنين المجاهدين لإعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته.
* وحدة الدين وأن الله أرسل جميع الرسل لتوحيده فلا تناقض بين الكتب التي نزلت على الرسل جميعاً ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنـزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٣]. وهذا الخطاب لبني إسرائيل ليؤمنوا بشريعة محمد ﷺ ورسالته.
* يجب على الداعية أن يتحلى بالصبر ولا يضجر ولا يسأم من الدعوة إذا أصابه أذىً في سبيل الله حين يدعو إلى شريعته فإن الظفر مع الصبر.

أسباب تمسك المشركين بشركهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله:

في الآيات السابقة بيّن الله أن النصر حليف المؤمنين فما عليهم إلا الأخذ بالأسباب والصبر في الجهاد والدعوة والإستغفار، وفي هذه الآيات يبيّن الله عز وجل أن المجادلين من المشركين لايدفعهم فكر ولا عقيدة سليمة وإنما الدافع الوحيد للجدل بهذه الصورة هو التكبّر.

ثم يبين الله عزّ وجلّ سفاهة المتكبرين وخفة عقولهم فإنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان وهي في وظيفتها وفي المساحة التي تحتلها في الكون لم يكن الإنسان إلا جزءاً يسيراً جدا من هذا الكون، فعلامَ التكبر إذن؟!!

التفسير الاجمالي:

واذا كان الموت حتماً وأن الساعة لا ريب فيها فما من عاقل إلا ويعمل لذلك اليوم ويتوجه إلى الله تعالى في غفران ذنوبه وقبول توبته

وإن الذين يتكبرون سيحشرون أذلاء ويدخلون جهنم صاغرين فالجزاء من جنس العمل.

وتبقى السورة مرتبطة بموضوعها ومحورها وهو الصراع العقلي بين الحق والباطل بين الإيمان والكفر.

تصدر السورة الحديث عن الجدل وفي وسط السورة والآن في قسمها الأخير.

ففي أول السورة بين لنا عز من قائل أن الذين يجادلون في آيات الله هم الكفار لأنهم يجادلون من أجل الجدل وليس من أجل الوصول إلى الحقيقة، فإن آيات الله واضحة ودلائله بينة فهم يجادلون متذرعين بمراكزهم الاجتماعية وطبقاتهم الاقتصادية والنفوذ السياسي ويجبرون الناس على تصديق كذبهم وتصويب باطلهم وتزيين خطئهم.

ثم يذكر الجدل الآخر دليله التردد والارتياب والطغيان وهو أيضاً دليل النفوس غير المستقرة والعقول غير المنضبطة وذكر الله تعالى هذا النوع من الجدل بأنه مصدر غضب وكراهية واشمئزاز من الله تعالى ومن المؤمنين لأن المغالطة تزعج كل ذي لب وتدعو لغضب كل من يحترم عقله.

فالله يغضب لأنه بنى المنطق السليم على أسس لم يستخدمها هؤلاء المجادلون والمؤمنون يغضبون ويمقتون هذا النوع من الجدل لأنه دليل عدم الوصول إلى الحقيقة ولا إرادة الصواب فلا طائل تحته.

ثم يعرج هنا على الجدل ثالثة ذاكراً سبب هذا الجدل فليس غايته الوصول إلى الحقيقة ولا معرفة الصواب وإنما سببه التكبر والنظرة الفوقية للناس فقالوا لنوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وفرعون قال أن له ملك مصر فكيف يؤمن لرجل رباه في قصره وقومه عبيد له.

وأهل مكة قالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، إذن لم ينظروا إلى كونه صواب أو خطأ ولا حق أو باطل وإنما قالوا أن حامله ليس بالمستوى الذي ننقاد له أو بالمكانة التي نؤمن بقيادتها وتصدرها. كما أنّهم قالوا كيف نجلس مع هؤلاء العبيد والضعفاء.

فالذين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.. فادعاء العظمة والتعالي من قبل الإنسان محض هراء، لأن كل ما في الكون وما في نفسه لا يدفع على التكبر، فالتكبر نقص في العقل وخطأ في التصور والاعتقاد وما تكبرهم هذا إلا خيال يتصورون أنهم يصلون إلى مراتب يسيطرون بها على خلق الله ويتحكمون بمصائرهم ولن يبلغوا هذه المراتب أبداً.

هذا التكبر يقتضي أن يستجير المؤمن بالله من مصدره ويلجأ إلى الله في دفع أذاه لأنه من أدوات الشيطان الذي يدفع أولياءه إلى العناد والابتعاد عن طريق الحق وطريق الصواب ويزين لهم أعمالهم القبيحة، فالله تعالى عالم به ويسمع ما يجادلون به والله عاصم أوليائه من أمثال هؤلاء.

أيها المجادلون ألا تعلمون أن الله خلق السماوات والأرض وما فيها، فليس مع قدرته قدرة ولا مع مشيئته مشيئة، فإعادة الخلق أهون من اختراعه وإبداعه.

هذا النظام الكوني الذي تسير عليه السماوات والأرض بما فيها من شموس ومجرات والتي لا يقدر قدرها وهي تسير وفق نظام دقيق لو خرجت عليه قيد أنملة لاحترق، فمن أنت أيها المتكبر ومن أنت ايها الناكر لقدرة الله على إعادة الخلق يوم القيامة ومحاسبتهم لما اجترحوا.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ وخلق الناس ابتداءاً أكبر من إعادتهم بعد الموت. كما أن في السماوات والأرض أشياء وأحياء أكثر تعقيداً في خلقهم وفي وظائفهم من الإنسان. فالسماوات والأرض ككيان وما فيهن من سنن والأرض وما فيها من حيوان أو نبات، خلقهم أكبر من خلق الإنسان. وعند الحساب لن يستوي الأعمى والبصير الذي عرف الحق وسار عليه وآمن بخالق الكون وانسجم مع حركة الكون ونظامه بنظر ثاقب وعقل سليم ونفس واعية مطمئنة، فإن الله خلق له أدوات المعرفة ﴿ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ حتى يعلم الحق من الباطل فلا يستوي هو ومن عطل هذه الأدوات أو استخدمها على غير ما وضعت له وخلقت من أجله.

فالبصير أداه بصره إلى الإيمان والأعمى أداه عماه إلى السوء فلا يستوون ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فنظر بسيط يعرف الإنسان أن هذه المساوات غير كائنة ولا واجبة قطعاً.

فحكم عقلك تنجو من العقاب لأن ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فلا تكن مع أكثر الذين لا يؤمنون مع أن الواقع وسير الحياة ونظام الكون كله يدل على ذلك فلو لم تكن هناك محاسبة وإحصاء للأعمال وعرضها في يوم القيامة لو لم تكن هذه لكان هناك ظلم في أصل

الخلقة وما شاء الله أن يفعل إلا الحق فلا يمكن أن يتساوى في المصير، فرعون وموسى ولا محمد ﷺ، وأمية بن خلف وأبو جهل، محمد وموسى واتباعهم أرادوا الخير للناس وضحوا من أجله براحتهم وسعادتهم الدنيوية.

وفرعون وأمية بن خلف وأبو جهل سخروا الخلق لشهواتهم وأطماعهم الشخصية فهل يكون مصيرهم بعد الموت واحد؟ لا يقول بهذا عاقل.

علاقة الآيات بالمحور:

لم تفارق السورة في أيّ من مقاطعها المحور لافي الإسلوب ولا في العرض ولا في الحقائق المعروضة وفي هذه الآيات أسلوب المحاججة واضح جدا ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

الهداية في الآيات:

* أن الصراع بين الحق والباطل يستغرق عمر الإنسانية جمعاء. كما أنه يستخدم جميع الوسائل العقلية والحسية ويصل أحياناً إلى المواجهة العسكرية.. وهنا تتكلم الآيات أن الجدل الذي أشارت إليه السورة في ابتدائها سببه الكبر والعناد وليس المحاججة الحقيقية والتسليم العقلي.
* ومن حيثيات النقاش الاعتراض على إعادة خلق الإنسان، أو بعثه بعد الموت والآية تشير إلى أن الله خلق أشياء كثيرة أعقد من الإنسان وأكبر منه، فليس من الصعب أن يخلق الله الإنسان ثم يفنيه ويبعثه مرة أخرى..

توجيه للمؤمنين لتوثيق رأيهم بالسنن الكونية

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

علاقة آيات المقطع بما سبقها:

ذكر الله في الآيات السابقة الدافع للجدل عند المشركين وأنه التكبر الذي ليسو أهلا له وفي هذه الآيات يوجه الله المؤمنين إلى الدعاء وأن هؤلاء الذين يتكبرون عن دعاء الله؛ وقرن الدعاء بالعبادة أو سماه العبادة، هؤلاء المتكبرون سيدخلهم الله في جهنم أذلاء حقراء

ثم بيّن تعالى صفات الله وكيف نظم الكون هذا التنظيم الدقيق الذي يعجز عنه غيره ويعجز البشر عن إدراك الحكمة فيه أحياناً؛ وهذه كلها حجج للمؤمنين في دحض حجج المجادلين من الكفار.

التفسير الإجمالي

هذه الدلائل تؤكد الحقيقة الثابتة والتي يعتقدها كل عاقل سويٍّ منصف، ولذا فاني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله وعلى ذلك يبدو الذين يجادلون في آيات الله مغالطون بعيدون عن أي حقيقة علمية أو عقلية.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ﴾.. وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تبين

مكان الدعاء من العبادة وقد ورد في الأثر (الدعاء مخ العبادة). وكذا قوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[١]، وإذا نظرنا إلى تعريف العبادة: بأنها الطاعة بذل علمنا أن العبادة تتجلى في الدعاء في أجلى صورها.

فالدعاء طلب الأدنى من الأعلى، وأن تطلب حاجتك ممن تعلم أنه يقضيها هو منتهى الذل، فكيف إذا كان هذا الذي يقضيها لا يستطيعها أحد بدون إذنه وتوفيقه كما يعتقد الذي يدعو؟

فالطاعة بذل أو من غير مراجعة الأمر ولا التفكير في معارضته أو منطقية سؤاله وطلبه فهي هذا الدعاء.

ومن فضله عز وجل وكرمه قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. حتى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: أنا لا أحمل هم الإجابة أكثر من هم الدعاء، فإذا وفقت للدعاء فالإجابة مقرونة به[٢].

ويروى عنه أنه كان يقول أدعو الله كثيراً وأتمنى أن لا تجاب دعوتي في الدنيا لأن الله يدخرها لي أجراً في الآخرة. وهذا هو قلب العارف بالله المستيقن به.

وقد ذكر العلماء أن للدعاء آداب يجب مراعاتها، منها الصدق وإخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها أو تخصيص وقت للإجابة فإن هذا الاقتراح ليس من أدب الدعاء.

وكما ذكرنا أن الدعاء طلب الأدنى من الأعلى فكيف بهذا الأدنى أن يقترح على من هو أعلى منه صورة إجابة الدعاء؟

والدعاء دليل ارتباط القلب بالله والخضوع له وإفراده بالعبادة والتوجه والتعالي عن كل ما عدى الله أن يكون موطناً للطلب أو مصدراً لتلبية الدعوة فالله وحده موطن الدعاء ومصدر الإجابة.

---

(١) سنن أبي داود (١٤٨١)، سنن الترمذي (٢٩٦٩)، السنن الكبرى للنسائي (١١٤٦٤) وأما لفظ «الدعاء مخ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) في ظلال القرآن ج ٥/ ص ٦٥٤.

وقد قرن الله قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.. بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.. فجعل الدعاء عبادة وعدم التوجه إلى الله دليل الكبر، والتكبر أولى درجات الكفر والعصيان وفي الحديث القدسي: (الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته ولا أبالي) وقد جعل الله التكبر جريمة يعاقب عليها يوم القيامة والعقوبة من جنس العمل، فالتكبر جزاؤه الذل والصغار ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أذلاء وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج: ١٠].

لأن أصحاب الأخدود فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالحريق فإذن الذين يتكبرون عن عبادتي ودعائي سينالهم ذل واحتقار يوم القيامة والله تعالى هو رب السماوات والأرض ورب الجنة والنار فهو المستحق الوحيد للعبادة والتوجه في الدعاء وقد ينالهم الذل في الحياة الدنيا.

ثم يوجه الأنظار إلى سبب التوجه إلى الله في الدعاء والعبادة فيقول سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾.. فهو الحقيق بالعبادة والتوجه في الدعاء لأنه الوحيد المتصرف بالكون وواضع نظام الليل والنهار والشمس والقمر والمتحكم بتسييرهما.

وهو عز وجل جعل هذا النظام الكوني في حركة الشمس والأرض وتكوين الليل والنهار، جعله ملائماً لحياة الإنسان وكأنه مكيف له ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧٢- ٧٣]. إذن.. طبيعة الليل والنهار لاستمرار حياة الإنسان وبقاء نوعه على الأرض إلى يوم القيامة.

فالليل للسكون (إذا سجى)، وللراحة والنهار لطلب العيش والنشاط الذي اكتسبه من سكونه في الليل فيرى ما يريد العمل به واستثماره وتحصيل مادة الحياة منه. ولا يوجد أفضل من هذا ولا يستطيع غير الله أن يهيئ هذا النظام للحياة، فمن حقيق بالشكر؟ ومن أحق بالعبادة

وأجدى بالطلب منه (الدعاء)؟

إضافة إلى ذلك فهو خالق كل شيء وموجده من عدم وواضعه في الصورة التي تصلح له ويصلح بها ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه: ٥٠].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾، فالحاكم الوحيد في الكون هو الله الذي لا إله إلا هو فإلى أي جهة تتجهون بعبادتكم وما هو الدافع لكم يصرفكم عن عبادة الله وكيف ستواجهونه يوم القيامة؟

ولا ينصرف عن عبادة الله وتوحيده إلا المعاندون الجاحدون المتنكرون لطبيعتهم وفطرتهم وإلا فكيف ينكر وجود الله أو وحدانيته أو إلوهيته؟ وجميع الدلائل العقلية والطبيعية والحسية تؤيد أنه لا إله إلا هو.

ثم تساق حجة أخرى على أنه لا إله إلا هو وهي: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾.. هذا النظام الكوني الجميل الذي جعله الله بأبهى صورة ليلائم أجمل صورة خلق فيها الإنسان سيد هذه الأرض وخليفة الله فيها، فالأرض مستقراً ومقاماً ومعاشاً نشاطاً، بدورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس مما يسهل العيش فيها ويجعل الماء (البحار) في مكانه واليابسة في مكانها ولو تغير أي من هذه الأنظمة لاستحالت الحياة على الأرض!.

كما يقول العلماء (وقد نقل صاحب الظلال رحمه الله) تفاصيل هذه الكيفية والذي أحب الإشارة له هو ذكر جمال صورة الإنسان من بين المخلوقات مع جعل الأرض مستقراً والسماء بناءً شديداً غليظاً ومن عليها من الملائكة جعلهم الله أدوات لتحريك أجزاء هذا الكون الملامس للسماء أو القريب منها. ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾.. فأحسن صورة الإنسان وأجمل نظام للأرض والسماء وأطيب رزق. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ ﴾.

وهذا الرزق الذي يعيش عليه الإنسان جزء منه يخرج من باطن الأرض وجزء منه ينزل

من السماء وجزء ثالث يتكون من اتحاد أجزاء من الأرض بأجزاء من السماء ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.. فسبحان خالق الكون العجيب وسبحان خالق الإنسان الأعجب وسبحان مربي هذا الكون وراعيه لم يخلقه عبثاً ولم يتركه بعد أن خلقه من غير رعاية.

فنظام الليل والنهار والأرض والسماء والرزق وتحسين صورة الإنسان آية من آيات صنع الله، وكلها مباركة من الله، فعظمت بركته وتعالى جده وما أجمل هذا التلاؤم في اللفظ والرصف في الكلمات، فهي جميلة في لفظها وجميلة في معناها وجميلة في ترتيبها.

فختم آية الفضائل التي تفضل الله بها على عباده بكلمة تبارك ما يدل على النماء والبركة إتماماً لجمالية الآيات وملائمة ما فيها من معان وألفاظ.

﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.. وكل شيء محاط بعدمين خلق من عدم ويعود إلى عدم في هذا الكون الدنيوي فلا يكون خالقها ومنظمها إلا واجب الوجود، فمن السفاهة والتخبط أن يتوجه أحد إلى غيره في الدعاء والركون والاستغاثة، فمن الحكمة أن يركن الإنسان إلى الله وينقي قلبه من أي نوع من أنواع الشرك ويتجه بكليته إليه ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فهو عز وجل الذي له الحمد في رعايته للكون وتربيته للإنسان ورعايته له. فأمرنا أن نحمد الله على أن أعاننا على حمل دعوته فتكون الدعوة بقلب مخلص حامد لله على هذه النعمة.

والله عز وجل لم يترك الإنسان يتخبط فكما جعل للكون نظاماً لا يمكنه الخروج عليه ولا ينبغي له ذلك فان هذا الكون محكوم بهذه السنن. والجزء الوحيد في هذا الكون الذي أعطاه جزء من الحرية في الاختيار هو الإنسان. ثم جعل له نظاماً لحياته منسجماً مع نظام الكون فإن خرج على ما وضعه الله له أغرق نفسه في ظلمات من الحيرة والريبة والتخبط ولا يمكن أن يحصل سعادته بما يصنع لنفسه من النظم المخالفة للنظام الإلهي الذي وضعه الله له.

والذي يحصل في هذا الكون في حياتنا الخاصة والعامة شاهد على حيرة الإنسان وتخبطه

وفقدانه أي نوع من أنواع السعادة إن كانت نفسية أو اجتماعية أو طبيعية ان لم يرتبط بالله.

فتماديه في مخالفة الله أدى به إلى مخالفة فطرته وطبيعته وأهدافه وسر وجوده. مما جعل حياته كحياة الحيوان في غابة، بل أن بعض تصرفاته يستنكف عنها الحيوان وكما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهل بعد هذه البراهين والحجج والأدلة لأحد أن يعبد غير الله ولذا فإن الله أمر نبيه أن يقول لهم أنه يستحيل أن يعبد هذه الأحجار والجمادات، لأن الله هداه إلى العبادة الحق وأمكنه بالدليل بترك كل ما يعبد أهل الجاهلية.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك[1].

ومن المعروف أن الرسول ﷺ لم يتوجه لغير الله بالعبادة قبل البعثة فمن الطبيعي أن يكون كذلك بعد البعثة. وحينما دعوه ليعبد آلهتهم ويعبدون إلهه ما هي إلا دعوى ليعالجوا بها كبرياءهم، لأنهم فقدوا ثقتهم بالأصنام وبكل ما يعبدون من دون الله بأول نداء لتركها.

وجميع النصوص تشير إلى أنهم لم تعد ثقتهم بالأصنام والمعبودات كما هي وغالب حجتهم {كيف نترك ما كان يعبد آباؤنا}.. ولم يقولوا كيف نترك عبادة من اقتنعنا بعبادته.

حتى حينما أراد أبو طالب أن يسلم قال له أخوه أبو لهب وتترك دين عبد المطلب فأثار فيه الحمية والاعتزاز بدين الآباء لأنه ليس لديه دليل على صحة عقيدته إلا أنها عقيدة آبائه فلا يسعه تركها.

فهذه الأدلة ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ تدفعه لأن يدعوهم لترك معبوداتهم وليس أن يتركها هو وحده، فلا يرضى لقومه السفاهة، وليس هذا فقط وإنما ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ

(١) المحرر الوجيز –تفسير ابن عطية –مجلد ٧ ج٢٤ / ص٤٥٥

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ.. فإنه ﷺ أخبرهم أنه يوحد الله في عقيدته ويضبط سلوكه بما رسم له الله عز وجل منقاداً طائعاً عارفاً أن هذا هو الأسلم والأجدى والأكرم للإنسان السوي.

علاقة آيات الموضوع بالمحور:

وفي الآيات السابقة أورد الأدلة على وحدانية الله وتفرده بالإلوهية، ومن تمام حكمته أنه أورد صفات الله لا يشترك فيها المخلوق لا في الظاهر ولا في صورة من الصور كالنفع والضر والملك والكرم والحلم.

وإنما أورد هذه الأدلة وذكر السنن التي ينفرد بها الله عز وجل مثل خلق الأرض والسماء والليل والنهار وخلق الإنسان من عدم وجعل نظام للكون يصلح لحياة الإنسان وهكذا فكان أن قال ﷺ: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني من البينات من ربي)، هذه البينات التي ليس لكم طاقة في ردها ولا تكذيبها.

وهذا يشبه ما قاله إبراهيم للنمرود ﵟرَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗﵞ [البقرة:٢٥٨]. لم يكذبه إبراهيم في دعواه وحسب تصوره للموت والحياة وإنما جاء له بأمر لا يستطيع أن يدعي مثله. وهذه من أدب الحوار وقواعد المحاججة.

الهداية في الآيات:

* تشير الآيات إلى أن الدعاء هو العبادة والدعاء هو طلب الحاجة من الله تعالى وهو دليل التذلل والخضوع لله تعالى وأن الدعاء يجعل المسلم مرتبط بالله في كل وقته لأنه محتاج إلى الله حتى أداء الفرائض يدعو الإنسان ربه أن يعينه عليها وأن يهديه لأقومها ولأحسنها قبولاً أن في هيئتها أو في نوعها.

* كما أن الآيات تشير إلى أن الله تفضل على الإنسان بأن جعل السنن الكونية على هذا النحو من النهار وما يعمل به والليل وما يستفاد منه فهي جميعاً فضل من الله تعالى، حتى خلق

الجبال والأنهار والشمس والقمر وغيرها.

* لقد ربط الله تعالى الرزق بالسنن الكونية من ناحية التفضل فإنه تعالى بعد أن ذكر الليل والنهار والأرض والسماء وتفضله جل وعلا على الإنسان بأن جعلها على هذه الكيفية ذكر أنه رزق الإنسان الطيبات.

وهذه جميعاً تحتم على المسلم والإنسان ألا يعبد سوى الله وأن يوحده في ذاته وصفاته وأفعاله وأفضاله.

اعتزاز الرسول ﷺ بإيمانه وهو قدوة للمؤمنين

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما سبقها:

في الآيات السابقة بيّن السنن الكونية التي لا يمكن أن يدّعيها أحد من الطغاة أو المعبودين من قبل المشركين وعلى هذا فتكون هذه الآيات تبيّن إفراد الله عز وجل بالعبادة ونفي الشركاء فهو خالق الكون ومدبره وهو خالق الانسان من التراب وجعل له سنة للتناسل والتكاثر.

فلايستحق العبادة غيره ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

التفسير الإجمالي

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾..

فالله عز وجل هو الذي أوجد الإنسان من عدم وقد خلقه من تراب، والتراب كما يقول العلماء أصل الأحياء جميعاً من نبات وحيوان.

فالنبات يصنع غذائه من التراب والماء والضوء فتتكون جميع أنواع الأغذية التي يقوم بها جسم الحيوان والإنسان. وكلما تقدم الأحياء في سلم التقويم كلما خف تعقيد صنع الغذاء.

فالنبات يصنع الغذاء الذي يتناوله الحيوان من التربة والماء والضوء فيتكون كربوهيدرات وأملاح وبروتين والإنسان يأخذ غذائه من الحيوان والنبات جاهزاً، فيأخذ لحم الحيوان وفاكهة النبات الذي تكون فيها مكونات الغذاء جاهزة وكاملة، فأما أن يكون المقصود خلق آدم من التراب ثم قامت عملية التناسل أو أن المقصود حتى هذه النطف تكونت من الدم والعظام وتكونت الأخيرة من التراب الذي تكلمنا عن المراحل التي مر بها الغذاء.

والأرجح هو خلق آدم من التراب ثم خلق من آدم حواء التي هي زوجه ثم بدأ التناسل.

فتكون الجنين من الحيوان المنوي الذكري بعد إتحاده مع البويضة الأنثوية ثم يتطور الجنين في رحم أمه تطوراً يختصر الأحياء جميعاً من أحادي الخلية إلى الخلق الكامل وهذه المراحل التي تكلم عنها القرآن الكريم لم تعرف إلا بعد القرآن بقرون.

ثم يكون طفلاً كاملاً فيخرج من رحم أمه ضعيفاً يعتمد على أمه في كل شيء ثم ينمو ويشتد حتى يكون في أقوى مرحلة تقريباً بين الثلاثين والأربعين ثم يعود إلى الضعف.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الموت يكتنف جميع المراحل فقد يصيب الجنين فيسقط وقد يكتمل خلقه فيموت عند الولادة وقد يموت طفلاً أو شاباً أو شيخاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ ﴾.

وأي عاقل ينظر إلى هذا التطور الحياتي ولا يرى له سبب إلا مشيئة الله وقدرته فلا الحياة لها علة واضحة ولا الموت له سبب منضبط فأي عاقل يلاحظ هذه الحقائق التي تجري ونحن

محكومون بها إلا ويذعن إلى الحقيقة العظمى وهي أن هذا الكون بمجموعه وبأجزائه أفراداً محكوم بإله قادر قاهر لا يعترض عليه غيره ولا يدرك أحد حقيقة ما يجري إلا من أطلعه الله عليه، فالعاقل يقر بوجود هذه القوة ويقر بوحدانية الله سبحانه، وبإلوهيته إضافة إلى ربوبيته.

فالحاكم في الكون والمدبر له والمسير له والذي وضع قوانينه وسن سننه هو الله سبحانه، وهو الذي يحيي من عدم ويعدم الحياة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.. ولا يكلفه شيء في إيجاده ولا إعدامه حيث أن كلمته للشيء كن فيكون أي شيء أراد، صغيراً أو كبيراً عظيماً أو حقيراً.

فهو المتفرد بالكون الفاعل الوحيد فيه ولا فعل لغيره إلا بإذنه وتوفيقه.

وهذه الحقائق يجب ان تكون نصب عين المتحاورين.

علاقة المقطع بمحور السورة:

يقول الله سبحانه ﴿ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ألم يكن هذا تلقينا من الله عز وجل للرسول ﷺ جوابا للمجادلين أو حجة على مناقشين؟! فالآيات تشير إشارة واضحة إلى أن الرسول يناقش قوما يطلبون منه الإنصراف عما يعبد، فالصراع بين الصواب والخطأ والحق والباطل ظاهر جدا في هذا المقطع.

الهداية في الآيات:

توجيه الرسول ﷺ ليعلم الناس أن هذه السنن ومنها خلق الإنسان ومراحل تكوينه في رحم أمه والموت والحياة وعدم وجود ضابط لهما معروف وإنما هي جميعاً بأمر الله.

إن هذه جميعاً تدعو للإيمان واليقين أن الله هو الفاعل الوحيد بالكون وإنه لا إله إلا هو.

وعيد للمشركين بمصيرهم في الآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾.

علاقة ايات المقطع بما قبلها

بعد أن بين الله عزوجل هذه الحقائق وكيف خلق الله الانسان وتطوره في رحم امه ولم يؤمن هؤلاء ولم يذعنوا للحق الواضح وبقوا في جدلهم العقيم جاءت هذه الآيات تبين لهم مصيرهم وما أدى اليه نكرانهم للحق﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾

التفسير الإجمالي

وبعد أن رأيت الذين يغالطون ولاينصاعون إلى برهان عقلي أو علمي فما عليك إلا أن تصبر كما صبر الرسل قبلك وكما هو شأن جميع المصلحين.

وتبقى السورة بمحورها وحوله ويبقى الفرقاء كل يرد حجة الآخر كما تحكي السورة فالمشركون يجادلون في آيات الله ويحتجون على الدلائل الواضحة والبينات الملزمة، ولكنهم مصروفون عن الحق الأبلج ومن العجيب أنهم لا يذعنون بالحق المبين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) ﴾.. فيذهبون كل مذهب ليبتعدوا عن الحق، فهم مغالطون فقد كذبوا رسل الله وكذبوا كتبه، فالكتاب هنا إما أن يكون جنس الكتاب فيعني الكتب المنزلة من الله جميعاً أو كتاب الله القرآن الذي جمع كل ما جاءت به الكتب السابقة من

الهدى أو أنهم كذبوا حكم الله الذي قررته الكتب وكذا كذبوا ما جاءت به السنة النبوية.

وفي الآية تهديد لهم بقول الله عز وجل ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾.. فإن الله تعالى سيجمعهم يوم القيامة وسيحاسبهم عن هذا الكفر وهذا العناد والمغالطة، وقد ذكر الله عقوبتهم كأنها واقعة فعلاً ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.. والغل هو الحلقة التي تجمع أيدي الأسير إلى عنقه وفيها سلسلة من حديد تسحبهم الملائكة على وجوههم في النار أو أنهم يسحبون هذه السلاسل المحمرة من نار جهنم لتعذيبهم فيها وقيل أنها تثقلهم في جهنم فكلما طفا بهم اللهيب أعادتهم السلاسل إلى القعر:

وعلى المعنى الأول تسحبهم الملائكة على وجوههم في الحميم وهو صديد أهل النار أو الماء الذي بلغ غايته من الحرارة.

ثم تسخن بهم نار جهنم فهم وقودها كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]. وتملأ فيهم من سجرت التنور ملأتها حطباً ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق: ٣٠] ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ وهذا هو نتيجة قوله تعالى: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾، فيخاطبهم خزنة جهنم أين ما كنتم تشركون مع الله أين أصنامكم أين آلهتكم التي تشركونها مع الله في التوجه وطلب الحاجات. هل تستطيع أن تخرجكم من العذاب ؟!

وهي صورة من التبكيت والاستهزاء فكأنهم ما كانوا يشركون مع الله، إذ يرون عظمة الله وعظمة ما يفعل فيتضاءلون إلى أدنى دركات الانحطاط والهوان.

ويكون جوابهم للملائكة يدل على التخبط والتردد إذ يقولون ضلوا عنا واختفوا ولا ندري مصيرهم، ثم يستثنون: ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾، وهذا الجواب يكون بإنكارهم الشرك أصلاً أو وصفهم لمعبوداتهم أنهم ليسوا بشيء يعتد به أو يركن إليه قالوا ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾، وبهذا يظهر ضلالهم الذي اكتسبوه بعنادهم وكفرهم ومغالطتهم وصدودهم عن الحق المبين وأثبته الله لهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾..

وهي من قبيل ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

ثم جاء تعليل القرآن الكريم لهذا الضلال ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.. بعصيانكم وتبجحون بمخالفتكم شريعة الله ودينه وهكذا شأن الكافرين والعصاة، فحتى لو كان داخلهم يحترق وتتميز من الغيظ والحنق على نفوسهم وعلى معاصيهم فإنهم يظهروا للناس أنهم سعداء فرحين. وهذا من قبيل تماديهم بالمعاصي والجحود ويدل عليه (بغير حق) ففرحكم لم يكن في مكانه ولا مناسب لأوضاعكم بمخالفتكم للحق والعقل والقيم الثابتة التي جاء بها رسل الله والدعاة.

ففرحكم هذا أو إظهار هذا الفرح والتبجح والتكبر على خلق الله والأشر والبطر على عباد الله أودى بكم إلى هذا المصير. وهو التبري من الآلهة واحتقارها واحتقار أنفسكم بإتباعها الغي، وعبادتها لما لا يستحق هذه العبادة ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾..

فنتيجة هذا العناد والكفر والإصرار عليه في الدنيا وعدم التفكير بالتوبة والرجوع إلى الحق وسلوك طريق المؤمنين ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.. فأي عاقل يستبدل باقية بفانية؟ وحياة قصيرة الأمد يفضلها على حياة خالدة باقية ليس لها انقطاع ولا لنعيمها زوال ولا لعذابها توقف.

ولكن أكثر الناس للحق كارهون وتدفعهم شهواتهم إلى مخالفة أحسن القيم وأوضح البراهين وأبين الدلائل.

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.. وبئس كلمة ذم، وهل يلحق الذم شيئاً أولى من جهنم وهذا هو مقام الذين كبر على نفوسهم إتباع الرسول ﷺ والاصطفاف مع المؤمنين، لأن في المؤمنين فقراء وناس غمر ليس لهم في المجتمع الجاهلي أثر وخطر، فنتيجة هذا التكبر هو الاستقرار في ألأم دار في جهنم وبئس المصير وتعس سكانه وخاب أولياؤه.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾.. لقد وصى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالصبر مرتين في هذه السورة، مرة حينما ضرب له مثلاً في انتصار موسى على فرعون بعد وعده له ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.. فأنجز وعده ونصر موسى وقومه الضعفاء الغمر على فرعون أعتى الطغاة وجنوده الكثر الأشداء. فهي صورة من الصور التي تحكي علاقة الدعاة بأقوامهم ومصير الدعوة الحق.

فقال الله عز وجل لرسوله ﷺ: اصبر إن مصيرك كمصير موسى، إذ نصره الله ومصير من كذبك وكفر بدعوتك مصير فرعون وملأه، إذ أنهم ليسوا أقوى من فرعون ولست أضعف من موسى وقومه.

وفي هذا المقام أمر الله رسوله ﷺ بالصبر ثم فصل له عاقبة هذا النصر ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾.. فهو الثابت الواجب الصحيح فلا يخلف الله وعده، فإن نالك يا أيها الداعية تعب أو نصب أو مشقة أو أي امتحان فإن العاقبة للدين الحق وللشريعة التي تكفل لأتباعها السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة النعيم المقيم الذي لا يقدر قدره.

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾.. من سوء العاقبة والقتل والذل كما كان يوم بدر وفتح مكة ونفوذك في جميع جزيرة العرب وظهور جنودك خارج الجزيرة في مؤتة وتبوك. وقد لاحظ هذا الرسول الكريم ﷺ وانتصر بنفسه في هذه المعارك التي قادها وأذل الشرك والمشركين ولم ينفعهم جدلهم ولا تكبرهم، وأن هذه السورة مكية وهذه الوعود إذ كان المسلمون أشد ضعفاً وإما أن ينصر الله دعوتك بعد وفاتك كما هيأ الله لأبي بكر ﷺ خليفتك وصاحبك وأحب الناس إليك حيث أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام بعد أن حاول الأعراب نكث العهد والارتداد عن دين الله ثم خرج بدعوة الله إلى العراق والشام ولم يقض ﷺ حتى وصل جنوده عاصمة الدولة البيزنطية بالشرق (سوريا) وحتى سيطر جنود أبي بكر ﷺ دعاة الإسلام إلى حدود عاصمة الفرس وأخذ بعض أطراف دولتهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾.. وقد أكد القرآن الكريم هذه الدعوة وهذا النصر في هذه الكلمات التي تحكي النصر في حياة الرسول ﷺ

وبعد موته بالنون في الجزأين من الآية.

فاطمئن أيها الرسول الحبيب فإما أن تنتصر وإما أن ينتصر جنودك حاملي دعوتك والله يرعاهم وإليه يرجعون في الحالتين فالنصر حليفهم ما داموا متمسكين بشريعة الله مقاتلين لإعلاء كلمة الله. وسيعود المشركون إلى جهنم وينصرك عليهم في الدنيا والآخرة.

وينهي المقطع النقاش في هذه الحقيقة التي أشير إليها باساليب مختلفة.

علاقة الآيات بالمحور

وتبقى السورة مع محورها ويبين الله عزوجل عقم جدل المشركين فإنهم لاينصاعون للحق ويبقى جدلهم لاقيمة له فيؤدي بهم إلى المصير المهين الذي يستحقونه لعدم انصياعهم للحق الأبلج.

فان الحجج التي يدلي بها المؤمنون مستقاة من القرآن الكريم والسنن الكونية وسيرة المصطفى ﷺ فلابد أن تفحم المشركين لأن حججهم منبعثة من اهوائهم وشهواتهم.

الهداية في الآيات:

* إن نهاية المجادلين عناداً ومغالطة وتكبراً مصيرهم إلى النار ثم أن الله تعالى سيحاججهم بواسطة ملائكته وأن المشركين يوم القيامة يتبرؤون من شركهم ومن الذين أشركوا.
* وبراءتهم تدل على أنهم حينما عاينوا الحقيقة وعرفوا أن الله هو الواحد الفاعل في الكون نسوا جميع عقائدهم حتى خيل لهم أنهم لم يكونوا يشركون أصلاً، فكيف يشركون وهذه الحقيقة العظمى أمامهم.
* ما أتفه ما أشركوا وكيف لعاقل أن يتصور أن هذه الأشياء أو هؤلاء الأشخاص لهم قيمة أمام هذه الحقيقة الكبرى العظيمة.

تطمين الرسول ﷺ ووعده بالانتصار له ولدعوته

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

بعد أن بين الله مصير المشركين طمأن الله نبيه بأن النصر حليف دعوته وما عليه إلا الصبر.

ثم جاءت هذه الآيات تقول إنك لست وحدك وإنما هي كوكبة من رسل الله جاءت بما جئت به وأهلك الله الظلمة الذين لم يؤمنوا بالرسل وانتصر لرسله وللمؤمنين.

التفسير الاجمالي

وهؤلاء الذين يكذبون رسل الله ويديرون ظهورهم للحق ولايحبون أن يهتدوا إلى الصواب ألم يروا كيف فعل الله بالأمم الضالة المكذبة فهل مصيرهم بإصرارهم على الكفر إلا كمصير أولئك الذين سبقوهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾.. فبعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على ما ناله من أذى أخبره أنه لم يكن الوحيد الذي ناله ما ناله، فقد أرسل الله قبلك رسلاً نالهم ما نالك من الأذى وهذه سنة الله في الرسل ودعاة الإصلاح.

فإن فساد المجتمعات يستفيد منه ذوي النفوذ والسطوة وقد يكونوا هم أنفسهم سبب الفساد بسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين، فلذا يواجه المصلحون أشد أنواع الأذى والعذاب

من هؤلاء.

وأشار عز وجل أن بعض الرسل لم يذكرهم في القرآن الكريم ولم يخبر عنهم رسوله الكريم ﷺ.

ويبدو والله أعلم ان الله اختار مجموعة من الرسل وقص خبرهم على الرسول ﷺ وترك الآخرين لحكمة. فإن قصص الرسل مع مجتمعاتهم فيها عبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]. ولا تكون القصة عبرة إلا إذا كانت وصفاً لحالة إنسانية قابلة للتكرار.

فاختار الله تعالى هذه القصص التي تحكي صور مجتمعات إنسانية منحرفة أرسل لها الله الرسل لإصلاحها. وهذه المجتمعات التي قص الله أخبارها للرسول ﷺ تمثل جميع أنواع الانحرافات التي قد تقع في المجتمع الإنساني وهي أيضاً نموذجاً لكل ما يلاقي الرسول والدعاة من الفتنة والعنت والتكذيب ويحكي القرآن الكريم علاج الرسل لها وردود الفعل الذي تحدثه الدعوة فيها وانتصار الحق في آخر المطاف. على أن القاسم المشترك فيها جميعاً هو فساد العقيدة.

فنظرة فاحصة لهذه القصص نجدها تمثل جميع أنواع الانحرافات في المجتمع الإنساني الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يندرج تحتها وبسببها من أحوال وصور.

فالقرآن الكريم قص لنا هذه الانحرافات وعلاج الرسل لها ومجابهتهم من قبل المستفيدين من هذه الانحرافات.

فمثلاً قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومجتمعه الذي يعبد النجوم. وصالح عليه السلام وتنفذ مراكز القوى والعصابات. وشعيب عليه السلام، والغش في التعامل المالي. وقارون وتمركز المال عنده وإفقار المجتمع. وموسى عليه السلام، والطغيان السياسي وتأليه الحكام لأنفسهم. وقصة لوط، والانحراف الجنسي وهكذا في جميع قصص القرآن الكريم.

ولذا فإن الله عز وجل ذكر ما فيه الكفاية لرسم صورة صادقة للمجتمع الإنساني وعلاج الخلل فيه مما يتكرر حدوثه في المجتمع عبر الزمن ومما يستفيد منه الدعاة إلى يوم القيامة وهذه السورة تحكي لنا حالة من المغالطات والنكوص والعناد غير المبرر للحق والخير والهدى.

وقد مرت بنا صور لهذا الجدل وهذه المغالطات وفي هذه الآيات صورة من صور المغالطات، فإن المعاندين حينما لا يجدون حجة على الرسول ولا يستطيعون رد بينات الله التي أعطاه اياها أو رافقه بها يلجؤون إلى طلب معجزات ليس لها مبرر ولا سبب.

كما طلبوا من نبينا ﷺ أن يكون له بيت من زخرف وأن يأتي ملك معه يصدقه وأن ينزل لهم كتاب في (قرطاس) وهم جميعاً يعلمون أنها لمجرد المغالطة.

فيجيب الله عز وجل عن نبيه ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.. فلم يكن النبي هو الذي يختار المعجزة وإنما هي من الله أصلاً والله يعلم ماذا يريد المجتمع وماذا ينفع الدعاة وقد لا يعلم النبي حقيقة المعجزة كما خاف موسى من معجزته ولذا فإن معجزة الرسول محمد ﷺ القرآن الكريم وفيها قال ﷺ: (أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)[1]. ولو نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية نجد المسلمين أضعاف أضعاف كل دين من الأديان الراهنة.

فإننا نجد في عصرنا دولاً ومجتمعات تسمى نصرانية ولكن كم منهم يتدين بالنصرانية حتى المنحرفة فنجد نسبة الذين يتدينون بالنصرانية فيمن يسمون نصارى نسبة ضئيلة جداً لا تكاد تكون ١٠٠٪ واحد من كل ألف منهم ويسمون نصارى تجوزاً والانتساب كأنه قومي أو عرقي[2].

(بينما نجد نسبة المتدينين من المسلمين في المسلمين أكثر من ٨٠٪ ثمانين في المائة ولا نجد مسلماً إلا وعنده مصحف في بيته ويعلم شيئاً عن الدين وما يحتاج له في حياته. وهذا مصداقاً

---

(١) متفق عليه. صحيح البخاري (٤٩٨١)، صحيح مسلم (٢٣٩).

(٢) في استبيان عمله أحد الطلاب في جامعة قطر والمجتمع القطري فكانت النسبة أكثر من ٩٠٪ لكني اعتبرت قطر أكثر البلدان الاسلامية في نسبة التدين.

لقوله ﷺ أو إجابة دعوته (أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)[١].

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.. فأنزل هذه المعجزات لتقيم الحجة على الناس ويصدق رسوله.

فإن المعجزات تكون مخالفة للنواميس الكونية التي يسير الله بها أجزاء الكون فإذا خرقت على يد مدعي النبوة فإنها شهادة له بصدقه لأن هذه النواميس لا يستطيع البشر مخالفتها أو الخروج منها فيعلم الناس أن هذا الإنسان مرسل ممن خلق هذه السنن وإلا لما استطاع هو كبشر أن يخالفها.

فإذا أقيمت الحجة على البشر وبقي منهم معاندون فإن الله عز وجل يجمعهم يوم القيامة ويقضي بينهم بالحق ولا يجد المغالطون والمجادلون بالباطل حجة ويعلمون أنهم نالوا جزاءهم العادل ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾.. ويعلمون أن جدالهم وعنادهم لا ثبات له ولا بقاء أمام الحقائق التي أرسل الله بها الرسل.

والمراد بأمر الله: قضاؤه أو يوم القيامة، وأي من المعنيين يشير إلى إنجلاء الحق ووضوح الحجة الصحيحة وخسران المعاندين والمغالطين. الذين يحاولون دحض حجتك بجدال باطل وحجج كاذبة لا قيمة لها.

وقد عقب عز وجل ذكر فضله على الإنسان بتكييف السنن الكونية بما يلائم حياته أعقبها بذكر منته تبارك وتعالى بخلق ما يعينه على الحياة في الأرض من مأكل وملبس وانتقال فقال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.. والانعام هي المواشي وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ما يؤكل ولا يركب ومنها ما يركب ولا يؤكل كالحمير والبغال ومنها ما يؤكل ويركب هي الإبل ويقول أهل اللغة لا يقال أنعام إلا إذا كان

---

(١) قال أحد المستشرقين إن من يحفظون القرآن في مصر أكثر ممن يحفظون الانجيل في جميع العالم وهذا في الأربعينات حينما كان حفاظ القرآن في مصر يعدون.

فيها إبل وأحياناً تطلق النعم على الإبل خاصة والإبل هذه المخلوقات العجيبة في شكلها وفي تحملها وفي سلوكها، فهي الوحيدة من الحيوانات التي تحمل وهي باركة وتقوم بحملها ولها قابلية العيش بدون ماء أكثر من أسبوع لأنها تختزن الماء في جسمها.

ومن عجيب خلقها أنها لا تتسافد أمام الناس فلا يأتي الذكر أنثاه أمام الناس، فهي تستحي أكثر من كثير من البشر. ولبنها غذاء كامل. ولا يسعفنا الوقت ولا المقام في الحديث عن الإبل أكثر من هذه الكلمات.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.. وقد ذكر الله عز وجل جانبين من الانتفاع ثم عقب بالتعميم فقال ولكم فيها منافع ومن المعلوم أن هذه الأنعام ينتفع بلحمها وجلدها وشعرها وجميع هذه المنافع لا يستغني عنها الإنسان، والإبل خاصة كانت واسطة التنقل بين البلدان فالمسافات الطويلة لا تدركها إلا الإبل، ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم أي في نفوسكم وقرنت بالفلك فإن في الفلك سراً أودعه الله بها من عجيب خلقه، فإن السفينة لو جمعت أجزائها على شكل كروي أو أي شكل آخر غير مجوف والقيت في البحر لرسبت في قاعه ولكن الله جعل قانون الأجسام الطافية وهو أن كل جسم يوضع في سائل يفقد من وزنه بقدر وزن حجمه من ذلك السائل، فألهم الله سبحانه الإنسان أن يبسط مادة السفينة إن كانت من معدن أو من خشب حتى يكون حجمها من الماء يزن أكثر من وزنها ووزن ما فيها من بضائع وملاحين ومن فيها فتطفو على ظهر الماء هذه الخاصية التي هدى الله الإنسان إليها فأصبحت جزء من حياته ربما لا ينتبه إلى هذا التعقيد في قوانين الطبيعة التي خلقها الله فيها.

وقد قرن الله الإبل بالسفن حتى إن العرب تسمي الإبل سفن الصحراء لأنها تتشابه في أنها التي تقطع المسافات البعيدة في البر كما السفن في البحر.

وأمام هذه الآيات وهذه الدلائل والبراهين هل ينكر وحدانية الله وتصرفه في الكون إلا جاهل مغالط. فعلام الجدل اذن وما الذي يبطل هذه الحجج وهذه البراهين.

فلو كان فيها أكثر من إله لما استقام أمرها وانسجم وأدت وظائفها كما ينبغي وكما هو حاصل.. فتبارك الله رب العالمين أحسن الخالقين.

علاقة المقطع بالمحور

بين الله في هذه الآيات ما أنعمه على الانسان من تسخير الأنعام له في استخدامها لراحته وأخذ غذائه منها وهي حقائق ثابتة لا ينكرها إلا جاهل ولذا قال تعالى في آخر الآيات ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ فهو رداً لحجج المشركين وإعجازهم.

الهداية في الآيات:

* إن الرسل تصدق عليهم كلمة الرسل بكل أبعادها فإنهم مبلغون عن الله ليس لهم أن يبلغوا أكثر ولا أقل مما أرسلوا به، حتى معجزاتهم ليس لهم دخل فيها وفي أغلب الأحيان لا يعرفون حقيقتها فإن موسى عليه السلام خاف من عصاه التي جعلها الله حية تسعى.
* وأن الرسول ﷺ لم يستطع أن يخبر عن القرآن أو شيئاً منه إلا بأمر من الله وتقدير في الوقت والموضوع والكمية التي تنزل من القرآن الكريم فلا يتحكم الرسول في موضوع النازل من القرآن ولا كميته ولا وقته.
* وهذا يدفعنا إلى أن نؤمن بأن لا إله إلا الله وأن محمد ﷺ رسول الله وكذا جميع الرسل الذين أخبر عنهم القرآن الكريم، وأن نؤمن أن هناك رسلاً لم يخبر عنهم الباري جل جلاله الرسول ﷺ بهم ولم يذكرهم في القرآن الكريم.

تأكيد على انتصار الدعوة وضرب الأمثال من الواقع والتاريخ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

علاقة المقطع بما قبله

ففي آخر آيات المقطع السابق قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾ وفي هذه الآيات يقول عز وجل إن هذه الدلائل وهذه الحقائق مثبوتة في الكون فلو أنكم نظرتم لما حولكم نظرة عاقل لتيقنتم ان الله عز وجل هو المعبود الحق وهو القادر والفاعل الوحيد في الكون.

التفسير الاجمالي

يعود القرآن للتذكير والتهديد فإن من كانوا قبل العرب أصحاب حضارة وقوة وكثرة

فلما جاءتهم الرسل كذبوهم فجاءهم بأس الله وعذابه وشدة عذابه وأن هذه الآثار تدعو العاقل للإيمان والتصديق بالرسل فإن الفراعنة كانت لهم قوة وسيطرة ونفوذ وآثارهم باقية إلى يومنا هذا ومدائن صالح ومدائن هود شاخصة، ألم تكن هذه كافية ليعتبر العاقل بما جاءت به الرسل.

والخطاب هنا للعرب حينما جاءهم الرسول ﷺ يلفت القرآن الكريم أنظارهم إلى هذه الآثار وهم يعرفونها بأسفارهم إلى الشام والأحاديث التي تأتيهم من مصر.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.. والسؤال استنكاري لأن جوابه معلوم لديهم ولكنهم لا يعتبرون. فإن هذه المدن تدل على قوة ساكنيها

لأن بعضها محفور في الصخر ومنشأ في الجبال وبنظام هندسي عجيب حتى في وصول الماء إليها.

لكنهم حينما كذبوا الرسل لم تمنعهم قوتهم ولا حصونهم من بأس الله فقد كانت عاقبتهم الهلاك والدمار وأصبحت بيوتهم خاوية لم تسكن بعدهم. ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.. فقد كان العرب أقل الناس حضارة وآثاراً في الأرض وهذه آثارهم قبل الإسلام لم تكن ذات قيمة وخاصة في نجد والحجاز. ﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فلم تنفعهم تجارتهم ولا كثرتهم ولا حصونهم وبيوتهم التي بنوها في داخل الجبال أو داخل الحصون.

والآية تكررت في السورة مرتين المرة الأولى بعد التهديد والتذكير بأن الله تعالى مهلكهم وأنه سوف يجمعهم يوم القيامة وفيها وصف ليوم القيامة في بعض أحواله وصفاته.

وهنا ذكرها الله بعد تعداد نعمه وآلائه وما سخره للإنسان من سنن كونية وأنعام لتسهيل حياته والعيش على الأرض وقد ذكر الله من السنن والأنعام ما لا يستطيعون جلبها أو تهيئتها كما لا يمكن أن يخلقوا شيئاً ولا أن يخرقوا قانوناً من القوانين التي سخر الله بها الكون.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم ﴾.. فقد رأوا أن ماجاءت به الرسل أقل مما عندهم من العلم وهكذا فعلماء الدنيا يخيل لهم أنهم يعرفون كل شيء من حيث أنهم لا يعرفون شيئاً ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم: ٧]. وأن الله أودع كونه أسراراً لا يعلمها إلا من أطلعه الله عليها ولكن تكبرهم وإشرهم يخيل لهم أن علوم الرسل ليست بمستوى علومهم فأخذهم الغرور وترفعوا على ما جاءت به الرسل فاستهزؤوا بالرسل وبما جاءوا به ولكن كيدهم كان في نحورهم وأحاط بهم ما كانوا به يستهزءون فكان وبالاً عليهم ولعنة، فلما أخذهم الله بذنوبهم ونالهم العذاب علموا أن الله حق وأن لا إله سواه ولكن هذا الإيمان أما أن يكون إيمان اضطرارا أوإيمان مشاهدة وبناء على ذلك لم ينفعهم إيمانهم لأن الله عز وجل وصف المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة: ٣].

وهذه سنة من سنن الله الذي حكم بها الكون إذ أن الإيمان الحق هو الإيمان الذي يختاره صاحبه وهو قادر على مخالفته فيكون فضله في تفضيل الإيمان على الكفر.

ولذلك وفي الآخرة أو عندما يشاهد الانسان الحقائق لا ينفعه إيمانه لأنه كما قلنا إيمان اضطرار. وعليه فقد خسر الكافرون أنفسهم وخسروا عقيدتهم وخسروا مكانتهم التي كانوا يعتزون بها. وهكذا ينتهي الحوار في السورة ويظهر مصير الفرقاء.

علاقة المقطع بالمحور

وبعد ان انتهى الجدال والمحاججة وآمن من فتح الله قلبه لقول الحق وأصر من غلبته شقوته على الباطل الذي هو فيه وحافظ على مركزه الاجتماعي وتكبر على السير في صف المؤمنين بعد بيان هذا جميعا وبعد الصراع المرير وإدلاء كل بحجته يبين الله عز وجل أن المشركين حينما يحشرون سيؤمنون بما جاءت به الرسل ولكن لاينفعهم حينئذٍ إيمانهم.

الهداية في الآيات:

* إن الله جعل طريق الإيمان الصحيح هو التفكر في الكون وتدبر آيات القرآن الكريم.
* فمن صفات العقيدة الإسلامية أن الإنسان كلما تدبر في الآيات وتفكر في الكون زاد إيمانه وقرب يقينه وهذا من فضل الله على المسلمين
* فإن الديانات بعد تحريفها والتي يعتقد بها أصحابها الآن حينما تفكر في حيثياتها تجدها لا يؤمن بها عاقل.

الفهرس

السورة	الصفحة

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد السابع

فصلت - الواقعة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصلت

بين يدي السورة

اسمها.. عدد آياتها.. محورها

أسماء السورة ووقت نزولها:

سورة فصلت مكية بلا خلاف وتسمى سجدة المؤمن أو حم السجدة لأنه ليس في الحواميم سجدة سواها، وتسمى سجدة المؤمن لأنها السورة التي فيها السجدة بعد سورة المؤمن وكذلك تسمى سورة المصابيح لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ..﴾ وتسمى كذلك سورة الأقوات لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ..﴾ جميع هذه الأسماء ذكرها الطاهر بن عاشور[1]. وقد نسبت هذه التسميات إلى كتب الحديث. والاسم الذي اشتهرت به هو (سورة فصلت).

فضل السورة:

رويت فيها أحاديث أهمها ما روى أهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: (اجتمع قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا إئته يا أبا الوليد فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع كلامك. أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب.

حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١، ٢٤/ ٢٢٧.

تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً فقال رسول الله ﷺ: فرغت. قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته).. حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود).. فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟

وعند هذا الحد روايات أوضحها أنه وضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم ألا يكمل ورجع إلى قريش فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني كلاماً مثله قط، وما دريت ما أرد عليه، وما هو بالسحر ولا بالكهانة ولا بالشعر، قال: ناشدته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً ما وعد بشيء إلا نفذه.

وفي روايات أخرى: إن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.. الخ.

وقال عتبة إضافة إلى ما سبق يا قريش: خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك محمد قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1]. وهذا الخبر يوحي بأن الرسول ﷺ اختار هذه السورة للمحاجة مع عتبة الذي هو أبلغ قريش وأفصحها فاختياره ﷺ هذه السورة لمكانتها وقوة حجتها.

وفي الجانب الآخر يشير هذا الخبر إلى العروض التي عرضتها قريش على الرسول ﷺ، ليست إقناعاً له وحسب وإنما ترى قريش أنه أهلاً لكل ما عرضته عليه وخاصة الملك والسيادة فإن حياته السابقة التي قضاها بينهم تدل على تبوئه هذه المكانة وأهليته لما عرضت عليه قريش

(١) فتح الجواد الكريم في اختصار وتحقيق تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج٤/ ٩٩-١٠٠. وفتح القدير، الشوكاني ج ٤ – ص ٦٥٨.

كما أنه من أوسطهم نسباً، فهو سيد من ساداتهم.

وفي هذه الحادثة دليل على إعجاز القرآن الكريم وتحديه لبلاغتهم وبلغائهم، إذ إن عتبة بن ربيعة هو أفصح قريش وأبلغها أو من أبلغها.

وكما بينا فإنه قال عن القرآن الكريم أنه لم يسمع مثله قط وأنه لم يستطع أن يرد عليه بكلمة واحدة.

فظهر في هذه القصة إعجاز القرآن وتحديه لهم واعترافهم أن الرسول ﷺ أصدق رجل فيهم إذ أن عتبةقال: وضعت يدي على فمه وسألته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً إذا تحدث حديثاً لا يكذب وإذا وعد ينفذ وعده فخفت عليكم من العذاب.

وهناك روايات تقول إنه قال: إني سمعت كلاماً ما هو بالسحر ولا هو بالشعر ولا بالكهانة وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله معذق وأعلاه مثمر وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه يحطم ماكان تحته.

وموضوع السورة ومحورها هو:

«القرآن الكريم».

أثره في حياة البشرية في تصورها ومدركاتها وفي خط سيرها وفيها تفصيل القرآن الكريم المحكم وفق الأغراض والأهداف ووفق الطباع والعقول ووفق البيئات والعصور ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة ووفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في القرآن الكريم الذي هو موضوع ومحور هذه السورة وموقف المعاندين منه، والسورة تشير إلى أن القرآن الكريم هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة وهو معجزة الرسول ﷺ.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة المؤمن التي تدور حول الحجج التي أوردها القرآن الكريم على أحقية الرسالة وجدوى إرسال محمد ﷺ ووجوب تطبيق الإسلام وفي هذه السورة وصف للمنهج الذي يريده الله للإنسانية بعدما أفحمهم في وجوب اتباع الرسول ﷺ.

عدد آيات السورة

آيات هذه السورة في مصاحف الشام وعند قرائهم (٥٢) اثنتان وخمسون آية وفي مصحف الحجاز وعند قرائها (٥٣) ثلاث وخمسون آية وفي مصحف الكوفة وعند قرائها (٥٤) أربع وخمسون آية. وقد بينا سبب اختلاف القراء في العدد حيث يجعل بعضهم البسملة آية والحروف لوحدها آية ويدمجون بعض الآيات وغيرهم غير ذلك.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها

والتناسب مع اسم السورة ومحورها واضح جلي فمحورها القرآن الكريم الذي فُصلت آياته وأحكامه وحكمه ومواضيعه.

علاقة السورة بسورة المؤمن التي سبقتها

في سورة (غافر)أو (المؤمن) بين الله عز وجل الصراع العقلي والعلمي بين المؤمنين والمشركين وانتهى الجدل كما مرينا إلى بيان موقع المشركين في النار وكيف يؤمنون حيث لاينفع الإيمان جاءت سورة فصلت تبين طبيعة المنهج الذي يسير عليه فريق المؤمنين وكيف أن الله أنزل لهم قرآناً يهديهم إلى الطريق الموصل إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ففي سورة فصلت التي بين أيدينا يبين الله سبحانه وتعالى صفات القرآن الكريم وموقف المؤمنين منه وموقف المشركين منه وانهزامهم أمام حقائقه كما سنرى إن شاء الله.

مقدمة في القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي

وصفة الرسول ﷺ وواجبه

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ﴾

مقدمة السورة

لم يكن الرسول ﷺ إلا مبلغاً عن ربه والذي أنزل له مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وعلى ذلك فان المشركين كفروا بكل الدلائل الواضحة في السنن الكونية وفي نشاط أجزاء الكون كل حسب وظيفته التي خلقه الله لها. فما على المؤمن إلا الانسجام مع حركة الكون.

التفسير الاجمالي

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.. تكرر الحديث عن الحروف في أوائل السور وقد خص الله جل جلاله هذه السورة بوصف القرآن الكريم أنه تنزيل من الرحمن الرحيم فهي إشارة أولاً على أنه من الله عز وجل وليس من أحد ولم يكن مستنسخاً من صحف أخرى ولم يمله أحد على الرسول ﷺ.

وثانياً أنه من الرحمن الرحيم فإن الله أنزله رحمة للعالمين فيريد إسعادهم ويريد إنقاذهم من التخبط والضياع والتردد، يرحمهم من التيه الذي هم فيه قبل نزول القرآن الكريم، وقد بين أثره في الإنسانية جميعاً، فعمر الإنسانية ينقسم إلى قسمين واضحي المعالم، بيني الفروق قسم قبل نزول القرآن الكريم وقسم بعد نزوله، حتى الأديان التي سبقته صاغت عقائدها بعد نزول القرآن الكريم خلافاً لما كانت عليه قبل نزول القرآن الكريم.

قال بعض المفسرين: (حم) اسم السورة وهو مبتدأ وتنزيل خبره وقال آخرون إن تنزيل خبر لمبتدأ محذوف وكتاب بدل منه أو صفة التنزيل. وكونه كتاب إشارة للرسول ﷺ بوجوب كتابته حيث أن الله أوحى ألفاظه وأمر الرسول ﷺ بكتابته ولذا فقد اتخذ الرسول ﷺ كتاباً للوحي لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾.. أي فسرت وبينت ووضحت أهدافها ومعانيها وموضوعاتها فهو بيان لحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته أو بين وعده ووعيده وثوابه وعقابه.

وقرأت فصلت بالتخفيف أي فرقت الحق عن الباطل وميزت الصالحين عن الأشرار وأوضحت طرق الخير والفلاح والنجاة عن طرق الشر والهلاك.

وقال بعضهم أن معنى ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ فرقت في النزول فلم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل وسينزل نجوماً مفرقاً في الوقت والمكان والأحوال، ولا مانع من إرادة جميع المعاني. ولما كانت السورة مكية بإجماع أهل السنن[1]، فهي إشارة إلى أن الباقي سينزل هكذا.

وهنا أحب الإشارة إلى أن الحكمة من نزوله منجماً إضافة إلى ما ذكره علماء القرآن الكريم ليكون صالحاً للتطبيق منذ نزوله إلى قيام الساعة لأن نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة استغرق جميع الأحوال التي يمكن أن يمر بها الإنسان والظروف التي تواجهه فيكون حالّاً لمشاكل الإنسان وفق جميع المتغيرات التي تكتنف حياته في جميع عصوره لأن المجتمع الذي نزل به القرآن الكريم تغير جميع هذه التغيرات التي يمكن أن يمر بها المجتمع الإنساني في جميع العصور عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياًو فكرياً.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾.. حال من فصلت أي فصلت آياته حال كونه قرآناً عربياً وكونه عربياً أي واضح الدلالة على ما يريد وهو بلغة القوم الذين نزل فيهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤]، ليحملوه إلى الناس جميعاً فكانوا واسطة التبليغ

---

(١) فتح القدير ج ٤- ص٦٥٨.

عن الله سبحانه وتعالى فهم الذين نشروه وأوضحوا مراده للناس. وهذا تشريف للعرب إذ أنهم الذين يحملون رسالة الله إلى العالم ولذا علم الناس أن جريمة العربي في شركه أكبر من جريمة غيره لأنهم الذين يعرفون حقيقة القرآن الكريم وما يحمله من معان وما يتحمله من أهداف لينقذ الإنسانية مما هي فيه.

﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.. تأكيد على أن الذين نزل فيهم القرآن الكريم يعلمونه ويعرفونه حق المعرفة.

وقد فهمه العرب الذين آمنوا به كما فهمه العرب الذين كفروا ولذا فإن الذين آمنوا به دافعوا عن إيمانهم حتى الشهادة وفرحوا بالتضحية بنفوسهم من أجل نشره، كما دافع المشركون عن شركهم حتى الموت لأنهم علموا أن هذا القرآن سيقلب مجتمعهم وقيمهم واعتباراتهم رأسا على عقب فإن القيم الجديدة التي نادى بها القرآن الكريم قضت على المقاييس التي كانت سائدة قبل نزوله. فإن التفاخر والشرف أصبح بمن يقدم الخير للإنسانية وليس الشرف لفلان لأنه ابن فلان أو ينتمي إلى القبيلة الفلانية. أو يحوز المال أو يملك القوة البدنية أو قوة الأنصار.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.. صفتان للقرآن الكريم، فهو يخبر المؤمنين بما يسرهم ويعلمهم بما أعد الله لهم من خير ونعيم لإيمانهم وعملهم بما يقتضيه الإيمان، ويحذر الكافرين بسوء العاقبة ويخبرهم أن مصير من كفر به وجحده إلى النار وبئس القرار، ورغم هذه الحجج وهذه الأدلة وهذا الإنذار ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾.. فصدوا عنه وتولوا، ورغم ما وهبهم الله من أدوات المعرفة، بالسمع والبصر والقلب ولكنهم لم يستعملوها بما خلقها الله له، فعطلوها عما ينفعهم فعبر القرآن الكريم بنفي هذه الأدوات أو نفي واجباتها ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.. لأن أدوات سمعهم لم تهدهم إلى ما يسعدهم فكأنها لم تكن موجودة أصلاً ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾.. فقد أكدوا على انهزاميتهم ومغالطتهم فقالوا إن قلوبهم عليها أغطية وهي مغلفة بغلاف لا تخترقها حججك ولا بيناتك ولا نريد أن نفتح عقولنا لما تدعونا إليه، وآذاننا لا تسمع منك شيئاً لأنها ثقيلة لأن الوقر ثقل يؤدي إلى

الصمم وبيننا وبينك حاجزاً سميكاً لا تخترقه أنت ولا نحن وقوله (من بيننا) دليل على أن المانع من قبلنا ومن قبلك أي إن الحاجز يستغرق المسافة التي بيننا فإن هناك شيء عندك يدفعنا على الامتناع وهناك شيء في نفوسنا يمنعنا من الإيمان بك. وهذا موقف انهزامي مغالط لأن الذي يعتقد أنه على حق يود لو يبين حقه لكل الناس ويستمع إلى ردودهم لأنه يعتقد أن حقه أقوى من حججهم فقولهم هذا يشير إلى أنهم يخافون من الاقتناع بصحة ما جاء به.

وقد روي أن سعد بن معاذ حينما سمع بوجود مصعب بن عمير ﷺ في المدينة ذهب إليه وتوعده فقال له مصعب ﷺ أو تستمع فإن رأيت صواباً فأنت وذاك، وإن رأيت خطأً فنفذ ما تتوعد به فجلس إليه فأخذ يقرأ هذه السورة فقال سعد: والله إنه لحق وأسلم ﷺ.

فكان أهل مكة يحاربون الرسول ﷺ ويمنعون كل أحد أن يستمع إليه لأنهم يعلمون أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يرده عاقل ولا يعانده إلا مكابر مغالط.

﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾.. أي فاعمل على دينك ونعمل لديننا وأعمل لإلهك ونحن نعمل لآلهتنا، وقال بعض المفسرين: فاعمل على هلاكنا ونحن نعمل على إهلاكك.

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾.. فهو إذن رسول مأمور بتبليغ ما أرسل به إلى من أرسل إليهم، فقال لهم أنه ليس ملكاً ولا هو خارج عن طبيعة البشر، هو واحد منكم أمره الله أن يتواضع لهم فهو مثلكم لا يختلف عنكم بخلق ولا بأصل ولكن الله عز وجل اصطفاه من بينكم لحمل هذه الرسالة وهي أن الله إله واحد ليس له مساعد وليس بينكم وبينه واسطة وهذه الأحجار ليس لها فعل في الكون ولا في نفسها فلا تملك من أمرها شيء، فالفاعل في الكون الوحيد هو الله سبحانه فهو الذي خلقه ويديره ويرعاه ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.. وقد وضع لكم منهجاً كاملاً للتصور الصحيح والعقيدة السليمة وبين لكم النظام الذي خلق الكون بموجبه وكيف تسير أجزاؤه على هذه السنن وأنتم جزء من الكون فلا تخالفوا سنن الله وأخلصوا العمل لله وسيروا وفق ما يريد واستغفروه واطلبوا عفوه من تقصيركم فإنه يقبل التوبة عن عباده.

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ والويل نوع من العذاب روي أنه واد في جهنم وقيل غير ذلك والمهم أنه العذاب للذين لا يعتقدون بوحدانية الله سبحانه ورعايته للكون ومن صفاتهم أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ فلا يزكون أي يطهرون أنفسهم من الشرك وعقولهم من الضلال وقالوا أن المراد به الزكاة الحقيقية مع أن الآية مكية والزكاة فرضت في المدينة المنورة.

حيث أن الزكاة تطلق على مطلق الإنفاق في طرق الخير لأنها تطهر النفس من الشح. وكان أهل مكة ينفقون على حجاج بيت الله في الجاهلية فامتنعوا عن تقديم المساعدات والخدمات لاتباع الرسول ﷺ أي المسلمين.

فإن أريد تطهير النفس من أدران الشرك أو الانفاق في سبل الخير فالمشركون بعيدون عن فعل الخير أياً كان مورده، وقد فرضت الزكاة باعتبارها ركناً من أركان الإسلام ويقول العلماء أنها قنطرة الإسلام فمن اجتازها نجا ومن منعها هلك.

هؤلاء المشركون هم الذين يمنعون الزكاة ولا يسلكون أي طرق للخير والنجاة لأنهم لا يعتقدون باليوم الآخر ويرون أن الحياة تنتهي بالموت ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾.

وغالباً ما يعقب القرآن الكريم على صفات المشركين ومصيرهم ويذكر الفريق المقابل وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً وبمحمد رسولاً ﷺ وأن كل ما جاء به هو الحق وعملوا بمقتضاه فإن الأعمال الصالحة هي ما أمر الله به فعملوا الصالحات هؤلاء لهم أجرهم دائم غير منقطع ولا يمن أحد به عليهم ولا يشكرون به إلا الله الواحد الأحد، خالق كل شيء ومليكه. وهذا الخير غير منقوص ولا مقطوع. وهو غير محسوب، محصور، ومن حيث هو من جهة الله تعالى فهو تشريف لا مَنّ فيه ولا أذى، لأن أعطيات البشر هي التي يمن فيها. وقيل أن هذه الآية نزلت في المرضى والزمنى الذين أقعدهم المرض عن إتمام أعمالهم الخيرية فإن الله لا ينقص أجرهم بناءً على ذلك.

وكثيراً ما نقول أن الآية إذا أمكن إجراءها على جميع المعاني التي تحتملها فالأولى حملها على الجميع. وهذه بعض صفات القرآن الكريم التي تدور حولها السور.

علاقة المقطع بالمحور

ذكرت هذه الآيات بعض صفات القرآن الكريم ثم ذكرت موقف المشركين من هذا القرآن وكيف أنهم هربوا من مجرد سماعه وهذا موقف انهزامي يدل على قوة القرآن الكريم وعدم استطاعتهم الرد عليه أو تكذيبه فما عليهم إلا أن يعرضوا عنه وينهزموا امامه.

الهداية في الآيات:

* أن القرآن الكريم أنزله الله رحمة للعالمين لأنه في هذه السورة التي موضوعها القرآن الكريم وهو محورها الرئيس يقول الله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.. فقد قرن تنزيله بإسميه الرحمن الرحيم والتي تستغرق جميع أبعاد الرحمة وجميع المرحومين.
* وليعلم المؤمن الداعية أن المشركين يعارضوه لأنه مسلم لا غير، فلا يمنعهم من اتباعه الأصل ولا العرق ولا القومية وإنما هو الإيمان.
* وأن الله شرف العرب بأن جعل الكتاب الذي حوى جميع كتب الله في اللغة العربية وجعل حملته للناس هم العرب. وأنه لا يقبل من العربي أي دين غير الإسلام لأنه العارف الأول لما فيه من الدلائل والتشريعات.
* وأن الدعوة لا تسير سيراً حقيقياً ثابتاً إلا بإنفاق أهلها عليها أكثر مما ينفقون على حاجاتهم الشخصية حتى الضرورية منها لأن الله قرن الكفر بترك الزكاة وعدم الإنفاق. وأن المؤمنين على خير كثير ما داموا مطمئنين بالله موقفين أنفسهم للدعوة إلى شريعته ورفع رايته وإعلاء كلمته. ولا يبذلون أموالهم وأوقاتهم ونشاطهم على أثمن من الدعوة.

الاحتجاج بالسنن الكونية على صدق
الدعوة وانسجامها مع حركة الكون

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر صفات القرآن الكريم وبين أنه يتكلم بلغتهم وأنهم يفهمونه حق الفهم ولكنهم اعرضوا عنه.

وفي هذه الآيات يبين الله عز وجل أن فيما جاء في القرآن الكريم كيف بدأ الله خلق الكون وكيف عين وظيفة كل جزء من أجزائه، وأن جميع مافي الكون يخضع للسنن التي وضعها الله له.

التفسير الاجمالي

بعد أن بين لهم أن منهجه واضح وأنه قرآن يتلى يفهمونه وهو خالد يتلى على مسامعهم في كل حين فإن كان عندكم اعتراض عليه أو على نص من نصوصه أو قضية من قضاياه أو موضوع من مواضيعه فاذكروه. أما أن تجعلوا بينكم وبينه حجاب حتى لا تسمعوه فإنها انهزامية وعدم ثقة بما تعتقدون ولما كان شأنكم كذلك فإن المناسب هنا التقريع والتوبيخ، وإن كان لا يخلوا من حجة وبرهان ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

فأي جرم وأي ظلم أنكم تكفرون وتجحدون من لا تخفى على عاقل عظمته هو الذي خلق هذا الكون الذي لا تستطيعون مخالفة أي سنة من سننه التي بني عليها هذا الكون ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. لأنه ليس له ما يدفع به هذا الاحتجاج.

إذن هل هناك أجهل ممن ينكر هذه الحقائق الثابتة الشاخصة، هو الذي خلق الأرض ووضع لها قانوناً تسير عليه ووظيفة تؤديها، خلقها في يومين، ما مقدار هذين اليومين؟ الله أعلم لكنها ليست أيامنا لأن أيامنا وجدت بعد الأرض والشمس والسماء واليوم في حسابنا هو دوران الأرض حول نفسها، ربما يكون مساوياً له وربما يكون أقل أو أكثر والذي نعتقده أن الله سبحانه جلت قدرته قادر أن يخلقها في لحظة في قوله كن ولكن الله كما يقول المفسرون أراد أن يعلم الناس الأناة أو قائل يقول أن الله جعل لكل جنس من المخلوقات وقتاً مستقلاً فمادة الأرض في يومين وما تنتجه لحياة الإنسان في يومين.

فهل يرى عاقل أن فاعل ذلك كله له أنداداً أي أشباهاً أو نظراء؟ والذي يترجح أن الأنداد النظراء في الاختصاص والصلاحيات وهو (رب العالمين) فلم يخلق هذه الأشياء ويتركها وإنما يرعاها، فالرب سبحانه السيد المالك الخالق القيوم بما خلق، ومع أنه عز وجل جعل لها نواميس تسير عليها ولكنه يرعاها ويقوم بشأنها ولم يكن كل شيء وفق النواميس التي نعرفها فكثيراً ما يخرق الله النواميس الكونية لعلة يراها.

وفي الحديث الصحيح (إن من أكبر الكبائر أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[1] ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾.. فقد خلق الأرض وجعل فيها مثبتات فإن الجبال تظهر فوق الأرض ومثلها تحت سطح الأرض لتقابل البحار والمنخفضات فلا تميد بساكنيها، فالله عز وجل جعل الجبال أوتاداً ثابتة في الأرض ومثبتة لها ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.. فجعل في الأرض ما يكفي الإنسان ويعيش عيشة هنيئة ومن عظمة الله في خلق الأرض أن ما عليها من أسباب العيش من الثمار والنباتات، والتي هي سبب حياة الإنسان ومواد غذائه تنمو وتتجدد في كل حين فإن البركة معناها النماء، ولذا فإن النظريات الملحدة التي تقول أن

---

(١) البخاري (٤/ ١٦٢٦) رقم (٤٢٠٧)، ومسلم (١/ ٩٠) رقم (٨٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

الأرض بتنامي سكانها وازديادهم ربما يأتي وقت لا تكفي ساكنيها في قوتهم وهذه الآية تدل على كذب وخطأ هذه النظرية والواقع يكذبها كذلك فإن الزراعيين يعلمون أن الأرض تزرع في كل موسم وبعد الحصاد تجدد نشاطها واستعدادها للإنبات ثانية.

فالله سبحانه قد بارك فيها وقرر ما يلزم لعيش من فيها وجعل ما يقتاتون عليه كافياً لهم وقد ذكرنا أن المدة هي أربعة أيام كاملة فخلقها وخلق ما فيها وما عسى أن يكون فيها في أربعة أيام كاملة مستوية. فالوقت قال الله عز وجل أنه أربعة أيام، هل هي من أيام الله الذي يقول عنها ويوم عند ربك كألف سنة مما تعدون أم أراد أنها تساوي أيام الدنيا بعد خلق الأرض فهذا مالا نستطيع الجزم فيه، فالله تعالى أعلم.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ثم قصد إلى السماء وهي دخان فخلقها سبعاً شداداً وسقفاً مرفوعاً ثم جعل لها وللأرض قانوناً وسنة وناموساً فقال لها وللأرض أتيا طوعاً أو كرهاً هي من قبيل ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب: ٧١].. فإن الله عرض عليهم التكليف هل يسيرون وفق إرادتهم فيحاسبون عن تقصيرهم أم يسيرون وفق القانون الذي وضعه الله لهم، وليس لهم خيار في مخالفته فرضيت جميع مخلوقات الله أن تسير وفق النواميس ولا تريد الحرية في الاختيار سوى الإنسان اختار التكليف وأن تكون له مساحة من الحرية في بعض التصرفات فلم يؤد حقها. فالأرض والسماء وما فيهن قالتا أتينا طائعين منقادين للقوانين الكونية التي وضعها الله لنا.

فأمر أمراً قاطعاً وحكم بأن تكون سبع سماوات بناءً شديداً متماسكاً وجعل لكل سماء وظيفتها ونوع الخلق الذي فيها ووظيفتهم فتم حكم الله فيها ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾.. وجعل وظيفة وصفة السماء التي تلي الأرض فيها الكواكب التي واجبها أن تزين وتجمل جو الأرض ومحيطهُ، وتحفظ الملأ الأعلى من تصرفات الشياطين الذين يحاولون استراق السمع وإخبار أنصارهم من شياطين الإنس بما يدور في الملأ الأعلى من أخبار فيزيدون عليها ويشوشون على أوليائهم، فجعل هذه النجوم رجوماً للشياطين التي تحاول

استراق السمع لتؤذي أولياء الله. فالقضاء والأحكام وفيه إشارة إلى بديع صنع الله سبحانه وتعالى وخلقه لهن وصنعهن صنعاً محكماً.

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو صنع الله المحكم الذي لا يطال ولا يقدر قدره لأنه عليم بكل ما يراد لهذا الكون وما يجري فيه.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد شرح طبيعة الكون وصفته ووظيفة كل جزء فيه وما يجب أن يكون موقف الإنسان منه، كذلك بين تدرج أجزاء الكون في التكوين والأنواع التي هي أقرب إلى بعضها في الوظيفة والهدف وما تقدمه مما يريد الله منها ببقية الأجزاء ومنها الإنسان.

والناموس الذي يسير الله به أجزاء الكون وكيف يرعاه ويحفظه من التصادم والاضطراب، إذ أوحى في كل سماء أمرها.

وفي أصل تكوين الأرض والسماء فقال تعالى: (وهي دخان) يقول العلماء إن الكون كان مملوءاً غازاً فتكاثف هذا الغاز (السديم) فكون الكواكب والنجوم، وقد تكلم القرآن الكريم عما وصل إليه العلم بعد أربعة عشر قرناً وأننا نشهد القرآن على صدق العلم ولا نشهد العلم على صدق القرآن لأن القرآن لا شك في صدقه.

علاقة الآيات بمحور السورة

والذي يقتضي أن نقوله هو: أن وقت نزول القرآن كانت الناس تعبد الشمس والقمر والنجوم لأنهم يجهلون حقيقتها فيخشونها، فقال لهم الرسول ﷺ بوحي من الله تعالى، أنها كانت دخان فبناها بناءً شديداً وكانت متحدة فأبرزها كل في مداره وبناموسه فتبارك الله أحسن الخالقين. وهوما يشير اليه القرآن الكريم في مواطن كثيرة.

الهداية في الآيات:

* إن الله خلق الكون في مراحل أو في أزمان متفاوتة مرتبة ويرى العلماء أنها لتعليم الأناة للمسلمين. ويرى آخرون أن الله خص كل نوع من الخلق بزمن وهذا ما أراه.

* إن الأرض هي ضمن المجموعة التي تعلوها السماء فإن الله خلق السماء المحيطة بكل شيء ثم خلق الأرض ثم ميز طبقات السماء أو عددها وجعل لكل سماء اختصاص في الساكنين والفاعلين، فكون الأرض في شكلها الحالي قبل تقدير طبقات السماء أو قبل جعلها سبع سماوات فبعد أن جعلها سبع سماوات خلق أجزاء الأرض ووظيفة كل جزء.

* ومن الهداية بيان ضحالة من يجعل لله نداً أو شبهاً أو مساوياً له في الفاعلية والاختصاص مع أن كل ما جعله المشركون نداً أو فاعلاً معه هو وفعله، مخلوقات لله.

إعراض المشركين عن سماع الدعوة في القرآن الكريم ومسيرة الدعوة متمثلة بالأمم السابقة

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر في الآيات السابقة كيف خلق الله الكون وعين وظائفه وهذا يوجب الإيمان المطلق بوحدانية الله وقدرته وتفرده بالكون فهو الفاعل الحقيقي فيه، بعدها ذكر الأمم السابقة وماحل بها في الحياة الدنيا يبين عز وجل أن هذا العذاب والمصير في الدنيا لم يكن نهاية ما يستحقون على كفرهم وإنما ينتظرهم الحشر في النار لأنهم أعداء الله عاندوا رسله وآذوا دعاته.

التفسير الاجمالي

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ وبعد أن ساق القرآن الكريم هذه الأدلة على وحدانية الله وقدرته ولفت نظرهم إلى السنن التي لا يستطيعون مخالفتها ولا تغييرها وبين لهم قدرة الله تعالى في خلق هذه الأشياء العظيمة (الأرض وما فيها والسماء ووظيفتها)، لم يبق من الإعراض والصدود عن الإيمان إلا المغالطة والعناد.

إذ لم تكن لهم حجة في الصدود عن الإيمان، بقي أسلوب آخر وهو التهديد والوعيد ويعلمون أن محمداً ﷺ لا يتوعد إلا نفذ توعده ولا يكذب فيما يبلغ عن ربه، وليقينهم بذلك حينما قال: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.. وضع عتبة بن ربيعة يده على فم الرسول ﷺ وناشده الرحم ألا ينفذ تهديده وقال لقومه (تعلمون أن محمداً لا يكذب ولا يخلف).

وقالوا إن الإنذار يراد به التخويف والصاعقة العذاب وهي معروفة لدى العرب نار يصحبها صوت شديد تحرق ما تقع عليه، ولا قدرة لهم على ردها، ولا مانع من أن يراد بها الحقيقة والذي جعل المفسرين يقولون أنه مطلق العذاب لأنهما لم يعذبا بعذاب واحد فإن عذاب عاد غير عذاب ثمود.

ولذا قالوا بأن الصاعقة مطلق العذاب، وأن قريشاً لم تصبها الصاعقة ولا العذاب لأنهم أسلموا بعد ذلك فلم يعذبوا كافة كما عذبت الأمم الأخرى.

ثم تأتي علة الإنذار والتهديد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾.. إذ منعهم التكبر من الإيمان كما تكبرت طغاة قريش، فإن عاداً أعجبتهم أجسامهم وقوتهم فقالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾.. ونسوا أنهم مخلوقين وأن الذي خلقهم اشد منهم قوة.

وهكذا يدفع التكبر أصحابه للإعراض والصد حتى عما ينفعهم ولا يريدون أن يقتنعوا بالحق فلا يسمعوه ولا يعرضوه على المنطق ولا يحاولون مناقشته مناقشة علمية.

وقوله عز من قائل: ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.. مع أن التكبر لا يكون بحق

أبداً، أشار تعالى إلى أن تكبرهم لا مبرر له لأن قوة الأجسام ليست مدعاة للكبر إلا للجهلة، لأن العاقل يعلم أن الإنسان مهما عظمت قوته فسوف يؤول إلى ضعف ثم إلى موت ولكن نقص عقولهم دعاهم للتكبر.

فأجابهم الله عز وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فإنهم يعلمون أن الله خلقهم ولكنهم جل اعتراضهم على الرسول فإنهم يرون أن فيهم من هو أقوى منه أو أغنى منه أو ما إلى ذلك من القيم التي يعتقدون أنها سبباً للسيادة والقيادة. ولذا قالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾.

تكاد الأمم تتشابه في سبب إعراض مشركيها عن الإيمان فإنهم لا يرون الرسول ممن تحق له القيادة أو الاختيار من قبل الله جل جلاله، فقد قالت قريش ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].. وقالت اليهود ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ [البقرة:٢٤٧].. وهنا يقول قوم عاد وثمود لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، وهذه تشير أيضاً إلى أن الله عز وجل موجود في تصور جميع بني الإنسان ولكن الذي يختلف هي صورته وصفات من يرسل، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فجميع بني الإنسان يعتقدون بوجود الله ويعتقدون بأنه خالقهم.

ولذا فإن رد هذه الحجة سهل إذ أن الله سبحانه يرسل إلى البشر بشراً وإلى الملائكة ملكاً، إذ كيف يفهمونه أو يفهم منهم إن لم يكن منهم.. ؟

فقولهم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ معناه أننا لا نقر بصحة إرسالكم من الله ولذا فإنا نكفر بما جئتم به مما تدعون أنه رسالة من الله تعالى.

إذن.. فإن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد قوة لأن الذي يوجدهم قادر على أن يعدمهم أي يعيدهم إلى ما كانوا عليه. ولكنهم تنكروا لجميع الدلائل والحجج إن كانت في المنطق الإنساني أو إن كانت بالسنن الكونية التي يشاهدونها.

ثم يبين الله لمشركي مكة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾.. فهذه نتيجة

الإصرار على الكفر والجحود وعدم الرضوخ وعدم الاقتناع بالحجج والبراهين التي تدل على صحة المنهج ووجوب إتباعه ولا يمكن أن تصلح الإنسانية إلا بالمنهج المتلائم والمتوائم مع حركة الكون، فجزاء المعاندين ريحاً باردة جداً تحرقهم كما تحرقهم النار وقال المفسرون ﴿ صَرۡصَرٗا ﴾ هو استبدال لصرر وهو البرد الشديد فهذه الريح القوية جداً والتي تسمى الآن الأعاصير تقتلعهم من جذورهم، فهو جزاءً وفاقاً لقولهم من أشد منا قوة؟ وتحمل هذه الريح البرد الشديد وكانت شؤماً عليهم وعلى حياتهم وبلدهم الذي تحصنوا به واعتمدوا على قوتهم فيه.

فجاءت هذه الريح بالذل والهوان والعذاب ففي الدنيا ذاقوا عذاباً يصاحبه ذل وهذا أيضاً موافق لتكبرهم وجبروتهم واستهزائهم بالرسل وما جاءوا به وسخريتهم بالطريق والمنهج الذي أنزله الله سبحانه لهم مع الرسل ليحفظ كرامتهم ويحقق سعادتكم.

ثم لم تكن هذه النهاية وإنما هي بداية تسلسل ما يستحقونه من عذاب لأن عذاب الآخرة أخزى وأشد وأنكى، ولا يستطيعون نصر أنفسهم ولا أحد ينقذهم من هذا الواقع المرير.

ثم تعرج الآيات على قوم صالح الذين تكبروا أيضاً وطغوا ورفضوا المنهج الذي أعده الله لهم وأرسل به صالحاً ومعه دليل لا ينفيه عاقل ولا يجحده حكيم حليم. فإن الله تعالى جعل مع صالح ناقة يشربون منها جميعاً وتكفيهم ولكنهم أصابهم الغرور إذ أن مراكز نفوذهم تركزت في ﴿ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [النمل: ٣٨].. هذه العصابة تحكمت في قوم صالح فأرتهم الصواب خطأ والخطأ صواباً، وبين لهم الله على يد صالح المنهج السليم والطريق الحق ففضلوا الضلال والتيه والتخبط على منهج الله المستقيم الواضح، فكان جزاءهم الذل والهوان. وجاءتهم الصاعقة، الصوت القوي الذي أعماهم وأصم آذانهم وأهلكهم وأهانهم وكذلك ينتظرهم عذاباً في الآخرة، أشد وأعتى ونجد في هذه الآيات ذكر الله قوم صالح وقوم هود (عاد وثمود) في صدر الآيات ثم فصل في آخر المقطع ما الذي أصاب قوم صالح وما الذي أصاب قوم هود.

وقد ذكر الله تعالى في صدر المقطع أنه أرسل لهم الرسل وبينوا لهم جميع ما يحتاج الإنسان

للهداية والإقناع فجاءتهم بالأخبار عن الأمم السابقة ورسمت لهم الصور التي أدت إلى نهايتهم ونهاية ضلالهم فلم ينفعهم هذا البيان ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾.. ففي جميع الاتجاهات ومختلف الأساليب.

وكل هذا البيان هو صورة ذهنية لكفار مكة لتجنب غضب الله وعقابه ليتعظوا ويعلموا أن الله أنعم عليهم إذ لم يسلط عليهم عذابه وعقابه بكفرهم وعنادهم ورفضهم حتى الاستماع لقول الحق، فإن الله سبحانه وتعالى صبّ عذابه على هذه الأمم ولم يعملوا إلا كما عمل كفار مكة، لكن حلم رسول الله ﷺ وتحمله أذاهم ورفضه إهلاكهم حتى في أشد حالاتهم أذى، وفي أقسى ما لاقى منهم، وما قصته بالطائف بغائبة عن ذهن مسلم إذ أنه حينما عرض عليه ملك الجبال بأمر من الله أن يطبق عليهم الأخشبين تركهم وقال لعل من أصلابهم من يعبد الله. صلى الله عليك يا خير خلق الله ما أحلمك وما أحكمك. ثم تكتمل الصورة ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ حيث أن الله جلت قدرته حينما يعاقب الأمم يخرج من بينهم الدعاة وينجيهم لأنهم أطاعوا الله ورسوله وعملوا بمقتضى المنهج الذي أرسله الله إليهم مع رسوله واتقوا عذابه وأنابوا إليه.

علاقة الآيات بالمحور

وهكذا يستمر القرآن الكريم في عرض الصور التي تعرض تجارب الأمم ومنهج الدعاة في مواجهة انحرافاتهم الاجتماعية والعقائدية ومصير المؤمنين الذين تحملوا الدعوة مع الرسل ومصير الجاحدين الذين لا يقبلون هداية ولا يذعنون إلا للقوة.

الهداية في الآيات:

* أن المشركين يحتجون بأي حجة على شركهم وتمسكهم بكفرهم وحقيقتهم أنهم لو حقق الله شرطهم للإيمان فلا يؤمنون أبداً، لأن الإيمان تستقبله نفوس مطمئنة وعقول فاحصة ذكية تهتدي إلى الحق فإن الإسرائيليين طلبوا رسولاً يقدم قرباناً تأكله النار ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ

جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨١]. فأجابهم الله أنه حقق لهم ذلك ولم يهتدوا، والنصارى أرادوا مائدة من السماء فجاءتهم وبمجرد ما رأوا المائدة عادوا إلى الكفر والآن جميع النصارى يعلمون بخبر المائدة وهم الآن أضل من الأنعام وأحقر.

* إنه ليس أخف عقلاً من الذي يجابه رسل الله بقوته إذ أنه مهما كان قوياً فإنه يعلم أنه وجد من عدم ويعود إلى عدم، فهل تنقذه قوته من ذلك.

* إن الذين يصرون على الكفر مهما وضح لهم الطريق لا يرونه أو لا يرون صلاحه ولا هدايته، وقد بين الله لهم طريق الحق على يد الرسل فأحبوا العمى على الهدى.

مصير المشركين وأن الله

أحصى أعمالهم التي أوصلتهم لهذا المصير

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

علاقة آيات المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر الله عز وجل كيف عاقب الأمم السابقة التي كذبت الرسل وبين سبحانه أن أولئك كانوا أشد قوة من قريش فأهلكهم بذنوبهم ونجى المؤمنين من العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

وفي هذه الآيات بين عز وجل أن مصير أعداء الله هو النار التي سيصلون إليها بعد حسابهم في يوم يحشر الناس جميعاً للحساب وأن سلوكهم المخالف لما أمر الله مسجل عند الله تعالى وأن الشاهد عليه هو أعضاؤهم التي كانوا يستخدمونها في المعصية.

التفسير الإجمالي

ومن التسلسل الطبيعي أن بعد الإنذار والتهديد بعذاب في الدنيا أن يتكلم القرآن الكريم عن مصير هؤلاء في الآخرة فإن من صفات العرب أنهم لا يخشون الموت ونجد في أدبهم الجاهلي الحث على الموت الكريم فلا يكون المرء منهزماً ولا مفرطاً بحقوقه ولا مستكيناً لعدوه وكما قال شاعرهم:

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل البقاء بمستطاع

وما ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخ الخنع اليراع

وقال آخر:

ليس الكريم على القنا بمحرم

ولذا فإن الحديث عما بعد الموت هو المجدي وهو الرادع الحقيقي وأشد ما تكلم عنه القرآن الكريم في العذاب الأخروي هو عذاب الذل والهوان والخزي والعار وهذه ما يأنفها العربي ويبذل نفسه في اتقائها.

فحذره الله سبحانه، من هذا المصير فيكون كريماً في الدنيا والآخرة ما دام منضبطاً بشرع الله معتقداً بتوحيده وفاعليته في الكون فبعد أن قال ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ قال: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ فهم أعداء الله خالفوا شريعته وكذبوا رسله وناصبوا أولياءه العداء فما جزاؤهم إلا أن يساق أولهم على آخرهم ويجمعون ويساقون إلى جهنم التي كذبوا الخبر بوجودها وبأنها مصير أعداء الله.

ويوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها سيقال لصاحبها عليك شهود من نفسك فتشهد

عليه أعضاؤه بما سخرها له من الأعمال فالسمع يشهد بما سمع من الكلام غير اللائق ما يخالف به شرع الله والبصر يشهد بما رأى من فواحش والجلود ما باشرت من المآثم.

وفي الأثر: أن عبد الله بن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء نفر أو ثلاثة وصفهم فقالوا هل يسمعنا الله فأجاب بعضهم بنعم، وآخر بلا. فأخبر الرسول ﷺ قبل فنزلت هذه الآية وقال آخرون أنه استشهد بهذه الآية. وقيل أن الجلود هي الفروج فقالوا لها ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.. فإذا كان الله قد خلقكم من عدم وعين وظيفة كل عضو من أعضاءكم بقدرته فما الذي يقتضيه أن يغير وظائفها يوم القيامة؟ فماذا تفيد المخاصمة إذن إذا كان الإنسان على نفسه بصير، وكانت أعضاؤه هي الشهود فهل يستطيع أن يعمل عملاً بدون أعضاء؟ هذه شهوده يوم القيامة فليتق الإنسان ربه وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فالله خلق الإنسان من عدم ثم يؤدي به إلى عدم ثم يعيده ثانية للحساب والجزاء فيحصد ما زرعه في الدنيا.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فقد كنتم تستخفون عن الناس في فعلكم الشين، ولم تحسبوا حساب من بيده جزاؤكم وهو خلقكم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم كل شيء عنكم فإنكم تستترون عمن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وظننتم أن الله لا يعلم ما تفعلون، وظنكم هذا أوقعكم في العذاب وأدى بكم إلى النار فهذا الظن سبب هلاككم وقد جاء في الحديث: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الله لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكليات فلا يعلم كل أفعال العباد وهذا الاعتقاد يخالف قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وأي خسارة أشد وأيها

أقبح من أن يخسر الإنسان حياته ويترك نفسه على هواها ويعطل عقله فلا يرى إلا شهواته معتقداً أن الله لا ينظر إليه وظاناً أن الله لا يؤاخذه على كل شيء.. !! كيف يكون ذلك وهو رب العالمين.

﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.. فالصبر هنا ليس له جدوى وليس له عاقبة خيراً فالصبر في الدنيا على المكاره في سبيل الدعوة في سبيل الله عاقبته النصر والظفر وحسن الجزاء في الآخرة.

علاقة المقطع بالمحور

تكلمت الآيات عن مصير المشركين في الآخرة فصبرهم على النار وما الذي يفعلونه إن لم يصبروا ولو طلبوا العفو أو الرضى فما هم من المعتبين. فلا رضا ولا عتاب ولا ندم فاليوم حساب ولا عمل.

فلم يترك القرآن الكريم حقيقة إلا أشار اليها ولا عمل ينجي الإنسان إلا بينه ولا صورة صادقة لمصير الانسان إلا جلاها.

الهداية في الآيات:

* ما أغبى من يعتقد أنه يستطيع أن يخفي عمله على الله؟ لأن الله هو الذي خلق قلبه ووضعه في صدره وهو الذي خلق عقله ويعلم ماذا يحوي وماذا يغفل وما هي قابليتها لكل عمل ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].
* كما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي عين وظائف الأعضاء فهذا يرى وهذا يسمع وهذا يشم إلى غير ذلك، وليس في اللسان كعضلة شيء يدل على أنه يتكلم ولا في الحنجرة كتركيب بها خاصية الصوت وتقطيعه إلى حروف ولكن الله أعطاها هذه الخاصية فهو يوم القيامة يعطي هذه الخاصية لأعضاء أخرى.
* ولذا جاء الحديث الصحيح: (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (٥٠).

إصرار المشركين على عدم سماع الدعوة

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

في الايات السابقة ذكر الله صورة من صور يوم القيامة وكيف يساق أعداء الله إلى النار وجعل الله أعضاءهم هي التي تشهد عليهم وفي هذه الآيات بين الله جلت قدرته أن فعلهم القبيح له أنصار وهؤلاء الانصار يشجعونهم على ارتكاب المعاصي لأنهم يفعلونها أصلاً فهؤلاء قرن الله بعضهم ببعض حتى يزين كل فريق لقرنائه الفعل القبيح

وصموا آذانهم عن الموعظة وعن القرآن الكريم الذي رسم لهم طريق السعادة وفتحوا قلوبهم وعقولهم لقرناء السوء.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ هؤلاء أعداء الله فقد خلى الله بينهم وبين قرناء السوء من الشياطين فقد أتاح لهم أصحاب يقترنون بهم يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول فيزينون بعضهم لبعض ما هم عليه من العقائد الفاسدة وما وجدوا عليه آباءهم من الشرك.

وقال بعض المفسرين أن قيض معناه يسر فالله يسر لهم هؤلاء القرناء والحقيقة أن الذي يسر لهم هؤلاء القرناء هو إصرارهم على الكفر وصدهم عن سبيل الحق فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]، هؤلاء الأصحاب من شياطين الإنس والجن

يزينون لهم ما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وما سيؤول إليه أمرهم في الآخرة من إنكار للحساب والحياة بعد الموت وبناء على ذلك وجب عليهم العذاب والعقاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر: ٦].. ولم يكونوا وحدهم الذين وجب لهم العقاب فإن قبلهم أمم من الجن والأنس كفروا بربهم وعصوا أمره وشاقوا الرسل فأوردهم سوء العذاب وقد خسروا دنياهم وآخرتهم، فإن دنياهم كانت بتصريف سادتهم وكبرائهم كما ستأتي في بقية الآيات.

ويعود الحديث في المحور وهو القرآن الكريم حيث أنه سبب إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فإن فيه من القوة والتأثير في النفوس بما لا يستطيع الطغاة صرفه عن أنفسهم ولا عن غيرهم فلم يقولوا ردوا على هذا القرآن ولم يقولوا حاججوا هذا الخطاب بمنطق أقوى منه وإنما الذي يستطيعونه هم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.. وقد جاء في الصحيح حينما أجار أبو البختري أبا بكر الصديق فأخذ يقرأ القرآن أخذ يؤثر في الناس فيؤمنون لقراءته فشكوه لأبي البختري وقالوا إنك أجرته على حياته ولم تجره أن يقرأ القرآن {فإننا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا}.. والحقيقة أنه يهدي سادتهم وعقلاءهم لقوته الذاتية وتأثيره في النفوس.

وقال الذين كفروا فكان دليل كفرهم قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن ونقلت التقارير بأسانيدهم أن أبا جهل والمشركين كانوا إذا قرئ القرآن يملؤون المكان ضجيجاً وصياحاً وصفيراً يحمون أنفسهم من القرآن ويحمون أتباعهم منه واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه ولا معنى له فكانوا يوصي بعضهم بعضاً أن لا يسمعوا للقرآن الكريم حتى أن أحد وجهاء العرب قيل له لا تسمع لمحمد فإنه يتكلم كلاماً يسحرك فيه فقال لهم والله ما أنا بالذي يتهم عقله سأسمع إليه فإن قال صواباً صوبته وإن قال خطأ رددته عليه فلما سمع للقرآن الكريم أسلم.

وقد قلنا إن محور السورة هو القرآن الكريم بصفاته وبموقف المشركين منه دائرة في

سامعيه وهذه فقرة من فقرات المحور أنه يحمل قوة ذاتية لا يستطيع العاقل ردها ولم يستخدم المشركون أي طريق عقلي أو منطقي.

ففي أول السورة تحداهم بالسماع له وبين أنه مما تعرفون كلامه لأنه عربي في لغته واضح في بنائه وهدفه فإن كان لكم ما تردونه أو تعيبونه فيه فتقدموا، وقد مرت بنا قصة الوليد وهنا يبين انهزامهم وهروبهم حتى من سماعه.

فكان جزاؤهم المناسب ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.. ومن الطبيعي أن تسمع للمدعي فإما أن توافقه وإما أن ترده بها لديك من حجة وإن غابت عنك الطريقتان فتسمح له أن يسمع غيرك والظلم منتهى الظلم أن لا تسمع ولا تسمح لأحد أن يسمع ولذا فإن لهم عذاباً شديداً.

وقوله لنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً المقصود أن نوصل العذاب إلى أدق مشاعرهم حتى يعلموا حقيقته، وهذا هو الجزاء المناسب جزاؤهم بأسوأ أعمالهم فإنه ليس أسوأ من هذا الظلم وهذا الجحود والوقوف بوجه الدعوة التي أراد الله إنقاذ الإنسان بها فالمشركون لا يؤمنون بهذا الخير ولا يدعوه يعم الناس، فكان جزاؤهم هو ما يناسب أعداء الله ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ﴾.. فقد وقفوا سداً منيعاً ضد الدعوة كي لا تصل إلى الآخرين، فتشويشهم على الناس في سماع القرآن ومنع وصوله إلى العقلاء فهذا إظهار للعداوة لله وأوليائه وجزاؤهم المناسب هو الخلود في النار لكفرهم بكل هذه الدلائل، وهذه النصوص وجحودهم ونكرانهم لما فيها من حقائق ثابتة وأدلة دامغة واضحة.

ثم يصور القرآن الكريم حالة الندم والحنق على دعاة الشر من قبل متبعيهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فهما هؤلاء القرناء هؤلاء دعاة الضلال والظلم والكفر والجحود يريد أتباعهم أن ينتقموا منهم بما زينوا لهم الشر والسوء والضلال. وقد جاء الخطاب بالمثنى باعتبار الجنسين (الانس والجن) لا باعتبار الأفراد.

ولو أن دعوة هؤلاء لم تجد صدى في نفوس هؤلاء الأتباع لما ساروا وراء سادتهم فإن هناك أمثلة حية من الأتباع والرقيق الذين خالفوا سادتهم وتحملوا أشد العذاب كبلال ﷺ وآل ياسر رضي الله عنهم فقد قال الحكماء (استفادة القابل من المبدأ تتوقف على المناسبة بينهما)، وورد عن الغزالي رحمه الله أنه قال: ما اجتمع اثنان إلا لعلة فيهما.

وقد عبر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعبيراً جميلاً حيث قال: (فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها وللإحاطة بهذا المقصود أؤثر التعبير بـ « قيضنا» دون غيره نحو بعثنا وأرسلنا)[١].

علاقة المقطع بالمحور

يكاد يكون المقطع كله للمحور فإن الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي منه وتخبطهم في رد حقائقه وتأثيره في النفوس.

الهداية في الآيات:

* إن الله جعل لكل إنسان سائق وشهيد ملائكة يكتبون عليه أعماله ويحصوها وإن الإنسان يختار قرناء أصدقاء وأخلاء يكونون وفق توجهه وهواه فإن كانوا صالحين فسيعينونه على الطاعة وإن كانوا غير ذلك فيزينون له الطريق الذي يختاره لنفسه فالمشرك يكون قرناؤه من نفس الفصيلة فيزينون له طريق المعصية فزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل.
* والقضية الأخرى أن كفار مكة وعتاتها لا يستحون من عدم سماعهم القرآن لئلا يهديهم إلى الطريق المستقيم فدافعوا عن ضلالهم وهم يعلمون أنه ضلال وقد منعهم من الهدى تكبرهم وعنادهم وعصبيتهم مع أن الرسول ﷺ تبرأ من التعصب العرقي وحتى القومي، فيكون جزاؤهم الأوفى هو العذاب والنار التي أعدها الله لمن عصاه.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤ / ص٢٧٥.

قرناء المؤمنين (الملائكة) يعينونهم على تبليغ الدعوة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر الله جل وعلا في الآيات السابقة ندم المشركين على اتباعهم دعاة الباطل وبين حقدهم على قرنائهم الذين أوردوهم النار.

وفي هذه الآيات بين الله عز وجل أن للمؤمنين قرناء ولكن شتان بين قرناء المؤمنين وقرناء المشركين فقرناء المؤمنين ملائكة صالحون يهدوهم إلى مايرضي الله ويعينوهم على الطاعة وفعل الخير فهم أولياؤهم وناصروهم يحبونهم ويرجون لهم كل خير فهم رفاقهم في الدنيا وفي الاخرة يبشرونهم بمصيرهم السعيد.

التفسير الإجمالي

هذا المصير الذي ناله المؤمنون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي أعانهم الله بملائكته على تحصيلها ووفقهم للسير في طاعته ورحمته لا بد أن يتعرض لهم الشيطان حتى يصرفهم عن طريقهم السوي ومصيرهم السعيد وعلى ذلك أعد الله لهم سلاحاً يتخلصون به من الشيطان فإن راودتك نفسك على معصية فاعلم أنها من عدوك من الشيطان فالجا إلى الله واستجر به فإنه يجيرك بتوفيقه وبملائكته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.. للمشركين قرناء وللمؤمنين قرناء وقد عرفنا في المقطع قبل هذا قرناء المشركين شياطين الإنس والجن يقولون لهم لا تسمعوا الحق ولا تتبعوا ما ينفعكم ويسعدكم في الدنيا والآخرة ونتيجة هذا الاقتران أنهم كانوا خاسرين وأن كل واحد منهم يطلب من الله أن يجعل قرينه في أسفل الجحيم.

وهذا المقطع يتكلم عن قرناء المسلمين المؤمنين، يتجلى وصف المؤمنين ومرتبتهم في هذه الآيات أنهم قالوا ربنا الله ولا رب لنا سواه وهو إلهنا ولا نبتغي غيره ولا نشرك به ربنا الله خالقنا ورازقنا ومولانا جل أن يحتاج لسواه حتى يدير شؤون خلقه.

الذين يحفون من حول العرش هم أقران المؤمنين يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٨]، هذه هي العلاقة بين المسلمين وقرناؤهم.

الذين قالوا ربنا الله أفصحوا عن معرفتهم الحقيقة العظمى عرفوا الحق للاهتداء به والانصياع لأوامره والسير على المنهج الذي أعده للمسلمين وللناس جميعاً ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾.. شغلت الناس وخاصة المسلمين هذه الآية فما هي الاستقامة التي يقتضيها قولنا (ربنا الله)؟

قال أبو بكر الصديق ﷺ: أي لم يلتفتوا إلى إله غيره.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: أخلصوا العمل.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجه: أدوا الفرائض.

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال: (شيبتني هود)[1] مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ٢٨٦) رقم (٧٩٠). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٧): رجاله رجال الصحيح.

وفي تصور الرسول ﷺ للاستقامة المطلوبة منه وآراء الخلفاء قادة الإسلام في الاستقامة تستطيع أن تحدد نوع الاستقامة المطلوبة.

ففي أقوالهم يتجلى تجريد الالوهية وعدم ميل القلب إلى سوى الله أو اعتقاد فاعل في الكون سواه وأن يكون القلب خالياً من أي درن أو شائبة في توجهه إلى الله سبحانه وتعالى. وأن يؤدي ما عليه من الفرائض التي أوجبها الله تعالى أو ألزمها الإنسان ليكون مسلماً.

ومن طريف ما كتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾.. ما كتبه الطاهر بن عاشور رحمه الله قال: ((أصلي الكمال الإسلامي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾.. فقوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مشيراً إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به ومعرفة الخير لأجل العمل به فالكمال علم يقيني وعمل صالح فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق أي أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.. على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري وبين الرجاء والقنوط وفي الأعمال بين الغلو والتفريط))[1]. وجاء في تفسير الرازي (أنها نزلت في أبي بكر الصديق قال ابن عباس لأن أبا بكر ﷺ وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير عن دينه فهو الذي قال ربي الله وبقي مستقيماً)[2].

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤- ص ٢٨١.

(٢) التفسير الكبير ج٢٧ -ص ١٠٥.

(والاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر وقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ أي في التوجه إليه دون الآلهة وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى)[1].

فبعد أن بين الله سبحانه ما وجب للمشركين بفعلهم، بين عز وجل للمؤمنين باستقامتهم فقال تتنزل عليهم الملائكة وتحفظهم من الوقوع في الخطأ وتعينهم على الثبات ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١].. ولا يفارقونهم أبداً ويوم القيامة يظهرون لهم ويبشرونهم ويشهدون لهم ويستغفرون لهم، وبهذا ترى الفرق بين الفريقين فقرناء المشركين يسوقونهم إلى جهنم، ويوم القيامة يرجون الله أن يضعوهم تحت أقدامهم فيكونوا من الأسفلين.

فالملائكة أولياء المؤمنين يقولون لهم لا تخافوا مما أنتم مفضين إليه، فإنها جنة ورحمة ولا تحزنوا على ما فاتكم أو ما خلفتموه من أهل وولد فسوف نرعاهم لكم ويحفظكم الله في ذريتكم وإذا كان أبو بكر الصديق ﷺ، نموذجاً لمن تصدق عليه هذه الآية فإنه نعم النموذج.

فإنه ﷺ كان من أهل الثراء حينما بعث الرسول ﷺ فأنفق جميع أمواله في سبيل الله، وعندما بايعه المسلمون خليفة لرسول الله ﷺ شوهد في السوق يتاجر فاستقبله الصحابة رضي الله عنهم فقالوا ماذا تفعل وأنت خليفة رسول الله؟ قال انشغلت بشؤونكم فجاع عيالي فأعادوه وفرضوا له عطاء يكفيه وعياله كواحد من المسلمين وحينما حضرته الوفاة جمع أولاده البالغين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد. فقال لهم: لقد أخذت من أموال المسلمين الذي فرضه لي أصحابي ومنهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعثمان وأبو عبيدة وكانوا حاضرين فأمر أولاده أن يحضروا المال الذي أخذه عطاء من أموال المسلمين فجمعه وأعاده إلى بيت المال قائلاً لا أقابل ربي وفي ذمتي شيءٌ من أموال المسلمين مع أنه عطاء يشبه الراتب وقد فرضه له الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) لسان العرب ج١٢- ص٢ مادة قوم.

فلما مات ﷺ خلفه الله في أهله فكلهم أخيار من قادة المسلمين من الفرسان، وبناته فقيهات يحتلون الصدارة بين نساء المسلمين فإذا كان الخوف غماً يملأ النفس مما يتوقع من مكروه في المستقبل فلم يكن أسعد من أبي بكر ﷺ بعد رسول الله ﷺ بمصيره وإن كان الحزن غماً في النفس مما فاته من مكروه وقع له في الماضي فإن أبا بكر تحمل كل ما تحمل في سبيل الدعوة وهو أسعد الناس فيه وقد نقل له التاريخ هذه الأيام المشرقة في حياة الإنسانية.

والملائكة تقول للمسلم الذي أدى واجباته كما يريد الله وكما أمره أبشر فإنك تتبوأ داراً كما وعدك مولاك جنة عرضها السماوات والأرض لك فيه كل ما تحب وأكثر مما تتوقع ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.. ويتجلى الفرق بين القرين والولي في هذه الآية حيث أن الولي الناصر والمعين والذي يحب ما يحب مولاه ويكره ما يحزنه فحينما يلتقون يوم القيامة لقاء المودة والمحبة فيخبروهم أنهم كانوا مناصرين لهم في فعل الخير كافين عنهم ما يغضب الله وما يسوءهم، ولكم في هذه الدار ما تشتهي أنفسكم وما تحبون وما تطلبون فاليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير ومما يرضي الله وما تحملتم في سبيل الدعوة إلى الله، فإن المسلم ما دام في سبيل الله مجاهداً لنصرة دينه فإنه يشعر بسعادة لا يشعر بها إلا من عمل عمله فإن للجهاد في سبيل الله والمعاناة في نشر الدعوة الإسلامية لها لذة منقطعة النظير.

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.. وصف لقوله ﴿ مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾.. والنزل قالوا: ما يقدم للضيف هنيئاً لكم ضيوف الرحمن ضيوف الغفور الرحيم فلن يحاسبكم على ما أخطأتم لأنه غفور رحيم وسوف تكونوا في رحمته لأنه رحيم.

والحق أن الذي يريد تفسير هذه الآيات يجد نفسه عاجزاً أن يجاري جمال اللفظ القرآني ووضوحه.

ينتقل القرآن الكريم إلى صفة أخرى من صفات الداعية، فالآيات الأولى تكلمت عن صفات الداعية التي يحصل عليها بالمجاهدة وضبط النفس على السير وفق مقتضيات الشريعة

ومسلتزمات العقيدة، أما الآيات التالية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ لا يمكن أن يصل إنسان إلى أفضل ما تتكلم عنه هذه الآية.

فمن هو أشرف مقاماً وأعلى رتبة ممن أوقف نفسه لدعوة الله؟ لهداية الخلق على طريق نجاتهم لإصلاح ما أفسد المفسدون، إن الدعوة إلى سبيل الله تنجي الأمة من الهلاك، فقد جاء في الأثر: قالوا يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم، لأن الصالح لنفسه فتهلك القرى ويبعث الناس على نياتهم أو أحوالهم ولكن لا يهلك الله القرى وأهلها دعاة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧].. إذن الدعاة سبب نجاة الأمة من الهلاك والإصلاح بين الرعية فيما بينهم أفراداً والإصلاح بين الحاكم والمحكومين.

وفي التفسير أن الداعية يجب أن يكون متخلقاً بالأخلاق التي يدعو لها فلا يدعو للمعروف ولا يفعله، ويستنكر المنكر ويفعله. وغالباً ما يكون الناس أسرى المعاملة الحسنة وفي التاريخ أن جزر أندونيسيا أسلمت بفعل التجار المسلمين فقد ذهبوا إليها وأعجب الناس بحسن معاملتهم وعلموا أن هذه المعاملة ناتجة عن الالتزام بأوامر الإسلام ونواهيه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن هذه الآية نزلت في المؤذنين واعترض عليها أن الآية مكية والأذان فرض في المدينة وفي تقديري أن لا بأس بأن تكون الآية نزلت بالمؤذنين وإن كانت مكية فهي تدعو لذلك وكثير من الآيات المكية تصف أفعالاً لم تفرض إلا بالمدينة كتحريم الميتة ولحم الخنزير والفواحش والزنا وغيرها، فإن القرآن المكي قرآن دعوة ومن واجبات الداعية رسم صورة ذهنية قريبة من الواقع أو مما يمكن ان تكون واقعاً للمجتمع الذي تريد تكوينه الدعوة في المستقبل، فالمؤذن يقول حي على الصلاة حي على الفلاح فيدعو إلى الصلاة ويدعو إلى فعل الخير والعمل الصالح، ثم يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمداً رسول الله وهذا قوله أنه من المسلمين.

ومن صفات النص القرآني أنه يشمل صوراً كثيرة ومن أوليات التفسير حمل النص على

جميع الصور التي يحتملها ما لم تكن مستحيلة الوقوع أو العمل.

ثم يعرج النص على صفة أخرى يجب أن يتحلى بها الداعية وهي احتمال الأذى من المدعوين فيقدر ما يتحمل من إيذائهم بقدر ما يدخل في نفوسهم وشواهد هذه الصفة لا تحصى ولا يغيب عن بالنا (قول هند بنت عتبة التي قتل أبوها وعمها في بدر قالت للرسول ﷺ: والله لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا كاهل خبائك واليوم لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا كأهل خبائك فقال لها رسول الله ﷺ: صدقت. ومثلها كثير)[١].

وذلك أن رسول الله ﷺ ناله من الأذى ما لم يتحمله غيره وعند تمكنه من الذين آذوه قال: إذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يؤذي أحداً منهم حتى الذين أهدر دمهم حينما جاؤوه مبايعون قبل بيعتهم وأولهم (عكرمة بن أبي جهل)[٢].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.. فيكون تعامل الداعية مع الناس هكذا وقد مثل أحد الدعاة الداعية بالطبيب والمدعو بالمريض فالطبيب يتحمل من المريض كل سيئاته وأفعاله لأن الطبيب يريد الخير لهذا المريض الذي لا يعرف أين يكمن الخير الذي يسعد به ويعيش به حياة سعيدة.

فأيهما أحسن السيئة بكل أنواعها أم الحسنة بكل صفاتها وأنواعها؟ فشأن الداعية الاتصاف بالأحسن فلا تصدر منه إلا الحسنة مهما كان المدعو سيئاً فإن الدعوة الإسلامية انتشرت بين الشعوب بهذه الطريقة.

فيعتبر الداعية المدعو كأنه من خاصته وحميم أي الذي يهم أمرك وطبعاً الذي يهم هو أمر المجتمع وما فيه من متناقضات ومساوئ يريد أن يخلصه منها بتخليص أفراده وجعلهم معه دعاة إن بأخلاقهم أو بعرضهم الدعوة على الآخرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٩٤.

(٢) البداية والنهاية (ابن كثير) (٤/ ١٠٣).

فتدفع السيئة بالحسنة والحسنة أقوى من السيئة فإذا أخلص الداعية لدعوته فسرعان ما تندفع السيئة وتمحى من المجتمع أو تختفي، فالحسنة هي الأحسن وهي الأقوى لأن الحسنة تؤيدها السنن الكونية وطبيعة الإنسان وفطرته وعقل الإنسان السوي فتجد الحسنة في نفس المدعو عوامل كثيرة تؤيدها وتستقبلها استقبالاً جيداً من حيث أن السيئة ليس لصاحبها حجة فيدافع عنها إلا الهوى والمغالطة والتكبر وعدم سماع الحق.

وهذه الأخلاق هبة من الله تعالى لأصفيائه هؤلاء الذين يحملون أنفسهم على تقبل الحق ولو كان مراً وترك الباطل ولو كان مشتهى، وقد ورد في الأثر أن الصحابة رضوان الله عليهم، حينما يفترقون من مجلسهم يقرؤون ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ فيوصي بعضهم بعضاً على الدعوة والصبر على ما ينالون من مكاره في سبيل نشرها وهذه الصفات نصيب الذين اصطفاهم الله لحمل دعوته الذين يتبوؤون مكاناً رفيعاً في المجتمع وبين الناس، ولهم الدرجات العليا عند الله.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الصفات ويصفها بأجمل الصفات ويصف أهلها بأعلى المراتب.

ثم أن الله عز وجل يعلم الضعف من الإنسان فيوصي الدعاة بالثبات والصبر وتوقع الأذى وعدم الركون إلى الهوى، ويبين سبحانه وتعالى أن هذه الصفات يكرهها الشيطان لأنها تقلل أنصاره فيحاول بشتى الطرق صرف المسلم عنها فإذا شعر الداعية بفتور أو كسل أو تماهل في أداء هذه الواجبات فليعلم أنها من وساوس الشيطان والنزغ الوسوسة وهو فعل الشيطان، فهو دفع المسلم بقوة خفية إلى ترك الدعوة، فإذا شعر المسلم بشيء من هذا الشعور فليستعن بالله على مسبب هذا الشعور وهي وصية أن لا يفتر الداعية عن دعوته ولا يغفل عن نصر الله له وإعانة الملائكة الذين هم أولياؤه وأنصاره.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ ويبقى

شياطين الإنس والجن يرصدون الداعية ويفتشون عن مواطن ضعفه وزوايا نفسه وما يحب وما يكره فيأتوه من حيث يحب حتى ليخيل له أنه يفعل الصواب، وأهم هذه الجوانب يكرّه له كل من يخالفه الرأي أو لديه منهج يختلف عن منهجه، فبدلاً من أن يندفع للتعاون معه وتغطية جميع الأساليب التي ينهض بها الإسلام يدفعه لمحاربته فيلهيه أولاً عن دعوته ويعطل آخر من الدعاة فينشغلون في أنفسهم ويتركون أولياء الشيطان يفعلون بالناس ما يحبون، فأمر الله الدعاة إن شعروا بشيء من هذا الشعور أن يركنوا إلى الله ويستعينوا به ويستعيذوا من الشياطين أياً كان جنسهم وأي أسلوب ينتهجهون، ويستجيرون بالله فهو القوي العزيز.

والله تعالى يسمع دعاءك ويعلم كيف ينصرك على الشياطين ويبعدهم عنك ويمكن أولياءك من المؤمنين ومن الملائكة.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله في هذه الآيات بين قرناء المؤمنين وبين أن هؤلاء المؤمنين ألزموا أنفسهم بالسير في الطريق الصحيح الذي أراده الله لهم وهو عز وجل بين لهم طريق الاستقامة في القرآن الكريم فيه اهتدوا وهكذا قال الله لك استقم وأنزل لك كتابا فيه كل مايريده الإنسان كي يستقيم.

الهداية في الآيات:

* إذا حسن عمل المرء المسلم وأدى ما عليه من حقوق وواجبات وتحرى رضاء الله تعالى في عمله وانتصر لدعوة الحق فهو مستقيم، وهذا يكون له عون من الملائكة لأنها ترافقه في الدنيا وتجنبه كل ما يغضب الله وتعينه على فعل الخير وتناصره إذا دعا إلى الله وإلى شريعته وجاهد لإعلاء كلمة الله.

* وإن الملائكة تبشره أنها كانت له عوناً في الدنيا وتبشره بأنها سترعى أولاده وتعينهم على سلوك الطريق الذي يرضي الله، لأنها تقول له لا تخف من المستقبل فإنك في الجنة ولا تحزن على الماضي فإننا نرعى من هو محتاج لك من ذريتك أو من تعول.

* كما أن في الآيات ما يحث المسلم على فعل الخير إن كان مع الذين أحسنوا إليه أو الذين أساءوا إليه فإن أساء إليه أخوه المسلم فليحسن إليه ويستغفر له الله فإن الله يكافئه على ذلك خير الجزاء.

* وترشد المسلم ليكون مرتبطاً بالله تعالى ويستنجد به ويستعينه على محاربة الشيطان فإن أصابه فتور في أداء واجب شرعي فليعلم أنه من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان.

الاحتجاج بالسنن الكونية

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة بين الله عز وجل مصير الذين جعلوا القرآن الكريم منهجاً لهم به استقاموا وبه نالوا سعادتهم في الدنيا والآخرة وبين أن المكانة العالية الرفيعة في هذه الحياة هي لدعاة الحق وبين الدليل على ذلك.

وبعد هذه الأدلة على صدق الرسل وعلى سعادة أولياء الله يعرض جل وعلا للمشركين المقارنة فأيهم أحسن الفريقين الذين آمنوا وهذا مصيرهم أم الذين كفروا وهذا عذابهم؟

التفسير الاجمالي

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾..

بعد أن ساق الأدلة العقلية ثم بين واجبات الداعية وما يجزيهم ربهم لقاء تحمل الدعوة إلى الله ومحاجة المشركين أخذ يبين الآيات والدلائل والسنن التي توحي للعاقل أنها مخلوقة لرب عظيم قادر، ومن عظيم قدرته في تسيير هذه الأجرام وبهذه الدقة ومكانة هذه الأجرام في حياة الإنسان، جعل بعض الناس يعبدها، فأشار القرآن الكريم إلى أنها مخلوقة وأنها لا تملك من أمرها شيئاً وأن الله هو الذي خلقها ويسرها ووضع لها سنة وقانوناً لا تستطيع أن تخالفه ولا أن تسير بسواه ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

وتشير الآية أن هناك من يعبد الشمس والقمر ففي قصة إبراهيم مع قومه تشير أنهم كانوا يعبدون النجوم وفي قصة ملكة سبأ أن قومها كانوا يسجدون للشمس.

وهناك دلائل تشير إلى أن بعض العرب كانوا يعبدون الشمس ولذا نجد بعضهم يسمى عبد شمس، فإذا كانت الشمس والقمر والنجوم تستحق العبادة لفائدتها للإنسان ولقيام حياة الإنسان عليها فخالقها أحق بالعبادة منها: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

والآية تشير إلى أن الإنسان لم يتخلَّ عن معرفة الله ولا ينكر وجوده وإنما يتوسل ببعض مخلوقاته إليه ولذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.. فالأولى أن تسجدوا لله وتعبدوه مباشرة من غير واسطة لأن هذه الوسائط مسيرة كالإنسان ومخلوقة ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾.. وهنا يعود القرآن إلى البيان أن سبب الكفر هو التكبر في كل الأحوال فإن استكبروا عن طاعة الأنبياء أو عن التخلي عن معبودهم الذي ألفوه، فإن الملائكة

أو الذين عند الله ربما يكونون ملائكة أو شيئاً آخر من المخلوقات العاقلة فهؤلاء يعبدون الله وينزهونه عن الشريك الوسيط.

والعرب وسائر بني الإنسان يعلمون أن الملائكة أفضل من البشر وأقوى وأقدر فهؤلاء الذين ترونهم بمرتبة عالية في القدرة والمكانة يسبحون له بالليل والنهار وقال بعض المفسرين أن تسبيح الملائكة أصبح كالتنفس للإنسان فتنفسهم تسبيحٌ وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾، أي لا يملون ولا يضجرون.

فأنتم أولى بالعبادة والتسبيح وترك التكبر الذي لا يليق بكم وليس له مبرر ثم يعود القرآن الكريم على ذكر الدلائل الكونية على وحدانية الله تعالى، بتسيير الخلق فيقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾.. فآية أخرى ودليل آخر أنك ترى الأرض ذليلة كئيبة حزينة محزنة فإذا أنزل الله سبحانه عليها الماء دبت فيها الحياة واهتزت وارتفعت وانتفخت.

ويجدر بنا أن نشير أن إنزال الماء إلى الأرض معجزة عظيمة فإن السحاب وحركته وإيصال الماء إلى الصحارى والجبال مما تقف النفس الإنسانية أمامه مبهورة، وقد حاولت بعض الأمم صناعة سحاب ومطر فأنفقت أموالاً كثيرة جداً ولم تحصل على ماء أو مطر يسد جزء من ألف أو أكثر مما أنفقت فوقفت أمام قدرة الله عاجزة مقرة بأن الله تعالى هو وحده القادر.

ولو رأينا الثمار التي توجد في أعالي الجبال والنباتات التي يعتمد الإنسان عليها في حياته كالحنطة والتي يغذيها المطر في أقصى الصحارى لوجب علينا أن نسجد للذي أوصل لها الماء.

والأرض أحوالها قبل المطر وبعده تدعو للاعتبار والتدبر في هذه الحالة العجيبة، فقبل المطر تدعو للكآبة وترى خاشعة ذليلة وبعد المطر تجد فيها كل ما يدل على الحياة وتبعث البهجة في نفس الإنسان بحيويتها وما نبت فيها من الأحياء وأسباب الحياة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ فكما ترى الحياة في الأرض بعد المطر وتعلم أنه لم يستطع

أحد سوى الله سبحانه وتعالى، فكذلك إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وكما جاء في الأثر أن الإنسان ينبت كما ينبت النبات وبذرته عقب الذنب أو نهاية العمود الفقري، وقد علم الإنسان مؤخراً أن الهندسة الجينية وعوامل الوراثة جميعاً في عقب الذنب، كما جاء في حديث الرسول ﷺ، لو كان في الناس عقل لاستحوا، ولكن التكبر هو الذي يمنعهم لئلا يقال أنهم اتبعوا المسلمين في عقيدتهم لأن أحوال المسلمين لا تدعو إلى الاحترام في هذا الوقت ولو أن للمسلمين مكانة في المجتمع الإنساني لرأينا أول من يسلم هم العلماء في كل أمة.

بعد هذه البراهين الساطعة والحجج الدامغة لم يبق إلا أن يهددهم الله بمصيرهم، مصير المغالطين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ فالذين يميلون عن الحق ويكذبون كل الدلائل والبراهين على وحدانية الله وألوهيته مرصودون ومحاطون بعلم الله، فلا يخفى عليه خافية منهم فسوف يعاقبهم على هذا العناد فهم ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾، فالذين آمنوا يقول أحدهم ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ١٩] فرح فخور بما أدى إليه إيمانه أما الآخر فيقول ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦]. فأيهما أفضل؟ الذي يأتي ربه تسلم عليه الملائكة ويحتفل به المؤمنون ويقال لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أم الذي يلقى في النار؟

ويعود القرآن الكريم إلى التهديد ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وسوف يحاسبكم ويجزيكم بما عملتم، مشيراً إلى أنكم أيها الكفرة سيطالكم العقاب لأنكم لا تستطيعون أن تخفوا شيئاً من أعمالكم ولا من عقيدتكم ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك: ١٣-١٤].. فهو الذي خلق الصدور ويعلم ما تستوعب وما تخزن.

نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما

وروي أن قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾ نزل في أبي جهل، وعثمان بن عفان ﷺ، وهي صورة جميلة من صور المقارنة، لأن أبا جهل سيجر في النار. وعثمان بن عفان حينما حوصر في الدار رأى ليلة قتله رسول الله ﷺ في المنام يقول له اختر أن

تقاتلهم وأنت على حق وهم على الباطل أو نفطر معاً هذه الليلة (وكان ﷺ صائماً) فاختار الالتحاق برسول الله ﷺ.

فهل هناك اطمئنان وأمن من المستقبل أكثر من هذا!!؟.

علاقة الآيات بالمحور

لا تفارق السورة محورها فإنه تعالى بعد أن تكلم عن السنن الكونية وأنه عزوجل خلق الكون وجعلها له نظاماً قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ وهذه الآيات في القرآن الكريم الذي هو محور السورة.

من الهداية في الآيات:

* أنها تشير إلى الذين يسجدون للنجوم والشمس والقمر وهم في هذه الأزمان النصيرية (العلي اللهية) الذين يرون في علي روحاً إلهية يرون أن الشمس تبسمه ولذا فإنهم يسجدون للشمس وقديماً كان أهل بابل يعبدون النجوم ومن قريش من كان يعبد الشمس فوجد فيهم عبد شمس، وعلى كل حال تقول الآيات أن هذه مخلوقة لله فالأولى السجود للخالق وليس للمخلوق، وهو إرشاد بعدم الخضوع والتذلل لغير الله.
* وفي الآيات إشارة إلى أن الملائكة لا تفتر عن تسبيح الله تعالى ولا يملون.
* كذلك تشير الآية إلى أن جميع مخلوقات الله تسبحه وتنزهه عن الشريك في الذات وفي الصفات وفي الأفعال.
* وأن الله يحيي الموتى ويبعثهم والدليل أن الأرض في الجدب كل ما فيها يشير إلى الموت، فإذا سقاها الله الغيث، فترى كل ما فيها يدل على الحياة، فالذي أحياها بعد الموت قادر على أن يحيي الإنسان بعد موته.

صفات القرآن الكريم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما قبلها

انتهت الآيات في المقطع السابق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾.

وهذه الآيات والدلائل كلها أوردها القرآن الكريم دليلاً على صحة توجهه وصواب دعواه جاء هذا الدستور العظيم الذي عجز البشر أن يعارضوه أو يجدوا فيه خللاً أو نقصاً أو خطأً، ألم يكن الأولى للعقلاء أن يتبعوه ويسيروا وفق ما جاء به.

وفي النهاية من عمل صالحا فلنفسه فينقذها من العذاب ومن أصر على الكفر أورد نفسه سوء المصير.

والبرهان الآخر هل يستطيع أحد أن يعلم متى تقوم الساعة أو يستطيع أن يعلم ساعة موته وسببه وإذا كان مستحيلاً ألم يكن الأولى أن يذعن للحق.

التفسير الاجمالي

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ ﴾.. لا يبعد النص عن المحور حتى يعود إليه ليذكرنا ولا يدعنا ننسى ما جعلته السورة موضوعها الرئيسي ومحور حديثها وهو القرآن الكريم.

فالحديث في أول السورة عن أن القرآن الكريم تنزيل من الرحمن الرحيم وأنه أنزل على قوم يعرفونه حق المعرفة، حتى لا يبقى لأحد منهم عذرٌ في جحوده وعدم الإيمان بحيثياته وبوصفه للعقيدة السليمة، فيقرر أن الجاحدين لا يحملهم على الكفر إلا التكبر والمغالطة ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾.

وفي وسط السورة يبين النص أنهم متيقنون من أن هذا القرآن حق، وأن منطقه لا يغلب وحججه لا ترد، ولا سبيل إلى محاربته إلا بمنع الناس عن سماعه ولو بأخس الطرق ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

وتعطيك السورة صورة من صور الانهزامية لا تليق بعاقل: من أول السورة إلى وسطها إلى نهايتها.

وفي هذا المقطع تبدأ بحقيقة مقررة وهي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ وحذف خبر أن وشرق به المفسرون وغربوا فمنهم من حذفه ومنهم من جعله في آخر الكلام، وتقدير المحذوف أيضاً أولوه تأويلات مختلفة.

وأجمل تعبير عن هذا الحذف قول سيد قطب أن اسمها بقي مجهولاً حتى يصح فيه كل وصف ويخطر في بالي أننا نستطيع أن نقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ سخفاء أو سفهاء أو لا عقل لهم أو لا دراية لهم أو مغالطون أو مجانين لأنه لا يكفر به عاقل سوي.

ثم وصفه الله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾.. وقال الآلوسي: العز: حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب[1]. فهو كريم على الله وهو منعدم النظير وهو ممتنع عن المعارض وهو ممتنع عن العيب أن يصيبه.

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.. فلم يأت قبله كتاب أو معلومة تخالفه أو تبطل ما فيه من حقائق أو علوم أو أخبار، فجميع الكتب التي

(١) روح المعاني في تفسير القران الكريم والسبع المثاني لأبي الثناء الآلوسي ج٥٢ – ص٦.

جاءت قبله تؤيده وتؤكد حقائقه وأخباره.

مما حمل اليهود أن يحرفوا التوراة لأنها تؤيده وتؤكد حقائقه حتى بعثة النبي محمد ﷺ مذكورة في التوراة وقال صادقوا اليهود للرسول ﷺ نجدك في التوراة باسمك وصفتك، ولما كانت التوراة محصورة عند علمائهم حرفوها وحذفوا اسم الرسول ﷺ وصفته لئلا يطلع عليها عامة اليهود فيسلموا.

وهذا يحملنا على القول أن جميع الكتب التي تسمى مقدسة والتي هي عند أصحاب الديانات من اليهود والنصارى، إذا وجد ما يخالف القرآن الكريم فإنه محرف أو محذوف منه ما يؤيد القرآن الكريم.

كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى حرفوا الكتب التي عندهم والتي ورثوها عن أنبيائهم كما يزعمون ولا أدل على تحريفها من تعددها واعتبار كل مذهب من مذاهبهم أنجيله هو الصحيح حتى قال بعضهم عن بعض أناجيل غيرهم أنها من تأليف جهال النصارى.

كما أنها تتغير في كل عقد من الزمان أو أكثر بقليل حتى أن الطبعات الأخيرة تختلف عن الطبعات التي قبلها، هذا تفسير الجزء الأول من الآية وهو ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾.

أما الجزء الثاني وهو ﴿ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾.. فهو تحد سافر للبشر أن يأتوا بما يشهد خطأه أو كذبه.

فإن جميع البحوث العلمية التي يقوم بها الغربيون والتي يريدون بها تكذيب القرآن الكريم تثبت صحة ما جاء في القرآن الكريم من الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة قبل مائة عام وقد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة عام.

فسوف لن يأتي شيء يكذب القرآن أو يخطئه في علم أو خبر، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو أن الغربيين وجدوا شيئاً يشهد بخطأ القرآن الكريم أو كذبه لطاروا به ولنشروه حتى لا تجد بيتاً من بيوت المسلمين إلا وفيه هذه الشهادة ولكنهم يئسوا من أن يجدوا طعناً في القرآن الكريم، فراحوا يستشهدون بواقع المسلمين على خطأ الإسلام وهذا الواقع ساهموا به بكل سفالة وهمجية وانحطاط وهم يَدَّعون التقدم والرقي.

فلن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد لأن الحكيم هو الذي يضع الأمور في نصابها وفيما تجب له، لأن الحكمة هي المعرفة الحقيقية.

والحميد كامل صفات الخير، أي المحمود المثنى عليه بحق الذي يستحق جميع الصفات الكريمة فيثنى عليه فيها.

فهي علة لكونه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإن مُنّزله يعلم ما سبقه من العصور وما كان فيها وما سيأتي بعده إلى يوم القيامة وما سيحدث فيها.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾.. ما الذي يقال ومن ذا يقول؟ إذا كان القائل هو مرسل الرسل فإنه سيحملك من الشريعة ما حمل الرسل قبلك ويأمرك بالدعوة إلى ما أمر به كوكبة الرسل منذ أن كان الرسل وما أمروا أن يقدموا للإنسانية من العقائد السليمة والشريعة الغراء التي تصلح للإنسان ويصلح بها.

فليس عليك أن تضجر أو تتبرم وهو حاشاه عليه الصلاة والسلام من أن يضجر فهي وصية للدعاة إلى دينه (لما بين تعالى أن الدعاء إلى الله وإلى دينه من أعظم القربات وأنه يحصل ذلك بذكر دلائل التوحيد والعدل والبعث).

ومما قيل للرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾.. فهو عز وجل غفار لذنوب من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً وعاد إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم وهو أليم العقاب لمن أصر على كفره بعد أن شاهد كل هذه البراهين والأدلة وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ

إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].. فقد جاء في صحفهم وصفاً لأقسام الإنسان وهنا وصفاً لجزاء كل صنف بمعتقداتهم.

والوجه الآخر أن القائل هم الناس فإن الناس الذين أرسل لهم الرسل قالوا لرسلهم ما قالته قريش لك من كذاب ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤].. أو ساحر أو مجنون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].. وهكذا ديدن الشعوب مع الرسل وأممهم فإنهم يكذبون الرسل ويؤذونهم بالقول وغيره.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾.. قال بعض المفسرين أن هناك من قال ما جاء في القرآن أعجمي أو أن فيه أعجمي أصلاً لأن بعض الألفاظ كانت مما يستخدمه الأعاجم أو مما تشترك فيه اللغات غير العربية، والوجه الآخر أن هؤلاء يكذبونك ويكذبون القرآن على أي حال جاء لأن تكذيبهم لم يكن وفق منطق معين أو توجه عقلاني، وإنما هو مجرد عناد ومغالطة وتكبر، فلو كان أعجمياً أو بأي لغة لقالوا لولا فصلت آياته وبينت ووضحت، ﴿ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ في أغلب القراءات همزتين إحداهما استفهام إنكاري وبعض القراءات على همزة واحدة كأنه خبر فيكون محتوياً للاثنين العجمي والعربي فيكون في القراءة الأولى وهي الإنكار معناه كيف يكون أعجمياً يخاطب عرباً، أو كيف يكون غير فصيح لأن الأعجمي غير الفصيح عربياً كان أو غير عربي، فكيف يكون غير فصيح ويخاطب قريشاً التي هي أفصح العرب، أو كيف يكون ركيكاً فتضطرب معانيه ولا يفهم المراد منه فهماً دقيقاً وهذا ما أرجحه والله المستعان. فلو لم يكن في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة لكان لهم فيه مقال كيف وأن أفصحهم وأبلغهم وهو عتبة بن ربيعة يشهد ببلاغته.

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.. وحاصل الأمر أن القرآن الكريم هو الطريق المستقيم والمنهج القويم فهو للذين آمنوا المنهج الذي يسيرون عليه فينقذهم من جميع الأمراض

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تصيب النظم الأرضية الوضعية والتي هي ماثلة أمامنا في العالم سابقاً وحالياً.

والذين لا يؤمنون ولا يصدقوه يصيبهم بجميع الأمراض في آذانهم ثقل وفي قلوبهم مرض وفي نفوسهم ضلال وهو عليهم عمىً فإنهم يتخبطون فلا يعرفون كيف يصرفون أمورهم كلما طبقوا نظاماً مما تمليه عليهم شهواتهم وأهوائهم يجدون غيره أحسن ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢٠].. وهكذا يورثهم تركهم للقرآن جميع الأمراض. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾.. فهؤلاء لا يسمعون داعياً ولا يحبون مصلحاً فالحق في واد وهم في واد، فلا هم على حق ولا هم قريبون منه ولا يحبون أن ينصلحوا أو يسيروا وفق ما أراد الله.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ ﴾.. فلم تكن الكتب السابقة بمنأى عن الطعن والاختلاف فقد أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، حتى بني إسرائيل الذين أنقذهم من ظلم فرعون لم ينسجموا جميعاً مع التوراة فسرعان ما عبدوا العجل وقبلها قالوا لموسى اجعل لنا آلهة كما لهم إله، ونسوا ما جاءهم في التوراة التي أنقذهم موسى من ظلم فرعون الذي مكثوا معه دهراً.

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾.. وقد جعل الله حساب الناس يوم القيامة وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ ﴾.. ولولا كلمة الله التي أجل بها عقابهم إلى يوم يبعثون، لحكم بينهم بين المختلفين الذين اختلفوا في موقفهم من كتاب موسى واختلفوا في القرآن الكريم وجميع الأنبياء فإن الله جعل يوم الفصل هو يوم القيامة، حينما يحشر الناس جميعاً وتدعى كل أمة بإمامها وهذه حكمة الله وحلمه فإن في الوقت فسحة للتوبة والرجوع إلى الحق الأبلج.

وخير ما يصدق في هذه الحالة ما حصل لقريش حينما قالوا للرسول ﷺ: في آذاننا وقر وبيننا وبينك حجاب ولا نفقه كثيراً مما تقول ولم يلبثوا كثيراً حتى جاء سبعون منهم أسلموا

على يد الرسول ﷺ، وقالوا كنا نكذب فإننا سمعنا القرآن الكريم واهتدينا بهديه.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ والنتيجة الحتمية في نهاية المطاف، كل يجازى بعمله فإن الله لا يزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا ينقص من ملكه عصيان العصاة.

ولذا فإنه سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث القدسي (إنما هي أعمالكم أجزيكم بها). فمن عمل صالحاً وأطاع الله ورسوله وسمع كلام الله فحكم به عقله وأدار الأمور في نفسه فتبين له صدق الصادقين وكذب المعاندين فإنه سيجزى خيراً، ومن أدار ظهره للحق وأساء موقفه وعمله من القرآن الكريم وما جاء به من خير فلا يلومن إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يظلم الناس لأنهم عنده سواء الطائع والعاصي.

علاقة المقطع بالمحور

المقطع جميعه تكلم عن القرآن الكريم ويتحدى الله الناس أن يأتوا بمثله أو يجدوا فيه ما يخالف الحقائق العلمية أو تثبيت التاريخ الماضي أو المستقبل أنه خالف حقيقة ثابتة، ثم يبين أنه لم يكن أول كتاب يكفر به الناس مع نصوع حقائقه وإنما هذا شأنهم في الكتاب الذي أنزل إلى موسى وغيره من الرسل.

الهدايات في الآيات:

* إن القرآن الكريم يتحدى الناس أن يأتوا بشيء يكذبه أو أن يذكر قبله كتاب ناقض حقيقة من حقائقه فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلم يأت قبله كتاب يناقضه ويثبت خطأه كما لن يأت كتاب يناقضه أو حقيقة علمية تكذب ما فيه وهذا دليل إعجازه.
* إن الله تحدى الناس أن يأتوا بمثله وتحداهم أن ينقصوا منه حرفاً أو يزيدوا عليه حرفاً أو كلمة.

* إن الناس يكذبون الرسل وما جاؤوا به من الهداية فليس القرآن ولا الرسول ﷺ أول من كذبه قومه فقد كذب الناس جميع الرسل ولكن الله انتصر لدعوته ونصر رسله.
* إن الله يمهل الناس فيحاسبهم يوم القيامة أو يهلك الظلمة في الدنيا.

علم الله الذي لا يستطيعه غيره

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

تكلمت الآيات السابقة عن القرآن الكريم وحقيقته وهنا يبين الله عز وجل علة كون القرآن لايكتنفه الخطأ أو النقص وهي أن منزله هو الله عز وجل الذي يرد إليه علم الساعة فلا يعلمها سواه فإذا كان من عند من أحاط بكل شيء فحتماً سيكون القرآن متحدياً للنقص والخلل.

التفسير الاجمالي

فإذا علموا مصيرهم وهم مشفقون من العذاب فما فائدة طلبهم الخير في كل وقت، والخير كل الخير في طاعة الله.

لابد للإنسان من يوم ينتصف المحسن من المسيء والمظلوم من الظالم ولولا ذلك اليوم لاختل نظام الكون ولشعر الإنسان أنه مظلوم بأصل خلقه، إذ كيف تتساوى نهاية المجرم والمحسن وكيف تنصلح الأخلاق ويتعامل الناس إذن لابد من يوم تجتمع فيه الخلائق ويتقاضى الناس سيئهم ومحسنهم فيأخذ كل جزاءه.

ذلك اليوم يوم القيامة وهنا عبر عنه القرآن الكريم علم الساعة. ساعة الحساب ساعة الجمع، متى هذا اليوم وهذه الساعة؟ هذه التي اختص الله جل وعلا بها، فلا يعلمها سواه.

وهناك أحاديث كثيرة أهمها ما رواه البخاري ومسلم من حديث جبريل إذ سأل الرسول ﷺ متى الساعة قال: ما المسؤول بأعلم من السائل، (أي لا جبريل وهو سيد الملائكة ولا الرسول ﷺ وهو سيد البشر يعلم وقت قيام الساعة)[1].

والتعبير القرآني دقيق وجميل فاختص الله بعلم الساعة، إليه يرد علم الساعة فلا يعلمها ولن يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾.. فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله جل وعلا، ولم يقل لن يعلمها غيره فعلمه أحاط بها إحاطة كاملة تفصيلية ولكن من الممكن أن يعلمها غيره والتعبير يحتمل ذلك إذ أنه ذكر أنها تقع في علم الله كسائر المخلوقات وتصرفاتها ولكن من الممكن أن يعلمها أو بعضها غيره.

أما الساعة أو يوم القيامة فلا يعلمها سواه إن كان وقت موت الإنسان أو يوم حشر الناس جميعاً ومحاسبتهم فهذه لا يعلمها غير الله، فمهما استخدم من آلات ومهما اتبع من أساليب أو آلات هل يستطيع أحد أن يخبر عن يوم القيامة؟ ولا ساعة موت الإنسان ولا وقته ولا مكانه ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].. فهذا ما لم يتوصل له الإنسان ولن يتوصل.

وقد قال إن الغيبيات المذكورة يعلمها الله، فالثمرات حينما تكون في أوعيتها والأنثى حينما تكون حاملاً يعلمها الله عز وجل وأنثى الإنسان والحيوان على حد سواء في علم الله وحينما تضع الأنثى حملها يعلمها الله سبحانه.

ثم يستأنف القرآن الكريم الحديث عن موقف المشركين يوم القيامة فيسألهم الله سبحانه

---

(١) البخاري (١/ ٢٧) رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٤٠) رقم (١٠).

أين ما أشركتموني معه أو أشركتموه معي في النفع والضر والعبادة والألوهية، هذه المخلوقات التي جعلتموها أنداداً لله تبرأت من عُبّادها أو تبرأتم منها (أذناك) ما لها سواك رباً وإلهاً ولكن هذا الإيمان لا فائدة منه فالله مدح المسلمين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣]، لأن الإيمان يوم القيامة أصبح إيمان مشاهدة وليس غيباً ﴿ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ أي أعلمناك أو أسمعناك أو اسمح لنا نقول ونعتقد أن لا يوجد إنسان، في هذا الوقت إلا يؤمن بوحدانيتك وفاعليتك بالكون.

فأنكروا شهادتهم بهذه الآلهة وكذلك تبرأت الآلهة منهم إذ جاء في الأثر أن الأصنام والأوثان تقول للإنسان ما طلبنا عبادتك لنا فهي تتبرأ منه أيضا وضل عنهم أي غاب عنهم ما كانوا يشركونه مع الله بالتوجه أو العبادة أو الفاعلية فأولاً يشهدون أنهم لا يشركون بالله فلم يروا فعلاً من غيره ذلك اليوم ففي هذا اليوم الملك الوحيد والحاكم المطلق والقاضي هو الله.

فشهدوا أنهم لا يعبدون سوى الله، ولا يشركون به فما منا من شهيد يشهد أنا نعبد سوى الله. فحتماً يسألهم الله أين ما كنتم تشركون يقولون ضلوا عنا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ ﴾ من قبل من دون الله فقد غابوا وتلاشوا، وقد علمت الخلائق المكلفة أنه ليس غير الله يحكم بين العباد في هذا الموقف وحينما ينادي سادتهم في الدنيا ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ ويقولون ليس لك شريك ولا ند من قبل وعلموا أنهم محاسبون على فعلهم وليس لهم مخرج من هذا الموقف العظيم وظنوا هنا معناها علموا فقد تيقنوا أن ليس لهم مخرج من هذا الموقف ولا فرار من هذا العذاب ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].. فما لهم من محيص أي مهرب من المأزق.

علاقة المقطع بالمحور

ذكر الله هذه الحقائق جميعها في القرآن الكريم الذي قال الله عنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ فتكون هذه الحقائق مادته وعلته ايضاً.

الهداية في الآيات:

* إن الله سبحانه انفرد بعلم الساعة أي يوم القيامة فلا يعلمه غيره حتى الملائكة كما جاء في الحديث أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن الساعة فقال له: ليس المسؤول بأعلم من السائل. أي لا جبريل ولا الرسول ﷺ يعلمون موعدها، حتى موعد موت الإنسان لا يعرفه ولا سببه أحد حتى الإنسان نفسه.
* إن الله أحاط علمه بكل خلقه ما يخفون وما يعلنون فهو واقع في محيط علمه.
* إن المشركين يتبرؤون يوم القيامة من معبوداتهم فينكرونها كما أن المعبودات ينكرون أنهم طلبوا منهم أن يعبدونهم.

تردد الإنسان نفسياً من الأحداث حوله

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة قال تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يقول الله عز وجل ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فينبئهم بما ضل عنهم

وهذه نتيجة حتمية لما لا يمكن أن يفر الانسان منه ولا يستطيع أن يخلصه منه أحد من الذين أشركهم مع الله مما أعد الله جزاءً وفاقاً.

التفسير الاجمالي

وهكذا الإنسان إن أنعم الله عليه قال هذا من جهدي وسعيي كما قال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ وإذا أصابه سوء أو أذى فيلح في طلب رفع الضر عنه.

ألم يبلغك أن الله أنزل قرآنا فكذبه فإذا علمت أنه من الله أو كنت بين التصديق والكفر فأي الطريقين أسلم ألم يكن اتباعك القرآن مع شكك به خير لك من العناد فإنه سوف ينالك وعيد الله لك ولا يضرك لو اتبعت القرآن فسوف تعلم حقاً أنه من الله ويزول شكك ولم تكن قد خسرت شيئاً باتباعك له.

﴿ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ وفي هذه الآيات يعالج القرآن الكريم الحالة النفسية للإنسان بعد أن يصفها وصفاً دقيقاً، فلا يمل الإنسان من طلب الخير، فسر قسم من العلماء الخير بالمال وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الخير يراد به المال في كثير من الآيات. ولكن هذا لا يطرد فقد ورد الخير في آيات من القرآن الكريم يراد به كل ما يجلب نفعاً للإنسان في الدين أو في الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٨٤].. فلا يراد هنا المال بأي حال من الأحوال.

فالإنسان لا يمل من طلب المال أو الصحة أو كل ما يجلب له نفعاً. ولكنه إن مسه الشر أي أنواع الشر، نقص في المال أو الجاه أو الصحة فينقطع أمله في النجاة أو عود الخير له ويظهر ذلك في تصرفاته وعلى وجهه فالقنوط أعلى أنواع اليأس لأن اليأس من أعمال القلب فإذا ظهر أثره على الوجه فإنه قنوط.

فهو يقنط لأي سوء أصابه لأن ارتباطه بالله ضعيف جداً وكما مر بالآيات السابقة أن ظنهم بالله أرداهم فالمؤمن إن أصابه خير شكر وإن أصابه ضر صبر وبكليهما ينتظر الأجر من الله فهو سعيد في الحالتين.

﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾.. وهذا هو شأن الإنسان

فإن قارون حينما أتاه الله الثروة الكبيرة قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨]، وكذا صاحب الجنتين قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ [الكهف: ٣٦]، والإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان ينسى فضل الله عليه بالنعمة فإذا أصابه ضر تذكر الله جل وعلا عكس المؤمن ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾[آل عمران:١٩١]، ولهذا حينما يؤتيه الله خيراً برحمته يقول هذا ما استحقه بمكانتي وبعملي أو بمركزي الاجتماعي ولا يشكر الله الذي أسدى إليه النعمة ولا يعلم أن هذا الخير اختبار له أيشكر أم يكفر؟ ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾، فهو يكفر بالحساب بعد الموت ويقول لو قلتم أن هناك حشر وحساب وحياة أخرى فإني سوف أحظى بنفس المنزلة التي كنت عليها في الدنيا لأنه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾، فإذا كانت هذه من استحقاقاته وليس بفضل من الله فإنها في الآخرة كذلك فيجيبه الله تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾.. فيخبره الله أن أعمالك هذه في الدنيا وكفرك ومحاربتك الدعوة تستحق عليها هذا العذاب الشديد فإن الغلظة هي الشدة في جميع الأمور.

ولا تستحق الحسنى ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ ﴾ يتكرر الموقف بصور مختلفة، لأن الحالة تتكرر كثيراً، فهو لا يسأم من طلب الخير وهو يتضجر إن أصابه ضر وعندما يؤتيه الله تعالى خيراً فإنه يقول أن هذا ما استحقه، ولذا يأتي النص القرآني يكذبه، فيقول الله له إذا كان هذا ما تستحقه بعملك أو بعلمك أو بمقامك عند الله فلم أذهبه الله عنك؟ أو لم ذهب عنك!!؟ والبطر والتكبر لا يفارق الإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان، فإذا أصابته نعمة تكبر ونأى بجانبه فهو يعرض ويتكبر ويتبختر بمشيته وإذا ذهبت عنه نعمة الله يعود إلى الله متضرعاً ناسياً كفره لنعمة الله عليه، تكبره على خلق الله ادعاؤه العظمة والنباهة والحذق. نماذج كثيرة يبرزها القرآن الكريم عن هذه الحقائق.

نعوذ بالله من البطر والأشر والتكبر والجحود وكفران النعمة.

نزلت هذه الآيات في كفار قريش كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

علاقة الآيات بالمحور

لقد نبأ الله الإنسان بكل ما عمل ولقد ذكر له في القرآن الكريم كل ما سوف يناله في أي صورة من الصور كان عمله أو عقيدته ولكنه أعمى عيونه وأصم آذانه عن كل الحق.

الهداية في الآيات:

* إن الإنسان لا يمل من طلب الخير إن كان مالاً أو كل ما يجلب له نفعاً وإذا مسه الشر فسرعان ما ييأس ويظهر على وجهه وفي تصرفه اليأس والقنوط.
* إذا خول الله الإنسان نعمة فسرعان ما يدعيها ويعتبرها من مستحقاته ومما يجب له.
* يعتبر كل نعمة أصابته أنه حصلها بعلمه وبعمله وبها يستحق.

تحقيق أن القرآن من الله جل وعلا

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما سبقها

كأن هذه الآيات لها علاقة بجميع السورة لأنه في هذه الآيات يدعو إلى التفكر ثم يبين أن جميع ما في الكون يدل على أن القران الكريم من الله فبعد أن ذكر صفاته وما احتواه من إشارة إلى السنن الكونية وغيرها.

يقول ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وبهذه الآيات سيعلمون أن القرآن حق وأن منزله هو الله عز وجل لأنه لايستطعيه مخلوق.

التفسير الاجمالي

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.. القرآن منزل من الله تعالى، فاعرضوه على عقولكم وناقشوه مناقشة من يفتش عن الحقيقة حتى لو كان مصدرها عدوه، فإذا ثبت أنه من عند غير الله فأنتم على موقفكم ولكن إن ثبت أنه من عند الله فستكون خسارتكم عظيمة وخيبتكم ثقيلة ولا يمكن التراجع.

ولذا فإن الله قال لا يوجد ضال أكثر ضلالاً من المغالطين، الذين هم في شقاق ونزاع ورفض لكل سبل الخير والمنطق السوي والعقل. هل بعد هذا الضلال من ضلال.

فموقف المشركين المغالطين من القرآن الكريم أولاً قالوا قلوبنا في أكنة وثانياً قالوا بيننا وبينك حجاب وثالثاً قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه فاتبعوا جميع السبل غير العاقلة والتي تدل على جهلهم ومغالطتهم وعدم قبولهم الحق.

فهذا يدل على قوة القرآن الذاتية ودخوله النفس الإنسانية من أزهى جوانبها وثالثاً يرسم الحياة الإنسانية الكريمة التي لا يسع أحد رفضها ولا يستطيع أحد أن ينقضها أو يأتي بخير منها.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.. إن هذا القرآن كالخارطة للكون في جميع جزئياته ولذا فإننا نرى في كل جيل ما يكتشف أن هناك حقيقة في القرآن الكريم لم يدركها الناس في وقت سابق.

والاكتشافات العلمية في جميع آفاق الكون وفي جميع مناحيه وأبعاده والسنن التي بني عليها تدل على صدق القرآن ومن وقت قريب اكتشفوا أن البحار تحتفظ بخاصياتها حتى في مواطن التقائها ولا تختلط ببعضها. فقال لهم المسلمون إن القرآن الكريم قال لنا ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣]..

وقبلها علموا أن المعادن تتكون في الجو هي وأسباب الحياة الإنسانية كالمياه العذبة وغيرها فقال لهم المسلمون أخبرنا الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

وفي كل وقت يكتشف الإنسان أن في نفسه في جسمه في تركيبه أشياء تظهر تباعاً ذكرها القرآن الكريم ولكن الناس عنها غافلون أو أن كل جيل يفسرها بها توصل إليه من علوم فالنفس الإنسانية فيها أغوار وزوايا لا يعلمها إلا الله.

فالآية فيها دليل إعجاز يقول للإنسان أتحداك أن تقول أنك علمت كل ما في القرآن الكريم من العلوم، فكل جيل من العلماء يكتشفون في جسم الإنسان وفي نفسه أشياء لم يطلع عليها أسلافهم ويقول أتحداك أن تدرك حقيقة نفسك التي بين جنبيك.

ولذا فإن الله تعالى قال سنريهم كل مايدل على أن القرآن حق وأنه من عند الله أن في الطبيعة التي حولنا أو في النفس الإنسانية التي بين جنبينا.

ويعود السياق يذكر ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾.. متى تعودون إلى الله وتتبعون كتابه وتنتهجون نهجه؟

الدولة الإسلامية التي سبقت الغزو الغربي الذي فرق المسلمين على دول صغيرة تعمل برأيه وتأتمر بأمره هذه الدولة كان وجودها يدل على أن الإسلام هو الأقوى وأن القرآن هو النهج الحق الذي تسعد الإنسانية باتباعه ولا تسعد بغيره.

ولذا فإن القرآن الكريم يصرخ بالمسلمين صباح مساء أن لا تتبعوا مناهج غير الله ولا تسيروا بمناهج أعدائكم ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾، و﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١٠٣].

وينادي المسلمين أن هذا طريق الفلاح والنجاح والعزة والكرامة فتوحدوا فإن الله وحدكم بالقرآن فتوحدوا به وله حتى تحكموا العالم وتتصدروا الإنسانية كما وضعكم ربكم له من مكانة ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون

ميزان القيم وتقيمون اعوجاج الإنسانية التي شقيت به؟

﴿ لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾..

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ هذا الابتعاد وهذا التخبط مبعثه شكهم في لقاء الله ومحاسبتهم عما انتهجوا، وعماهم فيه من الشقاء الذي جلبوه لأنفسهم.

إن الله يعلم متقلبكم ومثواكم ويعلم ما في نفوسكم ألم يكن يعلم ما تعملون؟ ألا إنه بكل شيء محيط ولكنكم غافلون ساهون لا تريدون النجاة.

علاقة المقطع بالمحور

لايمكن أن تفارق السورة محورها وموضوعها وكلما استطردت في الأدلة والشواهد نجدها شواهد قرآنية أو على مايعنيه القرآن الكريم، وفي هذه الآيات دعوة للإنسان على تدبر القرآن الكريم ستجد جميع ما في الكون يشهد أن القرآن الكريم منزل من الله عزوجل وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الهداية في الآيات:

* إن الله سيظهر للإنسان أن القرآن حق وأنه من عند الله فثبت بالدلائل في الحال والمستقبل أنه من عند الله، وقد ظهرت هذه الدلائل فإن علماء اليهود والنصارى في كل جيل يظهر منهم من يكتشف أن ما جاء به القرآن حق وأنه من عند الله.
* إن اكتشاف الإنسان لنفسه وعملياته الحيوية تشير إلى أن الذي أخبر به القرآن الكريم عن نفس الإنسان وعن أعماله الحيوية هو الصدق.
* إن تشريعات القرآن الكريم تثبت يوماً بعد يوم وفي كل جيل أن القرآن هو الصدق وهو الذي شرع للإنسان ما ينفعه من حيث أنه لم يستطع أن يشرع لنفسه ما يسعدها.

من ذلك انتشار المصارف الإسلامية في غير بلدان المسلمين فقد أثبتت أن تنظيم القرآن

الكريم للاقتصاد هو الذي ينفع الإنسان.

* حرم الله الربا والإنسانية يوماً بعد يوم تثبت أن الربا كارثة إنسانية ؟؟؟؟

وغير ذلك فإن الله تعالى أرانا في الطبيعة وفي أنفسنا أن القرآن منزل منه عز وجل وليس للإنسان دخل فيه.

سورة الشورى

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت «سورة الشورى» بهذا الاسم تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليما للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل منهج الشورى، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[1].

ج - مكية السورة:

سورة الشورى مكية ماعدا الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثانية والأربعون (٤٢). نزلت بعد سورة فصلت. من الجزء «٢٥» الحزب «٤٩».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٥٣[2].

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٨٦.

محور السورة:

هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوعات السور المكية التي تعالج أمور العقيدة: «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء». والمحور الذي تدور عليه السورة هو: «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساس للسورة الكريمة.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الشورى وخاتمتها واضحة جدا، ففي بداية السورة حديث عن القرآن الكريم في قول الله تعالى:﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾

وفي نهاية السورة حديث أيضا عن القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ ﴾

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الشورى وخاتمة السورة التي قبلها: (فصلت) ففي نهاية سورة فصلت حديث عن القرآن الكريم:﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ وجاء الحديث عن القرآن الكريم في افتتاحية سورة الشورى في قول الله تعالى:﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الشورى) والسورة التي قبلها (فصلت)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين حديث عن القرآن الكريم**؛ جاء ذلك في سورة فصلت في الآيات الكريمة الآتية:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾

وجاء الحديث عن القرآن الكريم في سورة الشورى في الآيات التالية:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾

* **في السورتين حديث عن دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته:**

ففي سورة فصلت: ﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا

بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

وجاء الحديث عن دلائل وحدانية الله تعالى في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

* **في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين:**

جاء ذلك في سورة فصلت في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وجاء الحديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

تنزيل الوحي وبيان جلال الله تعالى وعظمته

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تبتدئ السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فاللهُ ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان.

وهذه الحروف المقطعة﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ ذكرت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. [١]

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.=

ومثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، وهذا كقوله جل شأنه: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣].

والذي أوحى إليك وإلى إخوانك من المرسين هو اللهُ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً، هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة.

تكاد السماواتُ يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد. والملائكةُ الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين. (١)

والآية عمومٌ يراد به الخصوص، لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض (٢) يقول صاحب الظلال: « الملائكة أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة. ولكنهم

= يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

وممن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا»، في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٢.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ١٧.

دائبون في تسبيح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته. ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير.

ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا، كالذي جاء في سورة غافر: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ ﴾ [غافر: ٧]. وفي هذه الحالة يبدو: كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض، حتى من الذين آمنوا، وكم يرتاعون لها، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته؛ واستهوالاً لأية معصية تقع في ملكه؛ واستدرارا لمغفرته ورحمته؛ وطمعاً فيهما. » [١]

ألا فانتبهوا أيها القوم: إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم. قال القرطبي: هيَّب وعظَّم جل وعلا في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء. [٢]

والذين جعلوا له شركاء وأنداداً فإنه سبحانه رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيءٌ، وهو محاسبُهم عليها وما أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسب. [٣]

من هداية الآيات:

* وحدة الوحي بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والترغيب في الصالحات، والترهيب من الموبقات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٥.

(٣) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٣.

* بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.

* تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه بأنه غير موكل بحفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها. إنما هو الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. (١)

مقاصد الوحي الإلهي

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربياً معجزاً، بلسان العرب، لا لبس فيه ولا غموض، لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان. (٢)

وأُمُّ القُرى أصلُ القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصل كل شيءٍ أمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان. (٣)

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٤٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٧ / ١٤٧.

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر في الإنذار، لأنهم أقرب الناس إليه ﷺ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته ﷺ كانت إليهم وحدهم، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته ﷺ كانت إلى الناس كافة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقوله عز وجل: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وتنذر الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد، وهذا اليوم لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه، فريقٌ من هذا الجمع في جنات النعيم، وهم المؤمنون، وفريق منهم في دركات الجحيم، وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء،

ولو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام، ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال: والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله. (١)

والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جل وعلا، ولكنْ من سبقت له السعادة أدخله في رحمته، يعني دين الإسلام. (٢)

وينكر الله تعالى على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم. كيف ذلك واللهُ وحده هو الوليُّ الحقُّ الناصرُ، لا وليَّ سواه هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، لا يعجزه شيء، فهو سبحانه الحقيق بأن

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٣.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥٠٩.

يُتخذ ولياً دون من سواه.

وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه ﷺ، الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وَلِيِّي ومالك أمري. (١) وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن الكريم؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم، وأخلاقهم وسلوكهم. وبيّن لهم هذا كله بياناً شافيا. وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر، أوسع من دساتير الحكم وأشمل. فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ لتقوم الحياة على أساسه. (٢)

ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فأخبر أنه سبحانه خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات، وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً يكثّركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ، ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفردُ الصمد. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ قال القرطبي - رحمه الله -: الذي يُعتقد في هذا الباب أن الله - جلَّ اسمُه - في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسنى أسمائه، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذْ صفاتُ القديم - عزَّ وجلَّ - بخلاف صفات المخلوق، وإذْ صفاتُهم لا تنفك عن

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٤ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٤٥.

(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٤٣٢.

الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزَّه عن ذلك.

وقد قال بعض المحققين: التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غير مشبهةٍ للذوات، ولا معطَّلة من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهذا مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة. (١)

وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم، بيده جل وعلا مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وسائر الحاجات، يوسِّعُ الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية.

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي.
* شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحواضر.
* انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي.
* لم يشأ الله أن يجعل الناس أمة واحدة، وذلك لحكم عالية، ومقاصد سامية علمها إليه سبحانه.
* من طلب ولاية غير الله هلك، ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه.
* وجوب ردّ ما اختُلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه، وهو الرد إلى الكتاب والسنة.
* وجوب التوكل على الله والإنابة إليه في كل الأمور.
* تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.
* وجوب الإيمان بأن الله تعالى هو الرزاق، بيده مفاتح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق. وكل ذلك وفق حكمته البالغة. (٢)

---

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٢ وما بعدها بتصرف.

وحدة الأديان في أصولها

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تعود السورة الكريمة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحدٌ أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلاَّ أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث الله به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام.

قال الصاوي: خصَّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا - معشر الأمة المحمدية - قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام. (١)

والمراد بما شرعه - سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل: أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، والتحلي بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف.

أما ما يتعلق بفروع الشرائع، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في الأصول الثابتة في جميع الأديان، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال. (٢)

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٥٩.

ووصينا هؤلاء الرسل بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام - الذي هو توحيدُ الله وطاعتهُ، والإيمان بكتبه ورسله، وبالبعث والجزاء.

قال القرطبي: المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام والزكاة، والحج، وغيرها، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة. (١)

عظُم وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار.

الله تعالى يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكراماً. (٢)

وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم، وكان تفرقهم هذا ظلماً وتعدياً، وحسداً وعناداً، ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لعجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم.

قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً. وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان. (٣)

من هداية الآيات:

* دين الله واحد وهو الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.
* حرمة الاختلاف في دين الله المسبب تضييع الدين كلا أو بعضا.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١١.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٥.

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٢.

* مرد التفرق في الدين إلى الحسد والبغي بين الناس.[١]

* أهل الكتاب ليسوا على شيىء يقيني من دينهم، بل هم في ظلمات الشك يترددون.

الأمر بالدعوة والاستقامة، وإبطال حجج المعاندين

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

التفسير الإجمالي

فلأجل وحدة الدين، وعدم التفرق فيه، فادعهم إلى إقامة الدين، وثابر على تلك الدعوة كما أمرك الله، ولا تساير أهواء المشركين، وقل: آمنت بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله وأمرنى الله بإقامة العدل بينكم، وقل لهم: الله خالقنا وخالقكم، لنا أعمالنا لا لكم، ولكم أعمالكم لا لنا، لا احتجاج بيننا وبينكم لوضوح الحق. الله يجمع بيننا للفصل بالعدل، وإليه - وحده - المرجع والمآل.[٢]

قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٥.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٤٤.

آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم. (١)

الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة، لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شرٍّ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم. (٢)

قال ابن كثير: هذا تبرؤٌ منهم، أي نحن برآء منكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس: ٤١]، لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون. الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر. (٣)

قال الصاوي: والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلاً بعمله. (٤)

وهذه الآية الكريمة من الآيات العظيمة، ولا نظير لها إلا آية الكرسي، فإنها عشرة أصول كل أصل منها مستقل برأسه. (٥)

والذين يخاصمون في دين الله لصدِّ الناس عن الإيمان من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه حجتهم باطلة، لا ثبوت لها عند الله. قال ابن عباس: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل، وهؤلاء الجاحدون عليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذابٌ شديد في الآخرة. (٦)

والله تعالى نزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع، والحقِّ الساطع، في

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٥٨.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٦.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٣.
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣.
(٥) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٣٩٦.
(٦) البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

أحكامه وتشريعاته وأخباره. ونزَّل الميزان أي العدل والإنصاف. وسمي العدلُ ميزاناً لأن الميزان يحصل بـه العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب. [١]

« فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم. العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم، وتوزن به الحقوق. وتوزن به الأعمال والتصرفات». [٢]

وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب ؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم. [٣]

يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدّقون بها، فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون ؟ والمؤمنون المصدّقون بها خائفون وجلون من قيامها، ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة. والذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته. [٤]

والله تعالى بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم. قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم. يرزق من يشاء كما يشاء، وهـو الغالب علـى كل شيء، المنيع الذي لا يغلب. [٥]

---

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٠.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٧.
(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥١٤.

قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغنيَّ بالفقيرِ، والفقير بالغني كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]. (١)

من هداية الآيات:

* وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
* حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم وموافقتهم في باطلهم.
* وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
* تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
* بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب والميزان، وهو أن يحكم الناس بالقسط.
* المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها. (٢)

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٩٧- ٤٩٩.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين، وقبول التوبة

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما بيَّن سبحانه كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ (١)

التفسير الإجمالي

يبين الله تعالى هنا سنته التي لا تتخلف في أن الأعمال بمقاصدها، وأن الجزاء مرتب على الأعمال. فمن كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزدْ له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته. ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مِمَّا قُدر له، وليس له في الآخرة حظٌ من الثواب والنعيم.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٨.

قال الزمخشري: سمَّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضوعفت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها، لا ما يريده ويبتغيه. (١)

وقال ابن جزي: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحَرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل. (٢)

ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال متسائلا على سبيل الاستفهام للتقرير والتوبيخ: ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب، وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله تعالى دون أن يكون عندهم دليل، أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل.

« وإسنادُ الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إسنادٌ مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب وسمَّاه ديناً للمشاكلة والتهكم»(٣).

« وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده. بما أنه - سبحانه - هو مبدع هذا الكون كله، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له. والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس. وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال. فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور». (٤)

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧١.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧١.
(٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٢٧٥.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٥.

لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن.

وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم. وتراهم يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا، والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة، سواءً خافوا أو لم يخافوا. وأما المؤمنون الصالحون فهم في رياض الجنان يتمتعون في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها، لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم.

فأين هذا من هذا، أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ ؟ ولهذا قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء[1]. وهو الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جل وعلا إذا قال « كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره. [2]

ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقاء ربهم.

قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى، ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي. [3]

قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وتودُّوني في نفسي لقرابتي منكم. ومن يكتسب طاعةً من الطاعات

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٩.

نضاعف له ثوابها فالله سبحانه غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات.

ثم ينتقل السياق إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم، بل أيقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه ؟. (١)

قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة.

لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك، فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفترعلى الله كذباً ولهذا أيَّدك وسدَّدك، وهذه كقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٦]. (٢)

والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه ﷺ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه ويمح الله الباطل فيزيله بالكلية، ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم إنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور. (٣)

ثم يمتن الله تعالى على عباده فيبين أنه جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نيّة، ويصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر. (٤)

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٥.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥١٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤. وقد ورد معنى مغاير لهذا حاصله: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، واتهامك بالافتراء على الله، ويزيل الله الشرك ويخذله، ويثبت الإسلام ويظهره. تفسير المنتخب ٢ / ٣٤٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٠.

ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا دعاءهم، ويزيدهم من فضله وإحسانه، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا. وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم. (١)

من هداية الآيات:

* بيان لطف الله بعباده، فله سبحانه الحمد وله المنة والشكر.
* بيان وجوب إصلاح النيات، فإن مدار العمل قبولاً ورفضا بحسبها.
* حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
* تقرير حق القرابة ووجوب المودة فيها. واحترام قرابة الرسول ﷺ وتقديرها.
* تبرئة رسول الله ﷺ من الافتراء على الله عز وجل.
* مضاعفة الحسنات، وشكر الله للصالحات من أعمال عباده المؤمنين.
* وجوب التوبة ووعد الله تعالى بقبولها.
* وعد الله تعالى باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات. (٢)

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٦٩.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٩٩ - ٤/ ١.

مظاهر حكمة الله، وآياته الدالة على قدرته

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

سبب النزول:

أخرج الحاكم في سبب نزول قول الله تعالى:﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن علي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفَّة: وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا...، فتمنوا الدنيا والغنى. (١)

التفسير الإجمالي

ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً. (٢)

وقد فعل ما فعل - سبحانه - من إنزال الرزق على عباده بقدر، لأنه - تعالى - خبير بخفايا أحوال عباده، وبطوايا نفوسهم، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه.

قال صاحب الكشاف: أي أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم، فيقدر لهم ما هو أصلح

(١) المستدرك ٢/ ٤٨٣. رقم الحديث ٣٦٦٣. وقال الحاكم: حديث صحيح.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٧.

لهم، وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط، كما توجبه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعا لبغوا، ولو أفقرهم لهكلوا.

ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط، لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن.

ولكنه تعالى يُنزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو سبحانه عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية. [١]

« وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق - مهما كثرت - بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير. فالله يعلم أن عباده، هؤلاء البشر، لا يطيقون الغنى إلا بقدر، وأنه لو بسط لهم في الرزق - من نوع ما يبسط في الآخرة - لبغوا وطغوا.

إنهم صغار لا يملكون التوازن. ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد. والله بعباده خبير بصير. ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً، بقدر ما يطيقون. واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض، ويجتازون امتحانها، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام. ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود» [٢].

ثم يعدد الله تعالى نعمه على عباده فيبين أنه هو تعالى الذي ينزّل المطر، الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ويبسط خيراته وبركاته على العباد وهو الوليّ الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء [٣].

« وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الأرض. وقد

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤٠.

غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول.. الماء.. وأدركهم اليأس والقنوط. ثم ينزل الله الغيث، ويسعفهم بالمطر، وينشر رحمته، فتحيا الأرض ويخضر اليابس، وينبت البذر، ويترعرع النبات، ويلطف الجو، وتنطلق الحياة، ويدب النشاط، وتنفرج الأسارير، وتتفتح القلوب، وينبض الأمل، ويفيض الرجاء.. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات. تتفتح فيها أبواب الرحمة، فتتفتح أبواب السماء بالماء.. وهو الولي الحميد.. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات» [١].

ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السماوات والأرض بهذا الشكل البديع وما نشر وفرَّق في السموات والأرض من مخلوقات. قال ابن كثير: هذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم، وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أيِّ وقتٍ شاء. [٢]

« وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبة. فهي قاطعة في دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد. إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان، ولا غيره من خلق الله. ولا مفر من الاعتراف بمنشيء مدبر. فإن ضخامتها الهائلة وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة.. كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ودبرها. [٣]

وإنّ ما أصابكم أيها الناس من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها. قال الجلال: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها. [٤]

وهو سبحانه يصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٨.

(٤) تفسير الجلالين ٤ / ٣٨.

لهلكتم. ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب، وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها، لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري. إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكرٍ في الرخاء. (١)

وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها.

وإن يشأ سبحانه يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم، والله تعالى يتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم من الهلاك، وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله. ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم، فيخلصون له العبادة. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
* من مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته على عباده إنزال الغيث بعد اليأس وخلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤١.

(٢) يراجع: تفسير القرطبي ١٦/ ٣٣. البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥٢٠.

- بيان حقيقة علمية ثابتة وهي أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف.
- بيان أن ما من مصيبة تصيب المرء في نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه.
- بيان أن من الذنوب ما يعفو الله تعالى عنه ولا يؤاخذ به تكرما وإحساناً.
- مظاهر ربوبية الله وألوهيته على خلقه.
- فضل الصبر والشكر وفضيلة الصابرين الشاكرين.
- عند معاينة العذاب يعرف الإنسان ربه وينكر غيره. [١]

صفات المؤمنين المستقيمين

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما عُلم أن جميع النعم من الغيث وأثاره، ومن نشر الدواب براً وبحراً بمعرض من الزوال وهو عظيم التقلبات هائل الأحوال سبب عنه قوله محقراً لدنياهم وما فيها من الزهرة بسرعة الذبول والزوال، والأفول والارتحال، وبأنهم لا قدرة لهم على شيء منها، وليس لهم من أنفسهم إلا العجز، فلو عقلوا لعلموا، ولو علموا لعملوا عمل العبيد، وأطاعوا القوي الشديد [٢].

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣ - ٥ بتصرف يسير.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٤٢٠.

التفسير الإجمالي

فما أوتيتم- أيها الناس- من شيء من المال أو البنين وغير ذلك فهو متاع لكم في الحياة الدنيا، سُرعان ما يزول، وما عند الله تعالى من نعيم الجنة المقيم خير وأبقى للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربهم يتوكلون. (١)

وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين وَالْفَوَاحِشَ، قال ابن عباس: يعني الزنى، وإذا غضبوا على أحدٍ ممَّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا.

قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخلٍ بالمروءة، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرماتُ الله فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استُغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر: «وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل» أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة. (٢)

والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة، وأدوا الصلاة بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها، ويتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة، وينفقون مما أعطاهم الله بالإحسان إلى خلق الله وينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي. (٣)

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق. وقال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً في موضعه محمود. وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة. (٤)

---

(١) يراجع: التفسير الميسر ٨/ ٤٥٦.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤٠.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٣.
(٤) إرشاد العقل السليم ٥ / ٣٦.

قال الإمام الرازي: لما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة. وإنما سمَّى ذلك سيئة، لأنها تسوء من تنزل به. فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل.[1] والله تعالى يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام.

قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: (وما زاد اللهُ تعالى عبداً بعفوٍ إلا زاده عزاً) [2].

ومن انتصر ممن ظلمه دون عدوان فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار. إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين، الذين يظلمون الناس بعدوانهم ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً، بالمعاصي، والاعتداء على الناس في النفوس والأموال. أولئك الظالمون الباغون، لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم.

ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها. قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة.[3]

من هداية الآيات:

* متاع الحياة الدنيا ضئيل إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
* مشروعية القصاص ومعاقبة الظالم، والضرب على يديه.
* عدم مؤاخذة من ظُلم فأخذ بحقه بلا زيادة عنه، ما لم يكن حداً فإن الحدود يقيمها الإمام.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢. والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) يراجع: حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١، صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٤.

* لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه.
* فضيلة العفو والصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل.[١]

مشهد يصور حال أهل النار

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة، وعما أعده سبحانه لهم من ثواب، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب، وأمرهم سبحانه بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير.[٢]

التفسير الإجمالي

ومن يضلله اللهُ فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق، وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا ؟

قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل، فلا يُجابون. وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار متضائلين صاغرين، مما يلحقهم من الذل والهوان، يسارقون

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٧ وما بعدها، بتصرف.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٧٦.

النظر - بطرفٍ ذابلٍ ذليل - خوفاً منها وفزعاً، كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه. (١)

« والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء. إنهم يرون العذاب، فيتهاوى كبرياؤهم. ويتساءلون في انكسار: هل إلى مرد من سبيل ؟ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار: ينظرون من طرف خفي.. وهي صورة شاخصة ذليلة» (٢).

يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم. ألا إنهم في عذاب دائمٍ لا ينقطع.

وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله، كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ومن يضلله اللهُ فليس له خلاص، وليس له من طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة. (٣)

من هداية الآيات:

* الهداية والضلال بيد الله، والعبد مؤاخذ بكسبه.
* بيان حال الكافرين يوم القيامة، وحين يُعرضون على النار لأخذ الحذر والعبرة، والعاقل من اتعظ بغيره.
* أكبر المصائب الحرمان من الجنة، وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٤٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٦٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢.

الأمر بالاستجابة لله والاستسلام لحكمته

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

بعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدين الله والانقياد والاستسلام لحكمه، قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب.

فيا أيها الناس استجيبوا إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة، من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأنه ليس له دافع ولا مانع. وليس لكم مفر تلتجئون إليه، وليس لكم منكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب. أو ليس لكم إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدوَّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم.[1]

فإن أعرض المشركون عن الإيمان، ولم يقبلوا هداية الرحمن، فما أرسلناك يا محمد رقيباً على أعمالهم، ولا محاسباً لهم. ما عليك إلاَّ أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت. والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهمِّه بهم.[2]

ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان – الذي لم يهذبه الإيمان – الكفران لنعم الله فإذا أكرم الله الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبَّر. وإن أصابهَ جدبٌ ونقمة،

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٣٧.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥٢٥.

وبلاءٌ وشدة، بسبب ما اقترفه من آثام فإنه مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ٩-١٠].

- قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة بـ « إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه. (١)

وقال الفخر الرازي: نِعَمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمَّاها ذوقاً، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها، ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة. (٢)

والمقصودُ من الآية الكريمة أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السماوات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ويخص من شاء بالذكور

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٧٩.

دون الإناث، ويجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد.

ولصاحب الظلال كلمات رقيقة في هذا الموضع، يقول رحمه الله: « الذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان؛ وهي قريبة من نفس الإنسان؛ والنفس شديدة الحساسية بها. فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق. وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه. فهذه تكملة في الرزق بالذرية، وهي رزق من عند الله كالمال.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام. وكذلك ذكر: يخلق ما يشاء.. فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو يهب لمن يشاء إناثاً - وهم كانوا يكرهون الإناث ويهب لمن يشاء الذكور. ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء. ويحرم من يشاء فيجعله عقيماً - والعقم يكرهه كل الناس - وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله. لا يتدخل فيها أحد سواه. وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: إنه عليم قدير »[1].

من هداية الآيات:

* وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها.
* على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
* بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٦٩.

* لله تعالى مطلق التصرف في الملكوت كله، فلا يصح الاعتراض عليه في شيء، فهو يهب ويمنع لحكم عالية، لا تدركها عقول العباد.
* وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع.[1]

الوحي وأقسامه

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تختم السورة الكريمة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة ليتناسق الكلام في البدء والختام.

فذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه، وأن تكليم الله تعالى للبشر وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحي، وهو الإعلام في خفاء وسرعة، عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

والثاني: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أي حاجز، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى عليه السلام عندما كلمه ربه عز وجل، وهذا الطريق هو المقصود

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١١ بتصرف يسير.

بقوله تعالى:﴿ أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾.

والثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له، وهو المقصود بقوله - تعالى -:﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾.

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذي رواه الإمام البخاري « عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس « وهو أشد علي - أي: أحيانا يأتيني مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكملني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا. [١]

وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحاً لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين. وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم، هو الإسلام، هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه، هو دينُ الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً. ألا إلى الله وحده ترجع الأمور، فيفصل فيها بين خلقه بعدله وحكمته. [٢]

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه. ك: بدء الوحي ١/ ٤. حديث رقم ٢. ومعنى يتفصد: يسيل، من الفصد، وهو قطع العرق لإسالة الدم. شبه الجبين بالعرق المفصود مبالغة في كثرة عرقه ﷺ.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤٧ بتصرف يسير.

من هداية الآيات:

* بيان جلال الله تعالى وعظمته فهو سبحانه ما كلم أحداً من خلقه إلا عن طريق الإلهام أو الملك أو من وراء حجاب.
* القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.[1]
* الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.

وأخيراً.. فهذه سورة الشورى، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الشورى

احتوت سورة الشورى على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* وحدة الرسالات بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.
* بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.
* لم يشأ الله سبحانه أن يجعل الناس أمة واحدة، لحكم عالية علمها إليه سبحانه وتعالى.
* من طلب ولاية غير الله هلك ؟ ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٣ بتصرف.

* وجوب ردّ ما اختُلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه وهو الرد إلى الكتاب والسنة
* وجوب التوكل على الله تعالى، والإنابة إليه في كل الأمور.
* تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.
* وجوب الإيمان بأن الله هو الرزاق، بيده مفاتح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق، وأنه يوسع لحكمه ويضيق لأخرى.
* وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم، إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
* حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم، أو موافقتهم في باطلهم.
* وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
* تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
* حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
* بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
* متاع الحياة الدنيا ضئيل وحقير إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
* فضيلة الصبر والعفو والتجاوز عن المسلمين والإصلاح بينهم.
* وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه.
* على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ دين الله تعالى للعالمين، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
* القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.
* الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم وما سواه اعوجاج وتفرق.

سورة الزخرف

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة الزخرف بهذا الاسم، لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون مع أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[1].

ج - مكية السورة:

سورة الزخرف مكية، ماعدا الآية ٥٤ فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والأربعون (٤٣). نزلت بعد سورة الشورى. من الجزء «٢٥» الحزب «٤٩، ٥٠».

عدد آيات السورة: عدد آياتها ٨٩. [2]

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. ١/ ١٨٦.

محور السورة:

سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان: « الإيمان بالله وحده، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

المناسبات في السورة الكريمة

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة تقرير وبيان لحال المشركين العجيب من اعترافهم بربوبية الله تعالى، وتفرده بالإيجاد والخلق ثم هم به يشركون. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾وجاء هذا المعنى في نهاية السورة الكريمة حيث قال جل شأنه:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الزخرف وخاتمة السورة التي قبلها (الشورى) ففي نهاية سورة الشورى حديث عن القرآن الكريم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفي مطلع سورة الزخرف حديث عن القرآن أيضاً ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الزخرف) والسورة التي قبلها (الشورى)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين حديث عن القرآن الكريم**؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ

فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* وفي سورة الزخرف جاء الحديث عن القرآن الكريم في عدة مواضع: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾، وفي سورة الزخرف: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

* وفي سورة الزخرف: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مكانة القرآن الكريم، وعاقبة المستهزئين بالمرسلين

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن إثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبيّ الأمي بأفصح لسانٍ، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

و﴿ حمٓ ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف

التي يتخاطبون بها. (١)

وقد أقسم المولى جل شأنه هنا بالقرآن الكريم، الواضح الجلي، المُظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية

أقسم سبحانه على أنه جعل القرآن عربياً. وهذا القسم من البدائع البلاغية، لتناسب القسم والمُقْسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه.

وإِنه في اللوح المحفوظ عندنا رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة. (٢)

قال ابن كثير: بيَّن سبحانه شرف القرآن في الملأ الأعلى، ليشرّفه ويعظّمه أهل الأرض أي وإِن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل. (٣)

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.
وممن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !» في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.
ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٢٨٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٤ بتصرف يسير جدا.

ويا أيها الجاحدون المعرضون، أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان ؟ لا، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة. (١)

قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإِن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. (٢)

وما أكثر مَنْ أرسلنا مِنَ الأنبياء في الأمم الأولين، ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزؤوا به.

قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ. والمعنى: تسلَّ يا محمد ولا تحزن، فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك، فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى. وسبق في القرآن أحاديثُ إِهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين. (٣)

وقد جاء الحديث في القرآن الكريم عن إهلاك الأمم الغابرة التي كذبت رسلها وأعرضت عن هدي ربها في مواضع عديدة منها:

* ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].
* ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٩٥.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٥.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٤.

﴿ ... ﴿١٢٨﴾ [طه: ١٢٨].

* ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٩].

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله في المكذبين، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابي. وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة في نشوئها ودثورها، وضعفها وقوتها.

والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين، واطراد تلك السنن، ويتخذ من مصارع القرون، وآثار الماضين، الدارسة الخربة، أو الباقية بعد سكانها موحشة. يتخذ منها معارض للعبرة، وإيقاظ القلوب، وإثارة الحساسية، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين.

كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس. ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم فلا ينعزل شعب أو جيل في حدود الزمان والمكان؛ وينسى النظام الثابت في حياة البشر، المطرد على توالي القرون. وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير ! (١)

قال الإمام فخر الدين الرازي: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقد ضربنا لهم مثَلَهم. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.
* كون الناس مسرفين في الشرك والفساد لا يمنع وعظهم وإرشادهم.
* في إهلاك الأقوى دليل على أن إهلاك من هو دونه أحرى وأولى، لا سيما مع شدة كفره. (٣)

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨١٥.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٩٥.
(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٥ بتصرف يسير جدا.

إقرار المشركين بربوبية الله

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كان التقدير: ولئن سألتهم عمن سمعوا بخبره ممن ذكرناهم من الأولين المهلكين ليعترفن بما سمعوا من خبرهم، عطف عليه هذا الكلام مبيناً لجهلهم بوقوعهم في التناقض مؤكداً له، لما في اعترافهم به من العجب المنافي لحالهم؛ فقال: ولئن سألتهم أيضاً عما هو أكبر من ذلك وأدل على القدرة، وجميع صفات الكمال فقلت لهم: ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا عن دلائل قدرته تعالى ووحدانيته المنبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السماواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ليقولُنَّ خلقهنَّ اللهُ وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه.

فهم أقروا بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، واعترفوا بعزته سبحانه وعلمه، ومع

---

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٤٤٣ بتصرف.

إقرارهم بذلك عبدوا غيره، وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم. (١)

ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال: بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون، وجعل لكم فيها طُرُقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مبدع هذا النظام العجيب.

« وحقيقة جعل هذه الأرض مهداً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير، وأمامهم ممهدة للزرع، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء.

ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب - لو صحت نظرياتنا في هذا وتقديراتنا - والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة ما لم ندرك نحن؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان. (٢)

ونزَّل سبحانه الماء بقدرته من السماء بمقدارٍ ووزنٍ معلوم، بحسب الحاجة والكفاية، أي بمقدار ينفع ولا يضر فهو مقدر موزون لا يزيد فيُغرق؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله. (٣)

فأحيينا به أرضاً ميتةً مقفرةً من النبات، كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة.

وخلق سبحانه جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك. قال ابن عباس: «الأزواج

---

(١) تفسير الخازن ٥ / ٣٧٣ بتصرف يسير.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٧٩.
(٣) المرجع السابق، نفس الموضع. بتصرف يسير.

« الأصناف والأنواع كلها، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى. وسخَّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم.

قال ابن كثير: أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها. (١)

لتستقروا على ظهر هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملاً أو غيره، وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها، فتشكروه بقلوبكم، وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب، وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه، لولا تسخيره تعالى لنا، وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت. (٢)

قال في حاشية البيضاوي: وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره.

فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلْك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مسخراً لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أيّ جانب شاء، وتفكر أيضاً في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾. (٣)

وفي الحديث الشريف « أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى، وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم هون سفرنا هذا، واطو عنا بُعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٥.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٢ بتصرف يسير جدا.

(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٩١.

من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد. وإذا رجع قالهن وزاد فيهم: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون »[١].

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية.
* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* معجزة القرآن في الإخبار بالزوجية، وقد قرر العلم الحديث نظام الزوجية في كل شيء حتى الذرة.
* مشروعية التسمية والذكر عند ركوب وسيلة الانتقال.[٢]

---

(١) الحديث رواه مسلم ٢/ ٩٧٨ برقم: ١٣٤٢. عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قوله وعثاء السفر: يعني تعبه وشدته ومشقته. وكآبة المنظر وسوء المنقلب الكآبة الحزن. والمنقلب المرجع. وذلك أن يعود من سفره حزيناً كئيباً، أو يصادف ما يحزنه في أهل أو مال. يراجع: تفسير الخازن ٥ / ٣٧٤.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٧ بتصرف.

ضلال المشركين في عبادتهم وتصورهم

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السماوات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله.

التفسير الإجمالي

تتعرض الآيات الكريمة هنا لما كان عليه المجتمع الجاهلي من ضلال في العقيدة والعبادة والتصور، فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البناتِ سفهاً وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت هذه الآيات لتصحيح تلك الانحرافات والأباطيل، وردِّ النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

وجعل المشركون لله – سبحانه – بعض خلقه ولداً ظنوه جزءاً منه، إن المفتري هذا القول لمبالغٌ في الكفر، عظيم الجحود وظاهر الكفران والطغيان؛ لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

ثم تنكر الآيات الكريمة عليهم صنيعهم، وتتعجبُ من حالهم، أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصَّكم واختار لكم البنين ؟[١] قال ابن كثير: وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار.

ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال: وإذا بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له، صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وصار ملآنا غيظاً وغماً من سوء ما بُشّر به. [٢]

قال الإمام الرازي: والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدِّ كيف يجوز للعاقل إثباتُه لله تعالى ؟. [٣]

أيجعلون للهِ من يُربَّى في الزينة، وينشأ ويكبر عليها، وهنَّ الإناث ؟ ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه ؟ أوَمَنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم ؟.

قال ابن جزي: والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكةُ بنات الله، كأنه قال: أجعلتم للهِ من ينشأ في الحلية ؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أُخرى فقال: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلّما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص ؟. [٤]

واعتقد كفار العرب بأن الملائكة - الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - إناثٌ وحكموا عليهم بذلك. أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث ؟ وهذا تجهيلٌ وتهكّمٌ بهم.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧ بتصرف يسير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٦.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٢٠١.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٦.

سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم، ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد.

وقد حكى الله تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال.

ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعموا أنَّ ذلك برضى الله. قالوا – على سبيل السخرية والاستهزاء –: لو شاء اللهُ ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولمَّا كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها. [١]

وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فكل شيء بإِرادة الله سبحانه، والمشيئةُ غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإِنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أنَّ الله أراد منهم ذلك. [٢]

وقد كذبهم الله فيما زعموا؛ فما لهم بذلك القول حجة ولا برهان. ما هم إلا يكذبون ويتقوَّلون على الله كذباً وزوراً.

هل أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن، فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته ؟. [٣]

قال الإِمام الرازي: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليه ويتمسكوا به ؟

إنهم لم يأتوا بحجةٍ عقلية أو نقلية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة. [٤]

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٣ بتصرف يسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٣.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٢٠٦.

وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان، كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمةٍ من الأمم إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين، وإِنا مقتدون بهم في طريقتهم.

والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به. وإِنما خصَّص المترفين بالذكر للإِشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صرَفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى.(١)

قال كل نبيٍّ لقومه - حين أنذرهم عذاب الله -: أتقتدون بآبائكم حتى ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه ؟ قالوا إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإِيمان والبعث والنشور. فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب، فانظر كيف صار حالهم ومآلهم !!

« وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون أو مقتدون.. ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد. ولو كان أهدى. ولو كان أجدى. ولو كان يصدع بالدليل. وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى، أو تفتح قلبها لتحس، أو تفتح عقلها لتستبين..

وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذي يسلكون». (٢)

من هداية الآيات:

* وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإِنسان.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٢.

* بيان حال المشركين العرب في الجاهلية من كراهيتهم البنات خوف العار وذلك لشدة جهلهم.
* بيان ضعف المرأة ونقصانها، ولذا تكمل بالزينة، وأن النقص فيها فطري في البدن والعقل معاً.
* من شهد شهادة باطلة سوف يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب عليها.
* حرمة القول على الله بدون علم، فلا يحل أن يُنسب إلى الله تعالى شيء لم ينسبه تعالى لنفسه.
* حرمة التقليد والاتباع بغير علم.(١)

حكمة الله في اختيار رسله، وتقسيم رزقه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرأه من قومه، ومن عبادة الأوثان،

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٩ وما بعدها بتصرف.

وذلك للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد. [١]

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا - بإيجاز - عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله. لكني أعبد الله الذي خلقني، لأنه سبحانه - الذي سيرشدني إلى الدين الحق.

وجعل الله - كلمة التوحيد - باقيةً في ذرية إبراهيم، فلا يزال فيهم من يوحِّد الله رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم.

قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين.[٢]

بل متعتُ أهل مكة وآباءهم - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله. [٣]

وحين نزل القرآن يرشدهم إلى التوحيد ضموا إلى شركهم تسميته سحراً وتمويهاً - استهزاء به - وأصروا على كفرهم.

وقال المشركون استخفافاً بمحمد، واستعظاماً أن ينزل عليه القرآن: هلا نزل القرآن -

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٨.

(٣) المرجع السابق.

الذي يزعم أنه وحي الله - على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟. [١]

يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: يحكي القرآن الكريم هنا تخليطهم في القيم والموازين وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور: وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !.. يقصدون بالقريتين مكة والطائف. ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بني هاشم. وهم في العلية من العرب.

كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته. ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، في بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية. وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !

والله أعلم حيث يجعل رسالته. ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل. ولعله - سبحانه - لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى الخلق، وهو من طبيعة هذه الدعوة. وسمته البارزة التجرد، وهو من حقيقة هذه الدعوة. ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء. كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء. ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء. ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة. ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف.

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله، التي يختار لها من عباده من يشاء؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها،

---

(١) المنتخب ٢ / ٥٦.

ووزنها الصحيح في ميزان الله.[١]

أهم يمنحون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني، أو فلانٍ الكبير من الناس ؟ نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة – وهو تافه حقير – لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة – وهو عظيم وخطير – لأهوائهم ومشتهياتهم !![٢]

قال ابن جزي: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية.[٣]

قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه.[٤]

وقال أبو حيان: وقوله تعالى:﴿ سُخْرِيًّا ﴾بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعضٍ، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك. وفي قوله تعالى:﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾تزهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله.[٥]

قال قتادة: تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عييَّ اللسان، وهو موسَّع عليه في الرزق. وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتَّر عليه في الرزق.[٦]

ليسخر بعضهم بعضاً.. ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً. وليس

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٤.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٦.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٨.
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٤٨.
(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٨ / ١٣.
(٦) المرجع السابق، نفس الموضع.

التسخير هو الاستعلاء.. استعلاء طبقة على طبقة، أو استعلاء فرد على فرد.. كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد. كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجيء..

إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض. ودولاب الحياة يدور بالجميع، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف. المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق. والعكس كذلك صحيح. فهذا مسخر ليجمع المال، فيأكل منه ويرتزق ذاك. وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء.

والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذاك، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة.. العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل. والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل. وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء.. وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات، والتفاوت في الأعمال والأرزاق[1].

وإنعامه تعالى عليك – أيها النبي – بالرسالة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني.

ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال: ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون. ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة، زيادةً في الرفاهية والنعيم، على تلك الأسرَّة الفضية يتكئون ويجلسون. وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش.[2]

وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٧.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٧.

الحقيرة. والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين، لا يشاركهم فيها أحد.

والآياتُ الكريمة سِيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة.

ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم. وفي الحديث: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء)[(١)].

قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاً وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلتُ التوسعةُ عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلَّب الفقر على الغنى.[(٢)]

من هداية الآيات:

* من الكمال العقلي أن يتبع المرء الهدى ولو خالفه قومه وأهل بلاده.
* وجوب البراءة من الشرك والمشركين وهذا معنى لا إله إلا الله.
* فضيلة من يورث أولاده هدى وصلاحاً.
* لا يعترض على الله أحد في شرعه وتدبيره إلا كفر والعياذ بالله تعالى.

---

(١) الحديث رواه الترمذي وصححه، عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - ٤/ ٥٦٠ رقم ٢٣٢٠. وصححه الألباني.
(٢) الكشاف ٤/ ١٩٧.

* بيان الحكمة في الغنى والفقر، والصحة والمرض والذكاء والغباء.
* الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر.
* حقارة الدنيا وهوانها على الله. وفي صحيح مسلم: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ».[(١)]

حال المعرض عن ذكر الله، وتسلية النبي ﷺ

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما بينت الآيات الكريمة السابقة زهادة الحياة الدنيا وهوانها على الله؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله، وأن الآخرة عند ربك للمتقين، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض، وهم عمي عن ذكر الله، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين.[(٢)]

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٣ وما بعدها. والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٢٧٢ برقم ٢٩٥٦. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٩.

التفسير الإجمالي

ومن يعرض ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن نهيئ ونيسّر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه.

وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى، ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهدايةٍ من أمرهم.

حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربطا بسلسلةٍ واحدة قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب أنت، لأنك كنت سبباً في شقائي بتزيينك الباطل لي. قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار. [1]

يقول صاحب الظلال: قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له السوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه. [2]

ولن ينفعكم – أيها الكافرون الجاحدون – اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه، لأن المصيبة إذا عمَّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٨ بتصرف يسير.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٩.

العذاب، لا يخفِّف عنهم البلاء.[1]

فأنت يا محمد لا تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمي، ومن كان في ضلالٍ واضح ؟ ليس لك ذلك، فلا يَضِقْ صدرك إن كفروا.

والآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ، فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان، ولا يزدادون إلاَّ تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً.[2]

وإن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك، أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فإنا قادرون عليهم، فهم في قبضتنا لا يفوتوننا.

قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر، وقال ابن كثير: المعنى لا بدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم.[3]

فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك، فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أُنزل بلغتهم وعلى رجلٍ منهم. وسوف تُسألون عن شكر هذه النعمة

قال ابن جزي: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك.[4]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٠.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٩.

وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وإن كنت يا محمد شاكاً في أمر الوحي فسلْ من سبقك من الرسل، هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله ؟ وهذا على سبيل الفرض، والآية كقوله تعالى:﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤].

قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى. (١)

وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم ؟ وهذا كما يسائل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً، وهذا كله من باب المجاز. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان سنة الله تعالى فيمن يعرض عن ذكر الله فإنه يسبب له شيطانا يصاحبه ويزين له طريق الغواية.
* الاشتراك في العذاب يوم القيامة لا يخففه.
* بيان أن من أعماه الله وأصمه لا هادي له ولا مسمع له ولا مبصر.
* صدق وعد الله تعالى لرسوله فإنه ما توفاه حتى أقر عينه بنصره على أعدائه.

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤٥.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٨ / ١٩.

* وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.

* شرف هذه الأمة بالقرآن فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها. (١)

العبرة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقير عديم المال والجاه؛ ذكر تعالى قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون، ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالا وجاها من موسى؛ فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان. (٢)

التفسير الإجمالي

يحكي الله تعالى هنا قصة نبيه موسى – عليه السلام – الذي أرسله إلى فرعون وقومه القبط، وأيده

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٦ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٩.

بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه. فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده. فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به.

قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ، وأنهم قادرون عليها. [١]

وما نريهم آية من آيات العذاب، كالطوفان، والجراد والقُمَّل إلا وهي في غاية القوة والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها.

قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإِعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها. [٢]

ولقد عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك. ولنؤمِنن بك إن كشف عنا العذاب.

وقولهم: { يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ } ليس على سبيل الانتقاص، وإِنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان عِلم زمانهِم، ولم يكن مذموماً، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقرونه. [٣]

فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٩٧.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥١.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦٠.

ونادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا قال مفتخراً متبجحاً: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة ملكاً لي ؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري ؟[1] أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته ؟

بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير، الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان - يعني بذلك موسى عليه السلام - ولا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة ؟

قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على نبي الله موسى، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه.

فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته !! [2] قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوّروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته، أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه، خدمةً له وشهادة بصدقة.

قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقاً فهلاَّ ملَّكه ربُه، وسوَّره، وجعل الملائكة أنصاره ! [3]

فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة. وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب؛ فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٥١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤٦.

(٣) البحر المحيط، ٨ / ٢٢.

قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه، وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به.

وجعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك. قال مجاهد: سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم. (١)

من هداية الآيات:

* قد يؤاخذ الله الأفراد أو الجماعات بالذنب المرة بعد المرة لعلهم يتوبون إليه.
* حرمة خلف الوعد ونكث العهد، وأنهما من آيات النفاق وعلاماته.
* ذم الفخر والمباهة إذ هما من صفات المتكبرين والظالمين.
* الاحتقار للفقراء والازدراء بهم من صفات الجبارين الظلمة المتكبرين.
* الفسق يجعل صاحبه مطية لكل ظالم أداة يسخره كما يشاء.
* التحذير من غضب الله تعالى فإنه متى غضب انتقم فبطش. (٢)

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٢.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

العبرة من قصة عيسى عليه السلام

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

سبب نزول قول الله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ... ﴾

عن ابن عباس- رضي الله عنهما - « أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله وفيه خير، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عُبد من دون الله ؟ فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ... ﴾ الآية». [1]

التفسير الإجمالي

ولمَّا ذُكر عيسى بن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركوا قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح.

قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ:﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: قد خصمتك وربِّ الكعبة ؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود

(١) أخرجه الحافظ الهيثمي في: مجمع الزوائد ٧/ ٢٣١. رقم الحديث ١١٣٣١. ؟ وقال: رواه أحمد والطبراني بنحوه وفيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره. وهو سيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح.

يعبدون عزيراً ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة !! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

و هذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب، ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل فقوله: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين؛ لأن الآية لا تتناولهم، لا لفظاً ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى: ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ؟[1]

قال ابن جزي: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى:﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة، فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون. [2]

ما عيسى إلا عبد كسائر عبيد الله، أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصارى. وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب. [3]

ولو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يسكنون في الأرض، يكونون خلفاً عنكم.

---

(١) صحيح السيرة النبوية للألباني ١ / ١٩٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٣٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٢.

وإن خروج عيسى علامة على قرب الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فلا تشكُّوا في أمر الساعة، فإنها آتية لا محالة. وفي الحديث: (يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً.. الحديث)(١).

وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم.

ولا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.(٢)

ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع، وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين.

قال ابن جزي: وإنما قال: ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا.(٣)

فاتقوا اللهَ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف.

إن الله جل وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة.

قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده. هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم.(٤)

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٠١ برقم ١١٣٢٩. ورواه الإمام أحمد بنحوه ٢/ ٣٩٤ برقم ١١٠. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٣٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥.

فاختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه. منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه - وهو الحقُّ -، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. [١]

فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلم وهو يوم القيامة.

هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا أن تبغتهم الساعة، وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم.

من هداية الآيات:

* ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.
* شرف عيسى وعلو مكانته وأن نزوله إلى الأرض علامة كبرى من علامات قرب الساعة.
* تقرير البعث والجزاء.
* حرمة اتباع الشيطان لأنه يُضل ولا يهدى.
* وعيد الله لليهود والنصارى الجاحدين بعذاب يوم أليم. [٢]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣١ وما بعدها بتصرف يسير.

نِعَمُ الله على عباده المؤمنين يوم القيامة

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما قال سبحانه:﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة، فأولُها قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[١]

التفسير الإجمالي

يذكر الله تعالى هنا طرفا من أحوال القيامة، فيبين أن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء، إلاَّ من كانت صداقته ومحبته لله. قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه.[٢]

ينادي الله المتقين - تكريماً لهم - يا عبادي، لا تخافوا اليوم عذاباً، ولا أنتم تحزنون، فقد أمنتم العذاب، وضمن الله لكم الثواب.

الذين صدَّقوا بآيات الله وأطاعوه، وكانوا له منقادين. يقال لهم يوم القيامة تشريفاً: ادخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم، تُسرُّون فيها سروراً عظيماً، يظهر أثره على وجوهكم.[٣]

ويُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب.

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٤٨٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

(٣) المنتخب ٢ / ٣٦١.

قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكؤوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ [الإنسان: ١٥]. وفي الحديث: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحفائها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة) [(١)].

وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة، وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً. وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيم زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال. [(٢)]

وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا. قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. [(٣)]

لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً.

قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرةٌ تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينةٌ بالثمار أبداً، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله. [(٤)]

---

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦٥. والحديث متفق عليه رواه البخاري ٥/ ٢٠٦٩، برقم ٥١١٠، ومسلم ٣/ ١٦٣٧ برقم ٢٠٦٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥/ ٤٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير٣/ ٢٩٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني٣/ ١٦٥.

من هداية الآيات:

* كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله ولله تعالى.
* بيان فضل التقوى وشرف المتقين.
* بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة.
* بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات.
* الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة بعد فضل الله، كما أن الشرك والمعاصي سبب في دخول النار وهذا عدل الله. [1]

حال الأشقياء الفجار يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار؛ للمقابلة بين الصورتين، والمقارنة بين الحالتين.

التفسير الإجمالي

إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً. قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣٤ بتصرف يسير.

لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة، وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير.

وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد. [١]

ونادى المجرمون - حين يئسوا من تخفيف العذاب الشديد - مالكاً خازن النار قائلين له: سل ربك أن يُميتنا لنستريح من أهوال جهنم. فقال لهم مالك: إنكم مقيمون فى العذاب دائماً، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره.

لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم. وفي هذا الخطاب من التوبيخ والتقريع ما فيه.

بل أأحكم مشركو مكة أمرهم على تكذيب الرسول والتآمر على قتله ؟ فإنا محكمون أمراً فى مجازاتهم وإظهارك عليهم. [٢]

بل أيحسب هؤلاء المشركون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بتدبير الكيد، وما يتكلمون به فيما بينهم من تكذيب الحق ؟ بلى نسمعها، والحفظة من الملائكة عندهم يكتبون ذلك. قال ابن جزي: السرُّ ما يحدث به الإِنسان نفسه أو غيره في خفية. والنجوى ما تكلموا به بينهم. [٣]

من هداية الآيات:

* بيان عقوبة الإجرام على النفس بالشرك والمعاصي.
* عذاب الآخرة لا يطاق ولا يُتصور، يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وماهم بميتين.
* أكبر عامل من عوامل كراهية الحق، حب الدنيا واتباع الهوى. [٤]

---

(١) المنتخب ٢/ ٣٦٢ بتصرف.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٦٢.

(٣) يراجع: التسهيل لعلوم التنزيل، ٤ / ٣٣، المنتخب ٢ / ٣٦٣.

(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣٥.

تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرض أنَّ لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ولكنه جل وعلا منزَّه عن الزوجة والولد، قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام.

وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح.(١)

تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السماواتِ والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيم، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه.

اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوه – وهو يوم القيامة – فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم. فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

إنه الله جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإِله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض. قال ابن جزي: أي هو الإِله لأهل الأرض وأهل السماء. (١)

وقال ابن كثير: أي هو إله من في السَّماء وإلهُ من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلُّهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، هو الحكيم في تدبير خلقه، العليمُ بمصالحهم. (٢)

تعالى وتعظم الذي له - وحده - كمال التصرف في السموات والأرض، وفيما بينهما من مخلوقات الجو المشاهدة وغيرها، وله تدبير الأمر فى ذلك، وعنده - وحده - علم وقت القيامة، وإليه - وحده - ترجعون في الآخرة للحساب.

ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه لا شفاعة إلا بإِذنه ولمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة. (٣)

وقيد - سبحانه - الشهادة بقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ للإِشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة، أما الشهادة بدون علم بالمشهود بها فإنها لا تكون كذلك. (٤)

ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم ؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون بأنه الخالق، ثم يعبدون غيره، ممن لا يقدر على شيء، فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول.

وهذا استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أي: ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره. (٥)

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٣٥.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٨.
(٣) المنتخب ٢ / ٣٦٣ وما بعدها.
(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.
(٥) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.

ثم حكى سبحانه ما تضرع به الرسول ﷺ إلى ربه فقال:﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾. والضمير يعود إلى الرسول ﷺ. وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء (وقيلَهُ) على أنه معطوف على قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ ﴾ ويكون مقول القول: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

والمعنى: أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾. إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان فقد كذبوا وخسروا، لأننا نعلم ذلك وغيره علماً تاماً.

ويصح أن يكون قوله تعالى ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ منصوبا بفعل محذوف والتقدير: ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون..

وقرأ عاصم وحمزة:﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ بكسر اللام والهاء، عطفا على الساعة أي: وعنده سبحانه علم الساعة، وعلم قول الرسول ﷺ يا رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون.

والتعبير بالنداء لفظ الرب، يشعر بالقرب، ويوحي بالإجابة، ويفيد كمال التضرع كما أن التعبير بقوله: ﴿ قَوۡمٞ ﴾ يشير إلى أن كفرهم كان كفراً جماعياً، لا كفراً فردياً.

وقوله تعالى:﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾إرشاد وتسلية من الله تعالى لنبيه. أي: فأعرض عنهم، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم، وقل لهم: أمري وشأني الآن مسالمتكم ومتاركتكم.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم. [1]

من هداية الآيات:

* جواز استعمال الفروض الجدلية للإقناع وإلزام الحجة
* الشفاعة ملك لله تعالى، وقد يأذن بشيء منها لأحد من كرام خلقه.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٩.

* بيان تضارب الكفار المعاندين في اعترافهم بالله سبحانه مع إشراكهم به.
* الإعراض عن الكافرين ومتاركتهم مرحلة من مراحل الدعوة. وقد تتحقق في أي زمان أو مكان.

وأخيراً.. فهذه سورة الزخرف، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزخرف

احتوت سورة الزخرف على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.
* وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإنسان.
* حرمة التقليد للآباء والسابقين في غير الحق.
* هوان الدنيا وحقارتها عند الله، وهي سجن المؤمن وجنة الكافر.
* وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.
* شرف هذه الأمة بالقرآن، فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها.
* ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.
* كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله سبحانه.
* أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا واتباع الهوى.

سورة الدخان

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى «سورة الدخان» وسميت بهذا الاسم في أكثر المصاحف وعند أكثر المفسرين والمحدثين لأن الله تعالى جعل الدخان آية لتخويف الكفار حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، فبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ. وقال بعضهم: أن اسم السورة: (حم الدخان)[١].

عدد آياتها:

قال الداني: آياتها تسع وخمسون في الكوفي، وسبع وخمسون في البصري، وست وخمسون في عدد الباقين[٢].

مناسبتها لما قبلها:

إن الله سبحانه ختم سورة الزخرف قبلها بالوعيد والتهديد ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٩] أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيد من الله لهم وتهديد، فناسب افتتاح هذه السورة بشيء من الإنذار الشديد[٣] ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[٣].

وقال البقاعي: قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت «سورة حم» السجدة، وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، وحصل من

---

(١) أسماء السور القرآنية: عبد الله الهنائي: ٢٣٥، رسالة ماجستير، وقال القرطبي: مكية باتفاق إلا قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ٨٣، صفوة التفاسير: الصابوني، سورة الدخان.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩؛ فتح القدير: الشوكاني: ٢/ ٩٨٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي: ١٨:٣، روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩.

مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله.... إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، افتتح الله تعالى سورة الدخان بما يكمل الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ثم ذكر من فضائلها فقال: (فيها يفرق كل أمر حكيم)(١).

سبب نزولها:

أخرج البخاري: عن مسروق: قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف (عليه السلام) فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة من الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان / ١٠] فأتى الرسول ﷺ فقيل يا رسول الله: استسق لمضر فإنها قد هلكت، قال: "لمضر؟ إنك لجريء". فاستسقى فسقوا فنزلت: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان / ١٦](٢).

أهدافها:

التوحيد، النبوة، الرسالة، البعث وهي نفس أهداف السور المكية بصفه عامة لترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الإيمان.

فضائلها:

ذكر المفسرون أحاديث كثيرة في فضل سورة الدخان، وغيرها من السور إلا أن أغلب هذه الأحاديث ضعفها العلماء، ومن هذه الأحاديث(٣) ما أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي

---

(١) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي، ١٨/ ٣.

(٢) **الصحيح المسند في أسباب النزول**: مقبل بن هادي الوادعي، ط١، دار القدس، صنعاء، ١٩١٣، ص ٢٠٦.

(٣) انظر: **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ٧/ ٢٣١، **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ٨/ ٨٣. وانظر: =

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك -قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحد رواة هذا الحديث عمر بن أبي خثعم ضعيف[1].

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له.

قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدام يضعف والحسن لم يسمع من أبي هريرة[2].

محور السورة:

محور السورة الذي يربط أجزاءها ومقاطعها هو حقيقة الإيمان، والحديث عن التوحيد والبعث، والرسالة، وهي أهداف السور المكية عامة في ترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

وقد قسمت السورة إلى ست مقاطع:

المقطع الأول: إعجاز القرآن ونزوله في ليلة مباركة.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن الكريم المعجزة الخالدة الباقية الذي مصدره الله القوي الغالب الذي لا يقهر رحمة بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور ووقت إنزاله في ليلة مباركة هي من أفضل الليالي «ليلة القدر» وبينت شرف هذه الليلة التي فيها تدبر وتفصل أمور الخلق، والتي اختارها الله تعالى، العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه.

= روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٧٠.

(١) سنن الترمذي: أبواب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل حم الدخان، رقم ٢٨٩٠. وانظر: **الإتقان في علوم القرآن**، ٢/ ١١٢٥. تحفة الأحوذي، **أبواب فضائل القرآن**: باب ما جاء في حم الدخان، رقم الحديث ٣٠٥٠، ٨/ ١٩٨.

(٢) تحفة الأحوذي، **أبواب فضائل القرآن**: رقم الحديث، ٣٠٥١، ٨/ ١٩٨، والترمذي: باب ما جاء في فضل حم الدخان: رقم (٢٨٨٩).

المقطع الثاني: موقف المشركين من القرآن.

بين الله تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم وأنهم في شك وارتياب من أمره فهددهم بالعذاب، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف ﷺ فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾ فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فسقوا فنزلت.

وفي رواية البخاري تتمة للرواية السابقة: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله: ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

المقطع الثالث: تذكيرهم بما حل بقوم فرعون المنكرين.

تذكير المشركين بقوم فرعون، ليعتبروا بما حل بهم من العذاب نتيجة طغيانهم وإجرامهم وعن الآثار التي تركوها - بعد أن أهلكهم الله - من قصور وحدائق ومساكن وأنهار وعن ميراث المؤمنين لهم من بني إسرائيل.

المقطع الرابع: إثبات البعث.

إنكار المشركين للبعث، وإثباته لهم وتذكيرهم بقوم تبع ومن قبلهم من المكذبين والطغاة الذين أهلكهم الله، وإن سنن الله لا تختلف في إهلاك الطغاة والمنكرين.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين.

تذكيرهم بأهوال يوم القيامة، وجزاء الكفار وترهيبهم مما يتعرض له العصاة والكفار في الآخرة.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون.

ترغيبهم بما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في يوم القيامة، وفي الآخرة.

المقطع الأول: إعجاز القرآن وإنزاله في ليلة مباركة.

قال تعالى:﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ ﴾.

التفسير الإجمالي:

إن تصدير السورة بهذين الحرفين ﴿ حمٓ ﴾ كسائر الحروف المقطعة في أوائل السور الأخرى بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، وعلى خطورة ما يلقى من أحكام وهذا قول ابن كثير، ذكره في أول سورة البقرة في تفسير، ﴿ الٓمٓ ﴾ وقال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته[1]. وهو قول أكثر المفسرين[2].

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان في أمور دينه ودنياه، الذي أنزله الله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، أو ابتداء نزوله فيها واستمر نزوله منجماً بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، ووصفت الليلة "بالبركة" لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[3] لينذر به الخلق، وليستضيئوا بنوره، ويسيروا على هداه، ويبتعدوا عن الكفر والعصيان الذي يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة ولتقوم الحجة عليهم، كما قال تعالى

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ١/ ٥٩؛ وهو قول أكثر المفسرين. انظر: مواهب الرحمن: المدرس: ٧/ ٩٠.

(٢) انظر: **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١٦، ١٢٦. **ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي: ١٨/ ٢.

(٣) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١٢٦. وانظر: **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**: للبرسوي: ٤/ ٢٦، **والكشاف**: للزمخشري: ٤/ ٢٧٤.

في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفي سورة القدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾[القدر: الآية ١]. وفي هذه الليلة المباركة يفصل الله تعالى ويبين كل أمر محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم من خير وشر وحياة وموت، وغير ذلك.

وهذا الأمر من رحمة الله بعباده ألا يتركهم دون تحذير من العقاب فأنزل القرآن وأرسل الرسل رعاية لمصالح العباد[1] وهو أعلم بما يصلح لهم ويصلحهم. فالربوبية تقتضي الرحمة والسماع لأقوال البشر وما يصلح له.

فالله السميع العليم الذي أنزل القرآن: هو رب السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ومالكهما إن كنتم من أهل الإيمان واليقين لا رب غيره، ولا معبود سواه لا إله إلا هو، يحيي ويميت، فهو المستحق للعبادة دون غيره وهو خالق المخاطبين، وخالق من سبقهم من الأمم الماضية.

ثم ذكر الشاكين اللاعبين الذين لا يميزون بين الحق والباطل فبعد إقرارهم بأن الله خالقهم، أنكروا البعث والتوحيد فهم لاعبون لا جدية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسلوك السليم.

دروس وعبر:

* أقسم الله بالقرآن الكريم المنزل على نبيه محمد ﷺ في ليلة مباركة، رحمة بعباده ليعبدوه فهو الواحد القهار، رب السماوات والأرض.
* بين الله طبيعة الكافرين، وأنهم لا يوفون بعهدهم مع الله رغم التهديدات المتكررة التي تقرعهم لينزجروا ويبتعدوا عن المعصية قبل حلول العذاب.

---

(١) **البحر المحيط**: أبو حيان، ٨/ ٣٣، و**صفوة التفاسير**: الصابوني، ١٤٧، تفسير سورة الدخان.

المقطع الثاني: تهديد المشركين بالعذاب

قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في المقطع الأول وصف المشركين، وأنهم في شك من التوحيد والبعث وقدرة الله، التفت في هذا المقطع إلى رسوله ﷺ لينتظر عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف واضح بين، وقد اختلف المفسرون بهذا الدخان إلى قولين:

الأول: أنه وقع فعلاً وذلك فيما روي عن ابن مسعود ﷺ[1]: «أن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ - دعا عليهم بسنين كسني يوسف ؑ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. قال تعالى:﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسقي الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى ﷺ لهم فاسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ قال ابن مسعود ﷺ أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟... فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.... قال: يعني يوم بدر.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به، وقد وافق جماعة من السلف ابن مسعود على هذا التفسير وأن الدخان قد مضى وهو اختيار ابن جرير وذكره صاحب **الظلال**، ٥/ ٣٢١٠، وذكره ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**: ٧/ ٢٢٣.

القول الثاني: إن الدخان لم يمض بعد، بل هو من أمارات الساعة كما ورد في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدخان، والدابة.... " وروى ابن جرير بسنده عن أبي مالك الاشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة... " وقال ابن كثير: إسناده جيد[١]. وأورد أحاديث أخرى تدل على أن الدخان من الآيات المنتظرة يوم القيامة. وقال الرازي: لما وصف الله البطشة الكبرى بأنها «كبرى» وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك يوم القيامة[٢]. وقيل وهي دخان: أي هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها[٣].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

* إن الله سبحانه بين لنبيه في هذا المقطع أن عذاب هؤلاء الكفار بعد أن دعى عليهم ﷺ بقوله: "اللهم اجعل سنيهم كسني يوسف، فارتفع المطر، أصيبوا بالمجاعة وأكلوا الجيف والكلاب وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان وفي الآخرة سيدخلهم النار، ومن علاماتها ظهور الدخان بسبب ضعف الطاقة الشمسية، يأخذ المؤمن منه كالزكام وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه.
* يبين الله في هذا المقطع أن الكافر يلجأ إلى الله خاصة في وقت الشدة فإذا فرج الله عنه الضر عاد إلى المعصية وهذا تحليل دقيق لطبيعتهم، وما تنطوي عليه نفوسهم.

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٨/ ٢٣٣. وانظر: **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي: ٢/ ١٢٧٤.
(٢) **مفاتيح الغيب**: الرازي: ١٤/ ٢٤٥.
(٣) **عمدة الحفاظ**: السمين الحلبي: ١٧٤.

المقطع الثالث: تذكيرهم بقوم فرعون

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله تعالى في المقطع السابق إصرار المشركين على كفرهم وتكذيبهم محمد ﷺ وذكرهم في هذا المقطع أن كثيراً من المتقدمين كانوا مثلهم كذبوا رسله، وفي مقدمة هؤلاء قوم فرعون الذين كذبوا موسى عليه السلام إذ أرسله إليهم رسولاً كريماً، ليحرر بني إسرائيل من عذاب فرعون وملئه، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب، وكانوا عباداً مخلصين لله، ظلموا بغير حق، وأيده الله بالمعجزات والآيات البينات. فطلب من فرعون وملئه قائلاً لهم: ﴿ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾المؤمنين من بني إسرائيل، أي أرسلوهم معي وأطلقوا سراحهم من العذاب والظلم والاستعباد ليعبدوا ربهم إني لكم رسول أمين على ما أرسلني به ربي، أدعوكم للإيمان به وعبادته، وقبول دعوتي: ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ ولا تتكبروا عن اتباع ما أتيتكم به من البراهين والحجج التي لا تستطيعون إنكارها قال ابن كثير: «(وأن لا تعلو على الله...) أي لا تستكبروا عمن اتبع آياته، والانقياد بحججه والإيمان ببراهينه... ﴿ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة»[1]. فهددوه بالرجم، فالتجأ إلى الله قائلاً: ﴿ وَإِنِّي

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨.

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فإن لم تصدقوا بما أتيتكم به من عند الله، فاتركوني ولا تؤذوني. فأصروا على كفرهم وعنادهم وهموا بقتله فدعا عليهم موسى عليه السلام أن ينزل عليهم العذاب، وقال: هؤلاء قوم مكذبون مجرمون فاستجاب له ربه إنهم جند مغرقون. وأمره أن يخرج بعباده من بني إسرائيل ليلاً وسراً، وأن يضرب طريقاً في البحر يمرون فيه، وأخبره أن فرعون سيتبعه من نفس الطريق، فلا يضربه بعصاه حتى يمر فرعون ومن معه، فأنجى الله قوم موسى، وأغرق فرعون وملئه. وتركوا ما متعوا به في الحياة الدنيا وأورثه الله للمؤمنين من بني إسرائيل بعد أن كانوا مستعبدين. وكذلك نفعل بكل من عصانا. ولا نكترث به ولا نحزن عليه، ولا يحزن عليه أحد في السماء والأرض، وما كانوا ممهلين عن العقوبة.

ولقد امتن الله تعالى على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من عذاب فرعون، الذي ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم، إنه كان متعالياً وعنيداً، ومتكبراً متجبراً، مسرفاً في كفره بالله، وارتكابه للمعاصي وادعائه الألوهية والربوبية. قال القرطبي: ﴿ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي جباراً من المشركين وليس هذا علو مدح بل هو في الإسراف... وقيل: هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله»[1].

وقد اختار الله تعالى اصطفاء بني إسرائيل على العالمين في زمانهم لاستحقاقهم لذلك ولجهادهم في سبيل الله، ولاتباعهم لموسى الذي أعطاه الله المعجزات والآيات وخوارق العادات، وأنجاهم من الغرق، وأنزل عليهم المن والسلوى مناً عليهم وحجة عليهم على ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام، قال الرازي: (وآتيناهم من البينات: مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ أي نعمة ظاهرة لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق من الزنديق»[2]، فلما بدلوا الإيمان بالكفر، والصلاح بالفساد لعنهم وطردهم من رحمته.

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ٩٣..

(٢) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٤٩، وانظر: **صفوة التفاسير**، سورة الدخان، ص ١٥٢.

دروس وعبر:

* تذكير المشركين بقوم فرعون قبلهم كيف كذبوا موسى بعد أن دعاهم إلى عبادة الله واغتروا بما عندهم من جاه ومال وسلطان فأهلكهم الله، وهكذا يفعل بهم إن هم أصروا على تكذيب نبيهم محمد ﷺ، فقد أهلك من هم أشد منهم قوة وأكثر مالاً وأعز سلطاناً.
* إن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين، والهلاك للطاغين العصاة، إذ لا يمكن التساوي بينهم.

المقطع الرابع: إنكار المشركين البعث

قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما تحدثت الآيات في المقطع الثالث عن قصة فرعون وملئه مع موسى ليتعظ المشركون من كفار قريش الذين أصروا على الكفر، ولم يؤمنوا، بين في هذا المقطع إنكار المشركين للبعث والنشور صراحة وأنهم يقولون: إذا متنا فلا حياة بعد الموت ولا بعث وتحدوا الرسول ﷺ والمؤمنين - محتجين بآبائهم الأولين، الذين ذهبوا فلم يرجعوا- أن يأتوا بهم إن كان البعث حقاً كما يقولون.

قال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت[1].

وقال الرازي: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٤٤.

يوم القيامة[١].

وطلبهم هذا باطل لأن البعث والنشور لا يكون في الدنيا وإنما يكون يوم القيامة. وقد توعدهم الله وأنذرهم عقوبته التي لا ترد، فإن كانوا يظنون أنهم أقوياء وأشداء، فقد أهلكنا من هم أشد قوة وبأساً منهم، وأكثر أموالاً، وأعظم نعيماً وهم أهل سبأ ملوك اليمن، أهلكنا من سبقهم من الأمم الظالمة، كعاد ونحوهم، ودمرناهم بسبب كفرهم مع ما كانوا عليه من القوة والمنعة، وإهلاك هؤلاء أولى، وعلل سبب إهلاكهم بسبب إجرامهم وتكذيبهم، وهذا وعيد وتهديد لقريش فهم ليسوا بخير من قوم تبع[٢]. ثم ذكر الله سبحانه الدليل القاطع على البعث والقيامة فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾، قال الرازي: ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبادي لعباً وعبثاً[٣]، والله تعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق والعدل ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وتنزيه الله عن اللهو والعبث»[٤].

دروس وعبر:

* إصرار الكفار على إنكار البعث والقيامة وتكذيب الرسول ﷺ، وهم في ذلك كقوم فرعون، سيهلكهم الله كما أهلك قوم فرعون.
* الرد على حججهم الواهية التي يتذرعون بها في إنكارهم البعث يوم القيامة فإن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً وإنما لإظهار الحق وتوحيد الله والتزام طاعته.
* إن الله سبحانه خلق السماوات والأرض في دقة متناهية في كل شيء، وله قصد في تعميمه، ودعا سبحانه الخلق إلى التدبر في هذا الكون العجيب الدقيق فلا شيء فيه إلا وله غاية. وكذلك الإنسان، فالحكمة تقتضي أن يكون يوم القيامة هو يوم الفصل في أمر الخلائق.

---

(١) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/ ٢٤٩.
(٢) روح المعاني: الآلوسي، ١٤/ ١٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/ ٢٥١.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني، سورة الدخان، ١٥٢.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن أثبت الله تعالى في المقطع السابق الأدلة على البعث والقيامة ذكر في هذا المقطع ما يصيب الكافر من أهوال يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق فلا ينفع فيه أحدٌ أحدا إلا من رحم الله من المؤمنين الذين يؤذن لهم، قال ابن كثير: «لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: «إلاّ من رحم الله» أي لا ينفع يومئذ إلا من رحمة الله عز وجل»[1].

ثم ذكر وعيد الكفار وما أعد لهم من طعام من شجرة خلقها الله في جهنم طعامها يغلي في بطون الكافرين كالنحاس المذاب، ويقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوا هذا الأثيم وجروه إلى وسط النار بقوة، ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة الذي يصهر ما في بطنه وجلده ويقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزز المكرم. وهذا العذاب الذي كنتم تشكون فيه حيث كنتم في الدنيا[2].

والأثيم هو أبو جهل الذي كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، إنما الثريد بالزبد والتمر، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخرية واستهزاء بكلام الله[3].

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٧/ ٢٤٥.

(٢) **التفسير المنير**، الزحيلي: ٢٥/ ٢٣٨.

(٣) **السابق**: ٢٥/ ٢٣٤.

دروس وعبر:

* إن يوم القيامة هو يوم الحساب الذي فيه يكون كل فرد مسؤول عن نفسه، وفيه يحاسب الله الخلائق على ما قدموا لأنفسهم، فيتميز المؤمن من الكافر، والمحسن من المسيء: ففريق إلى الجنة، وفريق إلى النار.

* ثم يبين الله الإهانة والذل الذي سيصيب الكفار الفجار وأن طعامهم من شجرة الزقوم التي لا تحترق في النار، والتي يأكل منها الآثمون الفجار الذين يشكون ويستهزئون بالمؤمنين فإذا أكلوا منها تغلي في بطونهم وتستعر وهذا غاية في التهديد والوعيد.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله في المقطع السابق حال الكفار الأشقياء وما أعده لهم من عذاب، وأنهم أهل النار ثم أتبعه في هذا المقطع بحال المؤمنين الأبرار وما أعده لهم من النعيم، وأنهم أهل الجنة. وهم الأتقياء الذين اتقوا ربهم فامتثلوا أوامره واجتنبوا ما نهى عنه، هؤلاء لهم يوم القيامة مساكن آمنة من كل المنغصات والمكاره في جنات وبساتين ناضرة وعيون جارية لباسهم الحرير الرقيق وهو: السندس، والحرير السميك وهو: الإستبرق، يقابل بعضهم بعضاً ليأنس بعضهم ببعض على سرر متقابلين وكذلك يزوجهم ربهم بالحور العين، قال البيضاوي: أي قرناهم بالحور

العين، والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العينين، ووصف تعالى نعيمهم بذلك؛ لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه من الغم، ثم ذكر الحور الحسان؛ لأنهم بها اكتمال سعادة الإنسان[1]. ويطلبون في الجنة ما شاءوا من الفواكه والثمار، فهم آمنون من الأمراض والأوجاع، ومن التعب والموت، فلا يموتون في الآخرة، بعد موتة الدنيا التي انتهت بدخولهم الجنة، وحماهم الله من دخول النار وكل هذه النعم فضلاً من الله وإحساناً وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز.

وفي ختام هذا المقطع جمع الله كل مقاطع السورة، وربط بين المقطع الأول: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ ذكر أن كل هذا ذكرناه وأنزلناه سهلاً واضحاً بيناً بلسانك العربي ولسان قومك؛ كي يتذكروا ويتعظوا ويعملوا بما فيه، وينزجروا عن المعاصي. قال البرسوي: «أي سهلناه بلغتك وبلسانك[2] الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه وتيسر معناه، (لعلهم يتذكرون)، ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه».

ومع هذا البيان وهذا الوضوح كفر بعض قومك وعاند وكذب، فانتظر يا محمد ما وعدناك به من النصر عليهم، وما سيحل بهم، إن استمروا على الكفر والتكذيب، فإنهم منتظرون هلاكك وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، ووعد بالنصر والظفر عليهم ووعيد الكافرين.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع حث للمؤمنين وللناس أجمعين على اتباع القرآن الكريم وما جاء به، وبين لهم الثواب الذي سينالونه إن اتبعوا ما أنزل، فذكر لهم النعم التي سينالونها بمسكنهم في الجنة، التي فيها من النعم الحسية والمعنوية ما ترنوا إليه نفوس البشر، من مسكن وملبس ومقابلة في المجالس ليأنسوا ببعضهم، وبالمأكل والمشرب، والأزواج المطهرة، هذه النعم

---

(١) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: البيضاوي: سورة الدخان.

(٢) **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**: للبرسوي: ٤/ ٣٩، وانظر: **الكشاف**: للزمخشري: ٤/ ٢٨٦..

التي يفيضها الله عليهم، نعم مستمرة دائمة لا تؤخذ منهم كما هو الحال في الدنيا. كل ذلك تفضلاً منه سبحانه وتعالى وتلك هي السعادة الحقيقية.

* وفي ختام هذا المقطع توجيه إلى جميع البشر في كل زمان ومكان أن لا نجاة للبشرية إلا باتباع القرآن الكريم الذي أنزله الله بلغة العرب بلسان النبي ﷺ ليتعظوا ويؤمنوا وهي لغة سهلة على كل من يقرأ القرآن ولو من غير العرب، وفيها كذلك تهديد للمخالفين المكذبين بالهلاك والدمار والعذاب، وأن النصر للمؤمنين.

الخاتمة:

إن السورة ربطت بين مقصد الإعجاز والتحدي ونزول القرآن في ليلة مباركة وبين أمر الوحدانية والبعث والنشور وتفنيد مزاعم المشركين والرد عليها، فهي توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ، وإصرارهم على الكفر وعدم إيمانهم. وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة، فأنذرهم الله تعالى في هذه السورة وحذرهم رحمة بهم، ليعرفوا ربهم رب السماوات والأرض وما بينهما. فيسارعوا إلى الإيمان قبل أن يأتي العذاب الشديد الذي سيكون في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، حذرهم من العذاب الشديد الذي سينالونه إن لم يؤمنوا في يوم مخيف، يوم تأتي السماء بدخان لا ينكشف، وفي ذلك اليوم سوف يحاسبون على كفرهم وعنادهم.

كما ذكرهم في هذه السورة انتقامه من فرعون الذي علا وتكبر مع قومه، فلم يتبعوا موسى الذي دعاهم لعبادة الله ولم يسمعوا له فكانوا من المغرقين، وتركوا ما كان لديهم من جنان وعيون وزروع ومقام كريم.

كما ذكرهم بقوم ﴿تُبَّعٍ﴾ ومصرعهم، وما هم بخير منهم إن لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وختم الله السورة بمشهد العذاب الذي سيصيب الكافرين وأن طعامهم من شجرة الزقوم، ويصب من فوق رؤوسهم الحميم جزاء بما كانوا يكذبون.

وفي مقابل هذا مشهد النعيم الذي أعده الله للمؤمنين «وهكذا تطوف السورة في عوالم شتى بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وسنن الخلق ونواميس الوجود»[1] لكي يقفوا على حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ وبينه القرآن الذي أنزله الله بلغتهم لعلهم يتذكرون.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥/ ٣٢٠٧.

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون[1]

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى «سورة الجاثية» عند أكثر العلماء، وذلك لأن الخلائق كلها تجثوا يوم القيامة على الركب للأهوال التي يلقونها، فزعاً في انتظار الحساب. وأخذاً من الآية المذكورة فيها:﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[٢٨]. والأظهر أن اسمها التوقيفي هو (حم الجاثية، كما ورد في الدر المنثور عن ابن عباس فيما أنزل بمكة، وما ذكر أنه أنزل بمكة[2]، وعنون الحاكم في مستدركه[3] اسم السورة (حم الجاثية).

وللسورة اسمان توفيقيان: هما: (سورة الشريعة) و(سورة الدهر)، لذكرهما فيها، وقد نسب القول الأول إلى عبد الله بن الزبير بل إلى أهل الحرمين عموماً، وذكر الاسم الثاني الآلوسي وابن عاشور[4] وقال: وسميت به لأنها انفردت بذكر الدهر دون سائر الـ (حم) الأخرى، ولكن هذا الاسم مدعاة للاشتباه مع ما ورد من اسم توقيفي باللفظ نفسه لسورة[5] ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان:١].

---

(١) **مفاتيح الغيب**: الرازي: ١٤/ ٢٥٧؛ وذكر الآلوسي أن آياتها سبع وثلاثون في الكوفي، وذكر الباقون أنها ست وثلاثون وسبب اختلافهم في (حم) هل هي آية مستقلة أو لا؛ **روح المعاني**: **الآلوسي**، ١٤/ ٢٢١. وانظر: **الكشاف**: ٤/ ٢٨٨.

(٢) **الدر المنثور**: السيوطي: ٧/ ٤٢٢.

(٣) **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم النيسابوري: ٢/ ٤٩٠.

(٤) **روح المعاني**: الآلوسي: ١٤/ ٢١١؛ **التحرير والتنوير**: لابن عاشور، ٢٥/ ٣٢٣.

(٥) **السور القرآنية**: عبد الله الهنائي، ١٧١.

مناسبتها لما قبلها:

اختتمت سورة الدخان قبلها بأن الله تعالى أنزل القرآن عربياً بلسان النبي ﷺ ولسان قومه، فناسب ابتداء هذه السورة بأن نزول القرآن الكريم من الله تعالى للحث على اتباعه والإيمان به والسورتان تتشابهان في مطلعهما (حم) وفي الغايات الكبرى للقرآن الكريم: وهي اثبات وحدانية الله، وترسيخ عقيدة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله والإيمان بنبوة محمد ﷺ والإيمان باليوم الآخر، والبعث والجزاء[1].

محور السورة:

هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة[2]. وهي:

١- خلق السماوات والأرض.

٢- خلق الناس.

٣- خلق الدواب.

٤- اختلاف الليل والنهار.

٥- إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

٦- تصريف الرياح.

مقاصد السورة:

١- ترسيخ الإيمان بالبعث والحساب من خلال مشاهد يوم القيامة.

٢- دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلاقيه من عناد قومه، والمصابرة على الدعوة إلى الإسلام

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، ١٨/ ٥٩، وانظر: التفسير المنير: الزحيلي، ٢٥/ ٢٤٦.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٣٢٩.

من خلال ما يعرض عليه من سير الأنبياء السابقين وأممهم.

٣- التحدي والإعجاز من خلال الحروف المقطعة، ومعالجة قضايا العقيدة والإيمان من خلال عرض ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد واستكبار.

المقطع الأول: مصدر القرآن الكريم وإثبات وحدانية الله

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

افتتحت السورة كما افتتحت سابقتها (سورة الدخان) ببيان مصدر القرآن الكريم، وأنه من عند الله العزيز الحكيم. وكما في سائر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منزل من عند الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. قال ابن الجوزي: إن الغاية من هذه الحروف أن ينبه «بذلك على إعجازه فكأنه قال: هذه الحروف التي تؤلفون منه كلامكم فما بالكم تعجزون عن معارضته، فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد عليه الصلاة والسلام»[1]. وفي هذا يقول سيد قطب في تفسير: «﴿ حمٓ ﴾... من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف، وهم لا يقدرون على شيء منه»[2].

ثم أخبر الله تعالى عن دلائل وحدانيته وقدرته، في السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما تنطويان عليه من فنون الآيات الكونية البديعة، والنجوم الزاهرة، واختلاف

(١) **زاد المسير**: ابن الجوزي: ١/ ٢١.

(٢) **في ظلال القرآن**: سيد قطب، ٥/ ٣٢٢.

الليل والنهار، والشمس والقمر، وما في الأرض من جبال وبحار وأنهار، هذه الآيات وهذه المشاهد التي يشاهدها الناس كل يوم من تعاقب الليل والنهار واختلافهما طولاً وقصراً، بنظام محكم دقيق وما أنزل من السماء من مطر به حياة البشر وهو سبب الرزق قال ابن كثير: سمي المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق[١]، فبالمطر تحيا الأرض بعد أن تكون هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع وحياتها بإخراج أنواع الزروع والنبات والثمر، وكذلك في تقليب الرياح من حالة البرد الشديد إلى الحر الشديد، ومن الشمال إلى الجنوب، وتسيرها للسفن في عرض البحار، كل ذلك علامات باهرة، وبراهين ساطعة على وجود الله سبحانه المدبر لها، وهي دلائل لأصحاب العقول النيرة، وحجج وبراهين تدل على وحدانية الله، وحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله ففي كل شيء له آية، تدل على أنه الواحد المتفرد في ملكه، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه البراهين الدالة على توحيد الله وعظمته وجلاله وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى[٢]. فبأي شيء يؤمنون ويصدقون! هذه الآيات وحدها كفيلة إلى توجيههم للإيمان، والقرآن وجه قلوبهم إليها، ففي الكون وفي النفس علامات واضحة على وجود الله تعالى ووحدانيته، لقوم يعقلون والغرض استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وبراهينه[٣].

وقال القرطبي: هذه حجج الله وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته لا باطل فيها ولا كذب فبأي حديث بعد حديث الله وآياته يؤمنون[٤].

دروس وعبر من المقطع الأول:

* القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ المعجزة الكبرى الذي به تحدى العرب أن يأتوا بمثله فهو مؤلف من نفس الحروف التي يتكلمون بها وقد ابتدأت السورة بـ﴿ حمٓ ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: سورة الجاثية: ٧/ ٢٤٥ النسخة المحققة.

(٢) الكشاف: للزمخشري: ٤/ ٢٨٩. وانظر: أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٣٢٩.

(٣) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ١٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٤، وانظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٠.

وهذه إشارة أو رمز إلى تحدي العرب، من ناحية أن هذا القرآن المعجز مصوغ من مثل حروفهم وهم لا يقدرون على شيء منه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

* دعا المشركين إلى التأمل في كل ما حولهم في السماوات والأرض وما يشاهدونه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وما حولهم من الأفلاك والعناصر، واختصاص كل عنصر بصفة معينة، وحركة خاصة، ومهمة ثابتة، دعاهم إلى التأمل في هذه الحقائق المشاهدة في آيات الكون، وفي أنفسهم، فكل ذلك لا بد أن يكون له صانع مدبر حكيم، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه الآيات فبماذا يؤمنون؟ هذه الدلائل الموحية التي يمكن أن يصل الإنسان بعقله إلى معرفة صانعها وخالقها، ووجههم القرآن إليها لكي لا يكون للإنسان حجة بعد كل هذا الوضوح من بيان القرآن وإعجازه.

المقطع الثاني: جزاء المكذبين بآيات الله

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ساق لهم في المقطع الأول الأدلة والبراهين على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فلم يؤمنوا، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، واستعظم تكذيبهم للقرآن، جاءهم في هذا المقطع بوعيد عظيم، وتهديد شديد فيه هلاك ودمار لكل من يسمع آيات الله تقرأ عليه، وهي في دلائلها ووضوحها ظاهرة بينة، ثم يستمر على كفره، ويتمادى في

غيه وضلاله وكفره، مستكبراً عن آيات ربه كأن لم يسمعها، بالعذاب الشديد الذي سيلحقه، قال الرازي: «وهذا وعيد عظيم، والأفاك الكذاب، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام»[(١)]. وسماه بشارة تهكماً به، لأن البشارة هي للخبر السار[(٢)]، والآية وإن نزلت في (النضر بن الحارث) الذي كان يشغل الناس بأحاديث الأعاجم عن استماع القرآن، وكان إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ، استهزأ بها وسخر منها. إلا أن الحكم عام في كل من يتصف بهذه الصفة، أولئك المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة في الدنيا، وجهنم تنتظرهم يوم القيامة، ولا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من مال وولد أو جاه، ولا ما اتخذوا من دون الله من أصنام يطمعون أن تشفع لهم، وتدفع الضرر عنهم[(٣)].

وقد أكد الله سبحانه في نهاية المقطع على وصف القرآن بهدى الله الذي يجب اتباعه فهو الحق والصواب والموجه إلى سعادة الدنيا والآخرة، والذين كفروا بآيات القرآن الكريم وجحدوا بها لهم أشد العذاب يوم القيامة.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع وعيد شديد، وتهديد واضح في أول المقطع وآخره، لكل من استكبر عن اتباع الحق بعد ظهوره ووضوحه وتمادى في جحوده وكفره متعالياً عن اتباع القرآن والانقياد لطاعة الله تعالى، متحدياً قدرة الله، ومستهزئاً بآياته.

* تأكيد على أن القرآن الكريم هدى الله سبحانه فكل من لم يتدبر آياته ولم يتبع دلائله على وحدانية الله وقدرته، ويكفر بها، ويحيد عنها وعن منهج وعقيدة الإسلام، ويتخذ من دون الله أولياء فهؤلاء الكفرة والمعاندون لهم عقاب صارم شديد في الدنيا ومن ورائهم جهنم في الآخرة ولن تغني عنهم أولياؤهم في الدنيا شيئا.

---

(١) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٣٦١.

(٢) **صفوة التفاسير**: الصابوني: ١٥٧.

(٣) **التسهيل لعلوم التنزيل**، ٤/ ٣٨، **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٦٢.

المقطع الثالث: التذكير بنعم الله على عباده

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

بعد التهديد والوعيد الشديد في المقطع السابق لكل من استكبر عن آيات القرآن والحث على اتباع ما جاء به، ذكّر الله عباده في هذا المقطع بالنعم الجليلة الدالة على قدرته وحكمته ليشكروه ويوحدوه، فهو الذي ذلل البحر لكم لتسير السفن على سطحه بإرادته ومشيئته لمنافعكم دون أن تغوص في الماء في أعماق البحر، ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة والمكاسب الأخرى التي تستخرج من البحر بصيد اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك، ونقل التجارة بالسفن، كل ذلك من فعله وخلقه، وتمام نعمته على عباده[1]. قال الرازي: خلق وجه الماء على الملامسة التي تجري عليها الفلك، وخلق الخشبه على وجه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه وذلك لا يقدر عليه واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله[2].

وكذلك خلق لكم كل ما في هذا الكون في السماوات والأرض من كواكب وجبال وبحار وأنهار، ونبات وأشجار، كل ذلك من فضله وإحسانه لتستدلوا على وحدانيته وقدرته، فهي دلائل واضحة وعبر وعظات لمن يتأمل في بدائع خلق الله.

ثم أتبع ذلك بتعليم فضائل الأخلاق ومحاسن الأفعال فطلب من النبي ﷺ أن يأمر المؤمنين بالصفح عن الكافرين، وأن يتجاوزوا عما يصدر منهم من الأذى، والأفعال الموحشة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٥.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٣. وانظر: روح المعاني: الآلوسي، ١٤/ ٢٢١.

والأقوال البذيئة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا بلقاء الله تعالى. قال ابن كثير: أمر الله المسلمين أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفاً لهم، وبعد أن أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجهاد[1] ليجازي الكفرة المجرمين بما ارتكبوه، واقترفوه من الإثم والإجرام والتنكير والتحقير، فعلى المؤمنين الصبر وتحمل الأذى ليكون ذلك سبباً لجزائهم فيجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فالكل راجع إلى الله يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية خيراً على الخير وشراً على الشر[2]. وهذا تهديد ووعيد لهم وهو كقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾[المزمل: ١١- ١٢] وكقوله تعالى:﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المعارج: ٤٢] فالأعمال لا تذهب سدى فمن عمل صالحاً انتفع به يوم القيامة، ومن عمل سوءاً فسيناله عقاب من الله شديد، فلا يغتر الكافر بالنعم التي نالها في الدنيا، فإنها وإن ساءت ما يناله المؤمن أو زادت عليها في الدنيا، فإن الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيرى الكافرون ما أعد الله لهم من عذاب أليم.

دروس وعبر:

* يذكر الله في هذا المقطع الإنسان بالنعم التي أنعمها عليه من تسخير البحر وجريان السفن فيه، واستخدامه في التجارة والمنافع من اصطياد السمك واستخراج اللؤلؤ والمرجان وتسخير ما في السماوات والأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب هي من أسرار الحياة، وجبال وسهول وأنهار وزروع وغير ذلك مما ينتفع به الإنسان، كل ذلك ليوجه قلبه بهذه الدلائل الواضحة إلى عبادة الله وتوحيده. فهو المنفرد بهذه النعم، وليفكر ويتدبر في خالق هذه النعم، وأسرار هذا الوجود.
* يدعو الله الإنسان للتحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة، وهي العفو والصفح عن المسيء

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٥١.

(٢) روح المعاني، الآلوسي: ١٤/ ٢٢٦، وانظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: المدرس، ٧/ ١٠٤.

من المشركين والمنافقين واليهود، ليكون ذلك سبباً في زيادة درجاتهم يوم القيامة، فالعمل الصالح ينفع صاحبه، والعمل السيء يضر بصاحبه فالجميع راجع إليه يوم القيامة. وفي هذا ترغيب منه سبحانه للعمل الصالح، والابتعاد عن العمل السيء.

المقطع الرابع: نعمه الخاصة ببني إسرائيل وإنزال الشرائع

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العامة في المقطع السابق على جميع الناس أتبعه في هذا المقطع بالنعم الخاصة على بني إسرائيل، وهذه النعم هي: إنزال التوراة التي فيها هدى ونور، وإرسال الرسل موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، وأعطاهم الفهم والفقه لفصل القضاء والخصومات بين الناس، ورزقهم من أنواع النعم من المآكل والمشارب والثمار، قال القرطبي: وهي الحلال من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام وقيل المن والسلوى في التيه[١]. وفضلهم على سائر الناس في زمانهم. وذلك قبل ظهور أمة محمد ﷺ أما بعد ظهورها فقد صرح القرآن الكريم بأنها خير الأمم، في قوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، قال الشنقيطي: «وهذا واضح لأن ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به أحوال سابقة»[٢].

ومع كل هذه النعم، وهذه الحجج والبراهين وبعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الحقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٧.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي: ٧/ ٣٥٢.

اختلفوا في أمر الدين، وبغى بعضهم على بعض عناداً وحسداً وحباً للرئاسة، والله سيفصل بينهم بحكمه يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وبذلك انتهت قيادتهم، وبطل استخلافهم. وجعلت الخلافة لأمة محمد ﷺ وشريعة الإسلام، وبهذا أمر النبي ﷺ بأن يتمسك بالحق وإظهار الصدق وأن لا يكون له غرض سوى اتباع الشريعة التي أنزلها الله تعالى بالدلائل والبراهين، ولا يتبع أهواء المشركين الذين قالوا له وهو بمكة: اتبع ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك، فلو ملت إلى ما يريدون من اتباع أديانهم الباطلة، صرت مستحقاً للعذاب مثلهم، وهم لا يستطيعون دفع العذاب عنك، والظالمون لا مولى لهم، بل يتولى بعضهم بعضاً، وأما المتقون فمولاهم الله وناصرهم الله.

قال الرازي: والمقصود التعجب من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وهنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود طلب الرئاسة. وفي هذا زجر للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية[1] الظالمة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بأن هؤلاء أصروا على الكفر بعد أن منّ الله عليهم فلم يشكروا، فكذلك قومك.

ثم ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ إلى ما في القرآن الكريم من دلائل واضحة، وهدى ونور ورحمة لمن اتبعه بإيمان. قال الألوسي: «كان ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب»[2].

دروس وعبر:

* أن القرآن الكريم يذكر النبي ﷺ في هذا المقطع والمؤمنين بأن القيادة كانت لبني إسرائيل، مكنهم الله في الأرض ورزقهم من الطيبات وبعث فيهم الأنبياء، فلما فقدوا الإيمان

---

(١) روح المعاني: الألوسي، ١٤/ ٢٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٦.

واختلفوا وتحاسدوا، وتنازعوا وظلموا وفشلوا انتهت قيادتهم، وكذلك قومك فقد اختارهم الله لقيادة الإنسانية وأمرهم بالطاعة، وشرع لهم شريعة مرتبطة به، فإن حادوا عنها وتحاسدوا، وتقاتلوا، وتباغضوا سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب.

* لا يجوز أن يتبع المؤمنون أهواء المضلين والظالمين ويجب عليهم أن ينتبهوا ويحذروا منهم، فهؤلاء الظلمة المضلين في كل زمان ومكان يريدون من المؤمنين أن يتبعوا ضلالاتهم ويبتعدوا عن بصائر الله التي بصر بها عباده ليعبدوه، ويعملوا بها أمرهم في شريعة الإسلام[1].

المقطع الخامس: عدل الله في الحكم على المحسنين والمسيئين

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق أن الجزاء يوم القيامة منوط بالعمل وأن هناك فرقاً بين الظالمين والمتقين، وبيّن هنا أن من اقترف السيئات والمعاصي في الدنيا، وكفر بالله وعبد غيره وأشرك به لا يسوّي بينه وبين المؤمنين، وابتدأ المقطع بالاستفهام الإنكاري على المشركين والكفار الذين يظنون أن الله يساوي بينهم وبين المؤمنين في الجزاء والثواب والرحمة، في المحيا والممات! ومنازل السعادات، وسبب ذلك أن ثلاثة من المشركين قالوا لثلاثة من المؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما إنا

---

(١) روح المعاني: الألوسي، ١٤/ ٣٥٢.

أفضل منكم حالاً في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام[١]، فالمؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً. قال الرازي: كل يموت حسب ما عاش عليه[٢]. فساء ما ظنوا بعدل الله من المساواة بين الأبرار والفجار. فالله عادل وقد أتبع ذلك بالدلالة على عدله في خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، ليجزي كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات، فمن أقبل على الدنيا وترك الإيمان، وعبد الهوى، يميل إلى طبعه ونفسه، وكأنه اتخذ إلهه هواه، وهو يعلم الحق، وهذا كما في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾فالأرواح البشرية إما أن تكون نورانية أو ظلمانية تميل إلى الشهوات، فكل واحد ينال ما يليق بجوهره. قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، وأضله الله وهو عالم بالحق غير جاهل به، فهو أقبح ممن يضل على جهل، وذلك لأنه يعرف الحق والهدى وينحرف عناداً، كما قال تعالى في آية أخرى:﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ ﴾[النمل:١٤] فطبع على سمعه وقلبه فلا يفكر في الوعيد والآيات، ولا يتأثر بالمواعظ فهو كالأعمى لا يبصر الرشد، ولا يرى الحق والنور الساطع الذي جاء به القرآن الكريم. فلا أحد يستطيع هدايته بعد أن أضله الله فاعتبروا أيها المؤمنون واتعظوا.

دروس وعبر:

إن الله سبحانه في هذا المقطع من السورة يبين مكانة المؤمنين عند الله يوم القيامة، واستنكار التسوية بين المحسنين والمسيئين سواء في الحياة أو في الممات كما يظن أهل الكتاب الذين ارتكبوا المنكرات، فالحق الذي تقوم عليه العدالة في شريعة الله عدم التسوية والتفرقة بين المسيئين والمحسنين، وحكمه عليهم يوم القيامة في مجازاة كل نفس بما كسبت وهذه قاعدة ثابتة من أصول الدين تتكرر في القرآن الكريم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

---

(١) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٧.

(٢) السابق، ١٤/ ٢٦٨.

المقطع السادس: الرد على الدهريين

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

في هذا المقطع يحكي الله سبحانه وتعالى قول الدهريين من الكفار ومن وافقهم من المشركين في إنكارهم ليوم القيامة(١) وقولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، فلا حياة إلا هذه الحياة: نحيا ويموت بعضنا، ونموت ويحيا بعضنا(٢)، وقولهم هذا مبني على التوهم والتخيل ليس له دليل عقلي أو نقلي، والمشركون يقولون أن ولادة الأشخاص بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق(٣). وقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل لما أصابهم، فسبوه كدهر وإنما فاعلها الله تعالى، فكأنهم سبوا الله عز وجل(٤). وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر"(٥).

هؤلاء إذا قرأت عليهم آيات القرآن الواضحة في الدلالة على يوم البعث والنشور، طلبوا إحياء آبائهم الأولين! فقل لهم: الله خلقكم ابتداء حين كنتم نطفاً، وهو الذي يميتكم عند إنتهاء آجالكم، ثم يبعثكم بعد الموت للحساب والجزاء، كما أحياكم في الدنيا، ويوم القيامة لا شك فيه

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ٧/ ٢٥٣.
(٢) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١١١.
(٣) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٧١.
(٤) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٧/ ٢٥٤.
(٥) صحيح البخاري، تفسير سورة الجاثية: ٦/ ١٦٦، وكتاب التوحيد، ٩/ ١٧٥. **مسند الإمام أحمد**: ٥/ ٢٦٩.

ولا ارتياب، ولكنهم لا يعلمون الحق لجهلهم، ولقصور نظرهم: فالقادر على الخلق والإيجاد ابتداء، وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء يوم القيامة، فهو سبحانه وتعالى مالك جميع الكائنات في السموات والأرض، والخسران المبين لمن ينكر يوم القيامة.

دروس وعبر:

في هذا المقطع إثبات للقدرة الإلهية على الحياة والموت، فهو المهيمن على كل ما في الوجود، وهو القادر على الإنشاء والإعادة، فقد رد على الدهريين الذين ينكرون الإعادة، ولا ينظرون ما حولهم ولذلك طالبوا أن يأتي الله بآبائهم، لكي يقتنعوا بقدرته سبحانه على إحياء الموتى، إنهم لو نظروا وتدبروا لوجدوا أن هذا الذي طلبوه يقع أمام أعينهم فالله يحيي ويميت، ولذلك هو قادر على جمع من أحياهم وأماتهم يوم القيامة، أما قبل هذا الموعد فلا، هكذا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى.

المقطع السابع: من مشاهد يوم القيامة

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي هذا المقطع في ختام هذه السورة يعرض الله مشهداً من مشاهد يوم القيامة الذي ينكره الدهريون، ولا يصدقون به، بل يستهزئون ويشكون فيه، يصورهم في ذلك اليوم وكأنه

واقع يرونه رأي العين[١]، وتجثوا الأمم كلها على ركبها من شدة الهول والفزع، قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه[٢]. في انتظار الحساب أمام الواحد القهار، فيقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا. ويجدون كل شيء مكتوباً أمامهم فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من غير زيادة ولا نقصان. وقال السمان الحلبي: وترى كل أمة جاثية أي باركة على ركبها[٣].

هذه الجموع الهائلة في هذا المشهد منذ أن خلق الله الخلق تنقسم إلى فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

فأما الفريق الأول: الذين آمنوا وأطاعوا الله فحالهم يسير، يرون ما أعد الله لهم من ثواب ورحمة وهي دخولهم الجنة مكان تنزل رحمة الله تعالى على عباده المؤمنين، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وأما الفريق الثاني: وهم الكافرون المستكبرون الذين استكبروا عن عبادة الله، ولم يتبعوا الرسل، فيوبخهم ويقرعهم، ويقول لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم. فتكبرتم عن الإيمان، وأنكرتم لقاء يومكم هذا وقد قيل لكم: إن وعد الله حق وهو يوم القيامة، وإن الساعة لا شك فيها، فكذبتهم وكنتم مغرقين في غيكم وضلالكم، غير مصدقين ولا مستيقنين من حدوثها، وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها وأباطيلها ونسيتم لقاء يومكم هذا، فها هو قد ظهر لكم وأحاط بكم، كما أحاط بكم العذاب الذي كنتم تنكرون، وتستهزئون به، فاليوم ننساكم في النار كما نسيتم لقاء يومكم هذا، ونترككم تعذبون، وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب النار، بسبب كفركم، واستهزائكم بكلام الله في الدنيا، وعدم اتباعكم الرسل وإنكاركم للبعث والنشور، فجزاؤكم النار لا تخرجون منها، ولا يطلب منكم الطاعة لعدم نفعها في

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥/ ٣٢٣١.
(٢) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٥.
(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ٨٩.

الآخرة، وتوصد أبواب النار من خلفكم وينطلق أخيراً صوت الحمد لله رب العالمين، فلا يستحق الحمد سواه فهو المدبر للسماوات والأرض وهو رب العالمين، له العظمة والعزة والكبرياء، وهو الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في صنعه وتدبيره[1].

دروس وعبر:

* في هذا المقطع مشهد من المشاهد التي ستقع يوم القيامة يصورها الله تبارك وتعالى كما ستكون أمام المنكرين لها، وأمام المؤمنين بها ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليتنبه الكافرون ويراجعوا أنفسهم قبل وقوعها، فيسارعوا إلى الإيمان. مشهد لهذا اليوم الذي يشكون فيه ولا دليل عندهم، فقد أرسل الله للناس الرسل ليرشدوهم إلى طريق الحق وعبادة الله، فقد خلقهم الله في هذه الحياة ليبتليهم ويعطيهم فرصة للعمل، ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي جعل الله له وقتاً معلوماً، فيحاسبوا على ما عملوا، وتظهر نتيجة هذا الابتلاء، ولكنهم أنكروا هذا البعث وهذا الحساب، وأنكروا وجود الله استكباراً وعلواً فيقول لهم ويذكرهم ويقرعهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين. وفي هذا حث للإنسان في هذه الحياة أن يسارع إلى طاعة الله واتباع أوامره قبل فوات الفرصة.

* لا يستحق الحمد إلا الله تعالى فهو المتفضل على عباده بكل أنواع النعم فهو خالقهم ومالكهم ومالك الكون كله سمائه وأرضه المتفرد بالعظمة والجلال لا إله إلا هو له الكبرياء والعزة والحكمة المدبرة وهو العزيز الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: ٥/ ٣٢٣٤، وانظر: صفوة التفاسير/ سورة الجاثية: الصابوني: ١٦٢.

الخاتمة:

هذه السورة كسابقتها «سورة الدخان» توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ وكيف وقفوا معاندين بوجه الدعوة الإسلامية، واتباعهم لأهوائهم وإصرارهم على الضلال مكابرين، منكرين للبعث والنشور صامين آذانهم عن استماع القرآن الحق المنزل على النبي ﷺ وهم يحسبون أنهم متساوون مع المؤمنين. وهذا شأن الكافرين الذين كانوا قبلهم وهو شأن المنكرين إلى يوم الدين.

وهذه السورة أوضحت عدل الله تعالى وبينت لهم سوء حساباتهم، وبينت لهم الفرق بينهم وبين المؤمنين في الآخرة وصورت لهم كل الأمم في ذلك اليوم العظيم، وهي جاثية على ركبها تدعى إلى كتابها الذي ينطق بالحق الذي كان يعمله كل فرد، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، صورت لهم وقوع الآخرة لتستيقظ قلوبهم من غفوتها وليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، ويومئذ يخسر المنكرون للقرآن الذي تحدى قريش والعرب جميعاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، الذي فيه تكون الأمم جاثية على ركبها، وهذا تهديد لمن لم يؤمن بعد كل هذه الأدلة لقريش ولمن يأتي بعدهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن التي حروفه من حروف كلامهم إن كانوا قادرين.

وأما المؤمنون فيدخلون في رحمة الله وجنته تذكرهم السورة بأنه من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها إن السورة كلها موضوع واحد من أولها إلى آخرها تعالج قضية الإيمان بالله وباليوم الآخر تبدأ بالقرآن الكريم المعجز وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وتنتهي بحمد الله رب العالمين له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وفي سياق السورة عرض للمقاطع التي فصلناها في التفسير توضح المبادئ، وتخاطب العقول والقلوب لتتطلع إلى حقائق القرآن الكريم، وإلى حقائق الكون، فهي تعالج قضايا العقيدة والإيمان من خلال ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد لترسيخ أمور الآخرة والبعث من خلال حجج عقلية، وتدعو المسلمين للتمسك بشرع الله الحق فلا مساومة في أمور الشريعة تدعوهم إلى الصبر والمصابرة كما صبر النبي ﷺ.

سورة الأحقاف

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

لأحقاف. والأحقاف (جمع حقف) وهو الجبل من الرمل [1].

ب- فضائل السورة:

مرّ في أول سورة المؤمن (غافر) فضل الحواميم.

ج- السورة مكية.

قال القرطبي: في قول جميعهم [2]. وذهب البعض إلى أن السورة مكية إلا آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية. وقوله سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية [3].

د- عدد آياتها:

ثلاثون وخمس آيات في الكوفي، وأربع في عدد الباقين. والاختلاف في﴿ حمٓ ﴾؛ عدّها الكوفي، ولم يعدها الباقون [4].

هـ- محور السورة:

إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة: وهي التوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء. وهذا مقصود القرآن كله [5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٧٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٥/ ٩١).

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٤٨٠).

(٥) قال فخر الدين الرازي - رحمه الله -: "ومن تأمل هذا البيان علم أن المقصود من كل القرآن تقرير =

و- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تهديد أهل الكفر بإهلاكهم، لشركهم وتكذيبهم كما أهلك الله سبحانه قوم هود. فقد دلّت تسميتها بالأحقاف، بما دلت عليه قصة قوم هود عليه السلام، من التوحيد، وإنذارهم بالعذاب دنيا وأخرى، ومن إهلاكهم، وعدم إغناء ما عبدوه عنهم، ودفنهم تحت أحقافهم، بما تحقق من إعراضهم وخلافهم [١].

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، عقبها مباشرة الأدلة من خلق الكون على التوحيد والحشر. وختمت بالتأكيد على قدرة الله على البعث، وتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر، وعدم الاستعجال لهم بالعذاب، فإنه آتيهم لا محالة﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه اتصال سورة الأحقاف بخاتمة الجاثية أنه تعالى لما ختم الجاثية بذكر التوحيد وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح الأحقاف بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد [٣].

= التوحيد، والنبوة، والمعاد. وأمّا القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول". مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٣٠).

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٧، ٩)، وانظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي (٢٦/ ٦-٧).

(٣) تفسير روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٤).

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

إن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، ونستطيع أن نقول: إن مضمون سورة الأحقاف هو نفس مضمون السورة التي قبلها - سورة الجاثية - فقد تناولت موضوع العقيدة: التوحيد، والرسالة (القرآن من عند الله)، ثم البعث والمسؤولية في الآخرة [١].

المقطع الأول: القرآن حق من عند الله يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٣)، وروح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٤).

التفسير الإجمالي:

تقدم الكلام عن الأحرف المقطعة في أوائل السور. وقد افتتحت السورة بالحديث عن القرآن: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، والانتقال من الأحرف العربية المقطعة في أول السورة إلى الكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف، على غير مثال من كلام البشر شهادة بأن تنزيل هذا القرآن من الله ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾. العزيز: المنيع الذي لا ينال ولا يغالب، والحكيم: في أقواله وأفعاله. يقال: أحكم الشيء ؛ إذا أتقنه ومنعه من الخروج عمّا يزيد، فهو محكم، وحكيم على التكثير [1]. فالقرآن منزل من عند الله، ليس بكذب عليه.

وإيثار وصفي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى، لإشعار وصف ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ بأن ما نزل منه مناسب لعزته، فهو كتاب عزيز، كما وصفه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١].

أي هو غالب لمعانديه ؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته ؛ ولإشعار وصف ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة ؛ ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته ؛ إذا غلبت بلاغته بلاغة بلغائهم. ومن جانب معانيه ؛ إذْ أعجزت حكمته حكمة الحكماء. وقد تقدم مثل هذا في طالعة سورة الزمر، وقريب منه في طالعة سورة غافر [2]، ونفس المطلع في سورة الجاثية.

ولمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده وكتاب هذا الكون الذي نراه، والذي سخره الله لهذا الإنسان، والتي نلمسها في أوائل السورة السابقة:﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ٩].

نرى في هذه السورة ذكر كتاب الله المفتوح في هذا الكون ودلالته على الحق:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٨٨)، (٢/ ١٣١).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٢٢٥-٢٢٦).

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي للزوال والفناء، أو للحساب والجزاء، بالنسبة لمن سخرت لهم السماوات والأرض،﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني القيامة [١]، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾[النجم: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الحجر: ٨٥].

ومع أن القرآن المنزل، وخلق السماوات والأرض يدل كل منهما على وحدانية الله وتفرده بالخلق والإيجاد، وتفرده بالألوهية، فله الطاعة التامة وحده، وله العبادة الخالصة وحده ؛ مع هذا الخلق كله الذي يدلّ على الحكمة والتقرير والتدبير، فإن الذين كفروا لاهون عمّا يراد بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ [٢].

فالكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد، وأنه ربّ كل شيء ومالكه وسيده، بما أنه خالق كل شيء ومدبّر كل شيء، ومقدر كل شيء. وكتاب الكون الحي ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدّر المدبر، الذي يصنع على علم، ويبدع على معرفة، وطابع الصنعة واحد في كل ما يصنع ويبدع، فأنّى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟! وماذا صنع هؤلاء الآلهة، وماذا أوجدوا ؟ وهذا هو الكون قائماً معروضاً على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه، وأيّ قسم من أقسامه أنشؤوا ؟ [٣]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٥٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٣).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٠).

وهذا تلقين من الله لرسوله ﷺ للاستدلال على نفي صفة الإلهية عن أصنامهم ومعبوداتهم كلها، بمسالك الأدلة بأسرها:

فأولها المعقول ؛ وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [١]. وهذا الدليل العقلي دليل تعجيز لهم ؛ فلن يملك إنسان أن يزعم أنّ تلك المعبودات من دون الله – سواء كانت حجراً أم شجراً أم جناً أم إنساً أم ملائكة أم غيرها – قد خلقت من الأرض شيئاً. ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها [٢]. فالفطرة لا تملك إلا أن تقر بالربوبية والألوهية والسيادة لله سبحانه.

وما تضمنته هذه الآية من أن من لم يخلق شيئاً ولم يكن له شرك في السماوات لا يصح أن يكون معبوداً بحال، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله:﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]. وقوله:﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة [٣].

والاستدلال الثاني ؛ دلالة السمع، حيث قال تعالى:﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فاستدعي منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة غير الله، أو بقية من علم مستيقن ثابت، تروونها عن أهل العلم السابقين، غير مسطورة في الكتب. والأثارة: البقية القديمة [٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٢-١٨٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي (٧/ ٢١٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢).

وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر، وتدعو إلى التحرر من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، وعبادته وحده سبحانه، فهي جميعاً كتب تحرير، وهدفها الأساس التوحيد (التحرير). وليس فيها من كتاب يقر الآلهة المتعددة، أو يقول بأن لها في الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً، وليس هناك من علم ثابت يؤيد مثل هذا الزعم المتهافت [١].

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدّعاة، منددا بضلالهم في اتخاذها، وهي لا تستجيب لهم، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا، ثم هي تخاصمهم يوم القيامة، وتنكر دعواهم في عبادتها [٢].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾.

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ؛ إمَّا لذاتها، وإما باعتبارها رموزاً ممثلة للمعبود خلفها من الملائكة أو الجن أو الصالحين أو غير ذلك. وبعضهم يعبد الأشجار، أو الفراعنة والمتألهين من شياطين الإنس والجن، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان آلهة، وكل هذا واقع من المشركين قديماً وحديثاً. ومن يزور في هذا العصر غرب جبل سنجار - بين سورية والعراق - فسيرى عباد الشيطان يرمزون له بالطاووس، ويرى من يزور الهند عباد الأصنام وعباد البقر.

وكل هذه المعبودات من دون الله لا تستجيب لعابدها أصلاً، أو لا تستجيب لهم استجابة نافعة ؛ فلا تقدم لهم خيراً ولا تدفع عنهم ضراً ؛ فلا أحد أضلّ وأجهل ممّن يدعوها ويعبدها من دون الله، وهي كلها بأنواعها غافلة عن دعاء عابديها، لا المعبودات من الجماد والحيوان فقط بل المعبودات من شياطين الإنس والجن غافلة أيضاً في الدنيا عن عابديها، مشغولة بتحقيق أهدافها

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١١).

في التسلط على عابديها، لا بتحقيق مصالح عابديها، وإن ادعت ذلك. ولذلك جاءت الكنايات والضمائر في هذه الآية عن المعبودات كما تجيء عمّن يعقل، كما وصفها بالغفلة لتغليب العقلاء أو لأن عابديها يعاملونها في العبادة معاملة من يعقل [١].

هذا حالهم في الدنيا، وإذا حشر الناس للجزاء والحساب يوم القيامة كان المعبودين أعداءً لعابديهم ؛ فالملائكة أعداء للكفار، والجن وشياطينهم وشياطين الإنس يتبرؤون غداً من عَبَدتهم، ويلعن بعضهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنام أعداء للكفار الذين عبدوها، على تقدير خلق الحياة لها، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١-٨٢] [٢].

ثم يمضي السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق، بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك (العبودية لغير الخالق)، ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ليس غريباً أن ينكر عُبّادُ غير الله الحقَّ الذي أوحاه الله إلى رسوله ؛ لأنهم إذا أقروا به وأنه حق من عند الله لزمهم اتباعه وطاعة الله فيما أنزل ؛ لهذا نرى كثيراً من الكفار يقرون بأن الله هو الخالق، وهو رب السماوات والأرض ومن فيها، ثم ينكرون الوحي ويكذبون الرسل ؛ ليتركوا طاعة الله فيما أنزل، ويستمروا في طاعة ساداتهم وكبرائهم في معصية الله.

من أجل ذلك يأتي الحديث عن النبوة والوحي في أكثر السور، مكيّها ومدنيها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢-٩٣).

ونحن نرى هنا أن الله تعالى لما قرر الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى عدله بخلق السماوات والأرض بالحق وإلى أجل مسمّى، هو يوم القيامة، بنى على ذلك التفاريع الثلاثة:

الفرع الأول: الردّ على عبدة الأصنام، وعبدة غير الله على الإطلاق فقال:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾الآية.

والفرع الثاني: إثبات نبوة محمد ﷺ على الإنس والجن، وتفنيد ادعاءاتهم في إنكار الوحي وتكذيب الرسول ﷺ. وهو هذه الآية وما بعدها.

والفرع الثالث والأخير الذي يتم ويتحقق به العمل الجاد بأمر الله والتحرر عن العبودية لغيره هو: إثبات البعث والحساب والجزاء، وإقامة الدليل على قدرة الله على إعادة الخلق. ويأتي ذلك في آخر السورة.

وتقرير هذه الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، هو المقصود من كل القرآن [١].

يبدأ الحديث هنا عن قضية الوحي بترذيل مقولتهم عنه، واستنكار استقبالهم له، ويظهر عناد المشركين وتعنتهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن، فيها الدلائل واضحات على أنها الحق من عند الله سبحانه، قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين [٢]، أي سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا. وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وولده، وبينه وبين زوجه، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الأخس [٣].

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل.

ثم يرتقي في إنكار مقولتهم الأخرى (افتراء)، فلا يسوقها في صيغة الخبر، بل في صيغة

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٤، ٢٩-٣٠).

(٢) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/ ٢٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

الاستفهام، كأنّ هذا القول لا يمكن أن يقال، وبعيد أن يقال [١]:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ التقدير: أيقولون افتراه، أي تقوّله محمد، وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضيّ منه العجب. وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويَفْتَرِيَهُ على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له، والحكيم سبحانه لا يصدق الكاذب، فلا يكون محمد ﷺ مفترياً [٢].

ويأمر الله رسوله أن يرد بأدب النبوة وقوة الدليل:

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

يأمر الله سبحانه رسوله أن يقول ثلاثة أقوال في الرد عليهم رداً مفصلاً، ومن ثم تتكرر كلمة ﴿ قُلْ ﴾ ثلاث مرات في معرض الجواب:

الجواب الأول: هذه الآية، حيث أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بجواب يقلع مقالتهم من جذورها، وجعل الافتراء مقروناً بحرف (﴿ إِنِ ﴾ الذي من شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله. والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها. فقوله: ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ دليل على الجواب المقدر في الكلام بطريق الالتزام.

ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله:﴿ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أن الله لا يقر أحداً على أن يُبَلِّغ إلى الناس شيئاً لم يأمره بتبليغه، وقد دلّ القرآن على هذا في قوله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٤).

تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. ولعلّ حكمته في ذلك أن التقول على الله يفضي إلى فساد عظيم يختلّ به نظام الخلق، والله يغار على مخلوقاته، فلا يُمكنّ أحداً من الافتراء عليه، وادعاء أنه مرسل وهو كاذب، إذْ لابد أن يظهر كذبه للناس واضحاً جلياً، ويدمره الله في الدنيا قبل الآخرة [١]. ولا يقال: إن كثيرين تنتشر دعواهم الضالة وهم غير مستقيمين ؛ فالكلام عمّن يدعي أنه رسول الله، والدعوات الضالة قد تنتشر فترة من الزمن، ثم يدفع الله الباطل ويزيله بالحق الذي ينزله مؤيَّداً بالأدلة والمعجزات.

وبعد نقض حجتهم يترك النبي ﷺ أمرهم إلى الله بأسلوب فيه تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد. ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [٢]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه. وقيل: المعنى تخوضون فيه من التكذيب، وهو سبحانه يجزيكم بما يعلمه من أمركم [٣]. قال النسفي: «ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم» [٤]. ثم ختم الآية بالترغيب لهم بالتوبة والإنابة:﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين [٥].

والجواب الثاني:﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

البِدْع: - بكسر الباء وسكون الدال - معناه البديع، ومنه الخِلّ بمعنى الخليل، ومن أسمائه سبحانه: «البديع»، أي خالق الأشياء ومخترعها. قال ابن عباس وغيره: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١٤-١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٤-١٨٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

(٤) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (٤/ ١٤٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

ٱلرُّسُلِ ﴾، ما أنا بأول من أرسل، قد كان قبلي رسل [(١)]. فالمعنى: لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم [(٢)].

ومن ثم أتم الله الحجة آمراً رسوله أن يقول: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾، أي وما أعلم ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان، أي في الدنيا. عن الحسن البصري في هذه الآية قال: «أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا؛ أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي، أو أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم؛ أمتي المكذبة، أم أمتي المصدقة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً، أم مخسوف بها خسفاً» [(٣)].

وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير الطبري، وأنه لا يجوز غيره. ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة للآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة، هو ومن اتبعه. وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم [(٤)]. ومما يدل على أن المراد نفي علمه ﷺ في الدنيا معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[الأعراف: ١٨٨]. ولذلك كان قوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ استئنافاً بيانياً، وإتماماً لما في قولـه: ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾، بأن قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعْلمه الله به [(٥)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٢٦/ ٧-٨).

(٤) المرجع السابق (٢٦/ ٨)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٥)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٦).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١٧).

﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، أي مبين النذارة، لا مفترٍ، فأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل [(١)]. وقد أقام الله عليهم الحجة، وأيّد رسوله بالمعجزات الدالة على صدقه.

والآن يأتي الجواب الثالث على زعمهم أن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وجواب الشرط ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ هو: ألستم ظالمين، أو فقد ظلمتم. دل عليه قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [(٢)]. والمعنى: ما ظنكم أيها المشركون الكافرون بالقرآن أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله الله عليّ لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾، أي قد شهد بصدقه وصحة الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي؛ فقد بشرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به [(٣)]، من التوحيد والوعد والوعيد، وغير ذلك، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣] [(٤)].

وقد روى الطبري عن الحسن «بلفظ بلغني»، وعن عوف بن مالك الأشجعي، وعن غيرهما أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام ﷺ. وروي عن مسروق قال: «والله ما نزلت في عبد

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٥).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٩)، وروح المعاني، الألوسي (٢٦/ ١٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٤/ ٣٠٣).

الله بن سلام، ما نزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد بها قومه، قال: فنزلت:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم وكفرتم». وروى الطبري مثل ذلك عن الشعبي.

ورجح الإمام الطبري قول مسروق ؛ لأنه أشبه بظاهر التنزيل، فقوله سبحانه:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي مكة، واحتجاجاً عليهم لنبيّه، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، ولا انصرف الكلام عن أخبار المشركين إلى غيرهم [1]. ولا ترقى الروايات عن الحسن وغيره لدفع ظاهر النص القرآني وسياقه.

أمّا رواية البخاري عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحيّ يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلاّ لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ الآية» [2]. فهذه الرواية، وإن كانت لا يشك في صحتها فإنها ليست نصاً في السببية، وكل ما تفيده أن عبد الله بن سلام داخل في مضمونها، شاهد على صدق القرآن.

ثم يمضي السياق في استعراض أقوال المشركين في اعتذارهم عن تكذيب الحق. هذه الأقوال التي يظهر منها إعجابهم بأنفسهم، وتعاليهم واستكبارهم، وذلك بمناسبة ما جاء في الآية السابقة ﴿ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، حيث يقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ

---

(١) جامع البيان، الطبري (٢٦/ ٩، ١١-١٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٨١٢).

هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

قال قادة الكفر والشرك عن الذين آمنوا بالقرآن ؛ لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشياعهم وأضرابهم، من المستضعفين والعبيد والإماء [(١)].

والأمر ليس كذلك ؛ فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكّون فيه، أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه، والخير الذي يحتويه، إنما هو الكبر عن الإذعان لمحمد، وللحق الذي أنزل على محمد ﷺ.

إن الهوى وحب التسلط على الآخرين يجعل أهل الكبر لا يذعنون للحق، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا يسلمون للحجة. فهذا الذي يملي عليهم العناد والإعراض، واختلاق المعاذير الباطلة ؛ ويخشون - إن آمنوا - فقدان المراكز الاجتماعية، والمنافع الاقتصادية.

فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت تلك الكبراء والأشراف من الإيمان بالحق [(٢)].

ثم جاوز المكذبون نفي الخيرية عن القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾. إنهم استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن، فقالوا: ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وقالوا: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾، وقالوا: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾، وبقي أن يقولوا: ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

والإفك: الكذب، ووصفوه بالقدم بمعنى أنه في أمور متقادمة، ويحتمل أن يريدوا إفك قيل قديماً [(٣)]، كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٥).

وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «الكبر بَطَر الحقِّ وغَمْط الناس»(١).

ثم أتبع إبطال مزاعمهم الفاسدة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى وهو التوراة، باعتبار أن كتاب عيسى عليهما السلام تكملة وامتداد له، وأصل العقيدة والتشريع في التوراة، ومن ثم سمّى كتاب موسى إماماً، ووصفه بالرحمة، وفي كل كتاب أنزل من السماء رحمة لأهل الأرض، وتحرير حقيقي لهم عن العبودية لغير الخالق المالك:

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي قوله:﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد ﷺ بأن الوحي سنة إلهية سابقة معلومة، أشهره كتاب موسى، أي التوراة، وقد بلغهم نبوءته من اليهود(٢). فكتاب موسى قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، وهو رحمة لمن آمن به وعمل بما فيه من قوم موسى، وفيه البشارة ببعثة محمد ﷺ وصفات دعوته، وهذا القرآن كتاب مصدق لما بين يديه من الكتب. مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها، وللاتجاه الأصيل الذي توجه إليه البشرية، لتتصل بربها الكريم(٣)، وتتحرر عن العبودية للعبيد.

والتصديق يشعر بأن هذا القرآن حاكم على ما اختلف فيه من الكتب السابقة، وما حُرِّف فهمه أو نصه بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾[المائدة: ٤٨].

وزاده ثناءً بكونه﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾، وهذا امتنان على العرب، وتذكير لهم بنعمة الله عليهم

---

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) في حديث أوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...» الحديث.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٢٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٧).

ورعايته لهم، وأدمج لفظ ﴿ لِّسَانًا ﴾ للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه، لا عربية أخلاقه وتعاليمه؛ لأن أخلاق العرب يومئذ مختلطة من محاسن ومساوئ، فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوئ، ولذا قال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

وقوله سبحانه: ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾الظالمون هم المشركون، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذه الآية كقوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢]. فالقرآن مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين[2]، المطيعين لخالقهم المتحررين عن الخضوع والتبعيّة لسواه.

وتأتي الآيتان الأخيرتان في هذا المقطع لبيان وتوضيح حقيقة المحسنين، وما أعد الله لهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مرّ نظير هاتين الآيتين في سورة فصلت (٣٠-٣١). غير أن الخطاب هناك بواسطة الملائكة، وهنا لا واسطة.

وروي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية: غيرك - قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[3].

وروي عن أبي بكر الصديق ﷺ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾: لم يشركوا بالله شيئاً. وروي عن عمر ﷺ

---

(١) موطأ مالك في كتاب الجامع: باب ما جاء في حسن الخلق بإسناد منقطع عن مالك بن أنس، ومسند أحمد (٢/ ٣٨١). قال ابن الأثير: «ورواه أحمد والحاكم وغيرهما برجال الصحيح عن أبي هريرة وغيره». جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري (٤/ ٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٨).

أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾، فقال: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يَرغوا روغان الثعالب. وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي ﷺ: ثم أدّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعنى هذه الأقوال. فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداوموا على ذلك [1].

قال صاحب الظلال عند هذه الآية: وقوله﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير ؛ إنما هي منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزاناً للتفكير والشعور، وللناس والأشياء، وللأعمال والأحداث وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فله العبادة، وإليه الاتجاه. ومنه الخشية، وعليه الاعتماد.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فكل نشاط وكل تفكير، وكل تقدير متّجه إليه، منظور فيه إلى رضاه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فلا احتكام إلا إليه، ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا، ونحن نلتقي به في صلتنا بالله.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾منهج كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾. وهذه أخرى ؛ فالاستقامة والاطراد والثبات على المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج. استقامة النفس، وطمأنينة القلب. استقامة المشاعر والخوالج، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات، وهي عنيفة ومتنوعة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٣٥٨).

وكثيرة. واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار. وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك!

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾. منهج. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره. والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة. وهؤلاء ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[(1)]؛ فلا خوف عليهم فيما يستقبلون، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الجنة وسبوغها عليهم، حيث يبدو واضحاً ارتباط الجزاء بالاعتقاد والعمل[(2)]. فالعمل بلا اعتقاد غير مقبول؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له، والاعتقاد الذي لا ينتج عنه عمل هو اعتقاد ادعائيّ كاذب.

وينتهي المقطع الأول من السورة بعد أن قرر محور السورة بأركانه الثلاثة. فقرر الوحي وإنزال القرآن من عند الله، ثم قرر أن خلق الكون وإنزال الوحي له هدف هو الحق؛ أي بإحقاق الحق الذي هو الحساب والجزاء يوم البعث والنشور.

وأنكر ما كان عليه القوم من الشرك، وندّد بضلال مَنْ يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له؛ فقرر التوحيد وندّد بالشرك والعبودية لغير الخالق.

وبما أن للمشركين مزاعم لدفع الحق وتكذيب الوحي، من أجل أن يتركوا طاعة الله ويستمروا على شركهم، فقد جاء الرد الحاسم على مزاعمهم الباطلة؛ حيث وصموا القرآن بأنه سحر، وأنه مفترى، ولو كان خيراً ما سبقهم إلى الإيمان به الضعفاء والفقراء. وانتهى المقطع ببيان جزاء المؤمنين المستقيمين على أمر الله اعتقاداً وقولاً وعملاً.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٧-١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).

المقطع الثاني: الفطرة في استقامتها وفي انحرافها

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

وجه الاتصال بما سبق أن هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه، فإن ذلك من أصول كفرهم بمحلّ القصد.

وصيغ هذا في أسلوب قصة مناجاة ولد مؤمن شبّ على الإيمان بربه وخالقه بعد معرفة حقوق والديه، وجدال بين والدين مؤمنين وولد كافر ؛ لأن لذلك الأسلوب وقعاً في أنفس السامعين [١].

فيبين هذا المقطع أن شكر الله وعبادته وحده، والتحرر عن العبودية لسواه هو مسلك الفطرة السليمة. والجحود وإنكار الحق هو انحراف عن الفطرة السليمة.

وتبدأ الآيات بالنموذج الأول الذي يوضح مسلك الفطرة السليمة: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٢٨).

تتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول ﷺ الوصية بالإحسان إلى الوالدين. وجاءت في هذه السورة بعد الحديث عن التوحيد وإخلاص العبادة لله والاستقامة على طاعته، كما تأتي الوصية مقرونة بتوحيد الله والتحرر من العبودية لسواه في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

إنها وصية صادرة من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته وهي وصية الإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرط ومن كل قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أي صفة أخرى. وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً، فما يُعرف في عالم الطير أو الحيوان أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ فقط هو تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارُها صغارَها.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى الموت - فضلاً على الألم - بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران! ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ إنها صورة التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين [1].

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ فقاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان، وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته [2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧).

ويتقدم علم الأجنة، فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة مؤثرة:

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصيّة أكّالة. تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه لتحيا به وتنمو. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير (الكالسيوم) من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير !

ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة ؛ يتمزق فيها جدار الرحم عن المشيمة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة الربانية، ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة. ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتةً جديدة تعيش وتمتد، بينما هي تذوي وتموت !

ثم الرضاع والرعاية ؛ حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا وذاك فرحة سعيدة رحيمة ودود. لا تملّ أبداً، ولا تكره تعب هذا الوليد. وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد.

فأنَّى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية، مهما يفعل، وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟! [1]

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: «أمك». قال: ثم من ؟ قال: «أمك». قال: ثم من ؟ قال: «أمك». قال: ثم من ؟ قال: «أبوك» [2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٩٧١)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤٨).

وقد استدل علي ﷺ بقوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾، مع التي في لقمان: ﴿ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ووافقه على هذا الاستدلال عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهراً، لتطابِقَ مختلف مدد الحمل ؛ إذ قد يكون الحمل ستة أشهر، وسبعة أشهر، وثمانية أشهر، وهو نادر، وتسعة أشهر، وهو الغالب. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين [1]. وذلك أقصى أمد الإرضاع، فعوّضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهراً زائداً في الإرضاع، لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالاً.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾. والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية، وهو جمع لم يسمع له مفرد [2]. وبداية الأشد والاكتمال ثلاث وثلاثون سنة، وغايته الأربعون [3].

واعتبر الرازي رحمه الله مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

المرتبة الأولى: سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو سن الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي الأخيرة ؛ سن النقصان، وهو على قسمين: النقصان الخفي، وهو

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٣).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٣٣).
(٣) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي (٤/ ١٤٣).

سن الكهولة، والنقصان الظاهر، وهو سن الشيخوخة [١].

وجعل الله سبحانه غاية الاكتمال بلوغ سن الأربعين ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾، فجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه. وأعظم نعم الله على العبد الهداية إلى توحيده والتحرر من العبودية لسواه، ومن النعم بعد الهداية النعمة على الوالدين بالتحنن والشفقة حتى ربيا ولدهما صغيراً، ونعمة الصحة والعافية على الولد ووالديه، ونعمة الغنى والثروة على الولد وعلى والديه حتى تمكنا من الإنفاق عليه وغير ذلك من النعم كثير.

ومع الشكر على النعم يأتي طلب الثبات على العمل الصالح، إذْ هو الشكر العملي ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾، أي في المستقبل من عمري، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ [٢]. وهذه دعوات ثلاث لصاحب القلب الشاعر بنعمة ربه عليه ؛ فالأولى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾.

والثانية: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾.

والثالثة: ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾، وهي رغبة قلب المؤمن أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. وبالذرية الصالحة ترتاح النفس وتقر العين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وشفاعة العبد إلى ربه التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء هي التوبة والإسلام: ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٣]، تبت إليك من كل ذنب، وإني من المستسلمين المنقادين لأمرك.

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ١٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾. وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ... ﴾ إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم، وهو قول الحسن البصري رحمه الله: «ومعنى ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ ﴾: نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات». قال زيد بن أسلم - ويحكيه مرفوعاً -: «إنهم إذا أسلموا قُبِلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم». ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ أي مع أصحاب الجنة [(١)].

قال ابن كثير رحمه الله: «هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[(٢)]؛ فقد وعدهم الله ذلك في الدنيا بالكتب المنزلة، وعلى ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم»[(٣)].

فأمّا النموذج الآخر، فهو نموذج الانحراف عن الفطرة؛ إنه نموذج الفسوق والضلال: ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ... ﴾ الآيتين.

هذا الفريق مقصود من الآيات السابقة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ... ﴾ الآيات. وهذا الفريق الذي انحرف عن الفطرة فكفر بربه وأساء إلى والديه، وقد عُلم أن والديه كانا مؤمنين من قوله تعالى: ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ... ﴾ الآية. وهو نموذج من نماذج المشركين في مكة يوم نزل الوحي، ومن المشركين في كل عصر، حين ينكر البعث ويكذب بالحق، ويصدر منه أقبح الأفعال، التي منها عقوق الوالدين وإيذاؤهما، وهما أقرب الناس إليه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٦).

فالآية عامة في كل من كان هذا حاله. ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف بعيد عن الصحة ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه (١). وأنكرت عائشة رضي الله عنها نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر حين زعم مروان ذلك (٢). وقال الحسن البصري وقتادة أيضاً: «هي نعت عبد كافر عاق لوالديه». وهذا هو الصحيح. قال الزجاج: «كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه، والله عز وجل يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٍ ﴾، أي العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمان، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين»(٣).

وأفّ: اسم فعل بمعنى أتضجر. والتأفيف: صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنه متضجر. وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ أي أبعث، ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾، أي مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية، أو يستغيثان بالله من كفره، ويقولان لولدهما: (ويلك آمن)﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي صدق بالبعث إن وعد الله حق، ﴿ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ (٤)، أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له (٥).

ويعاجل الله هذا الصنف بمصيره المحتوم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ ﴾.

---

(١) ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في ابن لأبي بكر، وهي رواية ضعيفة واهية؛ لأن طريق العوفي عن ابن عباس سلسلة الضعفاء والمدلسين، وأشار ابن كثير إلى عدم صحتها. انظر تفسيره (٤/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) انظر أخذ مروان البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن بن أبي بكر عليه في صحيح البخاري برقم (٤٨٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٨).

والقول الذي حق عليهم من الله هو العذاب الأبديّ في جهنم، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا، ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة، ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين ؟!

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حده [١]:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، أي لكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين، من الجن والأنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سِفالاً، ودرج أهل الجنة علواً»[٢].

والتعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب ؛ لأن الدرجة مَرْتَبَة في العلوّ، وهو علوّ اعتباري إنما يناسب مراتب الخير، وأما المرتبة السفلى فهي الدركة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

والدرجات هي مراتب الجزاء التي تكون على حسب الأعمال، ومقادير ذلك لا يعلمها إلا الله، وهي تتفاوت بالكثرة وبالسبق وبالخصوص [٣]، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، وقال بعد ذلك: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٩].

ويختلف عقاب الدعاة إلى الكفر والقادة فيه عن الأتباع. ويختلف جزاء المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، عن الضالين، الذين لم يعرفوا الحق ولم يتبعوه، ويشير إلى

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٩).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤١).

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، وغيرها من الآيات، كالآية التي ذكرتها قبل قليل في المنافقين وأنهم في الدرك الأسفل من النار.

ثم عقّب على ذلك بقوله: ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، أي قدرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفيهم جزاء أعمالهم؛ فنجازيهم تاماً وافياً لا غبن فيه.

وجملة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين، وهو الفريق المستحق للعقوبة، لئلا يُحسب أن التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشد مما تقتضيه أعمالهم [1].

ثم يقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يجحدون:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وتقدم عرض جهنم للكافرين في سورة الكهف: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾، وتقدم عرض الكافرين على النار في سورة غافر: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٤٥-٤٦]، وهاتان الآيتان في عذاب القبر كما قاله جمهور المفسرين، وكما يدل عليه السياق. وتقدم عرض الكافرين على النار أيضاً في سورة الشورى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ [٤٥].

ويقال لهم على وجه التوبيخ: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[2]، والمعنى استوفيتم ما لكم من الطيبات، وتمتعتم بها في الدنيا باتباعكم الشهوات واللذات في معصية الله. وهو

---

(١) المرجع السابق (٢٦/ ٤١).

(٢) وقرئ «أأذهبتم» بهمزتين مخففتين، وقرئ «آذهبتم» بهمزة ممدودة على الاستفهام، وقرأ الجمهور بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة، ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام.

إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون، فرتب عليه قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾، أي عذاب الخزي والفضيحة، والهون: الهوان [١]. ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[٢]، فعلَّلَ ذلك العذاب بجرمين عظيمين: الأول ؛ فعل القلب، وهو الاستكبار. الاستكبار على الحق وعدم اعتقاده، والاستكبار على الخلق بالتسلط عليهم والتجاوز على حقوقهم. وفعل القلب هذا يتبعه الجرم الثاني، وهو الفسق. والفسق ذنب الجوارح بارتكاب الآثام، ويكون ذلك بالخروج عن طاعة الله، وطاعة غيره في معصية [٣].

وقدّم ذنب القلب على ذنب الجوارح ؛ لأن أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب [٤].

ويوضح هذه الآية ما جاء في قوله تعالى من وصف المؤمنين بضّد هاتين الصفتين ؛ فهم متواضعون لا يبغون الاستكبار والاستعلاء. وهم لا يفسدون في الأرض، بل لا يبغون الفساد بارتكاب المعاصي: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: «فجوزوا من جنس عملهم ؛ فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله سبحانه من ذلك كله» [٥].

ولا دلالة في الآية على تحريم الطيبات على المؤمنين، حيث بين الله السبب بقوله: ﴿ بِمَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٠)، وانظر القراءات صـ ١٩٩.

(٢) الباء في قوله: (بما كنتم تستكبرون في الأرض) للسببيّة، وهي متعلقة بفعل تجزون. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٣).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٣).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾، وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه تورع عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وكان يتنزه عنها ويقول: «إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾»، فإنما هو الورع، وخشية أن تشغله اللذائذ عن فقراء رعيته. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم، فمررت بعمر بن الخطاب ﷺ، فقال: ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ .... ﴾ الآية. فعمر ﷺ لا يحرم اللحم، إنما هو عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع، وتستمرؤها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات، حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله.

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: «على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً[1]، ولا يتكلف الطيب، ويتخذه عادة». وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدِم ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشة النبي ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته[2].

وهكذا ينتهي هذا المقطع من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما في النهاية

(١) القفار (بالفتح): الطعام بلا أدم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٢).

وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة، الخارجين عن منهج الله، المستكبرين عن طاعته. وهي لمسة للقلب البشري تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون[1]؛ وهو طاعة الله والعبودية له وحده، والاستعداد ليوم الجزاء.

المقطع الثالث: خسران المكذبين، وهلاكهم في الدنيا عبرة لمن يعتبر

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

التفسير الإجمالي:

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات. وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها والطريقة التي تؤدّى بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٥).

في سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة - أو حلقة من قصة - قد تكررت في صورة واحدة ؛ من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار.

والحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضوع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ ؛ وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجوّ والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء [١].

وهنا لما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا، واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد ﷺ والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد، فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته على الجن [٢].

وقد سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن، كما أخبر الله عنهم في أول هذه السورة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾، مع ما أعقبت من الحجج المتقدمة من قوله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الذي يقابله قول هود: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، ثم قوله: ﴿ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الذي يقابله قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾. ذلك كله بالموعظة بحال هود مع قومه. وسيقت أيضاً مساق الحجة على رسالة محمد ﷺ وعلى عناد قومه بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم. ولها أيضاً موقع التسلية للرسول ﷺ على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون تسلية وموعظة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/ ٦٣).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٩).

معاً، يأخذ كل منها ما يليق به [١].

وعاد أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح ﷺ. يدل على ذلك تسلسل القصص عن هؤلاء الأقوام في سورة الأعراف، وفي سورة هود. كما سبق في سورة الأعراف قول هود لقومه: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخو عاد هو هود ﷺ، كان أخاهم في النسب لا في الدين. والأخ يراد به المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخ العرب. ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾، أي اذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها، أو هو أمر من الله لمحمد ﷺ بأن يتذكر في نفسه قصة هود ليقتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه له ؛ وكلمة (اذكر) تصلح لمعنى الذكر اللساني، ولمعنى الذكر - بالضم - بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه. والأحقاف ديار عاد، وهي الرمال العظام. والحقف: ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقد كانت مساكنهم جنوب الجزيرة بين عمان وعدن، ويقال في حضرموت: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾، أي قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، وتفسّرها قراءة ابن مسعود «من بين يديه ومن بعده». وقد أنذرهم هود بما أنذر به كل رسول قومه: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [٢]. وعبادة الله وحده والتحرر من العبودية لسواه هي دعوة الرسل جميعاً، وهي عقيدة في الضمير، ومنهج في الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة. فماذا كان جواب قومه ؟

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قالوا: أجئتنا لتصرفنا وتصدنا عن آلهتنا، واستعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤). وجملة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ معترضة بين جملة (أَنْذَرَ) وجملة (أن لا تعبدوا إلا الله) المفسرة بها، و(أنْ) تفسيرية ؛ لأن (أنذر) فيها معنى القول دون حروفه. انظر التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٥).

وقوعه، كقوله جلّت عظمته: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨] (١).

فقال لهم هود ﷺ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾. فقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ردّ على قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ؛ يريد بذلك أن الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيفعل ذلك بكم، وأمّا أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾فلا تعقلون ولا تفهمون، حيث تصرّون على طلب العذاب بهذه الوقاحة التامة ؛ وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً، ولكن لم يظهر لكم كوني كاذباً، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم (٢).

وقال: ﴿ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾، ولم يقتصر على ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ ؛ للدلالة على تمكن الجهالة منهم، حتى صارت من مقومات قوميتهم، وللدلالة على أنها عمَّت جميع القبيلة، كما قال لوط لقومه: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] (٣).

وكانوا قد أصابهم قحط شديد، يشير إلى ذلك قول هود ﷺ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ٥٢]. فاستقبلهم عذاب الله على هيئة عارض أي سحاب معترض السماء:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فرحوا واستبشروا خيراً برؤية السحاب وهو مستقبل أوديتهم، وقالوا هذا عارض ممطر لنا. فقال: بل هو ما استعجلتم من العذاب، ثم بين ماهيته فقال: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، ثم وصف عمل الريح فقال:

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٨).

التدمير: الهلاك، وكذا الدمار، فهذه الريح تدمّر كل شيء مّرت عليه من رجال عاد وأموالها. قال ابن عباس: أي كل شيء بُعثت إليه [(١)].

يقول سيد قطب: «والنص القرآني يصوّر الريح حيّة مدركة مأمورة بالتدمير ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حيّ، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يُؤمن حق الإيمان، ويتفتّح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه، تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك. ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدّت الريح ما أمِرَت به، فدمّرت كل شيء ؛ ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أمّا هم وأما أنعامهم، وأما أشياؤهم، وأما متاعهم، فلم يعد شيء منه يرى. إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾. سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين» [(٢)].

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب وتعتبر:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٨).

ولقد كانوا أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً، ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله، فكيف يكون حالكم. وقد فتحنا عليهم أبواب النعم ؛ وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها بطرق تخالف منهج الفطرة الذي يأمر به الله، فلا جرم ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً.

ثم علل عدم إغناء السمع والأبصار والأفئدة عنهم شيئاً بسبب أنهم يجحدون بآيات الله ؛ لأن لفظ ﴿إِذْ ﴾ في قوله: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ ﴾ بمنزلة التعليل، فقد يأتي هذا اللفظ للتعليل.

وفي هذه الآية أشد التخويف لأهل الكفر في مكة ؛ فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزئون به، حيث كانوا يطلبون العذاب على سبيل التكذيب والاستهزاء، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله ويخافوا [١].

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى لَهَواته [٢]، إنما كان يبتسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية ؟! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[٣]. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصبا،

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٥-٢٦).
(٢) لهواته جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

وأهلكت عاد بالدبور»[١].

ويختم هذا المقطع بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى، من عاد وغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ولقد أهلكنا الأمم المكذبة بالرسل مما حول أهل مكة، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وسبأ وهم أهل اليمن ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وقوم لوط ومساكنهم تكتشف الآن تحت البحيرة التي تسمّى البحر الميت ؛ وكان أهل مكة يمرون عليهم في أسفارهم، في رحلتي الشتاء والصيف، وكانت أخبار هؤلاء المهلكين متواترة عندهم[٢].

ولقد نوّع الله سبحانه الآيات يعني الحجج والبراهين والدلالات، وأنواع البينات لأهل تلك القرى لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويتوبون عن شركهم فيتحررون من العبودية لغير الله، لكنهم مضوا في ضلالهم فأخذهم العذاب الأليم[٣]، ألواناً وأنواعاً، تتحدث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورائهم.

وهذا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة والنتيجة الحاسمة. لقد دمّر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم. فهلاّ نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم وهلاّ منعتهم من عذاب الله ؛ إنهم لم ينصروهم، ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ وتركوهم وحدهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾، أي اتخاذهم غير الله آلهة، وزعمهم

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٥)، وصحيح مسلم برقم (٩٠٠). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٩).

أنها تقربهم إلى الله هو كذبهم، وما كانوا يختلقونه [١].

قال ابن عاشور: «والافتراء نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق ؛ لأنه مشتق من فري الجلد، فالافتراء الكذب الذي يقوله، فعطف ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ على ﴿ إِفْكُهُمْ ﴾ عطف الأخص على الأعم ؛ فإن زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل، فهو إفك. وأما زعمهم أنها تقربهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه.

وإقحام فعل ﴿ كَانُوا۟ ﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء ﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر»[٢].

وهكذا أدّت قصة عاد وإهلاكهم بالريح دورها في السورة ؛ من تهديد المشركين في مكة وغيرها، لعلّ الترهيب ينفعهم ليأخذوا عبرة وعظة ممّن سبقهم من ذوي العقول المتحجرة.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٢٨٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٢٧٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٥٦-٥٧).

المقطع الرابع والأخير: الرسول محمد ﷺ

مصدّق من عند الثقلين، ومعظّم في العالمين ؛ الإنس والجن

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر إهلاك الأقوام المكذبة من الإنس في المقطع السابق ذكر في هذا المقطع الأخير إيمان الجن بالله، وتصديقهم لمحمد ﷺ، وإيمانهم بما أنزل عليه من الوحي، وربطه بالحق المنزل سابقاً على موسى ﵇، ثم ختم السورة بالدليل على قدرة الله على بعث الموتى، والتهديد بالعذاب الدائم يوم القيامة للمكذبين.

اذكر يا محمد لقومك قصة استماع الجن القرآن وإيمانهم به، لعلّهم يتنبهون لجهلهم وغلطهم، وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه، حيث إنهم كفروا به، وجهلوا أو تجاهلوا أنه من عند الله تعالى، وهم أهل اللسان الذي نزل به، من جنس الرسول الذي جاء به ؛ وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به، وهم ليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله. ففي ذكر هذه القصة توبيخ لكفار قريش والعرب، ووقوعها إثر قصة هود

وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى ؛ لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة، كما حكي عنهم في غير آية، والجن توصف بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٩]. ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسب ما قبلها لذلك. مع ما قيل: إن قصة عاد متضمنة ذكر الريح، وهذه متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يُشاهد[١].

وتشير رواية البخاري ومسلم من حديث ابن عباس أن الجن مرّوا برسول الله ﷺ وهو يقرأ فسمعوا القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١- ٢]، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»[٢].

ولا يبعد أن يكون الجن قد صُرفوا إلى النبي ﷺ، فجاءوه وفوداً أكثر من مرة، فأقرأهم القرآن، كما تدل على ذلك روايات، وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال: لا. ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، والتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة

(١) روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٣٠).
(٢) صحيح البخاري برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩).

بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد فقال: " لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم» [١].

فقد استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً وقوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما وردت بذلك الأخبار [٢].

ويظهر أدب الجن في الاستماع إلى القرآن عندما حضروه ﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أي فرغ من تلاوته، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد استدل بهذه الآية على أن في الجنّ نُذُر، وليس فيهم رسل، إذْ لم يدل دليل على أن الله بعث من الجن رسولاً، بل قد دلت الآيات على أن الرسل من البشر الذكور، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ ﴾ [الفرقان:٢٠]. فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي أحدهما.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، ولم يذكر عيسى عليه السلام ؛ لأن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة أجلّ الكتب قبل القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما فيه، أو بكله، ثم إن الإنجيل فيه مواعظ

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٣٨٧-٣٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٣)، وانظر ما حرره الثعالبي في تفسيره (٤/ ١٥٧).

وترقيات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة ؛ فلهذا قالوا: ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ أول مرة فقال: «بخ بخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً...» [١].

وقد تضمن إنذار الجن أسس الاعتقاد الكامل: تصديق الوحي، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن. والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه القرآن، والإيمان بالآخرة ؛ وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال. والإقرار بقوة الله وقدرته [٢]. ونستطيع أن نقسم إنذارهم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وصفوا فيه القرآن بثلاثة أوصاف:

الأول: إنه أنزل من بعد موسى، فهو يؤيد ما جاء من قبل في السورة: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ ﴾.

الوصف الثاني: إن هذا القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله ؛ فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل كما مرَّ.

الثالث: إن هذا القرآن ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ يهدي إلى الحق في الاعتقاد والأخبار، ويهدي إلى طريق مستقيم في المنهج والأعمال ؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب ؛ فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وهكذا قالت الجن عن القرآن: ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ في الاعتقادات، ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ في المنهج والأعمال [٣].

والقسم الثاني من الإنذار: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه من الجزاء: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٠)، وتفسير روح المعاني، الألوسي (٨/ ٩٥).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٣٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٠).

أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

داعي الله هو محمد ﷺ، وهذا يدلّ على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس. ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ أي بالداعي، ويكون الإيمان بالله الذي أرسله من باب أولى، أو آمنوا بالله واستجيبوا لرسوله، ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. وهذا جزاء الإيمان بالله ورسوله يوم البعث والجزاء.

ولا دليل في هذه الآية لمن قال: إن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، فهناك نصوص أخرى تدل على دخولهم الجنة، منها قوله عز وجل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧] وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. فلم يكن تعالى ليمنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل من باب أولى. وممّا يدل على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال تعالى مخاطباً الجن والإنس: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾، إلى أن قال: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢][1].

ويأتي القسم الثالث والأخير من الإنذار ؛ وهو تهديد ووعيد بعدم الإفلات من قدرة الله:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢١٧-٢١٨).

المعجز: الذاهب في الأرض الذي يعجز طالبه، فلا يقدر عليه [١]. إن عدم الاستجابة للحق وخيم العاقبة، وإن الذي لا يستجيب لا يفلت من قدرة الله سبحانه، وكيف يفلت أحد والكون كله بيد الله، يصرّفه كيف يشاء، ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[الزمر: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾[البروج: ٢٠]. فقدرة الله شاملة ومحيطة بالكافرين، وعذابه نازل بهم، بل لا يجيرهم منه سبحانه أحد، هؤلاء الذين تلبسهم الضلال عن الحق ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٢].

وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ثم ذكر عقيبهما تقرير البعث والمعاد [٣] وبمناسبة الحديث عن قدرة الله الشاملة، وأنه لا يفلت من عذابه أحد من الكفرة، يأتي المثل والاحتجاج على البعث ؛ لأن المشركين قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن تبعث، ولا تعاد ؛ وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم [٤]:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وهذا عود على بدء، فقد ابتدأت السورة بالإشارة إلى الدليل على البعث في الهدف من الخلق: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... ﴾ الآية، ويتصل بذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾، إلى قوله: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

والرؤية هنا بمعنى العلم، ﴿ وَلَمْ يَعْىَ ﴾ أي لم يعجز عن ذلك. يقال: عي فلان بأمره إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه. قال الزجاج: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه، وأعييت إذا تعبت [٥].

---

(١) تفسير الثعالبي (٤/ ١٥٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٦٢).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).

(٥) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٣٩١)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).

فالمقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث. والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول السورة على أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وذكرنا قبل قليل أن المشركين معترفون بذلك، ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً ؛ لأن القادر على الأقوى والأكمل، لا بد أن يكون قادراً على الأقل والأضعف[1]، كما قال عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ [غافر: ٥٧]، ولذلك ختم الآية هنا بقوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

وبعد أن أقام الله الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر يرسم مشهد الجزاء كأنه شاخص للأبصار، فيذكر بعض أحوال الكفار فيقول: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤ ﴾.

واذكر يوم يُعرض كفار قريش وغيرهم ممّن هو على شاكلتهم على النار، ويقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾، وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، في مثل قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات: ٥٩]. ولا يسعهم إلا الاعتراف حين لا يفيد الاعتراف، حيث يجيبون: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾، فيقال لهم بأسلوب فيه الإهانة: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم[3].

ويأتي التفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد ﷺ، واستهزائهم به وبما جاء به من البعث والجزاء، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد ؛ فيُؤمر الرسول ﷺ بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، ويضرب له المثل بالرسل أولي العزم:

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢١٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، والتفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وأولو العزم: هم ذوو الحزم والصبر. والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال ابن زيد: والرسل كلهم أولو العزم، وتكون ﴿ مِنَ ﴾ لبيان الجنس ؛ لأن قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة، تعظيماً لهم. وقيل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام ؛ لأنه قال بعقب ذكرهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠][1].

والأشهر أن أولي العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ؛ فقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من الأحزاب والشورى، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣][2].

والعزم المحمود في الدين بالمعنى العام: هو الصبر على فعل المأمورات، والصبر على ترك المحظورات. وقوته: شدة المراقبة ؛ بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبة نفسه، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] ويدخل في ذلك الصبر على قدر الله، وعدم الخروج عن حكم الشرع، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وأعقب سبحانه أمره نبيّه بالصبر نهيه عن الاستعجال لهم بالعذاب أو الهلاك. وذلك

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٢).

تثبيتٌ له ﷺ، وتهديد للمشركين ؛ فطريق الدعوة شاق يحتاج إلى الوعظ والتثبيت والأمر بالصبر، والاقتداء بأولي الحزم والثبات من الأنبياء السابقين. والتهديد للمشركين كامن في نهيه ﷺ عن استعجال العذاب لهم ؛ لأنه آتيهم لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٧].

فالعذاب منهم قريب، وهذه الدنيا إلى زوال، وهي متاع قليل بالنسبة للآخرة: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب، أو من الآخرة التي فيها عذابهم، ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ في جنب يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥][١].

ثم يقول سبحانه: ﴿ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ، دليله قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، والبلاغ بمعنى التبليغ، ولا يهلك إلا القوم الخارجون عن أمر الله وحكمه[٢].

وكما أن هذه الألفاظ وعيد محض، وإنذار بين للمشركين الكافرين، فهي رجاء للمؤمنين. حيث يقال: إن قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين ؛ وذلك أن الله عز وجل جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وغفر الغفور الرحيم الصغائر باجتناب الكبائر، فقال سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١]، ووعد الغفران على التوبة فقال سبحانه: ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٢٢).

(٢) المرجعين السابقين.

رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فلن يهلك على الله إلا هالك [١].

---

(١) تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (٤/ ١٥٩). وانظر آخر الحديث «ولا يهلك على الله إلا هالك» في صحيح مسلم برقم (١٣١).

سورة محمد ﷺ

بين يدي السورة

يحسن بنا أن نقف بين يدي هذه السورة الكريمة لإلقاء الضوء على اسمها، وفضائلها ومكيتها أو مدنيتها، وعدد آياتها، ومحورها، والمناسبة بينها وبينه، والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها، وبين افتتاحيتها وخاتمة ما قبلها، وبين مقاطعها ومحورها، وبين مضمونها ومضمون السورة التي قبلها، **وبيان ذلك كله على النحو الآتي:**

(أ) اسم السورة:

قال الزركشي: «ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، لأن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائى للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء» [1].

وللسورة التي نفسرها موضوعيا في هذا المقام ثلاثة أسماء: **أولها**: سورة محمد، **وثانيها**: سورة القتال، **وثالثها**: سورة الذين كفروا مراعاة لمطلعها ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١** ﴾.

والأشهر الأول، ووجهه أن اسم النبي ﷺ قد ذكر في الآية الثانية منها﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢** ﴾ فعرفت به قبل سورة آل عمران التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الرابعة والأربعين بعد المائة، وسورة الأحزاب التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الأربعين، وسورة الفتح التي ذكر اسمه ﷺ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٧٠.

في آيتها الأخيرة [١].

ولهذا سميت هذه السورة في أكثر كتب السنة "سورة محمد" وكذلك ترجمت في صحيح البخاري، وفي أكثر التفاسير [٢].

وأما تسميتها بسورة القتال في بعض كتب السنة وكتب التفسير ؛ فلأن مشروعية القتال ذكرت فيها في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾.

كما أن لفظة القتال قد ذكرت في الآية العشرين منها، قال تعالى:﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾.

فتكون تسميتها بسورة القتال تسمية قرآنية، وهو اسم حقيقي؛ لأن القتال موضوعها وهو العنصر البارز في صورها وإيقاعها وظلالها [٣].

(ب) مكية السورة أو مدنيتها:

للمفسرين في كون سورة محمد مكية أو مدنية ثلاثة أقوال [٤]:

---

(١) يلاحظ أن المرات التي ذكر فيها اسمه ﷺ في القرآن الكريم كانت في سور مدنية عنيت بالحديث عن مرحلة من الصراع المرير الذي نشب بينه ﷺ وبين الكافرين، إما بوصف حلقة من حلقات هذا الصراع، أو بالتنظير للأسس والمعالم التي يجب على المسلمين أن يحرصوا على تمثلها عمليا أو فكريا أونفسيا عند دخولهم في ميادينه، ويلاحظ أن اسمه ﷺ قد اقترن في هذه المرات بوصف يدل على نبوته، وهذا يفيد أن غاية هذا الصراع كانت إثبات هذه الحقيقة في مواجهة قوم ينكرونها، ويصدون الناس عنها بكل الوسائل المتاحة لديهم.

(٢) انظر: سنن الترمذي ٥ / ٣٨٣، وصحيح البخاري ٤ / ١٨٢٨، وجامع البيان للطبري ٢٦ / ٣٨، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٧٨.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ١٩٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٣٩٥، والجامع =

أولها: أنها مدنية، قاله الأكثرون، ولم يذكروا استثناء، قيل: نزلت بعد يوم بدر، وقيل: نزلت في غزوة أحد.

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن الكريم بجملته، والتاسعة حسب ترتيب نزول السور المدنية، ونزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

ثانيها: أنها مكية، قاله الضحاك والسدي وسعيد بن جبير والثعلبي.

ولعله وهم ناشئ بسبب ما روي عن ابن عباس من أن قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

ثالثها: أنها مدنية ولكن فيها آية مكية، فعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت عليه ﷺ بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً ويقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[(١)] فنزل عليه﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾.

والقول الأول هو الأصح؛ ولهذا قرر ابن عطية الإجماع عليه، وقال عن الاستثناء الوارد في القول الثاني والثالث: " وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني؛ لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها "[(٢)].

ولهذا لم يذكر السيوطي هذه السورة ضمن السور التي منها آيات مستثناة، بل ذكر قولا لابن عباس عن مجاهد بأنها مدنية، وقال: إن إسناده جيد رجاله كلهم ثقات، كما أضاف هذا القول إلى قتادة وعكرمة والحسن بن أبي الحسن وأبي الحسن بن الحصار، وعد رحمه الله تعالى ما

= لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل مكة ٥ / ٧٢٢ (٣٩٣٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والحاكم في المستدرك ٣ / ٨ (٤٢٧١) وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

حكاه النسفي بأنها مكية قولا غريبا [(١)].

(ج) عدد آيات السورة[(٢)]:

سورة محمد ثمان وثلاثون آية في الكوفي، وتسع وثلاثون آية في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البصري، اختلافها في موضعين: الأول: قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ لم يعده الكوفي آية، وعده الباقون، والثاني: قوله تعالى:﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ عده البصري، ولم يعده الباقون.

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع سبعة مواضع ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ و﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ و﴿ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ و﴿ بِبَعْضٍ ﴾ و﴿ آنِفًا ﴾ و﴿ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾و﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وعدد كلمها خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وعدد حروفها ألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون.

(د) محور السورة:

الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون ويصل إلى درجته القصوى بالقتال، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيمان الذي يتخفون وراءه، ولا يجد المؤمنون بداً من اقتحام ميادين هذا الصراع ليحولوا بين الكافرين وبين الصد عن سبيل الله عز وجل.

ومن هنا تعرض السورة الكريمة الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية للشخصية الكافرة ثم المنافقة ليعرف المؤمنون عدوهم الذي يضطرهم لخوض حروب نص الله عز وجل على كراهيتهم لها في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

كما نهاهم رسولهم ﷺ عن تمنيها في قوله: " لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٣٧ – ٥٥.

(٢) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني ١ / ٢٢٨.

لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف "[1].

وفي خضم ذكر السورة لملامح الشخصية الكافرة والمؤمنة تعرض الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية لشخصية المؤمنين، وتقرر حقائق حول الصراع الدائر بينهم وبين الكفار والمنافقين وحكمة هذا الصراع ومقتضياته وثمراته.

(هـ) المناسبات في السورة:

هناك عدة مناسبات لا يمكن أن يكتمل تصورنا لسورة محمد ﷺ دونها، فأكثر لطائف السور القرآنية مودعة في الترتيبات والروابط، والمناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[2].

ويتجلى ذلك في بيان المناسبة بين اسم السورة ومحورها، والمناسبة بين مقاطعها ومحورها والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها، والمناسبة بين مضمونها ومضمون ما قبلها.

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

هناك تناسب بين اسم سورة محمد ﷺ وبين محورها، فلولا مجيء محمد ﷺ برسالة الله تعالى وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين بهذه الرسالة ما قام هذا الصراع المرير الذي قاد ﷺ فيه المؤمنين وفق سياسة ربانية في مصدرها وغايتها، ولهذا كان الجهاد خلقه ﷺ إلى أن توفاه الله تعالى، فهو نبي الرحمة بالملحمة حسب وصف برهان الدين البقاعي[3].

كما أن اسم سورة القتال يناسب محورها المتمثل في الصراع المادي الذي يصل إلى أقصى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤) ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٥، ٣٦.

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨/ ١٩٤ - ١٩٥.

درجاته المتمثلة في القتال الذي يسعره الكافرون والمنافقون في مواجهة المؤمنين، حيث تقرر آياتها حقائق حول هذا الصراع وحكمته ومقتضياته وثمراته.

أما اسم سورة الذين كفروا فيناسب بدايتها، وحديثها المفصل عن الشخصية الكافرة في جوانبها الفكرية والنفسية والسلوكية، وهي الجوانب التي تسببت في الصراع الذي هو محور السورة.

ويمكن جمع هذه الأسماء الثلاثة في جملة واحدة تعطي تصوراً تاماً عن القضايا التي تعالجها السورة، وهي: محمد ﷺ يقاتل الكفار [1].

(٢) المناسبة بين محورالسورة ومقاطعها:

إذا كان الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيمان، فإن المقطع الأول يعنى بالتعريف بطرفي الصراع الواضحين مع حث الطرف المؤمن على قتال طرف الكفار.

وفي المقطع الثاني يحرض المؤمنين على نصرته عموماً إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد المبثوثة في الأرض، أما في الآخرة فالفارق بين متاعهم ومتاع الكافرين فارق أصيل، فمتاعهم متاع كريم لأنهم يتلقونه من يد الله تعالى، بينما عاقبة الكافرين العذاب رغم أن حظهم من الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

وفي المقطع الثالث ذكر لحال المنافقين - الطرف المتخفي من أطراف الصراع - وموقفهم إزاء ما يسمعونه من رسول الله ﷺ ثم موقفهم من قضية الجهاد، ومن اليهود، وتآمرهم معهم سرا ضد الإسلام والمسلمين بحيث يأخذ المؤمنون حذرهم من الفريقين.

---

(١) انظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لصلاح الخالدي ص ٢٤٣.

وفي المقطع الرابع وعيد لهؤلاء المنافقين بكشف أمرهم في الدنيا، وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين إن أصروا على كفرهم بالله تعالى وصدهم عن سبيله، ويدفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، ويهددهم إن تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم.

فهي إذا معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها يظللها جو الصراع، وتتسم بطابعه في كل فقراتها، وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة، أو القرارات العسكرية الحاسمة﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾﴿ بَالَهُمْ ﴾﴿ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾﴿ أَهْوَآءَهُمْ ﴾﴿ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء:﴿ أَوْزَارَهَا ﴾﴿ أَمْثَٰلُهَا ﴾﴿ أَقْفَالُهَآ ﴾ وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها، فالقتال أو القتل يقول عنه: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ والتقتيل والأسر يصوره بشدة وقسوة تناسب قسوة الكافرين في المواجهة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ والدعاء عليهم يجيء في لفظ قاس ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وهكذا يتناسب محور السورة مع مقاطعها بل ومع فواصلها وصورها تناسبا تاما يجعل منها وحدة واحدة دون تكلف أو تعسف [1].

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة سورة الأحقاف واضحة جلية، فهناك اتصال وتلاحم بينهما بحيث لو سقطت من البين البسملة ؛ لكانا متصلاً واحداً لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذاً

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠.

بعضها بعنق بعض [(١)].

فبعد أن ختم الله تعالى سورة الأحقاف بقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ يمكن أن يقول قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ ؟ دفع الله تعالى تلك الشبهة في أول سورة محمد فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك المذكور في الأحقاف [(٢)].

ويمكن اعتبار أول جملة في سورة محمد بدل من آخر جملة في سورة الأحقاف، بحيث لو سقطت البسملة لاتصلا على النحو الآتي: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾.

(٤) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون التي قبلها :

سورة الأحقاف تضمنت دلائل وحدانية الله تعالى، وحقية وحيه المنزل على نبيه ﷺ ونقض الشرك، ودحض شبهات المشركين، وعرضت المآل الذي يصير إليه الكافرون وهو الهلاك والبوار في الدنيا من خلال طرح صور لهلاك طوائف منهم، وأشارت إلى العذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، وحثت الرسول ﷺ على الصبر حتى يتحقق موعود الله تعالى فيهم سواء أكان في العاجلة أم الآجلة.

أما سورة محمد ﷺ فتضمنت صفات هؤلاء الكافرين بالوحدانية وبالوحي الذي اتضحت دلائلها في سورة الأحقاف، وبينت حرصهم على الصد عن سبيله تعالى، وحثت على السير في الأرض لمعرفة المآل الذي صار إليه أمثالهم في الدنيا، وهو المآل الذي عرضت سورة

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٢.

الأحقاف صورا منه، كما عرضت لعاقبتهم في الآخرة، ولا شك أن الوقوف على عاقبة الكفار من خلال السير في الأرض وخبر هذه السورة يعين على تحمل عبء الصبر الذي حثت عليه سورة الأحقاف.

على أن سورة محمد تدفع المؤمنين إلى تحمل مسؤولياتهم في تحقق سنة الله عز وجل في الكافرين، ولهذا ورد فيها الأمر بنصرة دين الله تعالى، وبمعاقبة هؤلاء الكافرين على صدهم عن سبيله بالقتل أو الأسر.

(٥) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما قرر الله تعالى في أول السورة أنه قد أضل أعمال الكفار، وأمر المؤمنين بالشدة عليهم في القتال وبين أنه لو شاء لانتصر منهم لكنه أراد أن يبلو بعضهم ببعض ليتميز الخبيث من الطيب، بين في آخر السورة أنه سيبتلي المؤمنين ليتبين المجاهدون والصابرون منهم، وأنه سيحبط أعمال الكافرين في الصد عن سبيله، وأمر المؤمنين بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ وحثهم على نبذ الوهن والدعوة إلى السلم، ودعاهم إلى تحمل مسؤوليتهم تجاه دينه لأنه تعالى غني عنهم قادر على الانتصار من الكفار بقوم آخرين، فرجع بذلك أول السورة إلى آخرها، وعلم أن معنى هذا الآخر وذلك الأول أنه سبحانه يذل الكافرين ويعز المؤمنين [(١)].

سبب نزول السورة:

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: " نزلت سورة محمد آية في بني أمية " [(٢)].

وأورده السيوطي في الدر المنثور بلفظ " سورة محمد آية فينا، وآية في بني أمية " [(٣)].

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨ / ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(٣) انظر: الدر المنثور ٧ / ٤٥٦.

قال الآلوسي: « ولا أظن صحة الخبر، نعم لكفار بني أمية الحظ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار، كما أن لأهل البيت رضي الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثر من هذا لا يقال، سوى أني أقول لعن الله تعالى من قطع الأرحام وآذى الآل»[1].

المقطع الأول

تعريف موجز بطرفي الصراع وحث المؤمنين على القتال

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾.

التفسير الإجمالي:

هذا عرض للصفات الأساسية لطرفي الصراع، وهي الصفات التي يترتب عليها فوز الطرف المؤمن وخسارة الطرف الكافر بكل معاني الفوز والخسارة، وهو توطئة لتحريض المؤمنين على قتال من غضب الله تعالى عليهم بسبب كفرهم وصدهم الناس عن دينه.

وبدأ بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويقاً لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٣٦.

كفرهم وصدهم أضل أعمالهم، وفي ذلك براعة استهلال للغرض المقصود [١].

والآيات تعم كل من دخل تحت ألفاظها[٢] وأضيف السبيل إلى الله تعالى لأنه الدين الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ واستعير اسم السبيل للدين ؛ لأنه يوصل إلى رضى الله عز وجل كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته وقد صد الكافرون أنفسهم عن سبيل الله تعالى ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل، كما صدوا غيرهم ومنعوهم من ذلك.

ولهذا استحقوا أن يبطل ثواب أعمالهم الخيرة، أو يبطل ما عملوه من الكيد للإسلام ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، ولعله أوفق بما بعده وكذا بما قيل أن الآية نزلت ببدر، واللفظ يعم هذا القول والذي حسب قول ابن عطية [٣].

وفي مقابل الذين كفروا يذكر الذين آمنوا ويقرن الإيمان بالعمل الصالح ؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه، وفي مقابل إبطال عمل الكافرين ولو كان صالحا تغفر السيئة للمؤمنين، ومع تكفير السيئات يكون إصلاح بالهم أي أمرهم وشأنهم وحالهم، والكل متقارب [٤].

وتحرير التفسير في لفظة البال أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها ؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧.
وقد أخرج الحاكم رواية عن ابن عباس في أن الذين كفروا منهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ والذين آمنوا هم الأنصار أهل المدينة الذين آووه، وفي الطائفتين نزلت الآيتان، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. انظر: المستدرك للحاكم ٢ / ٤٩٦ (٣٧٠٣).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣.

رأيه، والتوحيد هو أصل صلاح بال المؤمن، إذ منه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة، فكأن اللفظة مشيرة الى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع[1].

وما ينال الفريقين أمر له أصله الثابت المرتبط بسنة ربانية قام عليها أمره تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

والأمثال: جمع مثل وهو الحال التي تمثل صاحبها وتعرف به فلا يلتبس بنظائره، والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم، محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود، لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم[2].

ومن شأن هذه البصيرة أن تهون شأن الكافرين في نفوس المؤمنين فيمتثلوا أمر ربهم بالشدة على المحاربين منهم في قوله: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾.

فضرب الرقاب كناية مشهورة يعبر بها عن القتل، والتعبير به عنه تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأوجه أعضائه، وأثخنتموهم أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى تتحطم قوتهم وتتهاوى، فلا تعود بهم قدرة على العدوان، وعندئذ – لا قبله – يشد وثاقهم، وهو هنا كناية عن الأسر لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد، وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يفلتوا إلى أن يختار المؤمنون بحسب المصلحة بين أن يمنوا عليهم بإطلاق سراحهم أو يقبلوا منهم الفدية [3].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٥ – ٧٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٧.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٢.

وتقديم المن على الفداء ترجيح له ؛ لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه، وفيه إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ؛ لأن الغاية العظمى من قتال المؤمنين للكافرين أن تضع الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها ؛ وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها[1].

وحتى تبقى الفاعلية المطلقة لله عز وجل وحده في حس المؤمنين، ويدركوا الغاية الحقيقية من أمرهم بقتال الكافرين، وهي تخليص نفوسهم له سبحانه بحيث لا تتطلع إلا إلى وجهه ولا تبتغي إلا رضاه قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

وهذا التطلع هو السبيل الوحيد لتحصيل ثمرات القتال والموت في سبيله سبحانه، حيث يتعهدهم بالهداية بعد الاستشهاد، وبإصلاح البال، ويهديهم عند حشرهم إلى طريق الجنة ثم يعلم كل أحد منزلته ودرجته فيها.

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها، وعن مقاتل إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله، ويمكن أن يكون عرفها بمعنى طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة [2].

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا " [3].

وعن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: « للشهيد عند الله ست خصال يغفر

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٢.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة ٥ / ٢٣٩٤ (٦١٧٠)

له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه "[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: الإيمان أساس قبول الأعمال:

الله عز وجل يبطل في الدنيا ما يعمله الكافرون من الكيد لدينه ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، كما أن عمل الكافرين الحسن في الحياة الدنيا يبطل يوم القيامة ويضمحل، وسبب ذلك أن أعمالهم لم تقترن بالإيمان.

فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها، وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يجعل لكل عمل وظيفة وأثرا [٢].

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وقال في سورة هود ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وقال في سورة الشورى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ويرى بعض العلماء أن الكفار يثابون على حسناتهم بنعم الدنيا فقط، وقال بعضهم إنه إذا أسلم تضاف إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام:

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد ٤ / ١٨٧ (١٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠ - ٣٢٨١.

«أسلمت على ما سلف لك من خير»[١].

فقوم قالوا: تأويله أسلمت على إن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه، وقالت فرقة: معناه أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك[٢].

ثانيا: العمل الصالح قرين الإيمان:

الإيمان لابد أن يقترن بالعمل الصالح ؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه، فعمل بلا إيمان كجسم بلا روح، وإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

وتخصيص الإيمان بمحمد ﷺ بالذكر في آية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ مع أنه يندرج فيما قبله للتنويه بشأنه، وللتنبيه على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل فى الكل، فهو من باب عطف الخاص على العام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته بالنسبة لكل من آمن بنبي سبقه، ولذلك أكد بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه، ومن حقيته كونه ناسخا غير منسوخ، فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل[٣].

ثالثا: إصلاح البال ثمرة الإيمان:

إصلاح بال المؤمنين نعمة كبرى تترتب على اتباعهم للحق، وهي نعمة تترتب على الإيمان وتليه في القدر والقيمة والأثر، وذكرها يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب شراء المملوك من الحربي ٢ / ٧٧٣ (٢١٠٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٢.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣١٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩١.

إذ متى صلح البال ؛ استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام[١].

ومن مقتضيات صلاح بال المؤمنين في الدنيا أنهم يقدمون على قتال الكفار وهم يحرصون على الموت في سبيل الله كما يحرص أعداؤهم على الحياة، فإن نالوا مرادهم كانت لهم في الآخرة درجة من إصلاح البال أجل وأعظم من التي ذاقوها في الدنيا ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

رابعا: العاقبة للحق وأهله:

الباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود، ومن ثم فهو ذاهب هالك مع كل من يتبعه وكل ما يصدر عنه، بينما الحق ثابت ضارب بجذوره في أعماق هذا الكون، ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه.

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

وهذا هو الأصل الثابت المرتبط بسنته تعالى التي عبر عنها بإيجاز التعقيب على عاقبة كل من المؤمنين والكافرين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

فلا ينبغي أبدا أن يدب اليأس إلى نفوس المؤمنين إن رأوا للباطل صولة ولأهله جولة، لأن الأمور بعواقبها، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨١.

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

خامسا: إيجابية المؤمن وغايتها:

ما يفعله الله عز وجل للمؤمنين في أعدائهم يدفعهم إلى الفعل والإيجابية لا إلى الكسل والتواكل والسلبية، ولهذا يأمرهم بمجابهة الكافرين بما يستحقون عند اللقاء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾.

ويؤكد لهم أنه لو شاء لانتصر من الكافرين جهرة كما انتصر من بعضهم عبر قرون بأسباب ظاهرة أو خفية، لكنه عز وجل يريد للمؤمنين الخير حين يحملهم مسؤولية مجاهدة هؤلاء الكافرين.

فمن شأن هذه المجاهدة أن تخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض الدنيا الفانية، ويعز عليهم الحق فلا يستطيعون الحياة بدونه، بل يجاهدون في سبيله وهم يتطلعون فقط إلى وجه الله تعالى ورضاه.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ لفتة في غاية الأهمية بالنسبة للمؤمنين، وهي أنه لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الجهاد والموت في سبيل الله تعالى وحده، والنصرة له وحده، وإلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا[١].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله "[٢].

سادسا: القتال لإقرار السلم:

غاية تشريع القتال في الإسلام هي منع العدوان ابتداء ووقف الحرب إذا وقعت، بدليل أن الله تعالى أمر بضرب رقاب الكفار بعد ذكر صدهم عن سبيله، وجعل توقف الحرب غاية

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣ / ١٠٣٤ (٢٦٥٥).

لإنهاك الكفار.

فحتى في قوله ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ للتعليل، أي لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي ليكف المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، فإن امتناعهم عن قتالكم كاف في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم، وأنتم أولى بالسلم منهم[١].

بل إن هذا الكف يتيح لكم أن تبروهم وتحسنوا إليهم حسب قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

وقد نص الرسول ﷺ على استعداده لقبول أية خطة من شأنها إقرار السلم حين قال يوم الحديبية: " والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها "[٢].

قال ابن حجر: " قوله " لا يسألونني خطة " بضم الخاء المعجمة، أي خصلة " يعظمون فيها حرمات الله " أي من ترك القتال في الحرم، ووقع في رواية ابن إسحاق " يسألونني فيها صلة الرحم " وهي من جملة حرمات الله " إلا أعطيتهم إياها " أي أجبتهم إليها "[٣].

ويوم فتح مكة أخذت الحماسة سعد بن عبادة فقال: اليوم يوم الملحمة، أي يوم المقتلة العظمى، فدخل أبو سفيان على الرسول ﷺ فقال له: أمرت بقتل قومك ؟ قال: «لا» فذكر له مقالة سعد بن عبادة، فقال: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشا» وأرسل إلى سعد فأخذ منه الراية ودفعها إلى ابنه قيس[٤].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٥٣٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢ / ٩٧٤ - ٩٨٠ (٢٥٨١).

(٣) فتح الباري لابن حجر ٥ / ٣٣٦.

(٤) انظر: ما أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٤ / ١٥٥٩ (٤٠٣٠) =

وقد عقد ﷺ معاهدة مع اليهود إثر مقدمه المدينة، كما عقد معاهدة الحديبية مع كفار قريش إيثارا للسلم ورغبة في الصلح.

من هنا كان في تقييد إعداد المستطاع من القوة بقصد إرهاب الأعداء المجاهرين والمستخفين دليل على تفضيل جعله سبباً لمنع الحرب على جعله سبباً لإيقاد نارها، وهذا عين ما يسمى في عرف دول هذه الأيام بالسلام المسلح، بناء على أن الضعف يغري الأقوياء بالتعدي على الضعفاء، ويؤيد ذلك ورود آية الجنوح إلى السلم بعد آية إعداد المستطاع من القوة [1].

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾.

سابعا: أهم مقصد مصلحة الدعوة:

مصلحة الدعوة أهم مقصد في الإسلام وليس هناك اختلاف بين مدلول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ ومدلولا الآية التي عاتب الله فيها الرسول ﷺ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر والتقتيل كان أولى.

قال تعالى في سورة الأنفال:﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ لأن الإثخان يكون أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته، وبعد ذلك يكون الأسر.

= وفتح الباري لابن حجر ٨/ ٩.

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٠ / ٦٦.

والحكمة ظاهرة، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال، وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة، وكانت الكثرة للمشركين وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك، والحكم ما يزال سارياً في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو وتعجيزه.

ثامنا: تحديد الحكم في الأسرى:

الحكم في الأسرى تحدده آية سورة محمد ﷺ فهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى، فإما أن يطلق سراحهم بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين، وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين، وليس في الآية حالة ثالثة كالاسترقاق أو القتل.

قال الألوسي: «وظاهر الآية على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم امتناع القتل بعد الأسر وبه قال الحسن»[(١)].

وقال الحسن وعطاء: التخيير بين المن والفداء فقط دون قتل الأسير، فقتل الأسير يكون محظوراً، وظاهر هذه الآية يعضد ما ذهب اليه الحسن وعطاء كما قال ابن عاشور[(٢)].

ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى وقتلوا بعضهم، كما قتل ﷺ عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل، وقال:" اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة "[(٣)].

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٦/ ٤٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٣ - ٣٢٨٤، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٦٢ (٢٣٢٩) قال الهيثمي: ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ١٦٨ - ١٦٩.

وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر، فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء دعوته، وكذلك أبو عزة الشاعر، وأمر بقتل بن خطل لأنه كان مسلما فبعثه ﷺ مصدقا، وبعث معه رجلا من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه، وكان مسلما، فنزل منزلا، فأمر المولى أن يذبح تيسا ويصنع له طعاما، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وهكذا نجد في جميع الحالات أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية بالمن أو الفداء[١].

والخلاصة أن هذا النص القرآني هو الوحيد الذي يتضمن حكم الأسرى، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر، وما وقع بالفعل خارجاً عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية.

ولهذا لما أتى الحجاج بن يوسف بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلا ليقتله، قال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، قال الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[٢].

ويكفي ما ثبت في صحيح البخاري من قوله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[٣].

لأن الإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعاً لمكان العصمة وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي جوازه شرعا[٤].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٤ / ٦٠ – ٦٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٤.
(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٥٨.
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدرا ٤ / ١٤٧٥ (٣٧٩٩).
(٤) انظر: روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٤١.

تاسعا: تحديد الموقف من الرق:

الاسترقاق كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة، وتقاليد في الحرب عامة، ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين.

ومن ثم طبقه الرسول ﷺ في بعض الحالات، فأطلق بعض الأسارى منا، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين، وفادى بعضهم بالمال، وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء، فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق، فليس الاسترقاق حتمياً، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام [1].

عاشرا: الإعلام سلاح نافذ:

الإعلام سلاح نافذ التأثير ولذلك يجب أن تكون للمسلمين آلة إعلامية تتبنى خطاباً مضاداً للحملات التي يشنها أعداؤهم للنيل من إرادتهم وتوهين عزيمتهم.

وهذا ما أفهمه من قول قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعل هبل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال، فقال النبي ﷺ: «قولوا لا سواء، قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذبون» فقال المشركون: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم [2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤ / ١٠٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٩، وقد رواه الإمام

إن مجرد نزول الآية مع حرص الرسول ﷺ على الرد على خطاب المشركين الإعلامي بخطاب إعلامي آخر له أهداف وآثار تتجاوز المواجهة الآنية لآثار وأهداف الخطاب الإعلامي للمشركين إلى بناء منظومة إعلامية مهمتها الحفاظ على اعتزاز الأمة بهويتها، وزيادة ارتباطها بالله تعالى وبوحيه، ومواجهة الرسائل الإعلامية المضادة من موقع المهاجم لا المدافع.

المقطع الثاني

سنة الله التي لا تتبدل في المؤمنين والكافرين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

بعد أن عرَف في المقطع السابق بطرفي الصراع وحث الطرف المؤمن على قتال الكفار يحرض المؤمنين هنا على نصرته عموما إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد التي يمكن معاينتها بالسير

أحمد في مسنده ١ / ٤٦٣، قال الهيثمي: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

في الأرض للنظر في عواقب السابقين.

ولن يقف التمايز بين الطرفين عند حد هذه الحياة، ولكنه سيمتد إلى الآخرة حيث الفارق الأصيل بين متاع المؤمنين ومتاع الكافرين.

فمتاع المؤمنين كريم علوي رفيع ؛ لأنهم يتلقونه من يد الله عز وجل، بينما عاقبة الكافرين العذاب في عالم الخلود مع أن حظهم من الحياة الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

التفسير الإجمالي:

هذا المقطع نص صريح الدلالة على أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم وثبت أقدامهم أي عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد افتتح تحريض المؤمنين على نصره بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام وإيماء إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك، ويقصد بنصره عز وجل: نصرهم لدينه ولكتابه وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا وأن تقام حدوده، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه (١).

أما نصره تعالى لمن نصره فيكون بخلق القوة والجرأة فيه، وتثبيت الأقدام على الإسلام وفي موطن الحرب وعقب النصر.

فتأخير تثبيت الأقدام عن النصر يوحي بأن المقصود معنى التثبيت على النصر وتكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، لأن كثيراً من الناس يثبت على المحنة والبلاء ولا يثبت على النصر والنعماء (٢).

و لأن الكافرين كرهوا ما أنزل الله تعالى من قرآن وشريعة ومنهج كان الحزن والشقاء والهلاك والخيبة حقا لهم عنده تعالى وفق سنته التي لا تتبدل، وفي ذلك تقوية لقلوب المؤمنين

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ١١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٣٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٢٨٩.

حتى لا يتوهم أحد منهم أن الكافر أيضا يثبت فيدوم القتال، وفي ذلك مشقة عظيمة [١].

وسنة الله تعالى في الكافرين لها آثار دمار وخراب واضحة لمن سار في الأرض ونظر في أحوال السابقين، وهي سنة مرتبطة بقانون قائم يرتاع منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع في كل زمان ومكان.

هذا القانون هو ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ وقد وقع ذلك لأول من خوطبوا بهذا القانون، حيث استأصل صناديدهم يوم بدر ويوم حنين بالسيف، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول ﷺ بل جعل الله تعالى ما نصر به رسوله ﷺ أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو[٢].

وهذا الفارق بين عاقبة طرفي الصراع محكوم بقاعدة أصيلة دائمة، وهي أن الله تعالى مولى الذين آمنوا أي وليهم وناصرهم، أما الكافرون فلا مولى لهم [٣].

ولذلك يدخل سبحانه المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، بينما الكافرون يتقلبون في النار، لأنهم كانوا يأكلون في الدنيا أكلا مجردا من الفكر والنظر، غافلين عن عواقبهم ومنتهى

---

(١) أكثر الأقوال في معنى تعسا ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك، وقال في حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حق الكافرين بصيغة الدعاء وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٣٢ - ٢٣٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٤.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٤، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٨.
يقال دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك ما يختص به، فدمر عليه أبلغ من دمره، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيا منسيا بكلمة الاستعلاء لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٥.

(٣) وفي قراءة ابن مسعود «ولي الذين آمنوا» انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٢.

أمورهم، فمثلهم مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[١].

وتعترض سلسلة الموازنات بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين لفتة إلى القرية التي أخرجت الرسول وموازنة بينها وبين القرى الهالكة مع أنها كانت أشد قوة منها.

وقوله تعالى ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، وهذا تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين قطعاً لما قد يخالج نفوسهم أنهم لا يغلبون لتظاهر غيرهم معهم [٢].

ثم يشير سبحانه إلى علة هذا التمايز الواضح بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، وهي أن المؤمنين كانوا على بينة من ربهم[٣].

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٤٧، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٥، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٦، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد ٥ / ٢٠٦١ (٥٠٧٨).

وقد اختلف في معناه، فقيل: ليس المراد به ظاهره وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معي واحد والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، وقيل: المعنى أن المؤمن يأكل الحلال والكافر يأكل الحرام، وقيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرته صفة الكافر، وحقيقة العدد ليست مرادة، فتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، ولا يلزم اطراد هذا في كل مؤمن وكافر. انظر: فتح الباري لابن حجر ٩ / ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) انظر: روح المعاني للألولسي ٢٦ / ٤٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٣) البينة هي القرآن أو الدين أو البصيرة واليقين والحجة، والذي على بينة من ربه هو الرسول أو المؤمن عموما، والأولى حمل اللفظ على العموم لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر، لأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه.

ومعنى وصف البينة بأنها من الله تعالى: أنه أرشدهم إليها وحرك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجة حجة في نفسها، وكونها من عند الله تزكية لها وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالتها، كما يظهر الفرق بين =

أما الكافرون فزين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم، ثم يعرض صورة أخرى من صور التمايز بين المؤمنين والكافرين في المصير بعد الصورة السابقة في الفرق بين الجانبين في الاهتداء والضلال.

فكل من اتقى الشرك، وعمل الصالحات واجتنب السيئات له في الجنة أنهار من ماء ولبن غير متغير ولا فاسد، وأنهار من خمر لذيذة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وأنهار من عسل لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها[1].

وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينغصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها[2].

= أخذ العلم عن متضلع فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيبا، وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق، فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأن الله يسر لهم أسبابه، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين فلم يألوا جهداً في حسن أعمالهم، وذلك من آثار أن الله تعالى أصلح بالهم وهداهم. انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ١١٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٥ / ١٩١، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٣.

(١) عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: " إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد " أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة ٤/ ٦٩٩ (٢٥٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨/ ٩٥، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٤، ومعالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٢.

وإطلاق الأنهار على أنهار الماء حقيقة، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي مماثلة للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج، ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٦.

ولهم فيها مع ذلك كله أصناف من جميع أجناس الثمرات مما علموه في الدنيا ومما لم يعلموه، بالإضافة إلى تجاوز ربهم عنهم، فلهم أن يعملوا ما شاءوا بلا تكليف عليهم على نحو معنى قوله ﷺ: « لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "[١] وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم، بينما الكافرون محرومون من هذا الرضوان ومن جميع ما ذكر من المشروبات، وليسوا بذائقين إلا السخط والماء الحار الذي يقطع أمعاءهم[٢].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: تكاليف النصر:

نصر الله عز وجل ليس هبة تمنح دون مقابل، بل لابد من تقديم تكاليف هذا النصر والتي تتمثل في نصرة دينه تعالى وكتابه، والسعي في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه.

وهذا المعنى واضح في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقد أشار ابن القيم إلى هذه الحقيقة في تعليقه على قول الله عز وجل في سورة النساء:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ٤ / ١٩٤١ (٢٤٩٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٧.

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ قال: "يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز وجل ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾. أخرجه الحاكم في مستدركه ٢ / ٤٩٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ حيث قال: «انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً»[1].

ولذلك عهد عمر بن عبدالعزيز إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة وأبلغ المكيدة وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراسا لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم[2].

ثانيا: التنويع في مجال الوعظ:

ينبغي أن نستفيد في مجال الدعوة إلى الله تعالى من النسق القرآني الذي ينوع في مجال الوعظ، حيث يتم الانتقال من أجواء عقاب الكافرين في الدنيا إلى أجواء عذابهم في الآخرة، ثم يعود مرة ثانية إلى صور العقاب الدنيوي بحيث تجد الطبائع المختلفة ما يشدها إلى الإيمان ويخلعها من الكفر.

إن الإطناب في الوعيد مطلوب لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب مراعاة لطبيعة المنحرفين، فمفاد آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ مؤكد لمفاد آية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢ / ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ / ٣٠٣.

القرى والمدن بعد أن شمل قوله ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ من كان من أهل القرى.

وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هين على الله عز وجل، فإنه لما كان التهديد السابق تهديداً بعذاب السيف من قوله ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ قد يلقى في نفوسهم غروراً بسبب المنعة التي تتمتع بها قريتهم مكة بسبب تظاهر قبائل العرب معها، أعلمهم الله تعالى أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيراً[١].

ولا يقف الأمر عند حد التنويع في مجال الترهيب فقط بل لابد من الترغيب مع الترهيب لأن الرجاء والخوف يختلطان بالكيان البشري ويصوغان أفكار الإنسان ومشاعره، وبالتالي أهدافه وسلوكه، فعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو، وعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف تتحد الأهداف ويصاغ منهج الحياة.

ومن هنا ذكرت السورة إلى جانب الترهيب بعاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة الترغيب ببيان عاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

ثالثا: لكل مقام مقال:

لكل مقام مقال ولذلك يجب أن نتخير الظرف الملائم والخطاب المناسب في التخفيف عن كل من يتعرض للابتلاء على طريق الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا واضح من نزول آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ ﴾ في أثناء رحلة الخروج والهجرة، تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه، وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا أصحابها، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم[٢].

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٦٣.

ولو أننا تتبعنا معظم الآيات التي نزلت في وعد المؤمنين بالنصر وبيان عاقبة السوء التي تنتظر الكافرين لوجدنا أنها قد تنزلت في مناسبات تعرض فيها الرسول ﷺ والمؤمنون للون من ألوان الأذى أو الاضطهاد أو حتى توهم الانكسار.

ومن أوضح الشواهد على ذلك كل آيات سورة آل عمران التي تنزلت للتعقيب على أحداث غزوة أحد، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

رابعا: سلاح الإعلام باق في كل الأحوال:

يجب أن تبقى للمسلمين حملاتهم الإعلامية حتى بعد أن يتحقق النصر ؛ لأن هذا يقوي صفهم ويخلخل نفوس خصومهم.

وهذا واضح من المقابلة بين المبدأ الذي عليه المؤمنون والمبدأ الذي عليه الكافرون في ثنايا الحديث عن تحقق النصر للمؤمنين في الدنيا والفوز بالنعيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾.

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه، والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين، فقوله ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ فرق فارق وقوله ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله عز وجل تكون أقوى وأظهر، فتكون أعلى وأبهر، وكذلك قوله عز وجل ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ فرق فارق وقوله ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾[1].

المقطع الثالث

التعريف بالمنافقين والموازنة بينهم وبين المؤمنين

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/ ٤٦.

بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

لما بين الله تعالى في المقطعين السابقين حال الكافر وعاقبته موازنة بحال المؤمن وعاقبته ذكر هنا حال المنافق وعاقبته، ووازنها بحال المؤمن وعاقبته، فهذه الجولة مع المنافقين وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد ومن اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين.

فذكر المنافقين هنا باعتبار أنهم فرقة من الكافرين الذين دار الحديث عنهم قبل ذلك، أو باعتبار أنهم - في الظاهر - طائفة من المسلمين الذين دار الحديث عنهم في الآيات السابقة حيث إنهم متظاهرون بالإسلام معهم، وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم حسب المنهج الإسلامي في معاملة الناس.

التفسير الإجمالي:

حركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود في مكة، لأن المسلمين فيها كانوا في موقف المضطهد الذي لا يحتاج أحد أن ينافقه، فلما أعزهم الله تعالى اضطر ناس ممن كرهوا الإسلام إلى التظاهر بالإيمان وهم يضمرون الحقد والبغضاء ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية مع كراهيتهم للإسلام وأتباعه مشجعا للمنافقين على التحالف معهم.

وقد كان هؤلاء يستمعون إلى خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة أو قوله على عموم الأوقات

استماعا بالغاً جيداً؛ لأنهم يستمعون ثم يستعيدون بعد خروجوهم من علماء الصحابة[١] استهزاء بما سمعوه كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أو لأنهم لا يفهمون بسبب طبع الله تعالى على قلوبهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ومنهم من كان يقول ذلك جهالة ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مقبلا على فكرته في أمر دنياه وفي كفره، فكان القول يمر صفحا، فإذا خرج قال: ماذا قال آنفا، أي الساعة الماضية القريبة منا، ويضاف إلى ذلك أنهم اتبعوا أهواءهم أي فلا فهم صحيح ولا قصد قويم[٢].

وفي مقابل نهج المنافق نرى المؤمن المهتدي يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم، ولهذا يؤتيه الله عز وجل ثواب تقواه أو توفيق العمل، وهذا يقطع عذر المنافقين ويبين كونهم مذمومي الطريقة، فإنهم لو قالوا: ما فهمنا قول الرسول ﷺ لغموضه وكونه معمى ؛ يرد عليهم بأن الأمر ليس كما تزعمون، بدليل أن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه وازدادوا بما سمعوه هدى فذلك منكم أيها المنافقون لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب[٣].

ولذلك لا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة رغم أن علاماتها قد اتضحت، مما استدعى أن يهزهم هزة في غاية القوة ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان، والمعنى فأنى لهم الخلاص أو النجاة إذ جاءتهم الذكرى بما كانوا يكذبون به في الدنيا وجاءهم العذاب مع ذلك، أو فأنى

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضي الله عنهما: ماذا قال آنفا ؟ فيقول: كذا وكذا. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٤٦٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٠١، وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٥، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/ ٥١، وزاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥١

لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة، وفيه حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله عز وجل في سورة الفجر: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أي وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم[1].

ويوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه ليثبتوا على طريق العلم بحقيقة التوحيد التي يقوم عليها أمر الدين، ويستغفروا الذنوبهم استغفاراً ينبئ عن الشعور برقابة الله عز وجل وعلمه الشامل المحيط بهم في كل متقلب وفي كل إقامة، بحيث لا تشغلهم عن هذا النهج أية شواغل[2].

ويعرض تطلع المؤمنين وشوقهم إلى سورة من القرآن لتفصل في قضية من قضايا القتال كانت تشغل بالهم، فإذا أنزلت سورة فاصلة بينة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال ولا يرد عليها النسخ إذا بمن ملأ النفاق والشك قلوبهم يفقدون تماسكهم، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف بنظرهم إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت[3].

وكان الأجدر بهم أن يستسلموا لأمر الله عز وجل عن طمأنينة، ويقولوا قولا ينبئ عن نظافة الحس واستقامة القلب وطهارة الضمير، وأن يصدقوا ويخلصوا إذا جد الجد فيقاتلوا بنية الجهاد، لأنهم لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا خير العزة والكرامة وفي الآخرة خير الجنة، ويمكن أن يكون فأولى لهم مستعملاً في التهديد والوعيد كما في قوله

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٢٥٥.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٦.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٥.
وإنما قال وذكر فيها القتال ؛ لأن السورة الكريمة ليست كلها متمحضة لذكر القتال، فإن سور القرآن ذوات أغراض شتى، قال قتادة: كل سورة أنزل فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٩٦.

تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ وهو ما اقتصر عليه الزمخشري[١].

وهل يتوقع من هؤلاء وأمثالهم من المعرضين عن الإسلام إلا أن يفسدوا في الأرض بأن يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض فتتقطع الأواصر والأرحام، أو إن تولوا الحكم في بلد من البلاد إلا أن يفسدوا فيها بالجور والظلم فتحل عليهم لعنة الله تعالى فإذا هم صم الآذان، عمي الأعين والأبصار[٢].

وليتهم يدركون هذه الحقيقة فيقبلوا على علاج أدوائهم بالتدبر والتفهم في آيات القرآن الكريم، فهذا التدبر وحده هو الذي يزيل غشاوة الأبصار، ويفتح نوافذ الآذان، ويسكب النور في القلب، وينشيء حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، لكن قلوب هؤلاء المنافقين مقفلة لا يتوصل إليها ذكر من الله عز وجل.

عن خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما فذلك قوله ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٣].

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٥، والكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٠ – ١١١.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٧، وفتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٨١.
وفي قوله ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم وقال وأعمى أبصارهم ولم يقل أعماهم وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام، فقال أصمهم من غير ذكر الأذن وقال أعمى أبصارهم مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرا لما جمع، فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام والعين لها مدخل في الرؤية، بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرا، كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ والوقر دون الصم وكذلك الطرش. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٥٧.

فأم في ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ بمعنى بل، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بذلك، وقال على قلوب لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة، والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها [١].

وبسبب هذه الأقفال ارتد قوم على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم، فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾وقال بعض العلماء نزلت الآية المذكورة في المنافقين، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر [٢].

وقد سول الشيطان لهم هذه الردة أي سهلها وزينها وحسنها لهم، كما مناهم بطول الأعمار، لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي، كما قال الله عز وجل في سورة النساء:﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ ويمكن أن يرجع ضمير الفاعل في وأملى لهم إلى الله تعالى، والمعنى: الشيطان سول لهم، والله جل وعلا أملى لهم أي أمهلهم إمهال استدراج [٣].

---

(١) انظر الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٨، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٧٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٠.

والتسويل: تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر، وتزيين ما ليس بحسن، والإملاء: المد =

وقد نتج التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر من قولهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، والله عز وجل مطلع على سرائرهم، ولذلك يفضح سرهم ويسلط عليهم الملائكة عند الموت يضربون وجوههم وأدبارهم.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وسبب كل هذا البلاء أنهم اتبعوا ما أغضب الله تعالى من الكفر به وطاعة الكفار الكارهين لما نزله، ولما كان اتباع ما أسخطه تعالى مقتضيا للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للأعراض ناسب ضرب الدبر، ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر وأضاف إلى ذلك إحباط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها [1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: كل يأخذ من القرآن:

القرآن الكريم يعطي لكل إنسان بحسب استعداده، فالمؤمن المهتدي يستمع إليه فيفهم آياته ويعمل بها فيزداد إيماناً مع إيمانه، بينما يزداد الذين في قلوبهم مرض بنفس الآيات كفراً وعصياناً.

= والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٦.

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٩، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٠، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٦.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع [(١)].

وقرأ الحسن قول الله تعالى في سورة ص: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ فقال: وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل [(٢)].

فتدبر القرآن وتفهمه والعمل به أمر لا بد منه لكل من له قدرة على ذلك، لأن الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ولو أن القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلا، ومن المعلوم أيضاً أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٥٦٣.

(٢) انظر: فهم القرآن للحارث المحاسبي ص ٢٧٥.

جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصى [١].

ثانيا: علم الساعة عند الله:

ليس هناك دليل يخول للبعض حسم القول في المتبقي من عمر الدنيا، وكل ما يمكن قوله أن أمارات الساعة وعلاماتها قد اتضحت، ومنها بعثة نبينا محمد ﷺ فقد قال: «عثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»[٢].

وقال ﷺ: « إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج " [٣] وقال ﷺ: « والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وحتى يخون الأمين ويؤتمن الخائن " [٤].

وأشراط الساعة منها صغار، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي، وهي التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم، ومنها الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها كالحامل المتم، ونزول عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهب بعد موت عيسى فتقبض أرواح المؤمنين [٥].

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ٥ / ٢٣٨٥ (٦١٣٨ - ٦١٤٠) ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢ / ٥٩٢ (٨٦٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ظهور الفتن ٦ / ٢٥٩٠ (٦٦٥٣ - ٦٦٥٦) ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤ / ٢٠٥٦ (٢٦٧٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ / ٥٥٨ (٨٥٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٨٥، ونص الحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذاكرون ؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ". أخرجه مسلم في، باب في الآيات التي تكون قبل=

ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن وأطلع على أحوال الأزمان رأي أن أكثر علامات الساعة قد برزت للعيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا فأمرها مجهول، ورداء الخفاء عليه مسدول، وقصارى ما يمكن قوله: أن ما بقي من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة إلى ما مضى[١].

ثالثا: العلم أساس العمل والإقرار بالإيمان كاف:

قول الله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ دليل على وجوب تقدم العلم على العمل، ولهذا بوب البخاري رحمه الله العلم قبل القول والعمل استنادا إلى هذه الآية الكريمة[٢].

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذان بمزيد شرفه ؛ فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات، ومن اعتقد جازما بحقائق الإيمان فقد صح إيمانه من غير إثم، لحصول المقصود، بدليل اكتفاء النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من العوام بمجرد الإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على أنهم يعتقدون مضمون ذلك ويذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضا لأمروا به بعد النطق بالكلمتين، أو علموا الدليل ولقنوه، ولو وقع ذلك لنقل إلينا، فإنه من أهم مهمات الدين، ولم ينقل أنهم أمروا أحدا منهم أسلم بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظر واجباً على الأعيان ولو إجمالياً لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والأجلاف بمجرد الإقرار لأنه وأصحابه لا يقرون أحداً على ترك فرض العين من غير عذر، فلا يكون تاركه آثما فضلا عن أن يكون بتركه غير صحيح الإيمان بل قد يقال إن ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيراً من المشركين في عهده ﷺ لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقا[٣].

= الساعة ٤ / ٢٢٢٥ (٢٩٠١)

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١ / ٣٧.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٦٢.

رابعاً: عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام:

عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام حق لا ريب فيه، ويقصد بذنبه في﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإرشاداً له ﷺ إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل، وقيل: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك من الذنوب، وقد ذكروا أن لنبينا ﷺ في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه، فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وفي هذه الآية لطيفة وهي أنه ﷺ له أحوال ثلاثة: حال مع الله، وحال مع نفسه، وحال مع غيره، فأما مع الله وحده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك[1] واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم[2].

خامساً: اهتمام المؤمن بأمر أخيه:

في قوله ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ دليل على وجوب الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يدعو اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعمدي وكل ذلك عندي. أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٦).
وفي الصحيح أيضا أنه كان يقول في آخر الصلاة: " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيئ قدير " أخرجه البخاري في الدعوات باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٥).
وفي الحديث " أني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة " أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٤٩٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٢، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٥.

وهذا الوجوب يحمل في طياته دلالة على مزيد اهتمام المؤمن بأمر أخيه الديني والدنيوي ففي الحديث: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "(١).

سادسا: لا تتعجل قدر الله تعالى:

لا ينبغي للإنسان أن يتعجل شيئاً لم يحققه الله تعالى، بل عليه أن يسأله سبحانه أن يرضيه بقضائه، وأن يبارك له في قدره حتى لا يحب تعجيل ما أخر ولا تأخير ما عجل.

وقد بين الله عز وجل أن المؤمنين تمنوا في وقت من الأوقات أن يشرع لهم الجهاد فلما فرضه وأمر به نكل عنه كثير من الناس.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

وفي سورة محمد قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

سابعا: الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد:

الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد ؛ لأنه دين التوحيد والبر والصلة والصلاح فعن عمرو بن عبسة قال أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت ؟ قال: «أنا نبي» قلت: وما النبي ؟ قال: «رسول الله» قلت: بم أرسلك ؟ قال:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤ / ١٩٩٩ (٢٥٨٦).

«بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم[٢]: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك، قال رسول الله ﷺ اقرؤا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣].

والرحم على وجهين: عامة وخاصة ؛ فالعامة رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى وحقوق الموتى، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة فهي القرابة من طرق الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب[٤].

ثامنا: لا يجوز لعن المعين:

الجمهور على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمياً حياً أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر؛ لاحتمال أن يختم له بالإسلام، بخلاف من علم موته على الكفر كفرعون وأبي جهل[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ / ١٦٥ (٧٢٤٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) يحتمل أن يكون كلام الرحم على سبيل الحقيقة ؛ لأن الأعراض يجوز أن تتجسد وتتكلم بإذن الله تعالى، ويجوز أن يكون على حذف، أي قام ملك فتكلم على لسانها، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها وبيان فضل واصلها وإثم قاطعها. انظر: فتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من وصل من وصله الله ٥ / ٢٢٣٢ (٥٦٤١).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٥) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٢.

ثم إن اللعن في حق غير المعين زجر عن تعاطي الفعل الذي لعن بسببه، وفي حق المعين أذى له وسب، وقد ثبت النهي عن أذى المسلم، فيجمع بين المصلحتين ؛ لأن لعن المعين والدعاء عليه قد يحمله على التمادي أو يقنطه من قبول التوبة، بخلاف ما إذا صرف ذلك إلى المتصف فإن فيه زجراً وردعاً عن ارتكاب ذلك، وباعثا لفاعله على الإقلاع عنه، قال الغزالي: وفي معنى اللعن الدعاء على الإنسان بالسوء حتى على الظالم مثل لا أصح الله جسمه، وكل ذلك مذموم والأولى حمل كلام الغزالي على الأول (١).

تاسعاً: أمر الإنسان بيده:

مفتاح سلطان الشيطان على الإنسان بيد الإنسان نفسه، فإذا أقفل قلبه أمام الهدايات الربانية تفتحت نوافذ هذا القلب للتسويلات الشيطانية، ويبقي الإنسان مع ذلك ممسكا بزمام الأمور، بحيث يكون في وسعه عدم الانصياع لهذه الوساوس إن بقيت بينه وبين وحي الله تعالى أدني صلة.

وهذا ما فهمته من مجيء الردة عن الهدى بعد الآية التي تستنكر عدم تدبر القرآن بسبب الأقفال التي على القلب، وبسبب اتباع ما يسخط الله تعالى.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾.

عاشراً: ردة صريحة:

كل من أطاع من كره ما نزل الله وعاونه وآزره في مقتضيات هذه الكراهية وفيما يترتب عليها مرتد عن الهدى كافر بالله إن لم تكن لدية شبهة جهل أو اضطرار.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢ / ٧٦.

ولهذا قال الله تعالى فيمن كان كذلك ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالذي يطيع من كره ما نزل الله يكون كارها رضوانه تعالى ؛ لأن رضوانه ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه ؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه فهو ككارهه[1].

حادي عاشر: لكل مقام مقال:

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ يضربون وجوههم وأستاههم ولكن الله سبحانه كريم يكنى[2].

فيجب أن نتأدب في مثل هذا ونكني عن قبيح الأسماء، ونستعمل المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه.

وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٣٨٣.

(٢) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره، قال الألوسي: والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦/ ٧٦.

وقوله في سورة النساء: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وقوله في سورة البقرة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

فإن وجدت مصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك جاز استعمال صريح الاسم [١].

فعن بن عباس رضي الله عنهما قال لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا يا رسول الله، قال: «أنكتها» لا يكني، قال فعند ذلك أمر ﷺ برجمه [٢].

وعند ابن حبان فقال رسول الله ﷺ له: «أنكتها» فقال: نعم، فقال: «هل غاب ذلك منك فيها كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر ؟» فقال: نعم، فقال: «فهل تدري ما الزنا ؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: «فما تريد بهذا القول» قال: أريد أن تطهرني، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم فرجم [٣].

وإنما ذكر ﷺ هذا اللفظ صريحاً بعد ذكر الجماع ؛ لأن الجماع قد يحمل على مجرد الاجتماع فلم يكتف بإقرار المقر بالزنا، بل استفهمه بلفظ لا أصرح منه في المطلوب، وهو لفظ النيك الذي كان ﷺ يتحاشى عن التكلم به في جميع حالاته، ولم يسمع منه إلا في هذا الموطن، ثم لم

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المحاربين، هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٦ / ٢٥٠٢ (٦٤٣٨)

(٣) صحيح ابن حبان ١٠ / ٢٤٥ (٤٣٩٩).

يكتف ﷺ بذلك بل صوره تصويراً حسياً، ولا شك أن تصوير الشيء بأمر محسوس أبلغ في الاستفصال من تسميته بأصرح أسمائه وأدلها عليه، فدل جميع ما ذكر على أنه يجب الاستفصال والتبين، وأنه يندب تلقين ما يسقط الحد، وأن الإقرار لا بد فيه من اللفظ الصريح الذي لا يحتمل غير المواقعة[1].

المقطع الرابع

تهديد الضالين ودفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

لما بين في المقطع السابق حال المنافقين وعاقبتهم وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٢٤، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٧، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٦٦.

القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد وتآمرهم مع اليهود توعدهم هنا بكشف أمرهم وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين، وأمر المؤمنين بتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الابتلاء بالجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، وهددهم إن هم تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم في التفريط في هذه التكاليف.

التفسير الإجمالي:

بعد أن قدّر الله تعالى أنه يعلم أسرار الكافرين والمنافقين استهجن تصورهم أنه لن يبرز أحقادهم وأمراضهم[١] وبين أنه لو شاء لكشف لرسوله ﷺ عنهم بذواتهم وأشخاصهم أو بعلامة على وجوههم [٢] ولكنه أخر ذلك لمحض المشيئة إبقاء عليهم وعلى قرابتهم، وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول[٣] وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبي والجد بن قيس وغيرهم ممن دونهم في الشهرة، ومع ذلك فإن لهجتهم، ونبرات صوتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في الخطاب سيدل الرسول ﷺ على نفاقهم، فليعلم المنافقون أن الله تعالى محيط بأعمالهم، وليطمئن المؤمنون إلى علمه تعالى بأعمالهم التي يتميزون بها عن هؤلاء المنافقين، وبالتالي فلن يضيع ثوابهم عليها، فالآيات إذا فيها وعد ووعيد[٤].

---

(١) استعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة ؛ لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي، والإخراج أطلق هنا على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة، لأن الإخراج استلال شيء من مكمنه فاستعير للإعلام بخبر خفي. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٢٠.

(٢) قال أنس: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٧.

(٣) قال الكلبي في ﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٣.

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٩ - ٣٣٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠ - ١٢١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٨.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يكشف لهم بعض حقائق علمه، حيث يبتليهم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف التي تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها، بحيث يتعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها، وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم[١].

ويعود للحديث عن الكفار عامة ليصرح بأنهم أضأل وأضعف من أن يضروا دين الله أو منهجه أو يحدثوا حدثا في نواميسه وسننه، ولو قدروا على إيذاء بعض المسلمين، فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريدها، وسيحبط مكايدهم فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون، ولا تثمر لهم إلا الخراب والدمار[٢].

ويحذر المؤمنين من هذا المصير، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حتى لا تبطل أعمالهم بالمعاصي والكبائر[٣] أو النفاق والرياء والسمعة أو المن أو الردة [٤] كما يوجههم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي ؛ لأن الله معهم برعايته وحفظه وكلاءته، ولن ينقصهم شيئا من ثواب أعمالهم[٥].

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٠ - ٦٢، ومعالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٦، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٤.
وأخبارهم التي يبلوها: قولهم آمنا، أو إخبارهم من عدم توليتهم الأدبار عند اللقاء، أو أنه كانت للمؤمن أخبار صادقة مسموعة من النبي ﷺ وللمنافق أخبار أراجيف، فعند تحقق الإيجاف يتبين الصدق من الإرجاف.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠١.

(٣) قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها. انظر: جامع البيان للطبري ٢٦/ ٦٢.

(٤) ويدل على الردة قوله تعالى عقب ولا تبطلوا أعمالكم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾.

(٥) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٢.

ويحذرهم من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو[1] لأن الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو، واللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشتغل به الإنسان عن أشغاله المهمة، فإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، فالمطلوب منهم هو الإيمان والتقوى إن رغبوا حقا في أجر الله عز وجل[2].

والإيمان والتقوى لا يستلزمان إنفاق الأموال كلها في سبيل الله ؛ لأنه عز وجل لا يسألكم ذلك بحيث يخل أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نزر يسير، كما أن نبيه ﷺ لا يسألكم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي، وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ وقيل: لا يسألكم أموالكم لنفسه أو لحاجة منه إليها، إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم، وقيل: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها[3].

ولو أنه سألكم أموالكم كلها لبخلتم ولضاقت صدوركم لذلك وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، ودليل ذلك أنكم تدعون إلى الإنفاق في سبيله تعالى فمنكم

---

(١) اختلف العلماء في قوله ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح، وقيل: إنها منسوخة بآية الأنفال، وقيل: هي محكمة والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، وقيل، إن قوله ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم والأخرى عامة فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم لضعف في العدد أو العدة. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٦.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٤.
ومعلوم أن في الحياة الدنيا ما ليس بلعب ولا لهو وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه، لكن الآية تتحدث عن واقع أغلب الناس في الأخذ من الدنيا.

(٣) انظر: معالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٧، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٢.

من يبخل، ومن يبخل فبخله عن نفسه ولا يتعداه ضرر بخله، لأن الله تعالى هو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكنه يدعوكم لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، وإن لا تنهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإنه تعالى يحرمكم كرامة حملها، ويستبدل قوما غيركم يعرفون قدرها وينهضون بتكاليفها، وهو تهديد عنيف مخيف يعالج حالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي يمتلئ بها واقعهم، والتي يعجز القلم أحيانا عن تصويرها[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: الابتلاء سنة ربانية:

سنة الله تعالى أن يختبر الناس بالضراء والسراء ليتميز لهم بذلك صادقهم من كاذبهم وينكشف ما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ وفي سورة التوبة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وفي سورة العنكبوت: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٦٥ – ٦٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤١٤ – ٤١٧، والكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٢ – ٣٣٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

فيحفكم أي يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه إذا استأصله، قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة(١).

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله عز وجل وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء صبر له واستسلم لمشيئة الله تعالى وهو واثق من حكمته، متطلع إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء.

وقد روي عن الفضيل بن عياض أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا(٢).

ثانياً: قول القائل وفعله يدل على نيته:

أنزل الله تعالى سورة براءة، فبين فيها أقوال ومسالك وأفكار المنافقين ولهذا كانت تسمى الفاضحة.

وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين(٣) ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، وردا للسرائر إلى عالمها، وإبقاء على سنته تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنها سنة ناشئة عن الحكمة، فلما أراد سبحانه تكريم رسوله ﷺ بإطلاعه على دخائل المنافقين سلك في ذلك مسلك الرمز اكتفاء بأن قول القائل وفعله يدل

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٤ - ٣٨٦.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٠.

وفي الحديث الذي سبق تخريجه: « لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

(٣) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: " إن منكم منافقين فمن سميت فليقم " ثم قال: " قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان " حتى سمى ستة وثلاثين رجلا، ثم قال: " إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله " قال: فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بعدا لك سائر اليوم. أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٧٣.

على نيته، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه [(١)].

ثالثاً: الكبائر لا تبطل الأعمال الصالحة:

ليس هناك دليل على أن الكبائر تبطل الأعمال الصالحة، بل هما متعادلان بدليل قول الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

ففي ذلك حجة بالغة على أن الكبائر لا تبطل صالحات الأعمال، فإن قصد من يقول إنها تبطلها أن عقاب الكبيرة قد يكبر حتى لا يعادله صغار الحسنات فهذا صحيح، وأما الكبيرة التي تختص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والأذى بعد التصدق فهي محبطة لا محالة اتفاقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ وعلى هذا القول يحمل ما نقل من الآثار [(٢)].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨١.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٣/ ٦٤ - ٧٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣١٩ - ٣٢٠، وروح المعاني للألوسي ٢٦/ ٧٩ - ٨٠، وفتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٧٧.

قال القرطبي: «احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع صلاة كان أو صوما بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل، وقد نهى الله عنه، وقال من أجاز ذلك وهو الإمام الشافعي وغيره: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلا فلا؛ لأنه ليس واجبا عليه، فإن زعموا أن اللفظ عام، فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع والتطوع يقتضي تخييرا». الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٥.

رابعاً: لا تفريط في عزة المؤمن:

لا يجوز للمؤمنين أن يهنوا ويدعو محاربيهم إلى الصلح والمهادنة طلباً للدعة، ورغبةً في ملذات الحياة، وهرباً من تبعات الصراع.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

فالوهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة، ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبت في نفسه رويداً رويداً حتى تتمكن منها، فتصبح ملكة وسجية، فالمعنى: ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره، وأولها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي[١].

خامساً: التكاليف الشرعية إنسانية:

تكاليف هذا الدين تراعي الفطرة الإنسانية بكل استعداداتها وطاقاتها وأحوالها، فلا مبالغة في فرائضه وتكاليفه بصورة تضيق الصدور وتظهر الأضغان.

وللنفس الإنسانية مع كل تكليف ترغيب وترهيب يدفعها إلى امتثاله، فمثلا لا يكلف الله تعالى الناس أن يبذلوا كل أموالهم في سبيله، وما يكلفهم ببذله ما هو إلا رصيد لهم يجدونه يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وفي سورة المزمل: ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٣٠

ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

سادساً: عقوبة الاستبدال:

اختيار الله تعالى أمة من الأمم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء، فإذا لم تحرص هذه الأمة على أن تكون أهلا لهذا الفضل، وإذا لم تنهض بتكاليف هذه المكانة، فإن الله يسترد منها ما وهب، ويختار غيرها ممن يقدر هذا الفضل ويقوم بتبعاته.

وتلك عقوبة رهيبة، فما يطيق الحياة إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ويطرد من الكنف، وتوصد دونه الأبواب، بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب، قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره[1].

قال الله عز وجل للمؤمنين في سورة محمد: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٦٥، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٣٠٣ – ٣٣٠٤.

سورة الفتح

أولاً: بين يدي السورة:

أ- اسمها:

اشتهرت هذه السورة بسورة (الفتح)، ووجه تسميتها لافتتاحها ببشرى الفتح المبين. كما تكرر لفظ الفتح فيها ثلاثاً. ولا يعرف لها اسم غير اسمها الذي سُمِّيت به. وبذلك كُتِبت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وجاءت تسميتها في كلام الصحابة رضوان الله عليهم.

ب- فضائل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك! نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري حتى كنت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، قال: فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، قال فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[(1)].

وعن أنس بن مالك ﷺ حدثهم قال: (لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: لقد أنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً)[(2)].

---

(1) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الفتح، رقم الحديث: ٤٦٢٦. ومعنى: نزرت.. لا يجيبك، أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحاً أدَّبك بسكوته عن جوابك. ومعنى ما نشبت: ما لبثت، وما تعلقت بشيء غيره، ولا اشتغلت بسواه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٥/ ٤٠، و٥/ ٥٢.

(2) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: ٣٨٩٥، وصحيح مسلم: كتاب =

وعن أنس بن مالك﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله:﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ فعن أنس وأما﴿ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ فعن عكرمة)[1].

وقد قرأها النبي ﷺ يوم الحديبية: فعن حبيب بن أبي ثابت قال: حدثني أبو وائل، قال: كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف فقال: (أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: بلى، فقال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً، فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيِّعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله أوَ فتح هو؟ قال: نعم)[2].

كما قرأها ﷺ أيضاً يوم فتح مكة: فعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه يقول: (رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعْت كما رجَّع). وفي رواية: (رأيت النبي ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة ليِّنة، يقرأ وهو يرجِّع)[3].

= الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم الحديث: ١٧٨٦.

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: ٣٨٥٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: ٢٩٤٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية، رقم الحديث: ٣٩٤٥، وكتاب فضائل القرآن، باب الترجيع، رقم الحديث: ٤٦٥٩. والترجيع: ترديد الصوت بالقراءة، ومنه ترجيع الأذان، وقيل: هو تقارب ضُروب الحركات في الصوت. قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: معنى الترجيع تحسين التلاوة، لا ترجيع الغناء، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقد =

ج. مرحلة النزول:

هي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة، وقد نزلت ليلاً فهي من القرآن الليلي، ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي ﷺ من الحديبية، وقبل غزوة خيبر، في موضع يقال له: (كراع الغميم) بين مكة والمدينة[(١)].

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نُسُكِنَا، فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أُنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها).

وفي رواية: (من أولها إلى آخرها)[(٢)].

د. أسباب نزولها:

تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

=استدل العلماء بهذا الحديث على سُنِّية قراءة القرآن على الدابة، وأصل هذه السُنِّية قوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ ﴾الزخرف ١٣]. وكذا ملازمته ﷺ للعبادة، لأن حال ركوبه الناقة لم يترك العبادة بالتلاوة، وفي جهره بذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواضع أفضل من الإسرار، وهو عند التعليم، وإيقاظ النائم، ونحو ذلك. انظر: فتح الباري، العسقلاني: ٨/ ٧١٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٢/ ٢٠٢.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٦/ ١٤١.

(٢) حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، (سورة الفتح)، رقم الحديث: ٣٧١٠.

هـ ـ عدد آياتها:

تسع وعشرون آية في جميع العدد، ليس فيه اختلاف، خالية من النسخ[١].

و ـ محور السورة:

اعتنت هذه السورة بجانب التشريع، شأنُ سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات والعبادات والأخلاق..

تحدثت السورة عن وعْد الرسول ﷺ بالفتح والغفران، وإنزال السكينة على أهل الإيمان، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعْد المؤمنين بنعيم الجنان، والثناء على سيد المرسلين، وذِكْر العهد، وبيعة الرضوان، وذِكْر ما للمخالفين من الخذلان، وبيان عُذْر المعذورين، والمنَّة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذوي الطغيان، وصدق رؤيا سيد المرسلين ﷺ على حقِّية الرسالة، وشهادة الملك الديان، وتمثيل حال النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم بالزرع والزراع في البهجة والنضارة وحسن الشان[٢].

ز ـ المناسبات في سورة (الفتح):

١ ـ المناسبة بين السورة ومحورها:

تناولت السورة أحداث (صلح الحديبية)، الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية لفتح مكة الأعظم. وتحدثت عن جهاد المؤمنين، وعن بيعة الرضوان. وعن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب والمنافقين. كما تحدثت عن صدق الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه، وهي دخوله ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة، فدخلوها معتمرين مطمئنين. وختمت بالثناء على

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣٠٦، والبيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢٢٩، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٣٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٣٢.

الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية السورة:

تكونت السورة من مقطعين؛ كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾، في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، وإذا كانت السورة تبين كيف يتنزل نصر الله على العصبة المؤمنة، فإنها في الوقت نفسه تذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في العصبة المؤمنة، كما تذكر لنا أنواعاً من الناس يسقطون بين يدي النصر، وتبين لنا كيف ينبغي أن يُعامل هؤلاء فيما بعد[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لقد فصَّلت السورة في قضايا تتعلق بالإيمان والتقوى وأخلاق الجماعة المؤمنة، وفصَّلت في الكفر وأخلاقه ودوافع أهله، وفصَّلت في النفاق وأخلاق أهله ودوافعهم، وفصَّلت في كيفية تعامل الجماعة المسلمة مع المنافقين، وفصَّلت في سنن الله في عملية الصراع بين الإيمان والكفر وفيما ينبغي أن يلاحظه المسلمون في عملية الصراع، ومن أهم ذلك حماية أرواح المؤمنين المخالطين للكافرين، كما فصَّلت في خصائص الجماعة الإسلامية في تعاطفها مع بعضها، وفي شدتها على الكافرين، وفي إقبالها على الله بالعبادة، وإخلاصها له في النية، كما فصَّلت فيما تقتضيه عملية الإيمان من نصرة لرسول الله ﷺ وتعظيمه.

ومما ينبغي تذكُّره أنه لا يكفي أن يقول قائل آمنت بالله ورسوله، بل لا بدَّ أن يرافق ذلك نصرةٌ لرسول الله ﷺ بنصرة شخصه في حياته، ونصرة شريعته ودينه، وأن يرافق ذلك توقيرٌ وتعظيمٌ لشخص رسول الله ﷺ في حياته ومماته، وأن يرافق ذلك تنزيهٌ لله عز وجل، وأن يضم المسلمين فيما بينهم صف واحد يمتاز بالرحمة فيما بينه، والشدة على العدو الكافر، ويمتاز بالصلاة والعبادة، والترقي والإيمان والعمل الصالح، والصراع المتواصل لنشر الإسلام حتى

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٢١٦.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٦١.

يَعمَّ الإسلام العالم[1].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وخاتمة ما قبلها:

يتمثل وجه مناسبتها لما قبلها فيما يلي:

١ – إنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾الآية، وهي خطاب لكفار قريش أخبر سبحانه رسوله ﷺ بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وآمن كل مَن كان بها وصارت مكة دار إيمان.

٢ – المراد بالفتح هو النصر مرتبٌ على القتال.

٣ – إن في كل منهما ذكراً وبياناً لأوصاف المؤمنين والمخلصين والمنافقين والمشركين.

٤ – إن في السورة السالفة أمراً للنبي ﷺ بالاستغفار، وافتتحت هذه السورة بذكر وقوع المغفرة.

٥ – ذُكِرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف، وكنَّى عنها هنا بلفظ: (كلمة التقوى)، بناء على أشهر الأقوال فيه[2].

٥. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وافتتاحية سابقتها:

الملاحظ أن سورة (القتال) السابقة على سورة (الفتح) ذكرت شيئاً عن المسالمة والمصالحة، وأنها جائزة في بعض الحالات، وقد جاءت سورة الفتح لتعرض علينا نموذجاً على أن الهدنة والصلح قد يترتب عليهما من المنافع والمصالح للمسلمين أضعافاً مضاعفة، بل قد لا يكون في لحظة من اللحظات أية مصالح في الحرب. ومن هذه الصلة بين السورتين ندرك كيف أن السور

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩١.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٨٢، وتفسير روح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ٨٤، ونظم الدرر، البقاعي: ١٨/ ٢٧٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٤٢، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩٠.

القرآنية في القسم الواحد منه يكمِّل بعضها بعضاً[1].

٦ـ المناسبة بين سورة (الفتح) وما بعدها:

لقد جالت سورة (الفتح) جولات في واجبات المرسل إليهم، وجاءت سورة (الحجرات) تكمِّل سورة (الفتح) في تبيان واجبات المرسل إليهم، لذا ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾.

وتنتهي سورة (الفتح) بقوله تعالى:﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾، وتأتي سورة (الحجرات) لتذكر أدب العلاقة بين المؤمنين ورسولهم، وبين المؤمنين مع بعضهم،﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾. وهذا مظهر آخر من مظاهر تكامل سورة (الحجرات) مع سورة (الفتح). وعلى ذلك فسورة (الحجرات) تتكامل مع مجموعتها وتكملها، فسورة (الجاثية) عمَّقت معنى الاهتداء بكتاب الله، وسورة (الأحقاف) عمَّقت معنى التوحيد، وسورة (القتال) بيَّنت أن الأصل هو القتال بين أهل الفسوق وأهل الإيمان، وسورة (الفتح) بيَّنت أن معارك المسلمين منصورة، وسورة (الحجرات) بيَّنت أدب السير، وأدب الجماعة المسلمة في حركتها نحو الهدف[2].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٥٠.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩٦.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (صلح الحديبية وآثاره) الآيات: (١-٧)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

جاء هذا المقطع بمثابة مدخل ومقدمة للسورة، فقد ذكر الله تعالى فيه عنايته وفضله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله، كما أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر وهو تثبيت أقدام المؤمنين، واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك، وأردفه ببيان سنته في تسليط بعض جنوده على بعض، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان، وإيعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد، والغضب عليهم وطردهم من رحمته، وذلك بين يدي المقطع الذي يبدأ بتبيان مهمات الرسول ﷺ، وواجبات المؤمنين تجاهه[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه. والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته. والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية.

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٥١، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٥٥.

والثقة العميقة بالرعاية الحانية.. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها. وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلأت القصواء. فيقول: (ما خلأت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها). ويسأله عمر بن الخطاب في حمية: فلم نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فيجيبه: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيِّعني). ذلك وحين يشاع أن عثمان قُتِل، يقول ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم). ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. وكان هذا هو الفتح؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة: كان فتحاً في الدعوة.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثلُ مَن كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف. وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وكان فتحاً في الأرض. فقد أمن المسلمون شر قريش، فاتجه رسول الله ﷺ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام. وقد فتحها الله على المسلمين وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواهم.

وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه: (سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم):

« ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق. بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها. فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون. بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح، وبُعد مداه.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه؛ إذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً، وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام، وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها، يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله وفتحه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً»[(١)].

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك إلى جانب هذا كله فتح آخر. فتح في النفوس والقلوب، تصوره بيعة الرضوان، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن. ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾.

---

(١) سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم: ٢/ ٣٥٢.

فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه، وله دلالته، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ.

ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة. فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه. فرح بالفتح المبين. وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم. وفرح بالنصر العزيز الكريم. وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل. وقال في رواية: (نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها). وفي رواية: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس).

وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته. فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً)؟ ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ﷺ خاصة.

ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح، ومس يده لقلوبهم بالسكينة وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

والسكينة لفظ معبّر مصوّر ذو ظلال؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب، تكون طمأنينة وراحة، ويقيناً وثقة، ووقاراً وثباتاً، واستسلاماً ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام؛ ثم مواجهة موقف قريش، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار

الهدي وتقليده. كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب. وقد روي عن عمر ﷺ أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج، فكان مما قال له غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث: (أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)؟ قال أبو بكر الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ: (بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به). فتركه عمر ﷺ إلى النبي ﷺ فقال له فيما قال: (أوَ لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: بلى. أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: لا. قال رسول الله ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به). فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب..

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى، مِن رد مَن يُسْلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه. ومِن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم. وفي رد صفة رسول الله ﷺ، وقد روي أن علياً ﷺ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحاها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يقول: (اللهم إنك تعلم أني رسولك).

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع. فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثاً. وهم مَن هم طاعةً لأمر رسول الله وامتثالاً. كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي. ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزَّتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزُّهم القول، وثابُوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ!

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنيَّة العمرة، لا ينوون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً. ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان، وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة. فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم. ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له. وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات. وهم ألف وأربعمئة وقريش في

دارها، ومِن خلفهم الأعراب والمشركون.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذ، ويعيش فيه مع هذه النصوص، ويحس بَرْدَ السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم. فقد تفضل عليهم بهذه السكينة:﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة، فيها الثقة التي لا تقلق، وفيها الرضى المطمئن باليقين.

ومن ثم يلّوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء:﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.. فهي حكمته وهو علمه، تسير الأمور وفقهما كما يريد.

وعن العلم والحكمة:﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾. ليحقق لهم ما قدَّره من فوز ونعيم:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾..

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً، فهو فوز عظيم! فوز عظيم في حقيقته، وفوز عظيم في نفوس مَن ينالونه مِن عند الله مقدراً بتقديره، موزوناً بميزانه.. ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم؛ وكانوا قد تطلعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله. تطلعوا إلى نصيبهم هم، وسألوا عنه، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدَّر في هذا الحادث؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾..

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي أنهم جميعاً﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾[1] فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير.. ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً، بل إنها أحط؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسَنُ الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين. وسرُّ ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوُّق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم. ويتوقعون

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (السُّوء) بضم السين، من السُّوء بمعنى الهزيمة والشر، وقرأها الباقون: (السَّوء) بالفتح، من ساءه يسوءه سَوءاً ومساءة، نقيض سرَّه مسرَّة. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦٥.

الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع؛ وبين حالهم عنده، وما أعده لهم في النهاية. ثم عقَّب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾..

فلا يعييه من أمرهم شيء، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء، وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)[1].

دروس وعبر من المقطع الأول:

١- جمهور أهل العلم على أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية، وإنما سُمِّيَ فتحاً لأنه كان سبب فتح مكة.

قال الفراء: كان فتح وفيه قتال قليل مراماة بالحجارة، فالفتح قد يكون صلحاً، ويكون أخذ الشيء عنوة.

واستدل العلماء بلفظ الماضي في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾، على أن ذلك الفتح قد مضى، سيما وقد نزلت السورة في شأن الحديبية، في حين أن سورة (النصر) دلت على الاستقبال لا على المضي في قوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر: ١].

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦١، وروح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ٨٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٣٣، وأضواء البيان، الشنقيطي: ٧/ ٦٠٣، ومعاني القرآن، الفراء: ٣/ ٦٤.

٢ـ تمثلت فضائل الفتح وثماره في حق النبي ﷺ بأربعة أمور:

أولها: البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعدُّ بمثابة خلاف الأولى، والأفضل بالنظر لمقامه الشريف ﷺ.

ثانيها: إتمام النعمة عليه ﷺ بالجمع بين النبوة والملك، وبين سعادة الدنيا والآخرة، بعد أن كانت له النبوة وحدها.

ثالثها: الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم في تبليغ الرسالة، والثبات على الحق، وإقامة مراسم الرئاسة.

رابعها: النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذلَّ بعده، ورهبة الجانب، ونفاذ الكلمة.

٣ـ وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق المؤمنين بأربعة أمور:

أولها: الطمأنينة والسكينة، **وثانيها**: زيادة الإيمان، **وثالثها**: دخول الجنة، **ورابعها**: تكفير السيئات.

٤ـ وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق الكفار والمنافقين بأربعة أمور:

أولها: العذاب الأليم، **وثانيها**: غضب الله تعالى، **وثالثها**: اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى، **ورابعها**: دخول جهنم.

٥ـ تمثل الفتح المبين في معان جليلة، منها: أن نزول السورة كان مؤنساً للمؤمنين مما استوحشوه من ردِّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة، فنزلت السورة مؤنسةً المؤمنين في صدهم عن البيت، ومذهبةً ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر الشهير، وما قاله للنبي ﷺ ولأبي بكر وظهرت على يديه ﷺ آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع سهمه، وثاب الماء حتى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرضوان، وهي الفتح الأعظم، وبلغ هديه محله، واستقبل فتح خيبر، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلا أهل الحديبية، لم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الفرس والروم وظهرت فيها الروم فكانت من جملة

الفتح على رسول الله ﷺ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أهل الكتاب على المجوس، وانخضاد الشوكة العظمى من الكفر، ثم عظَّم الله تعالى أمر نبيه ﷺ وشرَّفه بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر(١).

٦ـ الذنب المقصود بمغفرته في حق النبي ﷺ هو جميع ما فرط منه من هفوات مما يصح أن يُسمَّى ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف ﷺ، وإن كان لا يعدُّ ذنباً في حق غيره، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والمراد من غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها. عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً، فلما كثر لحمه صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ، ثم ركع)(٢).

٧ـ يرشد عقد صلح الحديبية إلى معاني جليلة ونتائج طيبة، منها: معرفة قوة العدو ومقدار كفايته وحدّها، ومعرفة المؤمنين الصادقين من المنافقين الذين تخلفوا، واختلاط المسلمين بالمشركين حبَّب الإسلام إلى قلوب كثير منهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وتحقق سيادة الدولة الإسلامية واستقلالها، وظهوره ﷺ حاكماً وإماماً إلى جانب كونه نبياً، كما تحقق له عزُّ الدنيا والآخرة، وثباته على الحق، ونشره في أرجاء الدنيا.

كذلك اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية، والإقرار بسيادتها واستقلالها(٣).

---

(١) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٢٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، رقم الحديث: ٤٤٦٠.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٥٣، ١٥٩.

المقطع الثاني: (مهام النبي ﷺ ومغزى بيعة الرضوان)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الآيات: ٨ ـ ١٠)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان فضائل الفتح ـ صلح الحديبية ـ على النبي ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين، أعقبه ببيان خصائصهما، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث، (وفي الأحزاب: الخمس) ومدحه، وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة، فذكر بيعة الرضوان بين النبي ﷺ والمؤمنين، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى، وأوضح جزاء ناقض العهد، ومَن أوفى بالعهد[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوهاً بوظيفته مبيناً للغاية منها، موجهاً المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة، وعقد العقدة معه جلَّ جلاله، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه. وفي ذلك تشريف لبيعة الرسول، وتكريم واضح لهذا التعاقد:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[2].

فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها، يشهد أنه بلغها ما أُمِر به، وأنها

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦١.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه) بالياء في الأربعة، وقرأهن الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

استقبلته بها استقبلته، وأنه كان منها المؤمنون، ومنها الكافرون، ومنها المنافقون. وكان منها المصلحون ومنها المفسدون. فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة. وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى، وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين، ونذير بسوء المنقلب والغضب. واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين..

هذه وظيفة الرسول. ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة. إنها الإيمان بالله ورسوله، ثم النهوض بتكاليف الإيمان، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته، ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل، وهي كناية عن اليوم كله، لأن طرفي النهار يضمّان ما بينهما من آونة. والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن. فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد جاء ﷺ ليصلهم بالله، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم. فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً، فإنما يبايع عن الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾.. وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده، أن يد الله فوق أيديهم.

فالله حاضر البيعة. والله صاحبها. والله آخذها. ويده فوق أيدي المتبايعين.. ومن؟ الله! يا للهول! ويا للروعة! ويا للجلال!

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة، مهما غاب شخص رسول الله ﷺ، فالله حاضر لا يغيب. والله آخذٌ في هذه البيعة ومعطٍ، وهو عليها رقيب.

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.. فهو الخاسر في كل جانب. هو الخاسر في الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى. وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين. وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء.

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١].. هكذا على إطلاقه:﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.. لا يفصله ولا يحدده. فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم.

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلُّون المحدودون الفانون!)[٢].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ حددت الآيات مهام النبي ﷺ في ثلاث:

أولها: الشهادة على الخلق وعلى أمته بالبلاغ، **وثانيها:** تبشير مَن أطاعه بالجنة، **وثالثها:** إنذار مَن عصاه بالنار.

٢ـ تناولت الآيات لفظ: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ ﴾ واللفظ من المتشابهات التي لأهل السنة والجماعة فيها مذهبان:

مذهب السلف: التسليم، والسكوت عن التأويل، والإيمان بظاهر النص، والتفويض إلى الله تعالى في معرفة الحقيقة، وإمرار آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بالصفات كما جاءت، مع الإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا صرف عن الظاهر،

---

(١) قرأ حفص: (عليهُ) بضم الهاء وتفخيم لفظ الجلالة، وقرأ الجمهور: بكسر الهاء وترقيق لفظ الجلالة، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: (فسنؤتيه) بالنون، وقرأ الباقون بالياء. قيل في وجه الضم إنها هاء هو وهي مضمومة، فاستصحب ذلك كما في: له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء، وكذا في: إليه وفيه، وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو: به، ومررت بغلامه، لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد، وإبقائه وعدم نقضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والأساس في التفسير: سعيد حوى: ٩/ ٥٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٠.

وهو الحق.

ومذهب الخلف: التأويل بالقدرة والقوة والنصرة والنعمة على طريق الاستعارة بالكناية.

قال الرازي: وذلك يحتمل وجوهاً، لأن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ففيه **وجهان؛**

أحدهما: يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق أجسامهم، كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧]،

وثانيهما: نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي: الغلبة والنصرة والقوة، وإن قلنا إنها بمعنيين فنقول: اليد في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، فيكون المعنى: يد الله فوق أيديهم بالحفظ. وهذا هو مذهب أهل التأويل والكلام[(١)].

٣ـ كانت بيعة الرضوان على الثبات وعدم الفرار، وعلى الموت في سبيل الله تعالى، لذا كان الشقي الخاسر مَن نقض العهد والبيعة، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب، ومَن أوفى بعهده مع الله في بيعته فهو الرابح الفائز، وسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة، وفي هذا تفخيم لشأن البيعة، وتعظيم لأمرها. عن يزيد بن أبي عبيد قال: (قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم النبي ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت)[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٢٨/ ٨٧، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٠، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٤٢، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم الحديث: ٦٦٦٦.

المقطع الثالث: (أحوال المتخلفين عن الحديبية)

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الآيات: ١١ ـ ١٧)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان حال المؤمنين، بيَّن الله تعالى حال المنافقين، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لظنهم أنه يهزم، وقد ذكر تعالى أحوالاً ثلاثاً لهم:

هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار لترك الجهاد[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وعندما يصل إلى حقيقة البيعة، وإلى خاطر النكث

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦٩.

وخاطر الوفاء، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين.. يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها ـ مهما كان شروطها ـ التراجع من قريش، واعتبار محمد ﷺ نداً لها تهادنه وتتقي خصومته.

ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين. كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة. ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم. فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية.

إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد. فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم الله لهم بما يريد. فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد.

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها. ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم:﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾.. وليس هذا بعذر. فللناس دائماً أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها، وسيقولون﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾. وهم ليسوا صادقين في طلب

الاستغفار كما ينبئ الله رسوله﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدَر الذي لا يدفعه تخلف، ولا يغيره إقدام؛ وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس، وتتصرف في أقدارهم كما تشاء. وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].. وهو سؤال يوحي بالاستسلام لقدر الله؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ. فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً، ولا يؤخر نفعاً. وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله. ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط. وهو توجيه تربوي في وقته، وفي جوِّه، وفي مناسبته على طريقة القرآن.

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.. وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء. وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة؛ وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده.

كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمور، وخُلُوِّ قلوبهم من حرارة العقيدة، لم يقدروا أن الواجب هو الواجب، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت؛ وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون

---

(١) قرأ حمزة والكسائي: (ضُرّاً) بضم الضاد، وهو اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال أي: أمراً يضركم، وقرأ الجمهور: بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضَرّاً، والمصدر يؤدى عن المرة وأكثر، والحجة في الفتح أنه حمله على الضر الذي هو خلاف النفع، بدليل ما أتى بعده من نقيضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦٨.

بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية، فهي واجب مفروض، يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا في سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موحٍ. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم. بور. لا حياة ولا خصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بوراً. ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله. البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة. هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال؛ وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في العدة، أو قلة في المكان والجاه والمال. هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة. ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يُستأصلوا، وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط، ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية. الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قوماً، ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!

إن الميزان هو ميزان الإيمان. ومِن ثَمَّ يردُّ الله أولئك الأعراب إليه؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله ورحمته:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.. لقد كانوا يعتذرون

بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين. فإن الله الذي يوعدهم هذا الإيعاد، هو مالك السماوات والأرض وحده. فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء.

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة.

ومغفرة الله ورحمته أقرب. فليغتنمها من يريد، قبل أن تَحِقَّ كلمة الله بعذاب مَن لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين. ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين، مخالفاً لظن المخلفين. بأسلوب يوحي بأنه قريب:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر، وقد يكون هذا، ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصاً في خيبر. فهو يوحي بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير. وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا فيقولون﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾.

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية. إذ كانت في المحرم من سنة سبع. بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية. وأنها كانت وافرة الغنائم. وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية. وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أُجْلُوا عن الجزيرة من قبل.

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد. ولم أجد في هذا نصاً. ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً. فقد جعلها

رسول الله ﷺ في أصحاب الحديبية. ولم يأخذ معه أحداً غيرهم.

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة. وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله. وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج: ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾. فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة. ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره. فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد.

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء. يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾. وتختلف الأقوال كذلك في مَن هم القوم أولو البأس الشديد. وهل كانوا على عهد رسول الله ﷺ أم على عهود خلفائه. والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله ﷺ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة.

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية.

وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم.

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.. [١].

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ. والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان. هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية. فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه.

ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره. ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وما وراءه.. ثم يختار!)[٢].

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١ـ المتخلفون عن الحديبية خمس قبائل: جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم، وفي تعيين القوم أولي البأس الشديد ثلاثة أقوال: أنهم فارس والروم، أو بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، أو هوازن وغطفان يوم حنين. وفي قول الله تعالى:﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ ﴾ دلالة على أنهم باليمامة لا بفارس ولا بالروم، لأن الذي تعين عليه القتال حتى يسلم من غير قبول الجزية هم العرب في أصح الأقوال والمرتدون، فأما فارس والروم فلا يقاتلون حتى يسلموا، بل إن بذلوا الجزية قبلت منهم، وقد جاءت هذه الآية معجزة للنبي ﷺ وإخباراً بالغيب، كما دلت على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فأبو بكر ﷺ دعا إلى قتال بني حنيفة، واستخلف عمر ﷺ، وعمر ﷺ الذي دعا إلى قتال فارس والروم، وخرج عليٌّ تحت لوائه، وقد ألزم الله المؤمنين طاعةَ مَن يدعوهم إليه، وأوعدهم على التخلف عمن دعاهم إلى قتالهم، مما يدل على

(١) قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾. وقد قرأ نافع وابن عامر: (ندخله ونعذبه) بالنون جميعاً، وقرأهما الباقون بالياء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٧٣، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢١.

صحة إمامتهما، إذ كان المتولي عن طاعتهما مستحقاً للعذاب الشديد[١].

٢- استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾ على حكم مَن لا تؤخذ منهم الجزية، وهم مشركو العرب والمرتدون، فمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنهم مقيدون بأمرين: إما المقاتلة، وإما الإسلام، لا ثالث لهما. وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس. ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى: لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. قال الزجاج: التقدير: أو هم يسلمون[٢].

٣- ذكرت الآية عذر أهل الأعذار من العمى والعرج والمرض جملة، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالغرض متوجه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج، فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أحرى بالبصر وألا يفرَّ.

وقد غزا عبد الله بن أم مكتوم ﷺ وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية[٣].

٤- اقتصر النص القرآني على أصحاب الأعذار الثلاثة، لأن العذر إما بسبب اختلال القوة، أو إخلال في عضو، فيقاس عليهما ما في معناهما؛ كالفقر الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه.

وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي؛ كالصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال، والعرج البيِّن، وفقد الصبر، وعدم وجدان السلاح

---

(١) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٥، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٧٢، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٨.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٠، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٤٠، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٨.

(٣) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٥٢.

وآلات القتال، أو عجز حكمي؛ كالرقِّ والدَّين الحالِّ بلا إذن رب الدَّين، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين[١].

٥ـ في الآيات حث على الجهاد، والترهيب من ترك القتال، حيث ثواب الجنة مرهون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإنما شرع الجهاد لدحر العدوان وطرد المعتدين، وهو طريق العزة والكرامة، وحماية حرمات البلاد والأوطان، ولولاه لذابت الأمم، وزالت الأديان والقيم، لذا جعله الله فريضة على المسلمين، وإن كان مكروهاً على النفس، امتحاناً للصادقين في إيمانهم، واختباراً لأعمال الناس، وهو ذروة سنام الإسلام، وسبيل إلى جنان الخلد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون[٢].

المقطع الرابع: (بيعة الرضوان وآثارها الخيِّرة)

قال الله تعالى:﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الآيات: ١٨ ـ ٢٤)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن بين الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية، عاد إلى بيان حال الذين بايعوا تحت

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٩.

الشجرة، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾، فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خيبر، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة، لصدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة: لما ذكر تعالى حال مَن تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضى الله تعالى عنهم ولذا سميت بيعة الرضوان.

وبعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى:

أولها: أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها، والله سبحانه كان عالماً بها.

وثانيها: وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.

وثالثها: الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وتلك سنة الله القديمة.

ورابعها: امتنان الله على عباده المؤمنين بكفِّ أيدي المشركين عنهم في الحديبية[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم. لقد رضي عنهم. ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٢، ١٨٧.

الرضى: ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾.. يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل..

يا لله! كيف تلقوا ـ أولئك السعداء ـ تلك اللحظة القدسية، وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت.

أنت بذاتك. يبلغك الله. لقد رضي عنك. وأنت تبايع. تحت الشجرة! وعلم ما في نفسك. فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فيسعد. يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ فيطمئن. يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون. واحداً واحداً. أن الله يقصده بعينه وبذاته. ويبلغه: لقد رضي عنه! وعلم ما في نفسه. ورضي عما في نفسه! يا لله! إنه أمر مهول!

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.. علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم. وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم. وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين.

﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾.. بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً.

﴿ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.. هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً، وجعلته بدء فتوح كثيرة. قد يكون فتح خيبر واحداً منها. وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين[1].

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها =

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.. إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر. وإما تالياً له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.. وهو تعقيب مناسب للآيات قبله. ففي الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير. وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم.

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم. الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح، الذي تلقوه صابرين مستسلمين:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.. وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف. وهنا يقول لهم: إنه قد عجَّل لهم هذه. وهذه قد تكون صلح الحديبية ـ كما روي عن ابن عباس ـ لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم. وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ﷺ، ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار. كما أنها قد تكون فتح خيبر ـ كما روي عن مجاهد ـ باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية. والأول أقرب وأرجح.

ويمنُّ الله عليهم بأنه كفَّ أيدي الناس عنهم. وقد كفَّ الله عنهم أيدي المشركين من قريش كما كفَّ أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر. وهم قلة على كل حال، والناس كثرة. ولكنهم وفوا ببيعتهم، ونهضوا بتكاليفهم، فكفَّ الله أيدي الناس عنهم، وأمَّنهم.

= الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فأنزل الله: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. هذه الوقعة التي كرهوها في أول الأمر، وثقلت على نفوسهم. فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم. وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم. مما يثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم، وخير جزيل، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين.

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.. جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم. وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها. فيتم لهم الخير من كل جانب. في كل جانب. في الأمر الذي كرهوه واستعظموه. وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال.

كذلك يمنُّ عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه. لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره:

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.. وتختلف الروايات في هذه الأخرى. أهي فتح مكة؟ أهي فتح خيبر؟ أهي فتوح مملكتي كسرى وقيصر؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقعة جميعاً؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة. بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح. الذي لم يدم سوى عامين، ثم نقضه المشركون، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً. وهي التي استعصت عليهم من قبل، وهاجمتهم في عقر دارهم، وردتهم عام الحديبية. ثم أحاط الله بها، وسلمها لهم بلا قتال.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.. فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله. أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار.

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التي قد أحاط الله بها، وهم في

انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف. أو لأن المشركين أقوياء. ولكنه تم لحكمة يريدها. ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا. فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة:

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.. وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل. فأية سكينة؟ وأية ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل. ولكنها قد تتأخر إلى أجل. ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم. أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله. ولكن السنة لا تتخلف. والله أصدق القائلين:﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾...

كذلك يمنُّ عليهم بكفِّ أيدي المشركين عنهم، وكفِّ أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على مَن هاجموهم. مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين. فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[١]. وهو حادث وقع، يعرفه السامعون[٢]؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب،

---

(١) قرأ أبو عمرو: (وكان الله بما يعملون بصيراً) بالياء، وقرأها الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٥.

(٢) عن أنس أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الفتح، رقم الحديث: ٣١٨٧، وأسباب النزول، الواحدي: ص: ٢٧٢، ولباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه، وهي تدبر لهم كل شيء، وتقود خطاهم، كما تقود خواطرهم، ليسلموا أنفسهم كلها لله، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا في السلم كافة، بكل مشاعرهم وخواطرهم، واتجاههم ونشاطهم؛ موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة ما اختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون وفيما يرفضون. وأنه يريد بهم الخير.

فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق. وهو بصير بهم، ظاهرهم وخافيهم فهو يختار لهم عن علم وعن بصر. ولن يضيعهم، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1].

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١ـ جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزاءين: مادي ومعنوي.

أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم بسبب ما علمه في نفوسهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر أو فتح مكة، وغنائم خيبر وأموالها، فقسمها عليهم وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، أو غنائم فارس والروم[2].

٢ـ وعد الله عباده المؤمنين مغانم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة؛ منها: غنائم هوازن، وغنائم فارس والروم، وذلك قبل حدوثها، ولم يكونوا يرجونها، حتى أخبرهم الله بها، وهذا من الإخبار عن المغيبات، وهو دالٌّ على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته[3].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٤.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٠.

٣ـ تمثّل كفُّ أيدي المشركين عن المسلمين في التنبه إلى غدرهم قبل وقوعه، وكفُّ أيدي المسلمين حين أمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم وإطلاقهم.

ويُعدُّ الكفُّ عن القتال الذي وقع يوم الحديبية منّةً قد يسَّره الله تعالى رفقاً بالمسلمين، وإبقاءً على قوتهم في وقت حاجتهم إلى ذلك بعد وقعة بدر وأحد، وفي حادثة إطلاق سراح النفر الثمانين تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يُبصر عمله أصلحه، وفيه إشارة إلى أن الإسلام حريص على حقن الدماء وصيانة الأنفس، وقد فعل النبي ﷺ ذلك تجنباً لما يعكر صفو الصلح[1].

٤ـ جمهور المفسرين حملوا (بطن مكة) في الآية على الحديبية من إطلاق البطن أسفل المكان، والمراد بالظفر في الآية ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ صلح الحديبية لا فتح مكة.

والصحيح أن الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، ولهذا استشهد أبو حنيفة رحمه الله تعالى بالآية على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً[2].

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٦/ ١٨٤، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٨٢، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٥، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٤٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٥٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٩.

المقطع الخامس: (أسباب وآثار صلح الحديبية)

قال الله تعالى:﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الآيات: ٢٥ ـ ٢٦)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كفَّ عنهم أيدي الكافرين من قريش، وكفَّ أيدي المؤمنين على الكافرين، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية، أبان تعالى أسباب هذا الكف المتبادل، وأوضح حكمة المصالحة بقوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ حفاظاً عليهم، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

وقد ورد في بعض روايات صلح الحديبية: أنه لما هَمَّ رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش، بعثوا سهيل بن عمرو، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى، ومِكْرز بن حفص، ليسألوه أن يرجع إلى عامه، على أن تُخْلي قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، على النحو المذكور آنفاً[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم يحدثهم عن خصومهم، مَن هم في ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام. وكيف ينظر إليهم هم عكس ما

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٣.

ينظر إلى خصومهم المعتدين:

هم في ميزان الله واعتباره، الكافرون حقاً، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.. يسجله عليهم كأنهم متفردون به، عريقون في النسبة إليه، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام، وصد الهدي وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع:

﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾. وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام. كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم. كريهة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين.. فلم يكن إذن كفُّ الله للمؤمنين عنهم بقياً عليهم لأن جرمهم صغير. كلا! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين:

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾..

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين. ولو دارت الحرب، وهاجم المسلمون مكة، وهم لا يعرفون أشخاصهم، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم. فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون..

ثم هنالك حكمة أخرى، وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام، مَن قسمت له الهداية، ومَن قدر له الله الدخول في رحمته، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته[1]؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال، ولعذب الكافرين العذاب الأليم:

---

(١) أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال: قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا نزلت: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.. وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره. ويمضي في وصف الذين كفروا. وصف نفوسهم من الداخل. بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾.. حمية لا لعقيدة ولا لمنهج. إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت. الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه. مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة. كي لا تقول العرب، إنه دخلها عليهم عنوة. ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيههم لكل من أشار عليهم أول الأمر بخطة مسالمة، وعاب عليهم صدّ محمد ومَن معه عن بيت الله الحرام.

وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول الله ﷺ في أثناء الكتابة. وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق.

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له. فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية. وأحل محلها السكينة والتقوى:

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾

والسكينة الوقورة الهادئة، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة. المطمئن بما فيه من ثقة. المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يتبطَّر ولا يطغى؛ ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ

خشع وأطاع، في رضى وطمأنينة.

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها. وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم. إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة، وما أودع فيها من تقوى.

فهم قد استحقوها في ميزان الله، وبشهادته؛ وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

دروس وعبر من المقطع الخامس:

١ـ استدل العلماء على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار، إلا لمصلحة، ويشترط لهذه المصلحة أن تكون قطعية الحصول بقتل الترس، كلية؛ أي تفيد كل الأمة، ضرورية؛ فلا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ولا خلاف في اعتبار قيود هذه المصلحة، فالمفترض أن الترس مقتول قطعاً، إما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة باستيلاء العدو على المسلمين، أو بأيدي المسلمين، فيهلك العدو وينجو المسلمون.

كما لا خلاف في أنه لا يجوز تعمد المسلمين المترس بهم بالقتل.

وهل تجب الدية والكفارة؟ فيه خلاف: قال الحنفية: لا دية ولا كفارة، وقال الشافعية والمالكية: تجب الدية والكفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دية له، بل منع مالك حرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى مسلمون، لأن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز، ولا سيما بروح المسلم[2].

٢ـ في الآية لطائف معنوية؛ وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن. باين بين الفاعلَين، إذ فاعلُ جعل هو الكافر، وفاعلُ أنزل هو الله تعالى؛ وبين المفعولَين، إذ تلك حمية،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٨، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٧.

وهذه سكينة؛ وبين الإضافتين، أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه. وبين الفعل جعل وأنزل؛ فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها. والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى. والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة، تقول: أكرمني فأكرمته، فدلت على المجازاة للمقابلة، ولذلك جعل فأنزل.

ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح، وكان المؤمنون عازمين على القتال، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر، وأبوا إلا أن يكتبوا: محمد رسول الله ﷺ وباسم الله، قال تعالى:﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولما سكن هو ﷺ للصلح، سكن المؤمنون، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. ولما كان المؤمنون عند الله تعالى، ألزموا تلك الكلمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣](١).

٣ـ في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ودفع الكفار عنهم، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، إذ كان سبباً لامتزاج العرب وإسلام كثير منهم، وعلوِّ كلمة الإسلام، وأمِن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وانقاد إلى الإسلام كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان من قبل، فكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمئة، وبعد ذلك بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف فارس(٢).

٤ـ تمثلت حَمِيَّة المشركين الموسومة بحميَّة الجاهلية بأَنَفَتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة، وكانت حَمِيَّة جاهلية لأنها بغير

---

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، ومفاتيح الغيب، الرازي: ٢٨/ ١٠٢.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٦٧.

حجة، وفي غير موضعها، وكان ذلك محض تعصب، لأنه إنما جاء ﷺ البيت معظماً للبيت لا يريد حرباً(١).

المقطع السادس: (تحقيق رؤيا النبي ﷺ وأوصافه وأصحابه)

قال الله تعالى:﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الآيات: ٢٧ ـ ٢٩)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان كون النبي ﷺ مرسلاً بالهدى ودين الحق، بين حال الرسول والمرسل إليهم، فأكد الشهادة في قوله:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ بقوله:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب والرضى من الله، والتميز بالنور والضياء في الدنيا والآخرة، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة(٢).

---

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٨٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ٢٠٥.

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ولقد مرَّ بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ﷺ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام. فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولا بدَّ. وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً:

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾..

فأما البشرى الأولى. بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون.. فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد. ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية. إذ تم لهم فتح مكة، وغلبة دين الله عليها.

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان؛ وهو يقول لهم: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.. فالدخول واقع حتم، لأن الله أخبر به. ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدها شيء، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية. والقرآن يتكئ على هذا المعنى، ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله. ووعد الله لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور.

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع ـ أي العام التالي لصلح الحديبية ـ خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية.

فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي ـ كما أحرم وساق الهدي في العام قبله ـ وسار أصحابه يلبُّون.

فلما كان ﷺ قريباً من مرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة. فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قُرُبها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى ياجج» فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء!

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه. فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبُّون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذٌ بزمام الناقة يقودها. وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ، وتحقق وعد الله[1].

ثم كان الفتح في العام الذي يليه. وظهر دين الله في مكة. ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد. ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

---

(١) أخرج الفريابي وعبد بن حُميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أُري النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿ ٢٨ ﴾.. فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان. ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا).. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس، ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الأبيض. وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين.

فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة، ومع نواميس الوجود الأصيلة؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.. فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله

يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب!

والآن نجيء إلى ختام السورة. ختامها بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها، وبلغها رضاه فرداً فرداً:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾. إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار، ومع أنفسهم:﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: ﴿ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾.. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها: ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ﴾.. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم:﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾.. ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ ﴾ وهذه صفتهم فيها.. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل..﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَغۡلَظَ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾..

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ﷺ، صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومَن وراءه من المشركين: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ ﴾.. ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة..

وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم:﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.. أشداء على الكفار، وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً. رحماء بينهم، وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله، والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود، وحالة العبادة:﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾.. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم؛ فعبَّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾.. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾.. سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيما في النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله:﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾.. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء

والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومِن ثَمَّ فهي قديمة، جاء ذكرها في التوراة:

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾.. وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾.. وصفتهم في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه، أنهم:﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾[(١)]. فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه، من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده.﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾[(٢)]. أو أن العود آزر فرخه فشده.. ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾الزرع وضخمت ساقه وامتلأت.﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾[(٣)] لا معوجاً ومحنياً. ولكن مستقيماً قوياً سوياً.. هذه صورته في ذاته.

فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والبائر. فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾. وفي قراءة يعجب (الزارع)[(٤)].. وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج..

وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر: (شطَئَه) بفتح الطاء والهمزة، وقرأها الباقون بسكون الطاء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٢) قرأ ابن عامر: (فأَزَرَهُ) مقصورة الهمزة مفتوحة، وقرأها الباقون بالمد. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٣) قرأ ابن كثير: (سوقه) بهمز الواو، وقرأها الباقون بواو مدية غير مهموزة. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٦.

(٤) لم أقف على سند لهذه القراءة فيما اطلعت عليه من كتب القراءات المتواترة أو الشاذة.

ٱلْكُفَّارَ ﴾.. وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله. أو زرعة رسوله ﷺ، وأنهم ستار للقدرة، وأداة لإغاظة أعداء الله!

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة.. صحابة رسول الله ﷺ.. فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾.. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرة وأجر عظيم.. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله.

وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم. وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه.. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا مَن يكرمه الله إكرامهم: فيقرب

له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!!)[١].

دروس وعبر من المقطع السادس:

١ـ أثبتت الآيات صفة النبوة والرسالة للنبي محمد ﷺ، كما وصفت أصحابه بثماني صفات، هي:

الأولى: الشدة والصلابة على الكفار.

الثانية: الرحمة والرأفة بالمؤمنين.

الثالثة: كثرة الأعمال الصالحة، وأهمها الصلاة.

الرابعة: الإخلاص في العبادة، وابتغاء الأجر والثواب.

الخامسة: يتميزون بعلامة النور والضياء والسمت الحسن.

السادسة: أوصافهم مسطرة في التوراة والإنجيل.

السابعة: كثرة الخير والبركة والنماء فيهم.

الثامنة: وعدهم الله بالمغفرة والثواب الدائم في الجنة.

٢ـ الصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرَّق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث.

وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم بالجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٩.

علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب[1].

٣ـ استنبط الإمام مالك من الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر. ووافقه كثير من العلماء، والظاهر أنهم فسَّاق. وقد ذكر عنده رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية، وقال: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والاقتتال الذي حدث بينهم: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٩٨، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٥٠٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٩٧، وروح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ١٢٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ٢١٠.

سورة الحجرات

بين يدي السورة

اسم السورة:

لم أقف لهذه السورة على اسم غير الذي اشتهرت به، وهو سورة الحجرات.

مرحلة نزول السورة

سورة الحجرات مدنية، نزلت عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، يدل على ذلك سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ، وهذا يعني أنها نزلت على مجتمع يغلب الإيمان عليه، ولذا نجد السور المدنية تتعاهد الغرس الإيماني الذي بذر في قلوب المؤمنين في الفترة المكية، من فتنظم حياة الناس، مهذبة كثيراً من شؤون حياتهم، بغية النهوض بهم؛ لإقامة مجتمع تسوده المحبة والإخاء.

لقد أراد القرآن من خلال سوره الكثيرة، ومنها هذه السورة، أن ينشئ مجتمعاً متحاباً متآخياً مترابطاً، ولذا وضع أسساً لهذا المجتمع من أهمها: الإيمان، والأخوة، والعدل، والمساواة... وقد عنيت هذه السورة الكريمة ـ على وجازتها بهذه الأسس أيّما عناية، وإننا لنلمس من تأخر نزول السورة، أن من أفراد المجتمع من قد ارتقى في سلم الإيمان، حتى صار رفع الصوت بحضرة النبي ﷺ يوجب التنبيه عليه، والنهي عنه...، كما أن هناك من قد يخل بمقتضيات الأخوة، فيسخر ويلمز ويتنابز ويغتاب... وإننا لنجد فئة من المجتمع حديثة عهد بالإسلام، لا تزال بحاجة إلى مزيد من الرعاية والتوجيه، حتى في القضايا المتعلقة بالإيمان وهناك فساق في المجتمع، ينبغي الحذر في التعامل معهم... وبذا تحدد هذه السورة منهجاً للتعامل مع فئات المجتمع المتعددة.

عدد آيات السورة

عدد آيات سورة الحجرات ثماني عشرة في عد الجميع بلا خلاف.(1)

محور السورة

يدور محور السورة حول بناء المجتمع، وذلك من خلال الأسس الربانية التي تضمنتها هذه السورة الكريمة، هذه الأسس التي من شأنها أن تقيم مجتمعاً متحاباً متآخياً متماسكاً.

تبدأ السورة في بيان ما ينبغي على المجتمع أن يفعله إزاء قادته، وهذا بيان ضمني بأن المجتمعات لا بد لها من قيادة تسوسها، وإلا عمت الفوضى أرجاءه، هذه القيادة ينبغي أن يسمع لها الأتباع، لا أن تكون آراؤهم قبلها، فضلاً عن أن تخالفها...

ثم بينت أنه ينبغي الأدب معها.

بعدها كان الحديث عن نموذجٍ لتجاوز الأدب، فجاء التنبيه والتوجيه.

ولخطورة الشائعات وأثرها في هدم كيان المجتمع، يأتي ما يوضح منهج التعامل مع نبأ الفاسق، وفي الوقت نفسه، تنبه المصلحين لعدم اليأس، فلن ينصلح أمر المجتمع كله، بل سيبقى فيه فساق...

ولأن الاقتتال قد يقع، بسبب نبأ الفاسق، أو لأي سبب آخر، فقد بين القرآن كيفية التعامل مع هذه المشكلة، للوصول إلى الصلح، فذكَّر بالعدل، لكونه من أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، العدل مع الفئة الباغية التي رفضت الانصياع لنداءات الصلح، واستمرت حتى أطلق عليها وصف الفئة الباغية، ومع ذلك يأمر القرآن بالعدل معها، ثم يؤكد هذا الأمر بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، المقسطين في أمورهم كلها، الذين يجعلون العدل أساساً لتعاملاتهم. ولتأكيد هذا العموم، نجد أن الآيات التي نهت عن صور من الانتقاص

(1) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، ابن الجوزي/ ١٤١، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٣٥.

التي تحصل بين أفراد المجتمع قد ختمت بـ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ثم يقرر بعدها قاعدة عظيمة، وهي الأخوة؛ لكونها أساساً لبناء المجتمع، ولكونها أيضاً مما يصونه ويحميه من الاقتتال، ويحمي من ينتدب للاصلاح، فالكل أخوة، وعلى هذا الأساس أصلحوا بين أخويكم، وعلى هذا الأساس ينبغي أن لاتجوروا، ولتكن التقوى دافعكم، لعلكم ترحمون.

ثم تتوالى الآيات لتقتلع أسباب الخصام، الذي قد يؤدي إلى الاقتتال، وهي أمور لا يمكن أن تكون صفات لمجتمع متماسك ينشد الرقي والتحضر، ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، ثم تفتح باباً للأمل وهو التوبة، والتوبة عامل مهم لإصلاح المجتمع، فلولاها لأصر الباغي على بغيه، وانتشر الظالمون، وخيم الفساد، ولتأثر بهم بعض أفراد المجتمع.

لقد أكدت هذه السورة الكريمة أهمية التوبة في مواضع شتى، أولها مع الذين رفعوا أصواتهم، ثم عادوا وامتثلوا الأمر الرباني، فجوزوا بـ ﴿ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، ثم للذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، بشرى وأمل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، بل إن الآيات التي تضمنت منهيات كثيرة، بشر مرتكبوها ـ إن هم اتقوا الله بـقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾، وأخيراً الأعراب الذين قالوا آمنا، مدعين لأنفسهم هذا المنزلة، وُعدوا إن هم أطاعوا الله ورسوله بـقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

إن هؤلاء الذين حادوا عن الجادة، هم لبنات ضعيفة، فإذا ما أهملت، أوجوبهت بالرفض من بقية أفراد المجتمع، فإنهم سيكونون معاول هدم في بقية اللبنات، وخصوصاً إذا علموا أن لا مكان لهم في العودة إلى المجتمع من جديد، فكان المنهج الرباني فريداً في التعامل معهم، وهذا كله من رحمة الله، فلكونه رحيماً تاب وغفر. ولكن السورة في الوقت نفسه، حذرت من إهمال التوبة تحذيراً شديداً، ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، فكأنه لا ظالم إلا هم.

وللغيبة أثرها السيء في إثارة الكراهية بين أفراد المجتمع، ولذا كان لها نصيب من التوجيهات، لكي يسلم المجتمع منها ومن ويلاتها.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾؛ ليبين أن الناس جميعاً مخلوقون من ذكر وأنثى، فلا مجال للتفاخر، الذي هو مدعاة للسخرية... وقد هدم الإسلام التفاخر بالأنساب؛ لكون غيرها من أنواع التفاخر، كالمال والجمال دونها....

ثم تذكر السورة الجانب الإيماني الذي هوأعظم أسس بناء المجتمع، يعرضه أمراً واقعاً، من خلال وفد ادعى لنفسه منزلة الإيمان، وهو لمّا يصل إليها بعد، فجاءت الآيات الكريمات لتوضح حقيقة الإيمان، لترتقي بمن شاء لهذا السمو، فبينت أموراً لابد من توافرها ليصبح المرء كامل الإيمان.

وينتظم السورة أمر مهم جداً، هو الرقابة الداخلية، فابتداء بالافتتاحية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ مروراً بـ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وغيرها، وانتهاء بـ ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كل ذلك يأتي ليغرس في الفرد، هذه الرقابة، التي لا تتأثر بوجود أجهزة للمراقبة، أو انعدامها، فهي توقن أن الله يرى مكانها، ويسمع كلامها، ويعلم نواياها.

ولذا فإن تحقيق بناء المجتمع، يتم بعاملين: خارجي، وداخلي، وعليهما يتم البناء.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين محور السورة ومرحلة نزولها[1].

تبدو المناسبة شديدة الترابط بين محور السورة ومرحلة نزولها، فالمحور هو بناء المجتمع

---

(١) قد تقرر أن من وسائل التعرف على محور السورة الوقوف على المرحلة الزمنية التي نزلت فيها. انظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم/ ٤١-٤٢. وقد رأيت أن مرحلة نزول السورة ألصق بالمحور الذي اخترته من اسمها.

والمرحلة مدنية متأخرة، وكما هو معلوم فإن السور المكية قد عنيت بغرس الإيمان في القلوب وبيان أصول الإخلاق الفاضلة، وما أن تكونت الدولة الإسلامية في المدينة، حتى شرعت الآيات الكريمة تبني هذا المجتمع؛ لتسمو به في مدارج الرقي، حتى تصل به إلى الإحسان فخطت للفرد من الأسس، ما يهذب قلبه وجسده، بصورة متناسقة متآخية، لا يطغى جانب على جانب. لينشأ النقي التقي القوي، وليتكون من هذا الفرد لبنة تُضَم لباقي اللبنات، فتعلي صرح مجتمع قوي متماسك، متعلق بأقوى العرى.

كما أنها حفلت بالكثير من التوجيهات التي تقي هذا المجتمع من التصدع، فحذرت من تلقي أخبار الفساق بالقبول المطلق، مبينة المنهج الذي ينبغي أن يتبع، كما أنها نبهت إلى خطورة ما قد يتهاون فيه من السخرية واللمز... فبالإضافة إلى كونها توهي بناء الفرد، من حيث كون ما يفعله يزعزع إيمانه ويضعف خلقه، ومن ثم ينقله إلى زمرة الفساق ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾، فإنها تخلخل بناء المجتمع، إذ هو مجموع هذه اللبنات.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، مبينة أن الله عز وجل سميع عليم، كما نهت عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ، والجهر له بالقول كما يجهر بعضنا لبعض ثم بينت جزاء من يمتثل أمر الله عز وجل فيغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأنهم قد امتحن الله تعالى قلوبهم للتقوى، ولاشك أن علم ما في القلوب غيبي، فكان أن ختمت السورة ببيان سعة علم الله عز وجل، وأنه يعلم غيب السموات والأرض، وأن كل ما نعمله فإن الله تعالى يبصره، فوجب على العاقل الامتثال لأوامر الله عز وجل، ومعلوم أن العلم بالشيء يقتضي المجازاة عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يضاف إلى هذا أن السورة ابتدأت بأن الله سميع عليم، وختمت بتأكيد علم الله وأنه﴿ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وبأنه ﴿ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها:

ختمت سورة الفتح بقول الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وافتتحت سورة الحجرات بما سبق ذكره.

وقد ذكر العلماء أكثر من مناسبة فيما بين السورتين، نذكر منها:

قال أبو حيان: « ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى: ﴿ رَّحِيمٌ ﴾»[1].

ومنها: «أن الله تعالى لما بيّن محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته، بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال: لا تتركوا من احترامه شيئاً، لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

[ومنها] أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء [على الكفار] ورحماء فيما بينهم، راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا»[2].

لما ختمت سورة الفتح باسم محمد ﷺ، ومُدِحَ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لأجله،

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ١٠٥.

(٢) التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١١٠، وزِيدَ ما بين المعقوفين.

افتتحت هذه السورة بعدم التقدم عليه، واشتراط الأدب معه في القول والفعل، للعد من حزبه والفوز بقربه. [1]

ورد في خاتمة سورة الفتح ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾، وفي سورة الحجرات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾، فكأن هذه الآية تبين أن غض الصوت بحضرة النبي ﷺ من مقتضيات الإيمان، كما أنه جزء من العمل الصالح.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

ذكر الله تعالى في بداية سورة الفتح رفعة منزلة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أراد له المنزلة العالية، قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ وفي افتتاحية سورة الحجرات ما يؤكد هذا المعنى، فنبه الصحابة إلى توقير النبي ﷺ فنهى عن التقدم بين يديه... فعطَف النهيَ عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ على التقدم بين يدي الله عز وجل، ولا شك أن في ذلك تشريفاً ورفعة، كما أنه ﷺ وُصف بالرسول دون ذكر اسمه المجرد، وأضيف إلى المولى عز وجل إضافة تشريف، كما ذم رفع الصوت بحضرته وعند مخاطبته، وكل ذلك تشريف له ﷺ، وانظر إلى ما ورد في سورة الفتح من قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾؛ لتدرك ما بينهما من ارتباط، ثم عرِّج على ما نص عليه في سورة الحجرات ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾....

تحدثت السورتان عن الصحابة رضي الله عنهم، ففي سورة الفتح: هم المؤمنون الذين أنزل الله في قلوبهم السكينة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم...، وهم الذين سيدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار...، وهم الذين بايعوا الرسول ﷺ، وهم بهذه البيعة إنما يبايعون الله عز وجل،.... وهم الذين رضي الله عنهم؛ لبيعتهم رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم... وهم الذين أنزل الله سكينته على رسوله وعليهم، يوم جعل الذين كفروا

(١) انظر نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٢٠.

في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها...، وهم من وصفهم ربهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في..

هذا مما ورد في سورة الفتح، فماذا في سورة الحجرات:

إن هؤلاء الصحابة مهما بلغوا من المنزلة فهم غير معصومين، وهم ليسوا فوق النقد ومن ثم تأتي التوجيهات الربانية؛ لتبين كيف ينبغي على هؤلاء الصحابة الكرام الذين بلغوا هذه المنزلة العظيمة أن يتعاملوا مع نبيهم ﷺ، وقد كان التوجيه لأفضل الصحابة على الاطلاق.

ثم يأتي الثناء على الغاضين، ويدخل فيهم مَن نزلت الآيات بشأنه، فقد ورد في السنة ما يبين أنهم امتثلوا للأوامر الربانية، ففي صحيح البخاري بعد ذكر سبب النزول الذي سيأتي ذكره[1]: «قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ، حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ[2] ولذا وصفوا بأنهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، [3] وبأن لهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، وأجراً عظيماً، وهو الجنة. وقارن بما بيناه في سورة الفتح، ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾.

نجد بعد ذلك الإشارة إلى تشريف الصحابة رضي الله عنهم، فقد اختارهم العليم الخبير لصحبة نبيه ﷺ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾قال البقاعي: «أي: على وجه الاختصاص لكم

(١) عند المعنى الإجمالي للافتتاحية.

(٢) صحيح البخاري، رقم/ ٤٨٤٥، أما ما روي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار. فقد قال الهيثمي: «رواه البزار، وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك. وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ٧/ ١٠٨.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري١١/ ٣٨١.

ويا له من شرف». [1] ثم التصريح بأن الله حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم وصفوا بأنهم الكاملون في الرشاد، وأن هذا تفضل من الله ونعمة، والله عليم بمن يستحق هذا الفضل والإنعام، حكيم يضع الأمر فيمن يستحقه.

ثم لو نظرنا لمحور سورة الحجرات الذي اخترناه، لتبينَ أن السورة كما أسلفنا تريد أن تسمو بهذا الصحب الكريم إلى آفاق عالية، بفضل التوجيهات الربانية التي وردت في أثناء هذه السورة الكريمة، لتبني بهم مجتمعاً يكون قدوةً للمجتمعات من بعده.

ومن المناسبات بين السورتين ما نجده من ذكر الأعراب، وهذا واضح بين، فقد شغل حيزاً في السورتين، وبقليل من التأمل يظهر المقصود بإذن الله تعالى.

إلى غير ذلك. والله تعالى أعلم.

افتتاحية السورة

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ ﴾.

المعنى الإجمالي

بالتأمل في محور السورة نستطيع أن نتبين أن افتتاحية السورة قد أخذت منها حيزاً كبيراً، فهي تريد أن تنشئ مجتمعاً على هدي من الوحي، ولذا فقد تقدمت عملية بناء المجتمع افتتاحية، تضمنت بيان أن هذا المجتمع الذي يراد بناؤه، لا بد له من قيادة، وهذه القيادة يلزم المنقادين

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٢٨.

لها المؤمنين بشرعيتها التقيد بأمور، ينبغي أن يسلموا بها قبل البدء ببيان كيف يكون البناء، وإلا لكان الحديث بعد ذلك لا طائل من ورائه.

ابتدأت الافتتاحية بقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ ﴾، ولهذه الآية سبب نزول يحسن إيراده هنا؛ ليتضح المعنى، فقد أخرج البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكر: أَمِّرْ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدِ بْنِ زُرَارَةَ. قَالَ عُمر: بَلْ أَمِّرْ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. قَالَ أَبُو بَكْر: مَا أَرَدْتَ إلا خِلافِي. قَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلافَك. فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا. فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ حَتَّى انْقَضَتْ.[١]

يخاطب الله تعالى من آمن به، وأقر بوحدانيته، بأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله ويتحرر من كلام العلماء أن التقدم على نوعين:

الأول: السبق في القول والعمل، وإن لم يكن فيه مخالفة، وفي هذا يقول ابن كثير: «لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور».[٢]

الثاني: أن لايقولوا ما يخالف الكتاب والسنة[٣].

وبناء على هذا التقسيم، ومن دراسة سبب النزول نعلم أن مافعله الشيخان، لا يعدو أن يكون اقتراحاً أبدوه، لكنهم تقدموا، أي: سبقوا باقتراحهما قول رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بيد أنهما لم يخالفاه ـ وحاشاهما ـ، أضف إلى ذلك أنه لم يكن ثمة نهي قد نزل بهذا الشأن، فنزلت هذه الآيات؛ تعليماً لهما، وللأمة ما الذي ينبغي عند مخاطبة النبي ﷺ. والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح البخاري برقم/ ٤٣٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٢٦٠.

(٣) هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، انظر جامع البيان١١/ ٣٧٧.

وقد جمع الإمام الطبري بين القولين فقال: «لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله». [١] ومما ينبغي أن يعلم أن النهي يشمل.

والنهي عن التقدم عام، يشمل الأقوال والأفعال، وسواء قدم المرء قوله أو قول غيره وسواء قدم عقله أو عقل غيره... [٢].

ثم أمرهم عز وجل بأن يخافوا الله تعالى في كل ما يأتون وما يذرون من أمورهم، فلا يبدر منهم ما لم يأذن به الله عز وجل أو رسوله ﷺ، كما يأمرهم أن يراقبوه عز وجل؛ لأنه سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم وأحوالهم. [٣]

ثم نهى الله عز وجل من آمن بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ، أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وإن لم يكن هناك تقدم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾.

ونعود إلى معنى الآية، فبعد أن نهت عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، نهتهم أن يحدثوه كما يحدث بعضهم بعضاً إذا كلموه، بل لا بد أن يخفضوا أصواتهم، وإن ينادوه بـ: يا رسول الله، أو يا نبي الله، فتبين أن قوله تعالى: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ ﴾ فيما إذا تُحُدِّث بحضرته، و﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ إذا كان الحديث معه ﷺ، ولعل ما يؤيد هذا أن ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ ﴾ وما قبلها، نزلت بشأن الشيخين رضي الله عنهما، وقد كانت أصواتها قد ارتفعت بحضرة النبي ﷺ، أما ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ ﴾ فهي تمهيد لما حصل من الأعراب الذين نادوه ﷺ، فرفعوا أصواتهم، ونادوه باسمه ﷺ، وستأتي الآية المصرحة بذلك. فيعلم بذلك، أن التأدب معه ﷺ يكون في الأحوال كلها.

---

(١) جامع البيان ١١/ ٣٧٧.

(٢) انظر لما سبق جامع البيان ١١/ ١٧٧ـ١٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٠، وبدائع التفسير، ابن القيم ٤/ ١٧٧.

(٣) انظر جامع البيان ١١/ ٣٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٠، وأضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٠٧.

ثم يأتي التحذير من مغبة المخالفة ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، أي: «إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده؛ خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري». [١] وقد ناقش بعض العلماء هذه القضية، وهي أن رفع الصوت من غير علم يحبط العمل، فبينوا أن المراد أن « عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ، يعوِّد النفسَ بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيّيء إلى أشد منه، حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه، وذلك كفر». [٢]

وبعد هذا الترهيب الشديد، امتدح الله تعالى من يغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن هؤلاء قد تبوؤا منزلة عالية، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها ويبطل خبثها. [٣]، ثم بين عز وجل جزاءهم: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٌ﴾، «عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها لهم، ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جزيل، وهو الجنة». [٤]

هدايـات الافتتاحية

* في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تشريف وتكريم لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله ومدحهم بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] [٥].
* وجوب كون المسلم تابعاً للكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، فالواجب هو الاتباع لا التقدم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٢١.

(٣) انظر جامع البيان١١/ ٣٨١.

(٤) جامع البيان١١/ ٣٨١.

(٥) حول تفسير سورة الحجرات، الشيخ عبد الله سراج الدين/ ١١. بتصرف يسير.

كل تقدم، سواء أكان بالأقوال أو الأفعال أو..، وسواء كان التقديم لآرائنا أم لآراء غيرنا، فمن يقدم شرعاً وضعياً على شرع الله تعالى ورسوله، فقد شمله النهي الوارد فيها. يقول الشنقيطي: « ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله». [١]

* في قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ما يؤدي إلى توحيد مصدر التلقي، وهو وحي رب العالمين، ولقد بين القرآن التفاوت بين من هذا حاله، وبين من تعددت مصادر تلقيه، يقول عز وجل: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]، وهذا الأمر يعصم الفرد من الحيرة والتمزق اللذين يفسدان حياته، [٢] كما أنه عامل مهم في تجانس أفراد المجتمع. [٣]

* عظم منزلة النبي ﷺ، ولذا ينبغي أن لا يُسبق بقول أو فعل أو عقل، كما أنه لا ينبغي أن ترفع الأصوات بحضرته، وهنا نبين أن على المسلم أن يتأدب بهذا الأدب عند زيارته للنبي ﷺ، كما أن عليه أن يراعيه مع سنته من بعده. فلا يرفع من صوته إذا قرئت. ولا يتقدم عليها إذا ما ثبتت.

* مما ينبغي أيضاً عند الحديث عن النبي ﷺ ألا يذكر اسمه مجرداً، بل لا بد أن يسبق اسمه الشريف بالنبي أو الرسول. وأن يقرن بالصلاة والسلام عليه.

* مما يدخل تحت التقدم بين يدي الله وسوله، ما يفعله بعض الناس من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهي أشد أنواع التقدم، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال: (... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ

---

(١) أضواء البيان٧/ ٤٠٧.

(٢) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، محسن عبد الحميد/ ٤٤

(٣) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، عبد المجيد مسعود/ ٨٠.

ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ). (١)

فالدين قد اكتمل، ولا مجال للعقول أن تستدرك على الشرع. (٢)

* ما يفعله بعض المتصدرين للفتوى من تسرع، لا شك أنه داخل تحت قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فينبغي عدم التسرع والعجلة؛ لأنهم موقِّعون عن رب العالمين، وقد نهوا عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، كما ينبغي عدم إعمال الرأي فيما لا مجال للعقل فيه. (٣)

* في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾. دليل على علو منزلة النبي ﷺ ورفعة مقامه عند الله عز وجل،، فقد جعل الله تعالى للذين يغضون أصواتهم عنده، ويلتزمون الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها. (٤) ووُعدوا على ذلك مغفرة وأجراً عظيماً.(٥)

* لا أحد من البشر يستغني عن التذكير ،فالشيخان الجليلان :أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قد نبها.

* عناية الله تعالى بتهذيب عباده؛ للوصول بهم إلى درجات الكمال.

* خطورة اللسان، وأنه ينبغي الاحتراز منه ومن آفاته «إن الإسلام ينظر إلى الكلام على أنه عمل، وسوف يحاسب صاحبه على أعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر(٦)».

* روعة المنهج القرآني في التنبيه على الأخطاء، فالقرآن الكريم لم يصرح باسم من صدر عنه

---

(١) أخرجه أبو داود، برقم/ ٤٦٠٧، والترمذي، برقم٢٦٧٦. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر تفسير القرآن الكريم، (سورة الحجرات...)، ابن عثيمين ٨ـ١١.

(٣) انظر المصدر السابق / ١١.

(٤) انظر حول تفسير سورة الحجرات/ ٤١.

(٥) انظر المصدر السابق/ ٥٤.

(٦) بناء الأجيال، عبد الكريم بكار/ ٥٠.

هذا الأمر، كما أنه قدمه بذكر وصف محبب، وهو الإيمان، ولا شك أن عدم ذكر الأسماء أدعى للامتثال.

* ارتباط اللسان بالقلب، يتضح هذا من قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

* في قوله تعالى: ﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ «إشارة إلى أن قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، قد أعدها الله تعالى، وأرادها لتكون مستقراً ومستودعاً للتقوى، وهذا هو السر في تعدية الفعل ﴿ ٱمْتَحَنَ ﴾ باللام، في قوله تعالى:﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، مع أن الأصل في فعل الامتحان أن يعدّى بالباء... وفي هذا ما يشير إلى أن تلك القلوب.. قد امتحنت فعلاً بالتقوى، وقد نجحت في هذا الامتحان، فأصبحت قابلة للتقوى متجاوبة معها..». [1]

* عظم منزلة الصحابة عز وجل، وبخاصة الشيخان الذين امتثلا أمر الله تعالى في هذا الأمر، وقد مر ذكر ذلك. فقد كان الرسول ﷺ يسألهم عن أمور يعلمونها حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم، [2] أخرج البخاري بسنده عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَال: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْم هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْر اسْمه، قَال: أَلَيْس يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا»: بَلَى. قَال: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْر اسْمه. فَقَال: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّة؟ قُلْنَا: بَلَى. قَال: أَيُّ بَلَد هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيْر اسْمِه، قَال: أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى...»[3]. فأعظم بهذا الأدب وأكبر بهذا الامتثال.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١٣/ ٤٣٦.

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب٦/ ٣٣٣٨.

(٣) صحيح البخاري، برقم/ ١٧٣٩ وصحيح مسلم، برقم/ ١٦٧٩.

* مراقبة الله تعالى في السر والعلن، فالله تعالى يسمع أقوالنا ويعلم نوايانا، وفي هذا غرس للرقابة الذاتية الداخلية، التي تخلو منها التشريعات الوضعية.

* ينبغي أن لا يستهين الإنسان في أي شيء يفعله، خيراً كان أو شراً، فقد ورد التهديد الشديد على من يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، وعلى الذي يجهر له بالقول... وتوعد على ذلك بحبوط العمل، ووعد من يغض صوته عند رسول الله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم.

* فيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إن الله تعالى يعلم الكليات ولايعلم الجزئيات، فالحديث الذي دار بين الشيخين رضي الله عنهما في شأن تأمير شخص على وفد بني تميم، لا شك أنه من الجزئيات.

* ينبغي احترام العلماء، وعدم رفع الصوت بحضرتهم، وكذا عند مخاطبتهم، بل ينادون بما يُشعر بتوقيرهم.

* في قوله تعالى:﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ما يبرز التوبة كأساس من الأسس المهمة في بناء المجتمع ذلك أن أمر التوبة وإن كان يبدو أنه أمر بين العبد وربه، لكنه ذو تأثير معنوي في الأفراد، ومن ثم المجتمع، فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب، ومن أن يساوره اليأس من الغفران، والطمع حيناً في العفو، وليس هذا وذاك مما تستقر عليه النفوس، وتهدأ به الحياة وإذا استولى القلق النفسي على الأفراد، فصاروا إلى خوف مسرف أو يأس مفرط، فإن المجتمع يصيبه من ذلك نوع من الشلل أو الخلل، فكان من الحكمة أن يبين هذا الأمر حتى يعلم العاصي أن له رباً رحيماً، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

المقطع الأول: بناء المجتمع، أسس ومحاذير

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

المناسبات بين المقطع الأول وافتتاحية السورة

تضمنت الافتتاحية النهيَ عن التقدم بين يدي الله ورسوله،.. ثم ذكرت الأدب مع الرسول ﷺ، وابتدأ المقطع الأول بأمر قد حدث، أعراب يرفعون أصواتهم، طالبين خروج رسول الله ﷺ إليهم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ثم أعقبتها الآيات التي تؤكد على أنه لاينبغي التقدم بين يدي الله ورسوله، ما دام الرسول ﷺ فيهم، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ ﴾، معللة بأن النبي ﷺ لو أطاعهم في كثير من الأمور، لأصابتهم المشقة، التي قد تفضي للهلاك. ثم أعقب ذلك بيان منّة الله تعالى عليهم، إذ حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم... فعليهم أن يجعلوا هذه الآداب نصب أعينهم؛ لأنها من

مستلزمات الإيمان.

ثم بعد ذلك أخذ المقطع في بيان ما شرعه الله تعالى من آداب وأسس، من شأنها أن تسهم في صياغة المجتمع الذي يود الإسلام بناءه، وهو ما يجب أن يُلتزم به ولا يُتقدَّم عليه...

التفسير الإجمالي

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ذكر العلماء ههنا سبباً للنزول « عن زيد بن أرقم ﷺ قال: جاء ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً، فنحن أسعد الناس به، وإن كان ملكاً عشنا في جناحه، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، ثم جاؤوا إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون: يا محمد يا محمد، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾. وأخذ رسول الله ﷺ بأذني وقال: لقد صدق الله قولك يا زيد». [١] يخاطب الله عز وجل نبيه ﷺ، ويبين له أن الذين يرفعون أصواتهم لتقبل عليهم، وينادونك بغير اللائق بك، أكثرهم لا يحسنون الأدب، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصنع مع رسول الله ﷺ، فقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ ﴾ أي: انتظروا حتى تخرج أنت إليهم، لا أن يخرجوك هم[٢]، فيزعجوك، لكان هذا الصبر خيراً لهم في الدنيا[٣] والآخرة. ثم دعاهم عز وجل للتوبة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان١١/ ٣٨٢، والواحدي في أسباب النزول/ ٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير، برقم/ ٥١٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٧/ ١٠٨: « وفيه داود بن راشد الطفاوي، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات». قال الشيخ إبراهيم محمد العلي في صحيح أسباب النزول/ ٢٠٢-٢٠٣: » والحديث حسن لشواهده، ولذا حسنه السيوطي في لباب النقول/ ٩٥». وكذا قال د. حسن البلوط في رسالته (أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان) ٣/ ١٠١٥ [وقد ترددت في ذكر هذا السبب لما تقدم من كلام بعض العلماء عليه، لكني لما رأيت تحسين من تقدم له، آثرت إيراده، والعلم عند الله. ولا يخفي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب].

(٢) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٢٥.

(٣) ذُكر أن الخير الدنيوي فداء جميع أسراهم، وكانوا قد جاءوا لطلبهم، بيد أن سند الرواية ضعيف، ومتنها=

فمن رحمته فتح لكم باب التوبة.

بعد هذه الآية الكريمة التي تعرض نموذجاً لعدم مراعاة حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، وهو القدوة للمجتمع المسلم، وقائده، يبين الله عز وجل المنهج الذي ينبغي أن يسلكه المجتمع المسلم في التعامل مع الأنباء، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1]، فيأمر عز وجل المؤمنين بالتثبت والتبين مما يأتي به الفاسق من أنباء، والنبأ، هو: خبر ذو فائدة عظيمة...»[2]، والأمر بذلك؛ ليحتاط له؛ حتى لايحكم بقوله، [3] وهنا نلحظ منهجاً محكماً، فلم يوص بإهماله وعدم الالتفات لخبره، ولم يدع للمسارعة لقبوله، فهو نهج وسط، إذ يدعو للتريث؛ للتأكد من صحته، قال الراغب: «... إذا كان الخبر شيئاً عظيماً له قدر فحقه أن يتوقف فيه، وإن عُلم وغَلَبَ صحته على الظن، حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبيُّن». [4]، ثم يبين عز وجل سبب هذا التوجيه فيقول: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾، أي: خشية أن تصيبوا قوماً بسبب جهلكم بحقيقة حالهم، «فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به،

= أضعف، وقد أحسن الشيخ عبد الله سراج الدين حين قال: «وهذه الرواية ضعيفة بل مردودة، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أكرم من أن يؤاخذهم أو يعاقبهم بذلك لسوء أدبهم معه، وقد قال الله تعالى له: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ حول تفسير سورة الحجرات/ ١٤.

(١) أورد كثير من المفسرين سبباً لنزول هذه الآية، وهي روايات ضعفها العلماء، انظر العواصم من القواصم، ابن العربي/ ٩٨-٩٠، وتعليق محب الدين الخطيب، بهامش العواصم، ولكاتب هذه السطور بحث محكَّم حول هذا السبب، بين فيه ضعف هذه الروايات سنداً ومتناً، وقد نشر في مجلة الباحث الجامعي التي تصدر في جامعة إب باليمن، في العدد الأول، سنة ١٤١٨ هـ الموافق ١٩٩٨ م، بعنوان (سبب نزول الآية السادسة من سورة الحجرات، دراسة ونقد). وعليه فلم أشر لهذا السبب في المتن، وقد أحسن الشيخان الفاضلان: مقبل الوادعي، وصالح العلي، إذ لم يذكراه في كتابيهما المتعلقين بأسباب النزول.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن(نبأ).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفاني (نبأ).

ثم تستديمونه». [١]

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾، والصحابة عز وجل يعلمون هذا، ولكنه لفتٌ للنظر إلى ما يمكن أن يغيب عن الأذهان، بسب الإلف والعادة، وبخاصة ونحن نعلم ما كان عليه الرسول ﷺ من التواضع، مما قد يُذهل عن هذه الحقيقة، فلتستحضروا هذا الأمر دائماً، فهو رسول الله، ولا ينبغي التسرع في القول بين يديه، وهو فيكم، والرجوع إليه أمر ميسور، ونلحظ أن قوله تعالى:﴿ فِيكُمۡ ﴾، وتقديمها ﴿ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ تتضمن تشريفاً[٢] فقد اختصكم الله عز وجل بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً، بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم، وهو ما تؤكد هذه السورة بعضَ حقوقه على أمته. «فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [الأحزاب: ٦] [٣].

﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾، يعني: « لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ويقبل منكم ما تقولون له فيطيعكم ﴿ لَعَنِتُّمۡ ﴾ يقول: لنالكم عنت، يعني: الشدّة والمشقة في كثير من الأمور، بطاعته إياكم لو أطاعكم؛ لأنه كان يخطئ في أفعاله... ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسول الله، وتأتمون به، فيقيكم الله بذلك من العنت.... قوله: ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ يقول: وحسن الإيمان في قلوبكم فآمنتم ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ بالله ﴿ وَٱلۡفُسُوقَ ﴾ يعني: الكذب، ﴿ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ يعني: ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ، وتضييع ما أمر الله به.... ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾... السالكون طريق الحق». [٤] مع تصلب وثبات. [٥]

---

(١) التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١٢١.

(٢) نظم الدرر٧/ ٢٢٨.

(٣) تفسير القرأن العظيم٤/ ٢٦٦.

(٤) جامع البيان ١١/ ٣٨٥، بحذف يسير.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٥.

﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾أي: هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره. (١) لا يضع هدايته إلا لمن يستحقها.

ثم بين القرآن الكريم النهج الذي ينبغي أن يتبع فيما لو حصل اقتتال بين المؤمنين، والإسلام لا يريد من معتنقيه أن يتقاتلوا، ولكن وقوعه أمر ممكن، وبخاصة أن النفوس قد جبلت على الاختلاف، وهو مظنة التنازع، بيد أن القرآن يورده في سياق يجعل وقوع الاقتتال أمراً نادراً، أو قليل الوقوع، فيقول عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾، وقد ذُكرت عقب التحذير من الاستعجال في تصديق خبر الفاسق، لتفادي ما قد يحصل.(٢)

أخرج البخاري بسنده عن أنس ﷺ أنه قال: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيّ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَاراً، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِك. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْهُم: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحاً مِنْك. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِه، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ. فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ. فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَت ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾»(٣).

هذه الآية الكريمة تبين أنه إذا أرادت طائفتان من المؤمنين الاقتتال، بأن بدرت بوادره

---

(١) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٧.

(٢) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٢٦٩١، ومسلم برقم/ ١٧٩٩. قال ابن عاشور:» ويناكد هذا أن تلك الوقعة كانت في أول أيام قدوم رسول الله ﷺ المدينة. وهذه السورة نزلت سنة تسع من الهجرة وأن أنس بن مالك لم يجزم بنزولها في ذلك لقوله: فبلغنا أن نزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾. اللهم أن تكون هذه الآية ألحقت بهذه السورة بعد نزول الآية بمدة طويلة. التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣٨.

أو حصل الاقتتال، فعلى المسلمين أن يسعَوا ويبادروا إلى الصلح بينهم، وذلك بدعوتهم إلى حكم الله عز وجل، فإن حصل التعدّي بعد ذلك من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، وأجابت الأخرى، كان على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن بغيها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدّي ما يجب عليها للأخرى. ففي صحيح البخاري عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله، انصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[1] ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال:﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي: واعدلوا وأزيلوا الجور، إن الله يحب من كانت هذه صفته، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء.[2] كما أن فيه وعيداً شديداً لمن لا يعدل، إذ يعني بغض الله تعالى له، وما يستلزمه من مجازاتهم بأسوأ الجزاء.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾، وهذه الآية « تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، فالجملة موقعها موقع العلة، وقد بُني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة. وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين»[3]، والمراد أخوة الدين.[4] قال القرطبي: «أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[5]. وهذا ما أكده الرسول ﷺ حيث يقول: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا

---

(١) صحيح البخاري برقم/ ٦٩٥٢.

(٢) انظر فتح القدير ٥/ ٦٧-٦٨، بتصرف يسير. وانظر جامع البيان ١١/ ٣٨٧. والتفسير الكبير ٢٨/ ١٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر جامع البيان ١١/ ٣٨٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٢-٣٢٣.

يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). [(١)] والأحاديث كثيرة في هذا المعنى، وهي تبين واجبات الأخوة الإسلامية، ومن أجمعها مارواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلام، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ). [(٢)] بل إن رسولنا الكريم ﷺ وصف حال المسلمين بوصف بليغ، ينبغي على كل من يريد إقامة مجتمع متين أن يعيه ويمتثل ما يرشد إليه، داعياً الآخرين إلى ذلك. يقول ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). [(٣)]

وهذا يعني أن رابطة الأخوة تقتضي التعاون والتحاب والتناصح، لا التباغض والتنافر والتناقض، كما أنها تستدعي التدخل لفض ما قد يحصل من خصومات بينهم، فهم أخوة والاقتتال بين الأخوة مفسدته عظيمة...، ثم هم أخوتكم أنتم أيها المصلحون.

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾، يعني بـ﴿ أَخَوَيْكُمْ ﴾: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الاصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. [(٤)] وقال بعض العلماء: أي بين الفئتين. ولا تعارض بين القولين، كما مر.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يخاطب المولى عز وجل «جميع المؤمنين، فيشمل الطائفتين الباغية والمبغي عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينهما ومقاتلة الباغية، فتقوى كلٍّ بالوقوف عند ما أمر الله به كُلا بما يخصه. ومعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾: تُرجى لكم الرحمة من الله، فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة

---

(١) صحيح البخاري برقم/ ٢٤٤٢. وصحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٠.
(٢) صحيح البخاري برقم/ ١٢٤٠، ومسلم برقم/ ٢١٦٢.
(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٦.
(٤) فتح القدير٥/ ٦٨. وانظر الجامع لأحكام القرآن١٦/ ٣٢٣، والبحر المحيط٨/ ١١١.

بين المؤمنين وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها». [١] ولا شك أن الآية أطلقت الرحمة، فتشمل رحمة الله تعالى للمتقين في الدنيا والآخرة، وهو ترغيب، لكنه يتضمن تهديداً: أن من انسلخ من هذا الوصف فإن رحمة الله عز وجل بمنأى عنه.

ثم حذر القرآن مما يورث العداوة ومن ثم الاقتتال، فقلع أسبابه من جذورها، يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ فبدأ بالنهي عن السخرية، وهي: احتقار الناس والاستهزاء بهم... إذ قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له[٢]؛ «لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات». [٣] وقد نهى الله تعالى الرجال والنساء جميعاً للعلة نفسها. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب. [٤] ولذا قال الطبري: «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، ولا يطعن بعضكم على بعض». [٥] وعلى هذا يحمل ما سيأتي من النهي عن الغيبة من باب ذكر الخاص بعد العام، إذا كان اللمز يشمل المغتاب والعيّاب، لكن هناك من ذهب إلى أن اللماز هو العياب[٦] قال ابن عاشور: «اللمز: ذكر ما يَعُده الذاكر عيباً لأحد مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلاً فهو وقاحة وكذب، وكان شائعاً بين العرب في جاهليتهم»[٧]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٥ بحذف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٨بتصرف يسير.

(٣) الكشاف، الزمخشري٤/ ٣٧١، وانظر البحر المحيط٨/ ١١٢.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن(لمز).

(٥) جامع البيان ١١/ ٣٩١.

(٦) ذكر ابن فارس ذلك فقال: «... اللمز وهو العيب... ورجل لماز ولمزة، أي: عياب» معجم مقاييس اللغة (لمز). وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٩. والبحر المحيط ٨/ ١١٢، وإرشاد العقل السليم٦/ ١١٧.

(٧) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٨. ثم قال بعدها: «وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك».

فالله أعلم بمراده. وفي التعبير بـ ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ سر لطيف، وهو أن المسلمين كنفس واحدة، فالذي يطعن أخاه كأنه طعن نفسه، « فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، والمعنى: ولا يقتل بعضكم بعضاً.[١]

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، أخرج الطبري بسنده عن أبي جُبيرة بن الضحاك، قال: كان أهل الجاهلية يسمون الرجل بالأسماء، فدعا النبيّ ﷺ رجلاً باسم من تلك الأسماء، فقالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾. [٢] والمراد النهي عن « دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة»[٣] وقد استثنى العلماء من ذلك ما يقال لشهرة هذا اللقب على صاحبه، حتى لا يعرف إذا أطلق سواه، ولا يكون على سبيل التنقص. كالأعمش والأعرج ونحوهما،

ثم ذم الله تعالى التنابز المذموم بقوله: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ وللعلماء فيها قولان:

الأول: بئس رجوعك للفسق بعد أن آمنت.

الثاني: بئس وصفك أخاك بالفسق بعد أن آمن. [٤]

ولعل الأول هو الأرجح؛ لما فيه من التهديد الشديد لمن يفعل ذلك، وإن كان القول الثاني مراداً، فإنه يقبح بالمسلم أن يصف أخاه بالفسق أو الكفر بعد أن تاب وأقلع.

ثم ذكر القرآن أن ما يحصل من هذه الأخلاق الردية التي قد لا يُلتفت لقبحها، إثم يجب على من فعله التوبة، فقال عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هم الظالمون لا غيرهم،

---

(١) انظر جامع البيان ١١/ ٣٩٠.

(٢) جامع البيان ١١/ ٣٩١، قال د. حسن شبالة في رسالته: أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان(جمعاً وتخريجاً ودراسة) ٣/ ١٠٢٨: «إسناده صحيح».

(٣) المصدر السابق١١/ ٣٩٣.

(٤) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٣٣.

فقد ظلموا الآخرين بالاعتداء عليهم، وظلموا أنفسهم حين ارتضوا لها هذه المنزلة التي يسفل بها حال العاقل، فضلاً عن المسلم الذي ارتوى من معين القرآن والسنة، وظلموها إذ انشغلوا بعيوب الآخرين عن الانشغال بتفقد عيوبهم، والانصراف لما يصلح أحوالهم، ثم ظلموها في الآخرة حين ارتضوا لها عقاب الله تعالى. [١]

ثم تتوالى الآيات الكريمة وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضمره، يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، يعود النداء ليؤكد أن المخاطبين قد ارتضوا هذا الدين، فعليهم أن يرتقوا لقمته، والمطلب رفيع﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ أي: كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا الظن في جانب بعيد عنكم [٢] والمراد بالظن: «التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله». [٣]

والنهي عن الظن أمر بعدم التمادي فيه، ثم تحقيق موجبه، وإلا فالظن الذي يهجم على الإنسان اضطراراً دون اختيار لا يؤاخذ عليه.

وقوله تعالى: ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ إخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال الله تعالى: ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢]، وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب. مثاله: حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود. إلى غير ذلك. [٤] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، قد يشير إلى أن أكثر الظن ليس بإثم، بناء على أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، وظن السوء على نوعين: ما قامت قرينة على وجوده، وما لم تقم، ولا شك أن الأول ليس بأثم، [٥] وبذا يتحقق المراد من الآية

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٠.

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٣٤ بتصرف يسير.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٩.

(٤) التفسير الكبير٢٨/ ١٣٤بتصرف يسير.

(٥) انظر تفسير القرآن الكريم (الحجرات....)، ابن عثيمين/ ٥٠.

الكريمة، فلقد نهى القرآن عن كثير من الظن، من باب الاحتياط ـ كما مر ـ.

ولما كان الاسترسال في الظن قد يدعو صاحبه ليتحقق من الأمر، نهى الله عز وجل عن التجسس، ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ «ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره؛ يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره»[1] وفي الحديث: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا إِخْوَاناً...). [2]

ثم نهى الله عز وجل عن الغيبة فقال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾، وقد بين رسول الله ﷺ معنى الغيبة فقال: (أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته). [3] وهذا الحديث الشريف جامع لكل ما قد يتساهل فيه بعض الناس مما لا يعدونه غيبة، فكل ذكر لأخيك في غيبته بما يكره فهو غيبة، سواء أكان ذلك مما له تعلق به أو بغيره، من ولد أو مال أو زوجة أو غير ذلك، فهو بيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ، وبهذا يتبين مدى تساهل الناس في هذا الأمر، ولننظر في وصف الله تعالى للمغتاب، لقد وصف بصفات ينفُر عنها كل ذي نفس كريمة ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾ ولقد أجاد الزمخشري هنا في بيان ما تضمنته من التنفير فقال: «منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. [فلم يقل الله تعالى: أيتحمل، أو نحوها] ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً ومنها

(١) جامع البيان١١/ ٣٩٤.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ٥١٤٣. وصحيح مسلم برقم/ ٢٥٦٣.

(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٩.

أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً». [١]

وقد أكد النبي ﷺ التحذير من خطورة الغيبة، فتوعد المغتابين المتتبعين عورات المسلمين فقال:(يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يَدْخُلْ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)[٢]

وقد استثنيت من حرمة الغيبة أمور، ذكرها الإمام النووي، ولأهميتها، وكثرة السؤال عنها، نوردها بتمامها ـ سوى حذف يسير ـ:

«اعلم أن الغيبة تباح لغرضٍ صحيحٍ شرعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسبابٍ:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولايةٌ، أو قدرةٌ على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلانٌ يعمل كذا، فازجره عنه. ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلانٌ بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجلٍ أو شخصٍ، أو زوجٍ، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيينٍ، ومع ذلك، فالتعيين جائزٌ...

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوهٍ:

منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائزٌ بإجماع المسلمين، بل واجبٌ للحاجة.

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٧٦. وزيد ما بين المعقوفين.

(٢) مسند أحمد برقم/ ١٨٩٤٠.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسانٍ، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسقٍ يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحةٌ فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولايةٌ لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولايةٌ عامةٌ ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به؛ ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سببٌ آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ؛ كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك؛ ويحرم إطلاقه على جهة التنقص؛ ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسبابٍ ذكرها العلماء وأكثرها مجمعٌ عليه؛ دلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورةٌ...»[1].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ « فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظنّ أحدكم بأخيه المؤمن ظنّ السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه،

(١) رياض الصالحين، النووي/ ٤٥٠ ـ٤٥١، بحذف يسير.

تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم». [١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن رحمته قبل توبتكم ورجوعكم من هذا الذنب العظيم، وهذه دعوة من رب رحيم للإقلاع عن هذا الداء الذي ابتلي به كثيرون.

وقد ذكر العلماء ما ينبغي على المغتاب إذا أراد التوبة، قال ابن كثير: «قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع. وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك». [٢]

« وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات، حول كرامتهم وحريتهم وحرماتهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه... بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق»[٣] فيخاطبهم ربهم الذي خلقهم بهذا النداء العام ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾، وأصلكم واحد ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وقد يتساءل فلم جعلوا شعوباً وقبائل؟ هنا يبين خالقهم سبب ذلك فيقول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ «ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده». [٤]

«والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون،

(١) جامع البيان١١/ ٣٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٨..

(٤) جامع البيان١١/ ٣٩٨.

والعشيرة متعارفون من عائلات، إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها. فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم»[1].

وقد ورد عن النبي ﷺ الحث على هذا التعارف، ففي الحديث: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر). [2]

فبم إذن يتمايز الناس ويكرمون، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ هذا هو معيار التفاضل والتكريم عند العليم الخبير الذي خلق الناس، وبهذا التقرير يضع القرآن المبدأ الذي لم يكن العالم قد تنبَّه له بعد، أن الناس جميعاً متساوون في الخلق، لا فرق بين رجل وامرأة في هذه النسبة وفي هذه الأصالة، ولا فرق بين مشرق ومغرب، ولا بين أبيض وأسود وأحمر... ولا يمكن أن يسعد مجتمع تمزق نسيجه العنصريةُ الجنسية، أو القبلية، أو الطائفية، أو أعتبار اللون.... [3].

وقد أكدت الأحاديث النبوية هذا المبدأ قولاً، وحققه رسولنا الكريم ﷺ سلوكاً عملياً، لا شعارات مجردة من مضمونها، تتشدق بها بعض المجتمعات التي تدعي التحضر، ثم هي تجعل للون أو العرق وزناً، (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ...)[4]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي برقم/ ١٩٧٩، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه. ومعنى قوله: (منسأة في الأثر) يعني: زيادة في العمر» إهـ. وقال الحاكم: « صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي. المستدرك١/ ١٦٦.

(٣) انظر المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء، محمد محمد المدني/ ٢٤.

(٤) صحيح البخاري برقم/ ٤٦٨٩.

وقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ).[١]

تؤسس هذه الآية الكريمة مبدأ العالمية، ليحتضن الإسلام كل الأجناس، وكل الأعراق، وكل الألوان، وكل اللغات... يغمرهم الإسلام بنوره ويشملهم عدله، ويكون التفاضل لشيء واحد، هو التقوى، وهي عند الله، فقد نزدري أناساً ونسخر منهم، وهم خير عند الله ممن رفعناهم وأكرمناهم، وإذن حتى هذا الأمر الذي به يكون التفاضل، لم يُجعل أمره للبشر، إذ هم محجوبون عما تكنُّه القلوب، التي هي محل التقوى، وكما قال ﷺ، وهو يشير إلى صدره: (التقوى ههنا)[٢] فلا مطمع إذن لمعرفة الأكرم، فليتسابق الناس في تحصيلها، وليطلبوها من واهبها [فضلاً من الله ونعمة].

ثم تختتم هذه الآية الكريمة بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ عليم بظواهركم خبير ببواطنكم، لا تخفى عليه أسراركم.[٣]

هدايات المقطع الأول

* اشتملت سورة الحجرات على أهم الأسس التي تبنى عليها أرقى المجتمعات، ولو تدبرنا هذا المقطع، فسنجد أنه قد حوى الكثير من هذه الأسس، من أهمها: (الإيمان، والأخوة والعدالة، والمساواة، والتوبة، وتعميق معنى الرقابة الذاتية، وهو ما يعبر عنها بالضمير أو الوازع الداخلي، من خلال ترسيخ العقيدة في الله تعالى وأسمائه وصفاته، بكونه عليماً سميعاً بصيراً. إلى غير ذلك.
* يحسن بالمرء أن يتخلق بالخلق الحسن، إذ فيه كمال عقله، فهؤلاء الأعراب لما رفعوا أصواتهم عند مناداة النبي ﷺ، ولم يتحلَّوا بالصبر، وصفوا بـ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

---

(١) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٦٤.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم/ ٢٥٦٤.

(٣) انظر التفسير الكبير٢٨/ ، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١١٩.

* ينبغي الدقة في إصدار الأحكام على الآخرين، فالله تعالى يقول ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فلم يعمم «لأن منهم من لم يناد النبي ﷺ مثل ندائهم...»[١] ولعل فيهم من كره ولم يصرح؛ لخجل أو خوف.... وكم سمعنا ذمَّ أهل بلد بأكمله، لإساءة حصلت من شخص أو اثنين، فما أحوجنا إلى ضبط ألسنتنا.

* لو أردنا تعميم هذا المبدأ في حياتنا، أعني: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ لأحرزنا نتائج باهرة، فالصبر على القراءة الجادة المفيدة، والصبر على العمل المثمر الشاق بغية الوصول للإبداع، [٢] والصبر على تربية الأبناء والطلاب، بل والمجتمع، كلها تدخل في مجال الصبر الذي يعقبه خير كثير.

* يتفرع من هذا الأمر، خلق ينبغي على أفراد المجتمع أن يتحلوا به، وهو خلق يحبه الله تعالى كما قال النبي ﷺ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ). [٣] وقد ورد في هذه السورة الكريمة ما يدل على هذا الخلق الكريم أكثر من مرة، فالتقدم بين يدي الله ورسوله، ضرب من التعجل، ولو أن الأعراب الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات تأنوا لكان خيراً لهم، كما أن خبر الفاسق مما ينبغي أن يتأنى فيه، وأحسب أن الذين ادعوا منزلة الإيمان، تعجلوا الأمر، إذ إن هذه المنزلة تحتاج إلى بذل وصبر طويل.

* رحمة الله الواسعة، فمع ما فعله هؤلاء الأعراب مع الرسول الكريم ﷺ، لكن الله تعالى لم ييئسهم، بل هو مَن يدعوهم إلى التوبة، بل يغريهم بها ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وهي دعوة للدعاة الذين اتخذوا من مشرط الجراح وسيلة وحيدة للدعوة إلى الله تعالى، أن يكون المنهج القرآني رائدهم، لا التشنج والهوى.

* ينبغي على الناس أن لا يقتحموا على العلماء والدعاة أوقات راحتهم، بل يصبروا حتى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٢٥.

(٢) انظر بناءالأجيال، أ. د عبد الكريم بكار/ ٤٢.

(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥.

يخرجوا إليهم، فهم كغيرهم يحتاجون للراحة، وللخلوة بالأهل والأولاد، وليقضوا مصالحهم، ومصالح الآخرين.

* في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ بيان لخطورة الإشاعة، التي أصبحت في وقتنا الحاضر سلاحاً فتاكاً، بعد هيمنة وسائل الإعلام على عقول الناس باعتبارها سلاحاً نفسياً، وفي التاريخ الإسلامي نماذج لهذا السلاح، منها: إشاعة مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد، ومنها ما وقع بشأن حادثة الإفك، ومنها الشائعات الكاذبة التي صنعت ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ، والتي لم تقتصر آثارها السيئة على المجتمع في ذلك الوقت فحسب، بل على الأمة حتى وقتنا هذا. [1]، ولذا فإن هذه الآية تعد منهجاً يقتدى؛ للتثبت من الشائعات وعدم الإنجرار وراءها.

* المنهج المحكم الذي دعت إليه الآية الكريمة ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾، فلم تدع إلى إهمال خبر الفاسق وعدم الالتفات له، ولم تحث على المسارعة لقبوله، بل اختطت منهجاً وسطاً، يدعو للتريث؛ ليتبين، ويتثبت في أمره.

* " الواجب على المؤمن التثبت في الأمور، والتبين في صحة الأخبار التي تبلغه، وما ينقل إليه من كلام أو يسمعه من الوشاة، فكم أورث عدم التبين والتثبت فيها فساداً كبيراً، وشراً مستطيراً، وعداوات وشحناء... ". [2] وهذه أمور من شأنها أن تفسد المجتمع.

* مما تدل عليه هذه الآية الكريمة، التثبت مما ينسب إلى بعض العلماء من أقوال، فكم ألصقت بهم تهم وهم منها براء، [3] ومرد ذلك كله خطأ في النقل، أو سوء فهم لكلامه. أو

---

(١) انظر الإشاعة وأثرها على الفرد والمجتمع مقال على النت لعبد الله خليفة، موقع شبكة المشكاة الإسلامية، وللتوسع انظر: الحرب النفسية والشائعات، د. معتز سيد عبد الله/ ١٥٧ وما بعدها، ٣٣٩ وما بعدها ففيه بيان للتصور الإسلامي لمواجهة الشائعات.

(٢) حول تفسير سورة الحجرات/ ٧٣.

(٣) انظر سورة الحجرات، دراسة تحليلية وموضوعية، د. ناصر العمر/ ٢١٣.

إشاعة مغرضة.

* يدل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾، على أن المجتمع المسلم مهما بلغ من التقى ـ وقد مر أن هذه السورة نزلت في السنة التاسعة من الهجرة ـ فإنه لا يخلو من وجود بعض الفاسقين، وإن كان هذا ينبغي أن يكون نادراً، كما يشير التعبير إليه بـ ﴿إِن﴾ دون إذا.
* مع علم المؤمنين بأن الله تعالى حكيم، فإننا نجد أن كثيراً من الأوامر والنواهي القرآنية معللة، يقول تعالى بعد أن أمر بالتثبت من نبأ الفاسق ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، وهي دعوة للمربين من آباء ومعلمين ومصلحين وحكام، إلى سلوك هذا السبيل، ففيه الخير الكثير، فهو يجعل المتلقي يعي أهمية ما يفعل، كما أنها وقفة للذين يأنفون من بيان علة ما يَطلبون.
* تتضح من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ منة الله تعالى على الناس، إذ اختار من جنسهم من يكون واسطة لوحي الله تعالى، وليكون فيهم؛ لينقلهم هذه النقلة العظيمة، وليبني بهم مجتمعاً يعرف خالقه، ويحسن عبادته، كما يحسن العلاقة مع الآخرين، ولم يتركهم نهباً لتصورات ونظريات أرضية، أخص صفاتها الجهل والنقص والهوى.
* في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ما يشير إلى تواضع الرسول ﷺ، فهو الذي تسبب في هذا التنبيه، وإلا فلو عرف عنه ﷺ التميز عنهم، وفرض رأيه دون الرجوع إليهم لما غابت عنهم صفته. بيد أن هذا الإلف وهذا التعود، ينبغي أن لا ينسيهم هذه الحقيقة العظيمة، التي توجب عدم التقدم بين يديه، وعدم رفع الصوت بحضرته.
* شرف الصحابة وفضلهم العظيم، فهم مَن اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ وحمل الشريعة، ثم نقلها لمن بعدهم، يتضح هذا من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ فهو فيهم خاصة لا في غيرهم. كما يتضح من قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۞٨﴾ فالعليم الحكيم بمن يستحق هذا الفضل وذلك الإنعام

هو الذي حبب إليهم الإيمان.... وفي هذا يقول ابن مسعود ﷺ: "إن اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ... "(١)

* في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ ما يدل على أن ما ورد في الشرع الحنيف من أوامر ونواه، هي خير لنا من اختيارنا لأنفسنا، فلو أن الشرع أطاعنا فيما نقترحه ونحبه لأصابنا العنت والمشقة، وهو ما يعني أن تنفيذ أوامر الشرع هي الخير المحض.

* في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ما يدل على أن الله تعالى هو الذي بيده هذه الأمور، فوجب على المسلم التطلع إليها وطلبها من واهبها. قال ابن القيم: " لم تكن محبتكم للإيمان، وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم ". (٢)

* الأصل في المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه أن يعيش أفراده بسلام، ولكن قد يقع القتال بين المؤمنين ـ وهو ما لا يرضاه ـ ولذلك، يدعو المسلمين جميعاً إلى إطفاء هذه النار، قبل

---

(١) قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون». مجمع الزوائد١/ ١٧٧ـ١٧٨.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح العلي ١/ ٣٥٠ـ٣٥١.

أن تتسع ويصعب إخمادها. يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾.[١]

* استدل الإمام البخاري بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ على أن المسلم لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت؛ فقال: «باب ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فَسَمَّاهُمْ الْمُؤْمِنِين»[٢]، مع أنهم قد اقتتلوا. وفيه رد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم.[٣]

* «العدل من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع الصالح، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل، هو مجتمع فاسد صائر إلى الانحلال ثم الزوال»[٤] وهذا الأمر قد أكدته سورة الحجرات، ودعت إلى إقامته، حتى مع الفئة الباغية التي نُصحت وما انتصحت، وما فاءت إلا بعد قتال جر ـ في الغالب ـ قتلاً وخراباً، ومع هذا كله يقول عز وجل: ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ والعدل في الإسلام قيمة مطلقة، يطبق حتى على الأعداء، يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨]، وهذا بخلاف كثير من النظريات الأرضية التي تذهب إلى نسبية الأخلاق، ولذا فإن العدل عندهم متأرجح غير مستقر.

* ما تقدم يبين أهمية إشاعة العدل في حياة الناس، لينتظم أمور حياتهم كلها، فالعدل مع النفس، والعدل مع الأبناء، والعدل مع الزوجات، والعدل مع الطلاب، والعدل مع

---

(١) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٤٥.

(٢) هذه ترجمة لحديث برقم/ ٣١.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٧.

(٤) المجتمع المثالي/ ٧١.

الرعية.... ومتى سرى العدل في كيان المجتمع، أمكن أن يقال عنه أنه مجتمع معافى، وإلا فأنه ينقص من عافيته بمقدار ما انتقص فيه من عدل، ولا غرو أن كان الظلم من أسباب هلاك الأمم السابقة.

* قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا الأساس من أهم الأسس التي حرص الإسلام على غرسها في المجتمع، ولقد عدت الأخوة من النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد ضعف هذا الأمر في نفوس كثير من المسلمين، بعد أن جرفهم تيار المدنية، فضعفت صلة الأرحام، وبات الجار لا يعرف جاره،... فالهداية هنا أن نستشعر معنى الأخوة، ونعمل بما توجبه.
* في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ما يدل على «أن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد»[1].
* «من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفين المستهزئين بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخَف بها، المستصغر لشأنها على أن تدافع عن نفسها، وأن ترد هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء ممن سخروا منهم وهزئوا بهم، وهذا أول قدح لشرارة الحرب..»[2].
* في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، إشارة لآفة تهدد كيان المجتمع

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٤٨.

وهي شيوع استخفاف الأفراد بأنفسهم، وذلك من خلال استخفافهم بالآخرين، ذلك أن الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء، لا يسوؤه كثيراً أن يعيبه الناس، وهذا ـ والله أعلم ـ هو بعض ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ بإيقاع الفعل عليهم، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضمناً [١].

* في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ "تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً". [٢]

* قوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ "يستوقف السامع ليتطلب البيان، فأُعلموا أن بعض الظن جرم، وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون؛ ليعرضوا ما تفضي إليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم. على أن هذا البيان الاستئنافي يقتصر على التخويف من الوقوع في الإثم. وليس هذا البيان توضيحاً لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه؛ لأنها أنواع كثيرة، فنبه على عاقبتها وتُرك التفصيل لأن في إبهامه بعثاً على مزيد الاحتياط. [٣] ويقول الرازي عن هذا: « كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين، إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ»[٤].

* «معنى كون الظن إثماً أنه: إمّا أن ينشأ عليه عمل أو مجرد اعتقاد، فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل، كالاغتياب والتجسس وغير ذلك، فليقدِّر الظانّ أن ظنه كاذب ثم لينظر بعدُ في عمله الذي بناه عليه، فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١.

(٤) التفسير الكبير٢٨/ ١٣٤.

اتهامه بالباطل، فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز. وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل، فليقدِّر أن ظنه كان مخطئاً، يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به، فإن كان اعتقادا في صفات الله، فقد افترى على الله، وإن كان اعتقاداً في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضاراً، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك». [(١)]

* «الظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علماً راسخاً في النفس، فتترتب عليه الآثار بسهولة، فتصادف من هو حقيق بضدها». [(٢)]

* في قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ ما يدل دلالة واضحة على مدى قبح الغيبة، وازدراء عظيم لأهلها، إنهم أسوأ من كثير من الحيوانات، التي تعاف أن تأكل لحم حيوانات من جنسها، وليس هذا وحسب، بل إنهم يأكلون هذا اللحم ميتاً وكثير من الحيوانات تعاف أكل الميتة ولو ماتت جوعاً. [(٣)] بل إن هذا المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً. ولا أشنع من هذا الوصف، وبالرغم من هذا، فإنك تجد الكثير من الناس قد وقعوا في هذا المحذور.

* يستدل من قوله تعالى ﴿ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾، على أن من سئل عن شخص في مقام تجوز فيه الغيبة، فإنه ينبغي عليه أن يجيب عن ذلك بقدر، كما يتناول المضطر من لحم الميتة بمعنى أن لا يطنب في مقام يكفي فيه الإيجاز. وإذا استطاع، يدفع ذلك من غير غيبة، فعليه أن يفعل. [(٤)]

* عظمة الإسلام في تحضر المجتمع ونقلهم من كونهم يعدون القوة أقرب الوسائل تناولاً لحل

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١، بتصرف يسير٢٥٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٢.
(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٥٠.
(٤) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٣٥.

مشكلاتهم، إلى أن صاروا يتوقَّون قول كلمة قد تحسب عليهم غيبة أو تحقيراً لمسلم. [١].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ دعوة مؤكدة من رحيم، لكل من انحرف عن الجادة، بالرجوع إليها، وضم جهوده لبناء المجتمع. وهذا الأساس، أعني التوبة من الأسس المهمة في بناء المجتمع، وقد تكرر وروده في هذه السورة، ليرد من شذوا عن الصف إليه، وهو من الأسس التي ينبغي على المربين أن يراعوها، فليس هناك أسوأ من اليأس، وما قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بمن قنَّطه المائة[٢] إلا دليل صادق لما نحن بصدده.

* قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ تضع أساساً مهماً من أسس بناء المجتمع وهو المساواة، فخالق الناس واحد، وقد بين عز وجل أنه خلقهم من ذكر وأنثى، إذن فلا مزية لأحد على آخر، ثم زاد الأمر توضيحاً ببيان علة جعل الناس شعوباً وقبائل، وأنه تعالى هو من جعل الناس كذلك، وأخيراً ذكر الأساس الذي به يسمو من أراد الارتقاء وأن ذلك الأساس هو التقوى، فعلى الناس أن يجتهدوا في تحصيل هذا المقام، وأن لا ينشغلوا عنه بأمور ليست من كدهم.

* إن هذه المساواة التي أسسها الإسلام قبل خمسة عشر قرناً، لم تأت بعد مطالبات وإعتصامات وإضرابات، بل جاءت من عند الخالق الحكيم، ولم تفرق بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الوطن، أو أي انتماء أرضي، إذ إن هذه كلها ليست من عمل الناس، وليس بمقدورهم في الغالب تغييرها إن هم أرادوا ذلك، بيد أن الله تعالى، جعل ميدان التفاضل مقدوراً عليه لأي إنسان، بتوفيق الله تعالى، وببذل الأسباب، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولذا فإننا نقول: إن هذه المساواة لم يبلغها أيُّ تشريع أرضي، وأنى له ذلك؟.

---

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة، أ. د عبد الكريم بكار/ ٢٧١.

(٢) الحديث في صحيح البخاري، برقم(٣٤٧٠)، وفي صحيح مسلم، برقم ٢٧٦٦.

* في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾، ما يدل على أنه ينبغي على الإنسان أن لا يفتخر بالأنساب، ذلك أن الجَعل هو: «إضافة جديدة تدخل على أصل الشيء، فهو من متعلقات الموجودات، وليس له هو وجود ذاتي، فتوزُّع الناس إلى شعوب وقبائل، ليس أمراً ذاتياً، تتغير به حقيقة الإنسانية في الناس...»[1].

* ينبغي أن تحقق العلة التي أرادها الخالق عز وجل من جعل الناس شعوباً وقبائل، وهي التعارف، لا أن يكون مدعاة للتفاخر والتناكر والتخالف، التي هي مدعاة للسخرية واللمز... ثم اقتتال أفراد المجتمع.

* في قوله عز وجل ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾، مع تصدير الآية الكريمة بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، دعوة للانفتاح المنضبط على الآخرين، إن في الناس حاجة ليتعرفوا على ما عند المسلمين من خير، وعلينا لزاماً أن نعرفهم بديننا، وأقول ماذا لو انغلق المسلمون على أنفسهم في الشِّعب؟، أو في دار الأرقم؟، ألم يذهب النبي ﷺ إلى الطائف؟، ألم يعرض نفسه على القبائل؟ لقد ازداد عدد الداخلين في الإسلام، وذاع صيته بعد صلح الحديبية، ثم أن بنا نحن حاجة لنتعرف على الآخر، كيف يفكر... كيف تقدم... ؟ وأنا هنا أدعو العلماء إلى تحديد مفهوم التعارف الذي تنشده الآية الكريمة، ومن ثَمَّ اتخاذ منهجية لحسن التواصل مع الآخرين. لقد أصبح العالم قرية صغيرة، فما لم نحسن التواصل مع الآخر، لا أقول فسَنُغزى في بيوتنا، إذ إن هذا قد حصل، ونحن ـ للأسف ـ لم نعد للأمر عدته.

* كل مجتمع يضع مقاييس للتفاضل غير المقياس الذي حدده الإسلام وهو التقوى «لا بد أن يشقى وأن يضطرب عليه أمره، وأن يعوق عن بلوغ غاياته، وإصابة أهدافه»[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ دعوة للارتقاء في سلم التقوى لنيل الأكرمية، فالعليم الخبير هو الله،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٣٥٤.

(٢) المجتمع المثالي/ ٢٤.

وفيه دعوة لتزكية النوايا في ما يأتي الإنسان ويدع.[١]

* ذهب بعض العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وبالأحاديث التي وردت بهذا المعنى وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه.[٢]

المقطع الثاني: الأساس الإيماني، نموذج وإرشاد

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لا شك أن موضوع الإيمان ينساب بين ثنايا هذه السورة، وذلك إذا استحضرنا الخطابات الخمسة التي نادى الله تعالى بها عباده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبهذا تظهر مدى أهمية الإيمان في بناء المجتمع، فلولا الإيمان لما التزم الناس بالأخلاق، بل إننا بحاجة ـ حينها ـ لمن يحدد ماهية هذه الأخلاق وعلام تقوم؟ لقد وجدت نظريات تجعل المنفعة هي الأساس،[٣] وأخرى تقول: الغاية تبرر الوسيلة، ولأصبح الناس نهباً لنظريات أرضية مرقعة مهلهلة، لكن الإيمان يجعل الخالق هو الذي له الأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أليس هو الذي خلق

(١) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٦٣.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، / ٨٢ ـ ٨٣.

الناس؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم ﴾ وإذا كان هذا الأمر حقيقة لم يدّع أحد خلافها، فليكن الأمر، كل الأمر لله عز وجل، ومن أخطر تلك الأمور بناء المجتمعات.

وإذن فإذا كان المقطع الأول قد ابتنى المجتمع الأخلاقي، وحماه من التصدع، فالمقطع الثاني يشده برباط الإيمان، وذلك بعرض مثال لمن دخل في الإسلام حديثاً، ولمّا يدخل الإيمان في قلبه بعد، فهو بحاجة إلى معرفة حقيقته، فجاء هذا الإرشاد الرباني؛ توجيهاً للأفراد كي يحققوا هذا المعنى، وللمجتمعات كي يشيع فيها الإيمان. ولا شيء غير الإيمان يبني المجتمعات.

كما أن هذا المقطع الذي ختم بالنهي عن التفاخر، بدأ بنموذج من التفاخر المذموم ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ ﴾ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ ﴾.

بيّن المقطع الأول أن الهداية بيد الله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾، وفي المقطع الثاني: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ ﴾[1]، يذكر القرآن ما حصل من هؤلاء الأعراب، حين ادعو منزلة أعلى من منزلتهم، وذلك أنهم قالوا آمنا، ولمّا يتمكن الإيمان في قلوبهم. فأنكر الله تعالى عليهم هذا القول، مبيناً لهم حقيقة حالهم ﴿ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ ﴾، بصيغة جازمة، وبدون كنايات، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يقال: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾، مبيناً لهم أنهم لما يصلوا إلى هذا المقام بعد، [2] وهنا قد يُظن أنهم منافقون، وعلى هذا فأعمالهم الصالحة ستذهب سدىً، فأخبروا بأن إسلامهم هذا كاف لتحسب لهم أعمالهم الصالحة، ولا

---

(١) لم أذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ ... ﴾، لأني لم أجد من الروايات ما يمكن الاطمئنان إليه، وقد تشدد العلماء في أسباب انزول، كما هو معلوم، بيد أن أكثر المفسرين ذكروا أنها نزلت في بني أسد. والعلم عند الله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.

تضيع. [١] فقال عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، ﴿ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ ﴾ يقول: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً». [٢] ثم طمأنهم على ما سبق أن فرط منهم من ادعاء الإيمان، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾. فإذا هم أطاعوا الله ورسوله، تحقق لهم الأمران: نيل أجورهم كاملة، وغفران ما أسلفوا من ذنوب.

وماذا على المرء لو تطلع إلى منازل المؤمنين؛ ليسلك السبيل إليها، فلتبين لهم إذن «صفات المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم». [٣] ليرتق إليه من علم الله صدق عزمه وإخلاص قلبه، ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي: الكمَّل الراسخون في الإيمان[٤] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً، عن مواطأة القلب واللسان»[٥] ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ أي: «لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض»[٦] وهنا لا بد من وقفة « تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب، وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ونوازل تزعزع. والتي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة؛ لتعزم

---

(١) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٨. وما ذكر من أنهم لم يكونوا منافقين رجحه ابن القيم، انظر بدائع التفسير٤/ ١٨٣، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨ بأدلة تنظر هناك، وهو الصواب، كما مر من توجيه الآية. والله أعلم.

(٢) جامع البيان١١/ ٤٠١.

(٣) فتح القدير٥/ ٧٣.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨، ونظم الدرر٧/ ٢٣٨.

(٥) فتح القدير٥/ ٧٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.

أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهمّ الأفق، ويظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح». [١]

ويتواصل التوجيه الرباني ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾، تمكّن الإيمان في قلوبهم، وظهرت ثمرة ذلك عليهم، فانطلقوا ينشرونه، باذلين أموالهم وأرواحهم، في سبيل الله تعالى، لا يريدون إلا رضوانه. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ « في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون»[٢] «حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم»[٣]، وفيه تعريض بهؤلاء الأعراب. كأنه تعالى يقول لهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾لا أنتم.

﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ ﴾ أي: « أتخبرونه بما في ضمائركم». [٤] « وفي ذلك تجهيل لهم، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى. ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض»[٥] فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ «والله الذي تعلّمونه أنكم مؤمنون، علام جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين. ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ يقول: والله بكلّ ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم». [٦]

ولما كان قولهم: آمنا، فيه معنى المنة، قال تعالى مستحضراً قولهم:[٧] ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ ﴾ والمنة: « النعمة الثقيلة، ويقال ذلك على وجهين:

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٥٠، وانظر نظم الدرر٧/ ٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.

(٣) البحر المحيط٨/ ١١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.

(٥) البحر المحيط٨/ ١١٧.

(٦) جامع البيان١١/ ٤٠٣.

(٧) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٤١.

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٩٤]... وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى.

والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، إلا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة.

وقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فالمنة منهم بالقول، ومنة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر»[1].

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ «وهم قالوا للنبي ﷺ: آمنَّا كما حكاه الله آنفاً، وسماه هنا إسلاماً لقوله:﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾، أي: أن الذي مَنُّوا به عليك إسلام لا إيمان، وأثبت بحرف ﴿ بَلِ ﴾ أن ما مَنُّوا به إن كان إسلاماً حقاً موافقاً للإيمان، فالمنّة لله لأن هداهم إليه، فأسلموا عن طواعية. وسماه الآن إيماناً مجاراة لزعمهم؛ لأن المقام مقام كون المنّة لله، فمناسبة مُسَابَرَة زعمهم أنهم آمنوا، أي: لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم». [2]

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يعني: «إن كنتم صادقين في قولكم آمنا». [3]

هدايات المقطع الثاني

* يستفاد من قوله عز وجل: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن(منن) بحذف يسير.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) جامع البيان١١/ ٤٠٤.

السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، [١] فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. [٢]

* منهج القرآن الرائع في معالجة النفوس، إذ إن قول الأعراب ﴿ ءَامَنَّا ﴾، لاحقيقة له، إذن كيف يعالج هذا الأمر؟ هل بالسكوت عنهم،؛ لكونهم حديثي عهد بإسلام، ولكن هذا يعني إقرارهم، أم بالرد عليهم بفضاضة وإغلاظ، لأنهم تجرؤوا وادعوا مقاماً سامياً، سار في الرجال أزمنة طويلة، وبذلوا فيه النفس والنفيس، ثم تنهال عليهم الخطب الرنانة موبخة مثبطة، القرآن يجيب عن ذلك، ويبين المنهج الأسمى والأوفق والأرفق.
* الذي ينبغي في إنكار المنكر، أن تبينه أولاً، فقد ينكر على شخص دون أن يدري علام هوجم، والآية ذكرت ما أنكر عليهم بإيجاز ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾، ثم لا بد من بيان ما ينبغي عليهم أن يفعلوا ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ ثم زادت الأمر توضيحاً، مجيبة عما قد يدور بخلدهم: لم لا نقول آمنا؟ فيأتي الجواب: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾.
* لا بد من إشاعة ثقافة النقد عند الناس، وذلك من خلال التشجيع على نقد السلوكيات الخاطئة والتصرفات غير اللائقة. [٣] بيد أن هذا النقد ينبغي أن يكون بنّاء وبرفق.
* الإيمان ليس كلمة تقال، أو مقاماً يزعم «إنه عقيدة، وعمل يقوم في ظل هذه العقيدة وهديها». [٤] ولا يصار إليه إلا بعد مجاهدة.
* يستدل من قول الله تعالى:﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أهمية طاعة الله ورسوله، فعليهما يترتب الجزاء.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري برقم/ ٥٠، وصحيح مسلم برقم/ ٨.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٥٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٥٦.

* أهمية السنة، وفيه رد على من ادعى الاكتفاء بالقرآن، مستنداً على حجج واهية، فيقال له: هذا القرآن الذي أردت الاكتفاء به يدعوك لاتباع السنة، ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، والمقام هنا مقام بيان لهؤلاء الأعراب لما يجب عليهم فعله. بل إن المقام توضيح لمنزلة الإيمان.

* أهمية طاعة القيادة في بناء المجتمع، وهو ما سبق بيانه في الافتتاحية من وجوب عدم التقدم بين يديها، وقيادة المجتمع الإسلامي تستمد شرعيتها من طاعتها لله عز وجل ورسوله ﷺ وتنفيذ ما جاءا به.

* كرم الله تعالى، فإذا حقق المرء ما عليه، منحه ربه الجزاء الأوفى، وغفر له ذنبه.

* ما سبق أن بُين مراراً من ضرورة إيجاد السبل لعودة من ندَّ من أفراد المجتمع، وذلك من خلال إشاعة ما قد يسمى بثقافة التوبة، وبث الأمل في نفوس العصاة، فرحمة الله واسعة، وفي الحديث (للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا)[1]، يتضح هذا من خلال قول الله تعالى لهؤلاء الأعراب، مؤكداً لهم وعده ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* الإسلام وهو يعالج الأخطاء التي يقع فيها المجتمع، يأخذ بأيديهم للكمال، وهو بذلك يحفز القوى الكامنة فيهم، فهو خالقهم، وبهم عليم، فمع أنه عز وجل أنكر عليهم إدعاء منزلة الإيمان، لكنه بين لهم صفات كاملي الإيمان:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

* القرآن الكريم وهو يعرض صفات كاملي الإيمان، فإنه يسلك في ذلك أسلوباً غير مباشر ليرقى إليه كل من تاقت نفسه لتلك المدارج، في كل زمان ومكان. وهو لا شك أسلوب محبب، وأدعى للقبول.

* يستدل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أن المؤمن من فعل الإيمان لا من قاله

---

(١) صحيح مسلم برقم/ ٢٦٧٥.

بلسانه فقط، والمقصود بالفعل: فعل القلب واللسان والجوارح.

* في قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ما يبين أهمية الثبات للمؤمنين، وفيه إشارة إلى أن في هذا الطريق عقبات وفتن ومحن، وعلى المؤمن التيقظ لها، ودعاء الله تعالى بأن يوفقه لتجاوزها.

* عدم فهم كثير من الناس في وقتنا الحاضر لدينهم، وضمور الجانب الإيماني في حياتهم، هو الذي أصاب مجتمعات المسلمين بالتمزق والتيه.[١]

* لكل حق حقيقة، فحقيقة الإيمان أن يجاهد المؤمن بماله ونفسه، أما من ادعى هذا المقام ثم بخل بهما، أو أراد أن يكون ما ادعاه من الإيمان مغنماً، فلا أقل من أن يقال: إنه لم يفهم حقيقة الإيمان.

* يحتاج المجتمع لبذل المال والنفس كي يحافظ عليه، فإذا بخل أفراده بأموالهم وأنفسهم في بنائه والدفاع عنه، فما أسرع أن تمتد إليه أيد، همُّها هدم هذا الدين، وتقويض كيان المجتمع، وهم بالرغم من كفرهم، يبذلون في سبيله المال والنفس، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فإذا كان هذا حال الذين كفروا في تعاملهم مع المال ـ ومعلوم أنهم قد خرجوا للقتال بأنفسهم ـ فكيف ينبغي أن يكون حال الذين آمنوا.

* في تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، ما يبين أهمية هذا الأمر، وبخاصة من لم يستطع الجمع بينهما. وفي الحديث (مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيرٍ فَقَدْ غَزَا)[٢].

---

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة / ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ٢٨٤٣، وصحيح مسلم برقم/ ١٨٩٥.

* في قوله عز وجل: ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ إثبات للملكية، نستنتج ذلك من نسبة الأموال للناس[1] لكن الإسلام نهج وسط، فقد أوردها في سياق البذل، فالإسلام وهو يقرها، يوصي أن لا تشغل المسلم عن الهدف الذي من أجله خلق، بل عليه أن يبذلها؛ صيانة للدين ونشراً للخير.

* ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ تطهر النفوس من معاني الأثرة والأنانية والجشع والحرص.... التي هي من أخطر عوامل تخريب المجتمعات. وتمنحها حباً وصفاء وإخاء.

* ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ توظيف للمال في الخير، وما لم يوظف في ذلك، فإنه سيكون عامل تخريب اجتماعي، حيث يستخدم لاستفزاز الفقراء، وإشاعة نفسية التسلق الاجتماعي، ولذا لا بد من النهوض بأرباب الأمول نحو بث روح تحمل المسؤولية، والتوجه إلى نفع الناس، وإيجاد آليات للتواصل والتراحم والتعاون. [2]

* يبين قول الله عز وجل: ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أهمية المال في رفد المجتمع بما يحتاجه من أنشطة أهمها الجهاد في سبيل الله، وإلا فلا وجود لمجتمع يتسول لمشاريعه ممن يخالفونه العقيدة. وعليه فلا معنى للزهد في المال، وقد قال تعالى:... ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، فلم يمنع صلاح الرجل من أن يكون له مال، ولذا فلا بد من تأهيل أفراد في المجتمع ممن يحسنون إدارة المال.

* الدين هو أنفس شيء للمسلم، فهو يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله عز وجل لإعلائه.

* أهمية الجهاد في سبيل الله لإعلاء هذا الدين، وأنه من أدلة صدق الإيمان.

* أهمية الإخلاص في قبول الأعمال، ولذا قيدت الآية فعل الصادقين بأنه ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾،

---

(١) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه، د. أحمد العسال، د. فتحي أحمد عبد الكريم/ ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٤٧.

فوجب الانتباه لهذا، والحذر من حظوظ النفس، لسد منافذ الشرك الخفي، الذي هو أخوف ما يتخوف منه.

* التلازم الشديد بين الإيمان والصدق، وهما بلا شك عاملان أساسيان من عوامل بناء المجتمع، فمتى شاعا، دل ذلك على صفاء هذا المجتمع ونقائه، والصدق يحقق الاطمئنان بين أفراد المجتمع، فتشيع الثقة بين الناس، إذ يسري الصدق في كل تعاملاتهم: الاقتصادية، فلا غش ولا غرر... والاجتماعية، فيقضي على النفاق الاجتماعي الذي يهدم كثيراً من المجتمعات. والثقافية، ووو.

* الصدق لا يكون باللسان وحده، بل لا بد من صدق في النية وفي العمل.

* المنة لله وحده فيما يُوفق له العبد من الطاعات، ولذا فينبغي على المسلم أن يستشعر هذا المعنى، فلا ينبغي أن يُدِل بعمله ويعجب، بل يحمد الله عز وجل على أن وفقه لطاعته ومنحه الصحة لأدائها، داعياً الله تعالى أن يقبلها.

الخاتمــة

الخاتمة ـ والله أعلم ـ هي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مناسبة خاتمة السورة لما قبلها

افتتحت سورة الحجرات ببيان الآداب التي تقدم ذكرها، وبُين هناك أن الله سميع عليم، فجاءت الخاتمة تؤكد هذا الأمر، وتذكر إحاطة علم الله تعالى، بما غاب في السموات والأرض، وأن ما يعمله الناس فإن الله يراه، فليكونوا على حذر، وهذا يستلزم التقوى مرتقياً بالإنسان إلى الإحسان، فافتتحت بـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، واختتمت بـ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

ثم نجد المقطع الأول يتحدث عن مجيء الأعراب في الهيئة التي سبق ذكرها، وقد علم الله فعلتهم، ولعلمه بأن ذلك لم يكن عن سوء قصد، فقد غفر لهم ورحمهم، وعليهم أن يتأدبوا

بالأدب الذي عُلموه...

ثم يأتي الحديث عن مجيء الفاسق، وكيفية التعامل مع خبره، بعلم لا بجهالة، وفيه تخويف للفساق بأن الله يسمع أقوالهم، ويبصر تحركاتهم، فليحذروا من إشاعة الأخبار الكاذبة..

وعلى الطائفتين المؤمنتين أن يتقيا الله تعالى، فما بالاقتتال أمروا، فهم أخوة، وإن حصل فليحذروا البغي، وليرجعوا إلى أمر الله تعالى...، كما أن الله عالم وبصير بنواياهم، وبنوايا من يتولى الصلح، فينبغي توخي العدل وإزالة الجور.

وعلى المؤمنين أن يتذكروا أوامر الله تعالى ونواهيه، وليبتعدوا عن السخرية والطعن في إخوانهم ونبزهم بالألقاب التي يكرهونها، وليكن ظنهم بإخوانهم الظن الحسن، فإن ما نهوا عنه يعكر صفو الأخوة، ولا ينبغي للأخ أن يأكل لحم أخيه، بل الظن به أن يوفر لحمه،....

ثم علام هذه السخرية، وخالقهم العليم بهم سوّى بينهم في الخلق، إذ خلقهم جميعاً من ذكر وأنثى... فعليهم بالتقوى، فالله بصير بما تعملون،، فلن يغيب عن الله تعالى ما تعملونه وستحاسبون عليه.

أما المقطع الثاني، فالمناسبة فيه ظاهرة، فعندما قالت الأعراب ﴿ ءَامَنَّا ﴾، فقد علم الله منهم ذلك، وعلى المسلم أن لا يدعي منزلة أعلى من منزلته، منّاً وافتخاراً، فالله يعلم غيب السموات والأرض، ومن ذلك ما تكنه قلوبهم، ولكن عليهم أن يرتقوا بإسلامهم ليصلوا إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، بعد أن يوقنوا أن الله بصير بما يعملون. قال الرازي: «وآخر السورة مع التئامه بما قبله، فيه تقرير ما في أول السورة، وهو قوله تعالى:﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ الحجرات/ ١، فإنه لا يخفى عليه سر، فلا تتركوا خوفه في السر، ولا يخفى عليه علن، فلا تأمنوه في العلانية».[1] والله أعلم.

---

(١) التفسير الكبير٢٨/ ١٤٤.

التفسير الإجمالي للخاتمة

تؤكد الآية الكريمة بتصديرها لفظة ﴿إِنَّ﴾ على أن علم الله بغيب السموات والأرض أمر مؤكد، وقد جيء به مع أن السورة مدنية، والمؤمنون يعلمون ذلك؛ لبيان أهمية استحضار هذا الأمر وعدم الغفلة عنه، ثم زادت الأمر توضيحاً، بجعل كل ما يُعمل تحت نظر الله تعالى. يقول الطبري: «... إن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحدّثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهراً تعملون أم سراً، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيراً فخير، وإن شرّا فشرّ»[1].

هدايات الخاتمة

* مراقبة الله تعالى في السر والعلن، أساس متين لحفظ المجتمع، وذلك بإحساس المسلم بأن الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض، ويبصر كل ما يفعله، وبهذا تستقيم المجتمعات ويأمن الأفراد على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وهذا أجدى من وضع أجهزة للمراقبة، وإشعار الآخرين بها؛ للحد من تجاوزاتهم، فسرعان ما يُكتشف ما يبطل عملها لأنها مهما بلغت من الدقة فهي من صنع إنسان. إن الإسلام برفع الإنسان إلى مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2] ليزرع في نفوس أتباعه رقابة ذاتية، وضميراً يقظاً، يتأبى على النزول من هذا الأفق الوضيء للذة عابرة، وهو يوقن بأن الله يراه وأن عليه كراماً كاتبين. وإذا ما سقط فإن التوبة تتلقفه؛ لترفع من كبوته، وتلحقه بركب المحسنين.
* في تقديم لفظ الجلالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ما يدل على أن علم الغيب لله وحده، فلا ينبغي أن يطلب من غيره، وقد ابتليت كثير من المجتمعات بمن يدعى زوراً أن عنده علماً من

---

(١) جامع البيان ١١/ ٤٠٤.

(٢) هو حديث جبريل عز وجل، وقد مر تخريجه.

الغيب، ومما يؤسف له أن بعض الناس يسمع لهم، بل يذهب إليهم باذلاً المال والجهد، وبعض وسائل الإعلام تفسح المجال لهم.

* في قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ الذي يقتضي تجدد علم الله تعالى بكل ما يحصل فيهما، رد على الفلاسفة الذين يقولون إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وفي قوله عز وجل ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ ما يؤكد هذا.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ـ وهذا يعني ما ظهر من باب أولى ـ[1] ما يستدعى أن يطامن من غرور الإنسان فيما يتعلق بما حصل عليه من علم، يقال هذا لأن كثيراً من الناس بهروا بما وصل إليه الغرب من علوم، ولو أن المسلم سلك طريقاً إلى ربه، لعلمه....

* في هذه الآية الكريمة ذكر لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ ثلاث مرات، وماذاك ـ والله أعلم ـ إلا لإدخال المهابة في نفوس المؤمنين، ليأخذوا الأمر على ما تقتضيه الهيبة من إحسان العمل والبعد عن الإساءة.

* في هذه الآية الكريمة صفة من صفات الله تعالى وهي البصر، كما مر في أثناء السورة صفات أخرى، والذي ينبغي تأكيده، أنه مع أهمية بيان المنهج الأسلم والأعلم والأحكم في هذه المسألة، فإنه ينبغي أن لا نغفل أثر هذه الصفات على الفرد والمجتمع. فالطالب في كثير من المعاهد والجامعات ينفق الوقت الكثير في بحث المسألة نظرياً، دون أن ينبه على أهمية أن يغير من سلوكياته الخاطئة وفقاً لهذا المعتقد.

* ختمت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، وكأنها ـ وقد حثت على الارتقاء إلى الإيمان ـ ها هي تدعو إلى مرتبة الإحسان.

* ونحن في خاتمة هذا الموضوع، بناء المجتمع، يستحسن أن يقال: إن هناك نوعاً من القطيعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩).

بين الدعاة وبين العلوم الإجتماعية، بحجة أنها علوم غربية، مع أن سنن الله تبارك وتعالى في الإجتماع كسننه في الفيزياء والفلك، يجدها من يبحث عنها، ولا نستطيع أن نزعم أننا أكثر جدية من القوم في البحث عنها، مع أن عمل الدعوة كله عبارة عن تغيير المجتمع وتوجيهه الوجهة النافعة. [1]

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، أ. د عبد الكريم بكار/ ٣٦ ـ ٣٧، بتصرف يسير.

سورة ق

بين يدي السورة

اسم السورة

جاء على ألسنة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تسمية هذه السورة بـ (ق)، و﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾، وسيأتي في فضائل هذه السورة دليل ذلك. وذكر السيوطي أنها تسمى سورة الباسقات، ولم يعزه.[1]

مرحلة نزول السورة

قال الفيروز آبادي: «السورة مكية بالاتفاق»[2]، وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المرسلات، وقبل سورة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾.[3]

ومعلوم أن السور المكية عنيت بمعالجة فساد العقيدة في أمر الألوهية، وإنكار البعث، ومسألة الرسالة، فكانت هذه السورة شوطاً في ذلك الدرب الطويل الذي سلكه القرآن الكريم

---

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٧٣، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٢١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٣٧. وقد استثنى بعض العلماء قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا.. ﴾ الآية، معتمدين على رواية لابن عباس رضي الله عنهما في المستدرك، وفيها «لما كان يوم السبت لم يكن فيه خلق فقالت اليهود فيه ما قالت، فأنزل الله عز وجل تكذيبها ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨ ﴾ «المستدرك ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة حم الدخان. وفي سنده أبو سعد البقال، قال ابن حجر: «ضعيف مدلس» تقريب التهذيب١/ ٢١٢. وقال الذهبي: «رواه عبد الرزاق عن ابن عيينة عن أبي سعيد مرسلاً، لم يذكر ابن عباس» تلخيص المستدرك٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي١/ ٢٨١، والتحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٤. أما في الإتقان فهي الثالثة والثلاثون، ويظهر أنها سقطت من الناسخ، فبتتبع ما أورده السيوطي يتضح أنه تابع الزركشي في كل ما ذكره، إلا في هذه السورة، فهي غير موجودة البتة في المكي، ولا في المدني.

وهو يقتلع جذور هذه العقيدة الفاسدة، وذلك بإيراد شبههتهم في البعث، والرد عليها بالحجج والبراهين البينة الدامغة.

فضائل السورة

وردت عدة أحاديث تبين مدى حرص النبي ﷺ على قراءة (سورة ق) في المجامع العامة، كالجُمع والأعياد، وقد ذكر ابن كثير علة ذلك فقال: « لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»[1] ومما ورد في فضلها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[2] عَنْ أُمِّ هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحداً سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾ إلا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ) وفي رواية له عنها رضي الله عنها (ما حفظت ق...). [3]

و«عَنْ قُطْبَةَ بْنِ مَالِكٍ قال: صَلَّيْتُ وَصَلَّى بنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾ حَتَّى قَرَأَ ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ قَال فَجَعَلْتُ أُرَدِّدُهَا وَلَا أَدْرِي مَا قَال».[4]

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ[5] أن عُمر بْنَ الْخَطَّاب ﷺ سأل أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ ﷺ مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَال: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾، و﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾».

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٨٠.

(٢) برقم (٨٧٣).

(٣) بالرقم السابق نفسه.

(٤) صحيح مسلم، برقم (٤٥٧).

(٥) برقم (٨٩١).

عدد آيات السورة

عدد آيات (سورة ق) خمس وأربعون آية. [1]

محور السورة

احتوت (سورة ق)، على براهين البعث التي ذكرها العلماء، وهي: العلم والقدرة والحكمة، وبالتأمل في آياتها، نجد هذه البراهين واضحة جلية، فلقد افتتحت السورة بالقسم بالقرآن، وفي ذلك إرشاد للمصدر الأصيل لتلقي هذه البراهين، ثم وصف هذا القرآن بالمجيد الذي يعني: السعة في الكرم والجلال... لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية[2]، ثم يزداد المحور اتضاحاً حين يذكر القرآن مصدرَ تعجبهم، ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ إذن تعجبوا من أمرين، الأول: الإنذار، وهذا يقتضي إنكار البعث، إذ إن المنذر هو: المخبِر بما فيه تخويف[3]، والأمر الآخر: كون هذا المنذر من البشر، وتقديم﴿ مُّنذِرٌ ﴾ «ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه، وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجّب....»[4] بدليل قولهم عقب هذا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾. ثم يضرب المولى عز وجل عن كلامهم؛ ليبين سبب إنكارهم ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ فهم لم يُعمِلوا عقولهم في ما جاءهم، بل بادروا بالتكذيب، ولذا شرع القرآن ببيان براهين البعث، لحثهم على التعقل والتأمل والتفكر، فقال عز وجل:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ومن هنا يبدأ المقطع الأول.. ثم يأتي المقطع الثاني: ليبدأ البرهان من خلال الإنسان نفسه، وليزاوج بين الدليل العقلي والعاطفي ترغيباً وترهيباً، وليربط القدرة بالعلم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ ﴾، ويستمر الحديث عن العلم، بتوثيق

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٣٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (مجد).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن (نذر).

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٩.

المعلوم، ليذكر برهاناً من براهين البعث، وهو الحكمة، فليس من الحكمة أن يخلق الله عز وجل الإنسان هذا الخلق العجيب، ثم يتركه سدىً، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فكل ما يصدر منه فإنه محصىً ومسجَّل، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾، ثم يأتي الحديث عن البعث بصيغة الماضي، وكأنه قد حصل، مبتدئاً بالموت الذي هو النقلة لدار الجزاء الذي ينكرونه، ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾، أي: « جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل»[1]، ثم تستمر الرحلة ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾... ثم مآل هذا الكافر، وهو أنه يؤمر به فيلقى في جهنم...، فما كنتم تنكرونه، ترونه الآن عياناً، وفي المقابل هناك أناس آمنوا بالبعث واستعدوا له، ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ وهي موجودة الآن بل هي قريبة، ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾، ويأتي قبيل نهاية المقطعين تذكير بنهاية المكذبين لرسلهم، وقد حق ما أوعدهم الله به في الدنيا، وقد بلغت قريشاً أخبارُ تلك الأمم، قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وفيه تذكير بمصارع الأمم السابقة، ففي المقطع الأول {كذبت قبلهم... فحق وعيد}، وفي المقطع الثاني: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، ثم تأتي الخاتمة، وفيها تسلية للرسول ﷺ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ومن جملة ما قالوه، ما ذكر في افتتاحية السورة ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، لقد سمع النبي ﷺ مقالتهم، وساءه ذلك، وقد علم الله عز وجل أن بعضهم لن يؤمن، على الرغم من وضوح البراهين التي سيقت لهم، ولذا تقدم الخاتمة بيان أن هذه البراهين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهي لمن يخاف وعيد الله عز وجل، ثم تتوالى الآيات موجهة النبي ﷺ لما ينبغي أن يفعله، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

---

(١) التفسير الكامل، ابن تيمية/ ٢٨٣.

ٱلشَّمْسِ ﴾ حتى تختم بما بدأت به﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فالقرآن المجيد هو مصدر البراهين، ومن جملته هذه السورة العظيمة.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

للعلماء في المراد بالحروف المقطعة ـ التي منها ما افتتحت به (سورة ق) ـ أقوال، لعل أرجحها أنها للتحدي والإعجاز، مثبتة بذلك أن هذا القرآن المجيد من عند الله تعالى، ولمَّا كان الأمر كذلك، فينبغي على الجميع الإصغاء إليه وتلقي ما فيه، إذ هو كلام الخالق عز وجل، ومن ضمن ما فيه، ما ذكرته هذه السورة من براهين البعث.

وما دام الأمر متعلقاً بالتحدي، فعليهم أن يقبلوا هذا التحدي، فهم أهل اللسان، ولهم في التفنن فيه صولات وجولات، فإذا ما ثبت عجزهم، وجب عليهم أن يُقبِلوا على ما فيه، وحينئذ ينفعهم التذكير بآياته وعظاته وبراهينه.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

التنويه بشأن القرآن، فلقد ابتدأت بالقسم به ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾وختمت بـ ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.[1]

ذكرت الافتتاحية قول الكافرين وتعجبهم ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، وختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على ما يقولون ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، كما توعدهم عز وجل على قولهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ ﴾، ففيه تهديد للكافرين، وتسلية للنبي ﷺ.

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١٩٢.

في الافتتاحية استبعد الكافرون البعث، وفيه ـ والعياذ بالله ـ إثبات العجز لله عز وجل وذلك في قولهم:﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾، فكانت الخاتمة ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها

ختمت سورة الحجرات ببيان إحاطة علم الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجرات: ١٨]، وجاء في افتتاحية سورة ق قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[ق: ٤]. ومناسبة قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ لقوله عز وجل: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، واضحة، فالذي يعلم غيب السماوات والأرض، يعلم ما غاب من أجسادهم. والعلم كما لا يخفى أحد براهين البعث التي تضمنتها سورة ق. كما أنه قادر على إعادة ذلك خلقاً جديداً، وهو البرهان الثاني. وقد عُلم أن إثبات العلم في آية الحجرات التي مر ذكرها، مراد منه ما يترتب على هذا العلم، وهو الجزاء، وهو البرهان الثالث، أعني: الحكمة، التي تقتضي مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

قد مر أن محور سورة الحجرات هو (أسس بناء المجتمع)، ولا يخفى أن أعظم هذه الأسس، هو الأساس الإيماني، فكان بيِّناً أن على من يتولون الإصلاح وعملية البناء، أن يراعوا مجتمعاتهم، فإذا كانت سورة الحجرات قد تناولت المجتمع المدني، فسورة ق تعالج مجتمعاً مكياً، ولكل مجتمع ما يناسبه. والله أعلم.

يقول سعيد حوى: «فإذا كانت سورة الفتح قد بينت من جملة ما بينت خصائص الجماعة المسلمة، ووعدت بانتصارها، وجاءت سورة الحجرات لتبني هذه الجماعة بما يكافئ مهمتها، فإن سورة ق عالجت العقبتين الرئيسيتين اللتين يصادفهما صاحب الدعوة، وهما التكذيب،

والعجب من مضمون الرسالة». [1]

حذرت سورة الحجرات من أمور كثيرة تتعلق باللسان، منها التقدم بين يدي الله ورسوله...، ومنها رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول...، ومنها نبأ الفاسق، ومنها السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، والغيبة، بل يدخل فيها ما قاله الأعراب ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ... ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي سورة ق، تحذير شديد من عدم التنبه للأقوال ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

مر في سورة الحجرات الوصية بالصبر، والحث على التأنِّي في مواضع كثيرة، منها: عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا التقدم سببه عدم التأني وانتظار ما يراه الرسول ﷺ، وفي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات: ٤-٥]، والدعوة للصبر هنا واضحة، وفي قوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦]، أمر بالتبين وعدم التعجل، وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات:١٤]، دعوة للتأني، وعدم ادعاء منزلة لَمَّا يصلوا إليها بعد، هذا ما ورد في سورة الحجرات، أما في سورة ق، فإن سبب تكذيب الكافرين، هو: «أنهم بادروا بالتكذيب، دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة». [2]

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق: ٥]. وهنا نلحظ التعجل، على الرغم من أهمية ما يُعرض عليهم، وأن فيه سعادة أو شقاء الدارين. والله تعالى أعلم.

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٩/ ٩٤٧٢.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط، أبو حيان٨/ ١٢١.

عرض مقاطع السورة

افتتاحية السورة

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ ﴾.

المعنى الإجمالي

سورة (ق) إحدى السور التي افتتحت بها سمي بالحروف المقطعة، وقد تعددت أقوال العلماء في المراد بذلك، وفيما يأتي أبرز هذه الأقوال:

الأول: أنها للتحدي والإعجاز، وكأن الله عز وجل يقول للمشركين: هذه هي حروف لغتكم، التي قد نبغتم فيها، ولكم فيها القصائد الجياد والخطب الرائقة، وقد جاءت على لسان واحد منكم، ولم يدَّعِ قبل ذلك نبوغاً في الشعر أو النثر، ثم هو لم ينسبه لنفسه، بل نسبه لله عز وجل، وأنتم قد اصطلحتم على تسميته قبل أن يقول ذلك بالصادق الأمين، فإن كنتم مع هذا كله تكذبونه، فأتوا بسورة مثله.

الثاني: أن هذه الحروف للتنبيه، ذلكم أن المشركين قد تواصوا فيما بينهم على التشويش واللغو عندما يتلى القرآن الكريم، لئلا يؤثر فيمن يسمعه، وعَدُّوا ذلك نوعاً من الغلب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فجاءت هذه الحروف على خلاف المألوف من كلامهم بغيةَ استنصاتهم.

الثالث: الله أعلم بمراده.

ولدى التمعن في هذه الأقوال، لا نجد تعارضاً بينها، أما الأول والثاني، فالمطلوب من المشركين اسماع آيات هذا القرآن المجيد؛ لتتحداهم، وليقفوا على مجده وعظمته، وليتوصلوا إلى أنه من عند الله عز وجل، وأما القول الثالث، فالجميع متفقون على أن أقوالهم محض اجتهاد،

أما العلم بالمراد فعند الله تعالى.

بعد ذكر هذ الحرف، يقسم الله عز وجل بالقرآن، «والقسم به كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسِم»[(١)]، ثم يصفه سبحانه عز وجل بالمجيد، وهو: «الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد».[(٢)] والمراد بهذا التأكيد: التشويق لما سيأتي؛ لأن القسم لا يكون إلا لأمر مهم، «وجواب القسم محذوف؛ لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام، فيدل عليه ابتداءُ السورة بحرف ﴿ قٓ ﴾ المشعر بالنداء على عجزهم عنْ معارضة القرآن بعد تحدّيهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله:﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾. والتقدير: والقرآنِ المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرح به في قوله:﴿ يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ ﴾ [يس: ١-٤]. أو يقدر الجواب: إنه لتنزيل من ربّ العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿ حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ ﴾ [الزخرف: ١ -٣]، ونحو ذلك. والإضراب الانتقالي يقتضي كلاماً منتقلاً منه والقَسم بدون جواب لا يعتبر كلاماً تاماً، فتعين أن يقدِّر السامع جواباً تتم به الفائدة، يدل عليه الكلام»[(٣)]، وتعدُّد هذه الأقوال يمنح وفرة من المعاني. ثم يضرب المولى عز وجل عن ما تقدم ليبين أمراً عجباً، ذلكم أنه مع كون القرآن مجيداً حاز الكرم والشرف في مبناه ومعناه، إلا أنهم ـ وهم أهل الفصاحة الذين كان ينبغي أن يهشوا لاستقباله ـ كذبوه، ولم يصدقوا أنه من رب العالمين، فـ ﴿ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾، قال الراغب الأصفهاني: «العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشئ... يقال عجبت عجباً، ويقال للشيء الذي يتعجب منه: عجب، ولما لم يعهد مثله عجيب، قال:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٧٧.

[يونس:٢]، تنبيهاً أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله، وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم ﴾»[١]، وقد عجبوا من أمرين، الأول: مجيء منذر، يخبرهم بيوم للبعث والجزاء، والثاني: من كونه بشراً وليس ملكاً، كما صرحت بذلك آيات، منها قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨]، ثم لم يكتفوا بالتعجب، بل أعلنوا ذلك وتفوهوا به، وهذا أقبح، ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾، ولذا صرح القرآن بوصفهم بالكفر، وأنه سبب قولهم هذا،[٢] وقد كان عجبهم من الأول أشد، ولذا بينوا وجهه[٣] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أي: «أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب»[٤]، فأنكروا علم الله تعالى وقدرته، فقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣] « أي: مستبعد في الأوهام والفكر»[٥] وقد بيَّن الله عز وجل في مواضع من كتابه المجيد، أن تعجبهم هو ما ينبغي أن يُتعجب منه فقال عز وجل: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد: ٥]، ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤]، إنَّ علمنا بما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله.[٦] « وسماه الله تعالى حفيظاً؛ لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدل»[٧]، ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (عجب).

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١-٢٨٢.

(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٧.

ببعيد فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ والمعنى « أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة»[١]، ولذا ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ « في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله»[٢]، ولذلك تخبطوا في وصف القرآن المجيد، فمرة يقولون: ﴿ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧]، ومرة يقولون: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وثالثة: قول شاعر، وأحياناً: قول كاهن، وقد رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقالوا: هذيان مجنون. وقد قال عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور: ٢٩]، وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم، فلم يتقنوا التكذيب، ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به. [٣]

الهدايات المستفادة من افتتاحية السورة

* وصف الله عز وجل القرآن بما وصف به نفسه، فقال: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾، ذلكم أن القرآن كلام الله عز وجل، وصفة من صفاته. [٤]، وفسر المجيد بالكريم[٥]، وهذا يدل على كثرة عطاءاته، ومن هنا وجب علينا أن نتدبره وأن نعمل به؛ ليغمرنا بكرمه، ولا غرو أن كان خلق النبي ﷺ القرآن.

* إقسام الله تعالى بالقرآن؛ ليلفتنا لعظمته، كما أن فيه تنبيهاً على أهمية ما يأتي بعده، والذي استدعى أن يؤكد. كما أن فيه تشويقاً. ومع هذا كله لم تعِ القلوب المغلقة هذا الأمر، فلم يعرفوا قدره، بل راحوا يتساءلون متعجبين من مجيئه من رجل منهم. [٦]

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط٨/ ١٢١.

(٢) جامع البيان١١/ ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٥، ونظم الدرر، البقاعي٧/ ٢٤٩.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٢٦/ ٤٦٤.

(٥) جامع البيان١١/ ٤٠٥، وذكر أنه قول سعيد بن جبير.

(٦) انظر التفسير القرآني للقرآن٢٦/ ٤٦٥.

* وبال الكفر عظيم، فهؤلاء لم يلتفتوا لعظمة القرآن، بل لم يتدبروه، فلو أنهم نظروا في القرآن لتبينوا أنه من عند الله، ولآمنوا بما جاءهم به من الإخبار عن يوم القيامة. لكنهم أنكروا مجيئه على يد واحد منهم، وقاسوا الله عز وجل على خلقه، فاستبعدوا البعث، وهذه حجب كثيفة، ومما يؤكد سخف عقولهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً، في حين ارتضوا أن يكون الإله حجراً. [(١)]

* علة كثير من الانحرافات في كل زمان ومكان: تقديم ما تمليه عليهم عقولهم المريضة على الوحي الرباني، فهؤلاء المشركون لم تحتمل عقولهم إمكانية البعث، فأنكروه بالرغم من مجيئه على لسان الصادق الأمين. وعلى الرغم من أن العقل السليم لا يحيل ذلك... بل يثبته. وعندما يقال: تقديم العقل فإنما يُعنى به عقولهم القاصرة، وهذه السورة قد تكفلت ببيان البراهين التي تبين للعقل السليم إمكانية ما استبعدوه.

* الكفار ما قدروا الله حق قدره عندما تعجبوا من البعث، وذلك لأنه يعني العجز، وما داموا قد آمنوا بربوبيته عز وجل وأنه الخالق الرازق... فكيف إذن يثبتون عجزه عن إعادة ما قد خلق.

* علم الله تعالى شامل لكل شيء، ومنه ما تفرق من أجساد الموتى، واختلط بتراب الأرض....

* في التعبير بـ ﴿ مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ ﴾ ما يدل على أن الميت لايعدم بالكلية، بل يبقى منه شيء، [(٢)] وقد أكد الحديث الشريف هذا، ففي البخاري بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْماً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْراً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٤٧.

(٢) ذكر هذا ابن عاشور، انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١] ثم يأتي العلم الحديث ليؤكد ما سبق يقول الدكتور زغلول النجار، متحدثاً عن هذه الآية وأن فيها: «الإشارة إلى فضلة تبقى من رفات الأموات بعد تحللها (عجب الذنب)، وهذا ما أثبتته الدراسات العلمية أخيراً». [٢]

* من الآقات التي ابتلي بها كثير من الناس: العجلة، فهم لا يتأنون في إصدار أحكامهم على الأشياء، وهذا أمر معيب، وبخاصة الأمور الخطيرة، التي تخشى عواقبها في الدنيا والآخرة، وهذا ما فعله الكفار، فهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دون أن يعملوا عقولهم، ليروا وضوح أدلته وقوة براهينه على ما يدعو إليه.

* « قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم»[٣]، وهذه هداية عظيمة من هذين الإمامين الجليلين. فوجب على المسلمين التمسك بالحق، والدعوة إليه.

* أدب الحوار، يتجلى هذا في ذكر حجة الكافرين، ومن ثم الرد عليها، ببيان منشأ الشبهة، مع أسلوب يعتمد على عدم تجريح القائل، بل الرد على شبهته، وبهدوء. فمع أنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، مرتكبين قبائح شتى، إلا أنك لا تجد كلمة نابية في توجيههم، وما أحوجنا إلى مثل هذا الأدب في تعاملنا مع المخالفين.

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري برقم/ ٤٩٣٥، وصحيح مسلم برقم/ ٢٩٥٥.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار. ويقول أيضاً: «إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته ﷺ. فقد أوضح علم الأجنة الحديث، أن الإنسان يتكون، وينشأ من عجب الذنب هذا (يدعونه الشريط الأولى Primitive Streak)، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام، والتخصص، والتمايز، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله) ثم بقية الأعضاء، ويندثر هذا الشريط الأولى إلا جزءاً يسيراً منه يبقي في المنطقة العصعصية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصعص)، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ».

(٣) انظر نظم الدرر٧/ ٢٤٨.

المقطع الأول: التأمل في الآفاق

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لافتتاحية السورة

ذكر المولى عز وجل في افتتاحية السورة شبهة الكافرين في تكذيب الحق، وهي: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، ولما كان منشأ هذه الشبهة، هو الشك في قدرة الله وفي علمه، رد عليهم بشمول علمه، فقال عز وجل: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الافتتاحية قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾، ثم بين مآل الأمم المكذبة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فليعتبروا بالأمم السابقة، ليأخذوا العبرة والعظة منهم.

لما كان منشأ تكذيبهم استبعاد ذلك، وهذا يعني تحاكمهم إلى العقل، وإذن فليعملوا عقولهم، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ﴾.

استبعد المشركون البعث، فقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾، وقال تعالى في هذا المقطع: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾، يبتدأ هذا المقطع بسؤال لهؤلاء الذين أنكروا قدرة الله تعالى على البعث، يطلب منهم الإقرار؛ لأنهم لا يستطيعون التفلت من الإجابة، وأنهم قد نظروا، وهذه السماء فوقهم، أفلم يتأملوا كيف بنيناها، فسوّيناها سقفاً محفوظاً، وفي التعبير بـ ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ دلالة على سهولة ذلك عليهم، إذ لايكلفهم سوى رفع رؤوسهم. [١] ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالنجوم، ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ يعني: «وما لها من صدوع وفُتوق»[٢]، وهي على اتساعها لا يرى لها أعمدة، وليس لها تصدع منذ خلقها الله تعالى، ثم ينتقل إلى دليل يكتنفهم ويتقلبون عليه، وهي الأرض، فيقول عز وجل: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، أي: بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾وهي « الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب»[٣]، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض أصنافاً من النباتات، حسنة كريمة تسر الناظر إليها. [٤]، ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس، نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾وتذكيراً من الله عظمته وسلطانه، وتنبيهاً على وحدانيته[٥] وحذف متعلق ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾؛ ليَعُم كلَّ ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث،...[٦] ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ لكل عبد خاضع لمولاه، منيب «راجع إلى الحق بطاعة الله، فإذا انحرف أو شغله شاغل، ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال، فلا يفارقه حال الطاعة، وإذا فارقه قليلاً آب إليه وأناب». [٧]

---

(١) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٦.
(٢) جامع البيان ١١/ ٤٠٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢.
(٤) انظر جامع البيان١١/ ٤٠٩، ومعالم التنزيل، البغوي٧/ ٣٥٧.
(٥) جامع البيان١١/ ٤٠٩.
(٦) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٠.
(٧) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩١. وانظر المفردات (نوب).

ثم انتقل الحديث إلى أمر طالما شاهده المشركون، ماء ينزل من السماء، بعد طول انتظار، فيسقي أرضاً قد أجدبت، فإذا بها تهتز وتربو، أليس الذي أحيا موات هذه الأرض قادراً على إحياء موتاكم؟» ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾، ونزلنا من السحاب ماء كثير المنافع(١) فأنبتنا بعظمتنا بسبب ذلك الماء بساتين كثيرة عظيمة، تحوي الأشجار ونحوها، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾، وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره كالقمح والشعير. (٢) ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾، أي: وأنبتنا بهذا الماء النخل الطوال، ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ الطلع: « ثمر وحمل، سمي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق، ﴿ نَّضِيدٌ ﴾، متراكب متراكم منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد»(٣).

وقد « خص النَخلُ بالذكر مع تناول جنات له؛ لأنه أهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولِطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه، وأنيق جماله». (٤)

ثم قال تعالى:»﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي: لنرزق العباد، وهذا فضلاً عن كونه إثباتاً لقدرة الله عز وجل فهو امتنان يمتنُّ الله عز وجل به على عباده، وقوله:﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، أي: وأحيينا بهذا الماء، بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت. (٥) ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾«كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها، بما ينزل عليها من الماء». (٦)

بعد ذكر هذه الأدلة التي لا يسع أحد إنكارها، انتقل إلى الحديث عن تكذيبهم الذي

---

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني٥/ ٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢. بتصرف يسير.
(٣) معالم التنزيل٧/ ٣٥٧، وانظر فتح القدير٧/ ٧٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٢.
(٥) انظر جامع البيان١١/ ٤١٢.
(٦) جامع البيان١١/ ٤١٢. وانظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢.

ورد في افتتاحية السورة في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ق/ ٥، فبين الله عز وجل أنهم ليسوا أول من كذب رسوله، بل هناك أمم كثيرة فعلوا مثل فعلهم، ولكن عليهم أن ينظروا في عاقبة ذلك التكذيب، يقول الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ ﴾ « وقد ذُكر منهم أشهرهم في العالم، وأشهرهم بين العرب، فقوم نُوح أول قوم كذبوا رسولهم، وفرعون كذب موسى، وقوم لوط كذبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأما أصحاب الرسّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع، فهم من العرب»[1] ومن هؤلاء من يرون آثارهم عياناً كثمود في الحِجْر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل، وهم قوم لوط عليه السلام، يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلهم ليسوا خيراً من محمد ﷺ.[2]

ثم يقول عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذُكرت قصة قوم نوح مع نبيهم عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وما واجهوه به، ثم ما أصابهم لما كذبوه، وأما أصحاب الرس فقد اختلف العلماء في المراد بهم، وقد رجح الطبري أنهم «قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك،... ولا أعلم قوماً كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود»[3] وقد قال الإمام ابن كثير عقب إيراده هذا القول وغيره: « فالله أعلم». [4] وبها قال نقول؛ إذ لم يرد في القرآن، ولا في السنة

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ابن سعدي/ ٥٣١. بتصرف يسير.

(٣) جامع البيان٩/ ٣٩٠، وينبغي الإشارة إلى أن الطبري لم يجزم بهذا الرأي، وإن قاله عقيب قوله: «والصواب من القول في ذلك» لأنه قال بعد ذلك: «فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبراً، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا نبيهم في حفرة....» أوردت هذا الإيضاح؛لأن بعض الذين ذكروا ترجيح الطبري لم يشيروا إليه.

(٤) تفسير القرآن العظيم٣/ ٤٢٢.

ما يَفْصِل في المسألة. ثم ذكر الله تعالى بقية الأقوام المعذبين، فثمود قوم صالح عليه السلام، كذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨ ﴾ [هود:٦٧-٦٨]، وقال عنهم أيضاً ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾ [النمل:٥١]، وأما عاد، فهم قوم هود عليه السلام وقد قص الله عز وجل نبأهم في أكثر من موضع، منها ما ورد في سورة الأحقاف، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١ ﴾ الآيات، [الأحقاف:٢١-٢٦]، وذكر عاقبتهم أيضاً في آيات كثيرة منها قوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة:٦-٨]. وقد ذكر الله ما أصاب إخوان لوط لمّا انحرفوا عن الفطرة السوية، وكذبوا رسولهم، فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ ﴾ [هود: ٨٢]، وأما أصحاب الأيكة، فهم قوم شعيب عليه السلام[1]، وهؤلاء أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١ ﴾ [الأعراف:٩١]، وسماها تعالى في موطن آخر الصيحة، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ ﴾ [هود:٩٤]، وكان عذاباً عظيماً كما وصفه الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ ﴾ [الشعراء:١٨٩]، وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ ﴾، فـ (تُبّع هو الحميري، وقد كان رجلاً صالحاً، وقد ذم الله قومه ولم يذمه)[2] «وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلاً؛ لقربهم من دارهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٣.

(٢) ورد هذا في أثر عن عائشة رضي الله عنها، أخرجه الحاكم ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة حم الدخان، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في الصحيحة. ٥/ ٥٤٨.

وعظمهم في نفوسهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم - لأنهم كانوا مجرمين - كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك»[١] هؤلاء كلهم اشتركوا في أمر واحد، واستحقوا وعيداً واحداً، ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، « فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جلّ ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذّبين للرسل؛ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، أنه محلّ بهم من العذاب، مثل الذي أحلّ بهم». [٢]

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ قال الطبري: «ثم استدل عليهم بدليل عقلي، فقال عز وجل مستفهماً عن شيء لا يسعهم في الجواب عنه إلا الإقرار، تقريع من الله لمشركي قريش الذين قالوا:﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ يقول لهم جلّ ثناؤه: أفعيينا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً، فنعيا بإعادتهم خلقاً جديداً بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؟ يقول: ليس يعيينا ذلك، بل نحن عليه قادرون». [٣]، ومعنى ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾: أفعجزنا. [٤]، وقد ذكر الله عز وجل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس:٧٨-٧٩]، و﴿ بَلْ ﴾ في قوله:﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي: بل ما عيينا بالخلق الأول، أي: «وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات، ولكن تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه»[٥]، وإذن فهم في شكّ وحيرة من قدرة الله تعالى على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٦.
(٢) جامع البيان١١/ ٤١٣-٤١٤.
(٣) جامع البيان ١١/ ٤١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٣.
(٥) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٨.

خلقهم خلقاً جديداً بعد صيرورتهم تراباً. فالتبس عليهم، واختلط ما ألفوه واعتادوه على الحقيقة التي يقر بها العقل السليم، فهم إذا سئلوا مَن خلقهم؟ أجابوا: الله، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف:٨٧]، ثم بعد ذلك يقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، ثم يُسألون: فمن خلق السموات والأرض؟، فيجيبون الله! قال عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وحقاً كيف يصرفون عن هذه الحقيقة الواضحة. بل إن خلق هذين الجرمين العظيمين أكبر من خلق الناس، فكيف إذن يستبعدون البعث، يقول عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وفي تسمية البعث بالخلق في قوله عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ تحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجْعَلوه خلقاً جديداً كالخلق الأول، وأي فارق بينها.[1]

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة

مناسبة هذا المقطع للمحور واضحة، فهو يدور حول براهين البعث، فلما استبعد الكفار البعث، أُمروا أن يُعمِلوا عقولهم بالنظر في السموات والأرض والجبال... ثم إحياء موات الأرض، فبإمكان العقل أن يتوصل عن طريق التأمل في خلق الله لمعرفة شيء من قدرته عز وجل، ثم لم يُتركوا حتى نص على هذه القدرة من خلال استفهام يطلب منهم الإقرار بالحقيقة التي التبس عليهم أمرها ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ والإجابة لا بد أن تكون بالنفي، إذن فلا بد أن يصلوا إلى بدهية تقِرها عقولهم، إن تخلت عن تلك الحجب والموانع الكثيفة التي تعيق تفكيرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول

* أدلة القرآن الكريم واضحة بينة لا التباس فيها ولا غموض، ولفت الأنظار لأمور متاحة للجميع، سموات وأرض وجبال، ونبات...، ومن عظمة هذه الأدلة أن الأمّي يفهمها،

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٨. بتصرف يسير.

وتبهر في الوقت ذاته العالِم، فمن فلك، إلى علم طبقات الأرض، إلى علم النبات، إلى علم الأجنة....

* المشركون لم يعملوا عقولهم حينما أنكروا البعث، فخلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وهم يقرون أن الله خالقهم وخالقهما ابتداء من عدم، فلم إذن يتعجبون من إعادة الإنسان.

* ينبغي الاستفادة من براهين البعث التي ذكرت في هذه السورة ـ وفي غيرها ـ في زيادة الإيمان، فهي وإن ذُكرت للمشركين المنكرين، إلا أن تأمل ذلك له الأثر العظيم فيما ذكرنا، فلنتدبر بخشوع قول الله عز وجل ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾. قال الزمخشري: «وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها، واعتباراً بموردها». (١)

* الإسلام دين العقل، فهو إذ يثبت لك أمراً من صميم العقيدة، يريد منك أن تستخدم عقلك كي تصدق به، وقد لفت أنظار الكفار للنظر في الآفاق، فإذا لم يتعظوا بالكتاب المقروء المجيد، فليتعظوا بالكتاب المنظور وهو الكون. وهي في الوقت نفسه دعوة للمسلمين أن يلتفتوا للكون ليتكشفوا أسراره، فقد طالت غيبتهم عن المشهد الحضاري.

* من الأمور التي تعرضت لها هذه السورة الزينة، وهي أمر لافت للنظر، مبهج للنفس، فحري أن يُتأمل ويتدبر، وقد ذكرت في هذا المقطع في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾، وفي قوله عز وجل ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾، بل إنك لتدرك ذلك في ثنايا ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾. وعلى من يتصدى لبيان قدرة الله عز وجل أن لا يغفل بيان هذه

---

(١) الكشاف، الزمخشري٣/ ٣٠٨.

الجوانب.[١]

* الإعجاز العلمي في هذه السورة الكريمة، يتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا... ﴾ قال د. زغلزل النجار: « استخدام تعبير مد الأرض لوصف كرويتها؛ لأن المد بلا نهاية هو قمة التكوير»[٢]، وهناك إعجاز علمي ـ أيضاً ـ في قوله عز وجل: ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ وأحيل في بيان الإشارة العلمية لـ ﴿ وَأَلْقَيْنَا ﴾ إلى ما كتبه الدكتور فوزي الشربيني، لطوله ونفاسته[٣] أما وصف الجبال بالرواسي فيقول د. زغلول النجار: « وصف الجبال بأنها رواسي للأرض وللألواح غلافها الصخري، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين».[٤]

* لعل في قوله تعالى:﴿ مُّنِيبٍ ﴾ ما يرغب من انحرف عن الصراط المستقيم، وابتعد عن الحق، أن يرجع إليه.

---

(١) يقول محمد العبدة: «فإذا كانت غاية الخلق العبودية التامة لله تعالى، فإن من كمال التربية انسجام الوسائل والغايات، فقيام العقل بوظيفته المقدرة له وسيلة، والتناغم مع الطبيعة المُسخّرة للإنسان وما فيها من إبداع وجمال وسيلة أيضاً، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالنظر في آيات الأنفس والآفاق... كما نبه القرآن إلى هذا الكون وما فيه من جمال ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحجر/ ١٦، ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ النحل/ ٥-٦. ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ النحل/ ٨.
وجاء العلم الحديث ليكشف أن الجمال من تركيبة هذا الكون، وأن ما قاله علماء القرن التاسع عشر من أن المادة ليس لها إلا خواص كمية كالوزن والحجم والعدد ليس صحيحاً، وجاء العلم الحديث ليقول: إن أي نظرية أو فرضية نرى فيها الجمال فإننا نتأكد أنها أقرب للصواب لأنها جزء من الكون. فالجمال في النظرة الجديدة: وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية...» مجلة البيان، العدد/ ٩٠، ص/ ٢٦.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار.

(٣) في كتابه: الظواهر الجغرافية في القرآن الكريم/ ٤٥.

(٤) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار.

* ذكرَ الله تعالى لإنبات الجنات والحب والحصيد والنخل الباسقات علتين، الأولى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾، والأخرى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾، وفي تقديم التذكر والاستبصار، دلالة على أن اللائق بالعبد أن يكون انتفاعه بذلك أهم من تمتعه به من حيث كونه رزقاً.[(١)] ولذلك فإن العقلاء هم من يحققون هذا، ولعل في تقييد التبصرة والتذكرة بالعبد المنيب، وإطلاقه في الرزق ما يشير لذلك.

المقطع الثاني: التأمل في الأنفس: خلقاً ومآلاً

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود٦/ ١٢٤، وروح المعاني، الآلوسي١٣/ ٣٢٧.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

ورد في ختام المقطع الأول قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾، وابتدأ هذا المقطع بقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، فبعد أن ألزم القرآنُ المشركين بالإقرار بأن الله عز وجل لم يعي بالخلق الأول، ابتدأ ههنا بذكر الخلق الأول، وفي هذا يقول ابن عاشور: «هذا تفصيل لبعض الخلق الأول، بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام؛ للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول»(١).

نلحظ في كثير من آيات القرآن الكريم أن الحديث عن خلق الإنسان يسبقه ذكر ما أعد الله عز وجل له من مقومات حياته، ولذا نجد المقطع الأول تحدث عن خلق السموات والأرض... ثم إنزال الماء من السماء رزقاً للعباد...، أوجد الله عز وجل هذه الأمور وغيرها للإنسان قبل أن يوجده، وضمن له مقومات حياته المادية والمعنوية والروحية، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواء، والروحية بالمنهج والقرآن. (٢) وقد وردت الإشارة للمنهج في قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ وقُدم ذكره لأهميته.

كان المقطع الأول في الاستدلال على البعث بالآفاق، وابتدأ هذا المقطع بالحديث عن الأنفس، وقد قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

ذكر المقطع الأول برهانَي العلم والقدرة، ثم افتتح المقطع الثاني، ببيان خلق الإنسان، الذي يتضمن برهاني القدرة والعلم، ثم أُفرد الحديث بعدها عن برهان الحكمة، إذ ليس من الحكمة في شيء أن يُخلق الخلق، ويمدون بكل ما يحتاجونه لأبدانهم، ولا يغذوهم ربهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ثم يجازي بعد ذلك من امتثل وسار على هدي هذا المنهج، ومن

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٩.

(٢) انظر تفسير الشعراوي٢٠/ ١٢٤٤١/ ١٢٤٤٢ [عند سورة فاطر].

تنكبه، فجاء هذا المقطع لنقلنا إلى دار الجزاء، فإذا كان الكافرون قد عجبوا من البعث، فالقرآن يصوره وقد جاء بالفعل، ويبدأ بالموت، فهو أول مراحل الآخرة، وهم لا يشكون فيه.

بيد أن برهان العلم لا يزال يتلى، ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾، قال ابن عاشور: «وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم».[1] وبرهان العلم يقتضي محاسبة الناس على ما يصدر منهم، وهذا من الحكمة، وكل هذا يستلزم القدرة وإلا فمن يقدر على الإحاطة بكل الأقوال والأفعال وإحصائها؟ ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة:٦]. وإذن فهو علم وحكمة وقدرة.

ورد في المقطع الأول إجمال في قوله عز وجل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، وفصل في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾.[2]

التفسير الإجمالي

صُدِّر هذا المقطع بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر، واللام، وقد؛ وذلك لأهمية ما يأتي بعدها من بيان قدرة الله عز وجل، ولتنزيل من ينكر البعث منزلةَ من ينكر أن الله تعالى خالق الإنسان، إذ قد علم في عرف البشر أن الإعادة أهون من الابتداء، والمشركون يعترفون أنه عز وجل قد خلقهم، قال عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم[3]. ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، أي: «لا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه. ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٩.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٧٤٨.

﴿ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ «الوريد: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن، والله أقرب من ذلك بعلمه؛ لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء»[١]، وقد اختلف في المراد بـ﴿ وَنَحْنُ ﴾، فذهب جمهور العلماء إلى أنه الله عز وجل، فيؤول على معنى القدرة أو العلم. [٢] وذهب آخرون إلى أنهم الملائكة، قال ابن كثير: «ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فرَّ؛ لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الواقعة:٨٥]، يعني: ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك». [٣]، ولا مانع من الجمع بين هذين القولين، ويكون المراد قُرْب ذوات الملائكة وَقُرب عِلْمِ اللهِ منه. [٤]

«ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به، وكَّل به ملكين يكتبان عمله ويحفظانه؛ إلزاماً للحجة، فقال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾»[٥] والمعنى: «ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى الملَكان»[٦] الموكلان به بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة ما يلفظ به، وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبتانه، قال الراغب ـ وهو يفسر كلمة قعيد ـ: « أي: ملك يترصده، ويكتب له وعليه،

(١) التفسير الكبير٢٦/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر جامع البيان١١/ ٤١٥، وانظر التفسير الكبير٢٦/ ١٦٢ـ ١٦٣، والجامع لأحكام القرآن١٧/ ٩، والبحر المحيط٨/ ١٢٣، وإرشاد العقل السليم٦/ ١٢٥، وغيرها.

(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٣-٢٨٤.

(٤) وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى، انظر التفسير الكامل٦/ ٢٨٧.

(٥) فتح القدير٥/ ٨٠. وانظر أضواء البيان، الشنقيطي٧/ ٤٢٨.

(٦) جامع البيان١١/ ٤١٥.

ويقال ذلك للواحد والجمع[١]، وقد جعل الله تعالى لكل إنسان ملكين، يكتبان مايصدر منه، أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال. ثم زيد الأمر تهويلاً، فقال عز وجل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم بكلام إلا لديه من يراقبه فيكتب قوله، و﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي: حاضر.[٢]

«وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس، على قولين، والراجح ـ والعلم عند الله عز وجل ـ القول الأول؛ لعموم قوله:﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[٣]، و«الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون: لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحى».[٤]

ثم تتوالى الآيات منذرة محذرة من هول ما سيلقاهم عقيب موتهم، بل قبيل موتهم، وليس كالموت يفزع قلوب الكافرين، ذلك أنه « لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه، هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي»[٥]، قال عز وجل: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ والمراد بسكرة الموت: « شدّته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله».[٦] ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾، أي: بالحقّ من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه. أو: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت.[٧] ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ هذا الأمر المهول الذي كنت تحاول الفرار

---

(١) مفردات القرآن للراغب مادة (قعد).

(٢) الكشاف٤/ ٣٨٨.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٣.

(٤) أضواء البيان٧/ ٤٣٠.

(٥) الكشاف ٤/ ٣٨٩.

(٦) فتح القدير٥/ ٨٠.

(٧) جامع البيان١١/ ٤١٧، بتصرف يسير.

منه، مجتنباً أسبابه بكل الطرق؛ كراهية له. (١)

وللمفسرين أقوال في المخاطب بقوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ هل هو الإنسان عموماً، أو الكافر؟ والصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان، ويدخل فيه ابتداء الكفار؛(٢) لأن لهم النصيب الأكمل من كل وصف يأتي. والمؤمنون ليسوا على درجة واحدة في ذلك. ثم قال عز وجل: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وإذا كان الكافر يقر بالموت لامحالة؛ لأنه يراه في الدنيا، فسيرتجف فؤاده من تيقن حصول هذه النفخة، والمراد: « نفخة البعث». (٣) وقد ورد بيان الصور عن النبي ﷺ، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال ﷺ:(قرن ينفخ فيه)(٤) وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (كَيْفَ أَنْعَمُ، وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُم: قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا). (٥) ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ ذلك وقت حصول ما توعدتم به في الدنيا(٦)، ويلاحظ أن الآية الكريمة اقتصرت على الوعيد، وذلك لتهويل الأمر، ولمناسبته لسياق السورة، فالحديث مع من ينكرون البعث، وإلا فهو يوم الوعد والوعيد. (٧)

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: « معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ»(٨). ويقال لهذا الإنسان: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾، وقد اختلف في المخاطب هنا، هل هم المكلفون جميعاً مؤمنهم وكافرهم، أم الكافر

---

(١) انظر جامع البيان١١/ ٤١٨، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٥.

(٣) معالم التنزيل٧/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم/ ٢٤٣٠. وحسنه.

(٥) سنن الترمذي برقم/ ٢٤٣١، وحسنه.

(٦) انظر أنوار التنزيل٨/ ٥٧٧، والبحر المحيط٨/ ١٢٣.

(٧) انظر فتح القدير٥/ ٨١.

(٨) جامع البيان١١/ ٤١٨.

فقط، وكل يوجه الأقوال حسبما اختار، ومن ذلك ماقاله الطبري، وهو يرجح العموم: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُنِي بها البرّ والفاجر؛ لأنَّ الله أتبع هذه الآيات قوله:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحقّ ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا. وقوله:﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾، يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾، يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك». [١]، وأما من يرى أن الخطاب للكافر، فيحتج بأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء. ثم يوجه الغفلة على أنها من باب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة؛ لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر، والكافر لم يكن غافلاً، وإنما كان منكراً.[٢] والأول أرجح، والمؤمن مهما فعل من الصالحات، فسيكون ـ كما قال الرازي ـ «... بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل».[٣] والعلم عند الله تعالى، ثم قال عز وجل:﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾، أي: قوي نافذ في غاية الحدة. [٤]

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ اختلف في المعني بالقرين هنا، على أقوال:

الأول: أنه السائق والشهيد. [٥]

الثاني: أنه «الملك الموكل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل»[٦].

---

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٠.
(٢) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٣٠٨ـ٣٠٩.
(٣) التفسير الكبير٢٦/ ١٦٥.
(٤) النظر جامع البيان١١/ ٤٢١. ونظم الدرر
(٥) جامع البيان١١/ ٤٢١.
(٦) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٦.

الثالث: الشيطان، الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد». [١]

وقد يكون المراد بالقرين وبالسائق والشهيد الملكين اللذين وكلا به في الدنيا، [٢] وبهذا نجمع بين القولين الأولين، والله أعلم، وفي الحقيقة هما ملكان، كما مر في قوله عز وجل: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وجاء به مفرداً في قوله تعالى:﴿ قَرِينُهُ ﴾ مع أن لكل إنسان قرينين لأن المراد به الجنس[٣]. ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ «حاضر مهيأ معد. لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد».[٤] فيخاطب الله عز وجل الملكين: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾وقد اختلف في توجيه ﴿ أَلْقِيَا ﴾ بالتثنية، مع قوله تعالى قبلها: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدَّى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير. ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك».[٥] ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾، كثير المنع للخير، وهل المراد بالخير: المال[٦]، أو هو الإيمان، [٧] قولان، ولا مانع من الجمع بينهما، [٨] وقد كان المشركون يمنعون الحقوق من أن تصل إلى أهلها، وفي الوقت نفسه يصدون عن سبيل الله عز وجل. ﴿ مُّعْتَدٍ ﴾ «معتد على الناس بلسانه بالبذاء والفحش في المنطق، وبيده بالسطوة والبطش

---

(١) نظم الدرر٧/ ٢٥٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٤.

(٣) انظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي١٣/ ٣٤٥، وأقول: لعل العلة في الإفراد أن الخطاب سيكون مع الملك الذي كتب السيئات؛ لأن الكافر هو من سيقذف في النار، ولا يتوقع أن تكون له حسنات. ولا يتنافي هذا مع القول بأن المراد بالإنسان العموم، لأن المقام للتهويل فناسب أن يقتصر على بيان حال الكافر، كما يقتصر أحيانا على الإنذار، في مقام بيان وظيفة الرسول مع أنه بشير ونذير. والعلم عند الله.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب٦/ ٣٣٦٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٨.

(٦) إلى هذا ذهب الطبري، والبغوي، انظر جامع البيان١١/ ٤٢٢، ومعالم التنزيل٧/ ٣٦١.

(٧) انظر الكشاف٤/ ٣٩٠.

(٨) إلى الجمع ذهب أبو حيان، وابن عاشور، انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٢-٣١٣.

ظلماً»[١]. ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ «داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أمر الدين، وموقع غيره فيه».[٢]
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ «الذي أشرك بالله، فعبد معه معبوداً آخر من خلقه». [٣]

وبعد تعداد هذه الصفات القبيحة التي اتصف بها يصار إلى «توكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد:﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾، بياناً لمكانه من جهنم، التي بدأ الأمر بإلقائه فيها». [٤]

ثم يقول تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي: شيطانه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور.[٥] وفي الكلام اختصار، تقديره: إن الإنسان يَدَّعي على قرينه من الشياطين أنه أضلَّه، فيقول: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾، أي: لم يكن لي قُوَّة على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله. [٦] قال ابن كثير: « بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله:﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.»[٧] [إبراهيم: ٢٢]، فيختصمان عند المولى عز وجل، فيقول: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ « قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين»[٨] ومنها براهين البعث التي ذكرت في

---

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٣.
(٢) نظم الدرر٧/ ٢٥٩، وانظر التفسير الكبير٢٨/ ١٦٦.
(٣) جامع البيان١١/ ٤٢٣.
(٤) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٥.
(٥) وهو اختيار الطبري، والبغوي، وابن كثير، وأبي حيان، وقال بلا خلاف. انظر جامع البيان١١/ ٤٢٣، ومعالم التنزيل٧/ ٣٦١. وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٧. والبحر المحيط٨/ ١٢٥.
(٦) انظر زاد المسير، ابن الجوزي٧/ ٢٤١.
(٧) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٧.
(٨) المرجع السابق.

القرآن، وتنوعت أساليبها. «ومعنى النهي: أن الخصام في ذلك لا جدوى له؛ لأن استواء الفريقين في الكفر كافٍ في مؤاخذة كليهما على السواء، كما قال تعالى:﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وذلك كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر، فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين».(١) ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ «ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها».(٢) ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ «ولا أنا بمعاقب أحداً من خلقي بجرم غيره، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره فمعذّبه به».(٣)

« وقوله:﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ يقول: وما أنا بظلام للعبيد في ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وذلك يوم القيامة، وسؤال الله تعالى النار: ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾« لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين». (٤)، والسؤال سؤال «تقرير وتوقيف، لا سؤال استفهام حقيقة، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم»(٥) وهي تقول:﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾، أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث، ففي البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يُلقَى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول قط قط)(٦)، وعلى هذا فإن النار ـ والعياذ بالله ـ تطلب الزيادة(٧)، وهناك قول آخر وهو «أنها تقول ذلك بعد

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٥.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٣) جامع البيان١١/ ٤٢٥.
(٤) المرجع السابق.
(٥) البحر المحيط٨/ ١٢٦.
(٦) صحيح البخاري برقم/ ٤٨٤٨، وصحيح مسلم/ ٢٨٤٨.
(٧) هذا رأي الطبري، وابن كثير، وأبي حيان. انظر جامع البيان١١/ ٤٢٦. وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٧، والبحر المحيط٨/ ١٢٦.

امتلائها، فالمعنى: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأت». [١] بعد هذا الترهيب الشديد، يأتي الترغيب، فيقول عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أي: «وأُدنيت الجنة وقرّبت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه»[٢].، وفي كيفية إدنائها يقول ابن عاشور: « والجنة موجودة من قبل وُرود المتَّقين إليها، فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربةٍ منها؛ كرامةً لهم عن كلفة المسير إليها، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا، وقوله: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، يرجح الاحتمال الأول، أي غير بعيد منهم، وإلاّ صار تأكيداً لفظياً لـ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾، كما يقال: عاجل غير آجل... والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد». [٣] ولو قيل بالظاهر لما كان ذلك بعيداً، أعني: أن الجنة تقرب لهم، وبخاصة إذا استحضرنا أن النار يؤتى بها، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)[٤] ويقال لهؤلاء المتقين: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ فهاهي الجنة شاخصةً يشار إليها، وهي قريبة، وإذا كان المشركون قد أوعدوا ناراً فكذبوا، فإن المتقين قد وعدوا الجنة فصدقوا، ويُتساءل لمن هذا الثواب الجزيل؟، فيأتي البيان: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ «رجاع تائب مقلع، ﴿ حَفِيظٍ ﴾، أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه».[٥] ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، أي: خاف الله تعالى معظماً له، وهو لا يراه، وقيل: يخشى الله في حال غيبته عن الناس، [٦] ولا مانع من إرادة القولين، وهكذا ينبغي أن يكون حال المتقي، يخاف الله عز وجل محباً له معظماً، فيبعثه هذا على فعل ما أمره، والنهي عما زجره، وهو يعلم أن الله يراه وإن لم يره هو، وهذه مرتبة الإحسان، فيستوي عنده فعل ذلك، سواء أكان مع الناس أو

(١) زاد المسير٧/ ٢٤٣.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٢٧.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٨ـ٣١٩.
(٤) صحيح مسلم، برقم/ ٢٨٤٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩.
(٦) انظر الكشاف٤/ ٣٩٣.

منفرداً، وقوله:﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ «وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه».[١]، فيقال لهم تكريماً:﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ مصحوبين «بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم»، [٢] ولا مانع من أن تكون السلامة من كل هذا، ومن غيره، فيسلمون من كل مخوف، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢]، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾، «وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم، فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله:﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم، ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم»[٣]، وفي صحيح مسلم[٤] بسنده عن صهيب الرومي ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنها النظر إلى وجه الله الكريم، قال: ثم تلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، كقوله تعالى:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾»[٥] ثم ذكر الحديث السابق.

بعد هذا الترغيب الذي قُصد به تثبيت المؤمنين، ودعوة ذوي العقول من الكافرين، لاختيار ما ينقذهم من عذاب جهنم، عقب بذكر عذاب عاجل يستأصلهم، كما حدث لأمم كثيرة، كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً، فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولم يستطيعوا الهروب والتفلت منه، يقول عز وجل:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾، قرون كثيرة كذبت رسلها، وكانوا أشد من هؤلاء المشركين قوة وجبروتاً، فحق عليهم وعيد الله، والمشركون يعلمون ذلك بما سمعوا وما شاهدوا من آثارهم، قال تعالى:﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٩.
(٢) معالم التنزيل٧/ ٣٦٣ .
(٣) معالم التنزيل:٧/ ٣٦٢ «وقوله: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾». يونس/ ٢٦، وانظر جامع البيان ١١/ ٤٢٩، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩.
(٤) برقم ٢٩٧و ٢٩٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧ـ١٣٨]. فإن لم يخافوا عذاب الآخرة، فليخشوا العذاب العاجل، ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ «ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما طفتم أنتم فيها،... وقوله:﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾، أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟»[(١)] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ « إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها من قبل قريش»[(٢)]، « ويجوز أن يعود ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء»[(٣)] ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾، «التذكرة العقلية، أي: التفكر في تدبر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك؛ ليقيسوا عليها أحوالهم، فيعلموا أن سينالهم ما نال أولئك»[(٤)]، وإنما ينتفع بهذه التذكرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ يعني: لمن كان له عقل، يتفكر به، ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، أو استمع مصغياً لآيات الله وسنة رسوله ﷺ، [(٥)] ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ « متفهم لما يخبرُ به عنهم، شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه».[(٦)]، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾،[(٧)] يؤكد الله تعالى بأكثر من مؤكد[(٨)] «بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١، بحذف يسير.

(٢) جامع البيان١١/ ٤٣٢.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٣.

(٤) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٣.

(٥) انظر جامع البيان١١/ ٤٣٣، والتحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٤.

(٦) جامع البيان١١/ ٤٣٣.

(٧) ذكر أكثر العلماء ههنا سبباً للنزول مروياً عن قتادة والحسن، لم أذكره لضعفه، والآية تفهم بدونه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ينظر أسباب النزول للواحدي/ ٢٧٣، ولباب النقول للسيوطي/ ١٩٩ـ ٢٠٠، وقد أضرب عنه من التزم ذكر الصحيح من الأسباب مثل: مقبل الوادعي، وإبراهيم العلي، وغيرهما.

(٨) سبق بيان أن [لقد] فيها ثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد التي للتحقيق، وكأن القرآن ينزِّل المشركين منزلة من أنكر هذا الأمر، مع أنهم يقرون به، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ =

أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عز وجل. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع». [1]

والواو هنا « واو الحال؛ لأن لمعنى الحال هنا موقعاً عظيماً، من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة، بأنه لا ينصب خالقه»[2] «وحقيقة المسِّ: اللَّمسُ، أي: وضع اليد على شيء وضعاً غير شديد، بخلاف الدفع واللطم. فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة»[3]، ومعلوم أن خلق السموات الأرض أكبر من خلق الناس، قال عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، فإذا لم يعي الله تعالى بخلق السموات والأرض، فهو على إعادة خلق الإنسان أقدر، وهذا كله من باب التقريب، ومخاطبة الناس بما يفهمون، وإلا فإن الشأن في خلق الله تعالى أن يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[النحل:٤٠].

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

* اشتمل قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، وكذا قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ق/ ٣٨، على

=وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ العنكبوت/ ٦١.

(١) تفسير القرآن العظيم٢/ ٢٩٥ _ ٢٩٦.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٥.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٥_٣٢٦.

براهين البعث الثلاثة، فالخلق يحتاج ابتداء إلى علم، لأن الذي يريد أن يصنع شيئاً لا بد أن يكون عالماً بتفاصيله قبل صنعه، وأن يكون عالماً بكيفية صنعه، إلى غير ذلك من أمور، ثم لا بد أن يكون قادراً على الخلق، ثم البرهان الأخير، وهو الحكمة فلا يمكن أن يتصور أن الخالق الحكيم، يخلق الإنسان،.. لمجرد أن يأكل ويشرب.. ثم يموت، فالذي خلقه هيأ له كل ما يحتاج إليه، وكل ما يصلح بدنه وقلبه. ومن ذلك المنهج الذي يسير عليه ليحيا حياة طيبة، ثم يُسأل عن هذا المنهج....

* في قوله عز وجل: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ « ما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه، حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره...»[١] قال ابن عاشور: «ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بِعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد»[٢].

* من عدل الله عز وجل أنه مع علمه بأحوال الإنسان، ولا تخفى عليه خافية، إلا أنه عز وجل وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة.

* سكرة الموت آتية لا محالة، والعاقل من استعد لها. كما ينبغي أن لا يغيب عن باله ذكر الحساب، ولذا فهو يحاسب نفسه على ما يصدر منه، وفي الحديث (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات،. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم). [٣]

* جلَّ الرحمن الرحيم لعباده في هذا المقطع صفات أهل النار، وصفات أهل الجنة، بقوله عز وجل: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

---

(١) تيسر الكريم الرحمن/ ٧٤٨.
(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٠١.
(٣) صحيح البخاري برقم/ ٦٤٧٧.

ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾. ويقول عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾، وينبغي أن يلاحظ ما أعد الله عز وجل للفريقين، فقد جمع لأصحاب النار بين العذاب الجسدي والعذاب النفسي، ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾، أما أهل الجنة فنجد « التكريم في كل كلمة، وفي كل حركة. فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء إليهم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون». (١)

فوجب على العاقل أن يختار.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ بيان لأهمية مخاطبة القلوب؛ كي تؤوب إلى خالقها. (٢) وأحسب أن كثيراً من دعاتنا أهملوا هذا الجانب، فلا غرو أن قست القلوب، وطغت الجوانب المادية على حياة كثير من الناس، فصارت عباداتهم جسداً لا روح له. وغشيت كثيراً من الناس غفلة شديدة، ناسين أن هناك يوماً للحساب، ولا بد من تدارك الأمر قبل فوات الأوان. قبل أن يقال: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

* تقريب الجنة إنما يكون للذين بلغوا منزلة عظيمة في التقوى، وهي دعوة للارتقاء في منازلها، وبخاصة أنها في سياق سورة تحذر من التلفظ بما يغضب الله، فكل ذلك معلوم ومحفوظ. (٣)

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٥.

(٢) الأساس في التفسير٩/ ٥٤٧٣.

(٣) عندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ... ﴾، ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ... ﴾ الزمر/ ٧٣، قد يتوهم أن هناك تعارضاً، والرد على هذا: إن هناك فرقاً بين=

* في قوله عز وجل: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ ما يلفت النظر، إذ كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ فيقال: إن هذا الخاشي مع علمه بسعة رحمة الله تعالى إلا أنه يخشاه،[1] فصفة الرحمة لا تجعله يتجرأ على المعاصي، كما يفعل بعض الناس.

* أهمية الثبات في حياة المسلم، يتجلى ذلك في قول الحق عز وجل: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ «حضر يوم الحشر، مصاحباً قلبَه المنيب إلى الله، أي: مات موصوفاً بالإنابة، ولم يُبطل عمله الصالح في آخر عمره». [2]

* في قوله عز وجل: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ بعد من ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ما يؤكد حقيقة أن الجزاء من جنس العمل، فالله تعالى لا يجمع على عبدٍ أمنَين ولا خوفَين، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٦- ٢٧].

* يبين الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ أن المستفيد من الآيات القرآنية والكونية، هو إما صاحب عقل يستطيع به الوصول للتذكر والاتعاظ، أو مصغٍ لمن يبين له ذلك، والأخير مرده أيضاً للعقل، إذ إنه بعد أن يستمع لما يقال، سيحكِّم عقله، وستهديه فطرته إلى أن ما جاء به الرسل حق لا مرية فيه.

* في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ « تنويه بشأن المؤمنين، وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات

=الذين اتقوا، والمتقين، فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا الفعل، وهو التقوى، أما المتقون، فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا. ولذا فقد اختلف الجزاء. انظر نظم الدرر٧/ ٢٦٢.

(١) انظر الكشاف٤/ ٣٩٢.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٠.

والعبر». [١] كما أن فيه دلالة على أنهم لا قلوب لهم...، يقول تعالى مبيناً حالهم يوم القيامة: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

* عظمة الله عز وجل، وقدرته، فخلق هذه السموات العظيمة التي لا يدرك مداها، وكذلك الأرض الفسيحة، وما بينهما، كل ذلك يخلقه الله تعالى في ستة أيام، لم يمسها فيها لغوب قال سيد قطب: «وهي توحي بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل. فكيف بإحياء الموتى، وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير»[٢]. وقال ابن كثير: «فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى».[٣]

* في الترغيب بعد الترهيب فتح باب الأمل، وهذا أمر حري بالدعاة والخطباء أن يولوه عنايتهم، فالعصاة يحتاجون مثل هذا البلسم الشافي.

الخاتمـــة

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١.

مناسبة الخاتمة للمقطع الثاني

لما ذُكر في المقطع الثاني خلق الإنسان، وما سيؤول إليه حاله في رحلته للبعث، وكان في ذلك ما يقنع مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاءت الخاتمة لتسلي النبي ﷺ وتوجهه إلى ما ينبغي عليه أن يفعله إزاء ما يقوله المشركون، يقول عز وجل:﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، الصبر أولاً، ثم الجأ إلى الله تعالى، منزهاً له عن كل صفة نقص، مثبتاً له كل صفة كمال، متلبساً بحمده عز وجل، وعليك بالصلاة فإنها خير معين. ولتستغرق هذه التسبيحات والتحميدات والصلوات أوقاتك كلها، لتكون موصولاً بالله عز وجل دائماً، أما فيما يتعلق بهم، فانتظر ما سيحصل لهم.. واجتهد أنت في تذكير من يخاف وعيد الله، تالياً عليه القرآن، فهم من سيستفيد من مواعظه.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وحقاً إن ما يقوله المشركون ليُحزن القلب وبخاصة قلب النبي الصادق الأمين ﷺ، إذ يواجَه ـ وهو الرحمة المهداة ـ بذلك التكذيب الآثم يقول الله عز وجل: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وهنا يأمره بالصبر، ثم يرشده إلى ما يعينه عليه، ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾، ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة، أي: وصلّ منزها ربك مُثنياً عليه، [1]، وذهب آخرون إلى أنه التنزيه، أي: « نزّه الله عما لا يليق بجنابه العالي، ملتبساً بحمده»[2]، ولا مانع من إرادة القولين، فكلاهما مطلوب. والمراد بـ ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ صلاة الصبح، وفي قوله تعالى:﴿ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾، قولان: «أحدهما: صلاة الظهر والعصر،

---

(١) انظر زاد المسير٧/ ٢٤٥.

(٢) ممن ذهب إلى أن التسبيح قد يراد منه الظاهر الزمخشري، فقد قال: «والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة» الكشاف٤/ ٣٩٥، وانظر إرشاد العقل السليم٦/ ١٣١، وفتح القدير٥/ ٨٦.

قاله ابن عباس. والثاني: صلاة العصر، قاله قتادة. [١] وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما[٢] من حديث جرير بن عبد الله ﷺ، قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إلى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[طه: ١٣٠][٣]. وفي قوله عز وجل:﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ثلاثة أقوال:

« **أحدها:** أنها صلاة الليل كلِّه. قاله مجاهد.

والثاني: صلاة العشاء، قاله ابن زيد.

والثالث: صلاة المغرب والعشاء، قاله مقاتل»[٤]، وللمفسرين في ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ «ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الرَّكعتان بعد صلاة المغرب، روي عن عمر، وعليّ، والحسن بن علي، وأبي هريرة عز وجل، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وقتادة، في آخرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس. [٥]

---

(١) ورجحه الطبري، في جامع البيان١١/ ٤٣٥، والبغوي في معالم التنزيل٧/ ٣٦٤، وأبو حيان، وقال: «قاله قتادة وابن زيد والجمهور». البحر الميط٨/ ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ٥٥٤، وصحيح مسلم برقم/ ٢١١، وفيه: « ثم قرأ جرير»، ثم ذكر الآية.

(٣) انظر زاد المسير٧/ ٢٤٥.

(٤) زاد المسير، قال الطبري: «والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فلم يَحُدَّ وقتاً من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمراً بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمراً بصلاة العَتَمة، لأنها يصلَّيان ليلا». ويظهر من صنيع الطبري أنه جمع بين قولي مجاهد ومقاتل، والله أعلم.

(٥) رجحه الطبري، انظر جامع البيان١١/ ٤٣٨والبغوي وقال: «هذا قول أكثر المفسرين». معالم التنزيل٧/ ٣٦٥.

والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد.

والثالث: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، [١] رواه مجاهد عن ابن عباس». [٢]

ويجدر بنا ذكر قول ابن كثير، فهو حسن، وبخاصة إذا استحضرنا مرحلة نزول السورة، يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ولكن منهن، صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب... وقوله:﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾، أي: فصل له، كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾، [الإسراء: ٧٩]، ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾، قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة....»[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ ﴾، أي: استمع «يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب». [٤] والتعبير بـ ﴿ قَرِيبٍ ﴾[٥] « للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيد»[٦]، ولذا قال

---

(١) ممن رجحه النسفي انظر مدارك التنزيل٣/ ١٦٩٤.

(٢) زاد المسير٧/ ٢٤٦، وممن رجح القول الثالث الشوكاني، انظر فتح القدير٥/ ٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩١.

(٤) جامع البيان١١/ ٤٣٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين، ومنهم الإمام والطبري وابن كثير أنه على صخرة بيت المقدس، وهو مروي عن كعب الأحبار، فالله أعلم بصحته. انظر جامع البيان١١/ ٤٣٩ وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩٢.

(٦) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٣٠ـ ٣٣١.

أبو السعود: «بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء». [1] والمراد بالصيحة هنا: النفخة الثانية[2] و﴿ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾، يعني: بالصدق، وهو هنا الحشر، وفيه إبطال لزعم المشركين أنه اختلاق. [3] وردٌّ على استبعادهم ذلك، بقولهم: ﴿ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾. ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾، أي: «يوم خروج أهل القبور من قبورهم»[4] ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾، أي: « إنا نحن نُحيي الموتى ونميت الأحياء، وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة»[5] وقوله:﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ﴾، أي: تتشق الأرض وتتصدع عنهم، فيخرجون مسرعين.[6] وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء:٥٢]، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)[7]، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، أي: «الإخراج العظيم جداً»[8] ﴿ حَشۡرٌ ﴾ « بعث وجمعٌ وسوقٌ»[9] ﴿ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ «وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليُسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن»[10]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى:﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان:٢٨]، قال ابن عطية: «وله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾كلام معادل

(١) إرشاد العقل السليم٦/ ١٣١.
(٢) مدارك التنزيل٣/ ١٦٩٥.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٣١. بتصرف يسير
(٤) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٥) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٦) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٧) صحيح مسلم، برقم(٢٢٧٨).
(٨) نظم الدرر٧/ ٢٦٨.
(٩) إرشاد العقل السليم٦/ ١٣٢.
(١٠) روح المعاني١٣/ ٣٤٤.

لقول الكفرة:﴿ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾ [ق:٣]. وقوله تعالى:﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾»[1]، ثم قال تعالى، مهدداً لهم، ومسلياً النبي ﷺ: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾، أي: « نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قُدرة الله على البعث بعد الموت»[2]. ثم يبين الله عز وجل مهمة نبيه ومصطفاه ﷺ، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ﴾، أي: لست بمسلط عليهم، فتجبرهم على الإيمان، إنما أنت منذر. [3]، ولذا قال له ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ ﴾، ذكر الرازي في المراد بالتذكير بالقرآن ههنا وجوهاً، فقال: «الأول: فذكر بما في القرآن، واتل عليهم القرآن، يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة. الثاني: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي: بيّن به أنك رسول لكونه معجزاً، وإذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به. الثالث: المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير، وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي ﷺ به، أي: اجعل القرآن إمامك وذكرهم بما أخبرت فيه بأن تذكرهم، وعلى الأول معناه: اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه والاقتصار على من يخاف وعيد؛ لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدّق بوقوعه لا يذكَّر إذ لا تنفع فيه الذكرى، كما قال: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾»[4] [الذاريات:٥٥] وقد وجهها البقاعي توجيهاً جيداً حيث قال: « أي: يمكن خوفه، وهو كل عاقل، ولكنه ساقه هكذا؛ إعلاماً بأن الذي يخاف بالفعل فيكشف الحال عن إسلامه هو المقصود بالذات، وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه لا لدده ولا يؤسف عليه ولا يتأثر بتكذيبه، بل يعتقد أنه عدم، لا تضر عداوته ولا تنفع ولايته، وما آذى إلا نفسه وكل من والاه في الدنيا والآخرة».[5]

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ١٧٠.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٣) انظر جامع البيان١١/ ٤٣٩، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩٣.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٩.
(٥) نظم الدرر٧/ ٢٦٨.

هدايات الخاتمة

* بينت الخاتمة ما ينبغي أن يفعله من يتصدى لتوجيه الناس، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

* قلة عقول المشركين، وضعف إدراكهم، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، وقد مر الرد عليهم، بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ونورد ههنا قول الله عز وجل: ﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩] فلم يستبعدون البعث؟، ولو تفكروا لعلموا أن الإعادة أيسر وأهون، وأن من قدر على خلق الأكبر قادرعلى ما هو دونه، وهذا كله في مفهوم البشر، فإن لم يقروا بطلاقة القدرة الربانية، وأنه يقول للشيء كن فيكون، فليقيسوا على ما يشاهدونه.

« تقرير الحشر، وذلك لأن الله عز وجل لما بين أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل، حتى يميز بين جزء بدنين، جزء بدن زيد، وجزء بدن عمرو، فقال:﴿ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ لكمال قدرتنا، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا...».

* في قوله عز وجل:﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾ تهديد للمشركين، بأن ما يقولونه قد علمه الله عز وجل، وإخبار الله تعالى بذلك، تهديد بالعقاب، وإلا فإن مجرد الإخبار لا يخيف المنكرين وفيه تسلية للنبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد علم ما يقولونه، فإن الله تعالى أعلم بذلك، فإنه عز وجل سميع بصير.

* أثر القرآن وأهميته في الدعوة إلى الله عز وجل، يتجلى هذا من قول الله عز وجل ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، ولذا كان النبي ﷺ ينهج هذا النهج، ونكتفي هنا بما ورد في

فضل هذه السورة، فقد كان ﷺ يقرؤها على المنبر يوم الجمعة والعيدين. [(١)] ولكن على من يريد الانتفاع به أن يكون أهلاً لذلك، قال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

* في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، تعريض بالمشركين، الذين لم ينزهوا الله تعالى عن النقص، فضلاً عن أن يثبتوا له كمالاً. وذلك حينما أنكروا البعث، استبعاداً له.

* على الدعاة أن يُخصوا أنفسهم بساعات يلقون بها ربهم عز وجل، مسبحين مصلين؛ ليمدهم بأسباب القوة، ليتمكنوا من احتمال هذا العبء الثقيل. وأن لا ينجروا وراء العصاة، فيصرفوا جُل أوقاتهم في الجدل معهم. [(٢)]

* عظمة الله وسلطانه المطلق في ملكه، يتجلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾. [(٣)]

* في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ما يؤكد محور السورة، فالخطاب هنا للرسول ﷺ بأنك لم تبعث لكي تكرههم على هذا الدين، إنما عليك أن تبلغهم الحجج التي تخاطب عقولهم، وتقودهم إلى الصراط المستقيم. [(٤)] وفيه أن هذا الدين لم يُبن على الإكراه، فإذا كان الرسول ﷺ يطالب بهذا، فغيره من باب أولى، وقد قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

---

(١) راجع ما سبق في قصة عتبة بن الوليد وقراءة النبي ﷺ من سورة فصلت، وكذا سماع الوليد بن المغيرة للقرآن وتأثره بذلك، وما إلى ذلك....

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن٢٦/ ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٤) انظر المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٨.

سورة الذاريات

(الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة)

أولاً: بَيْنَ يَدَي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (الذاريات) لورود قوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾.

ب. فضائل السورة:

تندرج هذه السورة تحت قسم المُفَصَّل، وقد اختُلف في أوله، فقيل: هو من أول سورة (ق)، وقيل: من أول الحجرات، وقيل غير ذلك[1]، وينتهي بآخر سورة من القرآن الكريم كما ذكر العلماء، وقد وردت في فضائل المُفَصَّل أحاديث أقواها ما رواه واثلة بن الأسقع ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المِئِين، ومكان الإنجيل المَثَاني، وفُضِّلت بالمَفَصَّل)[2].

ج. مكان نزول السورة:

سورة (الذاريات) مكية، قال القرطبي: في قول الجميع[3].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ١/ ١٨٠.

(٢) فضائل القرآن، أبو عبيد ١١٩، المسند، أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٧، المعجم الكبير، الطبراني، ٢٢/ ٧٦، مجمع الزوائد، الهيثمي ٧/ ٤٦، الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم دراسة ونقد، د/ إبراهيم علي السيد ٢٢٤، ٢٢٥. وقال في الحكم على هذا الحديث: إسناده حسن، فيه عمران القطان صدوق يَهِم، وقد تابعه عند أبي عبيد والطبراني سعيد بن بشير الأزدي، وهو صدوق، وبقية رجاله ثقات.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٩.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة (الذاريات) ستون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

هـ. محور السورة:

سورة (الذاريات) كغيرها من السور المكية تعنى بإثبات أصول العقيدة؛ التوحيد والنبوة، والبعث والجزاء.

فكل ما تطرقت لذكره من قضايا يستهدف تزكية النفس البشرية، وإطلاقها من أسر الشهوات والشرور، ويفتح أبواب الخير أمامها لتفِرَّ إلى الله تعالى، وتُحَقِّق العبودية الخالصة فترقى في معراج الخير والقبول، وتتخلص من الارتهان للمعبودات الزائفة.

وكل ما ورد في السورة من صيغ تعبيرية وصور بيانية وظلال يسعى إلى تحقيق تلك الغاية وهي ربط القلب البشري بالله ليخافه ثم يتجه إليه بكليته، ومن أدلة ذلك:

أولاً: افتتاح السورة بالحديث عن عظمة الله تعالى من خلال القسم بمخلوقاته العظيمة من: الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة على وقوع اليوم الآخر، وهذا يثمر الاستعداد للوقوف بين يديه تعالى، والتجرد له.

ثانياً: تكرار القسم في السورة بالسماء ذات الحُبُك، والتحذير من مسالك أهل الكذب والانحراف، كل ذلك يدفع إلى التوجه إليه تعالى والانخلاغ من كل الجواذب التي تحول دون الخلوص له عزَّ وجل.

ثالثاً: في بيان السورة لجزاء المتقين، وصفتهم من القيام في عبادته تعالى بالليل، والتوجه إليه بالأسحار، مع بذلهم المال للسائل والمحروم حثٌّ للمؤمنين وإلهاب لهم للفرار إليه تعالى والتزود بالتقوى، لأنَّه خير زاد للفارِّين إليه جلَّ شأنه.

---

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٢.

رابعاً: ما ذُكر في السورة من قَصَص الأمم الغابرة وما حلَّ بهم من النكال فيه تحذيرٌ للمؤمنين من سلوك طريق الغاوين، (وتجريد القلب للعبادة، وتخليصه من جميع العوائق ووصله بالسماء. بالإيمان واليقين. ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم)[1].

خامساً: ما ذُكر في السورة من آثار القدرة الإلهية، وسَعة الخلق، وتصريف الأمر في السماوات والأرض فيه استثارة للمؤمنين واستجاشة لمشاعرهم للإيمان بالله الخالق القادر العظيم؛ لأنَّه الحق فيسارعون بالفرار إليه.

سادساً: ما ورد في تضاعيف السورة من تسلية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في طريق الدعوة والبلاغ، يوحي من ضمن ما يوحي بأنَّ طريق الدعوة محفوف بالمخاطر والعقبات، وهذا يقوي عزيمة المؤمنين على الثبات، ويدفعهم إلى أن يسارعوا إلى أسباب مغفرته، ويفروا من موجبات عقابه.

سابعاً: اختتام السورة ببيان الحكمة من خلق العالمين، وتطمينهم على أرزاقهم فيه إشارة إلى أن الفرار إلى الله هو الطريق القويم لتحقيق العبودية.

وبناء على ما سبق يمكننا القول إنَّ محور هذه السورة الجامع لكل مواضيعها الرئيسة والفرعية ومفرداتها وظلالها هو: **(الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة)**.

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لاسم هذه السورة علاقة وطيدة بمحورها؛ فالقَسَم من الله تعالى بالذاريات (الرياح) وغيرها من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء فيه تعظيم لشأنها، وتوجيه للقلب البشري نحوها ليتدبر ما وراءها من دلالات القدرة والتدبير والتربية، فيرى يد الله وهي تنشئها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٧٤. بتصرف يسير.

وتصرفها، وتحقِّق بها قدره المرسوم.

كما أنَّ ذكرها على هذا النحو يوجه القلب إلى تعَرُّف أسرارها المكنونة، ويعلقه بمبدع هذه الخلائق، فينصرف إليه بالطاعة، ويَفِرّ إلى رضوانه بالعبادة الخالصة.

قال البقاعي: (مقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحاً، وبشَّرت به تلويحاً، ولا سيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة، واسمها (الذاريات) ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالآية الواحدة، وإن كان خمساً، والتعبير عن الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك)[1].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

ثمَّة علاقة وطيدة لمطلع هذه السورة بخاتمتها؛ فقد افتتحت بالقسم والوعيد على وقوع البعث والجزاء، قال تعالى:﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

وختمت كذلك بالوعيد لِمَن لم يستعد لهذا اليوم، قال تعالى:﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الذاريات: ٦٠]، وهذا من باب رد العجز على الصدر، (فانطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي ذلك القسم الأكيد)[2].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الذاريات وخاتمة سورة ق):

افتتحت سورة (ق) بالقسم على إثبات البعث والجزاء، وإقامة الدلائل والبراهين على وقوعه، وختمت ببيان أنَّ حشر الناس وجمعهم في موقف الحساب سهلٌ لا صعوبة فيه، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ق: ٤٤]، وافتتحت هذه السورة بالقسم بأربع من الأمور العظيمة؛ وهي الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/ ٤٤٤.

(٢) المرجع السابق.

على أنَّ ما وعد الله به الخلق من البعث والجزاء أمر واقع لا محالة، قال تعالى:﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات: ١ - ٦].

قال البقاعي: (لما ختم سبحانه (ق) بالتذكير والوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القَسَم والمُقْسَم عليه: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ أي: الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب)[1].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ (الذاريات و ق):

بين مضمون هاتين السورتين تناسب من وجوه كثيرة أظهرها وأجلاها:

الأول: أنَّهما نزلتا بمكة، وموضوعهما واحد، وهو إثبات أصول العقيدة.

الثاني: أنَّهما افتُتِحتا بالقسم على إمكان البعث والجزاء وإقامة الدلائل على ذلك، وانتهتا إلى تقرير البعث، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾[ق: ١٥] وقال:﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥-٦]، قال أبو جعفر بن الزبير: (سورة (والذاريات) تقدمها في سورة (ق) إخباره سبحانه بالعودة الأخراوية وإقامة البرهان على ذلك لمن وفق لاعتباره فقال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٦ - ١١] ثم أعقب بذكر مكذبي الأمم وما حق عليهم من الوعيد الأخراوي بعد أخذ كل منهم في الدنيا بذنبه، ثم استمرت آي السورة على هذا المنهج من ذكر البعث وحصر أعمال المكلفين وكتبها عليهم، مع علمه سبحانه بما توسوس به نفوسهم ووقوع الجزاء على ذلك، وغفلة المكذب عن ذلك كله... فلما اشتملت السورة على أوعاد وجزاء أُعقبت بالقسم على ذلك، من صدق وعده سبحانه ووعيده، ووقوع الحساب على الأعمال فقال الله تعالى:﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾، إلى قوله:﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/ ٤٨٣.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ [الذاريات: ١ - ٦]، وتناسب النظم في ذلك كله أبين تناسب[1].

الثالث: ذكر الله عز وجل في سورة (ق) سنته في إهلاك الأقوام والأمم الماضية على جهة الإجمال، وفي سورة (الذاريات) ذكر ذلك بشيء من التفصيل.

الرابع: اشتملت السورتان على أمر النبي ﷺ بالتذكير لما فيه من منافع للمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: ٤٥].

الخامس: دعت السورتان إلى النظر في ملكوت الله تعالى، من بناء السماء، ومد الأرض وخلق الأزواج، وكل ذلك ليبصر الناس آثار قدرته تعالى وجلائل آلائه فيتذكرونه وينيبون إليه قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ [ق: ٦ - ٨]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٩].

الخامس: اشتملت السورتان على بيان صفة أهل التقوى، قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ٢/ ١٠٣١، ١٠٣٢.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

وقوع البعث والجزاء

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١ - ٢٣].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لهذا المقطع علاقة واضحة بمحور السورة فقد افتُتِحت السورة بالقسم العظيم على وقوع البعث والجزاء من ثواب وعقاب، وبيَّنت أن ما وعدوا صادق غير كاذب، وأنه كائن لا محالة، وتكرير القسم بالسماء ذات الجمال والبنيان والبهاء ثم التعقيب على ذلك ببيان لعْن الله للمكذبين، وبيان جزاء المتقين المتصدقين كل ذلك يدفع النفس البشرية إلى عمل الصالحات رجاء للثواب من الله تعالى، والابتعاد عن كل ما نهى عنه خوفاً من سوء العاقبة؛ لأنَّ الله الذي بيده القدرة على كل شيء هو الجدير باللجوء إليه وحده، والفرار من معصيته إلى طاعته.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تعالج آيات هذا المقطع ثلاث قضايا مترابطة ومتشابكة:

الأولى: القسم من الله تعالى بأمور عظيمة على إمكان البعث والجزاء.

الثانية: ذكر أحوال المكذبين بالقرآن وبالبعث والجزاء.

والثالثة: بيان صفات المتقين وما أعد الله لهم من النعيم في اليوم الآخر.

افتتحت هذه السورة بالقسم بأربعة أشياء ضخمة وشريفة لها دلالات لا تعد ولا تحصى وكلها تدل على عجيب صنعه وعظيم قدرته:

* أُقسم بالرياح التي تذروا التراب وغيره من الأشياء في هبوبها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: ٤٥].
* وأُقسم بالسحب التي تحمل ثقلاً من الماء، ينتفع به العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[الرعد: ١٢].
* وأُقسم بالسفن التي تجري على سطح الماء جرياً ذا يسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الشورى: ٣٢].
* وأُقسم بالملائكة التي تقسِّم الأمر وتدبِّره؛ من الأرزاق والأمطار، وكتابة الأعمال، وقبض الأرواح، وإهلاك الأمم المكذبة، قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾[النازعات: ٥][1].

---

(١) قال ابن عاشور: (ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح، فحمل الذرو في قوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ على نشر الرياح قطع السحاب نشراً يشبه الذرو، وأصله: ذرو الرياح التراب، فشبه بدفع الريح قطع السحاب حتى تجتمع فتصير سحابا كاملا، فالذاريات تنشر السحاب ابتداء، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[الروم: ٤٨]...

و﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ هي الرياح حين تجمع السحاب، وقد ثقل بالماء، شبه جمعها إياه بالحمل؛ لأن شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[النور: ٤٣]، وقال:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه، وقد صار ثقيلا بماء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوقر يسراً، ومعنى اليسر: اللين والهُون، أي الجاريات جريا لينا هينا شأن السير بالثقيل. =

* إنَّ الذي توعدون من البعث والجزاء؛ بالنعيم المقيم أو بالعذاب الأليم لصدق لا كذب فيه، وحق لا مرية فيه، وإن الجزاء العادل لكائن لا محالة.

ثم يأتي قسم آخر لتحقيق اضطراب أقوال منكري البعث الطاعنين في وقوع الجزاء.

* وأُقسم بالسماء ذات الطرائق والخلق المحكم المتقن، والحسن والبهاء والزينة والجمال والشدة والاستواء !!

* إنكم معشر الكفار لفي قول مضطرب متناقض في شأن النبي محمد وما جاء به، من القرآن؛ بين قائل إنه شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون، ومفتر، وقائل: إن القرآن شعر، وسحر، وكهانة، وأساطير الأولين.

* وإنما يُصْرَفُ عن الإيمان بالنبي والقرآن والبعث والجزاء مَن صُرِفَ عن الحق، وسبقت له الشقاوة فحُرِم الهدى وأُفِك عنه؛ لأنَّ هذا القول المختلف يكذِّب بعضُه بعضاً.

* لُعِنَ أصحاب القول المختلف المرتابون في وعد الله ووعيده، القائلون: لن نبعث، الذين كذبوا على الله وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وقالوا إن محمداً ﷺ ساحر وكاذب وشاعر تخرُّصاً وكذباً وظناً.

* الذين هم في ضلال وجهل يغمرهم، غافلون تائهون في ظلمات الكفر والشك عما أمروا

= و﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ ﴾ الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء، أو هي السحب التي تنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة...

ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله:)﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ ﴾ (٥)﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ ﴾ فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة ومتفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون، وقد يكون قوله: ﴿ أَمۡرًا ﴾ إشارة إلى ما يقابله في المثال من أسباب الحياة، وهو الروح، لقوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]. التحرير والتنوير ٢٧/ ٧، ٨، بتصرف.

به، وعما هم قادمون عليه.

* فيسألون تعنتاً وشكاً واستبعاداً: متى قيام الساعة، ووقوع يوم الجزاء ؟... فيعاجلهم الله سبحانه بمشهدهم في هذا اليوم الذي يستبعدونه وينكرونه.

* يوم الجزاء يقع يوم هم يعذبون على نار جهنم، ويحرقون كما يفتن الذهب بالنار.

* وتقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذابكم وجزاء تكذيبكم ! ذلك العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا، وتسألون عنه استهزاء وكفرا بوقوعه.

* أما المتقون فهم في يوم معادهم يكونون في حال آخر يختلف عن حال أولئك الأشقياء الذين كان مصيرهم العذاب والنكال والأغلال:

* إنَّ الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به، ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء هم يوم القيامة في بساتين، وعيون تجري تحت أشجار تلك البساتين.

* قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة، ويقال لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

* لأنهم كانوا في الدار الدنيا من أهل الإحسان في أعمالهم الصالحة فكانوا يفعلون ما أُمِروا به، ويتركون ما نُهوا عنه، ومن إحسانهم:

* ولأنهم تركوا راحتهم في وقت اشتداد النفوس إلى الراحة؛ وهو الليل فكانوا لا ينامون إلا زمناً قليلاً منه، وأما أكثره فإنهم فيه قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة القرآن وذكر ودعاء وتضرع واستغفار.

* وفي الجزء الأخير حين يأذن الليل بالانصراف كانوا يسألون الله، ويستغفرونه استغفار المذنب لربه الراغب فيما عنده، بعد أنْ قدموا من التهجد ما يرجون أنْ يزلفهم إلى رضاه كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

* وبذلوا المال الذي تشح به النفوس في الغالب، فجعلوا جزءاً مقسوماً من أموالهم للمبتدئ

بالسؤال المظهر لحاجته، كما خصَّوا المتعفِّف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج منه بنصيب.

* وفيها خلق الله في هذه الأرض من صنوف النباتات والحيوانات والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه وغيرها من المخلوقات دلائل على عظمة الخالق وقدرته الباهرة لا يدركها إلا أهل القلوب العامرة باليقين الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان.
* فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك، وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع.
* وفي نفسك أيها الإنسان وتركيبك الجسماني من الدلائل والبراهين آيات لا يأتي عليها الحصر؛ فالإنسان إحدى عجائب الأرض في تكوينه، وفي أسرار جسده، وفي أسرار نفسه، عجيب في ظاهره عجيب في باطنه، عجيب في أطوار خلقه أفلا تبصرون.
* وفي السماء أسباب أرزاقكم ومعاشكم وأقواتكم؛ وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد.
* وفيها ما توعدون من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء، فينزل كسائر الأقدار.
* أُقسم برب السماء والأرض أنَّ ما وُعدتم به من البعث والجزاء كائن لا محالة، وأنَّه حق لا مرية فيه فهو مثل نطقكم؛ فكما أنَّه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في أنَّ ذلك حق.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* قسم الله عز وجل بالأمور العظيمة فيه تأكيد على وقوع المقسم عليه، ويسره وسهولته، وهو البعث والجزاء.

* في القسم بمخلوقات الله تشريف لها لما فيها من دلائل على الهدى والصلاح، وتذكير بنعمه تعالى فيما أوجده فيها.
* إصرار الكفرة على إنكار البعث والجزاء بعد إقامة الدلائل والبراهين عليه دليل على ضلالهم وفساد معتقداتهم.
* الله جل جلاله القادر على تصريف هذه المخلوقات وتسخيرها كيفما يشاء قادر بلا شك على إعادة الخلق بعد مماتهم مرة أخرى يوم القيامة.
* أدلة قدرة الله تعالى على البعث والنشور في الأرض لا تحصى ومنها: عود النبات بعد أن صار هشيما، ومنها: أنه قدر الأقوات فيها قواما، ومنها: ما يشاهده الخلق فيها من آثار الهلاك النازل بالأمم المكذبة، ولا يدرك مقاصد ذلك إلا الموقنون العارفون بوحدانية ربهم، وصدق نبوة نبيهم، ولذلك خصهم الله بالذكر لأنهم المتفعون بتلك الآيات وتدبرها.
* المتقون في الدار الآخرة لهم نعيم مقيم جزاء أعمالهم وإحسانهم.
* إنزال الله تعالى الرزق من السماء من أعظم آياته الدالة على عظمته، وأنه المعبود وحده.
* الرزق لا يطلب إلا من الله تعالى، وما يوعده الإنسان من خير أو شر أمره في السماء، وفي ذلك تعليم للخلق أن يطلبوا الخير من الله دائماً، ويتركوا الشر.
* مدح الله المتقين بتركهم النوم في الليل فيه إشارة إلى أفضلية التطوع بالصلاة في الليل عن التطوع في النهار وذلك لفراغ القلب بالليل وضمان إجابة الدعاء.

المقطع الثاني

دلائل القدرة الإلهية

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٦].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يسرد سنة الله تعالى في إهلاك وتدمير الأمم الماضية التي كذبت الرسل وتنكبت طريق الحق والخير والعدل، وهم قوم: إبراهيم ولوط وموسى وصالح وهود ونوح وإهلاك هؤلاء بأنواع العذاب فيه دلالة على أنه تعالى قادر كذلك على أخذ المكذبين من غيرهم في أي زمان ومكان فالأولى للنفس البشرية أن تعود إليه تعالى، وترتبط به دون سواه من الآلهة المزعومة؛ لأن طاعته تعالى هي طريق الأمان في يوم العرض عليه.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

توعدت آيات المقطع السابق مشركي مكة على تكذيبهم، وانتقلت آيات هذا المقطع

من الوعيد والإنذار إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين في الكفر وتكذيب الرسل، والمناسبة أن مشركي مكة كانوا في غمرة ساهون أشبه بقوم لوط الذين قال الله فيهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي ذلك تسلية للرسول وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها كل مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتناول هذا المقطع سنة من سنن الله تعالى في إنزال العذاب بالأقوام المكذبة به وبرسله، وقد تسلسل في فقرتين:

الأولى: قصة ضيف إبراهيم عليه السلام.

الثانية: قصص بقية الأمم المكذبة بدعوة الأنبياء، واستحقت العذاب الوبيل، وهانت على الله فلم يبال بها، وأنزل عليها صنوفا من العذاب.

* هل بلغك – أيها الرسول – حديث ضيف إبراهيم عليه السلام الذين أكرمهم، وكانوا من الملائكة الكرام عند الله.
* حين دخلوا عليه في بيته، وهم في صور بني آدم، فحيَّوه قائلين له: سلامًا، فردَّ عليهم التحية قائلا: سلام عليكم، أنتم قوم لا نعرفكم، فمن أنتم؟ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩].
* فعَدَلَ ومال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وشواه بالنار.
* ثم أدناه منهم ووضعه أمامهم، وتلَّطف في دعوتهم إلى الطعام قائلا ألا تأكلون؟.
* فلما رآهم لا يأكلون أحسَّ في نفسه خوفًا منهم، قالوا له: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود: ٧٠].
* وبشروه بأن زوجه (سَارَة) ستلد له ولدًا، سيكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو

إسحاق ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾[هود: ٧١].

* فأخذت امرأته الفرحة فأقبلت مستبشرةً تصيح ولطمت وجهها، وتقول: كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ !﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود: ٧٢].

* فردوا عليها قائلين:﴿ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ [هود: ٧٣] فالله هو الذي قدر ذلك وأمضاه فلا عجب من قدرته، فهو تعالى حكيم في أقواله وأفعاله عليم بما تستحقون من الكرامة وما يصلح لكم وما لا يصلح.

ثم سألهم إبراهيم عليه السلام:

* ما شأنكم أيها المرسلون ؟ وأي حدث عظيم وأمر جسيم أرسلتم لأجله ؟

* قالت الرسل: إن الله جل شأنه أرسلنا لإهلاك قوم لوط أجرموا بكفرهم وارتكبوا الفواحش (اللواط)، وعصوا وتجبروا.

* لننزل عليهم العذاب فنهلكهم بحجارة من طين متحجر مطبوخ بالنار.

* حجارة معلَّمة على كل حجر اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا حدود الله، وأتوا من الفواحش ما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين.

* وحين أهلكنا قوم لوط ﷺ أخرجنا مَن كان في تلك القرية من المؤمنين بالله، فلم نجد فيها إلا أهل بيت واحد ممَّن أسلم لله تعالى وانقاد لطاعته وأمره، وهم أهل بيت لوط سوى امرأته.

* وأبقينا في تلك القرية التي أهلكناها علامة ليكون ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون.

* وفي قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم:

* فقد أرسلناه إلى فرعون بأدلة قاطعة وحجج واضحة وبراهين ساطعة.

* فلما أتى موسى فرعونَ بذلك السلطان المبين أعرض فرعونُ عن الإيمان عناداً وتكبراً متعززاً بأصحابه وجموعه.

* وقال لموسى عليه السلام: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

* فألقاه الله تعالى هو وجنوده في البحر، وهو كافر جاحد فاجر معاند مستوجب للعذاب، وجعله آية باقية لمَن جاء بعده، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢].

* وفي عاد قوم هود آيات وعظات للذين يخافون العذاب الأليم:

فقد عذَّبهم الله فأرسل عليهم الريح المفسدة التي لا تنتج شيئاً، فهي خالية من المنافع.

تلك الريح العاتية لا تدع شيئا مما تفسده الريح إلا جعلته كالرمم البالية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (نُصِرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[1].

* وفي ثمود قوم صالح عليه السلام عبر وعظات للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٠٣٥).

ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت: ١٧].

* فقد كذبوا أخاهم صالحا، وطلبوا منه آية تدل على صدق رسالته إليهم، فأعطاهم الناقة آية فكذبوه وخالفوا أمر ربهم وعقروها، كما قال تعالى:﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود: ٦٤].

* فقيل لهم عيشوا متمتعين في الدنيا حتى يأتيكم العذاب والهلاك، كما قال تعالى:﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود: ٦٥].

* فانتظَروا العذاب فأتتهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار الصاعقة وهي نار من السماء وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم.

* فأصبحوا في دارهم جاثمين، وما استطاعوا من هرب ولا نهوض من شدة الصيحة، قال تعالى:﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[هود: ٦٧].

* وما كانوا ليقدروا على أن ينتصروا لأنفسهم ويدفعوا عنها ما هم فيه من العذاب، ولم ينصرهم أحد.

* وتركنا في قوم نوح الذين كانوا قبل هؤلاء آية للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾[النجم: ٥٠ - ٥٢].

* فقد كذبوا نوحا وفسقوا عن أمر ربهم فأرسل الله عليهم الطوفان، فأغرق المكذبين عن بكرة أبيهم، ولم يبق من الكافرين دياراً، قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾[القمر: ١٠ - ١٥].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مشروعية التحية من القادم على غيره، وهي السلام، والرد بما هو أتم وأكمل.
* الضيافة من سنن إبراهيم عليه السلام التي أمر الله أمة محمد باتباعها.
* مشروعية التعرف إلى الناس، وملاطفة الضيف في الكلام للتدليل على الأنس به.
* المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، وتقديم الأجود من الطعام.
* مشروعية خدمة الضيف ولو كان المضيف سيد الأضياف، فإبراهيم عليه السلام هو الذي خدم أضيافه وهو خليل الرحمن.
* ملاطفة الضيف في الكلام خصوصاً عند تقديم الطعام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي استعمال الألفاظ الحسنة والكلام اللطيف.
* المؤمنون بالبعث والجزاء هم المنتفعون بما قصه القرآن من أحوال الأمم الكافرة، ويتجنبون أسباب الهلاك، والذين لا يخافون العذاب الأليم ولا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك؛ لأنهم لا يصدقون بالسنن الإلهية، ولا يتدبرون دعوة الحق.
* إهلاك الطغاة على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوة الله واقتداره فهو سبحانه لا يعجزه شيء، ينتقم ممن عصاه مهما بلغت قوته وسطوته.
* قوة الله فوق كل ذي قوة.
* كل مؤمن صادق الإيمان فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً حتى يحسن إسلامه بانبنائه على أركان الإيمان الستة.
* الخروج عن طاعة الله والعتو عن أمره من أسباب التعرض للهلاك والعقوبة.

المقطع الثالث

الفرار إلى الله طريق النجاة

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٦٠].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع هو محور السورة وجوهرها؛ فبعد ما قررت الآيات في المقطعين السابقين أنَّ شأن الآخرة صدق وأنَّ الحساب واقع، وأنَّ الغافلين المستبعدين لليوم الآخر لهم العذاب الأليم، وأنَّ المتقين لهم الخير الجزيل عرضت آيات هذا المقطع دلائل الوحدانية، وعظيم القدرة الإلهية، ومظاهر الإبداع الرباني في خلق السموات والأرض، ثم رتبت على ذلك نتيجة مهمة وهي الدعوة إلى الفرار إلى الله تعالى، وإخلاص العبودية له؛ فهي غاية الوجود ووظيفة الإنسان الأولى، وهذا يقتضي التوجه إليه تعالى بكل حركة في الضمير، وفي الجوارح، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لَّما كانت شبهة نفاة البعث من سائر الأمم قائمة على تَوَهُّم استحالة إعادة الأجساد بعد فنائها، وكانت آيات المقطع السابق قد أثبتت ذلك وأقامت عليه الأدلة، أعقبت هنا بتهديدهم

بما يقوض تَوَهُّمَهُم فوجهت إليهم الخطاب لتذكيرهم بأنَّ الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئاً مذكوراً فلا تُعَد إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى الخلق الأول إلا شيئاً يسيراً، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧][1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتكون هذا المقطع من فقرتين:

الأولى: الاستدلال على وقوع البعث ببيان آثار القدرة الإلهية في السموات والأرض والمخلوقات.

الثانية: الدعوة إلى الرجوع إلى الله بعد ثبوت البعث بالأدلة المحسوسة والمشاهدة، والتسليم بقدرته وقوته والخضوع له والرغبة فيما عنده.

* هذه السماء العظيمة مَن بناها وشيدها ؟ إنه الله عز وجل بقوته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾[النازعات: ٢٧- ٢٨]، وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾[النبأ: ١٢]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾[ق: ٦].
* وهي دائماً في توسع في نفسها وأرزاقها[2].
* وكذلك الأرض بسطها الله ومهَّدها وجعلها فراشاً للمخلوقات صالحةً لسكنى الإنسان

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥، ٣٦.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الذاريات: ٤٧]، الملاحظ أنه قد استعمل فيه اسم الفاعل (مُوسِع)، واسم الفاعل في اللغة العربية يفيد في بعض الحالات الاستمرار، ومن ثَم فإنَّ الآية هنا تشير إلى سعة الكون من ناحية، كما تشير إلى موضوع تمدُّد الكون وتوسعه المطَّرد، وهذا ما كشفته المجاهر الضخمة التي صنعت لرصد حركة الكون، فأكدت ذلك... وعليه ففي هذه الآية ما فيها من إعجاز وسع به القرآن الزمان والمكان... الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/ ٥٥٣٠.

والحيوان، وجعل فيها الأرزاق، والأقوات من الحيوان والنبات، والمعادن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال:﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾[ق: ٧].

* فنِعْمَ ما فعلنا وما أجملَ ما خلقنا !!.

* ومن كل شيء من المخلوقات خلقنا صنفين: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، بر وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، والجمادات[١].

* خلقنا ذلك على هذا النحو من الإتقان والتقدير لتعلموا وتتعظوا وتتذكروا عظمة الخالق وأنه واحد لا شريك له، وأنَّ من حقه عليكم بعد أنْ شاهدتم دلائل قدرته، وبراهين وحدانيته في السماء والأرض وخلق أنفسكم وسائر المخلوقات من زوجين أنْ تلجأوا إليه وتعتمدوا عليه.

* ففروا إلى الله وسارعوا إلى توحيده، واتبعوا أوامره[٢].

* إني نذير لكم من عذابه وعقابه، ومخوف لكم من انتقامه الذي صبَّه على الأمم التي قصَّ

(١) قال الشيخ سعيد حوى معلقاً على قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩]، في عصرنا اتضح معنى الزوجية بشكل أوسع حتى شمل الحيوان والنبات والمجرات، فما من ذرة إلا وعنصر الزوجية فيها موجود، والآية قالت:﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾فكان فيما اكتشفه الإنسان حتى الآن في هذا الموضوع معجزة من معجزات القرآن. الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٥٣٠.

(٢) في قوله:﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾[الذاريات: ٥٠] الفاء للتفريع؛ فإنَّه تعالى بعد أن بيَّن للمشركين ضلالهم وخطأهم في الشرك والكفر وإنكار البعث بما ساق من الأدلة وأبرز عن البراهين القطعية قال لرسوله: قل لهم أيها الناس ففروا إلى الله، أي: اهربوا إليه لينجيكم من الخسران، فإنَّه ليس لكم إلا هو، فآمنوا به ووحدوه واعبدوه، وعلل ذلك بقوله لهم: ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.. أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٦٩.

عليكم خبرها[١].

* ولا تشركوا مع الله إلهاً آخر فإن العبادة لا تصرف لغيره، ولا تنبغي لسواه.

* إني نذير ومخوف لكم من عقابه تعالى على عبادتكم غيره، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف: ١١٠].

* كما كذَّبك قومُك أيها الرسول، وقالوا: ساحر أو مجنون كذلك فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم، فلا تحزن لما يقول هؤلاء المكذبون.

* هل أوصى أوَّلُهم آخِرَهم بالتكذيب وتواطؤا عليه ؟

* كلا، بل جمعهم الطغيان، وتشابهت قلوبهم، فهم قوم معتدون طغاة عن أمر ربهم لا يأتمرون لأمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه،، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة :١١٨].

* فأعرض عنهم أيها الرسول، وكف عن الإلحاح في جدالهم ودعوتهم إلى الحق، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧].

* ولا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنَّك قد بلغت الرسالة وأدَّيت الأمانة، وكرَّرت عليهم الإنذار وبذلتَ الجهد في البلاغ:﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

* ولا يمنعك هذا التولي والإعراض عن هؤلاء أنْ تعظ بالقرآن مَن يخاف وعيدنا، فَدُم على

---

(١) سَمَّى الله تعالى الرجوع إليه فراراً فقال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠]؛ لأنَّ في الرجوع إلى غيره تعالى أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه سبحانه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي ٧٧٨.

الذكرى فإنَّها تنفع مَن في قلوبهم استعداد للهداية والرشاد[1].

* وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وأبتليهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر[2]، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

(١) إنما كانت الذكرى نافعة للمؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها، كما قال تعالى:﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾ [الأعلى: ٩ - ١١]، وأما مَن ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير فهذا لا ينفع تذكيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، قال الله فيهم:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[يونس: ٩٦- ٩٧]. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ٧٧٩.

(٢) يظهر للناظر في هذه الآية:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[هود: ١١٨- ١١٩] أنَّ ثمة تعارضاً بينهما، وهو تعارض ظاهري أزاله العلماء وكشفوا عن المراد بكل منهما، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: (وإذا تقرر أنَّ قوله تعالى:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ معناه أنَّه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾[الأعراف:١٧٩] الآية، وقال:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ ﴾[التغابن:٢]، فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات:٥٦]. والجواب عن هذا من ثلاثة وجوه:
الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أنَّ معنى الآية: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي يعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما أشار له قوله تعالى:﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[الأنعام:٨٩]. وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم....
الوجه الثاني: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس، واختاره أنَّ معنى قوله:﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾أي إلا ليقروا إليَّ بالعبودية طوعاً أو كرها؛ لأنَّ المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه.
الوجه الثالث: ويظهر لي أنه هو الحق؛ لدلالة القرآن عليه أن الإرادة في قوله:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ إرادة شرعية دينية، فبيَّن في قوله:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾، وقوله:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾أنه أراد بإرادته=

أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢]، وقال﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف: ٧].

* أنا الرزاق والمعطي فما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها، وما أريد منهم أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿ فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[العنكبوت :١٧].

* الله تعالى هو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

* فإنَّ للذين أشركوا من قريش وغيرهم وظلموا أنفسهم بانشغالهم بغير ما خُلِقوا له من العبادة، وكذبوا الله ورسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة التي كذبت رسلها، كما قال تعالى:﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر: ٥١][1].

* فلا يطلبوا مني أنْ أُعجل بالإتيان به، فإنِّي لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز، وهذا جواب عن قولهم:﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٠].

=الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.
وبيَّن بقوله: ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.
ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء/ ٦٤]، فعمَّم الإرادة الشرعية بقوله:﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ وبيَّن التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله:﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص..). أضواء البيان ٦/ ٢٨٨، ٢٨٩.

(١) عبَّر سبحانه في قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾بالذَّنوب، التي هي الدلو الملأى بالماء عن العذاب؛ لأنَّ العذاب يُصب عليهم كما يُصب الماء من الدلو، ولأنَّ الدِّلاء تأتي واحداً بعد واحد فكذلك الهلاك يتم لأمة بعد أمة حتى يسقوا كلهم مرّ العذاب. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٢.

* فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذي وعدوه يوم القيامة، حين لا تغني نفس عن نفس شيئا، ولا هم ينصرون.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* في خلق السموات وتوسيعها ومد الأرض وجعلها مهداً لَمَنْ عليها دلالة على قدرة الله تعالى وحكمته، وأن البعث والجزاء أمر واقع، وتذكير بعظمته ونعمته، وتنبيه على الثناء على مننه.

* الزوجية سنة من سنن الله تعالى في الكون وفي الذرة انبهر لها العقل الإنساني، وهي مما سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦]، فدل هذا قطعا على أن القرآن وحي الله، وأن محمداً لن يكون إلا رسول الله[١].

* دَحْو الأرض وبسطها كان بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش، وهذه حقيقة علمية تضمنها قوله تعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠][٢].

* الأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن.

* المسارعة بالتوبة وقاية من الوقوع في العذاب.

* تقرير سنة بشرية وهي أن الملأ من الذين كفروا في كل عصر ومصر دأبهم التكذيب بكل مَن جاء يدعوهم إلى خلاف مألوفهم واعتيادهم.

* حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٦٩، ١٧٠ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ١٤/ ١٠.

ورباً. عبداً يعبُد. ورباً يُعبَد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأنْ ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل عبيد.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح كل عمل وسلوك عبادة... وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها.. [١].

* نفي الله تعالى اللوم عن نبيه يدل على أنه ﷺ قد أدى الأمانة ونصح الأمة.
* مشروعية التذكير والاستمرار عليه لتحصل به الزيادة في إقامة الحجة على المعرضين ولئلا يزدادوا طغياناً، ولما فيه من فوائد لأهل الإيمان منها؛ رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد لم يسمعوه أو غفلوا عنه[٢].
* الله تعالى غني عن خلقه متعال عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، ونفع العباد إنما يعود عليهم.
* وعد الله الكافرين بالعذاب واقع لا محالة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٣ بتصرف..

سورة الطور

(مطاردة الباطل وأهله)

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الطور) لورود قوله تعالى في مطلعها:﴿ وَٱلطُّورِ ﴾.

ب. فضائل السورة:

عن جبير بن مطعم ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور)[1]، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ ﴾)[2].

ج. مكان نزول السورة:

سورة الطور مكية، قال القرطبي في قول الجميع[3].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة سبع وأربعون في المدنييْن والمكي، وثمان وأربعون في العد البصري، وتسع وأربعون آية في العد الشامي والكوفي.

واختلافها آيتان:

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٤٦٣).

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٥٨.

الأولى: قوله تعالى:﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾[الطور:١] لم يعدها المدنيان والمكي، وعدَّها الباقون.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[الطور:١٣] عدَّها الكوفي والشامي، ولم يعدها الباقون[1].

هـ. محور السورة:

سورة (الطور) كغيرها من السور المكية التي تعنى بموضوع العقيدة الإسلامية وبيان أصولها؛ من الوحدانية، وإثبات الرسالة، والبعث والجزاء، والمحور الرئيس الذي تتسلسل أفكار السورة ومواضيعها لإبرازه هو مطاردة الباطل ودحض شبه المبطلين، ودليل ذلك:

أولاً: افتتاحية السورة، وما صُدرت به من إقسام بأمور جليلة تهدف إلى إثبات فساد تصورات المشركين وبطلان معتقداتهم وأن العذاب واقع بهم.

ثانياً: ما ورد في السورة من مقابلة وعيد المكذبين بوعد المؤمنين وإطماعهم فيما عند الله تعالى من الجنات، وبيان صفة نعيمهم، وحالهم في الدنيا تجاه أمر الله ونهيه.

ثالثاً: توجيه الأمر إلى النبي ﷺ لمتابعة التذكير، وإنذار المبطلين، والإعراض عن سفاهتهم، وافتراءاتهم غير عابئ بما يقوله المشركون ويفتريه المفترون.

رابعاً: الحملة على الشرك وأهله، وإنكار مزاعمهم الباطلة، والرد عليهم بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل وتدمغ مزاعم أهله.

خامساً: ما خُتِمت به السورة من أمر النبي ﷺ بترك الكفار في ضلالهم، وأن للظالمين عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة.

وإضافة إلى ما تقدم فإن مطاردة الباطل والحملة عليه في هذه السورة (يشترك فيها اللفظ

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٣.

والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات ومقاطع السورة وفواصلها على السواء. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطاً لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام)[1].

بناء على الدلائل والحيثيات السابقة يمكننا تسمية محور سورة الطور: (مطاردة الباطل وأهله).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

بين المحور واسمها علاقة وطيدة؛ فـ(الطور) جبل كريم وعظيم عند الله تعالى؛ كلم الله فيه كليمه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة، فأقسم الله به تشريفا وتذكيرا بما فيه من الآيات، فهو رمز لظهور الحق وبزوغ فجره رسالة سماوية جديدة، والرسالات السماوية قوامها الدعوة إلى الحق واجتثاث الضلال من جذوره، وتسفيه الضالين.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة الطور بالوعيد بتحقيق حلول العذاب يوم القيامة بالمكذبين بالنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن لذلك، قال تعالى:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾[الطور:٧، ٨]، وختمت بأمر النبي ﷺ بتركهم وأن لا يحزن عليهم، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا والآخرة، ووعده بالتأييد عليهم، قال تعالى:﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور:٤٥].

---

(١) في ظلال القرآن، سيِّد قطب ٦/ ٣٣٩١.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الطور وخاتمة سورة الذاريات:

قال أبو حيان: (مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ إذ في آخر تلك: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾[الذاريات:٥٩]، وقال هنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الطور:٧])[١].

(فلما توعد تعالى كفار قريش ومَن كان على طريقتهم من سائر مَن كذب رسول الله ﷺ أنهم سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم، المنبَّه على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الذاريات:٦٠]، أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه فقال تعالى:﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ ﴾[الطور:١] إلى قوله:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾[الطور:٧])[٢].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ الطور والذاريات:

تتآخى سورتا الذاريات والطور في جوانب كثير، وتمتد الوشائج والصِّلات بينهما من بداية كل منهما إلى الختام، وتبرز مناسبتهما من وجوه كثيرة، أبرزها:

أولا: أنهما مكيتان.

ثانياً: ابتداؤهما بالقسم بمخلوقات الله عزَّ وجلَّ، وآياته في الكون والآفاق، وما يتعلق بمعاش الخلق ومعادهم.

ثالثاً: اختتامهما بالوعيد لمَنْ كَفَرَ بالله تعالى وجحد آياته، وظلم نفسه؛ قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الذاريات:٥٩، ٦٠]، وقال: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور:٤٧].

---

(١) البحر المحيط، ٨/ ١٥٤، وينظر: ملاك التأويل، أبو جعفر بن الزبير ٢/ ١٠٣٢.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٨.

رابعاً: في كلتيهما أمر للنبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، والمداومة على التذكير؛ قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الذاريات:٥٤ ٥٥] وقال:﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الطور:٤٥]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور:٢٩].

خامساً: أنهما تحدثتا عن صفات عباد الله المتقين الذين إذا أُمروا فعلوا وإذا نُهوا انتهوا؛ ومن بديع هذا التناسب أن حكاية القرآن الكريم لهذه الصفات في موضع متقارب في كلتيهما، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الذاريات:١٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾[الطور:١٧ - ٢٠].

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: (إنَّ هاتين السورتين اتحدتا في القصد من وعيد كفار قريش والعرب ذوي العناد والتكذيب والإخبار بجزائهم الأخراوي، فعلى هذا مبنى السورتين، ولهذا افتتحتا بالقسم على ذلك، والموعود به فيهما جزاء فريقي السعادة والشقاء والإشارة إليه بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات:٦]. وهو حساب الكل وجزاؤهم بما سلف من جميعهم من خير أو شر، والإخبار بحال الفريقين على ما هو الجاري المطرد في الكتاب العزيز، أعني أنه إذا ذكر حال المكذبين أتبع بحال المصدقين... فنصَّ في (الذاريات) على أسنى أعمالهم، وأمعن في (الطور) بذكر الجزاء وضروب النعم... فارتبطت الآيتان، وتبين أنه لا اختلاف بينهما..)[1].

سادساً: أنهما تضمنتا إقامة الحجج والدلائل على البعث والجزاء، وبيان موقف الكفار من رسلهم ونسبتهم إلى السحر والجنون، قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾[الذاريات:٥٢]، وقال: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الطور:١٥]، وقال:﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾[الطور:٢٩، ٣٠].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ١٠٣٣ - ١٠٣٥.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق وقوع العذاب

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ [الطور: ١ - ١٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة من حيث كونه قد اشتمل على القسم بمخلوقات الله العظيمة الدالة على قدرته وبديع صنعته على أنَّ العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون في الباطل، ويتخذون دين الله هزواً ولعباً، وهذا المقطع يمثل المشهد الأول من مشاهد مطاردة الضلال ودفع شبه المبطلين، ويبين أن عنادهم واستكبارهم وإنكارهم البعث انتهى إلى الدفع بهم في نار جهنم التي طالما أنكروها وكذبوا بها.

ب. المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول أمرين:

الأول: القسم على وقوع يوم القيامة، وذكر بعض ملامح الانقلاب الكوني في ذلك اليوم.

والثاني: وصف عذاب النار الذي يزج فيه المكذبون، ويدفعون إليه دفعاً.

يقسم تعالى بخمس من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم:

* أُقسم بـ(الطور) الجبل العظيم الشأن الذي كلمت عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة، قال تعالى:﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ ﴾[التين:٢].

* وأُقسم بالقرآن الكريم المكتوب المنشور المبسوط الذي يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، كما قال تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الواقعة:٧٧ - ٩٧][1].

* وأُقسم بالبيت المعمور بكثرة الواردين عليه للطواف من الملائكة؛ ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، قال ﷺ في حديث الإسراء: (ثم رُفع إليَّ البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[2].

* وأُقسم بالسماء المرفوعة السقف، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأنبياء:٢٣][3]، وقال:﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾[النازعات:٧٢، ٨٢].

* وأُقسم بالبحر الذي يوقد يوم القيامة ناراً، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾[التكوير:٦]، أي: أُضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف[4].

---

(١) وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: ألواح موسى، وقيل: صحائف الأعمال، ومثله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾[الإسراء:١٣]، وقوله:﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾[التكوير:١٠]، وقيل: ما تكتبه الحفظة... فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٩٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٠٧).

(٣) وقيل المراد بالسقف المرفوع هو: العرش، قال ابن كثير: يعنى أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور... تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٧.

(٤) وقيل: إن المراد بـ(البحر المسجور) المملوء ماء، وقيل: إنَّ هذا البحر المسجور الذي أقسم به ربنا تبارك=

ثم يأتي جواب القسم:

* إن عذاب ربك لواقع بالكافرين.
* وليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

وتعرض الآيات طرفا من مشاهد القيامة:

* يوم تتحرك السماء وتضطرب اضطراباً شديدا من هول ذلك اليوم.
* وتذهب الجبال فتصير هباءً منبثاً وتنسف نسفاً، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[طه:١٠٥][1].
* فويل للمكذبين في ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.
* فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأنعام:٦٨]، وقال:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[التوبة:٦٥].
* بل لهم يوم يدفعون إلى نار جهنم دفعاً، كما قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾[الدخان:٤٧]، وقال تعالى:﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن:٤١].

=وتعالى بحر في السماء تحت العرش... تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٧.

(١) في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطور:٩، ١٠] تظهر الحكمة من مور السماء، وسير الجبال وهي الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها... وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً، وسيراً عجيباً، لا يدرك كنههما. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري ٢٨/ ٥٠.

* وتقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي كنتم بها تكذبون !!. كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾[القمر: ٤٨].

* لقد كنتم تقولون عن القرآن في الدنيا إنه سحر. فأخبرونا: هل هذا العذاب الذي ترونه بأعينكم سحر ؟ أم سُدت أبصاركم كما سدت في الدنيا، فعميتم عن الخير والحق والإيمان والهدى ؟.

* ادخلوا جهنم وقاسوا شدة عذابها فاصبروا أو لا تصبروا، سواء تساوى عليكم الصبر والجزع، فلا خلاص لكم ولا مناص، كما قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[إبراهيم: ٢١].

* إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة وأفعالكم الشنيعة من الكفر والتكذيب...

ج. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم بغيره تعالى.

* في القسم بالطور، وبالكتاب المسطور، وبالبيت المعمور، وبالسماء ذات السقف المرفوع وبالبحر الموقد دلائل لا تحصى على قدرة الله على البعث والجزاء، ولا يدركها إلا الموقنون بذلك اليوم.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ ﴾ إثبات البعث بعد كون الكلام وعيداً لهم على إنكاره، وإنكار أنْ يكونوا معذبين.

* وعد الله لا يخلف أبداً.

* على العبد المسلم أن يبتعد عن أسباب العذاب، ويستعد للحياة الآخرة، ويترك اللهو والخوض في الباطل، وكل ما لا فائدة فيه.

* الجزاء من جنس العمل.

المقطع الثاني

صفات أهل التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٢٨].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور هذه السورة هو مطاردة الضلال ودحض شبه المبطلين حول البعث والجزاء، وهذا المقطع يعرض مشهداً لحال المصدقين بالبعث، فيذكر ما أكرمهم الله به من النعم في الجنة، ويعود بنا إلى استقراء أحوالهم في الدنيا التي استحقوا بموجبها هذا الجزاء الحسن الذي منَّ الله تعالى به عليهم، ترغيبا لهم في المزيد من الثبات على الحق، والعمل الصالح، فقد كانوا في الدنيا حذرين مشفقين معظمين لربهم.

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما فرغ سبحانه وتعالى من تقرير وقوع البعث، ووصْف حال المجرمين المكذبين باليوم الآخر، وما يلاقونه من الشدائد في ذلك اليوم، استأنف في هذا المقطع ببيان حال ضدهم، وهم المؤمنون المتقون الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بآداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يدنسوا أنفسهم بالمعاصي والآثام، ولم يدسوها بالذنوب فجازاهم ربهم في الآخرة جزاء حسناً.

وذلك جرياً على الموازنة وعادة القرآن في إيراد الأضداد، والجمع بين الترغيب والترهيب حتى يتأمل الإنسان في المصير، فيرغب في الرحمة، ويرهب النقمة والعذاب[1].

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على فقرتين:

الأولى: العدل الإلهي والفضل الرباني.

الثانية: عود على بعض ذكريات أهل الإيمان في الدنيا.

* إنَّ الذين اتقوا الشرك والمعاصي، وأطاعوا ربهم باتباع أوامره واجتناب نواهيه هم في الحياة الآخرة في بساتين ونعيم مقيم فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

* ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم الكريم وأفاضه من الخير والكرامة وصنوف النعيم من مآكل ومشارب وملابس ومراكب.

* وقد نجّاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها.

* ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئا لكم - فلا تنغيص فيه ولا كدر - بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحاقة:٢٤].

* وهم في نعيمهم في الجنة جالسون بتمكن وطمأنينة وراحة على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت، مصطفة أسرَّتهم بعضها إلى جانب بعض، يقابل بعضهم بعضاً، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وعشرة حسنة، كما قال تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحجر:٤٧]، وقال: ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الصافات:٤٣-٤٤].

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢٧/ ٦٤ بتصرف يسير.

* وقَرَنَّاهم في الجنة بزوجاتٍ صالحاتٍ من الحور العين، شديدات سواد العيون شديدات بياضها، واسعات الأعين في غاية الحسن والجمال، كأنهن لؤلؤ مصون عما يكدر صفاءه، مستور لم تمسه الأيدي أو تراه الأعين، كما قال تعالى:﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات:٤٩].

* والذين آمنوا حق الإيمان ولحقتهم ذرياتهم بإيمان شامل كامل صحيح نلحقهم بآبائهم في نفس المنزلة في الجنة، وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم فضلا منا وإكراماً لآبائهم حتى تقر أعينهم.

* وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم.

* كل نفس مرتهنة في يوم القيامة بعملها إلا أصحاب اليمين، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾[المدثر:٣٨-٣٩].

* وزدناهم على ما تقدم من النعيم بفاكهة متنوعة، ولحم مما تشتهيه نفوسهم.

* ويتعاطون في الجنَّة كؤوساً من خمرها، يتجاذبونها مع جلسائهم، وحين يشربون خمر الجنة لا ينفد شرابهم، ولا يصيبهم صداعٌ في رؤوسهم، ولا تذهب عقولهم بشربها؛ فهي منزهة عن الآفات التي في خمر الدنيا، قال تعالى:﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الصافات:٤٥-٤٧]، وقال: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الواقعة:١٩].

* ويدور حولهم للخدمة بالطعام والشراب والفواكه غلمان في سن واحدة، هيأهم الله لخدمتهم؛ كأنهم في البهاء والحسن لؤلؤ مكنون، قال تعالى:﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[الواقعة:١٧-١٨]، وقال:﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الصافات:٤٥-٤٦].

* وأقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا:

* قالوا: إنا كنا في الدنيا ونحن بين أهلنا وجلين خائفين من سوء المصير.
* فأكرمنا الله وتفضل علينا برحمته وتوفيقه في الدنيا، ووقانا في الآخرة، وأجارنا من عذاب النار ولفحها ووهجها.
* وقالوا: إنَّا كنَّا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا.
* إنَّه تعالى هو المتفضل على عباده بالرحمة والمغفرة والرضوان.

د. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* فضل التقوى وكرامة أهله.
* مشروعية الدعاء بكلمة (هنيئا) لمن أكل أو شرب ائتساء بأهل الجنة[1].
* الله سبحانه يرفع ذرية المؤمنين إليهم في الجنة، وإن كانوا دونهم في العمل، لتقرّ عيونهم وتطيب نفوسهم، بشرط كونهم مؤمنين.
* يجمع الله للمؤمنين في الجنة كل أنواع السرور؛ بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم[2].
* الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة، وليست ثمنا لها؛ لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنما العمل الصالح يزكي النفس، فيؤهل صاحبها لدخول الجنة[3].
* الخوف الشديد من الله تعالى في الدنيا سبب للسلامة في الآخرة.
* أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٩٢.

(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٦، ١٧٧.

السجن إلى الجنة، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم[1].

* المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يفكه إلا الله، فمَن استطاع أن يفك رقبته فليفعل، وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.

* الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه طريق إلى الجنة، والفوز بالرحمة والغفران.

* الله تعالى هو البر الواسع الجود؛ الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة؛ لأنه لا ينقصه إعطاء ولا يزيده منع، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوسع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضائه[2].

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢٨/ ٢١٩.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٠.

المقطع الثالث

مزاعم باطلة

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ [الطور:٢٩ – ٤٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تظهر علاقة هذا المقطع بمحور السورة بصورة جلية في كون هذا المقطع يشن حملة قوية على معتقدات المبطلين، ويرد بالحجج الدامغة على مزاعمهم، وكل ما يدور في أذهانهم من شبهات، وما يحملونه من تصورات حول حقيقة الألوهية، وقد شرعت آياته في تتبع أقوالهم والكشف عن فسادها بأسلوب الإضراب والانتقال من قول إلى قول، حتى لكأنها تطاردهم وتحاصرهم، وتسد عليهم كل منفذ للفرار، وتكر على طعونهم قولا بعد قول، وتجردهم من كل شبهة يحتجون بها(١).

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

افتتح الأول من هذه بالقسم على وقوع العذاب بالكافرين، ثم ذكرت بعضاً من أحوال المعذَّبين وفي المقطع الثاني بينت الآيات ما أعده الله للمتقين في جنات النعيم، وفي هذا المقطع

---

(١) من موضوعات القرآن الكريم، عبد الحميد طهماز ٩ بتصرف.

أتبعت الآيات بأمر رسوله ﷺ بالتذكير، إنذاراً للكافرين وتبشيراً للمؤمنين، وختمت السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ[1].

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات تسلسلت في تناغم بديع:

الأولى: الأمر بمتابعة التذكير والموعظة، وعدم الاكتراث بمكائد المبطلين، والرد على شبههم حول الرسول ومصدر القرآن.

الثانية: الرد على شبه المبطلين في إنكار البعث، وإثبات وجود الخالق وتوحيده في الأنفس والآفاق.

الثالثة: الدعوة إلى الإعراض عن الكفار المكابرين.

* فذكر أيها النبي قومك بالقرآن وعظهم به فلست بإنعام الله عليك بالنبوة والرسالة كاهنا تخبر بالغيب بضرب من الظن، ولا مجنونا تخلط القول وتقول بما لا يفهم عنك ولا يعقل، إنما تنطق بالوحي.

ثم تنكر الآيات على المشركين المبطلين مزاعمهم الباطلة تجاه الرسول:

* بل أيقولون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك كما هلك مَنْ تقدمه من الشعراء.

* قل لهم أيها الرسول: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وستعلمون لمن تكون العاقبة الحسنة، والظفر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[التوبة:٥٢].

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٤٨.

* كيف تأمرهم عقولهم السخيفة السفيهة بهذا المقال المتناقض في حق الرسول فيقولون هو كاهن ومجنون وشاعر ؟ كيف يقولون هذا القول وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس ؟.

* بل هم قوم تجاوزوا الحد في الطغيان والعناد والمكابرة مع ظهور الحق، فطغيانهم هو الذي يأمرهم بما يقولون؛ لأنَّه قد تأصل فيهم وخالط نفوسهم فدفعهم إلى تلك الأقوال.

* أتقولون إن محمداً ﷺ اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه ؟.

* بل إن كفركم وعدم إيمانكم بالله وتصديقكم بما جاء به رسوله ﷺ هو الذي حملكم على هذه الأقوال المتناقضة، والمطاعن المفتراة، فالقرآن وحيٌ من عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾[الحاقة: ٤٤-٤٥].

* إنْ صدقوا في قولهم: إنَّ محمداً ﷺ تقوَّل القرآن وافتراه من عند نفسه، فليأتوا بمثل هذا القرآن في نظمه وجودة سبكه وبديع أسلوبه وجمال بيانه، فهو كلام عربي، وهم أساطين البيان، وأرباب البلاغة، وفرسان الفصاحة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].

* كيف ينكرون الخالق الموجد !! فهل وُجد هؤلاء من غير موجد، وخلقوا من غير خالق أم هم أوجدوا أنفسهم ؟.

* لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم خلقوا أنفسهم.

* بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فمَن قدر على البدء فهو قادر على الإعادة[١].

---

(١) العقل والمنطق ينفيان أنهم خلقوا من غير شيء كما ينفيان أنهم خلقوا أنفسهم، ويؤكدان وجود الخالق=

* ما خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون بأن الله واحد لا شريك له، فإذا سئلوا: مَن خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بها قالوا، وإلا لما أعرضوا عن عبادته تعالى وأنكروا البعث وكذبوا بنبوة محمد.

* هل بيدهم مفاتيح الخزائن فيحاسبون الخلائق؛ فيعطون من شاؤوا ويحرمون مَن شاؤوا !! بل أهم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على مشيئتهم ويتصرفوا في الملك ؟ ليس الأمر كذلك بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

* ألهم مصعد ممدود إلى السماء يصعدون به إلى الملأ الأعلى حتى يعلموا خبر السماء، وما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجما بالغيب، ويعلقون بها أمانيهم وأطماعهم الباطلة؟

* فإن كانوا كما يدعون ذلك فليأت كل مستمع منهم بحجة تبين أنهم على الحق، وأنَّ محمداً ﷺ ما أتى بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه، أو تبين أنه على وشك الهلاك.

* أتجعلون لله تعالى البنات مع أنفتكم منهن وتخصون أنفسكم بالبنين ؟، كما قال تعالى:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[النحل:٥٧]، وقال:﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم:٢١-٢٢].

* فمن كان هذا عقله ورأيه فلا يعد من العقلاء ولا يستبعد منه إنكار البعث.

* هل تسألهم أجراً أيها الرسول على تبليغ الرسالة ؟، فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل

=العظيم خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لكل عاقل يسمع هذه الحجج الواضحة أن يستجيب لداعي الإيمان، ويقر بوجود الخالق الواحد الأحد الديان؛ عن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ قال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية:﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾كاد قلبي أن يطير). صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٤).

الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك، ولا يسلمون، فما كلفتهم شيئا يعطونه إياك فيكون ذلك سببا لإعراضهم عنك تخلصا من أداء ما يطلب منهم.

* أيدعون أنَّ عندهم علم الغيب وما في اللوح المحفوظ حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمور الآخرة باطل ؟ فلذلك يكتبون ما يجدونه ويروونه للناس عن معرفة ويقين.

* ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله.

* أيريدون مكراً برسول الله ﷺ فيهلكونه بذلك المكر ؟ فالذين كفروا هم الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[فاطر:٤٣]، وقد قتلهم الله في يوم بدر وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم.

* أيدعون أن لهم إلهاً غير الله يعبدونه ويحفظهم ويرزقهم وينصرهم ؟، فيا لها من مقالة شنعاء !! تنزه الله وتقدس عن شركهم به، وعن الذين يجعلونهم شركاء له من أصنام وأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

ثم يخبر تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للمحسوس.

* وإنْ يرى هؤلاء قطعة من نار السماء تسقط عليهم ويعذبون بها لما صدقوا، ولما أيقنوا بل يقولون: هذا سحاب متراكم، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر:١٤-١٥].

* فدعهم أيها الرسول يجحدون ويعاندون ويتمادون في غيهم وضلالهم حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة – الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم(١).

(١) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الطور:٤٥] في هذا اليوم ثلاثة أقوال: =

* يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، ولا يدفع عنهم شيئا من العذاب في الآخرة لا قليلاً ولا كثيراً، ولا ناصر ينصرهم، كقوله تعالى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾[المرسلات:٣٨-٣٩].

* وإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي وكيد النبي عذاباً في الدار الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[السجدة:٢١]، وقال:﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[التوبة:١٤].

* غير أنَّ الكثير من هؤلاء لا علم لهم أنا سنعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، فأقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

* فاصبر أيها الرسول على أذاهم ولا تبال بهم إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، ويقع بهم العذاب الذي وعدناهم به، فإنك بمرأى منا وفي حفظنا وتحت كلاءتنا.

* ونزِّه ربك عما لا يليق به؛ تنزيها مصحوبا بالحمد حين تقوم من كل مجلس جلسته وحين تقوم إلى الصلاة في الليل.

* واذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، وفي وقت إدبار النجوم، كما قال تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩].

= الأول: أنه يوم موتهم.

والثاني: يوم النفخة الأولى.

والثالث: يوم القيامة. وقد زعم بعضهم: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وإذا كان معنى:﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ الوعيد لم يقع النسخ. نواسخ القرآن، ٢٠٠.

د. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* في دوام التذكير حكمة ربانية فقد يشرح الله به صدور بعض المكذبين للإيمان فيرجعون عن غيهم وتكذيبهم، ويزداد المصدِّقون إيماناً مع إيمانهم.
* وصف المشركين الرسول ﷺ بأوصاف متناقضة دليل على سفاهتهم وذهاب عقولهم؛ لأن العقل السليم لا يوقع صاحبه في التناقض.
* الكهانة محرمة لأنها من عمل الشيطان.
* عجز المشركين عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه من عند الله، وأن محمداً ﷺ مرسل من عند الله.
* الطغيان والاستكبار هما أصل كل شر ومصدر كل بلاء وضلال وفتنة.
* إنفراده تعالى بالخلق دليل على وحدانيته وألوهيته.
* لا يعلم الغيب إلا الله.
* عدم مشروعية أخذ الأجر على إبلاغ الدعوة.
* تسلية النبي ﷺ في القرآن هي زاد للدعاة من بعده.
* على العبد أن يتجنب الظلم فإن له عواقب وخيمة، فصاحبه يلقى العذاب في الدنيا قبل الآخرة.
* الصبر دأب الأنبياء وهو زاد الدعاة إلى الله تعالى.
* المكر السيئ لا يعود إلا على أهله.
* الله عز وجل حارس نبيه ﷺ وحافظه، ولن يصل إليه أذى أحد من البشر.
* على المسلم أن يغتنم أوقات الرغائب بالطاعات، من ذكر وصلاة ودعاء.
* مشروعية الذكر والتسبيح في كل الأوقات، آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل وقت وموطن ومجلس.

سورة النَّجم

إثبات الوحي والرسالة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (النجم) لورود قوله تعالى في مطلعها:﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ﴾.

ب. فضائل السورة:

عن ابن مسعود ﷺ قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدة:﴿ وَٱلنَّجۡمِ ﴾ فسجد رسول الله ﷺ، وسجد مَن خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أُمَيَّة بن خلف)[1].

ج. مكان نزول السورة:

سورة (النَّجم) مكية، قال القرطبي في قول الجميع[2].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة اثنتان وستون آية في العد الكوفي، وإحدى وستون في عدد الباقين.

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٦٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٨١. وقال السيوطي: ومثال ما يشبه تنزيل المدني في السور المكية قوله في النجم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾[النجم/ ٣٢]؛ فإن الفواحش: كل ذنب فيه حد، والكبائر: كل ذنب عاقبته النار، واللَّمَم: ما بين الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه. الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤٩، ٥٠.

اختلافها ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[النجم/ ٢٨] للكوفي.

الثانية: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾[النجم/ ٢٩] للشامي.

الثالثة: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾[النجم/ ٢٩] أسقطها الشامي وحده(١).

هـ. محور السورة:

موضوع سورة (النَّجم) هو موضوع السور المكية المرتكز على العقيدة بيان بموضوعاتها الرئيسة: الوحي، والوحدانية، والآخرة.

وتتناول السورة هذا الموضوع من زاوية معينة تتجه فيها إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الموهون، وهذا هو محور هذه السورة وموضوعها الرئيس، ويؤيد ذلك ما يلي:

أولاً: مقدمة السورة التي استهدفت بيان حقيقة الوحي وطبيعته، ووصفت مشهدين من مشاهده، بما يثبت صحته وواقعيته، ويؤكد تلقي الرسول ﷺ عن جبريل ﵇ تلقي رؤية وتمكن ودقة، واطلاعه على آيات ربه الكبرى.

ثانياً: حديث السورة عن آلهة المشركين المُدَّعَاة: اللات والعزى ومناة، والشِّعْرَى، وأوهامهم عن الملائكة، وأساطيرهم حول بنوتها لله، واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين.

ثالثاً: ما ورد في السورة من آيات تلقِّن الرسول ﷺ الإعراض عمَّن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها، ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق.

رابعاً: خاتمة السورة التي تستعرض أصول العقيدة الإسلامية منذ أقدم الرسالات.

---

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٣.

وكل ما تقدم يعطي دلالة واضحة أن هذا التشابك والتناغم بين آيات السورة ومقاطعها يفيد أن محورها هو: (إثبـات الوحي والرسـالة).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة المحمدية، واسم هذه السورة يتناسب مع هذا المحور تناسبا عجيبا، ويبزر ذلك من خلال ملاحظة افتتاحية السورة بالقسم بالنجم؛ لأن هذا القسم مسوق لإثبات الوحي بالقرآن، وأنه منزل من السماء، فشابه حال نزوله الاعتباري حال النَّجم في حالة هويِّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله، وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس...[(١)].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تتناسب فاتحة هذه السورة مع خاتمتها من كون هذه السورة فتحت بإثبات الوحي والرسالة، وختمت ببيان الأصول التي تبنى عليه تلك الرسالة.

٣. المناسبة بين خاتمة سورة الطور وافتتاحية سورة النجم:

تتناسب خاتمة سورة الطور مع فاتحة سورة النجم من وجهين:

الوجه الأول: ختمت سورة (الطور) بالحديث عن النجوم، قال الله تعالى:﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور:٤٩]، وبدئت سورة (النجم) بالقسم بالنجم، قال الله تعالى:﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾[النجم:١].

الوجه الثاني: أنه تعالى حكى في آخر سورة (الطور) شبهة للكافرين، وهي قولهم: إنه ﷺ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٩.

اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا عنه ﷺ بأنه كاهن ومجنون، وأقسم الله في أول (النجم) مزكيا رسوله أنه ما ضلَّ، وأن ما يأتي به ﷺ هو وحي يوحى من عند الله تعالى.

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ النجم والطور:

تتشابك هاتان السورتان وتتشابهان في قضايا كثيرة بحيث تبدوان كأنهما سورة واحدة مع احتفاظ كل منها بشخصيتها وسماتها المميزة لها عن غيرها، ومن أهم الجوانب التي ظهرت لنا، ونراها جديرة بالكتابة هنا:

أولاً: أنهما مكيتان، وتحويان خصائص القرآن المكي الفنية والأسلوبية وضوابطه الموضوعية.

ثانيا: افتتاح كل منهما بالقسم بإثبات أصل من أصول الإيمان، ففي (الطور) إثبات البعث والجزاء وأنَّ القرآن من عند الله، ورد مطاعن المشركين حول الرسول ﷺ، وفي (النجم) إثبات الوحي وتزكية الرسول ﷺ الذي جاء به فزكت الآيات فؤاد النبي ﷺ، وسمعه، وبصره، وعقله.

ثالثاً: في كلتيْهما حديث عن موقف أهل الشرك والرد على بعض شبهاتهم؛ وبخاصة في تصورهم الفاسد حول الملائكة، وجعلهم بنات الله تعالى، وقد أفاضت سورة (النجم) في تسفيه هذا الادعاء وبيان بطلانه، قال تعالى:﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[النجم:٢١].

رابعاً: أوضحت سورة (الطور) أن المؤمن الصالح تلحقه ذريته في نفس النعيم، كما قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور:٢١] مع نفعهم بعمل آبائهم، وفي حق الكفار أوضحت آيات سورة (النجم) فردية التبعة، ودقة الحساب والجزاء، قال تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[النجم: ٣٩ – ٤١].

خامساً: ورد في سورة (الطور) ذكر بعض صفات أهل التقوى التي تحلوا بها في الدنيا

وأهلتهم لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور:١٧ - ٢٠]، وورد في سورة (النجم) بعض صفات أهل الإحسان التي أهلتهم لنيل الحسنى وهي الجنة، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾[النجم:٣١ - ٣٢].

سادساً: في سورة (الطور) بيان لوظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الطور:٢٩]، وفي (النجم) بيان أن الإنذار النبوي كسابقه من النذر، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾[النجم:٦٥].

سابعاً: في سورتي الطور والنجم نقاش طويل وحجاج بليغ للكافرين، ودحض لجملة كبيرة من ضلالاتهم وشبههم، وفي (الطور) في معرض حجاج المشركين قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الطور:٣٥]، وفي (النجم) ذكر الخالق، ومادة الخلق، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[النجم:٤٥ - ٤٦].

ثامناً: في (الطور) أمر النبي ﷺ بالصبر على ما يلحقه من أذى المشركين، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ [الطور:٤٨]، وفي (النجم) أمره بالإعراض عنهم، قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم:٢٩].

تاسعاً: وصف الله تعالى القرآنَ في السورتين بالحديث؛ قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النجم:٥٩].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

إثبات الوحي وتزكية مَن أنزل عليه

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾[النجم/ ١ - ١٨].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة، وهذا المقطع الافتتاحي من السورة يتحدث عن صدق الرسول ﷺ فيما بلغه عن ربه تعالى، وأنه منزه عما ادعاه المشركون من أنَّ محمداً ﷺ اختلق القرآن، ويثبت أن القرآن وحي من عند الله بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتفيض الآيات في بيان قرب نزول جبريل عليه السلام بالوحي من محمد ﷺ زيادةً في تقرير أن القرآن موحى من عنده تعالى، وأن الوحي واقع لا محالة.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: تأكيد استقامة النبي ﷺ على الحق.

والثانية: لقاء أمين الوحي عليه السلام بالنبي ﷺ.

والثالثة: تحقيق الوحي وتأكيد ثبوته.

* أُقسم بالنجم إذا سقط من علو عندما يميل للغروب[1].

ثم يأتي جواب القسم:

* ما مال صاحبكم محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، بل هو راشد غير ضال، مهتد غير غاوٍ، مبلغ عن الحق غير واهم ولا مفترٍ ولا مبتدعٍ، بل هو عالم به متبع له[2].

* ولا ينطق عن هواه فيما يبلغكم به من الرسالة.

* إنما ينطق ﷺ بوحي من الله عز وجل أوحاه إليه، واصطفاه الله لتبليغه، ويبلغ ما أمر به كاملا من غير زيادة ولا نقصان.

* لم يعلِّم صاحبَكم محمداً أحدٌ من الناس بل علَّمه جبريل عليه السلام الشديد القوي، فهو الذي نزل بالقرآن على قلبه، وقرأه عليه، وبيَّنه له، ثم بلَّغه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

* وجبريل عليه السلام عليه السلام أمين الوحي صاحب عقل ورأي، ومتانة دين، ومنظر حسن

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بالنجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ على أقوال أهمها: **الأول**: أنها النجوم والتعريف للجنس. **والثاني**: أنه الثريا. **والثالث**: أنه النبت الذي لا ساق له كما في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[الرحمن/ ٦]. **والرابع**: أنه القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق: المنجم. **والخامس**: أنها نجوم السماء إذا سقطت يوم القيامة. **والسادس**: النجوم التي ترجم بها الشياطين.
ويبدو أن المعنى المناسب لمقام الآية هو القول الأول؛ وذلك لمناسبة القسم بالنجم لما سيقت له الآية، فالقرآن وحي الله النازل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية... التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٩..

(٢) في إيثار التعبير عنه ﷺ بوصف: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾[النجم/ ٢] تعريض بأنهم أهل بهتان؛ إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة اطلاعهم على أحواله وشؤونه، إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال واحد معين مقصود بينهم. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٠٠.

استوى في مكانه في السماء وظهر في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق.

* ثم اقترب جبريل عليه السلام من محمد ﷺ، وزاد في القرب منه، فكان على مقدار قوسين أو أقل.
* فأوحى الله بواسطة جبريل عليه السلام إلى عبده ورسوله محمد ﷺ الذي أوحاه إليه من أوامره تعالى، والشرع المبين.
* ما كذب قلب محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام الحقيقية[(١)].
* أتكذبونه وتجادلونه - يا معشر قريش - على ما رأى في ليلة الإسراء والمعراج.
* ولقد رأى محمدٌ جبريل عليه السلام في صورته الملائكية مرةً أخرى - غير تلك التي كانت ما بين

---

(١) يثور خلاف قوي بين العلماء عند تفسير قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[النجم/ ١١]، حول رؤية محمد ربه، فقال بعض العلماء إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.. والصحيح أن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمدا ﷺ رأى جبريل عليه السلام في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا، ومرة ثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ.
قال ابن القيم: (وأما قوله في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم/ ٨]، فهو غير الدُّنو والتَّدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[النجم/ ٥]، وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم/ ٦ - ٨]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلِّم الشديد القوي، وهو ذو المِرَّة، أي القوة، وهو الذي استوى بالأفق الأعلى، وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى، فأما الدُّنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه، ولا تعرُّض في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى. والله أعلم). زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٣/ ٣١، ٣٢.

السماء والأرض ـ ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى في السماء السابعة، التي ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحد ما وراءها إلا الله عز وجل، كما قال ﷺ: (ثم رفعت إليَّ سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها كآذان الفيلة)[1].

* وعند سدرة المنتهى جنة المأوى التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين.
* رآه حين يغشى سدرة المنتهى من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عزَّ وجلَّ.
* ما مال بصر محمد ﷺ يمنة ولا يسره، ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له.
* لقد رأى محمد ﷺ آياتٍ عظاماً، وعجائب من ملكوت الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* للخالق تعالى أن يقسم بما شاء، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.
* ظهور النجوم وغيابها في وقت معين يدل على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحق أن تعبد وتعظم[2].
* بيان فضل النبي ﷺ حيث إن الله تعالى قال في حق أبينا آدم عليه السلام: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]، وقال في حق محمد ﷺ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[النجم: ٢].
* استدل علماء الأصول بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[النجم: ٤] على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الأنفال: ٦٧].

ولا منافاة بين هذه الآيات. قال الشنقيطي رحمه الله: والجواب عن هذا من وجهين:

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٨٨٧).

(٢) من موضوعات سور القرآن الكريم، عبد الحميد طهماز ١٥.

الأول: أن معنى قوله:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[النجم:٣] أي في كل ما يبلغه عن الله،﴿ إِلَّا وَحْىٌ ﴾ أي كل ما يبلغه عن الله ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ من الله؛ لأنه ﷺ لا يقول على الله شيئًا إلا بوحي منه، فالآية رد على الكفار حيث قالوا: إن النبي ﷺ افترى هذا القرآن..

الوجه الثاني: أنه ﷺ إن اجتهد فإنه إنما يجتهد بوحي من الله يأذن له به في ذلك الاجتهاد، وعليه فاجتهاده ﷺ بوحي فلا منافاة.

ويدل لهذا الوجه أن اجتهاده ﷺ في الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك أذِن الله له فيه حيث قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]، فلما أذن ﷺ للمنافقين عاتبه الله بقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، فالاجتهاد في الحقيقة إنما هو الإذن قبل التبين، لا في مطلق الإذن للنص عليه...

والتحقيق في هذه المسألة أنه ﷺ ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوصه، كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم، وكأسره لأسرى بدر، وكأمره بترك تأبير النخل... إلى غير ذلك.

وأن معنى قوله تعالى:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ لا إشكال فيه، لأن النبي ﷺ لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ يعني أن كل ما يبلغه ﷺ عن الله فهو وحي من الله لا بهوى ولا بكذب ولا افتراء. والعلم عند الله تعالى[1].

* السنة المقبولة كالوحي المنزَل في وجوب العمل.

* في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾[النجم: ٨] دليل على كمال مباشرة جبريل عليه السلام

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ملحق بكتاب: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥/ ٣٤٨. بتصرف.

للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينهما.

* وصف الله تعالى وثناؤه على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم: ١٧] دليل على أنه ﷺ كان في غاية الأدب مع ربه، فما جاوز ما أمره الله به، ولا سأل فوق ما أعطي.

* الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وتأوي إليها أرواح الملائكة والشهداء المتقين.

المقطع الثاني

الظن لا يغني من الحق شيئاً

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ١٩ – ٣٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يشن هجوما شديداً على معبودات المشركين، ويندد بالشرك، ويسفه أحلام المشركين لعبادتهم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وأنَّ هؤلاء لا يتبعون في عبادة غير الله إلا ظنونهم الباطلة، وهذا له صلة كبيرة بمحور السورة الذي يقرر ثبوت النبوة والرسالة.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مظاهر قدرته وعظمته وعلمه وحكمته في الملكوت الأعلى وجبريل عليه السلام، وسدرة المنتهى، وما غشاها من نور الله، وما أرى رسوله ﷺ من الآيات الكبرى التي تدل على ثبوت الوحي والرسالة المحمدية، خاطب تعالى المشركين، فانتقل من تقرير النبوة إلى تقرير الربانية والألوهية.

المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: بيان عدم جدوى عبادة الأصنام؛ اللات والعزى ومناة(١).

---

(١) قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وفسرت بأنها رجل كان يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وكذا العزى اشتقوها من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: (لنا العزى ولا عزى لكم)، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٠٤٣). وأما مناة فكانت بالمشلّل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧١.

الثانية: توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله.

الثالثة: جزاء المحسنين وبيان أوصافهم.

* أخبروني هل هذه الأصنام صالحة لأن تعبد ؟ وهل وجدتم فيها من صفات الألوهية من الإيجاد والإعدام والنفع والضر ؟.

* أتجعلون له تعالى ولدا، وتجعلون هذا الولد أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكران؟ على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه النقص، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

* لك قسمة جائرة غير مستوية ناقصة غير تامة؛ لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم: ٨٩- ٩٠].

* ما اللات والعزى ومناة إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ولم ينزل الله بها وحيا يأذن بعبادتها، وهي لا تعدو كونها أسماء لآلهة لا وجود لها، ولا حقيقة في الواقع، فلا معبود بحق في الوجود إلا إله هو الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٠].

* هؤلاء المشركون ما يتبعون في عبادة هذه الأوثان إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان.

* كيف يصنعون ذلك ؟ وقد جاءهم من ربهم البيان الساطع والبرهان القاطع على أن تلك الأصنام ليست بآلهة، وأنَّ العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار.

* ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام.

* فالملك كله لله يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهون، فهو يعطي مَن اتبع هداه وترك هواه.

* وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبثين في السموات لا تغنى شفاعتهم، مع علو منزلتهم، ورفعة شأنهم.

* ولا يشفعون لأحد إلا من بعد أن يأذن الله تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فإذا كان هذا في حق الملائكة الكرام المقربين، فكيف ترجون أيها الجهلة السفهاء شفاعة الأصنام عند الله تعالى.

* إنَّ الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء ليزعمون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بنات الله، قال تعالى:﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٠].

* هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لا علم لهم بما يقولون، فلم يشهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم من الله حجة ولا برهان، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩].

* ما يتبع هؤلاء في أقوالهم الباطلة إلا الظنون والأوهام، وإن الظن لا يجدي شيئا، ولا يقوم مقام الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [يونس:٣٦].

* فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المستكبرين عن الإيمان واتباع القرآن واهجرهم، وإنما أكثر همهم ومبلغ علمهم الدنيا، وما فيها من المتع الزائل واللذة الفانية، بحيث صارت الدنيا منتهى همتهم وقصارى سعيهم، ولا تزيدهم الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

* ذلك ما انتهى إليه علمهم وبلغه إدراكهم أن يؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة، قال تعالى:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

* فلا تتعب نفسك في دعوة هؤلاء وسلِّم الأمر لله تعالى، فهو العليم بأحوال الفريقين؛ المصرين على الضلال، والمتمسكين بالهدى، وهو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

* كل ما في السماوات والأرض ملك لله وحده، وتحت قبضته وسلطانه، وله التصرف فيه خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وسيجزي ـ بحسب علمه المحيط بكل شيء ـ كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ فالمسيء بما صنعه واقترفه، والمحسن بالإحسان ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر، قال تعالى:﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الجاثية: ٢٢].

* المحسنون الذين يجزيهم الله بالحسنى هم الذين يبتعدون عما عظُم شأنه من كبائر الذنوب والمعاصي؛ كالشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنى وغيرها من الكبائر ولا تقع منهم إلا صغائرها، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرطوا في جنب الله، كما قال تعالى:﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء: ٣١].

* وربكم رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها؛ فيغفر الصغائر ما اجتنبت الكبائر، ويغفر ما يشاء من الذنوب لَمن تاب توبة صادقة، وندم على ذنوبه والإخبات إلى الله وتجافي عن الذنوب، قال تعالى:﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

* الله تعالى هو البصير بأحوالكم، العليم بأقوالكم وأفعالكم قبل خلقكم؛ مذ أنشأ أباكم

من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم كتبت الملائكة الموكلة بكم أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم وأشقياء أَمْ سعداء.

* فإذا علمتم هذا فلا تثنوا على أنفسكم وتصفوها بالطهارة من المعاصي، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته، فهو العليم بمَن اتقى المعاصي، وبمَن اجترح السيئات، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٩]، وعن زينب بنت أبي سلمة أنها سُمِّيت (برة) فقال ﷺ: (لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا بم نسميها ؟ قال: سمُّوها زينب)[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى هو وحده الأحق بالعبادة، فهو السميع البصير الضار النافع، أما اللات والعُزَّى ومَنَاة فهي أسماء فارغة من المعنى، سمَّاها المشركون هم وآباؤهم الضُّلال فلا تستحق العبادة.
* كل أمر ما أنزل الله به من سلطان فهو باطل فاسد لا يُتَّخَذ ديناً.
* إذا كان ما عليه المشركون من العبادة مبنياً على اتباع الظن الفاسد والأماني الباطلة، فإن البقاء عليه من أظلم الظلم للنفس.
* الملائكة الكرام المقربون منه تعالى لا تنفع شفاعتهم إلا بشرطين:

  الأول: أن يأذن الله تعالى لهم في الشفاعة.

  والثاني: رضى الله تعالى عن المشفوع له.
* قول المشركين: (الملائكة بنات الله) لا يدل عليه علم مأخوذ عن الله أو عن رسوله، ولم تدل عليه الفِطَر والعقول.

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٤٢)، سنن أبي داود، الحديث رقم (٤٩٥٣).

* الله تعالى منزَّه عن الولد والصاحبة، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
* خلق الله الملائكة الكرام لخدمته، وهم كما قال تعالى عنهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم: ٦].
* الظن لا يغني من الحق شيئا، والحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة.
* المؤمنون بالآخرة همهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم يأخذونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.
* الله تعالى مالك السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه يحكم بين خلقه بالعدل.
* الله تعالى هو العليم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى فيجازي كلا بما يستحقه.
* المحسنون هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم - وهو الشرك - والفواحش، كالزنى، وكل ذنب فيه الحد.
* صغائر الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا مَن عصمه الله وحفظه تكفر بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾[هود: ١١٤]، وقال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء: ٣١][1].

---

(١) اختلف المفسرون في الاستثناء المذكور في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ ﴾ [النجم: ٣٢] على قولين:
الأول: أنه منقطع، وهو قول جمهور المفسرين، ولكن أقوالهم تباينت في المراد باللَّمم على هذا التفسير: فقيل: اللَّمم هي صغائر الذنوب. وقيل: اللَّمم كل ما دون الزنى، من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدركه ذلك لا محالة؛ فزنى العينين النظر، وزنى اللسان المنطق، والنفس تتمنى =

* الله تعالى واسع المغفرة من الكبائر والصغائر لمن تاب من ذنبه واستغفر.
* الله تعالى عليم بجميع أحوال خلقه وأقوالهم وأفعالهم، فليس لأحد أن يزكي نفسه بل الله هو المزكي.
* النهي عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بذلك الرياء والإعجاب بالعمل، وإلا فلا بأس بها، ولا تكون منهياً عنها.

=وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه". صحيح البخاري، الحديث رقم (٦٦١٢)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٥٧).
وقيل: اللَّمم أن يذنب الرجل الذنب ثم يتوب منه ولا يعود إليه، قال الشاعر:
إنْ تغفِر اللهم تغفر جماً وأي عبدٍ لك لا ألمّا
وقيل: اللَّمم الذنب بين الحدين وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا ولا توعد عليه بعذاب في الآخرة، وتكفره الصلوات الخمس. وقيل: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به...
ثانياً: أن الاستثناء متصل، واللمم هو أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، فضمن لهم المغفرة كما قال عقيب اللَّمم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢] فعلى هذا التأويل يكون ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ استثناء متصلا. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي ١٠٦/٩ - ١٠٨.

المقطع الثالث

ذم المشركين، وبيان وحدة رسالة التوحيد

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾[النجم: ٣٣ - ٦٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع له مناسبة مع محور هذه السورة المتعلق بإثبات الوحي والرسالة؛ فهو يبين أن وحي الله إلى رسوله ﷺ كوحيه إلى سائر الرسل، وأنَّ القرآن من جنس ما أنزل على تلك الرسل، ثم أنذر بقرب الساعة، وأنكر على الكافرين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به، وعدم خشوعهم وإعراضهم وغفلتهم، ثم أمر بالسجود لله تعالى والعبادة التي تبعد الإنسان عن غوائل الشرك وتوصله إلى الله تعالى.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لَمَّا ذكر الله سبحانه تعالى في المقطع السابق سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حل بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من

أعدائه المكذبين لرسوله[١].

المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: التحذير من حال المعطي المكدي.

الثانية: بيان ما اشتملت عليه صحف إبراهيم وموسى من العلم.

الثالثة: التحذير من التكذيب بآيات الله ونعمه والدعوة إلى الخضوع والسجود له تعالى اعترافا بربوبيته وألوهيته وآلائه.

* أعلمت أيها الرسول شأنَ هذا الكافر الذي أدبر عن الإيمان بالله وعن طاعته، وعن دينه وأعطى صاحبه قليلا من ماله ثم منعه فلم يعطه فبخل عليه[٢].

* أعند هذا الذي أعرض عن الإيمان، وأمسك يده خشية الإنفاق علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً ؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً، قال تعالى:﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[النمل: ٦٥].

* أم لم يخبر هذا المتولي عن طاعة الله المعطي قليلا المكدي بها في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، ولا بها في صحف إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٥٩.

(٢) قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ففعل فأعطى الذي عاتبه على ذلك بعض ما كان ضمن له ثم بخل عليه ومنعه تمام ما ضمن له. جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧١، أسباب النزول، الواحدي ٣١٥، ولم يذكر هذا السبب ابن كثير في تفسيره.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

* إبراهيم عليه السلام الذي تمَّم ما أُمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

في تلك الصحف المنزلة:

* لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، ولا يؤخذ أحد بجريرة غيره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٢﴾ [العنكبوت: ١٢].

* ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، فكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

* إن عمل الإنسان سيعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه، فيجزى بعمله الجزاء الأكمل الأتم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥].

* والله تعالى إليه المرجع والمآب فيعاقب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٨].

* والله تعالى هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا والآخرة مَن أضحك وأبكى مَن أبكى.

* وهو سبحانه خالق الموت والحياة، فبيده الإحياء والإماتة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢].

* وهو سبحانه بقوته وقدرته أوجد الصنفين من المخلوقات، قال تعالى:﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩].

* وهو سبحانه الذي خلق النوعين الذكر والأنثى، كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل: ٣]، من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتصب في رحم المرأة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾[القيامة: ٣٧].

* وعليه تعالى إعادة خلق الناس للحساب والجزاء بعد موتهم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

* وهو تعالى الوهاب يغني مَن يشاء ويفقر مَن يشاء، قال تعالى:﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾[الرعد: ٢٦][1].

* وإن ربك أيها الرسول هو رب الشِّعْرَى، النجم الذي كان بعض أهل الجاهلية يتخذونه إلها ويعبدونه من دون الله.

---

(١) قال ابن كثير: قوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[النجم/ ٤٨] أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما، وعن مجاهد ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ موَّل، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ أعطى، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أرضى. وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق، وقيل: أغنى مَن شاء من خلقه، وأقنى أي أفقر مَن شاء منهم، قال ابن زيد، حكاهما ابن جرير وهما بعيدان من حيث اللفظ. تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٧٧.
وقال الراغب الأصفهاني: قوله تعالى: ﴿ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي أعطى ما فيه الغنى وما فيه القنية، أي المال المدخر، وقيل: أقنى: أرضى، وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة، وذلك أعظم الغنائين...
(. المفردات في غريب القرآن ٤١٤.
وإنما أثبتنا المعنى المذكور في المتن لدلالة السياق عليه؛ وذلك لمناسبته لسياق الجملة التي حوت عدداً من المتطابقات، ولدلالة القرآن عليه. والله تعالى أعلم.

* وأنه تعالى أهلك قوم عاد القدماء، الذين بعث إليهم نبيه هودا ﷺ، وقد كانوا من أشد الناس وأقواهم، وأطغاهم فأهلكهم بريح صرصر عاتية، كما قال تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦].

* وأنه تعالى أهلك ثمودَ قوم صالح ﷺ، فأرسل عليهم الصاعقة، ودمرهم ولم يبق أحدا منهم، كما قال تعالى:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت: ١٧].

* وأنه تعالى أهلك قوم نوح ﷺ الذين كانوا قبل هؤلاء.

* وكانوا أظلم الفريقين ومن قومك الذين كذبوك وأشدهم طغياناً، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[نوح: ٥ - ٧].

* وقرى قوم لوط أهلكها الله، فألقاها تهوى إلى الأرض منقلبة أعلاها أسفلها، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾[هود: ٢٨]، وقال:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[الحجر: ٧٣-٧٤].

* فغطَّاها من ألوان العذاب ما غطى، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود.

* فبأي نعم الله تعالى وآلائه الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان أو تكذب بعد أن عرضنا عليك من مظاهر النعم والنقم التي لا تقدر على إنكارها وإخفائها بحال.

* هذا الرسول نذير لكم كسائر الرسل، وهو من جنس المنذرين الأولين[١]، كموسى وإبراهيم اللذيْن أرسلا بالصحف الأولى، وقد علمتم ما حل بالمكذبين، قال تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) وقيل: إن المراد بالنذير القرآن الكريم. الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٩٩.

﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٩]، وقال:﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩].

* لقد دنت القيامة واقترب الوعد الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[غافر: ١٨].

* ولا يقدر على ردها وكشفها إذا غشيت الخلق بأهوالها إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

* أفمن هذا القرآن الذي يحدثكم عن مصائر المكذبين، وينذركم تعجبون يا معشر المشركين وتسخرون وتستهزئون ؟ قال تعالى:﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[الواقعة: ٨١].

* أفتضكحون عند سماعه، ولا تبكون من آياته وزواجره ؟ كان الأجدر بكم أن تبكوا دماً بدل الدمع حزناً على تفريطكم.

* وأنتم لاهون غافلون.

* فاسجدوا لله الذي خلقكم ووحدوه، ولا تعبدوا غيره؛ لا تعبدوا اللات، ولا العزى، ولا مناة، ولا الشِّعْرَى، توجهوا إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يليق الخضوع والسجود والعبادة إلا له جل شأنه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لا يعلم الغيبَ أحدٌ إلا الله.

* تضمنت صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من وجوه العلم ما يلي:

أ. لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ب. ليس للإنسان من ثواب يوم القيامة إلا ما سعى في تحصيله بنفسه[1].

---

(١) لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم/ ٣٩]، وبين قوله: إذا مات=

ج. ما عمله الإنسان في الدنيا من خير وشر سوف يراه علانية، ويجزى به في الآخرة خيراً كان أو شراً.

د. إلى الله تعالى تصير كل أمور الخلق بعد الموت فيحكم فيها ويجزي بها.

هـ. الله تعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء، فأفرح من شاء فضحك فرحاً، وأحزن من شاء فبكى حزناً.

و. الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة.

ز. الله تعالى هو خلق الصنفين الذكر والأنثى من قطرة المني.

ح. الله تعالى هو القادر على إحياء الخلائق بعد موتهم.

ط. الله تعالى هو الذي مَلَّكَ عباده المال وجعله لهم قُنْيَةً مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه وهذا من تمام نعمه عليهم.

ي. الله تعالى هو رب الشِّعْرَى ذلك الكوكب الضخم الذي يطلع بعد الجوزاء، وهو سبحانه خالقه ومالكه ومسخره، فلا ينبغي أن يتخذ رباً من دونه تعالى.

ك. الله تعالى هو الذي أهلك عاداً، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

* في قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[النجم: ٣٩] دليل على أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أُمَّته، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنصٍ ولا إيماء، ولم يُنقل ذلك عن أحد

= الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية). صحيح مسلم الحديث رقم (١٦٣١) فهذه الثلاثة أمور من عمل الإنسان وسعيه؛ فالولد أنجبه ورباه، والعلم تعلمه وبثه في الناس وعلمه، والصدقة الجارية أوقفها بنفسه.... فالجميع من سعيه وكسبه. أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٠٠.

من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما، وهذا هو قول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ ومَن اتبعه من العلماء[1].

* لَمَّا قام إبراهيم عليه السلام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال استحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله.
* الله تعالى عدل في حكمه وقضائه، وهو سبحانه قدير عليم وقوي.
* تحذير الطغاة من أهل الكفر أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من العذاب الماحق.
* الترغيب في البكاء من خشية الله، والتحذير من أسباب البعد عنه كاللهو واللعب.
* مشروعية سجدة التلاوة عند ختام سورة النجم وهي من عزائم السجدات في القرآن الكريم، وقد سجدها المشركون مع رسول الله ﷺ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٧٦.

سورة القمر

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة القمر لابتدائها بمعجزة انشقاق القمر، قال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١].

ب. فضائل السورة.

مما يدلُّ على فضل هذه السورة الكريمة ما في الصحيح عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ: سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ ؟ فَقَالَ كَانَ يَقْرَأُ بِـ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: ١] و﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾[1].

ج. مكية السورة.

هذه السورة نزلت في مكة، قال القرطبي: «سورة القمر مكية كلها في قول الجمهور»[2].

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها: خمسون وخمس آيات في عدِّ الجميع، ليس فيها اختلاف[3].

---

(١) صحيح مسلم - كِتَاب صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ - بَاب مَا يُقْرَأُ بِهِ فِي صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ حديث ١٤ - (٨٩١) وموطأ مالك كتاب النِّداء لِلصَّلاةِ - بَاب مَا جَاءَ فِي التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ حديث ٤٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٧٠، ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٢٥.

(٣) يراجع في ذلك: «أقوى العُدَد في معرفة العَدد» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١ / ٢١٧، وكتاب البيان في عدِّ آيِ القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢٣٦ ومرشد الخلان إلى معرفة=

هـ. محور السورة.

محورها الرئيسي الذي تدور حوله هو التذكير بالآيات والنُّذُر، وبيان مصير المكذبين بها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت بسورة القمر؛ حيث استُهِلَّت بالحديث عن انشقاقه؛ آيةً للنبي ﷺ، وإيذانا بقرب قيام الساعة، وهذا يتَّسِقُ مع مِحْوَرِ السورةِ حول الآيات والنذر.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورة الكريمةِ: إنذارٌ وآيةٌ، إنذارٌ بقرب الساعة ووجوب الاستعداد لها، وآيةٌ كبرى وهي انشقاق القمر معجزةً للنبي ﷺ، قال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾، وفي ختام السورة الكريمة تذكيرٌ بالساعة وأهوالها، ودعوة إلى الاعتبار من مصير المكذبين، مع الإشارة إلى جزاء المتقين، قال تعالى ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر: ٤٣ – ٥٥]

* في مطلع السورة:﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾: فهذه النذر عبرةٌ لكلِّ معتبرٍ ومصيرِ المكذبين واحد.

=عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى – شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

المناسبة بين اسم السورة وسابقتها

الصلة بين سورة القمر، وسورة النجم: صلة واضحة جلية، حيث جاءت سورة القمر مقررةً لما جاء في سورة النجم من بيانٍ لأصول العقيدة وردٍّ على شبهات المشركين: وهناك تناسبٌ من جهة التسمية؛ لما بين النجم والقمر من تلازمٍ، ونظير ذلك: توالى سورُ الشمس والليل والضحى.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوهٍ عديدة منها:

* فأول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة: قال تعالى ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨]، وقال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٣]

* وفي سورة النجم حديث عن رحلة المعراج وهو آية كبرى، وفي مطلع سورة القمر حديث عن انشقاق القمر، وهو أيضا من الآيات الباهرة والمعجزاتِ الظاهرة.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١ - ١٨]

* وفي السورتين: بيان لموقف المشركين من الآيات والنذر، حيث الكذب والمراء والإعراض والافتراء: قال تعالى في سورة النجم منكراً على الكفار مراءهم وإنكارهم:﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ

مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم: ١١ - ١٢].

وقال تعالى في سورة القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٣].

* في السورتين الكريمتين: حديث عن هلاك المكذبين بالآيات والنذر قال تعالى في سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٦].

* وجاءت سورة القمر، مفصِّلةً ومقررة لما جاء في سورة النجم من حديثٍ عن هلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول الآيات والنذر: جاءت الآية الأولى متضمنة، آيةً عجيبةً، ونذارةً عظيمةً: الإيذانُ بقربِ الساعةِ، وبيانُ انشقاقِ القمرِ.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، وتفصِّلُ في مصير المكذبين، كما سيأتي بيانُ ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الآيات والنذر، وسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في السورة الكريمة.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

-١-

المقدمة

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ القمر: ١ – ٥

سبب النزول

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: " أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا» [(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اشْهَدُوا» [(٢)].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَئِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ» [(٣)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار أهل

---

(١) صحيح البخاري – كِتَاب الْمَنَاقِبِ – بَاب انْشِقَاقُ الْقَمَرِ حديث ٣٦٥٥

(٢) صحيح البخاري – كِتَاب الْمَنَاقِبِ – بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، حديث ٣٤٣٧ وصحيح مسلم – كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ – بَاب انْشِقَاقِ الْقَمَرِ حديث ١٨٢ – (١٢٣٠).

(٣) سنن الترمذي –كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ حديث ٣٣٤٣، قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد – سنن الترمذي ٥ / ٣٩٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٤/ ٨١ ودلائل النبوة للبيهقي ٢ / ١٥١ حديث ٥٧٠.

مكة: هذا سحرٌ يسحرُكُم به ابنُ أبي كبشة، انظروا السُّفَّارَ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدقَ، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحرَكم به. قال: فسئل السفَّارُ قال: وقدموا من كل وجهٍ فقالوا: رأينا»[١].

التفسير الإجمالي

بدأت السورة بهذه النِّذارةِ الجليلةِ حيث أنذرت باقتراب الساعة ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ فهي قريبةٌ جدًّا، بل قد ظهر كثيرٌ من علاماتها، ومنها بعثةُ نبينا محمدٍ ﷺ، كما في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ)[٢].

﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾: وذلك حين طلب كفارُ قريشٍ آيةً فأيَّد الله نبيه بهذه المعجزة الظاهرة الباهرة، التي شهد لها التاريخ والعلم.

وقد يتساءل القارئُ فيقولُ: لقد مضى على بعثة النبي ﷺ أربعة عشر قرنا وزيادة، ولا تزال الدنيا باقيةً إلى يومنا هذا ؟ وأقول: إن تحديد ما بقي من عمر الدنيا مرتبط بما مضى منها، فهي بالنسبة لما مضى، ولقد مضى منها قرونٌ مديدةٌ وأحقابٌ بعيدة، فما بقي إنما هو بالنسبة لما مضى كما في حديث رسول الله ﷺ (إِنَّمَا بَقَاؤُكُم فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ...)[٣].

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ١٤٦ حديث ٥٦٥. والفرق: الشق والجانب، والسفار: المراد القوافل التجارية العائدة إلى مكة.

(٢) صحيح البخاري كِتَاب الرِّقَاق بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) حديث ٦١٤٠، وصحيح مسلم - كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ - بَاب قُرْبِ السَّاعَةِ حديث ٤٣ - (٨٦٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله، عن أبيه - صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب حديث: ٥٣٢.

ومع اقتراب الساعة وانجلاء الآيات فإن الكفار أعرضوا وعاندوا وزعموا أن هذه الآية الباهرة سحر مستمر، أي متتابع؛ لأن الآيات كانت كثيرة متتابعة، وقيل مستمر: مارٌّ ذاهب زائلٌ عن قريب.

وهذا هو ردُّ الكفار، الذي يتجدد ويتكرر كلما رأوا آيةً فهو ردٌّ مسبَقٌ، يصرفُهم عن التفكر والنظر بصدق وتجردٍ.

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾

تلك معاذيرهم الواهية ومزاعمهم الباطلة، وما وقعوا في ذلك التكذيب ونسجوا تلك الأكاذيب إلا اتباعاً للأهواء.

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: لكلِّ أمرٍ غايةٌ ولكلِّ عهدٍ نهايةٌ، ونهاية تكذيبهم قريبة وعاقبتهم وخيمة، وفي هذا تسليةٌ وتثبيتٌ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين.

وقيل: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: « أي يستقرُّ بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار»[(١)].

وفي الكشاف: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: «أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، وسيظهر لهم عاقبته»[(٢)].

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٦ - ٦٧]: أي كل نبأ وان طالت مدته، فلا بد أن ينتهي إلى غايته وتنكشف حقيقته من حق وباطل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٨

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي ٤ / ٣٦

فالآيةُ تهديدٌ لهم بعاقبةِ ونهايةِ تكذيبهم وإعراضهم، كما يقال: لكلِّ ظالمٍ نهايةٌ، ونهايتُهم أليمةٌ وعاقبتهم وخيمةٌ.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾

وإلى جانب الآيات القاطعة والحجج الساطعة، فلقد جاءهم من العظات والعبر بأخبار من غبر، ما فيه مزدجر، ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ ﴾: حكمة بالغة، بلغت الغايةُ في الترهيبِ والزجر والحكمة: تنزيل الشيء منزلته التي تليق به، وما في القرآن من آياتٍ ونُذُرٍ وقَصصٍ وعبرٍ إنما جاء لحكمةٍ بالغةٍ ومقاصدَ كريمةٍ،﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ولكن ماذا تغني الآيات والنُّذُرُ ! وهذه الآيات تمهيدٌ لما يليها من حديثٍ عن المكذبين وعاقبتهم، فليس لهم حجةٌ ولا عذرٌ أمام الله تعالى؛ فالعبرُ جليةٌ والحجج قويةٌ.

إنذارٌ ووعيدٌ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾ [القمر: ٦ – ٨]

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، وفيها تسليةٌ للنبي ﷺ وتسريةٌ عن فؤاده الذي ضاق بتكذيبهم وإعراضهم، فمن لا يرعوي ولا يتعظ بغيره، ولا يصدق بالحجج الباهرة، فلينتظرْ مصيره المحتوم، يوم الوقت المعلوم:﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾:

أي: إلى أمر منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنها لم تعهد مثلَه، وهو موقف الحشر وما فيه من الأهوال العظام والخطوب الجسام.

والداعي هو إسرافيل ؑ، وذلك حين ينفخ في الصور.

خشوع وخنوع

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾: خشوع المذلة والهوان والحسرة والندامة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأنها تفضحُ عن حال صاحبها وتُفْصِحُ عن المكنونِ، فيُرى أثرُ الذلِّ في العيون، كما يُرى أثره على الوجوه، وقد قيل: والصَّبُّ تفضحه عيونُه.

ومصدر هذا الخشوع أيضا الخوفُ والقلقُ مما ينتظرهم، قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [النازعات: ٦ – ٩]، وقال تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الغاشية: ١ – ٢].

وقال تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٢ – ٤٤].

وفي الآية تصويرٌ لحال خروجهم من القبور التي طُمِرَتْ، وأبصارهم خاشعة من الذل والهوان والخزي والعار والخوف، وتمثيلٌ لانتشارهم وكثرتهم وتزاحمهم: بالجراد المنتشر.

ونظير هذا قوله تعالى﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٤ – ٥]، فتارة يسيرون بلا وجهة كالفراش، وتارة يسيرون بوجهة كالجراد المنتشر.

قال الألوسي: « وقيل: يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفراش لا جهة لها تقصدها، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين»[1].

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ١٧ / ٨٠

﴿ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾: يسيرون مسرعين ملبين لدعوة الداعي، مادِّين أعناقهم، قد صوَّبُوا مسامعَهُمْ، وأشخصوا أبصارَهم نحو هذا الداعي، في مذلَّةٍ واستكانةٍ.

﴿ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨ ﴾: يقول بعضُهم لبعضٍ هذا يومٌ عسرٌ، وهو عليهم كذلك لما يشاهدونه من مقدماتٍ وما يكابدونه من عقباتٍ وما يقاسونه من أهوال.

الهدايات المستنبطة

* الإيذان بقرب قيام الساعة، ووجوبِ الاستعداد لها.
* معجزة انشقاق القمر هي من المعجزات الحسية التي أيَّد الله تعالى بها نبيَّه، حيث انشقَّ نصفين، ثم عاد كما كان، وهناك قصةٌ عجيبة تشهد بذلك: هذه القصة حدثت لرجل إنجليزي اسمه داوود موسى بيتكوك وقد أسلم وحسن إسلامه وصار من الدعاة في بريطانيا، ففي رحلته للبحث عن الحقيقة أهداه صديقٌ له ترجمة لمعاني القرآن بالانجليزية فلما فتحها وجد سورة القمر فقرأ ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ ﴾

فقال: ما هذا الكلام العجيب ؟ هل ينشق القمر ! ثم انصرف عن القراءة وعزف عنها.

وبعدها بوقتٍ ضئيل وبينما هو جالس أمام التلفاز البريطاني ليشاهد برنامجاً، شاهد المذيع يحاور ثلاثة من العلماء الأمريكان وكان يعتب عليهم أن أمريكا تنفق الملايين بل المليارات في مشاريع غزو الفضاء في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقر فظل العلماء يبررون ذلك أنه أفاد كثيراً في بعض المجالات الزراعية والصناعية... الخ

ثم جاء ذكر أحد أكبر الرحلات تكلفة فقد كانت على سطح القمر وكلفت مليارات الدولارات فسألهم المذيع أمن أجل أن تضعوا علم أمريكا على سطح القمر تنفقون هذا المبلغ؟ رد العلماء: أنهم كانوا يدرسون التركيب الداخلي لهذا التابع لكي يروا مدى تشابهه مع الأرض ثم قال أحدهم: فوجئنا بأمر عجيب هو حزام من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه فأعطينا هذه المعلومات إلى [الجيولوجيين] فتعجبوا

وقرروا أنه لا يمكن أن يحدث ذلك إلا أن يكون القمر قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، وأن تكون هذه الصخور المتحولة ناتجة من الاصطدام لحظة الالتحام.

يقول داوود موسى بيتكوك: قفزت من على المقعد وهتفت: معجزة حدثت لمحمد عليه الصلاة والسلام من أكثر من ١٤٠٠ سنة في قلب البادية يسخِّر الله الأمريكان لكي ينفقوا عليها مليارات الدولارات حتى يثبتوها للمسلمين ! لا بد أن هذا الدين حق، وكانت سورة القمر سببا لإسلامه [(١)].

* قرب الساعة يستدعي من الإنسان أن يتقرب من مولاه ويقبل على طاعته ورضاه، ويتزود من التقوى والعمل الصالح ما ينفعه في هذا اليوم العصيب.

* مع قرب القيامة وظهور عديدٍ من أشراطها ومع ظهور الآيات وكثرة النذر وتكرر المواعظ إلا أن الكفار معرضون مكذبون، ولأهوائهمُ الجامحةُ منقادون.

* من أسباب الهلاكِ: الكذب والإعراض واتباع الهوى والغفلة عن سنن الله وأقداره والتولي عن الآيات والنذر.

* لكلِّ أمرٍ مستقرٌّ، ولكلِّ فعلٍ عاقبتُه ونتيجتُه، فمهما طال الليل فلا بد من طلوع الفجر، وسيزولُ عهدُ الظالمين مهما طال.

* تصويرُ حالِهم وهم حفاةٌ عراةٌ إلا من ثوب المذلة والهوان وفي حالة الخنوع والخضوع والترقب والانسياق لهذا الداعي الذي يوجههم إلى ما ينتظرهم وهم مسرعون مُثقلون، يهمسُ بعضهم في أُذُنِ بعضٍ: هذا يومٌ عسر.

* في قوله تعالى ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾: دلالة على يسر هذا اليوم على المؤمنين فهو يوم البشائرِ والأفراح، قال تعالى﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾

---

(١) ذكر هذه القصة الدكتور زغلول النجار في ندوةٍ له بإحدى جامعات بريطانيا، وسمعتها منه في ندوته بعنيزة - القصيم ١٤٢٦ هـ سنة ٢٠٠٦ م

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩]، وقال تعالى﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال جلَّ وعلا﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[يونس: ٦٢ - ٦٤].

-٢-

عاقبة قوم نوح

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ٩ - ١٧].

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، إذ تذكِّر بعاقبة قوم نوح ونهاية تكذيبهم وإعراضهم، فهي تفصيلٌ لما أجمله قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾: «بدأت الآياتُ بقصة نوحٍ عليه السلام مع قومه؛ إذ هو أول الرُّسل، ومع ذلك كذَّب به قومه وأصرُّوا على

الكذب والضلال، واتهموه ﷺ بالجنونِ، وزجروه عن دعوته، بألوان الأذى وصنوف الكيدِ، فضيَّقوا عليه وطاردوه، ولا حقوه من مكانٍ إلى مكانٍ ليصرفوا الناس عنه، وسخروا منه، ولم يزدهم انجلاءُ الآياتِ، وانطواءُ السنواتِ، وتتابع النذر، إلا صدوداً وإعراضاً، وجحوداً وعنوداً.

جاء نوحٌ ﷺ قومَه وهم على التكذيب والضلال، فلما دعاهم إلى الله تعالى بالحجج الساطعات والآيات البينات، ما زداهم هذا إلا تكذيباً وإعراضاً.

وفي نهاية المطاف: يتوجه نوحٌ إلى ربِّه أن ينصره وينجِّيه قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾: لا حيلةَ ولا سلطان لي عليهم؛ فانتصر لدينك ولنبيِّك.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾: حانت ساعةُ الانتقامِ وحلَّ العذابُ الذي لا مهربَ منه ولا محيص عنه، ماءٌ ينهمرُ من أبواب السماء المفتَّحةِ فينصبُّ عليهم انصبابا، ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾: صارت الأرضُ كلُّها عيونا تنفجرُ بالماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على ما قدره الله عز وجل من إهلاك قوم نوح بالطوفان العظيم الذي بلغ قمم الجبال.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾: حملنَا نُوحاً ومَنْ آمَنَ مَعَهُ في سَفِينَةٍ من الألواح الخشبية والمسامير الصلبة والحبال المتينة التي تشدُّها، صنعها نوحٌ ﷺ بأمر وتوجيه من الله تعالى، فَكَانَتِ السَّفِينَةُ تَجْري برعايةِ الرحمنِ وحفظهِ ولطفه، بينما المكذبون غارقون في سخط الله وغضبه وعقابه، لطفٌ ورفقٌ هنا وشِدةٌ وعذابٌ هناك !

﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾جزاء لنوح ﷺ الذي كُفِرَ به، حيث كفر قومه برسالته كفر اعتقادٍ، كما كفروا به كفر نعمةٍ لأنه نعمةٌ أهداها الله إليهم، فنجاه الله بإيمانه وصبره وثباته.

وقيل﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي لكفرهم بالله تعالى فإغراقهم انتقامٌ منهم لكفرهم بالله تعالى « قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ لِّمَن ﴾ يُراد به الله تعالى، كأنه قال: غضباً وانتصاراً

لله تعالى، أي انتصر لنفسه، فأغرق الكافرين، وأنجى المؤمنين».[1] كما قال سبحانه في هلاك فرعون وقومه ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥ - ٥٦].

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾: أي تركنا هذه القصة آية فهل من متعظٍ ؟ وقيل تركنا السفينةَ آيةً وفي هذا إشارةٌ إلى بقائها، لتكون عبرةً لمن يعتبر ؟ والله أعلم بمكانها.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾: استفهامٌ تقريريٌّ للتنويه بقدر ذلك العذاب وعظمة تلك النذر.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾: يسَّر الله تعالى تلاوته وحفظه وفهمه، كما يسر العمل به والدعوة إليه، فكل من أقبل عليه بصدقٍ وعزم يسَّر الله أمره، وسهَّل عليه مطلوبَهُ، وهذا التيسيرُ إنما هو بهدفِ الذكرِ والاعتبارِ، ولا يتمُّ هذا إلا بتدبرٍ، ولذا قال تعالى ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

الهدايات المستنبطة

تأمَّل قولَه تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ولم يقل «فجرنا عيون الأرض»، كأن الأرض كلها صارت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي تُضْرَمُ فيه النارُ ويتصاعدُ منه الدخان أضحى يفورُ بالماء، كما قال الله عز وجل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود: ٤٠]، وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى.

* الحكمة من تكرير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٧٩.

«هي أن يجدّدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأوّلين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشنَّ تارات؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير عند كل نعمة عدَّها في سورة الرحمن وقوله: ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾، عند كل آية أوردها في سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب. مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان»[(١)].

* عاقبة المكذبين وهي العذاب في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

* عاقبة المؤمنين، وهي الصلاح والفلاح في الدارين، والنجاة من المكائد والمحن والنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال صاحب لطائف الإشارات « ثم إن الله – سبحانه – لما نَجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولا د نوح ﷺ، وفي هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين، وإذا لقوا في دين الله محنةً؛ فإنَّ الله يُهلِكُ – عن قريب – عَدوَّهم، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك كانت قصة موسى ﷺ مع فرعون وقومه، وسنةُ اللهِ في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءَه بعد أن يزهق أعداءَه»[(٢)].

* من تيسير الله تعالى كتابه للادكار والاعتبار أن صرَّفه هذا التصريفَ العجيبَ وجعله بهذا الأسلوب الفريد الذي لا مثيل له لا في الكتب السابقة ولا في كلام البشر، لأنه كتاب ذكر وموعظة قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]، وقال سبحانه﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النور: ٣٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤ / ٤٠.
(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٧ / ٣٣٠.

-٣-

عاقبة عاد

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢].

المناسبة

بعد الحديث عن عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام يأتي الحديثُ عن عاد، الذين كذبوا نبي الله هود عليه السلام وبيان عاقبة تكذيبهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾

فانظر كيف كان عاقبة تكذيبهم وجحودهم؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم ريحا عاتية باردة في يوم عصيبٍ رهيبٍ في يوم نحس مستمر عليهم، انتقلوا فيه من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة فهو نحس متواصل، فكانت الريح تنزع الناس مع تشبثهم ولجوئهم لديارهم الحصينة فتقذف بهم رأسا على عقب.

قال مجاهد: يُلْقَى الرَّجلُ على رأسِهِ، فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه. وقيل: كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها، فتنزعهم وتدق رقابهم[1].

والأعجاز: الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها. وقيل: كانت الريح تقطع

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٧٩.

رؤوسَهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيِّبه عن الأبصار، ثم تنكِّسه على أمِّ رأسه، فيسقط على الأرض جثةً بلا رأسٍ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها.[(١)]

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: كيف كان عاقبة التكذيب والإعراض ؟ وهذا الاستفهام كما أسلفنا تقريريٌّ وفيه لفتُ الأنظار إلى شدَّة هذا العذاب الذي جعله الله نذيراً وعبراً، ثم ذكر تعالى بنعمة تيسيره الكتاب للذكر والاعتبار فيسَّر تلاوته وفهمه للناس جميعاً، على تفاوت علمهم ومداركهم، فضلا عن تفسير النبي ﷺ وتفسير الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين.

الهدايات المستنبطة

* سُنَنُ اللهِ تعالَى لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّلُ، فهي سننٌ ثابتةٌ مطَّرِدَةٌ، من ذلك سنة إهلاك المكذبين مهما طال بهم الزمان.
* الريحُ جندٌ من جنود الله يُرسِلُها بالخيرات والمبشرات، كما تُرسَلُ بالعذابِ والدمارِ.
* التحذير من عقاب الله تعالى وغضبه وشدة بأسه وتنكيله بالظلمةِ والفسقة، قال تعالى ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤] وقال تعالى﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج: ١٢].
* رحمةُ الله بأوليائه ونُصرتِه لهم، مهما طال ليلُ الظُّلمِ، وتمادى الظالمون.

(١) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٧٩.

-٤-

عاقبة ثمود

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القمر: ٢٣ – ٣٢].

المناسبة

بعد الحديث عن تكذيب عادٍ وعاقبتهم، يأتي الحديثُ عن عاقبة ثمودٍ، وهذا إنذارٌ للمكذبين ووعيدٌ لهم.

التفسير الإجمالي

لم تعتبر ثمود من قوم عاد، كما لم تعتبر عادٌ من قوم نوح، بل كذبوا جميعا مع كثرةِ النُّذُر وتجلِّي العبر، ومن العجيب أنهم تعللوا بهذا الاعتراضِ الغريبِ ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؟ سخروا من نبيِّهم وازدروه، وقلبوا الحقائق؛ فزعموا أن اتباعهم له سلوكٌ لطريق الضلال والعذاب، وقد كَذَبوا في زعمهم، فكان اعتراضهم على أنه بشرٌ وعلى كونه واحداً، وعلى أنه منهم، فاعتبروا اتباعه ضرباً من الضلال والخسران! فأيُّ ضلالٍ أشدُّ مما هم عليه؛ رضوا بالإله أن يكون حجراً أو شجراً! واعترضوا على كون النبيِّ بشراً! إنه الكبرُ والاغترار والعُجبُ والحسد وغيرُ ذلك من أمراضِ النفوس، مع غفلتهم وجهلهم بسنن الله وأقداره وحِكَمِه وشؤونه في خلقه، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويختص برحمته من يشاء ويصطفي بحملِ رسالته من يشاء.

ثم عبَّر قومُ صالحٍ عن خبث طويتهم، وأعربوا عما يختلج في صدورهم ويدبُّ في قلوبهم

من كِبْر وحَسَد، فقالوا معترضين على اختيار الله تعالى واصطفائه ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، أي: كيف خصّه الله من بيننا بالوحي والنبوّة، وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟

ونظير هذا قول كفار قريش﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف: ٣١ – ٣٢].

ثم عادوا إلى إلصاق التُّهم بصالح ﷺ فاتهموه بالكذب ورمَوهُ بحُبِّ الظهور والشهرة والاستعلاء والسيطرة عليهم ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وهم في الحقيقة كاذبون متكبِّرون، حسدوا نبيَّهم على هذه المنزلة، فكان لا بدَّ من كشف خباياهم وفضح نواياهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

آيةٌ ونهايةٌ

﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وحتى لا تبقى لهم حجةٌ أرسل الله لهم آيةً واضحةً جليةً وهي الناقةُ فتنةً لهم وحجةً عليهم وتلبيةً لإلحاحهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الشعراء: ١٥٣ – ١٥٨].

وقال سبحانه ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود: ٦٤ – ٦٥].

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أي: انتظر ما يصنعون، واصطبر على ما يصيبك من أذاهم، وعبر باصطبر لأن الخطب قد اشتد فصار الأمرُ يحتاجُ إلى مزيدٍ من الصبرِ في هذه المرحلةِ الأخيرةِ الحاسمة ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله:﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ لكلٍّ قدرٌ ونوبةٌ يحضرُها، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً فإذا كان يوم نوبتهم حلبوها فانتفع الجميع بلبنها.

﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ تآمر المجرمون على عقر الناقةِ وحرَّضوا على ذلك أشقاهم، وأعانوه على هذه الجريمة المنكرة ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ والتعاطي: تناول الشيء بتكلف والمعنى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ تنبيهٌ ولفتٌ إلى عذابه الذي حلَّ بهم: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ صاح جبريل بهم صيحةً شديدةً، ﴿ فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ والهشيم: حطام الشجر ويابسه، والمحتظر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض، أو كهشيم الحظيرة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح.(١)

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ تذكيرٌ بهذه النعمةِ العظيمة، نعمة تيسير القرآن، للتلاوة والتدبر والعظة والاعتبار.

الهدايات المستنبطة

* ديدنُ أهل الكفر والضلال: الاعتراضُ على دعاة الحق وغمزهم وتشويه صورتهم، دون

---

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٢، وفتح القدير للشوكاني ٥/ ١٨٠ .

أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر في دعوة الحق، مع صدودهم عن الآيات وعدائهم لها.

* صبر الأنبياء عليهم السلام وثباتهم على الحق وامتثالهم لأوامر ربهم واطمئنانهم ورضاهم بأقداره تعالى.

* من أسباب الصدود عن الحق: الغرور والعجب والكبر والأثرة وحب الظهور والتعالي على الآخرين.

* انقلاب موازين الكفرة والطغاة: فالهدايةُ عندهم ضلال، واتباع الرسل في نظرهم جحيمٌ ووبالٌ.

* تعلُّقُ أهل الكفر والضلال بالشبه الواهية والحجج الداحضة، وتعلُّلُهم بالأعذارِ المتناقضةِ.

* أعداء الحق لا يراعون لله حرمة ولا يحفظون عهداً ولا ذمة، شأن ثمود الذين علَّقوا إيمانهم بآية فلما جاءتهم كفروا بها وعقروها، فدلَّ على ما في صدورهم من غلٍّ وحقدٍ على الآيات والنذر.

* أصحابُ النوايا الخبيثة والنفوس المريضة لا بد وأن يبتليهم الله تعالى ليكشف طويتهم ويهتك أسرارهم، ويخرج أضغانهم، ويفضحَ خباياهم، كما فعل الله بقوم ثمود إذ كشف الله تعالى كذبهم وأشرهم حين ابتلاهم بالناقة قال تعالى﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾[سورة محمد: ٢٩].

-٥-

عاقبة قوم لوط

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾القمر: ٣٣ - ٤٠

المناسبة

كما كذبت ثمود كذَّب قوم لوطٍ فكانت النهاية واحدة وإن اختلفت تفاصيلُها.

التفسير الإجمالي

لا يزالُ السياقُ حولَ مصيرِ المكذبينَ من الأممِ الغابرةِ، وتقفُ بنا الآياتُ عند عاقبةِ قوم لوطٍ الذين اقترفوا كثيرا من الجرائم والموبقات مع كفرهم وإعراضهم، كذَّبوا بنبيِّ الله لوطٍ عليه السلام وصدوا عن دعوته وجاهروا بالمعاصي مستحلين لها، واجتمعت كلمتُهم على إخراج لوطٍ وبناته لأنهم متطهرون، وكأن التطهرَ جُرْمٌ يعاقَبُ صاحبُهُ بالطردِ والإبعادِ، ولا عجبَ فهذا منطقُ أهلِ الكفرِ والضلالِ في كل زمان.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾: «والحصباء بالمد الحصى، والحاصب الريح الشديد تثير الحصباء»[1].

فعذَّب الله قوم لوط بأنواع شتى من العذاب، طُمِسَتْ أعينُهم، وقُلِبَتْ قُراهم، وأُمطروا بحجارة من سجيل منضود، كما أُخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الآذان فيهتز

---

(١) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ص ١٣٩ ٠ مادة ح ص ب، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٧ / ١٤٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٨١، وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ٩٠.

منها الكيان، ويشيب من هولها الولدان.

قال تعالى﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ « قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوُّر الجدران، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصَب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه... وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، وقال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم»[1].

وعن قلب قراهم بجعل عاليها سافلها يقول جل جلاله ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣].

و نحوُ هذا قول الله عز وجل ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم: ٥٣ – ٥٤].

والمؤتفكة هي: قرى قوم لوط، سدوم وما حولها: وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت رأساً على عقب، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه.

قال الحافظ ابن حجر: «أهلكهم الله عز وجل على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٧٨، ٨٠ بتصرف، ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٦، ١٩٧.

فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه، فصار عاليها سافلها...»[(١)].

و الصحيح هو ما صرح به القرآن من أنها خرجت مع لوط وبناته ثم التفتت في الطريق فهلكت قال تعالى في سورة هود ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١] فالاستثناء هنا من الالتفات والهلاك، لا من الخروج.

والسجيل: هو الحجارة الصلبة، والسجيل عند العرب كل شديد صلب.

والمنضود: هو المتواصل المتتابع كطلقات المدافع، قد أعد لعذابهم، والمسومة: هي مالها علامة مميزة، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به، فهي مصَوَّبةٌ موجَّهةٌ بدقةٍ متناهية.

الهدايات المستنبطة

* كما يعاقب الكافر على جميع جرائمه، وفي مقدمتها الكفر وهو أكبر الذنوب، فإنه يعاقب على سائر الذنوب كبيرها وصغيرها.
* **التناسب بين الجريمة والعقاب**؛ فقوم لوط كانوا يقذفون عابري السبيل بالحجارة فأيُّهم أصابه استأثر به واعتدى عليه، وقد انقلبوا وتمردوا على الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة فصار الشذوذُ عندهم معروفاً ومألوفاً وصارت الفاحشةُ عندهم حقًّا مشروعاً، وصار الطهرُ والعفافُ جريمةً يؤاخذُ بها أصحابُها، فكان الجزاءُ من جنس العمل، قلَبَ اللهُ قُرَاهُم فجعل عاليَها سافلَها، وأمطر عليهم حجارة من جهنم، وسلَّط عليهم الريحَ ترجُمُهم بالحجارة، وأخذتهم الصيحةُ وغير ذلك من ألوان العذاب التي كثرت لكثرة جرائمهم.

(١) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٧٨ .

* وصف الله لوطا ومن آمن به من أهل بيته بالشكر، قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وقد يتساءلُ البعض ويقول: أيُّ شكرٍ وقد ابتلوا بأرذلِ قوم، قوم لوطٍ الذينَ جمعوا بين الكفر والفسوق والعصيان والانحلال والتبجح والدناءة وسائر ما يُعدُّ من مساوئ الأخلاق؟ لكن أقول: إن أمر المؤمن كلَّه خير فهو بين الصبر والشكر، يحمد الله تعالى على الضراء، كما يحمده على السراء، يشكره تعالى في زمان الفتن وأوقات المحن كما يشكره في سائر الأوقات، يستنشقُ نسيم النعم ويتذوق حلاوة الهداية ويعتزُّ بالحق ويستعصم بالعفاف والطهر، سيَّما إذا رأى المجتمع من حوله يتردَّى في ظلمات الكفر، أو يتمرغ في أوحال الرذيلة، أو يكتوي بلهيبِ المعاصي، ويتقلب على جمرِها الحارّ، فيحمد الله تعالى على أن هداه وعصمه وطهَّره ونجَّاه من حمأة الرذيلة، فيشعرُ بجنة الرضا وبرد اليقين وحلاوة الإيمان، ولذة الطاعات.

* هلاك الظالمين ونجاة المتقين نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر.

-٦-

عاقبة المكذبين من آل فرعون

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ القمر: ٤١ – ٤٢

المناسبة

ما زال الحديث حول مواقف الكفار من الآيات والنذر حيث الجحود والإعراض والتمرُّد والعنادُ، والغفلة عن عاقبة من سبقهم إلى الهلاك والخسران.

التفسير الإجمالي

كذب آلُ فرعون كما كذَّب من سبقهم وكفروا بأنعم الله وجحدوا آياته فأخذهم الله تعالى أخذة شديدة عاتية، وجعل منهم عبرةً لكلِّ معتبر: قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٣].

من هذه الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام وكذب بها فرعون وآله: إخراج موسى عليه السلام يدَه بيضاء للناظرين، ومنها إلقاؤه عصاه فإذا هي ثُعبان مبين، ومنها أَخْذُ آلِ فرعون بالسِّنينَ وهو الجَدْب والقحط، ومنها إرسال الطُّوفان والجَراد والقُمَّلَ والضَّفادعَ والدَّمَ.

الهدايات المستنبطة

* عاقبةُ الكفرِ ونهايةُ التكذيب واحدةٌ، وهي الهلاك والدمار، وإن اختلفت الطُرُقُ وتنوعت الخواتيم، كما قال تعالى﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].
* الاعتبار والادِّكار من عاقبة المكذبين، وسنن الله في الأولين مهما طال بهم العهدُ.

-٧-

تعقيب وختام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٥٥].

المناسبة

جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ معقِّبةً على ما سبق من نُذُرٍ بمصيرِ المكذبينَ: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وأن الإنذار بهم موجَّهٌ لكلِّ مكذِّب، وعاقبة المكذبين ومصيرهم واحد، وإن اختلفت العقوبةُ.

التفسير الإجمالي

مصيرُ المكذبينَ واحدٌ

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن مصير من سبق من المكذبين بالآيات والنذر، يلتفت السياق إلى المكذبين بدعوة النبي ﷺ من كفار قريش وسائر من كفر بدعوة الإسلام، ليقرر وحدةَ مصيرِ المكذبين جميعاً، ونظير هذه الآيات قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ

إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٧].

التفسير الإجمالي

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾: أيظنُّ كفارُ قريشٍ أنهم في منأى عن هذه العقوبات الإلهية، فهل هم خيرٌ من هذه الأمم الهالكة ؟ أم أن براءتهم ثابتةٌ في علم الله مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ ؟ أو في الكتب المنزلة على الأنبياء ؟ أم أن حشدَهم واجتماع كلمتهم سوف تنصرُهم، احتمالاتٌ ثلاثٌ، أولها مبنيٌّ على عُجب الإنسان بنفسه وكأنها فوق المحاسبةِ والمساءلة، والثاني مبنيٌّ على اغتراره بحاله ورضاهُ واطمئنانه لكفره وكأنه قد ضمن النجاة ؟ والثالثة اغتراره بالقوة واجتماع الكلمة ؟ وكأنها تعصمُهُ من قدر الله ! وكلُّها احتمالاتٌ باطلةٌ واهيةٌ.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾: وعيدٌ شديدٌ بهزيمةٍ عاجلةٍ لحشودِ الكفر وجموعه وفرارهم أمام جندِ الحقِّ، وقد تحقق هذا في غزوة بدرٍ، فَقُتِلَ صناديدُ الكفرِ وأساطينُ الضلال وتفرَّقَ جمعهم ولاذ من نجا منهم بالفرارِ.

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾: وعيدٌ لهم بما يتنظرهم يوم القيامة من الويل والثبور وعظائم الأمور التي لا مفرَّ منها، والداهية الأمر الفظيع، الذي لا سبيل للخلاص منه.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾: إبانةٌ وإفصاحٌ عن مصيرهم في الآخرة، حيرةٌ وذهولٌ، ونارٌ تضرمُ بهم، كما كانوا في الدنيا في حيرة الضلال وجحيم الكفر، ولأنهم زعموا أن إتباع الرسل سيدفعهم إلى الضلال ويحوِّل حياتهم إلى جحيم، كما أخبر القرآنُ عن ثمود ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وكما قال كفار قريش للنبي ﷺ: ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

﴿يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾: وهذا من أشد أنواع العذاب الحسيِّ والمعنوي، حيث تمرَّغُ الوجوه وترغمُ الأنوف في قعر نار جهنم، ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

الهدايات المستنبطة

* سنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ومصير المكذبين واحدٌ لا محيص عنه.
* لن تغني عن المشركين قوتهم، ولن تعصمهم وحدتهم من عذاب الله الذي يحيق بهم.
* عذاب الآخرة: أدهى وأمر وأخزى وأكبر من عذاب الدنيا.

ختام السورة

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٥].

المناسبة

تأتي هذه الآيات في ختام السورة الكريمة لتقرر ما تقدم من بيان سنن الله تعالى الثابتة وأقداره النافذة، ومنها ما قدره تعالى من إهلاك المكذبين بعد إقامة الحجج عليهم وإمهالهم وفي هذا دعوةٌ للاعتبار بحال من سبق، والزجر عن المعاصي فهي مكتوبةٌ صغيرُها وكبيرُها، ثم مسك الختام مع عاقبة المتقين.

التفسير الإجمالي

كلُّ ما في هذا الكون من تصريف وأقدار إنما هو بتقدير وتدبير من رب العالمين، وأقداره

تعالى نافذة وأوامره عاجلةٌ فهي أسرع من لمح البصر، فهل من مُعْتَبِرٍ بمصيرِ الهالكينَ ؟ الذين أحصى الله تعالى عليهم أعمالهم، وعدَّ عليهم كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ.

ثم التفت السياق إلى مسك الختام وهو مصير المتقين في الآخرة بعد الإشارة إلى نجاتهم ونُصرتهم في الدنيا، قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾: جنات كثيرةٍ، وسعةٍ وضياء وأنهار جارية مطردة، أنهار الماء والخمر والعسل واللبن.

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

منازل الصادقين ومجالسهم وما أطيبَها﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾: «في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، عِنْدَ المَلِيكِ المُقْتَدِرِ: أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلِّها ومقدِّرِها، وهو مقتدرٌ على ما يشاءُ مما يطلبونَ ويريدونَ»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً « وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال: ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله»[(٢)].

وهو أحلى جوار وأطيب مقام بجوار الرحمن، وقد قيل الجارُ قبل الدارِ، فنعم الدار ونعم الجوار:

إني لأَحْسُدُ جارَكم لجواركم ... طُوبى لِمَن أضحى لدارِكَ جاراً
يا ليت جارَك باعني من دارِهِ ... شِبْراً لأُعْطِيهِ بِشِبْرٍ داراً

الهدايات المستنبطة

* الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٨١، ٨٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧ / ٤٨٧.

قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته.[(١)] والآياتُ ردٌّ على القدرية في كفرهم بالقدر، فكلُّ شيء بتقدير الله تعالى، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان كما في حديث جبريل وفيه قال عليه السلام للنبي ﷺ (... فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ)[(٢)].

وعَنْ نَافِع قَالَ كَانَ لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقَدَرِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّهُ (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ)[(٣)].

* لهذا الكون نظامٌ دقيقٌ وتدبيرٌ حكيمٌ، فكل شيء فيه بتقدير الله تعالى وتصريفه وتدبيره

* التوازن الدقيق في هذا الكون فكل شيء خلقه تعالى بتقدير محكم وحساب دقيق، قال تعالى﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾[الرعد: ٨].

* ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر: ١٩ - ٢١].

* هلاك المكذبين إنما هو بتقدير وتدبيرٍ من الله.

* التحذير من الذنوب صغيرها وكبيرها فهي مسطَّرةٌ معدودةٌ على مقارفها: فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٤٧

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٨.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩٠) رقم (٥٦٣٩)، والحاكم (١/ ١٥٨) رقم (٢٨٥) وقال: صحيح على شرط مسلم.

بْن مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: « كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»[(١)].

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاكَ التُّقَى

واصنعْ كماشٍ فوقَ أرْضِ ... الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرَى

لا تحقِرَنَّ صغيرةً ... إنَّ الجبالَ مِنَ الحَصى

*****

لا تحقِرَنَّ من الذنوبِ صغيرا ... إن الصغير غداً يعودُ كبيرا

إنّ الصغير وإن تقادم عهدُه ... عند الإله مسطّرٌ تسطيرا

فازجُرْ هواك عن البطالة لا تكنْ ... صعبَ القيادِ وشمِّرنْ تشميرا

إنّ المحبَّ إذا أحبَّ إلهَهُ ... طار الفؤادُ وأُلهم التفكيرا

فاسأل هدايتك الإله بنيّةٍ ... فكفى بربّك هادياً ونصيرا

* رفعة مكانة وعلو منزلة المتقين الصادقين فهم في مقعد صدق درجة لا يصل إليها إلا الصادقون، ومجتمع لا يضمُّ غير الصادقين، ومنزلِ طيبٍ يتسم بالصدق، والصدق من أصول الأخلاق وأعظم القربات وأسنى المقامات، الصدق مع الله ومع الناس ومع النفس. اللهم اجعلنا من الصادقين.

---

(١) سنن أبي داود كِتَاب السُّنَّةِ - بَاب لُزُومِ السُّنَّةِ حديث ٤٦١٣، ومسند أحمد ٢/ ٩٠ حديث ٥٦٣٩، والإبانة الكبرى لابن بطة ٣/ ٤٠٣ حديث ١٣٦٣

سورة الرحمن

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة الرحمن حيثُ استهلت بهذا الاسم الجليلِ، كما ظهرتْ في جميع آياتِها آثارُ الرحمةِ وظلالُها.

ب. فضائل السورة.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِه، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: (لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ).[1]

وعن ابن عمرﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قرأ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، أو قُرِئَتْ عِنْدَهُ، فقال (ما لِيَ أَسْمَعُ الجنَّ أحْسَنَ جَوابا لِربِّها مِنْكُمْ) ؟ قالوا: ماذا يا رسولَ الله ؟ قال: (ما أَتَيْتُ على قَوْلِ اللهِ:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ إلا قالت الجنُّ: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنا نُكَذِّبُ).[2]

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - بَاب وَمِنْ سُورَةِ الرحمن - حديث ٣٢١٣، ورواه الحاكم في المستدرك كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٢/ ٤٧٣، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات ٢/ ٤٨٩ حديث ٢٤٩٣، وفي دلائل النبوة باب ذكر إسلام الجن وما ظهر في ذلك من آيات... ٢/ ٢٣٢.

(٢) حديث حسن: رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار - كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٣/ ٧٤ حديث ٢٢٦٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٣٠١، وابن جرير في جامع البيان ٢٢/ ٢٣ ولهذا الحديث شاهد من الحديث السابق، وأورده السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة الرحمن ٦/ ١٥٥ وقال أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند=

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكيةٌ كلُّها، في قول الجمهور كما ذكر القرطبيُّ، ويشهدُ لذلك ما ورد من جهر ابن مسعودٍ بها أمام الكعبة، فعن عُروةَ بن الزُّبَير ﷺ قال: كَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بالْقُرْآن بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ اجْتَمَعَ يَوْماً أَصْحَابُ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قطّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ ! فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا؛ قَالُوا: إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْك، إنّما نُرِيدُ رَجُلاً لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ، قَالَ دَعُونِي فَإِنَّ اللهَ سَيَمْنَعُنِي، قَالَ فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا، حَتَّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ ثُمَّ قَرَأَ « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رَافِعاً بِهَا صَوْتَه﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ قَالَ ثُمّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَؤُهَا، قَالَ فتَأَمّلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَاذَا قَالَ ؟ قَالَ ثُمّ قَالُوا: إِنّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنّ يَبْلُغَ، ثُمّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثّرُوا فِي وَجْهِهِ فَقَالُوا لَهُ هَذَا الّذِي خَشِينَا عَلَيْك ! فَقَالَ مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللهِ أَهْوَنَ عَلَيّ مِنْهُمْ الْآنَ وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنّهُمْ بِمِثْلِهَا غَداً؛ قَالُوا: لَا، حَسْبُك، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ». [1]

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها سبعونَ وستٌّ: بصريٌّ، وسبعٌ مدنيان ومكي، وثمانٍ كوفيٌّ وشاميٌّ، اختلافها خمس آيات:

=صحيح، وأروده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثَّقه ابن حبان وضعَّفه غيرُه وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد كتاب التفسير باب تفسير سورة الرحمن ٧/ ١١٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٥١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٨٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٣٨ سيرة ابن هشام ١ / ٣١٤ فصل [أَوّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَمَا نَالَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَبِيلِ جَهْرِهِ بِالْقُرْآنِ].

١ - ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾ عَدَّهَا الكوفيُّ والشاميُّ، ولم يَعُدَّهَا الباقون آية.

٢ - ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾ لم يَعُدَّهَا المدنيان وعَدَّهَا الباقون.

٣ - ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ ﴾ لم يَعُدَّهَا المكي وعَدَّهَا الباقون.

٤ - ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ ﴾ [آية ٣٥] عَدَّهَا المدنيان والمكي، ولم يَعُدَّهَا الباقون.

٥ - ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ ﴾: لم يَعُدَّهَا البصريُّ، وعَدَّهَا الباقون.[1]

هـ. محور السورة.

تدور هذه السورة الكريمة حول بيان نعم الله تعالى في الدنيا والآخرة، والحث على شكرها، والتحذير من تكذيبها، أو الغفلة عنها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة الكريمة هي: سورة الرحمن، ومناسبتها لمحورها واضحةٌ جليةٌ فهذه النعم التي بيَّنتها السورة هي فضلٌ وعطاءٌ مِنَ الرَّحمنِ جلَّ وعلا.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورةِ الكريمةِ تمجيدٌ لله تعالى وتعظيمٌ له حيث استُهِلَّت باسمه «الرحمن»، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾ [الرحمن: ١]، كذلك خُتِمَتِ السورةُ بتمجيد الله تعالى وتعظيمه قال تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨ ﴾ [الرحمن: ٧٨].

---

(١) يراجع في ذلك: « أقوى العُدَد في معرفة العَدد » للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٢٤، وكتاب البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٣٧ ومرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

* ولما كانت نِعَمُ الله الجليلةُ رحمةً وإكراماً مِنَ اللهِ تعالى بدأت السورةُ باسم الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾، وخُتِمَتْ بوصفه تعالى ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨ ﴾.
* وحيث بدأتِ السورةُ باسم الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾، فقد خُتِمتْ ببيان رحمة الله تعالى بأوليائه وأصفيائه في الآخرة بدخولِ الجنة !
* ولما بدأت السورة بأجلِّ النعم نعمة القرآن: كان مسك الختام بأوفى النعم، نعمة دخول الجنة.

المناسبة بين السورة وسابقتها

بين سورة الرحمن، وبين سورة القمر: تناسبٌ جليٌّ وترابطٌ قويٌّ:

* فسورة القمر مفتتحةٌ بمعجزة انشقاق القمر، بينما استُهلت سورة الرحمن بالمعجزة الكبرى التي أيّد الله عز وجل بها نبيَّه ﷺ: معجزة القرآن الكريم.
* التناسب بين خاتمة سورة القمر مع مطلع سورة الرحمن ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر:٥٥]، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾[الرحمن: ١]: فالمليك المقتدر هو الرحمن عز وجل، وبين اتصافه تعالى بالملك والاقتدار والرحمة، مناسبةٌ واضحةٌ؛ لأنه لا يملك الرحمة ولا يقدر عليها إلا المليك المقتدر.
* ختامُ السورتين بالثناء على الله تعالى ففي نهاية سورة القمر وصفه تعالى بالملك والقدرة، قال تعالى﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾، وفي نهاية سورة الرحمن تنزيه وتقديس وتمجيد، وبيان اتصافه تعالى بذي الجلال والإكرام قال تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨ ﴾ [الرحمن: ٧٨].
* ختمت السورتان بنعيم المتقين في الجنان، ففي ختام سورة القمر يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥]، كما ختمت سورة الرحمن بذلك.

* لما بينت سورة القمر إعراض الكفار عن الآيات والنذر وتكذيبهم بها، ذكرت سورة الرحمن تكذيبهم بآلاء الله تعالى وغفلتهم عنها: قال تعالى في مطلع سورة القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ [القمر: ١ – ٥]، كما بيَّنت السورةُ عاقبةَ بعضِ الأمم المكذبة: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون..

* في سورة الرحمن تكرر قوله تعالى﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: إحدى وثلاثين مرة. وفي سورة القمر دعوةٌ إلى النظر والاعتبار بالآيات والنذر، وفي سورة الرحمن دعوةٌ للنظر في نعم الله تعالى والتفكر فيها وأداء شكرها والتحذير من نكرانها.

* أتت سورة الرحمن مفصِّلَةً لما ورد في سورة القمر من أحوال القيامة وأهوالها ووصف الجنة والنار.

تحدثت السورتان عن نعمة القرآن، فبينت سورة القمر تيسير الله تعالى لكتابه حيث تكرر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر: ١٧] أربع مرات في السورة تذكيرا وتقريرا ولفتا لهذا المعنى، بينما استهلت سورة الرحمن بنعمة تعليم القرآن قال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن: ١ – ٢].

* في سورة القمر ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر: ٤٩–٥٠]، وفي سورة الرحمن﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٩ – ٣٠].

والصلة بين هذه الآيات لا تخفى: فلهذا الكون خالق رازق مدبر مقدر، ولهذا الكون نظامٌ محكمٌ، وتصريفٌ عجيبٌ، وتناسقٌ بديعٌ، وميزانٌ دقيقٌ.

* في سورة القمر ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٣-١٥].

وفي سورة الرحمن ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وتلك مقابلةٌ لطيفة ومناسبةٌ دقيقةٌ حيث ذكر الله تعالى في سورة القمر نعمته على نبيه نوح ﷺ ومن آمن معه بسفينة النجاة، وفي سورة الرحمن ذكر امتنانه على عباده بالجوار المنشئات، ويُقالُ إن أولَ من صنع السفينةَ نوحُ ﷺ، ولقد بيَّن القرآن الكريم أن صناعة نوح للسفينة كانت بتوجيه وإرشاد وعناية ورعاية من الله تعالى قال سبحانه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، حيث تنتظمُ آياتُ السورة مع محورها انتظام حبَّات اللؤلؤ في عقدها النضيد، فتدورُ الآياتُ جميعها حول نعم الرحمن جلَّ وعلا، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن نعم الله تعالى، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

* حديث السورتين عن القيامة وأهوالها، وعن الجنة والنار، ولقد فصلت سورة الرحمن ما أجملته سورة القمر.

* حديث السورتين عن نعمة تيسير القرآن وتعليمه.

* حديث السورتين عن أقدار الله تعالى وتدبيره لهذا الكون وتصريفه لشؤونه.

* حديث سورة القمر عن جزاء الشاكرين، قال تعالى في قصة لوط مع قومه﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾، وقد فصَّلت سورة الرحمن في نعم الله تعالى، وحذَّرت من التكذيب بها.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول تعداد النعم كان استفتاح السورة باسم الله﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾ واهب النعم، كما بدأت السورة الكريمة بأجلِّ النعم وأسناها نعمة إنزال القرآن، قال تعالى﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ «بُدىءَ بتعليم القُرآنِ فقيلَ:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ لأنَّها أعظمُ النعم شأناً وأرفعُها مكاناً كيفَ لَا وهُو مدارٌ للسعادةِ الدينيةِ والدنيويةِ، معيارٌ على سائرِ الكتبِ السماويةِ، ما منْ مرصدٍ يرنُو إليه أحداقُ الأمم إلا وهُو منشؤُه ومناطُه، ولا مقصدٍ يمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ إلا وهُو منهجُه وصراطُه، وإسنادُ تعليمِه إلى اسم الرَّحمنِ للإيذانِ بأنَّه من آثارِ الرحمةِ الواسعةِ وأحكامِها، وقد اقتُصرَ على ذكرِه تنبيهاً على أصالتِه وجلالةِ قدرِه»[1].

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٧٦.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

بعد وقفة متأنية ونظرة شاملة لهذه السورة الكريمة بدا لي تقسيمها إلى سبعة مقاطع، تدور كلها حول نعم الرحمن:

المقطع الأول: من نعم الله الظاهرة

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٣]

مناسبة المقطع مع المحور

تستهل السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل: اسم الله تعالى الذي يحملُ لنا بشائر الرحمات ونسائم الخيرات، يأتي هذا الاسمُ في مستهلِّ السورة الكريمة ليكون دليلا لها وعنوانا عليها وإشارةً لمضمونها، ومحورا لآياتها، فتدورُ السورة الكريمة حول آثار رحمة الله تعالى، وآلائه التي لا تعدُّ ولا تحصى.

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾

تستهل السورة الكريمة باسم جليل تفرَّد به ربُّ العزة فلا يطلق على أحدٍ سواه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾، وهو من الرحمة بل هو الرحمة في أجلِّ معانيها وأعظم آثارها، ومن رحمة الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم إنزاله القرآن وتيسير تعلمه تلاوةً وتدبُّراً وحفظاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾، فكما استهلت السورة بهذا الاسم الجليل فقد بدأت بأجلِّ النعم وأسناها:

نعمةُ القرآن، وهذا من براعة الاستهلال وحسن المطلع.

فالقرآن رحمة ربانية ونعمة إلهية، حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ، وحجةٌ قاطعةٌ، أنزله الله هداية ورحمة، ونوراً وحكمة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال جل وعلا ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال عز وجل﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

فلما كانت السورة الكريمة تهدفُ إلى تعداد نعم الرحمن في الدارين ناسب ذلك افتتاحُها بهذا الاسم الجليل ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾، وبدأ بأوفر النعم وأجلِّها وهو القرآن؛ أساسُ الدين ومصدرُه الثرُّ، وأصلُ الشرع ومنبعُهُ الصافي، وأقومُ الهدي، وأعزُّ الكتب، وأشملُها، وأصدقُ الحديث وأعذبُهُ.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾

تذكِّرُنا السورةُ الكريمةُ بنعم الله تعالى الجليلة وآلائه الجزيلة ومن أهمها نعمة خلق الإنسان، فهل أدى الإنسان شكر هذه النعمة ؟ وهل تفكَّر في هذه الآية العجيبة ؟ وهل نَظَرَ نظرَةَ تأمُّلٍ واعتبارٍ في أطوار خلقه ؟ وهل تأمَّل في نعمة البيانِ التي تميَّز بها عن كثيرٍ من الخلق ! فتمكن من الفهم والإفهام، والتعبير عن مطالبه، والإعراب عن مشاعره.

قال الآلوسي: والمراد به «المنطق الفصيح المُعْرِبُ عما في الضمير»[(١)].

واختار الطبري عموم البيان هنا لكل ما يحتاجه الإنسان في دينه ودنياه: وفي ذلك يقول: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله علَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جلّ ثناؤه لم يخصص بخبره ذلك، أنه علَّمه من البيان بعضا دون بعض، بل عمّ فقال: علَّمه البيان، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه»[(٢)].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾

انتقل السياق من خلق الإنسان إلى خلق الأكوان، فبين تعالى انسجام هذا الكون وتناسقه، واتساقه عبرَ نظام محكم وحساب دقيق، قال تعالى﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾ أي يجريانِ بحسابٍ دقيقٍ ونظامٍ محكمٍ لا يتبدلُ ولا يتحوَّلُ.

ومن دقة هذا الحساب أن به تعرف الأوقات والليالي والأيام والشهور والفصول والسنين.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: قَالَ: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾: « بِحِسَابٍ وَمَنَازِلَ»[(٣)].

وعن مجاهد قال:﴿ بِحُسۡبَانٖ ﴾ قال: « كحسبان الرحا»[(٤)]، لأنهما يدوران في الفلك كما تدور الرحا، فلا تخرجُ عن مدارها.

ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي ٢٠ / ١١٣.
(٢) جامع البيان للطبري ٢٢ / ٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٢.
(٤) جامع البيان للطبري ٢٢ / ١٠.

وقوله جل وعلا ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأنعام: ٩٦].

فهل انتبهُ الإنسان إلى هذه النعم الظاهرة، نعمة الشمس والقمر وما يتفرع عنهما من نعمٍ لا تُحصى ؟ أم أن وضوحَهما وإلفَهُما كانا مدعاةً للغفلةِ والنسيانِ ؟

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾

النجم والشجر يسجدان لله تعالى في خشوعٍ وخُضوعٍ وامتثالٍ وإجلالٍ لمقام الرحمن، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[النحل: ٤٩ - ٥٠].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾، قَالَ: «النَّجْمُ مَا انْبَسَطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَالشَّجَرُ مَا كَانَ عَلَى سَاقٍ». (١)

وعن مجاهدٍ في قولِهِ: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾: قال: نجوم السماء، وأشجار الأرض، يسجدان بكرة وعشياً (٢).

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾: رفع السماء بغير عمد نراها، وبالإحكام والإتقان أبدعها وبناها

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٤ / ٢٢٦.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧/ ٤٤٢.

وبالنجوم والكواكب رصَّعها وحلَّاها.

﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل. المعنى: أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ ﴾، أي لا تجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير «ألا تطغوا» يعني لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل،﴿ وَلَا تُخۡسِرُواْ ﴾، ولا تنقصوا ﴿ ٱلۡمِيزَانَ ﴾، ولا تطففوا في الكيل والوزن.

وقال ابن كثير: « وقوله:﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ ﴾ يعني: العدل، كما قال:﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال ها هنا:﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ ﴾ [الشعراء:١٨١ - ١٨٢]».[١]

وأما وضع الميزان فإشارة إلى العدل، وفيه لطيفة « وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخصَّ الأمور له وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥] ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب».[٢]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٩٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٥/ ٦٠.

والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]، والثاني بمعنى المصدر ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٨] أي الوزن، والثالث للمفعول: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ أي الموزون، وذكر الكل بلفظ الميزان لَمِا بيَّنا أن الميزان أشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾[القيامة:١٨] وبمعنى المقروء في قوله:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٧ - ١٩].

وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١].[1]

وبالميزان يتحقق العدلُ والإنصافُ ويرتفع الجَورُ، ويضمنُ الناسُ حقوقهم.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ بسطها ومهدها ويسَّرها وسلكها سبلا وجعل فيها معايش وقدَّر فيها أقواتها، وأنبت أشجارَها وأزهارها، وأجرى أنهارها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارَها، مراعاة لمصالح الأنام.

هذه الأرض التي منها وعليها نشأنا، وبها درجنا، ومن خيراتها أكلنا وشربنا ونعمنا، هل توقفنا مرةً أمام هذه النعمة التي تحوينا وتضمُّنا ؟ هل أدينا شكرها ؟ هل وفينا حقها ؟ هل تدبرنا أمرها ؟ هل استشعرنا عظمةَ خالقها الذي يسرها وبسطها ومهدها وقدر فيها الأقوات والخيرات وأودع فيها الكنوز والأسرار؟ فإذ بها نعمةٌ للناسِ جميعاً.

آياتٌ كثيرةٌ تذكرُنا بهذه النعمة الجليلة، منها قولُهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩].

---

(١) نفس المرجع ١٥ / ٥٧.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣١].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧ – ٤٨].

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٣].

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾: أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهَّدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقرَّ بها على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

ولقد يسَّر لهم فيها الحياة، وقدَّر فيها أقواتها ومن أشهاها الفاكهة، ومن أكثرها منافع: النخيل، وفي الآية إشارةٌ إلى جمال هيئتها، فضلا عن حلاوةِ ثمرتها، مما يزيد الناظرَ بهجةً ومتعةً، كما قال تعالى عن جمالها وشموخها﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[ق: ١٠].

والأكمام هي أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ التي ينبثق عنها الثمرُ.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل بالنخلة، حيث لا يسقُطُ ورقُها، ولا ينقطِعُ نفعُها، فكلُّ ما فيها نافعٌ مفيدٌ، فضلا عن ثمرها الطيِّب: ففي الصحيحين عن عَبْدَ اللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «إِنّ مِنَ الشّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا. وَإِنّهَا مَثَلُ الْمُسْلِم. فَحَدّثُونِي مَا هِيَ ؟» فَوَقَعَ النّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنّهَا النّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمّ قَالُوا: حَدّثْنَا مَا هِيَ ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: فَقَالَ «هِيَ النّخْلَةُ»، قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النّخْلَةُ، أَحَبّ إِلَيّ مِنْ كَذَا وَكَذَا».[1]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحياء في العلم الحديث رقم١٣١ : ورواه مسلم في صحيحه عنه صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. باب=

وعن شموخ هذه الشجرة الأصيلةِ، وعطائِها الدائم، وتساميها يقول الشاعر:

كُــنْ كالنَّخيلِ عنِ الأحقَادِ مُرْتَفِعاً ... يُرْمَـى بِصَخْـرٍ فيَرْمِـي أَحْسَنَ الثَّمَرِ

ثم ذكر الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية، وذكر منها الريحان.

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم ذكر تعالى من تمام مِنَنِه على عباده ومن كريم عطائه أن أمدَّ الخلق بما يتقوَّتون به وما يدَّخرونه، وأتحفهم بطعامهم وأتمَّ المنةَ عليهم بطعام أنعامهم وماشيتهم، فضلا عما ينبت في الأرض من ورودٍ ورياحين، وهذا من فضلِ الكريم ومن بديع صنعِه، أن جمع لهم بين ما يتقوَّتون به وبين ما يتفكَّهون مما يُمتعُ الأنظار ويخلبُ الأفكار، فتقرُّ العيونُ بآنقِ مرآه، في الحقول والبساتين، وعلى الموائد، وتفعَمُ الأنوفُ بعبق شذاه، وتلذُّ الأفواهُ بطيب جناه.

والعصف: سيقانُ النبات وأوراقه التي ينتفعُ بها في غذاء الأنعام والماشيةِ وفي غير ذلك من المنافع.

وبدأ بالفاكهة وختم بالريحان ليجمع بين اللذة بالغذاء والتمتُّعِ بالروائحِ الطيبةِ، والمناظر المبهجة.

ووصفُ الحَبّ بأنه ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ للتذكير بمنَّةِ جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله وبيادره، ونظير ذلك وصف النخل بذات الأكمام.

الهدايات المستنبطة

* بدأت السورة الكريمة باسم الله الرحمن وهو مشتقٌّ من الرحمةِ، والرحمةُ من أعظم وأجلِّ وأجملِ الصفاتِ، وأحبِّها إلى النفوس، قال تعالى ﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

=مثل المؤمن مثل النخلة ٦٣ – (٢٨١١).

ﭐﻟْﺂﺧِﺮَﺓِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال جلَّ وعلا﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قد فُرِّقَ بينها وبين ولدها، فجعلت كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيّاً من السَّبي أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بصدرها وهي تدورُ على ولدها، فلما وجدته ضَمَّتْهُ وألقمتْهُ ثديَها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ» ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: « فو اللهِ: للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[2].

وحظ العبد من هذا الاسم: أن يرجو رحمة ربه ويطمعَ في مغفرته ورضوانه، وأن يكون رحيماً بالضعفاء، فيعينهم، وبالغافلين فيبصِّرهم، وبالمعرضينَ فيقبلُ عليهم، ويذكرهم.

ولو تراحم الناسُ فيما بينهم لما أمسى بينَهم فقيرٌ ولا مظلومٌ، ولا بات فيهم جائعٌ ولا محرومٌ.

---

(١) رواه البخاري فى صحيحه كتاب الأدب جعل الله الرحمة في مائة جزء، حديث ٦٠٠، ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الرقاق باب سعة رحمة الله، حديث ٢٥٨٥ صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٦٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ: صحيح البخاري كتاب الأدب باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. في الحديث ٥٦٥٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه ﷺ صحيح مسلم كتاب التوبة باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٤٥).

فالرحمة خلق كريم من أخلاق المؤمن، وسمةٌ من سماتِ المجتمع المسلم.

قال تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[1].

* أشارت المقدمة إلى نعمة من أجل النعم، نعمة العلم الذي تحيا به الأرواح والقلوب وتنهض به الأمم والشعوب، قال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾، فالعلم رتبةٌ جليلة، ومنزلة أثيلة، ومزيَّةٌ وفضيلةٌ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ ﴾ [النمل: ١٥].

وواجب العالم أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة، وأن يعمل بها علم ولا يبخل بعلمه على أحد ولا يكتمه، وأن يوظِّفه في نفع الناس.

هذا ومما يؤسف له في هذا العالم الذي نكابد هومَه ونعايش مشكلاته ونكتوي بنار أزماته أن يُوَجَّه العلمُ عن غير مساره الصحيح ويوظَّف في كثير من الأحيان إلى الإضرار بالإنسانية من قِبَلِ من لا خلاق لهم ولا ذمة من الكفرة والملاحدة الذين فرحوا بما عندهم من علم وحرموا الإنسانية من اقتطاف ثمار العلم النافعة، بل صار العلم وبالا ونقمة، حتى أنفقت «المليارات» في مشاريع مفسدةٍ للبيئةِ والفطرةِ، وفي تطوير أسلحة الإبادة الشاملة، حتى

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي عنهما كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين حديث ٢٥٨٦، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٤٠/ ٢٧٠، والبيهقي في السنن ٣/ ٣٥٣.

غدا تقدم العلم نذيراً ومؤشراً على تفاقم خطر التلوث البيئي، وكم والله تُبدد الميزانيات وتُهدر الطاقات وتضيع الأوقات ! بينما يعيش أغلب البشر في فقرٍ وحرمانٍ، وإنني لأكتب هذه السطور بينما نقف على أبواب كارثة – إن لم نكن قد أقحمنا فيها بالفعل – وهي أزمة الغذاء العالمية، بسبب نقصٍ حادٍّ في المحاصيل الزراعية، وغلاء فاحش واستغلال بشع ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أهذا جَنَى العلم الذي قد غرستَهُ ... وهذا الذي قد كنتَ ترجوهُ وتعلمُ
وهـذا هو الحـظُّ الـذي قد رضيتَه ... لنفسِكَ في الدارينِ لو كنتَ تفهمُ
وهـذا هـو الـربحُ الـذي كسبتَهُ ... لعمرك لا ربحٌ ولا الأصلُ يسلَمُ
بـخلـتَ بـشيء لا يـضُّرك بـذلُـهُ ... وجـدتَ بـشيء مـثلُهُ لا يـُقَـوَّمُ
وبـعـتَ نـعـيـماً لا انـقـضـاءَ له ... بـبـخـسٍ عـن قـلـيـلٍ سـيعـدمُ
وتهـدمُ مـا تبنى بكفَّيكَ جاهداً ... فأنت مـدى الأيـامِ تبني وتـهدمُ
وتـزعُـمُ مـع هـذا بـأنـك عـارفٌ ... كذبتَ يقيناً في الـذي أنـتَ تزعُمُ
ومـا أنـتَ إلا جـاهـلٌ ثـم ظـالمٌ ... وإنَّـكَ بـين الجـاهـلـينَ مـقـدمُ

* المتأمل في آيات السورة الكريمة يجد آيات باهرات ودلائل نيرات على ذلك الجمال الرباني الذي أودعه الخالق جل وعلا في هذا الكون الفسيح: سماء ذات أبراج قد زينتها كواكب نيرات، وأرض ذات فجاج لو تأملتها في جناتها الباسقة وروضاتها الباسمة لمتَّعتَ ناظريكَ بسحرها وجمالها وروعتها، فضلا عن تلك البحار وما فيها من آيات الجمال وما حوته من لآلئ ومرجان في غايةِ الإبداع، وبشتى الألوان وغاية الإتقان فسبحان مبدع الأكوان:

تِلكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري	حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
الأَرضُ حَولَكَ وَالسَماءُ اهتَزَّتا	لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ
مِن كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها	أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع	لِأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ
مَن شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ	تَمحو أَثيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ [(١)]

******

تأمَّلْ في خلالِ الأرضِ وانظُرْ	إلى آثارِ ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ مِنْ لُجَينٍ شاخِصَاتٌ	بأحداقٍ هي الذهبُ السبيكُ
على قُضُبِ الزبرجدِ شاهداتٌ	بأن الله ليس له شريكُ [(٢)]

المقطع الثاني: نعمة الخلق

قَالَ تَعَالَى:﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله

تأتي نعمة الخلق في مقدمة النعم الربانية فهي أصلُ النعم وأساسها من هنا كان الحديث عنها في هذه السورة الجليلة.

---

(١) الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي.

(٢) الأبيات للعالم المحدث الواعظ عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣ هـ.

التفسير الإجمالي

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوتٌ إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال الذي تغيرت رائحته بطول بقائه، والفخار الطين الذي تعرض لشمس أو أدخل نارا شبه به الصلصال لشدة يبسه، وفي هذه الآية بيان لطور من أطوار خلق آدم، حيث خلقه الله من تراب قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥].

والمراد هنا خلق أبيهم آدم، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن هذا التراب اختلط بالماء فصار طيناً، ولذا قال تعالى ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: ٧١] ثم خُمِّرَ هذا الطين فصار حمأً مسنوناً، أي طيناً مصوَّرا كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦] الآية. وقال تعالى: ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً. كما قال هنا: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١٤].

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

وخلق الجانّ من مارج من نار، وهو ما اختلط بعضه ببعض، وقيل لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقيل: مارج من نار لا دخان لها.[1]

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }، أيها الثقلان، يريد من هذه الأشياء المذكورة.

وتكرار هذه الآية الكريمة التي تعدُّ تذييلاً لما سبقها من نعم؛ نظرا لتعدد هذه النعم

(١) جامع البيان للطبري ١٨ / ٤٠.

وتنوعها، « وكرَّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصِّل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكِرُها ويكفرها: ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً، فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملا، فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حَسَنٌ تقريراً» [(١)].

وعن ابن قتيبة « أن الله عدَّد في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خلقه آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع كل خلة وَصَفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها». وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: التكريرُ طردٌ للغفلةِ وتأكيدٌ للحُجةِ. [(٢)]

ومن لطائف هذا التكرار: ما ذكره النسفي في تفسيره: حيث قال رحمه الله: « وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما» [(٣)].

الهدايات المستنبطة من المقطع

* إعجاز القرآن الكريم في حديثه عن خلق الإنسان حيث بيَّن أصل مادة تكوينه وهي التراب الذي صار طينا لزجا ثم تشكَّل وتحددت معالمه وهو المسنون ومنه سنة الوجه أي هيئته وملامحه، ثم يَبِسَ فصار صلصالا كالفخار، فصار الإنسان بهذا الشكل حتى نفخ الله فيه الروح كما قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨ – ٢٩].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٢٨٤.
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٤٣، ومشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٩ .
(٣) مدارك التنزيل للنسفي ٤ / ٢٠٦.

هذا « وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض. فهو يتكون من الكربون، والأوكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت والآزوت والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب. وإن اختلفت نسبها من إنسان لآخر »[1].

* تثيرُ الآياتُ الكريمةُ فينا تساؤلات عديدة: هل نحمَد الله تعالى على أن خلقنا في أحسن تقويم ؟ وهل نؤدي شكر هذه النعمة ؟ وهل تفكرنا في غاية وجودنا في هذا الكون، وهو عبادة الله تعالى حق العبادة كما قال سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

بين المقطع ومحور السورة

* الصلة واضحةٌ جليةٌ حيثُ التذكيرُ بنعمِ اللهِ تعالى التي لا تُحْصَى والتي من أهمِّها نعمة الخلق، فهي أصل النعم.

المقطع الثالث: من نعم الله في الآفاق

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما سبقه

لما تحدث سبحانه عن خلق الثقلين الإنس والجان، ناسب ذلك ذكر الخافقين المشرق

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥١ بتصرف.

والمغرب، فكما خلق الله الإنس والجان مع ما بينهم من تنافر واختلاف، فكذلك خلق سبحانه المشرق والمغرب مع ما بينهما من بعدٍ واختلاف، حتى يضرب بهما المثل في البعد كما ورد في قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكما قال الشاعر:

سـارَت مشرِّقةً وَسِـرتُ مغرِّبـا		شتـانَ بين مشـرِّقٍ ومُغـرِّبِ

وكذلك خلق الله البحرين مختلفينِ فلا امتزاج بينهما، وفي هذا التنوع والاختلاف فوائد ومنافع لا تحصى، فقد ناسب الحديثُ عن المشرقينِ والمغربينِ الحديثَ عن عالم البحار والأنهار حيث الآفاق الرحيبة والعوالم العجيبة.

بين المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع محور السورة الذي يدور حول نعمِ الله تعالى على الأنام.

التفسير الإجمالي

من نعم الله تعالى الجزيلة وآلائه الجليلة ربوبيتُه سبحانه للمشرقينِ والمغربينِ خلقاً وملكاً وتقديراً وتصريفاً وعنايةً ولطفا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِي قَوْلِه:﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ ﴾، قَالَ: «لِلشَّمْسِ مَطْلَعٌ فِي الشِّتَاءِ، وَمَغْرِبٌ فِي الشِّتَاءِ، وَمَطْلَعٌ فِي الصَّيْفِ، وَمَغْرِبٌ فِي الصَّيْفِ، غَيْرُ مَطَلِعِهَا فِي الشِّتَاءِ وَغَيْرُ مَغَرِبِهَا فِي الشِّتَاءِ»[1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء، وانتظام الأوقات، واختلاف الفصول، مما يتلاءم مع منافع الأنام ويتواكب مع مصالحهم.

﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٣.

ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾: ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذُكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقهما والامتنان بما أودعهما من منافع الناس.

﴿ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٌ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من أجرام الأرض لا يبغي أحدهما على صاحبه، وقيل لا يختلطان ولا يمتزجان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق.

﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾: اللؤلؤ معروف ويتكون في الأصداف، والمرجان كائنٌ بحري ذو أطرافٍ دقيقة ينشأ ليّناً ثُمَّ يتحجّر ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية، وألوانه بديعةٌ.

وفي ذكر اللؤلؤ والمرجان لفت الأنظار إلى لطائف وجماليات النعم التي أودعها الله في هذا الكون، فلا تقع العينُ إلا على جمالٍ.

فاللؤلؤ والمرجان من تمام نعمه تعالى على عباده ومن لطائف جوده، وفي التفكر فيهما ما يزيدُ المؤمن تعظيماً وإجلالاً للخالق جل وعلا.

﴿ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾: الجواري: جمع جارية وهي السفينة، ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾ أي المرفوعات المصنوعات، ﴿ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل.

وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن للإشارة إلى أن كونهم هم منشِئُوها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل.

الهدايات المستنبطة

* في كل يوم تشرق الشمس علينا ثم تغرب آخر النهار، وفي هذا من النعم ما لا يحصى، وفي

اختلاف المشارق والمغارب باختلاف فصول السنة وأيامها نعمٌ جليلةٌ وفوائدُ عظيمةٌ لا يدركها إلا العالِمون.

* البحار والأنهار من أجل النعم ومن لطف الله تعالى وحكمته أن جعل لماء النهر والبحر مزايا وخصائص تتناسب مع طبيعةِ الحياة وحاجات الكائنات، فللبحر العذب خصائصه ومزاياه وفيه كائناته وعوالِمه، وكذلك البحر المالح له مزايا لا تنحصر وله خصائصه وله أحياؤه وعوالمه، وهذا التنوع العجيب في عالم البحار والأنهار ينصبُّ في صالح الإنسانِ كما يستفيد منه الجان؛ ولذا جاء الخطاب موجها إلى الثقلين معا مذكرا بهذه النعمة التي تشملهما.

والبحران المشار إليهما هما البحرُ المالحُ والبحرُ العذبُ، ويشملُ الأولُ البحارَ والمحيطات، ويشمل الثاني الأنهار، ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله، وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يأت مصادفة ولا جزافاً، فهو مقدر تقديراً عجيباً، الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض؛ ويشغل اليابس الربع، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة.

وفي قلب البحار اكتشف الناس ينابيع الماء العذب، وهذا من عجيب لطف الله وبديع صنعه.

وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع - ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط -.

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس؛ وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله. وأعظمها الأنهار. والتوافق بين سعة

المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب.

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة، من نبات وحيوان وإنسان..

وتصب جميع الأنهار - تقريباً - في البحار. هي التي تنقل إليها أملاح الأرض، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها. ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله. فلا يبغيان، فلا عجب يذكر البحرين، وما بينهما من برزخ، في مجال الآلاء ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾. ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم[1].

من لطائف النعم

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾

المناسبة

بعد الحديث عن تلك النعم العاجلة ذكَّر تعالى بنعمةٍ هي السبيلُ أو الوسيلةُ إلى تحققِ النعمِ الآجلةِ، نعمِ الآخرةِ، نعمة الموت حيث الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وقد قيل:

لا تظنوا الموتَ موتاً ... إنَّه لحياةٌ وهْوَ غاياتُ المُنى
لا ترعكُمْ هجمةُ الموتِ ... فمَا هُوَ إلا الانتقالُ من هُنا

(١) يراجع: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٤٥٣.

كما تناولت الآياتُ طائفةً من دقائقِ النعم ولطائف الكرمِ، ومنها نعمة تدبير هذا الكون وتصريفه ونعمة الحساب والجزاء في الآخرة.

بين المقطع ومحور السورة

الفناء من نعم الله تعالى على عباده وهو سنةُ الوجودُ، وقنطرة إلى دار الخلود.

ولولا الموتُ لاستحالت الحياةُ، ولولا الفناء ما كان البقاء، والموت كما أسلفنا راحةٌ للمؤمن وراحةٌ من الكافر والمنافق، من هنا تنتظمُ الآيات مع أخواتها في عِقدِ النعم.

التفسير الإجمالي

جاءت هذه الآياتُ حدا فاصلا بين نعم الدنيا والآخرة، فهي تتحدث عن الموت وهو القنطرةُ والممرُّ إلى نعيمِ الآخرة، وكلُّ ما في الوجودِ من مخلوقاتٍ، لا بدَّ لها من تجرُّع كأسِ الموتِ، فلا يبقى إلا الحيُّ تبارك وتعالى ذو الجلال والهيبة والعظمة والسلطان، وصاحب العطاء والجودِ والإكرام.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فكل من على هذه البسيطة من كائناتٍ ستنقضي أيامها، وتذبُلُ براعمُها، وتذوي أغصانُها، وتتساقطُ أوراقُها، وينطفئ بريقُها وتنطوي صفحاتُها، قال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال جلَّ وعلا﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

يمضي الصغيرُ إذا انقضتْ أيامُهُ إِثْرَ الكبيرِ ويولدُ المولودُ
والناسُ في قَسَمِ المنيَّةِ بينَهُمْ كالزرعِ منْهُ قائمٌ وحصيدُ

وقال قس بن ساعدة:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فالله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، وهو الذي تقصده الخلائق في قضاء حوائجها وهو الغنيُّ وكلُّ الخلق مفتقرٌ إليه، وكل يوم هو في شأن، مِنْ إحياء وإماتة، وقبض وبَسْطِ، وغير ذلك من تصريفه وتدبيره لشؤون خلقه بما تقتضيه الحكمةُ، وهذا من تمام إنعامه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

أي للحسابِ، وفي هذا وعيدٌ للمسيء ووعدٌ للمحسنِ، « ولما كان تخويفه لعباده نعمةً منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم فقال ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ »[(١)]

الهدايات المستنبطة

الموت نعمةٌ من الله: في قوله تعالى﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾: [الرحمن: ٢٦-٢٨] ما يفيد أن الموت من آلاء الله عز وجل أي من نعمه التي لا يكذبُ بها إلا جاحدٌ معاندٌ، فإن الموتَ بوابةٌ إلى الآخرة، وقنطرةٌ لا بدَّ من عبورها، فالموت نعمة من الله لأنه يذكرنا بالحياة وما يذكر بالنعمة فهو نعمة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٨٣٠.

والموت نعمة من الله لأنه من أعظم العظات وأبلغ العبر.

والموت نعمة من الله لأن الصبر والاحتساب عند فقد الأحباب يفضي إلى جزيل الثواب.

والموت نعمة من الله لأنه انتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، ليجزي المؤمن بإيمانه وإحسانه، ويجازي الكافر بكفره وعصيانه.

والموت نعمة من الله تعالى؛ فكم قصم الله بالموت أعناق جبابرة فأراح منهم العباد والبلاد، ونقلهم من القصور إلى أعماق القبور، ومن بين الحشود والجنود إلى بيت بابه مسدود، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان: ٢٩]، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

والموت نعمة من الله: فبالموت يستريح المؤمن من هموم الدنيا ونكدها ومحنها وفتنها وآفاتها، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ ﷺ أَنَّهُ: « كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابّ» [(١)].

ولولا أن الله كتب الموت على الأحياء لأصبحت الدنيا متحفاً مفتوحاً للمعمرين فهذا عمره خمسمائة عام، وهذا عمره ألفان، وهذا عمره سبعة، وهكذا تمتلئ الدنيا بالمعمِّرين.

« فلو أن ذبابتين تتوالدان بلا موت لمدة خمس سنوات لشكل ذلك الذباب طبقة حول

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب سكرات الموت حديث ٦٥١٢، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز بَاب مَا جَاءَ فِي مُسْتَرِيحٍ وَمُسْتَرَاحٍ مِنْهُ، حديث ٦١ - (٩٥٠) والنسائي في السنن عنه كتاب الجنائز باب اسْتِرَاحَةُ الْمُؤْمِنِ بِالْمَوْتِ حديث ١٩٠٤. والإمام مالك في الموطأ كِتَاب الْجَنَائِزِ بَاب جَامِعِ الْجَنَائِزِ ٢ / ١٦٨.

الكرة الأرضية سمكها خمس سنتيمترات من الذباب»[١].

ومن هنا فإن الموت نعمة من الله، به يتحقق التوازن في هذا الكون.

* وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا: إنَّ اللَّهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ.

* ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً، ويَسْتُرَ عيباً، ويُذْهِبَ كرباً، ويُطَيِّبُ قلباً، ويُقْصي عَبْداً ويُدْني عبداً... إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعَةٍ بِرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ بينه وبين عبده - عن البقاء - بعيد، ويقال: كل يوم هو في شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها، ويقال: كل يوم هو في شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ. سأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها، فقال غلام له أسود: يا مولاي، أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي، فأخبره فقال له: أنا أفسرها للملك فأعلمه، فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً ويسقم سليماً، ويبتلى معافاً ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويفقر غنياً ويغني فقيراً؛ فقال الملك: أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال: يا مولاي هذا من شأن الله.[٢]

* الحساب والجزاء من أجل النعم التي بها تستقيم أمور الدنيا وموازين الآخرة، ليجزى المحسن بإحسانه ويجازى المسيء بإساءته، ويُقتصُّ للمظلوم من ظالمه.

---

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ١٠ / ٥٦٥٢.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ٤٦.

المقطع الخامس: تحدٍّ وإعجازٌ

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾[الرحمن ٣٣- ٣٦]

المناسبة

بعد الإشارةِ إلى حسابِ الثقلين في الآخرة بين تعالى أن هذا الموعد المرتقب لن يتفلَّت منه أحدٌ، فلا مفرَّ من الله إلا إليه، ثم انتقل بنا السياقُ إلى جملةٍ من أهوالِ يومِ الفَزَعِ الأَكْبَرِ.

بين المقطع ومحور السورة

نعم الله في هذه الآيات واضحةٌ وآلاؤهُ ظاهرةٌ وهي منتظمةٌ مع سياقِ السورةِ ومحورِها الذي يدورُ حولَ نعمِ الرحمنِ في الدارينِ.

التفسير الإجمالي

قيل هذا النداءُ يوم القيامة حيث لا مفرَّ ولا مهرب من قَدَرِ الله تعالى، وهو الذي أرجِّحُهُ مراعاةً لسياق الآيات، وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: توبيخٌ في الآخرة للمكذبين، وتأنيبٌ لما وقع منهم في الدنيا من تكذيبٍ.

وقيل الآيةُ: تحدٍّ لهم في الدنيا، بأنه لا سبيل إلى النفوذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطانٍ، قال بعض المعاصرين هو سلطان العلم، واعتبروا ذلك من إعجاز القرآن حيث أشار إلى صعود الفضاء، وعلى هذا فقوله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: تنويهٌ وتذكيرٌ بنعمةِ العلمِ ونعمةِ التوفيقِ والهداية والسداد تلك النعم التي ظَهَرَ أثرُها في تمكن الإنسان من ارتياد الفضاء والهبوط على سطح القمر، فهل شَكَرَ روّادُ الفضاءِ ومَنْ وَراءَهُم هذه النعم ؟ لا والله بل كفر الكثير منهم وأعرضوا وفرحوا بما عندهم من العلم واغتروا وركنوا لما يتملَّكونه من تقنيات كما هو حال الغرب الآن، إلا من عصم الرحمن.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾: وذلك في الآخرة، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم؛ أنهم في قبضةِ الجبار، فلا تفلُّتَ ولا فرار، ولا نصير ولا مُخَلِّص، فالنار تلاحقهم أينما حلُّوا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا)[١].

والشُّواظُ: وهو اللهيبُ الذي لا دخانَ فيه، والنحاس: المذابُ الذي يُصَبُّ على رؤوسهم.[٢]

ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن التخويفَ لطفٌ أيُّ لطف، وتكرارُ الإنذار نعمةٌ بعدَ نعمةٍ، والتقديمُ بالوعيد إنصافٌ ورحمةٌ، وإذا حملنا الخطاب على ما يكون في الآخرة: فهذا تقريعٌ بعد تقريعٍ.

الهدايات المستنبطة

* من رحمة الله بعباده ولطفه بهم أن أنذرهم وحذَّرهم من سخطه وعذابه، وأنذرهم من شديد عقابه.
* الحساب والجزاء نعمةٌ من أتمِّ النعم فهو رحمةٌ للمحسنين وعدلٌ بالمسيئين.
* في الآيات إشارةٌ علميةٌ – كما ذكر بعض العلماء – وهي التنويه على ارتياد الفضاء بسلطان العلم.
* لا مفرَّ يوم القيامة من قضاء الله ولا عاصمَ من أمر الله، ولا ناصرَ لأعداء الله.

(١) صحيح البخاري - كِتَاب الرِّقَاقِ - بَاب كَيْفَ الْحَشْرُ - حديث ٦٠٤١.

(٢) معالم التنزيل للإمام البغوي ٧/ ٤٤٨.

المقطع السادس: عاقبة المجرمين

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٧ – ٤٥]

المناسبة

ما زال الحديثُ موصولا حولَ أهوالِ هذا اليوم العظام، وَوَقْعِهِ عَلَى الْمُكَذِّبينَ المجرمين وهذا من نعمه تعالى أن انتقم من العصاة، وأذلَّهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، كما أنَّ من نعمه تعالى: أن قدَّم إلينا بالوعيدِ.

بين المقطع ومحور السورة

لا يزال السياق حول نعم الله تعالى، ومنها نعم الآخرة، بمحاسبة الخلائق، وجزائهم.

التفسير الإجمالي

تذكيرٌ بهذا اليوم العصيب، يوم تشقَّق السماءُ تلك القبةُ الزرقاءُ التي تُحيطُ بنا، يتبدلُ هذا اللونُ الذي يدعو إلى الطمأنينة ويجلبُ الراحة، إلى اللونِ الأحمر مما يثير الرعبَ والفزَعَ، عندئذٍ يوبَّخُ الْمُكذِّبُ على تكذيبه، والغافل على غفلته، فيقال للجاحدين الغافلين المكذبين بنعم الله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ مواطن مختلفة، ومواقف متباينة تزيدهم حيرةً واضطراباً، وقلقاً ورعباً، فتارةً يسألون وتارة لا يسألون، أو يسألون سؤال التوبيخ والتقرير والتقريع، لا سؤال الاستعلام، لأن الله تعالى عليم بكل شيء.

وقال الحسن ومجاهد: لا يسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بالسِّيمَا، والسِّيما التي

يعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة، قاله الحسن.[(١)]

ويحتمل أن يكون لكل طائفةٍ سيماها التي تميِّزها وهيئتُها التي تفضحُ حالَها.

كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٥ – ٨٦].

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢].

عَنْ أَنَس ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّه: يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ: (أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِراً عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟)[(٢)]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)[(٣)].

﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ يعرفون بعلاماتٍ تميِّزهُم، من ذلك سوادُ الوجوهِ، وزُرْقةُ العيون، ثم يسحبون تارةً من نواصيهم وتارةً من أقدامهم أو: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره.

فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ويَجُرُّونهم من أقدامهم ثم يلقونَهم في النار.

﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾: فمن نعم الله تعالى أن ذكرهم وأنذرهم وأمهلهم حتى يتوبوا ويرجعوا، كما أن يوم القيامة من كمال نعمه تعالى على خلقه حيث يفصل بينهم ويجزي المحسن

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٦ / ٢٧١.

(٢) صحيح البخاري كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - بَاب قَوْلِهِ تعالى (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً). حديث ٤٤٨٢ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب يحشر الكافر على وجهه رقم ٥٤- (٢٨٠٦).

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ سنن الترمذي - كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاب مِنْهُ حديث ٢٤٩٢.

بإحسانه والمسيء بإساءته، كما يوبِّخُ الكفار في هذا الموقف على تكذيبهم بنعم الله تعالى.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾: هذه جهنم التي كذَّبوا بها في الدنيا، وسخروا وتهكَّموا هذه جهنم التي حذَّر منها الأنبياءُ وأنذروا، ها هي اليوم شاخصةٌ بارزةٌ متوفِّزةٌ، ها هي حاضرةٌ باديةٌ تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وترهيباً.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الطور: ١٣-١٥].

وهاهم يطوفون بينها وبين الحميم المغليِّ فهم بين النارِ والحميم، كالمستغيث من الرمضاء بالنار، تارة يعذَّبون في الجحيم، وتارة يُسْقَوْنَ من الحميم، وهو شرابٌ حارٌّ كالنُّحَاس المذاب يقطعُ الأمعاءَ والأحشاءَ، ونظير هذا كقوله تعالى:﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[غافر: ٧١ - ٧٢].

يمشون بين النار والحميم فإذا أصابهم حرُّ النار طلبوا التبرد فلاح لهم الماء فاشتهوه، فأصابهم حرُّه فانصرفوا إلى النار دَوَالَيْك وهذا كقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقال ذلك توبيخاً لهم وتقريعاً في الآخرة، أو هذا خطابٌ للثقلين في الدنيا تذكيرٌ بنعم الله تعالى التي يغفل عنها الغافلون ويجحدها الجاحدون ويعرض عنها المعرضون، ومن هذه النعم الجليلة الترهيب من النار ومن حرِّها ولهيبها، وتصريف الوعيد كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾[طه: ١١٣].

الهدايات المستنبطة

* في تذكير الناس بأهوال القيامة ومواقفها العظام نعمٌ جليلةٌ، حتى نحذرَ الآخرةَ ونتزودَ لها بالتُّقى والصلاح.

* عقاب المجرمين والتنكيل بهم من أعظم النعم؛ فبه شفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، فكم أفلت كثيرٌ من المجرمين من العقوبة العاجلة في الدنيا، وكم تنصَّلوا مما وُجِّه إليهم من تهم، أو عاجلهم الموتُ قبل القصاصِ منهم، أو لم تُهيأ محكمةٌ عادلةٌ، ولكن أنى لهم الخلاصُ من المحكمة الإلهية الفاصلة ؟

* الذنوب لها روائحُها التي تفوحُ كروائح الجيفِ، ولها أصباغُها السودُ على الوجوهِ كقطع الليل المظلم، ولها ثقلُها ووطأتُها على الظهورِ التي تنوءُ بحملها، ولها حرارتُها ولهيبُها على الأكبادِ اليابسةِ والنفوس الآيسة، فإذا رأتهم ملائكةُ العذاب سارعوا بالتنكيلِ بهم والانتقام منهم على جرائمهمُ النَّكراء، فتُرغمُ الأنوفُ وتُقْرَعُ النواصي، وتُحصدُ الأقدامُ كما تُحصدُ الزروعُ بالمناجِلِ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

* كمالُ قدرتِهِ تعالَى وعظيمُ سلطانِهِ وقوة جبروتِهِ بأعدائه الذين كذبوا به وكفروا بأنعمه تعالى.

المقطع السابع: نعيم المتقين

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦ – ٧٨]

المناسبة

بعد الحديث عن مصير المجرمين المكذبين يأتي الحديث عن عاقبة المتقين، وتنتظم الجنةُ في سلك النعم الواردة في السورة لأنها هي النعمةُ الكبرى، والرحمةُ العظمى التي يمنُّ بها الرحمنُ على مَن يشاء مِن عباده.

بين المقطع ومحور السورة

نعيمُ الجنة من أجل النعم، فهو النعمةُ الخالدةُ المتجددةُ، وتشويقُ المتقين إليها نعمةٌ عظيمةٌ؛ لأنها تجددُ نشاطَهم، وتعليَ من همتهم، وتحفِّزهم على العمل الصالح، وبهذا تتجلى لنا الصلةُ بين آياتِ المقطعِ ومحورِ السورةِ.

التفسير الإجمالي

بعد بيان مصير المجرمين يأتي الحديثُ عن مصير المتقين، وما ادَّخره لهم الرحمن، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ).[1]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾: وهذه نعمةٌ من أجل النعم إنها نعمةٌ دائمةٌ في دار البقاء.

﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾: والأفنان: جمع فنٍّ أي صِنفٌ أو نوع أو فرع، فالنعيم فيها أصنافٌ وألوانٌ لا تخطرُ ببال، أي ذوات أنواع من الأشجار والثمار والأنهار، والقصور والدور والأثاثِ والمتاع، والثياب والمراكب، وألوانِ الأطعمةِ والأشربة، أو جمع فنن وهو ما دقَّ ولان من الأغصان، وإنما خصَّها بالذكر لأنها هي التي تورقُ وتزهرُ وتثمرُ. فمنها تمتدُّ الظلالُ، وتتفتَّحُ الأزهارُ وتتفتَّقُ الثمارُ، وكلُّ ذلك من النعمِ التي تستوجبُ الشكرَ، ولذا عقَّبها بقوله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾

تلك العينان الجاريتان بما صفا وطاب ولذَّ: من ألوان النعيم، وأسباب الأنس، والبهجة وصُنُوفِ المَلَذَّات، ونعمةُ الماء ولذةُ الشراب من أعظم النعم؛ لذا جاء التعقيب بقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾

تنوعٌ في صنوفِ النعمِ، وهذا من لطائف الكرم وتمام المنن،﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾، مما يعلمون ومما لا يعلمون، من المعروف المألوف، ومن العجيب الطريف.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير بَاب: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ رقم (٧٩٥٤)، وصحيح مسلم كِتَاب الْإِيمَانِ - بَاب إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رقم (١٨٠).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾تنويهٌ وتذكيرٌ بهذه النعم الجليلة.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾

والاتكاءُ يدلُّ على صفاء البال، فهم في راحةٍ ورفاهيةٍ، وأنس وبهجةٍ، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ ﴾: والبطانة ما تحت الظهارة، والإستبرق من الديباج الصفيقُ، ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾: ثمرُها قريبٌ منالُه، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٢ – ٢٤]، وقوله جل وعلا ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾، عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ فلا يَرَيْنَ ولا يتطلّعن لغَيْرِهُم، قَصَرْنَ أبصارهنَّ وقلوبهنَّ وأسماعهنَّ على أزواجهنَّ، فلا يُرِدْنَ غيرَهم، وهذا من تمام الإنعام وكمالِ الإحسانِ أن يُرزق الرجلُ بالزوجةِ الحسناءِ التي تقرُّ بها عينُه كما تقرُّ عينُها به، يحبُّها وتحبُّه.

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ في صفاء الياقوت وحُمرةُ وروعةُ وبياض المرجان، فهذا التشبيه البليغُ لوصف بياضهن المشرب بالحمرة مع صفاء البشرة ونعومتها ورقتها بالياقوت والمرجان.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ هل جزاء من أحسن في دنياه، إلا أن نحسن له في آخرته ؟ وهل جزاء من أحسنا له في دنياه بالهداية والتوفيق، إلا أن نحسن له في آخرته بالأجر والثواب ؟

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

جنتان من ذهب وجنتان من فضة وفي هذا التنوعِ والتفننِ والتنقلِ بين المتع ما تبتهجُ به النفوسُ وتنشرح الصدور وتلذُّ العيون وتلهجُ الألسنةَ بالحمد والثناء على واهب النعم جلَّ

وعلا، فكيف يكذِّبُ أهلُ الضلالِ بهذه المسائل اليقينية ؟﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ وصف الجنتين بخضرتها الشديدة وأشجارِهما الوريقةِ وظلالِها الوارفةِ، وهذا من طيب التربة وصفاء الهواء وعذوبة الماء ووفرته.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ تذكيرٌ بالنعم وتأنيبٌ لمن يُصِرُّ على التكذيب بها مع جلائها وجلالها.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ﴾: النَّضْخُ فَورانُ العينِ بالماء، وعَنْ أَنَس ﷺ في قَوْلِهِ: «عَيْنَان نَضَّاخَتَانِ»، قَالَ: بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ، تَنضُخَانِ عَلَى دُورِ الْجَنَّةِ، كَمَا يَنْضَخُ الْمَطَرُ عَلَى دُورِ أَهْلِ الدُّنْيَا»[1].

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾

في الجنتين من أطايب الفاكهة صنوفٌ وألوان، وخصَّ النخلَ والرُّمان لأنهما من أفضل الفواكه، وإنما ذكر النخيل ولم يقل الرطب أو التمر ليشير إلى جمال النخيلِ وشموخها وروعتها فهي زينةٌ فوق ما فيها من الأطايبِ والمنافعِ؛ ولذا تغنَّى بها الشعراءُ، من ذلك قولُ أحدِهِم:

قَـــد طـــابَ لي مَـقـيَـلي ... في سَـهـلِـكِ الجَـمـيـلِ
في ظِـلِّـكِ الـظَـلـيـلِ ... يـا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
يـا جَـنَّـةَ الـظِـلالِ ... يـا مَـسـبَـحَ الجَـمالِ
وَيـا جَـنـى الـدَوالي ... يـا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
قـامَـتُـكِ الهَـيـفـاءُ ... ثِـمـارُكِ الحَـمـراءُ
وَالخَـيـرُ وَالـرَخـاءُ ... يـا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
قَـد طـابَ لي مَـقـامـي ... وَرَفـرَفَـت أَحـلامـي
في رُكـنِـكِ الحَـرامِ ... يـا شَـجَـرَ النَّخيـلِ[2]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٨.

(٢) الأبيات للهمشري.

وقال آخر:

وَفِي الـــرَّوْضِ آيَـــاتٌ وللنيل رَوْعَـــةٌ ... وَوَجْـهُ الضُّحَى يَفْتَرُّ وَالطِّيبُ فَاغِمُ

وَأَبْــدَعُ مَا فِيهَا النَّخِيـــلُ مُقَلَّـــداً ... قَلائِـــدَ يَاقُـــوتٍ لَهَا الحُسْنُ نَاظِـمُ (١)

وعَن ابْنِ عَبَّاس ﷺ قَالَ: «نَخْلُ الْجَنَّةِ سَعَفُهَا كِسْوَةٌ لأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مَقْطَعَاتُهُمْ، وَمِنْهَا خِلَلُهُمْ، وَكَرَبُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَجُذُوعُهَا زُمُرُّدٌ أَخْضَرُ، وَثَمَرُهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَلَيْسَ لَهُ عُجْمٌ». (٢)

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ ﴾

أي: حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه، قد جمعن بين جمال الظاهر والباطن، قد بلغن الغاية في الحسن والجمال، وحميد الخصال، ونُبلِ الطباع.

والحوراء هي شديدة بياض الوجه وسائر البشرة مع سعة العينين في ملاحةٍ ودَعَجٍ، ومع هذا الحسن البديع فهن خفراتٌ، بناتُ الخدورِ، ربيبات القصور، ربَّاتُ الحجالِ، مقصوراتٌ في الخيامِ، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنان، كما جرت العادة لبنات الملوك.

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ ﴾: لم يَفْتَضِضْهُنَّ، ولَمْ يَمْسَسْهُنَّ إنس قبلهم ولا جان فهن أبكارٌ، وللبكر حظوةٌ ومكانةٌ لدى الرجل، قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ

---

(١) البيتان لخليل مطران.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٨، وقطع كرب النخل: أصول سعفها وهي الكرانيف.

وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ).[١]

وعن أَنَس بْن مَالِك ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال (لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ يَعْنِي سَوْطَهُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[٢].

وعَن ابْنِ مَسْعُود ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ مُسْلِم خَيْرَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْرَةٍ خَيْمَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْمَةٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَاب، يَدْخُلُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْم مِنَ اللهِ تُحْفَةٌ وَكَرَامَةٌ وَهَدِيَّةٌ، لَمْ تَكُنْ قِبلَ ذَلِكَ لا مَرَاحَاتٌ، وَلا طَمَاحَاتٌ، وَلا بَخرَاتٌ، وَلا ذَفِرَاتٌ»[٣].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

الاتكاء مظهرٌ من مظاهر النعيم والرفاهية، والرفرف هو السرير الذي يجلسُ عليه المؤمنُ ويبتهجُ بمناظر الجنة.

عن سعيد بن جُبير: أنه قال فِي هذه الآية ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾قال: رياض الجنة.[٤]

وقال القرطبي: « وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته».[٥]

---

(١) صحيح البخاري كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بَاب (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) حديث ٤٥٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة خيام الجنة رقم ٢٨٣٨.

(٢) صحيح البخاري - كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ - بَاب الْحُورِ الْعِينِ وَصِفَتِهِنَّ يُحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ شَدِيدَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ شَدِيدَةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ حديث ٢٦٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٨.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٣ / ٨٣

(٥) تفسير القرطبي ١٧ / ١٩١، و«اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل ١٥ / ٦٧، وقريبٌ منه في زماننا=

والعبقري الحسان: البُسُط والنمارقُ والوسائد المنسوجةُ من الحرير بأبدع النقوش والألوان.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولُه تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾: « تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالَى، فيه تقريرٌ لما ذُكِرَ في السورةِ الكريمةِ من آلائه الفائضةِ على الأنام أي تعالَى اسُمه الجليلُ الذي من جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السورةُ من اسم الرحمن المنبيءِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ وارتفعَ عمَّا لاَ يليقُ بشأنِه من الأمور التي منْ جُمْلتها جحودُ نعمائِه وتكذيبُها، وإذا كانَ حالُ اسمِه بملابسةِ دلالتِه عليهِ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأعْلى، ﴿ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ وصفَ به الربُّ تكميلاً لما ذُكِرَ من التنزيهِ والتقريرِ. وقُرِىءَ ذُو الجلال على أنَّه نعتٌ للاسمِ»[(١)].

والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى.

والإكرام: إسداء النعمة والخير، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر.

الهدايات المستنبطة

* من نعم الله على عباده أن حدثهم عن نعيم الجنة ليزدادوا حرصا عليها، ويطيروا شوقاً إليها، حيث النعيم المقيم والعيش الكريم والتمتع بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين دون منغِّص أو مكدِّر، ودون مَلَلَ أو سَأَمَ، ودون عجز أو ضعف أو حرمان.

ولله در ابن القيم حين قال:

فَـلِـلَّـهِ كَـمْ حـوريـةٍ إنْ تَبَسَّمَتْ … أَضَـاءَ لها نـورٌ من الفَجْرِ أعظمُ

فيَا لـذَّةَ الأبـصـارِ إنْ هِـيَ أقْبلتْ … ويـا لـذةَ الأسـماعِ حـينَ تكلَّمُ

=المنطاد، الذي يطيرُ فوق المدن والقرى والصحاري والغابات والأنهار والبحيرات.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٨٧.

ويا خَجْلَةَ الغُصْنِ الرطيبِ إذا انثنتْ ويـا خجلةَ الفجرينِ حين تَبَسَّمُ
فـإن كـنـتَ ذا قـلـبٍ عليلٍ بحُبها فلم يبقَ إلا وصلُها لك مَـرْهَـمُ
تَـفَـكَّـهُ منها الـعـينُ عند اجتلائِهَا فـواكـهَ شتَّى طلعُها ليس يُعدمُ
عناقيدُ مِـن كَـرْمٍ وتـفـاحُ وَجْـنَـةٍ ورمَّـــانُ أغصانٍ به القلبُ مُغرمُ
ولِـلْـوَرْدِ مـا قـد ألبستْهُ خـدودُهَـا وللخمرِ ما قد ضمَّهُ الرِّيقُ والفمُ
تَقَسَّمَ منها الحُسـنُ في جمـعِ واحـدٍ فَـيَـا عَـجَـبـاً مِـنْ واحـدٍ يتقَسَّمُ
لهـا فـرقٌ شتَّى من الحسـنِ أجمعتْ بـجُـمْـلَـتِـهَـا إنَّ الـسُّـلُـوَ محـرَّمُ
تُـذَكِّـرُ بـالـرحمـنِ مَـنْ هُـوَ ناظرٌ فينطِقُ بالتسبيحِ لا يَتَلَعـثَمُ
إذا قابلتْ جيشَ الهـمـومِ بوجهِهَا تــولَّى على أعـقـابِـهِ الجيـشُ يُهْـزَمُ
وَلَمَّـا جَـرَى مـاءُ الشبابِ بغُصنِها تَـيَـقَّـنَ حـقـاً أنَّـــهُ ليس يَهْـرَمُ
فيا خاطِبَ الحسناءِ إنْ كنْتَ بَاغِياً فهذا زمـانُ المَـهـرِ فَـهْـوَ الُمـقَـدَّمُ

* وغضُّ الطرف مما يزيدُ المرأةَ حسنا وجمالا، ويزيد الناظر إليها وَلَعاً وافتتاناً، وقد مدحت المرأة بذلك كما قال كعب بن زهير ﷺ:

ومـا سعاد غـداةَ البين إذْ رحلُوا إلاّ أَغَـنُّ غَضِيضُ الطرف مكحول

أي: كظبي غضيض الطرف.

ووجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون البياض مع حمرة الخدود كما يشبه الخد بالورد، ويجوز كونُ التشبيه بهما في الصفاء والبريق والرونق.

* من العجيبِ أن يغفل الإنسانُ عن الحور الحسان ويبدد مهورهنَّ بعرض الدنيا الزائل وقد قيل:

جُنِنَّا بَلَيْلَى وَهْــيَ جُـنَّـتْ بغيرِنَا وأُخْــرَى بِنَا مَجْـنُـونَـةٌ لا نُرِيدُهَا

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن أحمد بن أبي الحواري قال: قال لي أبو سليمان الداراني: يا أحمد إني محدثك بحديث فلا تحدث به أحداً حتى أموت: نمت ذات ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تنبهني وتقول: يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخدور؟ قال: فوثبت فزعاً وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي [(١)].

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١ / ٤٦٨.

سورة الواقعة

البعث والجزاء في سورة الواقعة

أولاً: بين يديْ السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الواقعة) لافتتاحها بقوله تعالى:﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[الواقعة:١]، والواقعة تعني الحادثة العظيمة، وهي اسم من أسماء يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لتحقق وقوعها، وكثرة ما يقع فيها من الشدائد[١].

ب. فضائل السورة:

وردت أحاديث كثيرة في فضائل سورة الواقعة صحَّ منها حديثان:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! فقال ﷺ: « شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ: ١]، و﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١]»[٢].

والثاني: عن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلاة كنحوٍ من صلاتكم التي تصلون اليومَ، ولكنَّه كان يخفِّف، كانت صلاتُه أخف من صلاتكم، كان يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور[٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٥٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤.

(٢) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٣٦٨، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٣١، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٣٤٣، وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني ٢/ ٦٣٩.

(٣) المصنَّف، عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١١٥، المستدرك، الحاكم النيسابوري ١/ ٢٤٠.

ج. مكان نزول السورة:

سورة الواقعة مكيَّة، قال ابن عطية: « وهي مكيَّة بإجماع مَن يُعتَد بقوله من المفسرين وقيل: إنَّ فيها آياتٍ مدنية، أو مَّما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت»[1].

وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى:﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الواقعة: ٨٢][2].

وقال الكلبي: مكية إلا أربع آيات؛ منها اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما:﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الواقعة: ٨١- ٨٢]، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الواقعة: ٣٩- ٤٠][3].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الواقعة ست وتسعون آية في العد الكوفي، وتسع وتسعون آية في عدد الباقين، قال الداني: « واختلافها في أربع عشرة آية:

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [الواقعة:٨]، وكذا:﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة:٩]، لم يعدهما الكوفي، وعدهما الباقون.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الواقعة:١٥]، لم يعدها البصري والشامي، وعدها الباقون.

﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ [الواقعة:١٨]، عدها المدني الأخير والمكي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الواقعة:٢٢]، عدها المدني الأول والكوفي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة:٢٥]، لم يعدها المدني الأول والمكي، وعدها الباقون.

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة:٢٧]، لم يعدها المدني الأخير والكوفي، وعدها الباقون.

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ ﴾ [الواقعة:٣٥]، لم يعدها البصري، وعدها الباقون.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الواقعة:٤١]، لم يعدها الكوفي، وعدها الباقون.

﴿ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ ﴾ [الواقعة:٤٢]، لم يعدها المكي، وعدها الباقون.

﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ ﴾ [الواقعة:٤٧]، عدها المكي، ولم يعدها الباقون.

﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الواقعة:٤٩]، لم يعدها المدني الأخير والشامي، وعدها الباقون.

﴿ لَمَجۡمُوعُونَ ﴾ [الواقعة:٥٠]، عدها المدني الأخير والشامي، ولم يعدها الباقون.

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾ [الواقعة: ٨٩]، عدها الشامي، ولم يعدها الباقون»[1].

هـ. محور السورة:

سورة الواقعة كغيرها من السور المكية تعنى بغرس العقيدة، وإقامة الدلائل على توحيد الربوبية والألوهية، وتقرير **البعث والجزاء**، وهذا الأخير هو محورها الأبرز، ودليل ذلك:

١ - الموضوعات التي تناولتها السورة، وهي:

أولاً: التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه، وأصناف الناس في ذلك اليوم، ومآلاتهم.

ثانياً: دلائل الإيمان **بالبعث** والجزاء.

ثالثاً: تعظيم شأن القرآن الكريم وصدق ما أخبر به من أمر البعث والجزاء.

وكل موضوع مما تقدم له ارتباط بمحور السورة، وسنشير إلى ذلك عند استعراض المعنى الإجمالي لمقاطع السورة إن شاء الله تعالى.

---

(١) البيان في عد آي القرآن ٢٣٩.

٢ - تحديد بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين مقصود هذه السورة بتقرير البعث والجزاء.

فأما المتقدمون؛ فقال مسروق بن الأجدع: «مَن أراد أن يعلم نبأ الأولين، ونبأ الآخرين ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة»[١].

وأما المتأخرون فمنهم: البقاعي، وسيد قطب، والمراغي، وابن عاشور، وسعيد حوَّى، والصابوني[٢].

٣ - قوله ﷺ: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾، ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾»[٣].

وسر الاقتران بين هذه السور هو اتحادهن في تقرير النشأة الآخرة؛ وسنكتفي هنا بعرض بعض الآيات من كل سورة للتدليل على ذلك:

فمن سورة هود قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[هود: ٣- ٤].

ومن سورة الواقعة قوله تعالى:﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾[الواقعة: ١ - ٥].

ومن سورة المرسلات قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ

---

(١) فضائل القرآن، أبو عبيد ١٣٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٧/ ٤٠٤، في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦١، تفسير المراغي:٩/ ١٥٦، التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٠٨، الأساس في التفسير: ١٠/ ٥٦٨١، صفوة التفاسير: ٣/ ٣٠٤.

(٣) تقدم تخريجه.

أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٧ - ١٤].

ومن سورة النبأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾[النبأ: ١٧ - ٢٠].

ومن سورة الشمس قوله تعالى:﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾[التكوير: ١ - ٣].

فهذه الآيات شاهد صدق على قول الرسول ﷺ، وكلها تشترك في الحديث عن يوم البعث والجزاء، وما فيه من شدائد عظام، ولا ريب أنَّ كل شدة من تلك الشدائد تنذر بحلول الشيب، وتندِّد بالركون إلى الدنيا، وتحض على الاستعداد ليوم المعاد.

وانطلاقا ممَّا تقدم يمكننا تسمية عنوان محور هذه السورة: **«البعث والجزاء في سورة الواقعة»**.

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قال سيد قطب: « الواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها معا، فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة، رداً على الشاكين فيها، المشركين بالله المكذبين بالقرآن، قال تعالى:﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الواقعة: ٤٧ - ٤٨]»[١].

كما أن الواقعة هي النفخة الآخرة للبعث، ووقوعها هو أول أحداث اليوم الآخر.

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦١.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يظهر التناسب بين فاتحة هذه السورة وخاتمتها من وجهين:

أولاً: افتتحت السورة بتقرير البعث، ثم أقامت الأدلة على إمكانه، وورد في آخرها تأكيد لما تقرر في فاتحتها، وبذلك انطبق آخرها على أولها تمام الانطباق.

وبيان ذلك أنَّه لَمَّا تمَّ ما أُريد من التذكير بأمر البعث، وبعد أن أقام القرآن الأدلة القطعية المشاهدة على إمكانه، وكان الكفار رغم ذلك يكذبون به، ويقولون:﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧] أكَّده في آخرها، فقال سائقا له مساق النتيجة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الواقعة:٩٥]، فكأنه من الظهور في حد لا يساويه فيه غيره، فهو حق اليقين، قال قتادة: إنّ الله تعالى ليس تاركاً أحداً من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن؛ فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه[1].

ثانياً: افتتحت السورة بالحديث عن القيامة الكبرى، وانقسام الناس عند وقوعها إلى ثلاثة أصناف، قال تعالى:﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ «[الواقعة:٧ - ١٠]، واختتمت بذكر أحوالهم عند القيامة الصغرى، وقسمتهم إلى نفس الأصناف المذكورة في افتتاحيتها، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾[الواقعة:٨٨ - ٩٤].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن:

تظهر العلاقة بين فاتحة سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن من وجهين:

الأول: قسَّمت سورة الرحمن الناسَ إلى ثلاثة أصناف في اليوم الآخر، الصنف الأول:

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٨٢، ٣٨٣، نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٣١ بتصرف.

المجرمون المكذبون بالبعث، ومصيرهم إلى جهنم، قال تعالى:﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرحمن:٤٣]، والثاني: السابقون وهم أهل التقوى، ولهم جنتان، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]، والثالث: أهل اليمين، ولهم جنتان أدنى من جنتيْ السابقين، قال تعالى:﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الرحمن:٦٢].

وبدئت سورة الواقعة بذكر تلك الأصناف الثلاثة المذكورة في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الواقعة:٧ - ١٠].

الثاني: في آخر سورة الرحمن إشارة إلى بعض صفات الله تعالى، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[الرحمن:٧٨]، وفي أول سورة الواقعة حديث عن القيامة، وما فيها من المثوبات والعقوبات، وكلاهما يدل على علو اسمه تعالى، وكمال قدرته[1].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ الواقعة والرحمن:

بين مضمون هاتين السورتين تناسب بديع من وجوه، أهمها:

الأول: اشتراكهما في الحديث عن طورين مختلفين من أطوار خلق الإنسان، وعن النهايتين الصغرى (الموت)، والكبرى (القيامة).

قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾[الرحمن:١٤]، وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾[الرحمن:٣٧].

وقال في سورة الواقعة: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[الواقعة: ٥٧ - ٥٩]، وقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الواقعة: ٨٣، ٨٤]، وقال: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٥/ ١٢٠- ١٢٢.

﴿٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤- ٥].

والثاني: اشتراكهما في وصف النار والجنة وأهلهما، ففي سورة الرحمن حديث عن أهل النار، وبيان لجزائهم حين كذبوا بيوم الدِّين، وأنَّ من ضمن عذابهم الحميم، قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤] وفي سورة الواقعة حديث عن أهل النار، وعن بعض ما هُيئ لهم؛ ومنه الحميم، وهو نفس ما ورد في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الواقعة:٤١-٤٢]، وقال: ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾[الواقعة:٩٣].

وفي سورة الرحمن أنَّ أهل الجنة نوعان، لكل منهما نوعان من الجنان؛ فهناك درجة عليا من العبادة والتقوى، استحق أهلها نوعين من الجنان، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وفيهما نعيم مقيم، قال تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الرحمن: ٥٠ - ٥٨].

وهناك درجة دنيا من العبادة والتقوى استحق أهلها نوعين آخرين من الجنان، قال تعالى:﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الرحمن:٦٢]، وفيهما ألوان من النعيم، قال تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[الرحمن:٦٦ - ٧٦].

وفي سورة الواقعة حديث وافٍ عن أهل تلك الجنات، وهم السابقون وأهل اليمين وعن منازلهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ

عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ٣٧][1].

والثالث: اشتملت السورتان على تعديد نعم الله تعالى على خلقه؛ ففي سورة الرحمن ذكر لنعمة تعليم الإنسان القرآن الذي هو مدار السعادة في الدارين، وخلقه لإعمار الأرض وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، وبهما يحسب الأوقات، وخلق الميزان لإقامة العدل، وبسط الأرض للأنام، وتسخير ما فيها لمنفعتهم، وكررت السورة التنبيهات على آلائه تعالى إحدى وثلاثين مرة مطالبة بالشكر وعدم التكذيب:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وكل ذلك فيه إظهار لرحمته تعالى بخلقه، بدليل افتتاحها بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[الرحمن:١].

وفي سورة الواقعة ذكر لنعمة الخلق، والرزق؛ من مأكول ومشروب ونار كثيرة المنافع وأعقبت بالتنبيه على الشكر والتذكر، والجزاء بالخير لَمن شكر، وبالشر لَمن كذب وكفر، وفي ذلك إظهار لهيبته تعالى، بدليل افتتاحها بقوله:﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾[الواقعة:٣].

والرابع: « أن الله تعالى ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء عند قيام القيامة، وذكر في سورة الواقعة رجَّ الأرض، ولكن مع عكس الترتيب، فكأن موضوع السورتين واحد؛ فذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، فافتتحت الرحمن بذكر القرآن، والشمس والقمر، والنبات، وخلق الإنسان والجان، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وابتدئت الواقعة بذكر القيامة، وصفة الجنة والنار، وخلق الإنسان والنبات والماء

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/ ٥٦٧٧.

والنار، وذكرت النجوم، ولم تذكر في سورة الرحمن، كما لم تذكر في الواقعة الشمس والقمر، فكانت هذه كالمقابلة لتلك، وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر»[1].

والخامس: أنَّ كلا السورتين قد ختم بتقديس الله تعالى وتنزيه اسمه، فهو سبحانه العظيم ذو الجلال والإكرام، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقال: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٦].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق القيامة

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٤/ ٢٣٧، ٢٣٨.

وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الواقعة: ١ - ٥٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مرَّ أن محور السورة هو تقرير البعث والجزاء، وهذا المقطع له علاقة وطيدة به؛ فقد افتتح بالتذكير بقيام الساعة، وهو أول إرهاصات البعث، ثم وصف المقطع ما يعرض للعالم الأرضي من أحداث، وانقسام الناس إلى ثلاثة أصناف؛ صنفان من أهل الجنة، وهم السابقون وأهل اليمين الذين صدقوا بالبعث فنالوا النعيم المقيم، وصنف من أهل النار، وهم الذين أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وأنكروا البعث، وقد رد دعواهم في عدم البعث وأخبر أنه واقع حتما.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاث قضايا:

الأولى: تقرير البعث والجزاء.

والثانية: انقسام الناس عند قيام الساعة إلى ثلاثة أصناف، وبيان مآل كل صنف.

والثالثة: تأكيد اجتماع الأولين والآخرين في ذلك اليوم.

* إذا وقعت القيامة ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة، ولا دافع يدفعها، قال تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٧]، ولا يكون عند وقوعها نفس مكذبة، لأنها تؤمن حين ترى العذاب، قال تعالى:﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠١].

* الواقعة تخفض المجرمين الذين كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وترفع أهل الإيمان إلى أعلى عليين، وقد كانوا في الدنيا مغمورين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه: ٧٤- ٧٥].

* وعندها تُزلزل الأرض زلزالاً، وتضطرب اضطراباً شديداً، قال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾[الزلزلة:١]، وقال:﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج: ١].

* وتُفَتَّت الجبال الشامخات فتّاً، فتصير كالهباء المنبث الذي ذرته الريح وفرقته، قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل: ١٤].

* وصرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة:

* الأول: أهل اليمين الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، وكانت أعمالهم:﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ [البلد: ١٣- ١٨].

* هل تدري أي شيء هم في حالهم وصفاتهم وسعادتهم ؟ ! إنهم في غاية السعادة، يؤخذ بأيمانهم إلى الجنة. فما أعلى شأنهم ! وما أحسن حالهم !.

* والثاني: أهل الشمال الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، وهم الذين كفروا:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ ﴾ [البلد: ١٩].

* أي شيء هم في حالهم ؟ إنهم في غاية من سوء الحال؛ يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.. فما أسوأ حالهم !

* والثالث: السابقون المبادرون من كل أُمة إلى الإيمان والطاعة والخيرات والجهاد والتوبة.

* السابقون هم المقربون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته، لهم الدرجات العالية، يقربهم ربهم منه يوم القيامة، ويدخلهم جنة النعيم.

* وهم جماعة كثيرة، من الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وقليل من أمته ﷺ[1].

* إنهم في الجنة على أسرة منسوجة، مشبكة بالذهب والدر والياقوت والجواهر.

* جالسون على أسرتهم جلوس تمكن وطمأنينة وراحة، يقابل بعضهم بعضا، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وحسن عشرة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصافات: ٤٣- ٤٤].

* ويدور حولهم غلمان في سن واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون، هيأهم الله لخدمتهم، قال تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤].

* يطوفون عليهم بأقداح مستديرة الأفواه لا عرى لها ولا خراطيم، وبآنية لها عرى وخراطيم، وكؤوس من خمر الجنة الجارية الينابيع والعيون، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٥- ٤٦].

* وحين يشربون خمر الجنة لا ينفد شرابهم، ولا يصيبهم صداع في رؤوسهم، ولا تذهب عقولهم بشربها[2]؛ فهي منزهة عن الآفات التي في خمر الدنيا، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ

---

(١) هذا هو اختيار الطبري وجمع من المفسرين. جامع البيان: ٢٢/ ٣٣٠. وقد رده ابن كثير؛ فقال: « وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، فقيل المراد بالأولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة "[صحيح البخاري، الحديث رقم ٨٧٦] وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأنَّ هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ » أي من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي من هذه الأمة ". تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٠٥.

(٢) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩]، فقد قرأ عاصم وحمزة=

مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧]، وقال: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[الطور: ٢٣].

* ويطوفون عليهم بفاكهة كثيرة غير مقطوعة ولا ممنوعة، فيختارون منها ما يشتهون.

* وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب، مما تشتهيه نفوسهم، قال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الطور: ٢٢].

* ولهم في الجنة نساء شديدات سواد العيون وبياضها، واسعات الأعين في غاية الحسن والجمال[1]، كأنهن لؤلؤ في الصَّدَف، مصون عما يكدر صفاءه ونقاءه، مستور لم تمسه الأيدي أو تراه الأعين، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[الصافات: ٤٩].

* أعد الله لهم هذا النعيم ثواباً ومجازاة على ما قدموا في الدنيا من صالح القول والعمل.

* ولا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، ولا باطلاً أو كذباً، ولا يلحقهم إثم ما يسمعون، قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾[مريم: ٦٢].

* لا يسمعون إلا سلام الله تعالى عليهم، أو ملائكته، أو سلام بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس: ٥٨]، وقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٢٣- ٢٤]، وقال: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[إبراهيم: ٢٣].

* وأمَّا أصحاب اليمين، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف مآلهم ؟.

=والكسائي، بكسر الزاي: ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾، والمعنى: لا ينفد شرابهم كما ينفد شراب أهل الدنيا، وقرأ الباقون بفتح الزاي: " ولا ينزَفون "، والمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها. حجة القراءات، ابن زنجلة ٦٩٤.

(١) هذا المعنى أفادته قراءة الرفع؛ وهي قراءة الجمهور، أما قراءة الجر: «وحورٍ عينٍ »، وهي قراءة حمزة والكسائي، فالتقدير: في جنات النعيم وفي حور عين. الكشف، مكي بن أبي طالب ٢/ ٣٠٤.

* هم في جنات فيها شجر النَّبق المورق الذي خُضد شوكه وقطع، وجعل مكانه الثمر الطيب.

* وفيها شجرة الطلح المتراكبة الثمر، الذي نُضد حمله من أسفله إلى أعلاه[(١)].

عن عتبة السلمي ﷺ قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي، فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجراً أكثر شوكا منها - يعني الطلح - فقال رسول الله ﷺ: " إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود..."[(٢)].

* وفي ظل دائم لا يزول، قال تعالى:﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء:٥٧]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، اقرؤوا إن شئتم:﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الواقعة: ٣٠]"[(٣)].

* وفي ماء من أنهار الجنة يسكب لهم، قال تعالى:﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[محمد: ١٥].

* وفي فاكهة متنوعة كثيرة لا تنقطع في وقت من الأوقات، ولا تمتنع على مَن أردها في أي وقت، بل هي معدة لَمن أرادها، قال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٣].

* ويجلسون على فرش مرفوعة على الأسرة[(٤)]، قال تعالى:﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[الرحمن: ٥٤]، وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾» [الواقعة: ٣٤]

---

(١) وقيل المراد بالطلح الموز. صحيح البخاري ٢/ ١١٢١. قال ابن عاشور: والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره، لأنه ثمر طيب لذيذ، ولشجره لما فيه من حسن المنظر، ولم يكن شائعا في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء. التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٧٥.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/ ١٣٠، مجمع الزوائد، الهيثمي ١٠/ ٤١٤.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٥٢)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

(٤) وقيل المعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن. المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٤.

قال: « إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض»[١].

* ولهم في الجنة نساء من الحور ابتدأنا خلقهن ابتداء، وأبدعناهن إبداعا فريدا لم يسبق[٢].

* فصيرناهن عذارى، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾[الرحمن: ٥٦]، وكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا، قال ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدن أبكارا»[٣].

* وهنَّ متحببات إلى أزواجهنَّ، عواشق لهم، متساويات في السِّن والحسن، قال تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾[النبأ: ٣٣].

* أنشأناهنَّ وصيَّرناهن أبكارا لأصحاب اليمين في الجنة، الذين هم جماعات كثيرة من الأمم الماضية، وجماعات كثيرة من الأمم اللاحقة من أمَّة محمد ﷺ.

* وأمَّا أصحاب الشمال الأشقياء، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف مآلهم ؟.

* هم في النار في ريح حار، وماء شديد الحرارة؛ فالهواء الذي يستنشقونه سموم، والماء الذي يشربونه حميم:﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[الرحمن: ٤٤].

---

(١) سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

(٢) وقيل المراد: نساء الدنيا، ينشئهن الله أبكارا عذارى أترابا، إذ كانت الواحدة منهن في الدنيا عجوزا رمصاء، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الواقعة:٣٥]، قال: «إنَّ من المنشآت عجائز كنَّ في الدنيا عمْشاً رمْصاً». سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٣٠، تفسير ابن أبي حاتم: ١٠/ ٣٣٣٢.

وعلاقة هذه الآية بسابقتها أنه لمَّا جرى ذكر الفرش يخطر بالبال مصاحبة الحور العين عليها، فيتشوف إلى وصفهن، فكانت جملة: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ بياناً؛ لأن الخاطر بمنزلة السؤال، فضمير المؤنث من: ﴿ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام، ولكنه ملحوظ في الأفهام. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧٦. بتصرف.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/ ١٣٠.

* وفي ظل من دخان شديد السواد، يصيبهم من حره ما يغلي دماغهم، ليس بارداً يستروحون به من شدة الحر، وليس بحسن المنظر يسر به مَن يستفيء بظله، كما قال تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾[المرسلات: ٣٠- ٣١].

* استحقوا ذلك؛ لأنهم كانوا في الدنيا منعمين مقبلين على الشهوات والملذات، لا يأبهون بما جاءت به الرسل، وشغلهم الترف فأعرضوا عن الإيمان بالله ورسله[١].

* وكانوا في إصرار دائم على الذنوب العظيمة؛ من كفر بالله، وشرك، وأيمان يقسمونها كذبا على أن لا بعث ولا نشور.

* وكانوا يعتقدون استحالة أن يبعثوا بعد موتهم وصيرورتهم ترابا، قائلين: كيف نبعث إذا متنا وصرنا أجساداً بالية وعظاماً نخرة، بل كيف يبعث آباؤنا وأجدادنا الأولون ؟!

قال تعالى:﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الرعد: ٥].

* أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين سيُجمعون إلى ساحة القيامة في يوم معلوم الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٨].

* ثمَّ إنكم أيها الضالون عن الحق والهدى، المكذبون بالبعث:

* ستأكلون في الآخرة من أخبث الشجر؛ شجر الزقوم المر الكريه الطعم والمنظر، الذي ينبت في أصل الجحيم، فمالئون منه بطونكم لغلبة الجوع عليكم.

* ثمَّ تشربون فوقه الماء الحار الذي اشتد غليانه، قال تعالى:﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الدخان: ٤٣ - ٤٦].

---

(١) ينبغي أن يفهم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥] التوسع في الحرام وما لا يحل، أما التوسع في الحلال فجائز، ولا عقوبة عليه. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٥٣.

* فشاربون شربا لا ينقطع كشرب الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.
* هذا هو الرزق والنزل الذي هيئ لهم يوم الجزاء على أعمالهم، كالنُّزل الذي يعد للأضياف قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾[الكهف: ١٠٢].

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وقوع القيامة أمر لا ريب فيه، ولا يملك أحد رده أو دفعه.
* على المسلم أن يحذر أسباب الخفض في الآخرة، ويرغب في أسباب النجاة والرفع.
* الإيمان والتقوى يرفعان صاحبهما، والشرك والمعاصي يخفضان أهلهما.
* كون الناس عند قيام الساعة ثلاثة أصناف وهي: السابقون، وأهل اليمين، وأهل الشمال.
* السابقون إلى الإيمان، والطاعة، والجهاد، والتوبة... هم المقربون بين يدي الله تعالى.
* جنات السابقين المقربين خالية من الآفات والكدورات المنغصة لساكنيها.
* لأصحاب اليمين في الجنة نعيم لا ينقطع جزاء إيمانهم، وهم فيها جماعة عظيمة من الأمم السابقة واللاحقة.
* لأصحاب الشمال ألوان من العذاب في الآخرة؛ لأنهم كانوا في الدنيا في ترف أبعدهم عن الله تعالى، وكانوا يصرون على الكبائر، وكانوا ينكرون البعث.
* الجزاء من جنس العمل.
* في الآخرة تقام موازين الحق، ولا يرجح بأحد حسب ولا نسب، وإنَّما الإيمان والتقوى.

المقطع الثاني

دلائل البعث والجزاء

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

محور السورة هو البعث والجزاء - كما سبق - وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ إذ يستعرض دلائل الإيمان بالبعث وفق منهج القرآن في عرض قضايا العقيدة، « فهو يتخذ مادته من البيئة المحيطة بالمخاطبين ومن مشاهداتهم اليومية، ثم يعرض آثار القدرة الإلهية المبدعة، ودلائل الإيمان بطريقة تحرك قلوب المشاهدين لينظروا في أصل خلقتهم، وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم، وفي الماء الذي يشربونه، وفي النار التي يوقدونها»[1].

وبهذه المشاهد البسيطة التي تدخل في تجارب الإنسان ينشئ القرآن عقيدة البعث؛ لأنه يخاطب كل إنسان في بيئته، فلا تملك نفسه حيال تلك المشاهدات إلا أن تنزه ربها، وتعترف بقدرته على البعث والجزاء.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لمَّا ذكر تعالى في المقطع السابق أصناف الناس عند قيام الساعة، ومآل كل صنف، وذكر ما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٦٦ بتصرف.

يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم، وما أعد لأصحاب المشأمة من سموم وحميم، وأن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بالله، وأنكروا بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، أردف هنا بإبطال نفيهم البعث، بالاستدلال بالبراهين القاطعة على إمكانه[1].

ثالثاً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تعرض آيات هذا المقطع شواهد الألوهية ودلائل القدرة الربانية على البعث في فقرتين:

الأولى: دليل الخلق، وتقرير النشأة الآخرة قياساً على النشأة الأولى.

والثانية: دليل العناية والإمداد بالرزق.

* نحن ابتدأنا خلقكم الأول بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فهلا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني! إن مَن قدر على الإبداء قادر على الإعادة بطريق الأولى؛ لأنها أهون، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].
* خبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم عمَّا تصبونه من النطف في أرحام نسائكم.
* أأنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه وتصورونه وتجعلونه بشرا سويا أم نحن الخالقون؟
* نحن قسمْنا الموت بينكم أيها الناس، فعجَّلناه لبعض، وأخرناه عن بعض، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، وما نحن بعاجزين على ما قدَّرنا من آجالكم، فلا يتقدم شيء أجلناه ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾[فاطر: ١١].
* ونحن قادرون على أن نذهبكم ونبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم، ونخلق مكانكم أشباهكم.

---

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ٩/ ١٤٥.

* ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة من الصور والهيئات التي لا تعلمونها، ولا تصل إلى عقولكم.

* ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[١]، فهلا تتذكرون أنَّ الذي أنشأكم النشأة الأولى قادر على النشأة الآخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[مريم:٦٧]، وقال:﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس:٧٩]، وقال:﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[القيامة: ٣٦ - ٤٠].

* أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الأرض بعد تحريكها وتسويتها[٢].

* أأنتم تجعلونه زرعاً، ثم تنمونه وتنشئونه حتى يصير مدركاً صالحاً للأكل، أم نحن نُنبته في الأرض بقدرتنا، حتى نصيِّره زرعا ؟! قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الروم:٥٠].

* لو نشاء لأيبسناه وجعلناه هشيماً متكسراً، لا ينتفع به في طعام ولا غيره، فصرتم تعجبون

---

(١) وقيل المراد بالنشأة الأولى: خلق آدم من تراب. جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٤٧.

(٢) هذا هو الدليل الثاني، وهو دليل العناية والإمداد بالرزق، وقد احتوى على ثلاث حجج تتناسب جميعها في أن كلا منها مبدوء بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾، كما تتناسب من حيث المضمون، فالحجة الأولى، وهي الإمداد بالمأكول مناسبة لدليل الخلق؛ وذلك أن الاستدلال بإنبات الزرع بعد الاستدلال بخلق النسل يعود إلى ما بينهما من التشابه البيِّن بين تحويل النطفة إلى جنين والحبة إلى نبات، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح:١٧]، والحجة الثانية وهي الإمداد بالمشروب، مناسبة للحجة السابقة، وهي أن الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء، فانتقل من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر، والحجة الثالثة وهي النار، مناسبة للحجة السابقة، وذلك أن النار بها صلاح المطعوم. التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٧/ ٢٨٨ وما بعدها.

من تحطيم زرعكم، وتتحسرون من سوء حاله ومما نزل به، نادمين على ما خسرتم في الإنفاق عليه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[الكهف: ٤٢].

* وتقولون: إنَّا لمحملون الغرم في إنفاقنا، وهالكون لهلاك أرزاقنا.

* أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتدفعوا عنكم العطش، وحياتكم متوقفة عليه.

* أأنتم أنزلتموه من السحاب، وجعلتموه عذبا صالحا للشرب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا. فكيف لا تصدقون بالبعث ؟!

* لو نشاء لجعلناه شديد الملوحة، لا يصلح لشرب ولا زرع، فهلا تشكرون ربكم، حيث أنزل لكم ماء: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[النحل: ١٠-١١].

كان ﷺ إذا شرب قال: « الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا، ولم يجعله ملحا أجاجا»[1].

* أخبروني عن النار التي توقدونها من الشجر.

* أأنتم الذين خلقتم شجرها التي توقد منها[2]، وأوجدتموها من العدم أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟ قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[يس: ٧٨ - ٨٠].

* نحن جعلنا هذه النار تذكرة لكم، إذا رأيتموها تذكرتم حرَّ نار الآخرة، فتخشون ربكم

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٤.

(٢) كان للعرب شجرتان يقدحون بهما النار هما المرخ والعَفَار؛ فكانوا يأخذون غصنا من المرخ ويحكونه بغصن من العفار، فتخرج من بينهما النار. أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٤٨.

وتخافون عقابه، وجعلناها بلغة للمسافرين النازلين بالخلاء من الأرض، يتبلّغون بها في سفرهم حتى يعودوا إلى ديارهم[١]، ولينتفع بها سائر الخلق، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنَّه قال: « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»[٢].

* فنزِّه ربك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء، وقل: سبحان مَن خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى قادر على بعث الخلق بعد موتهم، فكما قدر على البدء فإنه قادر على الإعادة من باب أولى.
* إذا كان الموت واقعا في زمن لا نعلمه، فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة، أو يغفل عن إعداد العدة.
* الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدَّر الله، ولولا أنَّ الله جعله عذبا فراتا لم يحصل الانتفاع به.
* على الناس أن يشكروا الله على نعمه التي لا تحصى ويتعظوا، فكما أنه تعالى يجعل الزرع حطاما إذا شاء، فكذلك يهلكهم إذا شاء فقدرته تعالى لا حدود لها.
* في نار الدنيا عبرة وعظة للمتقين.
* وجوب تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٨٤٣).

المقطع الثالث

تعظيم القرآن الكريم وصدق ما أخبر به

قال تعالى:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٩٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور السورة هو تقرير **البعث والجزاء**، وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ وبيان ذلك أن الكفار لما أنكروا ما أخبرهم به القرآن من أمر البعث، وقالوا:﴿ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾[الواقعة: ٤٧]، فلما عدوه محالا، وكان إثباته من أهم ما جاء به القرآن، قامت الحجة على خطئهم، وتبين صدق ما أنبأهم به القرآن، فتهيأ المقام للتنويه بشأنه[١].

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لهذا المقطع تعلق بسابقه من وجهين:

الأول: أن الله تعالى ذكر في المقطع السابق الأدلة والبراهين على الوحدانية والبعث والنشور، وهنا أعقب بذكر الأدلة على النبوة، ومصدر الرسالة، وصدق هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وأنه ليس كما يزعم المشركون قول شاعر أو كاهن. بل هو قول رب العالمين، قال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٠٠، ٣٠١.

ابن عاشور: « الفاء في:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾[الواقعة: ٧٥] لتفريع القسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث؛ فإن قوله:﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبار بيوم البعث، وإنذار لهم به، وهم قد أنكروه، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن، وكذبوا ما جاء به، ففرَّع على تحقيق وقوع البعث، والإنذار به تحقيق أن القرآن منزه عن النقائص، وأنه تنزيل من الله، وأن الذي جاء به مبلغ عن الله»[1].

والثاني: أن كلا المقطعين ختم بالأمر بتنزيه الله تعالى، قال تعالى فيهما: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤، ٩٦].

ثالثاً: سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآيات:﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾[الواقعة: ٧٥] حتى قوله: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢][2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على ثلاث قضايا:

الأولى: فيها إثبات النبوة وصدق القرآن وعلو شأنه.

والثانية: فيها توبيخ الضالين المكذبين على جحود النعمة، وجعل التكذيب موضع الشكر.

والثالثة: فيها بيان لمصائر الناس عند الاحتضار.

---

(١) المصدر السابق: ٢٧/ ٣٠١.

(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم (٧٣)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٩، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٤، أسباب النزول، الواحدي ٣١٨، ٣١٩.

* فأقسم بمساقط النجوم وبروجها، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾[النجم: ١][١].

* وإنَّه لقسم عظيم لو عرفتم عِظم مواقع النجوم، وسعة هذا الكون، الدالة على عظيم قدرة الله، وفرط رحمته بكم[٢].

* إن هذا القرآن[٣] - الذي أنزل على محمد ﷺ، وأخبركم بأمر البعث - لكريم على الله، كرمه

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾، تكون "لا" زائدة مؤكدة في قول أكثر المفسرين، والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، كما في قوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحديد:٢٩]، وقال الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد نياط القلب لا يتقطع

أي: كاد يتقطع. وقيل: «لا» هي نفي، والمنفي محذوف، والمعنى: أي ليس الأمر كما زعمتم، إن القرآن سحر أو كهانة أو شعر أو أساطير الأولين، ثم استأنف فقال: فأقسم. البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٢، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣١٤.

وقيل المراد ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أوقات نزول القرآن، فقد كان ينزل منجما على النبي ﷺ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ ﴾ فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾، أي نجوم القرآن. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٥٨، ٣٥٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٣.

(٢) قال سيد قطب: ولم يكن المخاطبون يوم ذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل، الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة:٧٦]، فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم، وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظير، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا مجموعة واحدة وهي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم. في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٠.

(٣) هذا هو جواب القسم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ ﴾ [الواقعة:٧٧]، قال ابن القيم: " المناسبة بين ذكر القسم بمواقع النجوم وبين المقسم عليه، وهو القرآن: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في=

ورفع قدره على جميع الكتب، كريم لما فيه من دعوة إلى كريم الأخلاق ومعالي الأمور، كريم لما فيه من الهدى والبيان والخبر الصادق، والعلم والحكمة والخير النافع.

* وهو مصون عند الله، مستور محفوظ عن الباطل والتغيير والتبديل.

* ولا يمسه إلا المطهرون المنزهون عن دنس الأرجاس، وهم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾[عبس: ١٣- ١٦].

ولا يمسه إلا مَن كان متوضئا طاهراً من الجنابة والحدث[1].

=مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ". بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٤/ ٣٥٩.

(١) في معنى قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الواقعة:٧٩] اختلاف بين المفسرين، فمنهم من قال: إن (لا) نافية، و(المطهرون): الملائكة، والتقدير: لا يقربه ولا يطلع عليه إلا المنزهون من الحظوظ النفسية، وهم الملائكة، وقيل: إنه خبر بمعنى النهي، والمعنى لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث، فيكون نفيا بمعنى النهي. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢١.

وقد ورجح ابن القيم القول الأول وانتصر له، فقال: " اختلف المفسرون في هذا: فقيل هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس:١٣- ١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة:٧٩]، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح الوجوه؛ **أحدها**: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله، وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١٢]، **والوجه الثاني**: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية، إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية، **والوجه الثالث**: أن القرآن لم يكن كله في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر ﷺ، **والوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ والمكنون المستور لا تناله أيدي البشر، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات:٤٩]. وهكذا قال=

كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم ﷺ: " وأن لا يمس القرآن إلا طاهر»[(١)].

* وهو منزل من عند الله رب العالمين، فهو كلامه، وليس بقول ساحر أو كاهن أو شاعر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الحاقة: ٤١ - ٤٣].

* أفأنتم شاكون في القرآن، وفيما أخبركم به من أمر البعث، تمالئون أهل الكفر، وتركنون إليهم كمن يدهن في الأمر، ويلين جانبه تهاونا به ؟ !

* وتجعلون شكر ما أنعم الله به عليكم من المطر[(٢)] أنكم تكذبون بنعمه وبالبعث، وبما دل

=السلف، **والوجه الخامس**: أنه قال: ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩]، ولم يقل إلا المتطهرين، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] ". بدائع التفسير: ٤/ ٣٦٣، ٣٦٤.

(١) فضائل القرآن، أبو عبيد ٢٤٤، المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٣٤١، المستدرك، الحاكم ١/ ٣٩٥، وصححه ووافقه الذهبي. إرواء الغليل، الألباني ١/ ١٥٨. قال محمد بن إسماعيل بن الأمير الصنعاني: «وكتاب عمرو بن حزم تلقاه الناس بالقبول؛ قال ابن عبد البر: إنه أشبه المتواتر لتلقي الناس له بالقبول، وقال يعقوب بن سفيان: لا أعلم كتابا أصح من هذا الكتاب، فإن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين يرجعون إليه ويدعون رأيهم، وقال الحاكم: قد شهد عمر بن عبد العزيز وإمام عصره الزهري بالصحة لهذا الكتاب... ولكنه يبقى النظر في المراد من الطاهر؛ فإنه لفظ مشترك يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر، والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى مَن ليس على بدنه نجاسة، ولا بد لحمله على معين من قرينة، وأما قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، فالأوضح أن الضمير للكتاب المكنون الذي سبق ذكره في صدر الآية، وأن ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ هم الملائكة ". سبل السلام: ١/ ١١٠.

(٢) القول المشهور في معنى الرزق في قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة:٨٢] هو المطر، والتكذيب هو قولهم: مطرنا بنوء كذا، وقد ثبت هذا المعنى بالحديث المذكور في سبب النزول، وقيل: إن معنى الرزق في الآية الهداية التي أعطاهم الله تعالى بالقرآن، والمعنى: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به، فكأن الله تعالى لما أنزل القرآن، وبين لهم طريق الحق به فكذبوه وأنكروا، سمى ذلك البيان رزقاً، وجعل تكذيبهم كفراناً لهذا الرزق، وقيل: المعنى جعلوا حظهم من=

عليه القرآن، فتضعون التكذيب موضع الشكر.

* إن التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟.

* فهلا إذا وصلت الروح وقت النزع الحلقوم، وأنتم حينئذ إلى جانب المحتضر، ترونه قد قارب فراق الحياة، وترون ما يكابده من سكرات الموت...

* ونحن بعلمنا وقدرتنا، وبملائكتنا أقرب إليه منكم، ولكن لا ترون، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[الأنعام: ٦١].

* فهلا تردونها إلى بدنها عمَّا هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء إن كنتم صادقين في زعمكم ألا بعث، وأنكم غير مدينين.

* فأما إن كان المحتضر من السابقين إلى فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فله راحة[(١)]، وطمأنينة، ورزق واسع ونعيم في الجنة.

* وأما إن كان من أهل اليمين، فتبشره الملائكة قائلة: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، قال تعالى:﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠][(٢)].

= القرآن التكذيب. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٦٠، ٣٦١.

(١) ورد في لفظ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة:٨٩] قراءتان، الأولى: «فرَوح» بفتح الراء، وهي قراءة الجمهور، أي الراحة، والمعنى: هو في رَوح وراحة، والثانية: «فرُوح» بضم الراء، وهي قراءة يعقوب، ومعناها: أن روحه معها الريحان، وهو الطيب، وقيل: الرُّوح هو الرحمة. الكتاب الموضح، ابن أبي مريم ٣/ ١٢٣٤، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٨٣.

(٢) والكاف في قوله: «لك» على هذا المعنى موجهة لغير معين، وقيل الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه يسر بما يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله، وقيل: الكلام على تقدير القول، أي يقال له: سلام لك، أي تقول له الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٨.

* وأما إن كان من المكذبين الضالين عن الهدى ودين الحق، وهم أصحاب الشمال، فله ضيافة من الماء الحار، ويصلى نار جهنم في الآخرة.
* إنَّ هذا الخبر وما جاء في هذه السورة من أمر البعث وغيره لهو محض اليقين، والحق الثابت الذي لاشك فيه، ولا محيد لأحد عنه.
* فنزِّه اللهَ عما لا يليق به لما علمت من آثار قدرته، واستبان لك الحق، وظهر لك اليقين[(١)].

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بربه عز وجل.
* القسم بمواقع النجوم تنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وسعة خلقه.
* القرآن الكريم كلام الله، وهو معجزة الرسول ﷺ الخالدة، وليس بشعر ولا بسحر....
* القرآن الكريم «لا يدرك معانيه أو يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي»[(٢)].
* القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين تنزلت به الملائكة الأطهار، ولم تتنزل به الشياطين، ولا ينبغي أن يمسه إلا طاهر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الآية:﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الواقعة: ٧٩] تدل على الحكم من باب الإشارة، فإذا كان الله تبارك وتعالى يخبر أن الصحف المطهرة في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا طاهر»[(٣)].

---

(١) روي أنه لَمَّا نزل: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة:٩٦]، قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولَمَّا نزل: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى:١]، قال: «اجعلوها في سجودكم». سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث ١/ ٢٩٢.

(٢) بدائع الفوائد الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٤/ ٣٦٦.

(٣) مجموع الفتاوى:١/ ٥٦، بدائع الفوائد، يسري السيد محمد ٤/ ٣٦٥.

* القرآن الكريم محفوظ عن التغيير والتبديل والباطل؛ لأن الله تكفل بحفظه.
* القرآن الكريم أحكامه كلها عدل، وأخباره كلها صدق.
* حرمة المداهنة في دين الله بأن يتنازل العبد عن شيء من الدين ليحفظ شيئا من دنياه.
* الموت نهاية كل حي، والمؤمن الحق لا يغفل عن ذكره.
* الدنيا دار عمل وسعي والآخرة دار جزاء وحساب.
* عجز الناس جميعا أمام قدرة الله تعالى.
* الاشتغال بالثناء على الله وتسبيحه وتقديسه يوصل إلى درجات المقربين.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الثامن

الحديد - المرسلات

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيسًا
أ. د. عيادة الكبيسي	عضوًا
أ. د. أحمد البدوي	عضوًا
أ. د. عبد الله الخطيب	عضوًا
د. محمد عصام القضاة	عضوًا
د. قاسم أسعد	عضوًا
د. عواد الخلف	عضوًا

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

الإيمان وآثاره في سورة الحديد

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت سورة (الحديد) بهذا الاسم لورود لفظ «الحديد» في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[الحديد:٢٥](١).

والحديد في كل العصور هو القوة التي تحمي العدل، ويجاهد بها أعداء الدين، وتصان الحقوق، وبه يذود الإنسان عن عرضه وماله، وهو عدته في كثير من أمور معيشته، وعمدته في السلم والحرب؛ فمنه تقام الجسور، وتشاد العمائر، وتُنشأ الموانئ، ومنه تصنع الدروع والسيوف والرماح والصواريخ والبارجات والبواخر والطائرات.....، فمنافع الحديد لا تحصى، وما من صناعة إلا وهو آلة فيها(٢).

---

(١) قال ابن عاشور: وهذا اللفظ وإن ذُكر في سورة الكهف في قوله: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف:٩٦]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسمّ به؛ لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف؛ ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخُوذ، تنويها به إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين، ودفاع المعتدين. التحرير والتنوير: ٢٧٠٣٢٠.

(٢) وللحديد منافع جمة للكائنات الحية؛ فمركباته تدخل في عملية تكوين الكلوروفيل، وهو المادة الأساسية في عملية التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النبات، وتكوين البروتوبلازم الحي، وعن طريقه يدخل الحديد جسم الإنسان والحيوان. ويدخل الحديد في تركيب بروتينات النواة (المادة الكروماتينية) في الخلية الحية، كما أنه يوجد في سوائل الجسم مع غيره من العناصر، وهي إحدى مكونات الهيموجلوبين (المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء)، ويقوم بدور هام في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها، والحديد يوجد كذلك في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر، ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد، فإذا نقصت تعرض الإنسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم. المنتخب=

ب. مكان نزول السورة:

اختُلف في مكان نزول هذه السورة على قولين:

الأول: أنها نزلت بالمدينة، قال ابن الغرس: الجمهور على أنها مدنية[1]، وقال ابن عطية: «ولا خلاف أنَّ فيها قرآناً مدنياً، لكن يشبه صدرها أن يكون مكيا»[2].

والثاني: أنها نزلت بمكة[3].

والظاهر أنَّ أغلب آياتها مدني، وفيها ما هو مكي، قال ابن عاشور: « وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي، لم يختلف مثله في غيرها، والذي يظهر أن صدرها مكي كما توسَّمه ابن عطية، وأن ذلك ينتهي إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

وأنَّ ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة، كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين وبعضه نزل بمكة مثل آية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾ [الحديد:١٦]، كما روي عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦] إلا أربع سنين[4].

وعبد الله بن مسعود ﷺ من أول الناس إسلاماً، فتكون هذه الآية مكية.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد:٢٥] نزل بالمدينة، وألحق بهذه السورة بتوقيف من النبي ﷺ في خلالها أو في آخرها، وفيها آية: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ

= في تفسير القرآن الكريم: ٨٠٨.

(١) الإتقان، السيوطي ١/ ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٥٦.

(٣) بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي ٣/ ٣٢١، التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٥/ ١٧٩.

(٤) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٢٧).

أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ ﴾[الحديد: ١٠].

وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فإنه أطلق عليه اسم الفتح، وبه سميت سورة الفتح، فهي متعينة لأن تكون مدنية، فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني[(١)].

ج. عدد آيات السورة:

قال أبو عمرو الداني: « وهي عشرون وتسع آيات في الكوفي والبصري، وثمان وعشرون في عدد الباقين، اختلافها آيتان:

﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [الحديد:١٣]، عدها الكوفي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ ﴾ [الحديد:٢٧]، عدها البصري، ولم يعدها الباقون»[(٢)].

هـ. محور السورة:

تقدم أنَّ هذه السورة فيها ما هو مكي وما هو مدني؛ ومن ثَمَّ فقد جمعت الكثير من خصائص المكي والمدني ومميزاتها الموضوعية؛ فعُنيت بالتشريع والتربية والتوجيه، وبناء المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم[(٣)]، وإلى جانب ذلك عالجت الموضوعات الآتية:

الأول: دلائل الإيمان وآثاره.

والثاني: الدعوة إلى خشية الله.

والثالث: وحدة الرسالات السماوية.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) البيان في عد آي القرآن ٢٤١.

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣١٨.

وأهم موضوع سعت السورة إلى إبرازه هو الدعوة إلى **الإيمان وبيان آثاره**، ودليل ذلك:

١ - ما افتتحت به السورة من التذكير بجلال الله وعظمته وسعة ملكه، ومقتضى ذلك تمجيد الله تعالى وتنزيهه، وإفراده بالألوهية، فإذا كان الكون بما حواه من السماوات والأرض ومَن فيهن قد نزَّه الله وأفرده بالألوهية، فإنَّ على الإنسان أن يتجه بكليته إلى الله الذي خلقه، فيؤمن به ويوحده؛ لأنه جزء من هذا الكون المسبِّح.

٢ - استطراد السورة في الحديث عن أسماء الله الحسنى وصفات كماله، وأن الكون كله لله جل وعلا؛ لأنه خالقه ومبدعه والمتصرف فيه، وكل ذلك من موجبات الإيمان.

٣ - دعوة السورة المؤمنين إلى الإنفاق في سبيل الله، والتسابق إلى تحصيل المغفرة والجنة له تعلق بموضوعها؛ لأن امتثالهم دليل الإيمان ومقتضاه.

٤ - حديث السورة عن أحوال المؤمنين في اليوم الآخر، وما هم فيه من نور، وبيانها لحال المنافقين، وما هم فيه من ظلمة في مشهد الحشر، وتحذيرها المؤمنين من سلوك طريق أهل النفاق، ونهيهم عن التشبه بأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ دليل على أن مقتضى الإيمان أن يخلص المرء قلبه لله تعالى في السر والعلن وفي الظاهر والباطن.

٥ - حديث السورة عن الإيمان بالقضاء والقدر، وبيانها أن ما أصاب المرء من مصيبة في الأرض ولا في النفس إنما هو بقدر، ومقتضى ذلك الإيمان والتسليم بأمر الله تعالى والرضى بقضائه وقدره، وذلك ثمرة من ثمار الإيمان.

٦ - إن لفظ « آمن» وما اشتق منه قد تردد في تضاعيف هذه السورة (١٤) مرة.

إذن فكل ما سبق يؤكد لنا أنَّ محور السورة الرئيس وركنها الركين هو: « **الإيمان وآثاره في سورة الحديد**».

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الحديد هو اسم هذه السورة، وهذا الاسم يتناسب تماما مع محورها الرئيس **الإيمان وآثاره**؛ لأنه ورد في سياق الآية التي تحدثت عن الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان معهم، وعطف على ذلك بذكر إنزال الحديد، وهذا يُلقي بظلال واسعة حول سر الاقتران بينه وبين إنزال الكتاب والميزان.

ويظهر لنا أن أبرز دلالات ذلك الاقتران الإيحاء العميق بأهمية الحديد، وأنه الضمانة لتنفيذ أحكام الشريعة، وكفالة الحقوق، وتأديب المعتدين، واستعماله في تحقيق هذه الغاية أثر من آثار الإيمان وبرهان من براهينه؛ فبه ينصر دين الله ورسله، واستعماله من واجبات الأمة لنشر رسالة الإيمان، والذود عنها، وحماية الحقوق والحريات.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة الحديد بالدعوة إلى الإيمان بالله وبرسوله، وبيان أجر المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾[الحديد:٧]، وختمت كما بدأت بالدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، مبينة أجر الإيمان، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[الحديد:٢٨].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الحديد وخاتمة سورة الواقعة:

ختمت سورة الواقعة بالأمر بتنزيه الله تعالى عما أنكره الكفرة من أمر البعث، قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٦]، وافتتحت سورة الحديد بتقرير ذلك التنزيه، وتبيينه بالدليل والبرهان، فقال كالتعليل لآخر الواقعة: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد:١]، إلى قوله:﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾»[الحديد:٥].

وتفصيل ذلك: أنَّ الله تعالى لَمَّا ردَّ على منكري البعث بقوله:﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ ﴾[الواقعة:٥٧]، وفيه من التقريع والتوبيخ ما لا خفاء به، ثم أتبعه بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ﴾[الواقعة:٥٨]، إلى قوله: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ ﴾[الواقعة:٧٣] وقال تعالى بعد ذلك:﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ ﴾[الواقعة:٨١]، واستمر في توبيخهم إلى قوله:﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ ﴾[الواقعة:٨٧].

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائحهم أعقب ذلك تنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه، فقال تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾[الواقعة:٧٤]، أي نزهه عن عظيم ضلالهم، وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾[الحديد:١]، أي سبح باسم ربك فهي سنة العالم بأسرهم، كما قال تعالى:﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[آل عمران:٨٣][1].

٤. المناسبة بين مضمون سورتى الحديد والواقعة:

بين مضمون هاتين السورتين تناسب من وجوه، أهمها:

أولا: عنيت سورة الواقعة بتقرير يوم البعث، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ﴾[الواقعة:٤٩- ٥٠]، وفي سورة الحديد تأكيد لوقوع ذلك اليوم، وبيان لحال الخلائق فيه، قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾[الحديد:١٢]، وقال:﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥ ﴾[الحديد:١٥]، وقال:﴿ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ ﴾[الحديد:٢٠].

ثانيا: في سورة الواقعة تنويه بالقرآن، وبيان أوصافه، قال تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ

(١) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٣٣، ٤٣٤، تناسق الدرر، السيوطي ١٣٠.

كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة:٧٧- ٨٠]، وفي سورة الحديد بيان لحكمة إنزاله، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد:٩].

ثالثا: تحدثت سورة الواقعة عن الجنة، وما حوته من ألوان النعيم، وفي سورة الحديد بيانٌ لسعتها، وذكرٌ لصنوف أُخر من النعيم لم تذكر في سورة الواقعة.

رابعا: بينت سورة الواقعة النزل الذي أُعد لأصحاب الشمال، وهو النار وما فيها من الزقوم والحميم، وفي سورة الحديد وصف لتلك النار، وذكر لصنف آخر من أهلها، وهم المنافقون.

خامسا: في السورتين بيان لأسباب دخول المشركين والمنافقين النار؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الواقعة:٤٥ – ٤٨]، وقال: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد:١٤].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

الإيمان بالله ودلائله وآثاره

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[الحديد:١- ١٥].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يتناسب مع محور السورة «الإيمان وآثاره»؛ فهو يقرر أن الوجود الإلهي

حق لا مرية فيه، ويقدم الدلائل على ذلك في خمس آيات تتحدث عن عظمة الله وقدرته وإحاطة علمه وحكمته ورحمته وتدبيره وملكه، وأن مرد الأمور إليه، وكلها من مظاهر كماله وموجبات استحقاقه للعبودية وإفراده بها.

كما يتجه المقطع في بقية آياته إلى الحديث عن آثار « تحقيق حقيقة الإيمان في السلوك وذلك أن الإيمان حينما تستقر حقيقته في الأفئدة تخلص النفوس لهذه الحقيقة فلا تضن عليها بشيء ولا تحتجز دونها شيئاً، من الأرواح أو الأموال، أو خلجات القلوب، أو ذوات الصدور وتستحيل النفوس ربانية، فتخشع لذكر الله، وتفر إليه، وتخلص له، وتتجرد لتقواه، وتبذل من أجلـه»[1].

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتناول هذا المقطع ثلاث قضايا:

الأولى: تسبيح الكون لله تعالى وإفراده بالألوهية.

والثانية: دلائل الإيمان بالله تعالى.

والثالثة: آثار الإيمان، وهي الإنفاق في سبيل الله.

* نَزَّهَ اللهَ عز وجل عما لا يليق به، وأَقَرَّ له بالربوبية والوحدانية والقدرة كلُ ما في السماوات وما في الأرض من ملك وإنسان ونبات وجماد عقلاء وغير عقلاء[2]، قال تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء:٤٤]، وقال:﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٧٥.

(٢) قال الشوكاني: والتسبيح المسند إلى ما في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم، فإن كل موجود يدل على الصانع. فتح القدير: ٥/ ١٦٥.

﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾[النور:٤١].

* وهو سبحانه القوي الغالب القاهر فوق عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وفي تدبير شؤون خلقه، وتصريف أمورهم.

* وهو وحده مالك السماوات والأرض، ولا شريك له في ملكه، يتصرف فيه كيف يشاء، يهب الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

* وهو سبحانه المحيي والمميت، يخلق الموت والحياة، ويقدرهما، فلا يكون إلا ما قدره وقضاه. فيحيي من يشاء ويميت من يشاء.

* وهو سبحانه قدير تام القدرة، فعال لما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء كائنا مَن كان، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فيعز مَن يشاء ويذل مَن يشاء.

* وهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وله ميراث السماوات والأرض، قال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾[القصص:٨٨]، وهو الظاهر العالي الذي ليس فوقه شيء، الغالب على كل شيء، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، والعالم بما بطَن، وعلمه تعالى محيط بكل شيء، فلا يعزب عنه شيء، قال تعالى:﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس:٦١]، وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[١].

* وهو سبحانه الذي أوجد السماوات والأرض في ستة أيام، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[ق:٣٨].

* ثم استوى سبحانه وتعالى على العرش استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وكماله.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٧١٣).

* وهو تعالى يعلم كل شيء يدخل في الأرض من مطر وأموات وغيرها، ويعلم كل شيء يخرج من الأرض؛ من نبات وزرع وثمار ومعادن وغيرها، قال تعالى:﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنعام:٥٩].

* وهو تبارك وتعالى يعلم ما ينزل من السماء من مطر وأرزاق وأقوات وملائكة وغيرها، وما يصعد إليها من الملائكة والأعمال والدعوات، وغيرها.

* وهو سبحانه شهيد على أعمالكم أينما كنتم، يعلم متقلبكم ومثواكم، فأنتم في علمه سواء.

* وهو تعالى رقيب على خلقه، الكل تحت بصره وسمعه، يرى مكانهم، ويسمع كلامهم، في السر والنجوى، قال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[يونس:٦١]، وقال ﷺ لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل		خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة		ولا أن ما تخفي عليه يغيب[٢]

* وهو سبحانه مالك السماوات والأرض، وما فيهما، والمالك للدنيا والآخرة، لا شريك له في ذلك، قال تعالى:﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[الليل:١٣]، وقال:﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[القصص:٧٠].

* وإلى الله وحده لا إلى سواه ترجع جميع الأمور يوم القيامة، فيحكم بين خلقه بما شاء.

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٦.

* وهو سبحانه يقلِّب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء؛ فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، وتارة يتركهما معتدلين.

* وهو سبحانه عليم بالسرائر وإن دقت وخفيت، عليم بنوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر، قال تعالى:﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾[الرعد:١٠].

* صدقوا بوحدانيته تعالى وبرسالة رسوله ﷺ، وداوموا على ذلك، وأنفقوا مما جعلكم الله خلفاء في التصرف فيه من الأموال، فإنما هي أمواله، فأنفقوا منها في مرضاته.

* الجامعون بين الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وبين الإنفاق في سبيل الله لهم ثواب عظيم وهو الجنة.

* أي شيء يمنعكم أيها الناس من الإيمان بالله ؟ والرسول يدعوكم إلى الإيمان، ويسوق لكم البراهين عليه، وقد أخذ الله ميثاقكم بأن تؤمنوا وأنتم في عالم الذر، قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، ونصب لكم الأدلة على وحدانيته في الكون كله[1].

* إن كنتم حقاً مصدقين بربكم فبادروا إليه.

* آمنوا بالله واتقوه؛ فهو الذي ينزِّل على رسوله ﷺ آيات القرآن الواضحات ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ [الطلاق:١٠، ١١].

* استيقنوا أن الله كثير الرأفة والرحمة بكم في إنزاله الكتب وإرساله الرسل، وتمكينكم من النظر في الأنفس والآفاق لتهتدوا إلى معرفته فتؤمنوا وتفوزوا، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) فسر ابن كثير الميثاق ببيعة الرسول ﷺ. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٢٧.

﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة:١٤٣].

* ما الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله حين يدعوكم ؟! أنفقوا فإن الله سيخلف عليكم قال تعالى:﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ:٣٩]، فقدموا لأنفسكم الخير قبل أن تموتوا فبعد الموت لا تقدرون على ذلك. إن ميراث السماوات والأرض راجع إلى الله تعالى، وما استخلفكم فيه سيؤول إليه مهما طالت آجالكم.

* لا تساوي في الفضل بين مَن أنفق وقاتل أعداء الله قبل فتح مكة[1]، والعقيدة مطاردة والأنصار قلة، وبين مَن أنفق وقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثير.

* الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعلى درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا.

* وكِلا الفريقين موعود بالجنة، وإن تفاوتوا في الدرجات.

* والله عليم بأحوالكم، لا يخفى عليه إنفاقكم وقتالكم وعدمهما، ولا تخفى عليه نيَّاتكم ولخبرته تعالى بكم فاوت بين ثواب مَن أنفق قبل الفتح وقاتل وبين ثواب مَن فعل ذلك من بعد الفتح.

* مَن ذا الذي ينفق أمواله في سبيل الله محتسبا أجره عند ربه بلا مَنٍّ ولا أذى، فيضاعف الله له ذلك أضعافا مضاعفة، وله المغفرة والثواب الجزيل، قال تعالى:﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾[التغابن:١٧][2].

---

(١) عند الطبري المراد بالفتح: صلح الحديبية، قال: « وأولى الأقوال بالصواب عندي أن يقال: لا يستوي منكم أيها الناس من أنفق في سبيل الله من قبل فتح الحديبية ». جامع البيان: ٢٢/ ٣٩٥.

(٢) عن ابن مسعود ﷺ لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ ﴾ [الحديد:١١]، جاء أبو الدحداح الأنصاري ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: أَوَ يريد الله منا القرض ؟ ! قال: " نعم يا أبا الدحداح "، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت له: ربح بيعك =

* المقرضون اللهَ من المؤمنين والمؤمنات لهم أجر كريم حين تنظرهم يوم القيامة، ولهم نور يسعى بين أيديهم، يضيء لهم الصراط إلى الجنة، كل حسب عمله، وكتبهم بأيمانهم، كما قال تعالى:﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التحريم:٨].

* ويتلقون البشارة من قبل الله وملائكته: لكم جنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً، قال تعالى:﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[التوبة:٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت:٣٠].

* ذلك ربح وفلاح لا ربح أعظم ولا غُنم أدوم منه.

* في هذا اليوم ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: أمهلونا وانتظرونا لننال من نوركم ما نمشي به فنخرج من هذا الظلام وننجوا من العذاب[1].

* فيأتيهم الجواب في نبرة تهكم واستهزاء: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، فالتمسوا النور من هناك بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة.

* ثم يفصل بينهم بحاجز باطنه الذي يلي المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكافرين وهو النار فيه العذاب.

= يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح». صحيح مسلم، الحديث رقم (٩٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٨.

(١) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد:١٣]؛ قرأ حمزة: " أَنظِرونا "، بهمزة قطع وكسر الظاء، والمعنى: أمهلونا، وقرأ الباقون: " انظُرونا " بوصل الألف وضم الظاء، والمعنى: انتظرونا. حجة القراءات، ابن زنجلة ٦٩٩، الكتاب الموضح، ابن أبي مريم ٣/ ١٢٤٦.

* فينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا نوافقكم في أعمالكم، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونؤدي معكم سائر الواجبات.. ؟.

* فيجيبونهم: بلى قد كنتم معنا في الدنيا على الطاعات في الظاهر، ولكنكم: فتنتم أنفسكم بالنفاق فوقعتم في الهلاك والمحنة، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، وشككتم في دين الله الحق، وفي أمر البعث، ولم تصدقوا ما نزل به القرآن، وخدعتكم الأماني والآمال والأطماع الباطلة أن سيغفر لكم، وما زلتم على ذلك حتى جاءكم الموت.

* وخدعكم الشيطان أن لا بعث ولا حساب، وبأن الله عفو كريم لا يعذبكم، قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر:٥-٦].

* فاليوم لا سبيل إلى خلاصكم، ولا أمل لكم في النجاة من النار، ولا قبول لبدل تفدون به أنفسكم، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وبآياته، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦ ﴾[المائدة:٣٦].

* منزلكم جميعا النار هي ناصركم وسندكم وعونكم، وياله من مصير بائس.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى مستغن في ذاته وصفاته عن جميع ما خلق، وإليه سبحانه تفتقر كل المخلوقات في جميع أحوالها.

* في خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقهما بقوله تعالى: «كن» تعليم لعباده التأني في الأمور وعدم العجلة.

* معية الله تعالى نوعان؛ خاصة وعامة، فالخاصة معيته بنصرة أوليائه، والعامة علمه بكل

عباده وسائر خلقه، وقدرته عليهم وعلمه بهم.

* شعور المسلم بأن كل أمر مرجعه إلى الله يحرس قلبه من كل لفتة لغير الله تعالى.

* الله عز وجل خبير بما وراء أعمال خلقه من نيات، وهو مجاز كل واحد منهم بما نوى.

* الإيمان والإنفاق في سبيل الله سببان للنجاة في يوم الحساب.

* المؤمنون لا تنالهم أهوال يوم القيامة.

المقطع الثاني

الدعوة إلى خشية الله تعالى

قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحديد:١٦ - ٢٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع له مناسبة مع محور السورة **الإيـمـان وآثـاره**؛ فقد بدأ بتحذير أهل الإيمان من طول الأمل المؤدي إلى الغفلة عن ذكر الله، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب الذين أدمنوا المعاصي فقست قلوبهم، ثم حث على الصدقة، وعرض لذكر ثمرة من ثمار الإيمان، وهي أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، كما كشف عن حقيقة الحياة الدنيا لكيلا تطول آمال المؤمنين فيها، ودعا إلى المسابقة لنيل مغفرة الله وجنته، وبين أنَّ طريق ذلك هو الإيمان بالله ورسله، وختم بالحديث عن الإيمان بالقضاء والقدر، مبينا ثمرته وهي الوقاية من الاختيال والفخر اللذين ينشأ عنهما البخل والتبخيل، ومن ثَمَّ ترك الإنفاق في سبيل الله.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

عقد المقطع السابق مقارنةً بين حال المؤمنين وحال المنافقين في مشهد يوم القيامة، وبينت الآيات أن للمؤمنين نوراً يوصلهم إلى طريق الجنة، وأن المنافقين يطلبون منهم أن يؤتوهم قبساً من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة، فيردونهم خائبين.

وفي هذا المقطع أردف بعتاب قوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما ندبوا إليه من الخشوع، وحذَّرهم من أن يكونوا كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم لطول العهد بينهم وبين أنبيائهم، وبيَّن أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالمطر.

ثالثاً: سبب نزول الآيات:

هذه الآيات نزلت عتابا للمؤمنين، روي عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية:﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا

﴿نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد:١٦] إلا أربعُ سنين»[1].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع أربع فقرات تسلسلت أحداثها في تناسق بديع:

الأولى: تدعو المؤمنين إلى خشية الله.

والثانية: تكرر الدعوة إلى الإنفاق.

والثالثة: تقارن بين حقيقة الدنيا والآخرة.

والرابعة: تقرِّر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

* أما آن للمؤمنين أن تَرِق قلوبهم وتلين أفئدتهم لذكر الله، وآيات القرآن الحق النازل من السماء، وتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

* ولا يكون حالهم شبيها بحال اليهود والنصارى؛ لمَّا تطاول عليهم الزمن بلا تذكير قست قلوبهم وأصبحت كالحجارة فبدلوا كتاب الله، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وصاروا لا يتأثرون بوعد ولا وعيد، وكثير منهم خارجون عن حدود الله، قال تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[المائدة:١٣].

* اعلموا معشر الخلق أن الله يحيي الأرض بعد موتها؛ فتهتز وتنبض بالحياة وتنبت فتمنح الأكل والثمر، وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض، فكم من قلوب قست ثم دبت فيها الحياة من جديد بقدرته تعالى.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٢٧). وهذه الصيغة ليست صريحة في السببية إلا أنَّ المفسرين قد أطبقوا على أنَّ السبب هو أن المسلمين لمَّا ملُّوا عوتبوا بهذه الآية، واستأنسوا لذلك بما رواه مسلم، = =وغيره من أهل الحديث. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٢.

* أوضحنا لكم الآيات والحجج كي تتدبروها، وتعقلوا ما فيها من المواعظ وتعملوا بذلك.

* المُصَدِّقون من الرجال والنساء بالله ورسوله، المُتَصَدِّقون بأموالهم على ذوى الحاجة والفقر والمسكنة ابتغاء وجه الله، ولا يريدون جزاءاً ممن أعطوه ولا شكوراً، إنما هم يقرضون الله ويتعاملون معه[1]، هؤلاء يضاعف الله لهم الأجر، الحسنةُ بعشر أمثالها، ولهم ثوابٌ جزيلٌ ومآبٌ كريمٌ.

* والذين صدقوا بوحدانية الله وبما جاءتهم به الرسل أولئك في حكم الله بمنزلة الصديقين.

والذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ودينه، ورفع راية الحق، لهم الثواب العظيم عند ربهم، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في يوم القيامة[2].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ ﴾ قراءتان؛ فقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف: " المُصَدِّقين والمُصَدِّقات " والمعنى: إن المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء، وهذه القراءة أعم من قراءة التشديد الآتية؛ لأن معنى قراءة التشديد مقصور على الصدقة، و" المُصَدِّقين " بالتخفيف يعم التصديق والصدقة؛ لأن الصدقة من الإيمان، وقرأ الباقون بالتشديد:﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ ﴾، ومعناها: المتصدقون والمتصدقات بأموالهم، وحجتها أن في حرف أبي بن كعب: " إن المتصدقين والمتصدقات " بتاء، وحجة أخرى، وهي قوله: ﴿ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، وذلك أن القرض أشبه بالصدقة من التصديق. التيسير، الداني ١٦٩، حجة القراءات، ابن زنجلة ٧٠١.

(٢) هذا المعنى على الوقف على: ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩]، ثم استأنفت الآية: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾، وقيل إن قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ معطوف على: ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾، فيكون المعنى: إن الذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله هم الصديقون والشهداء، فلهم الأجر والنور الموعودان لهم، واختلف القول في قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾؛ فأحد الأقوال: الشهداء المعروفون، وهم الذين استشهدوا في سبيل الله، والقول الثاني: أنهم النبيون، والقول الثالث: أنهم جميع الناس، فعلى هذا القول يكون ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ معطوفا على قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾، وعلى القولين الأولين تم الوقف والكلام على قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾،

* والذين أنكروا وجود الله وجحدوا وحدانيته، وكذبوا بآياته وبراهينه الدالة على ألوهيته وصدق رسله أولئك هم الأشقياء الخاسرون.

* اعلموا أيها الناس أنها هذه الحياة الدنيا:

لعب لا ثمرة له؛ فهو كلعب الصبيان.

ولهو يفرح به المرء فيلهيه ويشغله عما يهمه من أعمال الآخرة.

وزينة تبهج العين، وتسر النظر ثم يذهب بهاؤها ورونقها، فهي كزينة النساء.

وتفاخر يتباهى بعضكم فيها على غيره بالأحساب والأنساب والمال والولد.

ومغالبة في الكثرة في الأموال والأولاد، وتطاول بكثرة العدد والعدة.

تلك هي حقيقة الحياة الدنيا، حين توزن بموازين الآخرة تبدو شيئاً زهيداً إنها أشبه بلعب الأطفال إذا ما قورنت بما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة.

* الدنيا شبيهة بمطر أصاب أرضا فأعجب الزُّرَّاعَ[1] النباتُ الحاصل به، كما قال تعالى: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح:٢٩]، ثم ما لبث هذا النبات أن يبس وجف بعد خضرته، وصار مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً، ثم تحطم بعد يبسه وجفافه، وأصبح هشيماً متكسراً، تعصف به الريح، كذلك حال الدنيا.

وقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ابتداء كلام. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٧٤، تفسير حدائق الروح، محمد الهرري ٢٨/ ٤٨٢.

(١) وسر التعبير عنهم في الآية بلفظ: «الكفار» أنه كناية؛ لأن الكفر في اللغة يعني التغطية، ولهذا سمي الكافر كافرا؛ لأنه يغطي الحق بالباطل، فسمى الزراع كفاراً؛ لأنهم يغطون الحب تحت الأرض، وليس ذلك الكفر الذي هو ضد الإيمان، وقيل: إن هذا اللفظ على معناه الحقيقي؛ لأن الكفار أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين. بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي ٣/ ٣٢٨.

* ذلك هو حال الدنيا وقيمتها، أما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، ويستعد له، فهي لا تنتهي كما تنتهي الحياة الدنيا في لمحة، وهي لا تؤول إلى حطام كالنبات حين يبلغ أجله؛ إنما هي حساب وجزاء.

* الناس في الآخرة إما في عذاب شديد أليم دائم، وهم أعداء الله، وإما في مغفرة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وهم أولياء الله وأهل طاعته.

* ما الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة زوالها إلا متاع ينخدع به كل غافل ويغتر به كل جاهل قال ﷺ: "موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1].

* دعوا معشر الناس التسابق إلى إحراز ما يلهي، وينتهي بأهله إلى غرور خادع من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في هذه الحياة، وبادروا بالتوبة، وسارعوا مسابقين بعضكم بعضا بالأعمال الصالحة، إلى مغفرة من ربكم وجنة فسيحة، عرضها مثل عرض السماوات السبع والأرضين السبع خلقت وهيئت للذين آمنوا بالله ورسله.

* هذا الجزاء الموعود وهو المغفرة والجنة محض فضل الله، يتفضل به على مَن يشاء من عباده من غير إيجاب ولا إلزام، والله ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل.

* إن كل ما يحدث في الأرض والأنفس من صغير أو كبير من بلايا ومصائب من جدب وقلة الثمرات وفساد زرع، ومرض وخوف وجوع وموت ولد...

* كل ذلك كائن بقضاء الله وتقديره، مسطر في اللوح المحفوظ من قبل إيجاد الخلق، قال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥]. « إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب في كيانه، لا مكان فيه للمصادفة، ولا شيء فيه جزاف وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في

---

(١) سنن الترمذي بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

وقته المقدور...

وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله، لا حدود فيه، ولا فواصل من زمان أو مكان، ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله، فكل مصيبة من خير أو شر تقع في الأرض كلها، وفي أنفس البشر هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض والأنفس في صورتها التي ظهرت بها»[١].

* إن تقدير ذلك وإثباته في الكتاب سهل على الله؛ لإحاطة علمه وكمال قدرته.

أخبرناكم بذلك بعد قضائنا به أزلا لئلا تحزنوا على ما فاتكم مما تحبون من الخير، ولا تفرحوا بما جاءكم من عند الله وأعطاكموه[٢] فَرَح بطر على الناس.

* والله تعالى يبغض كل متكبر فخور مباهٍ بماله وجاهه، ولا يرضى عنه ويعاقبه.

* هؤلاء هم الذين عظمت الدنيا في أعينهم فأمسكوا أموالهم، ولم يؤدوا حق الله فيها، ولم يكفهم ذلك بل أمروا غيرهم بالبخل، ورغبوهم في الإمساك.

* فمَن ينفق في سبيل الله فإنما ينفق لنفسه، ومَن يعرض عن ذلك فالله سبحانه هو الغني فما به من حاجة إلى العباد المحاويج، وهو تعالى المحمود في ذاته في السماء والأرض، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ ﴾[فاطر:١٥].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٩٣.

(٢) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾[الحديد:٢٣]؛ قرأ أبو عمرو: " بما أتاكم " بالقصر، وأتى بمعنى جاء، أي: ولا تفرحوا بالذي جاءكم من الخير، وقرأ الباقون: " بما آتاكم " بالمد، وآتى بمعنى أعطى، والمعنى: لا تفرحوا بما آتاكم الله. الكشف، مكي بن أبي طالب ٢/ ٢١١.

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* من صفات أهل الإيمان خشية الله وطاعة أوامره واجتناب نواهيه.
* تحذير المؤمنين من أن يكونوا عند سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم.
* الله قادر على أن يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى ببراهين القرآن ودلائله.
* الإنفاق ابتغاء مرضاة الله سبب لمضاعفة الأجر ودخول الجنة.
* كل مؤمن بالله ورسله حق الإيمان صِدِّيق وشهيد، ولا يكون المنهمك في الشهوات، الغافل عن الطاعات صِدِّيقاً وشهيداً.
* ينبغي أن تتخذ الحياة الدنيا وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل زائل.
* المبادرة والتنافس إلى تحصيل مغفرة الله وفضله مطلوب شرعي، أما المسارعة إلى تحصيل متاع الدنيا وحطامها فمذمومة.
* الجنة سلعة غالية، ولا تنال إلا برحمة الله تعالى وفضله، والله صاحب الفضل.
* علم المسلم بأن كل ما يصيبه من خير أو شر إنما هو كائن بتقدير الله يسكب في نفسه «السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث، فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به، وتفقد الاتزان عند السراء»[1].
* « ليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبه، ويحزن عند مضرة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً، وإنما يذم من الحزن المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٩٣.

المطغي الملهي عن الشكر»[1].

* الله سبحانه وتعالى محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه، ولا يضيره الإعراض عن شكره.

المقطع الثالث

وحدة الرسالات السماوية

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾[الحديد: ٢٥ - ٢٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

موضوع السورة الرئيس هو تحقيق حقيقة الإيمان في القلوب، وبيان مقتضياته وآثاره في السلوك الفردي والمجتمعي، وهذا المقطع يتعانق مع هذا المحور؛ فقد عرض طرفاً من تاريخ رسالة الإيمان، الواحدة في رجالها ومنهجها وخط سيرها.

كما أوضح أنَّ من آثار الإيمان اتباع الرسل وما جاءت به الكتب وتحقيق العدل في واقع الحياة، ونصرة الله باستعمال الحديد كلما حدث انحراف عن أمره وشرعه ومنهجه.

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي ٤/ ٢٢٨.

وأشار المقطع إلى بعض ما كان عليه أهل الكتاب من انحراف تنبيهاً لأهل الإسلام لتسيير خطاهم في الطريق الصحيح؛ طريق التقوى والإيمان بالله ورسله، ودعاهم إلى الإيمان، فبه تنال الأجور الكريمة، ويفوز صاحبه بالنور والمغفرة.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

حثَّ المقطع السابق على خشية الله، وحذَّر من مشابهة أهل الكتاب في قسوة قلوبهم، وبيَّن جزاء المؤمنين المنفقين، ومآل المكذبين بآيات الله ورسله، وحقَّر حال الدنيا، ووصفَ كمال حال الآخرة، وأتبعه بالحديث عن الإيمان بالقضاء والقدر، حتى إذا استقرت هذه المعاني أعقب في هذا المقطع ببيان وحدة الرسالات في الدعوة إلى الإيمان، وجزاء مَن آمن بالرسل السابقين من أهل الكتاب، ثم أكمل إيمانه بمحمد ﷺ، ثم فنَّد زعم اليهود اختصاص النبوة فيهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاث قضايا:

الأولى: الغاية من بعْث الرسل، وجزاء المصدقين بهم.

والثانية: تأكيد الدعوة إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، وبيان أجر ذلك.

والثالثة: تسفيه زعم اليهود اقتصار النبوة عليهم.

* لقد أرسلنا رسلنا إلى أممهم بالمعجزات البيِّنة، والحجج القاطعة الدالة على صدقهم(١).

* وأنزلنا على كل رسول منهم كتابا، ليسعد الناس بتطبيق شريعة الله ومنهجه.

* وأنزلنا معهم العدل – وهو الحق الذي تشهد به العقول السليمة – لتقوم حياة الناس عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾[النساء:٥٨].

---

(١) فسَّر الزمخشري الرسل بالملائكة، والمعنى عنده: لقد أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات، وأنزلنا معهم الوحي والميزان. الكشاف: ٤/ ١٢٢٣.

* وأنزلنا الحديد، وجعلنا فيه قوة شديدة؛ ليكون رادعا لَمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه[1]، وفيه منافع للناس في معاشهم كأدوات الطعام، ومرافق المنازل، وتشييد المباني، وصناعة آلات الزراعة والصناعة، وغيرها[2].

* أنزل الله الحديد ليراكم ناصري دينه ورسله باستعماله في مجاهدة أعدائه، وإنَّ الله قوي لا يعجزه شيء، قادر على الانتصار من أعدائه، لا يفتقر إلى نصرة أحد، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

* لقد بعثنا نوحا عليه السلام إلى طائفة من الناس، ومن بعده إبراهيم عليه السلام إلى طائفة أخرى، وجعلنا النبوة في نسلهما، وأنزلنا على الرسل من ذريتهما الكتاب - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان - لهداية الناس، فمن نسلهما مَن اهتدى إلى الحق، وآمن بالرسل والكتاب، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله.

* ثم أتبعنا بعدهم برسلنا رسولا بعد رسول، حتى عيسى بن مريم عليه السلام الذي أرسلناه وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب أتباعه، وهم الحواريون الرقة والخشية والمودة والشفقة؛ فيعطفون على بعضهم، ويدفعون الشر عنهم، ويجلبون الخير لهم، كما قال عز وجل في أصحاب محمد ﷺ: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح:٢٩].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ ﴾ معجزة قرآنية علمية؛ فقد اكتشف العلماء من التحليل الطيفي للحديد أنه عنصر من عناصر النجوم، ومنها الشمس التي انفصلت عنها الأرض انفصالا، كما أشار إليه القرآن= = الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ ﴾[الأنبياء:٣٠]، فإن الله سبحانه وتعالى أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان في اختراعاته، كما ينتفع به في دمه، الموسوعة الذهبية لإعجاز القرآن والسنة النبوية. د/ أحمد مصطفى، ٢٦٠.

(٢) يمتاز الحديد وسبائكه بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والشد والصدأ والبلى، وتقبل المغناطيسية وغيرها، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها، وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة، ودعامة للحضارات. المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ٨٠٨.

* وابتدعت أمَّة من النصارى رهبانية[١] ما شرعناها لهم، ولم نلزمهم بها، وإنَّما التزموها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضواننا، والزلفى إلينا، فما قاموا بما التزموه حق القيام.

* فأعطينا الذين آمنوا منهم بمحمد ﷺ ثوابهم الذي يستحقونه، وكثير منهم فسقوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن حدوده وطاعته.

* يا مَن صدقوا بوحدانية الله وربوبيته، وصدقوا رسوله - من أهل الكتاب - خافوا الله تعالى بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله ﷺ، ولكم ضعفان من الأجر؛ لإيمانكم بالرسل والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم لإيمانكم به ﷺ، ويجعل الله لكم نوراً في الدنيا يهديكم إلى الحق، ونوراً تمشون به على الصراط، ويغفر لكم ما سبق من المعاصي والآثام، وهو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم.

* بيَّنا لكم فضل مَن آمن بالله واتقاه، وآمن برسوله محمد ﷺ ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالله ولم يتقوه، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ أنَّهم لا يمنعون هذا الفضل على مستحقيه من عباد الله، وأنهم لن ينالوا شيئا منه ما لم يؤمنوا به ﷺ[٢].

* إن النبوة فضل من الله يعطيه مَن يشاء من عباده، فكما بعث في بني إسرائيل أنبياء فكذلك بعث محمداً ﷺ في العرب، وهو تعالى واسع الفضل كثير العطاء، يمنحه مَن شاء من عباده، لا يخص به قوما دون آخرين، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر:٢].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع

* الكتب السماوية وما فيها من البينات الواضحة هي أساس الشرائع، ومنهجها هو التزام

---

(١) الرهبانية هي الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وتعني المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس. المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى المنصوري ٥/ ١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٨٠٥، بتصرف.

الحق والعدل في الحكم، والقوة الحامية لذلك هي الحديد؛ فهو أداة احترام الحقوق وكفالتها، وتأديب المعادين لشرع الله، وحفظ حرمات أهل الإسلام وأوطانهم.

* الرسالات السماوية واحدة في مصدرها ومنهجها ورجالها وغاياتها.
* من رحمة الله وفضله على الناس إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والميزان، وإنزال الحديد لما فيه من بأس شديد، ومنافع للناس.
* « ذمَّ الله النصارى من وجهين (أحدهما): الابتداع في دين الله ما لم يأمر به، (والثاني): في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموه أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل»[1].
* الرهبانية ليست من الإسلام في شيء.
* من سنن الله في الناس أنه إذا أرسل الرسل لهدايتهم يهتدي بعضهم ويضل بعض.
* إنَّ إيمان أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل، وبموسى وعيسى عليهما السلام لا يكفي، ولا ينفعهم شيئا ما لم يؤمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.
* الإيمان والتقوى هما طريق ولاية الله في الدنيا والآخرة.
* النبوة محض فضل الله يؤتيه مَن يشاء من عباده، وليست مختصة بقوم دون آخرين، وليس لأحد أن يحصرها في قوم مخصوصين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٨.

سورة المجادلة

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة

سميت السورة بسورة «المجادلة» بكسر الدال وفتحها، وتسمى بسورة قد سمع «وذلك لافتتاحها بقوله تعالى﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾[1] وتسمى بـ(سورة الظهار) [2] وذلك لأنها افتتحت بقضية امرأة أوس بن الصامت التي جاءت لدى النبي ﷺ تجادله في شأن مظاهرة زوجها لها وبينت السورة حكم الظهار.

ب. عدد آياتها

عدد آيات سورة المجادلة عند أهل المدينة ومكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون [3] واختلافهم في آية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] فمن اعتبرها آية منفصلة عد اثنتين وعشرين ومن اعتبرها جزءاً من الآية التي تليها عدها واحداً وعشرين.

ج. مكان نزولها:

قال ابن عطية:سورة المجادلة نزلة بالمدينة فهي مدنية بالإجماع [5] .

---

(١) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٥/٢٨.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥ .

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسع المثاني، دار التراث العربي، بيروت، (٢٨/ ٢)، وانظر:محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦).

(٤) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣١٤).

(٥) انظر: أبي محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥/ ٢٧٢.

وروي عن الكلبي أنه قال كلها بالمدينة إلا الآية السابعة [1] وهي قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ والمرجح أن السورة مدنية لما روي عن خولة بنت ثعلبة قالت: والله فيَّ وفي أوس بن صامت أنزل الله ـ عز وجل ـ صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي: قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه... ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقىٰ من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقَى الله فِيهِ» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ» ثم قرأ عليّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً» قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَسَقاً مِنْ تَمْرٍ» قالت: قلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ» قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، قال: «قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْراً»، قالت: ففعلت»[2].

---

(١) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٥/ ٢٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، أحمد بن حنبل، المسند، رقم الحديث: ٢٦٩٠٩.

د- فضائل السورة:

مما جاء في السنة في فضل هذه السورة ما روي عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾[1].

ه. محور سورة المجادلة

جاءت هذه السورة تبين تمام علم الله وقدرته، ومن عظم هذه القدرة أن وسع سمعه سبحانه الأصوات كلها، ففيها إشارة إلى تمام العلم اللازم عنه تمام القدرة اللازم عنه الإحاطة بصفات الكمال [2]لذا تميزت هذه السورة باشتمالها على لفظ الجلالة الله في كل آية من آياتها لتربية المهابة منه بالنفوس، وعدم التجرؤ على مخالفته [3]

و. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة «المجادلة»، و«قد سمع»، و«الظهار»، وهي أسماء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمحورها فمن جلال قدرة الله سماعه الأصوات كلها كما في حديث عائشة رضي الله عنها السابق، وكذلك تشريعه للأحكام الشرعية التي تصلح أحوال الخلق ومنها الظهار وهذا لا يكون إلا ممن أحاط علمه وقدرته بالأمور.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعا بصيرا، أحمد بن حجر، فتح الباري، (٦/ ٢٧٠١).

(٢) انظر: أبي الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٧/ ٤٧٤).

(٣) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٥/ ٢٨).

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة المجادلة وخاتمتها

من جمال المناسبة بين البدء والخاتمة أن الله ذكر في بداية السورة أمر المجادلة وأنه رحم شكواها لأنها من حزبه، وسمع لها، ومن سمع له فهو مرضي عنه وختم السورة ببيان أن من تعدى حدوده فعاود أحوال الجاهلية، فهو محاد لله سبحانه وهو من حزب الشيطان[1].

ومن ذلك أيضا أن السورة قد بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بالناس من خلال ذكر واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسول الله في شأن زوجها، ودل ذلك على إخلاصها وحرصها على رباط أسرتها، وختمت السورة ببيان أن هناك طائفة مؤمنة، والتي منها المجادلة قد أخلصت نفسها لله، فرقت إلى مقام المفاضلة فهي لا تواد من حارب الله ورسوله.

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

- لما ختم الله سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٩٢]، افتتح سورة المجادلة بما هو من ذلك بذكر بيان فضله في إجابة الدعوة، فأجاب دعاء تلك المرأة وفرج كربها فقال: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [2].

-ومن المناسبة في ذلك أيضا:أنه لما ختمت سورة الحديد بعد إثبات عجز الخلق ببيان عظيم فضله سبحانه على خلقه، كان سماع أصوات جميع المخلوقات من غير أن يشغله صوت عن صوت، وكلام عن كلام من ذلك الفضل العظيم [3].

---

(١) أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، (٧/ ٥٠٨).

(٢) انظر: الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية بيروت، (٩/ ٣١٤).
وانظر محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٣).
وانظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، بيروت، (١٤/ ٨٠٦).

(٣) البقاعي، نظم الدرر، دار الكتب العلمية، بيروت، (٧/ ٤٧٤).

رابعا -المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

تنقسم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

أما المقطع الأول من الآية (١-٤) فقد ذكر الله في هذا المقطع عظيم قدرته فكان سماع أصوات جميع الخلائق من ضمنها، ومنه سماعه لمجادلة خوله لرسول الله -ﷺ- في شأن زوجها أوس وبيانه لحكم الظهار وكفارته، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (١-٤).

ولما ذكر سبحانه وتعالى في المقطع الأول حدوده، فحوى ضمنا البشارة لمن حافظ عليها والتهديد الصريح لمن تجاوزها أتبع ذلك في **المقطع الثاني في (الآيات من ٥-١٩)** ببيان خسارة من عادوه ممن تعدى حدوده، بسبب استحواذ الشيطان عليهم، وفصّل ببيان عاقبتهم بالخسران والعذاب المهين لهم بالكبت لهم في الدنيا والخزي والذل لهم في الدنيا والآخرة[1].

ثم جاء المقطع الثالث في (الآيات ٢١-٢٢) يبين ما وصل إليه حال أعدائه الذين استحوذ الشيطان عليهم، فنسوا بسببه ذكر الله، فاستحقوا بذلك الذل والخسارة في الدنيا والآخرة وختم السورة بمدح أوليائه لعدم موالاتهم لهؤلاء الأعداء.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

أرشدت سورة الحديد إلى المعاني الإيجابية للهداية فجاءت سورة المجادلة تحرر الإنسان

(١) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٧٨٨.

من المعاني السلبية، حيث أرشدت سورة الحديد إلى خصائص المتقين، أما سورة المجادلة فقد جاء فيها ما يدعو الإنسان إلى التحرر من أخلاق الفاسقين، وهو من التكامل الذي لا يخفى فتكامل سورة الحديد وسورة المجادلة فالسورتان تفصلان بصفات الفريقين المتقابلين، لتحققا التقوى وتحررا من الفسوق[1].

ثانيا: المعنى الإجمالي لمقاطع سورة المجادلة

المعنى الإجمالي للمقطع الأول:

قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

ابتدأت السورة ببيان قصة المجادلة وهي خولة بنت ثعلبة في أرجح الآراء التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت كعادة أهل الجاهلية بتحريم الزوجة بالظهار في قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، يقصد تحريم معاشرتها تشبيها لها بالأم[2].

حيث أخذت المظاهرة بعد محاورتها لرسول الله ﷺ تشكو إلى الله عز وجل وتتضرع إليه بأن يفرج كربها رأفةً بها وبولدها وزوجها، فابتدأت السورة بـ «قد» التي تفيد التحقيق بعد

(١) انظر نفس المرجع السابق، (١٠/ ١٩٧٨-٥٧٧٩).

(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت (٣/ ٣٣٦).

الفعل الماضي، والمقصود من التحقيق إجابة دعائها وإلا فسماع الخالق لخلقه قضية متحققة[١] والمراد من هذا الخبر التنويه بشأن هذه المرأة وتطييب خاطرها، وفي قوله تعالى «تجادلك في زوجها» إشارة إلى احترام الشريعة للإنسان -ذكراً كان أم أنثى -وإعطائه حقه كاملاً في استعمال عقله ومراجعته لغيره فيما يعرض له من قضايا وهذا واضح في محاورة المرأة للنبي ﷺ.

وفي إضافة المرأة إلى زوجها في قوله تعالى﴿ فِي زَوْجِهَا ﴾ إشارة إلى أن المرأة المظاهر منها لا زالت زوجة لزوجها لم تحرم عليه حرمة مؤبدة بل ما زال هنالك سبيل إلى وصل هذه العلاقة [٢].

ويخبر المولى تبارك وتعالى بأنه قد سمع حديثها [٣] ومراجعتها في الكلام معللا ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ فهو سبحانه سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه بصير بأعمال العباد وفي الآية إشارة إلى أن سمع الله يحتوي كل شيء في الوجود [٤] ومنهج السلف عليهم رضوان الله في الصفات إثبات الصفات لله تعالى ومنها صفتا السمع والبصر لله سبحانه بما يليق بجلاله وعظمته.

ثم ذم سبحانه وتعالى فعل الظهار بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾

والظهار: هو قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، وكان العرب في الجاهلية يقولون هذا القول للمرأة يريدون بذلك تأبيد تحريم نكاحها [٥] وقد قرأ عاصم «يظاهرون» بضم الياء،

---

(١) الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٤٩٢).

(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر، بيروت، (٢٨/ ٨١١).

(٣) وقد عبر بلفظ السماع دون الاستماع لأن السماع يكون من غير طلب، على حين لا يكون الاستماع إلا بطلب، انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨١١).

(٤) انظر محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٥).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ١١).

وتخفيف الظاء والهاء وكسرها وألف بينهما، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزه والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الطاء وألف بعدها «يظّاهرون» والباقون «يظَّهَّرون» بتشديد الظاء والهاء دون ألف بينهما[١].

فبين الله أن هؤلاء المظاهرين يقولون قولاً منكراً تنكره الحقيقة، وينكره الشرع زور وبهتان، لأن الزوجة ليست أما في الحقيقة، فأمهاتهم من قمن بولادتهم من أرحامهن، فكان هذا القول منكراً لأنه يضع الزوجة في صورة الأم، والزوجة لا تكون أماً لزوجها أبداً، فمن قال هذا القول ينبغي عليه العودة عنه، فيحظى بعفو الله ومغفرته، فالله واسع العفو والمغفرة بالرغم مما يقع من عباده من منكر وزور.

وقد بين الله عز وجل صفحه وعفوه عن المظاهرين، وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم[٢] وفي هذه الفاصلة القرآنية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه وسع بعفوه ومغفرته ما يقع من عباده من منكر وزور إذا تابوا وأنابوا وفي تسمية القرآن للظهار بالمنكر والزور ما يدل على تحريمه.

ثم يبين القرآن بعد هذا الإنكار للظهار حكمه وجزاءه بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾ فمن قال لزوجته هذا القول ثم عاد[٣] وندم على ما صدر منه ورغب بإعادة زوجته فعليه عتق رقبة -عبداً أو أمةً- من

---

(١) ابو الخير محمد بن محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، دمشق، (٢/ ٣٨٥).

(٢) انظر: أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، (٥/ ٣٢٣).

(٣) وانظر إلى جمال النظم في إيقاعه العود على القول لا على النساء المظاهر منهن لأنه أصبح حائلا بين الرجال وبين نسائهم فإذا أردوا أن يدفعوا هذا الحائل لا بد من كفارة، أنظر عبد الكريم الخطيب،

قبل معاشرتها فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متتاليين من قبل الجماع ولو أفطر يوما منها انقطع التتابع ووجب عليه الاستئناف للصيام من جديد فمن لم يستطع الصيام لكبر سن أو مرض دائم يمنع منه فعليه أن يطعم ستين مسكينا «ولا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير»[1].

ويختم القرآن بفاصلة الآية ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مبينا علة بيان الأحكام بأنها لأجل أن يزداد المؤمن إيمانا بعظمة التشريع فلا يلتفت إلى أحكام الجاهلية ويحذر من الاستخفاف بحدود الله وذلك لأن من يتعدى حدود الله من بعد هذا البيان فقد عرّض نفسه للعذاب الأليم.

التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٢).

(١) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي، بيروت، (١٧/ ٢٧٧).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولما ذكر الله حال المؤمنين الوقافين عند حدود رب العالمين، أتبعه بذكر حال المحادين المخالفين لأمر الله ورسوله من المنافقين الذين كانوا يتآمرون على المؤمنين مع اليهود في المدينة مبينا عاقبة تآمرهم وما يؤول إليه حالهم فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥﴾ ﴾ وهذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يتآمرون على رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر ويدبرون عليهم ويتمنون لهم المكروه ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات [١] فيخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء المنافقين الذين حادوا الله ورسوله [٢] وذلك بمخالفة حدوده وفرائضه وأصل المحادة المعاداة، لأن كلا من المتعاديين في حد غير حد الآخر [٣] وفي هذا الخطاب وعيد عظيم لكل الذين وضعوا أموراً خلافاً لما حد الشرع [٤].

فالذين عاندوا شرع الله كبتوا ويقال كبت الرجل إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه[٥] فهم قد أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم فالله قد أنزل آيات

(١) أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٢) وقد عبر القرآن مع المنافقين بالمحادة دون المشاقة التي جاءت في سورة الحشر في سياق الحديث عن بني النضير، وذلك لأن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر ففيها معنى البعد أما المحادة فليس فيها هذا المعنى إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حد -أي علامة- توضع بين الفريقين كحد الأرض، فالمنافقون يزعمون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر وليس كذلك الكفار من يهود ومشركين لذا استعملت المشاقة في جانب الكفار وكلمة المحادة في جانب المنافقين لأن المنافقين يدّعون الإسلام بألسنتهم، أنظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم دار الفرقان، عمان، ص١٨٩.

(٣) انظر محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي "محاسن التأويل "، دار الفكر، بيروت، (٩/ ٧٠).

(٤) الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٠).

(٥) عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، (٣/ ٣٤٤).

واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، وفي ختم فاصلة الآية بقوله ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وهي تتحدث عن المنافقين إشارة بينة على كفر المنافقين وإن أظهروا الإيمان في العلن.

ثم يذكّرهم الله عز وجل بذلك اليوم العظيم الذي يقفون فيه بين يديه لعلهم بذلك يعودون إلى جادة الطريق بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فيخبرهم جل وعلا في ذلك اليوم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام، حفظها عليهم وجمعت لهم في صحائف أعمالهم ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ فأحاط سبحانه بما عمل كل منهم كما وكيفا وزمانا ومكانا، بينما هم نسوا تلك الجرائم وغابت عن أذهانهم لكثرتها ولاعتقادهم أن لا حساب عليها أو لقلة اكتراثهم بالمعاصي [1] فالله سبحانه لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافيه. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فلا يغيب عنه أمر من الأمور، وهذه الفاصلة مقررة لإحصائه تعالى للأعمال [2].

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ وهذه الآية مقررة لما سبق ذكره من كمال علم الله وقدرته في كونه لا يغيب عنه سبحانه أمر من الأمور، فالله مطلع عليهم يسمع كلامهم وكلام غيرهم من البشر مطلع على سرهم ونجواهم، أما رسله من الملائكة الكرام فهم أيضاً يكتبون ما يتناجى به الخلق مع علم الله به.

والتناجي مأخوذ من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان بنجوة من

(١) انظر القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مكتبة ومطبعة الحلبي، مصر، (٢٨/ ١٤).

(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٣).

الأرض، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء[١].

فما يكون من نجوى ثلاثة في أنفسهم إلا الله عز وجل رابعهم يشاركهم في الاطلاع عليها وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وقد قرأ أبوجعفر بالتاء على التأنيث «ما تكون»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير «ما يكون»[٢] فقراءة التذكير (ما يكون) أفادت عموم الجنس فيصبح المعنى ما يكون من نجوى ثلاثة كقولك ما جاءني من امرأة،، أما قراءة التأنيث «ما تكون» يصبح المعنى ما تكون نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم[٣] فكأنها جاءت للحديث عن حدث معين يتعلق بنجوى ثلاثة.

أما قوله ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ فالمعنى: لا نجوى خمسة إلا هو سادسهم وتخصيص العددين بالذكر إما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين بأن يكونوا ثلاثة أو خمسة وإما لخصوص الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع وخمسة في موضع آخر[٤]، وقد عمم الحكم بعد ولا أدنى من ذلك مما ذكر كالواحد والإثنين، ولا أكثر كالستة وما فوقها إلا هو معهم يعلم ما يجرى بينهم [٥] وقد قرأ يعقوب «ولا أكثر» بالرفع وقرأ الباقون بالنصب على محل «من نجوى»[٦].

فالمراد بهذه الآية بيان معية الله تعالى لخلقه وعلمه بهم، ولا شك في إرادة ذلك، وسمعه أيضاً مع علمه سبحانه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فالله تعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء[٧] أينما كانوا في أي مكان من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض، فإن علمه

---

(١) المرجع السابق.
(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٣) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣١٨).
(٤) انظر، الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٨٩).
(٥) أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢١٨).
(٦) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٣).

تعالى بالأشياء ليس مرتبطا بقرب أو بعد مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأماكن[١] روي عن الضحاك في معنى المعية الإلهية في الآية أنه قال: «هو فوق عرشه، وعلمه معهم أينما كانوا»[٢] فمعيته سبحانه معية علم وهو مذهب السلف عليهم رضوان الله، ولذلك افتتح الله الآية بالعلم واختتمها بالعلم [٣].

وبعد الإخبار عن شمول علمه سبحانه وتعالى يخبر عن أحوال اليهود والمنافقين الذين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم فقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾.

قرأ حمزة بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف عن يفتعلون «وينتجون» وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدها ألف وفتح الجيم عن يتفاعلون [٤]وهما يجريان بمعنى واحد، فالنجوى هي إسرار ما يرفع كل واحد للآخر [٥].

والآية في اليهود والمنافقين حيث كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، يريدون بذلك أن يغيظوهم، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. [٦]وكان اليهود، يأتون النبي ﷺ فيقولون السام عليك: أي الموت فيحيوه بما لا يليق بجنابه ﷺ فنزلت الآية، يدل على ذلك

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود، (٩/ ٢١٩).

(٢) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ٢١٩).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٤).

(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).

(٥) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣١٨).

(٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، دار الفكر، بيروت، (٤/ ٤٩٠).

ما روي «عن أنسَ بن مالك يقول: مرَّ يهوديٌّ برسولِ الله ﷺ فقال: السامُ عليك فقال رسول الله ﷺ: وعليك. فقال رسولُ الله ﷺ «أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك، قالوا: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلمَ عليكم أهلُ الكتاب فقولوا: وعليكم»[(١)]، وما روي عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «استأذنَ رهطٌ من اليهود على النبيِّ ﷺ فقالوا: السامُ عليكَ، فقلتُ: بل عليكم السامُ واللعنة. فقال: يا عائشة إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ في الأمر كله. قلتُ: أوَ لم تسمَعْ ما قالوا؟ قال: قلتُ وعليكم»[(٢)].

ويخبرنا القرآن عما كان يدور في خلجات نفوس هؤلاء المتناجين من قولهم بأنفسهم لو كان محمد نبيا حقا لعذبنا الله على هذا الكلام وعجل عقابنا في الدنيا وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ فرد الله عليهم أن هنالك ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة وهو دخول جهنم يصلون حرها بقوله ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾وجهنم مكان يذم داخله ويصيبه من الأهوال ما لا يخفى فبئس المصير، وإنما لم يعجل لهم الله العقوبة الدنيوية من باب الإمهال.

ثم ينهى القرآن المؤمنين عن أن يتناجوا فيما بينهم كما كان يفعل المنافقون واليهود فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ فنهى الله المؤمنين عن التحدث سرا بما فيه إثم ومعصية من القول وأجاز لهم أن يتحدثوا سرا بما فيه خير وطاعة وإحسان، وقد نبه الرسول ﷺ إلى أدب التناجي في ذلك فقال: « إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ. حَتَّىٰ تَخْتَلِطُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرّض الذميُّ وغيرُه بسبِّ =
=النبي ﷺ ولم يُصرِّح، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرّض الذميُّ وغيرُه بسبِّ النبي ﷺ ولم يُصرِّح، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٧٧٦.

بِالنَّاسِ. مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْزِنَهُ»[١].

وبدأ الخطاب بأداة النداء يا التي للبعيد للدلالة على علو منزلة المنادى ووصفوا بأجمل الأوصاف «الذين آمنوا» وعبر بأداة الشرط إذا التي تفيد الجزم بوقوع فعل الشرط بعدها للدلالة على أن التناجي مجزوم بوقوعه بين المؤمنين لذا وجهوا لأن يكون التناجي على أساس البر والتقوى وذلك لأن التقوى هي الدافع إلى فعل الخير واجتناب الإثم.

والنجوى بالسوء من تزيين الشياطين وذلك ليحزن المؤمنين وهو ما نبه إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾بحيث يتناجى البعض والبعض ينظر إليهم بالحزن بسبب فعلهم، لاستثنائهم بما يقولون، والحزن ألم يصيب النفس على ما فات، فبين القرآن أن ذلك التناجي من أتباع الشيطان ليس بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله وبمشيئته ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾فهم قوم يكلون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه[٢] ولذا ختمت فاصلة الآية بقوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ليخُصّوا من بيده الضر والنفع بالتوكل عليه دون غيره وهو ما يفيده تقديم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾.

ولما نهى الله عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم بما يكون سببا لزيادة المحبة والمودة والتوافق وهو التوسيع في المجالس [٣]فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير رضاه، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٥٦٥٠.
(٢) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٢٩٥).
(٣) الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٧).

فقد جاء الخطاب بأجمل وصف وأحسن عبارة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾مقرونا بالأمر بضرورة أن يوسع المؤمنون لبعضهم في مجلس النبي ﷺ ليتمكن الجميع من أخذ العلم عنه حيث كان القوم يتنافسون على الجلوس بالقرب من سيدنا رسول الله ﷺ وذلك بأن يفسح ويوسع البعض للآخر ليحظوا بذلك بتوسيع الله لهم في رحمته، وفي الآية دليل على أن من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه من خير الدنيا والآخرة [١].

وقد قرأ عاصم «في المجالس» بألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد «في المجلس» [٢]فأفادت قراءة الجمع كثرت مجالسة القوم لرسول الله ﷺ وحرصهم على الانتفاع بما عنده، وأما قراءة الإفراد فدلت على أن المجالس مع كثرتها إلا أنها كانت كأنها مجلس واحد لتألف هذه الجماعة المؤمنة بالأخذ عن النبي الكريم فجميع هذه المجالس مع تعددها أصبحت كأنها مجلس واحد لتساويها بالانتفاع منها وبعدها عن اللهو والهزل.

وكذلك حالهم عند صدور الأمر لهم بالنشور من حيث الاستجابة ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ وأصل النشز: المرتفع من الأرض، ومن المعلوم أن من يريد التوسعة في المجلس لقادم فإنه غالبا ما يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع، أو لأن النهوض نفسه ارتفاع، والمعنى إذا دعيتم أيها المسلمون إلى القيام في مجلس النبي ﷺ للتوسعة لقادم أو لرغبته ﷺ بالانفراد وأحيانا ليقوم بوظائفه فقوموا، ويمكن أن يكون المعنى إذا دعيتم أيها المسلمون إلى النشوز إلى فعل الخيرات من الصلاة والجهاد وسائر الطاعات فأجيبوا [٣] وقد قرأ المدنيان ابن عامر وحفص بضم الشين في قوله تعالى﴿ ٱنشُزُواْ ﴾ وقرأ الباقون بكسرها [٤] وهما لغتان من لغات العرب.

ثم يبشر الرحمن من استجاب لأمر الله وأمر رسوله بالإيمان والاتباع برفع الدرجات في

(١) انظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (٣/ ٣٤١).
(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٣٩).
(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).

قوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾، وجمع القرآن الدرجات لتعددها وتنوعها في الدنيا والآخرة، وخص أهل العلم بالذكر مع أنهم جزء من المؤمنين من باب عطف الخاص على العام تعظيما له وكأنه جنس آخر [١] ولا شك أن من أراد أن يرفع قوما دون قوم لا بد من أن يكون عليما بمختلف أحوالهم، خبيراً بها لذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وبعد أن وجه القرآن المؤمنين إلى أدب المجالس فيما بينهم بين لهم بعض آداب المجالس عند سيدنا رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾فقد أمر الله المؤمنين بتقديم الصدقات في قوله تعالى ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ﴾قبل مناجاة النبي ﷺ تعظيماً لمقامه عليه السلام، ونفعا للفقراء، وتمييزاً للمخلص من غيره، وبين محب الدنيا من محب الآخرة [٢] وفيه أيضاً تخفيف على رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس. ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها[٣].

والأمر في ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ﴾للوجوب والتعبير بـ «بين يدي» يفيد أن الإنفاق مطلوب منهم قبيل المناجاة بقليل، ويوضح القرآن حكمة تشريع الصدقة قبيل المناجاة بقوله ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ ﴾ ولا شك أن التصدق بالمال خير لهم من إمساكه وأطهر لقلوبهم وأزكى، أما من لم يجد ما يتصدق به قبيل المناجاة والسؤال فإن الله غفور رحيم يغفر لمن لم يجد ما يتصدق به ويرحمه. فأعذر الله العاجزين عن تقديم الصدقة بقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لأن من ينوي فعل الخير لو قدر عليه كان له أجر على نيته، ومن المعلوم أن مناجاة النبي عليه السلام

---

(١) انظر القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، (٩/ ٧٩).

(٢) تفسير الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٠).

(٣) انظر تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٣٠١).

لتحصيل علم في أمر من أمور الدين من الواجد ومن غير الواجد أمر لا بد منه[١] لذا كانت هذه المغفرة لغير الواجد.

ثم جاء العتاب من الله في القرآن على بعض المؤمنين الذين كانوا يخافون الفقر بسبب هذه النفقات، وهم قادرون على الصدقة، **فقال تعالى**:﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

والخطاب في الآية لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشق عليهم ذلك أو ثقل عليهم، والإشفاق توقع حصول ما لا يبتغيه الإنسان، والاستفهام في ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ ﴾ مستعمل في العتاب على تجاهلهم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء والمعنى إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه، **وقد** جمع الله الصدقات هنا باعتبار المخاطبين[٢] وفاصلة الآية ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾جاءت للتحذير من التفريط في طاعة الله [٣] والترغيب بما عنده من ثواب.

وفي هذه الآية بين سبحانه عفوه ومغفرته لمن قدر على الصدقة فأشفق على إخراجها ثم نسخ الحكم برفع وجوب هذه الصدقات قبل المناجاة، وفتح المجال لمناجاته ﷺ من غير تقديم هذه الصدقات.

وبعد توجيه القرآن العتاب لبعض المؤمنين لعدم تقديمهم للصدقات قبل المناجاة للرسولﷺ مع القدرة على ذلك أتبعه ببيان حال المنافقين الذين اتخذوا المناجاة وسيلة لموالاة أعداء الله من اليهود **فقال تعالى**:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٦).

(٢) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر، (٥/ ١٩٠).

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٧).

وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

فبدأت الآيات بالاستفهام التعجبي من حال هؤلاء المنافقين الذين يوالون اليهود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ حيث كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم(١) وكان المنافقون يحلفون على الكذب، وهم يعلمون كذبهم فيما حلفوا عليه، ولا سيما في مثل حالهم، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول ﷺ حلفوا له بالله إنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم كاذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه،، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك. (٢)

وقد عبر القرآن بالمضارع «ويحلفون» للدلالة على تجدد الحلف الكاذب من المنافقين والمولاة لأعداء الأمة اليهود (٣) والكذب هو الخبر المخالف للواقع، والخبر الكاذب هو الذي يكون مخالفا للمخبر عنه مع أن المخبر يعلم المخالفة، والمقصود ما كان المنافقون يخبرون به عن أنفسهم أنهم لا يصدر عنهم ما فيه إيذاء للمؤمنين(٤) وحقيقة الأمر خلاف ذلك.

ولذا استحقوا العذاب الشديد بسبب سوء أعمالهم، فقال تعالى ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾فهم حين دخلوا الإسلام دخلوه حماية لأموالهم واشتغلوا بصد الناس عن سبيل الله وعن الإسلام بإثارة الشبهات وتقبيح حال المسلمين، وكانوا قد تولوا اليهود الموصوفين بغضب الله عليهم، وقد اتخذ المنافقين أيمانهم غطاء لكذبهم عن علم ومعرفة فقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾فقد كانوا يحلفون كذبا بأنهم من المسلمين توقياً من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم كما يجعل المقاتل المجن وقاية له

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/ ٤٩٥).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٩) .

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٨).

(٤) النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٧/ ٢١).

من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم[١] والغاية الأخرى من هذه الأيمان ليتمكنوا من صد الناس عن الدخول في الإسلام بإثارة الشبه حوله وتنفير الناس منه. فاستحقوا بذلك العذاب المهين ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بذلهم في الدنيا وعقابهم يوم القيامة.

ثم يبين المولى تبارك وتعالى أن أموال هؤلاء الأعداء وأولادهم لا تنفعهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم عذاب الله، بل لقد استحقوا الصحبة والملازمة للنار بسبب تلك الأفعال، فقال تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ لقد كان المنافقون يتمتعون بكثرة الأموال والأولاد فبين الله أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم شيئا ولا تحميهم مما توعدهم الله به من الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة [٢] فاستحقوا بسبب أفعالهم صحبة النار وملازمتها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ والخلود فيها فلا يفارقونها ولا يخرجون منها أبدا [٣].

ثم يبين الله حال هؤلاء المنافقين يوم يبعثهم الله يوم القيامة بأنه لا يختلف عن حالهم في الدنيا من الحلف الكاذب فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فيحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما كانوا يحلفون للمؤمنين في الدنيا، فتجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب، وظنوا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب بين يدي الله عز وجل كما كانت تروجه عند المؤمنين [٤]، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم، ففي يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب ويحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضرراً كما كانوا يحسبون ذلك

(١) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٢)، وانظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٩٥).
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥١).
(٣) انظر أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٢).
(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٣).

في الدنيا «فهم قوم كاذبون متهالكون على الكذب بالغوا فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن[١]».

ولا غرابة أن يقع منهم ذلك فقد سيطر الشيطان عليهم، وتمكن منهم فصدر عنهم ما صدر قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

والأحوذ هو المشمر عن الأمور القاهر لها الذي لا يشذ عنه منها شيء، ومعنى استحوذ الشيطان على قلوبهم ملكهم الشيطان واستولى عليهم حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل [٢] والمقصود من النسيان هنا الغفلة والترك [٣] ويطلق الذكر على نطق اللسان وعلى التذكر بالعقل والمعنى أنساهم الشيطان توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجه إليه بالعبادة ولا شك أن الذي لا يتذكر شيئاً لا يتوجه إلى واجباته [٤] وإنما عبر بالنسيان للدلالة على مدى إهمالهم لهذا الذكر.

ويشير القرآن للمنافقين بـ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ للدلالة على بعدهم عن الله، وحزب الشيطان طائفته وأنصاره وجنده ورهطه فخسروا بناء على ذلك السعادة في الدارين لأنهم باعوا الجنة بجهنم وباعوا الهدى بالضلالة [٥] ولذا أكد القرآن خسارتهم بإن وإلا التي للتنبيه وعمم القرآن خسارتهم دون تحديد للخسارة في جانب دون جانب لإفادة شمول خسارتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

(١) فتح القدير، الشوكاني، (٥/ ١٩٣).
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤٢٠).
(٣) انظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٠٥).
(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥٥).
(٥) انظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٠٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآيات في هذا المقطع عبارة عن استئناف لبيان علة خسارة حزب الشيطان، وذلك أنهم حادوا الله ورسوله فعادوه وخالفوا أمره فهم في ناحية والهدى في ناحية أخرى لأنهم في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة.

والإشارة بأولئك الذي للبعيد في قوله « أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» للدلالة على انحطاط منزلتهم والمعنى أنهم أذل الخلق وأرذلهم «وذلك لأن ذلة أحد المتخاصمين تكون بمقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من عاداه كذلك [1].

والتعليل الآخر لخسارة حزب الشيطان بينه الله في قوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾وذلك أن الله عز وجل حكم وكتب في اللوح المحفوظ وفي قدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة وكتابة الغلبة في اللوح المحفوظ لله ولرسله قد تكون بالحجة أوالسيف. أو بهما معا [2].

وهذا لا يمنع من أن يغلب الأعداء في الدنيا فترة من الزمن لكن العاقبة في النهاية للمؤمنين فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، والفاصلة القرآنية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تعليل لهذه الغلبة[3] فالله قوي صاحب قوة غير متناهية عزيز قاهر لا يغلب.

---

(١) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٣)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٤).

(٢) الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٤٩٦).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرر والتنوير، (٢٨/ ٥٧).

وإذا كان هذا حال المنافقين في موالاتهم لأعداء الله فإن هنالك الصفوة المؤمنة الذين لا يمكن أن يوالوا من عادى الله ورسوله وخالف أمره، قال تعالى﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وهذه الآية دليل على أنه لا يمكن الجمع بين الإيمان الخالص بالله وموالاة من عاداه ولو كان هؤلاء المعادون من الأقربين (١).

وقد بدأ بالآباء في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم فنهاهم عن موادتهم. ثم ثنى بالأبناء في قوله تعالى ﴿ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثاً بالإخوان في قوله ﴿ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ لأنهم بهم التعاضد، ثم بالعشيرة في قوله تعالى ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ لأن بها التناحر والمقاتلة والتغلب على الأعداء (٢) فالمؤمنون الخلّص لا يوادّون المحادّين ولو كانوا من الأقربين، لذا تأتي الإشارة لهم في القرآن بـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله تعالى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ للدلالة على علو منزلة هذه الطائفة من المؤمنين ومعنى كتابة الإيمان والتأييد بروح من الله في قوله تعالى:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾أي استكملوا أجزاء الإيمان بحذافيرها وأيدهم الله بالإيمان والقرآن وسمي روحا لأن به حياة القلوب (٣) ولأن به يحيا أمرهم (٤)ويعلو به شأنهم، ويكون التأييد للمؤمنين في الدنيا بالنصر على عدوهم، وأما في الآخرة فيدخلهم الله جنات تجري من

---

(١) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٢١).

(٢) أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، (١٠/ ١٣١).

(٣) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٢٢).

(٤) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٣).

تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها بحياة سعيدة دائمة أبدية جزاء على هذا الوفاء والمولاة لله ورسوله دون غيرهم، وقد جمع القرآن الجنات والأنهار في قوله تعالى﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ وذلك لتعددها وتنوعها، ثم يبين الرحمن علة هذا الجزاء بقوله ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ فجرى هذا النص من الآية مجرى التعليل لما أفاض عليهم الله من آثار رحمته العاجلة والآجلة [١]فهم قوم أسخطوا القريب والعشائر لأجل الله فعوضهم الله بالرضا عنهم بما عملوا وقدموا فأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم [٢]وهذا يدل على ابتهاجهم بما أوتوا عاجلا وآجلا [٣].

وقدم الله رضاه على رضاهم في قوله تعالى:﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾لأن رضا الله هو الأصل الذي بني عليه إرضاؤه لهم.

ويشير لهم الرحمن باسم الإشارة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم، وجيء بـ ﴿ أَلَآ ﴾التي للتنبيه في قوله تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾بقصد تنبيه المسلمين لفضلهم وتنبيه من يسمع من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة لعلهم بذلك يحسن حالهم ويخلصوا للإسلام [٤] وشتان بين حزب الله وحزب الشيطان فحزب الله هم أولياؤه ونصراؤه، وهم المفلحون الفائزون بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، وهذا ما يدل عليه تعميم القرآن لذكر فلاحهم بلا تحديد في جانب من الجوانب في قوله تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ جعلنا الله من هؤلاء المفلحين في الدنيا ويوم الدين.

---

(١) انظر الآلوسي روح المعاني، (٢٨/ ٣٦).

(٢) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ٩١).

(٣) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٤).

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦١).

سورة الحشر

بين يدي السورة

أ. اسم السورة

اشتهرت هذه السورة بسورة الحشر وهو ما أرشدت إليه الأحاديث الصحيحة الدالة على فضلها، وقد سماها عبد الله بن عباس بسورة النضير فعن سعيد بن جُبَير قال: «قلتُ لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة النَّضير» [١].

وبهذا الحديث أراد ابن عباس أن يبين أن لها اسمين، فقول ابن عباس لابن جبير قل سورة النضير للتخيير [٢].

ب. عدد آياتها

عدد آياتها أربع وعشرون آية بالإجماع [٣] فلا خلاف بين العلماء في هذا العدد .

ج. مكان نزولها :

سورة الحشر هي سورة مدنية بإجماع العلماء [٤] .

د. فضائل السورة :

أما فضائل السورة فقد ورد في فضلها أحاديث منها:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، صحيح البخاري، رقم الحديث ٤٩٣٢ .

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦٢).

(٣) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٥٤).
وانظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، (٥/ ٢٨٣).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٥٤)، وانظر، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي (٢٨/ ٣٠)، وانظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧)،، وانظر سعيد حوى، الأساس، (١٠/ ٥٨١١).

١-عن مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ» [١].

٢-وعن الحسنِ،، قالَ: مَنْ قرأَ ثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ الحشرِ إذا أصبَحَ، فماتَ مِنْ يومِهِ ذلِكَ طُبِعَ بطابعِ الشهداءِ، وإنْ قرأَ إذا أمسَى فماتَ في ليلتهِ طُبِعَ بطابعِ الشهداءِ[٢].

٥. محور سورة الحشر

تُعرّفُنا سورةُ الحشر على الله وعظيم قدرته من خلال أفعاله وذلك نوع تفصيل لمقدمة سورة البقرة، وفي هذا الجو تعرفنا على صفات المتقين والكافرين والمنافقين، والتفصيل لهذا التنوع في الوجود دليل على شمول علمه سبحانه وعظيم قدرته.

إذن فقد جاء تفصيل سورة الحشر في مقدمة سورة البقرة لذلك تجد فيها كلاما عن المؤمنين والكافرين والمنافقين وذلك في سياق التعرف على الله عز وجل وأفعاله وأسمائه الدالة على عظيم قدرته، ومن المعلوم أن الإيمان بالله هو الركن الأول من أركان الإيمان بالغيب ومن خلال ذلك ندرك سر وحدة السورة وسر اتصالها بمحورها [٣].

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن،، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الحديث ٣٠٠١، قال فيه أبوعيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الدارمي في باب في فضل حم الدخان والحواميم، أبومحمد عبدالله بن عبد الرحمن بن بهرام، سنن الدارمي، دار الكتب العلمية، بيروت رقم الحديث ٣٤٢١ .

(٣) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، (١٠/ ٥٨١٢).

و. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اشتهر لهذه السورة اسمان الأول الحشر، والثاني بنو النضير، ومحورها بيان صفات الله شمول علمه، وجلال قدرته، وعظيم صفاته، ولم يتم الحشر لبني النضير وقد كانوا بحصون مشيدة محاطة ببساتين من نخيل عظيم إلا عن طريق قادر عليم بخلقه وكذلك تسميتها بني النضير فقد كان الحدث الأعظم فيها بيان تحقق الحشر لبني النضر مع شدتهم وصلابتهم، وهو ما بينه قوله تعالى: ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة الحشر وخاتمتها

بدأت سورة الحشر بالتسبيح وبذكر اسم الله العزيز والحكيم في قوله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ وختمت بالتسبيح وبذكر اسمي العزيز الحكيم في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فتناسب بذلك البدء والختام مع موضوع السورة التي جاءت تدل على جلال قدرة العزيز وسعة علمة وقدرته، الموجبة لدعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر في تدبير صفات الله الحكيم [1].

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

في آخر سورة المجادلة –التي سبقت سورة الحشر في ترتيب المصحف –بين الله غلبته ورسوله لأعدائهم وامتناع المؤمنين من موالاتهم مهما كان قربهم وفي أول سورة الحشر ذكر ما يدل على هذه الغلبة بإخراج بني النضير من ديارهم وقذف الرعب في قلوبهم لذا ابتدأت سورة الحشر بالتسبيح الذي يدل على التنزيه عن النقائص تأييدا للوعد بنصرهم فقال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾.

وفي آخر سورة المجادلة أيضا بين الله حال من حاد الله ورسوله، وفي أول سورة الحشر بين

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢١).

حال من شاق الله ورسوله [1].

ويمكن القول أيضا لما ختم الله سورة المجادلة بذكر حزب الشيطان وحزب الله افتتح سورة الحشر ببيان قهره سبحانه لحزب الشيطان، وما نالهم بالجلاء من خزي وهوان ونصره لحزبه من أهل الإيمان [2].

رابعا -المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

المقطع الأول يعرفنا بالله من خلال أفعاله، والمقطع الثاني يقرر حكم الفيء الذي أفاءه الله في هذه الواقعة وما يماثلها، والمقطع الثالث يعرفنا بالله من خلال ذكر أسمائه [3]فنجد المقاطع الثلاث تدور حول التعريف بالخالق جل وعلا وأفعاله وأحكامه وأسمائه، وكلها توقفنا على جلائل قدرته وعظيم علمه.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

قال البقاعي: «مقصود سورة الحشر بيان ما دل عليه آخر المجادلة من التنزيه لله عن شوائب النقص بإثبات القدرة الشاملة لله تعالى وإقامة دليل مشاهد على أنه الغالب هو ورسُلُه عليهم السلام، وأن من حادهم في الأذلين، لأنه الله القوي العزيز، والقوة والعزة مستلزمة للعلم التام المستلزم للحكمة البالغة المستلزمة للحشر، المظهر لفلاح المفلح وخسارة الخاسر على وجه الثبات الكاشف أتم كشف لجميع صفات الكمال وأدل ما فيها على ذلك قصة بني النضير المعلم بأول الحشر المؤذن بالحشر الحقيقي القدرة الإلهية عليه» [4].

وفي سورة المجادلة أيضا ذكر القرآن حال من حاد الله ورسوله من المنافقين وتناجيهم

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٨١).
(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧).
(٣) سعيد حوى، الأساس، (١٠/ ٥٨١٣).
(٤) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٠٩).

مع اليهود الذين يكيدون للإسلام وهنا في سورة الحشر يعرض على المنافقين بعض ما لقي أحلافهم من اليهود ممن شاق الله ورسوله من خزي وذل ونكال وأنهم إن هم ضلوا على نفاقهم سيصيبهم ما حال بحلفائهم [١] .

وفي سور المجادلة أيضا كان المدح للمؤمنين بعدم موالاتهم لمن حاد الله ورسوله وفي سورة الحشر بين الله أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض [٢].

---

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر، بيروت، (١٤/٨٤٨)، وانظر احمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٨/ ٣٠).

(٢) د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٦٣).

ثانيا: المعنى الإجمالي لمقاطع سورة الحشر

المعنى الإجمالي للمقطع الأول

قال تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

افتتحت سورة الحشر بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله رب العالمين فقال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾.

وقد جاء التسبيح بصيغة الماضي في سورة الحشر بقوله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ وجاء بصيغة المضارع ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ في سورة الجمعة، وجاء بصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ وفي هذا ما يشير إلى أن جميع أوقات الزمان ولحظاته مملؤة بذكر الله والتسبيح بحمده من عوالم الوجود في السموات والأرض جميعا فمن لم يسبح اختياراً سبح اضطراراً[1]﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ ﴾(الإسراء: ٤٤).

وفي هذا الافتتاح للسورة في قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ تذكيرٌ للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قال سبحوا الله كما سَبح له ما في السماوات والأرض فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير، وهذا التسخير العظيم من آثار عزّته وحكمته ولذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾(الحشر: ١).

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٤٥).

ومما يؤكد أن هذه الآيات نزلت في بني النضير ما أخرجه البخاري في صحيحه «عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ سُورَةُ التَّوْبَةِ قَالَ التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا قَالَ قُلْتُ سُورَةُ الْأَنْفَالِ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ قَالَ قُلْتُ سُورَةُ الْحَشْرِ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ»(١).

فالله سبحانه بعزته وحكمته أخرج يهود بني النضير من أهل الكتاب من المدينة المنورة وقد كان هذا أول إخراج لليهود من ديارهم .

ولما نزه سبحانه نفسه بالتسبيح ذكر ما يدل على هذا التنزيه وعلى تلك العزة بدليل مشاهد وذلك بإنفاذ ما كتب من أنه يغلب هو ورسله، بكبت المنافقين وإذلال من تولوهم وهم اليهود وطردهم من المدينة، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

فأشار بذلك إلى النصر على الأعداء بإجلاء يهود بني النضير وطردهم (٢).

والإخراج:هو الإبعاد فإخراجهم من ديارهم في المدينة المنورة إبعادهم عنها (٣) وفي التعبير عن أهل الكتاب بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾دليل على كفرهم لعدم اتباعهم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ لا عذر للأحياء بعدم اتباعه.

والحشر جمع الناس من كل ناحية ومنه الحاشر الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج (٤)وقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب الجلاء الإخراج من أرض إلى أرض، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٤٨٨٢ .

(٢) د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٦٣).

(٣) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٧٦٩).

(٤) انظر:أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٩/ ٣٢٨).

سمي الإجلاء لبني النضير حشرا لأنه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة فقد وقع عن قهر ولم يقع عن رغبة، ثم إن هذا الإجلاء كان عاما لم يدع أحدا منهم كما لم يدع الحشر أحدا في القبور[١].

وهذا الإخراج لليهود من حصونهم ما كان في ظن وحسبان المؤمنين واليهود لذا قال تعالى﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وذلك لشدة الحصون وقوتها وقد كان اليهود أيضا يحسبون أنهم بهذه الحصون في مأمن من كل يد تنالهم، فبطلت حساباتهم حيث امتلأت قلوبهم بالرعب والفزع وجاءهم عذاب الله من حيث لم يخطر ببالهم[٢] قال تعالى ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ولما كان القوم في حصون مشيدة لا بد من رمي الرعب وقذفه في القلوب بقوة، والرعب هو الخوف الذي يستوعب الصدر[٣] وترتب على هذا الرعب أن يخرب القوم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، والتخريب:الإفساد بالنقض والهدم حيث كان بنو النضير يخربون بواطنها والمسلمون يخربون ظواهرها فأراد الله أن لا يبقي لهم دار ولا منهم ديار [٤].

وقد قرأ أبو عمرو بالتشديد «يخرّبون» وقرأ الباقون بالتخفيف يخربون[٥] وفرق بين الإخراب والتخريب، فالإخراب أن يترك الموضع خربا، والتخريب الهدم [٦].

وكانت النتيجة أن فتح يهود بني النضير معاقلهم أمام ضربات جند الرحمن وتركوا المسلمين يدخلونها بعد أن حاولوا أن يأخذوا منها ما يستطيعون حمله وأفسدوا ما استطاعوا كي لا يستفيد المسلمون منه فكان هذا التدمير لتلك الحصون المشيدة عبرة لمن يعتبر [٧]لذا جاءت فاصلة الآية

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٥٠).
(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٢٨٠).
(٣) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٢٨).
(٤) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٠).
(٥) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ١٨٦).
(٦) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٢٩).
(٧) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٠).

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾أي قيسوا الأشباه بالنظائر وهذا دليل على أن القياس حجة [١]، إذ معنى الاعتبار:النظر في الأمور ليصرف بها شيء آخر في صفها [٢]. والمعنى اعتبروا واتعظوا بما دبر الله ويسر أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال [٣].

وكان أول حشر ليهود بني النضير لأنهم أول من أجلي من اليهود في جزيرة العرب [٤].

ثم يبين القرآن لبني النضير أن ما حل بهم من خروج أهون مما كان سيحل بهم من عذاب استئصال في الدنيا أو قتل وسبي، والذي حصل من بعد ذلك لبني قريظة فقال تعالى:﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ولئن نجوا من عذاب الدنيا الأشد وهو الجلاء بدلا من القتل فما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب النار أشد وأصعب.

ثم يبين القرآن علة هذا العذاب الدنيوي الذي حل بهم والأخروي الذي ينتظرهم بقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾وذلك إشارة إلى ما تقدم من ذكر الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، فعلة العذاب الحال في الدنيا والعذاب المنتظر يوم القيامة أنهم كانوا على شقاق وخلاف مع الله ورسوله بعدم الطاعة والميل للكفار ونقض العهد[٥] مع علمهم بصدقه ﷺ فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حيث «غَدَا رسول ﷺ عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ فجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبِهَا، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً أَعْطَاهُ الله إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يَقُولُ بِغَيْرِ قِتَالٍ فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَا ذَوِي حَاجَةٍ لَمْ يُقْسِمْ لأَحَدٍ مِنَ الأَنْصَارِ غَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٢٨٢).
(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٦).
(٣) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨١).
(٤) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ١١).
(٥) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٦).

الله ﷺ الَّتي في أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا». [١] فكان اليهود بذلك عبرة لمن شاق الله ورسوله ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فمن يخالف الله ورسوله فإن الله يعاقبه على مشاقته أشد أنواع العقاب [٢] وقد عبر القرآن مع اليهود بالمشاقة دون المحادة التي جاءت في سورة المجادلة مع المنافقين في سياق الحديث عن بني النضير، وذلك لأن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر ففيها معنى البعد أما المحادة فليس فيها هذا المعنى إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حد -أي علامة- توضع بين الفريقين كحد الأرض، فالمنافقون يزعمون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر وليس كذلك الكفار من يهود ومشركين لذا استعملت المشاقة في جانب الكفار وكلمة المحادة في جانب المنافقين [٣].

ثم يبين القرآن وسيلة من الوسائل التي أدت إلى خراب تلك الحصون وهو قطع النخيل الذي كان يمدهم اقتصادياً فقال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ وإنما سميت النخلة لينة لأنها من اللين الذي يدل على الرخاء والنعمة ولين العيش تماماً كما أطلق على الخيل خيراً [٤]، ففي أثناء الحصار لحصون بني النضير أمر الرسول ﷺ بقطع النخيل وإحراقه، حتى لا يبقى لليهود تعلق بالأموال فبين الله أن ما قطعه المسلمون من النخيل أو تركوه على أصله ولم يتعرضوا له فهو بأمر من الله سبحانه، وكان هذا القطع لنخيل بني النضير لأمرين بينهما الله في قوله ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فهو تنفيذ أمر الله أولاً، وخزي ليهود بني النضير الذين خرجوا على طاعة الله ورسوله، وذلك بأن يتحكم المسلمون بأموالهم وحصونهم ثانياً [٥] .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء الإمارة، باب خبر بني النضير،، أبوداود، سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث ٣٠٠٦.

(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٣١).

(٣) انظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان، ص١٨٩.

(٤) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٢).

(٥) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٣١).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيقرر هذا المقطع من السورة -وهو المقطع الثاني -حكم الفيء فقد شرع القرآن ببيان حال ما أخذ من يهود بني النصير من أموال بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل وما ينتظرهم من العذاب الآجل فقال تعالى﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ والفيء ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال أما الغنيمة فهي ما أخذ بحرب وقتال[١] فما نيل من الكفار عنوة والحرب قائمة هو الغنيمة وما نيل من الكفار بلا قتال فهو الفيء [٢]فكان حكم أموال الفيء التي أخذت من بني النضير أنها لله ورسوله، فقد أخرج البخاري عن عمرَ رضيَ اللهُ عنه قال: «كانت أموالُ بني النَّضيرِ ممّا أفاءَ اللهُ على رسولهِ ﷺ ممّا لم يُوجِفِ المسلمون عليهِ بخَيلٍ ولا رِكاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصةً، وكان يُنفِقُ على أهلهِ نَفَقةَ سَنَتهِ، ثمَّ يجعلُ ما بقيَ في السلاحِ والكُراعِ عُدَّةً في سبيلِ الله»[٣].

فأخذت أموال بني النضر وحصونهم من غير وجف ولا ركاب، والوجف: هو سرعة السير ومعنى أوجفتم حركتم وأتعبتم السير فيه [٤] والركاب هو ما يركب من الإبل، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا [٥] وعلة ما أكرم به المسلمون من هذا الفيء والنصر بينها الله بقوله﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ والتسليط من السلطان أي أن هذا النصر الذي وضعه الله بين أيديكم بتأييده لرسوله ليمكن لكم من السلطان والغلبة على من يشاء من عباده، فالله يؤيد رسله بنصره، ويجعل لهم سلطانا على الناس بما يضع بين أيديهم من معجزات، وبما يمدهم به من جنود لا يعلمها إلا هو تحارب

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٧).

(٢) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، صيح البخاري، محمد بن اسماعيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث ٢٨٣٧.

(٤) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٦٤).

(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٥).

معهم وتلقي الرعب في قلوب عدوهم[١] ولما كانت قدرته سبحانه على التسليط وغيره عامة وشاملة جاءت فاصلة الآية للإشارة إلى هذا بقوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو سبحانه المختص بالقدرة الشاملة، وهو ما يفيده تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على كلمة ﴿ قَدِيرٌ ﴾.

ثم يبين القرآن حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة بعد بيان حكم فيء بني النضير فقال تعالى:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

ففي هذه الآية بيان لمصارف الفيء بعد الرسول وهو أن كل ما رده الله على رسوله من كفار أهل القرى من غير قتال ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب -وهو ما يركب من الإبل- يحكم به الله بما شاء، ثم يكون ملكا للرسول في حياته ثم في مصالح المسلمين من بعده فينفق فيه على قرابة النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب فهم ممنوعون من أخذ الصدقة والزكاة وهم المقصودون بقوله ﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾فجعل لهم حق في الفيء، كما يشير النظم في قوله تعالى ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾بأن ينفق منها أيضا على اليتامى والفقراء والمساكين ذوي الحاجة وأبناء السبيل المنقطعين أثناء السفر وهم الغرباء الذين نفذت نفقتهم «فيكون الفيء مقسوما خمسة أقسام سهم لله والرسول في حياته ثم يصرف في مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم ذوي قرابة النبي وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وسهم اليتامى وسهم المساكين وسهم ابن السبيل»[٢] .

«وانظر إلى جمال الترتيب لهذه الأسهم فبدأ ترتيب الأسهم بالله أولا لأنه الملك الأعلى الذي بيده الأمر كله ثم برسوله لأنه أعظم الخلق ثم ذوي قرابة رسول الله ﷺ لأنهم يلونه

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٥٧).

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٨١).

بالرتبة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ثم اليتامى الذين هم أحق الناس بالعطف جبرا لوهنهم فهم أحق الناس بالعطف ثم المساكين وهم بالضعف على أثر اليتامى، ودخل فيهم الفقراء فإنه إذا انفرد لفظ الفقير أو المسكين دون الآخر دخل كل منهما في معنى الآخر وإنما يفرق إذا جمع بينهما»[1] .

ويبين الله في كتابه علة هذا التقسيم بقوله ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾.

وقد قرأ أبو جعفر «تكون» بالتأنيث و«دولة» بالرفع، وقرأ الباقون بالتذكير «يكون» وبنصب «دولة»[2] والدولة: التداول فهو اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم[3] والمعنى حتى لا يبقى المال متداولا بين الأغنياء على حين يبقى الفقراء على فقرهم ويقيم المحرومون على حرمانهم[4] فيكون المال بذلك متداولا بين الأغنياء والفقراء.

ثم تختم الآية بالتوجيه إلى ضرورة الالتزام بأمر النبي ﷺ ونهيه في قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، ثم ينتقل القرآن من الغيبة إلى الخطاب في فاصلة الآية في حال توجيه المؤمنين أنهم ينبغي أن يكون ولاؤهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ بكل ما يقضي به النبي ﷺ في المؤمنين، وبناء على ذلك فحق الرسول على المؤمنين الامتثال والطاعة من غير مراجعة ولا توقف ولا ريبة لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾(الأحزاب: ٣٦).

ولما كانت الطاعة بالتنفيذ للأمر والانتهاء عن المنهي الدافع عليها تقوى الله جاءت فاصلة الآية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وفي هذه الفاصلة وعيد لمن تحدثه نفسه بالخروج عن

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٢١).
(٢) ابن الجزري، النشر، (٢٣٨٦).
(٣) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٦).
(٤) انظر: عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٢٥٨).

أمر الله ورسوله بعقاب شديد في الدنيا والآخرة.

وبعد بيان مصارف الفيء فيما سبق يبين الله تعالى حال الفقراء المستحقين له فقال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وفقراء المهاجرين هم الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج منها فتركوا أموالهم وديارهم فيها طلبا لمرضاة الله وفضله ورزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة ونصرة الله ورسوله بمجاهدة الكفار وإعلاء كلمة الله وبين أن هؤلاء المهاجرين رسخوا بالصدق فصدقوا قولهم بفعلهم وقرنوا إيمانهم بالعمل الصالح المخلص «وفيه تنويه بفضل المهاجرين الأولين وأنهم كانت هجرتهم لله ولرسوله لا لمغنم أو متاع دنيوي[(١)] وقد وصف الله المهاجرين بأوصاف ستة هي: أول: أنهم فقراء وثانيا: أنهم مهاجرون، وثالثا: أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ورابعا: أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، والفضل ثواب الجنة، والرضوان رضا الله، وخامسا: أنهم ينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم، وسادسا: أنهم صادقون في دينهم وتحملهم للشدائد، وهجرهم لذات الدنيا[(٢)].

ثم مدح الله الأنصار وأبان فضلهم وشرفهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم المهاجرين مع الحاجة ورضاهم بإعطاء الفيء لهم بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

والذين تبوءوا الدار هم الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين في مدينتهم، حيث كانوا أهلها وسكانها قبل قدوم المهاجرين إليها، حيث لم يجدوا في أنفسهم حاجة وضيقا أو ألما،

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٦١).

(٢) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٩).

بسبب أخذ المهاجرون من غنائم بني النضير «وبهذا العطاء الذي ناله المهاجرون خف العبء عن الأنصار الذين قاسموا المهاجرين أموالهم وديارهم [١] وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ بَاتَ بِهِ ضَيْفٌ. فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلاَّ قُوتُهُ وَقُوتُ صِبْيَانِه. فَقَالَ لاِمْرَأَتِهِ: نَوِّمِي الصِّبْيَةَ وَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَقَرِّبِي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَكِ. قَالَ فَنَزَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)»[٢].

فبين القرآن الكريم أن من صفات الأنصار الإيثار وهو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس سخاء وتفضلا وهذا جانب من التضحية، فالخصاصة الحاجة، فهؤلاء الأنصار من طبيعتهم السماحة والبذل وإيثار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم.

هؤلاء الذين تبوءوا المدينة التي هي الدار وهي الإيمان لأنها محل تمكن الإيمان وانتشاره وظهوره في سائر البلدان [٣]، فقد كان انفراد الأنصار بالإقامة والإيمان في المدينة قبل قدوم المهاجرين عليهم، فالأنصار جمعوا التمكن بالإضافة إلى الإيمان أي التمكن في الدار(المدينة) من قبل أن يقدم إليها المهاجرون وهو المقصود بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فمن صفاتهم أنهم لا يجدون في صدورهم حسدا وغيظا مما أعطي المهاجرون دونهم من مال بني النضير علما بأن إيثارهم لم يكن عن غنى من المال ولكن عن حاجة فيكون ذلك أعظم أجرا[٤]، وفي التعبير عن السلامة من شح النفس وبخلها وحرصها في قوله تعالى:﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ بلفظ الوقاية منه للإشارة إلى أن الشح عدو راصد يتربص بالنفس الإنسانية في أية لحظة يغفل فيها الإنسان عن حراسة نفسه منه، فإذا غفل الإنسان عن هذا العدو دخل على نفسه، واستولى عليها[٥] فمن يوق بمعونة الله وتوفيقة شح النفس حتى يخالفها

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (١٤/ ٨٦١).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، رقم الحديث ٥٣١٦.
(٣) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٢٥٢).
(٤) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٣٤).
(٥) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (١٤/ ٨٦٢).

فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه [١] ومن ذلك الفوز بثواب الجنة والنجاة من النار .

وبعد الحديث عن المهاجرين والأنصار في السورة يأتي الحديث عن الصنف الثالث من المؤمنين وهم الخلف التابعون للسلف بإحسان إلى يوم القيامة، فقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فالذين جاءوا من بعدهم هم التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسان ممن جاءوا بعدهم إلى يوم القيامة [٢] فهؤلاء الخلف التابعون للسلف بإحسان متبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة بالسر والعلن، والآية دليل على التضامن والتكافل بين آخر هذه الأمة وأولها وأجيالها، وفيها دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم والحث على الدعاء لهم بخير وعلى صفاء القلوب من أمراض الحقد والحسد لأي مؤمن [٣].

فهم يدعون لمن سبق من السلف طالبين من رب العالمين المغفرة والرحمة لأنفسهم أولا وكما يطلبون من الله أن لا يجعل في قلوبهم حسدا وبغضا لأحد من المؤمنين ووصفوا السلف بالسبق بالإيمان اعترافا بفضلهم [٤].

وأصل الغل هو ما يجده الإنسان في داخله من حرارة العطش ومعناه العداوة والحقد حيث تغلي الصدور وتحترق القلوب بنار الحقد والعداوة، وفي جعل الغل في القلوب إشارة إلى أن القلوب هي مستودع المشاعر من حب أو بغض أو مودة أو جفاء وأن هذه المشاعر هي التي تتولد منها الأقوال والأفعال [٥] ووصفوا الرحمن بقولهم «ربنا إنك رؤوف رحيم»

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٧٧)، وانظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٤).

(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٩).

(٣) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٨٥).

(٤) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٩).

(٥) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٦٤).

مبالغ في الرأفة والرحمة، وخص القرآن استدعاء هاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله وهما الرأفة والرحمة ليستشعر بهما المؤمن مشاعر الرأفة والرحمة بإخوانه من المؤمنين، ومن كانت هذه صفاته فحري به أن يجيب دعاء هؤلاء المتبعين بإحسان.

ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين الذين تركوا نصرة أهل الإيمان، وحالفوا اليهود وناصروهم موضحا أنهم لا يستوون بالحال ولا المآل فقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وهذا تعجيب للسامع من حال هؤلاء المنافقين، وهم الذين أظهروا الإيمان وأخفوا الكفر[1] حيث طلب المنافقون بقيادة عبد الله بن سلول من يهود بني النضير الثبات في حصونهم، لكونهم سيكونوا معهم كيف ما تقلبت الأحوال ولن يطيعوا أمر الرسول ﷺ في قتالهم، ولن يسمعوا كلام أحد كائن من كان في أمر خلانهم، وقد سمى الله المنافقين إخوانا لليهود في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾لأنهم مثلهم في الكفر[2] فبين القرآن كذب المنافقين بهذا الادعاء في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فإذا أخرج اليهود فلن يخرج المنافقون معهم، ولئن قوتلوا من قبل المسلمين فلن يقاتل المنافقون إلى جانب اليهود، وقد تم ما أخبر الله عنه « وفي هذا دليل على صحة نبوة المصطفى ﷺ من جهة علم الغيب، لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم» [3] فتحقق قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي في قولهم وفعلهم[4].

---

(١) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٩٥).

(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ٣/ ٣٥٣.

(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٢٨/ ١٠٠).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٢٧٨).

ويزيد القرآن في توضيح حال المنافقين موضحا مدى فزعهم وخوفهم من المسلمين بقوله تعالى:﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

ومعنى الآية: أنتم يا معشر المسلمين أشد خوفا وخشية في قلوب المنافقين واليهود من الله فهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله لأنهم لا يفقهون قدرة الله وعظمته[١] والإشارة بذلك:إلى ما ذكر من كون رهبتهم منكم أيها المسلمون أشد من رهبتهم من الله بسبب أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله فيخشونه حق خشيته [٢]، والفقه:العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بيقظة وقريحة [٣].

ثم ذكر القرآن أسلوب اليهود والمنافقين في مقابلة المؤمنين، في قول تعالى﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

فهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق أو من وراء الحيطان ليستتروا بها لفرط جبنهم وهلعهم، فالمنافقين واليهود من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة[٤].

وقد قرأ ابن كثير وأبوعمرو «جدار» بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها على التوحيد وقرأ الباقون بضم الجيم والدال من غير ألف «جدر» على الجمع [٥] فعلى الإفراد المعنى لا يقاتلونكم حتى يكون بينكم وبينهم حاجز من حصن أو سور، وعلى الجمع لا يقاتلونكم إلا في

---

(١) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٥).

(٢) انظر أبوالسعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٣١).

(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٣٠).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث، بيروت، (٤/ ٥٤) .

(٥) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٦).

قرى محصنة، فكما أن القرى جماعة كذلك الجدر جماعة متعددة [١]، ويشهد لذلك حال الأحفاد من يهود اليوم حيث يقاتلون بحصون مشيدة من الطائرات والدبابات والسيارات المصفحة، فإن كانوا في ساحة الوغى بسلاح المشاة فروا لجبنهم، والأحداث المعاصرة تشهد لذلك.

واليهود بالإضافة إلى هذا الجبن تجد ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ فعداوة بعضهم لبعض شديدة فهم ليسوا سليمي الصدور والقلوب فيها الضغناء والحقد لبعضهم، وإن كانوا بالظاهر متوادين متحابين، وتحسبهم أيها الناظر لأول وهلة مؤتلفين وهم في الحقيقة مختلفون غاية الاختلاف ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾.

فالمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع وبين الحين والحين ينكشف الستار، وفي الآية درس للمؤمنين أيضا فإنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب من المسلمين عندما تتفرق قلوب المسلمين [٢] .

ويبين القرآن الكريم علة هذا التفرق والتشتت بأنه عدم استعمال العقول استعمالاً صحيحاً يوجههم إلى دين الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ وذلك إشارة إلى ما ذكر من عدم سلامة قلوبهم وتفرقهم، فهم لا عقل لهم، ولو عقلوا لعلموا أن السلامة في اجتماعهم عند الخطر، وأن تفرقهم هو الذي يجعل الخطر مبسوط عليهم، وقد جاءت فاصلة الآية هنا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ فوصفهم القرآن بأنهم قوم لا يعقلون، على حين وصفهم في مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله بأنهم قوم لا يفقهون في الآية السابقة، وذلك لأن مجرد العقل كاف في تقدير السلامة من الخطر، ومعرفة أن السلامة رهن الاجتماع لا التفرق، أما في مقام الخشية لله فإنها لا تكون عن عقل مجرد بل لا بد من عقل معه فقه وعلم [٣].

---

(١) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٣٦).

(٢) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢٩).

(٣) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٣).

وبعد أن يعرض القرآن للمؤمنين أن أعداءهم مشتتين في حقيقة الأمر وإن بدوا متحدين في الظاهر يهون عليهم من شأنهم ويرفع من نفوسهم هيبة هؤلاء الأعداء وبذلك يحقق تعبئة روحية ترتكز على حق ثابت، فيبين أن ما حدث لبني النضير لم يكن الأول من نوعه بل سبقه حادث في بدر مع الذين كفروا ومن بعد بدر ما وقع لبني قينقاع [١]فقال تعالى:﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ والمعنى مثل هؤلاء اليهود من بني النضير كمثل أهل بدر من كفار مكة، وكمثل بني قينقاع ذاقوا عاقبة كفرهم في زمن قريب من عصيانهم فلم تتأخر عقوبتهم، فعوقبوا في الدنيا إثر عصيانهم [٢].

والوبال أصله وخامة المرعى المستلذ به للماشية، تهش به الإبل فيمرضها أو يقتلها، فشبه إقدامهم على حرب المسلمين وخيانتهم مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل فهلكت، وأمرهم هو شأنهم وما دبروه وذلك أنهم أوقعوا أنفسهم بالجلاء وترك الديار وما فيها، والعطف بالواو بين ذوق الوبال والعذاب الأليم يدل على التغاير والاشتراك بينهما وعليه فذوق الوبال كان في الدنيا والعذاب الأليم كان في الآخرة[٣] والتعبير بالذوق للدلالة على أن العذب لم يكن لما ظهر من الجسد فحسب بل يشمل البواطن أيضا، والعذاب مأخوذ من أعذبه إذا أزال عذوبته لأنه به تزول حلاوة العيش فينسي العذاب ما حال بالإنسان من نعيم سابق، وفي الحديث «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً. ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. وَاللّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ. فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ:

---

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢٩).

(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٥٨).

(٣) انظر أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٣١).

لاَ. وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[١] ووصف العذاب بالأليم للدلالة على شدته وهوله.

ثم يضرب القرآن مثلا آخر لحال اليهود وحال المنافقين الذين أغروهم بالمقاومة فانتهوا بها إلى تلك النهاية اليائسة بحال الشيطان مع الإنسان الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير [٢]فقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فمثلهم-أي اليهود والمنافقون - في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر بالله ثم يتركه ويتبرأ منه في الآخرة فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار [٣] فكان عاقبة اليهود ومن شايعهم من منافقين مثل عاقبة الشيطان حيث صارا في جهنم.

والمقصود من ذلك بيان أن الشيطان وأتباعه من البشر لن يضروا المؤمنين بهذا الكيد الذي يكيدونه لهم وأن ما قد يقع للمؤمنين من ضر فهو مما قدر الله لهم وشاء فيهم وقد يجيء هذا الضر عن طريق الشيطان وعن طريق غيره ولكن لا الشيطان ولا غيره يستطيع أن يضر أحدا إلا من شاء الله له هذا الضر [٤] وللنظر كيف عبر القرآن بالجزاء فهو عذاب مقابل فعل قد صدر جوزي عليه الإنسان[٥]، ولا شك أن كل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به حيث عرّضها للخلود بالنار بسبب فعله لذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة يوم القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، رقم الحديث: ٧٠٣٧.

(٢) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٣٠).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٠٩).

(٤) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٣).

(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩١).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

فبعد أن امتن القرآن على المسلمين بما يسر من فتح لقرية بني النضير بدون قتال وما أفاء على رسوله منهم وصف ما جرى من خيبة أملهم ومن الإيذاء بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم انتقل إلى أمر المؤمنين بتقوى الله شكرا له على ما فتح وما وعد من صادق الوعد فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فاتجه ليدعوهم إلى التقوى والنظر فيما أعدوه للآخرة واليقظة الدائمة، فأمر بالتقوى وقرن ذلك بالنظر لما أعد ليوم القيامة واتبع ذلك بالأمر بالتقوى مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ .

وذلك لأن تقوى الله جماع الأمر كله وهي الأساس في الإعداد لتلك الدار ونكر النفس ليفيد العموم في سياق الأمر في قوله تعالى ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ ﴾ أي لتنظر كل نفس [(١)]، وذكر الأمر بالتقوى مرة أخرى يفيد أن الأمر الأول بالتقوى كان لأداء الواجبات والأمر الثاني على ترك المعاصي والمنكرات [(٢)] ثم علل الأمر بالتقوى بفاصلة الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

---

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٠٩).

(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩١).

فالله لا تخفى عليه طاعة الطائعين ولا معصية العاصين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين بالتقوى والإعداد للآخرة أتبعه بتحذيرهم من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ممن رأوا مصيرهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ وذلك تحذيراً من الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، والمقصود من النسيان هنا الترك وقد أطلق القرآن على الترك والإعراض عن عمد بالنسيان ممن وقع منهم في قوله ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ للدلالة على مدى إهمالهم لأوامر الله ودينه ونهيه حيث أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم فكانت نتيجة هذا الإعراض إهلاك أنفسهم ونسيان طلب نجاتها يوم القيامة فجعلهم ناسين لها فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، فأنساهم حظوظ أنفسهم [١] فمن نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه [٢] والتعبير بأولئك للبعيد للدلالة على بعدهم عن الحق وانحطاط منزلتهم فقد خرجوا بفسقهم عن الدين الحق وخانوا وغدروا ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

ثم يقرر القرآن في الآية التالية بأن هؤلاء الذين تركوا أمر الله والانتهاء عن نهيه هم أصحاب النار الملازمون لها مبينا أن طريقهم غير طريق المؤمنين أصحاب الجنة الملازمون لها فقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ واكتفى القرآن ببيان أن أصحاب الجنة هم الفائزون في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وترك مصير أهل النار مسكوتا عنه لكونه معروفا [٣] فهو استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين لكون أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه [٤] وهو ما

---

(١) انظر الشوكاني، فتح القدير، (١٥/ ١٠١).

(٢) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٠).

(٣) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣١).

(٤) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).

يدل عليه تعميم الفوز وعدم تحديده بجانب من الجوانب في فاصلة الآية .

ولما حذر القرآن المسلمين من الوقوع في مغبة نسيان أوامر الله ونهيه وتوعد من نسوا الله بالنار وبين حالهم مع الشيطان الذي زين لهم الكفر وكان القرآن دليلا لهم على سبل الخير ومسلكه محذرا من مسالك الشر، فضرب لهم هذا المثل تعجباً من تصلبهم في الضلال فقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وذلك أن القرآن له ثقل وأثر كبير، والمراد بالجبل حقيقته، فالجبل مثال لأشد الأشياء صلابة، والمعنى لو كان المخاطب بالقرآن جبلا وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثيراً ناشئاً من خشية الله، أما هؤلاء الذين أعرضوا قست قلوبهم فلم يتعظوا بمواعظ القرآن، فقلوبهم أشد قسوة من الجبل، وقد ضرب التصدع في القرآن مثلا لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تشقق وتتصدع ولا يحصل ذلك بسهوله [١].

وهذا مثل خليق بأن يوقظ القلوب والعقول للتأمل والفكر لذا جاءت فاصلة الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾وأريد بهذا المثل توبيخ الإنسان على قساوة قلبه وعدم خشوعه عند تلاوة القرآن، وقلة تدبره فيه [٢] .

وبعد أن ذكّر الله بالقرآن العظيم الدال على الخير المعروف بعظمة الله المقتضية للخشية أعقب ذلك بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا المناسبة لغرض السورة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية لخشيته[٣] وهي أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١١٦).

(٢) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١١٨).

فبدأ باسم الجلالة الله الذي يجمع جميع صفات الكمال لأن أصله الإله، ومدلول الإله يقتضي جميع صفات الكمال وثنى بصفة عالم الغيب لأنها الصفة التي تقتضيها صفة الألوهية وفي هذا البدء تقرير للتوحيد ودفع للشرك، ومعنى عالم الغيب:عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر وعالم السر والعلن، وقدم القرآن علم الغيب على علم الشهادة لكونه متقدما في الوجود[1] ولأن العلم به كالدليل على العلم بالشهادة [2].

ثم عقب صفة عموم العلم بصفة عموم الرحمة لأن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويمهل المعاندين إلى عقاب الآخرة فهو رحمن بهم في الدنيا وقد كثر اتباع لفظ الجلالة بهاتين الصفتين في القرآن ومن ذلك ما في سورة الفاتحة [3].

ثم كرر القرآن ذكر الألوهية في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لكون التوحيد حقيق بهذا التكرار للتوكيد والتقرير [4] في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ والملك:هو المتصرف بالأمر والنهي المالك لجميع الأشياء الذي له التصرف بها [5].

والقدوس المنزه عما لا يليق بجلاله [6] وهو الذي له الكمال في كل وصف اختص به [7].

والقدوس اسم يشع القداسة والطهارة ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور

(١) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).
(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٦).
(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٠).
(٤) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).
(٥) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).
(٦) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).
(٧) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٦).

فينظف قلبه ويطهره ليصبح صالحا لتلقي فيوض الملك القدوس[١].

وفي الحديث أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». [٢]قال الإمام النووي: «ومعنى سبوح المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية، وقدوس المطهر من كل ما لا يليق بالخالق» [٣].

وإنما اتبع القرآن الكريم وصف الملك بوصف القدوس للإشارة إلى أنه منزه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور والاسترسال بالشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس [٤] .

والسلام:هو السالم من الآفات والعاهات والنقائص، المعطي للسلامة، فهو الذي ترجى منه السلامة [٥]وهو المسلم على عباده في الجنة [٦].

والمؤمن: هو الواهب الأمن والمصدق لأنبيائه بالمعجزات [٧]الذي أمن أولياؤه عذابه [٨] وأمن خلقه من ظلمه[٩].

وذكر وصف المؤمن عقب الأوصاف التي قبله إتمام الاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ «الملك» أنه كالملوك المعروفين بالنقائص فأفاد نزاهة ذاته بوصف القدوس ونزاهة تصرفاته المغيبة عن الغدر والكيد بوصف «المؤمن»، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف

---

(١) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، رقم الحديث ١٠٤٣.

(٣) يحيي بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر، بيروت (٥/ ٢٤٥) .

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٠).

(٥) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).

(٦) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).

(٧) انظر: النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).

(٨) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٣).

(٩) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).

السلام [١].

أما المهين في قوله تعالى «المؤمن المهيمن»: فهو الرقيب الحافظ لكل شيء [٢].

والعزيز هو القوي القاهر الذي لا يغلب[٣]، والجبار هو الذي جبر خلقه على ما أراد قسرهم عليه، ومنه جبرت العظام فانجبرت وهو الذي جبر أحوال خلقه أي أصلحها، أو هو المنيع الذي لا ينال [٤].

المتكبر: الشديد الكبرياء والعظمة الذي لا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه [٥] وهو المتعاظم عما لا يليق به من صفات الذم [٦].

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾عقب صفة المهيمن أن جميع ما ذكر من صفات يؤذن باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة المهيمن تؤذن بأمر مشترك متصل بصفة العزيز ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء وأتبعه بصفة الجبار الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة المتكبر الدالة على أنه مختص بالكبرياء فيصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت تلك السابقة في جانب الإطماع [٧].

وختم فاصلة الآية بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن من اتصف بهذه الصفات من الجلال والعظمة بحيث ينبغي أن يتعجب من حال من أشرك به غيره فالتسبيح

---

(١) انظر ابن عاشور التحرير والتنوير، (٢٨/ ١٢١).
(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٦٣).
(٣) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).
(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، ().
(٥) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).
(٦) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٤٧).
(٧) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).

التنزيه والمعنى تنزه الله عن شرك من أشرك به.

ثم تختم السورة بلفظ الألوهية وصفات الجلال بعد ذكر التنزيه في فاصلة الآية السابقة بقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ والخلق هو التقدير والمعنى أنه سبحانه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة[(١)]، والخلق أيضا هو إيجاد شيء على صورة مخصوصة، ويكون ذكر البارئ والمصور بعد الخلق تنبيها على أمور خاصة من الخلق [(٢)]. والبارئ الموجد للأشياء بعد أن كانت عدما.

قال ابن حجر في الفتح « فإن ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ من الخلق، وأصله التقدير المستقيم ويطلق على الإبداع وهو إيجاد الشيء على غير مثال، و﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره على سبيل التقصي منه، و﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ مبدع صور المخترعات ومرتبها بحسب مقتضى الحكمة، فالله خالق كل شيء بمعنى أنه موجده من أصل ومن غير أصل، وبارئه بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله، والثلاثة من صفات الفعل إلا إذا أريد بالخالق المقدر فيكون من صفات الذات، لأن مرجع التقدير إلى الإرادة.

و﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ معناه المهيئ قال تعالى ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ والصورة في الأصل ما يتميز به الشيء عن غيره»[(٣)]، والتصوير الذي هو التشكيل والتخطيط مترتب على الخلق والبراية تابع لهما [(٤)]والمصور مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة [(٥)]وقدم البارئ

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٤).

(٢) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).

(٣) انظر أحمد ابن حجر، فتح الباري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣/ ٣٣٣).

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٢٠٨).

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٤٨).

على المصور لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات [١].

والصواب في هذه الأسماء والصفات أن ما كان منصوصا عليه في الكتاب والسنة الصحيحة وجب الإيمان به وما نزل عن هذه المرتبة أو مختلف في صحته لم يصح استعماله فإن الله أجل من يسمى باسم لم يتحقق أنه سمى به نفسه أو سماه به رسول الله ﷺ [٢] «وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة لأن مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدأ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي ثم البرء الذي هو تكون جسم الإنسان ثم التصوير الذي هو إعطاء الصورة الحسن، ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة أي هذه الصفات الثلاثة أريد منها الإشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كيفية بديعة ليثير شكرهم على ذلك وعبر عن الصفات بالأسماء لأنه متصف بها على السنة خلقه فصارت كالأعلام على ذاته تعالى»[٣].

ومعنى ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الأسماء الدالة على محاسن المباني [٤] والمعاني الحسنة ومن اتصف بهذه الصفات وتلك المسميات حري بالتسبيح والتنزيه من الموجودات في السموات والأرض وفي غيرها ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وانظر كيف عبر القرآن في هذه الآية عن التسبيح بالفعل المضارع «يسبح» الذي يفيد التجدد والحدوث فالتسبيح له سبحانه من المخلوقات متجدد في كل وقت وحين.

وختمت فاصلة الآية بـ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لأن من عزته كان منزها عن النقائص أهلا للتسبيح، ومن حكمته أمر المكلفين في السموات والأرض بأن يسبحوا له ليربحوا [٥].

(١) -انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٥).
(٢) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٥).
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).
(٤) انظر: الآلوسي، روح المعاني (٢٨/ ٣٥).
(٥) القمي النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).

ونلاحظ أن السورة بدأت بالتسبيح وختمت بالتسبيح فتلاقى المطلع والختام في تناسق والتئام[١].

وتوالي هذه الصفات المترابطة يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة حسب التصوير الإنساني[٢].

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٤).

(٢) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٣).

سورة الممتحنة

قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة

أولاً: بين يدي السورة

أ. تسمية السورة:

ذكر المفسرون أربعة أسماء لهذه السورة[1]، هي: «الممتحِنة» بكسر الحاء، و«الممتحَنة» بفتح الحاء، و«المودة»، و«الامتحان»، وكل اسم من هذه الأسماء يشير إلى بعض مقاصد السورة وأغراض نزولها.

فأما التسمية الأولى «سورة الممتحِنة» بكسر الحاء فهي اسم فاعل أي المختبِرة، أُضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت «براءة» المبعثِرة والفاضِحة، لما كشفت من عيوب المنافقين، وعلى هذا فالإضافة بيانية، أي السورة الممتحِنة[2]، التي امتحنت المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة.

وأما التسمية الثانية «سورة الممتحَنة» بفتح الحاء فهي اسم مفعول، أُضيف إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحَنة: ١٠]، وكانت امرأة عبد الرحمن بن عوف ﷺ، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف[3]، وعلى هذا فليست الإضافة بيانية، ويحمل التعريف على العهد، ويكون المعهود أول امرأة امتحنت في إيمانها، والمعنى: سورة المرأة المهاجرة التي

---

(١) ينظر على سبيل المثال: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٠٩، روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٩٥، فتح البيان، القنوجي ٩/ ٣٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٥.

(٢) روح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ٩/ ٣٦٩.

(٣) غوامض الأسماء المبهمة، السهيلي ١٩٣، بتصرف.

نزلت فيها آية الامتحان[1]، التي امتحنها المسلمون عندما هاجرت. وهذا هو الاسم المشهور للسورة[2].

قال ابن عاشور: « ولك أن تجعل التعريف تعريف جنس، أي النساء الممتحَنة»[3]، ووجه ذلك أن الصيغة وردت بالجمع في قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[الممتحَنة: ١٠].

وأما التسمية الثالثة «سورة المودة»[4] فسببها ورود لفظ «المودة» ثلاث مرات في السورة؛ الأولى والثانية كانتا في أول آية منها، قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾[الممتحنة: ١] والثالثة في قوله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾[الممتحنة: ٧].

وأما التسمية الرابعة «سورة الامتحان»[5] بالمصدر، فعلتها ما ورد في السورة من وجوب امتحان النساء المهاجرات، قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[الممتحَنة: ١٠].

ب. مكان نزول السورة:

سورة الممتحَنة مدنية، في قول الجميع[6]، والآية الأولى منها نزلت في شأن كتاب حاطب

(١) روح البيان، القنوجي ٩/ ٣٦٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٦٣٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٥.
(٤) جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، تحقيق: د/ عبد الحق القاضي ١/ ٢٠٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٥٨.
(٥) المصدران السابقان.
(٦) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩، الدر المنثور، السيوطي ١٤/ ٤٠٢.

ابن أبي بلتعة ﷺ إلى قريش، ووقع الخلاف في الوقت الذي نزلت فيه تلك الآية على قولين:

الأول: أن كتاب حاطب بن أبي بلتعة ﷺ إلى قريش كان عند تجهز النبي ﷺ للحديبية، روي ذلك عن قتادة، وذكره ابن جرير الطبري من رواية الحارث عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: « لمَّا أراد النبي ﷺ أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر، وأسرَّ إلى أناس من أصحابه فيهم حاطب بن أبي بلتعة أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم..»[1].

فقوله: « أفشى أنه يريد خيبر» يدل على أن إرادته ﷺ مكة إنما هي إرادة عمرة الحديبية، لا غزو مكة؛ لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة[2].

والثاني: أن كتاب حاطب إلى أهل مكة كان عند تجهز النبي ﷺ لفتح مكة[3].

وبعض الروايات ليس فيها تعيين ما قصده النبي ﷺ من تجهزه إلى مكة أهو لأجل العمرة أم لأجل الفتح ؟[4].

فعلى القول الأول تكون السورة نازلة في مدة متقاربة؛ لأن امتحان أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كان عقب صلح الحديبية، ومن ثَمَّ يكون نزولها مرتبا على ترتيب آياتها، وعلى القول الثاني يكون صدر السورة نازلاً بعد آيات الامتحان[5]، ويكون آخر ما نزل منها. والله أعلم.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠، لباب النقول، السيوطي ٧٣٠ على هامش تفسير الجلالين.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠.

(٣) ينظر على سبيل المثال: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٢٣٨، التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥٠.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٦.

ج. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة ثلاث عشرة آية، ليس فيها اختلاف[1].

د. محور السورة:

هذه السورة الكريمة كنظيراتها من السور المدنية تعنى ببيان الأحكام التشريعية، ومن أهمها تحديد معالم علاقة أهل الإيمان بغيرهم على المستوى المحلي والعالمي، وقد تناولت عددا من المواضيع، وهي:

أولاً: التحذير من موالاة أعداء الله.

ثانياً: إبراهيم عليه السلام ومَن معه خير قدوة في الولاء والبراء.

ثالثاً: الموالاة المباحة والموالاة المحرمة .

رابعاً: امتحان المؤمنات المهاجرات .

خامساً: مبايعة النساء للرسول ﷺ.

سادساً: التحذير من موالاة أعداء الله .

وسوف نوضح الارتباط بين هذه المواضيع وبين محور السورة عند تحليلنا لمقاطع السورة إن شاء الله.

والمحور الذي سعت السورة لإبرازه هو الكشف عن أثر العقيدة في حياة الفرد والمجموع فبينت أنَّ العقيدة هي الأساس الذي ترتكز عليه كل علاقة أو تذوَى، والمتأمل في مقاطعها سوف يرى بوضوح كيف تكون العقيدة قيمة وميزاناً لكل ولاء أو رابطة؛ فقيم أهل الأرض كلها من قرابة وزوجية وقبيلة وجنس لا اعتبار لها إلا بحسب قربها وبعدها من هذا الميزان ويعضد هذا الآتي:

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٤.

١ - إن الثلاث عشرة آية التي تشكل قوام هذه السورة تمثل أنموذجا تربويا فريدا في تربية النفوس المؤمنة؛ فكل آية تنشئ في تلك النفوس « صورة جديدة، وقيماً جديدة، وموازين جديدة، وفكرةً جديدة عن الكون والإنسان والحياة، ووظيفة المؤمنين في الأرض، وغاية الوجود الإنساني، وكان القرآن بنزوله مفرقاً؛ يهدف إلى أنْ يجمع المؤمنين في كنف الله، ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه، وأنه يريد بهم أمراً ويحقق بهم قدراً ومن ثَمَّ فهم يوسمون بسمته، ويحملون شارته، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعاً، في الدنيا والآخرة، وإذن فليكونوا خالصين له منقطعين لولايته، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته في عالم الشعور وعالم السلوك»[1].

٢ - وأسباب النزول الواردة في مقاطع السورة كلها تشير إلى قيمة العقيدة، وتحدد للفرد المسلم والدولة المسلمة الميزان الذي ينبغي أن يقيموا به كل شئونهم.

٣ - وأهداف السورة الأخرى تسلسلت من المطلع حتى الختام لتنظم عددا من جوانب العلاقة بين الفرد والفرد في المجتمع المسلم، وبين المجتمع المسلم والمجتمعات الأخرى مبرزة قيمة العقيدة في كلٍ منها، وداعية إلى تقوية أواصر المودة بين المسلمين.

٤ - وما دعت إليه السورة من الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام له دلالات عميقة على قيمة العقيدة في حياة الأنبياء وأتباعهم؛ فقد رسمت الآيات لكل مسلم مثلا أعلى وقدوة حسنة في شخص إبراهيم عليه السلام ومن معه، حين آمنوا بالله وأخلصوا له، وتجردوا لعقيدته وحدها متبرئين من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة.

وما ضُرِبَ المثل بإبراهيم عليه السلام هنا إلاَّ لأنه مرَّ بنفس التجربة التي كان يعانيها المسلمون المهاجرون عند نزول هذه السورة، فكأنَّ الآيات تقول لهم: ليس الأمر جديدا ولا تكليفا يشق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٣٩، بتصرف يسير.

عليكم انظروا إلى من مضى من أهل العقيدة فاقتدوا به، واعتبروا.

وفي التمثيل بحال إبراهيم عليه السلام ومَن معه « وصل لآخر هذه الأمة بأولها، فهو ومَن آمن معه أسوة في العقيدة وفي السيرة وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ثم خلص منها هو ومَن آمن معه وتجرد لعقيدته وحدها، فإذا انبتت الروابط بين المسلم وبين أعداء عقيدته، فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها أول المسلمين إبراهيم عليه السلام»[1].

فقضية العقيدة ليست خاصة بمسلمي اليوم، ولكنها قضية الماضي والحاضر والمستقبل بل هي قضية الوجود كله.

ومن خلال ما تقدم رأينا أن يوسم محور السورة بـ «**قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة**».

هـ. المناسبات في السورة:

١ . المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تتناسب أسماء السورة الأربعة المذكورة سابقا مع محورها تناسبا بديعا يلمح من خلال النظر في علل تسميتها بتلك الأسماء.

فأما تسمية السورة «الممتحِنة» بالكسر فيبدو ارتباطها بمحور السورة عند حديث الآيات عن صنف من أعداء المسلمين في العقيدة وهو مَن ترك العناد واستسلم وأقبل معلنا إسلامه وهنَّ النساء المهاجرات.

فهذه التسمية تأخذ مدلولها من إرشاد هذه السورة إلى امتحان النساء المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام لمعرفة الباعث لهن على الهجرة، والتحقق من صدق إيمانهن، وحقيقة

(١) (١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٢ .

ما يظهرنه من معتقد، وذلك مناسب لمحور السورة لأن من يعلن انضواءه تحت لواء العقيدة لابد من العلم بصدقه فيما يدعيه، فكانت هذه السورة هي «الممتحِنة» والكاشفة عن إيمان تلك المهاجرات.

وأما تسمية السورة «الممتحَنة» بالفتح فوجه ارتباطه بمحور السورة لا يخفى على ذي نظر حصيف، ذلك أن المقصود بالممتحَنة المرأة أو النساء اللاتي أمر الله بامتحانهن إذا قدمن مهاجرات؛ لأن الغرض من ذلك الامتحان هو التأكُّد بما يغلب على الظن أنهنَّ صادقات في إيمانهنَّ، فيترتب عليه حكم آخر؛ وهو عدم حل ردهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأن الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك، فلا يعتد بهذه الزوجية لانفصام العصمة بينهما بسبب الكفر واختلاف المعتقد، وهذا يدل على قيمة العقيدة في كل رابطة، وقد كان ذلك بعد صلح الحديبية.

أما تسميتها «سورة المودة» فلورود لفظ المودة في الآية الأولى من السورة بعد النهي عن اتخاذ الكفار المعاندين أولياء، وهذا له تعلق بمحور السورة؛ لأن علة النهي هي أن هؤلاء عادوا دين الله ومنهجه وأخرجوا الرسول ﷺ وصحابته من مكة كراهة لما هم عليه من العقيدة السليمة، قال تعالى:﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾[الممتحنة: ١].

فمن كان هذا شأنه تجب مقاطعته، ولا تلقى إليه أخبار النبي ﷺ؛ لأن الإلقاء لا يكون إلا بسبب المودة، ومن علامات الإيمان وأسس العقيدة: بغض أعداء الله لا مودتهم.

وقد ذكرت المودة في تضاعيف السورة ثلاث مرات، الأولى والثانية في سياق النهي عن اتخاذ الكفار المعاندين أولياء وأحباء، والثالثة مع مَن يرجى أن يترك عناده ويستسلم، قال تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة: ٧].

وأما تسميتها «سورة الامتحان» بالمصدر فبينها وبين محور السورة علاقة تلازم قوية؛ لأن صورة الامتحان تتفق تماما مع محورها الرئيس، فقد روىَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يستحلف المرأة فيقول: « بالله الذي لا إله إلا هو، ما خرجت من بغض زوج ! بالله

ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ! بالله ما خرجت التماس دنيا ! بالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله، فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها، وما أنفق عليها ولم يردها»[1].

٢ . المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين مطلع هذه السورة وختامها علاقة وثيقة وارتباط متين سواء حُملا على العموم أو الخصوص.

فتكون المناسبة إذا حُملت الآيتان الأولى والأخيرة من السورة على العموم أن الأخيرة تأكيد، فإنه لما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك النهي تأكيدا لترك موالاتهم وتنفيرا للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم[2].

وتكون المناسبة إذا حملت الآية الأخيرة من السورة على الخصوص؛ وأريد بها اليهود والمنافقين أنَّه « لما نهى أولا عن موالاة الأعداء وأمر بتقطيع الأواصر بين ذوي الأرحام، جاء بعدها بما يشبع الأمل بقوله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ ﴾ [الممتحنة: ٧]، و ﴿ عَادَيۡتُم ﴾عامة باقية على عمومها. ولكن اليهود والمنافقين لم يدخلوا في مدلول ﴿ عَسَى ﴾، فنبه تعالى عليهم بخصوصهم لئلا يطمع المؤمنون أو ينتظروا شيئا من ذلك، فأَيْأَسهم من موالاتهم ومودتهم، كإياس اليهود والمنافقين في الآخرة، أي بعدم الإيمان الذي هو رابطة الرجاء المتقدم في ﴿ عَسَى ﴾، وفعلاً كان كما أخبر الله، فقد جعل المودة من بعض المشركين ولم يجعلها من بعض المنافقين ولا اليهود، فهي إذاً مؤسسة لمعنى جديد»[3]، حيث تَمَّ فيها استيفاء بقية أصناف المعادين للمسلمين في الدين الذين تحرم موالاتهم[4].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ١٥٦.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٣٠، ٣٣١. والكلام لمتممه الشيخ/ عطية محمد سالم.

(٤) ومن لطائف التناسب بين المطلع والختام أن كلاهما قد بدئ بالنداء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم أعقب ذلك بأداة النهي "لا"، ثم عبر عن النهي في المطلع بالافتعال "الاتخاذ"، وفي الختام بالتفعُّل﴿ تَتَوَلَّوۡاْ ﴾=

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الممتحنة وخاتمة سورة الحشر:

اشتمل آخر سورة الحشر على إبراز أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فقال تعالى:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾«[الحشر: ٢٢- ٢٤].

وأول هذه السورة مشتمل على حرمة موادة مَن لم يعترف بتلك الأسماء والصفات التي تليق بجلاله عز وجل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة: ١].

٤. المناسبة بين مضمونيْ سورتيْ الممتحنة والحشر:

بين مضمونيْ هاتين السورتين ارتباط من وجهين:

الأول: لما كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب، عقبت بهذه لاشتمالها على ذكر المعاهدين من المشركين، لأنها نزلت في صلح الحديبية.

والثاني: أن الله تعالى لَمَّا ذكر في سورة الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ثم موالاة الذين نافقوا الكفار من أهل الكتاب فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾[الحشر: ١١].

افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك[1]،

=بصريح النهي، وسر ذلك أنه لما كان الميل عن الطريق الأقوم على خلاف ما تأمر به الفطرة الأولى فلا تكون العودة إليه إلا بعد المعالجة بالتكرار والتأكيد عبر بالتَّفعُّل «التَّولي» كما عبر أول السورة بالافتعال «الاتخاذ»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي لتعالجوا أنفسكم أن تتولوا. نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٥٢٩، بتصرف.

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٠ .

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة: ١] وكرر ذلك وبسطه، إلى أن ختم السورة به، فكانت غاية في الاتصال بتلك، ولأجل هذا التعلق فُصل بهذه السورة بين سورتيْ الحشر والصَّف مع تآخيهما في الافتتاح بـ﴿ سَبَّحَ ﴾[1].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

النهي عن موالاة الكفار

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾[الممتحنة: ١ – ٦].

---

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٣٣ .

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لمحور هذه السورة - قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة - علاقة بفاتحتها؛ فقد اشتملت فاتحة السورة على نهي كل من اتصف بصفة الإيمان عن موالاة أعداء دين الله، وإلقاء المودة إليهم، وبيَّنت سبب ذلك، من كونهم أخرجوا المؤمنين من مكة لإيمانهم بالله ربهم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم ضربت الآيات المثل للمؤمنين بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ومَن معه من المؤمنين حين تبرؤوا من أعداء الله حتى يؤمنوا بالله وحده.

فتناسب مطلع السورة مع محورها من حيث إنَّ كلاً منهما يجعل العقيدة أساساً لكل رابطة؛ فالولاء لله وأحبائه يقتضي البراء من أعدائه، إذ ليس من الشرع أن يجمع المؤمن في قلبه بين محبة الله ومحبة أعدائه، لأنّه جمع بين النقيضين، ومن لوازم محبة الله بغض أعدائه وإعلان البراءة منهم.

ثانياً: سبب نزول هذا المقطع:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا» ؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله

ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّه صدقكم». فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: إنَّه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على مَن شهد بدرا، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾إلى قوله تعالى:﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1].

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

عُرِض هذا المقطع من السورة في ثلاث فِقرات:

الأولى: ورد النهي فيها عن تولي المعادين لله ولرسوله وللمؤمنين.

والثانية: بيَّنت علة النهي عن تلك الموالاة.

والثالثة: دعت إلى التأسي بإبراهيم ﷺ وأتباعه المؤمنين حين أعلنوا البراءة من قومهم الكفار حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

* يا من صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً: لا تتخذوا عدوي وعدوكم من الكفار أنصارا وأعوانا، سواء كانوا من أهل مكة أو من غيرهم، ترسلون إليهم أخبار رسول الله ﷺ التي لا ينبغي أن يكونوا على علم بها بسبب المودة التي بينكم وبينهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء: ١٤٤]، وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[المائدة: ٥٧].

ثم تذكر الآية علتين للنهي عن موالاة هؤلاء:

- الأولى: أنَّ هؤلاء قد كفروا بما جاءكم من الحق الذي هو دين الإسلام بكتابه ورسوله

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٠)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٠٧).

وعقائده وشرائعه.

- **والثانية:** أنّهم أخرجوا الرسول ﷺ وصحابته من مكة إلى المدينة كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه، ولم يكن للرسول ﷺ وصحابته من جرم سوى إيمانهم بالله، كما قال تعالى:﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾[البروج:٨].

ثم تُهيِّج الآية المؤمنين على ترك تلك المودة:

* إنْ كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي؛ فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، فتنقلون إليهم الأخبار وتسرون إليهم بمودتكم، وأنا العالم بالسرائر والضمائر وبما تخفون وما تعلنون. - فلا يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله.

* إنَّ من يتخذ أعداء الله أولياء يكون قد انحرف عن طريق الحق، وحاد عن السبيل التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى.

* إنَّ هؤلاء الكفار لو سنحت لهم فرصة للإيقاع بكم - معشر المؤمنين - وكان لهم الظفر عليكم، فتمكنوا منكم لكانوا لكم في غاية العداوة، ولن يبالوا بمودتكم، أو يقيموا لها وزنا، ولمدوا إليكم أيديهم بالضرب وألسنتهم بالسب والشتم، وتمنوا لو تكفرون بربكم وترتدون عن دينكم، لتكونوا على الذي هم عليه، فعداوتهم لكم ظاهرة، قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[النساء: ٨٩].

* إنَّ رابطة الدين والإيمان أنفع لكم من رابطة القرابة والولد؛ لأنها لا تفيد يوم القيامة من يوالي الكفار لأجلها، ففي الآخرة يفرق الله بينكم، لأن العروة التي تربطكم مقطوعة وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله، كما قال تعالى:﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾[عبس: ٣٤- ٣٦]، وقال تعالى:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى:﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ

﴿يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾[الزخرف: ٦٧].

* إنَّ المودة لا تنفع يوم القيامة إن لم تكن فيما يرضي الله حبا ومعاداة، لانفصال كل اتصال يومئذ، واعتماد كل إنسان على ما قدم لنفسه.

* والله مطلع على أعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، فهو محيط بجميعها، ومجازيكم عليها وهو خير الفاصلين.

* لقد كان لكم أيها المؤمنون في فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة كإبراهيم عليه السلام ومن معه قدوة صالحة وأسوة حسنة في الولاء والبراء، فقد تجلى موقفهم إزاء أعدائهم في الدين في الآتي:

* إعلان التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان، «فلا يجوز مطلقاً موادَّة من حاد الله ورسوله وعباده المؤمنين مهما كانت درجة قرابته ومكانته»[1].

* جحد ما هم عليه من الكفر وإنكاره عليهم.

* إظهار العداوة والبغضاء، فليست عداوة في القلب مكنونة، بل هي عداوة واضحة معلنة.

* وسيكون هذا دأبنا معكم لا نترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك، وتؤمنوا بالله وحده فحينئذ تنقلب معاداتنا لكم موالاة. قال الفراء: « يقول - الله - ألا تأسيت يا حاطب بإبراهيم عليه السلام فتبرأ من أهلك كما برئ إبراهيم»[2].

إنَّ إبراهيم عليه السلام قدوة حسنة للمؤمنين في البراءة من أعداء دين الله إلا في استغفاره لأبيه فليس للمؤمنين في ذلك أسوة.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، د/ مصطفى مسلم ٦٢٠.

(٢) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٤٩.

وسر ذلك أن بعض المسلمين كان يجد في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين، فجاءت آي القرآن لتشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم عليه السلام في قوله لأبيه:﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة:٤].

فما طلب إبراهيم عليه السلام المغفرة لأبيه إلا قبل أن يستيقن من إصراره على الشرك، استغفر له وهو يرجو إيمانه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

وتلك الموعدة من إبراهيم عليه السلام كانت في بادئ دعوته؛ حين قال له أبوه مرغباً ومرهباً: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾[مريم: ٤٦- ٤٧]، فكان قد وعده ووفى بها وعد، فلما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه.

إذاً فمحل التأسي المطلوب في إبراهيم عليه السلام هو ما جاء في قوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾... «[الممتحنة: ٤]، وما فصلته أيضا آيات أخرى في قوله سبحانه:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الزخرف: ٢٦- ٢٧].

لقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ترغيبا له لئلا يترك السعي في طلب النجاة، وقد أشار بنفسه إلى أن ليس في وسعه سوى الاستغفار، قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الممتحنة: ٤]، أي لا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك.

وهذا دأب رسل الله فقد قال محمد ﷺ لفاطمة ابنته: « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

ثم أخبرت الآيات عن مناجاة[٢] إبراهيم عليه السلام والذين معه ربهم حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، وأعلنوا تسليمهم المطلق لله، وهذا التسليم هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم عليه السلام فأبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين.

* ربنا اعتمدنا عليك لا على سواك في جميع أمورنا، سلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب.
* ربنا لا تظهر الكفار علينا فيفتنوننا في ديننا ويردونا إلى الكفر، أو يُفتنون بنا فيرون لَمَّا غلبونا أنَّهم على حق ونحن على باطل، فيزدادون كفراً ولا يؤمنون.
* واغفر لنا يا ربنا ما فرطنا من الذنوب فأنت الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، وأنت الحكيم في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك[٣].

ثم تُكرِّر الآية الحث على التأسي بإبراهيم عليه السلام ومَن معه[٤]:

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٤٨).

(٢) من لطائف التعبير في الآيات عند التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم ﷺ بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه إجراء العطف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، وفي هذا حث للمسلمين أن يكونوا تابعين لرضى رسولهم ﷺ كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام.

(٣) هذا الابتهال والضراعة هو مما قاله إبراهيم عليه السلام، وحمله بعض المفسرين على أنه إرشاد من الله للمؤمنين أن يقولوه تقوية لإيمانهم، وتثبيتا لهم عليه كما فعل إبراهيم عليه السلام ومَن معه.

(٤) لما كان من شأن البشر التفاوت في الاستجابة للتذكير والموعظة، فمنهم مَن يرده أيسر وعظ، ومنهم مَن يحتاج إلى أكثر من ذلك كي تتحرك همته لتأخذ به، أعاد الله سبحانه التأسية تأكيدا لها على وجه بلغ الذروة من جمال الترغيب وجلال الترهيب.

* إن لكم أسوة في إبراهيم عليه السلام والذين معه، ولا يتمثلها إلا مَن كان يرجو لقاء الله وثوابه والنجاة في اليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي خاضها هذا النبي عليه السلام ومن معه، ويتخذونها قدوة تتبع، فأما من أعرض عن الائتساء بهم، ومال إلى مودة الكفار؛ فإن الله مستغن عن إيمانه وولايته التي استبدلها بولاية غيره.

* والله سبحانه محمود بآلائه وإنعامه عن الخلق أجمعين، قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾[إبراهيم: ٨].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

* حرمة موالاة الكافرين بالنصرة والتأييد والمودة.

* فضيلة أهل بدر على سائر المؤمنين.

* لا يُكَفَّر من اطَّلع على عورات المسلمين وأسرارهم الحربية، ونقلها إلى الكفار إذا كان فعله لغرض دنيوي، وكان اعتقاده سليما، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينوِ الردة[١].

* شأن الكافرين دائما أنهم إذا تمكنوا من المسلمين التعرض لهم بأنواع الأذى.

* قرابة المسلم الكافرة لا تنفعه يوم القيامة إن عصى الله من أجلها، وإنما الذي ينفعه هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

* من وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر، ولا ينفعه عند الله أحد من قرابته ولو كان القريب نبياً من الأنبياء.

---

(١) الأحكام الصغرى، ابن العربي ٢/ ٨٧٦.

* أنبياء الله هم القدوة الصالحة لكل مسلم في التبرؤ من الكفار.

* الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله يصحح القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله، ولم يكن مخالفا لما جاء في شرعنا.

* لا يجوز الاقتداء في غير المعروف، فإذا أخطأ العبد الصالح فلا يتابع على الخطأ.

* فضل نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء؛ لأن الله حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[الحشر: ٧]، وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله.

* يجوز الاستغفار لمن يُظن أنه أسلم.

* سبب عداوة المسلم للكافر والبراءة منه هو كفره بالله، فإن أعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له فحينئذ تنقلب العداوة موالاة.

* التوكل والإنابة والاستغفار عبادات مأمور بها المسلم.

* الالتجاء إلى الله والضراعة إليه بالدعاء دأب الأنبياء والصالحين.

المقطع الثاني

الموالاة المباحة والموالاة المحرمة

قال الله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الممتحنة: ٧- ٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

ورد النهي عن موالاة الكفار على العموم في مطلع السورة، وفي هذا المقطع تفصيل لحكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم، فقال تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الممتحنة: ٨].

وهذان الحكمان يتفقان مع « اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون، فمَن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومَن قاتلهم فيها فهو عدوهم، ومَن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصد الناس عنها، ولم يحل بينهم وبين سماعها ولم يفتن المؤمنين بها، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه»[1].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

لهذا المقطع تعلق بسابقه من وجهين:

الوجه الأول: كونه أنزل تسلية للمؤمنين، فإنه تعالى لمَّا نهاهم في مطلع السورة عن موالاة أعداء دينه وأعدائهم، ودعاهم إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام ومَن معه؛ حملهم ذلك على أن يظهروا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٥.

البراءة من قراباتهم المشركة والتشدد في معاداتهم، غير أن ذلك لم يدفع الحنين والرغبة في زوال حالة العداء والجفوة، فكانوا يتمنون أن يجدوا مخلصا، فأردف بهذه الآيات التي تحمل نسمة الأمل بقرب الفرج تسلية لهم على تحمل ما نهوا عنه، ولمَّح بأنه سيغير من طباع المشركين، ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام، فتزول تلك الجفوة، ويتم الود.

والوجه الثاني: في المقطع السابق ورد النهي عن موالاة الكفار على العموم، وفي هذا المقطع تفصيل لأنواع الأعداء وحكم كل نوع، فأباحت الآيات للمؤمنين صلة المسالمين الذين لم يقاتلوهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، أو يعاونوا على إخراجهم، وقصرت النهي عن الموالاة على حالة العدوان على المؤمنين، وإخراجهم من ديارهم، ومعاونة غيرهم على ذلك.

ثالثاً: سبب نزول المقطع:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ أأصلها ؟ فأنزل الله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[1].

وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، فسألته فأنزل الله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها[2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع من السورة حول فقرتين:

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٦٢٠).

(٢) المسند، أحمد بن حنبل ٥/ ٤٥١، المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري ٢/ ٥٢٧. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الأولى: فيها وعد من الله للمؤمنين بزوال الوحشة والنُّفرة بينهم وبين قراباتهم الكافرة.
والثانية: فيها بيان لأحكام الموالاة.

* الإسلام دين مودة وسلام يسعى لأن يظلل العالم بنظامه، ويجمع أشتات الناس تحت لوائه، وليس ثمة ما يمنع من تحقيق ذلك سوى عدوان أعدائه عليه وعلى معتنقيه.

* إنَّ هذا الدين - وهو حتى في حالة العداء - يستبقي أسباب المودة في النفوس أملا في أن يأتي اليوم الذي يقتنع خصومه فيه بعدالة منهجه، ويدركوا أن الخير فيه لا سواه.

لقد قاطع المسلمون قراباتهم من أجل الله، فأرهقتهم مرارة المقاطعة فجاء الفرج من الله فنفَّس عن تلك النفوس المتعبة فقال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة: ٧].

أي فربما أسلم أعداؤكم، وصاروا من أهل دينكم، فتتحول العداوة إلى مودة.

ولقد تحقق ذلك فكان فتح مكة، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وألف الله بين القلوب بعد العداوة، وكانت المودة بعد البُغضة والألفة بعد الفرقة.

* والله سبحانه قدير لا يعجزه شئ فألَّف بين القلوب فأصبحت مجتمعة بعد تفرقها، قال تعالى:﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى:﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٣].

* مَن لم يقاتل المسلمين لأجل دينهم من الكفار، ولم يخرجهم من ديارهم، أو يعاون غيرهم عليهم ولا ظاهر على إخراجهم، فتجوز موالاتهم، ولم يمنع الله عز وجل من البر بهم، والإقساط إليهم، بأداء ما لهم من الحق كالوفاء لهم بالوعود والعهود، وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة.

* والله يحب العادلين في كل شئونهم حتى مع أعدائهم، ويرضى عنهم ويمقت الظالمين

ويعاقبهم، وفي الحديث: «إنَّ المقسطين على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»[1].

* ومَن قاتل المؤمنين في دينهم من الكفار كمشركي مكة أو غيرهم، وناصبوهم العداوة وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، فهؤلاء ينهى الله عز وجل عن موالاتهم، ويأمر بمعاداتهم.

* ومَن أعرض عن هذا الأمر الرباني، ووضع الولاية في غير موضعها، فهو من الظالمين لأنفسهم المتعرضين لعذاب الله ونقمته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة: ٥١].

ويتبادر سؤال بخصوص هذه الآية؛ هل هي محكمة ؟ ومن ثَمَّ يجوز للمسلم المعاصر أن يبر ويقسط إلى المسالمين من الكفار، أم أن حكمها منسوخ ؟.

والجواب: اختُلِف فيها على قولين:

الأول: إنها منسوخة، وقد اختُلف في معناها وناسخها:

فقيل: إن هذه الرخصة بالإحسان إلى المسالمين كانت في أول الإسلام زمن الموادعة، وترك الأمر بالقتال، ثم نسخت بآية: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[التوبة: ٥].

وقيل: كانت في أهل الصلح فلما زال الصلحُ زال حكمها، وانتهى العمل بها بعد فتح مكة.

وقيل: هي في أصحاب العهد حتى ينتهي عهدهم أو ينبذ إليهم؛ أي أنها كانت مؤقتة بوقت ومرتبطة بقوم.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (١٨٢٧)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦. وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح.

وقيل: إنها كانت في العاجزين عن القتال من الصبيان والنساء من المشركين.

وقيل: إنها في ضَعَفَةِ المؤمنين عن الهجرة حينما كانت واجبة، فلم يستطيعوا، وعلى كل هذه الأقوال تكون قد نسخت، بفوات وقتها وذهاب من عنى بها.

والثاني: إنها محكمة[1]، بدليل سبب نزولها المتقدم.

والكلام في هذه الآية طويل، ونكتفي فيها بما رجحه إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال عنى بذلك قوله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم أن الله عمَّ بقوله:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ جميع من كان من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»[2].

« وهذا الذي صوبه ابن جرير تقتضيه روح التشريع الإسلامي؛ فالمسلمون اليوم لهم مصالح مشتركة بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم وتشابكها من مشركين وأهل كتاب، ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها، ولا سيما في المجال الاقتصادي من إنتاج وتصنيع وتسويق، فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلحة، إذا لم يكن في ذلك ضرر بأهل الإسلام كما نصت الآية، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم، أي أن العالم الإسلامي يتعاون أولا مع بعضه، فإذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣.

عدوا على قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة في ذلك، ومما يؤيد هذا معاملة النبي ﷺ وخلفائه من بعده لليهود في خيبر»[(١)].

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* المسالمون من أهل العهد من الكفار لا ينهى الله عن موالاتهم ومبرَّتهم، وفعل الخير لهم والعدل معهم.
* يرعى الإسلام حقوق المعاهَدين، ويدعو إلى البر بهم؛ لأنه دين العدل والإنصاف.
* لا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار من الذين يقاتلون المسلمين في الدين ويخرجونهم من ديارهم ويظاهرون على إخراجهم.

المقطع الثالث

امتحان المهاجرات

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الممتحنة: ١٠- ١١].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

وجَّهت هذه الآية نداءاً إلى أهل الإيمان تأمرهم فيه بامتحان المؤمنات اللاتي خرجن من

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٢٤ - ٣٢٦ بتصرف، والكلام لمتممه وهو الشيخ/ عطية محمد سالم - رحمه الله - الذي لازمه أكثر من عشرين عاما كما أفادنا.

دار الكفر يعلنَّ إسلامهن وانضواءهن تحت راية الإسلام، وأمرت بعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكوافر.

وهذا له صلة كبيرة بمحور السورة - **قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة** - فإذا غلب على الظن أن صحة إيمانهن ثابتة فلا يجوز للمؤمنين ردهن إلى دار الكفر، لأن القطيعة متحققة لاختلاف المعتقد.

وأمرت الآية كذلك بالتخلص من عصمة كل كافرة، وعلة ذلك أن « الزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار، ولا يمكن أن تستمر إذا انبتَّت هذه الوشيجة، والإيمان هو قوام حياة القلوب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى، فلا رابطة إلا رابطة الإيمان، ولا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، ولا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله»[1].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

تظهر المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله من ثلاثة وجوه:

الأول: في المقطع السابق بيان لأحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حالتي السلم والحرب، وقد كان بين المسلمين والمشركين عقود نكاح ومصاهرة؛ ولم تفصل أحكامها في المقطع السابق، فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك، فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها، فناسب أن يعقب ذلك ببيان تلك الأحكام.

الثاني: أنه لما أمر الله تعالى بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة؛ فبين أحكام مهاجرة النساء[2].

الثالث: أن هذه الآية فيها استيفاء للحالة الثالثة من أحوال المعاندين. وقد أشار الفخر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦١.

الرازي إليها بقوله: « في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة؛ إما أن يستمر عناده، أو يرجى منه أن يترك العناد، أو يترك العناد ويستسلم، وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال؛ فقوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾[الممتحنة:٤] إشارة إلى الحالة الأولى. وقوله تعالى:﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة:٧] إشارة إلى الحالة الثانية. ثم قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾[الممتحنة: ١٠] إشارة إلى الحالة الثالثة، وقد ناسب أن يذكر هذه الحالة بعد الحالتين السابقتين، ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الأخلاق، لأنه تعالى ما أمر المؤمنين في مقابلة تلك الأحوال الثلاث بالجزاء إلا بالتي هي أحسن، وبالكلام إلا بالذي هو أليق»(١).

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

وردت في سبب نزول هذه الآية روايات منها:

عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: « لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة، وإن كان مسلما. وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ، وهي عاتق. فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾»(٢).

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٢١، مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٧١١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها - وكان كافرا - فقال: يا محمد أردد عليّ امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فنزلت هذه الآية[1].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تتحدث آيات هذا المقطع عن قضيتين:

الأولى: فيها الأمر بامتحان المهاجرات لمعرفة صدق إيمانهن، وتفصيل لأحكام هجرة النساء.

والثانية: تحدثت عن حكم الله فيما إذا لم يدفع الكفارُ للمسلم مهر زوجته التي فرت إلى دار الشرك.

* يا من صدقوا بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا: إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان، فراراً بدينهن، فاختبروهن على إيمانهنّ، لتعرفوا سبب هجرتهنَّ.

وقد اختلف في كيفية امتحانهن على أقوال:

الأول: كانت تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل منا، بل حبا لله ورسوله، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها، فذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾[2]. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) أسباب النزول، الواحدي ٣٣٤، لباب النقول، بهامش تفسير الجلالين: ٧٣٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦٣.

والثاني: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله[١].

والثالث: بما بينه الله في السورة بعد في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ إلى قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك، كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك»[٢].

* وهذا الامتحان يعتمد على ظاهر حالهن أما خفايا الصدور فأمرها إلى الله، ولا سبيل لكم إليها؛ لأن حقيقة الإيمان لا يمكن أن يعلمها أحد غيره تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾.

* فإن غلب على ظنكم - أيها المؤمنون - أنهن مؤمنات واطمأنت قلوبكم على إيمانهن بما بدا لكم من ظاهر حالهن وإقرارهن مع الحلف بالله فلا تردوهن إلى أزواجهن من الكفار، لأن الله لا يبيح مؤمنة لمشرك، وعلة ذلك أن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، وكذلك لا تحل المؤمنات للكفار.

وبعد الأمر بالامتحان شرعت الآية في بيان أحكام تسوية زواج المسلمة المهاجرة:

* على المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين هاجرت زوجاتهم ما غرموه عليهن من المهور، فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها، وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسران الزوجية والمالية. وهذا الأمر يدل على أن عهد الصلح اقتصر على الرجال دون النساء، و«أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان ﷺ عاهد عليه قريشا، من أنه يرد إليهم من جاء منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩١).

مسلما، فنُسخ من ذلك النساء، وهذا مذهب مَن يرى جواز نسخ السنة بالقرآن، وقال بعض العلماء: كله منسوخ في الرجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمام العدو على أن يرد إليهم مَن جاءه مسلما، لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز، وهذا مذهب الكوفيين، وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك.

وقد احتج الكوفيون لما ذهبوا إليه بحديث خالد بن الوليد ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى قوم من خثْعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم، فوَداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية، وقال: «أنا بريئ من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تراءى نارهما»[١]، قالوا: فهذا ناسخ لرد المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد برئ ممن أقام معهم في دار الحرب، ومذهب مالك والشافعي أن هذا الحكم غير منسوخ[٢].

* لا إثم ولا حرج على المؤمنين في الزواج من هؤلاء المؤمنات المهاجرات، إذا أعطوهن مهورهن، بشرط انقضاء عدتهن، وكون الزواج من الولي.
* يحرم على المؤمنين بعد نزول هذه الآية التمسك بعلاقة الزوجية بينهم وبين نسائهم المشركات من غير أهل الكتاب الباقيات في دار الكفر، فمن كانت له امرأة كافرة مشركة فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.
* على المؤمنين أن يطلبوا مهور نسائهم اللاتي ارتددن وذهبن إلى الكفار، وليطالب الكفار كذلك بمهور نسائهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين، وعلى المؤمنين أن يؤدوا لهم ذلك.
* كل هذه الأحكام من استثناء النساء من الدخول في بنود صلح الحديبية، والأمر بإرجاع المهور من الجهتين هي حكم الله يحكم به بين خلقه، فاتبعوه ولا تخالفوا أمره، فالله سبحانه عليم بما يصلح عباده حكيم في أقواله وأفعاله، فلا يشرع إلا ما تقتضيه حكمته.

---

(١) جامع الترمذي، الترمذي ٤/ ١٥٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦٣.

* وإن ذهبت أزواجكم - أيها المؤمنون - مرتدات إلى الكفار، ولم يعطوكم المهور التي دفعت لهن، فغزوتموهم وظفرتم بهم وأصبتم منهم غنيمة، فأعطوا لمن فرت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بين أيديكم.
* ولا تصدنكم - أيها المؤمنون - معاملة المشركين لكم بالجور وعدم الإنصاف، عن أن تؤدوا لإخوانكم مهور نسائهم اللاتي فارقنهم إلى دار الكفر، ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهن.
* وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون في تنفيذ حكمه، أما المشركون فلمّا لم يؤمنوا بها أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، فلم يعطوا من فرت زوجته ما أنفق عليها من مهر، فينبغي عليكم أن لا تكونوا مثلهم.

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وجوب امتحان النسوة اللاتي هاجرن من دار الكفر إلى دار الإسلام ليعلم صدق إيمانهن.
* إنْ عُلم صدق إيمان المهاجرات فلا يحل إرجاعهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأن إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك، فتحرم عليه، ويعطى ما أنفق عليها من المهر، ويجوز بعد ذلك نكاحها للمسلمين بمهر وولي وشاهدين، إن كانت مدخولاً بها بعد انقضاء عدتها، فإن أسلمت قبل الدخول بها فلها التزوج في الحال إذ لا عدة عليها.
* حرمة المسلمات على المشركين الوثنيين، وقد كان جائزا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، كزواج أبي العاص بن الربيع بزينب ابنة النبي ﷺ[1].
* الشريعة الإسلامية تحكم بالظواهر، وتكل السرائر إلى الله عز وجل.
* حرمة نكاح المشركات من غير أهل الكتاب اللاتي لا يؤمن بالله، أو الإبقاء على عصمتهن.
* وللزوج الذي بقيت زوجته على الكفر أو ارتدت بعد إسلامها أن يطالب المشركين بها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٥.

أنفق عليها من مهر.

* للزوج الكافر إن أسلمت زوجته وهاجرت إلى المسلمين أن يطالبهم بما أنفق عليها.
* مَن ذهبت زوجته من المسلمين لدار الشرك، ولم يرد عليه شيء مما أنفق عليها، ثم غزا المسلمون تلك البلاد، وفتحها الله عليهم يعطى ما أنفقه عليها من الغنيمة قبل قسمتها وإن لم تكن ثمة غنيمة فجماعة المسلمين وإمامهم يساعدونه ببعض ما أنفق عليها من باب التكافل والتعاون.
* الشريعة الإسلامية تكفل حقوق البشر دون تفريق بين مسلم وكافر.
* وجوب تقوى الله تعالى بتطبيق شرعه، وإنفاذ أحكامه والرضا بها، والتحذير من التشبه بالكفار في عدم الإنصاف.

المقطع الرابع

بيعة المؤمنات

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة: ١١-١٣].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

بُدئ هذا المقطع من السورة بنداءٍ موجهٍ للنبي ﷺ، متضمنا الأمر له بمبايعة النساء المؤمنات على الطاعة، ثم شرعت الآيات في ذكر أركان البيعة، وعادت بالخطاب إلى المؤمنين

ناهية عن تولى الكفار من اليهود وغيرهم، فتناسب كل ما سبق ذكره مع خط السورة العام ومحورها الرئيس؛ الذي يجعل العقيدة ميزانا لكل علاقة وولاء؛ فالأركان التي ارتكزت عليها بيعة النساء في هذا المقطع هي قواعد العقيدة، وأسس الإسلام.

وكذلك فالموالاة من أوثق عرى الإيمان، فنهي المؤمنون أن يصرفوها إلى من يخالفهم في العقيدة، وبهذا يظهر التناسق البديع بين هذا المقطع الأخير من السورة وبين محور السورة.

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

خاطب الله سبحانه في الآية السابقة عباده المؤمنين بامتحان المهاجرات حتى يعلم إيمانهن، فلما استبان وعرف، عاد بالخطاب للنبي ﷺ بعد الحكم بإيمانهن فأمره بمبايعتهن فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

والمقتضي لهذه البيعة بعد الامتحان أنهن دخلن في الإسلام بعد أن استقرت أحكام الدين في مدة لم يشهدن فيها ما شهده الرجال من اتساع التشريع، فكانت هذه الآية تكملة لامتحان النساء المتقدم في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وفيها بيان لآثاره، فكأنه يقول: فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار، وبينوا لهن شرائع الإسلام[١].

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾. فمَن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: « قد بايعتك» كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك»[٢].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩١).

وعن أُميمة بنت رقية قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن، ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ فقال: فيما استطعتنَّ وأطقتنَّ، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله: ألا تصافحنا ؟، قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة»(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

هذا المقطع الأخير من السورة يشتمل على فقرتين:

الأولى: وتتضمن الأمر للنبي ﷺ بأخذ البيعة من النساء على الإسلام والطاعة، وذلك بعد أن جاءه - بعد الفراغ من فتح مكة - جمعٌ منهن لمبايعته.

والثانية: وتتضمن النهي عن موالاة الكافرين.

* يا أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله يقصدن مبايعتك على الإسلام والطاعة، فبايعهن على:
* عدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى شيئا كائنا من كان من صنم أو حجر.
* ألا يسرقن من مال الناس شيئا.
* ولا يرتكبن جريمة الزنى التي هي من أفحش الفواحش، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء: ٣٢].
* ولا يقتلن أولادهن بأي وجه من الوجوه سواء بالوأد كما كان يفعل أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، أو بواسطة الإجهاض.
* ولا يلحقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتانا، قال ﷺ: « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل ١٠/ ٢٨٧.

ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»(١).

* ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنوح وتمزيق الثياب، وخَمْش الوجوه، وشق الجيوب، أو أن تخل إحداهن بغير ذي رحم محرم(٢).

* فإن وافقن على هذه الشروط فبايعهن على ذلك، وعلى سائر أحكام الإسلام، واطلب لهن من الله المغفرة والرحمة لما سلف من الذنوب، فإن الله واسع المغفرة لمن تاب رحيم بمن استقام وأناب.

* يا مَن صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا: لا تتخذوا اليهود والنصارى والمنافقين وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم، واستحقوا الطرد من رحمته أولياء وأنصارا.

* لقد يئس هؤلاء من ثواب الآخرة وأصبحوا لا يوقنون بها ولا يعتقدون ببعث ولا نشور بسبب كفرهم وعنادهم، فانقطع رجاؤهم ويئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار من بعث موتاهم(٣).

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مشروعية أخذ البيعة لإمام المسلمين ووجوب الوفاء بها.

* حرمة الشرك بالله، والسرقة، والزنى، وقتل الأولاد، ووأد البنات، وإلحاق اللقطاء بغير آبائهم، وعصيان شرع الله فيما أمر ونهى.

* حرمة مصافحة النساء في البيعة.

* الطاعة لولي الأمر تكون في حدود الشرع.

* حرمة موالاة اليهود بالنصرة والمحبة لكفرهم بالآخرة، ويأسهم من ثوابها.

---

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٢٢٦٣)، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٢٢٠، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥١.

(٣) ويجوز أن يكون المعنى: أو كيأس الكفار الذين هم في القبور من كل خير.

سورة الصَّف

الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة

أولاً: بين يدي السورة

أ. تسمية السورة:

أورد المفسرون لهذه السورة اسمين هما: الصَّف، الحواريين[1]، وزاد الألوسي اسما ثالثا لها هو سورة عيسى بن مريم عليه السلام[2].

فأما وجه تسميتها بـ «سورة الصف» فلوقوع لفظ﴿ صَفًّا ﴾ فيها، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف:٤]، وهذا هو الاسم المشهور للسورة.

وأما وجه تسميتها بـ «سورة الحواريين» فلورود لفظ «الحواريين» فيها مرتين في آية واحدة، هي قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾[الصف:١٤].

---

(١) غوامض الأسماء المبهمة، السهيلي ١٩٥، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٥٨، روح المعاني ٢٧/ ١٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

(٢) روح المعاني: ٢٧/ ١٢٣، قال ابن عاشور: ولم أقف على نسبته لقائل. وأصله للطبرسي فلعله أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبي بن كعب بلفظ سورة: عيسى عليه السلام، وهو حديث موسوم بأنه موضوع، والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة، فإذا ثبتت تسميتها سورة عيسى عليه السلام، فلما فيها من ذكر عيسى عليه السلام مرتين، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾ [الصف:٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف:١٤]. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

ب. فضائل سورة الصف:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجلَّ لعملناه، فأنزل الله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[الصف:١- ٣]، قال عبد الله بن سلام ﷺ: فقرأها علينا رسول الله ﷺ[١].

ج. مكان نزول السورة:

اختُلف في المكان الذي نزلت فيه سورة الصَّف على قولين:

الأول: إنها نزلت بالمدينة، وقد رُوي ذلك عن عبد الله بن الزبير وابن عباس، وعن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة[٢].

وقال الماوردي: مدنية في قول الجميع[٣].

ورجَّح هذا القول ابن عطية؛ لأن معاني السورة تعضده[٤].

وقال السيوطي: المختار أنها مدنية[٥].

ويؤيد كونها مدنية حديث عبد الله بن سلام ﷺ المتقدم في فضائل هذه السورة.

---

(١) جامع الترمذي ٥/ ٤١٢، سنن الدارمي ٢/ ٦٤٥، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٧٨، وقال: وروى هذا الحديث مسلسلا بقوله: « يقرؤها علينا»، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال السيوطي: قال ابن حجر: هو أصح مسلسل يروى في الدنيا، قل أن يقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه. (الدر المنثور ١٤/ ٤٤٢).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٨.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥٢٧.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠١.

(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ٣٣.

والثاني: إنها نزلت بمكة، وهو قول ابن عباس أيضاً، وروي عن مجاهد وعطاء بن يسار[1].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الصف أربع عشرة آية ليس فيها اختلاف[2].

هـ. محور السورة:

سورة الصَّف هي إحدى السور المدنية في قول جمهور أهل العلم، ومعلوم أن من أهم خصائص السور المدنية العناية بالأحكام التشريعية، وقد تناولت السورة إلى جانب ذلك عددا من الموضوعات:

أولاً: التحذير من مخالفة القول العمل، والتحريض على الجهاد في سبيل الله، والثبات على نصرة دينه.

ثانياً: موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام .

ثالثاً: سنة الله في إظهار دينه، ورد كيد أعدائه .

رابعاً: الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة في الدنيا والآخرة .

خامساً: دعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الله .

وكل هدف من الأهداف الآنفة الذكر يشغل حيزا مهما من السورة، ويشكل موضوعا تدور بعض أحداثها حوله، وسنبين علاقة كل هدف بمحور السورة عند المعنى الإجمالي لمقاطعها إلا أن أهم غرض من أغراض السورة هو الحديث عن القتال وفضيلته وشرف المقاتلين، وما ينتظرهم من الجزاء الدنيوي والأخروي، وتدل على هذا المحور عدد من الشواهد أهمها:

---

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٥، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٨.

(٢) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٥.

١ - آيات السورة الأربع عشرة تشير في مجملها إلى أن هذا الدين هو خاتمة الأديان، وأن الجهاد في سبيل إعلائه هو خير عمل وأربح تجارة.

٢ - سبب نزول السورة - وهو أوضح دليل - يكشف لنا عن محورها؛ فقول الصحابي عبد الله بن سلام ﷺ: «فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»؛ يعني أنها نزلت دفعة واحدة بالمدينة في شأن الجهاد، وهذا دليل على أهميتها، وأن الجهاد يمثل أهم أغراض نزولها.

وكذلك ما روي من أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا! فلما فرض الله الجهاد كره بعضهم فأنزل الله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ ﴾[1].

٣ - ما جزم به كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين من أن محور هذه السورة هو القتال[2].

كل ما تقدم كان دافعاً لنا لتسمية محور السورة بـ« **الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**» ومن خلال هذا العنوان سنمضي في تفسيرها تفسيراً موضوعيا.

و. المناسبات في سورة الصف:

١ . المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لكل اسم سميت به السورة علاقة وطيدة بالمحور الذي تدور أحداثها حوله التي تحض على الجهاد في سبيل الله والاستبسال في الدفاع عن دينه ومنهجه.

فتسميتها بـ»سورة الصف» ترتبط بمحورها ارتباطاً وثيقاً، وهي أدل تسمية على محورها فهي تبين كيفية القتال المرضية والمشروعة عند لقاء العدو.

فالله عز وجل يرضى عن المقاتلين حين يقاتلون في سبيله صفاً واحداً، ككتلة متراصة لا

---

(١) الدر المنثور، السيوطي ١٤/ ٤٤٣.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٤، تناسق الدرر، السيوطي ١٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٦٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ١١٥.

تتزحزح من موقعها كأنها بنيان راسخ.

وأما تسميتها بـ «سورة الحواريين» فقد تكرر هذا اللفظ مرتين في الآية الأخيرة منها والغرض من ذلك هو الإشارة إلى طرف من منهج القرآن في تربية المؤمنين على الجهاد باستخدام المثل لاستنهاض هممهم، كونهم الأمناء على منهج الله في الأرض وورثة العقيدة، فكأنه يقول لهم: دوموا على نصرة الله ودينه واستجيبوا لأمره كما استجاب الحواريون من خُلَّص أصحاب عيسى عليه السلام حين قال لهم: مَن الذي ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله ؟ أو مَن منكم يتولى نصري وإعانتي فيما يقرب إلى الله ويعلي دينه ؟[1].

٢ . المناسبة بين افتتاحية سورة الصف وخاتمتها :

بُدِئَت هذه السورة بتنزيه الله سبحانه وتعالى، وبذكر صفاته من كونه مالك ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم، واختتمت ببيان ما يقتضيه هذا التنزيه من النصرة لدين الله تعالى.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الصف وخاتمة سورة الممتحنة :

اختتمت سورة «الممتحنة» بالنهي عن مولاة أعداء الله، وافتتِحت هذه السورة - الصف - ببيان ما يقتضيه التخلي عن تلك الموالاة وهو التنزيه لله عز وجل.

٤. المناسبة بين مضمونيْ سورتيْ الصَّف والممتَحَنة :

يمكننا تلمس المناسبة بين مضمونيْ سورتي «الممتحنة» و«الصف» من عدة وجوه

---

(١) وتكون مناسبة تسميتها بسورة «عيسى بن مريم» لمحور السورة - إذا ثبتت هذه التسمية - أنه سبحانه وتعالى لما ذم المخالفين من المؤمنين في شأن القتال، ذكرهم بقوم عيسى عليه السلام الذين كفروا به وردوا ما جاء به ونسبوه إلى السحر، ونبههم إلى أن لا يكونوا مثلهم. ثمّ إنه لما حث على الجهاد في الآيات قبل الأخيرة من السورة وبين الجزاء الأخروي والدنيوي عليه عاد بالذكر إلى المخلصين والأصفياء من قوم عيسى عليه السلام حاثا للمؤمنين على البذل والجهاد كما خرج الحواريون في أنحاء بابل والشام وفارس ناشرين لدين الله ومجاهدين في سبيله وهذا له ارتباط لا يخفى بمحور السورة.

أبرزها:

أولاً: في سورة الممتحنة ذُكر الجهاد في سبيل الله والترغيب فيه، قال تعالى:﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[الممتحنة/ ١]، وبُسط في سورة الصف أبلغ بسط، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف/ ٤]، وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الصف: ١٠- ١١]»[(١)].

ثانياً: ورد في سورة الممتحنة ذكر الفتح الأعظم، وما كان من أمر الصحابي الجليل حاطب ابن أبي بلتعة ﷺ، وجعلت هذه السورة منابذة الكفار دليل صحة الهجرة والإيمان ومناط التجرد لجهاد أعداء الله، وفيها كذلك إشارة إلى ما أثاب الله به المجاهدين في سبيله من الفتوح القريبة والتي كان منها فتح مكة.

ثالثاً: نهى الله تعالى في سورة الممتحنة المؤمنين بطريق النصح والوصية والإشفاق عن موالاة أعداء دينه، وفي هذه السورة جاء الأمر بصريح الإنكار على من يخالف قوله عمله من المؤمنين ليكون بعد ما تمهد في سورة الممتحنة أوقع في الزجر.

---

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٣٤.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

مطابقة القول العمل في شأن الجهاد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤ ﴾[الصف: ١- ٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

محور هذه السورة - كما مر معنا - هو «**الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**» وكل فقرات هذا المقطع تتناسب معه ابتداء من الافتتاحية وانتهاء بآخر آية فيه.

فالتقرير لحقيقة التنزيه المطلقة لله تعالى من كل ما في الوجود يدفع إلى صدق العمل مع الله، فيؤدي المسلم ما أنيط به في هذا الوجود بتناغم تام مع كل ما في الكون فلا يشذ عن نواميسه، باعتباره جزءاً من هذا الكون المسبح لله، وهذا يحمله على المضي في نصرة منهج الله في الأرض والاستبسال في الدفاع عنه فيتحمل أمانة الجهاد بتسليم ويقين بالجزاء.

والتحذير الشديد للمؤمنين الذين تشوقوا للجهاد ثم تركوه، وحثهم على مطابقة القول العمل، يحمل كل من ألزم نفسه شيئا على الوفاء به ومن ذلك أمر الجهاد.

والتعليم للمؤمنين كيف يكونون في حال القتال، يدفعهم إلى لقاء العدو دون رهبة لما ينتظرهم من رضا الله وحبه.

ثانياً: سبب نزول هذا المقطع:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو

نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»[1].

ثالثًا: المعنى الإجمالي للمقطع:

تتحدد ملامح هذا المقطع من السورة في ثلاث فقرات:

الأولى: كل ما في الوجود ينزه الخالق جل وعلا.

والثانية: التحذير الشديد للمؤمنين من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين.

والثالثة: ما يحبه الله من المؤمنين من التوحد والثبات في ساحة القتال نصرة لدينه.

* نزه اللهَ عز وجل عما لا يليق به كل ما في السماوات وما في الأرض من ملك وإنسان ونبات وجماد عقلاء وغير عقلاء بلسان الحال والمقال كما قال تعالى:﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤].

* وتنزيهه الله تعالى يعني الشهادة له بالربوبية والوحدانية والقدرة، فهو القوي الغالب القاهر فوق عباده، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله، وفي تدبير شئون خلقه وتصريف أمورهم.

* يا معشر من صدقتم بالله عز وجل ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا: لم تقولون بألسنتكم شيئا ولا تفعلونه ؟.

* لقد عظم جرما أن تقولوا قولا وتفعلوا غيره، أو تعِدوا بشيء ثم لا تفون بها وعدتم؛ لأن الوفاء بالوعد لله سبحانه على القتال في سبيله، أو لخلقه فيما وعدتموهم به دليل على كريم الشيم وجميل السجايا.

* إن الله يرضى عن المقاتلين ويجزل لهم الثواب حين يقاتلون في سبيله صافين أنفسهم صفا واحدا، وكتلة متراصة لا تتزحزح من موقعها، كأنهم بناء راسخ يشد بعضه بعضا، دون

---

(١) جامع الترمذي ٥/ ٤١٢، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٧٨، سنن الدارمي ٢/ ٦٤٥.

فُرَج فتزيد قوتهم المعنوية، ويتنافسون في القتال والكرِّ والفرِّ، مما يدخل الفزع والروع في نفوس الأعداء، ويعجل بالنصر.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* اختصاص الله عز وجل وانفراده بالتسبيح والتمجيد من كل ما في السماوات والأرض دليل على ربوبيته ووحدانيته واتصافه بكل صفات الكمال .
* من أخلاق المؤمنين الراسخة موافقة القول العمل، فمن ألزم منهم نفسه عملا فيه طاعة لله وجب عليه الوفاء به .
* خلف الوعد مذموم شرعا، ومستوجب للإثم والمؤاخذة .
* ما شرعه الله من العبادات والشرائع والتي منها الجهاد إنما هو لفائدة عباده وصلاح حالهم في المعاش والمعاد؛ كالثبات عند لقاء العدو فإنه سبب لمحبة الله لعباده .
* الإسلام دين النظام والتلاحم في شتى جوانب الحياة .

المقطع الثاني

موقف الكفار من دعوة الأنبياء

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف: ٥ - ٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

في هذا المقطع من السورة بيان لموقف المخالفين من دعوة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ومناسبة الحديث عن هذه المواقف لمحور السورة هنا تتضح من خلال النظر في سياق الآيات التي يحتوي عليها هذا المقطع، فقد تضمنت الآيات:

- التذكير للمؤمنين بعد أن أمروا بالجهاد بأن لا يكون موقفهم تجاه الدعوة إلى التضحية كموقف أهل الكتاب من دعوتي موسى وعيسى عليهما السلام، فقد أبى قوم موسى عليه السلام القتال معه، وأنكر بنو إسرائيل ما جاءهم به رسولهم عيسى عليه السلام من البينات والبشارة بالنبي الخاتم محمد ﷺ وأعرضوا عن دعوته لهم إلى الإيمان.

- والوعد من الله بتمكين دينه وإظهاره على سائر الأديان يزرع في نفوس المؤمنين الصادقين الثقة بالله، وينمي روح البذل فيجعلهم يسترخصون كل غال من أجل إعلاء دين الله.

وما تقدم له تعلق ظاهر بموضوع السورة ومحورها الرئيس. والله تعالى أعلم.

ثانيا: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

بعد أن حث الله على الجهاد وأنَّب المتخلفين عنه في الآيات السابقة ذكَّر المؤمنين في هذا المقطع بقصة قوم موسى وعيسى عليهما السلام، وهذا التذكير مناسب لما تقدم من الآيات لما فيه من حث للمؤمنين على أن لا يكونوا مثل أولئك القوم، وألا يفعلوا فعلهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تسلسلت أحداث هذا المقطع في فقرتين:

الأولى: تتحدث عن موقف أهل الكتاب والمشركين من دعوة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والثانية: تتضمن الوعد من الله بإعلاء دين الإسلام وإظهاره على سائر الأديان.

* أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه لينقذهم من بطش فرعون وملائه، وليخرجهم من ذل العبودية، ودعاهم إلى قتال الجبارين، فقال تعالى:﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[المائدة: ٢١]، فرفضوا ما أمرهم به نبيهم، قال تعالى:﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المائدة: ٢٢].
* فتطاول القوم على رسولهم، وألحقوا به الأذى، ونالوا منه، فقال: يا قوم لم تتعرضون لي بالأذى وتخالفون أمري في قتال أعدائكم ؟ وأنتم تعلمون يقينا أني رسول الله وأني صادق فيما جئتكم به من البينات والهدى.
* إن من شأن الرسل أن تعظم وتصدق وتسلم من الأذى، لكن القوم مردوا على الكفر وتكذيب الأنبياء، وعدلوا عن الحق الذي جاء به رسولهم مع علمهم بصدقه وأصروا على مخالفته، وانحرفوا عن سبيل الاستقامة.
* فجازاهم الله على كفرهم ومخالفة نبيهم، فأمال أفئدتهم عن الهدى، وصرفها عن الحق،

وأسكنها الشك والحيرة، فلم تنظر بعين بصيرتها ما تشاهده أمامها من أدلة ولم تبصر ما ترى من براهين كما قال تعالى:﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء: ١١٥].

* إن الله عز وجل لا يوفق للهداية وإصابة الحق من تمرد عليه، واختار الكفر، ونبذ طاعته وطاعة رسوله.

لقد خففت هذه الآية آلام رسول الله ﷺ حين نالته قريش بالأذى، فقال مترحما على نبي الله موسى عليه السلام ومشيدا بموقفه: « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

فعلى أهل الإيمان ألا يكونوا كهؤلاء قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٦٩].

ومع ما آل إليه حال بني إسرائيل إلا أن عناية الله لم تتركهم دون إرسال منقذ جديد فجاءهم عيسى عليه السلام، وكان لهم معه موقف يقرب من موقفهم السابق مع موسى عليه السلام.

* قال لهم عيسى عليه السلام: يا قوم إني مرسل إليكم من الله، ومعجزتي الإنجيل، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة، وإنما يصدقها ويعترف بأحكامها ويؤيدها ويكملها.

* وبشَّرهم عيسى عليه السلام بمجيء رسول من بعده اسمه أحمد، وكانت كتبهم قد أشارت إلى قرب بعثته، لكنهم كانوا يرغبون أن يكون الرسول المنتظر من طينتهم ومن نفس جنسهم كي يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل ٢/ ١٨.

﴿إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى.......»[١].

وما نبههم عيسى عليه السلام على تصديق ما جاءهم به للتوراة إلا ليقرب إجابتهم، ويوجد لنفسه مساحة ملائمة للبلاغ، إذ هو يعلم أن القوم شديدو التمسك بالتوراة.

* لكن هيهات فلم تعد قلوبهم صالحة للهدى، بعد أن ضلوا ضلالاً بعيداً، فانتهت قوامتهم على دين الله فلم يعودوا يصلحون لهذا التشريف والاصطفاء.

* والرسول المبشر به هو أحمد ﷺ النبي الأمي الذي يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد سواه وهو خاتم النبيين، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد[٢]

عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[٣].

* فلما جاء أحمد ﷺ المبشر به بالأدلة والمعجزات القاطعة قال الكفرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين: هذا الذي جئت به سحر واضح لاشك فيه[٤].

* وأي الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربُّه على لسان نبيه إلى الإسلام - الذي فيه سعادة

---

(١) رواه ابن إسحاق بسند جيد. السيرة النبوية، ابن هشام ٤/ ١٦٦، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٤. قال ابن كثير عن إسناد هذا الحديث: وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد من وجوه أخر.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٢٧.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٦).

(٤) ويحتمل أن يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على عيسى عليه عليه السلام، فيكون المعنى: فحين جاء عيسى عليه السلام قومه بالمعجزات نكصوا على أعقابهم وقالوا: ما جئت به هو السحر الظاهر.

الدارين.

* فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه: هذا سحر.

لقد ظلموا الرسول بنسبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: إنه ساحر.

وظلموا ربهم إذ افتروا عليه الكذب، فقال عن المشركين: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾[آل عمران: ٨١].

وظلموا ما جاءهم به رسولهم من هدى وحجج فنسبوها إلى ما ليس منه فسموها سحرا.

وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وكتمان الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الله، فقال تعالى عن أهل الكتاب:﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ٩١].

ثم كمَّل الله لهم الظلم بقوله:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٤٠].

* إنَّ الله سبحانه لا يرشد الظالمين المتجاوزين إلى ما فيه خير أنفسهم لأنهم دسوها باجتراح السيئات فختم الله على قلوبهم فلم تعرف الهداية إليها طريقا.

ثم صورت الآيات ما يُظهِرونه من جد واجتهاد في إبطال دين الله فقال الله:﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وكأنه مشهد حقيقة، والصورة التي يظهرون عليها صورة بائسة تحمل على السخرية منهم، حين يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعفاء.

* إنَّ مثل هؤلاء في مقاومتهم لهذا الدين وجدهم في إخماد وهجه مثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفئ نورها ويحجب ضياءها، وأنَّى له ذلك ؟

* فكما أن ذلك مستحيل فإبطال دعوة الإسلام مستحيل !! ولهذا قال الله:﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ

﴿ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

* إنَّ دين الله نور، ولا يمكن أن يحجبه طغيان المتجبرين، أو تذهب بحقيقته الراسخة في الأفئدة أفواه الحاقدين، فسيعليه على غيره من الأديان، ولو كره الكافرون.

* وإن كل محاولات المشركين لدفع دين الإسلام مستحيلة؛ لأن قدر الله المحتوم اقتضى إظهار هذا الدين؛ لأنه الهدى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ ﴾[الصف: ٩].

* فالله هو الذي أرسل محمدا ﷺ بالهدى الكامل ودين الحق الواضح المتمثل بالقرآن والسنة النبوية ليعليه على جميع الأديان المخالفة ولو كره المشركون[١].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من هذا المقطع:

* مخالفة أوامر الأنبياء والمرسلين موجبة للعقاب.

* إرادة الله الخير لعباده، فهو سبحانه لا يضل أحدا بغير موجب، فلا يضل المهتدين، وإنما يضل الظالمين والفاسقين، ولما مال بنو إسرائيل عن الحق أمال الله قلوبهم عن الهدى وعن الطاعة والإيمان والثواب.

* رسالات الله يكمل بعضها بعضا، ويصدق بعضها بعضا، فقد أنزل الله الإنجيل على عيسى عليه السلام متمما للتوراة التي أنزلها سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، وقد بشر عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ فمصدر تلك الرسالات واحد.

---

(١) من لطائف التعبير هنا أنه قال أولا: ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وهم اليهود والنصارى والمشركون، ثم قال: ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ لأنه ذكر أولا النور وإطفاءه، فكان اللائق به الكفر: وهو الستر والتغطية، ثم ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وكان الاعتراض عليه من المشركين، ولأن أكثر الحاسدين للرسول ﷺ من قريش، وهم المشركون. ولما كان النور أعم من الدين والرسول ﷺ، ناسبه ذكر الكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، ولفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والرسول والدين أخص من النور، فناسبه ذكر المشركين الذين هم أخص من الكافرين. التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٣٠ بتصرف.

* طبيعة الكفر واحدة وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة، فقد جاء موسى عليه السلام قومه بالبينات فآذوه، وجاء عيسى ومحمد عليهما السلام بالمعجزات الدالة على نبوتهما فنسبها الكفار إلى السحر، فكانوا بذلك أظلم الناس على الإطلاق.
* البشارات بمحمد ﷺ في الكتب المتقدمة دليل على نبوته.
* كل محاولات الكفار لإبطال دين الله ومقاومة دعوة الإسلام، والتكذيب بها خائبة خاسرة.
* الله سبحانه وتعالى متم نوره بقدرته وتدبيره، وهو مظهر دينه ولو كره الكافرون.
* أرسل الله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليعليه على جميع الأديان.

المقطع الثاني

التجارة الرابحة

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف: ١٠-١٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

لهذا المقطع من السورة علاقة وطيدة بمحورها « **الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**»، فهو يهتف بالمؤمنين إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة؛ تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيله.

فبعد أن ضربت السورة للمؤمنين الأمثال، وانتقلت بهم من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ﴾، أي هل أدلكم على أحب الأعمال إلى الله لتعملوا به ؟ كما طلبتم إذ قلتم: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به.

فخلصت الآيات هنا إلى الغرض الذي افتتحت به السورة، وهو التحريض على الجهاد في سبيل الله، والثبات فيه وصدق الإيمان، وهذا هو الموضوع الذي تدور آيات المقطع حوله، وهو عين محور السورة. والله تعالى أعلم.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله:

تظهر المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله من وجهين:

الأول: لَمَّا كانت السورة قد افتتحت بخطاب الله للمؤمنين متضمنة الإنكار عليهم على مخالفة القول العمل بقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾«[الصف: ٢- ٣]، وانتقلت بهم إلى موقف أعداء الله من دينه، عادت بالخطاب إليهم هنا بمثل ما خوطبوا به في مطلعها:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ﴾، أي هل أدلكم على أحب الأعمال إلى الله لتعملوا به. فأرشدتهم هذه الآيات إلى ما يجب فعله ليتقربوا إلى الله بأحب الأعمال إليه.

والثاني: أنَّه لَمَّا بين الله تعالى في الآيات السابقة أن المشركين يريدون إطفاء نور دينه، دعا المؤمنين هنا إلى مجاهدة أعداء هذا الدين، وحثهم على التضحية بالمال والأنفس جهادا في سبيل الله، وبين لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

كما أشارت الآيات إلى أن إظهار دين الله وإعلائه على سائر الأديان، يتحقق حين يكون المؤمنون أنصاراً لله تعالى.

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

أولاً: سبب نزول قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾.

عن أبي صالح قال: قال المسلمون: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل. فنزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾ الآية، فكرهوا الجهاد، فنزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾[1].

ثانياً: سبب نزول قوله سبحانه:﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: لمَّا نزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ ﴾ قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة، لأعطينا فيها الأموال والأهلين ؟ فنزلت:﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يدور هذا المقطع حول فقرتين:

الأولى: تتحدث عن فضيلة الجهاد.

والثانية: فيها الدعوة لنصرة دين الله.

وأول ما يستوقفنا في هذا المقطع ذلك الحشد الكبير من أساليب التعبير المشوقة:

فمن نداء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

إلى استفهام﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾.

ثم تقديم وتأخير ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. حيث قدَّم الربح قبل ذكر نوع التجارة ليكون ذلك أكثر تشويقا وجذبا. وما ذلك إلا لأن القضية خطيرة.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي ٢١٣.

* ينادي الله سبحانه وتعالى عباده المصدقين به ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا: هل أدلكم على عمل تربحون فيه أعظم مما تربحون في التجارة ؟.

* إنه ربح لا يعدله ربح آخر؛ إنه النجاة من عذاب النار الشديد الإيلام، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة: ١١١].

* هذه التجارة - المدلول عليها من قبل الله - تجمع بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس من أجل إعلاء كلمته، ونشر دينه.

* هذا الجهاد خير لكم -أيها المؤمنون - من النفس والمال ومن كل تجارة، إن كنتم من أهل العلم والإدراك بوجوه المنافع، وفهم المقاصد؛ فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها.

* فإن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه نلتم الفوائد الأخروية والدنيوية. ففي الآخرة:

* يستر الله عليكم خطاياكم ويمحوها بفضله، وهذه الفائدة وحدها تكفي « فمن ذا الذي يضمن أن يغفر ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئا ؟ ولكن فضل الله ليس له حدود»[1].

* يدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة.

* ويسكنكم مساكن تطيب لدى النفوس، مع درجات عالية في جنات الإقامة الدائمة التي لا تنتهي بموت ولا خروج منها.

* وهذا الجزاء هو الفوز الذي لا يعدله فوز، إنه الفوز العظيم؛ لأنكم آثرتم الجهاد ومفارقة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٥٩.

مساكنكم في الدنيا فنلتم مساكن أبدية، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[التوبة: ٢٤].

* وإنَّ لكم جزاءاً في الدنيا إضافة إلى جزاء الآخرة؛ وهو النصر على الأعداء، وفتحكم البلاد، وتمكينكم منها، فتدين لكم مشارق الأرض ومغاربها.

* فهو تعالى لما وعدهم الجنة على طاعته وطاعة رسوله والجهاد في سبيله علم أن منهم مَن تتوق نفسه إلى عاجل النصر لقاء رغبة في الدنيا فوعدهم بما تقوى به الرغبة فقال عز وجل:﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الصف: ١٣]. أي وأزيدكم زيادة أخرى تحبونها وهي النصر والفتح القريب.

* وبشِّر ـ يا محمد ـ المؤمنين بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال عزَّ وجل:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠]، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[محمد: ٧].

* يا من آمنتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً: كونوا أنصار دين الله، واستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون من أصفياء عيسى عليه السلام وخلصائه، حين قال لهم: من ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله، أو من يتولى نصرتي فيما يقرب إليه ؟.

* فأجابوه قائلين: نحن أنصار الله وأنصار دينه، فثبتوا معه ولم تزعزعهم الفتن، ولم يوهن عزمهم التعذيب، وتفرقوا في البلاد دعاة إلى الله.

فكونوا مثلهم – يا أهل الإيمان – مناصرين لله؛ فإن أرفع مقامات العبد حين يكون داعياً إلى الله ونصيراً لدينه.

* فاهتدت طائفة من بني إسرائيل، وآمنت بعيسى عليه السلام على حقيقته أنه عبد الله ورسوله،

وضلت طائفة أخرى؛ إما جحودا لنبوته، وإما مغالاة برفعه فوق ما أعطاه الله من النبوة.

* فأمد الله المؤمنين بنصر من عنده على من عاداهم، وقوى المحقين بالحجة والبرهان على المبطلين فأصبحوا عالين غالبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١].

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أعظم تجارة.
* الجهاد أنواع: جهاد بالمال وجهاد بالنفس، وقد يقدم أحدهما على الآخر بحسب الظروف والأحوال.
* من ثمرات الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله في الآخرة مغفرة الذنوب ودخول الجنات.
* للإيمان والجهاد ثمرة دنيوية هي النصر على الأعداء، وتمكين المؤمنين في الأرض وفتح البلدان أمامهم.
* تحقق بشرى المؤمنين التي أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يبشرهم بها دليل على صحة الإسلام وسلامة دعوته.
* نصرة المؤمنين لدين الله وللرسول هي نصرة لله، وعاقبتها الظهور على الأعداء.

سورة الجُمُعَة

أحكام صلاة الجُمُعة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

لم يعرف لهذه السورة اسم سوى «الجُمُعَة»[1]، وسميت بذلك لاشتمالها على الأمر بإجابة النداء لصلاة الجمعة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: ٩].

«ويحتمل أن يكون لفظ الجمعة الذي في اسم هذه السورة معنيا به صلاة الجمعة؛ لأن في هذه السورة أحكاما لصلاة الجمعة، ويحتمل أن يراد به يوم الجمعة لوقوع لفظ يوم الجمعة في السورة، في آية صلاة الجمعة»[2].

ب. فضائل سورة الجمعة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[3].

وروى الإمام مسلم أن الضحاك بن قيس كتب إلى النعمان بن بشير ﷺ يسأله: أي شيء

---

(١) وفيها لغة أخرى «الجُمْعة» بالتخفيف، وسميت بذلك لاجتماع المسلمين فيها للصلاة، وقد كان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية يوم العروبة، ومعناه الرحمة، وأول من سماه «جمعة» كعب بن لؤي، وأول من صلى بالمسلمين الجمعة أسعد بن زرارة، صلى بهم ركعتين وذكرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٩٧، ٩٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٣.

(٣) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٧٩).

قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة سوى سورة الجمعة ؟. فقال: كان ﷺ يقرأ: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾ [الإنسان :١][١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[٢].

ج. مكان نزول السورة:

سورة الجمعة مدنية في قول ابن عباس وابن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، وهو قول الجمهور، وقال ابن يسار: هي مكية، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد أيضاً[٣] والقول الأول هو الصحيح لما يلي:

أولا: عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة[٤] وإسلام أبي هريرة ﷺ كان بعد الهجرة بمدة بالاتفاق.

ثانيا: ولأن أمر انفضاض الناس عن الخطبة والنبي ﷺ يخطب لم يكن إلا في المدينة بدليل سبب نزول الآية الأخيرة من سورة الجمعة[٥].

وفرض صلاة الجمعة كان متقدما على وقت نزول هذه السورة؛ فإن النبي ﷺ فرضها في خطبة خطب بها الناس، وصلاها في أول يوم جمعة بعد الهجرة في دار لبني سالم بن عوف، وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة[٦].

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٧٨).
(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٥٤)، جامع الترمذي ٢/ ٣٥٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠٦، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٦٣.
(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٧).
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠٦.
(٦) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٤٩٤.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الجمعة إحدى عشرة آية، ليس فيها اختلاف[1].

هـ. محور السورة:

سورة الجمعة هي إحدى السور المدنية التي تعنى ببيان الأحكام التشريعية، وقد تناولت السورة عدداً من المواضيع وأهمها:

أولاً: الافتتاح بتنزيه الله تعالى.

ثانياً: بيان مقاصد البعثة النبوية.

ثالثاً: ذكر حال اليهود مع التوراة.

رابعاً: الرد على دعوى اليهود إنهم أولياء الله وأحباؤه.

خامساً: بيان **أحكام صلاة الجمعة**، تلك الشعيرة الإسلامية التي فرضها الله على عباده في يوم الجمعة، ودعاهم إلى الاستعداد لها بالاغتسال لها، والخروج إليها، والمداومة على حضورها، والتخلي عن الأشغال التي تصد عنها.

وهذا الموضوع الأخير هو محور السورة الذي تدور مجمل أحداث السورة حوله، وهو أهم أغراضها، وتدل عليه عدد من الشواهد منها:

١ - اسم السورة: وهو يدل دلالة واضحة على محورها، وسيأتي الحديث عن ذلك عند ذكر مناسبة اسم السورة لمحورها.

٢ - سبب نزول السورة: وهو يلقي أضواء كاشفة عن غاياتها، وما أنزلت لأجله، وقد مرَّ معنا عند ذكر مكان نزول السورة.

٣ - افتتاحية السورة بالإخبار عن تسبيح الله من أهل السماوات والأرض: وهو براعة

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٦.

استهلال؛ لأن الغرض الأول من السورة هو التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الانشغال عن شهودها، وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على الابتياع من عير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة.

٤ - ما أشار إليه كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين من أن غرضها الأول هو بيان أحكام صلاة الجمعة[١].

٥ - المواضيع التي تحدثت عنها السورة تتسلسل أفكارها جميعا متناسبة مع الغرض الذي سيقت له السورة وتسعى لإبرازه. وسنذكر صلتها بمحور السورة عند التفسير الإجمالي للمقاطع. إن شاء الله تعالى.

ومن خلال ما تقدم رأينا أن يوسم محور هذه السورة بـ «**أحكام صلاة الجمعة**».

و. المناسبات في سورة الجمعة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

اسم هذه السورة يتناسب تناسبا بديعا مع المحور الذي تدور عليه أفكارها: «**أحكام صلاة الجمعة**»، وهو مبين للمراد منه؛ من فرضية الاجتماع فيها، وإيجاب الإقبال عليها والتجرد عن غيرها، والانقطاع لها لِمَا وقع من التفرق حال خطبة الجمعة.

فتسميتها «الجمعة» أنسب شيء فيها لمقصدها؛ لحضه على تدبر آيات الله الحاثة على قوة التواصل والاجتماع، والحاملة على دوام الإقبال على المزكي عز وجل وشكره وتعظيمه والاتباع لمنهجه.

---

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٤، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٧٧، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ١٨٠.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تظهر المناسبة بين افتتاحية سورة الجمعة وخاتمتها من وجهين:

الأول: افتتحت السورة بتنزيه الله عز وجل من كل ما في الوجود ووصفته بصفات الكمال وختمت كذلك بذكر صفاته من كونه خير الرازقين.

الثاني: افتتحت السورة بذكر مِنَّة الله تعالى على أمة محمد ﷺ وأنه بُعِث ﷺ إليها، وتشريفها بحمل أمانة رسالة الإسلام.

وختمت السورة بدرس تربوي لأمته ﷺ هو الدعوة لحضور صلاة الجمعة، لتتخلص الأمة من الجواذب المعوقة عن أداء تلك الأمانة، والتي منها الحرص على الرغبة العاجلة في الربح والانصراف إلى اللهو.

٣. المناسبة بين فاتحة سورة الجمعة وخاتمة سورة الصف:

تتناسب فاتحة سورة «الجمعة» وخاتمة سورة «الصف» من ثلاثة وجوه:

الأول: لما ختمت سورة الصف بذكر حال طائفتين من بني إسرائيل؛ الأولى أقبلت على نصرة الله تعالى، والثانية كفرت وغالت في النبوة، افتتحت سورة الجمعة بتنزيه لله سبحانه وتعالى؛ لأن من تمام النصرة لله ولدينه البعد عن حال الكافرين، والإقبال على تنزيهه عز وجل والمداومة على ذلك.

والثاني: لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وبأمر المؤمنين بالاقتداء بهم، ولما كان ذلك ربما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد ﷺ، أتبع في سورة الجمعة بذكر هذه الأمة والثناء عليها.

والثالث: لما ذكر الله تأييد من آمن به على عدوهم أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه، وذكر ما أنعم به على أمة محمد ﷺ من بعثته ﷺ إليهم، وتلاوته عليهم كتابه فصارت أمته غالبة على سائر الأمم، وقاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في

زمانهم[1].

٤. المناسبة بين مضموني سورتي الجمعة والصف:

بين مضموني سورتي الصف والجمعة صلة وثيقة، ويمكن عرض جوانب تلك الصلة فيما يلي:

أولا: اشتراكهما في الاستهلال بالتسبيح.

ثانيا: ذكر الله تعالى في سورة الصف حال موسى عليه السلام مع قومه، وإيذاءهم له، مؤنبا لهم، وذكر في سورة الجمعة حال الرسول ﷺ وفضل أمته، تشريفا لهم ليظهر الفرق بين الأمتين.

ثالثا: بشَّر نبي الله عيسى عليه السلام في سورة الصف برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، وذكر في سورة الجمعة بعثة هذا الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام.

رابعا: ختمت سورة الصف بالأمر بالجهاد وسماه الله تجارة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ ﴾ [الصف: ١٠].

واختتمت سورة الجمعة بالأمر بصلاة الجمعة، وأخبرت أن ما عند الله خير من التجارة الدنيوية، قال الله سبحانه وتعالى:﴿ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

خامسا: في سورة الصف أمر الله المؤمنين بأن يكونوا صفا عند القتال فناسب تعقيب سورة القتال بسورة صلاة الجمعة التي تستلزم الصف؛ لأن الجماعة شرط فيها دون سائر الصلوات.

سادسا: تحدثت سورة الصف عن موقف بني إسرائيل من رسالات الأنبياء، وانحرافهم عن طريق الهدى، ووصفتهم بالفاسقين، وذكرت سورة الجمعة موقف هؤلاء من الكتب السماوية وعدم انتفاعهم بما كلفوا حمله، ووصفتهم بالظالمين.

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٦٣.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع هذه السورة:

المقطع الأول

مقاصد البعثة النبوية

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ١- ٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تلحظ المناسبة بين هذا المقطع من السورة وبين محورها من ثلاثة وجوه:

الأول: مجيء فعل التسبيح مضارعا ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ في افتتاحية السورة لمناسبةٍ في هذه السورة هي أن الغرض التنويه بصلاة الجمعة والتنديد بمن قطعوا صلاتهم وخرجوا التماسا للتجارة واللهو، فناسب أن يحكي الله تسبيح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضا بالذين لم يتموا صلاة الجمعة.

ثانياً: للصفات التي جاءت في مطلع السورة مناسبة مع محورها من حيث الجمع بينهن في هذا الموطن، ومن حيث إن كل صفة من تلك الصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة التي اسمها الجمعة:

فـ«الملك» هو الذي يملك كل شيء وقد ذُكر بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب.

و«القدوس» هو الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السماوات

والأرض وذكر بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره[١].

و«العزيز» الذي يعتز الملتفون حوله فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة.

و«الحكيم» هو الذي إذا فارقه أحد فاته شيء من الحكمة، كما فات من فارق الخطبة كثير من العلم والثواب[٢].

ثالثاً: وما نوهت به السورة - من الامتنان على العرب الأميين ببعْث الرسول الخاتم محمد ﷺ إليهم، ليقرأ عليهم القرآن، ويجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، ويعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - يوحي بأنهم الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام، فلابد من الإعداد النفسي والتربوي للجماعة كي تنهض بذلك، فشرعت صلاة الجمعة، وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية فهي لا تؤدى إلا جماعة، وفيها دروس تربوية جمة.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع فقرتين:

الأولى: تتحدث عن تنزيه الله مِن كل ما في الكون.

والثانية: فيها الامتنان على العرب الأميين بإرسال محمد ﷺ إليهم.

* كل ما في الوجود ينزه الله سبحانه، ويقر بوجوده وقدرته ووحدانيته، فهو المتصرف في السماوات والأرض بأمره وحكمته، وهو المنزه عن النقائص، وهو القوي الغالب الذي لا يقهر ولا يغلبه غالب، وهو المدبر لشئون خلقه الحكيم في كل شيء.

* والله عز وجل هو الذي أرسل محمدا ﷺ في العرب الذين كان أغلبهم أمياً لا يحسن القراءة والكتابة، وهو أمي مثلهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٥.

بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال ﷺ: «إنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[1].

وكونه ﷺ أميا مثلهم فيه امتنان عليهم ليفهموا ما أرسل به ويعرفوا أخلاقه وصفاته ويقتنعوا بدعوته، وهذا مصداق دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولقد كانت بعثته ﷺ عامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما كانت بعثته ﷺ على حين فترة من الرسل، وقد مقت الله أهل الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب ممن تمسك بما بعث الله به عليه السلام، وكان العرب قديما متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فاستبدلوا به شركا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فاشتدت الحاجة إلى رسول ينقذ العالم بشرع كامل شامل، فبعث الله محمداً ﷺ:

* ليتلو على أتباعه آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين.
* وليطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية، فيخبتوا إلى الله في أعمالهم وأقوالهم.
* وليعلمهم كتاب الله وشرائعه وأحكامه، فيعبدونه عن علم، ويقبلون على طاعته باطمئنان.
* وليخرج العرب الأميين من ضلال الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الشك إلى اليقين، كما وصف ذلك جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليرد المهاجرين إليه من الصحابة إليها، قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: «أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف..

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (١٩١٣).

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان؛ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»(١).

* والتقدير الإلهي المحكم اقتضى أن تكون بعثة هذا الرسول شاملة العالم أجمع فكان هو المبعوث للعرب ولأجيال آخرين سواء من العرب أو من غيرهم كالفرس والروم، فقال الله تعالى:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾، والآخرون: هم من جاء بعد الصحابة من المسلمين إلى يوم القيامة، فلم يلحقوا بهم في ذلك الوقت، وإنما سيلحقون بهم من بعد، عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، فتلاها فلما بلغ:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قالوا: مَن هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي، ثم قال ﷺ: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»(٢).

قال ابن كثير: «ففي الحديث دلالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به»(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾»(٤).

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٣٦.
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث (٤٨٩٦)، جامع الترمذي، الترمذي ٥/ ٤١٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٤) المعجم الكبير، الطبراني ٦/ ٢٠١، مجمع الزوائد، الهيثمي ٢/ ١٨٤، قال: وإسناده جيد.

* وهذا الشرف الذي امتاز به سيد البشر من كونه معلما ومزكيا ومنقذا ومبعوثا للناس كافة، وما شرف الله به أمته المستضعفة وأفاضه عليها من الخيرات التي لم تكن لها سابقة بها ومن لحاق أمم أخرى بها في هذا الخير هو فضل الله يعطيه من يشاء من خلقه فهو صاحب الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

١ - كل ما في الكون ينزه الله ويقر بوجوده ويوحده.

٢ - تقرير نبوة محمد ﷺ، وجعل مقاصد بعثته في ثلاثة أمور:

الأول: تلاوة آيات القرآن على المرسل إليهم.

والثاني: تطهيرهم من دنس الكفر ومفاسد الجاهلية.

والثالث: تعليم القرآن والسنة وما فيهما من شرائع وأحكام وحكم وأسرار.

٣ - وجه الامتنان بجعل النبي المبعوث أمياً يتضمن ثلاثة مقاصد:

أولا: موافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به.

ثانيا: مشاكلة حاله لأحوال أمته، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

ثالثا: لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها[١].

٤ - عموم رسالة محمد ﷺ في زمنه وفي الأزمان اللاحقة إلى يوم القيامة.

٥ - بيان فضل الصحابة، وشرف الإيمان والمتابعة للرسول ﷺ، وصحابته رضي الله عنهم.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥.

المقطع الثاني

حال اليهود مع التوراة والرد على مزاعمهم

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٥ - ٨].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لهذا المقطع علاقة لطيفة بمحور السورة - **أحكام صلاة الجمعة** - تظهر عند إمعان النظر فيما تطرقت إليه الآيات من بيان حال اليهود مع التوراة، ودعوتهم إلى المباهلة حين زعموا أنهم أولياء الله وأحباؤه، وكان من ضمن ما كانوا يزعمون لأنفسهم من فضيلة، ويفتخرون به على الأميين دعواهم أن الله جعل لهم السبت أفضل أيام الأسبوع، وأنه ليس للأميين مثله فلما جعل الله الجمعة للمؤمنين اغتاظ اليهود، فكشفت هذه الآيات عن فساد مزاعمهم وتهاوي دعاواهم وزوال أفضليتهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له - قال: يوم الجمعة - فاليوم لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى»[1].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

يظهر تناسب هذا المقطع مع المقطع السابق من وجهين:

الأول: لما أثبت الله سبحانه وتعالى التوحيد والنبوة في الآيات السابقة، وأخبر أنه بعث

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٨٧٦).

الرسول العربي الأمي إلى الأميين العرب، قال اليهود: إنَّه ﷺ بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث لنا رد الله عليهم بأنهم لم يعملوا بالتوراة، وأنهم لو عملوا بمقتضاها، وما تضمنته من البشارة بهذا الرسول لانتفعوا بها وآمنوا[1].

وورد عليهم قولا آخر حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، بأن قولهم لو كان حقا لتمنوا الموت لينقلهم مولاهم إلى دار كرامته ومستقر رحمته، فلما لم يتمنوه عُلم أن ادعاءهم باطل.

والثاني: ذكره الألوسي قائلا: «ووجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله بما نعته في التوراة وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل، كأنه قيل: هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الأمي المبعوث إلى أمة أميين، مَثَلُ من جاءه نعته فيها وعَلِمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار»[2].

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاثة أمور:

الأول: يكشف عن موقف اليهود من التوراة.

والثاني: فيه رد على دعوى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه.

والثالث: يكشف عن حقيقة الموت الثابتة.

* كما تفضل الله سبحانه وتعالى على العرب الأميين فبعث إليهم النبي الأمي محمدا ﷺ فقرأ عليهم القرآن، وعلمهم الكتاب والحكمة كان سبحانه قد آتى فضله أهل الكتاب من اليهود فأعطاهم التوراة فيها هدى ونور فلم ينتفعوا بهدايتها، ولم يعملوا بها، وهجروها وأولوها وحرفوها، واقتنعوا من العلم بحملها فقط، فأضحوا كحال الحمار الذي يحمل

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٣٩ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٤٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٩١.

على ظهره الكتب والأسفار الكبيرة، وهو لا يدري ما فيها ولا يقدر قيمتها، لأنه لا فهم له، فانطبق عليهم قول الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم		بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا		بأوساقه أو راح ما في الغرائر[1]

* بل إن هؤلاء أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم ولم يستعملوها كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وتلك الصورة التي يبدونها عليها: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ صورة بائسة ذليلة حقيرة، تعبر عن حقيقة جهلهم وبلادتهم.

وما أقبح ما يمثل الله به للمكذبين بآياته ورسله؛ فمن كان حاله كهؤلاء فليحذر العقوبة؛ لأن الله لن يوفقه للحق، ولن يجعله أهلا لهدايته، لتوغله في الظلم والكفر والشر والفساد.

وشبيه بحال هؤلاء كل من أعرض عن الخطبة وهو يسمعها، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»[2].

ولما انتهت الآية من ذم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة بتمثيل حالهم بحال الحمار ذكرت هذه الآية زعما آخر، وذمتهم ودعتهم إلى المباهلة، فتناسب مع ما تقدم من ذكر حالهم؛ لأن من شأن من لم يعمل بالكتاب أن يحب الحياة[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٩٥.

(٢) المسند، أحمد بن حنبل ١/ ٢٣٠، مجمع الزوائد، الهيثمي ٢/ ١٨٤، وقال: فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس، ووثقه النسائي في رواية.

(٣) سميت المباهلة تمنيا لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له =

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب الذين تهودوا:

* أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس، وأنكم على هدى من ربكم وأن محمدا ﷺ وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين، إن كنتم صادقين فيما تزعمون، فإن من علم أنه من أصحاب الجنة أحب الخلوص من هذه الدار التي هي دار الأكدار، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]. وقال تعالى عن مباهلة النصارى:﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[آل عمران:٦١]، وقال عن مباهلة المشركين:﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾[مريم: ٧٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة، لأطأن عنقه، قال: فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعله لأخذته الملائكة، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا(١).

* إن زعم هؤلاء حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ [المائدة: ١٨] باطل إذ لو كانوا على حق لتمنوا الموت فلما لم يتمنوه - على الإطلاق بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد ﷺ - عُلم كذبهم، والله بالغ العلم، مطلع على أحوال الكافرين، فسيجازيهم بما عملوا.

= في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٣.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (٤٩٥٦).

ثم خاطب الله نبيه ﷺ ليبين لهم حقيقة الموت الثابتة، ويكشف لهم عن عدم جدوى الفرار منه، لأنه حتم لا مهرب منه.

* قل لهم يا محمد: إن الموت الذي تهربون منه وتأبون المباهلة فيه حبا في الحياة هو آتيكم لا محالة، ولن ينفعكم الفرار منه قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

* وبعد مماتكم ترجعون إلى الله الذي يعلم ما غاب في السماوات والأرض وما حضر، ويعلم ما يسر عباده وما يعلنون، فيخبركم بما عملتم في حياتكم الدنيا ويجازيكم على كل بما تستحقون.

هذه الحياة مآلها إلى زوال وكل نفس فيها ذائقة الموت، وكم ينساه الناس وهو يلاحقهم فكيف يبتعدون عن ربهم وهم عائدون إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه ؟.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* بيان أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإياس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها.

* التنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه ويعمل به، لئلا يلحقه من الذم ما لحق اليهود.

* سوء حال العالم الذي لم يعمل بعلمه.

* بيان كذب اليهود وفساد زعمهم في أنهم أولياء الله.

* الإيمان والتقوى هما الطريق إلى ولاية الله.

* شأن المؤمنين أن يكونوا بين الخوف والرجاء، ولا يتوهمون أن الفوز مضمون لهم كما توهم اليهود.

المقطع الثالث

حضور صلاة الجمعة وابتغاء الرزق بعدها

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١ ﴾[الجمعة/ ٩ -١١].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع من السورة يمثل محورها وما قبله من الآيات توطئة له، فقد جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع؛ وشرع لهم الاجتماع في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم، ولكل أهل ملة يوم من الأسبوع معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة آخر أيام الأسبوع.

ولما جُعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته فجمعت الجماعات له، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع، ولم تجز هذه الصلاة إلا في المسجد ليكون أدعى إلى الاجتماع(١).

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

لهذا المقطع علاقة لطيفة بالمقطع السابق، تتجلى في صورتين:

الأولى: تحدثت الآيات السابقة عن فرار اليهود من الموت حبا في الدنيا وطيباتها، وخوفا مما قدمته أيديهم، وفي هذه الآيات بيان لما يجلب للمؤمنين سعادة الدنيا، وما يكون لهم ذخراً في

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٤٣.

الآخرة، فدعتهم إلى حضور صلاة الجمعة، لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

والثانية: أشار إليها الزمخشري بقوله: «قال بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث، افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنهم أهل كتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارا، وبالسبت، وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة»[١].

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[٢].

وقال المفسرون: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام، وضرب لها الطبل يؤذن الناس بقدومه، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلا منهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادي نارا»[٣].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: فيها إيجاب صلاة الجمعة.

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٢٤٨.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٩٣٦)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٦٣).

(٣) أسباب النزول، الواحدي ٣٣٧.

والثانية: فيها إباحة العمل بعد انقضاء الصلاة.

والثالثة: فيها النهي عن الانصراف عن الخطبة والإمام يخطب.

* يا من صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً: إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة بين يدي الإمام وهو على المنبر فأجيبوا داعي الله.

* واتركوا البيع وسائر أعمالكم وامضوا إلى طاعة ربكم وذكره وعبادته لتصلُّوا مع إخوانكم المسلمين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون - تسرعون- وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[1].

* إنَّ سعيكم للصلاة عند سماع النداء، وترك البيع خير لكم وأرجى عند ربكم؛ لما في امتثال أمره من الأجر والجزاء، إن كنتم من أهل الدراية والعلم بما ينفع.

* فإذا أتممتم صلاتكم وفرغتم من أدائها فانبثوا في مناكب الأرض لقضاء مصالحكم والسعي لتحصيل الرزق، واطلبوا الله من فضله، فإن الرزق بيده، فهو لا يخيب أمل سائل ولا يضيع عمل عامل، ولا يمنع أحداً من فضله وإحسانه.

* وراقبوا الله وظلوا على اتصال دائم به في صلاتكم وفي شغلكم لتفوزوا بالفلاح في دنياكم وأخراكم.

* إنَّ فريقا من الناس يؤثرون المتاع الدنيوي الفاني على أجر الآخرة الباقي، فحين سمعوا بعير تجارية قدمت إلى المدينة أو بشيء من لهو الدنيا وزينتها أسرعوا إلى ذلك، وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر يخطب.

* فهذا لا ينبغي أن يكون فلو عقل هؤلاء لعلموا أن خيراً كثيراً قد فاتهم، وعلماً غزيراً قد

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٩٠٨)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٦٠٢).

أضاعوه حين تركوك قائما تخطب وانفضوا إلى التجارة واللهو.

* إنَّ ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذة اللهو، فهو سبحانه خير من رزق وأعطى، وهو الذي يقدر الأقوات، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء.

* لا ينبغي أن يهمل الإنسان عبادته من أجل متاع زائل فإن ما هو له سيأتيه، ولن يفيده الإسراع في طلبه، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٦- ٩٧].

خامساً: الهدايات المستنبطة من الآيات:

* فضيلة يوم الجمعة على سائر الأيام.
* الجمعة فريضة على كل مسلم مكلف بالشروط المعروفة.
* وجوب السعي لمن سمع النداء للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة.
* حرمة البيع والشراء وسائر ما يشغل عن الصلاة من شركة وإجارة وزواج ونحوها عند النداء لصلاة الجمعة.
* السعي إلى ذكر الله وترك الأعمال من أجله والمداومة عليه خير للمؤمنين وأنفع من كل المنافع الدنيوية.
* جواز الانشغال بالتجارة وأمور المعاش قبل الصلاة وبعدها.
* مشروعية القيام لخطبة الجمعة.
* الرزق بيد الله، وعلى الإنسان أن يأخذ بأسباب الكسب.
* لا ينبغي للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة.

سورة المنافقون

بين يدي السورة

تكشفُ لنا هذه السورةُ الكريمةُ عن عدوٍّ ماكرٍ، يتخللُ الصفَّ المسلمَ متظاهراً بالإسلام وقد أضمرَ الكفرَ بين جوانِحِهِ، وتغلغلَ الحقدُ في أحشائِهِ، لكن الجُبنَ يحولُ بينه وبين إفشائه ويدفعه إلى الخداع والتدليس، ويبرِّرُ له التمويه والتلبيس، كيدًا لدين الحقِّ، وخداعاً لأهله الأصفياءِ الأنقياءِ.

إن المنافقين في أيِّ مجتمع كالسرطان، يسري في الجسد، ينفثون سُمَّهم الزُّعاف في زمن المحن والبلاء، ويكشِّرون عن أنيابهم أوقاتَ الكرب والضيق، فهم في السراء عالةٌ، وفي الضراء سوسٌ ينخر في العظام، يدَّعون الإيمان، ويحسِّنون الأقوال، وربما ساعدهم في ذلك ذَلاقَةُ ألسنتهم، وحُسنُ هيئتهم، وبراعةُ تصنُّعِهِمْ.

يبررون الضعف، ويخرجون من كل موقف بعذرٍ، ولهم بين المؤمنين سماعون لهم، قد انخدعوا ببريق أقوالهم، ووَثِقُوا بغليظِ أَيمانهم، ولكم صوَّبوا من سهامٍ مسمومةٍ، ولكم وجَّهوا من ضرَبَاتٍ داميةٍ، وطَعَنَاتٍ غائرةٍ في ظَهْرِ الأمةِ ! ولكن:

قد يحصدُ الطغيانُ بعضَ ثِمارِهِ لكنَّ عُقبَى الظالمين دَمَارُ

ففي يوم بدر: غمزوا المؤمنين بقولهم: " غرَّ هؤلاء دينُهم "، فخيَّب النصرُ المبينُ آمالَهم وكذَّب ظنونهم وبدَّد أحلامهم.

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وفي غزوة أحد: رجع كبيرُهم عبدُ الله بنُ أبيّ بن سلولٍ بثُلُثِ الجيش مُغْضَبًا؛ بحجةِ أن النبيَّ ﷺ لم يرجع إلى قوله، وأثار الفتنة، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم

ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم !﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

ولما احتَشَدَ الأحزابُ حولَ المدينةِ واشتدَّ الخطبُ على المسلمين: مارسَ المنافقون دورَهم في تخذيلِ المؤمنين، واستغلوا الموقفَ في التشكيك وبلبلة الصفوف، وقال بعضهم: يعدُنا محمدٌ فتح فارسَ والروم، وأحدُنا لا يقدرُ أن يتبَرَّز؛ فَرَقًا ! أي لا يجرؤ على الخروج إلى الخلاء لقضاء الحاجة من شدة الخوف.

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٥].

ولما عاد النبيُّ ﷺ بالفتح المبين (صلح الحديبية) الذي كان فاتحةَ خيرٍ للدعوة الإسلامية قال زعيمُ النفاق عبد اللـه بن أبي بن سلول: " أيظنُّ محمدٌ أنه إذا صالح أهلَ مكة أو فتَحَهَا لا يبقَى له عدوٌّ؟ فأين فارسُ والرومُ ! "، وكانوا قد أشاعوا حين خروج النبي ﷺ بأصحابه قاصداً البيت الحرام: أن محمداً خَرَجَ ولن يعودَ !

﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح: ١٢].

وعندما عاد جيش المسلمين من غزوة بني المصطلق أشاعوا الفتنة بين الصفوف، وأوقعوا بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وبين الحضر والبدو كما هو حالهم في كلِّ زمانٍ،

كما أذاعوا حديث الإفك الذي اختلقوه في المدينة؛ فاتهموا الصدِّيقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله عائشة رضي الله عنها، وأنزل الله براءتها آياتٍ تتلى في سورة النور.

إنهم لا يضمرون للمؤمنين إلا الشر، ولا يريدون بهم سوى الهزيمة، ولا يتمنَّون للدعوة غلبةً ولا ظهورا، فكان لابدَّ من كشفِ هذه النفوسِ وعرضِها عاريةً على المؤمنين؛ حتى لا يُخْدَعَ بهم مؤمنٌ، ففي كلِّ مرة وعند كلِّ واقعةٍ يلاحقهم القرآن الكريم ويقرعهم بالتوبيخ والزجر، فمنهم من تاب وأصلح ومنهم من هلك على نفاقه..

جاءت سورة المنافقين لتفصِحَ لنا عن خبايا المنافقين، وتنشر صفحةً أخرى من تاريخهم الذي يفضح ما انطوت عليه نفوسُهُم الخبيثةُ ومعادنُهُم الخسيسةُ، إلى أن تختمَ السورةُ الكريمةُ بتحذير المؤمنين من الاغترار بزينة الدنيا ومتاعها والتعلق بحطامها والانشغال بها عن طاعة الله وعبادته؛ شأن المنافقين الغارقين في خضم الأوهام.

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة المنافقين، لحديثها عن النفاق والمنافقين، وكشفِها عن مستورِهم، وفضحِها لمؤامراتِهم، وتحصينِ المجتمعِ المسلمِ من شرورهم ومكائدهم.

ب. فضائل السورة.

ومما ورد في فضل هذه السورة الكريمة من سور المفصل، وقد ورد في فضائل هذا القسم وسائر أقسام سور القرآن: عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[1].

* وعَنْ ابْنِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: " اسْتَخْلَفَ مَرْوَانُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ فَصَلَّى لَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ الْجُمُعَةَ فَقَرَأَ بَعْدَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ ﴿**إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ**﴾ قَالَ فَأَدْرَكْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ حِينَ انْصَرَفَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَرَأْتَ بِسُورَتَيْنِ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَقْرَأُ

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في التفسير الموضوعي لسورة الأنعام.

بِهِمَا بِالْكُوفَةِ ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهِمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ "[1].

* وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن الحكم الكندي عن أناس من أهل المدينة أرى فيهم أبا جعفر قال:" كان ﷺ يَقْرَأُ في الْجُمُعَةِ بسورة الْجُمُعَةِ والمنافقونَ، فأما سورةُ الْجُمُعَةِ: فيبشِّرُ بها المؤمنينَ ويحرِّضُهُمْ، وأما سورةُ المنافقينَ: فيُؤيِّسُ بها المنافقينَ ويوبِّخُهُم بها [2].

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنيةٌ نزلت بالمدينة، قال القرطبي: «سورة المنافقون مدنية في قول الجميع».[3]

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها إحدى عشرة آية (١١) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها. [4].

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو ذمُّ النفاق والمنافقين، وكشف مؤامراتهم وفضح دسائسهم، وتحذير المؤمنين من خصالهم الذميمة.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبةٌ ظاهرةٌ حيث تدورُ السورةُ كما هو واضحٌ من عنوانِها: حول ذمِّ المنافقينَ والتحذيرِ منهم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة. باب ما يقرأ في صلاة الجمع حديث ٦١ - (٨٧٧)، ورواه أبو داود في السنن باب تفريع أبواب الجمعة. باب ما يقرأ به في الجمعة. الحديث رقم: ١١٢٤.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ١٤٢، والحديث رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٠.

(٤) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عدِّ آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨١.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خصال المنافقين، وفي ختامها تحصينٌ للمؤمنين من دواعي النفاق ودوافِعِهِ، ومنها الاغترارُ بالدُّنيا وزخارفِها الباطلة، والغفلةُ عن ذكر الله وتسويفُ التوبةِ، والتواني عن عمل الخير.

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلةُ بين سورة المنافقين، وسورة الجمعة: صلةٌ واضحةٌ جليَّةٌ، ولعلَّ من الدلائل على ذلك قراءة النبي ﷺ بهما يوم الجمعة، يقرأ في الركعة الأولى بسورة الجمعة، وفي الثانية بسورة المنافقون، مما يدلُّ على ما بينهما من تلازم وترابط سوف يتضحُ لنا فيما يلي:

* بينت سورة الجمعة أن الموتَ حقيقةٌ لا شكَّ فيها وقدرٌ لا مفرَّ منه قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨] وفي الآيةِ الكريمةِ تحدٍّ لليهود الذين يدَّعون أنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه وأصفياؤه، واختبارٌ عمليٌّ لهم: أن يتمنَّوا لقاءه كما يتمنى المحبُّ لقاء الحبيب، إن كانوا صادقين في دعواهم محبة الله لهم وزعمهم أنهم أولياؤه من دون الناس، فليقدموا برهاناً عملياً على تلك المحبة المزعومة! ونظيرُ هذا قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

وفي سورة المنافقون: تذكيرٌ بالموت، وتنبيهٌ إلى ضرورةِ الاستعدادِ له، والمبادرة إلى العمل الصالح قبل انطواء الصفحات وانقضاء الآجال،﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ

أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠ – ١١].

ففي ذكره ما يرقّقُ القلوبَ القاسية ويرطِّبها، ويكبحُ النفوسَ الجامحةَ ويهذِّبُها.

* في سورة الجمعة حديث عن اليهود وهم أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، ثم جاءت سورة المنافقين لتكشف عن عدوٍّ أشدَّ خطراً من اليهود، فضلا عما بين العدوَّين: اليهود والمنافقين على مرِّ العصور من تحالفاتٍ، وما تمكن اليهود في عصرنا هذا إلا بتآمر المنافقين، وكم تسربلَ يهودٌ بثياب النفاق فأضمروا الكفر وتظاهروا بالإسلام كيدا وتآمرا، وحسبُنا الله ونعم الوكيل !

* كما تكشف لنا السورتان عن كذب اليهود والمنافقين في مزاعمهم، فاليهود زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس، والمنافقون ادعوا الإيمان فجاءت سورةُ الجُمُعَةِ مفنِّدَةً لمزاعمِ اليهودِ وتلتها سورةُ المنافقون تفنِّدُ أكاذيب المنافقين وتفضَحُ أراجيفَهم.

* حديث سورة الجمعة عن صلاة الجمعة، ودعوة سورة المنافقون إلى ذكر الله والإنفاق في سبيله، وبين الصلاة والذكر والإنفاق تلازمٌ واضحٌ وترابطٌ وثيق.

قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ٩ – ١٠].

وقال تعالى في سورة المنافقون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ٩ – ١٠].

* قال تعالى في سورة الجمعة﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ

﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١].

وقال تعالى في سورة المنافقون ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون: ٧].

* وبين الآيتين مناسبةٌ لطيفةٌ: فكم يحرصُ أعداءُ الإسلامِ على صرفِ جماهيرِ المسلمينَ عن دعوة الحقِّ وشغلهم عن ذكر الله وعن الصلاة إما بالصفقات والتسوّقِ والأرباح، وإما بالملاهي والألعاب، حتى كثُر في زماننا فنونُ الترويح ووسائل اللهو التي تصبُّ غالباً في جيوب وأرصدة أعداء الدين من اليهود والمنافقين والنصارى الحاقدين.

* وتبرزُ الآياتُ الكريمةُ مدى حرص أهل النفاق على فضِّ أتباع النبي ﷺ وصرفهم عنه بالتضييق عليهم، كما يحدثُ في هذه الأيامِ من صرف الناس عن الدعاة وتجفيف منابع الخير وإغلاق معاهد العلم الشرعي في بلادٍ إسلاميةٍ كثيرةٍ؛ بزعم محاربة الإرهاب وتجفيف منابعه، وهي والله حربٌ معلنةٌ على هذا الدين، فكم أغلقوا من مؤسسات خيرية وتعليمية، وكم أوصدوا من مدارس ومعاهد قرآنيةٍ ؟ وقطعوا الدَّعم عنها بحجة مقاومة الإرهاب ! قاتلهم الله أنى يؤفكون.

* فلا ينشغلُ أحدٌ عن طاعة الله بحجةِ الانشغال بطلب الرزق، قال تعالى في سورة الجمعة ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١] ولا يخشَ على رزقه من مخلوق؛ فالرزق بيده تعالى وخزائنه تعالى ملأى لا يغيضها نفقة، قال تعالى في سورة المنافقون ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو ذمُّ النفاقِ والمنافقين، وتحذيرُ المجتمعِ المسلمِ منهم، ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلَّى في وجوهٍ عديدةٍ منها:

* حديث سورة الجمعة عن اليهود وحديث سورة المنافقون عن المنافقين، وقد سبق بيان ذلك.

ذكر الموت في السورتين: فالأولى تتحدى اليهود أن يتمنَّوه إن كانوا صادقين في دعواهم محبةَ الله لهم وزعمِهم أنهم أولياؤُه من دون الناس، والثانيةُ تذكِّر بالموت وتحثُّ على الاستعدادِ له والمبادرةِ إلى العملِ الصالحِ قبلَ انطواءِ الصفحاتِ وانقضاءِ الآجالِ.

قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠].

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول النفاق والمنافقين بدأت بمشهدِ مجيئِهم بالكذبِ والخداعِ متذرِّعين بالأيمانِ الكاذبةِ.

النفاق والمنافقون

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ١ – ٨]

سبب النزول:

أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَتَكَ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ [1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى، الحديث رقم: ٤٦١٧، ورواه مسلم في صحيحه أول كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، الحديث رقم: ٢٧٧٢.

ورواه الترمذي في السنن: ونصُّهُ عن زَيْد بْنُ أَرْقَم ﷺ قَالَ: " غَزَوْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنْ الْأَعْرَاب، فَكُنَّا نَبْتَدرُ الْمَاءَ وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَا إِلَيْه،... فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حجَارَةً وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْه حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، قَالَ فَأَتَى رَجُلٌ منْ الْأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَته لتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَتَهُ فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافقينَ فَأَخْبَرَهُ وَكَانَ منْ أَصْحَابِه فَغَضِبَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا منْ حَوْله، يَعْنِي الْأَعْرَابَ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ الله ﷺ عنْدَ الطَّعَامِ، فَقَالَ عَبْدُ الله إِذَا انْفَضُّوا منْ عنْد مُحَمَّد فَأْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابه لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ زَيْدٌ وَأَنَا رِدْفُ رَسُول الله ﷺ فَسَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْه رَسُولُ الله ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ قَالَ فَصَدَّقَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَكَذَّبَنِي، قَالَ فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ فَقَالَ مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَتَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلمُونَ ! قَالَ فَوَقَعَ عَلَيَّ منْ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَد، قَالَ فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُول الله ﷺ في سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي منْ الْهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ الله ﷺ فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ في وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: أَبْشِرْ، ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ "[1].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث زيد قَالَ: «وَدَعَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ...»[2].

---

(١) رواه الترمذي في السنن: أبواب تفسير القرآن، عن رسول الله ﷺ - سُورَةِ الْمُنَافِقِين. الحديث رقم: ٣٣٦٨ وقال: " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ".

(٢) ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٣٧٣ حديث ١٩٣٥٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

المناسبةُ بين المقدمة ومحور السورة

الصلة بينهما واضحةٌ جلية: حيث استهلت بمشهد أولئك المنافقين، وقد جاءوا بالكذب والخداع.

التفسير الإجمالي

يخبرُ المولى جل وعلا عن مجيء المنافقين بدعوى إيمانهم برسالته ﷺ، مظهرين ذلك مع ما انطوتْ عليه قلوبُهم من كفرٍ، لكنهم تظاهروا بالإيمان خداعًا وجبنًا. وهذه الشهادة لا يقصدون بها وجهَ الله تعالى، إنما يقولونها تعميةً وتمويها لمكائدهم ودسائسهم بين الصفوف ولهذا كذَّبهم الله سبحانه وتعالى في ادعائهم.

قال تعالى﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ فالله تعالى يعلم صدق نبيه ﷺ، ويعلم كذب أولئك المنافقين المخادعين الذين جاءوا متظاهرين بالإيمان، الذي لا بدَّ وأن ينبع من القلب.

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

جعلوا من الأيمان جُنَّةً ووقايةً للتمويه والخداع، والصدِّ عن سبيل الله، واتخاذها جُنَّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها، ويتنصَّلوا من سوء الفِعَالِ والمقالِ، فهم مع صدودهم عن الحق وإعراضهم عنه وإحجامهم عن الدخول في الإسلام والانقياد لأحكامه، قد صدُّوا الناسَ عن الإيمان والهجرة والجهاد، وأعمال الطاعة والبر بما يُشيعونه في المجتمع المسلم من تشكيكٍ وقدحٍ وطعنٍ، فبئس العمل عملهم.

ومن دقةِ التعبيرِ القرآني تصويرُهم وهم في قَلَقِهم النفسي وقد استتروا بدرعٍ واهٍ من الأيمان الكاذبة، لأنهم يعتبرون أنفسهم في حالة حربٍ مفتوحةٍ مع المؤمنين.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

لما ذَكَرَ اللهُ سبحانه وتعالى كذب المنافقين بيَّن هنا شيئاً من خصالهم الذميمة وطباعهم الدنيئةِ التي تتنافى مع مظهرهم الكاذب، وتتناقضُ مع كلامِهِمُ المعسولِ، حتى إن الناظر إليهم ينبهرُ بوجوههم الصبيحة، والسامع لهم يطربُ ويستمتعُ بألسنتهم الفصيحة، فيصغي إلى قولهم وينخدعُ بمنطقهم، ويغترُّ بهيئاتهم ومناظرهم، وما لهم من النَّضارة والرَّونق ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فتحسب أن قولهم حقٌّ وصدق لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، " وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبيِّ ﷺ، فإذا قال سَمِعَ النبيُّ ﷺ مقالته، قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبيّ، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة "[١].

﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾: ولكنهم أَجسامٌ بلا عقول وألسنةٌ بلا أفئدة، وهياكل وأشباح بلا أرواح، وهم في حضورهم مجالس النبي ﷺ كالخُشب المسندةِ على جدارٍ، فوجودها كعدمها، وكذلك المنافقون يخرجون كما دخلوا بل لا يزدادون إلا كفرا وارتيابا فهم محجوبون عن الفهم الصحيح، محرومون من العلم النافع.

كما قال سبحانه ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٧].

﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾: وَذلك لِمَا جُبلوا عليه من الجُبن والخَوَر، " يحسبون كلَّ صيحة يسمعونها واقعةً عليهم، نازلةً بهم لفَرْطِ جُبْنِهِمْ ورُعْبِ قلوبهم "[٢]، وذلك بسبب " هلعهم وتخوفهم من كلِّ ما يُتخيَّل منه بأسُ المسلمين، لأنهم أعداءٌ ألِدّاءُ للمسلمين ينظرون للمسلمين

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٣١.

بمرآة نفوسهم، فكما هم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتمنون الوقيعة بهم، مع تظاهرهم بالمودة: كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم وإضمار البطش بهم، ويخشون في كل لحظة تمر بهم أن ينكشف أمرهم على نحو ما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ وصدَّق ما يعتادُه من تَوَهُّم...»[(١)]

فالمنافقُ أشد الناس جبنا وهلعا، فَقَدَ الثقةَ وسُلِبَ الأمنَ، يفزع من أي طيفٍ، ويرتاعُ من أي صوت، كما قال الشاعر في هجاءِ شخصٍ أكولٍ جبان:

إذا صوَّتَ العصفورُ طارَ فؤادُهُ وليثٌ حديدُ النابِ عنـدَ الثرائِـــدِ

وكما قال آخر:

أفي السِّلْمِ أعيارٌ جَفَاءً وَغِلْظَةً وفي الحربِ أشباهُ النساءِ الفوارِكِ ؟[(٢)]

" وهذا النموذجُ من الناسِ، لا ينقطعُ في جيلٍ ولا في قبيلٍ. فهو موجود دائماً. وهو شجاعٌ فصيحٌ بارزٌ حيثُما كان هناك أمنٌ ورخاءٌ ومغنمٌ، وهو جبانٌ صامتٌ مُنزوٍ في الشدائدِ والمخاوفِ، وهو شحيحٌ بخيلٌ على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منه إلا سلاطةُ اللسان! "[(٣)].

" وكم نُكِبتْ أُمتُنا من أولئك المنافقينَ الذين لاذوا بالجحورِ، وآثروا السلامةَ عند اشتداد الأزماتِ ووقوع المواجهاتِ، فلما تحقق النصرُ للمجاهدين سرقوه وَجَنَوا ثمارَه، فتسلَّطوا على العباد ودانت لهم البلاد، فذاقت الشعوبُ منهم الويلات، ووقعتْ على أيديهم النَّكبات والنَّكَسَات ! وواقعُنا المُعَاصِرُ خيرُ شاهدٍ ! "[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨ / ٢٤١ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٦٢٥ أي في حالِ المُسالَمَةِ كأنهم الحُمُرُ، والأعيارُ جمعُ عِير، وهو الحمارُ وفي الحرب كأنهم النساء الحُيَّض !

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٩٢.

(٤) نقلا عن بحث **التَّوْثِيقُ القُرآنيُّ لِغَزْوَةِ الأحزابِ**، إعدادِ: أحمد بن محمد الشرقاوي - **الملتقى العلمي للتوثيق الميداني لغزوة الخندق - مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ذو القعدة ١٤٢٧هـ.**

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾: جلَّاهم لنا القرآن وفضحهم، وكشف عِوارهم وسبر أغوارهم، وأبان لنا عن خبث نيتهم وسوء طويتهم حتى نكون منهم على حذر، فهم آفةُ كلِّ العصور وجذورُ البلاءِ في سائرِ الدُّهور، ابحث عنهم وراء كلِّ نكبةٍ، وفتِّش عنهم خلف كلِّ نكسةٍ.

ولفرطِ عداوتهم ولشدة التحذير منهم جاء التعبير عنهم بالعدو " بلام الجنس " للدلالة على شدة عداوتهم وفداحة مخاطرهم، فكأنهم هم العدوُّ الأول والأخير، أو اللام هنا للعهد الذهني؛ فإذا ذكرت العداوةُ فليتبادر ذكرُهم إلى الأذهان فهم شرٌّ مستطيرٌ وداءٌ عضالٌ، ولا تغفل عنهم أيها المسلم اليقِظ؛ فهم لا يغفلون ولا تنم فهم لا ينامون، بل يواصلون المكر والتدبير ليل نهار، فلتجعل عداوتَهم نُصْبَ عينيكَ ولتستحضرها في ذهنك، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب. فهم كمن قيل فيهم:

وإذا الصديقُ لقيتَهُ متملقًا فهوَ العدوُّ وحقُّهُ يُتَجَنَّبُ
لا خيرَ في ردِّ امرئٍ متملِّقٍ حُلْوَ اللسانِ وقلبُهُ يتلهَّبُ
يلقاكَ يحلفُ أنه بك واثقٌ وإذا توارَى عنكَ فَهْوَ العقربُ
يعطيكَ مِنْ طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

قال القرطبي " فاحذرهم " وجهان:

أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم.

الثاني: فاحذر ممايَلَتَهُمْ لأعدائِك، وتخذيلَهم لأصحابِك ".[1]

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾: دعوةٌ عليهم بالهلاك والبوار، وبيانٌ وإعلانٌ عن حربِ الله لهم؛ فكم صُرفوا عن الحقِّ وصَرَفوا عنه مع وضوح الدلائل ! وكم قلبوا الحقائق وخلطوا المفاهيم وزخرفوا الأباطيل ! وكم خدعوا أنفسَهُم وخدعُوا الآخرينَ معهم.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٦.

استكبارٌ وعنادٌ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ ﴾

ما زال السياقُ القرآني يفضحُ لنا كوامن المنافقين ويكشفُ عُوارهم ويصفُ طباعهم ومنها ما جُبلت عليه نفوسُهم من مُكَابَرَةٍ وجُحُودٍ وتَآمُرٍ وصُدودٍ.

من ذلك حالهم إذا دُعُوا بدعوةِ الرفق واللين إلى أن يستغفر لهم سيد المرسلين وإمام المتقين فتراهم يعرضون مستنكفين ومستكبرين وقد عبروا عن ذلك أبلغ تعبير بحركات الرؤس والأعناق وثني الأعطاف.

قال القرطبي: «لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرُهُم وقالوا: افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم، فلووا رؤوسهم، استهزاء وإباء»[(١)]، وإعراضاً وازدراء، وإصرارا وإباء، ورفضًا للاستغفار وإعلانا لثباتهم على النفاق، وإيذانا لتماديهم في الغيِّ، ورضاءً بصنيعهم الشنيع.

ومهما حاول المنافقون إخفاء ما تُكِنُّ ضمائِرُهم من الحقد الدفين والبغض للمسلمين فلا بد أن تظهر منهم بوادرُ الحقد، وتفوحُ رائحةُ الحسد.

وقد قيل:

ومهما تكـــن عندَ امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تخْفى على النَّاسِ تُعلمِ[(٢)]

فقد كانت الأفعال الشنيعة تصدُرُ عنهم فإذا افتضح أمرُهم لم يبادروا إلى الاعتذار عنها والتوبة منها، بل كابروا وجادلوا متذرعين بالكذب والتضليل، والخداع والتدليس، والإنكار

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٧.

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمَى.

والتلبيس، فإذا طُلِبَ منهم الاعتذارُ ودُعُوا إلى الاستغفارِ عَطَفُوا رؤوسهم، ولووا أعناقهم تكبراً وإعراضا عن الاعتذار إلى رسول الله ﷺ حتى يستغفر لهم عما حصل منهم من النفاق.

لكنهم على أية حال مع بقائهم على كفرهم ومهما تظاهروا بخلاف بواطنهم، فليسوا أهلا للمغفرة، حتى ولو استغفر لهم خيرُ الخلق وحبيبُ الحق ﷺ فإنهم قومٌ فاسقون، خرجوا عن الطاعة وبارزوا بالعصيان وأشاعوا الكذب والبهتان.

قال تعالى ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المنافقون ٦.

وقال سبحانه ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠].

دسائسُ ومكائدُ.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٧ – ٨].

لا يزال السياق في كشف أحقادهم الدفينة، ومؤامراتهم الدنيئة، ومكائدهم الخبيثة التي يسعون من خلالها: لخلخلة الصفوف، وزعزعة المجتمع، وإثارة الزوابع والتوابع، وتجفيف المنابع، ومحاصرة المدِّ الإسلامي، وتقويض شجرة الدعوة، ووأدِ طلائع النصرِ، وتضييق الخناق على الدعاة والمصلحين، وفضِّ الناس عن العلماء المخلصين، ونفيهم من البلدان، وإجبارهم على مفارقة الأوطان.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾دعا المنافقون وحرَّضوا على قطع الإنفاق لفضِّ الناسِ عن دعوة الحق، وكأن الرزقَ بأيديهم !

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: خزائن كلّ شيء عنده، وكلّ شيء عنده بمقدار، لا

ينزله إلا بقدر معلوم، فله تعالى خزائن السموات، وخزائن الأرض، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، وعنى بالأعزِّ: نفسه ومن معه، وبالأذلِّ: رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع: رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القولَ إلى المنافقين مع كون القائل فردٌ من أفرادهم، وهو عبدُ الله بن أبيّ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾: فالعزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وله تعالى الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، "وعزة الله تعالى قهره وغلبته على من دونه، وعزة رسوله ﷺ إظهار دينه على الأديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم "[١].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك من فرط جهلهم وغرورهم.

الهدايات المستنبطة

* الكذبُ والخديعة من صفات المنافقين الدنيئة وطباعهم اللئيمة.
* النفاقُ لؤمٌ وخداعٌ وجبنٌ ومراوغةٌ.
* بيانُ خطر المنافقين على المجتمعات، ووجوب الاحتراز منهم.
* الحذرُ من التشبه بهم في أي صفةٍ من صفاتهم.
* مغبّةُ الاغترار بالمظاهر، فالمرءُ بعمله لا بمظهره، فقد اتسم كثير من المنافقين بعذوبة اللسان وحلاوة المنطق ومعسول الكلام مع مرارة قلوبهم وقبح نفوسهم ودمامة أخلاقهم.
* جوازُ الدعاءِ على أعداء الدين بالهلاك والخسران.

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١٠٧.

* لا يجوزُ الاستغفارُ للمنافقين والمشركين أو الدعاء لهم بالرحمة.
* طريقُ العزةِ هو طريقُ الإيمان فلا تُستمدُّ ولا تُطلبُ إلا من الله، ومن أعزَّه الله فلا مذلَّ له ومن أذلَّه فلا مُعِزَّ له.
* خزائن السموات والأرض بيده تعالى، وهذا من دواعي عِزَّة المسلم بربه وتوكُّله عليه فلا يذل ولا يخضع لمخلوق كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

لا تَخضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعٍ	فَإِنَّ ذَلِكَ وَهنٌ مِنكَ في الدينِ
وَاسترزِقِ اللَهَ مِمّا في خَزائِنِهِ	فَإِنَّما الأَمرُ بَينَ الكافِ وَالنونِ
إِنَّ الَّذي أَنتَ تَرجوهُ وَتَأمَلُهُ	مِنَ البَرِيَّةِ مِسكينُ ابنُ مِسكينِ
ما أَحسَنَ الجود في الدُنيا وَفي الدينِ	وَأَقبَح البُخل فيمَن صِيغَ مِن طينِ
ما أَحسَنَ الدين وَالدُنيا إِذا اجتَمَعا	لا بارَكَ اللهُ في دُنيا بِلا دينِ
لَو كانَ بِاللُّبِ يَزدادُ اللَبيبُ غِنىً	لَكانَ كُلُّ لَبيبٍ مِثلَ قارونِ
لَكِنَّما الرِزقُ بِالميزانِ مِن حَكَمٍ	يُعطي اللَبيبَ وَيُعطي كُلَّ مَأفونِ

* جهلُ المنافقين وسفههم وغياب عقولهم فهم لا يفقهون ولا يعلمون، وقد هوى بهم الجهلُ في هذه الدركاتِ.

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ	وأجسادُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإن امْرأً لم يحيِ بالعلم صدرهُ	فليس له حتى النشورِ نشورُ

* العلم والفقه في الدين عصمةٌ ووقايةٌ من النفاق والمنافقين.

توجيهاتٌ للمؤمنين

تحصينٌ من النفاق والمنافقين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

المناسبة

لما ذمَّ سبحانه صفاتِ المنافقين نادى عبادَه المؤمنين محذراً إياهم من دواعي النفاق ومغبته، ومن أخطرها التشاغل والانصراف عن ذكر الله تعالى بحبِّ المال والولد وتقديم حبِّهما على طاعة الله.

فمع ضرورةِ أخذِ الحَذَرِ من المنافقين ومكائِدِهم، يجبُ على المؤمن أن يحذَر من الوقوع في صفاتهم والتشبه بهم من حيث لا يدري، ثم جاء الأمر بالإنفاق في وجوهِ الخير في سبيل الله، ومصالح المسلمين، وإغاثة المنكوبين، ونجدة الملهوفين، وإطعام الجياع، وكسوة العراة، لمواجهة مكائد الكافرين والمنافقين، ومجابهة مؤامراتهم، ومخالفة أمرهم بترك الإنفاق على فقراء المسلمين، ثم البدار البدار إلى العمل الصالح، قبل انطواء الصحائف واستيفاء الآجال.

التفسير الإجمالي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ لما ذكر قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد، ومعنى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين.

قال أبو حيان: " أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات "[١].

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضَّلوا العاجل على الآجل.

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان، وينزل بساحته فيقول حين الاحتضار وعند معاينة الملائكة ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾: يقول عند تيقنه الموت: يا ربِّ هلا أمهلتني وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل !!﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقياً صالحاً.

فما من مفرطٍ إلا ويندم عند الاحتضار، ويسأل الإمهال ليستدرك ما فات، ولكن هيهات!

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ أي ولن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجلُه، ولن يزيد في عُمُرِه، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذراً أن يجيء الأجل، وقد فرَّط ولم يستعدَّ للقاء ربه ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي مطلعٌ وعالمٌ بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

وصدق من قال:

إلى كم أقولُ فلا أفعلُ — وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عيني فلا ترعوي — وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ

---

(١) البحر المحيط للإمام أبي حيان ١٠/ ١٨٤

وكم ذا تعلَّلُ لي ويحها	بِعَلَّ وسوف وكم تمطُلُ
وكم ذا أؤمِّلُ طولَ البقا	وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ
وفي كلِّ يومٍ ينادي بنا	منادِي الرحيلِ ألا فارحلُوا (١)

الهدايات المستنبطة

* طاعة الله تعالى هي الهدف الحقيقي للمسلم لا ينبغي أن يشغله عنه شاغل.
* خزائن الله ملأى ويداه مبسوطتان، فهو الخالق الرازق وهو القابض الباسط، ومن أيقن بذلك تعلق قلبه بالله رغبة وطمعا ورجاءً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ) (٢).
* التحذير من الانصراف عن العمل الصالح بحطام الدنيا الزائلة وزينتها الماحلة.
* الترغيب في الإنفاق في جميع وجوهِ الخير، لتحقيق الاكتفاء الذاتي بين المسلمين حتى لا يكونوا فريسةً لأعداء الدين يساومونهم على عقيدتهم في مقابِلِ لُقْمَةِ عيشٍ، وما يحدُثُ ذلك إلا بتقصيرٍ وتفريط من أغنياء المسلمين.
* المبادرة إلى العمل الصالح قبل تصرُّم الحياة، وانتهاء الآجال، وانطواء صحيفة الأعمال.
* تحذير المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه المنافقون من الانشغال بالدنيا والغفلة عن ذكر الله وغير ذلك من ذميمِ الخصالِ وقبيحِ الفعالِ، فعلى كلِّ مؤمنٍ أن يحذر النفاق ويبرأ من

---

(١) الأبيات للزاهد الأندلسي أبي عمران المارتلي.

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير باب: قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ الحديث رقم: ٤٤٠٧ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، الحديث رقم: ٩٩٣.

علاماته، ويتعوَّذ بالله تعالى منه.

* وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)(١).

* وقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ... "(٢)

* وروى الفِرْيَابِيُّ بسنده عن طريفٍ، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد إن ناسا يزعمون أن لا نفاق أو لا يخافون النفاق... فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحبّ إلي من طِلاع الأرض ذهبا(٣).

* وروى الفِريابي بسنده عن محمد بن سليم وهو أبو هلال قال: سأل أبانُ الحسنَ: فقال: هل تخاف النفاق ؟ قال: وما يؤمنني وقد خاف عمر بن الخطاب ﷺ ؟(٤)

* وروى الفريابي بسنده عن الجعد أبي عثمان، قال: قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركتَ ممن أدركتَ من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق ؟ وكان قد أدرك عمر رضي الله عنه قال: نعم إني أدركت منهم بحمد الله صدراً حسناً، نعم شديداً نعم شديداً(٥). أي يخافون النفاق خوفاً شديداً.

* اللهم إنا نعوذ بك من النفاق ومن سوء الأخلاق، ونعوذ بك من المنافقين ومن سائر أعداء الدين اللهم اجعل كيدهم في نحورهم ما جعل تدميرهم في تدبيرهم.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان - باب: علامة المنافق -حديث ٣٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، رقم: ٥٩.
(٢) صحيح البخاري كِتَاب الْإِيمَانِ - بَاب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، أورده تعليقاً.
(٣) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٩.
(٤) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٨.
(٥) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٥.

سورة التغابن

بين يدي السورة

* تُنْصَبُ الأسواقُ لساعات محدودةٍ، فترى الناسَ عليها مقبلين من كلِّ حَدَب وَصَوْب الكلُّ يتسابقُ لاغتنامها، والناسُ بين مشترٍ وبائعٍ، ولكن سُرعان ما ينفضُّ السُّوقُ وتتفرقُ الجُموع، بين رابحٍ مبتهجٍ، وبين مغبونٍ مُبْتَئِس.

بيدَ أن هناك من يرتادُ الأسواقَ لإضاعة الأوقات في المُلهيات، وتبديد الأموال في المباهج والشهوات ليخرُج في النهاية صِفر اليد فارغ الجيبِ، قارعاً سنَّ الندم على ما ضيَّعه، متحسِّراً على ما فاته.

ولو تصورنا أُناسا على موعدٍ للهجرة إلى بلادٍ بعيدة، ومع كل واحدٍ رصيدٌ من المال وقد طُلِبَ منه أن يشتري به كلَّ ما يحتاجه في البلاد التي يهاجر إليها، وقد قَرُبَ موعدُ السفر والسفينة على الميناء تنتظر لحظة الإبحار، على أن للمسافر أن يحمل معه ما يشاء، وعليه أن يغتنم الفرصة ؛ فالعُملةُ التي يشتري بها لا قيمة لها فيها بعد، ولا استبدال لها في البلاد التي سينتقل إليها، والسلعُ التي في السوقِ أمامه ضروريةٌ ولن تتاحَ له هناك، كما أن السوق إذا انفضَّت لا تقامُ أبداً، وإذا ركب السفينةَ لا يعود أبداً، فإذا ضيَّع وقته دون أن يشتري ما ينفعُه، أو اشترى ما يضرُّه وترك ما ينفعُهُ، أو اشترى ما لا نفع له فقد خاب وخسر وقد غُبِنَ ؛ إذ ضيع رأس ماله ولم يؤمِّن مستقبله في دار المستقر.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾. [التغابن: ٩]

إذا كنتُ أعلمُ علمَ اليقينِ		بأنَّ جميعَ حياتي كساعةٍ
فَلِمَ لا أكونُ ضنينا بها		وأنفقُها في صلاحٍ وطاعةٍ
إنما دُنياك ساعة		فاجعلِ الساعةَ طاعة
واحذرِ التقصيرَ فيها		واجتهدْ ما قدرُ ساعة
وإذا أحببتَ عِزا		فالتمسْ عزَّ القناعة

* وأعظم الغبن ما يقع في سوق الحياةِ، الذي يغدو إليه جميع الناس، فبائعٌ دنياه بأخراه، وتلك هي التجارة الرابحة، وبائعٌ آخرتَه بدنياه، وبائعٌ آخرتَه بدنيا غيره ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

تفيضُ عيوني بالدموعِ السواكبِ ... وما ليَ لا أبكي على خيرِ ذاهبِ
على العُمْرِ إذ ولَّى وحان انقضاؤُه ... بآمالِ مغرورٍ وأعمالِ ناكبِ
على أشرفِ الأوقاتِ لما غُبِنْتُهَا ... بأسواقِ غُبْنٍ بين لاهٍ ولاعبِ
على غُرَرِ الأيامِ لما تصَرَّمتْ ... وأصبحتُ منها رهنَ شؤمِ المكاسبِ
على زَهَرَاتِ العيشِ لما تساقطتْ ... بريحِ الأماني والظنونِ الكواذبِ
على أنْفَسِ الساعاتِ لما أضعتُها ... وقضَّيتُها في غفلةٍ ومعاطبِ
على صرفيَ الأنفاسَ في غيرِ طائلٍ ... ولا نافعٍ من فعلِ فضلٍ وواجبِ
على أنني آثرتُ دنيا دنيةً ... منغصةً مشحونةً بالمعايبِ
على طولِ آمالٍ كثيرٍ غرورُها ... ونسيانِ موتٍ وهْوَ أقربُ غائبِ [1]

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾. [التغابن: ٩]

من هنا جاءت هذه السورة الكريمة لتبين لنا حقيقة التغابن، وأسبابه وعواقبه، كما ترشدنا إلى طريق الفوز والفلاح.

* وهي من السور المدنية، وإن كان جوُّها شبيهًا بالسور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم بينت تفرعَ الناسِ وتحيُّزهم إلى فريقينِ لا ثالث لهما.

---

(١) الأبيات لابن علوي الحداد ت ١١٣٢ هـ.

* وفي السورة الكريمة وعيدٌ وتهديدٌ للكفار من سوء العذابِ كما حاق بمن سبقهم، بسبب كفرهم وعنادهم وضلالهم.
* وأكدت السورةُ قضيةَ البعث وأنه حقٌّ لا ريب فيه.
* كما دعت السورةُ الكريمة إلى طاعة الله وطاعة رسوله، وحذَّرت من الإِعراض عن منهج الله.
* تناولت السورةُ جملةً من أركان الإيمان: الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.
* أجابت عن الأسئلة الملحَّة التي تدور في الأذهان: خلق الإنسان ؟ ودوره في هذا الوجود؟ ومصيره المحتوم، كما تحدثت عن النظرة الإيجابية للكون والحياة والمجتمع والأسرة.
* كما حذَّرت من فتنةِ الأزواج والأولاد، الذين يقفون عثْرةً على طريق البذل والعطاء والتضحية والفداء.
* واخْتُتِمَت السورةُ بالأمر بالتقوى والسمع والطاعة، والترغيب في الإِنفاق لإِعلاء كلمة الله، وتوقِّي الشحِّ بتعويد النفس على البذل والتضحية والإيثار لتنال الفلاح في الدارين ثم جاءت الدعوة الأخيرة مرغبة في الإقراض ومبشرة بأجره العظيم وثوابه الجزيل، إلى أن تختمَ السورة الكريمة بما استهلت به من تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه وتمجيده.

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة التغابن، حيث تحدثت عن أعظم غبنٍ يلحقُ بالإنسانِ، حين يؤثر الدنيا الفانية ويضيِّع الآخرةَ الباقيةَ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾. [التغابن: ٩]

ب. فضائل السورة.

السورة من ضمن السور التي افتتحت بالتسبيح، ولقد أطلق عليها كما جاء في السنة «المسبِّحات » وورد في فضلها: عَنْ عِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: « كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ، وَقَالَ إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ »[(١)].

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنية نزلت بالمدينة.

قال القرطبي: « سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة »[(٢)].

* وهذه السورة وإن كان طابعها وجوُّها العام يشبِهُ السورَ المكيةَ، حيث التركيز على العقيدة وموضوعاتها الرئيسية: الألوهية، الرسالة، البعث، لكن معركة القرآن مع العقائد الباطلة معركةٌ مستمرة ومواجهةٌ متواصلةٌ، والناسُ دائماً في حاجةٍ إلى تجديد الدعوة إلى الإيمان مع التنوُّعِ في الخطاب مراعاةً لأحوالِ المخاطبين.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيها ثماني عشرة آية (١٨) في عد الجميع، ولا خلاف عندهم في شيء منها.[(٣)]

---

(١) حديث حسن: رواه أبو داود في السنن كتاب الأدب باب ما يقول عند النوم ٢/ ٧٣٤ حديث ٥٠٥٧، والترمذي في السنن أبواب فضائل القرآن وإسناده حسن حديث ٢٩٢١، والنسائي في السنن الكبرى للنسائي ٥ / ١٦ حديث (٨٠٢٦)، ورواه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٨، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٤ / ١٠١ حديث ١٢٠٠، والطبراني في المعجم الكبير ١٣ / ١٦٨ حديث ١٥٠٢٨، والبيهقي في دلائل النبوة ٨ / ٢٤١ حديث ٣٠٨٤، والدارمي في السنن ١٠ / ٣١٩ حديث ٣٤٨٧، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن ١ / ٤٦١ حديث ٤١٤، وابن الضريس في فضائل القرآن ١ / ٢٤٤ حديث ٢٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٣١ .

(٣) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨١، وكتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو=

هـ. محور السورة.

حديث هذه السورة الكريمة حول التغابن والمغبونين، وأسباب التغابن وصوره وسبل الوقاية منه.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة يدورُ حول اسمها وهو التغابن، حيث تبين السورةُ أسبابه وعاقبته.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* اختتمت السورة الكريمة بما استهلت به من تعظيم الله تعالى وتقديسه وتمجيده: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن: ١ – ٤].

ثم اختتمت بما استهلت به من تعظيم الله تعالى وتمجيده: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ١٦ – ١٨].

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة التغابن وسورة المنافقون: صلةٌ واضحةٌ جليةٌ، من ذلك:

=الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢٥٥، وكتاب « أقوى العدد في معرفة العدد « لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ»، جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٥٣ وفنون الأفنان في علوم القرآن لابن الجوزي ص ٣١٤.

* حديث السورة السابقة عن النفاق والمنافقين، وحديث هذه السورة عن الكفار، ومن قبلها جاء الحديثُ في سورة الجمعة عن اليهود، وفي هذا تنبيهٌ على وجوب معرفة العدوِّ ومواجهته.

* حديث السورتين عن ضرورة الإنفاق في سبيل الله.

قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ٦١-٨١].

* حذرت السورتان من فتنة المال والولد: قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون: ٩].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

* بينت سورة المنافقون تولي المنافقين وإعراضهم عن النبي ﷺ، ثم جاءت سورة التغابن داعيةً إلى طاعة الله ورسوله والتأدب معه ﷺ.

قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون: ٥].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ [التغابن: ١٢].

* لما كشفت سورة المنافقون عما يضمِرُهُ المنافقون من كفرٍ، جاءت سورة التغابن مقررةً لمعاني

الإيمان ومرسخةً له، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، حول التغابن: أسبابه وصوره وسبل النجاة منه، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المقدمة

الإيمان بالله تعالى

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن: ١ – ٤]

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

الإيمانُ بالله تعالى هو الركنُ الركينُ والحصنُ الحصينُ وركيزةُ الانطلاقِ إلى كلِّ خيرٍ ورضوانٍ، وسفينةُ النجاة من الغبن والخسران، وحول حقيقة الإيمان بالله تعالى دارت آيات المقدمة ؛ ليستحضرَ المؤمنُ عظمةَ اللهِ جلَّ جلاله، ويوقِنَ بكمالِ قدرتِهِ وإحاطةِ علمِهِ وبديعِ صنعِهِ، فيزدادَ اجتهاداً في طاعته وسعياً إلى رضاه، ويمضيَ قُدُما على طريق الفلاح، فينجوَ من

الغبن الذي يلحقُ بالكافرين البعيدين عن الله.

التفسير الإجمالي

براعة الاستهلال

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

تستهلُّ السورة الكريمة بتنزيه الله تعالى وتقديسه وتمجيده وتعظيمه﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾فهو تعالى المتفرِّدُ بالملك، المستحق للحمد، القادر على كل شيء.

وتمضي السورة الكريمة مبينةً دلائل قدرة الله تعالى التي تتجلى في تقسيم الناس إلى صنفين لا ثالث لهما، عليهما يتحددُ مصيرُ الإنسانِ الذي خلقه الله تعالى في أحسنِ تقويم وكرَّمه بنعمة العقل والشرع، ومنحهُ حرية الاختيار، قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾.

« أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدِّقٌ به موقنٌ أنه خالقه وبارئه وقدَّم الكافر على المؤمن، لكثرة الكفار وقلة المؤمنين»[1].

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾: أي عالمٌ بأحوالكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شؤونكم وسيجازيكم عليها.

ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بكل ما كان وما يكون وما سيكون، وشموله لكل ما خفي ودقَّ وما ظهر وتجلى، قال تعالى﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾.

كما بين تعالى دلائل قدرته وشواهد وحدانيته فقال ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾:

(١) جامع البيان للطبري ٢٣/ ٤١٦.

أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾: أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل هيئة، فأتقن وأحكم وأبدع، ونظير هذا قوله تعالى في سورة التين﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة الانفطار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

فإن من تأمل في صورة الإنسان وهيئته، وتناسب أعضائه، وتناسق ملامحه، واعتدال قامته: علم أن صورته من أحسن الصُّور، سيَّما إذا قرنَّاها بما نشاهده من صور كثير من المخلوقات.

﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلاً بعمله.

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم ما في الكون من أجرام ومخلوقات ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من الأعمال والنِّيَّات ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي عالمٌ بما يختلجُ في الصدورِ وما أُسْدِلَتْ عليه السُّتور، وما انطوت عليه من خفايا وأسرار، فلا تخفى عليه خافية.

قال أبو حيّان: « نبَّه تعالى بعلمه بما في السماواتِ والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنَّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب»[1].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ١٨٩.

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

هذه السورة الكريمة هي سورة التغابن، ومحورها حول هذه القضية: معنى التغابن أسبابه وصوره سبل الوقاية منه، وحتى يسلَمَ الإنسانُ من التغابن فعليه أن يسلكَ طريقَ الإيمانِ، ولقد جاءت آياتُ المقدمة لتقرر قضية الإيمان بالله تعالى، وهي الركن الأول والأساسيُّ من أركان الإيمان، الذي ينجو به صاحبه من الغُبْنِ.

الهدايات المستنبطة

* تسبيحُ الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته، وتعظيمه تعالى وتمجيده، فهو تعالى المتفرد بالملك المستوجِب للحمد.
* كمالُ قدرته تعالى فلا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يقع في ملكه إلا ما أراده.
* الناسُ في هذا الكون صنفانِ لا ثالث لهما: مؤمن وكافر، والله تعالى مطَّلع على كل فريق ومجازيه بعمله.
* خلقُ الله تعالى السموات والأرض، وخلق الناس في أحسن صورة، وإليه تعالى المرجع والمآب.
* إحاطةُ علمه تعالى بكلِ ظاهرٍ ومستتر وكل سرٍّ وعلنٍ وكلِّ ما كان ويكون.

المغبونون (١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾ [التغابن: ٥ – ٧]

المناسبة

* بعد هذه المقدمة التي تجلت فيها شواهدُ الربوبيةِ الباهرة ودلائلُ القدرةِ الظاهرة التي لا يجحدها إلا معاندٌ مكابرٌ، ولا يغفل عنها إلا خائبٌ خاسرٌ، ولا يصدُّ عنها إلا كلُّ مأفونٍ مغبونٍ، كشفت لنا السورة الكريمة عن المغبونين الذين خرجوا من سوق الدنيا بخسارةٍ فادحة ليس بعدها ربحٌ، وذلك بكفرهم وتكذيبهم ومزاعمهم الباطلة.
* كذلك من وجوه المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها: أنه بعد تأصيل وتقرير عقيدة الإيمان بالله تعالى، ينتقل السياق إلى مناقشة مزاعم الكفَّار وبيانِ ضلالهم وسوءِ عاقبتهم.

التفسير الإجمالي

تكذيبهم بالرسل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ

---

(١) أصل التغابن والغبن: يقال: الغَبْن: مصدر غَبنَ الرجلُ في البيع غَبْناً وغَبَناً فهو مغبون في البيع، إذا خُدعَ فيه. وغَبنَ دينُه وعقله، فهو غَبين في العقل والدِّين، والغَبْنُ بالتسكين في البيع، والغَبَنُ بالتحريك في الرأي، يقال غَبَنْتُهُ بالبيع، أي خدعته، وقد غُبنَ فهو مَغْبونٌ، وغَبنَ رأيه بالكسر إذا نقصه فهو غَبينٌ، أي ضعيف الرأي، وغَبنْت الشيءَ غَبْناً كغَبَنْته – إذا جَهلتَه وغَبنْت في الأَمْرَ غَبناً – أَغْفَلْته، وسئل الحسن عن قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾: فقال: غَبَنَ أَهلُ الجنة أَهلَ النار أي اسْتَنْقَصُوا عقولَهم باختيارهم الكفر على الإيمان، ونَظَر الحَسَنُ إلى رجلٍ غَبَنَ آخَرَ في بيع فقال: إن هذا يَغْبِنُ عقلَك أَي يَنْقُصُه وغَبَنَ الثوبَ يَغْبِنُه غَبْناً كفه. يراجع: لسان العرب ١٣ / ٣٠٩، الصحاح في اللغة ٢ / ١٢ وتهذيب اللغة ٣ / ٨٧.

كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾.

الاستفهام هنا تقريريٌ عامٌّ، موجَّهٌ إلى كلِّ مخاطب، وفيه لفتُ الأنظار إلى السابقين من الكفار الذين ذاقوا وبال أمرهم وتجرعوا مرارةَ تكذيبهم في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ؛ وذلك بسبب تكذيبهم وازدرائهم أنبياء الله الذين جاءوهم بالحُجَج الوَاضِحَة، وَالمُعجزَات البَاهِرَة، فكفروا وتولَّوا، وطَغَوا واستغنَوا، فاستغنى الله عَنْ إيمَانِهِمْ، ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، وَهُوَ الغَنِيُّ عَنِ العالَمِينَ، وَهُوَ الحَقِيقُ بِالحَمْدِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ التِي لاَ تُحْصَى.

قال الإمام الألوسي: «﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ ﴾ أي أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم، ولولا غناه عز وجل عنهم لما فعل ذلك»[1].

إنكارهم البعث

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن: ٧-٨].

كذلك من أخطائهم الفادحة ومزاعمهم الفاسدة إنكارهم للبعث مع تجلي آياته وظهور علاماته، وقد أمر الله رسوله الكريم أن يؤكد هذه الحقيقة ويقررها بالقسم، حتى لا يترك سبيلا من سبل الإقناع ؛ فلا تبقى لهم حجة، ولا يقوم لهم عذر ؛ فالبعثُ حقٌّ وكذا ما بعده من حساب وجزاءٍ قال تعالى ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، وقال جل وعلا في سورة الروم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٧٦].

الهدايات المستنبطة

* العظةُ والاعتبارُ بأحوالِ السابقين، فالسعيدُ من اتعظَ بغيره.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ٢٨ / ٤٤.

* عاقبةُ الكفرِ وخيمةٌ ونهايتُهُ أليمةٌ، فالكافر خاسرٌ في دنياه وفي أخراه.
* الله تعالى غنيٌ عن العالمين لا تنفعُهُ طاعةُ الطائعين ولا تضرُّهُ معصيةُ العاصين.
* اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يرسلَ رسلاً من البشر، حتى يتأسى بهم الناسُ ويقتدوا بأفعالهم التي تعدُّ ترجمةً واقعيةً وحجةً وبياناً عمليّاً.
* من تناقض الكفرةِ أنهم رضوا للإله أن يكون حجراً أو شجراً! وأنكروا كوْنَ النبيِّ بشراً وما ذلك إلا لسفاهةِ عقولهم وضلال سعيهم.

التغابن ٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ [التغابن: ٨ – ١٠].

المناسبة

بعد بيان أسباب غبن الكفار، وذلك بإنكارهم الحجج الساطعة وكفرهم وتوليهم، بيَّن تعالى طريق الربح والرضوان، وهو طريق الإيمان، ثم أكد سبحانه حقيقة هذا اليوم وصدق هذا الموعد الذي ينتظر الناس جميعا، يوم التغابن، حيث ينقسمُ الجمعُ إلى فريقين، رابحٌ ومغبونٌ.

التفسير الإجمالي

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾

دعوةٌ إلى الإيمان بالله تعالى، ورسوله الذي جاء رحمةً وضياءً، وكتابه الذي نزل نوراً وهدى وشفاءً، يُهتدى به في ظلمات الفتن، ويضيء دروب الحياة، قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالإيمانُ طريقُ النجاة والفوز.

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾: بيانٌ وتقريرٌ لإحاطة علمه تعالى بكلِّ الأعمال، ودعوةٌ إلى إخلاص العقيدة، وتجديد الإيمان، ومراقبة الله تعالى في سائر الأعمال.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

هذه دعوةٌ إلى تذكرِ هذا اليوم العظيم: يوم الجمع، وسُمي بذلك لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، للعرض والحساب والجزاء.

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾: يوم يظهر للكافر غبنُهُ الذي غفل عنه، وخُسارتُهُ التي لا ربح بعدها، يوم التغابن يظهرُ لأولئك الذين شَغَلوا أوقاتَهم باللهو واللعب، وغمروها بالهزل كم حرموا أنفسهم من ثواب الطاعات ؟ وكم فوَّتوا من لحظاتٍ ؟ يوم التغابن يشعرُ كلُّ مُقصِّرٍ بتقصيره، حين يرى تقاصُرَه عن معالي الرُّتب ورفيع الدرجات ؟ عندها يدرك المقصرُ كم كان مغبونا ! وكم فرَّط في ما هو أغلى من اليواقيتِ والدررِ ! ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾.

لَهَوتَ وَكَم مِن عِبرَةٍ قَد حَضَرتَها ... كَأَنَّكَ عَنها غائِبٌ حينَ تَحضُرُ
تَمَنّى المُنى وَالريحُ تَلقاكَ عاصِفاً ... وَفَوقَكَ أَمواجٌ وَتَحتَكَ أَبحُرُ
أَلَم تَرَ يا مَغبونُ ما قَد غُبِنتَهُ ... وَأَنتَ تَرى في ذاكَ أَنَّكَ تَتْجُرُ
خُدِعتَ عَنِ الساعاتِ حَتّى غُبِنتَها ... وَغَرَّتكَ أَيّامٌ قِصارٌ وَأَشهُرُ
فَيا بانِيَ الدُنيا، لِغَيرِكَ تَبتَني ... وَيا عامِرَ الدُنيا لِغَيرِكَ تَعمُرُ

وَمالَــكَ إلّا الصَبــرُ وَالبِـرُّ عُــدَّةٌ وَإلّا اعتِبــارٌ ثــاقِــبٌ وَتَفَكُّــرُ [1]

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾: ومن صور التغابن في هذا اليوم، حين يحلُّ المؤمنون بمنازل الكفار في الجنان، هنالك يشعر المحرومون بالحسرة والندامة، على ما وصلوا إليه من غبنٍ وخسرانٍ، سيَّما إذا أدركوا ما فاتهم من نعيمٍ مقيمٍ وما سقطوا فيه من عذابٍ أليم.

وصدق من قال:

بخلتَ بشيء لا يضرُّك بذلُهُ جُدتَ بشيء مثلُهُ لا يُقَوَّمُ
وبِعتَ نعيماً لا انقضاءَ له ببخسٍ عن قليلٍ سيعدمُ
وتهدمُ ما تبني بكفَّيكَ جاهداً فأنت مدى الأيامِ تبني وتهدمُ
فيا أيها القلبُ الذي ملكَ الهوى أعنَّتَهُ حتَّامَ هذا التلومُ
وحتَّام لا تصْحُو وقد قرُبَ المَدَى ودقَّت كئوسُ السيرِ والناسُ نُوَّمُ
بلى سوف تصحو حين ينكشفُ الغطا ويبدو لك الأمرُ الذى كنت تكتمُ
ويا موقدا ناراً لغيرِك ضوؤُها وحرُّ لظاها بين جنبيكَ يَضْرمُ
أهذا جَنَى العلمِ الذي قد غرستَهُ وهذا الذي قد كنتَ ترجوهُ وتعلمُ
وهذا هو الحظُّ الذي قد رضيتَه لنفسِكَ في الداريـنِ لو كنتَ تفهمُ
وهذا هو الربحُ الذي كسبتَهُ لعمرك لا ربحٌ ولا الأصلُ يسلَمُ

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾

قال ابن كثير رحمه الله: « أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر

(١) الأبيات لأبي العتاهية.

غبن الكافرين»[1].

وقال الشوكاني: «يوم القيامة هو يوم التغابن، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ونزول المؤمنين منازل الكافرين التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكأن أهلَ النار استبدلوا الخير بالشرِّ، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك، يقال: غبنتُ فلاناً إذا بايعتُهُ، أو شاريتُهُ فكان النقصُ عليه، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة»[2].

وقال البغوي: «﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون من غُبِن عن أهله ومنازله في الجنة، فيظهر يومئذ غبنُ كلِّ كافرٍ بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان»[3].

ثم بيَّن تعالى مصير كلٍّ من الفريقين: فقال ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾: فبيَّن تعالى حالَ الفائزين في هذا اليوم وهم أهل الإيمان والصلاح، حيث يكفِّرُ الله عنهم سيئاتهم ويتفضلُ عليهم بإدخالهم الجنة وذلك هو الفوز العظيم، أما المغبونون فمصيرُهم إلى الخسران والبوار وبئس المصير والقرار، قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ١٣٧.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٣٧ .

(٣) معالم التنزيل للإمام البغوي ٨ / ١٤١ .

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

المناسبةُ واضحةٌ جليةٌ ؛ حيثُ الحديث عن يوم الجمع الأكبر والغبن الأعظم، وموقف الناس في هذا اليوم، فهم بين مغبونٍ ورابحٍ.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله الذي أرسله هاديا ومبشرا، وكتابه الذي أنزله رحمة ونوراً، وعلى كلِّ مؤمن أن يعمِّق هذا الإيمان ويجدده ويجتهد في زيادته ؛ فهذا هو طريق الفلاح والفوزِ بسلعة الله الغاليةِ.

* من شرف كتاب الله تعالى وعظمته أنه نورٌ يضيء للمؤمن دروب حياته، ويُنير قلبَه ووجدانَه، ويُبصِّرُ عقله، ويوسِّعُ مداركَهُ، فهو نبراسُ الحياة ودستورُها الخالد ومنهجُها الذي يواكبُ كلَّ جيل وقبيل، ومن أعظمِ الغبن أن يكون هذا النورُ ساطعا وكثير من الناس لا يستضيئون بسناه ولا ينتفعون بهديه:

كالعيسِ في البيداءِ يقتلُها الظَّما ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ [(١)]

وكما قال الآخر:

فقل لرسولِ اللهِ يا خيرَ مُرسَلٍ ... أبثُّكَ ما أشكُو مِنَ الحسراتِ

شعوبُك في شرقِ البلادِ وغَربِهَا ... كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُبَاتِ

بأيمانِهم نورانِ ذكرٌ وسنةٌ ... فما بالُهم في حالكِ الظلماتِ [(٢)]

* الإيمانُ والصلاحُ طريق الرحمةِ والمغفرة، والفوز بنعيم الآخرة.

* الكفرِ والتكذيبِ عاقبته وخيمة، ونهايته مخزية أليمة.

---

(١) الأبياتُ للشاعر أديب إسحاق ت ١٣٠٢هـ

(٢) الأبياتُ لأحمد شوقي.

على طريق الفلاح

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ التغابن: ١١.

المناسبة

صلةُ هذه الآيات بمحور السورةِ الكريمة: أنها تمضي مبينةً طرائق النجاة من الغبن، وسبل تحصيل الأجر والثواب، من ذلك ما يحصِّلُه المؤمنُ من مثوبة، حين يصبر على البلاء، فيخرج منه مغفور الذنب موفور الأجر قرير العين منشرح الصدر، وقد تنامت ثروته وتضاعف رصيده عند العليمِ الفتاح، ليهنأَ بعيشته الراضيةِ في بلاد الأفراح.

التفسير الإجمالي

الصبر والثبات

قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

في هذهِ الآياتِ الكريمةِ دعوةٌ للإيمانِ بالقدرِ خيرِه وشره حُلوهِ ومُره، والابتلاء وإن كان مرَّ المذاق إلا أنه حلوُ الثمار، فهو تمحيصٌ للقلوب وتكفيرٌ للذنوب ورفع للدرجات، وبه يبلغ الصابر من المنازل والرُّتب ما يقصُرُ به عمله، وما من مصيبةٍ في هذا الكون تقع إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وتدبيره وحكمته، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ ﴾ ومن يؤمن بالله تعالى وأقداره في خلقه ويرضى بقضائه يهدِ قلبه، فيزداد صبراً ويقيناً، وثباتاً وتسليماً، ورضاً واطمئناناً، ويعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه.

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليمٌ بأحوالِ العبادِ ومصالِحِهِم، لا يخفَى عليه حالُ عباده واستقبالُهم لأقداره.

الطاعة والتوكل

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾: أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه فإنما عليكم إثم تولِّيكم ؛ إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أداها بيِّنةً واضحةً.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾: تذكيرٌ وتقريرٌ لوحدانيته تعالى التي تجلت شواهدُها في هذه السورة الكريمة، وجمعت هذه الآيةُ بين التوحيد والتوكل فكما يجب إفراده تعالى بالعبادة كذلك يجب إفراده بالاستعانة والتوكل، يدرك ذلك أهل الإيمان ويوقنون به.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

محور السورة الكريمة يدور حول التغابن والمغبونين وأسباب التغابن وعاقبته وسبل النجاة من الغبن والخسران والفوز بالجنة والرضوان، وآيات هذا المقطع تحدو بنا إلى طريق الفلاح وتبين لنا جزءا من معالمه، فترغب في الصبر واليقين والطاعة والتوكل.

الهدايات المستنبطة

* وجوب الإيمان بالقضاءِ والقدر.
* إحاطة علم الله سبحانه بجميع ما كان وما يكون وما سيكون.
* من أعظم أسباب الفوز بالجنان والنجاة من الغبن والخسران طاعة الله ورسوله قال تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢ ﴾،

فليحذر المسلم من الوقوع في الغبن بسبب التولي والعصيان. فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال: (كلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجنةَ إلا مَنْ أَبى)، قالوا: يا رسول الله: ومن يأبى ؟ قال: (من أطاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، ومَن عصاني فقد أَبى) [(١)].

* ومن أسباب الفوز والفلاح التوكلِ على الله تعالى في كلِّ أمرٍ قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

* مهمة الرسول ﷺ هي الإبلاغ، أما الهداية فإنها من الله تعالى وحده يمنُّ بها على من يشاء من عباده، ممن سلك طريقها وتجرَّدَ لتحصيلها وجدَّ في طلبها.

* إِقامة الحجة على الناس بتبليغ الرسالة.

فتنة الأهل والمال وسبل الوقاية منها

قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ التغابن: ١٢ – ١٨

المناسبة

لما أمر تعالى بطاعته، ورغَّب في التوكلِ عليه ذَكَرَ مِن المُعوِّقاتِ عن الطاعة والتوكل:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٤/ ٤١٤ حديث ٧٢٨٨.

الركونَ إلى الأهلِ والولدِ، والإفراطَ في التعلقِ بهم.

فليحذر من سلك طريق النجاة وسعى إلى الفوز من تلك العقبة التي تعترضُهُ وهذه الفتنة التي تلاحقُهُ، فتنةُ الأزواج والأولاد ؛ إذ قد يدفعه حرصُه على مصلحة الأولاد وسعيُه إلى إرضاء الزوج إلى الانشغالِ عن الطاعات والتواني عن الإنفاق في القربات، والتباطؤ عن فعل الخيرات، والتقاعس عن الدعوة والجهاد، والتراجع عن الأعمال الصالحات، ولربما تعدى الحدود وانتهك المحرمات ؛ إرضاء للزوجة، أو بدعوى تأمين مستقبل الأولاد، وتلبية مطالبهم التي لا تنتهي.

التفسير الإجمالي

التحذير من فتنة الأهل والمال

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٤ – ١٥]

نداءٌ وتحذير لكافة المؤمنين من فتنة الأزواج والأولاد، وما يترتب على ذلك من الضررِ والغبن، وذلك بسبب الانشغال عن الطاعة، والقعود عن الجهاد، والعزوفِ عن الدعوةِ والسقوطِ في أكلِ الحرام، بوازع تلبيةِ مطالبهم وإشباع رغباتهم، أو بسبب الخوف عليهم والتعلُّق بهم.

عَنْ سَبْرَةَ بْن أَبِي فَاكِهٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ؟...، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ

حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ). [(١)].

« فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلةً وملهاةً عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدواً له، لأنهم صدُّوه عن الخير وعوَّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات.. وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير ؛ لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثِّرات» [(٢)].

فليحذر كلُّ مؤمن من كلِّ ما يشغله عن دعوته ويُثبِّطُهُ عن الجهاد، مع مراعاة حقوق الزوجة والأولاد فإن صدهم عن الدعوةِ والجهاد لا يبررُ التقصيرَ في حقوقهم، بل لا بدَّ من الترفُّق بهم والحلم والصفح عنهم والتسامح معهم، قال تعالى ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ

(١) رواه النسائي في السنن كتاب الجهاد ـ باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. حديث ٣١٢٥، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٤ / ٥٦٤ حديث -( ) ٢٧- (٤٣٤٢).
وقال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: "أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار كتاب شرح عجائب القلب ٣/ ١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٩٧.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾: فهو تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة.

روى ابن ماجه في السنن عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ (إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ) (١) .

فكونُ الولد مبخلةً ومجبنةً لا يعني التعامل معه بالقسوة والجفاء، بل لا بدَّ من مراعاة حقه في الرحمة والحنان، وبهذا يحقق المؤمن التوازن في الحقوق والاعتدال في المحبة فلا يبالغ في حبِّ الزوجة والأولاد وفي الحرص على مصالحهم فيصبح من أجلهم بخيلا جبانا، ولا يجافيهم ويحرمهم حقوقهم متذرِّعا بأنهم فتنةٌ وعقبةٌ، فالأصلُ في الحقوق الشرعية أنها لا تتعارض ولا تتصادم فيما بينها، بل يمكن الوفاء بها جميعا، ويسهلُ تحقيقُ التوازنِ بينها.

الوقاية من هذه الفتنة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرٗا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨ ﴾[التغابن: ١٦ – ١٨].

أمر تعالى بتقواه بقدر ما يطيق العبدُ ويستطيع، ومن باب التقوى: الوفاء بجميع الحقوق الشرعية والامتثال لأوامره تعالى بقدر الطاقة، كما في الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ

(١) رواه الإمام ابن ماجه في السنن عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. الحديث ٣٦٦٦، وقال الإمام البوصيري في الزوائد إسناده صحيح. رجاله ثقات، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٧٢ والإمام الطبراني في المعجم الكبير ١ / ٢٨٣ حديث ٦٤٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤ / ٣٤٦: «رواه أحمد والطبراني...، ورجالهما ثقات». وعزاه الحافظ العراقي في المغني بَذيل الإحياء ٣/ ٣٠٠ إلى ابن ماجه في السنن، قال وإسناده صحيح. وقوله (مبخلة مجبنة) أي مظنة البخل والجبن. لأجله يبخل الإنسان ويجبن.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)[(١)].

﴿ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾:أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تُؤْمرون به وتُنهون عنه.

﴿ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ ﴾: أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكنْ خيراً لكم في عاجلكم وآجلكم.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾: أي ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس، فقد فاز بكل مطلوب.

﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾: أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإحسان إلى الفقراء.

﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾: ويتجاوز عن سيئاتكم ويمحُها.

﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾: شاكرٌ للمحسن إحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم، بل يرحم ضعفهم ويُمهلهم لعلهم يتوبون.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾: هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية.

﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: الغالب في ملكه، فلا يمتنع عليه شيء، الحكيم في صنعه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

لما حذر من فتنة الأزواج والأولاد والمال: بيَّن ما يجبُ على المسلم حِيال هذه الفتن، وهي تقوى الله تعالى بقدر المستطاع والسمع والطاعة والإنفاق والسخاء والقرض الحسن، وغير ذلك من وجوه البرِّ التي تعدُّ من التجارة الرابحة وترفع من رصيد العبد عند ملك الملوك وتنجِّيه من الغبن.

---

(١) صحيح البخاري باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ الحديث رقم: ٦٨٥٨ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر حديث ١٣٣٧.

الهدايات المستنبطة

* التحذير من فتنة الأولاد والأَزواج، فهي من أسباب الخُسارةِ والغُبْنِ ؛ والإفراط في التعلق بالزوج والولد، يدفعُ إلى التفريط في جنبِ الله وظلمِ الناس والتعدي على حقوقهم بدافعِ الحرص على تلبيةِ مطالب الزوجة والولد وإشباع رغَباتهم، أو بسبب الخوف عليهم والتعلُّق بهم. قال أبو العتاهية:

عَجَباً مِن مَعشَرٍ سَلَفوا ... أَيَّ غَبنٍ بَيِّنٍ غُبِنوا
وَفَّروا الدُنيا لِغَيرِهِمُ ... وَابتَنَوا فيها وَما سَكَنوا
تَرَكوها بَعدَما اشتَبَكَت ... بَينَهُم في حُبِّها الإِحَنُ
كُلُّ حَيٍّ عِندَ مِيتَتِهِ ... حَظُّهُ مِن مالِهِ الكَفَنُ
إِنَّ مالَ المَرءِ لَيسَ لَهُ ... مِنهُ إِلّا ذِكرُهُ الحَسَنُ
ما لَهُ مِمّا يُخَلِّفُهُ ... بَعدُ إِلّا فِعلُهُ الحَسَنُ
في سَبيلِ اللَهِ أَنفُسُنا ... كُلُّنا بِالمَوتِ مُرتَهَنُ

* الترغيبُ في الصفح عن المسيئين والتجاوز عن المقصرين، حتى ينال العبدُ المغفرةَ والرحمةَ من أرحم الراحمين.

* حبُّ الولدِ والرحمة به والحُنُوِّ عليه غريزةٌ فطريةٌ وعاطفةٌ إنسانيةٌ، ولقد جاء الإسلام بما يسمو بهذه العواطف ويرقَى بها، ويوجِّهها الوجهةَ الصحيحةَ.

* مراعاةُ حقوقِ الزوجةِ والأولادِ، مع تحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات، والاعتدال في المحبة، والتوسط بين نداء العقل والعاطفة، فلا يبالغ في حبِّ الزوجة والأولاد والحرص على مصالحهم ؛ فيصبح من أجلهم بخيلا جبانا، ولا يجافيهم ويحرمهم حقوقهم متذرِّعا بأنهم فتنةٌ.

* أمر تعالى بتقواه بقدر ما يطيق العبدُ ويستطيع، ومن باب التقوى: الوفاء بجميع الحقوق

الشرعية والامتثال لأوامره تعالى بقدر الطاقة.

* الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير وفضل القرض الحسن.
* إثبات صفة المغفرة والرحمة والحلم والعزة والحكمة لله عز وجل.

سورة الطلاق

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ **بسورة الطلاق**؛ حيث دارت معظم آيات السورة حول أحكام الطلاق وما يترتب عليه وما يتعلق به.

كما سميت **بسورة النساء الصغرى**؛ لاشتمالها على بعض أحكام النساء، وإنصافها لهن قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «... نَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى بَعْدَ الطُّولَى»[1].

وقال السيوطيُّ في الإتقان: «سورة النساء الكبرى أو الطولى؛ تمييزا لها عن سورة النساء الصغرى أو القصرى»[2]، وفي هذا ما يدل على تكريم الإسلام للمرأة ورعايته لها.

قال الشيخ محمد المدني رحمه الله « وكم تنبض قلوب النساء فرحا لتكريم الله لهن وعنايته بهن حين يسمعن أو يعلمن أن القرآن عرض لهن في السور القرآنية وأن من بين هذه السور: سورتين سميتا باسم النساء وعالجتا كثيرا من شئونهن في أطوار حياتهن كلها، وهذا جدير بأن يلفت هؤلاء الذين يرمون الإسلام بأنه يحطُّ من قدر المرأة ليتعرفوا على هذه المكانة التي وضع الإسلام النساء فيها فيكفوا عن زعمهم أن الإسلام لم يمنح المرأة من العناية والاهتمام ما منحتها المدنية الحديثة، والواقع أن الإسلام منح النساء كلَّ خير وَصَانَهُنَّ من كلِّ شر ولم يأب عليهن سوى ما دفعتهن إليه هذه المدنيةُ الكاذبةُ»[3]، من حريةٍ زائفةٍ ومساواةٍ مكلفةٍ.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير بَاب قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٤] حديث ٤٢٥٨، ورواه أبو داود في سننه أبواب الطلاق. باب في عدة الحامل. الحديث رقم٢٣٠٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٦٩ .

(٣) المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني رحمه الله ص ١٠، ويراجع تفسير=

ب. فضائل السورة.

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِي، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)[1].

وهذه السورة الكريمة من السور المفصل.

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنية، قال القرطبي: « سورة الطلاق مدنية في قول الجميع».[2]

د. عدد آيات السورة.

عدد آيات السورة: اثنتا عشرة في عدِّ الحجازي والكوفي والدمشقي، وإحدى عشرة في عدِّ البصري، وثلاث عشرة في عدِّ الحمصي.

واختلفوا في أربعة مواضع:

*﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢] عَدَّهُ الدمشقي.

*﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾عَدَّهُ المدني الثاني، والمكي، والكوفي.

*﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الطلاق: ١٠] عَدَّهُ المدني الأول.

*قَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

= القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ١٧٣.

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في التفسير الموضوعي لسورة الأنعام.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٤٧.

شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق: ١٢]، عَدَّهُ الحمصي.[(١)]

هـ. محور السورة.

والمحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع تقرير هذه الأحكام وتهيئة النفس لتقبلها والامتثال لها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

المناسبةُ ظاهرةٌ؛ فمحورُ السورة يدورُ حولَ أحكام الطلاق.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

جاءت خاتمةُ السورةُ مقررةً لما جاء في أولها؛ ففي مطلعِ السورةِ الكريمةِ بيانٌ لبعض أحكام الطلاق وتقوى الله في النساء والتحذير من تعدي حدود الله وأن من فعل ذلك فقد ظلم نفسه، وترغيب في الامتثال لمنهج الله تعالى ففيه الصلاحُ وفيه الخيرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ [الطلاق: ١].

ثم جاءت خاتمةُ السورة لتقرير هذه الأحكام والمعاني التي جاءت في المقدمة قال تعالى ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

(١) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨٢، وكتاب البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٥٦.

أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ٩ - ١٢].

المناسبة بين السورة وسابقتها

* أشارت سورة التغابن إلى حقيقة الابتلاء وموقف المؤمن منه، وواجبه نحوه، وإعداده وتهيئته لما يطرأُ عليه من ابتلاءات، قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن: ١١ – ١٣].

وجاءت سورة الطلاق مفصلةً في صنفٍ من صنوف البلاء وهو أشدُّها على الإنسان فالطلاق يعني الفراق بعد عشرةٍ والهجرِ بعد الوصال، وكم يترتب على الطلاق من خسائرَ ماديَّةٍ ومعنويةٍ، ومن ثَمَّ جاءتْ سورةُ الطلاق داعيةً من ابتلي بالطلاق إلى الصبر واليقين والرضا والتقى وتفويضِ الأمر إلى الله والامتثالِ لأوامرِه تعالى وتحري العدل والإحسان عند الطلاق، وذلك كلُّه من منطلقٍ إيمانيٍّ، ولذا قال تعالى بعد بيان بعض أحكام الطلاق ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٥].

* لما حذر في سورة التغابن من فتنة الأزواج، بيَّن سبيلا للنجاة من هذه الفتنة إذا استحالت العشرة بين الزوجين، ولم تتآلف قلوبهما، ولم يقيما حدود الله، فقد يبتلى الرجل الصالح بزوجةٍ ناشزةٍ عاصية ويستنفدُ كلَّ السبل لإصلاحها، وكذلك المرأة الصالحة قد تبتلى

بزوجٍ طالح يفسد عليها حياتها وتعجز عن إصلاحه وتقويمه، ومن ثمَّ كان الطلاق هو الحلّ الأخير والمخرج الفاصل من هذه الفتنة.

قال الإمام النيسابوري: «لما نبَّه في آخر السورة المتقدمة على معاداة بعض الأزواج والمعاداة كثيراً ما تُفْضي إلى الفراق بالطلاق، أرشد في هذه السورة إلى الطلاق السني الذي لا يحرم إيقاعه وإلى أحكامٍ أُخَرَ معتبرةً في فراق الزوجين»[1].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الطلاق وما يتعلق به من أحكام وآداب، مع تقرير هذه الأحكام، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوه عديدة، منها:

بيان عاقبة المكذبين في الدنيا والآخرة: قال تعالى في سورة التغابن ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ ﴾ [التغابن: ٥ - ٦].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠ ﴾ [التغابن: ١٠].

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابوري ٧ / ١٧٢.

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطلاق: ٨ - ١٠].

بيان عاقبة المؤمنين في الدارين: قال تعالى في سورة التغابن ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التغابن: ٩].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾[الطلاق: ١١].

ختمت السورتان بتعظيم الله تعالى وبيان إحاطة علمه وكمال قدرته: قال تعالى في سورة التغابن﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[التغابن: ١٨].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢].

تكرَّرَ الأمرُ بتقوى الله تعالى في السورتين الكريمتين، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح وفي التكرار ترسيخٌ وتقريرٌ وتذكيرٌ: قال تعالى في سورة التغابن﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[التغابن: ٨].

وقال سبحانه﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١١-١٣].

وقال عز وجل﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[التغابن: ١٦].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾.

وقال سبحانه ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

وقال جل وعلا﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾.

وقال عز وجل﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾.

وقال جل وعلا﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾.

المناسبة بين مقدمة السورة ومحورها

بدأت السورةُ الكريمة ببعض الأحكام والحقوق المتعلقة بالطلاق مثل الطلاق السني، وحقوق المطلقات.

من أحكام الطلاق

قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ١ - ٣]

سبب النزول

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ)»(١).

التفسير الإجمالي

في مستهل هذه السورة الكريمة ينادي المولى جل وعلا على نبيه ﷺ فهو الهادي البشير وهو المعلم لأمته ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا النداء توجيهٌ حكيمٌ بشأن الطلاق ومراعاة ما يتعلق به من أحكام وآداب، حتى يسدل الستار على هذه الحياة وتنطوي تلك الصفحة وتنفصم تلك العروةُ بهدوءٍ وسلامٍ، وعدلٍ وإنصاف، ورفقٍ وإلطاف.

فالطلاق أبغض الحلال عند الله، لكنه لبعض الحالات دواءٌ مرٌّ لا مفرَّ منه وعلاجٌ مؤلمٌ لا مندوحةَ عنه، حين يسودُ النفورُ ويحتدمُ الخلافُ وتستحيلُ العشرةُ وتخفقُ المساعي بين الزوجين.

والطلاقُ مُرُّ المذاق، والإسلامُ يهدف إلى إقامتِهِ على ميزانٍ دقيقٍ حساس، لسانه العدل وراحَتاهُ الإحسان، وحتى يتحقق ذلك لا بد من اتباع المنهج الشرعي.

وقد اشتملت سورة الطلاق على كثيرٍ من معالم هذا المنهج كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق بَاب إِذَا طُلِّقَتْ الْحَائِضُ تَعْتَدُّ بِذَلِكَ الطَّلَاقِ الحديث رقم ٤٩٥٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق. باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها حديث ١ - (١٤٧١)، ورواه أبو داود في السنن تفريع أبواب الطلاق. باب في طلاق السنة. الحديث رقم: ٢١٧٩، ورواه النسائي في السنن كتاب الطلاق. باب الرجعة. الحديث رقم ٣٥٤٩، ورواه ابن ماجه في السنن كتاب الطلاق. باب طلاق السنة. حديث ٢٠١٩، ورواه الترمذي في السنن كتاب الطلاق واللعان. بَابُ مَا جَاءَ فِي طَلَاقِ السُّنَّة٢/ ٣٢٢.. الحديث رقم: ١١٨٦ وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، ورواه الإمام في الموطأ، برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن (كتاب الطلاق) - ١باب (١) طلاق السنة حديث ٥٥٣ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٦١، ٦٢.

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ النداء للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخُصَّ هو بالنداء ﷺ تعظيماً له.

قال القرطبي: الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿ طَلَّقْتُمُ ﴾ تعظيماً وتفخيماً والمعنى: يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء[1].

وقال الزمخشري: «... لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كذا وكذا، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه...»[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض، قال مجاهد: أي طاهراً من غير جماع لقوله ﷺ: (... لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[3].

وقال الخازن: « أي لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها، وتحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة»[4].

وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدةُ فتتضرر، ولأن حالة الحيض قد تكون سببا في نفور الزوج، فيتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، ولعل الزوج إذا تمهل حتى يتحرَّى السنة في تطليق زوجته فلربَّما تنقشعُ سحابةُ الهجر والخصام

(١) **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٨/ ١٨٤.

(٢) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** للزمخشري ٤/ ١١٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير بَاب -باب: تفسير سورة الطلاق. الحديث رقم ٤٦٥٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٢٣، ٣٢٤.

(٤) **لباب التأويل فى معاني التنزيل** للإمام الخازن ٦/ ١١٧.

وتشرق شمسُ الصفا والوئام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي اضبِطُوها وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ كاملة؛ لئلا تختلط الأنساب.

والخِطَابُ للأزواج، وقيل: للزوجات، فضبطُ العدة مسؤوليةٌ مشتركةٌ بين الزوج والزوجة، لما يترتب عليها من أحكامٍ تتعلق بهما.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ ﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي الجمع بين لفظ الجلالة ووصفِهِ تعالَى بربوبيتِهِ لهم: تأكيدٌ للأمر ومبالغةٌ في إيجابِ الاتقاءِ وإشعارٌ بالهيبة والإجلال والعظمة والإحسان.

﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنهن، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن.

﴿ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقةُ عملاً قبيحاً كالزنا فتخرج لإقامة الحد عليها، نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأةَ المطلَّقةَ من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيتُ خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، أما الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها وقيل إنه سوء الكلام مع الأصهار وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى.

قال ابن عباس: الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها فيحلُّ إخراجها لسوء خلقها.[١]

قال الإمام الطبري: « والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرق والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأي ذلك

(١) يراجع: معالم التنزيل للإمام البغوي ٨ / ١٥٠.

فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها»[(١)].

وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة[(٢)].

ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، يدل على ذلك أن رجالاً استُشْهِدوا بأحد، فقالت نساؤهم نستوحشُ في بيوتِنا، فأذنَ لهنَّ رسولُ الله ﷺ أن يتحدثنَ عند إحداهنَّ، فإذا كان وقتُ النومِ تأوي كلُّ امرأةٍ إلى بيتِها[(٣)].

وأذن رسولُ الله ﷺ لخالة جابر وقد كان طلقها زوجُها أن تخرج لجذاذ نخلها: فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ قال: طُلِّقَتْ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تَجُدَّ نَخْلَهَا، فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «بَلَى فَجُدِّي نَخْلَكِ، فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفاً»[(٤)].

قال صاحب الظلال: «والحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا وهي في بيته! أو تؤذي أهله، أو تنشز عليه، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة، واستجاشة المودة الدفينة،

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٢٣ / ٤٤٠.

(٢) لباب التأويل فى معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١١٨ .

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٣٦، ورواه عبد الرزاق في المصنف ٧ / ٣٢ حديث ١٢٠٦٨ ١٢٠٦٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق. باب جواز خروج المعتدة البائن، والمتوفى عنها زوجها، في النهار، لحاجتها ٢/ ١١٢١ حديث ٥٥ - (١٤٨٣) ورواه أبو داود في السنن أبواب الطلاق باب في المبتوتة تخرج بالنهار - ٢/ ١٥٦ الحديث رقم: ٢٢٩٧، ورواه النسائي في السنن ٢٧ ـ كتاب الطلاق. ١٧٦٨ ـ باب خروج المتوفى عنها بالنهار ٦/ ١٥١ الحديث رقم: ٣٥٥٠، وابن ماجة في السنن كتاب الطلاق باب هل تخرج المرأة في عدتها ٣/ ٢٢١ الحديث رقم: ٢٠٣٤.

ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة، فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها!»[1].

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه، وأضرَّ بها وأخلَّ ببعض حقوقها.

وفي هذا تشديدٌ لكل من يتعدى حدود الله تعالى التي حدَّها في أمر الطلاق، من ذلك طلاق المرأة في حيضها أو في طهر جامعها فيه، وإخراجها من بيتها بغير حقٍّ وفي غير ذلك من المخالفات التي نهت عنها الشريعة، فتلك حدود الله لا يتجاوزها ولا يتعداها إلا من ظلم نفسه فعرَّضها لسخط الله تعالى وأوردها موارد الهلاك.

أما من يقيم حدود الله ويمتثل لأوامر الله ويجتنب ما نهى عنه فإنه يتعرض لرحمة الله ويحظى بلطف الله وينال ثمرة تقواه واستقامته.

﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾: لعلَّ الله يحدث في قلبه ما يغيِّرُ حاله، ويرغِّبُهُ في إبقاء زوجته وتقرُّ عينه بها، ويصلح الله بالها، ولعلَّ اجتماعهما تحت سقف واحد يؤلِّف القلبين وقد قيل:

وأقربُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنتِ الخيامُ من الخيامِ

فالأمر الذي يحدثه الله: أن يقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها، وتهبُّ نسائمُ المودَّة من جديد، وترجع طيور الحب للتغريد، في هذا البيت السعيد.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٥.

تـعـالـوا بـنـا حـتـى نـعـودَ كـمـا كنَّا   فما عهدُنا خنتُم ولا عهدَكُم خُنَّا
ونطوِي بساطَ العُتْبِ والهَجْرِ والجفَا   ونَرْمِي الأَسَى والبينَ ليتَ الأسى يفْنَى
عسى أنْ يعودَ الشملُ والحـالُ مثلَما   عَهِدْنَا وعـودُ الوصلِ أثـمارُهُ تُجْنَى
ويُـنْـشِـدُ حـادِي الحـيِّ عنَّا مُـتَـرْجِـماً   ألا لا أعـادَ اللهُ بـيـتـاً نَـأَى عنَّا
أأحبابَنَا طيبوا فلم يـكُ مـا مَـضَى   سُـوَى حُلُم كاللفظِ ليس له معنى
فـلا طـالَ هـجَّـانٌ ولا ثَـمَّ عـاذلٌ   ولا سَـهَـرَ المشـتـاقُ ليلا وقـد حنَّا
ولا كـان مـا قلتُم ولا كـان مـا قلنا   ولا بنتمُوا عنا ولا عَنْكُمُو بِنَّا

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ ﴾.

هذه حدودُه تعالى التي حدَّها لعباده رعايةً لحقوقهم وتحقيقا لمصالحهم، ومن تجاوز هذه الحدود وتعداها فقد ظلم نفسه قبل أن يوقع الظلم بغيره.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي فإذا شارفت المطلقة المعتدة على انقضاء عدتها وقاربت ذلك فالخيار للزوج فيها إن شاء أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بإحسان ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي فراجعوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتُهن فيملكن أنفسهن.

والإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتوفيةُ النفقة، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط، مع توفية جميع حقوقها.

﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾أي وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة، شخصين من أهل

العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما، والإشهاد ليس شرطا لصحة الفراق أو الرجعة بل هو مندوب « احْتِيَاطاً لَهُمَا وَنَفْياً لِلتُّهْمَةِ عَنْهُمَا إذَا عُلِمَ الطَّلَاقُ وَلَمْ يُعْلَمْ الرَّجْعَةُ أَوْ لَمْ يُعْلَمْ الطَّلَاقُ وَالْفِرَاقُ، فَلَا يُؤْمَنُ التجاحُدُ بَيْنَهُمَا »[١].

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ أي اشهدوا بالحقِّ دون تحيُّز لأحد، مبتغين بذلك وجه الله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ أي هذا الذي مرَّ من الأحكام، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾: حضٌّ على التقوى في سائر الأحوالِ، ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق، والمعنى ومن يتق الله فيطلق للسنة ولم يضارّ المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ من الهموم والكروب والكُربِ والمِحَن.

قال الإمام البيضاوي: « وعدٌ لعامة المتقين بالخلاص عن مضارِّ الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون»[٢].

وقال صاحب الظلال: «﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.. مخرجاً من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقاً من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقريرٌ عام، وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون ربَّهم في هذا الشأن بصفة خاصة، وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير»[٣].

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ

(١) أحكام القرآن للجصاص ٥ / ٣٥٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٣/ ٤١٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٨.

﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾: بعد انتهاء المحنة وانجلاء البلاء تأتي المنح والهبات والعِوَض والأعطيات، ويرزق العبد من حيث لا يحتسب.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾: من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمَّه، والأخذُ بالأسباب لا ينافي التوكل، لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب ويدع التوكل فالله تعالى حسبه وكافيه.

وفي هذا حض على التوكل وتأكيدٌ له، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكَّل على الله وحده ولم يعوِّل على سواه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي قد جعل الله لكلِّ أمرٍ من الأمور، مقداراً معلوماً وميقاتاً لا يتعداه.

قال القرطبي: «أي جعل لكلِّ شيءٍ من الشدة والرجاء أجلاً ينتهي إليه»[1].

وفي الآية: بيانٌ لوجوبِ التوكلِ عليهِ تعالَى، وتفويضُ الأمرِ إليهِ لأنَّه إذا علمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزقِ وغيرِه لا يكونُ إلا بتقديرِه تعالَى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى.

قال صاحب الظلال: «﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ ﴾.. فمجال الكيد في هذه العلاقة واسعٌ، ومسالكُهُ كثيرةٌ، وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد! فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة، والتوكل على الله، وهو كافٍ لمن يتوكل عليه. فالله بالغ أمره. فما قدر وقع، وما شاء كان؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر، وقوة القاهر، الفعال لما يريد، البالغ ما يشاء... ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾: فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً. في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته.. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني...

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٦١.

وذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفترته، والعدة ووقتها، والشهادة وإقامتها. ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة، والناموس الكلي العام. ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله»[(١)].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

المناسبة واضحة بارزة حيث جاء الحديث عن بعض أحكام الطلاق وآدابه.

الهدايات المستنبطة

* إباحة الطلاق عند الضرورة الملحة إليه.
* الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة، وكذلك في الطهر الذي وقع فيه جماعٌ.
* لو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه عمداً عصى الله تعالى ووقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر رضي الله عنهما بالمراجعة فلولا وقوع الطلاق لم يأمره بالمراجعة.
* السنة في الطلاق أَن يكون في طهر لم تمسَّ فيه المرأَة.
* الحث على إحصاء العدة لما يترتب على انقضائها من أحكام، قال ابن العربي رحمه الله: « الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ مَنْ الْمُخَاطَبُ بِأَمْرِ الْإِحْصَاءِ ؟ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُمْ الْأَزْوَاجُ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ الزَّوْجَاتُ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ.
* وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا اللَّفْظِ الْأَزْوَاجُ؛ لِأَنَّ الضَّمَائِرَ كُلَّهَا مِنْ { طَلَّقْتُمْ } { وَأَحْصُوا} و{ لَا تُخْرِجُوهُنَّ } عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إلَى الْأَزْوَاجِ، وَلَكِنَّ الزَّوْجَاتِ دَاخِلَةٌ فِيهِ بِالْإِلْحَاقِ بِالزَّوْجِ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ يُحْصِي لِيُرَاجِعَ، وَيُنْفِقَ أَوْ يَقْطَعَ، وَلِيُسْكِنَ أَوْ يُخْرِجَ، وَلِيُلْحِقَ نَسَبَهُ أَوْ يَقْطَعَ. وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَتَنْفَرِدُ الْمَرْأَةُ دُونَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ يَفْتَقِرُ إلَى الْإِحْصَاءِ لِلْعِدَّةِ لِلْفَتْوَى عَلَيْهَا وَفَصْلِ الْخُصُومَةِ عِنْدَ الْمُنَازَعَةِ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٠.

فِيهَا؛ وَهَذِهِ فَوَائِدُ الْإِحْصَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ»[١].

* النهيُ عن إخراجِ المعتدةِ من بيتِ زوجِها إلا بعد انقضاءِ العدةِ ما لم تأت بأمر يستوجب ذلك.
* إذا قاربت المعتدة الانتهاء من العدة فيجب على الزوج مفارقتها أو إمساكها مع مراعاة العدل والإحسان.
* الحثُّ على الإشهاد على الرجعة والطلاق، وذلك بشاهِدَيْ عدل من المسلمين.
* قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾: فيه أمر بإقامة الشهادات عند الحكام على الحقوق كلها؛ لأن الشهادة هنا اسم للحبس وإن كان مذكوراً بعد الأمر بإشهاد ذوي عدل على الرجعة؛ لأن ذكرها بعده لا يمنع استعمال اللفظ على عمومه، فانتظم ذلك معنيين: أحدهما: الأمر بإقامة الشهادة، والآخر: أن إقامة الشهادة حق لله تعالى، وأفاد بذلك تأكيده والقيام به».
* تقوى الله سبحانه وتعالى بابٌ من أبواب الفرج ومفتاحٌ للرزق والعطاء.
* وجوب التوكل عليه تعالى في جميع الأحوال، والتفويض له عند الشدائد، والتسليم بقضائه وقدره، فإن من توكل على الله كفاه، ومن لم يتوكل وكَّله إلى عجزه وهواه، عَنْ أَبِي تَمِيم الْجَيْشَانِيِّ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِماصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً)[٢].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ٣٧٨.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٣) رقم (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن ماجه (٢/ ١٣٩٤) رقم (٤١٦٤)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩) رقم (٧٣٠).

من الأحكام المترتبة على الطلاق

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧ ﴾ [الطلاق: ٤ – ٧].

المناسبة

هذه الآية متصلة بما قبلها من حيث بيان ما يتعلق بالطلاق من أحكام العدة، فضلا عما ورد في هذا الشأن في سورة البقرة فهي متممةٌ لما ورد هناك، كما ترشدُ الآيات إلى بعض حقوق المطلقات.

سبب النزول

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ " أَنَّ نَاساً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَمَّا أُنْزِلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ عِدَّةٌ لَمْ تُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ: الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ اللائِي قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُمُ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْحَمْلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ الْقُصْرَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾، إلى آخر الْآيَةَ»[1].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم – ١٠ / ٣٣٦٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٢٣٩ إلى إسحق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب جامع البيان للطبري ٢٣ / ٤٥٠ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٠ والمستدرك للحاكم كتاب التفسير باب تفسير سورة الطلاق حديث ٣٧٨٠.

التفسير الإجمالي

من أحكام العدة

قال تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ بيَّن تعالى عدة المرأة التي يئست من المحيض لكبر سنها وكذلك من رابها الأمر من البالغات مبلغ اليأس، وقد نزل الدمُ فلا تدري أهو دم حيض أم استحاضة ؟ وكذلك من لا تحيض إما لعدم بلوغها أو لطبيعةٍ فيها: فعدتهن ثلاثة أشهر، ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾، أما الحامل فعدتُها تنتهي بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو مات عنها زوجها، ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ فالحاملُ سواءً كانت مطلقةً أو متوفًّى عنها زوجُها، عدتُها بوضع الحمل.

وفي الصحيحين من حديث سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الأَسْلَمِيَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ، وَهْوَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهْيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ - فَقَالَ لَهَا مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ تُرَجِّينَ النِّكَاحَ فَإِنَّكِ ! وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي.[1]

وفي رواية لمسلم بسنده... عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: إِنَّ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةَ نُفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه واللفظ له كتاب «المغازي - باب فضل من شهد بدراً» حديث ٣٧٧٠ ورواه مسلم في صحيحه « كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل» حديث ٥٦ - (١٤٨٤).

زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، وَإِنَّهَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ.. »[١].

وهذا من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدَّر لها هذه المدةَ اليسيرةَ رحمةً بها وتخفيفاً عليها ورعايةً لها[٢].

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ ﴾

فهذه الأحكام أوامرٌ من الله، أوجبها لما فيها من الخير والصلاح، ومن يتق الله ويراعي تطبيق هذه الأحكام يكفر الله تعالى له ما سلف من ذنوبٍ ويعظم له الأجر والثواب.

قال الإمام النيسابوري: « ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حثَّ على التقوى في هذه السورة ثلاثَ مراتٍ: بقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء: **الأول**: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها، **الثاني**: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً، **الثالث** أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء، ثم حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى: **الأولى** ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء الغنيّ عن كل شيء الجواد بكل شيء إذا فوض عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة، **الثانية** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾ أي يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب، **الثالثة** ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كلٌّ منهما بيانٌ لوجوب التوكل عليه؛ لأنه إذا علم كونَه قادراً على كل شيء، وعلِمَ أنه قد بيّن وعيّن لكل شيء حدّاً ومقدَّراً لم يبقَ إلا التسليمُ والتفويضُ»[٣].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل حديث ٥٧ - (١٤٨٥).

(٢) لمزيد بيان حول حقوق المطلقة والأرملة يراجع كتاب حقوق المرأة في السنة.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري ٧ / ١٧٥

من حقوق المطلقة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق ٦-٧].

ما زال الحديث موصولا حول ما يتعلق بالطلاق من أحكام وما يترتب عليه من واجبات، وفي هذه الآية الكريمة بيانٌ لما يجب للمعتدة من طلاق رجعيٍّ: النفقة والسكنى على الأزواج، وهو إسكانها في الموضع الذي يسكن فيه الزوج بقدر سعته وطاقته، ونهيٌ عن مُضارَّتها في السكن لإلجائها إلى الخروج منه، أما الطلاقُ البائن: فإذا كانت المطلقةُ حاملا فلها النفقة والسكنى، حتى تضع الحمل، فإذا أرضعت ولدها استحقت الأجر على ذلك، وهذا من رحمة الإسلام بها، فالمرضع تحتاج إلى رعاية صحية وغذائية، لذا أوجب الله تعالى على الرجلِ إعطاء الأجرة لمطلقته على إرضاعها لولدهما رعايةً لحقِّها وحقِّ الطفلِ.

كما أمر الله الآباء والأمهات بالتشاور في شؤون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والخلقية والتربوية والتعليمية وغيرها؛ من باب التناصح والتعاون على الخير.

قال تعالى ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال الخازن: «﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقيل يتراضى الأب والأم على أجرٍ مسمى، والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، وقيل المعروف هاهنا أن لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حق الولد وإرضاعه»[1].

أما إذا لم يحصل وئامٌ واتفاقٌ بين الأبوينِ في تحديد الأجرة فليس للأب إكراه الأم على

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١٢٠.

الرضاعة إن أبت إرضاع ولدها، بل يستأجر مرضعة أخرى، فإن لم يجد أو عجز عن إعطاء الأجرة لزم الأمَّ إرضاعُ ولدها حفاظا على حقه في الحياة، قال تعالى ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في حق الولد وأجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه.

﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي فليستأجر لولده مرضعةً غيرها، وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسترضعْ لولده مرضعةً أُخرى « إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها، ومثل الزوج في حالها وغناهما»[١].

قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيفٌ كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[٢].

قال الضحاك: إِن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[٣].

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾: بيانٌ لقدر الإِنفاق والمعنى: لينفقْ الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وُسْعِهِ وطاقته، وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يكلَّف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة، بل لا بدَّ من الاعتدال والموازنة بين الحقوق.

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ أي ومن ضُيّق عليه رزقه، فكان دون الكفاية﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ أي فلينفق على مقدارِ طاقتِهِ، وعلى قدرِ ما آتاه الله من المال ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ أي لا يكلف الله أحداً إِلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٦ / ٣٧٣ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١٠/ ٢٠٥.

(٣) يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٦٩، ورواه الطبري في تفسيره عن السدِّي جامع البيان ٢٣/ ٤٦٢.

الغني، قال أبو السعود: « وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك الوعد بقوله﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي سيجعل الله بعد الضيقِ الغنى، وبعد الشدةِ السعةَ والرخاءَ، وفيه بشارةٌ للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم»[1].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

الآيات متعلقةٌ بما يترتب على الطلاق من حقوقٍ وواجباتٍ حيث بينت عدة المطلقة إذا كانت صغيرة أو لا تحيض أو يئست من المحيض، وكذلك عدة الحامل، كما بينت الآيات حق المطلقات في النفقة والسكنى والأجرة على الإرضاع، فالمطلقة الرجعية لها السكنى والنفقة والمطلقة طلاقا بائنا لا سكنى لها إلا إذا كانت حاملا فلها النفقة والسكنى حتى تضع الحمل، ولها الأجرة على الإرضاع إن أرضعت.

الهدايات المستنبطة

* بيان عدة المرأَة المطلقة الآيسة من الحيض والتي لم تحض وهي ثلاثة أَشهر.
* انقضاء عدة الحامل المطلقة أو المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل.
* الحثُّ على تقوى الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور؛ فهي السبيل إلى تيسير كل عُسْرٍ وتسهيلِ كلِّ صعبٍ، وتفريجِ كلِّ كربٍ.
* وجوب الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه، ففي ذلك الصلاحُ والفلاحُ في الدارينِ.
* من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدَّر لها هذه المدةَ اليسيرةَ رحمةً بها وتخفيفاً عليها ورعايةً لها.
* حقُّ المعتدةِ من طلاقٍ رجعي في النفقة والسكنى على الأزواج؛ إذ لها الحق في النفقة، ولا نفقة بلا بيت، فيسكنها في بعض مساكنه أو يستأجر لها، على قدر طاقته ووسعه، مع تجنب

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ٨/ ٢٦٣.

مُضارَّتها في السكن؛ لإلجائها إلى الخروج منها.

* مراعاة الإسلام لحقوق الأمهات وحقوق الأطفال، من ذلك فرض نفقة المطلقةُ الحامل وأجرتها على الرضاع.
* جعل الله لكل شيء من الأشياء قدراً لا يتعداه، لا بزيادةٍ ولا بنقصانٍ.[1]
* قَوْله تَعَالَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾: هَذَا يُفِيدُ أَنَّ النَّفَقَةَ لَيْسَتْ مُقَدَّرَةً شَرْعاً، وَإِنَّمَا تَتَقَدَّرُ عَادَةً بِحَسَبِ الْحَالَةِ مِنْ الْمُنْفِقِ وَالْحَالَةُ مِنْ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ، فَتُقَدَّرُ بِالِاجْتِهَادِ عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ.
* يجب على الرجل أن يسكن مطلقتَه في حال عدتها من طلاق رجعي أو في مدة حملها إن كان طلاقها بائنا إذ لها الحق في النفقة ولا نفقة بلا بيت، فيسكنها في بعض مساكنه أو يستأجر لها، على قدر طاقته ووسعه.
* يجوزُ فطامُ الطفل قبل تمام الحولين ما لم يترتب على ذلك ضررٌ له.
* قال الإمام الجصاص: « وقَوْله تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الدَّلَالَةَ عَلَى أَحْكَامٍ: مِنْهَا أَنَّهُ إذَا رَضِيَتْ بِأَنْ تُرْضِعَهُ بِأَجْرِ مِثْلِهَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَبِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ غَيْرَهَا لِأَمْرِ اللَّهِ إيَّاهُ بِإِعْطَاءِ الْأَجْرِ إذَا أَرْضَعَتْ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَّ أَوْلَى بِحَضَانَةِ الْوَلَدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُجْرَةَ إنَّمَا تُسْتَحَقُّ بِالْفَرَاغِ مِنْ الْعَمَلِ وَلَا تُسْتَحَقُّ بِالْعَقْدِ؛ لِأَنَّهُ أَوْجَبَهَا بَعْدَ الرَّضَاعِ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾»[2].
* حرص الإسلام على تحقيق العدالة وإقامة التوازن بين جميع الحقوق والواجبات.
* ضرورة التشاور بين الزوجين في ما يتعلق بمصلحة الولد، فإنها مسؤوليةٌ مشتركةٌ بينهما حتى بعد فراقهما.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٧/ ٤٠٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٦٠.

* الائتمار بمعروف يشعر بأن للعرف دخلاً في ذلك كما هو تنبيه صريح أن لا يضار أحد الوالدين بولده وأن تكون المفاهمةُ بين الزوجين بعد الفرقة في جميع الأمور سواء في خصوص الرضاع أو غيره مبناها على المعروف والتسامح والإحسان وفاء لحق العشرة السابقة، ومن باب ولا تنسوا الفضل بينكم.

* من رحمة الله بعباده تكليفهم بقدر وسعهم واستطاعتهم.

عبرٌ وعظاتٌ

قال تعالى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ٩ – ١٢].

المناسبة

جاءت هذه الآيات مقررةً لما سبقها من أحكام في السورة الكريمة ببيان مصير من عتا عن أمر الله وخالف منهج الله وعطّل شرعته تعالى، فباء بالهلاك والخسران في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من عذاب شديد، وفي هذا ما يدعو للتأمل والاعتبار والإقبال على شرعة الله والامتثال لها.

قال الإمام الشوكاني: «لما ذكر سبحانه ما تقدّم من الأحكام، حذّر من مخالفتها، وذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحلّ بهم عذابه، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾»[1].

(١) فتح القدير ٥ / ٢٤٦.

التفسير الإجمالي

لما بين تعالى جملةً من أحكام الطلاق وما يتعلق به من أحكام، وما يستتبعه من حقوق وواجباتٍ، ذكر من العبر والآيات ما يقرر هذه الأحكام ويحثُّ على الالتزام بها، فحذَّر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده، وضرب الأمثال بالأمم السابقة الهالكةِ ممن نكبوا عن صراط الله، وانسلخوا عن شرعته وهداه، فقال﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم من قرى كثيرة ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ والحساب الشديد هو الاستقصاء والمناقشة، فلم تغتفر لهم زلة، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب فضلا عن جلائلها.

فعاقبناها على عصيانها وطغيانها بألوان شتى من أليم العذاب، من الجوع والقحط والخوف والهمِّ والأوبئة والأمراض، وتسلط الأعداء، وغير ذلك ﴿ وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله.

﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ أي وكانت نتيجة عتوِّها وتمردها الهلاك والدمار، والخسران الذي ما بعده خسران..

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فليحذر كلُّ مخالفٍ لشرع الله، وليحذر أولئك المعادون المناوئون لمنهج الله.

ولمّا ذكر ما حلَّ بالطغاة والعصاة من العذاب العاجل والآجل: أمر الله عباده المؤمنين بتقواه والاعتبار بعاقبة العاتين عن أوامره ورسله، فقال ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فاللبيب الأريب هو من اتعظ بغيره،﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحياً يُتْلَى، وهو القرآنُ الكريم فهذه التشريعاتُ الربانية التي اشتمل عليها القرآن يتلوها المؤمنُ دائما ويستحضرُ معانيَها ومقاصدَها.

﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي هذا الوحي يتلوه عليكم رسول الله، آياتٌ من عند الله، واضحاتٌ جلياتٌ، تبيِّن الحلال والحرام، وتفرِّق بين الحق والباطل والهدى والضلال.

﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يدخله في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها ورياضها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي ماكثين في تلك الجنان أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون.

﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ أي قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع، قال الطبري: « قد وسع الله له في الجنات رزقاً، يعني بالرزق: ما رزقه فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعدّ لأوليائه فيها، فطيَّبه لهم»[1].

وفيهِ مَعْنَى التفخيم والتعظيمِ لما رزقَهُ الله المؤمنينَ من الثوابِ.

ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله، فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ بـ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾المثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف، « قال الجمهور: المثلية في العدد: أي مثلهن في كونها سبع أرضين»[2].

روى الإمام الطبري في تفسيره والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهما عن أبي ذر ﷺ أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي: فقال (يا أبا ذرّ ما السمواتُ السَّبعُ، والأرضونَ السبعُ عندَ الكرسيِّ إلا كحلقةٍ مُلْقَاةٍ بأرضٍ فلاةٍ)[3].

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٢٤٦.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري٢٣ / ٤٦٩.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١٠ / ٢٠٢.

ولكن هل المقصود طبقات الأرض أو كواكب أخرى بمثابة الأرض ؟ أم أنها القارات السبع، باعتبار كل قارة أرضا مستقلة ؟ الله أعلم بمراده، ولعل العلم الحديث يكشف لنا عن هذا المعنى القرآني المعجز.

﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي يتنزلُ وحيُ الله ويجري أمرُهُ وقضاؤُه بين السموات والأرضين.

﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي لتعلموا وتوقنوا بكمال قدرته تعالى فيزداد المؤمنُ هيبةً وإجلالاً، وتعظيماً وتمجيداً لله تعالى ويقيناً بوعده تعالى وتسليماً بشرعه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ أي ولتعملوا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

ومعنى ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أن حكم الله وأمره يجري فيما بين السموات والأرض أو فيما يتركب منهما ولا يعلم تلك الأجرام ولا تلك الأحكام ولا كيفية تنفيذها فيهن إلا علام الغيوب.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

هذه الآيات الكريمة بما اشتملت عليه من حِكَم وتوجيهاتٍ وعبرٍ وعظات وآياتٍ نيِّراتٍ، سيقت لتقرير ما ورد في السورة الكريمة من أحكام شرعية.

الهدايات المستنبطة

* جاءت هذه الآياتُ بحكم بالغة ومواعظ بليغة ودلائل واضحةٍ؛ لتقرير ما جاء في السورة من أحكام، والترغيب في الامتثال لأوامر الله تعالى والترهيب من تعدي حدوده، وهكذا منهج القرآن الكريم في التشريع؛ يذيِّلُ آيات الأحكام بالقصص والأمثال والوعد والوعيد، والتذكير باليوم الآخر والدعوة إلى التقوى وزيادة الإيمان لتعظيم تلك الأحكام في النفوس وتحبيبها إلى القلوب وتحفيز الهمم إلى تطبيق شرع الله.

* التحذير من عاقبة المعطِّلين لشرع الله تعالى، المتجاوزين لحدوده، فكم عُطِّلت كثيرٌ من

أحكام الإسلام في كثير من البلدان بسبب كيد الأعداء وجهل الأبناء، فضُيِّعَت الحقوقُ واختلت الموازين، وسُلِبَ الأمن، وتأججت الصراعات وطالت النزاعات، وتعطَّلت المصالح، وتفككت الأسر، وانفرط عقد المجتمع.

* الاعتبار بأحوال ومصير الأمم والشعوب الناكبة عن منهج الله المعطلة لشرائع الله تعالى؛ فالسعيدُ من اتعظ بغيره، والشقيُّ من اتعظ بنفسه، وإنما ينتفع بالموعظة ويمتثل لها أصحابُ الإيمانِ الراسخِ والعقولِ النيِّرة.

* «بيانٌ لأصحابِ الرئاسةِ ورجال السياسة أن ضياعَ الدنيا بإضاعةِ الدين، وأن أمن القرى وطمأنينة العالم بالحفاظ على الدين»[1].

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ شرعي ومقصدٌ ضروريٌّ؛ لحماية الفرد والأسرة والمجتمع من الشرور والمفاسد، وتحقيق المصالح العاجلة والآجلة، والنهوض بالأمة والارتقاء بها إلى معالي الرتب[2].

---

(١) الحديث رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٣/ ٣٩٩ عن أبي ذر وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٢٨ ونسبه الى أبي الشيخ في العظمة ٢/ ٦٤٨/ ٥٩ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وأورده البغوي في معالم التنزيل ١/ ٢٣٩، ورواه ابن عساكر كما في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٣٥٦ والبيهقي في تهذيب الأسماء والصفات ص ٥١٠، ٥١١، ورواه ابن حبان في صحيحه كما في: موارد الظمآن حديث ٩٤ وأورده الألباني في الصحيحة برقم ١٠٩ - ١/ ٢٢٣.

(٢) يراجع في ذلك: كتاب يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر.

سورة التحريم

بين يدي السورة:

١- أسماؤها:

تسمى سورة التحريم.

وتسمى سورة النبي. [١]

وتسمى سورة (لم تحرم)

وتسمى سورة (اللِّم تحرم) بتشديد اللام. [٢]

والتسميتان الأخيرتان من قبيل تسمية السورة بأول كلمة فيها، ولا يشترط في ذلك ورود نص أو أثر عن الصحابة والتابعين.

٢- عدد آيات سورة التحريم اثنتا عشرة آية بالاتفاق.

وعدد كلماتها مائتان وسبع وأربعون كلمة، وحروفها ألف ومائة وستون حرفاً كحروف سورة الطلاق[٣].

٣- مرحلة النزول

سورة التحريم من السور المدنية، التي نزلت في مرحلة متأخرة، فقد ذكر في بعض روايات أسباب النزول ذكر أسماء لأمهات المؤمنين، ولم يكن رسول الله ﷺ بنى بهن إلا في مرحلة متأخر كزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي وجاريته مارية القبطية. رضوان الله عليهن جميعاً.

وكذلك ما ورد في كلام عمر بن الخطاب ما يتعلق باستعداد غسان لغزو المسلمين يدل على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٧٧. ونظم الدرر للبقاعي ٢٠/ ١٧٩.

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٥٥. وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨/ ٣٤٣.

(٣) منار الهدى للأشموني ص٢٨٤.

أنها نزلت في هذه المرحلة المتأخرة، فاحتكاك المسلمين بالقبائل والشعوب على أطراف الجزيرة العربية لم يكن إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. ففي هذه المرحلة كانت آيات الذكر الحكيم تنزل لتوطيد دعائم المجتمع الإسلامي في الداخل، وامتداد آفاق الدعوة الإسلامية إلى الخارج فنزلت سورة الجمعة والحجرات والطلاق والتحريم والتوبة....

٤- أسباب نزولها:

أ- روى الإمام البخاري في صحيحه - في عدة مواضع في كتاب التفسير:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيّنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير ؟

إني أجد منك ريح مغافير[١]، قال: ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [الآية : ٤].

ب- وردت روايات أخرى في سبب النزول منها ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره[٢] ولم تصح رواية منها كما يقول ابن كثير في تفسيره[٣] لذا نقتصر على ما ورد في الصحيح.

٥- المناسبات في سورة التحريم:

أ- المناسبات بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبات بين السورتين جلية فكلتا السورتين تتناولان مشكلات الزوجية وعلى الأخص

---

(١) مغافير: بغين معجمة، وفاء بعدها ياء وراء، جمع مغفور بالضم كعصفور، صمغ حلو له رائحة كريهة، ينفحه شجر يقال له: العرفط. بضم العين المهملة والفاء، يكون بالحجاز له رائحة كرائحة الخمر. انظر النهاية لابن الأثير ٤/ ٣٧٤.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٨/ ١٠٠.

(٣) تفسير القرآن للصنعاني ٢/ ٣٠٢.

مشكلة الطلاق وما يترتب عليها من تصرفات.

* فقد اختتمت سورة الطلاق بالنص على علم الله المحيط بما في السماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الطلاق١٢.

وافتتحت سورة التحريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ ﴾ [التحريم: ٣]، يقول البقاعي: «لما ختم الله تعالى الطلاق بإحاطة علمه، وتنزل أمره في الخافقين في تدبيره، دل عليه هذا بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي من خير النساء»[1].

* جاء في خاتمة سورة الطلاق الحث على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، وهو العمل وفق ما جاء به رسول الله ﷺ وهو طريق الفلاح والخروج من الظلمات إلى النور، حيث جاء النص الكريم﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [الطلاق ١١].

جاء في سورة التحريم الدلالة على بداية العمل الصالح وهو التوبة والالتزام بطاعة رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى:﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

* جاء في خواتيم سورة الطلاق النص على بعض مهمات الرسول ﷺ وهو التشريع للأمة في الحلال والحرام، وكفارة اليمين.. وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ [التحريم ١-٤].

ب - المناسبات بين مضمون سورة التحريم ومضمون سورة الطلاق:

* كلتا السورتين افتتحت بخطاب النبي ﷺ.

* كلتا السورتين اشتملت على أحكام تتعلق بالنساء قال أبو حيان: والمناسبة بينها وبين

---

(١) نظم الدرر ٢٠/ ١٧٩، ط الهند.

السورة التي قبلها: أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين.. ذكر هنا ما جرى من زوجات رسول الله ﷺ[1]، ويقول الفخر الرازي: «.. لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة..»[2].

* ورد في سورة الطلاق تحريم ما أحل الله بالطلاق وإنهاء خصومة بعض نساء الأمة، وهذه السورة في تحريم ما أحل الله من نوع آخر بالإيلاء، وإنهاء خصومة نساء النبي ﷺ وإفرادها بأحكامهن تعظيماً لهن[3].

* لما تحدثت سورة الطلاق عن الأحكام المترتبة على إيقاع الطلاق من: عدة ونفقة وسكن وإرضاع.. جاء في سورة التحريم التهديد بالطلاق لتعلم كل من شملها التهديد أن هناك مشكلات تنتظرها إن وقع عليها الطلاق، وفي ذلك تربية بالإيحاء، فمن أقسى الأمور على نفس المرأة تهديدها بالطلاق وتذكيرها بما يترتب عليه من هدم لعش الزوجية وتشريد وعوز للأولاد.

ج- المناسبة بين افتتاحية سورة التحريم وخاتمتها:

افتتحت سورة التحريم بأمرين واختتمت بإشارتين إليهما.

* الأمر الأول يقول البقاعي: وقد أتم سبحانه الأمثال في الآداب بالثيبات والأبكار الأخيار والأشرار فانعطف آخر السورة على أولها في المعاني والآداب، وزاد ذلك حسنا كونها في النساء في الذوات والأعيان بزواج النبي ﷺ لآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران في الجنة دار القرار السالمة عن الأكدار، الزواج الأبدي، فصار أول السورة وآخرها في أزواجه ﷺ[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٩ ط مكتبة النصر الحديثة، وانظر تفسير حدائق الروح لمحمد الأمين الهرري ٢٩/ ٤٢٥.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/ ٤١.

(٣) التفسير المنير للزحيلي ٢٨/ ٣٠٠.

(٤) نظم الدرر ٢٠/ ٢١٥.

- الأمر الثاني: افتتحت السورة بالحديث والتهديد للمتظاهرتين وهما قرينتا أحب خلق الله إلى الله. وأشارت الخاتمة إلى زوجي نبيين عندما خالفتاهما في العقيدة ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [الآية: ١٠].

فلن ينفعهما قربهما من الصالحين. وفي ذلك شارة وتهديد. يقول صديق خان (... يلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله فإن ذلك لا يغني عنهما شيئاً) [(١)].

د- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

حادثة تحريم رسول الله ﷺ العسل على نفسه بمعنى الامتناع منه إرضاء لزوجاته جعلت منطلقاً لبيان معالم وهدايات تتعلق بالأسرة، فعادة القرآن الكريم في كثير من المواضع، ذكر جزئية أو حادثة معينة، ثم الانطلاق منها أو التوسع في تربية الأفراد أو الجماعات على ضوء الحادثة الجزئية.

وسنورد مزيداً من المناسبات بين محور السورة ومقاطعها، وبين كل مقطع والمقطع السابق له عند الحديث عن المقاطع استقلالاً.

المقطع الأول (عتاب ومغفرة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [الآية: ١-٢].

تأتي عتابات الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في ألطف العبارات وأرقها، فقد جاء عتابه بشأن حادثة عبد الله بن مكتوم وعتابه في شأن أخذ الفداء من أسرى بدر بصيغة الغائب تجنباً

---

(١) حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة ص١٠٤.

للصدمة. وزاد إباحة الفداء مباشرة ووصف الأخذ بالحلال الطيب وختم العتاب بالنص على المغفرة والرحمة. وفي عتابه بعد إذنه للمنافقين بالتخلف يوم العسرة قدم ذكر العفو قبل ذكر العتاب تكريماً وتطميناً ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وفي هذا المقطع نجد العتاب بدأ بالنداء بوصف النبوة وفيه من التشويف والتطمين على أن ما يذكر بعد لا يؤثر على مقامه العالي فهو النبي المكرم. ثم يأتي العتاب في صيغة سؤال تلطف ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ثم ذكر السبب الدافع للتحريم ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

وهذا السبب غير معتبر في الامتناع وليس فيه مصلحة عامة ولا خاصة لأنه مبني على الغيرة بين الأزواج ولا اعتبار لها في التشريع. ومما خفف العتاب أيضاً هنا تذييل الآية بذكر المغفرة والرحمة.

المناسبة بين افتتاحية السورة ومحورها:

وافتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحور فرسول الله ﷺ وهو قدوة الأمة يعلم ويعاتب ولا يقرُّ على بعض اجتهاداته وفي كل ذلك معالم تربوية للأمة.

دروس وعبر من المقطع الأول:

أ- أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته مصدر تشريع للأمة لذا كانت المبادرة إلى تنبيه أن الامتناع عن المباح لغير مصلحة معتبرة سابقة تشريعية قد تؤدي إلى حرج الأمة. فكان الأمر بالرجوع عن هذا الموقف الاجتهادي.

ب-عظيم مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، ففي كل مقام هضم رسول الله ﷺ حظ نفسه إشفاقاً على من حوله، أو تواضعاً أو إيثاراً لرغبات غيره، تولى الله سبحانه وتعالى الدفاع عنه وعلمهم الأدب اللائق والتصرف الذي يتناسب مع مقام النبوة كما في افتتاحية سورة الحجرات، وتقديم الصدقة بين يدي نجواه في سورة المجادلة وعدم مناداته باسمه المجرد كما في سورة النور، وعدم إحراجه في بيته في أوقات راحته كما في سورة الأحزاب.

جـ-إن للكلمة في الإسلام وزنا، فلا ينبغي أن تخرج من فم صاحبها إلا ويعرف مكانها في ميزان الشرع هي له أو عليه، وباب الاستغفار والإنابة مفتوح لمن أراد الرجوع عنها، وإن تضمنت وعداً أو التزاماً في مستقبل الأيام كانت الكفارة والتحلل. كل ذلك يرفع من شفافية الكلمة عند المؤمن، يقول رسول الله ﷺ: من حلف على شيء ثم رأى خيراً منه فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير[1] ويقول: «أن المرء ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها سبعين خريفاً في نار جهنم»[2].

المقطع الثاني (إفشاء سر الزوجية وعواقبه)

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٣-٥].

المناسبة بين المقطع الثاني والذي قبله:

علاقة هذا المقطع بما تقدمه كالتفصيل للإجمال، فإن النفوس تتطلع إلى معرفة أسباب العتاب لرسول الله ﷺ، وتفاصيل ما جرى بينه وبين أزواجه.

المعنى الإجمالي للمقطع:

وكعادة القرآن الكريم في التركيز على جوانب معينة على الأحداث مما له شأن في التوجيه

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (١٦٥٠) كتاب الأيمان ٥/ ٨٥.
(٢) صحيح البخاري الحديث (٦١٣٣).

والتربية، نجد أنه أهمل الحديث عن الشيء الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه، كما أهمل ذكر الشيء الذي أسره إلى بعض أزواجه ولم يتحدث عن جوانب الحديث الذي عرف به والجانب الذي أعرض عنه، إنما كان التركيز على إيداع السر وإفشائه وإطلاع رسول الله ﷺ على ذلك وكشفه جوانب منه، ولم يستقص ترفقاً وتكريماً وإبقاءً.

- فما استقصى كريم قط - واستغراب المستكتمة قولها (من أنباك بهذا).

وكل ما ذكر هنا من نقاط موطن عظات وعبر ومنطلقات للتوجيه والتربية.

ثم يفتح باب التوبة للمتظاهرتين اللتين كانتا السبب المباشر في امتناع رسول الله ﷺ عن شرب العسل عند زينب بنت جحش وكان شيئاً يحبه رسول الله ﷺ، فعندما اتفقتا على حرمان رسول الله ﷺ من ذلك، فقد مالت قلوبهما إلى ما يكره رسول الله ﷺ وهذا الميل كاف لأن يوجه إليهما الإنذار والوعيد الشديد، فإن تابتا غفر الله وإن استمرتا على موقفهما من الإصرار على ما يكرهه رسول الله ﷺ، فإن الله في وصف رسوله وناصره ومع رسول الله جبريل وصالح المؤمنين بما فيهم أبوا المتظاهرتين والملائكة جميعاً. فهل لهم قبيل في المجابهة والعناد ؟!

ولم يكتف بالإنذار والوعيد للمتظاهرتين بالعقوبة الآجلة، بل جاء الوعيد بعقوبة عاجلة وهي الطلاق والاستبدال بهن خيراً منهن في الصفات الخُلقية والخِلقية. ولا شك أن من أعظم المصائب على المرأة وأشدها أثراً على نفسها إخراجها من عش الزوجية التي بنت لبناته من عواطفها، ونسجت خيوطها من ذكرياتها، وأشد من ذلك أن ترى أن غيرها حلت محلها في قلب زوجها واستمتعت بما كانت تستحوذه من مملكتها الخاصة.

ومن خلال التهديد بالاستبدال بهن أزواجاً خيراً منهن تأتي الصفات التي كانت سبب الخيرية فيهن: فهن مستسلمات لأوامر الله ورسوله، مؤمنات بما ينتظر المطيعات لأمر رسول الله ﷺ من المثوبة في الآخرة، مما جعلن يلتزمن الطاعة، وإن بدر منهن شيء ووقعن في التقصير، تبن إلى الله ورسوله وندمن على ما وقع منهن، وعدن إلى عبادته وهجرن المخالفات

والتقصير والتزمن النهج السوي. هذه صفاتهن المعنوية وأخلاقهن وزيادة في تكريم رسوله سيكون منهن البكر والثيب فالبكر أنقى أفواها وعروبة تتحبب إلى الزوج، والثيب أوسع خبرة في خدمة الزوج وتوفير الراحة له.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

ولاشك أن هذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة فقد اشتمل على أحكام وآداب وأساليب تربوية في غاية الجمال وستطرق إلى جملة منها في الدروس والعبر.

دروس وعبر من المقطع الثاني:

أ- قوام الحياة الزوجية على الثقة المتبادلة بين الزوجين، ومما يدعم هذه الثقة ويوط أركانها كتمان أحدهما لسر الآخر وعدم إفشائه. وعند وقوع ما يخدشها فالعتاب الرقيق والمحاسبة الجزئية على بعض المآخذ، كفيف بإعادة المياه إلى مجاريها ويجتنب الاستقصاء والإلحاف في المساءلة والمعاقبة (فما استقصى كريم قط).

١-الطلاق شديد الوقع على نفوس أهل البيت جميعاً، ولكن الطرف الأكبر ضرراً وتأثراً هي المرأة، فهي ترى في الطلاق هدم لعش الزوجية الدافئ، وتدمير لمملكتها وعرشها التي تتربع عليه، وقطع لوشائح المودة التي نسجت خيوطها من عواطفها ومشاعرها. ومما يضاعف التأثر والإزعاج لها إذا علمت أن أخرى ستحل محلها، وتكون خيراً منها وأقرب إلى قلب زوجها.

٢-تكريم أمهات المؤمنين باستخدام ألطف العبارات وأخفها عند تهديدهن بالطلاق والاستبدال حيث جاء التعبير بـ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ ودلالة عسى تفيد الترجي[1] أولاً ثم علق هذا الترجي بشرط - إن طلقكن - واستخدم في الشرط حرف - إن - وهو يفيد التشكيك بخلاف- إذا - التي تفيد تحقق الوقوع.

---

(١) يقول اللغويون كل (عسى) من الله تفيد تحقق الوقوع إلا في هذا الموضع.

٣-خير الأزواج ما توفر فيهن الصفات المذكورة في الآية الكريمة ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾.

فعندما هددت أمهات المؤمنين بالاستبدال بهن غيرهن خيراً منهن جاء تفصيل الخيرية في الصفات السبع التي ذكرت في الآية وكلها صفات تدل على المستوى الإيماني الرفيع والأخلاق النبيلة وإيثار الآخرة على الفانية وكأنها تفصيل لما رغب فيه رسول الله ﷺ (فاظفر بذات الدين تربت يداك) [1].

المقطع الثالث (الرعاية مسؤولية ومكافأة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ﴾ [التحريم/ ٦-٩].

بعد التهديد والوعيد للمتظاهرتين إن لم تتوبا عما وقع منهما، يأتي في هذا المقطع الدلالة على طرق الوقاية من الوقوع في غضب الله وعذابه، وتذكر الأساليب التربوية المختلفة لحماية الأسرة والمجتمع من الانحراف والضياع. وهو أسلوب قرآني كثير الورود والدوران بأن تتخذ حادثة نقطة انطلاق للتعميم والتوسع لتشمل الهدايات الإسلامي بل والإنسانية كلها فمن حادثة المتظاهرتين إلى مخاطبة الكافرين والناس عامة.

---

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٤٨٠٢) كتاب النكاح ٦/ ١٢٣ وصحيح مسلم الحديث رقم (١٤٦٦)- كتاب الرضاع ٤/ ١٧٥.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد شبه الرسول ﷺ المسؤولين عن غيرهم بالرعاة، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...) [1]. وهو تشبيه في غاية الجمال والدقة.

فإن الراعي يرتاد لبهيمة الأنعام التي يرعاها المرعى الخصب وكذلك المؤمن الذي يحرص على وقاية أهله من النار فإنه يسعى عليهم بالكسب الحلال.

- من شأن الراعي أن يداوي مرضاها ويهنأ جرباها... وكذلك رب الأسرة مسؤول عن دفع الأذى عن أهل بيته يوفر لهم سلامة الأبدان والأديان ويرشدهم إلى الطريق القويم والسلوك المستقيم.

- والراعي يجنب غنمه المسبعة والمذأبة والمهلكة.. ورب الأسرة يجنب أهل بيته مصارع السوء ومباءة الرذيلة والمفاسد الخلقية والمزالق العقدية.

ويعطي المؤمن من نفسه القدوة والمثل الأعلى لأهل بيته في حسن الخلق والوقوف عند حدود الله ومحاسبة النفس والمبادرة إلى فعل الطاعات واجتناب المعاصي ويكون في حاجة الصغير مع الإشفاق عليه، ويكون في خدمة الكبير مع التوفير والاحترام له.

وأول من يراعي في التوجيه والتربية الأزواج فقد تعددت الآيات الآمرة بحسن العشرة لهن يقول عز من قائل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]. ويقول رسول الله ﷺ (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره

(١) صيحيح مسلم الحديث رقم (١٤٦٩). كتاب الرضاع/ ٤ ومعنى يفرك يبغض. النهاية ٣/ ٤٤١١.

منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر) [١].

وتأتي في المرتبة الثانية في الرعاية الأولاد، ولما كانت الشفقة على الأولاد تغلب على حال الوالدين جاء التحذير في أكثر من آية من التمادي في تغليب العاطفة على الحكم الشرعي والتوجيه السديد في حقهم.

يقول عز من قائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن: ١٤].

وعلى الأب أن يراعي التوازن بين مهام العمل، والعبادة، والتفرغ للأهل، فيعطي كل ذي حق حقه إن أهل البيت بحاجة للغذاء البدني والملابس للستر والزينة، فإنهم بحاجة إلى إشباع الجانب العاطفي من الحنان والاهتمام، وإلى تلبية حاجة الستر والعفاف، وعليه أن يرضي أنوثة الزوج بالتجمل لها كما يحب أن تتزين له. في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال له رسول الله ﷺ (... بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل فلا تفعل فإن لجسدك عليك حق حظاً ولعينك حظاً وإن زوجك عليك حظاً...) [٢] وكان هذا المنهج المتوازن معلوماً لدى صحابة رسول الله ﷺ كما ورد في حادثة مؤاخاة رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء[٣].

إن مسؤولية المؤمن عظيمة تجاه أهل بيته فهو مسؤول عن وقايتهم جميعاً من اقتحام حفرة النار التي تنتظر المنحرفين عن جادة الصواب. إنه مسؤول عن عباداتهم وأدائها على الوجه الصحيح، وعن سلوكهم واستقامته على النهج القويم، وعن أخلاقهم وحسن تعاملهم مع الآخرين.. إنهم أمانة في عنقه. وأي إخلال في المسؤولية والرعاية تعقبها محاسبة وجزاء يوم لا

---

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٨٥٣) كتاب الجمعة ١/ ٤١٥ وصحيح مسلم حديث رقم (١٨٢٩)- كتاب الإمارة ٦/ ٨.

(٢) صحيح مسلم الحديث رقم (١١٥٩) كتاب الصوم ٣/ ١٦٦.

(٣) انظر صحيح البخاري الحديث رقم (١٩٦٨) كتاب الصوم ٢/ ٢٤٣.

ينفع مال ولا بنون.

ومن لطائف الإشارات القرآنية أن يأتي بعد خطاب المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم تلك النار الهائلة المذهلة... أن يأتي خطاب الكافرين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ وكأن أي تفريط تجاه الأهل هو كفر أو من أعمال الكافرين. فإن وصل التفريط إلى حد رد شرع الله وإنكاره فهو كفر بواح، وإن كان التفريط في الأعمال مع بقاء الاعتراف بها شرع الله في حقهم فهو من أعمال الكفار. فإنهم يجازون على ما فرطوا في حق من استرعاهم الله وكلفهم بالقوامة عليهم.

ومن الأساليب القرآنية المطردة الجمع بين الترهيب والترغيب، فبعد أن هدد وأوعد من لا يجنب أهل بيته النار وأنهم على خطر الوقوع في الكفر، جاء الترغيب لمن يتدارك تقصيره ويرجع إلى هداية الشرع، ويجزم على إتباع الحق في رعاية الواجبات، والالتزام بالهدايات والقيام بالوفاء بالعهود والمواثيق، وما يترتب عليه، فجاء قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي ﴾إنه التكريم على ملأ، إنه النور الذي يشع من قلوبهم وجوارحهم التي استخدموها في الخير والعمل الصالح، ويختم هذا المقطع بتوجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ أن يتخذ الموقف الذي يتناسب مع كل حالة، فالمنافقون يحتاجون إلى غلظة من القول، وتحذير من العواقب ومجاهدة باللسان. أما الكفار فجهادهم بالدعوة إلى الله أولاً فإن أجابوا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن لم يستجيبوا، فعليهم الابتعاد عن طريق دعوة الله، وأن لا يكونوا عثرة في طريق انتشارها، فإن رفضوا فالجهاد بيننا وبينهم بالقتال. والمؤمن في سعيه في ذلك لا يكون يرجو إلا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة أما هم فليس لهم إلا الخذلان في الدنيا أو في الآخرة ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

إن هذا المقطع يشكل العمود الفقري في السورة والعنصر الأساسي في محورها كما سنلقي مزيداً من الضوء على ذلك من خلال الدروس والعبر.

دروس وعبر من المقطع الثالث:

- عظم مسؤولية تجاه من استرعاهم الله سبحانه وتعالى إياه. وعليه أن يحرص على مصلحتهم الدنيوية والأخروية حرصه على مصلحته الخاصة. ولا يكفيه صلاح نفسه ووقايتها من النار فمن شروط وقايتها من النار العمل على ما يقي أهله من النار أيضاً، وربما كانوا سبباً في إقحامه جراثيم جهنم لعدم رعايتهم كما أمر الله وترك الحبل لهم على الارب في العقائد والأخلاق والسلوك.

١- من الأساليب التربوية المطردة في القرآن الكريم عدم التيئيس من رحمة الله وفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب ومهما كان البعد الطريق القويم بل ويبرز فرح ربه بعودة الآبق المتمرد إلى حظيرة الطاعة. فعن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب ليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو به قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[1].

٢- من شروط التوبة النصوح التي قال الله سبحانه وتعالى عنها ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان/ ٧٠].

- الإقلاع عن الذنب.

- الندم على فعله.

- العزم على عدم العودة إليه. وإن بحق آدمي فعليه أن يبرأ من حق صاحبه.

إن رحمة الله واسعة فلا ييأس مذنب من رحمة ربه ومتى صدق التوجه إلى ربه وجده تجاهه

(١) مسند أحمد الحديث رقم (١٩٥٤٧) وصحيح مسلم الحديث رقم (٢٧٥٩) كتاب التوبة ٨/ ١٠٠.

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها[١].

٣- من الأساليب التربوية الإشارة والتكريم على ملأ، فإن القيمة المعنوية للمكافأة أو الجائزة قد تكون أعظم من قيمتها المادية. فالتكريم على ملأ من وجهاء الناس يشعر المستحق للجائزة بمزيد من الاحترام والتقدير. هذا ما نستشفه من مكافأة التائبين المنيبين إلى ربهم، فلم يكتف بتكفير السيئات لهم، وإدخالهم الجنة، وإنما يأتي هذا التكريم في موكب كريم مهيب يشهده الأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، على قدر إيمان كل منهم. وما أن يقتربوا من أبواب الجنة حتى تستقبلهم الملائكة بالحفاوة والتكريم ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

إنها السعادة الآخروية التي لا تضاهيها سعادة.

٤- من الأساليب التربوية الغلظة أحياناً على من يرعاهم ويوجههم. وعدم الانسياق مع رغباتهم وتلبية مطالبهم، فإن الإكثار من التلطف معهم يجعلهم يتطلعون إلى الإكثار من المباحات بل والتجاوز إلى المكروهات والمحرمات وأسلوب الغلظة يتناسب مع الشخص والفئة التي تحتاج إلى الموعظة والتوجيه.

- فالأسلوب المتبع مع الأهل - الزوجة والأولاد - الترغيب والترهيب والموعظة الحسنة ولو بتقديم الهدايا والمنح.

- والأسلوب المتبع مع المنافقين التخويف بالنار والإنذار والغلظة في القول ببيان سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

- والأسلوب المتبع مع الكفار المستأمنين وأهل الذمة بالدعوة تارة، ورعاية مصالحهم

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١١٣) رقم (٩٥٧٢).

أحياناً ومجادلتهم بالحكمة والموعظة الحسنة كثيراً.

- والأسلوب المتبع مع الكفار المحايدين بالدعوة والحجج والبراهين.

- والأسلوب المتبع مع الكفار المحاربين الدعوة ثم التخيير بين الجزية والقتال.

إن المربي الحصيف يستخدم الوسيلة الأمثل للوصول إلى التأثير في نفس المخاطب.

المقطع الرابع (العظات والعبر من سير الأقدمين)

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [١٠-١٢].

المناسبة بين المقطع الرابع والذي قبله:

يأتي هذا المقطع بعد التهديد والوعيد والأمر بالغلظة على الكفار والمنافقين، وربما توهم بعض الكفار الذين كانت لهم قرابات بالمسلمين أنها تنفعهم، كما أن للمسلمين قرابات مع الكفار فربما توهموا أنها تضرهم، فضرب لكل طائفة مثلاً.

المعنى الإجمالي للمقطع:

إن مبدأ المسؤولية في الإسلام فردية ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]. إن لم يكن الفرد سبباً في تصرفات الآخر، فإن النسب لا يقدم ولا يؤخر إذا خالفه الاعتقاد والعمل. إن القرب من الصالحين مع مخالفة المعتقد لا ينفع، وكذلك الاقتران بالسيئين لا يضر ما دام لا مودة ولا ولاء يجمعهما.

وقد سيق مثلان من قصص الأقدمين على ذلك، فامرأة نوح ﷺ خانته في العقيدة ولم تؤمن به وكانت عوناً لقومها على تسفيه رأيه بل أثرت على تربية ولدها ليتمرد على أبيه فلا يركب معه السفينة. ولا شك أن دور المرأة ذو أثر فعال في التربية داخل البيت وذو تأثير على المدعوين من خارج البيت، لأن الناس البعداء يقولون لو كان هذا الداعي صادقاً لصدقه أهل بيته فهم أعلم الناس به.

ونظيرتها امرأة لوط التي كانت تدل على أضياف زوجها وتخبر القوم عنهم فلم تحافظ على أسرار البيت التي انتسبت إليه.

وفي ذكر هاتين الامراتين تنبيه مبطن للمتظاهرتين وتحذير لهما من الاغترار بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي ﷺ. فعن مقاتل: يقول الله سبحانه وتعالى لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم، فالله يحقق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنها زوجة نبي[1].

ومن المهم الالتفاف إلى أن خيانة الامرأتين لم تكن خيانة زنا وإنما خيانة في الدعوة والعقيدة فنساء الأنبياء معصومات عن الفاحشة لعصمة الأنبياء وحرمتهم، كما ورد عن ابن عباس وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم. ولا يقال كيف يصح الزواج بكافرة على غير دين الزوج ؟ فإن في شريعتنا جواز التزوج بالكتابيات وهن كافرات ومصيرهن إلى النار في عقيدتنا إن متن على ملة النصرانية أو اليهودية.

والمثل الثاني الذي ضرب في هذا السياق لامرأتين، الأنموذج الأول امرأة فرعون التي تجسد في شخصيتها الشموخ والتسامي عن ملذات الدنيا ومتعها وأبهتها، وركلت كل ذلك برجلها وضحت في سبيل عقيدتها بالدنيا وما فيها لتظفر بها عند الله ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) انظر التحرير والتنوير باختصار ٢٨/ ٣٧٤.

يقول رسول الله ﷺ كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[1].

والنموذج الآخر الذي ضرب به المثل من النماذج الحسنة مريم ابنة عمران عليها السلام إنها تمثل أنموذج الفتاة الصالحة التي نشأت في بيت الطاعة وفي بيئة صالحة في كنف نبي من أنبياء الله تعالى زوج خالتها نبي الله زكريا عليه السلام حيث قام بكفالتها ورعاية شؤونها. إنها مثال النبل والطهر والعفاف والتقوى منذ نعومة أظفارها فكان تكريم الله تعالى أن يجعلها وابنها آية للناس ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١ ﴾ [الأنبياء/ ٩١].

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

إن أكثر مزالق المرأة بالمال والزينة والجاه والتباهي بالمكانة الاجتماعية أو تكون بشهوة الفرج والانسياق وراء الغريزة البهيمية في الجنس.

والأنموذجان الصالحان يمثلان المترفعات عن هذين المنزلقين فاستحقا التكريم وخلود الذكر والثناء إلى يوم الدين. فالمناسبة بين المقطع ومحور السورة واضحة وثيقة، حيث التربية بضرب المثل بالنماذج المنحرفة لاجتناب التشبه بها. وضرب بالنماذج الصالحة للإقتداء به.

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١- من الأساليب التربوية سوق النماذج الإنسانية التي تمثل فيها المبادئ والقيم، فالقضايا الفكرية إذا ذكرت بشكل نظري تأتي باهتة لا تثير الأحاسيس ولا تطلق المشاعر، وقد يظن أنها غير قابلة للتطبيق في واقع الحياة، ولكن إذا عرضت من خلال سيرة أناس تمثلوها في حياتهم وعاشوها واقعاً عملياً لا شك أنهم سيكونون قدوة لمن بعدهم.

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٣٥٥٨) كتاب الأنبياء ٤/ ١٣٢.

من يتصور أن تخون امرأة عقيدة زوجها وهي تعايشه ليلاً ونهاراً، والأصل فيها أن تكون مكمن سر الزوج ومستودع أماناته، وأن يجد الزوج عندها السلوة والعزاء في ما يلاقيه من عنت الناس وإيذائهم، ولكن صنفاً من البشر يبرز من خلال هذا الأنموذج السيء - امرأة نوح وامرأة لوط - لتتقرر الحقيقة الربانية: أن القرب من الصالحين لا ينفع من لم يهد الله قلبه للإيمان، فلا عبرة بالقرب المكاني أو النسبي ما لم يكن قرب في العقيدة والقلب. وبالمقابل إن مبادئ الرفعة والتسامي على متع الدنيا وزينتها وحطامها والرغبة في ما عند الله وإيثار الباقية على الفانية، تحفظ لأصحابها المكانة عند الله، ولا عبرة بالقرب من أهل السوء ما دام الفاصل الشعوري بعيداً عنهم. وكذلك معاني العفة والطهر والنبل والكرامة والتي تتمثل في الأنموذجين الصالحين، امرأة فرعون ومريم ابنة عمران. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢- إن في سير الأقدمين سلوة للدعاة في كل عصر. كثيراً ما يعيَّر الدعاة إلى الله بأبنائهم ونسائهم وأقربائهم، لأنهم لا يلتزمون دعوة ولي أمرهم، ويحمَّلون الداعية مسؤولية ذلك. نعم تكون مسؤولية عليه إن لم يبذل الجهد لإصلاحهم ولم يلتفت إليهم ولم يبين لهم الحق الذي يحمله للناس.

أما إذا بذل كل ذلك فلم يستجب له فلا ملامة عليه. وهذا نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل، ولوط عليه السلام نبي مرسل لم يستطيعا حمل أزواجهما على الهداية. ولئن كانت سيرة نبي الله نوح ولوط عليهما السلام غير معروفة لنا بالتفصيل فإن سيرة رسول الله محمد ﷺ مع عميه أبي طالب وأبي لهب معروفة بوقائعها فقد تحقق سنة الله وحكمته ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [القصص: ٥٦].

اخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ "يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة. فقال لولا أن تعيرني قريش، يقولون: ما

حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك»، فانزل الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[(١)] الآية.

إذن لا ملامة على الدعاة إن وجد في أسرهم من لا يلتزم دعوته، أو يحاربها، كما أنه قد يوجد في بيئة علم وصلاح من يغلب عليه الجهل والفساد فإن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

٣- دور المرأة في الدعوة وتحمل أعبائها وتمثل المبادئ في سيرتها الخاصة والعامة بارز في القصص القرآني، وفي أحداث سيرة رسول الله ﷺ وعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يلتفتوا إلى هذا العنصر الهام في الدعوة ولا يغفلوه.

لقد اتخذ أعداء الإسلام ما سموه حقوق المرأة ومساواتها بالرجل وغير ذلك من المزاعم مطية لمحاربة الإسلام وأهله، والآن يمارسون ضغوطاً هائلة على الحكام في بلاد المسلمين لتغيير ثقافة الأمة ومناهج التعليم، ومنطلقاتهم الأساسية في ذلك المرأة.

إن تهيئة المرأة المسلمة الداعية إلى الله، البصيرة بأحكام شرع ربها، الواعية لمخطط أعداء الإسلام السلاح الذي ينبغي أن تجابه به مخططات أعداء الإسلام.

وفي فتيات المسلمين ونسائهم من لا يقل وعياً وتضحية عن نساء السلف الصالح إن الأمر يحتاج إلى تخطيط وتوجيه لا غير.

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٥) وسنن الترمذي الحديث رقم (٣١٨٨).

الخاتمة

لم تحظ مؤسسة اجتماعية في المجتمع الإسلامي بما حظيت به الأسرة في القرآن الكريم ولا غرابة في ذلك فهي اللبنة الأولى التي يتكون منها صرح المجتمع الإسلامي. فمنها يستمد المجتمع قوته ونقاءه وصلابته، وضعفها يسبب ضعف المجتمع وتآكله وانهياره. فلا غرابة أن نرى آيات القرآن الكريم تساير تكوين الأسرة من يوم الاختيار والخطبة إلى توثيق عرى النكاح وبيان حقوق الزوجين، ثم التعرض للعلاقة بينهما وبين ثمرة لقائهما وهم الأولاد.

ويضع الحلول المناسبة للمشكلات التي تنشأ بين أفراد العائلة إلى أن تنتهي العلاقة الزوجية طلاقاً أو وفاة، ثم تصفى هذه العلائق بالحقوق المادية والمعنوية لكل فرد من أفرادها.

لقد عرضت لنا سورة التحريم أحداثاً وثيقة الصلة بالأسرة بل أحداثاً تتعلق بأطهر بيت وأشرفه، بيت هو مصدر تشريع الأمة لتأخذ الأمة العظات والدروس مما كان يجري لرسول الله ﷺ مع أمهات المؤمنين، وما كان يؤمرن به من توجيهات تجاه رسول الله ﷺ وهو قدوة الأزواج المؤمنين، والتوجيه إلى الإنابة إن وقع منهن ما يدعو إلى التوبة والاستغفار والتلويح لهن أن قربهن من رسول الله ﷺ لا يشفع لهن إن خالفهن هديه وتشريعه.

ومن تلك الحوادث الجزئية يكون التوجيه العام للمؤمنين وبيان مسؤوليتهم عمن استرعاهم الله من الأهلين، وذكر ما ينتظرهم من العقوبة في حال التقصير وما ينتظرهم من تكريم في حال قيامهم بمسؤولياتهم.

ثم بيان سنة الله سبحانه وتعالى في المسؤولية الفردية، فلا ينفع القرب من الصالحين ما لم تختلط القلوب بشاشة الإيمان، ولا يضر القرب من الطالحين ما دام القلب عامرا بحب الله ورسوله، وما دام صاحبه يتطلع إلى جوار ربه ويترفع عن سفاسف الدنيا وزينتها.

لقد عشنا مع سورة التحريم وأساليبها التربوية التي جمعت بين التصريح والتلميح وبين الوعد والوعيد والخوف والرجاء. وكل ذلك كان الهدف منه الأسرة الإسلامية وشؤونها.

سورة الملك

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة

ذكر العلماء أن من أسماء هذه السورة: الملك، وتبارك، والمانعة، والواقية، والمنجية، فاسمها الملك لأن الملك محل الخضوع من كل من يرى الملك وكذا تبارك، لأن من كان له تمام الثبات والبقاء له من كل شيء كمال الخضوع، وكذا اسمها الواقية، والمنجية، لأن الخضوع حامل على لزوم طريق السعادة ومن لزمها نجى مما يخاف ومنع من كل هول، ووقي من كل محذور[1].

ويدل على بعض هذه الأسماء ما ورد عن ابنِ عَبَّاسٍ أن النبي ﷺ قال: «هِيَ المَانِعَةُ هِيَ المنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[2].

ب. عدد آياتها

عدد آيات سورة الملك إحدى وثلاثون آية في المكي والمدني الأخير، وثلاثون آية في الباقين، واختلافها آية واحدة ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٩] في المكي والمدني الأخير[3] ففاصلة الآية تنتهي هنا عندهم واعتبروا قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ آية أخرى، ومن رأى أن الموضعين آية واحدة قال السورة ثلاثون آية.

---

(١) انظر أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، سنن الترمذي، أبو عيسى دار الكتب العلمية، بيروت، ٨/ ١٨٢، قال أبو عيسَى: هذا حديث حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(٣) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٠/ ١٥) وانظر محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (١٦/ ٤).

ب. مكان نزولها:

هذه السورة من السور المكية فقد نزلت في العهد المكي[1].

ج- فضائل السورة

وردت أحاديث متعددة في فضائل هذه السورة منها:

١-ما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حتّى غُفِرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»[2].

٢-ومنها ما روي عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ «أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا»[3].

د. محور سورة الملك

إن القرآن المكي غالباً ما يعالج إنشاء العقيدة، وسورة تبارك جزء منه.

فقد جاءت تُعنى بأصول العقيدة الأساسية وهي إثبات وجود الله وعظمته وقدرته على كل شيء[4] وعالجت إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقته بخالق الوجود وعليه فمفتاح السورة كلها ومحورها الذي تشد إليه الحركة فيها هو مطلعها الجامع الموحي ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ **وحقيقة القدرة تتفرع منها سائر الصور التي عرضتها السورة وسائر الحركات المغيبة**[5].

---

(١) انظر الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٢٥٧).
وانظر أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، (١٠/ ٢١٩).
وانظر محمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٩/ ٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، سليمان بن الأشعث، سنن أبي دوود، (٢٥٤١).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ/ باب ما جاء في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

(٤) انظر الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٦).

(٥) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق بيروت، (٦/ ٣٦٣٢).

إذن فقد جاءت سورة الملك تقيم الحجة على الكفر وأهله مبينة كمال قدرة الله تعالى [1].

«فمقصود هذه السورة الخضوع لله تعالى لاتصافه بكمال الملك الدال على تمام القدرة»[2].

هـ. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة الملك وواضح في ذلك أن الملك محل خضوع من كل من يرى الملك الذي يدل على قدرة صاحبه، والسورة محورها بيان قدرة الله وعظيم آثار هذه القدرة في الخلق.

وكذلك اسمها أيضا ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ يدل على أن لله التصرف التام في الموجودات بمقتضى إرادته ومشيئته بلا منازع [3] ويدل على تعظيم وتكبير وتقديس وتعاظم لمن بيده الملك ووفرة الخير من التصرف بالخلق إحياء وإماته، وبالرزق إعطاء ومنعا، وغيرها، وهو أمر يدور في فلك عظيم القدرة التي يحدثنا عنها القرآن[4].

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة الملك وخاتمتها

لما افتتح سبحانه وتعالى السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في ملكه ودلل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء ختم السورة بمثل ذلك بالحديث عن الماء، الذي وجوده سبب الحياة، وعدمه سبب للموت فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ فنبه بهذه الخاتمة على عظيم قدرته بأنه إن غار الماء في الأرض فلن يأتي أحد غير الله بماء جار لا ينقطع أو ظاهر للأعين[5].

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥، (١٠/ ٦٠٢٣).

(٢) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، (٨/ ٦٢).

(٣) انظر، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٨/ ٥).

(٤) انظر سعيد حوى الأساس في التفسير،، (١٠/ ٦٠٢٥).
انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ١٢).

(٥) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٨/ ٨٨).

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

افتتحت سورة الملك بقوله ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وفيه من التنزيه والتعظيم وصفة التعالي ما لا يخفى ولا يكون ذلك إلا عقب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه ولما كان قد وقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر، وأعلى آية لمن استبصر من ذكر المرأتين اللتين كانتا تحت عبدين صالحين من عباد الله، وهما النبيان الكريمان نوح ولوط عليهما السلام فلم تؤمنا ولم يغنيا عنهما من الله شيئاً ليعلم العاقل وهو يضع الأسباب أن القلوب بيد الوهاب الذي بيده الملك[1].

وقال الآلوسي لما ضرب مثلاً بتلك المرأتين المحتوم لهما الشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ومثلا للمؤمنين بامرأتين محتوم لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفار افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه وملكه على ما سبق قضاؤه[2].

ويمكن القول أيضا ختم الله سورة التحريم بأن الصلة لا تنفع إلا بالطاعة، وأصل الطاعة المعرفة والتصديق بالكلمات الإلهية، وافتتح هذه السورة بدلائل المعرفة وآيات الربوبية فقال ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾[3].

رابعا - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

جاء المقطع الأول من السورة يبين عظيم قدرة الله وجلال ملكه مقيما الأدلة على ذلك فقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٦٤).

(٢) انظر محمود الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٤).

(٣) انظر أبوعلي الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٥١).

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك:١-٥] ولا تخفى علاقته بمحور السورة الذي هو بيان عظيم قدرة الله، فعظم الملك وجلال القدرة بالسيطرة على الخلق موتا وإحياء وخلق السماء كل ذلك دليل شاهد على هذه العظمة.

أما المقطع الثاني وهو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ فقد جاء هذا المقطع يبين أن من جلائل قدرته سبحانه وتعالى القدرة على عقاب من كفر فبغى وعصى وثواب من أناب وأطاع، وتحقيق هذا الأمر كان عن علم وخبرة من العلي الكبير، الذي استوى عنده العلم بجميع أحوال البشر سرا وجهرا، فهذه الآية ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ تربط ما قبلها بالسياق بما بعدها في تقرير علم الله بالجهر والسر وفيه تحد للبشر ممن خلق نفوسهم وعلم مداخلها ومكنوناتها [(١)].

أما المقطع الثالث فقد جاء أيضا في سياق محور السورة في بيان عظيم القدرة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٦٣٦).

[الملك: ١٥-٢٤].

فتسخير الأرض للخلق وتذليلها، وتهيئة الرزق للخلق في الأرض، وإنشاؤهم فيها وأكرمهم بخلقهم في أحسن صورة، كلها دلائل عظام على العلي العلام توجب التفريق بين من مشى في رحاب منهج الله وبين من انكب على وجهه فعصى.

ثم جاء المقطع الأخير من السورة مبينا موقف الكفار من هذه الدلائل التي تدل على عظيم القدرة وتوجب الإيمان بالله وباليوم الآخر، مقرونا بالوعد لمن اهتدى والوعيد لمن عصى فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٢٥-٣٠] وتنفيذ هذا الوعد والوعيد لا يكون إلا من صاحب القدرة التامة سبحانه وتعالى.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

إن مقصود سورة التحريم -وهي السورة التي سبقت سورة الملك بترتيب المصحف الحث على التقدير والتدبير في الأدب مع الله، ومع رسوله ﷺ ومع سائر العباد، وحسن العشرة للنساء، اقتداء بالنبي ﷺ في حسن عشرته وكريم صحبته[١]

وسورة الملك جاءت تبين عظيم قدرة الله ودلائل قدرته، وتوضح قدرة الله على إثابة من أطاع وخشي الرحمن بالغيب، فاستحق المغفرة والأجر العظيم بسبب الالتزام بالآداب التي أرشدت إليها سورة التحريم وتبين عاقبة من كفر بالله ولم يلتزم بهذه الآداب الربانية باستحقاقهم عذاب جهنم وبئس المصير

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٨/ ٤٣).

لا سيما وأنهم لم يتعظوا بما ضربه لهم من أمثال عظيمة بسورة التحريم بامرأتين آمنتا وهما: آسية زوجة فرعون ومريم بنت عمران، فلم يضرهما كفر من كفر من قومهما حولهما بعد التزامهما بالمنهج الإلهي، وامرأتين كفرتا فلما أقلهما العمل لم يغني عنهما القرب بالمصاهرة من النبيين الكريمين نوح ولوط عليهما السلام، ولاشك أن ذلك تصرفاً من الله في ملكه دالا على إحاطة علمه عز وجل وقهره وتصرفه التام في ملكه[1].

ويمكن القول أيضا:السورة المتقدمة وهي سورة التحريم جاءت تبين مدى قدرة الله وهيمنته، وتأييده لرسوله محمد ﷺ في مواجهة احتمال تآمر امرأتين من نسائه عليه، وهذه السورة توضح بصيغة عامة أن بيد الله ملك السموات والأرض ومن فيهن وأنه على كل شيء قدير[2].

---

(١) انظر أبو حيان، البحر المحيط، (١٠/ ٢٢٠).
وانظر أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٧٨).

(٢) د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، (٢٩/ ٥).

ثانيا: المعنى الإجمالي لمقاطع سورة الملك

المعنى الإجمالي للمقطع الأول

قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك: ١-٥]

ابتدأت سورة الملك ببيان عظمة الله وجلال قدرته، موضحة أن كل وفرة من الخير ثابت لله تعالى، فدلت الآية أن الله تعاظم عما سواه، وأنه المالك المتصرف في السموات والأرض في الدنيا والآخرة، وأنه صاحب السلطان والقدرة المطلقة على كل شيء [(١)]، وفي الآية ما يدل على إثبات صفة اليد لله بما يليق بجلاله وعظمته بقوله ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [(٢)] كما يفيد قوله تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إحاطة قدرة الله بحقيقة الملك وعموم التصرف في الموجودات والمعدومات، فهو يتصرف بكل شيء بما شاء لا معقب لحكمه [(٣)].

ثم شرع القرآن في هذا المقطع ببيان ما يدل على شمول هذه القدرة بذكر خلق الله للموت والحياة ابتلاء وامتحانا للخلق في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾، فالموت إعداد الموجود للفناء، وهو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها

---

(١) نفس المرجع السابق (٢٩/ ١٠).

(٢) وتقديم المسند "بيده على المسند إليه يفيد الاختصاص ومثله تقديم الجر والمجرور في الفاصلة القرآنية "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير» ولا مختص بالقدرة الشاملة سواه سبحانه، انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ١٠).

(٣) انظر محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٢٣٩).

له، والحياة إعداد المعدوم للحياة، وذلك بتعلق الروح بالبدن واتصالها به، فإيجاد الحياة خلق الروح في الكائنات الحية وإيجاد الموت نزع الروح من هذه الكائنات[١]

والموت والحياة من أعظم العورض التي تعرض لجنس الحيوان فتدل على عظم الصانع وكماله، وفيهما من الابتلاء ما لا يخفى، فالموت فيه قهر للخلق والحياة نعمة، والابتلاء قد يكون بالشدة والمحنة، وقد يكون بإسباغ النعمة، والحياة نعمة توجب استغلالها في طاعته.

ثم يذكر القرآن في هذا المقطع دليلا آخر على القدرة في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾ ويتمثل هذا الدليل بذكر خلق سبع سموات بعضها فوق بعض أو بعضها مطابق لبعض في الصفات، وفي الإتقان[٢]، وليس من شك في أن ذكر السماوات السبع الطباق بعد ذكر أول السورة يدل على أن خلق هذه السبع من كمال القدرة [٣].

وهذه السماوات المخلوقة لا تفاوت فيها ولا تشقق بل هي في غاية الدقة والإتقان تدل على عظمة الرحمن[٤] وفي قوله تعالى: ﴿ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ قرأ حمزة والكسائي «تفوت»بضم الواو مشددة من غير ألف والباقون بالألف والتخفيف[٥]وهما لغتان والمعنى على القراءتين: «ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخلف»[٦].

وتأكيدا لهذه الدقة يطلب القرآن الكريم من الخلق إمعان النظر مصحوباً بالتفكر والاعتبار

---

(١) انظر د. وهبة الزحيلي، «التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج» (٢٩/ ١١).

(٢) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٥٩).

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٠).

(٤) وخص الرحمن بالذكر دون لفظ الجلالة الله إشعارا أن هذا النظام اقتضته رحمة الله بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم، انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٩/ ١٨).

(٥) محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٣٨٩).

(٦) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٢٥٩).

وتدقيقه بصنع الله الواحد، وإعادة النظر كرة أخرى[١] في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ ليعود البصر بعد هذا الإمعان في خلق السموات خائباً كليلاً، مصاباً بالإعياء، تأكيدا على دقة هذا النظام العجيب في الكون، وجلال قدرة الصانع جل وعلا.

ثم يستمر نظم الكتاب المبين ببيان دليل آخر من دلائل القدرة والعظيمة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾بالانتقال من نفي الخلل عن خلق السموات إلى بيان ما في إحداهما من دقة الإتقان، لتكون كالعينة على دقة ما سواها من السموات الأخرى، وإنها سميت بالدنيا لأنها الأقرب إلى الأرض فالدنيا تأنيث الأدنى وهي السماء الموالية للأرض[٢].

فقد زينها الرحمن بالنجوم وشبهها بالمصابيح لما لها من أثر في الاهتداء مصداقا لقوله تعالى﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

ومن دلائل قدرة الله أن جعل جزءا منها رجوما للشياطين بانفصال بعض الشهب عنها لرمي شياطين الجن، الذين كانوا يحاولون التسمع إلى الملأ الأعلى، وهي آيات دالة على عظيم قدرته جل وعلا بصون السماء وما فيها من أخبار وقد جاء تفصيل ذلك في سورة الصافات فقال تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات: ٦-٨] فكان إذا أراد أن يسترق السمع أحد من الشياطين أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، يقول ابن حجر عليه رحمة الله « كانت الكهانة فاشية في العرب، ومرجوعا إليها في حكمهم، حتى قطع سببها، بأن حيل بين الشياطين وبين استراق

---

(١) ونلاحظ أن القرآن قد ثنى الكرة دون المرة فقال كرتين دون مرتين لأن الكر يفيد العود والتثنية هنا مراد منها مطلق التكرار، انظر أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، (١٠/ ٢٢٣).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٣).

السمع»[١] يدل عليه ما روي عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الملائكةُ تتحدَّثُ في العنان ـ والعَنانُ الغَمام ـ بالأمرِ يكونُ في الأرض، فتستمعُ الشياطين الكلمةَ فتقُرِّها في أذنِ الكاهنِ كما تُقرُّ القارورة، فيَزيدونَ معَها مائةَ كذبةٍ»[٢].

ومن دلائل قدرة الله في هذا المقطع من السورة أيضا إعداد السعير في قوله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهي طبقة من طبقات النار لعذاب الشياطين، وفي هذا دلالة على أن الشياطين مكلفة [٣].

وإنما كانت نار السعير خاصة بعذاب الشياطين لكونهم من عنصر النار، ونار السعير أشد من نار طبائعهم، فصارت عذابا لهم [٤] فلا يمنع خلقهم من نار عذابهم بها، فهي منهم كالتراب من بني آدم، فيتأثرون من ذلك على أنه تكون نار أقوى من نار[٥] .

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير باب سورة قل أوحي إلي، (١٢/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إبليس وجنوده، ابن حجر، فتح الباري، (٥/ ٢٢٩٨).

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٥٤).

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣).

(٥) الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ١٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن عذاب السعير لشياطين الجن في المقطع السابق من السورة، أتبعه جل وعلا ببيان أن عذاب جهنم للكفار عامة، حتى لا يتوهم أن العذاب مقتصر على شياطين الجن دون شياطين الإنس[١] وهذا دليل من دلائل القدرة، فإيقاع العذاب المنذر بسوء العاقبة على من يستحقه في قوله تعالى:﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾فيه دلالة على عظيم قدرة موقعه جل وعلا، وقد جيء بالواو في مقدمة الآية لما بين هذه الآية وسابقتها من تغاير واشتراك [٢] وفي تقييد لفظ الكفر بالجار والمجرور ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ زيادة تشنيع عليهم فقد كفروا بالمنعم الخالق الرازق، والحر يقابل الإحسان بالإحسان لكنهم لتنكرهم قابلوا الإحسان بالكفر والعصيان، وأرى أن تقديم الجار والمجرور (للذين)يفيد اختصاص الكفار بعذاب جهنم ولا يعني هذا أننا نقول بقول المرجئة «لا يعذب غير الكفرة» فأهل الإيمان قد يعذبوا في النار إلا إنهم لا يخلدون فيها[٣] وهو مذهب أهل السنة والجماعة - فهم إذن زوار والزائر مهما طال به المقام في موقع الزيارة لا بد له وأن يغادر.

ولبيان هول هذا العذاب الذي يحل بالكفار يوم القيامة يبين سبحانه اقتران سماع صوت التهاب نار جهنم بزمن الإلقاء للكفار فيها في قوله تعالى:﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ١٤).

(٢) فالآية الأولى بينت عذاب شياطين الجن وهذه الآية أفادت عذاب شياطين الإنس وهما متغايران وكل له من العذاب ما يناسب طبيعته.

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ١٦).

﴿٧﴾ فهي تغلي وترتفع ألسنة لهيبها وقت إلقائهم فيها وكأنها إنسان يشهق ويتمزق غيظاً لظفره بعدوه ليثأر منه إذ الأصل بالشهيق تردد النفس في الصدر فلا تستطيع الصعود للبكاء والتميز التقطع، والغيظ شدة الغضب، فنار جهنم تكاد لشدة الاضطراب والالتهاب أن تتجزأ إلى أجزاء وينفصل بعضها عن بعض، وذلك لشدة غضبها على الكفار وحنقها بهم [١].

ثم يتبع القرآن الكريم وصف النار عند إلقاء أهلها فيها بوصف ما يتلقاهم به خزنتها، الموكول إليهم أمر العذاب فيها من سؤال، في قوله تعالى﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾وهو استفهام توبيخي ليزداد أهل النار حسرة، والاكتفاء بذكر الإنذار هنا مع أن الرسل الكرام مبشرين ومنذرين لأنه سؤال لأهل الشقاوة المستحقين للعذاب، لذا كان جوابهم مقرين معلنين الاعتراف بالخطأ والندم على ما فات ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ وهذه الآية تدل على أن الله لا يعذب بالنار أحداً إلا بعد أن ينذر في الدنيا[٢]وفي قوله تعالى على لسان هؤلاء الكفار ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ دلالة على أنهم كانوا ينكرون نزول الوحي من السماء، لذا كان جواب الملائكة بقصر حالهم بها النافية والاستثناء على الضلال في قوله تعالى﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ووصف الضلال بالكبير يبين جسامة ما ارتكبه أهل النار من ذنب [٣] وهو الشرك بالله العظيم.

ولذا نفى أهل النار عن أنفسهم بسبب كفرهم السماع والعقل، مقدمين نفي السمع على نفي العقل[٤] بالرغم من وجودهما فيهم في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ

---

(١) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ١٦).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٥).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦).

(٤) وقدم السمع على العقل في الآية لأن الترتيب الطبيعي أن سماع الدعوة أول ما يتلقاه المنذر، ثم يعمل عقله بها تدبرا، وجمع بين السمع والعقل فيها لأن مدار التكاليف على أدلة السمع والعقل، انظر الحسن بن محمد النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية، بيروت، (٦/ ٣٢٦).

ﭽ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﭼ وذلك لأنهم لم يسمعوا سماع الطائعين أو يعقلوا كعقل المتأملين، فاستحقوا بذلك المصاحبة التي تدل على طول المكث وشدة الملازمة في نار السعير.

وما دام الأمر كذلك فقد اعترفوا بجريمتهم قال تعالى: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾علماً بأنهم كانوا قد أنكروا هذا الذنب قبل ذلك في الحشر، وقت السؤال والحساب كما بينت سورة الأنعام ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام : ٢٢-٢٣] لكنه هنا في سورة الملك اعتراف بعد صدور الحكم ودخول دار العقاب، وهو اعتراف لا يفيد المعترف، ولا يخفف عنه العذاب، فاستحقوا بذلك الدعاء عليهم بالسحق وهو البعد من رحمة الله تعالى بقوله ﴿ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقد قرأ الجمهور «فسحقا بسكون الحاء وقرأ أبو جعفر والكسائي بضم الحاء [1] وهما لغتان من لغات العرب والمعنى فبعداً لهم من رحمة الله[2].

---

(١) محمد بن محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٢١٧).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، (١٠/ ٢٢٤).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث من سورة الملك

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

وبعد أن بين القرآن حال من عصى وكفر يوم القيامة أتبعه ببيان حال من آمن واستبصر فوعد المؤمنين بالمغفرة بعد وعيده للكفار بنار جهنم للمقابلة ثم عاد إلى بيان أنه عليم بما يصدر عن الخلق في السر والعلن وأقام الدليل على ذلك بأنه الخالق الذي ذلل لهم الأرض وما فيها، وإذن لهم بالانتفاع بما فيها من خيرات[1] فقال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ ﴾.

فهم قوم يخشون عذاب الله من غير معاينة ويخافون الله حال غيبتهم عن الناس فلا يكتفون بخوفه أمامهم فاستحقوا أن يكرموا بالأجر الكبير بدخول الجنة والنجاة من النار، وإكرامهم هذا دليل على عظيم قدرة المكرم جل وعلا.

وقد قدم لهم الرحمن المغفرة على الأجر تطمينا لقلوبهم، لأنهم يخشون المؤاخذة على ما صدر عنهم من ذنوب من اللمم ونحوه[2].

وبعد أن بين القرآن ما أعده لأهل الشقاء وأتبعه بما أعد لأهل السعادة يوم القيامة وفيه من الدلالة على عظيم القدرة ما لا يخفى أتبع ذلك كله بما يدل على عظيم قدرته تعالى أيضا من العلم بالسر والجهر قال تعالى:﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ والسر هو إخفاء ما يحيك بالنفس والجهر إظهار لما فيها[3]، واستواء علم الله بالسر والجهر بينت علته

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٢٠).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣٠).

(٣) وقدم القرآن السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمر الكفار ووقوع ما يحذرونه على كل حال، أسروا أو جهروا، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر،، انظر أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٤).

الآية في قوله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ واللطيف هو العالم بخبايا الأمور المدبر لها برفق وحكمة والخبير العليم الذي لا يعزب عنه الحوادث الخفية[1] وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن السر والجهر في علم الله سواء لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[2].

وبعد أن ذكر الله عز وجل علمه بمكنونات هذا الإنسان الأمر الذي يدل وجوده على قدرة الله تعالى، ذكر في هذا المقطع ما يدل على كمال هذه القدرة، وهو خلق الأرض وتسخيرها للإنسان، حيث جعلها كالذلول وهي الدابة المطاوعة المنقادة وأمر بالمشي في أطرافها ونواحيها وجبالها للانتفاع بما فيها والذي منه الأكل، وقد خص الأكل بالذكر لأن حاجة البشر إليه أكثر من غيره .

والآية دليل على قدرة الله ومزيد إنعامه على خلقه وعلى أن السعي واتخاذ الأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله والاعتماد عليه[3] .

ونلاحظ أن الله قد أمر الإنسان بالمشي لطلب الرزق، بينما طالبنا بالسعي في الانطلاق لعبادة الصلاة فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩] ليقدم الإنسان الدنيا على الآخرة في الطلب ليكون عمله لدار البقاء أكثر من عمله لدار الفناء.

وحتى لا يبطر الإنسان حال الانتفاع ولكي لا يتجاوز الحد ذكره بالنشور وهو البعث والخروج من الأرض بعد الموت، لاسيما وأن الخروج سيكون من الأرض وذلك حتى لا ينشغل في الدنيا على حساب الآخرة .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣١).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٢٩/ ١٤).

(٣) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٢٢).

المعنى الإجمالي للمقطع الرابع

قال تعالى:﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم انتقل القرآن من بيان علم الله وعظيم القدرة الإلهية إلى التخويف لمن لم يرع حق خالق الأرض حق الرعاية بأنه قادر على أن يصير من يمشي فيها ليصبح متجلجا في طبقاتها في هذا المقطع من سورة تبارك فقال تعالى:﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ وذلك بخسف الأرض بهم، بحيث يصبح ظاهر السطح من بعض الأرض باطنا لشدة الزلزال، ليصيبها بهم المور والاضطراب بعد الاستقرار والانتفاع وقد فرع المور- الاضطراب - على الخسف تفريع للأثر على المؤثر(١).

وقد قيل أن من في السماء هو جبريل لأنه الموكول بالخسف، وقيل أنه من قبيل المجاز على تقدير محذوف أي ملكه في السماء ونرجح أن هذه الآية دليل على إثبات صفة العلو لله تعالى علو المكان والمكانة، ولا يعني هذا أن نجعل السماء ظرفا لله فالله منزه عن الظرفية والعقل يحيل ذلك(٢).

وهو ما يوضحه حديث الجارية عن أبي هريرة ﷺ «أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال: يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله فأشارت إلى السماء بأصبعها السبابة، فقال لها: من أنا؟ فأشارت بإصبعها، إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء،

(١) ابن عاشور التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦).
(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان (٨/ ٢٥٣).

أي أنت رسول الله، فقال: أعتقها»[١].

ثم يتبع القرآن التخويف بتخويف آخر من خلال الاستفهام الإنكاري من الأمن من إرسال الجبار جل وعلا الحاصب من السماء في قوله تعالى﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ والحاصب ريح فيها حجارة وتراب وعند حلول ذلك يعرف الكفار عاقبة الإنذار، أو صدق النذير وهو الرسول ﷺ وصدق تحذيره من قدرة الله على عقابهم بإرسال الحاصب من السماء.

ثم يضرب القرآن الكريم من بعد ذلك مثلا على قدرة الله على عقاب من يستحق العقاب الدنيوي ببيان ما حل بمن سلف، ممن كذب بآيات الله ورسله بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾فكان إنكار الله عليهم بعقابهم على ما وقع منهم من كفر.

ويبين لهم دليلا آخر على قدرة الله بالانتقال من أحوال البشر إلى أحوال الطيور في نظام حركتها حال طيرانها في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ وذلك بالنظر إلى حال الطير صافات ببسط الأجنحة حال الطيران وقبض الجناح بضمه من جنب الطائر، لكي تستمر عملية الطيران والتحليق في الفضاء ومن جمال النظم التعبير عن الصف بالمصدر صافات وبالفعل عند القبض[٢]، والذي يحفظ الطير من السقوط بما أودع فيها من خاصية الطيران بالقبض والبسط هو الرحمن وخص ذكره دون لفظ الجلالة الله للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمة الله بهذه المخلوقات وبمن سخرت له، فرحمة الله بالمخلوقات بإمهالهم وعدم العجلة بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء بحفظه من السقوط والهلاك[٣]وفيه أيضا دلالة إيماء على أن من أمسك الطير في الهواء قادر على إهلاك أهل الكفر والمراء.

---

(١) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة، (٣/ ٥٧).

(٢) وذلك لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء لا بد له من الأطراف، فالصف أكثر أحوال الطير وأما القبض فهو طاريء لاستظهار الحركة، انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٦/ ٣٢٨).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٤٠).

المعنى الإجمالي للمقطع الخامس من سورة الملك

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾.

وبعد أن بين القرآن في المقطع السابق بعض دلائل قدرته سبحانه وتعالى على إيقاع العقاب بالعصاة وضرب لهم مثلا لذلك بعقاب من سلف من المكذبين أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره [١]و بين أنه لا أحد يستطيع أن يدفع عن الخلق العذاب أو يجلب لهم الرزق غير الله فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾فما يعبده البشر من معبودات يشركونها مع الله ويرجون منها النصرة والعون لا تنصرهم من دون الرحمن، وفي التعبير بالرحمن من بين الأسماء إشارة إلى أن تأخير العذاب عنهم من رحمة الله تعالى لعلهم بهذا الإمهال يعودون للحق، ولكن الكفار مع هذا الإمهال استمروا بغفلتهم عن توقع بأس الله، وهم في غفلة أيضا في اعتمادهم على هذه الأصنام.

وكذا جلب الرزق لا يكون إلا منه سبحانه وتعالى ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾فالرزق من طعام وغيره مما ينتفع به الخلق بيد الله، فمن كمال قدرته سبحانه أنه بيده مقاليد الأمور، وتدبير شؤون الخلق، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر[٢].

والتعبيربـ(إن)الشرطية التي تدل على ندرة وقوع فعل الشرط بعدها[٣] في قوله تعالى ﴿ إِنْ

(١) انظر: أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٩).

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٥٥).

(٣) انظر أحمد بن عبد النور المالقي، رصق المباني في شرح حروف المعاني، دار العلم، دمشق، (١٨٦)، وانظر: ذياب عبد الجواد عطا، حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي،، دار المنار، القاهرة، (١٦٨).

﴿ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ ﴾ يدل على ندرة أن يمسك الله الرزق عن الخلق، مؤمنهم وكافرهم على السواء، فالله يعطي الدنيا لمن يحب ويبغض، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان، ولكن مع تفضل المنعم بالرزق والعطاء الموجب شكره إلا أن هؤلاء الكفار اشتدت منازعتهم وخصومتهم، فعتو وتكبروا، وطغوا، ونفروا، واشمأزوا هاربين من طاعة رب العالمين، ولذا ضرب القرآن الكريم بذلك مثلا لمن أطاع ولمن عصى بقوله تعالى:﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾فشبه الكافر بالمكب على وجهه، والمؤمن بمن يمشي سويا بلا اعوجاج على صراط مستقيم، فالكافر أكب على معاصي الله، فحشره الله يوم القيامة على وجهه، فهو لا يبصر الطريق، يعثر كل ساعة، فيخر على وجهه والمؤمن كان على الدين الحنيف الواضح، فهداه الله للطريق السوي إلى الجنة[1] وفي التعبير بـ «على» التي تدل على الاستعلاء دلالة على تمكنهم من طريق الهدى والحق.

وبعد ضرب القرآن لهذا المثل العظيم ينتقل مرة أخرى إلى ذكر دلائل القدرة الموجبة للألوهية والسير على هدى فقال تعالى:﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾**فيذكرهم سبحانه بهبات عظيمه ضخمة أعطاهم إياها من سمع وأبصار**[2] **وأفئدة لينهضوا بالأمانة التي أوكلت إليهم** فالسمع والبصر والأفئدة نعم عظيمة موجبة للشكر فلما لم تستعمل من قبل هؤلاء المشركين بذلك ختمت فاصلة الآية بقوله تعالى ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾.

فنعم الله لا تحصى وعبادة الخلق تحصى، فما يقدمه الخلق على شكر المنعم قليل بل والقليل

---

(١) انظر جار الله محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،، دار الفكر، بيروت، (٤/ ٣٨).

(٢) نجد القرآن يقدم السمع على البصر سواء أكان في أوصاف الله تعالى أم في أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم لأن السمع أهم، فالإنسان يسمع المنادي من جميع الجهات ولا يرى إلا بالجهة التي يمعن البصر فيها... انظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان، (٢١٧).

منهم من يشكر قال تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] ولاشك أن في جعل السمع والبصر والفؤاد في الإنسان من دلائل القدرة ما لا يخفى، وكذا في ذرء الخلق وتكثيرهم في الأرض لذا ذكره الله بآية أخرى تدل على قدرته فقال:﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فتكثيرهم وجعل النسل الممتد منهم في الأرض نعمة من الله، توجب الاستعداد ليوم الحشر، لا الاغترار بالنعم والانشغال بها دون شكر المنعم، فالله لم ينشأ الخلق ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية إنما هو الجزاء في يوم الحشر، فهم منتشرون في الأرض، وهنالك بعد ذلك غاية هم صائرون إليها وهي الجمع والحشر [1].

(١) سيد قطب، ي ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٦٤٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الأخير من السورة

قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولما ذكر القرآن الكريم في المقطع السابق عدد من دلائل القدرة من خلق الناس وحواسهم وتكاثرهم، وتوزيعهم في الأرض، وبين أن نهاية ذلك كله حشر الخلق بين يدي الله سبحانه، ثم أتبعه في هذا المقطع الأخير من السورة بتساؤل الكفار تعنتا عن وقت وقوع ذلك اليوم، الذي يبعث فيه الخلق، ويحشروا بين يدي الله في قوله تعالى﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فقد كان المشركون يسألون النبي ﷺ عن ميعاد البعث استهزاء وسخرية لوعيده [(١)] وإلا فإن وجودهم على الأرض بعد أن كانوا عدما من أكبر الأدلة على البعث والحشر، وهذا في الحقيقة استدلال بالمبدأ على المعاد، وهذا التساؤل منهم مبني على التهكم والسخرية، فهو سؤال الشاك المرتاب المتعنت[(٢)].

وقد سمى الكفار الحشر وعدا استنجازا واستعجالا للأنبياء وأتباعهم بتنفيذ هذا الوعد وتقييده بأداة الشرط إن التي تدل على ندرة وقوع فعل الشرط المقيد بها في فاصلة الآية﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ للدلالة على مدى الشك والتكذيب والإنكار الذي اعترى هؤلاء الكفار بوقوع البعث والحشر، يدل على ذلك جواب الشرط المحذوف، وتقديره إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته[(٣)]، لذا جاء التوجيه الرباني للنبي الكريم بالجواب﴿ قُلْ

---

(١) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، دار الجيل، بيروت، (٢٩/ ٧٦).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن،، (٣٦٤٦).

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٤).

﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾فقصر العلم بوقت وقوعه على الله وحده وهو ما يوضحه الحديث الذي رواه أبو هريرة حين سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ « فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[1].

لذا جاء الجواب القرآني أن علمها عند الله وأن الرسول ﷺ منذر بين يديها، وإنما اقتصر القرآن على ذكر الإنذار دون التبشير اكتفاء بذكر أحد الضدين، ولأن الحديث في سياق توجيه الخطاب للكفار، فالإنذار هو الأنسب للمقام

وبعد تأكيد وقوع ذلك اليوم وإفراد الله بعلم وقت حصوله، بين القرآن الكريم حال هؤلاء الكفار عند قدوم ذلك اليوم، ومعاينة العذاب فيه فقال تعالى﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ حيث رأى الذين كفروا أن ذلك اليوم قد زلف فاقترب، وأصبح حاضرا، فظهر السوء والكآبة في الوجوه ندما بسبب التفريط والتكذيب[2]، فوجه إليهم الخطاب ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾.

وقد جاء في قوله تعالى "تدعون" قراءتان متوترتان "فقرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة وقرأ الباقون بفتحها مشددة "[3] والمعنى على كلا القراءتين:هذا هو يوم البعث والحشر الذي كنتم تطلبون تعجيل وقوعه، وتدّعون كذبه قد حصل ووقع[4] .

وبعد بيان الحسرة التي تحل بهؤلاء المكذبين بحصول يوم الدين، يبين القرآن مدى رغبة الكفار وتمنيهم في الدنيا موت النبي ﷺ وأصحابه في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدَر الله سبحانه وتعالى (رقم الحديث: ٦٣).

(٢) انظر أبوحيان، البحر المحيط، (٤/ ٢٢٩).

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر،، (٢/ ٣٨٩).

(٤) انظر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٣٣٠) .

مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾، فيطلب من النبي ﷺ أن يتوجه لهم بالخطاب محذرا لهم، بأنه سواء حصل له الموت أو بقي حيا هو ومن معه، فمن يجير الكفار وينجدهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، بسبب كفرهم [١] لاشك بأنه لن يجيرهم أحد من عذاب الله حال وقوعه.

والمقصود بالهلاك في الآية الموت، والمقصود بالرحمة الحياة، وإنما عبر عن حياة النبي ومن تبعه من المؤمنين بالرحمة لأن حياتهم فيها زيادة طاعات وفعل خيرات، وقد وضع القرآن الكريم الظاهر موضع المضمر في قوله﴿ فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لتسجيل الكفر عليهم وبيان أنه السبب بعدم نجاتهم، [٢] والسبب بوقوع العذاب المؤلم.

و يكتمل التوجه للنبي بالخطاب للمرة الثالثة بالفعل" قل "في قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ وفيه تعليم للمؤمنين الصدع بالحق، من خلال بيان إعلان أن المؤمنين آمنوا بالرحمن وخصوه بالاعتماد والتوكل عليه دون غيره، وقد خص اسم الرحمن بالذكر من بين الأسماء ليحظى أهل الإيمان من اسم الرحمن بنصيب من رحمته" فذكر الرحمن هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين، فهو لن يهلكهم كما تمنى الكافرون"[٣].

وقد قدم القرآن الإيمان بالرحمن على التوكل عليه ليدل على شرف الإيمان ولأن التوكل ثمرة من ثمراته[٤].

---

(١) انظر، الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٦٢).

(٢) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٦٥) .

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٦٤٧).

(٤) وقد أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا وذلك تعريضا بالكافرين، كأنه قيل آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال عليه توكلنا خصوصا ولم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم وأموالكم، انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ١٤٠)، وانظر محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، بيروت، (١٠/ ١٦٢).

وختم الآية بالفاصلة القرآنية ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه من التهديد ما يدركه صاحب العقل السديد، في قوله تعالى " ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾قراءتان متوترتان حيث «قراء الكسائي بالغيبة «فسيعلمون» وقرأ الباقون بالخطاب﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ فقراءة الجمهور بتاء الخطاب فستعلمون، على أنه مما أمر الرسول ﷺ بقوله، وعلى قراءة الكسائي بـ«ياء» الغائب على أنه إخبارا من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين»[١].

ثم يختم القرآن الكريم السورة بذكر الدليل على وجوب التوكل على الله لا على غيره ببيان مظهر من مظاهر الرحمة [٢]وهو الإنعام بالماء الذي به حياتهم موضحا قدرة من أعطاهم الماء الذي به الحياة على نزعه وحرمانهم منه بقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وفيه إيماء إلى أن يتوقع كفار مكة عذاب القحط والجوع بالجفاف، فإذا غارت العيون والآبار وذهب الماء في أعماق الأرض ولم تصل إليه الدلاء، فمن غير الله يأتيهم بماء معين تراه الأعين، أو بماء جار طيب[٣]. وهو استفهام إنكاري توبيخي موجب شكر المنعم على إنعامه بالإيمان به وعبادته.

ويفيد تقييد الفعل بـ«إن» الشرطية عند حديث القرآن عن غور الماء في الأعماق فلا تصل إليه الدلاء، التشكيك بوقوع هذا الأمر، فقد يقع وقد لا يقع، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ويبغض، فقد يبتلي الكفار بالقحط وقد يملي لهم كما هو الحال اليوم والله أعلم.

---

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٤).

(٢) أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ٢٥).

(٣) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ١٤٠).

سورة القلم

بين يدي السـورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة القلم بهذا الاسم لأن الله جل شأنه أقسم فيها بأداة الكتابة وهى « القلم » فاختصت السورة بهذا الاسم تعظيما للقلم، وسُميت أيضا « ن والقلم ».

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المفصل[1]، ومما ورد في فضائل المفصل: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[2].

ج - مكية السورة:

سورة القلم مكية، وترتيبها في المصحف الشريف: الثامنة والستون، نزلت بعد سورة العلق، وهي من سور الجزء التاسع والعشرون، ومن الحزب الخامس والسبعون.

د - عدد آيات السورة.

عدد آياتها: ثنتان وخمسون آية[3].

---

(١) حزب المفصل يبدأ - على الصحيح - من أول سورة (ق) إلى سورة (الناس).

(٢) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ب: فضائل السبع الطوال ص ١١٩. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠. وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٢٤.

(٣) يراحع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ٦٨.

هـ - محور السورة:

تناولت سورة القلم ثلاثة مواضيع أساسية هي:

أ ـ موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة النبي ﷺ.

ب ـ قصة أصحاب الجنة «البستان» لبيان نتيجة الكفر بنعم الله جل شأنه.

ج ـ الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعد الله للفريقين، المسلمين والمجرمين.

ولكن المحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات نبوة محمد ﷺ وتثبيت قلبه.

المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هناك ارتباط واضح بين اسم السورة ومحورها؛ فاسم السورة: القلم، ومحورها الأساس: إثبات نبوة محمد ﷺ. وقد أقسم الله جل شأنه بالقلم على صدق نبيه ﷺ، وإثبات نبوته وبراءته من الجنون الذي افتراه عليه الجاحدون زوراً وبهتاناً.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة القلم وخاتمتها واضحة جداً ففي بداية السورة قسم من رب العزة على نفي الجنون عن مقام النبي الأمين ﷺ. وفي ختام السورة تأكيد على هذا المعنى بالرد على سخافة الجاحدين، الذين رموا النبي ﷺ بالجنون، وماهو إلا رسول كريم، مبعوث بقرآن عظيم، ليبلغه للعالمين.

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة القلم وخاتمة السورة التي قبلها (الملك) ففي نهاية سورة الملك يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

﴿ ٢٩ ﴾ [الملك: ٢٩]. وفي هذا الكلام الكريم تهديد للجاحدين والمعاندين بفضح ضلالهم وهتك أستارهم. وفي بداية سورة القلم تأكيد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (ن) والسورة التي قبلها (الملك)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين عرض لبعض مشاهد يوم القيامة؛ ففي سورة الملك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الملك: ٦-٨].

  وفي سورة القلم قوله جل شأنه: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

* في السورتين أسئلة تعجيزية وإقناعية للجاحدين والمعاندين؛ ففي سورة الملك قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٠-٢٢].

  وفي سورة القلم قوله جل شأنه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٩].

* في السورتين حوار ملامة وندم، دار في سورة (الملك) بين أهل النار وخزنتها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:٨-١٠]، وفي

سورة (القلم) دار بين أصحاب الجنة الذين منعوا فضل الله عن عباده فأهلك الله حرثهم وجعل بستانهم أثرا بعد عين.﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القلم: ٣٠-٣٢].

* ومن أوجه الارتباط بين مضمون السورتين ما ذكره الإمام السيوطي – رحمه الله– حيث قال: لما ذكر سبحانه في سورة (تبارك) التهديد بتغوير الماء، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطاف عليه فيها وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق. وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال :﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقال هناك: ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ [الملك: ٣٠]. إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة[1].

بيان رفعة قدر النبي ﷺ

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ، وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه – وحاشاه – بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية.

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٤١ بتصرف يسير.

المقطعة التي يتخاطبون بها. (١)

وقد أقسم الله تعالى – هنا – بالقلم، والظاهر أنه جنس القلم الذي يُكتب به، وهو قَسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، فإن القلم أخو اللسان، ونعمة من الرحمن على عباده. يقول قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم ما قام دين، ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه(٢).

والمعنى: أُقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون.

والقلم أول ما خلق الله جل شأنه، فعن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد (٣)».

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.
وممن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !» في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير. ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(٢) الدر المنثور ٨ / ٢٤٢.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٤٢٤ برقم ٣٣١٩. وقال: حسن غريب. وأخرجه الحافظ =

وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ٤ – ٥].

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال – عليه رحمة الله –: « في القسم بالكتابة وأداتها (القلم) تعظيم لقيمتها، وتوجيه إليها، في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة، في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها، وانتشارها بينها، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض. ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة. وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى»[1].

ولست يا محمد بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة مجنوناً، كما يقول الجهلة المجرمون، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

وإنّ لك لثواباً على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص. «وهو إيناس وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون »[2].

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وصلوات الله تعالى عليه، وصلوات الملائكة، والمؤمنين لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً. وهي من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء.

= الهيثمي في: مجمع الزوائد ٧/ ٣٩٢. برقم ١١٧٩٧. وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأخرجه الألباني في: صحيح الترمذي ٢/ ١٢٣ برقم ٢٦٤٥ وقال: صحيح.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٥٤.

(٢) المرجع السابق، ٦ / ٣٦٥٥

وفي سورتي: الضحى وألم تشرح، بكاملها ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى: ٣- ٥]. وقوله:﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[الشرح : ٤]. ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به، فما من مسلم تكتب له حسنة في صحيفته إلا وللرسول ﷺ مثلها.

وقد قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... ». ومنها: «أو علم ينتفع به»[(١)]. وأي علم أعم نفعاً مما جاء به ﷺ وتركه في الأمة... إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره ﷺ. أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى. [(٢)]

وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيه الفضائل والكمالات.. ويا له من شرف عظيم، لم يدرك شأنه بشر، فربُّ العزة جل وعلا يصف محمداً بهذا الوصف الجليل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ ولقد أحسن القائل:

إذا الله أثنى بالذي هو أهـــله ... عليك فما مقدار ما تمدح الورى ؟

ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة. وكان واقع سيرته ﷺ أعظم شهادة من كل ما روي عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر. أعظم بصدورها عن العلي الكبير. وأعظم بتلقي محمداً لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً. لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ك: الوصية ب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – برقم ١٦٣١.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٤٢١.

الذي سمع ما سمع من العلي الكبير! [١]

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين، الذين رموه بذلك البهت اللئيم؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين: فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك -كفار مكة - إذا نزل بهم العذاب أيكم الذي فتن بالجنون ؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم عن الهدى ؟. **قال القرطبي**: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان. ومعظم السورة نزل في « الوليد بن المغيرة « و» أبي جهل» وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطاناً، وعنوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى: سيعلمون غداً بأيهم المجنون، أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل[٢].

هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى. وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد، كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم.[٣]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة وتمام الوضوح فمحور السورة الأساس: إثبات نبوة محمد ﷺ وتثبيت قلبه؛ وهنا يقسم الحق جل شأنه على تمام عقل النبيﷺ وكمال خلقه، والمجنون يستحيل أن يكون نبياً، وصاحب الخلق العظيم يستحيل أن يكون كذاباً مدعياً. وأما قوله سبحانه - في هذا المقطع﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾فهو يعتبر من أقوى وأبلغ عبارات الثبيت لقلب النبي ﷺ.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٢٩.

(٣) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٠، فتح القدير ٥/ ٢٦٦، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٣.

من هداية الآيات:

* تقرير مسألة أن الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه.
* بيان فضل القلم الذي يُكتب به الهدى والخير.
* تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ كان ذلك بالقلم الذي أول ما خلق الله.
* بيان كمال الرسول ﷺ في أدبه وأخلاقه، وجعله قدوة في ذلك. [١]
* الضلال والهداية بيد الله سبحانه، والعبد محاسب على اختياره وكسبه.

تحقير شأن الكافرين وذم أخلاقهم

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه ما عليه الكفار في أمر الرسول ﷺ ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل. [٢]

يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في المناسبة بين هذه الآيات الكريمة وما قبلها: « إذا كان في مجيء الآية قبل هذه:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾رد على دعواهم الكاذبة على رسول الله ﷺ

(١) يراجع: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٣.
(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٧٣.

بالجنون؛ ففي هذه الآية تنزيهه ﷺ مما اشتملت عليه من رذائل ونقائص وافتضاح لهم. وبيان الفرق والبون الشاسع بينه وبينهم؛ ففي الوقت الذي وصفه بأنه على خلق عظيم وصفهم بعكس ذلك من كذب، ومداهنة، وكثرة حلف، ومهانة، وهمز، ومشي بنميمة، ومنع للخير، وعتل وتجبر واعتداء، وظلم، وانقطاع زنيم، عشر خصال ذميمة. ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغاراً لهم».[١]

التفسير الإجمالي

فلا تطع - أيها النبي - رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه، **قال الرازي:** دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم[٢].

تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك، وقد رجح ابن جرير الطبري ذلك بقوله: ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٥].[٣]

ولا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل، الذي يكثر من الحلف مستهيناً بعظمة الله، وهو فاجر حقير، مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب، يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح: (لا يدخل الجنة نمام)[٤] وهو بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله، ظالم، متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام.

وجاءت الأوصاف { **حلاف، هماز مشاء، مناع** } بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة. وهو جاف غليظ، قاسي القلب، عديم الفهم وهو بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ابن زنا

---

(١) أضواء البيان ٨/ ٤٢١.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ٧٤.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٢.

(٤) رواه الإمام مسلم ١/ ١٠١. ك: الإيمان ب: بيان غلظ تحريم النميمة.

وهذه أشد معايبه وأقبحُها، أنه لصيق دعي ليس له نسب صحيح. [١]

قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعياً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب - قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد.

ورُوي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ اعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيناً - أي لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية. [٢]

لأن كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين ؟ وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب.

إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً: إنها خرافات وأباطيل المتقدمين، اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى رداً عليه متوعداً له بالعذاب

أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة. قال ابن عباس: سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خُطم يوم بدر بالسيف. [٣]

قال الإمام الفخر الرازي: لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣١، فتح القدير ٥/ ٢٦٧، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٤.

(٢) يراجع: تفسير الطبري ١٢/ ١٨٤.

(٣) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٣١١، فتح القدير ٥/ ٢٦٧ وما بعدها.

الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأَنفَة، وقال في الذليل: رغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين فكيف على أكرم موضع من الوجه! [(١)]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح؛ فقد تصدت هذه الآيات الكريمة لأحد صناديد الكفر في مكة - الوليد بن المغيرة - ووصمته بأوصاف مهينة، وألحقت به عارا لا يمحى ﴿ زَنِيمٍ ﴾ وهددته - بعد ذلك - بالوسم المخزي على أنفه، إما في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما. وفي كل ذلك تثبيت وتقوية لقلب النبي ﷺ.

من هداية الآيات:

* التنديد بأصحاب الصفات التالية كثرة الحلف بالكذب، المهانة، الهمزة النميمة، الغيبة البخل، الاعتداء، غشيان الذنوب، الغلظة والجفاء، الشهرة بالشر.
* التنديد بالمكذبين بآيات الله تعالى المعاندين له.
* التحذير من كثرة المال والولد فإنها سبب الطغيان ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦- ٧] [(٢)].
* كثرة المال والبنون ليس دليلا على تكريم الله للعبد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].
* لا يجوز للداعية أن يتنازل عن شيء من مبادئه بأي حال ولأي ظرف.
* الأخلاق الذميمة تودي بصاحبها إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥ / ٧٤.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٤. بتصرف يسير.

قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما قال سبحانه: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار، بين جل شأنه في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم.[1]

التفسير الإجمالي

تضرب الآيات هنا مثلاً للمشركين في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم، وتكذيبهم به، بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذاتِ الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله، ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم، وجعل قصتهم عبرةً للمعتبرين؛ فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٧٧.

والجوع بدعوة رسول الله ﷺ عليهم [١] كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، وكلفنا أهل مكة أن يشكروا ربهم على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم.

قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار. وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء، فأعطاهم نصيباً وافراً منه، وأكرمهم غاية الإكرام؛ فلما مات الأب ورثه أبناؤه الثلاثة قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحداً من الفقراء شيئاً، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى ناراً على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجراً ولا ثمراً، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان. [٢]

وقد حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المساكين. ولم يقولوا: إن شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر. فطرقها طارق من عذاب الله، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نياماً، **قال الكلبي**: أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً. قال ابن عباس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم. [٣]

فنادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم: اذهبوا مبكرين إلى

---

(١) حيث قال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٤٨. ك: الأدب. ب: تسمية الوليد.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٤، لباب التأويل، للخازن ٧/ ١٣٤، زاد المسير لابن الجوزي ٨ / ٣٣٦.

(٣) تفسير ابن جزي ٧٨٤.

ثماركم وزروعكم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها.

فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين قائلين: لا تُدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان، ولا تمكنوه من الدخول.

ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾على قدرة وقصد. [١]

فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها، وليست هذه حديقتنا. قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك: لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حُرمنا ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا. [٢]

قال أعقلهم وأفضلهم رأياً: هلا تسبحون الله فتقولون « سبحان الله» أو «إن شاء الله». قال أبو حيّان: نبههم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله. [٣]

وقال الرازي: إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسط لهم: توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد فوات الأوان [٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٣.

(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٠، تفسير ابن سعدي ٨٨٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣١٢.

(٤) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٠ بتصرف يسير.

فقالوا حينئذٍ: تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين.

فأقبلوا يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم.

قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغين في منعنا الفقراء وعدم التوكل على الله. قال الرازي: والمراد أنهم استعظموا جرمهم.

لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا. فنحن راجون لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.. [١]

وقد ساق الله جل شأنه هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوباً بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله:﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾مثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهل الحديقة يكون عقابنا في الدنيا لكل من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله من النعم، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لانزجروا عن كل سبب يوجب العقاب. [٢]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

وارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح، فهو يؤكد صدق النبي ﷺ حيث أخبر من خلال هذه الآيات الكريمة عن طرف من غيب الماضي (قصة أصحاب الجنة) لم يكن عند النبي ﷺ منه خبر أو كتاب.

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعدي ص ٨٨٠.

من هداية الآيات:

* الابتلاء يكون بالسراء والضراء، وأسعد الناس عند السراء الصابرون على طاعة الله ورسوله عند الضراء.
* مشروعية التذكير بأحوال المبتلين والمعافين ليُتخذ من ذلك طريق إلى الشكر والصبر(١).

في قصة أصحاب الجنة تصديق لحديث النبي ﷺ الذي يقول: (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وينزل ملكان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا.)(٢)

* في قصة أصحاب الجنة تنويه بقدرة الله - تعالى - التي لا تحد، وإحاطة علمه- سبحانه - بكل شيء.
* في القصة تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٦.

(٢) الحديث متفق عليه. رواه البخاري ك: الزكاة، ب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الليل/ ٥-٦. ومسلم ك: الزكاة، ب: في المنفق والممسك. رقم: ١٠١٠، عن أبي هريرة ﷺ.

جزاء المؤمنين، وأسئلة إقناعية للكافرين

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد أن قدمت الآيات السابقة نموذجا لمجموعة من الناس جحدوا نعمة الله تعالى وندموا بعد فوات الأوان، ولم ينفعهم الندم ذكرت الآيات نموذجاً للمتقين المستحقين للنعيم، ونموذجاً للمجرمين الذين يحولون السجود يوم القيامة فلا يستطيعون، فقد فات أوان السجود، وجاء أوان العقاب على الجحود.

التفسير الإجمالي

نزلت هذه الآيات الكريمة رداً على المشركين الذين ادعوا متبجحين أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يعطون أفضل مما يعطى المؤمنون، قياساً منهم على حالهم في الدنيا، حيث كانوا أغنياء والمؤمنون فقراء فقال – جل شأنه -:﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي جنات كلها نعيم، لا شيء فيها غيره. ثم قال في الرد منكراً على المشركين دعواهم مقرعاً مؤنبا إياهم في سبعة استفهامات إنكارية تقريعية:

أولها: قوله تعالى﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾الذين أسلموا لله وجوههم وأطاعوه بكل جوارحهم كالمجرمين الذين اقترفوا أكبر الكبائر كالشرك وسائر الموبقات ؟ أي نحيف ونجور في حكمنا فنجعل المسلمين كالمجرمين في الفضل والعطاء يوم القيامة، فنسوي بينهما ؟.

وثانيها: قوله: ما لكم ؟ أي أي شي حصل لكم حتى ادعيتم هذه الدعوى ؟

وثالثها: كيف تحكمون ؟ أي كيف هذا الحكم ما حجتكم فيه ودليلكم عليه ؟

ورابعها: قوله ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أعندكم كتاب جاءكم به رسول من عند الله تقرأون فيه هذا الحكم ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ألكم في هذا الكتاب ما تختارون ؟ والجواب لا. **قال الطبري:** وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة [١].

وخامسها: قوله:﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ **قال ابن كثير:** المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون [٢].

وسادسها: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي سلهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفل لهم مضمون الحكم الذين يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل مما يعطى المؤمنون.

سابعها: قوله﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكفلون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، **قال ابن جزي:** وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم وأحضروهم حتى نرى حالهم [٣].

بهذه الاستفهامات الإنكارية التقريعية السبعة نفى تعالى عنهم كل ما يمكنهم أن يتشبثوا به في تصحيح دعواهم الباطلة عقلاً وشرعاً. [٤]

وللشيخ سيد قطب كلام طيب حول هذه الآيات يقول - رحمه الله -:

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ٢١٢.

(٤) يراجع أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٧ وما بعدها.

ما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير. ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ ﴾.. ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟!

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم:﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ ﴾.. فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه، هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل؛ وهو الذي يقول لهم: إن المسلمين كالمجرمين! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل، ولا إلى معقول أو معروف !﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ ﴾.. فإن لا يكن ذلك فهو هذا. وهو أن تكون لهم مواثيق على الله، سارية إلى يوم القيامة، مقتضاها أن لهم ما يحكمون وما يختارون وفق ما يشتهون! وليس من هذا شيء. فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق. فعلام إذن يتكلمون؟! وإلام إذن يستندون ؟!

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ ﴾.. سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون، وأن لهم ميثاقاً عليه ساري المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون؟! وهو تهكم ساخر عميق بليغ، يذيب الوجوه من الحرج والتحدي السافر المكشوف ! (١)

ولما أبطل – جل شأنه – مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾يعني يوم القيامة، حين يشتد الأمر، ويصعب هوله، ويأتي الله تعالى لفصل القضاء بين الخلائق، فيكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء.

ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٧.

واحداً، وفي الحديث (يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً) (١).

ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها، تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان؛ والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء الأجسام معافون فيأبون.

قال الإمام الفخر الرازي: لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل. (٢)

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح، ففي هذه الآيات الكريمة تثبيت وتطمين لقلب النبي ﷺ من خلال هذه الأسئلة المفحمة التـي أعجز بها الجاحدين والمعاندين.

من هداية الآيـات:

* تقرير أن المجرمين لا يساوون المؤمنين يوم القيامة، إذ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة.
* بيان عظم هول يوم القيامة، وأن الرب تبارك وتعالى يأتي لفصل القضاء ويكشف عن ساق فلا يبقى أحد إلا سجد، وأن الكافر والمنافق لا يستطيع السجود عقوبة له وفضيحة، إذ كان في الدنيا يدعى إلى السجود لله فلا يسجد أي إلى الصلاة فلا يصلي تكبراً وكفراً. (٣)
* إفحام الجاحدين وإثبات عجزهم من خلال الأسئلة التي وُجهت إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٨٧١. برقم: ٤٣٠٥ ك: التفسير ب: يوم يكشف عن ساق.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٤.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٩٨.

تخويف الكفار من بطش الله، وتوصية النبي ﷺ بالصبر على ما يلقاه

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما خوف - سبحانه - الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته على القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كله إليَّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يُفعل به قادر على ذلك. [1]

التفسير الإجمالي

اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه « وهو تهديد مزلزل.. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول ﷺ: «خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث. وذرني لحربه فأنا به كفيل» ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه الهباءة المنثورة.. بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم ! » [2].

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف ! ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وإن شأن المكذبين، وأهل الأرض أجمعين، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه

---

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٨٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٨.

التدابير.. ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان. وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارّون. (١)

سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون. **قال الرازي**: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنباً جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم (٢).

وسأُمهلهم وأُطيل في أعمارهم ليزدادوا إثماً، إن انتقامي من الكافرين قوي شديد. وفي الحديث: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣).

وإنما سمى إحسانه كيداً كما سماه استدارجاً لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به. (٤)

أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال ؟

والغرض توبيخهم في عدم الإيمان، فإن الرسول لا يطلب منهم شيئاً من الأجر.

قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٦.

(٣) الحديث متفق عليه: أخرجه البخاري ك: التفسير ب: قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ... ﴾ عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه. ومسلم ك: البر والصلة ب: تحريم الظلم. رقم ٢٥٨٣.

(٤) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٥، فتح القدير ٥/ ٢٧٠، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٩ بتصرف.

عن الإيمان ؟ [(١)].

أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب؛ فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ.

وخُتمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله، كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر.

فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك، ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا، فتركهم وركب البحر، ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان، حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غماً وغيظاً.

ولم تبين الآيات هنا من هو صاحب الحوت، ولا نداءه وهو مكظوم، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله، وقد بين تعالى صاحب الحوت في الصافات في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٢].

وأما النداء فقد بينه تعالى في سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

فصاحب الحوت هو يونس، ونداؤه هو المذكور في الآية، وحالة ندائه وهو مكظوم.

أما الوجه المنهي عن أن يكون مثله فهو الحال الذي كان عليه عند النداء، وهو في حالة غضبه، وهو مكظوم.

---

(١) لباب التأويل ٧/ ١٤٠.

وهذا بيان لجانب من خلقه ﷺ وتخلقه في قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر: ٧]. أي على إيذاء قومك. ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات الله إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧]. فقد بين تعالى خلقاً فاضلاً عاماً للأمة في حسن المعاملة والصفح.

ثم خص النَّبي ﷺ بقوله:﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾أي لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاءه جبريل عليه السلام، ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال: لا، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.. إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله فقد صفح وصبر ورجى من الله إيمان من يخرج من أصلابهم. وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم.

لو لا أن تداركته رحمة الله تعالى لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذموماً بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظلّه وتستره، كما في قوله تعالى:﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٦]. وقوله تعالى هنا: ﴿ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. بينه تعالى بقوله: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]. قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه[1].

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ وللمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئا ثم يرفع جانب خبائه فتمر به النعم فيقول لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها عدة فسأل الكفار هذا الرجل أن

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٥.

يصيب رسول الله ﷺ بالعين فعصم الله نبيه وأنزل هذه الآية هذا قول الكلبي وتابعه قوم من المفسرين.

والثاني: أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقه من شدته أي يلقيه إلى الأرض وهذا مستعمل في كلام العرب يقول القائل نظر إلي فلان نظراً كاد يصرعني[1] أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظراً كاد يصرعني، **قال ابن كثير**: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ويؤيده حديث: (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين) [2]

وذلك حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك: إن محمداً مجنون، قال تعالى رداً عليهم: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون ؟!

يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله -: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾. فيه عود آخر السورة على أولها. وأن الكفار إذا سمعوا الذكر شخصت أبصارهم نحو رسول الله ﷺ يرمونه بالجنون. والرد عليهم بأن هذا الذي سمعوه ليس بهذيان المجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين، وفيه ترجيح القول بأن المراد بنعمة ربك في أول السورة، إنما هي ما أوحاه إليه من الذكر. [3]

« وهذه الآيات الكريم ترسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم في غيظ عنيف، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه، ويصفها القرآن

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٦. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٣٨ برقم ٢٧٥١٠. وقال محقق المسند أ: شعيب الأرنؤوط: حديث حسن. وأخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣٩٥. عن أسماء بنت عميس - رضي الله عنها. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أضواء البيان ٨/ ٤٣٣ وما بعدها بتصرف يسير.

بما لا مزيد عليه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾.

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن، وحمى وسم.. مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء، والافتراء الذميم: ويقولون:إنه لمجنون..

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة. فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم! يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول: وما هو إلا ذكر للعالمين. والذكر لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون.. وصدق الله وكذب المفترون».. [١]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح؛ ففي هذه الآيات الكريمة تثبيت لقلب النبي ﷺ بذكر طرف من قصة يونس - عليه السلام - ثم بالتأكيد - في نهاية السورة - على عظمة القرآن الكريم كما بدأها ببيان عظمة الرسول الكريم، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

من هداية الآيات:

- ردّ الأمور إلى الله إذا استعصى حلّها فالله كفيل بذلك.
- لا يصح أخذ أجرة على تبليغ الدعوة.
- وجوب الصبر على الدعوة مهما كانت الصعاب فلا تترك لأذىً يصيب الداعي.
- بيان حال المشركين مع الرسول ﷺ وما كانوا يضمرونه له من البغض والحسد وما يرمونه به من الاتهامات الباطلة كالجنون والسحر والكذب. [٢]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧١.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٠.

* على الداعية أن يحذر من الضجر والعجلة، وأن يلزم الصبر في كل مرحلة من مراحل الدعوة.
* أهمية ضرب الأمثال، والتذكير بأحوال السابقين للتسلية والتثبيت.

وأخيرا.. فهذه سورة القلم، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة القلم

* بيان كمال الرسول ﷺ في أدبه وأخلاقه، وجعله قدوة في ذلك.
* كثرة المال والبنين ليس دليلا على تكريم الله للعبد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ : ٣٧].
* لا يجوز للداعية أن يتنازل عن شيء من مبادئه بأي حال ولأي ظرف.
* الأخلاق الذميمة تودي بصاحبها إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.
* أهمية التذكير بأحوال السابقين لأخذ العبرة، وسوق الموعظة.
* لا يعزب عن علم الله شيء، ولا يحد قدرته حد.
* الجاحدون لنعم الله تعالى والمكذبون لرسله لا ينفعهم الندم بعد فوات الأوان.
* العجلة والضجر لا يؤديان إلى نتيجة محمودة، والله تعالى لا يعجل لعجلة أحد من عباده.
* الصبر الجميل زاد الأنبياء والدعاة إلى الله في كل زمان ومكان.

سورة الحاقة

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سميت سورة الحاقة بهذا الاسم لتضمنها أحوال يوم القيامة من سعادة وشقاء لبني الإنسان.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المفصل، ومما ورد في فضائل المفصل:

ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[1].

ج - مكية السورة.

سورة الحاقة مكية، وترتيبها في المصحف الشريف: التاسعة والستون، نزلت بعد سورة القلم، وهي من سور الجزء التاسع والعشرون، ومن الحزب السابع والسبعون.

د - محور السورة:

تناولت سورة الحاقة خمسة مواضيع أساسية هي:

١ - تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به.

٢ - أهوال يوم القيامة.

٣ - جزاء الأبرار بعد الحساب.

٤ - حال الأشقياء يوم القيامة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه عند بيان فضل سورة القلم.

٥ - تعظيم القرآن وتأكيد نزوله من عند الله.

والمحور الأساس الذي تدورعليه السورة الكريمة: التأكيد على عقيدة الجزاء.

هـ عدد آيات السورة.

عدد آياتها: ٥٢ [١].

المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هناك ارتباط واضح بين اسم السورة ومحورها؛ فاسم السورة: الحاقة، ومحورها الأساس التأكيد على عقيدة الجزاء « والحاقة هي التي تحق فتقع. أو تحق فتتنزل بحكمها على الناس. أو تحق فيكون فيها الحق.. وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها. » [٢]

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الحاقة وخاتمتها واضحة جدا؛ ففي بداية السورة حديث عن الحاقة التي هي حق قاطع، ويقين واقع. وفي ختام السورة يقول جل شأنه عن القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ فالقيامة حق، والقرآن الذي أخبر عن وقوعها حق. كذلك جاء في افتتاحية السورة قوله تعالى﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾وفي خاتمة السورة ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾وفي هذا من الارتباط المعنوي واللفظي ما لا يخفى.

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الحاقة وخاتمة السورة التي قبلها (القلم) ففي نهاية سورة القلم توصية بالصبر، وتسلية بذكر قصة أحد أنبياء الله يونس عليه السلام. وفي أول سورة الحاقة

---

(١) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧٧.

تكملة للتسلية بذكر عدد من الأمم السابقة التي كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط ملحوظ بين سورة الحاقة والسورة التي قبلها (القلم) من ذلك ما ذكره الإمام السيوطي قال: لما وقع في « ن » ذكر يوم القيامة مجملاً في قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم وشأنه العظيم.[1]

ومن مواضع الارتباط بين مضمون السورتين الكريمتين ما يلي:

* في سورة (ن) قال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ وفي الحاقة ذكر طرفا من أنباء بعض من كذبوا أقوامهم فقال جل شأنه:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾.
* في سورة (ن) قال تعالى﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ وفي سورة الحاقة ذكر - سبحانه - طرفا من تفصيل هذا النعيم فقال: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾.
* في سورة (ن) قال تعالى:﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وفصل ذلك في سورة الحاقة حيث قال - سبحانه -:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٤١.

تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد. و﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال.

وكرر﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ ﴾؟ لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل.[١]

وما أعلمك يا محمد ما هي القيامة ؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تر ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال، وهذا على طريقة العرب، فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام، يقولون: أتدري ماذا حدث ؟. والآية الكريمة من هذا القبيل، زيادة في التعظيم والتهويل، كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع.[٢]

ثم بعد أن عظَّم أمرها وفخّم شأنها، ذكر من كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب تذكيراً لكفار مكة وتخويفاً لهم فقال:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾أي كذب قوم صالح

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٠، فتح القدير ٥/ ٢٢٧.
(٢) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٠.

وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها.

فأمّا ثمود - قوم صالح - فأُهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة، وهي الصيحة لقوله تعالى في سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] وبها فسرت الصاعقة في سورة فصلت ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ [فصلت: ١٧]. أو الرجفة لقوله سبحانه في الأعراف:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٨]. وهي الزلزلة المسببة عن الصيحة فلا تعارض بين الآيات، لأن الإسناد في بعض إلى السبب القريب وفي بعض آخر إلى البعيد.[1]

« وثمود كما جاء في مواضع أخرى كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام. وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع. أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها.. { بالطاغية }.. لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة، ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها. ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طياً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً، وتغطي عليهم فلا تبقي لهم ظلا ! »[2]

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطيل، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. على حين كانت وقعة ثمود خاطفة.. صيحة واحدة. طاغية.. ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾.. والريح الصرصر الشديدة الباردة. واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح. وزاد شدتها بوصفها { عاتية } أي متجاوزة الحدَّ في الهبوب والبرودة، لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكيّ في القرآن، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها، **قال ابن عباس**: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ:﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ ﴾ وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ:﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ

(١) تفسير الألوسي ٢١ / ٢٠٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧٨.

عَاتِيَةٍ ﴾.

وكان قوم عاد يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت. وكانوا أشداء بطاشين جبارين. فأرسل الله عليهم هذه الريح الصرصر العاتية: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾.. والحسوم القاطعة المستمرة في القطع. [١] وفي الحديث الشريف: « نصرتُ بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور » [٢].

سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع. فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم، كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، **قال المفسرون**: كانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف[٣].

فهل ترى أحداً من بقاياهم ؟ أو تجد لهم أثراً؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم - قرى قوم لوط - حيث جعل الله عاليها سافلها، **قال الصاوي**: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل عليه السلام ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى. [٤]

---

(١) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧٨

(٢) صحيح البخاري ١ / ٣٥٠. رقم ١٠٣٥. وأخرجه مسلم في صلاة الاستسقاء باب في ريح الصبا والدبور رقم ٩٠٠. والصبا هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. و(الدبور) هي الريح التي تهب من مغرب الشمس.

(٣) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٠، فتح القدير ٥/ ٢٧٨.

(٤) حاشية الصاوي ٢/ ٢٠٤.

أتوا بالفعلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان. كُلّ كذّبَ رسول الله إليهم. كما قال جل شأنه: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٤]. أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطاً، فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات من سبقهم، كما أن جرائمهم زادت في القبح والشناعة على سائر الكفار. [(١)]

إنا لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة، لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذَّب رسله، وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع.

قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلَّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ **قال قتادة:** الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجّل. [(٢)]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

المقطع السابق يصب في عمق المعنى المتصل بمحور السورة (التأكيد على عقيدة الجزاء) فهو يتحدث عن أقوام كذبوا رسل الله إليهم؛ فلاقوا جزاءهم الأدنى، وينتظرهم جزاؤهم الأكبر يوم القيامة.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* بيان أن كلا من عاد وثمود كانوا يكذبون بالبعث وبيان ما أهلكهم الله به.
* بيان أن معصية الرسول موجبة للعذاب الدنيوي والأخروي.

---

(١) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٦٣.

* التذكير بحادثة الطوفان وما فيها من عظة وعبرة.[1]

* وجوب التأمل في مصارع الغابرين، والاعتبار بهلاك المكذبين.

مشهد من أهوال يوم القيامة

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر - سبحانه - في الآيات السابقة قصص المكذبين وعاقبتهم في الدنيا، أتبعه هنا بذكر أهوال القيامة وشدائدها.

التفسير الإجمالي

تتناول هذه الآيات الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات... الخ

واذكر إذا نفخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم. قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا. ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرب بعضها ببعضٍ حتى تندق وتتفتَّت وتصير كثيباً مهيلاً[2].

ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى، وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة. يقول الألوسي: أي تفطرت وتميز

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠١.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤١، تفسير أبو السعود ٥/ ٧٦٣ بتصرف يسير.

بعضها عن بعض. ولعله إشارة إلى ما تضمنه قوله جل شأنه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: ذلك قوله تعالى:﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النبأ: ١٩][(١)].

والملائكة على أطرافها وجوانبها، قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعاً مما داخلهم من هول ذلك اليوم، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال.

ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم، وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. [(٢)]

وفي ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر. كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق: ٩][(٣)].

« فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره، ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه !

ألا إنه لأمر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر. أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه

(١) روح المعاني ٢١/ ٢١٩.

(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٩، تفسير النسفي ٤/ ٢٧٣.

(٣) يراجع: تفسير الألوسي ٢١ / ٢٢١.

المرفوع فوق الجميع.. »[1].

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

والمقطع السابق وثيق الارتباط بمحور السورة، فهو يركز على بعض المشاهد والأحداث المصاحبة ليوم الدين (يوم الجزاء) الذي يعرض فيه الجميع مكشوف الظاهر والسرائر.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* بيان كيفية الانقلاب الكوني لنهاية الحياة الأولى وبداية الحياة الثانية.
* تقرير العرض على الله عز وجل للحساب ثم الجزاء.[2]
* في الآيات الكريمة تنويه بعظيم قدرة الله جل شأنه.
* في قوله تعالى﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ زجر كاف، وردع واف لمن تسول له نفسه معصية الله في سر أو علن.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٨٠.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٢ .

جزاء الأبرار وتكريمهم

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾أي أعطي كتابه الذي كتبته الحفظة عليه من أعماله ﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً.

التفسير الإجمالي

بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فيقول: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء فيقول ابتهاجاً وسروراً: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ ﴾ هاء السكت وكذلك في﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ و﴿ مَالِيَهْ ﴾و﴿ سُلْطَٰنِيَهْ ﴾.

قال الرازي: ويدل قوله ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله [١].

إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح.

يقول ابن كثير: أي قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦]. [٢]

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥ / ٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٤٣.

قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل، **وقال الضحاك**: كل ظنٍ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك.. [١]

قال تعالى مبيناً جزاءه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً، رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.[٢]

وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»[٣].

ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع، قال ابن جزي: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع. [٤]

يقال لهم تفضلاً وإنعاماً: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، بعيداً عن كل أذى، سالماً من كل مكروه، بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا. [٥]

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٧١.

(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٢، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٣.

(٣) أخرجه الترمذي٤/ ٦٧٤. كتاب: صفة الجنة باب: ما جاء في صفة درجات الجنة. رقم/ ٢٥٣٢ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه. وقال الترمذي حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٨ برقم: ٤٣٣١ عن معاذ رضي الله عنه. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة ٤/ ٥٤٣. رقم الحديث: ١٩١٣.

(٤) يراجع تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٣.

(٥) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٢.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء أي الإيمان باليوم الآخر.
* آثار الإيمان بالبعث والجزاء ظاهرة في سلامة كتاب المؤمن من السيئات. وقد علل لذلك بقوله: إني ظننت أني ملاق حسابي فلذا لم أعصِ ربي.
* تأكيد الحقيقة التي تقول: الدنيا مزرعة الآخرة أي من عمل في الدنيا نال ثمار عمله في الآخرة خيراً أو شراً. (١)

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

لما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فبين أنه من أعطي كتابه بشماله- وهذه علامة الشقاوة والخسران - فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي،

قال المفسرون: وذلك لِما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم، ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل. (٢)

يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية ولم أحيا بعدها، ومعنى: القاضية القاطعة للحياة،

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٣.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤، فتح القدير ٥/ ٢٨٢ تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤.

والمعنى: أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب فالضمير في ليتها يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. (١)

ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئا. وزال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير. (٢)

يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال، قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى:﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ (٣).

ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة، ليصلى حرَّها. ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعاً، قال ابن عباس: بذراع الملك، تدخل السلسلة من دبره، وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكاً.. (٤)

ثم لمّا بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فبين أنه كان لا يصدق بوحدانية الله وعظمته. قال أبو حيّان: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلاً قال: لم يعذَّب هذا العذاب البليغ ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله، ولا يُحثُّ نفسه ولا غيره على بذل الطعام للمسكين وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأن الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب فى الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم، أي أنه مع كفره لا يحض غيره على إطعام المحتاجين. (٥)

---

(١) فتح القدير، للشوكاني ٥ / ٢٨٢.
(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤، فتح القدير ٥/ ٢٨٢. بتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٧٢.
(٤) يراجع: الدر المنثور للسيوطي ٨ / ٢٧١.
(٥) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤.

وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين لأنه عطفه على الكفر وجعله دليلا عليه وقرينة له، لأنه ذكر الحض دون الفعل ليُعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق. وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فنخلع نصفها بهذا.[(١)]

فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشونه، ويفرُّون منه. وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم، لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام.

قال المفسرون: ﴿ ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأ دون قصد، ولهذا قال﴿ ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ ولم يقل المخطئون.[(٢)]

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها.
* المال الذي باع المفلسون فيه الأمة والملة لا يغني يوم القيامة عن صاحبه شيئا.
* التنديد بالكفر بالله وأهله.
* عظم جريمة منع الحقوق المالية من الزكاة وغيرها.[(٣)]
* ندم الجاحدين المعاندين لا ينفعهم بعد فوان الأوان.
* في الآيات الكريمة حض على إطعام المساكين وإكرامهم.

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤. فتح القدير ٥/ ٢٨٢. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤. تفسير النسفي ٤/ ٢٧٧.

(٢) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤ بتصرف.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٤ .

تعظيم القرآن الكريم وتأكيد نزوله من عند رب العالمين

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد العرض السابق لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، وردّ افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة.

التفسير الإجمالي

قال مقاتل: سبب ذلك القسم: أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ [1].

أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه ولا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار، و(لا) في قوله﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾لتأكيد القسم وليست نافية. قال الإمام الفخر الرازي: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمي: مبصرٍ وغير مبصرٍ، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن والنعم الظاهرة والباطنة. [2]

قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة،

(١) يراجع: الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٧٣. فتح القدير ٥/ ٢٨٣.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ١٠٣.

وما لا تبصرون من أسرار القدرة. (١)

« والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر. بل مما يدركون. وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافاً قليلة محصورة، تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها كما شاء الله لهم. والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكاد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير. والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود.. ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.. » (٢).

إن هذا القرآن لكلام الرحمن، يتلوه ويقرؤه رسولٌ كريم، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى. وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مباين لأوزان الشعر كلها، فليس شعراً ولا نثراً، قلّما تؤمنون بهذا القرآن. (٣)

قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون به أصلاً. والعرب تقول: قلّما يأتينا، يريدون لا يأتينا. وليس هو بقول كاهنٍ يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان، قلّما تتذكرون وتتعظون.

بل هو تنزيلٌ من ربِّ العزة جل وعلا كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]. (٤)

فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله، وهو قول جبريل عليه السلام لأنه نزل به، وهو قول محمد

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٨٤
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٧٣.
(٤) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٥.

ﷺ لأنه أنذر الخلق به، فههنا أيضاً لما قال فيما تقدم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾. أتبعه بقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ حتى يزول الإشكال.[١]

والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة. ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فأكد أنه لو اختلق محمد بعض الأقوال ونسب إلينا ما لم نقله لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا، ثم لقطعنا نياط قلبه حتى يموت.[٢]

قال القرطبي: والوتينُ عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه، والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئاً ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير.[٣]

فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذٍ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى إن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه[٤]

وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين المتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به كما قال: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين. وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن الكريم وافترى عليه.

وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به. وإنه لحقٌّ يقينيٌّ

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥/ ١٠٥.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٦. فتح القدير ٥/ ٢٨٤. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٦. تفسير النسفي ٤/ ٢٧٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٧٦.

(٤) تفسير الخازن ٧/ ١٤٨.

لا يحوم حوله ريبٌ، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين.

فنزّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن. [١]

من هداية الآيات:

* لله جل شأنه أن يحلف بما شاء من مخلوقاته لحكم عالية. وليس للعبد أن يحلف بغير الله تعالى.
* تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.
* وصف الرسول ﷺ بالكرم وبكرامته على ربّه تعالى. [٢]
* ملك الله تعالى وخلقه أعظم وأكبر مما نعلمه أو نبصره أو نتخيله.
* الكذب محال قطعا على الأنبياء.
* التأكيد على سلامة القرآن الكريم من أي تحريف أو خلل أو افتراء ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وأخيرا.. فهذه سورة الحاقة، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٤. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٥.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٦.

أهم الدروس المستفادة من سورة الحاقة

احتوت سورة الحاقة على دروس مهمة يمكن أن نجملها فيما يلي:

* وجوب التأمل في مصارع الغابرين، والاعتبار بهلاك المكذبين.
* لا يفلت المجرمون من عقاب الله، وإن أمهلهم – سبحانه – فإنه يملي لهم ولا يهملهم.
* الله تعالى يذكر عباده بنعمه، حتى يشكروه ولا يجحدوه.
* يوم القيامة هوله عظيم، وكربه شديد. والناس يومئذ فيه لا يخفى على الله منهم شيء.
* في أرض المحشر يتقرر مصير الخلق، إما إلى جنة أبدا، وإما إلى نار أبدا.
* أصحاب الشمال لا ينفعهم يوم القيامة ندامة، ولا يغني عنهم خلة ولا شفاعة.
* التأكيد على سلامة القرآن الكريم من أي افتراء، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى له.

سورة المعارج

بين يدي السورة

اسم السورة

ذكر الفيروز آبادي أن لهذه السورة ثلاثة أسماء: (سأل)، و(الواقع)، و(المعارج). [١]

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت العنوان الآتي: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، ثم قال: « فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات»[٢]، وكان ترتيبها التاسعة والسبعين، وهي كذلك عند السيوطي. [٣]

ولا بد من وقفة هنا، لبيان حال الناس عند نزول هذه السورة، فمما لا شك فيه أن السور المكية عامة، عنيت بتصحيح العقيدة، ولذا نجد أن سورة المعارج، عالجت ما كان عليه أهل مكة من إنكار للبعث، وما ترتب على ذلك من صفات، كما أنها في الوقت ذاته، قدمت لهم صفات من آمن به، وهي في ابتدائها وخاتمتها، تصور ما كان عليه حال المشركين من استهزاء، فهم يسألون عن يوم البعث، سؤال مستهزئ منكر، ثم في خاتمتها تصور حالهم، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ١/ ٤٨٠. والإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٢٢، وانظر روح المعاني، الآلوسي ٢٩/ ٦٢.، وفيه المواقع، بزيادة ميم، والصواب ما ذكر؛ لورود كلمة واقع في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ ﴾، وهذا ما نص عليه الفيروز آبادي. انظر بصائر ذوي التمييز، ١/ ٤٨٠. وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٥٢، وسماها سورة سأل سائل، بإضافة سائل على ما ذكره الفيروز آبادي، والسيوطي.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١ـ٢٨٢. وانظر بصائر ذوي التمييز، ١/ ٤٨٠.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٨٢، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٤٨٠. والإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٩. والملاحظ أن ابن عاشور ذكر أن ترتيبها عند جابر بن زيد الثامنة والسبعون [فليتحقق]

وقد بينت هذه السورة الكريمة سمات الفريقين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. فعلى المؤمن أن يتنكب سبيل المجرمين، وأن ينأى بنفسه عما يتصفون به من صفات ذميمة، وصمهم الله تعالى بها. وعليه باتباع سبيل المؤمنين، وأن يتصف بصفاتهم التي وصفهم الله عز وجل بها.

كما توضح السورة جانباً من الضيق الذي كان يشعر به الرسول ﷺ في تلك المرحلة، وهو يواجه استهزاء المشركين وسخريتهم، حتى إن الله عز وجل يأمره بالصبر ابتداء ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾، ويأمره انتهاء بأن يترك هؤلاء في خوضهم بالباطل ولعبهم، حتى يلاقوا اليوم الذي يوعون. ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

عدد آيات السورة

عدد آيات هذه السورة أربع وأربعون آية، وهو قول الجمهور، وعدها أهل الشام ثلاثاً وأربعين. [(١)]

قال ابن الجوزي: « اختلافها آية واحدة، عد أهل حمص بأسرهم قوله:﴿ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ آية، إلا الشامي وحده، لم يعدها آية». [(٢)]

محور السورة

يدور الحديث في هذه السورة المباركة حول البعث، وذلك راجع لمرحلة نزول السورة إذ هي مكية، وقد عالجت هذا الموضوع من خلال عرض صورة لمن آمن بالبعث، وأخرى للكافرين به، تجلى هذا في مقدمة أبرزت أحد هؤلاء المنكرين، وهو يتساءل عن هذا اليوم منكراً مستهزئاً، ثم لم تتوقف السورة عنده كثيراً، حتى بدأت تلسعه وأمثاله بسياط تأكيد وقوع هذا اليوم، وأنه من الله ذي المعارج، وأمام هذا الإنكار والاستهزاء كان لا بد من توجيه، يؤمر فيه

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٥٠، والتحرير والتنوير، ٢٩/ ١٥٣.

(٢) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، ابن الجوزي/ ١٤٨.

المصطفى ﷺ بالصبر على هذا الأذى، ثم بيان سبب إنكارهم، وقد ذكر بإيجاز كذلك، ثم تتوالى الآيات مبينة هول ذلك اليوم...، يعقب ذلك وقفة، تبين صفة مَن تدعوه النار... ليبلغ الهول مداه، تهيئة للقلوب السليمة كي تسأل عن الخلاص من هذا الموقف الرهيب، وقبل أن يأتي الجواب، تقرر الآيات الآتية حقيقة عظيمة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾، وهنا يأتي الاستثناء، وقد وخوفت القلوب وزلزلت فيُستثنى أناس آمنوا بالبعث، وأثمر هذا الإيمان إحساناً في الصلة مع الخالق، وإحساناً مع المخلوقين... لتختتم هذه الصفات بجزاء كريم من رب كريم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ثم تكر الآيات على الفريق الكافر بتساؤل ينكر عليهم فعلهم، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ إذ قد يظن أن إسراعهم لأجل الهداية، ولكنهم في الحقيقة، يريدون أن يسترقوا السمع ليتخذوا ما سمعوه هزواً، ثم تساؤل آخر، ينكر عليهم طمعهم الفارغ في دخول الجنة، إذ يقولون مخاطبين المؤمنين بتكبر واستعلاء: إذا كان ثمة بعث فسندخل نحن الجنة، فيأتي الإنكار تعقبه إهانة تذكرهم بأصل خلقهم: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، وإذا كان سبب إنكارهم البعث ظنهم استحالة ذلك، وفيه إثبات العجز لله تعالى، فالرد على ذلك: أن الله تعالى رب المشارق والمغارب، قال ابن كثير: «أي: الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها...».[1]

وهم يقرون بأن الله تعالى خالقهما، قال جل جلاله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩]، فما دام الأمر كذلك فخلقهما أكبر من خلق الناس، قال جل جلاله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء المنكرين يخوضون في باطلهم ويلعبون، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، وأخيراً يأتي الجزاء، جزاء المنكرين المتكبرين ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ﴾...

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٣ بحذف يسير.

مناسبات السورة:

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

ذكر العلماء لهذه السورة الكريمة أكثر من اسم، وسنحاول إيجاد المناسبة بينها وبين المحور الذي اختير، ففيما يتعلق بالاسم الأول: (سأل) أو (سأل سائل)، فهناك ارتباط بينه وبين محور السورة الذي يدور حول الإيمان بالبعث والكفر به، ففي هذا الاسم إشارة لهذا السائل المتعجب المستهزئ من قضية البعث، فهو مثال للفئة المنكرة، ولما كانت السورة مكية، وكانت هذه الفئة هي الأكثر، سميت السورة بما ورد في صدرها، لتعجب من تعجبه واستهزائه بأمر واقع.

وفيما يتعلق باسم السورة (واقع) فلنا أن نستل مما ورد في آخر المناسبة السابقة، فهذا السائل الذي ينكر يوم البعث، يسأل عن أمر واقع لا محالة، فكأن فيها الرد السريع المباشر على من يسأل هذا السؤال.

أما (المعارج) فقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى:﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ في إشارة لبيان ممن سيكون العذاب الذي يستهزئ منه المنكرون قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لا يخفى على المتدبر لآيات هذه السورة، أنها ابتدأت بعرض مثال لمنكري يوم القيامة، الذي عبر عن إنكاره بهذا التساؤل، الذي يحمل في طياته استهزاء وكبراً، كبرٌ حمله على أن يسأل هذا السؤال الدال عن عدم اكتراثه بالعذاب، فكان أن تولت الخاتمة ذكر مآله ومآل أمثاله﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾، فكان الجزاء أن الذلة تغشاهم في ذلك اليوم.

ثم إن الخاتمة قد تولت الإجابة عن سؤاله بما سيكون عليه حاله في ذلك اليوم، ثم ختمت بقول الله جل جلاله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾.

كما أن النبي ﷺ قد أمر في افتتاحية السورة بالصبر الجميل، فقد أمر في خاتمتها بقول الله

جل جلاله: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها:

ذكر العلماء أن سورة المعارج نزلت بعد سورة الحاقة[1]، وهذا ما يجعل التلاحم أشد، يتضح ذلك من الآتي:

آخر آية في سورة الحاقة هي قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾، ومن المعلوم أن «التسبيح تنزيه الله تعالى»[2]، فهل كان المشركون يسبحون ربهم العظيم، إن من ينكر البعث لا يكون منزهاً لله تعالى عن النقائص، ذلكم أن منشأ إنكارهم للبعث ظنهم استحالة ذلك، وهذا شك في قدرة الله تعالى، يدل على هذا أقوالهم الكثيرة، منها: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٧- ٤٨]. كما أن في إنكار البعث قدحاً في حكمة الله تعالى، إذ سيستوي الذين يعملون الصالحات مع من يرتكبون الفواحش والموبقات، وسيموت الظالم ولم يقتص منه للمظلوم.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

تضمنت سورتا الحاقة والمعارج مناسبات عدة، منها:

* أن سورة الحاقة اشتملت على إحقاق الحق بين الناس، اتضح هذا من خلال توزيع الكتب، وانقسام الناس إلى فريقين...، فكان أن افتتحت سورة المعارج بالفريق المكذب، ببيان أن العذاب واقع لا محالة، وأنه لا دافع له....
* افتتحت سورة الحاقة بذكر يوم البعث ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾، وبيان هولها، وهذا ما بين وفصل في سورة المعارج، من خلال ذكر مصدر العذاب ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾، بل إن في النص على أن

---

(١) انظر الإتقان١/ ١٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني/ ٣٩٢.

هذا العذاب واقع، تهويل لا يخفى.

* ذكر في سورة الحاقة ما سيحصل من حوادث كونية، ففيما يتعلق بالسماء ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾، وفي سورة المعارج: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾، وأما الجبال ففي سورة الحاقة ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾، وفي سورة المعارج ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾، وكأن الدك يصيرها كالعهن، وكذا السماء لربما يؤدي انشقاقها إلى صيرورتها كالمهل، أو لعل كونها كالمهل يؤدي إلى انشقاقها، والعلم عند الله تعالى.

* ذكر الأقوام المكذبة وما آل إليه حالهم في سورة الحاقة، فيه تسلية للنبي ﷺ، وكذا مآل المكذبين بيوم البعث في سورة المعارج ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾.

* وانظر إلى الارتباط بين ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، في سورة المعارج، وتحسر المكذبين على فعلتهم بقولهم في سورة الحاقة: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾. قال ابن عاشور: «وفي هذا تعريض بسادة مشركي قريش العرب، مثل أبي جهل، وأمية ابن خلف»[(١)].

* وتأمل هذا التشابه بين ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ في سورة الحاقة، وما في سورة المعارج ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾. فلم يكن منعه المال لمستحقيه إلا ليجمع أكبر قدر منه.

* ثم لاحظ المقابلة بين ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ في سورة الحاقة، وهي تصور حال المكذبين، وبين سمة من سمات المؤمنين في سورة المعارج ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

* وتدبر قول الله تبارك وتعالى في سورة الحاقة: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾، وما في سورة المعارج: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾. إلى غير ذلك...

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٦.

عرض مقاطع السورة

مقدمة السورة

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ ﴾.

افتتحت السورة بآيات، تعرِض مثالاً لمن ينكرون البعث، صاغ إنكاره على شكل سؤال يحمل بين طياته استهزاء.

يعرض القرآن الكريم سؤاله دون أن يتعرض لاسمه تحقيراً له، ولبيان أن الغرض هو السؤال الذي يحمل الشبهة، ثم الرد عليها، فهو سائل، وأمثاله موجودون في كل زمان ومكان...، ثم تنتقل الآيات مباشرة إلى الرد على الشبهة دون الدخول في تفاصيلها، في حين أخذ الرد حيزاً كبيراً، فقد ذكر الله تعالى أن هذا العذاب الذي يسأل عنه، واقع على الكافرين لا محالة[1]، وقد يُظن أنه إذا وقع فإن هناك من يستطيع دفعه، كآلهتهم، أو سواهم ممن يظن فيهم النفع أو الدفع... فحسم الله تعالى أطماعهم، فقال عز من قائل:﴿ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴾ « بوجه من الوجوه، ولا حيلة من الحيل»[2]، وهذا تهويل لعله يهيئ نفوسهم لتلقي الحق ومعرفة ما سيحصل في هذا اليوم الشديد، ليستعدوا له، لا أن ينشغلوا عنه بأمور تضيع أعمارهم سدىً...، ثم أردف ذلك ببيان مصدر ذلك العذاب وأنه الله تعالى، ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ ﴾، «ذو العلو والدرجات والفواضل والنعم»[3]. وإذا كان هذا السائل الحقير يستهزئ منكراً يوم الحساب، فإن الملائكة العظام عليهم السلام، ومعهم جبريل عليه السلام، تصعد إليه في ذلك اليوم العظيم[4]، ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ ﴾، وإذا

---

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٦.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٤٥٠

(٣) جامع البيان، ١٢/ ٢٢٦، وانظر تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٣٧.

(٤) رجح هذا القول، أعني: يوم القيامة، لمناسبتها للسياق، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه والحسن وقتادة =

كانوا يستعجلون وقوع هذا اليوم ـ استهزاء ـ فلا يحزنك هزؤهم، واصبر على تكذيبهم؛ فإن مرد ذلك، اعتقادهم استحالة وقوعه، وهو في الحقيقة قريب... فما عليك إلا الصبر، والصبر الجميل الذي لا جزع فيه، ولا ينبغي أن يثنيك ما تلقى منهم عن تبليغ ما أمرك الله تعالى أن تبلغهم من الرسالة. [1] ولا يخفى ما يتضمنه هذا الأمر من تهديد للمكذبين، بما سيقع بهم من وراء هذا الصبر الذي يلقاهم النبي ﷺ به محتملاً سفاهتهم وسخريتهم. [2]

الهدايات المستفادة من المقدمة:

* لا ينبغي أن يُشتغل بأسماء من يثير الشبهات، والأفضل أن يبقوا نكرات حتى لا تلفت الأنظار إليهم.
* الاستهزاء بالإسلام أمر قديم، لا علاقة له بالداعية، فهذا الاستهزاء وقع ممن كانوا يسمّون الرسول ﷺ الصادق الأمين، فلا ينبغي أن يفت استهزاؤهم في عضد الداعية، ولأهمية هذه النقطة فقد جاء الأمر الرباني بالصبر الجميل ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.
* الأفضل في ذكر الشبه أن لا تورد مفصلة، حتى لا تعلَق بقلوب العوام، بل يكفي إيرادها مختصرة، مع مراعاة وضوحها... أما الرد فيكون مفصلاً.
* علو الله تعالى، يستنبط ذلك من قوله تعالى: ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾.
* ينبغي على العلماء والدعاة مخالطة الناس، ومعرفة ما يدور على أرض الواقع؛ لإزالة ما قد يعرض من شبه.
* تعلم المنهج الرباني في الرد... وفي الحوار، فقد كان الرد على الشبهة لا على قائلها.

=والقرطبي، انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١١٧.

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٢٨.

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١١٥٩.

* مهما علا شأن الإنسان ونبل ذكره، فهو في حاجة للتذكير، فهذا رسول الله ﷺ يأمره ربه جل جلاله بالصبر الجميل...، فعلى العلماء والدعاة أن يتواصوا بالحق وبالصبر، كما أن عليهم أن لا يأنفوا إذا ما نصحوا.

المقطع الأول: منكرو البعث

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لمقدمة السورة

عرضت مقدمة السورة سؤال هذا المنكر المستهزئ، فجاء هذا المقطع مبتدئاً بذكر سبب إنكارهم، ثم توالت الآيات تبين هول ذلك اليوم الذي يستبعدون وقوعه؛ ليحدث في نفوسهم هزة شديدة توقظهم من غفلتهم، ولعلها تعيدهم إلى صوابهم ؟

التفسير الاجمالي

بعد تلك المقدمة، التي تذكر مثالاً للمستهزئين، انتقل الحديث لبيان سبب هذا الاستهزاء وهذا الإنكار، وهو كونهم يستبعدون وقوع العذاب، في حين أنه قريب، لأن كل ما هو آت قريب....

بعد ذلك ـ وبمناسبة ذكر استبعادهم وقوع العذاب ـ انتقل الحديث لذكر أهوال يوم القيامة، واللافت للنظر أن الحديث هنا لم يأت بأدلة لإثبات هذا اليوم، بل ذكر الأهوال التي تحصل فيه؛ لعلها تحدث هزة في النفوس المتشككة تزيل عنها ركام شبهات استولت على قلوبهم

حتى أقفلتها؛ لأن ما سيحدث سيزلزل ما ترونه قوياً ثابتاً راسخاً: السماء والجبال، وإذا كانت السماء، وهي السقف المحفوظ والحافظ ستصبح كالشيء المذاب، والجبال التي كانت أوتاداً تثبت الأرض كيلا تميد، قد صارت كالصوف، فقد حُق لهذا الإنسان الضعيف أن يتحسس مواقع قدميه متسائلاً: أين أنا في وسط هذه التحولات الرهيبة، وكيف سيكون حالي؟ والقرآن الكريم لا يتيح له الفرصة ليفكر في الإجابة، لقد طوي حاله، وإن كان فيما تحمله الآية من معان ليدل عليها، إذ هي حال من يذهل عن الناس جميعاً، ويذهل عنه الناس أجمعون، فلا يسأل القريب المشفق عن حال قريبه ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾، لقد أهمّت الناس أنفسهم، وقد يظن أن مرد ذلك عدم رؤيتهم، وهذا مبرر كاف، لكن في قوله تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ بياناً عظيماً، فهذا المذهول لا يبصر مَن أمامه، ولو قابله، لقد أعماه ما هو فيه عن رؤية قريبه، « وفي الفعل ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ ما ليس في الفعل يبصرونهم، وذلك:

أولاً: أن يبصّرونهم يفيد أن أهل الموقف ـ لما هم فيه من بلاء ـ لا يكادون يبصرون شيئاً، ولكن قوة خارجة عنهم، تحملهم حملاً على أن يفتحوا أعينهم على هذا المكروه الذي يحيط بهم ويهجم عليهم.

وثانياً: أن يبصرونهم تجعل المبصرين والمبصَرين على سواء، فكل منهم يبصِر ويبصَر في حال من الفزع والهلع، لا تدع لأي سبيلاً إلى الاختيار فيما ينظر إليه...». [1]

وإن الهول ليبلغ مداه حين نتصور مجرد تصور، أن هذا الإنسان البائس يتمنى ويحب أن يقذف بأعز أقربائه في النار، على أن ينجو هو منها، ولو كان هذا الملقى بنيه وزوجته وأخيه وقبيلته، بل كل من في الأرض كذلك مقابل نجاته... وهل هذا التمني مجد؟، ويأتيه الجواب الرباني: ﴿ كَلَّآ ﴾، زجر وردع عن هذا التمني الفارغ، إن ما ينتظركم نار « ذات اللهب الخالص المتناهي في الحر، يتلظى، أي: يتوقد...»[2]، تنزع نزعاً شديداً جلدة الرأس وأطراف البدن. [3] « وهذا

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٥ / ١١٦١-١١٦٢.

(٢) نظم الدرر ٨/ ١٤٩.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٣١، ونظم الدرر ٨/ ١٤٩.

يعني أن يفقد المعذب بالنار القدرة على الحركة، إذا انفصلت عنه رجلاه اللتان يتحرك بهما، كما يفقد القدرة على الدفاع عن نفسه بيديه بعد أن عجز عن الفرار، إذ قد انخلعت عن جسده هاتان اليدان.. وهكذا يصبح كتلة مستسلمة للعذاب، مقيدة بقيد العجز المطلق».[١]

وبعد هذا التهويل الذي يفزع الإنسان، ويجعله يتساءل، عن من يستحق هذا العذاب؟ فيأتيه الجواب، ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، « كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه»[٢]. وقد جمع بين الإدبار والتولي، مدبراً عن الحق متولياً عنه إلى الباطل[٣]، ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ « جمع المال وجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد الحقوق الواجبة فيه». [٤] بل تشاغل به عن الدين؛ حرصاً وتأميلاً. [٥] وقد أخرج البخاري ومسلم بسندهما: « عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَنْفِقِي وَلا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ وَلا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ)». [٦]

ولعل في الجمع بين الإدبار عن الإيمان والتولي عن الطاعة، وبين الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، دلالة جلية على شناعة هذا الفعل، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٣- ٣٤].

وفيه تنفير شديد من الاتصاف بهذه الخصلة الذميمة، وأنها شأن الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من جزاء.

وفي « قوله تعالى: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ إشارة إلى حب الدنيا، فجمع إشارة إلى الحرص وأوعى إشارة إلى الأمل، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه». [٧]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٧٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٠.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٩/ ١٦٥.
(٤) التفسير الكبير، الرازي ٣٠/ ١٢٨.
(٥) روح المعاني ٢٩/ ٦٩.
(٦) صحيح البخاري، برقم(٢٥٩١). وصحيح مسلم، برقم(١٠٢٩).
(٧) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٨.

ثم يقرر هذا المقطع حقيقة عظيمة، يأتي بها مؤكدة، فيقول جل جلاله:﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾، « فالإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه»[1]، والهلوع: صيغة مبالغة، من الهلع، وهو: « شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر»[2]، وفي قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ﴾: إشارة إلى أن هذا الذي عليه الإنسان من جزع ومنع هو مما سبق به قضاء الله فيه، واقتضته مشيئته، ومع هذا القضاء السابق والمشيئة الغالبة، فإن الإنسان مكلف بأن يختار طريق الخير ويتجه إلى جانب الأمن والسلامة من عذاب الله؛ لأنه لا يدري ما قضاء الله فيه، ومشيئته له، ولكن الذي يدريه أن للنجاة سبيلاً ينبغي أن يسلكه، وللهلاك طرقاً يجب أن يتجنبها[3].. بيد أن مثل هذه الآيات تجعل الإنسان يقظاً خشية أن يكون من ضمن ذلك التيار الجارف والغثاء الكثير..

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ بيان للهلع الذي هو طبيعة غالبة في الإنسان ما لم يهذبها بآداب الشرع، وإذن فهذا موقف الكافر ومنهجه في التعامل مع الحياة، والإنسان لا يخلو من مواجهة الخير أو الشر، ونظرة في الآية الكريمة تشخص لنا حالته تشخيصاً دقيقاً، فهو إذا مسه الشر مجرد مس، من مرض أو فقر أو نحوهما، جزع جزعاً عظيماً ولم يصبر، وإذا مسه الخير، مجرد مس، من مال أو صحة أو ولد، أو نحو ذلك، بالغ في المنع، ومرد ذلك كله إلى موقفه من الإيمان باليوم الآخر، فعند الشر، لا يحتسب الأجر عند الله تعالى، ولا يستشعر أن الذي سلب منه، كان منحه له ابتداء؛ تفضلاً من الله تعالى، وأنه في الدنيا للابتلاء، ولا يعي قول الله جل جلاله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وإذا كان كذلك، فلن يطمئن قلبه لوعد

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤١. وانظر أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٨٠.

(٢) جامع البيان، ١٢/ ٢٣٤.

(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٧٤.

الله تعالى عقب ذلك: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ [البقرة: ١٥٧] وإذا وسع الله تعالى رزقه، وآتاه الصحة والبنين، منع خيره عن الناس، وكيف يجود بالخير من لا يؤمن بالجزاء؟، وعلى هذا فهو بين جزع ومنع.... أما المؤمن الحق فهو خلاف ذلك، فعن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ). [1]

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* من أسباب إنكار البعث: الظن باستحالة وقوعه، ومرد ذلك الشك في قدرة الله جل جلاله، وهذا ناشئ من الجهل بالله تعالى.
* شدة أهوال يوم القيامة ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ ﴾.
* إن أهم الأسباب التي تؤدي إلى زيادة العلائق بين الناس ما كان على أساس من الدين وإلا فإن كل الأسباب ستتقطع، قال الله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ ﴾.
* يستنبط من قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ ﴾ أن على الإنسان أن يسعى في تخليص نفسه من عذاب يوم القيامة، وان لا يجعل أي إنسان سبباً في ضلاله مهما بلغت محبته له. فإنه سيتمنى يوم القيامة، تقديم أغلى من يملك، ولا يجديه ذلك شيئاً.
* من أهم أسباب دخول النار: الإدبار عن الحق والتولي عن الطاعة. وجمع المال من غير أن يخرج حق الله تعالى منه.
* حاجة الإنسان إلى تهذيب نفسه، وألا يتركها لما جبلت عليه من هلع.

(١) صحيح مسلم، برقم(٢٩٩٩).

المقطع الثاني: المؤمنون بالبعث

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبات بين هذا المقطع والذي قبله

بعد أن تحدث القرآن الكريم عن منكري البعث، وذكر من أحوالهم ما يفزع القلوب الحية، من فرارهم من أعز الناس إليهم، ومن كون النار لظى، نزاعة للشوى.... ثم ذكرت السورة صفات من تدعوهم النار ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، تهيأت النفوس للبحث عن خلاص من هذا الذي ينتظر كل من اتصف بصفاتهم، فجاء هذا المقطع؛ ليبين الصفات التي تهيئ الإنسان للانضمام إلى من هم في جنات مكرمون.

التفسير الإجمالي

ابتدأ المقطع الثاني بالاستثناء، وفيه دلالة على كثرة الهالكين، وأن المتصفين بما سيأتي قلة ولعل فيه نوع من الإلهاب والتهييج للانخراط في سلكهم، والسير على هديهم ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الآيات، وقد وصفوا بصفات تدل على كمال تنزههم عن الهلع وذلك بكونهم مستغرقين في طاعة الله جل جلاله والإشفاق على الخلق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبة، وكسر الشهوة، وإيثار الآجل على العاجل، على خلاف القبائح المذكورة فيمن أنكر البعث. [(١)]

افتتحت الآيات بذكر الصلاة والمداومة عليها، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: «لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها، بل يلازمونها ملازمة يحكم بسببها أنهم في حال الفراغ

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٠٢ بتصرف يسير. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧٠.

منها نصب أعينهم بدوام الذكر لها والتهيؤ لأدائها؛ لأنها صلتهم بمعبودهم...»[١].

ثم ثنت بإحسانهم إلى الخلق، فبينت أن هؤلاء في أموالهم حق معلوم، وسواء كان المراد الزكاة، أو مجرد الإنفاق، فإن مبعث هذا الإنفاق هو إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بوعده وهذا ما حملهم على ذلك، وإلا فإن النفوس مجبولة على الشح فيما عندها، فلا تخرج ما بأيديها إلا نفس قد طهرها الإيمان....

ثم عقب ذلك بالنص على صفة عظيمة، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾ قال الطبري: « يقرون بالبعث والمجازاة»[٢]، وهنا الفيصل في التصرفات كلها، فيفترق من يؤمن بالبعث والجزاء عمن ينكرهما؛ لأن لهذا للإيمان ثمرة، وهي العمل، صالحاً كان أم سيئاً، المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لذلك اليوم، وينتظر الجزاء هناك، وإذا أصابه خير أو شر، أيقن أنه مجزي على هذا كله، فيشكر ويصبر، والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه، وينتهي إلى نتائج خاطئة.[٣]

وقد يُظن ـ بعدما تقدمت للمؤمنين من أعمال صالحة ـ أن هؤلاء يغلب عليهم الأمن من عذاب الله جل جلاله، فجاء التعقيب الذي يرد هذا الوهم، بأنهم وهم على هذه الصفة الرفيعة مشفقون من عذاب ربهم. فهم «خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها واستعظاماً لجنابه جل جلاله»[٤]، ثم يقرر المولى جل جلاله هذه الصفة مؤكداً لها﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ ﴾، « أي: لا ينبغي لأحد أن يأمنه، بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة؛ لأن الملك ملك تام الملك، له أن يفعل ما يشاء، ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٥١.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٠.

(٤) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧١، وفتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣١٤.

موجباته غاية الإبعاد، ولم يزل متأرجحاً بين الخوف والرجاء»[١]، ثم « إن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي، واحترز عن المحظورات بالكلية، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك، فلا جرم يكون خائفاً أبداً». [٢]

ولما ذكر التحلي بتطهير النفس، بالصلاة طهارة حسية ومعنوية، وبتطهير المال والنفس بالصدقة، حث على التخلي عن أمر جامع بين تدنيس المال والنفس، وهو الزنا، فبين الله تعالى أن هؤلاء حافظون لفروجهم حفظاً ثابتاً دائماً. [٣] إلا عمن أذن الله تعالى به ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، ثم بين تعالى أن من التمس منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه، فقد عدا ما أحل له إلى ما حرم عليه... [٤]، ولا يلتزم أمر الله تعالى إلا من آمن به وأيقن بوعده ووعيده، أما من كفر بذلك فهو يعب من الشهوات عباً، يريد أن يقتنص كل فرصة ممكنة، همه الدنيا وملذاتها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: «والذين هم لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم، وعهود عباده التي أعطاهم على عقده لهم على نفسه راعون، يرقبون ذلك، ويحفظنه فلا يضيعونه...»[٥]، وينبغي أن يعلم أن أعظم الأمانات هي أمانة العقيدة، وأعظم العهود هو ما أخذه الله تعالى على بني آدم[٦]، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(١) نظم الدرر ٨/ ١٥٣.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٠.
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.
(٥) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.
(٦) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠١.

ولا يؤدي الأمانة وهو قادر على الخيانة، ولا يفي بالعهود وهو قادر على نكثها، إلا من آمن بالله واليوم الآخر، آمن بالرقيب، وآمن بالجزاء.

وتتوالى الآيات تبين خصال من تحرروا من الهلع، يقول تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، أي: « والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أداؤها غير مغيرة ولا مبدلة»[1]، وذكر حفظ الشهادة بعد ذكر رعي الأمانات؛ لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له..[2] «وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها». [3] ولأن الشهادة تتعلق بها حقوق كثيرة، بل تتعلق بها حدود الله تعالى، [4] كما أن في التعبير عن أداء الشهادة على وجهها بلفظ القيام بها، إشارة إلى أن أداءها أمر له شأنه، وأن على الإنسان أن يقوم لها بكيانه كله، وأن يظل هكذا قائماً حتى يؤديها. [5]

ولن يؤدي الشهادة على وجهها، ولن يقيمها لله جل جلاله، إلا مسلم علم أنه موقوف بين يدي الله تعالى يوم الحساب، وبخاصة إذا رُغِّب أو رُهِّب، ولذا كانت هذه الصفة من صفات المؤمنين الذين يرغبون فيما عند الله جل جلاله، وهم من عذاب ربهم لا من عذاب غيره مشفقون.

ثم يختم هذا المقطع بما بُدئ به، وهو تأكيد أمر الصلاة، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ « وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات، تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها، وفي فرائضها، وفي سننها، وفي هيئاتها، وفي الروح التي تؤدى بها. فلا يضيعونها

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير٢٩/ ١٧٤.

(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣.

(٤) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢.

(٥) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٨٤، والتحرير والتنوير٢٩/ ١٧٤.

إهمالاً وكسلاً. ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها». [١]

وفي افتتاح هذا الصفات بالصلاة وختمها بها، دلالة على مدى اهتمام الشرع بها، وعلى شرفها وعلو قدرها. [٢]

وبهذه الخصلة ينتهي ذكر هذه الخصال الحميدة، وهنا تتطلع النفوس للجزاء، ما جزاء من اتصف بهذه الصفات؟ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ إنهم في أفق كريم هنالك، مستقرون في جنات مكرمون، من يكرمهم، وبماذا يكرمون؟ لا تشير الآية إلى غير معنى الإكرام الذي يشمل الإكرام الحسي والإكرام المعنوي.

من هدايات المقطع الثاني

* المتحررون من ربقة الهلع قلة، يدل على ذلك، أنهم مستثنون من جمع غفير.
* لابد للمؤمن بالبعث من صفات، حتى يتحقق تميزه ويستحق أن يشار إليه ضمن فريق المؤمنين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، ومن ثم يستحق الإكرام.
* أهمية الصفات التي أوردها هذا المقطع، وأنه لا بد أن تكون نصب أعين المؤمنين.
* أهمية الصلاة خاصة، يتضح ذلك من أن المقطع بدئ بها، وهذا لوحده كاف في الدلالة على رفعة قدرها، فإذا أضيف إلى ذلك ختم الصفات بها، علمنا موقع هذه الفريضة في الشرع الحنيف.
* الإحسان إلى الخلق صفة من صفات المؤمنين بالبعث، وإلى أهل الحاجة منهم آكد، وعندها يشيع في المجتمع الإخاء والمحبة....
* عذاب الله تعالى ينبغي أن يحذر، حتى ممن يظن نفسه قد انتظم في سلك المؤمنين، وعلى المسلم أن يتهم نفسه، وأن يشعر بالتقصير.
* أهمية العفة للمسلم، وكون الإسلام يحرص على طهارة العلاقة بين الرجل والمرأة؛ ليطهر

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧٢.

(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣، وروح المعاني ١٥/ ٧٢، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢.

بذلك الفرد والمجتمع.

* الشبهة التي تثار هنا التي تتعلق بالإماء، إذ يجوز الإسلام الاتصال بالإماء إذا وجدن بطريق مشروع، وهو القتال في سبيل الله، فيجيز الإسلام وطء الإماء من صاحبهن وحده، ويجعل عتقهن موكولاً إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد، ويقف الإسلام بمبادئه صريحاً نظيفاً، لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر، كما يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً، ولا يتدسس ويلتوي فيسميهن حرائر، وهن إماء في الحقيقة. [1]
* أهمية حفظ الأمانة والوفاء بالعهود.
* القيام بالشهادة سمة من سمات المؤمنين.
* قد يظن بعض الناس أن هناك من غير المؤمنين بالبعث، من قد يتصف ببعض هذه الصفات كأداء الأمانة، والقيام بالشهادة، والوفاء بالعهد، ويجاب عن هذا بأن ما يفعلونه غير نابع من الإيمان بالبعث، بل لمجرد الحصول على منفعة أو محمدة. أو اتقاء المذمة، ويفعل ذلك مع أوليائه لا مع أعدائه. [2]
* حاجة الإنسان إلى الوحي، إذ قد علم أنه لا مخلص من الهلع إلا بالاتصاف بهذه الصفات، ولا طريق لمعرفة هذه الصفات ـ فضلاً عن تفاصيل التحلي بها ـ إلا بالوحي.
* جزاء من اتصف بهذه الصفات الإكرام في الجنات، والجزاء من جنس العمل، فكما أكرم نفسه فلم يستعبدها إلا لله، ولم يجعل الدنيا غاية همه ومبلغ علمه، وكما أكرم نفسه فلم يجعها أسيرة الهلع وما يترتب عليه من جزع ومنع، بل قادها هو لما يرضي الله تعالى فأحسن الصلة به وبخلقه.... أكرمه الله تعالى غاية الإكرام.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠١. بتصرف يسير.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ١٧١.

المقطع الثالث: هل يتساوى الجزاءان؟

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله

لما ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين، بين حال الكافرين، في إتيانهم للنبي ﷺ يسرعون الخطى ومن هذا شأنه يُظن فيه أنه يريد الخير، ولكن هؤلاء اكتفوا بالتحلق حول الرسول ﷺ، يسمعون الآيات؛ ليتخذوها هزؤاً، من ذلك قولهم: «إن كانت ثم آخرة وجنة فنحن أهلها وفيها؛ لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا»[1] فهم مع كفرهم وإنكارهم البعث يطمعون أن ينالوا مثل جزاء العاملين.

ومناسبة أخرى، وهي: أن الله تعالى لما ذكر الصفات التي يتحلى بها المؤمنون، ذكر طرفاً من أحوال المشركين، فهم يرون النبي ﷺ ويشاهدون أحواله، ويسمعون الآيات البينات، ومع ذلك يفرون منه ويتفرقون عنه، شاردين يميناً وشمالاً فرقاً.[2]

وقد ذكر الآلوسي مناسبة بين هذا المقطع وافتتاحية السورة، فقال: «... وقال: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بالفاء تخصيصاً بعد تعميم، ورجعاً إلى بدء؛ لأنهم من المستهزئين الذين افتتح السورة بذكر سؤالهم».[3]

التفسير الإجمالي

ينكر الله جل جلاله على المشركين إقبالهم على النبي ﷺ مسرعين، ومن ثم تحلقهم حوله

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٢.

(٣) روح المعاني ١٥/ ٧٠.

فرقاً، يشاهدونه ويلمسون معجزاته، ومع ذلك لا يكون نصيبهم من سماع الآيات والمواعظ إلا طمعاً فارغاً في دخول جنة النعيم، وهم لم يتصفوا بالصفات التي تؤهلهم للدخول فيها، فيرد عليهم المولى جل جلاله زاجراً رادعاً ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته، فيمسح بها كبرياءهم مسحاً،... دون لفظة واحدة نابية... فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع؟ وهم مخلوقون مما يعلمون!». [١]

ثم أقسم الله جل جلاله برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها على مدار العام، على أنه جل جلاله قادر على أن يهلكهم ويأتي بخير منهم، خلق يطيعون الله تعالى ولا يعصونه، وما يفوته جل جلاله منهم أحد بأمر، فيعجزه هرباً. [٢] بل يفعل تعالى ما يريد، لكن اقتضت مشيئته وحكمته تأخير عقابهم.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالقسم، وأنه لا يعجزه شيء من الممكنات. وهو تهكم بهم وتنبيه على تناقضهم، حيث يؤمنون بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم مما يعلمون، ثم لا يؤمنون بأنه قادر على إعادتهم للبعث والجزاء. [٣]

هدايات المقطع الثالث

* الحجة قد أقيمت على الكافرين، فهم يقبلون على مجلس النبي ﷺ ويسمعون كلامه ويرون معجزاته، ولكن هذا لا ينفعهم، لأنه صادف قلوباً غلفاً، وعيوناً عمياً، وآذاناً صماً... وإنما يسمعون ويرون ما تقوم عليهم به الحجة.

* هذا الذي يفعله المشركون ـ وأمثالهم في كل زمان ومكان ـ أمر يدعو للإنكار والتعجب إذ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٣. بحذف يسير.

(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٤٢، وانظر التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٢٩ـ١٣٠.

(٣) التفسير المنير ٢٩/ ١٣٠، بتصرف.

الأصل فيمن يقبل مسرعاً على الهداة، أن يفيد من هديهم وعلمهم وسمتهم.

* الهداية بيد الله تعالى، فهؤلاء رأوا الرسول ﷺ، وشاهدوا أحواله، بل رأوا من المعجزات الشيء الكثير، ومع ذلك لم يسلموا، في حين أنك تجد الآن، وبعد هذه القرون المتطاولة إنساناً في الشرق أو الغرب يسمع بعض الآيات وإذا بالإيمان قد عمر قلبه.

* حِلم الله تعالى وحكمته ورحمته، إذ إن هؤلاء المشركين قد استحقوا العقوبة، بكفرهم بالله تعالى، وإنكارهم البعث، والله تعالى قادر على أن يهلكهم ويأتي بخير منهم، ولكنه حلم الله جل جلاله وحكمته ومشيئته.

* المؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر يعمل وهو على وجل وإشفاق، والمنكر يعصي الله جل جلاله، ويكفر به وباليوم الآخر، ويطمع في دخول جنة نعيم ـ إن كان ثمة بعث على حد زعمه ـ.

* ظاهرة الشروق والغروب فيها إشارة إلى دوران كرة الأرض، وهي نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة، وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر، وهذا ما لا تستقيم معه الحياة. (١)

* الأدب القرآني، نتبين هذا من خلال التعبير بـ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾، مع ما هم عليه من كفر وعناد وتكبر واستهزاء، ولذا فعلى الدعاة أن ينهجوا هذا النهج ولا يستفزنهم الذين لا يعقلون.

---

(١) ذكر هذه الإشارة العلمية الدكتور زغلول النجار في موقع (www. islamicmedicine. org /zaghlool).

خاتمة السورة

قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مناسبة خاتمة السورة لما قبلها

بعد أن تعرضت السورة الكريمة في مقدمتها لنموذج من منكري يوم البعث، وكيف كان يسأل مستهزئاً عن وقوع العذاب، وذكر في نهايتها أمر النبي ﷺ بأن يصبر صبراً جميلاً، جاءت الخاتمة لتُفتتح بقول الله تعالى لنبيه ﷺ:﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾.

إذا ضممنا إلى هذا تصوير مجيئهم إلى مجلس النبي ﷺ الذي ورد في المقطع الثالث ـ قبيل الخاتمة ـ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾، ثم تبجحهم وتكبرهم وادعاءهم أن ما هم عليه من مال وبنين، إنما هو استحقاق ذاتي، فلو فرض أن هناك يوماً للحساب، فسيدخلون جنة نعيم، أقول: إذا ضممنا هذا إلى ذاك، أمكننا أن ندرك تلاحم السورة. فقد قوبل هذا التبجح بجزاء يوافق فعلهم، وهو الذلة التي غمرتهم جزاء تكبرهم.

ثم تمعن في المقطع الثاني وقد عُجل للمؤمنين بالبعث جزاؤهم﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، وانظر إلى جزاء المكذبين، الذي ختمت به السورة ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾...

التفسير الإجمالي للخاتمة

بعد استعراض الفريقين، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ؛ ليترك المكذبين غير مكترث بهم، يخوضون في باطلهم، ويلعبون في دنياهم، حتى يلاقوا يوم البعث عند النفخة الثانية، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: « فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي، ولا صدقوا رسالاتي، في خوضهم بالباطل ولعبهم فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه فالأول ضد العلم

النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول...». [١]

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾، يخرجون في ذلك اليوم الذي أنكروا وقوعه من قبورهم، إذا دعاهم الداعي « يسرعون الخطى، كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا...». [٢] أما حالهم في ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه، ساخرين متكبرين، فقد جلاه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾، أي: « خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان»[٣]، تغشاهم ذلة عظيمة، فتعمهم، وتحمل عليهم فتكلفهم كل عسر وضيق، [٤] ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ وهو إذن يوم يشار إليه، وفي غاية العلو والعظمة، وكانوا يُحَذَّرون من مغبة إنكاره، مرة بعد مرة.

هدايات الخاتمة

* ما يفعله المبتعدون عن منهج الله تعالى لا يعدو أن يكون لعباً ولهواً.
* لا ينبغي أن يأسى الدعاة عندما يرون عدم إقبال بعض الناس على دعوتهم، فهذا رسول الله ﷺ، يؤمر ـ بعد أن أدى أمانة التبليغ ـ أن يذر هؤلاء وما هم عليه.
* خاتمة المتكبرين على طاعة الله، وعلى عباده أن يجازوا بذلة عظيمة.
* لن يتوانى هؤلاء العصاة عن تنفيذ أمر الله تعالى إذا دعاهم الداعي يوم القيامة، وقد كانوا في الدنيا، يؤمرون فيعصون.
* حرص النبي ﷺ على دعوة هؤلاء المكذبين، ورحمته بهم، مع أنهم واجهوه بالسخرية والاستهزاء، حتى احتاج أن يأمره مَن أمره بالتبليغ أن يذرهم.

---

(١) بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية ٥/ ٢٩.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٣.
(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٤٤.
(٤) انظر نظم الدرر ٨/ ١٦٠.

سورة نوح

بين يدي السورة

اسم السورة

قال الفيروز آبادي: «سميت سورة نوح لذكره في مفتتحها ومختتمها»[1]، ولم يُذْكَر لها اسمٌ آخر.

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت عنوان: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، وكان ترتيبها الحادية والسبعين، وهو أربع وثمانون سورة، ثم قال: « فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات، وهو خمس وثمانون سورة»[2].

وإذا استحضرنا هذه المرحلة، فكونها مكية، فإنها تعالج في المقام الأول، العقيدة، متمثلة في: إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو ما كان المشركون يأنفون منه، قال جل جلاله يبين حالهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الصافات: ٥]، وقد ذكر هذا في سورة نوح في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾.

كما أنها تناولت أمراً في غاية الأهمية، وهو البعث، الذي أنكر المشركون وقوعه، قال جل جلاله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٦]، وفي هذه السورة يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾، فكان إرسال نوح عليه السلام؛ ليخوفهم عاقبة شركهم بالله جل جلاله.... وفي أثناء

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١٠/ ٤٨٢.

(٢) انظر لما تقدم البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١، والسور التي عدها: أربع وثمانون لا خمس وثمانون. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٢، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي١/ ١٩.

السورة ورد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا فيما يتعلق بالمشركين، أما فيما يتعلق بالمؤمنين، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فإن السورة تذكر نوحاً عليه السلام، الذي استمر يدعو قومه دون كلل أو ملل، ثابتاً، راسخاً، على الرغم من قلة المستجيبين، وعلى الرغم من استهزاء المعرضين، فكانت هذه السورة تسلية للنبي ﷺ وللقلة المؤمنة معه، كما أنه فيها دعوة للثبات على دين الله، وفيها من العبر ما يمكن أن يسير على نهجه المؤمنون.

أما عاقبة قوم نوح عليه السلام، فيشترك الفريقان في أخذ العبرة منها: من آمن منهم ومن كفر.

عدد آيات السورة

للعلماء في عدد آيات هذا السورة، ثلاثة أقوال:

« ثمان وعشرون آية، في عد الكوفي.

وتسع وعشرون، في عد البصري وعطاء والشامي، سوى أهل حمص.

وثلاثون آية، في عد المكي، والمدنيين، وأهل حمص». [1]

محور السورة

تناولت سورة نوح قضية تعد أهم القضايا التي أرسل من أجلها الرسل عليهم السلام، وهي الإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة، بالاستدلال بكمال قدرته جل جلاله في الأنفس والآفاق...، ثم بينت موقف قوم نوح عليه السلام من هذه القضية.

ابتدأت السورة ببيان أن الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام بالحق، تفضلاً منه جل جلاله، وقد كان ينبغي عليهم أن يطلبوه ويحرصوا عليه أشد الحرص، وطُلب منه أن ينذرهم عاقبة الاستمرار

(١) فنون الأفنان، ابن الجوزي/١٤٨. وانظر بصائر ذوي التمييز١٠/٤٨٢، والإتقان في علوم القرآن١/ ١٥٠.

على ما هم فيه من شرك، فقام هذا الرسول الكريم ﷺ بمهمته خير قيام، وبلغهم الحق الذي أرسل به، ولم يتوان في ذلك، بل دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية وجهاراً، فماذا كان ردهم ؟ أصموا آذانهم، وأعموا أبصارهم، هذه الحواس التي أنعم الله تعالى بها عليهم؛ ليتوصلوا بها إلى معرفته، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، وقد رغبهم بخير عاجل إن هم أجابوه، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، ثم ذكر لهم العديد من الأدلة على قدرة الله جل جلاله:﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾ الآيات، فماذا كانت النتيجة؟ بعد هذا الحق الذي رُهبوا من مخالفته، ورُغبوا في قبوله، والذي استدل عليه بخلقهم، وبالعالم العلوي والسفلي، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ عصوا رسول الحق، واتبعوا الزعماء والوجهاء وأهل الثراء، جرياً وراء مصالحهم، وقد تواصوا على هذا العصيان، فأضلوا كثيراً من الناس بمكرهم، ولقد كانت عاقبة عصيان الحق، أن ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾، ويتلفتون هل من منقذ من آلهتهم أو من كبرائهم ؟ ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، فتلاشى الباطل واضمحل، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وهكذا كان مآلهم في الدنيا وفي الآخرة.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبات بين اسم السورة ومحورها:

اسم السورة ـ كما هو معلوم ـ سورة نوح، وقد سميت باسم هذا الرسول، الذي يمثل الحق في هذه الفترة، وقد أرسل إلى قومه؛ لينقذهم من عذاب أليم، والسورة تدور كلها حول نوح ﷺ، إذ تبدأ بتكليف الله تعالى له،﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾، فنهض بمهمة الدعوة فوراً، فجهر بها، ونوع الأساليب، وعدد الطرق؛ لكي يصل الحق إلى أسماعهم، فتعيه قلوبهم، ولكنهم أغلقوا كل منفذ يمكن للحق الدخول منه، ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ

ثِيَابَهُمْ ﴾، وقابلوا حرصه على دعوتهم بالإصرار على الكفر ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾، ثم لما رهب ورغب، ورأى أن ذلك لم يُجد معهم، سلك مسلكاً عقلياً، مستدلاً بأدلة متنوعة؛ بغية إقناعهم، ولكنهم لم يسمعوا لصوت الحق، بل عصوا رسوله ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾، ولما لم تجد هذه الوسائل المتعددة، ولا الأساليب المتنوعة في هدايتهم شيئاً، وعلم يقيناً أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن، دعا على قومه الكافرين ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ثم ختمت السورة بدعاء صدّره نوح عليه السلام بطلب المغفرة لنفسه؛ خشية أن يكون قد حصل منه تقصير في تبليغ الحق، ثم ثنى بوالديه، إذ هم أحق من يدعو لهم لعظم منزلتهم... عقب ذلك الدعاء لمن دخل بيته مؤمناً، ثم عم المؤمنين والمؤمنات في كل زمان ومكان...، ولم يفت هذا الرسول الكريم عليه السلام ـ وهو يطلب المغفرة ـ أن يدعو على من تنكبوا طريق الحق فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، أن لا يزيدهم الله تعالى إلا هلاكاً خساراً.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

أرسل الله تعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه لينذرهم العذاب الأليم، وبعد أن أبلغهم ما أمر به، ثم رفع شكواه إلى العليم الخبير... جاءت الخاتمة لتبين موقف هذا الرسول الذي بقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يترك سبيلاً للوصول إلى قلوبهم إلا سلكه، جاءت الخاتمة لتبين حاله، وإذا هو يدعو بالمغفرة مستشعراً معنى العبودية، مبدياً افتقاره إلى الله جل جلاله خائفاً من التقصير، أو أن يكون قد صدر منه خلاف الأولى. [1] ثم دعا للمؤمنين به، الأقرب إليه فالأقرب، وأخيراً دعا على الفريق الذي رد دعوته، ولم يقبل إنذاره.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

اختتمت سورة المعارج بالتأكيد على يوم البعث وأن المشركين سيلقونه، والذلة تغشاهم، ثم افتتحت سورة نوح بمثال من الأمم السابقة: رسول أرسله الله جل جلاله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا

(١) انظر التفسير الكبير، الرازي ٣٠/ ١٤٦. وروح المعاني، ٢٩/ ٩٠.

نُوحًا ﴾، وهذا الرسول منهم كما أن محمداً ﷺ من قريش ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾، وظيفته الإنذار لا الإتيان بالعذاب، فما كان ينبغي على المشركين أن يسألوا وقوع العذاب، وإذا كان السؤال قد وقع، فلينصتوا إلى خبر الأمم السابقة، فإن في قصصهم عبراً، وبذا تجعل هذه الافتتاحية النفوس متشوقة لمعرفة ما حصل من هؤلاء، وماذا كان جزاؤهم.... وخاصة أن الافتتاحية نصت على العذاب ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولم تحدد. هل هو العذاب الدنيوي، أو الأخروي، أو الاثنان معاً ؟.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

* لما كان محور سورة المعارج هو الإيمان بالبعث بين المؤمنين والمنكرين، فقد جاء الحديث في سورة نوح عن الفريق الذي أنكر يوم البعث، وأصر على ذلك واستكبر، فكانت السورة تعرض نماذج من سلوكيات هذا الفريق التي لا تبعد كثيراً عن تصرفات المنكرين في كل زمان ومكان، ومنهم مشركو قريش، الذين استهزؤوا بالبعث، وبالرسول ﷺ، وبعد ذلك ذكرت السورة عقاب قوم نوح عليه السلام في الدنيا والآخرة، تعريضاً بالمشركين، علهم يرتدعون، ويأخذون العبرة من هذه السورة. (١)

* ورد في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ [المعارج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ [المعارج: ٤٢]، وفي سورة نوح ذكر مثال للأنبياء الذين صبروا وهو نوح عليه السلام، وتكرر دعائه لقومه إلى الإيمان، وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء؛ لأن المقصود في الموضع تسلية النبي ﷺ، وليتأسى به في الصبر والرفق والدعاء كما قيل له في غير هذا الموضع: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد دام دعاء نوح عليه السلام مع قومه أدوم من مدتك، ومع ذلك فلم يزدهم إلا فراراً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٩/ ١٨٥. وانظر الأساس في التفسير، سعيد حوى١١/ ٦١٤٨.

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح: ٤-٧][1]، وقد فصلت السورة عنت قومه وشدة إنكارهم، على الرغم من أنه لم يدع وسيلة لهدايتهم، كما أن في هذه القصة عقب بيان موقف قريش في سورة المعارج تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين، فلا ينبغي أن يغتر أحد بكثرة العدد، فقوم نوح عليه السلام، ما آمن منهم إلا قليل، ومع ذلك فإن الغلبة والنصر في الدنيا كانا لمن آمن منهم.

* أقسم الله تعالى في سورة المعارج على أنه جل جلاله قادر أن يبدل خيراً من المشركين فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾، وكانوا قد سخروا من المؤمنين، وكذبوا بما وعدوا به من العذاب، وفي السورة التي معنا ذكر قصة نوح عليه السلام وقومه معه، وكانوا أشد تمرداً من المشركين، فأخذهم الله تعالى أخذ استئصال، حتى إنه لم يبقِ لهم نسلاً على وجه الأرض، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة، فحذر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا.[2]

* عالجت سورة المعارج قضية البعث، ولكنها لم تذكر أدلة تفصيلية عليه، وقد تولت سورة نوح تفصيل ذلك من خلال إثبات قدرة الله تعالى بدءاً من قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

* ذكرت سورة المعارج في معرض الرد على المشركين وتكبرهم ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، وفي سورة نوح ذكر قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾، في الاستدلال على قدرة الله، وهو على وجازته أكثر تفصيلاً مما في سورة المعارج.

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٦٣، بحذف يسير.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٣٣٢، بتصرف يسير، وانظر نظم الدرر ٨/ ١٦٢.

عرض مقاطع السورة

مقدمــة السورة

تتكون مقدمة السورة من آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾، وفيها تأكيد أن الله تعالى العظيم هو الذي أرسل نوحاً ﷺ إلى قومه؛ لينبههم إلى ما ينتظرهم من عذاب أليم في الدنيا والآخرة[1] إن هم استمروا على ما هم عليه من ضلال.

وقد اشتملت المقدمة ـ على إيجازها ـ على المرسل والرسول والمرسل إليهم والرسالة.[2]

من هدايات المقدمة

* رحمة رب العالمين، إذ أرسل نوحاً إلى قومه؛ ليحذرهم من مغبة ما هم عليه، ولم يعاجلهم بالعقوبة. وهذا من باب إقامة الحجة عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3] [الإسراء: ١٥].
* أهمية إرسال الرسل، يتضح هذا من نسبة الإرسال إليه جل جلاله وبضمير العظمة، وفيه دليل على علمه جل جلاله وحكمته، إذ إن البشر لا يمكن أن تصلحهم القوانين الأرضية، وهم أحوج ما يكونون إلى الهداية الربانية.
* حكمة رب العالمين إذ اختار المنذِر من جنس المنذَرين، وأرسله إلى قومه، ليكونوا به آنس. وللاقتداء به....

---

(١) اختلف العلماء في العذاب الأليم، فأكثرهم رأوا أنه عذاب الدنيا، وهو الغرق. انظر جامع البيان، الطبري١٢/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز٥/ ٣٧٢، والتفسير الكبير، الرازي٣٠/ ١٣٤. ولا أحسب أن هناك مانعاً من أن نطلق ما أطلقه القرآن الكريم، والله أعلم.

(٢) انظر نوح ﷺ وقومه في القرآن المجيد، الميداني/ ١٦٦.

(٣) انظر أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣١٨.

* يقول تعالى لنوح عليه السلام: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، مع أنه ليس هناك غيرهم، إلهاباً لنفسه؛ ليكون شديد الحرص على هدايتهم.[1] وهكذا ينبغي على من يرسل الدعاة أن يرسله لقومه فهو بهم وبطبائعهم أعلم، وعلى هدايتم أحرص، كما أنهم يعلمون مكانة هذا المصطفى من بينهم.
* الأنسب في التعامل مع المجتمعات العاصية، هو الإنذار فهو الذي يحملهم على الكف عن المعاصي والإقلاع عن الفجور، وهذا لا يعني إغفال الترغيب، ولكن لكل موضعه.
* إرسال محمد ﷺ ليس بالأمر الغريب، فالله تعالى قد أرسل من قبله رسلاً كثيرين، منهم نوح عليه السلام. وكأن في التأكيد تعريض بالمشركين﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾، فلم أنكرتم إرسال الله تعالى محمداً ﷺ....
* عذاب الله تعالى أليم، ينبغي أن يحذره كل عاص، فيقلع عن ذنبه.

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨٧.

المقطع الأول: نوح عليه السلام يدعو قومه

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

مناسبة المقطع الأول لمقدمة السورة

لا يخفى الارتباط بين هذا المقطع ومقدمة السورة، فنوح عليه السلام تلقى الأمر الرباني بأن ينذر قومه، فاستجاب من فوره: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾، ثم أخذت نصائحه تتوالى كما سيتضح بعد قليل.

التفسير الإجمالي للمقطع

امتثل نوح عليه السلام أمر ربه جل جلاله، فبادر لينذر قومه دون تردد أو اعتذار، وأعلن ذلك غير خائف ولا وجل، ومع هذه الشجاعة، تلطف ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾، وذلك « تمهيد لقبول نصحه، إذ لا يريد الرجل لقومه إلا ما يريد لنفسه»[1] ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، مؤكداً أمر إنذاره، لأنهم شاكون، كما أنه بين اهتمامه بهم ﴿ إِنِّى لَكُمْ ﴾، لكم أنتم خاصة، ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، أحذركم غاية

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨٨.

التحذير من عذاب الله تعالى، ببيان لا لبس فيه...، وبعد هذا الإجمال الذي يسترعي انتباه السامعين، أتبعه بما يجب عليهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾، اختصر دعوته في هذه الكلمات: « فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح والأمر بتقواه، يتناول الزجر عن جميع المحذورات والمكروهات، وقوله:﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ يتناول أمرهم بطاعته...»[1] إذ لا سبيل لمعرفة ما يرضي الله تعالى إلا عن طريق رسله عليهم السلام[2]، ثم وعدهم على ذلك إن هم امتثلوا، غفرانَ ذنوبهم؛ حتى لا يتعللوا بأنهم قد أتوا من المنكرات العظيمة التي ينوءون بحملها، فأنى لهم أن يعبدوا الله تعالى، وهم قد ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فطمأنهم إلى أن عبادة الله تعالى وتقواه وطاعة رسوله سبب لمغفرة ذنوبهم، ثم وعدهم بأمر دنيوي يحبونه ويتطلعون إليه ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي: « يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم»[3] ثم ضمن كلامه ترهيباً ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ ليزجرهم عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها، الأمر الذي جعلهم كأنهم يشكون أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.[4]

بماذا أجابه قومه؟ لقد طوي ذكره ههنا، ـ وإن كان يفهم من السياق ـ وبقي الحديث لنوح عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ وقد طوي الزمن أيضاً، فهذه الشكوى التي يبثها نبي الله تعالى نوح عليه السلام، قد قالها بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه.[5] وقد سلك عليه السلام في دعوة قومه أساليب متعددة، لعلهم يستجيبون... مكرراً دعوته لهم ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، قال أبو حيان: « لما ذكر دعاءه في عموم الأوقات ذكر

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٤.

(٢) انظر نظم الدرر ٨/ ١٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٥.

(٤) انظر التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٥.

(٥) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٣.

عموم حالات الدعاء...»[١]، والمعنى: كلما دعوتهم ليؤمنوا بك فيكون ذلك سبب غفرانك لذنوبهم....[٢] وهنا يتجلى موقف قوم نوح ﷺ من دعوته: الفرار أولاً من الدعوة، ثم إن واجههم ولم يستطيعوا التفلت منه، ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾لئلا يسمعوا دعاءه ﴿ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروه، قال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه، فاستغشاء الثياب إذاً زيادة في سد الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، أو ليعرفوه إعراضهم عنه.[٣] أو لحرصهم على عدم رؤية إشاراته فيما لو فعل! ولعلهم فعلوا كل هذا وأكثر، ولهذه الأغراض وغيرها.

ثم يقول تعالى على لسان نوح ﷺ ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي: وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه. ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾، « وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة»[٤]. «وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها، وإصرارهم هم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة يبرز في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب...».[٥]

ثم أخذ نوح ﷺ يواصل بث شكواه وبيان أسلوبه الدعوي الذي لم يدخر فيه وسعاً كي يوصل الإنذار إليهم ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ﴾، أي: «جهرة بين الناس. ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ أي: فيما بيني وبينهم»[٦]. ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ والمعنى: « سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٢.
(٢) ()انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٧٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٠٠. بتصرف يسير.
(٤) جامع البيان ١٢/ ٢٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٥.

سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة»[(١)]. ويلاحظ التأكيد على الاستغفار، إذ هو من الأهمية بمكان، لما فيه « من افتقار العبد إلى ربه وتذللـه إليه، واعترافه بتقصيره وذنبه، وتعظيمه لأمر الله ونهيه، وهذا مما يعين العبد على الاستقامة وسلوك طريق الحق»[(٢)]. ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾: خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم، وفيه « تحريك لداعي الاستغفار». [(٣)] ثم «علل ذلك بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة، تعهد الله بها لعباده المستغفرين». [(٤)]

ولما كان الناس مجبولين على محبة الخيرات العاجلة، كما قال تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٣]، فقد سلك معهم نوح ﷺ مسلك الترغيب، فوعدوا على استغفارهم خمسة أمور:

الأول: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: يسقيكم الغيث ويرسله عليكم كثيراً متتابعاً.

الثاني: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ ﴾، وهذا لا يختص بنوع واحد من المال، بل يعم كل أنواعه.

الثالث:﴿ وَبَنِينَ ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه.

الرابع: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين.

الخامس: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ تسقون منها جناتكم... [(٥)]

وبعد هذا الترغيب العظيم، انتقل بهم إلى التوبيخ، ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ والمقصود: « أي شيء حصل لكم، أي: لعقولكم وأفكاركم ومداركم وقلوبكم ونفوسكم،

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٤٩. وانظر روح المعاني ٢٩/ ٨١.
(٢) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبد الله/ ٨٠.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ٨١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٩٧.
(٥) انظر لما سبق جامع البيان ١٢/ ٢٤٩، والتفسير الكبير ٣٠/ ١٣٨ وروح المعاني ٢٩/ ٨١.

فأفسدها وصرفها عن ترقب وعد الله العظيم الذي يرغب فيه ويطمع العقلاء أولو الألباب وصرفها أيضاً عن ترقب وعيد الله العظيم، الذي يخشاه ويخافه العقلاء أولو الألباب». [١]

وقد توقف العلماء عند ﴿ تَرْجُونَ ﴾ هل تحمل على ظاهرها، أي: الرجاء، أو تجعل بمعنى الخوف، والحقيقة أن هناك تلازماً بين الخوف والرجاء، « فكل راج خائف، وكل خائف راج ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف»[٢] وقد أحسن البقاعي حين جمع ذلك فقال: «... ثواباً يوقركم فيه ولو قل... ولا تخافون له إهانة بالعقاب...»[٣].

ولما أمر بتعظيم الله تعالى والخوف من عقابه ورجاء ثوابه، استدل على قدرته وعلمه... وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة بعدة أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

كأنه تعالى يقول: « ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان». [٤]

«فأما أنه خلقهم، فموجب للاعتراف بعظمته؛ لأنه مكونهم وصانعهم، فحق عليهم الاعتراف بجلاله.

وأما كون خلقهم أطواراً؛ فلأن الأطوار التي يعلمونها، دالة على رفقه بهم في ذلك التطور فهذا تعريض بكفرهم النعمة؛ ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته...»[٥].

ومما هو معلوم أن خلق الإنسان على هذا النحو، أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله تعالى من العبد ممن يخلق جملة؛ لأنه يوقفه على عدة مراحل من حياته وإيجاده وكل طور منها

---

(١) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد/ ١٩١.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، العزي ١/ ٤٨٥.

(٣) نظم الدرر ٨/ ١٧٠، بحذف يسير.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٩.

(٥) التحرير والتنوير٢٩/ ٢٠١.

آية مستقلة.[١]

وقد بدأ بالنظر في أنفسهم؛ لأنها أقرب، ثم أتبعه بالحث على النظر في العالم العلوي وهو:

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾.

استدل بخلق السماوات، الذي هو أكبر من خلق الناس، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، ومعنى طباقاً: « بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى»[٢]، « وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيها وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة».[٣]

ثم قال تعالى مستدلاً على وحدانيته، وممتناً عليهم بهذه النعمة: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾، وهل إنارة القمر لأهل الأرض فقط، أو جعله الله جل جلاله نوراً لأهل السماوات أيضاً؟، هناك خلاف بين العلماء، والمؤكد أن الاستدلال عليهم والامتنان، إنما يكون بما يلاحظونه، وإن كان هذا لا ينفي الاحتمال الآخر.

«وفي جعل القمر نوراً، إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه... وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجاً؛ لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة، عنها إلى الأرض وإلى القمر».[٤]

---

(١) انظر أضواء البيان ٨/ ٨٢٣، بتصرف يسير. ولمعرفة تفاصيل هذه الأطوار، وما يتعلق بها من الإعجاز العلمي يراجع موسوعة الدكتور زغلول النجار الإسلام والعلم الحديث، الاستنساخ والشفرة الوراثية، مراحل خلق الإنسان (قرص مضغوط).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٠٤، وانظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٤.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٠٤. وانظر الإعجاز العلمي لكون الشمس سراجاً والقمر نوراً في الهدايات المستنبطة برقم (٢١) وهامشها ص ١٤.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

لما دل الله تعالى على كمال علمه، وتمام قدرته بخلق الإنسان، ثم بخلق ما هو أكبر منه، أعاد الدلالة بخلق الإنسان؛ لأنه أعظم المحدثات وأدلها عليه عز وجل؛ ولأنه المقصود بهذه الأدلة، فذكرت على وجه آخر، مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل، مصرحاً بالبعث ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾. [1] يعني: « والله أنشأكم من تراب الأرض، فخلقكم منه إنشاء»[2]. «والذي أُنشئ من الأرض هو آدم عليه السلام، وصارت ذريته منه، فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أنبتوا منها»[3]. ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾، إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أي: يوم القيامة. [4] « دفعة واحدة، لا إنباتاً بالتدريج كالمرة الأولى». [5]

الدليل الرابع: قوله تعالى: « ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

«وأخيراً وجه نوح عليه السلام قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض، وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم،... حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً وفجاجاً، كما جعل في سهولها من باب أولى، وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون ويتنقلون.... [6]

وههنا « استدلال وامتنان». [7]

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٧٢ بتصرف.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٦.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٤٤.

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٥. بحذف يسير.

(٧) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٠٥.

هدايات المقطع الأول:

* مبادرة نوح عليه السلام لإنذار قومه، فيه عبرة للدعاة، أن لا يتقاعسوا عن أداء الواجب المنوط بهم، وهو تحذير العصاة من مغبة الإصرار على المعاصي.

* ينبغي التلطف مع المدعوين، واستخدام التعابير التي من شأنها أن ترغبهم في النصيحة مثل يا قوم، ويا أخوتي، أو يا أخي، وما شاكل ذلك.

* ينبغي لمن يتصدى لدعوة الناس أن يكون كلامه واضحاً لا غموض فيه؛ لأن كثيراً من الناس بحاجة لمثل هذا التوضيح والبيان.

* الاختصار في الحديث مع العصاة، وعدم الإكثار من الأوامر، تجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾، فليس عند العصاة صبر لكي يسمعوا محاضرة طويلة منمقة...، على أن لا يكون الإيجاز مخلاً.

* البداءة بالأهم، فقد بدأ بالتوحيد، إذ هي القضية الأهم، فهم مشركون...، وهكذا ينبغي على العلماء وهم يعالجون أمراض مجتمعاتهم، أن يشخصوا أمراضها، ثم يصنفوا هذه الأمراض، فيكون اهتمامهم بأخطرها....

* إفراد الله تعالى بالعبادة هو أول ما دعى إليه الرسل،(١) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

* أهمية التقوى، فمع دخولها ضمن العبادة، إلا أنها أفردت، ففيه درس للدعاة أن يربوا الناس على خشية الله تعالى في السر والعلن، ويكثروا من تذكيرهم بها.

* أهمية طاعة الرسل عليهم السلام، إذ هم الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وفيه الرد على من يزعم الاكتفاء بالقرآن الكريم، يقول جل جلاله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ١/ ٢٥-٢٩.

* دعوة الرسل عليهم السلام لا تختلف في أصولها، وهي توحيد الله تعالى وتقواه وطاعته وطاعة رسله.... [(١)]

* غفران الذنوب لا يكون بالتمني، بل لابد من أعمال يعملها المرء حتى يستحقها، وفيه أهمية المغفرة، وأنها مطلب يسعى إليه، كما أنها هدف يدعى إليه.

* عدم استجابة المدعوين لا تعني بالضرورة أن هناك تقصيراً قد حصل من الداعية، فهذا نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك كانت النتيجة ما حكته الآيات عنهم.

* قلة عقول المشركين، إذ عطلوا الوسائل التي أنعم الله تعالى بها عليهم: السمع والبصر ففاتهم التعقل، وقد فعل مشركو قريش قريباً من هذا، يقول القرآن الكريم مبيناً حالهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

* شدة عناد المشركين وإصرارهم، مع ما هم عليه من باطل، ولعل هذا مما يستوقف دعاة الحق؛ ليروا إلى أي مدى يستطيعون الصبر ـ وهم على الحق ـ على الترغيب أو الترهيب الذي يتبع معهم؛ لينحرفوا عن الصراط.

* الجهد العظيم الذي بذله نوح عليه السلام، ينبغي أن يكون دافعاً للدعاة لكي يقتفوا أثر هؤلاء الذين أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالاقتداء بهم، فقال عز من قائل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. [(٢)]

* أهمية الاستغفار، وثمراته الكثيرة. يقول الشوكاني: « في هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول الأرزاق». [(٣)]

---

(١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، الديلمي٢/ ١٠٧٨.

(٢) لا شك أن لنا في رسولنا ﷺ أروع الأمثلة في الصبر، ولكن المقام هو الذي اقتضى هذه الإشارة.

(٣) فتح القدير، الشوكاني٥/ ٣٢٠.

* في هذه الآيات ما يمكن أن يسمى إيجازاً في الطلب وإطناباً في الجزاء، وهو لا شك واقع في باب الترغيب، فلو تأملنا ما طُلب منهم، وما وعدوا على ذلك، لرأينا أن هذا منهج قرآني يغفل عنه الدعاة، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن بعضهم قد يخالفه، لنتأمل الآيات الكريمة، يقول تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ هذا هو الطلب، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ داخل في ضمن الترغيب، ثم ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، وماذا على الدعاة لو انتهجوا هذا النهج ؟

* أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله تعالى «إذ النفس متشوفة للحصول على العاجل» [1]. وهنا رغبهم نوح ﷺ في خير دنيوي كما هو واضح ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ الآيات.

* يترتب على الهداية السابقة واقعية هذا الدين، فلم يأت بما يخالف النفس مما هو حلال لها، لكن لتحقيق ذلك، لا بد من شروط، وهنا بين أنه الاستغفار، ويقول تعالى مبيناً أن هذا سنة من سننه جل جلاله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦].

* لا يعاب المسلم أن كثر ماله.. فالله تعالى وعد قوم نوح ﷺ بخيرات كثيرة إن هم آمنوا، فدل على أن لا بأس في ذلك، ولكن المطلوب أن لا تشغله عن ذكر الله، بل تكون عوناً له على الطاعة.

* لابد من الدعوة إلى التأمل والتفكر في سنن الله تعالى الدالة على عظمته، وأبرزها صفة الخلق، وما تميزت به من إتقان وبديع صنع، ولفت الأنظار إلى ما توصل إليه العلم الحديث فيما يتعلق بالأطوار التي مر بها الإنسان، وقد ذكرت في هذه السورة بإيجاز، ولكنها فصلت

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٣.

في مواضع من القرآن الكريم ورتبت ترتيباً دقيقاً، موصوفة وصفاً شاملاً، لم تصل إليه بعد العلوم المكتسبة في قمتها الحالية. [١]

* ثم لفت الأنظار أيضاً إلى أسرار علم الفلك، ومما تجدر الإشارة إليه ههنا، ما ورد في هذه السورة الكريمة، يقول عز من قائل: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾، هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد، وانعكاسه نوراً من سطحه، لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق، لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه. [٢] ما تقدم يظهر لنا أهمية الاستفادة من هذا الجانب في الدعوة إلى دين الله عز وجل. وحبذا لو استخدمت التقنيات الحديثة. [٣]

* ضرورة الدخول إلى النفس من جميع مسالكها، فللجانب العاطفي طرق، وللجانب العقلي دروب، بل إن مخاطبة النفس الواحدة بأدلة متنوعة من شأنه أن يغرس الاقتناع في أرجائها، ويشبع رغباتها كلها.

* التأكيد على مسألة البعث، وذلك من خلال تنبيه الناس، على قدرة الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ

---

(١) http: / /www. elnaggarzr. com.

(٢) الموقع السابق، وانظر ما قاله الدكتور زغلول النجار في موسوعته (الإسلام والعلم الحديث: القرآن والكون)، (في قرص مضغوط) تحت عنوان: الضياء والنور، وفيه: « لم يكن أحد يعرف أن الشمس سراج، الآن فقط عرفنا أنه سراج وقوده غاز الأيدروجين، ويتحد الأيدروجين بتفاعل نووي يعرف باسم الاندماج= النووي فتنطلق طاقة هائلة تصل بحرارة الشمس إلى ستمائة درجة مئوية، وبحرارة جوفها إلى عشرين مليون درجة، نحن نعلم أن ذلك التفريق لم يكن أحد يعرفه أبداً...».

(٣) عرض في أحد المساجد لقطات عنون لها: (عوالم غير مرئية) كان لها أثر كبير على الحاضرين، أقول: حبذا لو استخدم الدعاة مثل هذه التقنيات في الأماكن العامة، وأعدوا لها الإعداد اللائق، لقربت قلوب العصاة إلى خالقهم.

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ وهذه النشأة الأولى، وهم لا ينكرونها، ولكنه تذكير، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾، إيقاظ من الغفلة التي غشيتهم بسبب حبهم للدنيا، ثم يأتي إثبات البعث ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾، وقد « أكده بالمصدر، كأنه قال: يخرجكم حقاً لا محالة»[1]، وهذا التأكيد مبعثه إنكارهم للبعث، وهذا مما ينبغي أن يراعيه الدعاة، فكلما اشتد الإنكار كان اللجوء إلى التأكيد آكد.

* أسلوب ذكر نعم الله تعالى وتفضله على عباده، طريقة من طرق الدعوة؛ للوصول إلى قضية الإيمان بالله تعالى، ووجوب إفراده بالعبادة. وهو أمر لا يجادل فيه أحد، فلن يكون بمقدور أحد أن يدعي أن آلهته هي التي جعلت القمر نوراً، والشمس سراجاً، أو أنها جعلت الأرض بساطاً، ولعل هذا من باب التوصل بالربوبية إلى الألوهية.[2]

المقطع الثانـي: موقف الكافرين من الحق، ومآلهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

هناك عدة مناسبات بين المقطعين، منها:

* لما عرض نوح عليه السلام دعوته، بطرق متعددة، وبأساليب متنوعة، تشوفت النفوس لمعرفة نتيجة

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤١.

(٢) انظر معالم الدعوة ١/ ٢٩٥ وما بعدها.

هذه الدعوة، هل قبل قومه دعوته؟، وكيف كان قبولهم؟، وهل تخلف منهم أحد، بعد هذا البيان والصبر الطويل؟، لقد اتبع نوح عليه السلام مع قومه أسلوب الترهيب والترغيب، وذكرهم بنعم الله تعالى، ولفت أنظارهم للتأمل في كيفية خلقهم، وخلق السماوات والأرض، ولم يأل جهداً في ذلك، يتساءل المرء بعد هذا كله، ثم ماذا؟ وإذا بالجواب يأتي على لسان الداعية إلى الحق نوح عليه السلام، الذي دعاهم إلى طاعته، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾.

* لقد وعد نوح عليه السلام قومه إذا هم استغفروا الله القوي الرزاق، فإنه سيمددهم بأموالٍ وبنين، فرفضوا هذا العرض، وأعرضوا، واتبعوا بذلة ومهانة، أصحاب المال والأولاد، ولو تعلقوا بالعزيز لأعزهم الله.

* في مقابل دعوة نوح عليه السلام وإصراره على تبليغ أمر الله لكل أحد، وفي كل وقت، وبأساليب متعددة، خاف الملأ أن يؤثر نوح عليه السلام في أتباعهم، فتواصوا على التمسك بآلهتهم﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾.

* لما ذُكر في المقطع الأول إصرار قوم نوح عليه السلام على العصيان، واستكبارهم على الطاعة، أُورد هنا جزاؤهم ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع

ابتدأ هذا المقطع بشكوى يبثها نوح عليه السلام لربه، بعد أن بذل الجهد واستفرغ الوسع، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ « فخالفوا أمري، وردوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ يقول: واتبعوا في معصيتهم إياي، مَن دعاهم إلى ذلك، ممَن كثر ماله وولده، فلم تزده كثرة ماله وولده إلا خساراً: بعداً من الله، وذهاباً عن محجة الطريق»[1]. ولم يكتفوا بالعصيان وعدم الاستجابة، ولكن منعوا الحق من أن يصل إلى الآخرين، وبذلوا كل ما يستطيعون، ودبروا وخططوا بدهاء، ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٣.

﴿ كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾، وكان من مكرهم: أن زينوا لهم ما هم عليه من كفر وضلال، من ذلك قولهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾فهي آلهتكم، فكيف تنصرفون عنها، ثم ذكر أسماءها ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، وفيه من الإلهاب والتهييج ما فيه، ومن ضرورة الاهتمام بشأنها، والقيام عليها، وقد وصف الله جل جلاله فعلهم بأنه مكر كبار، ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾، أي: « عظيماً »[(١)]، وقد أضل هؤلاء الملأ، وأضلت الأصنام، [(٢)] خلقاً كثيراً.

ثم ختم نوح عليه السلام شكواه بالدعاء على الظالمين، ليسمَ عصاة قومه بهذه الصفة الشنيعة لتمردهم وكفرهم وعنادهم، فقال: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾، قال الطبري: « إلا طبعاً على قلبه حتى لا يهتدي إلى الحق »[(٣)]، وقد استشكل الرازي هذا فقال: « إنما بعث ليصرفهم عن الضلال، فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم ؟

الجواب من وجهين:

الأول: لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم.

الثاني: الضلال: العذاب، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾»[(٤)] [القمر: ٤٧].

وقد يقال: إن هذا الدعاء، وكذا الدعاء الذي سيأتي في قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ إنما كان بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٣، وانظر الجامع لأحكام القرآن١٨/ ٣٠٦. يقول الراغب الأصفهاني: «والكبار [بتخفيف الباء] أبلغ من الكبير، والكبار [بالتشديد] أبلغ من ذلك» مفردات ألفاظ القرآن/ ٦٩٨.

(٢) هذا جمع بين قولي العلماء في المراد بـ ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ انظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٥، والتفسير الكبير ٣٠/ ١٤٤، وإرشاد العقل السليم٦/ ٣١١.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٥٥.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤٥.

مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]. [١] وخاصة أن دعاءه كان على الظالمين....

ثم يبين الله جل جلاله سبب العقوبة التي حلت بهم: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ ﴾ « من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم». [٢] أغرقوا بالطوفان الذي فصله الله تعالى في سورة هود وغيرها ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ قال الآلوسي: « هي نار البرزخ... ويجوز أن يراد بها نار الآخرة». [٣]

ويبدو أنه لا تعارض بين القولين، فأما نار البرزخ فقد دخلوها عقب إغراقهم، وأما نار الآخرة فقد ورد التعبير عن ذلك بالماضي لتحققه. [٤]

والآن حان وقت النصرة، أين الآلهة المزعومة التي رجوا نصرها ؟ أين رؤساؤهم الذين أضلوهم؟﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، « لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله»[٥]، وفي هذا تعريض بالمشركين من العرب؛ لاتخاذهم آلهة من دون الله تعالى يزعمون أنها تشفع لهم، وتدفع عنهم الكوارث، وتجلب لهم المنافع، أي: كما لم تنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح، كذلك لن تنصركم أصنامكم؛ لأنها عاجزة عن ذلك، كما أن فيه تهكماً بهم. [٦]

---

(١) انظر هذا القول في روح المعاني ١٥/ ٨٦ وقد أورده بصيغة التمريض (قيل) مشعراً بضعفه ثم قال: «ويحتاج إلى دليل».

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٨.

(٣) روح المعاني ١٥/ ٨٨.

(٤) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٨.

(٦) انظر التفسير الكبير ١٠/ ١٤٦، وإرشاد العقل السليم ٦/ ٣١١، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٢١٢. اللافت للنظر في الأمر أن الأصنام التي كانت في قوم نوح صارت في العرب فيما بعد، ذكر هذا الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال: أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر =

ثم واصل نوح ﷺ دعاءه ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾، وقد وسط قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ لبيان أن ما أصابهم من الإغراق والإحراق، لم يكن إلا لأجل خطيئاتهم.[1] وهنا يدعو نوح ﷺ ربه بأن يطهر الأرض من الكافرين، بأن لا يبقي منهم أحداً، ويعلل ذلك ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾، وذلك لمكرهم العظيم، ودعوتهم الآثمة للاستمساك بالباطل، وتواصيهم على ذلك... وقد تقدم أن الله تعالى أعلمه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فما دام الأمر كذلك، وأنه لا يرجى إيمانهم، فأصبحت الخشية على من قد آمن، وهذا يظهر ـ إضافة لما قد نص على عظمة مكرهم ـ إلى خطورة هذا المكر، فلقد خشي نوح ﷺ على أتباعه أن يتأثروا بهم.

هدايات المقطع الثاني

* لا بأس أن يشكو الدعاة لربهم ما يلاقونه من أذى المدعوين، مع علمهم بأن الله تعالى عالم بحالهم، فهذا نوح ﷺ يشكو حاله فيقول: ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾.
* الهداية بيد الله جل جلاله، فنوح ﷺ نبي مؤيد بالوحي، وقد بذل ما في وسعه، ومع ذلك قوبل بالعصيان إلا من فئة قليلة.
* يبين هذا المقطع بجلاء ما سبقت الإشارة إليه، أن عدم استجابة الناس لا يعني تقصير الدعاة.
* شدة فتنة الدنيا وزينتها على الناس، قال الله جل جلاله: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾، وهذا يدل على أن سبب اتباعهم، ما عند هؤلاء من مال وولد. وقد ورد النص على ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ

= فكانت لحمير لآل ذي الكُلاع...» صحيح البخاري، برقم(٤٩٢٠)، ولذا سيكون للتعريض وقعه، فإذا كانت لم تنصر عابديها الأولين، فلهي أعجز عن نصرة الآخرين.

(١) انظر روح المعاني ١٥/ ٨٨.

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

* الإيمان بالغيب ليس من طبع الكافرين، فقد وعدوا على الاستغفار أموالاً وبنين، من الرزاق الكريم، وهذا أمر غيبي، فلم يصدقوا، واتبعوا من رأوا عنده أموالاً وبنين.

* بذْل أهل الباطل في سبيل باطلهم، فمن مكر هؤلاء في الصد عن سبيل الله الإغراء بالمال لاستمالة ضعاف النفوس، وينص القرآن الكريم على هذا في موضع آخر، فيقول جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وما دام الأمر كذلك، فعلى ذوي اليسار والغنى من المسلمين، أن يستخدموا أموالهم، وكذا أولادهم في خدمة هذا الدين، لكي لا تكون أموالهم أرقاماً في المصارف، بل لبنات في إعادة بناء هذا الدين.

* ضعف همة الكفار، إذ ارتضوا أن يكونوا تابعين أذلاء لأصحاب الأموال والأولاد، في حين رفضوا أن يوحدوا ربهم الذي خلقهم والذي يغمرهم بأنواع النعم.

* أهل الباطل يخططون، ويبذلون الغالي والنفيس لنصرة باطلهم، ولهذا سمى الله تعالى فعلهم ﴿ مَكْرًا ﴾، بل وصف بأنه مكر كبار، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ فحري بأهل الحق أن لا تكون خطواتهم لنصرة الدين مرتجلة، آنية، عاطفية....

* لقد كان علية القوم ـ وهم كذلك في كل عصرـ من أعتى وأشد العقبات التي واجهت الرسل عليهم السلام في طريق تبليغهم دعوة الله جل جلاله، فالفساد في الأرض والفسوق والاستعباد، والاستعلاء عن قبول الحق، واحتقار المؤمنين المستضعفين، وتحريف الحق وصرف الناس بأساليب متعددة عن دين الله جل جلاله، كل ذلك إنما كان مصدره هؤلاء. [1]

(١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ٢/ ٦٤٢ـ٦٤٣.

* لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو ولد، أو قلة ذلك، على إكرام عند الله جل جلاله أو هوانٍ عليه.[١]

* عدل الله جل جلاله، إذ كان سبب عقابهم هو خطاياهم، قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾، وفي تقديم ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾، دفع لما قد يتوهم، أن سبب عذابهم هو دعاء نوح عليه السلام عليهم.

* هوان المشركين على الله تعالى، يؤكد هذا الإتيان بالمبني للمجهول، دون بيان من تولى ذلك، ولبيان سهولته أيضاً﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ ﴾.

* لا بد من أخذ العبرة من قوم نوح عليه السلام، فهذا هو جزاء العصاة، عذاب في الدنيا، وفي الآخرة. ولعل هذا مما يمكن أن يندرج تحت ما يسمي بشؤم المعصية.

* من أسباب هلاك الأمم: الظلم، فقد أهلك الله تعالى قوم نوح بسبب ظلمهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ وقال جل جلاله في سورة أخرى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾العنكبوت/ ١٤.[٢]

* قال الرازي بعد شرح قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾: « واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى»[٣]. وهذا كلام نفيس لا مزيد عليه.

* عدم استفادة مشركي قريش، مما حصل للأمم السابقة، فهم بلا شك قد سمعوا ما حصل لقوم نوح عليه السلام، ولغيرهم، ولذا أنكر القرآن الكريم عليهم عدم اتعاظهم فقال جل جلاله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وإذا كانوا لم يسمعوا بها، فهاهو القرآن الكريم يقص عليهم القصص الحق، فما دام أن

---

(١) انظر المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، زيدان١/ ٦٠٧.

(٢) انظر المصدر السابق١/ ١٦٣.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤٦.

الأصنام لم تدفع الضر عن عابديها، ولم تجلب لهم النفع، فعلام الإقامة على ذلك !؟

* مع أن الرسل عليهم السلام كانوا رحمة، فقد دعا نوح ﷺ على قومه، ومرد ذلك أن وجود هؤلاء المشركين قد أصبح مفسدة، وصار هلاكهم رحمة للناس، بل ولغيرهم من الحيوان والنبات، ولأنهم لم يقبلوا هدي الله، حتى تشملهم الرحمة، فهم ليسوا أهلاً لها، ولذا كان لا بد من إهلاكهم.

الخاتمــة

قال تعالى:﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

مناسبة الخاتمة لما قبلها.

أرسل الله تعالى نوحاً ﷺ لينذر قومه، وقد بلغهم الرسالة، ببيان واضح، خاطب فيه عواطفهم وعقولهم، جهر به وأعلن وأسر، أتاهم ليلاً ونهاراً...، فكان ردهم إصراراً على الكفر، واستكباراً عن قبول دعوة الحق، ومكث فيهم ﷺ ألف سنة إلا خمسين عاماً، يؤمل هدايتهم، فكانوا يتواصون فيما بينهم على عدم اتباعه، فما كان منه ﷺ وقد أخبره ربه جل جلاله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، إلا أن دعا ربه أن يهلك جميع الكافرين...

بعد هذا جاءت الخاتمة تحمل دعاءه ﷺ بأن يغفر الله تعالى له، بقلب المؤمن اليقظ؛ خشية أن يكون قد قصر في البلاغ، أو توانى في الدعوة إلى الحق الذي أرسل به، ثم دعا لوالديه، ولمن دخل بيته مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات، لبيان أن هؤلاء، هم الذين يستحقون المغفرة؛ لأنهم أتوا بأسبابها، أما الذين استكبروا عنها حين طلبت منهم، فليس لهم إلا أن يزدادوا خساراً.

التفسير الإجمالي للخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة، ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك لم يؤمن من قومه عليه السلام إلا القليل، ومع كل ما بذل، قابلوه بالعصيان والإصرار، وأغلقوا كل منفذ يمكن أن تدخل منه الهداية، فقد غطوا أسماعهم وأبصارهم؛ خشية أن يتسلل إليها بصيص من نور، ولم يكتفوا بذلك، بل تواصوا فيما بينهم بأن لا يدعوا عبادة آلهتهم، بعد كل هذا الصبر الطويل، تأتي هذه المناجاة من نوح عليه السلام، داعياً ربه بأن يغفر له، وهذا الدعاء « هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم، أدب العبد في حضرة الرب، العبد الذي لا ينسى أنه بشر، وأنه يخطئ، وأنه يقصر، مهما يطع ويعبد... وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه فاستكبروا، وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء...»[1] ثم دعا لوالديه، ولمن دخل بيته مؤمناً مصدقاً بالله تعالى موحداً له، ثم عمّ بعد ذلك المؤمنين والمؤمنات من كل أمة إلى يوم القيامة. [2]

وفي غمرة هذه الرحمة للمؤمنين جميعاً لم ينس أن يدعو على الظالمين، الظالمين بشركهم والظالمين لرسولهم، والظالمين لآيات ربهم، والظالمين لغيرهم في صدهم عن الحق والظالمين لأنفسهم... ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ خساراً في الدنيا والآخرة. [3]

من هدايات الخاتمة

* العبد المؤمن مهما قدم في سبيل الله، فإنه يخشى أن يكون قد قصر، ولم يؤد ما كلفه الله تعالى به على الوجه اللائق كما يحبه جل جلاله ويرضى، ولذا عُلمنا أن نجعل آخر عباداتنا استغفاراً، فنحن نستغفر الله تعالى عقب الصلوات، وعقب الحج، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧، بحذف يسير.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٩، وروح المعاني ٢٩/ ٩٠، والتفسير المنير، ٢٩/ ١٥١.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٦، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٩.

﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وانظر إلى وصية الله جل جلاله لرسوله ﷺ في سورة النصر، التي عدها بعض العلماء آخر ما نزل من القرآن الكريم﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ ﴾...

* بر البنوة بالوالدين المؤمنين، (١) فلقد طلب نوح عليه السلام المغفرة لوالديه: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾، وقد حثنا القرآن الكريم على الدعاء لهما فقال جل جلاله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

* دعاؤه عليه السلام لمن دخل بيته مؤمناً، فيه حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، فقد خصهم بالدعاء، مع أنهم يندرجون في المؤمنين والمؤمنات، ولكن هؤلاء لهم مزيد عناية، للود الذي حصل بزيارتهم.

* يستنبط مما سبق أن المؤمن يألف ويؤلف، فالدعاة إلى الله جل جلاله ينبغي عليهم أن لا يغلقوا أبواب بيوتهم أمام الناس، إلا في الأوقات التي قد علم أنها للراحة....

* دعاؤه عليه السلام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات، هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان، وهذا هو سر هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب على تباعد الزمان والمكان... (٢)

* من فقه الدعاء أن يدعو الإنسان لنفسه أولاً ثم الأخص به والأحق بدعائه.

* الولاء والبراء، الولاء للمؤمنين، وتمثل هنا بالدعاء لهم، وهذا دليل محبتهم والشفقة عليهم، والبراء من الكافرين، وتمثل في الدعاء عليهم.

* التعامل مع الآخرين إنما يقوم على أساس الدين، وليس على أساس القومية والوطنية

---

(١) لو لم يكونا مؤمنين لروجع في هذا الدعاء كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق... انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣١٣.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧ـ٣٧١٨.

ونحو ذلك، فهذا نوح عليه السلام، يدعو على الكافرين من قومه...، وكذا فعل خاتم النبيين ﷺ فقد حارب قومه المشركين، ووالى المسلمين دون النظر إلى جنسهم أو لونهم...

* رباط العقيدة هو الأصل، وعلى أساسه يكون التوحد....

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة الجن

بين يدي السورة

اسم السورة

ذكر العلماء لهذه السورة أكثر من اسم، أشهرها: سورة الجن، قال الفيروز آبادي: « سميت سورة الجن؛ لاشتمالها على الجن في قوله: ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾، وقوله: ﴿ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾»[1].

وقد ترجم الإمام البخاري لها في صحيحه: (سورة قل أوحي إلي)[2]..، وسبب التسمية واضحة.

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت عنوان: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، وكان ترتيبها الحادية والسبعين، وهو أربع وثمانون سورة، ثم قال: «فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات، وهو خمس وثمانون سورة»[3].

عدد آيات السورة

عدد آيات هذا السورة الكريمة ثمان وعشرون آية. [4]

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٨٤.

(٢) ٦٥/ كتاب التفسير ٧٢/ سورة (قل أوحي إلي).

(٣) انظر لما تقدم البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١، والسور التي عدها: أربع وثمانون لا خمس وثمانون. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٢، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي١/ ١٩.

(٤) ماأورده بعض العلماء في كتبهم فيما يتعلق بهذا الأمر تعقبه المحققون إذ وقع فيه بعض الاضطراب، ولعله من فعل النساخ، ومآل الأمر إلى ما أثبت. انظر جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي١/ ٢٢٣، وبصائر ذوي التمييز١/ ٤٨٤.

ما ورد من روايات تتعلق بهذه السورة

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجن. (١)

محور السورة

محور السورة كما يدل عليه اسمها يدور حول الجن وانضمامهم لركب المؤمنين في إشارة واضحة واتساق تام مع سورة نوح عليه السلام التي عرضت صوراً لمن تخلف عن هذا الركب.

هؤلاء نفر من الجن استمعوا القرآن الكريم، وإذا بهم يعلنون إيمانهم وينبذون الشرك. هذا الأمر الذي لم يدركه كثير من الإنس..

ثم انطلقوا ينزهون الله تعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، واصفين من يتقول على الله تعالى بالباطل بالسفه، ثم ذكروا أنهم لم يكونوا يظنون أن يكذب الإنس والجن على الله تعالى، ثم أخذوا في بيان ما كان عليه حال الإنس من التعوذ برجال من الجن، وظنّ الجميع بأن لن يبعث

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري برقم ٧٧٣، وبرقم ٤٩٢١ [يلاحظ في الرواية الأولى فأنزل، وفي الثانية وأنزل]، وهو في صحيح مسلم برقم (٤٤٩).

الله أحداً، ثم ما كان منهم من طلب استراق السمع، ومنعهم من ذلك وسؤالهم عن سببه وكيف أنهم منقسمون إلى صالحين ودون ذلك... إلى نهاية هذا المقطع

ثم يأتي المقطع الثاني ليبين أن من انضم لركب المؤمنين، فسيوسع الله له في الرزق، لكن ينبغي أن يعلم أن هذه التوسعة اختبار من الله تعالى، وأن من أعرض عن هذا الركب فإن له عذاباً شاقاً.

وخير أماكن يوجد فيها هذا الركب هي المساجد، التي ينبغي أن لا يدعى فيها مع الله تعالى أحداً.

ثم أخذت الآيات في ذكر إمام الركب، والهادي بإذن ربه إلى طريق الإيمان: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

ما حال الداعي لهذا الركب ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أن الداعي هو القدوة، وهو يعلن: أنه يعبد ربه ويدعو إلى ذلك، وهو لا يشرك به أحداً، فمن شاء أن ينضم لهذا الركب فليفعل.

ثم يذكر المقطع بعض صفات النبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾.

أما من يتخلف عن الركب فيعصى الله ورسوله فالخلود له في نار جنهم، وهناك يعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً.

وكالعادة يصر المتخلفون عن الركب على الاستهزاء، ﴿ مَتَىٰ هُوَ ﴾؟، ولم يقل النبي ﷺ: إنه يعلم متى هو، حتى يواجه بمثل هذا السؤال، لكنه التعنت، ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

ثم تأتي الخاتمة وفيها وصفٌ لمن يؤمن به هذا الركب، وهو الله عز وجل ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾، وبيان أن العلاقة مع عباده إنما تكون عن طريق من ارتضاهم من الرسل - عليهم

السلام ـ، ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾، وبذا يتبين من هو عالم الغيب، ومن الذي يتلقى عن الله الغيب.

والجن من عالم الغيب، وعن طريق الوحي نتعامل معهم، ونتعرف عليهم، لا عن طريق الشعوذة والكهانة والسحر.

المناسبات بين السورة

أولاً: المناسبات بين اسم السورة ومحورها:

ما سبق قوله عن المحور، يدل دلالة واضحة على مدى التناسب بين اسم السورة ومحورها فهي سورة الجن، ومحورها التحاق الجن بركب المؤمنين بعد استماعهم لآيات القرآن الكريم والسورة كلها تدور حول هذا المحور كما سبق بيانه.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

ابتدأت السورة بالأمر بالتبليغ ﴿ قُلْ ﴾، ثم كانت الخاتمة﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾. فبلغ النبي ﷺ، حتى لقد آمن له نفر من الجن....

الوحي ـ كما هو معلوم ـ إعلام في خفاء ـ فصدرت السورة بـ ﴿ قُلْ أُوحِىَ ﴾، واختتمت بـ ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾، وكان هذا الأمر غيباً، فإنه ﷺ لم يعلم بهم وباستماعهم ـ في هذه المرة ـ حتى أظهر الله تعالى عليه نبيه ﷺ. [1]

---

(١) للعلماء في رؤية الرسول ﷺ الجنَّ قولان:الأول، أنهﷺ لم يرهم، وهو قول ابن عباس، والقول الثاني، وهو لابن مسعود ﷺ: أنه رآهم، وللعلماء في توجيههما أكثر من مسلك:الأول، ما ذهب إليه ابن تيمية من أن ابن عباس قد علم ما دل عليه القرآن من ذلك ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وغيره من إتيان الجن إليه ومخاطبته إياهم وأنه أخبره بذلك في القرآن وأمره أن يخبر به، انظر مجموع الفتاوى، ابن تيمية١٩/ ٣٨. المسلك الثاني: القول بتعدد القصة، يقول الآلوسي: « والآية ظاهرة في أنه ﷺ علم =

صرح الجن في ابتداء السورة بمدى تأثرهم بالقرآن الكريم، حتى أثمر إيماناً جازماً، وهذا يعني ما أكدت عليه الخاتمة، من أن الوحي الرباني قد أُحيط بالعناية التامة فلم يتمكن الشياطين من أن يدسوا فيه شيئاً، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾، والمتأثر هنا هم الجن، وهم الأعرف بخبايا الشياطين.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

تعد خاتمة سورة نوح عليه السلام كالتمهيد لافتتاحية هذه السورة، فقد ختمت تلك السورة بقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨]. وقد جاء هذا الدعاء من نوح عليه السلام بعد أن انتهى الصراع بين الحق والباطل، يطلب المغفرة له، ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات، ويلاحظ التأكيد هنا على قضية الإيمان التي أعلنها الجن فور استماعهم للقرآن الكريم فانضموا لركب المؤمنين...

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

تحدثت سورة نوح عليه السلام عن فريق واجهوا الحق بالعناد والإصرار على الكفر، ولم يلقوا السمع له، بل فروا منه، وإذا اضطروا إلى ذلك بأن غشيهم رسول الحق في أماكنهم وتجمعاتهم ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧]، كما تواصوا بعدم ترك آلهتهم، ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣]، في حين نجد هذه السورة الكريمة تعرض المنهج الصحيح في التعامل مع

=استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة، وقد وقع في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام رآهم وجمع ذلك بتعدد القصة» انظر روح المعاني٢٩/ ٩٣، وقال ابن حجر بعد ذكره للخلاف:» ويمكن الجمع بالتعدد» فتح الباري٩/ ٦٧٤. ويبدو أن الرأي القائل بالتعدد هو الراجح، وهو ما يدل عليه سياق سورة الجن، وانظر فتح الباري٩/ ٦٧٤-٦٧٥، تجد مناقشة علمية لهذا الأمر. وفيه»... فتكون قصة الجن متقدمة من أول المبعث».

الحق، الذي تمثل في القرآن الكريم هنا، والمتلقي له لم يكن من الإنس بل من الجن، ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾، فهم إذن استمعوا القرآن سماع مقبل واع، ولم يعرضوا عنه أو يفروا منه، أو يلغوا فيه كما حكى القرآن الكريم عن المشركين في زمن الرسول الكريم ﷺ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

قال أبو حيان: « ووجه مناسبتها لما قبلها: أنه لما حكي تمادي قوم نوح في الكفر، وعكوفهم على عبادة الأصنام، وكان ﷺ أول رسول إلى الأرض، كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى الأرض والعرب الذي هو منهم ﷺ كانوا عباد أصنام، كقوم نوح، حتى إنهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به محمد ﷺ هادياً إلى الرشد، وقد سمعته العرب وتوقف عن الإيمان به أكثرهم، أنزل سورة الجن إثر سورة نوح، تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان، إذ كان الجن خيراً منهم[١]، وأقبل للإيمان، هذا وهم من غير جنس الرسول ﷺ ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به للوقت، وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس، بخلاف العرب فإنه نزل بلسانهم وعرفوا كونه معجزاً، وهم مع ذلك مكذبون له ولمن جاء به حسداً وبغياً» [٢]

ورد في سورة نوح قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، وفي سورة الجن: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾، والمناسبة بينة. [٣]

ذكرت سورة نوح منهج التقليد غير المتبصر: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾، وفي سورة الجن ذكرت ما ينبغي أن يفعله كل عاقل وذلك عندما استمعوا

---

(١) في الأصل: خيراً لهم، ولعل الصواب ما أثبت، وينبغي أن يشار إلى أن الدقة تقتضي أن يقال: إذ كان هؤلاء خيراً منهم. إذ ليس كل الجن خير من قريش والعرب، إلا أن يقال: إن (ال) في (الجن) للعهد.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٣٩.

(٣) انظر تفسير المراغي ٢٨/ ٩٢، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٥٥.

القرآن الكريم فأثر ذلك فيهم، دون أن يكون لسفيههم أو لغيره سلطان على قلوبهم وقرارهم.

ذكر في سورة الجن مآل العصاة: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ (٢٣)، وعاقبة من يعرض عن ذكر ربه ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾، وفي سورة نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح:٢٥][1].

ورد في سورة نوح بعد ذكر عاقبة المكذبين في الدنيا ﴿ فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، ونصت سورة الجن على أن الأمر كذلك يوم القيامة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾، فما كانوا يؤملونه من كثرة العدد والعدة ضعيف لا قيمة له.

وهناك مناسبة خفية بين السورتين أشار لها الإمام البقاعي، فهو يرى أن في سورة الجن بيان شرف النبي ﷺ إذ أقبلت عليه قلوب الجن وهو في آخر الزمان، في حين أن نوح عليه السلام وهو أول نبي ما آمن معه إلا قليل. كما أن مدة مكث النبيين الكريمين بين قوميهما متفاوتة، فلم يلبث رسولنا الكريم ﷺ ربع العشر مما لبثه نوح عليه السلام في قومه.[2]

عرض مقاطع السورة

افتتاحية السورة

التفسير الإجمالي

افتتاحية السورة ـ والله أعلم ـ هي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾.

أمر رباني للرسول الكريم محمد ﷺ أن يقول للعالمين هذا الأمر، وهو لم يقله من تلقاء نفسه بل بوحي من رب العالمين، وحقيقة هذا الأمر العظيم الذي نزل الوحي بشأنه، وأمر الرسول

(١) انظر التفسير المنير٢٩/ ١٥٥.

(٢) انظر نظم الدرر٨/ ١٨٠.

بتبليغه، وصدر بـ ﴿ قُلْ ﴾ للدلالة على أهميته، ووجوب السرعة في إبلاغه، هو أن جماعة من الجن ـ ما بين الثلاثة إلى التسعة ـ استمعوا إلى هذا القرآن العظيم، منصتين، وإذا استحضرنا مرحلة نزول السورة، وأنها قد نزلت بمكة، فهذا يعني أنها ستصل إلى مسامع المشركين، وهم قد سمعوا القرآن مراراً، فماذا يعني أن الجن استمعوا له؟ لاشك أن هذه الافتتاحية ستهيئ أذهان القوم لاحتمالات كثيرة، أبعدها أن الجن قد آمنوا ـ فضلاً عن أن يسارعوا إلى ذلك.

ثم ماذا حدث بعد استماعهم، لقد دخل الإيمان في قلوبهم، وأيقظ فطرهم، فأبدوا تعجبهم من فصاحته، ومن نظمه البليغ، ثم بينوا صفة أخرى، وهي متعلقة بمعناه: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ أي: " يدل على الحق، وسبيل الصواب"[1]، وللرشد دلالات عميقة، ففيه معنى النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب، كما أنه يوحي بالإدراك الذاتي البصير للحقائق، فهو ينشئ في النفس حالة ذاتية تهدي إلى الخير والصواب.[2] ثم أعلنوا إيمانهم به دون تردد، أو نظر إلى تقاليد ورثوها من عقول حرفت فطرتهم عن بلوغ الرشد، فزينوا لهم الباطل، ولذا أعلن هؤلاء النفر نفيهم العود مستقبلاً لذلك الماضي ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾، مهما كان هذا الإله المزعوم، وكيف نشرك مع الرب: الخالق المالك المدبر غيره ممن لا يملك لنفسه ـ فضلاً عن غيره ـ ضراً ولا رشداً، وبذا أعطوا درساً لكل من أشرك مع الله أحداً وفيه إشارة إلى تبكيت العرب الذين تقاعسوا عن الإجابة، وهم يعرفون من رشد القرآن بمعناه ونظمه لكونه بلسانهم، وكونهم من نوع الداعي ﷺ، وأقرب الناس إليه.[3]

من هدايات الافتتاحية

* القرآن الكريم من عند الله تعالى، وليس للرسول ﷺ إلا التبليغ ﴿ قُلْ أُوحِىَ ﴾.
* علم الغيب قد استأثر الله تعالى به، فهذا رسولنا الكريم ﷺ، قد استمع الجن لقراءته وكانوا

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٨، وانظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠.

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٢٧.

(٣) انظر نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٨١. وفتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٢٦.

نفراً، ولم يشعر ﷺ بهم، «قال الحسن البصري: ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم»(١).

* الجن موجودون، وفيه رد على من أنكر ذلك، وهم يفهمون اللغة العربية، ويدركون إعجاز القرآن، ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾، وهم مكلفون ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾.

* الرسول ﷺ مبعوث للثقلين: الإنس والجن. أما الأنس فالأمر ظاهر، وأما الجن ففي العقيدة الطحاوية وشرحها: وهو المبعوث إلى عامة الجن، أما كونه مبعوثا إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً(٢)

* الجن استمعوا القرآن الكريم ولم يكتفوا بالسماع، وفيه تنبيه على أن أثر القرآن الكريم يكون لمن فعل ذلك.

* التوفيق بيد الله تعالى، فقد تأخر كثير من الإنس، مع علمهم بصدق الرسول ﷺ وأمانته، وقد نشأ بينهم... مع كثرة ما يسمعون منه: القرآن وغيره...

* تأثير القرآن العظيم في النفوس المهيأة والقلوب السليمة، وأنه يكفي لإحداث هذا التأثير مجرد الاستماع له، ولعل في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ما يؤكد هذا الأمر.

* استماع القرآن الكريم كان كافياً في هداية هؤلاء الجن، فما أحرى الدعاة أن يحرصوا على إيصاله إلى العالمين، وإسماعهم كلام ربهم، تُذكر هذه الهداية ونحن نستحضر محاضرات بعض الدعاة ممن يكاد حديثه يخلو من ذكر آية واحدة، فعلى الدعاة أن يجربوا هذا الأسلوب القرآني في الدعوة وهم واجدون أثره العظيم ولا ريب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ١/ ١٦٧-١٦٨. بحذف يسير.

* على الدعاة أن يبلغوا دعوة الله تعالى دون النظر في النتائج، ودون وضع المعوقات، بل ودون الالتفات إلى بعض المظاهر التي من شأنها أن تصرف عن الدعوة.

* لن يصلح أمر العالمين إلا بالقرآن الكريم، ـ وبالسنة المطهرة بكل تأكيد ـ فهو الذي يهديهم إلى الحق والصواب والسداد في كل شأن من شؤونهم، وما لم تتوقف البشرية عن استيراد النظم البشرية التي من أخص صفاتها النقص والهوى، فإنها ستظل تتخبط في مهاوي الضلال، وستضطر في كل مرة إلى تغيير نظمها، مما يجعل الأجيال حقلاً للتجارب، وعرضة للشقاء.

* الإيمان لوحده لا يكفي ما لم يصاحبه عدم الإشراك بالله تعالى، بل إن الإيمان لا يعتد به في هذه الحالة، ولذا أظهرت الآية الكريمة هذا الأمر حتى لا يعتد المشركون بما قد يسمونه إيماناً بالله، وهم في الوقت نفسه يشركون، ولخطورة هذا الأمر نصت آية كريمة مكية عليه، يقول عز وجل: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به. وثم شرك آخر خفي لا يشعر به فاعله غالباً، كالرياء، والحلف بغير الله... وغير ذلك.[1]

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٤٢ـ٦٤٣.

المقطع الأول: الجن ورحلة الإيمان

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾.

مناسبة المقطع الأول لافتتاحية السورة

ما أن استمع الجن للقرآن الكريم حتى تأثروا به، فأعلنوا ذلك غير خائفين ولا مترددين، ﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ وأكدوا كلامهم ـ فهو حقيقة أمر يدعو للشك ـ هؤلاء الجن الذين من طباعهم النفرة، وقد نبتوا في منابت الشر، عالم عاصف بالشرور المحرقة[1] يأتي هؤلاء النفر فيستمعون القرآن العظيم، وإذا بقلوبهم تتفتح له، وإذا بالإيمان يعمرها، ثم يأتي هذا المقطع ليبين ما أُجمل من كلام الجن، فإذا بهم ينزهون ربهم الذي آمنوا به للتو، وكأن داعي الفطرة السليمة تحرك فيهم ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾، ثم انطلقوا يتحدثون عن السبب في عدم إيمانهم... وأمور من عالمي الإنس والجن...

التفسير الإجمالي للمقطع

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾، والمعنى: تعالت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه عن أن يتخذ زوجة أو ولداً؛ لأن الزوجة إنما تكون للضعيف العاجز الذي

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢٩/ ١٢٠٨.

تضطره الشهوة الباعثة على اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة ألجأته إلى الوقاع[(١)] ويلاحظ هنا أمر: أن العرب كانت تزعم أن الملائكة بنات الله جاءت من صهر مع الجن فجاءت الجن تكذب بهذه الخرافة[(٢)].

ثم عادوا باللوم على من يروج لمثل هذه الضلالات ووصفوه بالسفاهة: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾، والسفيه المذكور هو إبليس في قول كثير من المفسرين، ورأى بعضهم أنه اسم جنس لكل سفيه، ولا شك أن إبليس زعيم السفهاء، وكل من يشتط في القول على الله، ويتجاوز الحق فله نصيب من هذا السفه بمقدار ما اشتط من القول.[(٣)]

وقد يُتساءل عن السبب الذي جعلهم ينقادون لسفهائهم، فكان قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾، بمثابة الاعتذار عن ذلك، فما كانوا يحسبون أن أحداً يجترئ الكذب على الله، كيف وقد قال بهذا القول كثير من الإنس والجن، ومخالفة أمر كهذا لا يكون إلا بتأييد رباني.[(٤)]

ثم ذكروا شبهة أخرى، زادت الفريقين ضلالاً: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾، قال ابن كثير: «أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، ـ كما كانت عادة العرب في جاهليتها ـ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً: أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٦٠. وانظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧٢٧، بتصرف يسير.

(٣) انظر لذلك جامع البيان ١٢/ ٢٦٢، والمحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ١٨٤، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٥٥٠، ونظم الدرر٨/ ١٨٤، والأساس في التفسير، حوى١١/ ٦١٧٦.

(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٢، ونظم الدرر٨/ ١٨٤.

تعوذاً بهم،[١] وللعلماء في قوله تعالى: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قولان:

أحدهما: أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوذهم بهم. والمعنى على هذا: زادوهم طغياناً وغياً.

والثاني: أن الجن زادوا الإنس رهقاً، وهذا ما ذكره ابن كثير، من أن المعنى: «خوفاً وإرهاباً وذعراً».[٢]

ويظهر أن لامانع من الأخذ بالقولين، فالجن زادت الإنس خوفاً وذعراً لما لجئوا إليهم، وآل أمر هذا الالتجاء إلى طغيان الجن وغيهم، ومآل القولين إلى حصول الإثم، وهو تفسير الرهق عند كثير من العلماء.[٣]

ويتواصل قول الجن، فيذكرون أن الجن ظنوا كما ظن الإنس أن لن يبعث الله تعالى أحداً من الرسل، أو لن يكون هناك بعث يوم القيامة.[٤]، وكان ذلك ظناً ظنوه!

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾، يذكر الجن هنا أنهم تطلبوا السماع من الملائكة كما كانوا يفعلون قبل بعثة المصطفى ﷺ، فوجدوها قد ملئت حرساً شديداً وشهباً، ولم تعد هناك مقاعد يطمئنون في الجلوس فيها ليسترقوا السمع؛ لأنها قد ملئت الآن حرساً شديداً من سائر أرجائها، حرساً لم يعهد من قبل... كما أن السماء حفظت بالشهب فترجم من يحاول استراق السمع.[٥] وقد أبدوا استغرابهم مما حدث لأنهم كانوا يفعلون ذلك ويُمكنون

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠. وانظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٤.

(٤) لفظ الآية يحتمل القولين، انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٨٠ - ٣٨١. وانظر جامع البيان١٢ / ٢٦٥، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٥٥١، وزاد المسير٨/ ١٣١.

(٥) انظر لذلك: جامع البيان١٢/ ٢٦٥، والتفسير الكبير، الرازي١٥ /١٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥١، ونظم الدرر٨/ ١٨٨.

من سماع بعض ما يقال: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾، فمهما اجتهد الآن وحاول السماع فأنه سيجد شعلة نار قد أعدت لأجله، وإذن فلا سمع بعد الآن كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. (١)

وقد تساءل الجن عما حدث؟ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، أي: لا نعلم أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض بمنعه إيانا السمع من السماء ورجمه من استمع من فيها بالشهب، أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً يرشدهم إلى الحق. (٢)

وهذا السؤال كان قبل سماعهم القرآن الكريم، فما كانوا يظنون آنذاك أنه من أجل الوحي لأنهم ظنوا أن لن يبعث الله أحداً فلما استمعوه علموا السبب... (٣)

أو يقال: إن المراد «لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدون، أم يكفرون به فينزل عليهم الشر»(٤).

ثم أخبروا عن أنفسهم فقالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ أنا منا العاملون بطاعة الله، ومنا دون الصالحين في الصلاح، وجعل بعض العلماء ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ بمعنى الشرك، والأول أولى. فإن ما بين الصلاح إلى الشرك مراتب كثيرة، وكلها تندرج تحت ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، والجن كالإنس متفاوتون في الصلاح. (٥)

وهل عنوا بذلك أن الأمر كان كذلك قبل استماعهم القرآن الكريم أو بعده، الظاهر « أن الأول أولى؛ فقد كان من الجن من آمن بموسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]،

---

(١) انظر جامع البيان١٢ / ٢٦٥، ونظم الدرر٨/ ١٨٨.

(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٥٥١.

(٣) انظر أضواء البيان، الشنقيطي٧/ ٣٣٠.

(٤) المحرر الوجيز٥/ ٣٨١.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن١٥/ ١٩. وفتح القدير٥/ ٣٢٩.

وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان، وأيضا لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر»[١].

والمراد من إيراد هذا الخبر ـ وهو معلوم للمخاطب ـ دعوة الجن أقوامهم إلى الإسلام والانضمام تحت لوائه، وترك التفرق المذموم. فكأنهم قالوا: كنا متفرقين فمنا الصالح ومنا دون ذلك، والآن وقد استمعنا لصوت الحق، فقد آن لنا أن نوحد اعتقادنا، ونؤمن بربنا. [٢].

ثم بينوا علمهم بقدرة الله تعالى عليهم أينما كانوا ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ « فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض، ولاهم يعجزونه بالهرب منها».[٣]

ثم يصفون حالهم عندما استمعوا القرآن الكريم، مفتخرين بذلك، وقد سبق لهم ذكر هذا الأمر، ولكنهم يكررونه هنا، بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإسلام. ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾[٤]، لما سمعنا القرآن الكريم صدقنا به وأقررنا أنه حق من عند الله، من غير تردد ولا إحجام. [٥]، وبعد أن بينوا مسارعتهم للإيمان بخالقهم ورازقهم، بينوا جزاء من فعل هذا الفعل: ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ «لا يخاف أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ﴿ وَلَا رَهَقًا ﴾: ولا إثماً يحمل عليه من سيئات غيره أو سيئة يعملها»[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٥/ ١٩. وانظر أنوار العقل السليم٦/ ٣١٦،
(٢) انظر التحرير والتنوير٢٩/ ٢٣٣.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٢.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٣.
(٥) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٧، ونظم الدرر ٨/ ١٩١.
(٦) جامع البيان١٢/ ٢٦٧. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٦-١٧، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي: وأن منا ـ بعد استماع القرآن ـ الذين قد خضعوا لله بالطاعة، وأسلموا له قيادهم، [1] و«هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ، ﴿ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، ومالوا إلى طريق الباطل»[2]، ثم بينوا جزاء الفريقين: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ «فمن خضع لله بالطاعة»[3] ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾توخوا وقصدوا طريق الحق باذلين الجهد في طلب ذلك. [4]، فعليكم أن تقتدوا بهم، وتتوخوا هذا الطريق؛ لتنالوا ذلك الرشد، لكي لا تكونوا لجهنم حطباً.

من هدايات المقطع الأول

الفطر السليمة إذا غذيت بنور القرآن، عرفت ربها ونزهته، فهؤلاء الجن لم يدرسوا العقيدة ولم يتعمقوا فيها، ولم يحتاجوا إلى علم كلام ولا غيره، فطرة رائدها القرآن الكريم ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾. ترى كم ممن ينسبون لله تعالى الولد ممن حصلوا على أعلى الشهادات، لكن غاب عنهم نور القرآن؟

القرآن الكريم سبب للهدى، ولكن الجن سموه هدى، وفيه دلالة على توفيق الله لهم إذ أدركوا ما لم يدركه كثير من مثقفي هذا العصر، فراحوا يلتمسون الهدى في غيره.

في قول الجن سمعنا الهدى، ولم يذكروا أنه هدى في أي شيء، دلالة على أن القرآن الكريم هدى في كل شيء، ولكل عصر ومصر.

في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾، ما يدل على سرعة استجابة الجن، وفيه تعريض بالمشركين وتوبيخ، فلقد تباطؤوا عن

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧، ونظم الدرر٨/ ١٩١.
(٢) فتح القدير ٥/ ٣٣٠، وانظر معالم التنزيل٨/ ٢٤٠ـ٢٤١.
(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٦٨.
(٤) انظر مجاز القرآن، أبو عبيد ٢/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢، والتفسير الكبير١٥/ ١٦٠، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣، ونظم الدرر ٨/ ١٩٢.

الإجابة، مع أن القرآن بلغتهم، والرسول ﷺ منهم، [١] في حين أن الجن آمنوا بسماع القرآن مرة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله، فآمنوا به. [٢]

التوحيد أعظم ما يرشد إليه القرآن الكريم، ولذا أبرز الجن هذا الأثر فيهم، فأعلنوه: ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي على السائرين على هدي القرآن أن يجعلوا دعوتهم للتوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة أولى ما يعنون به.

مما ينافي عظمة الرب، اتخاذ الصاحبة والولد؛ لأنه ضعف ينشأ من الحاجة إليهما، ولقد فطن لهذا الأمر الجن، في حين عمي عنه كثيرون.

كل من يتجاوز الحق إلى الباطل، فهو سفيه.... [٣].

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾، دلالة على أن الاغترار بالأكثرية ليس صحيحاً، وأنهم قد يكونون على خطأ، وأن المرجع في إدراك الصواب هو الوحي الرباني.

لا عذر للعوام في اتباع السادة والقادة، أو التذرع بأن الناس كلهم على هذا القول، وبخاصة أمر العقيدة، فقد تبين الرشد من الغي، وهاهم الجن من مجرد سماع القرآن أيقنوا خطأ ما كانوا قد ظنوه صواباً، فحري بمن يتلو كتاب الله تعالى، أن تصفو عقيدته، ويصح إيمانه. قال الرازي: «وهذا إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج»[٤]، ويقول سعيد حوى: « ما ذكره الجن في هذه المقولة يعتبر من أشد أسباب الضلال في تاريخ البشرية: أن يعطى الإنسان العصمة لغير أهلها، وأن يتجاوز

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٨١، بتصرف يسير. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧.

(٢) فتح القدير ٥/ ٣٢٦.

(٣) انظر الأساس في التفسير ١١/ ٦١٧٦.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٥٥-١٥٦.

بالثقة حدودها...» [١].

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ أن التجاء القلب لغير الله عز وجل في جلب نفع أو دفع ضر، عواقبه الخوف والذعر والقلق والحيرة. [٢]

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾ بيان أن منشأ القول بعدم البعث، هو الظن لا اليقين، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم: ٢٨].

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ما يدل على لطف الله تعالى بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز، ذلك أن الله عز وجل لما شاء بعثة الرسول ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً، وحفت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدرى من الصادق. [٣]

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾أن الله تعالى قد يُمكن الخلق من شيء ليبتليهم، كما مكن الجن من استراق السمع لحكمة، ولو أراد الله عز وجل صدهم لفعل، ولكن شاءت حكمته تمكينهم من ذلك، ابتلاء لهم ولمن يضلونهم.

أدب الجن، حين نسبوا الشر لغير فاعل، في حين نسبوا الرشد إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، وهذا الأدب كثير في القرآن

---

(١) الأساس في التفسير ١١/ ٦١٧٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢٨.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠.

الكريم، منه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، «أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدباً وأسند الضلال إلى العبيد». [1]

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ... ﴾ ما يصحح كثيراً من المفاهيم عن عالم الجن، إذ قد يتصور بعض الناس أن ذلك العالم محض شر وفساد[2]، وهو عالم غيبي، تستقى المعلومات عنه من الوحي، لا من الحكايات والأساطير، وهذا منهج ينبغي أن يتبع: أن يكون مصدر الباحثين في مثل هذه الأمور الوحي.

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾، تعريض بالذين يعوذون بالجن، ويستعينون بهم في الحوائج. [3]، فهؤلاء الجن الذين يُتعوذ بهم، يعلنون ضعفهم أمام قدرة الله عز وجل، فينبغي على المرء أن يلجأ إلى ربه عز وجل كما علمه، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ [الفلق: ١]، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس: ١]، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، فإذا كان الجن، وهم أشد الثقلين تفلتاً وقدرة على الهرب، يبدون عجزهم عن ذلك، ويؤكدونه، فعلى الإنس وبخاصة عصاتهم، أن يعوا هذه الحقيقة.

القرآن الكريم هدى، ويكفي في إدراك هذا الأمر سماعه بتجرد ووعي، وقد أدرك ذلك الجن، وغابت هذه الحقيقة عن كثير من الإنس، فراحوا يبحثون عن تشريعات أرضية يلتمسون فيها الهدى.

الثمرة الحقيقية لتلقي القرآن بصورة صحيحة هي الإيمان، ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٤٧.

(٢) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٢.

(٣) انظر المصدر السابق ٦/ ٣٧٣٣.

بِهِۦ ﴾ من غير تلكؤ أو تلعثم، أو انتكاس في حمأة التقليد، أو الانجرار خلف الضالين المضلين الذي يعني إلغاء العقل، وتسليم زمامه بيد الآخرين ليفكروا بدله.

في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ مع قوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾، ما يبين أن الإيمان يبعد الإنسان عن الرهق، في حين أن الالتجاء لغيره سبب في زيادة الرهق، وإذا كان كثير من العلماء قد فسر الرهق هنا بزيادة السيئات، فلربما لأن المراد به: الإثم، ولو فسربـ « ولا ظلماً ومكروها يغشاه»[1] على اعتبارهما جزاء الإثم، لناسب السياق، ويدخل تحت الظلم زيادة السيئات. والله أعلم.

يستدل من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾ على أن الجن ليسوا شراً محضاً، كما قد يظن، بل هم كالإنس منهم مسلمون ومنهم غير ذلك.

لا بد للدعاة من الجمع بين الترغيب والترهيب في دعوتهم الناس لدين الله عز وجل ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾، ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾، ولكن بماذا يبتدئ؟ ذاك ما تحدده أمور أخرى تتعلق بأحوال كثيرة، مما هو مبسوط في مظانه. وليكن الداعية كالطبيب.

المسلم الذي قد خضع لله بالطاعة، تحرى وتوخى الدقة في طلب الرشد، [2] وليس هو خضوع الأعمى الذي يسير خلف عقائد موروثة باطلة، ثم لا يعمل عقله ليرى سبيل الرشد. ولعل هذا هو السر في عدم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ما هم عليه من ضلال، فهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في ذلك، بمعنى أنهم لم يتحروا رشداً ولا غياً. ولنتأمل في حوار إبراهيم عليه السلام وكيف أرجعهم إلى أنفسهم ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ترى أين كانت أنفسهم... وعقولهم... ؟!

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي٨/ ١٣٢، وانظر روح المعاني ١٥/ ٩٩-١٠٠.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٣.

الجن وإن كانوا من نار، لكن عاصيهم سيعذب فيها، ويشار هنا أن لا دلالة لمن ذهب إلى أن مسلمي الجن لا ثواب لهم؛ لأن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم، لأن الله تعالى أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد(١).

المقطع الثاني: من صفات الركب والداعي إليه

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

يبين هذا المقطع أن لو انتهج هؤلاء سبيل الاستقامة ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾، ثم نص على أن من يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً شاقاً، وفي المقطع السابق ذكر التجاء الكفار من الإنس واستعاذتهم برجال من الجن فزادوهم رهقاً.

في المقطع الأول أظهر الجن عدم معرفتهم بما يراد بأهل الأرض ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، وهذا يعني عدم معرفتهم الغيب، ومن ثم فهم لا يملكون لمن يستجير بهم نفعاً ولا ضراً، وفي هذا المقطع يبين الرسول ﷺ أنه لا يملك لهم ضراً ولا رشداً، بل لا يملك ﷺ لنفسه شيئاً لو أراد الله تعالى به أمراً، ولن يجيره أحد ولن ينفعه إلا تبليغ ما أمر به، وكل هذا تنزيه لمقام الربوبية، فقد اختلط الأمر على المشركين، فراحوا يلتمسون

(١) انظر الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٣٠.

دفع الضر وجلب النفع من غير مظانه.

بين الرسول ﷺ في هذا المقطع أنه لا يملك لهم ضراً ولا رشداً، بل أمر أن يقول ذلك: ﴿ قُلۡ إِنِّي ﴾، وفي المقطع الأول ذكر للسبيل الموصلة للرشد، ﴿ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴾.

ورد ذكر البعث في المقطع الأول في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ ﴾، وفي المقطع الثاني زيد في بيان حالهم في ذلك اليوم، وإذا كانوا يظنون أن لا بعث، فسيرونه عياناً، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ ﴾ هذا من قول الله تعالى.[1] تعقيباً على قول الجن: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ ﴾، يبين أعظم وأشمل خصلة يتصف بها هذا الركب، وهي الاستقامة.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالطريقة، فذهب بعضهم إلى أنها طريقة الهدى؛ لأنها معرفة باللام، ويكون المعنى: لو آمنوا لوسعنا عليهم. كما قال عز وجل: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وذهب آخرون إلى أنها طريقة الكفر، أي: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدراجاً، ثم نعذبهم على ذلك. قالوا ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ ﴾ [الزخرف: ٣٣][2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٩/ ١٧.

(٢) القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، واختاره الطبري، والقول الثاني =

ويبدو أن القول الأول أرجح؛ لأن لفظة الاستقامة إنما تكون لمن كان على الإيمان[١] ولولا ذلك لكان ممكناً الأخذ بالقولين، إذ لا تعارض بينهما، فاستمرار الكفار على كفرهم مؤذن بعذاب، وثبات المؤمنين على إيمانهم سبب لتنزل البركات. والله أعلم.

وإذن فعلى القول الأقرب يكون المراد: لو استقاموا على طريقة الحق ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾، أي: لوسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم الدنيا. والماء الغدق: الكثير، وخص بالذكر لأن الخير والرزق كله بالماء، فأقيم مقامه. [٢]

ثم قال عز وجل: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي: «لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم؟»[٣].

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾، قال الطبري: «ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله يسلكه الله عذاباً صعداً: يقول: يسلكه الله عذاباً شديداً شاقاً»[٤].

ثم يأمر الله تعالى عباده أن يفردوه بالعبادة ويوحدوه في أماكن عبادته، فلا يدعى معه أحد فيها. [٥]، وهذا الأمر الرباني من جملة الموحى إلى النبي ﷺ، فهي معطوفة على ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ... ﴾ والتقدير: وأوحي إلي أن المساجد لله. [٦]

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾، أي: وأنه لما قام

= قاله محمد بن كعب، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والفراء، انظر معاني القرآن٣/ ١٩٣-١٩٤، وجامع البيان١٢/ ٢٦٨، ومعالم التنزيل٨/ ٢٤١، وزاد المسير٨/ ١٣٢.

(١) انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٨٢. وفيه: «استعارة الاستقامة للكفر قلقة»، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧.

(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٨، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٨.

(٤) جامع البيان ١٢/ ٢٧٠.

(٥) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٤.

(٦) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٠.

محمد رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى، يقول: (لا إله إلا الله)، ويعبد ربه عز وجل،...

وقيل: لما قام ﷺ إليهم داعياً....

والمعنيان متلازمان، والله أعلم.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كادوا يكونون على محمد جماعات بعضها فوق بعض[١].

وقد اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على أقوال:

الأول: أنه إخبار من الله تعالى عن الجن يحكي حالهم والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه، يركب بعضهم بعضاً حرصاً على سماع القرآن.

الثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبداً.

الثالث: أن المعنى لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة، تلبدت الإنس والجن وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به.[٢]

وهذه الأقوال يمكن الجمع بينها بأن دعوة الرسول ﷺ جوبهت بفريقين، فريق عاداها حتى لقد اجتمعوا على إبطالها، وفريق أصغى لها سمعه، وبادر بالإيمان بها.[٣]

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١. والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٣.

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري مرجحاً الثالث منها، انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١-٢٧٣. ورجحه ابن كثير أيضاً، انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥.

(٣) قال الزحيلي: «... كاد الجن يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً، حرصاً على سماع القرآن، وكاد المشركون من العرب يركب بعضهم بعضاً تظاهراً على النبي ﷺ وعلى عداوته...» التفسير المنير٢٩/ ١٧٩. وقد جمع بين القولين، ولا مانع من ضم القول الثالث، فلقد تظاهر الكفار من الإنس والجن على إطفاء دعوة الرسول ﷺ. والله أعلم.

﴿ قُلْ ﴾ أمر رباني يبين أهمية ما سيأتي، وضرورة الإسراع في تبليغه، ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي ﴾ فما وجه العجب الذي يوجب عداوتي وأنا إنما أعبد خالقي ورازقي ومدبر أمري؟، إني أدعوه لأنه ربي، ثم عرّض بهم لينبههم على ما هم عليه: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، من جن أو إنس أو حجر أو شجر....

هذا على القول الأول، أما على القول الثاني، فيحتمل أن يكون أمراً للنبي ﷺ أن يبين سبيله الذي يدعو إليه لمن أقبل يصغي لدعوته: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ ﴾، والله أعلم.

ثم بين لهم أن ليس له إلا البلاغ، فهو لا يملك لهم، ضراً ولا رشداً، ويلاحظ أن التعبير القرآني عدل عن: ضراً ولا نفعاً، حيث جعل الرشد مكانه في إشارة واضحة إلى أن الرشد هو غاية النفع. فإذا أطلق فلا يبتغى غيره مما قد يسمى نفعاً. و«في مقابلة الضر بالرشد، إشارة إلى أن الضر لا يكون إلا من متابعة الهوى، واتباع أهل الضلال، كما أن الخير لا يكون إلا من ثمرات الهدى والاستقامة والتقوى...»[1].

وما دام الرسول ﷺ لا يملك هذين الأمرين، وقد سبق أن الجن بينوا ذلك أيضا، فلتتجه القلوب نحو ربها، قال ابن كثير: «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، وعبد من عباد الله، ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل»[2].

ثم زاد الرسول ﷺ الأمر وضوحاً بأن بين أن لا أحد يستطيع أن يدفع عنه عذاب الله إن أنزله به، إلا أن يؤدي المهمة التي نيطت به، وهي البلاغ ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد: أني لا أملك لكم إلا أن أبلغكم ما أمرني الله بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها، لا أملك لكم إلا هذا، أما الرشد والخذلان فبيد الله تعالى. [3]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن٢٩/ ١٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧٤، والتفسير الكبير١٥/ ١٦٥، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥، والتفسير المنير٢٩/ ١٧٧.

والقولان - كما هو واضح - صحيحان ولا تعارض بينهما.

وإذا كان الرسول ﷺ بهذه الصفة، فكل من يعصي الله، ويعصي رسوله ﷺ الذي قد قام بالبلاغ عن ربه عز وجل، فجزاؤه نار جهنم هو ومن كان على شاكلته، والمقصود بالعصيان هنا الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[1]، فالخطاب إذن للمشركين الذين رفضوا دعوة الرسول ﷺ وتولوا عنها، منكرين يوم البعث الذي سيكون فيه الجزاء، ولذا أتبع المولى عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ وهذه الآية الكريمة تشير إلى ما يحدث من استهزاء المشركين بالمؤمنين واستضعافهم واستقلالهم لعددهم... فإنهم سيبقون على هذه الحال حتى إذا رأوا ما كانوا يوعدون به من العذاب عياناً فسيتبين لهم من المستضعفون؟ المؤمنون أم المشركون[2] وفيه تهديد شديد لهؤلاء المشركين.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للناس جميعاً، وبخاصة أولئك الذين إذا حدثهم عن يوم القيامة، بادروه بالسؤال عن وقت وقوع هذا الذي يخوفهم به: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾ [الإسراء: ٥١]، فأمر أن يقول لهم: ما أدري أقريب يوم القيامة الذي وعدتم به، أم سيكون بعيداً. فمرد ذلك إلى ربي.

من هدايات المقطع الثاني

في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ ﴾، أكثر من هداية، أهمها:

الارتباط بين الاستقامة والرخاء، وأول أسبابه توافر الماء، الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي. فالخير والرزق كله بسببه. يقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥.

(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٣١٨، وتفسير المراغي٢٨/ ١٠٤، والتحرير والتنوير٢٩/ ٢٤٥.

ولعل هذا من الإعجاز الغيبي، فقد «كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً. وما يزالون في نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله». (١)

الرخاء ابتلاء من الله تعالى للعباد، يتطلب منهم القيام بواجب الشكر للمنعم عز وجل.

الإعراض عن هدي الله عز وجل، الذي قد يكون سببه الرخاء سبب للعذاب الأليم(٢) وقد يتعقب على هذا بأننا نرى أمماً ممن أعرضوا عن الإيمان، ولكنهم في سعة من الرزق، والحقيقة أن هذه الأمم تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. (٣)

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ فيه دعوة لتوحيد الله عز وجل في أماكن العبادة، ويتضمن هذا توبيخاً للمشركين وغيرهم الذين يدعون غير الله تعالى في هذه الأماكن الشريفة، وبخاصة المسجد الحرام. (٤)

التزام المرء بدينه والقيام بواجب العبادة لربه أعظم طريق للدعوة، وهي التي قد يعبر عنها بحال الشخص، ولقد قيل: حال شخص في ألف خير من ألف مقال في شخص، وهنا لما قام الرسول ﷺ ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أي: يعبد ربه، كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً حرصاً على سماع القرآن ـ على أحد التفسيرين ـ.

ينبغي على الداعية أن لا يستغرب صدود الناس ومحاربتهم له، إذ إنه في الوقت نفسه هناك

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٤.
(٢) انظر المصدر السابق ٦/ ٣٧٣٤ـ٣٧٣٥.
(٣) في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٤.
(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٤، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٢.

من يحرص على سماع ما يدعو إليه.[(١)]

العبودية أشرف المقامات، ولذا وصف الله تعالى رسوله ﷺ في هذا المقام الشريف ـ مقام العبادة والدعوة ـ به، كما وصفه بذلك في مقامات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾. الآية، [الإسراء: ١].

مقام التوحيد أعظم المقامات، ولذا أمر النبي ﷺ، بأن يعلن ذلك، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾، ولا ينبغي أن يغفل الدعاة عن هذا الأمر، ولا أن يساوموا عليه....

ينبغي أن يكون توجه العبد دائماً إلى ربه في حصول نفع، أو دفع شر، فهذا رسولنا الكريم ﷺ يؤمر بأن يعلن هذه الحقيقة لمن التبست عليهم الأمور.

عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه يدفع عذاب الله تعالى، وهو وظيفة الرسل عليهم السلام، كما أنه وظيفة أتباعهم ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الحذر من الوقوع في المعاصي، إذ هي سبب دخول النار، والعياذ بالله.

ينبغي عدم الاغترار بكثرة العدد والعدة، والحذر أن يكونوا صارفين عن التوجه إلى الله تعالى، فأعظم ما يدخره العبد هو الإيمان بالله عز وجل.

لا يعلم أحد متى يوم القيامة، وهذا يوجب على العاقل الاستعداد له، ولبيان قرب هذا اليوم فقد جاء التعبير القرآني عنه بلفظ الماضي، للدلالة على تحقق وقوعه، قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ ﴾ [النحل: ١].

---

(١) هذا ـ كما لا يخفى ـ بناء على الجمع بين القولين الواردين في معنى قوله تعالى: ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾، وقد مر في الشرح الإجمالي ص/ ١٨.

الخاتمـة

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

مناسبتها لما قبلها

ذكر الرسول الكريم ﷺ في نهاية المقطع السابق عدم معرفته بوقت ما يوعدون به، إذ هو من أمر الغيب، والذي يعلم الغيب هو الله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾... أما هو ﷺ فوظيفته البلاغ وقد أدى ما كلف به، فقد قرأ القرآن الكريم حتى استمع لقراءته من هم شديدو النفرة، ومع ذلك رقت قلوبهم وأذعنوا للحق، فآمنوا بربهم.

بينت الخاتمة أن الله تعالى لا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول، وقد أظهر الله تعالى رسوله المرتضى ﷺ، على بعض غيبه، فأطلعه على ما كان من أمر الجن. ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾.

في المقطع الثاني بيان واضح بأن النبي ﷺ لا يملك للناس ضراً ولا رشداً، لا يملك إلا البلاغ، بل إن أحداً لا يجيره من الله أن قصر في ذلك، ﴿ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ ﴾، وهنا في الخاتمة ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾.

التفسير الإجمالي للخاتمة

إن الذي يعلم الغيب هو الله تعالى، ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ وهذا يشمل الرسول الملكي والبشري[1]، والمراد: يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيُعلم من هذا الإيمان أن الغيب الذي يُطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦.

أو يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ٢-٤].

وهذا الإطلاع محاط بحفظة من أمامه ومن خلفه، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾: حرساً وحفظة من الملائكة يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي ﷺ الناس.[١]

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ اختلف في عود الضمير هنا فقال بعض العلماء: ليعلم الرسول ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن ربها.

وقال آخرون: ليعلم الرسول ﷺ أن قد بلغت الملائكة رسالات ربهم.

وقال آخرون: ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم[٢]، والذي يظهر أن عود الضمير لله عز وجل أرجح؛ لأن الأفعال كلها الواردة في السياق لله تعالى: (يسلك، يعلم، أحاط، أحصى) وهذا أولى من تشتيت الضمائر، وقد بين الرازي أنه « اختيار أكثر المحققين»[٣] والمراد بالعلم هنا: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أو كما يقول العلماء: ليظهر علم الله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وكقوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١ ﴾ [العنكبوت: ١١]، إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾[٤]، أي: « علم الله ما عند الرسل فلم يخف عليه شيء. ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ

---

(١) انظر جامع البيان١٢/ ٢٧٦، وزاد المسير٨/ ١٣٥، والتفسير الكبير١٥/ ١٦٨.

(٢) انظر هذه الأقوال وغيرها في جامع البيان ١٢/ ٢٧٦، والتفسير الكبير١٥/ ١٧٠، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦.

(٣) التفسير الكبير١٥/ ١٧٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦-٥٥٧.

عَدَدًا ﴾ قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذر والخردل»[١] .

من هدايات الخاتمة

الغيب كله لله تعالى، وهو عز وجل يظهر ما شاء من ذلك لمن يرتضيه من رسله، وهذا الغيب إنما هو فيما له تعلق بالرسالة التي من أجلها أرسلوا، ولذا ورد التعقيب ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾. وعليه، فلا يصدق بعد هذا البيان أي مدع يزعم أن عنده علم الغيب كائناً من كان، وينبغي على الدعاة إشاعة هذه العقيدة في أوساط العوام، حتى لا يستغلهم المشعوذون.

رحمة رب العالمين بخلقه، فهو لم يجعلهم عرضة لتخليط الشياطين أو غيرهم، يعبثون بعقائدهم، وإنما أنزل وحياً محفوظاً محروساً.

الثقة الكاملة بالوحي المنزل على الرسل عليهم السلام، وبخاصة ما نزل على رسولنا محمد ﷺ. الذي ارتضاه الله عز وجل، وأطلعه على ما شاء من وحيه.

سعة علم الله عز وجل. وفيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

(١) معالم التنزيل ٨/ ٢٤٥ .

سورة المزمل

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

اسمها التوقيفي: (سورة المزمل)، وكذا كتبت في المصاحف وكتب التفسير. ومعنى المزمِّل المتلفِّف بثيابه، وسمِّيت بذلك لافتتاحها[1]، ولأنها تتحدث عن النبي ﷺ في بدء الوحي ولأنها بدئت بأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التزمُّل: وهو التغطي في الليل، وينهض إلى تبليغ رسالة ربه عزَّ وجلَّ.

ب- فضائل السورة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الليل كله ناشئة، إشارة إلى قوله تعالى:﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ ﴾، فقد ذكر في تفسيرها أنها قيام الليل، وقيل: كل صلاة بعد العشاء فهي ناشئة الليل، وقيل غير ذلك[2].

قال القرطبي: بيَّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن، أعظم للأجر، وأجلب للثواب[3].

ج- مرحلة النزول:

مكية كلها، سوى آيتين؛ قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ والآية الأخيرة منها، فهما مدنيتان، فيما روي أنها نزلت في المدنية، وأن بين أولها وآخرها سنة. وذهب بعضهم إلى ثمانية أشهر، وآخرون إلى ستة عشر شهراً.

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن الضريس. انظر: الدر المنثور، السيوطي: ٦/ ٢٧٨، وفضائل القرآن، ابن الضريس: ص: ١٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٠.

كما اختلف في عدِّ هذه السورة في ترتيب النزول، والأصح أنها نزلت بعد سورة (المدثر)[1].

د ـ أسباب نزولها:

١ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ ﴾ أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر ﷺ قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سمُّوا هذا الرجل اسماً يصدر عنه الناس، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ ﴾ قال: نزلت وهو في قطيفة.

٢ـ قوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ ﴾ أخرج الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ ﴾ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم، فأنزلت: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾، وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره[2].

هـ ـ عدد آيات سورة (المزمل):

ثماني عشرة آية في عدِّ المدني الأخير، وتسع عشرة آية في عدِّ البصري، وعشرون آية في عدِّ الباقي. واختلافها في أربع آيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ ﴾ عدَّها الكوفي والمدني الأول والشامي دون الباقين، و﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ عدَّها المكي فقط، و﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ لم يعدَّها المكي بخلاف

---

(١) فتح القدير، الشوكاني: ٥/ ٤١٧، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣١، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، وتفسير الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي: ١٢/ ٧٧٨٣.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٨٩، والتفسير المنير: ٢٩/ ١٩٠.

عنه، وعدَّها الباقون، وهو الصحيح عن المكي، و﴿ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ لم يعدَّها المدني الأخير وعدَّها الباقون.

المنسوخ منها تسعة مواضع: قوله تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾، و﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ والناسخ لها آية السيف. وقوله تعالى:﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ والناسخ لها: ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾

وقوله تعالى:﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾والآيات الثلاث بعدها نسخها قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ الآية[1].

و- محور سورة (المزمل):

يدور محور هذه السورة الكريمة حول شخصية الرسول ﷺ، إشارة إلى إحدى أحوال المصطفى ﷺ، فجاء خطاب الانبساط مع سيد المرسلين، والإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله ﷺ بندائه بوصفه بصفة تزمُّله، والأمر بقيام الليل، وبيان حجة التوحيد، والأمر بالصبر على جفاء الكفار، وتهديد الكافر بعذاب النار، وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى، والتخويف بتهويل القيامة، والتسهيل والمسامحة في قيام الليل، والحث على الصدقة والإحسان، والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان في قوله تعالى:﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[2].

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣١١، والبيان في عدِّ آيات القرآن، الداني: ص: ٢٥٧، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، والزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي: ٥/ ٤١١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٤، وقبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٨/ ١٢٩.

ز- المناسبات في سورة (المزمل):

١- المناسبة بين سورة (المزمل) ومحورها:

تُعنى سورة (المزمل) بأمور العقيدة والتوجيه والأخلاق، كسائر السور المكية، وهي هنا تتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ في تبتُّله وطاعته، وقيامه الليل يصلي ويتلو كتاب الله عزَّ وجلَّ، ومحور السورة يدور حول الرسول ﷺ، ولهذا سُمِّيت سورة (المزمل).

فقد ابتدأت بنداء الرسول ﷺ نداءً فيه شفافية ولطف، يدل على لطف الله بعبده محمد ﷺ الذي أجهد نفسه في الطاعة والعبادة ابتغاء مرضاة الله جلَّ وعلا.

ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة.

وأمرته ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجراً طويلاً، فالله سبحانه كفيل بالانتقام منهم بإهلاكهم وإبادتهم.

وختمت السورة بتخفيف الله تعالى عن رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض ضروراتهم المعيشية، فإن منهم المريض ومنهم المجاهد في سبيل الله، ومنهم الذين يضربون في الأرض طلباً للرزق والقوت، لهم ولذراريهم(١).

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (المزمل):

شطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد، ويكاد يكون على رويٍّ واحد، هو اللام المطلقة الممدودة، وهو إيقاع رخي وقور جليل، يتمشى مع جلال التكليف، وجدية الأمر، ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق، هول القول الثقيل الذي أسلفنا، وهول

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٦٣، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٣/ ١٣١.

التهديد المروِّع[1].

وفي خطابه ﷺ بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سمَّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنها، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب، فقال له: (قم أبا تراب)، إشعاراً له بأنه عاتب عليه وملاطف له.

وكذلك قوله ﷺ لحذيفة: (قم يا نومان)، وكان نائماً، ملاطفاً له وإشعاراً بترك العتب فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن ينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل، واتصف بتلك الصفة[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وخاتمتها:

تأتي سورة المزمل تفصل في موضوع العبادة كطريق للتقوى، وتذكر أنواعاً من العبادات ينبغي أن تؤدَّى. فقد رسمت هذه السورة طريق السير إلى الله، وبينت الطريق إلى التقوى في حدِّه الأدنى وحدِّه الأعلى؛

فحدُّه الأدنى صلاة مفروضة، وزكاة، واستغفار، وقيام ما تيسر من الليل.

وحدُّه الأعلى: صلاة، وإنفاق، واستغفار، وقيام من الليل، وترتيل قرآن، وذكر، وانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ، وصبر على أقوال الكافرين، وهجر لهم، وانتظار فعل الله فيهم إذا لم يكن جهاد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٣.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: ١٠/ ١٠٨.

مأمور به، وصلة ذلك بقضية العبادة والتقوى التي هي محور السورة واضحة المعالم[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وخاتمة ما قبلها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من وجهين:

الأول: ختم سبحانه سورة (الجن) بذكر الرسل عليهم السلام، وافتتح هذه بما يتعلق بأمر خاتمهم ﷺ بالتبليغ والإنذار، وهجر الراحة في الليالي.

الثاني: لا يخفى اتصال أولها في آخر سابقتها سورة الجن، فقد أخبر سبحانه في السورة السابقة عن ردود فعل دعوة النبي ﷺ بين قومه والجن في قوله:﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾، وقوله:﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾، ثم أمره الله تعالى في مطلع هذه السورة بالدعوة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ ﴾[2].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المزمل) ومحورها:

تتألف سورة (المزمل) من فقرتين: فقرة طالبت بالحد الأعلى من السير إلى الله عزَّ وجلَّ والقيام بحقوق عبوديته، وفقرة طالبت بالحد الأدنى الذي لا يسع أحداً أن ينقص منه، والملاحظ أن الحد الأعلى خوطب به رسول الله ﷺ، وأن الحد الأدنى كان ترخيصاً لرسول الله ﷺ والمسلمين. وفي توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ وحده في الفقرة الأولى إشارة إلى أن من يقوم بشأن الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ يُطالب بما لا يُطالب به غيره، ويتأكد الطلب في حقه أكثر منه في حق غيره[3].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٠٠، ٦٢١١.

(٢) تفسير روح المعاني، الألوسي: ٢٩/ ١٠٠، ونظم الدرر، البقاعي: ٢١/ ٣، وتفسير المراغي: ٢٩/ ١٠٩، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٨٧.

(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٠٠.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المزمل) بعضها مع بعض:

السورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة؛ تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم، وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل، والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذبين والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة!..

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير، والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويح برحمة الله ومغفرته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾..

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية ـ البشرية الضالة ـ ليردها إلى ربها، ويصبر على أذاها، ويجاهد في ضمائرها؛ وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري، ولذاذة تُلهي، وراحة ينعم بها الخليون. ونوم يلتذُّه الفارغون![1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وافتتاحية سابقتها:

مما يلاحظ أن سورة (الجن) كان الخطاب فيها متوجهاً لرسول الله ﷺ بكلمة: ﴿قُلْ﴾ كذلك يتوجه الخطاب في هذه السورة لرسول الله ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، لبيان توافقهما في الخطاب، واتصالهما بتفصيل كل منهما ما يقابلها من محورها[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (المزمل) وما بعدها:

ينبغي أن يضع القائمون بأمر الدعوة إلى الله هذه السورة نصب أعينهم، فيلتزموا بما ندبت إليه من معانٍ، ويرفعوا الأمة إلى الكمالات التي تحدثت عنها، فذلك هو الطريق، لقد وضحت هذه السورة الطريق إلى التقوى، ولذلك فإن علينا أن نأخذ حظنا منها، بإلزام أنفسنا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٣.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦١٩٥، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ١٠/ ٥٢٧.

وتعويدها على القيام بكل ما فيها، وتربية أنفس المسلمين على ذلك من خلال التذكرة والقدوة والبيئة والاحتيال لذلك؛ بتعويد الأنفس شيئاً فشيئاً، فالصلاة، والزكاة، والاستغفار، وشيء من القرآن، وشيء من الذكر، وشيء من قيام الليل، وشيء من الانقطاع إلى الله عز وجل، ثم وثم حتى تصبح معاني السورة خُلقاً للمسلم، ومتى أصبحت خُلقاً له فقد أصبح على الطريق الواضح الموصل إلى الجنة، إذا اجتمع له مع ذلك علم، وتأتي سورة (المدثر) لتكمل تبيان الطريق بذكر المواقف من الكفر والكافرين[١].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (إرشاد النبي ﷺ في بدء الدعوة) الآيات: (١-١٠)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

الابتداء بهذا النداء فيه إيناس وملاطفة، وتكليف وتشريف، بمهمة ثقيلة شاقة كلف بها المصطفى ﷺ، ليكون مؤهلاً للقيام بحمل الأمانة الكبرى في هداية البشرية، وانتشالها من براثن الجاهلية، بعد أن بقيت ردحاً من الزمن في ظلمات الغي والضلال، فيبدأ بالإعداد الروحي بهجر المنام، والتشمير عن ساعد الجد، بقيام الليل، والذكر الخاشع، وترتيل القرآن، والاتكال على الرحمن[٢].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢١٩.

(٢) قبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٨/ ١٣٢.

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ﴾.. إنها دعوة السماء، وصوت الكبير المتعال.. قم.. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والكدِّ والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة.. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد..

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش، في البيت الهادئ والحضن الدافئ. لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشدِّ والجذب في ضمائر الناس، وفي واقع الحياة سواء.

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: « مضى عهد النوم يا خديجة»! أجل مضى عهد النوم، وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾.. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.. قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل.. قيامه للصلاة وترتيل القرآن. وهو مد الصوت به وتجويده. بلا تغنٍ ولا تطرٍ ولا تخلُّعٍ في التنغيم.

وقد صح عن وتر رسول الله ﷺ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة. ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلاً، يرتل فيه القرآن ترتيلاً.

« روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يحيى بن سعيد ـ هو ابن أبي عروبة ـ عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام.. أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: إئت عائشة فسلها، ثم ارجع إليَّ فأخبرني بردِّها عليك.. ثم يقول سعيد بن هشام: قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت:

ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة؛ فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم. وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً. ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة.. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوّك ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن، إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو، ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده، ثم يدعوه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا. ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بنيَّ. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحبَّ أن يداوم عليها. وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشرة ركعة. ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان..»[1].

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه..

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.. هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف.. والقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر. ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل في أثره في القلب: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، فأنزله الله على قلبٍ أثبت من الجبل يتلقاه.. وإن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل. وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٤٢٦٩.

النحو الذي تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ هي ما ينشأ منه بعد العشاء؛ والآية تقول: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا ﴾[1]: أي أجهد للبدن، ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾: أي أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدِّ نهار، أشد وطأً وأجهد للبدن؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله، وإيثار للأنس به، ومن ثم فإنها أقوم قيلاً، لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها. وإنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره.. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه.

والله سبحانه وهو يعدُّ عبده ورسوله محمداً ﷺ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل، لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً. ولأن له في النهار

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر: (وِطَاءً) أي أشد ملاءمة وموافقة، وقرأ الجمهور: (وَطْئاً) أي: أثقل على المصلي من ساعات النهار. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٤، والحجة في القراءات، لابن زنجلة: ص: ٧٣٠.

مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيراً من الطاقة والالتفات:

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾. فلينقض النهار في هذا السبح والنشاط، وليخلص لربه في الليل، يقوم له بالصلاة والذكر:

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨ ﴾.. وذكر اسم الله، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عِدَّة المسبحة المئوية أو الألفية! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها. والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله، والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر.

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله، يتجه إليه من يريد الاتجاه.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾[1]. فهو ربُّ كل متجه.. ربُّ المشرق والمغرب.. وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو. فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود؛ والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في هذا الوجود. والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته، وهيمنته على المشرق والمغرب، أي على الكون كله.. والرسول الذي ينادَى: قم.. لينهض بعبئه الثقيل، في حاجة ابتداءٍ للتبتُّل لله والاعتماد عليه دون سواه. فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل.

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل. وأن يخلي بينه وبين المكذبين! ويمهلهم قليلاً. فإن لدى الله لهم عذاباً وتنكيلاً:

(١) قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي: (ربِّ) بكسر الباء، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم بضمها. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٦٩.

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾.. وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة، فإن هذا الشوط الثاني منها يكون قد نزل متأخراً بعد الجهر بالدعوة، وظهور المكذبين والمتطاولين، وشدتهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين. فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال النبي ﷺ من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة.

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر، بعد التوجيه إلى القيام والذكر، وهما كثيراً ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها في مسارب الضمير، أو طريقها في جهاد المناوئين، وكلاهما شاق عسير.. نجد التوجيه إلى الصبر. ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.. مما يغيظ ويحنق، ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾.. لا عتاب معه ولا غضب، ولا هُجر فيه ولا مشادة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة، وبخاصة في أوائلها.. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير.

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر. والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة؛ ولعباده المؤمنين برسله. وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جُنَّته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد.. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها.. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم. ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة، وتتفلت، وتتخفى في أزياء كثيرة، وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها. والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريباً!

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾.. وخلِّ بيني وبين المكذبين، فأنا بهم كفيل[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٤.

دروس وعبر من المقطع الأول:

١ـ **فرضية التهجد**: يدل ظاهر توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة، وأمره بقيام الليل ووصفه بالتزمُّل أن التهجد كان فريضة عليه، وأن فرضيته كانت خاصة به، وهذا رأي أكثر العلماء؛ لأن الندب والحضَّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وقيل: كان التهجد فرضاً على النبي ﷺ وعلى أمته، ثم نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج، وقيل: إن التهجد كان نافلة لا مفروضاً.

والراجح أنه نُسخ عن الأمة وحدها، وبقي وجوبه على النبي ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وربما كان العمل بحديث سعد بن هشام[1] صحيحاً: وهو نسخ الوجوب مطلقاً وصيرورة التهجد تطوعاً، تخفيفاً وتيسيراً، والناسخ هو الصلوات الخمس، وأما آخر سورة (المزمل) الذي نزل بعد أولها بنحو عام فقد نسخ المقدار الذي بيَّن في أولها، دون نسخ أصل وجوب التهجد، والمقدار الذي في أول السورة هو: نصف الليل، أو أنقصُ منه قليلاً إلى الثلث أو الزيادة عليه إلى الثلثين[2].

٢ـ **وجوب ترتيل القرآن**: والغرض من ترتيل القراءة التدبر والتأمل، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾[النساء: ٨٢]، إذ هو السبيل إلى الخشية وخشوع القلب، ولا يمنع ذلك

---

(١) حديث طويل أخرجه مسلم وفيه: (قال سعد بن هشام: قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ قلت: بلى، قالت: فإن الله عزَّ وجلَّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة). صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، رقم الحديث: ١٢٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣٤، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٨، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٥٥، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٩٥.

من تحسين الصوت بالقراءة، لقوله ﷺ: (الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، وزيِّنوا القرآن بأصواتكم)(١). مع التقيد بأحكام الأداء والتلاوة دون تمطيط وتزيُّد.

قال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمَّ أحدكم آخر السورة(٢).

٣ـ ثقل القرآن والوحي: للمفسرين أقوال في تسميته بالثقيل:

رجح ابن العربي الثقل الحقيقي لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً)(٣).

ومنها أن الثقل مجازي، لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر بكمال هديه ووفرة معانيه، وقيل: هو ثقيل على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده، وقيل: ثقيل شديد بما اشتمل من تكاليف شاقة على النفس، وفرائض وحدود صعبة على الإنسان(٤).

٤ـ التبتُّل: هو مطلق الانقطاع، وقد يكون مأموراً به كالانقطاع إلى الله تعالى بإخلاص العبادة إليه، وهو المأمور به هنا في القرآن، ومنه تبتُّل مريم البتول.

وقد يكون منهياً عنه كما في الانقطاع عن أعمال النهار، والعكوف على الذكر والعبادة

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن، أورده معلقاً.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦١٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣٩، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦١، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٥٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٩٩.

وهو المنهي عنه في السنَّة، ومنه سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع والإعراض عن شؤون الحياة[١].

٥ـ **الصبر والهجر الجميل**: من مقومات الدعوة وأسباب نصرتها الصبر على الأذى والسب والاستهزاء.

قال قتادة وغيره: كان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أُمِر بعدُ بقتالهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك، وهذا من منهج الدعوة الدائم، وسياستها الثابتة التي يحتاج إليها الدعاة في كل عصر.

وقال بعض العلماء: الهجر منسوخ، وأما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أحياناً، ويبقى حكمه فيما يتوجه من الهجر الجميل.

قال أبو الدرداء: إنا لنَكْشِر في وجوه أقوام ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتقليهم، أو لتلعنهم.

قال الإمام الرازي: إن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين، لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بدَّ له من الصبر على إيذائهم وإيحاشهم، لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة، فيقع في الغموم، وإن لم يَرِضْ نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٤، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٥، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٠.

المقطع الثاني: (تهديد الكفار وتوعدهم) الآيات: (١١-١٩)

قال الله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ في دعوته، هدد المشركين وأوعدهم على الإعراض عن قبول تلك الدعوة، وخوَّفهم عذاب يوم القيامة وكيفية أهواله، وعذاب الدنيا ومخاطره ثم عاد إلى وصف عذاب الآخرة، وتخويفهم به لشدته التي بلغت حداً تشيب الولدان، وتشقق السموات منه[1].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾.. كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين.. ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾.. والمكذبون بشر من البشر والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداءً، وخلق هذا الكون العريض {بِكُن} ولا تزيد! ذرني والمكذبين.. فهي دعوتي. وما عليك إلا البلاغ. ودعهم يكذبون واهجرهم هجراً جميلاً. وسأتولى أنا حربهم، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين! إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهيِّنة المضعوفة.

﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق!

﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً. وإن هي إلا يوم أو

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٣.

بعض يوم في حساب الله. وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار! فهي قليل أياً كان الأمد، ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يمهل قليلاً، ويأخذ تنكيلاً:

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾.. والأنكال ـ هي القيود ـ والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم.. كلها جزاء مناسب {لأولي النعمة}! الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم، فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً، وخلِّ بيني وبينهم. ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم، وجحيماً تجحمهم وتصليهم، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق، وعذاباً أليماً في يوم مخيف.. ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف:

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.. فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجاليها. فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار. فكيف بالناس المهازيل الضعاف! ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع، إلى المكذبين أولي النعمة، يذكرهم فرعون الجبار، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

هكذا في اختصار يهزُّ قلوبهم ويخلعها خلعاً، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار. فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب؟

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾.. وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال. وإنها لتشيب الولدان. وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة، وفي الإنسانية الحية.. في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة.. ثم يؤكدها تأكيداً..

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾. واقعاً لا خلف فيه. وهو ما شاء فعل، وما أراد كان! وأمام هذا

الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة.. طريق الله..

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.. وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر، من السبيل المريب، إلى هذا الهول العصيب! وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين تنزل على قلب الرسول ﷺ والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين. إذ يحسون أن ربهم معهم، يقتل أعداءهم وينكل بهم. وإن هي إلا مهلة قصيرة، إلى أجل معلوم.

ثم يقضى الأمر، حينما يجيء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم. إن الله لا يدع أولياءه لأعدائه، ولو أمهل أعداءه إلى حين...)[1].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ تمثل تهديد المكذبين المستهزئين من كفار مكة بنوعين من العذاب؛ عذاب الدنيا، وقد حدث، فقد عوقبوا في بدر وغيرها، وعذاب الآخرة الموعودين به في نار جهنم بما فيها من صنوف الأنكال والقيود، والطعام غير المستساغ من الغسلين والزقوم والضريع، والعذاب الأليم، وجاءت هذه الأجناس منكّرة لقصد تعظيمها وتهويلها[2].

٢ـ الاستدلال بحجية القياس أخذاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ فقد استقر عند العقلاء وعند المشركين في مكة وغيرهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظناً، يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم ههنا[3].

٣ـ وصفُ اليوم الآخر بأنه يجعل الغلمان شيباً ضربُ مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٧١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي: ١٥/ ٨١٢، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٦.

باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، وهو تجوُّز وإبلاغ في وصف هوله، لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلْدان، والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب كما يجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤوسهم من شدة الهول، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهمِّ المفرط كهول البحر[1].

٤ـ انشقاق السماء وانفطارها وصف آخر لشدة ذلك اليوم واختصاصها بالذكر عن غيرها من الخلائق لما تتميز به من العظمة والقوة والإبداع.

٥ـ التأكيد على تحقيق وعد الله في وقوع اليوم الآخر بعد الإنذار به، وأنه يوم حق وصدق آت لا محالة، بما وعد الرحمن فيه من مشاهد ومواقف وأحداث.

المقطع الثالث: (تذكير وإرشاد بأنواع الهداية) الآية: (٢٠)

قال الله تعالى:﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان أحوال المؤمنين السعداء وترغيبهم، وأحوال الأشقياء وتهديدهم بأنواع العذاب في الآخرة، ختمت السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن أراد الاشتغال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٠، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٦٤٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٧٥، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٤.

بالطاعة والاحتراز عن المعصية، فليفعل، ثم خفف عن المؤمنين مقدار قيام الليل لما يطرأ لهم من أعذار المرض، أو السفر للتجارة ونحوها، أو الجهاد في سبيل الله تعالى[١].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾..الآية.

إنها لمسة التخفيف الندية، تمسح على التعب والنصب والمشقة. ودعوة التيسير الإلهي على النبي والمؤمنين. وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له. وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير. وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام. إنما كان يريد أن يُعدَّه للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقي له من الحياة. هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه.

وفي الحديث مودة وتطمين: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾[٢].. إنه رآك! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت في ميزان الله..

إن ربك يعلم أنك وهم تجافَتْ جنوبكم عن المضاجع؛ وتركت دفء الفراش في الليلة القارسة، ولم تسمع نداء المضاجع المغري، وسمعت نداء الله.. إن ربك يعطف عليك، ويريد

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٨.

(٢) قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: (ثلْثي)، و(ثلُثه) بضم اللام، وروى الحلواني عن ابن عامر: (ثلْثي) بسكون اللام، و(ثلُثه) بضم اللام، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: (ونصفِه وثلثِه) بالكسر حملوه على الجار، أي تقوم أدنى من نصفه ومن ثلثه، وقرأ الجمهور: بالنصب بوقوع الفعل، أي يقوم نصفه وثلثه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٥، والحجة في القراءات لابن زنجلة: ص: ٧٣٢، وجامع البيان، الداني: ص: ١٦٦٩.

أن يخفف عنك وعن أصحابك..

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾.. فيطيل من هذا ويقصر من ذاك. فيطول الليل ويقصر. وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه. وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة. وهو لا يريد أن يعنتكم ولا أن يشق عليكم. إنما يريد لكم الزاد، وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم، وخذوا الأمر هيناً:

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾.. في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت.. وهناك ـ في علم الله ـ أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة، ويشق معها القيام الطويل:

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾يصعب عليهم هذا القيام﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾.. في طلب الرزق والكد فيه، وهو ضرورة من ضرورات الحياة. والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم، وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان!

﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.. فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار من ظلمكم بالقتال، ولإقامة راية للإسلام في الأرض يخشاها البغاة! فخففوا إذن على أنفسكم.

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد.. واستقيموا على فرائض الدين.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.. وتصدقوا بعد ذلك قرضاً لله يبقى لكم خيره.

﴿ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ ﴾.. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم. فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جدَّ وتحرَّى الصواب:

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾. إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام! ولقد خفف الله عن المسلمين، فجعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة. أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه، لا يقل قيامه عن ثلث الليل، يناجي ربه، في خلوة من الليل وهدأة، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد. على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه، فقد كان قلبه ﷺ دائماً مشغولاً بذكر الله، متبتلاً لمولاه.

وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه. على ثقل ما يحمل على عاتقه، وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقال..[١].

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١- من حكمة التشريع مراعاة أحوال المكلفين، وفي الآيات تخفيف لحكم القيام مما كان من أمر وجوبه، وتبيان علة التخفيف مما يطرأ على الجماعة من أعذار: كاختلال الصحة، أو الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش كالمسافر في التجارات وغيره، أو المجاهد في سبيل الله. فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء[٢].

٢- التسوية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لإنفاقه على النفس والعيال. وفي ذلك دليل على أن كسب المال بمنزلة الجهاد، لجمعه بينهما. قال ابن عمر رضي الله عنهما: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن أموت بين شُعبتَي رَحْلي أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض[٣].

٣- إقراض الله هو استلاف العمل الصالح عنده، وهو الحث على صدقات التطوع غير الواجبة، وكل ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب. وقيل: هو النفقة على الأهل وقيل: هو النفقة في سبيل الله، ووصف القرض بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والمسالمة من المن والأذى[٤].

٤- القراءة في الصلاة من المسائل الخلافية عند الفقهاء في تحديد القدر اللازم منها؛ فذهب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٥، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٦، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٩، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٤٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٨، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٧، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٩.

الشافعية والمالكية إلى فرضية فاتحة الكتاب لا يجوز العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها لحديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[1].

وذهب الحنفية إلى فرضية مطلق القراءة، وقدروها بآية طويلة، أو ثلاث آيات قصار وأوجبوا الفاتحة، لعموم الآية، وأوّلوا الحديث الآحاد بعدم كمال الصلاة، أي: لا صلاة كاملة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، فقالوا بوجوب الفاتحة[2].

٥ـ طلب الله تعالى من عباده مداومة الاستغفار مما عسى أن يقع في الأعمال من الخلل أو التقصير، ووعد سبحانه بالرحمة والمغفرة لمن يلجأ إلى جنابه الكريم، إذ أخبر بأنه عظيم المغفرة واسع الرحمة، وهذا تحريض على الاستغفار في جميع الأحوال، وإن كانت طاعات، لما عسى أن يقع فيها من تفريط[3].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم الحديث: ٧١٤، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم الحديث: ٥٩٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٣.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٣.

سورة المدثر

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: سورة (المدثر)، وجاءت تسميتها في كلام ابن عباس وابن الزبير، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت سورة المدثر بمكة) وعن ابن الزبير مثله[1]. وبذلك سميت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وسميت بالمدثر لافتتاحها بهذا الوصف الذي وصف به النبي ﷺ. وأصل المدثر: المتدثر، وهو الذي يتدثر بثيابه لينام أو ليستدفئ. والدثار: اسم لما يتدثر به.

ب ـ فضائل السورة:

حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾، قلت: يقولون: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني، وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فدثَّروني، وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾)[2].

---

(١) أورده السيوطي في الدر، وعزاه لابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي. الدر المنثور، السيوطي: ٦/ ٢٨٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قال ابن عباس: عسير شديد، رقم الحديث: ٤٥٤١.

ج. مرحلة النزول:

مكية، وفي نزولها روايات منها: أنها أول ما نزل من القرآن بعد سورة (العلق)، ورواية أخرى بأنها أول السور نزولاً، كما مرَّ آنفاً، وأخرى أنها نزلت بعد سورة (المزمل)، وأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي ﷺ، ويمكن التوفيق بين هذه الروايات بأن صدر سورة (المدثر) أول ما نزل بعد سورة (العلق)، وهو من أول السورة إلى الآية [٧]، وأن الآيات التالية نزلت بعد الجهر بالدعوة، وكانت تعني شخصاً معيناً هو الوليد بن المغيرة(١).

د. أسباب النزول:

١ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ فحمي الوحي وتتابع)(٢).

٢ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾: أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنت كاره له. فقال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا رجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطِّم ما تحته. قال: لا يرضى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٩٢، وتفسير سورة الحشر والمدثر، شحاته. ص: ٦١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٣، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٢٣٢.

عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر سؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾

٣ـ قوله تعالى: ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فجاء فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعة ئذ: ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٤ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾: عن ابن إسحق قال: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾.

وعن السدي قال: لما نزلت: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾ قال رجل من قريش يُدعى أبا الأشد: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾.

٥ـ قوله تعالى: ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ ﴾: أخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار، فنزل قوله تعالى: ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

هـ ـ عدد آيات سورة (المدثر):

ست وخمسون آية في عدِّ المدني الأول والكوفي والبصري، وخمس وخمسون آية في عدِّ المدني الأخير والمكي والشامي. واختلافها في آيتين: ﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ عدَّها الجميع إلا المدني الأخير، و﴿ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ عدَّها الجميع إلا المكي والشامي.

والمنسوخ فيها ثلاثة مواضع: قوله تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾نسختها آية

(١) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩٠.

السيف.

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾نسخها قوله تعالى:﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ نسخها قوله:﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1].

و ـ محور سورة (المدثر):

سورة (المدثر) شأنها كسابقتها سورة (المزمل) إذ تتشابه في موضوعها، فقد تناولت بعض الجوانب الشخصية في حياة الرسول ﷺ، ولهذا سُمِّيت بالمدثر.

وقد جاء فيها أمْر النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى الإيمان، وتقرير صعوبة القيامة على الكفار وأهل العصيان، وتهديد الوليد بن المغيرة بنقض القرآن، وبيان عدد زبانية النيران، وأن كل أحد رهْن بالإساءة والإحسان، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان، وذكر وعْد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران، في قوله: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[2].

ز. المناسبات في سورة (المدثر):

١. المناسبة بين سورة (المدثر) ومحورها:

ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول ﷺ بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

ثم توالت السورة في إنذار وتهديد أولئك المجرمين، بعذاب يوم عصيب، لا راحة لهم فيه، لما فيه من الشدائد والأهوال.

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣١٢، والبيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢٥٨، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٨، والزيادة والإحسان، ابن عقيلة المكي: ٥/ ٤١٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٨، وقبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٩/ ١٤٥.

وبعد ذلك تحدثت عن قصة ذلك الشقي الفاجر (الوليد بن المغيرة) الذي سمع القرآن وأيقن أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرياسة، زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر.

كما تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وبيَّنت عددهم، وذكرت الحكمة من تخصيص هذا العدد.

وأقسمت السورة بالقمر وضيائه والصبح وبهائه على أن جهنم إحدى البلايا العظام.

ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يدور بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخول الكفار نار الجحيم.

وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان[1].

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (المدثر):

بدأت السورة بالأمر بالإنذار وما يقتضيه الإنذار من أخلاق، وعلَّلت لذلك بمجيء يوم القيامة وشدته على الكافرين، مما يقتضي أن ينذر الناس جميعاً ليعرفوا ما أمامهم.. فسورة (المدثر) تأمر من أنزل عليه القرآن أن يقوم بواجب الإنذار، والقيام بواجب الإنذار يقتضي القيام بالتبشير، ولكن التبشير إنما يكون إذا وجد مؤمنون، وسورة (المدثر) نزلت ولـمَّا يوجد مؤمنون بعد[2].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وخاتمتها:

سارت السورة في سياقها الخاص على المسار التالي: بدأت السورة بأمر رسول الله ﷺ بالإنذار، وبيَّنت له أدب النذير، وسبب الإنذار، وهو مجيء يوم القيامة، ثم بيَّنت له أن نوعاً من

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٧١، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٣/ ١٣٥.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣١.

الناس لا يقبل الإنذار فليدعه لله، وبيَّنت له ما أعده الله لهذا من عذاب، ثم استأنفت لتحدثنا عن موقف الكافرين والمؤمنين من المثل القرآني، ثم سارت السورة لتبيِّن أهمية أن يبعث الله نذيراً للبشر، ثم عجَّبت من موقف الكافرين من الإنذار، ثم بيَّنت العلة الرئيسة لهذا الموقف، ثم ختمت بالتذكير بهذا القرآن المنزل على النذير، وحضَّت على التذكر، وعلَّقت التذكر على مشيئة الله ليقبل العبد بقلبه على الله تائباً طالباً.

ويلاحظ أن السورة ختمت بقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾، وفي هذا المقام سرٌّ لطيف، فالسورة أنذرت من خلال التذكير باليوم الآخر حتى استغرق ذلك كثيراً من السورة، ثم ختمت بالتذكير بأن الله عزَّ وجلَّ حريٌّ أن يتَّقيه المتقون، لأنه أهل التقوى، حريٌّ أن يستغفره المستغفرون، لأنه أهل المغفرة، فأصل أصيل في التذكير أن يذكَّر بجلال الله وجماله وكماله في إنهاض الهمم إليه، والتذكير باليوم الآخر طريق لذلك[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وخاتمة ما قبلها:

نلاحظ أن سورة (الحاقة) تحدثت عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وتحدثت عن المكذبين باليوم الآخر، وأن سورة (المعارج) تحدثت عن الكافرين وموقف من مواقفهم وأن سورة (نوح) حدثتنا عن أمة رفضت الإنذار، وأن سورة (الجن) حدثتنا عن نفر قبلوا الإنذار، وان سورة (المزمل) حددت للنذير ما ينبغي فعله في علاقته مع الله، وفي مواقفه من نوع الكافرين، وتأتي سورة (المدثر) لتحدد للنذير أخلاقه التي تقتضيها عملية الإنذار، ومواقفه من أنواع من المكذبين، وعرض لحال أهل اليمين ولحال المجرمين في الآخرة، مما يذكرنا بسورة (الحاقة)، فسورة (المدثر) تكمل دور سورة (المزمل)، وهي ترتبط بمجموعتها كلها برباط وثيق، وهكذا نجد المجموعة تتكامل مع بعضها في معانيها، وتتكامل مع بعضها في تفصيلها لمحاورها من سورة (البقرة) لتفصِّل في الأساس والطريق[2].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٤٢.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٢٨.

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المدثر) بعضها مع بعض:

هذه السورة قصيرة الآيات. سريعة الجريان. منوَّعة الفواصل والقوافي. يتئد إيقاعها أحياناً، ويجري لاهثاً أحياناً! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر.. وتصوير مشهد سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر.. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة. فرَّت من قسورة!

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقاً خاصاً؛ ولا سيما عند ردٍّ بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة: المدثر. أنذر. فكبر.. وعودتها بعد فترة: قدر. بسر. استكبر. سقر.. وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص. عند قوله:﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾..

ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر. وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر! وهكذا..)[١].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وافتتاحية سابقتها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من ثلاثة وجوه:

الأول: توافق السورتين في الافتتاح بنداء النبي ﷺ.

الثاني: صدر كلتيهما نازل على المشهور في قصة واحدة.

الثالث: ابتدأت السورة السابقة بالأمر بقيام الليل (التهجد)، وهو إعداد لنفسه بعبادة خاصة ليكون داعية، وابتدأت هذه بالإنذار لغيره، وهو إفادة لسواه في دعوته.

وقد رأينا في مقدمة تفسير سورة (المزمل) أن سبب نزول سورتي (المزمل) و(المدثر) كان ما قابل به رسول الله ﷺ تآمر قريش، واتهاماتها من التزمل والتدثر، وأن هناك روايات أخرى

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٣.

ذكرت أن سبب النزول كان لفرق رسول الله ﷺ من رؤية جبريل مرة ثانية بعد المرة الأولى التي كان فيها بدء الوحي، وللجمع بين الروايتين يمكن أن يقال: إن رسول الله ﷺ قابل ظهور جبريل في المرة الثانية بفرق تدثر وتزمل معه، فنزلت عليه السورتان، وقابل تآمر قريش بنفس الوضع فذُكِّر بالسورتين[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة) الآيات: (١-١٠)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

بدأت السورة بالأمر بالإنذار، وما يقتضيه الإنذار من أخلاق، وعلَّلت لذلك بمجيء يوم القيامة، وشِدَّتِه على الكافرين، مما يقتضي أن ينذر الناس جميعاً ليعرفوا ما أمامهم. والقيام بواجب الإنذار يقتضي القيام بالتبشير، ولكن التبشير إنما يكون إذا وُجِد مؤمنون، وسورة (المدثر) نزلت ولما يوجد مؤمنون بعد[2].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (إنه النداء العلوي الجليل، للأمر العظيم الثقيل.. نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان.. وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر - مهما

---

(١) روح المعاني، الألوسي: ٢٩/ ١١٥، ونظم الدرر، البقاعي: ٢١/ ٤٣، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٢٧، وتفسير المراغي: ٢٩/ ١٢٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٥.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣١.

يكن نبياً رسولاً ـ فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾.. والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئاً حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئاً حين يهتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا.

وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله!

ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره:

يوجهه إلى تكبير ربه:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾.. ربك وحده.. فهو وحده الكبير، الذي يستحق التكبير. وهو توجيه يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية، ومعنى التوحيد.

إن كل أحد، وكل شيء، وكل قيمة، وكل حقيقة.. صغير.. والله وحده هو الكبير.. وتتوارى الأجرام والأحجام، والقوى والقيم، والأحداث والأحوال، والمعاني والأشكال وتنمحي في ظلال الجلال والكمال، لله الواحد الكبير المتعال.

وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية، ومتاعها وأهوالها وأثقالها، بهذا التصور وبهذا الشعور، فيستصغر كل كيد، وكل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، هو الكبير.. ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

ويوجهه إلى التطهر:﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾.. وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل.. طهارة الذات التي تحتويها الثياب، وكل ما يلم بها أو يمسها.. والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلى. كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه

الرسالة. وهي بعد هذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب؛ وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس.. وهي لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط، وشتى البيئات، وشتى الظروف، وشتى القلوب!

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب:﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾[1].. والرسول ﷺ كان هاجراً للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية. ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة. فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان. كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز ـ والرجز في الأصل هو العذاب، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب ـ تحرز التطهر من مس هذا الدنس!

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه:﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ ﴾.. وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء. ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به.. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها. فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه. بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه.

فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله. وهو اختيار واصطفاء وتكريم

---

(١) قرأ حفص: (الرُّجْز) بضم الراء يعني الصنم، وقرأ الجمهور: (الرِّجْز) بكسر الراء يعني العذاب. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والحجة في القراءات لابن زنجلة: ص: ٧٣٣.

يستحق الشكر لله. لا المن والاستكثار.

ويوجهه أخيراً إلى الصبر. الصبر لربه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾.. وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت. والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة. معركة الدعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده.

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم، اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين، في لمسة توقظ الحس لليوم العسير، الذي ينذر بمقدمه النذير:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.. والنقر في الناقور، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور. ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقر يصوّت ويدوّي. والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان.. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه:

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.. فهو عسر كله. عسر لا يتخلله يسر. ولا يفصل أمر هذا العسر، بل يدعه مجملاً مجهلاً يوحي بالاختناق والكرب والضيق.. فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير، قبل أن ينقر في الناقور، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير!)[١].

دروس وعبر من المقطع الأول:

١ـ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله، وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل له يا محمد، ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله النداء في سورة (المزمل)، ومثله قوله ﷺ لعلي إذ نام في المسجد: قم أبا تراب، وقوله ﷺ لحذيفة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٤.

ليلة الخندق: قم يا نومان، وقد تقدم في سورة (المزمل)[١].

٢- يتجلَّى الأمر بالإنذار في الآيات بست وصايا تعدُّ من جوامع القرآن، أراد الله تعالى بها تزكية رسوله ﷺ، وجعلها قدوة لأمته، وهي:

الأولى: وجوب الإنذار والقيام بأعباء الرسالة وتبليغها بجدٍ ونشاط.

الثانية: وجوب تعظيم أسماء الله وصفاته، وتعظيم كلامه وشعائره.

الثالثة: وجوب تطهير الثياب والبدن والمكان من النجاسة المادية والحكمية، وتطهير النفس من المعاصي المؤدية إلى العذاب، وتجميلها بمحاسن الأخلاق.

الرابعة: وجوب هجر الأوثان والمآثم التي هي سبب العذاب، ويراد بذلك الأمر بالمداومة على ذلك الهجران.

الخامسة: حرمة العجب بالعمل، وتزكية نفسه به، وعدم الامتنان على الله بالأعمال الشاقة، إنما يقدم ذلك ابتغاء مرضات الله تعالى، وطمعاً في قبوله.

السادسة: وجوب الصبر على أداء الطاعات فعلاً، وعلى المعاصي تركاً، وعلى البلاء رضاً وتسليماً[٢].

٣- هدد الله الكفار الأشقياء بأهوال يوم القيامة، فإذا نفخ إسرافيل في الصور - وهو كهيئة البوق - النفخةَ الثانية، كان ذلك اليوم يوماً شديداً على كل من كفر بالله وبأنبيائه، غير سهل ولا هيِّن عليهم، فإنهم دائماً يواجهون صعاباً أشد، بخلاف المؤمنين الذين يتجهون دائماً إلى ما هو أخفّ، حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. وقد فهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ كون ذلك اليوم يسيراً على المؤمن، وهذا حجة لمن قال بدليل الخطاب أنه حُجّة[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٦١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٠٠، وأيسر التفاسير، الجزائري: ٥/ ٤٦٤.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٢٢.

المقطع الثاني: (تهديد زعماء الشرك) الآيات: (١١-٣٠)

قال الله تعالى:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن أخبر الله تعالى عن كون يوم القيامة عسيراً غير يسير على الكافرين، هدد الوليدَ بن المغيرة وأمثاله من زعماء الشرك، وسلَّى نبيه ﷺ بقوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾، وهو كقوله في (المزمل): ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾، ثم عدد تعالى نعمه على الوليد من المال والولد والجاه والرياسة، وكفره بها، ووعيده بنار جهنم لوصفه القرآن الكريم بأنه سحر يؤثر[1].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وينتقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين؛ يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص في التكذيب والتبييت للدعوة؛ فيوجه إليه تهديداً ساحقاً ماحقاً، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.. وقد وردت روايات متعددة بأن المعنيّ هنا هو الوليد بن المغيرة المخزومي. قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد ابن ثورة، عن معمر عن عبادة بن منصور، عن عكرمة، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال له: أي عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٢٥.

مالاً: قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبله (يريد بخبث أن يثير كبرياءه من الناحية الَتي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازاً) قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً! قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له! قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا.

والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى.. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.. قال: فدعني حتى أفكر فيه.. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ حتى بلغ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[(١)].

وفي رواية أخرى أن قريشاً قالت: لئن صبأ الوليد، لتصبونَّ قريش كلها! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه! ثم دخل عليه!.. وأنه قال بعد التفكير الطويل: إنه سحر يؤثر. أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه؟

هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات. فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة.. يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب. ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.. والخطاب للرسول ﷺ، ومعناه خلِّ بيني وبين هذا الذي خلقته وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود، وبنين حاضرين شهود، ونِعَم يتبطر بها ويختال، ويطلب المزيد. خلِّ بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده. فأنا سأتولَى حربه.. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها.. قوة الجبار القهار.. لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين المزيل الضئيل! وهي الرعشة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها. فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه!

---

(١) أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. المستدرك: كتاب التفسير، باب سورة (المدثر)، رقم الحديث: ٣٨٦٩، ولباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩١.

ويطيل النص في وصف حال هذا المخلوق، وما آتاه الله من نعمه وآلائه، قبل أن يذكر إعراضه وعناده. فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه! ثم جعل له مالاً كثيراً ممدوداً. ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً، فهو منهم في أنس وعزوة. ومهد له الحياة تمهيداً ويسرها له تيسيراً..

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ فهو لا يقنع بما أوتي، ولا يشكر ويكتفي.. أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً كما سيجيء في آخر السورة: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.. فقد كان ممن يحسدون الرسول ﷺ على إعطائه النبوة.

وهنا يردعه ردعاً عنيفاً عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة، ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد:

﴿ كَلَّا ﴾ وهي كلمة ردع وتبكيت ﴿ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾

فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان. ووقف في وجه الدعوة، وحارب رسولها، وصد عنها نفسه وغيره، وأطلق حواليها الأضاليل. ويعقب على الردع بالوعيد الذي يبدل اليسر عسراً، والتمهيد مشقة!

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾. وهو تعبير مصور لحركة المشقة. فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقاً. فإذا كان دفعاً من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً. وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة.

فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود، يندبّ في طريق وعر شاق مبتوت ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق، كأنما يصعد في السماء، أو يصعد في وعر صلد لا ريّ فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق!

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه! وتكلح ملامحه وقسماته.. كل ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً

يقوله فيه:

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.. لمحة لمحة. وخطرة خطرة. وحركة حركة. يرسمها التعبير، كما لو كانت ريشة تصور، لا كلمات تعبر، بل كما لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة!!!

لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء:﴿ فَقُتِلَ ﴾، واستنكار كله استهزاء: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾، ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله؟ وهذا الحَزق كله؟ لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق.. فيقول:

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾! إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار!

وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر، وتثبت صورته الزرية في صلب الوجود، تتملاها الأجيال بعد الأجيال! فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك، عقب عليها بالوعيد المفزع:

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾.. وزاد هذا الوعيد تهويلاً بتجهيل سقر:﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾.. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك! ثم عقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولاً:﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.. فهي تكنس كنساً، وتبلع بلعاً، وتمحو محواً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!

ثم هي تتعرض للبشر وتلوح:﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾.. كما قال في سورة (المعارج): ﴿ تَدْعُوا۟

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾. فهي تدل على نفسها، وكأنها تقصد إثارة الفزع في النفوس، بمنظرها المخيف!

ويقوم عليها حراس عدتهم: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾.. لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد، أم صفوف، أم أنواع من الملائكة وصنوف. إنما هو خبر من الله سندري شأنه فيما يجيء..)[١].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ المال والبنون والجاه من عوامل الفتنة والطغيان، إلا أن يُسلِّم الله عبده من فتنتها وسبيل ذلك تأدية حق الله فيها، طاعةً وعبادةً وشكراً واستغلالاً في سبيل الله ومرضاته. فهي سلاح ذو حدَّين، يتحدد أثره وِفق طريقة استخدامه[٢].

٢ـ في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النعم، وقطع لرجائه. وفي هذا الردع والإبطال إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]. قال الشيخ ابن عطاء الله: مَن لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها، ومَن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها. وقد ورد أن الوليد بن المغيرة بعد نزول هذه الآية ما زال يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك فقيراً[٣].

٣ـ موقف الوليد بن المغيرة مثال الكفر والعناد والإصرار على الضلال، وهو موقف يستحق صاحبه اللعن والطرد من الرحمة، وحرمانه النعمة، وتعذيبه في جهنم بأشد أنواع العذاب، جزاء تعنُّته وعناده، وتراجعه عن الحق الذي جهر به، إرضاءً لقومه، بعد اعترافه بأن ما سمعه من محمد ﷺ ليس من كلام البشر، وأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٦.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري: ٥/ ٤٦٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٧٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٠٥، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٣١.

وأن أسفله لمغدق، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه.

٤ـ في تفسير عدد (التسعة عشر) أقوال، أقواها ما رجَّحه القرطبي أنهم رؤساء الملائكة ونقباؤهم الموكلون بجهنم، قال: وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾، وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها)[1]. وقد تناقل أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهاً اجتهدوا في تعيينها، ورجَّح الرازي تخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها. كما أن في ذكر هذا العدد تحدِّياً لأهل الكتاب يبعثهم على تصديق القرآن، إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم. لذا أتبعه سبحانه بقوله:﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبُعد قعرها، رقم الحديث: ٥٠٧٦، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: ٣٠/ ٢٠٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣١٢.

المقطع الثالث: (الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر) الآيات: (٣١-٣٧)

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكرت الآيات نموذجاً لهؤلاء الخاسرين الذين ضلُّوا، ولم ينفع معهم إنذار، تأتي هذه الآيات لتذكِّرنا بالنار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم، والحكمة من تخصيص ذلك العدد، كذلك قدمت لنا نموذجاً على اعتراض المعترضين على أمثال القرآن، ونموذجاً لأمثال القرآن التي يضلُّ بسببها مَن يضلَّ، ويهتدي بها مَن يهتدي. ثم يأتي القسَم بالقمر وضيائه، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام[1].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون:

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ ﴾.. فهم من ذلك الخلق المغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله؛ وقد قال لنا عنهم: إنهم﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم.

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣٦، وصفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٧٢.

فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه. فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة، كما يعلمها الله، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور(١).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.. فهم الذين يثير ذكر العدد في قلوبهم رغبة الجدل؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل. فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم، والاطمئنان إلى أن الخير في ذكر هذا الطرف وحده، بالقدر الذي ذكره، وأن لا مجال للجدل فيه، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغايره.

أما لماذا كانوا تسعة عشر (أياً كان مدلول هذا العدد) فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله، ويخلق كل شيء بقدر. وهذا العدد كغيره من الأعداد. والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض.. لماذا كانت السماوات سبعاً؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ والجواب: لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور..

---

(١) أخرج ابن إسحاق قال: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ الآية. وأخرج السدي قال: لما نزلت: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩٢.

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ ﴾.. فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان. فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئاً عن هذه الحقيقة، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها. وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيماناً. لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقياً مباشراً؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنساً بالله.. وستشعر قلوبهم بحكمة الله في هذا العدد، وتقديره الدقيق في الخلق فتزيد قلوبهم إيماناً. وتثبت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله.

﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ ﴾.. وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة.. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون، والذين آمنوا يزيدون إيماناً، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ ﴾.. فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب. ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق. ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة..

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾.. كذلك. بذكر الحقائق وعرض الآيات. فتتلقاها القلوب المختلفة تلقياً مختلفاً. ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله. فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء. وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج، للهدى والضلال؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك، في حدود المشيئة الطليقة، ووفق حكمة الله المكنونة.

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصوراً كاملاً واسع المدلول يعفي العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه الجبر والإرادة. وهو الجدل الذي لا ينتهي

إلى تصور صحيح، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة، ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة!

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال. وحدد لنا نهجاً نسلكه فنهتدي ونسعد ونفوز. وبيّن لنا نهوجاً ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر. ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئاً، ولم يهبنا القدرة على علم شيء وراء هذا. وقال لنا: إن إرادتي مطلقة وإن مشيئتي نافذة.. فعلينا أن نعالج ـ بقدر طاقتنا ـ تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة. وأن نلتزم النهج الهادي ونتجنب النهوج المضللة. ولا ننشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون. ومن ثم ننظر فنرى كل ما أنفقه المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهداً ضائعاً لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه..

إننا لا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه. وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا. والذي سيكون هو مشيئته، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق.. وهو الله وحده.. وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكر..

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.. فهي غيب. حقيقتها. ووظيفتها. وقدرتها.. وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها، وقوله هو الفصل في شأنها. وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه، فليس إلى معرفة هذا من سبيل..

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾.. و﴿ هِيَ ﴾ إما أن تكون هي جنود ربك، وإما أن تكون هي سقر ومَن عليها. وهي من جنود ربك. وذكرها جاء لينبه ويحذر؛ لا لتكون موضوعاً للجدل والمماحكة! والقلوب المؤمنة هي التي تتعظ بالذكرى، فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلاً! ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب، ولمناهج التصور

الهادية والمضللة.. يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة، وحقيقة سقر، وحقيقة جنود ربك بظواهر الوجود المشهودة في هذا العالم، والتي يمر عليها البشر غافلين، وهي تشير بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها، وتوحي بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصداً وغاية، وحساباً وجزاء: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]..

ومشاهد القمر، والليل حين يدبر، والصبح حين يسفر.. مشاهد موحية بذاتها، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة؛ وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة؛ وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة. والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار في القلوب التي يخاطبها، على خبرة بمداخلها ودروبها!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع يسري وحين يغيب.. ثم لا يعي عن القمر شيئاً يهمس له به من أسرار هذا الوجود! وإن وقفة في نور القمر أحياناً لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره، في تلك الهدأة التي تسبق الشروق، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق.. ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدبُّ في أعماقه خطرات رفَّافة شفَّافة.

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعوري من حال إلى حال، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يشرق في النواظر.

والله الذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض

(١) قرأ نافع وحمزة وحفص: (والليل إذ) بغير ألف (أدبر) بألف، أي: ولَّى وذهب، وقرأ الجمهور: (إذا دبر) أي: جاء خلفي. لأن (إذ) لما مضى، و(إذا) لما يستقبل. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه: ص: ٣٥٥.

الأحايين، وكأنها تخلقه من جديد.

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات ما في القمر، وما في الليل، وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك، وينبه إليها العقول. ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهي لهذا الكون، بتلك الدقة التي يحير تصورها العقول.

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ودلالاتها المثيرة. يقسم على أن ﴿سَقَرَ﴾ أو الجنود التي عليها، أو الآخرة وما فيها، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر:

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾.. والقسم ذاته، ومحتوياته، والمقسم عليه بهذه الصورة.. كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة، وتتسق مع النقر في الناقور، وما يتركه من صدى في الشعور. ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ:﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾والأمر بالنذارة:﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.. فالجو كله نقر وطرق وخطر!!)[1].

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١ـ خزنة جهنم وزبانيتها التسعة عشر هم من الملائكة الذين لا يغالبون، لا من الرجال الذين يمكن مقاومتهم بالتجمع عليهم. وإيراد عددهم التسعة عشر من الملائكة صار سبباً لفتنة الكفار، أي: اختبارهم.

قال الزمخشري: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً وذلك أن المراد بقوله:﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر: لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ، ولا يذعن

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٨.

إذعان المؤمن، وإن خفي عليه وجه الحكمة، كأنه قيل: ولقد جعلنا عدتهم عدة، من شأنها أن يفتتن بها، لأجل استيقان المؤمنين، وحيرة الكافرين[1].

٢ـ في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ لا يراد به أن الضلالة والهداية أمران مبتدآن من الله عزَّ وجلَّ، خلافاً لظاهره، ولا أنه تعالى يجبر فريقاً على الضلالة وفريقاً على الهدى، وإنما المراد به تقرير سنة من سنن الله في عباده، وهي ربط الأسباب التي خلقها بالمسببات فمن ضل فإنما يضل بنفسه واختياره، ومن اهتدى فإنما يهتدي بنفسه وإرادته واختياره، ثم يزيد الله الضالين ضلالاً، فيبعدهم عن معالم الهداية، لسوء اختيارهم واستعدادهم وعنادهم، ويزيد المؤمنين إيماناً بتوفيقهم إلى سبل الهداية والرشاد، لحسن اختيارهم، ولا يقع شيءٌ في الكون قهراً عن الله تعالى، وإنما بإرادته ومشيئته، وإن كان مخالفاً لمأموره ومحبوبه[2].

٣ـ الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناءً على أن الخبر من الله تعالى، وهو أعلم بما شرَعه وأنزله. ومجمل القول: أن الأحكام بالنسبة لحكمتها محصورة في أقسام ثلاثة:

الأول: قسم تظهر حكمته بنص؛ كما في نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، وتطهير الزكاة وتزكيتها، وتحقق التقوى للصائم، ومغفرة ذنوب الحاج، ونحو ذلك.

الثاني: قسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور، ولكنه لم يخلُ من حكمة؛ كالطواف، والسعي والركوع، والسجود، والوضوء، والتيمم، والغسل، ونحو ذلك.

الثالث: قسم ابتلاء وامتحان أولاً، ولحكمة ثانياً؛ كتحويل القبلة، والمسلم في كلتا الحالتين وجب عليه الامتثال والانقياد، ظهرت الحكمة أم لا. وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها. كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. فلما بدت لموسى عليه السلام علم مدى

---

(١) الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٦٥٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

حكمتها. وهكذا الأمور بأقسامها الثلاثة تستلزم منا التسليم لأمر الله فيها ابتداءً، والإيمان بها سواء بدت حكمة التشريع فيها أم لا. قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ [آل عمران: ٧][1].

٤ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. وهو ما ترشد إليه الآيات العديدة، منها: قوله تعالى:﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]. ومن قال بأن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان فيحملون الآية على ثمرات الإيمان وآثاره ولوازمه. وأما نفي الارتياب عن أهل الكتاب والمؤمنين بعد إثبات الاستيقان وزيادة الإيمان لهم، فمن باب التوكيد، كأنه قيل: حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل بعده شك وريب، فإن الذي حصل له اليقين قد يغفل عن مقدمة من مقدمات الدليل، فيعود له الشك، وفيه أيضاً تعريض بحال مَن عداهم كأنه قيل: وليخالف حالهم حال المرتدين من أهل الزيغ والكفران[2].

٥ـ في قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾إشارة إلى أن ما عليه خزنة جهنم لا يعلم حكمته ولا حكمة ما عليه كل جند من العدد إلى الأبد إلا الله سبحانه. وهو جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد)[3].

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب في قول النبي لو تعلمون ما أعلم، رقم الحديث: ٢٢٣٤.=

المقطع الرابع: (الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين) الآيات: (٣٨-٥٦)

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن توعد الله الكفار والعصاة، وهددهم بأن النار إحدى الدواهي والبلايا العظام وأنذرهم بأن النجاة مربوطة بالعمل الصالح، أكد المعنى المتقدم بأنه ليس لكل امرئ إلا جزاء عمله، وأخبر أن أصحاب اليمين ناجون، وأن المجرمين معذبون، ووصف الحوار الدائر بين الفريقين لمعرفة سبب دخول الفريق الثاني نار جهنم[1].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها:

= قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس قال: هذا حديث حسن غريب. ومعنى: أطَّت: صوتت وضجت، والأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلتها حتى أطَّت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثَم أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثير: ابن الأثير: ١/ ٥٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٩.

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٤٢.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.. فكل فرد يحمل همَّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها. فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفعل.

وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة، وهو إعلان في مواجهة المشاهد الكونية الموحية، ومشاهد سقر التي لا تبقي ولا تذر.. له وقعه وله قيمته!

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت، المقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال، وإرسالهم من القيد، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير:

﴿ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها. وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة. يلمس قلوب المجرمين المكذبين، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا، ولا يبالونهم، في موقف الكرامة والاستعلاء، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف:

﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾.. ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين.. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون.. وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماضٍ انتهى وولَّى!

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين:

﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ ﴾. وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين.

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ ﴾.. وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة الله في خلقه، بعد عبادته سبحانه في ذاته. ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ ﴾.. وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة، وحقيقة الإيمان، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال. وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان؛ وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة، فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه. وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة. فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ ﴾ وهذه أس البلايا. فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير، فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير.. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها. وينتهي مِن ثَمَّ إلى شر مصير.

والمجرمون يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال، لا نصلي، ولا نطعم المسكين، ونخوض مع الخائضين، ونكذب بيوم الدين..

﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.. الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مرد.. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح.. بعد اليقين..

ويعقب السياق على الموقف السيئ المهين، بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.. فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير، الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً. وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين!

وأمام هذا الموقف المهين الميئوس منه في الآخرة، يردهم إلى موقف في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف؛ وهم يصدون عنها ويعرضون، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب:

﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ ﴾[1].. ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه.. مشهد يعرفه العرب.

وهو مشهد عنيف الحركة. مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون! حين يخافون! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر، لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكِّراً يذكِّرهم بربهم وبمصيرهم، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين، وذلك المصير العصيب الأليم؟!

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون، تتملاه النفوس، فتتخجل

---

(١) قرأ نافع وابن عامر: (مستنفَرة) بفتح الفاء، على أنها مفعول بها في المعنى، أي: منفَّرة مذعورة، وقرأ الجمهور: (مستنفِرة) بكسرها، على أنها فاعلة أي: نافرة. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٨.

وتستنكف أن تكون فيه، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل، ويطامنون من الإعراض والنفار، مخافة هذا التصوير الحي العنيف!

تلك هيئتهم الخارجية.﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل، وما يعتلج فيها من المشاعر:

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.. فهو الحسد للنبي ﷺ أن يختاره الله ويوحي إليه؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن.. ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله، فقالوا:﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.. ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم. فكان الحنق الذي يغلي في الصدور، والذي يكشف عنه القرآن، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار!

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد، ويذكر سبباً آخر للإعراض والجحود. وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله:

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]. وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة. ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب!

ثم يردعهم مرة أخرى، وهو يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير:

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾.. إنه، هذا القرآن الذي يعرضون عن

---

(١) قرأ ابن عامر: (تخافون) بالتاء، وقرأها الباقون بالياء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٧١.

سماعه، وينفرون كالحمر، وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد ﷺ، والاستهتار بالآخرة.. إنه تذكرة تنبه وتذكر. فمن شاء فليذكر. ومن لم يشأ فهو وشأنه، وهو ومصيره، وهو وما يختار من جنة وكرامة، أو من سقر ومهانة..

وبعد أن يثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية، وعودة الأمور إليها في النهاية. وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير، وراء جميع الأحداث والأمور:

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾.. فكل ما يقع في هذا الوجود، مشدود إلى المشيئة الكبرى، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها. فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله، وهي التي أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه، فهو يمضي بكل ما فيه وكل مَن فيه في إطار مِن تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد.

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. فإذا علم من العبد صدق النية وجَّهه إلى الطاعات.

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به. فهذا من الغيب المحجوب عنه. ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه، فهذا مما بينه له. فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجَّهه وفق مشيئته الطليقة.

والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة، وإحاطتها بكل مشيئة، حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصاً، والاستسلام لها ممحَّصاً.. فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها. وإذا استقرت فيه كيَّفته تكييفاً خاصاً من داخله، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحتكم إليه في كل أحداث الحياة.. وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير

طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار، وبهدى أو ضلال.

فأما أخذ هذا الإطلاق، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح. لأنها لم تجئ في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق!

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(١). فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله، ولا يتحركون في اتجاه، إلا بإرادة من الله، تقدرهم على الحركة والاتجاه.

والله﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. يستحقها من عباده. فهم مطالبون بها.﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾. يتفضل بها على عباده وفق مشيئته. والتقوى تستأهل المغفرة، والله سبحانه أهل لهما جميعاً.

بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة، وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر، والتوجيه إلى التقوى، والتفضيل بالمغفرة. ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾(٢).

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١- في قوله تعالى:﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ دلالة على أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين لشركهم وكفرهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨]، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم، كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له، ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه، كما في قول الله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقد ثبتت

(١) قرأ نافع: (وما تذكرون) بالتاء، وقرأها الباقون بالياء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٧٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٦٠.

للنبي ﷺ الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وعدة شفاعات بعدها؛ منها: ما اختص به ﷺ كالشفاعة العظمى، ودخول الجنة، والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء[1].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلَّصها، وإما أوبقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، وليست صفة. والمعنى: كل نفس رهنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك، ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

واختلف في تعيينهم إلى أقوال؛ منها: أنهم الملائكة، أو المسلمون المخلصون، أو أولاد المسلمين وأطفالهم، أو أصحاب الحق[2].

٣- ورد في أسباب تعذيب أهل النار أنهم تركوا الصلاة والصدقة، وقال العلماء: يجب أن يُحمل هذان الأمران على الصلاة والصدقة الواجبتين، لأنه لا تعذيب على غير الواجب، وإلا لم يجُز العذاب على تركهما. ويستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، كما يعذبون بأصولها، كالتكذيب بيوم القيامة، وإنما أخَّر لأنه أعظم الذنوب، أي إنهم بعد ذلك كله يكذبون بهذا الأصل[3].

٤- في تعليق التذكرة بمشيئة الله تعالى بيان أن للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاء في الدنيا والآخرة، وهي المعبر عنها بالكسب، وله تعالى المشيئة العظمى، وهي التي لا يمانعها مانع، ولا يقسرها قاسر، فإذا لم يتوجه تعلقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد وهي المعبر عنها بالتوفيق. وحاصل ما يتمخض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أن الأمر

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٦، وأضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٤٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٤٦.

لله، والأدلة التي اقتضت المؤاخذة على الضلال، وتأويلها الأكبر في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩]، ولله في خلقه سرٌّ جعل بينهم وبين كنهه حجاباً، ورمز إليه بالوعد والوعيد ثواباً وعقاباً[١].

٥ـ قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: هو أهل أن يتقيه المؤمنون، بترك معاصيه والعمل بطاعته، ﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي: أن المغفرة من خصائصه، وأنه الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب لفرط رحمته، وسعة كرمه وإحسانه. والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم. عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ قال: (قال الله عزَّ وجلَّ أنا أهل أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له)[٢]. وقال قتادة: هو أهل لأن تتقى محارمه، وأن يغفر الذنوب[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٣.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت. سنن الترمذي: متاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المدثر، رقم الحديث: ٣٢٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٤، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ٢٠٢، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٤٣.

سورة القيامة

أولا: بين يدي السورة

السورةُ الكريمةُ دعوةٌ إلى التفكر والاعتبار في مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم الذي بدت أشراطُه، وتجلَّت علاماتُه، ومع ذلك فهو محلُّ إنكارِ الجاحدين واستبعاد المبطلين ومثارُ سخرية الهازئين ممن عميت قلوبُهم وزاغت أبصارُهم وغابت عقولُهم، فآياتُهُ ظاهرةٌ، وحجَجُهُ متواترةٌ، وشواهدُهُ ناطقةٌ، وأخبارُهُ صادقةٌ، ولكن كما قيل:

لقد ظـهـرتَ فـما تخـفَـى عـلى أَحَـدٍ		إلا عـلى أكْـمَـهٍ لا يـعـرِفُ القمرَ

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بسورة القيامة، ومناسبة ذلك لموضوعِها واضحةٌ وظاهرةٌ ولقد وردت كلمة القيامة في القرآن الكريم سبعين مرة في سبعين موضعا، فضلا عن ورودها بأسمائها الأخرى: مثل الساعة، ويوم الدين، ويوم الفصل، ويوم الحساب، ويوم التناد، ويوم التلاق، ويوم الوعيد، ويوم الجمع، ويوم التغابن، وغير ذلك من أسمائها، التي تكررت كثيرا في القرآن وما ذاك إلا للتذكرة بها، والاستعداد لها، وتعظيمِها.

ب. فضائل السورة.

هذه السورة من المفصَّل، وهو الذي فُضِّلَ به نبيُّنا ﷺ، وقد سبق ذكرنا للحديث الوارد في ذلك عند تفسير سورة الأنعام وسبأ وفاطر.

ج. مكية السورة.

السورة مكية، نزلت بمكة، للتذكرة بأحوال الآخرة، القيامة وأهوالها ومشاهدها والموت وسكراته.[1]

---

(١) يراجع الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ٨ / ٣٤٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩ / ٨٣، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ١٧٠.

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها أربعون آية (٤٠) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها.[١]

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة كما هو واضحٌ من اسمها: هو الحديث عن القيامة، وما يقترن بها من أهوالٍ، وحال الإنسان في هذا اليوم العصيب، مقارنةً بما كان عليه في الدنيا من غفلةٍ واستبعادٍ لهذا اليومِ، مع الدعوة إلى الاستعداد لها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول القيامة وأهوالها ومصير الناس في هذا اليوم الموعود.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

- في مطلع السورة الكريمة تقريرٌ وتأكيدٌ لحقيقة هذا اليوم المرتقب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾ القيامة: ١ – ٦
- ثم في أخر السورة بيانٌ للحكمة في مجيء القيامة مع تقريرها بالأدلة الظاهرة.

قال الإمام السيوطي: «بُدئت بذكر الإعادة وإحياء الموتى، وختمت بذلك»[٢].

---

(١) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢٢٣، وكتاب **البيان في عدِّ آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٥٩.

(٢) يراجع **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع** لجلال الدين السيوطي ص ٧٦.

المناسبة بين السورة وسابقتها.

الصلة بين سورة القيامة وسورة المدثر صلةٌ واضحةٌ، تتجلى في وجوه عديدة، منها: الحديث عن القيامة وأهوالها وأحوال الناس في هذا اليوم العظيم ومصيرهم المرتقب.

ولما كان هذا اليوم محل إنكار الكفار ومثار استخفافهم، جاءت الآيات مقررةً له، ومبينةً مشاهده وأهوالَه، ومبينة وقعَهُ على من استبعده.

قال تعالى في سورة المدثر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [المدثر: ٨ – ١٠].

وقال تعالى في سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [القيامة: ٣-١٢].

قال السيوطي: « لما قال سبحانه في آخر المدثر ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ بعد ذكر الجنة والنار، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث، ذكر في هذه السورة الدليل على البعث ووصف يوم القيامة، وأهواله، وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق، فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع»[1].

المناسبة بين مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها.

تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محور السورة ومقصدها، حيث تدور حول القيامة، وموقف الكفار منها، وتُطِلُّ بنا السورة الكريمة على بعض مشاهدها الرهيبة وأهوالها العظام ومواقفها العصيبة، وفي لفتةٍ بديعةٍ ينتقل السياق للحديث عن الوحي، فهو طريق النجاة من أهوال هذا الموقف وسبيل الفوز في هذا اليوم العظيم، بينما تَنْعَى الآياتُ حال أولئك المتعجِّلين

(١) يراجع **تناسق الدرر في تناسب السور** للإمام جلال الدين السيوطي ص ٩٠

اللاهثين وراء اللذات الفانية والسعادة المنقضية والمصالح العاجلة: تبرز لنا حال المؤمنين المنعَّمين، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلك واحد، وهو الحديث عن أهوال القيامة وأحوال الناس فيها، ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

* حديثهما عن القيامة وأهوالها وأحوال الناس فيها.

* في السورتين عرضٌ وبيانٌ لصورة ذلك الكافر المغرور، الذي يجحدُ نعم خالقه، فلا تزيده إلا كبرا وغرورا، وعِنادا وإعراضا عن طريق النجاة:

قال تعالى في سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر: ١١ – ٣٠].

وقال تعالى في نفس السورة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨ – ٤٧].

وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣ - ٦].

وقال تعالى في نفس السورة ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول القيامة وأهوالها ومصير الناس في هذا اليوم الموعود وسكرات الموت وشدائده.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السورة

أهوال القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾: فالقيامة حقيقةٌ كُبْرى، ونتيجةٌ حتميَّةٌ، لا تحتاجُ إلى قَسَم، والله تعالى هو الملكُ الحقُّ، ليس في حاجةٍ إلى أن يقسم، وإنما يأتي القسم للتنبيه إلى أهمية المقسم عليه، ومن باب استيفاء جميع أساليب وفنون الاحتجاج؛ لئلا يكون للمنكرين حجةٌ، ولا يبقى لهم عذرٌ.

وهذا من سمات الأسلوب القرآني: حيث التفنن في الأساليب والتنوع في العرض والتصريف في الوعيدِ، فتارة يقسم حتى لا تبقى لمنكرٍ حجة ولا عذرٍ، وتارة يترك القسم؛ ذلك أن الأمرَ أعظمُ

من أن يحتاجَ للإقسام؛ إذ القيامةُ مسألةٌ يقنيةٌ وضرورةٌ حتميةٌ، وذلك التفنن في العبارات والتنوع في الأساليب؛ لترسيخ المعاني وتقرير الحجج وتجديد المواعظ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:١١٣].

قال صاحب الظلال: « هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقعُ في الحس من القسم المباشر وهذا الوقع هو المقصود من العبارة، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن.. ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة»[(١)].

﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾

في هذا تنويهٌ لشرفِها وتعظيمٌ لقدرها، عن الحسن البصري رحمه الله قال: إن المؤمن -والله-ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه»[(٢)].

والصلة بين القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة أن هذه النفس تستحضرُ دائما هذا اليوم العظيم فيظهر أثر ذلك في شدة المراقبة ودقة المحاسبة.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾

إنكارٌ وتوبيخٌ للإنسان الكافر الذي يُنْكِرُ البعث والنشور، ويرتابُ في قدرةِ اللطيف الخبير، كما أخبر الله عنهم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٨].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٧٥.

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣].

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾

فالذي خلقه من عدم قادرٌ على أن يعيده بأدقِّ تفاصيلِهِ وأخصِّ صفاتِهِ التي وهبها له، قال الإمام أبو السعود: « أيْ نجمعُ سُلامَياتِه ونضمُّ بعضَها إلى بعض كما كانتْ مع صغرها ولطافتِها فكيفَ بكبارِ العظام أو على أنْ نسويَ أصابعَه التي هيَ أطرافُه وآخرُ ما يتمُّ بِهِ خلقُه»[١].

والبنانُ ألطفُ وأدقُّ عظامِ الإنسان، وبصمة الأصابع لا يتشابه فيها اثنان على وجه الأرض.

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾

إنه الدافع الأساسي وراء هذا الإنكار: تشبُّثُ هذا الإنسان بحياته الفانية وتعلُّقه بحطامها وتقلُّبُهُ في نعيمها، فهي بالنسبةِ له كالحُلُم الذي يلتذُّ به الولهان، ولا يريدُ أن يفيق منه، كذلك الكافر لا يريد أن ينتبه لتلك الحقيقةِ الكبرى، بل يسارع بجهلِهِ وظلمِهِ وعَجَلَتِهِ وغشاوته إلى تكذيبها واستبعادها.

يقول صاحب الظلال: «والسؤال بأيَّان هذا اللفظ المديد الجرس يوحي باستبعاده لهذا اليوم.. وذلك تمشِّياً مع رغبته في أن يفْجُرَ ويمضي في فجوره، لا يصدّه شبح البعث وشبح الآخرة.. والآخرة لجام للنفس الراغبة في الشر، ومصدٌّ للقلب المحب للفجور. فهو يحاول إزالة هذا المصد، وإزاحة هذا اللجام، لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب.

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها، سريعاً خاطفاً حاسماً

(١) **إرشاد العقل السليم** لأبي السعود ٦ / ٤١٤.

ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم، وجرس الألفاظ»[1].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ ﴾: من هول ما يَرى، فيتحير ويضطرب ويَزيغُ ويُحدِّقُ فزعا، ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾: ذهب نوره، ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾ في منظرٍ رهيب، تصحبُه صدمةٌ عنيفةٌ مدويَّةٌ، هنالك يصحو الإنسانُ على هذا الواقعِ المفاجئ، ويدرك فداحة هذا الخطر المحدق، فيتساءل بحسرةٍ وألمٍ وخوفٍ وهلعٍ: أين المفر؟

وهيهات هيهات ! لقد انطوت الصفحات.

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾: لا مفرَّ ولا منجَى، ولا حيلةَ ولا مراوغة، ولا تفلُّت ولا تنصُّل من هذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافر.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ فكلُّ الطرق مؤديةٌ إلى الحساب، بل إنه طريقٌ واحدٌ إجباريٌّ يسلكُهُ الإنسانُ لملاقاةِ الملك الديَّان، فإلى الله المرجع والمآب.

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ حينئذٍ وفي هذا الموقف العصيب يسألُ هذا الكافر عن القليل والكثير، وما قدَّم وما أخَّر، يسألُ عن كلِّ شيءٍ، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾، وهو في هذا اليوم مُقِرٌّ بخطئِه معترفٌ بذنبِه، لا يقبلُ له عذرٌ ولا ينفعه ندمٌ، لأنَّه مسئول عن نفسه محاسبٌ عليها، هو الذي أرداها، وأوردها المهالك.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الروم: ٥٧].

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥٢].

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٦٩.

الفوائد المستنبطة

* تفنن الأساليب القرآنية؛ فتارةً يأتي القَسَمُ لإكمال الحجج وإتمام البراهين، وتارة يترك القسم لبيان أن الأمر ظاهرٌ جليٌّ، فكيف يحتاجُ للإقسام.

* ما من إنسان إلا ويلوم نفسه على إفراطها أو على تفريطها: أما المؤمن فإنه دائما يلوم نفسه على إفراطه أو تفريطه، وأما الكافر والمنافق فإنه يقرع سن الندم على ما فات، والمؤمن يشعر بالتقصير فيما قدم.

* ضرورة استذكار اليوم الآخر، واستحضاره ليكون العبد على أهبة الاستعداد لهذا اليوم، وَقد كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْمَعُ الْفُقَهَاءَ فَيَتَذَاكَرُونَ الْمَوْتَ وَالْقِيَامَةَ فَيَبْكُونَ حَتَّى كَأَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ جِنَازَةً.

وقد قيل:

مـثِّـل لـقـلـبِـكَ أيُّهـا المـغـرورُ ... يـوم الـقـيـامـةِ والـسـماءُ تمـورُ
قد كـوِّرتْ شمسُ النَّهارِ وأُدنيتْ ... حتى عـلى رأسِ الـعـبـادِ تصيرُ
وإذا الجـبـالُ تقلَّعتْ بـأُصُـولِـهَـا ... فرأيتَها مـثـلَ الـسَّـحـابِ تسيرُ
وإذا العشارُ تعطَّلتْ عن أهلِها ... خَـلَـتِ الـديـارُ فـما بهـا مـغـرورُ
وإذا النجومُ تساقطتْ وتناثرتْ ... وتـبـدلـتْ بعد الـضـيـاءِ كُـدُورُ
وإذا الجـنـينُ بـأمِّـهِ متعلقٌ ... يـومَ الحـسـابِ وقـلـبـهُ مـذعـورُ
هــذا بلا ذنـبٍ يخـافُ لهولِـهِ ... كيـف المقيمُ على الذنـوبِ دهـورُ[1]

* من دوافع إنكار الكفار للبعث والنشور انغماسهم في الشهوات وتمرُّغهم في أوحال الرذائل، فتراهم يبادرون إلى نسيان هذا اليوم بل وإنكاره؛ حتى لا يؤرق عليهم حياتهم الفانية قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ

(١) الأبيات لأبي العتاهية.

ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾.

فعقلُه في سكرةٍ لا يريد أن يستفيقَ، وقلبُهُ في بحارِ الشهوات والأهواء غريقٌ:

فيا أيُّها القلبُ الذي مَلَكَ الهوى		أَعِنَّتَهُ حتَّامَ هذا التَّلَوُّمُ
وحتَّام لا تصحو وقد قَرُبَ المَدَى		ودقَّت كُؤوس السَّيرِ والناسُ نُوَّمُ
بلى سوف تصحو حين ينكشفُ الغَطَا		ويبدو لك الأمرُ الذي كُنت تكتُمُ

طريق النجاة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

المناسبة

* هذا التفات من الحديث عن القيامة وأهوالها إلى الحديث عن القرآن وحفظه؛ فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح.
* لما جاء الحديث عن كتاب الأعمال، ناسب ذلك الحديث عن القرآن وهو أشرف الكتب وأجلُّها، وكثيرا ما يرد في السياق القرآني بعد ورود ذكر كتاب الأعمال: كما ذكر ذلك الإمام السيوطي فقال: « ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً»[(١)].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء: ٧١]، ثم قال تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ

(١) **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي** النوع الثاني والستون - في مناسبة الآيات والسور ١ / ٣٦٠.

﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم قال تعالى﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

* لما بيَّن تعالَى قدرتَه على جمعِ العظامِ وهي آيةٌ عجيبةٌ، ثم ذكر ما يحدُثُ للشمس والقمر من جمعٍ عجيبٍ رهيبٍ، ناسبَ ذلك بيانَ قدرته تعالى على جمع القرآن في قلبِ نبيه الحبيب ﷺ ووعد تعالَى بحفظه وبيانه.

* لما ذمَّ الله تعالى عجلةَ الإنسانِ بين أن التأني مطلوب ومرغوب حتى في تلقي النبي ﷺ للوحي فلا يتعجَّل حفظه فقد تكفَّل الله له بتثبيته على فؤاده.

* و يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه، إنما اتفق للرسول ﷺ عند إنزال هذه الآيات عليه فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئاً، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس: لا تلتفت يميناً وشمالاً، ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب»[1].

* وقال صاحب فتح البيان: «والصلة بين هذه الآية وما قبلها، أن ما سبقها تضمَّن الأعراضَ عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها»[2].

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٣٠/ ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان ١٠ / ١٥٤.

سبب النزول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾: قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾، إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ،﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾: قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ،﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾: أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ، فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ»[1].

التفسير الإجمالي

لقد تكفَّل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم، كما تكفَّل ببيانه، ولقد كان النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي، يرددُ ما يسمعُ ويجهدُ نفسه في حفظه حتى لا يتفلَّتَ منه شيءٌ، فأرشدهُ الله تعالى إلى ترك ذلك﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾، ونظيرُ هذا قوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] فلقد تعهَّد الله تعالى بجمعه وقراءته كما تعهَّد ببيانه فهو الرسالةُ الخالدة والمعجزة الكبرى، وهو النور المبين والذكر الحكيم، وهو العصمة والنجاة.

الهدايات المستنبطة

* القرآن طريق النجاة والفوز.
* حرص النبي ﷺ على تحمُّل القرآن الكريم.
* رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ.
* تكفُّل الله تعالى بحفظ كتابه وبيانه لعباده.

(١) رواه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير باب ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ حديث ٤٦٤٥، ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الصلاة - باب الاستماع للقراءة، حديث (١٤٧) - ٤٤٨.

عودٌ إلى مشاهد القيامة

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

المناسبة

أبعد هذا البيان لا تزالُ محبة العاجلة في قلوبكم، والآخرة وراء ظهوركم، هل يسمعُ حديثَ القرآنِ عاقلٌ ويظلُّ قلبُه في إقبالٍ على الدنيا وإعراضٍ عن الآخرة !

التفسير الإجمالي

حبُّ الدنيا والتعلُّقُ بها رأسُ كلِّ خطيئةٍ ومنبع كلِّ إثم، وكثيرٌ من الناس يقدمون المصالح الفانيةَ العاجلةَ على المصالحِ الباقيةِ الآجلةِ، وما هذا إلا منَ السَّفه والحماقةِ وقِصَرِ النَّظر وطول الأمل في الدنيا، فهل تفكرَ الإنسان في حاله يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ، هل تفكر في مصيره، وسعى إلى أن يكون في زمرةِ أصحاب الوجوه الناضرة التي تنعم برضا ربها وتحظَى برؤيته وتتقلبُ في نعيمه ؟

هل استعاذ بربه من حالِ أصحاب الوجوه الباسرة والقلوب الواجفة التي تتوقع المكروه في كلِّ لحظةٍ، شأن من ينتظرُ حكم الإعدام، فيموت كلما سمع وقعَ الأقدام أو صوت الجلاد.

قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢]، ونظير هذا قوله تعالى﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧].

قال صاحب روح البيان: « ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ النضرة طراوة البشرة وجمالها وذلك من أثر التنعم والناضر الغض الناعم من كل شيء، وهى وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة

بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم ورونقه»[1].

أما الكفرة الفجرة فوجوههم عابسةٌ واجمةٌ، كالحةٌ كاسفةٌ مظلمةٌ، قد ظهر عليها أثرُ الذنوبِ وسوَّدتها الخطايا ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾، تتوقعُ المكروهَ في كل لحظةٍ، وتنتظرُ في استسلامٍ وخنوعٍ مصيرها المشئوم وقدرَها المحتوم ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي داهيةٌ عظيمةٌ تقصمُ فقارَ الظهرِ.

الهدايات المستنبطة

* النهي عن العجلة في الأمور، والتحذير من تغليب المصالح العاجلة.
* جاءت كلمة العاجلة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع وكلُّها في معرض ذمِّ الدنيا وحقارتها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾[القيامة: ٢٠ - ٢١].

وقال جلَّ وعلا﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإنسان: ٢٧].

* ابتهاجُ المؤمنين وأنسُهم بالنظرِ إلى وجه الله الكريم، فيفيضُ البشرُ في وجوههم، ويزدادون حسنا ونضارة، ونورًا وبهاءً:

يزيـــدُكَ وجهُـــهُ حسْنـــاً		إذا مـــا زدتَـــهُ نَظَـــرًا

والمفسرون: يقولون مضيئة مسفرة مشرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هذا من النظر، أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة، أي: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة

(١) روح البيان تفسير حقي ١٦ / ٣٠٣.

البدر، قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام».

« إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس تراها في الليلة القمراء. أو الليل الساجي. أو الفجر الوليد. أو الظل المديد. أو البحر العباب. أو الصحراء المنسابة. أو الروض البهيج. أو الطلعة البهية. أو القلب النبيل. أو الإيمان الواثق. أو الصبر الجميل.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة. وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح، وثقلة طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء.. ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.. وما لها لا تتنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض. من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح رفاف، أو روح نبيل، أو فعل جميل. فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال. مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله؟...»[1].

* من لطف الله تعالى وستره في الدنيا أن الذنوب لا لون لها ولا رائحة؛ فلو كانت لها رائحة لأنتنت الأباطح والهضابَ، ولو كان لها لون لاسودت وجوه المذنبين:

وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧١.

أَحْسَنَ اللهُ بِنا أَن ... نَ الخَطايا لا تَفوحُ
فَإِذا المَستورُ مِنّا ... بَينَ ثَوبَيهِ فُضوحُ

ساعةُ الموتِ

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ - ٤٠]

المناسبة

انتقالٌ من القيامةِ الكبرى إلى القيامةِ الصغرى وهي الموت، والموت قدرٌ محتومٌ وكأسٌ كلُّ مشروبٌ، وانتقالٌ من دارٍ إلى دار.

المـوتُ كـأسٌ وكـلُّ الـنـاس شاربُه ... يا ليت شعري بعد المـوتِ ما الـدارُ
الـدارُ دارُ نعيمٍ لا انـقـضـاءَ لها ... لمـن أطـاع ولـلـمـذنـبِ الـنـارُ
هُمـا مَحِـلان مـا لـلـمـرء غـيرُهُمـا ... فـاخـترْ لنفسِكَ أيَّ الـدارِ تختارُ

التفسير الإجمالي

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ انتقالٌ من مشاهدِ القيامةِ وخطوبِها العظام إلى حال المحتضر حيث حشرجةُ الروح في الصدور، وقد بلغت التراقي، وهي جمع ترقوة: عظم بين ثغرة النحر والعاتق، وبلوغ النفسِ التراقِيَ دلالةٌ تؤشِّرُ إلى الإشرافِ على الموتِ.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾ من يداوي هذا المريضَ ؟ فيلتمسوا له الأطباء، وقيل التساؤل عمّن

يرقَى بروحه أملائكةُ الرحمةِ أم ملائكةُ العذاب ؟ والمعنى الأول هو المختارُ.

كما قال تعالى ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾[ق: ١٩].

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾: أيقن حين بلغتْ روحُهُ التَّراقِيَ أنه الفراقُ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد.

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾: كنايةٌ عن اشتداد الخطب وهول الموقف، أو التفت ساقُه عند الاحتضار، أو في الكفن.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾: مرجع العباد إلى ربهم، ومصيرهم إليه، وحسابهم لديه.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾

لم يصدِّق بالرسول ﷺ ولم يُصلِّ، ولكن كذب ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ كذب بالقرآن والنبي، وتولَّى عن معرفةِ الحقِّ، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾ يتبخترُ في مشيته، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[المطففين: ٣١]، فلا يبالي بآخرته ولا ينظر في عاقبته.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾: وعيدٌ وتهديدٌ، لذلك الكافرِ المكابرِ، بأن يليه ما يكرهه، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب. وأحق وأولى به. يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجبه.

عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: «﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾، وَعِيدٌ عَلَى أَثَرِ وَعِيدٍ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَزَعَمُوا أَنَّ عَدوَ اللهِ أَبَا جَهْلٍ، أَخَذَهُ نَبِيُّ اللهِ بِمَجَامعِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾، فَقَالَ عَدوُ اللهِ أَبُو جَهْلٍ: أَتُوعِدُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ وَاللهِ لا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلا رَبُّكَ، وَإِنِّي لأَعَزُّ مَنْ مَشِي بَيْنَ جَبلَيهَا». فلما كان يوم بدر قُتِلَ أشدَّ قِتلة»[1].

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٣٣٨، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٢٧٩.

الهدايات المستنبطة

* تذكُّرُ الموتِ وشدتِه، فهو موعظةٌ بليغةٌ، وحقيقة لا خلاف عليها، والعاقل من تزوَّد من دنياه لأخراه: قال أبو العتاهية

أَصبَحتِ يا دارَ الأَذى وَصَفاكِ مُمتَلِئٌ قَذى
أَينَ الَّذينَ عَهِدتُهُم قَطَعوا الحَياةَ تَلَذُّذا
دَرَجوا غَداةَ رَماهُمُ رَيبُ الزَمانِ فَأَنفَذا
سَنَصيرُ أَيضاً مِثلَهُم عَمّا قَليلِ هَكَذا
يا هَؤلاءِ تَفَكَّروا لِلمَوتِ يَغدو مَن غَذا

* التحذير من الغفلةِ والاغترار.

* التحذير من العُجب والكبر والخُيَلاء، ومن مِشيةِ المُطيطاء، التي تدلُّ على عدم الاكتراثِ كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطاءَ، وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، سُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»(١).

* حال الكافر عند الاحتضار وقد خرج من الدنيا مثقَلا بالذنوب والآثام، محروما من الحسنات، فهو بين حُزن وحُرقة على ما فاته، وخوفٍ وجزَعٍ على ما ينتظره.

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٢٦) رقم (٢٢٦١) وقال: هذا حديث غريب.

ختام السورة

وتقرير البعث

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٤٠].

المناسبة

بعد بيان حال الكافر الذي أعجبته نفسُه وغرَّهُ مالُه، فلم يعمل صالحا بل سوَّد صحائفه بالكفر والعصيان، بين تعالى أن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يترك سدى، بل خلق لغاية وأجَّل لوقت معلوم.

التفسير الإجمالي

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾: هذا المغرورُ بنعم الله المفتون بزخارف الدنيا الفانية وزينتها أيظنُّ أنَّ الدنيا هي المحطَّةُ الأولى والأخيرةُ، لا دار بعدها ! فلا بعثٌ ولا حسابٌ !

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾: هل نسي أصله وجحد قدرةَ خالقه وبارئه ! ألم يكن نطفة من ماء مهين، ثم علقة، ثم سواه الله بشرا ؟ أليس القادر على خلقه بقادر على إعادته ؟﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

بلى يا ربِّ سبحانك أنت القادر وأنت القوي القاهر وأنت أحكم الحاكمين.

الهدايات المستنبطة

* البعث حقيقةٌ غيبيةٌ ونتيجةٌ حتميَّةٌ، ليجازى كلُّ إنسان بما عمل، وينصر الله رسله وسائر المؤمنين، ويُنصِفَ المظلومين، ويقتصَّ من الطغاةِ، فالقيامة نعمةٌ إلهيةٌ، ورحمةٌ ربانيةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، فالله تعالى لم يخلق الخلق عبثا ولن يتركهم سُدى، فهو تعالى الحكيمُ العليم، الملِكُ الحقُّ المبينُ.

* البعث من تمام عناية الله بالإنسان، ومن ألطافه به، فكما أن من لطفه تعالى رعاية الإنسان منذ أن كان نطفة في بطن الأم حتى صار علقة، فمن عنايته تعالى ومن تمام رحمته أن جعل دار البقاء لتجزى كلُّ نفس بما عملت.
* على من ابتلي بمصيبةِ الكبر وأصيب بداءِ العُجْبِ أن يتفكَّر في أصله وفي حاله، حين كان نطفةً في رحم أمه، وحين خرج من بطن أمه صفر اليدين لا يعلم شيئا، ثم حين حشرجة الصدور وزيارة القبور.

وقد قيل:

عجبتُ من مُعْجَبٍ بصُورته ... وكان بالأمسِ نطفةٌ مَذِرَه

وفي غدٍ بعدَ حُسْنِ طلعَتِهِ ... يصيرُ في اللحدِ جيفةً قَذِرَه

وهْوَ على تيهِهِ ونخوَتِهِ ... ما بين جنبيهِ يحملُ العَذَرَه

سورة الإنسان

أولاً: بين يدي السورة

مع حاجةِ الإنسان الضرورية إلى معرفة أصلِه ونشأتِه، والتفكرِ في أطوارِ حياتِه، إلا أن إعجابَه بنفسِه واستغراقَه في إرواءِ شهواتِه وتحقيقِ مطامِحِه، واتباعِه هواه، قد شَغَلَه عن معرفة أصله، وَصَرَفَه عن إدراك غاية وجوده.

ولا يزالُ الإنسانُ عاجزاً عن إدراكِ ذاتِه، والوقوفِ على تلك الأسرارِ العظيمةِ المطويَّةِ بين جوانِحِه، ومهما تقدَّم العلمُ وتطوَّرت وسائل البحث والفحصِ: فإنها لا تزيدُ الإنسانَ إلا تعطُّشا للمعرفةِ وإحساسا بالجهلِ والقصورِ.

ولسان حاله يقول كلما غاص في بحورِ العلم:

كـلَّـما ازددتُ عـلـومـاً زِدْتُ إيـقـانـاً بـجـهـلي

فالنفس الإنسانية تحتاج إلى تفكُّر عميق وتبصُّر دقيق في وجودها المادي والروحي وغاية هذا الوجود، قال تعالى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢١]، فالنفسُ الإنسانيةُ عالمٌ رحيبٌ، وبحرٌ عميقٌ:

وقد قال الإمام علي:

دَوَاؤكَ فـيـكَ ومـا تَـشْـعُـرُ ... وداؤكَ مـنـكَ ومـا تـبـصرُ
وَتَحْـسِـبُ أَنَّـكَ جِـرْمٌ صَـغِـيرٌ ... وَفِـيـكَ انْـطَـوَى الْـعَـالَمُ الأَكْـبرُ

يقول ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل ومؤلف كتاب الإنسان ذلك المجهول: «لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، وبالرغم من أننا نملك كنوزا زاخرة وتراثا هائلا من نتاج العلماء والفلاسفة والأدباء والمصلحين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسانَ ككلٍّ...»[1].

---

(١) **الإنسان ذلك المجهول** ألكسيس كاريل ص ١٦.

ويقول «برتراندراسل» أحد فلاسفة الغرب: « إنه على الرغم من كونه وصل إلى كثيرٍ مما كان يحلُمُ به ويسعى للوصول إليه إلا أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى وهي المعرفة إلا بأوكس الحظوظ.

بينما يصرح إينشتاين أن كلَّ ما جمعه من معلومات عن هذا الكون لم يقدِّم له عنه إلا لغزا مقفلا يستعصي على الحل»[1].

«فالنفسُ البشريةُ حصنٌ أُحْكِمَتْ أقفالُهُ ولغزٌ معقَّدٌ أتْعَبَ العقولَ وحيَّر الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور، وما زالت أقفالُ الحصن عصيةً لا تلين، وطلاسمُ اللغز متأبِّيَةً لا تُحَلُّ، ولقد بُذِلَتْ في العصر الحديث جهودٌ كبيرة، واهتمت المدنيةُ الحديثة بعلم النفس اهتماما بالغا، وتجرَّد له علماء وأنشئت له معاهد، ووضعت نظريات، وألفت الكتب، حتى إذا ظن الناس أنهم وصلوا إلى معرفة النفس وفهم أسرارها وعقدها ومساربها ؛ تبين لهم أن هذه النظريات والآراء ما زالت محاولات في أول الطريق، لم تصل بعد إلى المعرفة الصحيحة بالنفس، ولا إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة.

ومعرفة النفس البشرية ضرورة لازمة لأية دعوة تخاطب هذه النفس، ولأي منهج يهدف إلى تربيتها، ولأي تشريع أو نظام يريد أن يقومها، وأيُّ جهد في هذا السبيل بغير هذه المعرفة جهدٌ ضائعٌ ؛ لأنه بُنِيَ على جهلٍ وأُسِّسَ على ضلال... ومنهج القرآن في دعوة هذه النفس منهجُ العليم بأسرارها الخبير بما يفسدها أو يزكِّيها، المطَّلع على مواطن القوة والضعف فيها»[2].

لقد صار الإنسانُ بشرا سويّاً يفكر ويجادل، يقدِّر ويناضلُ، يبني ويهدم، يعمُرُ ويخرِّبُ، ويسبُرُ الأغوار، ويمتطي صهوة البحار، ويغوصُ في الأعماقِ، ويحلِّقُ في الأجواء، ويسبحُ في الفضاء، ويشقُّ الجبالَ، فهلَّا تذكر ماذا كان قبل أن يكون ؟ هل استشعر قدرَه حين كان نطفةً

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن د. محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٣٧ .

(٢) منهج القرآن في التربية محمد شديد ٦٦-٦٧ .

من ماء مهين، ثم انتقل بقدرة الله وتقديره من طورٍ إلى طورٍ حتى استوت خلقته واكتملت صورته ؟

بعيدا عن منهج الله: ضلَّت تصوراتُ الإنسانِ حول إنسانيتِهِ وغايةِ وجودِهِ، ومنهاج حياته ومصيره، ومضى بعيدا في متاهاتِ الحيرةِ ودروبِ الضلالِ، يبحثُ عن إجابةٍ لأسئلته الحائرة بين الفلسفاتِ الضالة والأديان الوضعية والمحرفة، ويعبِّر عن حاله البائسِ وعجزه التامِّ عن إدراك تلك الحقائق التي لو أبصر وتجرَّد للحقيقة وأقبل على كتابِ الله لوجد لها إجابةً شافيةً وافيةً في مواضع عديدةٍ من هذا الكتاب المنيرِ، تأمَّل على سبيل المثال في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الإنسان تجدها وقد أجابَت إجابةً شافيةً وافيةً، ضلَّ فيها وتحيَّر خلقٌ كثيرٌ ؛ لطالما انحرفوا عن منهجِ الله، وأعرضوا عن ذكره جلَّ في علاه.

أ. اسم السورة.

سميتْ هذه السورة الكريمة بسورة الإنسان، وذلك لحديثها عن الإنسان [1]، وتسمى سورة ﴿ هَلۡ أَتَىٰ ﴾، من تسمية الشيء بجزءٍ منه، كما سُمِّيَتْ بسورة الدهر، لورود كلمة الدهر فيها، وهو الزمان.

وتسميتها سورةَ الإنسان أو سورة ﴿ هَلۡ أَتَىٰ ﴾ له ما يدلُّ عليه في كتب السنة، وكذلك كتب التفسير بالمأثور، أما تسميتُها بسورة الدهر: فلم أجدْ ما يدلُّ على ذلك في كتب السنة أو كتب التفسير بالمأثور.

والتسمية الأولى توقيفية، أما الثانية فالذي يبدو لي أنها اجتهادية، وقد أوردها الشنقيطي في أضواء البيان [2].

---

(١) **يراجع: جامع البيان للطبري ٢٤ / ١٢٠، ومعالم التنزيل للبغوي ٨ / ٢٨٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٢ / ٣٥٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ١٩٣، ٨ / ٢٨٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٢٧٠، ١٩ / ١١٨.**

(٢) **أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٦٧٧.**

ب. فضائل السورة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ السَّجْدَةَ وَ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾[(١)].

ج. مكية السورة.

هذه السورة من السور التي اختلف فيها: هل هي مكية أم مدنية ؟

قال القرطبي: « مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي، وقال الجمهور: مدنية وقيل فيها مكية، من قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ ﴾ إلى آخر السورة وما تقدمه مدني»[(٢)]، وقال السيوطي في الدر المنثور: « مدنية وآياتها إحدى وثلاثون»[(٣)].

وقال الشوكاني:» قال الجمهور: هي مدنية وقال مقاتل والكلبي: هي مكية وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقيل فيها مكي من قوله:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ ﴾ إلى آخر السورة وما قبله مدني»[(٤)].

وقال الإمام الحافظ ابن كثير: « تفسير سورة الإنسان، وهي مكية»[(٥)].

قلت الواضح من سياق السورة وأسلوبها أنها مكية.

---

(١) رواه البخاري صحيحه: كِتَاب الْجُمُعَةِ بَاب مَا يُقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٩١، وأخرجه مسلم في صحيحه كِتَاب الْجُمُعَةِ بَاب مَا يُقْرَأُ فِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٨٠، والنسائي في السنن كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح يَوْم الْجُمُعَة ٢/ ١٥٩ وفي السنن الكبرى كتاب التفسير – سورة السجدة حديث ١١٣٩٣ وابن ماجه في السنن – كتاب إقامة الصلاة، بَاب القراءةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٢٣ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٤٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩ / ١٠٧.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ٨/ ٣٦٥ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٨٢ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٨٥ .

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها إحدى وثلاثون آية (٣١) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها. [(١)]

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو تعريف الإنسان بنفسه، حتى لا يتعالَى على غيره، ولا يغترَّ بما فضَّله به خالِقُهُ، ولا يغفل مكانتَه، ويستهين بدوره المنشود في هذا الوجود، فليتذكر أنه لم يكن شيئا مذكورا، وليتبصَّرْ غايةَ وجودِهِ، وليعلمْ أن الدنيا دار فناء وابتلاء، أما الآخرة فهي دار الجزاء والبقاء، وليسلكْ سبيلَ النجاة والفوز.

وقد قيل:

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثَباتَ لها		فهل سمِعتَ بظلٍّ غيرِ منتقلِ؟
قد رشحوك لأمرٍ لو فطنت له		فاربأْ بنفسك أن ترعَى مع الهَمَلِ

« قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: قوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان: ١] تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه» [(٢)].

وقال صاحب الظلال: « والسورة في مجموعها هُتَافٌ رخيٌّ نديٌّ إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله، وابتغاء رضاه، وتذكر نعمته، والإحساس بفضله، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء...»[(٣)].

---

(١) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ١٩٠، وكتاب **البيان في عدِّ آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٦٠.

(٢) **نظم الدرر** للبقَاعي ٨/ ٢٦٠.

(٣) **في ظلال القرآن** ٦/ ٣٧٧٧.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول نعم الله على الإنسان نعمة الخلق ونعمة الهداية ونعمة الجزاء، وتسميتها سورة (هَلۡ أَتَىٰ) باعتبار مُستَهَلِّها، أما تسميتها بسورة الدهر: فذلك لحديثها عن مراحل وأطوار حياة الإنسان، الذي مرَّ عليه حينٌ من الدهر ولم يكن شيئا مذكورا.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خلق الإنسان وهدايته، وفي خاتمة السورة تذكير بخلقه وهو نعمةٌ جليلةٌ وآيةٌ عظيمةٌ دالةٌ على كمال قدرته تعالى.

كما خُتِمتِ السورةُ بما استَهلَّت به من حديثٍ عن خلقِ الإنسانِ ومصيره المحتوم.

يقول صاحب الظلال: « تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة على أساس الابتلاء، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء. فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره، غير واع ولا مدرك، وهو مخلوق ليبتلى، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء. وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم، أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم، وهو نعيم حسيٌّ في جملته، ومعه القبول والتكريم، وهو بتفصيله هذا وحسِّيَّته يوحي بمكيَّته، حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية، شديدي التعلق بمتاع الحواسِّ، يبهرهم هذا اللون ويعجبهم، ويثير تطلُّعَهم ورغبتَهم»[1].

---

(١) نفس المرجع ٦ / ٣٧٧٨

المناسبة بين السورة وسابقتها

* الصلة بين سورة القيامة، وسورة الإنسان: صلة واضحة جلية، ففيهما حديثٌ عن نشأة الإنسان ومصيره الذي ينتظره، ولقد ذكر «الإنسان» في سورة القيامة ستَّ مراتٍ، بينما ذُكِرَ في سورة الإنسان مرتين، فضلا عن تسمية السورة بهذا الاسم «سورة الإنسان».

قال تعالى في سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة الإنسان ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

* كذلك من وجوه المناسبة بين مقدمة سورة الإنسان وخاتمة سورة القيامة أنه بيَّن في خاتمة القيامة أن الإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدىً، ثم ذكَّر بمراحله وأطواره الأولى قبل أن يتمَّ خلقه حيث كان نطفة من منِي ثم علقة ثم خلقه الله وسوَّاه، وجاءت مقدمةُ سورة الإنسان مقررةً لهذا المعنى.

* ومن وجوه المناسبة أيضا إشارةُ السورتين إلى فتنة العاجلة والتي تعد من أسباب الصدود عن الحق، والعزوف عن سبيل النجاة، وفوات النعيم السرمدِيِّ.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ

مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيلُ ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سِلْكٍ واحد، وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الإنسان، نشأته وهدايته ومصيره، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلَّى في وجوهٍ عديدةٍ منها:

* حديث السورتين عن خلق الإنسان وهدايته ومصيره.
* حديث السورتين عن نعمة إنزال القرآن فهو سبيل الهدى والرشاد وطريق النجاة والإسعاد.
* جاءت سورة الإنسان مفصِّلةً لما ورد في سورة القيامة من بيانٍ لنعيمِ أهل الجنة.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول الإنسان نشأته ومصيره بدأت السورة بما يتناسب مع محور السورة وعنوانها، قال تعالى﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

ثانياً: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السورة

خلقُ الإنسان وهدايتُه

نعمة الخلق والهداية

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ١ - ٣]

التفسير الإجمالي

أجابت مقدمةُ السورة عن كثيرٍ مما يدورُ في خَلَدِ الإنسانِ من تساؤلاتٍ تتعلق بوجوده وأصله وغايته، وطريقه.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾: قيل المراد بالإنسان: آدم عليه السلام والحين الذي مرَّ عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح، والمعنى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً يذكر، قال الشوكاني: « المعنى أنه كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر، ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً»[1].

وقال الطبري: « أتى عليه وهو جسم مصوّر لم تنفخ فيه الروح أربعون عاما، فكان شيئا غير أنه لم يكن شيئا مذكورا، قالوا: ومعنى قوله ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ لم يكن شيئا له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طينا لازباً وحمأً مسنونا»[2].

وقال أبو حيان: « والحين الذي مرّ عليه، إما حين عدمه، وإما حين كونه نطفة. وانتقاله

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٤٤.

(٢) جامع البيان، للطبري ٢٤ / ٨٨ .

من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه، فإنه في تلك المدة لا ذكر له»[1].

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾: المراد بالإنسان: ذرية آدم ومعنى ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾: أخلاط، والمراد: نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما، يقال: مَشَجَ هذا بهذا، فهو ممشوج، أي: خلط هذا بهذا فهو مخلوط، هذه الحقائق الإنسانية التي خفيت على علماء الأجنة الغربيين فلم يعرفوها إلا في عهدٍ قريبٍ بعد تقدم وسائل الفحص.

وبيَّن سبحانه الحكمةَ من خلق الإنسان فقال﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾: أي نختبره بالتكليف في الدنيا وهي دار الابتلاء.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾: وذلك من مقتضيات هذا الابتلاء، وخصَّ السمعَ والبصرَ لأنهما من أهم وسائل الإدراك، ومن أشرف الحواسِّ ومن أجلِّ النِّعم.

ولما جعله بهذه المثابة، أخبر تعالى أنه هداه السبيل، أي أرشده إلى الطريق، وعرَّفَه مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي بيَّنا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلال، وعرَّفناه طريق الخير والشر، أو هديناه السبيل المُفضي إلى النجاة.

قال الرازي رحمه الله: « السبيل هو الذي يُسلك من الطريق، والمراد به ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى هديناه، أي عرَّفناه وبيَّنا كيفية كلٍّ واحدٍ منهما له، كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد: ١٠] ويكون السبيل اسماً للجنس، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ [العصر: ٢] ويجوز أن يكون المراد بالسبيل، هو سبيل الهدى ؛ لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٣٥٨.

ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] وإنما أضلوهم سبيل الهدى، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿ هَدَيْنَٰهُ ﴾ أي أرشدناه، وإذا أرشد لسبيل الحق، فقد نبه على تجنب ما سواها، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه»[١].

﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ إما مؤمناً سعيداً، وإما كافراً شقياً، وقيل: معنى الكلام الجزاء يعني: بيَّنا له الطريق إن شكر أو كفر، فعَرَّفْناه الطريقَ ؛ أي طريقَ الخيرِ والشرِّ.

وقيل: إمَّا للشقاوة، وإمَّا للسعادة، إمَّا شاكراً من أوليائنا، وإما كافراً من أعدائنا.

ولما كان الشكر هو الغاية من وجوده وهو الخيرُ له: قدَّمه على الكفر.

« ولما كان الشكرُ قَلَّ من يتصف به قال شاكراً، ولما كان الكفرُ كَثُرَ من يتصف به، ويكثُرُ وقوعُهُ من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفوراً بصيغة المبالغة»[٢].

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

مقدمة السورة تذكِّر الإنسان بنعمة وجوده وحكمة خلقه، ومصيره الذي يترتب على طريقه الذي يختاره لنفسه.

الهدايات المستنبطة

* تذكير الإنسان بنعمة الوجود.
* خُلِقَ الإنسان لحكمةٍ بالغةٍ وغايةٍ عظيمةٍ.
* نعمةُ الهدايةِ الربانية التي امتنَّ بها المولى عزَّ وجلَّ على خلقه ؛ إذ بيَّن لهم طريق الخيرِ وطريقَ الشرِّ.
* حاجة هذا المخلوق إلى إدراك حقيقة ضعفه وهوانه، واستشعارِ فضلِ الله وإحسانِهِ:

---

(١) يراجع: التفسير الكبير للإمام الرازي ٣٠/ ٢٣٧، ٢٣٨.
(٢) البحر المحيط للإمام أبي حيان ١٠/ ٣٦٠.

كيف خلقه في أحسن تقويم، وصوَّره في أحسنِ صورةٍ، وهداه طريق الحقِّ ومنحه حرية الاختيارِ.

* من دواء التكبُّرِ والغرورِ والنسيانِ: أن يتأمَّل الإنسان في أصله ويتذكَّر مصيره الذي ينتظره.
* الابتلاء سنةٌ من سنن الله الإنسانية.
* منح الله تعالى الإنسان وسائل الإدراك، فجعله سميعاً بصيراً عاقلاً.
* أعدَّ الله تعالى للكافرين عذابا شديدا مؤلماً، عقاباً لهم على كفرهم وضلالهم.
* ثواب الله تعالى لعباده المؤمنين الأخيار ثواب عظيم لا انقطاع له.
* إعجاز القرآن الكريم في حديثه عن خلق الإنسان، حيث الإشارة إلى مراحل وأطوار خلقه والتي اكتشفها العلم في العصر الحديث.

مصير الكفار

قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[الإنسان: ٤]

المناسبة

لما منح اللهُ الإنسانَ وسائلَ الإدراك، وأعطاه حريةَ الاختيار، وأبانَ له السبيلَ، وهيَّأَ له المسيرَ: استقامَ أُناسٌ على طريق الحق فأفلحوا، وانعطف آخرون فانحرفوا وتساقطوا في طرق الضلالِ، فبيَّن تعالى مصير الفريقينِ، وبدأ بمصيرِ الكافرين باقتضابٍ، ثم جاء الحديث بإسهابٍ عن جزاء الأبرار الذين استقاموا على الطريق وثبَتوا عليه.

التفسير الإجمالي

بيَّن تعالى ما أعده للكفرةِ من سلاسلَ يربطون بها ويُسحبون منها، وأغلالٍ يُقيَّدون بها، وسعيرٍ يصْلَوْنَ حرَّها ويُكابدونَ لهيبها، نكالا بهم وانتقاما منهم، وعقابا لهم على غفلتِهم

وإعراضهم، وإذلالا لهم بسبب كِبْرِهم واغترارِهم.

الهدايات المستنبطة

* في الآية وعيدٌ شديد لذلك الإنسان الذي تجرَّد من إنسانيته، وأغفلَ وظيفته في هذا الوجود فاغترَّ بنعمِ الله، وجحد آياته، وأعرض عن ذكره.
* عذابُ الكفار في النار عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ لا يُطاقُ، قد أعدَّه ربُّهم جزاءً لهم، ونكَالا بهم.

جزاء الأبرار

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ الإنسان: ٥ – ٢٢

المناسبة

لما بيَّن مصير الكفار، باقتضاب واختصار، أسْهَبَ في بيان جزاء الأبرار، فالنفوسُ تهفُو وتتوقُ إلى معرفةِ ما لها من كرامةٍ، وما أُعِدَّ لها من نعيم، والجنةُ هي دارُ الإسعادِ التي تنتظرُ الإنسانَ الشاكر، الذي سلك السبيلَ المُفضيةِ إليها، سبيل الحقِّ والهدى والبرِّ.

التفسير الإجمالي

بعد الحديث عن سوء عاقبة الكفار يأتي الحديث عن جزاء الأبرار، وهو المقام الكريم في دار النعيم، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ ﴾

والإخبار عنهم بهذه الصفة إشعارٌ بمزيَّتها وتنويهٌ بمنزلتها، وبيانٌ لأعمالهم التي استحقوا بها هذه الكرامات السنية والنفحات القدسية، وإشارةٌ إلى أن البرَّ هو طريق الفلاح والفوز، كما جاء التعبير عنهم بـ﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ لبيان حبِّهم وقربهم وطاعتهم لله تعالى، والعبوديةُ مقامُ سموٍّ وارتقاءٍ وتكريم.

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وللشراب في الجنَّةِ لذَّتُه ومتعتُه، فهو نشوةُ القلوب وبهجةُ النفوس وإمتاعُ الأذواقِ ومنادمةُ الرِّفاق.

وقد قيل في شراب الدنيا - مع ما فيه من المضرَّة والإثم - ما قيل، حتى صار للخمر لونٌ من ألوان الشعر من كثرة ما تغنَّى بها الشعراء، وبالغوا في وصفها قال أحدهم:

عـاقِـرْ عـقـارك واصْـطـبِـحْ	واقـــدَحْ سرورَك بـالـقَـدحَ
واخـلـع عــذارك في الهــوى	وأَرِحْ عـذولَـك واسـترحْ
وافـــرَحْ بـوقـتِـك إنـما	عُـمْـرُ الـفـتـى وقـتُ الـفَـرَح

فما بالُنا بشراب الآخرة الذي لا يُصَدَّعون عنه ولا ينزفون، فليس كخمر الدنيا التي توغرُ الصدور وتهتك الستور، وتُورِثُ الفجور، وتُذهبُ هيبة الرجل الوقور، وتلعب بالرؤوس وتُفسد النُّفوسَ، وتُغيِّبُ العقول، وتصيبُ القلوب، وتستنزفُ الجيوب، وتعطِبُ البطونَ.

أما شرابُ الآخرة فهو أنيس الأصحاب، ومتعةُ الأحباب، وبهجةُ النفوس، ونعيم الأبرار، وتحفةُ الأخيار.

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾: ومزجُه بالكافور ليزيد حلاوةً ولذَّةً،

وبرداً، قال قتادة ومجاهد: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقال عكرمة: مزاجها طعمها وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها، وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب.

وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب [(١)]

وقال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها.

وقال عكرمة: ﴿ مِزَاجُهَا ﴾ طعمها، وقال أهل المعاني: أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده، لأن الكافور لا يشرب. [(٢)]

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾: فهي تجري في روضاتهم وقصورهم ومجالسهم وغرفهم، كما يشتهون وحسبما يريدون ؛ راحةً وكرامةً.

من صفات الأبرار

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

المناسبة: لما تشوَّفت النفوسُ واشرأبت الأعناقُ، وتعلقت المُهجُ وهاجت الأشواقُ لهذا النعيم المقيم، حقَّ لها أن تتساءلَ عن أوصاف أولئك الأبرار الذين ينالون هذه الكرامات ويفوزون بتلك الملذات ؟ فبيَّن سبحانه أعمالَهم التي بها نالوا ذلك الثوابَ العظيم.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٤٦.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٨ / ٢٩٣.

التفسير الإجمالي: من صفات أولئك الأبرار الذين نالوا بها هذا الوصف الكريم وحازوا الثواب العظيم: وفاؤهم بالنذور، وخوفهم من يوم النشور، وإطعامهم الطعام مع حبِّهم له وحاجتهم إليه، لا للمباهاةِ والمفاخرة، ولا لجلب المصالح، وكسبِ العواطفِ والتماس الودِّ، بل الإيثار في أروع صوره وأبدعِ مراتبه، فنفوسهم على حبِّ الخيرِ مجبولةٌ، وقلوبُهم على الرحمة بالفقير والمسكين والضعيف مفطورةٌ، لا يبتغون من الناسِ أجورا، ولا يرجون منهم ثناءً ولا شُكورا، لكنه الخوف والرجاء، الخوف من مقام الله، والرجاء في رحمته ورضاه.

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾: وهم مع ما يقدمون من وجوه الخير وما يُحصِّلون من أعمال البر تراهم يُعربون عن خوفهم وإشفاقهم من هول هذا اليوم العبوس القمطرير: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾: فهو يومٌ صعبٌ تعبسُ فيه الوجوه من أهواله وشدائده، فتذكُّرُ الآخرة والاستعداد لها بصالح الأعمال شغلهم الشاغل.

ولما كان أولئك الأبرار هُمُ الواحةُ الغَنَّاءُ التي يفيء إلى ظلِّها الفقيرُ والمسكينُ وهم القلوبُ الرحيمة والأيادي النديةِ الحانية والوجوه الباشَّة التي تسعى إلى أصحاب الحوائج بالخير، وتفيض بالبشرِ، كان جزاؤهم، النجاة من أهوال القيامة وشرورها والفوز بنعيم الآخرة، ونضرتها وسرورها وحبورها وحريرها. ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ وقاهم شرَّه ورزَقَهم خيرَه، ولقَّاهم في هذا اليومِ العصيبِ نضرةً وسرورا:

في جنَّةٍ ونعيمٍ
ومنزلٍ كريم
في خُلْدها المقيم
معْ سائر الخلان

في نَضْرَةٍ وسرور

في جنة وحرير

في فرحة وحُبُورٍ

في راحة وأمانٍ

في ساحة الرضوانِ

عودٌ إلى دارِ النعيم

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

المناسبة: بعد استرواح النفس وأنسها ببيان صفات الأبرار، يعودُ السياق إلى الحديث الممتع عن نعيم الجنة وأوصافها، ذلك النعيمُ المقيمُ الذي يحظى به الإنسان حين يترسَّمُ سبيلَ الهدى ويتوسَّمُ خُطى من سبقه إليه.

التفسير الإجمالي: بعد بيان شرابهم وأوصافهم التي حازوا بها هذا النعيم بفضل من الله ورحمة، وصف الله تعالى مجالسهم ومجتمعاتهم، فقال سبحانه﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

فهم في راحةٍ ودَعَةٍ، قد ازدانت بيوتهم وأفنيتهم بالأثاثِ الوثيرِ، في جوٍّ من الصفاءِ والبهجة فلا حَرٌّ يعكر صفو نعيمهم، ولا بردٌ تتأذَّى منه أبدانُهم، وقد دنت الظلال ومالت الأغصان وغردت الأطيار، وتدلَّتِ القطوفُ بأطايب الثمارِ، وقد اجتمع النُّدامى والسُّمارُ، في جوٍّ من النَّشوةِ والأنسِ، فلا ترى العينُ ولا تسمعُ الأذنُ إلا ما لذَّ وطابَ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.

حدائقُ مونقةٌ، ونخيلٌ باسقةٌ، وظلالٌ وارفةٌ، ورياضٌ مزهرةٌ، وقطوفٌ مثمرةٌ، في متناول أيديهم إكراما لهم.

أما عن جمال آنيتهم ورونقها وحسنها وبريقها فقال﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

ففي غمرةِ هذا الفرح والحبور وهم بين الأفنيةِ والقصور، وعلى ضفاف الأنهار وتحت ظلال الأشجار، وفي حجالِ الدور: يطاف عليهم بآنيةٍ ما أروعها وأبهاها، قد صيغت من فضة خالصة وأكوابٍ رقيقةٍ متنوعة في ألوانها وقدرها وأشكالها مع صفائها، حتى أنَّها تَنُمُّ عما فيها من لذيذ الشراب: كما قيل [(١)]

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخَمْرُ ... فتشابَها فتشاكَلَ الأمْرُ
فكأنَّما خمرٌ ولا قَدَحٌ ... وكأنما قَدَحٌ ولا خمرُ

وقال الإمام القحطاني في النونية:

يُسقَونَ من خمرٍ لذيذٍ شربُهَا ... بأناملِ الخُدَّامِ والولدانِ
لو تنظرُ الحوراءُ عند وليِّها ... وهما فويقَ الفرشِ متَّكِئانِ
يتنازعانِ الكأسَ في أيديهما ... وهما بلذةِ شُربِها فَرِحَانِ
ولربَّما تسقِيه كأساً ثانياً ... وكلاهما بِرِضَابِها حُلْوَانِ
يتحدثانِ على الأرائكِ خَلْوةً ... وهما بثوبِ الوصلِ مشتملانِ

ومعنى: ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ قُدِّرَ ما في الكؤوس على قدر ريِّهم فلا تزيد ولا تنقص، أي قدرها لهم السقاةُ والخدمُ الذين يطوفون عليهم يقدرونها ثم يسقون.

(١) البيتان للصَّاحبِ ابنِ عَبَّاد.

وقيل التقدير في صناعتها فقد صيغتْ على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه، والله جل وعلا قادرٌ على أن يجعل الفضة بهذه الرقة والشفافية.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ كؤوسٌ مُترَعَةٌ بشرابٍ قد مُزِجَ بالزنجبيل فزاده حلاوةً وطلاوةً، وقد كانت العرب تستلذُّ مزجَ الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته.

قال الأعشى:

كــأنَّ الــقَــرَنــفــلَ والــزنــجــبــيــلَ   بــاتــا بــفِــيــهــا وأرْيــاً مَــشــورا

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

هذا الشرابُ أصلُه من عينٍ صافية عذبةٍ سَلِسَةٍ تسمى سلسبيلا.

خدم أهل الجنة

ثم يأتي الحديث عن خدم أهل الجنة، فيذكرُ تعالى من خدمهم وحاشيتهم أولئك الولدان المخلَّدون ؛ إذ لا يتمُّ النعيمُ إلا بوجودِ الحاشيةِ:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

فمن تمامِ المباهج التي تَحُفُّ بهم تلك البدور الزاهرة واللآلئ المتناثرة التي تطوف عليهم لخدمتهم وتلبية حوائجهم.

ولقد ناسب ذكرهم بعد وصف شرابهم ووصف آنيتهم، فهم السقاةُ الذين يسقونهم ذلك الشراب

ومعنى﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾: باقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة، وقيل: مخلدون لا يموتون وقيل: مسورون مقرطون، أي محلون والتخليد التحلية.[1]. وكل هذه المعاني صحيحة.

---

(١) يراجع: **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٩ / ١٤٣.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في رونقهم وصباحة وجوههم وجمال هيئتهم وروعةِ ثيابهم وحليهم، وصفاء ألوانهم، وقد هبُّوا لخدمةِ الأبرارِ، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً على بساطِ سندسيٍّ، واللؤلؤ إذا كان منثوراً ولا سيَّما على بساط من حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد.

«... وقيل شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء»[1].

سعةُ مُلْكِ أهلِ الجنةِ

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾

لا تقع العيون إلا على كل بهيج فلا ترى إلا النعيم المقيم والملك العظيم، الذي لا يُقَادَرُ قدره، ولا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسِرَّتها يتكئون وإلى ربهم ينظرون.

فلله بردُ العيشِ بين خيامِها ... وروضاتِها، والثغرُ في الروضِ يبسمُ
ولله أفراحُ المحبين عندما ... يخاطبُهم من فوقهم ويسلِّمُ
ولله أبصارٌ تَرى اللهَ جهرةً ... فلا الضيمُ يغشاها ولا هي تسأمُ
فيا نظرةً أهدتْ إلى الوجهِ نضرةً ... أمن بعدها يسلو المحبُّ المتيَّمُ
فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنَّها ... منازلُنا الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكننا سبيُ العدوِّ فهل تُرى ... نعودُ إلى أوطانِنا ونسلمُ
وقد زعموا أن الغريبَ إذا نأى ... وشطَّتْ به أوطانُهُ فهو مغرمُ
وأيُّ اغترابٍ فوق غربتنا التي ... لها أضحتِ الأعداءُ فينا تحكُمُ
فبينا همُوا في عيشِهم وسرورِهم ... وأرزاقُهم تجري عليهم وتُقْسَمُ
إذاهم بنورٍ ساطعٍ أشرقتْ له ... بأقطارِها الجناتُ لا يُتَوَهَّمُ

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٣٦٥.

تجلى لهم ربُّ السموات جهرةً ... فيضحكُ فوق العرش ثم يكلِّم
سلامٌ عليكم يسمعون جميعُهم ... بآذانِهم تسليمُه إذ يسلِّمُ
يقول سلوني ما اشتهيتُم فكلُّ ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحمُ
فقالوا جميعا نحنُ نسألُك الرضا ... فأنت الذي تُولِي الجميلَ وترحمُ[1]

﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

قال الإمام الطبري: « وقوله:﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ يقول: ورأيت مع النعيم الذي ترى لهم ثَمَّ مُلْكا كبيرا. وقيل: إن ذلك الملك الكبير: تسليم الملائكة عليهم، واستئذانهم عليهم»[2].

وقال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿ ثَمَّ ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً»[3].

وقال السعدي رحمه الله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية، والرياض المعشبة، والطيور المطربة ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات. اللاتي هنَّ في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك وأعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج

(١) **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** لابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ١ / ٧.
(٢) **جامع البيان** للطبري ٢٤ / ١١٢.
(٣) **تفسير القرآن العظيم** ابن كثير ٨ / ٢٩٢.

برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه». [١]

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

أما عن ثيابهم: فهي ناعمةٌ ليِّنةٌ، أنيقةٌ زاهيةٌ، قد تفتقت عنها أشجارُ الجنة، وخرجت من أكمامها، فمنها الرقيقة ومنها الصفيقة، منها الرقيق وهو السندس، ومنها الصفيق وهو الاستبرق، وهو ما غَلُظَ من الحرير.

روى الإمام الإمام أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وفيه «... ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ ثِيَابَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَتُنْسَجُ نَسْجاً أَمْ تُشَقَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ قَالَ: فَكَأَنَّ الْقَوْمَ تَعَجَّبُوا مِنْ مَسْأَلَةِ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ مَا تَعْجَبُونَ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِماً ؟ قَالَ فَسَكَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ أَنَا قَالَ لَا بَلْ تُشَقَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ»[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَهْلُ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ لَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ وَلَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ). [٣]

﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾فلهم أسورة من فضة وأخرى من ذهبٍ ولؤلؤ، قال تعالى في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٩٠١ بتصرف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٢٠٣ وأبو يعلى الموصلي في مسنده ٤/ ٤٠ حديث ٢٠٤٦، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده ١/ ٣٠٠ حديث ٢٢٧٧، والطبراني في المعجم الأوسط ٢/ ٣٥٤، والصغير ١/ ٩٠ حديث ١٢٠، والبزار في المسند ٦/ ٤٠٨ حديث ٢٤٣٤، وقال الهيثمي في المجمع: « رواه أبو يعلى والبزار إلا أنه قال: فقال الأعرابي: مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ولكنها تخلق خلقا أو تنشق عنها ثمار أهل الجنة، والطبراني في الصغير والأوسط إلا أنه قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ لا يا أعرابي ولكنها تنشق عنها ثمار الجنة» وإسناد أبي يعلى والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق» مجمع الزوائد ١٠ / ٧٦٦ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤ / ٦٣٩.

(٣) رواه الترمذي في السنن وقَالَ «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، ورواه الدارمي في السنن حديث ٢٨٨٢.

سورة فاطر: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾[فاطر: ٣٣] وفي سورة الحج: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج: ٢٣] فيلبسون أسورة الذهب تارة، وأسورة الفضة تارة، وأسورة اللؤلؤ تارة ويلبسون أسورة من الفضة مطعَّمة بالذهب وغير ذلك من بدائع الأساورِ وأفانينها.

ولما زيَّن الله تعالى ظاهرهم بالحليِّ والثياب بيَّن طهارة باطنهم وزينة قلوبهم بالحبِّ والرضا والودِّ والتآلف فلا غلٌّ ولا حسدٌ قال تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي: طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة، فهو شراب طهور نقيٌّ.

بدأ بالشراب وانتهى به وذلك لأنه أروعُ ما يستلذُّ به الإنسانُ، وحاجتُه إليه أشدُّ، وأولُ ما يتلهف عليه الإنسانُ، فحرارةُ الظمأ أشدُّ من لهيب الجوع، لذا كان مقدَّما دائما.

كما قال الشاعر [(١)]:

وقانا لفحةَ الرَّمضاءِ وادٍ		وَقاهُ مُضاعَفُ النَّبْتِ العَميم
نزلنا دوحَه فحَنا علينا		حُنُوَّ المرْضعاتِ على الفَطيمَ
وأَرْشَفَنا على ظمإٍ زُلالاً		أَلَذَّ من المُدامَة للنَّديمَ

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

هكذا يقالُ لأهلِ الجنةِ حفاوةً بهم وإكراماً لهم، لتتمَّ فرحتُهم وتكتملَ بهجتُهم، ويدومَ أُنسُهم، فذكر سبحانه من ألوان النعيم ما تَهَشُّ له الأفئدةُ، وتهفُو إليه الأرواحُ، وتتوقُ له النفوسُ، وتقرُّ به العيونُ، ثمَّ أعقبه بأسمى ما يتمنى العبدُ، وهو رضا مولاه:

وقد قيل:

إذا كنتَ عني يا مُنَى القلبِ راضِيا		أرى كلَّ من في الكونِ لي يتبسَّمُ
رضاك خيرٌ من الدنيا وما فيها		يا مالكَ النفسِ قاصيها ودانيها

---

(١) الشاعر: أبي نصر المنازي.

فليس للنفسِ من أملٍ تحققُهُ		إلا رضاك وذا أسمَى أمانيها
فنظرةٌ منك يا سؤلي ويا أملي		خيرٌ إليَّ من الدُّنيا وما فيها

﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾: وشُكْرُه لسعيهم يتجلَّى في الثوابِ الجزيلِ على العملِ القليلِ وثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام، وشُكْرُهم جزاؤهم على برِّهم وإحسانِهم.

ولما كان عملهم خالصا لوجه الله تعالى فلم يطمعوا في جزاء الناس ولا شكرهم كما قال تعالى عنهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾: قال لهم سبحانه﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

الهدايات

* فضل الوفاء بالنذر فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِهِ**)(١).
* جواز إظهار المؤمنُ للنية ليقتدي الناس به، وليبرز مقاصد الإسلام ومحاسنه وسماحته.
* استحباب الكلمة الطيبة والموعظة اللطيفة عند إطعامِ الإطعام.
* رضا الله تعالى محورُ حياة المؤمن، ومنطلقُه إلى الخيرات، وباعثه على البرِّ والإحسان.
* تذكُّر اليوم الآخر، والتفكر في هول المطلع، ومواقف الحشر، والاستعداد بالعمل الصالح قال الإمام القحطاني في النونية:

يومُ القيامةِ لو علمتَ بهولِهِ		لفررتَ من أهلٍ ومن أوطانِ
يومٌ تشققتِ السماءُ لهولِه		وتشيبُ فيه مَفَارِقُ الوِلْدَانِ
يومٌ عبوسٌ قمطريرٌ شرُّهُ		في الخلقِ منتشرٌ عظيمُ الشانِ

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ - بَاب النَّذْرِ فِي الطَّاعَةِ صحيح البخاري حديث (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

* عمل الخير لا يحمل صاحبه على العُجْبِ والاغترارِ، بل يزيده خوفا وإشفاقا.
* فضلُ إطعام الطعام، واستحباب العمل الصالح والبر والإحسان، سيَّما في المجتمعات التي تطغى فيها المادية بقسوتها وجفائها، وتغلب فيها الأثرة والأنانية، ويضيع فيها حقُّ الضعيف، في سطوةِ نُظُم جائرة، وقسوةِ ظروفٍ طاحنةٍ لا تصبُّ إلا في صالح الأغنياء، كما هو الحال في كثيرٍ من المجتمعات المعاصرة، وكما كان الحالُ عند نزول هذه الآيات في بيداءِ الجاهليةِ القاحلةِ، حيثُ الأبرارُ بمثابةِ واحةٍ ظليلةٍ حانيةٍ في قلبِ هاجرةٍ شحيحةٍ جافيةٍ، فيطعمون الطعام ببشاشةِ وجهٍ، وطلاقةِ مُحيًا، وأَرْيَحِيَّةِ نفس، ورقَّة قلب، وصفاءِ نيِّةٍ، وعذوبةِ لسانٍ.
* فضلُ واستحبابُ البشاشة في وجه الفقير والمسكين، والحذر من العبوس في وجهه فإدخال السرور عليه من دواعي تحصيل السرور في الآخرة، « قيل لابن المنكدر: أيُّ العملِ أحبُّ إليكَ ؟ قال: إدخالُ السرورِ على المؤمنِ، قالوا: فما بقي مما تستلذ ؟ قال: الإفضال على الإخوان» [١].
* فضل الإحسان إلى الأسير، والمراد به: أسير المعركة من الكفار، وفي هذا ما يدل على حسن التعامل معهم والترفق بهم، وهذه الآية وإن كانت مكية لكنها باعتبار ما يكون، ومن باب تربية النفس وإعدادها لما تستقبله، والأسير أيضا هو أسير المؤمنين في معسكرات الكفر وكذلك المحبوسون في سجون الطغاة من المؤمنين الأبرياء، ينبغي المبادرة إلى إطعامهم ورعاية أُسَرِهِم، فضلا عن السعي إلى فكِّ أَسْرِهِمْ.
* الجزاء من جنس العمل، والله تعالى يجزي بالثواب الجزيل على العمل القليل.
* نعيم أهل الجنة نعيم ماديٌّ حسيٌّ، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين.
* نعيم أهل الجنة نعيمٌ كاملٌ شاملٌ، خالصٌ خالٍ من المكدِّرات والمنغصات.
* قدرة الله تعالى وبديع صنعه وواسع فضله وعظيم كرمه.
* كرامة الأبرار عند ربهم، وحفاوته ولطفه بهم.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٦٤.

توجيهٌ للنبيِّ ﷺ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٣ - ٢٦]

المناسبة

* بعد أن أشارت مقدمة السورة إلى السبيل الذي هدى الله الإنسانيةَ إليه، وتبَدَّت بعضُ معالِمِهِ ولاحت بعض مراسمه عند حديث السورة عن صفات الأبرار: عاد السياق لبيان معالم هذا السبيل.
* كذلك: بعد الحديث عن نعيم الجنة الذي به تتسامى النفوسُ وتتفتقُ المواهب وتجدُّ النُّفوس وتعلو الهمم، وتتسابق الخُطَى، يجيء السياق منوِّها على فضل القرآن ونزوله منجَّما تثبيتا للفؤاد، وترطيبا للأكباد، وتسريةً عن النفوس، فالقرآن سبيل هداية الإنسان وسعادته في الدارين، قال تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾
* وإذا كان هذا النعيم المقيم والملك العظيم ينتظر أهل الإيمان فليتحلوا بالصبر والثبات وليستعينوا بذكر الله تعالى فهو من أجلِّ القربات، والصبر والثبات مع المداومة على الذكر خير زاد وأقوى عتادٍ أمام جحافلِ الفتنِ وضروبِ النائبات.
* وفي هذه الآيات توجيهٌ وتسليةٌ وتثبيتٌ للنبي ﷺ، والمعنى: كما كرَّمناكَ بما أنزلناه عليك فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سَيُدَبِّرُكَ بحسنِ تدبيرِهِ.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾: في هذه الآيات تذكيرٌ للإنسان بمنهاج الحياة ودستورها، ومنارِ طريقها، وحادي ركبِها، وهو القرآن الكريم الذي نزَّله الله تعالى نجوماً

حسب الأحداث والنوازل؛ تثبيتا للنبي ﷺ والمؤمنين ومجاراة للأحداث ومتابعة للمستجدات ومواكبةً وتدرجاً لسيرِ الدعوة ومسيرة التشريع.

وجاءت الآياتُ مؤكدةً نزولَه من عند الله تعالى، فهو كتابُه الخالدُ وخطابُه المتجددُ ورسالتُه الساميةُ.

قال تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والذي أراه أنها لترتيب ما جاء قبلها من أول السورة على ما بعدها من الدعوة إلى الصبر والثبات والاستقامة على منهج الله والامتثال لحكمه، فكلُّ ما سبق من أول السورة يمهِّد ويؤكِّدُ ويرغِّب ويحببُ في الصبر - هذا الدواء المرِّ لفظا ومعنى -.

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ ﴾: فبعد أن تجلت لك تلك الحقائق وبعد هذه الجولة الطويلة في رياض الجنة، وبعد أن من الله عليك بتنزيل كتابه الخاتم على قلبك بما فيه من دعوةٍ وتكليفٍ وتوجيهٍ فاصبر، فدعوة القرآن وطريقه وإن كان يفضي في النهاية إلى النعيم المقيم، إلا أنه يحتاج إلى صبر وثباتٍ لمواجهة الفتن والعقباتِ، ومجابهةِ المكائد التحدياتِ التي يحيكُها أهل الكفر والعصيان، فلا تطعْ آثمهم على إثمه، ولا تطع كافرهم على كفره، واستمسك بكتاب الله واستعن دوما بذكره؛ فهو ترطيبٌ للأفواهِ وتثبيتٌ للقلوبِ وضياءٌ للدروبِ وتفريجٌ للكروبِ ومجابهةٌ للمحنِ والخطوب، وكذلك قيام الليل وكثرة التسبيح فبهما حياةُ الروح، وسمو الهمة، وسناء الأمة: قال تعالى ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المزمل:٢٥-٢٦].

« قال الطيبي الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه ﷺ عن إطاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلها من غير اختصاص وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ

وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧ – ٩٩][1].

الهدايات

* نزول القرآن من عند الله تعالى منجما لحكمة بالغة وهي تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومواكبة مراحل الدعوة وتطوراتها، ومتابعة المستجدات والنوازل.
* الدعوة إلى الصبر والثبات والاستقامة على منهج الله.
* مخالفة أهل الكفر والعصيان، والصمود أمام المحن والمُلِمات.
* الاستعانة بالصلاة والذكر والدعاء.
* فضل قيام الليل، فهو نورُ المؤمن وزادُ الداعية.
* همومُ الدعوةِ ومشكلاتُها، ومِحَنُهَا وعَقَبَاتُهَا: لا ينبغي أن تشغلَ الداعية عن العبادة، فهي غاية الوجود؛ كيف وهي الزادُ الروحيُّ الذي يعينُه ويُقوِّيه على دعوته.

لفتةٌ ووعيدٌ للمشركين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الإنسان: ٢٧ – ٢٨

المناسبة والتفسير الإجمالي

بعد هذا البيان الساطع والحجج الدامغة والحِكَم البالغة: بيَّن سبحانه أن هناك من يتعامَى عن سبيل الهدى ويؤثر الضلال ويختار الشقاء ويغمِّض عينيه عن هذا النعيم فلا يتفتح له قلبه وما ذلك إلا لشغفه وتعلقه وانشغاله بالمصالح العاجلة واللذاتِ المنقضية والمُتَعِ الفانية، فلا يبالِ بما ينتظره من هولٍ وبيلٍ ويومٍ ثقيلٍ وكربٍ عظيمٍ!

(١) فتح القدير للشوكاني ٧/ ٣٨٤.

وهذا من ظلم الإنسان لنفسه وعَجلَتِهِ، وجحوده لربه الذي خلقه وأودع فيه القوةَ.

ولو شاء الله تعالى لأهلكه وطوى ذكرَه، ولكن حكمة الله تعالى في الابتلاء والإمهال ومنح العبد حرية الاختيار.

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي: لو شئنا لأهلكناهم، وجئنا بأطوع لله منهم. وقيل المعنى: مسخناهم إلى أسمجِ صورةٍ، وأقبحِ خلقةٍ[1].

الهدايات

* تسلية قلب النبي ﷺ وتثبيته.
* تحليل طبيعة المشركين وسبر أغوار نفوسهم وكشف خباياهم والإفصاح عن أسباب صدودهم وإعراضهم ومن أهمها حب العاجلة.
* المقارنة بين سرعة انقضاء الدنيا وبين طول يوم القيامة، فهو يومٌ عظيمٌ قدرُهُ فضلا عن ثِقَلِهِ على المشركين.
* القادر على خلقهم قادرٌ على تبديلهم.
* كمال قدرته تعالى ومشيئته النافذة.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٩٥.

كلمةٌ أخيرةٌ

في ختام السورة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٩: ٣١]

المناسبة والتفسير الإجمالي

تختم السورة الكريمة بما بدأت به ؛ فإذا كان الإنسان الذي يصول ويجول في أرجاء هذا الكون ويغدو ويروح في أقطاره، يسبر أغوارَه ويتمتعُ بخيراته، ويحوزُ كنوزه وثرواته، ويبني ويُعمِّرُ ويسابق الرياحَ ويُصارع الأمواجَ، ويغوص في الأعماق ويسيحُ في الآفاق، هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض وحمَّله الأمانةَ وسلَّمه مفاتحَ كنوزها ومنحه القدرة على التفكير والإبداع، ومواجهة المصاعب والتحديات، هذا الإنسان الذي انقادت له كثيرٌ من المخلوقات، لم يكن له من قبل ذكرٌ، فاستهلت السورة بتذكيره بأصله وتاريخه وغاية وجوده وطريقه، ثم جاءت الخاتمة مقررة لهذه التذكرة وداعيةً إلى سبيل الرشاد.﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهذا الكون إنما تحكمه إرادةٌ واحدةٌ ومشيئةٌ واحدةٌ هي إرادة الله تعالى الغالبة ومشيئته النافذة، فلا حيلة للإنسان في قضاء الله وتقديره، وهذه المشيئة الإلهية وفق علمه تعالى وحكمته، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾: أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، وعليم بمن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، ولله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له.

وفي الختام فإن من سلك طريق الحق فاز بالرحمة والرضوان، ومن سلك طريق الظلم والعدوان باء بالخسران العظيم، واستحق العذاب الأليم.

الهدايات المستنبطة

* لفتُ الأنظارِ إلى ما في هذه السورة الكريمة مِن دروسٍ وعبر ووعد ووعيد وحجج وبراهين، فمن شاء أن يسلك طريق الحق سلكه.
* مشيئة الله عز وجل نافذة وإرادته تعالى هي الغالبة.
* من صفات تعالى التي تجلت في ثنايا هذه السورة الكريمة وجاءت في ختامها صفة العلم والحكمة، فهو تعالى الذي أحاط بكل شيء علما، وجميع أفعاله تعالى وأقداره وفق حكمة بالغة قد تظهر لنا وقد تخفى علينا.
* مشيئةُ الخالق الباري وحكمتُهُ وقدرةُ الله فوق الشك والتهم
* الهداية رحمة إلهية ومنحة ربانية يختص بها من يشاء من عباده، فعلى الإنسان أن ينشدَها ويسعى إليها، أما الذين لا يبالون بها ولا يبحثون عنها ولا يجدُّون في طلبها فعذابهم أليم.
* اتخاذ السبيل إلى الله بالتقرب إليه والتوسل بطاعته.

سورة المرسلات

أولا: بين يدي السورة

الإيمان باليوم الآخر ركنٌ أساسيٌ من أركان الإيمان، وهو سلوى المؤمن وزاده، وعلى ضوئه يضبط الإنسان سيره ويصححُ سلوكَه، فهو محور الحياة وقوامُها.

والحديث عن اليوم الآخر تذكرةٌ لكل أذنٍ واعية، ورسالةٌ إلى كلِّ من له قلبٌ، وهِزَّةٌ عنيفةٌ لمن توانى عن الغايةِ التي من أجلِها خلِقَ، فهو إعذارٌ وإنذارٌ وعبرةٌ لأولي الأبصار.

ولقد عُني القرآن الكريم بإبراز مشاهد القيامة وأهوالها، وتقرير حقائقها وتأكيد وقوعها.

يقول صاحب الظلال: « القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها؛ والتي أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى. وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم، وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً. فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية، وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعاً.. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول»[1].

وسورة المرسلات من السور المكية، موضوعُها: القيامةُ وأهوالُها ومشاهدُها وشدائدُها التي تُحِيطُ بالمكذبينَ، وبردُها وسلامُها وَرَوْحُها وظلالُها التي تكْتَنِفُ المتَّقين، تلك المشاهدُ التي سيقت تذكرةً لأولي الألباب، وعبرةً لأولي الأبصار، وإنذارًا للظَّلَمَةِ الأشرارِ.

والسورة من مستهلّها إلى ختامها تقدم الحجج والبراهين على أن هذا اليوم واقعٌ لا محالة.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٩١.

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة المرسلات كما سيأتي في الحديث الوارد في فضلها، ومناسبةُ تسميتها لمضمونها واضحة.

ب. فضائل السورة.

عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو بكرﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا شَيَّبَكَ ؟ قَالَ ﷺ: (**شيَّبتني هودٌ والواقعةُ والمُرْسَلات و﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾و﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾**)[1].

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على كثرة قراءته ﷺ لهذه السورة الكريمة، وعظيم تأثُّره بها ووقع أثَرِها عليه هي وأَخَوَاتُها من السُّور التي تُبرزُ أهوالَ القيامةِ، وتُصوِّرُها رأيَ العين.

أمـــا واللهِ لـــو عَـــلِـمَ الأنـــامُ		لِمَـا خـلـقُـوا لما هـجـعُـوا ونـامُـوا

لـقـد خـلـقـوا لأمـــرٍ لـو رأتْـــهُ		عـيـونُ قـلـوبهم تـاهـوا وهـامُـوا

ممـــاتٌ ثـم قـــبرٌ ثـم حـــشرٌ		وتـــوبـــيـــخٌ وأهـــــوالٌ عـــظـــامُ

ج. مكية السورة.

هذه السورة نزلت في مكة، قال القرطبي:» مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال

---

(١) رواه الترمذي في السنن كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ سنن الترمذي ٥ / ٣٩٩ حديث ٣٢١٩، وقَالَ: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ» رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٧٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: « على شرط البخاري»، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ١٦٠ برقم ٨٢٦٩ ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧ / ٢٠١، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٦، وعزاه إلى ابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه وابن عساكر، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب التفسير باب تفسير سورة هود ٧/ ٣٧، وقال رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١ / ٤٨١ حديث ٧٩٣، وأبو يعلى الموصلي في مسنده حديث ١٠١.

ابن عباس وقتادة إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ مدنية»[1].

والذي أراه أن السورة كلَّها مكية، والصلاة كما هو معلوم فرضت بمكة، ولعل هذا يدل على نزول السورة بعد السنة العاشرة من البعثة، والله أعلم.

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها خمسون آية (٥٠) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها[2].

هـ. محور السورة.

محورها الرئيسي الذي تدور حوله هو القيامة: حتميَّتُها، وتيقُّنُ وقوعُها، وأهوالها العظام، ومواقفها المتباينة.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة الكريمة هي: سورة المرسلات، والمرسلات: الملائكة حين يتتابع إرسالهم بمهامٍّ جليلةٍ، فيسارعون إلى القيام بها، وهذا يذكرنا بسرعة وتتابع أهوال القيامة ومواقفِها المُذهِلة ومشاهدها العظيمة التي تجري بأمرٍ وتدبيرٍ وتقديرٍ من الخالق جلَّ وعلا، وتلك مناسبةٌ ظاهرةٌ بين اسم السورة ومضمونها.

فسورة المرسلات من السور القرآنية التي تسلِّطُ الضوء على يوم القيامة، وتبرز أهوالها وتصور مشاهدها، وتبينُ وقع هذا اليوم الرهيب على المكذبين، ونسماته الحانية وظلاله الوارفة التي تكتنف المتقين.

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٩ / ١٣٦.

(٢) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢٢٤، وكتاب **البيان في عدِّ آيِ القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢٦١.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ تأكيدٌ بالقسم على وقوع الساعة وتحقق الموعد، ثمَّ في ختامها إنكارٌ على المكذبين بيوم الدين مع تواتر حججه، وتجلِّي شواهده، وجلاء آياته، فبأي حديثٍ بعده يؤمنون، وبأي شيء يصدقون إن لم يؤمنوا ويصدقوا بهذا اليوم الحقِّ !

وعن الصلة بين افتتاحية السورة ومضمونها وبين خاتمتها: يقول الإمام الرازي: " اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة التي شرحناها، وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها فبأي حديث بعده يؤمنون "[1].

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة المرسلات، وسورة الإنسان: صلة واضحة جلية، حيث جاءت سورة المرسلات مقررةً لما جاء في سورة الإنسان من وعد ووعيد، كما ورد الحديث فيها عن خلق الإنسان، وأسهبت السورة الكريمة في الحديث عن عذاب الكفار بينما يرد فيها الحديث عن نعيم المؤمنين في لمحة سريعة، وفي هذا ما يدلُّ على تكامل السور القرآنية وتنوعها: موضوعا وأسلوبا وتناولا.

وحول هذا المعنى يقول صاحبُ الظلال: « فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن والمكية منها بوجه خاص ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة، وفي أضواء متعددة، وبطعوم ومذاقات متعددة، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله، فتبدو في كل حالة جديدة، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة.

(١) التفسير الكبير الرازي ١٦ / ٢٧٨.

وفي هذه السورة جِدَّةٌ في مشاهد جهنم. وجِدَّةٌ في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد. كما أن هناك جِدَّةً في أسلوب العرض والخطاب كله. ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة. حادة الملامح. لاذعة المذاق. لاهثة الإيقاع!»[1].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن مشاهد القيامة مع التركيز على أهوالها، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

حديث السورتين عن القيامة وأهوالها، ويلاحظ توسُّع سورة المرسلات في هذا الموضوع.

حديث السورتين عن مصير المكذبين، ويلاحظ كما أسْلفنا: توسُّعُ سورة المرسلات في ذلك.

حديث السورتين عن نعيم الجنة، ولقد توسعت سورة الإنسان في ذلك.

حديثهما عن خلق الإنسان، ليعرف الإنسان قدره ولا يغترَّ بذاته، وليوقن بقدرة الله تعالى.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول القيامة وأهوالها جاءت المقدمة مقررةً وقوعها بالقسم الذي جاء متناسبا مع المقسم عليه، كما تناسب مع السياق العامِّ للسورة.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٧٩١.

يقول صاحب الظلال: « ومنذ بداية السورة والجوُّ عاصفٌ ثائرٌ بمشهد الرياح أو الملائكة: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾.. وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام»[1].

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السـورة

مشاهد القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾ [المرسلات: ١ – ١٥]

التفسير الإجمالي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾ [المرسلات: ١ – ٧]

أقسم الله تعالى بالملائكة الذين أرسلهم، فجاءوا متتابعين لتحقيق أمره تعالى، مسرعين كالريح العاصف في امتثال أمره تعالى، أو أرسلوا بالعرف أي بالمعروف فإنهم لا يأتون إلا بالخير والإحسان، فالعرف خلاف النُّكر أي أرسلهن للإحسان والمعروف، فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة فمعنى الإحسان حينئذ ظاهر، وإن كانوا قد بعثوا لأجل العذاب فذلك إن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله من الكفار لأجلهم.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٧٩١.

ثم أقسم تعالى بالملائكة حال نشرهن أجنحتهن خضوعا لأمر الله تعالى وإذعانا وامتثالا أو نشرن العلم في ربوع الأرض بأمر الله تعالى، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين، أو القسم بالرياح المرسلة بالخير والرياح العاصفة العاتية والرياح الناشرة للخير الجامعة للسحاب والمفرقة له، وفق تقدير الله تعالى، فتقع الأمطار وتنشر الأرض الميتة أي تحييها بالنبات، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[فاطر ٩]، وعلى هذا فمعنى إلقاء الرياح ذكرا: أي تسببن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكر الله تعالى وتذكر كمال قدرته ورحمته، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[فصلت: ٣٩].

أو ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾: الملائكة: تُلقِي الوحي على الأنبياء عليهم السلام، { عُذْرًا } للمحقين { أَوْ نُذْرًا } للمبطلين.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ هذا جواب القسم. **والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:** أقسم تعالى بالملائكة أو بالرياح، وكلاهما من دلائل قدرته وآثار رحمته، وشواهد عظمته، فالملائكة خاضعون لأمره منقادون لحكمه وكذلك الرياح مأمورة ومسيَّرةٌ بتقديره وحكمته، وفي هذا دليل على إمكانية البعث والنشور للفصل بين الخلائق.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: « المقسم عليه هو يوم القيامة، وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه، فالرياح عرفاً تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر، ويحيي الله الأرض بعد موتها.

وهذا من أدلة القدرة على البعث، والعاصفات منها بشدة، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير وكلاهما دال على القدرة على البعث.

ثم تأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار،﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾. والله تعالى أعلم»[1].

ثم ذكر تعالى جملةً من أهوال هذا اليوم ومواقفه فقال ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ ﴾ مُحِقت أو ذَهَبَ نورها، أو أزيلت عن أماكنها بالانتثار، وأذهب ضوءها بالانكدار.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ ﴾ تصدعت وتفتحت فكانت أبوابا، ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ ﴾ كما ينسف الحَب، وسيرت أجزاؤها في الهواء كما في سورة« طه » قوله تعالى ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه:١٠٥ -١٠٧].

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعين لهم قبله، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره، وقرأ أبو عمرو «وقتت» على الأصل[2].

﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ ﴾ الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من صدقهم وظهور ما كانوا يوعدون الأمم إليه ويخوفونهم به من العرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين. ثم أجاب بأنهم أجِّلوا﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ ﴾ بين الخلائق، الفصل بين الحقِّ والباطل، بين الكافر والمؤمن، بين المحسن والمسيء، بين الظالم والمظلوم.

قال ابن عاشور: « و{ الفصل }: تمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاءِ إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضحُ الحقائق على ما هي عليه في الواقع»[3].

---

(١) يراجع: **أضواء البيان** الشيخ الشنقيطي ٨ / ٦٨٧.

(٢) قرأ أبو عمرو بواو مضمومة مبدلة من همز { وقِّتت }، وقرأ الباقون { أُقِّتَتۡ } بالهمز. يراجع **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري ٢/ ٣٩٦ **وحجة القراءات** لابن زنجلة ص ٧٤٢، ٧٤٣، ومعنى أقتت «جعل هلا يوم القيامة وقتا» **الكشف عن وجوه القراءات السبع** لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ٢/ ٣٥٧ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٢٦.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله ؟ استفهام سيق لبيان عظمة هذا اليوم وهوله.

فمهما تصوَّرنا ما يحدث يوم القيامة من انفجاراتٍ كثيفةٍ وهزاتٍ عنيفة ومهما استشعرنا هول هذا اليوم العظيم، فليس العيان كالبيان !

قال تعالى في مطلع سورة الحج ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ ﴾، وقال تعالى في مطلع سورة الواقعة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ فهذا موعدهم الذي استبعدوه تارة وتعجلوه تارة أخرى وكان يكذبون به.

الهدايات المستنبطة

* بديع أساليب القرآن وتنوعها في الاستدلال على القيامة، قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٣].
* التناسب بين المقسم به والمقسم عليه سمةٌ عامةٌ من سمات الأسلوب القرآني.
* لفتُ الأنظار إلى عالم الملائكة هذا العالمُ الرحيبُ وهذا الخَلْقُ العجيبُ، والاعتبار بوجوده فهو من شواهد العظمة ودلائل القدرة ومظاهر الإبداع وآيات الجمال في هذا الكون.
* الرياح نعمة محسوسة وآية مشاهدة تدل على كمال قدرة الله تعالى وتدبيره.
* دقة وروعة التعبير القرآني عن الآيات الكونية مع إيجاز العبارة وروعةِ النَّسَقِ وحسن الاتساقِ.

مصارع الغابرين وسنن الله في المكذبين

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩]

المناسبة

لما أكد تعالى حقيقة البعث وإمكانيته بالقسم، دعا إلى النظر في أحوال الغابرين ومصارع السابقين، نَظَر اعتبارٍ.

التفسير الإجمالي

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ من الأمم الغابرة كقوم نوح وعاد وثمود،﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي نظراءهم ممن جاء بعدهم، ولم يعتبروا بهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم موسى.

قال ابن عاشور: « والإهلاك: الإعدام والإماتة. وإهلاك الأولين: بالاستئصال مثل إهلاك عاد وثمود، أو بما سَنَّ الله عليه نظامَ هذا العالم من حياة وموت»[1].

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الفعل.﴿ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ يوم هلاكهم، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وعذبهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر.

الهدايات المستنبطة

* النظر في أحوال الغابرين ومصارع السابقين، والتأمل في سننه تعالى في الأولين، ففي تداول الأمور وتبدل الأحوال وتغاير الأزمنة وهلاك المكذبين عظةٌ واعتبارٌ.

  كما قال قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي:

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٢٨.

في الذّاهبين الأوّلين ... مِنَ القُرونِ لنا بَصَائر
لما رأيتُ مواردا ... لِلمَوْتِ ليس لها مَصادر
ورأيتُ قومي نحوَها ... يَمْضِي الأصاغرُ والأكابر
لا يَرْجِعُ الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابر
أيْقَنْتُ أنِّي لا محالةَ ... حيث صار القَوْمُ صائر

* عاقبة المكذبين ونهاية المجرمين هي الهلاك والخسران، والحسرة والحرمان.

* استئصال المكذبين والانتقام منهم برهانٌ جليٌّ على كمال قدرته تعالى.

تأملات في خلق الإنسان والكون

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٨]

المناسبة

بعد الدعوة إلى النظر والاعتبار في مصارع الظالمين والتحذير من سبيلهم الذي سلكوه فأودى بهم إلى الهلاك - وتلك هي المواعظ الصامتة؛ إذ يكفي الإنسان الوقوف على آثارهم والنظر في أطلالهم وخرائبهم -: تأتي دعوةٌ أخرى إلى إمعان النظر وإعمال العقل في آيات الله الإنسانية والكونية فهي الشواهدُ الحيةُ الناطقةُ، وقد قيل:

وَعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ صُمُتْ ... وَنَعَتْكَ أَزْمِنَةٌ خُفُتْ
وَتَكَلَّمَتْ عَنْ أَوْجُهٍ ... تُبْلَى وَعَنْ صُوَرٍ سُبُتْ
وَأَرَتْكَ قَبْرَكَ فِي الْحَيَاةِ ... وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ

وَكَانَــتْ فِي حَيَاتِــكَ لِي عِظَـــاتٌ وَأَنْــتَ الْيَــوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا [(١)]

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة دعوةٌ إلى النظر والاعتبار، فكلُّ ما يحيطُ بالإنسان من آياتٍ يُعدُّ شاهدا ناطقا وبرهانا صادقا على إمكانية البعث، ولو تأمل الإنسان في ذاته لأدرك كمال قدرته تعالى ولطائف حكمته.

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ نطفة مذرة ذليلة، فلماذا هذا الغرور والكبر !

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾: أودعناه في الرحم حتى اكتملت الأطوار.

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: إلى مقدار الوقت الذي قدره الله تعالى لخروج الجنين من بطن أمه.

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: له أجله ورزقه وعمله فنعم القادرون.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾: بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾: فهي جامعةٌ لما فيها، ضامةٌ لما عليها من أحياء وأموات فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترا لهم، وتكريما لهذه الأجساد الهامدة، وحماية لها من الوحوش الضارية والطيور الكاسرة.

﴿ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾: من الإنسان والحيوان والنبات.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾: جبالاً ثوابت طوالاً فيها ما لم يعرف ولم يُرَ، ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ بخلق الأنهار والمنابع فيها، وانحدار المياه من الجبال إلى الوديان.

الهدايات المستنبطة

* وجودُ الإنسانِ وحياتُه الأولى دليلٌ وبرهانٌ على بعثِهِ وحياتِهِ الأُخرى، فالذي خَلَقَهُ من ماءٍ مهينٍ قادرٌ على أن يعيدَه كما بدأَهُ أولَ مرَّةٍ.

---

(١) الأبيات لأبي الْعَتَاهِيَةِ.

* آياتُ اللهِ في الكونِ شواهدُ ناطقةٌ وبراهينٌ جليةٌ على إمكانية البعث.

* دواءُ الكِبْرِ والعُجبِ التفكُرُ في النفس والرجوع إلى الأصل وهو الماء المهين الذي خلق منه بنو آدم.

قال القشيري: « قوله جلّ ذكره: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾: أي: حقير، وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال: ذَكَّرَهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بني آدم، فمن الواجب أَنْ يَتَفَكَّرَ الإنسان في أَصله... كان نطفةً وفي انتهائه يكون جيفة، وفي وسائط حالِه كنيفٌ في قميص!! فبالحريِّ ألاَّ يُدِلَّ ولا يفتخر:

كيف يَزْهُو مَنْ رجيعُهُ　　　أَبَدَ الدهرِ ضجيعُه

فهو منه وإليه　　　وأَخوه ورضيعُه

وهو يدعوه إلى الحُشِّ بِصَغارٍ فيطيعه؟!!»[1]

* « يؤخذ من الآية ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾: وجوب الدفن في الأرض إلاّ إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإِرساء يضر بالراكبين أو يُخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر وتثقَّل بشيء لترسُب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مَجُوس الهند، وكما كان يفعله بعض الرومان، ولا وضعُه لكواسر الطير كما تفعل بعضٌ من طوائف المَجُوس»[2].

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري ٨ / ١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٤٣٢ بتصرف.

عودٌ إلى مشاهد القيامة

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٥٠]

المناسبة

بعد تقرير حقيقة هذا اليوم بالأدلةِ القاطعةِ والشواهِدِ الساطِعَةِ يعودُ السياقُ لأهوالِ هذا اليومِ العصيبِ وشدائدِهِ المتتابِعَةِ ومشاهِدِهِ المتبايِنَةِ.

المشهد الأول

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يُزجرُ الكفارُ ويساقون من القبور إلى أرض المحشر، قد أثقلتهم الذنوبُ وأرهقتهم الكروبُ وسوَّدتهم الخطايا، وهم بين توبيخٍ وتقريعٍ:﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ من العذاب.

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ ﴾ تكرار الأمر زيادة في التوبيخ والتهكم أو لاختلاف الوجهة فأمرهم أولا بانطلاقة عامة، ثم حدد الوجهة فقال﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقرأ يعقوب[1]

(١) النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٩٧.

على الإخبار عن امتثالهم للأمر اضطراراً، بعد أن كانوا في الدنيا معرضين معاندين.﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ يعني ظل دخان جهنم، وهو في معنى قوله تعالى ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٤]. ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾: يتشعبُ لِعَظَمِهِ كما ترى الدخانَ العظيمَ يتفرقُ تفرقَ الذوائب.

« وشعبها الثلاث كونها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم، وعن قتادة: هو الدخان: شعبة عن يمينهم وأخرى عن يسارهم والثالثة من فوق، تظلم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش»[(١)].

﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ تهكُّمٌ بهم، فهو لا يشابهُ الظلَّ إلا في اسمِهِ فهو لا يعني الاسترواحَ، بل هو ظلٌّ من دخانٍ خانقٍ ولهيبٍ حارقٍ، نكايةً بهم وانتقامًا منهم، كما انطلقوا في الدنيا إلى ظلٍّ زائلٍ

المشهد الثاني

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

لفتةٌ مفاجئةٌ إلى مشهدٍ آخر من المشاهد الرهيبة التي تحيط بالكفار، مشهد جهنم، والشرر يتطاير منها حنقا وغيظا، وهي تتربص بأعداء الله ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي كل شرارة ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ في عظمها.

﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل. ﴿ صُفْرٌ ﴾ فإن الشرار بما فيه من النار يكون أصفر، وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص { جِمَالَةٌ } وعن يعقوب { جُمَالاَتٌ } بالضم جمع جُمالة،، وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة، شبهه بها في امتداده والتفافه[(٢)].

---

(١) يراجع: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للإمام النيسابوري ٢٩ / ١٣٧.

(٢) يراجع: **النشر في القراءات العشر** ٢/ ٣٩٧.

ومن لطائف ودقائق هذا التشبيه العجيب: أنه شبّه الشرر تارة بالقصور، وهي موضع الأمن وأعظم ما يشتهيه الإنسان وينفق في تشييده الأموال، وفي هذا تهكُّمٌ بالكفرة، فضلا عن ملامسة هذا التشبيه لواقعهم وأحاديثهم وأمانيهم، « وكذلك لأن القصر موضعُ الأمن وتشبيه الشرارة به، إشارة إلى أن الكافر إنما يعذب بآفة من الموضع الذي يتوقع منه الأمن وهو دينه وملته التي ظن أنه منها على شيء»[1].

، كما شبَّهه مرة ثانية بالجمال، وهي أعزُّ ما كانت العرب تملكه ولا يزال، ووجه التشبيه: أن الإبل إذا نفرت وشردت متتابعة نال من وَقَع في طريقها بلاء شديد. فتشبيه الشرر بها يفيد كمال الضرر، أو شبه الشرر في ضخامته بالقصور الشاهقة وفي صفرته بالجمال الصفر.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ عند معاينة هذا الهول ومكابدة هذا العذاب.

المشهد الثالث

قَالَ تَعَالَى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ المرسلات

مواقف متباينة ومشاهد مختلفة، لكنها تتفق فيما تحمله من الويلات والأهوال، والترويع والإذلال، فمرةً يصابون بالبكم، وتارة يمنعون من النطق، ولو للاعتذار والإقرار﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، فويل لهم هذا اليوم، وقد مُنِعُوا من الكلام.

المشهد الرابع

قَالَ تَعَالَى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ المرسلات

يجمع الله تعالى الأولين والآخرين ليفصل بين الخلائق، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء

(١) يراجع: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للإمام النيسابوري ٢٩ / ١٣٩.

بإساءته في محكمة عادلة فاصلة، وفق ميزان دقيق، ويتحداهم الله تعالى ويتهكم بهم ويوبخهم على ما كان منهم في الدنيا من كذبٍ وخداعٍ، وهم يعلمون أن الحيل يومئذ منقطعة لا سبيل لهم إليها، ولو تمكنوا منها ما نفعتهم، وهذا في نهاية التوبيخ وغاية التقريع فلهذا عقَّبه بقوله ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

المشهد الخامس

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ينعطف السياق من الحديث عن تلك اللفحات الحارقة إلى نفحاتٍ عاطرةٍ، فينتقل من وصف الجحيم إلى وصف حال أهل النعيم.

ففي مقابل هذا المشهد الرهيب والموقف العصيب، وبينما الكفارُ يقاسون تلك الشدائد الموبقة، في هذا اليوم العصيب الذي يتبدَّى للمتقين بصورةٍ أخرى فهو بالنسبة لهم يومٌ أغرٌّ باسمٌ، يومٌ مشرقٌ وضاءٌ، لطالما انتظروه واستعدوا له بصالح الأعمال، وها هو قد أتاهم يزفُّ إليهم البشائر، ويهبُّ عليهم بالنسائم، وهم في ظلال وعيون.

وما أجمل قول القشيري رحمه الله: « اليومَ في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة، اليومَ في ظلال التوحيد، وغداً في ظلال حُسْن المزيد.

اليومَ في ظلال المعارف   وغداً في ظلال اللطائف

اليومَ في ظلال التعريف   وغداً في ظلال التشريف»[(١)]

ظلال وارفةٌ، وأشجار مورقةٌ، وعيونٌ متدفقةٌ، وقصورٌ مُزدانةٌ متأنقةٌ، وفواكهُ شهيةٌ طيبةٌ ونعيمٌ روحيٌّ، وحفاوةٌ بالغةٌ، وترحيبٌ وإكرامٌ، وثناءٌ عطرٌ من القدُّوسِ السلامِ،﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١) يراجع: **لطائف الإشارات** للإمام القشيري ٨ / ٢١.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ تزداد حسرتهم وآلامهم عندما يرون المتقين في ظلال وعيون ويشهدون ما هم فيه من كرامةٍ، فيشعرون بالندم على ما فاتهم والتقصير في حقِّ أنفسهم، فالويلُ لهم من هولِ هذا اليومِ، يومِ الحسرةِ والندامةِ.

ختام السورة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ خطابٌ للمشركين وتهديدٌ لهم، فليأكلوا في الدنيا ما طاب لهم، وليتمتعوا فيها بما راق لهم، فإنها حياةٌ ذاهبةٌ وعيشةٌ منقضيةٌ ومتاعٌ قليلٌ، وأين هذه المطاعم الفانية والمتع الزائلة والأعراض الدنيوية من نعيم الآخرةِ المقيمِ ! وعيشها الكريم !

وفي الآيات تعريض وتوبيخ للكفار الذين شغلتهم الشهوات وصرفتهم الملذات عن التفكير في هذا المصير المحتوم.

وقد قيل:

وإن امـــرأً دنـيـــاهُ أكـــبرُ همِّـــهِ ... لمستمسكٌ منها بـحـبـلِ غـرورِ

******

لا يخـدعـنَّـك بـعـد طـول تجـارب ... دنـيـا تـغـرُّ بـوصـلـهـا وستقطعُ

أحـــلامُ نـــوْمٍ أوْ كـظـلٍّ زائـلٍ ... إنَّ الـلَّـبـيـبَ بمثلها لا يُخـدَعُ

فويلٌ للمكذبين حين يرون العذاب، وويلٌ لهم عندما يرون كرامة المتقين، ثم الويل لهم حين ينادى عليهم نداء الزجرِ والتقريع، وهم بين الزقوم والضريع فيقال لهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ يذكرون بجرائمهم التي أردتهم، وذنوبهم التي أثقلتهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إذا قيل لهم اركعوا في هذا اليوم لا يركعون، حيث حُرِمُوا من لذَّةِ الركوع كما حرموا أيضا من لذة السجود، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم ٤٢- ٤٣].

كذلك وهم في الدنيا إذا دعوا إلى الركوع لله وحده أعرضوا.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾: « ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين؟ »[١].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: بعد هذا البيان إن فاتهم الإيمان فمتى يؤمنون ! وبأيِّ حديث بعد القرآن يصدقون !

« والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهزُّ الرواسيَ، وبهذه الهِزَّاتِ التي تزلزلُ الجبالَ، لا يؤمن بحديثٍ بعده أبداً. إنما هو الشقاء والتعاسة والمَصير البائس، والويلُ المدخَرُ لهذا الشقيِّ التعيس! »[٢].

وقال ابن عاشور: « والمقصود أن القرآن بالغٌ الغايةَ في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعونه عقب ذلك »[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٩٥ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٤٨.

الهدايات المستنبطة

* عذاب الكفار عذاب معنوي فوق أنه حسيٌّ، فللقلب والوجدان منه نصيب كما للحواسِّ بأسرها، فتوبيخٌ وتقريعٌ وتهكمٌ، من ذلك ما ورد في المشهد الأول من ظلٍّ يدعون إليه، بيد أنه لا يشابه الظلَّ إلا في اسمه فهو لا يعني الاسترواح، بل هو ظلٌّ من دخان خانق ولهيب حارق، كما كان الكفار والمنافقون يطلقون الشعارات البراقة الجوفاء في الدنيا ويتلاعبون بالمصطلحات والعبارات فينخدع بها الناس، ويلوذُ بها الضعفاءُ وهي في الحقيقة لا تعني إلا نقيضها، إذ يشهد الواقع بخلافها كما نرى في واقعنا من أدعياء التحرير والتنوير والعلمانية والحداثة والتغريب وغيرها من الدعوات المتناقضة مع نفسها.

* نعيم الجنة نعيمٌ أبديٌّ، فيه تمتزجُ مُتَعُ الأجساد مع نعيم الأرواح، فهو لذَّةٌ للحسِّ، وبهجةٌ للنفسِ، وغذاءٌ للروحِ، وقوتٌ للقلب.

* تصوير القرآن الدقيق لمشاهد القيامة وهولها، ليعيش الإنسانُ هذا الحدث بجميع أبعاده ويراهُ بعين البصيرةِ، فيسارع إلى الاستعداد له.

* اقتران الوعد بالوعيد وتزاوج الترغيب والترهيب من الأساليب القرآنية البليغة وسماته الفريدة.

* على الداعية أن يستفيد من منهج القرآن الحكيم ويقتبس من أساليبه المتنوعة في خطاب المدعوين، بما يتناسب مع أحوالهم.

الفهرس

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ.د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد التاسع

النبأ - الناس

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ. د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ. د. أحمد البدوي	عضواً
أ. د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم سعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

أولاً: بين يدي السورة.

أسماء سورة النبأ:

ذكر لهذه السورة المباركة أكثر من اسم، كما قال السيوطي رحمه الله: (قد يكون للسورة اسم واحد، وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر). [1]

ومعلوم أن العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق، أو صفة تخصه.

(ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وتسمية سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها سنن كثير من أحكام النساء)[2].

وعلى هذا فهذه السورة من أسمائها «عم» كما ورد في افتتاحيتها ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [عم: ١].

وتسمى سورة النبأ، لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [عم: ٢].

وتسمى سورة المعصرات، لما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ [عم: ١٤][3].

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج١، ص ٦٠، ط١، مؤسسة النداء، أبوظبي، ٢٠٠٣م.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج٢، ص٥٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، مج ١٠، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢٠١، وانظر: زاد المسير، ج٨، ص١٦٠، والدر المنثور، ج٦، ص٤٩٩.

عدد آيات سورة النبأ:

عدد آيات سورة النبأ أربعون آية، وقيل أربعون وآية. [1]

زمان نزولها:

وسورة النبأ مكية إجماعاً، ولا أعلم أحداً قال بغير هذا. [2]

محور سورة النبأ:

محور سورة النبأ الجامع لجزئياتها هو البعث بعد الموت. حيث افتتحت السورة بالاستفهام عن سؤال أولئك المنكرين للبعث ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

وبعد ذكر الأدلة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، وبيان حال المكذبين الطاغين، وذكر مآل المتقين المصدقين بذلك اليوم، ختمت السورة بقول الله تعالى:﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾، ومما تقدم يتضح المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها، فحيث كان افتتاح السورة بالاستفهام الإنكاري على إنكارهم واستبعادهم لهذا اليوم العظيم الذي هو يوم الفصل ويوم يقوم الناس لرب العالمين، كان خاتمة السورة بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، ج١، ص٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤.

المناسبة بين افتتاحية سورة النبأ وخاتمة ما قبلها:

ما قبل سورة النبأ حسب ترتيب المصحف هي سورة المرسلات، فوجه مناسبة سورة النبأ لسورة المرسلات هو اشتمالها – أي سورة المرسلات – على إثبات القدرة على البعث الذي دل ما قبل على تكذيب الكفرة به. وأيضاً تناسبها معها في الجمل، فإن في سورة المرسلات: ﴿ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الآية: ١٦]، ﴿ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الآية: ٢٠] ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾[الآية: ٢٥]. وفي سورة النبأ: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الآية:٦]. وفي سورة المرسلات: ﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الآيات:١٢-١٤]. وفي سورة النبأ: ﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [الآية:١٧] ففيها يوم الفصل المجمل ذكره فيما قبلها، (وذكر أنه لما ختم تلك بقوله سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات:٥٠]وكان المراد بالحديث فيه القرآن الكريم، افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والاستهزاء به، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: إن المراد بالنبأ العظيم القرآن، وجمهور العلماء على أن المراد به البعث، وهو الأنسب بالآيات)[1] .

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص ٣-٤.

ثانياً: التفسير الإجمالي لسورة النبأ

المقطع الأول

تساؤل المشركين عن النبأ العظيم

قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ [الآيات: ١-٥]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ ﴾ أصله عن ما، فأدغمت النون في الميم؛ لأن الميم تشارك النون في الغنة، وحُذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام، أي: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً. [١]

وقرأ الجمهور (عم) والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً، والاستفهام يؤذن بفخامة المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أي شيء عظيم الشأن يتساءلون، (والضمير يعود على أهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم للاستغناء عنهم بحضورهم حساً، مع ما في الترك من التحقير والإهانة)[٢]، ولا يمنع أن يكون الضمير راجعاً للناس أجمعين فيشمل كفار مكة وغيرهم، وقد ورد كثيراً في القرآن الكريم سؤال أهل مكة عن البعث، كالذي ورد في سورة يس: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وهم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨].

والتساؤل: يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم من المؤمنين، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث كما قال الله تعالى مخبراً عن حالهم: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج٥، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٢م، ص٤١٩.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص٤.

ﭐلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٨١-٨٢].

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾: ردع عن الاختلاف أو التساؤل هزءاً، ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ وعيد لهم بأنهم سيعلمون عياناً أن ما يتساءلون عنه حق. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ كرر الردع للتشديد، و(ثم) يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد[1]؛ لأن الكلمة (كلا) هي زجر لهؤلاء الكفار الذين أنكروا وحدانية الله ونسبوا له الشريك كما نسبوا الولد - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - كما أنكروا البعث والجزاء، وأنكروا أن يكون القرآن الكريم منزلاً من عند الله تعالى، وأنه أنزله على رسوله ﷺ حسداً من عند أنفسهم. [2]

المقطع الثاني

لفت النظر إلى الآيات الكونية

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [٦-١٦].

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما أنكروا البعث واستبعدوه، وتساءلوا عنه سؤال المستبعد لوقوعه المنكر له، ناسب أن تُذكر لهم الشواهد الناطقة بقدرة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو (استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيقته

---

(١) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، ج٤، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ص ٣٢٥.

(٢) أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، ط١، دار عمار، الأردن، ١٩٩٩م.

إثر ما نبه عليها بما ذُكر من الردع. وجوز أن يكون بتقدير قل، كأنه قيل: كيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط، والحكمة الباهرة والمقتضية أن لا يكون ما خلق عبثاً)[1].

التفسير الإجمالي للآيات:

وساق سبحانه وتعالى هنا تسع آيات بينات براهين وأدلة على قدرته سبحانه على البعث والإحياء بعد الموت، وكلها حجج واضحة، وشواهد بينة على قدرة الله جل وعلا الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ ﴾.

والمهاد: الوطاء والفراش، أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، فكيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط، والحكمة المقتضية أن لايكون ما خلق عبثاً ؟!!

وقرأ الجمهور: (مِهَادًا)، وقرأ مجاهد: (مهداً)، والمعنى كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينام عليه. وهذا الذي تقدم هو **الدليل الأول**.

أما الدليل الثاني: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾:

(أي جعل لها أوتاداً أرساها بها، وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها)[2]، وهذه حقيقة علمية ملموسة، فإن الذي يحدث في الأرض من الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية، لا يمكن استقرار البشر عليها، فأرساها الله عز وجل بالجبال حتى لا تتأثر تأثراً بالغاً بما يحدث في باطنها، وهنا ندرك سر قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، أي: خشية أن تضطرب بكم، ثم

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٦، ص٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٤، ط،، ص ١٦٧٥.

بالجبال كان حفظ التوازن واضحاً بين أغوار البحار وقمم الجبال، فكأن ما اقتطع من البحار ثبت في الجبال، ثم الجبال مخازن للمياه، ومنها تنبع الأنهار. [١]

﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾: يعني ذكراً وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل. (أزواجاً) لأصناف الذكور والإناث، وقيل: الألوان، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات عن قبح وحسن، وطويل وقصير. [٢] (أزواجاً) مزدوجين ذكراً وأنثى، ليتسنى التناسل وينتظم أمر المعاش، وقيل: أصنافاً في اللون والصورة واللسان. [٣]

فسبحان الخالق الذي خلق الذكر والأنثى، إذ لو كان الناس كلهم نوعاً واحداً ذكراً أو أنثى لانقرض هذا الجنس، ولما كان هناك التناسل والتوالد، ولقد أودع الله ميل كل نوع إلى الآخر ليستمر دولاب الحياة، وهذا لم يكن قاصراً على بني آدم، بل هو في كل المخلوقات كما قال سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات:٤٩] وهذا هو **الدليل الثالث.**

الدليل الرابع: في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ يعني قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم من كثرة الترداد والسعي في المعاش في عرض النهار، وفي ذلك الراحة اللازمة للنوم وقطع الإحساس، فإن في ذلك راحة القوى الحيوانية مما عراها في اليقظة من الكلال والنصب كما هو مذكور في النص القرآني التالي، وهو **الدليل الخامس:** ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ يغشى الناس بظلامه كما يستركم اللباس، وهو سكن لكم، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾[الإسراء: ١٢].

والدليل السادس يتجلى في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: وقت معاش

---

(١) التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ص١٥١٣-١٥١٤، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ص١٦٧٦.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٦، ص١٠.

والمعاش والعيش وكل شيء يُعاش به فهو معاش، والمعنى: إن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم، وما قسمه الله لهم من الرزق.

والدليل السابع: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: سبع سماوات قوية الخلق، محكمة البناء؛ لذا وصفها الله سبحانه بالشدة، وقوله: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ هنا ذكر الصفة وسكت عن الموصوف وهو السماوات، وفي سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [الملك: ٣] والمعنى: خلقنا فوقكم سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء كالسقف لا تتأثر بمرور العصور والأزمان؛ لأنها من خلق الرحمن، وهي قائمة بقدرة الله بلا عمد، فكيف لم تسقط وهي لا تستند على شيء ؟! إنها قدرة الخالق جل وعلا [(١)] ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥].

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض مشرقاً متلألأً، من قولهم: (وهجت النار إذا أضاءت أو بالغت في الحرارة من الوهج، والتعبير عنها بالسراج من روافد التعبير عن خلق السماوات بالبناء). [(٢)]

و الوهاج: الوقاد المتلألئ الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، فمن أين تستمد الشمس حرارتها وكيف لا تنطفئ بمرور ملايين السنين عليها ؟! إنها قدرة الله.

ثم إن نعمة الشمس لا تتصور إذ بها حياة البشر والحيوانات، والزروع والنباتات والثمار، لولاها لكانت الأرض كتلة من الجليد يلفها الظلام، فسبحان من أنار الأرض بهذا الكوكب الوهاج.

الدليل التاسع: وهو قوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥١٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج ١٦، ص١٥.

وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾: (المعصرات هي السحاب التي تعصر بالماء ولم تمطر بعد، كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها، وقال مجاهد ومقاتل: هي الرياح تسمى معصرات، يقال: أعصرت الريح تعصر إعصاراً إذا أثارت العجاج. وقال الفراء: المعصرات هي السحاب الذي يتعصر فيها المطر، والثجاج: الضباب، قال ابن زيد: ثجاجاً: كثيراً[(١)]، لنخرج بذلك الماء حباً يقتات كالحنطة والشعير، والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النباتات كما هو مذكور في سورة عبس: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ جمع جنة، وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، من الجَنّ وهو الستر. هذه الجنات ألفافاً بمعنى ملتفة أي متداخل بعضها ببعض.

يا لهذا التناسق البديع الدال على قدرة خالق يُبدع ويدبر في هذا الكون المتناسق: جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلق الناس أزواجاً، وجعل نومهم سباتاً، "يأتي بعد حركة"، وجعل النهار معاشاً "للحركة والنشاط"، ثم بناء السبع الشداد، وجعل السراج وهاجاً، وأنزل الماء الثجاج من السحب المعصرات؛ لإنبات الحب والنبات كل ذلك قمة في التناسق والتدبير والتقدير.

وفيما ذكر من أفعال الله هذه دلالة واضحة على صحة وقوع البعث وحقيقته من أوجه ثلاثة:

الأول: اعتبار قدرته تعالى، فإن من قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يُحتذى به ولا قانون ينتهج كان على الإعادة أقدر وأقوى.

الثاني: اعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات

---

(١) فتح القدير، ج٥، ص٤٢٢.

جليلة، ومنافع جميلة عائدة على الخلق لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الثالث: اعتبار الفعل نفسه، فإن اليقظة بعد النوم نموذج للبعث بعد الموت، يشاهده كل واحد، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض يُعاين كل حين، ففي هذه الأدلة كفاية على حقيقة البعث بعد الموت لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ذكر الله تعالى هذه البراهين التسعة على قدرته تعالى الباهرة على إمكان البعث والنشور فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة قادر على إحياء الناس بعد موتهم.[1]

المقطع الثالث

من أحداث يوم القامة

قال تعالى:﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

هو أنه لما كثر تساؤلهم عن البعث استبعاداً له واستهزاءً بالقائلين به من المؤمنين كما خبر بذلك الله تعالى واصفاً حالهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يس: ٨٤][2]، بيّن كيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعد إجمالاً.

---

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥١٦.

(٢) سورة النمل: ٢٧١، سورة سبأ:٣٩، سورة يس: ٤٨.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾: وقتاً ومجمعاً، وميعاداً للأولين والآخرين، يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب، وسُمي بذلك؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلائق، ﴿مِيقَـٰتًا ﴾: (حد تُوَقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو هو حد للخلائق ينتهون عنده). [1]

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾: إن وقت هذا اليوم يوم الفصل وقته وزمانه يوم يُنفخ في الصور، وهو البوق، والبشر لا يدرون عنه إلا اسمه، فينفخ فيه إسرافيل، وهي النفخة الثانية نفخة الإحياء، فيُبعث الخلق من قبورهم، ويحضرون جماعات وزُمراً للحساب الموعود أمام ملك الملوك، يوم تُوضع الموازين القسط ليوم الحساب ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾: معطوف على (يُنفَخُ) (وصيغة الماضي تدل على تحقق الوقوع، أي فُتحت لنزول الملائكة، وقيل: معنى (فُتِحَت): قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، بمعنى صارت ذات أبواب كثيرة[2] .

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: سيرت عن أماكنها في الهواء، وقلعت عن مقارها فكانت هباءً منبثاً يظن الناظر إليها كأنها سراب، وللجبال أحوال متعددة ذُكرت في القرآن الكريم، ومشاهد مختلفة متنوعة، من هذه الأحوال:

الاندكاك: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤].

تصير كالعهن المنفوش: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٥].

تصير كالهباء: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٥-٦].

تصير سراباً: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ: ٢٠].

---

(١) فتح القدير، ج٥، ص٤٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(وأُدمج فيه تشبيه الجبال بحال السراب في تخلخل الأجزاء وانشقاقها، فهي تكون كالعهن المنفوش، فصارت بعد تسييرها مثل السراب، بدى كأنه بحر مثلاً وليس به)[١].

وفي هذا اليوم - يوم يُنفخ في الصور - تُنسف الجبال وتتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه:١٠٥-١٠٨].

إنه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ابراهيم: ٤٨].

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾: المرصاد: المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو، والمعنى: أن جهنم كانت تترصد وتترقب نزلاءها الكفار لتلتقطهم كما يترقب الإنسان عدوه، فجهنم لا يتجاوزها شقي، فهي تنتظر أعداء الله لتخطفهم إليها، وهي مترقبة ومنتظرة لكل كافر لا يُؤمن بيوم الدين، فهي: ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ وأصل الطغيان تجاوز الحد، والمآب: المرجع والمآل أي: هي مآل ومرجع يرجع إليه هؤلاء الطغاة المعاندون الجاحدون ليوم الحساب.

﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾: قرأ الجمهور « لابثين» بالألف. وقرأ حمزة والكسائي: «لبثين» بدون ألف.

﴿ أَحْقَابًا ﴾: جمع حُقُب بضمتين، وقد فُسر بأنه زمان غير محدود، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وهو كناية عن الخلد والتأبيد في النار.

وقد ورد الخلاف بين العلماء في مدة الحقب، والصواب والله أعلم أنه(دهر طويل غير محدود)[٢] ، وهو الصواب؛ لأن الله تعالى أخبر عن خلود الكافرين في النار أبد الآبدين، وما

---

(١) روح المعاني، ص٢٢.

(٢) النكت والعيون - تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، مج٦، ص١٨٦، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٩، ص١٧٩.

جاء هنا في الآيات من قوله تعالى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني كلما مضى زمن ودهر يعقبه دهر هكذا أبد الآبدين، وماهم منها بمخرجين.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾: بعد بيان خلودهم في النار، وأنهم لابثين فيها أحقاباً، أعقبه سبحانه بأنهم لا يذوقون في مقامهم الأبدي هذا برداً ولا شراباً، ومعنى البرد وردت فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه برد الشراب، لايذوقون فيها برد الشراب.

وثانيها: أنه الروْح والراحة.

وثالثها: أنه النوم، واستدلوا عليه بقول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم		وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً[1]

والنقاخ: الماء، والبرد: النوم.

والحميم: الماء الحار، والغَسّاق: الصديد الذي يخرج من جلود أهل النار، أعاذنا الله منها، كل ذلك ﴿ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾: (أي جوز بذلك جوازاً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال، وقدموه من العقائد والأخلاق). [2]

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾: هذا تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، حيث إنهم كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا على أعمالهم الشنيعة، وكذبوا بآيات الله الدالة على ما أمروا به من التوحيد، وما أخبرهم به الرسول الكريم ﷺ من أمر البعث بعد الموت.

﴿كِذَّابٗا ﴾ يعني تكذيباً مفرطاً بالغوا فيه لدرجة الاستهزاء بما أخبرهم به رسول الله ﷺ،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، مج٨، ص١٨٧، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج١٠، ص٣٣، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

بما ذكره عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ ﴾: أي حفظناه وضبطناه كتاباً مكتوباً في اللوح المحفوظ، أو في صحف الملائكة الحفظة، وحينما يُعرض عليهم ويرونه رأي العين ويجدونه حقاً وصدقاً يقولون ما ذكره الله تعالى عنهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾ [الكهف: ٤٩] وبسبب كفرهم هذا يقال لهم: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (تقريعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب، وإعلاماً بمضاعفته). [(١)]

المقطع الرابع

جزاء المتقيـــن

قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠ ﴾ **[النبأ: ٣١-٤٠].**

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لـمّا ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الطاغين الأشقياء، ومآبهم، وعذابهم المقيم الذي أُعد لهم، أعقب ذلك ببيان أحوال المتقين السعداء وشرع في بيان أحوالهم.

وذلك هو منهج القرآن التربوي الدعوي الذي يقوم على الترغيب والترهيب، فبعد ذكر

---

(١) المصدر سابق، مج١٠، ص٣٤.

جزاء الكافرين الذي أشعر آخره بكونه إخزاء، ذكر جزاء المؤمنين المخالفين لهم، فقال مستأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافرين: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الراسخين في الخوف المقتضي لاتخاذ الوقاية مما يُخاف، فوقوا أنفسهم من سخط الله بما يُرضيه من الأعمال والأقوال والأحوال: ﴿ مَفَازًا ﴾[1]

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) ﴾: مفازاً من الفوز بالنعيم، والنجاة من النار كما أخبر بذلك سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران :١٨٥].

وفُسر المفاز بـ ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) ﴾ أو هو بدل منه.

﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) ﴾: وهي البساتين، فيها أنواع الأشجار ذوات الثمار والرياحين، لتجمع مع لذة الطعم لذة البصر والشم، قد أحدقت بها الجدران وحوطت بها، وخص أشجار العنب لطيبها وحسنها وشرفها، وما فيها من لذة الذوق، وعَبَر عن أشجارها بثمرتها "أعناباً" إعلاماً بأنها لاتوجد إلا موقرة حملاً، وأن ثمرتها هي جل منفعتها). [2]

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) ﴾: كواعب جمع، مفردها كاعب، وهي التي تكعب ثدياها واستدارا مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ.

وأتراباً: أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، (وذكر صاحب روح المعاني أن نساء الجنة كلهن بنات ستة عشر سنة، ورجالهن أبناء ثلاثة وثلاثين). [3]

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) ﴾: وردت فيها أقاويل كثيرة، منها:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي، ج٨، ص٣٠٣، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

(٢) محاسن التأويل، مج ١٠، ص ٣٠٣.

(٣) روح المعاني، مج ١٦، ص ٣٠.

١- مملوءة، ٢ - متتابعة يتبع بعضها بعضاً، ٣- صافية. [(١)]

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ ﴾: بمعنى ليس في الجنة كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، بل هي دار السلام، كل ما فيها سالم من النقص والمنقصات.

كل ذلك: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾: هذا الجزاء الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى إياه بفضله ومنّه وإحسانه، عطاءً حساباً كافياً وافياً شاملاً.

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾: يخبر سبحانه وتعالى عن عظمته وجلاله، وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف:١٥٦]، لذا لايقدر أحد من خلقه مهما كان على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه سبحانه، كل ذلك في ذلك اليوم.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ وهذا اليوم هو يوم البعث الذي أنكره الكافرون وتساءلوا عنه سؤال استهزاء وسخرية.

«الروح»: وردت عدة معانٍ لها: أهي أرواح بني آدم ؟ أم هم بنو آدم ؟ أم هو جبريل؟ أم هو ملَك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؟ [(٢)] والراجح على ما ذكره القاسمي: هو جبريل عليه السلام[(٣)]، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢] وقوله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤] والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً.

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾: وهذا متعلق بأمر الشفاعة: ﴿ يَوْمَ

---

(١) النكت والعيون، مج ٦، ص١٨٨-١٨٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير، ج٤، ص ١٦٧٧، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م. ونظم الدرر للبقاعي، ج٨، ص٣٠٥.

(٣) محاسن التأويل، مج ١٠، ص٣٦.

يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود: ١٠٥]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، واشترطوا لذلك شرطين:

أن يكون المتكلم مأذوناً له في الكلام.

وأن يتكلم بالصواب، فلا يشفع لغير مرتضى، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨].

- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾: أي اليوم الذي لا يمكن نكرانه، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾: بالتصديق بهذا اليوم الحق والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة من أهواله، "مآباً" مرجعاً حسناً يؤوب إليه كما أخبر سبحانه بقوله:﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الروم:٤٤].

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾: مناسبة هذا لما قبله تظهر في أنه سبحانه (لما قدم في هذه السورة من شرح هذا النبأ العظيم من الحكم والمواعظ، واللطائف والوعد والوعيد، لحقه في هذا النص فقال: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من عمل، أي: كسبه الذي كسبه في الدنيا من خير وشر يراه رأي العين، عندها يتمنى الكافر لو صار تراباً، فلم يُخلق ولم يُكلف. (١)

الهدايات القرآنية المستنبطة من سورة النبأ:

ورد في بداية السورة استفهام، وهو يشير إلى التفخيم "عم" وهو ما جاء به النبي ﷺ، وهو القرآن الكريم المشتمل على البعث وغيره، فالمؤمنون يثبتونه والكافرون ينكرونه.

ثم ذكر ردع المتسائلين ووعيدهم، والتكرار للمبالغة، وفيه حذف مفعول العلم، فتكريره مع الإبهام يفيد المبالغة. (٢)

---

(١) جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج٣، ص٢٥، ط١،

(٢) محاسن التأويل، مج١٠، ص٢٨.

ذكر دلائل قدرة الله تعالى وأنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وذلك من بداية قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (جاءت هذه الأدلة في تناسق بديع يدل على أن لهذا الكون خالقاً، وأن وراء هذا تدبير وتقدير وتنسيق، وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذاالنص القرآني على هذا النحو: من جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلق الناس أزواجاً، وجعل نومهم سباتاً بعد الحركة والوعي والنشاط، مع جعل الليل لباساً للستر والانزواء، وجعل النهار معاشاً للوعي والنشاط، ثم بناء السبع الشداد، وجعل السراج الوهاج، وإنزال الماء الثجاج من المعصرات لإنبات الحب والنبات والجنات... توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق، ويشي بالتدبير والتقدير، ويُشعر بالخالق الحكيم القدير، ويلمس القلب لمسات مُوقظة مُوحية بها وراء هذه الحياة من قصد وغاية، ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون). [(١)]

يوم الفصل بين الخلائق هو الميقات الذي يفرق فيه بين السعداء والأشقياء. ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨].

و هو يوم الحساب والجزاء يفصل الله فيه بين الخلائق أجمعين، له وقت محدود معلوم في علمه تعالى وقضائه لا يتقدم ولا يتأخر.

وبين الله سبحانه وقت مجيئه هذا بقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾، وهي النفخة الثانية، فيُبعث الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر، فيُساقون زمراً زمراً، وجماعات جماعات إلى أرض المحشر، ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات:١٤].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط٢٥، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٦م.

وبين في ذلك اليوم: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ وتتبدل الأرض والسماوات: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

كما بين سبحانه أن جهنم تكون بالمرصاد للطاغين، وهي مآبهم ومرجعهم الذي يرجعون إليه.

ويمكثون فيها أحقاباً مدداً، دائمين فيها أبد الآبدين، وليس لهم فيها من طعام ولا شراب ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾، وذلك بسبب نكرانهم ليوم الحساب والجزاء، وعندها يُقال لهم: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار آية أشد من هذه الآية، كلما استغاثوا من العذاب أغيثوا بأشد منه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ ﴾.

كما بين سبحانه أن الدار التي أعدت للمتقين دار هناء وسرور ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ذلك أن اللغو والتكذيب مما تتألم له أنفس الصادقين، ولا ألم على الإطلاق في الجنان، كل ذلك جزاء لهم من ربهم على صالح أعمالهم تفضلاً منه سبحانه بذلك.

وأن الله سبحانه وتعالى وحده هو المتصرف في الكون: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم:٩٣]

لا يجرؤ أحد على أن يتكلم في الشفاعة إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾.

يوم البعث والنشور حق، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾.

ومن الهدايات التي وردت: بيان أن الكافر حينما ينظر إلى ما قدمت يداه يتمنى لو يصير تراباً.

سورة النازعات

أولاً: بين يدي السورة

أسماء سورة النازعات:

تسمى النازعات، وتُسمى الطامة، والساهرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ ﴾ [النازعات:١]، وقال: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤ ﴾ [النازعات: ٣٤]، وقال: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾ [النازعات: ١٤]، فسُميت بالنازعات لافتتاحها بهذه الكلمة. (١)

زمان نزولهـــا:

سورة النازعات سورة مكية بالإجماع، نزلت بعد سورة النبأ. وقد تضمنت هذه السورة الكريمة خصائص السور المكية، حيث إنها تناولت بيان أحوال الآخرة، كما وردت فيها قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي من الفصل. (٢)

عدد آياتهـــا:

عدد آيات سورة النازعات ست وأربعون في الكوفي، وخمس وأربعون في غيره.

محور سورة النازعات:

محور سورة النازعات الأساسي هو: (بيان آخر أمر الإنسان بالإقسام على بعث الأنام ووقوع القيامة يوم الزحام، لذا فإن أولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق وقوع ما ذكر في آخر سورة عم من أمر البعث والجزاء يوم القيامة: ﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ۝٤٠ ﴾ [عم: ٤٠] صَوَّر ذلك بنزع الأرواح بأيدي الملائكة الكرام، ثم تلا ذلك أمر فرعون اللعين وموسى عليه السلام، واسمها النازعات واضح في ذلك المرام،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم البقاعي، ج٨، ص٣٠٨.
ومحاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج١٠، ص٣٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، مج١٠، ص١٢٤، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

إذا تُؤمل القسم وجدا به للأئمة الأعلام، وكذا الساهرة والطامة إذا تُؤمل المساق، وحصل التدبر في تقرير الوفاق). [1]

ثم تلا ذلك بتهديد المشركين من أهل مكة ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثم ذكر أحوال البعث ببيان جزاء الكافرين وثواب المؤمنين، وخُتمت بسؤال الكافرين لرسول الله ﷺ عن الساعة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات: ٤٢].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص٣٠٨.

ثانياً: التفسير الإجمالي للسورة

المقطع الأول

من مشاهد اليوم الآخر

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١-١٤].

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾: لما ذكر الله سبحانه وتعالى في آخر سورة النبأ: يوم يقوم الروح والملائكة صفاً، ويتمنى الكافر في ذلك اليوم العدم، أقسم في أول هذه السورة – النازعات – بنزع الأرواح بأيدي الملائكة على ما ذكره جمهور المفسرين على أن «النازعات» هم الملائكة تنزع الأرواح في السماوات امتثالاً للأوامر الإلهية.

غرقاً: أي (إغراقاً بقوة وشدة إلى أقصى المراد من كل شيء، من البدن حتى الشعر والظفر والعظم.

كما يغرق النازع في القوس فيبلغ أقصى المد). [١]

فللخالق سبحانه أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يُقسم إلا بالخالق، لأن القسم عبادة وهي لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

و الملائكة خلق عظيم من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، خلقها من نور، وأوكل إليها مهام جليلة عظيمة، فالقسم بها مهم ومناسب للمقسم عليه وهو البعث والإعادة.

(١) نظم الدرر، مج٨، ص٣٠٨.

﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ ﴾: وأقسم سبحانه بالملائكة « ملائكة الرحمة» التي تنزع أرواح المؤمنين برفق ولين، وتسلها سلّاً رقيقاً كما تسلّ الشعرة من العجين، والنشط: الأخذ برفق ويُسر، بخلاف التسرع فإنه يكون بشدة وقسوة.

قال ابن مسعود ﷺ: (إن ملِك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما يُنزع السفود - وهو سيخ الحديد ذو الشعب الكثيرة - من الصوف المبتل، فتخرج روح الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها باليد كما ينشط العقال من يد البعير، أي كما يحل الرباط عن يد البعير). [(١)]

﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ ﴾: هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ ﴾: أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة تبشيراً لهم بدار السرور بأمر الله وحكمه.

﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ ﴾: الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، أي بأمر ربها عز وجل. [(٢)]

وأمراً: أي أمراً عظيماً.

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ ﴾: لما أقسم سبحانه وتعالى بتلك الأفعال العظام التي ما أقدر عليها أهلها إلا الملك العلام، ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلاً لأمر الساعة، فقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ ﴾: (تضطرب اضطراباً كبيراً مزعجاً. والراجفة: الصيحة، وهي النفخة الأولى، تتبعها «الرادفة» وهي الصيحة التابعة لها التي يقوم بها جميع الأموات، وتجتمع الرفات). [(٣)]

---

(١) التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ص١٥٢٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج٤، ٤٩٣، ص ط٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص١٠-١١.

وسُميت الرادفة؛ لأنها ردفت النفخة الأولى.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝ ﴾: هي قلوب الكافرين المكذبين بالبعث والنشور من القبور، فتكون هذه القلوب وجلة مضطربة، وأبصار أصحابها ذليلة منكسرة لهول ما ترى، بادٍ عليها الذل والهوان كما ورد في سورة القمر: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ ﴾[القمر: ٧] ذليلين منها بحيث لا يستطيعون رفع أبصارهم.

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝ ﴾: (يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء كما كنا؟!). (١)

يقول البقاعي – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآيات: («يقولون» أي في الدنيا قولاً يجدونه كل وقت من غير خوف ولا استحياء استهزاءً وإنكاراً « أئنا لمردودون» أي بعد الموت «في الحافرة» أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت وهي حالتنا الأولى، من قولهم: رجع فلان في حافرته: أي طريقته التي جاء بها فحفرها، أي: أثر فيها بمشيه كما تؤثر الأقدام والحوافر في الطريق).

ولما وصف قلوبهم بهذا الإنكار الذي ينبغي لصاحبه أن يذوب منه خجلاً إذا فرط منه مرة واحدة وأشار إلى شدة وقاحتهم بتكريره، أتبعه التصريح بتكريرهم له على وجه مشيراً إلى العلة الحاملة لهم على قوله، وهو قولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝ ﴾: (وهي في غاية الانتخار حتى تفتت، فكان الإنخار وهو البلى والتفتت والتمزق كأنه طبع لها طُبعت عليه فكيف بما عداها من الجسم؟ وعلى قراءة « ناخرة» المعنى أنه خلا ما فيها، فصار الهواء ينخر فيها أي: يصوت). (٢)

---

(١) تفسير محاسن التأويل، مج١٠، ص٤٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص٣١١-٣١٢.

فهم كما تقدم ينكرون البعث هذا تأكيداً لهذا الإنكار.

﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾: أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران، والمعنى: إنهم قالوا إن رددنا إلى بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد.

وقيل: خاسرة بمعنى كاذبة، أي ليست كائنة، قال الربيع بن أنس: خاسرة على من كذب بها. (١)

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾: هذا رد على منكري البعث الذين قالوا: ﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ ﴾ فأعلمهم الله سبحانه وتعالى بسهولة البعث عليه، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ ﴾ أي النفخة الأخيرة ﴿ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ أي صيحة في الصور يسمعونها من إسرافيل وهم في الأرض فيخرجون (٢) فيكونون على وجه الأرض.

﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الساهرة: الأرض كلها. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأُخرجوا على أعلاها. والساهرة المكان المستوي، وقد وردت أقوال كثيرة في هذا المعنى، منها: الساهرة أرض الشام، وقيل: أرض بيت المقدس. (٣)

---

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ج٥، ص ٤٥٤، ط١، دار الخير، بيروت، ١٩٩٢م.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين بن الجوزي، مج٩، ص١٤٠٤، ط١، المكتب الإعلامي، بيروت.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٤.

المقطع الثاني

قصة موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

وجه مناسبة هذا المقطع لسابقه:

يقول البقاعي رحمه الله: (لما كانت قصة موسى عليه السلام مع القبط أشبه شيء بالقيامة لما حصل فيها من التقلبات والتغيرات، وإيجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت، وقهر الجبابرة، والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بني إسرائيل فنشطهم من القبط نشطاً رقيقاً كلهم وجميع ما لهم ودوابهم إلى ربهم، وحُشر جميع القبط وراءهم، فنزعهم نزعاً كلهم بحشر فرعون لهم بأصوات المنادين عنه في أسرع وقت وأيسر أمر إلى هلاكهم، كما يحشر الأموات بعد إحيائهم بالصيحة إلى الساهرة، ثم كانت العاقبة في الطائفتين بها للمدبرات أمراً أن نجا بنو إسرائيل بالبحر كما ينجو يوم البعث المؤمنون بالصراط. وهلك فرعون وآله به، كما يتساقط الكافرون بالصراط، وذلك أنه رأى فرعون وجنوده البحر قد انفلق لبني إسرائيل فلم يعتبروا بذلك، ثم دخلوا فيه وراءهم، ولم يجوزوا أن الذي حسره عن مكانه قادر أن يعيده كما ابتدأه فيغرقهم، واستمروا في عماهم حتى رده الله فأغرقهم به، كما أن من يكذب بالقيامة رأى بدء الله له ولغيره وإفنائه بعد إبدائه، ثم إنه لم يجز أن يعيده كما بدأه أول مرة، وصل بذلك قوله تعالى جواباً لمن يقول: هل لذلك من دليل ؟ مخاطباً لأشرف الخلق إشارة إلى إنه لا يعتبر هذا حق اعتباره إلا أنت مستفهماً عن الإتيان للتنبيه والحث على جمع النفس على التأمل والتدبر والاعتبار مقرراً ومسلياً له ﷺ، ومهدداً للمكذبين أن يكون حالهم – وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم – كحال فرعون في هذا، وقد

كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود وقوتهم وسحرهم ومرودهم في خداعهم ومكرهم، ورأى من الآيات مالم يره أحد قبله، فلما أصر على التكذيب ولم يرجع، ولا أفاده التأديب أغرقه الله وآله فلم يبق منهم أحداً). (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾: سؤال، والمراد منه التشويق إلى معرفة هذه القصة. هل جاء يا محمد خبر موسى الكليم ؟ حين كلمه ربه بالوادي المطهر المُسمى طُوى. وقد وردت أقاويل في المراد بـ «طوى»، وأشهرها أنه اسم للوادي كما ذكر ذلك ابن كثير. (٢)

وهي كما في سورة طه: ﴿ وَهَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه:٩-١٠]، ولـما ذكر المناداة فسر ثمرة هذه المناداة بجملة مستأنفة، فقال: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه:٤٣]. فرعون مِلك مصر الذي استعبد بني إسرائيل واضطهدهم وعذبهم، فكان من شأنه معهم ما ذكره القرآن الكريم: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص:٤].

إضافة إلى كثير من المنكرات التي جعلته يتجاوز الحدود، ودمغ من أجلها بالطغيان ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي طغيان الكبر من ادعاء الألوهية، ألم يكن هو القائل لقومه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، وهو القائل: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]. والطغيان تجاوز الحد، فاستحق المقابلة بالجزاء. (٣)

* ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾: أي هل لك إلى أن تتطهر من

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٤.

دنس الكفر وتؤمن بربك ؟ وأن أُرشدك إلى ما يُرضي ربك عنك، وذلك إلى نهج الدين القيم فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه ؟ فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً عن الخير.

وهناك طي في الكلام يُعرف مما تقدم. أي: فذهب إليه كما أمره الله تعالى، وطلب فرعون من موسى عليه السلام الدليل.

* ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾: الحجة القوية على صدق ما جاء به من عند الله.

واختلف في الآية الكبرى ما هي ؟ فقيل: العصا، وقيل: يده، وقيل: هي جميع ما جاء به من الآيات التسع. [1] والذي أميل إليه هو أن الآية الكبرى هي العصا واليد، وذلك على ما ذُكر في سورة طه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١٧-٢٢]، ولكنه لم يستجب شأنه شأن الطغاة.

* ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾: فكذّب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وعصاه فيما أمره به من طاعته ربه، وخَشيته إياه. في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات. [2]

وقيل ولى فرعون مُدبراً هارباً من الحية يُسرع في مشيه من هول ما رأى.

ثم حُشر السحرة والجنود والأتباع، وقام فيهم خطيباً يتبجح بمقالته الكاذبة الفاجرة.

* ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: لارب فوقي، وليس هناك رب كما - يزعم موسى - قالها

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج٤، ص٤٩٥، وفتح القدير ج٥، ص٤٥٥.

(٢) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج١٢، ص٤٣٣. وتفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

الطاغية مستخفاً بعقول قومه كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف:٥٤] بالإقرار له بالألوهية، فكانت نهايته بأن أخذه الله وقصم ظهره، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾: يقول الصابوني: (أي فأهلكه الله وقصمه عقوبة له على مقالته الأخيرة: «أنا ربكم الأعلى»، ومقالته الأولى: «ما علمت لكم من إله غيري»، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا بالعذاب الأليم، وفي الآخرة بعذاب الجحيم)[1] كما قال الله جل شأنه في سورة القصص: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[القصص: ٤٠-٤٢].

يقول القاسمي رحمه الله: (ثم ختم تعالى القصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي في أخذه وما حل به من العذاب والخزي عظةً ومُعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته في كل من يقاوم الحق ويحاربه، فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين). [2]

(١) التفسير الواضح الميسر، ص١٥٢٣.

(٢) محاسن التأويل، مج١٠، ص٤٧.

المقطع الثالث

لفت نظر الإنسان إلى خلق السموات والأرض

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد ذِكر نموذج طغيان فرعون وعتوه وتعاليه على الحق، عادت الآيات تُذكر أهل مكة ومشركيها بمظاهر قدرة الله تعالى في مخلوقاته، وتحذرهم من أهوال يوم القيامة ليرتدعوا عن كفرهم وضلالهم، فقال سبحانه مخاطباً لهم: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾: هل أنتم أشد وأصعب خلقاً أيها المشركون أم خلق السموات العظيمة البديعة التي وُصفت في آيات سورة الملك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣-٤] من الذي أوجدها وأحكم بناءها ؟ إنه الله ذو القوة المتين، ولذا قال سبحانه: «بناها» فإن مَن خلق السموات بهذه العظمة والضخامة سهُل عليه إعادتكم بعد موتكم، فما كان لكم أن تنكروا البعث بعد هذه الآيات الشاهدة الناطقة بقدرة الخالق، لذا قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧] .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾: إن الله الذي خلقها أعلى سقفها في الهواء، وخلقها خلقاً مستوياً لا تفاوت فيه ولا شقوق، ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلماً وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضافة إلى

السماء. « وأخرج ضحاها « أنار نهارها. وأضاف الضحى إلى السماء كما أضاف الليل إليها؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. [١] وكلها نعم تستوجب الشكر.

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾: أي بسطها بعد خلق السماء، ولا تعارض بين هذه الآية وآية «فُصلت»: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١] بل يُجمع بينهما (بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض، ودحيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام. [٢]

* ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾: أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد لتثبت وتستقر، وأن لا تميد بأهلها.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾: أي منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والغنم إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل. [٣] ومثل هذا ما جاء في سورة «عبس» ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ج١٢، ص٤٣٥، وتفسير القرآن العظيم ج٤، ص٤٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٥.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٤٩٥.

المقطع الرابع

أحداث يوم القيامة

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لمّا ذكر ما دل على البعث أتبعه ما يكون عن البعث مسبباً عنه، دلالة على أن الوجود ما خُلق إلا لأجل البعث؛ لأنه محط الحكمة.

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾: «فإذا جاءت» أي بعد الموت «الطامة الكبرى» وهي الداهية الدهياء التي تطم - أي تعلو- على سائر الدواهي وتغطيها فتكون أكبر داهية تُوجد، وهي البعث بالنفخة الثانية، فيُفصل الناس إلى شقي وسعيد، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾[هود:١٠٥] في ذلك اليوم يوم الطامة الكبرى ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾: فيتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره؛ لأنه يشاهده مدوناً في صحائف أعماله ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) ﴾: تظهر للناظرين فيراها الناس أو الكافر عياناً، بل (وقيل يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة، ويصلى الكافر بالنار). [1]

والناس يومئذ صنفان: الصنف الأول: الطاغي. ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) ﴾: أي تَمَرَّد وعتا وتجاوز الحد في العصيان، واستكبر عن عبادة ربه، وقدم دنياه على آخرته،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٣٤.

فعمل للدنيا وسعى لها، وترك العمل للآخرة ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾: مصيره، ومنزله نار جهنم يوم القيامة وبئس المصير. والصنف الثاني: الذي خاف مقام ربه. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾: (خاف المقام بين يدي الله عز وجل، وسؤال ربه إياه، فاتقى ذلك الموقف، ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله تعالى، فزجر نفسه وخالف هواها إلى ما أمر به ربه).[1]

* ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾: وهذا ميزان دقيق يستطيع أن يعرف به الإنسان مصيره في الآخرة وهو في الدنيا، فإن كان يخاف من الله، ويتجنب محارمه، وينهى نفسه عن الشهوات المحرمة فمصيره إلى الجنة - إن شاء الله - وإلا فمصير كل من لا يؤمن بالله ولا يصدق بالآخرة ولا يكف نفسه عن المحارم نار جهنم.[2]

المقطع الخامس

سؤال المشركين عن وقت وقوع الساعة

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لَمَّا قسمهم الله تعالى هذا التقسيم الذي بيناه آنفاً، استأنف ذكر استهزائهم تعجباً منهم. يقول البقاعي رحمه الله: (ولما كان إيراد هذا هكذا مفهماً للإنكار عليهم في هذا السؤال، وكان من المعلوم أنه يقول: إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ﷺ إلى إجابتهم لحرصه على

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٩٦.

(٢) التفسير الواضح الميسر، ص١٥٢٥.

إسلامهم شفقة عليهم، فطَمَه عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾.[١]

التفسير الإجمالي للآيات:

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾: فليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، فمنتهى علمها له وحده، ولا يوجد علمها عند غيره كما ذكر ذلك في سورة الأعراف: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾: كأن هؤلاء المكذبين بالساعة عندما يخرجون من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحىً من يوم.[٢] وإضافة الضحى إلى العشية لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في يوم واحد، فإذا كان الأمر كذلك فعليهم بالعمل، فماذا يفيدهم معرفة قربها أو بعدها ما دام أنها حاصلة، ووقوعها حتمي.

الهدايات القرآنية الواردة في السورة:

عند تدبر سورة النازعات نرى أنها تضمنت كثيراً من الهدايات، منها:

* القَسَم بالمخلوقات خاص بالله الخالق وحده، فله سبحانه أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يُقسم إلا بالله الخالق؛ لأن القسم عبادة وهي لا تكون إلا لله الواحد الأحد.

(والقسم في كتاب الله يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار ويقرر

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مج٨، ص ٣١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص١٣٤.

الحكم في أكمل صورة). [١]

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* أهوال يوم القيامة تبدأ بالنفخ في الصور، ثم تتبعها بقية الأهوال.
* ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم فيه تسلية للرسول ﷺ وعبرة لمن يعتبر.
* الكون وما فيه من مخلوقات دال على قدرة مكوِّنه، وهو الله سبحانه وتعالى.
* من خلال آيات سورة النازعات برز لنا أن ثواب المؤمن يوم القيامة الجنة، وأن جزاء الكافر النار وبئس المصير.
* علم الساعة عند الله وحده، فلا يعلمه مَلَك مُقرب، ولا نبي مُرسل، وهو من مفاتح الغيب التي لا يعلمها أحد إلا الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾.
* الحياة مهما طالت فهي قصيرة.
* في السورة الكريمة ذكر نعم الله على الإنسان ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾.
* العناد والاستكبار من طبيعة الكفار.

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٢٦٦، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

سورة عبس

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

سورة عبس. قال ابن عاشور:» سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة عبس)» [1]، وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾.

ب. مكية السورة أو مدنيتها:

قال ابن عطية: «هي مكية بإجماع المفسرين».[2]

ج. عدد آيات السورة:

« آيها أربعون آية في الشامي، وإحدى وأربعون عند أبي جعفر والبصري، واثنتان وأربعون في عدد الباقين..»[3]

د. سبب نزولها:

روى ابن جرير بسنده عن «ابن عباس قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ قال بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، وقال يا رسول

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ١٠١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٢٢٨.

(٣) مصاعد النظر للبقاعي:٣/ ١٥٦.

الله: علمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ ﴾.

فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له رسول الله ﷺ: (ما حاجتك؟ هل تريد من شيء - وإذا ذهب من عنده قال - هل لك حاجة في شيء...»[1]

قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده كلام الطبري: «... وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، ويقال عمرو. والله أعلم»[2].

وهذه القصة في سبب نزول هذه الآيات هي التي بينت المعاني الكامنة في قوالب المباني؛ إذ سبب النزول هو أكبر معين على تفسير الآية أو الآيات.

هـ. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور محور سورة عبس حول تصحيح فكر الداعية بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها وكذلك «تصحيح القيم الإنسانية، ووضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم،وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه، ومقدار اتباعه لهدي السماء»[3].

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

في اسم السورة إشارة إلى إعراض النبي ﷺ عن الأعمى ؛ لانشغاله ﷺ بدعوة بعض

---

(١) تفسير الطبري:١٥/ ٦٥، حديث رقم ٢٨١٤٣، وانظر:أسباب النزول للواحدي ص ٢٥٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير:٤/ ٤٧١،٤٧٠.

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، عبد الله شحاتة:٤/ ٣٤.

أشراف قريش وصناديدهم، فنزلت السورة تبين ما ينبغي أن يكون عليه الأسلوب الدعوي، وهو ما يتفق ومحور السورة الكريمة.

٠٢المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها تعجب الناظر، وتبهر السامع، ففي بداية السورة كان الحديث عن صنفين من الناس أحدهم وهو الأعمى الذي أعرض عنه رسول الله ﷺ وهو يريد الهدايةو وقد أقبل على الرسول ﷺ مستبشراً بهذا الدين يريد الاستزادة، والصنف الآخر هم الذين كانوا عند رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ويعظهم، ولكنهم أعرضوا وصدوا وكفروا وفجروا، فجاءت الآيات في نهاية السورة تصف حال الفريقين ومصير القبيلين. ومن أنعم نظره في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ أدرك أن آخر السورة عاد على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه، ومنْ يستحق الإقبال عليه»[1]، فسبحان الذي أنزل الكتاب العظيم!

٠٣مناسبة السورة لما قبلها:

جاءت سورة عبس لتعانق شقيقتها النازعات عناقاً متناسقاً متلاحماً في مقاطعها وآياتها:

* في كلتا السورتين ذكر سبحانه ضرورة الدعوة إلى الله عزوجل، ففي النازعات جاءت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهو سيد قومه بعث الله سبحانه إليه موسى عليه السلام ليدعوه، لكنه كفر وعتى عن أمر ربه، وهذه السورة جاءت لتبين للرسول ﷺ أن كبار القوم وسادتهم إن لم يؤمنوا فلن يؤثروا في الدعوة، ولا يجب الانشغال بهم عن غيرهم من المستضعفين الراغبين في المعرفة والعلم.
* في كلتا السورتين جاء ذكر فضل الله سبحانه على الإنسان بقوله تعالى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾، ففي سورة النازعات جاءت هذه الآية بعد ذكر السماء والليل والنهار

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٣٧٣.

الأرض والجبال فجاءت بشكل عام. وفي هذه السورة كان التفصيل والبيان بذكر أنواع الثمار والأنعم.

* في السورتين كانت النهاية بذكر يوم القيامة: في النازعات كان بيان مصير الفريقين دون تفصيل، وجاءت سورة عبس لتبين وتفصل بعضاً مما يكون في ذلك اليوم.

٤٠مناسبة افتتاحية السورة مع خاتمة ما قبلها:

« لما ذكر سبحانه ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النازعات: ٤٥] ذكر في هذه منْ ينفعه الإنذار ومنْ لم ينفعه وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام»[١].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة.

تتألف السورة من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: (الآيات١-١٦): عتاب المُحب

المقطع الثاني:(الآيات ١٧-٣٢): تفكّر وتدبّر

المقطع الثالث:(الآيات ٣٣- ٤٢): يومك... يومك

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤١٨، وانظر: روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٣٩.

المقطع الأول: (الآيات١-١٦): عتاب المُحب

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾

جاءت آيات هذا المقطع تحمل في طياتها عتاباً رقيقاً لرسول الله ﷺ، على ما بدر منه تجاه هذا الرجل الضعيف المسكين الذي جاء يطلب العلم والمعرفة في أمور دينه، في حين كان ﷺ مشغولاً في دعوة قادة قريش وسادتها إلى الإسلام، قال الحافظ ابن كثير في تفسير سورة عبس: «ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامهم فبينما هو يخاطبهم ويناجيهم إذ أقبل ابن أم مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وودّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك لتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته»[1]. وهذا عائد إلى الطبيعة البشرية في الإنسان، فهو يسعى دائماً إلى تقريب سادات القوم منه ليكونوا على منهجه، وطريقته.

ثم انتقلت الآيات نقلة رائعة من صيغة الغائب إلى صيغة الخطاب زيادة في العتاب، في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ «لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش، والإقبال بعد الإعراض»[2] ومع هذا الإيناس المؤنس يسمي الله تعالى الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهياً.. وهو وصف شديد.. ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر ﴿ كَلَّآ ﴾..

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها، واستغناءها عن كل أحد..

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧٠.

(٢) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٣٩.

كائناً ما كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا، ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.. فهي كريمة في كل اعتبار. كريمة في صحفها المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها..وهم كذلك كرام بررة..»[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الدعوة إلى «المساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم»[2]. قال ابن عطية: «فحملة الشرع والعلم مُخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خُوطب به النبي ﷺ في هذه السورة»[3].
* إن وظيفة الداعية هي التبليغ والموعظة بالترغيب والترهيب ،وليست وظيفة الإجبار والإلزام لتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.
* إن الله عز وجل قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم القيامة، فلا خوف عليه من الكافرين والحاقدين.
* دلت الآية على القاعدة المشهورة: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة». لذلك ينبغي الإقبال على طالب العلم، الحريص عليه أكثر من غيره.

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٨٢٥.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧١.
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية: ١٦/ ١٣٠-٢٣١.

المقطع الثاني: (الآيات ١٧-٣٢): تفكّر وتدبّر

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

بدأ هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ وانتهى بقوله تعالى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾، ففي بداية آيات المقطع يذم الله تعالى منْ أنكر البعث والنشور، ويذكّره بأصل نشأته، وحسن تقدير الله لتركيبه، ثم هدايته له، ثم إكرامه بالقبر، ثم الحكم عليه بالنشر، وهذا كله يقتضي شكراً، لا كفراً ولا تقصيراً، فإذا كان الإنسان مع هذا كله يكفر ويقصّر، فالذنب ذنبه، وبالتالي فلا عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم من أمره شيئاً، فلا يدفعنّك الحرص على إسلام الكافر إلى التقصير في حق المسلم.[1]

والآية تعم كل إنسان ففيها «دعاء عليه أشنع دعوة لأنه لا أفظع من القتل، (وما أكفره) تعجب من حال إفراطه في الكفران وتلقي نعم خالقه بالجحود والطغيان»[2].

نعم، بدأ الله عزوجل بتذكير الإنسان بنعمه عليه منذ النشأة الأولى، فدعاه للتأمل في مادة تكونه وهي الطين، هذا التكوين الذي نسيه الإنسان فتمرد وعاث في الأرض فساداً، ثم بين سبحانه مراحل تكوينه فبدأ بالنطفة وهي اللحمة الصغيرة التي قدر الله عز وجل أن تنمو حتى يحين موعد خروجه إلى هذه الدنيا. واستمر حفظ الله عز وجل للإنسان وعنايته به حتى بعد المات بحفظ جسده بعد مماته بأن جعله يقبر ولا يرمى للسباع والحيوانات المفترسة، وهذا ما علمه الله للإنسان من زمن آدم عليه السلام حين أقبل أحدهم على قتل أخيه فأرسل الله له الغراب

(١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوى ١١/ ٦٣٧٨.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٩/ ٢٩.

حتى يعلمه كيف يواري جثمان أخيه، قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة: ٣١] فلله الشكر والحمد على نعمائه.

وقبل الحديث عن اليوم الآخر وما يجري فيه دعا الله عز وجل الإنسان لينظر إلى حياته كيف عاشها وكيف استمر حتى أماته الله « ولما عدد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر النعم فيما به قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه...»[1]، قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ دعوة إلى تأمل الإنسان لما فيه استمرار حياته وهو الطعام الذي مر بمراحل حتى تم تناوله من قبل الإنسان، فقد هيأ الله عز وجل نزول المطر ليروي الأرض ويدعوها للتشقق لتخرج البذور والحبوب التي قد يلقيها الانسان، ثم تنمو الأعناب والأعلاف والزيتون والنخيل والحدائق العظيمة الأشجار، هذا كله طعام للإنسان والحيوان.

الهدايات المستنبطة من المقطع.

* جاء الإسلام ليكرم الإنسان ويرفع من إنسانيته إلى أعلى المراتب، فكرمه سبحانه حياً وميتاً، فحري بالمسلمين أن يقدروا هذه النعمة العظيمة، بإقامة دين الله على الأرض، واتباع أوامره.

* يجب على الإنسان أن يشكر ربه سبحانه، ويبذل جهده في طاعته، وتحقيق العبودية لله وحده سبحانه.

* من عجيب أمر الإنسان أنه يعلم من نفسه أنه كان نطفة فصار بشراً سوياً، فكيف يكفر بمن أنعم عليه بنعمة الإيجاد فخلقه وسوّاه، وأمده بنعمة الإمداد ليعيش في الحياة مكرماً.

* أكرم الله عز وجل المسلمين بدفن موتاهم، وذلك تكريماً للإنسان حتى بعد موته، فالواجب على المسلمين احترام موتاهم، ودفنهم كما أراد سبحانه وعدم التشبه بغيرهم من الكفرة.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٠.

المقطع الثالث: (الآيات ٣٣- ٤٢): يومك... يومك

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

انتقلت الآيات إلى مشهد النتيجة الحتمية لمن تم ذكرهم في بداية السورة (الكافر والمؤمن) وهذا هو إعجاز القرآن، ينتقل من مشهد إلى آخر بنقلة قرآنية فريدة لا يشعر من خلالها القارئ بفراغ أو خلل بين المشاهد القرآنية.

ففي هذه الآيات جاء الحديث عن يوم الإنسان الخاص به فيومه هو يوم القيامة يوم تصخ الصيحة الآذان لشدتها، ففي ذلك اليوم لا يسأل الإنسان عن أمه وأبيه، ولا يسأل عن زوجه وأخيه، ولا عن بنيه لكلٍ ذلك اليوم شأن يغنيه، ينتظر حسابه فيه، تتميز فيه الوجوه فالمؤمن مسفر الوجه أي مضيء مسرور من النعم التي أعدت له، ووجوه أخرى تعلوها الغبار من العبوس والهموم فهؤلاء هم الكفرة الفجرة.

« وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع مع الذي جاء يسعى وهو يخشى، والذي استغنى وأعرض عن الهوى ثم هذان هما في ميزان الله»[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع.

* صيحة القيامة تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.
* الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأما الآخرة فدار الجزاء والبقاء. فعلى الإنسان أن يتزود من دار ممره إلى دار مقره.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٨٣٤.

* الناس يوم القيامة فريقان: سعداء و أشقياء. أما السعداء فتظهر البهجة على وجوههم، لما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم.

وأما الأشقياء فترى وجوههم مسودة مظلمة، قد أيست من كل خير وعرفت شقاءها وهلاكها.

سورة التكوير

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

قال ابن عاشور: « أكثر المفسرين يسمونها (سورة التكوير)، وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول ﴿كُوِّرَتۡ﴾. وتسمى(سورة كُورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها. ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم»[1].

ب. فضائل السورة:

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:(منْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾. أحسب أنه قال: وسورة هود)[2].

ج.مكية السورة أو مدنيتها:

قال ابن الجوزي:» هي مكية كلها بإجماعهم».[3]

د.عدد آيات السورة:

قال البقاعي: «آيها تسع وعشرون إجماعاً، إلاّ عند أبي جعفر فهي عنده ثمان وعشرون...»[4].

هـ. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع السورة حول وصف يوم القيامة ومكانة المبلغ عنه، وكذلك(الحوادث

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٣٩.
(٢) جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة إذا الشمس كورت، حديث ٣٣٨٩، ٥/ ١٠٤.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي: ٩/ ٣٧.
(٤) مصاعد النظر للبقاعي:٣/ ١٦٠.

الكونية السماوية والأرضية التي تقع من أول يوم القيامة إلى ساعة الحساب وفصل القضاء).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

يتفق اسم السورة التكوير، أو سورة كورت مع محورها إذ يكون تكوير الشمس هو الحدث الأول ؛ لأنها تضيء العالم، فإذا كُورت أي لُفت ورُمي بها أظلمت السماء فأظلم الكون هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن الخراب إنما يبدأ من السقف، والشمس أبرز آيات السماء التي هي سقف فوقنا.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة التكوير بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾، وخُتمت بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾، والمتأمل في نظم الآيتين يدرك أن المتصف «بالربوبية صح تصرفه في الشمس وما تبعها مما ذكر أول السورة لإقامة الساعة لأجل حساب الخلائق والإنصاف بينهم بقطع كل العلائق، كما يفعل كل رب مع من يربيه فكيف بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فقد التقى طرفاها على أشرف الوجوه وأجلاها...».[1]

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة لجحودهم بها لهذا القرآن من التذكرة، ابتدئت هذه بإتمام ذلك، فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة..»[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، ٢١/ ٢٧٥.

تتألف السورة من مقطعين: قال الأستاذ سيد: «هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى: حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل..

والثانية: حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه...»[1].

المقطع الأول: (الآيات ١ـ١٤): حقيقة القيامة.

المقطع الثاني: (الآيات١٥-٢٩): حقيقة الوحي.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦/ ٣٨٣٦.

المقطع الأول: (الآيات١-١٤): حقيقة القيامة

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ ﴾

من أنعم نظره في هذه السورة أدرك أنها شارحة، ومفصلة للسورة التي سبقتها، ففي سورة (عبس) ذكر الله عز وجل يوم القيامة، وما فيه من أهوال فجاءت هذه السورة تبين للناس علامات هذا اليوم فذكرت اثنتي عشرة علامة، ستة منها تقع في أول يوم القيامة وبقيتها تقع بعد البعث.

لقد افتتحت العلامات بتكوير الشمس وسقوطها وذهاب نورها ليتنبه الناس إلى البدء بخراب العالم فقال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ ﴾ أي: «ذهب ضوءها واختفى»[1].

وأما النجوم المضيئة في السماء فتتناثر من السماء وتتساقط على الأرض بعد الشمس قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ ﴾ أي: ذهب لمعانها وضوؤها. وهاتان الآيتان إنما تحدثتا عما هو مشاهد في السماء(الشمس) بالنهار، و(النجوم) بالليل.

ولعل في ذكر النجوم دون القمر لطيفة إعجازية، وذلك أن القمر ليس له ضوء، وإنما يستمد ضوءه من الشمس ابتداء فناسب عدم ذكر القمر. والله أعلم.

قال البقاعي: «ولما بدأ بأعلام السماء؛ لأنها أشهر وأعم تخويفاً وإرهاباً، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمها نفعاً، أتبعها أعلام الأرض فقال مكرراً للظرف لمزيد الاعتناء

---

(١) في معنى تكوير الشمس اختلاف قيل: اضمحلت، قاله مجاهد، وقيل: غورّت، وقال ابن عباس: إدخالها في العرش، وغيرها. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٣.

بالتهويل: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ أي: «ازيلت من أماكنها»[١]عند الرجفة التي تزلزل الأرض.

وفي هذا اليوم العظيم ترى الجبال قد تغيرت أماكنها كما قال تعالى ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، وظاهر الآية يدل على أن الجبال تمر على الرؤوس مر السحاب في السماء، وهذا قبل أن تنسف لقوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه: ١٠٥].

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾من هول هذا اليوم وشدته، حتى النوق - وهي أعز ما لدى الإنسان العربي خاصة إذا كانت من الحوامل - تترك وينسى أمرها[٢].

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾حتى حيوانات البحر تجمع في يوم القيامة وتموت[٣].

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ فإذا ما تم القضاء على دواب البحر جاء دور البحر نفسه لتجمع البحار كلها في بحر واحد.

هذه هي الإمارات الست في الدنيا، أما في الآخرة فهي:

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾: أي جُمع كل شكل إلى نظيره.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ تحدث سبحانه وتعالى عن أحوال يوم القيامة في الآخرة بدأ بالقضية التي كان العرب في ذلك الوقت يقومون بها وهي قتل بناتهم فكانت البداية بسؤال البنات عن سبب قتلهن- وهو سبحانه أعلم- وإنما ذكرها لِعظم هذا الأمر وهوله.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٥١.

(٢) العشار: النوق الحوامل وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، فقيل لها العشار لذلك. انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٨/ ٢٠٨.

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٢٠٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٠/ ٤٢٤، و روح المعاني للآلوسي٣٠/ ٥١.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ ﴾ ثم بعد تعريفهم بعملهم الشنيع - وهو قتل البنات - يُعطى كل إنسان صحيفة عمله التي سجلت فيها الملائكة ما كانوا يقومون به في الدنيا لتتم محاسبتهم.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ ﴾ هذا ما يحصل مع الإنسان، أما السماء التي كانت تظلل الإنسان في الدنيا فتزول من موضعها.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ ﴾ وفي ذات الوقت تتسعر الجحيم، وتتوقد بشدة استعداداً لتلقي الكفرة الفجرة.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ ﴾ أما الجنة فإنها تقترب من أولئك المتقين الذين استعدوا لمثل هذا اليوم العظيم، لاستقبالهم فرحاً بهم.

ومنْ أنعم نظره في آيات المقطع بدءاً من الآية الأولى حتى الآية الرابعة عشرة يجدها تزلزل عقيدة الجاهليين في كل وقت وحين، فتلفت أنظارهم إلى ركيزة إيمانية مهمة وهي اليوم الآخر، فقد جاءت هذه الآيات تعلن أن هذه الحياة الدنيا لها نهاية يكون بعدها الحساب على الأعمال والجزاء في الجنة أو في النار. ففي هذا اليوم الشديد، وما يجري فيه من أهوال ستعلم كل نفس إنسانية ما لها، وما عليها، وكأن هذه الآية رابط وثيق بين ما كان في الدنيا وما يجري في الآخرة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

«هذه الأوصاف التي وُصف بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم»[1].

ففي هذه الآيات الزاجرات هدايات واضحات لأصحاب القلوب والألباب ليستعدوا ليوم الحساب الذي يجعل الولدان شيباً.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٠٩٨.

المقطع الثاني: (الآيات١٥-٢٩): حقيقة الوحي

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تبدأ الآيات الآن بعد ذكر أمارات يوم القيامة، بإثبات نبوة محمد ﷺ قبل الحديث عن صدق نبوته ﷺ بالقسم بما في الكون من دلائل يعرفها الناس، أقسم سبحانه بالكواكب عندما تظهر بعد أن تكون قد اختفت[(١)]، ثم أقسم سبحانه بالنجوم إذا اختفت مرة أخرى[(٢)].

ثم أقسم سبحانه بالليل إذا أقبل وأظلم، والصبح إذا أضاء وأنار.[(٣)] هذا القسم جاء ليؤكد أن هذا القرآن العظيم أنزله سبحانه وتعالى مع رسوله جبريل عليه السلام- وهو صاحب القوة والشدة- عند الله عزوجل- صاحب العرش-وهو مطاع عند الملائكة يُعرف بينهم بالقوة والأمانة.

أما صاحبكم الذي عرفتم منه الصدق والأمانة، ورجاحة العقل في تحكيم الأمور، فما هو بمجنون كما ادعيتم، ولاهو كاذب كما اخبرتم، فهو ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض بالصورة التي خلقه الله عليها، وما محمد ﷺ بمقصر في أمر الدعوة إليه سبحانه كما أمره.

هذا هو محمد ﷺ، وهذا هو القرآن الكريم، لا كما تقولون إنه من أقوال الجان والشياطين، فما بالكم لا تهتدون، مع كل الأدلة والبراهين، فأنتم في غيكم تسيرون، وما هذا القرآن الكريم إلا دعوة للعالمين، للإيمان بهذا الرسول الأمين، لمن أراد منكم السبيل القويم والطريق المستقيم،

---

(١) الخنس: الكواكب السيارة التي ترجع إلى أول البرج، وسميت خُنّساً لتأخرها لأنها الكواكب المحيرة التي ترجع وتستقيم.انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٢٩/ ٣٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ٧١١.

(٣) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ٥٩.

وما تشاؤونه بإرادتكم، إنما بإرادة ربكم ورب آبائكم الأولين،ومدبر أموركم أجمعين.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* هذه آيات عظام، أقسم الله عليها ؛ لقوة سند القرآن وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم.
* وصف الله تعالى جبريل ﷺ بالكريم لكرم أخلاقه، وخصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، وله مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.
* بيان شرف القرآن العظيم عند الله تعالى، فحريٌّ بالمؤمنين أن يعظموا هذا القرآن العظيم كتاب الحياة والأحياء.
* مدح الله تعالى محمداً ﷺ الذي نزل عليه القرآن ودعا الناس إليه، بأنه أكمل الناس عقلاً وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.
* رسول الله ﷺ هو أمين أهل السماء وأهل الأرض بلّغ رسالة ربه البلاغ المبين، ولم يمت ﷺ حتى أخرج من أمته الأمية علماء ربانيين وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم.

سورة الانفطار

أولاً: بين يدي السورة:

أ. اسم السورة:

«سميت هذه السورة (سورة الانفطار) في المصاحف ومعظم التفاسير»[1].

ب. فضائل السورة:

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:(منْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي عين، فليقرأ: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾، و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾، و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾. أحسب أنه قال: وسورة هود)[2].

ج.مكية السورة أو مدنيتها:

السورة مكية بالإجماع[3].

د. عدد آيات السورة:

تسع عشرة آية بلا خلاف[4].

هـ.موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع السورة حول وصف يوم القيامة والاستدلال بالسنن الكونية (في خلق الإنسان وغيره).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٦٩.

(٢) جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة إذا الشمس كورت، حديث ٣٣٨٩، ٥/ ١٠٤.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣١.

(٤) مصاعد النظر للبقاعي ٣/ ١٤٦.

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها ظاهرة لمن تأملها، ذلك لأن انفطار السماء وانشقاقها فيه تحذير «وتخويف لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها، أو سقوط طائفة منها فوقهم، فيكونون بحيث لا يقر لهم قرار»[١].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ / ١، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾/ ١٩» وفي هذا الختام رد العجز على الصدر؛ لأن أول السورة بدئ بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء وختمت السورة ببعض أحواله»[٢].

ولله در الأستاذ سيد قطب الذي ربط بين افتتاحية السورة وخاتمتها برباط أدبي أخّاذ يأخذ بالألباب، قال رحمه الله تعالى: «ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها. وينحصر الحس بين الهولين.. وكلاهما مذهل مهيب رعيب، وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب» [٣].

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يخرج شيء عن مشيئته، وأنه موجد الخلق ومدبرهم وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له: أرحام تدفع، وأرض تبلع، ومن مات فات، وصار إلى الرفات، ولا عود بعد الفوات. افتتح الله سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي:٢١/ ٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور:١٥/ ١٨٥.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب:٦/ ٣٨٥٢.

فيجزي كلاً منهم من المحسن والمسيء بما عمل فقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾»[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

تتألف السورة الكريمة من أربعة مقاطع:

المقطع الأول: إثبات البعث وأهواله.

المقطع الثاني: تحذير الإنسان من الانهماك في الدنيا.

المقطع الثالث: علة تكذيب الإنسان ليوم الحساب.

المقطع الرابع: ضخامة يوم الحساب.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٢١/ ٢٩٨.

المقطع الأول: (١-٥): إثبات البعث وأهواله

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾

منْ أنعم نظره في مطالع سورة الانفطار يدرك أنها جاءت «لنفس الهدف الذي جاءت من أجله مطالع سورة التكوير، وهو لفت الأنظار إلى أن هذه الحياة الدنيا زائلة، وأن ثمة موقفاً رهيباً يعقبها يحاط فيه الإنسان بما عمل من عمل، فإن كان خيراً دخل الجنة، وإن كان شراً دخل النار..

ولكن مطالع سورة الانفطار جاءت بأربعة مشاهد جديدة لنهاية الكون لم تأت في سورة التكوير، وهي انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور، كما أن قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ ﴾ من سورة التكوير قد جاء مجملاً، بينما قوله سبحانه: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾ من سورة الانفطار قد جاء مفصلاً»[1].

إنه ذكر جديد لعلامات الساعة استعداداً للحظة الحساب، فالسماء تتشقق لنزول الملائكة والكواكب تتساقط- وهذا دلالة على ازالتها-، والبحار تتفجر لتجتمع في بحر واحد، والقبور تقلب ليخرج أصحابها للحساب، هذه هي اللحظات الأخيرة قبل الحساب،وصف دقيق لكل ما سيحدث من حولنا في هذا الكون الفسيح، في ذلك الوقت ستعلم كل نفس ما قدمت في الدنيا من أعمال وما لم تعمل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* تحذير الناس من يوم دمار الكون حيث تتغير معالمه، وتتبدل أحواله، وهو يوم واقع في المستقبل، محقق الوقوع لا محالة، لذلك يجب الاستعداد لتلك اللحظات الحرجة التي لا يملك الإنسان عند وقوعها شيئاً.

* عند وقوع هذه الحوادث الكونية يكون الناس فريقين اثنين:

---

(١) تفسير سورة الانفطار، جمال عياد ص١١.

الفريق الأول: هم الظالمون الذين رأوا ما قدمت أيديهم من سوء، وأيقنوا بالعذاب الأليم، والخسران المبين.

وأما الفريق الثاني: فهم المتقون الذين قدموا الأعمال الصالحة، وفازوا بالأجر العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم[١].

المقطع الثاني: (٦-٨) تحذير الإنسان من الانهماك في الدنيا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾

التفات رائع ونقلة موضوعية دون شعور القارئ بها. يخاطب بها عز وجل عباده بعتاب جميل عن واقعهم، فيقول سبحانه لعبده: بعد أن هيأ الله عز وجل لك كل ما تشتهيه في هذه الدنيا، وبعد أن أنزل لك القرآن الكريم، وبين لك طريق الخير، وطريق الشر، وبعث لك رسولاً من قومك، تعرف أخلاقه. من الذي خدعك؟ وما الذي أغراك؟ وهيأ لك العصيان لربك الذي أكرمك وأعزك؟ فمن كرمه عليك صورتك التي أنت عليها، ومن كرمه خلقك في أجمل هيئة، ليس فيك عيب ولا خلل.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* يخاطب الله تعالى الإنسان بصفة الإنسانية التي تميزه على المخلوقات ؛ ليرعوي ويتذكر أنه إنسان مكرم حريٌّ به أن يستجيب لمنْ أكرمه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى.
* إن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ ليحقق العبودية لله تعالى، أيليق بهذا الإنسان بعد هذا الإكرام أن يكفر بنعمة المنعم، أو يجحد إحسان المحسن ؟.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ١٠٩٩.

المقطع الثالث: (٩-١٦) علة تكذيب الإنسان ليوم الحساب

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ومع كل قدرة الله عز وجل ودلائلها في خلقكم يا بني آدم، فأنتم مغرورون مكذبون بيوم الدين، اليوم الذي هو حق على الجميع، تأتي فيه الملائكة وقد أحصت لكم أعمالكم في الدنيا، سجلت حسناتكم وسيئاتكم، ليتقرر مصيركم في هذا اليوم العظيم، فاليوم كل حسب عمله: إما إلى الجنة وحسن مقام، وإما إلى النار وبئس القرار.

في هذا اليوم المشهود، يأتي كل بما لديه من أعمال؛ ليتم تصفية العباد. فالأبرار الذين آمنوا بالله عز وجل، وصدقوا برسوله الكريم ﷺ فلهم جنات النعيم. أما الفجار الذين كذبوا بالله ورسوله، ففي جهنم وبئس المصير،لا يخرجون منها وبئس القرار، جزاء كذبهم بهذا اليوم المشهود،ذلك اليوم الذي يملك فيه الإنسان فعل شيء لنفسه، ولا لغيره، فالأمر كله بيد الله وحده، المتصرف بالعباد.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* أقام الله تعالى على المكذبين ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم.
* جعل الله جزاء الأبرار القائمين بحقوق الله تعالى وحقوق عباده النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا، وفي البرزخ في دار القرار.
* أعدّ الله تعالى للفجار العذاب الأليم في دار الدنيا وفي دار البرزخ، وفي دار القرار يعذبون أشد العذاب، ملازمون لهذا العذاب لا ينفكون عنه.

المقطع الرابع: (١٧-١٩) ضخامة يوم الحساب.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

من تدبّر آيات هذا المقطع يجد فيها تهويلاً لشأن يوم القيامة والحساب والجزاء، أي أن شأن ذلك اليوم عظيم أيها الإنسان لا تستطيع إدراكه، ولذلك أنت تتهاون في الاستعداد له، في ذلك اليوم الشديد لا تستطيع نفس أن تنفع نفساً بشيء، ولا أن تدفع عنها شيئاً حتى الشفاعة التي يرجوها الخلق يومئذ ممن له الشفاعة فإنها لا تكون إلاّ بإذن الله ؛لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا لغيره لا في الظاهر ولا في الباطن، على خلاف ما في الدنيا من توهُّم أن لغيره تعالى أمراً في الظاهر.

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع:

* يوم القيامة يوم عصيب،ولذلك جاء التعجيب من ذلك اليوم، إذ النفس التي كانت في الدنيا تشفع وتنفع نفسها ومن استجار بصاحبها، تجد يوم الدين يختلف تماماً عن الدنيا من جهتين هما:

الجهة الأولى: يوم لا تجد نفس ـ أي نفس ـ لنفس شيئاً البتة فينقطع الشفيع والمعين.

وأما الجهة الثانية: فإن الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا شريك له.

سورة المطففين

أولاً: بين يدي السورة.

أ.اسم السورة:

اشتهرت هذه السورة باسم (سورة المطففين)، ولم يذكرها السيوطي في عداد السور التي لها أكثر من اسم [1]. وسماها البخاري في كتاب التفسير: (سورة ويل للمطففين)[2]، وأما البقاعي فسماها سورة (التطفيف)[3]. قال المهايمي: «سميت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق، استحق أعظم ويل من الحق. فكيف من أخلّ بأعظم حقوق الحق، من الإيمان به وبآياته ورسله؟»[4].

ب. مكية السورة أو مدنيتها:

اختلف العلماء في كون هذه السورة مكية أو مدنية، أو نزلت بين مكة والمدينة، على أقوال ثلاثة ذكرها ابن الجوزي،ولم يرجح بينها، قال رحمه الله تعالى: «وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مكية، قاله ابن مسعود، والضحاك،ويحيى بن سلام.

والثاني: مدنية، قاله ابن عباس، والحسن،وعكرمة، وقتادة، ومقاتل، إلاّ أن ابن عباس وقتادة قالا: فيها ثمان آيات مكية، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ ﴾ إلى آخرها. وقال مقاتل:فيها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

والثالث: أنها نزلت بين مكة والمدينة، قاله جابر بن زيد وابن السائب، وذكر هبة الله ابن سلاّمة المفسر أنها نزلت في الهجرة بين مكة والمدينة، نصفها يقارب مكة، ونصفها يقارب

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٩.

(٢) صحيح البخاري(مع الفتح) ٨/ ٨٨٨.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٢١/ ٣١٠، ومصاعد النظر ٣/ ١٦٧.

(٤) تفسير القاسمي ٩/ ٤٢٧.

المدينة»[1].

قال الزركشي: «اختلفوا في ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ فقال ابن عباس: مدنية. وقال عطاء: هي آخر ما نزل بمكة»[2] وقال السيوطي: «قيل:إنها مكية، لذكر الأساطير فيها، وقيل: مدنية لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فساداً في الكيل. وقال قوم نزلت بين مكة والمدينة. قلت: أخرج النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ فأحسنوا الكيل»[3].

وجزم ابن كثير بمدنية السورة[4].

وأما ابن عطية فرجح مكية السورة، قال: «وهي مكية في قول جماعة من المفسرين واحتجوا لذكر الأساطير...»[5].

ولابن عاشور كلام حسن في نزول السورة بين مكة والمدينة أرى من المناسب والمفيد نقله هنا. قال رحمه الله تعالى: «... ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة ؛لأن التطفيف كان فاشياً في البلدين.وقد حصل من اختلافهم أنها:إما آخر ما أنزل مكة، وإما أول ما أنزل بالمدينة، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن...وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات»[6].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٩/ ٥١.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٩٤.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٩.
(٤) تفسير ابن كثير٤/ ٤٨٣.
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٢٤٩.
(٦) تفسيرالتحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ١٨٨،١٨٧.

ولأجل هذا الاختلاف أطنبت في عرض أقوال العلماء في زمن نزول السورة على الرغم من ميل النفس إلى القول بمكيتها، لأن أسلوبها لا يختلف عن أسلوب السور المكية. والله تعالى أعلم.

ج.عدد آيات السورة:

«آياتها: ست وثلاثون وفاقاً، ولا اختلاف في تفصيلها...»[1].

د. موضوع السورة الذي تتمحور حوله الآيات:

يدور موضوع هذه السورة الكريمة حول الجرائم الاقتصادية ورصد الله للاعبين باقتصاد المسلمين وعقابهم.

هـ. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من تأمل اسم السورة ومحورها أدرك أنها متآخية ، ذلك لأن آيات السورة عرضت للمطففين في استهلالها،ووسمتهم بالفجار، وأن صحف أعمالهم في أسفل سافلين، ويقابلهم الأبرار وأن صحف أعمالهم في أعلى عليين،ثم ما سيكون بين الفريقين يوم الدين.

٢.المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين الذين لم يوقنوا بيوم الدين وسخروا من المؤمنين، فناسب في ختام السورة أن تكون آية ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ «فذلك لما حُكي من اعتداء المشركين على المؤمنين وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة، فالمعنى: فقد جوزي الكفار بما كانوا يفعلون... وفي هذه الجملة حسن براعة المقطع ؛ لأنها جامع لما اشتملت عليه السورة»[2].

---

(١) مصاعد النظر للبقاعي ٣/ ١٦٨.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ٢١٦،٢١٥.

٠٣ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال البقاعي في نظم الدرر: « لما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب وانحسام الأنساب يوم الحساب،وأبلغ في التهديد بيوم الدين، وأنه لا أمر لأحد معه، وذكر الأشقياء والسعداء،وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير، وكانت المعصية بالبخس فيها من أخس المعاصي وأدناها، حذر من الخيانة فيها، وذكر ما أعد لأهلها وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم..فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾...»[1].

والحق أن سورة المطففين تنتظم مع أخواتها سور الانفطار والتكوير وعبس برباط ناظم إذ « السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ومقاساة العرق والأهوال فذكره في هذه السورة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾...»[2].

ويمكن أن يقال إن «هذه السورة كأنها إيضاح لما قبلها، أو متفرعة عنها، وتفصيل لإجمالها كما أن السورة السابقة مشابهة لسورة التكوير، وسورة التكوير متناسقة مع سورة عبس. فسورة المطففين والانفطار والتكوير وعبس كأنها سورة واحدة من حيث تناسقها وتكاملها»[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

تتألف هذه السورة الكريمة من أربعة مقاطع رئيسة هي:

المقطع الأول: إعلان الحرب على المطففين.

المقطع الثاني: وعيد الفجار بالعقاب الأليم.

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢١/ ٣١٠.

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي١٥٨.

(٣) الجواهر لطنطاوي جوهري م١٣ ج٢٥ ص٩١.

المقطع الثالث: وعد الأبرار بالثواب العظيم.

المقطع الرابع: إكرام المؤمنين، وإيلام المجرمين يوم الدين.

المقطع الأول: (الآيات١-٦) : إعلان الحرب على المطففين

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

تبدأ هذه الآيات الكريمات بكلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾ التي تقطع نياط قلوب المطففين الذين «إذا كان لهم عند الناس حق في شيء يكال أو يوزن، وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه إلاّ تاماً كاملاً... وإذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار... وهذا العمل لا يصدر إلاّ عن شخص لا يظن أنه يبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله. ولو ظنّ البعث والحساب لما طفف الكيل ولا بخس الميزان. وكيف يصر على إيذاء الناس والغض من حقهم من يظن بعض الظن أنه سيقوم بين يدي رب العالمين، وخالق الخلق أجمعين،القاهر الجبار،ليحاسب على النقير والقطمير»[1].

يقول العلامة عبد الله كنون: «وهذا الوعيد إن كان نزل في هذا النوع من التطفيف الحسي للمكيال والميزان فهو يشمل سائر الأنواع الأخرى كتطفيف الأجير في العمل وإسرافه فيما يطلب من أُجرة،والعكس وهو مطالبةُ الأجير ببذل مجهوده وعدمُ توفيته أُجرته، وكبخس الأثمان عند الشراء ورفعها عند البيع، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام فيما خاطب به قومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود: ٨٥]، كما يشمل التطفيف المعنوي بتنقُّص مزايا الناس وشعارات الآخرين، وتزيُّد المتنقِّص فيما له من ذلك، فقانون الإسلام في هذا ونحوه هو قوله

(١) انظر: تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده، ص٣٢.

تعالى: ﴿ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]»[1]. فالآيات الكريمات لم تفرق في هذه المعاملات المالية بين الناس ؛لأن قانون الإسلام يقوم على العدل وإعطاء كل ذي حق حقه، ولو كان حقيراً لا قيمة له في نظر بعض الناس.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التطفيف سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم، وإذا كان هذا وعيداً على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.
* دلت آيات المقطع على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم الحجج والمقالات ' فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الوضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.
* إن أفعال المطففين تكشف عن عدم إيمانهم باليوم الآخر الذي يكون فيه السؤال عن النقير والقطمير، فحريٌّ بالمسلم أن يستعد لذلك اليوم العظيم.[2]

---

(١) تفسير سور المفصل، عبد الله كنون، ص٣٣٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص١١٠٠.

المقطع الثاني: (الآيات: ٧-١٧) وعيد الفجار بالعقاب الأليم

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أنه لا يقيم على التطفيف إلاّ منْ ينكر ما أوعد الله من العرض والحساب وعذاب الكفار والعصاة، زجرهم بأداة الردع (كلا) للكف عما هم فيه ،وذكر أن الفجار قد أُعد لهم كتابٌ أُحصيت فيه جميع أعمالهم وأعمال منْ هم على شاكلتهم ليحاسبوا عليها،وأن هذا الكتاب في قعر جهنم بدليل مقابلته بعلّيين، فويل للمكذبين بيوم الجزاء، وما يكذب به إلاّ كل من تجاوز حدود الدين...وإذا تليت عليه آيات القرآن قالوا: ما هي إلاّ أقاصيص الأولين نقلها محمد ﷺ عن السابقين وليست وحياً كما يدّعي.

والحق إن الذي جرأهم على ذلك هي أفعالهم القبيحة التي أعمتهم حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة.

ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها فأبان لهم أنهم كاذبون، وأنهم سيطردون من رحمة الله ولا ينالون رضاه، ثم يؤمر بهم إلى النار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون..[(١)]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* إن الله تعالى أعدّ للفجار من الكفرة والمنافقين والفاسقين كتاباً مذكور فيه أعمالهم الخبيثة في مكان ضيق عقوبة لهم.
* المكذبون بيوم الدين مكذبون بالقرآن الكريم على الرغم من الأدلة الناطقة، والبراهين الساطعة في الآيات الكريمات على أن يوم الدين حق لا مرية فيه.

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ٧٤،٧٧، وتفسير سور المفصل لكنون ص٣٣٥،٣٣٦.

* المكذبون بيوم الدين ينالون ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم،وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين ؛ المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.
* دلّ مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله ﷺ.
* في هذه الآيات التحذير من الذنوب فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً حتى ينطمس نوره وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً. وهذه من أعظم عقوبات الذنوب.[1]

المقطع الثالث: (الآيات:١٨-٢٨) وعد الأبرار بالثواب العظيم

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول العلامة عبد الله كنون في تفسير هذه الآيات: «هذا بيان لمحلّ كتاب الأبرار وما أعدّ الله لهم من النعيم المقيم، بعدما سبق من ذكر محل كتاب الفجار وما أُعدّ لهم من ضدّ ذلك، جرياً على الطريقة القرآنية المعهودة من الجمع بين الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة، توخياً للتأثير في نفوس البشر الذين تختلف طبائعهم فتختلف انفعالاتهم تبعاً لذلك»[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص١١٠٠.
(٢) تفسير سور المفصل لكنون ص ٣٣٧.

وبعد أن ذكر سبحانه حال المطففين والفجار، وبين منزلتهم عند الله تعالى يوم القيامة، أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم وصدقوا رسولهم ﷺ فيما جاء به عن خالقهم سبحانه وعملوا الخير في الحياة الدنيا.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التنويه بالأبرار إذ جعل كتابهم في عليين يشهده المقربون من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء.
* الأبرار في نعيم دائم يجمع نعيم القلب والروح والبدن على السرر المزينة يتنعمون بما أعد الله لهم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.
* إن وجوه الأبرار يوم القيامة تكتسب نوراً وحسناً وبهجة جزاء إيمانهم، وأما شرابهم فهو الرحيق المختوم بالمسك الأذفر.
* حريٌّ بالمؤمنين أن يتنافسوا بالأعمال الصالحة، ويتسابقوا في المبادرة إلى النعيم المقيم بالأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

المقطع الرابع: (الآيات ٢٩-٣٦) إكرام المؤمنين، وإيلام المجرمين يوم الدين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه النعيم الذي هيأه للذين آمنوا به وبرسوله ﷺ، وعملوا بما كلفهم به من أعمال البر، يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين

يستهزئون بهم ويحتقرونهم،وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم،وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين مسرورين.

أما يوم القيامة فإن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ في مقابلة ما ضحك بهم أولئك، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ إلى الله عز وجل في مقابلة منْ زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته...فهل جوزي الكفار المجرمون على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا،يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله..[1]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* المجرمون في الحياة الدنيا يتغامزون ويسخرون من المؤمنين صباحاً ومساء، ويرجعون إلى أهليهم بنشوة وسرور كونهم سخروا من المؤمنين، وهؤلاء المجرمون كأنهم جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون افتراء على الله تعالى، وتجرؤاً على القول عليه بلا علم.

* المجرمون في الآخرة ينالون جزاءهم من جنس عملهم يوم القيامة.

أما المؤمنون فإنهم يوم القيامة في غاية الراحة والطمأنينة ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من النعيم، وينظرون في وجهه الكريم، ويضحكون من المجرمين عدلاً من ا لله وحكمة، والله عليم حكيم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٨٧.

سورة الانشقاق

بين يدي هذه السورة:

تسمى هذه السورة بـ (سورة إذا السماء انشقت)، ويقال لها سورة الانشقاق، وسورة الشفق[1].

وهي سورة مكية بالاتفاق. وهي السورة الثالثة والثمانون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم، وعدد آياتها خمساً وعشرين آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والكوفة، وعدها أهل البصرة والشام من أهل العدد للآيات القرآنية ثلاثاً وعشرين آية[2]، وعدها العادون من أهل حمص أربعاً وعشرين آية[3]. وسبب الاختلاف في العدد هو الاختلاف في موضع الآيات من السورة الكريمة على النحو الآتي:

أولاً: الموضع الأول والثاني لفظي (كادح) و(كدحاً) من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(الانشقاق:٦) عدهما الحمصي وتركهما غيره.

ثانياً: الموضع الثالث لفظ (فملاقيه) في قوله تعالى: ﴿كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(الآية/ ٦) تركه الحمصي وعده غيره.

وخلاصة هذه المواضع الثلاثة أن الحمصي يعد (كادح وكدحاً) ويترك (فملاقيه)، والباقون على عكسه، فيتركون عد (كادح وكدحاً) ويعدون (فملاقيه).

ثالثاً: الموضع الرابع لفظ (بيمينه) في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ عدّه الحجازيون والكوفيون وتركه الشاميون والبصريون.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، ٨/ ٦٩٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٢١٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٢١٧، النظم الفني في القرآن ٣٤٥.

(٣) مرشد الخلان، عبد الرزاق موسى ٢٠٣.

رابعاً: الموضع الخامس لفظ (ظهره) في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الآية: ١٠] عده الحجازيون والكوفيون وتركه البصريون والشاميون[١].

ومحور هذه السورة الكريمة: (الساعة وما يتصل بها)، حيث تحدثت السورة الكريمة عن بعض الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم، إما على هيئة مقدمات أو مآلات، ثم تحدثت عن حال الإنسان السعيد الذي يلقى كتابه بيمينه، والشقي الذي يلقى كتابه وراء ظهره. عياذاً بالله تعالى. ثم تبع الحديث عن أحوال المخاطبين عموماً، وتبع ذلك بيان مآل الكفار ومآل المؤمنين.

والمناسبة بين اسم السورة ومحورها بينة جداً، إذ أن الانشقاق الحاصل للسماء ليس إلا من المقدمات الممهدات للساعة. كما تظهر المناسبة واضحة في افتتاح هذه السورة الكريمة حيث افتتحت بتمهيد فيه بيان بعض أشراط الساعة، والتي سيكون من نهاية أمرها بيان فئات الناس بين مؤمن وكافر. وهذا من أبدع وجوه المناسبات.

وكما ظهرت هذه الوجوه من المناسبات بين أجزاء السورة، فإن السورة نفسها متناسبة الموقع مع ما قبلها وما بعدها، ذلك أن السور المتتالية كلها في وصف أهوال يوم القيامة والوعيد به، وهذه مناسبة موضوعية واضحة وبارزة[٢].

وقال الآلوسي في بيان وجه ترتيب هذه السور: إن في سورة الانفطار التعريف بالحفظة الكاتبين، وفي سورة المطففين مقر كتبهم، وفي سورة الانشقاق عرض الكتب يوم القيامة[٣]. وهو وجه لطيف، والنكات لا تتزاحم.

وتنقسم هذه السورة الكريمة إلى مقطعين اثنين واضحين: فالأول منهما ينتهي بالآية الخامسة عشرة والثاني إلى نهاية السورة.

---

(١) مرشد الخلان، ٢٠٣-٢٠٤، بشير اليسر، عبد الفتاح القاضي ١٧٧ وما بعدها.

(٢) تناسق الدرر، السيوطي ١٣٤ وما بعدها، جواهر البيان، الغماري ١٤.

(٣) روح المعاني، الآلوسي ٣٠/ ٧٨.

والمقطع الأول ينقسم إلى فقرتين تنتهي الأولى منهما إلى نهاية الآية الخامسة والثانية إلى نهاية الآية الخامسة عشر[١].

من أهوال القيامة

التفسير:

قال تعالى:﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

المفردات:

أذنت: استمعت لأمر ربها وامتثلت له.

حقت: حق لها أن تمتثل.

مدت: اتسعت رقعتها، أو بسطت وسويت وأصبحت على سوية واحدة، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

تخلت: لم يبق في باطنها شيء.

هذا المقطع من هذه السورة يتحدث عن بعض الأهوال التي تحدث عندما يريد الله تعالى إفناء هذا العالم، وإعلان قيام الساعة، لمحاسبة المكلفين على ما قدموا، ولظهور أمر الله تعالى.

فالذي يحدث وتحدثت عنه الآية الكريمة انشقاق السماء وتصدعها وتفتتها، بحيث يظهر من هذا التفتت غمام يسد الأفق كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وعندما يأتي أمر الله تعالى للسماء بالانشقاق والتصدع، فإنها تستجيب لأمر الله وتنقاد له

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ١١/ ٦٤٣٧.

حق الاستجابة وحق الانقياد، فما هي إلا مخلوق من مخلوقاته تعالى، ليس له من الأمر شيء.

ومن عظيم الأهوال كما هو ظاهر في هذا السياق أن الله تعالى بدأ بالعالم العلوي الذي هو أشرف وأعظم من العالم السفلي، وآذن بخرابه وتدميره، ثم ثنى سبحانه بالعالم الأرضي (السفلي) فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ أي بسطت ومطت، فزيد في سعتها جداً بعد أن تمهدت، فصارت دكاً فزالت جبالها وآكامها وتلالها، فلا يرى الرائي منها عوجاً ولا أمتاً[(١)]، وعندئذ يصبح الذي في داخلها خارجاً كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ أي قذفته إلى أعلاها من داخلها وتخلت عنه، فيصبح هو وشأنه مع هذه الأهوال الحاصلة والمرتقب منها.

وقد صور النبي الكريم ﷺ هذه الحالة، حيث جاء عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)[(٢)].

فيا له من هول عجيب تتخلى الأرض فيه عما في بطنها من الأحمال. والأرض عندما يأمرها الله تعالى بالامتداد فإنها تفعل هذا طائعة مختارة، وحق لها ذلك فما هي إلا مخلوق من مخلوقاته سبحانه التي لا تخرج عن أوامره[(٣)].

---

(١) جاء في الآية الكريمة (وإذا الأرض مدت) بالبناء للمفعول لسببين اثنين.
الأول: بيان عدم الحاجة إلى ذكر الفاعل لأنه ليس إلا الله تعالى وحده حيث لن يقدر على هذا أحد سواه فكأنه معلوم لكل أحد ولا يحتاج إلى ذكر. والثاني: إرادة توجيه النظر إلى الحدث دون اعتناء بالفاعل من هو.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة ٢/ ٧٠١ حديث رقم ١٠١٣.

(٣) الظاهر من هذه الآيات أن جواب الشرط محذوف لظهوره وانكشافه بما دل عليه مقام الآيات، والتقدير ليحاسبنّ كل أحد على كدحه كله، فليثوّبن الكفار ما كانوا يفعلون، وليجازينّ أهل الإسلام بما كانوا يعملون. اهـ نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٣٣٧.

قال أبو جعفر بن الزبير:لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد كتبهم، وعاد الكلام إلى ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾[المطففين:١٨] وقوله﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾[المطففين:٧]، أتبع لك بذكر التعريف بآخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأن أخذها بالأيمان عنوان السعادة، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء. إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها، فمنها ما هو في عليين، ومنها ما هو في سجين إلى يوم العرض، فيؤتى كلٌ كتابه، فآخذ بيمينه وهو عنوان السعادة، وآخذ من وراء ظهره، وهو عنوان هلاكه. فتحصل الأخبار بهذه الكتب ابتداء واستقراراً وتفريقاً يوم العرض، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتخليها تعريفاً بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته[١].

ولما كان الأمر على ذلك نودي الإنسان بأداة البعيد تنبيها على أن معاصيه أبعدته عن القرب من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ كادح: ساع بجد، أي: يا أيها الإنسان المجد في سعيه، النشيط في عمله السريع في تحصيل معاشه وكسبه: إنك تكدح في طلب الدنيا، حتى استبطأت حركة الزمن، وكم تمنيت نهاية اليوم أو الشهر أو العام لتحصل على طلبك، أيها الإنسان ما هذا الجهل الذي أنت فيه ؟

ألم تعلم بأن هذا كله من عمرك، وأنت تكدح صائراً إلى ربك، وتجدك واصلاً إلى نهايتك وموتك، قال الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا[٢]

فأنت تجدّ في السير إلى ربك، فتلاقي عملك هناك واضحاً لا خفاء فيه، ولا ينقص منه

---

(١) نظم الدرر، ٢١/ ٣٣٧ وما بعدها.

(٢) الشعر: لم أتمكن من معرفة القائل وهو موجود في المفصل في صنعة الإعراب دون نسبة١/ ٤٢٩.

شيء، إنها لحظة الحقيقة حين يتكشف للإنسان كل شيء عمله صغيراً أو كبيراً، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٨]، إنك أيها الإنسان ملاق ربك فاجتهد في تحصيل ما يرضيه(١).

أحوال الإنسان عندما يلاقي ربه

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الانشقاق ٧-١٥].

المفردات:

أوتي كتابه وراء ظهره: تجعل يده من وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

يدعو ثبوراً: حسرة وندامة بقوله: واثبوراه واحسرتاه!!

لن يحور: لن يرجع إلى الله تعالى.

تتحدث هذه الآيات الكريمات عن أحوال الإنسان، بعد ما سبق بيان كدحه ومشقته في تحصيل أغيار هذه الحياة الدنيا، وأنه لا محالة راجع إلى ربه ليلقى جزاءه، تتحدث الآيات عن أن الإنسان في يوم القيامة ذلك اليوم الذي يلاقي فيه ربه منقسم إلى قسمين: السعداء والأشقياء.

فأما السعيد من هؤلاء فهو ذلك الإنسان الذي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وعمل في دنياه بما يحقق سعادته في الآخرة، فهو في ذلك المشهد يلقى كتابه الذي فيه صحائف أعماله بيمينه،

---

(١) ينظر في تفسير هذه الآيات: التفسير الواضح، محمود حجازي ٣/ ٨٤٤، ونظم الدرر٢١/ ٣٣٨، والتحرير والتنوير٣٠/ ٢٢١، والأساس في التفسير١١/ ٦٤٣٩، والتفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٠ وما بعدها.

وتلك علامة السعادة، وبيان الفوز، وهذه هي الحالة الأولى المميزة لأهل السعادة كما بينتها الآيات الكريمة، وأما الحالة الثانية فهي أن هذا المتلقي كتابه بيمينه سوف يحاسب حساباً يسيراً.

جاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال:ذاكِ العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك)[1] ومعنى المناقشة في هذا الحديث: أن يقال للمسؤول: عملت كذا وعملت كذا ولم فعلت كذا؟ ألم يأتك رسلي ؟ ألم تأتك كتبي ؟.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: (اللهم حاسبني حساباً يسيراً) فلما انصرف قلت: يا نبي الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك، وكل ما يصيب المؤمن يكفر الله عز وجل به عنه حتى الشوكة تشوكه)[2].

وقد ورد في شأن من يلقى كتابه بيمينه ما يعد تفصيلا أكثر من هذا في سورة الحاقة حيث جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الحالة الثالثة التي ذكرتها هذه السورة لهؤلاء السعداء فهي أن الواحد منهم﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ ﴾ [الانشقاق:٩] فرحاً بما لاقاه بعد معاناته وكده وكدحه في الحياة الدنيا بما هيأ له ذلك المصير الذي جعله مسروراً غاية السرور.

والخلاصة أن هذه الآيات ذكرت للسعداء ثلاثة أحوال هي على التوالي:

---

(١) الجامع الصحيح، البخاري ٨/ ٦٩٧ مع الفتح حديث رقم ٤٩٣٩.

(٢) مسند أحمد٦/ ٤٨، وهو عند الحاكم٤/ ٢٤٩ وصححه ووافقه الذهبي.

أولا: يلقون كتبهم بأيمانهم.

ثانيا: يحاسبون حسابا يسيراً.

ثالثا: أنهم ينقلبون إلى أهليهم مسرورين.

ويا له من جزاء يستحق من أجله إفناء الأعمار.

هذا هو حال الفئة المؤمنة السعيدة الفائزة، وأما ما يقابل هذه الفئة فهم الأشقياء أهل النار والعياذ بالله، وقد فصل الله تعالى أحوالهم هنا بما يحفز كل نفس مؤمنة عاقلة أن لا تسلك مسالكهم وتسير سيرهم﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانشقاق:١٠]، هذه صورة جديدة مضافة لما قاله الله تعالى في سورة الحاقة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة: ٢٥].

فهذا بيان أن أيديهم تلتف وراءهم ليتلقوا كتبهم بها، فمن كان هذا حاله ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾، ينادي بالويل والثبور وعجائب الأمور على ما فرط في حياته، وشقي فيها، لكن بالمعاصي والشهوات، والبعد عن رب الأرض والسماوات، هذا التعيس الهالك الذي قضى حياته في الأرض كدحاً، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً - ولكن في المعصية والإثم والضلال - يعرف نهايته ويواجه مصيره، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف ولا انتهاء فيدعو ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر ٥٠]، وماذا ينفع الكافر هذا الدعاء. إن الكافر حين ينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء، وحين يدعو بالهلاك لينجو به يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه، وهذا المعنى صوره المتنبي أبلغ تصوير عندما قال:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا[1]

إن هذه هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة، والشقاء الذي ليس بعده شقاء[2]، ثم إن مآله ومصيره أن ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ أي يدخل جهنم ويقاسي حرها الشديد الذي تنفطر منه الأكباد،

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٤/ ٢٨١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧ وما بعدها، التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٤.

وحسب الظالمين منها قوله تعالى ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

ثم بين سبحانه فيما بعد السبب الذي أوبق هذا الظالم لنفسه وجعل مصيره إلى جهنم فذكر سبحانه عنه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الانشقاق:١٣]، أي كان فرحا بطراً مترفاً لا يخطر بباله أمور الآخرة، ولا يتفكر في العواقب، ولم يخطر بباله أن يتفكر بحاله ومآله وإلى ماذا سيصير[1].

ثم بين سبحانه أنه كان يرتكب حماقة أخرى أكبر من هذه ألا وهي إنكاره لأمور الآخرة وكفره بالله تعالى، مع ظنه أنه لن يرجع إلي﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ١٤]، أعتقد أنه لا بعث ولا نشور ولا يوم آخر ولا معاد، فعاد كافراً بالله وبقدرته غافلاً عما اتصف به سبحانه وتعالى بدقائق الأمور. ثم بين سبحانه وتعالى أنه به عليم خبير لا تخفى عليه خافية من أحواله فقال سبحانه:

﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الانشقاق:١٥)، مسجلاً عليه أعماله التي أوبقته وقذفت به بشرورها إلى وادٍ سحيق في نار جهنم عياذاً بالله تعالى.

أحوال الإنسان في هذه الحياة

قال تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الانشقاق: ١٥-٢٥].

معاني المفردات:

الشفق: الحمرة بعد مغيب الشمس حين تأتي صلاة العشاء الآخرة.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٨١.

وسق: ضم وجمع.

اتسق:امتلأ واستوى، وذلك ليالي البدر.

طبقاً عن طبق: حالاً بعد حال.

يوعون: يجمعون من الكفر والتكذيب أو يضمرون من عداوة رسول الله ﷺ.

غير ممنون: غير مقطوع.

بعد تلك الجولة الكبيرة ذات الأثر العميق التي طوفت بنا في أقسام الناس، عندما يعرضون على الله تعالى، فتظهر نتائجهم وفق ما قدموا من العمل، عاد بنا السياق إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان وهو غافل عن تلك اللمحات، وما تذكر به من التدبير والتقدير، مبيناً إقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته، على أن مشيئته نافذة، وقضاؤه لا يرد، وحكمه لا يتخلف[1]، فقال سبحانه:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾وهذه الصيغة من صيغ توكيد القسم، ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾، أي أقسم بالحمرة التي تظهر في الأفق الغربي، بعد غروب الشمس، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب، لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالقمر إذا ما اجتمع نوره، واكتمل ضياؤه وصار بدراً متلألئاً. وفي القسم بهذه الأشياء دليل واضح على قدرة الله تعالى الباهرة، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال، ومن هيئة إلى هيئة، فالشفق حالة تأتي في أعقاب غروب الشمس، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان.. وكل هذه الحالات دليل على قدرة الله تعالى[2].

وكل هذا تمهيد لما يأتي بعده من اختلاف أحوال الناس من حال إلى حال كما سيبين لاحقاً.

وقد يجوز أن هذا القسم بيان لإقسام الله تعالى بجميع مخلوقاته لاشتمال الليل كله عليها

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧ وما بعدها، التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٤.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٧٦.

كما قال سبحانه في موقع آخر: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[١] [الحاقة:٣٨-٣٩] وهذا النوع من القسم لا يجوز إلا من الله تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما ورب كل شيء، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من الأشياء. وأما عباده فلا يحل لهم القسم إلا بأسمائه تعالى وصفاته، وقد بين الرسول الكريم ﷺ ذلك بقوله: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[٢]. والحديث الآخر: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[٣].

ثم بين سبحانه بيان القسم السابق بقوله: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانشقاق:١٩] والمراد أيها المكلفون لتصيرن من حال إلى حال من أطوار هذه الحياة، وأدوار العيش وغمرات الموت، ثم من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر، فأول أطباق الناس جنين ثم وليد، ثم رضيع، ثم فطيم، ثم يافع، ثم شاب، ثم رجل، ثم كهل، ثم شيخ، ثم ميت، وبعده نشرٌ ثم حشر، ثم حساب، ثم وزن، ثم صراط، ثم مقر، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل[٤]، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ أي حالاً بعد حال، قال نبيكم هذا ﷺ[٥].

ثم عقب سبحانه بعد ذلك بهذا الاستفهام فقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾؟! وهذا استفهام إنكاري تعجيبي، يحفز القارئين والسامعين إلى الاستغراب من أحوال المشركين الذين باتت لهم الأدلة كالشمس في رابعة النهار، ثم لا يؤمنون، وإذا استمعوا لآيات الله تعالى لم يتأثروا بها مع وضوح دلالاتها، وسطوع معناها، ومن عجب

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١٧/ ٦١١٠.
(٢) متفق عليه وهو في البخاري حديث رقم ٢٥٣٢، وفي مسلم حديث رقم ١٦٤٦.
(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ١١٠ وحسنه، وأخرجه أبو داود ٣/ ٢٢٣ حديث رقم ٣٢٥١، وهو في مسند أحمد ٢/ ٦٩.
(٤) نظم الدرر ٢١/ ٣٤٧ وما بعدها.
(٥) الجامع الصحيح حديث رقم٤٩٤٠، وانظر فتح الباري في بيان الاختلاف في تلك الأحوال ٨/ ٦٩٨.

أن تخشع الجبال لو قدر لها أن تستقبل هذا البيان الإلهي ولا يخشع الإنسان كما قال سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]. فأي مانع يمنع هؤلاء الكفار من الإيمان، مع أن كل الدلائل والبراهين تدعوهم إلى الإيمان، أي مانع منعهم من السجود والخضوع لله تعالى عندما يتلى عليهم هذا القرآن الذي أنزل عليهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور[١].

إن هذا الأمر لعجيب، يضرب عنه القرآن الكريم بسياقه ليأخذ في بيان حقيقة الكفار وما ينتظرهم من مآل[٢] فقال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

والمعنى أن هذه الحال التي هم فيها، هي بسبب هذا التكذيب المتأصل في نفوسهم والذي ملئت به دواخلهم. إن هذا الكفر المملوء بالتكذيب هو الحائل لهؤلاء عن الإيمان والإذعان لما في القرآن من أحكام. ثم أخبر سبحانه أن هذه الحال لا تخفى عليه، فجاءت هذه الجملة [وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُون] على جهة التهديد والوعيد لما سيلاقيه هؤلاء، ثم بنى عليه سبحانه هذا التهكم بهؤلاء الكفار في قولـــــه: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ والبشارة لا تكون إلا بالأمر المحمود ولكن لما كانت أحوال هؤلاء في غاية العجب ناسبه أن تكون البشرى عجيبة على نحو قول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع.

إنها بشرى مؤلمة لما آلموا به أنفسهم من إخضاعها للشهوات والمآثم.

ثم بين سبحانه أن حال المؤمنين على غير هذه الحال، فقال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٦]، وهذا الاستثناء منقطع، ومعناه: إذا كان حال أولئك الكافرين على نحو ما مر فإن أحوال المؤمنين على غير هذه الحال، أي لكن الذين أمنوا

---

(١) التفسير الوسيط١٥/ ٤٧٨، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن، المطعني ٤/ ٣٥٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٩.

وعملوا الصالحات لهم أجر غير منقطع، أجر دائم مستمر، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾.

من عبر ودروس هذه السورة:

* بيان بعض ما يحدث من أهوال القيامة تذكيراً للإنسان بضرورة الاستعداد.
* كل شيء مستسلم لله تعالى فلا ينبغي للإنسان أن يشذ عن هذا.
* المشقة في هذه الحياة لا تغني الإنسان عن الاستعداد لملاقاة الله.
* السعيد من أوتي كتابه بيمينه والشقي الهالك من لقي كتابه بشماله.
* السعي إلى حساب يسير إنقاذ من هول خطير.
* تبدل حال الإنسان وترقيه دليل على نعمة الله عليه.
* على العاقل أن تقوده نعم الله إلى ما يرضيه.
* بيان أن الكفر ليس سببه عدم وضوح الأدلة والبينات، بل هو الكبر والغرور والعناد.
* بشارة المؤمنين بعدم انقطاع أجرهم مما يحملهم على الاستمساك بدينهم حتى ولو فعلت بهم الأفاعيل. فإنهم لا محالة الرابحون.

سورة البروج

بين يدي هذه السورة

تسمى هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير بـ(سورة البروج)، ووقع في مسند أحمد عن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج)[(١)].

وهي سورة مكية باتفاق العلماء، وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية باتفاق، وهي معدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، وقبل سورة التين[(٢)].

ومحور هذه السورة الفتن، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منه.

وتتألف هذه السورة من مقطعين:

الأول منهما ينتهي عند الآية الحادية عشرة وفيه الحديث عن قصة أصحاب الأخدود.

والثاني: ينتهي بنهاية السورة الكريمة.

وكل مقطع من هذين المقطعين وثيق الصلة بالآخر مما يشكل وحدة واحدة في هذه السورة الكريمة، حيث تأتلف أجزاء هذه السورة لتشكل تلك الصورة الواضحة التي أراد القرآن الكريم عرضها هنا.

ومناسبة اسم السورة لمحورها هي والله أعلم أن البروج المصاعد أو المنازل أو هي النجوم العالية التي تتدرج في العلو حتى تصل إلى فضاء في غاية البعد، وأن الحادث الذي وقع بيانه في هذه السورة قد بلغ الشناعة مبلغاً متطاولاً في أخلاق البشر، بحيث لا يكاد أحد يصدقه لولا

---

(١) مسند أحمد، والترمذي حديث رقم ٣١١٦، والمستدرك ٢/ ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٣٢٧.

وقوعه، تهويلاً له وتشنيعاً بأهله.

وقال الشهيد سيد قطب: تبدأ السورة بقسم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾، فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه، تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة الطغاة [1].

وقال ابن عاشور: ومناسبة القسم لما أقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خطوطاً مجعولة في الأرض مستعرة بالنار. أقسم على ما تضمنها بالسماء، بقيد صفة من صفاتها، التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجاً، وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار[2]، ويجوز أن يكون وجه الاتصال والمناسبة هو أن البروج تعني المنازل العالية. وهذا يدل على علو منزلة المؤمنين المفتونين الذين ذاقوا ألوان العذاب، وبعد منزلتهم عند الله تعالى.

وافتتحت هذه السورة بالقسم من الله تعالى، الذي يدل على باهر قدرته تعالى، واختتمت بالحديث عن القرآن الكريم وحفظه، وهذا أيضاً من باهر قدرة الله تعالى، وفيه دلالة تنبيهية على أن القرآن وهذا الدين من عند الله تعالى.

هذا، وقد اختتمت السورة السابقة ببيان حالي المؤمنين والكافرين، وأن الله تعالى يعلم ما يصدر عن الكافرين، وأنه توعدهم بعذاب أليم، وأن المؤمنين لهم أجر غير منقطع، وكل هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى صاحب القسم بما في هذه السورة من عظائم الأمور، وهذا وجه اتصال مفتتح هذه السورة بختام ما قبلها.

وأما مناسبة هذه السورة في مضمونها لما قبلها، فقد قال أبو حيان: لما ذكر أنه تعالى أعلم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٢.

(٢) لتحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٧، والتفسير الوسيط ١٥/ ٤٨٢، روح المعاني ٣٠/ ٨٤.

بما يجمعون للرسول ﷺ وللمؤمنين من المكر والخداع، وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى، كالضرب والقتل والصلب، والحرق بالشمس وإحماء الصخر، ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر سبحانه وتعالى أن هذه الشنشنة (العادة) كانت فيمن تقدم من الأمم فكانوا يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين عرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم، وأن الذين عذبوهم ملعونين، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش، فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذبونه من المؤمنين[1].

وهذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة وقواعد التصور الإيماني، وتعرض أموراً عظيمة، وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة، التي تعبر عن نصوصها، حتى لتكاد كل آية، -وأحيانا كل كلمة في الآية- أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة.

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود.. ومضمونه هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام -قيل إنهم من النصارى الموحدين-، ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم، والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين، فماتوا حرقاً على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون، لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق، حريق الآدميين المؤمنين ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج: ٨][2].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٣٧.

التفسير

من أقسام الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾.

المفردات والتراكيب:

ذات البروج: ذات المنازل العالية.

اليوم الموعود: هو يوم القيامة.

شاهد ومشهود: كل ما يصلح أن يطلق عليه هذا الوصف دون تحديد لواحد معين[1].

هذا القسم من الله تعالى بهذه الأشياء كأنما معناه: وحق السماء ذات البروج، وحق اليوم الموعود، وحق الشاهد والمشهود، وفي هذا القسم من الشمول ما يسع الكون كله وكأنما يريد الله تعالى بيان أنه أقسم بالكون وما فيه، تنبيها على عظم هذه الجريمة الآتي الحديث عنها، بحيث إن أمرها من المنكرات في كل أجزاء الكون البديعة، إنها تنافي ذلك التناسق، وذاك الانسجام العجيب في هذا الكون، إنها خروج عن ذلك المألوف كله.

قصة أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات والتراكيب:

أصحاب الأخدود: الذين أحرقوا المؤمنين بالنار، والأخدود: الحفرة العظيمة المستطيلة في الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧١ وما بعدها.

هم عليها قعود: يتفرجون من حول النار على تحريق المؤمنين.

وما نقموا منهم: سبب انتقامهم من المؤمنين هو إيمانهم.

تحكي هذه الآيات الكريمة قصة من أبشع ما وقع في التاريخ الإنساني من فظائع تقشعر منها الأبدان. إنها تحكي قصة الانسلاخ عن العقيدة والمثل والأخلاق، إنها تحكي عن الإنسان حين ينسلخ من الإنسانية، وينقلب إلى وحش كاسر يفوق بوحشيته كل وحوش الغابة.

﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ﴾: لعنوا وطردوا من رحمة الله، الذين أشعلوا النار ذات اللهب الشديد كي يقتلوا المؤمنين.

وهؤلاء المعنيون بهذه الآية هم من الناس الذين انحرفت أفكارهم واعوجت مسالكهم من أهل الملل الكافرة، الذين لم يرتضوا إيمان المؤمنين في زمانهم، فراودوهم على الكفر، وأرادوهم إليه، لكن أهل الإيمان ثبتوا على دينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم. وبعد أن يئس الكفار من ارتداد المؤمنين عن دينهم وعلموا أن أولئك المؤمنين لا محالة ثابتون على دينهم، سول لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم الخبيثة، أن يبتدعوا وسيلة من وسائل الضغط العنيف، الذي يرتجى ليحقق النتائج، فكانت هذه الوسيلة التي نبت عنها طغيان الإنسانية المتوحشة. فحفروا في الأرض حفرة طويلة وأضرموا فيها النيران وجاءوا بالمؤمنين على مرأى ومسمع من الناس ووقفوهم على شفير تلك النيران، فمن رجع عن دينه تركوه، ومن استمر على دينه وثبت ألقوه في النار. فكان هذا الفعل منهم، وهم يتفرجون على المؤمنين والنار تلتهمهم، لم يصدهم صراخ الصارخين، ولا آهات المتأوهين المعذبين، بل لم تحفزهم إنسانيتهم إلى أن يرتدعوا عن هذا الباطل الذي هم فيه. فكانوا مثالاً في الوحشية ضربه القرآن الكريم، ليبقى مذكراً الناس بضرورة البعد عن مثل هذه الوحشية القاسية، وأن الإنسان بمبادئه وقيمه.

ولم يثبت في أحاديث النبي ﷺ أنه عنى قوماً بأعيانهم، مفسراً هذه الآيات، غير أنه ورد عنه ﷺ الحديث الطويل الذي يذكر فيه قصة الملك مع الغلام والساحر الراهب، والتي كان في نهايتها تحريق للمؤمنين كهذه الحالة المذكورة في الآية، والنبي ﷺ لم يذكر الحديث تفسيراً لهذه

السورة الكريمة، ولكنه ذكره فيما ذكر من أحوال الأمم الماضية ليعتبر الناس بها، فيصلح هذا الحديث أن يكون ضرب مثل من مثل ما تشتمل عليه الآية من النماذج البشرية المنحرفة. وهذا يعني أن هذا الفعل قد تكرر في التاريخ الإنساني أكثر من مرة، والله اعلم[١].

وأصحاب الأخدود كلمة جامعة تشمل كل الذين قاموا بهذا العمل، من جمع المؤمنين وحبسهم، وحفر الخندق، وإشعال النار، وقذف المؤمنين فيها، والتفرج عليهم، كل هؤلاء مشمولون بهذه الكلمة الجامعة. فسبحان منزل هذا الكتاب.

وبعد أن قرر القرآن الكريم لعن هذه الفئة الظالمة وطردها من رحمة الله تعالى، بياناً ونموذجاً للناس حتى لا يسلكوا هذه المسالك فيصيبهم مثل ما أصاب أولئك الظالمين بعد ذلك، بين تلك الأحوال التي أوبقت هؤلاء الظالمين فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾ هذه هي الوحشية العجيبة، التي أخرجت هؤلاء الظالمين إلى لعنة الله تعالى بما كانوا فيه من الطغيان والوحشية.

هكذا كان حال الأخدود، نار تلتهب آنا فآن﴿ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ صاحبة الوقود، إنه وقود لا ينتهي واشتعال لا ينطفي، وفوق هذا ناس همجيون، فقدوا أحاسيس الإنسانية وروعتها، وقفوا بجانب هذه النار الملتهبة وقعدوا، بعد أن وضعوا لأنفسهم أمكنة يجلسون عليها ليتفرجوا على تحريق الإنسانية كل الإنسانية بدءاً من إنسانيتهم هم.

ثم بين سبحانه وتعالى السبب الذي من أجله فعل هؤلاء بالمؤمنين ما فعلوه، وهو سبب في غاية العجب، قال سبحانه: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ هذا هو سبب الانتقام: أنهم مؤمنون بالله تعالى ليس إلا.

هذا الإله الكريم صاحب الأوصاف الحميدة الذي ينبغي أن يؤمنوا به، تراهم يعذبون

(١) جامع البيان ٣٠/ ٨٤.

الناس بسبب إيمانهم، إنها لمساءَة، أن تنقلب الفطرة إلى هذا الحد من الإسفاف والتضاؤل إلى أن يصبح سبب الإيمان سبباً في الإجرام. ولما كانوا على هذه الحالة أخبر سبحانه أنه رقيب على أعمالهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه.

وهكذا تنتهي هذه القصة، وقد ملأت القلوب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جداً، وكبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحرق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب[1].

وعلى أي حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى، قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم، وقد اقتضت مشيئته تعالى أن يجعل العاقبة للمتقين، قال سبحانه تعالى:﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ١٧، والإمام مسلم في الصحيح ٤/ ٢٣٠٠حديث رقم ٣٠٠٥، وانظر التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤١.

التمييز بين الطائعين والعاصين

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعد أن قص علينا قصة أصحاب الأخدود، وجه الكلام لأهل مكة مهدداً إياهم بسوء المصير إذا ما استمروا في إيذائهم للمؤمنين فقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

والمعنى: إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين وفتنوهم عن دينهم وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله تعالى من تلك الذنوب، ويرجعوا عن تعذيبهم المؤمنين والمؤمنات، فلهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب إصرارهم على الكفر والعدوان، ولهم نار أخرى محرقة زيادة على ما سبق تنبيهاً على عظم ما ارتكبوه من الإجرام في حق المؤمنين، فأين حريق من حريق؟ في شدته أو مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق، وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالـق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحرق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله تعالى ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله تعالى والارتكاس الهابط الذميم[1]، والمقصود من هذه الآية كفار قريش الذين كانوا يعذبون المؤمنين[2].

ثم إن الله تعالى لما هدد الكافرين من قريش وتوعدهم، أخبر عن أحوال المؤمنين وما أعده لهم من ثواب وعطاء، تسلية لهم على ما أصابهم، وحفزهم على مزيد من الصبر على طاعة الله تعالى فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (البروج:١١).

هذا هو جزاء الصابرين الثابتين على الحق الذين استسلموا لله تعالى وعملوا بالطاعات واجتنبوا المعاصي، إنه الجزاء العظيم والنجاة الحقيقية:﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾، وهل بعد هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٤.
(٢) المصدر السابق.

الفوز من فوز ؟ وما أبدع هذا الفوز! وصورته بينة مع جريان الأنهار تحت تلك الجنات في منظر بديع يخلب الألباب.

مشيئة الله تعالى ونفاذ قدرته

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد ساق من الأدلة والبينات ما يدل على نفاذ قدرته ومشيئته ذلك أن من يعذب هذا التعذيب، ويغفر هذا الغفران، لا بد أن يكون موصوفاً بالأوصاف الجامعة، التي تحقق الرهبة والخوف في أنفس العصاة، وتحقق الطمأنينة والأمن في أنفس الطائعين، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ (٢٢) ﴾.

إن هذه الآيات واضحة الدلالة على المقصود، ما بين تخويف العصاة، وبناء الثقة عند المؤمنين، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾ والبطش معناه الأخذ بشدة وعنف، وفي هذه الآية بيان تصغير شأن بطش الكفار فهو ليس بهذه الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه، وما دام كذلك فليطمئن المؤمنون أيما اطمئنان، وليتخوف الكافرون أيما تخوف.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾ يبدئ الخلق بأن ينشئهم أول الأمر في الدنيا ثم يعيدهم إلى الحياة بعد الموت في الدنيا إلى حساب وجزاء في الآخرة.

والله تعالى من هذه أوصافه واسع المغفرة لمن تاب وآمن، وهو سبحانه كثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه.

ثم إن الله تعالى بين بالأدلة اختصاصه بهذه الأشياء، كما أنه مختص بها لا ينازعه فيه أحد، فهو سبحانه صاحب العرش العظيم، القوي الذي لا يعلم عظمته وقوته إلا هو سبحانه ولا

ينازعه فيه أحد.

ثم أخبر سبحانه أن من كانت هذه صفته فهو يفعل كل شيء يريده، دون أن يعترض عليه أحد، أو يمنعه أحد، مهما كان قوياً. ثم دلل على هذه القوة بما صنعه فيمن ضُرب به المثل في القوة، في دنيا الناس، إنه فرعون وجنوده، وقبيلة ثمود بعظمتها، وفي قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) ﴾ تنبيه للناس على أن يلاحظوا فعل القوة الإلهية بهؤلاء الناس الذين طغوا وتجبروا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، حتى كان عاقبة أمرهم أن صب الله تعالى عليهم سوط عذاب، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفجر والحاقة ما يبين بعضاً مما أصاب هذه الأقوام الجائرة من العذاب فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

وقال سبحانه عن ثمود في سورة الحاقة: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة:٥]، وهكذا شأن المجرمين في كل حين وآن، إذا أخذهم الله تعالى بالعذاب لم يفلتهم.

ثم ختم الله تعالى هذه الأحوال ببيان أن المشركين المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتون بعد لم يتعظوا بأحوال من سبق فقال سبحانه:﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾.

والمعنى: لقد كان عاقبة فرعون جنوده وثمود، الهلاك والدمار، بسبب إصرارهم على الكفر، ولكن قومك أيها الرسول ﷺ لم يعتبروا بهم، بل استمروا على تكذيبهم لك، وفي إعراضهم عنك. واعلم أن الله تعالى محيطٌ بهم إحاطة تامة، فلا تخفى عليه منهم خافية، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل، فهم تحت قبضته وسلطانه، وسينزل بهم بأسه في الوقت الذي يريد[1]﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: من الآية ٦٨].

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٨٩.

ولما كان تكذيب النبي ﷺ يستلزم التكذيب بالقرآن، نبه الله تعالى في ختام هذه السورة على مصدر القرآن، وصدقه وحقيته، فقال سبحانه:﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه الآية هي أبلغ رد على المشركين الذين كذبوا القرآن، وقالوا فيه إنه أساطير الأولين، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقالوا عنه إنه شعر، ومحمد شاعر، وقالوا عنه كهانة، ومحمد يتعاطى أقاويل الكهان، كما قال الله تعالى عنهم ذلك ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢].

وغير ذلك من أفانين الكذب التي اختلقوها على النبي ﷺ والقرآن الكريم، والمعنى من هذه الآية: أن الأمر ليس كما قال هؤلاء المشركون في القرآن الكريم، وإنما الحق أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى البالغ النهاية، في الشرف والرفعة والعظمة. وإنه كائن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، ومن وصول الشيطان إليه.

ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن في لوح محفوظ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علم الله تعالى، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله تعالى بعلمه(١).

من عبر ودروس هذه السورة:

* يحقق المؤمن بإيمانه التئاماً في تجانسه مع الكون الخاضع لسلطان الله.
* إن معصية العاصي هي خرم وخدش في ذلك التجانس العجيب بين الكون والإنسان المؤمن.
* إن أعظم الجرائم تلك التي تمنع الناس من أخذ حقوقهم.
* النموذج المثالي للمؤمنين في صبرهم وتضحيتهم يبدو بارزاً واضحاً في هذه السورة.

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٢.

* الكفار يستخدمون وسائل غاية في القسوة لتصد الناس عن دينهم، وعلى المؤمنين أن يتحملوا كل شيء في سبيل الحفاظ على عقيدتهم ودينهم، ولأنهم في الحقيقة يحافظون على انسجام كوني.
* الكفر يمنح الإنسان خصال الغلظة والقسوة والشدة والعنف.
* على المؤمنين أن يعوا جيداً أن أعداء الله لا يحاربونهم إلا من أجل دينهم.
* تذكير الناس بمصارع المهلكين قائد لتصحيح مسيرتهم.
* باب التوبة مفتوح للتائبين.
* على المؤمنين أن لا ييأسوا من إيمان الكفار وليبذلوا قصارى ما عندهم في سبيل هدايتهم.
* ضرورة تقوية العقيدة والدفاع عنها أمام عواتي الفتن.
* افتتان المؤمنين في الأرض سنة كونية يتمحص فيها صاحب الإيمان الحق القوي من الضعيف.
* وعد الله تعالى للمؤمنين الصابرين عظيم.
* ضرورة ربط الإيمان بالعمل الصالح وعدم انفكاكهما.
* لن يهمل الله تعالى أمر الكافرين الجاحدين الظالمين.
* قدرة الله تعالى لا تعدلها قدرة.
* القرآن الكريم من عند الله ولا مرية في ذلك.

سورة الطارق

بين يدي هذه السورة

تسمى هذه السورة باسم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ كما ورد في بعض الأحاديث والآثار(١)، وتسمى في كتب التفسير وعلوم القرآن بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾(٢).

والسورة كلها مكية باتفاق العلماء، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، لما أخرجه أحمد بن حنبل والطبراني عن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه: أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: (والسماء والطارق) حتى ختمها قال: فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام(٣).

وعدد هذه السور في ترتيب النزول السادسة والثلاثين. نزلت بعد سورة البلد، وقبل سورة القمر(٤).

وعدد آياتها سبع عشر آية في عد، وعند آخرين ست عشر آية، وسبب اختلافهم هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾(الطارق:١٥). فمن عد هذا المحل آية، صار المجموع سبع عشرة آية، ومن ضمه إلى ما بعده في آية واحدة صار المجموع ست عشرة آية(٥).

وأما محور هذه السورة ومقصودها فإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٣.

(٢) صحيح ابن خزيمة، ٣/ ٥١، حديث رقم ١٦١١، صحيح ابن حبان ٥/ ١٣٥، حديث رقم ١٨٢٧، المصنف، ابن ابي شيبة١/ ٣١٢، حديث رقم٣٥٧٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧.

(٤) مسند أحمد٤/ ٣٣٥، المعجم الكبير، الطبراني ٤/ ١٩٧، حديث رقم ٤١٢٦، وذكره في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات ٧/ ١٣٦.

(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧، النظم الفني في القرآن ٣٤٦.

وبليغ حكمه، وسعة علمه، وإثبات أن القرآن من عند تعالى، وأن العاقبة للمتقين[1]، والأظهر من هذا عندي أن يقال: إن محور السورة هو بيان لبعض المظاهر البارزة لقدرة الله تعالى.

وهذا المقصود يتلائم مع عنوان السورة بشكل واضح فحيث كان الطارق هو النجم الثاقب، أي البارز الواضح الذي لا خفاء فيه بان وجه المناسبة بين تلك المظاهر البارزة، والتي منها هذا النجم الساطع.

وأما المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها فهي بارزة أيضاً، إذ أن سطوع النجم برهان على قدرة الله تعالى، ووضوحها في الآفاق. وختمت السورة بتهديد الكافرين هذا التهديد الواضح البين الذي لا لبس فيه، فانظر كيف يجتمع الوضوح إلى الوضوح ليتشكل من ذلك كله أمر إلهي واضح المعالم بين الخطوات على أن الله تعالى هو وحده القوي القادر.

وأما علاقة هذا الافتتاح بخاتمة السورة السابقة وهي سورة البروج. فإن سورة البروج قد ختمت بقولـه تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وجاء في مقدمة هذه السـورة ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الطارق: ١-٤]، وبين هذه البداية وتلك النهاية نوع صلة. فحفظ اللوح مرتبط بحفظ السماء وحفظ اللوح من مظاهر قدرة الله تعالى، التي من مظاهرها البارزة حفظ كل نفس أو حفظ عملها بالمكلفين بذلك من الملائكة[2] وفي هذا تتجلى مظاهر القدرة الإلهية البارزة.

وأما الصلة بين مضموني السورتين فإن سورة البروج مضمونها ومقصودها ومحورها هو الفتن، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم قد أصاب غيرهم ما هو أكبر منه، وهذه السورة لإبراز المظاهر الواضحة للقدرة الإلهية. أوليس من أبرز مظاهر القدرة الإلهية الانتصار للمظلومين ولو بعد حين.

---

(١) بشير اليسر، عبد الفتاح القاضي ١٧٨.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٦.

هذا، وتنقسم السورة الكريمة إلى مقطعين بارزين يبدأ الأول منهما ببداية السورة إلى نهاية الآية العاشرة، ويبدأ المقطع الثاني ببداية الآية الحادية عشر، وينتهي بنهاية السورة الكريمة.

ويلاحظ أن كلا المقطعين يبدأ بقسم وجوابه دلالة على تعظيم هذه الأشياء وضرورة لفت الأنظار إليها.

التفسير

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (١-١٠).

مظاهر قدرة الله البارعة في خلق الإنسان

أقسم الله تعالى بالسماء وما يطرق فيها ليلاً، ثم استفهم سبحانه مشوقاً وما أدراك ما الطارق؟ وبينه سبحانه بأنه النجم الثاقب، أي الساطع المضيء بشدة في السماء.

وهذا النجم إما أن يراد به واحد النجوم الموصوفة بهذا الوصف، وإما أن يراد به جنس النجوم المشعة ذات الميزة الخاصة باللمعان الشديد في جو السماء في الليل، وذلك لأن لمعان النجوم لا يكون إلا بالليل.

ثم بين الله سبحانه وتعالى جواب القسم قائلاً: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾، والمعنى: ما كل نفس من الأنفس إلا وعليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها ويسجله سواء أكان هذا العمل خيراً أم شراً. والمقصود من هذا بيان تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى بما يستحقه من ثواب أو عقاب[1].

(١) الأساس في التفسير ١١/ ٦٤٦٧.

والمناسبة بين القسم والمقسم عليه بادية ظاهرة، إذ أراد الله تعالى تبيين هذه الحقيقة للناس، وهي تلك الحقيقة المغفول عنها، ذلك أن كثيراً من الناس لا يعلم أن أعماله محصاة عليه ولذلك تراه يفعل ما يشاء، دون حسيب ولا رقيب، فجاء القرآن بهذه الآيات يبين أن حقية تلك القضية بوضوحها ينبغي أن يكون واضحاً وضوح النجم الساطع في ليلة حالكة السواد، إنه أوضح وأظهر ما يكون.

فإذا سطعت هذه الحقيقة في نفس الإنسان، أحسن عمله، وأحسن خلقه، وقبل الأوامر الإلهية بكل يسر وسهولة.

ثم إن الله تعالى بين بعد ذلك: أنه وبمقتضى ذلك الوضوح وظهوره ينبغي على الإنسان أن يلتفت إلى نفسه فيرى بديع صنع الله تعالى، وظهور آياته ظهوراً بارزاً في هذا الخلق المبدع فقال سبحانه:﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ ثم أجاب سبحانه بقوله: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾. كل ذلك حفزاً للإنسان على التفكير في هذه المادة القريبة منه منتقلاً من هذا التفكير في بدء النشأة وبدء الخلق إلى التفكير فيما بعد.

والمعنى إذا كان الأمر كما ذكرت لكم أيها الناس، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها. فلينظر كل واحد منكم في نفسه نظرة تدبر واعتبار، وليسأل نفسه من أي شيء خلق، ولقد خلقه الله تعالى بقدرته من ماء متدفق يخرج بقوة وسرعة من الرجل يصب في رحم المرأة[1].

وهذا الماء من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل – وهو فقار ظهره – ومن بين ترائب المرأة – وهي العظام التي تكون في أعلى صدر المرأة ما بين ثدييها –، حيث يختلط الماءان ويتكون منهما الإنسان في مراحله المختلفة بقدرة الله تعالى، وفي هذا الخبر عن المائين بهذه السورة إعجاز علمي في القرآن. فإن هذه المعلومات لم يكن بها علم للذين نزل فيهم القرآن الكريم، وهذا

---

(١) التفسير الوسيط١٥ / ٤٩٩.

في القرآن الكريم إجمال بينه الحديث الوارد عن النبي ﷺ عندما سئل عن احتلام المرأة فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء. فقيل له أترى المرأة ذلك ؟ فقال ﷺ: وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه(١).

وقد كان ذلك الأمر من قبيل الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى حتى كان النصف الأخير من القرن الماضي حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية، يتكون ماء الرجل. وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة. حيث يلتقيان في قرار مكين، فينشأ منهما الإنسان(٢).

وبعد هذا البيان آن الأوان لربط هذه النشأة بالمصير الإنساني والنهاية الحتمية لأن ذلك أدعى إلى الإيمان والتصديق، وقد كان الأمر كذلك فكان منطبقاً على هذا الباب تمام الانطباق فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ ﴾، والمعنى: إن الله تعالى الذي أنشأ الإنسان من هذا الماء الدافق بقدرته سبحانه، لقادر على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء يوم القيامة، يوم تكشف المكنونات وتبدو ظاهرة للعيان وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان في دنياه من عقائد ونيات وغيرها، وفي هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب والجزاء ولا يكون له ناصر ينصره من بأس الله تعالى، أو من مدافع يدافع عنه بل سيترك هو وعمله(٣).

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٢٥١، حديث رقم ٣١٤.

(٢) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٠، تفسير جزء عم، الطيار ١١٥-١١٧.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٥٨٧٨، التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٢، التحرير والتنوير ١٥/ ٢٦٣ وما بعدها.

حقية القرآن الكريم

ثم إن الله سبحانه وتعالى أعقب تلك الأحوال بقسم جديد يبين فيه عظمة القرآن وصدقه وأنه من عنده سبحانه فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهذه الآيات تمثل الجزء الثاني من السورة الكريمة وهو ينقسم إلى قسمين تمثل الآيات هذه القسم الأول من الجزء الثاني.

والصلة بين هذا القسم وما سبقه من آيات واضحة وبينة، ذلك أن ما قبلها هو عبارة عن مضامين قرآنية واضحة وبينة، لا يشك فيها أحد، وقد اكتشف العلم الحديث صدقها، وأن من جاء بها لا يمكن أن يكون بشراً عادياً بل لا بد أن يكون رسولاً نبياً.

وهذه الآيات جاءت تبين أن القرآن الكريم كله جد، وقول فصل، وليس بالهزل، ليؤول الأمر إلى إثبات أن هذا من عند الله تعالى.

والمراد بالرجع: المطر لأنه يجيء ويرجع مرة بعد مرة. والمراد بالصدع التشقق والانفطار ليخرج النبات من باطنها إلى أعلاها.

والمعنى من الآيات: وحق السماء صاحبة المطر الذي ينزل منها مرة تلو المرة، لنفع العباد والحيوان، وحق الأرض ذات النبات البازغ من شقوقها، إن هذا القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وأنه ليس فيه شائبة من شوائب اللهو والهزل أو المزاح، بل هو الجد كله، فيجب على كل عاقل أن يتبع هداه، وأن يستجيب لأمره ونهيه.

وفي هذه الآيات الكريمة رد بليغ على المشركين الجاهلين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وأن الرسول الكريم ﷺ ما جاء به إلا ليهزل ويضحك.

ذلك أنه أخبرهم فيه بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة.

وفي هذه الآيات الكريمة وصف لكل من السماء والأرض بما يناسبها، وفيها ما يشير إلى أن البعث حق، لأنه كما ينزل المطر من السماء فيحيي الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الله تعالى بقدرته الأجساد بعد موتها [١].

أحوال الكافرين المكذبين

ثم تنتقل السورة إلى الختام بالتعجيب من أحوال الكافرين تمهيداً لتهديدهم وتخويفهم فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

وفي معنى هذه الآيات يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء، يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وهو ومن معه، القلة المؤمنة في مكة، يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها، وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها، والتدبير ضدها، وأخذ الطرق عليها، وابتكار الوسائل في حربها، يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بالتثبيت والتطمين والتهوين من أمر الكيد والكائدين وأنه إلى حين، وأن المعركة بيده سبحانه وقيادته، فليصبر الرسول ﷺ وليطمئن المؤمنون وهو معهم. إنهم هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، بلا حول ولا قوة، ولا إرادة ولا معرفة، ولا هداية، والذين تولتهم يد القدرة في رحلتهم الطويلة. والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر حيث لا قوة لهم ولا ناصر إن هؤلاء يكيدون كيداً. وأنا -أنا المنشئ.. الهادي، الحافظ، الموجه، المعيد، المبتلي، القادر، القاهر، خالق السماء والطارق، وخالق الماء الدافق، والإنسان الناطق، وخالق السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، أنا الله أكيد كيداً.

فهذا كيد.. وهذا كيد. وهذه هي المعركة ذات طرف واحد في الحقيقة، وإن صورت ذات طرفين لمجرد التهكم.

---

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٣.

﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾....﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾... لا تعجل. ولا تستبطئ نهاية المعركة. وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها.. فإنما هي الحكمة وراء الإمهال. الإمهال قليلاً. وهو قليل ولو استغرق عمر الحياة الدنيا. فما هو عمر الحياة الدنيا إلى تلك الآباد المجهولة المدى؟[1]

وقد حقق الله تعالى لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه.

من عبر ودروس هذه السورة:

* بينت السورة أن كل شيء في هذا الكون صالح أن يكون دليلاً على قدرة الله تعالى.
* أعلمت السورة ببعض وظائف الملائكة الخاصة بالإنسان.
* إن على الإنسان أن يصلح عمله ويحسنه لأن عليه من يراقبه ويحصيه.
* إن نفس الإنسان وذاته ومادة خلقه وكيفية ذلك من أدل الأدلة على قدرة الله تعالى.
* التعجيب من حال الإنسان وكيفية خلقه. كيف يكون بعد بيان ذلك مستكبراً متجبراً.
* إثبات البعث والنشور بإهلاك الإنسان وإحيائه.
* من مظاهر الإعجاز القرآني العلمي بيان كيفية نشأة الإنسان، وفي هذا دليل على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى وحده.
* قوة الله تعالى لا تغلبها قوة وعلى الإنسان أن لا يغتر بقوته.
* جدية الوعد والوعيد في هذا الكتاب الخالد.
* إن الكافرين لا محالة نائلون جزاءهم وإن خيل إليهم أن الوقت قد طال عليهم.
* على الإنسان العاقل أن لا يغتر بفسحة الوقت التي هو فيها.

(١) التفسير الوسيط ١٥/ ٥٠٤، الأساس في التفسير ١١/ ٦٤٧١، تفسير جزء عم ص ١١٧.

سورة الأعلى

بين يدي السورة:

اسمها:

ذكر المفسرون لهذه السورة اسمين: الأعلى، وسبح(١).

فضلها:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: « حدثنا ابن أبي مريم، عن أبي لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة الشبامي، عن أبي تميم قال: قال رسول الله ﷺ: « إني نسيت أفضل المسبحات»، فقال أبي بن كعب: فلعلها سبح اسم ربك الأعلى، قال: «نعم»(٢).

و قد ذكر المفسرون أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وأنه ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد(٣).

و قد ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين أنه لما نزلت سورة سبح اسم ربك الأعلى قال ﷺ: « اجعلوها في سجودكم»(٤).

نزول سورة الأعلى:

سورة الأعلى مكية في قول جمهور المفسرين، وقد ذكر الإمام السيوطي في الإتقان رواية بأنها مدنية لذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها، ولكنه رد عليها بقوله: (قلت: ويرده ما أخرجه البخاري عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/ ٣٩٣، وروح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١٠١.

(٢) فضائل القرآن - أبو عبيد القاسم بن سلام ص ١٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٤/ ٤٩٩.

(٤) انظر المرجع السابق، والحديث أخرجه ابن ماجه ح٨٨٧.

وابن أم مكتوم، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب يقرئاننا القرآن فجعلا عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور مثلها)[(١)].

وما ورد من أنه ذكر في السورة صلاة العيد وزكاة الفطر فالدلالة عليه ظنية لا يسلم بها الآلوسي في تفسيره[(٢)].

عدد آيات السورة:

تسع عشرة آية بلا خلاف.

محور السورة:

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ويشير إلى توحيد الربوبية: تعظيم الرب الخالق بنسبة الخلق والتقدير إليه وحده. ويشير إلى توحيد الألوهية وحدة مصدر الرسالة ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

المناسبات في سورة الأعلى:

١- المناسبة من اسم السورة ومحورها:

جاء اسم السورة متناسقاً مع هذا المحور فالأعلى هو الرب الذي خلق على غير مثال سابق، ودونه كل الخلائق، وأنزل على عبده الرسالة وأقرأه وتعهد بتحفيظه.

أما اسمها الآخر (سبح) فيلخص واجب المدعو لهذه الرسالة الكاملة التي يستحق مرسلها التنزيه عن المعايب والنقائص.

والسورة وحدة بيانية معجزة فقد ضمت في آياتها التسع عشرة محوراً جمع خاتمتها إلى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي ١/ ٣٩، والحديث أخرجه البخاري ح ٤٦٥٧.

(٢) روح المعاني للألوسي ٣٠/ ١٠١.

مقدمتها، فأول جملة فيها تدعو إلى التسبيح وآخر جملة تؤكد قدم ما يدعو إلى التسبيح الذي دعت إليه الرسالات كلها في وحدة العقيدة التي أساسها وحدة المصدر: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ الآيتان (١٨ و ١٩).

٢- مناسبتها لما قبلها:

موضوع سورة الأعلى يفتح عيون المكلفين وآذانهم لعظيم صنع الرب ويدعو بين السطور إلى تأمل ذلك والتفكر فيه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ الآيات (٢-٥)، وسورة الطارق قبلها تركز على هذا المعنى وتشرحه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق: ٥]، فكان دور سورة الأعلى تلخيص ما فصلته الطارق بعبارتين قصيرتين: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الآيتان (٢ و٣).

و المتأمل في آخر سورة الطارق وأول سورة الأعلى بعدها يشعر كأن السورتين قطعة واحدة، فقد جاء في آخر الطارق: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٧]. وجاء في أول الأعلى: سبح اسم ربك الأعلى، فكأن الأمر بالتسبيح مسبب بالأمر بالإمهال، وهذا قريب إلى عقل المتدبر، فالاستعجال نقيصه والله تعالى منزه عن النقائص فسبحه لحلمه على المستحقين لعاجل عقوبته[1].

٣- مناسبة أول الأعلى لآخرها:

جاء أول سورة الأعلى تسبيحاً للرب على كمال خلقه وتقديره وهداه وتدبيره للحياة الدنيا، لتكتمل حلقات السورة بإقرار حقيقة قرآنية تشريعية بلفت انتباه المكلفين إلى أن الدنيا بعظيم فضل الله على أهلها لا تصلح إلا أن تكون مزرعة للآخرة ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ الآيتان (١٦ و١٧)، وأن هذه حقيقة خالدة لم تكن شريعة محمد ﷺ بدعاً فيها، ولكنها في: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ آية ١٩ .

(١) انظر في هذا المعنى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨/ ٣٩٣.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الأعلى إلى ثلاثة مقاطع:

الأول: تسبيح وتعظيم:يفتح قلوب المكلفين على عظمة الرب (الأعلى) واستحقاقه للتنزيه والذكر الدائم المعظم.

الثاني: تكليف وتذكير:يقرر حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ وأنه بعث بالهداية والإرشاد.

الثالث: مقومات الفلاح: وفيه بيان القرآن لأقصر الطرق المؤدية إلى فلاح المكلف.

المقطع الأول: تسبيح وتعظيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

تبدأ سورة الأعلى بأمر النبي ﷺ – ومن خلفه أمته – أن يسبح اسم ربه الأعلى، أن يمجده ويقدسه فهو الرب الذي خلق وربى، وأبدع وسوى، وقدر فهدى، خلق كل شيء، وقدر كل كائن، لا يقتصر خلقه على إبداع دون سواه، ولا يتوقف تقديره لحدث دون غيره، وهذا يستوجب التسبيح والتعظيم، ففي هذا الإطلاق ما يخرج التصور البشري من حدوده الضيقة ليسبح في ملكوت القدرة المطلقة فيسبح، وسياق سورة الأعلى في حسن الخلق والتدبير عام لكل خلق وكل تدبير، وقد جاء الامتنان على الإنسان في خلقه خصوصاً في مواضع من كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار: ٦]، ومثل قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

و يأتي وصف الرب بالأعلى ليرتقي بنظر العبد إلى كل فوق، ألست أيها الإنسان فقيراً وفوقك الغنى!، ألست ضعيفاً وفوقك القوة!، ألست صغيراً – مهما كبرت – وفوقك العظمة!،

ألست ميتاً – مهما عشت – وفوقك الخلود!.

إذاً فانظر في ملكوت ربك الأعلى إلى خلقه كيف سواه، إلى تقديره كيف هدى به كل مربوب له إلى مداه، وإلى المرعى، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله، وفي ذكر المرعى مخصصاً بعد ذكر عموم الخلق والتقدير مثال ينطلق بالمسبح من ملامسته للأرض التي يقف عليها إلى كل خلق وإلى كل تقدير، فمن لا يحس بالقريب أعجز من أن يستشعر الفضل بالبعيد، ومن لا يفيد من الواقع أضيق من أن يستشرف المستقبل، ومن لا يحسن السير على الأرض أضل من أن يجوب الفضاء.

و الإشارة إلى النبات الذي يذوي فيصبح غثاء يميل إلى السواد يومئ إلى ذبول الحياة بعد نضارتها، وهكذا شأن كل حي في هذه الحياة أمره إلى نهاية[1].

لقد كان العربي يقرأ هذه الآيات فيجد فيها ما يدعوه للتسبيح: سبحان ربي الأعلى، بما يمتلك من أدوات بدائية للنظر والاعتبار، فكيف يسوغ ممن يقرأ هذه الآيات في عصر العلم والتقنية ألا تنطلق سجيته بالتسبيح والتقديس، وهو يرى دقائق الخلق ويكتشف عظمة الخالق فيها، أيكفيه أن ينظر في جسم الإنسان وأعاجيبه؟ أم ينطلق إلى دنيا النبات؟ أم يقلب النظر في أصناف الحيوان؟ وهل ينشغل بهذا كله عن الانطلاق إلى الفضاء وما فيه: « سبحان ربي الأعلى»، وكل مربوب له أدنى، وكل أدنى لا ينزه ولا يقدس!. ويأتي هذا المقطع لينسجم مع محورها حين يطلق النظر في كل مخلوق مستوجباً تقدير الخالق حق قدره سبحانه.

دروس وعبر من المقطع:

* تسبيح الله تعالى وذكره علامة من علامات يقظة المؤمن بإدراكه عظيم قدر ربه الذي خلقه.
* النظر في النفس والكون والتفكير في بديع صنع الله فيهما عدة المؤمن لمعرفة قدر ربه الأعلى.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٨٨.

المقطع الثاني: تكلييف وامتنان

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

بعد الامتنان بهداية عموم المكلفين والأشياء: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ جاء امتنان الله تعالى على رسول الله ﷺ خصوصاً: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[(١)] ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.

فلا يليق بالمرسل أن ينسى تكليفه إلا ما شاء الله وذلك على سبيل التشريع[(٢)]، وفي هذا الاستثناء ما يومئ إلى النسخ المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وتقرر الآية بعد ذلك أن كمال الربوبية بتعهد ذاكرة النبي يستوجب تحديد الألوهية، فهو سبحانه دون سواه «يعلم الجهر وما يخفى»، فيستوي عنده الجهر والإخفاء، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[غافر: ١٩]. هو الذي يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصلداء في اللية الظلماء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا يشاركه في هذه القدرة المطلقة أحد من خلقه.

ومن تمام امتنانه سبحانه على نبيه الأمي أن يوفقه للطريقة الأيسر والأسهل في حفظ الوحي، والتشريع السمح الذي هو أيسر الشرائع[(٣)]، وهذا ما يستوجب الشكر على الفضل وأعظم مظاهر الشكر القيام بواجب هذا التشريع من تبليغ وتذكير « فذكر إن نفعت الذكرى»، وسواء نفعت الذكرى أم لم تنفع فإن التبليغ هو هداية الإرشاد وهي وظيفة الدعاة والأنبياء. أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا مالك القلوب سبحانه، فمن خشي ربه تذكر، ومن شقي بفعلته تنكر فأوصله تنكره إلى النار الكبرى، فلا يموت فيها فيرتاح، ولا يحيى حياة يتلذذ بها[(٤)].

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير ٤/ ٥٠٠.
(٣) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٣.
(٤) المرجع السابق ٥/ ٣٥٤.

دروس وعبر من المقطع:

* المواهب الذاتية فضل إلهي لا يجوز أن ينسبه مخلوق لنفسه، فالمخلوق لا يكون إلا ضعيفاً وما يظهر عليه من علامات الكمال النسبي ينسب إلى عظمة الخالق، فكل ذلك منه سبحانه.
* كل نعمة لا بد لها من شكر، وشكر نعمة الرسالة تبليغها، فالأنبياء مبلغون عن الله تعالى، والعلماء ورثة الأنبياء يبلغون عنهم.
* الداعية المكلف بالتبليغ، لا يسأل عن نتيجته، فالقلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦][1].

المقطع الثالث

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

بعد أن قررت آيات المقطع الثاني أن المكلفين صنفان: صنف يخشى فيتذكر، وصنف يبتعد عن التذكر فيشقى، ختم المقطع الثالث السورة بالحديث عن أهل التذكر وأضرب عن ذكر أهل الشقاء لأمرين:

الأول: أن حال أهل التذكر أرجى للنفس فجعل بدليل السياق كافياً لفهم حال أهل الشقاء.

الثاني: أن الإضراب عن ذكر أهل الشقاء دليل على هوانهم على الله تعالى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ فمن طهر نفسه من الشرك وتعلقاته وذكر

---

(١) الهداية المنفية هي هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد فهي وظيفة الأنبياء والدعاة كما مر.

اسم ربه قولاً وعملاً فاز ونجح[1]، ومن لم يتزك فقد اختار الشقاء والضنك، لأنه اختار الحياة الدنيا على الآخرة، وهذا علامة الخذلان، فهل يخفى على عاقل أن ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾، وليس هذا بدعاً في الرسل والرسالات: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

دروس وعبر من المقطع:

* أهل الغفلة أهون على الله تعالى من أن يحفل بهم فهم موضع النسيان والإهمال ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٦].
* ذكر الله تعالى باللسان والقلب ولا يغني أحدهما عن الآخر، وكل قول حسن ذكر، وكل عمل بر ذكر، ومن غفل قلبه فلا عبرة بذكر لسانه.
* عقيدة الأنبياء واحدة وما يدعون إليه من خير وبر لا يختلف باختلاف الزمان والمكان وشرائعهم مختلفة تعالج كل زمان بما يناسبه.

(١) روح المعاني للآلوسي ٣/ ١٠٩.

سورة الغاشية

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة الغاشية، ولم يرد لها اسم سواه[1].

فضلها:

سبق ذكر فضلها في تفسير سورة الأعلى، وأن النبي ﷺ كان يقرؤهما في العيدين ويوم الجمعة.

نزولها:

سورة الغاشية مكية باتفاق[2].

عدد آياتها:

ست وعشرون بلا خلاف.

محور السورة:

الحديث عن اليوم الآخر وإثبات مطلق القدرة الإلهية.

المناسبات في سورة الغاشية:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الغاشية هو اسم من أسماء اليوم الآخر[3] الذي هو محور السورة ومدار حديثها.

---

(١) أورد الشيخ عبد الفتاح القاضي تعدد أسماء السور، ولم يذكر للغاشية سوى هذا الاسم، كما لم يرد في التفاسير اسم آخر لها. انظر تاريخ المصحف عبد الفتاح القاضي ١٣٣-١٣٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٢٥.

(٣) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٥.

٢- مناسبتها لما قبلها:

كانت خاتمة سورة الأعلى إقراراً لفضل الآخرة على الحياة الدنيا، فجاءت فاتحة سورة الغاشية صورة حية من صور الآخرة بما فيها من مشاهد الخسارة والربح، الجحيم والنعيم[1].

٣- مناسبة أول السورة لآخرها:

بدأت سورة الغاشية بالحديث عن مصير الخاسرين في الآخرة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾الآيتان (٢ و٣)، وانتهت السورة بالموضوع نفسه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾. فتشكلت بذلك للسورة وحدة موضوعية يلحظها القارئ بغير عناء.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الغاشية إلى ثلاثة مقاطع:

الأول: عقاب وثواب: توضحها مقدمة السورة للمكلفين في يوم «الغاشية».

الثاني: آيات القدرة على البعث.

الثالث: وظيفة النبي ﷺ.

---

(١) هذا قريب مما جاء في تفسير البقاعي فانظره ٨/ ٤٠٤.

المقطع الأول: ثواب وعقاب

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾

هذا المقطع الذي يستغرق أكثر من ثلثي آيات سورة الغاشية، يحمل موضوع السورة الذي يركز على مشاهد القيامة الغاشية للناس بشدائدها وأهوالها[(١)]، وسنة القرآن الكريم أن يرسم صورة القيامة بشقيها: صورة الشقاوة وأهلها، وصورة السعادة وأهلها، ليتمكن السامع من المقارنة ويحس بالمفارقة، نجد هذه المقارنة والمفارقة من أول سورة في الترتيب القرآني، سورة البقرة التي افتتحت بذكر المتقين ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة: ٢]. وثنت بذكر الكافرين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾[البقرة: ٦].

وفي سورة آل عمران: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧]، وفي سورة الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

و لما كان وصف القيامة في أول السورة بالغاشية التي تلقي بظلالها على المفرطين والمقصرين، ناسب أن يبدأ السياق بوصف حالهم قبل بيان حال السعداء والموفقين[(٢)].

وأول صفة أطلقتها السورة على أهل الشقاوة الخشوع وهو الذل في لغة العرب[(٣)]، ووصف

---

(١) تفسير النسفي ٥/ ٣٥٥.

(٢) انظر ما جاء عن البقاعي في هذا المعنى ٨/ ٤٠٨.

(٣) النسفي ٥/ ٣٥٥.

وجوههم بالخشوع تهكماً بهم لرفضهم الخشوع لذكر الله تعالى في الدنيا فورثهم سبحانه الذل والصغار في الآخرة[١].

و أهل النار غالباً من المنعمين في الدنيا المستريحين من عنائها فقد كانت الدنيا جنتهم، فهم في النار من أهل النصب والتعب ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ بجر السلاسل والأغلال والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل[٢].

و الكفار محرومون من هناءة العيش في آخرتهم، فهواؤهم «نار حامية»، وشرابهم يغلي أعلى مدى الغليان، وطعامهم سم قاتل. ولكنه يتجدد، لأنه «لا يقضى عليهم فيموتوا»، وبذلك فإن منافع الأكل منفية عنه «لا يسمن ولا يغني من جوع».

أما حال السعداء في الآخرة – وهي الصورة المقابلة لحال الأشقياء: فوجوه تكسوها النعمة «ناعمة»، مقابل الوجوه «الخاشعة»، رضيت ما عملته في الدنيا لما رأت ثوابه، وقد كانت تذاد عنه في الدنيا وتنهى عن المضي فيه لما كانت تلاقي في سبيله من العنت.

و لا ترضى النفس البشرية بأقل من الكمال، فهي راضية "في جنة عالية" المكان والمقدار، لا يرهق سمعها فحش أهل الدنيا وبذاءة من كانوا ينغصون عيشهم فيها، أما بصرها فتبلغ راحته مداها بالنظر إلى عيونها الجارية، وأما الجنوب التي كانت تتقلب في الدنيا يقض مضجعها قيام الليل من جهة، وعذابات الحياة الدنيا من جهة أخرى فلها "سرر مرفوعة"، وأما أكفهم المرفوعة إلى السماء دائماً رجاء رحمة الله تعالى ففيها أكواب موضوعة بألذ أنواع الشراب.

وصورة الشراب في يد شاربه لا يزينها إلا اتكاؤه وصفاء جوه، وهدوء نفسه، وهو ما توفره الوسائد المصفوفة بعضها إلى بعض على البسط الفاخرة العريضة: ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾[٣] آية ١٤ و١٥ و١٦.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/ ١١٢.

(٢) النسفي ٥/ ٣٥٥.

(٣) انظر تفسير الآيات في تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٢ و٥٠٣ وتفسير النسفي ٥/ ٣٥٥-٣٥٧.

دروس وعبر من المقطع:

* الغفلة لا تورث صاحبها إلا الندم، فإن من أسماء القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بشدائدها على حين غفلة منهم.
* نعيم الدنيا لا يدوم، ولا يساوي شيئاً أمام نعيم الآخرة للمؤمن، كما لا يغني الكافر من عذاب الله شيئاً.
* الدنيا سجن المؤمن بحجبه عن منزلته في الآخرة، وجنة الكافر التي ينتقل منها إلى نار تلظى.

المقطع الثاني: آيات القدرة على البعث

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

لما بنيت الآيات في المقطع الأول حال أهل النار وأهل الجنة، ليتمكن العاقل من المقارنة والاختيار، شفع السياق هذه المقارنة بذكر دلائل عظمة الخالق على البعث والنشور والحساب بما يعهده المكلف أمام ناظريه من مشاهد وآثار تدل على مطلق القدرة[1]، والإبل واحدة من أكثر الدواب التصاقاً بحياة العرب. وقد تكرر ذكرها أو الإشارة إليها في القرآن في غير موضع من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف: ٧٠]، ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٣٦] وغيرها.

---

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤٠٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٣٤.

و قد أحسن أبو حيان في البحر المحيط في وصف ما تفردت الجمال به من الصفات، فقد اجتمع في الإبل ما تفرق من المنافع في غيرها، من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وعيشها بأي نبات أكلته، وصبرها على العطش، حتى إن فيها ما يرد الماء لعشر، وطواعيتها لمن يقودها، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال، وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها، ولا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها، وقد أبان تعالى امتنانه على المكلفين بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا ﴾ [يس:٧١] الآيات، ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل، ووهبوا المئة منها من يقصدهم، ومن أرادوا إكرامه، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها.... وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض، لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع، وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته[1].

و قد أورد المشتغلون بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم كلاماً غاية في الروعة يلفت الأنظار إلى الحكمة الإلهية من الامتنان على المكلفين بالإبل دون سواها من الدواب في مقام الاستدلال على مطلق القدرة، من ذلك ما ذكره د. ناطق حميد القدسي في بحث بعنوان: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ من تفصيلات خلق الإبل واختلاف هذا الخلق عن سائر الحيوانات، فقد بين أن الأجهزة الداخلية في الجمل تختلف عن الحيوانات الأخرى، ومن ثمرات هذا الاختلاف ما يوقفنا على سر قابلية الإبل التي تعيش في الصحراء لتناول الأشواك، فشفة الجمل العليا مشطورة ومتحركة، وهي حساسة لنوعية الغذاء المأكول، ولها القدرة على فصل الغذاء عن الرمل والمواد الأخرى العالقة، أما الشفة السفلى فإنها تميل إلى التقوس وأسنانه طويلة حادة تساهم في تقليل تأثير الأشواك المأكولة.

وباطن الفم في الإبل مبطن لارتفاع ٢ سم على الطول بالحلمات المخروطية الملونة، أما

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤٦٣-٤٦٤.

الحليمات المخروطية العملاقة التي تقع على جوانب اللسان فإن كل واحدة منها ذات قطر يصل إلى ١ سم.

و عن جَلَد الإبل في تحمل قلة الماء يذكر الباحث أن طرح اليوريا عن طريق البول غير موجود في الإبل، ولهذا فإن الجمل الذي يفقد ثلث وزنه خلال فترة أسبوعين إلى ثلاثة من عدم شرب الماء، لا يفقد التوازن المائي في جسمه كالإنسان وغير الإبل من الحيوانات، ولا يتعرض لأي أعراض مرضية، وهو قادر على العيش لمدة لا تقل عن ثلاثين يوماً دون شرب الماء إذا توافرت له بعض نباتات الرعي الجيدة، وللجمل قدرة عالية على الارتواء حيث إن بإمكان جمل يزن ٦٠٠ كغم تعويض جميع الماء الذي فقده نتيجة الحرمان من الماء لمدة أربعة عشرة يوماً قد يصل إلى مئتي لتر خلال فترة لا تتجاوز ثلاث دقائق من الشرب، وباختصار فإن قدرة الجمل على التكيف مع ظروف قلة الماء تتلخص في:

أ- قدرته المتميزة على الاقتصاد في استهلاك الماء المخزون من جسمه.

ب- وظيفة الكلية في الجمل فإن حجم البول المفرز يومياً واحد من ألف من وزنه بينما يصل حجم البول في الحيوانات الأخرى المعروفة بمقاومتها للجفاف مثل الأغنام إلى واحد من مئتين[(١)].

و قد تدرج النص القرآني في دعوته إلى النظر -بعد الإشارة إلى الإبل المجاورة للمخاطبين- فارتقى بأنظارهم إلى السماء التي هي أعظم من الإبل، وقد بين في غير موضع من القرآن الكريم كيف رفعت السماء: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ [الرعد: ٢]، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ [لقمان: ١٠]، رفع السماء آية كما أن بناءها آية لفتت أنظار المبصرين: ﴿ أَفَلَمۡ

(١) انظر ص ١٨-٢٠ باختصار وتصرف عن بحث « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» د. ناطق حميد القدسي» المقدم لمؤتمر الإعجاز القرآني- جامعة الزرقاء الأهلية صيف عام ٢٠٠٥م. والبحث يذكر قضايا كثيرة ومتنوعة تبين عظمة الخالق في خلق الإبل ولكن المجال لا يتسع لتفصيلها، وما ذكر مجرد إشارة سريعة والأبحاث في هذه الآية من آيات الله تعالى غدت كثيرة، والحمد لله.

يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ ﴾ [ق: ٦]، ودون السماء الجبال وجاء التعبير امتناناً بنصبها وتثبيتها، مناسباً للامتنان برفع السماء، فنصب الجبال يثبت الأرض التي هي فراش المكلفين، ورفع السماء غطاؤهم، وبهما تتم النعمة وتتفق المنة.

و النظر في خلق الجبال أوصل العلماء في العصر الحاضر إلى عجيب صنع الله تعالى، فقد تبين للعلماء أن للجبل جذوراً تمتد تحت سطح الأرض بما يعادل أضعاف ارتفاعه فوق سطح الأرض وقد صار تعريف الجبل علمياً أنه ذاك الوتد الصخري المزروع في الأرض من أعلى إلى أسفل مخترقاً طبقات الأرض لتثبيتها وحفظ توازنها فوق الطبقة السائلة التي تستقر الأرض عليها[(١)].

و الجبال تثبت القشرة كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس في التراب، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]، وهو سر لم يتأكد منه الباحثون إلا عام [(٢)]١٩٥٦.

و انتهى السياق إلى الحديث عن بسط الأرض وتسويتها للعيش عليها بهناء، فقد سطحت وليس للمكلفين فضل سطحها، والصورة غدت مكتملة الحيوية غاية في البهاء: إبل عظيمة الخلق ترتقي برقبتها إلى عنان السماء المنصوبة المزدانة، وجبال تناطح بعظمتها عنان السماء، وأرض ميسرة للعيش ممهدة.

دروس وعبر من المقطع:

* صاحب القلب الحي دائم النظر في ملكوت السماوات والأرض، ففي إدامة النظر وقود حياة القلوب.

* كل مشهد من مشاهد الحياة والأحياء يوحي بفضل إلهي وشاهد من شواهد القدرة الإلهية المطلقة.

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - محمد سامي محمد علي ص ١٠٦ وانظر الجبال في القرآن الكريم د.زغلول النجار ص ٨٤-٨٥.

(٢) محمد سامي محمد علي ص ١٠٦.

المقطع الثالث: وظيفة النبي الداعية ﷺ

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

بعد أن بسط الله تعالى آياته في كونه لتقوم شاهداً على مطلق قدرته تعالى واستحقاقه العبادة، ورجاء جنته والخوف من ناره وعقابه، بين وظيفة نبيه ﷺ وأن ما أناطه سبحانه به هو مجرد التذكير ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فما أنت بمسلط عليهم، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ٥٤ ق (١). وهذا يثبت له ﷺ ولكل داعية هداية التوفيق التي لا يملكها إلا الله تعالى، ومن لم يوفقه سبحانه إلى الهداية فهو الذي توعده بالعذاب الأكبر في يوم الغاشية يوم يرجعون إليه سبحانه ويتولى هو حسابهم، وهو ما يؤكد أنه لن يفوت شيء من هذا الحساب لأنه من قِبل من لا يضل ولا ينسى ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩].

دروس وعبر من المقطع:

على الدعاة أن يقوموا بدورهم في التذكير والإنذار وليس عليهم نتيجة الدعوة فأمرها إلى الله تعالى، فهم دعاة للناس وليسوا قضاة عليهم.

عزاء المؤمن في تمرد أعداء الله عليه، وضيقهم بدعوته أنهم إليه تعالى « إيابهم»، وأن عليه سبحانه «حسابهم»، وهو أعلم بما يستحقون..

سورة الفجر

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة الفجر ،ولم يورد المفسرون لها اسماً غير الفجر.

فضلها:

ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره ما أخرجه النسائي عن جابر قال: (صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول ،فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ،فبلغ ذلك معاذاً فقال :منافق ،فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ،فسأل الفتى ،فقال :يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت، وصليت في ناحية المسجد ،فعلفت ناقتي ،فقال رسول الله ﷺ : (أفتاناً أنت يا معاذ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى ،والشمس وضحاها ،والفجر ،والليل إذا يغشى)[1].

نزولها:

سورة الفجر مكية في قول جمهور المفسرين، وقال علي بن طلحة مدنية[2]، والصحيح قول الجمهور، فموضوع السورة هو موضوع التنزيل المكي كما سيتبين.

عدد آياتها:

في الحجازي عدد آياتها اثنتان وثلاثون، وفي الكوفي والشامي ثلاثون، وفي البصري تسع وعشرون[3].

---

(١) انظر ابن كثير ٤/ ٥٠٥.و الحديث أخرجه الإمام مسلم بلفظ « أتريد أن تكون فتاناً...» ح ٤٦٥.

(٢) تفسير الآلوسي ٣٠/ ١١٩.

(٣) المصدر نفسه.

محور سورة الفجر:

إثبات عذاب الكافرين يوم القيامة.

المناسبات في سورة الفجر:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الفجر أدل شيء على قيام الساعة، والسورة كلها توكيد لما ينتظر الكافرين عند قيام الساعة وما يليها، فالفجر ينفجر عن صبح قد أضاء وليل قد انقضى، فكأنه بعث جديد بعد موت متكرر، فكان استهلال السورة بذكر الفجر غاية التناسق مع موضوعها.

مناسبة سورة الفجر لما قبلها:

جاء آخر سورة الغاشية ليقرر إياب الخلائق إلى الله تعالى، ومنهم الكافرون المقصرون، وأن حسابهم على الله، وعيداً لهم وتهديداً على إصرارهم على الكفر، ثم افتتحت سورة الفجر بالقسم على حسابهم[1].

مناسبة أول الفجر لآخرها:

جاءت فاتحة سورة الفجر لتثبت قدرة الله تعالى على بعث الكافرين وعقابهم، واختتمت السورة بذكر مصير المؤمنين وثوابهم ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾. لتحصل المقابلة بين مصيرين – على سنن القرآن وعادته كما سبقت الإشارة في سورة الغاشية – فإذا صارت الصورتان واضحتين للمتدبر كان بوسعه أن يختار إحداهما.

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة الفجر إلى مقطعين:

---

(١) انظر تفسير البقاعي ٨/ ٤١٣.

الأول: في التاريخ عبرة وعظة.

الثاني:أهل الشقاء وأهل السعادة.

المقطع الأول: في التاريخ عبرة وعظة

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾.

مقدمة سورة الفجر احتوت على مشاهد كونية تدل على عظمة الرب الخالق، أقسم مبدعها سبحانه بها دلالة على أهمية وخطورة ما يقسم عليه تعالى، فوقت الفجر من أشرف أوقات اليوم والليلة، والليالي العشر من ذي الحجة أفضل أيام العام، والشفع والوتر تختم بهما صلاة الليل وهي من أعظم القربات إلى الله تعالى، والليل وما فيه من سكون وهيبة[١]، والمقسم عليه محذوف مقدر في السياق بقولنا: ليعذبن الله الكافرين[٢].

ويقرر الحق تبارك وتعالى أن هذا القسم بما استخدم فيه من آيات كونية باهرة لا يفيد منها أو يلتفت إلى أهميتها إلا صاحب العقل الراشد (لذي حجر)، وهو وصف يتصل مضوعياً بما بعده صلة العاقل بعقله، لأن السياق بعد ذلك يشرع في ذكر أدلة تاريخية على إحاطة الله بالكافرين مما يجعل التاريخ بصفحاته المفتوحة أمام أرباب العقول عظة وعبرة تمنعهم من السير في ركاب أولئك الخائبين الذين كفروا بالله وباليوم الآخر، فأخذهم الله في الدنيا قبل أن يحل

(١) وقد وردت أقوال للمفسرين في معنى الفجر والليالي العشر والشفع والوتر لا مجال لتفصيلها في التفسير الموضوعي. انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٥، والنسفي ٥/ ٣٥٩.

(٢) انظر المراجع السابقة.

عليهم عذاب الآخرة، فأين عاد قوم هود عليه السلام؟ هل نفعتهم قوتهم وبسط خلقهم، وأين ثمود قوم صالح الذين طوعوا الصخر فحفروا فيه بيوتهم، ولكن قلوبهم كانت أقسى من الصخر؟! وأين فرعون الذي أوصله غروره إلى أن يدعي الربوبية: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٢٥، وجواب التاريخ ماثل واضح: لقد مضى هؤلاء جميعاً بعذابات عاجلة، آثارها ماثلة: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد: ١٠].

وثمرة هذا كله أن يستقر في ذهن العاقل وقلبه أنه مربوب لعظيم لا يغالب ولا يغفل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾(١)، فأين المفر؟! ومن لم يجد في التاريخ واعظاً، فإن الحاضر أعجز عن ردعه، لأن القرب حجاب للنظر.

دروس وعبر من المقطع:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقسمه سبحانه يدل على أهمية المقسم به، ويلفت النظر إلى بديع صنعه.
* دلائل القدرة مهما عظمت لا يفيد منها إلا أصحاب العقول الراشدة، أما من طمست عقولهم فإنها تورثهم عمى القلوب ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].
* العبد مهما عظم شأنه وزاد خطره لا يرتفع عن مقام العبودية، فأين مقام العبد من سيده؟! فإذا غابت هذه الحقيقة عن العبد استحق تأديب سيده لئلا يتمادى في التمرد على مقام عبوديته.

المقطع الثاني: أهل الشقاء وأهل السعادة

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد ذكر الحق تبارك وتعالى مصائر الغابرين من المتكبرين على أنبيائهم، الجاهلين بقدر ربهم سبحانه، شرع في ذكر صورة من صور هذا الجهل، وهي صورة جهلهم بأسرار عطائه ومنعه تعالى، وقد ذكّر السياق المخاطبين بأصل هذا المكلف الجاهل لقدر ربه فهو (الإنسان) الذي منحه الله العقل، وكلفه، وجبله على النسيان والأنس بنفسه والمحبة لها والرضى عنها[١].

هذا الإنسان يحسب أن ما أنعم الله به عليه هو عن جدارة به واستحقاق له، فيدعوه ذلك إلى الفخر والكبر، وأن ما ابتلاه به هو انتقاص له وتخل عنه فيكون ذلك مدعاة للهم والأسى[٢]، وواضح من السياق أن هذا لا يكون إلا من هؤلاء الجاهلين الغافلين،أما أهل البصيرة والتقوى فلا يكون منهم في السراء والضراء إلا مزيد من التسليم والرضى والرجاء: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٥٦ -١٥٧].

لقد نسي أولئك أو تناسوا أن الله تعالى يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لم يحب، وأن الدنيا لو

(١) نظم الدرر للبقاعي ٨/ ٤١٨.
(٢) انظر ابن كثير ٤/ ٥٠٩.

كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء.

و هذا الادعاء من الغافلين بأن قياس الرضا والغضب الإلهي هو العطاء أو المنع في الدنيا إساءة قولية، ينتقل السياق بعد ذكرها إلى تذكيرهم بإساءتهم الفعلية: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ الآيات ١٧-٢٠.

و الإساءة الفعلية هنا مرتبطة بالإساءة القولية ارتباطاً موضوعياً، فالذين ينظرون إلى العطاء والمنع على أنه علامة على الرضا أو السخط الإلهي، هم الذين لا يحسنون التصرف عند العطاء، فلا يشفقون على اليتيم ولا يؤرقهم حاجة المسكين، ولا يفرقون بين حلال وحرام من الرزق، وهم بذلك غافلون عن حقيقة البعث بعد الموت، فلو كانوا يستحضرون هيبة هذه الحقيقة في نفوسهم لما كانوا كذلك، فماذا هم فاعلون إذا « دكت الأرض دكاً»، وجاء ما يتبع زلزلة القيامة من أمر الله تعالى وقضائه، هل ينفعهم ندم بعد إصرار؟! أو تذكر بعد غفلة؟! وفي ذلك الموقف المهيب الرهيب فلتذهب النفس كل مذهب في تصور عذابهم ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.... وفي اللحظة المناسبة التي يروع النفس فيها هذا المشهد القرآني الناطق يظهر في الأفق تتمة هذا المشهد، والإضافة المهمة لجلاء الصورة فيها، إنها التتمة التي تزيد أهل العذاب الحسي عذاباً معنوياً عندما يرون - وهم أهل القلق والاضطراب في الفهم والسلوك - النفس المطمئنة وما أعد لها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾. فأين أهل المال الآثم في الدنيا من هذا النعيم المقيم في الآخرة، وأين أهل السخط في الدنيا من هذه النفس الراضية المرضية في الآخرة؟!

و هل يتم المشهد بجلائه وكمال تعبيره إلا بهذه المقارنة السريعة ولكنها المؤثرة في آن معاً؟!

دروس وعبر من المقطع:

* الدنيا دار ابتلاء وامتحان لا يجتازه إلا من عرف سنن الله تعالى وسلم بها.
* المال يكون نعمة للمكلف إذا أحسن التصرف فيه وفق شرع الله تعالى، ويكون عنوان شقاء إذا أساء التصرف فيه.
* السعادة الحقيقية والشقاء الحقيقي مرهونان بها للعبد يوم القيامة، أما سعادة الدنيا وشقاؤها فظل زائل.

سورة البلد

بين يدي السورة:

اسمها:

سورة البلد وليس لها اسم غيره في كتب التفسير إلا ما أورده الشوكاني بقوله: ويقال سورة: لا أقسم[1].

فضلها:

لم يصح في فضل سورة البلد حديث[2].

نزولها:

سورة البلد مكية بتمامها في قول الجمهور، وقيل مدنية بتمامها، وقيل مدنية إلا أربع آيات من أولها، واعترض بأن كلا القولين يأباهما قوله: « وهذا البلد»[3]، ولم يورد تفسير ابن كثير غير القول بمكيتها[4]، وذكر الشوكاني أنها مكية بلا خلاف[5]، ولعل ادعاء عدم الخلاف سببه أن من خالف لا يملك حجة على مخالفته.

عدد آياتها:

عشرون آية بلا خلاف.

محور سورة البلد:

تكليف الإنسان وما يدل عليه من ضعف الإنسان ودينونته لربه[6]، يبدو هذا المحور

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٢.

(٢) أورد الزمخشري في الكشاف حديثاً لا يصح في فضل سورة البلد. انظر الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٥٧.

(٣) تفسير الآلوسي ٣٠/ ١٣٣.

(٤) ابن كثير ٤/ ٥١١.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٢.

(٦) تفسير البقاعي ٨/ ٤٢٥.

في جميع مفاصل السورة: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المناسبات في سورة البلد:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

البلد «مكة» هي حاضنة التكليف الأولى، ومنطلق دعوة النبي ﷺ، وبلده التي رباه الله تعالى على ثراها على خلق النبوة، فجاء القسم بهذا البلد على ما قدر للإنسان كل الإنسان مؤمنه وكافره أن يعيش فيه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ وهو عنوان التكليف ومبرر المجاهدة في هذه الحياة.

مناسبتها لما قبلها:

ذكر في آخر سورة الفجر حال النفس المطمئنة وما أعد الله تعالى لها من الجنة وهي أشرف ما خلق الله كرامة للمؤمنين في الآخرة، فناسب ذلك أن تبدأ سورة البلد بذكر أشرف بقاع الدنيا (مكة).

«لما ذم سبحان فيما قبلها من أحب المال وأكل التراث أكلاً لماً، ولم يحض على طعام المسكين، ذكر جل وعلا فيها - في سورة البلد - الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة وإطعام في يوم ذي مسغبة، وكذا لما ذكر عز وجل النفس المطمئنة هناك - في سورة الفجر - ذكر سبحانه ههنا بعض ما يحصل به الاطمئنان»[١].

مناسبة أول « البلد» لآخرها:

بدأت سورة البلد بالقسم على خلق الإنسان يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة[٢]،

---

(١) الآلوسي ٣٠/ ١٣٣.

(٢) وهو معنى كبد كما يوضحه النسفي ٥/ ٣٦٦.

وانتهت ببيان مصير الفريقين: فريق الثبات أمام شدائد الدنيا للفوز بها عند الله في الآخرة، وفريق الانهزام أمام هذه الشدائد، وما أورثه انهزامه من عاقبة «نار مؤصدة»، وجمعت بين المقدمة والخاتمة مبررات منطقية لترتب النتائج على المقدمات، وأي كبد أشد مما يلقاه الكافر في ناره المؤصدة؟![1].

مقاطع السورة:

يمكن تقسيم سورة البلد إلى مقطعين:

مقدمة تسوق حقيقةقدرية هي خلق الإنسان في كبد، وموضوع السورة وهو تكليف الإنسان وضعفه.

المقطع الأول: خلق الإنسان في كبد

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾

يقسم الحق تبارك وتعالى بمكة البلد الحرام التي يحل بها المصطفى ﷺ وقت تتنزل هذه السورة، والقسم بمكة دليل على عظمتها، وحلول النبي ﷺ فيها يزيدها عظمة، وذكر حلوله يزيد القسم أهمية وتوكيداً، كما يقسم جل في علاه بآدم وما ولد من ذكر وأنثى، وعرب وعجم، وبيض وسود[2]، والقسم بآدم وذريته لأنهم (أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير، وفيهم الأنبياء والعلماء الصالحون)[3]، أما المقسم عليه فإن الإنسان

---

(١) وقد لخص ارتباط أول السورة بآخرها البقاعي بقوله: «وقد علم أن أولها هو هذا الآخر» مشيراً إلى الكبد، انظر البقاعي ٨/ ٣٤٦.

(٢) ذكر المفسرون أقوالاً في قوله: «ووالد وما ولد» منها أن المقصود إبراهيم وولده إسماعيل، أو إبراهيم وما تناسل منه، أو الوالد الذي يولد له، وما ولد هو العاقر. انظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٣.

(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٣.

خلق في عناء ومشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وفي هذا القسم ما يضع الإنسان - وهو ذو الكرامة عند الله تعالى - أمام قدره ليكون مستعداً للابتلاء والامتحان، غير غافل عما يقتضيه امتحانه من مجاهدة ومجالدة.

و غير خافٍ أن القسم بمكة وهي منطلق الرسالة الخاتمة، وبالإنسان المقصود بهذه الرسالة جاء متناسقاً مع المقسم عليه الذي هو خلق الإنسان في ابتلاء وامتحان دائمين، وهو مضمون هذه الرسالة الذي يلخصه التكليف. وفي بسط هذه الحقيقة - حقيقة التكليف - تحضير للمكلف ليكون مسؤولاً عن سلوكه، غير متفاجئ بنتيجته لأن الله تعالى قضى في حكمته: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

دروس وعبر من المقطع:

* كرامة الإنسان عند الله كبيرة يؤكدها قسم مطلع هذه السورة به، كما يؤكدها إرسال الرسل والأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ عناية بأمره.
* من سنن الله تعالى في خلقه أن الدنيا دار بلاء، وأن الراحة والسعادة فيها نسبية لا تبلغ مداها المتعارض مع «الكبد».

المقطع الثاني: تكليف الإنسان وضعفه

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠ ﴾.

قررت مقدمة السورة ابتلاء الإنسان وخلقه في مشقة عظيمة، وغاية التذكير بهذه الحقيقة أن يقف عند حجمه الطبيعي، ولا يستقوي بكرامته ولا يغره شرفه، مع ما في وصف الكبد من إعجاز، فهو ينفي كل ما جاء بعده من اغترار الإنسان بنفسه وامتنانه بماله وسلطته، ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ ﴾ مع ما هو فيه من أنواع الشدائد، ودافعه لهذا الاغترار أنه أنفق الأموال الطائلة بعد أن قدر على جمعها، وقد غاب عنه استحضار المراقبة، وحقيقة التكليف، وطبيعة السؤال عن المال وصعوبته: من أين اكتسبه وفيما أنفقه[1]، فكيف إذا أنفق هذه الأموال في عداوة النبي ﷺ والصد عن سبيل الله تعالى، وقد وردت روايات عديدة في ذكر سبب نزول هذه الآيات، منها أن رجلاً من بني جمح يقال له أبو الأشدين، كان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجليه ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد»، وقد روي أن الحارث بن عامر بن نوفل أذنب فاستفتى النبي ﷺ فأمره أن يكفر فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت دين محمد، ففيه نزل قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾[2]، وغير هذه الروايات مما أورده المفسرون، غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

و الآيات تقيم الحجة على المكلف بما آتاه الله تعالى من نعم جعلته أهلاً للتكليف، فقد

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٤٣ و٤٤٤.

(٢) انظر بهذا المعنى البقاعي ٨/ ٤٣٠.

جعل له عينين يرى فيهما آياته سبحانه ويميز نعمه ونقمه، ولساناً يعينه على الاعتراف بالفضل وأداء الشكر، وشفتين يستران فمه ويعينانه على الأكل والشرب وفصاحة النطق، وعقلاً يميز، ذكرت الدلالة عليه وإن لم تذكره صراحة، ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ وهداية طريق الخير والشر لا تكون إلا لمن يملك العقل مناط التكليف، ولما كانت كل هذه النعم المذكورة والمشار إليها في السياق مما يستحق الشكر قولاً وعملاً، ذكر الحق بما ينبغي للنفس الغافلة أن تفعله ولم تفعله، لقد كان ينبغي أن تبادر بلا تردد لسلوك طريق النجاة، وإن كانت بحاجة إلى مجاهدة، فإن من يدرك عظيم ما هو فيه من نعمة تسهل في عينه التضحية وإن كانت جسيمة ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ ﴾[١]، فلا هو أعتق رقبة لوجه الله يهبها معنى الحياة، ولا أطعم جائعاً، يتيماً قريباً – وثواب ذلك مضاعف لأن الأقربين أولى بالمعروف –أو مسكيناً فقيراً، وهل ينفع ذلك كله إذا لم يكن مسبوقاً بالإيمان[٢].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عمل، ولكنه قرن بالإيمان لشرفه وكرامته وعلو مكانته على سائر الأعمال، فإن التواصي بالصبر على الشدائد والطاعات، وعن المعاصي والتواصي بالتراحم، من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الفضائل ويغلق الطريق دون سائر الرذائل، وهذا هو عنوان «أهل الميمنة» رمز النجاة الذي أخطأه من لم يفك رقبة ولا أطعم فقيراً ولا مسكيناً ولاتواصى بصبر أو مرحمة أولئك ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ رمز الهلاك في ﴿ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾، وفي المشهد مقابلة لخصت نتيجة التكليف المفهوم من هذا المقطع، وهي خاتمة المطاف في كلا « النجدين» جنة مفتحة الأبواب، ونار مؤصدة.

(١) قريباً مما ذكر ما جاء في الكشاف ٤/ ٢٥٦.

(٢) تفسير النسفي ٥/ ٣٦٧.

دروس وعبر من المقطع:

* الإنسان ضعيف مهما بلغت قوته، وعلامة ضعفه خلقه في عناء لا ينقطع وابتلاء لا ينتهي حتى يوصله إلى جنة أو إلى نار.
* العاقل من استحضر مراقبة ربه الذي لا تخفى عليه خافية، فحملته هذه المراقبة على التقوى والاستقامة.
* نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة بلا حدود، والعاقل من أحسن شكرها، فنفعته، والأحمق من كفرها فأردته.
* فعل الخير حسن، وهو مع الأقربين أحسن لما فيه من معنى صلة الرحم المضافة إلى مطلق الإحسان.
* الكافر اختار إقفال عقله عن التدبر فيما ينجيه، فأقفل الله تعالى عليه النار ليكون عقابه من جنس عمله.

سورة الشمس

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

هي سورة الشمس، وقد يعبر بعضهم، فيقول: سورة (والشمس وضحاها) تعريفاً لها بما استهلت به. قال ابن عاشور: «سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس) بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو وفي نسخ صحيحة من جامع الترمذي ومن عارضة الأحوذي لابن العربي. وعنونها البخاري سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير، وهو أولى أسمائها لئلا تلتبس على القارئ بسورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١] المسماة سورة التكوير»[(١)].

ولم تحفظ لها تسمية غير هذه، وقد أورد السيوطي في الإتقان: فصل: قد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير وقد يكون لها اسمان فأكثر، فالذي يظهر أن سورة الشمس من الضرب الأول قال ابن عاشور: « ولم يذكرها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم»[(٢)].

وأما مناسبة تسميتها بسورة الشمس فقد ذكر الزركشي في البرهان «أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء؛ من خلق، أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»[(٣)].

ولعل أبرز ما في مستهل هذه السورة الشمس، ما قاله الخازن في لباب التأويل في معنى التنزيل بعد أن ذكر الأقسام الأربعة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٥/ ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٢٧٠.

﴿ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾، قال: « وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة؛ لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر »[1].

(ب) فضائلها:

لقد خص النبي ﷺ هذه السورة بالذكر كما في حديث جابر في الصحيح: قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذاً يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً فقال النبي ﷺ: «يا معاذ! أفتان أنت؟ أو فاتن ثلاث مرات، فلولا صليت بـ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾، ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[2].

وقد جاء الحديث بروايات مختلفة «وجمع بعضهم بين هذا الاختلاف بأنها واقعتان، وأيد ذلك بالاختلاف في الصلاة؛ هل هي العشاء، أو المغرب، وبالاختلاف في السورة؛ هل هي البقرة، أو اقتربت، وبالاختلاف في عذر الرجل؛ هل هو لأجل التطويل فقط لكونه جاء من العمل وهو تعبان، أو لكونه أراد أن يسقي نخله إذ ذاك، أو لكونه خاف على الماء في النخل كما في حديث بريده. واستشكل هذا الجمع؛ لأنه لا يظن بمعاذ أنه ﷺ يأمره بالتخفيف ثم يعود إلى التطويل. ويجاب عن ذلك باحتمال أن يكون قرأ أولاً بالبقرة، فلما نهاه قرأ اقتربت وهي طويلة بالنسبة إلى السور التي أمره أن يقرأ بها -كما سيأتي-. ويحتمل أن يكون النهي أولاً وقع لما يُخشى من تنفير بعض من يدخل في الإسلام، ثم لما اطمأنت نفوسهم بالإسلام ظن أن المانع زال فقرأ باقتربت؛ لأنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فصادف صاحب الشغل. وجمع النووي باحتمال أن يكون قرأ في الأولى بالبقرة فانصرف رجل، ثم قرأ اقتربت في الثانية

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تفسير سورة الشمس ٤/ ٤٣٢.

(٢) صحيح البخاري، ١/ ٢٤٩ (٦٧٣)، و٥/ ٢٢٦٤ (٥٧٥٥)، وصحيح مسلم ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

فانصرف آخر»[1].

فتخصيص النبي ﷺ لها بالذكر وتكرارها من بين السور التي تقاربها يدل على فضل ومزيد مزية، والله أعلم.

وقد جاء ذكر السورة في أحاديث أخر ترشد إلى قراءتها في بعض الصلوات تارة، وتارة أخرى تفيد أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في بعض صلاته، وكل ذلك يدور في فلك ما سبق من تخصصيها لمزية غير القصر، هي ما اشتمل عليه موضوعها من معنى، ولعل في الآثار التي أورد ذكرها كفاية وهي أصح ما في بابها.

(ج) وقتها:

قال الماوردي: «مكية عند جميعهم»[2]، قال الشوكاني ومثله الألوسي: مكية بلا خلاف[3]، وقال أبو الحسن بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ): المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشر سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق.

قال في آخر نظمه عليه رحمة الله:

وما سـوى ذاك مكي تنزلـه فلا تكن من خلاف الناس في حصُرِ

فليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظرِ[4]

ولم يذكر في نظمه سورة الشمس، فهي مكية باتفاق، وعلى هذا نص القرطبي[5] ونحوه

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ١٩٥.
(٢) النكت والعيون، للماوردي، أول سورة الشمس، ٦/ ٢٨١.
(٣) فتح القدير، للشوكاني، ٥/ ٦٣٤. وروح المعاني، للآلوسي، ٣٠/ ١٤٠.
(٤) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٠/ ٦٦.

ذكر المخللاتي، فقال: «مكية اتفاقاً ونزلت بعد سورة القدر، ونزلت بعدها سورة البروج»[1]، قال ابن عبد الكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[2].

(د) عدد آيها:

قال القرطبي: «مكية وآياتها خمس عشرة آية»[3]، ونقل السيوطي في الإتقان عن الموصلي: «الشمس: خمس عشرة، وقيل: ست عشرة»، قال ابن عاشور: «آياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار، وعدها أهل مكة ست عشرة آية»[4]، قال الآلوسي: « آيها ست عشرة آية في المكي والمدني الأول، وخمس عشرة في الباقية»[5]. قال أبو عمرو الداني الأندلسي: «اختلافها آية ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عدها المدني الأول والمكي بخلاف عنه، ولم يعدها الباقون»[6]، ونحوه ذكر ابن عبدالكافي، قال المخللاتي: «وعدد آياتها خمس عشرة آية عند غير المدني الأول والمكي وست عشرة عندهما اختلافهم في موضع واحد وهو قوله: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عده المدني والمكي بخلاف عنهما للمشاكلة ولم يعده الباقون، وكذا المدني الأول والمكي في الرواية الأخرى عنهما لعدم انقطاع الكلام وإلى ذلك أشار الشاطبي بقوله:

---

(١) شرح منظومة الشاطبي في العد؛ ناظمة الزهر في أعداد آيات السور، للمخللاتي.

(٢) وذلك في كتابه المخطوط عدد سور القرآن وآياته وكلماته، (ق ١٠٦/ ب) نسخة المكتب الأزهرية، ٣٠٩٤٨٣، وللكتاب نسخ أخرى أشار إليها فؤاد سزكين في تاريخ التراث ١/ ١/ ٤٩. وله عدة نسخ مصورة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، قلت: ونسبة الكتاب لابن عبدالكافي أبو القاسم عمر بن محمد المتوفى على ما ذكر في حدود ٤٠٠هـ فيها نظر ظاهر إلاّ أن يكون تاريخ الوفاة غلط.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٠/ ٦٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١/ ٣٦٥.

(٥) روح المعاني، للآلوسي، ٣٠/ ١٤٠.

(٦) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، ص٢٧٥.

.... وشَمْسٌ يُرَى هَدْيَاً وَسِتٌّ أُولو جَبْرِ

بِخُلفِهِمـا وَالخُلـف في العقـر عنهما ....[1]

قال الشارح[2]: والمفهوم من قول الداني تخصيص الخلاف بالمكي، حيث قال: وقد قيل: إن المكي وافقه على عدها وفي روايتنا عن ابن شاذان أن المدني الأول انفرد بعدها انتهى. فلعل الناظم روى الخلاف للمدني الأول من غير طريق الداني».

(هـ) محاورها:

قال الرازي: «المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي»[3]، وعلى رأسها يأتي الترغيب في التوحيد وطاعة الرسل، والتحذير من الشرك ومخالفة الأنبياء.

وقد سُلك فيها مسلك التهديد، «تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ، كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره

---

(١) قال المحقق: «قوله: (وشمس يُرى هدياً) بيان عدد آيات سورة الشمس وهي كما ذكرها الشارح؛ لأن الياء بعشرة والهاء بخمسة وعند المدني الأول والمكي المشار إليهما بالألف والجيم ست عشرة كما صرح به في قوله: (بخلفهما) بخلف عنهما. ومنشأ الخلاف يرجع إلى الاختلاف عنهما في (فَعَقَرُوهَا) فروى عنهما تركه فيكون العدد عنهما كالجماعة وروى عنهما عده، فيكون العدد ست عشر كما سبق».

(٢) صاحب لوامع البدر في بستان ناظمة الزهر وهو الحاج عبدالله بن صالح، الإمام ورئيس القراء بجامع أبي أيوب الأنصاري بالأستانة، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف. [إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي ٢/ ٤١٤، هدية العارفين للباباني ١/ ٢٥٥].

(٣) التفسير الكبير؛ مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الشمس، ٣١/ ١٧١.

الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[1].

وهذا المقصد أظهر من قول بعضهم: مقصودها إثبات تصرفه سبحانه وتعالى في النفوس التي هي سراج الأبدان[2].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لما كان من غرض السورة: «تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله -تعالى- الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية، والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[3].

فناسب أن يبتدئ بذكر شيء من أعظم الآيات، فقال:

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس:١-٨].

فهذه أقسام لتأكيد الخبر، والمقصود بالتأكيد هو ما في سوق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال[4]، الذي هو غرض السورة ومسلكها إلى مقصودها الكلي الذي أشار

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس ٥/ ٣٦٦.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، أول سورة الشمس، ٨/ ٤٣٧.
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس ٥/ ٣٦٦.
(٤) المصدر السابق بتصرف يسير.

إليه الرازي كما بين في محورها.

فإن قلت: فما علاقة ذلك بالشمس الذي هو اسم السورة، أجيب بما ذكره الزركشي في البرهان: « العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء؛ من خلق، أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز»[1].

ولعل أبرز ما في مستهل هذه السورة الشمس. قال الخازن بعد أن ذكر الأقسام الأربعة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ قال: «وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة؛ لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر»[2] فناسب أن تسمى السورة بسورة الشمس.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بُدءت السورة بأقسام تدل على كمال القدرة الإلهية، وعظمة رب البرية، فالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والنفس كل ذلك خلق عظيم يدل على حكيم قدير، ذي قوة متين مستحق للعبادة وحده، جدير به أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، ثم جاءت خاتمة السورة مؤكدة ذلك المعنى بفعل من فعله يدل على كمال عزته واقتداره، وعظيم قوته وسلطانه أنزله بمن حادوه وعصوه﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾، وبهذا تطابقت دلالة خلقه تعالى، ودلالة قوله سبحانه، ودلالة فعله عز وجل.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٢٧٠.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، تفسير سورة الشمس، ٤/ ٣٤٢.

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

قال البقاعي: «لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد؛ وهو النار المؤصدة. أقسم أول هذه على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه؛لأنه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه، فقال مقسماً بما يدل على تمام علمه وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها وبدأ بالعالم العلوي فأفاد ذلك قطعاً العلم بأنه الفاعل المختار، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صفاته، وذلك أقصى درجات القوى النظرية، تذكيراً بعظائم آلائه، ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه، الذي هو منتهى كمالات القوى العملية، مع أن أول المقسم به مذكر بما ختم به آخر تلك من النار»[1].

وقول الشيخ: الفاعل لذلك أولاً وآخراً وتأكيده له بأن الفاعل المختار هو الله ظاهره غير مسلم على اعتقاد أهل السنة، إلاّ إن أراد به المقدر لذلك الخالق له مع إثبات كسب العبد وفعله الناجم عن مشيئته واختياره مع تعليق الفلاح به، فهو ما دل عليه قوله سبحانه بعدها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ فنسب التزكية والتدسية للعبد، وهذا هو الذي يناسب نظم الآيات أكثر من غيره.

(٤) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي: «سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة، فقوله في الشمس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ هم أصحاب الميمنة في سورة البلد، وقوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ في الشمس هم أصحاب المشأمة في سورة البلد، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة»[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ٨/ ٤٣٧.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ص١٥١.

قال أبو حيان: «ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي، وبما هو آلة التفكر في ذلك وهو النفس، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا وفي ذلك [تعريض] بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل»(١).

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسيين:

المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه.

والمقطع الثاني: مثال مضروب.

المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه

قال الله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ ﴾.

لئن كان القسم بمواقع النجوم قسم عظيم، فإن القسم بالشمس وضحاها منه، فالشمس نجم متوهج، وضحاها موقع من مواقعها في السماء بالنسبة إلى الأرض، فكيف لايكون هذا القسم عظيماً مع جمعه لموقع السماء وبِناها، والأرض وطحوها، وما عليهما من الأنفس وفوق ذلك كله من سواها تبارك وتعالى رب العالمين وأحسن الخالقين.

إن الله تعالى «ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها؛ لأن الذي يقسم الله -تعالى- به يحصل له وقع في القلب،

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، أول تفسير سورة الشمس ٨/ ٦٧٢.

فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى»[(١)].

ومما سبق يظهر أن القسم هنا بتلك المخلوقات وليس ثم ما يأطر نحو تقدير محذوف وهو ربها كما يذكر بعضهم.

يقول الأستاذ سيد رحمه الله: «ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى؛ وأن يوجه إليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قيمة، وماذا بها من دلالة، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم.

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقاً بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية! متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر. وبينها وبين الروح الإنساني تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت، وهي تنطق للقلب وتوحي للروح وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي حيثما التقى بها وهو مقبل عليها متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء.

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب في شتى المواضع. تارة بالتوجيهات المباشرة، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ووضعها إطاراً لما يليها من الحقائق. وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة. فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون يطلب عنده التجاوب والإيحاء. ويتلقى عنه ـ بلغة السر المتبادل ـ ما ينطق به من دلائل وما يبثه من مناجاة!

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها.. بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة. وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى. في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش. وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها. فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها. وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي، أول سورة الشمس، ٣١/ ١٧١.

ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى، وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا.

وبالقمر إذا تلاها.. إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي.. وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق غائر في شعاب الضمير يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال، وللقمر همسات وإيحاءات للقلب وسبحات وتسبيحات للخالق يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب.. وإن القلب ليشعر أحياناً أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء، ويغسل أدرانه، ويرتوي ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله.

ويقسم بالنهار إذا جلاها.. مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو المدة الخاصة لا كل النهار. والضمير في جلاها.. الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة في السياق.. ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة. وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق؛ لأنها معهودة في الحس البشري يستدعيها التعبير استدعاء خفياً، فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها، وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها، وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره. فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى.

والليل إذا يغشاها.. والتغشية هي مقابل التجلية، والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه وهو مشهد له في النفس وقع، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء»[(١)].

وهذا القول الأخير في تجلية النهار وغشيان الليل كأنه مستفاد من الإمام ابن كثير الذي استدرك على بعض من تأول الضمير في قوله جلاها بتقدير محذوف هو الظلمة بحجة دلالة الكلام عليه، فقال الحافظ ابن كثير متعقباً: «ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ ﴾. أي: البسيطة لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الشمس، ٦/ ٣٩١٦.

فكان أجود وأقوى، والله أعلم»[(١)].

والذي يظهر أن هذا التأول لا داعي له، وقد أشار ابن جرير إلى هذا[(٢)]، قال أبو حيان: «والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها عائدة إلى الشمس»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وضمير التأنيث في ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ و﴿ يَغْشَىٰهَا ﴾، لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس، وأن الليل يغشاها، والتجلية: الكشف والإظهار، والغشيان: التغطية واللبس، ومعلوم أن الليل والنهار ظرفا الزمان، والفعل إذا أضيف إلى الزمان، فقيل: هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد، أو ينبت الأرض، ونحو ذلك، فالمقصود أن ذلك يكون فيه، كما يوصف الزمان بأنه عصيب، وشديد، ونحس، وبارد، وحار، وطيب، ومكروه. والمراد وصف ما فيه. فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به، كل شيء بحسبه. فالنهار يجلي الشمس، والليل يغشاها، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار، ومغيبها سبب الليل. وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾، فأضاف الضحى إليها. والضحى يعم النهار كله كما قال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ ﴾ [النازعات:٢٧-٢٩]. وقال:﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى: ١- ٢]»[(٣)].

وهذا كلام متين، واختيار أن الضحى يعم النهار هنا له وجاهة عند التأمل على رغم مما قيل في تضعيفه، فإن أكثر ما يطلق في القرآن في مقابلة الليل كما أشار الإمام، وأما الإلزام بتكرار ذكر النهار فلا يقوم به اعتراض، قال الإمام ابن تيمية: «فالأقسام التي في القرآن -عامتها- بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة. يقسم بنفس الفعل، كقوله: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ ﴾ [الصافات: ١ -٣]، وكقوله:﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ [النازعات: ١]، ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ [المرسلات: ١]، ونحو ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الشمس، ٤/ ٦٦٥-٦٦٦.
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري، تفسير سورة الشمس ١٢/ ٦٠٠.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٢٦-٢٢٧.

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات، وتارة بربها وخالقها، كقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الذاريات:٢٣]، وكقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل:٣]، وتارة يقسم بها وبربها.

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله، وأقسم بمخلوق دون فعله، فأقسم بفاعله.

فإنه قال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾ [الشمس: ١-٤]، فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار، وآثارها وأفعالها، كما فرق بينهما في قوله:﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فإنه بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان.

وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾، ولم يقل: [ونهارها] ولا [ضيائها]، لأن [الضحى] يدل على النور والحرارة جميعاً، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد»[1].

وهذا توجيه جيد لاختيار الضحى بمعنى مقابل الليل، وتفريق بيِّن بين الإقسام بالضحى الممتد ليشمل النهار، وبين الإقسام بتجلية النهار ذلك الفعل الذي يكون فيه تنفس الإصباح وتتفتح الأزهار، وتحليق الأطيار، والتماس المعاش.

وأما وقوله:﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾فقد اختلف فيه أهل التأويل على قولين مشهورين؛ هل (ما) هنا مصدرية أو موصولة، والصحيح «أنها موصولة، والتقدير: الذي بناها، والذي طحاها، و[ما]، فيها عموم وإجمال، يصلح لما لا يعلم، ولصفات من يعلم[2] كقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾[الكافرون:٢-٣]، وقوله: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٢٩.

(٢) وفي إتيانها في صفات من يعلم ومن ذلك هذه الآية مراعاة لمعنى بديع ينظره طالبه في بدائع الفوائد للإمام ابن القيم ص١٣٩-١٤٠.

[النساء: ٣].

وهذا المعنى يجيء في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل: ٣].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً. فإن القَسَمَ بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل.

ثم أقسم بالسماء والأرض، وبالنفس، ولم يذكر معها فعلاً، فذكر فاعلها، فقال: ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾، ﴿ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾.

فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس؛ لأنها تفعل البر والفجور وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته، لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾. فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي هو أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس، والقمر والليل، والنهار، بطريق الأولى والأحرى.

وأما السماء والأرض، فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس، والقمر، والليل، والنهار.

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار.

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات، وبأعيانها، وما فيها من الآثار والمنافع لبنى آدم.

وختم القَسم بالنفس، التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر

المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها»[1].

وقوله:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ أي ألهم الفاجر الفجور، والتقي التقوى، وهذا أليق من القول بأن ألهم هنا بمعنى أرشد، فإن هذا المعنى وإن كان صحيحاً ثابتاً فبغير هذه الآية «لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة، وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي لما أسلم أن يقول: (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)[2] ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلاً للمسلم والكافر»[3].

«فقوله تعالى:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ إثبات للقدر بقوله ألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله فجورها وتقواها».

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٣٠.

(٢) حديث مختلف فيه، والأظهر أنه صحيح، فقد رواه الترمذي في سننه ٥/ ٥١٩ (٣٤٨٣)، من طريق شبيب بن شيبة عن الحسن البصري عن عمران قال: قال النبي ﷺ لأبي وذكره بنحوه، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، وقد وقع في المطبوع قوله غريب فقط، وأشار إلى ما سقط العراقي في تخريج الإحياء ١/ ٢٧٧، وابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٧٠، والنووي في الأذكار ١/ ٩٠٧ وكذا في رياض الصالحين. وقد رأيت على هامش مخطوط الكروخي تحسينه. وأما استغرابه فلعله بسبب تفرد رواية أبي معاوية الضرير له من هذا الطريق، وقد جاء الحديث من طرق أخرى ثابتة يستغنى بها عن طريق شبيب هذا، فقد رواه ربعي بن حراش عن عمران، عن أبيه، وهذا طريق صحيح، ورواه العباس بن عبدالرحمن عن عمران ولم يذكر أبيه وجعل القصة له، أشار إلى ذلك البزار في مسنده ٩/ ٥٣ (٣٥٨٠)، وقد أشار إلى رواية العباس بن عبدالرحمن أبو نعيم في معرفة الصحابة إلاّ أنه ذكر عن عمران أن أباه كرواية ربعي بن حراش، وقد أشار أيضاً إلى رواية ربعي بن حراش الترمذي في العلل الكبير، كما صح الأثر مرسلاً عن الحسن من طريق موسى بن إسماعيل عن جويرية بن بشير عن الحسن. فلم يتفرد شبيب بروايته عن الحسن، وقد جاءت طرق أخرى كما ترى تعزز رفعه وروايته عن عمران ﷺ. وقد حكم ابن القيم بصحته في الوابل الصيب ص٢٣٠، وقد رويت في معنى الأثر ألفاظ مقاربة لا تختلف في صحتها.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٤٥.

وقد جاء هذا الاستطراد البديع بعد القسم في قوله:﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ مناسباً للمقام، منبهاً بطريق الإشارة على خلق الله لأفعال تلك المخلوقات العظيمة بطريق الأولى ممهداً للمقطع الذي بعده، رابطاً بين إلهام الله للعبد وبين اختيار العبد للتزكية أو التدسية، فإلهام الفجور أو التقوى من قدر الله وأول مراتبه علم الله باختيار عبده وما هو جدير بأن ييسر له.

ثم قال الله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

ومناسبة تعقيب القسم بجوابه ظاهرة، فبه يتم الكلام. وأما لماذا تلك الأقسام على هذا الجواب فـ «كأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويذكرهم عظائم آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية»[1].

قال الشوكاني: «واختلف في جواب القسم ماذا هو؟ فقيل: هو قوله:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ قاله الزجاج وغيره. قال الزجاج وحذفت اللام؛ لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها. وقيل: الجواب محذوف، أي: والشمس وكذا لتبعثنّ. وقيل تقديره: ليدمدمنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً وأما: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف والمعنى: قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والشمس وضحاها. والأوّل أولى»[2].

---

(١) تفسير البيضاوي؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تفسير سورة الشمس، ١/ ٤٩٦.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، تفسير سورة الشمس ٥/ ٦٣٤.

وما رجحه هو الذي اختاره البغوي في تفسيره ١/ ٤٣٨، وغير واحد من المفسرين والمحققين، وهو اختيار الزجاج من اللغويين والمبرد كذلك، قال في المقتضب: «فأما قوله: (والشمس وضحاها) فإنما وقع القسم على قوله: (قد أفلح من زكاها) وحذفت اللام لطول القصة؛ لأن الكلام إذا طال كان=

وأما المعنى: فالصواب ما قال الحسن: «معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ أهلكها وأضلها وحملها على المعصية فجعل الفعل للنفس»[1]. فيكون الضمير ضمير (مَنْ)، وأما ما قيل من أنه ضمير الباري سبحانه فضعيف.

«والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى. والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور. وأصل دسى: دسس كما قيل في تقضض: تقضى. وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، [الأعلى: ١٤]،﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾، [طه: ١١١]»[2].

وأما المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة فظاهرة، فإنه لما كان المراد الحث على الطاعات وموافقة الرسل، والتحذير من المعاصي ومخالفة الأنبياء، ناسب أن يبطل حجتهم في القدر وهذا المقطع إبطال لحجة من أنكر فعل العبد.

«فإذا كان الضلال في القدر حصل -تارة- بالتكذيب بالقدر والخلق، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد، وتارة بتظليم الرب، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها.

فقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾، إثبات للقدر بقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح، والأمر والنهي، بقوله: ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾.

وقوله بعد ذلك: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)، إثبات لفعل العبد، والوعد

=الحذف أجمل». وبكل حال تقدير اللام أيسر من تقدير محذوف هو جملة كاملة، ومن قال بالتقديم والتأخير لم يصنع شيئاً إذ آل معناه إلى من قال بجواز حذفها في مثل هذا المقام. ولئن لم يسغ عنده إيراد الماضي في جواب القسم بعد طول الفاصل بغير اللام، فما مسوغ التقديم والتأخير؟ أليس أولى منه تقدير حرف محذوف؟ فكيف إذا نص أئمة اللغة على جواز الحذف وإن جهله آخرون.

(١) معالم التنزيل، للبغوي، تفسير سورة الشمس، ١/ ٤٣٩.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الشمس، ٤/ ٧٤٨.

والوعيد بِفَلَاحِ مَنْ زَكَّى نفسه وخيبة من دساها. وهذا صريح في الرد على القدرية والمجوسية وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد، وهم المكذبون بالحق.

وأما المظلمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾[الشمس:٧]، والتسوية: التعديل. فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها.

وذكر -بعد ذلك- عقوبة من كذب رسله وطغى، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا، فإن الله ينتقم منه ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً.

دروس وعبر من المقطع الأول: القسم العظيم وجوابه:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣]. فلا يلحق به الخلق سبحانه بقياس، ولا يقاس جل شأنه وتقدس بالناس.

* عظم شأن ما أقسم الله تعالى به، وبيان أهمية التفكر فيه، مع بيان أنها مربوبة لا أرباب، خالقها وخالق أفعالها هو الجدير بأن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

* إثبات خلق الله لأفعال العباد، وتقديره لها، فقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾.. وعلى هذا إجماع أهل السنة، قال ابن بطة في (الإبانة الكبرى): «فإن القدري الملعون لا يقول: اللهم اعصمني، ولا: اللهم وفقني، ولا يقول: اللهم ألهمني رشدي... ويخالف إجماع المسلمين»[1].

* «.. قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ إثبات للقدر بقوله: ألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة، الباب الأول، باب جامع في القدر وما روي في أهله، حديث العنقاء، ٢/ ٢٨٦.

بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله فجورها وتقواها»[١].

* «قوله بعد ذلك:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ إثبات لفعل العبد، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد، وهم المكذبون بالحق، وأما المُظَلِّمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ ﴾ والتسوية التعديل فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها»[٢].

* على العبد أن يسلك سبيل التيسير لليسرى، فيعمل على تزكية نفسه، ثم يسأل من بيده الإلهام للتقوى أن يلهمه التقوى، ولا يعجب بعمله، وأن يشكر الله على ما يسره له من طاعته.

المقطع الثاني: مثال مضروب

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

بعد أن أقسم الله على فلاح من زكى نفسه، ويكون ذلك بطاعة الرسل، وعلى خيبة من دسى نفسه ويكون ذلك بتكذيب الرسل، وبين أن الاحتجاج بالقدر لاينفعهم، «ذكر –بعد ذلك– عقوبة من كذب رسله وطغى[٣]، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا، فإن الله ينتقم منه ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً»[٤]. «ولما كان آخر السورة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق، ١٦/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) ذكر ابن عطية عند تفسير الآية نحوه.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ٢٤٤.

التي قبلها «مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا وفي ذلك تعريض بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل»[1].

وقد خص الله من بين الأمم والأقوام التي أهلكها بمخالفة الرسل ههنا ثمود، قال شيخ الإسلام: « هذا -والله أعلم- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى. فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، [فصلت: ١٥]، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت:١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما؛ فكان في قوم لوط -مع الشرك إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها، وفي عاد -مع الشرك- التجبر، والتكبر، والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)، وفي أصحاب مدين -مع الشرك- الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة، فماتوا في الحال. فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم -مع

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، أول تفسير سورة الشمس، ٨/ ٦٧٢.

الشرك- عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمن انتهك محارم الله، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً.

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون»[1].

وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾، أي كذبت ثمود نبي الله «صالحاً ﴿ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ أي: بسبب طغيانها، إذ الحامل لهم على التكذيب هو طغيانهم، وفيه وعظ لأمثالهم وتهديد للحاضرين الطاغين؛ لأنَّ الطغيان أجرم الجرائم الموجبة للهلاك والخيبةِ في الدنيا والآخرة. ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾... أي: حين قام أشقى ثمود، وهو: قدار بن سالف، أو: هو ومَن تصدّى معه للعقر من الأشقياء، فإنَّ أفعل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث. وفضل شقاوتهم على مَن عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به. ﴿ فَقَالَ لَهُمْ ﴾ أي: لثمود ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ صالح عليه السلام عبَّر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم، وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي: احذروا عقرها، أو احفظوها، (و) الزموا ﴿ وَسُقْيَٰهَا ﴾ فلا تُدَوروها في نوبتها، وهما منصوبان على التحذير. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذّرهم به من نزول العذاب بقوله: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾، أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً، لقوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩] لرضاهم به. قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم. وذكرانهم وإناثهم. ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾؛ فأطبق عليهم العذاب حتى استأصلهم. قال الهروي: إذا كررت الإطباق قلت: دمدمت عليه، أي: أدمت عليه الدمدمة، وقيل: فدمدم عليهم: غَضِبَ عليهم ﴿ بِذَنۢبِهِمْ ﴾؛ بسبب ذنبهم، وصّرح به مع دلالة الفاء عليه للإيذان بأنه عاقبة كل ذنب ليعتبر به كل مذنب.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص١٩، وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٦/ ٢٤٩-٢٥٠.

﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي: الدمدمة بينهم، لم يفلت منهم أحد من صغيرهم وكبيرهم أو فسوّى ثمود بالأرض بتسوية بنائها وهدمه»[1].

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾، قال ابن عاشور: «العقبى: ما يحصل عقِب فعل من الأفعال مِن تبعة لفاعِلِه أو مَثوبة، ولما كان المذكور عقاباً وغلبة وكان العرف أن المغلوب يكنّ في نفسه الأخذ بالثأر من غالبه فلا يهدَأ له بال حتى يثأر لنفسه، ولذلك يقولون: الثَّأر المُنِيم، أي الذي يزيل النوم عن صاحبه، فكان الذي يغلب غيره يتقي حذراً من أن يتمكن مغلوبُه من الثأر، أَخْبَرَ الله أنه الغالب الذي لا يقدر مغلوبُه على أخذ الثأر منه، وهذا كناية عن تمكن الله من عقاب المشركين، وأن تأخير العذاب عنهم إمهال لهم وليس عن عجز، فجملة ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾[2] تذييل للكلام وإيذان بالختام. ويجوز أن يكون قوله: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ تمثيلاً لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك مَن يثأر له فيكون المثَل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد»[3].

ويعلق الأستاذ سيد تعليقاً بديعاً معناه:

.. إنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر. عندئذ تحق كلمة العذاب، ويأتي بطش الله، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.... واللفظ.. (دمدم) يوحي بما وراءه، ويصور معناه بجرسه، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد.. ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.. سبحانه وتعالى... ومن ذا يخاف؟ وماذا يخاف؟ وأنى يخاف؟... فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل، يبلغ غاية البطش حين يبطش. وكذلك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، تفسير الآية من سورة الشمس.

(٢) (فلا يخاف عقباها) بالفاء على قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وكذا كانت مصاحف المدينة ومصاحف الشام. ينظر التحرير والتنوير ٥/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشمس، ١٥/ ٣٧٥.

بطش الله كان: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾. فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس.. وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة، ومشاهده الثابتة، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين والطغاة، في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعداً، ولكل أمر غاية، ولكل قدر حكمة، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً.. »[1].

إن هذا المقطع يبين بجلاء عاقبة من عصى الله، وكذب رسله، وفيه دعوة للمخاطبين بالاعتبار وألا يكونوا كأولئك، فليستقيموا على أمر ربهم، وليحذروا محادة أمره والتكذيب بآياته.

دروس وعبر من المقطع الثاني: المثل المضروب:

* الأمثلة الواقعية، والقصص والأخبار السالفة لها تأثير في نفوس الناس، ومن ثم تكرر سوقها في القرآن لأجل الدعوة لما لها من وقع وقوة تنبيه.

* عقاب الله في الدنيا إذا هو أتى يعم فينال المذنب وغيره، «وقد تبين.. أن الله تعالى أغرق أمة نوح عليه السلام كلها وفيهم الأطفال والبهائم بذنوب البالغين، وأهلك قوم عاد بالريح العقيم، وثمود بالصاعقة، وقوم لوط بالحجارة، ومسخ أصحاب السبت قردة وخنازير، وعذب بعذابهم الأطفال، قال أنس بن مالك: «إن الضب في جحره ليموت هزلاً بذنب ابن آدم»[2]. قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنفال:٢٥].

* أن الطغيان قد يكون سبباً حاملاً على التكذيب. ويكون بالأفعال ولهذا بينه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ ﴾.

* أهل الكفر والتكذيب دركات، فمنهم شقي وأشقى.

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الشمس، ٦/ ٣٩١٩ معنى الكلام وليس نصه.

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص٢٥٠، بحذف يسير.

* أسند الله تعالى الانبعاث لأحدهم أو جماعة منهم ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾، وأسند العقر لهم ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾، وهذا يدل على تواطؤهم معه، دل عليه أيضاً قوله: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ وانبعث تدل على من بعثه، ولذا يقال بعثه فانبعث، كما تدل على سرعة تشير إلى ثورة وطيش ونزق، وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر: ٢٩]، فكانوا بذلك شركاء له في عقرها، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده، كان هذا باسم الجميع، فكانت العقوبة باسم الجميع، ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد، وعقوبة الربيئة مع الجاني، والله تعالى أعلم.
* خطر الذنوب وبيان أنها سبب للعقوبات العاجلة وكذا الآجلة. وإن ربك ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

سورة الليل

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

«سميت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (سورة الليل) بدون واو، وسميت في معظم كتب التفسير (سورة والليل) بإثبات الواو، وعنونها البخاري والترمذي[1] (سورة والليل إذا يغشى)»[2]، وهكذا غير واحد من المحدثين كابن حبان، والحاكم في مستدركه[3].

فالظاهر أنه لم يؤثر لهذه السورة غير اسم واحد، وأما البقية فتعريف لها بما استهلت به.

(ب) فضائلها:

خص النبي ﷺ هذه السورة بالذكر مع سورة الشمس، كما في حديث جابر في الصحيح: قال أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذاً يصلي، فترك ناضحه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل. وبلغه أن معاذاً نال منه فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ! أفتان أنت؟ أو فاتن ثلاث مرار، فلولا صليت بـ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾،﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[4].

وجاء ذكر السورة في أحاديث أخر، منها ما يشير إلى عناية الصحابة بها وتعاهدهم لقراءتها

---

(١) صحيح البخاري، ٤/ ١٨٨٨ الباب (٤٣١)، وجامع الترمذي ٥/ ٤٤٠ الباب (٨٠).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧.

(٣) صحيح ابن حبان، باب ذكر قراءة المصطفى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾، ١٤/ ٢٣٧، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٧١.

(٤) صحيح البخاري، ١/ ٢٤٩ (٦٧٣)، و٥/ ٢٢٦٤ (٥٧٥٥)، وصحيح مسلم ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

كما في أحاديث اختلافهم في قراءة الآية ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

ومنها ما يشير إلى ما فيها من موعظة كحديث أبي الدرداء: ما من يوم تطلع شمسه إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه الخلق كلهم: «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» ولا آبت الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان نداء يسمعه الخلق كلهم غير الثقلين: «اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً». وزاد عباد بن راشد في روايته قال: وأنزل الله في ذلك قرآنا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم في سورة يونس: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٥٢] وفي قولهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[1].

ومنها أحاديث أخر خصتها في الذكر بالقراءة في بعض الأوقات.

(ج) وقتها:

«هي مكية في قول الجمهور، واقتصر عليه كثير من المفسرين، وحكى ابن عطية عن المهدوي أنه قيل: إنها مدنية[2]، وقيل بعضها مدني، وكذلك ذكر الأقوال في الإتقان[3]، وأشار إلى أن ذلك لما روي من سبب نزول قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾، إذ روي أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري في نخلة كان يأكل أيتام من ثمرها وكانت لرجل من المنافقين فمنعهم من ثمرها، فاشتراها أبو الدحداح بنخيل فجعلها لهم.. وعدت التاسعة في عداد نزول السور

---

(١) الحديث عن أبي الدرداء يرفعه، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٤٤١، وابن جرير ١٢/ ٦١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٢٣٣ (٣٤١٢)، وابن حجر في الأمالي المطلقة ١/ ١٥٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩١٧).

(٢) ذكره أبو عمرو الداني عن علي بن أبي طلحة، [التبيان في عد آي القرآن ص٢٧٦]، ولعل المهدوي هو من عاصره ابن عطية؛ إبراهيم بن عبدالصمد بن بشير المهدوي (ت:٥٢٦).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ص٤٥ وكذلك ص٥٥.

نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر»[١]، وذكر بعض أهل العلم أنها مكية في قولهم جميعاً[٢]. وهذا يفهم من قول أبو الحسن بن الحصار الذي مر في تفسير سورة الشمس[٣]. ولعل الصواب أنه لا إجماع فيها، فقد صح الخلاف فيها قديماً، فإن علي بن أبي طلحة عدها في المدني وهو صاحب الصحيفة في التفسير عن ابن عباس[٤].

ولعل الصحيح أن السورة مكية جميعها، وذلك لسببين رئيسين:

* **الأول:** ما صح في سبب نزولها من أنها في أبي بكر ﷺ، عندما أعتق نفراً فقال له أبوه أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لما نزلت هذه الآيات فيه:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[٥]. وهذا سبب كاف للجزم بأنها مكية. وقد ذكر ابن عطية وغيره أن أهل التأويل لم يختلفوا في أن المراد بـ(الأتقى) أبوبكر[٦] ﷺ فهذا كالإجماع على أنها نزلت فيه.

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧، باختصار يسير.

(٢) رأيته في مخطوط كتاب في عدد سور وآي القرآن المنسوب لعمر بن محمد بن عبدالكافي، (١٠٧/ أ) المحفوظ بمكتبة مخطوطات الأزهر، وهو في موقعهم على الإنترنت ورقمه (٣٠٩٤٨٣). وقد أشير إليه في تفسير سورة الشمس.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠.

(٤) ينظر: فضائل القرآن، لابن كثير، ١/ ١٥. والسند إلى علي بن أبي طلحة صحيح قال الحافظ ابن كثير: «هذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة»، وليس قوله هذا يذكره عن ابن عباس ﷺ.

(٥) روى هذا الأثر الحاكم في مستدركه ٢/ ٥٧٢ (٣٩٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وسنده جيد. وقد رواه ابن جرير في تفسيره وغيره من أوجه أخر.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تفسير سورة الليل، بمعناه، ٥/ ٤٩٢، وكذا ذكر الخازن في لباب التأويل في معاني التنزيل عند تفسير الآية. وكذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١٥٢.

* **الثاني**: ضعف ما روي من سبب نزولها في قصة النخلة[1]، على أنه يمكن الجمع بين الأثرين، بأن يقال: نزلت في مكة، ولايعارض هذا قول بعضهم: نزلت في قصة النخلة،

---

(١) في إسناد الأثر حفص بن عمر العدني وهو ضعيف، وقد قال ابن كثير في التفسير: «وهو حديث غريب جداً» [التفسير ٤/ ٦٦٨]، أما نصه فقد روي عن ابن عباس: أن رجلاً كان له نخل، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير، فنزل من نخلته فنزع الثمرة من أيديهم، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «اذهب»، ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له النبي ﷺ: «أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة»، فقال له: لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها، وإن لي لنخلاً كثيراً ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها. فذهب النبي ﷺ فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فقال: يا رسول الله إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتها أتعطيني بها ما أعطيته بها نخلة في الجنة؟ قال: «نعم»، ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة، ولكلاهما نخل، فقال له: أخبرك أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة، فقلت له: قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها، فسكت عنه الرجل فقال له: أتراك إذا بعتها؟ قال: لا إلا أن أعطى بها شيئاً ولا أظنني أعطاه، قال: وما مناك بها؟ قال: أربعون نخلة، فقال الرجل: لقد جئت بأمر عظيم، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة؟ ثم سكت وأنشأ في كلام ثم قال: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال: أشهد لي إن كنت صادقاً، فأمر بأناس فدعاهم فقال: اشهدوا أني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة، بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان، ثم قال: ما تقول؟ فقال صاحب النخلة: قد رضيت. ثم قال بعد: ليس بيني وبينك بيع لم نفترق، قال له: قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة، فقال صاحب النخلة: قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد، قال: تعطينيها على ساق، ثم مكث ساعة ثم قال: هي لك على ساق، وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق، فتفرقا فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له: النخلة لك ولعيالك. قال عكرمة: قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ إلى آخر السورة.

فقد ذكر الإمام ابن تيمية أن قولهم: نـزلت الآية في كذا، يراد به تارة سبب النـزول، ويُراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول: عني بهذه الآية كذا.

وقال القاسمي تعقيباً على كلام شيخ الإسلام الآنف: وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النـزول، فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. والله أعلم.

وقال أيضاً: قولهم: نزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب نـزولها[1].

(د) عدد آيها:

قال القرطبي: « وهي إحدى وعشرون آية بإجماع»[2]، وقال أبو عمرو الداني: «وهي إحدى وعشرون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[3]، وأما قول ابن عاشور: «وعدد آيها عشرون»[4] فلعل فيه سقطاً أو هو سبق قلم.

(هـ) محاورها:

الحض على الأوصاف التي يحصل بها الفلاح، والتحذير مما تحصل به الخيبة، مع بيان أن كل إنسان ميسر لما خلق له.

وفي سبيل تقرير ذلك المعنى طرقت السورة أغراضاً فـ «احتوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين ومساوئهم وجزاء كل، وأن الله يهدي الناس إلى الخير فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضالين بعكس ذلك، وأنه أرسل رسوله ﷺ للتذكير بالله

---

(١) تفسير القاسمي محاسن التأويل، للقاسمي، ١٥/ ١١٤ وما بعدها، وقد أشرت إلى هذا في كتابي تفسير سورة الحجرات دراسة تحليلية موضوعية ص١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٧٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة الليل، ص٢٧٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٧.

وما عنده، فينتفع من يخشى فيفلح، ويصدف عن الذكرى من كان شقياً فيكون جزاؤه النار الكبرى، وأولئك هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة، وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه»[1].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قال ابن عاشور: «اختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار، عكس ما في سورة الشمس؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾»[2]. فكانت تسمية هذه السورة بها يناسب الواقع (الليل) الذي ابتدأت به وهو أظهر شيء فيها إذ صدر القسم به، مرتبطةً بغرضها، معبرةً عن موضوعها.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بالليل حال غشيانه، ثم عقب بذكر النهار حال تجليه، إشارة إلى حالين ولونين اثنين، ثم قسم أصحاب السعي مثلهما إلى شقي أشقى، وتقي أتقى، أما من غشيه ليل الإثم فكذب وتولى فذاك هو الأشقى، وما يغني عنه ماله إذا تردى! وأما من أشرقت على قلبه أنوار الوحي فتجلى له نهار الدنيا وأبصر الأمور على حقيقتها، فسوف يؤتي ماله يتزكى ابتغاء وجه ربه الأعلى. ثم ختمت السورة بذكر مآل من غشيت قلبه الظلمة ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق.

﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾، وعقبت ذلك بذكر مآل من استضاءت نفسه بأنوار الوحي ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾. فكانت فاتحة السورة مناسبة في شقها الأول لحال الأول، وفي شقها الثاني حال الثاني، والله أعلم.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

« لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها، وأوضح في آخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في تحصيل نجد الخير ونجد الشر، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللبس، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى، فتباينوا في مقاصدهم وفي مصادرهم ومواردهم، بعد أن أثبت أنه هو الذي [ألهم] النفوس الفجور والتقوى، أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ضره ونفعه على ذلك، تنبيهاً على تمام قدرته في أنه الفاعل بالاختيار، يحول بين المرء وقلبه حتى يحمله على التوصل إلى مراده بضد ما يوصل إليه بل بما يوصل إلى مضاده، وعلى أنه لا يكاد يصدق الاتحاد في القصد والاختلاف في السعي والتوصل، وشرح جزاء كلٍ؛ تحذيراً من نجد الشر، وترغيباً في نجد الخير، وبيَّن ما به التزكية وما به التدسية»[١].

(٣) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال أبو حيان: « لما ذكر فيما قبلها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح، وما تحصل به الخيبة، ثم حذر النار، وذكر من يصلاها ومن يتجنبها»[٢] للحض على أوصاف هذا والتحذير من أوصاف ذاك. وهذا مضمون السورة وعليه محورها.

---

(١) مستفاد من نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، تفسير سورة الليل، ٨/ ٤٤٥. وهذا نصه إلاّ تصرفاً يسيراً هو ما بين المعقوفين.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان، تفسير سورة الليل، ٨/ ٦٧٨.

قال السيوطي: «ونزيد في سورة الليل: أنها تفصيل إجمال سورة الشمس فقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾، وما بعدها تفصيل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ تفصيل قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾»[1].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر.

والمقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر.

والمقطع الثالث: إنذار وتحذير.

المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾

«في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾.. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين، وذات اتجاهين.. كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾.. ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني»[2].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٩٢٠.

في هذه السورة «يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئاً بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾، وأقسم به وقت سريانه... وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس، فقيل معناه أدبر فيكون مطابقاً لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾، وقيل: معناه أقبل فيكون كقوله:﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعاً على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته»[1].

وقوله: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ فعل لم يذكر مفعوله، والأقرب أنه البسيطة أو كل مايواريه بظلامه فيكون كقوله تعالى:﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣].

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ «(ما) هنا موصولة، أي: والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن من بها للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم، أي: والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى»[2]، ونحو هذا قول من قال: هي بمعنى من، أو هي مصدرية فيكون القسم بخلْق الذكر والأنثى الذي هو فعل الخلاق سبحانه وتعالى.

وذلك يتضمن الإقسام بخلق الحيوان كله، على اختلاف أصنافه ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها. وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، تفسير سورة الليل، ٥/ ٦٤١.

دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى[١]. قال ابن كثير: «ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة، كان المقسم عليه أيضاً متضاداً، ولهذا قال -تعالى-:﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾»[٢]. فـ «لما ذكر ما هو محسوس التخالف من المعاني والأجرام، أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض»[٣] ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾، وهو جواب القسم، «ولفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان، فإن كان يفتقر إلى عَدْو بَدَنِه عَدَا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه، ويجتهد فيه»[٤].

وفي هذا القسم وجوابه تنبيه لحال الناس وما هم عليه من تباين في الأقوال والأعمال والمعتقدات، قد يكون يسيراً وقد يصل حد التقابل، فلابد إذاً من مصيب ومخطئ، ومحق ومبطل، وناج وهالك، وتلك هي علاقة المقطع بمحور السورة.

دروس وعبر من المقطع الأول: القسم على تباين سعي البشر:

* لله في الآفاق وفي الأنفس آيات ينبغي أن يتأملها البشر، وأن يشهدوا بها عظيم شأن الرب سبحانه وتعالى، ثم يترجم ذلك الشهود بالعمل الذي هو طاعته واجتناب سخطه ورأس ذلك عبادته وحده لا شريك له، مع مجانبة الشرك وأسبابه.

* في إقسامه سبحانه وتعالى بالليل ونقيضه، والذكر ومقابله، على تباين السعي وتشتته إشارة إلى أن تقدير ذلك ليس شراً محضاً، وإنما هو بسابق علم لمصالح كبرى.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦، بتصرف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الليل، ٤/ ٦٦٨.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، تفسير سورة الليل، ٨/ ٤٤٦.

(٤) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٦، بتصرف يسير.

المقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

لما بين سبحانه وتعالى، تفاوت الخلائق، وتباين أفعالهم، ذكر هنا جزاء كل صنف فـ «أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن، وعاقبة سعي المسيء، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحداً.

وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به، وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاؤوا فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك، ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى، وأما تيسير ما

تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح وفرحها وابتهاجها، من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٤]، فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره، وقال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[الطلاق:٥]، وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [لأنفال:٢٩]، وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١٨٩]، والفلاح غاية اليسر كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾[الحديد:٢٨]، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته؛ نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر وترك التقوى سبباً لكل عسر.

السبب الثالث(١): التصديق بالحسنى، وفسرت: بلا إله إلا الله، وفسرت: بالجنة،

---

(١) للتيسير لليسرى.

وفسرت: بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة اليسرى وهي فعلى من اليسر.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع، فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة، فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هي منفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقاً بها مَنْ نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام، التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا إله إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها، وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله، ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيق أنها تتناول الأمرين[١]، وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث: وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وما تضمنته من الهدى ودين الحق!

فإن النفس لها ثلاث قوى: [١] قوة البذل والإعطاء، [٢] وقوة الكف والامتناع، [٣]، وقوة الإدراك والفهم. ففيها: [١] قوة العلم والشعور، [٢] ويتبعها قوة الحب والإرادة، [٣] وقوة البغض والنفرة[٢].

فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها.

ففساد قوة العلم والشعور: يوجب له التكذيب بالحسنى.

وفساد قوة الحب والإرادة: يوجب له ترك الإعطاء.

وفساد قوة البغض والنفرة: يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل لمأمور، وترك لمحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب، وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها، فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله وأكمل الناس من كملت له هذه

---

(١) أي أن الحسنى تتناول أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء.

(٢) لو رتب رحمه الله كل واحدة مع ما تناسبها؛ فجعل الثالثة من التقسيم الأول مع الأولى من التقسيم الثاني، والثانية من الأول مع الثالثة من التقسيم الثاني، والأولى من الأول مع الثانية من الثاني، لكان أقرب لفهم القارئ.

القوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها.

فمن الناس من تكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من تكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من تكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية، وبالعكس فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى، قال ابن عباس: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ أي نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل والكلبي والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيُجرى الخير وييسر على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه مذللة له منقادة، لا تستعصي عليه ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللاً وتقاد له علماً وعملاً، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا وللدين

وأما من بخل فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به، واستغنى بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه، وكذب بالحسنى فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه، فسنيسره للعسرى، قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي، وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً، وقال عكرمة عن ابن عباس: نيسره للشر، قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلى العذاب فهو الخلة العسرى والخير يؤدي إلى اليسر والراحة في الجنة فهو الخلة اليسرى، يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي يسرت ذلك على أصحابها انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل كيف قابل: اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟ قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لمّا استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره، فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه بأن فَعَل فِعْل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه، الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فلله ما أحلى هذه المقابلة، وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق بالمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه، ولهذا أجاب بها النبي ﷺ من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب، وأزال الإشكال، ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار» قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾، فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم

أصله ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: أن العبد ميسر لما خلق له، لا مجبور فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

... وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له، فتأمل قوله اعملوا فكل ميسر لما خلق له، ومطابقته لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ إلى آخر الآيتين كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب.

وهذا الذي أرشد إليه النبي هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبداً وإن أتى به في أمر معين، فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي: اعملوا فكل ميسر لما خلق له؟

فإذا كان هذا في مصالح الدنيا وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد؟ فكيف يُعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ويُستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل! والإنسان ظلوم جهول؛ ظلوم لنفسه، جهول بربه، فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ وتلا عنده هاتين الآيتين موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله وأنزل به جميع كتبه.

فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى فمن يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر، وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك! ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة ؟ قيل: هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب! كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا ؟

فإن قيل: وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يُشفى من جهله؟

قيل: نعم شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسُفْل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد والصحو والغيم، ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خَلْقُ المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات، وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام، وإذا أعطيت اسم الملك حقه -ولن تستطيع- علمت أن الخلق والأمر والثواب والعقاب والعطاء والحرمان أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع، فالمُلْكُ الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة المَلِك؛ علمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه واستواءه على سرير ملكه يدبر أمر عباده، وهذه الإشارة

تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة»[1]. وقد نبه على هذا المعنى الأخير في قوله بعدها: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ ﴾، فهو «استفهام في معنى الإنكار أو النفي. (تردى) تفعل، من الردى، وهو الهلاك يريد: الموت، أو تردى في الحفرة إذا قبر، أو تردى في قعر جهنم»[2]، أو تردى في ضلاله، وهوى في معصيته[3].

«ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ قيل: معناه إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، قال قتادة: على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق وهو قول مقاتل وجماعة وهذا المعنى حق، ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال كما قال: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ [النحل: ١٨]، أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول، وإن كان معناه صحيحاً فليس هو معنى الآية.

وقيل المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل:١٨]، وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية[4].

قال ابن القيم: علينا للهدى أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته، وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع[5]: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٣٦-٤٣. بتصرف يسير.
(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الليل، ٤/ ٧٥١.
(٣) النكت والعيون، للماوردي، تفسير سورة الليل، بمعناه، ٦/ ٢٨٩.
(٤) وكأن أبا حيان مال إليه في البحر المحيط.
(٥) استفاده رحمه الله من شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، صرح به في مدارج السالكين ١/ ١٧.

[النحل: ٩]، وفي الحجر في قوله: ﴿ صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق، والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية:

[١] ذكر أعلى الغايات، وهي الوصول إلى الله سبحانه.

[٢] وأقرب الطرق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى.

[٣] وتوحيد الطريق، فلا يعدل عنها إلى غيرها.

[٤] وتوحيد المطلوب، وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره.

... والهدى التام يتضمن: توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطرق الموصلة.

والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر. فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة، فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق

يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة»(١).

وعلاقة هذا المقطع؛ تيسير من أعطى واتقى وصدق بالحسنى لليسرى، وتيسير من بخل واستغنى وكذب بالحسنى للعسرى، بالحض على الأوصاف التي يحصل بها الفلاح، والتحذير مما تحصل به الخيبة، مع بيان أن كل إنسان ميسر لما خلق له، وهو محور السورة.

وقد أكد هذا الحض على الجد في السعي للخير ومجانبة الشر بقوله سبحانه:﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾، ثم بين رحمته بعباده السالكين طريق الهدى، فقال:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾، وهذا من جزيل الفضل، وعظيم الحض على ما يحصل به الفلاح وذلك يقتضي مجانبة ضده، وقوله ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ من هذا الباب فمن أراد الدنيا فإنها لله، فلا يطلبها بسعي يغضب الله، فإن لله الآخرة دار الجزاء والحساب وهناك يوفى كل عامل نصيبه. وعلى هذه المعاني تدور السورة.

دروس وعبر من المقطع الثاني: اعملوا فكل ميسر:

* من عدل الله مع عباده أن جعل لهم مشيئة واختياراً تحت مشيئته، فهم إما يعطون ويتقون ويصدقون بها، أو يبخلون ويستغنون ويكذبون، فناج سالم، ومكدود هالك.
* إن الله تعالى ييسر كل خلق لما خلق له، وفقاً لما سبق في علمه باختياره.
* في قوله: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ إشارة إلى أن من قدم سعي الدنيا على سعي الآخرة، وآثر النقد القليل الحقير، على النسأ الجليل الكثير، فقد غبن وأي غبن؟ غبن تردى فيه نفسه إلى الهاوية ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ نعوذ بالله من الغبن والخذلان.
* سلوك طريق الهدى من أعظم النعم وأجلها، ولهذا تضمنت فاتحة الكتاب دعاء الله الهداية له، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة:٦]، ففرض على المسلم أن يسأل الله التيسير

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٤٥. بحذف يسير.

له في اليوم سبع عشرة مرة؛ لأن من سلك سبيل الهدى فعلى الله سبيله، ومن كان على الله شأن من شؤونه ضمن تحققه على أكمل الأوجه وأتمها. «ومن يسره الله لليسرى فقد وصل.. وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة.. وصل وهو بعد في هذه الأرض. وعاش في يسر. يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله. اليسر في خطوه. واليسر في طريقه. واليسر في تناوله للأمور كلها. والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها. وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها. حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له: (ونيسرك لليسرى)..»[1].

المقطع الثالث: إنذار وتحذير

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

انتهى المقطع السابق «وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان، وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان. وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها! فييسر الله له طريقه: إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى»[2]. مع التنبيه إلى أن دار السعي الفانية هي لله، حق على العبيد الذين هم فيها أن يسعوا وفق مراد الله فيها، كيف لا وهم وأرضهم وسماؤهم تحت ملكه وسلطانه! كما أن له دار الحساب التي يردفيها أصحاب السعي المتباين للجزاء. فـ «لما أقام سبحانه الدليل وأنار السبيل وأوضح الحجة وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الليل، ٦/ ٣٩٢٢.
(٢) المصدر السابق.

أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص»[١].

فقال: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾، قال ابن عاشور: «.. الفاء لمجرد التفريع الذِكري إذا كان فعل: «أنذرتكم» مستعملاً في ماضيه حقيقةً: وكان المراد الإنذار الذي اشتمل عليه قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ تَرَدَّىٰٓ ﴾. وهذه الفاء يشبه معناها معنى فاء الفصيحة لأنها تدلّ على مراعاة مضمون الكلام الذي قبلها وهو تفريع إنذار مفصَّل على إنذارٍ مجمل»[٢]. وقوله ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾، إما مخاطبة بهذا القرآن، وإما على معنى قل لهم يا محمد أنذرتكم! «والمعنى: خوفتكم وحذرتكم ناراً تلظى»[٣]. «وتنكير ﴿ نَارًا ﴾ للتهويل، وجملة﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ نعت. وتلظى: تلتهب من شدة الاشتعال. وهو مشتق من اللّظى مصدر: لَظِيَتْ النار كرَضِيتْ إذا التهبت، وأصل (تلظى) تتلظى بتاءين حذفت إحداهما للاختصار»[٤]، وأصل اللظى اللهب الخالص، وخص وصف هذه النار بالتلظي مع أن لها صفات عديدة منها السعير، وسقر، والجحيم، والهاوية، وغير ذلك[٥].

وقوله الأشقى، والأتقى «قيل: الأشقى، والأتقى، بمعنى الشقي والتقي. ولا تفضيل فيهما؛ لأن النار [غير] مختصة بالأكثر شقاء، وتجنبها ليس مختصاً بالأكثر تقوى.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١/ ٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٨٩. ثم ذكر وجهاً آخر وهذا أقرب وإليه نحى سيد قطب.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل ٢٠/ ٣٧٦.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الليل، ١٥/ ٣٨٩.

(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الليل، ٩/ ١٤٩. بتصرف، وما أشار إليه الشيخ أسماء للنار وقد نظمها بعضهم في قوله:

جهنم ولظى ثم الحطيم كذا		عدا سعير وكل القول في سقر
وبعد ذاك جحيم ثم هاوية		فتلك عـدتهم في قـول مختصر

ومعلوم أن الأسماء تدل على المسمى ونعوته.

وقيل: بل هما على بابهما، وإليه ذهب الزمخشري»[١].

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قال: ﴿ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾... ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾؟ وقد علم أن كل شقي يصلاها وكل تقي يجنبها، لا يختص بالصلي أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى[٢]، فما تصنع بقوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾؟ فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة»! واعتراض آخر أنه لايبقى كبير وعد في قوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ لجواز أن يدخل غيرها[٣].

ثم قال الزمخشري: «قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى وجعل مختصاً بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له»[٤].

على أن ما اعترض عليه الزمخشري بقوله تعالى: (وسيجنبها الأتقى) قد يجاب بما قاله ابن عجيبة: «﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ وسيبعّدها[٥]، ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ المؤمن المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها، فضلاً عن دخولها. وأمّا مَن دونه ممن يتقي الكفر دون المعاصي فلا يبعد هذا البُعد، وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور، فلا يُنافي الحصر المذكور». وهذا قد يعترض عليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم:٧١] وأجيب «بأن التقي يرد، والأتقى لايشعر بورودها، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف»[٦]، ولعل أحسن

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل ٢٠/ ٣٧٦.

(٢) كأنه يعترض على تخريج الزجاج الآتي.

(٣) وهذا اعتراض أقوى من الأول، وإليه أشار شيخ الإسلام في الفتاوى ١٦/ ١٩٤.

(٤) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الليل، ٤/ ٧٥٢.

(٥) فالتجنب يدل عى عدم دخول وزيادة وهي التباعد، فإن أصل جنب في العربية يفيد البعد، كما أفاد ابن فارس [ينظر معجم مقاييس اللغة مادة جنب].

(٦) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الليل، ٩/ ١٥١.

منه أن يقال ورود جهنم لايلزم منه ورود بعض خاص وهو النار التي تلظى، وأما الاعتراض الآخر فجوابه بآية سورة مريم الآنفة فخص ناراً موصوفة بالمجانبة، ولم ينف ورود غيرها، وبهذا يصح وجه الزجاج، قال القرطبي نقلاً عنه: «هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى، ولأهل النار منازل فمنها: أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به، وقال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾فائدة، وكان: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ كلاماً لا معنى له»(١).

ووجه آخر ذكره ابن عطية فقال: «وقوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ أي ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ ﴾ صلي خلود، ومن هنا ضلت المرجئة؛ لأنها أخذت نفي الصلي مطلقاً في قليله وكثيره، و﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ هنا، الكافر بدليل قوله الذي كذب، والعرب تجعل أفعل في موضع فاعل مبالغة كما قال طرفة:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ		فَتِلْكَ سَبِيلٌ لسْتُ فيها بِأَوْحَدِ»(٢).

ولعل التعبير هنا بصيغة التفضيل فيه إشارة إلى أن أبابكر ﷺ هو أتقى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، في هذه الأمة، وبهذا شهدت السنة، وأن أمية بن خلف هو أشقى من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، والله أعلم.

قال ابن عادل: « قالت المرجئة: الآية تدل على أن الوعيد مختص بالكافر.

والجواب:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٧٩، وقد ذكر قول الزجاج هذا غير واحد منهم ابن الجوزي، في زاد المسير، تفسير سورة الليل ٩/ ١٥١ واختصره. وقد بسط شيئاً من هذا المعنى الشيخ عطية، في أضواء البيان، فيما أكمله من التفسير سورة الليل ٩/ ١٥٠.

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية، تفسير سورة الليل ٥/ ٤٩٢.

[١] المعارضة بآيات الوعيد.

[٢] وأيضاً: فهذا إغراء بالمعاصي.

[٣] وأيضاً فقوله تعالى بعده: (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى)، يدل على ترك هذه الظاهرة؛ لأن الفاسق ليس بأتقى.

[٤] فالمراد بقوله تعالى: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أنها مخصوصة من بين النيران؛ لأن النار دركات.

[٥] ولا يلزم من هذا أنَّ الفاسق لا يدخل النَّار أصلاً، والمراد لا يصلاها بعد الاستحقاق.

[٦] وأجاب الواحديُّ: بأن معنى ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ﴾: لا يلزمها، وهذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر»[1]. وقول الواحدي الأخير وقول ابن عطية متقارب فلعل ابن عطية استفاده منه. واختاره شيخ الإسلام فقال: «وتحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً، فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق، لا سيما إذا كان قد مات فيها، والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود والله أعلم»[2].

والأجوبة الثلاث الأول لاتصح تخريجاً لهذه الآية، وحاصلها إسناد الجواب الرابع فهي تدل على صحة التأويل، أو أن المراد الصلي المطلق لا مطلق الصلي، ولا تصح أجوبة مستقلة إذ لاترفع التعارض على فهم المرجئة.

كما أنه ضمن الجواب الرابع جواب الزجاج، أما الخامس فبعيد لتفسيره الأشقى بالذي كذب وتولى وهو الكافر. فحاصل كلامه الجوابين المتقدمين، وجواب الزمخشري يثلثها عند

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل، تفسير سورة الليل، ٢٠/ ٣٧٧.

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٧.

بعضهم، ولعله لايصح جواباً فإنه يفسر ذكر أفعل التفضيل، بصورة سبب النزول، ولا يحل إشكال حصر الصلي في الأشقياء وهم الكفار دون غيرهم، لأنه ليس في هذا إشكال على مذهبه[1]. ولعل الزمخشري لم يرد ما ذكره ابن المنير في تعقبه: «التخصيص هنا لفائدة أخرى غير النفي عما عدا المخصص، وتلك الفائدة المقابلة»[2]، فهذا لاينسجم مع معتقده الذي يؤول إلى تقسيم الناس إلى شقي لايسعد وسعيد لايشقى، فالحصر عنده مراد، ولكنه أراد أن يقول الأشقى بمعنى الشقي -وهو اسم جنس- والأتقى بمعنى التقي، ثم خرج التعبير بأفعل التفضيل بما ذكر. وأما تخريج ابن المنير بحمله الصلي على أنه نوع مخصوص من الإحراق فلا يسمى صلياً إلاّ إذا كان بين أطباقها، بحيث يشمله الإحراق، فهذا وجه رابع ولعله لا يسلم فإن مبناه على نفي تسمية دون ما ذكر صلياً، ولا يصح لغة ولاشرعاً، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٢٩-٣١]، فهذا توعد بالصلي والخطاب لمن لم يسلبهم اسم الإيمان. فإن أراد -وليس بظاهر كلامه- أن ذلك صلي وهذا صلي دونه جائز التحقق، فالمثبت في آية الليل الأول دون الثاني، رجع إلى قول شيخ الإسلام الماضي وهو أن المراد الصلي المطلق لامطلق الصلي، وهو شبيه بقول ابن عطية والواحدي، إلاّ أن الأخيرين يجعلان الصلي مطلقاً بالنظر إلى زمانه، وهو يجعله مطلقاً بالنظر إلى محله المَصْلِي، وعبارة شيخ الإسلام تجمع المعنيين.

ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾ «التزكي

---

(١) فالمعتزلة يقولون: إن الفساق في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، أما في الآخرة فلا إشكال عندهم في أنهم أشقياء لهم حكم الكفار من أهل النار خالدين فيها.

(٢) الكشاف، للزمخشري، ٤/ ٧٥٢.

هو التطهر والتبرك بترك السيئات، الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين؛ إزالة الشر، وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان»[1].

و«التزكي في الآية أعم من الإنفاق، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك، فأول التزكي التزكي من الشرك، كما قال: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت:٦-٧]، وقال: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران:١٦٤]. والتزكي من الكبائر الذي هو تمام التقوى. كما قال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء:٤٩]، فعلم أن التزكية هي الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكي بالطهارة وبالصدقة والإحسان، كما قال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣]»[2].

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ تأكيد فـ «المتقي المحسن، لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

ونبه بقول: ﴿ تُجْزَىٰٓ ﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزي بها، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٨.

(٢) المصدر السابق.

علياً ﷺ تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام يمكن أن تجزى»، وهذا مع قوله (الأتقى) شاهد من القرآن على بزه ﷺ في فضله الأقران.

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾، «أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات»(١).

ثم ختم -سبحانه- بقوله عن أبي بكر ﷺ ومن اتصف بتلك الصفات كذلك: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾، «جواب قسم مضمر، أي: والله لسوف نُجازيه فيرضى، وهو وعد كريم لنيل جميع ما يبتغيه على أفضل الوجوه وأكملها، إذ به يتحقق رضاه، وهو كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾»[ابن عجيبة]. وفيه إشارة إلى أن من اتصف بتلك الصفات فهو موعود بالحسنى وزيادة، فلما ابتغى بها وجه الإله الجليل، جاءه الوعد بالترضية، ومنها لذة النظر إليه جل في عليائه.

قال الرازي: «فالمعنى أنه وعد أبا بكر أن يرضيه في الآخرة... وفيه عندي وجه آخر وهو أن المراد أنه ما أنفق إلا لطلب رضوان الله، ولسوف يرضى الله عنه، وهذا عندي أعظم من الأول لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه، وبالجملة فلا بد من حصول الأمرين على ما قال: ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[الفجر: ٢٨]»[الرازي].

قال الآلوسي متعقباً: «والظاهر هو الأول، وقد قرئ ولسوف يُرضى بالبناء للمفعول من الإرضاء، وما أشار إليه في معنى راضية مرضية غير متعين»(٢).

دروس وعبر من المقطع الثالث: إنذار وتحذير:

* أجمع أهل السنة على إثبات الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين، ويخرج من النار بشفاعة رسول الله ﷺ قوم من أمته بعد أن صاروا فيها حمماً يطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، سورة الليل، ٤/ ٦٧٢.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الليل، ٣٠/ ١٥٣.

الحبة في حميل السيل[1]، وفي هذا رد على المرجئة، ورد على الخوارج والمعتزلة، وأما احتجاج بعضهم بالآية: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ فباطل وليس في الآية حجة لهم كما سبق، قال شيخ الإسلام: «هذا الصلي قد فسره النبي، ﷺ، في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية!

و في رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال:... عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤] فقال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم، فيُشَفَّعون، فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أوالحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل».

فقد بين النبي ﷺ أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم، وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحما ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

وهذا المعني مستفيض عن النبي ﷺ، بل متواتر في أحاديث كثيرة، في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما، وفيها الرد على طائفتين على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها وهذه الآية حجة عليهم وعلى من حكي عنه من غلاة المرجئة أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، فإن إخباره بأن أهل التوحيد

---

(١) وهذا الإجماع منقول في كتب السنة من نحو أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ينظر ١/ ١٧٧ والتي تليها.

يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك، وفيه رد على من يقول يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة... »[١].

* في الآيات إثبات الوجه له تعالى وفيه آيات وأحاديث كثيرة، فمن قال المراد بـ(وجه ربه) في هذه الآية ونحوها مرضاته، فإما أن يعني به كناية عن مرضاته، وإما أن يريد به نفي الصفة، فمن عن به الكناية فحاصل قوله أن الطمع في رؤيته في الآخرة كناية عن حصول أعلى الرضوان، وقد علم أن الكناية في لغة العرب لا تقتضي نفي الحقيقة، ولاتستلزم نفي شاهدها، بل لا تكون إلاّ بإثبات شاهدها، فإذا قالوا «كثير رماد الدار» كناية عند العرب على الكرم، وهذه الكناية لا تنافي كون رماده كثير حقيقة بل تجتمع معها، ولو لم يكن رماده كثير حقيقة ما كنوا به عن الكرم. وإذا تبين ذلك فإن من قال من المفسرين بأن (ابتغاء وجه ربه) كناية عن طلب مرضاته، فلا يلزم منه تأويلاً للصفة، وهذا المعنى ينبغي أن يراعى في هذه الآيات وفي غيرها من آيات الصفات.

* في الآيات إثبات علو الله على خلقه، قال تعالى: (ربه الأعلى) فوصف الرب بأنه أعلى والرب علم على الذات واجبة الوجود، فشمل ذلك من حيث الأصل علو ذاته وعلو شأنه، وعلو قهره.

* وفيها إثبات خيرية أبي بكر ﷺ وإشارة إلى أنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ وعليه إجماع أهل السنة[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١٦/ ١٩٤-١٩٦.

(٢) ينظر الإقناع في مسائل الإجماع، لأبي الحسن بن القطان، ص٥٩، والاستذكار ١٤/ ٢٤٤، وكذلك ما قرره ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة، ١/ ١٧٨ وما بعدها.

سورة الضحى

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

قال ابن عاشور: «سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي (سورة الضحى) بدون الواو، وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري (سورة والضحى) بإثبات الواو، ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها»[1]. وقد جاء في مطبوع جامع الترمذي والتحفة: سورة والضحى، بالواو، وفي مخطوط الكروخي وكذا السلطانية من جامع الترمذي التسمية كما ذكر الشيخ بغير واو، وقد وقعت بالواو أيضاً عند الحاكم في المستدرك المطبوع[2].

فالظاهر أنه لم يؤثر لهذه السورة غير اسم واحد، وأما البقية فتعريف لها بما استهلت به.

(ب) فضائلها:

وقع في رواية مسلم لحديث صلاة معاذ ﷺ العشاء وتطويله بالناس، والذي مضى ذكره عند تفسير السورتين قبلها، أنه ﷺ قال: اقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾،﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾»[3]. فخصها ﷺ بالذكر معهما.

وقد كانت هذه السورة بشارة له ﷺ، وللمؤمنين، بعد مدة الوحي، فقد كانت رداً على من قال له ﷺ: «إن ربك قد قلاك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾.

وبهذا علل بعض أهل العلم ما يروى في بدء التكبير عندها[4].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ٢/ ٥٧٣ الباب ٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٣٣٩ (٤٦٥).

(٤) ينظر كلام: ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم، سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤.

وقد روى البخاري في صحيحه عن جندب بن عبدالله ﷺ أنه قال: احتبس جبريل ﷺ على النبي ﷺ فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه. فنزلت: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾[1].

وقد اختلف في هذه المرأة، فقال الحافظ ابن كثير: «قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب...

فأما ما رواه ابن جرير... أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك. فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾... وقال أيضاً... أبطأ جبريل على النبي ﷺ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك. قال فنزلت: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ إلى آخرها، فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين، ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً أو قالته على وجه التأسف والحزن، والله أعلم.

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق: أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح»[2].

ولعل الأمر كما قال الحافظ ابن كثير يرحمه الله فإن نسبة هذا إلى خديجة لم يثبت بسند صحيح، وقد جاء بإسناد رجاله ثقات أن القائلة هي أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية بن عبد شمس، حمالة الحطب امرأة أبي لهب[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٣٧٨ (١٠٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤، باختصار.

(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ٢/ ٥٧٣ (٣٩٤٥) وقال بعده: «هذا حديث صحيح كما حدثناه هذا الشيخ إلا أني وجدت له علة»، قال ابن حجر: «رجاله ثقات» [ينظر الفتح: ٣/ ٩]، ويشهد لقربه ما ثبت في بعض الطرق من أن من قال له ذلك بعض المشركين، كما في أثر جندب البجلي ﷺ عند الطبري [التفسير ١٢/ ٦٢٢]، قال الترمذي في جامعه بعد أن رواه: «حسن صحيح» [جامع الترمذي=

وذهب ابن حجر إلى إثبات صحة ما يروى من قول خديجة: «ربك قد قلاك»، على سبيل التأسف والتوجع، بينما قالت أم جميل: «شيطانك»(١). وقال: «فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل عبرت لكونها كافرة بلفظ شيطانك، وخديجة عبرت لكونها مؤمنة بلفظ ربك أو صاحبك، وقالت أم جميل شماتة، وخديجة توجعاً»(٢). وذكر سبباً آخراً للنزول، قال ابن العربي: «وهذا أصح»(٣).

ولعل الصواب ما رجحه الحافظ ابن كثير، فإن الأثر في النسبة إلى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مرسل، وذاك مسند صحيح. على أن ما ذكره الحافظ ابن حجر طريق للجمع عند من صحح النسبة إلى أم المؤمنين رضي الله عنها. وفي قائل ذلك القول أقوالاً أخرى وأصحها ما أشير إليه.

(ج) وقتها:

قال ابن الجوزي: «وهي مكية كلها بإجماعهم»(٤)، قال القرطبي: «مكية باتفاق»(٥)، وقال

= ٥/ ٤٤٢ (٣٣٤٥)]، ورواه غيرهما، وسنده صحيح ومرسل جندب -وهو من صغار الصحابة- مرسل صحابي يقبل، ونحوه روي عن غير جندب ﷺ من الصحابة.

(١) ينظر: فتح الباري، لابن حجر ٣/ ٩.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٨/ ٧١١. وقد تنبه رحمه الله هنا إلى إرساله من قبل عبدالله بن شداد، وكان قد قال في الموضع الأول [الفتح: ٣/ ٩] حاكياً إنكار ابن المنير على من نسب القول إلى خديجة ﷺ: «وقد تعقبه بن المنير ومن تبعه بالإنكار، لأن خديجة قوية الإيمان، لا يليق نسبة هذا القول إليها، لكن إسناد ذلك قوي، أخرجه إسماعيل القاضي في أحكامه، والطبري في تفسيره، وأبو داود في أعلام النبوة له، كلهم من طريق عبد الله بن شداد بن الهاد وهو من صغار الصحابة والإسناد إليه صحيح». فعده من صغار الصحابة والصحيح أنه من كبار التابعين، أرسله. فتنبه إلى إرساله هنا، والله أعلم، والأثر أيضاً جاء عن عروة ابن الزبير مرسلاً.

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي، ٤/ ٣٥٥.

(٤) زاد المسير في التفسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الضحى، ٩/ ١٥٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الضحى، ٢٠/ ٨٢.

ابن عبدالكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[1]، ونحوهما قال ابن عاشور، وقال: «وعدت هذه السورة حادية عشرة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الفجر، وقبل سورة الانشراح»[2]، ونحو ما ذكر هؤلاء أشار إليه أبو الحسين بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ)[3].

(د) عدد آيها:

قال أبو عمرو الداني: «وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[4]، ونحوه قال ابن عبدالكافي، وكذا قال الآلوسي، وغيرهما[5].

(هـ) محاورها:

لعل الذي يظهر للمتأمل أن محور السورة وموضوعها يدور على إثبات أن مدة الوحي ليست دليلاً على القلى، مع تعداد أنعم تدل على الرعاية، بالإضافة إلى توجيه للتعامل مع من حرمها.

وقد سلكت لذلك أغراضاً، فأبطلت قول «المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه.

وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته، في صباه، وفي فتوته، وفي وقت اكتهاله، وأمره

---

(١) كتاب في عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد بن عبدالكافي (ق ١٠٧/ أ)، موقع مخطوطات الأزهر ورقمها (٣٠٩٤٨٣).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠. وقد مضى تعليق كلامه عند تفسير سورة الشمس.

(٤) البيان في عدد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة والضحى، ص٢٧٧.

(٥) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الضحى، ٣٠/ ١٥٣، وكذا قال المخللاتي في شرح منظومة العد.

بالشكر على تلك النعم بما يناسبها، مع نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله»[1].

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من مقصود السورة بيان أن «أتقى الأتقياء -الذي هو الأتقى على الإطلاق- في عين الرضا دائماً، لاينفك عنه في الدنيا والآخرة، لما تحلى به من صفات الكمال، التي هي [سبيل] الإيصال للمقصود بها لها من نور معنوي كالضحى بما له من النور الحسي، الذي هو أشرف ما في النهار. وقد علم بهذا أن اسمها أدل ما فيها على مقصودها»[2].

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

«لما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي ﷺ أتقى الخلق مطلقاً، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً، ابتلاءً لمن شاء من عباده، وكان به ﷺ، صلاح الدين والدنيا والآخرة، وكان الملوان[3] سبب صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم، أقسم الله سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق في دنيا وأخرى»[4].

(٣) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي عن سورة الشمس والليل والضحى: «هذه الثلاثة حسنة التناسق جداً، لما في مطالعها من المناسبة، لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة...

ونزيد في سورة الضحى أنها متصلة بسورة الليل من وجهين؛ فإن فيها: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤.

(٢) نظم الدرر، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٢. وما بين المعقوفين مقحم للتوضيح ولعله سقط.

(٣) الملوان: الليل والنهار [ينظر مختار الصحاح ١/ ٢٦٤ - الغريب لابن قتيبة ٢/ ٣١٠ - وللخطابي ١/ ٣٠٧].

(٤) نظم الدرر، للبقاعي، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٢.

﴿وَٱلْأُولَىٰ ١٣﴾، وفي الضحى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ٤﴾، وفي الليل: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ٢١﴾، وفي الضحى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾.

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر -يعني ما عدا قصة البخيل- وكانت سورة الضحى سورة محمد عقب بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبي بكر»(١).

«وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨﴾ [الشمس: ٨]، ثم أتبعه بقوله في الليل: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ [الليل: ٧ و ١٠] فلزم الخوف واشتداد الفزع، وتعين على الموحد الإذعان والتسليم، والتضرع في التخلص، والتجاؤه إلى السميع العليم، أنس تعالى أحب عباده إليه، وأعظمهم منزلة لديه، وذكر لهم ما منحه من تقريبه واجتبائه، وجمع خير الدارين»(٢).

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسيين:

المقطع الأول: بيان لبعض حال محمد ﷺ ومكانه.

والمقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٢ باختصار.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، تفسير سورة الضحى، ٨/ ٤٥٤.

المقطع الأول: بيان لبعض حال محمد ﷺ ومكانه

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾.

فأقسم سبحانه بالضحى، وبالليل إذا سجى، أما الضحى فقد مضت الإشارة إلى معناه في تفسير سورة الشمس، وقوله﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ «يقال: سجا الليل سَجْواً بفتح وسكون، وسُجُوّاً بضمتين وتشديد الواو»[(١)]، وقيل في معنى سجى: أقبل، وذهب، واستوى وقيل: سكن، وأظلم، وغطى، أما الثلاثة الأولى فأقرب منها الثلاثة بعدها، وأصل السجو في اللغة يدل على سكون وإطباق[(٢)]، وذلك لازم التغطية، وليست التغطية هي التسجية ولهذا يقال عين ساجية وهي غير مغطاة، ولما كانت التغطية أو السكون وإطباق الليل يكون بإظلامه قال بعضهم سجى أظلم، وهو أيضاً من قبيل التفسير باللازم، وليست التسجية هي الإظلام ولهذا يقال تسجى الرجل بالثوب، ولا يلزم من ذلك إظلام، ولكن تلك عوارض تعتري الليل إذا أطبق وسكن خاصة ومن هنا تنوع تعبيرهم، وعلى الأصل اللغوي جل المفسرين[(٣)]، «ومناسبة القسم بـ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ ﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس، فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام، ولذلك قيد (الليل) بظرف ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾. فلعل ذلك وقت قيام النبي ﷺ»[(٤)].

وهذا القسم « بـ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٥.

(٢) أفاده ابن فارس في مادة سجو من معجم مقاييس اللغة له.

(٣) أفاده الشوكاني، في فتح القدير له، تفسير سورة الضحى، ٥/ ٦٤٦، إلاّ أنه ذهب مذهب الترجيح بين أقوال المفسرين واختار أنه بمعنى سكن، وهو اختيار ابن جرير من المتقدمين والشنقيطي من المتأخرين.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٤-٣٩٥.

له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى، الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمداً رَبُّه.

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل[1] على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل! وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها»[2]. وقال الشيخ عطية: « أقسم -تعالى- بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه؛ لأنهما طرفا الزمن، وظرف الحركة والسكون، فإنه يقول له مؤانساً: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾، لا في ليل ولا في نهار»[3].

ثم قال -تعالى-: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾، وهذا جواب القسم، «وجواب القسم إذا كان جملة منفية لم تقترن باللام»[4]، فـ«نفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع

(١) يعني فترة الوحي، وما تبعها من كلام المشركين.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي، تكملة الشيخ عطية، تفسير سورة الضحى ٩/ ١٥٤.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٥.

الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه»[1]. وفي تقديم ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ على ﴿ قَلَىٰ ﴾ فائدة مراعاة الفواصل، ثم كأنه يقول: لم أدعك مجرداً فضلاً عن أن يصحب ذلك بغض، ولكنه أكد بذكر القلى حتى لا يكون سبيل لمتعنت فيقول: ما تركه ولكنه لا يحبه، فكم من مُواصل وليس بواصل، كما أن في قوله: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ جواب لمن قال من المشركين: قد قلاه.

وقد أشار إلى معنى الرعاية والعناية في ذلك بذكر الربوبية فقال: ﴿ رَبُّكَ ﴾، يشير إلى ملكه وخلقه ورزقه وتدبير شأنه ﷺ.

«وحذف مفعول ﴿ قَلَىٰ ﴾ لدلالة ﴿ وَدَّعَكَ ﴾ عليه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾، وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف، ومثله قوله: ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ ﴿ فَهَدَىٰ ﴾، ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾»[2].

وفي هذا «اكتفاء بالكاف الأولى في ﴿ وَدَّعَكَ ﴾.

ولأن رؤوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف.

[وفيه أيضاً]: فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا ﴿ قَلَىٰ ﴾ أحداً من أصحابك، ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة، تقريراً لقوله: (المرء مع من أحب)».

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾.

«فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ بما قبله؟ قلت: لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين إعلاء

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الضحى، ١٥/ ٣٩٦-٣٩٧.

مراتبها بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية»(١).

«وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها، فهي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها.

ثم وعده بما تقر به عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى»(٢).

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾، صح «عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسر بذلك، فأنزل الله: (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فأعطاه في الجنة ألف ألف قصرٍ، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج»(٣).

على أن الخير الموعود به أعظم فالإعطاء والإرضاء هنا «يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع ورفع ذكراه وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامة عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حداً يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار، على أن يدعه فيها. بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه»(٤).

---

(١) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٧٥٥.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص٤٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤، وقال بعده: «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف».

(٤) التبيان في أقسام القرآن، ص٤٧.

المقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾.

قال الرازي: «اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول: ألم يجدك يتيماً، فقال الرسول: بلى يا رب. فيقول: انظر أكانت طاعاتك في ذلك الوقت أكرم أم الساعة؟ فلا بد من أن يقال: بل الساعة، فيقول الله: حين كنت صبياً ضعيفاً ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفاً على شرفات العرش... أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك»[١]. فـ «عدد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيه، وابتداء نشئه، ترشيحاً لما أراد به؛ ليقيس المترقب من فضل الله، على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره»[٢].

«ويمضي سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي. وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾.. انظر في واقع حالك، وماضي حياتك.. هل ودعك ربك وهل قلاك، حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر؟ ألم تحط يتمك رعايته؟ ألم تدرك حيرتك هدايته؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه؟

لقد ولدت يتيماً فآواك إليه، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك!

---

(١) التفسير الكبير، للرازي، تفسير سورة الضحى، ١٦/ ٣١-٣٢. وفيه اختصار واقتصار على ما يوافق الدليل.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٧٥٦.

ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجة رضي الله عنها عن أن تحس الفقر، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء!

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها. ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً. لا فيما عند الجاهلية، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا.. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحي به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه المدة، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب. فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه!»[(١)].

إنها جملة أنعم تدل على عظيم رعاية، فما مات أبوه حتى وضعه في قرار مكين، فخرج إلى الدنيا يتيماً، غير أن عين الرعاية كلأته، فسخر الله له أماً تقوم على شؤونه التي يحتاجها كل وليد، ثم ما ماتت أمه حتى استقل بشأنه، بل وزيادة، بعد أن قام بما قام به رسل الله قبله فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، ثم كفله جده وهو ابن سبع أو ثمان سنين ثم عمه بعدها -ولم يكن عليهما عالة- فبعد الرعي وما أن شب حتى حرص عليه عقلاء تجار مكة لما حباه الله من صدق وقوة وأمانة، وأي تاجر يرجو من عامله فوق هذا! ولما كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من أرجح أثرياء مكة -رجالهم ونسائهم- عقلاً، كان لها السبق في الاتجار معه ﷺ فلما رأت صدق ما قيل بل فوق ما قيل من صدقه وقوته وأمانته أدركت ما يرتقبه من مستقبل فحرصت عليه، وكان زواجه منها. فأغناه الله بها.

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الضحى، ٦/ ٣٩٢٧.

وقد جاءت النعم المذكورة مرتبة في الآيات على أحسن ما يكون، فقد كان يتمه أولاً يوم خرج من بطن أمه، وكان على الفطرة، بهداية الله له، فلما نشأ ورأى ما عليه القوم، هداه الله إلى الحنيفية فلم يقارف ما كان عليه أهل الشرك من منكرات الاعتقادات والأعمال والأقوال، ثم كان شيء من غناه، ثم كمل له الهداية بأن أرشده بالوحي إلى الشرائع التي كان لايعلمها، وتبع ذلك أن أغناه الله -أي كفاه- بكل ما تحصل به الكفاية في أموره جميعاً، فناسب أن يختم بتقرير نعمة الإغناء هنا.

وبعد أن عدد المنعم المتفضل سبحانه بعض آلائه «من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر... أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة بل يحدث بها.

فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين، قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما. وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه، وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره وهو نهي لجميع المكلفين.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة، لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه، وإما أن ترده رداً ليناً، وقال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك! ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين»[(١)].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

«في هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص٤٧. باختصار يسير.

اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله. شكرٌ كما في حديث جابر مرفوعاً: من صنع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور.

فذكر أقسام الخلق الثلاثة:

[١] شاكر النعمة المثني بها.

[٢] والجاحد لها والكاتم لها.

[٣] والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحل بما لم يُعطَه.

وفي أثر آخر مرفوع: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب).

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة، قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها»[١].

«... قال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعدي: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال:

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٢٤٨.

الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله. فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة!

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[1]، وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا، واشربوا، وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2].

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله وأنا قشف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟»، قال: قلت نعم. قال: «من أي المال؟»، قلت: من كل المال قد آتاني الله؛ من الإبل، والخيل، والرقيق، والغنم، قال: «فإذا آتاك الله مالاً فليُرى عليك»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٤٣٨، وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد ٥/ ١٣٢]، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، ٣/ ٢٧١ (٥٨٨٨)، والطحاوي في مشكل الآثار ٤/٣٨، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٣٥ (٢٨١)، وابن أبي الدنيا في كتاب العيال ٢/ ٥٥٠ (٣٦٩)، وقال حديث صحيح.

(٢) رواه الترمذي في جامعه، ٥/ ١٢٣ (٢٨١٩)، مختصراً وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٥٠ (٧١٨٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ورواه أيضاً الطيالسي في مسنده ١/ ٢٩٩ (٢٢٦١)، ورواه غيرهم، والخلاف في الحكم على سلسلة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مشهور. قال ابن حجر: «وله شاهد عند أبي يعلى عن أبي سعيد» [الفتح ١٠/ ٢٦٠]، وقد علقه البخاري في الصحيح، ولينظر تغليق التعليق لابن حجر ٥/ ٥٢. والأمالي المطلقة ١/ ٣٢، وقد حسنه ابن أبي الدنيا في العيال.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ١٢/ ٢٣٤ (٥٤١٦)، ووقع في مسند الحارث نحوه ٢/ ٦٠٦ (٥٧٠)، بزيادة: «ويكره البؤس.. »، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد، ورواه أيضاً الطبراني في الكبير ١٩/ ٢٧٨ (٦١٠)، وكذلك هو في الآحاد والمثاني ٢/ ٤٦٢ (١٢٦٣)، وصحح إسناده الحاكم في المستدرك ١/ ٧٦ (٦٥)، وكذلك ٤/ ٢٠١ (٧٣٦٤).

وفي بعض المراسيل: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، في مأكله ومشربه[1]. وروى عبد الله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أُعطي خيراً فرؤي عليه سمي حبيب الله، محدِثاً بنعمة الله، ومن أعطي خيراً ولم ير عليه، سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله»[2]. وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه، لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها. وقد قال تعالى: «يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي، وأنت تتقلب في معصيتي، فاحذرني لا أصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت».

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها. وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً.

وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه، قال الحسن: إن الإنسان لربه لكنود؛ يعد المصائب، وينسى النعم.

وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»، فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله!

يـــا أيها الـظالم فـي فعلـــــــــه والـظلـم مـــردود على من ظلم

---

(١) هو أثر علي بن زيد بن جدعان، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر ١/ ٢٣ (٥٣)، وكذا في العيال ٢/ ٥٤٩ (٣٦٨)، ونحوه أحاديث مرفوعة بغير الزيادة في مأكله..، وهذا المعنى ثابت [ينظر الاستذكار لابن عبدالبر ٤/ ١٤٠].

(٢) حديث ضعيف، رواه ابن أبي الدنيا في العيال ٢/ ٥٤٥ (٣٦٤)، وهو في الشكر ١/ ٢٣ (٥٤)، من طريق سويد بن سعيد، وفيه أبو معمر عبدالصمد، قال أبوحاتم: منكر الحديث، ثم هو مرسل من بكير بن عبدالله رحمه الله.

إلى متـــى أنـــت وحتى متـــــى تشكو المصيبات وتنسى النعم»[(١)]

دروس وعبر من المقطع الثاني: من دلائل الرعاية وحقها:

* عمد كثير من المفسرين إلى تأويل قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ بلازمه، فقالوا: الوجود بمعنى العلم[(٢)]، وليس له داع ولاسيما أن الاستفهام المنفي يفيد التقرير، فالمعنى قد وجدك ولا محذور في ظاهر التعبير الرباني، فوجد يدل على أصل واحد، وهو الشيء يلفيه، وليس من لازم الوضع اللغوي الجهل بالملفي، ومحل اللبس الداعي إلى التأويل عندهم ما صاحب الأصل من الإطلاقات اللغوية للفظ مقترناً بلازم الإضافة والنسبة إلى المضاف إليه، فقد يكون من لازم ذلك في بعض النسب إلى الخلق معرفة بعد جهل، وهذا معنى باطل في حق الحق سبحانه، إلاّ أن أصل الوضع لا يقتضيه، ولهذا يقال: لفأت الريح السحاب عن وجه السماء، ولفأتُ اللحم عن العظم، وفي المادة الأولى (وجد) يقال: وجدت الغضب وجداناً. ولا يقتضي كل ذلك جهل مسبق.

* «إن عقل رسول الله أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق،... وقد أخبر سبحانه أنه قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر الشورى. فإذا كان أعقل خلق الله على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ ﴾ [سبأ:٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول، وأخفاء الأحلام، وفراش الألباب، الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم، دون نصوص الأنبياء! ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ

---

(١) عدة الصابرين، لابن القيم، ص٩٨-٩٩ بتصرف يسير.

(٢) ذكره الزمخشري، والرازي، والنسفي، والآلوسي، وغيرهم.

مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾[مريم:٨٩-٩٠]»[١].

* ذكر بعضهم في قوله -تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أي وجدك «فقيراً ذا عيال»[٢] وليس بجيد، فإنه ﷺ لما تزوج خديجة -وكان أول ولده القاسم عليه السلام منها- كان قد حصل له شيء من الغنى، قال الآلوسي: «ورجح الأول في الآية بقراءة ابن مسعود عديماً وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال في أول أمره صلى الله تعالى عليه وسلم»[٣]، وفي الآية دليل على أن الفقر بلاء يُسأل الله رفعه، قال ابن قتيبة: «العائل الفقير كان له عيال أو لم يكن، والمعيل ذو العيال كان له مال أو لم يكن. فحال النبي ﷺ عند مبعثه وحاله عند مماته، يدلان على ما قال الله عز وجل لأنه بعث فقيراً وقبض غنياً، ويدل على أن المسكنة التي كان يسألها ربه عز وجل ليست بالفقر، وأما قوله: إن الفقر بالمؤمن أحسن من العذار الحسن على خد الفرس، فإن الفقر مصيبة من مصائب الدنيا عظيمة وآفة من آفاتها أليمة، فمن صبر على المصيبة لله تعالى، ورضي بقسمه، زانه الله تعالى بذلك في الدنيا، وأعظم له الثواب في الآخرة، وإنما مثل الفقر والغنى مثل السقم والعافية، فمن ابتلاه الله تعالى بالسقم فصبر كان كمن ابتلي بالفقر فصبر، وليس ما جعل الله تعالى في ذلك من الثواب بمانعنا من أن نسأل الله العافية ونرغب إليه في السلامة. وقد ذهب قوم يفضلون الفقر على الغنى، إلى أنه كان يتعوذ بالله تعالى من فقر النفس واحتجوا بقول الناس: فلان فقير النفس وإن كان حسن الحال، وغني النفس وإن كان سيء الحال. وهذا غلط ولا نعلم أن أحداً من الأنبياء، ولا من صحابتهم، ولا العباد، ولا المجتهدين، كان يقول اللهم أفقرني، ولا أزمني! ولا بذلك استعبدهم الله عز وجل بل استعبدهم بأن يقولوا: اللهم ارزقني، اللهم عافني، وكانوا يقولون: اللهم لا تبلنا

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ٢/ ٧٣٥، باختصار يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الضحى، ٤/ ٦٧٤. وقد ذكره الأخفش كذلك.

(٣) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الضحى، ٣٠/ ١٦٣.

إلا بالتي هي أحسن، يريدون لا تختبرنا إلا بالخير، ولا تختبرنا بالشر. لأن الله تعالى يختبر عباده بهما ليعلم كيف شكرهم وصبرهم»[(١)].

* في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ ﴾: تحريم الإغلاظ بالقول للسؤّال ابتداءً، فإن نهرهم من أذاهم، وأذى المسلم لا يجوز بغير حق، وقد أخبر الرؤوف الرحيم بأن الأذى يبطل الصدقة، قال الله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقد جعل على هذه الآية ابن حزم في المحلى مسألة قال: لا يجوز لأحد أن يمن بما فعل من خير[(٢)]، قال النووي: ويحرم المنّ بها، فإن مَنّ بطل ثوابه[(٣)]. وعده الهيتمي في الزواجر من الكبائر[(٤)]. ولا خلاف بين الفقهاء في أن المن والأذى في الصدقة حرام يبطل الثواب[(٥)]. فإذا كان الأمر كذلك في الصدقة التي يتبعها أذى فكيف يقال في أذى السائل بالنهر دون صدقة! وكما نهى الله تعالى عن نهر السائل فقد أمر بأن يبذل له القول الميسور، ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلًا مَّيۡسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٨].

«أما لو رده بلين فلم يقبل وألح كفعل بعض السؤّال، سقط احترامه ويؤدب بلطف بحسب ما يقتضيه الحال والمصلحة، ثم قد يقال: هو أولى من تركه والصبر عليه، لاسيما إن قال أو فعل ما لا ينبغي لما فيه من زجره وتهذيبه وتقويمه، فهو إحسان إليه مع إقامة الشرع في عقوبة المعتدي. وقد يقال الصبر عليه أولى، والله أعلم»[(٦)]. ولعل الأوجه توجيهه برفق

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص١٦٨.
(٢) المحلى، لابن حزم، ٨/ ١٢٤.
(٣) المجموع شرح المهذب، للنووي، ٦/ ٢٤١.
(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، ١/ ٣١٢.
(٥) الموسوعة الفقهية، لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ٢٠/ ٣٤١.
(٦) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ١/ ٤٢٠-٤٢١.

والإنكار عليه بلطف، فإن ألحف فإن الإغلاظ عليه والإنكار هو المتجه، شريطة أن يراعي المنكر جهة مخالفة الملحف للشرع لا الانتصار للنفس. ثم نقل ابن مفلح ما ذكر القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾. «إن ابن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة لم يقضها، فظهر منه ضجر فأنشده:

لا تَدْخُلَنَّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ　　فَلِخَير دهرِكَ أن تُرَى مَسئولا

لا تَجْبَهنْ بالرَّدِ وَجْهَ مُؤَمِّلٍ　　فبقاءُ عِزِّكَ أنْ تُرى مَأمُولا

تلقى الكريمَ فيسْبِقَنَّكَ بِشْرُه　　وتَرَى العُبُوسَ على اللئيم دَليلا

واعلم بأنَّك عن قليلٍ صائرٌ　　خبراً فكنْ خَبراً يَرُوق جَميلا»[(١)]

(١) المصدر السابق، والأصل عند القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٩.

سورة الشرح

أولاً: بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

قال ابن عاشور: «سميت في معظم التفاسير، وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي (سورة ألم نشرح)، وسميت في بعض التفاسير (سورة الشرح)، ومثله في بعض المصاحف المشرقية، تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ وفي بعض التفاسير تسميتها (سورة الانشراح)»[1]. ولم يذكرها السيوطي في الإتقان ضمن السور التي لها أكثر من اسم.

(ب) فضائلها:

جاءت في فضلها عدة آثار كلها لا تثبت ولا يجوز الاحتجاج بها، كقولهم من قرأ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني[2]. ومن قرأ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾شرح الله صدره للإسلام[3]. ومن قرأ في الفجر بـ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ لم يرمد[4]. فكل هذا لا يثبت.

وقد جاءت الإشارة للسورة في آثار أخرى ثابتة غير أن عد ذلك من فضائلها تكلف.

(ج) وقتها:

قال ابن عاشور: « وهي مكية بالاتفاق، وقد عدت الثانية عشرة في عداد نزول السور

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧.

(٢) ذكر الزيلعي في تخريج الكشاف أنه مرسل ٤/ ٢٣٧.

(٣) قال ابن حجر في الفتح: «في إسناده راو ضعيف»، ٨/ ٧١٢.

(٤) قال الهكاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، نقل عن السخاوي أنه لا أصل له ١/ ١٩٠، وكلام السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٦٦٤ (١١٦٢).

نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر»[1]، ونحوه المخللاتي في (شرح ناظمة الزهر)، وقال ابن عبد الكافي: «مكية في قولهم جميعاً»[2]. وإلى نحو ما ذكروا أشار أبو الحسين بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ)[3].

(د) عدد آيها:

قال أبو عمرو الداني: «وهي ثماني آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف»[4]، وقال ابن عبدالكافي: «هي ثمان آيات من غير خلاف»[5]. قال المخللاتي في (شرح منظومة الشاطبي) في العدد: «آياتها ثمان اتفاقاً».

(هـ) محاورها:

قال ابن عاشور: « مضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة، ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته، ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ.

واتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسراً، كدأب الله تعالى في معاملته، فليتحمل متاعب الرسالة، ويرغب إلى الله عونه»[6].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧.

(٢) كتاب عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد بن عبدالكافي، (ق ١٠٧/ ب) عن موقع مخطوطات الأزهر (٣٠٩٤٨٣).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١/ ٤٠. وقد مضى تعليقه عند تفسير سورة الشمس.

(٤) البيان في عدد آي القرآن، لأبي عمرو الداني، سورة ألم نشرح، ص٢٧٨.

(٥) عدد سور وآي القرآن، لعمر بن محمد، (ق ١٠٧/ ب) عن موقع مخطوطات الأزهر (٣٠٩٤٨٣).

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الشرح، ١٥/ ٤٠٧-٤٠٨.

(و) مناسباتها:

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

من «مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة، وبيان أن المراد بالتحديث بها هو شكرها بالنصب في العبادة، والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته بوصف الربوبية وامتنانه، وعلى ذلك دل اسمها الشرح»[1]، وكذلك فإن هذه السورة تشرح صدر نبينا ﷺ للقيام بأعباء الدعوة، بما فيها من تعداد النعم المعينة على ذلك، ابتداء بالشرح الحسي وما تبعه من شرح معنوي، وما ترتب عليه من رفع الوزر، ووضع العسر، فكان الشرح هو أس موضوعها فناسب أن تسمى به.

(٢) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بذكر نعمة الله على عبده ﷺ إذ شرح صدره، ثم ختمت بتقرير أحد أعظم أسباب شرح الصدر ألا وهو التوحيد، فقوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ يفيد الحصر، فلا ترغب إلاّ لله، ولم يسم متعلق الرغبة ليشمل كل عمل، فلا ترغب بأي عمل من أعمال الجوارح والقلوب إلى غير الله، وذلك هو التوحيد، قال ابن القيم رحمه الله: «فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال -تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه»[2]، فتأمل بديع المناسبة بين الافتتاح والاختتام.

---

(١) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم، ٢/ ٢٢.

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

«لما أمره ﷺ، آخر الضحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه، فصلها في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري، مبالغة في إثباتها -عند من ينكرها- والتقرير بها، مقدماً المنة بالشرح في صورته، قبل الإعلام بالمغفرة، كما فعل ذلك في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح لتكون البشارة بالإكرام أولاً، لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشرح»[١].

(٤) المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

قال السيوطي: «هي شديدة الاتصال بسورة الضحى لتناسبهما في الجمل، ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما، قال الإمام: والذي دعاهم إلى ذلك هو أن قوله:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾، كالعطف على: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾. قلت: وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال: «يا محمد ألم أجدك يتيما فآويت؟ وضالاً فهديت؟ وعائلاً فأغنيت؟ وشرحت لك صدرك؟ وحططت عنك وزرك؟ ورفعت لك ذكرك؟ فلا أُذكر إلا ذُكرت»، الحديث أخرجه ابن أبي حاتم، وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى»[٢] ولهذا قال البقاعي: «مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة»[٣].

(ح) مقاطع السورة:

اشتملت هذه السورة على مقطعين رئيسين:

المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها.

---

(١) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ١/ ١٥٢. قال ابن عاشور: «وعن طاوس، وعمر بن عبد العزيز، أنهما كانا يقولان: ألم نشرح من سورة الضحى. وكانا يقرءانها بالركعة الواحدة، لا يفصلان بينهما، يعني في الصلاة المفروضة. وهذا شذوذ مخالف لما اتفقت عليه الأمة، من تسوير المصحف الإمام» [التحرير والتنوير ١٥/ ٤٠٧].

(٣) نظم الدرر، تفسير سورة الشرح، ٨/ ٤٦٠.

والمقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم.

المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾.

يقول صاحب الظلال:

«نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى، وكأنها تكملة لها. فيها ظل العطف الندي، وفيها روح المناجاة الحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، وفيها البشرى باليسر والفرج، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق...

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود! ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾؟.. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة؟ ونيسر لك أمرها؟ ونجعلها حبيبة لقلبك، ونشرع لك طريقها؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة! فتش في صدرك: ألا تجد فيه الرَّوْح والانشراح والإشراق والنور؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء... ألا تجد المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب، واليسر مع كل عسر والرضا مع كل حرمان؟»[(١)].

فالمعنى «أما شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[الأنعام:١٢٥]. وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق.

وقيل المراد بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء... كما رواه

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسير سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٢٩.

مالك بن صعصعة[١] ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً»[٢].

وقد ذكر الرازي مسألة: لم ذكر الصدر دون القلب؟ وأجاب عليها بما حاصله أن محل الوسوسة الصدر كما قال سبحانه ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾ [الناس:٥]. ولعل من فائدته زيادة على ما ذكر الإشارة إلى أن شرح الصدر كان أولاً شرحاً حقيقياً، وذلك لما استخرج الملك قلبه، فلما أراد أن يؤكد ذلك المعنى ذكر شرح الصدر الذي تبعه شرح القلب المذكور في الأحاديث، والله أعلم.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾.. ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله.. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان. وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب.. وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين. ألا تجد ذلك العبء الذي أنقض ظهرك؟ ألا تجد عبئك خفيفاً بعد أن شرحنا لك صدرك؟»[٣].

وقد اختلف المفسرون في الثقل أو الوقر الذي رفع على عشرة أقوال[٤]، وسبب الاختلاف

---

(١) حديث مالك بن صعصعة رواه الترمذي في جامعه ٥/ ٤٤٢ (٣٣٤٦) ونصه: «أن النبي ﷺ قال: بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد بين الثلاثة فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا، قال قتادة: قلت - يعني قلت لأنس بن مالك -: ما يعني ؟ قال: إلى أسفل بطني فاستخرج قلبي فغسل قلبي بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة» وفي الحديث قصة طويلة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تفسير سورة الانشراح، ٤/ ٦٧٧.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب، تفسيرة سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٢٩-٣٩٣٠.

(٤) ذكر الرازي في التفسير الكبير منها تسعة، وذكر الماوردي أربعة، رابعها ليس في التسعة فتحصلت عشرة أقوال.

أن الوزر في اللغة أصله الثقل في الشيء، ولم يصرح به هنا ما هو، بالإضافة إلى الاختلاف في عصمة الأنبياء من الصغائر.

ولعل الصحيح حمل الوزر هنا على أضربه التي جاءت في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقوله:﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [طه:١٠٠]، وقوله:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر:١٨]، ونحوها من الآيات التي يأتي الوزر فيها بمعنى الإثم أو الذنب ونحوه.

قال شيخ الإسلام: «وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: ((ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي))، وثبت عنه: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وعلانيته وسره، وأوله وآخره، اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلاّ أنت))، وفي الركوع والسجود كان يقول: ((سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي». يتأول القرآن. وقال له ربه: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [غافر:٥٥]، ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩]»[(١)]. ثم ذكر الرد على من زعم أن نحو هذه الآيات المراد بها ذنب أمته، وفيه رد على من حمل الآية: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ على معنى مشابه.

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، ١/ ٢٠٥.

وأما من فسر قوله سبحانه: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾ بما حاصله إخبار عن العصمة فبعيد لا يستقيم معه سياق الآيات ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾، فالتعبير بإنقاض الظهر قاض بأن الكلام في شيء غير العصمة إلاّ بتأويل متكلف.

وأما الوجه الثاني الذي يحتمله المعنى وقال به بعض أهل التفسير، هو أن الوزر هنا أثقال الدعوة وأعباء الرسالة ونحو هذا، فهذا وإن كان اللفظ والسياق هنا يحتمله إلاّ أن الذي يظهر أنه معنى غير مراد، فمشقة الدعوة وأعباؤها لم توضع عنه ﷺ، بل تحمل عليه الصلاة والسلام ما ألقي عليه من القول الثقيل، وقام به حق القيام فكان أشد الناس بلاء، وقد قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1]. ومازال عبء الدعوة يزداد على كاهله ﷺ ولاسيما بعد عام الحزن، وهو بمكة إلى أن أتم الله له الأمر فجاءها فاتحاً بعد حين.

ولهذا فلعل أقرب الأقوال وأصحها في قوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ﴾ هو قول الحسن وقتادة والضحاك وغيرهم من السلف إذ فسروا الوزر بالذنب.

وقد اعترض على هذا التأويل بما لا يصح اعتراضاً، فقيل: إن الأنبياء معصمون من الكبائر، وقوله بعدها: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ على هذا التفسير يدل على كونه عظيماً.

وليس بصحيح «فالظاهر: أنَّ كل مقام له ذنوب، ومنها رؤية التقصير في القيام بحقوق ذلك المقام، فحسنات الأبرار سيئات المقربين[2]، فكلما علا المقام طُولب صاحبه بشدة الأدب،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٧/ ١٦٠ (٢٩٠٠)، والحاكم في مستدركه ١/ ١٠٠ (١٢١)، وقد رواه غير واحد، وصححه غير إمام، قال الذهبي: على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة.

(٢) هذه عبارة مجملة والمراد بها هنا معنى صحيح، فلا تحمل على غيره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية [رسالة في التوبة ص٢٥١]: «هذا اللفظ ليس محفوظاً عمن قوله حجة، لا عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو كلام، وله معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد.

أما معناه الصحيح فوجهان:

=

فكأنه ﷺ خاف ألاّ يكون قام بحق المقام الذي أقامه الحق فيه، فاهتمّ من أجله، وجعل منه حملاً على ظهره، فأسقطه الحق تعالى عنه، وبشّره بأنه مغفور له على الإطلاق؛ ليتخلّى من ذلك الاهتمام».

«وإذا ابتلى الله بعض الأكابر بما يتوب منه فذاك لكمال النهاية لا لنقص البداية، كما قال بعضهم: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

وأيضاً فالحسنات تتنوع بحسب المقامات كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فمن فهم ما تمحوه التوبة، وما ترفع صاحبها إليه من الدرجات، وما يتفاوت الناس فيه من الحسنات والسيئات زالت عنه الشبهة في هذا الباب، وأقر الكتاب والسنة على ما فيهما من الهدى والصواب... »[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ المعنى «أثقله حتى سمع نقيضه، أي صوته، وهذا مثل أي لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض الظهر منه»[2]. وهذا مقام المشفقين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ

= أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين، فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها، وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن، والاقتصار على الحسن.

الثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه إما واجباً وإما مستحباً، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة... " فعلى مثل هذا يحمل ما ذكر هنا.

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ابن قاسم، ١/ ٢٠٨. والكلام طويل نفيس.

(٢) زاد المسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الانشراح، ٩/ ١٦٣.

خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[المؤمنون: ٥٧-٦١]. وقد علم أن هؤلاء المشفقون هم بالجملة أقل تقصيراً وتفريطاً من غيرهم، ففي قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ بيان لتعظيم النبي ﷺ ربه سبحانه بذكر عظيم إشفاقه، ولا يلزم من عظيم الإشفاق الذي يقوم بقلوب عموم الصالحين، عظم تقصير أو تفريط، فكيف بسيدهم ﷺ.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.. رفعناه في الملأ الأعلى، ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعاً.. رفعناه فجعلنا اسمك مقروناً باسم الله كلما تحركت به الشفاه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).. وليس بعد هذا رفع، وليس وراء هذا منزلة. وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين..

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ، حين قدر الله أن تمر القرون، وتكر الأجيال، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم، مع الصلاة والتسليم، والحب العميق العظيم. ورفعنا لك ذكرك. وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع. وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود.. فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء؟ ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار، ويسري عنه، ويؤنسه، ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

قال ابن عطية: «وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عسر يسرين بهذه الآية، من حيث العسر معروف للعهد، واليسر منكر. فالأول غير الثاني، وقد روي في هذا التأويل حديث عن

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسير سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٣٠.

النبي ﷺ أنه قال: (لن يغلب عسر يسرين).

وأما قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح»[١].

وبنحو المنقول قال بعض أئمة اللغة، قال الرازي: «قال الفراء والزجاج: العسر مذكور بالألف واللام، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً. وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير، فكان أحدهما غير الآخر.

وزيف الجرجاني هذا وقال: إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، لم يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية»[٢]، ولهذا قال ابن عاشور: «ومن المفسرين من جعل اليسر في الجملة الأولى يسر الدنيا، وفي الجملة الثانية يسر الآخرة، وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه؛ لأنه متمحض لكون الثانية تأكيداً»[٣].

وليس كما قالا إن كانت الجملة الثانية مستأنفة، فإن «عدت مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر، فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنما كان العسر واحداً؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو؛ لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالاً، إن مع زيد مالاً. وإما أن يكون للجنس الذي علمه لك كل أحد فهو هو أيضاً. وأما اليسر

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تفسير سورة الانشراح، ٥/ ٤٩٧. قال الحافظ ابن حجر: « قوله: ولن يغلب عسر يسرين، وروي هذا مرفوعاً موصولاً ومرسلاً وروي أيضاً موقوفاً»، فذكر الموصول من حديث جابر وحديث ابن مسعود وضعفهما، وذكر المرسل وهو عن الحسن يرفعه، وحكم بأن إسناده جيد إلى الحسن، وذكر الموقوف عن عمر وعلي ونقل تصحيح الحاكم له، وذكر أن له إسناداً جيداً إلى ابن مسعود، وضعيفاً إلى ابن عباس. [ينظر الفتح ٨/ ٧١٢].

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٧.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٥.

فمنكر متناول لبعض الجنس[١]، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال»[٢]. وكون الجملة الثانية مستأنفة هو الأصل عند إطلاق التكرار وخلو المقام عن القرائن الدالة على غيره، فإن الثاني لو كان عين الأول لم يكن في الإخبار به فائدة[٣]، وبهذا تظهر قوة الوجه المنقول عن السلف.

وفي الآية وجه ثان، هو ما أشار إليه المعترضون، فإن الآية تدل على وجود يسرين، وهذا تأكيد لارتفاع العسر، فلا إشكال في القول بالوجه الأول و«أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى، كما كرر قوله:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩] ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، كما يكرر المفرد في قولك: جاءني زيد زيد.

والمراد من اليسرين: يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢] »[٤]. ولا تعارض بين التوجهين فعليهما جميعاً يصح حمل الآية.

دروس وعبر من المقطع الأول: تعداد لبعض أنعم الله على نبيه، ﷺ، وإشارة إلى مغزاها:

* من أعظم النعم شرح الصدر لهذا الدين، ولهذا كان من دعاء الأنبياء والمرسلين: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: ٢٥]، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن

---

(١) فالنكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والإطلاق عمومه بالبدل لا بالشمول.

(٢) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة الانشراح، ٤/ ٧٦٠-٧٦١.

(٣) ينظر في هذا المعنى، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، سورة الشرح ٨/ ٤٦٥. وقد نقله عن السعد التفتازاني، وأخذه عنهما السيوطي في الإتقان.

(٤) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٧.

يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر:٢٢]، فحري بنا أن نلهج بدعاء الأنبياء والصالحين، وأن نسأل الله شرح الصدور بهذا الدين.

* إذا كانت الصغائر واللمم مما يوجب إنقاض الظهر عند المرسلين، وهذا مع عظيم عبادتهم، وتكرار توبتهم، حتى قال ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١]. فـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾؟.

* لقد رفع الله ذكر محمد ﷺ، فأنى لإنسان أن يضعه؟ إن ما يشنه الشانئون من هجوم على شخصه الكريم ﷺ، وما يزيفونه حوله في الإعلام، وما يشيعونه عنه من شبه، لن تطمس الحقيقة أبداً وقد تأذن الله برفع ذكره. والواقع يشهد بهذا فإن محمداً ﷺ لايزال دينه من أكثر الأديان تبعاً، ولايزال محبوه ومعتنقوه يزيدون يوماً بعد يوم ولاينقصون بل أثبتت التقارير الغربية أن محمداً ﷺ هو أوسع الأنبياء اتباعاً، فدينه أسرع الأديان انتشاراً، رغم كل ما يزخرف ويزعم.

* في الآيات إشارة إلى حادثة شق الصدر وهي ثابتة في الصحيحين، قال ابن حجر: « وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك، قال القرطبي في المفهم: لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء؛ لأن رواته ثقات مشاهير»[٢]، فالصحيح أن شق صدر رسول الله ﷺ كان حقيقة، « فإن قيل: لم يولد مطهر القلب من حظ الشيطان حتى شق صدره وأخرج قلبه؟ قلنا: لأن الله أخفى أدون التطهرين الذي

---

(١) رواه البخاري في الصحيح ٥/ ٢٣٢٤ (٥٩٤٨)، ورواه غيره.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٧/ ٢٠٥.

جرت العادة أن تفعله القابلة والطبيب، وأظهر أشرفها وهو القلب فأظهر أثر التجمل والعناية»[1]، وقد أنكر ذلك بعضهم قال الرازي: «واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه:

أحدها: أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته.

وثانيها: أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر.

ثالثها: أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم».

ثم أجاب على الأول بأن «تقديم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا، وذلك هو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول -عليه السلام- كثير». وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية بطلان قول من يزعم بأن من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة من أوجه عديدة في كتابه النبوات، ويكفي في رده الحمل بعيسى عليه السلام قبل مولده وتنبئته. قال الرازي: «وأما الثاني والثالث: فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي، ويحجم عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات،... وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[2]، وقد ثبت أن لبعض الأغسال أثراً في إزالة الذنوب والمعاصي، ففي صحيح مسلم باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء وفيه حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء،

---

(١) فيض القدير، للمناوي، ٦/ ١٧ نقلاً عن ابن الجوزي.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، تفسير سورة الانشراح، ٣٢/ ٤.

فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»(١). أما كيفية ذلك فمن الغيبيات التي لم يأت بها نص فلا نعلمها، إلاّ أن تأثير المحسوسات في المعنويات يجده كل إنسان فهو علم ضروري. والتعبير عن ذلك بالعلقة السوداء موافق لما دلت عليه النصوص الأخرى، فإن العلقة السوداء دم متخثر، وقد بين النبي ﷺ في الحديث الصحيح أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم(٢)، أورده البخاري في باب صفة إبليس وجنوده(٣)، و«دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة»(٤)، أما سلطانه فكما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]. فاستخراج حظه منه باستفراغ شيء من دمه جائز عقلاً إذ ليس ثم دليل عقلي يمنعه، وواقع شرعاً لمحمد ﷺ كما دلت عليه النصوص الصحيحة الصريحة.

وأما زعمه بأنه لايصح أن يملأ القلب علماً بل الله يخلق فيه العلوم، فنفي بتعليل عليل، فإن ما يخلقه الله من علم للعبد لا يخلو إما أن يملأ قلبه أو لايملأه، والمراد بملئه كماله في وعائه الذي هو القلب، والملء أصله في اللغة المساواة والكمال، ويطلق للتعبير عن المحسوسات والمعنويات، ومنه قول عنترة:

ملأت الأرض خوفاً من حسامي		فبات الناس في قيل وقال

فكون الله يخلق العلم فلا يعني ذلك أن المخلوق يملؤ القلب أو لايملؤه، فما اعترض به لاتعلق له بالمسألة أصلاً وإنما وقع الوهم في ذهن المعترض لظنه أن الملء لايكون إلاّ في المحسوسات وهو وهم فاسد. والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٢١٥ (٢٤٤).
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧١٧ (١٩٣٣)، ومسلم ٤/ ١٧١٢ (٢١٧٤).
(٣) الصحيح ٣/ ١١٩٢ الباب (١١) من كتاب بدء الخلق.
(٤) ينظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٤/ ٢٧٧.

المقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

لما عدد المنعم المتفضل سبحانه بعض الآلاء، وأشار إلى وعده بالمزيد، فرَّعَ هنا على ما سلف من التذكير باللطف والعناية والوعد، فذكر الواجب تجاه تلك النعم، والسبيل إلى حفظها بل زيادتها، فقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

«إن مع العسر يسراً.. فخذ في أسباب اليسر والتيسير، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض، ومع شواغل الحياة.. إذا فرغت من هذا كله، فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد.. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه.. ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.. إلى ربك وحده خالياً من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم.. إنه لا بد من الزاد للطريق. وهنا الزاد. ولا بد من العدة للجهاد. وهنا العدة.. وهنا ستجد يسراً مع كل عسر، وفرجاً مع كل ضيق.. هذا هو الطريق!»[(١)].

وقد ذكر المفسرون في معنى قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾ «خمسة أقوال:

أحدها: فإذا فرغت من الفرائض، فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود.

والثاني: فإذا فرغت من الصلاة، فانصب في الدعاء، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل.

والثالث: فإذا فرغت من أمر دنياك، فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد.

والرابع: فإذا فرغت من التشهد، فادع لدنياك وآخرتك، قاله الشعبي والزهري.

والخامس: إذا صح بدنك، فاجعل صحتك نصباً في العبادة، ذكره علي بن أبي طلحة»[(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد، تفسيرة سورة الانشراح، ٦/ ٣٩٣٠.

(٢) زاد المسير في التفسير، لابن الجوزي، تفسير سورة الانشراح، ٩/ ١٦٦-١٦٧.

ولعل أقوى هذه الأقوال الأول والثالث، وكلاهما مثالين مناسبين للسياق والمقام[1]، والمعنى: إذا فرغت من عبادة واجبة، فانصب في أخرى. أما القول الثاني والرابع فلا يلائمه السياق، وأما الخامس فلا يساعده وضع الفراغ.

قال ابن عاشور: «.. المقصود بالأمر هو ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾. وأما قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ ﴾ فتمهيد وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة. وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال، ومثله قول القائل: ما تأتيني من فلان صلة إلا أعقبتها أخرى.

واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة فحذف المتعلق هنا لقصد العموم، وهو عموم عرفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السياق ليشمل كل متعلق عمله مما هو مهم.. وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإمكان، كما أقر الله بأداء الصلاة مع الشغل بالجهاد بقوله: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ ﴾ إلى قوله ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٢-١٠٣].

وهذا الحكم ينسحب على كل عمل ممكن من أعماله الخاصة به مثل قيام الليل والجهاد عند تقوي المسلمين وتدبير أمور الأمة.

وتقديم﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ ﴾ على ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتتعاقب الأعمال. وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعان»[2].

وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨ ﴾: «عطف على تفريع الأمر بالشكر على النعم، أمرٌ بطلب استمرار نعم الله عليه كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في تقرير بعد هذا الوجه في الفتاوى الكبرى ٢/ ٢٠٥، وقد جعل الآلوسي في روح المعاني ٣٠/ ١٧٢ القول الثالث من أضعف الأقوال قال: «لبعده عما يقتضيه السياق وتؤذن به الفاء»، ولا يسلم.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٧.

والرغبة: طلب حصول ما هو محبوب، وأصله أن يُعدى إلى المطلوب منه بنفسه، ويُعدى إلى الشيء المطلوب بـ (في). ويقال: رغب عن كذا بمعنى صرف رغبته عنه بأن رغب في غيره... وأما تعدية فعل (فارغب) هنا بحرف (إلى) فلتضمينه معنى الإقبال والتوجه، تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾.

وتقديم (إلى ربك) على فارغب لإفادة الاختصاص، أي إليه لا إلى غيره تكون رغبتك فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق، فلا يليق بصاحبها أن يرغب غير الله تعالى.

وحذف مفعول (ارغب) ليعم كل ما يرغبه النبي ﷺ»[١].

وهكذا تختتم السورة بعد أن تَقرَّرَ في آخرها طريق الوصول إلى مقصودها، بذكر ما تستوجبه النعم التي صدرت بها، وهو كفيل بحفظها بل بزيادتها، وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين: الشعور بنسائم الود الحبيب الجليل التي تكتنف روح النبي ﷺ من ربه الودود الرحيم.

والشعور بلوازم الحنان من العطف والرعاية لشخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في تلك الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل[٢].

دروس وعبر من المقطع الثاني: ما تستوجبه تلك النعم:

* «أشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد، أن يستغرق أوقاته بالعبادة، أو بأن يفرغ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه... وذكروا أن قعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة، وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً، لا في عمل دنياه، ولا في

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، تفسير سورة الانشراح، ١٥/ ٤١٧-٤١٨.

(٢) تصرف من خاتمة تفسير السورة في الظلال.

عمل آخرته. وروي أن شريكاً مر برجلين يصطرعان، فقال: ما بهذا أمر الفارغ»[١].

* ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾: تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فالمعنى إلى ربك وحده فارغب، فاحرص بالسؤال، ولا تسأل غيره تعالى فإنه القادر على الإسعاف لا غيره عز وجل، وفي هذا تقرير للتوحيد، فالرغبة لم يسم مفعولها ليعم كل ما يرغب به إلى الله. وقد تضمنت هاتان الآيتان بتقرير التوحيد على هذا الوجه الإشارة إلى جميع أسباب شرح الصدر، فمن أعظم أسباب شرح الصدر: الإيمان، وبتحقيق التوحيد والنصب في العمل، تتوهج مشكاة الإيمان، في قلوب المتبعين، فيصل النفس من نوره ما شاء الله، وإذا انبثق نور الإيمان من سويداء القلوب فلا تسل عن انفساحها وانشراحها، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، نسأل الله من فضله، ونعوذ به من أسباب سخطه. ومن أسباب شرح الصدر، العلم بالله ومعرفة شرعه، «وليس هذا لكل عالم بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع فأهله أشرح الناس صدراً وأوسعهم قلوباً وأحسنهم أخلاقاً وأطيبهم عيشاً»[٢]، ومن مقتضى الرغبة إلى الله بكل مرغوب إليه العلم، وإلاّ فقد يكون مريد الإقبال مدبراً على غير بصيرة. وهكذا كل أسباب شرح الصدور إذا تأملتها وجدت لها متعلقاً بهاتين الآيتين الجامعتين، والله أعلم.

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، تفسير سورة الانشراح، ٣٠/ ١٧٢.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم، ٢/ ٢٢.

سورة التين

قال تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها

تسمى هذه السورة بسورة التين، وعدد آياتها ثمان آيات بالاجماع[١]، وقد سميت بالتين لأن الله أقسم في مطلعها بالتين والزيتون [٢].

ب. مكان نزولها:

سورة التين مكية على رأي جمهور العلماء، وقد روي عن قتادة وابن عباس القول: إنها مدنية [٣]، وأرجح في ذلك قول الجمهور بأنها مكية ويؤيد القول بمكيتها قوله تعالى في السورة: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) ﴾، فإن المراد به مكة عند المفسرين [٤].

---

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٨/ ٣٢).
وانظر أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، دار الكتب العلمية بيروت، (١٠/ ٣١٢).

(٢) د.وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت، (٣٠/ ٣٠١).

(٣) محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٣٠/ ١٧٣)، وانظر أبا إسحاق الزجاج إبراهيم بن السّري، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت (٣/ ٣٤٣).
وانظر أبا الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٥٢٧).

(٤) انظر أبا حيان، البحر المحيط في التفسير، (٣/ ٥٧٧).

ج- فضائل السورة

جاء في السنة المطهرة ما يدل على فضل هذه السورة حيث كان يقرأ بها ﷺ في الصلاة وفي غيرها، ومن هذه الأحاديث التي تدل على فضلها

-ما رواه عديٌّ بنُ ثابتٍ قال: سمعت البراء ﷺ يقول: إن النبي ﷺ كان في سفر، فقرأ في العشاء في إحدى الركعتين بالتين والزيتون [(١)].

هـ- **محور سورة التين،** و يعنى بالمحور: الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة في نسق واحد.

وقد أشار صاحب نظم الدرر إلى أن المحور الذي تدور حوله سورة التين إثبات القدرة الكاملة لله تعالى، وهو ما يتضح للناظر من خلال رؤية ما في التين والزيتون من الغرائب والفوائد [(٢)].

ولا شك أن السورة تتحدث عن الإنسان وحسن خلقته بما أمده به الله سبحانه وتعالى من خصائص، وقد يرقى بالتزامه وعمله بالمنهج الذي أنزله الخالق إلى المكان الرفيع والمنزلة العالية، فإذا ابتعد عن هذا المنهج انحط أسفل سافلين، وكل ذلك يدور في فلك عظيم هذه القدرة الإلهية ثوباً وعقاباً.

د. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

تسمى هذه السورة بسورة التين، وإنك وأنت تنظر إلى هذا الاسم وتنظر في مسماه سواء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب «والتين»، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل بيروت، (٢/ ٢١٢).

(٢) انظر أبا الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٤٦٨).

أريد به النبات العظيم الذي له تلك الفوائد المتعددة التي لا تخفى، والذي يتميز بقوة شجره في ضرب جذوره في الأرض، والارتفاع إلى الأعلى محاطاً بضخامة عالية، أم أريد به المكان الذي نبتت فيه هذا النباتات، فكلا الأمرين فيهما دلالة واضحة على عظيم قدرة الله تبارك وتعالى ودقة صنعه، وهو المحور الذي تدور في فلكه سورة التين.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة التين وخاتمتها:

ابتدأت السورة بالقسم ببعض النباتات ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾ وبعض الأماكن المقدسة وهو جبل الطور - ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته -على إكرام الله للإنسان بخلقه على أجمل صورة، وأنه قد يهبط بنفسه ويعرضها للهلاك بمخالفة المنهج الذي أنزله الله ليقيمه في واقع حياته وختمت السورة ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾، وفيها تقرير للجزاء وإثبات المعاد [1] فالعدل يقتضي إثابة من يلتزم بأحكام الله ويقيم نفسه على طريق الاستقامة، وعقاب من خرج عن هذا الطريق وعرّض نفسه للهلاك، فالقادرعلى خلق هذه النباتات العجيبة، وتلك الأماكن ذات المكانة، قادر على أن يعيد الإنسان للجزاء يوم القيامة.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

* لما ذكر الله في السورة التي سبقت سورة التين وهي «الانشراح» كمال خلقه ﷺ وما كمل به، وختمها بالأمر بتخصيصه سبحانه وتعالى بالرغبة إليه حيث كان صلى الله عليه ويسلم يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ذكر هنا في سورة التين أنه جعل النوع الذي خلق منه ﷺ وهو النوع الإنساني أكمل الأنواع، وأصله أعظم الأصول، وبلده أفضل البلدان وهي مكة [2].

---

(١) انظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت، (٣/ ٥٧٧).

(٢) انظر البقاعي نظم الدرر، (٨/ ٤٦٨).

* ويمكن القول أيضاً: ختمت سورة الانشراح بالدعوة إلى الكد والنصب في الحياة ليبني الإنسان بذلك دار مقامه في الآخرة ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم ورضوان، وافتتحت سورة التين بهذه الأقسام من الله سبحانه لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده وأن الله سبحانه خلقه في أحسن تقويم وأودع فيه القوى التي تمكنه من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة، ولكن ميل الإنسان إلى حب العاجلة قد أشغله عن الالتفات للدار الآخرة فرده إلى أسفل سافلين[1].

* ويمكن القول أيضاً أنه أمر سبحانه في خاتمة سورة الانشراح بالسجود له والرغبة إليه وافتتحت سورة التين بالقسم على أن هذا الإنسان قد خلق بأحسن تقويم وهو أمر يتطلب إفراد من خلق بالخضوع والتذلل والانقياد[2].

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

اتضح لنا فيما سبق أن المحور الذي تدور حوله سورة التين، بيان عظيم قدرة الله تبارك وتعالى وعظيم صنعه ودقته، وتأتي المقاطع الثلاثة في هذه السورة لترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا المحور

فالمقطع الأول: يتناول الأقسام الأربعة التي وردت في السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ وهذه مخلوقات يدل وجودها على جلال الصانع وعظيم قدرته.

أما **المقطع الثاني**: فيتناول المقسم عليه وهو خلق الإنسان وبيان تكريم الله له بخلقه في أحسن تقويم، واختيار طائفة من جنسه الانحطاط بسلوكه وتصرفاته، واختيار طائفة أخرى من الجنس البشري الرقي بالخلق العظيم إلى جنات النعيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٣/ ١٦١٢).

(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (١٠ / ٣١٢).

ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾ فهذا الخلق والتنوع فيه والاختلاف يدل على عظمة الصانع وجلال قدره.

وأما **المقطع الثالث**: ففي قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ «فالدلالة فيه على عظيم قدرة الله واضحة، فالبعث والجزاء، من أعظم الدلائل على قدرة الله تعالى ووجود يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين للفصل والجزاء غاية العدل والإنصاف، فهذا المقطع الأخير من السورة كسابقه شاهد على عظيم قدرة الخالق تبارك وتعالى.

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

فالمقطع الأول: المتضمن للقسم بالنبات ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴾ إضافة إلى القسم بجبل الطور ومكة المكرمة ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾ الدلالات فيه على عظمة موجد الكون وقدرته واضحة بينة.

والمقطع الثاني: كذلك فيه بيان لعظيم هذه القدرة الإلهية في الإنسان نفسه، بعد بيان عظيم قدرة الله في هذا الكون الذي يعيش فيه وما سخره له فيه من نبات وبقاع.

والمقطع الثالث: جاء يدل على يوم الجزاء وعدل الله فيه، وهو جانب من جوانب الدلالة على عظيم قدرة الله أيضاً، وذلك بالتوجيه إلى قدرة الله على إعادة الناس وبعثهم بعد خروجهم من هذه الحياة ليثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته «فذكر الدين والجزاء على سبيل التنبيه على الإعادة، فإن الحكيم إذا كلف وأمر ونهى وخلى بين الظالم والمظلوم فلا بد من المجازاة والإنصاف والانتصاف، فإذا لم يكن في الدنيا فلا بد من البعث»[1].

سادساً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها:

عرضت سورة الانشراح وهي السورة التي سبقت سورة التين في ترتيب سور المصحف لما أنعم الله به على رسوله من نعم، وجاءت تبين ما ينبغي عليه ﷺ أمام هذه النعم من شكر

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣١٤).

المنعم والإنفاق على المحتاجين [1]، ثم جاءت سورة التين من بعد ذلك لبيان عظيم قدرة الصانع وذلك بما أوجد في هذه الأرض من نبات له فوائد جليلة وهو التين والزيتون، ومن مكان فيه من الشموخ والعظمة ما يدل على عظمة الخالق وهو طور سينين، ومن مكان له منزلة ومكانة بما تحقق له من أمن وسكينة وهو البلد الأمين مكة، ومن خلق للإنسان على أحسن تقويم، الأمر الذي يوجب على هذا المخلوق أن يكد ويتعب في هذه الحياة لشكر المنعم على نعمه التي أنعم بها عليه والله يقول: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [النحل: ١٨] ليحظى من بعد ذلك بما أعد له الله من جزاء في دار الكرامة.

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة التين:

افتتحت السورة الكريمة بالقسم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ ﴾ فيقسم الله تعالى بالتين والزيتون[2] لبركتهما وعظم منفعتهما، و التين هو ذلك النبات الذي يؤكل والزيتون ما يعصر منه الزيت [3].

كما ويقسم الله جل وعلا في هذه السورة بجبل الطور في قوله: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وسمي بذلك لحسنه وبركته [4] والطور الجبل وسينين هي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين [5]ويقسم كذلك بالبلد الأمين مكة بقوله: ﴿ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾، والغرض من القسم بهذه الأماكن المقدسة الإبانة عن شرف هذه البقاع المباركة، وما ظهر فيها من خير وبركة ببعثة الأنبياء

---

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٣٠/ ١٧٠٥).

(٢) وخص التين والزيتون بالذكر لكثرة فوائدهما وعظيم منافعهما، انظر جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل «تفسير القاسمي»، دار الفكر، بيروت، (١٧/ ١٩١).

(٣) انظر أبا محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية بيروت، (٥/ ٤٩٩).

(٤) انظر الخازن، تفسير الخازن، ٤/ ٢٦٦).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الطبعة التونسية، تونس، (٣٠/ ٤٢١).

والمرسلين [١]. ويشير سيد قطب عليه رحمة الله إلى الربط بين التين والزيتون وهذه الأماكن المقسم بها فيقول: «إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان»[٢].

وبعد هذا القسم يبين الله في المقطع الثاني من السورة المقسم عليه بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

والله عز وجل قد أحسن خلق كل شيء قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] وإنما خص الإنسان بالذكر بحسن التكريم، وحسن التقويم والتعديل، لمزيد الاعتناء به، وليحسن صلته بخالقه [٣].

وفي هذا إشارة إلى أن الله قد جعل الإنسان مهيئاً بما أعطاه من خصائص أن يبلغ مدى عالياً في الرفعة والمقام السامي عند الله تعالى، وقد ينتكس فيهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق، فينحرف عن الفطرة وينحط عن البهائم، بسبب بعده عن منهج الله، وهذا يدل على عظيم قدرة الله تعالى بأن نجد في هذا المخلوق النقيضين، صنفاً منه يرتفع بإيمانه، وصنفاً منه ينحط بكفره وعصيانه.

والتقويم: جعل الشيء في قوام أي عدل وتسوية، فليس تقويم الصورة الظاهرة للإنسان هو المعتبر عند الله بل المعتبر السلوك القويم، فكم من الناس يعجبك مظهره لكنك إن نظرة في سلوكه تغيرت نظرتك إليه.

وأما ما ذكره الطبري وغيره من المفسرين من أن المراد من رد الإنسان إلى أسفل سافلين

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (٣٠/ ١٧٣).

(٢) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٩٣٣).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٣٣).

مصيره إلى أرذل العمر [1] فبعيد، حيث يمنع من القول به الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ولا يخفى أن الرد إلى أرذل العمر يشمل بعض المؤمنين ويشمل غيرهم، يقول ابن كثير عليه رحمة الله: «ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾»[2].

ومما يلاحظ أن القرآن الكريم يقرن في كثير من الموطن بين الإيمان والعمل الصالح وذلك للدلالة على أهمية العمل في رحاب الإيمان.

ثم يتبع القرآن الكريم الاستثناء ببيان ما أعده الله لهذه الطائفة المؤمنة العاملة المستثناة من الخسارة بفاء الترتيب والتعقيب، بأن لهم أجراً عند الله غير ممنون، في قوله تعالى: «فلهم أجر غير ممنون» والممنون مأخوذ من المن على المعطى الذي يكدر نفسه، أو من الحبل إذا انقطع فهو منين أي مقطوع، والمعنى أن لهم أجراً لا يشوبه كدر بالمن على المعطى، ودائم غير منقطع[3].

ويأتي المقطع الثالث من السورة بصيغة الاستفهام التوبيخي للمكذب بالدين وهو الجزاء بعد بيان العاقبة التي يؤول إليها أهل الإيمان وأهل الكفر والعصيان في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾، والمعنى فمن ذا يكذبك فيما تخبر به عن يوم البعث وهو الدين، بعد هذه العبرة التي توجب النظر فيها صحة ما قلت[4].

ولفظ (أحكم) مأخوذ من الحكم، والمعنى أنه جل وعلا أقضى القضاة، أي أنّ حكمه أسد وأنفذ.

---

(١) انظر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٣١٠).

(٢) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، (٤/ ٦٨١).
وانظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، (٧/ ٥٨٤).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٢٩).

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز، (٥/ ٥٠٠).

ويجوز أن يكون مشتق من الحكمة والمعنى أنه أقوى الحاكمين حكمة في قضائه بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة [1]، ويصبح المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، أليس الله بأحكم من حكم في أحكامه، وفصل قضائه بين عباده ؟ [2].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٣١).

(٢) انظر الطبري، جامع البيان، (١٥/ ٣١٦).

سورة العلق

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة و عدد آياتها

تسمى هذه السورة بـ «سورة العلق»، ومن أسمائها أيضا ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ للحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها: «إن أول شيء نزل من القرآن: إقرأ باسم ربك»[1].

وعدد آياتها تسع عشرة آية[2].

ب. مكان نزولها

أما مكان النزول فهو مكة بالإجماع[3]، فالسورة من السور المكية، ونزولها كان قبل الهجرة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢/ ٢٤٠).

(٢) فهي عشرون آية حجازي (عند أهل مكة والمدينة)، وتسع عشر عراقي (عند أهل الكوفه والبصرة) وثماني عشرة في عد أهل الشام واختلافها آيتان (الذي ينهى) غير الشامي، (لئن لم ينته) حجازي.
انظر: أبا علي الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٠/ ٣١٥)، وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٣٤).

(٣) انظر محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٣١٥).

ج- فضائل السورة:

مما جاء في فضائل هذه السورة في السنة:

أولاً: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت:ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ حتي بلغ ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال:يا خديجة ما لي وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، أخو أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة:أي ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى... »[1].

ثانياً: أخرج الحاكم في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما نزل من القرآن

وانظر أبا إسحاق الزجاج إبراهيم بن السّري ، معاني القرآن وإعرابه ، ص٣٤٥.

(١) أخرجه البخاري في كتاب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، صحيح البخاري ، دار الجيل ، بيروت ، (١/٣).

اقرأ باسم ربك»[1].

د. محور السورة

سورة العلق جاءت كسابقتها تبين عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق وقدرة الله على تعليمه بعد خلقه، وكلها دلائل جلية على عظيم قدرة الله وكمال فضله.

هـ. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

محور السورة كما أسلفنا هو بيان عظيم قدرة الخالق جل وعلا، وهذه السورة اسمها سورة العلق، والعلق هو دم شديد الحمرة جامد غليظ، فإذا عرف أن هذا المخلوق خلق من دم عرف أن خالقه قادر على إعادته من التراب، فإن التراب أقبل للحياة من الدم[2].

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

-افتتحت سورة العلق بالأمر بأداة مهمة من أدوات المعرفة وهي القراءة باسم الله وهي أداة توصل إلى حقيقة الخالق وعبادته، وختمت السورة بالأمر بالسجود لله، وبعدم طاعة العاصي الذي ينهى عن عبادة الله كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ وبذلك يوجه الله عباده إلى أن هذه الأداة من أدوات المعرفة توصل إلى الطاعة والعبادة الحقة للخالق، وتحمل على مخالفة أمر الناهي عنها، والله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلم بالقراءة يوصل إلى الإيمان بمن ينبغي أن نسجد له ونتقرب إليه.

-ويمكن القول أيضاً: إن سورة العلق افتتحت بقراءة القرآن والأمر بها، وختمت السورة بالسجود في الصلاة، والصلاة من أعظم أركان الدين، فكأن الله يقول: اقترب لي بقراءة القرآن

(١) انظر المستدرك على الصحيحين، (٢/ ٢٤٠).

(٢) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٧٨).

والسجود في الصلاة لجلالي[1].

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

افتتحت سورة العلق بالقراءة باسمه سبحانه وتعالى، وختمت سورة التين بذكر اسم الله تعالى في قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾، واقترن اسمه جل وعلا في خاتمتها بوصفه أنه أحكم الحاكمين أي أقضى القضاة، وبذلك يرشدنا القرآن إلى أمر يساعد على القضاء والفصل في المنازعات عن علم ومعرفة، وهو الخبرة بالقراءة والفهم لآي الذكر الحكيم.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها

محور سورة العلق يدور حول بيان عظيم قدرة الله وكمالها، وإذا نظرنا في المقاطع الثلاث للسورة نجدها جميعاً تدور في فلك هذه القدرة.

فالمقطع **الأول** من السورة: جاء فيه بيان الخلق والتعليم اللذين امتن بهما الخالق جل وعلا علينا في قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق/ ١-٥)، وهما أمران من الأمور الدالة على عظم القدرة الموجبة لشكر المنعم.

وفي **المقطع الثاني**: بين القرآن انحراف صنف من البشر لم ينفع فيه الخلق والعلم، فانحرف عن شكر من خلق وعلّم، فطغى وتجبر بدلاً من أن يشكر المنعم على إنعامه فقال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي **المقطع الثالث**: جاء الحديث عن صورة من صور طغيان الإنسان فقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ هذا الطغيان الذي حمله على الوقوف في وجه

---

(١) المرجع السابق، (٨/ ٤٩٠).

من يعبد الرحمن، فنهى عن طاعة الله، فاستحق وعيد الله له بالعقاب، وفي ذلك دلالة على جهله بحقيقة قدرة الخالق جل وعلا، والله يقول: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩١].

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض

من يمعن النظر في سورة العلق يجد تناسقاً عجيباً بين أجزائها، وتسلسلاً رائعاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها ففي **المقطع الأول** تشير السورة إلى أن الله هو الخالق الذي خلق وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة.

وفي **المقطع الثاني** من السورة يرشد القرآن إلى انحراف بعض الخلق عن النهج القويم وعن شكر المنعم الذي خلق وعلم، فلم يستفيدوا من العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي **المقطع الثالث** يمضي القرآن في بيان صورة من صور الطغيان الذي يقف في وجه أهل الطاعة، موضحاً ما تؤول إليه عاقبة صاحب هذه الصورة، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

وفي ضوء هذا المصير الرهيب تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على الإيمان والطاعة [1] في قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

وهذه المقاطع الثلاثة جاءت جميعاً تدل على عظمة الصانع، وتبين عدم التفات بعض خلقه إلى جلال وعظيم قدرته، وبذلك نرى أن مقاطعها الثلاثة شديدة الصلة ببعضها.

(١) انظر سيد قطب ابراهيم، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٤٣).

سادساً: المناسبة بين مضمون السورتين« سورة العلق «وسابقتها «سورة التين»

-بينت سورة التين عظيم قدرة الله في خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفي سورة العلق جاء بيان عظيم هذه القدرة بتعليم الإنسان وإفهامه بالقراءة والمعرفة (١).

-ويمكن القول بأنه تعالى ذكر في سورة التين أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا بيان للصورة، وذكر هنا خلق الإنسان من علق وهذا بيان للمادة، وذكر سبحانه في سورة العلق من أحوال الآخرة ما يكون كالبيان لما ذكر حولها في سورة التين (٢).

-ويمكن القول أيضاً في سورة التين بين الله أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأرشده إلى ما فيه خيره بالمنهج القويم، ولكن بعض الناس اختار الهبوط إلى أسفل السافلين، بمخالفة أمر رب العالمين، وهنا في سورة العلق بين القرآن الوسيلة التي ترقى بهذا الإنسان إلى المستوى القويم في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ فأرشده إلى أداة من أدوات العلم والمعرفة وهي القراءة، وضرب له مثلاً من الطرف الآخر في الجنس الإنساني الذي لم يستفد من هذا العلم وتلك المعرفة فرضي بالهبوط بسبب الانحراف عن المنهج، ونهى من صلى عن الطاعة، فظهر بذلك تفاوت المنزلتين، وبيان الحالين (٣).

---

(١) انظر القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، (١٧/ ٢٠٢).

(٢) انظر د وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، (٣٠/ ٣١١) وانظرأحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ١٩٧).

(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٨٠).

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة العلق

المقطع الأول من السورة قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ (الآيات / ١-٥).

هذا المقطع من سورة العلق هو أول ما نزل من القرآن، وقد جاء يبين عظيم قدرة الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان وعلمه البيان، فجاء فيه الابتداء بالقراءة للدلالة على أهمية هذه الأداة من أدوات التعلم، والتي يظهر من خلالها عظيم قدرة من أوجد في الإنسان القدرة على اكتساب المعارف، واقترنت القراءة باسم الله الذي خلق للتذكير بالنعمة الفائضة، وللتنبيه أن القادر على الخلق قادر على التعليم [1]، وعمم الخلق دون تحديد صنف من المخلوقات ليفيد أنه الخالق سبحانه لجميع الكائنات، وأتبع هذا التعميم بخصوص خلقه للإنسان بالذكر في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وذلك تكريم لهذا المخلوق، وبيان لعظيم قدرة الله في خلقه[2].

لقد خلق الله هذا الإنسان من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم، ومع هذا الخلق رفع هذا المخلوق إلى درجة من يعلم ويتعلم [3]، وهذا التعليم بعد الخلق من كرم الله تعالى [4].

وأما قوله تعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ففيه إشارة إلى أنه تعالى قد جعل القلم واسطة للتفاهم بين الناس، كما أفهمهم بواسطة اللسان.

وفيه أيضاً تعليم للإنسان ما في الكتابة والخط من المنافع التي لا يحيط غيره سبحانه

---

(١) انظر محمد القاسمي، محاسن التأويل، (١٧/ ٢٠٢).

(٢) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، (٧/ ٥٨٦).

(٣) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٣٩).

(٤) والسر في تكرار الأمر بالقراءة للدلالة على أن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت عليه العادة، وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء، انظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ١٩٩).

بها، لأنها أنبتت عليه استقامة أمور الدنيا والدين، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمة الله تعالى[١]، ومن خلال هذه الأدوات التعليمية علم الله الإنسان ما كان غائباً عنه.

وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام، فقد علمه أسماء كل شيء، وقيل: المراد به رسولنا محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] [٢]، والأولى أن نقول بعموم الإنسان، فنعمة الله تعالى بالعلم والمعرفة تشمل كثيراً من الخلق، وليست مقصورة على بعض الأنبياء عليهم السلام.

ثم يأتي المقطع الثاني من السورة مبتدأ بأداة الزجر والردع (كلا) وهو زجر وردع لمن كفر نعم الله بسبب طغيانه [٣]، حيث ذكر القرآن في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد على العاقل أن لا يطلع عليها، ولا يقف على حقائقها.

ثم أتبعها في هذا المقطع من السورة ببيان السبب الأصلي في الغفلة عنها، وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة [٤] فقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾، فأول السورة يدل على مدح العلم، وهذا المقطع منها جاء مرغباً في الدين والعلم، وفي هذه الآيات دلالة على أن الإنسان يستعلي ويظلم في بعض الأحيان حين يملك من المال والثروة أكثر من غيره [٥]. فالضمير في «أن رأه» [٦]يعود للمال، ورأى بعض المفسرين أن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٢٢).

(٢) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٥/ ٨٢).

(٣) انظر صديق حسن خان، تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن، مطبعة القاهرة، العاصمة، (ص٤٠٠).

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، (١٦/ ١٧).

(٥) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٨).

(٦) قرأها ابن كثير قصراً بغير ألف بعد الهمزة «أن رأه»، وقرأ حمزه والكسائي «أن رآه» بكسر الراء وبعد الهمزة ألف وقرأ حفص عن عاصم «أن رآه» بفتح الراء، انظر أبا علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، الحجة للقراء السبعة، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٩٣م، (٦/ ٤٢٥)، وعلى كل القراءات فالمعنى=

الضمير يعود للإنسان نفسه، والمعنى أن الإنسان رأى نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد، لا أنه ناله بإعطاء الله وتوفيقه [١]، وكلا المعنيين قريب، والله أعلم.

ولذا ذكّر القرآن الإنسان بقدرة الله على إرجاعه بعد وفاته للوقوف بين يديه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ فحذره بذلك من الطغيان، وأنذره من عاقبته، وأبان له أن ما بيد الطاغي عارية، وليس باق، وأن مرجع الأمر كله إلى الله» [٢].

ثم يعرض القرآن الكريم في المقطع الثالث من هذه السورة صورة من صور طغيان الإنسان وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

حيث جاء هذا العرض مقروناً بالتهديد والوعيد لهذا الطاغي الذي لم يكتف بإضلال نفسه، بل انتقل إلى إغواء الناس ونهيهم عن طاعة الله والصلاة له، وكان الجدير به أن يهتدي ويرشد غيره إلى خصال الخير والبر، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾.

ثم يبين القرآن الكريم حال هذا الإنسان الذي كذب بدلائل التوحيد والقدرة، منبهاً له أن الله لا تخفى عليه أعماله وأقواله، وأن جميع حركاته وسكناته مرصودة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

ويتبع القرآن ذلك بالتهديد والزجر والوعيد لهذا الإنسان الطاغي -وهو أبوجهل عمرو

= المراد منها ما بيناه في المتن ولعل في هذا التنوع في القراءات إشارة إلى لهجات العرب.

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٢٠).

(٢) انظر أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٣).

بن هشام -ومن على شاكلته ممن ينهى غيره عن الطاعة، بأنه إذا لم ينته عن هذا التجاوز في أفعاله ونهي المصلي عن صلاته ليأخذنّ بناصيته ويعذب، فالسفع هو الجذب الشديد، والمعنى لنجرنّ بناصيته إلى النار[١]، عن عكرمة قال ابن عباس ﷺ: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعله لأخذته الملائكة» [٢].

وإلى مثل هذا المعنى أشار الإمام الطبري عليه رحمة الله [٣]، وفي هذا التعبير القرآني إنكار على كل من ينهى عن المعروف بطريق أو بآخر [٤].

والناصية هي شعر الجبهة، ووصفها بالكاذبة الخاطئة للتنبيه على كذب صاحبها وخطئه بفعله ونهيه، «وقد جاء ت نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية مع أن الكاذب والمخطئ صاحبها لأنها مصدر الغرور والكبر»[٥]، وخص القرآن الكريم التعبير بأخذ هذا الطاغي منها دون غيرها من أعضاء الجسد لأن العرب كانت تعد ذلك غاية الإذلال.

ثم يأتي الخطاب القرآني على جهة التهكم والسخرية لهذا الطاغي أن يدعو أهل الدفاع من قومه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أي قومه وعشيرته، فليدعهم ويستنصر بهم [٦]، وليجمع أمثاله لمنع المخلصين الطائعين عن الصلاة والطاعة لله، فإنه إن فعل ذلك عرّض نفسه لمجابهة جنود الله، من ملائكة مختصين بالعذاب، وسمي الملائكة زبانية لأنهم يزبنون الكفار في النار أي يدفعونهم، ويسوقونهم إليها[٧].

---

(١) انظر أبا الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، «تفسير قوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾».

(٣) انظر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، (١٥/ ٣٢١).

(٤) انظر محمد جود مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٩).

(٥) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٤).

(٦) انظر اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ، ط١، ١٩٩٤، (٤/ ٦٨٣).

(٧) انظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (٧/ ٥٨٩).

وتختم السورة بنهي الطائع المصلي عن الالتفات إلى نهي الطاغي، أو الإصغاء و الاستجابة لأمره، وتحثه على الاستمرار في طاعة الله والسجود له ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾، الأمر الذي يجعل الإنسان قريباً من الله بهذه العبادة وذلك السجود، ولهذا يسن للمسلم الإكثار من الدعاء بالسجود، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[1].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢٠١).

سورة القدر

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها

سميت هذه السورة بـ «سورة القدر» (١) ومن أسمائها: «سورة ليلة القدر» (٢)، وعدد آياتها خمس آيات (٣).

ب. مكان نزولها:

اختلف العلماء من أهل التفسير في مكان نزولها، فمن المفسرين من يرى أنها مكية (٤)، وهي في رأي أكثر أهل العلم من أهل التفسير مدنية (٥) وهو الأرجح، ويرجح مدنيتها أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد أن فرض رمضان، وكان ذلك بعد

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٠)، ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٥٣).

(٢) عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤، (٥/ ٥٠٤).

وانظر أبو بكر محمد بن عبدالله الجصاص، أحكام القرآن، دار التراث العربي، بيروت، (٥/ ٣٧٣).

(٣) وهي في المصحف المكي والشامي ست، وخمس فيما عداهما. انظر الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣٢١)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٣٩).

(٤) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٢٨)، وانظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٦).

(٥) انظر ابو حيان، البحر المحيط في التفسير، (١٠/ ٥١٢)، وانظر عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، دار الفكر، بيروت، (٨/ ٢٨٢).

وانظر سليمان بن عمر العجلي، الفتوحات الإلهية، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٣٦٩).

الهجرة [1].

ج- فضائل السورة

إن مما لا شك فيه أن سورة تحدثت عن ليلة بين القرآن فضلها وبين الرسول ﷺ شرفها فهي سورة لها فضل عظيم ومكانة عالية، ومما جاء في فضلها عنه عليه الصلاة والسلام:

أولاً- ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر»[2].

ثانياً- وما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[3].

وهذه الإشارة في الفرادى من العشر الأواخر قد توجد إشكالاً حال اختلاف المطالع في العالم الإسلامي، حيث يلزم من ذلك القول بتعدد ليلة القدر في رمضان وتعدد نزول الملائكة فيها، ويجاب عن ذلك أنه لا مانع من كون الليل كراكب يسير إلى جهة فيصل إلى كل منزل فتنزل الملائكة حسب سيرها في تلك الليلة، ولا مانع أن ينزل الله عند كل قوم ما شاء من الملائكة عند أول دخولها عندهم، ويعرجون عند مطلع فجرها عندهم أيضاً، أو يبقى المتنزل منهم هناك إلى أن تنقض الليل في جميع المعمورة فيعرجون معاً عند انقضائها [4].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها، ، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، (١/ ٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل ليلة القدر، محمد بن اسماعيل، (صحيح البخاري، ٣/ ٦١).

(٤) انظر محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (٦/ ٣٥٧).

د. المناسبات في السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة (القدر) وهو الشرف والفضل والمنزلة والمكانة العالية، أو التدبير والتقدير، ويدخل فيه ضمناً الشرف والرفعة [1]، و محور السورة بيان عظم ليلة القدر هذه الليلة التي تميزت بابتداء نزول القرآن فيها ونزول الملائكة مع جبريل، ومصافحة من يقومون في تلك الليلة المباركة، حتى مطلع الفجر، وليس من شك أن حدوث مثل هذه الأمور فيه دلائل على عظمة المحدث فهي إذن من دلائل العظمة والجلال على الكبير المتعال.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة القدر وخاتمتها

إن رجوع آخر هذه السورة على أولها في غاية الوضوح وذلك بكون هذا التنزيل كان في ليلة القدر وأعظم السلام فيها هو نزول القرآن[2]، فهو مصدر السلام وطريق الأمن لمن التزم بنهجه، وحكم بما فيه.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

جاء في مقدمة سورة القدر الحديث عن إنزال القرآن في تلك الليلة المباركة، وهي ليلة القدر وختمت سورة العلق بالأمر بالسجود لله تعالى وعدم الالتفات إلى من ينهى عن هذا السجود، بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾، ولما كانت ليلة القدر هي موطن الإحياء الأعظم للصلاة، بما فيها من قيام وركوع وسجود وتلاوة للقرآن، كان هذا البدء في غاية الجمال، وكأن القرآن يرشدنا إلى إحياء ليلة القدر التي شرفت بنزول القرآن، بإكثار السجود والتلاوة فيها.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها

محور السورة هو بيان عظم ليلة القدر، تلك الليلة الموعودة المشهودة، وهي ليلة الاتصال

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، أحكام القرآن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، (٤/ ١٩٦١).

(٢) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٣).

المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، وهي ليلة بدء نزول هذا القرآن، على قلب محمد ﷺ.

والآيات من بعد ذلك جاءت تبين سبب فضلها، وعظيم قدرها، بما نزل فيها من قرآن عظيم القدر، وبما ينزل فيها من ملائكة جليلة القدر، ومن سلام يحل على البشرية فيها، تتحقق فيه السعادة وسلام الضمير، وسلام البيت، وسلام المجتمع...[(١)].

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض

ابتدأت سورة القدر بالحديث عن نزول القرآن العظيم ذي القدر، في الليلة عظيمة القدر، والسياق يدل على تعظيمها بما نزل فيها.

لذا جاء السياق من بعد ذلك يحث الخلق على الاجتهاد بفعل الخيرات فيها، وشد العزائم على قيامها والإكثار من الطاعات فيها، بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ فأثبت عظمها بهذا الاستفهام التقريري التعجبي الدال على غاية فضلها، وعلو قدرها.

ثم جاءت الآيات من بعد ذلك تبين عظم وفضل هذه الليلة ببيان خصائصها التي ترشد إلى عظم قدرها، في قوله تعالى: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾، فالعمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وذلك لما يقسم فيها من الخير الكثير الذي لا يكون مثله في ألف شهر، فالأوقات والأماكن يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير الجزيل والنفع الكثير[(٢)].

ثم يتبع القرآن هذا الوجه من فضلها بوجه آخر وهو تنزل الملائكة في رحابها ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ والروح هو جبريل عليه السلام الذي خص بالذكر لشرفه وعلو منزلته.

ويختم القرآن فضائل هذه الليلة في هذه السورة بأنها متصفة بالسلامة التامة، كاتصاف

---

(١) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، (٦/ ٣٩٤٥).

(٢) انظر أبوبكر الجصاص، أحكام القرآن، (٥/ ٣٧٣).

الجنة التي هي سببها بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[1]، فهي إذن مقاطع شديدة الصلة ببعضها قوية الارتباط بين أجزائها.

سادساً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون سابقتها (سورة العلق)

- السورة التي سبقت هذه السورة هي سورة العلق، وقد جاء الأمر فيها لرسول الله ﷺ بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق، و الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وهنا في سورة القدر جاء ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان، العليم بمصالح الناس، وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم، وأنه أنزل في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة الكريمة [2].

- ومن مظاهر الصلة بين مضمون السورتين أيضاً أن سورة العلق بدأت بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، وانتهت بقوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، والخطاب موجه فيها إلى رسولنا محمد ﷺ، وسورة القدر تتحدث عن نزول القرآن الذي أمر بقراءته ﷺ، ثم إن سورة العلق من أول ما نزل من القرآن وتأتي سورة القدر بعدها لتبين أن هذا القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق أنزل في ليلة القدر.

-ومن هذه الصلات أيضاً أن سورة العلق أمرت بالقراءة باسم الله وأمرت بالسجود والاقتراب له سبحانه وتعالى، وسورة القدر ذكرت ليلة العمل فيها يعدل ألف مرة ثواب العمل في ما سواها [3]، وذلك لتستغل هذه الليلة بالقراءة والسجود المأمور به في سورة العلق.

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٢).

(٢) انظر المراغي، تفسير المراغي، (٣٠/ ٢٠٦).

(٣) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م، (١١/ ٦٦١٤).

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة القدر

المقطع الأول

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ ﴾.

ابتدأت السورة بالإخبار عن إنزال القرآن في ليلة القدر، فقد أنزله العظيم في ليلة عظيمة القدر، عظم قدرها بنزوله فيها، ولذا أسند سبحانه وتعالى إنزال القرآن لنفسه مقروناً بنون العظمة.

وفي التعبير عن ليلة القدر بالاسم الظاهر بدلاً من المضمر بيان لزيادة قدرها، ثم يكرر القرآن ذكرها بالاسم الظاهر في الآية الثانية والثالثة زيادة في تعظيمها، وحثاً للناس على الاجتهاد في الطاعة فيها، ولكي يحييها المسلم بجد ونشاط وهمة.

أما المراد بإنزال القرآن فيها أي أنه ابتدأ فيها نزول القرآن، وقيل: إنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا»[1].

وسميت هذه الليلة التي شرفت بنزول القرآن فيها بـ«ليلة القدر» لأحد أمرين:

أ- لشرفها وفضلها.

ب- أو لتدبير وتقدير الأمور فيها، لأن الله يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها لذلك العام، ويدفع ذلك للملائكة لتمثيله[2]، والثاني أرجح لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١) الحديث موقوف على ابن عباس، أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير وصححه (٢/ ٢٤١)، وعلق عليه السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم في تعليقاته على تفسير الماوردي بقوله: هذا القول لا يصح عن ابن عباس، فليس بين الله وبين جبريل حجاب.... ، انظر الماوردي، النكت والعيون، (٦/ ٣١١).

(٢) انظر ابن عطية، المحرر الوجيز، (٥/ ٥٠٤).

﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٣-٤] ولكونه يشمل الشرف والرفعة والمنزلة ضمناً.

و مقادير الأشياء مسجلة في اللوح المحفوظ من قبل ذلك، لكن ما يحدث في هذه الليلة المباركة-ليلة القدر- من تقدير يكون على شكل تفصيل جزئي لما يحدث في نفس العام.

المقطع الثاني

قال تعالى:﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

يفصّل القرآن الكريم في هذا المقطع خاصية من خصائص هذه الليلة، ويرشدنا إلى أن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهي تعدل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر[1]، **وذلك في قوله تعالى:** ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ وليس من شك أن العمل القليل قد يفضل العمل الكثير، باعتبار الزمان، وباعتبار المكان، وباعتبار كيفية الأداء، كصلاة الواحد في جماعة تزيد بخمس وعشرين درجة على من صلاها منفرداً[2]، والعمل في شهر رمضان أعظم من العمل في غيره، والعمل بمكة في المسجد الحرام أعظم من العمل بغيره.

ثم يتبع القرآن هذه الخاصية لليلة القدر التي تدل على عظمتها بين الأزمنة بخاصية أخرى وهي تنزل الملائكة والروح فيها، وهو جبريل ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾، فلعظم هذه الآية تنزل فيها إلى الأرض هذه المخلوقات الملائكية العظيمة، وهذا استئناف آخر لبيان فضلها حيث تتنزل الملائكة في هذه الليلة بكل أمر يتعلق به التقدير في تلك السنة إلى قابل حين يأمر بذلك جل وعلا [3]، فالملائكة في هذه الليلة

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩١).

(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٤٦).

(٣) انظر المرجع السابق، (١٦/ ٣٥١).

المباركة ينزلون أفواجاً أفواجاً، فمن نازل وصاعد، ولهذا عبر القرآن بلفظ «تنزل» الذي يفيد المرة تلو المرة، ولهذا السبب مدت إلى طلوع الفجر، والتعبير بإذن ربهم يفيد عصمة الملائكة، فنزولهم بإذن من الله، وصعودهم كذلك [1].

وبعد ذكر فضائل هذه الليلة المباركة يختم القرآن بخاصية أخرى لهذه الليلة بأنها متصفة بالسلام التام، كاتصاف الجنة التي هي سببها في قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾، و يفيد التعبير عنها بالسلام حتى مطلع الفجر أمران:

أ. تعميم السلامة من الآفات والصواعق والأذى.

ب. التسليم كل الليلة حيث تسلم الملائكة على الطائعين في تلك الليلة[2]، وهو الأقرب والله أعلم، إذ لا تخلو ليلة في العام من نزول المحنة على قوم من الأقوام في العالم، حتى أهل الإسلام منهم، ومن السلام الذي حصل في هذه الليلة المباركة للبشرية نزول القرآن الذي يحقق لها في الدنيا السلام، ويهدي من اتبعه دار السلام يوم القيامة.

وقد جاء في المطلع قراءتان متواترتان: فقرأ الكسائي وخلف بكسر اللام، والباقون بفتحها [3]، وكلا القراءتين مصدر في لغة تميم[4]، والمطلع هو الطلوع، يقال طلع الفجر طلوعاً، والمعنى بناء على ذلك أنه يدوم ذلك السلام من الملائكة على العابدين فيها إلى طلوع الفجر [5]، والله أعلم.

---

(١) انظر الفخر الرازي التفسير الكبير، (١٦/ ٣٤).

(٢) انظر أبا حيان، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، (١٠/ ٥١٣)، وانظر الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٤٧٣).

(٣) انظر ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٤٠٣).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٣).

(٥) انظر، الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٣٢/ ٣٦).

سورة البينة

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

أولاً: بين يدي السورة

أ. اسم السورة وعدد آياتها:

تسمى سورة البينة، وتسمى سورة «لم يكن» وتسمى بسورة «المنفكين»، وسورة أهل الكتاب [1]، وتسمى سورة البرية، وتسمى «القيمة»[2].

وعدد آياتها ثمان آيات [3].

ب. مكان نزولها:

ذهب صاحب البحر المحيط إلى القول بمكيتها [4]، ورجح البغوي، وأبو السعود، وابن الجوزي، وابن عاشور أنها مدنية [5]، وهو الأظهر لما جاء في السورة من تخطئة أهل الكتاب،

---

(١) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٥)، وانظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٣٠/ ٦٥٤).

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٣٢٨).

(٣) عدد آيات سورة البينة تسع آيات عند البصريين، وثمان آيات عند الباقين، انظر مجمع البيان، الطبرسي، (١٠/ ٣٢٨).

(٤) أبو حيان، البحر المحيط، (١٠/ ٥١٧)

(٥) انظر الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥،=

ولا يخفى علينا أن أهل الكتاب كان موطنهم المدينة المنورة، الأمر الذي يرجح نزولها في مدينة رسول الله ﷺ بعد الهجرة، ويؤيد ذلك ما ذكره الثعالبي بقوله: «وذكر الزكاة مع ذكر بني إسرائيل،، يرجح قول من قال: السورة مدنية، لأن الزكاة إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة»[1].

ج. فضائل السورة:

جاء في فضل هذه السورة «عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي قال لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا»، قال: وسماني لك، قال: نعم، فبكى[2].

د. محورها السورة:

تدور آيات هذه السورة حول الإعلام عن هذا الكتاب -القرآن- بأنه قيم بما تميز به من علو مقداره، وجليل آثاره في الأمم، وأن اتباعه يقود إلى السعادة، و إلى الجنة دار الأبرار، وتركه ومخالفته يسوق إلى الشقاء، و النار وهي دار الفجار [3]. وهذا يدل على جلال وعظيم قدرة من نزّل هذا التشريع جل وعلا.

=(٥/ ٦٠٨)، وانظر وابن الجوزي، زاد المسير، (٨/ ٢٨٢)، وانظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث، بيروت، (٩/ ١٨٢)

(١) عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، (٣/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب «لم يكن الذين كفروا»، صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الجيل، بيروت، (١٢/ ٢١٦).

(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٥).

هـ. المناسبات في السورة:

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

السورة اسمها البينة وهي الدلالة الواضحة، وقد جاءت تتحدث عن الرسول وما أنزل إليه من القرآن الكريم وهو بينة عظيمة، دللت على عظيم قدرة من أنزله بهذه الدقة البيانية والتشريعية، وقد بين عاقبة أهل اتباعه وما يؤول إليه حالهم من سعادة وحبور، وحال من عصاه وخالف أمره ونهيه وما يحل به من سوء عاقبة وثبور.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية سورة البينة وخاتمتها:

بينت افتتاحية السورة عدم انفكاك الكفار من أهل الكتاب والمشركين عما هم فيه من ضلال للسير في طريق الهداية إلا بالبينة المتمثلة برسول الله محمد ﷺ وما أنزل عليه من الوحي البين الدلالة، الواضح المعالم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾، وختمت السورة ببيان خيرية من التزم بهذه البينة، والجزاء العظيم الذي أعده الله لمن التزم بما أمر به واجتنب ما نهى عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

افتتحت سورة البينة بالحديث عن البينة التي تحقق السعادة لمن انفك عن الكفر من مشركين وأهل كتاب بسببها، فالبينة المتمثلة برسول الله ﷺ وما بين يديه من وحي سماوي، الأصل أن ينفك بها المنصفون من أهل الكفر والشرك عن كفرهم وشركهم، وأن يسلكوا بها طريق الهدى والنور، فيتحقق لهم بذلك السلامة والسلام، والسعادة في الدنيا، والتنعم والنعيم في دار المقامة.

وختمت سورة القدر التي سبقت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ والسلام الذي حل في هذه الليلة سلام شامل يشمل أيضاً ما نزل فيها على رسولنا محمد ﷺ من كتاب سماوي وتشريع رباني، يدعو إلى سلامة البشرية وسعادتها، وهو البينة المشار إليها في سورة العلق.

رابعاً: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

بيّنا فيما سبق أن محور السورة يدور حول الإعلام بأن هذا الكتاب الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ قيم بما تميز به من علو مقدار وعظيم آثار، ومنها انفكاك الكفار عن الشرك الذي يحقق لهم الخزي والعار، وهذا جانب من الجوانب التي تدل على عظيم القدرة، ثم جاءت مقاطع السورة من بعد ذلك تدور في فلك هذا المحور بالإشارة إلى حقائق أربع:

الحقيقة الأولى: أن بعثة الرسول محمد ﷺ، وما نزل عليه من وحي سماوي، أمر ضروري لتحول أهل الشرك والعصيان عما هم فيه من ضلال واختلاف وكفران.

الحقيقة الثانية: أن التفرق الذي حل بين أهل الكتاب لم يكن إلا بعد ما جاءتهم البينة سواء في ديانتهم، أو ببعثة رسول الله محمد ﷺ وما يتلوه من صحف مطهرة، وكان هذا التفرق سببه إصرار البعض منهم على الكفر والشرك، و اتباع البعض الآخر له ﷺ فانقسموا بذلك إلى فريقين.

الحقيقة الثالثة: أنّ الدين أصله واحد لا يدعو إلى الفرقة وإنما يدعو إلى الوحدة والتماسك من أجل تحقيق العبودية لله، وأن هذه البينة المتمثلة برسول الله وما بين يديه من وحي منير تصب في هذا الإطار.

الحقيقة الرابعة: بينت السورة أحوال الناس أمام هذه البينة، فمن آمن وأطاع فهو من خير البرية، ومن عصى الخالق وكفر منهم كان من شر البرية، فالخيرية والشر يحكم عليهما بقدر الالتزام بما جاءت به البينة من أحكام.

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

جاءت الآيات في بداية السورة تبين حقيقة مفادها أنه ما كان للكفار من مشركين و أهل الكتاب الانفكاك والابتعاد عن الكفر الذي تمسكت به إلا بهذه الرسالة المحمدية الجديدة، رسولاً وكتاباً، قال تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

ولما قرر في بداية السورة أهمية الرسالة الخاتمة، والكتاب المبين المنزل على سيد المرسلين في رد الناس إلى جادة الطريق، ومنهم أهل الكتاب من يهود ونصارى، عاد ليقرر في المقطع الثاني أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ولم يختلفوا في دينهم عن جهل، أو عن غموض في الدين، أو تعقيد فيه، وإنما تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات الربانية، والدلائل النبوية [1]، فمنهم متبع ومنهم ممتنع، فأصر بعضهم على الشرك والإبقاء على المخالفة لرسولنا محمد ﷺ، ورفض اتباع البينة الجديدة بالرغم من أنهم أمروا في كتبهم السابقة وفي القرآن الكريم بعبادة الرحمن على أساسها فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

ثم جاء المقطع الثالث من بعد ذلك يبين حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فبدأ ببيان نتيجة من أصر على الكفر ومات عليه من أهل الكتاب والمشركين وهو الخلود في النار واستحقاق غضب الجبار، والوصف بشر البرية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾.

ثم أتبع القرآن الكريم ذلك بإرشادنا إلى حال من أطاع فآمن وعمل الصالحات واهتدى فاستحق بذلك دخول الجنان والفوز برضا الرحمن، والسلامة من الآفات، فحظي بالإقامة الدائمة في نعيم الجنة، واطمأن وحقق رضا الله الذي يبعث على الهدوء في النفس، فأتبع بذلك

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن الكريم، (٦/ ٣٩٥٠).

القرآن حال من أطاع إثر بيانه لحال من عصى لأن الضد يظهر فضله الضد، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾.

سادساً: المناسبة بين مضمون سورة البينة ومضمون سابقتها وهي سورة القدر:

تحدثت سورة القدر بمضمونها عن ليلة عظيمة القدر، تشرفت وعظمة بنزول كتاب ذي مكانة وقدر على نبي عظيم القدر، ونزول الملائكة كذلك، وهنا جاءت سورة البينة تبين أثر هذا الكتاب ذي القدر المنزل على النبي ذي المكانة والقدر في تلك الليلة ذات القدر، فكان بينة ودلالة واضحة لمن أرد أن يذّكر أو أراد شكوراً، له أثره في أهل الطاعة من الفوز بدخول جنة النعيم. وكان ويلاً وثبوراً على من عصاه وخلف أمره ونهيه من أهل الكفر والعصيان، بالحرمان من السعادة، ودخول دار الشقاء جهنم والعياذ بالله، ويكون بذلك قوله تعالى: «لم يكن الذين كفروا... الخ السورة كالتعليل لإنزال القرآن، وكأنه قيل: إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة، وهي ذلك المنزل في تلك الليلة المباركة[1].

(١) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٩).

المعنى الإجمالي لمقاطع سورة البينة:

المقطع الأول

قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

تبين افتتاحية السورة أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين ما كانوا ليتحولوا عن كفرهم الذي ساروا إليه بتحريفهم للحقائق والنصوص، إلا بهذه الرسالة الجديدة [١] المتمثلة برسولنا محمد ﷺ وما أيد به من كتاب سماوي وهو القران الكريم [٢].

أو لم يكونوا منفكين عن اتفاق كلمتهم على الكفر حتى جاءهم الرسول فتفرقوا، فمنهم المتبع، ومنهم الباقي على الكفر [٣]. وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والمراد بالمشركين:مشركو العرب وهم عبدة الأوثان [٤].

فالانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه، فهو في الأصل افتراق الأمور الملتحمة وأريد به المفارقة لما كانوا عليه [٥].

والبينة: هي الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق عن الباطل، وهي الرسول محمد ﷺ

---

(١) وانظر القرطبي، الجامع لأحكام لقرآن معاني القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، (٢٠/ ٩٥)، انظر سيد في ظلال القرآن، (٦/ ٣٩٤٨).

(٢) انظر أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، دار السرور، بيروت، (٣/ ٢٨١).

(٣) القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (٦/ ٥٤٢).

(٤) صديق خان، (تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان ص٤١٠)، وانظر علي الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ٥٣٧).

(٥) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٥٩)، وانظر محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٦، (١٠/ ٢٤١).

وشرعه [١]، لكون ذاته بينة على نبوته، حيث كان صادقاً أميناً يبين للناس ما نزّل إليهم.

والصحف جمع صحيفة وهي ظرف مكتوب، فهي صحف مطهرة عن الباطل، ومعنى كون الصحف قيمه أنها مستقيمة لا اعوجاج فيها، وقائمة مستقلة بالحجة والدلالة والبرهان [٢].

فالرسول المذكور في الآيات هو سيدنا محمد ﷺ، و المراد بالصحف في قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ القرآن الكريم في صحفه[٣]، والجمع للصحف باعتبار تعدد سور القرآن وأوراقه، لأن كل ورقة مكتوبة يقال: إنها صحيفة، ومعنى تطهيرها تنزيهها عن التحريف والباطل، ومعنى تلاوتها قراءتها عن ظهر قلب لا عن كتاب، لأنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً لا يكتب ولا يقرأ[٤].

ويفيد ذكر الكتب الموجودة بالصحف أيضاً الإشارة إلى أن القرآن فيه الكثير مما أنزله الله في الكتب السماوية السابقة كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، والزبور، فهو مصدق لما فيها، بل إن فيه تبياناً لما نزل على الأنبياء السابقين عليهم السلام من الهدى من أصول الدين التي جاءت بالطريق القويم والهدي السليم [٥]، ولكن الكثير من أهل الكتاب تمادوا في الغي والضلال، بإعراضهم عن دعوة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت بالبينات والهدى، تماماً كما تمادوا بالسفاهة والضلال عن أنبيائهم عليهم السلام الذين جاءوهم بالنور، والحجة، والبرهان.

---

(١) انظر عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (٣/ ٤٩١).

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٦/ ٤٢-٤٤).
وانظر أبا جعفر أحمد بن محمد النحاس، إعراب القرآن، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٢٧٢)، وانظر الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (٣/ ٣٥٠).

(٣) انظر الثعالبي، الجواهر الحسان، (٣/ ٤٩١).

(٤) انظر البغوي، معالم التنزيل، (٥/ ٦٠٧)، وانظر تفسير الجزأين عم وتبارك من تفسير فتح البيان، صديق خان، (ص٤١٢).

(٥) انظر محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، (٧/ ٥٩٤).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

ثم يأتي هذا المقطع من السورة وهو المقطع الثاني لبيان تفرق أهل الكتاب بالرغم مما أمروا به من عبادة وطاعة، فالأصل في البينة المتمثلة بالنبوة والكتاب أن تكون موضع توحيد للناس حول النبراس السماوي، فترد الناس إلى الهدى والنور، ولكن الذي حدث من أهل الكتاب الذين عرفوا الرسول وصدقه كما يعرفون أبناءهم، فتفرقوا بعد مبعثه ﷺ لضلالهم وبعدهم عن الحق، وقد بدأ القرآن بذكر أهل الكتاب هنا توبيخاً لهم لأن العصيان والعناد من العالم أقبح[١].

فهم وإن كانوا من جملة الكفار إلا أنهم مظنون بهم علم[٢]، فأهل الكتاب قبل مبعث رسولنا محمد ﷺ كانوا يدّعون أنه إن بعث النبي المنتظر سيكونون من أتباعه وأنصاره، لكن الذي حدث منهم عكس ما قالوا، فتفرقوا بعد مجيء البينة، فمنهم من اتبع رسول الله ﷺ وما أنزل عليه من وحي، ومنهم من بقي في الضلالة، فالمعنى المراد من الآية إذن أنه لم يبق حالهم مجتمع على الكفر والضلال وإنما انفك بمبعث رسول الله ﷺ، حيث كانوا على قسمين: قسم متبع له ﷺ، وقسم بقي على ضلال، فمنهم من صار مؤمناً، ومنهم من أصر على الكفر[٣]، وهذا الانقسام الذي وقع سببه عناد بعضهم، وإصراره على الكفر، وإلا فهم قد أمروا بالبينة عبادة الله والطاعة، **قال تعالى** ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

إذن فالتفرق الذي حدث لم يكن سببه البينة، بل كان سببه الأهواء، فقد جاءت البينة

---

(١) انظر القمّي النيسابوري، غرائب القرآن، (٦/ ٥٤٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢٠/ ٩٧).

(٣) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٦/ ٤٠)، وانظر أبا الحسن علي بن محمد الماوردي، النكت والعيون «تفسير الماوردي»، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، (٦/ ٣١٥).

تأمرهم بالاتباع لكن منهم من عصى، ومنهم من أطاع، وهذا الأمر الذي صدر لهم بالاتباع في الآية يحتمل أحد أمرين:

الأول: أن يكونوا أمروا بذلك في التوارة والإنجيل، حيث جاء كل من الكتابين مبشراً برسالة سيدنا محمد ﷺ.

والثاني: أن يكون هذا الأمر قد صدر لهم على لسان رسول الله محمد ﷺ بتبليغه لهم هذا القرآن.

أقول: ولا مانع أن يشمل المعنى الأمرين معاً فقد صدر لهم الأمر في التوراة والإنجيل والقرآن بعبادة الله عبادة مبنية على الإخلاص، نقية من الشوائب، خالصة من الشرك.

فالإخلاص هو النية الخالصة، وهو أن يؤتى بالفعل خالصاً لداعيه وحده[1]، وعليه فالآية تدل على أن العبادة الخالصة ينبغي أن يفرد بها الله سبحانه وتعالى.

ويقرن القرآن الكريم الإخلاص في العبادة بقوله تعالى: «حنفاء»، والحنيف هو المائل عن الباطل إلى الحق، وهذه الآية حجة لمذهب أهل السنة والجماعة بأن الإيمان:قول وفعل وعمل، فهو إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح، والله قد ذكر في هذه الآية مجموع الأمور الثلاثة [2].

والإشارة بذلك في قوله «وذلك دين القيمة» لكل ما تقدم من الإخلاص في العبادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وسر الإشارة باسم الإشارة الذي للبعيد للإشعار بعلو الرتبة وبعد المنزلة في الشرف لمن تلبس بهذه العبادات العظيمة المقرونة بالإخلاص[3]، وهذه هي حقيقة الدين القيم، وهو الدين الكامل المنزه عن النقص.

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٤٧).

(٢) نفس المرجع السابق (٦/ ٤٩).

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

ثم يبين القرآن من بعد ذلك حال الفريقين- من عصى ومن أطاع البينة -في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، فيبين هذا المقطع الأخير من السورة مصير أهل الإجرام شر البرية من كفرة أهل كتاب والمشركين[1]، باستحقاقهم الخلود في نار جهنم، ويتبعه بمصير المؤمنين، أصحاب المنازل العالية خير البرية، واستحقاقهم الخلود في جنات النعيم، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين [2].

وبدأ القرآن ببيان مصير من كفر من أهل الكتاب والمشركين، بالخلود الدائم في نار جهنم لمن مات منهم على الكفر، واستحقاقهم الوصف بشر الخليقة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ وذلك أن الشرك لا يدخل صاحبه إذ مات عليه في دائرة المغفرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦].

وإنما قدم الحديث عن شر البرية على الحديث عن خير البرية، ليختم بمسك الختام أهل الجنان، ولأن دفع المفاسد أولى من جلب المصالح، ولأن السياق من بداية السورة في الحديث عمن عصى فخالف البينة فمن البلاغة التعجيل بذكر عاقبته.

---

(١) وقد عبر القرآن بلفظ الفعل «كفروا» عن أهل الكتاب، وعن المشركين باسم الفاعل تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل مقرين بمبعث محمد ﷺ. ثم إنهم كفروا بعد ذلك بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الشرك وإنكار الحشر والقيامة ، أنظر الفخر الرازي ، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، (١٦/ ٥٨٨).

(٢) انظر محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١ ، (٣/ ٥٨٦).

ولنا أن نتساءل كيف يسميهم شر البرية، وفي البرية من هو أكثر شراً منهم، كفرعون وعاد وثمود، وجواب ذلك أن يراد بالبرية المعاصرون لهم [(١)].

وقد جاء في قوله (شر البرية) قراءتان متواترتان، فقرأ نافع وابن عامر: «شر البريئة» في هذه الآية، و في الآية التي تليها «خير البريئة»، والبريئة من برأ الله الخلق وقرأ الباقون بغير همز «البرية»[(٢)]، وكل قراءة من هاتين القراءتين أفادت معنى، فالمراد بالمهموز «البريئة» الخليقة الشاملة للجن والإنس والملائكة، وبغير المهموز المخلوقات من التراب فقط وهم البشر [(٣)].

ثم يبين القرآن محاسن أحوال المؤمنين إثر بيان حال الكفرة جرياً على السنة القرآنية بإتباع الترهيب بالترغيب[(٤)]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ .

ويقرن القرآن الإيمان بالعمل الصالح لاستحقاق الجزاء لبيان أهمية العمل مع الإيمان، ويجمع الصالحات لتعددها فهم قوم لا يتركون باب خير إلا عملوا فيه بما يمليه عليهم إيمانهم، فاستحقوا بذلك أن يوصفوا بخير البرية، وأن ينالوا جزاء الإيمان والعمل الصالح دار الإقامة -جنات عدن- فهي مأخوذة من عدن بالمكان إذا أقام فيها [(٥)]وتتميز هذه الجنات بأن تجري الأنهار من تحت قصورها، أو من بين أشجارها، وقد جمعت الجنات والأنهار للإشارة لتعددها وتنوعها، فخلد فيها خير البرية بحياة أبدية دائمة تفضلاً من الله ومنة، وفازوا برضا الرحمن

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٧).

(٢) أبو علي الحسن بن عبد الغفار، الحجة للقراء السبعة، (٦/ ٤٢٨)، وانظر أبا الخير محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٤٠٣).

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٦٨).

(٤) انظر نفس المرجع السابق، (١٦/ ٣٦٧)، وانظر، البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ٤٩٥).

(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٥٥).

تبارك وتعالى، بعد أن تحقق منهم الالتزام والرضا بقدره سبحانه وتعالى «فرضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره منتهياً عن نهيه»[١].

وقدم القرآن الكريم رضا الله عن هؤلاء المؤمنين العاملين على رضاهم عنه «لأن الأزلي هو المؤثر المحدث، والمحدث لا يؤثر بالأزلي»[٢].

ثم يختم القرآن السورة بالإشارة باسم الإشارة الذي للبعيد «ذلك» لهذا الجزاء العظيم للتنويه بعلو منزلته، وجلال قدر من حظي به، ثم يبين أن من يستحق هذا الجزاء هو من خشي مقام الرحمن [٣] فتمثل في نفسه خوفاً مقروناً بالأمل والتعظيم لجلال الله تعالى، وخص الله تعالى أهل الخشية بالذكر في هذه الآية لأنها رأس كل بركة، وهي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر[٤]، جعلنا الله ممن يخشاه، فينال رضاه، ويحظى برفقة نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن، (١/ ٥٤٧).

(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٧/ ٥٧).

(٣) يذكر القرآن الكريم الخشية أكثر من الخوف في حق الله تعالى، لأن الخشية أشد من الخوف، لأن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي قوياً، بخلاف الخوف الذي يدل على ضعف الخائف وإن كان المخوف منه أمراً يسيراً، انظر د. فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان عمان، ١٩٩١م، (ص١٧٥)، وانظر السيوطي، معترك الأقران، (٣/ ٦٠٣).

(٤) الثعالبي، الجواهر الحسان، (٣/ ٤٩٢).

سورة الزلزلة

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الزلزلة): وهو ما اشتهرت به في بعض المصاحف، وبعض كتب التفسير ولمفتتحها.

٢- سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾: وهو ما وردت به الأخبار، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ عدلت له بربع القرآن، ومَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عدلت له بثلث القرآن)[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: نزلت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بالمدينة، وهو ما عنون لها الطبري والآلوسي والسخاوي والبخاري والترمذي في تفاسيرهم وكتبهم. ووجه التسمية بهذا الاسم أنه افتتحت بهذه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨١٨، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم، وفي الباب عن ابن عباس. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٦٦.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (الزلزال): وقد عنون لها بعض المفسرين، وكتبت في عدد من المصاحف.

٢ـ سورة (زلزلت)، وقد سمِّيت في بعض المصاحف، كما سمَّاها السخاوي بهذا الاسم.

٣ـ كما سميت الآيتان الأخيرتان فيها بالجامعة الفاذَّة، كما في صحيح البخاري حين سئل النبي ﷺ عن زكاة الحُمُر، فعن أبي هريرة ﷺ سئل النبي ﷺ عن الحُمُر، فقال: (لم ينزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾)[1].

ب ـ فضائل السورة:

قال القرطبي: هذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل نصف القرآن، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ تعدل ربع القرآن)[2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، قال له: اقرأ ثلاثاً من ذات الراء، فقال الرجل: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: فاقرأ من ذات حم، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾، حتى إذا فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل، أفلح الرويجل، ثم قال: عليَّ به، فجاءه فقال له:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٨١.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. سنن الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾: رقم الحديث: ٢٨١٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٦٦، وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦.

أُمِرتُ بيوم الأضحى، جعله الله عيداً لهذه الأمة، فقال الرجل: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة ابني أفأضحِّي بها؟ قال: لا، ولكن تأخذ من شعرك، وتقلِّم أظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فذلك تمام أضحيتك عند الله)[1].

وعن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[2].

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ وأبو بكر قاعد، فبكى، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون، فيغفر لهم)[3].

وعن معاذ بن عبد الله الجهني: (أن رجلاً من جهينة أخبره أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الصبح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ في الركعتين كلتيهما، فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمداً؟)[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٦٢٨٧، وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم الحديث: ١١٩١، والنسائي في فضائل القرآن: رقم الحديث: ٥٢. وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/ ٥٣٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين، رقم الحديث: ٦٩٣.=

ج ـ مرحلة النزول:

اختُلِف في أمر نزولها على قولين: مدنية في قول ابن عباس وقتادة ومقاتل، وهو قول الجمهور، يؤيده قول ابن عباس: نزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ في المدينة، ومكية في قول ابن مسعود وجابر بن عبد الله وعطاء. وقد عُدَّت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور، فيما روي عن جابر بن زيد، وهو بناءٌ على أنها مدنية، جعلها بعد سورة (النساء)، وقبل سورة (الحديد)[1].

د ـ أسباب نزولها:

سمِّيت الآيتان الأخيرتان فيها: (السابعة والثامنة) بالجامعة الفاذَّة، كما في صحيح البخاري حين سئل النبي ﷺ عن زكاة الحُمُر، فعن أبي هريرة ﷺ، سئل النبي ﷺ عن الحُمُر فقال: لم ينزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[2].

وقال مقاتل: نزلت الآيتان في رجلين، وذلك أنه لما نزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهما يأتيه السائل، فيسأله أن يعطيه التمرة والكِسرة والجوزة، ويقول: ما هذا بشيء، وإنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير؛ الكذبة، والغيبة، والنظرة، ويقول: ليس عليَّ من هذا شيء، إنما أوعد الله بالنار على الكبائر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ يرغِّبهم في القليل من الخير، فإنه يوشك أن يكثر، ويحذِّرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر[3].

= قال النووي في المجموع: ٣/ ٣٨٤ إسناده صحيح.

(١) زاد المسير: ٨/ ٣٠٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٦، وفتح القدير: ٥/ ٦٤٢، و التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٨٩، و الهداية إلى بلوغ النهاية: ١٢/ ٨٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٨١.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٥.

فلهذا روى عدي بن حاتم ﷺ أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوَّذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوَّذ منها، ثم قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)[1].

هـ- عدد آيات سورة (الزلزلة):

تسع آيات عند جمهور أهل العدِّ، وعدَّها الكوفيون ثماني آيات، لاختلافهم في آية: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾. فعدَّها بعضهم آيتين، وعدَّها آخرون آية واحدة[2].

و- محور سورة (الزلزلة):

تتمحور سورة (الزلزلة) حول موضوع الرجوع إلى الله تعالى، والإخبار عن أهوال يوم القيامة وشدائدها، وأشراط البعث، وما يعتري الناس عند حدوثه من فزع، وذكر جزاء الطاعة وعقوبة المعصية، وذكر وزن الأعمال في ميزان العدل. وقد اشتملت على مقصدين اثنين:

١- بيان حدوث الزلزلة والاضطراب الشديد للأرض يوم القيامة، حيث ينهار كل ما عليها، ويخرج الناس الموتى من بطنها من قبورهم، وتشهد حينئذ على كل إنسان بما عمل على ظهرها.

٢- الحديث عن رجوع الإنسان إلى الله تعالى، وذهاب الخلائق لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم، وقسمتهم إلى فريقين: سعيد إلى الجنة، وشقي إلى النار[3].

ز- المناسبات في سورة (الزلزلة):

١- المناسبة بين سورة (الزلزلة) ومحورها:

السورة واضحة الارتباط بمحورها، فهي تفصِّل في جزء من المحور، وهو موضوع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث: ٦٠٧٨.

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٣١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ص: ٢٠٢، والتفسير المنير: ٣٠/ ٢٥٥، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٥، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكنه تفصيل جديد، فما من سورة إلا وفيها جديد[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (الزلزلة):

افتتاحُ الكلام في السورة بظرْف الزمان مع إطالة الجُمَلِ المضافِ إليها الظرف تشويقٌ إلى متعلَّق الظرْف، إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، بل الإخبار عن وقوع ذلك، وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفزوع منه، بحيث لا يهمُّ الناس إلا معرفة وقته وأشراطه، فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الوقت[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وخاتمتها:

لما بيَّن الله تعالى في افتتاحية السورة أهوال ذاك اليوم، بذكر بعض أماراته من الزلزلة وإخراج الناس من القبور، وأراد أن يزيد في وعد المؤمن ووعيد الكافر بالجزاء الوافي، والأجر المتكافئ، فجاءت الخاتمة تجمع بين الوعد والوعيد، بذكر الذرَّة من الخير والشر[3].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الله تعالى سورة (البينة) بجزاء الصالح والطالح في دار البقاء على ما أسلفوه في مواطن الفناء، ذكر في هذه السورة أول مبادئ تلك الدار، وآخر غاياتها، فالصلة بين سورتي (البيِّنة) و(الزلزلة) واضحة، حتى لتكاد تكون سورة (الزلزلة) استمراراً لسورة (البيِّنة)، إذ أن خاتمة سورة (البيِّنة) تتحدث عن جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين يوم القيامة، وتأتي سورة (الزلزلة) لتحدثنا عن ذلك اليوم، وما يكون فيه، وعن قاعدة الحساب والجزاء فيه، ويبيِّن بها حصول جزاء الفريقين. فكأنه لما ذكر في السورة السابقة جزاء الفريقين حين قال تعالى:

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٥٥.

﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، كان ذلك المحرك للسؤال عن وقته وعلاماته، فبيَّنه جلَّ شأنه في هذه السورة، فكأنَّ المكلف قال: ومتى يكون ذلك يا رب؟ فقال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾، أي يكون يوم زلزلة الأرض[1].

٥- المناسبة بين افتتاحية سورة (الزلزلة) وافتتاحية سابقتها:

لما ذكر فيما قبلها كون الكفار يكونون في النار، وجزاء المؤمنين، فكأن قائلاً قال: متى ذلك؟ فقال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾[2].

٦- المناسبة بين سورة (الزلزلة) وما بعدها:

تنتهي سورة (الزلزلة) بالآية الجامعة الفاذَّة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾، وتبدأ سورة (العاديات) لتتحدث عن طبيعة الإنسان وكنوده، ومحبته للمال والدنيا، وتعالج ذلك، وفي ذلك حضٌّ على فعل الخير وترك الشر، فالسورة كثيرة الصلات بما بعدها[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال عن هذه السورة: (إنها هزَّةٌ عنيفة للقلوب الغافلة، هزَّةٌ يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي. وصيحة قوية مزلزِلة للأرض ومَن عليها؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قِصار! وهذا هو طابع الجزء كله، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قوياً... ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٧، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٠٨، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٠٢، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٣٢، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢١٧.

(٢) تفسير البحر المحيط: ١٠/ ٥٢١.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٤.

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتزلزل زلزالاً، وتنفض ما في جوفها نفضاً، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً. وكأنها تتخفَّف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلاً! وهو مشهد يهزُّ تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويُخيل إليهم أنهم يترنَّحون ويتأرجحون، والأرض من تحتهم تهتزُّ وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبَّث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتاً باقياً؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصوِّرها القرآن، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة! ويزيد هذا الأثر وضوحاً بتصوير (الإنسان) حيال المشهد المعروض، ورسم انفعالاته وهو يشهده: ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾؟ وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يُدرك، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت. مالها؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجُّها رجاً؟ مالها؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنَّح معها؛ ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته، وكل ما حوله يمور موراً شديداً! (والإنسان) قد شهد الزلازل والبراكين من قبل. وكان يصاب منها بالهلع والذعر، والهلاك والدمار، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا. فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به. أمر لا يعرف له سراً، ولا يذكر له نظيراً. أمر هائل يقع للمرة الأولى! ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾.. يوم يقع هذا الزلزال، ويُشْدَه أمامه الإنسان ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها، وتصف حالها وما جرى لها.. لقد كان ما كان لها ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.. وأمرها أن تمور موراً، وأن تزلزل زلزالها، وأن تخرج أثقالها! فأطاعت أمر ربها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢] تحدث أخبارها. فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها..

وهنا و(الإنسان) مشدوه مأخوذ، والإيقاع يلهث فزعاً ورعباً، ودهشة وعجباً، واضطراباً وموراً.. هنا و(الإنسان) لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل: مالها مالها؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾.. نرى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: ٧].. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ [ق: ٤٤] وحيثما امتد البصر رأى شبحاً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً! لا يلوي على شيء، ولا ينظر وراءه ولا حواليه: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر: ٨] ممدودة رقابهم، شاخصة أبصارهم.

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[عبس: ٣٧]. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر. هائل مروّع. مفزع. مرعب. مذهل.. كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك، وفي حدود ما يطيق!

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.. وهذه أشد وأدهى.. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجَه بعمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر؟! إنها عقوبة هائلة رهيبة.. مجرد أن يُروا أعمالهم، وأن يواجَهوا بها كان منهم! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.. ذرة.. كان المفسرون القدامى يقولون: إنها البعوضة. وكانوا يقولون: إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس.. فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة... فنحن الآن نعلم

أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة. أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل. إنما هي (رؤيا) في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره. وكل ما رآه هو آثارها! فهذه أو ما يشبهها من ثقل، من خير أو شر، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها!.. عندئذ لا يحقر (الإنسان) شيئاً من عمله. خيراً كان أو شراً. ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل! إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض.. إلا في القلب المؤمن.. القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر.. ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال.. إنها قلوب عتلَّة في الأرض، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!)[1].

دروس وعبر من سورة (الزلزلة):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء والنشور والحساب، ثم المآل إلى الجنة أو النار، وهي بعض مشاهد اليوم الآخر وأحداثه، وهو أحد أركان الإيمان الستة، لا يقبل إيمان المسلم بدونه.
* تقرير ظاهرة الانقلاب الكوني الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات. فتحدث زلزلة الأرض عند النفخة الأولى، لتلفظ الكنوز والدفائن، ثم ترجف عند النفخة الثانية، فتخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب.
* تكلم الجمادات من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، وهي موجبات ألوهيته وحده دون سواه. وقد اختُلِف في تحديث الأرض وإخبارها؛ فقال الجمهور: هو على الحقيقة، إذ يجعل الله تعالى الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً، ويعرِّفها جميعَ ما عمل أهلها، فتشهد لمن أطاع، وعلى مَن عصى.

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٤.

وقال الطبري وآخرون: هو على المجاز، بمعنى أن ما تفعله بأمر الله تعالى من إخراج أثقالها وسائر أحوالها فهو بمنزلة التحديث، والأول أرجح، ويشهد لرجحانه جمهرة قائليه وظاهر النص وإطلاقه، ثم عموم قدرة الله تعالى على كل شيء.

كما يؤيده حديث البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري ثم المازني عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ)(١)(٢).

٤ـ كل من يعمل في الدنيا عملاً خيراً صغيراً أو كبيراً، يره بعينه، أو يُره الله إياه يوم القيامة، وكل من يعمل في الدنيا عملاً شراً مهما كان قليلاً، يره بنفسه، أو يُره الله إياه يوم القيامة، فيجد جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أما الكافر فحسناته في الآخرة محبطة بكفره وترد في وجهه، ويجد عقاب ما فعل من كفر أو شر، فيعذب بسيئاته. قال ابن عباس: ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته.

وما من أحد في الآخرة إلا ويندم؛ إن كان محسناً أن لو ازداد من إحسانه في دنياه، وإن كان مسيئاً أن لو نزع عن السيئة، وكفَّ عن المعصية، قبل أن يلقى وجه ربه، وهذا الندم عند معاينة العذاب(٣).

* توصيف المجازاة يوم القيامة بتحديد الذرَّة كمقياس على المحاسبة، رغم أن الذرَّة لا وزن لها بالمفهوم الدنيوي، ولولا أن لها وزناً عند الله تعالى لما جعلها مقياس الحساب، مما يؤكد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم الحديث: ٥٧٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٤٩، ١٥٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٥٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٥.

مصداقية المجازاة، وعدالة قانون السماء في وفاء كل ذي حق حقه. فكل مَن عمل في الدنيا عملاً يُجزاه في الآخرة جزاءً عادلاً، كبُر أم صغُر، جلَّ أم حقر، عظُم أم هان، ولو كان وزن الذرَّة، يُحصى على ابن آدم ويُجازاه، وهذا منتهى العدل الإلهي، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

قال كعب الأحبار: لقد أنزل الله على محمد ﷺ آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

وقال ابن مسعود: هذه أحكم آية في كتاب الله تعالى. واتفق العلماء على عموم هذه الآية[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: (يا نساء المسلمات، لا تحقرنَّ جارة لجارتها، ولو فرسن شاة)[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عائشة، إيَّاكِ ومحقّرات الأعمال فإن لها من الله طالباً)[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب لا تحقرنَّ جارة لجارتها، رقم الحديث: ٥٥٥٨. والفرسن: الظلف، أو الحافر.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم الحديث: ٤٢٣٣، وأحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٣٢٧٩.

سورة العاديات

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: (سورة العاديات)، وكذا كتبت في المصاحف وكتب التفسير، كما وردت في بعض كتب التفسير: سورة ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ﴾، بإثبات واو القسم.

ووجه التسمية أن الله تعالى افتتحها بالقسم بالعاديات، وهي خيل الجهاد، ولم يرد هذا اللفظ في غير هذه السورة.

ب ـ فضائل السورة:

ورد في فضل قراءتها أحاديث ضعيفة.

وروى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: بينما أنا جالس في الحِجْر، جاءني رجل فسألني عن: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ ﴾، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويُورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى عليّ بن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألتَ عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابن عباس فقال: الخيل تغزو في سبيل الله، قال: اذهب فادْعُه لي، فلما وقفتُ عند رأسه، قال: تُفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانتْ أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرَسان؛ فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً، إنما العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن

المزدلفة إلى منى، (يعني بذلك أن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي أوله غزوة بدر)، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال عليّ.

قال ابن عاشور: وليس في قول عليّ ﵁ تصريح بأنها مكية ولا مدنية[1].

ج- مرحلة النزول:

مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنية في قول أنس وقتادة وإحدى الروايتين عن ابن عباس.

وعُدَّت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة (العصر)، وقبل سورة (الكوثر)[2].

د- أسباب نزولها:

قال مقاتل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمر الأنصاري، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها، فأنزل: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ١﴾، إعلاماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات. وهذا الحديث قال السيوطي عنه في الإتقان: رواه الحاكم وغيره.

وقال ابن كثير: روى أبو بكر البزار هنا حديثاً غريباً جداً، وساق الحديث قريباً مما في الواحدي.

قال ابن عاشور: غرابة الحديث لا تناكد قبوله، وهو مروي عن الثقات، إلا أن في سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً فأسهبت شهراً لم يأته منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ١﴾ ضبحت بمناخرها، إلى آخر السورة[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٨.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٨١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٧، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٥٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٦، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٧.

هـ- عدد آيات سورة (العاديات):

إحدى عشرة آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

و- محور سورة (العاديات):

ذمُّ خصال تُفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، من جحود للنعم، وبخل لحب الخير، وإهمال الاستعداد ليوم القيامة، وهي خصالٌ غالبة على المشركين والمنافقين، ويراد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن، ويهدد به الجاحد، والإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لإيثار الفاني من العزِّ والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم والمقسم عليه وما عطف عليه، وقد علم أن اسمها أدلّ شيء على ذلك، لما هدى إليه القسم والمقسَم عليه[2].

ز- المناسبات في سورة (العاديات):

١- المناسبة بين سورة (العاديات) ومحورها:

انصب السياق على ذكر طبيعة الإنسان، فهو كنود يحب المال والمنافع الدنيوية، وذكرت السورة علاج هاتين الصفتين، وذلك يكون بتذكر البعث، وما فيه من تحصيل ما في الأنفس وعلم الله عزَّ وجلَّ بها، إن هذا التذكير هو الذي يحرر الإنسان من كنوده، وحبه الشديد للمال حتى لا يلقى الله عزَّ وجلَّ بأمراضه المخجلة تلك، فإذا علم الإنسان ذلك تحرر من الكفر وأقبل على الإيمان والصلاة والإنفاق، واتباع كتاب الله عزَّ وجلَّ، فلا صارف يصرف عن هذه الأشياء مثل جحود نعم الله عزَّ وجلَّ، وحبه الدنيا، ومن هنا ندرك سياق السورة الخاص وصلتها بمحورها في التحقق بصفات المتقين، إذ هي تحرر الإنسان مما يمنعه من التحقق بصفات المتقين.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٣٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٩٨، ونظم الدرر في تناسب الآيات والدرر: ٢٢/ ٢١١.

إن الجحود لنعم الله تعالى ينتج عن الكفران الذي لا يرافقه اعتراف ولا عبودية، ومن ثم فلا إيمان ولا صلاة ولا اتباع كتاب. وإن حبَّ المال ينتج عنه حجب الحقوق، وعدم الإنفاق، وينتج عنه قبول الفتنة في أمر الإسلام[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (العاديات) بالقَسَم:

العاديات هي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عزّ، وبطونها كنز، وهي لرَجُل وِزر، ولرَجُل آخر أجر، فمَن فاخر بها ونادى بها أهل الإسلام وأبطره عزها حتى قطع الطريق وأخاف الرفيق كانت له شراً، ومَن جعلها في سبيل الله كانت له أجراً، ومَن حمل عليها ولم ينسَ حق الله في رقابها وظهورها كانت له ستراً، وإنما أقسم سبحانه بالعاديات ليتأمل ما فيها من الأسرار الكبار، التي باينت به أمثالها من الدواب، ليعلم أن الذي خصَّها بذلك فاعل مختار، واحد قهار، فالقسم في الحقيقة به سبحانه[2].

وفي إقسام الله تعالى بها بوصف العاديات المغيرات الموريات، إشارة إلى أنه يجب أن تقتنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع، لا للخيلاء والزينة، وأن الركوب الذي يُحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء، وخضد شوكتهم، وصدِّ عدوانهم. وقصارى ذلك: أن للخيل في عدْوها فوائد لا يحصى عدّها، فهي تصلح للطلب، وتسعف في الهرب، وتساعد جد المساعدة في النجاء، والكرِّ والفرِّ على الأعداء، وقطع شاسع المسافة في الزمن القليل[3].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وخاتمتها:

لما ذكر العدْو وما يتآثر عنه، ذكر نتيجته وغايته، ولما كان إقدام الإنسان على الظلم عجباً فإذا كان يشهد على نفسه بالظلم كان أعجب، ولما كان من العجائب أن يكفر أحد إحسان

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١١، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٣٧.

(٣) تفسير المراغي: ٣٠/ ٢٢٣.

المنعم، ذكر الحامل له حتى هان عليه.

وفيه إشعار بأن كل أحد يعرف غاية المعرفة في ذلك أنه سبحانه وتعالى عالم بأحواله لا ذهول له عن شيء من ذلك، كما يقع في هذه الدار من أن الإنسان يعمل أشياء كثيرة، وهو غافل عن أن ربه سبحانه مطلع عليه فيها، ولو نُبِّه لعلم، فلإحاطته سبحانه وتعالى بجميع أحوالهم كان عالماً بأن الإنسان لربه لكنود، وقد رجع آخرها إلى أولها، وتكفل مفصلها بشرح مجملها، والله الهادي للصواب[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يجرُّ إلى تلك الأعمال من الطبع، وما ينجرُّ إليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفع، موبخاً مَن لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنِّفاً من آثر دنياه على أخراه، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النِعَم الكبار الموجبة للشكر، فمَن غلب عليه الروح شكر، ومَن غلب عليه الطبع ـ وهم الأكثر ـ كفر.

ولما ذكر الله تعالى فيما قبلها الجزاء على الخير والشر، أتبع ذلك فيها بالحديث عن طبيعة الإنسان وجحوده، ومحبته للمال، وعالج ذلك بتوبيخ الإنسان على جحود نعم ربه، وتعنيت مَن آثر دنياه على آخرته، ولم يستعد للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان، وفي ذلك حضٌّ على فعل الخير وترك الشر، فالسورة كثيرة الصلات بما قبلها[2].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (العاديات) ومحورها:

تتحدث السورة عن طبيعة الإنسان وأنه جحود، محبٌّ لمصلحته ومنفعته، كما تتحدث

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١٩.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢١٥، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٦٦، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٢١، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢١٠.

عن غريزته في حبه الشديد للثروة والمال، وهي تعالج هذا المعنى عند الإنسان، بتذكيره بالبعث والحساب، ومعرفة الله تعالى.

كما تتحدث عن سبب الكفر والنفاق، وتعالج ذلك بالتهديد بالعقاب الشديد، وبالحضِّ على فعل الخير والعمل الصالح، ليكون الإنسان من المتقين[1].

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (العاديات) بعضها مع بعض:

السورة مشوار واحد لاهث صاحب ثائر.. حتى ينتهي إلى هذا القرار.. معنىً ولفظاً وإيقاعاً، على طريقة القرآن[2].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العاديات) وافتتاحية سابقتها:

لا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ وقوله تعالى هنا: ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾من المناسبة والعلاقة على ما سمعت من أن المراد بالأثقال ما في جوفها من الأموات، أو ما يعمهم من الكنوز[3]. فلما ذكر فيما قبلها ما يقتضي تهديداً ووعيداً بيوم القيامة، أتبعه بتعنيفٍ لمن لا يستعد لذلك اليوم، ومَن آثر أمر دنياه على أمر آخرته[4].

٨ـ المناسبة بين سورة (العاديات) وما بعدها:

تتشابه السورتان تشابهاً كبيراً في وحدة محورهما، إذ العاديات تتحدث عن سبب الكفر والنفاق، وتعالج ذلك ليكون الإنسان من المتقين، وتأتي القارعة لتتحدث عن اليوم الآخر وعما يكون فيه من فلاح لأهل العمل الصالح، ومن عذاب وخسران لأهل الكفر، وهذا مظهر من مظاهر صلتها بسابقتها في معالجة معانٍ سلبية في الإنسان، وذلك مظهر من مظاهر أسباب تعدد

---

(١) الأساس في التفسير: ٢٢/ ٦٦٤٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٢.
(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٩.
(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢١٥.
(٤) البحر المحيط: ١٠/ ٥٢٧.

المجموعات القرآنية، إذ تؤدي كل منها خدمة في مجال التربية والتعليم، والبيان والتفصيل، وهو مدى لا يحاط به، ومن ثم فلا يغني عن ختم القرآن وتكراره شيء، فكل سورة فيها جديد، وكل مجموعة فيها جديد، وكل قسم فيه جديد، وكل ذلك يترك آثاره الخاصة في النفس البشرية[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال في هذه السورة: (يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً، في خفة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف!

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرَّة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد!

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور!

وفي الختام ينتهي النقع المثار، وينتهي الكنود والشح، وتنتهي البعثرة والجمع.. إلى نهايتها جميعاً. إلى الله. فتستقر هناك: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾..

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصَّل ما فيها بشدة وقوة، كما تناسب جو الجحود والكنود والأثرة والشح الشديد.. فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك، تثيره الخيل العادية في جريها، الصاخبة بأصواتها، القادحة بحوافرها، المغيرة فجاءة مع الصباح، المثيرة للنقع والغبار، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار.. فكان الإطار من الصورة، والصورة من الإطار.

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥١.

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار. غبار المعركة على غير انتظار. وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرَّة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب!

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة.. والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله، والتفاته سبحانه إليها؟

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها، والمعقب بها، كما أسلفنا. أما الذي يقسم الله سبحانه عليه، فهو حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان. حقيقة ينبهه القرآن إليها، ليجند إرادته لكفاحها، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه، وثقل وقعها في كيانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾..

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله. ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بها. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال!

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير. ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا...

هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه

واهتماماته. ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً. كما يبدل أثرته وشحه إيثاراً ورحمة. ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح. وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا ..

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات.. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات.. عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء..

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه. مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير، وتوقظ من غفلة البطر:

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾؟.. وهو مشهد عنيف مثير. بعثرة لما في القبور. بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير. وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنَّت بها وخبأتها بعيداً عن العيون. تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي.. فالجو كله عنف وشدة وتعفير!

أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر. ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب، وترود كل مراد، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب!

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء، وكل أمر، وكل مصير:

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.. فالمرجع إلى ربهم. وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وبأحوالهم وأسرارهم.. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال. ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾

آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام... إنها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء. وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام!

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر.. حتى ينتهي إلى هذا القرار.. معنى ولفظاً وإيقاعاً، على طريقة القرآن!)[1].

دروس وعبر من سورة (العاديات):

* الحث على الجهاد، والترغيب فيه، والإعداد له، والتزام الحداثة في أساليبه ووسائله، بما يجعل الأمة دائماً في الطليعة إعداداً وتهيؤاً.
* حبُّ المال غريزة فطرية إنسانية، يستجيب المسلم لنوازعها إيجابياً، فيسعى لاستغلالها في توظيف المال بما يخدم مقاصد الدين، ويحقق النفع العام، ويكون عوناً على الطاعة. ويتنزه عن الحب الشديد للمال الذي يجعله جحوداً لنعمة الله تعالى عليه، حريصاً على جمع المال، أسيراً لهواه، شحيحاً بعيداً عن فعل الخير.
* تقرير عقيدة البعث والجزاء والنشور.
* وبَّخ الله تعالى بالعلم التام الأزلي الأبدي الشامل لأحوال مبدأ الإنسان ومعاده، والتوبيخ أو التهديد مدعاة للعقلاء إلى التأمل في المصير المحتوم، والاستعداد للآخرة بزاد التقوى والفضيلة، والبعد عن العصيان والمخالفة والرذيلة. ولا يختلف العلم وقت المجازاة بالأعمال والأقوال والأحوال عن العلم الأزلي لله تعالى بذلك. وإنما قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ للتأكيد على شمول العلم في الماضي والحاضر والمستقبل، ولأن الجزاء منوط بالعمل السابق، فيكون تخصيصه دالاً على التذكر وعدم النسيان، وعلى التزام العدل وتوفر العلم وقت الجزاء[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٥٧.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٢.

* القول الراجح أن المراد بالقَسَم الوارد في السورة الخيلُ، وهناك خلاف؛ هل المراد بها خيل الغزاة، أو خيل الحجيج في انطلاقها من عرفات إلى مزدلفة إلى منى، وهو خلاف لا يوقف عنده. فالحج نوع جهاد في سبيل الله، ولا شك أن في القَسَم بالخيل تعظيماً لها، كآلة جهاد، وهذا يجعل المسلم يفكر دائماً بآلات الجهاد[1].

* القَسَم بالخيل لما لها من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، ولأن الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة[2]، ولأنها وسيلة الغزو عند العرب، ولا تكاد تخلو في الأغلب من الخطور ببالهم. والمراد إعلاء شأنها في نفوس المؤمنين، ولِيُعْنَوا بتربيتها، وليتدربوا عليها من أجل الجهاد في سبيل الله، وليعتادوا على معالي الأمور، وظواهر الجد والعمل[3].

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٤٧.

(٢) عن عروة البارقي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر، والمغنم). أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر، رقم الحديث: ٢٦٤٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٠.

سورة القارعة

قال الله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، وهو في اللغة من القرع وهو الضرب، والقارعة النازلة الشديدة، تنزل عليهم بأمر عظيم، وهي من أسماء يوم القيامة، وإنما سميت القيامة بالقارعة، لأنها تقرع القلوب بأهوالها وشدائدها، وبهذا الاسم عُرفت السورة واشتُهرت به، وكُتبت في المصاحف والتفسير وكتب السنة. ووجه التسمية لمفتتحها به، وقد وردت اللفظة في آيتين؛ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١].

ب ـ فضائل السورة:

روى أبو يعلى الموصلي من طرق، عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث، فسأل عنه، فقيل: يا رسول الله، تركناه مثل الفرخ، لا يدخل في رأسه، إلا خرج من دبره، فعاده رسول الله ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ مِمَّ ذلك؟ قال: يا رسول الله مررت بك وأنت تصلِّي المغرب، فصلَّيت معك، وأنت تقرأ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾، إلى آخرها، فقلت: اللهم ما كان من ذنب أنت معذِّبي عليه في الآخرة فعجِّل

لي عقوبته في الدنيا، فتراني كما تراني، قال رسول الله ﷺ: لبئس ما قلت، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ويقيك عذاب النار؟ فأمره رسول الله ﷺ بذلك، ودعا له النبي ﷺ، فقام كأنما نشط من عقال. فذكره.

وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، واتهم به عباد بن كثير. قال الحافظ شهاب الدين البوصيري: لم ينفرد به عباد، بل له طرق، يعني من غير طريقه[1].

ج. مرحلة النزول:

هي مكية بإجماع بلا خلاف. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (نزلت سورة القارعة بمكة)[2].

وعُدَّت الثلاثين في عِداد نزول السور، نزلت بعد سورة (قريش)، وقبل سورة (القيامة)[3].

د. عدد آيات سورة (القارعة):

ثماني آيات في عدِّ أهل الشام والبصرة، وعشر في عدِّ أهل المدينة وأهل مكة، وإحدى عشرة في عدِّ أهل الكوفة.

واختلافها في ثلاث آيات؛ القارعة الأولى، فقد عدَّها الكوفي دون الباقين، و﴿ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾، و﴿ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ لم يعدَّهما البصري والشامي، وعدَّهما الباقون[4].

هـ. محور سورة (القارعة):

مقصودها: إيضاح يوم الدين، بتصوير ثواني أحواله في مبدئه ومآله، وتقسيم الناس

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٠.
(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٨٥، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٨/ ٦٠٥.
(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٣٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩.

فيه إلى ناجٍ وهالك[1]. فقد تناولت السورة وصف أهوال يوم القيامة، وأماراتها، وشدائدها، والتخويفَ منها، وانتشار الناس فيها من قبورهم كالفراش المتطاير، ونسف الجبال، وجعلها كالصوف المنبثِّ المتطاير في الهواء، وختمت السورة بالإخبار عن نصب موازين الحساب، التي توزن بها أعمال العباد، ورجحان كفة المؤمن بتثقيل ميزانه بالحسنات المفضية إلى الجنة، وخِفَّة كفَّة الفاجر بتخفيف ميزانه بالسيئات المفضية إلى النار.

و- المناسبات في سورة (القارعة):

١- المناسبة بين سورة (القارعة) ومحورها:

بيَّنت السورة عاقبة المتقين الذين ثقلت حسناتهم، وعاقبة الكافرين الذين لا يقبل الله عزَّ وجلَّ منهم عملاً، وفي ذلك دعوة للإيمان والتقوى والعمل الصالح، كما أن فيها دعوة للتحرر من الكفر والفجور[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (القارعة):

افتتحت سورة (القارعة) بالحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، وعن الساعة التي تبعثر فيها القبور، وعما يكون فيها، ولما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها، وجليل سلطانها، عبر عن ذلك وزاده عظماً بالإلهام والإظهار في موضع الإضمار مشيراً بالاستفهام إلى أنها مما يستحق السؤال عنه على وجه التعجيب والاستعظام، فقال: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾، وأكد تعظيمها إعلاماً بأنه مهما خطر ببالك من عظمها فهي أعظم منه، فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، أي: وأي شيء أعلمك وإن بالغت في التعرف، وأظهر موضع الإضمار لذلك فقال: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾، أي: أنك لا تعرفها، لأنك لم تعهد مثلها[3].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥٣.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠.

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وخاتمتها:

في حين استفتحت السورة بالحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، جاءت خاتمة سورة (القارعة) بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء، حسب ثقل الموازين وخفتها، واختتمت بالحديث عن عاقبة مَن رجحت كفَّة سيئاته بالهوي في نار جهنم. ولَّما هوَّلها بها ذكر، أتبعها ما يمكن البشر معرفته من وصفها، فقال: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾، أي قد انتهى حرُّها، هذا ما تتعارفونه بينكم، وأما التفاصيل فأمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا نهاية (القارعة)، فتلاؤم الأول والآخر واضح جداً وظاهر، والله أعلم[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وخاتمة ما قبلها:

لما ختم السورة السابقة بوصف يوم القيامة والبعث فيه، افتتح هذه السورة بالحديث عن أهوالها المخيفة وصيحتها، فقال: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾.

ولما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾، كان ذلك مظنَّة لأن يُسأل: متى وما ذلك اليوم؟ فقيل: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾[2].

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (القارعة) بعضها مع بعض:

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ بلا خبر ولا صفة، لتلقي بظلالها وجرسها الإيحاء المدوِّي المرهوب! ثم أعقبها سؤال التهويل: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾ فهي الأمر المستهول الغامض، الذي يثير الدهش والتساؤل! ثم أجاب بسؤال التجهيل، فقال:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٧٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٣٢.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾؟ فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلمَّ بها التصور، ثم الإجابة بما يكون فيها، لا بماهيَّتِها، فماهيَّتُها فوق الإدراك والتصور...[1].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (القارعة) وافتتاحية سابقتها:

تقاربت الافتتاحية في السورتين بتوافق مناسبتيهما، وتماثل موضوعهما، وتشابه محوريهما، فكما استعرضت العاديات في افتتاحيتها طبيعة الإنسان، وجحوده المفضي إلى الخسران والبوار في النار، تناولت القارعة في افتتاحيتها الحديث عن أهوال القيامة وشدائدها، لتنبه إلى الحساب والميزان، وبيان أحوال الناس في الآخرة بين سعيد وشقي، ومآل كل منهما وجزائه. والتحذير من النتيجة الخاسرة بالهويِّ في النار الحامية. فكلتاهما شديد الصلة بالأخرى مناسبة وموضوعاً ومحوراً.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (القارعة: القيامة. كالطامَّة، والصاخَّة، والحاقَّة، والغاشية. والقارعة توحي بالقرع واللطم، فهي تقرع القلوب بهولها. والسورة كلها عن هذه القارعة؛ حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة. والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال، فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم: فهم ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة، ولا يعرف له هدفاً! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش، تتقاذفه الرياح، وتعبث به حتى الأنسام! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة، فيتسق الظلُّ الذي يلقيه اللفظ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء!

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾؟.. لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بلا خبر ولا صفة. لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب!

ثم أعقبها سؤال التهويل: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾.. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل!

ثم أجاب بسؤال التجهيل: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾.. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور!

ثم الإجابة بما يكون فيها، لا بماهيتها. فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾.

هذا هو المشهد الأول للقارعة. مشهد تطير له القلوب شعاعاً، وترجف منه الأوصال ارتجافاً. ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾. وثقل الموازين وخفتها تفيدنا: قيماً لها عند الله اعتبار، وقيماً ليس لها عنده اعتبار. وهذا ما يلقيه التعبير بجملتـه، وهـذا ـ والله أعلم ـ ما يريده الله بكلماته. فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام!

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾.. ويدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ ﴾ في اعتبار الله وتقويمه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾.. والأم هي مرجع الطفل وملاذه. فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية! وفي التعبير

أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص. وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود:

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾.. سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك!

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: ﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾ ﴾.. هذه هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة. فماذا هو واجد عند أمه هذه.. الهاوية.. النار.. الحامية!!

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!)[١].

ويقول صاحب روح المعاني: ومناسبتها لما قبلها أظهر من أن تذكر[٢].

دروس وعبر من سورة (القارعة):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر صورة صادقة لها.

* التحذير الشديد من أهوال يوم القيامة، وعذاب الله تعالى فيها، فالقيامة ذات أهوال وشدائد ومخاوف تهزُّ القلوب وتقرع الأسماع، لا يعلم أحد بكنهها، لأنها في الشدة بحيث لا يتصورها عقل أحد. قال مقاتل: إنها تقرع أعداء الله بالعذاب، وأما أولياؤه فهم من الفزع آمنون.

* تقرير عقيدة وزن الأعمال صالحها وفاسدها، وترتيب الجزاء عليها. فالناس يوم القيامة فريقان؛ بحسب ثقل موازين أعمالهم وخِفَّتها. فمَن رجحت حسناته على سيئاته فهو في الجنة في عيشة راضية، ومَن رجحت سيئاته على حسناته فهو في نار حامية شديدة الحرارة.

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٠.

* ورد ذكر الميزان للأعمال يوم القيامة في القرآن كثيراً. وقال ابن العربي في القواصم: لم يرد حديث صحيح في الميزان، والمقصود عدم فوات شيء من الأعمال، والله قادر على أن يجعل ذلك يوم القيامة بآلة، أو بعمل الملائكة، أو نحو ذلك(1).

* في قوله تعالى: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ أي حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير، إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها. وفي وصف النار الحامية عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرِّها)(2).

* وصف يوم القيامة بأمرين:

الأول: كون الناس فيه كالفراش المنتشر المتفرق، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار.

الثاني: صيرورة الجبال فيه كالصوف ذي الألوان، المندوف، الذي ينفش بعضه عن بعض.

ويلاحظ أن الله تعالى وصف تغير الأحوال على الجبال من وجوه ستة:

أولها: الاندكاك، وهي أن تصير قطعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤].

وثانيها: أن تصير كالعهن المنفوش، وهي أجزاء كالذرِّ الداخل من النافذة، كما في هذه السورة: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾.

ومثله قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج: ٨-٩].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٣.

(٢) وفي رواية: (كلهنَّ مثل حرِّها). أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حرِّ نار جهنم وبُعد قعرها، رقم الحديث: ٥٠٧٧.

وثالثها: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة:٤-٦].

ورابعها: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارَّة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [طه: ١٠٥].

وخامسها: أن تصير كثيباً مهيلاً، فترفعها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمَن نظر إليها من بُعد حسِبَها لتكاثفها أجساماً جامدة، وهي في الحقيقة مارَّة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها، فصارت منكدة متفتتة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ﴾ [النمل: ٨٨]، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المزمل: ١٤].

وسادسها: أن تصير سراباً، بمعنى لا شيء، فمَن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً، كما أن من يرى السراب من بُعْد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ: ٢٠][1].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٧٢، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٧٩.

سورة التكاثر

قال الله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١ـ تسمى سورة (التكاثر)، وهي ما عنونت له المصاحف وكتب التفسير والترمذي في جامعه، ووجه التسمية لافتتاحها بالحديث عن التكاثر.

٢ـ وتسمى سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، وقد جاءت في بعض أحاديث فضائل القرآن ـ كما سيأتي ـ كما جاءت في كلام ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت بمكة سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾. وكذا ترجم لها البخاري في صحيحه، والحاكم في مستدركه، ووجه التسمية لافتتاح أول آية فيها بقوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾. وعدّه السخاوي الاسم الآخر لسورة التكاثر.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ وسماها الطبري في تفسيره سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، دون تتمة الآية.

٢ـ وتسمى سورة (المقبرة)، وقد سماها الآلوسي في تفسيره، واستند إلى ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها (المقبرة)، ولم يعلل تسميتها، ولعل وجه التسمية بهذا الاسم لورود لفظ (المقابر) فيها، فسُمِّيت بمفردها (المقبرة)، وهو اسم اجتهادي من الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ.

ب- فضائل السورة:

عن مطرف عن أبيه قال: (أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)[1]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يقول العبد مالي، مالي إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[2]. وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب. (قال الراوي:) وقال لنا أبو الوليد: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبيّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾)[3]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قالوا: ومَن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾)[4].

ونقل الآلوسي عن ناصر الدين بن المليق في سرِّ ذلك أن القرآن ستة آلاف ومئتا آية وكسر، فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن، وهذه السورة تشتمل على سدس من مقاصد القرآن، فإنها على ما ذكره الغزالي ستة: ثلاثة مهمة؛ وهي تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم، وتعريف الحال عند الرجوع إليه عزَّ وجلَّ، وثلاثة متمَّة؛ وهي تعريف أحوال المطيعين، وحكاية أقوال الجاحدين، وتعريف منازل الطريق، وأحدها معرفة الآخرة المشار إليه بتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى المشتمل عليه السورة. والتعبير على هذا المعنى بألف آية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد، رقم الحديث: ٥٢٥٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزهد، رقم الحديث: ٥٢٥٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال: ١/ ٧٥٥٥، رقم الحديث: ٥٩٥٩.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب فضائل القرآن، ذكر فضائل سور وآي متفرقة: ١/ ٥٦٧، رقم الحديث: ٢٠٨١. وأخرجه البيهقي في الشعب، باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات، رقم الحديث: ٢٥١٨

أفخم وأجلُّ من التعبير بالسدس. انتهى. ومناسبتها لما قبلها ظاهرة[1].

ج ـ مرحلة النزول:

هي مكية عند الجمهور. قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافاً[2]، ومما يؤكد ذلك تكرار لفظ ﴿ كَلَّا ﴾، وهي من أمارات المكي من القرآن. وقد عُدَّت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة (الكوثر)، وقبل سورة (الماعون)، بناءً على أنها مكية[3].

د ـ أسباب نزولها:

أخرج ابن جرير عن علي قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان ومثل فلان؟ يشيرون إلى القبر، وتقول الأخرى مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾[4].

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في حيَّيْن من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، كان بينهما لحاً، فتعاند السادة والأشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف: نحن أكثر سيداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً، وقال بنو سهم مثل ذلك، فكثَّرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدُّ موتانا، حتى زاروا القبور، فعدُّوا موتاهم، فكثَّرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

---

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٠/ ١٦٨، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٧، والمحرر الوجيز: ١٥/ ٥٥٦.

(٣) فتح القدير: ٥/ ٤٨٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٨.

(٤) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٧.

وقال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلالاً[1].

هـ. عدد آيات سورة (التكاثر):

ثماني آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و. محور سورة (التكاثر):

ذمُّ الاشتغال بمظاهر الحياة الدنيا؛ فقد اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن، ودعوة الإسلام، من خلال إيثار المال والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور، كما صار مَن كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبر فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن أعمالهم، وإهمال شكر المنعم العظيم[3].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ: (والذي نفس محمد بيده، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً)[4].

ز. المناسبات في سورة (التكاثر):

١. المناسبة بين سورة (التكاثر) ومحورها:

جاءت سورة (التكاثر) لتحدثنا عن انشغال الكثير من الخلق بالدنيا، ولم تحدد السورة هذا الانشغال عن ماذا، بل حددت بماذا، والسياق يعرِّفنا عن ماذا كان الانشغال، ومحور

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٧.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم الحديث: ٦١٤٦.

السورة يحدده كذلك، وهو الانشغال عن عبادة الله عزَّ وجلَّ وتقواه، وهذا أول مظاهر صلة سورة (التكاثر) بمحورها، وتنتهي سورة (التكاثر) بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾، وقد رأينا أن آية المحور حدثتنا عن نعم الله تعالى علينا، وطالبتنا بناءً على ذلك بالعبادة والتقوى والتوحيد، ولكن كثيرين لا يفعلون ذلك، فهم يتنعمون ولا يشكرون، ومن ثم أنذرت سورة (التكاثر) بأن السؤال عن النعيم كائن، وهذا كذلك من مظاهر صلة سورة (التكاثر) بمحورها[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (التكاثر):

التذكير بالموت والقبر والحساب، وزجر الغافلين والعابثين، وتذكيرهم بيوم الدين، وأنه لن ينقذهم من النار جاه ولا سلطان، ولن ينفعهم سوى العمل الصالح.

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وخاتمتها:

استفتحت السورة بالحديث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور. وختمت السورة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدَّم صالح الأعمال، مدركين أن الدار الآخرة خير وأبقى.

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وخاتمة ما قبلها:

لما أثبت في (القارعة) أمر الساعة، وذكر أهوال يوم القيامة، فذمَّ اللاهين والمنشغلين عنها، وقسم الناس فيها إلى فريقين؛ شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه السورة بعلَّة الشقاوة، ومبدأ الحشر، لينزجر السامع عن هذا السبب، ليكون من القسم الأول. فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً، لأنه ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾[2].

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٥٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٢٥، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٥٨٠.

٥- المناسبة بين مقاطع سورة (التكاثر) بعضها مع بعض:

تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار ثلاث مرات بلفظ: ﴿ كَلَّا ﴾، تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية. كما تكرر الإخبار عن معاينة النار ورؤيتها بلفظ: ﴿ ثُمَّ ﴾، مع استعمال المضارع المؤكد بالنون المثقّلة ثلاثاً: ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾.

٦- المناسبة بين افتتاحية سورة (التكاثر) وافتتاحية سابقتها:

استفتحت سورة (القارعة) بالحديث عن بعض أهوال يوم القيامة ومشاهدها، وجزاء السعداء في الجنة، وجزاء الأشقياء في النار، ثم استفتح في هذه السورة ببيان علة استحقاق النار، وهو الانشغال بالدنيا عن الدين، واقتراف الآثام، وهددت بالمسؤولية في الآخرة عن أعمال الدنيا.

٧- المناسبة بين سورة (التكاثر) وما بعدها:

لما ذكر في سورة (التكاثر) تهالك الناس على حطام الدنيا الفاني، وتهافتهم على الانشغال بها عن الآخرة دار البقاء، كان ذلك مناسباً لتهيئة المؤمنين بما يحقق لهم السعادة والصلاح، فكان التذكير بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالخير والصبر كعلامات لفلاح المؤمن ونجاحه وبعده عن الخسران والهلاك.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير، قائم على شرف عال، يمدُّ بصوته ويدوِّي بنبرته، يصيح بنُوَّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسُّهم مسحور، فهو يمدّ بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أيها السادرون المخمورون. أيها اللاهون

المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر.. استيقظوا وانظروا.. فقد ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾.

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين:

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.. ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين:

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾. ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾.. ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة:

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾.. ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب:

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ ثم يلقي بالإيقاع الأخير، الذي يدع المخمور يفيق، والغافل يتنبه، والسادر يلتفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم!

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال؟ أم من حرام وفي حرام؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل استأثرتم؟

﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ عما تتكاثرون به وتتفاخرون.. فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل!

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها، وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها. وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهَمِّ الآخرة عن سفاسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا، وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن

بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء. فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد.. وما يقرأ الإنسان في هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها.. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها، ويمضي به مثقلاً في الطريق! ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد!)[1].

دروس وعبر من سورة (التكاثر):

* التحذير من جمع المال وتكثيره مع عدم شكره، وترك طاعة الله تعالى ورسوله من أجله.
* إثبات عذاب القبر وتأكيده، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾، أي ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾، أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب.

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن عليٍّ ﷺ قال: (ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾)[2].

قال القرطبي: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، والإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره، بردِّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثلِ الوصف الذي عاش عليه، ليعقل ما يُسأل عنه، وما يجيب به ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعِدَّ له في قبره من كرامة وهوان. وهذا هو مذهب أهل السنَّة، والذي عليه الجماعة من أهل الملَّة[3].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، رقم الحديث: ٣٢٧٨. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.

* تقرير عقيدة البعث، وحتمية الجزاء يوم القيامة، بعد الحساب والاستنطاق والاستجواب.

* حتمية سؤال العبد عن النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها في الدنيا، فإن كان شاكراً لها فاز، وإن كان كافراً لها أُخِذ، والعياذ بالله تعالى. وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكَر، وسؤال الكافر سؤال توبيخ لأنه ترك الشكر.

وقد استعرض القرطبي أشهر أقوال أهل التأويل في النعيم، فعدَّ منها: الأمن، والصحة، والفراغ، والإدراك بحواس السمع والبصر، وملاذ المأكول والمشروب، والغداء والعشاء وشِبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخُلق، ولذة النوم، وصحة البدن، وطيب النفس، والنوم مع الأمن والعافية، وجِلْف الخبز. وقال محمد بن كعب: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وقال الحسن: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن[1].

* لم يأتِ في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي لأنها تذكِّر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة)[2]. قال الترمذي: وفي الباب عن أبي سعيد وابن مسعود وأنس وأبي هريرة وأم سلمة. قال الترمذي: حديث بريدة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم لا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحق. وعن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ لعن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم الحديث: ٩٧٤.

زوَّارات القبور). قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخِّص النبي ﷺ في زيارة القبور، فلما رخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء، وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن)[1].

قال القرطبي: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء؛ أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد الكبيرات فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يُختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: (زوروا القبور) عاماً. وأما موضعٌ أو وقتٌ يُخشى فيه من الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز[2].

---

(١) جامع الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء، رقم الحديث: ٩٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٠، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٨٨.

سورة العصر

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

اسمها التوقيفي: سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾. وبه سمِّيت في المصاحف ومعظم كتب التفسير، وسمِّيت في بعضها سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ بإثبات الواو، على حكاية أول كلمة فيها أي سورة هذه الكلمة، ووجه التسمية بالعصر لقسم الله تعالى به في مطلعها.

والعصر هو الدهر. قال البقاعي: واسمها ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ واضح في ذلك، فإن العصر يخلص روح المعصور، ويميز صفاوته، ولذلك كان وقت هذا النبي الخاتم، الذي هو خلاصة الخلق ﷺ وقت العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات[1].

ب ـ فضائل السورة:

أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة ـ وكانت له صحبة ـ قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾ إلى آخرها، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم، لأنها شملت جميع علوم القرآن. وقال الآلوسي: وهي على قصرها جمعت من

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٦.

العلوم ما جمعت[1].

ج- مرحلة النزول:

مكية في قول جمهور المفسرين، وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنها مدنية. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد عُدَّت الثالثة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الانشراح)، وقبل سورة (العاديات)[2].

د- عدد آيات سورة (العصر):

ثلاث آيات في جميع العدد، واختلافها في آيتين: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾، لم يعدَّها المدني الأخير وعدَّها الباقون، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، عدَّها المدني الأخير، ولم يعدَّها الباقون[3]. وهي إحدى سور ثلاث هنَّ أقصر سور القرآن عدد آيات؛ هي، و(الكوثر)، و(النصر).

هـ- محور سورة (العصر):

جاءت السورة في غاية من الإيجاز والبيان، لتوضح رسالة الحياة، وسبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره. وقد تحدثت عن جنس الإنسان أنه في خسران شديد إلا من اتصف بصفات أربع، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والاعتصام بالصبر، وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين[4].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٣٤، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٢٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٢.

(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٩١، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٢٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٢.

(٤) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٠.

و- المناسبات في سورة (العصر):

١- المناسبة بين سورة (العصر) ومحورها:

تحدثت سورة (العصر) عن المتقين المفلحين بتفصيل جديد: إذ تبدأ بالقَسَم على أن جنس الإنسان في خسر، إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فهي تفصيل للتقوى، ولأخلاق المتقين المتصفين بالفلاح. فالقرآن حق يجب التواصي به، والقرآن أمر بالصبر، فسورة (العصر) أبرزت أن مما يدخل في الاهتداء بكتاب الله تعالى التواصي بالحق، والتواصي بالصبر. ففي التفصيل الجديد تحديد وبيان[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (العصر) بالقَسَم:

مناسبة القَسَم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة، فإنها بيَّنت حال الناس في عصر الإسلام بين مَن كفر به، ومَن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويُعرف منه حال مَن أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت، أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام لنسخه مثل اليهودية والنصرانية. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥][2].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وخاتمتها:

أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾، وهي العصر ولأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى، لما فيها من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما

(١) الأساس في التفسير: ١/ ٦٦٦٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٣٢.

في مروره من أصناف العجائب.

والذي رجحه ابن كثير هو القول الأخير، ففسَّر العصر بأنه الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر[1].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وخاتمة ما قبلها:

الصلة بين السورتين واضحة؛ فلما بيَّن في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم، فلما بيَّن ذلك في السورة السابقة، ووقع التهديد بتكرار: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ أراد أن يبيِّن في هذه السورة حال المؤمن والكافر، فبيَّن جنس الإنسان في خسران، إلا من اتصف بصفات أربع، فكأنه يحدِّثنا عن طريق النجاة وما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات، وهو ما يعود على النفس، ومن التواصي بالخيرات، وكفِّ النفس عن المناهي أو المعاصي، وهو ما يعود إلى المجتمع.

قال الآلوسي: فيها إشارة إلى حال مَن لم يُلهِه التكاثر، ولذا وضعت بعد سورته[2].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (العصر) ومحورها:

تضمنت هذه الآيات حكماً، ومحكوماً عليه، ومحكوماً به، فالحكم هو ما حكم الله تعالى به على الإنسان كل الإنسان من النقص والخسران، والمحكوم عليه هو الإنسان ابن آدم، والمحكوم به هو الخسران لمن لم يؤمن ويعمل صالحاً، والربح والنجاة من الخسران لمن آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر[3].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٢٤، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٣٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٧، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٦٨.

(٣) أيسر التفاسير: ٥/ ٦١٢.

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (العصر) وافتتاحية سابقتها:

لما قال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾، وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان، فقال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾، فالقصور شأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلَّته، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يدخل الله عليه روح الإيمان: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هؤلاء الذين ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[١].

٧ـ المناسبة بين سورة (العصر) وما بعدها:

رأينا أن سورة (العصر) ذكرت أن جنس الإنسان في خسر إلا مَن اتصف بصفات معينة، وتأتي سورة (الهمزة) لتحدد صفات الخاسرين، ومظهر خسارتهم، وهكذا تبدو الصلة واضحة بين السورتين. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه فيما قبلها أن الإنسان ـ سوى مَن استثنى ـ في خسر، بيَّن فيها أحوال بعض الخاسرين[٢].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام. وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها. في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله..

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٣٧.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٩.

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج. هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه. وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار..

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾. إنه الإيمان. والعمل الصالح. والتواصي بالحق. والتواصي بالصبر..

فما الإيمان؟؟

نحن لا نعرِّف الإيمان هنا تعريفه الفقهي; ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته في الحياة.

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود. ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه. والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير. ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة. ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله.

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه. فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان... وهي سعادة رفيعة، وفرح نفيس، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب. وهو كسب لا يعدله كسب. وفقدانه خسران لا يعدله خسران...

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة...

التعبد لإله واحد، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد، فلا يذلُّ لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار.. ومن هنا الانطلاق التحرري

الحقيقي للإنسان. الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود. إنه ليس هناك إلا قوة واحدة، وإلا معبود واحد. فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد.

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، وكل ما يربطه بالله، أو بالوجود، أو بالناس. فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلهما الشريعة والعدالة. وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة.. ولو كان فرداً واحداً، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام.

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا وساطة في الطريق. ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء!

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله. فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين.

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله، يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه... أنه كريم عند الله.. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى.. هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل، ولو لم يقل له

ذلك صراحة!

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف. وإلا فهي ثمرة شيطانية، وليس لها امتداد أو دوام!

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة. وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم..

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج. والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة.. جاء في [سورة إبراهيم: ١٤] ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ﴾.. وجاء في [سورة النور: ٣٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾.. وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه.

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله. فهو يعيش في هذا الكون، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب. ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق. فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل، كان هذا بذاته دليلاً على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى وهو هذا الكيان الإنساني. وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران. ولا يصح معه عمل

ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح.

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية.. خاسرة أي خسران!

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب. فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة. ما أن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح.. هذا هو الإيمان الإسلامي.. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن.. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت. شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً. وإلا فهو غير موجود!

ومن هنا قيمة الإيمان.. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير.. يتجه إلى الله.. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواءً في مكنونات الضمير. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة.

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني. وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود. صادرة عن تدبير، متجهة إلى غاية. وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود. الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله.

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة ـ أو الجماعة المسلمة ـ ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة ـ أو الجماعة ـ المتضامَّة المتضامنة. الأمَّة الخيِّرة. الواعية. القيِّمة في الأرض على الحق والعدل والخير.. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة.. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام.. هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن..

والتواصي بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة. وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.. وهذا الدين ـ وهو الحق ـ لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبُعد النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهو الخسران والضياع.

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع (سورة العصر) قواعده، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

فأين منها هذا الضياع التي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان، والخسار الذي تبوء به في

معركة الخير والشر، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة. ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة. وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار. وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله. وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق. وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح! وراية الله ما تزال. وإنها لترتقب اليد التي ترفعها، والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض. وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك. هناك الربح الحق، والخسر الحق. هناك في الأمد الطويل، وفي الحياة الباقية، وفي عالم الحقيقة، هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أو خسر الجنة والرضوان. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له، أو يرتكس فتهدر آدميته، وينتهي إلى أن يكون حجراً في القيمة، ودون الحجر في الراحة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق.. إنه الخسر.. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.. طريق واحد لا يتعدد. طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر. وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر.

إنه طريق واحد. ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (العصر)، ثم يسلم أحدهما على الآخر.. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي، يتعاهدان على الإيمان والصلاح، ويتعاهدان على التواصي بالحق

والتواصي بالصبر. ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور. ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور)[1].

دروس وعبر من سورة (العصر):

* دلَّ القَسَم بالعصر على فضيلة وقته وتعظيمه، والدليل عليه ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفَّى له وإن لم يعطه لم يَفِ له)[2]، وقوله ﷺ: (ورجل حلف بالله كاذباً بعد العصر، ولا يحلف بغير الله)[3].

فكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر، وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح، وبشَّر الرسول ﷺ أن أمره إلى الإقبال، وههنا في حق الخاسر، توعَّده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعض النهار باقٍ، فيحثُّه على التدارك في البقية بالتوبة.

وعن بعض السلف: تعلَّمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول: ارحموا مَن يذوب رأس ماله على رأسه، ارحموا مَن يذوب رأس ماله على رأسه، فقلت: هذا معنى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، يمرُّ به العصر فيمضي عمره، ولا يكتسب فإذا هو خاسر[4].

* اختلف في الحلف في العصر؛ فقال مالك: مَن حلف ألا يكلم رجلاً عصراً، يحمل على السنَة، لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعي: يبرُّ بساعة، إلا أن تكون له نية، أو يفسِّره بما يحتمله، وذلك حملاً على الأقل المتيقن المراد بالعصر[5].

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في منع الماء، رقم الحديث: ٣٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٨٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٩.

* وجوب التواصي بالحق، والتواصي بالصبر بين المسلمين. قال الإمام الرازي: دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي[1].

* الخسر: هلاك رأس المال أو نقصه. فالإنسان وإنْ ربِح الثروة الكبيرة والمال الوفير، فهو في خسارة محققة، إن لم يعمل للآخرة عملاً طيباً صحيحاً، ولم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم، لأنه عمل في إهلاك نفسه، وهما أكبر رأس ماله[2].

* حكم الله تعالى بالوعيد الشديد، لأنه حكم بالخسارة على جميع الناس إلا مَن كان آتياً بأربعة أشياء ومتصفاً بها؛ وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فدلَّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور.

وعناصر الإيمان ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. والعمل الصالح: أداء الفرائض، واجتناب المعاصي، وفعل الخير. والتواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر الثابت، ويحث بعضهم بعضاً على توحيد الله والعمل بالقرآن، والدعوة إلى الدين والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه. قال عمر ﷺ: رحم الله مَن أهدى إليَّ عيوبي. والتواصي بالصبر: أن يوصي الناس بعضهم بعضاً على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصيه، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن[3].

* بيان فوز أهل الإيمان والعمل الصالح المجتنبين للشرك والمعاصي. وبيان مصير الإنسان الكافر، وأنه الخسران التام.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٠.

(٢) زاد المسير: ٨/ ٣١٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٤.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٠، والتفسير المنير: ٣٢/ ٣٩٥.

سورة الهمزة

قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الهُمَزة)، وبه اشتهرت، ودونت في المصاحف ومعظم كتب التفسير.

ووجه التسمية به لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾، والهُمَزة الذي يغتاب الناس ويطعن فيهم.

وورد هذا الاسم بلفظ (همَّاز) في سورة (القلم) في قول الله تعالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [القلم: ١١].

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- تسمَّى سورة ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾، ووردت التسمية في كلام ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُنزلت ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ بمكة[1]. وبهذا الاسم عنون الطبري لها في تفسيره، وترجم لها البخاري في صحيحه، وهي تسمية لها بأول جملة فيها.

٢- تسمَّى سورة (الحطمة)، ذكر ذلك الفيروزآبادي، وعلَّل تسميتها بذلك لذكر هذه الكلمة فيها في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ ﴾، وقد تفردت هذه السورة بهذا

(١) الدر المنثور للسيوطي: ٩/ ٦٠٣.

اللفظ(١).

٣ـ كما ذكرت في بعض المصاحف سورة (اللمزة).

ب ـ مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق، وعُدَّت السورة الثانية والثلاثين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (القيامة)، وقبل سورة (المرسلات)(٢).

ج ـ أسباب نزولها:

قال الرازي: أما المحققون فقالوا: إنه عام لكل مَن يفعل هذا الفعل كائناً مَن كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، وقال آخرون: إنه مختص بأناس معينين. ثم قال عطاء والكلبي والسُّدِّي: نزلت في الأخنس بن شُرَيق، كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ.

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه. وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك. وقال محمد بن إسحاق والسهيلي: ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خَلَف(٣). وقد روى ذلك ابن جرير عن عثمان وابن عمر.

قال أبو حيان: ونزلت في الأخنس بن شُرَيق، أو العاص بن وائل، أو جميل بن معمر، أو الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خَلَف: أقوال، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع، وهي عامة مع ذلك فيمن اتصف بهذه الأوصاف(٤).

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٣.
(٢) فتح القدير: ٥/ ٤٩٢، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٣٥.
(٣) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩١.
(٤) البحر المحيط: ٨/ ٥١٠.

د ـ عدد آيات سورة (الهمزة):

تسع آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

هـ ـ محور سورة (الهمزة):

بيان الحزب الأكبر الخاسر الذي ألهاه التكاثر، فبانت خسارته يوم القارعة الخافضة الرافعة، فجاءت السورة تحدد جزاء الطعَّان والعيَّاب للناس[2].

و ـ المناسبات في سورة (الهمزة):

١ـ المناسبة بين سورة (الهمزة) ومحورها:

تحدثت السورة عن بعض صفات الكافرين وعذابهم العظيم، وذكرت بعض صفاتهم الرئيسة، وبيَّنت لنا الأسباب التي استحقوا الويل والهلاك والعذاب الأليم، فالسورة واضحة الصلة بمحورها.

٢ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الهمزة) وخاتمة ما قبلها:

رأينا أن سورة (العصر) ذكرت أن جنس الإنسان في خسران ونقص وهلكة، إلا من اتصف بصفات معينة، وتأتي سورة (الهمزة) لتحدد صفات الخاسرين وأحوالهم، وبعض صفات أهل الضلال، ومظهر خسارتهم ومآلهم، وهكذا تبدو الصلة واضحة بين السورتين. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه فيما قبلها أن الإنسان ـ سوى مَن استثنى ـ في خسر، بيَّن فيها أحوال بعض الخاسرين[3].

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٧.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٣، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٧.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٢٩، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٥٨٤، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٣٦.

٣- المناسبة بين مقاطع سورة (الهمزة) ومحورها:

جاءت سورة (الهمزة) تعالج مشكلة خُلُقية مستعصية بين الناس، وهي الطعن في الآخرين بالغيبة أثناء غيابهم، أو بالعيب حال حضورهم. وقد بدأت بالإخبار عن العذاب الشديد لكل عيَّاب طعَّان للناس، ينتقص الآخرين، ويزدريهم، ويسخر بهم.

ثم ذمَّت السورة الذين يحرصون على جمع الأموال في الدنيا، كأنهم مخلَّدون فيها.

وختمت بردع الفريقين السابقين، وأنبأتهم بمصيرهم الأسود، وهو النبذ في الحطمة، فكانت مقاطع السورة تفصيلاً لمحورها الذي تضمن العذاب المعدَّ للكافرين، مما يوضح صلة المقاطع بالمحور، وتناسبها معه[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (الهمزة) وافتتاحية سابقتها:

لما قال سبحانه: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ ﴾ أتبعه بمثال مَن ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنَّه الكمال لنفسه، حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال، ظناً أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل، فقال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ بذكر ما أعدَّ له من العذاب جزاءً له على همزه ولمزه الذي أتم حسده[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال عن هذه السورة: (تعكس هذه السورة صورة من الصور اللئيمة الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يُؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس، وأقدار

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٣٩٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٤، وحاشية الصاوي على الجلالين: ٤/ ٣٤٩.

المعاني، وأقدار الحقائق. وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر عل كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه، إن كان هناك في نظره حساب وجزاء! ومن ثم ينطلق في هَوَسٍ بهذا المال يعدُّه ويستلذُّ تعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولمزهم وهمزهم.. يعيبهم بلسانه، ويسخر منهم بحركاته. سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم.. بالقول والإشارة. بالغمز واللمز. باللفتة الساخرة، والحركة الهازئة! وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفُّعه الأخلاقي. وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى. إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعد والوعيد، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين. فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب. وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات، ولكنها ليست وثيقة، فنكتفي بما قرَّرناه عنها.

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية. وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب. فصورة الهمزة اللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتردي في ﴿ ٱلْحُطَمَةُ ﴾التي تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه. وهي ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذَّة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة. وهي ﴿ تَطَّلِعُ ﴾ على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور.. وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل.. هذه النار مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام! وفي جرس الألفاظ تشديد: ﴿ وَعَدَّدَهُۥ ﴾، ﴿ كَلَّا ﴾، ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ ﴾، ﴿ تَطَّلِعُ ﴾، ﴿ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾. وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد:﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ﴾ فهذا الإجمال والإبهام. ثم سؤال الاستهوال. ثم الإجابة والبيان.. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم.. وفي التعبير تهديد: ﴿ وَيۡلٌ ﴾، ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ ﴾، ﴿ ٱلۡحُطَمَةُ ﴾، ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩ ﴾..

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة (الهمزة اللمزة)!

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته. وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين، ويزلزل قلوب الأعداء ويثبت أرواح المؤمنين.

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين:

الأول: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس.

والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه.. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم..)[1].

دروس وعبر من سورة (الهمزة):

- ❊ بيان عقيدة البعث والجزاء.
- ❊ التحذير من الغيبة والنميمة. إذ ورد التهديد بالويل، وهو الخزي والعذاب والهلاك لكل مغتاب عيَّاب طعَّان للناس. عن أبي سعيد ﷺ: (عن النبي ﷺ قال الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره)[2]. وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى، قال: فخياركم

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنبياء، رقم الحديث: ٣٠٨٨. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة.

الذين إذا رؤوا ذُكِر الله تعالى، ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى، قال: فشراركم المفسدون بين الأحبة، المشاؤون بالنميمة، الباغون البرآء العنت)[1].

* التنديد بالمغترين بالأموال المعجبين بها.
* بيان شدة عذاب النار وفظاعته.
* ندب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.
* في هذه السورة بيان لأخلاق كافرة، ينبثق عنها الجحود والإنكار، ورفض الإنذار، فمَن كان همُّه عيب الآخرين وانتقاصهم واحتقارهم لا يقبل إنذاراً من أحد لنظرته السيئة إلى الخلق، ومَن كان همُّه جمع المال لا يكون عنده محل للإنذار، ومَن يتصور أن في المال الخلود فهذا ليس له إلى الآخرة تطلعات، ولذلك لا يقبل إنذاراً[2].
* حدد الله تعالى عقاب الهمزة اللمزة جامع المال حباً فيه لذاته، وهو الطرح أو الإلقاء في نار جهنم التي تحطم كل ما يلقى فيها، وهي نار الله الموقدة غير الخامدة، التي أعدها الله تعالى للعصاة، والتي تأكل جميع ما في الأجساد، حتى تبلغ الفؤاد، ثم يخلقون خلقاً جديدا فترجع تأكلهم. وهي مغلقة الأبواب، مطبقة عليهم، حال كونهم موثقين بأعمدة، وهي أعمدة طوال تلفُّ بهم من كل جانب[3].
* ردع الله تعالى عن كل هذه المزاعم والتحسبات، فالمال لا يرفع القدر، ولا يقتضي الطعن بالآخرين، وليس المال كما يُظن مخلِّداً في الدنيا، بل المخلِّد هو العلم والعمل، كما قال الإمام عليّ ﷺ: مات خُزَّان المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٦٣١٩. والمقصود من لفظ: (الباغون البرآء العنت): الذين يتعدون على الناس ويظلمونهم، ويفرقون بينهم، قاصدين التعب والمشقة والمكروه عليهم.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٧٧.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٠٢.

(٤) المصدر السابق: ٣٠/ ٤٠١.

سورة الفيل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الفيل)، وبه عُرفت هذه السورة، وكُتبت بذلك في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية به لذكر قصة أصحاب الفيل فيها، وما حدث في سيرة جيشه وصورته. ولم يذكر اسم الفيل في غير هذه السورة.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، وقد وردت بهذا الاسم في كلام السلف؛ فعن عمرو بن ميمون الأودي قال: صلَّينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ في الأولى: (والتين والزيتون)، وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾[1].

٢- وردت باسم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فعن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ حجَّاجاً، فصلَّى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾، وبذلك عنون لها البخاري في صحيحه. ووقعت تسميتها بالآية الأولى في كلام ابن عباس رضي الله عنهما، فيما أخرجه عنه ابن مردويه قال: أنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ بمكة[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الصلوات، باب ما يقرأ به في المغرب: ١/ ٣٥٨.

(٢) الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٦٢٧.

٣ـ (السورة المنزلة على أصحاب الفيل)، وقد عنون لها ابن العربي في أحكامه[1].

ب ـ مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق، وقد عُدَّت السورة التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾، وقبل سورة (قريش)، لقول الأخفش: إن قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾، ولأن أبيَّ بن كعب ﷺ جعلها وسورةَ (قريش) سورة واحدة في مصحفه، ولم يفصل بينهما بالبسملة، ولِخَبر عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ﷺ المذكور آنفاً؛ روى أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ مرة في المغرب في الركعة الثانية سورة (الفيل) وسورة (قريش)، أي ولم يكن الصحابة يقرؤون في الركعة من صلاة الفرض سورتين، لأن السنَّة قراءة (الفاتحة) وسورة، فدلَّ على أنهما عنده سورة واحدة.

وقد أشار الفخر الرازي إلى هذا القول في تفسيره، وساق وجوه الاحتجاج بما سبق ذكره من تعلق السورتين خاتمة ومطلعاً، وجعْل أبيّ لهما في مصحفه سورة واحدة، وقراءة عمر ﷺ لهما في الركعة الواحدة.

ثم ذهب إلى القول الآخر المشهور المستفيض وهو أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل، معللاً أن تعلق أول هذه السورة بما قبلها ليس بحجة على ما قالوه، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً، ويبين بعضها معنى بعض.. وأما قوله إن أبيّاً ﷺ لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر ﷺ فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين.

ويجوز أن تكون سورة (قريش) نزلت بعد سورة (الفلق)، وأُلحِقت بسورة (الفيل)، فلا

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ١٩٨٠.

يتم الاحتجاج بما في مصحف أُبيٍّ بن كعب ﷺ، ولا بما رواه عمرو بن ميمون[1].

ج- أسباب نزولها:

نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة، وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم، وصرفهم عن البيت، وهي معروفة بروايات مطولة في كتب التفسير، ومختصرها: أنها نزلت تذكيراً لقريش بنعمته العظيمة، حين أراد أبرهة ملك الحبشة هدم الكعبة، ووجَّه جيشه لهذه المهمة، معهم الفيلة الكثيرة بقصد توجيه حجِّ العرب إلى بيت بناه أبرهة في اليمن، ولكن قدرة الله القهار فوق كل تقدير واعتبار، فحينما وجَّه أبرهة جيشه لهدم الكعبة برك فيله بذي المُغَمَّس (موضع قريب من مكة في طريق الطائف)، ولم يمش نحو مكة، على الرغم من أنهم شقُّوا جلده بالحديد، وكان إذا وجَّهوه إلى غير مكة هرول، وبينما هم كذلك، بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً أو خُضْراً من البحر، عند كل طير ثلاثة أحجار، في منقاره ورجليه، كل حجر فوق العدسة، ودون الحمّصة، فرمتهم بتلك الحجارة، وكان الحجر منها يقتل المرميَّ، وتتهرأ لحومهم جرباً وأسقاماً، وانصرف أبرهة بمن بقي معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطَّع أبرهة أُنملة أُنملة حتى مات، وحمى الله بيته، فنزلت هذه السورة منبِّهة على الاعتبار بهذه القصة[2].

د- عدد آيات سورة (الفيل):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[3].

هـ- محور سورة (الفيل):

الدلالة على آخر (الهمزة)؛ من إهلاك المكاثرين، في دار التعاضد والتناصر بالأسباب فعند

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ١٦/ ٦٤٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٣.

(٢) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٣٤.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٤.

انقطاعها أوْلى لاختصاصه سبحانه بتمام القدرة، دون التمكن بالمال والرجال، واسمها الفيل ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل سورته، وقصة أصحابه، وما حصل في سيرة جيشه وصورته[1].

و- المناسبات في سورة (الفيل):

١- المناسبة بين سورة (الفيل) ومحورها:

تأتي سورة (الفيل) وكأنها امتداد لسورة (الهمزة)، إذ أنها تلفت النظر إلى حادثة مشهورة معروفة عذَّب الله بها قوماً في الدنيا، وذلك يأتي كالدليل على قدرته أن يعذب الكافرين يوم القيامة.

فمحور سورة (الفيل) هو محور سورة (الهمزة)، والدليل على أن الله سيعذب الكافرين عذاباً عظيماً ما فعله بهؤلاء الكافرين الذين أرادوا أن يكيدوا لبيت الله تعالى، هذا عذابهم في الدنيا، فكيف بعذابهم يوم القيامة[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الفيل):

لَمَّا تضمَّن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد له ﷺ عقَّب ذلك بقصة أصحاب الفيل، للإشارة إلى أن عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإن عناية الله عزَّ وجلَّ برسوله ﷺ أقوى وأتمُّ من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الأخرى. ويجوز أن تكون كالاستدلال على ما أشير إليه فيما قبلها، من أن المال لا يغني من الله تعالى شيئاً، أو على قدرته عزَّ وجلَّ على إنفاذ ما توعَّد به أولئك الكفرة في قوله سبحانه: ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٩، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٤٩.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٨١.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٣٢.

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وخاتمتها:

ختمت السورة ببيان جزاء أصحاب الفيل، ومآلهم في الدنيا بتصوير دمارهم وإهلاك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، ثم مات. أما قائد الفيل وسائسه فقد شوهدا بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. وفي هذا تناسب بين السؤال وجوابه، وبين الحدث والهدف، والله تعالى غالب على أمره.

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وخاتمة ما قبلها:

لما قدَّم في (الهمزة) أن كثرة الأموال المسببة بالقوة للرجال ربما أعقبت الوبال، دلَّ عليه في هذه بدليل شهودي وصل في تحريفه وتغلغله في الأجسام وتجريفه إلى القلوب في العذاب الأدنى، كما ذكر فيما قبلها للعذاب الأكبر الأخفى، محذِّراً من الوجاهة في الدنيا وعلوِّ الرتبة، مشيراً إلى أنها كلما عظمت زاد ضررها بما لا يكسبه من الطغيان حتى ينازع صاحبها الملك الأعلى. ومع كونه شهودياً فللعرب ولا سيما قريش به الخبرة التامة، فقال مقرراً منكراً على مَن لا يخطر له خلاف ذلك، وأقام الدليل على ذلك بقصة أصحاب الفيل، ولما ذكر فيما قبلها عذاب الكفار في الآخرة، أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾[1].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفيل) ومحورها:

تأتي سورة (الفيل) في أحداثها تدلل على قدرة الله تعالى في تعذيب مَن أراد انتهاك حرمة البيت، بما حدث لأصحاب الفيل في قصتهم المتواترة، وأن عذابهم هذا مقدم لعذابهم الأخروي في جهنم جزاء إلحادهم وظلمهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٤٩، وتفسير البحر المحيط: ١٠/ ٥٤٣، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٤١.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفيل) بعضها مع بعض:

تكرر الاستفهام في السورة، وهو تقريري، وغالباً ما يكون على نفي المقرر لإثباته للثقة بأن المقرر لا يسعه إلا إثبات المنفي. وانظر عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

والاستفهام التقريري هنا مجاز بعلاقة اللزوم، وهو مجاز كثر استعماله في كلامهم فصار كالحقيقة لشهرته. وعليه فالتقرير مستعمل مجازاً في التكريم إشارة إلى أن ذلك كان إرهاصاً للنبي ﷺ فيكون من باب قوله ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ ﴾ [البلد: ١ـ٢]، وفيه مع ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله تعالى عليهم، إذ لم يزالوا يعبدون غيره[(١)].

قال الرازي: المراد بالرؤية هنا العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للرؤية.. ثم قال: واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً، لأنهم ذكروا في غيرها أعذاراً ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار، لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طيرٌ معها حجارة فتصدّ قوماً دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن تكون كسائر الأحاديث الضعيفة، لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول ﷺ إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع ممن شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب، فلما لم يكن كذلك علمنا أن لا سبب للطعن فيه[(٢)].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفيل) وافتتاحية سابقتها:

لما تضمنت سورة (الهمزة) ذكر اغترار مَن فُتِن بماله حتى ظن أنه يخلده، وما أعقبه ذلك، أتبع هذا أصحاب الفيل الذين غرَّهم تكاثرهم، وخَدَعهم امتدادهم في البلاد، واستيلاؤهم

---

(١) لتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ٩٧.

حتى همُّوا بهدم البيت المكرم، فتعجلوا النقمة، وجعل الله كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، أي جماعات متفرقة، ترميهم بحجارة من سجيل، حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف مأكول، وأثمر لهم ذلك اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم[1].

٨ـ المناسبة بين سورة (الفيل) وما بعدها:

لا خفاء في اتصال السورتين، أي أنه سبحانه وتعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل، ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش، وهم سكان الحرم، وقطَّان بيت الله الحرام، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين، فيقيموا بمكة، وتأمن ساحتهم[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير، ومحضن العقيدة الجديدة، والنقطة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض، وإقرار الهدى والحق والخير فيها..

وجملة ما تشير إليها الروايات المتعددة عن هذا الحادث، أن الحاكم الحبشي لليمن ـ في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها ـ وتسميه الروايات: «أبرهة»، كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت، شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشماليها كذلك. وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٥٤.
(٢) المصدر السابق: ٢٢/ ٢٦٣.

وإسماعيل صاحبي هذا البيت، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر والأنساب. وكانت معتقداتهم ـ على تهافتها ـ أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك.

عندئذ صح عزم «أبرهة» على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها، وقاد جيشاً جرَّاراً تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم. فتسامع العرب به وبقصده. وعزَّ عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم.

فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام، فأجابه إلى ذلك مَن أجابه. ثم عرض له فقاتله، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيراً.

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير، فهزمهم كذلك وأسر نفيلاً، الذي قبِل أن يكون دليله في أرض العرب.

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف، فقالوا له: إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة. وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للات! وبعثوا معه مَن يدله على الكعبة!

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة، بعث قائداً من قواده، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك.. فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له: والله ما نريد حربه وما

لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام. وبيت خليله إبراهيم ﷺ.. فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.. فانطلق معه إلى أبرهة..

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه، وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه إلى جانبه. ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل. وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك!.. فرد عليه إبله.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال. ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه. وروي عن عبد المطلب أنه أنشد:

لاهـمَّ إن العبد يمنع رحْلَه فامنع رحالك

لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالهم أبداً محالك

إنْ كنتَ تارِكَهم وقبلتنا فأمر ما بَدا لك

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له. فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا. وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا: خلأت القصواء [أي: حرنت]، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل..»، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت

حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»، فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل..

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة. كما يحكي عنهم القرآن الكريم.. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات..

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها. كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة.

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى. وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير...

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل، وإلى دلالة القصة..

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.. وهو سؤال للتعجيب من الحادث، والتنبيه إلى دلالته العظيمة. فالحادث كان معروفاً للعرب ومشهوراً عندهم، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ. يقولون حدث كذا عام الفيل، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات.. والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان في عام الفيل ذاته. ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة!

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها، إنما كانت تذكيراً بأمر يعرفونه، المقصود به ما وراء هذا التذكير..

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع في صورة الاستفهام التقريري كذلك:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾.. أي ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه.. ولعله كان بهذا يذكر قريشاً بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته، في الوقت الذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء. لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم في مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه. فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته؛ فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته.

فأما كيف جعل كيدهم في تضليل فقد بينه في صورة وصفية رائعة: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾.. والأبابيل: الجماعات. وسجيل: كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان: (حجر) و(طين). أو حجارة ملوثة بالطين. والعصف: الجاف من ورق الشجر. ووصفه بأنه مأكول: أي فتيت طحين! حين تأكله الحشرات وتمزقه، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه! وهي صورة حسية للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير. ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة.

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة..

وأول ما توحي به أن الله سبحانه لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت، ويحمونه ويحتمون به. فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية. وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام، حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته، بحميتهم الجاهلية. ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحاً قوياً أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لا السنة المألوفة المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب..

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر

قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول ﷺ، وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم، والتعجيب من موقفهم العنيد!

كذلك توحي دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة. حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته. ليبقي هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين، مصوناً من كيد الكائدين. وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد. وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام!

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترفُّ حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة. فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون، سيحفظه إن شاء الله، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين!

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض. بل لم يكن لهم كيان. قبل الإسلام. كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة. وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحياناً تقوم تحت حماية الفرس. وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان.. ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه. ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية. وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة. وما حدث في عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي.

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه. وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب. قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش، وتتولى قيادة البشرية، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة.. ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب! نسوا نعرة الجنس، وعصبية العنصر، وذكروا أنهم مسلمون. ومسلمون فقط. ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبراً بالبشرية؛ ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية. حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهباً أرضياً يخضعون الناس لسلطانه. وخرجوا من أرضهم جهاداً في سبيل الله وحده، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

عندئذ فقط كان للعرب وجود، وكانت لهم قوة، وكانت لهم قيادة.. ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله. وقد ظلت لهم قوتهم. وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة. حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه، ونسيهم مثلما نسوه!

وما العرب بغير الإسلام؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة. والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلاً، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها. والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة

الإسلامية، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة، ولم يعد لهم في التاريخ دور.. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيداً إذا هم أرادوا الحياة، وأرادوا القوة، وأرادوا القيادة.. والله الهادي من الضلال..)[1].

دروس وعبر من سورة (الفيل):

* في الآيات تذكير بأن الكعبة حرم الله تعالى، حماه سبحانه ممن أرادوا به سوءاً، وأظهر غضبه عليهم فعذَّبهم وردَّ كيدهم بإحباطه وإفشاله بإرساله أضعف مخلوقاته، وهي الطير تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشد فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله تعالى، وأبادهم عن آخرهم. وفي ذلك مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه، وبطشه بأعدائه، وتسلية لرسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.
* في الآيات تذكيرٌ لقريش بفعل الله عزَّ وجلَّ، وتخويفٌ لهم وترهيبٌ، بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، وأنْ لا حظَّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.
* في الآيات تثبيت للنبي ﷺ بأن الله تعالى يدفع عنه كيد المشركين. فإن الذي دفع كيد مَن يكيد لبيته لأحقُّ بأن يدفع كيد مَن يكيد لرسوله ﷺ ودينه. ومِن وراء ذلك كله أن الله غالب على أمره، وأن لا تغرَّ المشركين قوتُهم ووفرةُ عددهم، ولا يوهن النبيَّ ﷺ تألُّبُ قبائلهم عليه، فقد أهلك الله تعالى من هو أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً[2].
* حادث الفيل حدث تاريخي هام، وأمر خارق للعادة، أظهره الله تعالى في عام ميلاده ﷺ سنة سبعين وخمسمائة ميلادية، ليكون من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ. عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال: (ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث أأنت أكبر أم

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٧٤

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.

رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أقدم منه في الميلاد، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ورفعت بي أمي على الموضع، قال: ورأيت خذق الطير أخضر محيلاً)[1].

قال أبو حيان: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد ﷺ إرهاصاً بنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد ضلَّل كيدهم، وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[2].

* قسَّم العلماء الأمر الخارق للعادة إلى أنواع أربعة؛ فهو الإرهاصة إذا جرى لنبي قبل البعثة، وهو المعجزة إذا جرى لنبي بعد البعثة، وهو الكرامة إذا جرى لولي تقي ورجل صالح، وهو الاستدراج إذا حدث على يد ساحر أو كاهن أو كافر. والملاحَظ في أنواعه كلها أن الفاعل فيه هو الله تعالى، الخالق ،القادر على كل شيء، وأنه لا يتكرر فعله، لأنه يجري لهدف وغاية، ويزول بحصول الهدف وتحقيق الغاية، إلا القرآن الكريم فإنه المعجزة الباقية الخالدة.

* قال ابن مسعود ﷺ: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله تعالى ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة، فقال:

فإنكِ لو رأيتِ ولم تريه ... لدى جنب المغمَّس ما لقينا
خشيتِ الله إذ قد بثَّ طيراً ... وظلَّ سحابة مرَّت علينا
وباتت كلها تدعو بحق ... كأن لها على الحبشان دَينا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت مَن شاء الله منهم. حيث إن أميرهم أبرهة رجع

(١) جامع الترمذي: كتاب المناقب، باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٥٢. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق. وخذق الطير محيل: روث وفضلات الطير متغيِّر.

(٢) لبحر المحيط: ٨/ ٥٤٤.

وشرذمة قليلة معه، فلما أَخبروا بما رأوا هلكوا. قال ابن إسحاق: لما ردَّ الله تعالى الحبشة عن مكة، عظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: أَهلُ الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم[1].

* لم يتكرر في القرآن الكريم ذِكْر إهلاك أصحاب الفيل، خلافاً لقصص غيرهم من الأمم **لوجهين؛**

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله تعالى.

وثانيهما: أن لا يتخذ منه المشركون غروراً بمكانةٍ لهم عند الله تعالى، كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤][2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٤٤.

سورة قريش

قال الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١ـ سورة (قريش): سميت بهذه التسمية في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية: لوقوع اسم قريش في مطلعها، ولتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم. ولم يقع هذا الاسم في غيرها من سور القرآن. قال الفيروزآبادي: سميت سورة (قريش) لذكر إلفتهم فيها[1].

٢ـ سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾: وردت بهذا الاسم في كلام السلف؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ بمكة[2]. وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: صلَّينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ، فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾[3]. وعن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ حُجَّاجاً، فصلَّى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾[4]. وبهذا الاسم عنون ابن العربي في أحكام القرآن، وترجم لها البخاري في صحيحه

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٥.
(٢) الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٦٣٤.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الصلوات، باب ما يقرأ به في المغرب: ١/ ٣٥٨.
(٤) أخرجه البيهقي في الشعب، باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات: رقم الحديث: ٢٥١٣.

وذكره الآلوسي في روح المعاني.

ثانياً: اسمها الاجتهادي: سورة ﴿لِإِيلَٰفِ﴾: وقد سمَّاها به بعض المفسرين كابن الجوزي في زاد المسير، والشوكاني في فتح القدير. ووجه التسمية: أنها تسمية بلفظ وقع في أولها. ومعنى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾: أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، ثم يرجعون إلى بلدهم في أسفارهم لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله تعالى[1].

ب ـ فضائل السورة:

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: (فضَّل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عزَّ وجلَّ عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن.

ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾)[2].

ج ـ مرحلة النزول:

مكية عند جماهير العلماء بلا خلاف. وذكر القرطبي عن الكلبي والضحاك أنها مدنية، ولم يذكرها السيوطي في الإتقان مع السور المختلف فيها. وقد عُدَّت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (التين)، وقبل سورة (القارعة). وهي سورة مستقلة بإجماع

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه: كتاب التفسير، باب سورة (قريش): رقم الحديث: ٣٩٧٥. ورواه البيهقي في كتاب الخلافيات، والبخاري في تاريخه: ١/ ٣٢١، وهو الدر المنثور: ٨/ ٦٣٤.

المسلمين على أنها سورة خاصة. وجعلها أُبَيّ بن كعب مع سورة (الفيل) سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب ﷺ. والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك[١].

د ـ أسباب نزولها:

يشار إلى حديث أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها السابق عند فضائل هذه السورة[٢].

هـ ـ عدد آيات سورة (قريش):

أربع آيات في عدِّ الكوفي والبصري والشامي، وخمس في عدِّ المدنيين والمكي. اختلافها في آية ﴿مِّن جُوعٍ﴾، عدَّها المدنيان والمكي، ولم يعدَّها الباقون[٣].

و ـ محور سورة (قريش):

تحدثت هذه السورة عن نعم الله تعالى الجليلة على قريش أهل مكة، حيث جمع الله كلمتهم، وحقق الألفة والتئام الشمل بينهم، ومكَّنهم من التنقل وحرية التجارة، فقد كانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام لتوفير الثروة والغنى، كما أكرم الله تعالى قريشاً بنعمة الأمن والاطمئنان في البلد الآمن الحرام دون نزاع من أحد.

وهنا تتجلَّى نعمتان عظيمتان من نِعَمِه الكثيرة؛ هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار.

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٤٩٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٣.

(٢) سبق تخريجه. لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٨، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٣٩.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٥.

ز- المناسبات في سورة (قريش):

١- المناسبة بين سورة (قريش) ومحورها:

تأتي سورة (قريش) تنادي قريشاً للإيمان، فكأن هذا يشير إلى أن قريشاً مظنة خير، وأن كفارها عامة لم يصلوا إلى الحد الذي لم يعد ينفع معهم إنذار، ولذلك نودوا وخوطبوا وطولبوا. وجاءت الأحداث بعد ذلك، وإذا بقريش تصبح كلها مسلمة تقريباً. ومن هذا الربط بين سورة (قريش) ومحورها ندرك مظهراً من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن، حيث إن معانيه تتكامل ولا تتناقض، وتأتي الأحداث فتصدقها[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (قريش):

أمرُ قريش بتوحيد الله تعالى، تذكيراً لهم بنعمةِ أن الله تعالى مكَّن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف، لا يخشون عدواً يعدُو عليهم. وبأنه أمَّنهم من المجاعات، وأمَّنهم من المخاوف، لِما وقر في نفوس العرب من حرمتهم، لأنهم سكان الحرم وعُمَّار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة. وردِّ القبائل فلا يغير على بلدهم أحد.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٧][2].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وخاتمتها:

الدلالة على ما دلت عليه سورة (الفيل) بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقرين العابدين، وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين.

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٦٩٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٤.

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وخاتمة ما قبلها:

لما أهلك الله تعالى أصحاب الفيل، وردَّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله تعالى ليوحدوه ويشكروه، وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة (الفيل) قبلها، من ناحية موضوعها وجوِّها، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة. والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول السورتين تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين، يتفق مع موضوعهما القريب. فكل من السورتين تضمَّن ذِكْر نعمة مِن نِعَم الله تعالى على أهل مكة؛ فالأولى تضمَّنت إهلاك عدوهم الذي جاء ليهدم بيتهم، وهو أساس مجدهم وعزتهم، والثانية ذكرت نِعمة أخرى، هي اجتماع أمرهم، والتئام شملهم، ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاءً في تجارتهم، وجلب الميرة لهم(١).

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (قريش) بعضها مع بعض:

هناك ثلاث اتجاهات في تعلق قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾:

فذهب ابن كثير إلى تعلقها بما قبلها أي بسورة (الفيل)، فقال: وهذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش، أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين(٢).

وعرض النسفي تعليقها بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، أو

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٦، وفي ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٣، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٨.

بما قبله، أي: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾، يعني أن ذلك الائتلاف لهذا الإيلاف، وهذا كالتضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به. وهما في مصحف أُبَيّ سورة واحدة بلا فصل، ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما[1].

وذهب ابن جرير إلى تعليقها بفعل محذوف تقديره: اعجبوا، فقال: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن هذه اللام بمعنى التعجب، وأن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. والعرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها..

ثم قال: وأما القول الذي قاله مَن حكينا قوله أنه من صلة قوله ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾، فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون ﴿لِإِيلَافِ ﴾ بعض ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وأن لا تكون سورة منفصلة من ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ما يبين عن فساد القول الذي قاله مَن قال ذلك. ولو كان قوله ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ من صلة قولهم ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ لم تكن ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ تامة حتى توصل بقوله ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾، لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[2].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (قريش) وافتتاحية سابقتها:

لما كان ما فعله سبحانه من منع هذا الجيش العظيم الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣٠/ ١٩٨.

من الحيوان البري فيما نعلمه ـ من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته، ومحل عظمته الباهرة، وعزته والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام، وما كان من الوفاء بعظيم خلته ـ كرامة لقريش عظيمة ظاهرة عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم، وتسبى ذراريهم لكونهم أولاد خليله وخُدَّام بيته، وقُطَّان حرمه، ومتعززين به، ومنقطعين إليه، وعن أن يخرب موطن عزهم، ومحل أمنهم وعيشهم وحرزهم، ذكَّرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة، فقال مشيراً إلى أن مَن تعاظم عليه قصمه، ومَن ذَلَّ له وخدمَه أكرمه وعظَّمَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

اعجبوا لإيلاف[2] قريش، وهي أعظم القبائل العربية المتفرعة من النضر بن كنانة، وهي قبيلة النبي ﷺ، والإيلاف: مصدر ألف، أي عكف عليه مع الأنس به. إيلافهم بأمان واطمئنان رحلة الشتاء إلى اليمن، لأنها بلاد حارة، ورحلة الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة، من أجل التجارة التي جعلت لقريش نفوذاً وشهرة بين القبائل. وإيلافهم: بدل من (إيلاف) في الآية الأولى.

وإنما جيء به أولاً مطلقاً لتشويق النفوس للقيد المذكور. ومن أجل نعمة الإيلاف هذه، فليعبد القرشيون ربَّ الكعبة، التي تشرفوا بها على سائر العرب، وعاشوا بجوار البيت الحرام في أمان. الذي وسَّع عليهم في الرزق، وأطعمهم بسبب هاتين الرحلتين فتخلصوا من جوع شديد، كانوا فيه قبل الرحلتين، وجعلهم يعيشون في أمان لمكان الحرم، فلا تغير العرب عليهم، كما أمَّنهم من هجوم الحبشة مع الفيل، ومن خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، والذي كان

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٦٠.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ﴾، على إفعال، والهمزة الثانية ياء، وقرأ ابن عامر: (لإئلاف) على فعال (إيلافهم)، على إفعال بياء في الثانية. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠١، والمحرر الوجيز: ١٥/ ٥٧٤.

ظاهرة شائعة في القبائل المجاورة الأخرى، ومن التأمينات الإلهية لهم أيضاً: تأمينهم من خوف الجذام والطاعون، فلا يصيبهم في بلدهم، فضلاً من الله ونعمة(1).

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (استجاب الله دعوة خليله إبراهيم، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٢٦].. فجعل هذا البيت آمناً، وجعله عتيقاً من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين; وجعل من يأوي إليه آمناً والمخافة من حوله في كل مكان.. حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام.. لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام.

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان، مما فصلته سورة الفيل. وحفظ الله للبيت أمنه، وصان حرمته; وكان من حوله كما قال الله فيهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين: إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والثانية إلى الشام في الصيف.

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء؛ وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين، فصارت لهم عادة وإلفاً!

(١) التفسير الوسيط: ص: ٢٩٣٩، والتفسير الوجيز: ص: ٦٠٤.

هذه هي المِنَّة التي يذكِّرهم الله بها ـ بعد البعثة ـ كما ذكَّرهم منَّة حادث الفيل في السورة السابقة، منَّة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف، ومنَّة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة، وهم طاعمون هانؤون من فضل الله، ومنَّة أمنهم الخوف، سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله، أم في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء.

يذكِّرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه، وهو رب البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين، ويسيرون باسمه مرعبين، ويعودون سالمين..

يقول لهم: من أجل إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾. وكان الأصل ـ بحسب حالة أرضهم ـ أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.. وكان الأصل ـ بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم ـ أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف!

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس. ويثير الخجل في القلوب. وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها. وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده. وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة. إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته! لم يواجهه بصنم ولا وثن، ولم يقل له.. إن الآلهة ستحمي بيتها. إنما قال له: «أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه».. ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق، ولا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى معقول.

وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها. وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة

قريش تسع سور. ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب..»[1].

دروس وعبر من سورة (قريش):

* تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.
* تذكير قريش بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم؛ ومنها:

أ ـ إهلاك أصحاب الفيل وصدهم عن مكة، كما أُهلكوا أيضاً لأجل كفرهم، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله تعالى وحمايته، وتوفير أيضاً للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام.

ب ـ نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية، بسبب ارتحالهم إلى اليمن شتاءً، وإلى الشام صيفاً، لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم، لأنهم أهل بيت الله تعالى وجيرانه.

ج ـ نعمة الأمن من المخاوف، سواء في داخل مكة حيث جعل الله تعالى لهم مكة بلداً آمناً ويتخطف الناس من حولهم، أو في خارجها عندما يتنقلون للتجارة والكسب.

د ـ نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب، وأساس مجدهم وعزِّهم، فإنهم شُرِّفوا بالبيت على سائر العرب، فذكَّرهم الله تعالى بهذه النعمة.

والخلاصة: أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة، وهي إيلافهم رحلتين[2].

* مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.
* استدل الإمام مالك رحمه الله تعالى بالسورة على أن الزمان قسمان: شتاء وصيف، وهو

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٢.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤١٧.

الأصح، لأن الله تعالى قسم الزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً، فالشتاء نصف السنة والصيف نصفها الآخر. واصطلاح علماء الميقات: تقسيم السنة أربعة أقسام: شتاء وربيع وصيف وخريف. وعلى القول الأول استدل العلماء أيضاً على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ أدوات التبريد صيفاً، ووسائل الدفء شتاءً[1].

* قريش قبيلة عربية، وهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكل مَن كان مِن ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومَن فوقه. وقيل: إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر، والأول أصح. عن الأشعث بن قيس ﷺ قال: (أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله ألستم منا؟ فقال: نحن بنو النضر ابن كنانة، لا نقفو أمَّنا ولا ننتفي من أبينا. قال: فكان الأشعث بن قيس يقول: لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد)[2]. وعن واثلة بن الأسقع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم)[3].

واختلف في سبب التسمية بقريش على أقوال؛ منها: لتجمعهم بعد التفرق، ومنها: لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، ومنها: لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخَلة، فيسدُّون خَلته ـ أي فقره وحاجته ـ، ومنها: ما روي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهم لم سُمِّيت قريش قريشاً؟ قال: لدابة في البحر من أقوى دوابه، يقال لها القِرش؛ تأكل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٥٨، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤١٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الحدود، باب مَن نفى رجلاً مِن قبيلته، رقم الحديث: ٢٦٠٢.

(٣) جامع الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٣٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى[1].

* قال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾: اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما دفع الضرر، والثاني جلب النفع، والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب، وأما جلب النفع فإنه غير واجب. فلهذا السبب بيَّن نعمة دفع الضرر في سورة (الفيل)، ونعمة جلب النفع في هذه السورة. ولما تقرر أن الإنعام لا بدَّ وأن يُقابَل بالشكر والعبودية، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية، فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٠٢، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٠٦، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٣٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٠٧.

سورة الماعون

قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (الماعون). ويطلق على الإعانة بالمال، وقيل: يمنعون الزكاة، وقيل: يمنعون العارية، ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ وشدٍّ وحفر ونحو ذلك، مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه. وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم في كثير من المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية لوقوع لفظ الماعون في نهايتها، وقد اختصت هذه السورة بهذا اللفظ، فلم يقع في غيرها من سور القرآن.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾، أو ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ ﴾، وقد وردت التسمية عن بعض الصحابة، وعنون بها البخاري في صحيحه، وبعض المفسرين كالطبري وابن الجوزي وابن عطية والجصَّاص وغيرهم. ووجه التسمية أنها سُمِّيت بأول آية افتتحت بها، أو أول كلمة اختصاراً.

٢- سورة (الدين)، وعُنون بها في عدة مصاحف، كما عنون بها السخاوي والسيوطي وغيرهما. ووجه التسمية لوقوع لفظ (الدِين) في أول آياتها، والمقصود النعي على مَن يكذب بالجزاء الأخروي.

٣- سورة (اليتيم)، وقد سمَّاها به البقاعي والشوكاني. ووجه التسمية لوقوع لفظه في

السورة.

٤ـ سورة (التكذيب)، وقد سمَّاها به ابن عاشور والآلوسي والخفاجي وغيرهم. ووجه التسمية لوقوع هذا اللفظ في السورة أيضاً.

ب ـ مرحلة النزول:

مكية في قول الجمهور، وروي عن ابن عباس، وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية. وروي عن ابن عباس أيضاً، وذكر السيوطي أنه نزل ثلاث آيات من أولها بمكة، وبقيتها نزلت في المدينة. وقال هبة الله بن سلامة المفسر الضرير: وهو الأظهر، نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أُبَيّ المنافق. وقد عُدَّت السورة السابعة عشرة في عداد نزول السور، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة (التكاثر)، وقبل سورة (الكافرون)[١].

ج ـ أسباب نزولها:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدِّي: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في أبي جهل، كان وصيًّا ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. وقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً، فأتاه يتيم فسأله شيئاً، فقرعه بعصاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة[٢].

د ـ عدد آيات سورة (الماعون):

سبع آيات في عدِّ الكوفي والبصري، وست في عدِّ الباقين، واختلافها في: ﴿يُرَآءُونَ ﴾، عدِّها الكوفي والبصري، ولم يعدَّها الباقون[٣].

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٤٩٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٣، وزاد المسير: ٨/ ٣٢٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٠.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٦.

هـ- محور سورة (الماعون):

التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث، فإنه يُجرِّئ المكذِّب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال، حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقاً له، فيصير ممن ليس له خلاق. وكل من أسمائها الأربعة في غاية الظهور في الدلالة على ذلك، بتأمل السورة، لتعرف هذه الأشياء المذكورة. فهي ناهية عن المنكرات بتصريحها؛ من إنكار الكافر للآخرة، ومراءاة المنافق بعمله، وبيان جزاء كل منهما، كما أنها داعية إلى المعالي بإفهامها وتلويحها[1].

و- المناسبات في سورة (الماعون):

١- المناسبة بين سورة (الماعون) ومحورها:

التركيز في السورة واضح في الكلام عن صفات الكافرين بتكذيبهم للجزاء وإنكارهم للبعث والحساب، والتنبيه على صفات المنافقين في سهوهم عن الصلاة ومراءاتهم ومنعهم للمعروف. فارتباط السورة بمحورها واضح، ومعانيها تتكامل مع معاني مجموعتها[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الماعون):

الاستفهام مستعمل في التعجب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع. فالتعجب من تكذيبهم بالدين، وما تفرع عليه من دَعِّ اليتيم، وعدم الحضِّ على طعام المسكين. وقد صيغ هذا التعجب في نظم مشوِّق، لأن الاستفهام عن رؤية مَن ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى مِن تعرُّف المقصد بهذا الاستفهام، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم، فلا يكون مثاراً للتعجب، فيترقب السامع ماذا يَرِد بعده، وهو قوله: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾. وفي إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٧٥.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٣.

الفاء زيادة تشويق، حتى تقرع الصلة سمْعَ السامع، فتتمكن منه كَمَال تَمكُّن[1].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وخاتمتها:

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر، وفي نهايتها المدنية عن المنافق. أما مطلعها فهو في ذمِّ الكافر المكذِّب بيوم الحساب والجزاء، ووصفته بصفتين؛ الأولى: انتهاره وزجره وطرده اليتيم، والثانية: عدم الحضِّ أو الحثِّ على إطعام المسكين، فلم يحسن في عبادة ربه، ولم يفعل الخير لغيره. وأما خاتمتها فهي في ذمِّ المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر، ووصفته بصفات ثلاث؛ **الأولى**: الغفلة عن الصلاة، **والثانية**: مراءاته الناس بعمله، **والثالثة**: منْعُه الماعون الذي يُستعان ويُنتفع به بين الجيران، فهو لا يعمل لله تعالى، بل يرائي في عمله وصلاته. وتوعَّدت الفريقين بالخزي والعذاب والهلاك، ولفتت الأنظار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب والتعجب من صنيعهم[2].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وخاتمة ما قبلها:

تأتي سورتا (الفيل) و(قريش) لتخدم قضية التدليل على اليوم الآخر، وبعد ذلك تأتي سورة (الماعون) لتحدثنا عن آثار التكذيب باليوم الآخر في السلوك البشري. مما يشير إلى الصلة الوثيقة بين السورة، وبين ما قبلها[3]. قال الآلوسي: لما ذكر سبحانه في سورة (قريش): ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، ذمَّ عزَّ وجلَّ هنا مَن لم يحضّ على طعام المسكين، ولما قال تعالى هناك: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ ذمَّ سبحانه هنا مَن سها عن صلاته، أو لما عدد نعمه تعالى على قريش، وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء، أتبع سبحانه امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه[4].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٤.

(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٠.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٠.

(٤) روح المعاني: ٣٠/ ٢٤١، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٥٢، وتفسير المراغي: ٣/ ٢٤٧.

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الماعون) ومحورها:

تأتي سورة (الماعون) لتحدثنا عن آثار التكذيب باليوم الآخر في السلوك البشري؛ مِن جفاء اليتم، وعدم العطف على المسكين، ومِن تهاون في الصلاة ومراءاة فيها، ومِن منعٍ للماعون. مما يشير إلى الصلة الوثيقة بين السورة، وبين محورها[١].

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الماعون) بعضها مع بعض:

تستفتح السورة بالحديث عن التكذيب بيوم الجزاء، وهي صفة الكافر، ثم تتحدث عن آثار التكذيب في سلوك الإنسان، ولما كان التكذيب خُلُقاً مشتركاً بين المنافقين والكافرين، وآثاره واحدة عندهما، لم يكن في بداية السورة ما يشير إلى أن الأمر خاص بالمنافقين، ولكن خاتمة السورة ينصب الحديث فيه عن المنافقين، فالسورة تفصيل إذن لقضية ترتبط بالنفاق، وإذا كان النفاق حصيلته كفراً، فقد كان جزء من حديثها ينصبُّ على الكفر والنفاق بآن واحد[٢].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الماعون) وافتتاحية سابقتها:

ترتبط هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة:

الأول: ذمَّ الله تعالى في السورة السابقة الجاحدين لنعمة الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾، وذمَّ في هذه السورة مَن لم يحضّ على طعام المسكين.

الثاني: أمر الله تعالى في السورة المتقدمة بعبادته وحده وتوحيده، وذمَّ في هذه السورة الذين هم عن صلاتهم ساهون، وينهون عن الصلاة.

الثالث: عدَّد الله تعالى في السورة الأولى نِعَمَه على قريش، وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء في الآخرة، وأتبعه هنا بتهديدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدِّين، أي

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٠.

(٢) المصدر السابق: ١١/ ٦٧٠٠.

الجزاء الأخروي[1].

٨ـ المناسبة بين سورة (الماعون) وما بعدها:

تأتي سورة (الماعون) لتبين موقف الكافرين من الخير عامة، وموقف المنافقين من الصلاة والخير، وتأتي سورة (الكوثر) لتفرد رسول الله ﷺ بالخطاب في الصلاة والنحر، مذكِّرةً بنِعَم الله تعالى الخاصة عليه، وفي ذلك تعليم وتبيان أنه إن أعرض خلق عن الخير وفعله، ورفضوا طاعة الله عزَّ وجلَّ وأوامره، فإن هناك مَن يستجيب على الكمال لذلك، ومن أجل أمثال هؤلاء تنزل الشرائع، مهما كان عدد المعرضين كثيراً[2].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً، فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة.. إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى. كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء.. إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته وشعائره، وتكاليفه الفردية والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر، غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء.. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤١٩.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١١.

ولقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم، وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه، ويظل بعيداً عنها، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها. وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان، ومهما تعبَّد الإنسان!

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها، لكي تحقق ذاتها في عمل صالح، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً. وهذا ما تقرره هذه السورة نصاً.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.. إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل مَن تتأتى منه الرؤية ليرى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾؟ وينتظر مَن يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة، وإلى مَن تتجه؟ ومَن هو هذا الذي يكذب بالدين، والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين.. وإذا الجواب: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾!

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي.. ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقته.. إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعاً بعنف، أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه. والذي لا يحض على طعام المسكين، ولا يوصي برعايته. فلو صدق بالدين حقاً، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين.

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحوُّل في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية. والله لا يريد من الناس كلمات. إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل.

ولا نحب أن ندخل هنا في جدل فقهي حول حدود الإيمان وحدود الإسلام. فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية. فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر في اعتبار الله وميزانه. وهذا أمر آخر غير الظواهر التي تقوم عليها المعاملات!!

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾. إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون.. فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون!

إنهم﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾..

إنهم أولئك الذين يصلون، ولكنهم لا يقيمون الصلاة. الذين يؤدون حركات الصلاة، وينطقون بأدعيتها، ولكن قلوبهم لا تعيش معها، ولا تعيش بها، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات. إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصاً لله. ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم، وهم يؤدونها. ساهون عنها لم يقيموها. والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها. وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها.

ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. فهم يمنعون الماعون. يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية. يمنعون الماعون عن عباد الله. ولو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله..

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة، وأمام طبيعة هذا الدين. ونجد نصاً قرآنياً ينذر مصلين بالويل. لأنهم لم يقيموا الصلاة حقاً. إنما أدوا حركات لا روح فيها. ولم يتجردوا لله فيها. إنما أدوها رياءً. ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء. بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء!

ونتظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده الله من العباد، حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه...

إنه لا يريد منهم شيئاً لذاته سبحانه ـ فهو الغني ـ إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم. يريد الخير لهم. يريد طهارة قلوبهم، ويريد سعادة حياتهم. يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف، والتكافل الجميل، والأريحية الكريمة، والحب والإخاء، ونظافة القلب والسلوك.

فأين تذهب البشرية بعيداً عن هذا الخير؟ وهذه الرحمة؟ وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم؟ أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدة، وأمامها هذا النور في مفرق الطريق؟)[1].

دروس وعبر من سورة (الماعون):

* تقرير عقيدة البعث والجزاء. وذمُّ المكذِّب بالجزاء والحساب في الآخرة. واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية. والقاعدة الأصولية: العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.
* التنديد بالذين يأكلون أموال اليتامى، ويدفعونهم عن حقوقهم استصغاراً لهم واحتقاراً.

وقد استوصى النبي ﷺ بكفالة اليتيم خيراً، وجعل كافله في صحبة النبي ﷺ في الجنة. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار مالك بالسبابة والوسطى)[2]. وعن مالك بن الحارث رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول: (مَن ضمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتَّة، ومَن أعتق امرأً مسلماً كان فكاكه من النار، يجزي بكل عضو منه عضواً منه

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم الحديث: ٥٢٩٦.

من النار)[1].

* من صفات المكذِّب بالجزاء الأخروي وقبائحه زجْرُ اليتيم، وطردُه ودفعه عن حقه، وظلمُه وقهرُه، وترْكُ الخير وعدم الحثِّ أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وليس الذمُّ عامّاً، حتى يتناول مَن تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون مع الغنى، ويعتذرون لأنفسهم[2].

* **الويل**: هو العذاب الشديد في جهنم، والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور، أو أحدها:

أ ـ **السهو عن الصلاة**؛ وهو: تركها رأساً، أو فعلها مع عدم المبالاة، فلا يتم ركوعها ولا سجودها، ولا يرجو لها ثواباً إن صلاها، كما لا يخشى عقاباً إن تركها، أو تأخيرها عمداً أو تضييع وقتها بتأخيرها عن وقتها تهاوناً بها. أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري فلا يدخل تحت التكليف، وقد ثبت أن النبي ﷺ قد سها في صلاته، وكذا سها صحابته وشرع سجود السهو لمن سها. فعن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأنسى أو أُنَسَّى لأسُنَّ)[3].

ب ـ **الرياء**؛ وحقيقته: طلب ما في الدنيا للعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، وهو أنواع:

أولها: تحسين السمت (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس.

وثانيها: لبس الثياب القصار أو الخشنة، ليأخذ بذلك هيبة الزهد في الدنيا.

وثالثها: الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٨٢٥٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١١، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب النداء للصلاة، باب العمل في السهو.

ورابعها: إظهار الصلاة والصدقة، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له. والفرق بين المنافق والمرائي: أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر، والمرائي هو المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه مَن يراه أنه متدين. وقال العلماء: لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء، أو نفي التهمة. واجتناب الرياء صعب إلا على مَن راض نفسه، وحملها على الإخلاص. وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه خرج يوماً إلى مسجد رسول الله ﷺ، فوجد معاذ بن جبل ﷺ قاعداً عند قبر النبي ﷺ يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن يسير الرياء شرك، وإن مَن عادى لله ولياً فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يُدعَوا، ولم يُعرَفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة)[1]. وعن عمرو بن مرة: حدثنا رجل في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَن سمَّع الناسَ بعمله سمَّع الله به سامعَ خلقِه وصغَّره وحقَّره. قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر)[2]. قال صاحب الكشاف: ولا غُمَّة في الفرائض، لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذمَّ والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً، فحقُّه أن يُخفَى، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه؛ فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فيُثنى عليه بالصلاح[3].

ج ـ **الماعون**؛ وهو: اسم جامع لما لا يمنع في العادة، ويسأله الفقير والغني في أغلب الأحوال، ولا يُنسَب سائله إلى لؤم، بل يُنسَب مانعه إلى اللؤم والبخل؛ كالفأس والقِدْر والدلو والغربال والقدوم والقداحة والإبرة، ويدخل فيه الماء والملح والنار والعاريَّة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الفتن، باب مَن تُرجى له السلامة من الفتن، رقم الحديث: ٣٩٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٥٤٤.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤/ ٨١٠.

وقيل: منع الزكاة، وقيل: المال، وقيل: المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (كل معروف صدقة)[1].

وقيل: المستغل من منافع الأموال.

وفي الآية وعيد وزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخلٌّ بالمروءة.

وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ؛ كالصلاة إذا تركها، ومنع الماعون إذا تعين، ويكون منعاً قبيحاً مخلاً بالمروءة في غير حال الضرورة[2].

* هذه السورة الكريمة تصلح عنواناً بارزاً لكل أنواع التكافل والتضامن الاجتماعي فيما بين الناس، حتى تسود المحبة والود، ويتآلف البشر، ويعمّ الرفاه والاستقرار أنحاء المجتمع وتعيش كل جماعة في أمن وعافية وسلام[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم الحديث: ٥٥٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١١ـ ٢١٥، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٤، وأحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٩٧٢، وصفوة التفاسير: ٣/ ٦٠٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٥، والكشاف: ٤/ ٨١٠.

(٣) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٤٢.

سورة الكوثر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي:

سورة (الكوثر): وهو نهر في الجنة، وقد سُمِّيت هذه السورة باسمه، كما دونتها المصاحف وكتب التفسير، وعنون لها الترمذي في جامعه. ووجه تسميتها به لافتتاحها بذكر الكوثر.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾: اشتهر اسمها عند السلف، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ بمكة. وعن عائشة وابن الزبير ﷺ مثله. وبه عنون البخاري في صحيحه، وذكرها السخاوي في جمال القرَّاء. ووجه التسمية أنها أول آية افتتحت بها السورة.

٢ـ سورة (النحر): سمَّاها الآلوسي في روح المعاني، والجمل في الفتوحات، والبقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. ووجه التسمية عنده أن النحر معروف في الإبل، وذلك غاية الكرم عند العرب[1].

ب ـ فضائل السورة:

عن أنس ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٧٨.

متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول ربِّ إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك. زاد ابن حجر في حديثه: بين أظهرنا في المسجد. وقال: ما أحدث بعدك)(١).

وعن عبد الله بن زيد ﷺ قال النبي ﷺ: (اصبروا حتى تلقوني على الحوض)(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمعه يقول: إن رسول الله ﷺ قال: (حوضي كما بين عدن وعمان، أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء، مَن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً. أول الناس عليه وروداً صعاليك المهاجرين. قال قائل: ومَن هم يا رسول الله؟ قال: الشعثة رؤوسهم، الشحبة وجوههم، الدنسة ثيابهم، لا يفتح لهم السدد، ولا ينكحون المتنعمات، الذين يعطون كل الذي عليهم، ولا يأخذون الذي لهم)(٣).

ج- مرحلة النزول:

مكية إجماعاً، والأظهر أنها مدنية.

وقد تعارضت الأقوال والآثار في ذلك تعارضاً شديداً. وإذا صحت الرواية أنها نزلت مرتين؛ في مكة والمدينة، فحينئذ يزول الإشكال.

وعلى القول بأنها مكية عدُّوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة من أول كل سورة، رقم الحديث: ٦٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، باب في الحوض.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٥٨٨٧.

(العاديات)، وقبل سورة (التكاثر).

وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية[1]. وعلى أنها مكية فإن الأمر بالنحر جارٍ مجرى البشارة بحصول الدولة، وزوال الفقر والخوف[2].

د ـ أسباب نزولها:

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة! قال: أنتم خير منه، فنزلت السورة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، لقي رسول الله ﷺ على باب المسجد، فوقف يحدثه حتى دخل العاص المسجد، وفيه أناس من صناديد قريش في المسجد جلوس، فلما دخل العاص قالوا له: مَن الذي كنت تحدث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني النبي ﷺ وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكانوا يسمون مَن ليس له ابن: أبتر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السورة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: بلغني أن إبراهيم ولد النبي ﷺ لما مات، قالت قريش: أصبح محمد أبتر، فغاظه ذلك، فنزلت السورة تعزية له.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بُتِر محمد منا، فنزلت السورة[3].

وهناك روايات أخرى تشير إلى أن القائل أبو جهل، أو أبو لهب، أو عقبة بن أبي معيط،

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٢، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٤٤.
(٢) فتح القدير: ٥/ ٥٠٢، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٣٢.
(٣) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣٠٩، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤١.

أو الوليد بن المغيرة.

ومجمل الروايات كلها: أن سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي ﷺ واستصغار أتباعه، والشماتة بموت أولاده الذكور، ابنيه القاسم وعبد الله بمكة، وابنه إبراهيم بالمدينة والفرح بوقوع شدة، أو محنة بالمؤمنين. فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر، وأتباعه هم الغالبون، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يُضعف من شأنه، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذِكْر وسمعة وأثر، البعيدون عن كل خير، المحرومون من أي فضل(١).

هـ- عدد آيات سورة (الكوثر):

ثلاث آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف. وهي أقصر سُوَر القرآن عدد كلمات وعدد حروف. وأما في عدد الآيات فسورة (العصر) وسورة (النصر) مثلها، ولكن كلماتها أكثر(٢).

و- محور سورة (الكوثر):

تأتي سورة (الكوثر) تخاطب رسول الله ﷺ مذكِّرة له بنعمتين: العطاء للخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه نهر الكوثر في الجنة وبتر المبغض، وتأمره فيما بين ذلك بالصلاة والإخلاص فيها ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى، وهما عبادتان. فمحورها يدور حول المنحة بكل خير يمكن أن يكون(٣).

---

(١) زاد المسير: ٨/ ٣٣٣، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٠، والتفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٤٣.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٧، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٨٧، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٠٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٢٨.

ز- المناسبات في سورة (الكوثر):

١- المناسبة بين سورة (الكوثر) ومحورها:

حاصل هذه السورة المنُّ عليه ﷺ بالخير العظيم الذي من جملته النهر المادُّ من الجنة في المحشر، المورود لمن اتَّبعه، الممنوع ممن تأبَّى عنه وقطعه، وأمره بالصلاة والنحر للتوسعة على المحاويج، والبشارة بقطع دابر أعدائه، ونصر جماعة أوليائه[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الكوثر):

لما كانت سورة (الدين) بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى معاني الشيم، فجاءت (الكوثر) لذلك، وكانت (الدين) قد ختمت بأبخل البخلاء، وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل، ومما جرَّه من التكذيب، فابتدئت (الكوثر) بأجود الجود: العطاء لأشرف الخلائق، ترغيباً فيه، وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون[2].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وخاتمتها:

تضمنت السورة وجهاً من البديع والبيان بين الافتتاحية والخاتمة، وهو المطابقة بين أول السورة وآخرها، بين (الكوثر)، و(الأبتر)، فالكوثر الخير الكثير، والأبتر المنقطع عن كل خير[3]. استفتحت بالحديث عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم، بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها نهر الكوثر وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول ﷺ إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدي شكراً لله تعالى. وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلَّة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق: ٢٢/ ٢٨٧.
(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦١٢.

بينما ذِكرُ الرسول ﷺ مرفوع على المنائر والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وخاتمة ما قبلها:

قال الرازي: هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، وقد أورد ما شرَّف الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وأمته من الفضائل والمزايا والمناقب، في سورة (الضحى)، و(الانشراح)، و(التين)، و(العلق)، و(القدر)، و(البينة)، و(الزلزلة)، و(العاديات)، و(القارعة)، و(التكاثر)، و(العصر)، و(الهُمَزة)، و(العصر)، و(الفيل) و(قريش)، و(الماعون). ثم إنه سبحانه لما شرَّفه ﷺ في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السور المتقدمة، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب، وبإرشاد عباده إلى ما هو أصلح لهم.. فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها[2].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الكوثر) ومحورها:

هذه السورة عشر كلمات في الكتابة، إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة، وكذا كان. ولم تمض السنة الحادية عشرة من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا مَن يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه. وفي تقديم الجار والمجرور على الأمر بالنحر يفيد الاختصاص، وهو يفيد الإخلاص. ففي السورة تفصيل لقضايا عبادية توحيدية؛ اعبد الله بالصلاة والنحر، ولا تشرك بالله في صلاتك ونحرك[3].

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦١٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٩.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢٢/ ٢٩٣، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١١.

٦- المناسبة بين مقاطع سورة (الكوثر) بعضها مع بعض:

في تأمُّلِ هذه السورة وهي أقصر سورة في القرآن الكريم، وتأمُّلِ محلها مما قبلها ومما بعدها وصلتها بالسياق القرآني العام القريب والبعيد، وانسجامها مع طريقة القرآن في عرض المعاني على تسلسل معين نجد عجباً. ثم إن السورة توجد فيها خصائص القرآن كله، فكلماتها أفصح الكلمات، حتى لو بحثت عن كلمة تحلُّ محلَّ كلمة من كلماتها، وتؤدي معناها وجمالها فإنك عاجز، ومعانيها هي الحق الذي لا ينقض، فليس فيها شطحة خيال، وهي في الوقت نفسه مذكِّرة وواعظة، وهي مربية ومعلمة، ومشرِّعة ومبشِّرة، ومفصِّلة ومبيِّنة، وهي مع ذلك كله لا تتناقض مع بقية معاني القرآن الكريم، بل هي وإياه كلها تخرج من مشكاة واحدة، وتصبُّ في مصبٍّ واحد، ثم إن معانيها بقدر كلماتها، بل كلماتها وحدها هي التي تسع معانيها، فهل يستطيع أحد من البشر أن يأتي بسورة من مثل هذه السور في مكانها وخصائصها[1].

٧- المناسبة بين افتتاحية سورة (الكوثر) وافتتاحية سابقتها:

هذه السورة كالمقابل للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء، ومنع الزكاة. فذكر عزَّ وجلَّ في هذه السورة في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة: ﴿فَصَلِّ﴾، أي دُمْ على الصلاة، وفي مقابلة الرياء: ﴿لِرَبِّكَ﴾، أي لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منْع الماعون: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾، وأراد سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي[2].

٨- المناسبة بين سورة (الكوثر) وما بعدها:

ثبت أن مخاطبة الله تعالى إياه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ مما يزيل الخوف عن القلب، والجبن عن النفس، فكانت هذه السورة كالأصل لما بعدها، وهو أنه تعالى قدَّم

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١١٧، وروح المعاني: ٣٠/ ٢٤٤.

هذه السورة على (الكافرون) حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق، وإظهار البراءة عن معبودات الكافرين جميعها بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في سورة (الكوثر): هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى، وسورة (الشرح) يسرِّي عنه ربه فيها، ويعِدُه بالخير، ويوعِد أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر.

ومن ثم فهي تمثِّل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ، ودعوة لله التي يبشر بها، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده، وللقلة المؤمنة معه، ومن تثبيت الله وتطمينه، وجميل وعده لنبيه، ومرهوب وعيده لشانئه.

كذلك تمثِّل حقيقة الهدى والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران؛ الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلة وانحسار وانبتار. وإن ظنَّ الغافلون غير هذا وذاك..

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء، ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله، من أمثال العاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب، وأبي جهل، وغيرهم، كانوا يقولون عن النبي ﷺ إنه أبتر. يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده. وقال أحدهم: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره!

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدىً ووقعاً. وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله ﷺ وشانئيه، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضاً.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٢٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٥٥، وتفسير المراغي: ٣/ ٢٥١.

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه، وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ ﴾.. والكوثر صيغة من الكثرة.. وهو مطلق غير محدود. يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء.. إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير. غير ممنوع ولا مبتور.. فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور.

هو واجده في النبوة. في هذا الاتصال بالحق الكبير، والوجود الكبير. الوجود الذي لا وجود غيره، ولا شيء في الحقيقة سواه. وماذا فقد مَن وجد الله؟

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه. وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته!

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه، ويصلي على مَن يصلي عليه في الأرض، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء.

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون، في أرجاء الأرض. وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة.

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه. سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به، ومَن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض!

وهو واجده في مظاهر شتى، محاولة إحصائها ضربٌ مِن تقليلها وتصغيرها!

إنه الكوثر، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حدَّ لمدلوله. ومن ثم تركه النص بلا تحديد، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد..

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله ﷺ، ولكن ابن

عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول. فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق، وفي هذه الملابسات.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾. بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون، وجه الرسول ﷺ إلى شكر النعمة بحقها الأول.

حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه.. في الصلاة وفي ذبح النسك خالصاً لله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾.. غير ملقٍ بالاً إلى شرك المشركين، وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم.

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح، وتحريم ما أهل به لغير الله، وما لم يذكر اسم الله عليه.. ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره. لا تخليص التصور والضمير وحدهما. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، وكل ظل من ظلالها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره وفي كل مكامنه، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً لا يتجزأ ويخلصها من شوائب الشرك جميعاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما نرى في مسألة الذبائح، وفي غيرها من شعائر العبادة، أو تقاليد الحياة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾..

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر. وفي هذه الآية يرد الكيد إلى كائديه، ويؤكد سبحانه أن الأبتر ليس هو محمد ﷺ، إنما هم شانئوه وكارهوه.

ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم وانطوى. بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا.

ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون!

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر. فهو ممتد الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر، مهما ترعرع وزها وتجبر..

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد ﷺ وقطعوا عليه الطريق؟ أين هم؟ وأين ذكراهم، وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتر؟!

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور..

وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون..)[1].

دروس وعبر من سورة (الكوثر):

* أعطى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ مناقب كثيرة، وخيراً كثيراً بالغاً حد النهاية، ومنه نهر في الجنة، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج)[2]. وقيل إنه حوض النبي ﷺ في الموقف، فعن أنس ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٨٧.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة (الكوثر)، رقم الحديث: ٣٢٨٤. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: ربِّ إنه من أمتي! فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك. زاد ابن حجر في حديثه: بين أظهرنا في المسجد، وقال: ما أحدث بعدك)[1]. وهذان القولان هما أصح الأقوال، فيكون الكوثر شاملاً نهراً في الجنة، وحوضاً عليه أمة النبي ﷺ يوم القيامة[2].

* أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى دون مشاركة أحد سواه، وأمرهم أيضاً بذبح المناسك مما يهدى إلى الحرم والأضاحي، وجميع الذبائح لله تعالى، وعلى اسم الله وحده لا شريك له. كما أخذ من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة الدلالة على أن الأضحية تكون بعد الصلاة، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح، مع أن الضأن أفضل في الضحايا، وهي لا تنحر، وأن النبي ﷺ لم يضحِّ إلا بالضأن تغليب للفظ النحر، وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يوم النحر، وليشمل الضحايا في البُدن، والهدايا في الحج[3].

* روي عن عليٍّ رضي الله عنه فيما خرَّجه الدارقطني في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة؛ وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة والنافلة، لأنه ثبت أن النبي ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حجر وغيره، وبه قال الجمهور، واستحب جماعة إرسال اليد. كما اختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروي عن عليٍّ أنه وضعهما على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب حجة مَن قال: البسملة آية مِن أول كل سورة، رقم الحديث: ٦٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢١٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٤.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٥٧٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٥.

الصدر، وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل: فوق السرَّة، وقال: لا بأس إن كان تحت السرَّة، وهو قول طائفة غير قليلة من أهل العلم. وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضاً، والصواب ما في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: (رأيت رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك إذا رفع رأسه من الركوع، ويقول: سمع الله لمن حمده، ولا يفعل ذلك في السجود)[(1)]. قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول. وبه أقول: لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري، وأصحاب الرأي[(2)].

* في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ دليل على وجوب تقديم صلاة العيد على النحر، وهو ما عليه جمهور الفقهاء، وجائز أن يكون المراد من الآية: أي صلِّ صلاة الصبح بمزدلفة، وانحر هديك في منى[(3)].

وقد حمل بعض العلماء الصلاة في الآية على أنها صلاة الضحى، والنحر على أنه نحر الأضاحي بعد صلاة العيد، وهو مما يدخل ضمن عموم الآية.

وقد استعرض ابن كثير في تفسيره أقوالاً وصفها بأنها غريبة في تفسير النحر في الآية فقال: والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه ويقول كما في الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ قال: (خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر بعد الصلاة، فقال: مَن صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع، رقم الحديث: ٦٩٤.

(2) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٠.

(3) أيسر التفاسير: ٥/ ٦٢٢.

ومَن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله! والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلت وأكلت، وأطعمت أهلي وجيراني، فقال رسول الله ﷺ: تلك شاة لحم، قال: فإن عندي عناق جذعة هي خير من شاتَي لحم، فهل تجزي عني؟ قال: نعم، ولن تجزي عن أحد بعدك)[1]. قال أبو جعفر ابن جرير: والصواب قول مَن قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له، وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن. وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجمعة، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم الحديث: ٩٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٥٤.

سورة الكافرون

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الكافرون)، وبه سمِّيت السورة في المصاحف، وغالب كتب التفسير، ووجه التسمية أنه وقع لفظ (الكافرون) في فاتحتها، وفيها أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يتبرأ من عبادة ما يعبده الكافرون.

٢- سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾، وقد وردت التسمية في أحاديث عدة؛ منها ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقرأ في المغرب: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[2].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القراءة في صلاة المغرب، رقم الحديث: ٨٢٥.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[1].

وقد عنون بها عدد من المفسرين في كتبهم، والبخاري في صحيحه، والسخاوي في جمال القرَّاء. ووجه التسمية أنها أول آية في السورة.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (المقشقشة)، وسمَّاها بهذا الاسم زرارة بن أوفى، كما أخرج عنه ابن أبي حاتم قال: (كانت هذه السورة تسمَّى المقشقشة)[2]، وكذا سمَّاها أبو عمرو بن العلاء قال: (كانت ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ تسمَّى المقشقشة)[3].

وسمَّاها كذلك الزمخشري وابن الجوزي والرازي والجمل والآلوسي، وعدَّها السيوطي في الإتقان، والفيروزآبادي في البصائر. ووجه التسمية: لأنها تقشقش من النفاق والشرك، أي تُبرئ منهما.

٢ـ سورة (الإخلاص)، وقد سمَّاها الرازي والجمل والآلوسي في تفاسيرهم. ووجه التسمية كما ذكر الجمل في الفتوحات أنه منها إخلاص العبادة والدين، كما أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في إخلاص التوحيد، واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما، وعمل بهما[4].

٣ـ سورة (العبادة)، وقد سمَّاها السخاوي في جمال القرَّاء، والآلوسي والسيوطي. ووجه التسمية أنها اشتملت على أمر الله سبحانه لرسوله ﷺ بأن يعلن للمشركين بأنه لا يعبد ما يعبدون

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

(٢) الدر المنثور: ٨/ ٦٥٥.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب، باب القراءة في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات، رقم الحديث: ٢٥٢٣.

(٤) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، للجمل: ٤/ ٥٩٦.

من الأصنام والأوثان، كما وردت في الفتوحات (سورة المعابدة)، ولعله من لفظ العبادة.

٤ـ سورة (المنابذة)، وقد سمَّاها الرازي في تفسيره. دونما تعليل.

٥ـ سورة (الدين)، وقد سمَّاها به الفيروزآبادي في البصائر معلِّلاً تسميتها بقوله تعالى فيها: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[١].

ب ـ فضائل السورة:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[٢].

وعن فروة بن نوفل ﷺ أنه أتى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله علِّمني شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي، قال: اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾، فإنها براءة من الشرك)[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[٤].

وفي حديث الحج: ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، قال جابر ﷺ: لسنا ننوي إلا الحج لسنا

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٨.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الدعوات، رقم الحديث: ٣٣٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبي يقول: ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ (كان يقرأ في الركعتين: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① ﴾)[1].

ج. مرحلة النزول:

مكية بالاتفاق في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة، وروي عن ابن الزبير أنها مدنية وهو أحد قولي ابن عباس. وقد عُدَّت الثامنة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الماعون)، وقبل سورة (الفيل)[2].

د. أسباب نزولها:

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وتكفَّ عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① ﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر: ٦٤][3]. وذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزولها: أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف لقوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٢١٣٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٧٩، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٤، وفتح القدير: ٥/ ٥٠٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٧.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٣٨.

في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[1].

هـ- عدد آيات سورة (الكافرون):

ست آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و- محور سورة (الكافرون):

تقرير التوحيد، والبراءة من الشرك والكفر والضلال، ومن أعمال المشركين، والإخلاص في العمل لله تبارك وتعالى.

ز- المناسبات في سورة (الكافرون):

١- المناسبة بين سورة (الكافرون) ومحورها:

ذكرت هذه السورة المفاصلة بين المسلمين وغيرهم في العبادة والدين، فحددت بذلك أن العبادة التي أمر الله عزَّ وجلَّ بها في الإسلام في محور السورة تختلف عن أي عبادة أخرى، وأن الإسلام غير الأديان الأخرى، إذ كلها منسوخة بهذا الإسلام[3].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الكافرون):

نزلت هذه السورة تضع الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله ﷺ، وأن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة، وتفصل النزاع بين فريقي المؤمنين والكافرين إلى الأبد.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٥.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٤٨.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢١.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وخاتمتها:

اشتمل أول السورة على التشديد، وهو النداء بالكفر والتكرير، وآخرها على اللطف والتساهل، وهو قوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾، وقد جاء الجمع بين الأمرين، كأنه يقول: إني بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح، وما قصرت فيه، فإن لم تقبلوا قولي، فاتركوني سواء بسواء[١].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وخاتمة ما قبلها:

أمر الله تعالى نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والشكر على نعمه الكثيرة، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار، فهو لا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام، وبالغ في ذلك فكرَّره وأكَّده وانتهى إلى أن له دينه، ولهم دينهم. ففيها إعلان ما فُهم مما قبلها من الأمر بإخلاص العبادة لله عزَّ وجلَّ[٢]. ولما كان أكثر شانئه قريشاً، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، أنزل الله تعالى هذه السورة تبرِّياً منهم، وإخباراً لا شك فيه، أن ذلك لا يكون[٣].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (الكافرون) ومحورها:

تأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبده الكافرون، لا حالاً ولا مستقبلاً، وهي تبين أن الناس قسمان؛ قسم استجابوا لعبادة الله وحده، وقسم لم يستجيبوا، قسم أشركوا، وقسم وحَّدوا، وتأمر إمام العابدين وسيد الموحدين وقدوة المسلمين ﷺ أن يعلن لهؤلاء الكافرين أنه لا يعبد ما يعبدون، وهذا أول مظهر من مظاهر صلة السورة بمحورها. ثم تأمر الآيات النبي ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يعلن براءته من عبادة الكافرين،

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٤٦.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٤٩، وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٥٤.

(٣) البحر المحيط: ١٠/ ٥٥٨.

وتميّز دينه عن دينهم، ومفاصلته لهم في أمر العبادة والدين، وذلك مظهر آخر من مظاهر صلة السورة بمحورها[1].

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الكافرون) بعضها مع بعض:

في الآيات تكرار، وهو من مذاهب العرب في خطابهم، والغرض إرادة التوكيد والإفهام، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم. كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز. قال القتيبي: تكرار الكلام لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إنْ سَرَّك أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً، فنزلت السورة[2].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الكافرون) وافتتاحية سابقتها:

تبدو صلة سورة (الكافرون) بما قبلها واضحة، فقد عرفنا من سورة (الكوثر) أن هناك شانئين ومبغضين لرسول الله ﷺ، وهم الكافرون، وتأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته في عبادته ودينه للكافرين، إعلاماً أنه لا يبالي بهم، وتوضيحاً لكونه على الحق، وفي سورة (الكوثر) أمر الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ بنوعين من العبادة يختلف فيهما المسلمون عن غيرهم من الناس، وتأتي سورة (الكافرون) لتأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أن إلهه الذي يعبده هو الله وحده، وأنه لن يعبد ـ حالاً أو مستقبلاً ـ آلهة الكافرين والمشركين، وأن دينه متميز عن كل دين، وهكذا تبدو الصلة والمناسبة بين السورتين واضحة لا تخفى[3].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (لم يكن العرب يجحدون الله، ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه؛ أحد، صمد. فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره،

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٩.

(٢) تفسير البغوي: ٤/ ٣١٨.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧١٩.

ولا يعبدونه حق عبادته، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء، أو يرمزون بها إلى الملائكة بنات الله، وأن بينه سبحانه وبين الجِنَّة نسباً، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة. وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله، كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض، وتسخيره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من السماء، كالذي جاء في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وفي أيمانهم كانوا يقولون: والله، وتالله، وفي دعائهم كانوا يقولون: اللهم..الخ.

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وأنهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله، والنصارى كانوا يقولون: عيسى ابن الله، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم، فكانوا يعدُّون أنفسهم أهدى، لأن نسبة الملائكة إلى الله، ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى.. وكله شرك. وليس في الشرك خيار، ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقاً!

فلما جاءهم محمد ﷺ يقول: إن دينه هو دين إبراهيم ﷺ قالوا: نحن على دين إبراهيم، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتِّباع محمد؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول خطة وسطاً بينهم وبينه، وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم، وله فيهم وعليهم ما يشترط!

ولعل اختلاط تصوراتهم، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه.. لعل هذا كان

يشعرهم أن المسافة بينهم وبينه قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق، مع بعض الترضيات الشخصية.

ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق.. نزلت هذه السورة بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار، لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

نفي بعد نفي. وجزم بعد جزم. وتوكيد بعد توكيد. بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد..

﴿ قُلْ ﴾.. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده. ليس لمحمد ﷺ فيه شيء. إنما هو الله الآمر الذي لا مرد لأمره، الحاكم الذي لا راد لحكمه.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾.. ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم.. إنهم ليسوا على دين، وليسوا بمؤمنين، وإنما هم كافرون. فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق.

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب، بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال!

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾.. فعبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم..

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ فعبادتكم غير عبادتي، ومعبودكم غير معبودي.

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ ﴾.. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الإسمية، وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها.

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾.. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية. كي لا تبقي مظنة ولا

شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد!

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه، والاختلاف الذي لا تشابه فيه، والانفصال الذي لا اتصال فيه، والتمييز الذي لا اختلاط فيه:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾.. أنا هنا وأنتم هناك، ولا معبر ولا جسر ولا طريق!!!

مفاصلة كاملة شاملة، وتميز واضح دقيق..

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق.

إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر.. ولا يلتقيان.. التوحيد منهج يتجه بالإنسان ـ مع الوجود كله ـ إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان، عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه، وآدابه وأخلاقه، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس. غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية.. وهي تسير..

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية. وضرورية للمدعوين..

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها. وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف. أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً. ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد.. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة!

إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد. والسبيل هو الخروج عن

الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته. هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصوراً ومنهجاً وعملاً. الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق. والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام.

لا ترقيع. ولا أنصاف حلول. ولا التقاء في منتصف الطريق.. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام، أو ادعت هذا العنوان!

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس. شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء. لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه. لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم. ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير!

وإلا فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح..﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾..

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم.. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة، ثم طال عليهم الأمد﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد:١٦].. وأنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، ولا إصلاح عيوب، ولا ترقيع مناهج.. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان، الدعوة بين الجاهلية. والتميز الكامل عن الجاهلية..﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾.. وهذا هو ديني: التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه، وعقيدته وشريعته.. كلها من الله.. دون شريك.. كلها.. في كل نواحي الحياة والسلوك.

وبغير هذه المفاصلة. سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع.. والدعوة

إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة. إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح...

وهذا هو طريق الدعوة الأول: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾[1].

دروس وعبر من سورة (الكافرون):

* استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورَّث اليهود من النصارى وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به، لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان، وذهب الإمام أحمد بن حنبل ومَن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتوارث أهل ملتين شتى)[2][3].

* ذهب المحققون من أهل العلم إلى أن السورة محكمة، ولم تُنسخ بآية القتال، وأن المراد من قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ التهديد، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١ ﴾ [يونس: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥]، والمراد بذلك كله التهديد، لا الرضا بدين الآخرين[4].

* دلَّت السورة على اختلاف المعبود، واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لا لقاء بين

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٩٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر، رقم الحديث: ٢٥٢٣، وأحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٣٧٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٢٩، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٣.

الكفر والإيمان، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي ﷺ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار: فهو أن الفريق الأول يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، والفريق الثاني يعبد غير الله تعالى من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر، أو الملائكة، أو الكواكب، أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله تعالى بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود، وبما شرع الله تعالى لعباده من كيفية العبادة المرضية له، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك، وبنحو اخترعوه لأنفسهم، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام؛ لأن الدين الحق المقبول عند الله تعالى هو الإسلام، وهو الإخلاص لله تعالى والتوحيد، وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد[1].

---

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٤.

سورة النصر

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ ـ أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (النصر)، وسمِّيت به لافتتاحها بذكر النصر، وهو فتح مكة المكرمة. وبه دونت في المصاحف وكتب التفسير.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾، وقد سمِّيت بهذا الاسم في كلام السلف، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما صلَّى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت:﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ قال رسول الله ﷺ: نُعِيتْ إليَّ نفسي بأنه مقبوض في تلك السنة)[(٢)].

وقد عنون بهذا الاسم البخاري في صحيحه، والجصاص في أحكام القرآن، والآلوسي في تفسيره. ووجه التسمية بهذا الاسم لافتتاح السورة بها.

٢ـ سورة (التوديع)، ذكر ذلك الآلوسي في خبر عن ابن مسعود ﷺ، كما أوردها كل من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾، رقم الحديث: ٤٥٨٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٧٧٧.

الماوردي والرازي والقرطبي والجمل والشوكاني في تفاسيرهم، والفيروزآبادي في البصائر، والبقاعي في النظم. ووجه التسمية بهذا الاسم لما فيها من بيان نعي النبي ﷺ، وتوديعه الدنيا وما فيها[١].

٣ـ سورة (الفتح)، كما في بعض المصاحف، وبه عنون لها الترمذي في جامعه، ووجه التسمية بذلك لوقوع لفظ الفتح فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة (الفتح).

ب ـ فضائل السورة:

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: هل تزوجت يا فلان؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ثلث القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾؟ قال: بلى قال: ربع القرآن، قال: أليس معك: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوج)[٢].

وهي آخر سورة نزلت من القرآن. عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: تعلم، وقال هارون: تدري آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾، قال: صدقت)[٣]. وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أنزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، رقم الحديث: ٢٨٢٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب التفسير، رقم الحديث: ٥٣٤٩.

قام فخطب الناس، فذكر خطبته المشهورة، أي خطبة حجة الوداع[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت يا رسول الله! أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقال: خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي فبكت، فقال: لا تبكي، فإنكِ أول أهلي لحاقاً بي، فضحكت، فرآها بعض أزواج النبي ﷺ، فقلن: يا فاطمة رأيناك بكيتِ، ثم ضحكتِ، قالت: إنه أخبرني أنه قد نُعِيَتْ إليه نفسه فبكيت، فقال لي: لا تبكي فإنك أول أهلي لاحق بي فضحكت، وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ وجاء أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة، والإيمان يمان، والحكمة يمانية)[3].

ج- مرحلة النزول:

مدنية بالاتفاق، وقد اختلفت الروايات في تعيين نزولها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين. فتكون على قوله السورة المائة وأربع عشرة نزلت بعد سورة (براءة)، ولم تنزل بعدها سورة أخرى. وروى الواحدي عنه قال: (نزلت منصرفه من حنين)، فيكون الفتح قد مضى، ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبلاً وهو في سنة الوفود سنة تسع. وعدَّها جابر بن زيد السورة المائة والثلاث في ترتيب

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم الحديث: ٧٤٩.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه: كتاب المقدمة، باب في وفاة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٧٩.

نزول السور، وقال: نزلت بعد سورة (الحشر)، وقبل سورة (النور)، وهذا جار على رواية أنها نزلت عقب غزوة خيبر. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فعاش بعدهما رسول الله ﷺ ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١]، فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقال مقاتل: سبعة أيام، وقيل غير هذا.. وللتوفيق بين الروايات نقول: لعل المراد من الرواية الأولى أن سورة (النصر) هي آخر سورة نزلت كسورة كاملة، أما كآيات فقد نزلت حتماً بعدها، إذ التحقيق أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

د ـ أسباب نزولها:

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة، حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم، فدخلوا في دين الله، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ حتى ختمها[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٨٨، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٣٣، وفتح القدير: ٥/ ٥٠٨، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٣، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٢.

(٢) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣١١.

معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[1].

هـ. عدد آيات سورة (النصر):

ثلاث آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[2].

و. محور سورة (النصر):

الإعلام بتمام الدين، اللازم عن مدلول اسمها النصر، والإشارة إلى فتح الفتوح الأعظم فتح مكة المكرمة، وانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية وانحسار ظلمة الشرك والوثنية، والإخبار بدنو أجل النبي ﷺ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره عند الفتوحات، وفي كل حين[3].

ز. المناسبات في سورة (النصر):

١. المناسبة بين سورة (النصر) ومحورها:

إن مجيء سورة (النصر) في مكانها، وفي بشارتها ودلالتها، وفي معناها معجزة وإعجاز، ألا ترى أن هذه التربية لرسول الله ﷺ وللمسلمين حال النصر والفتح، وإقبال الناس على الإسلام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، رقم الحديث: ٣٩٥٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٠.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣١٤، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٦٨.

يستحيل أن تكون بشرية أو يفطن لها الإنسان، فالناس في النصر والفتح يبطرون ويقبلون على المتاع واللذة، بينما السورة تربّي على غير ذلك، فهل هذا مما يخطر في قلوب البشر أن يقولوه أو يسجلوه، ففي معنى السورة، وفي انسجام معاني السورة مع بقية المعاني القرآنية التي لا يخطئها البصر، وفي الكلمات التي عبر بها عن هذا كله معجزة وإعجاز، إذ لا يحل محلها غيرها، فهي كلمات في الذروة من البلاغة والفصاحة والانتقاء أخذت مدلولاتها الإسلامية، واستعملت لتأدية هذه المدلولات على مثل هذا الكمال، وهذا شيء معجز، فأن توجد اصطلاحات خاصة لدين جديد، وأن تستعمل هذه المصطلحات ولأول مرة في ذروة من الكمال في التعبير والأداء، ذاك معنى وحده يدلك على أن هذا القرآن من عند الله تعالى(1).

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (النصر):

لما كمل دينه، واتضحت شريعته، واستقر أمره ﷺ، وأدى أمانة رسالته حق أدائها، عرف ﷺ نفاذ عمره، وانقضاء أجله، وجعلت له على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط، وأمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وأطراف النهار وخواتم المآخذ، مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور. فشرع سبحانه الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم، ورعي أوقاتهم ما يفي بعليِّ أجورهم، كما وعدهم: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥](2).

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وخاتمتها:

تأتي افتتاحية السورة تأمر رسول الله ﷺ في حالة النصر والفتح والإسلام بأن يسبِّح ويستغفر شكراً واعترافاً بالقصور، وهضماً للنفس، وهو درس للأمة، ومظهر آخر من مظاهر صلة السورة بمحورها، والمظهر الأول والأعلى للصلة بالمحور هو أن التسبيح بحمد الله تعالى

(1) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٢.

(2) نظم الدرر: ٢٢/ ٣١٤.

توحيد وعبادة وشكر، وأن الاستغفار عبودية وافتقار[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وخاتمة ما قبلها:

تأتي صلة السورة بما قبلها من حيث إن سورة (الكافرون) تتحدث عن المفاصلة بين المسلمين والكافرين، ومن قبل سورة (الكوثر) ما يفيد أن هناك مبغضين وشانئين لرسول الله ﷺ، وكل ذلك يشعر بالصراع بين جهتين: أهل الإيمان، وأهل الكفر. وتأتي سورة (النصر) ليفهم منها أن العاقبة حتماً لرسول الله ﷺ، وأن نصر الله آتٍ، وأن الدخول في دين الله أفواجاً آتٍ لا محالة؛ ولذلك فإن السورة تأمر رسول الله ﷺ بما ينبغي أن يفعله وقتذاك، فالسورة واضحة الصلة بما قبلها. ولما كان في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ موادعة، جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم، وأنه آن مجيء نصر الله تعالى، وفتح مكة، واضمحلال ملة الأصنام، وإظهار دين الله تعالى[2].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (النصر) ومحورها:

نفهم من سورة (النصر) أن النعمة ينبغي أن تقابلها عبادة؛ فالفتح والنصر والدخول في دين الله أفواجاً نِعَمٌ، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقابلها بالتسبيح بحمد الله والاستغفار، وهو أصل رأيناه في محور السورة، إذ أمرَ الله عزَّ وجلَّ بعبادته وتوحيده في سياق الحديث عن نِعَمِه العامة، وهذا الأصل ترى فروعه في هذه السورة التي تبين أن نعمة أخرى من نعمه تقتضي عبادة من تسبيح واستغفار[3].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (النصر) وافتتاحية سابقتها:

لما أخبر الله تعالى في السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول ﷺ

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨.

(٢) البحر المحيط: ١٠/ ٥٦٢، والأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨ وتفسير المراغي: ٣٠/ ٢٥٧.

(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٢٨.

عن دين الكفار، أنبأه هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر، حيث يصبح دين الأكثرين، وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بالنصر والفتح، وانتشار دين الإسلام، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه؛ دين الله، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله ﷺ.

٧ـ المناسبة بين سورة (النصر) وما بعدها:

وجه المناسبة بما بعدها أنه لما قال تعالى في (الكافرون): ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ فكأنه قيل: إلهي ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح، ثم قيل: فما جزاء العاصي؟ قال: الخسار في الدنيا، والعقاب في العقبى، كما دلت عليه سورة (تبت)[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة القصيرة.. كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه، واجتماع الناس على دينه، إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار.. كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه.. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر.. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام، ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم.

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان

(١) روح المعاني: ٣٠/ ٢٦٠.

تواباً؛ فقد رأيتها».. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾..

[ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص]..

وقال ابن كثير في التفسير: والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة. قولاً واحداً. فإن أحياء العرب كانت تتلوم [أي: تنتظر] بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي... «الحديث».

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.. الخ، فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك، مع توجيه النبي ﷺ إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة.

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس؛ لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها.

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟» فقلت لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

﴿١﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. [تفرد به البخاري].

فلا يمتنع أن يكون الرسول ﷺ حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل وأنه سيلقى ربه قريباً. فكان هذا معنى قول ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له.. الخ..

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي ـ بإسناده ـ عن ابن عباس كذلك: قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾.. دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «إنه قد نعيت إليَّ نفسي» فبكت. ثم ضحكت. وقالت أخبرني: أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي» فضحكت.

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة. فكأنها نزلت والعلامة حاضرة. أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجاً قد تحقق. فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله.. إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقاً مع ظاهر النص القرآني. وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه.. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «دعا رسول الله ﷺ فاطمة عام الفتح فناجاها، فبكت، ثم ناجاها فضحكت. قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها. قالت: أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت، فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران. فضحكت..» [أخرجه الترمذي].

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني، ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه. من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺ وربه هي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها.

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة القصيرة.. فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾...

في مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث. وعن دور الرسول ﷺ ودور المؤمنين في هذه الدعوة، وحدِّهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر.. هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.. فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدره. في الصورة التي يريدها. للغاية التي يرسمها. وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء.. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً..

وبناءً على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومَن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه ـ ومن معه ـ هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار.

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منَّة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراساً لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجاً في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسران.

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب، أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر.. من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره. فجهد الإنسان، مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان.. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ [النحل: ١٨].. فمن هذا التقصير يكون الاستغفار..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار.. ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها. وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور..

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة، يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين. ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر. وإنما سلطة الله عليهم تحقيقاً لأمر يريده هو. والنصر نصره، والفتح فتحه، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور.

إنه الأفق الوضيء الكريم، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه، وترقى في مدارجه، على حدائه النبيل البار. الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله!

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحاً من روح الله. ليس لها حظ في شيء إلا رضاه. ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة، بانية عادلة خيرة،.. الاتجاه فيها إلى الله.

وعبثاً يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته، مقيد برغباته، مثقل بشهواته. عبثاً يحاول ما لم يتحرر من نفسه، ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده.

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً..

كان هذا هو أدب يوسف عليه السلام في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفي هذه اللحظة نزع يوسف عليه السلام نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر. كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده. من فضله ومنه وكرمه..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضراً بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠]..

وهذا كان أدب محمد ﷺ في حياته كلها، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة

له.. انحنى لله شاكراً على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة. مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة.. فلما أن جاءه نصر الله والفتح، نسي فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار. وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده رضي الله عنهم أجمعين.

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله، وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق..[1].

دروس وعبر من سورة (النصر):

* مشروعية نعي الميت إلى أهله.

* كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله تعالى بما هو أهل له، ومن أجلِّ النعم على نبي الله ﷺ وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء، وفتح مكة عاصمة الإسلام، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين. وقد توَّج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات، فوجاً بعد فوج، وذلك لمَّا فُتحت مكة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، أي طاقة، فكانوا يسلمون أفواجاً: أمة أمة.

* ختم الله تعالى هذه السورة بأمر نبيه ﷺ بالإكثار من الصلاة، والتسبيح لله تعالى، أي تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، ولا يجوز عليه، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح وسؤال الله تعالى المغفرة مع مداومة الذكر، والله تعالى كثير القبول للتوبة على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. والأمة أولى بذلك، فإذا كان ﷺ وهو

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٩٤.

معصوم، يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟

* دين الله تعالى هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* مما استدل به على أن المراد بالفتح في السورة فتح مكة استعمال الرسول ﷺ تعبير الفتح خاصة في فتح مكة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)(١).

* قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين: إن إيمان المقلد صحيح، لأنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المجال.

* أمر الله تعالى بالتسبيح أولاً، ثم بالحمد والاستغفار؛ لأنه قدَّم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدَّم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمالٍ مثلاً، فالله تعالى يُنزَّه ويُقدَّس عن إهمال الحق، وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي ﷺ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

* الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد، حيث جعل كافياً في أداء ما وجب على النبي ﷺ وأمته من شكر نعمة النصر والفتح. كما تدل على فضل الاستغفار؛ عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا)(٢). وعن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم الحديث: ٢٥٧٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢١٢٣.

عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن أكثرَ من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)[1]. وقد ثبت في الصحيح مداومته ﷺ على الاستغفار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[2].

* اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله ﷺ. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ علم النبي ﷺ أن قد نُعِيَت إليه نفسه، فقيل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ السورة كلها)[3]. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: (إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله ﷺ: إن مِن أمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر)[4]. وقد عرفوا ذلك؛ لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تمَّ وكمل، وذلك يوجب الموت؛ لأنه

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الدعوات، رقم الحديث: ٣٣١٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث الوصافي عبيد الله بن الوليد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، رقم الحديث: ٥٨٣٢. وفي صحيح مسلم: عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة). كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الاستغفار والاستكثار منه، رقم الحديث: ٤٨٧٠. ومعنى يغان: ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله تعالى.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٣٠٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، رقم الحديث: ٣٦١٥.

لو بقي بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل[(١)].

* موت النبي ﷺ ـ وإن كان خيراً لنا ـ فمن جهة أنا لم نستأصل بعذاب في حياته، وهو وهنٌ لنا من جهة الافتراق وانتشار الكلمة. عن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا فخرج علينا، فقال: ما زلتم هاهنا؟ قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء قال: أحسنتم، أو أصبتم، قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء فقال: النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنَة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)[(٢)]. قال ابن الأثير: في قوله ﷺ: (أتى أصحابي ما يوعدون) إشارة إلى وقوع الفتن، ومجيء الشر عند ذهاب الخير، فإنه لما كان ﷺ بين أظهرهم كان يبين لهم ما يختلفون فيه، فلما فُقد جالت الآراء واختلفت، فكان الصحابة يسندون الأمر إلى رسول الله ﷺ في قوله أو فعله، أو دلالة حاله، فلما فُقد الصحابة قلَّ النور، وقويت الظلمة[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٤٩، وتفسير الكشاف: ٣/ ٣٦٥، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، رقم الحديث: ٤٥٩٦.

(٣) مصاعد النظر في مقاصد الآيات والسور: ٣/ ٢٧٤، وجامع الأصول: ٨/ ٥٥٥.

سورة المسد

قال الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: اسمها التوقيفي: سورة (المسد)، وقد سمِّيت به في بعض المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية به لقوله تعالى في خاتمتها: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾، أي في عنق زوجة أبي لهب حبل من ليف.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة (تبت)، وسمِّيت بهذا الاسم في كثير من المصاحف، وعنون لها عدد من المفسرين كالطبري والزمخشري والقرطبي والشوكاني والآلوسي وابن الجوزي، كما عنون لها البقاعي في نظمه وذكرها السخاوي والسيوطي في عداد اسم السورة. ووجه التسمية بها لافتتاحها بهذا اللفظ.

٢- سورة (أبي لهب)، و(اللهب)، وقد سمِّيت هذه السورة بهما في كثير من المصاحف.

وعنون بها بعض المفسرين في تفاسيرهم؛ كالنسفي، وأبي حيان، والقاسمي، وترجم لها الحاكم في مستدركه. ووجه التسمية بهذا الاسم لوقوع هذه الكلمة في أول آية منها.

٣- سورة (ما كان من أبي لهب)، كذا عنونها ابن العربي في أحكام القرآن.

٤- سورة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾، وبذلك وردت عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة كما أخرج ابن مردويه عنهم أنهم قالوا: (أنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ بمكة)[1]. وبه

(١) الدر المنثور: ٨/ ٦٦٥.

عنون لها البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعه.

ب ـ مرحلة النزول:

مكية باتفاق، وعُدَّت السادسة من السور نزولاً، نزلت بعد سورة (الفاتحة)، وقبل سورة (التكوير)، وذلك في السنة الرابعة من البعثة[1].

ج ـ أسباب نزولها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وأخرج ابن جرير من طريق إسرائيل عن ابن إسحاق، وابن المنذر عن عكرمة عن رجل من همدان يقال له يزيد بن زيد: أن امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النبي الشوك، فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ إلى: ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾[3].

د ـ عدد آيات سورة (المسد):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[4].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٥٩٩، وفتح القدير: ٥/ ٥١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾، رقم الحديث: ٤٣٩٧.

(٣) لباب النقول للسيوطي: ص: ٣١١، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٤.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٢.

هـ- محور سورة (المسد):

التبُّ والقطع الحتم بخسران الكافر، ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين. وبيان جزاء أبي لهب وهلاكه، ودخوله نار جهنم، لشدة إيذائه للنبي ﷺ ومعاداته له، وصدِّه الناس عن الإيمان به، وزجره على قوله: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟)، ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وعونها له على كفره وجحوده وعناده، وبغضها للنبي ﷺ[1].

و- المناسبات في سورة (المسد):

١- المناسبة بين سورة (المسد) ومحورها:

يعطي الله سبحانه في هذه السورة نموذجاً على هؤلاء الخاسرين من الرجال والنساء، وأي نموذج؟ عمُّ رسول الله ﷺ وزوجة عمه، وفي ذلك ما فيه من التحذير والإنذار، وقطع الطمع والإبعاد عن الأماني.

فمِن ربط السورة بمحورها ندرك أن أبا لهب وزوجته هما النموذجان الرجالي والنسائي على الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ومن ثم استحقوا إضلال الله عزَّ وجلَّ[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (المسد):

حاصل هذه السورة أن أبا لهب قطع رحمه، وجار عن قصد السبيل، واجتهد في إضلال غيره، وظلم الناصح له الرؤوف به، الذي لم يأل جهداً في نصحه، على ما تراه من أنه لم يأل هو جهداً في أذاه، واعتمد على ماله وأكسابه، فهلك وأهلك امرأته معه، ومَن تبعه من أولاده[3].

---

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٢، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣/ ٢٧٦.

(٢) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٨.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٢.

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وخاتمتها:

خُتمت سورة (الكافرون) بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، وجاءت سورة (النصر) تُبشِّر رسول الله ﷺ بالنصر على الكافرين، وتأتي سورة (المسد) لتتحدث عن مآل الكافرين وخسرانهم من خلال الحديث عن شخصية آذت رسول الله ﷺ هي وزوجها الإيذاء الكثير، وحرصت على ردِّ وصدِّ الناس عن الإسلام، فهي داخلة دخولاً أولياً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

ومن ثم فللسورة صلتها الوثيقة بما قبلها، فليس أعداء الله مغلوبين فقط، بل مَن حارب رسول الله ﷺ فيها، واستمر على ذلك فإنه كذلك معذَّب عند الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة وفي الآخرة، وهو نصر ثان لرسول الله ﷺ، ففي سورة (النصر) تسجيل للنصر الدنيوي على الكافرين، وفي سورة (المسد) تسجيل للنصر الأخروي على الكافرين(١).

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وخاتمة ما قبلها:

وجه المناسبة والاتصال بما قبلها أنه من اتصال الوعد بالوعيد، وفي كلٍ مسرَّة له ﷺ، فلما قال تعالى في آخر (الكافرون): ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾، فكأنه ﷺ قال: إلهي فما جزائي؟ فقال الله تعالى: لك النصر والفتح، فقال: فما جزاء عمِّي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: تبَّتْ يداه، وقدَّم الوعد على الوعيد ليكون النصر متصلاً بقوله تعالى: ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾، والوعيد راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾، على حدِّ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فتأمل هذه المجانسة الحاصلة بين هذه السور، مع أن سورة (النصر) من آخر ما نزل بالمدينة، و(تبَّتْ) من أوائل ما نزل بمكة، لتعلم أن ترتيبها من الله تعالى، وبأمره عزَّ وجلَّ(٢).

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٣٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٥٩.

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المسد) ومحورها:

نزلت هذه السورة في أوائل الإسلام، ومن المعلوم أن كثيرين ممن حاربوا الدعوة الإسلامية ابتداءً قد دخلوا الإسلام فيما بعد ذلك؛ كعمر، وخالد، وأبي سفيان، وغيرهم كثير. فأنْ تذكر السورة أن أبا لهب وزوجته سيدخلان النار، فهذا إخبار بالغيب أنهما سيبعثان على كفرهما، وقد تحقق هذا، وفي ذلك وحده معجزة من معجزات هذا القرآن، تقطع بأنه من عند الله عزَّ وجلَّ. كذلك تفسِّر السورة الخسران الذي تحدث عنه محور السورة، وهو دخول أبي لهب وزوجته نار جهنم، وأي خسران أكبر من ذلك؟ ومن الخسران أن لا يغني عن الإنسان ماله وولده شيئاً، ومن الخسران أن يذمَّ الله أحداً أو يحقره، فما أشدَّه من خسران، ولذلك كله صلة بمحور السورة[١].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المسد) وافتتاحية سابقتها:

هناك تقابل بين هذه السورة والتي قبلها؛ ففي سورة (النصر) ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقبى، فلما ذكر فيما قبلها دخول الناس في دين الله تعالى، أتبع بذكر مَن لم يدخل في الدين، وخسر ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان[٢].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

يقول صاحب الظلال في هذه السورة: (أبو لهب [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبي ﷺ وإنما سمي أبو لهب لإشراق وجهه، وكان هو وامرأته «أم جميل» من أشد الناس إيذاءً لرسول الله ﷺ وللدعوة التي جاء بها..

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٢.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٦٠، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٦٥، وتفسير المراغي.

قال ابن اسحاق: «حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال: سمعت ربيعة ابن عباد الديلي يقول: «إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان. إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال عمه أبو لهب. [ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ].

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول ﷺ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة. [وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان].

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة. أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك. فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ الخ.. وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تبّاً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله السورة(1).

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً ﷺ.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾، رقم الحديث: ٤٥٩١.

وكان قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي ﷺ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد ﷺ بهما!

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى أشد. وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي؛ وقيل: إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة.

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته. وتولى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر المعركة!

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾.. والتباب: الهلاك، والبوار، والقطع. و﴿ تَبَّتْ ﴾ الأولى دعاء. و﴿ وَتَبَّ ﴾ الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء. ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾.. لقد تبت يداه وهلكتا وتبَّ هو وهلك. فلم يغنِ عنه ماله وسعيه، ولم يدفع عنه الهلاك والدمار.

ذلك ـ كان ـ في الدنيا. أما في الآخرة فإنه: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾.. ويذكر اللهب تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاءً بتوقدها وتلهبها.

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ ﴾.. ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ منصوب بفعل مقدَّر، أي: أريد أو أذمُّ[1].

---

(١) اختلف القراء في قراءة (حمَّالة)؛ فذهب الجمهور إلى الرفع على أنه خبر، أو نعت للمبتدأ: (وامرأته)، وقرأ عاصم بالنصب على الذمّ، كأنها اشتهرت به، على تقدير: أذمُّ حمَّالةَ الحطب. وقد جاءت الصفة للذمِّ لا للتخصيص. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٤٠.

وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب.. وحالة كونها: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾.. أي من ليف.. تشدُّ هي به في النار. أو هي الحبل الذي تشدُّ به الحطب. على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك. أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة.

في الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوِّها، نقتطف في بيانه سطوراً من كتاب (مشاهد القيامة في القرآن)، نمهِّد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل، التي ذعرت لها وجُنَّ جنونها: (أبو لهب سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد). تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة، فجهنم هنا نار ذات لهب، يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب، وتلقيه في طريق محمد ﷺ لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي).. والحطب مما يوقد به اللهب، وهي تحزم الحطب بحبل. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغلَّ بحبل من مسد، ليتم الجزاء من جنس العمل. وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة: الحطب، والحبل، والنار، واللهب يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب! وتناسق من لون آخر، في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شدُّ أحمال الحطب، وجذب العنق بحبل من مسد. اقرأ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ تجد فيها عنف الحزم والشدِّ! الشبيه بحزم الحطب وشدِّه، والشبيه كذلك بغلِّ العنق وجذبه، والشبيه بجوِّ الحنق والتهديد الشائع في السورة. وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة، بتناسق الجناس اللفظي، ومراعاة النظير في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول، ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار، وفي سورة من أقصر سور القرآن.

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر. وبخاصة حين انتشرت هذه السورة، وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة. تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها. ثم ترتسم لها هذه الصورة: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾! في هذا الأسلوب القوي

الذي يشيع عند العرب!

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق، من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعراً، [وكان الهجاء لا يكون إلا شعراً] مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها، قد سجلت في الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا، والنار في الآخرة جزاءً وفاقاً، والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعاً...[1].

دروس وعبر من سورة (المسد):

* قال العلماء: في هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحداً منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسرّاً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة[2].

* أخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ أقبلت أم جميل ولها ولولة، وبيدها حجر، وهي تقول:

مذمَّماً قلَيْنَا ودينَه أبَيْنَا وأمرَه عصَيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر ؓ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٦١.

﴿٤٥﴾ [الإسراء: ٤٥]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ﷺ، ولم ترَ رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر: إني أُخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاكِ، فولَّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

وقد استدل العلماء على جواز المعاريض من حكاية أم جميل هذه، فإن أبا بكر ﷺ حلف أنه ما هجاكِ، وهذا من باب المعاريض، لأن القرآن لا يسمَّى هجواً، ولأنه كلام الله تعالى لا كلام الرسول ﷺ، فدلَّت هذه الحكاية على المعاريض، والتعريض في الكلام بخلاف التصريح، وهو ما يفهم به السامع مرادَه من غير تصريح، وهو التورية[(١)].

وقد نُقِل عن بعض السلف: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب، أي: منَعَة. قال عمر ﷺ: أمَا في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن التعريض أهون. وتباح المعاريض لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح[(٢)].

* في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ إلى أن المراد به بنوه، فكأنه تعالى قال: ما أغنى عنه ماله وولده.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: (إن لي مالاً ووالداً وإن والدي يريد أن يجتاح مالي، قال: أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم)[(٣)].

وعن إبراهيم عن عمارة بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري

---

(١) القاموس المحيط: ص: ٨٣٤، ومختار الصحاح: ص: ٣٦٤، والتعريفات: ص: ٨٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٧٢، والموسوعة الفقهية الكويتية: ٣٤/ ٢١١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٦٧٠٦.

يتيم أفآكل من ماله؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: (إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)(١).

وروي أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما، فتنازعوا وتدافعوا فقام ابن عباس يحجز بينهم، فدفعه أحدهم فوقع على فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أخرجوا عني الكسب الخبيث(٢).

* في قصة أم جميل السابقة إشارة إلى أن قريشاً كانت تسمِّي رسول الله ﷺ مذمَّماً، هِجاءً وسبَّاً وشتيمة، وأن النبي ﷺ كان يقابل ذلك بالصبر والتحمل، ولا يزيد في ردِّه سوى ذكر الحقيقة بإعلان اسمه وإشهاره، دونما مقابلة للسوء بسوء.

عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء)(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمَّماً، ويلعنون مذمَّماً، وأنا محمد)(٤).

وفي هذا درس عملي، وهدي نبوي، وتوجيه تربوي للأمة جميعاً أن تقتدي بهذا النبي ﷺ وتتأسى به في السلوك والمنهج والعلاقات الاجتماعية، وعلى طريق الدعوة، خاصة في المواقف الصعبة التي تحتاج لعزائم الرجال التي تتطلب شموخاً في التحمُّل، تتعالى سمّواً كالجبال، كما تحتاج إلى شيم الكرام التي تأبى في أنَفَتِها ذلاً وصَغَاراً في تعاملها مع أولي النفوس اللئام.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم الحديث: ٣٠٦١.

(٢) المحرر الوجيز: ١٥/ ٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم الحديث: ١٩٠٠. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وقد روي عن عبد الله من غير هذا الوجه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٢٦٩.

❊ عدم إغناء القرابة شيئاً مع الشرك والكفر، إذ أبو لهب عمُّ النبي ﷺ، وهو في النار ذات اللهب. كما لا يغني المال ولا الولد عن العبد شيئاً من عذاب الله تعالى، إذا عمل بمساخطه وترك مراضيه[1].

٦ـ تضمنت الآيات الأولى الإخبار عن الغيب من ثلاثة وجوه:

أحدها: الإخبار عن أبي لهب بالتباب والخسار، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثانيها: الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وبوقوع ذلك فعلاً.

وثالثها: الإخبار عنه بأنه من أهل النار، وقد كان ذلك، لأنه مات على الكفر. وقد استنبط بعض علماء الأصول من قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ جواز التكليف بما لا يطاق، لأن أبا لهب مكلف بأن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلَّف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها فكأنه قد كُلِّف أن يؤمن، وأن يؤمن بأنه لا يؤمن.

قال الأصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حتم عليه عذابه، أي عذاب ذلك المكلف، لقصة أبي لهب[2].

---

(١) أيسر التفاسير: ٥/ ٦٢٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٧١، والتفسير الوسيط: ص: ٢٩٥٦، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٥٩.

سورة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١ـ سورة (الإخلاص)، وهو أشهر أسمائها. وبه عنونت المصاحف ومعظم كتب التفسير. كما ترجم لها الترمذي في جامعه.

ووجه التسمية: لأنها تتناول الحديث عن إخلاص العبادة لله تعالى وتوحيده، وتنزيهه عن كل نقص وشرك. وتعني كلمة الإخلاص كلمة التوحيد.

٢ـ سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، وقد وردت الأحاديث بشهرته: فعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟! قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ تعدل ثلث القرآن)[1]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[2]. وبه عنون البخاري في صحيحه، والآلوسي في تفسيره، والبقاعي في النظم.

ووجه التسمية به لافتتاحها بأول آية بها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، رقم الحديث: ١٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (الأساس)، وبه سمَّاها كل من الرازي والآلوسي والزمخشري والسخاوي والسيوطي والفيروزآبادي والبقاعي. ووجه التسمية كما ذهب الزمخشري لاشتمالها على أصول الدين.

٢ـ سورة (التوحيد)، وقد سُمِّيت به بعض المصاحف، كما ذكرها به كل من الرازي والجمل والآلوسي من المفسرين، وذكرها ابن العربي في أحكام القرآن. ووجه التسمية لأنها جمعت معنى التوحيد حصراً فيها دون غيره من المعاني.

٣ـ سورة (المقشقشة)، وقد ذكرها الزمخشري في الكشاف أنها وسورة (الكافرون) تسميان (المقشقشتان)، أي: المبرئتان من الشرك، كما سماها به جَمْعٌ من المفسرين، والبقاعي في النظم. وقد تقدم وجه التسمية في (الكافرون).

٤ـ سورة (الصمد)، وقد سمَّاها به كل من الرازي والآلوسي في تفسيريهما والبقاعي في النظم، وهي تسمية للسورة بلفظ وقع فيها.

وقد عقد الرازي فصلاً لأسمائها، وذكر لها عشرين اسماً، معلِّلاً أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد بذلك. وأشهر ما سمَّاها به: سورة (التفريد)، و(التجريد)، و(النجاة)، و(الولاية)، و(النسبة)، و(المعرفة)، و(الجمال)، و(المانعة)، و(المنفرة)، و(البراءة) و(المذكرة)، و(النور)، و(الأمان)، إضافة إلى ما ذكره[1]، وأضاف إليها الفيروزآبادي في البصائر اسم (الشافية).

ب ـ فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٦٢.

بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ: (أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[2].

وعن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾)[3].

وعن أنس بن مالك ﷺ: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمَّهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبُّها، فقال: حُبُّك إياها أدخلك الجنة)[4].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم الحديث: ١١٩٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، رقم الحديث: ٧٧٤.

لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبُّه)[1].

وعن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: (خرجنا في ليلة مطيرة، وظلمة شديدة، نطلب رسول الله ﷺ يصلي لنا، قال: فأدركته، فقال: قل، فلم أقل شيئاً، ثم قال: قل، فلم أقل شيئاً، قال: قل، فقلت: ما أقول؟ قال: قل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء)[2].

وعن معاذ بن أنس الجهني ﷺ صاحب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مَن قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: إذاً أستكثر يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: الله أكثر وأطيب)[3].

ج. مرحلة النزول:

مكية في قول الجمهور، ومدنية في قول قتادة والضحاك والسدِّي، ونُسب القولان إلى ابن عباس رضي الله عنهما. ورجَّح السيوطي في الإتقان أنها مدنية، بعد استعراض الأقوال واحتمال نزولها مرتين. والصحيح أنها مكية؛ حيث جمعت أصل التوحيد، وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة.

وقد عُدَّت السورة الثانية والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الناس)، وقبل سورة (النجم)[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ، رقم الحديث: ٦٨٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، رقم الحديث: ٣٣٤٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ١٥٠٥٧.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦١١، وفتح القدير: ٥/ ٥١٣.

د ـ أسباب نزولها:

عن أبيّ بن كعب ﷺ أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[1].

وزاد في رواية الترمذي: (والصمد الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عزَّ وجلَّ لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد؛ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عامر بن الطفيل وأرْبَد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ، فقال عامر: إلامَ تدعونا؟ قال: إلى الله، قال: صفه لنا؛ أمِن ذهب هو، أم مِن فضة، أم مِن حديد، أم مِن خشب؟ فنزلت هذه السورة، فتكون مدنية، لأنهما أتياه بعد الهجرة[3].

هـ ـ عدد آيات سورة (الإخلاص):

خمس آيات في عدِّ المكي والشامي، وأربع في عدِّ الباقين؛ اختلافها في: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ عدَّها المكي والشامي، ولم يعدَّها الباقون[4].

و ـ محور سورة (الإخلاص):

إثبات وحدانية الله تعالى، والإخلاص في عبادته والتوجه إليه وحده، وأنه لا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن سمات المحدثات، وإبطال أن يكون له ابن، وإبطال أن يكون المولود

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٢٠٢٧٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة (الإخلاص)، رقم الحديث: ٣٢٨٧.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٦.

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٣.

إلهاً[1]. وقال البقاعي: مقصودها بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالاتصاف بأقصى الكمال للدلالة على صحيح الاعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال، ونفي شوائب النقص والاختلال، المثمر لحسن الأقوال والأفعال، وثبات اللجاء والاعتماد عليه في جميع الأحوال، وعلى ذلك دلَّ اسمها الإخلاص الموجب للخلاص[2].

ز- المناسبات في سورة (الإخلاص):

١- المناسبة بين سورة (الإخلاص) ومحورها:

في سورة (الإخلاص) معجزة تعدل آلاف المعجزات، وهي أنها على قصرها وصفت الله عزَّ وجلَّ وصفاً لا تنتهي عجائبه، حتى إن كل ضلال وقعت فيه البشرية في موضوع معرفة الذات الإلهية فإن سورة (الإخلاص) قد أحاطت به، ونفته وخلَّصت الإنسان منه. ثم إن العقل البشري قد يصل إلى ما ذكرته هذه السورة في التعرف على الله عزَّ وجلَّ، ولكن بعد آماد وآماد، وإن أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري في موضوع تنزيه الذات الإلهية هو ما ورد في هذه السورة[3].

٢- المناسبة بين افتتاحية سورة (الإخلاص) وخاتمة ما قبلها:

جاءت قبل سورة (الإخلاص) سورة (الكافرون) تأمر رسول الله ﷺ أن يعلن أنه لا يعبد ما يعبد الكافرون، ثم جاءت سورة (النصر) لتبين أن النصر كائن لرسول الله ﷺ على أهل الكفر، ثم جاءت سورة (المسد) لتبين عقوبة الكافرين، وتأتي سورة (الإخلاص) لتعرِّفنا على الله عزَّ وجلَّ الذي يعبده رسول الله ﷺ.

والملاحظ أن سورة (الكافرون) مبدوءة بقول الله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وسورة (الإخلاص)

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦١١.
(٢) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٤٤.
(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٨.

مبدوءة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾، وبينهما سورتان ليستا مبدوءتين بـ﴿ قُلْ ﴾، في سورة (الكافرون) أمر لرسول الله ﷺ أن يعلن مفاصلته للكافرين في العبادة والدين، وهذه سورة (الإخلاص) يأمر الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ أن يعلن صفات إلهه الذي يعبده، والذي لا يعبده الكافرون، ولا يعرفونه جلَّ جلاله[1].

٣ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الإخلاص) ومحورها:

قال الآلوسي: هذه السورة الجليلة قد انطوت مع تقارب قطرها على أشتات المعارف الإلهية والعقائد الإسلامية، ولذا جاء فيها من الأخبار، وورد ما ورد من الآثار، ودلَّ على تحقيق معنى الإلهية بالصمدية التي معناها وجوب الوجود، أو المبدئية لوجود كل ما عداه من الموجودات.

ثم عقَّب ذلك ببيان أنه لا يتولد عنه غيره، لأنه غير متولد عن غيره، وبيَّن أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات، فياضاً للوجود عليها، فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله، كما لم يكن وجوده من غيره.

ثم عقَّب ذلك ببيان أنه ليس في الوجود ما يساويه في قوة الوجود. فمن أول السورة إلى﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ في بيان ماهيته تعالى، ولوازم ماهيته، ووحدة حقيقته، وأنه غير مركب أصلاً، ومن قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه، لا بأن يكون سبحانه متولداً، ولا بأن يكون متولداً عنه، ولا بأن يكون موازىً في الوجود. وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته عزَّ وجلَّ[2].

٤ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الإخلاص) بعضها مع بعض:

هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية من الإيجاز والإعجاز،

---

(١) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٤٨.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٧.

وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزَّهت الله جلَّ وعلا عن صفات العجز والنقص، فقد أثبتت الآية الأولى الوحدانية، ونفت التعدد، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، وأثبتت الثانية كماله تعالى، ونفت النقص والعجز، ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾، وأثبتت الثالثة أزليته وبقاءه، ونفت الذرية والتناسل ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾، وأثبتت الرابعة عظمته وجلاله، ونفت الأنداد والأضداد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾، فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للربِّ بأسمى صور التنزيه عن النقائص(١).

٥ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الإخلاص) وافتتاحية سابقتها:

لما تقدم فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة، جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد، رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد(٢).

٦ـ المناسبة بين سورة (الإخلاص) وما بعدها:

لما افتتح القرآن بسورة مشتملة على جميع معانيه، ختم بسورتين يدخل معناهما، وهو التعوذ، ويندب ذكره في جميع أجزائه ومبانيه، وفي هذا لطيفة عظيمة جداً، وهي أنه لما علم بالإخلاص تمام العلم وظهور الدين على هذا الوجه الأعظم، فحصل بذلك غاية السرور، وكان التمام في هذه الدار مؤذناً بالنقصان، جاءت المعوذتان لدفع شر ذلك(٣).

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة القصيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة. فقد أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً

---

(١) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٢.

(٢) البحر المحيط: ١٠/ ٥٧٠.

(٣) نظم الدرر: ٢٢/ ٣٩٣.

يقرأ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن[1].

وليس في هذا من غرابة، فإن الأحديَّة التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، هذه الأحديَّة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة، وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة..

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾.. وهو لفظ أدق من لفظ: (واحد).. لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية. فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء في هذا الوجود أصلاً. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً..

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود ـ إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً! ـ فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة.. فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق. يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٧.

ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. وردّ كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت.. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩].. وغيرها كثير..

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده. وأن لا فاعلية إلا فاعليته.. ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق!

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة. في السراء والضراء. في النعماء والبأساء.

وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده.. ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس، أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط ـ مع هذا ـ بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب. فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها.. فكلها خارجة من يد الله، وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيق طليق.. الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية.. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب.. إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها.. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. كما أسلفنا.

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريده. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص. إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه.. وهذا هو الانطلاق. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم..

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب. لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله; وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة..

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد.. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾.. ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه. والله سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات. وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه.. وهذه الصفة متحققة ابتداءً من كونه الفرد الأحد.

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾.. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال. صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال. والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال. ثم هي تقتضي زوجية. تقوم على التماثل. وهذه كذلك محال. ومن

ثم فإن صفة ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن نفي الوالد والولد..

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ. لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية. وهذا كذلك يتحقق بأنه ﴿أَحَدٌ﴾ ولكن هذا توكيد وتفصيل.. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله ـ بزعمهم ـ ويعكس عليه أعماله الخيرة، وينشر الفساد في الأرض. وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة (الكافرون) نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك.. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه، وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين.. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه..[1].

دروس وعبر من سورة (الإخلاص):

* اختلفت التأويلات في مجموعة الأحاديث الصحاح التي تشير إلى أن سورة (الإخلاص) تعدل ثلث القرآن إلى أربعة تأويلات:

أحدها: تعدل ثلث القرآن في الثواب، فمَن كرَّرها ثلاثاً له ثواب الختم كله.

ثانيها: تعدل ثلث القرآن إذا قرأها مَن لا يحسن غيرها من السور.

ثالثها: تعدل ثلث معاني القرآن، باعتبار أجناس المعاني، لأن معاني القرآن: أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد انفردت السورة بالثالث منها.

رابعها: تعدل ثلث القرآن في الثواب كالقول الأول، لكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٢.

بمنزلة قراءة ختمة كاملة[1].

* قال العلماء: هذه السورة في حق الله تعالى، مثل سورة (الكوثر) في حق الرسول ﷺ، لكن الطعن في حق الرسول ﷺ كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر لا ولد له، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً؛ لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿ قُلْ ﴾، حتى تكون ذابًّا عني، وفي سورة ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ أنا أقول ذلك الكلام، لأكون ذابًّا عنك، والله سبحانه وتعالى أعلم[2].

* تضمنت السورة إثباتاً ونفياً في آن واحد؛ فأبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته، منزه عن جميع أنحاء التركيب، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. فكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقديس، وكل نفي ردٌّ على أصحاب العقائد الباطلة[3].

* في قوله تعالى: ﴿ أَحَدٌ ﴾إبطال لمذهب الثنوية القائلين بوجود إلهين للعالم؛ النور والظلمة. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ إبطال لمذهب مَن أثبت خالقاً سوى الله؛ لأنه لو وجد خالق آخر، لما كان الخلق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات. وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ إبطال لمذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، والمشركين في أن الملائكة بنات الله. وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾إبطال لمذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء لله تعالى وشركاء[4].

* اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل لكل الذنوب باباً للمغفرة منها، إلا الموت على الشرك، فإنه لا يغفره، لأنه منتهى الظلم لله تعالى وأعظمه وأقبحه، بل عدَّه أكبر الكبائر، وجزاؤه

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٢١.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٨٥.
(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٦٦.
(٤) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٨٥.

الخلود في جهنم.

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عزَّ وجلَّ، إنه يُشرَك به، ويُجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم)(١).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (قال الله: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عزَّ وجلَّ، رقم الحديث: ٥٠١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾، رقم الحديث: ٤٥٩٢.

سورة الفلق

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الفلق)، وعرفت به في المصاحف وكتب التفسير.

ووجه التسمية به لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ ﴾، واختصت السورة بهذا اللفظ فعرفت به.

٢- سورة ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ ﴾، وقد وردت الأحاديث فيها؛ فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: (اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف، فقال: لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ ﴾ و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ ﴾، و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾)[2]. ووجه التسمية هذه لابتداء السورة بها في أول آية منها.

٣- سورة (المعوِّذتين مع سورة الناس)، وقد وردت الأحاديث بهذه التسمية، فعن ابن

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب الفضل في قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ٩٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.

عابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال له: (يا ابن عابس، ألا أدلك - أو قال: ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوِّذون؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ هاتين السورتين)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: (أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوِّذات دبر كل صلاة)[2].

وقد عنون بها عدد من المفسرين في كتبهم كابن كثير والقرطبي وابن الجوزي والآلوسي، وعدَّها السخاوي والسيوطي اسماً للسورة بالاشتراك مع سورة (الناس). وأفردها ابن عطية في التسمية، أي: سورة (المعوذة الأولى)، وسورة الناس (المعوذة الثانية).

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١ـ سورة (المقشقشتين مع سورة الناس)، وقد سمَّاها بذلك السخاوي والسيوطي دونما مستند أو تعليل.

٢ـ سورة (المشقشقتين مع سورة الناس)، وسمَّاها بذلك الزمخشري والقرطبي والآلوسي. وعلل القرطبي التسمية بأنها مع سورة الناس تبرئان من النفاق.

ب. فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الاستعاذة، رقم الحديث: ١٣٠٢.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: كتاب الصلاة، باب الاستغفار، رقم الحديث: ٥٣٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٩.

أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾)[2].

ج- مرحلة النزول:

اختُلف فيها؛ أمكية، أم مدنية؟ فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: مكية، وقال قتادة: مدنية، وكلا القولين مرويان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والأصح أنها مكية، لقبول الرواية الأولى، بخلاف الثانية ففيها متكلّم. وعُدَّت السورة العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الفيل)، وقبل سورة (الناس).

واشتهر عن عبد الله بن مسعود ﷺ في الصحيح أنه كان ينكر أن تكون المعوذتان من القرآن، ويقول: إنما أُمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، أي ولم يؤمر بأنهما من القرآن، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على القراءة بهما في الصلاة، وكُتبتا في مصاحفهم، وصح أن النبي ﷺ قرأ بهما في صلاته[3].

د- أسباب نزولها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سَحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٢٤، وفتح القدير: ٥/ ٥١٩.

في مُشْط ومُشاطة وجُفِّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي؟ ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة، صخرة تترك أسفل البئر ليقوم عليها المائح، وأخرجوا الجفَّ، فإذا مشاطة رأس إنسان، وأسنان من مشط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد، وأمر أن يتعوذ بهما، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبي ﷺ خِفَّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنشط من عقال، وقال: ليس به بأس، وجعل جبريل يرقي رسول الله ﷺ فيقول: بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك، من شر حاسد وعَين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، ألا تقتل الخبيث؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً[2].

هـ- عدد آيات سورة (الفلق):

خمس آيات في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[3].

و- محور سورة (الفلق):

تضمَّنت السورة الاستعاذة والاعتصام من شرِّ كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث: ٤٠٥٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٣، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٧.
(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٦.

وحمايتهم من شر ذوات السموم، وشر الليل إذا أظلم، لما فيه من مخاوف ومفاجآت، وبخاصة في البراري والكهوف. واسمها ظاهر الدلالة على ذلك[1].

ز- المناسبات في سورة (الفلق):

١- المناسبة بين سورة (الفلق) ومحورها:

المناسبة واضحة في تعليم العباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسد وساحر، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعوِّذ نفسه بهما[2].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (الفلق):

لما شرح أمر الألوهية في السورة التي قبلها، جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً، كما في الدلائل للبيهقي، فلذلك قرنتا مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الافتتاح بـ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾[3].

٣- المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وخاتمتها:

الاستعاذة من شرِّ ظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد بعد الاستعاذة من شر ما خلق، إشعار بأن شرَّ هؤلاء أشد، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل، وإنما عرَّف بعض المستعاذ منه، ونكَّر بعضه، لأن كل نفَّاثة شريرة، فلذا عرَّف ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾، ونكَّر ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لأنه ليس كل غاسق يكون فيه الشر،

---

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٤٠٦.

(٢) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٣.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٨، والبحر المحيط: ١٠/ ٥٧٠، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٦٠٥.

إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، ورُبَّ حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات[1].

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وخاتمة ما قبلها:

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة (الإخلاص) لتنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وصفاته، أبان في هذه السورة وما بعدها ـ وهما المعوذتان ـ ما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في العالم، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله تعالى كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد[2].

لقد عرَّفتنا سورة (الإخلاص) على الله عزَّ وجلَّ وكماله وصفاته، وتأتي المعوذتان لتأمرنا بالاستعاذة بالله عزَّ وجلَّ من كل ما ينبغي أن يحذر منه في أمر دنيا ودين، فالصلة واضحة بين المعوذتين وبين ما قبلهما من سورة (الإخلاص)[3].

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفلق) ومحورها:

تتناول هذه الآيات تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله تعالى من شر ما يُتَّقَى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها، لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها، فعلَّم الله تعالى نبيَّه ﷺ هذه المعوّذة ليتعوَّذ بها، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بها، فكان التعوُّذ بهما من سنَّة المسلمين[4].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨٦.
(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٠.
(٣) الأساس في التفسير: ١١/ ٦٧٦٠.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٢٥.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الفلق) بعضها مع بعض:

دلت هذه السورة على أن الله سبحانه وتعالى خالق كل البشر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوَّذ من جميع الشرور، فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾، وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على خطره، وكثرة ضرره، والحاسد عدو الله تعالى[1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الفلق) وافتتاحية سابقتها:

لما شرح أمر الإلهية في السورة قبلها جيء بها بعدها شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقاته. وهي والسورة التي بعدها نزلتا معاً كما في الدلائل للبيهقي، فلذلك قرنتا مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الافتتاح بـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ ﴾[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (الفلق) وما بعدها:

لما جاءت سورة (الفلق) للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر. وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد. جاءت سورة (الناس) متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب، فقد تضمَّنت السورة كالفلق استعاذة، ومستعاذاً به،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٦٠.

(٢) روح المعاني: ٣٠/ ٢٧٨.

ومستعاذاً منه، وأمراً بإيجاد ذلك[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ابتداءً، وللمؤمنين من بعده جميعاً، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه، من كل مخوف خاف وظاهر، مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل.. وكأنما يفتح الله سبحانه لهم حِماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف، وأن لكم أعداءً، وأن حولكم مخاوف، وهنا.. هنا الأمن والطمأنينة والسلام.

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.. و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه في عمق وفرح وانطلاق:

عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾»..

وعن جابر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: ماذا بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ فقرأتها. فقال: «اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما»..

وعن زرِّ بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب ﷺ عن المعوذتين. قلت: يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، [وكان ابن مسعود لا يثبتها في مصحفه، ثم ثاب إلى رأي الجماعة وقد أثبتها في المصحف]، فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي: قل. فقلت». فنحن نقول

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٤٢٤.

كما قال رسول الله ﷺ. وكل هذه الآثار تشي بتلك الظلال الحانية الحبيبة..

وهنا في هذه السورة يذكر الله سبحانه نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ ﴾.. والفلق من معانيه الصبح، ومن معانيه الخلق كله. بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة، كما قال تعالى في الأنعام: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ﴾.. وكما قال تعالى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ﴾.. [الأنعام: ٩٥-٩٦].

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمن من شر خلقه، فالمعنى يتناسق مع ما بعده..

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾.. أي من شر خلقه إطلاقاً وإجمالاً. وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض. كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى. والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها. والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها!

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾.. والغاسق في اللغة الدافق، والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء. والمقصود هنا ـ غالباً ـ هو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم. ومتلصص فاتك يقتحم. وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب!

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾.. والنفاثات في العقد: السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر. وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها. ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر. وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام: سورة طه ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلاً، ولكن خيل إلى الناس - وموسى معهم - أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التثبيت. ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها. وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه.. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد.. وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.. والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال.

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود، وأسرار النفس البشرية، وأسرار هذا الجهاز الإنساني. فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار،

ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً.. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد. وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين. اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها. ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات. وكذلك التنويم المغناطيسي. وقد أصبح الآن موضعاً للتجربة المتكررة المثبتة. وهو مجهول السر والكيفية.. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني...

فإذا حسد الحاسد، ووجه انفعالاً نفسياً معيناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته. فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان. وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك!

فهنا شر يستعاذ منه بالله، ويستجار منه بحماه..

والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور. ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به ـ وفق توجيهه ـ أعاذهم. وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً.

وقد روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[1]. وهكذا رواه أصحاب السنن)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.
(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠٠٦.

دروس وعبر من سورة (الفلق):

* لا مانع يمنع من نزول السورة ليستعيذ بها الرسول ﷺ، وحديث السحر صحيح، ولا يتنافى مع النص القرآني، واقتصر فعل السحر بالنبي ﷺ على مجرد كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صداع خفيف، وهو معنى التخيل في الحديث، وقد يحدث تخيل في اليقظة كالمنام، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة؛ لأن الله تعالى عصمه من أي سوء، أو اختلاط فكري، أو اضطراب عصبي، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

* خصَّص الله تعالى إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة:

أولها: الليل إذا عظم ظلامه، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وينبعث أهل الشر على الفساد.

وثانيها: الساحرات اللائي ينفثن (ينفخن) في عُقَد الخيط حين يَرْقين عليها، شبَّه النفخ كما يعمل مَن يرقي.

وثالثها: الحاسد الذي يحسد غيره، أي يتمنى زوال نعمة المحسود، وإن لم يصرْ للحاسد مثلها، وهذا مذموم، أما الغبطة والمنافسة فهي مباحة؛ لأنها تمنِّي مثل النعمة، وإن لم تزل عن صاحبها. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال النبي ﷺ: لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله مالاً فسلّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها)[1].

* تحريم الحسد قطعياً، وهو داء خطير حمل ابن آدم على قتل أخيه، وحمل إخوة يوسف على الكيد له. قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتْبَع مساوئه، ويطلب عثراته. والحسد أول ذنب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم الحديث: ٧١.

عُصي الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فحسدَ إبليسُ آدمَ، وقابيلُ هابيلَ، والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون. وقال العلماء أيضاً: لا يضر السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته، وإنما بفعل الله تعالى وتأثيره، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط، قال تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة، ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل، فإنه يُطلب شرعاً الحذر والاحتياط، وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان، عملاً بفعل عمر والصحابة رضي الله عنهم في طاعون عمواس، والأمر باتقاء العين، والفرار من المجذوم.

* أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرُّقى، أو الرقية؛ وأما النهي عن الرُّقَى فهو وارد على الرُّقَى المجهولة التي لا يُفهم معناها. وقد مرَّ في حديث النزول أن النبي ﷺ اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام، وقال: (بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، والله يشفيك).

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ: كان يعلِّمُهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقول: بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، ومن شر حر النار)[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسمعيل بن أبي حبيبة، وإبراهيم يضعف في الحديث، ويروى: (عرق يعار). سنن الترمذي: كتاب الطب، باب في تبريد الحمى بالماء، رقم الحديث: ٢٠٠١. والنعار، واليعار: فوار الدم.

اللهم ربَّ الناس، أذهب الباس، اشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً)[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (عن النبي ﷺ: أنه قال: ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله، فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك، إلا عوفي)[2].

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ أنه قال: (قدمت على النبي ﷺ وبي وجع قد كاد يبطلني، فقال لي النبي ﷺ: اجعل يدك اليمنى عليه، وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، سبع مرات، فقلت ذلك فشفاني الله)[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين، يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة، ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوِّذ إسحق وإسمعيل عليهم السلام)[4].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: يا أرض ربِّي وربُّك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، ومن شر ما يدبُّ عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)[5]. وأما النفث في الرقية فالأصح جواز ذلك، لحديث عائشة المتقدم، والله تعالى أعلم[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، رقم الحديث: ٥٣٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الطب، باب ما جاء في التداوي بالعسل، رقم الحديث: ٢٠٠٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث المنهال بن عمرو

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: كتاب الطب، باب ما عوِّذ به النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥١٣.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية من العين، رقم الحديث: ١٩٨٦. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل، رقم الحديث: ٢٢٣٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ٣٠/ ٢٥٩، والتفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٩٤، والتفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٥.

سورة الناس

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

أولاً: أسماؤها التوقيفية:

١- سورة (الناس)، وبه عُرفت السورة في المصاحف وكتب التفسير. ووجه التسمية بذلك لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، ولتكراره فيها خمس مرات.

٢- سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾، وقد تقدم بيان ذلك لسورة (الفلق)، كما عنون لها البخاري في صحيحه.

٣- سورة (المعوذتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك في سورة (الفلق)، كما عنون لها ابن عطية في تفسيره، والترمذي في جامعه.

ثانياً: أسماؤها الاجتهادية:

١- سورة (المشقشقتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الفلق.

٢- سورة (المقشقشتين) مع سورة (الفلق)، وقد تقدم بيان ذلك أيضاً في سورة الفلق.

ب- فضائل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات

وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده رجاء بركتها)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[2]. وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾)[3].

ج- مرحلة النزول:

هي مكية في قول مَن قال في سورة (الفلق) إنها مكية، ومدنية في قول مَن قال في (الفلق) إنها مدنية، والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين، فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى، وعلى الصحيح من أنها مكية فقد عُدَّت السورة الحادية والعشرين من السور، نزلت عقب سورة (الفلق)، وقبل سورة (الإخلاص)[4].

د- أسباب نزولها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم الحديث: ٤٦٣٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: ١٣٤٨.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٣١.

في مُشْط ومُشاطة وجُفِّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي؟ ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة، صخرة تترك أسفل البئر ليقوم عليها المائح، وأخرجوا الجفَّ، فإذا مشاطة رأس إنسان، وأسنان من مشط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد، وأمر أن يتعوذ بهما، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبي ﷺ خِفَّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنشط من عقال، وقال: ليس به بأس، وجعل جبريل يرقي رسول الله ﷺ فيقول: بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك، من شر حاسد وعَين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، ألا تقتل الخبيث؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً[2].

هـ- عدد آيات سورة (الناس):

سبع آيات في عدِّ المكي والشامي، وست في عدِّ الباقين. اختلافها في آية ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ عدّها المكي والشامي، ولم يعدَّها الباقون[3].

و- محور سورة (الناس):

الاعتصام بالإله الحق من شر الخلق الباطن، واسمها دال على ذلك، لأن الإنسان مطبوع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب السلام، باب السحر، رقم الحديث: ٤٠٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٣، وأسباب النزول للواحدي: ص: ٣٤٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٥٧.

على الشر، وأكثر شرِّه بالمكر والخداع، وأحسن من هذا أنها للاستعاذة من الشر الباطن المأنوس به المستروح إليه، فإن الوسوسة لا تكون إلا بما يشتهى(١).

ز. المناسبات في سورة (الناس):

١. المناسبة بين سورة (الناس) ومحورها:

تتناول السورة الحديث عن ثلاث صفات من صفات الرب عزَّ وجلَّ: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم مَن عصمه الله تعالى(٢).

٢. المناسبة في افتتاحية سورة (الناس):

سورة (الناس) ثاني المعوذتين، وآخر سور المصحف الشريف ترتيباً؛ تتجلى فيها الاستجارة والاحتماء برب العباد من شر الأعداء؛ إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء(٣).

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وخاتمتها:

على الرغم من تميز الإنسان بالعقل والفكر، والمحاكمة وموازنة الأمور، فإنه لا سيما العامي يظل ضعيفاً، تتغلب عليه الأهواء، والشياطين من الإنس والجن، فينقاد لها، وتهيمن عليه فيرتجف منها، وتسيطر عليه فلا يستطيع الفكاك منها، إذا لم يلجأ لربه، أو يعتمد على إيمانه

---

(١) فتح القدير: ٥/ ٥٢٢، ونظم الدرر: ٢٢/ ٤٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥/ ٥٧٢.
(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٥.

وصلته بالله تعالى. وقد علَّمَنا الله تعالى طريق الاستعاذة، تفضلاً منه ورحمة في هذه السورة(١).

٤ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وخاتمة ما قبلها:

أمر الله تعالى في سورة (الفلق) بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسَّاد، ثم ذكر في سورة (الناس) الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، لذا سُمِّيت مع سابقتها بالمعوِّذتين، ويمكن أن تضاف إليها الإخلاص في المعنى فتطلق على السور الثلاث تسمية (المعوِّذات)(٢).

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الناس) ومحورها:

تتناول السورة إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربِّه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ، وإفساده إرشاد الناس، ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك، فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعمَّ في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى(٣).

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (الناس) بعضها مع بعض:

جاء تكرار لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في السورة حتى اشتهرت به، والسبب في ذلك هو مزيد البيان والإظهار، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى. وقال: (رب الناس)، مع أنه رب جميع المخلوقات، فخصَّ الناس بالذكر للتشريف والتعظيم، ولأن الاستعاذة لأجلهم فأعلمهم

(١) التفسير الوسيط: ٣/ ٢٩٦٥.
(٢) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٧٠.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٢/ ٦٣٢.

بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم[١].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (الناس) وافتتاحية سابقتها:

ذكر الرازي لطيفة في المناسبتين فقال: المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات؛ وهي الغاسق والنفاثات والحاسد. وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة؛ وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلَّت، أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت[٢].

٨ـ المناسبة بين سورة (الناس) وكونها الخاتمة للقرآن الكريم:

ختم الله تعالى بهذه السورة الشريفة كتابه العزيز، وبدأ بسورة (الفاتحة)، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله تعالى ويلتجئ إليه، من بداية الأمر إلى نهايته[٣]. قال ابن جُزَي: فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين، وما الحكمة في ذلك؟ فالجواب من **ثلاثة** أوجه:

الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده والنعم مظنة الحسد، فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي أن المعوِّذتين ختم بهما لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: أنزلت عليَّ آيات لم يُرَ مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب: (لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها). فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم يُرَ مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٦٠.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٣٢/ ١٩٨.
(٣) صفوة التفاسير: ٣/ ٦٢٥.

والاختتام، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام، إنما يُنظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها.

الوجه الثالث: يظهر لي أيضاً أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوَّذتين، ليحصِّل الاستعاذة بالله عند أول القراءة، وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره، وبالله التوفيق لا رب غيره[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (الاستعاذة في هذه السورة برب الناس، ملك الناس، إله الناس، والمستعاذ منه: شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس.

والاستعاذة بالرب، الملِك، الإله، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة، وشر الوسواس الخناس خاصة.

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي، والملِك هو المالك الحاكم المتصرف. والإله هو المستعلي المستولي المتسلط.. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسَّس إلى الصدور.. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور.

والله رب كل شيء، وملِك كل شيء، وإله كل شيء، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء.

والله تعالى برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به، والالتجاء إليه، مع استحضار معاني صفاته هذه، من شر خفي الدبيب، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملِك الإله، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون. والوسوسة: الصوت الخفي.

(١) تفسير ابن جُزَي: ص: ٨٦٦.

والخنوس: الاختباء والرجوع. والخناس هو الذي من طبعه كثرة الخنوس.

وقد أطلق النص الصفة أولاً: ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾.. وحدد عمله: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾. ثم حدد ماهيته: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام; ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!

والنفس حين تعرف ـ بعد هذا التشويق والإيقاظ ـ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه هو الجِنة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجِنة، ويوسوسون وسوسة الشياطين.. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق!

ووسوسة الجِنة نحن لا ندري كيف تتم، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة; وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة. فقد جعل له من الإيمان جنة وجعل له من الذكر عدة، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً.. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس».

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير. ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين!

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس، لأنه الرفيق المأمون!

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض مهلكاً للحرث والنسل!

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه.

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله.

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها.. وهم شر من الجِنة وأخفى منهم دبيباً!

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية. ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة!

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه ﴿ ٱلْخَنَّاسِ ﴾.. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو ـ سواء كان من الجنة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى. أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق: «فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس»..

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس. فهو خناس. ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة.

ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ معركة طويلة لا تنتهي أبداً. فهو أبداً قابع خانس، مترقب للغفلة. واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات.. والحرب سجال إلى يوم القيامة؛ كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى، ومنها هذه الصورة العجيبة في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ

عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها. فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب، فهو آخذ بناصيته، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم. فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية. فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. يستند إلى الرب المالك الإله. والشر يستند إلى وسواس خناس يضعف عن المواجهة ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله.

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر. كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة..

والحمد لله أولاً وأخيراً. وبه الثقة والتوفيق.. وهو المستعان المعين...[1].

دروس وعبر من سورة (الناس):

* وجوب الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الإنس والجن. فما من إنسان إلا وله شيطانه الذي يوسوس له، كما جاء في الصحاح؛ فعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الملائكة ومن الجن، قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، ولا يأمرني إلا بخير)[2]. وعن صفية رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها (جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يقلبها حتى إذا بلغت باب

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٤٠١٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث: ٣٥٩١.

المسجد عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار، فسلَّما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً)[١].

* في السورة تقرير لربوبية الله تعالى ومالكيته وألوهيته عزَّ وجلَّ للناس، وفي هذا إشعار بأن مَن كان هذا شأنه فهو وحده سبحانه الذي يتوجه الخلق إليه طالبين أن يستعاذ به من شر الجنة والناس. وهو وحده تبارك وتعالى الذي يملك أن يعيذ من شر الموسوسين.

* يعلِّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمة بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن، ولفظ الاستعاذة هو: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، كما بيَّنته السنة الصحيحة المطهرة؛ فعن سليمان بن صرد قال: (استبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضباً، قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون)[٢].

* أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن، وإما شيطان الإنس، قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوَّذ بالله من شياطين الإنس والجن[٣].

* استعـرض ابـن كثير في تفسيره روايات وأقوالاً عديدة بشأن (المعوذتين)، وعدم كتابة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، رقم الحديث: ١٨٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث: ٥٦٥٠.

(٣) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٨٢.

عبد الله بن مسعود ﷺ لهما في مصحفه، ثم قال: وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود ﷺ كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي ﷺ، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله بعد ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أثبتوهما في مصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنَّة(١).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٥٦٨.

الفهرس

السـورة	الصفحة

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ. د. مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد العاشر

الفهارس

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د.محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د.عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الآيات المستشهد بها

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾	
١٠٢	﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾	٥/ ٣٥٢، ٩/ ٤٧٣
١٠٣	﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾	٧/ ٥٧
١٠٤	﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾	٢/ ١٢٩
١٠٥	﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾	٩/ ١١٢
١٠٨	﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾	٢/ ١٢
١٠٩	﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ	١/ ٤٩٠،

رقم الآية	الآيــــــــــة	الجزء/ الصفحة
١٤٣	﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (١٤٣) ﴾	٦/ ١٢٩، ٨/ ١٣، ٤٢٠
١٤٦	﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٤٦) ﴾	١/ ٤٧٦
١٥٠	﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾	١/ ٥٤٨
١٥٥	﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ﴾	٣/ ٦٠٤، ٤/ ٢٧، ٧/ ٢١، ٨/ ٣٤٨
١٥٦	﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) ﴾	٣/ ٦٠٤، ٤/ ٢٧، ٨/ ٣٤٨، ٩/ ١٢٩
١٥٧	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧) ﴾	٨/ ٣٤٩، ٩/ ١٢٩
١٥٩	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾	١/ ٤٨٣

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١٦١	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾	١/ ٤٨٣
١٦٢	﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾	١/ ٤٨٣
١٦٤	﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾	٣/ ٥٩١، ٦٣٠، ٥/ ٣٠٦
١٦٦	﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾	٥/ ٢٨٤، ٥٦٢
١٦٧	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾	٥/ ٢٨٤، ٥٦٣
١٧٠	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾	٤/ ٧٢، ٥/ ٣٠٠، ٣٦٢
١٧١	﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾	٢/ ٤٣٤، ٥/ ٣٤، ٣٠٠
١٨٥	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾	٧/ ١٤٦
١٨٧	﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ	٧/ ٢٧٠

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٢٤٤	﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٣/ ٣٠١
٢٤٧	﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾	٦/ ٥٥١، ٧/ ١٧
٢٥١	﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	٢/ ٥٥٩
٢٥٣	﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾	٤/ ٤، ٥/ ٣٥٤
٢٥٤	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾	١/ ٥٥٣، ٤/ ٥٧
٢٥٥	﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾	٢/ ٢٦٨، ٣/ ٣١٧، ٦٣٣، ٤/ ٤٧٦، ٤٨٠، ٨/ ٤٧٩، ٩/ ١٧
٢٥٦	﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾	٢/ ١٨٢، ٣/ ٢٥٦، ٧/ ٤٣٥
٢٥٧	﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ	٤/ ٢، ٧

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾	
٥٩	﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾	٢/ ٢٧٤، ٧/ ٥٦٢
٦١	﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾	٨/ ١٥٧
٦٤	﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾	٢/ ٢٧٣
٦٧	﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾	١/ ١٥٦
٦٨	﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾	١/ ٤٥٣
٧٥	﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾	٢/ ٣٦٤
٧٨	﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾	٢/ ٢٣٦
٧٩	﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ	٥/ ٢٠

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	سورة النساء	
١	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾	١/ ٦٤، ٢/ ٥١٤، ٣/ ٥٧٩، ٦/ ٨٠
٢	﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾	٢/ ٥٨٧
٣	﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾	٩/ ١٥٣
٤	﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾	٣/ ٢٢٢
٥	﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ﴾	١/ ٣٧٩، ٣/ ٦١٥، ٦١٦
٦	﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾	٢/ ٥٨٨
١٠	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِى بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ ﴾	١/ ٢٦٩، ٤/ ٢٣٧
١١	﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾	٢/ ٢٢٩
١٥	﴿ وَٱلَّٰتِى يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ	٥/ ١٧٤

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾	٢/ ٣٦٩
٤٥	﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾	٣/ ٢٧٠
٤٦	﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾	١/ ٣٥، ١٢٢، ٤٢٩
٤٨	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾	١/ ١٣٠، ٢/ ١٩١، ٣/ ٢٥٠، ٩/ ١٨٩
٤٩	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾	٧/ ٥٠٠، ٩/ ١٩٢
٥٤	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾	١/ ١٣٨
٥٦	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ	٤/ ٧٧، ٥/ ٢٨٥

رقم الآية	الآيــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٩١	﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾	٤/ ١٢٥
٩٢	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾	١/ ٢١٦، ٢/ ٣١٨، ٥/ ٥٣٢
٩٣	﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾	٢/ ٣١٨، ٥/ ٣٢١
٩٤	﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾	٧/ ٣٧٩
٩٧	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) ﴾	٤/ ٣٢٤
١٠٢	﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾	٩/ ٢٣٣

سورة المائدة

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾	
٣	﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ ﴾	١/ ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢/ ٥٠١، ٩/ ٤١٨
٥	﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾	١/ ٢٨٤، ٢/ ٧٤، ٧٥،
٦	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ	١/ ١٨٤، ٢/ ١٢٤

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾	
٨	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾	٢/ ١٤٠، ٢٣٦، ٧/ ٣٦٩
١٢	﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾	١/ ٨١، ٣/ ٩٩
١٣	﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾	١/ ٧٢، ٤٢٩، ٨/ ١٨

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١٥	﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) ﴾	١/ ٤٤٥، ٢/ ٢٨١
١٦	﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٦) ﴾	٢/ ٢٨١
١٨	﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾	١/ ٤٤٧، ٢/ ١٣٤، ٨/ ١٥٥، ١٥٧
٢١	﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ (٢١) ﴾	٨/ ١٣١
٢٢	﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ (٢٢) ﴾	٨/ ١٣١
٢٧	﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾	١/ ١٦٤
٣٠	﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٣٠) ﴾	٤/ ٥٩١
٣١	﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا	٤/ ٥٥٩، ٩/ ٤٣

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾	
١١٧	﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾	٥/ ٢٨٣، ٥٦٦
١١٨	﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾	٢/ ٤٠٠، ٦/ ١٧١
١١٩	﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾	٢/ ٤٠٠، ٤/ ٤٥٦، ٦/ ١٧١
١٢٠	﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾	٢/ ٤٠٠، ٦/ ١٧١

سورة الأنعام

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١	﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾	٦/ ١٧١
٦	﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ	٧/ ١٠٤

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٥٤	﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	٧/ ٢٢٤، ٥٥٨
٥٥	﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥) ﴾	٨/ ٣٣٨
٥٩	﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾	٨/ ١١
٦٠	﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) ﴾	٥/ ٤٨٨، ٦/ ٥٠٤
٦١	﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾	٧/ ٦١٧
٦٥	﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾	٤/ ٢٥٩
٦٦	﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾	٧/ ٥١٧
٦٧	﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) ﴾	٧/ ٥١٧
٦٨	﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ	٢/ ٢٤٢، ٧/ ٤٧٠

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١٢٨	﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾	٦/ ٢٢٤
١٣٠	﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾	٧/ ٢١٧، ٢١٩
١٣١	﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾	٧/ ٢١٩
١٣٢	﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾	٧/ ٢١٩
١٣٣	﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾	٥/ ٤٧٧
١٣٦	﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	٣/ ٣٧٨، ٤/ ١٦٣
١٣٨	﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ	٢/ ٢٩٢

سورة الأعراف

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٣٨	﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (٣٨) ﴾	٣/ ٣٧٢، ٦/ ٤٦٤، ٧/ ٤٢٠
٤١	﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ﴾	٥/ ٣٣
٤٣	﴿ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾	٣/ ٣٠
٤٤	﴿ قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ ﴾	٦/ ٥٦٦
٥٢	﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥٢) ﴾	٧/ ٥٥١
٥٤	﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٥٤) ﴾	١/ ١٢٣، ٢٠٣، ٣٩٣، ٦/ ٤٧٩، ٧/ ٣٧٥
٥٧	﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾	٣/ ٥٩١، ٨/ ٥٤١

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٨٢	﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾	٥/ ٥١
٨٣	﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾	٥/ ٥١
٨٤	﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾	٥/ ٥١، ٣٨٩
٨٨	﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾	٤/ ٣٧
٩١	﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾	٧/ ٤٠٦
٩٦	﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾	٨/ ٣٧٨، ٤١٢، ٤١٦
١٠١	﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾	٧/ ٢٥٨
١٠٧	﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾	٣/ ٤٠٢
١٠٨	﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾	٣/ ٤٠٢
١١٦	﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾	٥/ ٥١١
١١٨	﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾	٣/ ٤٠٥
١١٩	﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾	٤/ ٥٦٩
١٢٠	﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾	٤/ ٥٦٩

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
	خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾	
١٥٠	﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٢/ ٣٥٩
١٥٦	﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾	٧/ ٥٥٨، ٩/ ١٦
١٥٧	﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾	١/ ١٢٨، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٧، ٣/ ٥٧٠، ٥/ ٤٠٦، ٨/ ١٣٢
١٥٨	﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾	١/ ٤٤١، ٤/ ١٤، ٧/ ٦٩، ٨/ ١٥١
١٦٣	﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ	٢/ ١٣١، ٢٥٧

سورة الأنفال

سورة التوبة

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾	
١٠٢	﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾	٦/ ٢٧٩
١٠٣	﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾	٦/ ٢٧٩
١٠٤	﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾	٦/ ٢٧٩
١٠٥	﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾	٦/ ٢٧٩، ٧/ ٥٠٥
١٠٦	﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾	٦/ ٢٧٩
١١١	﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾	٥/ ١٢٠، ٦/ ١٠٠، ٨/ ١٣٩
١١٣	﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ	٥/ ٥٥٧

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٩١	﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾	٥/ ٣٤٧، ٤٣١، ٦/ ٤١٧
٩٢	﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾	٤/ ٣١، ٥/ ٣٤٦، ٤٣١، ٧/ ٤٥٢
٩٤	﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾	٧/ ١٢٣
٩٦	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾	١/ ٦٧، ٤/ ٣٥٥
٩٧	﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾	١/ ٦٧، ٤/ ٣٥٥
٩٨	﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾	٦/ ٤١٢
٩٩	﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾	١/ ٣٣٨، ٣٤١، ٣/ ٢١٨، ٢٥٦، ٣/ ٥٧٢، ٤/ ٢٧٧، ٥/ ٣٣٦

سورة هود

سورة يوسف

رقم الآية	الآيــــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾	
١٠	﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾	٥/ ٤٨٦، ٨/ ١٢
١١	﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾	٢/ ٤٧٠، ٤/ ٩١، ٥/ ١٣، ٧/ ٣١
١٢	﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾	٧/ ٤٤٤
١٥	﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾	١/ ٤٨٢، ٧/ ٥٥٣
١٧	﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾	٥/ ٢٥، ٧/ ٢٤٠
٢٣	﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾	٤/ ٤٨، ٧/ ٦٠٢
٢٤	﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾	٤/ ٤٨، ٧/ ٦٠٢
٢٦	﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾	٧/ ٤٩٨، ٥٠٦

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٢٨	﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾	٥/ ٢٥
٣٠	﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾	٥/ ٣١٣
٣١	﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾	١/ ١٣٠، ٧/ ٥٥٥، ٩/ ٣٠٥
٣٣	﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٣/ ٣٣٨
٣٦	﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾	٢/ ٥٩٤
٣٧	﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾	٢/ ٥٩٤
٣٨	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا﴾	٤/ ٨٧
٤٠	﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾	٥/ ٥٠١، ٧/ ٤٥٨
٤١	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾	٥/ ٣٨

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٩٠	﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	٥/ ٤٧

سورة إبراهيم

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١	﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ ﴾	٦/ ٨٤
٤	﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾	٤/ ٥٣٧، ٥/ ١٠، ٧/ ٦
٥	﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾	١/ ٨٧، ٦/ ٢٠٦
٧	﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾	١/ ٨٧، ٣/ ٦٠٨، ٨/ ٤٦٣، ٩/ ٢١٢، ٢٣٣
٨	﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾	٢/ ٢٣٣، ٥/ ٢٥، ٨/ ١٠٣
١٤	﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ	٩/ ٣٣٢

سورة الحجر

سورة النحل

رقم الآية	الآيــــــــة	الجزء/ الصفحة
	يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾	
١٢	﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾	٥/ ٢٨
١٥	﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾	٩/ ٦
١٦	﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾	٥/ ٢٩، ٨/ ٢٧٢
١٧	﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾	٤/ ٢١٢
١٨	﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾	٤/ ٤٩٤، ٩/ ٢٤٢، ٤٢٦
٢٧	﴿ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾	١/ ٥٦٣
٣٢	﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾	٢/ ٤٨، ٣/ ٣٨٦
٣٣	﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾	٤/ ٢٧٧
٣٤	﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾	٥/ ٣٣٥
٣٥	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾	٢/ ٥٨٠

سورة الإسراء

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	﴿٨٨﴾	٧/ ١٦٣
٨٩	﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾	٤/ ٣٥٤، ٨/ ٤٩٣
٩٠	﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾	١/ ١٢٦، ٢/ ٢٥٦، ٤٥٥، ٤٥٦، ٣/ ٣٤٢، ٤/ ٥٠١
٩١	﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾	٢/ ٢٥٦، ٤٥٥، ٣/ ٣٤٢
٩٢	﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾	٢/ ٢٥٦، ٤٥٥، ٤٦٢، ٣/ ٣٤٢
٩٣	﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾	٢/ ٢٥٦، ٤٥٥، ٤٥٦، ٣/ ٣٤٢
٩٤	﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾	٢/ ٤٥٥، ٥٠٥، ٥/ ٢٧٨، ٢٩٤
٩٥	﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾	٢/ ٥٠٥، ٣/ ٣١١، ٥/ ٦، ٢٧٨، ٢٩٤

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٩٦	﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾	٥/ ٢٩٤
٩٧	﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾	٥/ ٢٩٤، ٦/ ١٧٧
٩٨	﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾	٦/ ١٧٨، ٨/ ٤٨٨
٩٩	﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾	٥/ ٢٩، ٧/ ٤٣٤
١٠١	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾	٧/ ٥٣٦
١٠٢	﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾	٧/ ٥٣٦
١٠٣	﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾	١/ ٩١، ٧/ ٥٣٦
١١٠	﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾	٥/ ٣١٣

سورة مريم

سورة طه

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	سورة الأنبياء	
١	﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾	٤/ ٤٩٧، ٦/ ١٥٥
٥	﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤ ﴾	٤/ ٨٥
١٠	﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⑩ ﴾	٢/ ٣٤٨، ٧/ ١٢٣
١٨	﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ⑱ ﴾	٦/ ٢٢٩، ٨/ ٣٦٣
٢٢	﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ㉒ ﴾	٢/ ٦٢، ٤/ ٢٤٢، ٦/ ٣٤٣
٢٣	﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ㉓ ﴾	٦/ ٣٢٠، ٩/ ١٥٨
٢٥	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ㉕ ﴾	٢/ ٣٩٧، ٥/ ٤٥٩، ٨/ ٣٧٦
٢٦	﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ㉖ ﴾	٢/ ٢٧٦

سورة الحج

سورة المؤمنون

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
	عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾	
١١٨	﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾	٥/ ١٧١

سورة النور

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٢	﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾	٥/ ٣٢١
٤	﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾	٥/ ٣٢٠
١٢	﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا ﴾	١/ ١١٣، ٧/ ٣٥٨
١٤	﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾	٣/ ٣٨٠
٢١	﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾	٣/ ٣٨٠
٢٣	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾	٦/ ٧٩
٣١	﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ	٢/ ٥١،

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٤١	﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾	٩/ ٣٠
٤٢	﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾	٩/ ٣٠
٥٠	﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾	٣/ ٥٨٩
٥١	فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾	٣/ ٥٨٩
٥٢	﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾	١/ ٥٧٠
٥٣	﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾	١/ ٥٧٠
٥٤	﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾	١/ ٥٧٠
٥٥	﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾	٥/ ٣١٨، ٣٢٣، ٩/ ٤١٢
٥٦	﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾	٤/ ٢٩٦، ٥/ ٣١٢، ٨/ ٢٥٩، ٩/ ١١٣
٥٧	﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ	١/ ١٥١، ٤٨٨،

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾	
٤٠	﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾	٣/ ٣٦٣، ٧/ ٥٣٦
٤١	﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾	٣/ ٦١٨
٤٣	﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾	٣/ ٦١٨، ٦/ ٣٧٦، ٨/ ٢٥٩
٤٥	﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾	١/ ٨٢، ١٨٤، ٦/ ٢٧
٤٦	﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾	١/ ٤٧٢، ٤٨٣، ٤/ ٢٤
٤٨	﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾	١/ ٤٢٧، ٨/ ١٥٠
٥٠	﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا	٤/ ٥٠٢، ٦٢١

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾	٨/ ١٩٦
٣٠	﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾	٢/ ١٨
٣٩	﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾	١/ ٣٧٤
٤٤	﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾	٩/ ١٧
٤٧	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٣/ ٤٣٣، ٤/ ٥٣٨، ٥/ ٣٧٠، ٦/ ٤١٦، ٤٣٣، ٥٤٩، ٥٧٢
٤٨	﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾	١/ ١٩٦، ٣/ ٥٩٠، ٥/ ٣٠٦
٥٠	﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾	٧/ ٦٠٩

سورة لقمان

سورة السجدة

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
١١	﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾	٢/ ٤٨
١٢	﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾	٤/ ٧٦
١٣	﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾	٧/ ٢٠٣
١٤	﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾	٤/ ٧٦
١٨	﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾	١/ ٥٣٩
٢٠	﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾	٧/ ٤٧١
٢١	﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾	٧/ ٤٨٢
٢٧	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٥/ ٤٧١

سورة الأحزاب

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٦	﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم	٢/ ٦٨، ٩٧، ٧/ ٣٥٢

سورة سبأ

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾	
١٢	﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾	٦/ ٢٩٦
١٣	﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾	٤/ ٤٧٤، ٦/ ٢٩٦
١٤	﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾	٤/ ٤٧٤
١٥	﴿ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾	٢/ ٥٦٢، ٤/ ٢٨٢، ٨/ ٢٢
١٦	﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾	٢/ ٥٦٢
١٧	﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾	٢/ ٥٦٢
١٨	﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ	٩/ ٢٢٣

سورة الصافات

سورة ص

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
	أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾	
٢٤	﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾	٥/ ٤٣٦، ٦/ ١٨٧
٢٧	﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾	٥/ ١٦
٢٩	﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾	٢/ ١٧١، ٣/ ٣٦٣، ٥/ ٤٢، ٧/ ٢٦٣
٣٥	﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾	٦/ ١٩١
٣٦	﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾	١/ ١١٩، ٥/ ٥٥، ٦/ ١٩١
٣٧	﴿ وَالشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾	١/ ١١٩، ٥/ ٥٥، ٦/ ١٩١
٣٨	﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾	١/ ١١٩، ٥/ ٥٥، ٦/ ١٩١
٣٩	﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾	١/ ١١٩،

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٢٣	﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾	٦/ ٩٦
٢٧	﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٣/ ٦١٨، ٤/ ٥٥، ٢٩٣
٢٨	﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾	٤/ ٢٩٣
٢٩	﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾	٧/ ٣٤٥
٣٠	﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾	٥/ ٣١
٣١	﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾	٥/ ٣١
٣٦	﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ ﴾	٦/ ١٣٢
٤٢	﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾	١/ ٢٩٧، ٥/ ٣٠٥، ٤٨٨
٤٥	﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾	٤/ ٢٤٥
٥١	﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾	٧/ ٤٦٠

سورة غافر

رقم الآية	الآيــــــــة	الجزء/ الصفحة
	أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾	٥/ ٣١٣، ٩/ ٣٢
١٢	﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾	١/ ٦١، ٤/ ٦٤، ٥/ ٣١٣
١٥	﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾	٥/ ٥٧١، ٩/ ١٦٠
١٦	﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾	٧/ ٥٠٧
١٧	﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾	٧/ ٤٥٣، ٥٠٧، ٨/ ٣٢١، ٩/ ١٦٠
٢٦	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾	٤/ ٦٠٠، ٥/ ٢٩١، ٧/ ٦٣، ٣٩٦، ٨/ ٣٧٧، ٣٩٦
٢٧	﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٧/ ٦٤
٢٨	﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا	٧/ ٦٤

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
	ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾	٨/ ٥٤١
٤١	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) ﴾	٧/ ٦٣، ١٨٠
٤٢	﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾	٧/ ٦٣، ٨/ ٣٣٥
٤٣	﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾	١/ ١٤٤، ٧/ ٦٣
٤٤	﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾	١/ ٤٤، ٢/ ٥٩٤، ٣/ ٣٧٦، ٥/ ٤٢٢، ٧/ ٦٣، ٨/ ٣٣٤
٤٥	وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾	٢/ ٥٩٤
٤٦	﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾	١/ ٩٩، ٣/ ٣٤٤، ٤٤١، ٧/ ٥٠٥

رقم الآية	الآيــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٤٩	﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾	٦/ ٤٨٢، ٧/ ٩٣
٥٠	﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾	٦/ ٤٨٢، ٧/ ٩٣
٥١	﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾	٦/ ٤٨٢، ٧/ ٦٣، ٧/ ٩٣
٥٢	﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾	٧/ ٦٢، ٦٣
٥٣	﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾	١/ ٢٠٩، ٢/ ٢٨١، ٣/ ٥٧٧، ٤/ ٤٣، ٦١، ٥/ ٣٦٧، ٥٠٣، ٦/ ٥٤٣، ٧/ ٦٢، ٤١٢

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
	سورة الشورى	
٣	﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾	٧/ ١٨٩
٤	﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِىُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾	٧/ ١٠١
٥	﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾	٧/ ١٠١
٧	﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾	٥/ ٥٦٠، ٧/ ١٠٠
١١	﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾	٣/ ٣٨، ٤/ ٤٦٤
١٣	﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾	١/ ٨٧، ٦/ ٣٨٠، ٧/ ٢٢٢
١٧	﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾	٦/ ١٥٥، ٧/ ١٠١
١٨	﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ ﴾	٧/ ٢١٠
٢٠	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن	٤/ ٢٢٩، ٣٣٧،

رقم الآية	الآيــــــــــــة	الجزء/ الصفحة

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الأحقاف

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٢٧	﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٥/ ٣٤
٢٩	﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾	١/ ٧٠، ٢/ ٥٦٠
٣٠	﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾	٨/ ٤٠٤
٣١	﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾	٣/ ٣٩٩
٣٣	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾	٥/ ٢٩
٣٥	﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾	٣/ ٣٧١، ٥/ ٢٨٧، ٧/ ٢٣٢، ٨/ ٣٦٥

سورة محمد

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٤	﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾	١/ ٥١١، ٣/ ٢٥٧

سورة ق

سورة الذاريات

سورة القمر

سورة الرحمن

رقم الآية	الآيـــــــــة	الجزء/ الصفحة
٧	﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾	٣/ ٥٧٧، ٤/ ٦١،٦/ ٣٥٨
٨	﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾	٦/ ٣٥٨
٩	﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾	٦/ ٣٥٨
١٤	﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾	٧/ ٥٩٥
١٧	﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾	٦/ ٣٤٨
١٩	﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾	٧/ ٥٦
٢٠	﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾	٧/ ٥٦
٢٢	﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾	٧/ ٢١٧
٢٦	﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾	٥/ ٣١، ٥٧٧، ٧/ ٥٩٥
٢٧	﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾	٥/ ٣١، ٥٧٧، ٧/ ٥٩٥
٣٧	﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَـانِ ﴿٣٧﴾ ﴾	٧/ ٥٩٥
٤١	﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾	١/ ٣٦٥، ٧/ ٤٧٠
٤٣	﴿ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾	٧/ ٥٩٥، ٥٩٦
٤٤	﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾	٧/ ٥٩٦، ٦٠٤
٤٦	﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾	٣/ ٣٩٥،

سورة الواقعة

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٤٢	﴿ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ (٤٢) ﴾	٨/ ٥٤٩
٤٣	﴿ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ (٤٣) ﴾	٨/ ٥٤٩
٤٤	﴿ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) ﴾	٨/ ٥٤٩
٤٥	﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ (٤٥) ﴾	٨/ ٧
٤٦	﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ (٤٦) ﴾	٨/ ٧
٤٧	﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (٤٧) ﴾	٨/ ٧، ٣٤١
٤٨	﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ (٤٨) ﴾	٨/ ٧، ٣٤١
٤٩	﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ (٤٩) ﴾	٤/ ٣٤٤، ٨/ ٦
٥٠	﴿ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (٥٠) ﴾	٤/ ٣٤٤، ٨/ ٦
٥٧	﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾	٨/ ٦
٥٨	﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ (٥٨) ﴾	٨/ ٦
٧٣	﴿ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ (٧٣) ﴾	٨/ ٦
٧٤	﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (٧٤) ﴾	٨/ ٦
٧٧	﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) ﴾	٧/ ٤٦٩، ٨/ ٦
٧٨	﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) ﴾	٧/ ٤٦٩، ٨/ ٦
٧٩	﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾	٧/ ٤٦٩، ٨/ ٦
٨٠	﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠) ﴾	٨/ ٦
٨١	﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ (٨١) ﴾	٧/ ٥٠٨، ٨/ ٦

سورة الحديد

سورة الصف

سورة الجمعة

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٩	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾	٨/ ١٦٨، ٢٧٨
١٠	﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾	٧/ ٢١٧، ٨/ ١٦٨
١١	﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾	٨/ ١٦٩

سورة المنافقون

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
١	﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾	١/ ٧٠
٢	﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾	٥/ ٢٤٠
٣	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾	٢/ ٢٤٠
٥	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾	٨/ ١٩٠
٦	﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾	٣/ ٢٧٣

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٧	﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾	٢/ ١١٥
٨	﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾	٢/ ٢٤١
٩	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾	٨/ ١٩٠
١٠	﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾	٤/ ٧٥، ٨/ ١٩٠

سورة التغابن

رقم الآية	الآيـــــــة	الجزء/ الصفحة
٥	﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾	٨/ ٢١٥
٦	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾	٢/ ٢٣٣، ٥/ ٢٧٧، ٨/ ٢١٥

رقم الآية	الآيــــــــة	الجزء/ الصفحة
	﴿لِأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٦﴾	٨/ ٢١٦
١٧	﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾	٨/ ١٣
١٨	﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾	٨/ ٢١٦

سورة الطلاق

رقم الآية	الآيــــــــة	الجزء/ الصفحة
١	﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾	١/ ٣١١
٢	﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ٢﴾	١/ ٣١١، ٩/ ١٧٦
٣	﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ٣﴾	١/ ٥٣٧، ٣/ ٤٠٨، ٥/ ٤٧
٤	﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ٤﴾	١/ ٢٩٨، ٣٠٩، ٣١٨، ٩/ ١٧٦
٥	﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾	٩/ ١٧٦

سورة التحريم

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
	أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾	٥/ ١٨، ٦/ ٥٣٥، ٧/ ٥٠١، ٨/ ٤٦٥
٧	﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾	٥/ ٦٨
٨	﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	٨/ ١٤
١٠	﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾	٦/ ٤١٠
١٢	﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾	١/ ٤٠٣، ٢/ ٣٥٧، ٤/ ٤٣٢

سورة الحاقة

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة الإنسان

سورة المرسلات

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
٣٣	﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ ﴾	٧/ ٦٠٤
٣٨	﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ﴾	٢/ ٢٢٠، ٣/ ٤٩٣، ٤/ ٥٩٩
٤٠	﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠ ﴾	٢/ ١١٨، ٩/ ٢١، ٣٣٥

سورة النازعات

رقم الآية	الآيـــــــــــة	الجزء/ الصفحة
١	﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾	٩/ ١٥٢
٥	﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾	٧/ ٤٤٤
٦	﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ ﴾	٤/ ٨١، ٧/ ٥١٩
٧	﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ ﴾	٤/ ٨١، ٧/ ٥١٩
٨	﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ ﴾	٧/ ٥١٩
٩	﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ ﴾	٧/ ٥١٩
١٠	﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ ﴾	٤/ ٢٤٨
١١	﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ ﴾	٤/ ٢٤٨، ٢٤٩، ٥/ ٤٨٤
١٢	﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ ﴾	٤/ ٢٤٨، ٥/ ٤٨٤

سورة الانفطار

سورة الزلزلة

فهرس أطراف أحاديث الرسول ﷺ

الحـديـــــث	الجزء/ الصفحة
أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم؟!	٤/ ١١٦
اتق الله وأمسك عليك زوجك	٦/ ١١٩
اتقوا الله في النساء	٢/ ١٠٥
اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة	٩/ ٢٨٥
أتى أصحابي ما يوعدون	٩/ ٤٣١
أتيت الرسول ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: هل لك مال؟	٣/ ٣٧٨
أتيت بالبُرَاق - وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار	٤/ ٢١٣
اجتنبوا السبع الموبقات	٢/ ٣٥، ٢/ ٩١، ٣/ ٢٥٨، ٥/ ١٨١، ١٩٨
اجعل يدك اليمنى عليه وقل: بسم الله، أعوذ بعزة الله وقدرته	٩/ ٤٧٤
اجعلوها في سجودكم	٩/ ١٠٧
أجل، هي شجرة أخي يونس	٦/ ٤١٤
أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه	٦/ ٨٤
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه	٨/ ١١
احفظ الله يحفظك	٣/ ٢٨٤، ٦٠٦
أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس	٧/ ٩٦
أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليّ فيفصم عني	٨/ ٤٣٧

الحـــديــــــــث	الجزء/ الصفحة
أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن	٤/ ٣٠٣
أخبروه أن الله يحبُّه	٩/ ٤٤٨
اختر أيتهما شئت	٢/ ٧٣
اختر منهن أربعاً	٢/ ١٥
اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً	١/ ١١١، ٤٤٢
أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك	٢/ ١٤٠
إذ يغشى السدرة ما يغشى	١/ ٣٩٧
إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر	٥/ ٤٣٩
إذا أحب الله العبد نادى جبريل	٤/ ٤٨١
إذا أصبت بحده فكل	٢/ ٢٩٥
إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس	١/ ٢٢٣
إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن	٦/ ٣٩٣
إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون	٨/ ١٦١
إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه	٩/ ٢٣٠
إذا جمع الله الأولين والأخرين يوم القيامة	٥/ ٢٢٥
إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران	٢/ ٢١٧، ٥/ ٥٦
إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك	١/ ٢٨٦
إذا خطب أحدكم امرأة	٥/ ٢١٥ ٢/ ٦٤

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه	١/ ٢٤،
إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه	٢/ ١٠٤
إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان	٢/ ٢٩٩
إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا ربح الله تجارتك	١/ ١٣٥
إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم	٨/ ٤٣
إذا سلَّمتم على المرسلين فسلموا عليّ، فإنما أنا بشرٌ من المرسلين	٦/ ٤٣١
إذا صلت المرأة خمسها	٢/ ١٠٣
إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها	٦/ ٢١٠، ٣٤٩
إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار	٢/ ١٩٣
إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر	٨/ ٤٤
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة	٢/ ٤٢، ٥/ ٣٢٤، ٥٠٢
إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى الى السماء الدنيا	١/ ٤٣٧
إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يفعلها كتبتها له حسنة	٥/ ٢٢٩
إذا وزنت فارجح	٤/ ٢٣٩
اذهب فخذ سيفك	٣/ ١٣٦
اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح	٦/ ٣٧٩
أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود	١/ ٢٠٥
أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم	٩/ ٤٣٨

الحديث	الجزء/ الصفحة
اقرأ عليّ.. أقرأ عليك وعليك أنزل	٢/ ١١٧
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء	٩/ ٢٥٧
أكبر الكبائر.. الإشراك بالله	٢/ ٩١
أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون	٦/ ١٢٧
أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليَّ	١/ ١٧٣
أكثروا من ذكر هادم اللذات	٥/ ٢٨٥
أكرمهم عند الله أتقاهم	٧/ ٣٦٣
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة	١/ ٢٥٠
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة	٢/ ٢٢١
ألا أخبركم بخير الشهداء	٢/ ٢٣٧
ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات	١/ ٥٧١
إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم	٢/ ١٤٥
ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم	٥/ ٢٨٩
ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله	٥/ ٣٢٢
ألا تزورنا أكثر مما تزورنا	٤/ ٤٦٢
ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا	٤/ ٢٧٩
ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟	٦/ ٣٤٧
ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم	٩/ ٤٤٣
ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟	٩/ ٣١٦

الحـديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــــث	الجزء/ الصفحة
إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة	٢/ ٤٤
إن الرضاعة تحرِّم ما يَحرُمُ من الولادة	٢/ ٧١، ٧٢
إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانهُ	٤/ ٤٢٦
أن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا	٢/ ٢٩٦، ٣٠٥
إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام	٨/ ٢٠٥
إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم	٩/ ٤٨٥
إن العيافة والطرق والطِيرَة من الجبت	٢/ ١٣٥
إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة	٤/ ١٨٤
إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً	٤/ ٣٧٤
إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل	٩/ ٣٧٣
إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل	٣/ ٣٠٥
إن الله أعطاني... وفضلني بالحواميم	٦/ ٥٢٧
إن الله أمرني أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا»	٩/ ٢٦٨
إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه	٣/ ١٠٥
إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه	١/ ٣٩٩، ٦/ ٧٥
إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم	١/ ٢١٧
إن الله تعالى خلق الخلق	٢/ ٧
إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار	٨/ ٢٥٥

الحـديـــــــث	الجزء/ الصفحة
إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة	٧/ ٦٠٣
إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين	٩/ ٣٥٥
إن الله حرمه يوم خلق السماوات والأرض	٥/ ٥٠١
إن الله خالق كل صانع وصنعته	٦/ ٣٨٧، ٣٩١
إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم	٧/ ٢٦٨
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	٥/ ٢٤٢
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	٢/ ٢٤٥، ٦/ ١٠١
إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً	١/ ١٩٩
إن الله عز وجل أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة	٣/ ١١٠
إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق	٣/ ٩٧
إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألفي عام	٤/ ٤٨٦
إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام	١/ ٣٣٩
إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة	٢/ ٤٣
إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة	٤/ ٣٢٧
إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده	٢/ ١١٣
إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب	٥/ ٢٢٨
إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث	١/ ٢١٧
إن الله قد بعث محمداً بالحق	٥/ ١٧٥

الحديث	الجزء/ الصفحة
إن أهل الجنة إذا قالوا: سبحانك اللهم أتاهم ما يشتهون	٣/ ٣٢٦
إن أهل الجنة يتراءون أهل الغُرَفِ من فوقهم	٢/ ١٥٣
أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين	٧/ ٥١٥
إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها	٥/ ٤٩٣
إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر	٣/ ٣٤٨
إن أول ما خلق الله القلم	٨/ ٢٩٣
إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل	٢/ ٣٦٠
إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً	٥/ ٤٣٧
إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير	٢/ ١٩٧
إن بين يدي الساعة لأيامنا ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم	٧/ ٢٦٤
أن تدعو لله نداً وهو خلقك	٥/ ٣١٩
أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى	١/ ٢٠٢
أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله	٦/ ١٢٧
إن خير دينكم أيسره	١/ ٢٢١
إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة	٧/ ١٤٨
إن ربكم عز وجل رحيم	٥/ ٤٩٩
أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج	٩/ ٨٧
أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى	٥/ ٤٥٦
إن عبداً أصاب ذانباً فقال: رب أذنبت فاغفر لي	١/ ٥١٥

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً	٢/ ١١١
إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله	٦/ ١٢٦
إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه	٥/ ٤٣٧
إن من أكبر الكبائر أن تجعل لله نداً وهو خلقك	٦/ ١٤٦
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها	٧/ ١٢
إن مِن أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر	٧/ ٥٥٦
إن من بعدي من أمتي قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيمهم	٩/ ٤٣٠
إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء	٢/ ٣٦٦
إن من كان مطعمه حراماً وملبسه حراماً ومشربه حراماً	٣/ ٣٩٠
إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً	١/ ٢٢٤
إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم	٦/ ١٥٩
إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق	٧/ ٦١١
إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه	٢/ ٣٦٦
إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم	٥/ ٢٦٣
إنْ يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم	٤/ ٣٩٠
إن يسير الرياء شرك	٤/ ٢٨٤
إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة	٩/ ٣٨٥
أنا ابن الذبيحين	٢/ ٣٤٧
إنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب	٨/ ١٥١

الحديث	الجزء/ الصفحة
أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة	٦/ ٨١
أنا بريء من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تراءى نارهما	٨/ ١١٥
أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى	١/ ١٥٣، ٨/ ١٣٣
أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً	٤/ ٣٥٧
أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً	٢/ ٤٧٦
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر	٤/ ٢٦٩، ٥/ ٣٥٤، ٧/ ٤٣٢
أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره	٧/ ٢٨٩
أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني	٦/ ٨٥
أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة	٦/ ١٣٠
الأنبياء العرب أربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد	٥/ ٣٩٦
الأنبياء أولاد عَلات	٣/ ٣٩٧
أنت أحق به ما لم تنكحي	١/ ٣١٧
أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم	٩/ ٤٤٢
انزل فصلِّ: فنزلت فصليت، فقال أتدري أين صليت	٤/ ٤٣٢
أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	٩/ ٣٩٧
انشق القمر على عهد رسول الله شقتين فقال النبي اشهدوا	٧/ ٥١٥

الحديث	الجزء/ الصفحة

الحديث	الجزء/ الصفحة
إنما جعل الإذن من أجل البصر	٥/ ٢١١
إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً	٦/ ٧٨
إنه أوحى إليّ أن تواضعوا	٥/ ٥٧٢
إنه لم يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة	٢/ ١٥٢
إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة	٤/ ٣٩٩
إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة	١/ ١١٨
إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته	١/ ١٢، ١٥
إنها تنفي الرجال كما تنفي النار	٢/ ١٧٩
إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة	١/ ١٧٧
إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم	٥/ ٣٨٦، ٤٥٨
إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون	٦/ ٤٢٣، ٨/ ٤٧٢
إني أريد منكم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب	٦/ ٣٦٤، ٤٣٩
إني خاتم ألف نبي أو أكثر	٢/ ٢٦٥
إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي	٣/ ٣٤٨
إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً	٩/ ٤٣٨
إني سمعت رسول الله ينهى عن بيع الذهب بالذهب	١/ ٣٧٣
إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي	٥/ ٢٣٩
إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء	٢/ ٧٧

الحديث	الجزء/ الصفحة
إني لأعرف آخر أهل الجنة خروجاً من النار	٥/ ٣٢١
إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذاعنه	١/ ٢
إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد	٩/ ٤٨٥
إني لأنسى أو أُنسى لأَسُنَّ	٩/ ٣٨٤
إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة	٥/ ٧٢
إني نسيت أفضل المسبحات	٩/ ١٠٧
إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله	٦/ ٥٨٧
اهجهم وجبريل معك	٥/ ٤٠٩
أهل الجنة جُردٌ مُرْدٌ كُحلٌ لا يفنى شبابهم ولا تَبلى ثيابهم	٨/ ٥٢٥
أو تسريح بإحسان	١/ ٢٨٩
أوصي بمالي كله؟ قال: لا قال: فالشطر؟ قال: لا قال: الثلث؟	١/ ٢١٧
أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة	٢/ ٦٠٣
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم	٩/ ٢٤٨
أول ما يقضى بين الناس في الدماء	٢/ ١٩٠
أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل	٥/ ٥٨،
	٩/ ٢٢٤
أي الناس خير؟ قال من طال عمره وحسن عمله	٦/ ٢٨٣
أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله	٥/ ٥٥٧
إياكم والجلوس على الطرقات	٥/ ٢١٦

الحديث	الجزء/ الصفحة
إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم	٢/ ١١٤
إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث	٧/ ٣٥٩
إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه	٧/ ٥٤٢
آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان	٨/ ١٨٤
الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه	١/ ١٩
أيكون المؤمن جباناً؟	٣/ ٣١٢
أيما امرأة دخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء	٨/ ١١٩
أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس	١/ ٢٩١
أيما إهاب دبغ فقد طهر	٢/ ٢٩٤
أيما رجل ارتد عن الإسلام فأدعه	٢/ ٣٤١
أين الله فأشارت إلى السماء بأصبعها السبابة	٨/ ٢٨٠
أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل	٢/ ٣٥٣
أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟	٢/ ٣٥٢
أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي	١/ ٢٠٣
أيها الناس أي يوم هذا؟	٢/ ٣٥٢
أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا	١/ ٤٨٨
بارك الله لكما في غابر ليلتكما	٤/ ٤٢٣
بأن يعبد الله وتكسر الأوثان وتوصل الأرحام بالبر والصلة	٧/ ٢٦٨
بسم الله أرقيك، من كل شر يؤذيك	٩/ ٤٦٤

الحديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـديـــــــث	الجزء/ الصفحة
تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها	١/ ٢٨٨
تصافحوا يذهب الغِلُ وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء	٥/ ٤٥٢
تصدقوا على أهل الأديان	١/ ٣٦٤
تضمّن الله لمن خرج في سبيله	٢/ ١٥٩
تطعم الطعام وتقرأ السلام	٢/ ١٧٨
تعرَّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة	٦/ ٤١٦
تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة	١/ ٢٣
تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم	٧/ ٣٦٣
التقوى ههنا	٧/ ٣٦٤
تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة	٩/ ٧٦
تلك الملائكة دنت لصوتك	١/ ٢٢
تلك الملائكة نزلت لقراءتك سورة البقرة	١/ ٢٢
تلك شاة لحم، قال: فإن عندي عناق جذعة	٩/ ٤٠٠
تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس	٢/ ٢٤٧
تلك عاجل بشرى المؤمن	٣/ ٣٨٧
التمسوها في العشر الأواخر من رمضان	٩/ ٢٦٠
تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر	٥/ ٤٥٢
ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة	١/ ٣١٥
ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن	٥/ ٤٧٦

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
ثلاثة حق على الله عونهم	٥/ ٢١٨
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة	١/ ٣٦٥، ٤٧٨، ٩/ ٣٣٦
ثلاثة من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته	٦/ ٨٤
ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين	٥/ ٥٥٥
ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين	١/ ٥٧٠
ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم	١/ ٣٧٩
ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون	١/ ١٠
ثم رُفع إليَّ البيت المعمور	٧/ ٤٢٥
ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر	٧/ ٤٩٣
ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة	٤/ ٤٥٦
جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً	٤/ ٢٦٨
جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم	١/ ٣٤٧
جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة	٣/ ٢٦٣
جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت	٨/ ٤٤٧
جعل الله الرحمة مائة جزء	٢/ ٤٣٠
جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما	٧/ ٥٨٠
حُبُّك إياها أدخلك الجنة	٩/ ٤٤٧
حتى كان يخيل أنه صنع شيئاً لم يصنعه	١/ ١٢٠

الحديث	الجزء/ الصفحة
الحج عرفة	٣/ ٢٠٥
الحرب خدعة	٣/ ٢٦٥
حرمت النارُ على عينٍ دمعتْ أو بكتْ من خشية الله	٣/ ٢٦٣
حرمة مال الإنسان كحرمة دمه	١/ ٣٧٥
حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران	٤/ ٤٠٤
حق المرأة على أحدنا أن تطعمها إذا طعمت	٢/ ١٠٤
حق المسلم على المسلم خمس	٧/ ٣٥٥
الحواميم ديباج القرآن	٦/ ٥٢٧
حوضي كما بين عدن وعمان، أبرد من الثلج	٩/ ٣٨٨
خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي	٩/ ٤١٧
خذوا عني فقد جعل الله لهنَّ سبيلاً	٥/ ١٧٥
خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً	٢/ ٥٠
خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك	١/ ٣٨٢
خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار	١/ ٦٤
الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر	١/ ٢٦٨
خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم	٢/ ٣٧٣، ٣٧٤
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى	١/ ٢٦٨، ٢٧٥
خير النساء التي تسره إذا نظر	٢/ ١٠٢
خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة	١/ ٤٥٨

الحـديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان	٦/ ٣٩٤
رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة	٢/ ١٩٨
رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُنيا وما عليها	٣/ ٢٦٣
رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	١/ ٥٧١
رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل	٣/ ٢٦٣
رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله	٣/ ٥٢٤
رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله	١/ ١٩١
رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته	٤/ ٤٥٨
رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد	٥/ ٣٩٢
رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر	٨/ ١٣٢
الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله	١/ ١٣٨
سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة	٤/ ٢٣١
سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش	٦/ ٣٧٩
سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين	٧/ ١٠٨
سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه	٩/ ٤٢٢
سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته	٣/ ٥٨٧
سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي	٩/ ٢٢٣
سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله	٤/ ٣٢٦
سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة	٢/ ٢٢٦

الحديث	الجزء/ الصفحة
سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد	٢/ ١٢١
السلام عليكم دار قوم مؤمنين	٥/ ٤٩٠
السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره	٢/ ١٤٥
السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم	٣/ ٢٢٤
سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات المنقذة	٢/ ٢٨٥
سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى غُفر له	٨/ ٢٦٥
سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة	٦/ ٤٢٦
سيد الشهداء الحمزة ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله	٦/ ٥٥٢
سيد الشهداء حمزة	٢/ ٣٢٢
سيكون في أمتي أقوام يكذِّبون بالقدر	٧/ ٥٤١
شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر	١/ ٣٠١
شيبتني هود	٧/ ٢٩
شيبتني هودٌ والواقعة والمرسلات	٨/ ٥٣٦
شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت..	٣/ ٤٤٥
الشيطان جاثم على قلب ابن آدم	٩/ ٤٨٢
الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	٩/ ٢٣١
شيَّعَ هذه السورةَ من الملائكةِ ما سدَّ الأفقَ	٢/ ٣٩٥
صدقة السر تطفئ غضب الرب	١/ ٣٦١
صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته	٢/ ٢٠٣

الحديث	الجزء/ الصفحة

الحديـــــــث	الجزء/ الصفحة
فرد، ثم جلس فقال: « عشر »	٢/ ١٧٧
فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله	٣/ ٣٨٠
فضَّل الله قريشاً بسبع خلال	٩/ ٣٦٤
فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام	٥/ ٢٠٢
فضلنا على الناس بثلاث	٢/ ١٢٤، ٦/ ٣٤٧، ٤٢٤
فكان للحوت سرباً، وكأن لموسى وفتاه عجباً	٤/ ٣٦٨
فلما خلصتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة	١/ ٤٥٥
فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة	١/ ٣٦٧
فمن رغب عن سنتي فليس مني	٣/ ٦٣٤
فنظروا إليه قد غشيهم فسقطوا سجداً على شق	٣/ ١٠٥
فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل	١/ ٢٠٨
في الجنة شجرة يسير عليها الراكب في ظلها مائة عام	٧/ ٦٠٣
في المال حق سوى الزكاة	١/ ٢٠٨
في بضع أحدكم صدقة	١/ ٤٣٦
فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس	١/ ٦٢
فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم	٤/ ٤٦٨
فيما سقت السماء والعيون العشر	١/ ٣٦٤
قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	٤/ ٨٢

الحديث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين	٣/ ٥٣، ٥/ ٣٨٦
لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا	٢/ ١٧٧
لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل..........................	١/ ١٠٠
لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض	٢/ ١٩٠
لا تردي سائلك ولو بظلف	١/ ٢٠٨
لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها	١/ ١٦٥
لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه	٦/ ٣٦٠
لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم	٢/ ٢٠٣
لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح	٣/ ٥٢
لا تُسَبِّحي عنه	٢/ ٢٥١
لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر	٧/ ١٧١
لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون..........................	٣/ ٥٩٦
لا تضربوا إماء الله..........................	٢/ ١٠٦
لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم	٢/ ٢٧٤، ٣٥٨
لا تطعموهم مما لا تأكلون	١/ ٣٦٦
لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة	٥/ ٣٥٤
لا تقبل التوبة حين ظهور الشمس من مغربها..........................	٣/ ٤٢٦
لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول	٢/ ٣١٨

الحديث	الجزء/ الصفحة
لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله	٢/ ١٩٣
لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم	١/ ٥
لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات	٥/ ٤٩٣، ٧/ ١٤٨
لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	٢/ ٦٠٣
لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون	٦/ ١٢٨
لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار	٧/ ٢٦٤
لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ	٥/ ٢٤١
لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة	٧/ ١٣٣
لا تلحفوا في المسألة	١/ ٣٦٦
لا تمنعوا إماء الله مساجد الله	١/ ١٣٥
لا تمنوا لقاء العرو فإذا لقيتموهم فاصبروا	١/ ٣٥٠
لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر	١/ ٣١٦
لا حسد إلا في اثنتين	٢/ ٩٤، ٩/ ٤٧٢
لا زال الرجل يأخذ في نفسه حتى يكتب مع الجبارين الطغاة	٦/ ٥٦٢
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	١/ ٧، ٨/ ٤٦٦
لا ضرر ولا ضرار	١/ ٣٨٦
لا نبرح حتى نناجز القوم	٧/ ٢٨٩

الحـديـــــث	الجزء/ الصفحة
لا نساء المسلمات، لا تحقرنَّ جارة لجارتها	٩/ ٢٩٢
لا نكاح إلا بوليّ	١/ ٣٠٦
لا نورث ما تركنا صدقة	٣/ ١٦٣
لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية	٩/ ٤٢٤
لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية	٢/ ١٧٩
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده	٦/ ٧٨
لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق	٥/ ٣١٩
لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة	١/ ٣٤٩
لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه	٤/ ٤٤٤
لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به	٤/ ٤٤٤
لا يتمنين أحدكم الموت من مرض أصابه	٤/ ١٣٧
لا يتوارث أهل ملتين شتى	٩/ ٤١٢
لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً	٣/ ١٨٥
لا يجلد أحدكم امرأته	٢/ ١٠٦
لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها	٢/ ٧٣
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث	٢/ ٣٤١
لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله	٢/ ١٨٨، ٥٨٧، ٤/ ٢٣٧،

الحديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحديث	الجزء/ الصفحة

الحـديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــــث	الجزء/ الصفحة
	٦/ ٣٨٥
لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى ياجج	٧/ ٣٢٥
لم ينزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة	٩/ ٢٨٢، ٢٨٤
لما خلق الله الخلق كتب في كتابه	٢/ ٤٣٠
لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾	٩/ ٤٦١
لن يُدْخِل أحداً عمله الجنة	٦/ ٢٨٠
لن يُدْخل أحداً عملُه الجنة	٢/ ١٦٥
لن يزال المؤمن في فسحة من دينه	٢/ ١٩٠
لن يغلب عسر يسرين	٩/ ٢٢٧
الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين	٦/ ٨٦
الله أكثر وأطيب	٩/ ٤٤٨
الله المزوِّج وجبريل الشاهد	٦/ ١١٩
اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار	٣/ ٢٠٨
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	٦/ ٩٥
اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته	٤/ ٤٢٣
اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي	٩/ ١٥٥
اللهم إن العيش عيش الآخرة	٦/ ١٨٤
اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء	٨/ ١٠

....

الحـــديــــــــث	الجزء/ الصفحة
اللهم أنت السلام ومنك السلام	٣/ ٣٤٩
اللهم أنجز لي ما وعدتني	٣/ ١٤٢
اللهم إنك تعلم أني رسولك	٧/ ٢٩٢
اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به	٥/ ٣٧٧
اللهم إني أسألك عهدك ووعدك	٤/ ٢٥٢
اللهم بارك لأمتي في بكورها	٣/ ٢٦٥
اللهم حاسبني حساباً يسيراً	٩/ ٧٩
اللهم رب الناس، أذهب الباس، اشفه وأنت الشافي	٩/ ٤٧٤
اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة	٢/ ٣٢٢
اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا	٥/ ١٢١
اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد	٦/ ١٤٦
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة	٦/ ١٨٤
اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت	٣/ ٤٣٧
اللهم هذا قسمي فيما أملك	٢/ ٢٣٢
اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك	٦/ ١٣٨
اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك	٣/ ٥١٥
اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك	١/ ١٨
اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك	١/ ١٦٥
لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً	٩/ ٢١٢

الحـديـــــث	الجزء/ الصفحة
لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة	١٠٣/١
لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان	٣١٦/٩
لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم	٢٢٧/٨
لو دخلوها ما خرجوا منها	١٤٥/٢
لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له	٢٤٥/٧
لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين	٣١٤/٨
لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة	١١٩/٧
لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد	١٠٤،١٠٢/٢
لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام	١١٦/٤
لولا أنكم تخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم	٢٨٣/٩
لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها	١٠٥/٣
ليّ الواجد يُحِلّ عِرضه وعقوبته	٢٥٠/٢
لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي	١٣٠/٦، ١٣٣/٨
ليت رجلاً صالحاً يحرسني الليلة	٣٥١/٢
ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر	٢١٩/٨
ليس أحد يحاسب إلا هلك	٧٩/٩
ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب	٥١٤/١
ليس الغنى عن كثرة العرض	٣٧٨/٢

الحـديـــــث	الجزء/ الصفحة
ما ترون في الأسارى؟	٣/ ١٨٠
ما تعجبون من جاهل يسأل عالماً؟	٨/ ٥٢٤
ما حاجتك؟ هل تريد من شيء	٩/ ٣٨
ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين	١/ ١٧
ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق	٩/ ٣٥٥
ما خلأت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة	٧/ ٢٨٩
ما ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم	٣/ ٣٤٤
ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط	٢/ ٣٧٩
ما صلَّى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾	٩/ ٤١٥
ما ظنك باثنين الله ثالثهما	٣/ ٢٣٩
ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل	١/ ٣٧٧
ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا! أما تجد شاة؟	١/ ٢٢٨
ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم	٧/ ٥٤٣
ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا راكب قال في ظل شجرة	٢/ ١٦٣
ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر	٥/ ٥٥١
ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لايفارقه	٦/ ٣٦٠
ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله	٩/ ٤٧٤
ما من عبد يصلي الصلوات الخمس	٢/ ٩١

الحــديــــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحـــديـــــــث	الجزء/ الصفحة

الحديث	الجزء/ الصفحة
من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة	٢/ ٣٠١
من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له	٢/ ١٤٥
من دعا إلى هدى كان له من الأجر	٤/ ١٥٠
من دعا لأخيه بظهر الغيب	٢/ ١٧٦
من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه	٢/ ١٤٥
من رأى منكم منكراً فليغيره بيده	١/ ٤٩٦، ٢/ ٣٦٠، ٣٨٢، ٦/ ٣٩١
مَنْ ربك وما دينك ومن نبيك؟	٤/ ٥١
من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلي أشعث	٦/ ١٠٧
من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم	١/ ٣٦٦
من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة	٦/ ٣٤٠، ٤٣٢
من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة	١/ ٣٨٦
من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين	٩/ ٤٧، ٥٥، ٨٥
من سمَّع الناس بعمله سمَّع الله به سامعَ خلقِه	٩/ ٣٨٥
من سَمَّع سمَّع الله به	٢/ ٢٤٦
من سنَّ في الإسلام سنة حسنة	٤/ ١٧
من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله	٢/ ٢٧٤

الحـديـــــث	الجزء/ الصفحة

الحديث	الجزء/ الصفحة
نُصرت بالصَّبا وأُهلكت عاد بالدَّبُور	٥/ ٣٧٦،
	٦/ ٨٢،
	٧/ ٢١٢،
	٨/ ٣٢٢
نظرت فإذا أنا بقوم له مشافر كمشافر الإبل	٢/ ٣٥
نعم المال الصالح للرجل الصالح	١/ ٢٥١
نعم صِلي أُمَّك	٤/ ٢٣١
نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟	٢/ ٥٢٦
نُعِيتْ إليَّ نفسي بأنه مقبوض في تلك السنة	٩/ ٤١٥
نُعِيتْ إليَّ نفسي فبكت	٩/ ٤١٧، ٤٢٤
نهى النبي عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد	٥/ ٤٤٦
نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل	٤/ ١٤٤
هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط	١/ ٧
هذا سبيل الله ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله	٢/ ٥٨٩
هذا عقوبة ذنبك ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾	٥/ ٢١٠
هل أنتم تاركو لي صاحبي؟	٣/ ٩٧
هل تدرون مم أضحك؟	٢/ ٤٣٣،
	٦/ ٣٢٧
هل تزوجت يا فلان؟	٩/ ٢٨٣،

الحديث	الجزء/ الصفحة
وما كان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم	١/ ٩
وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه	١/ ٢٥٢
ومن أبطأ به عمله: لم يسرع به نسبه	٤/ ٤٦٥
ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما	٥/ ٧٥
وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت	٩/ ٣١٦
وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم	٥/ ١٨٢
ويح قريش أكلتهم الحرب فلو تركوني والناس	٦/ ٥٥٥
ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه	٥/ ١٧٥
ويحك قطعت عنق صاحبك	٢/ ١٣٤
ويل الأعقاب من النار	٢/ ٢٩٩
الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً	٩/ ٣٤٤
يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا	١/ ٢٣
يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح	٤/ ٤٤٢
يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة	٦/ ٢٨٠
يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة	١/ ١٦٣، ٨/ ٧٧
يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام	٤/ ٣٩٦، ٧/ ٤٢١، ٨/ ٤٦٤

الحديث	الجزء/ الصفحة

الحــديـــــــث	الجزء/ الصفحة
يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك	٧/ ١٩٨
يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيه فيه	٩/ ٤٦٣
يا عائشة كأن ماؤها نقاعة الحناء..	٩/ ٤٧٧
يا عائشة، إيَّاكِ ومحقّرات الأعمال	٩/ ٢٩٢
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي	٥/ ١٣
يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم	٥/ ٤٥٣، ٦/ ٢٦٦
يا عباس ناد : يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة	١/ ٢٠
يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا	٦/ ٧٠
يا عدي اطرح عنك هذا الوثن	١/ ١٩٧
يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة	٨/ ٢٥٩
يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب	٢/ ١٢٢
يا فلان، ما لي أراك محزوناً؟	٢/ ١٥٢
يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت؟ وضالاً فهديت؟	٩/ ٢٢٠
يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟	٢/ ٥١، ١١٠
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج	١/ ٢١٩، ٢/ ٨٥، ٥/ ٢١٩
يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه	٧/ ٣٦٠

الحديث	الجزء/ الصفحة
يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً	٢/ ٣٣٧
يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا	٢/ ١٣٠
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار	٤/ ٢٦٧
يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال	٧/ ٥٧٦
يحشر الناس على ثلاث طرائق	٧/ ٥٧٤
يخرج عنق من النار يقول وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة	٢/ ١٩٠
يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار	٧/ ٢٣٧
يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار	٦/ ٢٢٢
يد الله ملأى لا يغيضها نفقة	٨/ ١٨٣
يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين، بني ثلاث وثلاثين	٣/ ٣٤٩
يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار	٢/ ١١٧
يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب	١/ ١٧٣
يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما	٤/ ٣٦١
يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا	٣/ ١٢٥
يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه	٦/ ٥١٦
يقول العبد مالي، مالي إنما له من ماله ثلاث	٩/ ٣١٦
يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة	١/ ٤٨٤
يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة	٢/ ٤٨٨
يُلقى في النار، وتقول: هل من مزيد	٧/ ٤٢٠

فهرس المصادر والمراجع

حرف الألف

* الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة رداً على الملّة الكافرة، للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن القرافي (ت٦٨٤هـ)، مخطوط رقم (١٧٧٢) بمكتبة أحمد الثالث، إسطنبول.

* الأحاديث المختارة، أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة. مكة المكرمة، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

* الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم دراسة ونقد، د/ إبراهيم علي السيد، دار ومكتبة السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

* الأحاديث الواردة في فضائل القرآن - دراسة نقدية -، د. إبراهيم علي السيد علي عيسى، ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار السلام، القاهرة.

* أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة، د. زاهية الدجاني، دار التقريب، ط١، ١٩٩٣م، بيروت، لبنان.

* أحكام أهل الذمة، تأليف: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق: يوسف أحمد البكري - شاكر توفيق العاروري، دار ابن حزم بيروت، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

* الأحكام الصغرى، محمد بن عبدالله المعافري، ت (٥٤٣ هـ)، تحقيق: محمد الزيزي، محمد البكاري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إسيسكو)، الرباط - المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

* أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

* أحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠.

* أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر. لبنان.

* أحكام من القرآن للشيخ محمد بن عثيمين، مدار الوطن بالرياض، طبعة عام ١٤٢٥هـ.

* أخبار المدينة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٢ هـ)، تحقيق: علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان، ط (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الأدب المفرد، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، مراجعة وعناية الشيخ محمد هشام البرهاني، وزارة الأوقاف، أبو ظبي، ١٤٠١-١٩٨١.

* أساس البلاغة، الزمخشري، ت٥٢٨هـ، مطبعة الشعب، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٠.

* أساس التقديس في علم الكلام، فخر الدين أبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

* الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة ط٢، ١٩٨٩م.

* أسباب النزول - للسيوطي - مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٩٨م.

* أسباب النزول، للإمام إبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت(٤٦٨هـ)، تحقيق طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، مكتبة الساعي، الرياض. بلا تاريخ.

* أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت٤٦٨هـ، تحقيق سيد أحمد صقر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة،، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

* أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان، للإمام ابن جرير الطبري، جمعًا وتخريجًا ودراسة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة من جامعة أم القرى، بمكة المكرمة، د. حسن بن محمد بن علي شبالة البلوط، لم تطبع بعد.

* أسرار ترتيب القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الاعتصام القاهرة.

* أسرار التكرار في القرآن، المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، محمود بن حمزه الكرماني (ت٥٠٥هـ تقريباً)، تحقيق: عبدالقادر احمد عطا، ط. بدون تاريخ، دار الفضيلة.

* أسماء سور القرآن الكريم. عبدالله بن سالم الهنائي، الأجيال للتسويق، طبع شركة مطبعة عُمان ومكتبتها.

* أسماء سور القرآن الكريم وفضائلها، د. منيرة محمد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولي، ١٤٢٦هـ.

* الأسماء والصفات. للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (-٤٥٨هـ). تحقيق عماد الدين أحمد حيدر. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

* الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ت(١٣٩٣هـ)، خرج آياته وأحاديثه الشيخ محمد بن عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١(١٤١٧هـ١٩٩٦).

* الأم، محمد بن إدريس الشافعي أبو عبدالله، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٣، الطبعة الثانية.

* الأمثال في القرآن الكريم، تأليف: أبو عبدالله شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة طنطا، مصر، ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى.

* أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، للإمام فخر الدين محمد بن حسين الرازي، ت٦٠٦هـ تحقيق د. محمد رضوان، دمشق، ١٩٩٥، الطبعة الأولى.

* أنوار التنزيل وأسرار التأويل(تفسير البيضاوي)، القاضي ناصر الدين البيضاوي، دار الفكر. بيروت.

* أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبدالله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، الطبعة الأولى.

* أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، الطبعة الأولى.

* أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري، دار السلام، مصر ط٤، ١٩٩٢م.

* الآحاد والمثاني لأبي بكر الشيباني أحمد بن عمرو بن الضحاك ط دار الراية بالرياض ١٤١١هـ بتحقيق د. باسم الجوابرة.

* الآداب الشرعية والمنح المرعية، أبو عبدالله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و عمر القيام، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.

* آيات الخالق الكونية رشيد رشدي العابري مطبعة التفيض الأهلية بغداد.

* الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق: عثمان عبدالله آدم الأثيوبي. دار الراية للنشر السعودية، ١٤١٨هـ، الطبعة الثانية.

* إبطال الحيل، عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري العقيلي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي. بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

* الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، علي بن عبدالكافي السبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى.

* إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر.، تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالغني الدمياطي، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٩هـ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أنس مهرة.

* الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر لبنان، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

* الإجماع، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق: د. فؤاد عبدالمنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٠٢هـ١٩٨٢، الطبعة الثالثة.

* الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت ٧٣٩هـ- تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط مؤسسة الرسالة بيروت.

* إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد الغزالي الطوسي، ت٥٠٥هـ، تحقيق د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٨، الطبعة الأولى.

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود، لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ). ط. الرابعة (١٩٩٤م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.

* الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا-محمد علي معوض، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

* الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور محمد حسين الذهبي دار التوفيق النموذجية القاهرة.
* الإسقاط المكي للعالم، الدكتور حسين كامل، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد رقم. ٦.
* الإسلام، سعيد حوى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩، الطبعة الأولى.
* الإسلام والطب، الدكتور محمد وصفي، مطبعة أمين عبدالرحمن، ١٣٥٩هـ ١٩٤٠، الطبعة الأولى.
* إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، تأليف: أبي بكر ابن السيد محمد شطا الدمياطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
* الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٨٩، الطبعة الخامسة.
* الإعجاز التشريعي في تحريم الخمر، الدكتور فهمي مصطفي محمود، من بحوث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي. رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
* الإعجاز الطبي في القرآن والسنة لحسن ياسين، مكتبة وهبة القاهرة.
* إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر، ١٩٩٧م، الطبعة: الخامسة.
* إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان عمان، ١٩٩١م.
* إعجاز القرآن الكريم لغير العرب، رسالة ماجستير، محمد عيادة الكبيسي.
* إعراب القرآن، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: زهير غازي زاهد، ط عالم الكتب، بيروت.
* إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق،

١٩٩٩، الطبعة السادسة.

* الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي - القاهرة - ١٣٩٨.
* إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣،.
* إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تأليف: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، الطبعة الثانية.
* الاقتصاد في الاعتقاد للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ) الحكمة للطباعة والنشر دمشق.
* الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، الخطيب الشربيني، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر بيروت، ١٤١٥هـ.
* الله والعلم الحديث عبدالرزاق نوفل دار مصر للطباعة.
* الله والكون للدكتور/ محمد جمال الدين الفندي، مطابع الأهرام التجارية.
* إلى القرآن الكريم، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٥ م
* الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - محمد سامي محمد علي - دار النور - دمشق ط١ ١٩٩٥م.
* الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، عبدالحميد محمود طهماز، بيروت: دار القلم ١٩٨٩م.
* الإنسان ذلك المجهول ألكسيس كاريل ط دار المعارف مصر.

حرف الباء

* البحر الرائق شرح كنز الدقائق، تأليف: زين الدين ابن نجيم الحنفي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية.

* بحر العلوم، المعروف بتفسير السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (٣٧٥هـ)، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبدالموجود، وزكريا عبدالمجيد النوتي، ط الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

* البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، الطبعة: الأولى.

* بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله المشتهر بابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: يسري السيد محمد، ط الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، دار ابن الجوزي، الدمام.

* بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، دار الكتاب العربي بيروت م، الطبعة: الثانية.

* بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا وزميليه، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٦- ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.

* بداية خلق الكون، للإمام الحافظ ابن كثير، ت٧٧٤هـ تحقيق عادل أبو المعاطي، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، الطبعة الأولى.

* بداية المجتهد ونهاية المقتصد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، دار الفكر بيروت.

* البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء ابن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، ط. مكتبة المعارف،

بيروت.

* بدع التفاسير للشيخ عبدالله الغماري مكتبة القاهرة.
* البرهان في تناسب سور القرآن، أبو جعفر بن الزبير، تحقيق/ سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي الدمام، ١٤٢٨هـ، الطبعة الأولى.
* البرهان في علوم القرآن، أبو عبدالله محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
* البرهان في نظام القرآن، الدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، دار المجتمع جدة، الأولى.

-بحر العلوم(تفسير)، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي تحقيق: د. محمود مطرجي، دار النشر: دار الفكر. بيروت.

* بشير اليسر شرح ناظمة الزهر في علم الفواصل، عبدالفتاح القاضي، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة.
* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، ١٣٨٣هـ
* بناء الأجيال، د. عبدالكريم بكار، كتاب المنتدى، الرياض، ط١ (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢).
* البيان في عدّ آي القرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث الكويت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

حرف التاء

* تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية.
* التاج والإكليل لمختصر خليل، تأليف: محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري، دار

الفكر - بيروت - ١٣٩٨هـ١٩٧٨م، الطبعة الثانية.

* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي. لبنان، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م، الطبعة الأولى.

* تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر بن جرير الطبري، ت٣١٠هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٧.

* تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية. بيروت.

* تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي ت٩١١هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، د. ت، الطبعة الثانية.

* تاريخ العرب، جواد علي، الرابط للطباعة والنشر، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٥٣.

* التاريخ الكبير، الإمام محمد بن إسماعيل ين إبراهيم البخاري، تحقيق د/ محمد عبدالمعين خان، طبع دائرة المعارف العثمانية، الهند: ١٣٨٢ـ١٩٦٣.

* تاريخ المدينة المنورة، (أخبار المدينة النبوية)، لابن شبّه، أبي زيد عمر بن شبه النميري البصري (ت٢٦٢هـ)، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط. دار الفكر.

* تاريخ المصحف - عبدالفتاح القاضي، مكتبة و مطبعة المشهد الحسيني.

* التبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي ت ٤٣٧هـ ط الدار السلفية بومباي الهند بتحقيق الدكتور المقرئ محمد غوث الندوي.

* التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ت٦١٦هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.

* التبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، تحقيق: فتحي

أنور، دار الصحابة للتراث بطنطا مصر، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، الطبعة الأولى.

* تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، دار الكتب الإسلامية. القاهرة. ١٣١٣هـ الطبعة الأولى.
* التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
* تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: محمد عبدالرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
* تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تأليف: جمال الدين عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي، دار النشر: دار ابن خزيمة - الرياض - ١٤١٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن السعد.
* التذكار في أفضل الأذكار. للإمام القرطبي. تحقيق: فؤاد أحمد زمزلي. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م
* الترغيب والترهيب، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، تحقيق مصطفى محمد عمارة، المكتبة العصرية، صيدا بيروت: ١٤٠٥ـ١٩٨٥.
* التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق محمد عبدالمنعم اليونسي وإبراهيم عطوه عوض، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠.
* التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، عبدالقادر عودة، مؤسسة الرسالة. بيروت. د. ت.
* التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/ أولى: ١٤٠٥ـ١٩٨٥.
* تغليق التعليق على صحيح البخاري، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد عبدالرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي بيروت، دار عمار عمان، ١٤٠٥.

١٩٨٥، الطبعة الأولى.

* تفسير أبي السعود، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي(٩٥١هـ). بيروت: دار إحياء التراث.

* تفسير البغوي (معالم التنزيل)، محمد بن الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر و د. عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرس، دار طيبة، الرياض، ٢٠٠٢م/ ١٤٢٣هـ.

* التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، عبدالعظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة١٩٩٩م.

* تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، البابي الحلبي.

* تفسير جزء عم، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي،، الدمام، الطبعة الرابعة، سنة١٤٢٥هـ.

* تفسير جزء عمّ، محمد عبده، مطابع الشعب، د. ت

* «تفسير الجزأين عم وتبارك» من تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان، مطبعة القاهرة.

* تفسير الجلالين، للإمامين: المحلي و السيوطي، دار الحديث. القاهرة، الطبعة: الأولى.

* تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ م.

* تفسير السعدي : عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٢١ ه ٢٠٠٠ م.

* تفسير السمعاني، منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني (ت : ٤٨٩ هـ)، دار الوطن - الرياض.

* تفسير سورة الانفطار، جمال عياد، شركة عكاظ، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

* تفسير سورة الحشر والمدثر، د. عبدالله شحاته، مطبعة جامعة القاهرة: ١٩٨٥ .

* تفسير سورة القصص/ د. أحمد نوفل.

* تفسير سور المفصل من القرآن الكريم، السيد عبدالله كنون، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

* تفسير سورة النور: أبو الأعلى المودودي، دار الفكر - بيروت.

* تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم مصر. ١٩٩١م.

* التفسير الصحيح، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير المأثور، أ. د. حكمت بشير، ط. الأولى (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، دار المآثر، المدينة المنورة.

* تفسير الطبري للإمام / محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر المتوفى سنة ٣١٠هـ/ ط دار الفكر لسنة ١٤٠٥هـ.

* تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد. الرياض، ١٤١٠هـ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى.

* تفسير القرآن الحكيم المشهور بـ (تفسير المنار) للسيد محمد رشيد رضا، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب مصورة عن دار المنار مصر، الطبعة الثانية.

* تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبدالله بن أبي زمنين (ت ٣٩٩ هـ)، تحقيق: حسين بن عكاشة، ومحمد بن مصطفى الكنز، ط الثانية (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة.

* تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م الطبعة الثانية.

* تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول والصحابة والتابعين، أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية. صيدا.

* تفسير القرآن الكريم (الحجرات، ق...) للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، ط١(١٤٢٥هـ٢٠٠٤).

* تفسير القرآن الكريم. العشرة أجزاء الأولي، محمود شلتوت، دار الشروق، ١٤٠١هـ١٩٨١م الطبعة الثامنة.

* التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبدالكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة بدون تاريخ.

* التفسير الكامل، للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني الدمشقي، المعروف بابن تيمية، ت(٧٢٨هـ)، جمع ودراسة وتحقيق وتخريج أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت لبنان، ط١(١٤٢٣هـ٢٠٠٢).

* التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت.

* التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

* تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، ط الأخيرة (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر.

* تفسير الماوردي(النكت والعيون)، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق/ السيد عبدالمقصود عبدالرحيم، دار الكتب العلمية. بيروت.

* تفسير المراغي، الشيخ أحمد مصطفي المراغي، دار الفكر بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

* التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، ط الأولى (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، دار الفكر المعاصر، بيروت.

* التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لصلاح الخالدي، دار النفائس ١٩٩٧م الأردن.

* التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (تفسير سورة هود)، للدكتور محمد البهي، ط١- مكتبة وهبة- مصر١٩٧٦م.

* التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ط١٠، دار الجيل، بيروت ١٩٩٣.

* التفسير الواضح الميسر، محمد علي الصابوني، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

* التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر القاهرة(١٩٩٨م).

* التقريب (تقريب التهذيب). لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (-٨٥٢هـ). قدم له دراسة وافية وقابله بأصل مؤلفه محمد عوامة. بيروت: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

* تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني. المدينة المنورة، ١٣٨٤، ١٩٦٤.

* التلخيص في القراءات الثمان، أبو معشر الطبري.

* تلخيص المستدرك، لحافظ شمس الدين إبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي، ت(٨٤٨هـ)، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض.

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي،محمد عبدالكبير البكري. وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - ١٣٨٧هـ.

* تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

* تنزيل القرآن، لابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، ط. الثانية (١٩٨٠م)، دار الكتاب الجديد، بيروت.

* تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البرسوي (ت ١١٣٧هـ)، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق.

* تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي بيروت، ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

* تهذيب مدارج السالكين، عبدالمنعم صالح العلي العزي، دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة، بلا تاريخ.

* التوثيق القرآني لغزوة الأحزاب، إعداد : أحمد بن محمد الشرقاوي - الملتقى العلمي للتوثيق الميداني لغزوة الخندق - مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ذو القعدة ١٤٢٧هـ.

* التوحيد، د. صالح بن فواز الفوزات، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد. السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

* التوحيد والشكر في سورة النحل عبدالحميد محمود طهماز، (دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، الطبعة الأولى).

* التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين عبدالرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي الرياض، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، الطبعة الثالثة.

* تيسير التفسير، الشيخ إبراهيم القطان، وزارة الأوقاف الأردنية، ١٩٨٣، الطبعة الأولى.

* التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

* التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ت (٤٤٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن سعدي، تحقيق/ عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، الطبعة الأولى.
* تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٠م.

حرف الثاء

* الثقات. لمحمدة بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي، البستي(-٣٥٤هـ). بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
* الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، محمد خلف الله، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٨٥، الطبعة الثانية.
* الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، صالح عبدالسميع الآبي الأزهري، المكتبة الثقافية. بيروت.

حرف الجيم

* الجامع، جزء (تفسير القرآن)، عبدالله بن وهب بن مسلم المصري (١٩٧هـ)، برواية سحنون بن سعيد (٢٤٠هـ)، تحقيق: ميكلوش موراني، ط الأولى (٢٠٠٣م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
* جامع الأصول في أحاديث الرسول، المبارك بن محمد : ابن الأثير الجزري (ت : ٦٠٦هـ)،

مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان.

* جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري، لابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، بتحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، ط١. (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، مؤسسة الرسالة. والطبعة الثانية، بدون تاريخ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. وطبعة (١٤٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت.

* جامع البيان في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، مجموعة رسائل جامعية قامت بتدقيقها وتهيئتها للطباعة مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ونشرتها كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، ط/ أولى: ١٤٢٨ـ٢٠٠٧.

* الجامع الصحيح المختصر، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

* الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق الدكتور عبدالله عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

* الجبال.. اختلاف في الألوان وثراء في الصنعة !! أ. د. كارم السيد غنيم أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر موقع إسلام أون لاين أضيف بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠٠٠

* الجبال في القرآن الكريم – د. زغلول النجار.

* جزء في «تفسير الباقيات الصالحات» تأليف : أبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبدالله العلائي ت ٧٦١ هـ- ط : دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ تحقيق : بدر الزمان محمد شفيع النيبالي.

* جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي، ت(٦٤٣هـ)، تحقيق الدكتور علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، ط١(١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧).

* الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، دار البيارق، بيروت، ١٩٩٦، الطبعة الثانية.

* الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية، تحقيق: علي سيد صبح المدني، مطبعة المدني مصر.

* الجواهر، طنطاوي جوهري، دار الفكر، بيروت، د. ت

* جواهر البيان في تناسب سور القرآن، لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري، ط. بدون تاريخ، مكتبة القاهرة.

* الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

حرف الحاء

* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم : أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ط : دار الكتب العلمية - بيروت.

* حاشية الجمل على شرح المنهج لزكريا الأنصاري، سليمان الجمل، دار الفكر بيروت.

* حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد عرفه الدسوقي، تقريرات الشيخ محمد عليش، دار الفكر بيروت.

* حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، محمد أمين ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر. ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

* حاشية الشهاب على البيضاوي - الشهاب.

* حاشية العلامة أحمد الصاوي على تفسير الجلالين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧١ـ ١٩٥٢.

* الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي شرح مختصر المزني، تأليف: علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، تحقيق:علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩م، الطبعة الأولى.

* الحجة في القراءات السبع، الإمام ابن خالويه، تحقيق د. عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ سادسة: ١٤١٧ـ١٩٩٦.

* حجة القراءات، أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق الدكتور سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* الحجة للقراء السبعة، أبوعلي الحسن بن عبدالغفار الفارسي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٩٣م.

* حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين بن عبدالله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ط دار طوق النجاة بيروت ١٤٢١هـ.

* الحرب النفسية والشائعات، د. معتز سيد عبدالله، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (١٩٩٧م).

* حروف المعاني، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

* حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، ذياب عبدالجواد عطا، دار المنار، القاهرة.

* حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة - صديق خان.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٠٥. ١٩٨٥، الطبعة الرابعة.

* (الحماسة المغربية) مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي التادلي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر بيروت، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.
* الحِوار في قصص إبراهيم ﷺ في القرآن الكريم دروس ودلالات، إعداد أ. د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.
* الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، إعداد أحمد الشرقاوي مؤتمر : الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.
* حول تفسير سورة الحجرات، عبدالله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط١(١٤١٣هـ١٩٩٢).
* الحياة الربانية والعلم، د. يوسف القرضاوي، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٦، الطبعة الأولى.

حرف الخاء

* خواطر قرآنية، عمرو خالد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٤، الطبعة الأولى.

حرف الدال

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، ١٩٩٣.
* درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أحمد بن عبدالسلام بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، تحقيق: عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

* دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د/ زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية. الرياض، ١٤٠٥هـ الطبعة الأولى.

* دراسات في علوم القرآن، د. محمـــود سالم عبيدات،، دار عمار للنشر، عمان

* دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق. مصر، الطبعة الثامنة.

* الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، مكتبة النهضة مصر، ١٩٧٠، الطبعة الثالثة.

* دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

* دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للإمام أبي بكر بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي. ط. الأولى (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

* ديوان المتنبي، شرح ابي البقاء العكبري، تحقيق إبراهيم الابياري وزملاؤه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة الطبعة الأخيرة سنة١٩٧١م.

حرف الذال

* الذخيرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب بيروت، ١٩٩٤م.

حرف الراء

* الرحيق المختوم – صفي الدين المباركفوري – مطبعة مكة المكرمة طبعة أولى ١٩٨٣م.

* الرد على المنطقيين، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، دار المعرفة. بيروت.

* الرسالة، أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث. القاهرة، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.
* الرسالة التبوكية، ابن قيم الجوزية، تحقيق د/ محمد جميل غازي، مكتبة المدني جدة.
* رسالة التوحيد، الشيخ محمد عبده، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦م.
* رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبدالنور المالقي، دار العلم، دمشق.
* روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الشيخ محمد علي الصابوني، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١.
* الروح. شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
* روح البيان للبروسوى إسماعيل حقى البروسوي ت سنة ١٣٧٠ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ.
* روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، ١٩٨١.
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
* الروض المربع شرح زاد المستقنع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة. الرياض، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.
* رياض الصالحين، للإمام أبي زكريا النووي، ت٦٧٦هـ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٩، الطبعة الحادية عشر.

حرف الزاي

* زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، ط الرابعة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق.

* زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، الطبعة الرابعة عشر.

* زبدة التفسير (مختصر الفتح القدير) د. محمد سليمان الأشقر، دار الفيحاء، دمشق، ١٩٩٤، الطبعة الخامسة.

* الزهد، هناد بن السري الكوفي، تحقيق: عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي. الكويت، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م، الطبعة: الأولى.

* الزهد، عبدالله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية. بيروت.

* زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي مصر. د. ت.

* الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي، المكتبة العصرية. بيروت، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، الطبعة الثانية.

* الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد بن أحمد بن عقيلة المالكي، مجموعة رسائل جامعية قامت بتدقيقها وتهيئتها للطباعة مجموعة بحوث الكتاب والسنة، ونشرها مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة، ط/ أولى: ١٤٢٧ـ٢٠٠٦.

حرف السين

* السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط/ ثانية: ١٤٠٠ـ١٩٨٠.

* سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير، تحقيق: محمد عبدالعزيز الخولي، دار إحياء التراث العربي. بيروت، ١٣٧٩هـ، الطبعة الرابعة.

* سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الألباني المكتب الإسلامي.

* سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي. مصر. د. ت.

* سنن أبي داود، أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت.

* سنن الترمذي(الجامع الصحيح)، تأليف: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي. بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

* سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبدالله هاشم يماني المدني، دار المعرفة. بيروت، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

* سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي. بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى.

* سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية. الهند، ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م، الطبعة الأولى.

* السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز. مكة المكرمة، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

* السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١١هـ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

* سورة الحجرات، دراسة تحليلية وموضوعية، د. ناصر سليمان العمر، دار الوطن، الرياض، ط٢(١٤١٤هـ).

* السياسة المالية في الإسلام، د. عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦، الطبعة الثانية.

* سير أعلام النبلاء. لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(-٧٤٨هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة.

* السيرة الحلبية : علي بن برهان الدين الحلبي، ت (١٠٤٤) ه دار المعرفة - بيروت.

* السيرة النبوية، ابن هشام، ت٢١٣هـ، تحقيق السقّا والأبياري وشلبي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٥.

* السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.. دراسة تحليلية. مهدي رزق الله أحمد. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

حرف الشين

* شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي.

* شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبّار بن أحمد، تحقيق الدكتور عبدالكريم عثمان، مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٣٨٤هـ الطبعة الأولى.

* شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي. بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

* شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩١هـ١٩٧١م، الطبعة الرابعة.

* شرح فتح القدير، تأليف: كمال الدين محمد بن عبدالواحد بن الهمام، دار الفكر. بيروت، الطبعة الثانية.
* شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد. للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
* شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الطبعة الأولى.
* شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، دار المعارف النعمانية. باكستان، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، الطبعة الأولى.
* شرح منتهى الإرادات المسمى دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، عالم الكتب. بيروت، ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.
* شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، الطبعة الأولى.
* الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري.
* الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي.

حرف الصاد

* صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤١٤ هـ-١٩٩٣م، الطبعة الثانية.
* صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي. بيروت، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
* صحيح أسباب النزول، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، ط١(١٤٢٤هـ-٢٠٠٣).

* صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير. بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧، الطبعة الثالثة.
* صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجّاج القُشَيْري النَّيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، دار الكتب العلمية، بيروت.
* صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢، الطبعة الثانية.
* صحيح الجامع الصغير وزياداته : محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. ط: الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
* الصحيح المسند في أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، دار القدس، ط١، صنعاء.
* صفة الجنة لأبي نعيم الأصفهاني.
* صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، الكويت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
* صفوة التفاسير، الشيخ محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر، دمشق، بدون تاريخ ورقم طبعة.

حرف الضاد

* الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي، تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية. بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

حرف الطاء

* الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (ت ٢٣٠هـ)، ط دار صادر، بيروت.

* طريق الهجرتين لابن القيم دار ابن القيم - الدمام الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٤ - تحقيق أبو عمر بن محمود .

حرف الظاء

* الظواهر الجغرافية في القرآن الكريم، د. فوزي الشربيني، عالم الكتب، القاهرة، ط١(١٤١٩هـ١٩٨٩).

* الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم والحديث، د. عطية محمد عطية، دار الحامد للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، الطبعة الأولى.

حرف العين

* العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ت٨٠٨هـ، دار الصياد، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ .

* العجاب في بيان الأسباب، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي. السعودية، ١٤١٨هـ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

* العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، دمشق، ١٩٨٦ .

* العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ١٩٧٩، الطبعة الثانية.

* العلل ومعرفة الرجال، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس المكتب الإسلامي. بيروت، ١٤٠٨هـ١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

* العلو للعزيز الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها. للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

* علوم القرآن، د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، الطبعة الأولى.

* عمدة الحفاظ - السمين الحلبي.

* عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* عمل اليوم والليلة، أحمد بن محمد الدينوري المعروف بابن السنِّي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت: ١٩٨٨.

* العهد القديم والعهد الجديد. طبعة مكتبة دار الكتاب المقدس. مصر.

* العواصم من القواصم، للإمام أبي بكر بن العربي، ت(٥٤٣هـ)، خرج أحاديثه وعلق عليه محمود مهدي الإسلامبولي، حققه وعلق حواشيه الشيخ محب الدين الخطيب، مكتبة السنة، القاهرة، ط٥(١٤٠٨هـ).

* عون المريد لشرح جوهرة التوحيد، في عقيدة أهل السنة والجماعة، تأليف عبدالكريم تتَّان، ومحمد أديب كيلاني، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط/ ٢: ١٤١٩ـ١٩٩٩.

* عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار النشر: دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

حرف الغين

* الغاية في القراءات العشر للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري ت ٣٨١هـ ط مطابع العبيكان ط١ / ١٤٠٥هـ.

* غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨ هـ ط البابي الحلبي سنة ١٣٨١ هـ ط أولى.

* غرر التبيان في من لم يسم في القرآن لبدر الدين ابن جماعة ت٧٣٣هـ ط دار قتيبة بيروت ١٤١٠هـ.

* غريب الحديث. لأبي عبيد القاسم بن سلام. (-٢٢٤هـ). تحقيق: محمد عبدالمعين خان. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

* غريب الحديث، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تحقيق: عبدالكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى. مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* غريب القرآن، أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، تحقيق: محمد أديب عبدالواحد جمران، ط (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، دار قتيبة.

* غوامض الأسماء المبهمة، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، ت (٥٨١ هـ)، تحقيق: د/ هيثم عياش، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.

حرف الفاء

* الفتاوى، للشيخ محمد متولي الشعراوي، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢، الطبعة الأولى.

* الفتاوى، للشيخ محمد شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٥، الطبعة الثامنة.

* الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية الحراني، ت٧٢٨هـ، تحقيق أحمد كنعان، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الأولى.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بعناية

محب الدين الخطيب، ط. مكتبة دار الفيحاء، دمشق.

* (فتح البيان في مقاصد القرآن) السيد العلامة الملك المؤيد من الله الباري أبو الطيب صديق بن حسن، ١٣٠٧هـ. ادارة احياء التراث الاسلامي -دولة قطر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م
* (فتح الجواد الكريم في اختصار تفسير القرآن العظيم) للحافظ بن كثير، ت سنة ٧٧٤هـ. تأليف محمد بن محمود بن ابراهيم بن عطية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م
* الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ عبدالرحمن البنا الساعاتي ط دار الشهاب القاهرة بدون تاريخ.
* الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي. لزين الدين عبدالرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبى السلفي. الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ
* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر. بيروت.
* الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٣٧٧.
* فردوس الأخبار، الحافظ شيرويه بن شهردار الديلمي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/ أولى: ١٤٠٧ـ١٩٨٧.
* الفروق أو أنوار البروق في أنواع الفروق (مع الهوامش)، أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.
* الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو

محمد، مكتبة الخانجي. القاهرة.

* فضائل القرآن، لابن الضريس، تحقيق : غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ط. ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

* فضائل القرآن، ابن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

* فضائل القرآن، الإمام أحمد بن شعيب النسائي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط/ ثانية: ١٤١٣ـ١٩٩٢.

* فضائل القرآن. لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي. تحقيق وهبي سليمان غاوجي. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

* فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، أبو عبدالله محمد بن أيوب بن الضريس البجلي، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ط/ أولى: ١٤٠٨ـ١٩٨٨.

* فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام. محمود محمد عمارة. مصر: مكتبة الفرقان الإسلامية، دار الطباعة المحمدية، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

* فقه السنة، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥، الطبعة السابعة.

* فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٦، الطبعة السادسة عشرة.

* الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

* فنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ ت حسن ضياء الدين عتر.

* فهم القرآن للحارث المحاسبي، دار الكندي ١٣٩٨ هـ بيروت.

* فواتح سور القرآن، الدكتور حسين نصار، مكتبة الخانجي. القاهرة، ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

* الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، تأليف: أحمد بن غنيم بن سالم النفراوي المالكي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤١٥هـ١٩٩٥م.

* في تاريخ القرآن وعلومه، د. محمد الدسوقي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣، الطبعة الأولى.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبر. مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة الأولى.

* في ظلال القرآن، سيد قطب، (ت١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ط الخامسة والعشرون (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، دار الشروق، القاهرة.

حرف القاف

* القرآن الكريم.

* (قبس من نور القرآن) محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم - توزيع مؤسسة الريان ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

* قصة الإيدز للأستاذ رفعت كمال مطابع دار أخبار اليوم.

* قصص الأنبياء، للإمام الحافظ بن كثير، ت٧٧٤هـ، مكتبة الإيمان، المنصورة، تحقيق محمد بيومي وعبدالله المنشاوي ومحمد رضوان مهنا، بدون ذكر طبعة وتاريخ.

* قصص الأنبياء، د. عبدالوهاب النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، د.ت.

* قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، لأبي إسحاق أحمد النيسابوري الملقب بالثعلبي، ت٤٢٧هـ، المكتبة الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.

* قصص الرحمن في ظلال الرحمن، أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

* قصص القرآن، سعد يوسف أبو عزيز، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

* قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، مصر، لطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

* قصص القرآن، محمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠.

* قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

* القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دمشق: دار القلم ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

* قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل عباس دار الفتح، عمّان.

* قطوف الأزهار في كشف الأسرار، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: د. أحمد بن محمد الحمادي، ط الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، إدارة الشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف، قطر.

* قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبي محمد عز الدين بن عبدالسلام السلمي، دار الكتب العلمية. بيروت.

* قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن، تأليف: مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي، دار النشر: دار القرآن الكريم - الكويت - ١٤٠٠، تحقيق: سامي عطا حسن.

* القواعد النورانية الفقهية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٨٠م.

* القوانين الفقهية، تأليف: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي.

* القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، عبدالمجيد مسعود، وزارة الثقافة، قطر، ط١ (١٩٩٨م).

* قيمة الزمن عند العلماء عبدالفتاح أبو غدة دار البشائر الإسلامية بيروت.

حرف الكاف

* الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل، أبو محمد عبدالله بن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي. بيروت.

* الكامل في التاريخ، للإمام ابن الأثير، ت٦٣٠هـ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

* الكامل في الضعفاء (الكامل في ضعفاء الرجال). لأبي أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني(-٣٦٥هـ). تحقيق لجنة من المختصين بإشراف الناشر. بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

* الكامل في اللغة والأدب للمبرد.

* الكبائر، شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، دار الندوة الجديدة. بيروت.

* كتاب سيبويه، تأليف: أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل. بيروت، الطبعة الأولى.

* الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي،

تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد. الرياض ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

* الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها، نصر بن علي بن أبي مريم الشيرازي، تحقيق: عمر الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي. بيروت.

* كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر. بيروت، ١٤٠٢، ١٩٨٢م.

* الكشف الحثيث. لإبراهيم بن محمد بن سبط ابن الأعجمي. (-٨٤١هـ). تحقيق: صبحي السامرائي. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٧-١٩٨٧م.

* كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس للإمام إسماعيل بن محمد العجلوني ط مكتبة التراث الإسلامي حلب.

* الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، تحقيق/ محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، الطبعة الثالثة.

* كشف المعاني في المتشابه من المثاني، للإمام بدر الدين بن جماعة (ت٧٣٣هـ)، تحقيق: د. عبدالجواد خلف، ط الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، وتوزيع دار الوفاء، المنصورة.

* الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي. بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

* كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، تقي الدين أبي بكر بن محمد الدمشقي الشافعي،

تحقيق: علي عبدالحميد و محمد وهبي سليمان، دار الخير. دمشق، ١٩٩٤، الطبعة الأولى.

* كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني، أبو الحسن المالكي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر. بيروت، ١٤١٢، ١٩٩٢.

* كلمة التوحيد عبدالحميد طهماز دار القلم دمشق.

* الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

* كنز العمال : علاء الدين بن حسام الدين الهندي، ت (٩٧٥) هـ تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م ط١.

* الكون والإعجاز العلمي للقرآن - منصور حسب النبي.

* كيف نتعامل مع القرآن للشيخ محمد الغزالي (ت١٤١٦هـ) دار الوفاء للطباعة بمصر.

حرف اللام

* لباب التأويل في معاني التنزيل، المعروف بتفسير الخازن، للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ)، ط بدون تاريخ، دار الفكر.

* لباب النقول في أسباب النزول، تأليف: عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، دار النشر: دار إحياء العلوم - بيروت.

* لطائف الإشارات للإمام عبدالكريم القشيري ت ٤٦٥ هـ ط دار الكتاب العربي بالقاهرة.

* لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٧١١هـ)، ط الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، دار صادر، بيروت.

* لسان الميزان. لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

حرف الميم

* المبسوط، تأليف: شمس الدين السرخسي، : دار المعرفة. بيروت.
* مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩، الطبعة الأولى.
* مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، الطبعة التاسعة عشر.
* مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ت(٢١٠هـ)، عارضه بأصوله وعلق عليه، د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي مصر، بلا تفاصيل.
* المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية. حلب، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، الطبعة الثانية.
* المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٣٨٢ هـ.
* المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين. لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي(-٨٥٢هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.
* مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد، دار المعرفة. بيروت.
* مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، عبدالرحمن بن محمد بن سليمان المدعو بشيخي

زاده، خرج آياته وأحاديثه خليل عمران المنصور. دار الكتب العلمية. لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

* مجمع البيان في تفسير القرآن، أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

* مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية. مصر، الطبعة الثانية.

* محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية. مصر. د. ت.

* محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

* محاكم التفتيش في الأندلس تأليف محمد علي قطب ط مكتبة القرآن بمصر.

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية. لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، الطبعة الأولى.

* المحرر الوجيز في عد أي الكتاب العزيز لعبدالرزاق إبراهيم موسى، مكتبة المعارف. الرياض، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

* المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، الطبعة الأولى.

* المجموع، محيي الدين النووي، دار الفكر. بيروت، ١٩٩٧م.

* المحلى، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة. بيروت.

* مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.

* المختار في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة - مصر، الطبعة السابعة، ١٩٧٧م.

* مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق الشيخ محمد على الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الثالثة.

* مختصر السيرة - محمد بن عبدالوهاب - مطبعة مكة المكرمة - ١٩٥٨م.

* مختصر خلافيات البيهقي، تأليف: أحمد بن فرج اللخمي الإشبيلي الشافعي، تحقيق: د. ذياب عبدالكريم ذياب عقل، مكتبة الرشد. السعودية، ١٤١٧هـ. ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

* مختصر صحيح البخاري الشهير بالتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، للإمام أبي العباس أحمد الزبيدي، ت٨٩٣هـ دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

* مختصر صحيح مسلم، للحافظ زكي الدين المنذري، تحقيق د. مصطفى ذيب البغا، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠.

* مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، تحقيق/ محمد حامد الفقي، دار الحديث مصر، ١٩٨٣م.

* مدارك التأويل، أبو البركات عبدالله ابن أحمد بن محمود النسفى، دار أحياء الكتب العربية. مصر.

* مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المعروف بتفسير النسفي، عبدالله أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠هـ)، بحاشية تفسير الخازن، ط دار الفكر.

* المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبدالستار سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، دمشق.

* مدخل إلى التنمية المتكاملة، أ. د عبدالكريم بكار، دار القلم، دمشق، ط١ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩).

* المدونة الكبرى، مالك بن أنس، دار صادر. بيروت.

* المرأة في القصص القرآني إعداد أحمد محمد الشرقاوي ط دار السلام بالقاهرة ط٢- ١٤٢٤هـ.

* مرشد الخلان إلى معرفة عدِّ آي القرآن للشيخ عبدالرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبدالفتاح القاضي ط المكتبة العصرية بيروت ط١ ١٤٠٩.

* مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، تحقيق: جمال عيتاني دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

* مروج الذهب، المسعودي، ت٣٤٦هـ، تحقيق محمد جمال الدين، المكتبة العربية، صيدا، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

* المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبدالله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، بعناية: عبدالسلام بن محمد بن عمر علّوش، ط الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، دار المعرفة، بيروت.

* المستصفى في علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي،، تحقيق/ محمد عبدالسلام عبدالشافي دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

* المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبدالكريم زيدان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م.

* مسند أبي داود الطيالسي : سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي دار المعرفة بيروت.

* مسند أبي يعلى : أحمد بن علي الموصلي التميمي، ت (٣٠٧) ه تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤ ه ١٩٨٤ م

* مسند إسحاق بن راهويه الحنظلي مكتبة الإيمان بالمدينة المنورة ط١ - ١٤١٢ هـ.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ، ط دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر ١٩٥٧ م، وطبعة مؤسسة قرطبة القاهرة بتعليق الشيخ شعيب الأرناؤوط.

* مسند البزار. لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبدالخالق البزار(-٢٩٢هـ). تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله. بيروت والمدينة: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

* مسند الروياني. لأبي بكر محمد بن هارون الروياني(-٣٠٧هـ). تحقيق أيمن علي أبو يماني. القاهرة: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

* مسند الشاميين للطبراني.

* المسند المستخرج على صحيح مسلم : أحمد بن عبدالله الهراني الأصبهاني، تحقيق محمد حسن اسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧ ه ١٩٩٦ م ط١.

* مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، تحـ : د. عبدالسميع محمد حسنين، مكتبة المعارف - الرياض، ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م).

* مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق محمد الكشناوي، دار العربية. بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣، الطبعة الثانية.

* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية. بيروت.

* المصنف، عبدالله بن محمد ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط الأولى (١٤٠٩هـ)، مكتبة الرشد، الرياض.

* المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي. بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

* معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، ط بتاريخ (١٤١١هـ)، دار الطيبة، الرياض.

* معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبدالوهاب بن لطف الديلمي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢(١٤١٩ هـ ١٩٩٨).

* معاني القرآن الكريم، أبو زكريا الفراء، تحقيق/ محمد على النجار وزميله. دار السرور.

* معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس،، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى. مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

* مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ١٩٨٩.

* معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، دار الباز للنشر، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٨م.

* معجم ابن المقرئ.

* المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد،عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين. القاهرة ١٤١٥هـ١٩٩٥، الطبعة

الأولى.

* معجم البلدان، ياقوت الحموي، ت٦٢٦هـ، تحقيق عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

* المعجم الصغير للطبراني ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ.

* المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء. الموصل، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٣، الطبعة الثانية.

* معجم معاني كلمات القرآن الكريم، تأليف : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود بن إبراهيم الحلبي الشافعي المعروف بالسمين (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: محمود السيد الدغيم.

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦. الطبعة الأولى.

* معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، ت(٣٩٥هـ)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩).

* المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، دار الدعوة، تركيا.

* معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصفهاني.

* مع الطب في القرآن الكريم تأليف د. عبدالحميد دياب، ود. أحمد قرقوز ط مؤسسة علوم القرآن دمشق ١٤٠٤ هـ ط ٧.

* مع قصص السابقين في القرآن الكريم (٢) دروس في الإيمان والدعوة والجهاد صلاح عبدالفتاح الخالدي سلسلة من كنوز القرآن (٦). دار القلم دمشق ط٢ ١٤١٦هـ.

* المغني في الضعفاء. لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(-٧٤٨هـ). تحقيق: نور الدين عتر.

* المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، للإمام عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ)، ط. (١٤٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت. ونسخة بتحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ود. عبدالفتاح محمد الحلو، ط. الثالثة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، دار عالم الكتب، الرياض.

* مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر. بيروت.

* مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

* مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، ت(في حدود: ٤٢٥هـ)، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط٢(١٤١٨ هـ ١٩٩٧).

* المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط دار المعرفة، بيروت.

* مقاصد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، تحـ: د. عبدالسميع محمد حسنين، مكتبة المعارف - الرياض، ط١ (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م).

* المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى الخيري المنصوري، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م.

* مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، أ. د عبدالكريم بكار، دار القلم، دمشق، ط١(١٤٢٠هـ١٩٩٩).

* المقدمة، ابن خلدون، ت٨٠٨هـ، ضبط وتحقيق خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١.
* المكي والمدني في القرآن الكريم، د. محمد الشايع، ط. الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، العبيكان - الرياض.
* ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.
* الملكية في الشريعة الإسلامية، د. عبدالسلام العبادي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٤، الطبعة الأولى.
* منار الهدى - الأشموني.
* المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم للدكتورين عبدالله الخطيب ومصطفى مسلم. منشور في : مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية. مجلد ٢. عدد ٢ ربيع الثاني ١٤٢٦، يونيو ٢٠٠٥م.
* من أسرار القرآن - الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (٣٤).. ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود بقلم :د. زغلول النجار اسم الرابط http://www.geocities.com/zaghloolalnajjar/034.html بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٤٢٢ هـ ١/ ٢/ ٢٠٠٢ م.
* المنافقون في القرآن الكريم د عبدالعزيز عبدالله الحميدي ط دار المجتمع جدة ١٤٠٩هـ.
* مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، (دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٦ تحقيق : مكتب البحوث والدراسات).
* من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي.

* المنتخب في تفسير القرآن الكريم، الشيخ محمد متولي الشعراوي، منشورات دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠، الطبعة الأولى.

* منح الجليل شرح على مختصر سيدي خليل، محمد عليش، دار الفكر. بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

* من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفارابي، دمشق، ٢٠٠٣

* من موضوعات سور القرآن الكريم، عبدالحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٩٨ م.

* منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م، الطبعة الأولى.

* المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ)، عصام الصبابطي وآخرون، دار أبي حيان – القاهرة، ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

* منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة، د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأخوة الأشقاء. مصر. د. ت.

* منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، د. محسن عبدالحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١(١٤٠٣ ١٩٨٣).

* منهج الحضارة الإنسانية في القرآن د. محمد سعيد رمضان البوطي ط دار الفكر دمشق ١٤٠٢هـ.

* منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى بنت عبدالله حسن بن داود، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط١(١٤١٩هـ ١٩٩٨).

* منهج القرآن في التربية محمد شديد ط مؤسسة الرسالة ١٩٧٧م

* منهج القرآن في التوعية البيئية، إعداد أحمد محمد الشرقاوي ص ٢٤ من بحوث المؤتمر الوطني للبيئة - جامعة القصيم ١٤٢٨هـ.

* المهذب في فقه الإمام الشافعي، أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، دار الفكر. بيروت.

* الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق عبدالله دراز، دار المعرفة. بيروت.

* موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ط دار الثقافة العربية بدمشق ١٤١٦.

* المواقف، عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الجيل. بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

* مواقف الأنبياء في القرآن الكريم، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

* مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المغربي، دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، الطبعة الثانية.

* مواهب الرحمن في تفسير القرآن. تأليف: عبدالكريم محمد المدرس ط/ ١٩٨٨م، دار الحرية للطباعة/ بغداد، ١٩٨٨م، ط١.

* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن العظيم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر. دمشق، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، الطبعة الثانية.

* الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد بن حنبل، الشيخ شعيب الأرناؤوط وإخوانه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ أولى: ١٤٢٠-١٩٩٩.

* موسوعة الدكتور زغلول النجار: الإسلام والعلم الحديث، الاستنساخ والشفرة الوراثية، مراحل خلق الإنسان، على قرص مضغوط، من إصدار مكة للبرمجيات.

* الموسوعة الذهبية لإعجاز القرآن والسنة النبوية، أحمد مصطفي، دار ابن الجوزي، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.

* الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط/ أولى: ١٤١٤ـ١٩٩٤.

* الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي. مصر.

* الميزان (ميزان الاعتدال في نقد الرجال). لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(–٧٤٨هـ). طبعة دار الفكر للنشر والتوزيع.

حرف النون

* الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق/ د. محمد عبدالسلام محمد، مكتبة الفلاح. الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨، الطبعة الأولى.

* النبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن، الدكتور/ محمد عبدالله دراز، دار طيبة. الرياض، ١٤١٧هـ ١٩٩٧، الطبعة الأولى.

* نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢، الطبعة الثانية.

* النشر في القراءات العشر لابن الجزري ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ.

* نصب الراية لأحاديث الهداية، عبدالله بن يوسف أبو محمد الحنفي الزيلعي، تحقيق: محمد يوسف البنوري، تصوير: دار الحديث. مصر.

* النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه، د. أحمد محمد العسال، د. فتحي أحمد عبدالكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣(١٤٠٠هـ ١٩٨٠).

* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، تنظيم: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ.

* النظم الفني في القرآن عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة.

* نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (توفي في حدود ٣٦٠هـ)، تحقيق إبراهيم بن منصور الجنيدل، ط الأولى (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، دار ابن القيم، الدمام.

* نواسخ القرآن، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، المعروف بابن الجوزي، اعتنى به وراجعه: الداني بن منير، المكتبة العصرية – صيدا، لبنان، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

* نوح ﷺ وقومه في القرآن المجيد، عبدالرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، ط١(١٤١٠هـ١٩٩٠).

* نونية القحطاني – لأبي محمد عبدالله بن محمد الأندلسي مكتبة السوادي للتوزيع – جدة – الطبعة الثالثة، ١٩٩٥.

* النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٨٣ـ١٩٦٣.

* النهر الماد من البحر لأبي حيان الأندلسي على هامش البحر المحيط ط دار الفكر ط ٢ – ١٣٩٨ هـ.

* نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الجيل. بيروت، ١٩٧٣.

حرف الهاء

* الهداية في غريب الحديث والأثر للإمام المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

* هدي الساري مقدمة فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بعناية محب الدين الخطيب، ط. مكتبة دار الفيحاء، دمشق.

حرف الواو

* الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، تحقيق: صفوان عدنان داودي (دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت - ١٤١٥، الطبعة: الأولى).

* الوجيز في الطب الإسلامي، د/ هشام إبراهيم الخطيب، دار الأرقم. عمان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥، الطبعة الأولى.

* الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض وأحمد محمد صيرة وأحمد عبدالغني الجمل وعبدالرحمن عويس، ط الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

مواقع إلكترونية

* (wwwislamicmedicine. org).
* http: / /www. islamicmedicine. org /zaghlool / . htm.
* www.55a.net.
* http: / /www. elnaggarzr. com.

الفهرس العام

السـورة	الصفحة

السـورة	الصفحة

الجزء الثامن:

السـورة	الصفحة

السورة	الصفحة

السـورة	الصفحة

الجزء العاشر:

مطبعة المعارف
AL-MAARIF PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

جامعة الشارقة

UNIVERSITY OF SHARJAH

1997